

سورة آل عمران
مدنية



وهذه السورة التى نحن بصددها ـ سورة آل عمران ـ كان من السياق أن تأتى بعد سورة البقرة ؛ لأن سورة البقرة جاءت لتخدمنا فى قضية الوجود الأول ، فتكلمت عن خلق آدم ، وتكلمت عن خلافته فى الأرض ، وتكلمت عن تعليمه الأسماء ، ثم تكلمت عن بعض مواكب الرسل لذلك الإنسان الذى استخلف فى الأرض . وتعرضت لقضايا تعلقت بأحداث ، هذه الأحداث ارتبطت بأزمنة مخصوصة . والقرآن قد جاء بها ، ثم جاء مترتباً على الصورة النهائية . ناسب أن تأتى بعد سورة البقرة سورة آل عمران ؛ لأنها تكلمت عن نوع جديد من الخلق ، لم يأت على نمط الخلق الأول ، وإن جاء من الخلق الأول ؛ لأنها جاءت لتكلمنا عن خلق عيسى . وخلق عيسى جاء بغير الناموس الذى خلق به آدم . فكما أن آدم خلق بلا أب وبلا أم ، كان المنطق أن يأتى بخلق آخر وجد من دون أب .

لقد استهل الحق سبحانه وتعالى سورة البقرة بأسماء ثلاثة من حروف المعجم وهى : « ألف ـ لام ـ ميم » وتلك القضية تعرضنا لها طويلاً عند استهلال سورة البقرة . وبيّنا الحكمة فى ورود بعض الحروف ، وعرفنا أنّ للحرف « مسمّى » وله « اسم » . « المُسمّى » هو الذى ننطق به ، و« الاسم » هو الذى يُعتبر عنواناً على هذا المسمّى . فأنت حين تقرأ مثلاً ، تقول : قرأ ، فعندما تنطق حرف « ق » تنطقه حرفًا متصلاً ببقية الحروف ، وهذا النطق اسمه « المسمّى » ، ولكن اسم ذلك المسمّى « قاف » .

إذن فلكل حرف اسم ، ومسمّى . حين نتكلم جميعاً نتكلم بالمسمّى ، وسواء مِنّا الأمي أو المتعلم ، فكل واحد ينطق المسمى « ق. ر. أ » ولكن لا يعرف اسم « قاف » إلا من تعلم ؛ لأنه قيل له هذه اسمها « قاف » . فذلك هو الاسم .

إذن فالتعليم يعطينا أسماء المسميات ، واللفظ الذى يلفظ به الأمي والمتعلم هو

المسميات ، ونحن نعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان أمياً ، لم يجلس إلى معلم ولم يتعلم ، فمن الذى لقنه أسماء الحروف التى لا يعرفها إلا من تعلم ؟ هذه الحروف لُقنت على صور مختلفة ، فتنطق بالمسمّى مرة وتنطق مرة أخرى بأسماء الحروف ، فلما جاءت فى أول سورة البقرة « الم » تلك هى أسماء الحروف . ولكنا قلنا : إننا حين نقرأ فى أول سورة الفيل « ألم تر » هى (الألف واللام والميم) ونقرأها كثلاثة حروف تُكَوِّن تساؤلاً : « ألم تر » ، ولم تقرأ أسماء حروفها ، وإنما قرأتها بمسميات الحروف . فقلت : « أَلَمْ » ، فمن الذى يفرق لنا بين ألف ولام وميم . وتقرأ مرة أخرى الٓمٓ ؟ لاشك أنها توقيف من الله ، وهى حقًا توقيف من الله ، هذه تقرأ أَلَمْ وهذه تقرأ ألف ، لام ، ميم .

إن الحق يدلنا على أن هذا القرآن ليس من صنعة البشر ، وإلا فصنعة البشر لم تأت قبل نزول القرآن لتنطق بأسماء الحروف ، اللهم إلا بعض أسماء قالوا فيها:إنها أداة مثل « هاء التنبيه » أى لتنبيه السامع . لماذا ؟ لأن المتكلم حر فى أن يتكلم وهو الذى يحدد وقت كلامه ولكن السامع يفاجأ . إذن فالكلام من المتكلم يحدده المتكلم ، يتكلم متى شاء . ولكن السامع لا يسمع متى شاء ، ولكنه يسمع بعد أن يتكلم المتكلم ، لكن السامع ليس عنده اختيار ، فكانوا يريدون لبعض الحروف أن يخرجوا بها إلى السامع كَلَوْنٍ من ألوان الانجذاب إلى المتكلم ، فقبل أن يجىء بالكلام الذى يريده يأتى بهاء التنبيه . كأن المتكلم يقول : تنبه لى فأنا أريد أن أتكلم حتى لا يفوت منك بعض الكلمات التى أنطق بها . وبعضها يسمونه « أداة استفتاح » مثل القول : ألا هُبى بصحنك فاصبحينا . فـ « ألا » تنبه إلى أن كلاماً يقال ، ثم يقول : هبى بصحنك فاصبحيناً ؛ لأنه ربما نطق ببعض الكلمات فى شغل من السامع عن المتكلم ، فتفوته الفائدة .

إذن فكل الألفاظ التى تأتى بأسماء حروف أو بأسماء يراد بها التنبيه ، إنما هى تهيئة للذهن . وما الذى يمنعنا أن يكون أيضاً ذلك من باب تهيئة السامع إلى ضرورة حضور الذهن ؟ ومما يدل على أن لهذه الحروف التوفيقية مواقع فى النفس البشرية ، أن الذين عارضوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى دعواه لم يستدركوا عليه شيئاً وهم أهل فصاحة وأهل لغة .

هل سمعنا أن واحداً منهم قال : انظروا إلى محمد كيف يأتى بألفاظ وكلمات لا مدلول لها ولا معنى ، ثم يدّعى أنه أفصح العرب ؟!

هل قال واحد منهم ذلك ؟ لم يقل ، وقبلوها ولم يستدركوا ، ولم يقولوا : « ما هذه » « ألف ، لام ، ميم » التى جاء بها محمد ؟ مما يدل على أنها أخذت من أسماعهم موقعاً كما أرادها الله ، بدليل أنهم لم يستدركوا بها على رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولم يجعلوها من النقد الذى وُجِّهَ إلى رسول الله ، وقلنا فى ذلك : إنه بعض من أسرار هذه الحروف .

ويريد الله حين يؤكد معنى من المعانى ألا يمسه مرة واحدة ، فقد جاءت رسالة محمد صلى الله عليه وسلم على فترة من النبوات ، ومن خطاب السماء ، والمعنى الذى يريد الله أن يوضحه ويؤكده يردده كثيراً حتى يستقر فى ذهن المتلقى . وعلى هذا النمط جاء قول الحق سبحانه فى أول سورة آل عمران :



وجاءت أيضاً فى سور أخرى ، فى سورة العنكبوت ، وفى سورة الروم ، ولقمان ، والسجدة ، وزاد عليها راءً فى بعض السور ، وزاد عليها صادًا فى بعض السور « المص » و« المر » كل ذلك جاء تأكيدًا للمعانى أو تأكيدًا للسر الذى وضعه الله فى هذه الحروف ، وإن لم نكن ندرك ذلك السر .

والإنسان ينتفع بأسرار الأشياء التى وضعها من أوجد الأشياء وإن لم يعلم هذه

الأشياء فهو منتفع بها ، وضربنا المثل وقلنا : إن الريفى الذى ليس عنده ثقافة فى الكهرباء ، أيستفيد بالكهرباء أم لا ؟ إنه يستفيد بها ويحرك زر المصباح لينيره أو ليطفئه ، أهو يعلم سر ذلك ؟ لا ، لكنه إنما انتفع به ، فكذلك المؤمن حين يقول : « ألف ـ لام ـ ميم » ، يأخذ سرها من قائلها ، فهمها أم لم يفهمها ، إذن فالمسألة لا تحتاج إلى أن نفلسفها ، صحيح أن العقل البشرى يحوم حول شىء ليستأنس به ، ولكن عطاء الله وحكمة العطاء فوق ما يستأنس به وفوق ما نستوحش منه .

وقول الحق سبحانه فى ختام سورة البقرة : « فانصرنا على القوم الكافرين » يناسب أيضاً سورة آل عمران ، لماذا ؟ لأن الإسلام سيأتى ليواجه معسكر كفر ومعسكر أهل الكتاب ، فحتى لا تتشقق دعوة الله التى صدرت عن الله بمواكب الرسل جميعاً الذين سبقوا محمداً صلى الله عليه وسلم وأن هذا جاء ليناقض شيئاً منه ، إنه قد جاء ليعزز دعوة الله ، ولتكون هذه الأمم التى تبعت هذه الديانات فى صف الإسلام . ولذلك حينما أنكر العرب رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الله لهم : « ومن عنده علم الكتاب » أى أن من عنده علم الكتاب يشهد أنك رسول الله .

﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾ ﴾

(سورة الرعد)

فكان المفروض فى أهل الكتاب أنهم حينما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكونوا هم أول المؤمنين برسول الله صلى الله عليه وسلم ، لأنه جاء ليؤكد موكب الإيمان ويأتى لهم بسورة يسميها آل عمران حتى يعلم الجميع أنك يا محمد لم تأت لتهدم ديانة عيسى ، ولكن لتبقى ديانة عيسى ولتؤيد ديانة عيسى ، فإن كنتم يا من آمنتم بعيسى مؤمنين بعيسى فاهرعوا حالاً إلى الإيمان بمحمد ؛ فقد سماها الله آل عمران ، وجعل لهم سورة فى القرآن .

إن رسالة محمد صلى الله عليه وسلم لم تأت للعصبية ، أو لتمحو ما قبلها كما تأتى عصبيات البشر حين يأتى قوم على أنقاض قوم ، ويهدمون كل ما يتصل بهؤلاء القوم

حتى التاريخ يمحونه ، والأشياء يمسخونها ؛ لأنهم يريدون أن ينشئوا تاريخاً جديداً .
لا ، إن هذا القرآن يريد أن يصوب التاريخ ، فيأتى بسورة اسمها « آل عمران »
وذلك تكريم عال لهذه الديانة ولتابعيها .

وبعد ذلك يأتى الحق فيستهلها : بقوله جل شأنه :

﴿ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ۝٢ ﴾

تلك هى قضية القمة ، ولذلك يتكرر فى القرآن التأكيد على هذه القضية ، « الله لا إله إلا هو » . و« الله » كما يقولون مبتدأ ، و« لا إله إلا هو » خبر ، والمبتدأ لا بد أن يكون متضحاً فى الذهن ، فكأن كلمة « الله » متضحة فى الذهن ، ولكنه يريد أن يعطى لفظ « الله » الوصف الذى يليق به وهو « لا إله إلا هو » . ولذلك يقول الحق :

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ۝٦١ ﴾

(سورة العنكبوت)

إذن فالله متضح فى أذهانهم ، ولكن السلطات الزمنية أرادت أن تطمس هذا الإيضاح ، فجاء القرآن ليزيل ويمحو هذا الطمس مؤكدا « الله لا له إلا هو » فهذه قضية أطلقها الحق شهادة منه لنفسه :

﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾

(من الآية ١٨ سورة آل عمران)

وكفى بالله شهيداً ؛ لأنها شهادة الذات للذات ، وشهدت الملائكة شهادة المشهد فلم يروا أحداً آخر إلا هو ، وكذلك ، شهد أولو العلم الذين يأخذون من الأدلة فى

الكون ما يثبت صدق الملائكة ويؤكد صدق الله ، فإذا ما نظرنا نظرة أخرى نقول : إن الحق أطلقها على نفسه وقال : « لا إله إلا هو » ؛ وجعلها كلمة التوحيد وجعل الأمر فى غاية اليسر والسهولة والبساطة ؛ فلم يشأ الله أن يجعل دليل الإيمان بالقوة العليا دليلاً معقداً ، أو دليلاً فلسفياً ، أو لا يستطيع أحد أن يصل إليه إلا أهل الثقافة العالية ، لا ، إن الدين مطلب للجميع ؛ من راعى الشاة إلى الفيلسوف ؛ إنه مطلوب للذى يكنس فى الشارع كما هو مطلوب من الأستاذ الجامعى .

فيجب أن تكون قضية الإيمان فى مستوى هذه العقول جميعاً ؛ فلا فلسفة فى هذه المسألة ، لذلك شاء الحق أن يجعل هذه المسألة فى منتهى البساطة فأوضح الله : أنا شهدت ألا إله إلا أنا ، فإما أن يكون الأمر صدقاً وبذلك تنتهى المشكلة ، وليس من حق أحد الاعتراض ، وإن لم تكن صدقاً فقولوا لنا : أين الإله الآخر الذى سمع التحدى ، وأخذ الله منه ذلك الكون ، وقال : أنا وحدى فى الكون ، وأنا الذى خلقت ، ثم لم نسمع رداً عليه ولا عن معارض له ، ألم يدر ذلك الإله الآخر ؟

إذن فذلك الآخر لا ينفع أن يكون إلهاً ، فإن علم ذلك الآخر ولم يدافع عن نفسه وملكيته للكون فإنه لا يصلح أن يكون إلهاً . وتصبح القضية لله إلى أن يظهر مدعٍ ليناقضها ، فـ « لا إله إلا هو » كلمة حق ، وبالعقل والمنطق هو إله ولم نجد معارضاً . وقلنا سابقاً:إن الدعوى حين تُدعى ولا يوجد معارض حين نَسمعها تكون لصاحبها إلى أن يوجد المعارض . وضربنا مثلا : نحن مجتمعون فى حجرة ، عشرة أشخاص ، وبعد ذلك انصرفوا فوجد صاحب البيت حافظة نقود ، فجاء واحد متلهفا وقال : لقد ضاعت منى حافظة نقود . فقال له صاحب البيت : وجدنا حافظة ولكن كان هنا عشرة ، فلما جىء بالعشرة ، وسئلوا لم يدعها أحد ، إذن فهى له .

إن الله قد قال : « لا إله إلا هو » ، فإن كان هناك إله آخر فليظهر لنا ، لكن لا تظهر لنا إلا قوة الله « لا إله إلا هو » ومادام لا إله إلا هو ، وهذا الكون يحتاج إلى قيومية لتدبيره ، فلا بد أن يكون حيا حياة تناسبه ، لأنه سيهب حيوات كثيرة لكل الأجناس ، للإنسان وللحيوان وللنبات وللجماد ، إذن فالذى يوجدها لا بد أن يكون حياً ولا بد أن تكون حياته مناسبة له .

و« قيّوم » هذه يسمونها صيغة مبالغة ؛ لأنّ الحدث إذا وقع فإنه يقع مرة على صورة عادية ، ومرة يقع على صورة قوية . مثلما تقول : فلان أكول ، و« أكول » غير « آكل » ، فكلنا نأكل ، وكلنا يُطلق علينا « آكل » ، لكن ليس كلنا يُطلق علينا « أكول » لأن هذه اسمها صيغة مبالغة فى الحدث .

وإذا كان الله هو الذى يدبر ويقوم على أمر كل عوالم الكون هل يكون قائما أو قيّومًا ؟ لا بد أن يكون قيُّومًا . و« قيوم » معناها أيضا : قائم بذاته . فما شكل هذا القيام ؟ إنه قيام أزلى كامل .

إذن فكلمة « قيّوم » صيغة مبالغة من القيام على الأمر ، قائم بنفسه ، قائم بذاته ، ويُقِيم غيره ، والغير متعدد متكرر ، فعندما يكون هذا الغير متعدداً ومتكررا فهو يحتاج إلى صفة قوية فى خالقه ، فيكون الخالق قيّوما .

إن قوله الحق : « الله لا إله إلا هو الحىّ القيّوم » هو سند المؤمن فى كل حركات حياته ، عن أبىّ بن كعب رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا أبا المنذر أتدرى أى آية من كتاب الله معك أعظم ؟ قلت : « الله لا إله إلا هو الحى القيوم » فضرب فى صدرى وقال : « ليهنك العلم أبا المنذر »[1] .

وقولوا لنا بالله : حين يوجد ولد وأب ، هل يحمل الولد همّا لأى مسألة من مسائل الحياة ؟ لا ؛ لأن الأب متكفل بها ، والمثل العامى يقول : الذى له أب لا يحمل همّا ، إذن فالذى له ربٌّ عليه أن يستحى ؛ لأنه سبحانه يقول : أنا حىّ ، وأنا قيّوم ، و« قيّوم » يعنى قائم بأمرك .

ويؤكد سبحانه هذه القيّومية فى سورة البقرة ، فقال فى آية الكرسى : « لا تأخذه سنة ولا نوم » ، كأنه يقول لنا : ناموا أنتم لأننى لا أنام ، وإلا فإن نمت أنت عن حراسة حركة حياتك فمن يحرسها لك ؟ إنه سبحانه يتفضل علينا بقيوميته فـ « الله لا إله إلا هو الحىّ القيوم » ، ومادام هو « الحىّ » و« القيّوم » فأمر منطقى أنه قائم

(١) رواه مسلم .

بأمر الخلق جميعا وقد وضع لكل الخلق ما تقوم به حياتهم من مادة وصيانة مادة ، ومن قيم وصيانة قيم .

ومادام هو القيوم والقائم بالأمر والمتولى الشئون للخلق فلا بد أن يؤدى لهم مطلوبات مادتهم وما يبقيها ، ومطلوبات قيمهم وما يبقيها . أما مطلوبات المادة فيقول فيها :

﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ﴾

(سورة فصلت)

إنه سبحانه يطمئننا على القوت ، وأما مطلوبات القيم فقال سبحانه :

﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ ﴿٣﴾ ﴾

إذن فلم يعطنا سبحانه مقومات المادة فقط ، ولكن أعطانا مقومات القيم أيضا ؛ لأن المادة بدون قيم تكون شرسة هوجاء رعناء ، فيريد الله أن يجعل المادة فى مستوى إيمانى . إذن لا بد أن تنزل القيم . لذلك قال سبحانه : « نزّل عليك الكتاب بالحق » و« نزل » تفيد شيئا قد وجب عليك ؛ لأن النزول معناه : شىء من أعلى ينزل ، وهو يقول لك:لا تتأبى على القيم التى جاءت لك من أعلى منك ؛ لأنها ليست من مساو لك ، إنها من خالق الكون والبشر ، والذى يمكنك أن تتأبى عليه ما يأتى ممن هو أدنى منك .

لكن حين يجىء لك التقنين ممن هو أعلى منك فلا تتأبّ عليه ؛ لأن خضوعك له ليس ذلة بل عزة ، فقال : « نزل عليك الكتاب » . وفى سياق القرآن نجده سبحانه

يقول :

﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ ﴾

(سورة الشعراء)

ومرة أخرى يقول فى القرآن الكريم :

﴿ وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

ولكن هل نزل القرآن وحده ؟ لقد كان جبريل عليه السلام ينزل بالقرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا يعنى ذلك خروج القرآن عن كونه « نزل » ، فجبريل عليه السلام كان ينزل بالقرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم . والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

وبذلك تتساوى « أنزل » مع « نَزل » . وحين نأتى للحدث أى الفعل فى أى وقت من الأوقات فإننا نتساءل : أهو موقوت بزمن أم غير موقوت بزمن ؟ إن القرآن الكريم قد نزل على رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم فى ثلاثة وعشرين عاما . وينزل القرآن حسب الحوادث ، فكل نجم من نجوم القرآن ينزل حسب متطلبات الأحداث . ولكن الحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾ ﴾

(سورة القدر)

والحق هنا يحدد زمنا . ولنا أن نعرف أن القرآن الذى نزل فى ثلاثة وعشرين عاما هو الذى أنزله الله فى ليلة القدر .

إذن فللقرآن نزولان اثنان : الأول : إنزال من « أنزل » .
الآخر : تنزيل من « نزّل » .

إذن فالمقصود من قوله ـ سبحانه ـ : « إنا أنزلناه فى ليلة القدر » أن القرآن نزل من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا ليباشر مهمته فى الكون ، وهذا ما أنزله الله فى ليلة القدر .

والكتاب الكريم الذى أنزله الله فى ليلة القدر إلى السماء الدنيا ينزل منجما على حسب الأحداث التى تتطلب تشريعا أو إيضاحا لأمر .

لكن الكتب الأخرى لم يكن لها ذلك اللون من النزول والتنزيل ، لقد نزلت مرة واحدة ؛ لا حسب الأحداث والمناسبات ، لقد جاءت مرة واحدة ، كما نزل القرآن أولا من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا . ولننظر إلى الأداء القرآنى حين يقول :

﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٣﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

وهنا يجب أن نلتفت إلى أن الحق قال عن القرآن : « نَزَّل » وقال عن التوراة والإنجيل : « أنزل » . لقد جاءت همزة التعدية وجمع ـ سبحانه ـ بين التوراة والإنجيل فى الإنزال ، وهذا يوضح لنا أن التوراة والإنجيل إنما أنزلهما الله مرة واحدة ، أما القرآن الكريم فقد نَزَّله الله فى ثلاث وعشرين سنة منجما ومناسبا للحوادث التى طرأت على واقع المسلمين ، ومتضمنا البلاغ الشامل من يوم الخلق إلى يوم البعث .

ونَزَّل الله القرآن منجما مناسبا للأحداث ، ليثبت فؤاد رسول الله ؛ لأنه صلى الله عليه وسلم كان يتعرض لأحداث شتى ، وكلما يأتى حدث يريد تثبيتا ينزل نجم من القرآن .

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَـٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ ﴾

(سورة الفرقان)

وكان النجم من القرآن ينزل ، ويحفظه المؤمنون ، ويعملون بهديه ، ثم ينزل نجم آخر ، والله سبحانه يقول :

﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾ ﴾

(سورة الفرقان)

فمن رحمته سبحانه وتعالى بالمسلمين أن فتح لهم المجال لأن يسألوا ، وأن يستوضحوا الأمور التي تغمض عليهم .

وجعل الحق سبحانه لأعمال المؤمنين الاختيارية خلال الثلاثة والعشرين عاما فرصة ليقيموا حياتهم فى ضوء منهج القرآن ، وصوب لهم القرآن ما كان من خطأ . وذلك يدل على أن القرآن قد فرض الجدل والمناقشة ، وفرض مجىء الشىء فى وقت طلبه ؛ لأن الشىء إذا ما جىء به وقت طلبه فإن النفس تقبل عليه وترضى به .

ومثال ذلك فى حياتنا اليومية أن الواحد منا قد يملك فى منزله صندوقا للأدوية ممتلئا بألوان شتى من الدواء ، ولكن عندما يصاب صاحب هذا الصندوق بقليل من الصداع فهو يبحث عن قرص أسبرين ، وقد لا يعرف مكانه فى صندوق الدواء فيبعث فى شرائه ، وذلك أسهل وأوثق . والحق سبحانه قد جمع للقرآن بين « نزّل » و« أنزل » فقال :

﴿ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤﴾ ﴾

ويأتى القول الفصل فى : « وأنزل الفرقان » .
هنا الجمع بين « نزل » و« أنزل » .

وساعة يقول الحق عن القرآن : « مصدقا لما بين يديه » فمعنى ذلك أن القرآن

يوضح المتجه ؛ إنه مصدق لما قبله ولما سبقه ، إنه مصدق للقضايا العقدية الإيمانية التي لا يختلف فيها دين عن دين ؛ لأن الديانات إن اختلفت فإنما تختلف في بعض الأحكام ، فهناك حكم يناسب زمنا وحكم آخر لا يناسب ذلك الزمن . أما العقائد فهي لا تتغير ولا تتبدل ، وكذلك الأخبار وتاريخ الرسل ، فليس في تلك الأمور تغيير .

ومعنى « مصدق » أي أن يطابق الخبر الواقع ، وهذا ما نسميه « الصدق » . وإن لم يطابق الخبر الواقع فإننا نسميه « كذبا » . إذن ، فالواقع هو الذي يحكم . ولذلك قلنا من قبل : إن الصادق هو الذي لا تختلف روايته للأحداث ؛ لأنه يستوحي واقعا ، وكلما روى الحادثة فإنه يرويها نفسها بكلماتها وتفاصيلها ، أما الكاذب فلا يوجد له واقع يحكي عنه ، لذلك يُنشيء في كل حديث واقعا جديدا ، ولذلك يقول الناس : « إن كنت كذوبا فكن ذكورا » . أي إن كنت تكذب ـ والعياذ بالله ـ فتذكر ما قلت ؛ حتى لا تناقضه بعد ذلك . فالصادق هو من يستقرىء الواقع ، ومادام يروى عن صدق فهو يروى عن أمر ثابت لا تلويه الأهواء ، فلا يحكي مرة بهوى ، ومرة بهوى آخر .

ومادام الخبر صادقاً فإنه يصبح حقاً ؛ لأن الحق هو الشيء الثابت الذي لا يتغير وسبحانه يقول هنا : « نزل عليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه وأنزل التوراة والإنجيل ، من قبل هدى للناس » .

وقد تكلمنا من قبل عن التوراة ، وقلنا : إن بعضاً من العلماء حين يتعرض للفظ من الألفاظ فهو يحاول أن يجعله من اللغة العربية ، ويحاول أن يعثر له على وزن من الأوزان العربية ، وأن يأتي له بصفة من الصفات العربية ، فقال بعضهم عن التوراة : إنها من « الوَرْي » ـ بسكون الراء ـ وكان الناس قديماً يشعلون النار بضرب عود في عود آخر ، ويقولون : « الزَّند قد ورى » ، أي قد خرجت ناره . وقال بعض العلماء أيضا : إن الإنجيل من « النجْل » ، وهو الزيادة .

وأقول لهؤلاء العلماء : لقد نظرتم إلى هذه الألفاظ على أنها ألفاظ عربية ، لكن التوراة لفظ عبري ، والإنجيل لفظ سرياني أو لفظ يوناني ، وصارت تلك الكلمات

علما على تلك الكتب وجاءت إلى لغتنا . ولا تظنوا أن القرآن مادام قد نزل عربياً فكل ألفاظه عربية ، لا . صحيح أن القرآن عربى ، وصحيح أيضا أنه قد جاء وهذه الألفاظ دائرة على لسان العرب ، وإذا تم النطق بها يُفهم معناها .

والمثال على ذلك أننا فى العصر الحديث أدخلنا فى اللغة كلمة « بنك » وتكلمنا بها ، فأصبحت عربية ؛ لأنها تدور على اللسان العربى ، فمعنى أن القرآن عربى أن الله حينما خاطب العرب خاطبهم بألفاظ يفهمونها ، وهى دائرة فى ألسنتهم ، وإن لم تكن فى أصلها عربية . وحينما تكلم الحق عن التوراة والإنجيل وقال : إن القرآن جاء مصدقا لهما قال ـ جل شأنه ـ :

﴿ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ ۗ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

فأى ناس هؤلاء الذين قال عنهم : « هدى للناس » ؟ لاشك أنهم الناس الذين عاصروا الدعوة لتلك الكتب . وإذا كان القرآن قد جاء مصدقا لما فى التوراة والإنجيل ألا تكون هذه الكتب هداية لنا أيضاً ؟ نعم هى هداية لنا ، ولكن الهداية إنما تكون بتصديق القرآن لهما ، حتى لا يكون كل ما جاء فيهما ومنسوبا إليهما حجة علينا . فالذى يصدقه القرآن هو الحجة علينا ، فيكون « هدى للناس » معناها : الذين عاصروا هذه الديانات وهذه الكتب ، ونحن مؤمنون بما فيها بتصديق القرآن لها .

وحين يقول الحق سبحانه وتعالى : « وأنزل الفرقان » يدل على أن الكتاب ـ أى القرآن ـ سيعاصر مهمة صعبة ؛ فكلمة « الفرقان » لا تأتى إلا فى وجود معركة ، ونريد أن نفرق بين أمرين : هدى وضلال ، حق وباطل ، شقاء وسعادة ، استقامة وانحراف ، إذن فكلمة « الفرقان » تدل على أن القرآن إنما جاء ليباشر مهمة صعبة وهو أنه يفرق بين الخير والشر ، ومادام يفرق بين الخير والشر إذن ففيه خير وله معسكر ، وفيه شرّ وله معسكر ، إذن ففيه فريقان . ويأتى للفريق الذى يدافع عن الحق نضالاً وجهاداً بما يفرق له ويميز به بين الحق والباطل ويختم الحق هذه الآية

بقوله : « إن الذين كفروا بآيات الله لهم عذاب شديد والله عزيز ذو انتقام » .

ولماذا جاء هذا التذييل على هذه الصورة فى هذه الآية ؟ أى مادام القرآن فرقاناً فلا بد أن يفرق بين حق وباطل ، والحق له جنوده ، وهم المؤمنون ، والباطل له جنوده وهم الكافرون ، والشر قد جاء من الكافرين فلا بد أن يتكلم عن الذين كفروا « إن الذين كفروا بآيات الله لهم عذاب شديد » . والعذاب إيلام ، ويختلف قُوّة وضعفا باعتبار المؤلم المباشر للعذاب . فصفعة طفل غير صفعة شاب غير صفعة رجل قوى ، كل واحد يوجه الصفعة بما يناسب قوّته ، فإذا كان العذاب صادراً من قوة القوى وهو الله ، إذن فلا بد أنه عذاب لا يطاق . « لهم عذاب شديد والله عزيز ذو انتقام » أى لا يُغلب على أمره ، ولا توجد قوة أخرى ضده ، وانتقامه لن يستطيع أحد أن يرده .

وقوله الحق سبحانه وتعالى : إنه « قيّوم » أى يقوم بشئون خلقه إيجاداً وإمداداً ، بناء.مادة وإيجاد قيم ، لابد أن يتفرع من ذلك أنه يعلم كل الخلق ويعلم الخبايا ، ولذلك يضع التقنين المناسب لكل ما يجرى لهم ، والتقنينات التى تأتى من البشر تختلف عن التقنينات الموجودة من الله ، لماذا ؟

لأن الله حين يقنن بكتاب ينزله على رسوله ليبلغ حكم الله فيه فهو سبحانه يقنن لما يعلم ، وما يعلمه سبحانه قد يعلمه خلقه وقد لا يعلمونه/وقد تأتى الأحداث بما لم يكن فى بال المشرع البشرى المقنن حين يقنن ، ولذلك يضطرون عادة إلى تغيير القانون ؛ لأنه قد جدّت أحداث لم يلتفت إليها المشرع البشرى . ولماذا لم يلتفت إليها المشرع البشرى ؟ لأن علمه مقصور على المرئيات التى توجد فى عصره وغير معاصر للأشياء التى تحدث بعد عصره ، وأيضاً يقنن للمكات خفية عنه .

إن الحق سبحانه وتعالى لكونه قيّوما ويُنزل ما يفرق بين الحق والباطل ، فهو ـ سبحانه ـ يعلم علماً واسعاً ، بحيث لا يُستدرك عليه ، ولذلك فالذين يحاولون أن يقولوا : إن هذا الحكم غير ملائم للعصر ، نقول لهم : أتستدركون على الله ؟! كأنكم تقولون : إن الله قد فاته مثل هذه الحكاية ونريد أن نصححها له !.

لا ، لا تستدركوا على الله ، وخذوا حكم الله هكذا ؛ لأن هذا هو الحكم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ؛ لأنه حكم من عالم لا يتجدد علمه ، ولا يطرأ شىء على علمه ، وفوق كل ذلك فهو سبحانه لا ينتفع بما يقنن ، وهو سبحانه يقول :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ۝٥ ﴾

انظروا إلى خدمة الآية لكل الأغراض التى سبقتها ، مادام قيُّوما وقائما بأمور الخلق ، فلا بد أنه يعلم كل شىء عن الخلق ، فلا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء ، ومادام سيفرق بين الحق والباطل وينزل بالكفار عذاباً شديداً فلا يخفى عليه شىء . إن الآية تخدم كل الأغراض ، وهو سبحانه يعلم كل الأغراض ، فحين يقنن بقيوميته ، فهو يقنن بلا استدراك عليه ، وحين يخرج أحد عن منهجه لا يخفى عليه . إذن فالآية حصاد على التشريع وعلى الجزاء « إن الله لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء » . وبعد ذلك يتكلم الحق عن مظهر القيّومية الأول بالنسبة للإنسان فيقول :

﴿ هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٦ ﴾

والتصوير فى الرحم هو إيجاد المادة التى سيوجد منها الإنسان على هيئة خاصة ؛ هذه الهيئة تختلف نوعيتها : ذكورة وأنوثة . والذكورة والأنوثة تختلفان أشكالاً ؛ بيضاء وسمراء وقمحية وخمرية وقصيرة وطويلة ، هذه الأشكال التى يوجد عليها الخلق والتى منها :

﴿ وَٱخْتِلَـٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ﴾

(من الآية ٢٢ سورة الروم)

هذا الاختلاف فى الألوان والألسنة والأشياء المتعددة يَدُل على أنها ليست من إنتاج مصنع يصنع قالباً ثم يشكل عليه ، لا ؛ فكل إنسان يولد يصنع بيد قديرة بقدرة ذاتية .

إن الصانع الآن إذا أردت أن يصنع لك كوباً يصنع قالباً ويكرره ، لكن فى الخلق البشرى كل واحد بقالبه الخاص ، وكل واحد بشكله المخصوص ، وكل واحد بصوته الذى ثبت أن له بصمة كبصمة اليد ، وكل واحد بلون ، إذن فهى من الآيات ، وهذا دليل على طلاقة القدرة ، وفوق كل هذا هو الخلق الذى لا يحتاج إلى عملية علاج ، معنى عملية علاج أى يجعل قالباً واحداً ليصب فيه مادته . لا ، هو ـ جل شأنه ـ يقول :

﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾ ﴾

(سورة البقرة)

إن الأب والأم قد يتحدان فى اللون ولكن الابن قد ينشأ بلون مختلف ، ويخلق الله معظم الناس خلقاً سوياً ، ويخلق قلة من الناس خلقاً غير سوى ؛ فقد يولد طفل أعمى أو مصاب بعاهة ما أو بأصبع زائدة أو إصبعين . . وهذا الشذوذ أراده الله فى الخلق ليلفتنا الحق إلى حسن وجمال خلقه . لأن من يرى ـ وهو السوىّ ـ إنساناً آخر معوَّقاً عن الحركة فإنه يحمد الله على كمال خلقه .

وحين يرى إنسان له فى كل يد خمس أصابع إنساناً آخر له إصبع زائدة يعوق حركة يده ، يعْرف حكمة وجود الأصابع الخمس ، فالجمال لا يثبت إلا بوجود القبح ، وبضدها تتمايز الأشياء ، الإنسان الذى له سبع أصابع فى يد واحدة ، يضع الطب أمام مهمة يجند نفسه لها ؛ حتى يستطيع الطبيب أن يستأصل الزائد عن حاجة الإنسان الطبيعى . ولو خلق الله الإنسان بثلاث أصابع لما استطاع ذلك الإنسان أن يتحكم عند استعماله الأشياء الدقيقة .

إن الإنسان العادى فى حركته اليومية لا يدرك جمال استواء خلقه إلا إذا رأى فرداً من أفراد الشذوذ . والحق يلفت الناس الساهين عن نعم الله عليهم لرتابتها فيهم بفقدها فى غيرهم . فساعة أن يرى مبصرٌ مكفوفاً يسير بعكاز ، يفطن إلى نعمة البصر التى وهبها له الله فيشعر بنعمة الله عليه . إن الشذوذ فى الخلق هو نماذج إيضاحية تلفت الناس إلى نعم الله التى أنعم الله عليهم بها .

هذه المُثل فى الكون تلفت الناس إلى نعم الله فيهم ، ولذلك تجدها أمامك ، وأيضا كى لا تستدرك على خالقك ، ولا تقل مَا ذنب هذا الإنسان أن يكون مخلوقاً هكذا ؟ فهو سبحانه سيعوضه فى ناحية أخرى ؛ فقد يعطيه عبقرية تفوق إمكانات المبصر .

ونضرب هذا المثل - ولله المثل الأعلى - عن الذى ساح فى الدنيا « تيمور لنك الأعرج » وهو القائد الذى أذهل الدنيا شجاعة ، إن الله قد أعطاه موهبة التخطيط والقتال تعويضاً له عن العرج . ونحن نجد العبقريات تتفجر فى الشواذ غالباً ، لماذا ؟ لأن الله يجعل للعاجز عجزاً معيناً همةً تحاول أن تعوض ما افتقده فى شيء آخر ، فيأتى النبوغ . إذن فـ « هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء » وكل تصوير له حكمة . ومادام كل تصوير له حكمة فكل خلق الله جميل .

عليك ألّا تأخذ الخلق مفصولاً عن حكمة خالقه ، بل خُذ كل خلق مع حكمته . إن الذى يجعلك تقول : هذا قبيح ، إنك تفصل المخلوق عن حكمته ، ومثال ذلك : التلميذ الذى يرسب قد يحزن والده ، ولكن لماذا يأخذ الرسوب بعيداً عن حكمته ؟ لقد رسب حتى يتعلم معنى الجدية فى الاستذكار ، فلو نجح مع لعبه ماذا سيحدث ؟ كل أقرانه الذين عرفوا أنه لعب ونجح سيلعبون ويقولون : هذا لعب ونجح .. إذن فلا بد أن تأخذ كل عمل ومعه حكمة وجوده .

كذلك لا تأخذ العقوبة منفصلة عن الجريمة ، فكل عقوبة علينا أن نأخذها ملتصقة بجريمتها ، فساعة ترى واحداً مثلاً سيحكمون عليه بالإعدام تأخذك الرحمة به وتحزن ، هنا نقول لك : أنت فصلت إعدامه عن القتل الذى ارتكبه سابقاً ، إنما

لو استحضرت جريمته لوجدته يُقتَلُ عدالة وقصاصاً فقد قُتل غيره ظلماً ، فلا تبعد هذه عن هذه .

« هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء لا إله إلا هو » ومعنى « لا إله إلا هو » أى سيصَوِّر وهو عالم أن مايصوِّره سيكون على هذه الصورة ؛ لأنه لا يوجد إله آخر يقول له : هذه لا تعجبنى وسأصور صورة أخرى ، لا ؛ لأن الذى يفعل ذلك عزيز ، أى لا يُغلب على أمر ، وكل ما يريده يحدث وكل أمر عنده لِحكمة ، لأنه عندما يقول : « يصوركم فى الأرحام » قد يقول أحدٌ من الناس : إن هناك صورًا شاذة وصورًا غير طبيعية . وهو سبحانه يقول لك : أنا حكيم ، وأفعلها لحكمة فلا تفصل الحدث عن حكمته ، خُذ الحدث بحكمته ، وإذا أردت الحدث بحكمته تجده الجمال عينه ، وهو سبحانه المصوّر فى الرحم كيف يشاء ، هذا من ناحية مادته .

وهو سبحانه يوضح : فلن يترك المادة هكذا بل سيجعل لهذه المادة قِيما كى تنسجم حركة الوجود مع بعضها يقول سبحانه :

﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ۝٧ ﴾

إذن فبعدما صورنا فى الأرحام كيف يشاء على مُقتضى حكمته لن يترك الصور بدون منهج للقيم ، بل صنع منهج القيم بأن أنزل القرآن وفيه منهج القيم ، ولا بد أن نأخذ الشيء بجوار الحكمة منه ، وإذا أخذنا الشيء بجوار الحكمة منه يوجد كل أمر مستقيما كله جميل وكله خير . فيقول سبحانه : « هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات » .

ماذا يعني الحق بقوله : « آيات محكمات » ؟ إن الشيء المحكم هو الذى لا يتسرب إليه خلل ولا فساد فى الفهم ؛ لأنه محكم ، وهذه الآيات المحكمة هى النصوص التى لا يختلف فيها الناس ، فعندما يقول :

﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا ﴾

(من الآية ٣٨ سورة المائدة)

هذه آية تتضمن حُكما واضحا . وهو سبحانه يقول :

﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ﴾

(من الآية ٢ سورة النور)

هذه أيضا أمور واضحة ، هذا هو المُحكَم من الآيات ، فالمُحكم هو ما لا تختلف فيه الأفهام ؛ لأن النص فيه واضح وصريح لا يحتمل سواه ، و« المتشابه » هو الذى نتعب فى فهم المراد منه ، ومادمنا سنتعب فى فهم المراد منه فلماذا أنزله ؟

ويوضح لنا سبحانه ـ كما قلت لك ـ خذ الشيء مع حكمته كى تعرف لماذا نزل ؟ فالمُحْكَم جاء للأحكام المطلوبة من الخلق ، أى افعل كذا ، ولا تفعل كذا ، ومادامت أفعالا مطلوبة من الخلق فالذى فعلها يُثاب عليها ، والذى لم يفعلها يُعاقب ، إذن فسيترتب عليها ثواب وعقاب ، فيأتى بها فى صورة واضحة ، وإلا لقال واحد : « أنا لم أفهم » ، إن الأحكام تقول لك : « افعل كذا ولا تفعل كذا » فهى حين تقول : « افعل » ؛ أنت صالح ألا تفعل ، فلو كنت مخلوقًا على أنك تفعل فقط ؛ لا يقول لك:افعل ، لكن لأنك صالح أن تفعل وألا تفعل فهو يقول لك : « افعل » .

وساعة يقول لك : « لا تفعل » ، فأنت صالح أن تفعل ، فلا يقال : « افعل ولا تفعل » إلاّ لأنه خلق فيك صلاحية أن تفعل أو لا تفعل ، ونلحظ أنه حين يقول لى : افعل كذا ولا تفعل كذا يريد أن أقف أمام شهوة نفسى فى الفعل والترك ، ولذلك يقول الحق فى الصلاة :

﴿ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴾

(من الآية ٤٥ سورة البقرة)

فعندما يقول لى:« افعل ولا تفعل » معناها : أن فيه أشياء تكون ثقيلة أن أفعلها ، وأنّ شيئا ثقيلا على أن أتركه ، فمثلا البصر خلقه الله صالحا لأن يرى كل ما فى حيِّزه . على حسب قانون الضوء ، والحق يقول له :

﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾

(من الآية ١٠١ سورة يونس)

ولكن عند المرأة التى لا يحل لك النظر إليها يقول الحق : اغضض .

﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ۝٣٠ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ ﴾

(سورة النور)

ومعنى « يغضوا » و« يغضضن » أنه سبحانه حدد حركة العين ، ومثال آخر ؛ اليد تتحرك فيأمرك ـ سبحانه ـ ألاّ تحركها إلا فى مأمور به ، فلا تضرب بها أحدًا ، ولا تشعل بها ناراً تحرق وتفسد بل أشعل بها النار لتطبخ مثلاً .

إذن فهو سبحانه يأتى فى « افعل ولا تفعل » ويحدد شهوات النفس فى الفعل أو الترك ، فإن كانت شهوة النفس بأنها تنام ، يقول الأمر التعبدى : قم وصل ، وإن كانت شهوة النفس بأنها تغضب يقول الأمر الإيمانى : لا تغضب .

إذن فالحكم إنما جاء بافعل ولا تفعل لتحديد حركة الإنسان ، فقد يريد أن يفعل فعلاً ضارًا ؛ فيقول له : لا تفعل ، وقد يريد ألاّ يفعل فعلَ خير يقول له : افعل . إذن فكل حركات الإنسان محكومة بـ « افعل ولا تفعل » ، وعقلك وسيلة من وسائل الإدراك ، مثل العين والأذن واللسان . إن مهمة العقل أن يدرك ، فتكليفه يدعوه إلى أن يفهم أمرًا ولا يفهم أمرا آخر ، وجعل الله الآيات المحكمات ليريح العقل من مهمة البحث عن حكمة الأمر المحكم ؛ لأنها قد تعلو الإدراك البشرى . ويريد الحق أن يلزم العبد آداب الطاعة حتى فى الشيء الذى لا تُدرك حكمة تشريعه ، وأيضا لتحرك عقلك لترد كل المتشابه إلى المحكم من الآيات . وإذا قرأنا قول الحق :

﴿ لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

نرى أن ذلك كلام عام . وفى آية أخرى يقول سبحانه :

﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ ﴾

(سورة القيامة)

ويتكلم عن الكفار فيقول :

﴿ كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ﴾

(سورة المطففين)

إذن فالعقل ينشغل بقوله : « لا تدركه الأبصار » ، وهذا يحدث فى الدنيا ، أما فى الآخرة فسيكون الإنسان قد تم إعداده إعداداً آخر ليرى الله ، نحن الآن فى هذه الدنيا بالطريقة التى أعدنا بها الله لنحيا فى هذا العالم لا نستطيع أن نرى الله ، ومسألة إعداد شيء ليمارس مهمة ليس مؤهلا ولا مهيأ لها الآن ، أمر موجود فى دنيانا ، فنحن نعرف أن إنسانا أعمى يتم إجراء جراحة له أو يتم صناعة نظارة طبية له فيرى . ومن لا يسمع أو ثقيل السمع نصنع له سماعة فيسمع بها .

فإذا كان البشر قد استطاعوا أن يُعِدُّوا بمقدوراتهم فى الكون المادى أشياء لتؤهلهم إلى استعادة حاسة ما ، فما بالنا بالخالق الأكرم الإله المُربّى ، ألا يستطيع أن يعيد خلقنا فى الآخرة بطريقة تتيح لنا أن نرى ذاته ووجهه ؟! إنه القادر على كل شيء .

إذن فالأمر هنا متشابه ، إن الله يُدرَك ـ بضم الياء وفتح الراء ـ أو لا يُدْرَك ، فما الذى تغير من الأحكام بالنسبة لك ؟ لا شيء . إذن فهذه الآيات المتشابهات لم تأت من أجل الأحكام ، إنما هى قد جاءت من أجل الإيمان فقط ، ولذلك فالرسول صلى الله عليه وسلم ينهى كل خلاف للعلماء حول هذه المسألة بقوله وهو الرسول الخاتم : « إن القرآن لم ينزل ليكذب بعضه بعضا فما عرفتم منه فاعملوا به وما تشابه منه فآمنوا به »[1] .

إن المُتشَابه من الآيات قد جاء للإيمان به ، والمُحْكَم من الآيات إنما جاء للعمل به ، والمؤمن عليه دائما أن يرد المُتشَابِه إلى المُحْكَم . مثال ذلك عندما نسمع قول الله عز وجل :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾ ﴾

(سورة الفتح)

إن الإنسان قد يتساءل : « هل لله يد » ؟ على الإنسان أن يرد ذلك إلى نطاق « ليس كمثله شيء » . وعندما يسمع المؤمن قول الحق :

﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾ ﴾

(سورة طه)

فهل لله جسم يستقر به على عرش ؟ هنا نقول : هذا هو المُتشَابِه الذى يجب على المؤمن الإيمان به ، ذلك أن وجودك أيها الإنسان ليس كوجود الله ، ويدك ليست كيد الله وأن استواءك أيضا ليس كاستواء الله . ومادام وجوده سبحانه ليس كوجودك وحياته ليست كحياتك فلماذا تريد أن تكون يده كيدك ؟

هو كما قال عن نفسه : « ليس كمثله شيء » . ولماذا أدخلنا الله إلى تلك المجالات ؟ لأن الله يريد أن يُلفت خلقه إلى أشياء قد لا تستقيم فى العقول ؛ فمن

(١) رواه الإمام ابن كثير فى تفسيره ، ورواه ابن مردويه .

يتسع ظنه إلى أن يؤول ويردها إلى المُحْكَم بأن الله ليس كمثله شيء . فله ذلك ، ومن يتسع ظنه ويقول : أنا آمنت بأن لله يداً ولكن فى إطار « ليس كمثله شيء » فله ذلك أيضا وهذا أسلم .

والحق يقول : « منه آيات محكمات هن أم الكتاب » ومعنى « أُمّ » أى الأصل الذى يجب أن ينتهى إليه تأويل المُتشَابه إن أوّلت فيه ، أو تُرجعه إلى المُحكم فتقول : إن لله يداً ، ولكن ليست كأيدى البشر . إنما تدخل فى نطاق :

﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾

(من الآية ١١ سورة الشورى)

ولماذا قال الحق : « هن أم الكتاب » ؟ ولم يقل : هن أمهات الكتاب ؟ لك أن تعرف أيها المؤمن أنه ليس كل واحدة منهن أمّا ، ولكن مجموعها هو الأم ، ولتوضيح ذلك فلنسمع قول الحق :

﴿ وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾ ﴾

(سورة المؤمنون)

لم يقل الحق : إنهما آيتان ؛ لأن عيسى عليه السلام لم يوجد كآية إلا بميلاده من أمه دون أب أى بضميمة أمه ، وأم عيسى لم تكن آية إلا بميلاد عيسى أى بضميمة عيسى . إذن فهما معاً يكونان الآية ، وكذلك « هن أم الكتاب وأخر متشابهات » فالمقصود بها ليس كل محكم أمًّا للكتاب ، إنما المحكمات كلها هى الأم ، والأصل الذى يَرُدُّ إليه المؤمنُ أىَّ متشابهٍ . ومهمة المحكم أن نعمل به ، ومهمة المتشابه أن نؤمن به ؛ بدليل أنك إن تصورته على أى وجه لا يؤثر فى عملك . فقوله الحق : « لا تدركه الأبصار » لا يترتب عليه أى حكم ، وهنا يكفى الإيمان فقط .

لكن ماذا من أمر الذين قال عنهم الله : « فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله » ؟. ولنا أن نعرف أن « الزيغ » هو المَيْل ، فزاغ يعنى مال ، وهى مأخوذة من تزايغ الأسنان ، أى اختلاف منابتها ، فسِنَّة تظهر داخلة ، وأخرى خارجة ، وعندما لا تستقيم الأسنان فى طريقة نموها يصنعون لها

الآن عمليات تجميل وتقويم ليجعلوها صفاً واحداً .

إن الذين فى قلوبهم زيغ أى ميل ، يتبعون ما تشابه من الآيات ابتغاء الفتنة . كأن الزيغ أمر طارىء على القلوب ، وليس الأصل أن يكون فى القلوب زيغ ، فالفطرة السليمة لا زيغ فيها ، لكن الأهواء هى التى تجعل القلوب تزيغ ، ويكون الإنسان عارفاً لحكم الله الصحيح فى أمر ما ، لكن هوى الإنسان يغلب فيميل الإنسان عن حكم الله . والميل صنعة القلب ، فالإنسان قد يخضع منطقه وفكره ليخدم ميل قلبه ، ولذلك فرسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

(لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به)[1]

لماذا ؟ لأن آفة الرأى الهوى ، وحتى المنحرفون يعرفون القصد السليم ، لكن الواحد منهم ينحرف لما يهوى ، ودليل معرفة المنحرف للقصد السليم أنه بعد أن يأخذ شرّته فى الانحراف يتوب ويعلن توبته ، وهذا أمر معروف فى كثير من الأحيان ؛ لأن الميل تَكَلُّفٌ تبريرى ، أما القصد السليم فأمر فطرى لا يُرهِق ، ومثال ذلك : عندما ينظر الإنسان إلى حلاله ، فإنه لا يجد انفعال مَلكة يناقض انفعال ملكة أخرى ، ولكن عندما ينظر إلى واحدة ليست زوجته ، فإن ملكاته تتعارك ، ويتساءل : هل ستقبل منه النظرة أو لا ؟ إن ملكاته تتضارب ، أما النظر إلى الحلال فالملكات لا تتعب فيه . لذلك فالإيمان هو اطمئنان ملكات ، فكل ملكات الإنسان تتآزر فى تكامل ، فلا تسرق ملكة من وراء أخرى .

مثال آخر : عندما يذهب واحد لإحضار شىء من منزله ، فإنه لا يحس بتضارب ملكاته ، أما إذا ذهب إنسان آخر لسرقة هذا الشىء فإن ملكاته تتضارب ، وكذلك جوارحه ؛ لأنها خالفت منطق الحق والاستقامة والواقع .

« فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله » إذن فاتباعهم للمتشابه منه ليؤوّلوه تأويلاً يخالف الواقع ليخدموا الزيغ الذى فى قلوبهم .

(١) رواه فى شرح السنة للبغوى ، وفى كنز العمال ، ومشكاة المصابيح للتبريزى .

فالميل موجود عند قلوبهم أولاً ، ثم بدأ الفكر يخضع للميل ، والعبارة تخضع للفكر ، وهكذا نرى أن الأصل فى الميل قد جاء منهم .. ولننظر إلى أداء القرآن الكريم حين يقول :

﴿ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾

(من الآية ٥ سورة الصف)

كأنه يقول : مادمتم تريدون الميل فسأميلكم أكثر وأساعدكم فيه . والحق سبحانه لا يبدأ إنساناً بأمر يناقض تكليفه ، لكن الإنسان قد يميله هواه إلى الزيغ ، فيتخلى الله عنه : ويدفعه إلى هاوية الزيغ . وآية أخرى يقول فيها الحق :

﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُواْ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴾

(سورة التوبة)

إنهم الذين بدأوا ؛ انصرفوا عن الله فصرف الله قلوبهم بعيداً عن الإيمان . وكذلك الذين يتبعون المتشابه يبتغون به الفتنة أى يطلبون الفتنة ، ويريدون بذلك فتنة عقول الذين لا يفهمون ، وماداموا يريدون فتنة عقول من لا يفهمون فهم ضد المنهج ، وماداموا ضد المنهج فهم ليسوا مؤمنين إذن ، وماداموا غير مؤمنين فلن يهديهم الله إلى الخير ، لأن الإيمان يطلب من الإنسان أن يتجه فقط إلى الإيمان بالرب الإله الحكيم ، ثم تأتى المعونة بعد ذلك من الله . لكن عندما لا يكون مؤمنا فكيف يطلب المعونة من الله ، إنه سبحانه يقول :

(أنا أغنى الشركاء عن الشرك)[1] .

إنهم يبتغون الفتنة بالمتشابه ، ويبتغون تأويله ، ومعنى التأويل هو الرجوع ، لأننا نقول : « آل الشيء إلى كذا » أى رجع الشيء إلى كذا ، فكأن شيئاً يرجع إلى شيء ، فمن لهم عقل لا زيغ فيه يحاولون جاهدين أن يؤولوا المُتشابه ويردوه إلى المُحكم ، أو يؤمنوا به كما هو .

---

(١) اتحاف السادة المتقين للزبيدى ، ومسند الربيع بن حبيب ، والترغيب والترهيب للمنذرى ، والأسماء والصفات للبيهقى .

ويقول الحق بعد ذلك : « وما يعلم تأويله إلا الله » إن الله لو أراد للمتشابه أن يكون مُحْكَماً ، لجاء به من المُحكَم ، إذن فإرادة الله أن تكون هناك آيات المتشابه ومهمتها أن تحرك العقول ، وذلك حتى لا تأتى الأمور بمنتهى الرتابة التى يجمد بها عقل الإنسان عن التفكير والإبداع ، والله يريد للعقل أن يتحرك وأن يفكر ويستنبط . وعندما يتحرك العقل فى الاستنباط تتكون عند الإنسان الرياضة على الابتكار ، والرياضة على البحث ، وليجرب كل واحد منا أن يستنبط المتشابه إلى المحكم ولسوف يمتلك بالرياضة ناصية الابتكار والبحث ، والحاجة هى التى تفتق الحيلة .

إن الحق يريد أن يعطى الإنسان دربة حتى لا يأخذ المسائل برتابة بليدة ويتناولها تناول الخامل ويأخذها من الطريق الأسهل ، بل عليه أن يستقبلها باستقبالٍ واعٍ وبفكر وتدبر .

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ ﴾

(سورة محمد)

كل ذلك حتى يأخذ العقل القدر الكافى من النشاط ليستقبل العقل العقائد بما يريده الله ، ويستقبل الأحكام بما يريده الله ، فيريد منك فى العقائد أن تؤمن ، وفى الأحكام أن تفعل « وما يعلم تأويله إلا الله » . والذين فى قلوبهم زيغ يحاولون التأويل وتحكمهم أهواؤهم ، فلا يصلون إلى الحقيقة . والتأويل الحقيقى لا يعلمه إلا الله .

قد رأينا من يريد أن يعيب على واحد بعض تصرفاته فقال له : يا أخى أتَدّعى أنك أحطت بكل علم الله ؟ فقال له : لا . قال له : أنا من الذى لا تعلم . وكأنه يرجوه أن ينصرف عنه .

والعلماء لهم وقفات عند قوله الحق : « وما يعلم تأويله إلا الله » : بعضهم يقف عندها ويعتبر ما جاء من بعد ذلك وهو قوله الحق : « والراسخون فى العلم » كلاماً مستأنفاً ، إنهم يقولون : إن الله وحده هو الذى يعلم تأويل المتشابه ، والمعنى : « والراسخون فى العلم » أى الثابتون فى العلم ، الذين لا تغويهم الأهواء ، إنهم :

« يقولون آمنا به كل من عند ربنا » وهو ما قاله الرسول صلى الله عليه وسلم ، إن الراسخين فى العلم يقولون : إن المحكم من الآيات سيعملون به ، والمتشابه يؤمنون به ، وكل من المتشابه والمحكم من عند الله .

أمّا مَن عطف وقرأ القول الحكيم ووقف عند قوله : « والراسخون فى العلم » نقول له : إن الراسخين فى العلم علموا تأويل المتشابه ، وكان نتيجة علمهم قولهم : « آمنا به » .

إن الأمرين متساويان ، سواء وقفت عند حد علم الله للتأويل أو لم تقف . فالمعنى ينتهى إلى شىء واحد . وحيثية الحكم الإيمانى للراسخين فى العلم هى قوله الحق على لسانهم : « آمنا به كل من عند ربنا » فالمحكم من عند ربنا ، والمتشابه من عند ربنا ، وله حكمة فى ذلك ؛ لأنه ساعة أن يأمر الأعلى الأدنى بأمر ويبين له علته فيفهم الأدنى ويعمل ، وبعد ذلك يلقى الأعلى أمراً آخر ولا يبين علته ، فواحد ينفذ الأمر وإن لم يعرف العلة ، وواحد آخر يقول : لا ، عليك أن توضح لى العلة . فهل الذى آمن آمن بالأمر أو بالعلة ؟

إن الحق يريد أن نؤمن به وهو الآمر ، ولو أن كل شىء صار مفهوماً لِما صارت هناك قيمة للإيمان . إنما عظمة الإيمان فى تنفيذ بعض الأحكام وحكمتُها غائبة عنك ؛ لأنك إن قمت بكل شىء وأنت تفهم حكمته فأنت مؤمن بالحكمة ، ولست مؤمناً بمن أصدر الأمر .

وعندما نأتى إلى لحم الخنزير الذى حرمه الله من أربعة عشر قرناً ، ويظهر فى العصر الحديث أن فى أكل لحم الخنزير مضار ، ويمتنع الناس عن أكله لأن فيه مضار ، فهل امتناع هؤلاء أمر يثابون عليه ؟ طبعاً لا ، لكن الثواب يكون لمن امتنع عن أكل لحم الخنزير لأن الله قد حرمه ؛ ولأن الأمر قد صدر من الله ، حتى دون أن يُعرِّفنا الحكمة ، إن المؤمن بالله يقول : إن الله قد خلقنى ولا يمكن ـ وهو الخالق ـ أن يخدعنى وأنا العبد الخاضع لمشيئته .

إن العبد الممتنع عن أكل لحم الخنزير وشرب الخمر امتثالاً لأمر الله ، هو الذى

ينال الثواب ، أما الذى يمتنع خوفاً من اهتراء الكبد أو الإصابة بالمرض فلا ثواب له . وهناك فرق بين الذهاب إلى الحكم بالعلة . وبين الذهاب إلى الحكم بالطاعة للآمر بالحكم .

إذن فالمتشابه من الآيات نزل للإيمان به ، والراسخون فى العلم يقابلهم من تلويهم الأهواء ، والأهواء تلوى إلى مرادات النفس وإلى ابتغاءات غير الحق . ومادامت ابتغاءات غير الحق ، فغير الحق هو الباطل ، فكل واحد من أهل الباطل يحاول أن يأتى بشىء يتفق مع هواه . ولذلك جاء التشريع من الله ليعصم الناس من الأهواء ؛ لأن هوى إنسانٍ ما قد يناقض هوى إنسان آخر ، والباقون من الناس قد يكون لهم هوى يناقض بقية الأهواء . والحق سبحانه يقول :

﴿ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾ ﴾

(سورة المؤمنون)

إذن فلا بد أن نتبع فى حركتنا ما لا هوى له إلا الحق ، والدين إنما جاء ليعصمنا من الأهواء ؛ فالأهواء هى التى تميلنا ، والذى يدل على أن الأهواء هى التى تميل إلى غير الحق أن صاحب الهوى يهوى حكماً فى شىء ، ثم تأتى ظروف أخرى تجعله يهوى حكماً مقابلاً ، إنه يلوى المسألة على حسب هواه ، وإلا فما الذى ألجأ دنيا الناس إلى أن يخرجوا من قانون السماء الأول الذى حكم الأرض عند آدم عليه السلام ؟

لقد خرجوا من قانون السماء حينما قام قوم بأمر الدين فأخذوا لهم من هذا سلطة زمنية ، وأصبحوا يخضعون المسائل إلى أهوائهم . ونحن إذا نظرنا إلى تاريخ القانون فى العالم لوجدنا أن أصل الحكم فى القضايا إنما هو لرجال الدين والكهنة والقائمين على أمر المعابد . كان الحكم كله لهم ، لأن هؤلاء كانوا هم المتكلمين بمنهج الله .

ولماذا لم يستمر هذا الأمر ، وجاءت القوانين الرومانية والإنجليزية والفرنسية وغيرها ؟ لأنهم جربوا على القائمين بأمر الدين أنهم خرجوا عن نطاق التوجيه السماوى إلى خدمة أهوائهم ، فلاحظ الناس أن هؤلاء الكهنة يحكمون فى قضية

بحكم ما يختلف عن حكم آخر فى قضية مشابهة . إنهم القضاة أنفسهم والقضايا متشابهة متماثلة ، لكن حكم الهوى يختلف من قضية إلى أخرى ، بل وقد يتناقض مع الحكم الأول ، فقال الناس عن هؤلاء الكهنة :

لقد خرجوا عن منطق الدين واتبعوا أهواءهم ، ليثبتوا لهم سلطة زمنية ، فنحن لم نعد نأمنهم على ذلك . وخرج التقنين والحكم من يد الكهنة ورجال الدين إلى غيرهم من رجال التقنين . لقد كان أمر القضاء بين الكهنة ورجال الدين ؛ لأن الناس افترضت فيهم أنهم يأخذون الأحكام من منهج الله ، فلما تبين للناس أن الكهنة ورجال الدين لا يأخذون الحكم من منهج الله ، ولكن من الهوى البشرى ، عند ذلك أخذ الناس زمام التقنين لأنفسهم بما يضمن لهم عدالة ما حتى ولو كانت قاصرة .

وبمناسبة كلمة الهوى نجد أن هناك ثلاثة ألفاظ :

أولا : الهواء وهو ما بين السماء والأرض ، ويراد به الريح ويحرك الأشياء ويميلها وجمعه : الأهوية وهذا أمر حسىّ .

ثانيا : الهوَى : وهو ميل النفس ، وجمعه :الأهواء ، وهو مأخوذ من هَوِىَ يَهْوَى بمعنى مال .

ثالثا : الهَوِىّ : بفتح الهاء وضمها وتشديد الياء وهو السقوط مأخوذ من هَوَى يهْوِى : بمعنى سقط . وهذا يدل على أن الذى يتبع هواه لا بد أن يسقط ، والاشتقاقات اللغوية تعطى هذه المعانى . إنها متلاقية . إذن الراسخون فى العلم يقفون ثابتين عند منهج الله . وأما الذين يتبعون أهواءهم فهم يميلون على حسب ميل الريح . فإن الريح مالت ، مالوا حيث تميل .

ويقول الراسخون فى العلم فى نهاية علمهم : آمنا « والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا » . وهنا تلتقى المسألة ، فنحن نعرف أن المحكم نزل للعمل به ، والمتشابه نزل للإيمان به لحكمة يريدها الله سبحانه وتعالى ، وهى أن نأخذ الأمر من الآمر لا لحكمة الأمر . وعندما نأخذ الأوامر من الحق فلا نسأل عن علتها ؛ لأننا نأخذها من خالق محب حكيم عادل . والإنسان إن لم ينفذ الأمر القادم من الله إلا إذا علم علته وحكمته فإننا نقول لهذا الإنسان : أنت لا تؤمن بالله ولكنك تؤمن بالعلة

والحكمة ، والمؤمن الحق هو من يؤمن بالأمر وإن لم يفهم .

والراسخون فى العلم يقولون : آمنا به ، كل من عند الله ، المحكم من عند ربنا والمتشابه من عند ربنا .

ويضيف سبحانه : « ومايذكّر إلا أولو الألباب » و« أولو الألباب » أى أصحاب العقول المحفوظة من الهوى ، لأن آفة الرأى الهوى ، والهوى يتمايل به . « وما يذكّر إلا أولو الألباب » و« اللب » هو : العقل ، يخبرنا الله أن العقل يحكم لُبّ الأشياء لا ظواهر الأشياء وعوارضها ، فهناك أحكام تأتى للأمر الظاهر ، وأحكام للُبّ . الحق يأمر بقطع يد السارق . وبعد ذلك يأتى من يمثل دور حامى الإنسانية والرحمة ويقول : « هذه وحشية وقسوة » !

هذا ظاهر الفهم ، إنما لُبّ الفهم أنى أردت أن تُقطع يد السارق حتى أمنعه أن يسرق ؛ لأن كل واحد يخاف على ذاته ، فيمنعه ذلك أن يسرق . وقد قلنا من قبل : إن حادثة سيارة قد ينتج عنها مشوهون قدر مِنْ قطعت أيديهم بسبب السرقة فى تاريخ الإسلام كله ، فلا تفتعل وتدعى أنك رحيم ولا تنظر إلى العقاب حين ينزل بالمذنب ، ولكن انظر إلى الجريمة حين تقع منه،فإن الله يريد أن يحمى حركة الحياة للناس بحيث إذا عملت وكددت واجتهدت وعرقت يضمن الله لك حصيلة هذا العمل ، فلا يأتى متسلط يتسلط عليك ليأخذ دمه من عرقك أنت .

إذن فهو يحمى حركة الحياة وتحرك كل واحد وهو آمن ، هذا « لُبّ » الفهم ، ولذلك يقول تعالى : « ولكم فى القصاص حياة » ، إياكم أن تقولوا : إن هذا القصاص اعتداء على حياة فرد . لا ، لأن « لكم فى القصاص حياة » إنّ من علم أنه إن قَتل فسيقتل ، سيمتنع عن القتل ، إذن فقد حمينا نفسه وحمينا الناس منه ، وهكذا يكون فى القصاص حياة ، وذلك هو لُبّ الفهم فى الأشياء ؛ فالله سبحانه وتعالى يلفتنا وينبهنا ألاّ نأخذ الأمور بظواهرها ، بل نأخذها بلبها ، وندع القشور التى يحتكم إليها أناس يريدون أن ينفلتوا من حكم الله . و « الراسخون فى العلم » حينما فَصلوا فى أمر المتشابه دعوا الله بالقول الذى أنزله ـ سبحانه ـ :

﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ۝٨ ﴾

فكأن قول الراسخين فى العلم : إن كل محكم وكل متشابه هو من عند الله ، والمحكم نعمل به ، والمتشابه نؤمن به ، فهذه هى الهداية ؛ ثم يكون الدعاء بالثبات على هذه الهداية ، والمعنى : يارب ثبتنا على عبادتك ولا تجعل قلوبنا تميل أو تزيغ . وهذا يدلنا على أن القلوب تتحول وتتغير ؛ لذلك يأتى القول الفصل بالدعاء على الثبات الإيمانى :

﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ۝٨ ﴾

(سورة آل عمران)

إنهم يطلبون رحمة هبة لا رحمة حق ، فليس هناك مخلوق له حق على الله إلا ما وهبه الله له . والراسخون فى العلم يطلبون من الله الرحمة من الوقوع فى الهوى بعد أن هداهم الله إلى هذا الحكم السليم بأن المتشابه والمحكم كل من عند الله . ويعلموننا كيف يكون الطريق إلى الهداية وطلب رحمة الهبة . والراسخ فى العلم مادام قد علم شيئا فهو يريد أن يشيعه فى الناس ، لذلك يقول لنا :

إياكم أن تظنوا أن المسألة مسألة فهم لنص وتنتهى ، إن المسألة يترتب عليها أمر آخر ، هذا الأمر الآخر لا يوجد فى الدنيا فقط ، فهناك آخرة ، فالدنيا مقدور عليها لأنها محدودة الأمد ومنتهية ، ولكن هناك الآخرة التى تأتى بعد الدنيا حيث الخلود ، فيقول الحق على لسان الراسخين فى العلم :

﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ

﴿ فِيهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ۝٩ ﴾

وقولهم: « ربنا » نفهم منه أنه الحق المتولى التربية ، ومعنى التربية هو إيصال من تتم تربيته إلى الكمال المطلوب له ، فهناك ربٌّ يربى ، وهناك عبد تتم تربيته ، والربُّ يعطى الإنسان ما يؤهله إلى الكمال المطلوب له .

والمؤمنون يرجون الله قائلين : يارب من تمام تربيتك لنا أن تحمينا من عذاب الآخرة ، فإذا ما عشنا الدنيا وانتهت فنحن نعلم أنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه ، ومادمت ربا ، ومادمت إلها فإنك لا تخلف الميعاد ؛ فالذى يخلف الميعاد لا يكون إلها ؛ لأن الإله ساعة الوعد يعلم بتمام قدرته وكمال علمه أنه قادر على الإنفاذ ، إنما الذى ليس لديه قدرة على الإنفاذ لا يستطيع أن يعد إلا مشمولا بشىء يستند إليه ، كقولنا نحن العباد : « إن شاء الله » لماذا ؟ لأن الواحد منا لا يملك أن يفى بما وعد .

حينما تعرضنا إلى قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيۡءٍ إِنِّي فَاعِلٞ ذَٰلِكَ غَدًا ۝٢٣ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَهۡدِيَنِ رَبِّي لِأَقۡرَبَ مِنۡ هَٰذَا رَشَدٗا ۝٢٤ ﴾

(سورة الكهف)

قُلنا إياك أن تقول:إنى سأفعل شيئا إلا أن تشتمله وتربطه بمشيئة الله ؛ لأنك أنت إن وعدت ، فأنت لا تضمن عمرك ولا إنفاذ وعدك ، إنك لن تفعل شيئا إلا بإرادة الله ، لذلك فلا تعد إلا بالمشيئة ؛ لأنك تعد بما لا تضمن ، فأنت فى حقيقة الأمر لا تملك شيئا ، فإن أردت فعل أى شىء أو الذهاب إلى أى مكان فالفعل يحتاج إلى فاعل ومفعول وزمان ومكان وسبب ، ثم يحتاج إلى قدرة لتنفيذ الفعل . والإنسان لا يملك من هذه الأشياء إلا ما يشاء الله له أن يملكه . إن الإنسان لا يملك أن يظل فاعلا . والإنسان لا يملك إن وُجد الفاعل أن يُوجد المفعول . والإنسان لا يملك الزمن ، ولا يملك المكان ، بل لا يملك الإنسان أن يظل السبب قائما ليفعل ما كان

يريد أن يفعله ؛ فكل هذه العناصر ، الفاعل والمفعول ، والزمان ، والمكان ، والسبب ، لا يملكها إلا الله . لذلك فليحم الإنسان نفسه من أن يكون كاذبا ومجازفا وليكن فى ظل قوله تعالى :

﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾ ﴾

(سورة الكهف)

إن كلمة « إلاّ أن يشاء الله » تعصم الإنسان من أن يكون كاذبا . وعندما لا يحدث الذى يعد به الإنسان فمعنى ذلك أن الله لم يشأ ؛ لأن الإنسان لا يملك عنصراً واحداً من عناصر هذا الفعل . وعندما يقول الحق : « ربنا إنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه إن الله لا يخلف الميعاد » لأن الذى يخلف الميعاد إنما تمنعه قوة قاهرة تأتيه ؛ ولو من تغير نفسه تمنعه أن يفعل ، أما الله فلا تأتى قوة قاهرة لتغير ما يريد أن يفعل ، ولا يمكن أن يتغير ؛ لأن التغير ليس من صفات القديم الأزلى .

وحين يؤكد الحق أنه سيتم جمعنا بمشيئته فى يوم لا ريب فيه ، وأن الله لا يخلف الميعاد،فمن المؤكد أننا سنلتقى . وسنلتقى لماذا ؟ لقد قال الراسخون فى العلم : عملنا بالمحكم ، وآمنا بالمتشابه ، ودعوا الله أن يثبت قلوبهم على الهداية رحمة من عنده ، وأن يبعد قلوبهم عن الزيغ ؛ لأنهم خائفون من اليوم الذى سيجمع الله الناس فيه ، إننا سنلتقى للحساب على أفعالنا وإيماننا . وبعد ذلك يقول الحق جل شأنه :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ ﴿١٠﴾ ﴾

ساعة تسمع وأنت المؤمن ، ويسمع معك الكافر ، ويسمع معك المنافق : « ربنا

إنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه إن الله لا يخلف الميعاد » ربما فكر الكافر أو المنافق أن هناك شيئا قد ينقذه مما سيحدث فى ذلك اليوم ، كعزوة الأولاد ، أو كثرة مال يشترى نفسه به ، أو خُلة ، أو شفاعة ، هنا يقول الحق لهم : لا ، إن أولادكم وأموالكم لا تغنى عنكم شيئا .

وفى اللغة يقال : هذا الشيء لا يغنى فلاناً ، أى أنه يظل محتاجاً إلى غيره ، لأن الغِنَى هو ألا تحتاج إلى الغير ، فالأموال والأولاد لا تُغنى أحداً فى يوم القيامة ، والمسألة لا عِزوة فيها ، لا أنساب بينهم يومئذ والجنة ليست للبيع ، فلا أحد يستطيع شراء مكان فى الجنة بمال يملكه .

وكان الكافرون على أيام رسول الله صلى الله عليه وسلم يقولون ذلك القول الشاذ يقولون : مادام الله قد أعطانا أموالاً وأولاداً فى الدنيا فلا بد أن يعطينا فى الآخرة ما هو أفضل من ذلك . ولذلك يقول الله لهم : « إن الذين كفروا لن تُغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا » إذن فالأمر كله مردود إلى الله . صحيح فى هذه الدنيا أن الله قد يخلق الأسباب ، والكافر تحكمه الأسباب ، وكذلك المؤمن ، فإذا ما أخذ الكافر بالأسباب فإنه يأخذ النتيجة ، ولكن فى الآخرة فالأمر يختلف ؛ فلن يملك أحد أسباباً ، ولذلك يقول الحق عن اليوم الآخر :

﴿ يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ﴾

(سورة غافر)

إن البشر فى الدنيا يملكون الأسباب ، ويعيشون مختلفين فى النعيم على اختلاف أسبابهم ، واختلاف كدحهم فى الحياة ، واختلاف وجود ما يحقق للإنسان المُتع ، لكن الأمر فى الآخرة ليس فيه كدح ولا أسباب ؛ لأن الإنسان المؤمن يعيش بالمُسبب فى الآخرة وهو الله ـ جلت قدرته ـ فبمجرد أن يخطر الشيء على بال المؤمن فى الجنة فإن الشيء يأتى له . أما الكفار فلا يغنى عنهم مالهم ولا أولادهم ، لأنهم انشغلوا فى الدنيا بالمال والأولاد وكفروا بالله .

﴿ سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ

بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ﴾

(من الآية ١١ سورة الفتح)

إذن فما انشغل به الكفار فى الدنيا لن ينفعهم ، ويضيف الحق عن الكفار فى تذييل الآية التى نحن بصددها : « وأولئك هم وقود النار » إنهم المَعذبون ، وسوف يتعذبون فى النار . ولنر النكاية الشديدة بهم ، إن الذين يُعَذَّبون ، هم الذين يُعَذِّبُون ؛ لأنهم بأنفسهم سيكونون وقود النار . إن المعَذِّب ـ بفتح العين وفتح الذال مع التشديد ـ يكون هو المعَذَّب ـ بفتح العين وكسر الذال مع التشديد ـ

فهذه ثورة الأبعاض . فذرّات الكافر مؤمنة ، وذرات العاصى طائعة ، والذى جعل هذه الذرات تتجه إلى فعل ما يُغضب الله هو إرادة صاحبها عليها . وضربنا قديما المثل ـ ولله المثل الأعلى ـ وقلنا : هب أن كتيبة لها قائد فالمفروض فى الكتيبة أن تسمع أمر القائد ، وتقوم بتنفيذ ما أمر به ؛ فإذا ما جاءوا للأمر والقائد الأعلى بعد ذلك فإنهم يرفعون أمرهم إليه ويقولون له : بحكم الأمر نفذنا العمل الذى صدر لنا من قائدنا المباشر وكنا غير موافقين على رأيه . وفى الحياة الإيمانية نجد القول الحكيم من الخالق :

﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾

(سورة النور)

فكان اللسان ينطق بكلمة الكفر وهو لاعِنٌ لصاحبه . واليد تتقدم إلى المعصية وهى كارهةٌ لصاحبها ولاعِنةٌ له ، إن إرادة الله العليا هى التى جعلت للكافر إرادة على يده ولسانه فى الدنيا ، وينزع الله إرادة الكافر عن جوارحه يوم القيامة فتشهد عليه أنه أجبرها على فعل المعاصى ، وتعذب الأبعاض بعضها ، وعندما يقول الحق : « وأولئك هم وقود النار » وهنا مسألة يجب أن نلتفت إليها ونأخذها من واقع التاريخ ، هذه المسألة هى أن الذين كفروا برسالات الله فى الأرض تلقوا بعض العذاب فى الدنيا ؛ لأن الله لا يدّخر كل العقاب للآخرة وإلا لشقى الناس بالكافرين وبالعاصين ، ولذلك فإن الله يُعَجِّلُ بشىء من العقاب للكافرين والعاصين فى هذه الدنيا .

ويقول الحق مثالاً على ذلك :

﴿ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْۗ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١١﴾ ﴾

وساعة تسمع « كدأب كذا » ، فالدأب هو العمل بكدح وبلا انقطاع فنقول : فلان دأبه أن يفعل كذا أى هو معتاد دائماً أن يفعل كذا . أو نقول : ليس لفلان دأب إلا أن يغتاب الناس .

فهل معنى ذلك أن كل أفعاله محصورة فى اغتياب الناس ، أو أنه يقوم بأفعال أخرى ؟ إنه يقوم بأفعال أخرى لكن الغالب عليه هو الاغتياب ، وهذا هو الدأب . فالدأب هو السعى بكدح وتوالٍ حتى يصبح الفعل بالتوالى عادة . إذن فقوله الحق : « كدأب آل فرعون » أى كعادة آل فرعون . وآل فرعون هم قوم جاءوا قبل الرسالة الإسلامية ، وقبلهم كان قوم ثمود وعاد وغيرهم .

ويلفتنا الحق سبحانه إلى أن ننظر إلى هؤلاء ونرى ما الذى حدث لهم ، إنه سبحانه لم يؤخر عقابهم إلى الآخرة ؛ لأنه ربما ظن الناس أن الله قد ادخر عذاب الكافرين إلى الآخرة ؛ لأنه قال :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔاۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ ﴿١٠﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

لا ، بل العذاب أيضا فى الدنيا مصداقاً لقوله الحق :

﴿ لَّهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٣٤﴾ ﴾

(سورة الرعد)

إن العذاب لو تم تأجيله إلى الآخرة لشقى الناس بالأشقياء ، لذلك يأتى الله بأمثلة من الحياة ويقول : « كدأب آل فرعون » أى كعادة آل فرعون ، ولا تصير مسألة عادة إلا بالكدح فى العمل ، وكان دأب آل فرعون هو التكذيب والطغيان وادّعاء فرعون الألوهية .

ويقول سبحانه : « والذين من قبلهم كذبوا بآياتنا ، فأخذهم الله بذنوبهم والله شديد العقاب » فصار الدأب منهم ، ومما وقع بهم ، فإذا كانوا قد اعتادوا الكفر والتكذيب فقد أوقع الله عليهم العذاب . لقد كان دأب آل فرعون هو التكذيب ، والخالق ـ سبحانه ـ يجازيهم على ذلك بتعذيبهم ، ولتقرأ إن شئت قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَالْفَجْرِ ﴿١﴾ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴿٢﴾ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ﴿٣﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴿٤﴾ هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ﴿٥﴾ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾ ﴾

(سورة الفجر)

فدأبهم التكذيب وجزاء الله لهم على ذلك هو العذاب والعقاب . إذن فقوله الحق : « فأخذهم الله بذنوبهم والله شديد العقاب » أى أوقع بهم العذاب فى الدنيا ، وكانت النهاية ما كانت فى آل فرعون وثمود ومَن قبلهم من القوم الكافرين .

وعندما تسمع قول الله : « والله شديد العقاب » فالذهن ينصرف إلى أن هناك ذنباً يستحق العقاب . وكل الأمور من المعنويات مأخوذة دائماً من المُحسَّات ؛ لأن الأصل فى إيجاد أى معلومات معنوية هو المشاهد الحسِّية ، وتُنقل الأشياء الحسّية إلى

المعنويات بعد ذلك . لماذا ؟ لأن الشيء الحسيّ مشهود من الجميع ، أما الشيء المعنوى فلا يفهمه إلا المتعقلون ، والإنسان له أطوار كثيرة . ففى طور الطفولة لا يفهم ولا يعقل الإنسان إلا الأمر المحسوس أمامه .

وقلت قديما فى معنى كلمة « الغصب » : إنه أخذ وسلب شيء من إنسان صاحب حق بقوة ، وهذا أمر معنوى له صورة مشهدية ؛ لأن الذى يسلخ الجلد عن الشاة نسميه غاصباً . ولنر كيف يكون أخذ الحق من صاحبه ، إنه كالسلخ تماماً ، فالكلمة تأتى للإيضاح .

وكلمة « ذنب » وكلمة « عقوبة » مترابطتان ؛ فكلمة « ذنب » مأخوذة من مادة ذنب ؛ لأن المادة كلها تدل على « التالى » والذَنَب يتلو المقدمة فى الحيوان . والعقاب هو ما يأتى عقب الشيء .

إذن فهناك ذنب وهناك عقاب . لكن ماذا قبل الذنب ، وماذا يتلو العقاب ؟ لا يوجد ذنب إلا إذا وُجِدَ نص يُجرّم ، فلا ذنب إلاّ بنص . فليس كل فعل هو ذنب ، بل لابد من وجود نص قبل وقوع الذنب . يجرّم فعله ؛ ولذلك أخذ التقنين الوضعى هذا الأمر ، فقال : لا يمكن أن يعاقب إنسان إلا بتجريم ، ولا تجريم إلا بنص ، فلا يمكن أن يأتى إنسان فجأة ويقول : هذا العمل جريمة يعاقب عليها . بل لابد من التنبيه والنص من قبل ذلك على تجريم هذا العمل .

إنه لا عقوبة إلا بتجريم ، ولا تجريم إلا بنص . فالنص يوضح تجريم فعل نوع ما من العمل ، وإن قام إنسان بهذا العمل فإنه يُجَرم ، ويكون ذلك هو الذنب ، فكأن الذنب جاء تالياً لنص التجريم . والعقاب يأتى عقب الجريمة ، وهكذا نجد أن كلا مّن الذنب والجريمة يأخذان واقع اللفظ ومدلوله ومعناه ؛ فالذَنَبُ هو التالى للشيء . ولذلك يسمّون الدلو الذى يملأونه بالماء « ذَنوباً » لأنه هو الذى يتلو الحبل . وأيضا الجزاء فى الآخرة :

﴿ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَـٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴿٥٩﴾ ﴾

(سورة الذاريات)

أى ذنوباً تتبع ، وتتلو جريمتهم . إذن فالنص القرآنى فى أى ذنب وفى أى عقاب يؤكد لنا القضية القانونية الاصطلاحية الموجودة فى كل الدنيا : إنه لا عقوبة دون تجريم . فكان العقابُ بعد الجريمة أى بعد الذنب ، والذنب بعض النص ، فلا نأتى لواحد بدون نص سابق ونقول له : أنت ارتكبت ذنباً . وهذه تحل إشكالات كثيرة ، مثال ذلك :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾ ﴾

(سورة النساء)

إن الله يغفر ما دون الشرك بالله ، فالشرك بالله قمة الخيانة العظمى ؛ وهذا لا غفران فيه وبعد ذلك يغفر لمن يشاء . ويقول الحق فى آية أخرى :

﴿ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ ﴾

(سورة الزمر)

فهناك بعض من الناس يقولون : إن الله قال:إنه لا يغفر أن يشرك به ، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ، حتى إنهم قالوا : إن ابن عباس ساعة جاءت هذه الآية التى قال فيها الحق : « إن الله يغفر الذنوب جميعا » قال : « إلا الشرك » وذلك حتى لا تصطدم هذه الآية مع الآية الأخرى .

والواقع أنه حين يدقق أولو الألباب فلن نجد اصطداما ، لأن الذين أسرفوا على أنفسهم . هم من عباد الله الذين آمنوا ولم يشركوا بربهم أحدًا ، ولكنهم زلُّوا وغووا ووقعوا فى المعاصى فهؤلاء يقال عنهم : إنهم مذنبون ؛ لأنهم مؤمنون بالله ومعترفون بالذى أنزله ، أما المشرك فلم يعترف بالله ولا بما شرع وقنن من أحكام،فما هو عليه لا يسمى ذنبا وإنما هو كفر وشرك . فلا تعارض ولا تصادم فى آيات الرحمن .

وعندما يقول الحق :

﴿ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١١﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

فهذا القول الحكيم مُتوازن ومُتّسِق ، فالذنب يأتى بعد نص ، والعقاب من بعد ذلك . ويقول الحق آمرا رسوله ببلاغ الكافرين :

﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٢﴾ ﴾

إنه أمر من الله لرسوله صلى الله عليه وسلم وهو المبلغ عن الله ، أن يحمل للكافرين خبراً فيه إنذار . من هم هؤلاء الكفار ؟ هل هم كفار قريش ؟ الأمر جائز . هل هم اليهود ؟ الأم جائز . فالبلاغ يشمل كل كافر .

والنص القرآنى حينما يأتى فهو يأتى على غير عادة الناس فى الخطاب ، ولأضرب هذا المثل ـ ولله المثل الأعلى وسبحانه منزه عن التشبيه أو المثل ـ أنت تقول لابنك : اذهب إلى عمك ، وقل له : إن أبى سيحضر لزيارتك غدا . فماذا يكون كلام الابن للعم ؟ إن الابن يذهب للعم ويقول له : إن أبى سيزورك غدا . لكن الآمر وهو الأب يقول : قل لعمك إن أبى سيزورك غدا . فإذا كان الابن دقيق الأمانة فهو يقول :

ـ قال أبى : ـ قل لعمك ، إن أبى سيزورك غدا . وعندما يقول الحق سبحانه : « قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد » .

فهذا معناه قمة الأمانة من الرسول المبلغ عن الله ، فنَقَل للكافرين النص الذى أمره الله بتبليغه للكافرين . وإلا كان يكفى الرسول صلى الله عليه وسلم أن يذهب

للكافرين ويقول لهم : ستُغلبون وتُحشرون . لكن من يدريهم أن هذا الكلام ليس من عند محمد وهو بشر ؟ لذلك يبلغهم الرسول صلى الله عليه وسلم أن الله أبلغه أن يبلغهم بقوله : « قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد » .

إن الرسول لم يبلغهم بمقول القول : لا ، إنما أبلغهم نص البلاغ الذى أبلغه به الله . وساعة يأمر الحق فى قرآنه رسوله صلى الله عليه وسلم أن يبلغ أمرا للكافرين فإن الرسول صلى الله عليه وسلم مُخاطب ، والكفار مُخاطبون ، فعندما يواجههم فإنه يقول لهم : ستغلبون . . وفى آية أخرى يقول الحق :

﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾

(سورة الأنفال)

إن القياس أن يقول : إن تنتهوا يغفر لكم ما قد سلف ، لكن الحق قال : « إن ينتهوا » ، فكأن الله حينما قال كان الكفار غير حاضرين للخطاب ورسول الله هو الحاضر للخطاب ، والله يتكلم عن غائبين .

ولكن الله ـ سبحانه ـ فى هذه الآية التى نحن بصددها يحمل الرسول تمام البلاغ . فمرة يكون النقل من الآمر الأول كما صدر منه سبحانه كقوله: « إن ينتهوا » ومرة يأمره الآمر الأول أن يبلغ الكلمة التى يكون بها مخاطِبا أى لا تقل : سيغلبون وقل : « ستغلبون » لأنك أنت الذى ستخاطبهم . وهذه الدقة الأدائية لا يمكن إلا أن تكون من قادر حكيم .

إنه بلاغ إلى كفار قريش أو إلى مطلق الذين كفروا . والغلب سيكون فى الدنيا ، والحشر يكون فى الآخرة .

فإذا ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ينقل النص القرآنى « ستُغلبون » فمتى قالها رسول الله ؟ لقد قالها والمسلمون قلة لا يستطيعون حماية أنفسهم ، ولا يقدرون على شيء . وكل مؤمن يحيا فى كنف آخر ، أو يهاجر إلى مكان بعيد . فهل يمكن أن يأتى هذا البلاغ إلا ممن يملك مطلق الأسباب ؟

لقد قالها الرسول مبلغا عن الله ، والمسلمون فى حالة من الضعف واضحة ، ومادام قد قالها ، فهى حجة عليه ، لأنّ مَن أبلغه إياها وهو الله قادر على أن يفعلها . « قل للذين كفروا ستغلبون » ليس العقاب فى الدنيا فقط ، ولكن فى الأخرة أيضا « وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد » هذه المسألة بشارة لرسول الله ولأصحابه ، وإنذار للكافرين به ، ويتم تحقيقها فى موقعة بدر . فسيدنا عمر بن الخطاب لما نزل قول الله :

﴿ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ ﴾

(سورة القمر)

تساءل عمر بن الخطاب : أى جمع هذا ؟ إنه يعلم أن المسلمين ضعاف لا يقدرون على ذلك ، وأسباب انتصار المسلمين غير موجودة ، ولكن رسول الله لم يكن يكلم المؤمنين بالأسباب ، إنما برب الأسباب ، فإذا ما تحدى وأنذرهم ، مع أنه وصحبه ضعاف أمامهم ، فقد جاء الواقع ليثبت صدق الحق فى قوله : « ستغلبون » ويتم انتصار المسلمين بالفعل ، ويغلبون الكافرين .

ألا يُجعل صدق بلاغ الرسول صلى الله عليه وسلم فيما يحدث فى الدنيا دليل صدقٍ على ما يحدث فى الآخرة ؟ إن تحقيق « ستُغلبون » يؤكد « وتُحشرون إلى جهنم » . وفى هذه الآية شيئان : الأول ؛ بلاغ عن هزيمة الكفار فى الدنيا وهو أمر يشهده الناس جميعا ، والأمر الآخر هو فى الآخرة وقد يُكذبه بعض الناس . وإذا كان الحق قد أنبأ رسوله بأنك يا محمد ستَغلب الكافرين وأنت لا تملك أسباب الغَلَبَة عليهم . ومع ذلك يأتى واقع الأحداث فيؤكد أن الكافرين قد تمت هزيمتهم . ومادام قد صدق الرسول صلى الله عليه وسلم فى البلاغ عن الأولى ولم يكن يملك الأسباب فلا بد أن يكون صادقا فى البلاغ فى الثانية وهى البلاغ عن الحشر فى نار جهنم .

وبعض المفسرين قد قال : إن هذه المقولة لليهود ؛ لأن اليهود حينما انتصر المسلمون فى بدر زُلزِلوا زِلزَالا شديدا ، فلم يكن اليهود على ثقة فى أن الإسلام والمسلمين سينتصرون فى بدر ، فلما انتصر الإسلام فى بدر ؛ قال بعض اليهود : إن محمداً هو الرسول الذى وَعَدنَا به الله والأَوْلَى أن نؤمن به.فقال قوم منهم : انتظروا إلى معركة أخرى . أى لا تأخذوها من أول معركة ، فانتظروا ، وجاءت معركة أحد ،

وكانت الحرب سجالا[١] .

ولنا أن نقول : وما المانع أن تكون الآية لليهود وللمشركين ولمطلق الذين كفروا ؟ فاللفظ عام وإن كان قد ورد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد جمع اليهود فى سوق بنى قينقاع وقال لهم : يا معشر اليهود احذروا مثل ما نزل بقريش وأسْلِموا قبل أن ينزل بكم ما نزل بهم ، فقد عرفتم أنى نبىّ مرسل . فماذا قالوا له ؟ قالوا له : لا يَغُرنَّك أنك لقيت قوما أغماراً ـ أى قوما من غمار الناس لم يجربوا الأمور ـ لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة ، لئن قاتلتنا لعلمت أنَّا نحن الناس ، فأنزل الله قوله : « قل للذين كفروا ستغلبون . . . » إلخ الآية .

والمهاد هو ما يُمهّد عادة للطفل حتى ينام عليه نومًا مستقراً أى له قرار ، وكلمة « بئس المهاد » تدل على أنهم لا قدرة لهم على تغيير ما هم فيه ، كما لا قدرة للطفل على أن يقاوم من يضعه للنوم فى أى مكان . ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَـٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ ﴿١٣﴾ ﴾

وحين يقول الحق : « قد كان لكم آية » . فمن المخاطب بهذه الآية ؟ لاشك أن المخاطب بهذه الآية كل من كانت حياته بعد هذه الواقعة ، سواء كان مؤمنا أو كافرا ، فالمؤمن تؤكد له أن نصر الله يأتى ولو من غير أسباب ، والكافر تأتى له الآية

(١) الحرب سِجال : النصر بين طرفيها متداول .

بالعبرة فى أن الله يخذله ولو بالأسباب ، إن الله جعل من تلك الموقعة آية . والآية هى الشيء العجيب .أىْ إن واقعه ونتائجه لا تأتى وَفق المقدمات البشرية .

نعم هذا خطاب عام لكل من ينتسب إلى أىِّ فئة من الفئتين المتقاتلتين ، سواء كانت فئة الإيمان أو فئة الكفر . ففئة الإيمان لكى تفهم أنه ليست الأسباب المادية هى كل شيء فى المعركة بين الحق والباطل ، لأن لله جنودا لا يرونها . وكذلك يخطِّىء هذا الخطاب فئة الكافرين فلا يقولون : إن لنا أسبابنا من عدد وعُدَّة قوية ، فقد وقعت المعركة بين الحق والباطل من قبل ؛ وقد انتصر الحق .

وكلمة « فئة » إذا سمعتها تصورت جماعة من الناس ، ولكن لها خصوصيّة ؛ فقد توجد جماعة ولكن لكل واحد حركة فى الحياة . ولكن حين نسمع كلمة « فئة » فهى تدل على جماعة ، وهى بصدد عمل واحد . ففى غير الحرب كل واحد له حركة قد تختلف عن حركة الآخر . ولكن كلمة « فئة » تدل على جماعة من الناس لها حركة واحدة فى عمل واحد لغاية واحدة .

ولاشك أن الحرب تصور هذه العملية أدق تصوير ، بل إن الحرب هى التى تُوَحّد كل فئةٍ فى سبيل الحركةِ الواحدة والعمل الواحد للغاية الواحدة ؛ لأن كل واحد من أى فئة لا يستطيع أن يحمى نفسه وحده ، فكل واحد يفىء ويرجع إلى الجماعة ، ولا يستطيع أن ينفصل عن جماعته . ولكن الفرد فى حركة الحياة العادية يستطيع أن ينفصل عن جماعته .

إذن فكلمة « فئة » تدل على جماعة من الناس فى عملية واحدة ، وتأتى الكلمة دائما فى الحرب لتصور كل معسكر يواجه آخر . وحين يقول الحق : « قد كان لكم آية فى فئتين التقتا » أى أن هناك صراعا بين فئتين ، ويوضح الحق ما هية كل فئة فيقول : « فئة تقاتل فى سبيل الله وأخرى كافرة » . وحين ندقق النظر فى النص القرآنى ، نجد أن الحق لم يورد لنا وصف الفئة التى تقاتل فى سبيل الله ولم يذكر أنها فئة مؤمنة ، وأوضح أن الفئة الأخرى كافرة ، وهذا يعنى أنّ الفئة التى تقاتل فى سبيل الله لا بد أن تكون فئة مؤمنة ، ولم يورد الحق أن الفئة الكافرة تقاتل فى سبيل الشيطان اكتفاء بأن كفرها لا بد أن يقودها إلى أن تقاتل فى سبيل الشيطان .

فهرس آيات المجلد الثانى

سورة البقرة	الصفحة	سورة أل عمران	اصفحة
الآية ٢٦٨	١١٦٢	سورة أل عمران	١٢٥٣
الآية ٢٦٩	١١٦٣	الآية ١	١٢٥٧
الآية ٢٧٠	١١٦٥	الآية ٢	١٢٥٩
الآية ٢٧١	١١٦٧	الآية ٣	١٢٦٢
الآية ٢٧٢	١١٧٣	الآية ٤	١٢٦٥
الآية ٢٧٣	١١٧٧	الآية ٥	١٢٦٩
الآية ٢٧٤	١١٨١	الآية ٦	١٢٦٩
الآية ٢٧٥	١١٨٤	الآية ٧	١٢٧٢
الآية ٢٧٦	١١٩٦	الآية ٨	١٢٨٥
الآية ٢٧٧	١١٩٩	الآية ٩	١٢٨٥
الآية ٢٧٨	١١٩٩	الآية ١٠	١٢٨٧
الآية ٢٧٩	١٢٠١	الآية ١١	١٢٩٠
الآية ٢٨٠	١٢٠٤	الآية ١٢	١٢٩٤
الآية ٢٨١	١٢١٠	الآية ١٣	١٢٩٧
الآية ٢٨٢	١٢١١		
الآية ٢٨٣	١٢٢٤		
الآية ٢٨٤	١٢٣٠		
الآية ٢٨٥	١٢٣٧		
الآية ٢٨٦	١٢٤٢		

تفسير

الشعراوي

المجلد الثالث

من الآية ١٤ من سورة آل عمران إلى الآية ١٨٩ سورة آل عمران

لقد حذف الحق من وصف الفئة الأولى ما يدل عليه فى وصف الفئة الثانية . وعرفنا وصف الفئة التى تقاتل فى سبيل الله من مقابلها فى الآية وهى الفئة الأخرى. فمقابل الكافرة مؤمنة ، وعرفنا ـ أيضا ـ أن الفئة الكافرة إنما تقاتل فى سبيل الشيطان لمجرد معرفتنا أن الفئة الأولى المؤمنة تقاتل فى سبيل الله . ويسمون ذلك فى اللغة « احتباك » . وهو أن تحذف من الأول نظير ما أثبت فى الثانى ، وتحذف من الثانى نظير ما أثبت فى الأول ، وذلك حتى لا تكرر القول ، وحتى توضح الالتحام بين القتال فى سبيل الله والإيمان ، والقتال فى سبيل الشيطان والكفر .

إذن فالآية على هذا المعنى توضح لنا الآتى : لقد كان لكم آية ، أى أمر عجيب جدا لا يسير ولا يتفق مع منطق الأسباب الواقعية فى فئتين،فعندما التقت الفئة المؤمنة فى قتال مع الفئة الكافرة ، استطاعت الجماعة المؤمنة المحددة بالغاية التى تقاتل من أجلها ـ وهى القتال فى سبيل الله ـ أن تنتصر على الفئة الكافرة التى تقاتل فى سبيل الشيطان .

وبعد ذلك يقول الحق : « يرونهم مثليهم رأى العين » فنحن أمام فئتين ، فمن الذى يَرى ؟ ومن الذى يُرى ؟ من الرائى ومن المرئى ؟ إن كان الرائى هم المؤمنين فالمرئى هم الكافرون . وإن كان الرائى هم الكافرين فالمرئى هم المؤمنون ولنر الأمر على المعنيين :

فإن كان الكافرون هم الذين يرون المؤمنين ، فإنهم يرونهم مثليهم ؛ أى ضعف عددهم ، وكان عدد الكافرين يقرب من ألف . إذن فالكافرون يرون المؤمنين ضعف أنفسهم ، أى ألفين . وقد يكون المعنى مؤديا إلى أن المؤمنين يرون الكافرين ضعف عددهم الفعلى . وقد يؤدى المعنى إلى أن الكافرين يرون المؤمنين ضعف عددهم وكان عدد المؤمنين يقرب من ثلاثمائة وأربعة عشر ، وضعف هذا العدد هو ستمائة وثمانية وعشرون مقاتلا .

فإن أخذنا معنى « مثليهم » على عدد المؤمنين ، فالكافرون يرونهم حوالى ستمائة وثمانية وعشرين مقاتلا ، وإن أخذنا معنى « مثليهم » على عدد الكافرين فالكافرون يرون المؤمنين حوالى ألفين . وما الهدف من ذلك ؟ إن الحق سبحانه يتكلم عن

المواجهة بين الكفر والإيمان حيث ينصر الله الإيمان على الكفر . وبعض من الذين يتصيدون للقرآن يقولون : كيف يقول القرآن : « يرونهم مثليهم رأى العين » وهو يقول فى موقع آخر :

﴿ إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤٤﴾ ﴾

(سورة الأنفال)

وهذه الآية تثبت كثرة ، سواء كثرة المؤمنين أو كثرة الكافرين ، والآية التى نحن بصدد تناولها بالخواطر الإيمانية تثبت قلة ، والمشككون فى القرآن يقولون : كيف يتناول القرآن موقعة واحدة على أمرين مختلفين ؟ ونقول لهؤلاء المشككين : أنتم قليلو الفطنة ؛ لأن هناك فرقًا بين الشجاعة فى الإقبال على المعركة وبين الروح العملية والمعنوية التى تسيطر على المقاتل أثناء المعركة ، والحق سبحانه قد تكلم عن الحالين : قلل الحق هؤلاء فى أعين هؤلاء ، وقلل هؤلاء فى أعين هؤلاء ، لأن المؤمنين حين يرون الكافرين قليلا فإنهم يتزودون بالجرأة وطاقة الإيمان ليحققوا النصر .

والكافرون عندما يرون المؤمنين قلة فإنهم يستهينون بهم ويتراخون عند مواجهتهم . ولكن عندما تلتحم المعركة فما الذى يحدث ؟ لقد دخلوا جميعا المعركة على أمل القلة فى الأعداد المواجهة ، فما الذى يحدث فى أعصابهم ؟ إن المؤمن يدخل المعركة بالاستعداد المكثف لمواجهة الكفار . وأعصاب الكافر تخور لأن العدد أصبح على غير ما توقع ، إذن فقول الحق :

﴿ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤٤﴾ ﴾

(سورة الأنفال)

يصور الحالة قبل المعركة ؛ لأن الله لا يريد أن يتهيب طرف من طرف فلا تنشأ المعركة . لكن ما إن تبدأ المعركة حتى يقلب الحق الأمور على عكسها ، إنه ينقل الشيء من الضد إلى الضد . ونقل الشيء من الضد إلى الضد إيذان بأن قادرا أعلى يقود المشاعر والأحاسيس ، والقدرة العالية تستطيع أن تصنع فى المشاعر ما تريد .

لقد قلل الحق الأعداد أولا حتى لا يتهيبوا المعركة ، وفى وقت المعركة جعلهم الله كثيرا فى أعين بعضهم البعض،فترى كل فئة الطرف الآخر كثيرا ، فتتفجر طاقات الشجاعة المؤمنة من نفوس المؤمنين فيقبلون على القتال بحماسة ، وتخور نفوس الكافرين عندما يواجهون أعدادا أكثر مما يتوقعون . والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَـٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ ﴿١٣﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

إن هذه الآية هى خبر تبشيرى لكل مؤمن بالنصر ، وهى فى الوقت نفسه خبر إنذارى لكل كافر بأن الهزيمة سوف تلحق به إن واجه الجماعة المؤمنة . فإياكم أن تقيموا الأمور بمقاييس الأسباب ، فالأسباب المطلوبة منكم هى المقدور عليها للبشر وعليكم أن تتركوا تتمة كل ذلك للقدر ، فلا تخور الفئة المؤمنة أمام عدد كثير ، ولا تغتروا معشر الكفار بأعدادكم الكثيرة ؛ فالسابقة أمامكم تؤكد أن عدداً قليلا من المؤمنين قد غلب عددا كثيرا من الكافرين .

ومن معانى الآية ـ أيضا ـ أن الكافرين يرون المؤمنين مثلى عدد الكافرين ، أى ضعف عددهم . ومن معانيها ـ ثالثا ـ أن الكافرين يرون المؤمنين ضعف عدد المؤمنين الفعلى . ومن معانى الآية ـ رابعا ـ أن يرى المسلمون الكافرين مثليهم ، أى مثل المؤمنين مرتين ، أى ستمائة نفر وقليلا ، وحينئذ يكون عدد الكافرين فى عيون المؤمنين أقل من العدد الفعلى لهؤلاء الكافرين . إذن فما حكاية « مثليهم » هذه ؟ لقد وعد الله المؤمنين بنصره حين قال :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَـٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟

مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾

(سورة الأنفال)

والنسبة هنا أن المؤمن الواحد يخرج إلى عشرة من الكافرين فيهزمهم ، ذلك وعد الله ، وحين أراد الله التخفيف قال الحق :

﴿ الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٦٦﴾

(سورة الأنفال)

لقد خفف الله النسبة ، فواحد من المؤمنين يغلب اثنين من الكافرين . فالمؤمنون موعودون من الله بالغلبة حتى وهم ضعاف . والحق يقول فى الآية المبشرة للمؤمنين ، المنذرة للكافرين ، والتى نحن بصددها الآن : « والله يؤيد بنصره من يشاء إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار » .

ونحن نسمع كلمة « عبرة » كثيرا ، والمادة المأخوذة منها تدل على الدخول من مكان إلى مكان ، فيقال عن ذلك « عُبور » ، ونحن فى حياتنا العادية نخصص فى الشوارع أماكن لعبور المشاة ، أى المسافة التى يمكن للمشاة أن ينفذوا منها من ضفة الشارع إلى الضفة الأخرى من الشارع نفسه . وعبور البحر هو النفاذ من شاطىء إلى شاطىء آخر .

إذن فمادة « العبور » تدل على النفاذ من مكان إلى مكان ، و« العَبرة » أى الدمعة لأنها تسقط من محلها من العين على الخد . و« العِبارة » أى الجملة التى نتكلم بها ، فهى تنتقل من الفم إلى الأذن ، وهى عبور أيضا . و« العبير » أى الرائحة الجميلة التى تنتقل من الوردة البعيدة عن الإنسان قليلا لتنفذ إلى أنفه . إذن فمادة « العبور » تدل على « النفاذ » .

وحين يقول الحق : « إن فى ذلك لعبرة » . أى تنقلكم من أمر قد يخيفكم أيها المؤمنون لأنكم قليل ، وهم كثير ، إنها تنقلكم إلى نصر الله أيها المؤمنون ، وتنقلكم

أيها الكافرون إلى الهزيمة برغم كثرة عُدتكم وعَددكم . فالعبرة هى حدث ينقلك من شىء إلى شىء مغاير ، كالظالم الذى نرى فيه يوما ، ونقول : إن ذلك عبرة لنا ، أى إنها نقلتنا من رؤيته فى الطغيان إلى رؤيته فى المهانة .

وهكذا تكون العبرة هى العظة اللافتة والناقلة من حكم إلى حكم قد يستغربه الذهن ، فتذييل هذه الآية الكريمة بهذا المعنى هو إيضاح وبيان كامل ، فالحق يقول فى بداية هذه الآية : « قد كان لكم آية فى فئتين التقتا » . وتنتهى الآية بقوله : « إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار » .

إذن فالعبرة شىء ينقلنا من أمر إلى أمر قد تستغربه الأسباب وذلك إن كنت متروكا لسياسة نفسك ، لكن المؤمن ليس متروكا لسياسة نفسه ؛ لأن الله لو أراد أن يعذب الكفار بدون مواجهة المؤمنين وحربهم لعذبهم بدون ذلك ، ولكن الله يريد أن يكون عذاب الكافرين بأيدى المؤمنين :

﴿ قَـٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ ﴾

(سورة التوبة)

ولو كان الله يريد أن يعذب الكافرين بغير أيدى المؤمنين لأحدث ظاهرة فى الكون تعذبهم ، كزلزال يحدث ويدمرهم ، ولكن الله يريد أن يعذب الكافرين بأيدى المؤمنين . « والله يؤيد بنصره من يشاء ، إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار » ، و« الأيد » هو القوة ، إذن فهو يريد منك فقط النواة العملية ، ثم بعد ذلك يكملها الله بالنصر ، « وأيّده » أى قواه ، ويؤيد الله بنصره من يشاء ، وتكون العبرة لأولى الأبصار .

وقد يقول قائل : أتكون العبرة لأولى الأبصار أم لأولى البصائر ؟ وهنا نقول : إن العبرة هنا لأولى الأبصار ؛ لأن الأمر الذى تتحدث عنه الآية هو أمر مشهدى ، أمر محسوس ، فمن له عينان عليه أن يبصر بها ، فإذا كان التفكير والتدبر ليس أمرا موهوبا لكل مخلوق من البشر ، فإن البصر موجود للغالبية من الناس ، وكل منهم

يستطيع أن يفتح عينيه ليرى هذا الأمر المشهدى .

وإذا ما نظرنا إلى المعركة بذاتها وجدنا الدليل الكامل على صدق العبارة ؛ فالمؤمنون قلة وعددهم معروف محدود ، وعتادهم قليل ، ولم يخرجوا بقصد حرب ، إنما خرجوا لقصد الاستيلاء على العير المحملة بالأرزاق من طعام وكسوة تعويضا عما اغتصبه المشركون من أموالهم فى مكة ، ولو أنّهم استولوا على العِير فقط لما كان النصر عظيما بالدرجة التى كان عليها ؛ لأن العِير عادة لا تسير بعتاد ضخم إنما تحفظ بالحراسة فقط . ولكن الله يريد لهم النصر على ذات الشوكة ، أى الطائفة القوية المسلحة ، لقد وعدهم الله بالنصر على إحدى الطائفتين :

﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧﴾ ﴾

(سورة الأنفال)

لقد كان وعد الله أن ينصر المؤمنين على إحدى الطائفتين ، والأمل البشرى كان يود الانتصار على الطائفة غير ذات الشوكة أى الطائفة غير المسلحة وهى العير ، ولكن مثل هذا النصر لا يكون له دَوِىٌّ النصر على الطائفة المسلحة ، فقد كان من السهل أن يقال : إن محمداً ومن معه تعرضوا لجماعة من التجار لا أسلحة معهم ولا جيش ، ولكن الله يريد أن يجعل من هذه المعركة فرقانا وأن يحق الحق .

إنكم أيها المؤمنون لم تخرجوا إلاّ لِقصد العير أى لم يكن استعدادكم كافيا للقتال ، أما الكفار فقد جاءوا بالنفير ، أى بكل قوتهم فقد ألقت مكة فى هذه المعركة بأفلاذ أكبادها . وعندما يأتى النصر من الله للمؤمن فى مثل هذه الموقعة فهو نصر حقيقى ، ويكون آية غاية فى العجب من آيات الله . وتصير عبرة للغير . لذلك نجد العجائب فى هذه المعركة ـ معركة بدر ـ .

الغرائب أنك تجد الأخوين يكون لكل منهما موقف ومجابهة . وتجد الأب والابن لكل منهما موقف ومجابهة برغم عمق الصلة بينهما ، فمثلا ابن أبى بكر رضى الله عنه ، وكان هذا الابن لم يسلم بعد ، وكان فى جانب الكفار ، وأبوه الصديق مع رسول الله

صلى الله عليه وسلم ، وبعد أن أسلم ابن أبي بكر يحكى الابن لأبيه بشيء من الامتنان والبر : لقد تراءيت لى يوم بدر فزويت وجهى عنك . فيرد أبو بكر الرد الإيمانى الصدِّيقى : والله لو تراءيت لى أنت لقتلتك .

وكلا الموقفين منطقى ، لماذا ؟ لأن ابن أبي بكر حين يلتقى بأبي بكر ، ويرى وجه أبيه ، فإنه يقارن بين أبي بكر وبين ماذا ؟ إنه يقارن بين أبيه وبين باطل ، ويعرف تمام العلم أنه باطل ، فيرجح عند ابن أبي بكر أبوه ، ولذلك يحافظ على أبيه فلا يلمسه . لكنَّ أبا بكر الصديق حينما يقارن فهو يقارن بين الإيمان بالله وابنه ، ومن المؤكد أن الإيمان يزيد عند الصديق أبي بكر ، فلو رآه يوم بدر لقتله .

ولله حكمة فيمن قُتل على أيدى المؤمنين من مجرمى الحرب من قريش ، ولله حكمة فيمن أبقى من الكفار بغير قتل ؛ لأن هؤلاء مدخرون لقضية إيمانية كبرى سوف يبلون فيها البلاء الحسن . فلو مات خالد بن الوليد فى موقعة من المواقع التى كان فيها فى جانب الكفر لحزنا نحن المسلمين ؛ لأن الله قد ادخره لمعارك إيمانية يكون فيها سيف الله المسلول ، ولو مات عكرمة لفقدت أمة الإسلام مقاتلا عبقريا .

لقد حزن المسلمون فى موقعة بدر لأنهم لم يقتلوا هؤلاء الفرسان ؛ لأنهم لم يعلموا حكمة الله فى ادخار هؤلاء المقاتلين ؛ لينضموا فيما بعد إلى صفوف الإيمان . والله لم يمكِّن مقاتلى المسلمين يوم بدر من المحاربين الذين كانوا على دين قومهم آنئذٍ إلاّ لأن الله قد ادخرهم لمواقع إيمانية قادمة يقفون فيها ، ويحاربون فى صفوف المؤمنين ، وهذا نصر جديد .

ونرى أبا عزيز وهو شقيق الصحابى مصعب بن عمير الذى أرسله رسول الله صلى الله عليه وسلم ليبشر بدين الله ، ويعلِّم أهل المدينة ، وكان مصعب فتى قريش المدلل صاحب ترف ، وأمه صاحبة ثراء ، وبعد ذلك رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يلبس جلد شاة بعد أن كان يلبس الحرير ، فيقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « انظروا إلى الإيمان ماذا فعل بصاحبكم » .

والتقى مصعب فى المعركة مع أخيه أبي عزيز ، وأبو عزيز على الكفر ، ومصعب

رضى الله عنه مسلم يقف مع النبى صلى الله عليه وسلم ، وحين يرى مصعب رضى الله عنه أخاه أبا عزيز وهو أسير لصحابى اسمه أبو اليسر ، فيقول مصعب : يا أبا اليسر اشدد على أسيرك ؛ فإن أمه غنية وذات متاع ، وستفديه بمال كثير .

فيقول له أخوه أبو عزيز : أهذه وصاتك بأخيك ؟ فيقول مصعب مشيراً إلى أبى اليسر : هذا أخى دونك . كانت هذه هى الروح الإيمانية التى تجعل الفئة القليلة تنتصر على أهل الكفر ، طاقة إيمانية ضخمة تتغلب على عاطفة الأخوة ، وعاطفة الأبوة ، وعاطفة البنوة . وقد جعل الله من موقعة بدر آية حتى لا يخور مؤمن وإن قل عدد المؤمنين ، أو قلت عُدّتهم ، وحتى لا يغتر كافر ، وإن كثر عددُ قومه وعتادهم .

وقد جعلها الله آية للصدق الإيمانى ، ولذلك يقال : احرص على الموت توهب لك الحياة . وقد كانت القضية الإيمانية هى التى تملأ نفس المؤمن ، إنها قضية عميقة متغلغلة فى النفوس . ولماذا يتربص الكفار بالمؤمنين ؟ إنهم إن تربصوا بهم ، فسيدخل المؤمنون الجنة إن قُتِلوا أو ينتصرون على الكفار ، وفى ذلك يقول الحق على لسان المؤمنين :

﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾

(سورة التوبة)

فالظفر هنا بأحد أمرين : إما النصر على الكافرين ، وإما الاستشهاد فى سبيل الله ، ونيل منزلة الشهداء فى الجنة وكلاهما جميل . والمؤمنون يتربصون بالكافرين ، إما أن يصيب الله الكفار بعذاب من عنده ، وإما أن يصيبهم بأيدى المؤمنين . إنها معادلة إيمانية واضحة جلية . وبعد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ

وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴿١٤﴾

الموضع الذى تأتى فيه هذه الآية الكريمة هو : موقع ذكر المعركة الإسلامية التى جعلها الله آية مستمرة دائمة ؛ لتوضح لنا أن المعارك الإيمانية تتطلب الانقطاع إلى الله ، وتتطلب خروج الإنسان المؤمن عما ألف من عادة تمنحه كل المتع . والمعارك الإيمانية تجعل المؤمن الصادق يضحى بكثير من ماله فى تسليح نفسه ، وتسليح غيره أيضا .

فمن يقعد عن الحرب إنسان تغلبه شهوات الدنيا ، فيأتى الله بهذه الآية بعد ذكر الآية التى ترسم طريق الانتصارات المتجدد لأهل الإيمان ؛ وذلك حتى لا تأخذنا شهوات الحياة من متعة القتال فى سبيل الله ولإعلاء كلمته فيقول : « زين للناس حب الشهوات » وكلمة « زين » تعطينا فاصلا بين المتعة التى يحلها الله ، والمتعة التى لا يرضاها الله ؛ لأن الزينة عادة هى شىء فوق الجوهر . فالمرأة تكون جميلة فى ذاتها وبعد ذلك تتزين ، فتكون زينتها شيئا فوق جوهر جمالها .

فكأن الله يريد أن نأخذ الحياة ولا نرفضها ، ولكن لا نأخذها بزينتها وبهرجتها ، بل نأخذها بحقيقتها الاستبقائية فيقول : « زين للناس حب الشهوات من النساء » . وما الشهوة ؟ الشهوة هى ميل النفس بقوة إلى أى عمل ما .

وحين ننظر إلى الآية فإننا نجدها توضح لنا أن الميل إذا كان مما يؤكد حقيقة استبقاء الحياة فهو مطلوب ومقبول ، ولكن إن أخذ الإنسان الأمر على أكثر من ذلك فهذا هو الممقوت .

وسبق أن ضربنا المثل من قبل بأعنف غرائز الإنسان وهى غريزة الجنس ، وأن

الحيوان يَفْضُل الإنسان فيها ، فالحيوان أخذ العملية الجنسية لاستبقاء النوع بدليل أن الأنثى من الحيوان إذا تم لقاحها من فحل لا تُمكِّن فحلاً آخر منها . والفحل أيضا إذا ما جاء إلى أنثى وهى حامل فهو لا يُقبل عليها ، إذن فالحيوانات قد أخذت غريزة الجنس كاستبقاء للحياة ، ولم تأخذها كالإنسان لذة متجددة .

ومع ذلك فنحن البشر نظلم الحيوانات ، ونقول فى وصف شهوة الإنسان : إن عند فلان شهوة بهيمية . ويا ليتها كانت شهوة بهيمية بالفعل ؛ لأن البهيمة قد أخذتها على القدر الضرورى ، لكن نحن فلسفناها ، إذن فخروجك بالشىء عما يمكن أن يكون مباحاً ومشروعا يسمى : دناءة شهوة النفس .

والحق سبحانه وتعالى يريد أن يضمن للكون بقاءه ، والبقاء له نوعان : أن يُبقِى الإنسان حياته بالمطعم والمشرب ، وتبقى حياة النوع الإنسانى بالتزاوج .

ولكن إن نظرت إلى المسألة وجدت الخالق حكيما عليما . إنه يعلم أن طفولة أى حيوان بسيطة بالنسبة لأبيه وأمه ، مثال ذلك : الحمامة تطعم فرخها إلى أن يستطيع الطيران ، ثم لا تعرف أين ذهب فرخها ، لكن حصيلة الالتقاء بين الرجل والمرأة ، والتى أراد الله لها أن تنتج الأولاد تحتاج إلى شقاء إلى أن يبلغ الولد ، وذلك ليكون هناك تكافؤ وتناسب بين ما يحرص عليه الإنسان من شهوة ، وما يتحمل من مشاق ومتاعب فى سبيل الاستمتاع بها واستبقائها . فقول الحق سبحانه : « زين للناس حب الشهوات من النساء » فمن المزين ؟ إن كان فى الأمر الزائد على ضروريات الأمر ، فهذا من شغل الشيطان،وإن كان فى الأمر الرتيب الذى يضمن استبقاء النوع فهذا من الله .

ونجد الحق يضيف « البنين » إلى مجال الشهوات ويقصد بها الذكران ، ولم يقل البنات ، لماذا ؟ لأن البنين هم الذين يُطلبون دائما للعزوة كما يقولون ولا يأتى منهم العار ، وكان العرب يئدون البنات ويخافون العار ، والمحبوب لدى الرجل فى الإنجاب حتى الآن هو إنجاب البنين ، حتى الذين يقولون بحقوق المرأة وينادون بها ، سواء كان رجلا أو امرأة إن لم يرزقه الله بولد ذكر فإنه أو إنها تريد ولداً ذكراً .

ويضيف الحق إلى مجال الشهوات : « والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة » ، والقناطير هى جمع قنطار ، والقنطار هو وحدة وزن ، وهذا الوزن حددته كثافة الذهب ، إلا أن القنطار قبل أن يكون وزناً كان حجماً ، لكنهم رأوا الحجم هذا يزن قدراً كمياً ، فانتقلوا من الحجم إلى الوزن .

وكان علامة الثراء الواسع فى الزمن القديم أن يأتوا بجلد الثور بعد سلخه ويملأوه ذهبا ، وملء جلد الثور بالذهب يسمونه قنطاراً ، وكانت هذه عملية بدائية . وبعد ذلك أخذوا ملء الجلد ذهباً ووزنوه فصار وزنا . إذن فالأصل فيه أنه كان حجماً ، فصار وزناً .

وساعة تسمع « قناطير مقنطرة من الذهب والفضة » فهو يريد أن يحقق فيها القنطارية ، وذلك يعنى أن القنطار المقنطر هو القنطار الكامل الوزن ، وليس مجرد قنطار تقريباً ، كما نقول أيضاً : « دنانير مدنرة » . وعادة نجد فى اللغة العربية لفظاً يأتى من جنس اللفظ يضم إليه كى يعطيه قوة ، فيقال « ظل ظليل » أى ظل كثيف ، ويقال « ليل أليل » أى أن الليل فى ظلمة شديدة ، وهى مبالغة فى كثافة الظلام .

والظلام على سبيل المثال يحجب الشمس ، وحاجب الشمس عنك قد يكون حجاباً واحداً ، وقد يكون الشيء الذى يظلك فوقه شيء أخر يظلله أيضاً فيكون الظل ظليلاً ، ولذلك يكون الظل تحت الأشجار جميلاً ، لأن ورقة تستر الشمس ، وورقة أخرى تستر الورقة الأولى ، وهكذا ، فتصنع تكييفاً طبيعياً للهواء .

ولذلك فهم يصنعون الآن خياماً مكيفة الهواء مصنوعة من قماش فوقه قماش آخر ، وبينهما مسافة ، فيكون هناك قماش يُظلل ظِلاً آخر ، فإذا ما وضعوا قطعة ثالثة من القماش تُظل الظلين الأولين ، فإن الظل يكون ظليلاً ، ولذلك قلنا : إن ظل الأشجار هو ظل ظليل ، فيه حنان ، فكل ورقة تظل الإنسان تكون نفسها مظَلّلة بورقة أخرى ، وتكون أوراق الشجر التى تظلل بعضها بعضا مختلفة الأوضاع ، وتعطى الأوراق للنسيم فرصة المرور ، أما الخيام فهى تحجب النسيم . والشاعر حين أراد أن يصف الروضة قال :

تصبد الشمس أنَّى واجهتها
فتحجبها وتأذن للنسيم

إذن فحين وصف الحق القناطير بأنها مقنطرة فذلك يعنى القناطير الدقيقة الميزان ، وهى قناطير مقنطرة من ماذا ؟ « من الذهب والفضة والخيل المسوّمة » . وكانت الخيل هى أداة العز وأمارة وعلامة على العظمة ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :
(الخيل معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيامة)[1] .

قول الحق : « والخيل المسوّمة » نرى فيه أن اللفظ الواحد يشع فى مجالات متعددة من المعانى ، فمسوّمة من سامها يَسوُمها ، ومعنى ذلك أن لهذه الخيل مراعى تأكل منها كما تريد ، وليست خيلاً مربوطة تأكل ما يُقدم لها فقط ، ومسوّمة أيضاً تعنى أن لهذه الخيل علامات ، فهذا حصان أغرّ ، وذلك أدهم ، وذاك أشقر .

ومسوّمة أيضا ، أن تكون مروضة ، ومدربة ، وتم تعليمها ، فالأصل فى الخيل أنها لم تكن مُستأنسة بل مُتوحشة ، ولذلك لا بد من ترويضها حتى ينتفع بها الإنسان . فكم معنى إذن أعطته لنا كلمة « مسوّمة » ؟

سائمة ، أى تأكل على قدر ما تشتهى لا على قدر ما نعطيها من طعام . ومُعلّمة أى فيها علامات كالغرّة والتحجيل ، وهذا جواد أدهم ، وذلك جواد أشقر ، أو أنها معلمة أى مروضة . فماذا تتطلب الحرب ؟ .

إن الحرب تتطلب الانقطاع عن الأهل ، فيجب ألا تكون شهوة النفس حاجزاً ، سواءً كانت شهوة للنساء ، أو كانت شهوة العزوة للبنين ورعايتهم ، أو كانت شهوة المال ؛ فالمؤمن ينفقه فى سبيل الله ، والخيل أيضاً يستخدمها الإنسان فى القتال لإعلاء كلمة الله .

ونلحظ أن هذه الآية ـ التى تعدّد أنواع الزينة ـ جاءت بعد الآية التى تتحدث عن الجهاد فى سبيل الله ، والتى يقول الحق تبارك وتعالى فيها :

---

(١) رواه البخارى ، ومسلم ، والترمذى ، والنسائى ، وأحمد .

﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِي فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَـٰتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي ٱلْأَبْصَـٰرِ ﴿١٣﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

وذلك ليرشدنا إلى أن الإنسان المؤمن لا يصح أن يضحى بشهوته الحقيقية وهى إدراك الشهادة فى سبيل الله أو النصر على العدو بسبب الشهوات الزائلة التى تتمثل فى النساء ، وفى البنين ، وفى القناطير المقنطرة من الذهب والفضة ، وفى الخيل المسوّمة والأنعام . وقد قال الله عن الأنعام فى سورة الأنعام :

﴿ ثَمَـٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ نَبِّـُٔونِي بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّـٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَـٰذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

حساب ذلك هو إثنان من الضأن ، وإثنان من الماعز ، وإثنان من الإبل ، وإثنان من البقر أى ثمانية أزواج . ولا يمكن حسابها على أنها ستة عشر كما قال البعض قديماً ، لا ؛ إن الزوج لا يعنى اثنين من الشيء ، ولكن الزوج واحد ، ولكن يُشترط أن يكون مع غيره من جنسه . ومثال آخر هو كلمة « التوأم » ، إن التوأم هو واحدٌ معه غيره ، وهما توأمان ، وهم توائم إذا كان العدد أكثر من اثنين .

والحق يقول فى مجال زينة الشهوات : « زُين للناس حُبَّ الشهوات من النساء

والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسوّمة والأنعام والحرث » وحين تسمع كلمة « الحرث » فافهم أن المراد بها هنا الزرع ، ولكن الله سبحانه وتعالى يريد منك أن تعلم أن الله حين يُنبت لك أشياء بدون معالجتك فإنه يريد منك أيضاً أن تَسْتنبت أشياء بمعالجتك ، وهذا لا يتأتى إلا بعملية الحرث .

والحرث هو إهاجة الأرض ؛ فالتربه تكون جامدة ، فلا بد أن يهيّجها الإنسان بالحرث ، أى أن تفك يبوستها وتَلاصُقَ ذراتها ؛ لأن تَلاصُقَ ذرات التربة لا يصلح أن يكون بيئة للنبات ؛ لأن النبات يحتاج إلى الماء ويحتاج إلى الهواء ، ويحتاج من الإنسان أن يُمهد للشعيرات البسيطة أن تخرج ، وتجد تربة سهلة تتحرك فيها إلى أن تقوى .

إذن فالحرث يثير الأرض ، ويجعلها ليّنة مُتفتتة حتى تستطيع البذرة أن تنمو ؛ لأن الله قد أودع فى فلقتى كل بذرة مقوّمات الحياة إلى أن يوجد لها جذر يأخذ مقومات الحياة من الأرض ، وكلما قوى الجذر فى النبات فإن الفلقتين تضمحلان ، وتصيران مجرد ورقتين . فأين ذهب حجم الفلقتين ؟

لقد قامت الفلقتان بتغذية النبتة إلى أن أستطاعت النبتة أن تتغذى بنفسها من الأرض ، ولا يمكن حدوث ذلك إلا إذا كانت الأرض محروثة . ولذلك يقولون : إن الأرض الطينية السوداء تكون صعبة ، وغير خصبة ، ويقال : إن الأرض الرملية أيضاً غير خصبة ، لماذا ؟.

لأننا نريد صفتين اثنتين فى الأرض : الصفة الأولى أن تكون الأرض صالحة أن يتخللها الماء ليشرب الزرع ، والصفة الأخرى ألاّ تُسرب الماء بعيداً ، فإذا كانت الأرض طينية فإن جذور الزرع تختنق وتتعطن ، وإذا كانت رملية فإن الماء يتسرب بعيداً ، لذلك نحتاج فى الزراعة إلى أرض بين سوداء ورملية ، أى أرض صفراء . والله حين يتكلم عن الزرع فإنه يقول : « الحرث » وذلك حتى يلفتنا إلى أن من يريد أن يأخذ زرعاً لا بد أن يجدّ ويحرث الأرض . وهو سبحانه القائل :

﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾

(سورة الواقعة)

وعبّر الحق عن الزرع بالحرث لأنه السبب الذى يُوجِد الزرع . وكل ما تقدم من الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسوّمة والأنعام والحرث ، كل ذلك تكون قيمته عند الإنسان ما يوضحه الحق بقوله : « ذلك متاع الحياة الدنيا ، والله عنده حسن المآب » .

إن كل ذلك هو متاع الحياة الدنيا ، والفيصل هو أن الإنسان يخشى أن تفوته النعمة فلا تكون عنده ، أو أن يفوتها فيموت . وكل ما يفوتك أو تفوته ، فلا تعتز به . وعندما نتأمل الآية فى مجموعها نجد أن فيها مفاتيح كل شخصية تريد أن تنحرف عن منهج الله ، إنه سبحانه يقول :

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴿١٤﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

هكذا نرى المفاتيح التى قد تجذب الإنسان لينحرف عن مراد الله فى منهجه ، إنه ـ سبحانه ـ يطلب من عبده المؤمن أن يبنى حركة حياته على مراد الله ، فما الذى يجعل المؤمن يترك مراد الله من حكم لينصرف إلى حكم يناقضه ؟ .

لاشك أنه الهوى ، والهوى هو الذى يُميل ويُزيغ القلوب ، ولكل هوى مفتاح ، ولكل شخصية من المكلفين بمنهج الله مفتاح لهواه ، فواحد مفتاحه النساء ، وواحد مفتاحه البنون ، يجب أن يرعاهم رعاية تفوق دَخْلَه من عمل أو صناعة مثلا فقد يسرق أو يرتشى ليسعد هؤلاء . وأناس مفاتيحهم الشخصية فى المال ، أو فى زينة الخيل ، والعدة والعتاد فلكل شخصية مفتاح هوى .

والذين يدخلون على الناس ليُزيِّنوا لهم غير منهج الله يأتون لهم بالمفتاح الذى يفتح شخصياتهم ، فربما كان هناك إنسان لا تُغريه نظرة المرأة أو ملايين الذهب ، إنما يتملكه حبه لأولاده وهو الهوى الغلاب .

إذن فكل واحد له مفتاح لشخصيته ، والذين يريدون إغراء الناس وغوايتهم يعرفون مفاتيح من يريدون إغراءه وإغواءه . وحين يقول الحق أنَ هذه الأشياء هى المُزَيَّنة للناس . قد يقول قائل : إذا كان الله يريد أن يصرفنا عن هذه الأشياء فلماذا خلقها لنا ؟

وعلى هذا القول نرد : إن الحق مادام قد قال : « زُيِّنَ » وبناها ـ كما يقول النحاة ـ للمجهول أى لما لم يُسَمَّ فاعله ، فمن الذى زيَّن ؟ لقد كان الله قادرا أن يقول لنا من الذى زَيَّن تلك الأشياء تحديدا ، لكن الحق يريد أن يعلمنا أنه من الممكن أن يكون الشيطان هو الذى يُزيِّن لنا هذه الأشياء ، ومن الممكن أن يكون منطق المنهج هو الذى يزين ، ألم يقل الحق سبحانه دعاء على لسان عباده الصالحين :

﴿ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾

(من الآية ٧٤ سورة الفرقان)

إذن فما الفيصل فى تلك المسألة ؟ الفيصل فى هذه المسألة أن الحق سبحانه وتعالى جعل لكل نعمة من نعم الحياة عملا يعمله الإنسان فيها ، فالمرأة إنما اتُّخِذَت سكنا أى ارتياحا عندها ، ارتياحا يعطيك كل الحنان والعطف ، وهو سبحانه القائل :

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾

(سورة الروم)

إن الحق يريد لنا ان يسكن الرجل إلى حلاله ، وتصرف المرأة الحلال عَيْنَىْ زوجها عن أعراض الناس . لكن ماذا فى الرجل الذى يُحب الأبناء ؟ ألم يقل سيدنا زكريا :

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾ ﴾

(سورة مريم)

لقد طلب زكريا عليه السلام وليًا يرثه ، والأنبياء لا تُورث منهم أموال ، إنما يُورِّثون العلم والحكمة ، إذن فقد طلب زكريا عليه السلام أن يرث ابنه الحكمةَ منه ويرث من آل يعقوب وأن يجعله الله رضيًا . فلو كان الأنبياء يورِّثون المال ، لكان البعض قد فهم أن طلب زكريا للإبن كى يرثه فى المال ، لكن الحق أراد لأنبيائه ألاّ يُورِّثوا المال ، بل يورِّثون العلم بمنهج الله . وقد طلب زكريا الابن لتثبيت منهج الله فى الأرض .

وكذلك الذى يريد الأموال لينفقها فى سبيل الله ، وكذلك الذى يريد الخيل ليروضها على الجهاد ، وكذلك الذى يريد الحرث ليملأ بطون خلق الله بما يَطعَمُون منه ، كل هؤلاء ينالهم المدح والثناء والجزاء الكثير من الله . لذلك يجب أن نعلم أن الحكم يأتى من الله مُحتملا أن تتجه به إلى الخير المراد لله ، ومحتملا أن تتجه به إلى الشر المراد لنفسك . وأنت ـ أيها العبد ـ حين تنظر إلى أى شهوة من هذه الشهوات فلسوف تجد أنه من الممكن أن تُوجِّهها وِجهة خير . يقول الحق :

﴿ هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّـٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾

(من الآية ٧٤ من سورة الفرقان)

لقد أراد الله للأتقياء والأنبياء أن يكون لهم من الذرية أبناء ليرثوا المنهج السلوكى ويكونوا مثلا طيبة للناس يقتدون بهم . إذن فالمؤمن يحب أن تكون ذريته قدوة سلوكية . والذى يحب الخيل يمكن أن يوجه هذا الحب إلى الخير ، ألم يقل رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الحديث الشريف :

عن أبى هريرة رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عيه وسلم أنه قال : (مِنْ خير معاش الناس لهم رجل ممسك عِنَانَ فرسه فى سبيل الله يطير على مَتنه كلما سمع هِيْعَةً[1] أو فَزْعَةً طار عليه يبتغى القتل والموت مَظَانَّةُ[2])[3] .

(١) الهيعة : كل ما أفزع من جانب العدو من صوت أو خبر .

(٢) مظانه : بفتح الميم والظاء المعجمة وتشديد النون منصوب على الظرفية : أى يطلبه فى المحل الذى يظن وجوده فيه طلبا لمرضاة الله تعالى .

(٣) رواه مسلم من حديث لأبى هريرة .

وقد أمرنا الرسول صلى الله عليه وسلم أن نُروِّض الخيل ، إذن فمن الممكن أن تكون هذه الأشياء مساراً للخير . وإياكم أن تفهموا أن الله يزهدنا فيها أو ينفرنا منها ، ولكنه يزهدنا أن نستعمل ما خلقه لنا فى غير مراده .

ولننظر إلى تعليق الله على الأشياء المُزيَّنة : « ذلك متاع الحياة الدنيا » أى أن الذى ينظر إلى هذه الأشياء المزينة نظرة تقليدية سطحية سيجدها مجرد متاع ، وما عمر هذا المتاع ؟ إنه موقوت بالدنيا الفانية . ولننظر إلى الإنسان عندما يُصَعِّدُ فى عمله قيمة الخير،وتصعيد قيمة الخير يأتى من تنمية نوعه ، أى الزيادة فى نوع الخير ، ومن استدامته ، ومن أن الإنسان لا يترك هذا الخير .

إذن فتصعيد الخير يأتى على عدة صور تبدأ من تنمية الخير نفسه . واستدامة الخير فلا ينقطع ، وضمان أن يحيا الإنسان للخير ويعيش له ، وألّا يذهب الخير عنه ، وأمر رابع هو ألّا تربط هذا الخير بأغيار ، أى أن تربطه بواحد قوى يأتى لك به ، فقد يضعف ، أو يمرض ، أو يغيب ، أو يغدر بك .

إذن فلا بد من أربعة عناصر : الأول : تصعيد الخير ، أى نوع الخير الذى تفعله يكون أرقى من خير آخر ، فنعمل دائما على زيادته وتنميته . والثانى : استدامة الخير . والثالث : أن تدوم أنت للخير ، وتحرص على أن تعيش له ، والأمر الرابع : ألّا تربط هذا الخير بالأغيار . بل عليك أن تعتمد على الله ثم على نفسك .

وكل خير يأتى دون هذا فهو خير غير حقيقى . فإذا نظرت إلى شهوات النساء والمال والبنين والخيل والأنعام والحرث فإنها ستعطيك متاعَ الدنيا . ولنسلم جدلا أن شيئا لن يسلبك هذه الأشياء وأنت حىّ ، وأنها ستظل معك طيلة دنياك . فما قيمة الدنيا وهى مقاسة بآلاف السنين ، والإنسان لا يعيش فيها إلا قدرا محددا من الأعوام يقرره الحق سبحانه وتعالى .

إذن فالدنيا تقاس بعمر الإنسان فيها لا بعمر ذات الدنيا لغيره ، لأن عمر الدنيا لغيرك لا يخصك . هب أن هذه الشهوات من نساء ومال وبنين وخيل وذهب وفضة

وحرث وأنعام وعدة وعتاد قد دامت لك ، فما الذى يحدث ؟ إن الدنيا محدودة . ولا أحد يستطيع أن يستديم الدنيا ، لذلك فلن يستطيع أحد أن يستديم الخير لأن عمره فى الدنيا محدود .

وحياة الإنسان فى الدنيا لم يضع الله لها حداً يبلغه الإنسان . إن الله لم يحدد عمرا يموت فيه الإنسان ، ولكنْ لكل إنسان عمْر خاصٌ محدود بحياته ، فعندما يولد أى طفل لا تنزل معه بطاقة تحدد عدد السنوات التى سوف يحياها فى الدنيا .

وهو سبحانه قد جعل عدد سنوات الحياة مبهما لكل إنسان ، ولذلك يقال إن الإبهام هو أعلى درجات البيان ، الحق أخفى توقيت الموت وسببه عن الإنسان . متى يأتى ؟ فى أى زمان وفى أى مكان ؟ كل ذلك أخفاه فأصبح على المؤمن أن يكون مترقبا للموت فى كل لحظة .

إن الإبهام للموت هو البيان الوافى ، ومادامت الدنيا مهما طالت فهى محدودة وغير مضمونة للإنسان أن يحياها ، ونعيمه فيها على قدر إمكاناته وقدرته ، وإن لم تذهب الدنيا من الإنسان فالإنسان نفسه يذهب منها . فإذا ما قارنت كل ذلك باسم الحياة التى نحياها الآن ، إنّ اسمها « الدنيا » أى « السفلى » ومقابل « الدنيا » هو « العليا » وهى الحياة فى الآخرة . ولماذا هى « عليا » ؟ لأنها ستصعد الخير .

فبعد انقضاء هذه الحياة المحدودة ، يذهب المؤمن إلى الجنة وبها حياة غير محدودة ، وهذا أول تصعيد . ويضمن المؤمن أن أكلها دائم لا ينقطع . ويضمن المؤمن أنه خالد فى الجنة فلا يموت فيها . ويضمن المؤمن قيمة هذه الجنة ؛ لأن الخير إنما يأتى على مقدار معرفة الفاعل للخير . ومعرفة الإنسان للخير جزئية محدودة ، ومعرفة الله للخير كمال مطلق .

فالمؤمن فى الآخرة يتنعم فى الخير على مقدار ما علم الله من الخير . إذن فحياتنا هى الدنيا ، أى السفلى ، وهناك الآخرة العليا . فإذا طلب المنهج منا ألّا ننخدع بالدنيا ، وألّا ننقاد إلى المتاع فهل هذا لون من تشجيع الحب للنفس أو تشجيع للكراهية للنفس ؟

إنه منهج سماوى يقود إلى حب النفس ؛ لأنه يريد أن يُصَعِّد الخير لكل مؤمن ، لقد بيَّن المنهج أن فى الدنيا ألوانا من المتع هى كذا وكذا وكذا ، والدنيا محدودة ولا تدوم لإنسان ، ولا يدوم إنسان لها ، وإمكانات الإنسان فى النعيم الدنيوى محدودة على قدر الإنسان ، أما إمكانات النعيم فى الآخرة فهى على قدر قدرة الخالق المربى ، فمن المنطقى جدا أن يقول الله لنا : « ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب » . وحسن المآب تعنى حسن المرجع .

والحق حينما طلب منك أيها المؤمن أن تغض بصرك عما لا يحل لك ، فقد يظن الإنسان السطحى أن فى ذلك حجراً على حرية العين ، ولكن هذا الغض للبصر أمر به ـ سبحانه ـ إنما ليملأ العين فى الآخرة بما أحل الله ، إذن فهذا حب من الله للمخلوق وهذا تصعيد فى الخير .

ولنفترض أن معك مبلغا قليلا من المال وقابلت فقيرا مسكينا فآثرت أنت هذا الفقير على نفسك ، فأنت تفعل ذلك لتنال فى الآخرة ثوابا مضاعفا . إذن فقضية الدين هى أنانية عالية سامية ، لا أنانية حمقاء . ويوضح الله بعد ذلك حسن المآب بقوله سبحانه :

﴿ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (١٥) ﴾

وحين تسمع كلمة « أؤخبركم » فما نسمعه بعد ذلك كلام عادى ، أما عندما نسمع « أؤنبئكم » فما نسمعه بعدها هو خبر هائل لا يقال إلا فى الأحداث العظام ،

فلا يقول أحد لآخر : سأنبئك بأنك ستأكل كذا وكذا فى الغداء ، ولكن يقال « أنا أنبئك بأنك نلت جائزة كبرى » ، هذا فى المستوى البشرى فما بالنا بالله الخالق الأعلى ، ولذلك يقول الله الحق :

﴿ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ۝ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ۝ ﴾

(سورة النبأ)

إنه الأمر الذى يقلب كيان هذه الدنيا كلها ، فحين يقول الحق : « قل أؤنبئكم بخير من ذلكم » فمعنى ذلك أن الله يخبرنا بخير من هذه الأشياء ، ومن ذلك نعرف أن الله قد جعل هذه الأشياء مقياساً ، لماذا ؟

لأنه مقياس محس ، وأوضح لنا كيفية التصعيد فقال : « للذين اتقوا عند ربهم » ، والمؤمن هو من ينظر بثقة إلى كلمة « عند ربهم » أى الرب المتولى التربية والذى يتعهد المربى حتى يبلغه درجة الكمال المطلوب منه .

والعندية هنا هى عند الرب الأعلى . فماذا أعد المربى الأعلى للمتقين ؟ لقد أعد لهم « جنات تجرى من تحتها الأنهار » ولنر الخيرية فى هذه الجنات ، وهى تقابل فى الدنيا الحرث والزرع ، وقد قلنا : إن الحق حين تكلم عن الزرع تكلم واصفاً له بـ « الحرث » لنعرف أن الزرع يتطلب منا حركة وعملا .

أما فى الآخرة فالجنات جاهزة لا تتطلب من المؤمن حركة أو تعباً ، ولا يقف الأمر عند ذلك ، بل إن هذه الجنات تجر من تحتها الأنهار وفيها للإنسان المؤمن ما وعده الله به : « خالدين فيها وأزواج مطهرة » إنه الخلود الذى لا يفنى ، ولا يتركه الإنسان ولا يترك هو الإنسان .

والأزواج المطهرة هى وعد من الله للمؤمنين ، ومن يحب النساء فى الدنيا يعرف أن المرأة فى الدنيا يطرأ عليها أشياء قد تنفر ، إما خَلْقاً تكوينياً ، وإمَّا خُلُقاً ، فهناك وقت لا يحب الرجل أن يقرب فيه المرأة ، وقد يكون فيها خصلة من الخصال السيئة فيكره الإنسان جمالها .

لذلك فالرجل قد ينخدع بالمنظر الخارجى للمرأة فى الدنيا ، وقد يقع الإنسان فى هوى واحدة فيجد فيها خصلة تجعله يكرهها ، أما فى الآخرة فالأمر مختلف ، إنها « أزواج مطهرة » أى مطهرة من كل عيب يعيب نساء الدنيا ، فيأخذ المؤمن جمالها ، ولا يوجد فيها شرور الدنيا ، فقد طهرها الله منها .

« وأزواج مطهرة » من الذى طهرها ؟ إنه هو الله ـ سبحانه ـ طهرها خَلْقاً وَخُلُقاً . فالرجل فى الدنيا قد يهوى إمرأة ، وتستمر نضارتها خمسة عشر عاماً تستميله وتجذبه ، ثم تبدأ التجاعيد والترهل والتنافر . أما فى الآخرة فالمرأة مطهرة من كل شىء ، وتظل على نضارتها وجمالها إلى الأبد ، أليس هذا تصعيداً للخير ؟ ونلاحظ أن الحق سبحانه ذكر هنا أمرين :

الأمر الأول : هو جنات تجرى من تحتها الأنهار ، ونقارن بينها وبين الحرث فى الدنيا .

والأمر الآخر : هو الأزواج المطهرة ، ونقارن بينها وبين النساء فى الدنيا أيضا ، ولم يورد الحق أى شىء عن بقية الأشياء ، فأين القناطير المقنطرة من الذهب ؟ وأين الخيل ؟ وأين الأنعام وأين البنون ؟

إننا نلاحظ أن الحق سبحانه وتعالى جعل الأمرين المزينين ، واحداً يستهل به الآية ، والأمر الآخر يأتى فى آخر الآية ، ولنقرأ الآية التى فيها التزيين : « زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسوّمة والأنعام والحرث » .

إن البداية هى النساء ، ذلك هو القوس الأول ، والنهاية هى الحرث وذلك هو القوس الثانى ، وبين القوسين بقية الأشياء المزينة ، وقد أعطانا الله عوض القوسين ، وأوضح لنا إنهما هما الخير المُصَعَّد ، ولم يورد بقية الأشياء المزينة ، وهذا يعنى أن نفهم ذلك فى ضوء أن الرزق ما به انتُفِعَ ، أى أن كل ما ينتفع به الإنسان رزق ، الخُلق الطيب رزق ، سماع العلم رزق ، أدب الإنسان رزق ، حلم الإنسان رزق ، صدق الإنسان رزق ، لكن الرزق يأتى مرة مباشرا بحيث تنتفع به مباشرة ، ومرة أخرى يأتى الرزق لكنه لا ينفع مباشرة ، بل قد يكون سببا ووسيلة لما ينفع مباشرة .

مثال ذلك الخبز ، إنه رزق مباشر ، والنقود هى رزق ، لكنها رزق غير مباشر ؛ لأن الإنسان قد يكون جائعاً وعنده جبل من ذهب ، فلو قال واحد لهذا الإنسان : خذ رغيفا مقابل جبل الذهب . سيعطى الإنسان الجائع جبل الذهب مقابل الرغيف ؛ لأن الإنسان لا يأكل الذهب ، وكذلك كوب الماء بالنسبة للعطشان .

إذن فهناك رزق لا يطلب لذاته ، ولكن يطلبه الإنسان لأنه وسيلة لغيره،فالوسيلة لغيره أنت لن تحتاج إليها فى الآخرة ؛ لأنك ستعيش ببدل الأسباب بقول الحق : « كن » . فالإنسان لن يحتاج فى الجنة إلى مال . أو قناطير مقنطرة من الذهب والفضة ؛ لأن كل ما تشتهيه النفس ستجده ، ولن تحتاج فى الآخرة إلى خيل مسومة ؛ لأنك لن تجاهد عليها أو تتلذذ وتستأنس بركوبها .

وكل ما لا تحتاج إليه فى الآخرة من أشياء أعطاها لك الله فى الدنيا لتسعى بها فى الأسباب ، ولم يورده الله فى قوله : « قل أؤنبكم بخير من ذلكم للذين اتقوا عند ربهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله والله بصير بالعباد » لم يوردها فى النص الكريم ، لأن عطاء الله فى الآخرة بالرزق المباشر ، أما الأشياء التى يسعى بها الإنسان إلى الرزق المباشر فى الدنيا فلم يوردها لعدم الحاجة إليها فى الآخرة ، فنحن نحب المال ، لماذا ؟ . لأنه يحقق لنا شراء الأشياء ، والخيل المسومة نحبها ؛ لأنها تحقق لنا القدرة على القتال والجهاد فى سبيل الله . والأنعام ؛ لتحقق لنا المتعة .

أما الجنة فى الآخرة فالمؤمن يجد فيها كل ما تشتهيه الأنفس ، وكل ما يخطر ببال مَن يرزقه الله الجنةَ سوف يجده ؛ فالوسائط لا لزوم لها . لذلك تكلم الحق عن الأشياء المباشرة ، فأورد لنا ذكر الجنات التى تجرى من تحتها الأنهار ، وذكر لنا الأزواج المطهرة .

وعندما نتأمل قول الحق : « قل أؤنبئكم بخير من ذلكم » قد يقول قائل : ألم يَكن من المنطق أن يخبرنا الحق مباشرة بما يريد أن يخبرنا به ، بدلاً من أن يسألنا : أيخبرنا بهذا الخير ، أم لا ؟

ونقول : أنت لم تلتفت إلى التشويق بالأسلوب الجميل ، وحنان الله على خلقه . إنه سبحانه وتعالى يقول لنا : ألا تريدون أن أقول لكم على أشياء تفضل تلك الأشياء التي تسيركم في الدنيا . فكأن الحق سبحانه وتعالى قد نبه من لم ينتبه . ولم ينتظر الحق أن نقول له : قل لنا يارب .

لا ، إنه يقول لنا دون طلب منا ، ويقال عن هذا الأسلوب فى اللغة إنه « استفهام للتقرير » ، فالإنسان حين يسمع : « أؤنبئكم بخير من ذلكم » فالذهن ينشغل ، فإن لم يسمع النبأ ، فلسوف يظل الذهن مشغولاً بالنبأ ، ويأتى الجواب على اشتياق فيتمكن من نفس المؤمن .

ويأتى النبأ « للذين اتقوا » ، فعندما نمعن النظر فى الشهوات التى تقدمت من نساء وبنين وقناطير مقنطرة من ذهب وفضة وخيل مسومة وأنعام وحرث ، ألا يكون من المناسب فيها أن يتقى الإنسان ربه فى مجالها ؟

إن التقوى لله فى هذه الأشياء واجبة ، ولذلك قلنا من قبل قضية نرد بها على الذين يريدون أن يجعلوا الحياة زهداً وانحساراً عن الحركة ، وأن يوقفوا الحياة على العبادة فى أمور الصلاة والصوم ، وأن نترك كل شيء . لهؤلاء نقول : لا ؛ إن حركتك فى الحياة تعينك على التقوى ؛ لأننا عرفنا أن معنى التقوى هو أن يجعل الإنسان بينه وبين النار حجاباً ، أو أن تجعل بينك وبين غضب ربك وقاية . فإذا ما أخذت نعم الله لتصرفها فى ضوء منهج الله فهذا هو حسن استخدام النعم .

وقد أوضحت من قبل أن التقوى حين تأتى مرة فى قول الحق : « اتقوا الله » وتأتى مرة أخرى « اتقوا النار » فهما ملتقيان ؛ فاتقاء النار حتى لا يصاب الإنسان بأذى ، وعندما يتقى الإنسان الله فهو يتقى غضب الله ؛ لأن غضب الله يورد العذاب ، والعذاب من جنود النار . إذن فالذين يتقون الله لا يظنون أنهم زهدوا فى هذه الحياة لذات الزهد فيها ، ولكن للطمع فيما هو أعلى منها ، إنه الطمع فى النعيم الأخروى الدائم .

ويوضح الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك : أنكم لن تتمتعوا فى الآخرة لضرورة

الحاجة للمتعة ، بحيث إذا ما جاءت النعمة عليكم تفرحون بها ، إن الأمر لا يقتصر على ذلك وإنما يتعداه إلى أنكم ـ أيها المؤمنون ـ تحبون فقط أن تروا المنعم ، فمادام المؤمن الذى يدخل الجنة يجد كل ما يشتهى بل إنه لا يشتهى شيئا حتى يأتيه ، ويستمتع على قدر عطاء الله وقدراته .

وإذا لم يشته الإنسان ثماراً فى الجنة أو نساء ، ويصبح مشغولاً برؤية ربه فإن مكانه جنة من الجنان اسمها « عليّون » و« عليّون » هذه ليس فيها شىء مما تسمعه عن الجنة ، ليس فيها إلا أن تلقى الله . إنّ الرزق والنعم ليسا من أجل قوام الحياة فى الجنة ، بل إن الإنسان سيكون له الخلود فيها ؛ فالذى يحتاج إليه الإنسان هو رضوان من الله .

إن رُضواناً من الله أكبر من كل شىء . ولقد نبأنا الله بما فى الجنات ، ونبأنا بالخير من كل ذلك . لقد نبأنا الله بأن رضوانه الأكبر هو أن يضمن المؤمن أنْ يظفر برؤية ربّه . وهذا ما يقول فيه الله .

﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ ﴾

(سورة القيامة)

إذن فهناك فى الجنة مراتب ارتقائية . ويخبرنا الحق من بعد ذلك : « والله بصير بالعباد » أى أن الله سيعطى كل إنسان على قدر موقفه من منهج ربه ، فمن أطاع الله رغبة فى النعيم بالجنة يأخذ جنة الله ، ومن أطاع الله لأن ذات الله أهل لأن تطاع فإن الله يعطيه متعة ولذة النظر إليه ـ سبحانه ـ تقول رابعة العدوية فى هذا المعنى:

كلهم يعبدون من خوف نار
ويرون النجاة حظا جزيلاً
إننى لست مثلهم ولهذا
لست أبغى بمن أحب بديلا

وقالت أيضاً : اللهم إن كنت تعلم أنى أعبدك خوفاً من نارك فادخلنى فيها ، وإن كنت تعلم أنى أعبدك طمعاً فى جنتك فاحرمنى منها ، إنما أعبدك لأنك تستحق أن تُعبد .

إذن فـ « الله بصير بالعباد » أى أنه سيعطى كل عبد على قدر حركته ونيته فى الحركة ؛ فالذى أحب ما عند الله من النعمة فليأخذ النعمة ويفيضها الله عليه . أما الذى أحب الله وإن سلب منه النعمة ، فإن الله يعطيه العطاء الأوفى ، وذلك هو مجال مباهاة الله لملائكته . . ومن أقوى دلائل الإيمان وكماله . . إيثار محبة الله ورسوله على كل شىء فى الوجود :

عن أنس رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان : مَنْ كان الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما ، وأن يحبَّ المرءَ لا يحبه إلا الله ، وأن يكره أن يعود فى الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يُقذف فى النار »[1] . إن هناك العبد الذى يحب الله لذاته ؛ لأن ذاته سبحانه تستحق أن تعبد ، فذات الله تستحق العبادة ؛ لأنه الوهاب ، الذى نظم لنا هذا الكون الجميل .

إذن فقوله الحق : « والله بصير بالعباد » يعنى أن الله يعلم مقدار ما يستحق كل عابد لربه ، وعلى مقدار حركته ونيته فى ربه يكون الجزاء ، فمن عبد الله للنعمة أعطاه الله النعمة المرجوة فى الجنة ليأخذها ، ومن أطاع الله لأنه أهل لأن يطاع وإن أُخذت ـ بضم الألف وكسر الخاء ـ النعمة منه فإن الله يعطيه مكاناً فى عليين .

ولذلك قيل : إن أشد الناس بلاء هم الأنبياء ، ثم الأولياء ، ثم الأمثل فالأمثل . لماذا ؟ لأن ذلك دليل صدق المحبة . والإنسان عادة يحب من يحسن إليه ، ولا يحب من تأتى منه الإساءة إلا إن كانت له منزلة عالية كبيرة . إنه مطمئن إلى حكمته ، إنه ابتلاه ـ وهو يعلم صبره ـ ليعطيه ثوابا جزيلا وأجرا كبيرا ، والحق يقول :

﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَـٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾ ﴾

(سورة الكهف)

لقد قال : « فمن كان يرجو لقاء ربه » ولم يقل جنة ربه وهكذا يجب ألا تشغلنا النعمة ـ الجنة ـ عن المنعم وهو الله سبحانه وتعالى ، وإذا كان الحق قد طلب منا ألا نشرك بعبادة ربنا أحداً فلنعلم أن الجنة أَحَدٌ .

---

(١) رواه مسلم والبخارى .

وبعد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾ ﴾

إن قولهم : « ربنا إننا آمنا » هو أول مرتبة للدخول على باب الله ، فكأن الإيمان بالله يتطلب رعاية من الذى تلقى التكليف لحركة نفسه ، لأن الإيمان له حق يقتضى ذلك ، كأن المؤمن يقول : أنا ببشريتى لا أستطيع أن أوفى بحق الإيمان بك ، فيارب اغفر لى ما حدث لى فيه من غفلة ، أو من زلة ، أو من كبر ، أو من نزوة نفس .

وهذا الدعاء دليل على أنه عرف مطلوب الإيمان كما أوضحه لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بيانه لمعنى الإحسان حين قال :

« الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك »[1] .

كأنك تستحضر الله فى كل عمل ، لأنه يراك .

وهل يتأتى لواحد من البشر أن يجترىء على محارم من يراه بعينه ؟ حينئذ يستحضر المؤمن ما جاء إلينا من مأثور القول ، فكأنه سبحانه وتعالى يوجه إلينا الحديث : يا عبادى إن كنتم تعتقدون أنى لا أراكم ، فالخلل فى إيمانكم . وإن كنتم تعتقدون أنى أراكم فلم جعلتمونى أهون الناظرين إليكم ؟

وكأن الحق سبحانه يقول للعبد : هل أنا أقل من عبيدى ؟ أتقدر أن تسىء إلى أحد وهو يراك ؟ إذن فكيف تجرؤ على الإساءة لخالقك ؟

إن قول المؤمنين : « إننا آمنا فاغفر لنا » دليل على أنهم علموا أن الإيمان مطلوباته صعبة . « الذين يقولون ربنا إننا آمنا فاغفر لنا ذنوبنا » .

(١) رواه مسلم وأبو داود والترمذى والنسائى .

فلنر على ماذا رتبوا غفران الذنب ؟ لقد رتبوا طلب غفران الذنب على الإيمان . لماذا ؟ لإنه مادام الحق سبحانه وتعالى قد شرع التوبة ، وشرع المغفرة للذنب ، فهذا معناه أنه سبحانه قد علم أزلا أن عباده قد تخونهم نفوسهم ، فينحرفون عن منهج الله .

ويختم الحق سبحانه الآية بقوله على ألسنة المؤمنين : « وقنا عذاب النار » لأنه ساعة أن أعلم أن الحق سبحانه وتعالى ضمن لى بواسع مغفرته أن يستر علىّ الذنب ، فإن العبد قد يخجل من ارتكاب الذنب ، أو يسرع بالاستغفار .

ولماذا لا يكون قوله : « فاغفر لنا ذنوبنا » بمعنى استرها يارب عنا فلا تأتى لنا أبدا ؟ وإن جاءت فهى محل الاستغفار والتوبة . فإذا أذنبت ذنبا ، واستغفرت ربى ، وعلمت أن ربى قد أذن بالمغفرة ؛ لأنه قال :

﴿ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴾

(من الآية ١٠ من سورة نوح)

فإن الوجل يمتنع ، والخوف يذهب عنى ، وأقبل على الله بمحبة على تكاليفه وأحمل نفسى على تطبيق منهج الله كله . ولذلك حينما شرع الحق سبحانه وتعالى للخلق التوبة كان ذلك رحمة أخرى . وهذه الرحمة الأخرى تتجلى فى المقابل والنقيض .

هب أن الله لم يشرع التوبة وأذنب واحد ذنبا ، وبمجرد أن أذنب ذنبا خرج من رحمة الله ، فماذا يصيب المجتمع منه ؟ إن كل الشرور تصيب المجتمع من هذا الإنسان لأنه فقد الأمل فى نفسه ، أما حينما يفتح الله له باب التوبة فإن ارتكب العبد ذنبا ساهيا عن دينه ، فإنه يرجع إلى ربه .

وتلك واقعية الدين الإسلامى ، فليس الدين مجرد كلام يقال ، ولكنه دين يقدر الواقع البشرى ، فإنه ـ سبحانه ـ يعلم أن العباد سيرتكبون الذنوب ، فيرسم لهم أيضا طريق الاستغفار . وإذا ما ارتكب العباد ذنوبا ، فإن الحق يطلب منهم أن يتوبوا عنها . وأن يستغفروا الله . فإذا ما لذعتهم التوبة حينما يتذكرون الذنب فإن هذه اللذعة كلها لذعتهم أعطاهم الله حسنة .

كأن غفران الذنب شيء ، والوقاية من النار شيء آخر . كيف ؟ لأنه ساعة أن يعلم العبد أن الحق سبحانه وتعالى ضمن للعبد مغفرته ، وهو الخالق المربى ، فإن العبد يذهب إلى الله مستغفرا طامعا فى المغفرة والرحمة . إنها دعوة المؤمنين إن كانوا قد نسوا أن يستغفروا لأنفسهم . لماذا ؟ لأن الاستغفار من الذنب تكليف من الله . وكما قلنا : إن الإنسان قد ينسى بعضا من التكاليف ، لذلك فمن الممكن أن يسهو عن الاستغفار ، ولذا يقول الحق على ألسنة عباده المؤمنين : «وقنا عذاب النار» .

ومعنى التقوى أن تجعل بينك وبين النار وقاية ، أو تجعل بينك وبين غضب ربك وقاية ، فإذا ما أخذت النعم من الله لتصرفها فى منهج الله تكون حسنة لك ، وقلنا : إن « اتقوا الله » و« اتقوا النار » ملتقيتان ، لأن معنى « اتقوا النار » كى لا تصيبكم بأذى ، « واتقوا الله » تعنى أن نضع بيننا وبين غضب الله وقاية ، لأن غضب الله سيأتى .

وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ ٱلصَّـٰبِرِينَ وَٱلصَّـٰدِقِينَ وَٱلْقَـٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾ ﴾

وهذه كلها صفات للذين اتقوا الله ، وأعد الله لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ، والأزواج المطهرة ، ورضوان من الله أكبر ، وهم صابرون وصادقون وقانتون ومنفقون فى سبيل الله ، ومستغفرون بالأسحار .

وصابرون على ماذا ؟ إنهم صابرون على تنفيذ تكاليف الله ، لأننا أول ما نسمع عن التكليف فلنعلم أن فيه كلفة ومشقة ، والتكاليف الشرعية فيها مشقة لأنها قيدت حرية العبد .

لقد خلقك الحق خلقا صالحا لأن تفعل كذا وألا تفعل . فساعة يقول لك :

افعل . . فإنه قد سد عليك باب « لا تفعل » وساعة يقول لك الحق : لا تفعل فإنه يكون قد سد عليك باب « افعل » ، وهكذا يكون تقييد حركتك وتقييد المخلوق على هيئة الاختيار فيه مشقة ، فإذا ما جاء أمر الله بـ « افعل » فقد يكون الفعل فى ذاته شاقا ، فإن صبرت على مشقة الفعل الذى جاء بوساطة « افعل » فأنت صابر ، لأنك صبرت على الطاعة . . وقد تصبر عن المعصية ، عندما يلح عليك شىء فيه غضب الله فترفض أن ترتكب الذنب ، فتكون قد صبرت عن ارتكاب الذنب .

إذن ففى « افعل » صبر على مشقتها ، وفى « لا تفعل » صبر عنها ، فالصابرون لهم اتجاهان اثنان ، لأن التكليف إما أن يكون بافعل ، وإما أن يكون بلا تفعل . فساعة يأتى التكليف بافعل فقد تأتى المشقة . . وعندما تنفذ التكليف بافعل فأنت قد صبرت على المشقة . . وعندما يأتى التكليف بـ « لا تفعل » كأمر الحق بعدم شرب الخمر ، أو « لا تسرق » فأنت قد صبرت عنها . . إذن فـ «افعل » ولا « تفعل » قد استوعبت نَوْعَىْ التكليف ، وبقيت بعد ذلك أحداث لا تدخل فى نطاق افعل ولا تفعل ، وهى ما ينزل عليك نزولا قدريا بدون اختيار منك بل هى القهرية والقسرية .

فساعة أن يطلب الله منك أن تفعل ، أى إنه قد خلقك صالحا ألا تفعل كما قلنا من قبل . إلاّ إن كنت مجبرا على الفعل فقط . وكذلك إذا قال لك الحق : « لا تفعل » . والشىء القدرى الذى لا صلاحية فيه للاختيار ماذا يفعل فيه المؤمن ؟ إنه يصبر على الآلام والمتاعب لأنه آمن بالله ربا ، والرب هو الذى يتولى تربية المربى لبلوغه حد الكمال المنشود له فإذا جاء لك الحق بأمر لا خيار لك فيه ، كالمرض أو الكوارث الطارئة ، كوقوع حجر من أعلى أو إصابة برصاصة طائشة ، فكل ذلك هى أمور لا دخل لـ « افعل » ولا « تفعل » فيها .

وهنا يكون الصبر على مثل هذه الأمور هو إيمان بحكمة من أجراها عليك . لأن الذى أجراها رب ، وهو الذى خلقنى فأنا صنعته . وما رأينا أحدا يفسد صنعته أبدا . فإذا ما جاء أمر على الإنسان بدون اختيار منه ، فالذى أجراه له فيه حكمة ، فإن صبر الإنسان على هذه الآلام فإنه يدخل فى باب الصابرين .

إذن ، فالصابرون أنواع هم : صابر على الطاعة ومشاقها ، صابرٌ عن المعاصى

ومغرياتها ، وصابر على الأحداث القدرية التى تنزل عليه بدون اختيار منه . وإذا رأيت إنسانا قد صبر على أمر الطاعة وصبر عن شهوة المعصية وصبر على الأقدار النازلة به ، فاعرف حبه لربه ورضاه عنه .

ونأتى بعد ذلك لوصف آخر يقول الله فيه : « الصابرين » « والصادقين » .

والصدق كما نعلم يقابله الكذب ، والصدق كما نعرف حقيقته : يأتى حين توافق النسبة الكلامية التى يتكلم بها الإنسان ، النسبة الأخرى الخارجية الواقعة فى الكون .

فإن قلت : « حصل كذا وكذا » فتلك نسبة كلامية صدرت من متكلم ، فإن وافقها الواقع بأنه حصل كذا وكذا فعلا يكون المتكلم صادقا . وإن لم يكن الواقع موافقا لحدوث ما أخبر به يكون المتكلم كاذبا . لماذا ؟ لأن كلام المتكلم العاقل لابد له من نسب ثلاث :

الأولى وهى النسبة الذهنية : فقبل أن أتكلم أعرض الأمر على ذهنى ، وذهنى هو الذى يعطى الإشارة للسانى ليتكلم ، هذه هى النسبة الأولى واسمها « نسبة الذهن » . وقد يعن لى أن تأتى النسبة الذهنية ثم أعدل عنها فلا أتكلم ، فتكون النسبة الذهنية قد وُجِدَت ، والنسبة الكلامية لم توجد .

وقد أصر على أن أبرز إشارة ذهنى على لسانى فأقول النسبة الكلامية . ونأتى بعد النسبة الكلامية لنرى : هل الواقع أن ما حدث وتحدثت به وقع أم لم يقع ؟ فإن كان قد وقع ، يكون الكلام منى صدقا . وإن لم يكن قد وقع ، وكانت النسبة الخارجية على عكس ما أخبرت به . فإننا نقول : « هذا كلام كذب » إذن : فالصدق : هو أن تطابق النسبة الكلامية الواقع . والكذب : هو ألا تطابق النسبة الكلامية الواقع . وكثيرا ما يخطىء الناس فى فهم الواقع فيجدون تناقضا فى بعض الأساليب .

مثال ذلك ، حينما تعرض بعض المستشرقين لقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْـهَدُ إِنَّكَ لَرَسُـولُ ٱللَّهِ ﴾

(من الآية ١ من سورة المنافقون)

تلك نسبة كلامية صدرت منهم ، فهل هى مطابقة للواقع أم هى مخالفة له ؟

إنها مطابقة للواقع . ويؤكد الحق ذلك بقوله :

﴿ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ ﴾

(من الآية الأولى من سورة المنافقون)

وبعد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴾

(من الآية الأولى من سورة المنافقون)

ففيم كذب المنافقون ؟ هل كذبوا فى قولهم : « إنك لرسول الله » ؟ لا . إن الحق لم يكذبهم فى قولهم : « إنك لرسول الله » ، لأن الله قد أيد هذه الحقيقة بقوله : « والله يعلم إنك لرسوله » .

ولكن كذبهم الله فيما سها عنه المستشرق الناقد عندما قالوا : « نشهد إنك لرسول الله » . لقد كذبهم الله فى شهادتهم ، لا فى المشهود به ، وهو أن محمدا صلى الله عليه وسلم رسول من الله ، إن الله يعلم أن محمدا رسوله المبعوث منه رحمة للعالمين ، لكن الكذب كان فى شهادتهم هم .

إن كلام المنافقين مردود من الله . لماذا ؟ لأن الشهادة تعنى أن يواطئ اللسان القلب ويوافقه . وقولهم : شهادة لا توافق قلوبهم وتعنى كذبهم .

إذن ، فالتكذيب هو لشهادتهم ، فلو قالوا : « إنك لرسول الله » دون « نشهد » لكان قولهم : قضية « سليمة » . ولذلك كان تكذيب الله لشهادتهم ، ومن هنا ندرك السر فى قول الله : « والله يعلم إنك لرسوله » . إن الحق يؤكد الأمر المشهود به وهو بعث محمد رسولا من عند الحق ، وبعد ذلك يأتى لنا الحق بشهادته إن المنافقين كاذبون فى قولهم : « نشهد » . فالصدق أن تطابق النسبة الكلامية الواقع . والصدق ـ كما قلنا من قبل ـ حق ، والحق لا يتعدد ، وضربت من قبل المثل بأن الإنسان الذى نطلب منه

أن يروى واقعة شهدها بعينيه ، وأن يحكيها بصدق لن يتغير كلامه أبدا ، مهما تكرر القول ؛ أو عدد مرات الشهادة . لكن إن كانت الواقعة كذبا ، فالراوى تختلط عليه أكاذيبه ، فيروى الواقعة بألوان متعددة لا اتساق فيها ، وقد ينسى الراوى الكاذب ماذا قال فى المرة الأولى ، وهكذا ينكشف سر الكذب . لكن الراوى عن واقع مشهود وبصدق ، هو الذى يحكى ، وهو الذى لا تختلف رواياته فى كل مرة عن سابقتها بل تتطابق .

فعندما نقول : « إن زيدا مجتهد » ، فهذا يعنى أن اجتهاد زيد قد حدث أولا ، ثم يأتى فى ذهن من رأى اجتهاد زيد أن يخبر بأمر اجتهاده ، ثم يخبر بالكلام عن اجتهاد زيد . إن الأمر الخارج وهو اجتهاد زيد قد حدث أولا ، وبعد ذلك تأتى النسبة الذهنية ، وبعد ذلك تأتى النسبة الكلامية .

ولكن الإنشاء وهو ضد الخبر ، هو أن نطلب من واحد أن ينشىء أمرا لا واقع له ، كأن نقول لواحد : اجتهد . إننا قبل أن نقول لإنسان ما : « اجتهد » فمعنى ذلك أن الاجتهاد كان أمرا فى ذهن القائل ، وعندما ينطقها تصبح « نسبة كلامية » . وبعد ذلك يحدث الواقع ، بعد النسبة الذهنية ، والنسبة الكلامية ، وهذا هو الإنشاء .

إن الإنشاء الطلبى يعنى أن تحدث النسبة الخارجية بعد النسبة الكلامية . والصادقون هم الذين أراد الله أن يمدحهم ، لماذا ؟ وأين هو مجال صدقهم ؟ إنهم الذين تتطابق حركتهم مع منهج الله ، لأنهم حين قالوا : « لا إله إلا الله » ، وآمنوا به ، فهم قد التزموا بكل مطلوبات الإيمان قدر الطاقة . ومعنى « لا إله إلا الله » أى لا معبود إلا الله . ومعنى لا معبود إلا الله أى أنه لا طاعة إلا لله .

والطاعة ـ كما نعرف ـ هى امتثال أمر ، وامتثال نهى . إذن فمجال « لا إله إلا الله » يشمل أنه لا معبود بحق إلا الله ، ولا مُطاع فى تكليفه إلا الله ، ولا امتثال لأمر أو لنهى إلا للأمر القادم من الله ؛ فإن امتثل إنسان الأمر من الله بعد قوله : « لا إله إلا الله » كان هذا الإنسان صادقا فى قوله : « لا إله إلا الله » .

وهذا هو صدق القمة ، أن تكون كل تصرفات قائل : « لا إله إلا الله » متطابقة

مع هذا القول . والمؤمن الحق هو من يبنى كل تصرفاته موافقة لمنهج الله . هذا هو الإنسان الصادق . أما الذى يقول بلسانه : « لا إله إلا الله ، لا معبود بحق إلا الله » ثم يخالف ربه بعصيانه له ، لنا أن نقول له : أنت كاذب فى قولك « لا إله إلا الله » لماذا ؟ لأنه لم يطابق النسبة التى قالها . إن هذا الإنسان إذا آمن بأى تكليف ثم فعل ما يناقضه قلنا له : أنت منافق ، لماذا ؟ لأننا عندما تكلمنا فى أول سورة البقرة عن المنافقين قلنا : إن المؤمن حين يؤمن بالله يكون صادقا مع نفسه ، لأنه قال : « لا إله إلا الله » وهو مؤمن بها ، والكافر حين ينكر الألوهية يكون صادقا مع نفسه أيضا .

أما المنافق فهو لا يصدق مع نفسه ، ولا يصدق مع الناس ، إنه مذبذب بين هؤلاء وهؤلاء . إن المنافق بلا صدق مع النفس ، ولذلك يصفهم الحق :

﴿ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾

(من الآية ١٤٣ من سورة النساء)

إن الكافر له صدق مع النفس فهو لا يقول : « لا إله إلا الله » لأنه لا يعتقدها . أما المنافق فقد قال : « لا إله إلا الله » وهى غير مطابقة لسلوكه ، لذلك يكون غير صادق مع نفسه ، وغير صادق مع ربه . إذن ، فقول الحق : « الصادقين » مقصود به هؤلاء الناس الذين يأتون فى كل حركاتهم صادرين عن منهج الله ، فلا يؤمنون بقضية ، ويفعلون أخرى . ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٣ ﴾

(سورة الصف)

أى أنه حين يكون القول شيئا مختلفا عن الفعل ، لا تتطابق النسبة . فالصادقون هم الذين يصدقون فى سلوكهم مع كلمة التوحيد فى كل ما تتطلبه هذه الكلمة من هذه السلسلة : « لا إله إلا الله لا معبود بحق إلا الله » أى لا مطاع فى أمر أو نهى إلا الله ، فإن جئت وطاوعت أحدا فى غير ما شرع الله يحق للمؤمنين أن يقولوا لك : أنت كاذب فى قولك : « لا إله إلا الله » .

« فعن أبي هريرة رضي الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن »[1] .

هذا هو سمو الإيمان عند المؤمن ، إن المؤمن لا يمكن أن يكذب أو يخالف مقتضيات عقيدته ؛ لأن المؤمن فى كل تصرفاته خاضع لإيمانه بأنه لا إله إلا الله .

ثم يقول الحق : « والقانتين » والقانت : هو العابد بخشوع وباطمئنان وباستدامة . والقانت صادق مع نفسه ، لماذا ؟ لأن الحق سبحانه وتعالى حين يكلف عباده تكليفا ، فقد يكلفهم بشىء يعز على أفهامهم أن تدرك حكمته .

وأقبل القانتون من العباد على هذا التكليف ؛ لأن الذى أمرهم به إله قادر ، فهم يثقون فى حكمته فأدّوا الأمر الصادر إليهم لأنهم خاضعون لحكمة الله .

إنهم منفذون للأمر القادم من الآمر لا لعلة الأمر . وبعد أن يصنعوا ذلك ؛ يريهم الله نورانية هذا الحكم بأن يعطيهم فرقانا فى أنفسهم :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾ ﴾

(سورة الأنفال)

فيقول المؤمن منهم لنفسه بعد أن يرى هذا الفرقان : إن الله قد أراد لى بهذا الأمر أن أدرك حلاوة طاعة هذا الأمر ، ولذلك قال أحد العارفين بالله :

إن كنت تريد أن تعلم عن الله حكما كلفك الله به دون أن تعلم علته فاتق الله فيه ، وحين تتقى الله فى هذا الأمر ، فإنك تجد الحكمة مستنيرة فى ذهنك ، ولذلك يقول الله :

---

(١) رواه البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه وأحمد .

﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾

(من الآية ٢٨٢ من سورة البقرة)

فكأنك قبل التقوى لم يعلمك الله ، أما بعد التقوى فإن الله يعلمك ، فتقبل على تنفيذ التكليف لتلمس إشارة فى نورانية نفسك ، وهذا هو الفارق بين الأمر من المساوى ، والأمر من الأعلى . وعندما ترتقى كلمة « الأعلى » ، فإنها لا تنطبق إلا على الأعلى المطلق وهو الله ، إنه الأعلى فى الحكمة ، والأعلى فى المنزلة،والأعلى فى المكانة ، والأعلى فى الربوبية .

إذن ، فالإنسان لا يطلب علة حكم إلا من مساو له ، فإن قال لك أحد من البشر : افعل الشيء الفلانى . فإنك تسأله : لماذا ؟ فإن أقنعك ، فأنت تقوم بالفعل . وتكون قد قمت بتنفيذ هذا الفعل ؛ لأن المساوى لك قد أقنعك بالحكمة لا بالطاعة له .

ولكن عندما يصدر الأمر من الأعلى وهو الحق سبحانه وتعالى ، فإنك أيها العبد المؤمن تنفذ الأمر فورا عشقا فى طاعته . والمثال الذى أضربه للتقريب لا للتشبيه ، فالله الأعلى ، وهو منزه عن كل شبيه ، إن الأب يقول للابن فى حياتنا اليومية : إن نجحت فى المدرسة فسأحضر لك هدية هى الدُّراجة.فهل معنى ذلك أن علة الذهاب إلى المدرسة هى الحصول على الدراجة كهدية ؟ لا ، ليست هذه هى العلة ، إن العلة عند الأب هى أن يتعلم الابن ويتفوق فى حياته ، ويكبر ، وعند ذلك يدرك العلة ، ويقول لنفسه : لقد كان أبى على حق .

إذا كان هذا يحدث فى الحياة بيننا نحن البشر ، فكيف لنا بطاعة الأمر الصادر من الله ؟ إن الحق سبحانه وتعالى حين يكلف العبد تكليفاً ، فإن العبد قد يجد مشقة فى فهم العلة . والعبد المؤمن يعرف أن الرضوخ لتكليف الحق إنما هو خضوع للأمر الأعلى .

إن العبد المؤمن يعرف أنه آمن بمن هو أعلى منه وأعلى من كل كائن ، ولا يساويه أحد ، إن العبد المؤمن يعرف أنه آمن أولا بأن الله هو الإله الواحد ـ سبحانه ـ له مطلق

الحكمة ، وله القوة وله كل شيء فى الكون ، وسبق أن ضربت المثل ـ ولله المثل الأعلى .

إن الإنسان قد يمرض ، وصحة الإنسان أثمن شيء عنده ، فيفكر فى الذهاب إلى طبيب ، ويقول له : إننى أتعب من معدتى ، أو من قلبى أو من أمعائى . إنه يحدد ما يشكو منه . وعقل الإنسان هو الذى هداه إلى الطبيب الذى يشخص العلة ، وبعد ذلك يأخذ المريض من الطبيب ورقة مكتوبًا فيها الأدوية اللازمة . إن الإنسان يتناول كل دواء من هذه الأدوية دون أن يسأل الطبيب عن حكمة كل دواء ، لأنه لو سأل عن ذلك فهذا معناه الدخول فى متاهة كيماوية ، فإن سأل أى إنسان ذلك المريض : لماذا تأخذ هذا الدواء ؟ فيجيب المريض : لأن الذى كتب لى هذا الدواء هو الطبيب المختص بعلاج المعدة ، أو القلب ، أو الأمعاء أو أى عضو يشكو منه الإنسان .

والطبيب قد يخطىء ، إنما حكم الله لا يخطىء أبدا ، فهو جل شأنه منزه عن الخطأ تماما . إن الحكمة تكون عند الحق سبحانه وتعالى ، وعندما ينفذ المؤمن مطلوب الله فإنه يدرك آثار الحكمة الربانية فى نفسه . وكلمة « قانتين » كما عرفنا هى وصف لمن يعيشون القنوت ، والقنوت هو عبادة مع خضوع ، وخشوع واستدامة . لماذا الخضوع ، والخشوع ؟

لأن الله جل وعلا لم يشرع العبادة لينفذها الإنسان ، وينقذ نفسه من عذاب النار ، لا ؛ إننا نرى كثيرا من الناس ـ إذا ما لاحظنا واقع الحياة ـ إذا وجدوا رئيسا قوى الشكيمة وقوانينه صارمة فى أن الموظفين تحت يده يجب أن يحضروا صباحا فى الميعاد المحدد ، وأن ينصرفوا فى الميعاد المحدد ، ولا يسمح لهم بالاشتغال بغير العمل ، فلا يشربون الشاى ، ولا يقرأون الصحف ولا يقابلون الأصدقاء ، وغير ذلك من الأعمال . ويأتى واحد من الموظفين فيقول عن هذا الرئيس « إنه شديد المراس ، ولذلك فليس له عندى إلا أن أحضر فى الثامنة إلا خمس دقائق ، ولن أنصرف إلا فى الثانية وخمس دقائق ، ولن أقرأ الصحف ولن أفعل أى شيء مما يمنعه » . إن هذا الموظف يفعل ذلك بجبروت واستعلاء على رئيسه حتى لا يسمح له بنقد أو تجريح ، فهذا الموظف ممتثل ولكن باستعلاء .

إنها طاعة بلا حب ، ولكنها باستعلاء . وقد يحاول عبد أن يقول : ماذا يطلب الله منى ؟ ألا يطلب منى الصلاة والزكاة وإقامة العبادات ؟ سوف أفعل ذلك . لمثل هذا العبد نقول : لا ، إن الله يطلب العبادة بحب منك وخشوع واطمئنان ، لأن التكليف من الحق صدقة أخرى أجراها الله على العبد . إن الحق سبحانه وتعالى قد كلف العبد بالتكاليف الإيمانية ، حتى يكون الإنسان سويا وله قيمة فى الحياة .

إن معنى « قانت » هو العبد الذى يؤدى عبادة ربه بخشوع ، وباطمئنان ، وباستدامة . لماذا ؟ لأن الذى يقبل على الطاعة ثم ينصرف عنها كأنه قد جرب وده لله فلم يجد الله أهلا للود . أما العبد الطائع فهو لا ينصرف عن العبادة ، لأنه ذاق حلاوة استدامة العبادة لله ، ومادام قد أدرك حلاوة العبادة فهو يقبل عليها بخشوع ، واطمئنان ، واستدامة ، ويدخل فى دائرة القانتين .

وبعد « القانتين » يقول الله سبحانه : « والمنفقين » وكلمة أنفق و« نفق » ، مأخوذة من كلمة « نفق الحمار » أى مات ، و« نفقت السوق » أى انتهت بضائعها واشتراها الناس ولم يبق منها شىء . و« نفقة » مأخوذة من هذا المعنى لتشعرنا بأن الإنسان حين ينفق فهو يميت ما أنفقه من نفسه ، فلا يتذكر أنه أنفق على فلان كذا ، وعلى علان كذا ، أى يعلم يقينا أن ما أنفقه هو رزق من أنفقه عليهم وليس له إلا أجر إيصاله إليهم فلا مَنّ ، ولا إذلال .

إن الله يريد من كل إنسان يُخرج شيئا من ماله أن ينهى من ذهنه هذا الشىء الذى خرج من المال فلا يذكره ولا يَمُنّ به على أحد . « والنفقة » ، تقتضى وجود منفِق ، ومنفقا عليه ، ومنفقًا به ، المنفق كما نعرف هو المؤمن الذى عنده فضل مال ، والمنفَق عليه هو الفقير ، والمنفَق به هو الخيرات .

ومن أين تأتى هذه الخيرات ؟ إنها تأتى نتيجة الحركة فى الحياة ، وحركة المتحرك فى الحياة تقتضى قدرة ، فإذا كان الإنسان عاجزا ، ولا يجد القدرة على الحركة ، فمن أين يعيش ؟ إن الله لابد أن يضمن له فى حركة القادر ما يعوله .

لقد جعل الله القدرة عرضا من أعراض الحياة ، فالقادر اليوم قد يصير عاجزا غدا . ومادامت القدرة عرضا من أعراض الحياة ، فالقادر الآن عندما يسمع الأمر

من الله بأن ينفق على غير القادر ، فلابد أن يُقدر فى نفسه أن قدرته هى عرض من أعراض الحياة ، والقادر الآن من الأغيار ، لذلك فهو عرضة لأن يصير غدا من العاجزين ، ويقول القادر لنفسه : « عندما أصبح عاجزا سوف أجد من يعطينى » . أليس ذلك هو التأمين الحق ؟ إنه تأمين المؤمن . إن المؤمن يعطى عند قدرته ، وذلك حتى يجنبه الله مشقة السؤال إن جاءت الأغيار ، لأن الأغيار إن جاءت سوف يجد من يعطيه .

إننا يجب أن نلحظ فى الحكم ، لا ساعة أن تطالب أنت بأداء مطلوب الحكم ، ولكن ساعة أن يؤدى الغير إليك مطلوب الحكم . فالذى يطلب منه أن ينفق ، عليه أن يقدر أنه قد يصبح عاجزا ، ولنا أن نسأله : لو كنت عاجزا ألم تكن تحب أن يعطيك الناس دون مَنٍّ أو أذى ؟

إن هذا هو التأمين الحق ، لأنَّ التأمين فى يد الله ، ومادامت الأغيار عرضة لأن يصير القادر عاجزا ويصير العاجز قادرا ، فساعة ينفق المنفق يجب عليه أن يميت أنه أنفق فلا يتذكر وجه من أنفق عليه ، ولا يخبَر أحدا بما أنفق .

عد الرسول صلى الله عليه وسلم الرجل الذى أنفق حتى لا تعلم شماله ما صنعت يمينه من السبعة الذين يظلهم الله فى ظله فقال : (سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله ، إمام عادل ، وشاب نشأ فى عبادة الله ، ورجل قلبه معلق بالمسجد إذا خرج منه حتى يعود إليه ، ورجلان تحابا فى الله فاجتمعا على ذلك وافترقا عليه ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه ، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال إنى أخاف الله رب العالمين ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه)[1] .

وبعد ذلك على المؤمن المنفق أن يُقدر ساعة عطائه أنه ادّخر ليأخذ ، إما أن يأخذ إن طرأت له الأغيار فى الدنيا ، وإما أن يأخذ من يد الله فى الآخرة أضعافا مضاعفة . إذن ، فالمنفق هو الذى يُؤَمِّنُ لغير القادر حركته فى الحياة ضمانا لنفسه حين لا يقدر ؛ أو استثمارا مضاعفا عند الله ، وهؤلاء المنفقون الذين يَسْعُونَ العاجزين بفضل ما لديهم ، يظهرون حكمة الله فى الوجود ، لأن الله مادام قد خلقنا ، وفينا

(١) رواه البخارى ومسلم والترمذى والنسائى وأحمد .

القادر ، وفينا العاجز ، فقد أراد الله لنا أن نعرف أن القدرة ليست لازمة فى الخلق . فإن قدرت الآن فقد تُسلب ـ بضم التاء ـ منك هذه القدرة ، ومادامت القدرة يتم سلبها ، فلابد أن يتمسك المؤمن بالقيوم الذى يقيم القدرة لك أيها المؤمن دائما ، وذلك حتى يعرف الواحد منا أنه لم ينفلت من ربه ، خلقنا قادرين وانتهت المسألة . لا . إنّ القدرة أغيار تذهب وتجيىء . ومادامت الأغيار تذهب وتجيىء فلابد أن يضع المؤمن نصب عينيه عطاء القادر الأعلى .

وقلنا سابقا : إن الله جعل المنفقين وصفا من أوصاف الذين اتقوا ، والذين أعد الله لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ، وذلك حتى يحمى الله الضعيف الذى خلقه الله لحكمة فى الوجود . إن الإنفاق ليس أخذا من العبد ، إنما هو مناولة ، هذه المناولة تتضح فى أنه ما كان لك ما يزيد عن حاجتك ، إلا بحركتك فى الحياة .

وهذه الحركة فى الحياة تتطلب عقلا يخطط للحركة وجوارح تنفذ المخطط الفكرى ، ومادة يتم الفعل فيها سواء كانت أرضا تتم زراعتها ، أو آلة يتم الصنع بها ، ولا شيء للإنسان من هذا فى الكون . إن المخ الذى يدبر هو عطاء من الله ، والطاقة التى تنفذ هى عطاء من الله . ونحن نرى فى الحياة إنسانا قد نزع الله عنه المخ الذى يفكر ويدبر ، ونجد إنسانا آخر قد نزع الله منه الطاقة التى تنفذ ، فقد يمنع الله عن عبدٍ المادة التى يتفاعل معها .

إذن ، فلا شيء من هذه الأشياء ذاتى للإنسان ؛ إنها كلها عطاء من الله . فليعمل المؤمن مضاربا عند الله ، وليعط المؤمن للعاجز حق الله . إن الله لا يأخذ هذا الحق لنفسه إنما يريده الله لأخيك العاجز ، وسوف يطلب الله هذا الحق لك إذا عنّت لك حاجة بسبب الأغيار .

هكذا تكون « المنفقين » صفة من صفات الذين اتقوا ربهم . والحق سبحانه وتعالى قد جعل فى الصبر ، صلابة اليقين الإيمانى فى النفس البشرية . وفى الصدق انسجاما مع واقع لا إله إلا الله ، وفى النفقة حماية العاجز الذى لا يقدر .

وبعد ذلك يعود إلى نفس المؤمن عودة أخرى فيقول : « والمستغفرين بالأسحار » إننا يجب ان نأخذ هذا الوصف بعد مجيىء الأوصاف الأخرى فى النفس البشرية . البداية

هى إقرارهم بالإيمان ، ودعاؤهم الحق ـ سبحانه ـ أن يغفر لهم وقد طلبوا الوقاية من عذاب النار ، وصبروا ، وصدقوا ، وقنتوا فى العبادة ، وأنفقوا فى سبيل الله ، إن كل هذه الأوصاف تبرىء ذمتهم من أنهم مقصرون أيضا فى حقوق إلههم لذلك فهم يأتون حال السكون بالليل ، ويستغفرون الله .

إما أن يستغفر العبد لأنه قد فرطت منه هفوة فى ذنب ، وإما أن يستغفر لأنه لم يَزِد فيما يفعله من أمور الطاعة . وكلمة « بالأسحار » توضح لنا لحظات من اليوم يكون الإنسان فيها محل الكسل والراحة ، إن الذى سوف يصحو فى السحر لابد أن يكون قد اكتفى من الراحة ، ولم يكن قد أخذ منه كد الحياة كل النهار ، ثم إن بعضهم يأخذه لهو الحياة ليلا .

وهذا هو وجه الخيبة لما يحدث فى زماننا . إن كد الحياة ـ إن أخذ ـ يأخذ نهارا ، وبعد ذلك يأخذنا لهو الحياة ليلا ، مما نشاهده من لهو الحديث ، ولهو السهرات ، وبعد ذلك يأتى الإنسان لينام متأخرا ، فكيف نطلب من هذا الإنسان أن يصحو فى السحر ؟ إن الذى يصحو فى السحر هو من أخذ حظه فى الراحة ، فبعد أن جاء من كد العمل نام نوما هادئا ، ويصحو من بعد ذلك فى السحر ليذكر ربه ، فى الوقت الذى نام فيه غيره من الناس ، لماذا ؟ لأن الحق سبحانه وتعالى فى لحظة سكون الليل يوزع رحمته ، وعندما يصحو إنسان فى السحر ويدعو الله ، ويستغفره فإنه يأخذ من رحمة الله النازلة .

وعندما يأخذ هذا العبد من رحمة الله النازلة فى ذلك الوقت ، فمعنى هذا أنه سيأخذ الكثير من رحمة الله . وإياك أن تقول : لو صحونا جميعا فى الأسحار لنفدت الرحمة والعطاء « لا » ، لأن الله قد قال :

﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ﴾

(من الآية ٩٦ من سورة النحل)

إن قدرته جل وعلا تتسع لعطائنا جميعا دون أن ينقص شىء من عنده . إن كل هذه الأشياء من التقوى ، والإقرار بالإيمان ، وطلب المغفرة للذنوب ، وطلب الوقاية من عذاب النار ، والصبر ، والصدق ، والقنوت ، والإنفاق فى سبيل الله ،

والاستغفار بالأسحار ، كل ذلك نتيجة للتقوى الأولى .

إنها الثمرة من « لا إله إلا الله » . ومادامت هذه هى الثمرة من « لا إله إلا الله » فليعلم كل إنسان ، أن الله لم يدعك لتستنبطها أنت من مفقود ، بل اعلم أن الله قد شهد أنه لا إله إلا الله ،وكفى بالله شهيدا . ولذلك يقول الحق :

﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ ﴾

ولنأخذ الجملة الأولى من الآية الكريمة بمعناها : لقد شهد الله أنه لا إله إلا هو ، أى أنّ الحق قد أخبر بما رآه ، وشاهده ، أو ما يقوم مقام ذلك . إن « شهد » بمعنى علم .

إنه الحق الذى نصب الأدلة فى الوجود على قيوميته ، وعلى أنه إله واحد ، أليس فى ذلك إقامة للحجة على أنه إله واحد ؟ ومن الذى خلق الأدلة وجاء بها ؟ إنه الله . إذن ، فقد شهد الله أنه لا إله إلا هو . وقلنا : إن شهادة الله أنه لا إله إلا هو هى شهادة الذات للذات ، وشهادة الذات للذات تعنى أنها كلمة مُمَكَّنٌ منها . فعندما يقول الحق :

﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾ ﴾

(سورة البقرة)

بالله لولم يكن قد شهد لنفسه بأنه لا إله إلا هو ، وليس هناك من يعارض مبتغاه ، أكان يجازف فيقولها ؟ إنه الحق الأعلى الذى شهد أن لا إله إلا هو ، فساعة

أن يقول : « كن » فإنه قد علم ، أنه لا يوجد إله آخر يقول : « لا تكن » . إن الحق لابد أن يطمئننا أنه لا إله إلا هو ، لذلك فلزم أن يشهد لنفسه أنه لا إله إلا هو . إننا نجد أن من أسماء الله الحسنى « المؤمن » . بماذا يؤمن الله ؟ إنه مؤمن بأنه لا إله إلا هو ويلقى الأمر ، ويلقى الحكم التسخيرى ، ويعلم أنه لا إله يعارضه .

وأليس من مطلوبات الرسول صلى الله عليه وسلم أن يشهد أنه رسول الله ؟ لقد صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال فى صلاته : « أشهد أن محمدا رسول الله » . ولو لم يشهد بهذه لنفسه فكيف يجازف بالأشياء التى يقولها ؟ ولذلك فسيدنا أبو بكر عندما بلغه أمر بعث محمد رسولا ، قال ما معناه : أقالها محمد ؟ إنه صادق ، ومادام قد قالها فهى حق .

إن أبا بكر الصديق واثق من الرصيد الذى سبق بعث محمد بالرسالة . ونحن نرى فى التاريخ امرأة كان السبب فى إسلامها لمحة من سيرته صلى الله عليه وسلم . قرأت هذه المرأة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كان له حراس من المؤمنين يقومون بحراسته من الكافرين . وبعد ذلك جاء يوم وصرف الرسول صلى الله عليه وسلم هؤلاء الحراس ، وقال لهم ما معناه : إن الله عصمنى من الناس فاذهبوا أنتم .

وقد قرأنا هذه الواقعة كثيرا جدا ، ولكن الفتح جاء من الحق لامرأة ، فشغلتها هذه المسألة ، وتساءلت : ألم يكن هؤلاء الحراس يحرسونه خوفا على حياته ؟ فلماذا قال لهم : « لا تحرسونى » لأن الله هو الذى يحرسنى ؟ فلو أن رسول الله قد غش الدنيا كلها ، أكان من الممكن أن يغش نفسه فى حياته ؟

وأجابت المرأة على نفسها : لا يمكن ، لابد أن رسول الله قد وثق تمام الثقة فى أن الله قد أبلغه أمر حمايته بدليل أنه قام بصرف الحراس ، وإلا فكيف يأمن أن يأتى أحد ليقتله ؟ قالت المرأة : والله لو خدع الناس جميعا ما خدع نفسه فى حياته ، أشهد ألا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله . حدث إسلام هذه المرأة من نفحة يسيرة من سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

إذن ، « شهد الله أنه لا إله إلا هو » هى شهادة الذات للذات ، وكفى بالله

شهيدا . وشهدت الملائكة أيضا ، والملائكة هم الغيب الخفى عنا ، وتتلقى الأوامر من الحق . إن الملائكة لم يروا أحدا آخر يعطى لهم الأوامر ، إنه الإله الواحد القادر . وهذه هي شهادة المشهد . ويضاف إلى الملائكة « أولو العلم » ، لقد أخذ « أولو العلم » الأدلة وجلسوا يستنبطون من كون الله أدلة على أنه لا إله إلا الله .

إن هذه أعظم شهادة لأعظم مشهود به من أعظم شهود ، الله فى القمة ، ومحمد صلى الله عليه وسلم ، والملائكة وأولو العلم . ولقد أخذ أولو العلم منزلة كبيرة لأن الله قد قرنهم بالملائكة .

إن الحق سبحانه وتعالى يبلغنا أنه قد نثر فى كونه الآيات العجيبة العديدة ، والذى يجلس ، ويتفكر ويتدبر ، ويتفطن وينظر ، فإنه يستخرج الأدلة على أنه لا إله إلا هو ، وكما قلنا من قبل : إن أبسط الطرق للتدليل على هذه الحقيقة . إن كانت « لا إله إلا الله » صدقا فقد كفينا ، وإن كانت غير صدق فأين الإله الذى أخذ منه الله هذا الكون ، ولم يخبرنا ذلك الإله أنه صاحب الكون ؟ فإما أن هذا الإله الآخر لم يَدْر ، أو أنه قد علم ، ولا يستطيع فعل شيء ، إذن فلا يصح أن يكون إلها يزاحم الحق الذى أبلغنا أنه لا إله إلا هو .

وتظل « لا إله إلا الله » لصاحبها ـ جل شأنه ـ « شهد الله أنه لا إله إلا هو » وفى كل حركة من حركات الحياة نجد أن الانفراد بصدور الحركة قد يعطى علوا ، وقد يعطى استكبارا . . لذلك نقول : ها هو ذا الخالق الأعلى الذى « لا إله إلا هو » يخبرنا أنه قائم بالقسط . ورغم أنه لا أحد فى استطاعته أن يتدارك على الله ، إلا أنه يطمئننا أنه قائم بالقسط .

ولنلحظ هنا ملحظا جميلا فى الأداء « شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط » لماذا لم يقل الله إن « الملائكة » و« أولو العلم » ، الذين شهدوا أنه لا إله إلا هو « قائمين » بالقسط ؟ لقد شهد الله أنه لا إله إلا هو قائما بالقسط ، والملائكة شهدوا هذه القضية والعلماء شهدوا أيضا بهذه القضية . . لماذا ؟ لأن الله لو قال : « قائمين بالقسط » لكان الله مشهودا عليه من هؤلاء ، والشهادة هى له وحده أنه قائم بالقسط والعدل .

لأنه سبحانه خلق الملائكة بالقسط ، فلو كانوا معه فى ذلك لما استقام الأمر ،

وأولو العلم أيضا مخلوقون بالقسط ، لأن الله قد وزع حركة الحياة على الناس ، فَنَاسٌ يعملـون بعقـولهم ، وآخرون يعملـون بقلوبهم ، وقوم غيرهم يعملون بجوارحهم ، فهذا هو لون من عدل الله ، وإلا ، فهل يدعى أحد أن إنسانا تتجمع فيه كل المواهب التى تتطلبها الحياة . لا ، وهذه من عدالة الرحمن .

إن من عدالة الحق أنه وزع المواهب بين البشر ، فبدلا من أن يعتمد الإنسان على نفسه فى صناعة الملبس والمأكل ، والمشرب ، جعل الله المهارات موزعة بين البشر . . فأتقنت مجموعة من البشر حرفة الزراعة لإنتاج الطعام الذى يكفيهم ، ويسد حاجة غيرهم ، وكذلك تبادلوا مع غيرهم المنافع ، فالإنسان ـ بمفرده ـ لا يستطيع أن يزرع القطن ويجمعه ويغزله وينسجه ، ليلبس ، والإنسان لا يستطيع أن يزرع القمح ويحصده ثم يطحنه ثم يخبزه .

إن الله لم يخلق الناس ليقوم كل فرد بإشباع حاجات نفسه المتنوعة ، إنما وزع الله المواهب ، لتتداخل هذه المواهب ، ويتكامل المجتمع البشرى ، فواحد يزرع الأرض ، وثانٍ يغزل القطن ، وثالث ينسج القماش ، ورابع يصنع الأدوات . وهذا عدل عظيم ، لأن الطاقة البشرية لا تقوى على أن تقوم بكل متطلبات الحياة ، لذلك جعل الحق هذا التنوع فى المواهب ليربط الناس بالناس قهرا عن الناس ، فلم يجعل لأحد تفضلا على أحد ، فمادام واحد يعرف فى مجال ، وآخر لا يعرف فى هذا المجال ، فالذى لا يعرف محتاج للآخر ، وهكذا يتبادل الناس المنافع رغما عنهم .

ولذلك نجد الكون متكاملا . ولينظر كل منا إلى حياته وليعدد كمْ زاوية من زوايا العلم ، وكم زاوية من زوايا القدرات ، وكم زاوية من زوايا المواهب تلزم حتى تخدم حركة الحياة ؟

إن هذه الزوايا موزعة على الناس جميعا ليخدموا جميعا حركة الحياة . وهذا قمة العدل . وحتى يوضح لنا الحق قيمة العدل وكيفية العدالة فى إقامة المحبة والاحترام بين البشر ، فلينظر الواحد منا إلى الإنسان الآخر البعيد عنه ، ويتساءل بينه وبين نفسه : أهذا الرجل البعيد عنى يعمل من أجلى ؟ وتكون الإجابة : نعم .

إذن ، فعلى الإنسان عندما يرى إنسانا متفوقا فى صنعة ما ، فليقل : إن تفوقه فى

صنعته عائد إلىّ وتفوقه فى موهبته عائد إلىّ ، وهكذا منع الله بالعدل الحقد والحسد ، وجعل الناس متكاتفين قهرا عنهم ، لا تفضلا منهم ، إذن ، فكل إنسان يسعى بحركة الحياة إنما يقيم نفسه فى زاوية من زوايا الحياة ، ومن العجيب أن الزاوية التى يحسنها الإنسان تكون حاجته فيها أقل الحاجات ، لذلك نجد المثل الريفى الذى يقول : « باب النجار مخلع » ، وذلك حتى يعلم الإنسان أن موهبة ما تكون عند غيره سوف تنفعه هو ، بدليل أن الموهبة التى عندك لم تنتفع أنت بها إلاّ قليلا .

وبذلك يشيع فى الناس اقتناع بأن موهبة كل فرد فيهم ، إنما تعود عليهم جميعا ، وبذلك تحل المحبة والاحترام بدلا من الحسد والحقد . وعندما سأل أحد الظرفاء : ولماذا يكون باب النجار هو « المخلع » ؟ قال أحد الظرفاء ردا عليه : لأنه الباب الوحيد الذى لن يأخذ النجار أجرا لإصلاحه ، ونلتفت إلى العجائب فى الحكمة الشائعة ، فنجد أطباء اخصائيين فى ألوان من المرض ، وصاروا أعلاما فى مجالات تخصصاتهم ، ويشاء الحق سبحانه وتعالى ألا يصابوا إلا بما برعوا فيه ، كأن الذى برعوا فيه لم يفدهم هم بشىء ، إنما أفاد الآخرين . ولننظر إلى الآية فى مجملها :

﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

لقد استهلها الله بقوله : « شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط » ثم قال بعد ذلك : « لا إله إلا هو العزيز الحكيم » . فكأن الآية تقول لنا : إذا ثبتت شهادة الذات للذات ، وشهادة المشهد من الملائكة ، وشهادة الاستدلال من العلماء ، فإن القاعدة تكون قد استقرت استقرارا نهائيا لاشك فيه ، فخذوها مسلمة : « لا إله إلا هو » .

ومادام « لا إله إلا هو » فليكن اعتمادك عليه وحده ، واعلم أنك إن اعتمدت عليه وحده إلها فأنت قد اعتمدت على عزيز لا يُغْلب على أمره .

قال صلى الله عليه وسلم : « إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ،

واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك ، رُفعت الأقلام، وجفت الصحف »[1] .

فلا يستطيع أحد أن يدخل مع الله فى جدال . إنما يدخل خلق الله مع خلق الله فى خلاف أو نضال ، لكن لا أحد يجرؤ على أن يدخل فى نضال مع الله لأنه عزيز لا يغلب . فإن آمنت به وحده ، فلك الفوز . وكلمة « وحده » قد تبدو فى ظاهرها تقليلا للسند الذى تستند إليه فى القياس البشرى ، فيقال : « أنا لاجىء إلى فلان وحده » وعندما تكون لاجئا إلى عشرين ألا تكون أكثر قوة ؟ لكن هنا لا يكون قياس بين اللجوء إلى الله وحده ، بقياس اللجوء إلى مخلوق . إنك هنا تلجأ إلى خالق أعلى بيده مقاليد كل شيء وهو على كل شيء قدير ، فكلمة « وحده » هنا تغنيك وتكفيك عن الكل . اعمل لوجه واحد . يكفك كل الأوجه ، واعلم أنه لا يوجد من يغلبه على أمره .

وعظمة الحق أنه واحد أحد فرد متفرد صمد ، وهو عزيز لا يُغْلب على أمره ، وهو صاحب كل الحكمة فى وضع الأشياء فى مواضعها بحيث إذا ما عرفت حكمة ما يجريه الله سبحانه وتعالى على خلقه فأنت تتعجب من عظمة قدرة الله ، لأن الحكمة هى وضع الشيء فى موضعه ، ومادمت قد وضعت الشيء فى موضعه فإنه لا يكون هناك قَلَقٌ ، ومادام الشيء موضوعا فى مكانه فهو مستقر ، ومادام الشيء مستقرا فإنه لا يتلون وتزداد الثقة فيه ، وهذه مأخوذة من « الحَكَمَة » التى توضع فى فم الفرس ، والتى نسميها « اللجام » وهى كما نعرف تتكون من قطعة من الجلد تدخل على اللسان وفيها قطعة من الحديد ، فإن مال إلى غير الاتجاه الذى تريد ، يكون من السهل جذبه إلى الاتجاه الصحيح .

إن وجود الحكمة يعنى وجود شيء يحكمه فلا ينحرف يمينا ولا يسارا ، ومادام الله قد شهد أنه لا إله إلا هو ، وشهدت الملائكة وشهد أولو العلم ، وانتهت القضية بعد هذه الشهادات إلى أنه لا إله إلا هو ، وأنه العزيز الحكيم ، فكل منهج منه يجب أن يُسلم إليه ، وأن ينقاد له . ومادام الله قد شهد لنفسه بأنه إله واحد ، أى لا يوجد له

---

(١) رواه الترمذى .

شريك ينازعه فيما يريد من خلقه ، وليس لله شريك فى الخلق ، وليس لله شريك فى الرزق ، وليس له شريك فى التشريع .

إذن .. فالجهة التى نستمد منها مقومات منهجنا هى جهة واحدة ، وكان من الممكن أن تظلم وتجور هذه الجهة الواحدة الخالقة على ما خلقت لأنه ليس لأحد من خلق الله حق على الله ، لكن الله سبحانه عادل ، إنه سبحانه يطمئننا ، فهذه الوحدانية بقدرتها وجبروتها وعلمها وحكمتها عادلة لا تظلم ، لأنه قال : مع أنى إله واحد ، لا يُرد لى حكم ولا أمر فأنا قائم بالقسط .

والقيام بالقسط يجب أن نتوقف عنده لنفهمه جيدا ، إن الحق يقول عن نفسه : « قائما بالقسط » وكلمة قائم تعنى أن الله قد خلقهم الخلقَ الأول ، وهذا الخلق إنما قام على العدل والقسط . وتكليف الحق للخلق قام على العدل والقسط . والعدل والقسط يقتضى ميزانا لا ترجح فيه كفة على كفة ، وهذا الميزان ممسوك بيد القدرة القاهرة التى لا توجد قوة أعلى منها تميل فى الحكم ، والحق سبحانه قائم بالقسط فى الخلق ، فقبل أن يخلقنا أعدّ لنا ما تتطلبه حياتنا بالقسط أيضا ، فلم يجعل أمر الحياة قائما على الأسباب التى يكلفنا بها لنعيش ، بل حكم بالقسط ، لقد جعل الحق بعضا من الأمور لا دخل لنا نحن العباد فيها ، ولم يقض الحق بذلك على حركتنا ولا على حريتنا فى الحركة ، لذلك خلق لنا أسبابا إن شئنا أن نفعل بها وصلنا إلى المسببات ، وإن شئنا ألا نفعل فنترك الأسباب والمسببات .

إذن .. فالحق سبحانه لم يحكمنا فى قضية الخلق الأولى بشىء واحد ، بأن يجبرنا على كل شىء ، بل جبرنا بأنه ـ سبحانه ـ لم يدخل أسبابنا ولا حركتنا فى كثير من الحركات التى تترتب عليها الحياة ، فلم يجعل الشمس بأيدينا ، ولا القمر ، ولا الريح ، ولا المطر . كل هذه الأسباب جعلها بيده هو ، لماذا ؟ لأن هذه الأسباب ستفعل للمخلوق قبل أن تكون له قدرة . هذه الأسباب تفعل للإنسان قبل أن توجد له حياة ؛ لتمهد للحياة التى يهبك الله إياها ، فلو ترك الله كل هذه الأشياء لأسباب الإنسان لتأخرت هذه الأشياء إلى أن يوجد للإنسان إرادة ، وتوجد له قدرة وعلم .

لقد جعل الله أسباب الحياة بيده ، كالتنفس مثلا ، إن التنفس لا يخضع لإرادة القدرة على الحركة فى الحياة، ولكنه قال لك: أيها الإنسان ـ وهو سبحانه الإله القادر ـ تحرك

التنفس إلى أن توجد له إرادة . ولا توجد الإرادة إلا إن وجُد عند الإنسان علم بأنه يريد إدخال الأوكسجين إلى الرئتين حتى يغذى الدم والمخ وينقى الدم والجسم من الأشياء التى تضره ، هذا يقتضى العلم ، فإذا كان هذا الأمر يقتضى العلم .. فماذا يصنع الطفل الذى ليس له علم ؟ كيف يتنفس ؟

لذلك فمن رحمة الله وعدالته أن جعل أمر التنفس ـ على سبيل المثال ـ بيده هو سبحانه ، ولكن الحق سبحانه لم يقض على مخلوقه بأن يجعله فى الكون بلا حرية أو اختيار ، لا ، لقد ترك الحق سبحانه بعضا من الأشياء لحرية الإنسان واختياره .

إذن ، فالحق لم يلزم العبد تسخيرا ، ولم يمنع تخييرا . وذلك هو العدل المطلق . لقد احترم الحق كينونة الإنسان ، وحياة الإنسان ، ومشيئة الإنسان ، واختيار الإنسان ، فقال : أنا سأعطيك أسباب الحياة الضرورية ولا أجعل لك دخلا فيها ، لأنك إن تدخلت فيها أفسدتها ، وتأخر وصول خدمتها لك إلى أن تعرف وتعلم ، وأنا ـ الحق ـ أريدُها لك ، وأنت أيها الإنسان عاجز قبل أن توجد لك ، وأنت قادر بوجودها الذى أمنحه لك ، لذلك جعلتها بيدى أنا الخالق المأمون على خلقى . ولكن لن أقضى على حريتك ، فإن أردت ارتقاءً فى الحياة فتحرك فى الحياة ، إن شئت أيها الإنسان أن تفعل فافعل . وإن شئت أيها الإنسان ألا تفعل فلا تفعل . وهذا مطلق العدل .

ثم جاء الحق سبحانه وتعالى وجعل قوله : « قائما بالقسط » مشتملا على التكليف أيضا ، أى إن عدالته فى التكليف مطلقة . فأناس يقولون : « لا إله » وأناس آخرون عددوا الآلهة ، فقام الحق بالقسط بين الأمرين . هو إله موجود يا من تقول : « لا إله » . وهو إله غير متعدد يا من تشرك معه غيره . وهذا قيام بالقسط . وجاء الحق سبحانه فى الأحكام . نحن نجد أحكاما شرعية طلبها الحق سبحانه من العبد طلبا باتا ، ولم يتركها لاختيار الإنسان ونجد أشياء تركها الحق سبحانه ليجتهد فيها الإنسان ، فلم يجعل الحق سبحانه العبد حرا طليقا يعربد فى الكون كما يشاء ، ولم يجعل الحق سبحانه عبده مقهورا أو مقسورا بحيث لا توجد له إرادة أو اختيار .

لقد جعل الله للإنسان مجالا فى القسر ومجالا فى الاختيار ، أوجد فى الإنسان القدرة على الحركة فى الحياة ، ولكنه قال لك : أيها الإنسان ـ وهو الإله القادر ـ تحرك

فى الحياة وأنا أحمى نتيجة ما تتحرك فيه ، ولكن لى فى مالك الذى جعلتك فيه خليفة حق عليك أن تعطى بعضا منه لأخيك المحتاج .

لقد أعطى الحق للنفس البشرية أن تكد ، وأعطى لها أن تكدح ، وحفظ لها ما تملك ، ولكنه هو الحق لم يُطلق للنفس البشرية عنانها ، بل قال : لى حق فى ذلك . وهكذا نجده سبحانه قد عدل فى هذا الأمر .

إذن فقول الحق إنه قائم بالقسط .. نجده واضحا فى كل شىء ؛ ففى الخلق والرزق والتكليف نجد أنه قائم بالقسط ، ومادام هو إلها واحدا وقائما بالقسط . فما الذى يمنعك أيها الإنسان أن تخضع لمراده منك ؟ يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾ ﴾

بعد أن قال لنا : إنه إله واحد ، وقائم بالقسط هو نتيجة منطقية لكونه ـ سبحانه ـ إلها واحدا فكأن قوله « إن الدين عند الله الإسلام » هو نتيجة لقوله : « شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط » . لماذا ؟ لأنه لا تسليم لأحد إلا الله ، ومادام الله إلها واحدا ، فلا إله غيره يشاركه ؛ يقول الحق :

﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ ﴾

(سورة المؤمنون)

ومادام قد ثبت أنه هو الإله الواحد ، فما الذى يمنعك أيها الإنسان أن تخضع لمراده منك ؟ إذن فقول الحق بعد ذلك : « إن الدين عند الله الإسلام » هو أمر منطقى جدا يجب أن ينتهى إليه العاقل ، ومع ذلك رحمنا الله سبحانه وتعالى فأرسل لنا رسلا لينبهونا إلى القضية السببية ، والمسببية ، والمقدمة والنتيجة « إن الدين عند الله الإسلام » وإذا سألنا : ما هو الدين ؟ تكون الإجابة : إن الدين كلمة لها إطلاقات متعددة فهى من « دان » تقول : دنت لفلان : رجعت له وأسلمت نفسى له ، وائتمرت بأمره . ويُطلق الدين أيضا على الجزاء ، فالحق يقول عن يوم الجزاء : « يوم الدين » وهو يوم الجزاء على الطاعة وعلى المعصية ، وعلى أن الإنسان المؤمن قد دان لأمر الله ، فكلها تلتقى فى قول الحق : « إن الدين عند الله الإسلام » يُشعرنا بأنه قد توجد أديان يخضع لها الناس ، ولكنها ليست أديانا عند الله ؛ ألم يقل الحق :

﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۝ ﴾

(سورة الكافرون)

إن معنى ذلك أن هناك دينا لغير الله فيه خضوع واستسلام ، وفيه تنفيذ لأوامر ، ولكن ليس دينا لله ، ولا دينا عند الله . إن الدين المعترف به عند الله هو الإسلام . والدين يطلق مرة على الملة ومرة أخرى على الشريعة ، فإن أراد المؤمن الأحكام المطلوبة فلك أن تسميها شريعة ، وإن أراد المؤمن الطاعة ، والخضوع ، وما يترتب عليها من الجزاء فليسمها المؤمن الدين ، وإن أراد الإنسان كل ما ينتظم ذلك فليسمها الملة .

إذن فقوله سبحانه : « إن الدين عند الله الإسلام » تعنى أنه لا دين عند الله إلا الإسلام ، وكلمة « إسلام » مأخوذة من مادة « سين » و« لام » و« ميم » . و« السين » و« اللام » و« الميم » لها معنى يدورفى كل اشتقاقاتها ، وينتهى عند السلامة من الفساد . وينتهى المعنى أيضا إلى الصلح بين الإنسان ونفسه ، وبين الإنسان وربه ، وبين الإنسان والكون ، وبين الإنسان وإخوانه ، إنه صلاح وعدم فساد ، كل مادة السين واللام والميم تدل على ذلك ، ومادامت المادة المكونة منها كلمة « إسلام » تدل على ذلك فلماذا لا نتبعها ؟.

لقد قلنا سابقا : إن الإنسان لا يخضع لمثيله إلا إذا اقتنع بما يقول ، إن الإنسان

يقول لمساويه الذى يأمره : لماذا تريدنى أن أنفذ أوامرك ؟ إنك لابد أن تقنعنى بالحكمة من ذلك الأمر ، لكن عندما يؤمن الإنسان بإله واحد قائم بالقسط ، ويصدر من هذا الإله أمر ، فعلى الإنسان الطاعة .

إذن .. فالإسلام معناه الخضوع ، والاستسلام بعزة وفهم ، وعزة وتعقل ؛ لأن هناك عبودية تَعَقّل عندما يقف الإنسان عند المعنى السطحى ، وهناك عزة تعقل عندما يقف الإنسان عند المعنى الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه أو من خلفه ، إن هذا هو عزة العقل فلا يستهويه أى شىء سوى الخضوع للأمر الثابت الذى لا يتناقض أبدا .

فمادام الله إلها واحدا قائما بالقسط فإنى كعبدٍ من عبيده حين أؤمن به وآخذ عنه ، فهذه عزة فى الفهم وعزة فى التعقل ، وعزة فى العبودية أيضا ، لأننى أعبد الله الذى هو فوق كل المخلوقات والكائنات ، ولا أعبد مساويا لى ، وإن الذى يعبد مساويا له لا يملك إلا إنفة وحمِيّة الذليل ، ومادام الإسلام هو الخضوع والاستسلام لله فهو خضوع لغير مساو ، و« أسلم » أى دخل فى السلم ، أى دخل فى الصلح ، وعدم التناقض ، وفى الأمان والراحة ، أى خلص نفسه من كل شىء إلا وجه الله ، ولذلك يقول الحق :

﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾

(سورة الزمر)

كأن الله يريد أن يوضح لنا الفرق بين الخاضع لأمر سيد واحد ، وبين الخاضع لِسَادةٍ كثيرين . وضرب الله لنا المثل بالأمر المشهور عندنا ، فقال ما معناه : هب أن عبدا له من السادة عشرة ، وكل سيد له منه طلب ، فماذا يصنع ذلك العبد ؟ وعبد آخر له سيد واحد ، هذا العبد يكون مستريحا لأنّ له سيدا واحدا ، بينما الآخر المملوك لعشرة تتضارب حياته بتضارب أوامر سادته العشرة .

إذن فالعبد المملوك لشركاء تعيس ؛ لأن الشركاء غير متفقين ، إنهم شركاء

متشاكسون ، فإذا رآه سيد يفعل أمرا لسيد آخر ، أمره بالعكس ، وبذلك يتبدد جهد هذا العبد ويكثر تعبه ، ولكن الرجل السلم لرجل ، هو مستريح ، وكذلك التوحيد ، لقد جاء الحق سبحانه بمثل من واقعنا ليقرب لنا حلاوة التوحيد . إن العبد المؤمن بإله واحد يحمد الله لأنه خاضع لإله واحد . إذن فما دام الإسلام هو الخضوع والاستسلام ومعناه الدخول فى السلم بكسر السين ـ أو الدخول فى السلم ـ بفتح السين ـ يقول الحق :

﴿ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ ﴾

(سورة الأنفال)

هذا الخضوع ليس لمساو ، بل لأعلى . والأعلى الذى نخضع له هو الذى خلق ، وهو الأعلى الذى أمدنا بقيوميته بكل شيء . إذن فإذا أسلم الإنسان ، فإن هذا الإسلام له ثمن هو المثوبة من الله . إن من مصلحة الإنسان أن يسلم . « إن الدين عند الله الإسلام » ومادام الدين المعترف به عند الله هو الإسلام فهو الدين الذى يترتب عليه الثواب والإسلام هو دين الرسل جميعا ، وكلهم قد آمن به ؛ فإبراهيم خليل الرحمن قد قال :

﴿ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ ﴾

(سورة البقرة)

ويعقوب عليه السلام يخبر الحق عنه فى قوله لبنيه وإجابتهم له :

﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِى قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ ﴾

(سورة البقرة)

ويقول ـ جل شأنه ـ :

﴿ قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ ﴾

(سورة الانعام)

إذن فالإسلام دين شائع ، والمسلمون كلمة شائعة فى الأديان ، وبذلك لا يقف الإسلام عند رسالة سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام فقط،إنما الإسلام خضوع من مخلوق لإله فى منهج جاء به رسل مؤيدون بالمعجزات ، إلّا أن الإسلام بالنسبة لهذه الرسالات كان وصفا ، لكن أمة محمد صلى الله عليه وسلم تميزت بديمومة الوصف لدينها كما كان لأمم الرسل السابقة ، وصار الإسلام ـ أيضا ـ علما لأمة محمد صلى الله عليه وسلم ، لأن رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم تضمنت منتهى ما يوجد من إسلام فى الأرض ، فلم يعد هناك مزيد عليها ، وانفردت أمة رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن صار الإسلام علما عليها .

إذن فالإسلام فى الأمم السابقة كان وصفا ، وأما بالنسبة لرسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد صار علما لأنه لم يأت بعدها دين ، فإسلامها إسلام عالمى، ولذلك فنحن بهذا الدين نقول : « نحن مسلمون » أما أصحاب الديانات الأخرى فهم أيضا مسلمون لكن بالوصف فقط . نحن الذين نتبع الدين الخاتم سمانا الله فى كتابه المسلمين فهذا من إعجازات التسمية التى وافق فيها خليل الله إبراهيم عليه السلام مراد ربه :

﴿ وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟

﴿ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾ ﴾

(سورة الحج)

لقد صار الإسلام اسما لأمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ ولا يُطلق هذا الوصف اسما إلا على من بالغ فى التسليم . كيف ؟ نحن نعلم أن لفظ « الله » علم لواجب الوجود ، ونعلم أن « حى » صفة من صفات واجب الوجود . ونعلم أن « قادر » صفة من صفات الله سبحانه وتعالى . ولكن صارت كلمة « حى » اسما من أسماء الله ؛ لأن الله حى حياة كاملة أزلية . إذن لا تكون الصفة اسما إلا إذا أخذ الوصف فيها الديمومة والإطلاق . وعلى هذا القياس يكون الرسل السابقون على محمد صلى الله عليه وسلم ، والأمم السابقة على أمة الإسلام ، كانوا مسلمين ، وكانوا أمما مسلمة بالوصف ، ولكن أمة محمد صلى الله عليه وسلم تميزت بالإسلام وصفا وعَلَمًا ، فصار الأمر بالنسبة إليها اسما ، ونظرا لأنه لن يأتى شيء بعدها ، لذلك صار إسلام أمة رسول الله « علما » . ولقد بشر سيدنا إبراهيم عليه السلام بهذا الأمر :

﴿ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾

(من الآية ٧٨ من سورة الحج)

إن الحق قد أورد على لسان سيدنا إبراهيم بالوضوح الكامل « هو سماكم المسلمين » ولم يقل الحق : « هو وصفكم بالمسلمين » . لا ، إنما قال : « هو سماكم المسلمين » ، لأن الأمم السابقة موصوفة بالإسلام وأما أمة رسول الله صلى الله عليه وسلم فهى مسماة بالإسلام . وتجد من إعجازات التسمية ، أننا نجد لأتباع الأديان الأخرى أسماء أخرى غير الإسلام ، فاليهود يسمون أنفسهم باليهود نسبة لـ« يوها » . ويقولون عن أنفسهم : « موسويون » نسبة إلى موسى عليه السلام . والمسيحيون يسمون أنفسهم بذلك نسبة إلى المسيح عيسى بن مريم . ولم نقل نحن أمة رسول الله عن أنفسنا : « إننا محمديون » . لقد قلنا عن أنفسنا : « نحن مسلمون » . ولم تأت على لسان أحد قط إلا هذه التسمية لأمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وصار اسم الإسلام لنا شرفا . إذن ، فقول الله الحق : « إن الدين عند الله الإسلام » يعنى أنه ، إن جاز أن يكون لرسول أو لأتباع رسول وصف

الإسلام فقد يجىء رسول بشىء جديد لم يكن عند الأمم السابقة فنزيده نحن بالتسليم ، وبزيادتنا ـ نحن المسلمين ـ بهذا التسليم ختِمَ التسليم بنا نحن أمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولذا صار الإسلام لا يطلق إلا علينا .

إن الحق سبحانه وتعالى يوضح لنا أن الذين أوتوا الكتاب قد اختلفوا من بعد ما جاءهم العلم . ولماذا اختلفوا ؟ جاءت الإجابة من الحق . الأعلى : (بغيا بينهم) وكلمة الاختلاف هذه توحى أن هناك شيئا متفقا عليه ، ومادام الإسلام هو خضوعا لمنهج الله . لأنه إله واحد وقائم بالقسط ، فمن أين يوجد الاختلاف ؟ وما الذى زاد حتى يوجد اختلاف ؟ أبرز إلهٌ آخر يناقض الله فى ملكه ؟ لا لم يحدث . ومادام الإله واحدا ، ومادام المنهج القادم من عنده منهجا واحدا ، فمن أين جاء هذا الاختلاف ؟

إن الحق يوضح لنا أن الاختلاف قد جاء للذين أوتوا الكتاب من بعد ما جاءهم العلم وتلك هى النكاية ، وذلك هو الشر ، فلو كانوا قد اختلفوا من قبل أن يأتى إليهم العلم لقلنا : « إنهم معذورون فى الاختلاف » . ولكن أن يحدث الاختلاف من بعد أن جاء العلم من الإله الواحد القائم بالقسط فلنا أن نقول لهم : ما الذى جَدَّ لتختلفوا ؟ إن الذى جَدَّ هو من عالم الأغيار ، ومادام الجديد قد جاء إليهم من عالم الأغيار ، فمعنى ذلك أن هوى النفس قد دخل ، ونريد أن نعرف أولا معنى الاختلاف ، الاختلاف فى حقيقته هو ذهاب نفس إلى غير ما ذهبت إليه نفس أخرى .

ولماذا حدث الاختلاف هنا رغم أن الإله واحد ، وهو قائم بالقسط ؟ لابد لنا أن نستنتج أن شيئا جديدا قد نبت ، ما هو هذا الشىء ؟ إنه الهوى المختلف ، وحينما يقال : « اختلفوا » فنحن نعلم أن جماعة قد ذهبت إلى شىء وجماعة أخرى ذهبت إلى شىء آخر . وقد نستنتج أن طرفا قد ذهب إلى حق ، وأن الطرف الآخر قد ذهب إلى باطل ، أو أنهم جميعا قد ذهبوا إلى باطل . والذهاب إلى الباطل قد يختلف ، لأن كل باطل له لون مختلف . هل أراد الحق سبحانه وتعالى أن يقول : أنا أنزلت الأديان، ومن رحمتى بخلقى تركت بعضا من الناس يحتفظون بالحق فى ذاته وإن طرأ عليهم أناس يختلفون معهم . ونجد المثال لذلك فى اليهود ، عندما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم . لقد اختلفوا ، وأسلم منهم أناس وآمنوا برسالة النبى الخاتم ، بينما

الآخرون لم يسلموا ، ومن أسلم هم الذين كانوا على الحق ، ومن رحمة الله تعالى أنه جعل الذين علموا برسالة رسول الله أن يعلنوا البشارة فى كتبهم ولم يكتموا ذلك العلم بل أعلنوا الإيمان ، بينما أصر البعض الآخر على كتمان ما جاءهم من العلم وأصروا على الإنكار . إن الذين أسلموا هم الذين ينطبق عليهم قول الشاعر :

إن الـذى جعـل الحقيقـة علقـما

لم يخـل من أهـل الحقيقـة جيـلا

وإذا كان الله قد عصم الأجيال المتتالية من أمة الإسلام بأن حفظ لنا القرآن . ففى الأديان الأخرى كان هناك أناس من أهل الحقيقة ، وأنصفهم الله :

﴿ لَيْسُواْ سَوَآءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَـٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَـٰتِ اللَّهِ ءَانَآءَ الَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَـٰرِعُونَ فِى الْخَيْرَٰتِ وَأُوْلَـٰٓئِكَ مِنَ الصَّـٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

لقد أنصفهم الله حق الإنصاف ، والذين آمنوا برسول الله من أتباع تلك الديانات قد اهتدوا إلى الحق ، واختلفوا مع غيرهم وقول الحق : « أوتوا الكتاب » هذا القول يقتضى أن نقف عند « أوتوا » ونقف عند « الكتاب » وقفة أخرى ، إن قول الحق « أوتوا » أى أن شيئا قد جاء إليهم من جهة أخرى . إذن فالكتاب ليس من أفكار البشر ، لأن المنهج لو كان من أفكار البشر لكان من الممكن أن يختلفوا فيه أو حوله ، وبناء « أوتوا » للمفعول يجعلنا نسأل : من الذى آتاهم الكتاب ؟ إنه الله سبحانه وتعالى ، والحق سبحانه وتعالى لا يأتى بمختلف فيه .

ومادام الكتاب من عند الله فلا يمكن أن يوجد فيه خلاف . يقول الحق :

﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا ﴾

(من الآية ٨٢ من سورة النساء)

وكأن الله ينبهنا بذلك القول إلى أن كل شيء ينبت من البشر للبشر ، فلابد أن تحدث فيه خلافات . إنما الشيء عندما يأتى من الواحد الأحد لا يمكن أن يحدث فيه خلاف أبدا . لا يمكن أن يحدث خلاف فيما اتحد فيه المصدر والمنبع إلا إن وجدت ـ بضم الواو وكسر الجيم ـ أشياء زائدة عن ذلك ، وهذه الأشياء الزائدة هى أهواء الذين يقولون : إنهم منسوبون إلى الله .

إذن فالحق سبحانه وتعالى يوضح لنا أن الكتاب لم يأت إليهم من بشر مثلهم ، إنما من إله واحد قادر، وفى هذا تنبيه لأتباع الديانات السابقة. أى إنكم أيها الأتباع لا تتبعون إلا منهج الله ، وحين تتبعون منهج الله الذى جاء به الرسل فأنتم لا تتبعون أحدا من الخلق ، لأن أى رسول أرسل إليكم إنما جاء ليبلغكم بمنهج قادم من ربكم ، ولم يقل لكم أحد من الرسل إن المنهج قادم من عنده والرسول يحمل نفسه على الطاعة والخضوع للمنهج المنزل عليه قبلكم ، وهذه عزة لكم ، ولينتبه جميع الخلق أن المنهج الحق دائما قد أخذه الرسل من الله .

وحين يقول الحق : « الكتاب » فلنا أن نعرف أن كلمة « الكتاب » قد وردت فى القرآن الكريم فى أكثرمن موضع ، إن الحق سبحانه وتعالى يسمى القرآن مرة « قرآنا » لأنه يقرأ ، ويسميه الحق أيضا « الكتاب » وذلك دليل على أنه يُكتب ، وحين نقول : إن القرآن من (القراءة) فهذا يعنى أن نبرز ما فى الصدور بالقراءة ولكن ما فى الصدور قد تلويه الأهواء ؛ لذلك يحرس الحق قرآنه بما فى السطور ولذلك فالقرآن مقروء ومكتوب .

وعندما يقول الحق (من أهل الكتاب) ، فإن ذلك تنبيه لنا أن الكتاب هو منهج مكتوب ، أى لم يتم وضعه فى الصدور ونسيته النفوس ، لا ، إنه منهج مكتوب ، هكذا حدد الحق أمر المنهج السابق على القرآن ، إنه مكتوب ، فإن لعبت أهواء النفوس كما لعبت ، فإن ذلك يعنى تحريف الكلم عن مواضعه . ولنا أن ننتقل الآن إلى معرفة « العلم » : ما هو العلم ؟ إن العلم هو أن تدرك قضية وهذه القضية واقعة فى الوجود تستطيع أن تقيم الدليل عليها ، وغير ذلك من القضايا لا يصل إلى مرتبة العلم لأنه لا يستطيع أحد أن يدلل عليه .

مثال ذلك : نحن نقول : « الأرض كروية » إن كروية الأرض هى نسبة

حدثت ، ونقولها ونحن جازمون بها . والسابقون لنا فى عصور سابقة قال بعضهم : « إن الأرض مسطحة » ، وحاول أن يجد من الأسباب ما يقيم الدليل على ذلك ، ولكن الذين أقاموا الدليل على أن الأرض كروية كانوا صادقين بالفعل . وفى العصر الحديث صارت كروية الأرض أمرا مرئيا من سفن الفضاء ، وغيرها من الوسائل ، ونحن نعرف أنه « ليس مع العين أين » إن الكروية بالنسبة للأرض ، هى نسبة ، نقولها ونجزم بها ، والواقع أنها كذلك ، ونستطيع أن نقيم على ذلك الدليل .

هذا هو العلم المستوفى ، إن فساد الناس أنهم يأتون إلى قضية لم تصل إلى هذه المرتبة ويسمونها « علما » كقولهم : إن الإنسان أصله قرد ، لا ، إن أحدا لا يستطيع الجزم بذلك ، وتلك قضية ليست من العلم ، إن كلمة « علم » تطلق على القضية المجزوم بها ؛ وهى واقعة فى الوجود ، ونستطيع أن ندلل عليها ، وإذا كانت القضية مجزوما بها ؛ وواقعة فى الوجود ، ولكنك لا تستطيع أن تدلل عليها ، فماذا تسمى هذه القضية ؟ هذا ما يطلق عليه « تقليد » تماما كما يقلد الولد أباه قبل أن ينضج عقله فيقول : « لا إله إلا الله ، الله واحد » . ومثلما يأخذ التلميذ عن أستاذه القضية العلمية ، ولا يعرف كيفية إقامة الدليل عليها ، فهذا نطلق عليه « تقليدا » ، وإلى أن ينضج عقل التلميذ ويحسن استيعابه نقول له : ابحث بحثا آخر لتقيم الدليل .

إذن فالتقليد هو قضية مجزوم بها ، وواقعة ، ولا يوجد عليها دليل . وهكذا نعرف أن « العلم » يمتاز عن التقليد بوجود القدرة على التدليل ، لكن إذا ما كانت هناك قضية ومجزوم بها ولكنها ليست واقعة ، فماذا نسمى ذلك ؟ إن هذا هو الجهل . إن الجهل لا يعنى عدم علم الإنسان ، ولكن الجهل يعنى أن يعلم الإنسان قضية مخالفة للواقع ومناقضة له . أما الذى لا يعلم فهو أمىّ يحتاج إلى معرفة الحكم الصحيح ، فالجاهل أمره يختلف ، إنه يحتاج منا أن نخرج من ذهنه الحكم الباطل ؛ ونضع فى يقينه الحكم الصحيح ، وهكذا تكون عملية إقناع الجاهل بالحكم الصحيح هى عملية مركبة من أمرين ، إخراج الباطل من ذهنه ، ووضع الحكم الصحيح فى يقينه .

ولذلك فنحن نجد أن تعب الناس يتأتى من الجهلاء ، لا من الأميين ؛ لأن الجاهل هو الذى يجزم بقضية مخالفة للواقع ومناقضة له ، أما الأمىّ فهو لا يعرف ، ويحتاج

إلى أن يعرف . وماذا يكون الأمر حين تكون القضية غير مجزوم بها ، وتكون نسبة عدم الجزم ، مساوية للجزم ؟ هنا نقول : إن هذا الأمر هو الشك ، وإن رجح أمر الجزم على عدم الجزم فهذا هو الظن ، وإن رجح عدم الجزم يكون ذلك هو الوهم .

إذن فوسائل إدراك القضايا هى كالآتى : أولا : علم . ثانيا : تقليد . ثالثا : جهل . رابعا : شك . خامسا : ظن . سادسا : وهم . والعلم هو أعلى المستويات فى إدراك القضايا . ولذلك نجد أن الحق يحدد لنا على ماذا اختلف الذين أوتوا الكتاب ، لقد اختلفوا من بعد ما جاءهم العلم . ولم يقل الحق : إنهم اختلفوا بعد ما جاءهم التقليد أو الظن ، أو الجهل أو الشك ، إنما قال الحق : إنهم قد اختلفوا من بعد ما جاءهم الاستيفاء الكامل ، وهو العلم . ومادام هناك أمر قد جاء من القائم بالقسط والإله الواحد ، فالمسألة القادمة منه وهى الحق قد وصلت إلى مرتبة العلم .

إذن ، ففيم الاختلاف ؟ لابد أن أمرا ما قد جدّ . والذى يجدُّ إنما هو قادم من الأغيار ، وهى الأهواء ، ولذلك يحدد لنا الحق هذا الأمر بقوله : « بغيا بينهم » . ما البغى ؟ البغى هو طلب الاستعلاء بغير حق . إذن فطلب الاستعلاء ليس ممقوتا فى ذاته ، لأن طلب الاستعلاء هو قضية الطموح فى الكون . وأن يطلب إنسان الرفعة فيجد ويجتهد ، ويبذل العرق ليصل إلى مكانة علمية أو غيرها ، فهذا حق طبيعى ، ونحن نعرف أن العالم قد ارتقى بالطموحات الإنسانية ، إن العالم لو اكتفى وثبت عند الذى وصل إليه فى جيل ما ، فإن العالم يحكم على نفسه بالجمود . ولكن الناس طورت فى العالم الذى نحياه بجهد بذله البعض منهم فى قضايا نافعة ، ثم حاولوا أن يرتقوا بها ونالوا حقهم من التقدير ، وارتفعوا بالعلم بجهد حقيقى بذلوه ، وبدراسة لما بذله السابقون عليهم .

إذن فطلب الاستعلاء فى حد ذاته غير ممقوت ، بل محمود مادام قائما على الجهد . لكن أن يطلب الإنسان الاستعلاء بغير حق ، فهذا هو البغى . لقد أثبت الله لنا فى هذه الآية ، أن كل خلاف بين رجال دين ، أو بين دين ودين ، إنما مرجعه إلى نشوء البغى ، ونشوء البغى هو طلب رجال دين الاستعلاء بغير حق . ومظاهر طلب الاستعلاء بغير حق هو إعطاء الفتاوى التى توافق أمزجة القوم ، وتخالف ما أنزله الحق .

إن الواحد من هؤلاء يدعى لنفسه التحضر ، ويعطى من الفتاوى ما يناقض الذى أنزله الله ، ويدعى أنه يأخذ الدين بروح العصر ، ويدعى لنفسه عدم الجمود ، ويذهب إلى حد اتهام المتمسكين بدينهم بأنهم متخلفون ، والهدف الذى يختبىء فى صدر مثل هذا الإنسان هو الاستعلاء فى قومه بغير الحق ، ويجب أن نفهم أن كل خلاف بين أهل دين واحد ، أو بين دين ودين ، منبعه قول الحق : « بغيا بينهم » . وهذا يعنى اتباع البعض للهوى النابع من بينهم ولم ينزله الله .

لماذا ؟ لأن الله سبحانه وتعالى إمّا أن ينزل حكما محكما لا رأى فيه لأحد ، ولا يستطيع أحد أن ينقضه ، وإما أن ينزل الله حكما قابلا للفهم والاجتهاد . ولم يجعل الله الأحكام كلها من لون واحد ، إنما جعل الأحكام على لونين ، وذلك حتى يحترم الإنسان ما وهبه الخالق له من عقل ، ويجعل له مهمة ، فيأتى بقضية ويبحثها ويرجح سببا على سبب . وفى ذلك استخدام من الإنسان لعقله ، إنها رحمة من الله حتى لا يجمد العقل الإنسانى .

إذن فإذا رأيت أى خلاف بين رجال دين أو بين دين ودين فاعلم أن القول الفصل فى هذا الأمر هو ما عبر عنه القرآن : « بغيا بينهم » فمن البغى يهب الهوى الذى تنشأ منه الأعاصير ، إن من يحب الاستعلاء بغير الحق هو الذى يحاول البغى فيدعى لنفسه أنه أرقى فى الفكر ، أو يستعلى عند من يملكون له أمرا ، أو يستعلى عندما يوافق حاكما فى رأى من الآراء ، ويبرر للحاكم حكما من الأحكام .

إن كلمة « بغيا بينهم » يدخل فى نطاقها كل موجات الخروج عن منهج الله ، والتى نراها فى الكون ، والرسول صلى الله عليه وسلم قد أعطانا المناعة ضد الأمراض النفسية الناشئة عن البغى ، مثلما يعطى المعاصرون المصل ضد أمراض البدن التى تفتك بالإنسان ، وحتى لا تفاجئنا أمراض البغى ، نجد الرسول يعطينا المناعة

فيقول لنا صلى الله عليه وسلم : (البر حسن الخلق ، والإثم ما حاك فى صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس)[1] .

ويحذرنا الرسول صلى الله عليه وسلم من ذلك كما فى الحديث التالى :

---

(١) رواه البخارى فى الأدب المفرد ومسلم والترمذى .

فيقول صلى الله عليه وسلم : (البر ما سكنت إليه النفس واطمأن إليه القلب ، والإثم ما لم تسكن إليه النفس ولم يطمئن إليه القلب وإن أفتاك المفتون)[1] .

إن الرسول صلى الله عليه وسلم يحذرنا ليوضح لنا أن أهل البغى لهم لجاج فى أن يقولوا ويصدروا الفتاوى ، وما معنى الإفتاء الذى يحذرنا منه رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ هل هو مجرد رأى ؟ أم هو رأى يأتى من إنسان معروف عنه أنه مشتغل بعلم الله وبالأحكام ؟ إن الرسول صلى الله عليه وسلم ينبهنا إلى ذلك مناعة لنا . فقد يصبح أصحاب الحق قلة ، وليس لهم نصيب فى إيصال رأيهم للناس ، أو أن الذين يملكون الكلمة الإعلامية ليسوا مع أصحاب الحق بل فى جانب رجل يساير الباطل أو الركب .

وهنا نرى أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد أعطانا المناعة حتى لا ييأس المتمسكون بالحق ، فأمر الدين لن يمر رخاء ، أو بسلام دائم ، بل سنجد قوما يفسرون أحكام الدين بغيا بينهم ، ويلوون الأشياء ، لذلك أوضح لنا أن المؤمن حَكَمٌ فى نفسه ، ويحذرنا من الذين يفتون بالبغى ، إن الافتاء يحتاجه الناس من الذى يعلم ، ولذلك جاءت كلمة « يستفتونك » أكثر من مرة فى القرآن الكريم ، لأن الذين يطلبون الفتوى هم الذين يحتاجون إلى توضيح لأمر ما ، لأنهم مشغولون بقضية الإيمان ، ولذلك فالنبى صلى الله عليه وسلم يحذرنا من الذين يحاولون إلقاء الفتاوى ، ويحذر كل مؤمن من أن يستمع لكل فتوى .

ويقول الحق : « ومن يكفر بآيات الله » . إذن فمن هو الذى يكفر بآيات الله ؟ وفى أى مجال ؟ إن الكفر بآيات الله هنا محدد فى الاختلاف ، وفى البغى بينهم ، أى طلب الاستعلاء بغير حق ، وسمى الحق كل ذلك « كفرا » والمراد منه هنا التنبيه لنا ألا نستر أحكام الله بالاختلاف أو البغى ، وجاء التحذير فى تذييل الآية بقوله : « فإن الله سريع الحساب » . فإياك أن تستطيل أمر الجزاء وتقول : سأستمتع بنتيجة البغى والاختلاف لخدمة من يهمهم أمر الاختلاف ، ويهمهم أمر البغى ، لأنك تريد أن تتعجل أشياء تظن أنها نافعة لك ، لكن ها هو ذا الحق سبحانه يحذرك أن تستبطىء حسابه ، لماذا ؟ لأنه من الجائز أن يأتى لك الحساب من الله فى الدنيا ،

---

(١) رواه أحمد .

وهب أن الله لم يبتل مثل هذا الإنسان ببلاء كبير فى الدنيا فإن هذا الإنسان سيكون له الحساب العسير فى الآخرة .

وقد يقول قائل : إن الحساب فى الدنيا قد يؤجله الله إلى الآخرة ، والعلامات الصغرى للقيامة نحن فى مراحلها ، ومازالت العلامات الكبرى ليوم القيامة لم تظهر . لمثل هذا القائل نقول : هناك فرق بين الحدث فى ذاته ، وبين الحدث فيمن يجرى عليه الحدث . هناك فرق بين أن تقوم القيامة على الناس جميعا ، وبين أن تختصر حياة الإنسان بحادثة ليست فى حسبانه ، فقد يفتى الإنسان فتوى اليوم ، وتأتى له حادثة فورية تنقله فجأة إلى سريع الحساب ، فإن استبطأ إنسان الحساب ، فعليه أن يعرف أن الآخرة قد تجىء له أسرع من مسائل الدنيا ، لأن الإنسان لا يملك القدرة على إطالة عمره ، ومفتاح العمر عند الخالق الأكرم ، وهو الذى يملك القدرة على أن ينقل إليه من يريد فى أى وقت . وهكذا تكون الآخرة بالنسبة للمستبطىء للحساب أسرع من حساب الدنيا ، وكلمة « حساب » كلمة تطمئن المؤمن إلى أن الله قائم بالقسط لا يتخلى حتى عمن كفر به أو عصاه ، إن كل إنسان يأخذ ماله ويدفع ما عليه ، ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَـٰبَ وَالْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَـٰغُ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌۢ بِالْعِبَادِ ﴿٢٠﴾ ﴾

« فإن حاجوك » هذا القول يدل على أن الحق سبحانه وتعالى يلقى منهجه على الرسول الخاتم ، ويعطيه الواقع الذى يحيا فيه ، لقد جابه الرسول صلى الله عليه وسلم ثلاثة معسكرات . المعسكر الأول : هم مشركو قريش ، وكان كفرهم فى القمة . والمعسكر الثانى : هو معسكر اليهود والنصارى ويجمعهم معا لأنهم أهل كتاب . والمعسكر الثالث : هو معسكر المنافقين . والمحاجّة قد أتت من المعسكر

الثانى ، لأن كفار قريش لم يدعوا أن عندهم دينا قد نزل من السماء ، أما أهل الكتاب فهم يدعون أن عندهم دينا منزلا من السماء ، وعندما يناطح الشرك دينا فهذا أمر معقول ، أما أن يناطح أهل دين نزل من السماء رسولا جاء بدين خاتم من السماء . فهذا أمر يستحق أن نتوقف عنده .

ومعنى « فإن حاجوك » أى أنهم يحاججون الرسول صلى الله عليه وسلم وتم إدغام الحرفين المتشابهين وهما حرفا « الجيم » حتى لا تصبح ثقيلة على اللسان . ومعنى المحاجة : أن يدلى كل واحد من الخصمين بحجته . وهذا يعنى النقاش ، ومادام هناك نقاش بين حق وبين باطل ، فإن الله لا يترك الرسول صلى الله عليه وسلم ، بل يقول له : « فإن حاجوك » أى إن ناقشوك فى أمر الإسلام الذى جئت به كدين خاتم مناقض لوثنية أو شرك قريش ومناقض لما قام أهل الكتاب بتغييره من مراد الله فقل يا محمد : « أسلمت وجهى لله » وقد قلنا من قبل : إننا عندما نسمع قول الحق : « فقل » كان من الجائز أن يكتفى رسول الله صلى الله عليه وسلم بمقول القول ، وضربنا مثلا على ذلك ، حين يقول الأب لابنه : اذهب إلى عمك وقل له : كذا وكذا . وساعة أن يذهب الابن إلى العم فيقول له : الأمر كذا ، وكذا . إن الابن لا يقول لعمه : قل لعمك كذا وكذا . . لكن الرسول صلى الله عليه وسلم قد حافظ على النص الذى جاءه من ربه لأن النص واضح . « فإن حاجوك فقل أسلمت وجهى لله » فهل هذا رد بالحجة ؟ نعم هذا هو الرد ، لأن أهل الكتاب وكفار قريش يأتى فيهم القول :

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾ ﴾

(سورة الزخرف)

ويأتى فيهم القول الحكيم :

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾

(سورة الزخرف)

والكون كما نعرف « مكان » و« مكين » فالمكان : هو السماء والأرض . والمكين وهو الإنسان . والمكان مخلوق لله ، والمكين مخلوق لله . وكان من المنطق

أن نسلم وجهنا لمن خلق .

إذن فقول الحق : « فقل أسلمت وجهى لله » أى انتبهوا أيها الناس ، إننى لم أخرج عن دائرة الإيمان بالإله الواحد ، الذى تؤمنون به . إنه هو الذى خلق وهو الذى أوجد الكون . وبعد ذلك إذا كان فى الإسلام خضوع ، فإن الحق يأتى بأشرف شىء فى الإنسان ليجعله مظهر الخضوع . لأن الوجه هو السمة العالية المميزة ، وهو الذى يظهر عليه انفعالات الأحداث فى الكون من سرور أو حزن ، ويظهر عليه أنك قد تكون قد سجدت وأنت كاره للسجود ، أو سجدت وأنت مقرب لله سبحانه وتعالى فيمتلىء الوجه بالبشر والبشاشة .

وقول الحق : « أسلمت وجهى لله » . تعنى أن الوجه المسلم لله وهو أشرف شىء فى الإنسان قد خضع للحق ، وكأن القول الكريم لم ينسب الخضوع للبدن ولكن لأشرف شىء فى الإنسان وهو الوجه ، والوجه يطلق مرة ويراد به الذات كلها ، فعندما يقول إنسان : « أسلمت وجهى » فهو يعنى « أسلمت ذاتى » بكل ما أوتيت الذات من جوارح ومن أعضاء . ولنقرأ قول الحق سبحانه :

﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾

(من الآية ٨٨ من سورة القصص)

أى كل شىء هالك إلا ذاته سبحانه وتعالى ، هذا هو المقصود بـ « إلا وجهه » وإلا إن أخذنا الوجه على أنه الوجه فقط فقد يقول قائل : أليس لله يد مثلا ؟ ونقول : إن له يدا فى نطاق ليس كمثله شىء ، ولذلك فلا يد الله تهلك ولا أى شىء فيه يهلك ، ووجهه يعنى ذاته فى نطاق ليس كمثله شىء . وأطلق الوجه على الذات ، لأن الوجه هو المشخص للذات ، فلا يستطيع أحد أن يميز أعضاء بدن عن أعضاء بدن ، إنما التمييز يأتى بسمة الوجه ، لأنها السمة المميزة،وقول الحق فى تلقينه لرسول الله : « فقل أسلمت وجهى لله ومن اتبعن » . تدل على أن الرسول قد أسلم وجهه لله ، لأن الله خاطبه بوساطة الوحى ، والوحى يباشره صلى الله عليه وسلم،ولكن حين يقول : « ومن اتبعن » فقد قام الدليل لمن اتبعنى ، وإن لم يكن مخاطبا من الله مباشرة .

إذن فلا مجال لأن يقول قائل للرسول صلى الله عليه وسلم : أنت أسلمت وجهك لله لأنه خاطبك وحدك ، وكأن صاحب هذا القول يريد خطابا لكل مؤمن ، قال سبحانه : « ومن اتبعن » فمن اتبع الرسول فقد آمن بأن محمدا صلى الله عليه وسلم هو رسول صدق مبلغ عن الله منهج حق ، فلا مجال لطلب البلاغ لكل فرد ؛ لأن البلاغ قد وصل إليهم بالإيمان بما أنزله الله على رسوله الكريم ويأمر الحق سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم « وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم » .

وساعة تقرأ أو تسمع أسلوبا فيه « همزة الاستفهام » فلك أن تعرف أن الاستفهام يُطلب منه أن تعرف الحقيقة ، كقول إنسان لآخر : أعندك محمد ؟ أو أزارك فلان ؟ إن هذا استفهام المراد به فهم الحقيقة ، ومرة يريد الاستفهام مجرد الأمر بشيء ، كأن يأتيك ضيف وتجلس معه ويدخل عليك والدك فيقول لك : أصنعت قهوة لضيفك ؟ إن ذلك توجيه لك إن كنت لم تقم بواجب الضيافة فعليك أن تسرع فى القيام بهذا الواجب . وعلى ذلك نفهم قول الحق : « أأسلمتم » ولذلك نقرأ قول الحق سبحانه بعد الكلام عن الخمر :

﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾ ﴾

(سورة المائدة)

إن قول الحق : « فهل أنتم منتهون » يتضمن استفهاما ، والاستفهام هنا يعنى الأمر بالانتهاء . وفى مجال الآية التى نتعرض لها بالخواطر نجد قول الحق : « أأسلمتم » تعنى الدعوة للإسلام ، أى « أسلموا » وجاء بعد ذلك قول الحق الكريم : « فإن أسلموا فقد اهتدوا » ومعنى « اهتدوا » أنهم عرفوا الطريق الموصل للغاية التى خلق الله من أجلها الإنسان . وهنا يجب أن نعلم أن كلمة « الإسلام » هنا جاءت لتدل على الخضوع ، والخضوع لايلمح إلا من خاضع ، وعملية الخضوع تعرف بالحركة والسلوك ، ولا تعرف فقط بالاعتقاد ، ولذلك فالإمام على كرم الله وجهه الذى أوتى شيئا من نفح النبوة فى الأداء الإيمانى بالأسلوب البيانى الجميل قال الإمام علىّ لإخوانه : سأنسب الإسلام نسبا لم ينسبه قبلى أحد : الإسلام هو اليقين ، واليقين هو التصديق ، والتصديق هو الإقرار ، والإقرار هو الأداء ، والأداء

هو العمل ، والمؤمن يُعرف إيمانه بالعمل . ونحن فى حياتنا العادية نسأل : ما نسب فلان ؟

أى أننا نسأل « هو ابن مَن » ؟ ومعنى كلمة « نسابة » عند العرب هو الرجل الذى يعرف سلسلة النسب ، ومَن ابن مَن ، ففلان ابن فلان ابن فلان ، ابن فلان . والإمام علىّ كرم الله وجهه ، حين ينسب الإسلام ينسبه بالفعل إلى نسب لم ينسبه قبله أحد . وحين ينتهى الإمام علىّ كرم الله وجهه إلى أن نسب الإسلام إلى العمل قال :

المؤمن يعرف إيمانه بالعمل ، فالدليل الصحيح على إيمان المؤمن هو عمله . ويضيف الإمام علىّ كرم الله وجهه : والكافر يُعرف كفره بالإنكار ، وإن المؤمن قد أخذ دينه من ربه ، ولم يأخذه برأيه . والسيئة فى الإسلام خير من الحسنة فى غيره ؛ لأن السيئة فى الإسلام تغفر ، والحسنة فى غيره لا تقبل ؛ لأن الكفر يصاحبها بالله ، هل هناك نسب للإسلام أروع من هذا ؟ وهكذا نجد القول الكريم : « فإن أسلموا فقد اهتدوا » . والمقابل للإسلام يأتى بعد ذلك : « وإن تولوا فإنما عليك البلاغ » إن المقابل هو « تولوا » أى لم يسلموا ، إنه الحق ينبه رسوله ألا يحزن ، وألا يأسف إن تولوا ، كما جاء فى قوله الكريم :

﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ۝٦ ﴾

(سورة الكهف)

لماذا ؟ لأن الرسول صلى الله عليه وسلم عليه البلاغ فقط ، ومادام قد جاء فى صدر الآية : « أسلمت وجهى لله ومن اتبعن » فإن البلاغ أيضا يشمل النبى صلى الله عليه وسلم ومن اتبعه ، ولذلك تأتى آية أخرى لتشرح هذه القضية الإيمانية، ولتبقى الرسالة فى أمته صلى الله عليه وسلم ، ولتخبرنا أيضا لماذا لم يعد هناك داع لوجود أنبياء بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ذلك أن المؤمنين برسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم أمناء على أن يعدلوا فساد السلوك فى الكون ، فلم يعد العالم فى حاجة إلى أنبياء جدد،ولهذا السبب قال الرسول : صلى الله عليه وسلم : (العلماء ورثة الأنبياء)[1] .

---

(١) رواه الإمام أحمد فى مسنده وأبو داود والترمذى وصححه ابن حيان والحاكم .

إذن « فعليك البلاغ » نأخذ منها الفهم الواضح أن البلاغ لا تنتهى مهمته عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إنما يشمل كل عالم بالبلاغ الذى وصل إلى رسول الله وآمن به ، فقد كان لهم فى رسول الله أسوة حسنة ، ويوضح الحق ذلك فى آية أخرى :

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۗ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

ويقول الحق فى آية أخرى :

﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ۚ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ ۖ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴿٧٨﴾ ﴾

(سورة الحج)

ومعنى ذلك أنكم تشهدون على الناس أنكم أبلغتموهم رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فمن لم يقم بإبلاغ الناس برسالة رسول الله فهو لم يأخذ ميراث النبوة . وميراث النبوة كما يكون شرف تبليغ ، فهو أيضا تجلّد وتحمل ، إن ميراث النبوة يكون مرة هو نيل شرف التبليغ لرسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومرة أخرى يكون ميراث النبوة هو جلادة التحمل فى سبيل أداء الرسالة ، وجلادة التحمل هى التى يجب أن يتصف بها أتباع محمد صلى الله عليه وسلم ، فكما ورثناه نحن المسلمين فى شرف النبوة فإننا نرثه فى جلادة التحمل ، وهذا هو معنى القول الحق :

﴿ لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ۚ ﴾

(من الآية ٧٨ من سورة الحج)

فما معنى الأسوة إذن ؟ إن الأسوة فى رسول الله صلى الله عليه وسلم تقتضى أنه مادام قد تحمل بجلادة بلاغ الناس فى رسالته ، فعلينا أيضا أن نقتدى به . لقد ناضل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعلى أتباع رسول الله أن يناضلوا فى سبيل نشر الدعوة ، فإن رأيت أهل الدين فى استرخاء وترهل وعدم قدرة على النضال فى سبيل البلاغ عن الله فلتعلم أن هؤلاء القوم لم يأخذوا ميراث النبوة . ولذلك إذا رأيت عالما من علماء الإسلام ليس له أعداء فأعلم أنه قد نقص ميراثه من ميراث الأنبياء .

لماذا ؟ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان له أعداء وكان يواجههم ، فساعة أن ترى رجل دين وله أعداء فاعرف أنه قد أخذ حظه من ميراث الأنبياء ولننظر الآن إلى قول الحق سبحانه تذييلا للآية يوضح لنا ما الإسلام : « والله بصير بالعباد » لم يقل الله : إنه عليم بالعباد ، لأن « عليم » تكون للأمور العقدية ، لقد قال الحق فى وصف ذاته هنا : « إنه بصير بالعباد » ، والبصر لا يأتى إلا ليدرك حركة وسلوكا . فماذا يرى الله من العباد؟ إنه ـ سبحانه ـ يرى العباد المتحركين فى الكون، وهل حركة العبد منهم تطابق الإسلام أولا ؟ ومتابعة الحركة تحتاج إلى البصر ، ولا تحتاج إلى العلم ، وكأن الحق سبحانه وتعالى يقول : إن كنتم تعتقدون أنى لا أراكم ، فالخلل فى إيمانكم ، وإن كنتم تعتقدون أنى أراكم فلمَ جعلتمونى أهون الناظرين إليكم ؟

إذن فقول الحق : « والله بصير بالعباد » نفهم منها أن الإسلام سلوك لا اعتقاد فقط ، لأن الذى يُرى هو الفعل لا المعتقدات الداخلية . ومادام الله بصيرا بكل سكنات الإنسان وحركاته فإن الإنسان يستحى أن يراه ربه على غير ما يحب ، وأضرب هذا المثل للتقريب لا للتشبيه فالحق سبحانه له المثل الأعلى وليس كمثله شيء ، نحن فى حياتنا العادية نجد أن الشاب الذى يدخن يستحى أن يظهر أمام كبار عائلته كمدخن ، فيمتنع عن التدخين أثناء تواجده مع الكبار ، فما بالنا بالعبد وهو يعتقد أن الله يراه ؟ وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ ﴾

وقلنا إن الحق حين يقول : « إن الذين يكفرون بآيات الله » هم الذين يكفرون بآيات الله على إطلاقها ، وهناك فرق بين الكفر بآيات الله وبين الكفر بالله . لماذا ؟ لأن الإيمان بالله يتطلب البينات التى تدل على الله ، والبينات الدالة على وجود الله موجودة فى الكون .

إذن فالبينات واضحة ، إن الذى يكفر بالله يكون قبل ذلك كافرا بالأدلة التى تدل على وجود الخالق . إن الحق لم يقل هنا : إن الذين يكفرون بالله ، وذلك حتى يوضح لنا أنّ الحق غيب ، ولكن الآيات البينات ظاهرة فى الكون ، لذلك قال : « إن الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين » . ولنا أن نلاحظ هنا ، أن كلمة القتل تأتى دائما للنبيين ، أى أنها لا تأتى للذين أخذوا صفة تزيد على مهمة النبى ، وهو الرسول ، فليس من المعقول أن يرسل الله رسولا ليبلغ منهجا لله ، فيُقدر الله خلقَه على أن يقتلوا الرسول . لكن الأنبياء يرسلهم الله ليكونوا أسوة سلوكية للمؤمنين ، ولا يأتى الواحد منهم بتشريعات جديدة ، أما الرسول فإن الله يبعثه حاملا لمنهج من الله . وليس من المعقول أن يصطفى الله عبدا من عباده ويستخلصه ليبلغ منهجه ، ويُمَكّن الله بعد ذلك بعضا من خلقه أن يقتلوا هذا الرسول .

إن الخلق لا يقدرون على رسول أرسله الله ، لكنهم قد يقدرون على الأنبياء ، وكل واحد من الأنبياء هو أسوة سلوكية ، ولذلك نجد أن كل نبىّ يتعبد على دين الرسول السابق عليه ، فلماذا يقتل الخلق الأسوة السلوكية مادام النبىّ من هؤلاء قد جاء ليكون مجرد أسوة ، ولم يأت بدين جديد ؟ فلو كان النبى من هؤلاء قد جاء بدين جديد ، لقلنا : إن التعصب للدين السابق عليه هو الذى جعلهم يقتلونه ،

لكن النبىّ أسوة فى السلوك ، فلماذا القتل ؟ إن النبى من هؤلاء يؤدى من العبادة ما يجعل القوم يتنبهون إلى أن السلوك الذى يفعله النبىّ لا يأتى وفق أهوائهم .

إن القوم الذين يقتلون النبيين هم القوم الذين لا يوافقون على أن يسلكوا السلوك الإسلامى الذى يعنى إخضاع الجوارح ، والحركة لمنطق الدين ولمنطق الإسلام ، لماذا ؟ لأن النبىّ وهو ملتزم بشرع الرسول السابق عليه ، حينما يلتزم بدين الله بين جماعة من غير الملتزمين يكون سلوكه قد طعن غير الملتزمين .

إن وجود النبىّ الذى يتمسك بشرع الله ، ويخضع جوارحه ، وسلوكه لمنهج الله بين جماعة تدّعى أنها تدين بدين الله ، ولكنها لا تتمسك بمنهج الله تحملهم إلى أن يقولوا : لماذا يفعل النبى هذا السلوك القويم ، ولماذا يخضع جوارحه لمنطق الإيمان ، ونحن غير ملتزمين مثله ؟ وهذا السؤال يثير الغيظ والحقد على النبىّ بين هذه الجماعة غير الملتزمة بدين الله ، وإن أعْلنت فى ظاهر الأمر التزامها بالدين . إنهم يحقدون على النبىّ لأنه يرتفع بسلوكه المسلم ، وهم لا يستطيعون أن يرتفعوا ليكونوا مثله .

إن النبىّ بسلوكه الخاضع لمنهج الله يكون أسوة واضحة جلية يظهر بها الفرق بين مجرد إعلان الإيمان بمنهج الله ، وبين الالتزام السلوكى بمنهج الله ، وتكون أسوة النبىّ مُحقرة لفعلهم ، ولذلك حين نجد إنسانا ملتزما بدين الله ومنهجه ، فإننا نجد غير الملتزم ينال الملتزم بالسخرية والاستهزاء ، لماذا ؟ لأن غير الملتزم يمتلىء بالغيظ والحقد على الملتزم القادر على إخضاع نفسه لمنهج الله ، ويسأل غير الملتزم نفسه :

لماذا يكون هذا الإنسان قادرا على نفسه مخضعا لها لمنهج الله وأنا غير قادر على ذلك ؟ إن غير الملتزم يحاول إزاحة الملتزم وإبعاده من أمامه . لماذا ؟ لأن غير الملتزم يتضاءل فى نظر نفسه ونظر الآخرين . إذا ما قارن نفسه بالملتزم بمنهج الله ، وعندما يقارن الآخرون بين سلوك الملتزم بمنهج الله وسلوك غير الملتزم بمنهج الله فهم لا يحترمون غير الملتزم ، فيشعر بالصغار النفسى أمام الملتزم وأمام الناس . فيحاول غير الملتزم أن يزيح الملتزم وينحيه عن طريقه ، إن غير الملتزمين بمنهج الله يسخرون ويتغامزون على الملتزمين بمنهج الله ، كما يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾

(سورة المطففين)

ألا توضح لنا تلك الآيات البينات ما يقوله غير الملتزمين فى بعض مجتمعاتنا للملتزمين بمنهج الله ؟ ألا نسمع قول غير الملتزمين للملتزم بمنهج الله : « خذنا على جناحك » ؟ إن هؤلاء غير الملتزمين ينطبق عليهم قول الحق :

﴿ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ ﴿٣٢﴾ ﴾

(سورة المطففين)

إن غير الملتزمين قد يفرح الواحد منهم ، لأنه استطاع السخرية من مؤمن ملتزم بالله . وقد يتهم غيرُ الملتزمين إنسانا ملتزما بأن الالتزام ضلال . والحق سبحانه وتعالى يرد على هذا الاتهام بالقول الكريم :

﴿ وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾

(سورة المطففين)

الحق يرد على الساخرين من الملتزمين بمنهج الله ، فيضحك الذين آمنوا يوم القيامة من الكفار ، ويتساءل الحق بجلال قدرته وتمام جبروته :

﴿ فَالْيَوْمَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾

(سورة المطففين)

هكذا ينال غير الملتزمين عقابهم ، فماذا عن الذين يقتلون النبيين بغير حق ؟ إن لنا أن نسأل : لماذا وصف الله قتل النبيين بأنه « بغير حق » ، وهل هناك قتل لنبىّ بحق ؟ لا يمكن أن يكون هناك قتل لنبىّ بحق ، وإذا كان الله قد قال : « ويقتلون النبيين بغير حق » هذا القول الكريم قد أتى ليوضح واقعا ، إنه سبحانه يقول بعد ذلك فى سلسلة أعمال هؤلاء الذين يقتلون النبيين بغير حق : « ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس » إنهم لم يكتفوا بقتل النبيين ، بل يقتلون أيضا من يدافع من المؤمنين عن هذا النبىّ كيف ؟ لأنه ساعة يُقتل نبىّ ، فالذين التزموا بمنهج النبىّ ، وكانوا معه لابد لهم أن يغضبوا ويحزنوا .

إن أتباع النبىّ ينفعلون بحدث قتل النبىّ ، فإن استطاعوا منع ذلك القتل لفعلوا وإن لم يستطع أتباع النبىّ منع قتل النبىّ فلا أقل من أن يأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر ، لكن القتلة يتجاوز طغيانهم فلا يقتلون النبيين فقط فإذا قال لهم منكر لتصرفهم : ولماذا تقتلون النبيين ؟ فإنهم يقتلونه أيضا ، وبالنسبة لرسولنا محمد صلى الله عليه وسلم ، نحن نعرف أن أعداءه قد صنعوا معه أشياء أرادوا بها اغتياله ، وذلك يدل على غباء الذين فكروا فى ذلك الاغتيال .

لماذا ؟ لأنهم لم ينظروا إلى وضعه صلى الله عليه وسلم ، فلم يكن نبيا فقط ، ولكنه رسول أيضا . ومادام رسولا فهو أسوة وحامل لمنهج فى آن واحد ، فلو كان محمد صلى الله عليه وسلمه نبيا فقط لكان فى استطاعتهم أن يقتلوه كما قتلوا النبيين من قبل ، لكنه رسول من عند الله ، ولقد رأوه يحمل منهجا جديدا ، وهذا المنهج يسفه أحلامهم ، ويوضح أكاذيبهم ، من تبديلهم للكتب المنزلة عليهم .

إذن ، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم رسولا يحمل رسالة ومنهجا ، وحينما أرادوا أن يقتلوه كنبىّ ، غفلوا عن كونه رسولا . ولذلك قال الحق مطمئنا لنا ومحدثا رسوله صلى الله عليه وسلم :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾

(سورة المائدة)

الرسول الكريم إذن حامل رسالة ومعصوم بالله من أعدائه ، والحق سبحانه وتعالى قد حكى عن الذين يقتلون الأنبياء ، وأراد أن يطمئن المؤمنين ، ويطمئن الرسول على نفسه ، وأن يعرف خصوم رسول الله أنه لا سبيل إلى قتله ، فيقول الحق :

﴿ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾

(من الآية ٩١ من سورة البقرة)

ولماذا يأتي الله بـ « من قبل » هذه ؟ إنه يوضح لنا وللرسول ولأعداء محمد صلى الله عليه وسلم أن مسألة قتل الأنبياء كان من الممكن حدوثها قبل رسول الله ، لكن هذه المسألة صارت منتهية ، ولا يجرؤ أحد أن يمارسها مع محمد رسول الله ، وبذلك طمأن الحق المؤمنين ، وطمأن رسول الله بأن أحدا لن يناله بأذى ، ولذلك قال الحق :

﴿ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾

(من الآية ٦٧ من سورة المائدة)

وأيأس الحق الذين يريدون قتل رسول الله فقد قال لهم :

﴿ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ ﴾

(من الآية ٩١ من سورة البقرة)

ولو أن المسألة مسألة نبوة ، ورسالة رسول الله غير داخلة في مواجيدهم ، وكان إنكارهم لرسالته عنادا ، لكانوا قد قالوا : « إن مسألة قتل الأنبياء لا تتوقف عند « من قبل » لأننا سنجعلها « من بعد » أيضا » ، ولكانوا قد كتلوا قواهم وقتلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لكن الله سبحانه أيأسهم وقنطهم من ذلك ، وذلك من مناط قدرة الله . وإذا كان الحق سبحانه وتعالى يحكى عن أمر في قتل الأنبياء ، وقتل الذين يأمرون بالقسط ، أكان ذلك معاصرا لقول الرسول هذا ؟ أو كان هذا الكلام لمن ؟ إنه موجه لبعض من أهل الكتاب ، إنه موجه لمن آمنوا باتباع الذين قتلوا النبيين من قبل ، وقتلوا الذين يأمرون بالقسط ، لقد آمنوا كإيمان السابقين لهم من قتلة الأنبياء ، وقتلهم للذين يأمرون بالقسط .

وهذا تقريع لهؤلاء الذين اتبعوا فى الإيمان قوما قتلوا الأنبياء من قبل ، وقتلوا الذين يأمرون بالقسط ، إنه تقريع وتساؤل . كيف تؤمنون كإيمان الذين قتلوا الأنبياء؟ وكيف تتبعون من فعل مثل ذلك ؟ وقد قص رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أن بنى إسرائيل قد قتلوا ثلاثة وأربعين نبيا دفعة واحدة ، فقام مائة وسبعون من أتباع الأنبياء لينكروا عليهم ذلك ، فقتلوهم[1] ، وهذا هو معنى هذه الآية الكريمة :

﴿ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾

(من الآية ٢١ من سورة آل عمران)

لماذا يبشرهم الحق بعذاب أليم ؟ أليس معنى التبشير هو إخبار بما يسر فى أمد يمكن أن يؤتى فيه الفعل الذى يسر ؟ إن التبشير دائما يكون للفعل الذى يسر ، كتبشير الحق للمؤمنين بالجنة ، ومعنى التبشير بالجنة أن الله يخبر المؤمن بأمر يُسر له المؤمن ، ويعطى الحقّ الفرصة للمؤمن لينفذ منهج الله ليأخذ الجائزة والبشارة .

لماذا يكون الحديث بالبشارة موجها لأبناء الذين فعلوا ذلك ؟ لأننا نعرف أن الذين قتلوا النبيين وقتلوا الذين أمروا بالقسط من الناس لم يكونوا معاصرين لنزول هذه الآية ، إن المعاصرين من أهل الكتاب لنزول هذه الآية هم أبناء الذين قتلوا الأنبياء وقتلوا الذين أمروا بالقسط ، ويبشرهم الحق بالعذاب الأليم ، لأنهم ربما رأوا أن ما فعله السابقون لهم كان صوابا . فإن كانوا قد رأوا أن ما فعله السابقون لهم كان صوابا فلهم أيضا البشارة بالعذاب .

وتتسع دائرة العذاب لهم أيضا ، ولكن لماذا يكون العذاب بشارة لهم ، رغم أن البشارة غالبا ما تكون إخبارا بالخير ، وعملية العذاب الأليم ليست خيرا ؟ إن علينا أن نعرف أنه ساعة نسمع كلمة « أبشر » فإن النفس تتفتح لاستقبال خبر يسر ، وعندما تستعد النفس بالسرور وانبساط الأسارير إلى أن تسمع شيئا حسنا يأتى قول : أبشر بعذاب أليم ، ماذا يحدث ؟ الذى يحدث هو انقباض مفاجىء أليم ، ابتداء مطمع « فبشرهم » وانتهاء مُيْئِس (بعذاب أليم) وهنا يكون الإحساس بالمصيبة أشد؛ لأن الحق لو أنذرهم وأوعدهم من أول الأمر بدون أن يقول :

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير .

« فبشرهم » لكان وقوع الخبر المؤلم هينا . لكن الحق يريد للخبر أن يقع وقوعا صاعقا ، ومثال لذلك قول الحق :

﴿ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾

(من الآية ٢٩ من سورة الكهف)

إنهم يستغيثون فى الآخرة ، ويغاثون بالفعل ، ولكن بماذا يغيثهم الله ؟ إنه يغيثهم بماء كالمهل يشوى الوجوه . إننا ساعة أن نسمع « يغاثوا » قد نظن أن هناك فرجا قادما ، ولكن الذى يأتى هو ماء كالمهل يشوى الوجوه . وهكذا تكون البشارة بالنسبة لمن قتلوا الأنبياء أو لأتباع القتلة الذين آمنوا بمثل ما آمن به هؤلاء القتلة . « فبشرهم بعذاب أليم » وكلمة « عذاب » تعنى إيلام حىّ يحس بالألم . والعذاب هو للحىّ الذى يظل متألما ، أما القتل فهو ينهى النفس الواعية وهذا ليس بعذاب ، بل العذاب أن يبقى الشخص حيًّا حتى يتألم ويشعر بالعذاب ، وقول الحق : « بعذاب أليم » يلفتنا إلى قوله تعالى :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَـٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾ ﴾

(سورة النساء)

أى أن الحق يديم عليهم الحياة ليديم عليهم التعذيب . وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾

إنهم الذين كفروا بآيات الله ، وقتلوا النبيين بغير حق ، وقتلوا الذين أمروا بالقسط بين الناس ، هؤلاء لهم العذاب ، ولهم أيضا حبط العمل فى الدنيا

والآخرة ، وكذلك من نهج نهجهم ، ومعنى « حبطت » أى لا ثمرة مرجوة من العمل ، إن كل عمل يعمله العاقل لابد أن يكون لهدف يقصده ، فأى عمل لا يكون له مقصد يكون كضربة المجنون ليس لها هدف . إن العاقل قبل أن يفعل أى عمل ينبغى أن يعرف الغاية منه ، وما الذى يحققه من النفع ؟ وهل هذا النفع الذى سوف يحققه هو خير النفع وأدومه ، أو هو أقل من ذلك ؟

وعلى ضوء هذه المقاييس يحدد العاقل عمله ، وحينما يقول الحق : « أولئك الذين حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة » فهو سبحانه يريد أن يخبرنا أن إنسانا قد يفعل عملا هو فى ظاهره خير ، فإياك أن تغتر أيها المؤمن بأنه عَمِلَ خيرا . لماذا ؟ لأن عمل الخير لا يحسب للإنسان إلا بنية إيمانه بمن يجازى ، فالإنسان إن عمل عملا قد تصلح به دنياه فهو عمل حسن ، فلماذا يكون عمل هؤلاء حابطا فى الدنيا ، وفى الآخرة ؟ إنه حابط بموازين الإيمان ويكون العمل حابطا لأنه لم يصدر من مؤمن ، لأن ذلك الإنسان قد عمل العمل ثقة بنتيجة العمل ، لا ثقة بالأمر الأعلى .

إن الإنسان المؤمن حين يقوم بالعمل يقوم بالعمل ثقة فى الأمر الأعلى . وبعض من الناس فى عصرنا يأخذون على الإسلام أنه لا يجازى الجزاء الحسن للكفرة الذين قاموا بأعمال مفيدة للبشرية . يقول الواحد منهم : هل يعقل أحد أن « باستير » الذى اكتشف الميكروبات ، والعالم الآخر الذى اكتشف الأشعة ، وكل هؤلاء العلماء يذهبون إلى النار ؟ ولهؤلاء نقول : نعم ، إن الحق بعدالته أراد ذلك ، ولنتقاض نحن وأنتم إلى أعراف الناس . إن الذى يطلب أجرا على عمل يطلبه ممن ؟ إنه يطلب الأجر ممن عمل له . فهل كان الله فى بال هؤلاء العلماء وهم يفعلون هذه الأعمال ؟ إن بالهم كان مشغولا بالإنسانية ، وقد أعطتهم الإنسانية التخليد ، وغير ذلك من مكاسب الدنيا ، وينطبق عليهم قول الرسول صلى الله عليه وسلم :

(إن أول الناس يُقْضَى يوم القيامة عليه رجل استشهد ، فأتى به فعرفه نعمه فعرفها ، قال : فما عملت فيها؟ قال ، قاتلت فيك حتى استشهدت قال : كذبت ، ولكنك قاتلت لأن يقال : جرىء فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه ، حتى ألقى فى النار ، ورجل تعلّم العلم وعلمه وقرأ القرآن ، فأتى به فعرّفه نعمه فعرفها ، قال : فما عملت فيها؟ قال : تعلمت العلم وعلمته ، وقرأت فيك القرآن قال : كذبت ، ولكنك تعلمت العلم ليقال : عالم ، وقرأت القرآن ، ليقال : هو قارىء ،

فقد قيل ، ثم أمر به ، فسحب على وجهه ، حتى ألقى فى النار ، ورجل وسّع الله عليه ، وأعطاه من أصناف المال كله ، فأتى به ، فعرفه نعمه فعرفها ، قال : فما عملت فيها ؟ قال : ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك ، قال : كذبت ، ولكنك فعلت ليقال : هو جواد ، فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه ، ثم ألقى فى النار)[1] .

إذن فإذا كان الجزاء من الله ، فلنا أن نسأل : هل كان الله فى بال هؤلاء العلماء حينما أنتجوا مخترعاتهم ؟ لم يكن فى بالهم الله . والذى يطلب أجرا ، فهو يطلبه ممن عمل له . ولم يُضع الله ثمرة عملهم ، بل درت عليهم أعمالهم الذكر والجاه والرفعة . لم يضع الله أجر من أحسن عملا .

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾ ﴾

(سورة الشورى)

وقد قلت لكم قديما : تذكروا المفاجأة التى تحدث لمن عمل عملا هو فى ظاهره خير ، ولكن لم يكن ربه فى باله ، هذا ينطبق عليه قول الحق :

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ ﴾

(سورة النور)

إنه يفاجأ بوجود الله ، ولم يكن هذا الإله فى باله ساعة أن قام بهذا العمل الذى هو فى ظاهره خير ، كأن الله يقول لصاحب مثل هذا العمل : أنا لم أكن فى بالك ساعة أن قمت بهذا العمل ، فخذ جزاءك ممن كان فى بالك . « أولئك الذين حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة ومالهم من ناصرين » إن أعمالهم حبطت فى الدنيا ، لأنهم قد يعملون عملا يراد به الكيد للإسلام ، لذلك لا يمكنهم الله من ذلك ، بل يخذلهم

(١) أخرجه الإمام مسلم بروايات مختلفة وأخرجه النسائى والترمذى وابن ماجه .

جميعا . وانتصر دين الله رغم قلة العدد وقلة العُدّة . وليس لهؤلاء ناصرون . أى ليس لهم من يأتى ويراهم مهزومين أمام خصم لهم وينجدهم ، إنهم لن يجدوا ناصرا إذا هزمهم الله ، فليس مع الله أحد غيره . وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾

ونعرف أننا ساعة نسمع قول الحق : (ألم تر) . فهنا همزة استفهام ، وهنا أداة نفى هى « لم » ، وهنا « تر » ومعناها أن يستخدم الإنسان آلة الإبصار وهى العين . فإذا ما قال الله لرسوله : « ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون » . إن هذه دعوة لأمر واضح . لكن فى بعض الأحيان تأتى « ألم تر » فى حادث كان زمانه قبل بعثته صلى الله عليه وسلم فلم يره رسول الله كقول الحق :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ﴿١﴾ ﴾

(سورة الفيل)

إن النبى صلى الله عليه وسلم لم ير أصحاب الفيل ، إذن فساعة تسمع « ألم تر » ، إن كان حدثها من المعاصر ، فمن الممكن أن تكون رؤية ، والرؤية تؤدى إلى علم يقين ، لأنها رؤية لمشهود . وإن جاءت « ألم تر » فى أمر قد حدث من قبل ، أو أمر لما يحدث بعد فهى تعنى « ألم تعلم » ؛ لأن الرؤية سيدة الأدلة ، فكأن الله سبحانه وتعالى ساعة يقول لرسوله فى حدث لم يشهده الرسول : ألم تر؟ فهذا معناه : ألم تعلم ؟

وقد يقول قائل : ولماذا لم يأت بـ«تعلم» وجاء بـ(تر) ؟ لأن سيادة الأدلة هو الدليل المرئى ، فكأن الله يريد أن يخبرنا بـ« ألم تر » أن نأخذ المعلومة من الله على أنها

مرئية ، وليكن ربك أوثق عندك من عينك ، إنك قد لا ترى بالفعل هذا الأمر الذى يخبرك به الله ، ولكن لأن القائل هو الله ، ولا توجد قدرة تخرج ما يقوله الله على غير ما يقوله الله . لذلك فقد قلنا ساعة يعبر الله عن الأمر المستقبل الذى سيأتى بعد ، فإنه قد يعبر عنه بالماضى ، فالحق قد قال :

﴿ أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿١﴾ ﴾

(سورة النحل)

فهل ينسجم قوله : « أتى أمر الله » مع « فلا تستعجلوه » ؟ إن الأمر الذى يخبرنا به الله قد أتى ، فكيف يمكن عدم استعجاله ؟ إن « أتى » معناها أن الأمر قد حصل قبل أن يتكلم . يجب علينا إذن أن نعرف أن الذى قال : « أتى » قادر على الإتيان به ، فكأنه أمر واقع ، إنها مسألة لا تحتاج إلى جدال ، لأنه لا توجد قوة تستطيع أن تنازع الله لتبرز أمرا أراده فى غير مراده . فكأن قوله الحق : « ألم تر » إن كانت تحكى عن حدث فات زمنه فالذى يأتى منها هو العلم ، لأنه إخبار الله ، وإن كانت تحكى عن حدث معاصر فالذى يأتى منه أيضا هو العلم ؛ لأنه صادر عن رؤية ومشاهدة .

وعندما يقول الحق : « ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب » . « وأوتوا » تلفتنا إلى قوم قد نزل إليهم منهج من أعلى . ولذلك يأتى فى القرآن ذكر المنهج بـ « نزل » و « أنزل » ، وذلك حتى نشعر بعلو المكانة التى نزل منها المنهج . وما هو النصيب ؟ إننا نسمى النصيب « الحظ » ، أو خارج القسمة ، كأن يكون عندنا عشرون دينارا ، ونقسمها على أربعة فيكون لكل واحد خمسة ، هذه الخمسة الدنانير هى التى تسمى « نصيبا » أو « حظا » ، والنصيب : « حظ » أو « قسمة » يضاف لمن أخذه .

إذن ، فلماذا يقول الحق : « الذين أوتوا نصيبا من الكتاب » إنها لفتة جميلة ، فالكتاب كله لم يبق لهم ، إنما الذى وصل وانتهى إليهم جزء بسيط من الكتاب ، فكأن هذه الكلمة تنبه الرسول والسامعين له أن يعذروا هؤلاء القوم حيث لم يصلهم من الكتاب إلا جزء يسير منه ، إن نصيبا من الكتاب فقط هو الذى وصلهم .

ويشرح الحق ذلك فى آيات أخرى :

﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ﴾

(من الآية ١٣ من سورة المائدة)

إن الجزء المنسى من الكتاب لم يأخذه المعاصرون لرسول الله . وقلنا أيضا : إن الحق قد أوضح أن بعضهم كتم بعضا من الكتاب .

﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٤٦) ﴾

(سورة البقرة)

ومادام هناك من كتم بعضا من الكتاب . فمعنى ذلك كتمانه عن المعاصرين له ، وهناك أناس منهم مخدوعون ، فشىء من الكتاب قد نسى ، وبالتالى مسح من الذاكرة ، وهناك شيء من الكتاب قد كتم ، فصار معلوما عند البعض ، وغير معلوم عند البعض الآخر ، وحتى الذى لم يكتموه ، جاء فيه القول الحكيم :

﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٨) ﴾

(سورة آل عمران)

إذن فالكتاب الذى أنزل إليهم من الله قد تعرض لأكثر من عدوان منهم ، ولم يبق إلا حظ من الكتاب ، وهذا الحظ من الكتاب هو الذى يجادل القرآن به هؤلاء الناس ، إن القرآن لا يجادلهم فيما تبدل عندهم بفعل أحبارهم ورهبانهم السابقين ، ولكنه يجادلهم بالنصيب الذى أوتوه .

يقول الحق : « ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يدعون إلى كتاب الله

ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون » . وعن أى كتاب لله تتحدث هذه الآية ؟ هل تتحدث عن القرآن ؟ لو كان الحديث عن القرآن فلابد أنه حُكِّمَ فى أمر بينهم وبين رسول الله ، لكن الذين أوتوا نصيبا من الكتاب قد اختلفوا فيما بينهم ، ولماذا يختلفون فيما بينهم ؟ السبب هو أيضا لون من البغى فيما بينهم . وإذا كان الكتاب هو القرآن ، أليس القرآن مصدقا لما معهم ؟

إذن فعندما يدعون ليتم التصديق على ما جاء فى كتبهم ، فالدعوة هنا لأن يسود حكم القرآن . وما معنى « يدعون إلى كتاب الله » ، إن الداعى هو الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهم المدعون ، ومادام الحق قد قال : « أوتوا نصيبا من الكتاب » فهل كان خلافهم فى النصيب الذى بين أيديهم أم النصيب المحذوف ؟ إنه خلاف بينهم فى النصيب الذى بين أيديهم ، ليكون ذلك حجة على أنهم غير مأمونين حتى على ما وصل إليهم وما هو مكتوب عندهم . وعندما تكلم العلماء عن هذه المسألة أوردوا لذلك الأمر حادثة . لقد اختلفوا فى أمر سيدنا إبراهيم وقالوا : إن سيدنا إبراهيم يهودى وقال بعضهم : إنه نصرانى . وجاء القرآن حاسما :

﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

لماذا .. لأن كلمة يهودى ونصرانى قد جاءت بعد إبراهيم ، وكان لابد لهم أن يخرجوا من قلة الفطنة وأن يرتبوا الأحداث حسب زمانها ، إذن ففى أى أمر اختلفوا ؟ هل اختلفوا فى أمر النبى محمد صلى الله عليه وسلم ؟ هل اختلفوا فى حكم موجود عندهم فى التوراة ؟ لقد كانت الدعوة موجهة إليهم فى ماذا ؟ إنهم « يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم » وذلك يدل على أن كلمة :

﴿ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ﴾

(من الآية ١٩ من سورة آل عمران)

هى حالة شائعة بينهم ، لماذا ؟ لأن العلماء حينما ذكروا الحادثة التى دعوا للحكم فيها بكتاب الله ، قال العلماء : إن اثنين من يهود خيبر ـ امرأة ـ خيبرية ورجل من

خيبر ، قد زنيا ، وكان الاثنان من أشراف القوم ، ويريد الذين يحكمون فى هذا الأمر بكتاب التوراة ألا يبرزوا حكم الله الذى جاء بالتوراة ، وهو الرجم ، فاحتالوا حيلة ، وهى أن يذهبوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولماذا يذهبون فى هذه الجزئية إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ إننا نأخذ مجرد الذهاب إلى رسول الله ارتضاء لحكمه .

لكن لماذا لم يرتضوا من البداية بكل ما جاء به رسول الله ؟ لقد أرادوا أن يذهبوا لعلهم يجدون نفعا فى مسألة يبغونها ، أما فى غير ذلك فهم لا يذهبون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إن مجرد ذهابهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يعطينا فكرة عنهم ، لقد كانوا يريدون حكما مخففا غير الرجم . إن الزانى وهو من خيبر والخيبرية الزانية أرادا أن يستنقذا أنفسهما من حكم التوراة بالرجم ، إنهما من أشراف خيبر ، ولأن اليهود قد صنعوا لأنفسهم فى ذلك الوقت سلطة زمنية ، فذهب الزانى والزانية ومعهما الأحبار الذين يريدون أن يلووا حكم الله السابق نزوله فى التوارة وهو الرجم . وعندما دخلوا على رسول الله كان هناك واحد اسمه « النعمان بن أوفى » ، وواحد اسمه « بحرى بن عمرو » فقالوا : يا رسول الله اقض بين هؤلاء ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما معناه : أوَ ليس عندكم حكم ؟ وأضاف رسول الله ما معناه : أنا أحتكم إلى التوراة وهى كتابكم ، فماذا قالوا : ؟ قالوا : أنصفتنا .

وكان رسول الله قد بين لهم أولا حكم الإسلام فى الزنا بأنه الرجم .

وجىء بالجزء الباقى عندهم من التوراة لرسول الله صلى الله عليه وسلم الذى يتضمن الحكم الملزم دليلا على أن الله أطلعه على أشياء لم تكن فى بال أحد . فدعا بقسم من التوراة ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما معناه : أيكم أعلم بالتوراة ؟ فقالوا : شخص اسمه عبدالله بن صورية فأحضروه ، وأعطاه التوراة ، وقال : اقرأ فجلس عبدالله بن صورية يقرأ ، فلما مر على آية الرجم وضع كفه عليها ليخفيها ، وقرأ غيرها وكان عبدالله بن سلام حاضرا ، فقال : يا رسول الله أما رأيته قد ستر بكفه آية وقرأ ما بعدها ؟ وزحزح ابن سلام كف الرجل ، وقرأ هو فإذا هى آيةُ الرجم .

هذه المسألة تعطينا أن الحكم فى القرآن الكريم هو الحكم فى التوراة فى أمر الزنا ، وتعطينا أيضا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أفاض الله عليه من إلهاماته فجاء

بالجزء من التوراة الذى يحمل هذا النص . وجاء بعد ذلك جندى من جنود الله هو عبدالله بن سلام وكان يهوديا قد أسلم ليظهر به رغبة القوم فى التزييف والتزوير .

وإسلام عبدالله بن سلام له قصة عجيبة ، فبعد أن اختمر الإيمان فى قلبه ، جاء إلى رسول الله قائلا : لقد شرح الله صدرى إلى الإسلام ونطق بكلمة « لا إله إلا الله محمد رسول الله » ولكنى أحب قبل أن أعلن إسلامى أن تحضر رؤساء اليهود لتسألهم رأيهم فى شخصى ، لأن اليهود « قوم بهت » ، فيهم افتراء وفيهم الكذب وفيهم التضليل ، فلما سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم رؤساء اليهود عن رأيهم فى عبدالله بن سلام قالوا : سيدنا وابن سيدنا وحبرنا . . إلخ . وأفاضوا فى صفات المدح والإطراء والتقدير . فقال عبدالله بن سلام أمامهم : الآن أشهد ألا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله ، فانقلب رؤساء اليهود ، وقالوا فى عبدالله بن سلام : عكس ما قالوه أولا ، قالوا : إنه خبيثنا وابن خبيثنا . . إلخ .

لقد غيروا المديح إلى ذم . فقال عبدالله بن سلام : يا رسول الله أما قلت لك : إنهم قوم بهت ؟ والله لقد أردت أن أعلمك برأيهم فى قبل أن أسلم . ذلك هو عبدالله بن سلام الذى زحزح كف عبدالله بن صورية عن النص الذى فيه آية الرجم فى التوراة ، وفى ذلك جاء القول الحق : « ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون » إنهم الذين أعرض فريق منهم عن قبول الحق .

ما سبب هذا الإعراض ؟ أهو قضية عامة ؟ أو أنّ سبب هذا الإعراض هو السلطة الزمنية التى أراد اليهود أن يتخذوها لأنفسهم ؟ ومعنى السلطة الزمنية أن يجيء أشخاص فيأخذوا من قداسة الدين ما يفيض عليهم هم قداسة ، ويستمتعوا بهذه القداسة ثم يستخدموها فى غير قضية الدين ، هذا هو معنى السلطة الزمنية . وقلنا سابقا : إن كل تحوير فى منهج الله سببه البغى ، والمفروض أن أهل الكتاب من أصحاب التوراة كانوا يستفتحون على العرب ويقولون : سيأتى نبىّ من العرب نتبعه ونقتلكم به قتل عاد وإرم ، فلما جاءهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بما عرفوه سابقا فى كتبهم كفروا به ، ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى فى مثل هذه القضية موضحا موقفهم من قضية الإيمان العليا :

﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴿٤٣﴾ ﴾

(سورة الرعد)

فكأن من عنده علم بالكتاب كان مفروضا فيه أن يشهد لصالح رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإلا فلا يقول الله : « ومن عنده علم الكتاب » لن يقول الحق ذلك إلا إذا كان عند علماء أهل الكتاب ما يتفق مع ما جاء به الله فى صدق رسوله صلى الله عليه وسلم فى البلاغ عنه . وكان السبب فى محاولة بعض اليهود لإنكار رسالة رسول الله هو السلطة الزمنية ، وأرادوا أن ييسروا لأتباعهم أمور الدين .

إن كل دعى - أى مزيف - فى مبدأ من المبادىء يحاول أن يأخذ لنفسه سلطة زمنية ، فيأتى إلى تكاليف الدين التى قد يكون فيها مشقة على النفس ، ويحاول أن يخفف من هذه التكاليف ، أو يأتى بدين فيه تخفيف مخل بالعبادات ، فإذا نظرنا إلى مسيلمة الكذاب ، نجده قد خفف الصلاة حتى يُرغب فى دينه من تشق عليه الصلاة ، وينضم إلى دين مسيلمة ، وحذف مسيلمة جزءا من الزكاة ، وهذا يعطى فرصة التحلل من تكاليف الدين ، ولذلك فالذى أفسد الأديان السابقة على الإسلام أن بعضا من رجال الدين فيها كلما رأوا قوما على دين فيه تيسيرات أخذوا من هذه التيسيرات ووضعوها فى الدين ، لأن تكاليف الدين شاقة ولا يحمل إنسان نفسه عليها إلا من آمن بها إيمان صدق وإيمان حق ، ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى فى عمدة العبادات وهى الصلاة :

﴿ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾

(سورة البقرة)

ويقول فى موقع آخر فى القرآن الكريم عن الصلاة :

﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾ ﴾

(سورة طه)

إن الحق عليم حكيم بمن خلق وهو الإنسان ، ويعلم أن الضعف قد يصيب روح الإنسان فلا يصطبر على الصلاة ، أو يراها تكليفا صعبا ، لكن الذى يقيم الصلاة ويحافظ عليها فهو الخاشع لربه . ولذلك فإننا نجد أن كل منحرف يأتى ويحاول أن يخفف من تكاليف الدين ، ويحاول أن يحلل أشياء محرمة فى الدين ، ولم نر منحرفا يزيد فى الأشياء المحرمة . إن المنحرفين يريدون إنقاص الأمور الحرام . وإذا سألنا هؤلاء المنحرفين : لماذا تفعلون ذلك ؟ فإننا نجد أنهم يفعلون ذلك لجذب الناس إلى أمور محرمة يحللها هؤلاء المنحرفون . ولذلك أراد بعض من اليهود أن يسهلوا على أتباعهم الدين ، وقال بعض من أحبارهم : لا تخافوا من أمر يوم القيامة . وجاء القول الحق يحكى عنهم وكأنهم حاولوا أن يفهموا الأمر بأن الله يحلل لهم أمورا ، لا ، إن الله لم يحلل إلا الحلال ، ولم يحرم إلا الحرام . وإذا كان الحق قد قال :

﴿ قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَـٰنِكُمْ ۚ وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾ ﴾

(سورة التحريم)

فهذا القول الحكيم جاء فى مناسبة محددة وينطبق فقط فى مجال ما حلل الله فلا تحرمه ، أما ما حرم الله فلا تقربه ، لقد أرادوا أن يبيحوا للأتباع ارتكاب الآثام ، لأن النار لن تصيبهم إلا أياما معدودة ، وإذا دققنا التأمل فى القول الحق الذى جاء على لسانهم ، فإننا نجد الآتى : إننا نعرف أن لكل حدث زمانا ، ولكل حدث قوة يحدث عليها ، فمن ناحية الزمان . قال هؤلاء المزوّرون لأحكام الله عن يوم القيامة إنها أيام معدودة ، فلا خلود فى النار ، وحتى لو كان العذاب شديدا فإنه أيام معدودة ، فالإنسان يستطيع أن يتحمل ، ومن ناحية قوة الحدث ، أرادوا أن يخففوا منه ، فقالوا : إنه عذاب ليس بشديد إنما هو مجرد مس . إنهم يحاولون إغراء الناس لإفسادهم وقال هؤلاء الأحبار : نحن أبناء الله وأحباؤه أرأيتم أحدًا يعذب أبناءه وأحباءه ؟ لقد أعطى الله يعقوب النبوة ، ولا يمكن أن يعاقب ذريته أبدا ، إلا بمقدار تحلة القسم .

﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَـٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾ ﴾

(سورة ص)

إن أيوب عليه السلام قد حلف أن يضرب امرأته إذا برىء من مرضه مائة سوط ، وأراد الله له أن يحله من هذا القسم فأمره أن يأخذ حزمة من حشيش أو

عشب فيها مائة عود ويضربها بها ضربة خفيفة ليبرّ فى قسمه ، وكان ذلك رحمة من الله به وبزوجه التى قامت على رعايته وقت المرض ، وكان أيوب عبدا شاكرا لله ، كأن الضربة الواحدة هى مائة ضربة ، وهذا تحليل للقسم ، وقال بعض من بنى إسرائيل : إن ذرية بنى يعقوب لن تُعذب من الله إلا بمقدار تحلة القسم ، وكل ذلك ليزينوا للناس بقاءهم على هذا الدين الذى سوف تكون الآخرة فيه بعذابها مجرد مس من النار ، وأيام معدودة ، بادعاء أن بنى يعقوب هم أبناء الله وأحباؤه ، وأن الله قد أعطى وعدا ليعقوب بأنه لن يعذب أبناءه إلا بمقدار تحلة القسم ، وهذا بطبيعة الحال هو تزييف لدين الله ومنهجه لقد تولوا عن منهج الله ، وأعرضوا عنه بعصيان ، يوضح لنا هذا المعنى القول الكريم :

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ ۖ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾

لقد تولوا وهم معرضون عن حكم الله لقد ظنوا أن النار لن تمسهم إلا أياما معدودات . ولنا أن نعرف معنى « غرهم » ولنا أن نسأل ما الغرور ؟ إن الغرور هو الأطماع فيما لا يصح ولا يحصل ، فعندما تقول لواحد والعياذ بالله : « أنت مغرور » فأنت تقصد أنه يسلك سبيلا لا يوصله إلى الهدف المنشود . إذن فالغرور هو الإطماع فيما لا يصح ولا يحصل ، ولذلك يسمى الله الشيطان « الغرور » .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴿٥﴾ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿٦﴾ ﴾

(سورة فاطر)

إنه الشيطان الذى يزين للناس بعض الأمور ويحث الخلق ليطمعوا فى حدوثها ،

وعندما تحدث فإن هذه الأمور لا صواب فيها ، فهي مما زينه الشيطان ، لذلك فحصيلتها لا تتناسب مع الطمع فيها . والحق سبحانه يقول عن الدنيا :

﴿ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴿٢٠﴾ ﴾

(سورة الحديد)

ويقال عن الرجل الذى ليس له تجربة : إنه « غِرٌّ » فيأتى بأشياء بدون تجربة ؛ فلا ينتفع منها ، ولا تصح . إذن ، فكل مادة « الغرور » مأخوذة من إطماع فيما لا يصح ولا يحصل . لذلك سمى الله الشيطان « الغرور » لأنه يطمعنا نحن البشر بأشياء لا تصح ولا تحدث ، ولهذا سوف يأتى الشيطان يوم القيامة ليتبرأ من الذين اتبعوه ويتهمهم بالبلاهة :

﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴾

(سورة إبراهيم)

ما معنى « وما كان لى عليكم من سلطان »؟ السلطان أى القوة التى تقنع الإنسان بعمل فعل ما ، وهو إما أن يكون سلطان الحجة فيقنعك بفعل ما ، فتفعله ، وإما أن يكون سلطان القوة ، فيرغمك أن تفعل . السلطان ـ إذن ـ نوعان : سلطان حجة ، وسلطان قوة . والفرق بين سلطان الحجة وسلطان القوة القاهرة على الفعل ، هو أن سلطان الحجة يقنعك أن تفعل الفعل وأنت مقتنع ، أما سلطان القوة القاهرة فهو لا يُقنع الإنسان ، ولكنه يُرغم الإنسان على فعل ما ، ولذلك فالشيطان يعلن لأتباعه يوم القيامة : لم يكن لى سلطان عليكم ،

لا حجة عندى لأقنعكم بعمل المعاصى ، ولا عندى قوة ترغمكم على الفعل ، لكنكم أنتم كنتم على حرف إتيان المعاصى ودعوتكم فاستجبتم لى . ويضيف الشيطان مخاطبا أتباعه :

﴿ مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّ ﴾

(من الآية ٢٢ من سورة إبراهيم)

أى أن الشيطان يؤكد أنه لن يفزع لأحد من الذين اتبعوه لينجده ، إن كلمة « يصرخ » تعنى أن هناك مَنْ يفزع لأحد تلبية لنداء أو استغاثة . الشيطان إذن لن ينجد أحدا من عذاب الله ، ولن ينجد أحد الشيطانَ من عذاب الله . وهكذا ذهب بعض من أهل الكتاب إلى الغرور فى الدين ، فافتروا أقوالا على الله ، لم تصدر عنه ، وصدقوا افتراءاتهم ، ويا ليت غرورهم لم يكن فى الدين ، لأن الغرور فى غير الدين تكون المصيبة فيه سهلة ، لكن الغرور فى الدين هو المصيبة الكبرى ، لماذا ؟ لأن الغرور فى أى أمر يخضع لقانون واضح ، وهو أن ميعاد كل حدث موقوت بماهيته ، لكن الغرور فى أمر الدين مختلف ، لماذا ؟ لأن حدث الدين غير موقوت بماهية الزمان ، إنه مستمر ، لأنه منهج قيم صدر من الحق إلى الخلق ، إن الغرور فى أى جزئية من جزئيات الدنيا ، فإن فشلت فالفشل يقف عند هذه الجزئية وحدها ، ولا يتعدى الفشل إلى بقية الزمن ، لكن الغرور فى الدين يجعل العمر كله يضيع ، لأن الإنسان لم يتبع المنهج الحق بل يمتد الضياع والعذاب إلى العمر الثانى وهو الحياة فى الآخرة .يقول الحق :

﴿ وَغَرَّهُمۡ فِي دِينِهِم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴾

(من الآية ٢٤ من سورة آل عمران)

والافتراء هو تعمد الكذب ، إن الحق سبحانه يوضح لهم المعنى فيقول : إن حصل ذلك منكم وأعرضتم عن حكم الله الذى دعيتم إليه فى كتاب الله ، وعللتم ذلك بأن النار لن تمسكم إلا أياما معدودة ، وادعيتم كذبا أن الأيام المعدودات هى أيام عبادتكم للعجل ، وادعيتم أنكم أبناء الله وأحباؤه ، إن ذلك كله غرور وافتراءات ، ويا ليتهم كانوا يعلمون صدق هذه الافتراءات ، لكنهم هم الذين قالوها ويعرفون أنها كذب ، فإذا جاز ذلك لهم فى هذه الدنيا فكيف يكون موقفهم

وحالهم عندما يجمعهم الله فى يوم لا ريب فيه ؟ وفى هذا يقول الحق :

﴿ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾

إن كذبهم سينكشف فى هذا اليوم ، فالفاضحة قد جاءت ، والفاضحة هى القيامة ، إنها تفضح كل كذاب وكل غشاش وكل داعية بغير الحق . إن الحق يتساءل : كيف يصنعون ذلك كله فى الحياة التى جعلنا لهم فيها اختيارا ، فيفعلون ما يريدون ، ولا يفعلون ما لا يريدون ، يحدث منهم كل ذلك وهم يعلمون أن الحق قد جعل الثواب لمن اتبع تكاليف الله ، وجعل العقاب لمن يخرج عن مراد الله ، كيف يتصرفون عندما يسلب الحق منهم الاختيار ويجىء يوم القيامة . لقد كانوا فى الدنيا يملكون عطاء الله من قدرة الاختيار بين البديلات ، وركز الله لهم فى بنائهم أن كل جوارحهم خاضعة لإرادتهم كبشر من خلق الله ، فمنهم من يستطيع أن يستخدم جوارحه فيما يرضى الله ، وفيهم من يستخدم جوارحه المسخرة له ـ بفضل الله ـ فيما لا يرضى الله ، إن الجوارح كما نعلم جميعا خاضعة لإرادة الإنسان ، وإرادة الإنسان هى التى تختار بين البديلات ، لكن ماذا يفعل هؤلاء يوم القيامة ؟ إن الجوارح التى كانت تطيع الخارجين عن منهج الله فى الفعل لا تطيعهم فى هذا اليوم العظيم ؛ لأن الطاعة اختيار أن تفعل وتطيع ، والجوارح يوم القيامة لا تكون مقهورة لإرادة الإنسان ، إن الجوارح يوم القيامة تنحل عنها صفة القهر والتسخير لمراد الإنسان ، وتصير الجوارح على طبيعتها :

﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ﴿٢٥﴾ ﴾

(سورة النور)

إن اللسان كان أداة إعلان الكفر ، وهو يوم القيامة يشهد على الكافر ، واليد

كانت أداة معصية الله ، وهى يوم القيامة تشهد على صاحبها ، والجلود تشهد أيضا ، لقد كانت الجوارح خاضعة لإرادة أصحابها ، وتفعل ما يريدونها أن تفعل ، ولكنها كانت تفعل الفعل العاصى لله وهى كارهة لهذا الفعل ؛ لذلك يقول الحق :

﴿ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

كيف يكون حالهم يوم يجمعهم الله للجزاء فى يوم لا ريب فيه ولاشك فى مجيئه . . وهذا اليوم قادم لا محالة لقيام الأدلة على وجوده ، ورغم خصومتهم لله فإن الله العادل الحق لا يظلمهم بل سيأخذهم بمقاييس العدل .

﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ ﴾

وساعة تسمع كلمة « ملك » ، فلنا أن نعرف أن هناك كلمة هى « مُلك » بضم الميم ، وكلمة أخرى هى « مِلك » بكسر الميم . إن كلمة « مِلك » تعنى أن للإنسان ملكية بعض من الأشياء ، كملكية إنسان لملابسه وكتبه وأشيائه ، لكن الذى يملك مالك هذا الملك فهذا تسميه « مُلك » ، فإذا كانت هذه الملكية فى الأمر الظاهر لنا ، فإننا نسميه « عالم الملك » ، وهو العالم المُشاهد ، وإذا كانت هذه الملكية فى الأمر الخفى فإننا نسميه « عالم الملكوت » . إذن ، فنحن هنا أمام « مِلك » ، و« مُلك » و « ملكوت » . ولذلك فعندما تجلى الحق سبحانه وتعالى على سيدنا إبراهيم خليل الرحمن وكشف له ما خفى عن العيون وما ظهر ، قال سبحانه :

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

أى أن الله سبحانه وتعالى أراد لسيدنا إبراهيم أن يشاهد الملكوت فى السماوات والأرض ، أى كل الأشياء الظاهرة والخافية المخفية عن عيون العباد . وهكذا نرى مراحل الحيازة كالآتى : ملك ، أى أن يملك الإنسان شيئا ما ، وهذا نسميه مالكا للأشياء ، فهو مالك لأشيائه ، ومالك لمتاعه ، أما الذى يملك الإنسان الذى يملك الأشياء فإننا نسميه « مُلك » ، أى أنه يملك من يملك الأشياء ، والظاهرة فى الأولى نسميها « مِلْك » فكل إنسان له ملكية بعض من الأشياء ، وبعد ذلك تنحاز إلى الأقل ؛ أى أن تنسب ملكية أصحاب الأملاك إلى ملك واحد . فالملكية بالنسبة للإنسان تتلخص فى أن يملك الإنسان شيئا فيصير مالكا ، وإنسان آخر يوليه الله على جماعة من البشر فيصير مَلِكاً ، هذا فى المجال البشرى .

أما فى المجال الإلهى ، فإننا نُصعد لنرى من يملك كل مالك وملك ، إنه الله سبحانه وتعالى . ولا يظن أحد أن هناك إنسانا قد ملك شيئا ؛ أو جاها فى هذه الدنيا بغير مراد الله فيه ، فكل إنسان يملك بما يريده الله له من رسالة ، فإذا انحرف العباد ، فلابد أن يولى الله عليهم ملكا ظالما ، لماذا ؟ لأن الأخيار قد لا يحسنون تربية الناس .

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

وكأن الحق سبحانه يقول : يأيها الخيِّر ـ بتشديد الياء ـ ضع قدما على قدم ولا تلوث يدك بأن تنتقم من الظالم ، فسوف أضع ولاية ظالم أكبر على هذا الظالم الصغير ، إننى أربأ بك أن تفعل ذلك ، وسأنتقم لك ، وأنت أيها الخير منزه عندى عن ارتكاب المظالم ، ولذلك نجد قول الحق :

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

ونحن جميعا نعرف القول الشائع : « الله يسلط الظالمين على الظالمين » . ولو أن الذين ظلموا مُكِّن منهم من ظلموهم ما صنعوا فيهم ما يصنعه الظالمون فى بعضهم بعضا . إن الحق يسلط الظالمين على الظالمين ، وينجى أهل الخير من موقف الانتقام ممن ظلموهم .

إذن فنحن فى هذه الحياة نجد « مالك » ، و« ملك » وهناك فوق كل ذلك « مالك الملك » ، ولم يقل الله : إنه « ملك الملك » ، لأننا إذا دققنا جيدا فى أمر الملكية فإننا لن نجد مالكا إلا الله . « قل اللهم مالك الملك » إنه المتصرف فى ملكه ، وإياكم أن تظنوا أن أحدا قد حكم فى خلق الله بدون مراد الله ، ولكن الناس حين تخرج عن طاعة الله فإن الله يسلط عليهم الحاكم الظالم ، ولذلك فالحق سبحانه يقول فى حديثه القدسى :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (يطوى الله ـ عز وجل ـ السموات يوم القيامة ، ثم يأخذهن بيده اليمنى ، ثم يقول : أنا الملك ، أين الجبارون ؟ أين المتكبرون ؟ ثم يطوى الأرض بشماله ، ثم يقول : أنا الملك ، أين الجبارون ؟ أين المتكبرون)[١]

إياك أيها المؤمن أن تظن أن أحدا قد أخذ الملك غصبا من الله . إنما الملك يريده الله لمن يؤدب به العباد . وإن ظلم الملك فى التأديب فإن الله يبعث له من يظلمه ، ومن رأى ظلم هذا الملك أو ذاك الحاكم فمن الجائز أن يريه الله هذا الملك أو ذلك الحاكم مظلوما . إنه القول الحكيم يؤكد لنا أنه سبحانه وتعالى مالك الملك وحده .

إن الحق سبحانه يأمر رسوله الكريم : « قل اللهم مالك الملك » إن كلمة « اللهم » وحدها فيها عجب من العجائب اللغوية ، إن القرآن قد نزل باللسان العربى ، وأمة العرب فصيحة اللسان والبيان والبلاغة ، وشاء الحق أن يكون للفظ الجلالة « الله » خصوصية فريدة فى اللغة العربية .

إن اللغة العربية تضع قاعدة واضحة وهى ألا يُنادى ما فيه ، أداة التعريف ، مثل « الرجل » بـ « يا » فلا يقال : « يا الرجل » بل يقال : « يأيها الرجل » لكن اللغة

(١) رواه البخارى ومسلم وأبو داود وابن ماجه .

التى يسرها الله لعباده تخص لفظ الجلالة بالتقديس ، فيكون من حق العباد أن يقولوا : « يا ألله » . وهذا اللفظ بجلاله له تميز حتى فى نطقه .

ولنا أن نلحظ أن العرب من كفار قريش وهم أهل فصاحة لم يفطنوا إلى ذلك ، فكأن الله يرغم حتى الكافرين بأن يجعل للفظ الجلالة تميزا حتى فى أفواه الكافرين فيقولون مع المؤمنين : « يا الله » . أما بقية الأسماء التى تسبقها أداة التعريف فلا يمكن أن تقول : « يا الرجل » أو « يا العباس » لكن لابد أن تقول : « يأيها الرجل » ، أو « يا أيها العباس » ، ولا تقول حتى فى نداء النبى : « يا النبى » ، إنما تقول : « يأيها النبى » .

لكن عند التوجه بالنداء إلى الله فإننا نقول : « يا الله » ، إنها خصوصية يلفتنا لها الحق سبحانه بأنه وحده المخصوص بها ، وأيضا ما رأينا فى لغة العرب عَلَمًا دخلت عليه « التاء » كحرف القسم إلا الله ، فإننا نقول « تا لله » ، ولم نجد أبدا من يقول « تزيد » أو « تعمرو » .

إننا لا نجد التاء كحرف قسم إلا فى لفظ الجلالة ، ولا نجد أيضا علما من الأعلام فى اللغة العربية تحذف منه « يا » فى النداء وتستبدل بالميم إلا فى لفظ الجلالة فنقول : « اللهم » كل ذلك ليدل على أن اللفظ فى ذاته له خصوصية المسمى . « قل اللهم » وكأن حذف حرف النداء هنا يُعلمنا أن الله هو وحده المستدعى بدون حرف نداء . « اللهم » وفى بعض الألسنة يجمعون الياء والميم ، مثل قول الشاعر :

إنى إذا ما حادث ألمّا
أقول يا للهم يا اللهمّا

إنها خصوصية لصاحب الخصوصية الأعلى . « قل اللهم مالك الملك » وقد يسأل إنسان لماذا لم يقل الحق : « ملك الملك » ؟ هنا لابد أن نعرف أنه سيأتى يوم لا تكون فيه أى ملكية لأى أحد إلا الله ، وهو المالك الوحيد ، فهو سبحانه يقول :

﴿ رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ

ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾

(سورة غافر)

إن قول الحق هنا : « مالك الملك » توضح لنا أن ملكية الله وهى الدائمة والقادرة واضحة ، وجلية ، ومؤكدة ، ولو قال الله فى وصف ذاته : « ملك الملك » لكان معنى ذلك أن هناك بشرا يملكون بجانب الله ، لا ، إنه الحق وحده مالك الملك . ومادام الله هو مالك الملك ، فإنه يهبه لمن يشاء ، وينزعه ممن يشاء . وهنا نلاحظ أن قول الحق : إنه مالك الملك يعطى الملك لمن يشاء وينزع الملك ممن يشاء تأتى بعد عملية المحاجّة ، وبعد أن تهرب بعض من أهل الكتاب من تطبيق حكم الله بعد أن دعوا إليه ، فتولى فريق منهم وأعرض عن حكم الله ، وعللوا ذلك بادعاء أنهم أبناء الله وأحباؤه وأن النار لن تمسهم إلا أياما معدودات .

كل هذه خيارات من لطف الله وضعها أمام هؤلاء العباد ، خيارات بين اتباع حكم الله أو أتباع حكم الهوى ، لكنهم لم يختاروا إلا الاختيار السيىء ، حكم الهوى . ولذلك يأتى الله بخبر اليوم الذى سوف يجيء ، ولن يكون لأحد أى قدرة ، أو اختيار . إن حق الاختيار موجود لنا فى هذه الدنيا ، وعلينا أن نحسن الاختيار فى ضوء منهج الله .

ولنتأمل هذا المثل الذى حدثتنا عنه السيرة النبوية الطاهرة ، حينما جاءت غزوة الأحزاب التى اجتمع فيها كل خصوم الدعوة ، واشتغل اليهود بالدس والوقيعة ، وأراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يحفر بمشورة سلمان الفارسى خندقا حول المدينة المنورة . ومعنى « الخندق » ، أى مساحة من الأرض يتم حفرها بما يعوق التقدم . وكان المقاتلون يعرفون أن الفرس يستطيع أن يقفز مسافة ما من الأمتار .

لقد حاول المؤمنون أثناء حفر الخندق أن يكون اتساعه أكبر من قدرة الخيل ، ولننظر إلى دقة الإدارة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إن سلمان الفارسى قد اقترح أن يتم حفر الخندق ، وفيما يبدو أنه قد أخذ الفكرة من بيئته وقبل الرسول صلى الله عليه وسلم الفكرة وأقرها ، وفعلها المسلمون .

إذن فليس كل ما فعله الكفار كان مرفوضا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم قبل تطبيق كل الأعمال النافعة ، سواء أكان قد فعلها الكفار من قبل أم لا ، ورأى الرسول صلى الله عليه وسلم أن عملية الحفر مرهقة بسبب جمود الأرض وصخريتها فى بعض المواقع ، لذلك وضع حصة قدرها أربعون ذراعا لكل عشرة من الصحابة ، وبذلك وزع الرسول الكريم العمل والمسئولية ، ولم يترك الأمر لكل جماعة خشية أن يتواكلوا على غيرهم .

وتوزيع المسئولية يعنى أن كل جماعة تعرف القدر الواضح من العمل الذى تشارك به مع بقية الجماعات وقد يسأل سائل : ولماذا لم يوزع الرسول صلى الله عليه وسلم التكليف لكل واحد بمفرده ؟ ونقول : إنها حكمة الإدارة والحزم هى التى جعلت الرسول صلى الله عليه وسلم يتعرف على حقيقة واضحة ، وهى أن الذين يحفرون من الصحابة ليسوا متساوين فى القدرة والمجهود ، لذلك أراد لكل ضعيف أن يكون مسنودا بتسعة من الصحابة .

إن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يجعل الأمر مشاعا ، بل كان هناك تحديد للمسئولية ، لكنه لم يجعل المسئولية مشخصة تشخيصا أوليا ومحددا بكل فرد ، وذلك حتى يساعد الأقوياء الضعيف من بينهم . لقد ستر رسول الله صلى الله عليه وسلم الضعيف بقوة إخوانه ، وساعة أن يوجد ضعيف بين عشرة من الإخوان يحملون عنه ويحفرون ، فإن موقفه من أصحابه يكون المحبة والألفة ، ويكون القوى قد أفاض على الضعيف .

وكان عمرو بن عوف ضمن عشرة منهم سلمان الفارسى رضى الله عنه ، فلما جاءوا ليحفروا صادفتهم منطقة يقال عنها : « الكئود » ، ومعنى « الكئود » هى المنطقة التى تكون صلبة أثناء الحفر ، فالحافر إذا ما حفر الأرض قد يجد الأرض سهلة ويواصل الحفر ، أما إذا صادفته قطعة صلبة فى الأرض فإنه لا يقدر عليها بمعوله لأنها صخرية صماء ، فيقال له : « أكدى الحافر » . وعندما صادف عمرو بن عوف وسلمان الفارسى والمغيرة وغيرهم هذه الصخرة الكئود ، قالوا لسلمان : « اذهب فارفع أمرنا لرسول الله صلى الله عليه وسلم » . ومن هذا نتعلم درسا وهو أن المُكَلَّفَ مِنْ قِبل مَنْ يكلفه بأمر إذا وجد شيئا يعوقه عن أداء المهمة فلابد أن يعود إلى من كلفه بها .

وذهب سلمان الفارسى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحضر رسول الله

صلى الله عليه وسلم مع سلمان إلى الموقع وأخذ المعول وجاء على الصخرة الكئود وضربها ، فحدث شرر أضاء من فرط قوة الاصطدام بين الحديد والصخرة ، فهتف رسول الله صلى الله عليه وسلم : الله أكبر فُتِحَتْ قصور بصري بالشام ، ثم ضرب ضربة أخرى ، وقال الرسول صلى الله عليه وسلم : الله أكبر فُتِحَتْ قصور الحمراء بالروم . وضرب ضربة ثالثة وقال : الله أكبر ، فُتِحَتْ قصور صنعاء باليمن ، فكأنه حين ضرب الضربة أوضح الله له معالم الأماكن التى سوف يدخلها الإسلام فاتحا ومنتصرا ، فلما بلغ ذلك القول أعداء رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الأعداء للصحابة : يمنيكم محمد بفتح قصور صنعاء فى اليمن ، والحمراء فى الروم ، وفتح قصور بصرى ، وأنتم لا تستطيعون أن تبرزوا لنا للقتال فأنزل الله قوله : « قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء . . . » .

إن المسألة ليست عزما من هؤلاء المؤمنين ، إنما هى نية على قدر الوسع ، فإن فعلت أى فعل على النية بقدر الوسع فانتظر المدد من الممد الأعلى سبحانه وتعالى .

إن الله سبحانه هو الذى يعطى الملك ، وهو الإله الحق الذى ينزع ملك الكفر فى كسرى والروم وصنعاء ، يعطى سبحانه الملك لمحمد رسول الله وأصحابه ، وينزعه من قريش ، وينزع الملك من يهود المدينة حيث كانوا يريدون الملك .

إن قول الحق : « وتنزع الملك ممن تشاء » تجعلنا نتساءل : ما النزع ؟ إنه القلع بشدة ، لأن الملك عادة ما يكون متمسكا بكرسى الملك ، متشبثا به ، لماذا ؟ لأن بعضا ممن يجلسون على كراسى السلطان ينظرون إليه كمغنم بلا تبعات فلا عرق ولا سهر ولا مشقة أو حرص على حقوق الناس ، إنهم يتناسون سؤال النفس « وماذا فعلت للناس » ؟ إن الواحد من هؤلاء لا يلتفت إلى ضرورة رعاية حق الله فى الخلق فيسهر على مصالح الناس ويتعب ويكد ويشقى ويحرص على حقوق الناس .

إننا ساعة نرى حاكما متكالبا على الحكم ، فلنعلم أن الحكم عنده مغنم ، لا مغرم . ولنر ماذا قال سيدنا عمر بن الخطاب عندما قالوا له : إن فقدناك ـ ولا نفقدك ـ نولى عبدالله بن عمر ، وهو رجل قرقره الورع . . فقال عمر ابن الخطاب رضى الله عنه : بحسب آل الخطاب أن يُسأل منهم عن أمة محمد رجل واحد ، لماذا ؟ لأن الحكم فى الإسلام مشقة وتعب .

لقد جاء الحق بالقول الحكيم : « وتنزع الملك ممن تشاء » وذلك لينبهنا إلى هؤلاء المتشبثين بكراسى الحكم وينزعهم الله منها ، إن المؤمن عندما ينظر إلى الدول فى عنفوانها وحضاراتها وقوتها ونجد أن المُلك فيها يسلب من الملك فيها على أهون سبب . لماذا ؟ إنها إرادة الخالق الأعلى ، فعندما يريد فلا راد لقضائه .

إن الحق إما أن يأخذ الحكم من مثل هذا النوع من الحكام ، وإما أن يأخذه هو من الحكم ، ونحن نرى كل ملك وهو يوطن نفسه توطينا فى الحكم ، بحيث يصعب على من يريد أن يخلعه منه أن يخلعه بسهولة ، لكن الله يقتلع هذا الملك حين يريد سبحانه .

وبعد ذلك يقول الحق : « وتعز من تشاء وتذل من تشاء » لأن ظواهر الكون لا تقتصر على من يملك فقط ، ولكن كل ملك حوله أناس هم « ملوك ظل » . ومعنى « ملوك الظل » أى هؤلاء الذين يتمتعون بنفوذ الملوك وإن لم يكونوا ظاهرين أمام الناس ، ومن هؤلاء يأتى معظم الشر . إنهم يستظلون ويستترون بسلطان الملك ، ويفعلون ما يشاءون ، أو يفعل الآخرون لهم ما يأمرون به ، وحين يُنزع الملك فلاشك أن المغلوب بالظالمين يعزه الله ، وأما الظالمون لأنفسهم فيذلهم الله ؛ لذلك كان ولابد أن يجىء بعد « تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء » هذا القول الحق : « وتعز من تشاء وتذل من تشاء » . لماذا ؟ لأن كل ملك يعيش حوله من يتمتع بجاهه ونفوذه ، فإذا ما انتهى سلطان هذا الملك ، ظهر هؤلاء المستمتعون على السطح . وهذا نشاهده كل يوم وكل عصر . « وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير » .

ونلاحظ هنا : أن إيتاء الملك فى أعراف الناس خير ، ونزع الملك فى أعراف الناس شر . ولهؤلاء نقول : إن نزع الملك شر على من خُلِعَ منه ، ولكنه خير لمن أوتى الملك . وقد يكون خيرا لمن نزع منه الملك أيضا . لأن الله حين ينزع منه الملك ، أو ينزعه من الملك يخفف عليه مؤونة ظلمه فلو كان ذلك الملك المخلوع عاقلا ، لتقبل ذلك وقال : إن الله يريد أن يخلصنى لنفسه لعلى أتوب . .

إذن فلو نظرت إلى الجزئيات فى الأشخاص ، ونظرت إلى الكليات فى العموم لوجدت أن ما يجرى فى كون الله من إيتاء الملك وما يتبعه من إعزاز ، ثم نزع الملك

وما يتبعه من إذلال ، كل ذلك ظاهرة خير فى الوجود ، لذلك قال الحق هنا : « بيدك الخير » ولو دقق كل منا النظر إلى مجريات الأمور ، لوجد أن : الله هو الذى يؤتى ، والله هو الذى ينزع ، والله هو الذى يعز ، والله هو الذى يذل ، ولابد أن يكون فى كل ذلك صور للخير فى الوجود ، فيقول : « بيدك الخير إنك على كل شىء قدير » .

إن إيتاء الملك عملية تحتاج إلى تحضير بشرى وبأسباب بشرية ، وأحيانا يكون الوصول إلى الحكم عن طريق الانقلابات العسكرية ، أو السياسية ، وكذلك نزع الملك يحتاج إلى نفس الجهد .

إن الحق سبحانه وتعالى يوضح لنا المعنى فيقول : ليس ذلك بأمر صعب على قدرتى اللا نهائية ، لأننى لا أتناول الأفعال بعلاج ، أو بعمل ، إنما أنا أقول : « كن » فتنفعل الأشياء لإرادتى ، ويأتى الحق بعد ذلك ليدلل بنواميس الكون وآيات الله فى الوجود على صدق قضية « إنك على كل شىء قدير » فيقول وقوله الحق :

﴿ تُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۖ وَتُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَتُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّۖ وَتَرۡزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴿٢٧﴾ ﴾

إن الحق يقول لنا : عندكم ظاهرة تختلف عليكم ، وهى الليل والنهار ، وظاهرة أخرى ، هى الحياة والموت . إن ظاهرة الليل والنهار كلنا نعرفها لأنها آية من الآيات العجيبة ، والحق يقول عنها : « تولج الليل فى النهار وتولج النهار فى الليل » إن الحق لم يصنع النهار بكمية محدودة من الوقت متشابهة فى كل مرة ، لا ، إنه سبحانه شاء لليل أن ينقص أحيانا عن النهار خمس ساعات ، وأحيانا يزيد النهار على الليل خمس ساعات .

ولنا أن نتساءل . . هل تنقص الخمس الساعات من الليل أو النهار مرة واحدة وفجأة ؟ هل يفاجئنا النهار بعد أن يكون اثنتى عشرة ساعة ليصبح سبع عشرة ساعة ؟ هل يكون الليل مفاجئاً لنا فى الطول أو القصر ؟ لا ، إن المسألة تأتى تباعا ، بالدورة ، بحيث لا تحس ذلك ، إن هناك نوعا من الحركة اسمها الحركة الترسية . إننا عندما ننظر إلى الساعة التى تدور نجد أن دورتها تعتمد على التروس ، فهل يمشى عقرب الساعة فى كل الزمن ؟ لا ، إن كل ترس له زمن يتوقف فيه ، وعندما يتوقف فإننا ندفع به ليعيد دورته ، ويعمل ، وإذا دققنا النظر فى عقرب الدقائق فإننا نستطيع أن نلحظ ذلك .

إذن هناك فترة توقف وسكون بين انتقال عقرب الدقائق من دقيقة إلى أخرى ، وهذا اللون من الحركة نسميه « حركة ترسية » ، وهناك حركة أخرى ثانية ، نسميها « حركة انسيابية » ، بحيث يكون كل جزء من الزمن له حركة ، كما يحدث الأمر فى ظاهرة النمو بالنسبة للإنسان والنبات والحيوان .

إن الطفل الوليد لا يكبر من الصباح إلى المساء بشكل جزئى ، أو محسوس ، إنه يكبر بالفعل دون أن نلحظ ذلك ، وقد يزيد بمقدار ملليمتر فى الطول ، وهذا الملليمتر شائع فى كل ذرات الثوانى من النهار ، إن الطفل لا يظل على وزنه وطوله أربعا وعشرين ساعة من النهار ، ثم يكبر فجأة عند انتهاء اليوم ، لا ، إن نمو الطفل كل يوم يتم بطريقة تشيع فيها قدرة النمو فى كل ذرات الثوانى من النهار ، وهذه العملية تحتاج إلى الدقة المتناهية فى توزيع جزئيات الحدث على جزئيات الزمان ، وهذه هى العظمة للقدرة الخالقة التى يظل الإنسان عاجزا عنها إلى الأبد .

وقد قلت لكم مرة : إن الواحد منكم إن نظر إلى ابنه الوليد ، وظل ناظرا له طوال العمر فلن يلحظ الإنسان منكم كبر ابنه على الإطلاق ، لكن عندما يغيب الإنسان عن ابنه شهرا أو شهورا ، ثم يعود ، هنا يرى فى ابنه مجموع نمو الشهور التى غاب فيها عنه وقد أصبح واضحا . ولو زرع الإنسان نباتا ما ، وجلس ينظر إلى هذا النبات ، فهو لن يرى أبدا نمو هذا النبات لماذا ؟ لأن الجزئيات تكبر دون قدرة على أن يلمس الإنسان طريقة نموها .

ولنا أن نعرف أن كل ما يكبر إنما يصغر أيضا ، ولا توجد عند الإنسان قدرة

للملاحظة المباشرة لذلك ، وفى الحياة أمثلة أخرى ، نأخذ منها هذا المثل ، فعندما قام العلماء بتصوير الأرض من الأقمار الصناعية ، كانت الصور الأولى لمدينة نيويورك هى صورة لنقطة بسيطة ، وعندما قام العلماء بتكبير هذه الصور ظهرت الجزئيات ، كالشوارع وغيرها ، أين كانت الشوارع فى هذه النقطة الصغيرة ؟ لقد صغرت الشوارع أثناء التصوير بصورة تستحيل معها على آلات الإدراك عند الإنسان أن تراها ، ولذلك فلابد من التكبير لهذه الصور حتى يمكن للإنسان أن يراها ، ونحن نرى الشيء البعيد صغيرا ، ولكلما قربناه كبر فى نظرنا .

إذن فقول الله : « تولج الليل فى النهار وتولج النهار فى الليل » هو لفت للانتباه البشرى إلى أن الليل والنهار لا يفصل بينهما حد قاطع بنسبة متساوية لكل منهما ، لا ، إنه الحق بقدرته يدخل الليل فى النهار ، ويدخل النهار فى الليل . إن معنى « تُولج » هو « تدخل » ، ومثال ذلك أن يؤذن المؤذن لصلاة المغرب فى يوم ما عند الساعة الخامسة ، ويؤذن المؤذن لصلاة المغرب فى أيام أخرى فى الساعة السابعة . إن ذلك لا يحدث فجأة ، ولا يقفز المغرب من الخامسة إلى السابعة ، إنما يحدث ذلك بانسيابية ، ورتابة . ومن ذلك نتلقى الدرس والمثل .

إنك أيها العبد إن رأيت ملكا قائما على حضارة مؤصلة ، فاعلم أن هناك عوامل دقيقة لا تراها بالعين تنخر فى هذا الملك إلى أن يأتى يوم ينتهى فيه هذا الملك . وهكذا تنهار الحضارات بعد أن تبلغ أوج الارتقاءات ، ويصل الناس فيها إلى استعدادات ضخمة وإمكانات هائلة ، وذلك لأن عوامل الانهيار تنخر داخل هذه الحضارات .

إن الحق يلفتنا إلى جلال قدرته وعظمة دقة صنعه ، بمثل الليل والنهار : « تولج الليل فى النهار وتولج النهار فى الليل » . ثم يأتى لنا الحق الأعلى بمثل آخر ، فيقول : « وتخرج الحى من الميت وتخرج الميت من الحى » ، إنها القدرة المطلقة بدون أسباب .

والوقفة هنا تجعلنا نرى كيف اهتدينا بما أفاض الله على بعض خلقه من اكتشاف لبعض أسراره فى كونه ، لقد وصل العلم لمعرفة أن لكل شيء حياة خاصة ، فنرى أن ورقة النبات تحدث فيها تفاعلات ولها حياة خاصة ، ونرى أن الذرة فيها تفاعلات

ولها حياة خاصة ، والتفاعل معناه الحركة ، والحياة كما تعرف مظهرها الحركة ، وغاية ما هناك أنه يوجد فرق فى رؤية الحياة عند العامة ، ورؤية الحياة عند الخاصة . إن الإنسان العامى لا يعرف أن النطفة فيها حياة ، وأن الحبة فيها حياة ، ولا يعرف ذلك إلا الخاصة من أهل العلم .

إن العامة من الناس لا يعرفون أن الحبة توجد لها حياة مرئية ، ويكمن فيها نمو غير ظاهر ، ولا يعرف العامة أن هناك فرقا بين شىء حى ، وشىء قابل لأن يحيا . ومثال ذلك نواة البلح التى نأخذها ونزرعها لتخرج منها النخلة ، إنها كنواة تظل مجرد نواة إلى أن يأخذها الإنسان ، ويضعها فى بيئتها ؛ لتخرج منها النخلة .

إذن فالنواة قابلة للحياة ، وعندما ننظر إلى ذرات التراب فإننا لا نستطيع أن نضعها فى بيئة لنصنع منها شيئا ، ورغم ذلك فإن لذرة التراب حركة . ويقول العلماء : إن الحركة الموجودة فى ذرات رأس عيدان علبة كبريت واحدة تكفى لإدارة قطار كهربائى بإمكانه أن يلف حول الكرة الأرضية عددا من السنوات .

إن هذه أمور يعرفها الخاصة ، ولا يعرفها العامة . فإن نظرنا إلى العامة عندما يسمعون القول الحق : « وتخرج الحى من الميت وتخرج الميت من الحى » كانوا يقولون : إن المثل على ذلك نواة البلح ، وكانوا يعرفون أن النخلة تنمو من النواة . ولكن الخاصة بحثوا واكتشفوا أن فى داخل النواة حياة وعرفوا كيفية النمو . . وعرف العلماء أن لكل شىء فى الوجود حياة مناسبة لمهمته . . فليست الحياة هى الحركة الظاهرة والنمو الواضح أمام العين فقط ، لا ، بل إن هناك حياة فى كل شىء .

إن العامة يمكنهم أن يجدوا المثال الواضح على أن الحق يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ، أما الخاصة فيعرفون قدرة الله عن طريق معرفتهم أن كل شىء فيه حياة ، فالتراب الذى نضع فيه البذر لو أخذنا بعضا منه فى مكان معزول ، فلن يخرج منه شىء ، هذا التراب هو ما يصفه العلماء بوصف « الميت فى الدرجة الأولى » وأما النواة التى يمكن أن تأخذها وتضعها فى هذا التراب ، فيصفها العلماء بأنها « الميت من الدرجة الثانية » .

وعندما ننقل الميت فى الدرجة الأولى ليكون وسطا بيئيا للميت فى الدرجة الثانية

تظهر لنا نتائج تدلل على حياة كل من التراب والنواة معا ، وقد مس القرآن ذلك مسا دقيقا ، لأن القرآن حين يخاطب بأشياء قد تقف فيها العقول فإنه يتناولها التناول الذى تتقبلها به كل العقول ، فعقل الصفوة يتقبلها ، وعقل العامة يتقبلها أيضا ؟ لأن القرآن عندما يلمس أى أمر إنما يلمسه بلفظ جامع راق يتقبله الجميع ، ثم يكتشف العقل البشرى تفاصيل جديدة فى هذا الأمر .

إن القرآن على سبيل المثال لم يقل لنا : إن الذرة فيها حركة وحياة وفيها شحنات من لون معين من الطاقة ، ولكن القرآن تناول الذرة وغيرها من الأشياء بالبيان الإلهى القادر ، وخصوصا أن هذه الأشياء لن يترتب عليها خلاف فى الحكم أو المنهج . فلو عرف الإنسان وقت نزول القرآن أن الذرة بها حياة فماذا الذى يزيد من الأحكام ؟ ولو أن أحدا أثبت أن الذرة ليس بها حياة ، فما الذى ينقص من أحكام المنهج الإيمانى ؟ لم يكن الأمر من ناحية الأحكام ليزيد أو لينقص ، وعندما نأخذ القرآن مأخذ الواعين به ، ونفهم معطيات الألفاظ فإننا نجد أن كلمة « الحياة » لها ضد هو « الموت » ، وقد ترك الحق سبحانه كلمة « الموت » فى بعض المواقع من الكتاب الكريم وأورد لنا كلمة أخرى هى « الهلاك » قال الحق سبحانه :

﴿ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

(من الآية ٤٢ من سورة الأنفال)

إن « الهلاك » هنا هو مقابل الحياة ، لماذا لم يورد الحق كلمة « الموت » هنا ؟ لأنه الخالق الأعلم بعباده ، يعلم أن العباد قد يختلفون فى مسألة « الموت » فبعض منهم يقول تعريفا للميت : إنه الذى لا توجد به حركة أو حس أو نمو ، ولكن هذا الميت له حياة مناسبة له ، كحياة الذرة أو حياة حبة الرمل ، أو حياة أى شىء ميت ، وهكذا عرفنا من الآية السابقة أن الحياة يقابلها الهلاك . ويقول الحق سبحانه عن الآخرة ليوضح لنا ما الذى سوف يحدث يوم القيامة :

﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾

(الآية ٨٨ من سورة القصص)

لقد استثنى الحق الوجه أو الذات الإلهية ، وكل ما عداها هالك . ومادام كل شيء هالكا فمعنى ذلك أن كل شيء كان حيا وإن لم ندرك له حياة . إذن فالحياة الحقيقية توجد فى كل شيء بما يناسبه ، مرة تدركها أنت ، ومرة لا تدركها .

إذن فقوله الكريم : « وتخرج الحى من الميت وتخرج الميت من الحى » يجوز أن تأخذه مرة بالعرف العام ، أو تأخذه بالعرف الخاص ، أى عرف العلماء ، ومادام ذلك أمرا ظاهرا فى الوجود كولوج الليل فى النهار ، وولوج النهار فى الليل ، أى أن الحق يدخل النهار فى الليل ، ويدخل الليل فى النهار . وفى اللغة يسمون بطانة الرجل - أى خاصة أصدقائه - « الوليجة » لماذا ؟ لأنها تتداخل فيه ، لأنك إن أردت أن تعرف سر واحد من البشر فاجلس مع صديق له أو عدوٍ من أصدقائه الذين يتداخلون معه .

لذلك جاء أمر إيلاج الليل فى النهار وإيلاج النهار فى الليل بالوضوح الكامل ، وجاءت مسألة الحياة والموت بألفاظ يمكن أن يفهمها كل من العامة والخاصة . وإذا كانت تلك الظواهر هى بعض من قدرات الله فمن إذن يستكثر على الله قدرته فى أنه يؤتى الملك من يشاء ، ويعز من يشاء ، وينزع الملك ممن يشاء ، ويذل من يشاء ؟ لقد جاء الدليل من الآيات الكونية ، ونراه كل يوم رأى العين . « قل اللهم مالك الملك . . تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير » . إنك أنت يا الله ، الذى أجريت فى كونك كل هذه المسائل وهى كلها أمور من الخير ، وإن بدا للبعض أن الخير فيها غير ظاهر .

إن الإنسان عندما يرى فى ابنه شيئا يحتاج إلى علاج فإنه يسرع به إلى الطبيب ويرجوه أن يقوم بكل ما يلزم لشفاء الابن ، حتى ولو كان الأمر يتطلب التدخل الجراحى . إن الأب هنا يفعل الخير للابن ، والابن قد يتألم من العلاج ، فإذا كان هذا أمر المخلوق فى علاقته بالمخلوق ، فما بالنا بالخالق الأكرم الذى يجرى فى ملكه ما يشاء ، إيتاء ملك أو نزعه ، وإعزازا أو إذلالا ، فكل ذلك لابد أن يكون من الخير ، وآيات الله تشهد بأن الله على كل شيء قدير لذلك يأتى بعد الآية السابقة قوله :

﴿ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

فإذا كان هناك إنسان لم يفطن أبدا لمسألة إيلاج الليل فى النهار أو إخراج الحى من الميت ، فإنه لابد أن يلتفت إلى رزقه ، فكل واحد منا يتصل برزقه قهرا عنه ، ولذلك جاء الحق سبحانه بهذا الأمر الواضح : « وترزق من تشاء بغير حساب » وساعة تسمع كلمة « حساب » فإنك تعرف أن الحساب هو كما قلنا سابقا : يبين لك مالك وما عليك .

وعندما نتأمل قول الحق : « وترزق من تشاء بغير حساب » . فإننا نعلم أن « الحساب » يقتضي « محاسِبا » ـ بكسر السين ويقتضي « محاسَبا » ـ بفتح السين ويقتضي « محاسبا عليه » ، إن الحساب يقتضي تلك العناصر السابقة . فعندما يقول الحق : « وترزق من تشاء بغير حساب » فلنا أن نقول : ممن ؟ ولمن ؟ من أين يأتى الرزق ؟ وإلى أين ؟ إنه يأتى من الله ، ويذهب إلى ما يقدره الله لأن الله هو الرزّاق ، وهو الحق وحده ، وهو الذى لا يستطيع ولا يجرؤ أحد على حسابه ، فهو سبحانه الذى يحاسبنا جميعا ، لا شريك له ، وهو الفعال لما يريد .

إن الحساب يجريه الله على الناس ، وهو سبحانه لا يعطى الناس فقط على قدر حركتهم فى الوجود ، بل يرزقهم أحيانا بما هو فوق حركتهم . وقد يرزقك الله من شيء لم يكن محسوبا عندك ، لأن معنى الحساب هو ذلك الأمر التقديرى الذى يخطط له الإنسان ، كالفلاح الذى يحسب عندما يزرع الفدان ويتوقع منه نتاجا يساوى كذا إردبا أو قنطارا ، أو الصانع الذى يقدر لنفسه دخلا محددا من صنعته . هذا هو الحساب ، لكن الإنسان قد يلتفت فيجد أن عطاء الله له من غير حساب . وقد يحسب الإنسان مرة ولا يأتى له الرزق .

مثال ذلك : قالوا : إن دولة أعلنت أنها زرعت قمحا يكفى الدنيا كلها ، ولكن عندما نضج المحصول هبت عاصفة أهلكت الزرع ، وأكلت هذه الدولة قمحها من

الخارج . فمن قالوا عن أنفسهم : إنهم سيطعمون الناس أطعمهم الناس . أليس ذلك مصداقا لقول الحق : « من غير حساب » ؟ إنه الحق سبحانه لا يحسب حركتك أيها الإنسان ليعطيك قدرها ، ولكنه قد يعطيك أحيانا فوق حركتك .

ونحن نرى إخوتنا الذين أفاض الله عليهم بثروة البترول ، لقد تفجر البترول من تحت أرجلهم دون جهد منهم ، إنه الله يريد أن يلفت الناس إلى قدرته جل وعلا، وأن الأرزاق فى يده هو . وننظر إلى الناس الذين يشيرون إلى منطقة البترول فيتهمون أهلها بالكسل ، ونجد أن الحق سبحانه وتعالى قد سخر لهم غير الكسالى ليخدموهم ، وعندما أفاء على المنطقة العربية بالبترول احتاجت لهم الدول التى تقول عن نفسها : إنها متقدمة ، إنه رزق بغير حساب .

إن هذه اللفتات إنما تؤكد للمؤمن طلاقة القدرة ، إن الحق قد خلق الأسباب ، ولم يترك الأسباب تتحكم وحدها ، وقد يترك الحق الأسباب للإنسان ليعمل بها ، وقد لا يعطيه منها ، ويعطى الحق الإنسان من جهة أخرى لم يحسب لها حسابا . والإنسان الذى يتأمل تقدير أموره أو أمور من يعرف يجد أن تلك القضية منتشرة فى كل الخلق ، إنه سبحانه يرزق بغير حساب ، ولا يقول : « لقد فعلت على قدر يساوى كذا » ، والحق سبحانه يعطى بغير حساب من الإنسان ، لأن الموازنة التى قد يقوم بها الإنسان قد يأتى لها من الأسباب ما يخرقها .

إذن « وترزق من تشاء بغير حساب » تعنى قدرة الحق المطلقة على الرزق بغير حساب ولا توجد سلطة أعلى منه تقول له : لماذا فعلت ؟ أو ماذا أعطيت ؟ أو من غير حساب منه سبحانه لخلقه ، فيأتى الرزق على ما هو فوق أسباب الخلق ، أو من غير حساب للناس المرزوقين فيأتى رزقهم من حيث لم يقدروا ، فإذا كانت كل هذه الأمور لله ، وهو مالك الملك ويعطى من يشاء ، ويعز من يشاء ، ويولج الليل فى النهار ، ويرزق من يشاء بغير حساب ، أليس من الحمق أن يذهب إنسان ليوالى من لا سلطان له ويترك هذا السلطان ، إن من يوالى غير الله هو الذى استبد به الغباء . ولنفطن لتلك القضية الإيمانية : أى فمادامت كل الأمور عندى فإياكم أن توالوا خصومى، لأننى أنا الذى بيده كل شىء ، هاهوذا القول الحق :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ

قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾

(سورة آل عمران)

إنه الحق يأمرنا ألا نوالى إلا الله ، فإن كنت تجرى حسابا لكل شيء وبتقدير مؤمن فلا توال إلا صاحب هذه الأشياء ، وإياك أن تعمد إلى عدو لهذه القوة القاهرة القادرة المستبدة فى كل أمور الكون ونواميسه ، إياك أن تعمد إلى أعداء الله لتتخذ منهم أولياء ؛ لأنك لو فعلت تكون غير صائب التفكير .

﴿ لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾ ﴾

أنت لا تتخذ الكافر وليا إلا إن بانت لك مظاهر القوة فيه ، ومظاهر الضعف فيك ، إنك عندما تتأمل معنى كلمة « ولى » . تجد أن معناها « معين » وحين تقول : « الله هو الولى » فإننا نستخدم الكلمة هنا على إطلاقها ، إن كلمة الولى تضاف إلى الله على إطلاقها ، وتضاف بالنسبية والمحدودية لخلق الله ، فالحق يقول :

﴿ ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ ﴾

(من الآية ٢٥٧ من سورة البقرة)

إن الله ولى على إطلاقه ، والحق يقول :

﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٦٢ ﴾

(سورة يونس)

إن المفرد لأولياء الله هو « ولى الله » ، فالمؤمن ولى الله ، والحق يقول :

﴿ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ۝٤٤ ﴾

(سورة الكهف)

هكذا نلاحظ أن الولاية قد تضاف مرة إلى الله ، ومرة إلى خلق الله . إن الله ولى المؤمن ، وهذا أمر مفهوم ، وقد نتساءل : كيف يكون المؤمن ولى الله ؟ إنا نستطيع أن نفهم هذا المعنى كما يلى : إن الله هو المعين للعباد المؤمنين فيكون الله ولى الذين آمنوا ، أى معينهم ومقويهم . وأولياء الله ، هم الذين ينصرون الله ، فينصرهم الله ، وهو ـ سبحانه ـ الحق الذى قال :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ۝٧ ﴾

(سورة محمد)

ألم يكن الله قادرا أن ينتقم من الكفار مرة واحدة وينتهى من أمرهم ؟ ولكن الحق سبحانه قال :

﴿ قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ۝١٤ ﴾

(سورة التوبة)

إن الحق لو قاتلهم فإن قتاله لهم سيكون أمرا خفيا ، وقد يقولون : إن هذه مسائل كونية فى الوجود ؛ لذلك يأتى بالقتال للمؤمنين الذين استضعفهم الكافرون . إذن مرة تطلق « الولى » ويراد بها « المعين » . ومرة أخرى تطلق كلمة « الولى » ويراد

بها « المعان » لأنك إن كنت أنت ولى الله ، والله وليك فإنه الحق سبحانه « معين » لك وأنت « معان » .

إن الحق سبحانه يريد لمنهجه أن يسود بإيمان خلقه به ، وإلا لكان الحق سبحانه وتعالى قد استخدم طلاقة قدرته على إرغام الناس على أن يكونوا طائعين ، فلا أحد بقادر على أن يخرج عن قدرة الله ، والإنسان عليه أن يفكر تفكيرا واضحا ، ويعرف أن حياته بين قوسين : بين قوس ميلاده وقوس وفاته ، ولا يتحكم الإنسان فى واحد من القوسين ، فلماذا يحاول التحكم فى المسافة بين القوسين ؟ إذن القواميس الكونية بيد الله وتسير كالساعة ، إنه سبحانه يقول :

﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾

(سورة غافر)

إن شيئا لم يخرج عن مراد الخالق الأعظم . إنما الحق سبحانه وتعالى أخذ هذه المسائل فى حركة السماوات والأرض بقوة قهره وقدرة جبروته ، فلا شيء يخرج من يده ، أما بالنسبة للعباد فهو سبحانه يريد أن يأخذ قوما بحب قلوبهم . إن الإيمان طريق متروك لاختيار الإنسان ، صحيح أن الحق قادر على أن يأتى بالناس مؤمنين ، ولكنه يريد أن يرى من يجيء إليه وهو مختار ألا يجيء .

إن تسخير الأشياء يظهر لنا صفة القدرة الكاملة لله ، واختيارات الإنسان هى التى تظهر صفة المحبوبية لله ، والله يريد لنا أن نرى قدرته ، ويريد منا أن نتجه إليه بالمحبوبية لذلك يقول الحق : « لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين » لماذا ؟ لأن الكافرين وإن تظاهروا أنهم أولياء لك أيها المؤمن ، فهم يحاولون أن يجعلوك تستنيم لهم ، وتطمئن إليهم وربما تسللوا بلطف ودقة ، فدخلوا عليك مدخل المودة ، وهم ليسوا صادقين فى ذلك ، لأنهم ماداموا كافرين ، فليس هناك التقاء فى الأصل بين الإيمان والكفر ؛ لذلك يقول الحق : « ومن يفعل ذلك فليس من الله فى شيء » .

إن من يتخذ هؤلاء أولياء له ، فليس له نصيب من نصرة الله ، لماذا ؟ لأنه اعتقد

ان هؤلاء الكافرين قادرون على فعل شيء له . لذلك يحذرنا الله ويزيد المعنى وضوحا أى : إياكم أن تغتروا بقوة الكافرين وتتخذوا منهم أولياء . ولا تقل أيها المؤمن : « ماذا أفعل ؟ » لأن الله لا يريد منك إلا أن تبذل ما تستطيع من جهد ، ولذلك قال سبحانه :

﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾

(سورة الأنفال)

إن الحق لم يقل : « أعدوا لهم ما تغلبونهم به » ، ولكنه قال : « أعدوا لهم ما استطعتم » . إن على المؤمن أن يعمل ما فى استطاعته ، وأن يدع الباقى لله ، ولذلك فهناك قضية قد يقف فيها العقل ، ولكن الله يطمئننا ؛ أى : لا تخافوا ولا تظنوا أن أعدادهم الكبيرة قادرة على أن تهزمكم ، ولا تسأل : « ماذا أفعل يا الله » ؟ لقد علمنا الحق ألا نقول ذلك ، وعلمنا ما يحمينا من هذا الموقف لذلك قال :

﴿ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴾

(من الآية ١٢ من سورة الأنفال)

إذن فساعة يلقى الله فى قلوب الذين كفروا الرعب فماذا يصنعون مهما كان عددهم أو عدتهم ؟ أليس فى ذلك نهاية للمسألة ؟ إن الرعب هو جندى ضمن جنود الله ، ولذلك فعلى المؤمن ألا يوالى الكافرين من دون المؤمنين ، لماذا ؟ حتى لا ينطبق عليه القول الحق : « ومَن يفعل ذلك فليس من الله فى شيء » ويضع الحق بعد ذلك الاستثناء : « إلا أن تتقوا منهم تقاة ويحذركم الله نفسه وإلى الله المصير » .

إن الحق سبحانه وتعالى يعطى المنهج للإنسان وهو من خلقه سبحان ، ويعرف كل غرائزه ، وانفعالاته ، وفكره ، وفى أنه قد تأتى له ظروف أقوى من طاقته ، لذلك

يعامل الحق الإنسان على أنه مخلوق محدود القدرات ، وفى موضع آخر جاء الحق باستثناء آخر فقال :

﴿ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾ ﴾

(سورة الأنفال)

إن الحق يقول فى هذا الموضع من سورة آل عمران : لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله فى شيء ، إلا أن تتقوا منهم تقاة .

« وتقاة » مأخوذة من « الوقاية » . إنهم قد يكونون أقوياء للغاية ، وقد لا يملك المؤمن بغلبه الظن فى أن ينتصر عليهم ؛ وهم الكافرون ، فلا مانع من أن يتقى المؤمن شرهم .

إن التقية رخصة من الله ، روى : أن مسيلمة الكذاب جاء برجلين من المسلمين وقال لواحد منهما : « أتشهد أن محمدا رسول الله » ؟ قال المؤمن « نعم » : قال مسيلمة : « وتشهد أنى رسول الله ؟ » قال المؤمن : « نعم » . وأحضر مسيلمة المسلمَ الآخر وقال له : « أتشهد أن محمدا رسول الله ؟ » قال المؤمن : « نعم » . قال مسيلمة : « أتشهد أنى رسول الله ؟ » قال المؤمن الثانى : « إنى أصم » كيف رد عليه المؤمن بدعوى الصمم ؟ لقد علم مسيلمة أنه يدعى الصمم ، ولذلك أخذه وقتله ، فرفع الأمر إلى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فماذا قال ؟ قال صلى الله عليه وسلم : « أما المقتول . . فقد صدع بالحق فهنيئا له ، وأما الآخر فقد أخذ برخصة الله » . فالتقية رخصة ، والإفصاح بالحق فضيلة . .

وعمار بن ياسر أخذ بالرخصة وبلال بن رباح تمسك بالقرعة .

---

(١) من تفسير الكشاف لزمخشرى بتصرف .

ولننظر إلى حكمة التشريع فى هذا الأمر . إن كل مبدأ من مبادىء الخير جاء ليواجه ظاهرة من ظواهر الشر فى الوجود ، وهذا المبدأ يحتاج إلى منهج يأتى من حكيم أعلى منه ، ويريد صلابة يقين ، وقوة عزيمة ، كما يريد تحمل منهج ، فالتحمل إنما يكون من أجل أن يبقى المنهج للناس ، والعزيمة من أجل أن يواجه المؤمن الخصوم ، فلو لم يشرع الله التقية بقوله :

﴿ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ ﴾

(من الآية ١٠٦ من سورة النحل)

لكنا حقيقة سنحقق الفدائية التى تفدى مناهج الحق بالتضحية بالحياة رخيصة فى سبيل الله ، ولكن هب أن كل مؤمن وقف هذا الموقف فمن يحمل علم الله إلى الآخرين ؟ لذلك يشرع الحق سبحانه وتعالى التقية من أجل أن يبقى من يحمل المنهج ، إنه يقرر لنا الفداء للعقيدة ، ويشرع لنا التقية من أجل بقاء العقيدة . لقد جاء الحق بالأمرين : أمر الوقوف فى وجه الباطل بالاستشهاد فى سبيل الحق ، وأمر التقية حماية لبعض الخلق حتى لا يضيع المنهج الحق لو جاء جبار ، واستأصل المؤمنين جميعا ، لذلك يشرع الحق ما يبقى للفداء قوما ، ويبقى للبقاء قوما ليحملوا منهج الله ، هل عرفنا الآن لماذا جاءت التقية ؟ لأن الحق سبحانه وتعالى يريد منهجا يعمر الأرض، ويورث للأجيال المتتالية ، فلو أن الحق لم يشرع التقية بقوله :

﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَـٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ﴾

(سورة النحل)

لثبتت الفدائية فى العقيدة ، ولو ثبتت الفدائية وحدها لكان أمر المنهج عرضة لأن يزول ، ولا يرثه قوم آخرون ، لذلك شرع الله التقية ليظل أناس حول شمعة الإيمان ، يحتفظون بضوئها ؛ لعل واحدا يأخذ بقبسها ، فيضيء بها نورا وهاجا . ولذلك ، فلا ولاية من مؤمن لقوم كافرين إلا أن يتقى منهم تقاة ، لماذا ؟ لأن الله يحذرنا نفسه بقوله : « ويحذركم الله نفسه وإلى الله المصير » .

فإياك أن تقبل على السلوك الذى يضعه أمامك الكفار بانشراح صدر وتقول : أنا أقوم بالتقية ، بل لابد أن تكون المسألة واضحة فى نفسك ، وأن تعرف لماذا فعلت التقية ، هل فعلتها لتبقى منهج الخير فى الوجود ، أو لغير ذلك ؟ هل فعلتها حتى لا تجعل جنود الخير كلهم إلى فناء أو غير ذلك ؟ إنك إن فعلت التقية بوعى واستبقيت نفسك لمهمة استبقاء المنهج الإيمانى ، فأنت أهل الإيمان ، وعليك أن تعرف جيدا أن الحق قد قال : « ويحذركم الله نفسه وإلى الله المصير » . إنه الحق يقول للمؤمنين : إياكم أن تخلعوا على التقية أمرا هو مرغوب لنفوسكم ، لماذا ؟ لأن الحق قد حددها :

﴿ مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ﴾

(سورة النحل)

فلا غاية إلا الله ، فإياكم أن تغشوا أنفسكم ، لأنه لا غاية عند غيره ، فالغاية كلها عنده وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ قُلْ إِن تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ ﴾

لأن الإنسان قد يقوم بالتقية كظاهرة شكلية ، أما المؤمن فلا يفعل ذلك أبدا . لماذا ؟ لأن التحذير واضح فى هذه الآية . هنا قد يقول قائل : إن إخفاء ما فى الصدر هو الذى يعلمه الله أما إبداء ما فى الصدر فإنه قد علمه أحد غير الله ، فلماذا جاء هذا القول ؟ لقد جاء هذا القول الحكيم ، لأنه قد يطرأ على بالك أن الله غيب فهو يعلم

الغيب فقط ولا يعلم المشهد . لكن الله لا يحجبه مكان عن مكان أو زمان عن زمان . فإياك أن تعتقد أن الله غيب فلا يعرف إلا الغيب . إن الحق يعلم الغيب ويعلم ما برز إلى الوجود . وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾ ﴾

إن العمل فى ذاته ظاهرة تحدث وتنتهى ، فكيف يأتى الإنسان يوم القيامة ، ويجد عمله ؟ إنه لاشك سوف يجد جزاء عمله ، إننا حتى الآن نقول ذلك ، لكن حين يفتح الله على بعض العقول فتكتشف أسرارا من أسرار الكون فقد يكون تفسير هذه الآية فوق ما نقول ، إنهم الآن يستطيعون تصوير شريط لعمل ما وبعد مدة يقول الإنسان للآخر : انظر ماذا فعلت وماذا قلت إن العمل المسجل بالشريط يكون حاضرا ومصورا ، فإذا كنا نحن البشر نستطيع أن نفعل ذلك بوسائلنا فماذا عن وسائل الحق سبحانه وتعالى ؟ لابد أنها تفوقنا قدرة ، إنه الحق يعلم كل شىء ، فى الصدر ، أو فى السماوات أو فى الأرض : إن الحكم الإلهى يشمل الكون كله مصداقا لقول الحق :

﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

ويختم الحق هذه الآية بقوله : « والله على كل شيء قدير » إنه القادر الذى يعلم عنا الغفلة ، فينبهنا دائما إلى كمال قدرته ، كما قال فى آية قبلها : « إنك على كل شيء قدير » ونحن مخلوقون لله ، وهو القادر الأعلى ، القادر على كل شيء ويأتى لكل منا بكتاب حسابه يوم الحساب :

﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَـٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ ﴾

(سورة الحاقة)

إذن فمن تقف فى عقله هذه المسألة ، فليقل : « ما عملت من خير محضرا » يعنى أنه يجد جزاء عمله . أما ما عملته النفس من السوء فهى تود أن يكون بينه وبينها أمد بعيد ، أى غاية بعيدة ، ويقول الإنسان لنفسه : « يا ليتها ما جاءت » . والحق سبحانه يقول : « ويحذركم الله نفسه والله رءوف بالعباد » إن الحق سبحانه يكرر التحذير لنستحضر قوته المطلقة ، ولكنه أيضا رءوف بنا رحيم ومن بعد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ ﴾

ولنا أن نعرف أن كل « قل » إنما جاءت فى القرآن كدليل على أن ما سيأتى من بعدها هو بلاغ من الرسول صلى الله عليه وسلم عن ربه ، بلاغ للأمر وللمأمور به ، إن البعض ممن فى قلوبهم زيغ يقولون : كان من الممكن أن يقول الرسول : « إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله » لهؤلاء نقول : لو فعل الرسول صلى الله عليه وسلم ذلك لكان قد أدى « المأمور به » ولم يؤد الأمر بتمامه . لماذا ؟ لأن الأمر فى « قل » . . والمأمور به « إن كنتم تحبون الله » وكأن الرسول صلى الله عليه وسلم فى كل بلاغ عن الله بدأ بـ « قل » إنما يبلغ « الأمر » ويبلغ « المأمور به » مما يدل على أنه

مبلغ عن الله فى كل ما بلغه من الله .

إن الذين يقولون : يجب أن تحذف « قل » من القرآن ، وبدلا من أن نقول : « قل هو الله أحد » فلننطقها : « الله أحد » . لهؤلاء نقول : إنكم تريدون أن يكون الرسول قد أدى « المأمور به » ولم يؤد « الأمر » .

إن الحق يقول : « قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله » هذه الآية تدل على ماذا ؟ إنهم لابد قد ادعوا أنهم يحبون الله ، ولكنهم لم يتبعوا الله فيما جاء به رسوله صلى الله عليه وسلم ، فكأنهم جعلوا الحب لله شيئا ، واتباع التكليف شيئا آخر ، والله سبحانه وتعالى له على خلقه إيجاد ، وإمداد ، وتلك نعمة ، ولله على خلقه فضل التكليف ، لأن التكليف إن عاد على المُكَلَّفِ « بفتح الكاف وتشديد اللام » ولم يعد منه شيء على المُكَلِّفِ بكسر الكاف فهذه نعمة من المكلف .

إن الحق سبحانه لا يحتاج إلى أحد ولا من أحد . إن الحق سبحانه عندما كلفنا إنما يريد لنا أن نتبع قانون صيانة حياة الإنسان . وقد ضربنا المثل - ولله المثل الأعلى، بالآلة المصنوعة بأيدى البشر ، إن المهندس الذى صممها يضع لها قانون صيانة ما ، ويضع قائمة تعليمات عن كيفية استعمالها ؛ وهى تتلخص فى « افعل كذا » و« لاتفعل كذا » ، ويختار لهذه الآلة مكانا محددا ، وأسلوبا منظما للاستخدام .

إذن - فوضع قائمة بالقوانين الخاصة بصيانة واستعمال آلة ما وطبعها فى كراسة صغيرة ، هى لفائدة المنتفع بالصنعة . هذا فى مجال الصنعة البشرية، فما بالنا بصنعة الله عز وجل ؟ إن لله إيجادا للإنسان ، ولله إمدادا للإنسان ، ولله تكليفا للإنسان ، والحق قد جعل التكليف فى خدمة الإيجاد والإمداد . إن الحق لو لم يعطنا نظام حركة الحياة فى « افعل » و« لاتفعل » لفسد علينا الإيجاد والإمداد ، إن من تمام نعمة الحق على الخلق أن أوجد التكليف ، وإن كان العبد قد عرف قدر الله فأحبه للإيجاد والإمداد فليعرف العبد فضل ربه عليه أيضا من ناحية قبول التكليف ، وأن يحب العبد ربه لأنه كلفه بالتكاليف الإيمانية .

إنك قد تحب الله ، ولكن عليك أن تلاحظ الفرق بين أن تحب أنت الله ، وأن

يحبك الله . إن التكليف قد يبدو شاقا عليك فتهمل التكليف ؛ لذلك نقول لك : لا يكفى أن تحب الله لنعمة إيجاده وإمداده ، لأنك بذلك تكون أهملت نعمة تكليفه التى تعود عليك بالخير ، إن نعمة التكليف تعود عليك بكل الخير عندما تؤديها أيها الإنسان ، فلا تهملها ، ومن الجائز أن تجد عبادا يحبون الله لأنه أوجدهم وأمدهم بكل أسباب الحياة ، ولكن حب الله لعبده يتوقف على أن يعرف العبد نعمته ـ سبحانه ـ فى التكليف ، إن الله يحب العبد الذى يعرف قيمة النعمة فى التكليف .

ونحن فى مجالنا البشرى نرى إنسانا يحب إنسانا آخر ، لكن هذا الآخر لا يبادله العاطفة ، والمتنبى قال :

أنت الحبيب ولكنى أعوذ به
من أن أكون حبيبا غير محبوب

إن المتنبى يستعيذ أن يحب واحدا لا يبادله الحب . فكأن الذين يدعون أنهم يحبون الله ، لأنهم عبيد إحسانه إيجادا وإمدادا ، ثم بعد ذلك يستنكفون ، أولا يقدرون على حمل نفوسهم على أداء التكليف لهؤلاء نقول : أنتم قد منعتم شطر الحب لله ، لأن الله لم يكلفكم لصالحه ولكنه كلفكم لصالحكم ؛ لأن التكليف لا يقل عن الإيجاد والإمداد .

لماذا ؟ لأن التكليف فيه صلاح الإيجاد والإمداد ، والحب ـ كما نعرف ـ هو ودادة القلب وعندما تقيس ودادة القلب بالنسبة لله ، فإننا نرى آثارها ، وعملها ، من عفو ورحمة ورضا . وعندما تقيس ودادة القلب من العبد إلى الله فإنها تكون فى الطاعة . إن الحب الذى هو ودادة القلب يقدر عليه كل إنسان ، ولكن الحق يطلب من ودادة القلب ودادة القالب ، وعلى الإنسان أن يبحث عن تكاليف الله ليقوم بها ؛ طاعة منه وحبا لله ، ليتلقى محبة الله له بآثارها ، من عفو ، ورحمة ، ورضا .

والحب المطلوب شرعا يختلف عن الحب بمفهومه الضيق ، أقول ذلك لنعلم جميعا ، أنه الحق سبحانه قائم بالقسط ، فلا يكلف شططا ، ولا يكلف فوق الوسع أو فوق الطاقة . إن الحب المراد لله فى التكليف هو الحب العقلى ، ولابد أن نفرق بين الحب العقلى والحب العاطفى ، العاطفى لا يقنن له . لا أقول لك : « عليك أن تحب فلانا حبا عاطفيا » لأن ذلك الحب العاطفى لا قانون له . إن الإنسان يحب ابنه حتى ولو كان قليل الذكاء أو صاحب عاهة ، يحبه بعاطفته ، ويكره قليل الذكاء

بعقله .

والإنسان حينما يرى ابن جاره أو حتى ابن عدوه ، وهو متفوق ، فإنه يحب ابن الجار أو ابن العدو بعقله ، لكنه لا يحب ابن الجار أو العدو بعاطفته ، ودليل ذلك أن الإنسان عندما توجد لديه أشياء جميلة فإنه يعطيها لابنه لا لابن الجيران ، هناك - إذن - فرق بين حب العقل ، وحب العاطفة .

والتكليف دائما يقع فى إطار المقدور عليه وهو حب العقل ، ومع حب العقل قد يسأل الإنسان نفسه : ماذا تكون حياتى وكيف . . لو لم أعتنق هذا الدين ؟ وماذا تكون الدنيا وكيف ، لولا رحمة الله بنا عندما أكرمنا بهذا الدين ؟ وأرسل لنا هذا الرسول الكريم ؟ إن هذا حديث العقل وحب العقل .

وقد يتسامى الحب فيصير بالعاطفة أيضا ، لكن المكلف به هو حب العقل ، وليس الحب العاطفى ، ولذلك يجب أن نفطن إلى ما روى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه -حينما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
(لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين)[1] .

وقف سيدنا عمر عند هذه النقطة فقال : أمعقول أن يكون الحب لك أكثر من النفس ؟ إننى أحبك أكثر من مالى ، أو من ولدى ، إنما من نفسى ؟ ففى النفس منها شىء . وهكذا نرى صدق الأداء الإيمانى من عمر بن الخطاب رضى الله عنه وكررها النبى صلى الله عليه وسلم ثانيا ، وثالثا ، فعرف سيدنا عمر أنه قد أصبحت تكليفا وعرف أنها لابد أن تكون من الحب المقدور عليه ، وهو حب العقل ، وليس حب العاطفة . وهنا قال عمر : « الآن يا رسول الله ؟ » فقال الرسول صلى الله عليه وسلم : الآن يا عمر ، أى كمل إيمانك الآن ، أى أن سيدنا عمر قد فهم المراد بهذا الحب وهو الحب العقلى .

ونريد هنا أن نضرب مثلا حتى لا تقف هذه المسألة عقبة فى القلوب أو العقول

---

(١) رواه البخارى ومسلم والنسائى وابن ماجه وأحمد .

ـ نقول ـ ولله المثل الأعلى:إن الإنسان ينظر إلى الدواء المر طعما ويسأل نفسه هل أحبه أو لا ؟ إن الإنسان يحب هذا الدواء بعقله ، لا بعاطفته

إذن فحب العقل هو ودادة من تعلم أنه صالح لك ونافع لديك وإن كانت نفسك تعافه، وعندما تتضح لك حدود نفع بالشيء فأنت تحبه بعاطفتك.إذاً فالمطلوب للتكليف الإيمانى « الحب العقلى » ، وبعد ذلك يتسامى ليكون « حبا عاطفيا » وهكذا يكون قول الحق : « إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله » وهذا الحب ليس دعوى . إن الإنسان منا عندما يدعى أنه يحب إنسانا آخر ، فكل ما يتصل به يكون محبوبا ، ألم يقل الشاعر : « وكل ما يفعل المحبوب محبوب » ؟ فإن كنتم تحبون رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاتبعوه بتنفيذ التكاليف الإيمانية ، ولنلتفت إلى الفرق بين « اتبعنى » و« استمع لى » .

إن الاتباع لا يكون إلا فى السلوك ، فإن كنت تحب رسول الله فعليك أن ترى ماذا كان يفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم،وأن تفعل مثله ، أما إذا كنت تدعى هذا الحب ، ولا تفعل مثلما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم فهذا عدم صدق فى الحب ، إن دليل صدقكم فى الحب المدعى منكم أن تتبعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإن اتبعنا رسول الله نكون قد أخذنا التكليف من الله على أنه نعمة ، ونقبلها من الله مع ما فيها من مشقة علينا ، فيحبنا الله ، لأننا آثرنا تكليفه على المشقة فى التكليف .

إن فهم هذه الآية يقتضى أن نعرف أن الحق ينبهنا فكأنه يقول لنا : أنتم أحببتم الله للإيجاد والإمداد ، وبعد ذلك وقفتم فى التكليف لأنه ثقيل عليكم ، وهنا نقول : « انظروا إلى التكليف أهو لصالح من كلف أم هو لصالح من تلقى التكليف ؟» . إنه لصالح المكلَّف أى الذى تلقى التكاليف .

وهكذا يجب أن نضم التكليف للنعم ، فتصبح النعم هى « نعم الإيجاد » ، و« الإمداد » ، و« التكليف » ، فإن أحببت الله للإيجاد والإمداد ، فهذا يقتضى أن تحبه أيضا للتكليف ، ودليل صدق الحب هو قيام العبد بالتكليف ، ومادمت أنت قد عبرت عن صدق عواطفك بحبك لله ، فلابد أن يحبك الله ، وكل منا يعرف أن حبه لله لا يقدم ولا يؤخر ، لكن حب الله لك يقدم ويؤخر .

إن قول الحق سبحانه وتعالى فيما يعلّمه لرسول الله ليقول لهم : « فاتبعونى يحببكم الله » أى أن الرسول صلى الله عليه وسلم المرسل من عند الله جاء بكل ما أنزله الله ولم يكتم شيئا مما أمِرَ بتبليغه ، فلا يستقيم أن يضع أحد تفريقا بين رسول الله وبين الله ، لأن الرسول صلى الله عليه وسلم مبلغ عن الله كل ما أنزل عليه .

وبعد ذلك يقول الحق : « ويغفر لكم ذنوبكم » إن مسألة « يغفر لكم » هذه تتضمن ما تسميه القوانين البشرية بالأثر الرجعى ، فمن لم يكن فى باله هذا الأمر ؛ وهو حب الله ، واتباع الرسول صلى الله عليه وسلم ، فعليه أن يعرف أن عليه مسئولية أن يبدأ فى هذه المسألة فورا ويتبع الرسول صلى الله عليه وسلم وينفذ التكليف الإيمانى ، وسيغفر له الله ما قد سبق ، وأى ذنوب يغفرها الله هنا ؟ إنها الذنوب التى فر منها بعض العباد عن اتباع الرسول ، فجاء الرسول صلى الله عليه وسلم بالحكم فيها .

وهكذا نعرف ونتيقن أن عدالة الله أنه سبحانه لن يعاقب أحدا على ذنب سابق مادام قد قبل العبد أن ينفذ التكليف الإيمانى ، إن الذين أبلغهم رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يجب عليهم أن يفطنوا بعقولهم إلى ما أعلنه الرسول لهم ، إن هذا الأمر لا يكون حجة إلا بعد أن صار بلاغا ، وقد جاء البلاغ ، ولذلك يغفر الله الذنوب السابقة على البلاغ ، وبعد ذلك يقول الحق : « والله غفور رحيم » إننا نعلم أن المغفرة من الله والرحمة منه أيضا ، وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ۝٣٢ ﴾

وقد قلت من قبل فى مسألة الأمر بالطاعة ، إنها جاءت فى القرآن الكريم على ثلاثة ألوان : فمرة يقول الحق : « أطيعوا الله والرسول » . كما جاء بهذه الآية التى

نحن بصدد تناولها بخواطرنا الإيمانية . ونلاحظ هنا أن الحق سبحانه لم يكرر أمر الطاعة ، بل جعل الأمر واحدا ، هو « أطيعوا »،فإذا سألنا من المطاع ؟ تكون الإجابة . الله والرسول معا .

إذن فقول الرسول صلى الله عليه وسلم بلاغا عن الله « اتبعونى يحببكم الله » يعنى أن طاعة المؤمنين للرسول من طاعة الله . إن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يأمرنا بطاعته ، ولكنه يأمرنا بطاعة الله ، ولذلك لم يكرر الحق أمر الطاعة ، إنّ الحق هنا يوحد أمر الطاعة فيجعلها لله وللرسول معا ، إنه يعطف على المطاع الأول وهو الله بمطاع ثانٍ هو الرسول صلى الله عليه وسلم . ويقول الحق فى كتابه العزيز :

﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٥٤﴾ ﴾

(سورة النور)

إن الحق يورد أمر الطاعة ثلاث مرات : فمرة يكون أمر الطاعة لله ، ومرة ثانية يكون أمر الطاعة للرسول صلى الله عليه وسلم،ومرة ثالثة يقول الحق :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾ ﴾

(سورة النساء)

فما مسألة هذه الأوامر بالطاعة ؟ إنها طاعة بألوان التكليف وأنواعها ، إن الأحكام المطلوب من المؤمنين أن يطيعوا فيها ، مرة يكون الأمر من الله قد جاء بها وأن يكون الرسول قد أكدها بقوله وسلوكه ، إن المؤمن حين يطيع فى هذا الأمر الواحد ، فهو يطيع الله والرسول معًا ، ومرة يأتى حكم من الله إجمالا ، ويأتى الرسول ليفصله .

﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾

(سورة النور)

إن الواحد منا لم يكن يعرف كم صلاة فى اليوم ، ولا عدد الركعات فى كل صلاة ، ولا نعرف كيفيتها لكن الرسول صلى الله عليه وسلم قد فصل لنا الأمر فى كل صلاة ، إذن ، فالمؤمن يطيع الله فى الإجمال ، ويطيع الرسول فى التفصيل . إن علينا أن نلتفت إلى أن هنا طاعتين : الأولى : طاعة الله ، والثانية : طاعة الرسول ، أما فى الأمر المتحد ، فتكون الطاعة لله والرسول ، لأنه أمر واحد . وأما الأمر الذى جاء من الله فيه تكليف إجمالى فقد ترك الله للرسول صلى الله عليه وسلم بيانه ، فالمؤمن يطيع الله فى الأمر الإجمالى كأمر الصلاة ، وإقامتها ، ويطيع الرسول فى تفصيل أمر الصلاة ، وكيفيتها ، وأحيانا يجىء الحكم بالتفويض الأعلى من الله للرسول ، فيقول الله لرسوله ما معناه إنك أنت الذى تقرر فى هذه الأمور ، كما قال الحق :

﴿ وَمَا ءَاتَىٰكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا ﴾

(من الآية ٧ من سورة الحشر)

لقد ترك الحق سبحانه للرسول أن يصدر التشريعات اللازمة « لاستقامة حياة المؤمنين » لقد أعطاه الحق سبحانه التفويض العام ، ومادام سبحانه قد أعطى الرسول صلى الله عليه وسلم التفويض العام فإن طاعة المؤمن تكون للرسول فيما يقوله الرسول وإن لم يقل الله به . إننا على سبيل المثال لا نجد فى القرآن دليلا على أن صلاة الفجر ركعتان ، لكن الرسول صلى الله عليه وسلم هو الذى فصل لنا الصلاة فعرفنا أن الفجر ركعتان ، والظهر أربع ركعات ، والعصر مثل الظهر ، والمغرب ثلاث ركعات ، والعشاء أربع ركعات . إن الدليل هو تفصيل الرسول ، وقول الحق :

﴿ وَمَا ءَاتَىٰكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا ﴾

(من الآية ٧ من سورة الحشر)

إنه دليل من القرآن الكريم . هكذا نعرف أن الأمر بالطاعة جاء بالقرآن على ألوان ثلاثة : اللون الأول : إن اتحد المطاع « الله والرسول » ان عطف الرسول هنا يكون على لفظ الجلالة الأعلى . اللون الثانى : هو طاعة الله فى الأمر الإجمالى وطاعة الرسول فى تفصيل هذا الأمر ، فإن الحق يقول : « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول » اللون الثالث : وهو الذى لم يكن لله فيه حكم ، ولكنه بالتفويض العام للرسول ، بحكم قوله الحق : « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » هذه طاعة للرسول ، ثم يأتى فى أمر طاعة أولى الأمر فيقول الحق :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴿٥٩﴾ ﴾

(سورة النساء)

إن الحق لم يورد طاعة أولى الأمر مندمجة فى طاعة الله والرسول ، لتكون طاعة واحدة . لا . إن الحق أورد طاعة أولى الأمر فى الآية التى يفرق فيها بين طاعة الله وطاعة الرسول ، ثم من بطن طاعة الرسول تكون طاعة أولى الأمر . لماذا ؟ لأنه لا توجد طاعة ذاتية لأولى الأمر ؛ لأن الرسول صلى الله عليه وسلم له الطاعة الذاتية . أما طاعة أولى الأمر فهى مستمدة من طاعة أولى الأمر لله ورسوله ، ولا طاعة لأولى الأمر فيما لم يكن فيه طاعة لله وللرسول صلى الله عليه وسلم .

إن الحق يقول : « قل أطيعوا الله والرسول فإن تولوا فإن الله لا يحب الكافرين » . إن الله يبلغ الرسول أن يبلغ هؤلاء الذين قالوا : إنهم يحبون الله ، بالشروط التى يمكن أن يبادل بها الحق عباده الحب ، وذلك حتى تتحقق الفائدة للبشر ؛ لأن محبة الله تفوق ما يقدمه البشر من حب . إن اتباع الرسول وتنفيذ التكليف بالطاعة لله والرسول .

ذلك هو أسلوب تعبير العباد عن حبهم لله وللرسول صلى الله عليه وسلم ، أما إن تولوا ، أى لم يستمعوا إليك يا محمد ، ولم يتبعوك ، فإن موقفهم ـ والعياذ بالله ـ ينتقل إلى الكفر ؛ لأن الحق يقول عن الذين يتولون عن الله والرسول : « فإن تولوا فإن الله لا يحب الكافرين » . وليس هناك تفظيع أكثر من هذا .

إن كلمة « تولوا » توحى بأن الذين استمعوا إلى أوامر الحق قد نفروا وأعرضوا ، فهم لم يأخذوا حكم الله ، ثم منعهم الكسل من تنفيذه . لا . إنهم أعرضوا عن حكم الله ـ والعياذ بالله ـ ولذلك فقد قلت ومازلت أقول : فليحذر الذين يخالفون عن أوامر الله ألا يفرقوا بين أمر متقبل على أنه الحكم الحق وبين حمل النفس على اتباع الحكم وتنفيذه .

إياك أيها المسلم أن تنكر حكما لا تستطيع أن تحمل نفسك عليه أو لا تقدر عليه . إنك إن أنكرت تنقل نفسك من دائرة الإسلام إلى دائرة الكفر والعياذ بالله . ولكن عليك أن تؤمن بالحكم ، وقل : « إنه حكم الله وهو صواب ولكنى لا أستطيع أن أقدر على نفسى » إن ذلك يجعل عدم تنفيذ الحكم معصية فقط . ويأتى الحق ـ سبحانه ـ بعد أن بيّن لنا أصول العقائد فى قوله :

﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

وبعد أن بشر الحق المؤمنين بأنه سبحانه وتعالى يعطيهم الملك الإيمانى وأنه الإله القادر ، وطلاقة قدرته تولج الليل فى النهار وتولج النهار فى الليل ، وتخرج الحى من الميت وتخرج الميت من الحى ، وبعد أن رسم سبحانه طريق محبته ، فإن كنتم قد أحببتم الله للإيجاد والإمداد ، وتريدون أن يحبكم فعليكم بطاعة الله والرسول صلى الله عليه وسلم فى تنفيذ التكاليف .

وبعد أن وضع الله سبحانه وتعالى المبادىء الإيمانية عقدية وتشريعية ، بعد هذا و ذاك يعطى لنا نماذج تطبيقية من سلوك الخلق ، ذلك أن هناك فرقا بين أن توضع نظريات ويأتى الأمر للتطبيق فلا تجد من يطبق ، إن الحق لم يكلف شططا ولا عبثا ، إن الله يقول لنا : أنا كلفت بالتكاليف الإيمانية ومن الخلق أمثالكم من استطاع أن يسير عليها وأن ينفذها ، لذلك يعرض الحق لنا النماذج التى توضح ذلك .

لقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مبعوثا إلى أمة أمية ، وكان الإسلام جديدا عليهم ، ولذلك يعرض الحق نماذج قديمة ، وهذه النماذج تؤكد لنا أننا فى دين

الإسلام لا نجد تعصبا؛لأن الدين الذى جاء من الله على آدم عليه السلام هو الدين الذى جاء به إبراهيم عليه السلام من عند الله وهو الدين الذى نزل إلى آل عمران وموسى عليه السلام وعيسى عليه السلام .

إن الحق يعطى صفات التكريم لأهل أديان منسوبين إلى ما أنزله الله عليهم من منهج . وجاء الإسلام لينسخ بعضا مما جاء فى تلك الرسالات السابقة ويضعها فى منهج واحد باق إلى يوم القيامة ، هو منهج الإسلام ، إنه مطلق العظمة . هاهوذا الحق يقول :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾

إنها عدالة القرآن الكريم ، إنه الحق العادل الذى ينزل على الرسول بلاغا يذكر الأبناء بطهارة أصول الآباء ، ومن الخسارة أن يصير الأبناء إلى ما هم عليه . « إن الله اصطفى آدم » وكلمة « اصطفى » تدل على اختيار مُرضٍ . ولنا أن نسأل : هل اصطفى الحق هؤلاء الرسل ، آدم ونوحًا ، وآل إبراهيم ، وآل عمرانَ فكانوا طائعين ، أم علم الحق أزلا أنهم يكونون طائعين فاصطفاهم ؟ إن الحق علمه أزلى ، وعلمه ليس مرتبا على شىء . وساعة أن تأتى أنت بقانونك البشرى وتتفرس فى إنسان ما ، وتوليه أمرا ، وينجح فيه ، هنا تهنىء نفسك بأن فراستك كانت فى محلها ، بعلم الله واقتداره ؟

إن الذين اصطفاهم الله هم الذين علم الله أزلا أنهم سيكونون طائعين ، وقد يقول قائل : إنهم طائعون لله بالاصطفاء ، لمثل هذا القائل نرد : إنهم طائعون بالنفس العامة ويكونون فى مزيد من الطاعة بعد أن يأخذوا التكليف بالنفس الخاصة ، إنهم طائعون من قبل أن يأخذوا أمور التكليف ، ولو تركهم الحق للأمور

العقلية لاهتدوا إلى طاعته ، وعندما جاءهم الأمر التكليفى ويصطفيهم الله يكونون رسلا وحملة منهج سماوى .

عندما يسمع الإنسان قول الحق : « إن الله اصطفى آدم » فقد يتساءل عن معناها ، ذلك أن من اصطفاء الله لآدم تأتى إلى الذهن بمعنى « خصه » بنفسه أو أخذه صفوة من غيره ، فكيف كان اصطفاء آدم ، ولم يكن هناك أحد من قبله ، أو معه لأنه الخلق الأول ؟ إننا يمكن أن نعرف بالعقل العادى أن اصطفاء الله لنوح عليه السلام ؛ كان اصطفاء من بشر موجودين ، وكذلك اصطفاء إبراهيم خليل الرحمن وبقية الأنبياء .

إذن ، فكيف كان اصطفاء آدم ؟ إن معنى « اصطفى آدم » ـ كما قلنا ـ تعنى أن الله قد اختاره أو أن « المصطفى عليه » يأتى منه ومن ذريته . نعم وقد جاء المصطفى عليه من ذريته ، وهذا المعنى يصلح ، والمعنى السابق عليه يصلح أيضا . إن الحق يقول : « إن الله اصطفى آدم ونوحا » ونحن نعلم أن سيدنا نوحًا عليه السلام واجه جماعة من الكافرين به ، فأغرقهم الله فى الطوفان،ونجا نوح ومن معه بأمر الله .

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾ ﴾

(سورة هود)

إن الذين بقوا من بعد نوح عليه السلام كانوا مؤمنين ، ثم تعرضوا للأغيار . وجاءت هذه الأغيار فى أعقابهم ، فنشأ كفر وإيمان ، لماذا ؟ لأن آدم عليه السلام حين خلقه الله وضع له التجربة التكليفية فى الجنة ، كان من الواجب أن ينقل ما علمه له الله لأبنائه .

لقد نقل آدم لهم مسائل صيانة مادتهم وعلمهم كيف يأكلون ، وكيف يشربون ، وغير ذلك . وكان يجب أن تكون معهم القيم . إن آدم عليه السلام قد أدى ذلك ، وعلم أبناءه كيفية صيانة مادتهم وعلمهم القيم أيضا ، ولكن بمرور الزمان ، ظل بعض من أبناء آدم يتخففون من التكاليف حتى اندثرت وذهبت . ومن رحمة الله بخلقه يجدد سبحانه وتعالى الرسالة ببعث رسول جديد .

والرسالة الجديدة تعطى ما كان موجودا أولا ، فيها يتعلق بالعقائد والأخبار ، والأشياء التى لا تتغير ، وتأتى الرسالة الجديدة بالأحكام المناسبة لزمن الرسالة . فإذا ما أمكن للبشر أن يعدلوا من سياسة البشر ، يظل الأمر كما هو ، فإن ارتكب واحد منكرا وضرب قومه على يده ، استقام أمر الرسالة وبقيت هذه الأمة على الخير . لماذا ؟ لأن مصافى اليقين فى النفس الإنسانية موجودة ، ونحن نراها ونلمسها . إن هناك واحدا تجد مصافى اليقين فى ذاته ، وقد لا يقدر على نفسه ، فيرتكب المعصية ، وتلومه نفسه ، فيرجع عن المعصية .

ومرة أخرى نجد إنسانا آخر لا يجد فى نفسه مصافى اليقين ، ولكنها موجودة فى غيره ، فنجد من يأمره بالمعروف ، وينهاه عن المنكر ، فإذا امتنعت المصافى الذاتية للإيمان ، وكذلك امتنعت المصافى الإيمانية فى المجتمع ، فلا أمل هنالك ؛ لذلك يجب أن يأتى رسول جديد ، وينبه الناس بمعجزة ما .

لقد شاءت إرادة الحق سبحانه ألا يأتى رسول آخر بعد سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وفى ذلك شهادة لأمة محمد صلى الله عليه وسلم بأن الله أمنها على منهج الله ، فإذا مُنِعت من أى نفس مصافيها الذاتية فستبقى مصافيها الاجتماعية ، ولابد أن يكون فى أمة محمد ذلك ؛ لأن امتناع ذلك كان يستدعى وجود نبىّ جديد .

إن الله أمن أمة محمد على منهجه ، ولذلك لم يأت نبىّ بعد سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم . لقد أمن الحق أمة محمد فلم يمنع فيها أبدا المصافى الذاتية أو الاجتماعية ، ولذلك يأتى القول الحق :

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾

(من الآية ١١٠ من سورة آل عمران)

. إن هذا توجيه لنا من الحق لنعرف أن المصافى الاجتماعية ستظل موجودة فى أمة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، إذن فبعد حدوث الغفلة من بعد نوح عليه السلام جاء الله باصطفاءات أخرى رحمة منه بالعالمين ، ويقول الحق : « إن الله اصطفى آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين » . ونحن نقول على إبراهيم عليه السلام : « أبو الأنبياء » وأورد الحق نبأ بعض من أبناء آل إبراهيم ، وهم آل عمران وأعطاهم ميزة .

وكلمة « عمران » هذه حين ترد فى الإسلام فلنا أن نعرف أن هناك اثنين لهما الاسم نفسه ، هناك « عمران » والد موسى وهارون عليهما السلام . وهناك « عمران » آخر . إن عمران والد موسى وهارون كان اسم أبيه « يصهر » وجده اسمه « فاهاث » ، ومن بعده « لاوى » ومن بعده « يعقوب » ، ومن بعده « إسحق » ، وبعده « إبراهيم » ، أما عمران الآخر ، فهو والد مريم عليها السلام .

وقد حدث إشكال عند عدد من الدارسين هو « أى العمرانين يقصده الله هنا ؟ » والذى زاد من حيرة هؤلاء العلماء هو وجود أخت لموسى وهارون عليهما السلام اسمها مريم ، وكانت ابنة عمران والد موسى وهارون فكلتاهما اسمها مريم بنت عمران . وكانوا فى ذلك الزمن يتفاءلون باسم « مريم » لأن معناه « العابدة » ، ولما اختلفوا لم يفطنوا إلى أن القرآن قد أبان وأوضح المعنى، وكان يجب أن يفهموا أن المقصود هنا ليس عمران والد موسى وهارون عليهما السلام ، بل عمران والد مريم ، ومنها عيسى عليه السلام ، وعمران والد مريم هو ابن ماثان ، وهو من نسل سليمان ، وسليمان من داود ، وداود من أوشى ، وأوشى من يهوذا ، ويهوذا من يعقوب ، ويعقوب من إسحق .

وكنا قديما أيام طلب العلم نضع لها ضبطا بالحرف ، فنقول « عممعم سدثيا » ومعناها . . عيسى بن مريم ، ومريم بنت عمران ، وعمران ابن ماثان ، وماثان من سليمان ، من داود من أوشى وأوشى من يهوذا ويهوذا من يعقوب ويعقوب من إسحاق . لقد التبس الأمر على الكثير وقالوا : أى العمرانين الذى يقول الله فى حقه هذا القول الكريم ؟ ولهؤلاء نقول : إن مجىء اسم مريم عليها السلام من بعد ذلك يعنى أنه عمران والد مريم ، وأيضا يجب أن نفطن إلى أن الحق قد قال عن مريم :

﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَـٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَـٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

وزكريا عليه السلام هو ابن آذن ، وآذن كان معاصرا لماثان . إن المراد هنا هو عمران والد مريم . هكذا حددنا أى العمرانين يقصد الحق بقوله : « إن الله اصطفى آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين » . وعندما تقول : اصطفيت كذا على كذا ، فمعنى ذلك أنه كان من الممكن أن تصطفى واحدا من مجموعة على الآخرين ، ولذلك نفهم المقصود بـ « على العالمين » أى على عالمى زمانهم ، إنهم قوم موجودون وقد اصطفى منهم واحدا ، أما الذى سيولد من بعد ذلك فلا اصطفاء عليه ، فلا اصطفاء على محمد صلى الله عليه وسلم . ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ ﴾

وحين يقول : « ذرية بعضها من بعض » فلنا أن نسأل : هل المقصود بذلك الأنساب أم الدين والقيم ؟ ولنا أن نلتفت أن الحق قد علمنا فى مسألة إبراهيم عليه السلام أن الأنساب بالدم واللحم عند الأنبياء لا اعتبار لها ، وإنما الأنساب المعترف بها بالنسبة للأنبياء هى أنساب القيم والدين . وكنا قد عرضنا من قبل لما قاله الحق :

﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًاۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِىۖ ﴾

(من الآية ١٢٤ سورة البقرة)

فردها الله عليه قائلا :

﴿ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

(من الآية ١٢٤ سورة البقرة)

لماذا ؟ لأن الإمام هو المقتدى فى الهدايات . إذن فالمسألة ليست وراثة بالدم . وهكذا علم سيدنا إبراهيم ذلك بأن النسب للأنبياء ليس بوراثة الدم ، إذن فنحن نفهم قول الحق : « ذرية بعضها من بعض » على أنها ذرية فى توارثها للقيم . ونحن نسمع فى القرآن :

﴿ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾

(سورة التوبة)

إن هذا النفاق ليس أمرا يتعلق بالنسب وإنما يتعلق بالقيم ، إنها كلها أمور قيمية ، وحين يقال : « والله سميع عليم » أى أن الله يعرف الأقوال وكذلك الأفعال والخبايا . وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ ﴾

وعندما تقرأ « إذ » فلتعلم أنها ظرف ويُقدر لها فى اللغة « اذكر » ، ويقال « إذ جئتك » أى « اذكر أنى جئتك » . وعندما يقول الحق : « إذ قالت امرأة عمران » فبعض الناس من أهل الفتح والفهم يرون أن الحق سبحانه سميع عليم وقت أن قالت امرأة عمران : « رب إنى نذرت لك ما فى بطنى » ، وهم يحاولون أن يربطوا هذه الآية بما جاء قبلها ، بأن الله سميع وعليم . ونقف عند قول امرأة عمران : « رب إنى نذرت لك ما فى بطنى محررا » .

إننا عندما نسمع كلمة « محررا » فمعناها أنه غير مملوك لأحد فإذا قلنا : « حررت

العبد » يعني ينصرف دون قيد عليه . أو « حررت الكتاب » أصلحت ما فيه . إن تحرير أى أمر ، هو إصلاح ما فيه من فساد أو إطلاقه من أى ارتباط أو قيد . أما قولها : « رب إنى نذرت لك ما فى بطنى محررا » هو مناجاة لله ، فما الدافع إلى هذه المناجاة لله ؟

إن امرأة عمران موجودة فى بيئة ترى الناس تعتز بأولادها ، وأولاد الناس ـ كما نعلم ـ يحكمون حركة الناس ، والناس تحكم حركة أولادهم ، ويكد الناس من أجل أن يكون الأبناء عزوة ، وقرة عين ، ويتقدم المجتمع بذلك التواصل المادى ، ولم تعجب امرأة عمران بذلك ؛ لقد أرادت ما فى بطنها محررا من كل ذلك ، إنها تريده محررا منها ، وهى محررة منه . وهذا يعنى أنها ترغب فى أن يكون ما فى بطنها غير مرتبط بشىء أو بحب أو برعاية .

لماذا ؟ لأن الإنسان مهما وصل إلى مرتبة اليقين ، فإن المسائل التى تتصل بالناس وبه ، تمر عليه ، وتشغله ، لذلك أرادت امرأة عمران أن يكون ما فى بطنها محررا من كل ذلك ، وقد يقال : إن امرأة عمران إنما تتحكم بهذا النذر فى ذات إنسانية كذاتها ، ونرد على ذلك بما يلى :

لقد كانوا قديما عندما ينذرون ابنا للبيت المقدس فهذا النذر يستمر مادامت لهم الولاية عليه ، ويظل كما أرادو إلى أن يبلغ سن الرشد ، وعند بلوغ سن الرشد فإن للابن أن يختار بين أن يظل كما أراد والداه أو أن يحيا حياته كما يريد .

إن بلوغ سن الرشد هو اعتراف بذاتية الإنسان فى اتخاذ القرار المناسب لحياته . كانت امرأة عمران لا تريد مما فى بطنها أن يكون قرة عين ، أو أن يكون معها ، إنها تريده محررا لخدمة البيت المقدس ، وكان يستلزم ذلك فى التصور البشرى أن يكون المولود ذكرا ؛ لأن الذى كان يقوم بخدمة البيت هم الذكران .

ونحن نعرف أن كلمة « الولد » يطلق أيضا على البنت ، ولكن الاستعمال الشائع ، هو أن يطلق الناس كلمة « ولد » على الذكر . لكن معنى الولد لغويا هو المولود سواء أكان ذكرا أم أنثى . وعندما نسمع كلمة « نذر » فلنفهم أنها أمر أريد به الطاعة فوق تكليف المكلف من جنس ما كلّفه به الله .

إن الله قد فرض علينا خمس صلوات ، فإذا نذر إنسان أن يصلى عددا من الركعات فوق ذلك ، فإن الإنسان يكون قد ألزم نفسه بأمر أكثر مما ألزمه به الله ، وهو من جنس ما كلف الله وهو الصلاة . والله قد فرض صيام شهر رمضان ، فإذا ما نذر إنسان أن يصوم يومى الاثنين والخميس أو صيام شهرين فالإنسان حر ، ولكنه يختار نذرا من جنس ما فرض الله من تكاليف ، وهو الصيام . والله فرض زكاة قدرها باثنين ونصف بالمائة ، ولكن الإنسان قد ينذر فوق ذلك ، كمقدار عشرة بالمائة أو حتى خمسين بالمائة .

إن الإنسان حر ، ولكنه يختار نذرا من جنس ما فرض الله من تكاليف ، إن النذر هو زيادة عما كلف المكلف من جنس ما كلف سبحانه . وكلمة « نذرت » من ضمن معانيها هو أن امرأة عمران سيدة تقية وورعة ولم تكن مجبرة على النذر ، ولكنها فعلت ذلك ، وهو أمر زائد من أجل خدمة بيت الله .

والنذر كما نعلم يعبر عن عشق العبد لتكاليف الله ، فيلزم نفسه بالكثير من بعضها . ودعت امرأة عمران الله من بعد ذلك بقبول ذلك النذر فقالت : « فتقبل منى » . « والتقبل » هو أخذ الشيء برضا ، لأنك قد تأخذ بكره ، أو تأخذ على مضض ، أما أن « تتقبل » فذلك يعنى الأخذ بقبول وبرضا . واستجابة لهذا الدعاء جاء قول الحق :

﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ ﴾

(من الآية ٣٧ سورة آل عمران)

ونلاحظ أن امرأة عمران قالت فى أول ما قالت : « رب إنى نذرت لك ما فى بطنى محررا فتقبل منى إنك أنت السميع العليم » ، ولم تقل : « يا الله » وهذا لنعلم أن الرب هو المتولى التربية ، فساعة ينادى « ربى » فالمفهوم فيها التربية . وساعة يُنادى بـ « الله » فالمفهو فيها التكليف . إن « الله » نداء للمعبود الذى يطاع فيما يكلف به ، أما « رب » فهو المتولى التربية .

قالت امرأة عمران : « رب إنى نذرت لك ما فى بطنى محررا فتقبل منى إنك أنت السميع العليم » . هذا هو الدعاء ، وهكذا كانت الاستجابة : « فتقبلها ربها

بقبول حسن » وبعد ذلك تكلم الحق عن الأشياء التى تكون من جهة التربية . « وأنبتها نباتا حسنا . . وكفلها زكريا » . كل ذلك متعلق بالتربية وبالربوبية ، فساعة نادت امرأة عمران عرفت كيف تنادى ونذرت ما فى بطنها . وبعد ذلك جاء الجواب من جنس ما دعت بقمة القبول وهو الأخذ برضا . « فتقبلها ربها بقبول حسن » .

فالحسن هنا هو زيادة فى الرضا ، لأن كلمة « قبول » تعطينا معنى الأخذ بالرضا ، وكلمة « حسن » توضح أن هناك زيادة فى الرضا ، وذلك مما يدل على أن الله قد أخذ ما قدمته امرأة عمران برضا ، وبشىء حسن ، وهذا دليل على أن الناس ستلمح فى تربيتها شيئا فوق الرضا ، إنه ليس قبولا عاديا ، إنه قبول حسن . « وأنبتها نباتا حسنا » . مما يدل على أن امرأة عمران كانت تقصد حين نذرت ما فى بطنها ، ألا تربى ما فى بطنها إلى العمر الذى يستطيع فيه المولود أن يخدم فى بيت الله . ولكنها نذرت ما فى بطنها من اللحظة الأولى للميلاد . إنها لن تتنعم بالمولود ، ولذلك قال الحق : « وكفلها زكريا » ، وزكريا هو زوج خالة السيدة مريم . وبعد دعاء امرأة عمران ، يجىء القول الحكيم :

﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ ﴾

لقد جاء هذا القول منها ، لأنها كانت قد قالت : إنها نذرت ما فى بطنها محررا لخدمة البيت ، وقولها : « محررا » تعنى أنها أرادت ذكرا لخدمة البيت ، لكن المولود جاء أنثى . فكأنها قد قالت : ان لم أمكَّنْ من الوفاء بالنذر ، فلأن قدرك سبق ، لقد جاءت المولودة أنثى . لكن الحق يقول بعد ذلك : « والله أعلم

بما وضعت » . وهذا يعنى أنها لا تريد إخبار الله ، ولكنها تريد أن تظهر التحسر ، لأن الغاية من نذرها لم تتحقق وبعد ذلك يقول الحق : « وليس الذكر كالأنثى » . فهل هذا من كلامها ، أم من كلام الله ؟

قد قالت : « إنى وضعتها أنثى » وقال الله : « وليس الذكر كالأنثى » .

إن الحق يقول لها : لا تظنى أن الذكر الذى كنت تتمنينه سيصل إلى مرتبة هذه الأنثى ، إن هذه الأنثى لها شأن عظيم . أو أن القول من تمام كلامها : « إنى وضعتها أنثى » ويكون قول الحق : « والله أعلم بما وضعت » هو جملة اعتراضية ويكون تمام كلامها « وليس الذكر كالأنثى » . أى أنها قالت : يارب إن الذكر ليس كالأنثى ، إنها لا تصلح لخدمة البيت .

وليأخذ المؤمن المعنى الذى يحبه ، وسنجد أن المعنى الأول فيه إشراق أكثر ، إنه تصور أن الحق قد قال : أنت تريدين ذكرا بمفهومك فى الوفاء بالنذر ، وليكون فى خدمة البيت ، ولقد وهبت لك المولود أنثى ، ولكنى سأعطى فيها آية أكبر من خدمة البيت ، وأنا أريد بالآية التى سأعطيها لهذه الأنثى مساندة عقائد ، لا مجرد خدمة رقعة تقام فيها شعائر .

إننى سأجعل من هذه الآية مواصلة لمسيرة العقائد فى الدنيا إلى أن تقوم الساعة . ولأننى أنا الخالق ، سأوجد فى هذه الأنثى آية لا توجد فى غيرها ، وهى آية تثبت طلاقة قدرة الحق ، ولقد قلت من قبل : إن طلاقة القدرة تختلف عن القدرة العادية ، إن القدرة تخلق بأسباب ، ولكن من أين الأسباب ؟ إن الحق هو خالق الأسباب أيضا .

إذن فمادام الخالق للأسباب أراد خلقا بالأسباب فهذه إرادته . ولذلك أعطانا الحق القدرة على رؤية طلاقة قدرته ، لأنها عقائد إيمانية ، يجب أن تظل فى بؤرة الشعور الإيمانى ، وعلى بال المؤمن دائما . لقد خلق الله بعضا من الخلق بالأسباب كما خلقنا نحن ، وجمهرة الخلق عن طريق التناسل بين أب وأم ، أما خلق الحق لآدم عليه السلام فقد خلقه بلا أسباب . ونحن نعلم أن الشىء الدائر بين اثنين له قسمة عقلية ومنطقية ، فمادام هناك أب وأم ، ذكر وأنثى ، فسيجىء منهما تكاثر . .

إن الحق يقول :

﴿ وَمِن كُلِّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَا زَوۡجَيۡنِ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾

(سورة الذاريات)

وعندما يجتمع الزوجان ، فهذه هى الصورة الكاملة ، وهذه الأولى فى القسمة المنطقية والتصور العقلى ، وإما أن ينعدم الزوجان فهذه هى الثانية فى القسمة المنطقية والتصور العقلى . أو أن ينعدم الزوج الأول ويبقى الطرف الثانى ، وهذه هى الثالثة فى القسمة المنطقية والتصور العقلى ، أو أن ينعدم الزوج الثانى ويبقى الطرف الأول ، وهذه هى الرابعة فى القسمة المنطقية والتصور العقلى .

تلك إذن أربعة تصورات للقسمة العقلية . وجميعنا جاء من اجتماع العنصرين ، الرجل والمرأة . أما آدم فقد خلقه الله بطلاقة قدرته ليكون السبب . وكذلك تم خلق حواء من آدم . وأخرج الحق من لقاء آدم وحواء نسلا . وهناك أنثى وهى مريم ويأتى منها المسيح عيسى بن مريم بلا ذكر . وهذه هى الآية فى العالمين ، وتثبت قمة عقدية . فلا يقولن أحد : ذكرا ، أو أنثى ؛ لأن نية امرأة عمران فى الطاعة أن يكون المولود ذكرا ، وشاء قدر ربكم أن يكون أسمى من تقدير امرأة عمران فى الطاعة ، لذلك قال : « وليس الذكر كالأنثى » . أى أن الذكر لن يصل إلى مرتبة هذه الأنثى .

وقالت امرأة عمران : « وإنى سميتها مريم وإنى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم » . إن امرأة عمران قالت ما يدل على شعورها ، فحينما فات المولودة بأنوثتها أن تكون فى خدمة بيت الله فقد تمنت امرأة عمران أن تكون المولودة طائعة ، عابدة ، فسمتها « مريم » لأن مريم فى لغتهم ـ كما قلنا ـ معناها « العابدة » .

وأول ما يعترض العبودية هو الشيطان . إنه هو الذى يجعل الإنسان يتمرد على العبودية . إن الإنسان يريد أن يصير عابدا ، فيجىء الشيطان ليزين له المعصية . وأرادت إمرأة عمران أن تحمى ابنتها من نزغ الشيطان لأنها عرفت بتجربتها أن المعاصى كلها تأتى من نزغ الشيطان ، وقد سمتها « مريم » حتى تصبح « عابدة لله » ، ولأن إمرأة عمران كانت تمتلك عقلية إيمانية حاضرة وتحمل المنهج التعبدى كله لذلك قالت : « وإنى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم » .

إن المستعاذ به هو الله ، والمستعاذ منه هو الشيطان ، وحينما يدخل الشيطان مع خلق الله فى تزيين المعاصى ، فهو يدخل مع المخلوق فى عراك ، ولكن الشيطان لا يستطيع أن يدخل مع ربه فى عراك ، ولذلك يقال عن الشيطان إنه إذا سمع ذكر الله فإنه يخنس أى يتراجع ، ووصفه القرآن الكريم بأنها « الخنّاس » ، إن الشيطان إنما ينفرد بالإنسان حين يكون الإنسان بعيدا عن الله ، ولذلك فالحق يُعَلِّمُ الإنسان :

﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

إن الشيطان يرتعد فرقا ورعشة من الإستعاذة بالله . وعندما يتكرر ارتعاد الشيطان بهذه الكلمة ؛ فإنه يعرف أن هذا الإنسان العابد لن يحيد عن طاعة الله إلى المعاصى . وقد علمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف يجىء الرجل امرأته ، ومجىء الأهل هو مظنة لمولود قد يجىء ، فيقول العبد : « اللهم جنبنى الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنى » (من دعاء رسول الله) .

إن من يقول هذا القول قبل أن يحدث التخلق « فلن يكون للشيطان ولاية أو قدرة على المولود الذى يأتى بإذن الله . ولذلك قالت إمرأة عمران : « وإنى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم » . والذرية قد يفهمها الناس على أنها النسل المتكاثر ، ولكن كلمة « ذرية » تطلق على الواحد وعلى الاثنين ، وعلى الثلاثة أو أكثر . والذرية هنا بالنسبة لمريم عليها السلام هى عيسى عليه السلام ، وتنتهى المسألة . وبعد دعاء إمرأة عمران « وإنى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم » يجىء القول الحق :

﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ

عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَـٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَـٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾

وقد عرفنا القبول الحسن والإنبات الحسن ، أما قوله الحق : « وكفلها زكريا » فهذا يعنى أن المسألة جاءت من أعلى ، إنه الرب الذى تقبل بقبول حسن ، وهو الذى أنبتها نباتا حسنا . إذن ، فرعاية زكريا لها إنما جاءت بأمر من الله . والدليل على ما حدث عند كفالة مريم . لقد اجتمع كبار القوم رغبة فى كفالتها وأجروا بينهم قرعة من أجل ذلك . وساعة تجد قرعة ، أو إسهاما . فالناس تكون قد خرجت من مراداتها المختلفة إلى مراد الله . فعندما نختلف على شىء فإننا نجرى قرعة ، ويخصص سهم لكل مشترك فيها ، ونرى بعد ذلك من الذى يخرج سهمه ، ويلجأ الناس لهذاالأمر ، ليمنعوا هوى البشر عن التدخل فى الاختيار ، ويصبح الأمر خارجا عن مراد البشر إلى مراد الله سبحانه وتعالى ، وهذا ما حدث عند كفالة زكريا لمريم . ولذلك فالحق يقول لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم :

﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَـٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾

(سورة ال عمران)

إذن فالكفالة لمريم أخذت لها ضجة ، وهذا دليل على أنهم اتفقوا على إجراء قرعة بالنسبة لكفالتها ، ولا يمكن أن يكونوا قد ذهبوا إلى هذه القرعة إلا إذا كان قد حدث تنازع بينهم ، عن أيهم يكفل مريم ، ومن فضل الله أن زكريا عليه السلام كان متزوجا من « إشاع » « أخت » « حنة » وهى أم مريم ، فهو زوج خالتها .

وكلمة « أقلامهم » قال فيها المفسرون : إنها القداح التى كانوا يصنعونها قديما ، أو الأقلام التى كتبوا بها التوراة ، فرموها فى البحر ، فمن طفا قلمه لم يأخذ رعاية مريم ، ومن غرق قلمه فى البحر فهو الذى فاز بكفالة مريم . إذن فهم قد خرجوا

عن مراداتهم إلى مراد الله .

والخروج عن المرادات ، والخروج عن الأهواء بجسم ليس له اختيار ـ كقداح القرعة ـ لا يوجد فى النفس غضاضة . لكن لو كان هناك من سيأخذ رعاية مريم بالقوة والغصب فلابد أن يجد نفوس الآخرين وقد امتلأت بالمرارة أو الغضب . ولذلك فقد كان سائدا فى ذلك العصر عملية إجراء السهام إذا ما خافوا أن يقع الظلم على أحد أو أن يساء الظن بأحد ، وهناك قصة سيدنا يونس عندما قاربت السفينة على الغرق ، وكان لابد لإنقاذها أن ينزل واحد إلى البحر ، وجاء القول الحكيم :

﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ ﴾

(سورة الصافات)

كان لابد أن ينزل واحد من تلك السفينة ، لذلك تم إجراء قرعة بالسهام حتى لا تقوم معركة بين الموجودين على ظهر السفينة ، وحتى لا تكون الغلبة للأقوياء ، ولكن القرعة حمت الناس من ظلم بعضهم بعضا . قالوا : لنجر قرعة السهام ، فمن يخرج سهمه فهو الذى يلقى به ، وكان على يونس عليه السلام أن ينزل إلى اليم فيلتقمه الحوت . ولأنه من المسبحين فإن الله ينقذه . لقد قبل يونس عليه السلام اختيار الله ولم ينس تسبيح الله فكان فى ذلك الإنقاذ له . وهكذا نقرأ قول الله لنفهم أن كفالة زكريا كانت باختيار الله . « فتقبلها ربها بقبول حسن وأنبتها نباتا حسنا وكفلها زكريا » .

وكلمة « كفلها » أى تولى كل مهمة تربيتها ، هذه هى الكفالة ، ونحن نعرف أن الكفيل فى عرفنا هو الضامن ، والضامن هو من يسد القرض عندما يعجز الإنسان عن السداد ، وقوله الحق : « وكفلها زكريا » يعطينا المعنى الواضح بأن زكريا عليه

السلام هو الذى قام برعاية شئون مريم .

ويتابع الحق الكريم قوله : « كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا » إنه لم يدخل مرة واحدة ، بل دخل عليها المحراب مرات متعددة . وكان زكريا عليه السلام كلما دخل على مريم يجد عندها الرزق ، ولذلك كان لابد أن يتساءل عن مصدر هذا الرزق ، ولابد أن يكون تساؤله معبرا عن الدهشة ، لذلك يجىء القول الحق على لسان زكريا : « أنّى لك هذا » .

وساعة أن تسمع « أنى لك هذا ؟ » فهذا يدل على أنه قام بعمل محابس على المكان الذى توجد به مريم ، وإلا لظن أن هناك أحدا قد دخل على مريم ، وكما يقولون : فإن زكريا كان يقفل على مريم الأبواب . وإلا لو كانت الأبواب غير مغلقة لظن أن هناك من دخل وأحضر لها تلك الألوان المتعددة من الرزق .

والزرق هو ما ينتفع به ـ بالبناء للمجهول ـ وعندما يقول زكريا عليه السلام : « أنّى لك هذا » . فلنا أن نتذكر ما قلناه سابقا من أن أى إنسان وكله الله على جماعة ويرى عندهم ما هو أزيد من الطاقة أو حدود الدخل ، فلابد أن يسأل كُلاًّ منهم : من أين لك هذا ؟ ذلك أن فساد البيوت والمجتمعات إنما يأتى من عدم الاهتمام بالسؤال وضرورة الحصول على إجابة على السؤال المحدد : من أين لك هذا ؟

إن الذى يدخل بيته ويجد ابنته ترتدى فستانا مرتفع الثمن ويفوق طاقة الأسرة ، أو يجد ابنه قد اشترى شيئا ليس فى طاقة الأسرة أن تشتريه ، هنا يجب أن يتوقف الأب أوالولى ليسأل : من أين لك هذا ؟ إن فى ذلك حماية لأخلاق الأسرة من الانهيار أو التحلل . فلو فطن كل واحد أن يسأل أهله ومن يدخلون فى كفالته ـ « من أين لك هذا ؟ » لعرف كل تفاصيل حركتهم ، لكن لو ترك الحبل على الغارب لفسد الأمر .

وقول زكريا : « أنّى لك هذا ؟ » هو سؤال محدد عن مصدر هذا الرزق ، ولننظر إلى إجابتها : « قالت هو من عند الله » ثم لا تدع البديهة الإيمانية عند سيدنا زكريا دون أن تذكره انها لا تنسى حقيقة واضحة فى بؤرة شعور كل مؤمن : « إن الله يرزق

من يشاء بغير حساب » وأثارت هذه المسألة فى نفس زكريا نوازع شتى ، إنها مسألة غير عادية ، لقد أخبرته مريم أن الرزق الذى عندها هومن عند الله الذى يرزق من يشاء بغير حساب ، إنه الإله هو القادر على أن يقول : « كن » فيكون .

وهنا ذكر زكريا نفسه ، وكأن نفسه قد حدثته : « إذا كانت للقدرة طلاقة فى أن تفعل بلا أسباب ، وتعطى من غير حساب ، فأنا أريد ولدا يخلفنى ، رغم أننى على كبر ورغم بلوغى من السن عتيًا ، وامرأتى عاقر . إن مسألة الرزق الذى وجده زكريا كلما دخل على مريم هى التى نبهت زكريا إلى ما يتمنى ويرغب .

ونحن نعلم أن المعلومات التى تمر على خاطر النفس البشرية كثيرة ، ولكن لا يستقر فى بؤرة الشعور إلا الذى يصر عليه الإنسان ، وهناك فرق بين معلومات توجد فى بؤرة الشعور . ومعلومات فى حاشية الشعور يتم استدعاؤها عند اللزوم ، فلما وجد زكريا الرزق المنوع عند مريم وقالت له عن مصدره : « هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب » . هنا تساءل زكريا : كيف فاتنى هذا الأمر ؟ ولذلك يقول الحق عن زكريا :

﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ ﴾

إنها ساعة أن قالت له : إن الرزق من عند الله ، وأنه الحق الذى يرزق من يشاء بغير حساب ، هنا أيقظت فيه القضية الإيمانية فجاءت أمنيته إلى بؤرة الشعور ، فقال زكريا لنفسه : فلنطلب من ربنا أن يرزقنا ما نرجوه لأنفسنا ، ومادام قد قال هذا القول فلابد أنه قد صدق مريم فى قضيتها ، بأن هذا الرزق الذى يأتيها هو من عند الله ، ودليل آخر فى التصديق ، هو أنه لابد وقد رأى أن الألوان المتعددة من الرزق التى توجد عند مريم ليست فى بيئته ، أو ليست فى أوانها ؛ وكل ذلك فى المحراب .

ونحن نعرف أن المحراب كلمة يراد بها بيت العبادة . يقول الحق :

﴿ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ ﴾

(سورة سبأ)

أو « المحراب » وهو مكان الإمام فى المسجد ، أو هو حجرة يصعد إليها بسلم ، كالمبلغات التى تقام فى بعض المساجد . ومادامت مريم قد أخبرت زكريا وهى فى المحراب بأن الرزق من عند الله ، وأيقظت بذلك تلك القضية الإيمانية فى بؤرة شعوره ، فماذا يكون تصرفه ؟ هنا دعا زكريا أثناء وجوده فى المحراب . « رب هب لى من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء » إنه هنا يطلب الولد . ولكن لابد لنا أن نلاحظ ما يلى :

ـ هل كان طلبه للولد لما يطلبه الناس العاديون من أن يكون زينة للحياة أو « عزوة » أو ذكرا ؟ لا ، إنه يطلب الذرية الطيبة ، وذكر زكريا الذرية الطيبة تفيد معرفته أن هنالك ذرية غير طيبة . وفى قول زكريا الذى أورده الحق :

﴿ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ ﴾

(من الآية ٦ سورة مريم)

أى أن يكون دعاء لإرث النبوة وإرث المناهج وإرث القيم ، هكذا طلب زكريا الولد . لقد طلبه لمهام كبيرة ، وقول زكريا : « رب هب » تعنى أنه استعطاء شىء بلا مقابل ، إنه يعترف . أنا ليس لى المؤهلات التى تجعل لى ولدا ، لأنى كبير السن وامرأتى عاقر ، إذن فعطاؤك يارب لى هو هبة وليس حقا ، وحتى الذى يملك الاستعداد لا يكون هذا الأمر حقا له ، فلابد أن يعرف أن عطاء الله له يظل هبة ، فإياك أن تظن أن اكتمال الأسباب والشباب هى التى تعطى الذرية ، إن الحق سبحانه ينبهنا ألاّ نقع فى خديعة وغش أنفسنا بالأسباب .

﴿ لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ

لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾

(سورة الشورى)

إن فى ذلك لفتا واضحا وتحذيراً محدداً ألا نفتتن بالأسباب ، إذن فلكل عطاء من الله هو هبة ، والأسباب لا تعطى أحدا ما يريد . إن زكريا يقول : « رب هب لى من لدنك » وساعة أن تقول من : « لدنك » فهو يعنى « هب لى من وراء أسبابك » . لماذا ؟ لأن الكل من الله .

ولكن هناك فرقا بين عطاء الله بسبب ، كأن يذهب إنسان ليتعلم العلم ويمكث عشرين عاما ليتعلم ، وهناك إنسان يفيض الله عليه بموهبة ما ، ولذلك يقول أهل الإشراقات : إنه علم لدنى ، أى من غير تعب ، وساعة أن نسمع « من لدن » أى انعزلت الأسباب ، كان دعاء زكريا هو « رب هب لى من لدنك » وكلمة « هب » توضح ما جاء فى سورة مريم من قول زكريا :

﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾﴾

(سورة مريم)

إن « هب » هى التى توضح لنا هذه المعانى ، هذا كان دعاء زكريا : « رب هب لى من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء » فهل المراد أن يسمع الله الدعاء ؟ أم أن يجيب الله الدعاء ؟ إنه يضع كل أمله فى الله ، وكأنه يقول : إنك يارب من فور أن تسمعنى ستجيبنى إلى طلبى بطلاقة قدرتك . لماذا ؟ لأنك يارب تعلم صدق نيتى فى أننى أريد الغلام لا لشىء من أموركقرة العين ، والذكر ، والعز ، وغيرها ، إنما أريد الولد ليكون وارثا لى فى حمل منهجك فى الأرض ، وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾

هل كل الملائكة اجتمعوا أو نادوا زكريا ؟ لا ، لأن جبريل عليه السلام الذى ناداه . ولماذا جاء القول الحق هنا بأن الملائكة هى التى نادته ؟ لقد جاء هذا القول الحق لنفطن إلى شىء هو ، أن الصوت فى الحدث ـ كالإنسان ـ له جهة يأتى منها ، أما الصوت القادم من الملأ الأعلى فلا يعرف الإنسان من أين يأتيه ، إن الإنسان يسمعه وكأنه يأتى من كل الجهات ، وكأن هناك ملكا فى كل مكان .

والعصر الحديث الذى نعيشه قد ارتقى فى الصوتيات ووصل لدرجة أن الإنسان أصبح قادرا على جعل المؤثر الصوتى يحيط بالإنسان من جهات متعددة ، إذن فقوله الحق : « فنادته الملائكة » فهذا يعنى أن الصوت قد جاء لزكريا من جميع الجهات .

﴿ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

لقد نادته الملائكة فى أورع لقاءاته مع ربه ، أو هو حينما دعا أخذ ما علمه الله للأنبياء إذا حزبهم أمر قاموا إلى الصلاة . أليس طلبه من الله ؟ إذن فليقف بين يدى الله . وليجربها كل واحد منا عندما يصعب عليك أى شىء ، وتتأزم الأمور ، وتمتنع الأسباب ، فليقم ويتوضأ وضوءا جديدا ويبدأه بالنية حتى ولو كان متوضئا . وليقف بين يدى الله ، وليقل ـ إنه أمر يارب عزّ علىّ فى أسبابك ، وليصل بخشوع ، وأنا أجزم بأن الإنسان ما إن يسلم من هذه الصلاة إلاّ ويكون الفرج قد جاء . ألم نتلق عن رسول الله هذا السلوك البديع ؟ إنه كلما حزبه أمر قام إلى الصلاة ؟

ومعنى حزبه أمر ، أى أن أسبابه ضاقت ، لذلك يذهب إلى الصلاة لخالق الأسباب ، إنها ذهاب إلى المسبب . وبدلا من أن تلف وتدور حول نفسك ، اذهب إلى الله من أقصر الطرق وهو الصلاة ، لماذا تتعب نفسك أيها العبد ولك رب حكيم ؟ وقديما قلنا : إن من له أب لا يحمل هما ، والذى له رب أليس أولى بالإطمئنان ؟

إن زكريا قد دعا الله فى الأمر الذى حزبه ، وبمجرد أن دعا فى الأمر الذى حزبه ، قام إلى الصلاة ، فنادته الملائكة ، وهو قائم يصلى ، إن الملائكة لم تنتظر إلى أن ينتهى من صلاته ، « فنادته الملائكة وهو قائم يصلى فى المحراب أن الله يبشرك » .

والبشارة هى إخبار بخير زمنه لم يأت ، فإذا كانت البشارة بخير زمنه لم يأت فلنر من الذى يخبر بالبشارة ؟ أمن يقدر على إيجاده أم من لا يقدر ؟ فإذا كان الله هو الذى يبشر ، فهو الذى يقدر ، لذلك فالمبشر به قادم لا محالة ، «إن الله يبشرك بيحيى» لقد قال له الله : سأعطيك . وزيادة على العطاء سماه الله بـ « يحيى » وفوق كل ذلك : « مصدقا بكلمة من الله » .

ولننظر إلى دقة الحق حين يقول : « بيحيى مصدقا » . هذا دليل على أنه سيعيش بمنهج الله وما يعرفه من الطاعات سيسير فى هذا الطريق وهو مصدق ، وهو سيأتى بكلمة من الله ، أو هو يأتى ليصدق بكلمة من الله ، لأن سيدنا يحيى هو أول من آمن برسالة عيسى عليه السلام . وهو موصوف بالقول الحق : « وسيدا وحصورا ونبيا من الصالحين » . أى ممنوعا عن كل ما حُرم عليه ، أو ممنوعا عن قمة الغرائز وهى الشهوة ، وهو نبىّ ، أى قدوة فى اتباع الرسول الذى يجىء فى عصره ، لقد دعا زكريا ، وقام ليصلى ، وتلقى البشارة بيحيى ، وهنا ارتجت الأمور على بشرية زكريا ، ويصوره الحق بقوله :

﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾ ﴾

إن زكريا ـ وهو الطالب ـ يصيبه التعجب من الإستجابة فيتساءل . كيف يكون ذلك ؟ والحق يورد ذلك ليعلمنا أن النفس البشرية دائما تكون فى دائرات التلوين ، وليست فى دائرات التمكين ، وذلك ليعطى الله لخلقه الذين لا يهتدون إلى الصراط المستقيم الأسوة فى أنه إذا ما حدث له ابتلاء فعليه الرجوع إلى الله ، فيقول زكريا : « أنَّى يكون لى غلام وقد بلغنى الكبرى وإمرأتى عاقر » .

إن بلوغ الكبر ليس دليلا على أنه عاجز عن الإنجاب لأنه قد يكون كبير العمر ، وقادرا على إخصاب امرأة ، ذلك أن الإخصاب بالنسبة لبعض الرجال ليس أمرا عسيرا مهما بلغ من العمر إن لم يكن عاقرا ، ولكن المرأة هى العنصر المهم ، فإن كانت عاقرا ، فذلك قمة العجز فى الأسباب . ولو أن زكريا قال فقط : « وامرأتى عاقر » لكان أمرا غير مستحب بالنسبة لزوجته ، ولكان معنى ذلك أنه نسب لنفسه الصلاحية وهى غير القادرة .

إنه أدب النبوة وهو أدب عال ، لذلك أوردها من أولها : « وقد بلغنى الكبر وامرأتى عاقر » ولنر دقة القول فى : « بلغنى الكبر » ، إنه لم يقل : « بلغت الكبر » بل يقول : إن الكبر هو الذى جاءنى ولم أجىء أنا إلى الكبر . لأن بلوغ الشىء يعنى أن هناك إحساسا ورغبة فى أن تذهب إليه ، وذكر زكريا « وامرأتى عاقر » هو تضخيم لطلاقة القدرة عند من يستمع للقصة ، لقد أورد كل الخوالج البشرية ، وبعد ذلك يأتى القول الفصل : « قال كذلك الله يفعل ما يشاء » إنها طلاقة القدرة التى فوق الأسباب لأنها خالقة الأسباب . ويقول زكريا :

﴿ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةًۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًاۗ وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٤١﴾ ﴾

إن زكريا يطلب علامة على أن القول قد انتقل إلى فعل .

﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴿٩﴾ ﴾

(سورة مريم)

لقد كان هذا القول تأكيدا لاشك فيه ، فبمجرد أن قال الرب فقد انتهى الأمر . فماذا يريد زكريا من بعد ذلك ؟ إنه يطلب آية ، أى علامة على أن يحيى قد تم إيجاده فى رحم أمه ، ومادامت المرأة قد كبرت فهى قد انقطع عنها الحيض ، ولابد أنه عرف الآية لأنه يعرف مسبقا أنها عاقر . لكن زكريا لم يرغب أن يفوت على نفسه لحظة من لحظات هبات الله عليه ، ومادام الحمل قد حدث فهنا كانت استغاثة زكريا ، لا تتركنى يارب إلى أن أفهم بالعلامات الظاهرة المحسة ، لأننى أريد أن أعيش من أول نعمتك علىّ فى إطار الشكر لك على النعمة ، فبمجرد أن يحدث الإخصاب لابد أن أحيا فى نطاق الشكر ، لأن النعمة قد تأتى وأنا غير شاكر .

إنه يطلب آية ليعيش فى نطاق الشكر ، إنه لم يطلب آية لأنه يشك ـ معاذ الله ـ فى قدرة الله ، ولكن لأنه لا يريد أن يفوت على نفسه لحظة النعمة من أول وجودها إلا ومعها الشكر عليها ، والذى يعطينا هذا المعنى هو القول الحق : « قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا واذكر ربك كثيرا وسبح بالعشى والإبكار » . لابد أن معناها أنه يرغب فى الكلام فلا يستطيع .

إن هناك فارقا بين أن يقدر على الكلام ولا يتكلم ، وبين ألا يقدر على الكلام . ومادامت الآية هبة من الله . فالحق هو الذى قال له : سأمنعك من أن تتكلم ، فساعة أن تجد نفسك غير قادر على الكلام فاعرف أنها العلامة ، وستعرف أن تتكلم مع الناس رمزا ، أى بالإشارة ، وحتى تعرف أن الآية قادمة من الله ، وأن الله علم عن عبده أنه لا يريد أن تمر عليه لحظة مع نعمة الله بدون شكر الله عليها ، فإننا نعلم أن الله سينطقه . . « واذكر ربك كثيرا وسبح بالعشىّ والإبكار » .

لقد أراد زكريا أن يعيش من أول لحظة مع نعمة المنعم شكرا ، وجعل كل وقته ذكرا ، فلم ينشغل بالناس أو بكلام الناس ، وذكر الرب كثيرا هو ما علمه ـ سبحانه ـ عن زكريا عندما طلب الآية ليصحبها دائما بشكر الله عليها ، إن قوله :

« واذكر ربك كثيرا » تفيد أن زكريا قادر على الذكر وغير قادر على كلام الناس ، لذلك لا يريد الله أن يشغله بكلام الناس ، وكأن الله يريد أن يقول له : مادمت قد أردت أن تعيش مع النعمة شكرا فسأجعلك غير قادر على الكلام مع الناس لكنك قادر على الذكر .

والذكر مطلقا هو ذكر الله بآلائه وعظمته وقدرته وصفات الكمال له ، والتسبيح هو التنزيه لله ، لأن ما فعله الله لا يمكن أن يحدث من سواه ، فسبحان الله ، معناها تنزيه لله ، لأنه القادر على أن يفعل ما لاتفعله الأسباب ولا يقدر أحد أن يصنعه . إنه يريد أن يشكر الحق الذى يرزق من يشاء بغير حساب . تلك اللفتة . . التى جاءت من قبل من مريم لزكريا .

وزكريا كما نعلم هو الكفيل لها ، فكونها تنطق بهذه العبارة دلالة على أن الله مهد لها بالرزق ، يجيئها من غير زكريا ، بأنها ستأتى بشىء من غير أسباب . وكأن التجربة قد أراد الله أن تكون من ذاتها لذاتها ، لأنها ستتعرض لشىء يتعلق بعرض المرأة ، فلابد أن تعلم مسبقا أن الله يرزق من يشاء بغير حساب ، وبدون أسباب . فإن جاءت بولد بدون سبب من أبوة فلتعلم أن الله يرزق من يشاء بغير حساب .

فلما سمع زكريا منها ذلك قال : مادام الله يرزق من غير حساب ويأتى بالأشياء بلا أسباب فأنا قد بلغت من الكبر عتيا ، وامرأتى عاقر ، فلماذا لا أطلب من ربى أن يهبنى غلاما ؟ إذن فمقولة مريم : « إن الله يرزق من يشاء بغير حساب » قد لفتت زكريا ، ونبهت إيمانا موجودا فى أعماقه وحاشية شعوره ، ولا نقول أوجدت إيمانا جديداً لزكريا بأن الله يرزق من يشاء بغير حساب ، ولكنها أخرجت القضية الإيمانية من حاشية الشعور إلى بؤرة الشعور ، فقال زكريا : مادام الأمر كذلك فأنا أسأل الله أن يهبنى غلاما . . وقول زكريا : « هب لى من لدنك ذرية طيبة » دل على أنه وزوجته لا يملكان اكتساب الأبوة والأمومة ولذلك طلب الهبة من الله . والهبة شىء بدون مقابل .

فلما سأل الله ذلك استجاب الله له ، وقال له سبحانه : سأهبك غلاما بدون أسباب من خصوبتك فى التلقيح أو خصوبة الزوجة فى الحمل ، ومادامت المسألة ستكون بلا أسباب وأنا ـ الخالق ـ سأتولى الإيجاب بـ « كن » ولمعنى سام شريف سأمنحكم شيئا آخر تقومون به أنتم معشر الآباء والأمهات ـ عادة ـ إنه تسمية

المولود ، فأفاض الحق عليهم نعمة أخرى وهى تسمية المولود بعد أن وهبه لها . . هنا وقفة عند الهبة بالاسم .

﴿ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

حين يولد للناس ولد فهم يسمونه ، فالتسمية أمر شائع فى عادات الناس . ولكن من يهمهم أمر الوليد حينما يقبلون على تسميته ؛ فهم يحاولون أن يتفاءلوا ؛ فيسموه اسما يرجون أن يتحقق فى المسمى ، فيسمونه « سعيدا » أملا فى أن يكون سعيدا ، أو يسمونه « فضلا » أو يسمونه « كريما » . إنهم يأتون بالاسم الذى يحبون أن يجدوا وليدهم على صفته ، وذلك هو الأمل منهم ، ولكن أتأتى المقادير على وفق الآمال ؟

قد يسمونه سعيدا ، ولا يكون سعيدا . ويسمونه فضلا ، ولا يكون فضلا . ويسمونه عزا ، ولا يكون عزا . ولكن ماذا يحدث حين يسمى الله سبحانه وتعالى ؟ لابد أن يختلف الموقف تماما . فإذا قال اسمه « يحيى » دل على أنه سيعيش . وقديما قال الشاعر حينما تفاءل بتسمية ابنه يحيى :

فسميته يحيا ليحيا
فلم يكن لرد قضاء الله فيه سبيل

كان الشاعر قد سمى ابنه يحيى أملا أن يحيا ، ولكن الله لم يرد ذلك ، فمات الابن . لماذا ؟ لأن المسمىٍ من البشر ليس هو الذى يُحيى ، إن المسمى إنسان قدرته عاجزة ، ولكن « المحيى » له طلاقة القدرة ، فحين يسمى من له طلاقة القدرة على إرادة أن يحيا فلابد من أن يحيا حياة متميزة ؟ وحتى لا تفهم أن الحياة التى أشار الله إليها بقوله : « اسمه يحيى » بأنها الحياة المعروفة للبشر عادة ـ لأن الرجل حينما يسمى ابنه « يحيى » يأمل أن يحيا الابن متوسط الأعمار ، كما يحيا الناس ستين عاما ، أو سبعين ، أو أى عدد من السنوات مكتوبة له فى الأزل .

لكن الله حينما يسمى « يحيى » فانه لا يأخذ « يحيى » على قدر ما يأخذه الناس ،

بل لابد أن يعطيه أطول من حدود أعمار الناس ، ويهيىء له الحق من خصومه ومن أعدائه من يقتله ليكون شهيدا ، وهو بالشهادة يصير حيا ، فكأنه يحيا دائما ، فالشهداء أحياء عند ربهم يرزقون .

وهكذا أراد الله ليحيى عليه السلام أن يحيا كحياة الناس ، ويحيا حياة أطول من حياة الناس إلى أن تقوم الساعة ، وأيضا نأخذ ملحظا فى أن زكريا حينما بُشر بأن الله سيهبه غلاما ويسميه يحيى ، نجده قد استقبلها بالعجب . كيف يستقبل زكريا مسألة الرزق بالولد متعجبا مع أنه رآها فى الرزق الذى كان يجده عند مريم ؟ « يرزق من يشاء بغير حساب » .

ولنا أن نقول : أكنت تحب أن يمر مثل هذا الأمر الخارق للعادة والخارق للناموس على سيدنا زكريا كأنه أمر عادى لا يندهش له ولا يتعجب ؟ لا ، لابد أن يندهش ويتعجب لذلك قال : « ربى أنّى يكون لى غلام » . فكأن الدهشة لفتته إلى أنه ستأتى آية عجيبة ، ولو لم تكن تلك الدهشة لكانت المسألة رتيبة وكأنها أمر عادى . إذن ، فهو يلفتنا إلى الأمر العجيب الذى خصه الله به . وأيضا جاءت المسألة على خلاف ناموس التكاثر والإنجاب والنسل : « وقد بلغنى الكبر وإمرأتى عاقر » .

إن المسألة كلها تفضل وهبة من الله . فلما جاءته البشارة ، لم يقل الله له : إننى سأهبك الغلام واسمه يحيى من امرأتك هذه ، أو وأنت على حالتك هذه . فيتشكك ويتردد ويقول : أترى يأتى الغلام الذى اسمه « يحيى » منى وأنا على هذه الحالة ، امرأتى عاقر وأنا قد بلغت هذا الكبر ، أو ربما ردنا الله شبابا حتى نستطيع الإنجاب ، أو تأتى امرأة أخرى فأتزوجها وأنجب .

إذن فالعجب فى الهيئة التى سيصير عليها الإنجاب فقوله : « أنى يكون لى غلام وقد بلغنى الكبر وامرأتى عاقر » هذا التساؤل من زكريا يهدف به إلى معرفة الهيئة أو الحالة التى سيأتى بها الإنجاب ، لأن الإنجاب يأتى على حالات متعددة . فلما أكد الله ذلك قال : « كذلك » ماذا تعنى كذلك ؟ إنها تعنى أن الإنجاب سيأتى منك ومن زوجك وأنتما على حالتكما ، أنت قد بلغت من الكبر عتيا ، وامرأتك عاقر . لأن العجيبة تتحقق بذلك ، أكان من المعقول أن يردهما الله شبابا حتى يساعداه أن يهبهما الولد ؟ لا . لذلك قال الحق : « كذلك الله يفعل ما يشاء » . أى كما أنتما ، وعلى حالتكما .

لقد جعل الحق الآية ألا يكلم زكريا الناس ثلاثة أيام إلا بالإشارة ، وقد يكون عدم الكلام فى نظر الناس مرضا لا ، إنه ليس كذلك ، لأن الحق يقول له : « واذكر ربك كثيرا وسبح بالعشىّ والإبكار » إن الحق يجعل زكريا قادرا على التسبيح ، وغير قادر على الكلام . وهذه قدرة أخرى من طلاقة قدرة الله ، إنه اللسان الواحد ، غير قادر على الكلام ، ولو حاول أن يتكلم لما استطاع ، ولكن هذا اللسان نفسه ـ أيضا ـ يصبح قادرا فقط على التسبيح ، وذكر الله بالعشىّ والإبكار ، ذكر الله باللسان وسيسمعه الناس ، وذلك بيان لطلاقة القدرة .

وبعد ذلك ينتقل بنا الحق إلى مسألة أخرى تتعلق بمريم ، لأن مريم هى الأصل فى الكلام ، فالرزق الذى كان يأتيها من الله بغير حساب هو الذى نبه سيدنا زكريا إلى طلب الولد،وجاء الحق لنا بقصة زكريا والولد،ثم عاد إلى قصة مريم :

﴿ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَـٰٓئِكَةُ يَـٰمَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَـٰكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَـٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ الْعَـٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾

« وإذ قالت الملائكة » المراد بها جبريل عليه السلام ، والسبب فى أن الحق يورد ذلك بـ« قالت الملائكة » لأن كلام المتكلم ـ أى الإنسان ـ له ـ كما قلنا ـ زاوية انطلاق يأتى من جهتها الصوت . وتستطيع أن تتأكد من ذلك عندما يجىء لك صوت ، فأنت تجد ميل أذنك لجهة مصدر الصوت ، فإن جاء الصوت من ناحية أذنك اليمنى فأنت تلتفت وتميل إلى يمينك ، وإذا جاءك الصوت من شمالك تلتفت إلى الشمال . لكن المتكلم هنا هو جبريل عليه السلام ، ويأتى صوته من كل جهة حتى يصير الأمر عجيبا ، لهذا جاء الكلام منسوبا إلى الملائكة .

فماذا قال جبريل ؟ قال جبريل مبلغا عن رب العزة : « يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين » وما الاصطفاء ؟ إن الاصطفاء اختيار واجتباء ، وهو مأخوذ

من الصفو أو الصافى ، أى الشيء الخالص من الكدر . وعادة تؤخذ المعانى من المحسات ، وعندما تقول الماء الصافى أى الماء غير المكدر ، أو كما يقول الحق :

﴿ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ﴾

(من الآية ١٥ من سورة محمد)

وعندما يقول الحق : « إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين » نحن هنا أمام اصطفاءين ، الاصطفاء الأول ورد دون أن تسبقه كلمة « على » والإصطفاء الثانى تسبقه كلمة « على » والمقصود بالإصطفاء الأول هو إبلاغ مريم أن الله ميزها بالإيمان ، والصلاح والخلق الطيب ، ولكن هذا الاصطفاء الأول جاء مجردا عن « على » أى أن هذا الاصطفاء الأول لا يمنع أن يوجد معها فى مجال هذا الإصطفاء آخرون ، بدليل قول الحق :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

ثم أورد الحق سبحانه أنه طهرها ، وجاء من بعد ذلك بالاصطفاء الثانى المسبوق بـ« على » فقال « واصطفاك على نساء العالمين » إذن فهذا خروج للرجال عن دائرة هذا الاصطفاء ، ولن يكون مجال الاصطفاء موضوعا يتعلق بالرجولة ؛ فهى مصطفاة على نساء العالمين ، فكأنه لا توجد أنثى فى العالمين تشاركها هذا الاصطفاء . لماذا ؟ لأنهاالوحيدة التى ستلد دون ذكر ، وهذه مسألة لن يشاركها فيها أحد .

وقوله الحق : « واصطفاك على نساء العالمين » هذا القول يجب أن ينبه فى نفسها سؤالا هو : ما الذى تمتاز هى به عن نساء العالمين ؟ إن الذهن ينشغل بهذا الأمر ، وينشغل على أمر من وظيفة الأنثى ، ولنضم هذه إلى قول الحق على لسانها : « إن الله يرزق من يشاء بغير حساب » ونجد أن هذه كلها إيناسات للحدث الذى سيأتى من بعد ذلك ، وهو حدث يتعلق بعرضها وعفافها ، فلابد أن يمهد الله له تمهيدا مناسبا حتى تتأكد من أن هذه المسألة ليس فيها شيء يخدش العرض أو يخدش الكرامة .
« واصطفاك على نساء العالمين » ولنا أن نسأل : ما نتيجة الاصطفاء ؟

لقد عرفنا أن الاصطفاء هو الاجتباء والاختيار ، ويقتضى « مصطفَى » بفتح الفاء . ويقتضى « مصطفِى » بكسر الفاء . والمصطفِى هو الله ، لكن ما علة الاصطفاء ؟إن الذى يصطفيه الله إنما يصطفيه لمهمة ، وتكون مهمة صعبة . إذن هو يصطفيه حتى يشيع اصطفاؤه فى الناس . كأن الله قد خصه بالاصطفاء من أجل الناس ومصلحتهم ، سواء أكان هذا الاصطفاء لمكان أم لإنسان أم لزمان ليشيع صفاؤه فى كل ما اصطفى عليه . لقد اصطفى الله الكعبة من أجل ماذا ؟ حتى يتجه كل إنسان إلى الكعبة . إذن فقد اصطفاها من أجل البشر وليشيع اصطفاؤها فى كل مكان آخر ، ولذلك قال الحق عن الكعبة :

﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

وإذا اصطفى الحق سبحانه زمانا ، كاصطفائه لرمضان ، فلماذا اصطفاه ؟ ليشيع صفاؤه ، وصفاء ما أنزل فيه فى كل زمان . إذن فاصطفاء الحق للشخص أو للمكان أو للزمان هو لمصلحة بقية الناس أو الأمكنة أو الأزمنة ، لماذا ؟ لأن أحدا من الخلق ليس ابنا لله ، وليس هناك مكان أولى بمكان عند الله . ولكن الله يصطفِى زمانا على زمان ، ومكانا على مكان ، وإنسانا على إنسان ليشيع اصطفاء المُصطفَى فى كل ما اصطُفِىَ عليه . إذن فهل يجب على الناس أن يفرحوا بالمصطفَى ، أو لا يفرحوا به ؟ إن عليهم أن يفرحوا به ، لأنه جاء لمصلحتهم ، والحق سبحانه يقول :

﴿ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾

فكأن ما تقدم من حيثيات الاصطفاء الأول ، والاصطفاء الثانى ، يستحق منها القنوت ، أى العبادة الخالصة الخاضعة الخاشعة . وقد يقول قائل : ولماذا يصطفى

الله واحدا ، ليشيع اصطفاؤه فى الناس ؟ لأن الاصطفاء من الحق لابد أن يبرئه من كل ما يمكن أن يقع فيه نظيره من الاختيارات غير المرضية ، والحق ـ سبحانه ـ يريده نموذجا لا يقع منه إلا الخير ، والمثال الكامل على ذلك اصطفاء الحق سبحانه لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم من أول الأمر وجعله لا يفعل إلا السلوك الطيب من أول الأمر ، وذلك حتى يعطينا الرسول القدوة الإيمانية فى ثلاث وعشرين سنة هى مدة الرسالة المحمدية .

والحق يقول لمريم على لسان الملائكة : « يا مريم اقنتى لربك » إنه أمر بالعبادة الخاشعة المستديمة لربها ، وكلمة « لربك » تعنى التربية ، فكأن الاصطفاءات هى من نعم الله عليك يا مريم ، وتستحق منك القنوت « واسجدى واركعى مع الراكعين » و« اسجدى » أى بَالِغِى فى الخشوع ، والخضوع ، بوضع الجبهة التى هى أشرف شىء فى الإنسان على الأرض ، لأن السجود هو أعلى مرتبة من الخضوع .

لكن أيعفيها هذا اللون من الخضوع مما يكون من الركوع لله مع الناس ؟ لا ، إنه الأمر الحق يصدر لمريم « واركعى مع الراكعين » ولا يعفيك من الركوع أنك فعلت الأمر الأعلى منه فى الخضوع وهو السجود ، بل عليك أن تركعى مع الراكعين ، فلا يحق لك يا مريم أن تقولى : « لقد أمرنى الله بأمر » أعلى ولن أنفذ الأمر الأدنى »

إن الحق يأمرها أن تكون أيضا فى ركب الراكعين مثلما نقرأ قوله الحق عن الكفار :

﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ ﴾

(سورة المدثر)

إنهم كفار ، فكيف يصلون ؟ إنه اعتراف منهم بأنهم كفار ، ولم يكونوا مسلوكين فى سلك من يصلى ، واعتراف بأنهم لم يكونوا مسلمين أو مؤمنين بالله . وهنا يسأل سائل كريم : لماذا قال سبحانه وتعالى فى خطابه لمريم : « يا مريم اقنتى لربك واسجدى واركعى مع الراكعين » ولم يقل الحق : « مع الراكعات » ؟ هذا هو السؤال .

وإجابة على هذا السؤال نحب أن نمهد تمهيدا بسيطا إلى فلسفة الأسماء فى وضعها على مسمياتها . إن الأسماء ألفاظ من اللغة تعين مسماها . والمسميات مختلفة ، فمنها الجماد ، ومنها النبات ، ومنها الحيوان ، ومنها الأسماء التى تدل على عالم الغيب كالجن ، والملائكة ، وكل ما غيب الله . هذه الأسماء تدل على معانيها .

وهدى الله سبحانه البشر إليها بما علم آدم من الأسماء ، فكيف كان باستطاعة آدم التعبير عن معطيات الأسماء بمسمياتها ؟ إذن لابد أن يوجد لكل شىء اسم حتى نستطيع حين نتفاهم على الشىء أو الكائن بأن نذكر لفظا واحدا موجزا يشير إليه . ولو لم يكن يذكر هذا فكيف كان باستطاعة إنسان أن يتكلم مع إنسان آخر عن الجبل مثلا ؟ . أكان على المتكلم أن يأخذ السامع إلى الجبل ويشير إليه ؟ أم يكفى أن يقول له لفظ « جبل » حتى يستحضر السامع فى ذهنه صورة لهذا المسمى ؟

إذن . . ففلسفة تعليم الحق للأسماء لنا أزاحت عنا عبئا كبيرا من صعوبة التفاهم . ولولا ذلك لما استطعنا أن نتفاهم على شىء إلا إذا واجهنا الشىء وأشرنا إليه . فكلمة « جبل » وكلمة « صخر » وغيرها من الكلمات هى أسماء لمسميات . . وعندما أتكلم على سبيل المثال عن أمريكا فإننى لن آخذ السامع إليها وأشير إليه قائلا « إن هذه هى أمريكا » ، لكن كلمة واحدة هى « أمريكا » تعطى السامع معنى للمسمى ، فتلحق الأحكام على مسمياتها . ومادامت المسألة هكذا فلابد من وجود أسماء لمسميات ، هذه الأسماء علمها الله للإنسان حتى يتفاهم بها والإنسان أصله من آدم .

وكلمة « آدم » حينما تتكلم بها تجدها فى النحو مذكرة ، والمذكر يقابله المؤنث . وقد خلق الحق الأعلى : الذكورة والأنوثة ؛ لأن من تزاوجهما سيخرج النسل . إذن فكان لابد من التمييز بين النوعين للجنس الواحد . فالذكر والأنثى ، هما بنو آدم ، ومنهما ينشأ التكاثر ، لكن العجيب أن الله حين سمى آدم ونطقناه اسما مذكرا وسمى « حواء » ونطقناه اسما مؤنثا ، وجعل سبحانه الاسم الأصيل الذى وجِدَ منه الخلق هو « نفس » . لقد قال الحق :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ

﴿ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ۝١ ﴾

(سورة النساء)

لقد سمى الحق آدم بكلمة نفس ، وهى مؤنثة ؛ إذن فليس معنى التأنيث أنه أقل من معنى التذكير ، ولكن « التذكير » هو فقط علامة لتضع الأشياء فى مسمياتها الحقيقية وكذلك التأنيث . إن الحق سبحانه يطلق على كل إنسان منا « نفس » وهى كلمة مؤنثة ، وحينما تكلم الحق سبحانه كلاما آخر عن الخلق قال :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ۝١٣ ﴾

(سورة الحجرات)

وكلمة « ناس » تعنى مجموع الإنسان . وهكذا نعرف أن كلمة « إنسان » تُطلق مرة على المذكر ، ومرة أخرى على المؤنث . إذن فالحق قد أورد مرة لفظا مذكرا ، ومرة أخرى أطلق لفظا مؤنثا ، وذلك حتى لا نقول : إن المذكر أفضل وأحسن من المؤنث ، ولكن ذلك وسيلة للتفاهم فقط ، ولذلك يؤكد لنا الحق سبحانه أنه قد وضع الأسماء لمسمياتها لنتعارف بها .

﴿ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ ﴾

(من الآية ١٣ سورة الحجرات)

ومعنى « لتعارف » أى أن يكون لكل منا اسمٌ يعرف به عند الآخرين . وفى حياتنا العادية ـ ولله المثل الأعلى ـ نجد رجلا عنده أولاد كثيرون ، لذلك يُطلق على كل ابن اسما ليعرفه المجتمع به ، والعجيب فى هذه الآية الكريمة : « وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا » . أننا نجد كلمة « شعوبا » مذكرة وكلمة « قبائل » مؤنثة . إذن فلا تمايز بالأحسن ، ولكن الكلمات هنا مسميات للتعارف . والحق الأعلى يقول :

﴿ وَالْعَصْرِ ۝ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ۝ ﴾

(سورة العصر)

إذن فما وضع النساء اللائى آمنّ ؟ إنهن يدخلن ضمن « الذين آمنوا » . ولماذا أدخل الله المؤنث فى المذكر ؟ لأن المذكر هو الأصل ، والمؤنث جاء منه فرعا . إذن فالمؤنث هو الذى يدخل مع المذكر فى الأمور المشتركة فى الجنس .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝ ﴾

(سورة البقرة)

وهذا يعنى أن « المؤنث » عليه أن يدخل فى تكليف العبودية لله .

والمعنى العام يحدد أن المطلوب منه العبادة هو الإنسان كجنس . وبنوعية الذكر والأنثى . وفى الأمر الخاص بالمرأة ، يحدد الله المرأة بذاتيتها . فالحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا ۝ ﴾

(سورة الاحزاب)

لماذا ؟ إن المسألة هنا تشمل النوعين من الجنس الواحد : الرجل والمرأة ، زوج وزوجة ، فمثلا نجد زوجا يريد تطليق زوجته ، فيأتى الحق بتفصيل يوضح ذلك . وإذا كان هناك أمر خاص بالمرأة فالحق سبحانه وتعالى يحدد الأمر فها هوذا قوله الحكيم :

﴿ يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ ۚ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۝ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ

الْجَٰهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ الصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ الزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾

(سورة الأحزاب)

إن كل ما جاء فى الآية السابقة يحدد المهام بالنسبة لنساء النبى صلى الله عليه وسلم ، فالخطاب الموجه يحدد الأمر بدقة « لستن » و« اتقيتن » ، « لا تخضعن » ، و« قرن » ، و« لا تبرجن » . الحديث فى هذه الآية الكريمة يتعلق بالمرأة لذلك يأتى لها بضميرها مؤنثا .

ولكن إذا جاء أمر يتعلق بالإنسان بوجه عام فإن الحق يأتى بالأمر شاملا للرجل والمرأة ويكون مذكرا ، ولذلك فعندما قالت النساء لماذا يكون الرجل أحسن من المرأة ، جاء قول الحق :

﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَٰتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَٰتِ وَالْقَٰنِتِينَ وَالْقَٰنِتَٰتِ وَالصَّٰدِقِينَ وَالصَّٰدِقَٰتِ وَالصَّٰبِرِينَ وَالصَّٰبِرَٰتِ وَالْخَٰشِعِينَ وَالْخَٰشِعَٰتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَٰتِ وَالصَّٰٓئِمِينَ وَالصَّٰٓئِمَٰتِ وَالْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَٰفِظَٰتِ وَالذَّٰكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾ ﴾

(سورة الأحزاب)

هكذا حسم الحق الأمر . قال سبحانه تأكيدا لذلك :

﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾ ﴾

(سورة النساء)

إن الذكر والأنثى هنا يدخلان فى وصف واحد هو : « وهو مؤمن » إذن فعندما يأتى الأمر فى المعنى العام الذى يُطلب من الرجل والمرأة فهو يُضمر المرأة فى الرجل

لأنها مبنية على الستر والحجاب ، مطمورة فيه . داخله معه . . فإذا قال الحق سبحانه لمريم : « واركعى مع الراكعين » فالركوع ليس خاصا بالمرأة حتى يقول « مع الراكعات » ولكنه أمر عام يشمل الرجل والمرأة ، لذلك جاء الأمر لمريم بأن تركع مع الراكعين ، وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾

وقد قلنا من قبل : إن كلمة « نبأ » ، لا تأتى إلاّ فى الخبر العظيم . والغيب هو ما غاب عن الحس . وهناك « غياب عن الحس » من الممكن أن يدركه مثلك . وهناك غياب عن الحس لا يدركه مثلك . وقلنا من قبل : إن حجب الغيب ثلاثة : مرة يكون الحجاب فى الزمن ماضيا ، ومرة مستقبلا ، ومرة ثالثة يكون الحجاب فى المكان. لماذا ؟ لأن ظروف الأحداث زمان ومكان. فإذا أنبأنى منبىء بخبر مضى زمنه فهذا اختراق للحجاب الزمن الماضى ، فالحدث يكون قد وقع من سنوات وصار ماضيا ، وإذا أخبرنى به الآن فهذا يعنى أنه اخترق حجاب الزمن الماضى ، وإذا قال لى عن أمر سيحدث بعد سنتين من الآن فهذا اختراق حجاب الزمن المستقبل ، وهب أنه أخبرك بنبأ معاصر لزمنك الآن نقول : هنا يوجد حجاب المكان ، فعندما أكون معكم الآن لا أعرف ما الحادث فى مدينة أخرى غير التى نحن بها ، ورغم أن الزمن واحد .

لذلك فعلينا أن نعرف ، أنه مرة يكون الحجاب حجاب زمان . . أى قد يكون الزمن ماضيا ، أو يكون الزمن مستقبلا ، وقد يكون حجاب مكان . فإذا كان الله ينبىء رسوله بهذا النبأ ، فوسائل علم رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث ؛ لأن وسيلة العلم بالنبأ أحد ثلاثة أمور : مشاهدة ؛ أو سماع ؛ أو قراءة .

والوسيلة الأولى وهى مشاهدة النبأ يشترط أن يوجد فى زمن هذا النبأ ، والنبأ الذى أخبر الله به رسوله حدث من قبل بعث الرسول بمالا يقل عن ستة قرون . إذن فالمشاهدة كوسيلة علم بهذا النبأ لا تصلح ، لأن النبأ قد حدث فى الماضى . قد يقول قائل : لعل الرسول صلى الله عليه وسلم قد قرأها ، أو سمعها وبإقرار خصوم محمد صلى الله عليه وسلم أنه ليس بقارىء ، فامتنعت هذه الوسيلة أيضا ، وبإقرار خصومة صلى الله عليه وسلم أنه لم يجلس إلى معلم فلم يستمع من معلم . إذن فلم يكن من سبيل لمعرفة رسول الله صلى الله عليه وسلم بهذا النبأ إلا بالوحى ، لذلك قال الحق سبحانه :

﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾

(سورة ال عمران)

وقلنا قديما إن الوحى ، هو إعلام بخفاء ؛ لأن الإعلام العادى هو أن يقول إنسان لإنسان خبراً ما ، أو يقرأ الإنسان الخبر ، أما الإعلام بخفاء فاسمه « وحى » . والوحى يقتضى « موحِى » وهو الله ، « وموحىً إليه » وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، و« موحى به » وهو القرآن الكريم .

وإذا نظرنا إلى الإعلام بخفاء لوجدنا له وسائل كثيرة . إن الله يوحى . لكن الموحى إليه يختلف . الله سبحانه وتعالى يوحى للأرض :

﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ﴿٣﴾ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾ ﴾

(سورة الزلزلة)

إنه إعلام بخفاء ، لأن أحدا منا لم يسمع الله وهو يوحى للأرض ، والحق سبحانه يوحى للنحل ، ويوحى للملائكة ، ويوحى للأنبياء ، وهناك وحى من غير الله ، كوحى الشياطين .

﴿ وَإِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَـٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾

(سورة الأنعام)

وهناك وحى من البشر للبشر :

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَـٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ (١١٢) ﴾

(سورة الأنعام)

لكن الوحى إذا أُطلق ، ينصرف إلى الوحى من الله إلى من اختاره لرسالة ، وما عدا ذلك من أنواع الوحى يسمونه « وحيا لغويا » إنما الوحى الاصطلاحى وحى من الله لرسول ، إذن فوحى الله للأرض ليس وحيا اصطلاحيا ، ووحى الله للنحل ليس وحيا اصطلاحيا ، ووحى الله لأم موسى ليس وحيا اصطلاحيا ، ووحى الله للحواريين ليس وحيا اصطلاحيا ، إن الحق سبحانه يقول :

﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ (١١١) ﴾

(سورة المائدة)

إن هذا لون من الوحى غير اصطلاحى ، بل هو وحى لغوى ، أى أعلمهم بخفاء . لكن الوحى الحقيقى أن يُعلم الله من اختاره لرسالة ، وهذا هو الوحى الذى جاء للرسول صلى الله عليه وسلم . يقول الحق : « ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذا يختصمون » .

هكذا يخبرنا الحق أن الرسول تلقى هذا النبأ بالوحى ، فلم يقرأه ، ولم يشاهده ، ونحن نعرف أن خصوم رسول الله شهدوا أنه لم يقرأ ولم يستمع من معلم . وهكذا يخبرنا الحق أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يكن موجودا مع قوم مريم حين ألقوا أقلامهم .

راجع أصله وخرّج أحاديثه الدكتور أحمد عمر هاشم نائب رئيس جامعة الأزهر .

والقلم يُطلق على القلم الذى نكتب به ، أو يطلق القلم على القداح التى كانوا يقترعون بها إذا اختلفوا على شيء . وكانوا عندما يختلفون يحضرون قداحا ، ليعْفروا من يظفر بالشيء المختلف عليه ونسميها نحن القرعة ، والقرعة يقومون بإجرائها لإخراج الهوى من قسمة شائعة بين أفراد ، وذلك حتى لا يميل الهوى إلى هذا أو إلى ذاك مفضلا له على الآخرين ، ولذلك فنحن أيضا نجرى القرعة فنضع لكل واحد ورقة .

إذن فلا هوى لأحد فى إجراء قسمة عن طريق القرعة ، وبذلك نكون قد تركنا المسألة إلى قدر الله لأن الورقة لا هوى لها ، ولما اختلف قوم مريم على كفالتها ، واختصموا حول مَن الذى له الحق فى أن يكفلها . هنا أرادوا أن يعزلوا الهوى عن هذه المسألة ، وأرادوا أن تكون قدرية ، ويكون القول فيها عن طريق قدح لا هوى له . وهذا القدح سيجرى على وفق المقادير . أما « أقلامهم » فقد تكون هى القداح التى يقتسمون بها القرعة ، أو الأقلام التى كتبوا بها التوراة تبركا .

وتساءل البعض ، ما المقصود بقول الحق : « إذ يلقون أقلامهم » وأين تم إلقاء هذه الأقلام ؟ قيل : إنها ألقيت فى البحر وإذا ألقيت الأقلام فى البحر فمن الذى يتميز فى ذلك ؟ قيل : إنه إذا ما أطل قلم بسنه إلى أعلى فصاحبه الفائز ، أو إذا غرقت كل الأقلام وطفا قلم واحد يكون صاحبه هو الفائز . ولابد أنهم اتفقوا على علامة أو سمة ما تميز القلم الذى كان لصاحبه فضل كفالة مريم . « وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون » .

وكلمة « إذ يختصمون » تدل على حرارة المنافسة بين القوم شوقا إلى كفالة مريم ، لدرجة أن أمر كفالتها دخل فى خصومة ، وحتى تنتهى الخصومة لجئوا إلى الاقتراع بالأقلام .

وننتقل الآن إلى مرحلة أخرى .

﴿ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾

لقد كانت المرحلة الأولى بالنسبة لإعداد مريم هى قوله الحق على لسانها : « إن الله يرزق من يشاء بغير حساب » . وبذاك تعرفت على طلاقة قدرة الله ، والمرحلة الثانية هى سماعها لحكاية زكريا ويحيى وتأكيد الحق لها أنه اصطفاها على نساء العالمين ، وفى ذلك أمر يتعلق بالنساء ، وكان ذلك إيناساً من الحق لها ، وتدخل مريم إلى مرحلة جديدة .

﴿ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ﴾

(من الآية ٤٥ سورة آل عمران)

والبشارة لا تكون إلا بخبر عظيم مفرح ، وقد يتساءل البعض ؟ ماذا يقصد الحق بقوله : « كلمة منه » ؟ والإجابة هى : أن الحق سبحانه وتعالى يزاول سلطانه فى ملكه بالكلمة ، لا بالعلاج ، فالحق سبحانه علمنا ذلك بقوله :

﴿ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾

(من الآية ٤٧ سورة آل عمران)

وهذا القول هو مجرد إيضاح لنا وتقريب لأنه لا يوجد عندنا أقصر فى الأمر من كلمة « كن » إن قدرته قادرة بطلاقتها أن تسبق نطقنا بالكاف وهى الحرف الأول من « كن » ، ولكن الحق يوضح لنا بأقصر أمر على طريقة البشر » إن الحق سبحانه وتعالى إذا أراد أمرا - فإنه يقول له كن فيكون ، وذلك إيضاح أن مجرد الإرادة الإلهية لأمر ما تجعله ينشأ على الفور ، و« كن » هى مجرد إظهار الأمر للخلق ، هكذا نفهم معنى بشارة الحق لمريم بـ« كلمة منه » ويقول الحق : « اسمه المسيح عيسى ابن مريم » . إنها ثلاثة أسماء ، « المسيح » ، « عيسى » ، « ابن مريم » .

ما معنى المسيح ؟ قد يكون المسموح من الذنوب ، أو أن تكون من آياته أن يمسح على المريض فيبرأ ، أو المسيح المبارك . . أما عيسى . فهذا هو الاسم ، والمسيح هو اللقب ، وابن مريم هى الكنية . . ونحن نعرف أن العَلَمَ فى اللغة العربية يأتى على ثلاثة أنواع : اسم أو لقب أو كنية . وابن مالك يقول : « واسما أتى وكنية ولقبا » إن العَلَم على الشخص له ثلاث حالات . إما اسم وهو ما يطلق على المسمى أولا . والاسم الثانى الذى أطلقناه عليه . إن كان يشعر برفعة صاحبه أو بضِعَتِه نسميه لقبا . أما ما كان فيه أب أو أم فيقال له : « كنية » وجاءت الثلاثة فى عيسى « اسمه المسيح عيسى بن مريم » .

« المسيح » هو اللقب ، « عيسى » هو الاسم » و« ابن مريم » هو الكنية . ومجىء عيسى باللقب والاسم والكنية ستكون لها حكمة تظهر لنا من بعد ذلك . ويقول عنه الحق : « وجيها فى الدنيا والآخرة » .

ونحن فى حياتنا نستعمل كلمة فلان وجيه من وجهاء القوم ، والوجيه هو الذى لا يرده مسئول للكرامة فى وجهه ، ونحن نسمع فى حياتنا اليومية . فلان لا يصح أن نسبب له الخجل برفض أى طلب له . وكما يقول العامة : (هو الوجه ده حد يكسفه) إذن فالوجيه هو الذى يأخذ سمة وتميزا بحيث يستحى الناس أن يردوه إذا كان طالبا ، وهناك إنسان آخر قد يسألك أو يسأل الناس ، فلا يبالى به أحد ، إنه يريق ماء وجهه وتنتهى المسألة .

إذن فقوله الحق فى وصف عيسى بن مريم : « وجيها فى الدنيا والآخرة » أى أن أحدا لا يرده إن سأله . لكرم وجهه ، فالإنسان يخجل أن يرد صاحب مثل هذه الكرامة ، لذلك نجد ان السائل قد يقول : أعطنى لوجه الله . أى أنه يقول لك : لا تنظر إلى وجهى ، ولكن أنظر إلى وجه الله ، لأن الله هو الذى جاء بى إلى الدنيا وخلقنى ، ومادام قد جاء بى الخالق إلى الدنيا فهو المتكفل برزقى ، فأنت حينما تعين على رزق من استدعاه الله إلى الوجود تكون قد أعطيت لوجه الله ، إنه الخالق الذى يرزق كل مخلوق له حتى الكافر .

إذن فعطاء الإنسان للسائل ليس عطاء لوجه السائل ، ولكنه عطاء لوجه الله . والحق يقول عن عيسى بن مريم : « وجيها فى الدنيا والآخرة » وعرفنا كيف يكون

الإنسان وجيها فى الدنيا ، فلماذا نص الحق على وجاهة عيسى فى الآخرة ؟ وخصوصا أن كل وجوه المؤمنين ستكون ناضرة ، لقد نص الحق على وجاهة عيسى فى الآخرة لأنه سوف يُسأل سؤالا يتعلق بالقمة الإيمانية :

﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ ﴾

(سورة المائدة)

إياك أن تظن أن هذا السؤال هو تقريع من الله لعيسى بن مريم . لا . إن الحق يريد أن يقرّع من قالوا هذا الكلام . ولذلك يقول عنه الحق :

﴿ وَٱلسَّلَـٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ﴾

(سورة مريم)

لأن ميلاده كان له ضجة ، وبعض بنى إسرائيل اتهموا والعياذ بالله أمه مريم البتول ، و« يوم الممات » ، كلنا نعرف حكاية الصلب وكان لها ضجة . إنه لم يصلبْ ولكن صلب من خانه ووشى به فألقى الله شبه عيسى عليه فقتلوه . ويوم البعث حيا يوم يسأله الله :

﴿ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ﴾

(من الآية ١١٦ سورة المائدة)

إنه عيسى ابن مريم الذى أنعم الله عليه بالسلام فى هذه المواقف الثلاثة . ويتابع الحق فيصف عيسى ابن مريم بقوله : « وجيها فى الدنيا والآخرة ومن المقربين » إن كلمة « من المقربين » تدل على تعالى الحق فى عظمته ، فحين يفتن بعض البشر فى واحد منهم قد يغضب بعضهم من الشخص الذى فتن الآخرون فيه مع أنه ليس له ذنب فى ذلك .

والحق سبحانه يعلمنا أن للمغالى جزاءه ولكن المغالَى فيه تنجيه رحمة الغفار .

إن الحق يعلمنا أن فتنة بعض الناس بعيسى ابن مريم عليه السلام لا تؤثر فى مكانة عيسى عليه السلام عند الحق ، إنه مقرب من الله ، ولا تؤثر فتنة الآخرين فى مكانته عند الله، ويقول الحق .

﴿ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾

الكلام : معناه اللفظ الذى ينقل فكر الناطق إلى السامع ، وقول الحق : « يكلم الناس فى المهد » ، معناه أن المواجه لعيسى عليه السلام فى المهد هم الناس . و« المهد » هو ما أعد كفراش للوليد . ولقد أورد الحق « المهد وكهلا » رمزية لشىء ، وهى أن عيسى ابن مريم من الأغيار ، يطرأ عليه مرة أن يكون فى المهد ، ويطرأ عليه مرة أخرى أن يكون كهلا ، ومادام فى عالم الأغيار فلا يصح أن يفتتن به أحد ليقول إنه « إله » أو « ابن إله » .

ونفهم أيضا من « ويكلم الناس فى المهد » سر وجود آية المعجزة التى وهبها له الله وهو طفل فى المهد . لأن المسألة تعلقت بعِرض أمه وكرامتها وعفتها ، فكان من الواجب أن تأتى آية لتمحو عجبا من الناس حين يرونها تلد بدون أب لهذا الوليد أو زواج لها . وهذه المسألة لم نجد لها وجودا . مع أنها مسألة كان يجب أن تقال لأنهم يمجدون نبيهم ، وكان من الواجب ألا يغفلوا عن هذه العجيبة ، إن كلام طفل فى المهد لما كان أمرا عجيبا كان لابد أنّه سيكون محل حفظ وتداول بين الناس ، ولن يكتفى الناس برواية واقعة كلامه فى المهد فقط ، بل سيحفظون ما قاله ، ويرددون قوله .

والكلمة التى قالها عيسى عليه السلام فى المهد لا تسعف من يصف عيسى عليه السلام بوصف يناقض بشريته ، لأن الكلمة التى نطق بها أول ما نطق : إنى عبدالله ، فأخفوا هم هذه المسألة كلها لأن هذه الكلمة تنقض القضية التى يريدون

أن يضعوا فيها عيسى عليه السلام ، إن الحق يقول : « ويكلم الناس فى المهد وكهلا » .

ونعرف أن الكلام فى المهد أى وهو طفل و« كهلا » أى بعد الثلاثين من العمر ، أى فى العقد الرابع . والبعض قد قال : إن الكهولة . . بعد الأربعين من العمر . وهو قد حدثت له فى رواياتهم حكاية الصلب قبل أن يكون كهلا ، فإذا كان قد تكلم فى المهد فيبقى أن يتكلم وهو كهل ، وقالوا إن حادثة الصلب أو عدم الصلب ، أو الاختفاء عن حس البشر قد حدثت قبل أن يكون كهلا ، إذن فلابد أن يأتى وقت يتكلم فيه عيسى بن مريم عندما يصير كهلا ، وأيضا قوله الحق : « ويكلم الناس فى المهد وكهلا » أى أنه تكلم فى المهد طفلا ويتكلم كهلا ، أى ناضج التكوين ، وبذلك نعرف أن عيسى بن مريم فيه أغيار وفيه أحوال ، فإذا كنتم تقولون إنه إله فهل الألوهية فى المهد هى الألوهية فى الكهولة ؟

إن كانت الألوهية فى المهد فقط فهى ناقصة لأنه لم يستمر فى المهد ، وحدثت له أغيار ، ومادام قد حدثت له أغيار فهو محدث ، ومادام محدثا فلا يكون إلها ، وبعد ذلك يقول الحق عن عيسى ابن مريم : « ومن الصالحين » ما حكايتها ؟

إن العجيبة التى قال عنها الله : إنه يكلم الناس فى المهد لم تكن باختياره ، وكلامه وهو كهل سيكون بالوحى ، أى ليس له اختيار فيه أيضا ، « ومن الصالحين » مقصود بها عمله ، أى الحركة السلوكية . لماذا ؟ لأنه لا يكفى أن يكون مبلغا ، ولا يكفى أن يكون حامل آية ، بل لابد أن يؤدى السلوك الإيمانى .

ويقول الحق على لسان مريم البتول :

﴿ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ ﴾

ونريد أن نقف وقفة ذهنية تدبرية عند قولها : « قالت رب أنى يكون لى ولد ولم يمسسنى بشر » فلو أنها سكتت عند قولها : « أنّى يكون لى ولد » لكان أمرا معقولا فى تساؤلها ، ولكن إضافتها « ولم يمسسنى بشر » تثير سؤالا ، من أين أتت بهذا القول « ولم يمسسنى بشر » ؟ هل قال لها أحد : إنك ستلدين ولدا من غير أب ؟ إن الملائكة لم تخبرها بذلك ، لذلك انصرف ذهنها إلى مسألة المس . إنها فطرة وفطنة المهيأة والمعدة للتلقى عن الله ، عندما قال لها : « المسيح عيسى ابن مريم » .

قالت لنفسها : إن نسبته بأمر الله هى لى ، فلا أب له ، لقد قال الحق : إنه « ابن مريم » ولذلك جاء قولها : « ولم يمسسنى بشر » ذلك أنه لا يمكن أن ينسب الطفل للأم مع وجود الأب . هكذا نرى فطنة التلقى عن الله فى مريم البتول . لقد مر بها خوف عندما عرفت أن عيسى منسوب إليها وقالت لنفسها : إن الحمل بعيسى لن يكون بوساطة أب ، وكيف يكون الحمل دون أن يمسسنى بشر . وقال الخالق الأكرم : « كذلك » أى لن يمسك بشر ، ولم يقل لها : لقد نسبناه لك لأنك منذورة لخدمة البيت ، ولكن الحق قال : « كذلك » تأكيدا لما فهمته عن إنجاب عيسى دون أن يمسسها بشر . وتتجلى طلاقة القدرة فى قوله سبحانه : « الله يخلق ما يشاء » .

إنها طلاقة القدرة ، وطلاقة القدرة فى الإنسال أو الإنجاب أو فى عدم التكثير بالنسبة للإنسان ، وطلاقة القدرة لا تتوقف على إيجاد ذكورة وأنوثة ، ولو كانت طلاقة القدرة متوقفة على إيجاد ذكورة وأنوثة فكيف خلق آدم أول الخلق ؟ إن طلاقة القدرة فى الخلق لا تتوقف على إيجاد ذكورة وأنوثة ، إنه الحق الأعلى القادر على أن يخلق دون ذكورة أو أنوثة ، كخلقه لآدم عليه السلام ، ويخلق الحق سبحانه بواحد منهما ، كخلقه سبحانه لحواء وخلق عيسى عليه السلام ، ويخلق الخالق الأعلى بالذكورة والأنوثة ، وهذه تتضح فى خلق جمهرة الناس ، ولا تظنوا أن باجتماع الذكورة والأنوثة يمكن أن يُحقق الخلق ، فقد توجد الذكورة والأنوثة ولا يوجد إنجاب ، هاهوذا القول الحق :

﴿ لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا

﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ۝٥٠﴾

(سورة الشورى)

هذه هى إرادة الحق ، إذن فلا تقل : إن اكتمال عنصرى الذكورة والأنوثة هو الذى يحدث الخلق ، لأن الخلق يحدث بإرادة الحق . « كذلك الله يخلق ما يشاء إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون » . فأنتم أيها المحدثون تفعلون بالأسباب . لكن الذى خلقكم وخلق الأسباب لكم هو الذى بيده أن يوجد بلا أسباب ، لأنه أنشأ العالم أول ما أنشأ بدون أسباب .

ويقول الحق سبحانه عن عيسى عليه السلام :

﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۝٤٨﴾

وساعة نسمع « يعلمه الكتاب » فنحن نفهم أن المقصود بها الكتاب المنزل ، ولكن مادام الحق قد أتبع ذلك بقوله : « والتوراة والأنجيل » فلابد لنا أن نسأل . إذن ما المقصود بالكتاب ؟ هل كان المقصود بذلك الكتاب الكتب المتقدمة ، كالزبور ، والصحف الأولى ، كصحف إبراهيم عليه السلام ؟ إن ذلك قد يكون صحيحا ، ومعنى « يعلمه الكتاب » أن الحق قد علمه ما نزل قبله من زبور داود ، ومن صحف إبراهيم ، وبعد ذلك توراة موسى الذى جاء عيسى مكملا لها .

وبعض العلماء قد قال : أُثِرَ عن عيسى عليه السلام أن تسعة أعشار جمال الخط كان فى يده . وبذلك يمكن أن نفهم « يعلمه الكتاب » أى القدرة على الكتابة . وما المقصود بقوله : إن عيسى عليه السلام تلقى عن الله بالإضافة إلى « يعلمه الكتاب » أنه تعلم أيضا « الحكمة والتوراة والإنجيل » وكلمة الحكمة عادة تأتى بعد

كتاب منزل ، مثال ذلك قوله الحق :

﴿ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾ ﴾

(الآية ٣٤ من سورة الأحزاب)

كتاب الله المقصود هنا هو القرآن الكريم ، والحكمة هى كلام الرسول عليه الصلاة والسلام . فالرسول له كلام يتلقاه ويبلغه ، ويعطيه الحق أيضا أن يقول الحكمة ، أما التوراة التى علمها الله لعيسى عليه السلام فقد علمها له الله ، لأننا كما نعلم أن مهمة عيسى عليه السلام جاءت لتكمل التوراة ، ويكمل ما أنقصه اليهود من التوراة ، فالتوراة أصل من أصول التشريع لعصره والمجتمع المبعوث إليه فهو بالنص القرآنى :

﴿ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾

إن كلمة رسول تحتاج إلى علامة ، فليس لأى أحد أن يقول : « أنا رسول من عند الله » بل لابد أن يقدم بين يدى دعواه معجزة تثبت أنه رسول من الله . والآية كما نعرف هى الأمر العجيب الذى خرج عن القوانين والنواميس لتثبت صدق

الرسول فى البلاغ ، ومادامت المعجزة خارجة عن نواميس البشر ، فالمخالف نقول له : أنت حين تكذب أن حامل المعجزة رسول ، فكيف تعلل أنه جاء بمعجزة خرجت عن الناموس ؟ إذن ، فالمعجزة تلزم المنكر الذى يتحدى وتفحمه ، لأنه لا يستطيع أن يأتى بمثلها ، ولذلك قلنا : إن من لزوم التحدى ألا يتحدى الله حين يعطى رسولا معجزة إلا بشىء نبغ فيه القوم المبعوث إليهم ذلك الرسول ؛ لأن الحق لو جاء لهم بشىء لم يدرسوه ولم يعرفوه ، فالرد منهم يكون للرسول بقولهم : إن هذا أمر لم نروّض أنفسنا ولم ندربها عليه ، ولو روّضنا أنفسنا عليه لاستطعنا أن نفعل مثله ، وأنت قد جئت لنا بشىء لم نعود أنفسنا عليه ، لذلك يرسل الحق الرسول ـ أى رسول ـ بمعجزة من جنس ما ينبغ فيه القوم المرسل إليهم . . مثال ذلك ، موسى عليه السلام ، أرسله الله إلى قوم كانوا نابغين فى السحر ، فكانت معجزته تقرب من السحر .

وإياك أن تقول إن معجزة موسى كانت سحرا ؛ لأن موسى عليه السلام لم ينزل بسحر ولكن بمعجزة . كانوا هم يخيلون للناس أشياء ليست واقعا.لذلك تجد القرآن يعطيك الفارق بين ما يكون عليه ما يأتى به الله على يد رسول من الرسل من معجزة وسحر القوم ، فيقول القرآن :

﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَـٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ ﴾

(سورة طه)

كأن الحق يقول لموسى عليه السلام : إن حدود علمك بما فى يدك أنها عصا تتوكأ عليها وتهش بها على غنمك ، أما علمى أنا فهو علم آخر . لذلك يأمره أن يلقى العصا ، فلما ألقاها وجدها حية تسعى ، فأوجس فى نفسه خيفة . . إن « أوجس فى نفسه خيفة » هى التى فرقت بين سحر القوم ومعجزة موسى عليه السلام » .

لماذا ؟ لأن الساحر يلقى العصا فيراها الناس حية وهو يراها عصا لأنّ الساحر لو رآها حية لخاف مثل الناس ، لقد خاف موسى عليه السلام لأنها تغيرت وصارت حية فعلا،ولذلك قال له الله :

﴿ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ ﴾

(سورة طه)

فلو كانت من جنس السحر لما أوجس فى نفسه خيفة لأنه سوف يراها عصا وإن رآها غيره حية ، وهذا هو الفارق . وقوم عيسى أيضا كانوا مشهورين بالحكمة والطب ، إذن فستجىء الآيات من جنس الحكمة والطب ، ثم تتسامى المعجزة ، لأن الذى يطبب جسما ويداويه لا يستطيع أن يعيد الميت إلى الحياة ، لأن الإنسان إذا ما مات فقد خرج الميت عن دائرة علاج الطبيب . ولذلك رقّى الله آية عيسى ، إنه يشفى المرضى ، ويحيى الموتى أيضا ، وهذا ترق فى الإعجاز . قال عيسى : « أنى قد جئتكم بآية من ربكم أنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله » . إن كلمة « أخلق » تحتاج إلى وقفة وكذلك « الطين » و« الهيئة » و« الطير » .

« أخلق » مأخوذة من الخلق ، والخلق هو إيجاد شىء على تقدير ، فأنت تتخيله وتقدره فى ذهنك أولا ثم تأتى به على هذه الحالة . فإن كان قد أتى على غير تقديرك فليس خلقا ، إنما هو شىء جزافى جاء على غير علم وتقدير ، وإنّ من يأخذ قطعة من الطين ويصنع منها أى شىء فهذا ليس خلقا . إن الخلق هو المطلوب على تقدير . مثال ذلك الكوب أو الكأس البلور الذى نشرب فيه حينما صنعه الصانع . هل كانت هناك شجرة تخرج أكوابا ، أم أن الصانع أخذ الرمال وصهرها ووضع عليها مواد كيماوية تخليها من الشوائب ، ثم قام بتشكيلها على هيئة الكوب ؟

إذن فالكوب لم تكن موجودة ، ووجدت على تقدير أن تكون شكل الكوب ، فهى خلق أوجد على تقدير . فماذا عن خلق الله ؟ إنه يخلق على تقدير ، وفرق بين صنعة البشر حين يخلق ، وبين صنعة الله حين يخلق . إن صنعة البشر حين تخلق ، إنما تخلق من موجود ، وحين يخلق الله فهو يخلق من معدوم ، وهذا هو أول فرق ، إنه سبحانه يخلق من عدم ، أما الإنسان فيضع الأشياء بنظام يحدث فيها تفاعلات أرادها الله فتوجد ، فلا يوجد من يستطيع ـ على سبيل المثال ـ من يصنع كوبا من غير المادة التى خلقها الله .

إن هذا أول فرق بين خلق الله ، وخلق الإنسان ، فخلق الله يكون من عدم ،

وخلق الإنسان من موجود ، وإن كان الإثنان على تقدير . وأيضا يعطى الله لخلقه سرا لا يستطيع البشر إعطاءه لصنعته ، فالله يعطيه سر الحياة ، والحياة فيها نمو ، وفيها تكاثر ، لكن البشر يصنعون الكوب مثلا ، فتظل كوبا ، ولا يوجد تكاثر بين كوب ذكر وكوب أنثى .

إن الإنسان يوجد صنعته فتظل على حالتها ، ولا يستطيع أن يصنعها صغيرة ثم تكبر ، لكن صنعة الله هى صنعة القادر الذى يهب الحياة ، فتكبر مخلوقاته وتتطور وتمر بمراحل ، وتعطى مثلها . إذن ، فالخلق إيجاد على تقدير ، هذا الإيجاد يوجد معدوما ، والمعدوم موجودة مادته ، هذا فى خلق الإنسان ، أما فى خلق الله ، فالله يخلق من معدوم لا توجد له مادة . والله يخلق من الشيء ذكرا وأنثى ويعطيهما القدرة على التناسل، فها هوذا قول الحق سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ﴾

(سورة المؤمنون)

ولم يمنع الحق خَلْقَه أن يخلقوا أشياء ، ولكن خلق الله أحسن ، لماذا ؟ لأنه يخلق من عدم ، والبشر يخلقون من موجود . وهو الحق يخلق ويوجد فى مخلوقاته حياة وتكاثرا ، والبشر يخلقون بلا نمو ولا حياة ، إنه الحق أحسن الخالقين ، إذن قول عيسى عليه السلام : « أخلق لكم من الطين كهيئة « الطير » فأنفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله » .

يعنى أن كل إنسان يستطيع أن يصنع تمثالا كهيئة الطير . لكن الله أوجد معجزة عيسى وجعله يخلق من الطين كهيئة الطير ، وينفخ فيه ، وقد تسأل ، فى ماذا ينفخ ؟ أينفخ فى الطير ، أم فى الطين ، أم فى الهيئة ؟ إن قلنا : إن النفخ فى الطين بعد ما صار طيرا . يكون النفخ فى الطين ، كالنفخ فى الطير ، وجاءت فى آية أخرى أنها نفخ فى الهيئة .

﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي ﴾

(سورة المائدة)

إن « النفخ فيه » ، تكون للطين أو الطير . و« النفخ فيها » تكون للهيئة ، وهناك آية بالنسبة للسيدة مريم البتول :

﴿ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِيٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾ ﴾

(سورة التحريم)

إن النفخ هنا فى الفرج ، وآية أخرى بالنسبة للسيدة مريم البتول :

﴿ وَٱلَّتِيٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩١﴾ ﴾

(سورة الأنبياء)

مرة يقول: « نفخنا فيه » أى فى الفرج ، ومرة يقول : « نفخنا فيها » أى فيها هى ، والقولان متساويان ، وهنا فى هذه الآية ، نجد أن الإعجاز ليس فى أن عيسى صنع من الطين كهيئة الطير ، لأن أى إنسان يستطيع أن يفعل ذلك ، فكأنه حينما قال : « أنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله » .

كأنه صار طيرا من النفخة ، أما عن أمر صناعة طير من الطين فأى إنسان يمكن أن يفعلها ، لكن عيسى عليه السلام يفعل ذلك بإذن الله ، ولابد أن يجيء الأمر

مختلفا ، و« بإذن الله » هنا تضم صناعة الطير ، والنفخ فيه .

إن عيسى لم يكن ليجترىء ويصنع ذلك كله إلا بإذن الله ، وجاءت كلمة « بإذن الله » من عيسى وعلى لسانه كاعتراف منه بأن ذلك ليس من صناعته ، وكأنه يقول لقومه : إن كنتم فتنتم بهذه . فكان يجب أن تفتنوا بإبراهيم من باب أولى ، حينما قطّعَ الطير وجعل على كل جبل جزءا منهن ثم دعاهن .

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾ ﴾

(سورة البقرة)

إذن كان من الأولى الفتنة بما أعطاه الله إبراهيم عليه السلام من معجزة ، فإن كانت الفتنة من ناحية الإحياء لكان ما صنعه إبراهيم عليه السلام أولى بها ، وإن كانت الفتنة من ناحية أنه جاء إلى الدنيا بدون أب لكانت الفتنة أكثر في خلق آدم ، لأن الله خلقه بلا أب أو أم . إذن فالفتنة لا أصل لها ، ولا منطق يبررها . . ويتابع الحق سبحانه على لسان عيسى ابن مريم عليه السلام « وأبرىء الأكمه والأبرص وأحيى الموتى بإذن الله » .

لماذا تعرض عيسى ابن مريم لهذين المرضين ؟ لأنها كانت الأمراض المستعصية في ذلك العصر ، والأكمه هو الذي ولد أعمى ، أي لم يحدث له العمى من بعد ميلاده . والبرص ، هو ابيضاض بقعة في الجلد وإن كان صاحبها آدم أو أسود . وبعد ذلك تنتشر بقع متناثرة في كافة الجسم بلون أبيض ، مما يدل على أن لون الجلد له كيماويات في الجسم تغذي هذا اللون ، فإن مُنعت الكيماويات في الجسم صار أبرص .

وتبين صدق هذا في أن العلم المعاصر قد عرف أن الملونات للجلد هي غدد خاصة توجد في الجسم ، واسمها الغدد الملونة ، فإن امتنعت الغدد الملونة من إعطاء الألوان ، جاء البرص والعياذ بالله . وهو مرض صعب ، لم يكن باستطاعتهم أن

يداووه ، فعندما جاء عيسى ابن مريم أعطاه الله الآية من جنس ما نبغوا فيه وهو الطب . وجاء لهم بآية هى إبراء ما كانوا عاجزين عنه .

وبعض القوم الذين يحاولون أن يقربوا بين المعجزة وعقول الناس . يقولون : إن هذه المعجزات إنما هى سبق زمنى ، بمعنى أنه من الممكن أن يتوصل الإنسان إلى أن يكتشف علاجا لهذه الأمراض ، لكن لهؤلاء نقول : لا ، إن المعجزة تظل معجزة إلى أن تقوم الساعة . كيف ؟

لنأخذ مثالا من طب العيون ، عندما قالوا إن هناك علاجاً للعمى . « سنقوم بتركيب قرنية » أو أن نأخذ مثالا من طب الجلد لو قالوا : « سنداوى البرص » واكتشفوا ألوانا مختلفة من العلاج تحاول أن تجعل الجلد على لون واحد ، لكنه لا يستعيد لونه الأصلى . ولذلك قال البعض : « إن معجزة عيسى كانت مجرد سبق زمنى » . لهؤلاء نقول : لا ، لنأخذ كل أمر بأدواته .

إن عيسى بن مريم عليه السلام كان يبرىء بالكلمة والدعوة ومهما تقدم العلم فلن يستطيع العلم أن يبرىء المرض بالكلمة والدعوة ، إنما سيأخذون أشياء ويقوم بتحليل تلك الأشياء ، وخلط الكيماويات وإجراء الجراحات ، لذلك تظل المعجزة التى جاء بها عيسى ابن مريم عليه السلام معجزة ؛ لأنه كان يبرىء بالكلمة والدعوة .

ويضيف الحق على لسان عيسى ابن مريم : « وأحيى الموتى بإذن الله وأنبئكم بما تأكلون » . ومسألة إحياء الموتى لم يأخذها عيسى هكذا على إطلاقها فيحيى كل ميت ، إنما قام بها وفى وحدات تثبت صدق الآية ولا تعمم مدلول المعجزة كسام بن نوح مثلا ، و« عازر » إنها أشياء لمجرد إثبات المعجزة ، ولكنها ليست مطلقة ، ذلك أنه نبى ورسول من الله فلا يمكن أن يصادم قدر الله فى الآجال . ولذلك قالوا : إنه عندما أحيا سام بن نوح ، أحياه حتى نطق بكلمة ، ثم عاد سام إلى الموت من بعد ذلك ويضيف الحق على لسان عيسى ابن مريم عليه السلام :

﴿ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ ﴾

(من الآية ٤٩ سورة آل عمران)

لماذا ؟ لأن كل إنسان يعلم جزئية من أحداثه الحياتية الخاصة ، يكون هذا العلم

خاصا به ، وكل إنسان ـ مثلا ـ يأكل طعامه بألوان مختلفة يعرفها هو ، ولا يعرفها الآخرون . إن الأمر الأول كخلق الطير ، وإبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى ، هى أمور عامة للكل . أما الإنباء بألوان الطعام التى يأكلها كل إنسان فهى خاصية أحداث ، لأن كل واحد يأكل أكلا معينا فيقول له عيسى ابن مريم ماذا أكل . وليس من المعقول أن يكون عيسى ابن مريم قد دخل كل بيت أو جاءت له أخبار عن كل بيت .

وكذلك أمر الادخار . وذلك حتى تنتفى شبهة أنه كان يشم رائحة الإنسان فيعرف لون الطعام الذى يأكله ، لذلك كان الإخبار بما يدخر كل واحد فى بيته ، فهذه مسألة توضح بالجلاء التام أنها آية من إخبار من يعلم مغيبات الأمور .

﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾

(من الآية ٤٩ سورة آل عمران)

إن هذه آية عجيبة تثبت أن هناك قوة أعلى قاهرة هى قوة الله الحق هى التى تعطيه هذه الأشياء ، فإن كنتم مؤمنين بوجود قوة أعلى فعلكيم تصديق الرسالة التى جاء بها عيسى ابن مريم ، لأن معنى (رسول) أنه مخلوق اصطفاه الله وأرسله سبحانه إلى الأدنى منه ، فالذى يؤمن بالآية هو الذى يؤمن بوجود إله أعلى قادر ومن يريد أن يتثبت ـ مع إيمانه بالله ـ من الآية التى بعثها الله مع عيسى ابن مريم ، فالآية واضحة . اما غير المؤمن بالله فلن تفيده الاية فى الإيمان . ويقول الحق متابعا على لسان عيسى ابن مريم :

﴿ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ ﴾

وقد قلنا : إن « مصدقا » تعنى أن ما جاء به عيسى بن مريم مطابق لما جاء فى

التوراة . وقلنا : إن « ما بين يدى » الإنسان هو الذى سبقه ، أى الذى جاء من قبله وصار أمامه . ومادام عيسى ابن مريم جاء مصدقا لما بين يديه من التوراة فى زمانه ، وكانت التوراة موجودة ، فلماذا جاءت رسالته إذن ؟

لكن القول الحق يتضمن هذا المعنى : إن عيسى سيأتى بأحكام جديدة ، ويتضح ذلك فى قوله الحق سبحانه على لسان عبده عيسى ابن مريم : « ولأحل لكم بعض الذى حرم عليكم » إذن فليس المهم هو التصديق فقط ، ذلك أن عيسى جاء ليحل بعضا من الذى حرمته التوراة .

وقد يقول قائل : إذا كانت الكتب السماوية تأتى مصدقة بعضها بعضا فما فائدة توالى نزول الكتب السماوية ؟ والإجابة هى : أن فائدة الكتب السماوية اللاحقة أنها تذكر من سها عن الكتب السابقة ، هذا فى المرتبة الأولى ، وثانيا : تأتى الكتب السماوية بأشياء ، وأحكام تناسب التوقيتات الزمنية التى تنزل فيها هذه الكتب . هذه هى فوائد الكتب السماوية التى توالت نزولا من الحق على رسله ، إنها تذكر من عقل وتعدل فى بعض الأحكام .

ومن الطبيعى أننا جميعا نفهم أن العقائد لا تبديل فيها ، وكذلك الأخبار والقصص ، لكن التبديل يشمل بعضا من الأحكام . ولهذا جاء القول الحق على لسان عبده عيسى ابن مريم : « ولأحل لكم بعض الذى حرم عليكم » ونحن نعرف أن القوم الذى أرسل الله عيسى ابن مرم لهم هم بنو إسرائيل ، والتحريم والتحليل يكون بحكمة من الله .

إن لله حكمة فيما يحلل وحكمة فيما يحرم ، إنما إياك أن تفهم أن كل شىء يحرمه الله يكون ضارا ؛ قد يحرم الله أشياء لتأديب الخلق ، فيأمر بالتحريم ، ولا يصح أن تسأل عن الضرر فيها ، وقد يعيش المؤمن دنياه ولم يثبت له ضرر بعض ما حرم الله . فإن تساءل أحد : لماذا حرم الله ذلك ؟ تقول له : من الذى قال لك إن الله حين يحرم فهو يحرم الشىء الضار فقط ؟ إنه الحق سبحانه يحرم الضار ، ويحرم بعضا مما هو غير ضار ، ولذلك قال الحق :

﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا (١٦٠) ﴾

(سورة النساء)

وتفصيل ذلك فى آية أخرى :

﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (١٤٦) ﴾

(سورة الأنعام)

إذن التحريم ليس ضروريا أن يكون لما فيه الضرر ، ولهذا جاء قول الحق على لسان عبده ورسوله إلى بنى إسرائيل عيسى ابن مريم : « ولأحل لكم بعض الذى حرم عليكم » لقد جاء عيسى ابن مريم ليُحل لهم بأمر من الله ما كان قد حرمه الله عليهم من قبل .

وبعد ذلك يقول الحق على لسان عبده ورسوله عيسى ابن مريم : « وجئتكم بآية من ربكم فاتقوا الله وأطيعون » ومجموعة هذه الأوامر التى تقدمت هى آية أى شىء عجيب ، بلغت القوم الذين أرسل الله عيسى إليهم ، إنه كرسوّل وكبشر لا يستطيع أن يجىء بالآية المعجزة بمفرده بل لابد أن يكون مبعوثا من الله . فيجب أن يلتفتوا إلى أن الله الذى أرسله ، وله طلاقة القدرة فى خرق النواميس هو سبحانه الذى أجرى على يدى عيسى هذه الأمور ، ويأمرهم عيسى ابن مريم بتقوى الله نتيجة لذلك ، ويدعو القوم لطاعته فى تطبيق منهج الله .

وبعد ذلك يقول الحق على لسان عيسى ابن مريم :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾ ﴾

إذن اجتمع الرسول والمرسل إليهم فى أنهم جميعا مربوبون إلى إله واحد ، هو الذى يتولَّى تربيتهم والتربية تقتضى إيجادا من عدم ، وتقتضى إمدادا من عدم ، وتقتضى رعاية قيومية ، وعيسى ابن مريم يقر بعبوديته لله وكأنه يقول : وأنا لم أصنع ذلك لأكون سيدا عليكم ، ولكن أنا وأنتم مشتركون فى العبودية لله . « إن الله ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم » .

ومعنى « هذا صراط مستقيم » أى أنه صراط غير ملتو يا لأن الطريق إذ إلتوى ؛ انحرف عن الهدف ، وحتى تعرف أن الكل يسير على طريق مستقيم واحد ، فلتعلم أنك إذا نظرت على سبيل المثال إلى الدائرة ، فستجد أن لها محيطا ، ولها مركزا ، ومركز الدائرة هو الذى نضع فيه « سن الفرجار » حتى نرسم الدائرة ، وبعد ذلك تصل من المركز إلى المحيط بأنصاف أقطار ، وكلما بعدنا عن المركز زاد الفرق ، وكلما نقرب من المركز تتلاشى الفروق .

فإذا ما كان الخلق جميعا يلتقون عند المركز الواحد فهذا يعنى الاتفاق ، لكن الاختلاف يحدث بين البشر كلما بعدوا عن المركز ولذلك لا تجد للناس أهواء ولا نجد الناس شيعا إلا إذا ابتعدوا عن المركز الجامع لهم.والمركز الجامع لهم هو العبودية للإله الواحد ، ومادامت عبوديته لإله واحد ففى هذا جمع للناس بلا هوى أو تفرق .

إنه حتى فى الأمر الحسى وهو الدائرة المرسومة ، نجد أن الأقطار المأخوذة من المحيط وتمر بمركز الدائرة ، سنجد أنه فى مسافة ما قبل المركز تتداخل الأقطار إلى أن تصير عند نقطة المركز شيئا واحدا لا انفصال بينها أبدا . وهكذا الناس إذا التقوا جميعا عند مركز عبوديتهم للإله الواحد ، فإذا ما اختلفوا ، بعدوا عن العبودية للإله الواحد بمقدار ذلك الاختلاف .

ولذلك دعا المسيح عيسى ابن مريم الناس لعبادة الله « إن الله ربى وربكم فاعبدوه

هذا صراط مستقيم » ذلك هو منطق عيسى . كان منطقه الأول حينما كان فى المهد

﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ ﴾

(سورة مريم)

إن قضية عبوديته لله قد حُسمت من البداية ، وهى قضية القمة ، إنه عبدالله والقضية الثانية هى قضية الرسالة ونقل مراد الله وتكليفه إلى خلق الله حتى يبنوا حركة حياتهم على مقتضى ما أنزل الله عليهم ، ومن الطبيعى أن أى رسول عندما يأتى بمنهج من عند الله ، فالهدف أن يحمل الناس جميعا على سلوك هذا المنهج ، ويحدد حركة حياتهم بـ « افعل كذا » و« لا تفعل كذا » وعندما يسمع الواحد من الناس الأمر بـ « افعل » فقد يجد فى التكليف مشقة ، لماذا ؟ لأنها تلزمه بعمل قد يثقل عليه ، و« لا تفعل كذا » فيها مشقة ، لأنها تبعده عن عمل كان يحبه .

والمرء فى الأحداث بين اثنين : عمل يشق عليه فيحب أن يجتنبه ، وعمل يستهويه فيحب أن يقترب منه ، والمنهج جاء من السماء ليقول للإنسان « افعل » ولا « تفعل » إذن فهناك مشقة فى أن يحمل الإنسان نفسه على أن يقوم بعمل ما من أعمال التكليف ، ومشقة أخرى فى أن يبتعد عن عمل نهى عنه التكليف .

ومعظم الناس لا تلتفت إلى الغاية الأصيلة ؛ ولا يفهمونها حق الفهم ، فيأتى أنصار الشر ؛ ولا يعجبهم حمل نفوسهم على مرادات خالقهم . إن أفكار الشر تلح على صاحبها فيتمرد على التكليف الإيمانى ، وأفكار الشر تحاول الاقتراب بصاحبها من فعل الأمور التى حرمها التكليف . ولذلك ينقسم الناس لأنهم لم يحددوا هدفهم فى الوجود .

إن كل حركة فى الوجود يمكننا أن نعرف أنها حركة إيمانية فى صالح انسجام الإنسان مع الكون ، أو هى حركة غير إيمانية تفسد انسجام الإنسان مع فطرته ومع الكون ، فإذا كانت الحركة تصل بالإنسان إلى هدفه الإيمانى . فستكون حركة طيبة وحسنة بالنسبة للمؤمن ، وإذا كانت تبعده عن هدفه تكون حركة سيئة وباطلة ، وهكذا نرى أن الهدف هو الذى يحدد الحركة .

إن التلميذ الذى يذهب إلى المدرسة له هدف بأن يتخرج فى مهنة ما ، ومادام ذلك هو هدفه فنحن نقيس حركة سلوكه ، هل هى حركة تقربه إلى الهدف أم تبعد به عنه ؟ فإن كان مجتهدا . فاجتهاده حركة تقرب له الهدف ، وإن كان كسولا ، خاملا فإنه يبتعد بنفسه عن الهدف . إذن يجب أن نحدد الهدف حتى نعرف هل يكون هذا العمل صالحا . أو غير صالح .

وآفة الناس أنهم عندما يحددون أهدافهم يقعون فى اعتبار ما ليس بالهدف هدفا وغاية . ومادام هناك من يعتبر غير الهدف هدفا فلابد من حدوث اضطراب وضلال ، فالذى يعتبر أن الحياة هى الهدف ، فهو يريد أن يحقق لنفسه أكبر قدر من اللذة فيها . أما الذى يعرف أن الهدف ليس هو الحياة ، إنما الحياة مرحلة ، نسأله . . ما الهدف إذن ، فيقول : إنه لقاء الله والآخرة .

هذا المؤمن سيكون عمله من أجل هذا الهدف . لكن الضال الذى يرى الدنيا وحدها هدفه ولا يؤمن بالجنة أو النار ، هو غارق فى ضلاله ويقبل على ما تشتهيه نفسه ، ويبتعد عما يتعبه وإن كانت فيه سعادته .

ولكن المؤمن يعرف أن الهدف ليس هو الدنيا ، وأن الهدف فى مجال آخر ، لذلك يسعى فى تطبيق التكاليف الإيمانية ليصل إلى الهدف ، وهو الجنة . إذن ما يفسد سلوك الناس هو جهلهم بالهدف ، وحين يوجد الهدف ، فالإنسان يحاول أن يعرف العمل الذى يقربه من الهدف ، فيفعله ، فهذا هو الخير . أما الذى يبعده عن الهدف ويفعل عكس الموصل إليه فهذا هو الشر .

وإذا كان الأمر كذلك والمسألة هى فى تحديد الهدف يجب أن تعلم أن الناس يستقبلون الكثير من الأحداث بما يناقض معرفة الهدف ، ومادام الهدف هو أن تذهب إلى الآخرة لتلقى الله فلماذا يغرق فى الحزن إنسان لأن له حبيبا قد انتقل إلى رحمة الله ؟

هذا الإنسان يمكننا أن نسأله ، لماذا تحزن وقد قصر الله عليه خطواته إلى الهدف ؟ لابد أنك حزين على نفسك لأنك مستوحش له ، ولأنك كنت تأنس به ، أما حزنك من أجله هو ، فلا حزن ، لأنه اقترب من الهدف ووصل إليه .

وفى حياتنا اليومية عندما يكون هدف جماعة أن تصل إلى الإسكندرية من القاهرة ، نجد إنسانا ما يذهب إلى الإسكندرية ما شيا ، لأنه لا يجد نقودا أو وسيلة توصله ، ونجد آخر يذهب إليها راكبا حمارا ، وثالثا يذهب إليها راكبا حصانا ، ورابعا يصل إليها راكبا « أتوبيسا » ، وخامسا يصل إليها بركوب الطائرة ، وسادسا يصل إليها بصاروخ ، وكل ما حدث هو أن كل واحد فى هذه الجماعة قد اقترب من الهدف بالوسيلة التى توافرت له ، وهكذا نجد إنسانا يذهب إلى الله ماشيا فى سبعين عاما ، وآخر يستدعيه الله فورا ، فلماذا نحزن عليه ؟

إن لنا أن نحزن على الإنسان الذى لم يكن موفقا فى خدمة الهدف ، أما الموفق فى خدمة الهدف فلنا أن نفرح له ، ونقول : إن الله قد قصر عليه المسافة ، وأغلبنا إن كان عنده ولد حبيب إلى قلبه وصغير ويفقده فهو يغرق فى الحزن قائلا « إنه لم ير الدنيا » لهذا الإنسان نقول : يا رجل إن الله جعل ابنك يقفز الخطايا ويتجاوزها وأخذه إلى الغاية ، فما الذى يحزنك ؟ إن علينا أن نحسن استقبال ما يقضى به الله فى خلقه ، ونعرف أنه حكيم ، وأنه رحيم وأن كل شىء منه يجب ألا نفهمه خارجا عن الحكمة .

وبعد تلك الآيات الكريمة التى تحدث فيها الحق عن مريم وعيسى عليه السلام . . قال الحق سبحانه :

﴿ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾

لقد ذكر عيسى ابن مريم القضية الجامعة المانعة أولا حين قال :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

وأوضح عيسى ابن مريم بما لا يقبل الجدل : « أنا معكم سواء فى مربوبيتنا إلى إله واحد ، وأنا لم أجىء لأعلّمكم لأنى تميزت عنكم بشىء . فيما يتعلق بالعبادة نحن سواء ، فالله رب لى ورب لكم ، والصراط المستقيم هو عبادة الله الحق .

ونحن ساعة نسمع « الصراط المستقيم » فإننا نتخيل على الفور الطرق الموصلة إلى الغاية ، ونعرف جميعا أنه لا يوجد طريق فى الحياة مصنوع لذات الطريق ، إنما الطريق يصنع ليوصل إلى غاية . وساعة تسمع « صراط » فإننا نفهم على الفور الغايةالتى نريد أن نصل إليها . والحق سبحانه يقول :

﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

ومادام هناك طريق لغاية ما فلابد لنا أن نحدد الغاية أولا ، وتحديد الغاية إنما يهدف إلى إيضاح السبيل أمام الإنسان ليسلك الطريق الموصل إلى تلك الغاية . وهكذا يقول الحق على لسان عيسى ابن مريم : « إن الله ربى وربكم فاعبدوه » .

والعبادة هى إطاعة العابد لأمر المعبود ، وهكذا يجب أن نفطن إلى أن العبادة لا تقتصر على إقامة الأركان التعبدية فى الدين من شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلا ، إن هذه هى أركان الإسلام ولا يستقيم أن ينفصل الإنسان المسلم عن ربه بين أوقات الأركان التعبدية ، إن الأركان التعبدية لازمة ، لأنها تشحن الطاقة الإيمانية للنفس حتى تقبل على العمل الخاص بعمارة الدنيا ، ويجب أن نفطن إلى أن العبادة فى الدنيا هى كل حركة تؤدى إلى إسعاد الناس وعمارة الكون .

ويجب أن نعرف أن الأركان التعبدية هى تقسيم اصطلاحى وضعه العلماء فى الفقه كباب العبادات وباب المعاملات ، لكن علينا أن نعرف أن كل شىء يأمر به الله اسمه « عبادة » . إذن فالعبادة منها ما يصل العبد بالمعبود ليأخذ الشحنة الإيمانية من خالقه ، خالق الكون ، ومنها ما يتصل بعمارة الكون . ولذلك قلنا : إنك حينما

تتقبل من الله أمرا بعبادة ما ، فأنت تتلقاه وأنت موصول بأسباب الله بحثا عن الرزق وغير ذلك من أمور الحياة ، والمثل الواضح لذلك هو قول الحق :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٩ ﴾

(سورة الجمعة)

إن هذا الأمر بالصلاة الجامعة يوم الجمعة يخرج بالإنسان من أمر البيع ، وهذا الأمر بالصلاة لم يأخذ الإنسان من فراغ ، إنما أخذ الإنسان من عمل ، هو البيع . . ولو نظرنا إلى دقة الأداء فى البيع لوجدناها قمة الأخذ المباشر للرزق . إن كلام الله يصل فى دقته إلى ما لا يصل إليه كلام بشر ، فلم يقل الله مثلا « اتركوا الصنعة » « اتركوا الحرث » ولكن الحق جاء بالبيع هنا لأنه قمة النفعية العاجلة .

إن الذى يحرث ويزرع ينتظر وقتا قد يطول حتى تنضج الثمار ، لكن الذى يبيع شيئا ، فإنه ينال المنفعة فورا ، لقد جاء الأمر بترك هذه الثمرة العاجلة لأداء صلاة الجمعة ، ويتضمن هذا الأمر ترك كل الأمور التى قد تأتى ثمراتها من بعد ذلك لأداء الصلاة .

إن البيع هو التعبير الدقيق لأن المتكلم هو الله ، والحق لم يتكلم هنا مثلا عن الشراء ، لأن الشارى قد يشترى وهو كاره ، لكن البائع يملأه السرور وهو يبيع فقد يذهب رجل لشراء أشياء لبيته فيسمع الأذان فيسرع إلى الصلاة ويقول لأهله من بعد ذلك : لقد ذهبت إلى الشراء ، لكن المؤذن قد أذن لصلاة الجمعة ، ذلك أن الإنسان يحب ألا يدفع نقودا ، لكن البائع يستفيد بقمة الفائدة . لذلك يخرجنا الحق من قمة « كل الأعمال ونهاية كل الأعمال وهى مبادله السلع بأثمانها » . لكن ماذا بعد انقضاء الصلاة ؟

﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ١٠ ﴾

(سورة الجمعة)

لقد أخرجنا من الصلاة إلى الحياة نبتغى من فضل الله ، ولذلك يكون الإنتشار فى الأرض والبحث عن الرزق عبادة .

ولننظر إلى الدقة فى قوله الحق : « فانتشروا فى الأرض » إن الانتشار يعنى أن ينساح البشر لينتظموا فى كل حركات الحياة ، وبذلك تعمر كل حركة فيها . إن كل حركة فى الحياة هى عبادة ، وهكذا نستوعب قوله الحق على لسان عيسى بن مريم : « إن الله ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم » ومن بعد ذلك يقول الحق : « فلما أحس عيسى منهم الكفر » لقد حسم عيسى بن مريم أمر العقيدة حينما قال : « إن الله ربى وربكم » إن فى ذلك تحذيرا من أن يقول أتباع عيسى أى شىء آخر عن عيسى غير أنه عبدالله خاضع لله ، مأمور بالطاعة والعبادة لله . ووضع أمامهم المنهج ، فقال : « هذا صراط مستقيم » .

وقول الحق : « فلما أحس عيسى منهم الكفر » يدل على أن كل صاحب فكرة ، وكل صاحب مهمة ، وكل صاحب هدف لابد أن يكون يقظ الأحاسيس ، لأن صاحب الفكرة وخاصة الدينية يخرج الناس من الظلمات إلى النور .

وقد يقول قائل : لماذا يعيش الناس فى الظلام ولا يتجهون إلى النور من أول الأمر ؟ وتكون الإجابة : إن هناك أناساً يستفيدون من وجود جموع الناس فى الظلمات ، لذلك يكون بينهم أناس ظالمون وأناس مظلومون ، والظالم الذى يأخذ ـ اغتصابا ـ خيرَ الآخرين ويعربد فى الكون يخاف من رجل الدعوة الذى ينهاه عن الظلم ، ويدعوه إلى الهداية إلى منطق العقل ، ومثل هذا الظالم عندما يسمع كلمة المنطق والدعوة إلى الإيمان لا يحب أن تنطق هذه الكلمة ، إنه يكره الكلمة والقائل لها .

إن الداعية مأمور من الله بأن يكون يقظا لأنه إن اهتدى بكلماته أناس وسعدوا بها ، فإنّه يغضب أناساً آخرين ، ذلك أن المجتمع الفاسد يوجد به المستفيدون من الفساد ، فالداعية عليه ان يعرف يقظة الحس ، ويقظة الحس معناها الالتفاف إلى الأحاسيس الخفية الموجودة عند كل إنسان ، ونحن نسمى الأشياء الظاهرة منها الحواس الخمس ، اللمس ، والرؤية ، والسمع ، والتذوق ، والشم .

إن رجل الدعوة مأمور بأن تعمل كل حواسه حتى يعرف من الذى يجبن ويرتجف

لحظة أن تأتى دعوة الخير ، ومن الذى يطمئن ويحس الراحة لدعوة الخير . إن رجل الدعوة مأمور بدقة اليقظة والإحساس ليميز بين الذى تتغير سحنته لحظة دعوة الخير ، ومن الذى يستبشر ويفرح .

وعندما أعلن عيسى ابن مريم منهج الحق ، وجد أنصار الظلم وأنصار البغى ، وأنصار الظلمات غير معجبين بالمنهج الواضح للإيمان بالله ، لذلك أحس منهم الكفر لقد كان مليئا باليقظة والانتباه . إنه يعلم أنه قد جاء برسالة من الله ؛ ليخرج أناساً من مفسدة إلى مصلحة . وعندما أحس منهم الكفر ، أراد أن ينتدب جماعة ليعينوه على أمر الدعوة . « قال من أنصارى إلى الله » ؟

إن الدعوة تحتاج إلى معركة ، والمعركة تحتاج إلى تضحية . والتضحية تكون بالنفس والنفيس ، لذلك لابد أن يستثير ويحرك من يجد فى نفسه العون على هذه المسألة . وهو لم يناد أفرادا محددين ، إنما طرح الدعوة ليأتى الأنصار الذين يستشرفون فى أنفسهم القدرة على حمل لواء الدعوة ، ولتكون التضحية بإقبال نفس لا استجابة لداع . « فلما أحس عيسى منهم الكفر قال من أنصارى إلى الله » وكلمة « أنصار » هى جمع « نصير » . والنصير هو المعين لك بقوة على بُغْيَتِك .

وعندما سأل عيسى : « من أنصارى إلى الله ؟» كانت إلى فى السؤال تفيد الغاية ، وهى الله ، أى من ينصرنى نصرا تصير غايته إلى الله وحده لا إلى أهواء البشر ؟ إنه لا يسأل عن أناس يدخلون فى لواء الدعوة من أجل الغنيمة أو يدخلون من أجل الجاه ، أو غير ذلك ، إنه يسأل عن أهل العزم ليكون كل منهم متجها بطاقته إلى نصرة الله وحده .

ومثال ذلك ما دار بين رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم وبين رجال من المدينة فى أثناء مبايعتهم له فى العقبة فقد قال لهم رسول الله : « أبايعكم على أن تمنعونى مما تمنعون فيه نساءكم وأبناءكم » فأخذ الداء بن معرور بيده ثم قال : « نعم ، والذى بعثك بالحق لنمنعنّك مِما نمنع منه أزرنا » فبايعوا رسول الله على ذلك فقام أبو الهيثم بن التيهان فقال : يا رسول الله إن بيننا وبين اليهود حبالا وإنا قاطعوها فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدَعَنا » ؟ فتبسم رسول الله ثم قال : « بل الدم الدم ، والهدم الهدم أنا منكم وأنتم منى ، أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم »

أى ذمتى ذمتكم وحرمتى حرمتكم[١]

أقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنكم ستمتلكون الأرض ، وستسودون الدنيا ، أو ستنتصرون على أعدائكم ؟ لا . بل قال صلى الله عليه وسلم أنا منكم وأنتم مِنّى . لماذا ؟ لأنه لو قال لهم ستنتصرون على أعدائكم ، فقد يدخلون المعركة ، ويموت واحد منهم ؛ ولا يرى النصر ، لكن الأمر الذى سيراه كل المؤمنين أن رسول الله منهم وأنهم من رسول الله ومادموا كذلك فسيدخلون معه الجنة وهى الغاية الأصيلة .

وعندما سأل عيسى ابن مريم « من أنصارى إلى الله » فكأنه كان يسأل : من يعيننى معونة غايتها الله ؟ ولماذا نأخذ هذا المعنى ؟ تكون الإجابة : أنا آخذ المعنى على قدر ذهنى ؛ لأن مرادات الله فى كلماته لا تتناهى كمالاً ، وقد يأتى غيرى ويأخذ منها معنى آخر . ومعنى « النصير » : هو « من ينصر بجهد وقوة » . وننظر النصر فى الإيمان كيف يأتى ؟ إن الحق سبحانه وتعالى حينما تكلم عن النصر فى الإيمان قال :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ۝٧ ﴾

(سورة محمد)

إذن فالنصر منا لله بأن نُطبق دينه ، وهذا مراد الله ، ولذلك يأتى النصر مرة من المؤمن لربه ، ومرة من الرب لمربوبه ، وقد يكون مراد عيسى ـ عليه السلام ـ من الذى ينصرنى كى ينضم إلى الله فى النصر ؟

ونحن هنا أمام معسكرين ، معسكر الإيمان ، ومعسكر الكفر . لقد سأل عيسى « من أنصارى إلى الله » أى أنه يسأل عن الذين بإمكانهم أن ينضموا إلى غاية هى الله ، ونتفهم نحن هذا المعنى على ضوء ما قاله الحق :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ۝٧ ﴾

(سورة محمد)

ونعرف أيضا أن هناك نصراً من المؤمن لله ، وهناك نصر من الله للمؤمن . وهكذا

١ ـ السيرة النبوية لابن هشام جـ١ .

يكون سؤال عيسى ابن مريم « من أنصارى إلى الله » ؟ قد أفاد المعنيين معاً . وكانت الإجابة : « قال الحواريون نحن أنصار الله ، آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون » .

والحواريون مأخوذة من الحور ، وهو شدة البياض ، وهم جماعة أشرقت فى وجوههم سيماء الإيمان ، فكأنها مشرقة بالنور . ونور الوجه لا يقصد به البشرة البيضاء ، ولكن نور الوجه فى المؤمن يكون بإشراقة الإيمان فى النفس ، ولذلك يصف الحق المؤمنين برسالة رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم :

﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الفتح)

فحتى لو كان المؤمن أسود اللون فإن له سمة على وجهه . كيف ولماذا ؟ لأن الإنسان مكون من أجهزة ، ومكون من ذرات ، وكل جهاز فى الإنسان له مطلوب محدد ، وساعة ان تتجه كل الأجهزة إلى ما أراده الله ، فإن الذى يحدث للإنسان هو انسجام كل أجهزته ، ومادامت الأجهزة منسجمة فإن النفس تكون مرتاحة ، ولكن عندما تتضارب مطلوبات الأجهزة ، تكون السحنة مكفهرة .

عندما قال عيسى : « من أنصارى إلى الله » سمع الاستجابة من الحواريين ، والحواريون قوم لهم إشراقات انسجام النفس مع الإيمان ، أو هم قوم بيض المعانى ، أى أن معانيهم بيضاء ومشرقة . والنبى صلى الله عليه وسلم سمى بعضا من صحابته حوارى رسول الله ، وهم الذين جعلهم رسول الله معه طوال الوقت .

وحين قال الحواريون : « نحن أنصار الله » كان ذلك يعنى أن كل إنسان منهم يريد نصرة الله . فينضم إلى الله ناصرا للمنهج ، وهذا يتطلب أن يعرف كل منهم المنهج . ونحن نعرف مقومات النصرة لله . إنه الإيمان:وما الإيمان ؟ إنه اطمئنان القلب إلى قضية ما ، هذا هو الإيمان فى عمومه . فلو لم أكن مؤمنا بأن الطريق الذى أسير فيه موصلٌ إلى غاية مطلوبة لى لما سرت فيه .

مثال ذلك المسافر من القاهرة إلى دمياط لو لم يعتقد صحة الطريق لما سلك هذا الطريق ، وإن لم اعتقد أننى إن لم أذاكر دروسى سوف أرسب لما ذاكرت . إذن فكل أمر

فى الدنيا يتم بناؤه على الإيمان ، لكن إذا أطلق الإيمان بالمعنى الخاص ، فهو اطمئنان القلب إلى قمة القضايا ، وهى الإيمان بالله ، ولذلك فأسلحة النصر إلى الله هى: إسلام كل جوارح الإنسان إلى الله . ولذلك قال الحواريون : « نحن أنصار الله آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون » .

لماذا يشهد الرسول لهم ؟ لأن المفروض فى الرسول أن يبلغ القوم عن الله ، فيشهد عليهم كما قال الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴾

(من الآية ٧٨ سورة الحج)

ولنا أن نلحظ أن الحق أورد على لسانهم ـ الحواريين ـ الإيمان أولا ، لأنه أمر غيبى عقدى فى القلب ، وجاء من بعد ذلك على لسان الحواريين طلب الشهادة بالإسلام ، لأن الإسلام خضوع لمطلوبات الإيمان وأحكامه . إن قولهم : « واشهد بأنا مسلمون » هو أيضا طلب منهم يسألونه لعيسى ابن مريم أن يبلغهم كل مطلوبات الإسلام قل لنا افعلوا كذا ولا تفعلوا كذا إنهم قالوا : « آمنا » وماداموا قد أعلنوا الإيمان بالله ، فهم آمنوا بمن بلغهم عن الله ، والمطلوب من عيسى ابن مريم أن يشهد بأنهم مسلمون ، ولا تتم الشهادة إلا بعد أن يبلغهم كل الأحكام وقد بلغهم ذلك وعملوا به وقالوا من بعد ذلك :

﴿ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ۝٥٣ ﴾

فهل يكون إعلانهم للإيمان، يعنى إيمانهم بتشريعات رسالة سابقة، لا، إن الإيمان هنا مقصود به ما جاء به عيسى من عند الله ؛ لأن كل رسول جاء بشىء من الله ، فوراء

مجيء رسول جديد أمر يريد الله إبلاغه للناس ، ونحن نعلم أن العقائد لا تغيير فيها ؛ وكذلك الأخبار ؛ وكذلك القصص ، ولكن الأحكام هى التى تتغير. فكأن إعلان الحواريين هو إعلان بالإيمان بما جاء سابقا على عيسى ابن مريم من عقائد وبما جاء به عيسى ابن مريم من أحكام وتشريعات .

وقولهم : « ربنا آمنا بما أنزلت » كلمة « بما أنزلت » تدل على منهج منزل من أعلى إلى أدنى ، ونحن حين نأخذ التشريع فنحن نأخذه من أعلى . ولذلك قلنا سابقا : إن الله حينما ينادى من آمن به ليتبع مناهج الإيمان يقول : « تعالوا » أى ارتفعوا إلى مستوى التلقى من الإله وخذوا منه المنهج ولا تظلوا فى حضيض الأرض ، أى . لا تتبعوا أهواء بعضكم وآراء بعضكم أو تشريع بعضكم،ومادام المؤمن يريد العلو فى الإيمان ، فليذهب بسلوكه فى الأرض إلى منهج السماء .

وقولهم : « ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول » . إن المتبع عادة يقتنع بمن اتبعه أولا ، حتى يكون الاتباع صادرا من قيم النفس لا من الإرغام قهرا أو قسرا ، فنحن قد نجد إنسانا يرغم إنسانا آخر على السير معه ، وهنا لا يقال عن المُرغَم : إنه « اتبع » إنما الذى يتبع ، أى الذى يسير فى نفس طريق صاحبه يكون ذلك بمحض إرادته ومحض اختياره . فلو سار شخص فى طريق شخص آخر بالقهر أو القسر لكان ذلك الاتباع بالقالب ، لا بالقلب . ولذلك فمن الممكن لمتجبر أن يمسك سوطا ويقهر مستضعفا على السير معه ، وفى ذلك إخضاع لقالب المستضعف ، لكنه لم يخضع قلبه ، فالإكراه يخضع القالب لكنه لا يخضع القلب .

﴿ لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ۝ إِن نَّشَأۡ نُنَزِّلۡ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةٗ فَظَلَّتۡ أَعۡنَٰقُهُمۡ لَهَا خَٰضِعِينَ ۝ ﴾

(سورة الشعراء)

إن الحق يخبر رسوله أن أحدا من العباد . لا يستعصى على خالقه ، وأنه سبحانه القادر على الإحياء والإماتة ، ولو أراد الله أن ينزل آية تخضع أعناق كل العباد لَفَعَلَ ، لكن الحق لا يريد أعناق الناس ، ولكنه يطلب القلوب التى تأتى طواعية وبالاختيار ، وأن يأتى العبد إلى الإيمان وهو قادر ألا يجيء . هذه هى العظمة

الإيمانية . وقال الحواريون بعد إعلانهم الإيمان بما جاء به عيسى : « فاكتبنا مع الشاهدين » إنه الطلب الإيمانى العالى الواعى ، الفاهم . إنهم يحملون أمانة التبليغ عن الرسول ، ويشهدون كما يشهد الرسل لأممهم ، ويطلبون أن يكتبهم الله مع الذين يشهدون أن الرسل يبلغون رسالات الله وأنهم يحملونها من بعدهم ؛ ولذلك قلنا عن أمة محمد عليه الصلاة والسلام : إنها الأمة التى حملها الله مهمة وصل بلاغ الرسالة المحمدية إلى أن تقوم الساعة . لماذا ؟ هاهو ذا القول الحق :

﴿ وَجَٰهِدُواْ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾ ﴾

(سورة الحج)

ولذلك فلن يأتى أنبياء أو رسل من بعد أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، لقد ائتمن الله أمة محمد ؛ بعد محمد صلى الله عليه وسلم ، لذلك فلا نبوة من بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم . وبعد ذلك يخبرنا الحق :

﴿ وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾

إن الأشياء التى يدركها العقل هى مسميات ولها أسماء وتكون أولا بالحس ، لأن الحس هو أول مصاحب للإنسان لإدراك الأشياء ، وبعد ذلك تأتى المعانى عندما نكبر ونعرف الحقائق . إن البداية دائما تكون هى الأمور المحسة، ولذلك يقول الله عن المنهج الإيمانى : إنه طريق مستقيم ، أى أن نعرف الغاية والطريق الموصل إليها،

وكلمة « الطريق المستقيم » من الأمور المحسة والتى يتعرف الناس عليها بالتطبيق لقواعد المنهج .

إن كلمة « مكر » ، مأخوذة من الشجر ، فساعة أن ترى الشجرة التى لا تلتف أغصانها على بعضها فإن الإنسان يستطيع أن يحكم أن ورقة ما ، هى من فرع ما . ولكنْ هناك نوع من الأشجار تكون فروعه ملفوفة على بعضها بحيث لا يستطيع الإنسان أن يعرف أى ورقة من أى فرع هى ، ومن هذا المعنى أخذنا كلمة « المكر » . فالرجل الذى يلف ويدور ، هو الذى يمكر ، فالذى يلف على إنسان من اجل ان يستخلص منه حقيقة ما ، والذى يحتال من أجل إبراز حقيقة ، فإن كان ذلك بغير قصد الضرر نسميه حيلة ، وإن كان بقصد الضرر فهذا هو المكر السيىء . ولذلك فالحق يقول :

﴿ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾

(من الآية ٤٣ سورة فاطر)

ومعنى ذلك أن هناك مكراً غير سيىء ، أى أن المكر الذى لا يقصد منه إيقاع الضرر بأحد ، فإننا نسميه مكرَ خير ، أما المكر الذى يقصد منه إيقاع الضرر فهو « المكر السيىء » . ولنا أن نسأل : ما الذى يدفع إنسانا ما إلى المكر ؟ إن الذى يمكر يدارى نواياه ، فقد يظهر لك الحب بينما هو مبغض ، ويريد أن يزين لك عملا ليمكر بك ، فيحاول مثلا أن يصحبك إلى مكان بعيد غير مأهول بالناس ويريد أن يوقع بك أبلغ الضرر ، وقد يكون القتل .

إذن ، فمن أسس المكر التبييت، والتبييت يحتاج إلى حنكة وخبرة ، لأن الذى يحاول التبييت قد يجد قبالته من يلتقط خبايا التبييت بالحدس والتخمين ، ومادام المكر يحتاج إلى التبييت ، فإن ذلك علامة على الضعف فى البشر لأن القوى لا يمكر ولا يكيد ولكن يواجه .

إن القوى لحظة أن يمسك بخصم ضعيف ، فمن الممكن أن يطلقه ؛ لأن القوى مطمئن إلى أن قوته تستطيع أن تؤذى هذا الضعيف . لكن الضعيف حين يملك قويا ، فإنه يعتبر الأمر فرصة لن تتكرر ، ولذلك فالشاعر يقول :

وضعيفة فإذا أصابت فرصة قتلت
كذلك قدرة الضعفاء

إن الضعيف هو الذى يمكر ويبيت . والذى يمكر قد يضع فى اعتباره أن خصمه أقوى منه حيلة وأرجح عقلا ، وقد ينكل به كثيرا ؛ لذلك يخفى الماكر أمر مكره أو تبييته . فإذا ما أراد خصوم المنهج الإيمانى أن يمكروا، فعلى من يمكرون ؟ إن الرسول لا يكون فى المعركة بمفرده ولكن معه الله .

﴿ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ﴿٩﴾ ﴾

(سورة البقرة)

فالله يعلم ما يبيت أى إنسان ، ولذلك فعندما يريد الله أن يبرز شيئا ويوجده فلن يستطيع أحد أن يواجه إرادة الله وأمره ، إذن فمكر الله لا قبل لأحد لمواجهته .

﴿ وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

وساعة تجد صفة تستبعد أن يوصف بها الله فاعلم أنها جاءت للمشاكلة فقط وليست من أسماء الله الحسنى . إن المؤمنين بإمكانهم أن يقولوا للكافرين : إنكم إن أردتم أن تبيتوا لنا ، فإن الله قادر على أن يقلب المكر عليكم . أما أسماء الله وصفاته فهى توقيفية ، نزل بها جبريل على رسول الله صلى الله عليه وسلم . لكن إذا وجد فعل لله لا يصح أن نشتق نحن منه وصفا ونجعله اسما لله ، « ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين » . فليس من أسماء الله مخادع ، أو ماكر ، إياك أن تقول ذلك ؛ لأن أسماء الله وصفاته توقيفية، وجاء القول هنا بمكر الله كمقابل لفعل من البشر ، ليدلهم على أنهم لا يستطيعون أن يخدعوا الله ، ولا يستطيعون أن يمكروا بالله ؛ لأن الله إذا أراد أن يمكر بهم ، فهم لا يستطيعون مواجهة ذلك . إن الحق يقول :

« ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين » .

إذن فهناك « مكر خير » . . وذلك دليل على أن هناك من يصنع المكر ليؤدى إلى الخير . ولماذا تأتى هذه الآية هنا ؟ لأن هناك معركة سيدخلها عيسى ابن مريم عليه السلام ، وعيسى عليه السلام لم يجىء ليقاتل بالسيف ليحمى العقيدة ، إنما جاء واعظا ليدل الناس على العقيدة ، إن النصرة لا تكون بالسيف فقط ، ولكن بالحجة . ونحن نعرف أن السماء كانت لا تطلب من أى رسول أن يحارب فى سبيل العقيدة لأن السماء هى التى كانت تتولى التأديب .

﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾

(سورة العنكبوت)

ولم يجىء قتال إلا حينما طلب بنو إسرائيل :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ ﴾

(سورة البقرة)

ولكن أمة محمد صلى الله عليه وسلم هى التى أذن الله لها أن تحمل السيف لتؤدب به الذين يحولون دون بلوغ العقيدة الصحيحة للناس . إن السيف لم يأت ليفرض العقيدة ، إنما ليحمى الاختيار فى النفس الإيمانية ، فبدلا من أن يترك الناس

مقهورين على اعتناق عقيدة خاطئة.فالمسلمون يرفعون السيف فى وجه الظالم القاهر لعباد الله . وعباد الله لهم أن يختاروا عقيدتهم .

ولذلك فعندما يقول أعداء الإسلام : « إن الإسلام انتشر بالسيف » . نرد عليهم : إن الله قد بدأ الإسلام بضعف حتى يسقط هذا الاتهام ، لقد كان المسلمون الأوائل ضعفاء لا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم ، فيتجه بعضهم إلى الحبشة ، ويهاجرون بحثا عن الحماية ، فلو كان الإسلام قد انتشر بالسيف فلنا أن نسأل : من الذى حمل أول سيف ليكره أول مؤمن ؟ إن المؤمنين رضوا الإسلام دينا وهم فى غاية الضعف ومنتهاه . إن الإسلام قد بدأ واستمر ومازال يحيا بقوة الإيمان .

إن رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء فى أمة أمية ، ومن قبيلة لها شوكتها ، وشاء الحق ألا ينصر الله دينه بإسلام أقوياء قريش أولا ، بل آمن بالرسول صلى الله عليه وسلم الضعفاء وخاض رسول الله صلى الله عليه وسلم رحلة الدعوة الإيمانية مدة ثلاثة عشر عاما ، دعوة للإيمان بالله ، ثم هاجر رسول الله إلى المدينة ، إلى أن صار كل المسلمين وحدة إيمانية قوية ، وارتفع السيف لا ليفرض العقيدة ، ولكن ليحمى حرية اختيار الناس للعقيدة الصحيحة . ولو أن الإسلام انتشر بالسيف . فكيف نفسر وجود أبناء لديانات أخرى فى البلاد المسلمة ؟ لقد أتاح الإسلام فرصة اختيار العقيدة لكل إنسان .

إذن فكل مسلم يمثل وحدة إيمانية مستقلة ، وواجب كل مسلم أن يعرف أن الإسلام قد انتشر بالأسوة الحسنة ، وأنه كمؤمن بالله وبدين الله ، قد اصطفاه الله ليطبق السلوك الإيمانى ، فقد مكن الله للإسلام فى الأرض بالسلوك والقدوة .

إن كل مسلم عليه واجب ألا يترك فى سلوكه ثغرة ينفذ منها خصوم الإسلام إلى الإسلام ، ذلك أن اختلال توازن سلوك المسلم بالنسبة لمنهج الله هو ثغرة ينفذ منها خصوم الإسلام ، ولذلك فالمفكرون فى الأديان الأخرى حينما يذهبون إلى الإسلام ، ويقتنعون به ، إنما يقتنعون بالإسلام لأنه منهج حق . إنهم يمحصونه بالعقل ، ويهتدون إليه بالفطرة الإيمانية . أما الذين يريدون الطعن فى الإسلام ، فهم ينظرون إلى سلوك بعض من المسلمين ، فيجدون فيه من الثغرات ما يتهمون به الإسلام .

إن المفكرين المنصفين يفرقون دائما بين العقيدة ، ومتبع العقيدة ، ولذلك فأغلب المفكرين الذين يتبعون هذا الاتجاه ، يلجأون إلى الإسلام ويؤمنون به . ولكن الذين يذهبون إلى الإسلام من جهة أتباعه ، فإن صادفوا تابعا للإسلام ملتزما دعاهم ذلك إلى أن يؤمنوا بالإسلام ، ولذلك كانت الجمهرة الكثيرة الوفيرة فى البلاد الإسلامية المعاصرة فى بلاد لم يدخلها فتح إسلامى ، وإنما دخلتها الأسوة الإسلامية فى أفراد تابعين ملتزمين ، فراق الناس ما عليه هؤلاء المسلمون من حياة ورعة ، ومن تصرفات مستقيمة جميلة ، ومن أسلوب تعامل سمح أمين ، نزيه ، نظيف ، كل ذلك لفت جمهرة الناس إلى الإسلام ، وجعلهم يتساءلون : ما الذى جعلكم على هذا السلوك الطيب ؟ قالوا : لأننا مسلمون . وتساءل الناس فى تلك المجتمعات : وما معنى الإسلام ؟ وبدأ المسلمون يشرحون لهم الإسلام .

إذن ، فالذى لفت إلى الإسلام هو السلوك المنهجى الملتزم . ولذلك فالحق سبحانه وتعالى حين يعرض منهج الدعوة الناجحة يقول :

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝٣٣ ﴾

(سورة فصلت)

والدعوة إلى الله تكون باللسان والعمل الصالح؛ليدل المؤمن على أن ما يدعو إليه غيره قد وجده مفيدا فالتزمه هو ، فالعمل الصالح هو شهادة للدعوة باللسان . ولا يكتفى المؤمن بذلك ، إنما يعلن ويقول : « إننى من المسلمين » يقول ذلك لمن ؟ يقوله لمن يرونه على السلوك السمح الرضى الطيب . إنها لفتة من ذاته إلى دينه .

إن هذا يفسر لنا كيف انتشر الإسلام بوساطة جماعة من التجار الذين كانوا يذهبون إلى كثير من البلاد ، وتعاملوا مع الناس بأدب الإسلام ، وبوقار الإسلام ، وبورع الإسلام ، فصار سلوكهم الملتزم لافتا ، وعندما يسألهم القوم عن السر فى سلوكهم الملتزم ، يقول الإنسان منهم : أنا لم أجىء بذلك من عندى ولكن من اتباعى لدين الله الإسلام .

ومثال ذلك فى السلوك الأسوة : المسلمون الأوائل من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم . لقد كان صحابته رضوان الله عليهم يخافون عليه من خصومه ، فكانوا

يتناوبون حراسته ، ومعنى تناوب الحراس أنهم أرادوا أن يكونوا المصد للأخطار يتداولون ذلك فيها بينهم . وأراد الحق سبحانه أن يهاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة خفية ، ونام على بن أبى طالب رضى الله عنه وأرضاه مكان الرسول صلى الله عليه وسلم . لقد أراد على ـ كرم الله وجهه ـ أن يكون هو المصد ، فإذا جاء خطر فإنه هو الذى يصده .

لاشك أنه كان يفعل ذلك لأنه واثق أن بقاء الرسول صلى الله عليه وسلم خير للإسلام حتى ولو افتداه بروحه . هذا هو التسامى العالى من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم . كان الواحد منهم يحب الرسول صلى الله عليه وسلم لأن الأسوة بالرسول واتباع دين الله إنما يعود ذلك عليه بالخير العميم . وعندما يموت واحد منهم فى سبيل المحافظة على من أرسله الله رسولا ليبلغ دعوته فقد نال الشهادة فى سبيل الله .

هذا هو أبو بكر الصديق رضوان الله عليه مع رسول الله فى الغار . ألم يجد الصديق شقوقا فيمزع من ثيابه ليسد الشقوق ؟ ألم يضع قدمه فى شق لأنه يخشى أن تجىء حشرة من الحشرات قد تؤذى حضرة النبى صلى الله عليه وسلم ؟ لقد أراد أن يحافظ على الرسول صلى الله عليه وسلم حتى ولو افتداه ، وهذه شهادة بأن صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم آمنوا بأن بقاء الرسول خير لهم وللإيمان ولنفوسهم من بقائهم هم أنفسهم .

وهكذا أراد الله نصرة رسوله على الكفار ، عندما مكروا وبيتوا أن يقتلوه قبل الهجرة ، وهكذا أراد الله نصر رسوله صلى الله عليه وسلم بعد الهجرة عندما واجه أعداء الإسلام فى القتال ، لقد مكروا ، ولكن الله خير الماكرين .

وكأن الحق سبحانه وتعالى يقول بهذا النصر من الله : لن تستطيعوا أن تقاوموا محمدا لا بالمواجهة ولا بالتبييت . وها هوذا تابع من أتباعه صلى الله عليه وسلم هو سيدنا عمر رضى الله عنه يهاجر علنا ، ويقول : من أراد أن تثكله أمه ، أو ترمل زوجته ، أو ييتم ولدُه ، فليلقنى وراء هذا الوادى . بينما هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم خفية .

لماذا ؟ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة للضعيف . إن القوى يستطيع حماية نفسه ويخرج إلى الهجرة مجاهرا . أما الضعيف فلابد أن يهاجر خفية ، لذلك فالأسوة للضعيف كانت فى رسول الله صلى الله عليه وسلم . لقد مكر أعداء الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولكن الله مكر بهم .

﴿ وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾ ﴾

(سورة إبراهيم)

إن مكرهم رغم عنفه وشدته والذى قد يؤدى إلى زوال الجبال ، هذا المكر يبور عند مواجهته لمكر الله الذى يحمى رسله وعباده الصالحين . لقد جاء مكر بنى إسرائيل وأنزل فيه الله قوله الحكيم : « ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين » . لأنهم أرادوا أن يتخلصوا من سيدنا عيسى ابن مريم عليه السلام . فقال الحق سبحانه :

﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾

لقد جاء الحق سبحانه بعد عرضه لمسألة المكر بهذا القول الحكيم ، وذلك دليل على أن عيسى عليه السلام أحس من بنى إسرائيل الكفر ، والتبييت ، ومؤامرة للقتل فطمأن الله عيسى إلى نهاية المعركة . « إنى متوفيك ورافعك إلىّ ومطهرك من الذين كفروا وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة » . إنها أربعة مواقف ، أرادها الله لعيسى ابن مريم عليه السلام .

ونريد أن نقف الآن عند كلمة قول الحق : « متوفيك » . نحن غالبا ما نأخذ معنى بعض الألفاظ من الغالب الشائع ، ثم تموت المعانى الأخرى فى اللفظ ويروج المعنى الشائع فنفهم المقصد من اللفظ . إن كلمة « التوفى » نفهمها على أنها الموت ، ولكن علينا هنا أن نرجع إلى أصل استعمال اللفظة ، فإنه قد يغلب معنى على لفظ ، وهذا اللفظ موضوع لمعان متعددة ، فيأخذه واحد ليجعله خاصا بواحد من هذه . إن كلمة « التوفى » قد يأخذها واحدا لمعنى « الوفاة » وهو الموت . ولكن ، ألم يكن ربك الذى قال : « إنى متوفيك » ؟ وهو القائل فى القرآن الكريم :

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾

(سورة الانعام)

إذن « يتوفاكم » هنا بأى معنى ؟ إنها بمعنى ينيمكم . فالنوم معنى من معانى التوفى . ألم يقل الحق فى كتابه أيضا الذى قال فيه : « إنى متوفيك » .

﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾

(سورة الزمر)

لقد سمى الحق النوم موتا أيضا . هذا من ناحية منطق القرآن ، إن منطق القرآن الكريم بين لنا أن كلمة « التوفى » ليس معناها هو الموت فقط ولكنْ لها معان أخرى ، إلا أنه غلب اللفظ عند المستعملين للغة على معنى فاستقل اللفظ عندهم بهذا المعنى ، فإذا ما أطلق اللفظ عند هؤلاء لا ينصرف إلا لهذا المعنى ، ولهؤلاء نقول : لا ، لابد أن ندقق جيدا فى اللفظ ولماذا جاء ؟

وقد يقول قائل : ولماذا يختار الله اللفظ هكذا ؟ والإجابة هى : لأن الأشياء التى قد يقف فيها العقل لا تؤثر فى الأحكام المطلوبة ويأتى فيها الله بأسلوب يحتمل هذا ،

ويحتمل ذلك ، حتى لا يقف أحد فى أمر لا يستأهل وقفة . فالذى يعتقد أن عيسى عليه السلام قد رفعه الله إلى السماء ما الذى زاد عليه من أحكام دينه ؟ والذى لا يعتقد أن عيسى عليه السلام قد رُفع ، ما الذى نقص عليه من أحكام دينه ، إن هذه القضية لا تؤثر فى الأحكام المطلوبة للدين ، لكن العقل قد يقف فيها ؟ فيقول قائل : كيف يصعد إلى السماء ؟ ويقول آخر : لقد توفاه الله . وليعتقدها أى إنسان كما يريد لأنها لا تؤثر فى الأحكام المطلوبة للدين .

إذن ، فالأشياء التى لا تؤثر فى الحكم المطلوب من الخلق يأتى بها الله بكلام يحتمل الفهم على أكثر من وجه حتى لا يترك العقل فى حيرة أمام مسألة لا تضر ولا تنفع . وعرفنا الآن أن « توفى » تأتى من الوفاة بمعنى النوم من قوله سبحانه :

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

ومن قوله سبحانه وتعالى :

﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾

(سورة الزمر)

إن الحق سبحانه قد سمى النوم موتا لأن النوم غيب عن حس الحياة . واللغة العربية توضح ذلك ، فأنت تقول ـ على سبيل المثال ـ لمن أقرضته مبلغا من المال ، ويطلب منك أن تتنازل عن بعضه لا ، لابد أن أستوفى مالى،وعندما يعطيك كل مالك ، تقول له : استوفيت مالى تماما ، فتوفيته ، أى أنك أخذته بتمامه .

إذن ، فمعنى « متوفيك » قد يكون هو أخذك الشىء تاما . أقول ذلك حتى نعرف

الفرق بين الموت والقتل ، كلاهما يلتقى فى أنه سلب للحياة ، وكلمة « سلب الحياة » قد تكون مرة بنقض البنية ، كضرب واحد لآخر على جمجمته فيقتله ، هذا لون من سلب الحياة ، ولكن بنقض البنية . أما الموت فلا يكون بنقض البنية ، إنما يأخذ الله الروح ، وتبقى البنية كما هى ، ولذلك فرق الله فى قرآنه الحكيم بين « موت » و« قتل » وإن اتحدا معا فى إزهاق الحياة .

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

إن الموت والقتل يؤدى كل منهما إلى انتهاء الحياة ، لكن القتل ينهى الحياة بنقض البنية،ولذلك يقدر بعض البشر على البشر فيقتلون بعضهم بعضا . لكن لا أحد يستطيع أن يقول : « أنا أريد أن يموت فلان » ، فالموت هو ما يجريه الله على عباده من سلب للحياة بنزع الروح . إن البشر يقدرون على البنية بالقتل ، والبنية ليست هى التى تنزع الروح ، ولكن الروح تحل فى المادة فتحيا ، وعندما ينزعها الله من المادة تموت وترم أى تصير رمة .

إذن ، فالقتل إنما هو إخلال بالمواصفات الخاصة التى أرادها الله لوجود الروح فى المادة ، كسلامة المخ أو القلب . فإذا اختل شىء من هذه المواصفات الخاصة الأساسية فالروح تقول : « أنا لا أسكن هنا » . إن الروح إذا ما انتزعت ، فلأنها لا تريد أن تنتزع . . لأى سبب ولكن البنية لا تصلح لسكنها . ونضرب المثل ولله المثل الأعلى :

إن الكهرباء التى فى المنزل يتم تركيبها ، وتعرف وجود الكهرباء بالمصباح الذى يصدر منه الضوء . إن المصباح لم يأت بالنور ، لأن النور لا يظهر إلا فى بنية بهذه المواصفات بدليل أن المصباح عندما ينكسر تظل الكهرباء موجودة ، ولكن الضوء يذهب . وكذلك الروح بالنسبة للجسد . إن الروح لا توجد إلا فى جسد له مواصفات خاصة . وأهم هذه المواصفات الخاصة أن تكون خلايا البنية مناسبة ، فإن توقف القلب ، فمن الممكن تدليكه قبل مرور سبع ثوان على التوقف ، لكن إن

فسدت خلايا المخ ، فكل شيء ينتهى لأن المواصفات اختلت .

إذن ، فالروح لا تحل إلا فى بنية لها مواصفات خاصة ، والقتل وسيلة أساسية لهدم البنية ؛ وإذهاب الحياة ، لكن الموت هو إزهاق الحياة بغير هدم البنية ، ولا يقدر على ذلك إلا الله سبحانه وتعالى . ولكن خلق الله يقدرون على البنية ، لأنها مادة ولذلك يستطيعون تخريبها .

إذن ، « فمتوفيك » تعنى مرة تمام الشيء ، « كاستيفاء المال » وتعنى مرة « النوم » . وحين يقول الحق : « إنى متوفيك » ماذا يعنى ذلك ؟ إنه سبحانه يريد أن يقول : أريدك تاما ، أى أن خلقى لا يقدرون على هدم بنيتك ، إنى طالبك إلى تاما ، لأنك فى الأرض عرضة لأغيار البشر من البشر ، لكنى سآتى بك فى مكان تكون خالصا لى وحدى ، لقد أخذتك من البشر تامًا ، ومعنى « تاما » ، أى أن الروح فى جسدك بكل مواصفاته ، فالذين يقدرون عليه من هدم المادة لن يتمكنوا منه .

إذن ، فقول الحق : « ورافعك إلىّ » هذا القول الحكيم يأتى مستقيما مع قول الحق : « متوفيك » . وقد يقول قائل : لماذا نأخذ الوفاة بهذا المعنى ؟ نقول : إن الحق بجلال قدرته كان قادرا على أن يقول : إنى رافعك إلىّ ثم أتوفاك بعد ذلك . ونقول أيضا : من الذى قال : إن « الواو » تقتضى الترتيب فى الحدث ؟ ألم يقل الحق سبحانه :

﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٦﴾ ﴾

(سورة القمر)

هل جاء العذاب قبل النذر أو بعدها ؟ إن العذاب إنما يكون من بعد النذر . إن « الواو » تفيد الجمع للحدثين فقط . ألم يقل الله فى كتابه أيضا :

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾ ﴾

(سورة الأحزاب)

إن « الواو » لا تقتضى ترتيب الأحداث ، فعلى فرض أنك قد أخذت « متوفيك » أى « مميتك » ، فمن الذى قال : إن « الواو » تقتضى الترتيب فى الحدث ؟ بمعنى أن الحق يتوفى عيسى ثم يرفعه . فإذا قال قائل : ولماذا جاءت « متوفيك » أولا ؟ نرد على ذلك : لأن البعض قد يظن أن الرفع تبرئة من الموت . ولكن عيسى سيموت قطعا ، فالموت ضربة لازب . ومسألة يمر بها كل البشر . هذا الكلام من ناحية النص القرآنى . فإذا ما ذهبنا إلى الحديث وجدنا أن الله فوّض رسوله صلى الله عليه وسلم ليشرح ويبين ، ألم يقل الحق :

﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

(من الآية ٤٤ سورة النحل)

فالحديث كما رواه البخارى ومسلم : (كيف أنتم إذا نزل ابن مريم فيكم وإمامكم منكم) ؟ .

أى أن النبى صلى الله عليه وسلم بين لنا أن ابن مريم سينزل مرة أخرى . ولنقف الآن وقفة عقلية لنواجه العقلانيين الذين يحاولون إشاعة التعب فى الدنيا فنقول : يا عقلانيون أقبلتم فى بداية عيسى أن يوجد من غير أب على غير طريقة الخلق فى الإيجاد والميلاد ؟ سيقولون نعم . هنا نقول : إذا كنتم قد قبلتم بداية مولده بشىء عجيب خارق للنواميس فكيف تقفون فى نهاية حياته إن كانت خارقة للنواميس ؟ . إن الذى جعلكم تقبلون العجيبة الأولى يمهد لكم أن تقبلوا العجيبة الثانية . إن الحق سبحانه يقول :

﴿ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾

(من الآية ٥٥ سورة ال عمران)

إنه سبحانه يبلغ عيسى إنى سأخذك تاما غير مقدور عليك من البشر ومطهرك من خبث هؤلاء الكافرين ونجاستهم ، وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة . وكلمة « اتبع » تدل على أن هناك « مُتبِعًا » يتلو مُتبَعا . أى أن المتبَع هو

الذى يأتى بعد ، فمن الذى جاء من بعد عيسى بمنهج من السماء ؟ إنه محمد صلى الله عليه وسلم . ولكن على أى منهج يكون الذين اتبعوك ؟ أعلى المنهج الذى جاؤا به أم المنهج الذى بلغته أنت يا عيسى ؟ إن الذى يتبعك على غير المنهج الذى قلته لن يكون تبعا لك ، ولكن الذى يأتى ليصحح الوضع على المنهج الصحيح فهو الذى اتبعك . وقد جاء محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ليصحح الوضع ويبلغ المنهج كما أراده الله . « وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة » . فإن أخذنا المعنى بهذا ؛ فإن أمة محمد صلى الله عليه وسلم هى التى اتبعت منهج الله الذى جاء به الرسل جميعا ، ونزل به عيسى أيضا ، وأن أمة محمد قد صححت كثيرا من القضايا التى انحرف بها القوم . نقول ليس المراد هنا من « فوق » الغلبة والنصر ، ولكننا نريد من « فوق » الحجة والبرهان . وذلك إنما يحدث فى حالة وجود قوم منصفين عقلاء يزنون الأمور بحججها وأدلتها وهم لن يجدوا إلا قضية الإسلام وعقيدة الإسلام .

إذن ، فالفوقية هى فوقية ظهور دليل وقوة برهان . ولذلك قال الحق سبحانه :

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾

(سورة التوبة)

وفى موقع آخر من القرآن الكريم ، يؤكد الحق ظهور الإسلام على كافة الأديان وهو الشاهد على ذلك :

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ ﴾

(سورة الفتح)

ومعنى ذلك أن الله قد أراد للإسلام أن يظهر على كل الأديان . وقد يقول قائل : إن فى العالم أديانا كثيرة ، ولم يظهر عليها الإسلام ، والموجودون من المسلمين فى العالم الآن مليار وأضعاف ذلك من البشر على ديانات أخرى . نقول لمثل هذا القائل : إن

الله أراد للإسلام أن يظهره إظهار حجة ، لا من قِبَلِكم أنتم فقط ولكن من قِبَلهم هم كذلك . والناس دائما حين يجتمعون ليشرعوا القوانين وليحددوا مصالح بعضهم بعضا ، يلجأون أخيرا إلى الإسلام . فلننظر إلى من يشرع من جنس تشريع الأرض ولنسأل أرأيت تشريعا أرضيا ظل على حاله ؟ لا ، إن التشريع الأرضى يتم تعديله دائما .

لماذا ؟ لأن الذى وضع التشريع الأول لم يكن له من العلم ما يدله على مقتضيات الأمور التى تَجِدّ ، فلما جَدّت أمور فى الحياة لم تكن فى ذهن من شرع أولا ، احتاج الناس إلى تعديل التشريع . ولنمسك بأى قانون بشرى معدل فى أى قضية من قضايا الكون ، ولننظر إلى أى اتجاه يسير ؟ إنه دائما يتجه إلى الإسلام ، وإن لم يلتق مع الإسلام فإنه يقرب من الإسلام . وعندما قامت فى أوربا ضجة على الطلاق فى الإسلام ، ما الذى حدث ؟ جاء التشريع بالطلاق فى إيطاليا تحت سمع وبصر الفاتيكان . هل شرعوا الطلاق لأن الإسلام أباح الطلاق ؟ لا ، إنما شرعوه لأن أمور الحياة أخضعتهم إلى ضرورة تشريع الطلاق ، فكأنهم أقاموا الدليل بخضوعهم لأمور الحياة على أن ما جاء به الإسلام قبل التجربة كان حقا . بدليل أن أوربا لجأت إلى تشريع الطلاق لا كمسلمين ولكن لأن مصالح حياتهم لا تتأتى إلا به .

وهل هناك ظهور وغلبة أكثر من الدليل الذى يأتى من الخصم ؟ تلك هى الغلبة . لقد وصلوا إلى تشريع الطلاق رغم كراهيتهم للإسلام كدليل على صدق ما جاء به الإسلام . وفى الربا ، الذى يريد البعض هنا أن يحلله ، تجد أوربا تحاول التخلص منه ، لأنهم توصلوا بالتجربة إلى أن المال لا يؤدى وظيفته فى الحياة إلا إذا انخفضت الفائدة إلى صفر. أى أنهم عرفوا أن إلغاء الربا ضرورى حتى يؤدى المال وظيفته الحقيقية فى الحياة ، والذى ألجأهم إلى الوصول إلى هذه الحقيقة هو أن فساد الحياة سببه الربا ، فأرادوا أن يمنعوا الربا . لقد وصلوا إلى ما بدأ به الإسلام من أربعة عشر قرنا . أتريد غلبة ، وتريد فوقا ، وتريد ظهورا ، أكثر من هذا بالنسبة لدين الله ؟

إذن ، ففهم الخصوم ما يصلح أمر الحياة اضطرهم إلى الأخذ بمبادىء الإسلام . ونتابع بالتأمل قول الحق : « وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة » . أى أن الحق جاعل الذين ساروا على المنهج الأصيل القادم من الله فوق الذين كفروا . فالذين يقولون فيك يا عيسى ابن مريم ما لا يقال من ألوهية ، هل

اتبعوك ؟ لا .. لم يتبعوك .

إن الذى يتبع عيسى هو الذى يأتى على المنهج القادم من الله . إن عيسى ابن مريم رسول إلى بنى إسرائيل . وديانات السماء لا تأتى لعصبيات الجنس أو القومية أو الأوطان أو غير ذلك ، ولكن المنهج هو الذى يربط الناس بعضهم ببعض ، ولذلك جاء لنا الحق بقصة سيدنا نوح لنتعرف على هذه المعانى . لقد وعد الله سيدنا نوحا أن ينجى له أهله . وعندما دعا نوح عليه السلام ابنه ليركب معه : ولكن ابن نوح رفض ، فقال نوح عليه السلام لله :

﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾

(سورة هود)

فهل الأهلية بالنسبة للأنبياء هى التى قالها نوح هل أهلية الدم ؟ لا ، لأن الحق قال :

﴿ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾

(سورة هود)

لماذا ؟ لأن أهل النبوة هم المؤمنون بها.فالذين اتبعوا المنهج الذى جاء به المسيح من عند الله ليس من يطلق على نفسه النسب للمسيح ، ومن يطلق على نفسه أنه يهودى إن هذه أسماء فقط . إن المتبع الحق هو من يتبع المنهج المنزل من عند الله . إن الأنبياء ميراثهم المنهج والعلم . ألم يقل رسول الله صلى الله عليه وسلم على سلمان وهو فارسى لا يجتمع مع رسول الله فى أرومة عربية :

(سلمان منا آل البيت)[1] .

---

(١) هذا الحديث رواه الحاكم والطبرانى فى الكبير .

وهكذا انتسب سلمان إلى آل البيت بحكم إيمانه ، وبنص حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم .

إذن : « وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة » ، أى أن الحق سبحانه قد جعل الفوقية للذين يتبعون المنهج الحق القادم من عند الله . والذى يصوب منهج عيسى هو محمد رسول الله. هل تكون الفوقية هى فوقية مساحة جغرافية ؟ لأن رقعة من الأرض التى تتبع الديانات الأخرى غير الإسلام أكبر مساحة من رقعة أرض المؤمنين بالإسلام ؟ لا . . فالفوقية تكون فوقية دليل .

وقد يقول قائل : إن الدليل لا يلزم . نرد قائلين : كيف لا يلزم الدليل ؟ ونحن نرى الذين لا يؤمنون به يدللون عليه . كيف يدللون عليه ؟ إنهم يسيرون فيما يقننون من قوانين البشر إلى ما سبق إليه تقنين السماء . ومادام هنا فى هذه الآية كلمة « فوق » وكلمة « كفروا » وهناك أتباع ، إذن ، فهناك قضية وخصومة ، وهناك حق ، وهناك باطل ، وهناك هدى،وهناك ضلال . فلابد من الفصل فى هذه القضية . ويأتى الفصل ساعة ألا يوجد للإنسان تصرف إرادى لا على ذات نفسه ولا على سواه .

إن الظالمين يستطيعون التصرف فى الأرض ، لكن عندما يكون المرجع إلى الله فالله يقول : أنا ملكتكم وأنتم عصاة لى فى كثير من الأسباب ، لكن هناك وقت نزول فيه ملكيتكم للأسباب . إذن . . فالظالم قد يتحكم على الأرض وكذلك الباطل لأن الله أوجد لنا جميعا إرادات ومرادات اختيارية . لكن فى يوم القيامة فلا إرادات إلا إرادة الله :

﴿ يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ﴾

(سورة غافر)

(إذن فالحكم قادم بدون منازع . . والذى يدل على ذلك قوله الحق :

﴿ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾﴾ (١٦٦)

(سورة البقرة)

إن الذى اتبع واحدا على ضلال يأتى يوم القيامة ليجد أن صاحب الضلال يتبرأ منه ، فيقول المتبعون سائلين الله : يارب ارجعنا إلى الدنيا لننتقم ممن خدعونا . هذا من ناحية علاقة البشر بالبشر . أما من ناحية الجسد الواحد نفسه ، فسوف نجد شهادة الجلود والألسنة والأيدى ، بعد أن تسقط عنها إرادة الإنسان ويسقط تسخير الحق لهذه الجوارح والحواس لخدمة الإنسان ، تقول الجوارح والحواس : لقد كانت لصاحبى إرادة ترغمنى على أن أفعل ما لا أحب ، لكن ها هوذا يوم القيامة ، فلا قهر ولا إرغام ولا تسخير لأن الملك كله لله . . لذلك تشهد الألسنة والجلود ولهذا يقول الحق : « ثم إلىّ مرجعكم فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون » .

إن الحق يحكم فيما كانوا فيه يختلفون لتكون ثمرة الحكم هى ماذا ؟ هل هناك تكليف بعد ذلك ؟ لا . . لكن ثمرة الحكم هى الجزاء . ففى الآخرة لا عمل هنالك ، والحكم فيها للجزاء . وكما قلنا : مادام هناك متبعون وكافرون ، وجماعة فوق جماعة ، وإلى الله مرجعهم ، فلابد لنا أن نرى ما هو الحكم الذى سوف يكون ؟ ها هوذا القول الحكيم :

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾

لماذا لم يأت الله بالحكم على المؤمنين أولا ؟ لأن المؤمنين يؤمنون بذلك تماما ، إنهم بإيمانهم يعرفون ذلك ويعونه . ولننتبه هنا إلى أن الحكم لا يشمل العذاب فى الآخرة فقط ولكنه يشتمل على العذاب فى الدنيا أيضا ، فعذاب الدنيا سيكون قبل الحكم ،

وكأن الحق يقول لنا : لا تعتقدوا أن تعذيبى إياهم فى الدنيا يعفيهم من تعذيبى إياهم فى الآخرة ، لأن التعذيب فى الدنيا فقط قد يصيب من آمن بى .

أما من كفر بى ، فإنى أعذبه فى الدنيا وأعذبه فى الآخرة. إننى لا أؤجل العذاب للكافرين إلى الآخرة فقط ولكن سأضم عذاب الدنيا إلى عذاب الآخرة .

إن الحصيلة بعد كل شىء هى أن يعذب الكافر فى الدنيا وفى الآخرة . ويقول الحق عن هذا العذاب : إنه عذاب شديد ؛ لأن الحدث حين يقع لابد أن تلحظ فيه القوة التى تناسب من أحدث . ولنضرب هذا المثل ولله المثل الأعلى :

إن الطفل قد يكسر شيئا فى حدود قوته كطفل ، والشاب قد يكسر شيئا مناسبا لقوته . إذن فالحدث يجب أن نأخذه قياسا بالنسبة لفاعله ؛ فإذا كان الفاعل هو الله ، فهل لأحد طاقة على عذاب الله ؟ لا أحد يتصور ذلك ، وليس لأحد من هؤلاء من ناصر ، لأن الذى يهزمه الله ويعذبه لا ناصر له ، وبعد ذلك يأتى الحق بالمقابل :

﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾

أى فمادام الذين كفروا سينالون العذاب الشديد من الله ، فالذين آمنوا سينالون النعيم المقيم بإذن الله .

﴿ ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْءَايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ۝٥٨ ﴾

يقول الحق تبارك وتعالى :

« ذلك » إشارة لما سبق من الأحداث ، فى شأن امرأة عمران ، ومريم ، وزكريا ، ويحيى ، وعيسى ، وكان لكل واحد من هؤلاء قضية عجيبة يخرق فيها ناموس الكون ، وكلها آيات ، أى عجائب . وقد نقلت إلينا هذه العجائب من واقع ما رآه الذين عاصروا تلك الأحداث ، وجاء الخبر اليقين بتلك العجائب فى قرآن لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وهو الكتاب الحق الموصوف من الله بأنه « الذكر الحكيم » فاطمئنوا ـ أيها المؤمنون ـ إلى أن ما وصلكم عن طريق القرآن ، إنما حكى واقعا لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، فما جاء به من أخبار عن تلك الآيات هو ما يطابق الواقع الذى عاصره الناس وحكوه.

وبعد ذلك يعرض الحق لنا سبحانه قضية سيدنا عيسى عليه السلام ، وهى قضية يجب أن نتنبه إليها تنبها جديدا فنعرض وجهة نظر الذين يضعونه فى غير الموضع الذى أراده الله ، كما نعرض وجهة نظر الذين يضعونه فى الموضع الذى يريده الله ، فالمسألة ليست انتصارا منا فى الدنيا على فريق يقول : كذا ، وليست انتصارا لفريق آخر فى الدنيا ليقول : كذا ، لأنها مسألة لها عاقبة تأتى فى الآخرة ويحاسبنا عليها الحق تعالى ، لذلك كان من المهم جدا أن نصفيها تصفية يتضح فيها الحق ، حتى لا يظلم أحد نفسه .

لقد جاء عيسى عليه السلام على دين اليهودية ، أى طرأ على دين اليهودية ونحن نعلم أن دين اليهودية قد تم تحريفه من اليهود تحريفا جعله ينحاز إلى الأمور المادية الصرفة ، دون أدنى أعتبار للأمور الروحية والإيمان بالغيب ، فهم ماديون ، وتتمثل ماديتهم فى أنهم قالوا لموسى عليه السلام ما حكاه القرآن الكريم :

﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾

(سورة البقرة)

إنهم لم يلتفتوا إلى أن بعضا من كمال وجلال الله غيبٌ ؛ لأنه لو كان مشهودا محسا ، لحدد - بضم الحاء وكسر الدال - وحُيِّزَ ، ومادام قد حُدِدَ وحُيِّزَ فى تصورهم فذلك يعنى أنه سبحانه قد يوجد فى مكان ولا يوجد فى مكان آخر ، والحق سبحانه منزه عن مثل ذلك لأنه موجود فى كل الوجود ، ولا نراه بالعين ، لكن نرى آثار أعماله وجميل صنعه فى كل الكون .

إذن فكون الله غيبا هو من تمام الجلال والكمال فيه .

لكن اليهود قد صوروا الأشياء كلها على أنها حسية ، حتى أمور اقتيات حياتهم وهى الطعام ، لقد أرادها الله لهم غيبا حتى يريحهم فى التيه ، فأرسل عليهم المنّ والسلوى ، كرزق من الغيب الذى يأتى إليهم ، لم يستنبتوه . ولم يستوردوه ، ولم يعرفوا كنهه ، ولم يجتهدوا فى استخراجه ، إنه رزق من الغيب ، ومع ذلك تمردوا على هذا الرزق القادم لهم من الغيب وقالوا كما أخبر الله عنهم :

﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾

(من الآية ٦١ سورة البقرة)

إنهم يريدون أن يكون طعامهم كما ألفوا ، وأن يروا هذا الطعام كأمر مادى من

أمور الحياة ؛ لذلك تشككوا فى رزق الغيب ، وهو المن والسلوى ، وقالوا : « من يدرينا أن المن قد لا يأتى ، وأن السلوى قد لا تنزل علينا » فلم تكن لهم ثقة فى رزق وُهب لهم من الغيب ؛ لأنهم تناولوا كل أمورهم بمادية صرفة . ومادامت كل أمورهم مادية فهم فى حاجة إلى هزة عنيفة تهز أوصال ماديتهم هذه ؛ لتخرجهم إلى معنى يؤمنون فيه بالغيب .

ونحن نعلم أن الفكر المادى لا يرى الحياة إلا أسبابا ومسببات ، فأراد الحق سبحانه وتعالى أن يخلع منهم ذلك الفكر المادى ، لذلك جاء بعيسى عليه السلام على غير طريق الناموس الذى يأتى عليه البشر ، فجعله من امرأة دون أب ، حتى يزلزل قواعد المادية عند اليهود . لكن الفتنة جاءت فى قومه ، فقالوا ببنوته للإله ، وسبحانه منزه عن أن يكون له ولد .

ولنا أن نسأل ما الشبهة التى جعلتهم يقولون بهذه البنوة ؟

قالوا : إن الأمومة موجودة والذكورة ممتنعة ، والشبهة إنما جاءت من أن الله نفخ فيه الروح ، فالله هو الأب .

نقول لهم : لو أن الأمر كذلك لوجب أن تفتنوا فى آدم أولى من أن تفتنوا فى عيسى ؛ لأن عيسى عليه السلام كان فى خلقه أمومة ، أما آدم فلا أمومة ولا أبوة ، فتكون الفتنة فى آدم عليه السلام أكبر ، وإن قلتم : « إن الحق قال : إنه نفخ فيه من روحه » ، فلكم أن تعرفوا قول الله فى آدم عليه السلام :

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾

(سورة الحجر)

إذن فالنفخ هنا فى آدم موجود ، فلماذا سكتم عن هذه الحكاية منذ آدم وحتى مجىء عيسى عليه السلام ، وهكذا يتم دحض تلك الحجة ونهايتها ، وبعد ذلك نأتى إلى قضية أخرى ، وهى توفيه أو وفاته ، إلى القضيتين معا ـ توفيه ووفاته ـ حتى

نُبيِّن الرأيين معا . وهنا نتساءل : لماذا فتنتم فى ذلك ؟ يقولون : لقد أحيا عيسى الموتى ، ونقول لهم : ألم تأخذوا تاريخ إبراهيم عليه السلام حينما قال الله له :

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾ ﴾

(سورة البقرة)

إذن فمجال الفتنة فى إبراهيم عليه السلام كبير ، وكذلك ، ألم يجىء موسى عليه السلام بآية هى العصا ؟ . إنه لم يجىء ميتا كانت فيه حياة ، إنما أجرى الله على يديه خلق الحياة فيها لم تثبت له حياة ، فأصبحت العصا ـ وهى جماد ـ حية تسعى لماذا إذن لم تفتنوا فى عصا موسى عليه السلام ؟

وهكذا نعرف أنه لا يصح أن يفتن أحد فى المعجزة التى جاءت بعيسى عليه السلام ، أو فى إحيائه الموتى بإذن الله ، وأتباع عيسى عليه السلام يتفقون معنا أن الله سبحانه وتعالى غيب ، ولكنهم يختلفون معنا فيقولون : إن الله أراد أن يؤنس البشر بصورة يتجلى لهم فيها بشرا فجاء بعيسى عليه السلام ليتحقق لهم ذلك الأنس .

ونقول لهم : سنبحث هذه المسألة بدون حساسية ، وبدون عصبية ، بل بالعقل ، ونسأل « هل خلق الله عيسى ليعطى صورة للإله ؟ . إن عيسى كان طفلا ، ثم كبر من بعد ذلك ، فأى صورة من صوره المرحلية كانت تمثل الله ؟

إن كانت صورة طفل فهل هى صورة الله ؟ وإن كانت صورة كهل فهل هى صورة الله ؟ إن لله صورة واحدة لا نراها ولا نعرف كنهها فهو سبحانه « ليس كمثله شيء » ، فأية صورة من الصور التى تقولون : إنها صورة الله ؟

وإن كان الله على كل هذه الصور فمعنى ذلك أن لله أغيارا ، وهو سبحانه منزه عن ذلك . ولو كان على صورة واحدة لقلنا : إنه الثبات والأمر كذلك فهو

ـ سبحانه ـ الحق الذى لا يتغير إنهم يقولون : إن الله أراد أن يجعل صورته فى بشر ليؤنس الناس بالإله ، فتمثل فى عيسى .

ولنا أن نسأل : كم استغرق وجود عيسى على الأرض ؟ والإجابة : ثلاثين عاما أو يزيد قليلا . وهكذا تكون فترة معرفة الناس بالصورة الإلهية محدودة بهذه السنوات الثلاثين طبقا لتصوركم . ولابد أن نسأل « ما عمر الخلق البشرى كله ؟» إن عمر البشرية هو ملايين السنين . فهل ترك الله خلقه السابقين الأولين بدون أن يبدى لهم صورته ، ثم ترك خلقه الآخرين الذين قدموا إلى الحياة بعد وفاة عيسى ـ أى تمام مهمته ـ ورفعه ، بدون أن يعطيهم صورة له ؟ . إن هذا تصور لإله ظالم ، وسبحانه وتعالى منزه عن الشرك والظلم . فلا يعقل أن يضن بصورته فلا يبقيها إلا ثلاثين عاما ؟ إن هذا قول لا يقبله عقل يثق فى عدالة الله المطلقة .

ثم إنهم يقولون : إن عيسى عليه السلام قد صلب ، وهم معذورون والحق سبحانه وتعالى قد عذرهم فى ذلك فأورد التأريخ الحق العادل ، حين يقول :

﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ ﴾

(سورة النساء)

لقد جعل الله لهم عذرا فى أن يقولوا : إنه قتل أو صلب ؛ لأنه شبه لهم وكان من المعقول أن يلتمسوا من الإسلام حلا لهذه المشكلة ، لأن الإسلام جاء ليقول : « لا ، لقد شبه لكم ، فما قتلوه وما صلبوه ؛ لأن هذا الفعل ـ القتل أو الصلب ـ ينقض فكرتهم عن أنه إله أو ابن إله . لأن المصلوب لو كان إلها أو ابن إله ، لكانت لديه القدرة التى تغلب الصالب ، فكيف يعقل الإنسان أن ينقلب الإله ـ أو ابن الإله ـ مقدورا عليه من مخلوق ؟ والإسلام عندما يقول : إن عيسى ابن مريم لم يصلب فقد كرمه الله . وهكذا ترى أن الإسلام قد جاء ليصفى العقائد كلها من عيوب التحريف التى قام بها المتبعون لتلك الأديان .

وبعد ذلك يأتى الحق سبحانه وتعالى ليعرض علينا قضية جدلية حدثت فى أيام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى يخرج الناس ـ مسلمين ونصارى ويهودا ـ من هذه البلبلة ، وأن يتم ذلك فى مودة ، لأنهم كلهم مؤمنون بالعبودية لمعبود واحد . فقد جاء وفد من نصارى نجران إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المدينة ، والتقوا برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان لهؤلاء القوم جدل مع اليهود ، ولهم جدل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما كان لليهود والنصارى معا جدل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم .

والجدل بين اليهود والنصارى مصدره أن لليهود والنصارى قولا متضاربا فى بعضهم بعضا يرويه لنا الحق :

﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَـٰبَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾

(سورة البقرة)

فاليهود يقولون : « كان إبراهيم يهوديا » والنصارى يقولون لا ، كان إبراهيم نصرانيا » وأما الجدل بين النصارى وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسببه أنهم قد أرادوا أن يتكلموا فى مسألة عيسى ، وأراد الحق سبحانه وتعالى أن يصفى القضية تصفية نهائية حتى لا تظل معلقة تلوكها الألسنة وتجعلها مثارا للفتن . فلما اجتمع نصارى نجران تحت لواء رؤسائهم ، ومن هؤلاء الرؤساء من اسمه السيد ، ومنهم من يسمى العاقب صاحب المشورة ، ومعهم قسيس ، فقال لهم صلى الله عليه وسلم : ماذا تقولون فى عيسى ؟ قالوا : إنه ابن الله . وقال لهم الرسول : إن عيسى عليه السلام قال : « إنى عبدالله » وهو عبده ورسوله وكلمته ألقاها إلى العذراء البتول ، فغضبوا وقالوا للرسول صلى الله عليه وسلم : هل رأيت إنسانا قط من غير أب ؟ إن كنت قد رأيت مثل ذلك فأخبرنا به .

وهنا نزلت الآية الكريمة :

﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ﴾

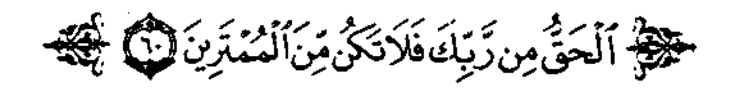
لقد جاء القول الفصل بالحجة الأقوى ، فإذا كان عيسى عليه السلام قد جاء بدون أب ، فإن آدم عليه السلام قد جاء بدون أب ، وبدون أم ، وقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : تعلمون أنى رسول الله وأننى نبى هذه الأمة ، فقالوا : أنظرنا غدا نتكلم فى هذه المسائل ، ودعاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الإيمان فقالوا : لا .

وعندما يعرض الحق سبحانه صراع قضية حق مع قضية باطل فهو يقول :

﴿ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾

(سورة سبأ)

أى إن طرفا واحدا على هدى ، والطرف الآخر على ضلال مبين ، لماذا ؟ لأن القضيتين متنقاضتان ، ولا يمكن أن يجتمعا ، ودعاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أن يجتمع بهم فى مكان ظاهر ، ويدعو الطرفان الأبناء والنساء ، ويبتهل الجميع إلى الله الحق أن تُسْتَنْزَلَ لعنة الله على الكاذبين ، وفى هذا جاء القول الكريم :


﴿ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾

﴿ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٦١﴾ ﴾

لقد جاء الحق البيّن والقول الفصل من الله لرسوله صلى الله عليه وسلم فلا مجال للشك أو المراء ، ومن يُرد أن يحتكم إلى أحدٍ فليقبل الاحتكام إلى الإله العادل الذى لن يحكم بالباطل أبدا ، فهو سبحانه الحق ، ويجىء هذا القول : « تعالوا نـدع أبناءنا وأبناءكم ، ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ، ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين » . إن الطرفين مدعوان ليوجها الدعوة لأبنائهم ونسائهم ، فالرسول صلى الله عليه وسلم مدعو لدعوة أبنائه ونسائه ، ومن له الولاية عليهم ؛ وبحضوره هو صلى الله عليه وسلم ، وهم مدعون لدعوة أبنائهم ونسائهم وأنفسهم للابتهال .

وقد يسأل سائل : ولماذا تكون الدعوة للأبناء والنساء ؟ والإجابة هى : أن الأبناء والنساء هم القرابة القريبة التى تهم كل إنسان ، وإن لم يكن رسولا ، إنهم بضعة من نفسه وأهله . فكأن الرسول صلى الله عليه وسلم مأمور بأن يقول لهم : « هاتوا أحبابكم من الأبناء والنساء لأنهم أعزة الأهل وألصقهم بالقلوب وادخلوا معنا فى مباهلة » «و المباهلة » : هى التضرع فى الدعاء لاستنزال اللعنة على الكاذب ، فالبهلة ـ بضم الباء ـ هى اللعنة ، وعندما يقول الطرفان : « يارب لتنزل لعنتك على الكذاب منا » فهذا دعاء يحمل مطلق العدالة ؛ فالإله الذى يستطيع أن ينزل اللعنة هو الإله الحق . وهو سينزل اللعنة على من يشركون به ، ولو كانت اللعنة تنزل من الآلهة المتعددة فسوف تنزل اللعنة على أتباع الإله الواحد .

ولهذا كانت الدعوة إلى المباهلة والبهلة ـ كما قلنا ـ وهى ضراعة إلى القوة القاهرة التى تتصرف فى الأمر لتنهى الخلاف ، ثم صار المراد بالمباهلة هنا مطلق الدعاء ،

فنحن نقول : « نبتهل إلى الله » ، أى ندعو الله .

إذن فالرسول صلى الله عليه وسلم جاءهم بالأمر المنزل من عند الله الحقّ بدعوة الأبناء والنساء والأنفس ، لكنهم قالوا للرسول صلى الله عليه وسلم : « أنْظِرْنَا إلى غد ونأتى إليك » .

ثم أرسلوا فى الصباح واحدا منهم ليرى ماذا فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ وهل هو مستعد لهذا الأمر حقيقة ، أو هو مجرد قول منه أراد به التهديد فقط ؟ ووجد رسولهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد جاء ومعه الحسين والحسن وفاطمة وعلى بن أبى طالب ، لذلك قالوا : « لا لن نستطيع المباهلة » ، والله ما باهل قوم نبيا إلا أُخذوا ، وحاولوا ترضية رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقالوا : « لنظل على ديننا ويظل محمد وأتباعه على دينه » لقد ظنوا أن الدعوة إلى المباهلة هى مجرد تهديد لن ينفذه الرسول ، لكن صاحب اليقين الصادق جاء ومعه أهله استعدادا للمباهلة ، ولن يُقبل على مثل هذا الموقف إلا من عنده عميق الإيمان واليقين ، أما الذى لا يملك يقينا فلن يقبل على المباهلة بل لابد أن يرجع عنها . وقد رجعوا عن المباهلة ، وقالوا للرسول صلى الله عليه وسلم : لنتفق معا ألا تغزونا أو تخيفنا على أن نرسل لك الجزية فى رجب وفى صفر وهى من الخيل وغير ذلك ! لقد فروا من المباهلة لمعرفتهم أنهم فى شك من أمرهم ، أما رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان على يقين بما أنزله الله عليه وكان العرب إذا خرجوا إلى الحرب يأخذون نساءهم معهم ، وذلك حتى يخجل الرجل من الفرار ، وحتى لا يترك أولاده ونساءه لكيلا يذلوا من بعد موته ، فإن قُتِلَ قتلوا معه هم أيضا .

إذن إن أردنا نحن الآن أن ننهى الجدل فى مسألة عيسى عليه السلام فلنسمع قول الحق سبحانه وتعالى : « إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون ، الحق من ربك فلا تكن من الممترين » إنه الحق القادم من الربوبية فلا تكن أيها السامع من الشاكين فى هذه المسألة . ومن أراد أن يأتى بحجة مضادة للحجة القادمة من الله فلنا أن نحسمها بأن نقول : « تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين » .

ولن يجرؤ واحد منهم على ذلك . لماذا ؟ لأن السابقين عليهم قد فروا من المباهلة

ولأن الله ـ سبحانه ـ يريد أن يزيد المؤمنين إيمانا واطمئنانا إلى أن ما ينزله على رسوله هو الحق قال ـ جل شأنه ـ :

﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ ﴾

وقوله الحق : « إن هذا لهو القصص الحق » يلفتنا إلى أن ما يرويه الحق لنا هو الحق المطلق ، وليس مجرد حكاية أو قصة ، أو مزج خيال بواقع ، كما يحدث فى العصر الحديث ، عندما أخذت كلمة القصة فى العرف الأدبى الحديث ـ القادم من حضارة الغرب ـ إن القصة بشكلها الحديث المعروف إنما يلعب فيها الخيال دورا كبيرا ، لكن لو عرفنا أن كلمة « قصة » مشتقة من قص الأثر لبحث أهل الأدب فيما يكتبون من روايات وخيالات عن كلمة أخرى غير « قصة » ، فالقصص هو تتبع ما حدث بالفعل لا تبديل فيه ولا أخيلة .

وها هو ذا الحق سبحانه وتعالى يقول : « إن هذا لهو القصص الحق وما من إله إلا الله » فإذا جاء القصص من الإله الواحد فلنطمئن إلى أنه لا يوجد إله آخر سيأتى بقصص أخرى ، ولأن الله الواحد هو «العزيز الحكيم » أى الغالب على أمره ، ومع أنه غالب على أمره فهو حكيم فى تصرفه .

لكن هل اتعظ القوم الذين جادلوا ؟ لا ، إن الحق يقول :

﴿ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾ ﴾

إن قوله « فإن تولوا » يدل على أن الله قد علم أزلا أنهم لن يقبلوا المباهلة ، وهكذا حكموا على أنفسهم بأنهم المفسدون ، فصدق الحق سبحانه فى قوله : « فإن تولوا فإن الله عليم بالمفسدين » ومع ذلك فقد أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن يدعوهم إلى الدين الكامل لأنهم مؤمنون بالإله ، وبالسماء ، وبالكتاب ، لذلك يقول الحق :

﴿ قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾

إنها دعوة إلى كلمة مستوية لا التواء فيها « ألا نعبد إلا الله » وهذا أمر لا جدال فيه ، ثم « ولا نشرك به شيئا » أى لا ندخل معه من لا يقدر على الارتفاع إلى جلال كماله ، فالعقول السليمة ترفض كلمة « الشرك » ؛ لأن الشرك يكون على ماذا ؟ هل الشرك على خلق الكون ؟ إن كل مخلوق أشركوه فى الألوهية إنما جاء من بعد أن خلق الله الكون . أو يكون الشرك على إدارة هذا الكون ؟

إذا كان هذا هو السبب فى الشرك فهو أتفه من أن يكون سببا لأن الحق سبحانه قادر على إدارة الكون ، وأنزل منهجا إذا ما اتبعه الإنسان صار الكون منسجما . إذن فأى شرك لا لزوم له . وإن كان ـ والعياذ بالله ـ له شريك وتمتع إله ما بقدرات خاصة فهذه القدرات تنقص من قدرات الإله الثانى . وهذا عجز فى قدرة هؤلاء الآلهة ، ولهذا يحسم الحق هذا الأمر بقوله الكريم :

﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ ﴾

(سورة المؤمنون)

إذن فمسألة الشركاء هذه ليست مقبولة ، وبعد ذلك يقول الحق : « ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله » . أى ألا نأخذ من بعضنا كهنوتا وكهنة ، يضع الواحد منهم الحلال لنا أو الحرام علينا؛ فالتحليل والتحريم إنما يأتى من الله ، وليس لمخلوق أن يحلل أو يحرم . ثم يقول الحق : « فإن تولوا فقولوا : اشهدوا بأنا مسلمون » أى إن من لا يقبل عبادة الإله الواحد الذى لا شريك له ولا أرباب تحلل أو تحرم ، إنما يريد أربابا وشركاء ، وهذا معناه أن قلبه غير مستعد لتقبل قضية الإيمان ؛ لأن قضية الإيمان تتميز بأن مصدرا واحدا هو الذى له مطلق القدرة ، وهو مصدر الأمر فى الحركة وهو الواحد الأحد ، فلا تتضارب الحركات فى الكون .

إن حركاتنا كلها وهى الخاضعة لمنهج الله بـ « افعل » و« لا تفعل » فلو أن هناك إلها قال : « افعل » وإلها آخر قال : « لا تفعل » ، لكان معنى ذلك والعياذ بالله أن هؤلاء الآلهة أغيار لها أهواء . والحق سبحانه يحسم هذا بقوله :

﴿ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾ ﴾

(سورة المؤمنون)

وهكذا كانت دعوة الله على لسان رسوله محمد صلى الله عليه وسلم « قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهد بأنا مسلمون » ، إنها آية تحمل دعوة مستوية بلا نتوءات ، فلا عبادة إلا لله ، ونحن لا نأخذ « افعل » و« لا تفعل » إلا من الله ، ولا نشرك به شيئا ، ولا يتخذ بعضنا بعضا كهنوتا أو مصدرا للتحليل أو التحريم ، فإن رفضوا وتولوا ، فليقل المؤمنون : «اشهدوا بأنا مسلمون » أى أنه

لا يوجد إلا إله واحد ، ولا شركاء له ، وبعضنا لا يتخذ بعضا أربابا ، وتلك شهادة بأن الإسلام إنما جاء بالأمر المستوى الذى لا عوج ولا نتوء فيه ونحن متبعون ما جاء به .

وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ۝٦٥ ﴾

إن الحق يسألهم : لماذا يكون جدالكم فى إبراهيم خليل الله ؟ إن اليهود منكم ينسبون أنفسهم إلى موسى ، والنصارى منكم ينسبون أنفسهم إلى عيسى ، وإبراهيم عليه السلام لا يمكن أن يكون يهوديا كما يدعى اليهود ، فاليهودية قد جاءت من بعد إبراهيم والنصارى لا يمكنهم الادعاء بأن إبراهيم كان نصرانيا ، لأن النصرانية قد جاءت من بعد إبراهيم عليه السلام ، فلم المحاجة إذن ؟ لقد أنزلت التوراة والإنجيل من بعد إبراهيم فكيف يكون تابعا للتوراة والإنجيل ؟

وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ۝٦٦ ﴾

أى لقد جادلتم فيما بقى عندكم من التوراة وتريدون أن تأخذوا الجدل على أنه باب مفتوح ، تجادلوا في كل شيء ، وأنتم لا تعلمون ما يعلمه الخالق الرحمن علام الغيوب .

ويوضح الحق هذا الأمر فيقول :

﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾

وبذلك يتأكد أن إبراهيم عليه السلام لم يكن يهوديا ، لأن اليهودية جاءت من بعده . ولم يكن إبراهيم نصرانيا ، لأن النصرانية جاءت من بعده ، لكنه وهو خليل الرحمن « كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين » ونحن نفهم أن كلمة « حنيفًا » تعنى الدين الصافى القادم من الله ، والكلمة مأخوذة من المحسات ، فالحنف هو ميل فى الساقين من أسفل ، أى اعوجاج فى الرجلين ، ثم نقل الحنف إلى كل أمر غير مستوٍ .

وهنا يتساءل الإنسان ، هل كان إبراهيم عليه السلام فى العوج أو فى الاستقامة ؟ وكيف يكون حنيفا ، والحنف عوج ؟ وهنا نقول : إن إبراهيم عليه السلام كان على الاستقامة ، ولكنه جاء على وثنية واعوجاج طاغ فالعالم كان معوجا . وجاء إبراهيم ليخرج عن هذا العوج ، ومادام منحرفا عن العوج فهو مستقيم ، لماذا ؟ لأن الرسل لا يأتون إلا على فساد عقدى وتشريعى طاغ . والحق سبحانه وتعالى ساعة ينزل منهجه يجعل فى كل نفس خلية إيمانية . والخلية الإيمانية تستيقظ مرة ، فتلتزم ، وتغفل مرة ، فتنحرف ، ثم يأتى الاستيقاظ بعد الانحراف ، فيكون الانتباه ، وهكذا توجد النفس اللوامة ، تلك النفس التى تهمس للإنسان عند الفعل الخاطىء : إن الله لم يأمر بذلك .

ويعود الإنسان إلى منهج الله تائبا ومستغفرا ، فإن لم توجد النفس اللوامة صارت النفس أمارة بالسوء ، وهى التى تتجه دائما إلى الانحراف ، وحول النفس الواحدة توجد نفوس متعددة تحاول أن تقاوم وتقوّم المعوج ، وهى نفوس من البيئة والمجتمع ، فمرة يكون الاعتدال والاتجاه إلى الصواب بعد الخطأ قادما من ذات الإنسان أى من النفس اللوامة ، ومرة لا توجد النفس اللوامة ، بل توجد النفس الأمارة بالسوء ، لكن المجتمع الذى حول هذا الإنسان لا يخلو من أن يكون فيه خلية من الخير تهديه إلى الصواب ، أما إذا كانت كل الخلايا فى المجتمع قد أصبحت أمارة بالسوء فمن الذى يعدلها ويصوبها ؟

هنا لابد أن يأتى الله برسول جديد ، لأن الإنسان يفتقد الردع من ذاتية النفس بخلاياها الإيمانية ، ويفتقد الردع من المجتمع الموجود لخلوه كذلك من تلك الخلايا الطيبة ، وهكذا يطم الظلام ويعم ، فيرسل الله رسولا ليعيد شعلة الإيمان فى النفوس . والله سبحانه وتعالى قد ضمن لأمة محمد صلى الله عليه وسلم ألا يأتى لها نبى بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولهذا فمن الضرورى أن يوجد فيها الخير ويبقى ، فالخير يبقى فى الذات المسلمة ، فإن كانت الغفلة فالنفس اللوامة تصوب ، وإن كانت هناك نفس أمارة بالسوء فهناك قوم كثيرون مطمئنون يهدون النفس الأمارة إلى الصواب .

وهكذا لن تخلو أمة محمد فى أى عصر من العصور من الخير ، أما الأمم الأخرى السابقة فأمرها مختلف ؛ فإن الله يرسل لهم الرسل عندما تنطفىء كل شموع الخير فى النفوس ، ويعم ظلام الفساد فتتدخل السماء ، وحين تتدخل السماء يقال : إن السماء قد تدخلت على عوج لتعدله وتقومه .

إذن فإبراهيم عليه السلام جاء حنيفا ، أى مائلا عن المائل ، ومادام مائلا عن المائل فهو مستقيم ، فالحنيفية السمحة هى الاستقامة . وهكذا نفهم قول الحق : « ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين » .

إن إبراهيم هو أبو الأنبياء ، ولو لم تكن اليهودية قد حُرفت وبدلت ، وكذلك النصرانية لكان من المقبول أن يكون اليهود والنصارى على ملة إبراهيم ؛ لأن الأديان لا تختلف فى أصولها ، ولكن قد تختلف فى بعض التشريعات المناسبة للعصور ،

ولذلك فسيدنا إبراهيم عليه السلام لا يمكن أن يكون يهوديا باعتبار التحريف الذى حدث منهم ، أى لا يكون موافقا لهم فى عقيدتهم ، وكذلك لا يمكن أن يكون نصرانيا للأسباب نفسها ، لكنه « كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين » أى أنه مائل عن طريق الاعوجاج .

قد يقول قائل : ولماذا لم يقل الله : « إن إبراهيم كان مستقيما » ولماذا جاء بكلمة « حنيفا » التى تدل على العوج ؟ ونقول : لو قال : « مستقيما » لظن بعض الناس أنه كان على طريقة أهل زمانه وقد كانوا فى عوج وضلال ولهذا يصف الحق إبراهيم بأنه « كان حنيفا مسلما » وكلمة « مسلما » تقتضى « مسلما إليه » وهو الله ، أى أنه أسلم زمامه إلى الله ، ومُسْلَمًا فيه وهو الإيمان بالمنهج .

وعندما أسلم إبراهيم زمامه إلى الله فقد أسلم فى كل ما ورد بـ « افعل ولا تفعل » وإذا ما طبقنا هذا الاشتقاق على موكب الأنبياء والرسل فسنجد أن آدم عليه السلام كان مسلما ، ونوحا عليه السلام كان مسلما ، وكل الأنبياء الذين سبقوا رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا مسلمين .

كان كل نبى ورسول من موكب الرسل يلقى زمامه فى كل شىء إلى مُسْلَم إليه ؛ وهو الله ، ويطبق المنهج الذى نزل إليه ، وبذلك كان الإسلام وصفًا لكل الأنبياء والمؤمنين بكتب سابقة ، إلى أن نزل المنهج الكامل الذى اختتمت به رسالة السماء على محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم بـ« افعل ولا تفعل » ولم يعد هناك أمر جديد يأتى ، ولن يشرع أحد إسلاما لله غير ما نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم .

لقد اكتملت الغاية من الإسلام ، ونزل المنهج بتمامه من الله . واستقر الإسلام كعقيدة مصفاة ، وصار الإسلام علما على الأمة المسلمة ، أمة محمد صلى الله عليه وسلم وهى التى لا يُستدرك عليها لأنها أمة أسلمت لله فى كل ما ورد ونزل على محمد صلى الله عليه وسلم . لذلك قال الحق :

﴿ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا

ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾

ولنا أن نلحظ أن كل رسول من الرسل السابقين على سيدنا رسول الله إنما نزل لأمة محددة ، فموسى عليه السلام أرسله الله إلى بنى إسرائيل ، وكذلك عيسى عليه السلام ، قال تعالى : « ورسولا إلى بنى إسرائيل » أى رسولا مسلما فى حدود تطبيق المنهج الذى جاء به ونزل إلى هؤلاء الرسل ، فلما تغير بعض من التشريع وتمت تصفية المنهج الإيمانى بالرسالة الخاتمة ، وهى رسالة محمد صلى الله عليه وسلم وهى عامة لكل البشر فقد آمن بعض من أهل تلك الأمم برسالته عليه الصلاة والسلام ، كما آمن بها من أرسل فيهم سيدنا رسول الله ، واستمر موكب الإيمان بالدين الخاتم إلى أن وصل إلينا . وهكذا صارت أمة محمد صلى الله عليه وسلم هى خاتمة الأمم الإسلامية ؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم هو خاتم الأنبياء والمرسلين .

عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « مثلى ومثل الأنبياء من قبلى كمثل رجل بنى بيتا فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية من زواياه ، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ، ويقولون : هلا وضعت هذه اللبنة ، فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين »[1] .

وحين يقولون : إن إبراهيم عليه السلام كان يهوديا أو نصرانيا . إنما أوردوا ذلك لأن إبراهيم عليه السلام فيه أبوة الأنبياء . وهم قد أرادوا أن يستحضروا أصل الخلية الإيمانية فى محاولة لأن ينسبوها إلى أنفسهم وكأنهم تناسوا أن المسألة الإيمانية ليست بالجنس أو الوطن أو الدم ، أو أى انتماء آخر غير الانتماء لمنهج الله الواحد ، ولذلك فأولى الناس بإبراهيم ليسوا من جاءوا من ذريته ، بل إن أولى الناس بإبراهيم هم الذين اتبعوه ، ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم قد اتبع إبراهيم عليه السلام ، لذلك فلا علاقة لإبراهيم بمن جاء من نسله ، ممن حرفوا المنهج ولم يواصلوا الإيمان ، لقد حسم الله هذه القضية مع إبراهيم عندما قال سبحانه :

---

(١) رواه البخارى ومسلم .

﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾ ﴾

(سورة البقرة)

لقد امتحن الحق إبراهيم بكلمات هى الأوامر والنواهى ، فأتمها إبراهيم عليه السلام تماما على أقصى مايكون من الالتزام ، ولم يكن مجرد إتمام يتظاهر بالشكلية ، إنما كان إتماما بالشكل والمضمون معا .

والمثال على تمام الأوامر والنواهى بالشكل فقط هو رؤيتنا لمن يتلقى الأمر من الله بأن يصلى خمسة فروض ، فيصلى هذه الفروض الخمسة كإجراء شكلى ، لكن هناك إنسانا آخر يصلى هذه الفروض الخمسة بحقها فى الكمال مضمونا وشكلا ، إنه يتم الأوامر الإلهية إتماما يرضى عنه الله .

ولقد أدى إبراهيم عليه السلام الابتلاءات التى جاءت بالكلمات التكليفية من الله على أكمل وجه . ألم يأمر الله إبراهيم عليه السلام على أن يرفع القواعد من البيت ؟ أما كان يكفى إبراهيم عليه السلام لينفذ الأمر برفع بناء الكعبة إلى أقصى ما تطوله يداه ؟ إنه لو فعل ذلك لكان قد أدى الأمر ، لكن إبراهيم عليه السلام أراد أن يوفى الأمر بإقامة القواعد من البيت تمام الوفاء ، فبنى الكعبة بما تطوله يداه ، وبما تطوله الحيلة أيضا ، فجاء إبراهيم عليه السلام بحجر ليقف من فوقه ، ويزيد من طول جدار الكعبة مقدار الحجر ، لقد أراد أن يوفى البناء بطاقته فى اليدين وبحيلته الابتكارية أيضا ، فلم يكن معروفا فى ذلك الزمان « السقالات » وغير ذلك من الأدوات التى تساعد الإنسان على الارتفاع عن الأرض إلى أقصى ما يستطيع .

ولو أن إبراهيم عليه السلام قد رفع القواعد من البناء على مقدار ما تطوله يداه ؛ لكان قد أدى تكليف الله ، لكنه أراد الأداء بإمكاناته الذاتية الواقعية ، وأضاف إلى ذلك حيلة من ابتكاره ، لذلك جاء بالحجر الذى يقف عليه ليزيد من جدار الكعبة ، وهذا ما نعرفه عندما نزور البيت الحرام بـ « مقام إبراهيم » فلما أتم إبراهيم الكلمات

هذا الإتمام قال الحق سبحانه لإبراهيم :

﴿ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾

(من الآية ١٢٤ سورة البقرة)

أى إنك يا إبراهيم مأمون على أن تكون إماما للناس فى دينهم لأنك أديت « افعل ولا تفعل » بتمام وإتقان . ولنر غيرة إبراهيم عليه السلام على منهج ربه ، إنه لم يرد أن يستمر المنهج فى حياته فقط ، ولكنه طلب من الله أن يظل المنهج والإمامة فى ذريته ، فقال الحق سبحانه على لسان إبراهيم طالبا استمرار الأمانة فى ذريته :

﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِي ﴾

(من الآية ١٢٤ سورة البقرة)

إن سيدنا إبراهيم قد امتلأ بالغيرة على المنهج وخاف عليه حتى من بعد موته ، لكن الحق سبحانه وتعالى يُعلم الخلق جميعهم من خلال إبراهيم فيقول سبحانه :

﴿ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾

(من الآية ١٢٤ سورة البقرة)

أى أن المسألة ليست وراثة ، لأنه سيأتى من ذريتك من يكون ظالماً لنفسه ويعدل فى المنهج بما يناسب هواه ، وهو بذلك لا تتوافر فيه صفات الإمامة . إن الحق يعلمنا قواعد إرث النبوة ، إن تلك القواعد تقضى أن يرث الأنبياء من هو قادر على تطبيق المنهج بتمامه دون تحريف ، والمثال على ذلك ما علمه لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قال لسلمان الفارسى : « سلمان منا آل البيت »[1]

إن سيد الخلق محمد صلى الله عليه وسلم لم يقل لسلمان الفارسى « أنت من العرب » لا . بل نسبه لآل البيت ، أى نسبه إلى إرث النبوة بما يتطلبه هذا الإرث

---

(١) رواه الحاكم فى مستدركه ، والطبرانى فى معجمه الكبير .

من تطبيق المنهج بتمامه ، لقد علم رسول الله صلى الله عليه وسلم ما علّمه الحق سبحانه لسيدنا إبراهيم عليه السلام عن إرث النبوة ، فليس هذا الإرث بالدم ، إنما بتطبيق المنهج نصا وروحا ، كما تعلم سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم مما علّمه له الحق عن نوح عليه السلام ، لقد وعد الحق نوحا بأن ينجيه وأهله من الطوفان . ويرى نوح عليه السلام ابنه مشرفا على الغرق ، فيتساءل « ألم يعدنى الله أن ينجى أهلى ؟» فينادى نوح عليه السلام ربّه ، بما أورده القرآن الكريم حين قال :

﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾

(سورة هود)

فيقول الحق ردا على طلب نوح نجاة ابنه :

﴿ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾

(سورة هود)

ولننظر إلى التعليل القرآنى لانتفاء الأهلية عن ابن نوح عليه السلام « إنه ليس من أهلك » ؟ لماذا ؟ « إنه عمل غير صالح » . إن الحق لم يقل « إنه عامل غير صالح » ـ الذاتية ممنوعة ـ لأن الفعل هو الذى يحاسب به الله ؛ فالإيمان ليس نسبا ، ولا انتماء لبلد ما ، أو انتماء لقوم ما ، إنه العمل ، فمن يعمل بشرع أى رسول يكون من أهل هذا الرسول ، إنّ النسبة للأنبياء لا تأتى للذات التى تنحدر من نسب النبى ، بل يكون الانتساب للأنبياء بالعمل الذى تصنعه الذات .

وفى موقع آخر يعلمنا الحق عن سيدنا إبراهيم موقفا يصور رحمة الخالق بكل خلقه من آمن منهم ومن كفر . لقد طلب إبراهيم عليه السلام سعة الرزق لأهل بيته الذين جعل إقامتهم بمكة ، كما جاء فى الكتاب الكريم :

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم ﴾

(من الآية ١٢٦ سورة البقرة)

فهل استجاب الحق لدعوة إبراهيم برزق الذين آمنوا فقط من أهل مكة ؟ لا ، بل رَزَقَ المؤمن والكافر . وعلّم إبراهيم ذلك حينما قال له :

﴿ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾

(من الآية ١٢٦ سورة البقرة)

إن الرزق المادى مكفول من الحق لكل الخلق ، مؤمنهم وكافرهم ، والاقتيات المادى مكفول من قبل الله لأنه هو الذى استدعى المؤمن والكافر إلى هذه الدنيا . أما رزق المنهج فأمر مختلف ، إن اتباع المنهج يقتضى التسليم بما جاء به دون تحريف . وهذا المنهج لم يتبعه أحد ممن جاءوا بعد إبراهيم عليه السلام إلا القليل ، فمن آمن برسالة موسى عليه السلام دون تحريف هم قلة .

ثم جاء عيسى عليه السلام برسالة تبعد بنى إسرائيل عن المادية الصرفة إلى الإيمان بالغيب ، لكن رسالة عيسى عليه السلام تم تحريفها أيضا ، وعلى ذلك فأولى الناس بإبراهيم عليه السلام هم الذين اتبعوا المنهج الخاتم الصحيح والمصفى لكل ما سبق من رسالات ، وهؤلاء هم الذين آمنوا برسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، والله ولى المؤمنين جميعا من آمن منهم برسالة إبراهيم خليل الرحمن ، إيمانا صحيحا كاملا ، ومن آمن برسالة محمد عليه الصلاة والسلام .. بعد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾

إن معنى « ودت » هو « تمنت » و« أحبت » . ولماذا أحبوا أن يُضلوا المؤمنين ؟ لأن المنحرف حين يرى المستقيم ، يعرف أنه كمنحرف لم ينجح فى أن يضبط حركته على مقتضى التكليف الإيمانى لـ « افعل » و« لا تفعل » ، أما الملتزم المؤمن فقد استطاع أن يضبط نفسه ، وساعة يرى غير الملتزم إنسانا آخر ملتزما ، فإنه يحتقر نفسه ، ويقول بينه وبين نفسه حسدا للمؤمن : لماذا وكيف استطاع هذا الملتزم أن يقدر على نفسه ؟

ويحاول المنحرف أن يأخذ الملتزم إلى جانب الانحراف ، وعندما لا يستطيع جذب الملتزم إلى الانحراف فهو يسخر منه ، ويهزأ به ، ويحاول أن يحتال عليه ليأخذه إلى جانب الانحراف . ألم يقل الله سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرْسِلُواْ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾

(سورة المطففين)

وهذا ما يحدث الآن عندما يرى أهل الانحراف إنسانا مؤمنا ذا استقامة ، فيسخرون منه بكلمات كالتى تسمعها « خذنا على جناحك » أو يحاولون النيل من إيمانه وعندما يعود أهل الانحراف إلى أهلهم فهم يروون بتندر كيف سخروا من المؤمنين ، وكأنهم يحققون السعادة لهؤلاء الأهل بحكايات السخرية من الإنسان المؤمن ، ويطمئن الحق المؤمنين بأن لهم يوما يضحكون فيه من هؤلاء الكفار :

﴿ فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

(سورة المطففين)

ويسأل الحق أهل الإيمان :

﴿ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾

(سورة المطففين)

أى قد عرفتم كيف أجازى بالعقاب أهل الكفر .

لذلك فأولى الناس بإبراهيم هم المؤمنون برسالة محمد عليه الصلاة والسلام . ولا يفتأ بعض من أهل الكفر من محاولة جذب المؤمنين إلى الضلال . إنهم يحبون ذلك ويتمنونه ، ولكن ليس كل ما يوده الإنسان يحدث ، فالتمنى هو أن يطلب الإنسان أمرا مستحيلا أو عسير المنال ، هم يحبون ذلك ولكن لن يصلوا إلى ما يريدون ، يشير إلى ذلك قوله تعالى : « ودت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم وما يضلون إلا أنفسهم وما يشعرون » .

إنهم يتمنون إضلال المؤمنين ، لكن هل يستطيعون الوصول إلى ذلك ؟ لا : والمثال على ذلك هو ما فعله بعض أهل الكتاب من اليهود عندما ذهبوا إلى معاذ بن جبل وإلى حذيفة الصحابيين الجليلين ، وذهبوا أيضا إلى عمار الصحابى الجليل وحاولوا فتنة معاذ وحذيفة وعمار لكنهم لم يستطعوا .

وعلينا أن نعرف أن « الضلال » يأتى على معان متعددة ، فقد يأتى الضلال مرة بمعنى الذهاب والفناء فى الشيء ، مثل قوله الحق :

﴿ وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ ۚ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَـٰفِرُونَ ﴿١٠﴾ ﴾

(سورة السجدة)

لقد تساءل المشركون « أبعد أن نذوب فى الأرض وتتفكك عناصرنا الأولية نعود ثانية ، ونبعث من جديد ؟ » . وقد يأتى الضلال مرة أخرى بمعنى عدم اهتداء الإنسان إلى وجه الحق ، كما قال الحق وصفا لرسوله صلى الله عليه وسلم عندما رفض عبادة الأصنام وظل يبحث عن المنهج الحق .

﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ ﴾

(سورة الضحى)

أى أنك يا محمد لم يعجبك منهج قريش فى عبادة الأصنام ، وظللت تبحث عن المنهج الحق ، إلى أن هداك الله فأنزل إليك هذا المنهج القويم . لقد كنت ضالا تبحث عن الهداية ، فجاءتك النعمة الكاملة من الله .

وهناك لون آخر من الضلال ، وهو أن يتعرف الإنسان على المنهج الحق ، لكنه ينحرف عنه ويتجه بعيدا عن هذا المنهج مثل قول الحق : « ودت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم وما يضلون إلا أنفسهم » .

ونتساءل : كيف يحدث إضلال النفس ؟ وتكون الإجابة هى : أن الضال الذى يعرف المنهج وينكره إنما يرتكب إثما ، ويزداد هذا الإثم جُرمًا بمحاولة الضال إضلال غيره ، فهو لم يكتف بضلال ذاته بل يزداد ضلالا بمحاولته إضلال غيره . وهذا القول الكريم قد حل لنا إشكالا فى فهم قوله تعالى :

﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۗ ﴾

(من الآية ١٨ من سورة فاطر)

وفى فهم قوله ـ جل شأنه ـ :

﴿ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾

(سورة النحل)

وهكذا نعرف أن الوزر فى آية فاطر هو وزر الضلال فى الذات والأوزار فى سورة النحل هى لإضلال غيرهم فهؤلاء الضالون لا يكتفون بضلال أنفسهم ، بل يزيدون من ضلال أنفسهم أوزارا بإضلال غيرهم فهم بذلك يزدادون ضلالا مضافا إلى أنهم يحملون أوزارهم كاملة . « وما يضلون إلا أنفسهم وما يشعرون » .

إنهم لا يشعرون بالكارثة التى سوف تأتى من هذا الضلال المركب الذى سينالون عليه العقاب . ولو أنهم تعمقوا قليلا فى الفهم لتوقفوا عن إضلال غيرهم ، ولو بحثوا عن اليقين الحق لتوقفوا عن ضلال أنفسهم .

ومن بعد ذلك يقول الحق :

﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾

إن الحق يسألهم على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم لم تكفرون بآيات الله العجيبة وأنتم تشهدون ؟ وهنا قد يسأل سائل هل شهد أهل الكتاب الآيات العجيبة فى زمن رسول الله ؟ .

والإجابة هى : ألم يستفتح اليهود على من يقاتلونهم بمجىء نبى قادم ؟ إنهم كانوا يدعون الله قائلين : إنا نسألك بحق النبى الأمىّ الذى وعدتنا أن تخرجه لنا فى آخر الزمان إلا تنصرنا عليهم فكانوا يُنصرون على أعدائهم فلما بعث ـ صلى الله عليه وسلم ـ كفروا به بغيا وحسدًا قال الله تعالى :

﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾

(سورة البقرة)

لقد كفروا من أجل السلطة الزمنية . فقد كانوا يريدون الملك والحكم . وهذا عبدالله بن سلام الذى كان يهوديًا فأسلم قد قال عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لقد عرفته حين رأيته كمعرفتى لابنى ومعرفتى لمحمد أشد » .

إذن فمعرفتهم بنعت رسول الله ووصفه موجودة فى آيات التوراة ولقد شهدوا الآيات البينات ، لكنهم أنكروا الآيات طمعا فى السلطة الزمنية حتى ولو تطلب ذلك أن يُحرِّف بعضهم منهج الله سبحانه وتعالى ويحوّلوا هذا التحريف إلى سلطة زمنية فاسدة كهؤلاء الذين باعوا صكوك الغفران ولذلك قال الحق عن هؤلاء الذين يحرفون منهج الله :

﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾

(سورة البقرة)

إن العذاب هو مصير هؤلاء الذين يحرفون كلام الله ومنهجه .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾ ﴾

ومعنى « تلبس » هو إدخال شيء فى شيء ، فنحن عندما نرتدى ملابسنا ، إنما ندخل أجسامنا فى الملابس ، وبهذا يختلف منظر اللابس والملبوس .

وفى مجال الدعوة إلى الله نجد دائما الحق وهو يواجه الباطل ، إنهم يخلطون الحق بالباطل فهذه الآية تتحدث عن محاولة من بعض أهل الكتاب لإلباس الحق بالباطل ، وقد حدث ذلك عندما حرفوا التوراة والإنجيل وأدخلوا فيها ما لم يأت به موسى عليه السلام أو عيسى عليه السلام ، وكانت هذه هى محاولة ضمن محاولات أخرى لإلباس الحق بالباطل ، ثم جاءت أكبر المحاولات لإلباس الحق بالباطل وهو

إنكارهم للبشارة برسول الله صلى الله عليه وسلم ، رغم أنها وردت فى كتبهم السماوية .

لقد أعلنوا الإيمان بموسى أو عيسى ، ولم يؤمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم ، لقد أنكروا بشارة موسى وعيسى برسالة محمد الخاتمة ، وكان ذلك قمة إلباس الحق بالباطل ، لأنهم أعلنوا الإيمان برسولين ثم أنكروا الإيمان بالنبى الخاتم وذلك لأنهم كانوا يعلمون أن الإسلام الذى جاء به محمد رسول الله هو الدين الحق ، وكانوا إذا ما خلوا إلى أنفسهم عرفوا ذلك ولكنهم يجحدونه .

﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾

(من الآية ١٤ سورة النمل)

ومع ذلك فهم يحاولون العثور على حيلة ليبتعد بها الناس عن تلك الرسالة الخاتمة ، تماديا منهم فى الكفر ، ونزل قول الحق :

﴿ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ءَامِنُواْ بِالَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾

لقد أراد بعض من أهل الكتاب أن يشككوا المسلمين فى أمر المنهج ، لذلك اصطنعوا تلك الحيلة ، فالمؤمنون من العرب وقريش فى ذلك الزمن كانوا أميين وكانوا يعرفون أن أهل الكتاب على علم بمناهج السماء ، ولم يكن القرآن كله قد نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم . فإذا ما آمن بعض منهم برسالة رسول الله وجه النهار وكفروا به آخر النهار فهذا خلط للحق بالباطل . وفى هذا خداع للمؤمنين .

ولنا أن نعرف أن « وجه النهار » مقصود به ساعات الصباح والظهر ، فالوجه هو أول ما يواجه فى أى أمر ، ونحن نأخذ ذلك فى أمثلة حياتنا اليومية ، فنقول عن بائع الفاكهة : « لقد صنع وجها للفاكهة » ، أى أنه قد وضع أنضج الثمار فى واجهة العربة ، وأخفى خلف الثمار الصالحة الناضجة ثمارا أخرى فاسدة . وعندما يفعل التاجر مثل هذا الفعل فمقصده الغش والخداع ، لأن الإنسان إذا ما اشترى أى مقدار من هذه الفاكهة فسيجد ربع ما اشترى هو من واجهة الفاكهة ، والباقى من الثمار الفاسدة .

وكذلك حاول بعض من أهل الكتاب أن يخدعوا المؤمنين بإعلان الإيمان أول النهار ثم إعلان الكفر آخر النهار ، والهدف بطبيعة الحال هو إشاعة الشك وزراعة البلبلة فى نفوس المؤمنين بخصوص هذا الدين ، فقد يقول بعض من الأميين : « لقد اختبر أهل الكتاب هذا الدين الجديد وهم أهل علم بمناهج السماء ولم يجدوه مطابقا لمناهج السماء » .

أو أن الآية قد نزلت فى مسألة تحويل القبلة إلى الكعبة ، فإذا كان الحق سبحانه قد أمر سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يحول القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة ، فالكافرون من أهل الكتاب أرادوا نقض ذلك ، وقالوا : « فلنسمع أول النهار كلام محمد ونتوجه فى الصلاة إلى الكعبة ثم نصلى آخر النهار ونجعل قبلتنا بيت المقدس » .

وكأن الحق قد أراد بذلك أن يكشف لنا أن كل أساليب الكفر هى من تمام قلة الفطنة وعدم القدرة على حسن التدبر ، لقد أرادوا إشعال الحرب النفسية ضد المسلمين ، لعل بعضا من المسلمين يتشككون فى أمر الدين الجديد ، لكنهم دون أن يلحظوا أنهم قد فضحوا أنفسهم ، واعترفوا دون قصد منهم بأن الذين آمنوا بالقرآن هم المؤمنون حقا بينما هم قد أخذوا لأنفسهم موقف الكفر الذى هو نقيض للإيمان ، قال سبحانه حكاية عنهم : « آمنوا بالذى أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره » فهم قد ارتضوا لأنفسهم الكفر .

لقد أعلن هؤلاء المشككون التصديق بالإسلام ؛ وذلك ليعرف الناس عنهم ذلك ، ولكونهم أهل كتاب فهم قادرون على الحكم عليه ، فإذا ما رجعوا عن

الإسلام من بعد معرفته ، فسيقولون : إن رجوعنا ليس بسبب الجهل أو التعصب ، إنما بسبب اختبارنا لهذا الدين ، فلم نجده مناسبا ولا متوافقا مع ما نزل على رسولنا . وهذا من أساليب الحرب النفسية .

والحق سبحانه وتعالى يكشف ذلك المكر والخداع للذين حاولوا أن يكتموا خداعهم ولعبتهم الماكرة ، والتى أرادوا بها التشكيك والخداع . فينزل على رسوله هذا القول الحق :

﴿ وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ ﴾

إن الحق سبحانه يكشف للرسول صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين به من الأميين لعبة إيمان بعض من أهل الكتاب بالإسلام وجه النهار والكفر به آخر النهار ، لقد طالب المتآمرون بعضهم بعضا أن يظل الأمر سرا حتى لا يفقد المكر هدفه وهو بلبلة المسلمين من الأميين ، ولذلك قال هؤلاء المتآمرون بعضهم لبعض : « ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم » أى لا تكشفوا سر هذه الخدعة إلا لمن هو على شاكلتكم ، لكن الحق يكشف هذا الأمر كله بنزول هذه الآية على رسول الله صلى الله عليه وسلم وبلاغه إياها للمؤمنين ، وبذلك فسد أمر تلك البلبلة ، وارتدت الحرب النفسية إلى صدور من أشعلوها ، ويستمر القول الكريم فى كشف خديعة هؤلاء البعض من أهل الكتاب فيقول سبحانه : « قل إن الهدى هدى الله أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم أو يحاجوكم عند ربكم » .

إن الحق سبحانه يكشف فعل الماكرين من أهل الكتاب الذين أرادوا إعلان الإيمان أول النهار كلون من « هدى النفس » لكنه من صميم الضلال والإضلال وذريعة له ، ولم يكن هدى من الله ؛ لأن هدى الله إنما يوصل الإنسان إلى الغاية التى يريدها الله ، وهؤلاء البعض من أهل الكتاب أرادوا بالخديعة أن يجعلوا سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم دون أتباع يؤمنون بالإسلام ؛ لقد تواصى هؤلاء القوم من أهل الكتاب بأن يكتموا اتفاقهم على تمثيل الادعاء بالإيمان وجه النهار والكفر به فى آخره ، وألا يعلنوا ذلك إلا لأهل ديانتهم حتى لا يفقد المكر هدفه ، وهو بلبلة المسلمين .

لقد أخذهم الخوف ؛ لأن الناس إن أخذوا بدين محمد صلى الله عليه وسلم لأوتوا مثلما أوتى أهل الكتاب من معرفة بالمنهج ، بل إن المنهج الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم هو المنهج الخاتم ، وأهل المكر من أهل الكتاب إنما أرادوا أن يحرموا الناس من الإيمان ، أو أنهم خافوا أن يدخل المسلمون معهم فى المحاجة فى أمر الإيمان ، وكان كل ذلك من قلة الفطنة التى تصل إلى حد الغباء .

لماذا ؟ لأنهم توهموا أن الله لا يعرف باطن ما كتموا وظاهر ما فعلوا ، إنهم تناسوا أن الحق يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، وتطابق ذلك مع سابق فعلهم عندما خرجوا من مصر ، وذهبوا إلى التيه أثناء عبور الصحراء ، وادعوا أن الله قال لموسى عليه السلام : « علموا بيوتكم أيها الإسرائيليون ، لأنى سأنزل وأبطش بالبلاد كلها » . وكأنهم لو لم يضعوا العلامات على البيوت فلن يعرفها الله ، إنه كلام خائب للغاية بل هو منتهى الخيبة والضلال ، ويبلغ الحق رسوله الكريم : « قل إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم » .

ومادام الفضل بيد الله فلن تستطيعوا يا أهل المكر بالمسلمين أن تأخذوا أناسا كما تودون ، وبعد ذلك تريدون أن تخدعوهم ؛ لأن الفضل حين يؤتيه الله لمن آمن به فلن ينزعه إلا الله .

فالحيلة لن تنزع فضل الإيمان بالله مادام قد أعطاه الله ، والله واسع بمعنى أنه قادر على إعطاء الفضل لكل الخلق ، ولن ينقص ذلك من فضله شيئا ، والحق سبحانه عليم بمن يستحق هذا الفضل لأن قلبه مشغول بربه .

وبعد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ ﴾

إن أحدا ليس له حق على الله ؛ فكل لحظة من لحظات الحياة هى فضل من الله ، وهو سبحانه يعطى رحمته بالإيمان بمنهجه لمن يشاء وهو صاحب الفضل المطلق .

وبعد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾

إنه مطلق الإنصاف الإلهى ، فإذا كان الحق قد كشف للرسول بعضا من مكر أهل الكتاب فذلك لا يعنى أن هناك حملة على أهل الكتاب وكأنهم كلهم أهل سوء ، لا ، بل منهم مَنْ يتميز بالأمانة ، وهذا القول إنما يؤكد إنصاف الإله المنصف العدل .

إن الحق سبحانه يخاطب النفوس التى يعلمها ، فهو يعلم أن دعوة محمد صلى الله عليه وسلم ، قد نزلت رحمة للناس أجمعين ، ويخاطب بها العالم كله بما فيه من أهل الكتاب ، وهم الذين يعرفون الآيات والعلامات التى تدل على مجىء رسالة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم . ومنهم أناس قد جعلوا دعوة محمد صلى الله عليه وسلم فى بؤرة شعورهم ليدرسوها ويؤمنوا بها . ولو أن الله قد جعل الحملة على كل أهل الكتاب ، لقال الذين فكروا فى الإيمان برسول الله : « كنا نفكر فى أن نؤمن ، ونحن نريد أن ننفذ تعاليم الله لنا لكن محمدا يشن حملة على كل أهل الكتاب ونحن منهم » .

فساعة يقول الله إن بعضا من أهل الكتاب يتميزون بالأمانة فإن من تراوده فكرة الإسلام يقولون : إن محمداً صلى الله عليه وسلم لا يتكلم إلا عن نور من ربه ، لكن لو عمم القرآن الحكم على الكل ، لتساءل الذين ينشغلون برغبة الإيمان بما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم « لماذا يعم الحكم الجميع ونحن نسير فى الطريق إلى الإيمان ؟ » .

ولهذا يضع الحق القول الفصل فى أن منهم أناسًا يتجهون إلى الإيمان :

﴿ لَيْسُواْ سَوَآءً مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

وفى هذا ما يطمئن الذين شغلوا أنفسهم بدراسة هذا الدين والتفكير فى أن يؤمنوا برسول الله صلى الله عليه وسلم .

لو كان القرآن قد نزل بلعنتهم جيعا لقال الذين يفكرون منهم فى الإيمان « نحن لسنا كذلك ولا نستحق اللعنة ، فلماذا يأتى محمد بلعنتنا ؟ » .

لذلك نرى القول بأن « ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك » العدل المطلق فى الإنصاف :

وقد قال بعض المفسرين : إن القرآن يقصد هنا من « أهل الكتاب » النصارى ؛

لأن منهم أصحاب ضمير حى ، ونحن نعرف أن المقصود بأهل الكتاب هم اليهود والنصارى ، وفى هذا التفسير إنصاف للنصارى فصفة الخير لهم لا ينكرها الله ، بل يشيعها فى قرآنه الذى يُتلى إلى يوم الدين ، وذلك ليصدق أيضا أهل الكتاب أىَّ أمر سىء تنزل فيه آيات من القرآن ، لأن القرآن منصف مطلق الإنصاف . فمادام قد قال خصلة الخير فيهم فلابد أن يكون صادقا عندما يقول الأمور السيئة التى اتصفوا بها . وعندما يقول الحق سبحانه : « ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك » فالقنطار هنا للمبالغة فى القدر الكبير من المال ، وكلمة الأمانة حينما نستعرضها فى كتاب الله عز وجل نجد أنها مرة تتعدى بالباء ، كمثل هذه الآية « من إن تأمنه بقنطار » ومرة تتعدى بـ « على » :

﴿ قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَا مَالَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَـٰصِحُونَ ﴿١١﴾ ﴾

(سورة يوسف)

وقوله الحق :

﴿ قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَـٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾

(سورة يوسف)

إن مادة الأمانة تأتى متعدية مرة بالباء ، ومرة متعدية بـ « على » .

وكل حرف من هذين الحرفين له حكمة ، فالمتكلم هو الله .

إن الأمانة هى شىء يأتمن فيه مؤتمن على مؤتَمن ولا حجة لصاحب الشىء المؤتَمن عليه إلا ذمة المؤتَمن ، فإن كانت العلاقة بينهما محكومة بإيصال أو عقد ، أو شهود فهذه ليست أمانة ، إنما الأمانة هى ما يعطيها إنسان لآخر فيما بينهما ، وبعد ذلك فالمؤتَمن بعد ذلك إما أن يُقِرّبها وإمّا لا يقِرّبها .

وقلنا سابقا : إن على المؤمن الحق أن يحتاط للأمانة ، لأن هناك وقتًا تتحمل فيه الأمانة ، وهناك وقت آخر تؤدى فيه الأمانة إن طلبها صاحبها .

ومثال تحمل الأمانة كأن يعرض عليك إنسان مبلغا من المال ، ويقول : « احفظ

هذا المبلغ أمانة عندك » فتقول له : نعم سأفعل . وتأخذ المبلغ ، إن هذا الفعل يسمى « التحمل » ، وعندما يأتى صاحب المال ليطلبه فهذا اسمه « الأداء » والكل يضمنون أنفسهم وقت التحمل ، وقد تكون النية هكذا بالفعل ، ولكن المؤمن الحق لا يأمن ظروف الأغيار ، فمن المحتمل أنه عندما يأتى صاحب المال ليطلبه من المؤتمن يجد المؤمن نفسه وقد انشغل بالأغيار ، فقد تكون ظروف الحياة قد داهمته مما دفعه ليتصرف فى الأمانة أو أن تكون نفسه قد تحركت ، وقالت له : وماذا يحدث لو تصرفت فى الأمانة ؟ إن المؤمن الحق لا يضمن نفسه وقت الأداء ، وإن ضمن نفسه وقت التحمل .

إذن يجب أن نلحظ فى الأمانة ملحوظتين هما « الأداء » « والتحمل » . والذين يأخذون الأمانة وفى نيتهم أن يؤدوها ضمنوا أنفسهم وقت التحمل ، لكنهم لا يضمنون أنفسهم وقت الأداء لذلك فالمؤمن المحتاط يقول لنفسه : ولماذا أعرض نفسى لذلك ، فقد يأتى وقت الأداء فلا أستطيع ردّها لصاحبها .

لذلك يقول لصاحب الأمانة : أرجوك ابتعد عنى فأنا لن أحمل هذه الأمانة .

إنه خائف من وقت الأداء وذلك ما حدث فى أمانة التكليف والاختيار والتى قال عنها الحق سبحانه :

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ ﴾

(سورة الأحزاب)

إن السماء والأرض والجبال طلبوا ألا يكون لهم اختيار وأن يظلوا مقهورين ؛ لأنهم لا يضمنون لحظة الأداء ، أما الإنسان فلأنه ظلوم جهول فقد قال : « لا ، إننى عاقل وسأرتب الأمور » فالإنسان ظلوم لنفسه ، وجهول لأنه لم يعرف ماذا يفعل وقت الأداء .

لذلك نرى هنا القول الحق : « ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار » ونجد الأمانة متعدية بالباء ، فمعنى الباء ـ فى اللغة ـ الإلصاق ، أى التصق القنطار

بأمانته ، فأصبح هناك ارتباط وامتزاج ، وإياك ساعة الأداء أن تفصل الأمانة عن القنطار ، فساعة يغريك قنطار الذهب ببريقه فعليك أن تلصق الأمانة بالقنطار ، وإياك أن يغريك القنطار فتترك أمانتك لأنك إن نظرت إلى القنطار دون أن تنظر إلى الأمانة فهذه هي الخيبة .

أما استعمال « على » مع الأمانة ، فـ « على » في اللغة تأتي للاستعلاء والتمكن ، أي اجعل الأمانة مستعلية على القنطار ، وبذلك تصير أمانتك فوق القنطار ، فساعة تحدثك نفسك بأن تأخذ القنطار لأنه يدير لك حركة حياتك ، ولأنه يخرجك إلى دنيا عريضة مغرية فتذكر عز الأمانة ، ولهذا نجد الفقهاء قد قالوا بقطع يد السارق في ربع دينار ، وجعلوا دية قطع يد إنسان لم يسرق خمسمائة دينار وتساءل البعض قائلا :

يد بخمس مئين عسجد وديت مابالها قطعت في ربع دينار

فقال فقيه ردا على ذلك المعترض :

عز الأمانة أغلاها ، وأرخصها ذل الخيانة ، فافهم حكمة البارى

إذن قول الحق سبحانه وتعالى : « ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك » هذا القول جاء بالباء ليلصق الأمانة بالمؤتمن عليه ، وجاء بالمؤتمن عليه وهو القنطار وهو أضخم شيء في عالم الموازين وكان من الذهب وهو أثمن المعادن وأغلاها ليؤكد على كل مؤتمن أن يلصق الأمانة بما اؤتمن عليه ولا يفصل بينهما أبدا لأنه لو فصل الأمانة وعِزَّها عن القنطار ربما سولت له نفسه أن يأخذ القنطار ويترك الأمانة .

وكذلك عندما تأتي الأمانة متعدية بعلى، تكون الأمانة فوق الشيء المؤتمن عليه ، فالأمانة يجب أن تكون مستعلية على الشيء مهما غلت قيمته ، ويقول الحق من بعد ذلك : « ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا مادمت عليه قائما » أي أن تكون دائم السؤال عن دينارك الذي ائتمنت عليه ذلك الإنسان ، وأن تلح في طلب دينارك .

ومن بعد ذلك يقول الحق : « ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأميين سبيل » وقد قام بعض من بني إسرائيل على عهد رسول الله ، بخديعة الأميين من العرب المؤمنين

فأنكروا حقوقهم . والمقصود بالأميين هنا المؤمنون الذين لم يكونوا من أهل الكتاب ، أو هم المنسوبون إلى الأم كما قال الحق :

﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾

(سورة النحل)

أو أن يكون المقصود « بالأميين » أهل مكة ، فقد كانوا يسمونهم كذلك لأنهم منسوبون إلى أم القرى « مكة المكرمة » .

من أين جاء أهل الكتاب إذن بهذا الأسلوب المزدوج فى معاملة الناس ؟ ومن الذى وضع هذا المنهج الذى يقضى بخديعة المؤمنين الأميين ؟ وهل الفضائل ومنازل الخلق تختلف فى المعاملة من إنسان إلى آخر ؟ وهل يقضى الخلق القويم أن يأخذ إنسان الأمانة وينكرها إذا كانت لرجل أمى ؟ ويرد الأمانة ويعترف بها إن كانت ليهودى ؟ هل يصح أن يقرض إنسان أمواله بالربا لغير اليهود ، ويقرض اليهود دون ربا ؟ إذن تكون هذه المعاملات مجحفة ، هنا فضيلة ، وهناك لا فضيلة ، لا ، إن القضية يجب أن تكون مستوية ومكتملة فى كل وقت وكل زمان ولكل إنسان ، ولا ينبغى أن تتنوع .

من أين إذن جاءوا بهذا القول وهم أهل كتاب ؟ إن هذا ضد منهج الكتاب الذى أنزله الله عليهم بل هو من التحريف والتحوير لقد خدعوا أنفسهم وألصقوا بالتشريع ما ليس فيه ، فالكتاب السماوى الذى نزل عليهم ليس به تصنيف البشر صنفين : صنف هم أهل الكتاب ولهم معاملة خاصة ، وصنف هم الأميون ولهم معاملة أخرى ، وكان عليهم أن يتعلموا من عدالة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى معاملتهم .

لقد أرخ لهم رسول الله بالنص المنزل عليه من الله التأريخ الصادق والعادل ، فى هذا القول الكريم الذى نتناوله بالخواطر إنما يسجل تاريخ اليهودية مع الإسلام . وهذا التأريخ لم يصدر فيه الله حكما واحدا يشملهم جميعا ، بل أنصف أصحاب الحق منهم ، وإن كانوا على دين اليهودية ، وبذلك استقر فى أذهان المنصفين منهم أن

الإسلام قد جاء بكل الحق ، فلو كان الإسلام قد أصدر حكما واحدا ضد كل اليهود سواء من وقف منهم ضد دعوة رسول الله أو المنصف منهم الذى تراوده فكرة الإيمان بالإسلام ، لو كان مثل ذلك الحكم العام الشامل قد صدر لقال المنصفون من اليهود : نحن نفكر فى أن نؤمن بالإسلام فكيف يهاجمنا الإسلام هذه المهاجمة ؟ لكن الإسلام جاء لينصف فيعطى كل ذى حق حقه .

وهؤلاء هم الذين يؤرخ الله لهم بالقول : « من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك » وتلك شهادة على صدق اليقين من هؤلاء ، أما الذين طغت عليهم المادية فهؤلاء هم الذين جاء فيهم القول الحكيم : « ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا مادمت عليه قائما » وهذا هو التأريخ الصادق لمن طغت عليهم المادية فلا يرد الإنسان منهم ما عليه إلا بعد الملاحقة والمطاردة ، وهكذا يبلغنا القرآن التاريخ بصدق .

والعلة فى أن الذى يؤتمن على قنطار يؤديه ، والذى يؤتمن على دينار لا يؤديه هى علة واضحة . فالمؤتمن على قنطار ويؤديه هو إنسان ملتزم أمام إله موصوف باسم الحق ، ولا يريد الله من عباده إلا أن يواجهوا حركة حياتهم بالحق .

وأكرر هنا مرة أخرى ، إن كلمة « الأمانة » ترد فى القرآن الكريم مرة وهى متعدية بـ « على » ، ومرة أخرى وهى متعدية بالباء ، لأن الباء تأتى فى اللغة لإلصاق شيء بشيء آخر ، فكأنك إذا اؤتمنت أيها المسلم فلابد أن تلتصق بالأمانة حتى تؤديها ، وكذلك جاءت الأمانة متعدية بـ « على » ، أى أنك أيها المؤمن إذا اؤتمنت فعليك أن تستعلى على الشيء الذى اؤتمنت عليه . فإذا ما اؤتمنت على مائة جنيه مثلا فلا تنظر إلى ما يعود عليك من نفع إذا ما تصرفت فى هذا المبلغ ، بل يجب أن تستعلى على تلك المنفعة . فإياك أن تغش نفسك أيها المؤمن بفائدة ونفاسة الشيء الذى تختلسه من الأمانة ، بل قارن هذا الشيء بالأمانة فستجد أن كفة الأمانة هى الراجحة .

والذين استباحوا خيانة الأمانة من أهل الكتاب ، إنما عميت بصيرتهم عن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد نال الشهرة بالأمانة سواء قبل الرسالة أو بعدها . وعميت أبصارهم ، إن الدين الحق لا يفرق فى أداء الأمانة بين صنف من البشر ، وصنف آخر ؛ فالدين الحق يضم تشريعا من إله خلق الجميع وهكذا نجد أن تشريعهم بالتفرقة فى أداء الأمانة هو تشريع من عند أنفسهم ، وليس من الرب المتولى شئون خلقه جميعا ، ويدحض الحق القضية التى حكموا بوساطتها أن يعاملوا الأميين

معاملة تختلف عن معاملتهم لأهل الكتاب ، فقال سبحانه : « ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون » .

يعلمون ماذا ؟ يعلمون أن قولهم كذب ، فهم يعرفون الحكم الصحيح وينحرفون عنه ، وياليتهم قالوا : إن ذلك الحكم من عند أنفسهم ، لكنهم ينسبون ذلك إلى تعاليم دينهم ، وتعاليم الدين ـ كما قلنا ـ مأخوذة من الله ، وهم بذلك ـ والعياذ بالله ـ يفترون على الله كذبا بأنه خلق خلقا ثم صنفهم صنفين : صنفا تؤدى الأمانة له ، وصنفا لا تؤدى الأمانة له ، وهكذا كذبوا على الله وعلموا أنهم كاذبون ، وهذا هو الافتراء . وهم أيضا يعلمون العقوبة التى تلحق من يكذب على الله ورغم ذلك كذبوا .

لقد حذف الحق فى هذه الآية المفعول به فلم يقل : « يعلمون كذا » . الحق حين يحذف « المفعول » فهو يريد أن يعمم الفهم ويريد أن يعمم الحركة ، إنه سبحانه يريد أن يبلغنا بأن هؤلاء يعلمون أن قولهم هذا كذب ، ويعلمون عقوبة ذلك الكذب . . وساعة تأتى قضية منفية ثم يأتى بعدها كلمة « بلى » فإنها تنقض القضية التى سبقتها ومعنى ذلك أنها تثبت ضدها . لقد قالوا :

« ليس علينا فى الأميين سبيل » وهذه قضية منفية بـ« ليس »، والحق يقول فى الآية التالية :

﴿ بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾ ﴾

إن قول الحق فى بداية هذه الآية « بلى » إنما جاء لينقض القضية السابقة التى ادعاها أهل الكتاب ، وكأن الحق يقول : أنّ عليكم فى الأميين سبيل ؛ لأن المشرع هو الله ، والناس بالنسبه له سبحانه سواء .

وبعد ذلك يأتى قول الحق بقضية عامة :

﴿ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾
(من آية ٧٦ سورة آل عمران)

ما العهد هنا ؟ وأى عهد ؟

إنه العهد الإيمانى الذى ارتضيناه لأنفسنا بأننا آمنا بالله وساعة تؤمن بالإله فمعنى إيمانك به هو حيثية قبولك لكل حكم يصدر منه سبحانه ، وأن تلتزم بما يطلبه منك . وإن لم تلتزم بما يطلبه منك كان إيمانك بلا قيمة ؛ لأن فائدة الإيمان هو الالتزام . ولذلك قلنا : إن الحق سبحانه وتعالى حينما يريد تشريع حكم لمن آمن به ينادى أولا يأيها الذين آمنوا كتب عليكم كذا ، إن الحق سبحانه لا ينادى فى التكليف كل الناس ، إنما ينادى من آمن وكأنه سبحانه يقول : « يا من آمن بى إلها ، اسمع منى الحكم الذى أريده منك ، أنا لا أطلب ممن لم يؤمن بى حكما ، إنما أطلب ممن آمن » .

وهنا يقول الحق : « من أوفى بعهده واتقى فإن الله يحب المتقين » وقد يفهم البعض هذا القول بأن من أوفى بعهده الإيمانى واتقى الله فى أن يجعل كل حركاته مطابقة لـ « افعل ولا تفعل » فإن الله يحبه . هذا هو المعنى الذى قد يفهم للوهلة الأولى ، لكن الله لم يقل ذلك ، إن « الحب » لا يرجع إلى الذات بل يرجع إلى العمل ، لقد قال الحق : « فإن الله يحب المتقين » .

إن الإنسان قد يخطىء ويقول : « لقد أحبنى الله ، وسأفعل من بعد ذلك ما يحلو لى » ونحن نذكر صاحب هذا القول بأن الله يحب العمل الصالح الذى يؤديه العبد بنية خالصة لله وليس للذات أى قيمة ، لذلك قال : « من أوفى بعهده واتقى فإن الله يحب المتقين » .

إن الذى أوفى بعهده واتقى سيحب الله فيه التقوى ، وإياك أن تفهم أن الحب من الله للعبد سيصبح حبا ذاتيا ، لكنه حب لوجود الوصف فيه ، فاحرص على أن يكون الوصف لك دائما ، لتظل فى محبوبية الله .

ولذلك نقول : إن الحق سبحانه وتعالى أوضح لنا أن الذات تتناسل من ذات ، والذوات عند الله متناسلة من أصل واحد . فالجنس ليس له قيمة ، إنما القيمة للعمل الصالح .

وقد ضربنا المثل قديما ، وقلنا : إن الحق سبحانه وتعالى حينما وعد نوحا عليه السلام بأن ينجيه من الغرق هو وأهله ، ثم فوجىء نوح بأن ابنه من المغرقين ، قال سبحانه حكاية عما حدث :

﴿ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾

(سورة هود)

ماذا فعل نوح عليه السلام ؟ لقد نادى ربه طالبا نجاة ابنه :

﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَـٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾

(سورة هود)

ويعلمنا الله من خلال رده على نوح ، أن أهل الأنبياء ليسوا من جاءوا من نسلهم ، إنما أهل الأنبياء هم من جاءوا على منهجهم ، لذلك قال الحق لنوح عن ابنه :

﴿ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَـٰلِحٍ ۖ ﴾

(من الآية ٤٦ من سورة هود)

لماذا يكون ابن نوح ليس من أهل نوح ؟ ذلك لأن أهل النبوة هم الذين يتبعون منهج النبوة ، ولذلك لم يقل الحق لنوح عن ابنه : « إنه عامل غير صالح » لكن الحق سبحانه قال عن ابن نوح : « إنه عمل غير صالح » . . لقد نسب الحق الأمر إلى العمل .

إذن فالحكمة هى أن الله سبحانه وتعالى فى أسلوبه القرآنى يوضح لنا أن الله لا يحب شخصا لذاته ، إنما لعمله وصفاته فلم يقل : « من أوفى بعهده واتقى فإن الله يحبه » ، لأن « الهاء » هنا ترجع إلى الذات ، إن فى ذلك إيضاحًا كامل البيان بأن الله يحب عمل العبد لا ذات العبد ، فإن حرص العبد على محبوبية الله فذلك يتطلب من العبد أن يظل متبعا لمنهج الله ، وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَـٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَـٰٓئِكَ لَا خَلَـٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾ ﴾

وساعة نسمع كلمة « شراء وبيع » فلابد أن نتوقف عندها ؛ لنفهم معناها بدقة . ونحن فى الريف نرى المقايضات أو المبادلات فى الرزق الذى له نفع مباشر ، كأن يبادل طرف طرفا آخر ، قمحا بقماش ، فهذه سلعة يتم مبادلتها بسلعة أخرى ، وعلى ذلك فليس هناك شارٍ وبائع ، لأن كلا من الطرفين قد اشترى وباع . وهنا نسأل : متى يصبح الأمر إذن شراء وبيعا ؟

إن الشراء والبيع يحدث عندما نستبدل رزقا مباشرا برزق غير مباشر ، ومثال ذلك عندما يشترى الإنسان رغيف خبز بخمسة قروش ، إن هذا هو الشراء والبيع ، لأن الخمسة قروش هى رزق غير مباشر النفعية ؛ لأن النقود لا تشبعك ولا ترويك من عطشك ولا تسترك . والرغيف هو رزق مباشر النفعية لأنه يشبعك ويدفع عنك الجوع وعندما يحب الإنسان أن يشترى شيئا فإن الذى يدفعه فى الشراء يسمى ثمنا .

إذن فكيف يشترى الثمن ؟

إن الحق يوضح لنا أن الأثمان لا تكون مشتراة أبدا ، إنها مشْترى بها ، ولذلك تكون أول خيبة فى صفقة الذين يشترون بعهد الله ثمنا قليلا ، أنهم اشتروا الثمن ، بينما الثمن لايُشترى ، فالذى يشترى هو السلعة . ويا ليت الثمن الذى اشتروه ثمن له قيمة ، لكنه ثمن قليل ، ومن هنا جاء تحريم الربا لأن المرابى يعطى الشخص مائة ، ويريد أن يسترده مائة وعشرة . ويكون المرابى فى هذه المسألة قد جعل النقود سلعة ، وهكذا تكون الصفقة خائبة من بدايتها .

إذن فأول خيبة فى نفوس الناس الذين يستبدلون الهدى ويأخذون بدلا منه الضلالة ، إنهم خاسرون .

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ﴿١٦﴾ ﴾

(سورة البقرة)

والحق سبحانه يقول هنا : « إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا » . ونعرف أن « الباء » دائما تدخل على المتروك ، أى أنهم تركوا عهد الله والأيمان التى حلفوا بها على التصديق بالرسول ، وعلى نصرته إذا جاءهم ، أنهم اشتروا ذلك بثمن قليل ، كيف يحدث ذلك ؟ هذه المسألة واقعة حال ، وإن كان المراد عموم الموضوع لا خصوص السبب ، فلا يقولن أحد : إن هذه الآية نزلت فى الأمر الفلانى فلا شأن لى بها ، لا.فكل من يشترى بآيات الله ثمنا قليلا تنطبق عليه هذه الآية .

وواقعة الحال التى نزلت فيها الآية هى أن جماعة فى عهد جدب ومجاعة دخلت على كعب بن الأشرف اليهودى يطلبون منه الميرة ـ أى الطعام والكسوة ـ فقال لهم : هل تعلمون أن هذا الرجل رسول الله ؟ قالوا نعم ، قال : إننى هممت أن أطعمكم وأن أكسوكم ولكن الله حرمكم خيرا كثيرا وتساءلوا : لماذا حرمنا الله الخير الكثير ؟ وجاءتهم الإجابة لقد أعلنتم الإيمان بمحمد فلما وجدوا أنفسهم فى هذا الموقف ، قالوا لكعب بن الأشرف : دعنا فترة لأنه ربما غلبتنا شبهة ، فلنراجع فيها أنفسنا . وعندما مرت الفترة ، فضلوا الطعام والكسوة على الإيمان ، وقالوا لكعب بن الأشرف : لقد قرأنا فى كتبنا الموجودة لدينا خطأ ، ومحمد ليس رسولا . فأعطاهم كعب القوت والكسوة . وهؤلاء هم الذين اشتروا بآيات الله ثمنا قليلا ، وهو الطعام والكسوة . وكل من يشترى بآيات الله ثمنا قليلا ، فهو يطمس حكما من أحكام الله من أجل أن يتظاهر أمام الناس أنه عصرى ، أو أنه مساير لروح الزمان ، أو يزين لأولياء الأمر فعلا من الأفعال لا يرضى عنه الله .

إذن فالذى يفعل مثل ذلك إنما يشترى بآيات الله ثمنا قليلا ، وكل من يجعل آية من آيات الله عرضة للبيع من أجل أن يأخذ عنها ثمنا يُعتبر داخلا فى هذا النص « إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا » .

والمقصود هنا بعهد الله ، إما أن يكون عهد الفطرة أو العهد الذى أخذه الله على أهل الكتاب بأنهم إن أدركوا بعثة رسول الله صلى الله عليه وسلم فلابد أن يعلنوا الإيمان به وهو العهد الذى جاء به القول الحق :

﴿ وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيۡتُكُم مِّن كِتَٰبٖ وَحِكۡمَةٖ ثُمَّ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ

مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى
قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾

(سورة آل عمران)

إذن فعندما جاءت صفة تكذيبهم لما أعلنوه من إيمان سابق مقابل الميرة والكسوة فهم قد تركوا عهد الله وأخذوا الثمن القليل من الميرة والكسوة ، وكان ذلك خيبة كبرى فهم قد اشتروا الثمن ، والثمن مع ذلك قليل ، ولذلك يقول عنهم الحق :

﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ
وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

وكلمة « أولئك » تدل على أن الصلة وهى « يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا » تُلحق بهم كل من يتصف بهذه الصفات وتجعل له المصير نفسه . فهذه الآية وإن نزلت فى هؤلاء الأشخاص الذين جرت منهم حادثة شراء الطعام والكسوة مقابل النكوص عن الإيمان برسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنها تشمل كل متصف بهذه الصفة وكل من كان على هذا اللون فى أى عصر ، وفى أى دين من الأديان ، ويصفهم الحق سبحانه بـ « أولئك لا خلاق لهم » .

وكلمة « خلاق » وكلمة « خُلق » وكلمة « خليقة » وكلمة « خلق » كلها تدور حول معنى يكاد يكون متقاربا ، فالخلق ـ بضم الخاء واللام ـ أن توجد صفة فى الإنسان تغلب عليه حتى تصير ملكة . فيقال : « فلان عنده خلق الصدق » أو « فلان خلقه الكرم » ومعناه : أن فلانا الأول صار الصدق عنده ملكة ولا يتعب نفسه فى أن يكون صادقا بل صار الصدق أمرا طبيعيا فيه ، وكذلك وصف فلان الثانى بالكرم أى أن الكرم صار ملكة وسجية عنده .

وهذه الملكة فى الأمور المعنوية تساوى الآلية فى الأمور الحسية ؛ لأننا نعرف أن كل فعل من الأفعال يحتاج إلى دربة ليكون الإنسان متميزا فى أدائه ، وعلى سبيل المثال ، العامل الذى ينسج على آلة يحتاج إلى أن يتدرب على تحريك مكوك الخيط ، وأن يتعلم كيف يحرك المكوك بين خيوط النسيج ، وبعد ذلك يختلف الخيطان معا لتمسك

بها حركة المكوك الثانية فى ارتدادها ، وبذلك يتم النسيج ، وحين يتدرب إنسان على هذا العمل فهو يحتاج إلى وقت طويل ، ليصل إلى كفاءة الحركة .

فى بداية التدريب يكون الأمر صعبا ، ويستطيع النساج بعد أن يتقن التدريب أن يجلس أمام آلة النسيج ويداه تحرك المكوك بآلية . لقد صارت المسألة بالنسبة إلى النساج المتدرب آلية .

وسبق أن ضربت المثل بالإنسان الذى يتعلم قيادة السيارة ، فالمدرب يعلمه كيف يدير المفتاح ، وكيف ينتظر لتسخين المحرك ، وكيف يفك مكبح السيارة ، ثم كيف يحرك عصا التحكم فى اندفاع السيارة ، وكيف يوازن بين الضغط على بدال الوقود والضغط على بدال التحكم الفاصل ، وكيف يوازن بين سير السيارة بتخفيض السرعة بلمسات خفيفة لبدال المكبح .

وقد يخطىء الإنسان فى بداية التعلم ويرتبك ، ولكنه بعد تمام التدريب فإنه يعمل بآلية وبدون تفكير ، إنه عمل آلى لا يحتاج إلى تفكير ، وضربت فى السابق مثالا بالصبى الذى يتعلم حياكة الملابس ، إنه يأخذ وقتا ليضع الخيط فى سم الإبرة ، وتقع منه الأخطاء فى قياس المسافات المختلفة بين الغرز ، لكنه من بعد ذلك يتدرب على فعل هذه الأعمال التى كانت صعبة ، ويؤديها بآلية ، والعمل الآلى فى الأمور المحسة ، يقابل الملكة فى الأمور المعنوية ، فيقال : « إن الصدق عند فلان ملكة » أى أنه إنسان لا يرهُقه أن يكون صادقا .

ونحن أثناء تعليم أبنائنا للنحو ـ مثلا ـ نقول لهم : « إن حكم الفاعل الرفع والمفعول به منصوب » وعندما ينطق الابن عبارة ما ، فإنه يحاول تطبيق القاعدة أثناء القراءة ، وقد ينساها ، أو يتلجلج ، وعندما يتذكرها فإنه ينطق الكلمات برسمها الصوتى الصحيح ، وبعد أن يتم التدريب على القاعدة ويقرأ الابن ، فإن أخطاءه تتلاشى ، وبذلك يصير النحو ملكة عنده .

وكذلك الخلق ، إن الخلق صفة ترسخ فى النفس ، فتصدر عنها الأفعال بيسر وسهولة ، فيقال : « الصدق له خلق » ، و« الكرم له خلق » ، و« الشجاعة له خلق » إنها الصفات التى ترسخ فى النفس فتصدر عنها الأفعال فى يسر وسهولة . والحق سبحانه يقول : « أولئك لا خلاق لهم فى الآخرة » وقد فسر البعض حرمان أولئك من الخلق بأن هذا الصنف من الناس لا نصيب لهم من الخلق ، لأن الخلق

صفة راسخة فى الإنسان ، والحق يحدد الزمن بأنه « فى الأخرة » . والأخرة هى الوقت الذى لا يمكن التدارك فيه ، فالآخرة هى يوم التقييم الصحيح والنهائى .

إن الإنسان قد لا يكون له نصيب السلوك القويم فيعدل سلوكه حتى يكتسب هذا السلوك القويم فى الدنيا لكن الإنسان لا يستطيع فى الأخرة أن يجد مجالا للاستدراك ، وهذه هى الخيبة القوية .

فالإنسان فى الدنيا ، قد يقوم بعمل ما ولا يكون له نصيب من أجره أو قد لا نرى نحن الجزاء والنصيب الذى يعطيه له الله ولكن الله يعوضه فى الآخرة عن هذا العمل الذى لم يكن له نصيب منه فى الدنيا أما من لا خلاق له فى الآخرة فكيف يتم التعويض ؟ إنّ ذلك أمر مستحيل ؟

ويضيف الحق « ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم » وقد يقول قائل : ألم يقل القرآن الكريم فى موقع آخر ، إن الله يقول للكافرين :

﴿ قَالَ ٱخْسَـُٔواْ فِيهَـا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ ﴾

(سورة المؤمنون)

فلماذا يقول الحق لهم مرة : « اخسئوا فيها ولا تكلمون » ، ومرة أخرى يقول الحق : « لا يكلمهم الله »؟ . ونجيب على مثل هذا القول : إن الحق لا يكلمهم كلاما ينفعهم ، أو أنه سبحانه يكلمهم بواسطة ملائكته ، ولكن كيف لا ينظر إليهم الله ؟

وساعة نجد أمرا يوجد فى الناس وله نظير منسوب لله سبحانه وتعالى ويقوله سبحانه عن نفسه ، فلابد أن نأخذ هذا الأمر فى إطار : « ليس كمثله شيء » .

إننا فى مجالنا البشرى نقول : « فلان لا ينظر إلى فلان » أى أنه لا يوجه عيونه إليه ، ويحول حدقتيه عنه ، لكن لا يمكن قياس ذلك على الله ، لأن الله منزه عن التشبيه ففى الوضع البشرى نجد إنسانا يحب صديقا له فيقبل عليه بالوجه والنظر فيقال : «فتى هو قيد العين » أى أنه شاب عندما تنظر إليه العين فهو يقيد العين

فلا تذهب عنه إلى أى مكان آخر؛ ففى هذا الشاب محاسن تجعل العين لا تذهب بعيدا عنه . وهكذا نأخذ إقبال العين بالنظر على المنظور أو على المرئى كسمة للاهتمام به ، وهذا صحيح فى الوضع البشرى .

لكن إذا ما جاء ذلك بالنسبة لله ، هنا نأخذ المسألة فى إطار : « ليس كمثله شىء » . وهكذا نفهم عدم نظر الله إلى « الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا » بأن الله يهملهم ، ولا يهتم بهم « لا ينالهم الله برحمته » ، فالحق سبحانه منزه عن كل تشبيه ، وهكذا الأمر فى عدم نظر الحق إليهم ، نأخذ الأمر أيضا فى إطار : « ليس كمثله شىء » إن ولى الأمر من البشر عندما يرغب فى عقاب أحد رعاياه ، لا ينظر إليه ويهمله ، فما بالنا بإهمال الحق سبحانه وتعالى ؟! إنه إبعاد لهم عن رحمة الله ورضوانه .

ويضيف الحق سبحانه « ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم » والتزكية تأتى بمعنى التطهير ، أو بمعنى الثناء أو النماء والزيادة فنقول : « فلان زكى فلانًا » أى أثنى عليه ويقال أيضا : « فلان زكى فلانا » أى طهره ، ومن هذا تكون « الزكاة » التى هى تطهير ونماء .

وعندما يخبرنا الحق سبحانه أنه لا يكلم ذلك الصنف من البشر ولا ينظر إليهم ولا يطهرهم من أوزارهم ، فهذا مقدمة لما أعده لهم بقوله : « ولهم عذاب أليم » .

وكأن الحق سبحانه قد أورد هذا المصير بالنسبة لهذا الصنف من البشر حتى لا يقول أحدهم ليس مُهمًا أن الله لن يكلمنى ولن ينظر إلى ، ولن يزكينى ، ولكنه قد يدخلنى الجنة « لا.لن يدخل واحد من هذا الصنف من البشر الجنة بل له ولأمثاله العذاب الأليم » . وحين يقال : « ولهم عذاب أليم » فلابد أن نأخذ قوة الحدث بفاعل الحدث .

وفى حياتنا العادية عندما يقال : « صفع الطفل فلانا الرجل » نفهم بطبيعة الحال أن صفعة الطفل تختلف فى قوتها عن صفعة الشاب ، وكذلك صفعة الشاب تختلف عن صفعة بطل فى الملاكمة . إذن فالحدث يختلف باختلاف فاعله قوة وضعفا على المفعول به الذى هو مناط الحدث، فإذا كان فاعل العذاب هو الله فلابد أن يكون عذابا

أليما ؛ ولا حدود لألمه ، أنجانا الله وإياكم منه . ومن بعد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾

أى أنهم يلوون ألسنتهم بالكلام الصادر من الله ليحرفوه عن معانيه ، أو يَلْوُون ألسنتهم عندما يريدون التعبير عن المعانى . و« اللى » هو الفتل ، فنحن عندما نفتل حبلا ، نحاول أن نجدل بين فرعين اثنين من الخيوط ، ثم نفتلهم معا لنصنع حبلا ، والهدف من الفتل هو أن نضع قوة من شعيرات الخيوط، فهذه الشعيرات لها قوة محدودة، وعندما نفتل هذه الخيوط فإننا نزيد من قوة الخيوط بجدلها معا.

إذن فالفتل المراد به الوصول إلى قوة ، وهكذا نرى أنهم يلوون ألسنتهم بكلام يدعون أنه من المنهج المنزل من عند الله ، وهذا الكلام ليس من المنهج ولم ينزل من عند الله إنّهم يفعلون ذلك لتقوية مركزهم والتنقيص من مكانة الإسلام والطعن فى الرسول كما قالوا من قبل : « راعنا » ، لذلك قال الحق مخاطبا المؤمنين :

﴿ يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا رَٰعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ ﴾

(سورة البقرة)

إن الحق يوضح لنا ألا نعطى لهم فرصة لتحريف كلام الله ، فهو سبحانه القائل :

﴿ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾ ﴾

(سورة النساء)

لقد فضحهم ـ الحق سبحانه ـ لنا ، وهم يحرفون الكلام عن موضعه ، فقد قال الحق هذا القول بمعنى : أن الذى تسمعه لا يضرك لقد سجل الله عليهم أنهم قالوا سمعنا وعصينا كما قاموا بتحريف الكلمة وقالوا : « اسمع غير مسمع » أى « لا سمعت أبدا » ، تماما كما أخذوا من قبل قول الله :

﴿ وَقُولُوا حِطَّةٌ ﴾

(من الآية ١٦١ من سورة الأعراف)

وحرفوا هذا القول : « وقولوا حنطة » ، وهم قد فعلوا ذلك حتى نحسب هذا التحريف من الكتاب ، وما هو من الكتاب ، أى أنهم يفتلون بعضا من المعانى المستنبطة من الكلمات حتى يوهموا المؤمنين بأن هذه المعانى غير المرادة وغير الصحيحة هى معان مرادة لله ، وصحيحة المعنى ، إنهم يدعون على المنهج المنزل من السماء ما ليس فيه ، ولذلك قال سبحانه : « لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب » إنهم عندما يلوون ألسنتهم بالكتاب يحرفونه رغبة فى التلبيس والتدليس عليكم لتظنوا أنه من الكتاب المنزل من عند الله على رسولهم ، إنهم لو فعلوا ذلك فحسب لجاز أن يتوبوا ويرجعوا إلى ربهم ويندموا على ما فعلوا .

أما قولهم بعد ذلك : « هو من عند الله » فهو دليل على أنهم أحدثوا فى الكتاب شيئا وأصروا عليه فجاءوا بقولهم : (هو من عند الله) لينفوا عن أنفسهم شبهة أن يُدعى عليهم أنهم حرفوا الكتاب ، ولو لم يكونوا قد حرفوا الكتاب أكانت تخطر ببالهم ، هذه ؟ إن أمرهم جاء من باب (يكاد المريب أن يقول خذونى) إنهم بهذا القول يحتالون على إخفاء أمر حدث منهم . إن الحق ـ سبحانه ـ يؤكد أن الخيانة تلاحقهم فيقول : (وما هو من عند الله) ، فهذه الآية الكريمة تفضحهم وتكشف تحريفهم لكتاب الله ، يقول سبحانه : « ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون »

إنهم يعرفون أن ما يقولونه هو الكذب ، والكذب كما عرفنا هو أن تكون النسبة الكلامية غير مطابقة للواقع ، فالنسب فى الأحداث تأتى على ثلاث حالات :

نسبة واقعة .

نسبة يفكر فيها وهى نسبة ذهنية .

نسبة ينطق بها .

فعندما نعرف إنسانا اسمه محمد ، وهو مجتهد بالفعل فهذه نسبة واقعة

وإذا خطر ببالك أن تخبر صديقا لك باجتهاد محمد فهذا الخاطر نسبة ذهنية .

وساعة تنطق بهذا الخبر لصديق لك صارت النسبة كلامية . والصدق هو أن تكون النسبة الكلامية لها واقع متسق معها كأن يقول : « محمد مجتهد » ويكون هناك بالفعل من اسمه محمد وهو مجتهد بالفعل ، وبهذا تكون أنت الناطق بخبر اجتهاد محمدٍ إنسانا صادقا ، أما إن لم يكن هناك من اسمه محمد ومجتهد فالنسبة الكلامية لا تتفق مع النسبة الواقعية ، لذلك يصير الخبر كاذبا . والعلماء يفرقون بين الصدق والكذب بهذا المعيار . فالصدق : هو مطابقة الكلام للواقع ، والكذب : هو عدم مطابقة الكلام للواقع .

وحاول بعض من الذين يحبون التشكيك أن يقفوا عند سورة المنافقين التى يقول فيها الحق :

﴿ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ۝١ ﴾

(سورة المنافقون)

لقد قال المنافقون : نشهد إنك لرسول الله ، وسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم هو رسول من عند الله بالفعل ، والحق سبحانه يقول : « والله يعلم إنك لرسوله » فهل علمهم كعلم الله ؟ لا ، لأن الله سبحانه قال : « والله يشهد إن المنافقين لكاذبون » ، فكيف يصفهم الحق بأنهم كاذبون مع أنهم شهدوا بما شهد هو به ؟

إن الحق لا يكذبهم فى أن محمدا رسول الله فهذه قضية صادقة ، ولكنه سبحانه قد كذبهم فى قضية قالوها وهى : « نشهد » ، لأن قولهم : « نشهد » تعنى أن يوافق الكلام المنطوق ما يعتقدونه فى قلوبهم ، وقولهم : « نشهد » هو قول لا يتفق مع ما فى

قلوبهم ، ولذلك صاروا كذابين ، فلسان كل منهم لا يوافق ما فى قلبه .

إذن فقوله الحق : « ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون » ، أى إنهم يقولون كلاما ليس له نسبة خارجية تطابقه ، وهم يعلمون أنه كذب ، حتى لا نقول : إنهم نطقوا بذلك غفلة ، لقد تعمدوا الكذب ، وهم يعرفون أنهم يقولون الكذب . والدقة تقتضى أننا يجب أن نفرق بين صدق الخبر ، وصدق المخبر . صدق الخبر هو أن يطابق الواقع لكن أحيانا يكون المخبر صادقا ، والخبر فى ذاته كذب ، كأن يقول واحد : « إن فلانا يستذكر طول الليل » لأنه شاهد حجرة فلان مضاءة وأنه يفتح كتابا ، بينما يكون هذا الفلان غارقا فى قراءة رواية ما ، إن المخبر صادق فى هذه الحالة ، لكن الخبر كاذب .

ولكن فى مجال الآية نحن نجد أنهم كاذبون عن عمد ، فاللسان هو وسيلة بيان ما فى النفس :

إن الكلام لفى الفؤاد وإنما جعل اللسان على الفؤاد دليلا

ومن بعد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَـٰكِن كُونُوا۟ رَبَّـٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾

ونحن نعرف أن الحق سبحانه وتعالى حين ينزل منهجه ، فهو ينزله فى كتاب ، ويقتضى ذلك أن يصطفى سبحانه إنسانا للرسالة ، أى أن الرسول يجىء بمنهج ويطبقه على نفسه ويبلغه للناس ، الرسول مصطفى من الله ويختلف فى مهمته عن

النبى، فالنبى أيضا مصطفى ليطبق المنهج، وهكذا حتى لا يسمع الناس المنهج ككلام فقط ولكن يرونه تطبيقا أيضا، إذن فالرسول واسطة تبليغية ونموذج سلوكى، والنبى ليس واسطة تبليغية، بل هو نموذج سلوكى فقط.

إن الحق سبحانه وتعالى يرسل النبى ويرسل الرسول، ولذلك تأتى الآية:

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ ﴾

(سورة الحج)

هكذا نعرف أن الرسول والنبى كليهما مرسل من عند الله، الرسول مرسل للبلاغ والأسوة، والنبى مرسل للأسوة فقط، لأن هناك بعضا من الأزمنة يكون المنهج موجودا، ولكن حمل النفس على المنهج هو المفتقد، ومثال ذلك عصرنا الحاضر.

إن المنهج موجود وكلنا نعلم ما الحلال وما الحرام، لكن خيبة هذا الزمان تأتى من ناحية عدم حمل أنفسنا على المنهج، لذلك فنحن نحتاج إلى أسوة سلوكية، هكذا عرفنا الكتاب، والنبوة، فما هو الحكم إذن؟

لقد جاء الحق بكلمة: «الحكم» هنا ليدلنا على أنه ليس من الضرورى أن توجد الحكمة الإيمانية فى الرسول أو النبى فقط، بل قد تكون الحكمة من نصيب إنسان

من الرعية الإيمانية، وتكون القضية الإيمانية ناضجة فى ذهنه، فيقولها لأن الحكمة تقتضى هذا. ألم يذكر الله لنا وصية لقمان لابنه؟ إن وصية لقمان لابنه هى المنهج الدينى، وعلى ذلك فمن الممكن أن يأتى إنسان دون رسالة أو نبوة، ولكن المنهج الإيمانى ينقدح فى ذهنه، فيعظ به ويطبقه، وهذا إيذان من الله على أن المنهج يمكن لأى عقل حين يستقبله أن يقتنع به، فيعمل به ويبلغه.

ولابد لنا أن نؤكد أن من يهبه الله الحكمة فى الدعوة لمنهج الله وتطبيق هذا المنهج، لن يضيف للمنهج شيئا، وبحكم صدقه مع الله فهو لن يدعى أنه مبعوث من الله للناس، إنه يكتفى بالدعوة لله وبأن، يكون أسوة حسنة.

لكن لماذا جاءت هذه الآية ؟ لقد جاءت هذه الآية بعد جدال نصارى نجران مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المدينة ، وأثناء الجدال انضمت إليهم جماعة من اليهود ، وسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم :

ـ بماذا تؤمن وتأمر ؟ فأبلغهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بأوامر المنهج ونواهيه ، وأصول العبادة ، ولأن تلك الجماعة كانوا من أهل الكتاب ، بعضهم من نصارى نجران والبعض الآخر من يهود المدينة ، وكانوا يزيفون أوامر تعبدية ليست من عند الله ، ويريدون من الناس طاعة هذه الأوامر ، لذلك لم يفطنوا إلى الفارق بين منهج رسول الله صلى الله عليه وسلم وأوامره ، وبين ما زيفوه هم من أوامر ، فمحمد صلى الله عليه وسلم يطلب من الناس عبادة الله على ضوء المنهج الذى أنزله عليه الحق سبحانه ، أما هم فيطلبون طاعة الناس فى أوامر من تزييفهم .

والطاعة ـ كما نعلم ـ هى لله وحده فى أصول كل الأديان ، فإذا ما جاء إنسان بأمر ليس من الله ، وطلب من الناس أن يطيعوه فيه ، فهذا معناه أن ذلك الإنسان يطلب أن يعبده الناس ـ والعياذ بالله ـ لأن طاعة البشر فى غير أوامر الله هى شرك بالله . ولهذا تشابهت المواقف على هذا البعض من أهل الكتاب ، وظنوا أن الرسول صلى الله عليه وسلم يطلب منهم طاعتهم لأوامره هو ، كما كانوا يطلبون من الناس بعد تحريفهم للمنهج وقالوا : أتريد أن نعبدك ونتخذك إلها ؟

إنهم لم يفطنوا إلى الفارق بين الرسول الأمين على منهج الله ، وبين رؤسائهم الذين خالفوا الأحكام واستبدلوها بغيرها ، فالرسول صلى الله عليه وسلم لم يطلب منهم طاعته لذاته هو ، ولكنه قد طلب منهم الطاعة للمنهج الذى جاء به رسولا وقدوة ، واستنكر رسول الله صلى الله عليه وسلم ما قالوه .

وأنزل الله سبحانه قوله الحق :

﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾

(من الآية ٧٩ سورة آل عمران)

لقد بلغت بهم الغفلة والشرك أنهم ظنوا أن الله لم يختر رسولا أمينا على المنهج ، وظنوا بالله ظن السوء ، أو أنهم ظنوا أن الرسول سيحرف المنهج كما حرفوه هم ، فتحولوا عن عبادة الله إلى عبادة من بعثه الله رسولا ، ولذلك جاء القول الفصل « ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عبادا لى من دون الله » .

وقد ينصرف المعنى أيضا إلى أن بعض صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا يُجِلُّونَه ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكل مؤمن مطلوب منه أن يُجل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأن يعظمه ، ومن فرط حب بعض الصحابة لرسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا له : أنسلم عليك كما يسلم بعضنا على بعض ، ألا نسجد لك ؟

إن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يطلب السجود له من أحد ، والحق سبحانه هو الذى كلف عباده المؤمنين بتكريم رسوله فقال :

﴿ لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ ﴾

(سورة النور)

إن المطلوب هو التعظيم لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، لا أن نعطى له أشياء لا تكون إلا لله . إن تعظيم المسلمين لرسول الله وتكريمهم له هو أن نجعل دعاءه مختلفًا عن دعاء بعضنا بعضا .

والحق فى هذه الآية التى نحن فى مجال الخواطر عنها وحولها يقول : « ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون » .

إن « لكن » هنا للاستدراك ، مثلما قلنا من قبل : إن « بل » تنقض القضية التى قبلها وتثبت بعدها قضية مخالفة لها . إن الحق يستدرك هنا لنفهم أنه ليس لأحد من البشر أن يقول : « كونوا عبادا لى » بعد أن أعطاه الله الكتاب والحكم والنبوة ، والقضية التى يتم الاستدراك من أجلها وإثباتها هى : « كونوا ربانيين » وكلمة « ربانى » ، وكلمة « رب » ، وكلمة « ربيون » ، وكلمة « ربان » ، وكل المادة المكونة من « الراء » و« الباء » تدل على التربية ، والولاية ، وتعهد المربى ، وتدور

حول هذا المعنى . أليس ربان السفينة هو الذى يقود السفينة ؟

وكلمة « الرب » توضح المتولى للتربية ، إذن فما معنى كلمة « ربانى » ؟ إنك إذا أردت أن تنسب إلى « رب » تقول : « ربّى » . وإذا أردنا المبالغة فى النسبة نضيف لها ألفا ونونا فنقول : « ربانى » ولذلك نجد فى التعبيرات المعاصرة من يريدون أن ينسبوا أمرا إلى العلم فيقولون : « علمانى » وفى ذلك مبالغة فى النسبة إلى العلم . والفرق بين « علمى » و« علمانى » هو أن العلمانى يزعم لنفسه أن كل أموره تمشى على العلم المادى ، ونجد أن فى « علمانى » ألفًا ونونًا زائدين لتأكيد النسبة إلى العلم .

وقد يقول قائل : ولماذا نؤكد الانتساب إلى الله بكلمة « ربانى » ؟
ونقول : لأن الكلمة مأخوذة من كلمة رب ، وتؤدى إلى معان : منها أن كل ما عنده من حصيلة البلاغ لابد أن يكون صادرا ومنسوبا إلى الرب ؛ لأنه لم يأت بشىء من عنده ، أى أنه يأخذ من الله ولا يأخذ من أحد آخر أبدا ؛ فهو ربانى الأخذ .

وتؤدى الكلمة إلى معنى آخر : إنه حين يقول ويتكلم فإنه يكون متصفا بخلق أنزله رب يربى الناس ليبلغوا الغاية المقصودة منهم ، فهو عندما ينقل ما عنده للناس يكون مربيا ، ويدبر الأمر للفلاح والصلاح .

يقول الحق ـ سبحانه ـ : « بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون » إن العلم هو تلقى النص المنهجى . والدراسة هى البحث الفكرى فى النص المنهجى .

لذلك فنحن فى الريف نقول : « ندرس القمح » أى أننا ندرس القمح بآلة حادة كالنورج حتى تنفصل حبوب القمح عن « التبن » وتكون نتيجة الدراس هى استخلاص النافع . . إذن ففيه فرق بين « تعلمون » أى تعلمون غيركم المنهج الصادر من الله وذلك خاضع لتلقى النص ، وبين « ماكنتم تدرسون » أى تعملون أفكاركم فى الفهم عن النص .

إن الفهم عن النص يحتاج إلى مدارسة ، ومعنى المدارسة هو أخذ وعطاء ، ويقال : « دارسه » أى أن واحدا قد قام بتبادل التدريس مع آخر ، ويقال أيضا : « تدارسنا » أى أننى قلت ما عندى وأنت قد قلت ما عندك حتى يمكن أن نستخلص

ونستنبط الحكم الذى يوجد فى النص .

وقد يأتى النص محكما ، وقد يأتى النص محتملا لأكثر من معنى.

ومادمت قد تعلمت ، فلابد أنك تعرفت على النصوص المحكمة للمنهج . ومادمت قد تدارست،فلابد أنك قد فهمت من النصوص المحتملة حين مدارستك لأهل الذكر حُسْن استقبال المنهج؛لذلك يجب أن تكون ربانياً فى الأمرين معاً .

وبعد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّۦنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾

أى أنه ليس لبشر آتاه الله الكتاب والحكم والنبوة أن يأمر الناس باتخاذ الملائكة والنبيين أربابا . إن مَن اختصه الله بعلم وكتاب ونبوة لا يمكن أن يقول : اعبدونى ، أو اعبدوا الملائكة ، أو اعبدوا الأنبياء .

لماذا ؟ ويجيب الحق سبحانه : « أيامركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون » .

وقوله الحق : « بعد إذ أنتم مسلمون » تدل على أن واقعة القضية وما معها كانت مع مسلمين كأنهم عندما جاءوا وأرادوا أن يعظموا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا : نحن نريد أن نعطيك وضعا فى التعظيم أكثر من أى كائن ونريد أن نسجد لك . فَوَضَّحَ النبى صلى الله عليه وسلم لهم : أنَّ السجود لا يكون إلا لله .

إذن فالذين تكلموا مسلمون ، وكانوا يقصدون بذلك تعظيم الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولو أن رسول الله وافقهم لكان معنى ذلك أنه يخرجهم عن الإسلام، ولا يتصور أن يصدر هذا عن سيدنا وحبيبنا المصطفى صلى الله عليه وسلم أو عن غيره من الأنبياء عليهم السلام .

والحق سبحانه يقول :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ ﴾

هذه الآية تجعلنا نتعرف على أسباب بعث الحق لموكب الرسل ، ونعرف جميعا أن المنهج الأول قد أنزله الله على آدم عليه السلام متضمنا كل ما يجعل الحياة تسير إلى انسجام ، وبلّغ آدم أولاده هذا المنهج كما علمهم أمور حياتهم ، تماما مثلما يعلم الأب أبناءه ما يخدم أمور حياتهم ، كما يقوم / بإبلاغ الأبناء مطلوب الدين ، والأبناء يبلغون أبناءهم ، ويتواصل البلاغ من جيل إلى جيل كى يكتمل وصول المنهج للذرية ، ولكن مع توالى الزمن وتتابعه نجد أن بعضا من مطلوبات الدين يتم نسيانها .

إن هذا دليل على أن الناس قد غفلت عن المنهج ، وهكذا نرى أن الغفلة عن المنهج إنما تتم على مراحل ، فبعد بلاغ المنهج نجد إنسانا يغفل عن جزئيةٍ ما فى هذا المنهج ، وتنبهه نفسه وتلومه على تركه لتلك الجزئية ، ونسمى صاحب هذا الموقف بصاحب النفس اللوامة ، إنه يفعل السيئة لكن نفسه تعود إلى اليقظة لمنهج الله ؛ لأنه يتمتع بوجود خلية المناعة الإيمانية فيه ، وهناك إنسان آخر يستمرىء المخالفة للمنهج وتلح عليه نفسه بالمخالفة ؛ إنه صاحب النفس الأمارة بالسوء ، وتتوالى به دواعى ارتكاب السيئات ، ومثل هذا الإنسان يحتاج إلى غيره من خارج نفسه ليلفته إلى الخير .

وماذا يحدث للمجتمع إذا صار أفراده جميعا من أصحاب النفس الأمارة بالسوء ؟

إن معنى ذلك أن الفساد قد طم ، ولابد من مجيء رسول ؛ لأن مراد الحق سبحانه هو هداية الناس ، لقد خلقنا سبحانه وله كل صفات الكمال ، ولم يضف خلقنا إليه شيئا . وها هو ذا الحديث القدسي الذى رواه أبو ذر رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما روى عن الله تبارك وتعالى أنه قال :

« يا عبادى إنى حرمت الظلم على نفسى ، وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا ، يا عبادى ، كلكم ضال إلا من هديته فاستهدونى أهدكم ، يا عبادى ، كلكم جائع إلا من أطعمته ، فاستطعمونى أطعمكم ، يا عبادى ، كلكم عار ، إلا من كسوته ، فاستكسونى أكسكم ، يا عبادى ، إنكم تخطئون بالليل والنهار ، وأنا أغفر الذنوب جميعا ، فاستغفرونى أغفر لكم ، يا عبادى إنكم لن تبلغوا ضرى فتضرونى ، ولن تبلغوا نفعى فتنفعونى ، يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ، ما زاد ذلك فى ملكى شيئا ، يا عبادى ، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكى شيئا ، يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم ، قاموا فى صعيد واحد ، فسألونى فأعطيت كل إنسان مسألته ، ما نقص ذلك مما عندى إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر ، يا عبادى ، إنما هى أعمالكم أحصيها لكم ، ثم أوفيكم إياه ، فمن وجد خيرا فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه »[1]

إن الله سبحانه وتعالى قد خلقنا وهو من الأزل إلى الأبد ، فى تمام صفات الكمال ولم يضف له هذا الخلق شيئا ، فهو القائل :

﴿ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ ﴾

(سورة الذاريات)

(١) رواه مسلم والترمذى وابن ماجه .

إذن فعندما يشرع لنا الحق أمرًا فهو يشرعه لمصلحتنا ؛ إنه سبحانه يحب لصنعته أن تظفر بسعادة المنهج ؛ لذلك أنزل المنهج « بافعل ولا تفعل » وحين يقول المنهج : « افعل ولا تفعل » فهو لا يريد أن يحدد حرية الحركة على الخلق إلا بما يحميهم ، إنه يحدد حرية هنا ليحمى حرية هناك . فعندما حرم الله السرقة ـ على سبيل المثال ـ فالأمر شامل لكل البشر ، فلا يسرق أحد أحدا .

إن الحق سبحانه حين منع يدَ واحدٍ من السرقة ، كان فى ذلك منع لملايين الأيدى أن تسرق من هذا الإنسان ، وفى هذا حماية لكل البشر من أن يسرق إنسان إنسانا آخر ، وفى ذلك كسب لكل إنسان ، فساعة تأخذ التشريع لا تأخذه على أنه مطلوب منك ، ولكن خذه على أنه مطلوب منك ومطلوب لك أيضا .

ومثال آخر ، لقد حرم المنهج على العبد المؤمن أن يمد عينيه إلى محارم غيره ، ولم يكن هذا التحريم لعبد واحد ، إنما لكل إنسان مؤمن ، وبذلك لا تمتد أى عين إلى محارم هذا العبد ، لقد جاء الأمر لك بغض البصر عن محارم غيرك وأنت واحد ، وكففنا من أجلك ملايين الأبصار كيلا تمتد إلى محارمك .

إذن فكل عبد مؤمن يكسب حياة مطمئنة من وجود التشريع ، وكل التشريعات إنما جاءت لصالحنا جميعا ، ولذلك كان الحق رحيما بنا لأن رَكْبَ الرسل قد تواصل واستمر فى الكون منذ آدم ، وإلى محمد صلى الله عليه وسلم ، والمنهج الذى جاء به كل هؤلاء الرسل لا تناقض فيه أبدا ، لأن فى هذا المنهج مصلحة للخلق ، لذلك فلا يمكن أن يكون موكب رسول قد أتى ، ليناقض موكب رسول آخر .

لكن ما الذى يأتى بالتناقض بين الأديان والمشرع واحد ؟ وكل الناس عيال له ؟

إننا نبرىء الرسل من التناقض ، وإن حاول البعض أن يصوروا الأمر كذلك فلنعلم أن أتباع الرسل هم الذين يريدون لأنفسهم سلطة زمنية يتحكمون بها فى الدنيا ، فالذين كانت لهم سلطة زمنية فى دين كاليهودية أو النصرانية فعلوا ذلك .

وعندما جاءت النصرانية على اليهودية قال أحبار اليهود : نحن لا نريد النصرانية لماذا ؟ لأن السلطة الزمنية كانت فى أيديهم ، ولو أن هؤلاء الأحبار ظلوا باقين على

ما أنزله الله عليهم من منهج لقَبِلُوا يدى أى رسول قادم شاكرين له مقدَمه ومجيئه وقالوا له : ساعدنا على أن نعمق فهمنا لمنهج الله . . إذن فالخلاف لا يحدث إلا حين توجد أهواء لها سلطات زمنية ، وموكب الرسالات من يوم أن خلق الله الإنسان هو منهج متساند لا متعاند .

وحينها يأتى رسول ليجد أناسا غير مؤمنين بإله فالمشكلة تكون سهلة ، لأنه سيلفتهم إلى إله واحد ، وبالمنهج الذى يريده الله ، لكن المشكلة تكون كبيرة مع الجماعة التى لها رسول وهم منسوبون إلى السماء ، فإذا ما جاء رسول من الله فهو يجىء وهؤلاء الأتباع قد أخذوا من ادعائهم بالانتساب لرسالة رسول سابق سلطة زمنية كما حدث مع اليهود والنصارى ، فتعصبوا للدين الذى كانوا عليه متناسين أن كبارهم قد حرفوا المنهج لحساب السلطة الزمنية .

وقد استمر موكب الرسل إلى الخلق ليحمىَ الله الخلق من سيادة الانحراف واصطفى الله أمة محمد صلى الله عليه وسلم لتحمل الأمانة فلن يأتى لها رسول بعد محمد صلى الله عليه وسلم ؛ لأن الله قد ضمن بقاء الخير فى هذه الأمة ، فإذا رأيت أناسا بالغوا فى الإلحاد فثق أن هناك أناسا زادهم الله فى المدد حتى يحدث التوازن ؛ لأن الحق هو القائل :

﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

وفى موضع آخر من القرآن الكريم يقول الحق سبحانه :

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۗ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

إذن فإن امتنع الوازع النفسى فى النفس اللوامة عند فرد من أمة محمد صلى الله عليه وسلم فسوف يأتى أناس مسلمون ينبهونه إلى المنهج ، والحق سبحانه وتعالى لا يعصم الناس من أن يخطئوا فهو القائل :

﴿ وَالْعَصْرِ ۝ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ۝ ﴾

(سورة العصر)

إن الحق جاء بكلمة « وتواصوا » ، ولم يأت بكلمة « وصوا » وذلك لنفهم أن التوصية أمر متبادل بين الجميع ، فساعة يوجد إنسان فى لحظة ضعف أمام المنهج توجد لحظة قوة عند غيره فيوصيه .

وترد هذه المسألة أيضا إلى الموصى ، فقد تأتى له لحظة ضعف أمام المنهج ؛ فيجد من يوصيه وهكذا نرى أنه لا يوجد أناس مخصوصون ليوصوا ، وآخرون مهمتهم تلقى التوصية ، إنما الأمر متبادل بينهم ، وهذا هو التكافل الإيمانى ، والإنسان قد يضعف فى مسألة من المسائل فيأتى أخ مؤمن يقول له : ابتعد عن هذا الضعف ، إن هذه المسألة تحدث بالتناوب لمقاومة لحظات الأغيار فى النفس البشرية ؛ لأن لحظات الأغيار لا تجعل الإنسان يثبت على حال ، فإذا ما رأينا إنسانا قد ضعف أمام التزام ما فعلينا أن نتواصى بالحق ونتواصى بالصبر ، وأنت أيضا حين تضعف ستجد من أخوتك الإيمانية مَنْ يوصيك .

هذا هو الحال فى أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، أما الأمم السابقة عليها فقد كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه ، ولذلك كان لابد أن تتدخل السماء وتأتى برسول جديد ومعه معجزة جديدة تلفت العقول لفتا قسريا إلى أن هناك أشياء تأتى بها المعجزة ، وهى خرق ناموس الكون ، وفى ذلك لفت من الله للناس إلى مناطق القدرة .

وأخذ الله الميثاق على الأنبياء بأن يبلغ كل نبى قومه هذا البلاغ ، انتظروا أن

ترسل إليكم السماء رسلا ، وساعة يجيء الرسول المبلغ عن الله منهجه فكونوا معه ، وأيدوه .

كان الرسل عليهم جميعا السلام مأمورين أن يضعوا فى المنهج . وصلبه أن السماء حينما تتدخل وتأتى برسول جديد فلابد أن يتبعه أقوامهم ، وألا يتعصبوا ضد الرسول القادم ، بل يسلمون معه ويرحبون به ؛ لأن الرسول إنما يجيء ليعاون الناس على المنهج الصحيح ، لكن الأتباع الذين يعشقون السلطة الزمنية تعمدوا التحريف ، ومن أجل أن يحمى الحقُّ خلقه من هذا المرض أنزل الميثاق الذى أخذه على النبيين ، فقال :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَـٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ﴾

(من الآية ٨١ سورة آل عمران)

قد يقول قائل : إن هذا القول يصلح عندما يأتى رسول معاصر لرسول مثلما عاصر شعيب سيدنا موسى عليه السلام ، وكما عاصر لوط سيدنا إبراهيم عليه السلام ، ونقول : هذا يحدث ـ أيضا ـ وإن لم تتعاصر الرسل ، فالحق سبحانه قد أراد لكل رسول أن يعطى لقومه البلاغ الواضح ، وإن لم يتعاصر الرسولان فلابد أن يعطى الرسول مناعة ضد التعصب ، فما داموا قد آمنوا بالرسول واتبعوه فعليهم حسنَ استقبال الرسول القادم من بعد رسولهم ، وكان على كل رسول أن يبلغ قومه : كونوا فى انتظار أن تتدخل السماء فى أى وقت ، فإذا تدخلت السماء فى أى وقت من الأوقات ، وجاءت برسول مصدق لما معكم فإياكم أن تقفوا منه موقف المضارّة ، وإياكم أن تقفوا منه موقف العداوة ، بل عليكم أن « تنصروه » وهذا قول واضح وجلى ولا لبس فيه .

﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَـٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ ﴾

(من الآية ٨١ سورة آل عمران)

ونقول فى شرح معنى : « رسول مصدق لما معكم » .

إن الدين يأتى بقضايا متفق عليها ؛ لأن العقائد واحدة ، والأخبار واحدة ، والقصص واحد ، لكن الذى يختلف هو الحكم التشريعى الذى قد يناسب زمنا ولا يناسب زمنا آخر ، فإذا جاء الرسول بكتاب مصدق لما معكم فى الأمور الدائرة فى منهج العقائد ، أو منهج الأخبار أو منهج القصص فلابد لكم أن تصدقوه .

لكن اليهود لم يفعلوا ذلك ؛ لأن الرسول جاء ليعيد هداية الجماعة التى آمنت بالرسل والتى تؤمن بإله ، وكان مجىء محمد صلى الله عليه وسلم بالمنهج الواضح العقيدة والأخبار الصحيحة غير المحرفة والقصص التى تدعم المنهج كما جاء بالتشريع المناسب وكان مجىء النبى الخاتم مزلزلا لمن استمرءوا السلطة الزمنية ، فمنهم من أصر على اتباع رسولهم فقط وبالمنهج الذى تم تحريفه ورفضوا اتباع الرسول الجديد ، ومنهم جماعة أخرى آمنت ، بالرسول صلى الله عليه وسلم ، وكانت هناك جماعة ثالثة تؤمن برسول آخر ، والخيبة تأتى نتيجة للتعصب ، ولذلك كانت دعوة الإسلام هى لتصفية العقائد ، ودعوة لكل متبع لأى رسالة سابقة أن يدرس ويناقش ، هل الدين الخاتم قد جاء بما يختلف عن الأديان السابقة فى العقائد ؟ أو جاء مصدقًا لها ؟

لقد جاء الدين الخاتم مصدقا لما سبقه فى العقائد والأخبار والقصص وإن اختلف فى التشريعات التى تناسب زمنا ولا تناسب زمنا آخر ، فكأن الحق سبحانه وتعالى أراد أن يعصم البشرية من العصبية الهوجاء ، والعصبية العمياء التى تنشأ من اتباع رسول لتقف سدا حائلا أمام رسول آخر ؛ فالله حين أرسل كل رسول قد أعطاه الأخبار والحقائق وأنه سبحانه قد أخذ الميثاق على كل نبى أرسله بأن يكون على استعداد هو والمؤمنون معه لتصديق كل رسول يأتى معاصرا ومصدقا لما معهم ، وأن يؤمنوا به ، وأن يبلغ كل رسول أمته بضرورة هذا الإيمان .

لماذا ؟ لأن الحق سبحانه وتعالى يريد من الركب الإيمانى المتمثل فى مواكب الرسل ألا يكون بعضهم لبعض عدوّا ، بل عليهم أن يواجهوا أعداء قضية الدين كلها . فالذى يجعل الإلحاد متفشيا فى هذا العصر هو أن المنسوبين إلى الأديان السماوية مختلفون ، وربما كانت العدواة بينهم وبين بعضهم أقوى من العدواة بينهم وبين

الملحدين والمنكرين لله ، وهذا الاختلاف يعطى المجال للملحدين فيقولون : لو كانت هذه الأديان حقا لاتفقوا وما اختلفوا ، فما معنى أن يقول أتباع كل رسول: إنهم يتبعون رسولا قادما من السماء ؟

إن الملحدين يجدون من اختلاف أتباع الديانات السماوية فرصة ليبذروا فى الناس بذور الإلحاد ، ولا يجدون تكتلا ولا قوة إيمانية لمن يؤمن بالسماء أو بمنهج السماء لكن الحق سبحانه يقول : « وإذ أخذ الله ميثاق النبيين » وهذا يعنى أنه سبحانه قد أخذ الميثاق على كل نبى ساعة أرسله أنه قد آتاه الكتاب والحكمة ، وأنه إذا جاءكم رسول مصدق لهذا الكتاب وتلك الحكمة فعليكم الإيمان به ، ولا يكفى إعلان الإيمان فقط ، بل لابد أن يكون النبى ومن معه فى نصرة الرسول الجديد نقول : ولو عمل أتباع كل نبىّ بهذا العهد والميثاق لما كان لهؤلاء الملحدين حجة ويضيف سبحانه : « قال ، ءأقررتم وأخذتم على ذلكم إصرى قالوا أقررنا قال فاشهدوا » والإقرار سيد الأدلة كما يقولون ؛ والإصر هو العهد الشديد ، ولذلك يقال : « آصرة المودة » أى الرابطة الشديدة المعقودة . وقال الموكب الإيمانى للأنبياء موجهين إقرارهم لله تعالى « أقررنا » ، فقال الحق سبحانه : « فاشهدوا » . والشهادة دائما تقتضى شاهدا ومشهودا عليه ومشهودا به .

ومادام الحق سبحانه هو الذى يقول للنبيين الذين أخذوا منه العهد والميثاق الحق : « فاشهدوا » ، إذن فهم فى موقف الشاهد ، وما المشهود عليه ؟ وما المشهود به ؟ هل يشهدون على أنفسهم ؟

أو يشهد كل نبى على الأنبياء الآخرين ؟

أو يشهد أنه قد بلغ أمته هذا القرار الإلهى ؟

إن الرسول يشهد على أمته ، وأن الأنبياء يشهد بعضهم لبعض .

إذن قد يكون الشاهد نبيا ، والمشهود له نبى آخر ، والمشهود به أن يؤمنوا بالرسول القادم وينصروه .

وقد يكون الشاهد النبى ، والمشهود عليه هى أمته بأنه قد بلغها ضرورة الإيمان بالرسول القادم بمنهج السماء ؛ لأن الأمة مادامت قد آمنت برسول فعليهم مؤازرة هذا الرسول ، ومؤازرة مَنْ يأتى من بعده ، وذلك حتى لا يتبدد ركب الإيمان وُمام باطل الإلحاد :

﴿ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾

(من الآية ٨١ سورة آل عمران)

ولنرتب الشهادات التى وردت فى هذه الآية الكريمة : الأنبياء يشهد بعضهم على بعض ، أو الأنبياء يشهدون على أممهم ، ثم شهادة الله على الأنبياء .

ومادام الأمر قد جاء بهذا التوثيق فعلينا أن ننبه أنه إذا ما وجدنا دينا سابقا يتعصب أمام دين لاحق ، بعد أن يأتى هذا الدين بالمعجزة الدالة على صدق بلاغ ذلك الرسول عن الله فلنعلم أنهم خانوا هذه القضية . وسبب ذلك إنما يرجع إلى أن الله يريد أن يحتفظ للدعوة إلى الإيمان ، بانسجام تام ، فلا يتعصب رسول لنفسه ولا لقوميته ولا لبيئته ، ولا يتعصب أهل رسول لملتهم أو نحلتهم ؛ لأنهم جميعا مبلغون عن إله واحد لمنهج واحد ، فيجب أن يظل المنهج مترابطا فلا يتعصب كل قوم لنبيهم أو دينهم ، وهذا ليكون موكب الرسالات موكبا متلاحما متساندا متعاضدا ، فلا حجة من بعد ذلك لنبى ، ولا لتابع نبى أن يصادم دعوة أى رسول يأتى ، مادام مصدقا لما بين يديه .

لقد أعلمنا الحق أنه قد عرض شهادة الأنبياء على بعضهم ، وشهادة الأنبياء على أممهم ، وشهادة الله سبحانه على الجميع ، وذلك أوثق العهود وآكدها : ولذلك فكل من استمع لهذا يجب أن ينصر أى رسول يأتى مصدقا لما معه ، وبذلك يزداد موكب الإيمان تآزرا وتلاحما ، فلا يأتى مؤمن برسالة من السماء ليصادم مؤمنا آخر برسالة من السماء .. ولندع المصادمة لمن لا يؤمنون برسالة السماء ، وحين يتكاتف المؤمنون برسالة السماء يستطيعون الوقوف أمام هؤلاء الملاحدة ، وبعد هذا البيان الواضح يقول الحق :

﴿ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾

معنى « تولى » هى مقابل « أقبل » . و« أقبل » تعنى أنه جاء بوجهه عليك . و«تولى» أعرض كما نقول نحن فى تعبيراتنا الشائعة : « أعطانى ظهره » . ومعنى هذا أنه لم يأبه لى ، ولم يقبل على . إذن فالمراد مِنْ أَخْذ العهدِ أن يُقبلَ الناسُ على ذلك الدين ، فالذى يُعرض ويعطى الإيمان الجديد ظهره يتوعده الله ويصفه بقوله : « فمن تولى بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون » بعد ماذا ؟ إنه التولى بعد أخذ العهد والميثاق على النبيين ، وشهادة الأمم بعضها على بعضها ، وشهادة الله على الجميع ، إذن فلا عذر لأحد . فمن أعطى ظهره للنبى الجديد ، فماذا يكون وعيد الله له ؟

إن الحق يصفهم بقوله : « فأولئك هم الفاسقون » أى أن الوعيد هو أن الله يحاسبه حساب الفاسقين ، والفسق ـ كما نعلم ـ هو الخروج عن منهج الطاعة . والمعانى ـ كما تعرف ـ أخذت وضعها من المحسوسات . لأن الأصل فى الوعى البشرى هو الشىء المحس أولا ، ثم تأتى المعنويات لتأخذ من ألفاظ المحسوسات . والفسق فى أصل اللغة هو خروج الرطبة عن قشرتها ؛ فالبلح حين يرطب ، يكون حجم كل ثمرة قد تناقص عن قشرتها . وحينما يتناقص الحجم الطبيعى عن القشرة تصبح القشرة فضفاضة عليه ، وتصبح أى حركة عليه هى فرصة لانفلات الرطبة من قشرتها .

ويقال : « فسقت الرطبة » أى خرجت عن قشرتها . وأَخَذَ الدينُ هذا التعبير وجعله وصفاً لمن يخرج عن منهج الله ، فكأن منهج الله يحيط بالإنسان فى كل تصرفاته ، فإذا ما خرج الإنسان عن منهج الله ، كان مثل الرطبة التى خرجت عن قشرتها .

ونحن أمام فسق من نوع أكبر ، فهناك فسق صغير ، وهناك فسق كبير . وهنا

نسأل أيكون الفسق هنا مجرد خروج عن منهج طاعة الرسول ؟ لكن هذا الخروج يوصف به كل عاصٍ ، أى أن صاحبه مؤمن بمنهج وفسق جزئيا ، إننا نقول عن كل عاصٍ : « إنه فسق » أى أنه مؤمن بمنهج وخرج عن جزئية من هذا المنهج ، أما الفسقُ الذى يتحدث عنه الحق هنا فهو فسق القمة ؛ لأنه فسق عن ركب الإيمان كله ، فإذا كان الله قد أخذ العهد ، وشهد الأنبياء على أممهم ، وشهدت الأمم بعضها على بعض ، وشهد الله على الجميع ، أبعد ذلك تكون هناك فرصة لأن يتولى الإنسان ويعرض ؟

ثم لماذا يتولى ويعرض ؟ إنه يفعل ذلك لأنه يريد منهجا غير هذا المنهج الذى أنزله الله ، فلو كان قد اقتنع بمنهج الله لأقبل على هذا المنهج ، أما الذى لم يقتنع فإنه يعرض عن المنهج ويطلب منهجا غيره فأى منهج تريد يا من لا ترضى هذه الشهادة ولا هذا التوثيق ؟ خصوصا وأنت تعلم أنه لا يوجد منهج صحيح إلا هذا المنهج ، فليس هناك إله آخر يرسل مناهج أخرى .

وهكذا نعرف أنه لا يأتى منهج غير منهج الله ، إلا منهج من البشر لبعضهم بعضا ، ولنا أن نقول لمن يتبع منهجا غير منهج الله : من الذى جعل إنسانا أولى بأن يتبعه إنسان ؟ إن التابع لابد أن يبحث عمن يتبعه ، ولابد أن يكون الذى يتبعه أعلى منه ، لكن أن يتبع إنسان إنسانا آخر فى منهج من عنده ، فهذا لا يليق ، وهو فسق عن منهج الله ؛ لأن المساوى لا يتبع مساويًا له أبدا ، ومن فضل الله سبحانه أنه جعل المنهج من عنده للناس جميعا حتى لا يتبع إنسان إنسانا آخر . لماذا ؟ حتى لا يكون هوى إنسان مسيطرا على مقدرات إنسان آخر ، والحق سبحانه لاهوى له . إن كل إنسان يجب أن يكون هواه تابعا لله الذى خلق كل البشر .

ومادام ليس هناك إله آخر فما المنهج الذى يرتضيه الإنسان لنفسه ؟

إن المنهج الذى يرتضيه الإنسان لنفسه لو لم يتبع منهج الله هو منهج من وضع البشر ، والمنهج الذى يضعه البشر ينبع دائما من الهوى ، ومادامت الأهواء قد وجدت ، فكل مشرِّع من البشر له هوى ، وهذا يؤدى إلى فساد الكون . قال تعالى :

﴿ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَاهُم

بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾

(سورة المؤمنون)

فإذا كانوا لا يرتضون منهج الله ، فأى فسق هم فيه ؟ إنه فسق عظيم ؛ لأن الله قد أخذ عليهم العهد وعلى أنبيائهم ووثق هذا العهد ، أفغير الله يبغون ؟ نعم ، إنهم يبغون غير الله ومن هو ذلك الغير ؟ أهو إله آخر ؟ لا ، فليس مع الله إله آخر ، بل هم قد جعلوا الخلق مقابل الخالق ، ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾

إنهم مادامو غير مؤمنين برسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى أرسله الله نبيا ورسولا فإن ذلك يكشف رغبتهم فى أنهم يريدون منهجا غير منهج الله ، وليس أمامهم إذن إلا مناهج البشر النابعة من الأهواء ، والتى تقود حتما إلى الضلال ، إن الحق سبحانه وتعالى يريد لخلقه أن يكونوا منطقيين مع أنفسهم ، إنه الحق سبحانه وتعالى قد أوضح لنا فى منهجه ، وقال لنا هذا المنهج : أنتم مستخلفون فى الكون ، وأنتم أيها الخلفاء فى الأرض سادة هذا الكون ، سادة يخدمكم الكون كله ، وانظروا إلى أجناس الوجود تجدوها فى خدمتكم ، الحيوان أقل منكم بالفكر . والنبات أقل من الحيوان بالحس . والجماد أقل من النبات .

إذن فأجناس الكون من حيوان ونبات وجماد ترضخ لإرادتك أيها الإنسان ، فالنبات يخدم الحيوان والحيوان يخدمك أيها الإنسان ، والجماد يخدم الجميع ، والعناصر التى نأخذها نحن البشر من الجماد يستفيد منها أيضا النبات والحيوان . إذن فكل جنس فى الوجود تراه بعينيك إنما يخدم الأجناس التى تعلوه .

الجماد يخدم النبات .
والجماد والنبات يخدمان الحيوان .
والجماد والنبات والحيوان فى خدمة الإنسان ، وأنت أيها الإنسان تخدم من ؟

كان من واجب عقلك عليك أيها الإنسان أن تفكر فيمن ترتبط به ارتباطا يناسب سيادتك على الأجناس الأخرى ، كان لابد أن تبحث عمن أعطاك السيادة على الأجناس الأخرى .

هل أنت أيها الإنسان قد سخرت هذه الأجناس بقدرتك وقوتك ؟

لا ؛ فلست تملك قدرة ذاتية تتيح لك ذلك ؟ أما كان يجب عليك أن تفكر ما هى القوة التى سخرت لك ما لا تقدر عليه ، فخدمتك حين لا توجد لك قدرة ، وخدمتك وأنت نائم تغط فى نوم عميق ؟ أما كان يجب أن تفكر هذا الفكر ؟ إنك أيها الإنسان يجب أن تكون منطقيا مع نفسك ، وأن تبحث لك عن سيد يناسب سيادتك على غيرك . والكون لا يوجد فيه سيد عليك ؛ لأن الكون محس ، فإن جاءك من يحدثك بأن غيبا هو الإله يطلب أن تكون فى خدمته فيجب أن تقول : « إن هذا كلام منطقى بالنسبة لوضعى فى الكون » وبعد ذلك انظر إلى الكون ، فأنت فى الكون لست وحدك بل هناك أجناس أخرى ، وكل جنس من الأجناس له قانونه وله مهمته ، للحيوان مهمة ، وللنبات مهمة ، وللجماد مهمة . فهل وجدت جنسا من الأجناس تمرد على مهمته ؟ لا .

إن الحصان مثلا ، تستخدمه كمطية عليها وسادة من حرير وجلد ولها لجام من فضة لتركبه ، وتجد هذه المطية فى يوم آخر تحمل سماد الأرض من روث الحيوان وما تأبت ، لقد أدت الخدمة لك راكبا ، وأدت الخدمة لك ناقلا ، وما تمردت عليك أبدا . كل الأجناس ـ إذن ـ تؤدى مهمتها كما ينبغى ، فاستقام الأمر فيها ، ومادام الأمر قد استقام فيها ، فبأى شىء استقام ؟ إن الله هو الذى خلقها ذللها ، قال لها : « كونى فى خدمة الإنسان مؤمنا كان أو كافرا » وفى هذا الأمر عدالة الربوبية ، فلا تتأخر أو تشذ عن حركتها فى خدمة الإنسان .

أرأى أحدكم الشمس مرة قالت : لم يعد الخلق يعجبوننى ، ولن أشرق عليهم

وسأحتجب اليوم ؟! أتمرد الهواء وقال : لا ، إن الخلق لم تعد تستحق تنفس الهواء ، لذلك لن أمكنهم من الانتفاع بي .

أرأينا المطر امتنع ؟ هل استنبت الإنسان أرضا صالحة للزراعة واستعصت عليه ؟ لا .. فكل شيء في الوجود يؤدي مهمته تسخيرا وتذليلا .

لذلك يقول الحق :

﴿ وَذَلَّلْنَـٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾

(سورة يس)

والحق سبحانه وتعالى يطلق بعضا من الحيوان فلا يذلل ، ولا يستأنس ، وذلك حتى تعلم أيها الإنسان أنك لم تستأنس الجمل بقدرتك فإن كانت لك قدرة مطلقة على الكون فاستأنس بعض ثعابين هذا العالم أو استأنس الأسد . و أنت أيها الإنسان ترى في هذا الكون بعضا من الحيوانات والمخلوقات شاردة مثل الثعابين والحيوانات المتوحشة . بغير استئناس ليدلنا الحق على أن هذا الذي يخدمك لو لم يذلله الله لك لما استطعت أنت بقدرتك أن تذلله ، إنه تذليل وتسخير وخضوع لهذه المخلوقات منحه الله تعالى لك أيها الإنسان تفضلا منه ـ سبحانه ـ مع عجزك وضعفك .

ولم نجد شيئا نافعا قد عصى الإنسان في الكون ، لأن كل الخلق مسخر من الله لخدمة الإنسان كافرا كان أو مؤمنا ، وهذا هو عطاء الربوبية ، لأن عطاء الربوبية يشمل الخلق جميعا ، فالخالق الأكرم هو رب الناس كلهم ويتولى تربيتهم جميعا ، ولذلك تستجيب الأجناس من غير الإنسان للإنسان سواء أكان مؤمنا أم كافرا . فإن أحسن الكافر استخدام الأسباب فإن الأسباب تعطيه ولا تعطى المؤمن الذي لا يستخدم الأسباب ، أو لا يحسن استخدامها فهذا هو عطاء الربوبية ، والربوبية للجميع . أما عطاء الألوهية فهو « افعل ولا تفعل » وهو عطاء للمؤمنين فقط .

فإذا كانت هذه هي صورة الكون وهو يؤدي مهمته بلا شذوذ فيه ، ومنسجم في ذاته انسجاما عجيبا فلنا أن نسأل « من أين جاء الخلل في الكون ؟ » إن الخلل قد

جاء منك أيها الإنسان . ولهذا فنحن لا نجد فسادا فى الكون إلا وللإنسان مدخل فيه ، أما مالا مدخل للإنسان فيه فلا فساد فيه أبدا .

أرأيت أحدا قد اشتكى من أن الهواء قصر ؟ لا .

لماذا ؟ لأن أحدا لا دخل له بمسألة الهواء هذه أبدا ، صحيح أننا نتدخل فى الهواء بتلويثه بالعادم والفضلات ، وصحيح أيضا أن الحق يُكرم الخلق باكتشافات قد تصلح من هذا الفساد إذن ، فحين يتدخل الإنسان فإن الشيء قد يفسد . لكن هل معنى ذلك ألا نتدخل ؟ هل نقف من الكون مكتوفى الأيدى ؟ لا ، بل يجب أن نتدخل فى الكون ، ولكن بمنهج الله .

إنك إن تدخلت فى الكون بمنهج الله ، فكل شيء يسير كما يسير الكون الذى لا منهج له إلا الخضوع والتسخير ، فكما أدت الشمس مهمتها والجماد مهمته ، والحيوان مهمته ، وأنت أيها الإنسان مطلوب منك أن تؤدى مهمتك ، وهى أن تطيع الله ، تلك الطاعة التى تتلخص مطلوباته منك فى : « افعل كذا ولا تفعل كذا » فإن انتظمت مع المنهج بـ « افعل » و« لا تفعل » تكن قد انسجمت مع الكون .

إن الله سبحانه يزيّل هذه القضية ويختمها باستفهام تنقطع وتنفطر له قلوب المؤمنين :

﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

إن كل شيء فى السماوات وفى الأرض قد أسلم لله طوعا أو كرها . وإذا ما تساءلنا ، وما معنى « طوعا ؟» فالإجابة هى طاعة التسخير ، كما قالت السماوات والأرض فى النص القرآنى الحكيم :

﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ

أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ ﴾

(سورة فصلت)

فكل ما لا تكليف له جاء طائعا مسخرا ، وما معنى : « كرها » ؟ إن بعضا من العلماء قد قال : إن « طوعا » تشمل أجناس الملائكة ، والجماد ، والنبات ، والحيوان ، فكل منهم يؤدى مهمته بخضوع ولا يعترض أحد منهم ولا يملك أحدهم قدرة على العصيان ، وأما عن « كرها » فقد فهم بعض العلماء أنهم الناس الذين يخدمون الناس بالقوة كالعبيد مثلا ، ولهؤلاء نقول : لا يصح ولا يستقيم أن نعطى خصوم الإسلام فرصة ليقولوا إن الإسلام قد أكره أحدًا من البشر أن يخدم أحدا كرها ؛ لأن الحق سبحانه قال :

﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ ﴾

(سورة البقرة)

فمادام الله لم يكره أحدًا على الإيمان به فكيف يكره إنسانا ليخدم إنسانا آخر ؟! ولهذا فإننا يجب أن نفهم كرها على وضعها الحقيقى ، والحق سبحانه أبلغنا أن هذا الكون كله مسخر له ، لأنه سبحانه هو الذى خلقه ولا إله غيره وهذه مسألة مسلم بها ، فالكون كله لله ، وهو المدبر والقاهر له ، قال الحق :

﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ ﴾

(سورة المؤمنون)

ومادام هو الواحد وهو الخالق فلن يتمرد أحد على مراده ، وكان يجب أن يفهم الإنسان مهمته على أنه هو الوحيد الذى كلفه الله ؛ لأن بقية الأجناس لا اختيار لها وهى غير مكلفة كما كلف الله الإنسان بـ « افعل » و« لا تفعل » إذن فالتكليف فرع

الاختيار ؛ فالمنهج يقول لك : « افعل كذا ولا تفعل كذا » لأن الذى وضعه يعلم أنه قد خلقك صالحا لأن تفعل ما يأمرك به ، وصالحا لأن تفعل ما لا يأمرك به .

إن اليد ـ مثلا ـ مخلوقة لتتحرك حسب إرادة صاحبها ، بدليل أن الإرادة إن شُلت وانقطع الخيط الموصل للإرادة الآمرة إلى الجارحة الفاعلة عندئذ يحاول الإنسان المصاب بذلك ـ والعياذ بالله ـ أن يرفع يده فلا يستطيع ، فاليد مسخرة لإرادة الإنسان ، وإرادتك أيها الإنسان عندما تسير فى ضوء منهج الله فإنك توجهها فى ضوء « افعل » و« لا تفعل » .

وعندما يقال لك مثلا : « لا تضرب بها أحدًا » فمعنى ذلك أن اليد صالحة لأن تضرب ، وعندما يقال لك : « خذ بيد العاثر » فيدك قادرة على أن تأخذ بيد العاثر . ،فأنت مخلوق على هيئة الطواعية من جوارحك لإرادتك . ويأتى المنهج ليقول لك : « نفذ الإرادة فى كذا ولا تنفذ الإرادة فى كذا » . .

إذن فالإنسان عندما يتبع المنهج فهو يتفق مع الأشياء المسخرة تمام الاتفاق ، ويؤدى كل شىء على خير أداء ، لكن متى يختلف الإنسان عن الانسجام مع الأجناس الأخرى فى الكون ؟ إن الإنسان يختلف عن الانسجام عندما لا يطبق المنهج ، فيشذ عن الركب فى الكون كله ، ولنقرأ قوله سبحانه وتعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿١٨﴾ ﴾

(سورة الحج)

إنها الأجناس كلها ساجدة ، الشمس ساجدة ، القمر ساجد ، والنجوم ، والجبال ، كل هذه الجمادات ساجدة ، وكذلك الشجر والنبات ساجد لله ، والحيوان والدواب ساجدة لله ، وكثير من الناس سجود ، لكن فى مقابل هذا الكثير الساجد من البشر ، هناك كثير غير ساجد لذلك حق عليه العذاب ، ولو أن الإنسان قد أخذ

منهج الله فنفذه لصار كبقية الأجناس ، لكن الإنسان اختلف ، وقال : « أنا سوف آخذ اختيار تحمل الأمانة ، لأنى عالم وعاقل » كما جاء فى القول الحق :

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ ﴾

(سورة الأحزاب)

فلو أخذ الإنسان منهج الله فى « افعل » و« لا تفعل » ، لانسجم الإنسان مع الوجود كله وحين ينسجم الإنسان مع الوجود كله فلن تأتى منه مخالفة أبدا كما لا تأتى مخالفة فى الوجود من غير الإنسان ، وعند ذلك يصبح الكون مثاليا فى الانسجام . ونحن نعرف أن الطموحات العلمية حين تعمل وتشغل العقل فى أمر ما فإنها تريد الخير ، ولكنها تعلم شيئا ، ويغيب عنها شيء آخر ، ولو أخذوا عن الله العليم بكل شيء لصارت الدنيا إلى انسجامها .

إن المخترعين الذين صمموا المحركات التى تتحرك بسائل البنزين قاموا بتسهيل الحركة على الإنسانية ، ولكن العادم والمخلفات الناتجة من البنزين صنعت ضررا بالكون ، ودليل ذلك أن العلماء الآن يبحثون عن أساليب لمقاومة تلوث البيئة . وعندما كان الوقود هو الحطب لم يكن هناك تلوث للبيئة ، لماذا ؟ لأن كل عنصر كان يؤدى مهمته ، فجزء من احتراق الحطب كان يتحول إلى كربون ، وجزء آخر يتحول إلى غازات ، وتنصرف كل الأشياء إلى مساراتها .

إن هذا يدلنا على أن الإنسان قد دخل إلى المخترعات المعاصرة بنصف علم . لقد قدّر الإنسان أنه يريد تخفيف الحركة ، وينقل الأثقال ويختصر المسافات ، لكنه لم ينظر إلى البيئة وتلوثها ، فنشأ عادم يفسد البيئة ، لكن لو كان عند الإنسان القدرة الشاملة على العلم لكان ساعة اختراع هذه المحركات قد بحث عن وضع معادلة لتعدل من فساد العادم .

ولننظر إلى عظمة الحق ، إنه يترك للعقل البشرى أن يتقدم . ولكن العقل البشرى قاصر وينسى من الأشياء ما ينتج عنه الضرر أخيرا . إن الذين اخترعوا

المبيدات الحشرية كانوا يظنون أنهم قاموا بفتح جديد فى الكون ، وتشاء إرادة الحق أن يقوم بتحريم هذه المبيدات القوم أنفسهم الذين اخترعوها ؛ لأنهم وجدوا منها الضرر ، لذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ﴾

(سورة الكهف)

إنك إن أردت أن تكمل صنعتك فابحث عن الحسن فى ضوء منهج الله ، والحق سبحانه يضرب لنا المثل الواضح . إننا نعرف أن عادم صناعتنا ضار كعادم المصانع والسيارات وغيرها ، لكن عادم خلق الله فى الحيوان نافع ، فالإنسان يأخذ روث الحيوان ويصنع منه السماد ليزيد من خصوبة الأرض ، والعجيب أن فضلات الحيوان التى تعطى خصوبة للأرض لا نجد فيها شيئا يقزز ، ولا نجد لها الرائحة التى توجد فى فضلات الإنسان ، لماذا ؟

لأن الحيوان يأكل على قدر حاجته ، إن الحيوان قد يجد أمامه أصنافا كثيرة ، مثل الحشيش الجاف اليابس ، وأمامه النعناع الأخضر ، فلا يأكل النعناع الأخضر ويأكل الحشيش اليابس ، وإذا شبع الحيوان امتنع عن الطعام ، ولذلك لا يُخرج فضلات كريهة الرائحة ، لكن الإنسان ينوع ويلون ويأكل فوق طاقته ويحث شهيته على الانطلاق والانفلات ، إن الحيوان لا اختيار له ، ومحكوم بالغريزة ويجد أمامه هذا الذى يؤكل وذلك الذى لا يؤكل فيختار بغريزته المناسب له ، وإذا امتلأت البطن لا يأكل ؛ لأنه محكوم بالغريزة والتسخير المطلق ، لكن الإنسان يتمتع بالاختيار ، فأفسد عليه هذا الاختيار وأبعده عن منهج الله وجعله بما لديه من قدرة يتجاوز الاكتفاء بحدود الشبع .

وهكذا نرى بوضوح أن الكون كله أسلم لله طوعا فى المسخرات . وإياك أن تفهم أن هناك إسلاما بالقهر والإكراه . وبعض العلماء قد فاتهم ذلك ، وهم يعطون

لخصوم الإسلام حجة فيقولون : « إن دينكم انتشر بإكراه السيف » ولذلك نقول لهم : لا ، إن أحدا لم يسلم كرها أبدا ؛ لأن السيف إنما رفع لشيء واحد هو حماية حرية الاختيار . إن السيف قد رُفع ليمنع الإكراه ، وليمنع تسلط بعض الناس بقوتهم ليجبروا الناس على عقائدهم فقال لهم السيف : « قفوا عند حدكم ، ودعوا الناس أحرارا فى اختيار ما يعتقدون » ، ودليل ذلك أن البلاد التى فتحها الإسلام تجد فيها غير المسلمين ، ولو كان الأمر فتحا بالسيف لما وجدنا ديانات أخرى . غير الإسلام ، نجدهم أيضا يتشدقون بذلك ويزيدون « إنكم تفرضون جزية » .

ونقول لهم : أنتم تردون على أنفسكم ، نحن لم نفرض جزية على المؤمن ولكن الكافر تركناه على كفره ، والجزية يدفعها الكافر ليدافع عنه المؤمنون لو أصاب البلاد مكروه .

إذن فكيف نفهم قوله الحق بأن هناك من أسلم كرها ؟

نحن نفهمها كالآتى : إن الإنسان هو الذى انقسمت عنده المسائل ، وفيه أمور تدخل فى فعله ومراداته ، وفيه أمور تحدث قهرا عنه ، وتحدث له بلا إرادة ولا اختيار ، فالإنسان يكون مختارا فى الفعل الذى يقع منه ، أما الفعل الذى يقع عليه أو فيه فلا دخل له فيه بالاختيار ؛ إن أحدا منا لا يختار يوم ميلاده ، أو يوم وفاته أو يوم إصابته بالمرض ، والإنسان الذكى هو الذى يعرف ذلك ونقول للإنسان الذى لا يعرف أو يتجاهل ذلك : أيها الإنسان دعك من الغباء ؛ إن هناك زوايا من حياتك أنت مجبر فيها على أن تكون مسلما لله كرها إنك تسلم لله دون إرادتك فى كثير من الأمور التى تقع عليك ، ولا تستطيع لها دفعا ، فلماذا تقف فى الإسلام عند زاوية الاختيار ؟

إن المسخرات كلها مسلمة لله ، والإنسان فيما يقع فيه أو عليه من أمور لا يستطيع دفعها . هو تسليم لله كرها من الإنسان ، وهكذا نرى أن قيادة التسخير فيما ليس لك دخل فيه أيها الإنسان هى مسلمة لله ، مثلك فى ذلك مثل كل الكائنات ، أفلا يجب عليك أن تسلم بكل زوايا حياتك ؟ فلو كان هناك إنسان كافر بكل ما فيه من أبعاض فعلى هذا الكافر ألا يسلم بأى شيء من جوارحه ؛ هل يستطيع أن يمنعها من أن تؤدى عملها ؟

ولنر ما سيحدث له لابد أن يتوقف عن التنفس ؛ لأن التنفس يحدث رغما عنه ، لا بد أن يوقف دقات قلبه ؛ لأنها تدق رغما عنه . ومادام هناك من يستمرىء الكفر فليحاول أن يجعل كل ما فيه كافرا ، ولن يستطيع ؛ بل سيجد أنه يحب أمورا ولا تأتى له ، ويكره أمورا وتنزل به ، ولن يفلت أحد من الإسلام لله ، لأن الله قد اختار لكل إنسان يوم الميلاد ويوم الموت ، واختار الله للإنسان أن تجرى الأحداث فوقه ولا يستطيع دفعها ، ويصبح خاضعا رغم أنفه ، لذلك قال الحق : « وله أسلم من فى السموات والأرض طوعا وكرها وإليه يرجعون » .

إذن ولنأخذ « طوعا » لغير الإنسان ، وللمؤمن الذى نفذ تعاليم المنهج ، ولنأخذ « كرها » فى المسائل التى لا دخل لاختيار الإنسان فيها وتقع عليه وهو يكرهها ، ولا يستطيع دفعها ، لأن الذى يجريها عليه هو الخالق الفعال لما يريد ، ومادامت هناك زاوية من حياتك أيها الإنسان أنت مكره فيها فلماذا تمردت فى المسألة الاختيارية ؟

كان يجب أن يأخذ الكافر هذه النقطة ويقول للكفر : « لا » ، ويتجه إلى الإيمان ؛ لأن المؤمن يأخذ هذه النقطة ويقول : أنا أريد أن أنسجم مع الكون كله حتى لا تطغى ملكة على ملكة ، ولا تطغى إرادة على إرادة أخرى ، وهذه رحمة من الله بالخلق .

وحين يسلم الإنسان منهجه لله فإنه يفعل ما يطلبه المنهج ولا يفعل ما يحرمه المنهج ومن يريد أن يقف فى « افعل » و« لا تفعل » ، نقول له : إذا فعلت ما الذى يستفيده الله منك ؟ وإذا لم تفعل ما الذى يضر الله منك ؟

لا شىء ، إن عليك أن تفكر جيدا فالأمر إنما يُرَدّ أو يتمرد عليه إن كان للأمر فيه مصلحة ، وحيث إنه لا مصلحة للحق سبحانه وتعالى فى مراداته من الخلق إلا إصلاح الخلق ذاته ، إذن فمنهج الحق هو لمصلحة الإنسان ، وأول ما يصاب به من يقف فى منهج الله أنه يصبح ضد نفسه ، ولا ينسجم مع الكون ، فإن كان هناك من يريد ألا يسلم ، فليجرب نفسه بألا يسلم فى المقهورات التى هو مقهور عليها ، وهذا أمر مستحيل .

ولنقرأ الموقف القرآنى بدقة ، لنرى أنه الحق بعد القسم وبعد العهد وبعد الإشهاد

عليه ، قال لنا : « أفغير دين الله يبغون وله أسلم من فى السماوات والأرض طوعا وكرها وإليه يرجعون » . إن من يبغى غير دين الله ليس منطقيا مع نفسه أو مع الكون ؛ لأن الكون كله لله بما فيه ومن فيه من السماوات والأرض ، وكذلك الإنسان الذى ارتضى منهج الله ، وأيضا أسلم الكافر لله فيما ليس له فيه اختيار .

« وأسلم » فى هذا السياق القرآنى الكريم تعنى أنه خضع وسُخر ، وقُهر على أن ينفذ ، ولكن الحق سبحانه أورد عن السماء والأرض فقال:« قالتا أتينا طائعين » . إن المألوف أن ترضخ السماء والأرض لأمر الله ، وعندما « قالتا أتينا طائعين » فقد كسبت السماء والأرض الإسلام لله ، فإلى الله كل مرجع فالإنسان ـ مؤمنا كان أو كافرا ـ سيعود إلى الله حتما .

وكلمة « يرجعون » التى تأتى فى تذييل الآية يمكننا أن نراها فى مواقع أخرى من القرآن مرة تأتى مبنية للمفعول وننطقها « يُرجعون » بمعنى أنهم مقهورون على الرجوع إلى الله ، ونجدها فى مواقع أخرى فى القرآن كفعل مبنى للفاعل فننطقها « يَرجعون » ، أى أنهم يريدون الإسراع فى العودة إلى الله ، وفى هذه الآية نفهم أن الذين يبغون غير دين الله لا يرغبون أن يعودوا إلى الله لذلك يتم إرجاعهم بالقهر ، فسبحانه وتعالى يقول :

﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ ﴾

(سورة الطور)

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ

مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾

عندما ننظر إلى هذه الآية بخواطرنا فإننا نجد أن الحق يمزج الرسول والمؤمنين به والمرسل إليهم فى الإيمان به ، ويتحدث إلى الرسول والمؤمنين كوحدة إيمانية ، إن قول الحق : « قل » هو خطاب لمفرد هو النبى صلى الله عليه وسلم ، والمقول : « آمنا » دليل على انسجام الرسول مع الأمة المؤمنة به ، فكأن الأمة الإسلامية قد انصهرت فى « قل » ، وكأن الرسول موجود فى « آمنا » ، وبذلك يتحقق الامتزاج والانسجام بين الرسول وبين المؤمنين به ، ويصير خطاب الحق إليهم هو خطاب لوحدة إيمانية واحدة لا انفصام فيها .

وقد جاء الحق بهذا الأسلوب ليوضح لنا أن الرسول لم يأت ليتعالى على أمته ، بل جاء ليحمل أعْبَاءَ هذه الأمة ، ولذلك قلنا من قبل : إن للرسول صلى الله عليه وسلم إيمانين ، لقد آمن بالله ، وآمن للمؤمنين ، وهو صلى الله عليه وسلم سيشفع لنا ، لأنه قد أدى مُؤدى يسع أمته كلها ، لقد أتم البلاغ وخضع للتكليف بما يسع أمته كلها ، ولذلك يقول الحق : « قل آمنا » ، كان القياس أن يقول : « قل آمنتُ » ، أو أن يقول : « قولوا آمنا » . لكن الحق فى قرآنه الكريم يضع كل كلمة فى موضعها ، فتصبح الكلمة جاذبة لمعناها ، ويصبح كل معنى عاشقا لكلمته ، وقد قال الحق هنا : « قل آمنا » ليتضح لنا أن محمدا رسول ممتزج فى أمته ، وأمة الإسلام فى طواعية لرسولها ، والأمر يأتى لرسول الله من الحق سبحانه ، والتنفيذ لهذا الأمر يكون من الجميع ، وفى هذا إشعار للخصوم أن الرسول صلى الله عليه وسلم سيكون ذا عصبية إيمانية قوية ، فلو قال : « قل آمنت » لكان معنى ذلك أن الرسول لن يملك إلا إيمانه فقط ، لكن الرسول صلى الله عليه وسلم آمن به قومه ، وكثير غيرهم وجاء على يديه فتح مكة كما قال الحق :

﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ ﴾

(سورة النصر)

وعندما نقرأ قوله الحق : « قل آمنا بالله وما أنزل علينا » فلنا أن نلتفت إلى أن العلماء لهم وقفة فى مسألة الإنزال ، فمرة يقول الحق :

﴿ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ ﴾

(سورة البقرة)

ومرة أخرى يقول الحق :

﴿ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾

(سورة النحل)

وهكذا نجد أن « الإنزال » يأتى مرة متعديا بـ « إلى » ، ويأتى مرة أخرى متعديا « بعلى » . وقال بعض من العلماء : إن الكلام حينما يكون موجها لرسول الله صلى الله عليه وسلم فالحق يقول : « أنزل عليك » ، وكأن هؤلاء العلماء ـ دون قصد منهم ـ يفصلون بين بلاغ الله للرسول عن البلاغ إلى أمة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولم يلتفتوا إلى أن الغاية من إنزال المنهج على الرسول هو هداية الأمة .

ونحن نقول : إن علينا ألا نأخذ الأمر بسطحية من أسلوب ظهر لنا ؛ ذلك أن هناك أسلوبا خفيًّا ، وهو أن « إلى » و« على » إنما تفيدان أن المنهج نزل للأمة والرسول صلى الله عليه وسلم ؛ فمرة يأتى الحق بالنزول متعديا بـ « إلى » والخطاب موجه للرسول صلى الله عليه وسلم كقوله الحق :

﴿ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾

(سورة المائدة)

ومرة يأتى الحق بالنزول متعديا بـ « على » والخطاب موجه للرسول صلى الله عليه

وسلم كقوله الحق :

﴿ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾

(سورة النحل)

ومرة ثالثة يأتي الحق بالإنزال في حديث إلى المؤمنين :

﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾ ﴾

(سورة النساء)

إنه كتاب منزل من السماء وملحوظ فيه العلو ، والغاية من النزول هو مصلحة الأمة ، فالإتيان بـ (على) يفيد العلو ، ولمصلحة الأمة ، « والعلية » هنا لتزيد مقام المنهج بالنسبة للمؤمنين فهو قد نزل لمصلحتهم . إذن فالنزول يقتضي « علّية » ، وهو من حيث العلو يأتي بـ « على » ، ومن حيث الغاية يأتي بـ « إلى » ، فهو منهج نزل من الحق الأعلى ونزل إلى الرسول وعلى الرسول ليبلغه إلى المؤمنين لمصلحتهم . ولذلك قلنا : إننا إذا رأينا حكما يقيد من حرية الفرد فلا يصح أن نفهم أن الله قد قصد هذا الفرد ليقيد حريته ، إنما جاء مثل هذا القيد ليقيد الملايين من أجل حرية الفرد ، مثال ذلك ساعة يحرم المنهج السرقة على الإنسان ، فهو أمر لكل إنسان من الملايين وهو لمصلحة كل إنسان ، فالقرآن قد نزل لمصلحتك ، ومصلحة المؤمنين جميعا .

وعندما نقرأ قوله الحق : « قل آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط ، وما أوتي موسى وعيسى والنبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون » . فهذا القول يوضح أن الرسول صلى

الله عليه وسلم إنما جاء بمنهج يضم صحيح العقائد والقصص والأخبار ، وهو يوافق ما جاء فى موكب الرسالات من يوم أن خلق الله الأرض وأرسل الرسل. وقد أخذ الله العهد على الأمم والأنبياء من قبل ، بأنه إذا جاء رسول مصدق لما معهم ليؤمنن به ، وكذلك أخذ الله العهد على رسولنا صلى الله عليه وسلم بأن يؤمن بالرسل السابقين ، فهو صلى الله عليه وسلم لم يأت ليهدم أديانا ، ولكن ليكمل أديانا ، وهكذا نرى النص القرآنى الجليل :

﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾

(من الآية ٣ سورة المائدة)

كأن الأديان السابقة بكل ما جاء فيها من صحيح العقائد ، والقصص ، والأخبار موجودة فى الإسلام ، وفوق كل ذلك جاء الإسلام بشرائع تناسب كل زمان ومكان ، ولذلك قال الرسول صلى الله عليه وسلم فى حديث شريف :

« إنما مثلى ومثل الأنبياء قبلى كمثل رجل بنى بنيانا فأحسنه وأجمله وأكمله إلا موضع لبنة فجعل الناس يطوفون به ويقولون ما رأينا أحسن من هذا لولا موضع هذه اللبنة فكنت أنا اللبنة »[1]

إذن فزمام كل الأمر انتهى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد أخذ الله العهد على غيره أن يصدقوه عندما يجىء ، وهو صلى الله عليه وسلم آمن وصدق بمن سبق من الرسل ، ولن يجىء من بعده شىء يطلب من رسول الله ولا من أمته أن يصدقوه ، وقال الحق تذييلا لهذه الآية الكريمة : « ونحن له مسلمون » .

أى أنه لا يوجد لأتباع أى رسول من الرسل السابقين ما يعطيهم سلطة زمنية ، بل المسألة كلها تبدأ من الله ، وتنتهى إلى الله . وتلك هى القضية النهائية فى موكب

(١) رواه البخارى ومسلم .

الرسالات . ومادام الإسلام هو ذلك الانقياد الذى يختاره الإنسان لنفسه ليكون منسجما مع نفسه فى الإسلام لله ، ويكّون انسجاما مع الكون الآخر وما يحتويه من حيوان ونبات وجماد وغيرها فى أنه أسلم خضوعا لله ، وبذلك يصبح الكون بما فيه الإنسان المؤمن المسلم لله كله مسخرًا لله سبحانه وتعالى . ومادام الكون بالإنسان قد صار مسخرا لله فلا تضاد فى حركة لِتعاند حركة أخرى ؛ لأن الذى يهيمن هذه الهيمنة هو الذى وضع لكل إنسان فى مجال حركته فى الحياة قانونا يعصمه من أن يصطدم بغيره ، وإذا كان البشر قد استطاعوا أن يضعوا لأنفسهم معايير تمنع التصادم فى الحركة ، ذلك التصادم الذى يؤدى إلى كوارث ومصائب .

مثال ذلك ، لننظر إلى السكك الحديدية ، ألا يوجد موظف اسمه « المحولجى » ؟ ومعنى هذه الوظيفة هو أن القائم بها يقوم بتحويل القاطرة القادمة من طريق معين إلى مسار محدد حتى لا تدهم قاطرة أخرى جاءت من الطريق نفسه . إن ذلك من فعل الإنسان فيما صنع من قطارات ومواصلات ، لقد صنع أيضا وسائل تمنع تصادمها ، فما بالنا بالحق ـ وله المثل الأعلى ـ وهو الذى خلق الإنسان ؟ إنه سبحانه قد وضع المنهج حتى لا تصطدم حركة فى الوجود بحركة أخرى .

ولننظر إلى الأشياء التى جاءت بقانون التسخير ، والأشياء التى دخلت فى ظل الاختيار . أسمعنا أن جملين سارا فى طريقين متعارضين واصطدم الجمل بجمل ؟ لم يحدث ذلك أبدا ، فالجمل يفادى نفسه وما يحمل من الجمل الآخر وما يحمله ، لكننا نسمع عن تصادم سيارة مع سيارة ، ذلك أن السيارة لا تسير بذاتها بل تسير بقيادة إنسان مختار ، وهو الذى يصدم وهو الذى قد تأتى منه فى غفلته الكوارث .

إذن فتصادم حركة بحركة إنما ينشأ فى الأمور الاختيارية ، أو غفلة إنسان عن مهمته ، كغفلة « المحولجى » عن عمله فى تنظيم مرور القطارات ، لكن تصادم حركة فى الوجود بحركة أخرى فى الوجود هو أمر مستحيل ، ولا يحدث أبدا ؛ لأنّ الأمر الذى مازال فى يد المهيمن الأعلى ، مهيمن الأرض والسماء ، وهو الله الذى يسير الكون منسجما ويعرفنا بصفاته فيقول : « الله لا إله إلا هو الحىّ القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم » ومعناه : أنى أنا القائم بأسبابكم ومدبر أمركم ولا أنام أو تأخذنا سنة أو غفلة أى فناموا أنتم فقد سخرت الوجود كله من أجلكم .

ومادام الأمر فى الإسلام هكذا ، والوجود ينسجم مع نفسه ، فلماذا تشذ أنت أيها الإنسان عن الوجود ؟ ولماذا تشذ عن ملكات نفسك ؟

لماذا لا تكون منسجما مع الكون ؟ إنك إن انسجمت مع نفسك ومع الكون صرت الإنسان السعيد .

وفى عصرنا الحديث نرى ارتقاء العالم ماديا بصورة عالية ، بحيث يقع الحدث فى أمريكا مثلا فنراه على شاشة التليفزيون فورا ، ويركب الإنسان مركبا صاروخيا إلى الفضاء ولكن هل استراح العالم ؟ لا ، لقد ازداد العالم عناء ، وكأنه يكد ذهنه ويرهق العلماء فى معاملهم لابتكار أشياء تعطى للعالم مزيدا من القلق والاضطراب وتتصادم وتتعارض . وبذلك صار الكون لا يفرغ أبدا من حرب باردة أو ساخنة .

كل ذلك إنما ينشأ من إدارة أمور العالم بأهواء البشر ، فلسنا جميعا مردودين إلى منهج واحد يأمرنا فنأتمر ، وينهانا فننتهى ، بل كل إنسان يتبع فى عمله هواه ، لذلك نرى القلق والاضطراب ، ونرى الصرخات تملأ الدنيا من أهوال ومصائب ، منها مثلا المخدرات وغيرها. إن الذى يدمن المخدرات هو إنسان غير راض عن واقع حياته، فلا يريد مواجهة حياته ، إنما يحاول الهرب منها بالإدمان ، ونقول لمثل هذا الإنسان : ليس هذا حلا للمشكلة ؛ لأن الإنسان عندما تأتيه مشكلة فهو يحتاج عقلا على عقله ليواجه هذه المشكلة ، وأنت بهذا الإدمان إنما تُضَيِّع عقلك ، رغم أنك مطالب بأن تأتى بعقل آخر بجانب عقلك لتحل مشكلتك ، فالهرب من المشكلة لا يحلها ، إنما الهروب غباء وقلة فطنة فالمشكلة زادت تعقيدا ونقول للمجتمعات التى تشكو من مثل هذه البلايا لو أخذتم شرائعكم من منهج الله لكان ذلك حماية لكم من مثل تلك الكوارث .

وهكذا نرى أن كل الابتكارات تُوجه دائما إلى الشر أولا ، فإذا لم يوجد لها ميدان شر فإننا نوجهها إلى الخير ، ويا ليته خير خالص لوجه الله ، لا ، إنه خير مجنح ومنحرف عن الخير لأن الذى لا يملك هذا اللون من الاختراعات كالشعوب النامية والعالم الثالث قد جعله المخترعون بوساطة هذه الاكتشافات والمخترعات مستعبدا ومقهورا لهم ؛ إنهم جعلوا تقدمهم استعبادا وإذلالا لغيرهم وإن تظاهروا بغير ذلك .

لماذا يحدث كل ذلك ؟ لأننا لم نكن منطقيين ـ كما يجب ـ مع أنفسنا ولا مع واقع

الأمور النهوضية التى نحن فيها فالطموحات العلمية التى لا حد لها لا يصح أن تسبب لنا كل هذا التعب ، بل كان المفروض بعد الوصول إلى تحقيق هذه الطموحات أن نستريح ، ولكن لِمَ لم يحدث هذا ؟ لأن زمامنا نحن البشر بيد أهوائنا ، والأهواء ليست هى اليد الأمينة ، إن اليد الأمينة هى شرع الله الذى لم يشرع إلا لمصلحة من خلق ، ومادام الإسلام يرسم طريق الأمان مع الخالق والنفس والكون الذى نحياه ، بما فيه من الأجناس الأخرى ، إذن فالدين عند الله هو الإسلام ، وهذه هى النتيجة الحتمية لذلك يقول الحق سبحانه : « ونحن له مسلمون » ويتبعها الحق سبحانه بقوله :

﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾

إن الغاية التى تسعد العالم كله هى دين الإسلام ، ومن يرد دينا غير ذلك فلن يقبله الله منه . فإن كان هناك من لا يعجبه تقنين السماء ويقول مندهشا : إن فى هذا التقنين قسوة ؛ إنك تُقطع يد إنسان وتشوهه نرد على مثل هذا القائل : إن سيارة تصدم سيارة تشوه عشرات من البشر داخل السيارتين ، أو قطار يصاب بكارثة فيشوه مئات من البشر .

ونحن عندما نبحث عن عدد الأيدى التى تم قطعها فى تاريخ الإسلام كله ، فلن نجدها إلا أقل كثيرا من عدد المشوهين بالحوادث ، وأى ادعاء بالمحافظة على جمال الإنسان مسألة تثير السخرية ؛ لأن تقنين قطع يد السارق استقامت به الحياة ، بينما الحروب الناتجة عن الهوى شوهت وأفنت المئات والآلاف ، إن مثل هذا القول سفسطة ، هل معنى تشريع العقوبة أن يحدث الذنب ؟ لا ، إن تشريع العقوبة يعنى تحذير الإنسان من أن يرتكب الذنب .

وعندما نقول لإنسان : « إن قتلت نفسا فسيتولى ولى الأمر قتلك » أليس فى ذلك

حفاظ على حياته وحياة الآخرين ؟ وحين يحافظ التشريع على حياة فرد واحد فهو يحافظ فى الوقت نفسه على حياة كل إنسان ، يقول الله تعالى :

﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰأُولِي الْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾

(سورة البقرة)

وهكذا يصبح هذا التقنين سليما غاية السلامة ، إذن فقول الحق سبحانه : « ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه » يدلنا على أن الذى يشرع تشريعا يناقض ما شرعه الله فكأنه خطأ الله فيما شرع ، وكأنه قد قال لله : أنا أكثر حنانا على الخلق منك أيها الإله ؛ لأنه قد فاتتك هذه المسألة .

وفى هذا القول فسق عن شرع الله ، وعلى الإنسان أن يلتزم الأدب مع خالقه . وليرد كل شىء إلى الله المربى ، وحين ترد أيها الإنسان كل شىء إلى ربك فأنت تستريح وتريح ، اللهم إلا أن يكون لك مصلحة فى الانحراف . فإن كان لك مصلحة فى الانحراف فأنت تريد غير ما أراد الله ، أما إذا أردت مصلحة الناس فقد شرع الحق ما فيه مصلحة كل الناس ؛ لذلك قال الحق : « ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين » .

وقد يقول قائل فى قوله تعالى : « فلن يقبل منه » إن هذه العبارة لا تكفى فى منحى اطمئناننا إلى جزاء العمل الذى أتقرب به إلى الله،فالله قد يقبل وقد لا يقبل فهو ـ سبحانه ـ لا أحد يكرهه على شىء ، ونقول له:إنك ستأتى إلى ربك رضيت أو أبيت فما حاجتك إلى هذا القول ؟ لو كنت تستطيع أن تعجز الله وتفوته فلا يقدر عليك؛ لحقَّ لك أن تقول ذلك ، ولكنك لا تستطيع ، فكن عاقلا ولا تتمرد على أمر ربك ، ويقول الحق : « وهو فى الآخرة من الخاسرين » . والخاسر : مأخوذة من « الخسر » ، و« الخسر » هو ذهاب رأس المال وضياعه ، والآخرة حياة ليس بعدها حياة ، ومن الغباء أن يقول قائل : « سوف أتعذب قليلا ثم تنتهى المسألة » لا ، إن المسألة لا تنتهى ؛ لأن الآخرة حياة دائمة ولا حياة بعدها . وبعد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾

إننا نرى هنا الأسلوب البديع ؛ إن الحق سبحانه يدعونا أن نتعجب من قوم كفروا بعد الإيمان ، إنهم لو لم يعلنوا الإيمان من قبل لقلنا : إنهم لم يذوقوا حلاوة الإيمان ، لكن الذى آمن وذاق حلاوة الإيمان كيف يقبل على نفسه أن يذهب إلى الكفر ؟ إنه التمرد المركب .

وقد يتساءل إنسان قائلا : مادام الله لم يهدهم ، فما ذنبهم ؟ نقول له : يجب أن تتذكر ما نكرره دائما ، لتتضح القضية فى الذهن لأنها قضية شائعة وخاصة عند غير الملتزمين ، الذين يقول الواحد منهم : إن الله لم يرد هدايتى ، فماذا أفعل أنا ؟ إن ذلك استدلال لتبرير الانحراف ومثل هذا القول لا يصدر إلا من المسرف على نفسه ، ولا يأتى هذا القول أبدا من طائع لله ، إن الذى يقول : « إن المعصية إنما أرادها الله منى ، فما ذنبى ؟» يجب أن يعرف أن الطاعة من الله ، فلماذا لم يقل : « إن الطاعة من الله فلماذا يثيبنا عليها ؟ لماذا تغفل أيها العاصى عن ذكر ثواب الطاعة ، وتقف عند المعصية وتقول : « إن الله قد كتب على المعصية فلماذا يعذبنى ؟» كان يجب أن نقول أيضا : « مادام قد كتب على الطاعة فلماذا يعطينى عليها ثوابا ؟» .

إننا نقول لمن يبرر لنفسه الانحراف : إنك تريد أن تأخذ من الطاعة ثوابها ، وتريد أن تهرب من عقاب المعصية . وأنت تحتاج إلى أن تفهم الأمر على حقيقته ، لقد قلت من قبل:إن « الهداية » تأتى بمعنيين « هَدَى » أى دل على الطريق الموصلة للغاية المرجوة ولم يصنع شيئا أكثر من ذلك والمثال هو إشارات المرور الصماء ؛ إن كل إشارة توضح طريقا معينا وتهدى إليه ، وإشارة أخرى توضح طريقا آخر وتهدى إليه . ولا يوجد أحد عند هذه الإشارة يأخذ بيد الإنسان ويقول له : أنا سآخذ بيدك وأصلح لك العربة عندما تقف منك ، أو أركب معك لأوصلك إلى غايتك .

إن هذه الإشارة هى هداية فقط ، أى أنها دلالة على الطريق الموصلة إلى الغاية المرجوة والله سبحانه وتعالى قد هدى الناس جميعا المؤمن منهم والكافر أيضا ، أى دلهم سبحانه على الطريق الموصل للغاية . وانقسم الناس بعد ذلك إلى قسمين : قسم قبل هذا المنهج وارتضاه وسار كما يريد الله ، وساعة أن راح هذا المؤمن إلى جناب الله وآمن به ، فكأن الحق يقول له : إنك آمنت بى وبمنهجى ، لذلك ستكون لك جائزة أخرى ، وهى أن أعينك وأخفف عليك الأمور ، وهذه هى الهداية الثانية التى يعطيها الله جائزة لمن آمن به وارتضى منهجه وتعنى « المعونة » ، إن الله يعطى عبده المؤمن حلاوة الطاعة ، ويجعله مقبلا عليها بنشاط .

إذن فالهداية تكون مرة « دلالة » وتكون مرة ثانية « معونة » إننى أكرر هذا القول حتى يتضح الأمر فى أذهاننا جميعا ، ولنذكره دائما ، ونقول : مَن يعين الإنسان ؟ إن الذى يعينه هو من آمن به ، أما من كفر بالله ، فلا يعينه الله .

وسبق أن قلت مثلا ـ ومازلت أضربه ـ : إن إنسانا ما يسير فى طريق ثم التبس عليه الطريق الموصل للغاية كالمسافر إلى الإسكندرية مثلا ، وبعد ذلك وجد شرطيا واقفا فسأله : أين الطريق إلى الإسكندرية ؟

فيشير الشرطى إلى الطريق الموصل إلى الإسكندرية قائلا للسائل : هذا هو الطريق الصحيح إلى الإسكندرية .

إن الشرطى هنا قد دل هذا الإنسان ، لكن عندما يقول السائل للشرطى : « الحمد لله أننى وجدتك هنا لأنك يسرت لى السبيل » فهذا القول يأسر قلب الشرطى ، فيزيد من إرشاداته للسائل ويوضح له بالتفصيل الدقيق كيف يصل إلى الطريق ، وينبهه إلى أى عقبة قد تعترضه ، وإن زاد السائل فى شكره للشرطى ، فإن ذلك يأسر وجدان الشرطى أكثر ، ويتطوع ليركب مع السائل ليوصله إلى الطريق ، شارحا له ما يجب أن يتجنبه من عقبات ، وبذلك يكون الشرطى قد قدم كل المعونة لمن شكره .

لكن لنفترض أن رجلا آخر سأل الشرطى عن الطريق ، فكذب الرجل الشرطى ، وفى مثل هذا الموقف يتجاهل الشرطى مثل هذا الرجل ، وقد ضربت

هذا المثل للتقريب لا للتشبيه . إن الحق يدل أولا بهداية الدلالة ، وقد هدى الله الناس جميعا ، أى دلهم على المنهج ، فمن ذهب إلى رحابه وآمن به ، أعطاه الله هداية ثانية ، وهى هداية المعونة والتيسير .

﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾ ﴾

(سورة محمد)

إن الحق يعطيهم حلاوة الهداية وهى التقوى ، كأن الحق يقول للعبد المؤمن : مادمت قد أقبلت علىّ بالإيمان فلك حلاوة الإيمان ، أما الذى يكفر ، والذى يظلم نفسه بالشرك ، فالحق يمنع عنه هداية المعونة ؛ لأنه قد رأى هداية الدلالة ولم يؤمن بها . إذن فالاستفهام فى قوله تعالى : « كيف يهدى الله قوما كفروا بعد إيمانهم » هو تساؤل يراد به الإنكار والاستبعاد لا عن الهداية الأولى وهى هداية الدلالة ، ولكنه عن هداية المعونة ، أى : كيف أعين من كفر بى ؟

والمقصود بهذا القول هو بعض من أهل الكتاب الذين جاءهم نعت الرسول صلى الله عليه وسلم فى كتبهم حتى إن عبدالله بن سلام وهو منهم ، يقول : لقد عرفت محمدًا حين رأيته كمعرفتى لابنى ، ومعرفتى لمحمد أشد ، ومصداق ذلك ما يقوله الحق سبحانه وتعالى :

﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

والتعبير القرآنى الدقيق لم يقل : يجدون وصفه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل إنما يقول الحق :

﴿ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ ﴾

(من الآية ١٥٧ سورة الأعراف)

كأن الذى يقرأ التوراة والإنجيل يمكنه أن يرى صورة النبى عليه الصلاة والسلام من دقة الوصف ، لقد عرفته التوراة وعرفه الإنجيل معرفة مفصلة وشاملة ، مع نطق وقول يؤكد ذلك وهناك فرق بين أن « تعرف » وبين أن « تقول » ؛ فقد يعرف الإنسان ويكتم ما عرف ، ولكنهم عرفوا الرسول صلى الله عليه وسلم واعترفوا بذلك ، فقد كانوا من قبل يستفتحون به على الذين كفروا ، قال الحق سبحانه :

﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ۚ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾

(سورة البقرة)

لقد أخذوا الرسول صلى الله عليه وسلم قبل مجيئه نصرة على الكافرين ، فقالوا : سيأتى نبى ونتبعه ونقتلكم معه قتل عاد وإرم . فماذا فعلوا ؟ إن الحق يجيب :

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ۚ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾

(من الآية ٨٩ سورة البقرة)

إذن هم آمنوا بالرسول صلى الله عليه وسلم من قبل مجيئه ، فلما جاء كفروا به . انظر إلى العدالة من الحق سبحانه وتعالى ، حين يريد أن يدلهم على موقف الصدق والحق والكرامة الإيمانية .

﴿ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴾

(سورة الرعد)

إن الذين عندهم علم الكتاب هم اليهود والنصارى ، هؤلاء يشهدون أن محمدا رسول الله ، وإن القرآن بعدالته ينصف التوراة والإنجيل وهى الكتب التى بين أيديهم ،

« كيف يهدى الله قوما كفروا بعد إيمانهم وشهدوا أن الرسول حق » لقد آمنوا به رسولا من منطوق كتبهم ، ثم أعلنوها حينما قالوا : « يأتى نبى نتبعه ونقتلكم معه قتل عاد وإرم » .

فإذا كانوا قد صنعوا ذلك ، فكيف يهديهم الله ؟ إنهم ليس لديهم الاستعداد للهداية ، ولم يقبلوا على الله بشىء من الحب ، لذلك فهو سبحانه لا يعينهم على الهداية ولو أقبلوا على الله لأعانهم قال تعالى :

﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴿١٧﴾ ﴾

(سورة محمد)

وهؤلاء لم يهتدوا ، فلذلك تركهم الله بدون هداية المعونة ، وهذا يوضح لنا معنى القول الحق :

﴿ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴾

(من الآية ٨٨ سورة النساء)

إن الذين لم يهتدوا بهداية الدلالة فلم يؤمنوا يضلهم الله أى يتركهم فى غيهم وكفرهم ، أى أنه مادام هناك من لم يؤمن بالله فهل يمسك الله بيده ليهديه هداية المعونة ؟ لا ؛ لأنه إذا لم يؤمن بالأصل وهو هداية الدلالة ، فكيف يمنحه الله هداية المعونة ؟ ومادام لم يؤمن بالله أكان يصدق التيسيرات التى يمنحها الله له ؟ لا . إنه لا يصدقها ، ويجب أن تعلم أن هداية الدلالة هداية عامة لكل مخاطب خطابا تكليفيا ، وهو الإنسان على إطلاقه ، أما هداية المعونة فهى لمن أقبل مؤمنا بالله وكأن الحق يقول له : « أنت آمنت بدلالتى فخذ معونتى » أو « أنت أهل لمعونتى » أو « ستجد التيسير فى كل الأمور » ، أما الذى كفر فلا يهديه الله . .

إن الحق سبحانه لا يعين الكافر ؛ لأن المعونة تقتضى ابتداء فعلاً من المُعان ، والكافر لم يفعل ما يمكن أن ينال به هذه المعونة ، فهو لم يؤمن ، لذلك يكون القول الفصل : « والله لا يهدى القوم الكافرين » ويكون القول الحق « والله لا يهدى القوم الفاسقين » ويكون القول الحق « والله لا يهدى القوم الظالمين » . إن هؤلاء هم

الظالمون الذين ارتكبوا الظلم الأصيل وهو الشرك بالله كما قال الحق :

﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَـٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَـٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ ﴾

(سورة لقمان)

والحق عندما يتركهم فإنه يزيدهم ضلالا ، ويختم على قلوبهم ، فلا يعرفون طريقا إلى الإيمان :

﴿ كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَـٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

لقد جاءهم الرسول بالآيات الدالة على صدق رسالته ، ولكنهم ظلموا أنفسهم الظلم الكبير العظيم ، وهو الشرك بالله ، ولكن هل هذه الآية قد نزلت فى أهل الكتاب الذين كان عندهم نعت لرسول الله صلى الله عليه وسلم وإشارات وبشارات به ؟ أو نزلت من أجل شيء آخر هو أن أناسا آمنوا برسول الله صلى الله عليه وسلم ثم كفروا به ؟

إن القول الحق يتناول الفئتين ، وينطبق عليهم ، سواء أكانوا من أهل الكتاب الذين آمنوا بالرسل من قبل ولم يؤمنوا برسالة محمد عليه الصلاة والسلام ، أم من الذين آمنوا برسالة رسول الله ثم كفروا به ، كما حدث من بعضهم فى عهد الرسول ، مثال ذلك طعمة بن أبيرق ، وابن الأسلت والحارث بن سويد ، هؤلاء أعلنوا الإيمان واتجهوا إلى مكة ومكثوا فيها ، تاب منهم واحد وأخذ له أخوه ضمانا عند رسول الله ، والباقون لم يتوبوا .

إن القول الحق يتناول الفئتين ، وينطبق عليهم جميعا قوله تعالى :

﴿ كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَـٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ

﴿ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

ويفصل لنا الحق سبحانه جزاء هؤلاء بقوله الحكيم :

﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾

واللعنة هى الطرد من الرحمة ، والله يعلم كل ملعون منهم ، وماداموا قد طُرِدوا من رحمة الله فالملائكة وهم المؤمنون بالله إيمان المشهد يرددون اللعنة ، والمؤمنون من خلق الله يرددون اللعنة ، وكذلك يلعنهم جميع الناس ، وكيف يلعنهم كل الناس سواء أكانوا مؤمنين أم كفارا ؟ كيف يلعنهم الكافرون ؟ إن الكافر عندما يرى إنسانا يرتكب معصية ما فإنه ينزله من نظره ويحتقره وإن لم يكن مؤمنا .

وهَب أن كافرا وجد إنسانا يخرج على المنهج ويفعل معصية ويرتكب جُرمًا ألا يلعن الكافر مثل ذلك الإنسان ؟ إنه يلعنه لأن الفطرة المركوزة التى فطر الله الناس عليها ترفض ذلك ولا ترتضيه .

وهكذا شاء الحق أن يجعلهم ككفار يتلاعنون فيما بينهم ، ونجد أن جميع الناس يلعنونهم كذلك ؛ لأنهم قد خرجوا عن منهج الله بالكفر بعد الإيمان ، وجرهم ذلك إلى اقتراف الآثام ، وهكذا تصبح الملاعنة من الجميع ، وهم مع ذلك خالدون فى اللعنة قال تعالى :

﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾

ومعنى « لا يخفف عنهم العذاب » أى أن العذاب يظل دائما أبدا وقد يظن بعض الناس أن الكافر مادام سيدخل النار ويحترق فسوف ينتهى أمره . لا إنه يغفل قضية ويذكر قضية ، إنه يتناسى قول الحق :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾ ﴾

(سورة النساء)

إنهم سيذوقون العذاب بأمر من الحق دائما وأبدا ، وقد يقول بعضهم : إن العلم قد توصل إلى أن الإنسان تقل حساسيته للألم الناتج من الضرب بالسوط بعد العشرين سوطا الأولى ، وهو بذلك ينسى أن العذاب فى الآخرة على نمط آخر ، إن الله يخلق للمعذب إحساسا جديدا ليظل مستشعرا دائما العذاب ، قال الحق : « لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون » أى أن عذابهم مؤكد ولا يتركهم الحق ليستريحوا من عذابهم . وبعد ذلك يقول تعالى :

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾ ﴾

والحق سبحانه وتعالى هو الخالق للخلق كلهم ، يجب أن يكونوا على ما يود

ويحب ؛ لأنهم صنعة الله فهو سبحانه وتعالى يحب التوابين ويحب المتطهرين

وقد أمر عباده أن يتوبوا إليه توبة نصوحاً أي توبة صادقة خالصة لا رجوع فيها هذه التوبة تتسم بالاقلاع عن الذنب والندم على ما فات والعزم على عدم العودة للذنب مرة أخرى ورد المظالم لأصحابها إن كانت هناك مظالم .

وقد قال صلى الله عليه وسلم « إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها »[1] .

وهكذا أوجد الحق تشريع التوبة بهدف إصلاح الكون ؛ لأن الله لو لم يشرع التوبة لمن أذنب فإن من غفل عن منهج الله ولو مرة واحدة قد يصير في نظر نفسه ضائعا فاسدًا مرتكبا لكل الحماقات ، فكأن الله بتشريع التوبة قد ضمن لصاحب الإسراف على نفسه في ذنب أن يعود إلى الله ، كما يرحم المجتمع من شرور إنسان فاسد ، إذن فتشريع التوبة إنما جاء لصالح الكون ، ولصالح الإنسان لينعم بمحبة الله ، لذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

فبرغم كفرهم السابق إلا أن الله برحمته لا يدخلهم في الوعيد ؛ إنهم مطالبون بالتوبة والإصلاح ، ومعنى كلمة « أصلح » أنه زاد شيئا صالحا على صلاحه . والكون ليس فيه شيء فاسد.اللهم إلا ما ينشأ عن فعل اختياري من الإنسان وعلى التائب أن يزيد من الصلاح في الكون ، وهكذا نضمن ألا يجيء التائب إلى الشيء فيفسده ؛ لأن من يريد أن يزيد الصالح صلاحا ، لن يفسد الشيء الصالح .

وربما كان هؤلاء الذين أسرفوا على أنفسهم في لحظة من لحظات غفلة وعيهم الإيماني ساعة يذكرون الذنب أو الجريرة التي اقترفوهابالنسبة لدينهم ، يحاولون أن يجِدّوا ويسارعوا في أمر صالح حتى يَجْبُر الله كسر معصيتهم السابقة بطاعتهم اللاحقة .

---

(١) رواه مسلم في صحيحه .

ولذلك تجد كثيرا من الناس الذين يتحمسون للإصلاح وللخير ، هم أناس قد تكون فيهم زاوية من زوايا الإسراف على نفوسهم فى شىء ، وبعد ذلك يتجهون لعمل الخيرات فى مجالات كثيرة جدا ، كأن الله يقول لكل منهم : أنت اختلست من محارمى شيئا وأنا سآخذك إلى حلائلى ، إنه الحق يجعل من معصية الفرد السابقة سياطا دائمة تلهب ضميره فيتجه إلى الخير ، فيتصدق على الفقراء ، وربما كان أهل الطاعة الرتيبة ليس فى حياتهم مثل هذه السياط .

ولكن الذين أسرفوا على أنفسهم هم الذين تلهبهم تلك السياط ، فساعة يرى الواحد منكم إنسانا قد أسرف على نفسه فليدع الله له بالهداية ، واعلم تمام العلم أن الله سيُسَخّر منه ما يفعل به الخير ؛ لأن أحدا لن يسرق الكون من خالقه أبدا . وهذا ينطبق على من قال عنهم الله : « إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا » (وأصلحوا) أى عملوا صلاحات كثيرة لأن حرارة إسرافهم على نفوسهم تلهب ظهورهم دائما ، فهم يريدون أن يصنعوا دائما أشياء لاحقة تستر انحرافاتهم السابقة وتذهبها .

وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَـٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴿٩٠﴾ ﴾

هذه الآية تحدث عن أولئك الذين كفروا بعد إيمانهم ، وازدادوا كفرا ، وهؤلاء لا تقبل توبتهم وهم الضالون ، وقد جاءت مقابلة للآية السابقة ، أناس تابوا وأناس لم يتوبوا . لكن كيف يزداد الكفر ؟ إنه قد كفر فى ذاته ، وبعد ذلك كان عائقا لغيره عن أن يؤمن ، وهو لا يكتفى بخيبته ، بل يحاول أن ينشر خيبته على الآخرين ، وفى ذلك ازدياد فى الكفر والعياذ بالله ، وهذا القول قد نزل فى بعض من اليهود الذين آمنوا بالبشارات التى تنبأت بمقدم عيسى عليه السلام ، فلما جاء عيسى كفروا به ، ولما جاء محمد ازدادوا كفرا .

لقد كفروا بعيسى أولا ، ثم ازدادوا كفرا بمحمد وادعوا أنهم أبناء الله وأحباؤه ، وهؤلاء ليسوا من الذين تابوا . أو أنهم أعلنوا التوبة باللسان ، ولم يتوبوا التوبة النصوح ، « والراجع فى توبته كالمستهزىء بربه » . وقانا الله وإياكم هذا المنقلب .

وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴿٩١﴾ ﴾

لقد كفروا ، ولم يقدر الله لهم أن يتوبوا ، فماتوا على الكفر ، ويريد الله أن يعطينا حكما خاصا بعملهم فى الدنيا ، وحكما خاصا بما يتلقونه من عذاب فى الآخرة ، والحكم الخاص بعملهم فى الدنيا سببه أن لهم اختيارا ، والحكم الخاص بما يتلقونه فى الآخرة من عقاب لأنه لا خيار لهم ، وهنا للعلماء وقفة ، فهل ملء الأرض ذهبا أنهم أنفقوا فى حياتهم ملء الأرض ذهبا ؟ نقول له : لا ينفعك هذا الإنفاق فى أعمال الخير لأن أعمالك حابطة .

هب أن كافرا مات على الكفر وقد أنفق فى الخير ملء الأرض ذهبا ، نقول له : هذا الإنفاق لا ينفع ، مع الخيانة العظمى وهى الكفر ، فمادام غير مؤمن بإله ، فهو قد أنفق هذا المال من أجل الناس ، وصار منفقا على من لا يقدر على أن يجازيه بالخير فى الآخرة ، لذلك فليس له عند الله شىء ، فالذى يعمل عملا ، عليه أن يطلب أجرا ممن عمل له ، فهل كان الله فى بال ذلك الكافر ؟ لا ؛ لأنه مات على الكفر ، لذلك لو أنفق ملء الأرض ذهبا فلن يقبل منه . لقد صنع ذلك الخير وفى باله الناس ، والناس يعطونه حقه من الثناء ، سواء كان مخترعا أو محسنا أو غير ذلك ، إنه ينال أجره من الإنسانية ، وينطبق عليه قول الرسول صلى الله عليه وسلم :

« وفعلت ليقال وقد قيل »[1]

(من حديث شريف)

كأن الله يقول له : لم أكن فى بالك فلماذا تطلب منى أجرا فى الآخرة ، لم يكن فى بالك أن الملك لى ، قال سبحانه :

﴿ يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ﴾

(سورة غافر)

وبعض الناس يقول : كيف لا ينال ثواب الآخرة من ملئوا الدنيا بالاكتشافات والابتكارات وخففوا بها آلام الإنسانية ؟ نقول : لقد أعطتهم الإنسانية وخلدت ذكراهم ، وأقامت لهم التماثيل والمؤلفات والأعياد والجوائز ، لقد عملوا للناس فأعطاهم الناس ، فلا بخس فى حقوقهم ، ذلك أنهم لم يعملوا وفى بالهم الله ، وقد صور الحق موقفهم التصوير الرائع فيقول جل شأنه :

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ ﴾

(سورة النور)

إنه سراب ناتج عن تخيل الماء فى الصحراء يتوهمه السائر العطشان فى الصحراء نتيجة انعكاسات الضوء ، فيظل السائر متجها إلى وهم الماء ، إنه يصنع الأمل لنفسه، فإذا جاءه لم يجده شيئا ، ويفاجأ بوجود الله ، فيندم ويتلقى العذاب ، وكذلك لن يقبل منه ملء الأرض ذهبا لو أنفقه فى أى خير فى الدنيا ، وبعد ذلك لن يقبل الله منه ملء الأرض ذهبا لو افتدى به نفسه فى الآخرة ، إن كان سيجد ملء الأرض ذهبا ، وعلى فرض أنه قد وجد ملء الأرض ذهبا ، فهل يجد من يقبل ذلك منه ؟ لا،إنه فى الحقيقة لن يجد الذهب ؛ لأنه فى الآخرة لم يعد يملك شيئا : يقول الحق :

(١) رواه مسلم والترمذى والنسائى وابن ماجه .

﴿ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾

(سورة غافر)

ويقول سبحانه :

﴿ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾

(سورة الزمر)

« أولئك لهم عذاب أليم وما لهم من ناصرين » أى إن لهؤلاء عذابا أليما ؛ لأن كل حدث من الأحداث إنما يأخذ قوته من قوة فاعله ، فإذا كان الحدث التعذيبى منسوبا إلى الله وله مطلق القوة والقدرة ، لذلك فالعذاب لن يطاق . ولن يجد الظالم من يدرأ عنه هذا العذاب . لأنه لن يجد ناصرا له ، ولن يجد شفيعا فلن يأتى أحد ويقول : إن فلانا يتعذب فهيا بنا ننصره ، لا يأتى أحد لينصره .

ويعد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾ ﴾

وتؤدى كل مادة الباء والراء المضعفة إلى معنى « السعة » ، فـ « البَرّ » أى الواسع والبَرّ أى الأرض المتسعة ومقابله « البحر » وإن قال قائل : « إن البحر أوسع من البر ، لأن حجم القارات ليس فى حجم البحار والمحيطات التى تفصل بينها : « نقول لمثل هذا القائل » لا ، إن حركتك فى البر ـ الأرض ـ موسعة ، وحركتك فى البحر مضيقة ؛ لأنك لاتتحرك فى البحر إلا على شكل خاص ، إما أن تتحرك بسفينة أو

حتى على لوح من الخشب ، أما حركتك فى البر ـ الأرض ـ فأنت تمشى أو تركب ، تذهب أو تجىء ، فمجالك فى البر متسع عن مجالك فى البحر .

و« البِرّ » هو التقوى ، والطاعة ، أو هو « الجنة » وكلها معان ملتقية ، لأنها تؤدى إلى السعة ، فالطاعة تؤدى إلى السعة ، وكذلك التقوى ، وكذلك الجنة ، كلها ملتقية ؛ لأن كلها سعة ، فأحدهم أخذ معنى الكلمة من مرحلتها الأولى أى بالسبب وهو الطاعة ، وبعضهم أخذها من المرحلة الأخيرة أى بالمسبب وهو الجنة ، وقد يسأل سائل ، لماذا أراد الله أن يجىء بحديث عن النفقة بعد الحديث عن تعذيب الكفار ؟ ونقول : إن الحق حين يتكلم عمن يصيبه العذاب الأليم لأنه كفر ومات كافرا ، وماله من ناصرين فإن المقابل يأتى إلى الذهن ، وهو من آمن وعمل صالحا ، ومات على إيمانه ، فله عكس العذاب الأليم وهو النعيم ، وسيجد من يأخذ بيده ، بينما الكافر لن يجد ناصرين له . إن المؤمن سيجد جزاء الله على الطاعة وهى البر ؛ لأن البر هو كل خير ، وإن جاء على اطلاقه فإنه ينصرف إلى الجزاء من الله وقمته هو الجنة .

وهكذا نرى المقابل لمعاملة الحق للكفار وهو معاملة الحق للمؤمنين ، لقد جاء هذا القول فى القرآن وهو كلام الله المعجز ، وحين يخاطب سبحانه المكلفين بالمنهج . فهو يخاطب بكلامه ملكات إنسانية خلقها هو ، إذن فلابد أن يغذى هذا الكلام كل الملكات المخلوقة لله ، فلو كان الخالق للملكات غير المتكلم لكان من الممكن ألا ينسجم الكلام مع الملكات ، ولكن الكلام هنا لله الذى خلق ، لذلك لابد أن تنسجم الملكات مع كلام الله .

وفى النفس الإنسانية ملكات متعددة ، وهذه الملكات المتعددة متشابكة تشابكا دقيقا فتستطيع حين تخاطب ملكة سمعية أن تحرك مواجيد وجدانية ، فإن لم يكن العالم بالملكات عليما بها لما أمكن أن يجىء المنطق موافقا لملكة سمعية ، وموافقا لملكات وجدانية قد تتأتى بها طبيعة تداعى المعانى .

و« تداعى المعانى » هو الخاصية الموجودة فى الإنسان ، ومعنى « تداعى المعانى » أن الإنسان يستقبل معنى من المعانى فيشير ذلك المعنى إلى معان خبيئة يستدعيها لتحضر فى الذهن ، فمثلا حين ترى إنسانا تعرفه . فإن تداعى المعانى يعطيك تاريخك معه

وتاريخه معك ، ويصور بخاطرك أيضا صورا عن أهله وأصدقائه ، ومعارفه ، ويأتى لك تداعى المعانى بالأحداث التى كانت بينك وبينه أو شاهدتها أنت وهذا هو ما نسميه « تداعى المعانى » أى أن المعنى يدعو المعنى .

وحين يخاطب الله سبحانه وتعالى الإنسان ، فإنه يخاطب كل ملكة فيه فى آن واحد ، حتى لا تأخذ ملكة غذاءها ، دون ملكة أخرى لا تجد لها غذاء إن كلام الله جاء مستوفيا وكافيا لكل الملكات ، ومثال ذلك حينما أراد الحق سبحانه وتعالى أن يمنع المشركين من أن يطوفوا بالبيت ، وكان المشركون قبل تحريم الله لطوافهم ، يطوفون بالبيت ، ويأتون من أماكن سحيقة بعيدة ليطوفوا فى موسم الحج ، وكانوا يأتون بأموالهم لينفقوها على أهل مكة ، ويشتروا كل شيء يلزمهم منها ، فموسم الحج كان موسما اقتصاديا . وحين يريد الله أن يمنع المشركين من الحج فهو يخاطب المسلمين المقيمين بمكة حتى يحولوا بين المشركين وبين الطواف ، وهو سبحانه قد علم ـ وهو العليم ـ بما خلق من ملكات ، يعلم سبحانه أن ملكة أخرى ستتدخل فى هذا الوقت ، فيقول :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَـٰذَا ﴾

(من الآية ٢٨ سورة التوبة)

وعندما ينزل هذا الحكم فلابد أن تتحرك ملكات فى النفس الإنسانية ، والحق قد علم أزلا أن ملكة النفعية الاقتصادية عند أهل مكة ستتحرك عند سماع هذا الحكم ، بمعنى أن بعضا من المسلمين المقيمين بمكة وقت نزول هذا الحكم قد يقولون : « وإذا كنا نمنع المشركين الذين يفدون علينا بالأموال ليشتروا بضائعنا وموسمهم الاقتصادى هو الذى يعولنا طيلة العام فماذا نصنع إذن ؟ إن الله يعلم أنه عند نزول حكم بتحريم البيت على المشركين أن يقربوه فلا بد أن تتحرك فى النفس الإنسانية تلك الملكة النفعية ، فيقول ـ سبحانه ـ عقب ذلك مباشرة :

﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾

(من الآية ٢٨ سورة التوبة)

الخوف من العيلة ، أى الخوف من الفقر ، وتلك هى عظمة الكلام الإلهى لأن

رَبَّما يتكلم إن الإنسان حينما يتكلم قد تفوته معان كثيرة ، وبعد ذلك قد تحدث ضجة وبلبلة وثورة بين الناس ، لكن الحق الأعلى عندما يقول : « إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا » ويتبع ذلك فورا بقوله المطمئن : « وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله » وقد فعل وجبى الحق وجلب إلى البيت الحرام ثمرات كل شيء ، وكأنه يقول لنا : لا تعتقدوا أن هذه الثمرات قادمة عن طريق التطوع ولكنها رزق من لدنا ، كما جاء فى قوله الحق :

﴿ وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾

(سورة القصص)

أى أنه ليست هناك حرية لأحد أن يعطى أهل البيت الحرام أو لا يعطى ، إنها جباية ، لطمأنة الملكة النفعية فى النفس ، وهو سبحانه يعطى الأمان الاقتصادى الذى يترتب عليه قوام الحياة ، وعندما نمعن النظر فى آيات القرآن نجد أن هناك آية قد تتقدم وآية قد تتأخر ، وآية قد تأتى فى الوسط ، ونجد أن الآية الوسطى ، مرتبطة بتداعى المعانى بالآية التى قبلها ، ومرتبطة بتداعى المعانى بالآية التى بعدها ، وذلك لترتوى وتتغذى كل ملكات الإنسان فلا يأتى أمر يوحى بأن هناك ما ينقص النفس البشرية ، لنتأمل مثالا لذلك وهو قوله الحق :

﴿ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ ۚ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾

(من الآية ٨ سورة المجادلة)

إن المشركين لم يقولوا لأحد : « إنما قالوا لأنفسهم » ، ويكشفهم الحق سبحانه العليم فى أخفى خباياهم ، ويُظهر ما فى أنفسهم ، وهو العليم بكل خفايا عباده والكاشف لكل الملكات النفسية فى خلقه . وحين يقول الحق سبحانه : « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون وما تنفقوا من شيء فإن الله به عليم » . فإن الآية تحريض على الإنفاق ، وجاءت بعد آية تفيد أن هناك إنفاقا لا يقبله الله فى قوله سبحانه :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٩١﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

إذن فهناك لون من النفقة يرفضه الله ، وتداعى المعانى فى النفس الإنسانية قد يجعل الإنسان يسأل « ما هى إذن النفقة المقبولة ؟ » لذلك كان لابد وأن يأتى قوله تعالى : « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون » فإذا كانت هناك نفقة مردودة فهناك أيضا نفقة مقبولة ، وهكذا نرى الآية التى تحرض على الإنفاق منسجمة مع ما قبلها . « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون » ، قد يسأل سائل ، ولماذا لا ينال الإنسان البر إلا بعد أن ينفق مما يحب ؟ وله أن يعرف أن طبيعة النفس الإنسانية هى « الشح » ولهذا جاء فى القرآن الكريم :

﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾ ﴾

(سورة التغابن)

وشح النفس يأتى لأن الإنسان لا يأمن أبدا أن يأتيه العجز من بعد القدرة ، لذلك فإنه يحاول إن كان يملك شيئا أن يؤمن العجز المتوهم ، فيحافظ على ما عنده من حاجات ، ومن هنا جاءت الحيازة والملكية ولم تنشأ هذه الأشياء من أول الخلق ، وإنما نشأت من يوم أن ضاقت الأمكنة المُعطية دون الحاجات ، فحين تكون الأمكنة المعطية تسع الحاجات فلا داعى لهذا العجز المتوهم .

لنفترض أن رجلا اشترى صندوقا من البرتقال ، ودخل منزله وعندما يحتاج ابن هذا الرجل لبرتقالة أو اثنتين فإنه يأخذ ما يريد ، لكن لو أحضر الرجل قليلا من البرتقال فإن زوج الرجل تكون حريصة على أن تقسم البرتقال بين الأولاد حتى لا تترك كل ابن على سجيته بما قد يحرم الآخرين .

وهكذا كان الأمر فى بدء استخلاف الله للإنسان فى الأرض ، فمن أراد الأرض

أخذ ، ومن أراد أكل الثمار فهى أمامه ، وعندما قلت مُعطيات الحاجات وذلك بضيق الأمكنة المعطية بدأت فى الظهور الرغبة فى الملكية ، وامتياز الأشياء ، والحق سبحانه يلفتنا فى هذه المسألة وكأنه يقول لنا : إن النفقة لو نظرت إليها نظرة واقعية حقيقية لوجدت أنك أيها العبد مضارب لله فى خير الله . ومعنى « مضارب » أى أنك تعمل عند الله بالعقل الذى خلقه لك ، وتخطط به ، وتعمل عند الله بالطاقة التى خلقها الله ، والمادة التى خلقها الله لك تنفعل معها فماذا لك أنت ؟

إن كل شىء لله ، وأنت مجرد مضارب لا تملك شيئا ومادمت مضاربا أيها العبد ، فأعط لله حقه ، وحق الله لا يأخذه هو ؛ فهو أغنى الأغنياء ، إن حق الله يأخذه أخوك غير القادر الذى لا يستطيع أن يتفاعل مع المادة ، ولا تظن أيها العبد أن الله حين طلب منك النفقة مما تحب أنه ـ جل شأنه ـ قد استكثر عليك ما طلب منك أن تنفقه ، إنه ساعة يأخذ منك لأخيك وأنت قادر ، إنما يطمئنك أنك إن عجزت فسيأخذ لك من القادرين ذلك هو التأمين فى يد الله .

إن الحق يريد أن يحببنا فى أن ننفق ، لكن الإنسان يحاول أن ينفق مما لا يحب ، فيهدى الإنسان الثوب الذى لم يعد صالحا للاستعمال يعطيه لفقير ، أو يعطى الحذاء المستهلك لواحد محتاج . لكن الله يأمرنا بأن ننفق مما نحب لذلك انفعل صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم حينما سمعوا هذا النص : « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون » هذا أبو طلحة حينما يسمعها يقول : يا رسول الله ، إن أحب مالى إلىّ هو « بيرحاء » فأنا أخرجه فى سبيل الله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اجعله فى أقاربك ، فجعله فى أقاربه ، وهذا زيد بن حارثة يسمع الآية الكريمة فينفعل بها كذلك ، وكان عنده فرس اسمه « سَبَل » وكان يحبه ، فيقول : يا رسول الله أنت تعلم حبى لفرسى ، وأنا أجعله فى سبيل الله . فأخذه منه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجاء بأسامة بن زيد وأركبه الفرس . قال زيد : « فوجدت فى نفسى » أى أنه حزن ، وقال زيد : يا رسول الله أنا أردت أن أجعل الفرس فى سبيل الله وأنت تعطى الفرس لابنى ليركبه . فقال رسول الله لزيد : « أمَا إنّ الله قبله منك » .

وبعد ذلك ينفعل سيدنا أبو ذر رضى الله عنه وكان عنده إبل ، والإبل لها فحل يلقح إناث الإبل ، وكان هذا الفحل أحب مال أبى ذر إليه وجاء ضيف إلى أبى ذر ،

فقال له : إنى مشغول ، فاخرج إلى إبلى فاختر خيرها لنذبحه لضيافتك . فخرج الضيف ، ثم عاد وفى يده ناقة مهزولة ، فلما رآها أبو ذر قال : خنتنى ، قلت لك هات خير الإبل ، قال الضيف : يا أبا ذر لقد رأيت خيرها فحلا لك وقدرت يوم حاجتكم إليه . فقال أبو ذر : إن يوم حاجتى إليه ليوم أوضع فى حفرتى .

إن الصحابى الجليل أبا ذر يعرف أن يوم أن يوضع فى الحفرة هو اليوم الجليل الذى يستحق من المرء أن يستعد له .

وسيدنا ابن عمر كان عنده جارية جميلة من فارس ، وكان يحبها ، فلما سمع الآية ، قال : ليس عندى أحب إلىّ من هذه الجارية ، وأعتقها ، وكان من الممكن أن يتزوجها بعد أن أعتقها لكنه قال : لولا أن ذلك يقدح فى عتقها لتزوجتها . وسيدنا أبو ذر رضى الله عنه يعطينا فى مسألة الإنفاق درسا من أروع الدروس المستوعبة للملكة النفسية ، فيقول : فى المال شركاء ثلاثة : القَدَرَ لا يستأمرك أن يذهب بخيره وشره من هلك أو موت . أى أن القَدَر لا يستأذن عبدا فى أن يذهب بالمال حيث يريد ، فتأتى أى مصيبة فتأخذ المال إلى هلك أو موت . هذا هو الشريك الأول فى المال ، إنه القَدَر .

والشريك الثانى فى المال يوضحه لنا أبو ذر فيقول : إنّه الوارث ، ينتظرك إلى أن تضع رأسك ، ثم يستاقها وأنت قد سلبت بالموت كل ما تملك فى الدنيا وأصبحت من غير أهلها . إن الوارث يقول لنفسه : « فلأستمتع بما ترك لى » ، وهذا هو الشريك الثانى فى المال .

ويوضح لنا أبو ذر رضى الله عنه الشريك الثالث فى المال فيقول : والثالث أنت ، فإن استطعت ألاّ تكون أعجز الثلاثة فلاتكن أعجزها . أى إياك أن يغلبك على المال القدر أو الوارث ، ينبغى عليك أن تغلب بإنفاق المال فى سبيل الله وإلا أخذه منك باقى الشركاء .

إذن لقد انفعل صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم بالآية حينما نزلت حتى عدا الخير المحبوب منهم إلى غيرهم ، وكان جزاء ذلك الجنة . لقد عرفوا قول الحق : « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون » أى الجنة المترتبة على الطاعة أو

التقوى ، أو سعة البركة أو سعة القوة ، وكلها معان ملتقية ، ولذلك يقول الله فى الحديث القدسي :

« قد كان العباد يكافِئون فى الدنيا بالمعروف وأنا اليوم أكافىء بالجنة » .

إن الحق سبحانه الذى يعطى البر ثمنا لنفقة مما تحب يعلم هل أنفقت مما تحب فعلا أو تيممت الخبيث لتنفق منه ، فإياك أيها المؤمن أن تخدع نفسك فى هذا الأمر ، لأن الذى يعطى البر ثمنا لنفقة مما تحب يعلم خبايا النفس ، لذلك يقول سبحانه : « وما تنفقوا من شيء فإن الله به عليم » .

وعلم الله شامل ، إنه يعلم ما فى نيتك ، وكيف أنفقت .

ولقد بين الحق سبحانه النفقة المرفوضة حتى ولو كانت ملء الأرض ذهبا ، ثم أوضح لنا أن هناك نفقة مقبولة وجزاؤها الجنة ، وبذلك نرى التقابل بين النفقتين ولماذا جاء هذا الحديث ؟ لقد كذب بعض أهل الكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مستهل أمر الدعوة وكذبوا البشارة به ، والنعت والبشارة جاءا فى التوراة والإنجيل ، وأنكروا الأوصاف التى ذُكِرت فى كتبهم السماوية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتمادوا ومحوا هذه الأوصاف من كتبهم . حدث ذلك مع أنهم قد تورطوا من قبل فى إعلان البشارة به « وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به » .

لقد أراد الله أن يفضحهم فى التوراة التى يعتقدون أنها كتابهم وقدحرفوا بعض أحكام الله ، وظنوا أن هذه التحريفات ستظل مستورة ، لذلك جاء لهم بأحداث ولم ينتبهوا إليها لتقوم الحجة على أنهم قاموا بتحريف التوراة مثلما قلنا من قبل عن الخيبرية التى ارتكبت فاحشة الزنا ، وأراد رؤساء اليهود أن يخففوا العقوبة عنها ، لأن العقوبة الواردة فى التوراة على جريمة الزنى هى الرجم وقال هؤلاء الرؤساء : « نذهب إلى محمد ، لعل لديه حكمًا مخففا » فلما ذهبوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وضح لهم انه الرجم . فقالوا : لا ، إنك لم تنصف فى حكمك . فبين رسول الله صلى الله عليه وسلم لهم إنه يرضى بحكم التوراة التى عندكم وجىء بالتوراة وأمرهم الرسول أن يقرأوا فلما جاءوا إلى آية الرجم أرادوا أن يغفلوها

فقال ابن سلام : إنهم يا رسول الله قد وثبوا وأغفلوا الآية .

وهكذا انتبه الجميع إلى أن رؤساء اليهود أرادوا أن يتخطوا حكما لله موجودا عندهم وأرادوا أن ينكروه ، كما فعلواوأحدثوا فى وصف النبى عليه الصلاة والسلام ومحوا هذا الوصف ، ولم يتركوا له أثرا ، لكن الله أنساهم بعض الأشياء لتكون بينة وآية على رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم . وعندما أحل الرسول صلى الله عليه وسلم الإبل وألبانها، قالوا : هذه محرمة من أيام إبراهيم ومن قبله من أيام نوح ، ولا يمكن أن نقبل تحليلها ، فوضح النبى صلى الله عليه وسلم لهم أنها ليست محرمة ، الله أحلها .

وكان يجب أن يفهموا أن الإبل وألبانها حتى وإن كانت محرمة من قبل إلا أن رسولا قد جاء من عند الله بتشريع له أن ينسخ ما قبله مع أنّ الإبل وألبانها لم تكن محرمة ، لذلك أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يحتكم إلى التوراة . وهذه هى العظمة النورانية المحمدية ، فلا يمكن أن يقول صلى الله عليه وسلم : « نحتكم إلى التوراة » إلا وهو واثق أن التوراة إنما تأتى بالحكم الذى يؤيد ما يقول ، مع أنه لا يقرأ ولا يكتب . ويحضرون التوراة ، فيجدون الكلام مطابقا لما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لذلك قال الله :

﴿ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسۡرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ مِن قَبۡلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوۡرَىٰةُۚ قُلۡ فَأۡتُواْ بِٱلتَّوۡرَىٰةِ فَٱتۡلُوهَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾

وحين يحرم نبى الله يعقوب ـ إسرائيل ـ طعاما ما ، فهو حر ؛ فقد يحرم على نفسه طعاما كنذر ، أو كوسيلة علاج أو زهادة ، لكن الله لم يحرم عليه شيئا ، وما تحتجون به أيها اليهود إنما هو خصوصية لسيدنا يعقوب « كل الطعام كان حلا لبنى إسرائيل

إلا ما حرم إسرائيل على نفسه » فلماذا تقولون : إن الإبل وألبانها كانت محرمة ؟

لقد فعلوا ذلك لأنهم أرادوا أن يستروا على أنفسهم نقيصة لا يحبون أن يُفْضحوا بها ، وتلك هى النقيصة التى كشفها القرآن بالقول الكريم :

﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ (١٤٦) ﴾

(سورة الأنعام)

إذن فهناك أشياء قد حُرمت على اليهود لأنهم ظلموا ، وهذه الآية الكريمة هى التى أوضحت أن الحق قد حرم عليهم هذه الأطعمة لظلمهم . ومعنى : « كل ذى ظفر » أى القدم التى تكون أصابعها مندمجة ومتصلة ، فليست الأصابع منفصلة ، ونجدها فى الإبل والنعام والأوز ، والبط ، وهذه كلها تسمى ذوات الظفر « إلا ما حملت ظهورهما » يعنى الشحم الذى على الظهر . أما « الحوايا » فهى الدهون التى فى الأمعاء الغليظة « أو ما اختلط بعظم » . أى الشحم الذى يختلط بالعظم إن التحريم هنا لم يكن لأن هذه الأشياء ضارة ، ولكن التحريم إنما كان عقابا لهم على ظلمهم لأنفسهم وبغيهم على غيرهم .

وأقول ذلك حتى لا يقول كل راغب فى الانفلات من حكم الله ما الضرر فى تحريم الأمر الفلانى ؟ إن محاولة البحث عن الضرر فيما حرمه الله هى رغبة فى الانفلات عن حكم الله . فالتحريم قد يأتى أدبا وتأديبا ، ونحن على المستوى البشرى ـ ولله المثل الأعلى ـ يمنع الإنسان منا « المصروف » عن ابنه تأديبا ، أو يمنع عنه الحلوى ، لأن الابن خرج عن طاعة أمه ، إذن كان التحريم جزاءً لهم وعقابا قال تعالى :

﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ

كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾

(سورة النساء)

وذلك هو الجزاء الذى أراده الله عليهم .

إن التشريع السماوى حينما يأتى لظالم يخرج عن منهج الله فكأنه يقول له ما هو القصد من خروجه عن منهج الله ؟ لماذا يظلم ؟ لماذا يأخذ الربا ؟ لماذا يصد عن سبيل الله ؟ لماذا يأكل أموال الناس بالباطل ؟ إن الظالم يفعل ذلك حتى يمتع نفسه بشىء أكثر من حقه ، لذلك يأتى التشريع السماوى ليفوت عليه حظ المتعة ، وكان هذا الحظ من المتعة حقا وحلا له ، لكن التشريع يحرمه . ومثال ذلك القاتل يحرم من ميراث من يقتله ؟ لأن القاتل استعجل ما أخره الله ، وأراد أن يعجل لنفسه المتعة بالميراث ، فارتكب جريمة قتل ، لذلك يأتى التشريع ليحرمه من الميراث .

كأن التشريع يقول له : « مادامت نيتك هكذا فأنت محروم من الميراث » والتشريع حين وضع ذلك إنما حمى كل مورث ، وإلا لكان كل مورث عرضة لتعدى ورثته عليه بالقتل لينتقل إليهم ما يملك ، فقال : لا . نحرمه من الميراث وكذلك هنا نجد الظلم بأنواعه المختلفة ، الظلم بإنكار الحق ، والصد عن سبيل الله ، وأخذ الربا ، وأكل أموال الناس بالباطل ، ومادام اليهود قد أدخلوا على أنفسهم أشياء ليست لهم فالتشريع يسلب منهم أشياء كانت حقا لهم .

وكان اليهود فى زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم يرغبون ألا يُشاع عنهم هذا الأمر فقالوا : إن هذا الطعام محرم على بنى إسرائيل . وبعد ذلك وجد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن هذا اللون من الطعام حلال فى التوراة ، فكشف رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا الأمر الذى فضحهم .

ولماذا تجىء هذه الآية بعد قوله الحق فى الآية السابقة : « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون » ؟ ونحن نعرف أن آية « لن تنالوا البر » قد جاءت بعد آية توضح النفقة غير المقبولة من الله . ولنذكر ما قلناه أولا ، عن تداعى المعانى فى الملكات

الإنسانية : إن فى النفس الإنسانية ملكة تستقبل ، فتتحرك ملكة أخرى ، وحين يقول الحق: « كل الطعام كان حلا لبنى إسرائيل » فالذين يسمعون هذا سينفعلون انفعالات مختلفة ، فالشبعان من الناس لن يلتفت إلى هذه المسألة بانتباه بالغ ، ومن عنده بعض الطعام فإن نفسه قد تتحرك إلى ألوان أخرى من الطعام ، أما من ليس عنده طعام فلسوف يلتفت بانتباه شديد ليتعرف على الحلال من الطعام والحرام منه .

إذن فقبل أن يأتى الله بالحكم الذى يحلل ويحرم ، هذا الحكم الذى يثير عند الجائع شجن الافتقار وشجن ذكر الطعام الذى يسيل له لعابه ، إن الحق قبل أن يحرك معدما على غير موجود معه ، فإنه يحرك معطيا على موجود معه ، لذلك فقبل أن يأتى الحق سبحانه ويذكر الطعام ، وقبل أن يُقلب الأمر على النفس الإنسانية التى لا تجد طعاما ، نجد الرسول قد نطق قبلها بما أنزله عليه الحق « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون » . فبتداعى المعانى فى النفس الإنسانية يكون ـ سبحانه ـ قد حرك ملكة واجدة ومالكة قبل أن يحرك ملكة معدمة . وهكذا يكون التوازن الذى أراده الله فى الكون المخلوق له .

إنه رب يحكم كونه ، فلا ينسى شيئا ويذكر شيئا . « لا يضل ربى ولا ينسى ،» إن كل شىء فى علمه كما قَدّره وهو الخلاق القدير العليم ، وهو لا يذكر بعضا من الخلق ، وينسى بعضا آخر ، فهو قد كتب العدم لحكمة ، وأعطى النعمة لحكمة .

لقد جعل الفقير عبرة ، ولكنه لم يتركه ، وذلك حتى يرى كل إنسان أن القدرة على الكسب ليست إلا عرضا زائلا ، فمن الممكن أن يصبح القادر الآن عاجزا بعد دقائق أو ساعات ، ومن الممكن أن يصبح القوى ضعيفا ، فإذا ما علم القوى أو القادر ذلك فإنه يتحرك إلى إعطاء الآخرين ؛ حتى يضمن لنفسه التأمين الإلهى لو صار ضعيفا ، فيعطيه الأقوياء ، فعندما يأمر الله الأقوياء بأن يعطوا وينفقوا فإن عليهم أن يستجيبوا ؛ لأن الواحد منهم لو صار ضعيفا فسوف يأخذ .

إذن فقول الحق سبحانه وتعالى : « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون » هذا القول قد خدم قضية سبقتها ، وهى أنه لن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهبا ولو افتدى به ، مادام كافرا ، إنها نفقة مرفوضة لا اعتبار لها ، إنها هدر . ويأتى من بعد ذلك بتحديد النفقة التى ليست هدرا ، ثم يفضح اليهود بقضية توجد عندهم فى التوراة

ولكنهم كذبوها ، وهى قضية تتعرض للطعام ، ومادامت القضية تتعرض للطعام فهناك الكثير من الملكات التى يمكن أن تتحرك ، فملكات الواجد حين تتحرك فحركتها تكون بأسلوب غير الأسلوب الذى تتحرك به ملكات المعدم . فقبل أن يُحرك وجدان المعدم إلى أنه معدم ، حتى لا يتلقى ذلك بحسرة ، فإنه سبحانه يكون قد عمل رصيدا لهذا المعدم ، فيرقق قلب الواجد أولا « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون وما تنفقوا من شىء فإن الله به عليم » وبعد ذلك يأتى قوله الحق سبحانه :

﴿ كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ التَّوْرَىٰةُ ۗ قُلْ فَأْتُوا۟ بِالتَّوْرَىٰةِ فَاتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

ومعنى كلمة « حل » هو « حلال » ، ويقابلها « حرام » وحل هى مصدر ، ومادامت مصدرا فلا نقول « هذان حلالان » بل نقول : « هذان حل » ، ونقول : « هؤلاء حل » وإن شئت فاقرأ قوله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا جَآءَكُمُ الْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ ۖ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ ۖ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ ۖ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ۖ ﴾

(من الآية ١٠ سورة الممتحنة)

« لا هن » هذه لجماعة النساء ، والحل مفرد ، وعندما يقول الحق سبحانه : « كل الطعام كان حلا لبنى إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه » فهذا يعنى أنه قد حرم بعضا من الطعام على نفسه فهو حر فى أن يأخذ أو يترك ، أو أنه قد حرمه على نفسه فوافقه الله ؛ لأن الناذر حين ينذر شيئا لم يفرضه الله عليه فهو قد ألزم نفسه بالنذر أمام الله .

إن الزمن الذى حرم فيه إسرائيل على نفسه بعضا من الأطعمة هو « من قبل أن تنزل التوراة » أى أن هذا التحريم لم يحرمه الله ، ويأتى الأمر لرسوله الكريم أن يخاطب بنى إسرائيل : « قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين » إنه قد كشف سترهم ، وعلموا أن الرسول صلى الله عليه وسلم يعلم أن النص الذى

يؤيد صدقه موجود فى التوراة ، ولهذا لم يأت اليهود بالتوراة ، وذلك لعلمهم أن فيها نصا صريحا يصدق ما جاء به رسول الله ، ولا يحتمل اللجاجة ، أو المجادلة ، وماداموا لم يحضروا التوراة فهذا يعنى أنهم غير صادقين . ويقول الحق :

﴿ فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩٤﴾ ﴾

إن فى هذا القول التحذير الواضح ألا يختلق أحد على الله شيئا لم ينزل به رسول أو كتاب فمن يفترى الكذب على الله لا يظلم إلا نفسه . ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ۗ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾ ﴾

يأمر الحق رسوله صلى الله عليه وسلم أن يقول : « قل صدق الله فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفا » .

ونعرف أن ملة إبراهيم هى التى سمّت كل المؤمنين بالله المسلمين ، والدعوة إلى الإيمان بملة إبراهيم هى لإيضاح أن جوهر الإيمان لا يحتمل الخلاف ، فركب الإيمان والرسل والأنبياء هو ركب واحد ، وكلمة « اتبعوا » تعنى أن هناك مقدما كما أن هناك تابعا . و« الملة » تشمل المعتقدات والتشريعات العامة ، كما أن الشريعة تشمل الأحكام ، والدين يكون لبيان العقائد .

راجع أصله وخرج أحاديثه الدكتور أحمد عمر هاشم نائب رئيس جامعة الأزهر .

وقد عرفنا من قبل أن كلمة « حنيفا » تعنى الذى يسير على خط مستقيم ، ويتبع منهجا قويما ومستويا ، ونحن نسمى ملتنا « الحنيفية السمحاء » ومع ذلك فالحنف هو ميل فى الساقين ، اليمين مقوسة إلى اليمين ، واليسار مقوسة إلى اليسار ، فكيف إذن نقول عن الدين الحق الهادى لمنهج الله وشريعته : إنه حنيف ؟

لقد قلنا : إن السماء لا تتدخل بإرسال الرسل إلا حين يعم الفساد ، ومادام الفساد قد عم فإن الذى يميل منحرفا عن الفساد هو الذى اهتدى إلى الصراط المستقيم ، فالحنيف معناه مائل عن الفساد ، فالمائل عن المعوج معتدل ، « قل صدق الله فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين » .

« صدق الله » نعم ؛ لأن الصدق هو أن يطابق القول ما وقع فعلا ، وحين يتكلم الحق وهو العليم أزلا فما الذى يحدث ؟ لابد أن يوافق الواقع ما يقوله سبحانه وتعالى فليس من المعقول أن يتكلم الله كلاما يأتى على لسان رسول ، أو على لسان أتباع الرسول ، وبعد ذلك يأتى واقع الحياة فينقض قول الحق ويخالفه ، إن الحق العليم أزلا يُنزل من الكلام ما هو فى صالح الدعوة إلى منهجه .

إذن فحين يطلق الله قضية من قضايا الإيمان فإنه ـ سبحانه ـ عليم أزلا أنها سوف تحدث على وفق ما قال ، وإن كان الظرف الذى قيلت فيه لا يشجع على استيعابها وفهمها . إن المؤمنين كانوا فى أول الأمر مضطهدين ، ومرهقين وإن لم يكن للواحد منهم عشيرة تحميه فإنه يهاجر عن البلاد ، وإن لم يستطع الهجرة فإنه يُعَذب ويُضطهد . وفى هذه الفترة الشديدة القاسية وفى قمة اضطهاد المؤمنين ينزل القول الحق :

﴿ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ ﴾

سورة القمر)

وعندما يسمع سيدنا عمر عليه رضوان الله هذا القول يتساءل : أى جمع هذا ؟ إن الواقع لا يساعد على هذا،ثم جاءت بدر ، وهزم المؤمنون الجمعَ وولوا الدبر ، وهذا دليل على أن الله قد أطلق قضية وضمن أنها ستحدث كما قال وكما أخبر ، وهذا مطلق الصدق . إن الإنسان يمكنه أن يستبعد الصدق لو أن الذى قال غير الذى

خلق ، لكن الذى قال ذلك هو الذى خلق ويخلق ويعلم ، فمن أين يأتى التناقض ؟ وهذا معنى القول الكريم :

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ ﴾

(سورة النساء)

إنه قول حق جاء من عند العليم أزلا ، ومن العجيب أن أهل الكتاب من يهود ونصارى يتمسحون فى سيدنا إبراهيم ، فقال بعضهم:إن إبراهيم عليه السلام كان يهوديا ، وبعضهم قال:إن إبراهيم كان نصرانيا . وكان يجب أن يفهموا أن اليهودية والنصرانية إنما جاءتا من بعد إبراهيم ، فكيف يكون يهوديا أو نصرانيا وهذه الملل قد جاءت من بعده ؟ لذلك جاء القرآن الكريم قائلا :

﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنجِيلُ إِلَّا مِن بَعْدِهِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

وقد أوضح الحق بعد ذلك دين إبراهيم عليه السلام :

﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

فكيف يمكن أن يختلقوا على إبراهيم أنه كان يهوديا أو نصرانيا ؟ إنه كلام لا يصدر إلا عن قلة فطنة وغفلة بالغة . وعندما يقول الحق عن إبراهيم:« وما كان من المشركين » فهل أهل الكتاب مشركون ؟ نعم ؛ لأنهم حين يؤمنون بالبنوة لعزير ، ويؤمنون بالبنوة لعيسى فهذا إشراك بالله ، وأيضا كان العرب عبدة الأصنام يقولون : إنهم على ملة إبراهيم ؛ لأن شعائر الحج جاء بها إبراهيم عليه السلام ، ولهذا ينزه الحق سبحانه سيدنا إبراهيم عن ذلك ، ويقول : « قل صدق الله فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين» وذلك يدل على أن ملة إبراهيم وما جاء به

موافق لملة محمد صلى الله عليه وسلم وما جاء به ، وإجابة لدعوة إبراهيم عليه السلام . ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ ﴾

لقد عرفنا من قبل كيف كان تداعى المعانى سببا فى إرواء الحق لكل ملكات الإنسانية ، وقبل هذه الآية التى تتحدث عن بناء البيت الحرام بمكة المكرمة كان هناك حديث عن سيدنا إبراهيم عليه السلام حين قال الحق :

﴿ قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

وإبراهيم عليه السلام هو أول الأنبياء صلة بالبيت الحرام ، وكان رفع قواعد البيت الحرام على يده بعد أن طمر وستر بالطوفان فى عهد نوح عليه السلام ، فحين يأتى الكلام فى رسالة سيدنا إبراهيم عليه السلام فلابد أن تأتى أكبر حادثة فى تاريخ سيدنا إبراهيم ، وهى حادثة بناء البيت الحرام ، كما أن الحق سبحانه حينما تكلم عن المحاجاة بين المسلمين وعلى رأسهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وفى يده القرآن ، وبين أهل الكتاب وفى أيديهم التوراة المحرفة والإنجيل المحرف أراد سبحانه أن يردنا إلى شىء واحد هو ملة إبراهيم الذى سمانا مسلمين . ومعنى ذلك أن الله يريد منا أن تسيطر قيم السماء على حركة أهل الأرض ؛ لأن حركة أهل الأرض إن اتبعت الأهواء تصادمت الحركات ، ومادامت الحركات قد تصادمت فإن ما ينتج عنها هو ضياع مجهود الحركة الإنسانية ، ويصير هذا المجهود مبددا .

ولكن الإنسان الذى يحمل القيم التى تتركز عقيدة فى قلبه ـ بعد أن يبحثها بفكره ـ هذا الإنسان له قالب تنفذ به تشريعات الله ، ولولا وجود القالب هذا لما استطاع

الإنسان أن يطبق تشريعات الله ، ولَمّا استطاع أن يؤدى هذه التشريعات ، ولما استطاع أن يطيع الله بجوارحه ؛ فالإنسان بغير قالب لا يستطيع أن يؤدى الحركة المطلوبة .

إذن فلابد للقالب الإنسانى ـ البدن ـ فى التشريع من عملية أخرى وهى أن ينصب القالب ويكون له عمل حين يتوجه إلى بيت واحد لله ، وبذلك يصبح للقالب نصيب فى العبادة أيضا .

ولهذا كان لابد أن يوجد للقالب ـ أيضا ـ مُتّجَهٌ وهذا المُتّجه يحكم القالب نفسه ، فكان المؤمن المسلم محكومًا قلبا وقالبا ، فحين نأتى للصلاة لنكون فى حضرة الله نتحرى أن يكون قالبنا متجها إلى المكان الذى أمرنا الله أن نتوجه إليه ، لماذا ؟

لأن الحق سبحانه وتعالى ساعة يعطى رحمته وبركته وتنزلاته وإشراقاته يريد أن يكون الجسم فى وضع مؤهل لاستقبال هذه التجليات ؛ ولذلك كان لابد أن يكون لله بيت يتجه إليه الجميع حتى يعطى للتدين وحدة ، فكما أعطى الحق لموكب الرسالات وحدة ، فإنه يعطى أيضا وحدة فى القالب الإنسانى والمتّجه ، وكل مكان يعبد الله فيه بالنسبة للإسلام يُعتبر مسجدا ، وقد يسر الله الأمر على أمة سيدنا محمد ، فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « جعلت لى الأرض مسجدًا وطهورا »[1] .

وكان لقاء الله وعبادته فى الديانات السابقة يقتضى مكانا محددا ولكن قد وسع رحمته على أمة محمد صلى الله عليه وسلم .

إن تراب الأرض طهور ، إننا عندما نفتقد الماء الطهور فإن التراب الذى قد يبدو للوهلة السطحية أنه سبب فى عدم النظافة قد جعله الله لنا طهورا .

إن الإنسان يمكنه أن يتيمم ويتطهر بالتراب ، وكأن الله قد أراد أن يكون لقاء كل فرد من أمة محمد به ميسرا تيسيرا كبيرا . وكل مكان نعبد فيه الله ويسجد فيه المسلم لله يصير مسجدا .

(١) هذا جزء من حديث شريف أخرجه الإمام البخارى فى صحيحه ، والإمام مسلم وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه ، والإمام أحمد فى مسنده وغيرهم من أصحاب السنن .

لكن هناك فارقا بين أى مكان نعبد الله فيه والمسجد ، فنحن نرى العامل يعبد الله فى المصنع والتلميذ يعبد الله فى الفصل ، والفلاح يعبد الله ويؤدى الفروض فى الحقل ، ويمكن للسائر فى الشارع أن يؤدى صلاته فى أى مكان ، وأن يزاول عمله بعد ذلك ، ولكن حين يُحَيِّزُ الإنسان مكانا ليكون بيتا لله ، فمحظور أن يزاول فيه نشاطا آخر من نشاطات الحياة ؛ إنه مكان محيز .

إن العبادة كلها مقبولة ، ولكن هناك فارقا بين مكان تعمل فيه ومكان تخصصه ليصير مسجدا . فالمسجد هو مكان لايزاول فيه إلا لقاء الله ، ولذلك أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا نستغل هذا الحيز فى أى أمر يتعلق بدنيانا ، وقد أوضح لنا - صلى الله عليه وسلم - أن الذى يعقد صفقة فى المسجد لن يبارك الله فيها ، والذى ينشد فيه شيئا ضالا له لن يجده . فقد دعا الرسول ألا يرد الله عليه ضالته .

إن أمور الدنيا يكفيها أن تأخذ من الإنسان كل يوم ثلاثا وعشرين ساعة، فليخصص الإنسان المؤمن ساعة لله وحده ، وليخلع كل أغراض الحياة الدنيا كما يخلع النعال على باب المسجد . فليس من حسن الأدب واللياقة أن ينشغل الإنسان بأى شيء غير لقاء الله فى الوقت المخصص للقاء الله ، وفى المكان المخصص لهذا اللقاء .

فساعة تدخل المسجد ينبغى أن تمنع نفسك من أن يتكلم معك أحد فى فضول الكلام ولغوه ، وأن تنوى الاعتكاف لتستفيد من وجودك فى المسجد . وساعة أن نخصص حيزا ما ليكون مسجدا ، فكيف يكون الاتجاه داخل المسجد ؟ أيترك الأمر لكل واحد أن يختار له متجها ؟

لا ، إن المؤمن ملتزم بالاتجاه إلى مكان واحد ، هذا المكان الواحد هو بيت لله باختيار الله بينما المساجد الأخرى هى بيوت لله باختيار خلق الله ، فبيوت الله باختيار خلق الله متجهها جميعا هو بيت الله الحرام.

وحين تنظر هذه النظرة ستجد العالم متواجها ؛ لأن كل عابد سيكون اتجاهه إلى بيت الله مع بقية العابدين لله ، فيلتف المؤمنون كلهم حول بيت الله ، ويتواجهون ، إن وجوهنا كلها تُقابل بعضها بعضا ، ولكن ما ضرورة الاتجاه للكعبة ؟ والحق سبحانه يقول :

﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ ﴾

(سورة البقرة)

نقول : إن هذه الآية تؤيد ما نقوله ، فمادام لله المشرق والمغرب ، فهذا هو المعنى العام ، فالناس أول ما عرفوا الكون تعرفوا على المشرق والمغرب ثم الشمال والجنوب أيضا ، وبعد أن توصل العلم إلى تحديد الجهات الفرعية بجانب الجهات الأصلية الأربع المعروفة عرفنا « الشمال الشرقى » و« الشمال الغربى » و« الجنوب الشرقى » و« الجنوب الغربى » . إذن فكل المتجهات لله ، والاتجاه للكعبة يحقق هذا القول الكريم .

وعندما يتجه إنسان إلى الكعبة فقد يكون الشرق خلفه ، ويكون الغرب أمامه ، ويتجه إليها إنسان آخر إلى الكعبة ، فيتقابل وجهه مع وجه المتجه للكعبة ، وثالث يتجه إلى الكعبة ، فيكون فى زاوية أخرى ناظرا إليها ، وهكذا يلتف البشر من الشرق والغرب والشمال والجنوب وكل الجهات الفرعية حول الكعبة .

إذن فقول الحق : « ولله المشرق والمغرب » أى جميع الخلق متجه إلى الكعبة ، وبذلك لا تكون هناك جهة أولى بالله من جهة أخرى . وأنا لا أريد أن أدخل فى متاهة أنّ الكعبة مركز الأرض وأن الأرض خلقت منها ؛ لأن الشىء إذا كان مكورا فأى نقطة فيه تكون مركزا للجميع ، لذلك فلنترك مثل هذا الكلام ، لكن ألَا يكفى أن يرجحها أن الله قد اختارها ؟ إن ذلك يكفى وزيادة ، وبذلك ينتهى الأمر ، إنها كذلك ؛ لأنها بيت الله باختيار الله ، وهذا يكفى .

لقد علّمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الأشياء التى تقف فيها العقول وليست من صلب العقائد أو الدين لا يصح أن تكون محل خلاف أو جدل . يقول سيدنا على كرم الله وجهه عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : سأله رجل ، « أذلك أول بيت لله ؟ » فوضح رسول الله صلى الله عليه وسلم أن قبله بيوتا ، ولكن هو أول بيت وُضِع للناس . وهذا إيضاح أن الله قد جعل الكعبة هى أول بيت له يتعبد فيه جنس البشر ، وذلك لقول الله تعالى : « إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا وهدى للعالمين » . ولكن إن كانت هناك أجناس سابقة على الجنس البشرى فمن المؤكد أنه كانت هناك لله بيوت لا نعرفها .

وما آدم فى منطق العقل واحد ولـكـنـه عـنـد القياس أوادم

ولذلك فوجود البيت الحرام كبيت لله لا يصطدم مع منطق الناس الذين لا يملكون إلا الثقافة الدينية الضحلة ، فساعة أن يسمع الواحد منهم ، أن هناك اكتشافا لحفريات من كذا مليون سنة فهو يتساءل قائلا : كيف وآدم لم يمر عليه ملايين السنين ؟ لنفترض أن هناك خمسة أجيال لإدريس عليه السلام وثلاثة أجيال لنوح عليه السلام ، وأحد عشر جيلا لإبراهيم عليه السلام وثلاثين جيلا لمحمد عليه الصلاة والسلام ، وهكذا يكون الوجود البشرى محددا بآلاف السنوات لا ملايينها .

لهذا الإنسان نقول : وهل قال لك أحد : إن آدم أول من عَمَرَ الأرض ؟ إن الدين لم يقل ذلك ، لكن الدين قال : إن آدم هو أول هذا الجنس البشرى ، ولكنه ليس أول من سكن الأرض ، لذلك فليقل العلماء : إن عمر هذه الأرض ملايين السنين ولنسمع جميعا قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ ﴾

(سورة إبراهيم)

إذن فلا مجال لهذا البحث ، لذلك قال النبى عليه الصلاة والسلام : « لا ، بل قبله بيوت » .

والحق سبحانه وتعالى يقول ما يوضح أن الجن قد سكنوا الأرض قبلنا :

﴿ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ ﴾

(سورة الحجر)

ألم يقل الحق سبحانه إن الإنسان خليفة ، وردّت عليه الملائكة :

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾

(سورة البقرة)

إن الذين قالوا ذلك ليسوا من البشر ، إذن فكلام الله يؤكد أن الكعبة هى أول بيت وُضع للناس ، أى للجنس البشرى ، ولذلك فلا داعى أن نتكلم فى الأشياء التى يقف فيها العقل حتى لا ندخل فى متاهة . ولو كان الله قد أراد أن يعلمنا أن الكعبة هى أول بيت فى الأرض لقال لنا : « إنه أول بيت وضع فى الأرض » ، ولم يكن قد حدد الجنس الذى وضع البيت من أجله ، لكن الحق سبحانه قال : « إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا » ، ولذلك بين رسول الله صلى الله عليه وسلم أن قبله بيوتا ، ولكنه أول بيت وضع للناس . إنه جواب يتسع لكل ما يأتى به العلم .

وحين ننظر إلى القول الحق : « إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا » ما معنى « أول » ؟ إنه الابتداء ، وهل كل ابتداء له انتهاء ؟ لا ، إن هناك أمورا لها « أول » وليس لها « آخر » ومثال ذلك العدد « واحد » وما بعده ليس له آخر ، فآخر ما بعد العدد واحد هو ما يمكن الإنسان أن يحسبه عجزا فى التقديرات الدشليونية ، ولكن ما بعد الدشليون هناك أعداد أخرى ، وكان الإنسان قديما يقف عند الألف ، ثم يقول عن المليون « ألف ألف » ، وكذلك الجنة لها أول وليس لها آخر .

إذن فأول بيت وضعه الله للناس هو الكعبة . وعندما نرى كلمة « وُضع » نجدها فعلا ، ونرى أنه قد وُضِع للناس . ومادام هذا البيت قد وضع للناس لذلك فمن اللازم حين تأتى كلمة « ناس » أن يكون هناك « بيت » و« آدم » من الناس ، ووالد كل الناس ، وكان له بيت وُضِع له . وحين يقال : إن البيت قد تم بناؤه قبل آدم فإننا نقول : نعم ، لأن آدم من الناس ، والله يقول : « إن أول بيت وضع للناس » فلماذا نحرم آدم من أن يكون له بيت عند الله ؟ إذن فالبيت موجود من قبل آدم . وبعض الناس تظن أن إبراهيم عليه السلام هو الذى بنى البيت ، ولأصحاب هذا الظن نقول : لنفهم القرآن معا ، إن مثل هذا القول يناقض القرآن ؛ لأن القرآن قد قال : « إن أول بيت وضع للناس » وذلك إيضاح أن إبراهيم كان من قبله أناس سابقون له ، فكيف لا يكون للناس من قبل إبراهيم بيت ؟ ولا يكون للناس من بعد إبراهيم بيت ؟

إن الذين كانوا يعيشون قبل مجىء إبراهيم عليه السلام لهم الحقوق نفسها عند الله التى وضعها الله لمن بعد إبراهيم ، فلابد أن الله قد جعل بيته لهم ، والنص القرآنى

« إن أول بيت وضع للناس » مؤكد ذلك ، ومادام قد جاء الفعل مَبْنياً للمفعول فواضعه غير الناس ، فـ « وُضِع » هو فعل مبنى على ما لم يسم فاعله ، فمن الذى وضعه ؟ هل هم الملائكة ؟

قد يصح ذلك وهو أن يكون الملائكة قد تلقوا الأمر من الله بمزاولة هذا البناء ، ولكن الحق يقول عن هذا البيت إنه : « هدى للعالمين » وهذا يعنى أن البيت هدى للملائكة ؛ لأنهم عالم،وهذا يعنى أن البيت قد وضعه الله من قبل ذلك ، إن أحدًا لا يقدر أن يجعل الكون على قدر العقل البشرى ، إن على العقل البشرى أن يكون فى ركاب الكون ، وإياك أن تجعل الكون فى ركاب عقلك . أما مسألة أن إبراهيم قد بنى الكعبة أولاً فهذا عدم فهم للنص القرآنى القائل :

﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ ﴾

(سورة البقرة)

فما هو الرفع ؟ إنه إيجاد البُعد الثالث وهو الارتفاع ، فالطول والعرض موجودان إذن فهذا دليل على وجود البيت قبل أن يقيم إبراهيم عليه السلام ارتفاع البيت . وهكذا نستنتج أن الذى كان مطموسا هو القاعدة والارتفاع ، مع وجود الطول والعرض اللذين يحددان المكان ، أما البناء فهو الذى يحدد « المكين » وعندما انهدم البيت الحرام كان الناس يتجهون إلى المكان نفسه . ونحن عندما نصلى فى الدور الثالث فى الحرم ، فإننا نتجه إلى الهواء الموجود من فوق الكعبة ، ولو حفرنا نفقا تحت الأرض بألف متر ، وأردنا أن نصلى فإننا سنتجه إلى جذر الكعبة ، وهكذا نعرف أن جو الكعبة كعبة .

إذن فعمل إبراهيم عليه السلام كان فى إيجاد المكين لا المكان ، ولنقرأ بالفهم الإيمانى ما حدث لإبراهيم عليه السلام . لقد أخذ إبراهيم هاجر وابنها إسماعيل ، وخرج بهما ليضعهما فى هذا المكان . « وهاجر » تعرف أن مكونات الحياة هى المياه والهواء والقوت ، وهذا المكان لا توجد به حتى المياه ، لذلك قالت هاجر سائلة إبراهيم عليه السلام : كيف تتركنا هنا ؟ هل أنزلتنا هنا برأيك أم بتوجيه من الله ؟

فقال لها إبراهيم عليه السلام : إنه توجيه من الله ، لذلك قالت : « لقد اطمأننت ، والله لا يضيعنا أبدا » . لم تقلق هاجر لأن إبراهيم اتجه إلى ما أمره الله ، وهذا هو الإيمان فى قمته ، ولو لم يكن الإيمان على هذه الدرجة الرفيعة فأى قلب لأم تترك أب الطفل يذهب بعيدا عنها وتعيش مع ابنها فى هذا المكان الذى لا يوجد به طعام أو ماء ، فهى لا تؤمن بإبراهيم ، ولكنها تؤمن برب إبراهيم وعندما تقرأ القرآن الكريم نجد القول الحق على لسان إبراهيم :

﴿ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾

(سورة إبراهيم)

هكذا نعرف أنه ساعة إسكان إبراهيم لذريته كان هناك بيت وأن هذا البيت محرم ، وعندما نقرأ عن رفع البيت الحرام نجد أن إبراهيم عليه السلام لم يرفع قواعد البيت بمفرده بل شاركه ابنه إسماعيل عليه السلام .

﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ ﴾

(سورة البقرة)

هكذا نعلم أن إسماعيل عليه السلام كان قد نضج بصورة تسمح له أن يساعد والده خليل الرحمن فى إقامة قواعد البيت الحرام ، وهذا يدلنا على أن إسماعيل نشأ طفلا فى هذا المكان عندما أسكنه والده إبراهيم عند البيت المحرم ، هكذا نتيقن أن البيت المحرم كان موجودا من قبل إبراهيم عليه السلام ، وعندما ندقق النظر فى معنى كلمة « بكة » التى وردت فى هذا القول الكريم:« إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا » فإننا نعرف أن هناك اسما لمكان البيت الحرام هو « بكة » وهناك اسم آخر هو مكة ، وبعض العلماء يقول : إن « الميم » و« الباء » يتعاونان ، ونلحظ ذلك

فى الإنسان « الأخنف » أو المصاب بزكام ، إنه ينطق « الميم » كأنها « باء » . والميم و« الباء » حرفان قريبان فى النطق ، والألفاظ منها تأتى قريبة المعنى من بعضها .

ولننظر إلى اشتقاق « مكة » واشتقاق « بكة » . إننا نقرأ « بكّ المكان » أى ازدحم المكان ، وهكذا نعرف من قوله الحق : « إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا » أى أنه مكان الازدحام الذى يأتى إليه كل الناس وكل الوفود لتزور بيت الله الحرام ، ولا أدل على ازدحام البيت الحرام من أن الرجال والنساء يختلط بعضهم ببعض ، والإنسان يطوف بالبيت الحرام ، ولا يدرى أنه يسير وقد يلمس امرأة أثناء الطواف .

و« بكة » هى المكان الذى فيه الطواف والكعبة ، أى هى اسم مكان البيت الحرام ، و« مكة » اسم البلد كلها الذى يوجد به البيت الحرام . و« مكة » مأخوذة من ماذا ؟ إن « مكة » مأخوذة من « مك الفصيل الضرع » أو « امتك الفصيل الضرع » ، أى امتص كل ما فيه من لبن ، والفصيل كما نعرف هو صغير الإبل أو صغير البقر . ومادام الفصيل قد امتص كل ما فى الضرع من لبنْ فمعنى هذا أنه جائع ، ومكة كما نعرف ليس فيها مياه ، والناس تجهد وتبالغ فى أن تمتص المياه القليلة عندما تجدها فى مكة .

وفى كلمة « مباركا » نجد أنها مأخوذة من « الباء والراء والكاف » والمادة كلها تدور حول شيء اسمه الثبات ، فهل هو الثبات الجامد ، أم الثبات المعطى النامى الذى مهما أخذت منه فإنه ينمو أيضا ؟ إننا فى حياتنا اليومية نقول : « إن هذا المال فيه بركة . مهما صرفت منه فإنه لا ينتهى » ، أى أنه ثابت لا يضيع ، ويعطى ولا ينفد. وكلمة « بِرْكة » فى حياتنا تعنى أنها تَجَمعُ الماء نأخذ منها مهما نأخذ فيأتى إليها ماء آخر .

وكلمة « تبارك الله » تعنى « ثبت الحق » ولم يزل أزلا ولا يزال هو واحداً أحداً ، إنه الثبوت المطلق . وهكذا نجد أن الثبات يأتى فى معنى البيت الحرام . إن البيت الحرام مبارك أبدا « كيف » ؟ أليست تضاعف فيه الحسنة ؟ وهل هناك بركة أحسن من هذه ؟ وهل هناك بركة أفضل من أنه بيت تُجبى إليه ثمرات كل شيء ولا تنقطع ؟ فقديما كان الذاهب إلى البيت الحرام يأخذ معه حتى الكفن ، ويأخذ الإبرة والخيط ، والملح ، والآن فإن الزائر لبيت الله الحرام يذهب ليأتى بكماليات

الحياة من هناك . ويقول سبحانه عن هذا البيت الحرام المبارك : إنه « هدى للعالمين » . ما هو الهدى ؟ قلنا : إن الهدى هو الدلالة الموصلة للغاية ، ومن يَزُرْ البيت الحرام يخرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه ، فهل اهتدى للجنة أم لا ؟ إنه ـ رف بزيارة البيت الحرام الطريق إلى الجنة . وحينما ننظر إلى هذه المسألة نجد أن الحق سبحانه وتعالى عندما تكلم عن البيت لم يتكلم إلا عن آية واحدة فيه هى مقام إبراهيم مع أن فيه آيات كثيرة .

قال الحق :

﴿ فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ مَّقَامُ إِبۡرَٰهِيمَۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنٗاۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗاۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٩٧ ﴾

إننا نجد أن صيغة الجمع موجودة فى قوله الحق : « فيه آيات » و« بينات »وهى وصف الجمع . وبعد ذلك قال الحق : « مقام إبراهيم » إنه سبحانه لم يذكر إلا مقام إبراهيم بعد الأيات ، والمقام آية واحدة ، وهذا يدل على أن مقام إبراهيم فيه الأيات البينات ، ونحن نقرأ « مقام إبراهيم » بفتح الميم الأولى فى كلمة « مقام » ولا ننطقها « مقام » بضم الميم الأولى لأن المقام بضم الميم تعنى مكان إقامة إبراهيم،أما مقام بفتح الميم فمكان القيام ، لماذا كان قيام إبراهيم عليه السلام ؟

لقد كان إبراهيم يقوم ليرفع قواعد البيت الحرام ، وكان إبراهيم يقوم على « حجر » . وعندما ننظر إلى مقام إبراهيم فإنك تجد فيه كل الآيات البينات ؛ لأن الله طلب من إبراهيم عليه السلام أن يرفع قواعد البيت ، وكان يكفيه حين يرفع قواعد البيت أن يعطيه الارتفاع الذى يؤديه طول يديه ، وبذلك يكون إبراهيم عليه السلام قد أدى مطلوب الله ـ كما قلنا من قبل ـ لكن إبراهيم عليه السلام تعود مع

الله أن يؤدى كل تكليفات الله بعشق وحب وإكمال وإتمام ، فقال إبراهيم فى نفسه : « ولماذا لا أرفع البيت أكثر مما تطول يداى ؟» ولم تكن هناك فى ذلك الزمن القديم فكرة « السقالات » ، ولم يكن مع إبراهيم عليه السلام إلا ابنه إسماعيل . وأحضر إبراهيم عليه السلام حجرا ، ووقف عليه ؛ ليرفع القواعد قدر الحجر .

إذن فإبراهيم خليل الرحمن أراد أن ينفذ أمر الله بالرفع للقواعد لا بقدر الاستطاعة البدنية فقط ،ولكن بقدر الاحتيال على أن يرفع القواعد فوق ما يطلبه الله ، وهذا معنى قول الله عن إبراهيم عليه السلام :

﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾ ﴾

(سورة البقرة)

أى أنه أدى مطلوب الله أداء كاملا ، ولا أدل على هذا الأداء الكامل من أنه أتى بحجر ليقف عليه ليزيد من ارتفاع البيت قدر هذا الحجر . ونعرف أن الذى ساعده وشاركه فى رفع القواعد هو ابنه إسماعيل . ومن أكرمه الله برؤية مقام إبراهيم يجد أن الحجر يسع وقوف إنسان واحد ، وهكذا نفهم أن إسماعيل كان يساعد ويناول والده الأحجار ، أما مكان الأقدام الموجودة فى هذا الحجر ، فهذا يعنى أن إبراهيم عندما كان يقف ويحمل حجرا من المفروض أن يحمله اثنان فإن هذا يتطلب ثبات القدمين فى مكان آمن حتى لا يقع .

فهل يا ترى أن الله سبحانه وتعالى جلت قدرته ساعة رأى إبراهيم يحتال هذه الحيلة قال لخليله : سأكفيك مؤنة ذلك . وجعل الحق القدمين تغوصان فى الحجر غوصا يسندهما حتى لا تقعا . والذى لا يتسع ذهنه إلى أن الله الآنَ لإبراهيم الحجر ، نقول له : إن إبراهيم قد احتال ، وخاف أن تزل قدمه ، فنحت مكانا فى الحجر على قدر قدمه حتى تثبت قدمه حين يحمل ويرفع الحجر ، وهذه آيات بينات . فخذ ما يتسع ذهنك وفهمك له ، إن الله أعان إبراهيم لأنه فكر أن يبنى القواعد ويرفعها أكثر مما تطول يداه ، وقد مكّن الله له فى ذلك وأعانه عليه ، ونحن نعلم أن الهداية تكون هداية الدلالة وهداية المعونة .

﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴿١٧﴾ ﴾

(سورة محمد)

« فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمنا » ، والآيات هى الأمور العجيبة ، وعندما تراها فإنك لا تستطيع أن تنكرها . ودخول البيت يعنى الأمن للإنسان الذى يدخله ، ونحن نعلم أن البيت قد تم بناؤه فى هذا المكان . وهذا المكان تجتمع فيه القبائل ، وبين بعض هذه القبائل ثارات ودماء وحروب ، لذلك بيّن الله الوضع الذى بمقتضاه تحقن الدماء « ومن دخله كان آمنا » لماذا ؟ لأنه بيت الرب ولا يصح أن يدخل واحد بيت الرب ويُعاقب حتى ولو كان قد أجرم جرما يوجب الله عليه الحد فيه . ولذلك قال سيدنا عمر رضى الله عنه : لو ظفرت فيه بقاتل الخطاب ـ والده لم أتعرض له .

ولكن يُضَيّق الخناق على المجرم حتى يخرج . وهذا الأمن محدد بأي أمر اقترفه فى دنياه ، أما من دخله كان آمنا يوم القيامة فالحكم فيه شيء آخر ، إنها درجة عالية من فضل الله ، والآيات البينات الواضحة فى البيت الحرام يراها من زار البيت الحرام ، وليحقق الله أمل كل راغب فى زيارة البيت الحرام ، وأن يكرر الزيارة لمن ذهب وأراد أن يعود للزيارة مرة أخرى . فساعة تدخل البيت الحرام فأنت هنا تتجه إلى مكان فى البيت والمقابل لك فى الكرة الأرضية يتجه إلى المكان المقابل ، إلى أن تصير الاتجاهات مشتملة على الكعبة كلها . ونحن عندما نكون فى الكعبة فإننا نوجه وجوهنا إلى المبنى لأننا نراها ، ونحن نوجه الوجوه إلى المبنى المقطوع بأنه منها ، والحطيم ، وهو القوس المبنى حول حجر إسماعيل ، هو من الكعبة أيضا ، ولكن النفقة قصرت ، فجعلوه ليحدد مكان الكعبة ، فظل هكذا ، فإذا غاب الإنسان عن الكعبة واتجه إليها فإنه يكفى أن يتجه إلى جهتها .

ولذلك نجد الصفوف فى الصلاة حول الكعبة تتخذ شكل الدائرة ؛ لأن الذين يصلون فى داخل الحرم يشاهدونها ، أما الذين يصلون خارجها فيكفى أن يتجهوا إلى جهتها ولو طال الصف إلى ألف متر ، لذلك فالصف للمصلين خارج الحرم يكون معتدلا ، أما فى داخل الحرم فالصفوف تأخذ شكل الدائرة لأن أقصى بعد فى الكعبة هو اثنا عشر مترا وربع المتر،ونجد من الآيات العجيبة أنك إذا ما نظرت إلى الحجر الأسود تجد الناس تتهافت على تقبيله ، والحجر يمثل أدنى أجناس الكون ، ونعلم

جميعا أن الإنسان مستخلف كسيد فى الكون ، ومن بعده الحيوان أقل منه فى الفكر ومسخر ، ومن بعد الحيوان يكون جنس النبات ، ومن بعد ذلك يأتى جنس الجماد ومنه الحجر .

إننا نرى هذا الإنسان السيد فى الكون لا يقبل الله منه النسك القبول التام الحسن إلا إذا قبل الحجر ، أو حياه ، وهكذا ينقل الحق أعلى الأجناس إلى أدناها . والناس تزدحم حول الحجر ، ومن لم يقبل الحجر يحس أنه افتقد شيئا كثيرا ، وهكذا ترى استطراقا وسلوكا من الخلق إلى باب الله ، فالإنسان المتكبر الذى يتوهم أنه سيد على غيره ، يأتى إليه أمر فى النسك بتقبيل الحجر أو تحيته بالسلام ، وهذا الإنسان برغم أن الحق - سبحانه - يقبل منه أن يحيى الحجر الأسود بالسلام ولم يفرض عليه أن يقبّله ولكنه مع ذلك يحاول أن يقبل الحجر ، وهو أدنى الأجناس ، لأن الله قد عظمه ، وهذا أول كسر لأنف غرور الإنسان ، وحتى لا يظن ظان أنها حجرية أو وثنية ، يأتى الأمر من الحق برجم حجر آخر .

إذن فالحجرية لا ملحظ لها هنا ، فنحن نجد حجرا يُقدس ، وحجرا آخر يُرجم . نجد حجرا يقبله الإنسان ويعظمه وحجرا آخر يزدريه ويحقره . وذلك يدل على رضوخنا لإرادة الآمر سبحانه وتعالى فقط ، فعندما يأمرنا بأن نعظم حجرا فالمؤمن يؤدى حق التعظيم بالسمع والطاعة ، وعندما يأمرنا سبحانه برجم حجر آخر ، فالمؤمن يرجم هذا الحجر بالسمع والطاعة لله أيضا ، فالذاتية الحجرية لا دخل لها على الإطلاق . وبعض من أصحاب الظن السيىء قالوا:إن الإسلام قد استبقى بعض الوثنية .

ولهؤلاء نقول : ولماذا تذكرون تعظيم الحجر الأسود ، ولم تذكروا رجم إبليس وهو ثلاثة أحجار ؟ لقد عظم المؤمن المؤدى للنسك حجرا واحدا ورجم ثلاثة أحجار ، إن المؤمن إنما يطيع أمر الله ، فليست للحجر أى ذاتية فى النسك أو العبادة . لقد رفعنا الحق من حضيض عبادة الأصنام التى هى عين الكفر ، لكنه قال لنا : « قبلوا الحجر الأسود » فقد قبلنا الحجر احتراما لأمر الآمر ، وذلك هو منتهى اليقين . لقد نقلنا الحق من مساو إلى مساو ، من عبادة الحجر إلى تعظيم وتقديس حجر مثله ، لكن الأصنام كانت منتهى الشرك ، وتقبيل الحجر الأسود منتهى اليقين . أليست هذه آيات بينات ؟

وزمزم التى توجد فى حضن الكعبة ، أليست آيات بينات ؟ إن « هاجر » تترك الكعبة وتروح إلى « الصفا » وتصعد إلى « المروة » بعد أن تضع « إسماعيل » بجانب الكعبة ، وتدور بحثا عن المياه . وسعت هاجر سبعة أشواط لعلها ترى طيرا أو تجد إنسانا يعرف طريق المياه لأن ابنها يحتاج إلى الشرب ، ولو أنها وجدت على الصفا أو المروة مياها فى أول سعيها أكانت تجد تصديقا لقولها لإبراهيم عندما جاء بها للإقامة فى هذا المكان « إن الله لا يضيعنا » إنها سعت .

وكأن الله يقول لها ولكل إنسان : عليك بالسعى ، ولكن لن أعطيك من السعى ، إنما أعطيك الماء من تحت رجل إسماعيل.إذن فصدقت فى قولها : لن يضيعنا الله ، لقد جعلها الحق سبحانه تسعى سبعة أشواط ، ولا يمكن لامرأة فى مثل عمرها أن تقدر على أكثر من ذلك ، وهذا يعلمنا أن الإنسان عليه أن يباشر الأسباب ، ولكن القلب عليه أن يتعلق بمسبب الأسباب ، وهو الله سبحانه/وفى هذا ما يعدل سلوك الناس جميعا . فساعة يرى الإنسان أن البئر مكان قدم إسماعيل وعلى البعد تكون الصفا والمروة ، وتسعى بينهما ، وبعد ذلك تجد زمزم مكان ضربة قدم إسماعيل ، أليس فى هذا آيات بينات تهدى الإنسان أن يباشر الأسباب ويأخذ بها ، ويتعلق القلب بمسبب الأسباب ؟

إن هذا يعطى المؤمن إيمانية التوكل ، وهى تختلف عن الكسل و« بلادة التواكل » فإيمانية التوكل هى أن الجوارح تعمل ، والقلوب تتوكل ، أما الكسل عن الأخذ بالأسباب مع الادعاء بالتوكل فهذه بلادة ، ومثل هذا الكسول المتواكل عندما يأتى الأكل أمامه يأكل بنهم وشره ، ولو كان صادقا لترك اللقمة تقفز إلى فمه ، ولماذا يمضغها إذن ؟ لماذا يختار التواكل والكسل ، وعدم العمل ، ثم يمد يده ليأكل ؟ إن هذه هى « صفات التواكل » .

إننا نأخذ من سعى « هاجر » وتفجر الماء عبرة ، هى الأخذ بأسباب الله ، وبعد ذلك فإننا نجد كل إنسان فى البيت الحرام مشغولا بنفسه مع ربه ، ومن فرط انشغاله يكون غافلا عمّن يكون معه ، ولو كان أحب إنسان له فإنه لا يدرى به . وساعة تدخل وتنظر إلى الكعبة ينفض من عقلك كل فكر فى أى شىء من الأشياء ، لا تذكر أولادك أو مالك ، لكنك بعد أن تفرغ من المناسك تعود للتفكير فى أولادك وعملك ، وإلا لو ظل حبك وشوقك وتعلقك ومواجيدك بهذه البقعة لضاق المكان

بالناس جميعا . بعد ذلك يقول الحق سبحانه عن البيت الحرام : « ومن دخله كان آمنا » . وهنا يجب أن نفهم أن هناك فارقا بين أن يكون « الخبر » تاريخا للواقع ، وبين أن يكون « الخبر » خبرا تكليفيا فلو كان « وَمَنْ دخله كان آمنا » تاريخا للواقع لتم نقض ذلك بأشياء كثيرة ، فقد وجد فيه قوم ولم يأمَنوا .

ونحن نعرف حادث الاعتداء الأخير الذى حاوله جهيمان منذ سنوات قال الناس: إن جهيمان عندما اعتدى على الناس ، لم يستطع حجيج بيت الرحمن أن يكونوا آمنين فى البيت وتساءل بعضهم ، فكيف قال الحق : « ومن دخله كان آمنا » ؟ بل قال بعض أهل الانحراف : إذن مسألة دخول جهيمان إلى البيت الحرام تجعل « ومن دخله كان آمنا » ليست صادقة ! ولهؤلاء نقول :

إن هناك فرقا بين إخبار الحق بواقع قد حدث ، وبين إخبار بتكليف . إن الإخبار بالواقع كان معناه ألا يدخل أحد البيت الحرام ويهيجه أو يهاجمه أحد أبدا ، ولكن الإخبار التكليفى معناه : أن يخبر الله بخبر ويقصد به تكليف خلقه به ، والتكليف كما نعرف عرضة لأن يطاع ، وعرضة لأن يعصى ، فإذا قال الله سبحانه : « ومن دخله كان آمنا » فهذا معناه : يأيها المؤمنون ، من دخل البيت الحرام فأمنوه . ونضرب المثل ـ ولله المثل الأعلى ـ تقول أنت لولدك: يا بنى هذا بيت يفتح للضيوف من دخله يكرم . أهذا يدل على إنجاز الإكرام لكل من دخل هذا البيت وحصوله له بالفعل وأن هذا لا يتخلف أبدًا أم أنك قلت الخبر وتريد لولدك أن ينفذه ؟

إن هذا خبر يحمل أمرا لابنك هو ضرورة إكرام من يدخل هذا البيت ، وتلك الوصية عرضة لتطاع وعرضة لأن تخالف ، لذلك فنحن نفهم من قول الحق : « ومن دخله كان آمنا » على أساس أنها أمر تكليفى ، عرضة للطاعة وللعصيان ، ومثال آخر على ذلك هو قول الله تعالى :

﴿ ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ۖ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٢٦) ﴾

(سورة النور)

بعض الناس يقول : نجد واقع الحياة غير ذلك ، حيث نجد امرأة طيبة تقع فى

عصمة رجل غير طيب وتتزوجه . ونجد رجلا طيبا يقع مع امرأة غير طيبة ويتزوجها ، فكيف يقول الله ذلك ؟ ونحن نرد على أصحاب هذا القول : إن الله لم يقل ذلك تأريخا للواقع . ولكنه أمر تكليفى . أىْ افعلوا ذلك ، وحكمى وتكليفى أن يكون الطيبات للطيبين والطيبون يكونون للطيبات . فإذا امتثل الخلق أمر الحق فعليهم أن يفعلوا ذلك ، وإن لم يمتثل بعض الخلق لأمر الحق فإن الواقع ينبىء بحدوث وجود طيبين لغير طيبات أو العكس .

إذن فقول الحق : « ومن دخله كان آمنا » هو خبر يراد به أمر تكليفى ، فمن أراد أن يكون صادقا فيما كلفه الله به فليُؤَمن مَن دخل البيت الحرام . وبعد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾

(من الآية ٩٧ سورة آل عمران)

وحين تسمع « لـ » و« على » ، فافهم أن الفائدة تقع على ما دخلت عليه « اللام » ، والتبعة تقع على ما دخلت عليه « على » . فحين نقول : « لفلان عَلَى فلان كذا » فالنفعية لِفلان الأول والتبعة على فلان الثانى . وحين يقول الحق سبحانه وتعالى : « ولله على الناس حج البيت » . فعلى هذا فالنفعية هنا تكون لله ، والتبعة هنا تكون على الناس ، لكن لو فطنا إلى سر العبارة لوجدنا أن الله لا ينتفع بشىء من تكليفه لنا ، فالحج لله ، ولكنه يعود إليك ، فما لله عاد إليك ، وما عليك عاد لك .

وكل تكليف عليك فأثره لك ، فإياك أن تفهم من ذلك القول الكريم : « ولله على الناس حج البيت » أن اللام الأولى للنفعية ، وإياك أن تفهم أن « على » هى للتبعة ، نعم إن الحج لله ، ولكن الفائدة لا تعود إلا عليك ، وهو تكليف عليك ، وفائدته تعود عليك ، فالحق سبحانه وتعالى منزه عن أن يُفيد من حكم من أحكامه ، وهو سبحانه حين ينزل حكما تكليفيا فعلى العبد المؤمن أن يعرف أن فائدة الحكم عائدة عليه وعلى حياته ، ولله يكون القصد والحج ، لا لشىء سواه .

ولماذا يقول الحق : إن على العبد المؤمن أن يحج البيت الحرام ؟ لأنه الخالق وهو

خبير وعليم بأن التكليف شاق على النفس ، ولكن على المؤمن المكلف حين يجد تكليفا شاقا عليه أن ينظر إلى الفائدة العائدة من هذا الحكم ، فإن نظر إلى الفائدة من الحكم وجد أنها تعود عليه ، ولذلك يسهل على العبد المؤمن أمر الطاعة . والذى لا يقبل على الطاعة ويهمل الجزاء عليها ويغفل عنه . تكون الطاعة شاقة عليه . والذى يقبل على المعصية ويهمل الجزاء عليها تكون المعصية هينة عليه . ولكن الطائع لو استحضر غاية الطاعة لعلم أنها له لا عليه .

ولو أن العاصى استحضر العذاب على المعصية لعلم أنها عليه لا له ؛ فالعاصى قد يحقق لنفسه شهوة ، لكنها شهوة عاجلة ، أمدها قصير ، ولو استحضر العاصى العقوبة على المعصية وقت عملها ما أقدم على معصيته أبدا . ولكن الذين يرتكبون المعصية ينظرون إلى الشهوة الطارئة ، ويعزلون جزاء المعصية عنها ، ولو أنصفوا أنفسهم ، لاستحضروا العقاب على المعصية فى وقت الرغبة فى ارتكابها . وحين يستحضرون جزاء المعصية مع المعصية فإن شهوة المعصية تنتهى منهم ، وأضرب هذا المثل دائما عن أعنف غرائز الإنسان وهى غريزة الجنس .

هب أن هناك واحدا رأى فتاة جميلة ثم أراد أن ينالها نقول لهذا المتشرد جنسيا : استحضر العذاب على هذا العمل ، وإن أخذت هذه الفتاة فتعال لنريك بعينيك ما أعده الله لك حين تتمتع بهذه الفتاة خارجا عن شرع الله ، وأوقد له فرنا مسجورًا ومحميًا ، وقُل له : فى مثل هذا ستدخل بل وأشد منه إن نلت من الفتاة .

أيقبل هذا المتشرد على ارتكاب تلك المعصية ؟ لا ؛ فشهوة المعصية تضيع عندما يَستحضر العذاب عليها . إن الحق سبحانه يقول : « ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا » والسبيل هو الطريق الموصل للغاية ، والطريق الموصل للغاية عادة ما يكون مطروقا ، وعندما يتجه الإنسان لأداء فريضة الحج فهو طارق للطريق ، أى سيسير عليه ، هكذا تعرف أن هناك ثلاثة أشياء :

طارق ، وهو من كتب الله عليه الحج وهو المكلف .
وسبيل مطروق .
وغاية ، وهى حج البيت .

ومادام الطارق سيسلك طريقا فلا بد أن يكون عنده قدرة على أن يسلك هذا الطريق فكيف تتأتى هذه القدرة ؟ إن أول شيء فى القدرة هو الزاد ، وثانى شيء فى القدرة هو المطية التى يركبها ، وهكذا نتبين أننا نحتاج إلى زاد وراحلة لطارق الحج . والسبيل الذى يطرقه ، أيكون محفوفا بالمخاطر ؟ لا ، بل يُفترض أن يكون السبيل آمنا . إذن فالاستطاعة تلزمها ثلاث حاجات ، هى : الزاد ، والراحلة ، وأمن الطريق . والزاد عادة يخص الإنسان نفسه ، ولكن ماذا يكون الحال إن كان الإنسان يعول أسرة وصغارا ؟

إذا كان الإنسان على هذا الحال فمن الاستطاعة أن يكون قد ترك زادا لمن يعولهم إلى أن يعود . وعلينا أن ننتبه إلى أن الله قال فى كل تكليف : « يأيها الذين آمنوا كتب عليكم » . ولكنه سبحانه جاء فى فريضة الحج بالقول الواضح ، بأن الحج لله على الناس وليس لمن أسلموا فقط ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم قد دعا أهل الكتاب الذين كانوا يتمحكون فى إبراهيم عليه السلام أن يحجوا البيت الحرام ، فامتنعوا عن الحج ، ولو كان الحج للمسلمين المؤمنين برسالة محمد صلى الله عليه وسلم لما عرض رسول الله صلى الله عليه وسلم على اليهود والنصارى أن يحجوا ليكون ذلك جمعًا لهم على أن يتجه الخلق جميعا إلى بيت الله ويعبدوا إلها واحدًا هو ربّ هذا البيت ، ولكنهم امتنعوا عن الحج . ولذلك يقول الرسول صلى الله عليه وسلم فيمن لم يحج بدون مرض حابس ، أو سلطان جائر ، أو فقر وعوز ، يقول فى الحديث الشريف :

عن على رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (من ملك زادًا وراحلة تبلغه إلى بيت الله ولم يحج فلا عليه أن يموت إن شاء يهوديا وإن شاء نصرانيا ، وذلك أن الله تعالى يقول : « ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا »)[1] .

ولذلك نجد التكليف بالحج قد اتبع مباشرة بقول الحق : « ومن كفر » فهل يقع من لا يحج بدون مانع قاهر فى الكفر ؟ هنا يقف العلماء وقفة . العلماء يقولون : نعم إنه يدخل فى الكفر ، لماذا ؟ لأن الكفر عند العلماء نوعان كفر بالله ، أو كفر بنعمة

(١) رواه الترمذى ، والحديث وإن كان فى إسناده هلال بن عبدالله مجهول إلا انه ورد فى طرق اخرى حسان وكلها تدل على أن مناط الوجوب فى توافر الزاد والراحلة .

الله ، ومثال ذلك قوله ـ جل شأنه ـ :

﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾

(سورة النحل)

أو هو الكفر ، كأن يموت الإنسان يهوديا أو نصرانيا ، وهنا نقول : انتبه ، لا تأخذ الحكم من زاوية وتترك الزاوية الأخرى . إن المسألة التكليفية يوضحها الحق بقوله : « ولله على الناس حج البيت » . فهل تعارضون فى هذا التكليف ؟ أو تؤمنون به ولكن لا تنفذونه ؟

إن القضية التكليفية الإيمانية هى « ولله على الناس حج البيت » فهل أنت مؤمن بها أو لا ؟ سنجد الإجابة من كل المؤمنين بـ « نعم » . ولكن الموقف يختلف مِنْ مؤمن إلى آخر ؛ فنحن نجد مؤمنا يحرص على أداء الحكم من الله ، وهو الطائع ، ونجد مؤمنا آخر قد لا يحرص على أداء الحكم فيصبح عاصيا .

ونجد فى هذا الموقف أن الكفر نوعان ، هناك من يكفر بحكم الحج ، أى من كفر فى الاعتقاد بأن لله على الناس حج البيت ، وهذا كافر حقا ، لكنْ هناك نوع آخر وهو الذى يرتكب معصية الكفران بالنعمة ؛ لأن الله أعطاه الاستطاعة من زاد ، ومن راحلة ، ومن أمن طريق ، ومن قدرة على زاد يكفى من يعولهم إلى أن يعود ، وهنا كان يجب على مثل هذا الإنسان أن يسعى إلى الحج . لذلك قال بعض العارفين لو أن أحدهم أُخبِر بأن له ميراثا بمكة لذهب إليه حبوًا .

إذن فقوله تعالى : « ولله على الناس حج البيت » هى قضية إيمانية ، فمن اعتقدها يبرأ من الكفر ، ومن خالفها وأنكرها فهو فى الكفر . ومن قام بالحج فهو طائع ، ومن لم يفعل وهو مؤمن بالحج فهو عاصٍ .

ولننظر إلى دقة الأداء القرآنى حين يقول الحق : ومن كفر فإن الله غنى عن

العالمين . قد يقول قائل : ولماذا لم يقل الله : ومن كفر فإن الله غنى عنه ؟ وقال : « فإن الله غنى عن العالمين » ؟ ونقول : إنّ الله غنىٌّ عن كل مخلوقاته ، وإيّاك أن تفهم أن الذى لم يكفر وآمن ، وأدى ما عليه من تكليف ، أنه عمل منفعة لله ؛ إن الله غنى عن الذى أدّى وعن الذى لم يؤد ، إياك أن تظن أن من أدّى قد صنع لله معروفا ، أو قدم لله يدا ؛ « فإن الله غنى عن العالمين » عمن لا يفعل ، وعمن يفعل . وبعد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾ ﴾

وحين تسمع « قل » فهى أمر من الله لرسوله كما قلنا من قبل ؛ إنك إذا كلفت إنسانا أن يقول جملة لمن ترسله إليه فهل هذا الإنسان يأتى بالأمر « قل » أو يؤدى الجملة ؟ إنه يؤدى الجملة ، ومثال ذلك حين تقول لابنك مثلا:« قل لعمك : إن أبى سيأتيك غدا » فابنك يذهب إلى عمه قائلا : « أبى يأتيك غدا » .

وقد يقول قائل : ألم يكن يكفى أن يقول الله للرسول:« قل يا محمد » فيبلغنا رسول الله يا أهل الكتاب لم تكفرون ؟ كان ذلك يكفى ، ولكن الرسول مبلغ الأمر نفسه من الله ، فكأنه قال ما تلقاه من الله ، والذى تلقاه الرسول من الله هو : « قل يا أهل الكتاب » وهذا يدل على أن الرسول يبلغ حرفيا ما سمعه عن الله . وهناك آيات كثيرة فى القرآن تبدأ بقول الحق : « يا أهل الكتاب » ولا يأتى فيها قول الحق : « قل » . وهناك آيات تأتى مسبوقة بـ« قل » « ما الفرق بين الاثنين » ؟

نحن نجد أن الحق مرة يتلطف مع خلقه ، فيجعلهم أهلا لخطابه ، فيقول : « يا أهل الكتاب » إنه خطاب من الله لهم مباشرة . ومرة يقول لرسوله : قل لهم

يا محمد لأنهم لم يتساموا إلى مرتبة أن يُخاطبوا من الله مباشرة : فإذا ما وجدنا خطابا من الحق للخلق ، مرة مسبوقا بـ « قل » ومرة أخرى غير مسبوق فلْتعلم أن الحق سبحانه حين يخاطب خلقه الذين خلقهم يتلطف معهم مرة ، ويجعلهم أهلا لأن يخاطبهم ، ومرة حين يجد منهم اللجاج فإنه يبلغ رسوله صلى الله عليه وسلم : قل لهم .

والمثال على ذلك ـ ولله المثل الأعلى ـ فى حياتنا ، نجد الواحد منا يقول لمن بجانبه : قل لصاحب الصوت العالى أن يصمت . إن هذا القائل قد تَعَالَى عن أن يخاطب هذا الإنسان صاحب الصوت المرتفع فيطلب ممن يجلس بجانبه أن يأمر صاحب الصوت العالى بالسكوت . وحين يجىء الخطاب لأهل الكتاب فنحن نعرف أنهم اليهود أصحاب التوراة ، والنصارى أصحاب الإنجيل ، وهؤلاء هم من يقول عنهم الحق : « يا أهل الكتاب » .

ولم يقل أحد لنا : « يا أهل القرآن » لماذا ؟ لأن الحق حين يقول لهم : « يا أهل الكتاب » فنحن نعرف أن الكتاب يُطلق على كل مكتوب ، وكفرهم يعارض ما علم الله أنه موجود فى الكتاب الذى أنزل عليهم ؛ لأنه هو الذى أنزل الكتاب ، ويعلم أن ما فى الكتاب يدعو إلى الإيمان ، ولا يدعو إلى الكفر . ومادام هو الحق الذى نَزَّل الكتاب ، وهو الشاهد ، فيصبح من الحمق من أهل الكتاب أن يوقعوا أنفسهم فى فخ الكفر ؛ لأنهم بذلك يكذبون على الله : والله ـ سبحانه ـ يسجل عليهم أنهم خالفوا ما هو مكتوب ومنزل عليهم فى كتابهم . إنهم ـ أهل الكتاب ـ إن استطاعوا تعمية أهل الأرض فلن يستطيعوا ذلك بالنسبة لخالق الأرض والسماء .

والحق حين يقول : « لم تكفرون بآيات الله » فهل نفهم من ذلك أن كفرهم بآيات الله هو سترهم آيات الله سترا أوليا أو أنهم آمنوا بها ، ثم كفروا بها ؟ لنرى ماذا حدث منهم ، لقد كانت البشارات به صلى الله عليه وسلم مكتوبة فى التوراة ، ومكتوبة فى الإنجيل وهم قد آمنوا بها قبل أن يجىء سيدنا رسول الله ، فلما جاء رسول الله بالفعل كفروا بها . وفى هذا جاء القول الحكيم :

﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَـٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ

﴿ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾

(سورة البقرة)

لماذا كفروا به صلى الله عليه وسلم ؟ لأنه زحزح عنهم السلطة الزمنية ، فلم تعد لهم السلطة الزمنية التى كانوا يبيعون فيها الجنة ويبيعون فيها رضوان الله ويعملون ما يحقق لهم مصالحهم دون التفات لأحكام الله . وسبق أن قلت : إن قريشا قد امتنعت عن قول: « لا إله إلا الله » وهذا الامتناع دليل على أنها فهمت المراد من « لا إله إلا الله » ، فلو كانت مجرد كلمة تقال لقالوها ، لكنهم عرفوا وفهموا أنه لا معبود ولا مطاع ولا مشرع ، ولا مكلف إلا الله .

إن الحق يقول لأهل الكتاب :

﴿ قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾

هب أنكم خبتم فى ذواتكم ، وحملتم وزر ضلالكم ؛ فلماذا تحملون وزر إضلالكم للناس ؟ . كان يكفى أن تحملوا وزر ضلالكم أنتم ، لا أن تحملوا أيضا وزر إضلالكم للناس ؟

إنّ الحق ـ سبحانه ـ قال :

﴿ لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾

(سورة النحل)

إنه سبحانه قال ذلك مع أنه قد قال :

﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾

(من الآية ١٨، سورة فاطر)

إن الذى لا يحمل وزرا مع وزره هو الضال الذى لم يُضِل غيره ، فهذا يتحمل إثمه فقط . أما الذى يحمل وزر نفسه ، ووزر غيره فهو الضال المضل لغيره ، وهنا يسألهم الحق سبحانه وتعالى على لسان رسوله : « لم تصدون عن سبيل الله من آمن » .

كأنه يقول لهم ماذا تريدون من الدين الذى يربط العبد بربه ؟ . إنكم لا تريدونه دينا قيما ، إنكم تريدونه دينا معوجا ، والمعوج عن الاستقامة إنما يكون معوجا لِغرض ؛ لأن المعوج يطيل المسافة . إنّ الذى يسير فى طريق مستقيم ما الذى يدعوه إلى أن ينحرف عن الطريق المستقيم ليطيل على نفسه السبيل ؟ . إن كان يريد الغاية مباشرة فإنه يفضل الطريق المستقيم . أما الذى ينحرف عن الطريق المستقيم فهو لا يبغى الغاية المنشودة ، بل يطيل على نفسه المسافة ، وقد لا يصل إلى الغاية .

والحق يقول : « لم تصدون عن سبيل الله من آمن تبغونها عوجا » وساعة تسمع « عوجا » فإننا قد نسمعها مرة « عوج » بفتح العين . ومرة نسمعها « عوج » بكسر العين . حين نسمعها « عوج » بفتح العين ، فالعَوَج هو للشىء الذى له قيام ، كالحائط أو الرمح ، أما « العِوج » بكسر العين فهو فى المعانى والقيم ، لذلك يقول لهم الحق عن انحرافهم فى المعانى والقيم : « تبغونها عوجا وأنتم شهداء » .

إن الحق يبلغهم : أنتم تبغون الدين عوجا برغم أنكم شهداء على أن ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم هو الحق ، إنه جاء مبلغا بالصدق ، وكنتم تبشرون برسالة محمد ، وكنتم تستفتحون على الذين أشركوا من أهل مكة وتقولون : سيأتى نبى نتبعه ثم نقتلكم معه قتل عاد وإرم . أنتم ـ يا أهل الكتاب ـ شهود على صدق هذا الرسول .

لقد ارتكبوا سلسلة من المعاصى ؛ هم ضلوا وجهدوا أن يُضلوا غيرهم . ويا ليت

ذلك يتم عن جهل ، ولكنه أمر كان يتم بقصد وعن علم . وبلغت المسألة منهم مبلغ أنهم شهود على الحق . وبرغم ذلك أصروا على الضلال والإضلال . ومعنى « الشهود » ، أنهم عرفوا ما قالوا ورأوه رأى العين ، فالشهود هو رؤية لشيء تشهده ، وليس شيئا سمعته ، لذلك يذكرهم الحق سبحانه بقوله : « وما الله بغافل عما تعملون » .

إنّ الرسالة التى جاء بها محمد مبلغا واضحة ، وهذا مذكور فى كتبكم السماوية . فما الذى يجعلكم ـ يا أهل الكتاب ـ لا تلتزمون طريق الحق وأنتم شهود ؟ لابد أنكم قد مستكم شبهة إن الله يغفل عن ذلك ، فقال لهم لا : « وما الله بغافل عما تعملون » .

وبعد ذلك يأتى قول الحق سبحانه :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ كَـٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾ ﴾

معنى ذلك أن الله نبّه الفئة المؤمنة إلى أن الذين يكفرون بآيات الله لن يهدأ بالهم مادمتم أنتم ـ أيها المؤمنون ـ على الجادة ، ومادمتم مستقيمين ، ولن يهدأ للكافرين بآيات الله بال إلا أن يشككوا المؤمنين فى دينهم ، وأن يبغوها عوجا ، وأن يكفروهم من بعد إسلامهم .

وهذه قضية يجب أن ينتبه لها الذين آمنوا ؛ لأن الذين يبغون الأمر عوجا قد ضلوا وأضلوا ، وهم يشهدون على هذا ، ويعلمون أنّ الله غير غافل عما يعملون ، فماذا يكون موقف الطائفة المؤمنة ؟ إن الحق سبحانه يوضحه بقوله : « يأيها الذين آمنوا » .

إن أهل الكتاب يحاولون أن يصدوا المؤمنين عن سبيل الله ، وليس المقصود بالصد ، أن هناك من يمنع المؤمنين من الإيمان ، لا ، بل هى محاولة من أهل الكتاب لإقناع المؤمنين بالرجوع والارتداد عن الإيمان الذى اعتنقوه ؛ فالمؤمنون هم الطائفة التى تلتزم بالتكليف من الله ، لذلك يحذرهم الحق سبحانه بقوله :

« إن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب ، يردوكم بعد إيمانكم كافرين » الحق يحدد قسما من الذين أوتوا الكتاب ، وذلك تأريخ بنزاهة وصدق وحق ودون تحامل . كأن الحق سبحانه يبلغنا أن هناك فريقا من أهل الكتاب سيسلكون الطريق السوى ، ويجيئون إلى المسلمين أرسالا وجماعات وأفرادا مع الإسلام ؛ فالحق لا يتكلم عن كل الذين أوتوا الكتاب . لذلك يقول الحق « إن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب » إن الحق يؤرخ وهو يحمى الحقيقة ، ويقول سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾ ﴾

إنه استعظام وتعجيب من أن يأتى الكفر مرة أخرى من المؤمنين وهم فى نعيم المعرفة بالله ، فآيات الله تتلى عليهم ، ورسول الله حق ومعهم وفيهم .

ويقول الحق سبحانه للمؤمنين : « إن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب » إنّ لذلك قصة ؛ فقد كان اليهود فى المدينة يملكون السلطة الاقتصادية ؛ لأنهم يجيدون التعامل فى المال ، وكل من يريد مالا يذهب إليهم ليقترض منهم بالربا . وكان لليهود أيضا التفوق والتميز العلمى ؛ لأنهم يعلمون الكتاب ، بينما كان غالبية أهل مكة والمدينة من الأميين الذين لا يعرفون كتابا سماويا . وكذلك كان هناك تميز آخر لليهود

هو خبرتهم بالحرب ؛ فلهم قلاع وحصون . هكذا كان لليهود ثلاثة أسباب للتميز :

المال يحقق الزعامة الاقتصادية ، والعلم .. بالكتاب وهو تفوق علمى ، ثم خبرتهم بفنون الحرب ، وكانوا فوق ذلك يحاولون إيجاد الخلاف بين الناس وتعميقه . مثل محاولتهم إثارة العداوات بين الأوس والخزرج . والمتاجرة بذلك حتى تظل الحروب قائمة ، وبذلك يضمنون رواج تجارة الأسلحة التى يصنعونها ويمدون بها كل فريق من المتحاربين .

ولما جاء الاسلام وحّد الرسول صلى الله عليه وسلم بين الأوس والخزرج وبذلك ضاع منهم التفوق الاقتصادى . وجاء الاسلام بدين وكتاب مهيمن على الكتب ، فضاعت من اليهود المنزلة العلمية . وكذلك ضاعت من اليهود المنزلة الحربية ؛ فقد رأوا قلة من المؤمنين هزموا الكفار وأنزلوا بهم هزيمة نكراء فى بدر ، وهكذا ضاع كل سلطان لليهود فى المدينة ، لذلك أرادوا أن يعيدو الأمر إلى ما كان عليه قبل أن يجيء الإسلام ، فقالوا فلنؤجج ونشعل ما بين الأوس والخزرج من العداوات ونهيجها ، وقال شخص اسمه « شأس بن قيس » وقد رأى نور الإيمان يعلو وجوه الأوس والخزرج ويشملهم الانسجام الإيمانى . وتوجد بينهم المودة وابتسامات الصفاء ، هيّج ذلك شأس بن قيس وقال : « والله لابد أن نعيدها جذعة ونرجعهم إلى ما كانوا عليه من أحقاد وعداوات ، فلا استقرار لنا ماداموا قد اجتمعوا » .

فأرسل فتى من اليهود وجلس بين الأوس والخزرج ، ثم تطرق الحديث منه إلى يوم يسمى يوم « بعاث » ، وهو اسم يوم من أيام العرب قبل الإسلام ، وكان بين الأوس والخزرج ، وكان النصر فيه للأوس على الخزرج ، وجلس الفتى اليهودى يذكر ويأتى بالشعر الذى قيل فى هذا اليوم فهيّج حمية الأوس والخزرج وحدث النزاع ، وحصل التفاخر واستيقظ التباغض ، وقالوا : « السلاح .. السلاح » وهكذا نجحت المكيدة ، ونمى الخبر إلى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقام صلى الله عليه وسلم ومعه صحابته ، حتى انتهَوْا إلى اجتماع الأوس والخزرج ، فوجدوا الحال على أشد درجات الهياج ، نزاع ، وتباغض ، وسلاح محمول ، فقال الرسول صلى الله عليه وسلم : أبِدَعْوَى الجاهلية وأنا بين أظهركم !!

أى كان من الواجب أن تخجلوا من أنفسكم ؛ لأن رسول الله بينكم ، وأضاف رسول الله صلى الله عليه وسلم : لقد أكرمكم الله بالإسلام ، وقطع به عنكم أمر الجاهلية ، وألف بين قلوبكم ، فماذا كانت مواقع كلمات الرسول فى نفوس القوم ؟ لقد دفعتهم كلماته صلى الله عليه وسلم إلى إلقاء السلاح ، وبكوا وعانق بعضهم بعضا وانصرفوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فما كان يوم أقبح أولا وأحسن آخرا من ذلك اليوم .

وعندما نتأمل ما فعله هؤلاء القوم من اليهود لإشعال الفتنة بين الأوس والخزرج نجد أنهم قد أدركوا طبيعة النزاع القديم بين الأوس والخزرج فأرادوا أن يهيجوا تلك العداوات والأحقاد القديمة ، وكذلك نجد أن تهييج المشاعر بين الأوس والخزرج جعل للانفلات بابا فكاد القتال يشتعل ، وعندما تكلم فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم هدأت المواجيد ، وألقوا السلاح ، وندموا على ما فعلوا .

وإذا أردنا أن نرى الأمر بعمق التصور لما حدث فإننا نجد أن إدراك العداوة بين الأوس والخزرج من اليهود هو الذى دفع اليهود لتحريك هذا الإدراك الخاطىء وإحياء الثارات القديمة ، ثم كان انفعال الأوس والخزرج بتلك الثارات القديمة قد فتح الباب لحمل السلاح للاقتتال .

وهكذا نجد أن الإدراك للشىء ، يمر بثلاث مراتب : أولا : الإحساس بالشىء ، ثانيا : انفعال النفس له ، ثالثا ؛ النزوع السلوكى ، وعندما تحدث الرسول صلى الله عليه وسلم ، أدرك الأوس والخزرج الأمر بطريقة عكسية فألقوا السلاح ، وهدأت مواجيد البغضاء ، وتركوا الإدراكات الخاطئة .

لقد ذكرهم النبى صلى الله عليه وسلم بثلاثة أشياء هى : « أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم وقد أكرمكم الله بالإسلام وقطع به عنكم أمر الجاهلية . وألف بين قلوبكم » . وقد استقبلوا ذلك بإلقاء السلاح أولا ، ثم البكاء ثانيا ، وهو أمر حركته المواجيد فيهم ثم تعانقوا أى صححوا الإدراكات ثالثا ، وهكذا حدث النزوع بالعكس . ولما حدث ذلك أصاب اليهود الغيظ والخيبة والنكد . وقال المؤرخ لهذه القصة: فما كان يوم فى الإسلام أسوأ أولا وأحسن آخراً إلاّ ذلك اليوم .

لقد بدأ اليوم بعبوس ، وانتهى بإشراق الطمأنينة ، وبعد ذلك وُجدت الخلية التى تكوّن المناعة فى نفوس المؤمنين ، بعد أن قال الرسول صلى الله عليه وسلم ذلك القول : « أبِدَعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد إذ أكرمكم الله بالإسلام ، وقطع به عنكم أمر الجاهلية وألف بينكم » .

لقد صار هذا القول الكريم مستحضرا عند كل نزع لشيطان ، أو كيد لعدو . لقد جعل الحق المناعة ضد فعل الكيد ، ونزغ الشيطان عند المؤمنين من الأوس والخزرج ، وهكذا نرى أن الله يسخر الكافر حتى فى رفعة شأن الإيمان ، فلو لم تحدث هذه المسألة ويأتى الرسول صلى الله عليه وسلم بمنطقه المؤثر وهو بين القوم ليقول ذلك القول لما أصبح لدى المسلمين هذه المناعة من الارتفاع عن البغضاء فيما بينهم ، ولو كان أحد من أتباع الرسول قد قال مثل هذه الكلمة فقد كان من المحتمل أن يحدث هذا الأثر ، لكن عندما قالها الرسول صلى الله عليه وسلم فقد أوجدت المناعة لغيرها من الأحداث التى تأتى وقد لا يكون الرسول موجودا .

ولذلك فأنت أيها المؤمن إن نظرت إلى الكافرين . فإنك تجد عقولهم خائبة . لقد نشروا الإسلام ـ دون إرادتهم ـ بمواقفهم الحمقاء ، فمثلا حين قالوا : سيأتى نبى نتبعه ونقتلكم معه قتل عاد وإرم ، فما الذى حدث ؟

إن الأنصار ساعة أن سمعوا بالدين الجديد قال بعضهم لبعض : اسمعوا يا قوم ، إنه الدين الذى بشرتكم به يهود ، فقبل أن يسبقونا إليه هيا بنا نسبق نحن اليهود إليه .

لقد كان استعلاء اليهود وتفاخرهم على الأوس والخزرج دافعا للأوس والخزرج على الدخول فى الإسلام ، وهكذا يجعل الحق سبحانه وتعالى كفر الكافر مؤثرا فى تثبيت إيمان المؤمن .

وحين يقول الحق سبحانه : « وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم » نفهم أنه استعظام وتعجيب يأتى من الحق . فساعة تسمع : « كيف تكفرون » فذلك أمر عجيب ، لأنه من

المستبعد أن يكفر المؤمنون وكتاب الله يتلى عليهم ، ورسول الله فيهم .

ويجيء من بعد ذلك الدعوة إلى الاعتصام بالله ، ومعنى الاعتصام : التمسك ، ولا يتأتى إلا فى علو ، فيقال : « اعتصمت بحبل الإيمان » لأن للإنسان ثقلا ذاتيا ، هذا الثقل الذاتى إن لم يرفعه سواه ، فإنه يقع بالإنسان . وهذا لا ينشأ إلا إذا كان الإنسان معلقا فى الجو ويمسك بحبل ولا يوجد من يدفعه إلى أسفل ، بل الإنسان بثقله الخاص يهبط إلى الأرض . فمن يعتصم بالله ويمسك بحبل الإيمان فإنه يمنع نفسه من الهُوِىِّ والسقوط .

وهنا نشعر أن الاعتصام بالله هو أن نتبع ما تُلِىَ علينا من الآيات ، وما سنه لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم . إذن فباب الاعتصام هو كتاب الله وسنة رسوله ، وكذلك كان وجود الرسول بين أظهرهم هو الأمر الضرورى ، لأنهم كانوا منغمسين فى حمأة الجاهلية ، فلابد أن توجد إشراقة الرسول بينهم حتى تضيء لهم ، فيروا أن الله قد أخرجهم من الظلمات إلى النور . ولم يقبض الحق رسوله إلا بعد أن أكمل لنا الدين ، وأتم علينا النعمة ورضى لنا الإسلام دينا . قال الرسول صلى الله عليه وسلم : « تركت فيكم شيئين لن تضلوا بعدهما كتاب الله وسنتى »[1] .

هكذا نرى أن وجود آيات الله ، وسنة رسول الله هى العاصم الذى يهدى إلى صراط مستقيم . والهدى كما نعرف هو ما يوصل إلى الغاية المرجوة ، فهب أن غايتك أن تذهب إلى مكان معين فالذى يوصلك إلى ذلك المكان هو هدى ، وكل ما يدل إنسانا على الموصل للغاية اسمه هدى . والحق سبحانه وتعالى خلق الخلق جميعا ، وجعل بعض الخلق مقهورا ، وبعض الخلق مخيرا .

والمقهور من خلق الله هو كافة المخلوقات فى الكون ما عدا الإنسان . إلا فى بعض أموره فإنه مقهور فيها أيضا ولذلك قلنا : إن كل ما عدا الإنسان من خلق الله يؤدى مهمته كما طُلبت منه ، فما امتنعت الشمس أن تشرق على الناس يوما ، ولا امتنعت الريح أن تهب ، ولا امتنعت السماء عن أن تمطر ، ولم تقل الأرض للإنسان إنك

---

(١) رواه الحاكم فى المستدرك عن أبى هريرة .

تعصى الله فلا أنبت لك ، ولا جاء إنسان ليركب الدابة المسخرة فقالت : لا ؛ إنك عاصٍ ، ولذلك سأحرن فلا أمكنك من ركوب ظهرى .

هكذا نرى أن كل شيء ماعدا الإنسان مسخر مقهور للغاية المرجوة منه ، وهو خدمة ذلك الإنسان . والإنسان وحده هو الذى له اختيار . . ولذلك يجب أن نتنبه دائما إلى أن الله قد جعل للخلق تسخيرا وتسييرا ، وجعل الإجماع فى كل الأجناس ، ولكن الانقسام جاء عند الإنسان فقال الحق سبحانه :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴿١٨﴾ ﴾

(سورة الحج)

إن الجمادات الساجدة المسخرة هى : « الشمس والقمر والنجوم » ، والنبات الساجد المسخر هو « الشجر » ، وكذلك « الدواب » فهى ضمن الكائنات التى عليها حكم الحق بالإجماع ، بأنها كلها تسجد خاضعة مسخرة . أما الإنسان فقد قال الحق عنه : « وكثير من الناس ، وكثير حق عليه العذاب » .

إذن فالانقسام جاء عند من ؟ لقد جاء الانقسام عند الإنسان . لماذا ؟ لأن الله خلق الإنسان مختارا . ألم يكن من الممكن أن يخلق الله الإنسان مسخرا كبقية الكائنات ؟ أليس التسخير دليلاً على قدرة المسخر ، وأن شيئا من خلقه لن يخرج من قدرته ، هذا صحيح ، لكن الحق سبحانه كما أراد أن يثبت القدرة والقهر بالتسخير ، أراد أن يثبت المحبوبية بالاختيار . فمن كان مختارا أن يؤمن أو يعصى ، ثم اختار أن يؤمن ، فهذا الاختيار إنما يثبت به الإنسان المحبوبية لله .

هكذا صنف الله الخلق بين قسم قهرى يثبت القدرة ، وقسم اختيارى يثبت المحبوبية ، ولهذا أراد الله للإنسان أن يكون مختارا أن يفعل أو لا يفعل . فلماذا - إذن - لا يفعل الإنسان كل أفعاله وهى منسجمة مع الإيمان ؟ لأن للشهوة بريقا سطحيا ، وهذا البريق السطحى يجذب الإنسان كما تجذب النارُ الفَرَاشَ .

عندما يوقد الإنسان نارًا ما فى الخلاء فضوؤها يجذب الفَرَاش ، ويحترق الفَراش بنيران الضوء ؛ فقد جذبه النور وأغراه ، ولكنه لم يعرف أن مصرعه فى تلك النار . والحكمة العربية تقول : « رب نفس عشقت مصرعها » كذلك فى الشهوات ، تتزين الشهوة للإنسان ، فتجذبه إليها فيكون فيها مصرع الإنسان .

لكن ما الحماية للإنسان من ذلك ؟

إن الحماية هى فى منهج الله « افعل » . و« لا تفعل » فمن يرد أن ينقذ نفسه من كيد الشيطان وكيد النفس فعليه أن يخضع لمنهج الله فى « افعل » و« لا تفعل » . وقد قلت قديما : إنه من الحمق أن يصنع صانع صنعةً ما ، ثم ينسى أن يضع لها قانون الصيانة . والإنسان فى حدود صناعته لا ينسى ذلك ، فما بالنا بالحق سبحانه بطلاقة قدرته ؟

إن الخالق سبحانه وتعالى قد صنع الإنسان ، ووضع الحق سبحانه وتعالى قانون صيانة صنعته فى الإنسان فقال جل وعلا : افعل كذا ولا تفعل كذا ، فمن أراد أن يعتصم بالحبل المتين فلا يأتى له نزغ شيطان أو كيد عدو ولا هوى نفس . فليعتصم بمنهج الله ؛ لأن الله هو الذى خلقه وهو الذى وضع منهجه كقانون لصيانة صنعته ، وهو القانون الموجز فى « افعل ولا تفعل » .

ويقول الحق : « ومن يعتصم بالله فقد هُدِىَ إلى صراط مستقيم » وكلمة الاعتصام أروع ما تكون عندما يكون الإنسان فى الهواء معلقا فى الفراغ ، وهو فى أثناء وجوده فى الفراغ فإن ثقله الذاتى هو الذى يوقعه ويسقطه ، لكن عندما يتمسك الإنسان بمنهج الله فإنه ينقذ نفسه من السقوط والهوى (بضم الهاء وكسر الواو) ومهمة الشيطان أن يزيّن المعصية بالبريق ، فتندفع شهوات النفس هائجة إلى المعصية ، ولذلك يأتى الشيطان يوم القيامة ويأخذ الحجة علينا . يقول الحق :

﴿ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا

أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾

(سورة إبراهيم)

والسلطان كما نعرف نوعان : النوع الأول هو أن يقهر الشيطانُ الإنسانَ ، والشيطان لا قدرة له على ذلك . والنوع الثانى هو أن يقنع الشيطان الإنسان بأن يفعل ذلك الخطأ .

ما الفرق بين الإقناع والقهر فى هذا المجال ؟

إن القهر هو أن يجبر الشيطان الإنسان على أن يفعل شيئا لا يريده الإنسان . أما الإقناع فهو أن يزين الشيطان الأمر للإنسان فيفعله الإنسان بالاختيار ويعلن الشيطان يوم القيامة : لم يكن لى سلطان أقهرك به أيها الإنسان حتى تعصى الله ، لقد زينت لك المعصية أيها الإنسان فاستجبت لى .

إن الشيطان يوم القيامة يقول : « ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخى » ما معنى « مصرخكم » ؟ إنها مشتقة من « أصرخ » ، أى سمع صراخك فأغاثك وأنجدك ، فمصرخ : مغيث ومنجد ، والشيطان يعلن أنه لن يستطيع نجدة الإنسان ، ولا الإنسان بمستطيع أن ينجد الشيطان .

إذن ، فثقل النفس البشرية هو ما يوقع الإنسان فى الهاوية دون أن يلقيه أحد فيها ، ولا إنقاذ للإنسان من الهاوية إلا بالاعتصام بحبل الله . كأن منهج الله هو الحبل الممدود إلينا ، فمن يعتصم به ينجو من الهاوية .

ومادمنا نعتصم بحبل الله وهو القرآن المنزل من خالقنا والسنة النبوية المطهرة ، وسبحانه يعلم كيد النفس لصاحبها ـ فلابد أن يهدينا الله إلى الصراط المستقيم . وبعد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ، وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾

إن الله قد أعطى المؤمنين المناعة أولا بألا يسمعوا كلام أعداء الدين . وحين نسمع كلمة « اتقوا » فلنفهم أن هناك أشياء تسبب لك التعب والأذى ، فعليك أن تجعل بينك وبينها وقاية ، ولذلك قال الحق :

﴿ وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿١٣١﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

إنه الحق يطلب من الإنسان أن يجعل بينه وبين النار وقاية وحجابا يقيه منها . والحق سبحانه وتعالى حين يقول على سبيل المثال :

﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾

(من الآية ٤ سورة المائدة)

أى اجعل بينك وبين الله حجابا يقيك من غضبه . وقد يقول قائل : كيف يكون ذلك وأنا كمؤمن أريد أن أعيش فى معية الله ؟

نقول : إنك تجعل الوقاية لنفسك من صفات جلال الله ، وأنت تستظل بصفات الجمال ، فالمؤمن الحق هو من يجعل لنفسه وقاية من صفات الجلال ، وهى القهر والجبروت وغيرها ، وكذلك النار إنها من جنود صفات جلال الله . فحين يقول الحق : « اتقوا النار » أو « اتقوا الله » فالمعنى واحد . وعندما يسمع إنسان قول الحق سبحانه : « اتقوا الله حق تقاته » ماذا تعنى (حق تقاته) ؟ إن كلمة « حق » - كما نعرف - تعنى الشيء الثابت الذى لا يزول ولا يتزحزح ، أى لا ينتهى ولا يتذبذب ، هذا هو الحق .

إذن ما حق التقى ؟ هو أن يكون إيمانك أيها المؤمن إيمانا راسخا لا يغادرك ولا تتذبذب معه ، واتقاء الله حق تقاته هو اتباع منهجه ، فيطاع الله باتباع المنهج

فلا يعصى ، ويُذكر فلا ينسى ، ويُشكر ولا يُكفر . وطريق الطاعة يوجد فى اتباع المنهج بـ « افعل » و« لا تفعل » ويذكر ولا ينسى ؛ لأن العبد قد يطيع الله ، وينفذ منهج الله ، ولكن النعم التى خلقها الله قد تشغل العبد عن الله ، والمنهج يدعوك أن تتذكر فى كل نعمة من أنعم بها ، وإياك أن تنسيك النعمة المنعم .

ويشكر العبد الله ولا يكفر بالنعم التى وهبها له الله . ومادمت أيها العبد تستقبل كل نعمة وتردها إلى الله وتقول : « ما شاء الله ، لا قوة إلا بالله » ولا تكفر بالنعم أى أنك تؤدى حق النعمة ، وكل نعمة يؤدى العبد حقها تعنى أنها نعمة شكر العبد ربه عليها ، ولم يكفر بها .

و قيل فى معنى : « حق تقاته » أى أنه لا تأخذك فى الله لومة لائم ، أو أن تقول الحق ولو على نفسك . هذا ما يقال عنه « حق التقى » ، أى التقى الحق الذى يعتبر تقى بحق وصدق . وقال العلماء : إن هذه الآية عندما نزلت وسمعها الصحابة ، استضعف الصحابة نفوسهم أمام مطلوبها ، فقال بعضهم : من يقدر على حق التقى ؟ ويقال : إن الله أنزل بعد ذلك :

﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾

(من الآية ١٦ سورة التغابن)

فهل معنى هذا أن الله كلف الناس أولا ما لا يستطيعون ، ثم قال من بعد ذلك : « فاتقوا الله ما استطعتم » ؟ لا ، إنه الحق سبحانه لا يكلف إلا بما فى الوسع ، والناس قد تخطىء الفهم لقوله تعالى : « فاتقوا الله ما استطعتم » فيقول العبد : أنا غير مستطيع أن أقوم بذلك التكليف ، ويظن هذا العبد أن التكليف يسقط عنه . لا ، إن هذا فهم خاطىء ؛ إن قوله الحق : « فاتقوا الله ما استطعتم » أى إنك تتقى الله بما كان فى استطاعتك من الوسع ، فما باستطاعتك أن تقوم به عليك أن تقوم به . فلا يهرب أحد إلى المعنى المناقض ويقول : أنا غير مستطيع ؛ لأن الله يعلم حدود استطاعتك .

وساعة تكون غير مستطيع فهو ـ سبحانه ـ الذى يخفف . . إنك لا تخفف أنت على نفسك أيها العبد ، فالخالق الحق هو الذى يعلم إذا كان الأمر خارجا عن

استطاعتك أو لا ، وساعة يكون الأمر خارجًا عن استطاعتك فالله هو الذى يخفف عنك . ولذلك فعلى الإنسان ألا يستخدم القول الحق :

﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾

(من الآية ٢٨٦ سورة البقرة)

فى غير موضعه ؛ لأن الإنسان لا يستطيع أن يقدر الوسع ، ثم يبنى التكليف على الوسع . بل عليك أن تفهم أيها الإنسان أن الله هو الذى خلق النفس ، وهو الذى أنزل التكليف لوسع النفس ، ومادام الخالق للنفس هو الله فهو العليم بوسع النفس حينما قرر لها المنهج . إنه سبحانه الذى كلف ، وهو العليم بأن النفس قد وسعت ، ولذلك فهو لا يكلف نفسا إلا وسعها . فإن كان سبحانه قد كلف فأعلم أيها العبد أنه سبحانه قد كلف بما فى وسعك ، وعندما يحدث للإنسان ما يشق عليه أو يمنعه من أداء ما كلف به تامًّا فهو ـ سبحانه ـ يضع لنا التخفيف وينزل لنا الرخص . مثال ذلك : المريض أو الذى على سفر ، له رخصة الإفطار فى رمضان ، والمسافر له أن يقصر الصلاة .

إذن فالله سبحانه هو الذى علم حدود وسع النفس التى خلقها ، ولذلك لا تقدر وسعك أولا ثم تقدر التكليف عليه ، ولكن قَدِّر التكليف أولا ، وقل : مادام الحق قد كلف فذلك فى الوسع . وفى تذييل الآية الكريمة بقوله : « ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون » نجد أنفسنا أمام نهى عن فعل وهو : عدم الموت إلا والإنسان مسلم .

كيف ذلك ؟ أيقول لك أحد : لا تمت ؟ إن ذلك الأمر ليس لك فيه اختيار ؛ لأنه أمر نازل عليك . فإذا قيل لك : لا تمت ، فإنك تتعجب ؛ لأن أحدا لا يملك ذلك ، ولكن إذا قيل لك : لا تمت إلا وأنت مسلم ، فأنت تفكر ، وتصل بالتفكير إلى أن الفعل المنهى عنه : لا تمت ليس فى قدرة الإنسان ، ولكن الحال الذى يقع عليه الفعل وهو : إلا وأنت مسلم ، فى قدرة الإنسان ؛ لذلك تقول لنفسك : إن الموت يأتى بغير عمل منى ، ولكن كلمة : إلا وأنت مسلم ، فهى باستطاعتى ، لأن الإسلام يكون باختيارى . صحيح أنك لا تعرف متى يقع عليك الموت ؟ ولذلك تحتاط والاحتياط يكون بأن تظل مسلما حتى يصادفك الموت فى أى لحظة وأنت مسلم .

إذن . . فقول الله : « ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون » هو نهى عن الفعل الأول وهو ليس باختيارنا . والحال الذى لنا فيه اختيار هو « وأنتم مسلمون » فكيف نوفق بين الأمرين ؟ إن الموت لا اختيار لأحد فيه ، ولا يعلم أحد منا متى يقع عليه ، ولذلك نأتى إلى الأمر الذى لنا فيه اختيار ، وهو أن نحرص على أن نكون مسلمين ، ويظل كل منا متمسكا بأهداب الإسلام ، فإن صادف الموت فى أى لحظة يكون مسلما وكأن الحق سبحانه يقول لنا : تمسكوا بإسلامكم ؛ لأنكم لا تدرون متى يقع عليكم الموت .

وإخفاء الموت عن الإنسان ليس إبهاما كما يظن البعض ، لا ؛ إنه منتهى البيان الواسع ؛ لأن إخفاء الموت ، وميعاده عن الإنسان زمنا وحالا ، وسنا وسببا ، كل ذلك يوضح الموت أوضح بيان . لماذا ؟ لأن الله حين استأثر بعلم الموت فالإنسان منا يترقب الموت فى أى لحظة ومادام الإنسان مترقبا للموت فى أى لحظة فهذا بيان واسع بل هو أوسع بيان . ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾

جاء هذا القول الكريم لينبه كل المؤمنين ، من خلال التنبيه للأوس والخزرج ، وكأنه يقول : اعلموا أن التفاخر قبل الإسلام كان لأشياء وبأشياء ليست من الإسلام

فى شىء . لكن حين يجىء الإسلام فالتفاخر يكون بالإسلام وحده فإذا ما تغاضى إنسان بما قبل الإسلام بقوله : منا كذا . . ومنا كذا . فهنا يأتى الردّ : لا ؛ إن ذلك قبل الإسلام .

وقد حدث أن قال الأوس من بعد الإسلام : « منا خزيمة » فقال واحد من الخزرج : ومنا أبىّ بن كعب وزيد بن ثابت فقال واحد من الأوس : منا حنظلة ابن الراهب وحنظلة هذا هو غسيل الملائكة ، وخزيمة بن ثابت صحابى جليل جعل الرسول صلى الله عليه وسلم شهادته بشهادتين ؛ لأن خزيمة صاحب إيمان نورانى . ونورانية اليقين هدته إلى الحكم الصواب ؛ فقد اشترى النبى صلى الله عليه وسلم فرسا من أعرابى وذهب ليحضر له الثمن ، ولكن الأعرابى أنكر البيع لأن بعض الناس زاده فى ثمن الفرس دون علم أن الرسول قد اشتراه فنادى الأعرابى الرسول وقال له إن كنت مبتاعا هذا الفرس فابتعه وإلا بعته .

فقال النبى للرجل : « ألست قد ابتعته منك » . فقال الرجل هات شاهدا يشهد بذلك . لقد انتهز الرجل فرصة أن النبى ابتاع منه دون وجود أحد فى هذا الوقت ، وكان سيدنا خزيمة جالسا لحظة مطالبته للنبى بشاهد . فقال سيدنا خزيمة : أنا أشهد يا رسول الله أنك قد بايعته .

ولأن الرجل كاذب ، قال لنفسه : لعل خزيمة رآنا وأنا أبيع الفرس للنبّى فسكت الرجل وانصرف ، وبعد أن انصرف الرجل نادى الرسول خزيمة . وقال له : « يا خزيمة بم تشهد ولم تكن معنا ؟» فقال : أنا أصدقك فى خبر السماء ولا أصدقك بما تقول ؟ أعلم أنك لا تقول إلا حقاً قد آمناك على أفضل من ذلك ، على ديننا . فعلم الرسول أن لخزيمة نورانية التصديق وحسن الاستنباط ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من شهد له خزيمة فحسبه »[1] .

فالأمر الذى يحتاج شاهدين تكفى فيه شهادة خزيمة ، وبذلك أعطى الرسول صلى الله عليه وسلم الوسام لخزيمة وجعل شهادته شهادة رجلين ، ولنر كيف جمع الله بين الأوس والخزرج فى جمع القرآن ، قال زيد بن ثابت :

---

(١) رواه أبو داود من طريق الزهرى عن عُمارة بن خزيمة بن ثابت .

فآليت على نفسى ألاّ أكتب آية إلاّ إذا وجدتها مكتوبة وشهد عليها اثنان ، إلاّ آخر التوبة فوجدتها مكتوبة ولم يشهد عليها إلاّ خزيمة ، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم قد قال فى خزيمة : « من شهد له خزيمة فحسبه » ولنا أن نعرف أن زيد بن ثابت من الخزرج وأن خزيمة من الأوس . لقد جمعهما الله فى جمع القرآن ، فنفع الأوسى الخزرجى ، وذلك ليدلنا الحق سبحانه دلالة جديدة ، وهى أن التفاخر قبل الإسلام كان بغير الإسلام ، لكن ساعة يجىء الإسلام فأى واحد من أى جنس مادام قد أحسن الإسلام ، فله أن يفخر به ، فإياك يا أوسىّ أن تقول : « منا خزيمة » ؛ فالخزرجى له الفخر بخزيمة أيضا ، وليس للخزرجى أن يقول : « منا زيد بن ثابت » فللأوسى أيضا أن يفخر به ، لأن كُلًّا منهما قد جمعه الله بالآخر فى القرآن ، والإسلام ، وهكذا يكون الاعتصام بحبل الله .

يقول الحق سبحانه وتعالى : « واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم » إنّ الحرب ظلت مستعرة بين الأوس والخزرج مائة وعشرين عاما مع أن أصل القبيلتين واحد ، هما أخوان لأب وأم وعندما جاء الإسلام ألف الله بين قلوبهم وأصبحوا بنعمته إخوانا .

وهذا يدلنا على أن كل نزغةٍ جارحةٍ من الجوارح لابد أن يكون وراءها هبة قلب وثورته وهياجه ، فاليد لا تصفع أحدا من فراغ ، ولكن الصفعة توجد فى القلب أولا « فألف بين قلوبكم » ، إن الحق سبحانه يقول : « وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها » والشفا هى الحافة.ومرة يقال : « شفا » ، ومرة يقال:« شفة » . لقد كانوا على حافة النار ، ومن كان على الحافة فهو يوشك أن يقع ، فكأن الله يقول : لقد تداركتم بالإسلام ، ولولا الإسلام لهويتم فى النار .

ويقول سبحانه : « كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون » وهكذا نرى نعمة الإسلام فى الدنيا ، فقدرة الإيمان على إنقاذ الإنسان من النار لا تحتاج إلى انتظار بل يستطيع المؤمن أن يراها فى الدنيا . ولقد كان العرب قبل الإسلام مؤرقين بالاختلافات ، وموزعين بالعصبية ، وكل يوم فى شقاق . ولما جاء الإسلام صاروا إخوانا ، وهذه نعمة عاجلة فى الدنيا ، والدنيا كما نعرف ليست دار جزاء ، فما بالك بما يكون فى الآخرة وهى دار الجزاء والبقاء .

وقوله الحق : « لعلكم تهتدون » المقصود به أن تظلوا على هدايتكم . لقد خاطبهم الحق : « إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا » وساعة يطلب التشريع منك ما أنت عليه ، فاعلم أن التشريع يريد منك استدامته ، فعندما يقول الحق (يا أيها الذين آمنوا) أى مع الإيمان الذى معكم قبل كلامى ، جددوا إيمانا بعد كلامى ليستمر لكم الإيمان دائما . وبعد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾

وكلمة « أمة » تطلق مرة ، ويراد بها الجماعة التى تنتسب إلى جنس ، كأمة العرب ، أو أمة الفرس ، أو أمة الروم ، ومرة تطلق كلمة « أمة » ويراد بها الملة أى الدين ، ومرة ثالثة تطلق كلمة « أمة » ويراد بها الفترة الزمنية كقول الحق :

﴿ وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ ﴾

(سورة يوسف)

إن الرجل الذى فسر له سيدنا يوسف الرؤيا تذكر سيدنا يوسف بعد أمة أى بعد فترة من الزمن ، ومرة تطلق كلمة « أمة » على الرجل الجامع لصفات الخير :

﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ ﴾

(سورة النحل)

لأن خصال الخير ليس من الضرورى أن تجتمع فى واحد ، ولكنها قد تجتمع فى عدد من الأفراد فيكون هناك فلان المتميز بالصفة الطيبة ، وغيره متصف بصفة أخرى طيبة ، وثالث فيه صفة طيبة ثالثة ، ومن مجموع الأمة تظهر صورة الكمال ، لكن إبراهيم عليه السلام اجتمعت فيه كل خصال الخير المكتمل .

وساعة أن تأتى لإنسان ونقول له : ليكن منك شجاع فما معنى ذلك ؟ إن معناه ، أن يجرد الإنسان من نفسه ويخرج منها شخصا شجاعا ، وذلك بتدريبها وتعويدها على ذلك حتى يكون الإنسان شجاعا ، أو تقول لآخر : ليكن منك كريم ، أى أخرج من نفسك رجلا كريما .

وقوله الحق سبحانه : «ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير» .

هذا القول يعنى أن يكون منكم أيها المخاطبون أمة تدعو إلى الخير ، ومعناه أيضا أن تكونوا جميعا أمة تدعو إلى الخير ، وبعض العلماء يرى أن هذا القول يعنى : أن تكون منكم جماعة يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر . ولكنّ هناك فهما أعمق من هذا ، وهو أن هذه الآية تأمر بأن تكون كل جماعة المسلمين أمة تدعو إلى الخير ، وتأمر بالمعروف ، وتنهى عن المنكر ، أى أن هذه الآية تطالب كُلَّ أمة المسلمين بذلك ، فلا تختص جماعة منها فقط بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، بل الواجب أن تكون أمة المسلمين كلها آمرة بالمعروف ، وناهية عن المنكر ، فمن يعرف حكما من الأحكام عليه أن يأمر به .

وهناك من العلماء من قال : إن الذى يأتى المنكر له حكم آخر أيضا وهو أن ينهى غيره عن المنكر ، أى أن الإنسان المؤمن مطالب بأمرين : الأول : ألاّ يصنع المنكر ، والثانى : أن ينهى عن المنكر . ولذلك إن جاء نصح من إنسان ينهاك عن المنكر ، وهو قد فعله ، فلا تقل له : أصلح نفسك واتبع أنت ما تنصح به أولا ، لا تقل له ذلك حتى لا يقول لك ما قاله الشاعر :

خـذ بعلمى ولا تـركن إلى عمـل
واجن الثمار وخل العـود للنـار

لكن الأجدر بمن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر أن يكون أول العاملين بقوله حتى لا يدخل فى زمرة من قال الله فيهم :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾ ﴾

(سورة الصف)

إذن فقوله الحق : « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير » أى جردوا من أنفسكم أمة مجتمعة على أنها تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، واستمعوا إلى قوله تعالى :

﴿ وَالْعَصْرِ ۝ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ۝ ﴾

(سورة العصر)

إن السورة الكريمة توضح العقيدة ومطلوبها وهو الإيمان والعمل الصالح . وبعد ذلك قال الحق : « وتواصوا » ولم يقل « ووصوا » ما معنى « تواصوا » ؟ أى أن يعرف كل مؤمن أنه من الأغيار ، وكذلك أخوه المؤمن ، وقد يضعف أَحَدهما أمام معصية فيصنعها ، لكن الآخر غير ضعيف أمام تلك المعصية ، لذلك يكون على غير الضعيف توصية الضعيف ، وعلى الضعيف أيضا ضرورة الانتباه حتى يتواصى مع غيره . فالإسلام لم يجعل جماعة يوصون غيرهم ، وجماعة أخرى تتلقى الوصاية ، بل كلنا موص ـ بكسر الصاد ـ حينما نجد مَنْ من يضعف أما معصية . وكلنا موصًى ، ـ بفتح الصاد ـ حين يكون ضعيفا أمام المعصية ؛ فالتواصى يقتضى التفاعل بين جانبين . . فمرة تكون موصيا ، ومرة تكون موصًى ، وكذلك التواصى بالصبر .

فساعة تحدث كارثة لواحد من المسلمين يأتى أخوه ليصبره ، وكذلك إن حدثت كارثة للأخ المسلم يصبره أخوه المسلم ، فعندما يحتاج مسلم فى وقت ما إلى أن يُصَبَّر ، يجد من إخوته من يصبره ، فالأمة كلها مطالبة : « وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » .

هكذا نفهم معنى قول الحق:« ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون » . والدعوة إلى الخير يفسرها الحق بأن يأمر الإنسان بالمعروف ، وأن ينهى عن النكر .

ويقول الحق : « وأولئك هم المفلحون » أن كلمة « المفلحون » هى كلمة معها دليلها ، فالمفلح هو الذى أخذ الصفقة الرابحة . والكلمة مأخوذة ، من فلح الأرض . فالذى يفلح الأرض ويحرثها ثم يزرعها يجد الثمرة تجيئه فى النهاية ، وقد جاء الحق بالمسألة المعنوية من أمر محس . وبعد ذلك يريد الحق أن يعطينا شيئا آخر

فيقول : إياك أن تظن أن المشقة التى تصيبك حين تفعل خيرا لا تعود عليك بالراحة ، أو أن النقص الذى تفعل به الخير لا يعود عليك بالكمال ، فمثلا الإنسان الذى فلح الأرض وأخرج « كيلة » من القمح وبذرها فيها . هذا الإنسان قد تكون له زوجة حمقاء تقول له : إننا لا نملك إلا أربع « كيلات » من القمح فكيف تأخذ « كيلة » لترميها فى الأرض ، إن هذه المرأة لا تعرف أن « الكيلة » التى أخذها الزوج هى التى ستأتى بعدد من الأرادب من القمح . فإياك أن تفهم أن الإسلام يأخذ منك شيئا إلا وهو يريد أن يعطيك أشياء .

إن الفلاح الذى يشقى بالحرث وبالرى ، وتراه وقد علا جبهته العرق وتراب الأرض وتغوص أقدامه فى الطين والمياه ، إنك تراه يوم الحصاد وهو فرح مسرور بغلته . أما غيره الذى لم يشْقَ بالحرث ولم تعل جبهته حبات العرق ، فيأتى فى هذا اليوم وهو حزين ونادم.فإياك أن تنظر إلى تكاليف الدين على أنها أمور تحرمك النفع ، إنها أمور تربّب لك النفع أى تكثر لك النفع . وإياك أن تظن أن حكما من أحكام الله قد جاء ليجور على حريتك بل جاء ليمنع عنك اعتداء الآخرين .

وقلنا من قبل : إن الشرع حين كلف كل إنسان ألا يسرق مال أحد ، فهو تقييد من أجل حفظ أموال الملايين ، وهو أمر ضمنى لكل الناس ألاّ يسرقوا شيئا من هذا الإنسان ، وهنا نجد الأمان ينتشر بالإيمان بين الجميع .

ولو نظرت إلى ما منع الدين الناس أن يمارسوه معك لعرفت قيمة التكاليف الإيمانية . إن التكليف حين يأمر ألا يمد أحد عيونه إلى محارم جاره ، هذا التكليف صادر للناس جميعا حتى يحمى الله لك محارمك من عيون الناس ، لقد قَيَّد التكليف حرية الآخرين من أجلك وهم كثيرون ، وقيد حريتك من أجل الآخرين وأنت واحد . .

إذن فيجب أن نذكر أن كل تكليف يعطى صلاحا وفلاحا ، فالأرض تأخذ الحبة ، وتعطيك سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة ،فلا تنظر إلى ما أخذه التكليف من حريتك ، لأنه أخذ لك من حريات الآخرين أيضا . ولا تقل : إن التكليف قد نقص حركتى لنفسى ، لأنه سيعطيك ثمرات أكثر مما أفقدك .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ ﴾

وهذا القول الحكيم ينهى عن اتباع الهوى الذى يؤدى إلى الفرقة . برغم وضوح آيات الحق سبحانه لهم ، لأن لهؤلاء الذين يتبعون الهوى من بعد وضوح قضية الحق سيصليهم الله النار ، ولهم عظيم العذاب . وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ ﴾

وهنا يجب أن نعلم أن الاسوداد والابيضاض هما من آثار اختلاف البيئات فى الدنيا ، فالشخص الأسود يزيد الله فى تكوينه عن الشخص الأبيض بما يناسب البيئة ، لأن المادة الملونة للبشرة فى جسده موجودة بقوة ، لتعطيه اللون المناسب لمعايشة ظروف البيئة ، أما أبيض البشرة فلا يملك جسده القدر الكافى من المادة الملونة ، لأن بيئته لا تحتاج مثل هذه المادة الملونة .

إذن فالسواد فى الدنيا لصالح المسود ، أما فى هذه الآية ، فهى تتحدث عما سوف نراه فى الآخرة حيث يكون السواد والبياض مختلفين ، تماما كما تتبدل الأرض غير

الأرض والسموات غير السموات ، وكذلك يتبدل أمر السواد والبياض ، انه لن يكون سواداً أو بياضا من أجل البيئات . ولذلك ستتعجب يوم القيامة ؛ لأنك قد ترى إنسان كانا أسود فى الدنيا ، وتجده أبيض فى الآخر ، وتجد إنسانا آخر كان لونه أبيض فى الدنيا ثم صار أسود فى الآخرة .

فلا يظن ظان أن الإنسان الأسود فى الدنيا مكروه من الله ، لا ، إن الله يعطى كل واحد ما يناسبه ، بدليل أن الله قد أمده باللون الذى يقويه على البيئة التى يحيا فيها . وفى مجالنا البشرى ، نحن نعطى المصل لأى إنسان مسافر إلى مكان ما ، حتى نحميه من شر مرض فى المكان الذى يذهب إليه ، كذلك خَلْقُ الله فى الأرض فقد أعطى سبحانه لكل إنسان فى تكوينه المناعة التى تحفظه ؛ فالله لا يكره السواد لأنه حماية للإنسان من البيئة . وهذه المسألة ستتبدل يوم القيامة كما تتبدل الأرض غير الأرض ، وتبيض الوجوه المؤمنة ، وتسود الوجوه الكافرة .

أو أن البياض والسواد كليهما ، أمر اعتبارى ، بدليل أنك ترى واحدا أبيض ولكن وجهه عليه غبرة ترهقه قترة ، وترى واحداً آخر أسود اللون ، ولكن نور اليقين يملأ وجهه ، وبريق الصلاح يشع منه ، وأنت لا تقدر أن تمنع عينيك من أن تديم النظر إليه ، ولذلك قال الحق :

﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ ﴾

(سورة القيامة)

أى أن ما فى داخل النفس إنما ينضح على قالب الإنسان ؛ وتظهره ملامحه ، فقد يكون الأسود مضيء الوجه بالبشر والإشراق والتجلى بالجاذبية الآسرة ، وقد يكون الإنسان أبيض الوجه لكنه مظلم الروح .

وهكذا نفهم أن اسوداد بشرة إنسان فى الدنيا ، إنما هو لمساعدة الإنسان على التواؤم مع البيئة ، ومثال ذلك سواد العين وبياضها ، هل يستطيع احد أن يقول : إن بياض العين أحسن من سوادها ؟ أو العكس ؟ . لا ؛ لأن كل شيء معد لمهمته .

ومثال آخر : عندما يأتى عامل البناء ليثنى عمود الحديد المستقيم ؛ ويلويه ، فهل

يقال : إن هذا الإنسان قد عوج الحديد ؟. لا ؛ إنه يريد أن يشكل عود الحديد ليكون صالحا لمهمة معينة . وكذلك الاسوداد أو الابيضاض فى الدنيا ، إنما أراده الله ليتناسب مع ظروف الحياة فى البيئة ، أما فى الآخرة فالدنيا قد زالت وفنيت ، والأرض لن تكون هى الأرض والسماء لن تكون هى السماء ؛ فالحق يقول :

﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ ﴾

(سورة إبراهيم)

فالمؤمن حين يرى ما أعده الله له من النعيم المقيم يقابل عطاء الله باستشراف نفس وسرور وانبساط ، أما الذى يرى مقعده من النار فلابد أن يكون مظلم الوجه . والحق سبحانه يوجه سؤالا لهؤلاء : « أكفرتم بعد إيمانكم » أو كأن هذا أمر يُفاجىء من كان يعرف هؤلاء الناس فى الدنيا ؛ فقد رأوهم فى الدنيا بيض الوجوه ، ولكن يرونهم يوم القيامة وعلى وجوههم غبرة سوداء وترهقهم قترة ، فيقولون لهم : « أكفرتم بعد إيمانكم »؟ . وكأن ذلك هو سمة من يكفر بعد الإيمان . هذه هى سمتهم وعلامتهم فى الآخرة أى ما الذى صيركم إلى هذا اللون ؟ إنه الكفر بعد الإيمان .

فمن هم الذين كفروا بعد الإيمان ؟

هذا يعنى أن الإيمان قد سبق ثم طرأ على الإيمان كفر ، وماتوا على ذلك الكفر ، وهذا قول ينطبق على الذين ارتدوا عن الإسلام مثل ابن الأسلت وغيره ، وهؤلاء كفروا بعد الإيمان . أو يكون « أكفرتم بعد إيمانكم » يجعلنا نقول : البعدية هنا لابد أن يكون لها قبلية : ألم يأخذ الله على خلقه عهدا فى عالم الذر حين استخرجهم من ظهر آدم ؟ وقال سبحانه :

﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ﴾

(من الآية ١٧٢ سورة الأعراف)

إنه إقرار إيمانى موجود فى عالم الذّر ، فمن جاء فى الواقع لينقض هذه المسألة فقد كفر بعد إيمان . أو أكفرتم بعد إيمانكم بمحمد ، بعد أن جاءتكم به البشارات التى

عرفتموها ، وقرأتموها فى التوراة والإنجيل ، وقد تأكدتم أنه قادم لا محالة ، وأنه رسول هذه الأمة وخاتم الرسل ، وانطبق عليكم قول الحق :

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ۚ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾

(من الآية ٨٩ سورة البقرة)

إذن فهذا القول ، إما أن يكون فى المرتدين ، وإما أن يكون الكفر فى واقع الدنيا بعد الإيمان فى عالم الذر عندما أخذ الله العهد على الناس جميعا ، أو يكون الكفر بعد الإيمان برسول الله صلى الله عليه وسلم وقد جاءت به البشارة فى التوراة والإنجيل ، أو يكون ذلك من أهل الأهواء الذين أخذوا الدين وجعلوه شيعا ، كالفرق التى خرجت عن الإسلام ، وهى تدعى الانتساب إليه كالبهائية والقاديانية وغيرها . إن الآية تحتمل كل هذا ، وعندما نمعن النظر إلى النص القرآنى نجده يستوعب كل هذه المعانى .

وهنا نلاحظ أن الحق سبحانه أورد فقط : « أكفرتم بعد إيمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون » وهذا قول يختص بالكفار فقط يذوقون العذاب بسبب الكفر ، وذلك يعنى أن المؤمن بإيمانه سينال ثواب عمله . يقول تعالى :

﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٠٧﴾ ﴾

ولنلاحظ دائما أن الله حين يبين جزاءً لمؤمن على إيمانه وطاعته فسبحانه يقول مرة :

﴿ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾

(من الآية ٤٢ سورة الأعراف)

ومرة أخرى يقول :

﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُواْ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾ ﴾

(سورة النساء)

ما الفرق بين الاثنين ؟ إن الناس فى العبادة صنفان : منهم من يعبد الله ويريد نعيم الجنة ، فيعطيه الله الجنة جزاء لعبادته ولعمله الصالح . وآخر يعبد الله ؛ لأن الله يستحق العبادة ولا تمر الجنة على باله ، وهذا ينال ذات الرحمة ، إنه ينال لقاء وجه الله .

وما الفرق بين الجنة والرحمة ؟ إن الجنة مخلوقة لله ، فهى باقية بإبقاء الله لها ، ولكن الرحمة باقية ببقاء الله ، وهذا ضمان كاف ، فمن يرى الله فيه حسن العبادة لذاته ـ سبحانه ـ يضعه الله فى الرحمة .

وقلنا من قبل : إن هناك جنة من الجنات اسمها « عليّون » ليس فيها متعة من المتع التى سمعنا عنها فى الجنة ، كلحم الطير وغير ذلك ، وليس فيها إلا أن ترى الله . ومادام العبد لا يأكل عن جوع فى الآخرة ، فما الأفضل له ، جنة المتع ، أو متعة رؤية وجه الله ؟

أتتمتع بالنعمة أم بالمنعم ؟ لا جدال أن التمتع برؤية المنعم أرقى وأسمى من التمتع بالمتع الأخرى . والدقة الأدائية فى القرآن توضح لنا أن الرحمة تكتنف هؤلاء العباد الصالحين ، وتحيط بهم ، إنهم ظرف للرحمة وداخلون فيها فلا تمسهم الرحمة فقط ، ولكن تحيط بهم ، وهم خالدون فيها ، ويؤكدها الحق بظرفية جديدة بقوله: « هم فيها خالدون » فكأن هناك رحمة يُدخل فيها العباد ، ثم يطمئننا على أنها لا تُنزع منا أبدا . فـ « فيها » الثانية للخلود ، « وفى » الأولى للدخول فى الرحمة .

وبعد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾

إن آيات الله هى حججه وبراهينه وجزاءاته ، فمن اسود وجهه يوم القيامة نال العذاب ، ومن ابيض وجهه نال الرحمة وهو فيها خالد « تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق » ، فما الذى يجعل إنسانا لا يخبر بالحق ؟ لابد أن هناك داعيا عند ذلك الإنسان ، فلأنّ الحق يُتعبه ، فهو يخبر بغير الحق . لكن هل هناك ما يتعب الخالق ؟ لا ؛ فسبحانه وتعالى منزه عن ذلك وعن كل نقص أو عيب إذن فلابد ألاّ يقول إلا الحق ، فلا شىء خارج عن ملكه بعد ذلك . يقول سبحانه : « وما الله يريد ظلما للعالمين » . إنه سبحانه ينفىْ الظلم عن نفسه كما قال :

﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾

(من الآية ٤٦ سورة فصلت)

والحق لا يريد الظلم على إطلاقه ، من نفسه ومنكم أنتم أيها العباد . وكيف يأتى الظلم ؟ إن مظاهر الظلم هى ـ كما نعرف ـ أن تأخذ إنسانا بغير جرم . . هذا ظلم ، أو أن تعاقب إنسانا فوق الجرم . . هذا ظلم . أو ألا تعطى إنسانا مستوى إحسانه . . هذا ظلم . وماذا يفعل من يقوم بالظلم ؟ إنه يريد أن يعود الأمر بالنفع له ، فإن كان يريد أَخْذَ إنسانٍ بغير جرم فهو يفعل ذلك ليروى حقدا وغلا فى نفسه ، وقد يلفق لإنسان جرما ؛ لأنه يرى أن هذا الإنسان قد يهدده فى أى مصلحة من المصالح ، وهو يعلم انحرافه فيها ، فيعتقله مثلا ، أو يضعه فى السجن حتى لا يفضحه .

إذن لا يمكن أن يذهب إنسان عن الحق إلى الظلم إلا وهو يريد أن يحقق منفعة أو يدفع عن نفسه ضررا ، والله لن يحقق لذاته منفعة بظلم ، أو يدفع ضررا يقع من خلقه عليه ؛ إنه منزه عن ذلك ؛ فهو القاهر فوق عباده . والحديث القدسى يقول : « يا عبادى إنى حرمت الظلم على نفسى . وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا »[1] .

(١) رواه أحمد فى المسند ، ورواه مسلم فى البر .

والظالم من البشر جاهل . لماذا ؟ لأنه قوّى الذى ظلمه ، ولم يضعفه ، فالظالم يظلم ليضعف المظلوم أمامه ، فنقول له : أنت غبى ، قليل الذكاء ؛ لأنك قويته على نفسك وفعلت عكس ما تريد . ولنوضحْ ذلك ـ ولله المثل الأعلى ـ نحن جميعا عيال الله ، سننتقل إلى دائرة حياتنا اليومية ونرى عيالنا ، إن الواحد منا عندما يكون له أولاد ، وجاء ولد من الأولاد وظلم أخاه فَقَلْبُ الوالد يكون مع المظلوم ، ويحاول الوالد أن يترضّى ابنه المظلوم . إذن فالولد الظالم ضر أخاه ضررا يناسب طفولته ، ولكنه أعطاه نفعا يناسب قوة والده ، إنه يجهل حقيقة تقويته لأخيه .

ومادمنا جميعا عيال الله فماذا يفعل الله حين يرى سبحانه واحدا من خلقه يظلم آخر من خلقه ؟ لا بد أن الحق سيشمل المظلوم برعايته ، وهكذا يقوى الظالم المظلومَ ، والظالم بذلك يعلن عن غبائه ، فلو كان ذكيا ، لما ظلم ، ولضنّ على عدوه أن يظلمه ، ولقال : إنه لا يستأهل أن أظلمه ؛ لأنه عن طريق ظلمى له سيعطيه الله مكافأة كبرى ، وهى أن يجعله فى كنفه ورعايته مباشرة .

وقد نجد واحدا يظلم من أجل نفع عاجل ، وينسى هذا الإنسان أنه لن يشرد أبدا ممن خلقه . ونقول لمثل هذا الإنسان : أنت لن تشرد ممن خلقك ، ولكنك شردت من المخلوق وداريت نفسك ، وحاولت أن تحقق النفع العاجل لنفسك ، لكن الخالق قيوم لا تأخذه سنة ولا نوم . وكأن الحق سبحانه يطمئننا بأن ننام ملء جفوننا لأنه سبحانه لا تأخذه سنة ولا نوم .

« وما الله يريد ظلما للعالمين » لأن الظلم لا ينشأ إلا عن إرادة نفعية بغير حق ، أو إرادة الضرر بغير جرم ، والله غنى عن ذلك ؛ ولذلك نجد الحق يؤكد غناه عن الخلق وأنه مالك للكون كله فيقول :

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿١٠٩﴾ ﴾

إنه مالك الملك ، كل شيء له وبه وملكه ، وإليه يُرجع كل أمر . ونحن نعلم أن القرآن الكريم قد نزل من عند الله بقراءات متعددة وقد ورد وفى بعضها (تَرجعُ الأمور) بفتح التاء بالبناء للفاعل ، وفى قراءة أخرى : « ترجع الأمور » بضم التاء بالبناء للمفعول ، وكذلك (ترجعون) تأتى أيضا بضم التاء وفتحها ، وكلها ـ كما قلنا ـ قراءات من عند الله .

وعندما يقول الحق : « وإليه تَرجعون » بفتح التاء فمعنى ذلك أننا نعود إليه مختارين ؛ لأن المؤمن يُحبُ ويرغب أنْ يصل إلى الآخرة ، لأن عمله طيب فى الدنيا ، فكأنه يجرى ويسارع إلى الآخرة ، ومرة يقول تعالى : « وإليه تُرجَعون » بضم التاء . وهذا ينطبق على الكافر أو العاصى . إنّ كُلًّا منهما يحاول ألا يذهب إلى الآخرة ، لكن المسألة ليست بإرادته ، إنه مقهور على العودة إلى الآخرة ولذلك نجد التعبير القرآنى :

﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ ﴾

(سورة الطور)

هناك من يدفعهم إلى النار دفعا . وفى حياتنا ـ ولله المثل الأعلى ـ نجد الشرطى يمسك بالمجرم من ملابسه ويدفعه إلى السجن . . ذلك هو الدع . وهكذا يكون قول الحق : « وإليه تُرجَعون » بضم التاء وفتح الجيم ، أى أنه مدفوع بقوة قاهرة إلى النهاية . أما المؤمن الواثق فهو يهرول إلى آخرته مشتاقا لوجه ربه .

وعندما تقرأ « وإلى الله تُرجع الأمور » . قد يقول قائل : ومتى خرجت الأمور منه حتى ترجع إليه ؟ ونقول : حين خلق الله الدنيا ، خلقها بقهر تسخيرى لنفع الإنسان ، وجعل فيها أشياء بالأسباب ، فإن فعل الإنسان السبب فإنه يأخذ المسبب ـ بفتح الباء ـ المشددة ، فالشمس تشرق علينا جميعا ، والضوء والدفء والحرارة ، هى ـ بأمر الله ـ للمؤمن والكافر معا ، ولم يصدر الله لها أمرا أن تختص المؤمن وحده بمزاياها ، والهواء لا يمر على المؤمن وحده ، إنما يمر على المؤمن والكافر ، وكذلك الماء ، والأرض يزرعها الكافر فيأخذ منها الثمار ، ويزرعها المؤمن كذلك .

إذن ففى الكون أشياء تسخيرية ، وهى التى لا تدخل فيها طاقة الإنسان ، وهناك

أشياء سببية ، فإن فعلت السبب يأت لك المسبب ، والله قد جعل الأسباب للمؤمن والكافر . وعندما يُمَلِّك الله بعض الخلق أسباب الخلق فهو القيوم فوق الجميع ، لكن فى الآخرة ، فلا أسباب ولا مسببات ؛ ولذلك يكون الأمر له وحده ، اقرأوا جيدا :

﴿ لِمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾

(من الآية ١٦ سورة غافر)

إنّ فى الدنيا أناسا ـ بإرادة الله ـ تملك أسبابا ، وتملك عبيدا ، وتملك سلطانا ؛ لأن الدنيا هى دنيا الأسباب . أما فى الآخرة فلا مجال لذلك . لقد بدأت الدنيا بأسبابها مِنّة منه ، ورجعت مِنْهُ إليه « لمن الملك اليوم لله الواحد القهار » ومن يعتز بالسببية نقول له : كن أسير السببية لو كنت تستطيع . ومن يعتز بالقوة لأنها ـ ظاهرا ـ سبب للحركة ، نقول له : احتفظ بقوتك إن كنت قادرا . ومن يعتز بالملك نقول له : لتحتفظ بالملك لو كنت تستطيع . ولا أحد بقادر على أنْ يحتفظ بأى شىء ، فكل شىء مرده إلى الله ، وإن كان فى ظاهر الأمر أن بعض الأشياء لك الآن ، وفى الآخرة لله يكون كل أمر ، ويرجع إليه كل شىء ، لقد بدأت به ، ورجعت إليه . ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾

هذه الخيرية لها مواصفات وعناصر : « تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر

وتؤمنون بالله » . فإن تخلف عنصر من هذه العناصر ، انحلت عنكم الخيرية ، فالخيرية لكم بأشياء هى : أمر بالمعروف . نهى عن المنكر . إيمان بالله .

وساعة تسمع كلمة « معروف » و« منكر » فإنك تجد أن اللفظ موضوع فى المعنى الصحيح ، فـ« المعروف » هو ما يتعارف الناس عليه ويتفاخرون به ، ويَسُرُّ كل إنسان أن يعرفه الآخرون عنه . و« المنكر » هو الذى ينكره الناس ويخجلون منه ، فمظاهر الخير يحب كل إنسان أن يعرفها الآخرون عنه ، ومظاهر الشر ينكرها كل إنسان .

إن مظاهر الخير محبوبة ومحمودة حتى عند المنحرف ، ومظاهر المنكر مذمومة ومكروهة حتى عند المنحرف . فاللص نفسه عندما يوجد فى مجلس لا يعرفه فيه أحد ، ويسمع أن فلانًا قد سرق فإنه يعلن استنكاره لفعل اللص ، إنه أمر منكر ، حتى وإن كان هو يفعله . وهكذا تعرف أن « المعروف » و« المنكر » يخضعان لتقدير الفطرة . والفطرة السليمة تأتى للأمور الخيرة ، وتجعلها متعارفا عليها بين الناس ، وتنكر الفطرة السليمة الأمور المنكرة ، حتى ممن يفعلها .

ويورد الله مسألة الإيمان بالله من بعد الأمر بالمعروف والنهى المنكر ، لماذا ؟ لأنه من الجائز أن يوجد إنسان له صفات الأريحية والإنسانية ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، ويصنع الخير ، ويقدم الصدقات ، ويقيم مؤسسات رعاية للمحتاجين والعاجزين سواء كانت صحية أو اقتصادية ، لكنه يفعل ذلك من زاوية نفسه الإنسانية ، لا من زاوية منهج الله ، فيكون كل ما فعله حابطا ولا يُعتَرفُ له بشيء لأنه لم يفعل ذلك فى إطار الإيمان بالله ، ولذلك فلا تظن أن الذى يصنع الخير دون إيمان بالله له أجر عند الله ؛ فالله يجازى من كان على الإيمان به ، وأن يكون الله فى بال العبد ساعة يصنع الخير . فمن صنع خيرا من أجل الشهامة والإنسانية والجاه والمركز والسمعة فإنه ينال جزاءه ممن عمل له ، ومادام قد صنع ذلك من أجل أن يقال عنه ذلك فقد قيل ، وهو ما بيّنه رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله :

« إن أول الناس يُقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد فأتى به فعرفه نعمه فعرفها فقال : ما عملتَ فيها ؟ قال : قاتلت فيك حتى استشهدت . قال : كذبت ،

ولكنك قاتلت لأن يقال جرىء فقد قيل ، ثم أمر به فسحب . ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن فأتى به فعرّفه نعمه فعرفها فقال : ما عملت فيها قال : تعلمت العلم وعلمته وقرأت فيك القرآن ، قال:كذبت ولكنك تعلمت العلم ليقال : عالم ، وقرأت القرآن ليقال : قارىء فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار ، ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كله فأتى به فعرّفه نعمه فعرفها قال : فما عملت فيها ؟ قال : ما تركت فى سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقتُ فيها . قال : كذبت ولكنك فعلت ليُقال:هو جواد ، فقد قيل ، ثم أمر فسحب على وجهه ثم أُلقى فى النار »[1] .

إنه ينال جزاء عمله من قول الناس ، لكن الله يجازى فى الآخرة من كان الله فى باله ساعة أن عمل . ولذلك فالحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾

(سورة فصلت)

إن المؤمن يفعل العمل الصالح ، ويعلن أنه يفعل ذلك لأنه من المسلمين ، إنه لا يفعل الخير ، لأنه شيوعى ، أو وجودى ، أو إنسانى إلخ ، فمهما صنع إنسان من الخير ، وترك الاعتراف بالله فخيانة الكفر تفسد كل عمل . لأنه جحد وأنكر خالقه وكفر به ، والذى يعمل خيرا من أجل أحدٍ فلينل من هذا الأحد جزاء هذا العمل .

وهنا فى هذه الآية ، أمر بالمعروف ، ونهى عن المنكر ، وإيمان بالله . ولكن ما الذى يجعلهم لا يؤمنون بالله وإن عملوا معروفا ؟ إنه حرصهم على الجاه الزائف ، فلمّا جاء الإسلام ، ظن أهل الجاه فى الديانات الأخرى أن الإسلام سيسلبهم الجاه والسلطة والمكانة والمنافع التى كانوا يحصلون عليها ، وكان من حماقة بعضهم أن باعوا الجنة على الأرض وخافوا على المركز والجاه والمنافع ، وكان ذلك من قلة الفطنة ، فالحق يقول :

﴿ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾

(من الآية ١١٠ سورة آل عمران)

---

(١) رواه مسلم فى صحيحه .

فلو آمنوا لظل لهم الجاه والسلطة فى ضوء الإيمان بالله ، فلا تجارة بالدين ، وكانوا سيحصلون على أجرهم مرتين ، أجر فى الدنيا ، وأجر فى الآخرة ، أو أجر على إيمانهم بنبيهم ، وأجر آخر لإيمانهم برسول الله ، ولكن هل معنى هذا القول أن أهل الكتاب لم يؤمنوا ؟ لا ، إن بعضهم قد آمن ، فالحق سبحانه وتعالى يؤرخ لهم تأريخا حقيقيا فيقول سبحانه : « منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون » وكان القياس أن يأتى وصف بعضهم بالإيمان ، وأن يكون غيرهم من أبناء ملتهم كافرين ، لأن الإيمان يقابله الكفر ، لكن الحق يحدد المعنى المناسب لفعلهم فيقول : « وأكثرهم الفاسقون » .

إنه الحق سبحانه وتعالى الذى يتكلم فيورد كل كلمة بمنتهى الدقة ، فهناك فرق بين أن تكفر وليس عندك مقدمات الإيمان وأدلته ، وأن تكفر وأنت تعرف مقدمات الإيمان كقراءة التوراة والإنجيل .

لقد قرأ أهل الكتاب التوراة والإنجيل ورأوا الآيات البينات وعرفوا البشارات ؛ لذلك فهم عندما كفروا برسول الله ، فسقوا أيضا مع الكفر . إن الذين كفروا برسول الله من أهل الكتاب هم فاسقون حتى فى كفرهم ، لأن مقتضى معرفتهم للبشارات والآيات أن يعلنوا الإيمان برسالة رسول الله ، فالواحد منهم ليس كافرا عاديا ، بل هو فاسق حتى فى الكفر ؛ لأنه عرف الحق ، ثم خرج وفسق عنه .

ومادام الحق قد قال : « منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون » إذن ماذا يفعل المؤمن منهم مع الفاسق ؟ سيتربص الفاسقون وهم الأكثرية فى اليهودية والنصرانية بالأقلية المؤمنة ليوقعوا بهم الأذى والضرر ، ويقول الحق سبحانه :

﴿ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى ۖ وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾ ﴾

لكن الحق سبحانه يطمئن هذه الأقلية من إضرار الأكثرية بهم فيقول : « لن يضروكم إلا أذى » . أى يا أيتها الأقلية التى آمنت من أهل الكتاب ـ مثل عبدالله بن سلام الذى أسلم وترك اليهودية ـ إياكم أن تظنوا أن الأكثرية الفاسقة قادرة على إنزال العذابيكم ؛ فالحق ـ سبحانه ـ يعلن أن محاولة الأكثرية لإنزال الضرر بالأقلية التى آمنت منهم لن يتجاوز الأذى .

ما هو الضرر ؟ وما هو الأذى ؟

إن الأذى هو الحدث الذى يؤلم ساعة وقوعه ثم ينتهى ، أما الضرر فهو أذى يؤلم وقت وقوعه ، وتكون له آثار من بعد ذلك ، فعندما يصفع الإنسان إنسانا آخر صفعة بسيطة فالصفعة البسيطة تؤلم ، وألمها يذهب مباشرة ، لكن إن كانت الصفعة قوية وتتسبب فى كدمات وتورم فهذا هو الضرر . إذن فالأذى يؤلم ساعة يُباشَر الفعل فقط ، وقد يكون الأذى بالكلمة كالاستهزاء ، فالفاسق قد يستهزىء بالذى آمن ، فينطق بكلمة الكفر أو الفُجْر ، هذه الكلمة ليس لها ضرر فى ذات المؤمن ولكنها تؤذى سمعه . إن الحق سبحانه يطمئن المؤمنين على أن أهل الكفر لن يضروا المؤمنين إلا أذى ، وهذا أقصى ما فى استطاعتهم ، وليس لهذا الأذى أثر .

إذن فقول الحق : « لن يضروكم إلا أذى » يعنى أنهم لن يستطيعوا أن ينالوا منكم أبدا اللّهم إلا الاستهزاء أو الغمز واللمز ، أو إشارة بحركة تؤذى شعور المؤمن ، أو تمجد الكفر ، وتعظمه أو بنطق كلمة عهر أو فجر لا يوافق عليها الدين ، هذا أقصى ما يستطيعه أهل الفسق ، وهم لا يملكون الضرر لأهل الإيمان . وبعد ذلك نرى أن واقع الأمر قد سار على هذا المنوال مع الدعوة المحمدية ومع جنود سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم . لقد أطلقها الله كلمة : « لن يضروكم إلّا أذى » فصارت الكلمة قانونا . فقد وقعت الوقائع بين جند رسول الله وأهل الفسق ، وثبت أن أهل الفسق لم يستطيعوا ضرر أهل الإيمان إلا أذى .

ولننظر إلى ما حدث لبنى قينقاع ، ولما حدث لبنى قريظة ، ولما حدث لبنى النضير ، ولما حدث ليهود خيبر ، هل ضروا المؤمنين إلا أذى ؟ لقد قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم : لا يغرنك يا محمد أنك لقيت قوما أغرارا لا علم لهم بالحرب فانتصرت عليهم ، فإذا أنت حاربتنا فستعرف مَن الرجال . وكان ذلك هو مجرد كلام باللسان .

إن التاريخ يحمل لنا ما حدث لهم جميعا ، لقد هزمهم رسول الله صلى الله عليه وسلم . وبعد هذا أرادوا أن يرتفعوا عن الأذى إلى الضرر الحقيقى فلم يمكنهم الله ؛ لأن الحق يقول : « وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ، ثم لا ينصرون » ، فإن أراد أهل الفسق أن يُصَعِّدوا الأذى للمؤمنين ليوقعوا ضررا حقيقيا ، فإن الكافرين يولون الأدبار أمام المؤمنين ، فهزيمتهم أمر لا مناص منه . ونحن نعرف فى اللغة أن هناك ما نسميه « الشرط » وما نسميه « الجواب » فـ « إنْ » حرف شرط تجزم فعل الشرط وجوابه فإنْ كان الفعل من الأفعال الخمسة فإنّنا نحذف النون ، ولذلك نجد القول الحق : « وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار » .

إن « يقاتلوكم » فعل شرط محذوفة منه النون . و« يولوكم الأدبار » أصلها يولونكم الأدبار . وهى جواب شرط حذفت منه النون ، وعندما يأتى العطف بعد ذلك ، فهل يكون بالرفع أو بالجزم ؟ إن العادة أن يكون العطف بالجزم !! لكن الحق يعطف بالرفع فيأتى قوله : « ثم لا يُنصرون » . إنها كِسرة إعْرَابِيَّة تجعل الذهن العربى يلتفت إلى أن هناك أمرا جللا ، لأن المتكلم هو الله سبحانه . كيف جاءت « النون » ؟

هنا نقف وقفة فلننطق الآية ككلام البشر : إن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ثم لا ينصروا . وهذا القول يكون تأريخا لمعركة واحدة ، لكن ما الذى سوف يحدث من بعد ذلك ؟ ماذا يحدث عندما يقاتل المؤمنون أهل الكفر والفسق ؟ وتكون الإجابة هى : « ثم لا ينصرون » إن هذا القول الحكيم يحمل قضية بعيدة عن الشرط والجزاء ، إنها حكم من الله على أهل الفسق بأنهم لا يُنصرون أبدا سواء أقاتلوا أم لم يقاتلوا إنها قضية ثابتة منفصلة ، وليست معطوفة على الشرط ، فعلة عدم النصر ، ليست القتال ، ولكنها الكفر .

وإذا دققنا الفهم فى العبارة حروفا ـ بعد أن دققنا فيها الفهم جملا ـ لوجدنا معنى جديدا ، فقد يظن إنسان أن القول كان يفترض أن يتأتى على نحو مغاير ، هو « يولوكم الأدبار فلا ينصرون » لأن الذى يأتى بعد الـ « فاء » يعطى أنهم لا ينتصرون عليكم فى بداية عهدكم ، وهذا ما تفيده الفاء لأنها للترتيب والتعقيب . لكن الحق أورد حرف « ثم » وهو يفيد التراخى ، وهذا يعنى أنهم لا ينتصرون عليكم أيها

المؤمنون حتى لو استعدوا بعد فترة لمعركة يَرُدُّونَ بها على توليهم الأدبار . إنه حكم تأبيدى ، لأن « ثم » تأتى للتعقيب مع التراخى ، والفاء تأتى للتعقيب المباشر بدون تراخ . ولذلك فعندما نقرأ القرآن نجد وضع الفاء كالآتى :

﴿ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ﴾

(سورة عبس)

لأن دخول القبر يكون بعد الموت مباشرة ، وبعدها يقول الحق :

﴿ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾ ﴾

(سورة عبس)

فإذا كان هناك تعقيب بعد مدّة زمنية فالحق يأتى بـ «ثم » ، وإذا كان هناك تعقيب فورى بلا مدّة يأتى الحق بـ« ف » . والتعقيب فى الآية التى نتناولها يأتى بعد « ثم » ، وكأن هذا حكم مستمر من الحق بأن أهل الفسق لن ينتصروا على أهل الإيمان ، ولو بعد انتهاء المعركة القائمة الآن بينهم ، إنها هزيمة بحكم نهائى ، هذا هو القول الفصل : « ثم لا يُنصرون » وهو أشد وقعا مما لو جاء « لا ينتصرون » لماذا ؟ لأن من الممكن ألاّ ينتصر أهل الكفر بذواتهم ، ولكن الإيضاح يؤكد أنهم ـ أهل الكفر ـ لا ينتصرون لا بذواتهم ، ولا يُنصرون بغيرهم أيضا .

إن « ثم لا ينصرون » قضية دائمة فليست المسألة مقصورة على عهد رسول الله فقط ، ولكنها ستظل إلى أبد الآبدين .

ومن السطحية فى الفهم أن نقول : إن الآية كانت تتطلب أن يكون القول « ثم لا ينصروا » لأن الاعراب يقتضى ذلك . لكن المعنى اللائق بالمتكلم وهو الحق سبحانه وتعالى الذى يعطى الضمان والاطمئنان للأمة المسلمة أمام خصومها لابد أن يقول : « ثم لا ينصرون » وهى أكثر دقة حتى من « لا ينتصرون » لأن « ينتصرون » فيها مدخلية الأسباب منهم ، أما « ثم لا ينصرون » فهى تعنى أن لا نصر لهم أبداً ، حتى وإن تعصب لأهل الفسق قوم غيرهم وحاولوا أن ينصروهم فلن يستطيعوا ذلك .

فإن رأيتم ـ أيها المسلمون ـ نصرا للكافرين عليكم منهم أو بتعصب قوم لهم

فاعلموا أنكم دخلتم معهم على غير منهج الله . وقد يأتى إنسان ويقول : كيف ينتصر علينا اليهود ونحن مسلمون ؟ ونقول : هل نحن نتبع الآن منهج وروح الإسلام ؟ وماذا عندنا من الإسلام ومن الإيمان ؟ هل تحسب نفسك على ربك أثناء هزيمتك ؟ وهل دخلت معركتك كمعركة إسلامية ؟

لا ، لقد انتبهنا إلى كل شيء إلاّ الإسلام . قدمنا الانتماء لعصبية وقومية وعرقية على الإيمان فكيف نطلب نصرا من الله ؟ لا يحق لنا أن نطلب نصرة لله إلا إذا دخلنا المعركة ونحن من جند الله . والهزيمة تحدث عندما لا نكون جنداً لله ؛ لأن الله ضمن النصر والغلبة لجنوده فقال :

﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾

(سورة الصافات)

فإذا لم نغلب فتأكدوا أننا لسنا من جنود الله . . ويقول الحق من بعد ذلك .

﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾

ونحن نستخدم كلمة « ضرب » فى النقود ، عندما نقول : ضرب هذا الجنيه فى مصر ، ومعنى ذلك أن الصانع يقوم بصنع قالب من مادة أكثر صلابة ، من المادة التى يصنع منها النقد ويرسم فيها الحفريات التى تبرز الكتابة والصور على وجهى الجنيه ،

ثم يصب المادة فى ذلك القالَب ، وتخضع للقالب فتبرز الكتابة والصور ، ولا تتأبى المادة على القالب . كأن « ضُرب » معناها « أُلزم » بالبناء للمجهول فيها ، وكأن المادة المصنوعة تَلْزَمُ القالبَ الذى تصب فيه ولا تتأبى عليه ولا يمكن أن تتشكل إلاّ به .

إذن فالضرب معناه الإلزام والقسر على الفعل . وعندما يقول الحق : « ضربت عليهم الذلة » أى لزمتهم الذلة لا يستطيعون الانفكاك عنها أبدا ، كما لا يستطيع المعدن المضروب نقدا أن ينفك عن القالب الذى صك عليه ، وكأن الذلة قبة ضُربت عليهم ، وقالب لهم ، وقول الحق : « أينما ثقفوا » تفيد أنهم أذلاء أينما وُجدوا فى أى مكان . ولكن هناك استثناء لذلك ، ما هو ؟

إنه قول الحق : « إلاّ بحبل من الله وحبل من الناس » إنهم لا يعانون من الذلة فى حالة وجود عهدٍ من الله أو عهد من أناس أقوياء أن يقدموا لهم الحماية . فلما كانوا فى عهد الله أولا وعهد رسوله ساعة دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة وأعطاهم العهد ، فكانوا آمنين ، ولما خانوا العهد ، ولم يُوفوا به ؛ ماذا حدث ؟ ضُربت عليهم الذلة مرة أخرى .

إذن لقد كانوا فى عهد الله آمنين لكنهم خانوا العهد ، وانقطع حبل الله عنهم ، فهيجوا الهيجة التى عرفناها ونزل بهم ما نزل ، وهو ما حدث لبنى قينقاع ولبنى النضير وبنى قريظة ويهود خيبر .

إذن فهم قبل ذلك كانوا فى عهد مع الله . وأنتم تعرفون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أول ما نزل المدينة بنى المسجد وعقد العهد بينه وبين اليهود وعاشوا فى اطمئنان إلى أن خانوا العهد ، فضربت عليهم الذلة . وطُردوا من المدينة ، كما يقول الحق : « ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس » .

لقد أخذوا العهد من الله من خلال من له الولاية على الناس ، فالرسول فى عهده كان قائما على أمر المسلمين ، وكذلك يكون الأمر معهم فى ظل القائمين على أمر الإسلام ، ويحدث هذا عندما تسير الأمور بمنهج الإسلام .

أما عن حبل الناس فذلك لأنهم لا يملكون أى عزة ذاتية ، إنهم دائما فى ذلة إلا أن يتقفوا العزة من جانب عهد وحبل من الله ، أو من جانب حماية من الناس . ونحن نراهم على هذا الحال فى حياتنا المعاصرة ، لابد لهم من العيش فى كنف أحد ؛ لذلك فعندما حاربنا « إسرائيل » فى حرب أكتوبر ، انتصرنا عليهم إلى أن تدخلت أمريكا بثقلها العسكرى . فقال رئيس الدولة المصرى : « لا جَلَدَ لى أن أحارب أمريكا » .

إذن لو كانت الحرب بيننا وبينهم فقط لانتهت قوتهم ؛ فهم بلا عزة ذاتية ، وتكون لهم عزة لو كانوا فى جانب حبل من الله ، أو حبل من الناس . يقول الحق سبحانه عنهم من بعد ذلك : « وباءوا بغضب من الله وضربت عليهم المسكنة » ولنا أن نلاحظ أن الذلة لها استثناء ، فهم ينالون العزة لو كانوا بجانب حبل من الله أو حبل من الناس ، أما المسكنة ، فلا استثناء فيها ، وقد قال الحق عنهم فى موضع آخر فى القرآن الكريم :

﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُو بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ﴾

(من الآية ٦١ سورة البقرة)

لأن المسكنة أمر ذاتى فى النفس ، إنهم مساكين بأمر من الله ، أما الذلة فقد يأتى لهم من ينصرهم ويقف بجانبهم ؛ فالذلة أمر من خارج ، أما المسكنة فهى فى ذاتيتهم ، وعندما تكون المسكنة ذاتية ، فلا إنقاذ لهم منها ؛ لأنه لا حبل من الله يأتيهم فينجيهم منها ، ولا حبل من الناس يعصمهم من آثارها . ويقول الحق : « وباءوا بغضب من الله » وهل رأى أحد منا غضبا أكبر من أن الحق قد قطعهم فى الأرض ؟ ولنقرأ قول الله :

﴿ وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا ﴾

(من الآية ١٦٨ سورة الأعراف)

المكان الوحيد الذى آواهم فى زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الجزيرة العربية فى يثرب ، واستقروا قليلا ، وصارت لهم سيادة علمية ؛ لأنهم أهل كتاب ، وصارت لهم سيادة اقتصادية ، وكذلك سيادة حربية ، وهذا المكان الذى أواهم من الشتات فى الأرض هو المكان نفسه الذى تمردوا عليه . لقد كان السبب الذى من أجله قد جاءوا إلى يثرب هو ما كانوا يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة ؛ ففى التوراة

جاء ما يفيد أن نبيا سيأتى فى هذا المكان ولابد أن يتبعوه كالميثاق الذى قلنا عليه من قبل :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

وهذا الميثاق يقضى بأن يتولى الرسل بلاغ الأمم التى بُعِثوا إليها ، وأن يُبلغ أهلُ الإيمان القادمين من بعدهم بأن هناك رسولا قادما من عند الله بالمنهج الكامل . ـ واليهود ـ لم يأتوا إلى يثرب إلا على أمل أن يتلقفوا النبى المنتظر ليؤمنوا به ، ومن بعد ذلك يكونون حربا على الكافرين بالله ، لكن ما الذى حدث ؟ إنه سبحانه يخبرنا بما حدث منهم فى قوله :

﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ﴾

(من الآية ٨٩ سورة البقرة)

فماذا بعد أن باءوا بغضب من الله . وبعد أن ختم الله قالبهم بالمسكنة ؟ وما السبب ؟ تكون الإجابة من الحق سبحانه : « ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق » لقد أرسل الله لهم آيات عجيبة ولكنهم كفروا بها ، تلك الآيات التى جاءنا ذكر منها فى قوله الحق :

﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ﴾

(من الآية ٥٧ سورة البقرة)

كثير من الآيات أرسلها الحق لبنى إسرائيل ، منها ما جاء فى قوله الحق :

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾

(سورة البقرة)

ولكنهم تولوا عن الإيمان وأمامهم ضرب موسى عليه السلام الحجر بالعصا فانفجرت منه عيون المياه ليشربوا .

﴿ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ﴾

(من الآية ٦٠ سورة البقرة)

وبرغم ذلك فقد قاموا بقتل الأنبياء بغير حق . وادعوا الكذب على أنبيائهم وقتلوهم ، وفى شأنهم يقول الحق : « ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون » كَانَ العصيانُ سبباً لأن تُضرب عليهم الذلة ، وأن يبوءوا بغضب من الله ، وأن تُضرب عليهم المسكنة ، وكل ذلك ناشىء من فعلهم . وهناك فرق بين أن يبدأهم الله بفعل ، وبين أن يعاقبهم الله على فعل ، وحتى نفهم ذلك فلنقرأ قوله الحق :

﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ ﴾

(سورة النساء)

لقد حرم الله عليهم الطيبات بظلم منهم لأنفسهم ، لأن معنى تحريم الطيبات أن الله حرمهم متعة فى طيب ، وذلك لأنهم استحلوا متعة فى غير طيب ؛ لأن مرادات الشارع تأتى على عكس مرادات الخارجين عن أمر الشارع . وكما قلنا من قبل : إنّ الحق سبحانه وتعالى يؤرخ للحق وللواقع ولا يشملهم كلهم بحديث يجمعهم جميعا ، فقد كان منهم أناس تراودهم فكرة الإيمان بالرسول ، وفكرة الإيمان بالقرآن ، ومنهم من آمن فعلا ؛ لذلك كان من عدل الله أن يفصل بين الذين يفكرون فى الإيمان والمصرين على الكفر . لذلك يقول سبحانه :

﴿ لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾

وهذا ما حدث بالفعل ، لكن أى آيات لله كانوا يتلونها ؟ إنها الآيات المهيمنة ، آيات القرآن ولماذا يقول الحق : « وهم يسجدون » وهل هناك قراءة للقرآن ساعة السجود ؟ حتى نعرف تفسير ذلك لابد لنا أن نعرف أن اليهود لا يصلون العتمة ، أى الصلاة فى الليل ، وحتى يعطيهم الله السمة الإسلامية قال عنهم : « يسجدون » ويُعَرّفَهم بأنهم يقيمون صلاة العتمة ، ـ العشاء ـ وهى صلاة المسلمين ، وماداموا يصلون صلوات المسلمين ويسجدون ، إذن فهم مسلمون أو نفهم من قوله : « وهم يسجدون » أن الصلاة عنوان الخضوع ، والسجود أقوى سمات الخضوع فى الصلاة . وماداموا يصلون فلا بد أنهم يتلون آيات الله آناء الليل وهم يؤدون الصلاة بخشوع كامل . ونعرف أن من حسن العبادة فى الإسلام ، ومن السنن المعروفة قراءة القرآن ليلا ، وصلاة التهجد ، وهذه فى مدارج العملية الإيمانية التى يدخل بها الإنسان إلى مقام الإحسان .

و« آناء » جمع « إنى » مثلها مثل « أمعاء » جمع « مِعى » . و« الآناء » هى مجموع الأوقات فى الليل ، وليست فى «إنًى » واحد . فهناك مؤمن يقرأ القرآن فى وقت من الليل ، ومؤمن آخر يقرأ القرآن فى وقت آخر ، وكأن المؤمنين يقطعون الليل فى قراءة للقرآن ، والذى يدخل مع ربه فى مقام الإحسان ، فهو لا يصلى فقط صلاة العتمة وهى ستأخذ « إنًى » واحدا ، أى وقتا واحدا ، ولكنه عندما يصلى فى آناء الليل فذلك دليل على أنه يكرر الصلاة ، وزاد عن المفترض عليه ، ومادام قد زاد عن المفترض ، فهو لا يكتفى بتلاوة القرآن لأنه يريد أن يدخل فى مقام الإحسان ، أى أنه وجد ربه أهلا لأن يصلى له أكثر مما افترض عليه ، كأنه قد قال لنفسه : أنت كلفتنى يارب بخمس صلوات لكنك يارب تستحق أكثر من ذلك وكأن هذا البعض من أهل الكتاب لم يكتفوا بإعلان الإيمان بالإسلام فقط ، ولكنهم دخلوا بثقلهم ، فصلوا آناء الليل . وأحبوا أن ينطبق عليهم قول الله تعالى :

﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ ﴾

(سورة الذاريات)

ما معنى « محسن » ؟ إنها وصف للإنسان الذى آمن بربه فعبَد الله بأكثر مما افترض

تعبدنا الله بخمس صلوات فنزيدها لتصل إلى عشرين مَثَلاً ، ونحن تعبدنا الله بصيام شهر فى العام ومنا من يصوم فى كل شهر عددا من الأيام .
العام ومنا من يصوم فى كل شهر عددا من الأيام .

وتعبدنا بالزكاة بالنصاب ، ومنا من يزيد على النصاب ، وتعبدنا سبحانه بالحج مرة ، ومنا من يزيد عدد مرات الحج . فحين يريد العبد أن يدخل فى مقام الإحسان فبابه هو أداء عبادات من جنس ما تعبده الله به ؛ فالعبد لا يخترع أو يقترح العبادة التى يعبد بها الله ، ولكنه يزيد فيما افترضه الله . وهؤلاء الذين آمنوا بالله من أهل الكتاب ويتحدث عنهم القرآن ، لقد دخلوا بثقلهم فى الإسلام فصلوا آناء الليل وقرءوا القرآن ، ودخلوا مقام الإحسان ، وأرادوا أن يطبقوا القول الحق :

﴿ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ ﴾

(سورة الذاريات)

أى أنهم مادامو قد صلوا فى الليل ، وقليلا ما هجعوا فلا بد أنهم قد أدوا الصلاة فى آناء كثيرة من الليل . ونحن حين ندخل فى مقام الإحسان ونصلى فى الليل ، ونكون بارزين إلى السماء فلا يفصلنا شىء عنهاونظر فنجد نجوما لامعة تحت السماء الدنيا ، وأهل السماء ينظرون للأرض فيجدون مثلما نجد من النجوم المتلألئة اللامعة فى الأرض ، ويسألون عنها فيقال لهم : إنها البيوت التى يصلى أهلها آناء الليل وهم يسجدون ، وكل بيت فيه هذا يضىء كالنجوم لأهل السماء . ويضيف الحق فى صفات هؤلاء : « وبالأسحار هم يستغفرون » وهل فرض الله على خلقه بأن يصلوا آناء الليل فلا يهجعون إلا قليلا من الليل ؟ لا ، ولكن من يريد أن يدخل فى مقام الإحسان ، فهو يفعل ذلك . أما المسلم العادى فيكتفى بصلاة العشاء ، وعندما يأتى الصبح فهو يؤدى الفريضة . لكن من يدخل فى مقام الإحسان فقليلا من الليل ما يهجع . وينطبق عليه القول الحق :

﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾ ﴾

(سورة الذاريات)

وهذه دقة البيان القرآنى التى توضح مقام الإحسان ، فيكون فى مالهم حق للسائل والمحروم ، وليس هناك قدر معلوم للمال الذى يخرج ، لأن المقام هنا مقام الإحسان الذى يعلو مقام الإيمان ، ومقام الإيمان ـ كما نعرف ـ قد جاء ذكره فى قوله الحق :

﴿ وَالَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿٢٦﴾ ﴾

(سورة المعارج)

فالإنسان فى مقام الإيمان قد يقيد الإخراج من ماله بحدود الزكاة أو فوقها قليلا ، لكن فى مقام الإحسان فلا حدود لما يخرج من المال . وهكذا نعرف أن أهل الكتاب ليسوا سواء ؛ فمنهم من دخل الإسلام من باب الإحسان ، فقال فيهم الحق : « ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون » ، وكأن الحق بهذا الاستثناء الواضح . يؤكد لنا أننا لا يصح أن نظن أن أهل الكتاب جميعهم هم الذين جاء فيهم قوله : « ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون » لا ؛ فأهل الكتاب ليسوا سواء ، ولذلك لا يكون حكم الله منسحبا عليهم جميعا ، فمن أهل الكتاب جماعة قائمة بتلاوة القرآن آناء الليل وهم يسجدون ، إنهم أمة قائمة ، وكلمة « قائم » هى ضد « قاعد » ، والقعود غير الجلوس ، فالجلوس يكون عن الاضطجاع فيقال : كان مضطجعا فجلس .

لكن عندما نقول : « كان قائما » فإننا نقول فقعد،فالقعود يكون بعد القيام . والقعود فى الصلاة مريح ، أما القيام فهو غير مريح ، ونحن نعرف أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يقف فى الصلاة حتى تتورم قدماه ؛ لأن الثقل كله على القدمين ، ولكن عندما نقعد فنحن نوزع الثقل على جملة أعضاء الجسم . وعندما يصفهم الحق : « من أهل الكتاب أمة قائمة » فمعنى ذلك أنهم أخذوا أمانة أداء الفروض بكل إخلاص ، وكانوا يؤدون الصلاة باستدامة وخشوع . ويستمر الحق فى وصفهم فى الآية التالية :

﴿ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ

﴿ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾

وهم بالإيمان بالله واليوم الآخر ، وبالأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، إنما يتصفون بالصفات التى أوردها الله صفة لخير أمة أخرجت للناس وهى أمة محمد صلى الله عليه وسلم . لقد دخل هذا البعض من أهل الكتاب بثقلهم ـ ومن أول الأمر ـ فى مقام الإحسان ، وماداموا قد دخلوا فى مقام الإحسان فهم بحق كانوا مستشرفين لظهور النبى الجديد . وبمجرد أن جاء النبى الجديد تلقفوا الخيط وآمنوا برسالته ، وصاروا من خير أمة أخرجت للناس . ويكمل الحق سبحانه صفاتهم بقوله : « ويسارعون فى الخيرات » وهذا كمثل قوله سبحانه وتعالى فى حق المؤمنين :

﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

ونحن نعرف أن هناك فرقا بين « السرعة » و« العجلة » فـ« السرعة » و« العجلة » يلتقيان فى تقليل الزمن بالنسبة للحدث ، ومثال ذلك أن يقطع إنسان المسافة من مكان إلى مكان فى زمن معين،والذى يسرع فى قطع المسافة هو الذى يستغرق من الزمن أقل وقت ممكن ولكن هناك اختلاف بين السرعة والعجلة ، وأول خلاف بينهما يتضح فى المقابل ، فمقابل السرعة الإبطاء ، ويقال : فلان أسرع ، وعلان أبطأ ومقابل « العجلة » هو « الأناة » فيقال : فلان تأنى فى اتخاذ قراره . فالسرعة ممدوحة ومقابلها وهو « الإبطاء » مذموم ، « والعجلة » مذمومة ، ومقابلها وهو التأنى ممدوح ؛ لأن السرعة هى التقدم فيما ينبغى التقدم فيه ، والعجلة هى التقدم فيما لا ينبغى التقدم فيه ، ولذلك قيل فى الأمثال : « فى العجلة الندامة ، وفى التأنى السلامة » وقال الحق :

﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾

(من الآية ١٣٣ سورة آل عمران)

وهو سبحانه : هنا يقول « ويسارعون فى الخيرات » أى كلما لمحت لهم بارقة فى الخير فهم يسرعون إليها ، أى أنهم يتقدمون فيما ينبغى التقدم فيه ، إنهم يعلمون أن الإسراع إلى الخير حدث ، وكل حدث يقتضى حركة ، والحركة تقتضى متحركا ، والمتحرك يقتضى حياة ، فما الذى يضمن للإنسان أن تظل له حياة ، لذلك يجب أن تسرع إلى الخيرات ، وسيدنا عمر بن عبدالعزيز رضى الله عنه وأرضاه كان ينام القيلولة ، وكان حاجبه يمنع الناس من إيقاظ الخليفة ، فجاء ابن عمر بن عبدالعزيز وقال للحاجب :

أريد أن أدخل على أمير المؤمنين الساعة ، فمنعه الحاجب قائلا : إنها ساعة يستريح فيها وهو لا يستريح من الليل أو النهار إلّا فيها ، فدعه ليستريح . وسمع سيدنا عمر بن عبدالعزيز الضجة ، فسأل الحاجب . قال الحاجب : إنه ابنك ، ويريد أن يدخل عليك وأنا أطالبه ألا يدخل حتى تستريح . قال عمر بن عبدالعزيز للحاجب : دعه يدخل . فلما دخل الابن على أبيه ، قال الابن : يا أبى بلغنى أنك ستخرج ضيعة كذا لتقفها فى سبيل الله . قال عمر بن عبدالعزيز ؛ أفعل إن شاء الله . غدا نبرمها . قال الابن متسائلا : هل يبقيك الله إلى غد ؟ فقال عمر بن عبدالعزيز وهو يبكى : الحمد لله الذى جعل من أولادى من يعيننى على الخير .

لقد أراد الابن من أبيه أن يسارع إلى الخير ، فمادامت هبة الخير قد هبَّت عليه فعلى الإنسان أن يأخذ بها ؛ لأن الإنسان لا يدرى أغيار الأحداث فى نفسه ، لذلك فعليه أن يسارع إلى اقتناص هبة الخير ، وها هو ذا ابن عمر بن عبدالعزيز يعين والده على الخير ، لكننا فى زماننا قد نجد من الأبناء من يطلب الحَجْر على أبيه إن فكر الأب فى فعل الخير ، متناسين قول الحق : « ويسارعون فى الخيرات وأولئك من الصالحين » .

وهنا يبرز سؤال هو : لأى عمل هم صالحون ؟

والإجابة تقتضى قليلا من التأمل . إننا نقول فى حياتنا : « إن فلانا رجل صالح » ومقابله « رجل طالح » . والإنسان صالح للخلافة ، فقد جعل الله آدم وذريته خلفاء فى الأرض ، والرجل الصالح يرى الشىء الصالح فى ذاته فيترك هذا الشىء على ما هو عليه أو يزيده صلاحا . أما الرجل الطالح أو المفسد فهو يأتى إلى الشىء الصالح فيفسده ، ولا يفعل صلاحا .

إن الرجل ـ على سبيل المثال ـ قد يجد بئرا يأخذ منه الناس الماء ، فإن لم يكن من أهل العزم فإنه يتركه على حاله . وإن كان طالحا فقد يردم البئر بالتراب . أما إن كان الرجل من أهل الصلاح والعزم فهو يحاول أن يبدع فى خدمة الناس التى تستقى من البئر ، فيفكر ليبنى خزانا عاليا ويسحب الماء من البئر بآلة رافعة ، ويخرج من الخزان أنابيب ويمدها إلى البيوت ، فيأخذ الناس المياه وهم فى المنازل ، إن هذا الرجل قد استخدم فكره فى زيادة صلاح البئر .

إذن فكلمة « رجل صالح » تعنى أنه صالح لأن يكون خليفة فى الأرض وصالح لاستعمار الأرض أى أن يجعلها عامرة ، فيترك الصالح فى ذاته ، أو يزيده صلاحا ، ويحاول أن يصلح أى أمر غير صالح . الرجل الصالح عندما يعمل فهو يحاول أن يجعل عمله عن عمق علم ، فلا يقدم على العمل الذى يعطى سطحية نفع ثم يسبب الضرر من بعد ذلك .

ومثال ذلك حين اخترعوا المبيدات الحشرية ظنوا أنهم تغلبوا على الآفات فى الزراعة ، لكنهم لم يعرفوا أنهم قد أضروا بالزراعة وبالبيئة أكثر مما أفادوا ، لذلك عادوا يقولون : لا تستعملوا هذه المبيدات ؛ لأنها ذات أضرار جمة ؟ ولهذا لابد أن يكون كل عمل قائما على قواعد علمية سليمة ، ولنقرأ قوله تعالى :

﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

وقوله سبحانه :

﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَـٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ ﴾

(سورة الكهف)

إذن فقد أكرم الله من آمن من أهل الكتاب فوصفهم الوصف الحقيقى ، فهم يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون ، ويؤمنون بالله واليوم الآخر ، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، ويسارعون فى الخيرات ، ثم يحكم الحق عليهم حكما عاما بأنهم من الصالحين لعمارة الكون والخلافة فى الأرض .

ومن بعد ذلك يضيف الحق :

﴿ وَمَا يَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾ ﴾

إنه سبحانه يعطيهم الجزاء العادل ، وإن شيئا لا يضيع عنده وهو الحق ؛ فالخير الذى يفعلونه لن يُجحد لهم أو يُستر عن الناس ؛ لأنه سبحانه عليم بالمتقين ، فمن الجائز أن يصنع إنسان الأعمال ولا يراها أحد ، أما الحق فهو يرى كل عمل ، وهو الذى يملك حسن الجزاء . وبعد ذلك يعود الحق لتبيان حال الذين كفروا فيقول :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۚ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١٦﴾ ﴾

يظن الكافرون أن الأموال والأولاد قد تغنى من الله ، إنهم لا يحسنون التقدير ، فالأموال والأولاد هما من مظان الفتنة مصداقا لقوله تعالى :

﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ ﴾

(سورة الأنفال)

ومادامت الأموال والأولاد فتنة فلا بد أن نفهم الأمر على حقيقته ؛ فالفتنة ليست مذمومة فى ذاتها ؛ لأن معناها اختبار وامتحان ، وقد يمر الإنسان بالفتنة ، وينجح .

كأن يكون عنده الأموال والأولاد ، وهم فتنة بالفعل فلا يغره المال بل إنه استعمله فى الخير ، والأولاد لم يصيبوه بالغرور بل علمهم حمل منهج الله وجعلهم ينشأون على النماذج السلوكية فى الدين ، لذلك فساعة يسمع الإنسان أى أمر فيه فتنة فلا يظن أنها أمر سيىء بل عليه أن يتذكر أن الفتنة هى اختبار وابتلاء وامتحان ، وعلى الإنسان أن ينجح مع هذه الفتنة ؛ فالفتنة إنما تضر من يخفق ويضعف عند مواجهتها . والكافرون لا ينجحون فى فتنة الأموال والأولاد ، بل سوف يأتى يوم لا يملكون فيه هذا المال ، ولا أولئك الأولاد ، وحتى إن ملكوا المال فلن يشتروا به فى الآخرة شيئا ، وسيكون كل واحد من أولادهم مشغولا بنفسه ، مصداقا لقول الحق :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾ ﴾

(سورة لقمان)

إن كل امرىء له يوم القيامة شأن يلهيه عن الآخرين ، والكافرون فى الدنيا مشغولون بأموالهم وأولادهم وعندما نتأمل قوله : « لن تغنى عنهم » نجد أننا نقول : أغناه عن كذا أى جعله فى استغناء فمن هو الغنىّ إذن ؟ الغنى هو من تكون له ذاتية غير محتاجة إلى غيره ، فإن كان جائعا فهو لا يأكل من يد الغير ، والنبى صلى الله عليه وسلم يقول : « ليس الغنى عن كثرة العرض ، ولكن الغنى غنى النفس »[1] .

والمقصود بالعَرَض هو متاع الحياة الدنيا قلّ أو كثر ، ومتاع ، وعرض الدنيا كالماء المالح ، كلما شربت منه ازددت ظمأ . إن الكافر من هؤلاء يخدع نفسه ويغشها ، ويغتر بالمال والأولاد وينسى أن الحياة تسير بأمر من يملك الملك كله ، إن الكافر يأخذ مسألة الحياة فى غير موقعها ، فالغرور بالمال والأولاد فى الحياة أمر خادع ، فالإنسان يستطيع أن يعيش الحياة بلا مال أو أولاد . ومن يغتر بالمال أو الأولاد فى الحياة يأتى يوم القيامة ويجد أمواله وأولاده حسرة عليه ، لماذا ؟ لأنه كلما تذكر أن المال والأولاد أبعداه عما يؤهله لهذا الموقف فهو يعانى من الأسى ويقع فى الحسرة .

(١) رواه أحمد فى المسند ، والبخارى ، ومسلم ، والترمذى وابن ماجه عن أبى هريرة .

ويقول الحق سبحانه عن هذا المغتر بالمال والأولاد وهو كافر بالله : « وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » وهذا مصير يليق بمن يقع فى خديعة نفسه بالمال أو الأولاد . وكيف يكون الإنسان صاحباً للنار؟ لنعرف أولا معنى كلمة « الصاحب » ، إن الصاحب هو الملازم ؛ فنحن نقول : فلان صاحب فلان أى ملازمه ، لكن من أين تبدأ الصحبة ؟ . إن الذى يبدأ الصحبة هو « فلان » الأول ، لـ« فلان الثانى » الذى يقبل الصحبة أو يرفضها ، وهذا أمر قد نعرفه وقد لا نعرفه ، وعن الصحبة مع النار نرى أن الإنسان يلوم نفسه ويؤنبها على أنه اختار النار وصاحبها .

ألسنا نرى فى الحياة إنسانا قد ارتكب ذنبا وأصابه ضرر ، فيضرب نفسه ويقول : أنا الذى استأهل ما نزل بى وأستحقه ، وكذلك الإنسان الكافر يجد نفسه يوم القيامة ، وهو يدخل النار ، ويقول لنفسه : أنا أستحق ما فعلته بنفسى ، وتقول النار لحظتها ردا على سؤال الحق لها :

﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾ ﴾

(سورة ق)

وفى الآخرة نرى أبعاض الإنسان الكافر وهى تبغض صاحبها ، فإذا كان للإنسان ولاية على أبعاضه فى الدنيا ، وهى خاضعة لإرادته إلا أن هذه الأبعاض تأتى يوم القيامة وصاحبها خاضع لإرادتها . إن الظالم يقول ليده فى الدنيا ، « اضربى فلانا وشددى الصفعة » فلم تعصه يده فى الدنيا ؛ لأن الله خلقها خاضعة لإرادته ، والظالم لنفسه بالكفر يأمر لسانه أن ينطق كلمة الكفر ، فلا يعصاه اللسان فى الدنيا ، لماذا ؟ لأن أبعاضه خاضعة لإرادته فى الحياة الدنيا ، لكن ذلك الكافر يأتى يوم القيامة وتنعزل عنه إرادته ، فتتحرر أبعاضه ، ولا تكون مرغمة على أن تفعل الأفعال التى لا ترتضيها ، وتتمرد الأبعاض على صاحبها ، وتشهد عليه . قد يقول قائل : ولكن الأبعاض هى التى تتعذب . نعم ، ولكنها تقبل العذاب تكفيرا عما فعلت .

إذن فالصحبة تبدأ من الأبعاض للنار « أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » فإن رأينا كفارا يعملون خيرا فى الدنيا فليحذر كل منا نفسه قائلا : إياك يا نفس أن

تنخدعى بذلك الخير . لماذا ؟ لأن الكافر يعيش كفر القمة ، وكل عمل مع كفر القمة هو عمل حابط عندالله ، وإن كان غير حابط عند الناس . وبعد ذلك يقول الحق عن هؤلاء الكافرين :

﴿ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾ ﴾

إن الحق يصف ما ينفقه هؤلاء الكافرون فى أثناء الحياة الدنيا وهم بعيدون عن منهج الله إنه ـ سبحانه ـ يشبهه بريح فيها صر ، أى شدة ، فمادة « الصاد والراء » تدل على الشدة والضجة والصخب ، ومثال ذلك ما قاله الحق عن امرأة إبراهيم :

﴿ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ ﴾

(سورة الذاريات)

إنها أتت وجاءت بضجيج ؛ لأنها عجوز وعقيم ويستحيل عادة أن تلد . ومثل قوله الحق :

﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ ﴾

(سورة الحاقة)

والريح الصرصر هى التى تحمل الصقيع ولها صوت مسموع .

وقوله الحق : « كمثل ريح فيها صر » أى أن الريح جعلت البرد شائعا وشديدا ، فالبرد قد يكون فى منطقة لا ريح فيها ، ويظل باقيا فى منطقته تلك ، وعندما تأتى

الريح فإنها تنقل هذا البرد من مكان إلى مكان آخر ، فتتسع دائرة الضرر به . وماذا تفعل الريح التى فيها شدة برد ؟ إنها تفعل الكوارث ، ويقول عنها الحق : « أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته » وساعة نسمع كلمة « حرث » فنحن نعرف أنه الزرع ، وقد سماه الله حرثًا ، ليعرف الإنسان إنه إن لم يحرث فلن يحصد ، يقول الحق :

﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾

(سورة الواقعة)

كأن الريح العارمة تفسد الحرث ، وهو العملية اللازمة للإنبات ؛ فالحرث إثارة للأرض ، أى جعل الأرض هشة لتنمو فيها الجذور البسيطة ، وتقوى على اختراقها ، وأخذ الغذاء منها ، وهذه الجذور تستطيع ـ أيضا ـ من خلال هشاشة الأرض المحروثة أن تأخذ الهواء اللازم للإنبات .

إن الحق سبحانه يريد أن يضرب لنا المثل وهو عن جماعة غير مؤمنين أنفقوا أموالهم فى الخير ، لكن ذلك لا ينفعهم ولا جدوى منه . مصداقا لقوله تعالى : « كمثل ريح فيها صر أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون » وهكذا يكون مصير الإنفاق على نية غير مؤمنة ، كهيئة الحرث الذى هبت عليه ريح فيها صوت شديد مصحوب ببرد ، فالـ « صر » فيه الشدة والبرودة والعنف ، وحاتم الطائى كريم العرب يقول لعبده :

أوقد ؛ فإن الليل ليل قر
والريح يا غلام ريح صر
عَلَّ يرى نارك من يمر
إن جلبت ضيفا فأنت حر

إن هذا الرجل الكريم يطلق سراح العبد إذا ما هدى ضيفًا إلى منزل حاتم الطائى . « والليل القر » : هو الليل الشديد البرودة . و« الريح الصر » : هى

الريح الشديدة المصحوبة بالبرد . ونعرف فى قُرانا أن الصقيع ينزل على بعض المزروعات ، فيتلفها . ونلاحظ هنا أن الحق سبحانه قد جاء بهذه الآية الكريمة بعد أن أوضح لنا فى الآية السابقة عليها أن الذين كفروا لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم شيئا ومصيرهم النار ، وهو سبحانه يدفع أى شبهة تطرأ على السامع ، وهى أن هذه الأموال التى أنفقها الكافرون لعمل الخير ، لن تغنى عنهم شيئا فى الآخرة ؛ لأنهم لا يملكونها . لماذا ؟

لأن العمل إنما يراد للثواب عليه ، والنية دائما هى التى تحدد الهدف من كل حركة . . فهل كان فى نية الكفار حين أنفقوا أموالهم فى الخير الذى يعلمه الناس كالمساعدات ، وتفريج الكرب ، وإنشاء المستشفيات هل كان فى بال هؤلاء الكفار رَبُّ هذه النعم ، أو كانوا يعملونها طمعا فى جاه الدنيا ، وتقدير التاريخ وذكر الإنسانية ؟

لاشك أنهم كانوا يعملونها للجاه ، أو للتاريخ ، أو للإنسانية ؛ لأنهم لا يؤمنون بما وراء ذلك ، فهم لا يؤمنون بوجود إله ، ولا يؤمنون بوجود يوم آخر يُحاسبون فيه على ما قدموا . وقلنا من قبل : إن الذى يعمل عملا فليطلب أجره ممن عمل له ، وماداموا قد عملوا للدنيا وذكرها ، وجاهها ، والفخر فيها ، فقد أعطتهم الدنيا كل شىء .

الحق سبحانه وتعالى يضرب لنا مثلا ، وهو الذى يضرب الأمثال للناس لعلهم يتذكرون . ومعنى المثل : أن يأتى إلى أمر معنوى قد يغيب عن بعض العقول فهمه ، فيشخصه ويمثله بأمر حسى يعرفه الجميع ، ونحن نعرف أن المحسات هى أصل المعنويات فى الفهم . ونعرف أن الطفل أول ما تتفتح إدراكاته يدرك الشىء المحس أولا ، ثم بعد ذلك يكوّن من المحسات المعقولات .

فالطفل ـ على سبيل المثال ـ يرى نارا فيمسكها فتحرقه ، فيتكون عند الطفل اقتناع بأن النار محرقة . ويشرب الطفل عسلا ، فيجده حلوا ، فيتكون عنده اقتناع بأن العسل حلو الطعم ، ويأكل الطفل شيئا مرا كالحنظل ، فتتكون عنده قضية معلومة وهى أن هذا الشىء مر الطعم ، فكل المعلومات التى يعرفها الإنسان بوسائل

إدراكه المتعددة إنما تأتى من الأمور المحسة أولا .

والأمور المحسة ـ كما علمنا ـ وسائلها الحواس الخمس الظاهرة ، وهى : العين لترى ، والأذن لتسمع ، والأنف ليشم ، واللسان ليذوق ، والأنامل لتلمس ، وهكذا نعرف أن كل حاسة ظاهرة لها غاية فى الإدراك . والإنسان يتمتع بحواس أخرى ندرك أعمالها ، ولكنا لا ندرك أجهزتها أو آلاتها .

مثال ذلك : حاسة البعد وهى أن يعرف الإنسان هل الشيء الذى يراه قريب منه أو بعيد عنه ؟ وكذلك حاسة الثقل فيحمل الإنسان الشيء فيعرف مدى ثقله ، إنه يدرك ذلك الثقل بحاسة غير الحواس الخمس الظاهرة ، هذه الحاسة هى حاسة الثقل يكتشف بها الإنسان أن شيئا أثقل من شيء آخر ؛ ذلك أن العضلات التى تحمل الشيء تعرف قدر الجهد المبذول فى الحمل . وهناك حاسة أخرى غير ظاهرة هى حاسة « البَين » فيمسك الإنسان القماش بأنامله ليعرف هل سمك هذا القماش أكبر من سمك قماش آخر ؟ ولمعرفة سمك الشيء لابد أن يكون واقعا بين لامسين . إذن فهناك حواس كثيرة تربى المعانى عندنا ؛ فكل الإدراكات بنت الحس ، ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَٰرَ وَالْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾

(سورة النحل)

هذه هى الوسائل للإدراك ، وقد أورد سبحانه السمع والأبصار أولا لأنهما الوسيلتان الأساسيتان ، وأورد من بعد ذلك « الأفئدة » وهى المختصة بالمعانى والقلبيات وغيرها ، فإذا أراد الله أن يضرب مثلا فى أمر معنوى قد تختلف فيه العقول فهو سبحانه يأتى بأمر حسىّ تتفق فيه الحواس . ونعلم أن فى اللغة أمرا اسمه « التشبيه » ، فعندما يجهل إنسان شيئا يقول لمعلمه : شبه لى الأمر الذى أجهله بأمر أعرفه . والإنسان منا قد يسأل صاحبه : أتعرف فلانا ؟ فيقول الصاحب : لا أعرفه ، فيقول الإنسان منا لصاحبه : إن فلانا الذى لا تعرفه يساوى فلانا فى الطول ، ويساوى فلانا فى اللون . وهكذا ينتقل الإنسان من أمر

لا يعرفه إلى أمر يعرفه . والحق سبحانه يضرب لنا المثل بالأمور الحسية ، لنفهم الأمور المعنوية ، والله يوضح لنا أن الذين كفروا ساعة تكون لهم آلهة متعددة فملكاتهم تصاب بالاضطراب يقول ـ سبحانه ـ :

﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾

(سورة الزمر)

إنه سبحانه يوضح لنا بالمثل الواضح مصير وحال رجل مملوك لعدد من الشركاء ، والشركاء الذين يملكون هذا العبد ليسوا متفقين ، بل بينهم نزاع وشقاق ، وبطبيعة الحال لابد أن يكون هذا العبد مرهقا ، وهكذا تكون قضية الشرك بالله ، إن العبد فى مثل هذه الحالةيكون مُشتّتاً وموزع النفس بين الذين يملكونه وهم متشاكسون ، أما قضية التوحيد فالحق يشبهها بالقول : « ورجلا سلما لرجل » .

وهكذا ينقلنا الحق سبحانه ـ رحمة بنا ـ من المعنى العقدى العالى إلى معنى محس من الجميع ، لنرى أن الرجل المملوك لسيد واحد يتلقى أوامره من واحد فقط ، وكذلك يريد الله فى هذه الآية أن يضرب مثلا لمن ينفق شيئا على غير نية إرضاء الله فى طاعته ، فمهما أنفق هذا الإنسان فإن إنفاقه حابط . ونحن عندما نقرأ أمثال القرآن الكريم علينا ألا نأخذ جزئية فقط ، لا ، لكن يجب أن نأخذ الجملة كلها لنفهم المثل كله كصورة مؤتلفة مثلما ضرب الله لنا مثلا بالشركاء المتشاكسين الذين يملكون رجلا ، فعلينا إذن ألّا نأخذ المثل بحرفيته ، ولكن نأخذ الأمر بمجموع المثل . مثال آخر ، يقول الحق سبحانه :

﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ﴾

(سورة الكهف)

فهل الحياة الدنيا كالماء ؟ لا ، ولكن قصة الحياة كلها ، تشبه القصة التى يضربها الحق كمثل ، الماء حين ينزل يختلط بالأرض ، وبعد ذلك تهتز ، فتعطى نباتا ، والنبات ينتج الزهر الجميل ، وبعد ذلك ينتهى إلى هشيم ، هكذا هى الدنيا فى

زخرفتها ؛ فالبداية مزهرة ، فيها نضارة وخضرة وبهجة ، ونهاية مؤلمة ومدمرة .

إذن فالحق سبحانه ينقل لنا معنى الحياة الدنيا ويشبهها بالأزهار والنبات ونهايته أن يصبح هشيما تذروه الرياح ، وهو ما يقوله فى موضع آخر من القرآن الكريم .

﴿ فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

(من الآية ٢٤ سورة يونس)

وعندما نمعن النظر فى قوله الحق :

﴿ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

نجد فى هذه الآية « مشبها » و« مشبها به » ، المُشَبَّه هم القوم الذين ينفقون أموالهم بغير نية الله ، أى كافرون بالله ، والمُشَبَّه به : هو الزرع الذى أصابته الريح وفيها الصر ، والنتيجة أنه لا جدوى هنا ، ولا هناك .

ولماذا تصيب الريح حرث قوم ظلموا أنفسهم ، وهل لا تصيب الريح حرث قوم لم يظلموا أنفسهم ؟

إن الذين ظلموا أنفسهم تنزل بهم هذه الكارثة كعقوبة ، مثلهم فى ذلك مثل أصحاب الجنة الذين يقول فيهم الحق سبحانه :

﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ ﴾

(سورة القلم)

لقد جزاهم الله بظلمهم ، ولكن ألا نرى رجلا لم يظلم نفسه وتصيب زراعته كارثة ؟ إننا نرى ذلك فى الحياة ، والرجل الذى لم يظلم نفسه وتصيب زراعته كارثة ، ويصبر على كارثته ، يأخذ الجزاء والثواب من الله ، ولعل الله قد أهلك بها مالا كانت الغفلة قد أدخلته فى ماله من طريق غير مشروع .

هكذا تكون الكارثة بالنسبة للمؤمن لها ثواب وجزاء ، أو تكون تطهيرا للمال . أما الذى ينفق على غير نية الله وهو كافر ، فلا ثواب له .

ويذيل الحق الآية بقوله « وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون » فهو سبحانه لم يظلم الكافرين حين جعل نفقتهم بدون جدوى ولا حصيلة لها عنده ، ولكنهم هم الذين ظلموا أنفسهم ، لأنهم أنفقوا النفقة على غير هيئة القبول ، وهم الذين صنعوا ذلك عندما ظلموا أنفسهم بالكفر فَحبطت أعمالهم ، وتلك هى عدالة الحق سبحانه وتعالى :

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ ﴾

راجع أصله وخرّج أحاديثه الدكتور احمد عمر هاشم نائب رئيس جامعة الأزهر.

حين يخاطب الله المؤمنين ويناديهم بقوله : « ياأيها الذين آمنوا » فلتعلم أن ما يجيء بعد ذلك هو تكليف من الحق سبحانه . فساعة ينادى الحق المؤمنين به ، فإنه ينادى ليكلف ، وهو سبحانه لا يكلف إلا من آمن به ، أما حين يدعو غير المؤمن به إلى رحاب الإيمان ، فإنه يثير فيه القدرة على التفكير ، فيقول له :

فكّر فى السماء ، فكّر فى الأرض ، فكّر فى مظاهر الكون ، حتى تؤمن أن للكون إلها واحدا . فإذا آمن الإنسان بالإله الواحد ، فإن الحق سبحانه وتعالى يقول له مادمت قد آمنت بالإله الواحد ، فَتَلَقَّ عن الإله الحُكم .

إن الحق حين يقول : « ياأيها الذين آمنوا » فهو سبحانه يخاطب بالتكليف المؤمنين به ، وهو لا يكلف بـ « افعل » و« لا تفعل » إلا من آمن ، أما من لم يؤمن فيناديه الله ليدخل فى حظيرة الإيمان : « ياأيها الناس اعبدوا ربكم » فإذا ما دخل الإنسان فى حظيرة الإيمان فالحق سبحانه وتعالى يكرم هذا المؤمن بالتكليف بـ « افعل » و« لا تفعل » ومادام العبد قد آمن بالإله القادر الحكيم الخالق ، القيوم ، فليسمع من الإله ما يصلح حياته . ويجيء فى بعض الأحيان ما ظاهره أن الله ينادى مؤمنا به ، ثم يأمره بالإيمان كقول الحق : « ياأيها الذين آمنوا آمنوا » .

ويتساءل الإنسان كيف ينادى الله مؤمنا به ، ثم يأمره بالإيمان ؟ وهنا نرى أن المطلوب من كل مؤمن أن يؤدى أفعال الإيمان دائما ويضيف لها ليستمر ركب الإيمان قويا ، فالحق حين يطلب من المؤمن أمرًا موجودا فيه ؛ فلنعلم أن الله يريد من المؤمن الاستدامة على هذا اللون من السلوك الذى يحبه الله ، وكأن الحق حين يقول : « ياأيها الذين آمنوا آمنوا » إنما يحمل هذا القول الكريم أمرًا بالاستدامة على الإيمان ، لأن البشر من الأغيار . ونحن نعرف أن الله أفسح بالاختيار مجالا لقوم آمنوا فارتدوا ، فليس الأمر مجرد إعلان الإيمان ثم تنتهى المسألة ، لا ، إن المطلوب هو استدامة الإيمان .

وحين نقرأ قول الحق : « ياأيها الذين آمنوا » فلنفهم أن هناك تكليفا جديدا ، ومادام فى الأمر تكليف فعنصر الاختيار موجود ، إذن فحيثية كل حكم تكليفى من الله له مقدمة هى : « ياأيها الذين آمنوا » ولا تبحث أيها المؤمن فى علة الحكم ،

وتسأل: لماذا كلفتني يارب بهذا الأمر ؟ فليس من حقك أيها المؤمن أن تسأل : « لماذا » مادمت قد آمنت ؛ فالحق سبحانه لم يكلف إلا من آمن به ، فإذا كنت ـ أيها المؤمن ـ قد آمنت بأنه إله صادق قادر حكيم فأمن الله على نفسك ، ونفذ مطلوب الله بـ « افعل » و« لا تفعل » سواء فهمت العلة أم لم تفهمها . وسبق أن ضربنا المثل ومازلنا نكرره .

إن المريض الذى يشكو من سوء الهضم بعد تناول الطعام يفكر أن جهازه الهضمى مصاب بعلة ، ويفكر فى اختيار الطبيب المعالج ويختار طبيبا متخصصا فى الجهاز الهضمى ، ويذهب إلى هذا الطبيب . وهنا ينتهى عمل العقل بالنسبة للمريض ؛ فقد اختار طبيبا وقرر الذهاب إليه ، والطبيب يجرى الفحص الدقيق ، ويطلب التحاليل اللازمة إن احتاج الأمر ، ويشخص الداء ، ثم يكتب الدواء ، وحين يكتب الطبيب الدواء للمريض ، فإن المريض لا يصح أن يقول للطبيب : لن آخذ هذا الدواء إلا إذا أقنعتنى بحكمته . بل عليه أن ينفذ كلام الطبيب ، وهكذا يطيع المريض الطبيب ، وكلاهما مساوٍ للآخر فى البشرية ، فكيف يكون أدب الإنسان مع خالقه ؟ إن كل عمل العقل عند المؤمن هو أن يؤمن بالله ، وبعد أن آمنت ـ أيها المؤمن ـ بالله حكيما ، فَتَلَقَّ عن الله الحكم ؛ لأنه مأمون على أن يوجهك لأنك أنت صنعته .

إن الحق يأمر المؤمن بالصلاة ، وعلى المؤمن أن يؤديها ، ولا يبحث عن علة الصلاة كأنها رياضة مثلا ، لا ، إن الأمر صادر من الحق بالصلاة ، وحين تصلى ، فإنك تلتفت إلى أن نفسك قد انشرحت بالصلاة وشعرت بالراحة ، فتقول لنفسك : ما أحلى راحة الإيمان ؛ هذه هى علة الحكم الإيمانى . إن علة الحكم الإيمانى يعرفها المؤمن بعد أن ينفذه ، ولذلك نجد الحق من فضل كرمه ، يقولنا لنا :

﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾

(من الآية ٢٨٢ سورة البقرة)

فأنت ساعة أن تتقى الله فى الحكم ، يعطيك العلة ، ويعطيك راحة الإيمان ، إنك أيها العبد لا تسأل أولا عن الاقتناع بالعلة حتى تنفذ حكما لله ، لأن الحق

سبحانه قد يؤجل بعض حيثيات الأحكام لخلقه قرونا طويلة ، ومثال ذلك أننا ظللنا لا نعرف علة حكم من الأحكام لمدة أربعة عشر قرنا من الزمان مثل تحريم أكل لحم الخنزير ، فهل كان على العباد المؤمنين أن يؤجلوا أكل لحم الخنزير أربعة عشر قرنا إلى أن يمتلكوا معامل للتحليل حتى نعرف المضار التي فيه ؟ تلك المضار التي ثبتت معمليا .. لا .

إن العباد المؤمنين لم يؤجلوا تنفيذ الحكم ، ولكنهم نفذوه ، واكتشف أحفاد الأحفاد أن فيه ضررًا ، وهذا يدفعنا إلى تنفيذ كل حكم لا نعرف له علة ، إن هذا الحكم له حكمة عند الله قد لا يستطيع عقل الإنسان أن يفهمها ، ولكن ستأتى أشياء توضح بعض الأحكام فيما لم يكن يعرفه الإنسان ، وتعطينا تلك الإيضاحات الثقة فى كل حكم لا تعرف له علة ، وتصبح علة كل حكم هى : « ياأيها الذين آمنوا » .

إن الحق بهذا القول ينادى كل عبد من عباده : يا من آمنت بى إلها خذ منى هذا التكليف . ومثال ذلك ـ ولله المثل الأعلى ـ عندما يقول الطبيب : يا من صدقت أنى طبيب لمرضك خذ هذا الدواء وستشفى بإذن الله .

وعندما يزور الإنسان مريضا ويسأله : لماذا تأخذ هذا الدواء ؟ فالمريض يجيب : لقد كتب الطبيب لى هذا الدواء ، فما بالنا بتنفيذ أحكام الله ؟ إنه يجب أن ننفذها لأن الله قالها ، ولذلك فالعاقلون بعمق وجدية يختلفون عن مُدعى العقل بسطحية ، هؤلاء العاقلون الجادون يقولون : إن هذا العقل مطية يوصلك إلى باب السلطان ولكن لا يدخل معك عليه . فكأن العقل يوصلك إلى أن تؤمن بالله ، ولكنه لا يحشر نفسه فيما ليس له قدرة عليه .

إن الحق سبحانه فى هذا التكليف القادم : « ياأيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم » أى إنكم مادمتم قد آمنتم ، فعليكم الحفاظ على هذا الإيمان بأن تبعدوا عنه نزغ الشيطان وكيد الأعداء . إن نزغ الشيطان وكيد الأعداء إنما يأتى من البطانة التى تتداخل مع الإنسان .

ولنفهم كلمة « بطانة » جيدا ، إن بطانة الرجل هم خاصته ، أى الناس الذين

يصاحبهم ويجلسون معه ويعرفون أسراره ، وكلمة « بطانة » مأخوذة أيضا من بطانة الثوب ؛ فنحن عندما نمسك أى قطعة من ثياب نرى أن الثوب خشن ، ولذلك فالصانع يضع للثوب الخشن بطانة ناعمة ويختارها كذلك ؛ لأنها متصلة بالجسم ، والبطانة من الأصدقاء تدخل على الناس بالنعومة وتسميلهم وتستعبدهم . ولذلك نجد النبى صلى الله عليه وسلم يقول : « الأنصار شعار ، والناس دثار »[١] .

« والشعار » هو الثوب الذى يلامس شعر الجسد ، والنبى صلى الله عليه وسلم يُعلى من قيمة الذين استقبلوا الدعوة الإسلامية بمودة وحب . وهكذا نعرف أن كلمة « بطانة » مأخوذة ـ كما قلنا ـ من بطانة الثوب ، لأنها التى تلتحم بالجسم حتى تحميه ؛ فنحن نرتدى الصوف ليعطينا الدفء ، ونضع بينه وبين الجسم بطانة لنبعد عن الجسم خشونة الصوف ، ويسمون البطانة بالوليجة ، أى التى تدخل فى حياة الناس ، وكل شر فى الوجود من هذه البطانة .

إن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو معصوم ومُوحًى إليه وله من الصحابة ما يطمح أى عبد مؤمن أن يتخذه قدوة له ، هذا الرسول الكريم نجد بعضا من وصفه فى حوار بين سيدنا الحسين رضوان الله عليه و أبيه سيدنا على كرم الله وجهه قال الحسين :

يا أبى قل لى عن مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قال على كرم الله وجهه :

كان رسول الله لا يجلس ولا يقوم إلا على ذكر . وفى الحديث : « كان رسول الله يكثر الذكر »[٢] .

لماذا ؟ لأن الجلوس والقيام هو إبطال حركة بحركة ، فمن كان قائما فقعد فقد أدى حركة هى القعود ، ومن كان جالسا فقام ، فقد أدى حركة هى القيام . وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يذكر الله فى كل حركة ، شاكرا نعمة الخالق عز وجل ، والإنسان منا يستطيع أن يسأل نفسه : كم عضلة يحركها الإنسان حتى يقعد أو يقوم ؟

---

(١) رواه البخارى فى المغازى ، ورواه مسلم فى الزكاة ، ورواه ابن ماجه فى المقدمة ، ورواه أحمد فى مسنده .

(٢) رواه النسائى فى الجمعة .

إنها أعداد كبيرة من العضلات تتحرك لتوازن ارتفاع الجسم أو جلوسه ، وهى أعداد لا يعرفها الإنسان . فما الذى جعل هذه الأجهزة الصماء تفهم مراد الإنسان ، وبمجرد أن يحاول الإنسان القيام ، فإنه يقوم ، وبمجرد أن يحاول الإنسان القعود ، فإنه يقعد ؟ إنك إذا رفعت يدك لا تعرف ما هى العضلات التى تتحرك لترفع اليد ، وتلك إدارة عالية يقول عنها الشاعر :

«وفيك انطوى العالم الأكبر»

كأن العالم الكبير قد انطوى وصار فى داخلك أنت . إنك إن أردت أن تنام فإنك تنام ، وتحب أن تقوم فتقوم . ويبين لك الحق أن أوامرك لعضلاتك وتحكمك فى مملكة جسدك ، هى من تسخير الله ؛ تدرك ذلك حين تنظر حولك فتجد أنه سبحانه قد سلب أحدا غيرك القدرة على رفع الذراع . وإياك أن تظن أن الحركة قد واتتك لمجرد أن لك يدا ، لا ، إن غيرك قد تكون له يد ؛ ولكنه لا يستطيع أن يأمرها فتتحرك . وهكذا نعرف أن كل الإرادات فى النفس إنما تتحرك بتسخير الحق لها لخدمة الإنسان .

قال صلى الله عليه وسلم : « إذا استيقظ أحدكم فليقل:الحمد لله الذى ردّ علىّ روحى وعافانى فى جسدى وأذِن لى بذكره »[1] .

انه يُوجه الإنسان إلى ذكر خالقه عند كل قيام أو قعود ، ورسولنا صلى الله عليه وسلم يعلمنا أنه عند كل انفعال بكل حركة من الحركات علينا أن نذكر الذى خلقنا وخلق فينا القدرة على الحركة .

وليسأل كل منا نفسه : كم حركة يتطلبها أمر من الإنسان بأن يحك ظهره مثلا ؟ إنه عدد غير معروف من الحركات . وهكذا علينا أن نحسن الأدب مع الله بأن نذكره فى كل حركة فهو الذى خلق كل إنسان منا صالحا لكل هذه القدرات .

---

(١) رواه ابن السنى .

ونعود إلى وصف على كرم الله وجهه مجلسّ الرسول صلى الله عليه وسلم : كان لا يجلس ولا يقوم إلا عن ذكر .

ولنتنبه إلى دقة الرسول فى التعامل مع البطانة من البشر ، فهاهو ذا رسول الله صلى الله عليه وسلم كان لا يوطن الأماكن وينهى عن إيطانها . ويوطن المكان ، أى أن يخصص مكانا لفلان ليجلس فيه ، لقد كان الرسول يجلس حيث انتهى به المجلس ، وكذلك كان صحابته ، فلا أحد يجلس دائما بجانبه حتى لا يأخذ أحد من مكانته عند الرسول فرصة يتخيل معها الآخرون أنه صاحب حظوة ؛ فكلهم سواسية ونحن نرى فى عصرنا أن هناك من يتخذ لنفسه مكانا فى المسجد ، وهذا منهى عنه . فعن ابن عمرو رضى الله عنهما قال : (نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن نقرة الغراب وافتراش السبع وأن يوطّن الرجل المكان فى المسجد كما يوطن البعير »[1] .

ويضيف على كرم الله وجهه فى وصف مجلس رسول الله : وكان إذا ذهب إلى قوم جلس حيث ينتهى به المجلس ، « وكان يجلس على الأرض ويأكل على الأرض ، يعتقل الشاة ويجيب دعوة المملوك »[2] .

أهناك أدب أكثر من هذا ؟ إنه الرسول الكريم ، يجلس حيث ينتهى به المجلس ، لقد أراد أن يضرب لنا المثل حتى تتنوع اللقاءات ؛ فاليوم قد يجلس مؤمن بجانب مؤمن من مكان بعيد ، وغدا يجلس كلاهما بجانب اثنين جاء كل منهما من مكان آخر ، وهكذا تتحقق اندماجية الإيمان بتنوع اللقاءات .

ويقول على كرم الله وجهه : وكان رسول الله يعطى كل جلسائه نصيبهم من مجلسه حتى لا يحسب جليسه أن أحدا أكرم عليه منه .

إن الرسول صلى الله عليه وسلم عندما يعطى نظرة لواحد ، فهو ينظر كذلك لكل

(١) رواه أحمد وأبو داود والنسائى فى الصلاة والنهى عن نقرة الغراب أى تخفيف السجود بقدر وضع الغراب منقاره ، وافتراش السبع : هو بسط الذراعين فى السجود وعدم رفعهما ، وأن يوطن المكان : أى يلازمه فلا يصلى فى غيره .

(٢) رواه الطبرانى .

واحد فى مجلسه ، وإن تكلم كلمة إلى ناحية فهو يعطى كلمة أخرى إلى الناحية المقابلة ؛ وذلك حتى يعرف كل جليس للرسول أن المؤمنين سواسية ، وأنّه صلى الله عليه وسلم رسول إلى الناس كافة ؛ وليس رسولا إلى قوم بعينهم ، وحتى يعرف كل واحد من جلسائه أنه يجلس إلى رسوله الذى بعثه الله إليه .

هكذا كان سلوك الرسول صلى الله عليه وسلم حتى يعطى القدوة للناس ، وحتى يعرف كل إنسان أن التحام الناس بعضهم ببعض ؛ قد يسبب لواحد استغلال الالتحام فى غير صالح الإيمان .

لذلك يقول الحق سبحانه : ياأيها المؤمنون تنبهوا إلى أنكم فى معسكر من غير المؤمنين يقاتلكم ويعاند إيمانكم ، وهؤلاء لا يمكن أن يتركوكم على إيمانكم ، بل لابد أن يكيدوا لكم ، وهذا الكيد يتجلى فى أنهم يدسون لكم أشياء ، وينفذون إليكم .

ونعرف جميعا أن الإسلام عندما جاء كان كثير ممن آمن له ارتباطات بمن لم يسلم ؛ فهناك القرابة ، والصداقة ، والإلف القديم والجوار ، والأخوة من الرضاعة ، لذلك يحذر الحق من هذه المسائل ، فلا يقولن مؤمن:هذا قريبى ، أو هذا صديقى ، أو هذا حليفى ، أو هذا أخى من الرضاعة ، فالإسلام يحقق لكم أخوة إيمانية تفوق كل ذلك ، ولهذا فإياكم أن تتخذوا أناسا يتداخلون معكم بالود ؛ لأن الشر يأتى من هذا المجال ، وإياكم أن تعتقدوا أن فجوة الإيمان والكفر بينكم ستذهب أو تضيق ؛ لأن الكفار لن يتورعوا أن يدخلوا عليكم من باب الكيد لكم ولدينكم بكل لون من الألوان ، وهم ـ الكفار ـ لا يقصرون فى هذا أبدا ، لذلك يأتى الأمر من الحق :

ياأيها الذين آمنوا ، احموا هذا الإيمان فلا تتداخلوا مع غير المؤمنين تداخلا يفسد عليكم أمور دينكم ؛ لأنهم لن يهدأوا ، لماذا ؟ لأن حال هذه البطانة معكم سيكون كما يلى : « لا يألونكم خبالا » أى لا يقصرون أبدا فى الكيد لكم ، والخبال:هو الفساد للهيئة المدبرة للجسم وهو العقل ، ونحن نسمى اختلال العقل « خبلا » .

إن الحق يقول :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ

قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

فالمنهى عنه ليس أن تتخذ بطانة من المؤمنين ، ولكن المنهى عنه هو أن تتخذ بطانة من غير المؤمنين ؛ لأن المؤمن له إيمان يحرسه ، أما الكافر فليس له ما يحرسه ، والبطانة من غير المؤمنين لا تقصر فى لحظة واحدة فى أنها تريد للمؤمنين الخبال والفساد ، ولا يقف الأمر عند هذا الحد ، بل إنهم يحبون العنت والمشقة للمؤمنين « ودوا ماعنتم » والحق سبحانه وتعالى لا يريد لنا العنت ، وفى هذا يقول سبحانه :

﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

(من الآية ٢٢٠ سورة البقرة)

أى أنه سبحانه لو أراد ، لكلفكم بأمور كثيرة تحمل المشقة ، لكن الحق سبحانه يَسَّر لكم أيها المؤمنون ، لكن أهل الكفر لا يودون إلا الخبال للمؤمنين ، ويحبون المشقة لهم .

ومن أين تنشأ المشقة ؟ إنك حين تكون مؤمنا فأنت تقوم بما فرضه عليك الدين ، وهم يحاولون أن ينفخوا فى المؤمن بغير ما يقتضيه هذا الدين ، فتتوزع نفس المؤمن ، وبهذا النفخ تنقسم ملكات المؤمن على نفسها ، وعندما تنقسم الملكات على نفسها فإن القلق والاضطراب يسيطران على الإنسان ، فالقلق والاضطراب ينشآن عندما لا تعيش الملكات النفسية فى سلام وانسجام .

ونحن نرى ذلك فى المجتمعات التى وصلت إلى أرقى حياة اقتصادية وأمورهم المادية ميسرة كلها ، فالشيخوخة مُؤَمَّنة ، وكذلك التأمينات الصحية والاجتماعية ، ودخل الإنسان مرتفع ، لكنهم مع ذلك يعيشون فى تعب ، وترتفع بينهم نسبة الانتحار ، وينتشر بينهم الشذوذ ، والسبب وراء كل ذلك هو أن ملكاتهم النفسية غير منسجمة ، وسلام الملكات النفسية لا يتحقق إلا عندما يؤمن الإنسان ، ويطبق

تعاليم ما يؤمن به . فالرجل ـ على سبيل المثال ـ حين ينظر إلى حلاله ، أى زوجته ، ينظر إليها براحة ويشعر باطمئنان ؛ لأن ملكاته النفسية منسجمة ، أما عندما تتجه عيناه إلى امرأة ليست زوجته ، فإنه يراقب كل من حوله حتى يعرف هل هناك من يراه أو لا ؟ وهل ضبطه أحد أو لا ؟ وعندما يضبطه أحد فهو يفزع وتتخبط ملكاته .

لذلك يحذر الحق سبحانه المؤمنين : إياكم من البطانة من غير المؤمنين ، لأنهم لا يقصرون أبدا ولا يتركون جهدا من الجهود إلا وهم يحاولون فيه أن يدخلوكم فى مشقة . والمشقة إنما تنشأ من أن الكافر يحاول أن يجذب المؤمن إلى الانحراف والاضطراب النفسى وتشتت الملكات مستغلا القرابة والصداقة ، مطالبا أن يرضيه المؤمن بما يخالف الدين ، ولا يستطيع المؤمن التوفيق بين ما يطلبه الدين وما يطلبه الكافر ؛ لذلك تنقسم ملكات المؤمن ويحس بالمشقة . والكافرون لا يتركون أى فرصة تأتى بالفساد للمؤمنين إلا انتهزوها واغتنموها . « ياأيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم » .

ومادامت البغضاء قد بدت من أفواههم فكيف نتخذهم بطانة ؟ إنك حين تصنع لنفسك جماعة من غير المؤمنين ، فإنها تضم بعضا من المنافقين غير المنسجمين مع أنفسهم . والمنافق له لسان يظهر خلاف ما يبطن . وعندما يذهب المنافق إلى غير المؤمنين فإن لسان المنافق ينقل بالسخرية كلام المؤمن .

هكذا تظهر البغضاء من أفواه المنافقين المذبذبين بين ذلك ، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ، إنهم لا ينتمون إلى الإيمان ولا ينتمون إلى الكفر ، والذى يصل المؤمنين من بغضاء هؤلاء قليل ؛ لأن ما تخفى صدورهم أكبر . وحين تبدو البغضاء من أفواههم ، فإما أن يقولوها أمام منافقين ، وإما أن يقولها بعضهم لبعض ، فيتبادلوا الاستهزاء والسخرية بالمؤمن،والله أعلم بمن قيل فيه هذا الكلام ، ولذلك فعندما يتحدث الكافرون بكلام فيما بينهم فالله يكشفهم ويفضحهم لنا نحن المؤمنين .

إن الله تعالى يكشف بطلاقة علمه كل الخبايا ، وكان على الكافرين والمنافقين أن يعلموا أن هناك إلها يرقب عملية الإيمان فى المؤمن حتى ينبهه إلى أدق الأشياء ، لكنهم كأهل كفر ونفاق فى غباء ، لقد كان مجرد نزول قول الحق:« قد بدت البغضاء من

أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر » كان ذلك فرصة أمامهم ليدفعوا عن أنفسهم لو كانت صدورهم خالية من الحقد . لكنهم عرفوا أن الله قد علم ما فى صدورهم . إن الغيظ الذى فى قلوب هؤلاء الجاحدين الحاقدين قد نضح على ألسنتهم ، ولكن مَن الذى نقل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته ما فى صدور الكافرين مما هو أكثر من ذلك ؟

إنه الله - جلت قدرته - قد فضحهم بما أنزل من قوله تعالى : « وما تخفى صدورهم أكبر » إذن لم يعد لمن آمن بالله حجة ؛ لأن الله أعطاه المناعات القوية لصيانة ذلك الإيمان ، وأوضح الحق للمؤمنين أن أعداءهم لن يدخروا وسعا أبدا فى إفساد انتمائهم لهذا الدين ، فيجب أن ينتبه المؤمنون .

وإذا ما دققنا التأمل فى تذييل الآية نجد أن الحق قال : « قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون » إذن ، فالآيات المنزلة من الله تعالى توضح ذلك ، وقد قلنا من قبل: إن الآيات ، إما أن تكون آيات قرآنية ، وإما أن تكون آيات كونية ، فالقرآن له آيات ، والكون له آيات . ولنسمع قول الحق بالنسبة للقرآن :

﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَا ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾

(سورة النحل)

وفى مجال الكون يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ لَا تَسْجُدُواْ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾

(سورة فصلت)

وهكذا نعلم أن الآية هى الشىء العجيب اللافت الذى يجب أن ننتبه إليه لنأخذ منه دستورا لحياتنا . وعلى ذلك ، فالآيات القرآنية تعطى المنهج ، والآيات الكونية

تؤيد صدق الآيات المنهجية . ويجب أن تتفطنوا أيها المؤمنون إلى هذه الآيات . والذى يدل على أن المؤمنين قد عقلوا وتفطنوا ، أن الآية الأولى بينت أنهم قد نهوا عن أن يتخذوا بطانة من دونهم ـ أى من غير المؤمنين ـ وها هى ذى الآية التالية تقول :

﴿ هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۚ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ ﴾

ومازال الحديث والكلام عن البطانة ، وهويدل على أن البطانة لم تستطع أن تلوى المؤمنين عن الإيمان ، بل إن المؤمنين الذين ذاقوا حلاوة الإيمان حاولوا أن يغيروا من الكافرين . ولم يفلح الكافرون أن يغيروا من المؤمنين ، وكذلك لم يفلح الكافرون أيضا أن يسيطروا على أنفسهم ، ولم يكن أمام هؤلاء الكافرين إلا النفاق ، لذلك قالوا: « آمنا » . إن الآية تدلنا على أن المؤمنين قد عقلوا آيات الحق . ولماذا ـ إذن ـ جاء الحق بقوله : « تحبونهم ولا يحبونكم » ؟

لقد أحب المؤمنون الكافرين حين شرحوا لهم قضية الحق فى منهج الإسلام ، وأراد المؤمنون أن يجنبوا الكافرين متاعب الكفر فى الدنيا والآخرة ، وهذا هو الحب الحقيقى ، فهل بَادَلَهم الكافرون الحب ؟ لا ؛ لأن هؤلاء الكافرين أرادوا أخذ المؤمنين إلى الكفر ، وهذا دليل عدم المودة . ولم يستطع الكافرون تحقيق هذا المأرب ، ولذلك قالوا : « آمنا » ومعنى قولهم : « آمنا » يدلنا على أن موقف المسلمين كان موقفا صُلبا قويا ؛ لذلك لم يجد الكافرون بدًا من نفاقهم « وإذا لقوكم قالوا آمنا » قالوا ذلك على الرغم من ظهور البغضاء فى أفواههم ، ولم يكن سلوكهم مطابقا لما يقولون . وهنا بدأ المسلمون فى تحجيم وتقليل مودتهم للكافرين ؛ ولذلك

قال أهل الكفر : لو استمر الأمر هكذا فسوف يتركنا هؤلاء المسلمون . . وحتى يتجنبوا هذا الموقف ادعوا الإيمان فى الظاهر ، وينقلب موقفهم إذا خلوا لأنفسهم ، ويصور الحق هذا الموقف فى قوله : « وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ » فما هو العض ؟

إن العضّ لغويا ، هو التقاء الفكين على شيء ليقضماه . وما الأنامل ؟ إنها أطراف الأصابع ، والأنامل فيها شيء من الدقة ، وشيء من خفة الحركة المأخوذة من خلية النمل ، ويسمون الأنامل أيضا البنان ، وعملية عض الأنامل عندما نراها نجدها عملية انفعالية قسرية . أى أن الفكر لا يرتبها ؛ فليس هناك من يرضى أن يظل مرتكبا لعملية عض أصابعه ، فعض الأصبع يسبب الألم ، لكن الامتلاء بالغيظ يدفع الإنسان إلى عض الأصابع كمسألة قسرية نتيجة اضطراب وخلل فى الانفعال .

ومن أين يجىء الغيظ ؟.

لقد جاء الغيظ إلى الكافرين لأنهم لم يستطيعوا أن يزحزحوا المؤمنين قيد شعرة عن منهج الله ، بل حدث ما هو العكس ، لقد حاول المؤمنون أن يجذبوا الكافرين إلى نور الإيمان ، وكان الكافرون يريدون أن يصنعوا من أنفسهم بطانة يدخلون منها إلى المؤمنين لينشروا مفاسدهم ؛ ولذلك وقعوا فى الغيظ عندما لم يمكنهم المؤمنون من شيء من مرادهم .

إن الإنسان يقع أحيانا فريسة للغيظ حين لا يتمكن من إعلان غضبه على خصمه ؛ ولهذا إذا أراد إنسان من أهل الإيمان أن يواجه حسد واحد من خصومه فعليه أن يزيد فى فضله على هذا الإنسان ، وهنا يزداد هذا الخصم غيظا ومرارة ، أيضا نجد أن من تعاليم الإسلام أن الإنسان المؤمن لا يقابل السيئة التى يصنعها فيه آخر بسيئة ، وذلك حتى لا يرتكب الذنب نفسه ، ولكن يَتبع القول المأثور :

« إننا لا نكافىء من عصى الله فينا بأكثر من أن نطيع الله فيه »[1]

---

(١) هذا القول مسند إلى عبدالله بن مسعود رضى الله عنه عندما جاء رجل فقال له : إن لى جارا يؤذينى ويشتمنى ويضيق على فقال : « اذهب فإن هو عصى الله فيك فأطع الله فيه » من كتاب « إحياء علوم الدين » للإمام الغزالى - فصل حقوق الجوار .

إنهم بإحسان المسلمين إليهم يزدادون خصومة ، وغيظا وحقدا على الإسلام وكان المسلمون الأوائل يتصرفون بذلك الأسلوب لقد كانوا جبالا إيمانية راسخة .

فخصوم الإسلام يعصون الله بسوء معاملتهم للمسلمين ، لكنْ المسلمون يردون على سوء المعاملة بحسن المعاملة ، وساعة يرى خصوم الإسلام أن كيدهم لا يحقق هدفه فإنهم يقعون فى بئر وحمأة الغيظ . وعندما يخلو الكافرون لأنفسهم فأول أعمالهم هو عض الأصابع من الغيظ ، وهو كما أوضحت نتيجة الانفعال القسرى التابع للغضب والعجز عن تحقيق المآرب ؛ ذلك أن كل تأثير إدراكى فى النفس البشرية إنما يطرق مجالا وجدانيا فيها .

والمجال الوجدانى لابد أن يعبر عن نفسه بعملية نزوعية تظهر بالحركة ؛ فالإنسان عندما يسبب لواحد يعرفه لونا من الغضب فهو ينفعل بسرعة ويثور بالكلمات ، هذا دليل على طيبة الإنسان الغاضب . أمّا الذى لا يظهر انفعاله فيجب الحذر منه ؛ لأنه يخزن انفعالاته ، ويسيطر عليها ، فلا تعرف متى تظهر ولا على أية صورة تبدو ؛ ولذلك يقول الأثر : « اتقوا غيظ الحليم » فعندما تتجمع انفعالات جديدة فوق انفعالات قديمة متراكمة فى قلب الحليم فلا أحد يعرف متى يفيض به الكيل .

إذن فالإدراك ينشأ عنه وجدان ، فينفعل الإنسان بالنزوع الحركى . والتشريع الإسلامى لا يريد من الإنسان أن يكون حجرا أصم لا ينفعل ، لكنه يطلب من المسلم أن ينفعل انفعالا مهذبا ؛ ولذلك يضع الحق للمؤمن منهجا ، فيقول سبحانه :

﴿ وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾

(من الآية ١٣٤ سورة آل عمران)

إن القرآن يعترف بأن هناك من الأحداث ما يستدعى غيظ الإنسان ، والذى لا يغضب على الإطلاق إنما يسلك طريقا لا يتوافق مع طبيعة البشر السوية ، والله يريد من الإنسان أن يكون إنساناً ، له عواطفه وشعوره وانفعالاته ، ولكن الله المربى الحق يهذب انفعالات هذا الإنسان ، ولنا فى النبى صلى الله عليه وسلم القدوة

الحسنة ، فحين مات ولده إبراهيم :

قال عليه الصلاة والسلام : « إن العين تدمع والقلب يحزن ولا نقول إلا ما يرضى ربنا ، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون »[1] .

إن النبى صلى الله عليه وسلم يمزج بين العاطفة والإيمان ، فالعين تدمع ، والقلب يحزن ، والإنسان لا يكون أصمَّ أمام الأحداث ، إنما على الإنسان أن يكون منفعلا انفعالا مهذبا .

وعندما يعبِّر القرآن عن الإنسان السوىّ فهو لا يضع المؤمن فى قالب حديدى بحيث لا يستطيع أن يتغير فيقول سبحانه :

﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾

(من الآية ٥٤ سورة المائدة)

إذن فليس المؤمن مطبوعا على الذلة ، ولا مطبوعا على العزة ، لكنه ينفعل للمواقف المختلفة ، فهذا موقف يتطلب ذلة وتواضعا للمؤمنين فيكون المؤمن ذليلا ، وهناك موقف آخر يتطلب عزة على الكافرين المتكبرين فيكون المؤمن عزيزا ، والحق سبحانه يقول عن المؤمنين :

﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ﴾

(من الآية من سورة الفتح)

إن الرحمة ليست خلقا ثابتا ، ولا الشدة خلقا ثابتا ولكنَّ المؤمنين ينفعلون للأحداث ، فحين يكون المؤمن مع المؤمنين فهو رحيم ، وحين يكون فى مواجهة الكفار فهو قوى وشديد . والله سبحانه لا يريد المؤمن على قالب واحد متجمد ،

(١) رواه البخارى فى الجنائز ومسلم فى الفضائل ، وابن ماجه فى الجنائز ورواه أحمد فى المسند .

لذلك يقول الحق :

﴿ وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾

(من الآية ١٣٤ سورة آل عمران)

وهو سبحانه القائل :

﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ﴾

(من الآية ١٢٦ سورة النحل)

إذن فالحق لم يمنع المؤمن من أن يعاقب أحدا على خطأ ، وذلك لأنه خلق الخلق وعليم بهم ، ولا يمكن أن يصادم طباعهم ، وذلك حتى لا يتهدد المؤمن فى إيمانه فيما بعد ، فالمؤمن لو ترك حقوقه فإن الكفار سيصولون ويجولون فى حقوق المسلمين ؛ ولهذا فالمؤمن يتدرب على توقيع العقاب حتى على المؤمن المخطئ ، وذلك ليعرف المؤمن كيف يعاقب أى مجترىء على حق من حقوق الله . والمؤمن أيضا مطالب بأن يرتقى بعقابه ، فهو إما أن يعاقب بمثل ما عوقب به ، وإما أن يرتقى أكثر ، ويستمع لقول الحق :

﴿ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ ﴾

(من الآية ١٢٦ سورة النحل)

لقد وضع الحق منهج الارتقاء بعد أن أعطى المؤمن الحق فى توقيع العقاب قصاصا ، وهكذا لم يقسر الله طبع الإنسان ولو أراد سبحانه ذلك لما خلق هذا الطبع إنه سبحانه يوضح لنا أن هناك انفعالا بالغيظ ، وأن المؤمن عليه أن يحاول كظم الغيظ أى لا يعبر عن الغيظ نزوعيا ، فإن أخرج المؤمن هذا الأمر من قلبه فمعناه أنه قد برىء وشُفِىَ منه وارتقى .

إذن فكظم الغيظ هو ألا يعبر المؤمن عن الغيظ نزوعيا ، فإن سبّكَ أحدٌ فأنت لا تسبّه ، وهذا الكظم يعنى كتمان الانفعال فى القلب ، فإذا ارتقى المؤمن أكثر وتجاهل حتى الانفعال بذلك ، فإنه يُخرج الغيظ من قلبه ، وهو بذلك يرتقى ارتقاء

أعلى ، ويصفه الحق بأنه دخول إلى مرتبة الإحسان ، فهو القائل : « والله يحب المحسنين » وهكذا يحسن المؤمن إلى المسبب للغيظ بكلمة طيبة .

فماذا يكون موقف الذى تسبب فى غيظك أيها المؤمن وأنت قد كظمت الغيظ فى المرحلة الأولى وعفوت فى المرحلة الثانية وإن أخرجت الانفعال من قلبك ، وصلت إلى المرحلة الثالثة وهى التى تمثل قمة الإيمان إنها الإحسان . . « والله يحب المحسنين » لابد أن يراجع المسبب للغيظ نفسه ويندم على ما فعل .

إن الإسلام لم يتجاهل المشاعر الإنسانية عندما طالب المؤمنين أن يحسنوا لمن أساء إليهم ، فالذى يمعن النظر ويدقق الفهم يعرف أن الإسلام قد أعطى المؤمن الحق فى الطبع البشرى حين قال : « وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به » ولكنه ارتقى بالمؤمن . وعندما ننظر إلى هذا الأمر كقضية اقتصادية وتحسبها بـ« منه » و« له » فسنجد أنّ المؤمن قد كسب . . ومثال ذلك ـ ولله المثل الأعلى ـ ساعة يجد الأب ابنا من أبنائه قام بظلم أخ له فإن قلب الأب يكون مع المظلوم . فهب أن إنسانا أساء لعبد من عباد الله فإن الله كربّ مربٍّ يغار له ونحن نعرف أن واحدا قال لعارف بالله :

أتحسن لمن أساء إليك ؟ فقال العارف بالله : أفلا أحسن لمن جعل الله فى جانبى ؟

ولنعد الآن إلى غيظ الكافرين من المؤمنين ، إن غيظ الكافر ناتج من أن خصمه المؤمن يحب له الإيمان وليس فى قلبه ضغينة بينما الكافر يغلى منِ الحقد ، وبسبب هذا الأمر يكاد يفقد صوابه ؛ لذلك يقول الحق : « وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ » .

و« خلوا » المقصود بها . أن الكافرين إذا ما أصبحوا فى مجتمع كفرى وليس معهم مسلم أعلنوا الغيظ من المؤمنين ، ولقد فعلوا هذا الأمر ـ عض الأنامل من الغيظ ـ فى غيبة الإيمان والمؤمنين بالله ، لو كان عند هؤلاء الكافرين ذرة من تعقل لفكروا كيف فضحهم القرآن ، وهم الذين ارتكبوا هذا الفعل بعيدا عن المؤمنين ؟

ألم يكن لتفكيرهم أن يصل إلى أن هناك ربًّا للمؤمنين يقول الخافيَ من الأمور لرسوله ، ويبلغها الرسول للمؤمنين .

لكنهم مع ذلك لم يفهموا هذا الفضح لهم « وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ » وهنا ينبغي أنْ نفهم أنَّ هناك أمرًا قد يغيظ ، ولكن الإنسان قد يجبن أن ينفث غيظه ، فإذا غاظك أحد فقد تذهب إليه وتنفعل عليه ، أو قد تنفعل على نفسك وذلك هو ما يسمى بـ « تحويل النزوع » . فالغاضب يمتلىء بطاقة غضبية ، ومن يغضب عليه قد يكون قويا وصاحب نفوذ ، فيخاف أن ينفعل عليه ، فينفث الغاضب طاقة غضبه على نفسه بأن يعض على أنامله ، ومادامت المسألة هكذا ، فقد قال الحق :

﴿ قُلْ مُوتُوا۟ بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾

(من الآية ١١٩ سورة آل عمران)

ومعنى ذلك أن إغاظة المؤمنين لكم أيها الكافرون ستستمر إلى أن تموتوا من الغيظ ؛ لذلك فلا طائل من محاولتكم جذب المؤمنين إلى الكفر : « قل موتوا بغيظكم » .

ونحن قد عرفنا أنه ساعة يؤمر الإنسان بشيء ليس فى اختياره ـ لأن الموت ليس فى اختيارهم ـ وأن يختار بينه وبين شيء فى اختياره كالغيظ ، فمعنى ذلك أن الأمر قد صدر إليه ليظل أسير الأمر الذى يقدر عليه وهو الغيظ حتى يدركه الموت .

وعندما يقول الحق : « موتوا بغيظكم » فهذا يعنى أن الكافرين لن يستطيعوا الموت ، ولكن سيظلون فى حالة الغيظ إلى أن يموتوا ؛ لأنهم لا يعرفون متى يموتون ، وهكذا يظلون على حالهم من الغيظ من المؤمنين ، ومادام الكافرون فى حالة غيظ من المؤمنين فهذا دليل على أن المؤمنين يطبقون منهجهم بأسلوب صحيح .

وفى هذه الآية بشارة طيبة للمؤمنين ونذارة مؤلمة للكافرين « قل موتوا بغيظكم إن الله عليم بذات الصدور » إن الحق يعلمنا أنه عليم بذات الصدور ، أى بالأمور التى

تطرأ على الفكر ، ولم تخرج بعد إلى مجال القول . وهو سبحانه القائل :

﴿ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ﴾

(من الآية ١١٨ سورة آل عمران)

ومادام هو الحق العليم بما تخفى الصدور فهو قادر ليس فقط على الجزاء بما يفعلونه من عمل نزوعى ولكنه قادر على أن يجازيهم أيضا بأن يفضح الأعمال غير النزوعية الكامنة فى صدورهم ، وبعد ذلك يقول سبحانه :

﴿ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾ ﴾

والقرآن كلام الله وله ـ سبحانه ـ الطلاقة التامة والغنى الكامل ، والعبارات فى المعنى الواحد قد تختلف لأن كل مقام له قوله ، وسبحانه يحدد بدقة متناهية اللفظ المناسب . . إنه هو سبحانه الذى قال :

﴿ إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا الْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾

(سورة المعارج)

وهو سبحانه الذى قال :

﴿ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾ ﴾

(سورة النساء)

إنه جل وعلا يتكلم عن المس فى الشر والخير ، ومرة يتكلم عما يحدث للإنسان كإصابة فى الخير أو فى الشر ، وفى الآية التى نحن بصدد الخواطر عنها تجد خلافا فى الأسلوب فسبحانه يقول : « إن تمسسكم حسنة تسؤهم وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها » إنه لم يورد الأمر كله مَسًّا ، ولم يورده كله « إصابة » إنه كلام رب حكيم وعندما نتمعن فى المعنى فإن الواحد منا يقول : هذا كلام لا يقوله إلا رب حكيم .

ولنتعرف الآن على « المس » و« الإصابة » بعض العلماء قال : إن المس والإصابة بمعنى واحد ، بدليل قوله الحق :

﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ ﴾

(سورة المعارج)

ولكننا نقول إن المس هو إيجاد صلة بين الماس والممسوس ، فإذا مس الرجل امرأته ، فنحن نأمره بالوضوء فقط ، لأنه مجرد التقاء الماس بالممسوس ، والأمر ليس أكثر من التقاء لا تحدث به الجنابة فلا حاجة للغسل ، أما الإصابة فهى التقاء وزيادة ؛ فالذى يضرب واحدا صفعة فإنه قد يورم صدغه ، فالكف يلتقى بالخد ، ويصيب الصدغ ، وهكذا نعرف أن هناك فرقا بين المس والإصابة ، وحين يقول الحق : « إن تمسسكم حسنة تسؤهم » .

فمعنى ذلك أن الحسنة الواقعة بسيطة ، وليست كبيرة إنها مجرد غنيمة أو قليل من الخير . . وفى حياتنا اليومية نجد من يمتلىء غيظا لأن خصمه قد كسب عشرة قروش ، وقد يجد من يقول له : لماذا لا تدخر غيظك إلى أن يكسب مائة جنيه مثلا ؟ ومثل هذا الغيظ من الحسنة الصغيرة هو دليل على أن أى خير يأتى للمؤمنين إنما يسبب

التعب والكدر للكافرين . فمجرد مس الخير للمؤمنين يتعب الكافرين فماذا عن أمر السيئة ؟

إن الحق يقول : « وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها » إن الكافرين يفرحون لأى سوء يصيب المؤمنين مع أنه كان مقتضى الإنسانية أن ينقلب الحاسد راحما :

وحسبك من حادث بامرىء
ترى حاسديه له راحمينا

يعنى حسبك من حادث ومصيبة تقع على إنسان أن الذى كان يحسده ينقلب راحما له ويقول : والله أنا حزنت من أجله .

إذن فلمّا تشتد إصابة المؤمنين أكانت تغير من موقف الكافرين ؟ . لا ، كان أهل الكفر يفرحون فى أهل الإيمان ، وإذا جاء خير أى خير للمؤمنين يحزنون فالحق يقول : « أن تمسسكم حسنة تسؤهم » والحسنة هى أى خير يمسهم مساً خفيفاً ، « وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئا » ، فأنت مهما كادوا لك فلن يصيبوك بأذى .

إن المطلوب منك أن تصبر على عداوتهم ، وتصبر على شرّهم ، وتصبر على فرحهم فى المصائب ، وتصبر على حزنهم من النعمة تصيبك أو تمسك ، اصبر فيكون عندك مناعة ؛ وكيدهم لن ينال منك . اصبر واتق الله : لتضمن أن يكون الله فى جانبك ، « وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً » .
وما الكيد ؟ الكيد هو أن تبيت وتحتال على إيقاع الضرر بالغير بحيث يبدو أنه كيدٌ من غيرك ، أى تدبر لغيرك لتضره . وأصل الكيد مأخوذ من الكيد والكبد ، وهما بمعنى واحد ، فما يصيب الكبد يؤلم ؛ لأن الكبد هو البضع القوى فى الإنسان ، إذا أصابه شىء أعيى الإنسان وأعجزه ، ويقولون : فلان أصاب كبد الحقيقة أى توصل إلى نقطة القوة فى الموضوع الذى يحكى عنه .

وما معنى يبيتون ؟ قالوا : إن التبييت ليس دليل الشجاعة ، وساعة ترى واحداً

يبيت ويمكر فاعرف أنه جبان ؛ لأن الشجاع لا يكيد ولا يمكر ، إنما يمكر ويكيد الضعيف الذى لا يقدر على المواجهة ، فإن تصبروا على مقتضيات عداواتهم وتتقوا الله لا يضركم كيدهم شيئا ؛ لأن الله يكون معكم .

ويذيل الحق الآية بالقول الكريم : « إن الله بما يعملون محيط » . وساعة ترى كلمة « محيط » فهذا يدلك على أنه عالم بكل شيء . والإحاطة : تعنى ألا تشرد حاجة منه . وها هى ذى تجربة واقعية فى تاريخ الإسلام ؛ يقول الحق فيها مؤكدا : « وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً إن الله بما يعملون محيط » وعلى كل منا أن يذكر صدق هذه القضية .

﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَـٰعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝١٢١ ﴾

إنه فى هذه المرة ـ فى غزوة أحد ـ جاء الكفار بثلاثة آلاف وكان المسلمون قلة ، سبعمائة مقاتل فقط ، وحتى يبين الحق صدق قضاياه فى قوله : « وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئا » وليس المقصود هنا الكيد التبييتى بل عملهم العلنى ، أى واذكر صدق هذه القضية :

« وإذْ غدوت من أهلك » ، والغدوة هى : أول النهار ، والرواح : آخر النهار ، والأهل : تطلق ويراد بها الزوجة ، والمقصود هنا حجرة عائشة ؛ لأن الرسول كان فيها فى هذا الوقت الذى أراد فيه كفار قريش أن يثأروا لأنفسهم من قتلى بدر وأسراهم ، لقد جمعوا حشودهم ، فكل موتور من معركة بدر كان له فرسان وله رجال ، حتى أنهم بعد معركة بدر قال زعيمهم أبو سفيان لأصحابه : قل للنساء لا تبكين قتلاكم فإن البكاء يذهب الحزن ، فالدموع يسمونها غسيل الحزن ، أو ذوب المواجيد ، فساعة يبكى إنسان حزين يقول من حوله : دعوه يرتاح .

فلو حزنت النساء وبكين على قتلى بدر لهبطت جذوة الانتقام ؛ لذلك قال أبو سفيان : قل لهن لا يبكين . إنه يريد أن يظل الغيظ فى مسألة بدر موجوداً إلى أن يأخذوا الثأر . وفعلاً اجتمع معسكر الكفر فى ثلاثة آلاف مقاتل عند أحد ، وبعد ذلك استشار النبى صلى الله عليه وسلم فى هذه المسألة أصحابه وأرسل إلى واحد من أكبر المنافقين هو عبدالله بن أبى بن سلول ، وما استدعاه إلا فى هذه المعركة ، فقال عبدالله بن أبى بن سلول وأكثر الأنصار :

يا رسول الله نحن لم نخرج إلى عدو خارج المدينة إلا نال منا ، ولم يدخل علينا عدو إلا نلنا منه ، فإنا نرى ألا تخرج إليهم فإن أقاموا أقاموا بشر محبس ، وإن دخلوها قاتلهم الرجال فى وجوههم ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من فوقهم ، وإن رجعوا رجعوا خائبين وأشار آخرون من الصحابة بالخروج إليهم ، وقالوا :

« يارسول الله اخرج بنا إلى أعدائنا لا يرون أنا جَبُنا عنهم وضعفنا ، ولم يترك أصحاب هذا الرأى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى وافقهم على ما أرادوا »

فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم بيته فلبس درعه وأخذ سلاحه ، وظن الذين ألحوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالخروج أنهم قد استكرهوه على ما لا يريد فندموا على ما كان منهم ، ولما خرج عليهم قالوا : استكرهناك يا رسول الله ولم يكن لنا ذلك ، فإن شئت فاقعد ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« ما ينبغى لنبى لبس لأْمَتَهُ أن يضعها حتى يقاتل »[1].

وخرجوا إلى الحرب ، وهذا هو الذى يُذَكِّرُ به القرآن صدقا للقضية التى جاءت فى الآية السابقة : « وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً إن الله بما يعملون محيط » .

---

(١) رواه ابن إسحاق والإمام أحمد ورواه الطبرانى بنحوه ، واللأمة : هى الدرع .

اذكر يا محمد :

﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ ﴾

(الآية ١٢١ سورة آل عمران)

« تبوىء المؤمنين مقاعد للقتال » أى توطن المؤمنين فى أماكن للقتال ، وبوأت فلانا يعنى : وطنته فى مكان يبوء إليه أى يرجع ، واسمه وطن ؛ لأن الوطن يرجع إليه الإنسان .

انظر إلى الدقة الأدائية لقول الحق : « وإذ غدوت من أهلك تبوىء المؤمنين مقاعد للقتال » أى تجعل لهم مباءة ووطنا . وكلمة « مقاعد » أى أماكن للثبات ، والحرب كرّ وفرّ وقيام ، والذى يحارب يثبته الله فى المعركة ، فكأنه مُوَطَّنٌ فى الميدان ، فكأن أمر الرسول إلى المقاتلين يتضمن ألا يلتفت أى منهم إلى موطن آخر غير موطنه الذى ثبّته وبوّأته فيه أى إن هذا هو وطنك الآن ؛ لأن مضيرك الإيمانى سيكون رهناً به .

إذن فقوله : « وإذْ غدوت من أهلك تبوىء » أى توطن « المؤمنين » وتقول لهم : إن وطنكم هو مقاعدكم التى ثبتكم بها . ورسول الله صلى الله عليه وسلم جاء بالرماة ؛ وأمّر عليهم « عبدالله بن جبير » وهم يومئذ خمسون رجلا وقال رسول الله لهم :

« قوموا على مصافكم هذه فاحموا ظهورنا فإن رأيتمونا قد انتصرنا فلا تشركونا ، وإن رأيتمونا نقتل فلا تنصرونا »[1] .

لكنهم لم يقدروا على هذه لأن نفوسهم مالت إلى الغنيمة ؛ وشاء الله أن يجعل التجربة فى محضر من رسوله صلى الله عليه وسلم : حتى يبين للمؤمنين فى كل المعارك التى تلى ذلك أن اتباع أمر القائد يجب أن يكون هو الأساس فى عملية الجندية . وإنكم إن خالفتم الرسول فلا بد أن تنهزموا .

---

(١) رواه ابن سعد وابن هشام والبخارى بنحوه .

وقد يقول قائل : الإسلام انهزم فى أُحد . ونقول : لا ، إن الإسلام انتصر.ولو أن المسلمين انتصروا فى « أحد » مع مخالفة الرماة لأمر النبى صلى الله عليه وسلم ، أكان يستقيم لرسول الله أمر ؟

إذن فقد انهزم المسلمون الذين لم ينفذوا الأمر ، وكان لابد أن يعيشوا التجربة وهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم . فحينما هبت ريح النصر على المؤمنين فى أول المعركة ، ابتدأ المقاتلون فى الانشغال بالأسلاب والغنائم ، فقال الرماة : سيأخذ الأسلاب غيرنا ويتركوننا ونزلوا ليأخذوا الغنائم ، فانتهز خالد بن الوليد وكان على دين قومه انتهز الفرصة وطوقهم وحدث ما حدث وأذيع وفشا فى الناس خبر قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم فانكفأوا وانهزموا فجعل رسول الله يدعو ويقول : « إلىّ عباد الله » حتى انحازت إليه طائفة من أصحابه فلامهم على هربهم فقالوا : يا رسول الله : فديناك بآبائنا وأمهاتنا ، أتانا خبر قتلك فرعبت قلوبنا فولينا مدبرين

إن التحقيق التاريخى لمعركة أُحد قد أكد أن المسألة لا تُعتبر هزيمة ولا انتصاراً ؛ لأن المعركة كانت لاتزال مائعة . وبعدها دعا الرسول من كان معه فى غزوة أحد إلى الخروج فى طلب العدو ، وأدركوهم فى حمراء الأسد وفَرَّ الكافرون . إنّ الله أراد أن يعطى المؤمنين درساً فى التزام أمر الرسول صلى الله عليه وسلم ، وقال الحق : « وإذ غدوت من أهلك تبوىء المؤمنين مقاعد للقتال » .

إن الحق يذكر بمسئوليات القائد ، الذى يوزع المهام ، فهذا جناح أيمن وذاك جناح أيسر ، وهذا مقدمة وهذا مؤخرة . ويذيل الحق هذا بقوله : « والله سميع عليم » حتى يعرف المؤمنون أنه سبحانه قد شهد أن رسوله قد بوأ المؤمنين مقاعد القتال ، وسبحانه « عليم » بما يكون فى النيات ؛ لأن المسألة فى الحرب دفاع عن الإيمان وليست انقياد قوالب ، ولكنها انقياد قلوب قبل انقياد القوالب .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ

﴿ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾

والفشل هو الجبن ، والطائفتان هما « بنو حارثة » من الأوس ، « وبنو سلمة » من الخزرج ، وهؤلاء كانوا الجناح اليمين والجناح اليسار ، فجاءوا فى الطريق إلى المعركة ، وسمعوا كلام المنافق ابن سلول ، إذ قال لهم : لن يحدث قتال ؛ لأنه بمجرد أن يرانا مقاتلو قريش سيهربون .

وقال ابن سلول المنافق للرسول : لو نعلم قتالاً لاتبعناكم . إلا أن عبدالله ابن حارثة قال : أنشدكم الله وأنشدكم رسول الله وأنشدكم دينكم . فساروا إلى القتال وثبتوا بعد أن همّوا فى التراجع .

وما معنى « الهمّ » هنا ؟ إن الهم هو تحرك الخاطر نحو عملية ما ، وهذا الخاطر يصير فى مرحلة ثانية قصداً وعزماً ، إذن فالذى حدث منهم هو مجرد هَمّ بخاطر الانسحاب ، لكنهم ثبتوا .

ولماذا ذلك ؟ لقد أراد الله بهذا أن يُثبت أن الإسلام منطقى فى نظرته إلى الإنسان ، فالإنسان تأتيه خواطر كثيرة . لذلك يورد الحق هذه المسألة ليعطينا العلاج . فقال : « إذ همّت طائفتان منكم أن تفشلا » .

وقد قال واحد من الطائفتين : والله ما يسرنى أنى لم أهم ـ أى لقد انشرح قلبى لأنى هممت ـ لأنى ضمنت أنى من الذين قال الله فيهم : « والله وليهما » ، وحسبى ولاية الله . لقد فرح لأنه أخذ الوسام ، وهو ولاية الله .

وهكذا نلتقط العبر الموحية من الآيات الكريمات حول غزوة أُحُد ، ونحن نعلم أن هذه الغزوة كانت الغزوة التالية لغزوة بدر الكبرى . وغزوة بدر الكبرى انتهت بنصر المسلمين وهم قلة فى العدد والعُدة ، ففى بدر لم يذهب المسلمون إلى

المعركة ليشهدوا حرباً ، وإنما ليصادروا أموال قريش فى العِير تعويضاً لأموالهم التى تركوها فى مكة . ومع ذلك شاء الله ألاّ يواجهوا العِير المحملة ، ولكن ليواجهوا الفئة ذات الشوكة ، وجاء النصر لهم .

ولكن هذا النصر ، وإن يكن قد ربّى المهابة للمسلمين فى قلوب خصومهم ، فإنه قد جمّع همم أعداء الإسلام ليتجمعوا لتسديد ضربة يردون بها اعتبار الكفر ؛ ولذلك رأينا رءوس قريش وقد منعت نساءها أن يبكين على قتلاهم ؛ لأن البكاء يُريح النفس المتعبة ، وهم يُريدون أن يظل الحزن مكبوتاً ليصنع مواجيد حقدية تحرك النفس البشرية للأخذ بثأر هؤلاء ، هذا من ناحية العاطفة التى يحبون أن تظل مؤججة ، ومن ناحية المال فإنهم احتفظوا بمال العِير الذى نجا ليكون وسيلة لتدبير معركة يردون فيها اعتبارهم .

وقد حاولوا قبل أُحُد أن يفعلوا شيئاً ، ولكنهم كانوا يُرَدّون على أعقابهم . فمثلاً قاد أبو سفيان حملة مكونة من مائة ، وأراد أن يهاجم بها المدينة فلما نمى خبرها إلى سيدنا رسول الله نهض بصحابته إليهم ، فبلغ أبا سفيان خروج رسول الله ، ففرّ هارباً وألقى ما عنده من مؤنة فى الطريق ليخفف الحمل على الدواب لتسرع فى الحركة ، ولذلك يسمونها « غزوة السويق » لأنهم تركوا طعامهم من السويق . كَما حاول بعض الكفار أن يُغيروا على المدينة بعد ذلك أكثر من مرة ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يذهب إليهم على رأس مقاتلين ، فمرة عددهم مائة ومرة مائة وخمسون ومرة مائتان ، وفعلاً شتت الرسول صلى الله عليه وسلم شملهم . وكان من خطته صلى الله عليه وسلم حين يذهب إلى قوم كان يبلغه أنهم يُريدون أن يتآمروا لغزو المدينة أن يظل فى بلدهم وفى معسكرهم وقتا ليس بالقليل .

كل ذلك سبق غزوة أُحُد . وبعد ذلك تجمعوا ليجيئوا لغزوة أُحُد ، وكان ما كان ، والآيات التى تعالج هذه الغزوة فيها إيحاءات بما جاء فى المعركة ، فالرسول صلى الله عليه وسلم بوأ للمقاتلين مقاعد للقتال ، وأمرهم بالثبات فى تلك المواقع لكن بعضا من المقاتلين ترك مكانه ، والبعض الآخر همّ بالانسحاب ، لكنه ثبت أخيراً ، وفرّ كفار قريش . وقد تجلت فى هذه المعركة آيات الله الكبيرة .

فحين نصر الله سبحانه وتعالى المسلمين « ببدر » وهم قلة ، لم يخرجوا لمعركة وإنما خرجوا لمصادرة عير . وربما ظن أناس أنهم بمجرد نسبتهم إلى الله وإلى الإسلام سينصرون على هذه الوتيرة ، ويتركون الأسباب فأراد الله أن يعلمهم أنه لابد من استنفاد الأسباب ، إعداداً لعدة ولعدد ، وطاعة لتوجيه قائد .

فلما خالفوا كان ولابد أن يكون ما كان . والمخالفة لم تنشأ إلا بعد استهلال بالنصر ، ولذلك سيجيء فيما بعد ستون آية حول هذه الغزوة ؛ لتبين لنا مناط العبرة في كل أطوارها لنستخرج منها العظة والدرس . ونعلم أن المنتصرين عادة يكون الجو معهم رخاءً . ولكن الكلام هنا عن هزيمة من لا يأخذون بأسباب الله ، وهذا أمر يحتاج إلى وقفة ، فجاء القرآن هنا ليقص علينا طرفاً من الغزوة لنستخرج منها العبرة والعظة ، العبرة الأولى :

أنهم حينما خرجوا ، تخلف المنافقون بقيادة ابن أبيّ ، إذن فالمعركة إنما جاءت لتمحص المؤمنين . والتمحيص يأتي في الشيء الواحد ، أما التمييز فيأتي في شيئين : هذا مؤمن ، وهذا كافر ، إنما التمحيص يأتي للمؤمن ويعركه عركا ، ويبين منه مقدار ما هو عليه من الثبات ومن اليقين ، والحق إنما يمحص الفئة المؤمنة لأنها ستكون مأمونة في التاريخ كله إلى أن تقوم الساعة على حماية هذه العقيدة ، فلا يمكن أن يتولى هذا الأمر إلا أناس لهم قلوب ثابتة ، وجأش قوى عند الشدائد ، وهمة دونها زخارف الدنيا كلها .

وبعد ذلك يعالج النفس البشرية في أوضاعها البشرية ، فعقائد الإيمان لا تنصب في قلوب المسلمين بمجرد إعلان الإيمان ، ولكن كل مناسبة تعطى دفعة من العقيدة يتكون بعد ذلك الأمر العقدى كله . ولذلك يبين لنا الحق أن طائفتين من المؤمنين قد همت بالتراجع ، فهم نفوس بشرية ، ولكن أنفذت الطائفتان ذلك الهم أم رجعت وفاءت إلى أمر الله ؟ لقد رجعت الطائفتان . وهكذا رأينا بين الذين أعلنوا إيمانهم فئة نكصت من أول الأمر ، وفئة خرجت ثم عادت .

لقد تحدثت النفوس ولكن أفراد تلك الفئة لم يقفوا عند حديث النفس بل ثبتوا إلى نهاية الأمر ، ومنهم من ثبت إلى الغاية السطحية من الأمر كالرماة الذين رأوا النصر أولا ، وهؤلاء من الذين ثبتوا ، ما فرّوا أولاً مع ابن أبيّ ، وما كانوا من الطائفة التي

همت ، ولكنهم كانوا من الذين ثبتوا . لكنهم عند بريق النصر الأول اشتاقوا للغنائم ، وخالفوا أمر الرسول ، ولنقرأ قوله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (١٥٢) ﴾

(سورة آل عمران)

وبعد ذلك تأتى لقطة أخرى وهى ألا نفتن فى أحد من البشر ، فخالد بن الوليد بطل معسكر الكفر فى أُحد ، وهو الذى استغل فرصة نزول الرماة عن أماكنهم ، وبعد ذلك طوق جيش المؤمنين ، وكان ما كان ، من خالد قبل أن يسلم ، ألم يكن فى غزوة الخندق ؟ لقد كان فى غزوة الخندق . وكان فى غزوات كثيرة غيرها مع جند الشرك ، فأين كانت عبقريته فى هذه الغزوات ؟..

إن عبقرية البشر تتصارع مع عبقرية البشر ، ولكن لا توجد عبقرية بشرية تستطيع أن تصادر ترتيباً ربانياً ، ولذلك لم يظهر دور خالد فى معركة الخندق ، لقد ظهر دوره فى معركة أُحد ؛ لأن المقابلين لخالد خالفوا أمر القيادة فبقيت عبقرية بشر لعبقرية بشر ، ولكنهم لو ظلوا فى حضن المنهج الإلهى فى التوجيه لما استطاعت عبقرية خالد أن تطفو على تدبيرات ربه أبداً .

والتحقيق التاريخى لكل العسكريين الذين درسوا معركة أُحد قالوا : لا هزيمة للمسلمين ولا انتصار للكفار ؛ لأن النصر يقتضى أن يُجلى فريق فريقاً عن أرض المعركة ، ويظل الفريق الغالب فى أرض المعركة . فهل قريش ظلت فى أرض المعركة أو فرّت ؟ لقد فرّت قريش .

ويُفسر النصر أيضاً بأن يؤسر عدد من الطائفة المقابلة ، فهل أسرت قريش واحداً من المسلمين ؟ لا . ولقد علموا أن المدينة خالية من المؤمنين جميعاً وليس فيها إلا من تخلف من المنافقين والضعاف من النساء والأطفال ، ولم يؤهلهم فوزهم السطحى لأن

يدخلوا المدينة .

إذن فلا أسروا ، ولا أخذوا غنيمة ، ولا دخلوا المدينة ، ولا ظلوا فى أرض المعركة ، فكيف تسمى هذا نصراً ؟ فلنقل:إن المعركة ماعت . وظل المسلمون فى أرض المعركة .

وهنا تتجلّى البطولة الحقة ؛ لأننا كما قلنا فى حالة النصر يكون الأمر رخاء ، حتى من لم يُبْلِ فى المعركة بلاءً حسناً ينتهز فرصة النصر ويصول ويجول ، ولكن المهزومين والذين أصيب قائدهم صلى الله عليه وسلم ، وضعف أن يصعد الجبل ، حتى أن طلحة بن عبيد الله يطأطىء ظهره لرسول الله ليمتطيه فيصعد على الصخرة . ورسول الله يسيل منه الدم بعد أن كسرت رباعيته وتأتى حلقتان من حلق المغفر فى وجنته ، بعد هذا ماذا يكون الأمر ؟ حتى لقد أرجف المرجفون وقالوا : إن رسول الله قد قُتل .

وكل هذا هو من التمحيص ، فمن يثبت مع هذا ، فهو الذى يؤتمن أن يحمل السلاح لنصرة كلمة الله إلى أن تقوم الساعة . ويتفقد رسول الله صلى الله عليه وسلم بطلاً من أبطال المسلمين كان حوله فلا يجده ، إنه « سعد بن الربيع » .

يقول عليه الصلاة والسلام : « مَن رجل ينظر لى ما فعل سعد بن الربيع ؟ أفى الأحياء هو أم فى الأموات ؟ فقال رجل من الأنصار هو أُبىُّ بن كعب : فذهبت لأتحسسه ، فرأيته وقد طُعن سبعين طعنة ما بين ضربة سيف وطعنة رمح ورمية قوس . فلما رآه قال له : رسول الله يقرئك السلام ، ويقول لك : كيف تجدك ـ أى كيف حالك ـ ؟

قال سعد ابن الربيع : قل لرسول الله صلى الله عليه وسلم : جزاك الله عنَّا خير ما جزى نبيا عن أمته ، وقل للأنصار ليس لكم عند الله عُذر إن خَلص إلى رسول الله وفيكم عين تطرف . ثم فاضت روحه .

انظروا آخر ما كان منه ، حين أُثخن فى المعركة فلم يقو على أن يحارب

بنصاله[1] ، انتهز بقية الحياة ليحارب بمقاله ، ولتصير كلماته دوياً فى آذان المسلمين . وليعلم أن هؤلاء الذين أثخنوه جراحاً ما صنعوا فيه إلا أن قربوه إلى لقاء ربه ، وأنه ذاهب إلى الجنة . وتلك هى الغاية التى يرجوها كل مؤمن .

ونجد أيضاً أن الذين يعذرهمّ القرآن فى أن يشهدوا معارك الحرب ، يتطوعون للمعارك ! فمثلا عمرو بن الجموح ؛ كان أعرج ، والعرج عذر أقامه الله مع المرض والعمى ؛ لأنه سبحانه هو القائل :

﴿ لَيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ﴾

(من الآية ٦١ سورة النور)

وكان لعمرو بن الجموح بنون أربعة مثل الأسْد قد ذهبوا إلى المعركة ، ومع ذلك يطلب من رسول الله أن يذهب إلى المعركة ويقول له : يا رسول الله إن بَنِىّ يريدون أن يحبسونى عن هذا الوجه والخروج معك فيه ، فوالله إنى لأرجو أن أطأ بعرجتى هذه فى الجنة .

فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : أمّا أنت فقد عذرك الله فلا جهاد عليك . وقال لبنيه : ما عليكم ألاّ تمنعوه ، لعل الله أن يرزقه الشهادة ، فخرج معه فقتل .

وهذا مؤمن آخر يقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم : يا رسول الله إن ابنى الذى استشهد ببدر رأيته فى الرؤيا يقول لى : « يا أبت أقبل علينا » فأرجو أن تأذن لى بالقتال فى « أُحد » فأذن له فقاتل فقُتل فصار شهيداً .

وتتجلّى الروعة الإيمانية والنسب الإسلامى فى حذيفة بن اليمان ، لقد كان أبوه شيخاً كبيرا مسلما فأخذ سيفه ولحق برسول الله صلى الله عليه وسلم لعل الله يرزقه الشهادة فى سبيل الله ، فدخل فى المعركة ولا يعلم به أحد فقتله المسلمون

[1] النِّصال : جمع نصل وهو حديدة السيف والسهم والرمح والسكين .

ولا يعرفونه ، فقال ابنه حذيفة : أبي والله . فقالوا والله ما عرفناه ، وصدقوا ، قال حذيفة : يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين . وأراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يؤدي ديته ، فقال له حذيفة بن اليمان : وأنا تصدقت بها على المسلمين .

هذه الأحداث التي دارت في المعركة تدلنا على أن غزوة أُحُد كان لابد أن تكون هكذا ، لتمحص المؤمنين تمحيصاً يؤهلهم لأن يحملوا كلمة الله ويعلوها في الأرض . ويقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾

لقد نقلهم من معركة فيها شبه هزيمة أو عدم انتصار إلى نصر ، فكأنه يريد أن يقول : إن الأمر بالنسبة لكم أمر إلهكم الذي يرقبكم ويعينكم ويمدكم ويرعاكم . وإياكم أن تعتمدوا على العدد والعُدة ولكن اعتمدوا على الحق سبحانه وتعالى وعلى ما يريده الحق توجيها لكم ، لأن مدد الله إنما يأتي لُمستقبل لمدد الله ، ولا يأتي المدد لغير مستقبل لمدد الله .

ونعرف أن فيه فرقاً بين الفاعل وبين القابل ، فالفاعل شيء والقابل للانفعال بالفعل شيء آخر . وضربنا لذلك مثلاً : بأن الفاعل قد يكون واحداً ، ولكن الانفعال يختلف ، وحتى نقرب المسألة نقول : كوب الشاي تأتي لتشرب منه فتجده ساخناً فتنفخ فيه ليبرد ، وفي الشتاء تصبح لتجد يدك باردة فتنفخ فيها لتدفأ ، إنك تنفخ مرة لتبرد كوب الشاي ، ومرة تنفخ لتدفىء يدك ، إذن فالفاعل واحد وهو النافخ ، ولكن القابل للانفعال شيء آخر ، ففيه فاعل وفيه قابل ، ومثال آخر : إن القرآن كلام الله ولو أنه نزل على الجبال لخرّت خاشعة ، ومع ذلك يسمعه أناس ،

لا يستر الله عليهم بل يكشفهم لنا ويفضحهم بعظمة ألوهيته :

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾ ﴾

(سورة محمد)

إنهم لم ينفعلوا بالقرآن ، وقولهم : « ماذا قال آنفاً » معناه استهتار بما قيل . ونجد الحق يرد على ذلك بقوله تعالى :

﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴾

(سورة محمد)

إن الفاعل واحد والقابل مختلف . ويتابع الحق بلاغه الحكيم فى قوله :

﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾

)

إذن فمدد الله لكم إنما يتأتى لمستقبلٍ إيمانى ، فإن لم يوجد المستقبل ـ بكسر الباء ـ فلا يوجد المدد . فإذا كنت لا تستطيع أن تستقبل ما ترسله السماء من مدد نقول لك : أصلح جهاز استقبالك ؛ لأن جهاز الاستقبال كالمذياع الفاسد ، إن الإرسال من الإذاعات مستمر ، لكن المذياع الفاسد هو الذى لا يستقبل . إذن فإن كنت تريد أن تستقبل عن الله فلابد أن يكون جهاز استقبالك سليما . ويوضح الحق ذلك بقوله جل جلاله :

﴿ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ

﴿رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ۝١٢٤﴾

ويبين سبحانه وتعالى كيفية إصلاح جهاز الاستقبال لتلقى مدد الله فيقول :

﴿بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ۝١٢٥﴾

إن الحق سبحانه وتعالى ضرب المثل بالصبر والتقوى فى بدر مع القلة فكان النصر ، وهنا فى أُحد لم تصبروا ؛ فساعة أن رأيتم الغنائم سال لعابكم فلم تصبروا عنها ، ولم تتقوا أمر الله المبلغ على لسان رسوله فى التزام أماكنكم . . فكيف تكونون أهلاً للمدد ؟

إذن من الذى يحدد المدد ؟ إن الله هوالذى يعطى المدد ، ولكن من الذى يستقبل المدد لينتفع به ؟ إنه القادر على الصبر والتقوى .

إذن فالصبر والتقوى هما العُدّة فى الحرب . لا تقل عدداً ولا عدة . ولذلك قال ربنا لنا : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة » ولم يقل : أعدوا لهم ما تظنون أنه يغلبهم ، لا . أنتم تعدون ما فى استطاعتكم ، وساعة تعدون ما فى استطاعتكم وأسبابكم قد انتهت . . فالله هو الذى يكملكم بالنصر .

والبشر فى ذواتهم يصنعون هذا ، فمثلا ـ ولله المثل الأعلى من قبل ومن بعد ـ

لنفترض أنك تاجر كبير . وتأتيك العربات الضخمة محملة بالبضائع ، صناديق وطرود كبيرة ، وأنت جالس بينما يفرغ العمال البضائع ، وجاء عامل لينزل الطرد فغلبه الطرد على عافيته ، وتجد نفسك بلا شعور منك ساعة تجده سيقع تهب وتقوم لنصرته ومعاونته ، لقد استنفد هذا العامل أسبابه ولم يقدر ، فالذى يعنيه الأمر يمد يده إليه ، فما بالنا بالحق سبحانه وتعالى . كأنه يقول ابذل وقدّم أسبابك ، فإذا ما رأيت أسبابك انتهت والموقف أكبر منك ، فاعلم أنه أكبر منك أنت ولكنه ليس أكبر من ربك إنه سبحانه يقول :

﴿ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ ﴾

فإياك أن تظن أن المدد بالثلاثة آلاف أو الخمسة آلاف ، الذين أنزلهم الله وأمدكم بهم أو بالملائكة المدربين على القتال . . إياكم أن تظنوا أن هذا المدد ، هو شرط فى نصر الله لك . بذاتك أو بالملائكة ؛ إنه قادر على أن ينصرك بدون ملائكة ، ولكنها بشرى لتؤنس المادة البشرية ، فساعة يرى المؤمنون أعداداً كبيرة من المدد ، والكفار كانوا متفوقين عليهم فى العدد ، فإن أسباب المؤمنين تطمئن وتثق بالنصر . إذن فالملائكة مجرد بُشْرَى ، ولكن النصر من عند الله العزيز الذى لا يُغلب . وكل الأمور تسير بحكمته التى لا تدلوها حكمة أبداً . يقول الحق من بعد ذلك :



وقطع الطرف يتحدد بمعرفة ما هو طرف لماذا ؟ فإن كان الطرف هو العدد الكثير فقطع الطرف أن يُقتل بعضه . وإن كان الطرف هو أرضا واسعة فقطع الطرف أن يأخذ من أرضهم . ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٤١﴾ ﴾

(سورة الرعد)

لقد كانت الأرض الكُفْرِيّة تخسر كل يوم جزءاً منها لينضم هذا الجزء إلى الأرض الإيمانية ، هذا بالنسبة لسعة الأرض ، وافرض أن الطرف هو المال ، فقطع الطرف هنا يكون بأن نأخذ بعض المال كغنائم ، ثم هناك المنزلة التى كانت تهابها الجزيرة كلها ، كل الجزيرة تهاب قريشاً ، وقوافلها التجارية للشمال والجنوب لا تستطيع قبيلة أن تتعرض لها ؛ لأن كل القبائل تعرف أنها ستذهب إلى البيت فى موسم الحج ، فلا توجد قبيلة تتعرض لها لأنها غداً ستذهب إلى قريش ، إذن فالسيادة والعظمة كانت لقريش ، وساعة تعلم القبائل أن رجال قريش قد كسروا وانهزموا ، وأن رحلتهم إلى الشام أصبحت مهددة ، فإنهم يبحثون عن فريق آخر يذهبون إليه .

إن قطع الطرف كان على أشكال متعددة ، فإن كان طرفَ عددٍ فيقتل بعضهم ، وإن كان طرفَ أرض فبعضها يؤخذ وتذهب إلى أرض إيمانية ، وإن كانت عظمة وقهرا تأتهم المزيمة ، وإن كان نفوذاً فى الجزيرة فهو يتزلزل « ليقطع طرفاً من الذين كفروا » .

ولنلحظ أن الحق قد قال : « ليقطع طرفاً » ـ لم يقل ليستأصل ـ لأن الله سبحانه وتعالى أبقى على بعض الكفار لأن له فى الإيمان دوراً ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ممتلئا بالعطف والرحمة والحنان على أمته ، وكان يحسن الظن بالله أن يهديهم ، ولذلك تعددت آيات القرآن التى تتحدث فى هذا الأمر . ها هو ذا الحق يقول :

﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ ﴾

(سورة الكهف)

وفى موقع آخر بالقرآن الكريم يقول الحق :

﴿ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ۝ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ۝ ﴾

(سورة الشعراء)

والله يقول لرسوله صلى الله عليه وسلم : « فإنما عليك البلاغ » والرسول يحب أن يهتدى إلى الإيمان كل فرد فى أمته ، فقال الحق :

﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ۝١٢٨ ﴾

أى ليس لك يا محمد من الأمر شيء إلا أن يتوب الله عليهم فتفرح بتوبتهم ، أو يعذبهم ، فلا يحزنك ذلك لأنهم ظالمون أى ما عليك يا محمد إلاّ البلاغ فقط . أما هم فقد ظلموا أنفسهم بالكفر . والظلم كما نعرف هو أخذ الحق من ذى الحق وإعطاؤه لغيره . وقمة الظلم هو إضفاء صفة الألوهية على غير الله ، وهو الشرك . ولذلك يقول الحق :

﴿ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾

(من الآية ١٣ سورة لقمان)

إن الحق يقول لرسوله صلى الله عليه وسلم :

﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ۝١٢٨ ﴾

« سورة آل عمران »

وهذه مسألة لم تخرج عن ملك الله ، لماذا ؟ لأن السماوات والأرض وما فيهن ملك لله : قيل أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ بعد أن خضّب المشركون وجهه بالدم وهو يدعوهم إلى ربهم ـ أراد عليه الصلاة والسلام أن يدعو عليهم فنهاه الله لعلمه ـ سبحانه ـ أن فيهم من يؤمن وأنزل قوله تعالى :

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٢٩ ﴾

وبما أننا نتحدث عن ملامح فى غزوة أحد أريد أن أقول : « جبل أُحدٍ رضى الله عنه » ؛ لأننا سمعنا بعض العارفين بالله حين تذكر كلمة « أحد » قال : أحد رضى الله عنه ـ فتعجب القوم لقول الشيخ عبدالله الزيدان الذى قال ذلك ، فلما رأى عجبهم قال لهم : ألم يخاطبه رسول الله بقوله : « اثبت أحد فإنما عليك نبى وصديق وشهيدان »[1] ، ألم يقل فيه رسول الله : « أحد جبل يحبنا ونحبه »[2] أتريدون أحسن من ذلك فى الصحبة ! ، قل : أحد رضى الله عنه .

وقلنا سابقاً : إنك إذا وقف عقلك فى حاجة فلا تأخذها بمقاييسك أنت ، بل خذها بالمقاييس الأعلى . ونحن نقول هذا الكلام لأن العلم الآن يجرى ويسعى سعياً حثيثا مسرعاً حول استخراج بعض أسرار الله فى الكون ، فبين لنا أن الحيوانات لها لغات تتفاهم بها ، ويحاولون الآن أن يضعوا قاموسا للغة الأسماك . والحق سبحانه وتعالى ذكر لنا حكاية النملة مع سليمان ـ عليه السلام ـ فقال :

---

(١) رواه البخارى فى فضائل الصحابة ، وأبو داود فى السنة ورواه أحمد فى المسند .

(٢) رواه البخارى عن سهل بن سعد ، والترمذى ، والطبرانى عن أنس وأحمد والطبرانى والضياء عن سويد بن عامر الأنصارى .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾

(من الآية ١٨ سورة النمل)

هذا القول يدل على أنّ نملة خرجت وقامت بعمل (وردية) كى تحافظ على من معها ثم عادت لتتكلم مع أبناء فصيلتها ، وسمعها سيدنا سليمان ، فتبسم من قولها . إذن العلم يتسابق ويجد وَيُسَارع الآن ليثبت أن لكل جنس فى الوجود لغة يتفاهم بها ، وكل جنس فى الوجود له انفعال ، وكل جنس فى الوجود له تكاثر ، ولذلك قال الحق لنا على لسان سيدنا سليمان :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴾

(من الآية ١٦ سورةالنمل)

وكانت هذه خصوصية لسيدنا سليمان عليه السلام ، إذن فللطير منطق . وعندما نتسامى ونذهب إلى الجماد نسمع قول الحق سبحانه فى آل فرعون وعدم بكاء الجماد عليهم :

﴿ كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾

(سورة الدخان)

هل تبكى السماء والأرض ؟ إنه أمر عجيب ؛ فالجماد من سماء وأرض لا تتفاهم فقط ولكن لها عواطف أيضاً ؛ لأن البكاء إنما ينشأ عن انفعال عاطفى وجدانى .

وهذا يعنى أن الجمادات لا تتكلم فقط ، ولكنها تحس أيضاً . فالأرض تخرج أثقالها ، وتحدث أخبارها ، كيف ؟

﴿ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۝ ﴾

(سورة الزلزلة)

والسماء والأرض أتيا إلى الله فى منتهى الطاعة والخشوع :

﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ۝ ﴾

(سورة فصلت)

إذن فهناك ما هو أكثر من التفاهم ، إن لها عواطف مثلك تماما ، وكما تحزنك حاجة فالأرض أيضاً تبكى ، ومادامت تبكى إذن فلها مقابل بأن تفرح ، ويقول الله تعالى عن أرض فرعون : « فما بكت عليهم السماء والأرض » فلو أنها لم تبك مع بعض الناس ؛ لما كان لهذا الكلام ميزة .

لذلك قال الإمام على ـ كرم الله وجهه ـ : إذا مات المؤمن بكى عليه موضعان : موضع مصلاه ؛ لأنه سيحرم من نعمة الإيمان ، ومصعد عمله ، موضع فى الأرض وموضع فى السماء . إذن فلابد أن نفهم أن لكل شىء شعوراً . وقال صلى الله عليه وسلم : « إذا مات المؤمن استبشرت له بقاع الأرض فليس من بقعة إلا وهى تتمنى أن يدفن فيها »[1]

لماذا نقول هذا الكلام الآن ؟ نقول ذلك حتى إذا ثبت بالعلم أن لكل شىء لغة ، ولكل شىء فى أجناس الكون تفاهما ، يقال إن فيه ناساً هبت عليهم نسمات الإيمان فأدركوها وأحسوها من القرآن ، فلا يدعى أحد أنه ابتكر من ذات نفسه لأنها فى القرآن وإن كنا لا نعرف كيف تأتى .

---

(١) رواه الديلمى عن ابن عمر رضى الله عنهما ، وتكملة الحديث : « . . . . وإذا مات الكافر أظلمت الأرض فليس من بقعة إلا وهى تستعيذ بالله أن يدفن فيها » .

وهذه المعركة ـ معركة أُحُد ـ التي أخذت ستين آية ، نجد أن الحق تكلم عنها هنا فقال : « وإذ غدوت من أهلك » و« إذ همت طائفتان » ، وقوله : « ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة » ، وبعد ذلك يترك الغزوة في حرارتها ويأتينا بأشياء يضعها هنا ، ثم يأتي ليكمل الغزوة . لو أن هذه لقطة من الغزوة وتنتهي ثم يأتي موضوع آخر ، لما شغلنا أنفسنا ، إنما الغزوة ستأتي فيها ستون آية ، فكيف ينهي الكلام في الغزوة ولا يعطينا إلا استهلال الغزوة ، وبعد ذلك ينصب القرآن على معانٍ بعيدة عن الغزوة ؟ فما الذي يجعله ـ سبحانه ـ يترك أمر الغزوة ليقول :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾ ۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

لماذا لم يعطنا الحق إلا استهلال الغزوة وبعد ذلك انصب على قضايا أولها قضية الربا ، ما العلاقة بين هذه القضايا وتلك الغزوة ؟ . وأقول : رحم الله صاحب

الظلال الوارفة الشيخ سيد قطب فقد استطاع أن يستخلص من هذه النقلة مبادىء إيمانية عقدية لو أن المسلمين فى جميع بقاع الأرض جعلوها نصب أعينهم لما كان لأى دولة من دول الكفر غلب علينا .

ونريد أن نفهم هذه اللقطات ، ولماذا استهلت بمسألة الربا ؟ لأن الذى كان سبباً فى الهزيمة أو عدم النصر فى معركة أُحد أنهم طمعوا فى الغنيمة . والغنيمة مال زائد ، والربا فيه طمع فى مال زائد .

والقرآن حين يعالج هنا قضية حدثية ، والأحداث أغيار تمر وتنتهى ، فهو سبحانه يريد أن يستبقى عطاء الحدث ليشيع فى غير زمان الحدث ، وإلا فالحدث قد يمر بعظاته وعبره وينتهى ولا تكون له فائدة . والنفس حين تمر بالأحداث تكون ملكاتها متفتحة ؛ لأن الحدث ـ كما قال المغفور له الشيخ سيد قطب ـ يكون ساخناً ، فحين يستغل القرآن الحدث قبل أن يبرد فإن القضية التى تتعرض لها الموعظة تتمكن من النفس البشرية . وهو سبحانه لم يرد أن تمر أحداث أُحد بما فيها من العبر والعظات إلا ويستغلها القرآن الكريم ليثبت بها قضايا إيمانية تشيع فى غير أزمنة الحدث من الحروب وغيرها لتنتظم أيضاً وقت السلام . فآية الربا هنا كأنما سقطت وسط النصوص التى تتعرض لغزوة أحد .

والسطحيون قد يقولون : ما الذى جعل القرآن ينتقل من الكلام عن أُحد إلى أن يتكلم فى الربا مرة ثانية بعد أن تكلم عنه أولاً ؟

ونقول : إن القرآن لا يؤرخ الأحداث ، وإنما يُريد أن يستغل أحداثاً ليبسط ويوضح ما فيها من المعانى التى تجعل الحدث له عرض وله طول وله عمق ؛ لأن كل حدث فى الكون يأخذ من الزمن قدر الحدث ، والحدث له طول هو قدر من الزمن ، يكون ساعة أو ساعتين أو ليلة مثلا ، هذا هو طول الحدث .

والأحداث التى يجريها الله لها طول يحدده عمر الحدث الزمنى ، ولها عرض يعطيها الاتساع ، فبعد أن كانت خطاً مستقيماً صارت مساحة ، ويجعلها الحق شاملة لأشياء كثيرة ، فهو لا يريد للحدث أن يسير كخط مستقيم ، بل يريده طريقا واسعاً له

مساحة وله عرض . هذا العرض يعطيه رقعة مساحية تأخذ كثيراً من الأشياء ، وهذا أيضا قد ينتهى مع الحدث ، ولذلك يريد الله أن يعطى للحدث بعداً ثالثاً وهو العمق فى التاريخ فيعطى عطاءه ، كما نستفيد نحن الآن من عطاء حدث هو غزوة أُحُد .

إذن فالحدث له حجم أيضاً ، وهذا ما يجعل الناس تقف لتقول : إن صلة الرحم تطيل العمر ، والعمر له حد زمنى محدد وهو الخط المستقيم له ، فهناك واحد يزيد من عرض عمره ، فبدلاً من أن ينفع الناس فى مجال صغير فهو يعمل وينفع فى مجال أوسع ، إذن فهو يعطى لعمره مساحة .

وهناك إنسان آخر يريد أن يكون أقوى فى العمر ، فماذا يعمل ؟ إنه يعطى لعمره عمقاً ، فبدلاً من أن يعمل لمجرد حياته وينتهى عمره مهما كانت رقعته واسعة ، فهو يزيد من عمله الصالح ويترك أثراً من علم أو خير يستمر من بعد حياته كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاثة : صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له »[1] .

ولذلك يقول الحق :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾

(سورة إبراهيم)

هى كلمة طيبة قيلت ، لكنّها مثل الشجرة الطيبة ؛ لأنها ترسخ فى أذن من يسمعها فتصير حركة خاضعة للكلمة ، وكلما فعل السامع لهذه الكلمة فعلاً ناتجاً من تأثير هذه الكلمة فإن بعض الثواب يعود إلى من قال هذه الكلمة حتى ولو كان قد مات .

---

(١) رواه أبو داود والترمذى والنسائى والبخارى فى الأدب المفرد .

فكأن قائل هذه الكلمة مازال يعيش ، وكأن عمره قد طال بكلمته الطيبة . إذن فأعمال الخير التى تحدث من الإنسان ليس معناها أنها تطيل العمر ؛ لأن العمر محدود بأجل ، ولكنْ هناك إنسان يعطى عمره عرضاً ، وآخر يعطيه عمقاً ويظل العطاء منه موصولاً إلى أن تقوم الساعة ، فكأنه أعطى لنفسه عمراً خالداً . ويقولون : والذكر للإنسان عمر ثان .

والحق سبحانه وتعالى يوضح الدروس المستفادة من غزوة أُحُد ، إن أول مخالفة كانت سبباً ليس فى الهزيمة ، ولكن دعنا نقل : « فى عدم إتمام النصر » ، لأنهم بدأوا منتصرين ، ولم يتم النصر لأنه قد حدثت مخالفة ، ودوافع هذه المخالفة أنهم ساعة رأوا الغنائم ، اندفعوا إليها ، إذن فدوافعها هى طلب المال من غير وجه مشروع ؛ لأن النبى قال لهم : (انضحوا عنا الخيل ولا نؤتين من قبلكم ، الزموا أماكنكم إن كانت النوبة لنا أو علينا ، وإن رأيتمونا تخطفنا الطير فلا تبرحوا مكانكم) وبهذا صارت مبارحة المكان أمراً غير مشروع ، فتطلع النفس إلى شىء فى غير ما أمر به رسول الله يعتبر أمراً غير مشروع والتطلع هنا كان للمال ، وهكذا الربا .

وأراد الحق أن تكون سخونة الحدث ، والأثر الذى نشأ من الحدث فى أن المسلمين لم يتم نصرهم ، وتعبوا ، وكان مصدر التعب أن قليلاً منهم أحبوا المال الزائد من غير وجهه المشروع . فأراد ـ سبحانه ـ أن يكون ذلك مدخلا لبيان الأثر السيىء للتعامل بالربا .

إذن فهذه مناسبة فى أننا نجد آية الربا هنا وهى توضح الآثار السيئة للطمع فى المال الزائد عن طريق غير مشروع ، والقرآن فيه الكثير من المواقف التى توضح آثاراً تبدو فى ظاهرها غير مترابطة ، ولكن النظرة العميقة تؤكد الترابط .

وقلنا من قبل فى قول الله تعالى :

﴿ حَـٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَـٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾ ﴾

(سورة البقرة)

قد يقول أحد السطحيين : إن الحق سبحانه وتعالى كان يتكلم عن الطلاق قبل هاتين الآيتين فقال سبحانه :

﴿ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَن تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَلَا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾ ﴾

(سورة البقرة)

ويترك الحق الحديث عن الطلاق ويأمر بالحفاظ على الصلاة بقوله الحكيم : « حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين » .

وبعد ذلك يعود الحق لاستكمال حديث الطلاق والفراق بالموت .

﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِم مَّتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٤٠﴾ ﴾

(سورة البقرة)

إنه يتكلم عن الطلاق ، والوفاة ، ثم ينزل بينهما آية الصلاة ، لماذا ؟ ليتضح لنا أن المنهج الإسلامى منهج متكامل . إياك أن تقول : إن الطلاق غير الصلاة ، غير الوفاة ، أبداً ، إنه منهج متكامل . ولأنه ـ سبحانه وتعالى ـ يريد أن ينبهنا إلى أن لطلاق عملية تأتى والنفس فيها غضب ، وتأتى والزوج والزوجة وأهل الزوج وأهل لزوجة فى كدر ، فيقول لهم المنهج : لو كنتم تحسنون الفهم لفزعتم إلى الصلاة حين نواجهكم هذه الأمور التى فيها كدر .

وساعة تكون فى كدر قم وتوضأ وصَلِّ ، لأن النبى علمنا أنه إذا حَزَبَه أمر قام

إلى الصلاة ، فساعة تجد الجو المشحون بالتوتر بين الزوج والزوجة وأهلها قل لهم : المسألة صارت أكبر من حيلنا ، فهيا نصل ليساعدنا الله على حل هذه المسائل الصعبة ، وأنا أتحدى ألا يوجد الله حلاً لمشكلة لجأ فيها المسلم إلى الصلاة قبلها .

وهكذا نفهم أن الحق قال : « حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى » لأن محافظتكم عليها هى التى ستنهى كل الخلافات ؛ لأن الله لا يكون فى بالكم ساعة ضيقكم وفى ساعة شدتكم فتستسلمون للضيق والشدة وتنسون الصلاة ، فى الوقت الذى يكون فيه الإنسان أحوج ما يكون إلى الصلاة . إنك فى وقت الضيق والشدة عليك أن تذهب إلى ربك ، وأقول هذا المثل ـ ولله المثل الأعلى ـ إن الولد الذى يضربه أصحابه يذهب إلى أبيه ، كذلك زوجتك إذا أغضبتها تذهب إلى أهلها ، فكيف لا تذهب إلى ربك وقت شدتك وكربك ؟ .

وهكذا نجد أن قوله الحق : « حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى » جاء فى المكان الصحيح ، وهكذا آية الربا ، جاءت فى مكانها هنا وخصوصاً أنه تكلم عن الربا أولاً ، فتأتى الحادثة وسخونة الحدث وينزل هذا القول الكريم . كى يعرف كل من يريد مالاً زائداً على غير ما شرع الله أنّه سيأتى منه البلاء على نفسه وعلى غيره ، فالبلاء فى أُحُد شمل الجميع : الرماة وغير الرماة أيضا .

إذن فكل الدنيا تتعب عندما تخالف منهج الله ، والمال الزائد من غير ما شرع الله إن لم يترك فقد آذن الله من يأكله بحرب من الله ومن رسول الله .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضْعَـٰفًا مُّضَـٰعَفَةً ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ ﴾

والربا زيادة فى المال ، فهل يؤكل ؟ نعم ؛ لأن كل المسائل المالية من أجل اللقمة

الَّتى تأكلها ، هذا هو الأصل . والرسول صلى الله عليه وسلم يقول : « من أصبح منكم آمنا فى سِرْبِهِ مُعَافىً فى جسده عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا »[١] .

ونعرف أنه عندما يكون الواحد منا فى منطقة ليس فيها رغيف خبز ، فلن تنفعه ملكية جبل من الذهب . « لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة » وقوله سبحانه : « أضعافا » و« مضاعفة » هو كلام اقتصادى على أحدث نظام ، فالأضعاف هى : الشيء الزائد بحيث إذا قارنته بالأصل صار الأصل ضعيفاً ، فعندما يكون أصل المال مائة ـ على سبيل المثال ـ وسيؤخذ عليها عشرون بالمائة كفائدة فيصبح المجموع مائة وعشرين . إذن فالمائة والعشرون تجعل المائة ضعيفة ، هذا هو معنى أضعاف .

فماذا عن معنى « مضاعفة » ؟ إننا سنجد أن المائة والعشرين ستصبح رأس مال جديداً ، وعندما تمر سنة ستأخذ فائدة على المائة وعلى العشرين أيضاً ، إذن فالأضعاف ضوعفت أيضاً ، وهذا ما يسمى بالربح المركب ، وهل معنى هذا أننا نأكله بغير أضعاف مضاعفة ؟! لا ؛ لأن الواقع فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم كان هكذا .

وقد يقول لك واحد : أنا أفهم القرآن وأن المنهى هو الأضعاف المضاعفة ، فإذا لم تكن أضعافاً مضاعفة فهل يصح أن تأخذ ربحاً بسيطاً يتمثل فى نسبة فائدة على أصل المال فقط ؟. ولكن مثل هذا القائل نرده إلى قول الله :

﴿ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴾

(من الآية ٢٧٩ سورة البقرة)

إن هذا القول الحكيم يوضح أن التوبة تقتضى أن يعود الإنسان إلى حدود رأس ماله ولا يشوب ذلك ربح بسيط أو مركب . وعندما نجد كلمة « أضعافا مضاعفة » فهى قد جاءت فقط لبيان الواقع الذى كان سائداً فى أيامها .

وبعد ذلك يقول الحق تذييلاً للآية : « واتقوا الله لعلكم تفلحون » ونقول دائماً

(١) رواه البخارى فى الأدب ، والترمذى وابن ماجه عن عبدالله بن محصن .

ساعة نرى كلمة « اتقوا » يعنى اجعلوا بينكم وبين الله وقاية ، وهل تكون الوقاية بينكم وبين الله بكل صفات جماله وجلاله ؟ لا ، فالوقاية تكون مما يتعب ومما يؤلم ويؤذى ، إذن فاتقوا الله يعنى : اجعلوا بينكم وبين صفات جلاله من جبروت وقهر وانتقام وقاية ، وعندما يقول الحق : « واتقوا النار » فهى مثل قوله : « واتقوا الله » ، لأن النار جند من جنود صفات الجلال .

وعندما يقول الحق : « لعلكم تفلحون » نعرف أن كلمة « الفلاح » هذه تأتى لترغيب المؤمن فى منهج الله ، وقد جاء الحق بها من الشيء المحس الذى نراه فى كل وقت ، ونراه لأنه متعلق ببقاء حياتنا ، وهو الزرع والفلاحة ، أنت تحرث وتبذر وتروى ، وبعد ذلك تحصد .

إذن فهو يريد أن يوضح لك أن المتاعب التى فى الحرث ، والمتاعب التى فى البذر ، والمتاعب التى فى السقى كلها متى ترى نتيجتها ؟ أنت ترى النتيجة ساعة الحصاد ، فالفلاح يأخذ (كيلتين) من القمح من مخزنه كى يزرع ربع فدان ، ولا نقول له : أنت أنقصت المخزن ؛ لأنه أنقص المخزن للزيادة ، ولذلك فالذى لم ينقص من مخزنه ولم يزرع ، يأتى يوم الحصاد يضع يده على خده نادماً ولا ينفع الندم حينئذ !

إن الحق يريد أن يقول لنا : إن المنهج وإن أتعبك ، وإن أخذ من حركتك شيئاً كثيراً إلا أنه سيعود عليك بالخير حسب نيتك وإقبالك على العمل ، ولقد ضرب لنا الله المثل فى قوله :

﴿ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾

(الآية ٢٦١ سورة البقرة)

هذا أمر واضح ، حبة نأخذها منك فتنقص ما عندك ، لكنها تعطيك سبعمائة ، إذن فساعة تؤخذ منك الحبة لا تقل : إنك نقصت ، إنما قَدِّرْ أنك ستزيد قدر كذا . ويعطينا الله ذلك المثل فى خلق من خلقه وهو الأرض ،

الأرض الصماء ، أنت تعطيها حبة فتعطيك سبعمائة . فإذا كان خلق من خلق الله وهو الأرض يعطيك أضعاف أضعاف ما أعطيت . أفلا يعطيك رَبّ هذه الأرض أضعافاً مضاعفة ؟ إنه قادر على أجزل العطاء ، هذا هو الفَلاحُ على حقيقته ، وبعد ذلك فإنه ساعة يتكلم عن الفلاح يقول لك : إنك لن تأخذ الفلاح فقط ولكنك تتقى النار أيضاً .

فيقول الحق سبحانه :

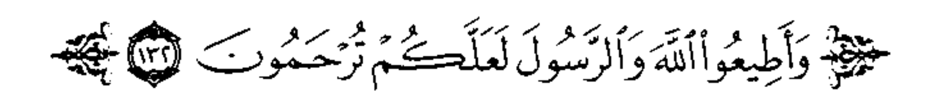
﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾ ﴾

إذن ففيه مسألتان : سلبُ لمضرّة ، وإيجابُ منفعة ، إنه يوجب لك منفعة الفلاح ويسلب منك مضرّة النار . ولذلك يقول تعالى :

﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴾

(من الآية ١٨٥ سورة آل عمران)

لأنه إذا زُحزح عن النار ولم يعد فى نار ولا فى جنه فهذا حسن ، فما بالك إذا زُحزح عن النار وأدخل الجنة ؟ إن هذا هو الفوز الكبير ، وهذا السبب فى أن ربنا سبحانه وتعالى ساعة السير على الصراط سيرينا النار ونمرّ عليها ، لماذا ؟ كى نعرف كيف نجانا الإيمان من هذه ، وما الوسيلة كى نفلح ونتقى النار ؟ إن الوسيلة هى اتباع منهج الله الذى جاء به على لسان رسوله :



و« الرحمة » تتجلى فى ألا يوقعك فى المتعبة ، أما الشفاء فهو أن تقع فى المتعبة ثم تزول عنك ، لذلك فنحن إذا ما أخذنا المنهج من البدء فسنأخذ الرحمة .

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ ﴾

(من الآية ٨٢ سورة الإسراء)

إن الشفاء هو إزالة للذنب الذى تورطنا فيه ويكون القرآن علاجاً ، والرحمة تتجلى إذا ما أخذنا المنهج فى البداية فلا تأتى لنا أية متاعب . ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ﴾

والسرعة ـ كما عرفنا ـ مقابلها العجلة ، إن السرعة هى : التقدم فيما ينبغى ، ومعنى أن تتقدم فيما ينبغى : أنك تجعل الحدث يأخذ زمناً أقل ، والمثال على ذلك عندما يسرع الإنسان بسيارته من القاهرة إلى الإسكندرية فهو يحاول أن يقطع المائتين والعشرة كيلو مترات فى زمن أقل ، فبدلاً من أن تأخذ منه ثلاث ساعات فى السيارة فهو يسرع كى تأخذ منه ساعتين . إذن فالسرعة هى : التقدم فيما ينبغى ، وهى محمودة ، وضدها : الإبطاء . فالسرعة محمودة ، والإبطاء مذموم .

لكن « العجلة » تقدم فيما لا ينبغى ، وهى مذمومة ، مقابلها « التأنى » ، والتأنى ممدوح ، إذن فالسرعة محمودة ، ومقابلها الإبطاء مذموم ، والعجلة مذمومة ، ومقابلها التأنّى ممدوح ، والمثل الشعبى يقول : فى التأنى السلامة وفى العجلة الندامة .

إن الحق يقول : « وسارعوا إلى مغفرة من ربكم » أي : خذوا المغفرة وخذوا الجنة بسرعة ، لأنك لا تعرف كم ستبقى فى الدنيا ، إياك أن تؤجل عملاً من أعمال الدين أو عملا من أعمال الخير ؛ لأنك لا تعرف أتبقى له أم لا . فانتهز فرصة حياتك وخذ المغفرة وخذ الجنة ، هذا هو المعنى الذى يأتى فيه الأثر الشائع « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً » .

الناس تفهمها فهماً يؤدى مطلوباتهم النفسية بمعنى : اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً : يعنى اجمع الكثير من الدنيا كى يكفيك حتى يوم القيامة ، وليس هذا فهماً صحيحاً لكن الصحيح هو أن ما فاتك من أمر الدنيا اليوم فاعتبر أنك ستعيش طويلاً وتأخذه غداً ، أمّا أمر الآخرة فعليك أن تعجل به .

« وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض » ونحن نعرف أن المساحات لها طولٌ وعرض ، لأن الذى طوله كعرضه يكون مربعاً ، إنما الذى عرضه أقل من طوله فنحن نسميه « مستطيلا » ، وحين يقول الحق « عرضها السموات والأرض » نعرف أن العرض هو أقل البعدين ، أى أنها أوسع مما نراه ، فكأنه شبّه البعد الأقل فى الجنة بأوسع البعد لما نعرفه وهو السموات والأرض ملتصقة مع بعضها بعضا فأعطانا أوسع ممّا نراه . فإذا كان عرضها أوسع ممّا نعرف فما طولها ؟ أنه حد لا نعرفه نحن .

قد يقول قائل لماذا بيَّن عرضها فقال : « عرضها السموات والأرض » . فأين طولها إذن ؟ ونقول : وهل السموات والأرض هى الكون فقط ؟ إنّه سبحانه يقول :

﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾

(من الآية ٢٥٥ سورة البقرة)

ويقول صلى الله عليه وسلم : (ما السموات والأرض وما بينهما إلا كحلقة ألقاها ملك فى فلاة) . أليست هذه من ملك الله ؟

وهكذا نرى أن هذه الجنة قد أُعدت للمتقين ، ومعنى « أُعدت » أى هيئت وصُنعت وانتهت المسألة ! يؤكد ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقول :

(عرضت عليّ الجنة ولو شئت أن آتيكم بقطاف منها لفعلت)[1] .

لماذا ؟ لأن الإخبار بالحدث قد يعنى أن الحدث غير موجود وسيوجد من بعد ذلك ، ولكن الوجود للحدث ينفى أن لا يوجد ؛ لأن وجوده صار واقعا ، فعندما يقول : « أعدت » فمعناها أمر قد انتهى الحق من إعداده ، ولن يأخذ من خامات الدنيا وينتظر إلى أن ترتقى الدنيا عندكم ويأخذ وسائل وموادّ مما ارتقيتم ليعد بها الجنة ، لا .

لقد أخبر سبحانه عنها فقال:« فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر » ، وأعد سبحانه الجنة كلها بـ « كن » ، فعندما يقول : « أعدت » تكون مسألة مفروغاً منها . ومادامت مسألة مفروغاً منها إذن فالمصير إليها أو إلى مقابلها مفروغ منه ، والجنة أعدت للمتقين ، فمن هم المتقون ؟

﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ ﴾

هذه بعض من صفات المتقين « والكاظمين الغيظ » لأن المعركة ـ معركة أُحُد ـ ستعطينا هذه الصورة أيضاً . فحمزة وهو سيد الشهداء وعم سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يُقتل . وليته يُقتل فقط ولكنه مُثِّل به ، وأُخِذ بضع منه وهو الكبد فلاكته « هند » ، وهذا أمر أكثر من القتل . وهذه معناها ضغن دنىء .

وحينما جاء لرسول الله صلى الله عليه وسلم خبر مقتل حمزة وقالوا له : إن « هنداً »

(١) رواه البخارى فى الأذان ، وابن ماجه فى الإقامة ورواه أحمد فى المسند .

أخذت كبده ومضغتها ثم لفظتها ، إذ جعلها الله عَصِيَّة عليها ، قال : « ما كان الله ليعذب بعضاً من حمزة فى النار » كأنها ستذهب إلى النار ، ولو أكلتها لتمثلت فى جسمها خلايا ، وعَندما تدخل النار فكأن بعضاً من حمزة دخل النار ، فلابد أن ربها يجعل نفسها تجيش وتتهيأ للقىء وتلفظ تلك البضعة التى لاكتها من كبد سيد الشهداء .

وقد شبه النبى صلى الله عليه وسلم هذه الحادثة بأنها أفظع ما لقى . إنها مقتل حمزة فقال : (لئن أظفرنى الله على قريش فى موطن من المواطن لأمثلن بثلاثين رجلا منهم) .

وهنا جاء كظم الغيظ ليأخذ ذروة الحدث وقمته عند رسول الله فى واحد من أحب البشر إليه وفى أكبر حادث أغضبه ، وينزل قول الحق :

﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ ﴾

(سورة النحل)

كى نعرف أن ربنا ـ جل جلاله ـ لا ينفعل لأحد ؛ لأن الانفعال من الأغيار ، وهذا رسوله فأنزل ـ سبحانه ـ عليه : « وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به » ويأتى هنا الأمر بكظم الغيظ ، وهو سبحانه يأتى بهذا الأمر فى مسألة تخص الرسول وفى حدث « أُحُد » . وبعد ذلك يُشيعها قضية عامة لتكون فى السلم كما كانت فى الحرب . وتكون مع الناس دون رسول الله ؛ لأنها كانت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم .

« والكاظمين الغيظ » ونعرف أن كل الأمور المعنوية مأخوذة من الحسّيات . وأصل الكظم أن تملأ القِرْبَة ، والقِرَب ـ كما نعرف ـ كان يحملها « السقا » فى الماضى ، وكانت وعاء نقل الماء عند العرب ، وهى من جلد مدبوغ ، فإذا مُلئت القربة بالماء شُدّ على رأسها أى رُبط رأسها ربطاً محكماً بحيث لا يخرج شىء ممّا فيها ، ويقال عن هذا الفعل :« كظم القربة » أى ملأها وربطها ، و القربة لينة وعندما توضع على ظهر واحد أو على ظهر الدابة فمن ليونتها تخرج الماء فتكظم وتربط بإحكام كى لا يخرج منها شىء .

كذلك الغيظ يفعل فى النفس البشرية ، إنه يهيجها ، والله لا يمنع الهياج فى النفس لأنه انفعال طبيعى ، والانفعالات الطبيعية لو لم يردها الله لمنع أسبابها فى التكوين الإنسانى . إنما هو يريدها لأشياء مثلا : الغريزة الجنسية ، هو يريدها لبقاء النوع ، ويضع من التشريع ما يهذبها فقط ، وكذلك انفعال الغيظ ، إن الإسلام لا يريد من المؤمن أن يُصَبَّ فى قالب من حديد لا عواطف له ، لا ، هو سبحانه يريد للمؤمن أن ينفعل للأحداث أيضاً ، لكن الانفعال المناسب للحدث ، الانفعال السامى الانفعال المثمر ، ولا يأتى بالانفعال المدمر .

لذلك يقول الحق :

﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الفتح)

فالمؤمن ليس مطبوعاً على الشدة ، ولا على الرحمة ، ولكن الموقف هو الذى يصنع عواطف الإنسان ، فالحق سبحانه يقول :

﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾

(من الآية ٥٤ سورة المائدة)

وهل هناك من هو ذليلٌ عزيزٌ معاً ؟ نقول : المنهج الإيمانى يجعل المؤمن هكذا ، ذلة على أخيه المؤمن وعزة على الكافر . إذن فالإسلام لا يصب المؤمنين فى قالب كى لا ينفعلوا فى الأحداث .

ومثال آخر : ألم ينفعل الرسول صلى الله عليه وسلم حين مات ابنه إبراهيم ؟ لقد انفعل وبكى وحزن . إن الله لا يريد المؤمن من حجر . بل هو يريد المؤمن أن ينفعل للأحداث ولكن يجعل الانفعال على قدر الحدث ، ولذلك قال سيدنا رسول الله عند فراق ابنه : (إن العين تدمع وإن القلب يحزن ولا نقول إلا مايرضى ربنا وإنّا بفراقك

يا إبراهيم لمحزونون) [١] .

ولا نقول لحظة الانفعال ما يسخط الرب . بل انفعال موجّه ، والغيظ يحتاج إليه المؤمن حينما يهيج دفاعاً عن منهج الله ، ولكن على المؤمن أن يكظمه . . أى لا يجعل الانفعال غالبا على حسن السلوك والتدبير . والكظم - كما قلنا - مأخوذ من أمر محس . مثال ذلك : نحن نعرف أن الإبل أو العجماوات التى لها معدتان ، واحدة يُختزن فيها الطعام ، وأخرى يتغذى منها مباشرة كالجمل مثلاً ، إنه يجتر .

ومعنى : يجتر الجمل أى يسترجع الطعام من المعدة الإضافية ويمضغه ، هذا هو الاجترار . فإذا امتنع الجمل عن الاجترار يقال : إن الجمل قد كظم . والحق سبحانه يقول : « والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس » .

وقلنا : إن هناك فرقاً بين الانفعال فى ذاته ، فقد يبقى فى النفس وتكظمه ، ومعنى كظم الانفعال : أن الإنسان يستطيع أن يخرجه إلى حيز النزوع الانفعالى ، ولكنّه يكبح جماح هذا الانفعال . أما العفو فهو أن تخرج الغيظ من قلبك ، وكأن الأمر لم يحدث ، وهذه هى مرتبة ثانية . أما المرتبة الثالثة فهى : أن تنفعل انفعالاً مقابلاً ؛ أى أنك لا تقف عند هذا الحد فحسب ، بل إنك تستبدل بالإساءة الإحسان إلى من أساء إليك . إذن فهناك ثلاث مراحل : الأولى : كظم الغيظ . والثانية : العفو . والثالثة : أن يتجاوز الإنسان الكظم والعفو بأن يحسن إلى المسىء إليه .

وهذا هو الارتقاء فى مراتب اليقين ؛ لأنك إن لم تكظم غيظك وتنفعل ، فالمقابل لك أيضاً لن يستطيع أن يضبط انفعاله بحيث يساوى انفعالك ، ويمتلىء تجاهك بالحدة والغضب ، وقد يظل الغيظ نامياً وربما ورّث أجيالا من أبناء وأحفاد . لكن إذا ما كظمت الغيظ ، فقد يخجل الذى أمامك من نفسه وتنتهى المسألة .

« والعافين عن الناس » مأخوذة من « عفّى على الأثر » والأثر ما يتركه سير الناس

(١) رواه البخارى فى الجنائز ، ومسلم فى الفضائل ، وابن ماجه فى الجنائز ورواه أحمد فى المسند .

فى الصحراء مثلا ، ثم تأتى الريح لتمحو هذا الأثر . ويقول الحق فى تذييل الآية : « والله يحب المحسنين » .

وقلنا فى فلسفة ذلك : إننا جميعاً صنعة الله ، والخلق كلهم عيال الله . وما دمنا كلنا عيال الله فعندما يُسيء واحد لآخر فالله يقف فى صف الذى أسيء إليه ، ويعطيه من رحمته ومن عفوه ومن حنانه أشياء كثيرة . وهكذا يكون المُسَاء إليه قد كسب . أليس من واجب المُسَاء إليه أن يُحسِن للمسيء ؟ .

لكن العقل البشرى يفقد ذكاءه فى مواقف الغضب ؛ فالذى يسيء إلى إنسان يحسبه عدوًا . لكن على الواحد منا أن يفهم أن الذى يسيء إليك إنما يجعل الله فى جانبك ؛ فالذى نالك من إيذائه هو أكثر مما سلبك هذا الإيذاء . هنا يجب أن تكون حسن الإيمان وتعطى المسيء إليك حسنة .

ويضيف الحق من بعد ذلك فى صفات أهل الجنة :

﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ ﴾

والفاحشة هى:الذنب الفظيع . فهل معنى ذلك أن الرماة فى غزوة أحد حين تركوا مواقعهم ، قد خرجوا من الإيمان ؟ لا ، إنها زلة فقط ، لكنها اعتبرت كبيرة من الكبائر لمن أشار على المؤمنين أن ينزلوا ،واعتبرت صغيرة لمن حُرِّض ـ بالبناء للمفعول ـ على أن ينزل من موقعه .

إذن فهو قول مناسب : « والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله » وجاء الحق هنا بـ« ذكروا الله » كتنبيه لنا إلى أن من يفعل الفاحشة أو يظلم نفسه هو من نسى الله ، فلحظة فعل الفاحشة أو ظلم النفس لا يكون الله على بال الإنسان الفاعل للفاحشة أو على بال من ظلم نفسه ، والذى يُجرِّىء الإنسان على المعصية ليحقق لنفسه شهوة ، أنه لم ير الله ولم ير جزاءه وعقابه فى الآخرة ماثلا أمامه ، ولو تصور هذا لامتنع عن الفاحشة .

وكذلك الذى يهمل فى الطاعة أيضاً ، لم يذكر الله وعطاءه للمتقين . ولو ذكر الله وعطاءه للمتقين لما تكاسل عن طاعة الله . ولذلك يقول الحق : « ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم » فمن يستغفر لذنبه فقد ذكر الله .

•

وموقف العلماء من الفاحشة فيه اختلاف . بعض العلماء قال : إنها الكبيرة من الكبائر ، وظلم النفس صغيرة من الصغائر . وقال بعض آخر من العلماء : إن الفاحشة هى الزنا ؛ لأن القرآن نص عليها ، ومادون ذلك هو الصغيرة .

ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (لا كبيرة مع الاستغفار . ولا صغيرة مع الإصرار)[1]

فلا يجوز للإنسان أن يتجاوز عن أخطائه ويقول : هذه صغيرة وتلك صغيرة لأن الصغيرة مع الصغيرة تصير كبيرة . وحين ننظر إلى قول الله تعالى : « والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم » نجد أن الذى فعل الفاحشة ظالم لنفسه أيضا لأنه حقق لنفسه شهوة عارضة ، وأبقى على نفسه عذاباً خالداً .

ولماذا لم يقل الحق إذن : والذين ظلموا أنفسهم فقط ؟ أى يكون العطف بـ(الواو) لا بـ(أو) ؛ لأن الحق يريد أن يوضح لنا الاختلاف بين فعل الفاحشة وظلم النفس .

لأن الذى يفعل الفاحشة إنما يحقق لنفسه شهوة أو متعة ولو عاجلة ، لكن الذى

(١) رواه أبو الشيخ والديلمى عن ابن عباس رفعه ، ورواه البيهقى ـ عن ابن عباس ـ موقوفا ، وله شاهد عند البغوى ، ومن جهة الديلمى عن أنس مرفوعا ، وأخرجه الطبرانى عن أبى هريرة ، وزاد فى آخره « فطوبى لمن وجد فى كتابه استغفاراً كثيراً » لكن فى إسناده بشر بن عُبيد الفارسى متروك .

يظلم نفسه يذنب الذنب ولا يعود عليه شيء من النفع ؛ فالذى يشهد الزور - على سبيل المثال - إنه لا يحقق لنفسه النفع ، ولكن النفع يعود للمشهود له زوراً . إن شاهد الزور يظلم نفسه لأنه لبّى حاجة عاجلة لغيره ، ولم ينقذ نفسه من عذاب الآخرة . أما الإنسان الذى يرتكب الفاحشة فهو قد أخذ متعة فى الدنيا ، وبعد ذلك ينال العقاب فى الآخرة .

لكن الظالم لنفسه لا يفيد نفسه ، بل يضر نفسه ؛ فالذى هو شر أن تبيع دينك بدنياك ؛ إنك فى هذه الحالة قد تأخذ متعة من الدنيا وأمد الدنيا قليل . والحق لم ينه عن متاع الدنيا ، ولكنه قال عنه : « قل متاع الدنيا قليل » . وهناك من يبيع دينه بدنيا غيره ، وهو لا يأخذ شيئاً ويظلم نفسه .

ويقول الحق : « فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله » . ومعنى « ذنب » هو مخالفة لتوجيه منهج . فقد جاء أمر من المنهج ولم ينفذ الأمر . وجاء نهى من المنهج فلم يُلتزم به . ولا يسمى ذَنْباً إلا حين يعرفنا الله الذنوب ، ذلك هو تقنين السماء . وفى مجال التقنين البشرى نقول : لا تجريم إلا بنص ولا عقوبة إلا بتجريم .

وهذا يعنى ضرورة إيضاح ما يعتبر جريمة ؛ حتى يمكن أن يحدث العقاب عليها ، ولا تكون هناك جريمة إلا بنص عليها . أى أنه يتم النص على الجريمة قبل أن يُنص على العقوبة ، فما بالنا بمنهج الله ؟ إنه يعرفنا الذنوب أولاً ، وبعد ذلك يحدد العقوبات التى يستحقها مرتكب الذنب .

ولننتبه إلى قول الحق : « ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون » إذن فالاستغفار ليس أن تردف الذنب بقولك ؛ أستغفر الله لا . إن على الإنسان أن يردف الذنب بقوله : أستغفر الله وأن يصر على ألا يفعل الذنب أبداً .

وليس معنى هذا ألا يقع الذنب منك مرة أخرى ؛ إن الذنب قد يقع منك ، ولكن ساعة أن تستغفر تصر على عدم العودة ، إن الذنب قد يقع ، ولكن بشرط ألا

يكون بنيّة مُسبقة ، وتقول لنفسك : سأرتكب الذنب ، وأستغفر لنفسى بعد ذلك . إنك بهذا تكون كالمستهزىء بربّك ، فضلا على أنك قد تصنع الذنب ولا يمهلك الله لتستغفر . وقوله الحق : « ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون » يوضح لنا أنه لا عقوبة إلا بتجريم ولا تجريم إلا بنص .

إن الحق يعلمنا ويعرفنا أولاً ما هو الذنب ؟ وما هو العقاب ؟ وكيفية الاستغفار ؟ ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾ ﴾

« أولئك » إشارة إلى ما تقدم فى قوله سبحانه :

﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

مع بيان أوصاف المتقين فى قوله :

﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾

(الآية ١٣٤ سورة آل عمران)

إنهم ينفقون فى السراء نفقة الشكر . وينفقون فى الضراء نفقة الذكر والتضرع ،

لأن النعمة حين توجد بسرّاء تحتاج إلى شكر لهذه النعمة ، والنعمة حين تنفق فى الضراء تقتضى ضراعة إلى الله ليزحزح عن المنفق آثار النقمة والضراء . إذن فهم ينفقون سواء أكانوا فى عسر ، أم كانوا فى يسر .

إن كثيراً من الناس ينسيهم اليسر أن الله أنعم عليهم ويظنون أن النعمة قد جاءت عن علم منهم . وبعض الناس تلهيهم النعمة عن أن يحسوا بآلام الغير ويشغلوا بآلام أنفسهم . لكن المؤمنين لا ينسون ربهم أبداً . وأمره بالإنفاق فى العسر واليسر . ولذلك قالوا : فلان لا يقبض يده فى يوم العرس ولا فى يوم الحبس .

وتتابع أوصاف المتقين :

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

وفى ذلك لون من تطمين المؤمن على أغيار نفسه ، وعلى أنه عندما يستجيب مرة لنزغات الشيطان ، فهذه لا تخرجه من حظيرة التقوى ، لأن الله جعل ذلك من أوصاف المتقين . فالفاحشة التى تكون من نزغ الشيطان وذكر العباد لله بعدها ، واستغفارهم مع الإصرار على عدم العودة ، لا تخرجهم أبداً عن وصفهم بأنهم متقون . لأن الحق هو الغفور : « ومن يغفر الذنوب إلا الله » .

إنهم قد أُخبروا بذلك ، فلم يجرم الحق أحداً إلا بنص ، ولم يعاقب إلا بجريمة . وقول الحق سبحانه : « أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم » هو إشارة لكل ما سبق . ونلاحظ أن الحق سبحانه وتعالى جعل للعاملين بهذا العمل من التقوى قوسين : القوس الأول الذى ابتدأ به هو قوله الحق : « وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين » .

والقوس الثانى هو الذى أنهى الأمر : « أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجرى من تحتها الأنهار » .

فالجنة الأولى التى ذكرها الله إلهاباً للعواطف النفسية لتقبل على ما يؤدى لهذه الجنة ، وبعد ذلك ذكر الأوصاف والأصناف وجعل الجنة أجراً . « ونعم أجر العاملين » .

والأجر عادة هو ما يأخذه العامل نتيجة العمل . والأجر حين يأخذه العامل نتيجة لعمل يتوقف على تقييم العمل عند صاحب العمل نفسه . فزيادة الأجر ونقصه تقدير من صاحب العمل ، وأيضاً تقدير للعامل . فإن طلب أصحاب عمل متعددون عاملاً محدداً فله أن يطلب زيادة ، وإن لم يطلبه أحد فهو يقبل أول عرض من الأجر نظير أداء العمل .

إذن فالمسألة مسألة حاجة من صاحب عمل ، أو حاجة من عامل ، وحين ننظر إلى الصفقة فى الآخرة نجد أنها بين إله لا يحتاج إلى عملك . ومع أنه لا يحتاج إلى عملك جعل لعملك أجراً .

ما هذه المسألة ؟ . هو ليس محتاجاً إلى عملك ، ويعطيك أجراً على عملك ويقول لك : إن هذا الأجر هو الحد الأدنى ، لكن لى أنا أن أضاعف هذا الأجر ، ولى أن أتفضل عليك بما فوق الأجر . فكم مرحلة إذن ؟ إنها ثلاث مراحل ، مع أنه سبحانه لا يستفيد من هذا العمل إلا أنه وضع ثلاث مراتب للأجر .

إذن فالحاجة من جهة واحدة هى جهتك أنت أيها العبد ، أنت تحتاج إلى خالقك وهو لا يحتاج إليك ، ومع ذلك يعطيك الإله الحق الأجر لا على قدر العمل فقط ، ولكن فوق ذلك بكثير . إن الذى تعمل له يوماً من العباد قد يعطيك ـ على سبيل المثال ـ ما يكفيك قوت يوم ، أو قوت يوم ونصف يوم . ولكنك حين تأخذ الأجر من يد الله فإنه يعطيك أجراً لا تنتهى مدة إنفاقه ؛ فهو القائل : « ونعم أجر العاملين » .

هذا هو الأجر الذى يقال فيه : نعم هذا الأجر ؛ لأنه أجر لا يتناسب مع مجهودى ، بل يفوق كل ما بذلتَ من جهد وقادم من جهة لا تحتاج إلى هذا المجهود .

إنه سبحانه متفضل على أولاً . ومتفضل على أخيراً ، ليدل الحق سبحانه وتعالى على أنك ـ أيها العبد ـ حين تعمل الطاعة يَعود أثر الطاعة على نفسك ومع ذلك فهو يعطيك أجراً على ما فعلت .

وأوضحنا أن هذه الآيات جاءت بين آيات معركة أُحُد إرشاداً واستشهارا للأحداث التي وقعت في أُحُد ، حتى إذا عاش الإنسان في تصور الأحداث فالأحداث تكون ساخنة ، ويكون التقاط العبرة منها قريباً إلى النفس ؛ لأن لها واقعاً يُحتِّمها ويؤكدها . والحق سبحانه وتعالى يقول من بعد ذلك :

﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ ﴾

أى أنتم لستم بدعاً فى هذه المسألة . و« خلت » تعنى « مضت » ، أى حصلت واقعا فى أزمان سبقت هذا الكلام . وعادة فالأخبار التى يتكلم بها الإنسان مرة تكون خبراً يحتمل الصدق والكذب ، لكن هذه المسألة لا تحتاج إلى صدق أو كذب ؛ لأن الواقع ليس أمراً مستقبلاً ، ولكنه أمر قد سبق ، فبمجرد أن يجىء الكلام لا ننتظر واقعاً يؤكد صدق الكلام ، لأنَّ الواقع قد حدث من قبل ، فيقول سبحانه : « قد خلت من قبلكم سنن » .

والسنن هى الطرق التى يصرف الله بها كونه بما يحقق مصلحة ذلك الكون ؛ ليضمن للإنسان ـ السيد فى هذا الكون ـ ما يحقق مصلحته ، ومصلحة الإنسان تتمثل فى أن يسود الحق فى حياة الإنسان المختار كما ساد الحق فى الكون المسيّر قبل الإنسان .

وقد قلنا إن فى هذا الكون تسخيراً : أى لا إرادة له ، لا إرادة للجماد ولا للنبات .

ولا للحيوان فى أن تفعل الخير لك أو لا تفعل . فلم يحدث أن جاء إنسان لأرض صالحة للزراعة ، ووضع فيها بذوراً ، فلم تنبت الأرض وقالت له : لن أعطيك ، ولم تقل الأرض يوماً عن إنسان : إنه كافر فلن أعطى له الرزق .

إن الأرض مسخرة لخدمة الإنسان مادام يأخذ بأسبابها ؛ فهى تؤدى له . والحيوانات أيضا مسخرة لخدمتك لا باختيارك ، ولا بقدرة تسخيرك لها ، ولكن بتسخير الله لها أن تفعل .

وقلنا :إن الإنسان قد تكون عنده مطية ، مثل بعض الفلاحين ، فمرة يجعلها صاحبها تحمل أكوام السباخ من روث الحيوان وفضلاته ، وبعد ذلك يلوح له أن يخرجها من عملها هذا ويجعلها ركوبة له ، ويدللها بالأشياء التى تعرفونها من لجام جميل وسرج أجمل ، ويرفهها فى حياتها وينظفها .

هل فى الحالة الأولى امتنعت المطية عن حمل السباخ أو امتنعت فى الحالة الثانية عن حمل الإنسان ؟ لا ؛ أنت تسيرها مثلما تريد أنت ، فليس لها اختيار . ولا النبات له اختيار ، ولا الجماد له اختيار ، ولا الحيوان أيضاً ، إنما الاختيار للإنسان .

وقد حكم الله اختيار الإنسان بمقادير يكون الإنسان مسخراً فيها حتى لا يظن أنه استقل بالسيادة فأصبحت له قدرة ذاتية . والحق يحكم الإنسان بأشياء يجعلها قهرية على الإنسان كى يظل فى إطار التسخير . ويترك الحق للإنسان أشياء ليبقى له فيها الاختيار . فإذا ما نظرنا إلى الكون وجدنا أن ما لا اختيار فيه لشىء يسير على أحدث نظام ولا تصادم فيه ، والذى فيه اختيار للإنسان هو الذى يختل ، لماذا ؟.

لأن الإنسان قد يختار على غير منهج الذى خَلَق وهو الله ـ سبحانه وتعالى ـ فإذا أردت أن يستقيم لك الأمر أيها المختار فاجعل اختيارك فى إطار منهج الله . وحين تجعل اختيارك فى إطار منهج الله تكون قد أصبحت سويًا كبقيّة الأجناس وتسير الأمور معك بانتظام .

وعندما تقارن بين شىء للإنسان فيه اختيار وعمل ، وشىء لا اختيار للإنسان فيه

ولا عمل ، فأنت تجد أن الشيء الذى لا اختيار للإنسان فيه مستقيم الأمر ، ولا خلاف فيه أبداً ، أما الشيء الذى فيه اختيار للإنسان ، فأنت تجد فيه الخلاف .

مثال ذلك : لو نظرنا إلى وسيلة مواصلات من الحيوانات كالجمال أو الخيل أو الحمير ، فإننا نجدها تسير فى طريق واحد ، وتتقابل جيئة وذهابا فلا يحدث تصادم بين حمار وحمار ، ولا قتل لراكب أحد الحمارين .

إن الحيوانات يتفادى ويتحامى بعضها بعضاً حتى لو كان الراكب نائماً . ومهما كان الطريق مزدحماً فالحيوانات لا تتصادم ؛ لأن ذلك من نطاق تسخير الحق للحيوان .

ولننظر إلى الإنسان حين تدخّل ليصنع وسيلة مواصلات ، صنع الإنسان ألوان السيارات ، يقودها الإنسان ، ومع أن الإنسان هو الذى يقود السيارات ، وبرغم ذلك بدأت تأتى المخالفات والمصادمات والحوادث ؛ لأن للإنسان يداً فى ذلك .

والحق سبحانه وتعالى يريد أن يدلك على أن ما خلق مسخراً بأمر الله وتوجيهه لا يتأتى منه فساد أبداً ، إنما يتأتى الفساد مما لك فيه اختيار ، فحاول أن تختار فى إطار منهج الله . فعندما يقول الحق لك : « افعل كذا ولا تفعل كذا » فعليك أن تصدق وتطيع ؛ لأن الحق سبحانه عندما سخر الأشياء للإنسان سارت بانتظام رائع ، وأنت أيها العبد عندما تطيع الله فإن الأمور فى حياتك تمشى بيسر .

ولذلك قلنا : إن الناس لم تشتك قط أزمة شمس ، ولم يشتكوا أزمة هواء ، لكن لماذا اشتكوا أزمة طعام ؟ إن الإنسان له دخل فى إنتاج الطعام . فما للإنسان فيه دخل يجب أن يحكمه قانون التكليف من الله : « افعل كذا ولا تفعل كذا » .

الكون مخلوق بحق . ومعنى أنه مخلوق بحق أن كل شيء فى الوجود يؤدى مهمته كما أرادها الله ، وكما سُخّر من أجله . وإذا ما قام الإنسان بتنفيذ التكليف فكل شيء يسير بحق . وإن ترك الإنسان التكليف وأخذ باختياره فإنه يصير إلى باطل ونتج ما هو باطل ، والكون مبنى على الحق .

﴿ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾

(سورة الدخان)

إن الحق جعل للكون قضايا ثابتة ، فلا شيء يعتدى على شيء آخر أبداً . واختيار الإنسان هو الذى يأتى بمقابل الحق وهو الباطل ، ولذلك يصون الله الكون بأن يبين أن الحق يصطدم بالباطل ، والباطل يصطدم بالحق لكن الحق يجيء ويبقى ، والباطل يزهق ويزول ، ويظهر الله لنا ذلك أمام أعيننا يقول تعالى :

﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

إذن فقوله سبحانه : « قد خلت من قبلكم سنن » يعنى : اعتبروا بما سبقكم وانظروا إلى اصطدام الباطل بالحق ، أدام وبقى اصطدام الباطل بالحق ؟ لا ؛ لأن الباطل كان زهوقا . ولذلك نحن نرى أمثلة عملية لذلك لا أقول فى مواكب الناس بعضهم مع بعض ، ولكن فى موكب الباطل مع حق السماء . وحق السماء يمثله الرسل والمناهج التى جاءت من عند الله وكل حق جاء من السماء وجاء من مناهج الله قابله قوم مبطلون .

لماذا ؟ . لأن السماء دائماً لا تتدخل إلا حين يشيع الفساد ، ومادام الفساد يشيع فإن هناك طائفة منتفعة بالفساد ، وهذه الطائفة المنتفعة بالفساد وبالباطل تدافع عنه وبعد ذلك يأتى موكب السماء ليصادم هذا الباطل والفئة المنتصرة للباطل ، فتنشأ معركة ، فقال الحق حينئذ : « قد خلت من قبلكم سنن » . قالها الحق لنعرف أن الباطل زهوق ، وأن كل معارك أهل الأرض مع منهج السماء قد انتصر فيها الحق . ولذلك تأتى سورة العنكبوت لتبين لنا ذلك ، بداية من قوله سبحانه :

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾

(سورة العنكبوت)

هذه هى الصورة الأولى ، وتأتى الصورة الثانية :

﴿ وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾

(سورة العنكبوت)

إذن فانظروا إلى مساكنهم الباقية لتدلكم على ما حدث لهم . والصورة الثالثة :

﴿ وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُواْ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾

(سورة العنكبوت)

وساعة تسمع « وما كانوا سابقين » . أى كأن هناك حاجة تلاحقهم ، والذى يلاحقه شىء فإنه يحاول أن يسبقه ، لكنهم لا يستطيعون . وتأتى السنن واضحة بعد ذلك :

﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَاۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾

(سورة العنكبوت)

إذن فصراع الحق والباطل قد تقدم ووقع فى أمم قد سبقتكم وبقيت لها مساكن ، فمن شاء أن يذهب إليها ليتأكد فليذهب ، ولا تزال مدائن صالح ، ولا تزال هناك آثار عاد ، وكل مكان فيه أثر من الآثار . ولذلك يوضح الحق : فإن كنتم تريدون التأكد من ذلك فأنا قد أخبرت ، ومن آمن بى فليصدق خبرى ، ولغير المؤمن ولمن يريد اطمئنان قلبه يقول سبحانه :

﴿ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾

(الآية ٣٦ سورة النحل)

إن الحق سبحانه وتعالى يمثل صراع الحق ـ وهو الشيء الثابت ـ مع الباطل ، وهذه القضية موجودة حتى فيما لا اختيار له . ويصنعها الحق فيهم ، صراعا بين حق وباطل فيها لا اختيار له لمصلحة الإنسان أيضاً . وقد جعل سبحانه الصراع بين الحق والباطل فى أشياء ليست من الإنسان ولكنها تخدم الإنسان ، وهذه نراها فى الأمور المادية . أما فى القيم فالحق يقول :

﴿ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ ۚ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾ ﴾

(سورة الرعد)

إنه سبحانه أنزل من السماء ماء فسال فى الأودية ، والأودية كما نعرفها هى المكان المنحصر بين جبلين ، فإذا نزلت الأمطار على الأعالى فإنها تنحدر إلى الأسفل وتسيل فى الأودية . والوديان هى محل الخصب ؛ لأن الغرين والطمى الذى ينزل من الجبال مع مياه المطر ويترسب ويصير تراباً خصباً يخرج منه الزرع . وكل وادٍ من الوديان يأخذ على قدر سعته ، وباقى المياه يبحث له عن مسلك آخر ، ولو إلى باطن الأرض ، وذلك كان مظهراً مألوفاً فى الجزيرة العربية ، فعندما يأتى السيل فإن الأودية تمتلىء ماءً ، كل وادٍ يأخذ على قدر سعته . « فاحتمل السيل زبداً رابياً » ونحن نراه فى الحقول ونسميه « الريم » الذى يطفو على سطح الماء ، ما الذى يحدث لهذا الريم ؟ إنه يتجمع ويطفو ثم يركن ويميل جانباً . ألم تر القدْر بها لحم تفور ؟. إننا نجد الريم قد طفا على السطح . وهذا الريم فيه أشياء خارجة عن عنصر الشيء الموجود فى القدر ، فإذا ما جاءت حرارة النار أخرجته على السطح ، فإما أن يخرجه الإنسان خارج القدر ، وإما أن يتركه فيتجمد على الجوانب وينتهى .

ومن أين جاء هذا الزبد ؟ إنه يأتى من الأرض ، والأرض فيها أشياء كثيرة ، كجذور النبات وبقايا ما حمله الهواء وتتخلل هذه الأشياء مسام الأرض ، هذه الأشياء عندما توجد فى المسام ، وتأتى الجذور الصغيرة لتنمو فتعوقها عن أخذ غذائها ؛ لذلك فعندما ينزل الحق الماء من السماء فإن الماء يجعل هذه الأشياء تطفو على السطح ؛ ليجعل هناك منفذاً للجذور الصغيرة .

وينزل الله المطر ليغسل التربة كلها ، ويجعل هذه الأشياء تطفو ؛ لأنها غثاء ، ويطفو الغثاء . وساعة أن يطفو الغثاء فإياك أن تفهم أن ذلك علو ، إنه علو إلى انتهاء ، كذلك فورة الباطل .

إياك أن تظن أن الزَبَد له فائدة ، أو أن ارتفاع الريم كان علواً على ما فى القدر ، لا . إنه تطهيرٌ لما فى القدر أو الإناء ، ولهذا قال الحق : « فاحتمل السيل زبداً رابياً » .

وإن لم تذهب آثار الريم بحركة الماء التموجية فإنها ستذهب بطريقة أو بأخرى . ولننظر إلى الأشياء القذرة التى تلقى فى البحر نجد أنها بعد مدة قد خرجت إلى الشاطىء .

﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾

(من الآية ٣١ سورة المدثر)

إنها تخرج على الشاطىء ويجمعها المكلفون بتنظيف الشاطىء . وإلا كيف تتم صيانة الماء ؟ إنه سبحانه يجعل الماء ينظف نفسه بحركته الذاتية . إذن فالماء عندما ينزل سيلاً ، فإنه ينقى التربة من العوائق التى تعوق غذاء الجذيرات الصغيرة ، وقد لا يكتفى بعضنا بهذا المثل ، فيضرب لنا الله مثلاً آخر :

﴿ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ﴾

(من الآية ١٧ سورة الرعد)

ونحن نرى هذه الحكاية عندما يضعون أى معدن فى النار ، فإن المعدن ينصهر ويصير كالعجينة وتخرج منه فقاقيع ونحن نسميها خبث المعدن ، وعندما نخرج الخبث من المعدن فإنه يصير قوياً ، إذن فالنار قد صهرت المعدن ، وأخرجت منه الخبث الضار فيه،أو الذى يجعله لا يؤدى مهمته بكفاءة عالية ، فأنا قد أصنع من الحديد درعاً قوية أو أريد أن أستخرج منه الصلب ، وهذه العمليات معناها أننا نصْهر الحديد بالنار لنزيل خبثه ليزداد قوة . وكذلك الذهب والفضة ساعة نريد أن نخلصهما من هذه الآثار فإننا نصهرهما لنخرج منهما الأشياء الخارجة عنهما أى التى تختلط بهما وتشوبهما وهى ليست منهما .

لماذا إذن يا ربّ هذا التمثيل الحسى فى المياه ؟ والحلية التى لا تؤدى ضرورة ، والمتاع وهو الذى يؤدى ضرورة ؟ إنه سبحانه يقول : « كذلك يضرب الله الحق والباطل » .

إن الحق كالماء ، والحق كالنار ، والماء يحمل الزبد الرابى بعيداً عن مسام الأرض ، والنار تخرج الزبد والخَبث من المعادن ، وتجعل المعادن خالصة للمنفعة المطلوبة لنا ، كذلك يضرب الله الحق والباطل : « فأما الزبد فيذهب جفاءً » .

وجفاءً أى مطروحاً مرمياً ، « وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض » . ذلك هو صراع الحق والباطل فى المبادىء والقيم ويصوره الله فى الأمور المادية . ومن العجيب أنه يصوره بمتناقضين ولكنهما متناقضان يؤديان مهمة واحدة ، ماء ونار ، فإياك حين ترى شيئاً يناقض شيئاً أن تقول : هذا يناقض ذاك ، لا.لأن هذا الشىء مطلوب لمهمة ، وذاك الشىء مطلوب لمهمة أخرى .

إذن فقول الحق سبحانه : « قد خلت من قبلكم سنن » هو لفت لنا إلى صراع الحق مع الباطل ، وأن الإنسان قد يرى الباطل مرة وله فورة وعلو ، ونقول : هذا إلى جُفاء . وهذه سنة من سنن الحياة . وإن أردتم أن تتأكدوا منها ، فالتفتوا إلى دقة قول الحق تعالى :

« فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين » .

وهنا ملحظ عام ، وملحظ خاص ، الملحظ العام : أننا نفهم أن المقصود بذلك السير على الأرض ، وتلك هي حدود رؤيتنا ، لكن حين يتكلم الله فرؤية الله أشمل فهو الخالق لهذا الكون ، ونحن مازلنا نجهل جزئيات في هذا الكون ، ولم نعرف بعضها إلا أخيراً ، وخالق الكون هو الذى يعلم كل الخبايا .

نحن نقول : إننا نسير على الأرض ؛ لأننا كنا نفهم أن هذه الأرض ليس عليها إلاّ نحن فقط ، ثم تبين لنا ـ بعد أن أخذ العلم حظه ـ أنه لولا وجود الهواء فى الأرض لما صلحت للحياة . ولذلك فعندما تدور الأرض . فالهواء الذى حولها يدور معها ويسمونه الغلاف الجوى . إذن فالغلاف الجوى جزء من الأرض وله امتداد كبير ، فالإنسان عندما يسير فإنه يسير فى الأرض ، أما الذى يسير على الأرض فهو الذى يسير فوق الغلاف الجوى ، أما السائر على اليابسة ، والغلاف الجوى مازال فوقه فهو يسير فى الأرض لا على الأرض .

ومادامت المسألة هى سنن تقدمت ، ويريد الله منا أن نعتبر بالسنن المتقدمة ، لذلك يقول لنا : « فسيروا فى الأرض » نسير بماذا ؟ . إما أن نسير بالانتقال ، أو نسير بالأفكار ؛ لأن الإنسان قد لا يملك القدرة على السير ويترك هذه المهمة للرحالة ، والرحالة ـ مثلاً ـ هم الذين ذهبوا إلى جنوب الجزيرة ، ورأوا وادى الأحقاف ووجدوا أن عاصفة رمل واحدة تطمر قافلة بتمامها .

إذن ففيه عواصف وارت الكثير من الأشياء ، فعاصفة واحدة تطمر قافلة . فكم من العواصف قد هبت على مرّ هذه القرون ؟ والحق سبحانه يخبرنا بإرم ذات العماد فيقول :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى الْبِلَادِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِى الْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ طَغَوْا فِى الْبِلَادِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ ﴾ (سورة الفجر)

إنه سبحانه يخبرنا أن إرم ذات العماد التى لم يخلق مثلها فى البلاد أى متفوقة على حضارة مصر القديمة . وهى عجيبة وفيها أكثر من عجيبة فأين هى الآن ؟.

ومادامت الرمال بعاصفة واحدة ـ كما قلنا ـ تطمر قافلة ، فكم عاصفة مرت على هذه البلاد ؟. ولذلك نجد أننا لا نزال جميعاً إلى الآن حين نريد أن ننقب عن الآثار فلا بد أن نحفر تحت الأرض . لماذا هذا الحفر وقد كانت هذه الآثار فوق الأرض ؟ لقد غطتها العواصف الرملية .

والمثال على ذلك : أنك تغيب عن بيتك شهراً واحداً وتعود لتجد من التراب الناعم ما يغطى أرض البيت على الرغم من إغلاق النوافذ . فماذا تجد من حجم التراب لو غبت عن بيتك عاماً ، أو عامين ، أو ثلاثة أعوام ، رغم إحكام وإغلاق النوافذ والفتحات بالمطاط وخلافه ؟ ولكن التراب الناعم يتسرب ويغطى الأثاث والأرض . وإذا كانت هذه الأمور تحدث فى منازلنا فما بالك بالمنطقة التى فيها أعاصير وعواصف رملية ؟ هل تطمر المدن أو لا ؟

إن المدن والحضارات تطمر تحت الرمال ؛ لذلك فعندما ننقب عن الآثار فنحن نحفر فى الأرض ، وهذا لون من السير فى الأرض للرؤية والعظة . وحين يقول الحق : « فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين » فماذا يعنى بعاقبة المكذبين ؟ حين تكون أمة قد تحضرت حضارة كبيرة يقول عنها الحق :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴿١٢﴾ ﴾

(سورة الفجر)

إن الذى أقام هذه الحضارات ألا يستطيع أن يجعل لهذه الحضارة ما يصونها ؟ كيف يتم القضاء على هذه الحضارات الواسعة واندثارها وذهابها ؟.

لابد أن ذلك يتم بقوة أعلى منها ، فهذه الحضارات رغم تقدمها الرهيب لم تستطع أن تحفظ نفسها من الفناء . إنها القوة الأعلى منها ، وهكذا نصدق قوله الحق : « فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين » . إنه القيّوم الذى يرى كل الخلق ، فمن يطغى ويفسد فليلق النهاية نفسها . إذن فقوله سبحانه يحمل كل الصدق :

« قد خلت من قبلكم سنن فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين »

وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ ﴾

انظر إلى الكلمة « هذا بيان للناس » إن البيانات عندما تتأتى تأخذ قوتها وسطوتها وعظمتها من قوة من أصدر البيان ؛ أنت ساعة تجد ثورة فى مجتمع ما فإننا نسمع كلمة « بيان رقم واحد » تهتز له الدنيا وهو بيان قادم من بشر فما بالنا بالبيان القادم من الله ؟

إنه إيضاح من الله : أنا لن آخذكم على غرة « هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين » و« الهدى » : كما نعرف هو الطريق الموصل للغاية المرجوة . و« الموعظة » معناها : حمل النفس ترغيباً وترهيباً ، لعمل الخير بالترغيب ، والبعد عن الشر بالترهيب ، تلك هى الموعظة .

وكل هذه الأشياء عندما جاءت فى ثنايا آيات أُحُد بعد أن أخذنا منها العبرة والحدث مازال ساخناً . ولذلك فقبل أن يكمل لنا قصة أُحُد استثار النفوس بهذه المسألة ، ووضع لنا الأشياء المادية والقيمية ؛ لنأخذ بها فى حياتنا ، وحتى لا تنتهى قصة أُحُد وينصرف الناس عن العظات التى كانت فيها .

ومادامت المسألة هكذا ، وكان المقاتلون فى سبيل الله هم جنود الحق ، وعرفوا ذلك بتأييد الله لهم ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم بينهم . وهو حامل المعجزة الدالة على صدقه ؛ لذلك فالذى حدث فى معركة أُحُد لا يصح أن يضعفكم ؛ لأنكم تعرفون كيف يسند الله الحق ويقويه . وتعرفون حملة الله على الباطل . وقد أوضحنا لكم السنن والبيان ، ولذلك يقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ ﴾

والمقصود بقوله : « ولا تهنوا » أى لا تضعفوا ، وهى أمر خاص بالمسألة البدنية ؛ لأن الجراحات أنهكت الكثيرين فى موقعة أُحُد لدرجة أن بعضهم أقعد ، ولدرجة أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يقدر أن يصعد الجبل ، وحمله طلحة بن عبيد الله على ظهره ليقوم ، لذلك قال الحق : « ولا تهنوا » ، لأنك عندما تستحضر أنك مؤمن وأن الله لن يخلى بينك وبين جنود الباطل لأنك نصير للحق ، والحق من الله وهو الحق لا يسلم نبيه وقومه لأعدائهم ،فيوم تأتى لك هذه المعانى إياك أن تضعف . والضعف هو نقصان قوة البدن .

« ولا تحزنوا » والحزن مواجيد قلبية ، وهم قد حزنوا فقد مات منهم كثير . مات منهم خمسة وسبعون شهيداً ، خمسة من المهاجرين ، وسبعون من الأنصار ، وهذه عملية صعبة وشاقة ، وقد حزن رسول الله صلى الله عليه وسلم على الشهداء ، وغضب لمقتل حمزة ـ رضى الله عنه ـ وقال : « لن أُصاب بمثلك أبداً ! وما وقفت موقفا قط أغيظ إلىّ من هذا » ثم قال : « لئن أظهرنى الله على قريش فى موطن من المواطن لأمثلن بثلاثين رجلا منهم مكانك » .

فقال الحق : « ولا تحزنوا » ؛ لماذا ؟ لأنك يجب أن تقارن الحدث بالغاية من الحدث .

• صحيح أن القتل صعب وإزهاق للنفس ، ولكن انظر إلى أين ذهب . وانظر ماذا خلف من بعده . أما هو فقد ذهب إلى حياة عند ربه وهى ليست كالحياة عندكم . إن الحياة عندنا لها مقاييس ، والحياة عند ربنا لها مقاييس ، فهل مقاييسنا أعلى من مقاييسه ؟لا ، حاشا لله .

إذن فإذا نظرت إليه هو فاعلم أنه ذهب لخير مما ترك ، فلا تحزن عليه بل تفرح له ؛ لأنه مادامت الغاية ستصل إلى هذه المسألة . إذن فقد قصر له مسافة الحياة ، ومادامت الغاية أن يصل إلى رحمة الله وإلى حياة عند الله بكافة معانيها ، فهو سعيد بجوار ربه ، ونحن فى الغايات الدنيوية عندما نريد أن نذهب إلى مكان نُسرّ ممن يعجل لنا الزمن لنصل إلى هذا المكان .

فبدلاً من أن أذهب إلى الإسكندرية ماشياً أذهب راكباً حصاناً أو أذهب راكباً سيارة ، والمترفه يذهب راكباً طائرة ، فإذا كانت الغاية مرجوّة ومحببّة إلى النفس ، وبعد ذلك يجىء لك حدث يقرب لك المسافة من الغاية ، فلماذا تحزن إذن ؟ لقد استشهد . إياك أن تقول : إنّ الله حرمنى قوته فى نصرة الحق ، لا . هو أعطى قوة أخرى لكثير من خلقه نصر بهم الحق ، إنك عندما تعرف أن إنساناً باع نفسه لله ، لابد أن تعرف أن الغاية عظيمة ؛ ولذلك كان الرسول صلى الله عليه وسلم فى معركة بدر ، يقدم أهله ؛ لأنه يعرف أنه إن قُتل واحد منهم إلى أين سيذهب ، إذن فهو يحب أهله ، لكنه يحبهم الحب الكبير ، والناس تحب أهلها هنا أيضاً لكن الحب الدنيوى .

« ولا تحزنوا » على ما فاتكم من الغنائم أو لا تحزنوا على ما فاتكم من النصر لماذا ؟ وتأتى الإجابة ، « وأنتم الأعلون » . . ولذلك جاء مصداق ذلك حينما نادى أبو سفيان فقال : « اعل هبل » أى أن إلههم صار عالياً ، فقال الرسول لأصحابه : ألا تردون عليهم ؟ ، قالوا : بماذا نرد قال : قولوا لهم : الله أعلى وأجلّ فقال أبو سفيان : « لنا العزى ولا عزى لكم ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « أجيبوه » قالوا : ما نقول ؟ قال : « قولوا الله مولانا ولا مولى لكم » ثم قال أبو سفيان : إن موعدكم « بدر » العام المقبل ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم

لرجل من أصحابه : « قل نعم هو بيننا وبينك موعد »[1]

فـ « وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين » . فما دمتم على الإيمان فأنتم الأعلون ، وإذا أردتم أن تعرفوا معنى « الأعلون » حقاً ، فقارنوا معركة « أُحُد » بمعركة « بدر » ، هم قتلوا منكم فى أُحُد ، وأنتم قتلتم منهم فى بدر . ولكنكم أسرتم منهم فى بدر ، ولم يأسروا منكم أحداً فى « أُحُد » . وأنتم غنمتم فى بدر ، ولم يغنموا شيئاً فى أُحُد .

وأنتم الأعلون لأن الله حمى مدينتكم مع أنه لا حامية فيها ممن يكون فيه معنى الجندية . كل ذلك وأنتم الأعلون ، هذا إذا نظرنا إلى معركة بمعركة . وإن نظرنا إلى المعركة نفسها « أُحُد » وندع بدراً وحدها ، فى ظل قوله تعالى : « وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين » لقد ثبتت تلك القضية لأنكم حينما كنتم مؤمنين ـ ومن شرط الإيمان اتباع أمر الذى لا ينطق عن الهوى ـ انتصرتم . وانتصرتم انتصاراً رائعا ؛ لأنكم قتلتم فى أول جولة للحرب بضعاً وعشرين من صناديدهم وفيهم صاحب الراية . ولكنكم حينما خالفتم أمر النبى صلى الله عليه وسلم ، تلخلخ الإيمان فى قلوبكم .

إذن فالعملية التى حدثت تؤكد صدق « وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين » . فأنتم علوتم فى أول الأمر ، وعندما خالفتم الأمر صار لكم ما صار ؛ فقد صدقت القضية فى قول الله : « وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين » .

وأيضا فإنكم لو نظرتم إلى المعركة نفسها لوجدتم أن عدوّكم لم يبق فى أرض المعركة ، بل أنتم الذين بقيتم فى موضع المعركة . وأين ذهب هو ؟ أذهب إلى موقع آخر ينال فيه غلبة ونصرا ؟ لم يكن هناك إلا المدينة ، والمدينة ليس فيها أحد ، ولم يذهب عدوكم إلى هناك ، وإنما ذهب ناحية مكة ، إذن فهو الذى هرب .

وبعد ذلك ماذا حدث ؟ ألم يؤذن مؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الناس ويطلب العدوّ مرهباً له ليظنوا به القوة ، وإن الذى أصابهم لم يوهنهم عن عدوهم ؟

---

(١) رواه ابن إسحاق وأحمد والبخارى ومسلم .

ولقد خرج رسول الله ، مع من ؟ أجاء بحامية لم تشهد المعركة ؟ لا . بل قال عليه الصلاة والسلام مناديا المسلمين : « إليّ عباد الله » ، فالذين شهدوا المعركة سبعمائة ، جرح منهم الكثير وقتل منهم خمسة وسبعون ، فيهم حمزة ، ومصعب بن عمير ، وعبدالله بن جحش ، وشماس بن عثمان ، وسعد مولى عتبة ، هؤلاء خمسة من المهاجرين ، والباقى من الأنصار ، هؤلاء مطروحون من العدد الذى شاهد أول الموقعة ، حتى أن رسول الله لم يأخذ بدلاً منهم من المدينة من القوم الذين عرضوا أنفسهم ليكونوا مع الجيش الذى يطارد قريشاً ، بل آثر الرسول أن يذهب بمن ذهب معه إلى المعركة أنفسهم ، ولم يكن منهم بطبيعة الحال الشهداء أو الجرحى .

لم يقبل الرسول صلى الله عليه وسلم ممن لم يشهد المعركة إلا واحداً . وهوسيدنا جابر بن عبدالله . الذى لم يخرج فى معركة أُحُد واعتذر إلى رسول الله بأن أباه عبدالله بن عمرو بن حرام قد خلّفه على بنات له سبع وقال له :

يا بنيّ إنه لا ينبغى لى ولا لك أن نترك هؤلاء النسوة لا رَجُل فيهن ولست بالذى أوثرك بالجهاد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على نَفْسى فتخلّفْ على أخواتك فتخلف عليهن فقبل رسول الله عذره،وأذن له فخرج معه وطاردهم رسول الله ومن معه إلى حمراء الأسد ، أما والده عبدالله بن عمرو فقد استشهد فى أُحُد ومع ذلك فقد طلب من رسول الله على الرغم من استشهاد أبيه أن يخرج إلى حمراء الأسد . وذلك لنعلم أن الله يقول :

﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾

(من الآية ٣١ سورة المدثر)

هذا وإن واحداً من المشركين الذين كانوا موضع سر رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن حلفائه وهو معبد الخزاعى ، مَرَّ على رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أُحُد وقال له : يا محمد : أما والله لقد عز علينا ما أصابك ، ثم لقى أبا سفيان بن حرب ومن معه بالروحاء[1] وقد أجمعوا الرجعة إلى رسول الله صلى الله عليه

(١) الروحاء : موضع بين الحرمين على ثلاثين أو أربعين ميلا من المدينة ـ القاموس المحيط .

وسلم وأصحابه فقال له أبو سفيان: ما وراءك يا معبد ؟ قال : محمد قد خرج فى أصحابه يطلبكم فى جمع لم أر مثله ، ولم يزل بهم حتى ثنى أبا سفيان ومن معه فولوا وجوههم إلى مكة خائفين مسرعين ، وقد ذهب رسول الله إلى حمراء الأسد فلم يجد أحداً فعسكر رسول الله ثلاثة أيام هناك ، ومعنى ذلك أنهم هم الذين فروا من المعركة . إذن فأنتم الأعلون ، ولكن لاحظوا الشرط « إن كنتم مؤمنين » . ثم بعد ذلك يُسَلِّى الله المؤمنين فيقول :

﴿ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ ﴾

وقد تكلمنا ـ من قبل ـ عن « المس » وهو : إصابة بدون حس . . أى لمس لكنك لا تحس بحرارة أو نعومة مثلا ، إنما « اللمس » هو أن تحس فى الشيء حرارة أو نعومة ويحتاج إلى الالتصاق المؤقت ، إنما « المس » هو ما لا تكاد تدرك به شيئاً ، و« القَرْح » هو : الجراح ، وفى لغة أخرى تقول « القُرح » ـ بضم القاف ـ وأقول:القُرح وهو الألم الناشيء من الجراح ، كى يكون لكل لفظ معنى .

وأنت قد ترى بعض الألفاظ فتظن أن معناها واحد فى الجملة ، إلا أن لكل معنى منها ملحظاً ، أنت تسمع مثلاً : رأى ، ونظر ، ولمح ، ورمق ، ورنا . كل هذه تدل على البصر . لكن كل لفظ له معنى :

رمق:رأى بمؤخر عينيه ، ولمح:أى شاهد من بعد ، ورنا:نظر بإطالة ، وهكذا .

ويقال أيضاً : جلس ، وقعد ، فالمعنى العام يكاد يكون واحداً ، لكن المعنى الدقيق يوضح أن الجلوس يكون عن اضطجاع . والقعود عن قيام ، كان قائماً فقعد ، والاثنان ينتهيان إلى وضع واحد ، فكذلك « قَرح » و« قُرح » كل لفظ له معنى دقيق .

ويقولون ـ مثلاً ـ إن للأسد أسماء كثيرة ، فيقال : « الأسد » و« الغضنفر » و« الرئبال » و« الوَرْد » و« القسْورة » . صحيح هذه أسماء للأسد ، ولكن لكل اسم معنى محدد ، فـ « الأسد » هو اللفظ العام والعَلَم على هذا الحيوان ، و« الغضنفر » هو الأسد عندما ينفش لبدته ، و« الوَرْد » هو حالة للأسد عندما يكون قد مط صلبه ، فكل موقف للأسد له معنى خاص به .

وقوله الحق : « إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله » لاحظ أن المتكلم هو الله فافطن جيداً إلى مرادات كلامه . ونعرف أنه فى الشرط والجواب ، أن الشرط يأتى أولاً ثم يأتى الجواب من بعد ذلك مترتبا عليه ونتيجة له ، كقولنا « إن تذاكر تنجح » إن النجاح هو جواب لشرط وهو الاستذكار .

وقوله الحق : « إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله » فهل المعنى المراد من هذه الجملة الشرطية أن مس القرح للكافرين الذى حدث فى بدر كان كجزاء لمس القرح للمؤمنين فى أحد ؟ لا ، إنه لا يكون أبداً جواباً لشرط ؛ لأنه لو كان جواب شرط لقال الحق : إن يمسسكم قرح فسيمس القوم قرح مثله . ولكنه لم يقل ذلك لأن القرح الذى أصاب المشركين فى بدر كان أسبق من القرح الذى أصاب المؤمنين فى أحد .

وكأن الحق يقول : إن يمسسكم قرح فلا تبتئسوا ؛ فقد مس القوم قرح مثله ، وليس ذلك جواب الشرط ، ولكنه جاء ليُستدل به على جواب الشرط ، أى أنه تعليل لجواب الشرط ، أقول ذلك حتى لا يتدخل دعىّ من الأدعياء ويتهم القرآن ـ والعياذ بالله ـ بما ليس فيه . إنه ـ سبحانه ـ يثبت المؤمنين و يسلّيهم . ومثال ذلك ما نقوله نحن لواحد إذا أصابته كارثة :

إن كان قد حدث لك كذا ، فقد حدث لخصمك مثله . إذن فنحن نسليه . والمقصود هنا أن الحق يسلّى المؤمنين : إن يمسسكم قرح فلا تبتئسوا ، فليكن عندكم سُلّوٌ ولْتجتازوا هذا الأمر ولترض به نفوسكم ؛ لأن القوم قد مسهم قرح مثله .

والأسوة والتسلية ، هل تأتى بما وقع بالفعل أم بما سيقع ؟ . إنها تأتى بما وقع بالفعل ، إذن فهى تعلل تعليلاً صحيحاً : « إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله » .

وأطلق الحق سبحانه من بعد ذلك قضية عامة : « وتلك الأيام نداولها بين الناس » . ما معنى المداولة ؟ . داول أى نقل الشىء من واحد لآخر . ونحن هنا أمام موقعتين ؛ غزوة بدر وغزوة أُحُد . وكان النصر للمسلمين فى غزوة بدر بالإجماع ، أما غزوة أُحُد فلم يكن فيها هزيمة بالإجماع ولم يكن فيها نصر .

إذن فقوله الحق : « وتلك الأيام نداولها بين الناس » أى مع التسليم جدلاً بأن الكفار قد انتصروا ـ رغم أن هذا لم يحدث ـ فإننا نقلنا النصر منكم أيها المؤمنون إليهم .

وإياك أن تفوتك هذه الملاحظة ، بأن النصر لم ينتقل إليهم إلا بمخالفة منكم أيها المؤمنون . ومعنى مخالفة منكم ، أى أنكم طرحتم المنهج . ومعنى أنكم طرحتم المنهج ، أى أنكم أصبحتم مجرد « ناس » مثلهم .

ومادمتم قد صرتم مجرد ناس بدون منهج مثلهم ومتساوين معهم ، فإن النصر لكم يوم ، ولهم يوم . ولنلحظ أن الحق لم يقل : إن المداولة بين الناس هى مداولة بين مؤمنين وكافرين .

فإن ظللتم مؤمنين فلا يمكن أن ينتقل النصر إلى الكفار ، إنما النصر يكون لكم . انظر ماذا قال : « وتلك الأيام نداولها بين الناس » ولم يقل بين المؤمنين والكافرين ، أى بينكم وبين قريش .

وليس المقصود بالأيام ما هو معروف لدى الناس من أوقات تضم الليل والنهار ، ولكن المقصود بـ« الأيام » هنا هو أوقات النصر أو أوقات الغلبة . ويقال أيضاً : « يوم فلان على فلان » إذنّ «وتلك الأيام نداولها بين الناس » لم تتضمن المداولة بين المؤمنين والكافرين ، ولكنها مداولة بين الذين مالت أبصارهم إلى الغنائم فتخلخل إيمانهم ، ففازت قريش ظاهرياً . فلو ظللتم على إيمانكم لما حدث ذلك أبداً . لكنكم تخليتم عن منهج ربكم ، وبذلك استويتم وتساويتم مع غير المؤمنين ، وبذلك تكون الأيام لذلك مرة ولهذا مرة أخرى ، إنها مطلق عدالة .

علينا أن نتذكر الشرط السابق ، لا لعدم الهزيمة . بل للعلو والنصر :

« وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين » .

إن الحق سبحانه فى مسألة مداولة الأيام ينبه المؤمنين الذين تخلخل إيمانهم : مادمتم اشتركتم معهم فى كونكم مجرد « أناس » فيصبح النصر يوماً لهم ويوماً لكم ، والذكى العبقرىّ الفطن الذى يحسن التصرف هو من يغلب ؛ لأن المعركة هنا تدور بين قوة بشر مقابل قوة بشر . ومادام المسلمون قد تخلوا عن منهج الله فقد صاروا مجرد بشر فى مواجهة بشر . ولذلك قلنا : إنه عندما تخلى الرماة عن إنفاذ أمر القائد الأعلى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ظهرت عبقرية خالد بن الوليد على عبقرية المقاتلين المسلمين .

ويجب أن نلحظ فى قوله الحق : « وتلك الأيام نداولها بين الناس » أننا لا يمكن أن نقول : إن مداولة الأيام تكون بين المؤمنين والكافرين ، إنما هى بين الناس ؛ لأن الناس هم مجموعة الإنسان ، فإن تجردوا عن منهج السماء فهم سواسية ، وصاحب الحيلة يغلب ، أو صاحب القوة يغلب ، أو صاحب العدد أو العُدّة يغلب .

ولكن ما الذى يعوض كل تلك الإمكانات ويحقق النصر ؟ إنك إن تأخذ الله فى جانبك فلن يجرؤ مخلوق أن يكون فى مواجهة الحق فى معركة . لقد قلنا قديماً وعلينا أن نعيها جيداً : إن الولد الصغير حينما يضطهده زملاؤه فيلجأ إلى حِضن أبيه ، عندئذ ينصرف كل منهم إلى حاله ، لكن أقرانه يستطيعون أن يهزموه عندما يبتعد

عن أبيه . فما بالنا ونحن عيال الله ؟ وكذلك شأن الكفار مع المؤمنين .

إن الكفار قادرون على الانفراد بالمؤمنين حينما يتخلى المؤمنون عن منهج الله ؛ لأن الله لن ينصر أناساً ليسوا على منهجه ، فلو نصر الله أناساً على غير منهجه فإن ذلك يبطل قضية الإيمان . وعندما نستقرىء القرآن الكريم ؛ نجد أن كل خبر عن الإنسان وهو معزول عن المنهج الإلهى هو خبر كله شر .

فسبحانه يقول :

﴿ وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ ﴾

(سورة العصر)

إن الإنسان على اطلاقه لفى خسر ، ولكن من الذى ينجو من الخسران ؟ وتأتى الإجابة من الحق فيقول :

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣ ﴾

(سورة العصر)

وتتأكد القضية فى موضع آخر من القرآن الكريم فيقول ـ سبحانه ـ

﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝١٩ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ۝٢١ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ۝٢٢ ﴾

(سورة المعارج)

إذن كل كلام ـ فى القرآن ـ عن الإنسان على إطلاقه يأتى من ناحية الشر . وما الذى ينجيه من ذلك ؟ إنه المنهج الإلهى .

إذن فقول الحق : « وتلك الأيام نداولها بين الناس » تحمل تأنيبا ولذعة خفيفة لمن أعلنوا الإيمان ولكنهم تخلفوا عن أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أُحد .

راجع أصله وخرج أحاديثه الدكتور أحمد عمر هاشم نائب رئيس جامعة الأزهر .

وبعد ذلك يقول الحق سبحانه : « وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين » .

ففى وقت النصر نجد حتى الذى لم يشترك فى المعركة يريد أن يُدخل نفسه ضِمن المنتصرين . لكن وقت الهزيمة فالحق يَظْهر ، والذى يظل فى جانب الهزيمة معترفا بأنه شارك فى نزولها بالمسلمين وان لم يكن شارك فقد عذر أو لام من كان سببا فيها ، وهو مع ذلك يسهم فى حمل أوزارها وآثارها الضارة ، ويتحمل ويشارك فى المسئولية ، إنه بذلك يكون صادقا .

وقد يقول قائل : هل الله لا يعلم الذين آمنوا ؟ لا ، إنه سبحانه وتعالى يعلم الذين آمنوا سواء حدثت معركة أو لم تحدث . لكن علم الله الأزلى الغيبىّ لا نرى نحن به الحُجّة ، ولذلك لا تكون الحجّة ظاهرة بيننا ، ولكن حين يبرزُ علم الله إلى الوجود أمامنا فإنه علم تقوم به الحُجة واضحة على من آمن ، وعلى من لم يحسن الإيمان ، وذلك حتى لا يدَّعى أحد لنفسه أنه كان سيفعل ، لكن الفرصة لم تواته .

وهكذا تأتى المواقف الاختبارية والابتلاءات ليعلم كل منا نفسه وتبرز الحُجة علينا جميعا . إذن : فهناك فرق بين علم الله الأزلىّ للأشياء كما سوف تحدث ، ولكن لا تقوم به الحُجة علينا . فقد يدعى البعض أنه لو قامت معركة شديدة فإنهم سوف يصمدون ، ولكن عندما تقوم المعركة بالفعل فنحن نرى مَنْ الصّامد ومَنْ هو غير ذلك من المتخاذلين الفارين ؟ ولنضرب لذلك مثلا ولله المثل الأعلى : نحن فى حياتنا العادية نجد أن عميد إحدى الكليات يأتى إلى المدرس ويقول له : نحن نريد أن نعقد امتحانا لنتعرف على المتفوقين من الطلاب ، ونمنح كُلا منهم جائزة .

فيرد المدرس : ولماذا الامتحان ؟ إننى أستطيع أن أقول لك: من هم المتفوقون ، وأن أرتبهم لك من الأول ومن الثانى وهكذا .

لكن عميد الكلية يصر على أن يعقد امتحانا حتى لا يكون لأحد حجة ، ويختَار العميد مدرسا آخر ليضع هذا الامتحان . وتظهر النتيجة ويكون توقع المدرس الأول

هو الصائب ، وهكذا يكون تفوُق هؤلاء الطلاب تفوقا بحُجة . وإذا كان ذلك يحدث فى المستوى البشرى فما بالنا بعلم الله الأزلى المطلق ؟

إن الحق بعلمه الأزلى يعلم كل شىء ومُحيط بكل شىء ، وهو سبحانه لا يقول لنا : أنا كنت أعلم أنكم لو دخلتم معركة ستفعلون كذا وكذا . .

وكان يمكن أن يجادلوا ويدعوا لأنفسهم أشياء ليست فيهم ، لكن الحق يضع المعركة وتكون النتيجة مطابقة لما يعلمه الله أزلا . إذن فالتغيير هنا لا يكون فى علم الله ، لكن التغيير يكون فى المعلوم لله ، ليس فى العالِم بل فى المعلوم بحيث نراه حُجة علينا .

ويقول الحق : « ويتخذ منكم شهداء » وساعة تسمع كلمة « يتخذ » هذه ؛ اعرف أنها اصطفاء واختيار . وسبحانه يقول :

﴿ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴾

(من الآية ١٢٥ سورة النساء)

أى أنه جل وعلا قد آثر إبراهيم واصطفاه ، إذن فالاتخاذ دائما هو أن يأخذه إلى جانبه لمزية له ورفعة لمكانته .

وحين يقول الحق : « ويتخذ منكم شهداء » فنحن نعرف أن « شهداء » هى جمع شهيد ، وكلمة شهيد لها معانٍ متعددة ، فالشهيد فى القتال هو الذى يُقتل فى المعركة ، وهذا سيكون حيا ويرزق عند ربه . وإياك أن تقول : إننا عندما نفتح قبر الشهيد سنجده عظاما وترابا . وهذا يعنى أنه سلب الحياة . . لا ، إن الله وضح أن الشهيد حىّ عِنده ، وليس حيا عند البشر . وإذا فتح أحد من الناس القبر على الشهيد فسيراه عظاما وترابا ؛ فقد جعل الله سبحانه للشهيد حياة عنده لا عندنا .

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

إذن فللشهداء عند ربهم حياة لا نعرف كنهها ، ويوم نفتح عليهم قبورهم تصير أمرا محسا ، ولكن الله نبهنا أن الشهداء أحياء عند ربهم . وعندما نتأمل كلمة « شهداء » نجد أنها تعنى أيضا الشهادة على الحق الذى قامت من أجله المعركة ، وكل إنسان يُحب الخير لنفسه ، فلو لم يعلم هؤلاء أن إقدامهم على ما يؤدى إلى قتلهم خير لهم من بقائهم على حياتهم لما فعلوا .

وبذلك يكون الواحد منهم شاهدا للدعوة وشهيدا عليها . وقد ينصرف المعنى فى « شهداء » إلى أنهم بَلَّغوا الدعوة حتى انتهت دماؤهم . ويذيل الحق الآية بقوله : « والله لا يحب الظالمين » .

ومعنى هذا التذييل أن المعركة يجب أن تدور فى إطار الحق ، ومثلما قلنا : مادام الناس متخلفين عن المنهج فإن الله لا يظلمهم بل ستدور المعركة صراع بشر لبشر ، والقادر من الطرفين هو الذى يغلب . فالحق سبحانه بالرغم من كراهيته للكفر إلا أنه لا يُحابى المسلم الذى لا يتمسك بمطلوب الإيمان ، لذلك قد يغلب الكافرُ المسلمَ الذى لا يتمسك بمطلوب الإيمان ، ولكن إن تمسك المؤمنون بمطلوب الإيمان فالنصر مضمون لهم بأمر الله . وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمۡحَقَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾ ﴾

والتمحيص يختلف عن المحْق ، لأن التمحيص هو تطهير الأشياء وتخليصها من العناصر الضارة ، أما المحق فهو الذهاب بها كلها . ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَيَعۡلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾ ﴾

إن الإيمان ليس مجرد كلمة تقال هكذا ، بل لابد من تجربة تثبت أنكم فُتِنتُم ونجحتم فى الفتنة ، والفتنة هى الامتحان . إذن فلا تحسبوا أن المسألة سوف تمر بسهولة ويكتفى منكم أن تقولوا نحن نحمل دعوة الحق ، لا . إذا كنتم صادقين فى قولكم يلزمكم أن تكونوا أسوة حين يكون الحق ضعيفا ؛ فالحق حين يكون قويا فهو لا يحتاج إلى أسوة . بل قضية الإيمان الحق تحتاج إلى الأسوة وقت الضعف . ودخول الجنة له اختبار يجب أن يجتازه المؤمن .

والحق يقول : « ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين » وعندما نسمع ذلك فعلينا أن نعرف أن الله يعلم علما أزليا مَن المجاهد ومن الصابر ، ولكنه علم لا تقوم به الحُجة على الغير ، فإذا حدث له واقع صار حُجة على الغير . وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾ ﴾

وكان القوم الذين فاتهم شرف الاشتراك فى بدر قد أرادوا أن يذهبوا مع الرسول للمشاركة فى غزوة أُحد ، ويوضح لهم الحق : أكنتم تظنون أن تمنى المعارك وحده يحقق النصر ، وهل كنتم تظنون أن كل معركة يدخلها المؤمنون لابد أن تكون منتصرة ؟ وإن كنتم تظنون أن المسألة هى نصر لمجرد التمنى ، فمعنى ذلك أنكم دخلتم إلى معسكر الإيمان من أجل الفأل واليُمن والنصر ، ونحن نريد أن نعرف من الذى يدخل معسكر الإيمان وهو بائع روحه وهو مُحتسب حياته فى سبيل الله .

فلو أن الأمر يمر رخاء ، لدخل كل واحد إلى معسكر الإيمان ، لذلك يقول الحق : « أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين » . فهل ظننتم أنكم تدخلون الجنة بدون أن يُخرج الحق على الملأ ما علمه

غيبا ، وتترجمه الأحداث التى يُجريها سبحانه فيصير واقعا وحُجة عليكم ، ويبرز الله سبحانه من الذين جاهدوا ؛ أى دخلوا فى زُمرة الحق ، والذين صبروا على الأذى فى الحق .

ويقول سبحانه : « ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه فقد رأيتموه وأنتم تنظرون » أى إن ما كنتم تتمنونه قديما صار أمامكم ، فلو أن التمنى كان صحيحا لأقبلتم على الموت كما تقبلون على الحياة . ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ ﴾

ونحن نعرف أن رسول الله صلى الله عليه وسلم اسمه الأول هو « محمد » ، وله اسم ثانٍ عرفناه من القرآن وجاء فى الإنجيل هو « أحمد » :

﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ قَالُوا۟ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾ ﴾

(سورة الصف)

وقد ورد اسمه صلى الله عليه وسلم « مُحمد » فى القرآن أربع مرات ، و « أحمد » وردت مرة واحدة .

والآية التى نحن بصددها ، وهى آية ذكر فيها اسم محمد : « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل » . ولنقرأ قول الحق :

﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾ ﴾

(سورة الأحزاب)

وقوله تعالى :

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۙ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾ ﴾

(سورة محمد)

وها هو ذا القول الكريم :

﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الفتح)

والاسم هو ماوُضع عَلَماً على المسَمَّى ؛ بحيث إذا ذُكر الاسم جاء إلى الذهن المسمى ، فإذا اشترك اثنان فى بيئة واحدة فى اسم ؛ فلا بد من التمييز بينهما بوصف . فإذا كان فى أسرة واحدة ولدان اسم كل واحد منهما مُحمد ، فلا بد أن نميز بين الاثنين بصفة ، وفى الريف نجد من يسمى « مُحمدًا الكبير » و« مُحمدًا الصغير » .

وكلمة « مُحمد » وكلمة « أحمد » مشتركتان فى أصل المادة ؛ لأنهما من « الحاء والميم والدال » فالمادة هى الحمد ، إلا أن التوجيه الاشتقاقى فى محمد غير التوجيه الاشتقاقى فى أحمد ، لأن الاسم قبل أن يكون علماً إذا خرجت به عن معناه الأصلى ، انحل عن معناه الأصلى ، وصار علما على الشخص .

ولذلك قد نجد رجلا له جارية سوداء فيسميها « قمرا » وقد يكون للرجل عبد شقى فيسميه : « سعيدا » . فإذا صار الاسم علما على شيء فإنه ينتقل من معناه الأصلى ويصير عَلَماً على المسمَّى ، لكن الناس حين تُسمى أبناءها تلمح التفاؤل فى أن يصير المعنى الأصلى واقعا .

والدميمة التى يسميها صاحبها « قمرا » افتقدت جمال المسمى ، ولذلك فهو يريد لها أن تأخذ جمال الاسم . وكلمة « مُحمد » حين ننظر إليها فى الاشتقاق نجد أنها ذاتٌ يقع عليها الحَمْد من غيرها ، مثلما تقول : فلان مكرَّم أى وقع التكريم من الغير عليه .

وكلمة « أحمد » نجدها ذاتا وقع عليها الحمد لغيرها . وعندما نقول : مُكرِّم ـ بضم الميم وفتح الكاف مع تشديد الراء مكسورة ـ أى وقع التكريم منه لغيره . ونحن عندنا اسمان لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فى القرآن وكلاهما من مادة « الحمد » فـ « محمد » ملحوظ فيه أن الحمد وقع عليه كثيرا من غيره . لكن لو كان المراد أن الحمد وقع عليه دون الكثرة فيه لكان اسم « محمود » هو الذى يطلق عليه فقط .

أما « أحمد » فقد قلنا إنه ملحوظ فيها أن الحَمْد وقع منه لغيره . و « أحمد » تتطابق مع أفعل التفضيل فنحن نقول : « فلان كريم وفلان أكرم من فلان » . إذن فـ « أحمد » أى وقع منه الحمد لغيره كثيرا ، فلو كان الحمد قد وقع منه بقدر محدود لقلنا « حامد » . إذن فـ « أحمد » مبالغة فى « حامد » وقع منه الحمد لغيره كثيراً فصار أحمد . و « محمد » مبالغة فى « محمود » ، وقع عليه الحمد من غيره كثيرا فصار محمدا .

إذن فرسول الله صلى الله عليه وسلم جمع له الله بين الأمرين ؛ فهو محمد من الله وحامد لله ؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم جمع الله له بين مقامين : مقام الاصطفاء ومقام المجاهدة ، فبالاصطفاء كان « محمدا » و« محمودا » ، وبالمجاهدة كان « حامدا » و« أحمد » . إذن نحن هنا أمام مقامين اثنين لرسول الله صلى الله عليه

وسلم . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أنا محمد وأحمد والمقفى والحاشر ونبى التوبة ونبى المرحمة »[1] .

وسيكون لذلك كلام ونحن نتناول هنا بالخواطر معركة أُحُد ، فبعد أن انحل القوم من الرماة عن أمره ، وحدثت الكرَّة عليهم من المشركين القرشيين ، بعد ذلك يتجه الصحابة هنا وهناك ليفروا ، ويتكتل المشركون على رسول الله لدرجة أن ابن قمئة يمسك حجرا ويضرب به حضرة النبى عليه الصلاة والسلام فيكسر رَبَاعِيَّته . وتنغرز فى وجنتى الرسول حلقتا المغفر ، ويسيل منه الدم ، ويحاول الرسول صلى الله عليه وسلم أن يصعد على صخرة من الجبل ليعلوها فلم يستطع فجلس تحته طلحة بن عبيد الله فنهض به حتى استوى عليها . وكلها مجاهدات بشرية .

أما كان الله بقادر أن يُجنِّب رسوله كل ذلك ؟ إنه سبحانه قادر . ولكن كل ذلك كان تكريما من الله ، ولم يرد سبحانه أن يحرم رسوله من لذة المجاهدة ، وحتى يعرِّف الله المؤمنين بمحمد نقول : إن الله لم يأت بمحمد ليدلله على خلقه ، ولكن ليدُلَّ كُلَّ مؤمن على أن رسول الله حينما حدث له ما حدث قد ذاق المجاهدة ؛ فقد فر بعض المقاتلين من المعركة فى أُحُد ، وكادت ريح الهزيمة تهب على معسكر الإيمان ، هاهو ذا سيدنا أبو عبيدة رضى الله عنه يذهب إلى رسول الله فيجد حلقتى المغفر فى وجنتيه صلى الله عليه وسلم ، فيحاول سيدنا أبو بكر أن يخلع حلقتى المغفر ، فيتألم الرسول صلى الله عليه وسلم ، فيقول سيدنا أبو عبيدة :

- إليك يا أبا بكر . بالله دعنى .

ويمسك أبو عبيدة بإحدى الحلقتين وينزعها من وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم فسقطت ثنيته ، ثم نزع الحلقة الأخرى فسقطت ثنيته الأخرى فكان أبو عبيدة - رضى الله عنه - ساقط الثنيتين ، وقال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لكل أمة أمين ، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح » . وينزف دمه صلى الله عليه وسلم ، وسيدتنا فاطمة يلهمها الله أن تأتى بقطعة من حصير وتحرقها ، وتأخذ

---

(١) رواه أحمد ومسلم عن أبى موسى الأشعرى .

التراب الباقى من الحريق وتضمد به الجرح . إن الله لم يشأ أن يحرم رسوله لذة المجاهدة .

ويأتى أنس بن النضر ويجد الصحابة وفيهم عمر بن الخطاب وطلحة بن عبيدالله وقد ألقوا ما بأيديهم ، فيسألهم أنس : ما يجلسكم ؟ فيقولون : قُتل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيقول : فماذا تصنعون بالحياة بعده ؟ قوموا فموتوا على ما مات عليه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثم استقبل القوم من المشركين فقاتل حتى قتل .

هذه كلها مواقف لم تكن تأتى وتظهر إلا بهذه المعركة . « وما محمد إلا رسول » أى اسمعوا . هذا محمد وهذه منزلته ، هو رسول من الله جاء بعد عيسى بن مريم ، وكان من الواجب أن نعلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم مؤكد على بشريته . « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم » .

وهل انقلب أتباع الرسل السابقين على أعقابهم حينما ماتت رسلهم ؟ فكيف تكونون أقل شأنا من هذه الأمم ؟ هبوا أن ذلك قد حدث ، فلماذا لا يبقى الخير الذى بلغه فيكم رسول الله إلى يوم القيامة ؟ الرجل الذى يكون قد صنع خيرا يموت بموته ، أيكون قد صنع شيئا ؟ لا ؛ فالذى يريد أن يصنع خيرا فعليه أن يصنع خيرا يخلفه .

لذلك فالزعامات الفاشلة هى التى يكون الفرد فيها زعيما ، ثم يموت ونبحث عن زعيم بعده فلا نجد ونتساءل : لماذا خنق الزعيم أصحابه وزملاءه ؟ أكان خائفا منهم ؟ ونظل نتمنى أن يكون قد ربَّى الزعيم أناسا ، فإذا ما ذهب نجد من يخلفه ، فلا يوجد إنسان يضمن حياته ؛ لذلك يقول الحق : « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل » .

وساعة تسمع القول الكريم : « وما محمد إلا رسول » فهذا أسلوب اسمه أسلوب

القصر . إنه سبحانه وتعالى يقصر محمدا على الرسالة . فإذا قصر محمد صلى الله عليه وسلم على الرسالة فهذا يعنى أن بعض المعاصرين له كانوا يعتقدون أن محمدا أكبر من رسول ولا يموت . فأوضح الله سبحانه أن محمدا رسول ، وقد خلت من قبله الرسل ، ولن يخلد الله أحدا .

وهل غاب ذلك عن الذهن ؟ نعم كان ذلك يغيب عن الذهن بدليل أنه حتى بعد أن نزلت هذه الآية وصارت قرآنا يُتلى ، نجد أن سيدنا عمر رضى الله عنه وكانت له فطرة صافية توافق وحى الله ، إنه محدَّث مُلْهَم .

ها هو ذا عمر بن الخطاب حينما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم وانتقل إلى رحاب الله يقول : والله ما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يموت حتى يقطع أيدى أناس من المنافقين كثير وأرجلهم . قال عمر بن الخطاب ذلك من هول الفاجعة ونسى الآية فيأتى سيدنا أبو بكر فيقول : من كان يعبد الله فإن الله حىٌّ لم يمت ، ومن كان يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات ، وتلا قوله تعالى : « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزى الله الشاكرين » . فقال عمر بن الخطاب : « فلكأنى لم أقرأها إلا يومئذ » .

ثم إن عمر بعد أن بايع المسلمون أبا بكر بالخلافة قال : أما بعد فإنى قلت لكم أمس مقالة ، وإنها لم تكن كما قلت ، وإنى والله ما وجدت المقالة التى قلت لكم فى كتاب أنزله الله ، ولا فى عهد عهده إلىّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكنى كنت أرجو أن يعيش رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يَدْبُرنا[1] فاختار الله عز وجل لرسوله الذى عنده على الذى عندكم ، وهذا الكتاب الذى هدى الله به رسوله فخذوا به تهتدوا كما هُدِىَ له رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وهذه تعطينا أمرين اثنين :

الأمر الأول : هو عِشق الصحابة لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

---

(١) يدبرنا : يكون آخرنا موتًا .

والأمر الثانى : هو حاجة إيمان ؛ فالعشق لا يستقيم ولا يصح أن يخرجنا عن طور التصور الإيمانى ؛ فعمر بن الخطاب قال : عندما سمعت أبا بكر يتلو هذه الآية عرفت حتى ما تقلنى رجلاى ، وحتى هويت على الأرض .

إذن فقوله سبحانه : « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل » يعنى لا ترتفعوا به أنتم أيها المؤمنون برسالته فوق ما رفعته أنا .

ومعنى « ينقلب على عقبيه » أى يرَجع . فهل هذا الرجوع رجوع عن المعركة ؟ أو رجوع عن أصل التشريع وأصل الديانة وأصل الرسالة التى جاء بها محمد ؟ إن هذا يصح ، وذلك يصح . وقوله الحق : « أفإن مات أو قتل » قول واضح ، وسبق أن تعرضنا إلى الموت وإلى القتل ، وقلنا : إن الموت والقتل مؤداهما واحد ، وهو الذهاب بالحياة ، إلا أن الذهاب بالحياة مرة يكون بنقض البنية التى لا تسكن الروح فيها إلاّ بمواصفاتها ، فإن نقضت البنية ولم تجد الروح المسكنَ الملائم لها تتركه ، لكن الموت على إطلاقه : هو أن تذهب الحياة بدون نقض البنية ، فالإنسان يذهب حتف أنفه ، أى نجده قد مات وحده .

إذن فنقض البنية يؤدى إلى ذهاب الحياة بالقتل ؛ لأن الروح لا تسكن فى مادة إلا بمواصفات خاصة ، فإذا انتهت هذه المواصفات ذهبت الروح . لكن عندما تذهب الروح بمفردها بدون نقض للبنية فهذا هو الموت لا القتل .

والله سبحانه يقول : « أفإن مات أو قتل » ذلك أنهم أشاعوا أن النبى قد قتل . وكيف يجوز ذلك على الصحابة والله قد قال :

﴿ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾

(من الآية ٦٧ سورة المائدة)

وهنا نقول : هل أنت علمت أن هذه الآية قد نزلت قبل أُحد أو بعدها ؟ وهل أنت حسن الظن بأن كل صحابى يكون مستحضرا لكل آيات القرآن فى بؤرة

شعوره ؟ ألا ترى أنهم عندما سمعوا خبر قتله هربوا ، وإذا كان سيدنا عمر قد نسى هذه الآية : « أفإن مات أو قتل » كما أنه يحتمل أن يكون المراد من عصمة الله رسوله من الناس أنه ـ سبحانه ـ يحفظه من فتنة الناس وإذلالهم .

وهكذا أراد الله أن تمثل لنا معركة أُحُد كل الطوائف والأصناف التى تُنسب إلى الإيمان تمثيلا يتضح فى موقف ابن أُبىّ حيث انخذل وانقطع عن رسول الله بثلث القوم ، ومرحلة أقل منها ، تتمثل فى طائفتين هَمَّتا ، ثم شاء الله أن يربط على قلوبهما فيظلا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولما نشبت المعركة كان للرماة موقف فى المعركة الأحدية .

فحين رأوا النصر أولا ورأوا الغنائم سال لعاب بعضهم على الغنائم ، فحصل انشقاق فيهم ، فعبدالله بن جبير وهو رئيس الرماة ومعه من معه من القلة يُصر على تنفيذ أمر رسول الله فيقاتل حتى استشهد ، واستشهدوا وهؤلاء هم الذين أرادوا الآخرة . بينما كان هناك قوم آخرون أرادوا الغنائم ، وحينما أشيع أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قُتل فرت البقية الباقية من الرماة وغيرهم من المعركة ، ورسول الله ينادى القوم : « إلىَّ عباد الله إلىّ عبادالله »[1] .

كل هذه مصاف إيمانية تمثل لنا كيف يُصفى الله مواقف المنسوبين إليه . وتظهر وتوضح موقف كل واحد ، وأنه مفضوح إيمانيا إن وقف موقفا يخالف منهج الله . كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ فى هذا الوقت ـ فى موقف الإنهاك لقوته البشرية لدرجة أننا قلنا : إنه أراد أن يصعد فلم تَقو مادته البشرية ، فطأطأ طلحة ظهره ليصعد النبى عليه ، وهو فى هذه المرحلة من الإنهاك المادى البشرى يريد الحق سبحانه وتعالى أن يعطيه من القوة فى هذا الضعف وفى هذا الإنهاك ما يقف به أمام جبار من جبابرة قريش . كان هذا الجبار يتهدده .

ولو أن الموقف كان موقف قوة لرسول الله أكان من المعقول أن ينتصر رسول الله على جبار قريش ؟

(١) رواه الحافظ ابن كثير فى التفسير .

ولكن الله يريد أن يُرينا تأييد الله لرسوله ، فى موقف إنهاكه وكيف يقف من جبار قريش هذا الموقف ، هذا الجبار هو « أبى بن خلف الجمحى » وكانت عنده رَمَكة[١] فيقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم : هذه الرمكة أنا أعلفها كل يوم فَرَقاً[٢] مِن ذُرة لأقتلك عليها . فيقول له رسول الله قولة الواثق من أن ربه لن يخذله : « بل أنا أقتلك إن شاء الله » .

لم يلتق هذا الرجل مع رسول الله وهو فى قوته ، ولكنه جاء لرسول الله وهو فى هذا الموقف الذى أثخنته فيه الجراح وكسرت رَبَاعيته ودخلت حلقتا المغفر فى وجنتيه وسال دمه . وبعد ذلك يأتى إليه هذا الرجل ـ أبى بن خلف الجمحى ـ وهو يقول : أين محمد ؟ لانجوت إن نجا ، فقال القوم : يا رسول الله أيعطف عليه رجل منا ؟

فيشير إليهم رسول الله أن اسكتوا . إنه ـ رسول الله ـ لا يريد قوة لقوة ، ولكنه علم أن أُبَيّاً قد عرف أن رسول الله منهك فجاء فى هذا الوقت ، فأخذ رسول الله الحربة ، وضرب أبى بن خلف بها فنالت منه ، فسقط من على فرسه يخور كما يخور الثور ، فقال له أصحابه : « لا بأس عليك يا أُبىُّ ، ما أجزعك : إنما هو خدش »[٣] .

وهذا الذى قتله رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذى اشتد عليه غضب الله تعالى لما رواه ابن عباس رضى الله عنهما قال : « اشتد غضب الله على مَنْ قتله رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده فى سبيل الله واشتد غضب الله على قوم دَمَّوْا وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم »[٤] .

ولننظر كيف أن الذين عادوا رسول الله صلى الله عليه وسلم استكبارا وعنادا ، ولم

(١) الرمكة : أنثى البرذون ويطلق على غير العربى من الخيل ، عظيم الخلقة غليظ الأعضاء قوى الأرجل عظيم الحوافر .

(٢) الفَرَقُ : مكيال يسع ستة عشر رطلاً = ٧ ك ج تقريبا .

(٣) ابن كثير فى التفسير .

(٤) رواه البخارى .

يعادوه عقيدة قلبية ، إنهم يعتقدون صدقه ، ويعتقدون حُسن بلاغه عن الله ، ويتحقق ذلك من قوله سبحانه وتعالى :

﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾ ﴾

(سورة النمل)

فما هو الاستيقان هنا ؟ لقد قال أصحاب أبيّ له : ما أجزعك إنما هو خدش فقال أبيّ : والذى نفسى بيده لو كان الذى بى بأهل الحجاز لماتوا جميعا . لكن أصحاب أبى قالوا له مرة أخرى : لا بأس عليك يا أبى إنه خدش بسيط . لكنْ أبى يقول :

ـ لا والله لقد علمت أنه يقتلنى ؛ لأنه قال لى بمكة : « أنا قاتلك إن شاء الله » فوالله لو بصق على لقتلنى . فمات وهم قافلون به إلى مكة .

هذا يحدث من رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو فى موقف الضعف والإنهاك ، ويشاء له الله أن يقتل جبارا من جبابرة قريش وهو فى هذه الحالة . إن كل ذلك لأدلة تثبت لهم أن البشرية المادية لا علاقة لها مطلقا بمدد النصر من الله ؛ فالله يُمد رسوله حتى فى وقت الضعف . ومدده سبحانه لرسوله وقت ضعف الرسول هو إعلام بقيوميته سبحانه على جنوده ؛ لأنهم لو ظلوا أقوياء لقيل فى عرف البشر : أقوياء وغلبوا .

لكن هاهو ذا الرسول يصيب الجبار من قريش فى مقتل والرسول ضعيف ، وبعد ذلك يعطى الحق سبحانه لرسول الله أشياء إيمانية تزيده ثقة بأنه هو رسول الله ، وتزيد المؤمنين ثقة بأنه رسول الله . لقد خرج إلى المعركة وهو يعلم بما سيكون فيها ؛ لأنه قال : **(إنى قد رأيت والله خيرا رأيت بقرا تُذبح ورأيت فى ذباب سيفى ثَلْمًا ، ورأيت أنى أدخلت يدى فى درع حصينة فأولتها المدينة)**[1] .

(١) سيرة ابن هشام جـ٣ ص٦٢ .

وقال صلى الله عليه وسلم : (لقد رأيتني يوم أحد وما فى الأرض قربى مخلوق غير جبريل عن يمينى وطلحة عن يسارى)[1] .

إذن فالمعركة بكل أحوالها عُرضت عليه ، ومع ذلك أقبل رسول الله على المعركة ليستدل من ذلك على أن الله أعطاه المناعة قبل أن يخوض المعركة . هذا ما يتعلق به صلى الله عليه وسلم ، لقد رأى فأول ، وأما الذى يتعلق بالناس ، فيأتى إلى واحد من قتلى المعركة - وقتلى المعركة ، لا يُغسّلون ؛ لأن الذى يغسل هو من يموت فى غير معركة - يأتى الرسول إلى واحد من هؤلاء الشهداء فيقول :

« إن صاحبكم لتغسله الملائكة » - يعنى حنظلة - المؤمنون يرون أنه صلى الله عليه وسلم قد خرج عن القاعدة فى الشهداء . كيف ؟ . لقد أخبر الرسول صلى الله عليه وسلم بالخبر بعد ذلك . . ولا يُخرج حنظلة عن قانون الشهداء أنه يُغسّل . . ولكن الذى يغسله هم الملائكة . . إن الملائكة تغسل حنظلة .

وبعد أن رجع رسول الله إلى المدينة يسأل أهله ما شأنه . . فيعلم أن حنظلة قد دخل بعروسه . . ثم نودى للمعركة . . فأعجله نداء المعركة . . فذهب إلى المعركة جُنبا . . فذلك غُسْل الملائكة له ، لقد تأكد الخبر من زوجة حنظلة . . إذن فهذه شهادة أخرى أن الله سُبحانه وتعالى لم يتخل عنهم فى أوقات الضعف ، وأن تلك العملية كانت عملية مقصودة .

إن الحق سبحانه وتعالى يعطى الرسول صلى الله عليه وسلم أشياء لتؤكد لنفسه أنه رسول الله . ألم نقل سابقا : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء له صحابته فقالوا : يا رسول الله : إن جابر بن عبدالله عليه دين ليهودى وأجل الدين إلى جَزّ التمر وتمرُه خَاسَ هذا العام أى فسد من آفةٍ مثلا فنحب يا رسول الله أن تطلب من اليهودى أن يُنظر جابرا - أى ينتظر عليه ويؤخره إلى وقت آخر - فذهب رسول الله إلى اليهودى وطلب منه أن يُنْظِر جابرا ، فلم يرض اليهودى وقال : لا يا أبا القاسم . .

(١) رواه الحاكم فى المستدرك عن أبى هريرة .

فأعاد عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال اليهودى : لا يا أبا القاسم . فأعاد عليه الرسول مرة ثالثة فقال اليهودى : لا يا أبا القاسم . . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بثقة الإيمان بالله ما معناه : يا جابر اذهب بى إلى بستانك .

وذهب رسول الله فجاس خلال النخل ، ثم ذهب إلى عريش جابر الذى يجلس فيه ، واضطجع وقال : يا جابر جز واقض . قال جابر : فذهبت فجززت ، فإذا ما جززته يؤدى ما علىّ لليهودى ويبقى لى ما لم يبق لى وأنا غير مدين . فلما بلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« **أشهد أنى رسول الله** » . إن الحق سبحانه يعطى رسوله بينات توضح أنه رسول الله ؛ فاليهودى لم يرض بشفاعة النبى ، فيعطى الله رسوله ما يؤكد أنه رسول الله . وهكذا نرى أن الله يعطى رسوله فى وقت الضعف الأدلة التى تؤكد له أنه رسول الله . والذى يدل على ذلك هؤلاء الذين أحبوا أن يؤذوه فى اسمه . إنّ اسمه مُحمد كما نعرف ، و« محمد » أى الممدوح من الكل ، وبكثرة ، فيأتى خصومه ويريدون أن يهجوه وأن يلعنوه ، فيصرفهم الله سبحانه وتعالى حتى عن شتم الاسم لا المسمى فقط .

إن الله أراد أن يصعد العصمة ، وأراد ـ سبحانه ـ ألا ينالوا بالسباب من اسم رسول الله ، فألهم الله خصوم رسول الله أن يسموا المشتوم عندهم « مذمما » بدلا من « محمد » . وعندما يريدون اللعن ، فهم لا يلعنون الاسم محمدًا ولكنهم يسبون الاسم الذى اختاروه وهو « مذمم » ، فيضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ عندما سمع ما قالته أم جميل امرأة أبى لهب :

« مذمما عصينا . . وأمره أبينا . . ودينه قلينا »[1] . وهى تقصد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد حدث أن حمالة الحطب أتت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو جالس فى المسجد عند الكعبة ومعه أبو بكر الصديق وفى يدها حجر فلما وقفت عليهما أخذ الله ببصرها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا ترى إلا أبا بكر فقالت :

(١) قلينا : أبغضنا .

يا أبا بكر أين صاحبك ؟ فقد بلغني أنه يهجوني والله لو وجدته لضربت بهذا الحجر فاه أما والله إني لشاعرة وقالت ما قالت .

ويقول رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « ألا تعجبون لِمَا يصرف الله عني من أذى قريش يشتمون مُذَمَّماً ويلعنون مذمما وأنا محمد »[1] .

هكذا نرى من أفواه الحاقدين على رسول الله أنه معصوم بإرادة الله ، حتى الاسم أبعده الله عن اللعن ، أما المسمى فلن يلعن ولن يشتم .

إن ما حدث في غزوة أحد كان هو التربية الأولى لصحابة رسول الله ، والتأكيد على صدق بلاغه عن الله . إن هذه المعركة قد صورت ذلك وجسدته ، ولذلك حين نلحظ المعارك التي جاءت بعد هذه المعركة فإننا لا نجد للمؤمنين هزيمة أبدا ، لأنهم صُفوا التصفية وربُوا التربية التي جعلت كل واحد منهم عارفا أن الله يعلم ما يخفيه وإن لم يحسن البلاء والجهاد فسيفضح الله ما في نفسه ، وسيعلن الله عنه ؛ لذلك دخل كل مؤمن منهم المعارك وهو مقبل على الجهاد ، وكل المعارك بعد أُحد جاءت نصرا وجاءت سلاما .

وهنا يعلمنا الحق أن البقاء على منهج رسول الله صلى الله عليه وسلم هو النجاة وهو النصر ، ويحذرنا سبحانه ألا ينقلب المؤمن على عقبيه ، قال لنا : (أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزى الله الشاكرين) .

« ومن ينقلب على عقبيه » هي صورة حركية مادية مرئية . وقد حدث ذلك من بعض الصحابة في معركة أُحد ، لقد فر البعض وانقلب بعضهم إلى المدينة ، ومعنى « انقلب » أي أعطى ظهره للمعركة بعد أن كان مواجها لعدوه ، وهي مثل قوله : « وَلَّوْا الأدبار » .

---

(١) رواه البخاري في المناقب ، والنسائي في الطلاق ورواه أحمد في المسند .

ولكن فى قوله : « انقلبتم على أعقابكم » فيه انقلاب حسى أيضا ، وفيها كذلك انقلاب نفسى ، وهو الانصراف عن أصل الدين ، ولذلك سيعرفنا الحق أن المنافقين بعد حدوث تلك الواقعة وبعد ما فشا وذاع فى الناس قتل الرسول كان لهم كلام ، وضعاف الإيمان كان لهم كلام آخر ؛ فالمنافقون الذين هم أكثر شرا من الكفار قالوا : لو كان نبيًا لما قتل ، ارجعوا إلى إخوانكم وإلى دينكم .

أما الذين آمنوا إيمانا ضعيفا فقالوا : سنذهب إلى ابن أُبَيّ ليأخذ لنا أمانا من أبى سفيان . فيقف أنس بن النضر قائلا : اللهم إنى أبرأ إليك مما جاء به هؤلاء ـ أى المنافقون ـ وأعتذر إليك مما يقول هؤلاء ـ أى ضعاف الإيمان ـ .

لقد وزعها بالحق ؛ فهو يبرأ إلى الله من قول المنافقين الذين قالوا : إنهم سيعودون إلى دينهم القديم ، ويعتذر ويستغفر عن ضِعاف الإيمان . ويقول سبحانه : « ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا » . لماذا؟ لأن الله أزلاً وقبل أن يخلق شيئا من خلقه له كل صفات الكمال ، إذن فأى صفة من صفات الكمال لم تطرأ عليه ـ سبحانه ـ من خلقه ، إنه ـ سبحانه ـ أوجد الكون بما فيه الخلق لأنه قادر ، وأوجده لأنه حكيم ، وأوجده لأنه عالم ، إذن فخلق الخلق لم يزد الله صفة من صفاته ، فحين خلقكم وصنعكم أعطى لكم المنهج لتكونوا خلقا سويا . إذن فالمصلحة تعود علينا نحن الخلق ، فكان يجب أن تنظروا إلى المناهج التى تأتى من الله على أنه لا نفع فيها لله ، ولكن النفع فيها عائد عليكم . ولذلك فمن يلحظ هذه ، فهو يعرف أن ربنا يستحق الشكر على أنه كلفنا بالمنهج . ولذلك جاءت الآية من بعد ذلك لتقول : « وسيجزى الله الشاكرين » لأن الشكر إنما يؤديه العبد على نعمة ، نعمة تمحيص وتعليم وبيان مكانة الرسول صلى الله عليه وسلم من ربه . لقد تعلم المؤمنون أن الله يستحق منهم الشكر على هذه النعم .

وبعد ذلك ينتقل بنا الحق إلى قضية عامة ، القضية العامة للناس جميعا هى :

﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ

كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا ۗ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾

وساعة تسمع « ما كان » أى « ما ينبغى » . فنحن فى حياتنا نقول : ما كان لك أن تضرب زيدا ، ونقصد أنه ما ينبغى أن تضرب زيدا . فقوله:« وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله » هذا القول قد يدفع إلى التساؤل : وهل الموت أمر اختيارى ؟ لا ، ولكن تعبير الحق سبحانه له إيحاء ؛ لأنك عندما تقول : ما كان لفلان أن يفعل كذا ، فهذا معناه أن لفلان أن يختار أن يفعل ذلك أو لا يفعله ، وفى قدرة فلان أن يفعل أو لا يفعل . أما عن قدرة الله فلا يمكن أن يقول أحد ذلك .

إننا نفهمه على فرض أن النفس تدفع نفسها إلى موارد التهلكة ، فما لها أن تموت إلا أن يأذن الله . فإذا كانت النفس هى التى تدفع نفسها إلى موارد التهلكة ، ومع ذلك لا تملك أن تموت ، فكيف إذا لم تدفع نفسها إلى موارد التهلكة . إذن فالموت إن أرادته النفس فلن يأتى إلا أن يكون الله قد أذن بذلك . وإننا نجد فى واقع الحياة صورا شتى من هذه الصور .

نجد من يضيق ذرعا بهذه الحياة ؛ لأن طاقته الإيمانية لا تتسع للبلاء والكد فى الدنيا فينتحر ، إنه يريد أن يفر مما لا يقدر على دفع أسبابه . أما الذى يملك الطاقة الإيمانية الرحبة فأى شقاء أو بلاء يقابله يقول : إن لى ربا ، وما أجراه علىّ ربى فهو المربى الحكيم الذى يعرف مصلحتى أكثر مما أعلم ، ولعل هذا البلاء كفارة لى عن ذنب .

وهذا عكس من يفر مما لا يقدر على دفع أسبابه ، فيحاول أن يقتل نفسه ، وكل منا قد رأى أو سمع عن بعض الذين يريدون ذلك لكن يتم إنقاذهم ويدركهم من ينفذ

مشيئة الله فى إنقاذهم ، كغسيل المعدة لمن ابتلع أقراصا سامة ، أو إطفاء حريق من أشعل فى نفسه النار . فالمنتحر يريد لنفسه الموت ولكن الله إذا لم يأذن ، فلا يبلغه الله هذا ، فقد تجد مُنتحرا يريد أن يطلق على نفسه رصاصة من مسدس فلا تنطلق الرصاصة ، أو تجد منتحرا آخر يريد أن يشنق نفسه بحبل معلق فى السقف فينقطع الحبل ، لماذا ؟ لأنه لا يقبض الحياة إلا من وَهَبَ الحياة .

قد يقول قائل : ولكن هناك المقتول الذى يقتله إنسان آخر . وهنا يرد المثل الشعبى : لو صبر القاتل على المقتول لمات بمفرده . إن اللحظة التى تفارق الروح مادة الجسد موقوتة بأجل محدود ، فمرة تأتى اللحظة بدون سبب ، فيموت الإنسان حتف أنفه ، ويقول أصدقاؤه : لقد كان معنا منذ قليل . إنهم ينسون أنه مات لأنه يموت بكتاب مؤجل .

ولذلك نجد إنسانا يسعى إلى عافية الحياة ، فيذهب إلى إجراء جراحة ما ، وأثناء إجراء الجراحة يموت . ورحم الله أمير الشعراء أحمد شوقى حين يقول فى ذلك :

فى الموت ما أعيا وفى أسبابه
كل امرىء رهن بطىِّ كتابه
أسد لعمرك من يموت بظفره
عند اللقاء كمن يموت بنابه
إن نام عنك فكل طب نافع
أو لم ينم فالطب من أذنابه

إن الكتاب إذا انطوى فقد انتهى الأمر ، حتى عندما يلتقى الإنسان بأسد ، فيستوى الموت بالناب ، كالموت بظفر الأسد . فإن نام الموت عن الإنسان فقد يشفيه من أمراضه قرص دواء أو جرعة ماء . أما إن استيقظ الموت فالطب والعلاج قد يكون ذَنَباً أو أداة للموت ، والقاتل كل ما فعله أنه نقض بِنْية المقتول ، وهذا هو ما يعاقب عليه .

إذن فقول الحق : « وماكان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتابا مؤجلا » يطلق قضية

عامة . والكتاب المؤجل يطلق مرة على زمن العمر كله ، ومرة يطلق على النهاية النهائية منه ، والنهاية النهائية هى الموت الحقيقى . فالقاتل حين ينقض بنية القتيل إنما يوافق الأجل المكتوب الذى أراده الله . لكن لماذا نعاقب القاتل إذن ؟ نحن نعاقبه لأنه نقض بنية إنسان آخر .

والحق يقول : « وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتابا مؤجلا » . ولنلحظ قوله : « بإذن الله » فهى تدلنا على أن الله هو الذى يطلق الإذن . والإذن يكون للملائكة ليقوموا بهذه المسألة . ولذلك نجد القرآن الكريم حين يتعرض لهذه المسألة يسند مرة هذه العملية لله فيقول سبحانه :

﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾

(سورة الزمر)

ومرة أخرى يسند القرآن هذه العملية لِمَلَكٍ واحد :

﴿ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ ﴾

(سورة السجدة)

ومرة يسندها الحق سبحانه إلى رسل من المعاونين لملك الموت :

﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

والحق سبحانه وتعالى صادق فى كل بلاغ عنه ؛ لأن كل أمر يحدد الأجل ليس بمراد الموكل بإنهاء الأجل ، إنما هو بإذن من الله تعالى الذى يحدد ذلك . ومادام كل أمر قد صدر منه فهو سبحانه الذى يتوفى الأنفس ، وبعد ذلك فالملك الذى يتوفى

الأنفس - عزرائيل - له أعوان ؛ فهو عندما يتلقى الأمر من الله فهو ينقل الأوامر إلى أعوانه ليباشر كل واحد مهمته . إذن فصيرورة الأمر بالموت نهائيا إلى الله .

وصيرورة الأمر بالموت إلى الملائكة ببلاغ من الله ، هذا هو الإذن ، والإذن يقتضى مأذونا ، والمأذون هم ملائكة الموت الذين أذن لهم ملك الموت بذلك ، وملك الموت تلقى الإذن من الله سبحانه وتعالى .

ويقول الحق من بعد ذلك : « ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها » فالذى يريد جزاء الدنيا وهو الذى يطلب جزاء حركته فيها ، يأخذها ، ولو كان كافرا :

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

ويقول سبحانه وتعالى فى موضع آخر من القرآن الكريم :

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾ ﴾

(سورة الشورى)

وهذا ينهى عملية أن تقول : إن الكفار حالتهم أفضل من حالتنا ، الكفار متقدمون ؛ ونحن متخلفون . وهل لم تأت فترة كان فيها المؤمنون متقدمين جدا ؟ لقد جاءت فترة تقدم فيها المؤمنون ، وكانوا متقدمين لألف سنة ، وهم الدولة الأولى فى العالم . وكان الكفار يسمون زمانهم ودولهم بأنها تحيا فى عصور الظلمات . لماذا أنكرتم هذه !؟ لأن التاريخ جاء لنا من ناحية هؤلاء وقد شوهوه ، ولذلك نقول لهم : نحن كنا متقدمين وأنتم والتاريخ يشهد بذلك .

ولذلك قلنا : يجب على المؤمن بالله أن يكون غيورا على أسباب الله ، فلا يدع

أسباب الله للكافر بالله ، أيأخذ الكافر بأسباب الله وأنت يا مؤمن بالله تترك الأسباب ليأخذها هو !؟ لا ؛ لأن من يعبد الله أولى بسرِّه فى الوجود ، فكوننا نتركهم يأخذون الأسرار العلمية ولا ننافسهم فى هذا المجال هذا تقصير منا .

« ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها وسنجزى الشاكرين » ونلحظ أن الحق قد جاء بلفظ « الشاكرين » مرتين ، والقرآن يؤكد هذا المعنى . إنه سبحانه أعطاكم أسبابا فإن كانت الأسباب قد جاءت لكم بمسائل الدنيا فهى تستحق الشكر ، وإن كانت ستعطيكم تكليفا مع الأسباب فهذا التكليف سيعطيكم خير الآخرة ، وهو أمر يستحق الشكر أيضا .

وبعد هذا الكلام النظرى « وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتابا مؤجلا » . . يقول ما يؤكد وجوده فى موكب الإيمان الذى سبقكم ؛ لأن فيه فرقا بين الكلام وبين أن يقع مدلول الكلام ، فواقع الكلام سبقكم فيقول :

﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَـٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ ﴾

« وكأين » هذه يقولون : إنها للتكثير ، مثل « كم » ؛ فعندما يقول لك إنسان مثلا : لماذا تجافينى ؟ فتقول له : كم زرتك ؟ إن قولك : « كم زُرتك ! » فى ظاهرها أنها استفهام ، وأنت لا تريد أن تقول له مستفهما كم مرة زُرته فيها ، بل تقول له : أنت الذى عليك أن تقول ـ لأنك بقولك ستعترف أنى زُرتك كثيرا ، فيكون الجواب موافقا لما فعلت . وأنت لا تقول « كم زرتك » إلا وأنت واثق أنه إذا أراد أن يجيب فسيقول : « زرتنى كثيرا » ولو كنت لا تثق أنه سيقول : زرتنى كثيرا ، لَمَا قلتها ،

فعندما تقول له : كم زرتك ، كم تفضلت عليك ، كم واسيتك ، كم أكرمتك ؟ فإن « كم » تأتى للتكثير ، وتأتى مثلها « كأين » إنها للتكثير أيضا ، عندما تقول مثلا : « ياما حصل كذا » و « ياما » هذه معناها « كأيِّن » .

وقد يسألك صديق : كيف حدثت هذه الحكاية ؟ فتقول له : كأى رجل يفعل كذا ويحصل له كذا ، أى أن المسألة ليست غريبة ، إن قولك : كأى رجل معناها أنها شاعت كثيرا ، وعندما تقول : كم مرة زرتك ، وكم من مرة زرتك فهذان الاستعمالان صحيحان والمعنى : كثير من نبى قاتل معه مؤمنون برسالته كما حدث وحصل مع رسول الله . وقوله الحق « رِبِّيون » أى ناس فقهاء فاهمون سبل الحرب ، و« ربيون » أيضا تعنى : أتباعا يقاتلون ، و« ربيون » يمكن أن ينصرف معناها إلى أن منهجهم إلهى مثل « الربانيين » .

وقول الحق :« فما وهنوا » أى ما ضعفوا ، إذن فهو يريد أن يأتى بالأسوة ، وكأنه سبحانه يقول : أنتم لماذا ضعفتم فى موقفكم فى غزوة أُحد وأنتم تقاتلون مع رسول الله . لقد كان الأولى بكم أن يكون حماسكم فى القتال معه أشد من حماس أى أتباع نبى مع نبيهم ؛ لأنه النبى الخاتم الذى سيضع المبدأ الذى ستقوم عليه الساعة ، ولن يأتى أحد بعده ، فكان يجب أن تتحمسوا ؛ فأنتم خير أمة أخرجت للناس ، وأنا ادخرتكم لذلك .

إن الحق يعطيهم المثل وفيه تعريض بهم وعتاب لهم ، وفى هذا القول تعليم أيضا ، فيقول : « وكأين من نبى » أى وكثير من الأنبياء « قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم » ونستوحى من كلمة « وهنوا » أى ما ضعفوا . فكأنه قد حدث فى القتال ما يضعف ، « فما وهنوا لما أصابهم » أى ما حدثت لهم نكسة مثلها حدثت لكم .

« وما ضعفوا وما استكانوا » . وكل من « وهنوا » و« ضعفوا » و« استكانوا » هذه جاءت فى موقعها الصحيح ؛ لأن « الوهن » بداية الضعف ، و« الوهن » محله القلب وهو ينضح على الجوارح ضعفا . و« استكانوا » ماذا تعنى ؟ إنها من « سكن » . والسكون تقابله الحركة .

والحرب تحتاج إلى حركة ، والذى يأتى للحرب فهو يحتاج إلى كَرّ وفر . أما الذى لا يتحرك فهذا معناه أنه ليس لديه قدرة على أن يتحرك ، وساعة تسمع ـ الألف والسين والتاء ـ وتأتى بعدها كلمة ، نعلم أن (الألف والسين والتاء) للطلب ، « فاسْتَفْهَم » أى طلب أن يفهم ، وهى تأتى لطلب المادة التى بعدها . كأن نقول : « استعلم » أى طلب أن يعلم ، أو نقول : « استخبر » أى طلب الخبر ، و« استكان » يعنى طلب له كوْنًا أى وجودًا ، فكأنهم بلغوا من الوهن ومن الضعف مبلغاً يطلبون فيه أن يكون لهم مجرد وجود ؛ لأن الوجود مظهره الحركة ، والحركة انتهت ، هذا هو معنى « استكانوا » .

ومادامت مِن الكون يكون وزنها ـ مثلما يقول الصرفيون ـ « استفعل » يعنى طلب الكون ، وطلب الوجود ، وقد يكون وزنها ليس كذلك ؛ إذا كانت من سكن ، وهى بهذا الاعتبار لا يكون فيها طلب ؛ لأن السين ستكون أصلية ، فوزنها ليس « استفعل » بل هو « افتعل » فـ « استكانوا » هل تعنى أنهم طلبوا السكون ؟ لا ؛ لأنهم كانوا ساكنين ، إذن فالأولى أن يكون معناها أنهم طلبوا مجرد الوجود ، هذا ما أميل إليه وأرجحه ، وقيل فى معناها : فما خضعوا وما ذَلوا من الاستكانة : وهى الذلة والخضوع .

« فما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين » فما يصيب العبد ابتلاء من الله ، وفى الحديث : « إذا أحب الله قوما ابتلاهم »[1] . وكل ذلك الوهن والضعف ، لا يشغلهم عن المعركة ، لأنهم لو صبروا على التحمل لأمدهم الله بمدد من عنده ؛ لأنه حين تفرغ أسباب الخلق وتنتهى يأتى إمداد الخالق .

ويلفتنا الحق سبحانه وتعالى بتذييل الآية : « والله يحب الصابرين » أى وكفى جزاء عن الصبر أن تكون محبوبا لله ؛ لأننا قلنا سابقا : قد نحب الله لنعمه التى أنعمها علينا ، ولكن المسألة ليست فى أن تحب الله أنت ، وإنما فى أن تصير بتطبيق

---

(١) رواه الطبرانى فى الأوسط والكبير ، والبيهقى فى شعب الإيمان ، والضياء المقدسى عن أنس ، وصححه السيوطى .

منهجه فيك محبوبا لله . وقد أثر عن بعضهم قوله :

وإلا ألم تَرَ كثيراً أَحبَّ ولم يُحَبْ ؟!!

أنت أحببت للنعم ، ولكنك تريد أن تكون محبوبا من الله ؛ لأن حبك للنعم لا يكفى ، فمثل هذه النعم أخذها الكافر أيضاً ، إذن فهناك حاجة أخرى . هناك مقدم وهناك مؤخر ، فالمقدم هو نعم الحياة وكل البشر شركاء فيها مؤمنهم وكافرهم ، ولكن المؤخر هو جزاء الله فى الآخرة وهو الأصل .

إذن ، فلو أن الناس فطنوا إلى قول الله : « والله يحب الصابرين » لقالوا : كفى بالجزاء عن الصبر أن نكون محبوبين لله ، حين أصابهم ما أصابهم . صحيح أن الإصابة لم تصنع فيهم وهناً أو ضعفا أو استكانة ، وهذا معناه أن فيهم مُسكة اليقين بالله . ومُسكة اليقين بالله تجعلهم أهلا لإمداد الله . فليس لك إلا أن تصبر على ما أنت فيه لتعرف مدد الله لك . ومدد الله لك لا يتجلى بحق إلا وقت الضعف ؛ لأنك وقت قوتك قد تعمل مثل الذين قيل فيهم :

﴿ فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَـٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾

(سورة الزمر)

لكن المؤمنين حين أصابهم ما أصابهم « فما وهنوا » ؛ لأنهم كانوا متيقظين إلى قضية إيمانية : إن الله لا يسلمك لنفسك إلا حين تغيب عنه ، فقالوا : ولماذا حدث لنا هذا ؟ لم يقولوا : ربنا انصرنا كى نخرج من الضعف ، لا . بل فكروا فى **الأسباب التى أدت بهم إلى هذا :**

﴿ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا

عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾

فكأن ما حدث نتيجة لذنب تقدم ففطنوا إلى السبب ، كان المفروض أنهم فى معركة ، وهذه المعركة أجهدتهم وأنهكتهم ، صحيح أنهم لم يضعفوا ، وكان المفروض أن يقولوا:« يارب انصرنا أولا » لا . بل قالوا : لابد أن نعرف السبب فى النكسة الأولى ، السبب فى هذه النكسة أن الله لم يسلمنى إلى نفس إلا لأنى نسيته .

«وما كان قولهم إلا أن قالوا ربنا » ، « ربنا » ، وانظر لكلمة النداء فى « ربنا » ، كان يمكن أن يقولوا : يا ألله إنما جاءوا بكلمة « ربنا » لماذا ؟ لأن علاقة العبد بالربوبية هى قبل علاقته بالألوهية ، فالألوهية مكلفة ، فمعنى « إله » أى : معبود ، ومادام معبودا فله تكليف يطاع فيه ، وهذا التكليف يأتى بعد ذلك ، هو سبحانه له ربوبيتهُ فى الخلق . قبل أن يكلفهم ، ومادام الرب هو الذى يتولى التربية ، فالأولى أن يقولوا : يارب ، إذن قولهم : « ربنا » يعنى أنت متولى أمورنا ، أنت الذى تربينا .

« ربنا اغفر لنا ذنوبنا » فكأنه لا شيء يصيبنا إلا بذنب من الغفلة ارتكبناه . ونعرف من كلمة « ذنب » أن الذى يفطن إلى معناها لا يفعلها أبدا ، لأن كلمة « ذنب » مأخوذة من مادة « الذَنَب » . والذَّنْبُ سيأتى بعده عقوبة . فاللفظ نفسه يوحى بأن شيئا سيأتى ، وعندما تتذكر عقاب الذنب فأنت لا تفعله .

« اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا فى أمرنا » لأن كل معصية تكون تجاوزا عما أحلَّه الله لك ، وزيادة غير مشروعة وإن كانت من نوع ما أحله الله ، ولكنها زيادة عن مقومات حياتك ؛ فالله شرع لنا الزواج لنأتى بالأولاد ، وعندما نأخذ أكثر من هذا من غير زواج نكون قد أسرفنا ، والله أعطانا مالا بقدر حركتنا ، فإن طمعنا فى مال غيرنا فقد أسرفنا . « وأسرفت » يعنى أن تأخذ حاجة ليست ضرورية لقوام حياتك . ولذلك فالحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ ﴾

(سورة الزمر)

إنه سبحانه يوضح : أنا حللت لك كذا من النساء فما الذى جعل عينيك تزوغ وتميل إلى غير ما أحله الله لك ؟ أنا أحللت لك كسب يدك وإن كنت فقيراً فستأخذ صدقة ، لماذا أسرفت ؟ إذن فكل أمر زائد على الحد المطلوب لبقاء الحياة اسمه « إسراف » « وإسرافنا فى أمرنا وثبت أقدامنا » . لقد بدأوا يدخلون فى الحق ، لكنهم فى البداية رَأَوْا الباطل ، والباطل هو من أسباب تخلى الحق عن نصرتنا أولا ، لكن عندما يغفر سبحانه الذنب ويغفر الإسراف فى الأمر نكون أهلاً للمدد وأهلاً لتثبيت الله .

« وثبت أقدامنا » كيف يقول الحق ذلك والمفهوم فى المعركة أن الأقدام لا تثبت ؟ المعركة تطلب من المقاتل أن يكون صوالاً جوالاً متحركا ، إذن فما معنى « وثبت أقدامنا » ؟ إن قول الحق : «وثبت أقدامنا » يعنى لا تجعلنا نفر من أرض المعركة ، ولا نترك أرض المعركة أبدا . ولذلك قلنا : إن الكفار عندما حدث منهم ما حدث لم يظلوا فى أرض المعركة ، بل تركوا أرض المعركة وانصرفوا ، وهؤلاء المؤمنون ولو أنهم انهزموا إلا أنهم مكثوا فى أرض المعركة مدة ، وكروا وراء أعدائهم وطاردوهم . وقد اهتدى البشر أخيراً إلى هذا المعنى ، ففى فرنسا نيشان يسمونه « نيشان الذبابة » لماذا الذبابة ؟ لأن الذبابة إن طردتها عن مكان لابد أن تعود إليه ، فكذلك المفروض على القائد ـ مادام انسحب من منطقة ـ أن يوطن نفسه على العودة إليها ، فيعطوه نيشان الذبابة .

فقوله : « وثبت أقدامنا » فى أى منطقة ؟ وفى أى معركة ؟ علينا ألا نبرح أماكننا ؛ لأننا ساعة ان نبرحها فهذه أول الهزيمة ، وهذا أمر يُجَرِّىء العدو علينا .

« وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين » . كلمة « وانصرنا على القوم الكافرين » هى حيثية ، فماداموا قد قالوا : «وانصرنا على القوم الكافرين » فهم إذن

مؤمنون ، ومؤمنون بحق ؛ ولذلك فإن سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول قولته المشهورة : إنكم تنتصرون على عدوكم بطاعة الله ، فإن استويتم أنتم وهم فى المعصية غلبوكم بعُدتهم وعَددهم .

ولذلك فالإيمان يتطلب أن تتنبهوا إلى موطن الضعف فيكم أولا ، والذى استوجب أن يصيبكم ما أصابكم ، حقًا إنكم لم تضعفوا ، ولم تستكينوا وأصابكم من المعركة شىء من التعب والألم . وكأن الحق يوضح لنا أنهم قد تنبهوا فأحسنوا البحث فى نفوسهم أولا ، لقد تكلموا عن الذنوب وطلبوا المغفرة وتكلموا عن الإسراف على النفس ، وبعد ذلك تكلموا عن المعركة . فماذا كان العطاء من الله ؟

ويأتينا الجواب فى قوله الحق :

﴿ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾ ﴾

أى أن الذى يريد الدنيا فالله يعطيه من الدنيا غنائم وأشياء ، ولنا أن نلحظ أن الحق عندما يتكلم هنا عن الدنيا فهو لم يصفها بحُسن أو بشىء ، فقط قال : « ثواب الدنيا » ، لكن عندما تكلم عن الآخرة فهو يقول : « وحُسن ثواب الآخرة » وهذا هو الجمال الذى يجب أن يُعشق ؛ لأن الدنيا مهما طالت فهى متاع وغرور وزخرف زائل ، ومهما كنت منعما فيها فأنت تنتظر حاجة من اثنتين : إما أن تزول عنك النعمة ، وإما أن تزول أنت عن النعمة .

ويختم الحق الآية بقوله : « والله يحب المحسنين » وقد أحسنوا حين ناجوا ربهم بعدما أصابهم . إنهم سألوا المغفرة ، وسألوا أن يغفر لهم إسرافهم فى أمرهم ، وأن يثبت أقدامهم وأن ينصرهم على القوم الكافرين ؛ لأنهم رأوا أن قوتهم البشرية حين

يتخلى عنهم مدد الله تصبح هباءً لا وزن لها .

« فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة والله يحب المحسنين » ومثلما قلنا فى الصبر : « والله يحب الصابرين » كفى بالجزاء على الصبر أن تكون محبوباً لله ، كذلك كفى بالجزاء على الإحسان أن تكون محبوبا لله . وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ ﴾

ومادمتم مؤمنين وهم كفار فكيف يتأتى منكم أن تطيعوا الكافرين ؟ إنكم وهم من أول مرحلة مختلفون ؛ أنتم مؤمنون وهم كفار ، والكافر والمنافق سيستغل فرصة الضعف فى النفس الإيمانية المسلمة ، ويحاول أن يتسلل إليها ، مثلما قلنا : إن جماعة من المنافقين قالوا : قتل محمد ، ولم يعد فينا رسول فلنلجأ إلى دين آبائنا . والمؤمنون الذين أصابتهم لحظة ضعف قالوا : نذهب إلى ابن أُبى ـ المنافق الأول فى المدينة ـ ونطلب منه أن يتوسط لنا عند أبى سفيان ليأخذ لنا الأمان .

ولذلك يقول الحق : « ياأيها الذين آمنوا إن تطيعوا الذين كفروا يردوكم على أعقابكم فتنقلبوا خاسرين » ، فإن كان الموقف يحتاج إلى ناصر فلا تطلبوا النصير من الكافرين ، ولكن اطلبوه ممن آمنتم به . وينزل القول الحق :

﴿ بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ ﴿١٥٠﴾ ﴾

ألم يقل أبو سفيان : « لنا العُزَّى ، ولا عُزَّى لكم » ، فقال لهم النبى قولوا لهم : الله مولانا ولا مولى لكم ، وعندما قال : يوم بيوم ، أى يوم أُحُد بيوم بدر ، الحرب سجال . فرد عليه عمر بن الخطاب رضى الله عنه وقال : لا سواء ، أى نحن لسنا مثلكم ؛ قتلانا فى الجنة ، وقتلاكم فى النار ، فكيف تكون سواء وكيف تكون سجالاً !؟

« بل الله مولاكم وهو خير الناصرين » ونفهم قول الحق:« خير الناصرين » أى يجوز أن يوجد الله بشرا كافرين أو غير كافرين وينصروكم نصرا سطحيا ، لا نقول إن هذا نصر إنما النصر الحقيقى هو النصر الذى يأتى من الله ، لماذا ؟ لأن النصر أول ما يأتى من ناحية الله فاطمئن على أنك خالص ومخلص لله وإلا ما جاءك نصره ، فساعة يأتيك نصر الله فاطمئن على نفسك الإيمانية ، وأنك مع الله .

وقول الحق:« خير الناصرين » دليل على أنه من الممكن أن يكون هناك ناصر فى عرف البشر . وقد قال المؤمنون : يارب نحن ضعاف الآن وإن لم نذهب لأحد ليحمينا ماذا نصنع ؟ فيوضح لهم الحق : كونوا معسكرا إيمانيا أمام معسكر الكفر ، وإياكم أن تلجأوا إلى الكافرين بربكم ؛ لأنهم غير مأمونين عليكم . وإن كنتم تريدون أن تعرفوا ماذا سأفعل : « سنلقى فى قلوب الذين كفروا الرعب » . فإذا ألقى الرعب فى قلوب الكافرين فماذا يفيدهم من عَدَدِهم وعُدَدِهم ؟! عددهم وأموالهم تصير ملكا لكم وتكون فى السَلَب والغنيمة .

﴿ سَنُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ بِمَآ أَشۡرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗاۖ وَمَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ وَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلظَّٰلِمِينَ ١٥١ ﴾

وألقى الحق فى قلوبهم الرعب بالفعل . فساعة قالوا لأبى سفيان : إن محمداً قادم إليك بجيش كثيف من المدينة ، وانضم له مقاتلون لم يحاربوا من قبل ، وقادم إليكم فى حمراء الأسد . ماذا صنع أبو سفيان وقومه ؟ ألقى الله الرعب فى قلوبهم وفروا .

وكلمة « سنلقى » مأخوذة من « الإلقاء » وهو لا يكون إلا لمادة وعين . ويبين لنا القرآن هذا الأمر حين يقول : « فألقى الألواح » ، هذه حاجة مادية . قال تعالى :

﴿ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى ﴾

(من الآية ١٥٠ سورة الأعراف)

إنه أمر مادى . . ونحن نقول : ألقى الحجر . والحق سبحانه يقول :

﴿ فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾

(سورة الشعراء)

إنها حبال ، أى أمر مادى . وسبحانه وتعالى يقول عن الوحى لأم موسى :

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ ﴾

(سورة القصص)

فالإلقاء أمر مادى ، كأن الله يريد أن يجعل المعنى وهو الرعب شائعا ، فقال : أنا سأجمع الرعب وأضعه فى القلب ، ويكون عمله ماديًا . فإذا ما استقر الرعب فى القلب جاء الخَور ، وإذا سكن الخور القلب نضح على جميع الجوارح تخاذلا ، فيقول : « سنلقى فى قلوب الذين كفروا الرعب » فكأنه مثل لنا الرعب ، والرعب أمر معنوى وهو التخوف من كل شىء ، فأوضح : بأنه سيأتيهم بالرعب ويلقيه فى القلب ، فيبقى به ليصنع الخور والخذلان .

« سنلقى فى قلوب الذين كفروا الرعب » انظروا إلى التعابير الصادرة عن الله . إنه هنا يأتى بـ « نون العظمة » ، « سنلقى » ونلحظ أن الحق سبحانه وتعالى ساعة

يتكلم عن أمر يحتاج إلى فعل فهو سبحانه يأتى بـ « نون العظمة » كقوله :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۝ ﴾

(سورة الحجر)

ولأن إنزال الذكر عملية عظيمة ، فنأتى بـ « نون العظمة » . لأننا سننزله بقدرة وسننزله بحكمة ، وننزله بعلم وننزله بسمع ، وننزله ببصر ، وننزله بقيومية ، وننزله بقبض ، وننزله ببسط ، فقوله : « إنا نحن » فكأن نون العظمة تأتى هنا ، لكن ساعة يتكلم سبحانه عن الذات العلية فهو يقول : « إننى أنا الله » . لم يقل إننا ، ولكن فى الإنزال يقول :

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ۝ ﴾

(سورة القدر)

لأن هذه عملية عظيمة جليلة ؛ فـ « نون العظمة » تأتى فيما يكون من شأنه حدث يُفعل ؛ وهذا الحدث الذى يُفعل يحتاج لصفات كثيرة ، ولذلك قلنا ساعة تبتدىء أىَّ عمل تقول : « بسم الله الرحمن الرحيم » لماذا ؟ لأن العمل الذى ستعمله يحتاج إلى قدرة عليه ، ويحتاج إلى علم قبل أن تعمله ، ويحتاج إلى حكمة ، أى أنه يحتاج إلى صفات كثيرة ، فأنت تدخل على العمل باسم القادر الذى يُقْدِرُك ؛ وباسم العليم الذى يعلمك ، وباسم الحكيم الذى يحكمك . وكل هذه الصفات ستتكاتف فى إبراز العمل كى يرحمك حتى فى الاستعانة ، فلا يقول لك : هات الصفات كلها التى يحتاج إليها فعلك ؛ لأن هناك صفات أنت لا تعرفها ، فيقول لك : هات الاسم الجامع لكل صفات الكمال . قل : « باسم الله » ، وهى تضم كل صفات الكمال .

إذن فأنت تلاحظ أنك إذا رأيت « نون العظمة » التى نسميها « نون الجمع » نجد أننا نقول : « نحن » للجماعة . أو للمتكلم الواحد حين يعظم نفسه ، ولذلك نلاحظها حتى فى قانون البشر ، ألم يقولوا فى الملكية : « نحن الملك » ، وهذه النون بالنسبة لله ليست نون الجماعة . إنما هى « نون العظمة » ، العظمة الجامعة لكل صفات الكمال التى يتطلبها أى فعل من الأفعال ، لذلك قال سبحانه : « سنلقى فى

قلوب الذين كفروا الرعب » فكل قلب به كفر يحتاج إلى إلقاء الرعب فيه . إذن فتأتى نون العظمة لتستوعب كل هذه القلوب الكافرة .

وهو سبحانه لا يتجنى عليهم بالقاء الرعب ، ولكن هم الذين استحقوا أن يلقى فى قلوبهم الرعب ، لماذا ؟ « بما أشركوا » . إن الإشراك بالله هو الذى جاء لهم بالرعب ؛ لأن الله يفعل ، والشركاء لا يفعلون . ولو أن شركاءهم حق لما تخلوا عنهم . فلماذا لم يأتوا بشركائهم لينصروهم ؟ لقد جاءهم الرعب لأنهم ليس لهم مولى ، ولو كان لهم آلهة قادرة ـ كما يدعون ـ لقالوا لتلك الآلهة : رب محمد يعمل معنا هكذا فلماذا لا تقفون له يا أربابنا ؟ لكنهم أشركوا بالله ما لا يضر ولا ينفع ، بل ضره أقرب من نفعه .

« بما أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا » والسلطان هو القوة والحجة والبرهان مأخوذة من مادة « السين واللام والطاء » ونقول : فلان تسلط على فلان ، أى أرغمه بقدرته عليه . ويقولون : فلان سليط اللسان ، أى قادر أن يسب ، إذن فالسلطة هى : القهر ، والقوة التى ترغم على الفعل ، وفى المعنويات هى الحجة والبرهان . والمؤمنون دائما ذوو سلطان من الله ؛ لأنهم إن انتصروا ماديا فذلك سلطان القهر ، وإن انهزموا ماديا فعندهم سلطان الحق والدليل ، ولذلك قلنا سابقا : إن إبليس يأتى يوم القيامة ويقول :

﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ﴾

(من الآية ٢٢ سورة إبراهيم)

وقلنا إن السلطان نوعان : إما قوة تقهرنا على أن نفعل المعصية ، وإما برهان ودليل يجعلنا نفعل المعصية .

والفرق بين القوة القاهرة وبين سلطان الدليل هو أن القوة القاهرة تجعلك تفعل وأنت مرغم غير راض عن الفعل . أما سلطان الدليل فيقنعك بأن تفعل ؛ فتكون قد فعلت برضاك ، فمرة يأتى السلطان بمعنى : قوة تقهرك على أن تفعل الفعل وأنت

مرغم . إنما قوة الدليل تقنعك أن تفعل ، فيأتى الشيطان ليقر على نفسه فى الآخرة ويقول : « وما كان لى عليكم من سلطان » أى ليس معى قوة تقهركم على المعصية ، وليس معى دليل يقنعكم حتى تفعلوا المعصية ، لا هذا ولا ذاك ، فما الحكاية إذن ؟ قال : « وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى » . أى إنكم أطعتمونى واستجبتم لدعوتى بلا سلطان قوة أقهركم به على شىء ، ولا سلطان دليل أقنعكم به .

ويذيل الحق الآية بقوله : « ومأواهم النار وبئس مثوى الظالمين » أى أن المرجع الذى يأوون إليه هو النار ، والمأوى : هو الموضع الذى ترجع أنت إليه . وكأن فى هذا المرجع ذاتية من الكافر تلقيه على النار فهو - أى الكافر - مأواه ومثواه الذى يرجع إليه . ولذلك يجب أن نفطن إلى قوله الحق فى بعض الأساليب : « وإليه تَرجَعون » وقوله : « وإليه تُرجِعون » . « وبئس مثوى الظالمين » . . أى مثوى لا مفر بعده أبدا ، فكل مثوى من الجائز أننا نرحل عنه ، لكن المثوى الذى سيبقى خلودا للظالمين هو النار وهو بئس المثوى . وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا

عَنكُمْۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾

ونعرف أن فى « صدقكم الله وعده » مفعولين : الأول هو ضمير المخاطبين فى قوله : « صدقكم » ، والثانى هو قوله « وَعْد » المضاف إلى الضمير العائد على لفظ الجلالة « الله » فهو ـ سبحانه ـ قد أحدث وعداً ، والواقع جاء على وفق ما وعد . لقد قال الحق :

﴿ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾

(سورة محمد)

وقال سبحانه :

﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾

(سورة الصافات)

والآيتان تؤكدان قضية وعدية ، بعد ذلك جاء التطبيق العملى . . فهل وقع الوعد أو لم يقع ؟ لقد وقع ، ومتى ؟ فهل يشير الحق فى هذه الآية إلى موقعة بدر ؟

« إذ تحسونهم بإذنه » . و« تحسونهم » أى تُذهبون الحس منهم ، والحس : هو الحواس الخمس ، ومعنى أذهبت حسه يعنى أفقدته تلك الحواس . « إذ تحسونهم » وقد حدث ، وتمكنتم منهم ؛ تقتلونهم وتأسرونهم ، أو الحس : هو الصوت الذى يخرج من الإنسان ، ومادام فقد الحس يعنى انتهى ، « إذ تحسونهم بإذنه » فحينما صدقتم لقاءكم لعدوكم على منهج الله صدق الله وعده ؛ هذا فى بدر .

أما هنا فى أُحد فقد جاء فيكم قوله : « حتى إذا فشلتم » أى جبنتم . « وتنازعتم فى الأمر وعصيتم » أمر الرسول « من بعدما أراكم ما تحبون » وهى الغنائم ، « منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة » . كأنه سبحانه يعطينا العبرة من معركتين : معركة فيها صدق وعد الله ، وفعلا انتصرتم ، وأيضا صدق وعد الله حينما تخليتم

عن أمر الرسول فحدث لكم ما حدث . إذن فالمسألة مبسوطة أمامكم بالتجربة الواقعية ، ليس بالكلام النظرى وليس بالآيات فقط ، بل بالواقع .

أو أن الأمر كله دائر فى أحُد ، نقول فرضا : هو يدور فى أحُد ودع بدرا هذه ، حينما دخلتم أيها المسلمون أول الأمر انتصرتم أم لم تنتصروا ؟ لقد انتصرتم ، وطلحة بن أبى طلحة الذى كان يحمل الراية للكفر قتل هو وبضعة وعشرون ، الراية الكافرة قد سقطت فى أول المعركة ، وحامل الراية يقتل وهذا ما وضحه قوله تعالى : « ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه حتى إذا فشلتم وتنازعتم فى الأمر » فجماعة تقول : لنبق فى أرض المعركة ، وجماعة تقول : ننسحب . ورأيتم الغنائم فحدث منكم كذا وكذا . فتأتى النكسة ، ولو لم يحدث ما حدث لكان من حقكم أن تتشككوا فى هذا الدين ، إذن فما حدث دليل على صدق هذا الدين ، وأنكم إن تخليتم عن منهج من مناهج الله فلا بد أن يكون مآلكم الفشل والخيبة والهزيمة .

« حتى إذا فشلتم وتنازعتم فى الأمر » ، فجماعة قالوا : نظل كما أمرنا الرسول ، وجماعة قالوا : نذهب إلى الغنائم « منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الأخرة » . . ومادمتم قد تنازعتم وقالت جماعة : لنتمسك بمواقعنا ، وقالت جماعة أخرى : لنذهب إلى الغنائم ، إذن فالذى أراد مواصلة القتال إنما يريد الأخرة ولم تلهه الغنائم ، والقسم الذى أراد الدنيا قال : لنذهب إلى الغنائم . وفى هذه المسألة قال ابن مسعود رضى الله عنه : والله ما كنت أعلم أن أحدًا من صحابة رسول الله يريد الدنيا حتى نزل فينا ما نزل يوم أحُد .

أى أنه لم يكن يتصور أن من بين الصحابة من يريد الدنيا ، بل كان يظن أنهم جميعا يريدون الأخرة ، فلما نزل قول الله : « منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الأخرة » عرف ابن مسعود أن من الصحابة من تتقلب به الأغيار . وذلك لا يقدح فيهم ؛ لأنهم رأوا النصر ، فظنوا أن المسألة انتهت ؛ لقد سقطت راية الكفر ، وقتل المؤمنون عددا من صناديد قريش . ولقد عفا الله عن المؤمنين وغفر لهم ما بدر منهم من مخالفة لأمر رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

« ثم صرفكم عنهم ليبتليكم » نعم لأنكم كنتم مشغولين بقتالهم قبل أن تنظروا إلى الغنائم ، فلما نظرتم إلى الغنائم اتجه نظركم إلى مطلوب دنياكم ، فانصرفتم عنهم ، ولم تجهزوا عليهم ولم تتم لكم هزيمتهم وقهرهم ،« ثم صرفكم عنهم ليبتليكم » وابتلاؤكم فى هذه الغزوة إنما هو رياضة وتدريب على المنهج ، كأنها غزوة مقصودة للابتلاء ، فترون منها كل ما حدث . وبعد ذلك نجحت التجربة ، فبعد هذه المعركة لم ينهزم المسلمون فى معركة قط .

ولذلك يقولون : الدرس الذى يعلم النصر فى الكثير لا يعتبر هزيمة فى القليل . والمثال على ذلك : لنفرض أن ولداً من الأولاد رسب سنة ، ثم حمل ذلة الرسوب ، نجده ينال بسبب ذلك مرتبة متميزة بعد ذلك بين العشرة الأوائل ، إذن فالرسوب الأول له كان خيرا .

« ولقد عفا عنكم » لأنه كان لكم وجهة نظر أيضا عندما تصورتم أن المعركة انتهت بسقوط راية الكفر ومقتل طلحة بن أبى طلحة ومقتل بعض من الصناديد فى معسكر الكفر ، فظننتم أن المسألة انتهت ، لكن كان يجب أن تذكروا أن الرسول قال لكم : اثبتوا فى مراكزكم وأماكنكم حتى لو رأيتمونا نتبع القوم إلى مكة ، ولو رأيتموهم يدخلون المدينة .

أيوجد تحذير أكثر من ذلك !؟ « والله ذو فضل على المؤمنين » وسبحانه جل وعلا لم يخرجهم من الحظيرة الإيمانية بهذا القول الحكيم . ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ

خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١٥٣﴾

« إذ تصعدون ولا تلوون على أحد » هنا جاء لهم بلقطة من المعركة ، حتى إذا سمع كل واحد منهم هذا الكلام يستحضر الصورة المخزية التى ما كان يصح أن تحدث ، « إذ تصعدون » ، فيه « تَصْعَد » ، وفيه « تُصعِد » وهنا « تُصعِدون » من « أَصْعَد » ، و« أَصْعَد » أى ذهب فى الصعيد ، والصعيد الأرض المستوية حتى تعينه على سرعة الفِرار . إنما « صَعِدَ » تحتاج إلى أن يكون هناك مكان عالٍ يصعدون إليه . وهم ساعة أرادوا أن يفروا جَرْوًا إلى الأرضِ السهلة ومَشْوًا ، فكل منهم لا يريد أن يتعثر هنا أو هناك ، إذن فالمناسب لها « إذ تُصعِدون ولا تلوون على أحد » والفَار لا ينظر هنا أو هناك ؛ ليس أمامه إلا الأرض السهلة .

« ولا تلوون على أحد » أى لا تعرجون على شيء ، والأهم من ذلك أن هناك تنبيها من القائد الأعظم وهو الرسول صلى الله عليه وسلم الذى يدعوكم « والرسول يدعوكم فى أخراكم » أى يناديكم من مؤخرتكم طالبا منكم العودة إلى ميدان القتال « فأثابكم غما بغم » . أنتم غَمَمْتم الرسول صلى الله عليه وسلم بأنكم خالفتم أوامره ، فوقفكم الله هذا الموقف .

كلمة « فأثابكم غما بغم » كأنه يقول : عاقبكم . ولكنه سبحانه يأتى بها مغلفة بحنان الألوهية « فأثابكم ». إذن فهى ثواب . . أى أن الحق سبحانه وتعالى بربوبيته وبألوهيته ؛ يعلم أن هؤلاء مؤمنون فلم يَقْسُ عليهم ، قال : « فأثابكم غما بغم » فكأن ما حدث لكم تخليص حق .

« لكيلا تحزنوا على ما فاتكم » ولو لم تحدث مسألة الحزن والخزى والذلة لشغلتكم مسألة أنكم فاتتكم الغنائم والنصر ، ولظل بالكم فى الغنائم ؛ لأنها هى السبب فى هذا . كأن الغم الذى حدث إنما جاء ليخرج من قلبكم لقطة سيل اللعاب على الغنيمة . وما أصابكم من القتل والهزيمة ، « فأثابكم غما بغم لكيلا تحزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم والله خبير بما تعملون » أى أنه سبحانه يقدر ما الذى استولى

عليكم ، لأن من الجائز « والرسول يدعوكم فى أخراكم » أنهم لم يسمعوا النداء من هول المعركة ، « والله خبير بما تعملون » وهو سبحانه خبير بكل فعل وإحساس .
ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾ ﴾

وكلمة « أنزل » تدل على أن هذا عطاء عُلوى ليس له شأن بالأسباب المادية ولا بالقوانين البشرية ؛ لأن النوم عرض من الأعراض التى تطرأ على الأحياء ، هذا العرض تستوجبه عمليات كيماوية فى نفسك ، وهذه العمليات الكيماوية حتى الآن لا يعرفون ما هى ، وأقصى ما فُهم منه أنه ردع ذاتى لجسم الإنسان . فكأن الجهاز المتحرك المكون من مخ يعمل، وعين ترى، وأذن تسمع، وحواس وحركة هذا الجهاز له طاقة ، ساعة تنتهى منه الطاقة ، لا يقول لك : أنت الذى تترك العمل .لا ، بل

يقول لك : أنا لم أعد صالحا للعمل . إنه ردع ذاتى ، مثلما يريدون أن يصلوا إليه الآن فى مجال الآلات بمجرد فصل تيار الكهرباء آليا عن تلك الآلات فهى تتوقف .

فالردع الذاتى هو فى النوم ويأتيك النعاس . وتبين بالبحث العلمى أن هناك أشياء فى الجسم لا تخرج كفضلات . بل تحتاج إلى التعادل والتوازن الكيميائى . ونحن نعلم أن هناك بقايا كنتيجة للحركة ، وهناك احتراق للطاقة ، وكل حركة فيها احتراق ، وبقايا هذا الاحتراق تخرج مرة على هيئة بول ، ومرة يخرج غائطا ومرة يخرج مخاطا ، وهكذا ، إذن كثير من هذه الفضلات هى نتيجة عمليات الاحتراق ، لكن هناك أشياء لا نريد لها أن تخرج ولكن نريدها أن تتعادل ، فعندما تنام لا يوجد لك حركة وتبتدىء الكيماويات داخل الجسم فى التعادل ، وهذا هو ما يفعله لك النوم الذى تستوجبه أسبابك المادية .

وصاحب الهم والغم لا ينام أبدا ؛ فهو يسهو عن نفسه ويرهق جسمه أكثر وتكون المصيبة كبيرة عليه ، وهنا ينزل الحق فضله عليكم بالنوم لأن أسبابكم لا تساعد أيا منكم على أن ينام .

وأنتم تذكرون قديما أننا قلنا : إن الإمام عليًا كرم الله وجهه لما اشْتُهِرَ بالفتيا ، وكلما سألوه عن أمر أفتى فيه ، فقالوا : نأتى له بمسألة معقدة ونرى كيف يأتى بالفتيا ، وكأنهم نسوا أنه يُفتى لأنه تربى فى حضن النبوة ، فقد جاءت النبوة رسول الله صلى الله عليه وسلم وسيدنا على مازال صغيرا ، أما الصحابة الآخرون فقد جاءت النبوة لرسول الله صلى الله عليه وسلم وهم كبار فى السن ، فهناك معلومات دخلت عندهم من أيام الجاهلية ، ولكن سيدنا عليًا كرم الله وجهه لم تدخل عليه معلومة من معلومات الجاهلية . كل المعلومات التى عنده نبوية ، فكل هذا التفاعل ينشأ عنه فُتيا ، لذلك كان سريعا فى الإفتاء .

على سبيل المثال ، تأتى له امرأة فتقول : يا ابن أبى طالب كيف يعطوننى دينارا من ستمائة ؟ مورثى خَلَّفَ ستمائة دينار فأعطونى دينارا واحدا . فقال لها : لعله مات عن زوجة ، وعن بنتين ، وعن أم ، الزوجة تأخذ الثُمن (خمسة وسبعين دينارا)

والبتان تأخذان الثلثين (أربعمائة دينار) وللأم السدس وهو مائة دينار ، ولعل له اثنى عشر أخا وأختا واحدة،أشقاء أو لأب،وأنت هذه الأخت وقد بقى من التركة خمسة وعشرون دينارا توزع على الاثنى عشر أخا والأخت ، فيكون نصيبك دينارا . كيف عرف ذلك ؟ إنها دقة الحساب عند من تعلم فى بيت النبوة .

وفى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها نجد أن الحق قد أنزل عليهم نعاسا ليؤمنهم فلم ينشأ النوم هنا من حركة الاختيار ، ولكن الله أنزله ، ومعنى « أنزله » ؛ أنه بعث رحمة جديدة من السماء لِيُخرج القوم الذين أصابهم الغم على ما فعلوا مما هم فيه . ولذلك قال أبو طلحة : غشينا النعاس ونحن فى مصافنا يوم أحد فكان السيف يسقط من أحدنا فيأخذه ثم يسقط فيأخذه .

إذن فهى عملية قسرية . والنعاس حينما ينزل من الحق سبحانه وتعالى يكون عملية إنقاذ من حركة فاتت فرصتها على النفس البشرية فعوضها الله ، ولكن القوم الذين نافقوا ماذا كان حالهم ؟ لاشك أن الذين جاءوا نفاقا لم يصبهم غم على ما حدث . بل بالعكس ، لابد أن يكون قد أصابهم فرح أو اطمئنان على ما حدث ، وهؤلاء لا يكونون أهلا لأن ينزل الله عليهم أمنة النعاس . بل يتركهم الله لذواتهم ؛ لأنهم لم يكونوا فى حصن الله باتباع منهج الإسلام أو بالاخلاص ـ على الأقل ـ لفكرة الإسلام ، هؤلاء يسلمهم الله لذواتهم .

إذن فلن يُنزل عليهم أمنة النعاس . ومادام لن ينزل عليهم أمنة النعاس ، فقد أصبحوا فى قلق ، لماذا ؟ لأن نفوسهم قد أهمتهم . والإنسان حين يؤمن ويتقبل الإسلام من ربه يكون قد باع نفسه لربه ، ومادام قد باع نفسه لربه فالصفقة الإيمانية لابد أن تستمر . وإذا استيقظ المسلم مرة لنفسه نقول له : لقد رجعت فى عقد الصفقة. ومادمت قد رجعت فى عقد الصفقة فالله الذى كان قد اشتراك يتركك لنفسك ، فقوله : « أهمتهم أنفسهم » أى خرجوا عن صفقة الإيمان ؛ لأن الذى يعقد صفقة بالإيمان مع ربه ، هو من قال الله فيه :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ

﴿ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ ﴾

(سورة التوبة)

ومادام الله قد اشترى من المؤمن نفسه فيجب على المؤمن ألا تهمه نفسه ، فيدخل المعركة بالصفقة الإيمانية ، فإذا أهمته نفسه يبدأ القلق ، والبلبلة ، والاضطراب ، وتوهم الأشياء ، والشيء الواحد يتوهمه على ألف لون . إذن فنفسه تكون غير مطمئنة ، ومادام الإنسان قد شغله هم نفسه حتى لو كان النعاس استجابة لأمر طبيعي من ذات النفس فلا يأتى النعاس أبدا .

ولذلك نجد أن الإمام عليًا ـ رضوان الله عنه وكرم الله وجهه ـ حينما سُئل عن أشد جنود الله؟بسط يديه وقال : أشد جنود الله عشرة : الجبال الرواسى ، والحديد يقطع الجبال ، إذن فالحديد أشد من الجبال ، والنار تذيب الحديد ، والماء يطفىء النار ، والسحاب المسخر بين السماء والأرض يحمل الماء ، والريح يقطع السحاب ، وابن آدم يغلب الريح يستتر بالثوب أو الشيء ويمضى لحاجته ، والسُكر يغلب ابن آدم ، والنوم يغلب السُكر ، والهم يغلب النوم ، فأشد جنود الله « الهم » .

فساعة يدخل الهم على النفس البشرية ، هذا أشد جنود الله ؛ لأن الهم يدخل على النفس البشرية بألوان متعددة للخطب الواحد ، فيتصور أموراً معقدة فى أمر واحد ، وواقعة على لون واحد ، ولكن الهم يجول به فى كل لون ؛ فهؤلاء قد أهمتهم أنفسهم ومادامو قد أهمتهم أنفسهم فقد خرجوا عن صفقة الإيمان . ومادامو قد خرجوا عن صفقة الإيمان الذى بوساطته اشترى الله من المؤمنين أنفسهم ، فالله يتخلى عنهم . ومادام الله قد تخلى عنهم فعليهم مواجهة المصير .

إن القلق والاضطراب يستبدان بهم ويصابون بالفزع من كل شيء . لكن حال الصنف الأول والطائفة الأولى يختلف ؛ فالله سبحانه وتعالى يعاملهم معاملة من بقى

فى الصفقة الإيمانية وإن كانت نفوسهم البشرية قد فسرت الأحداث تفسيرا خاطئا ، فظنوا أن المسألة فى المعركة انتهت ، فذهبوا لأخذ الغنيمة ، إن هؤلاء قد احترم الله بقاءهم على الإخلاص للإسلام ، وأدبهم على تفسيرهم للأحداث تفسيرا غير حق ، فأثابهم غما لما خالفوا فيه ، وأنزل عليهم أمنه لإخلاصهم فى قضية الإسلام .

« وطائفة قد أهمتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية » وإذا سمعت كلمة « طائفة » فاعلم أنها جماعة ، لكن هذه الجماعة لها مواصفات خاصة هى التى تجمعها على فكرة واحدة كأنهم يطوفون حولها ، إنها ليست مطلق جماعة لكنها جماعة تدور حول فكرة واحدة ، ويأتى القول الحكيم هنا ليبين لك ما قالوه فى نفوسهم ، وماداموا قد قالوا فى نفوسهم ، أسمعهم أحد ؟ لا ، ولكن الله أخبر به ، وأخبر بما فى نفوسهم جميعا بقول واحد ، مما يدل على أنهم يطوفون حول فكرة واحدة ، فالنضج الوجدانى يجعلهم يقولون جملة واحدة هى : « هل لنا من الأمر من شىء » وماداموا سيقولون فى نفوسهم فمن الذى سمعهم وهم جماعة ؟ إنه الله - سبحانه - « والله عليم بذات الصدور » .

وأنت إذا قلت « طائفة » تجد أنها فى عرف اللفظ « مفرد » ، وعندما تجمعها تقول : « طوائف » ، لكن هى لفظ مفرد يدل على جمع ، فمرة يلحظ المفرد ، ومرة يلحظ ما يؤديه المفرد من الجمع . وهذه لا يتنبه إليها إلا البليغ ، فيفرق بينها كلفظ مفرد وبين ما تدل عليه كجمع ، ولذلك تجد هذا فى إعجاز القرآن ، فالحق يقول :

﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ ﴾

(سورة الحجرات)

وحينما يقول : « وإن طائفتان من المؤمنين » فهو هنا يأتى بالخبر ، اقتتلتا أو اقتتلوا ؟ إنه سبحانه يقول : « اقتتلوا » ، اللفظة طائفتان لكن الدقة البلاغية لاحظت أن كل طائفة مكونة من جماعة . « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا » فهاذا

نفعل ؟ « فأصلحوا بينهما » . فمرة رجع للجماعة ومرة رجع للاثنتين ، ففى ساعة الاقتتال لا تقف الطائفة بسيف واحد وتضرب ضربة واحدة ، لا ، ففى ساعة القتال كل فرد من الطائفة له عمل ، إذن فالفردية المكونة للطائفة متعددة .

لكن عندما نُصلح هل نأتى بكل فرد من هذه الطائفة وبكل فرد من الطائفة الأخرى أو نأخذ هذه الطائفة ممثلة فى رؤوسها والطائفة الأخرى ممثلة فى رؤوسها ونعقد الصلح بين الطائفتين ؟ فدقة القرآن تقول : « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما » وبعد ذلك يعود الحق للتثنية فيقول : « فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما » والصُلح يكون بين جماعة ممثلة فى قيادة وجماعة أخرى ممثلة فى قيادة .

وقوله الحق : « وطائفة قد أهمّتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية يقولون هل لنا من الأمر من شىء قل إن الأمر كله لله يخفون فى أنفسهم ما لا يبدون لك يقولون لو كان لنا من الأمر شىء ماقتلنا هاهنا » هذا القول يدل على أنها طائفة تدور حول حركة واحدة ، ويدل على أن النفاق نفاق متفق عليه ، وليس كل واحد منهم ينافق فى نفسه ، لا . إنها طائفة المنافقين ، وقد كوّنوا جماعة ، ولهم سياسة مخصوصة ، ولهم كلام مخصوص ولهم وحدة فكر ، ولهم وحدة قول ، تعرفهم من قول الحق : « وطائفة قد أهمّتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية » .

ونعرف أن الحق هو الشىء الثابت ، ومادام ثابتا فهو لا يتغير ، وقضية الحق فيه تكون مطردة ، فالله حق ، خلق السماوات والأرض ، وكل الكون بالحق ، أنزل كتابه بالحق ، كله حق ، فهم يظنون بالله غير الحق مع أنه حق ، ونشأ الكون منه بقانون حق ، واستمرت سنن الله فى الكون بالحق ، وهو دائما ينصر الحق ، وهم يظنون بالله غير الحق ، يقولون : ربنا لم ينصرنا على الرغم من أنه وعدنا بالنصر ، وتناسوا العناصر التى جعلها الله أسبابًا للنصر ، إنها سُنّة الله وسُنّة الله تتحقق ولو على أحبابه ، لقد خالفوا أمر الرسول ، فلابد أن ينهزموا ، فلا مجاملة لأحد ، فالذى يخالف لابد أن يأخذ جزاءه ؛ لأن هذا هو الحق .

كان يجب أن يقولوا إن الحق واضح لدرجة أن أحبابه ومعهم رسوله حينما خالفوا

عن أمر الله الذى قاله الرسول صلى الله عليه وسلم طبق الله عليهم سُنته ، إذن فهى سنة بالحق ، لكنهم ظنوا بالله ظن الجاهلية ، والمقصود به إما ظن أهل الجاهلية ؛ وإمَّا أن تكون الجاهلية عَلَمًا على السَّفه كله ، وهذا الظن له نضح سلوكى .

« يقولون هل لنا من الأمر من شيء » أى هل انتصرنا أو ظفرنا أو غلبنا أو أخذنا غنائم ؟ أو يكون قولهم : « هل لنا من الأمر من شيء » مقصودا به : أننا خرجنا إلى المعركة بدون رأينا ؛ فقد كان من رأينا ألا نخرج وأن نظل فى المدينة وعندما يدخلونها علينا نحاربهم . « يقولون هل لنا من الأمر من شيء قل إن الأمر كله لله » هم لم يمتلكوا البصيرة الإيمانية ولم يعرفوا لماذا لم ينصرهم الله ، هم فهموا أنهم لم ينتصروا ؛ لكن فى عرف الحق أنه انتصار ؛ لماذا ؟ لأنَّ المعركة أثبتت أن المبدأ إن خولف فلا نصر ، إذن فالإسلام قد انتصر ، ولكن الذى انهزم هم المتخاذلون عن منهج الإسلام ، وهذا نصر للإسلام فى ذاته . ولذلك يجب أن نفرق دائما بين المبدأ الإسلامى و المنسوبين للمبدأ .

إياك أن تأخذ الحكم على المبدأ من المنسوبين للمبدأ ، فلا يكون المنسوبون للمبدأ حُجّة على الحكم فى ذاته إلا إذا كانوا ملتزمين به ؛ لأن الله حينما شرع ديناً سمّاه الإسلام ليحكم حركة الحياة فى الناس فهو قد قنّن وحرّم فيه أفعالاً ، ومادام قد قنن وحرم فيه أفعالاً فمعناه أن المؤمنين المسلمين الذين انتسبوا له من الممكن أن يخالفوا بأفعالهم تلك الأحكام ، فعندما يقرر الإسلام جلد أو رجم الزانى والزانية ، وحينما يشرع الإسلام قطع يد السارق أو السارقة ، وحين يشرع الإسلام تلك العقوبات للجرائم ، فمعنى ذلك أنه من الجائز أن تحدث تلك الجرائم ، فإذا ما حدثت فأنت لا تأخذها من واقع مُجْرِم لتحكم به على الإسلام ، لا تقل إن الإسلام أباح السرقة بل قل : سرق مسلم ووضع الإسلام عقوبة صارمة عليه وهى قطع يده .

« يُخفون فى أنفسهم ما لا يبدون لك يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ها هنا » وهذه هى الفضيحة لهم ، فماذا كانوا يريدون أن يكون لهم ؟ كانوا يريدون ألا يخرجوا للمعركة فقالوا : لو كان لنا من الأمر شيء واتبعنا منطقنا ، لما جئنا الموقعة هنا وحصل لنا ما حصل ، هذه واحدة ، أو لو كان لنا شيء من الظفر الذى وعد الله به محمداً وأصحابه ما قتلنا ها هنا ، فعلى الرأيين يصح المعنى ، فكأنهم أرادوا أن

يعللوا القتل أو الموت بأسباب ، ومن الذى قال:إن القتل أو الموت يتعلق بأسباب ؟ إن الموت قضية تطرأ لإعدام الحياة ، وهى مجهولة السبب ومجهولة الزمان ومجهولة المكان ومجهولة العمر .

إذن فمادامت المسألة مجهولة فلماذا ربطتم بين القتل والموقعة ؟ وهل لم تروا إنساناً مات وليس فى موقعة ؟ ألم تروا إنساناً قد قُتل وليس فى موقعة ؟ لو أن القتل لا ينشأ إلا فى مواقع قتال وحرب لكان لكم أن تقولوا هذا ، وإنما القتل والموت قضية عامة لها واقع فى حياتكم . هذا الواقع لم يرتبط بأرض ، ولم يرتبط بزمان ، ولم يرتبط بسن ، ولم يرتبط بسبب ، وإنما الموت يأتى لأنك تموت ، انتهت المسألة .

إذن فهم عندما ربطوا القتل والموت بالموقعة فهم قد خرجوا عن القضية الإيمانية . ولذلك يأتى الرد من الحق بأمر واضح للرسول صلى الله عليه وسلم : « قل لو كنتم فى بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم » . فكأنك أيها الميت قد تكون أحْرَص على لقاء الموت من حِرْص الموت عليك . بدليل أننا قلنا : إن الإنسان يكون مريضاً ، ويلح على أن تُجرى له عملية جراحية فيعتذر الطبيب قائلا : عندى عدد كبير من الجراحات فانتظر شهراً ، فيأتى له المريض بوساطة لكى يقبل الطبيب إجراء العملية الجراحية ويلح عليه . ويعلى أجر الطبيب وقد يموت المريض . إذن فهو يلح على الموت أو لا ؟ إنه يلح على الموت .

يقول الحق : « قل لو كنتم فى بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم » وكلمة « بَرَزَ » تدل على اندفاع حركى ، فمعنى : بَرزَ من الصّف ؛ يعنى أن الصّف له التئام واقعى ، والذى يبرُز إنما يقوم بحركة مخالفة للصف ، هذه حركة .

« قل لو كنتم فى بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم وليبتلى الله ما فى صدوركم وليُمحّص ما فى قلوبكم والله عليم بذات الصدور » والذى يبرز إلى المضجع هو من يخرج من مكان الاستقرار ، وإلاّ فكيف يكون الابتلاء لمن يقدر الله سبحانه أن يحملوا معركة الإسلام إلى أن تقوم الساعة إذا لم تكن هذه المسائل ؟ لابد أن يكونوا قوماً قد عركتهم التجربة ، مُمحصين بالأحداث حتى لا يكون مأموناً على

حمل السلاح فى الإسلام إلا هؤلاء الصفوة المختارة .

فساعة يقول الرسول صلى الله عليه وسلم بالخروج ، وينتهى إلى أن يخرج إلى أُحُد ، نجد جماعة يتخاذلون بوساطة ابن أبى ، هذه أول تصفية ، وبعد ذلك ينقسم الرُماة ، وهذه تصفية أخرى ، فريق يظل وفريق ينزل للغنائم ، وبعد ذلك يُشَاع أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد قُتل ، هذه تصفية ثالثة .

« وليبتلى الله ما فى صدوركم وليمحص ما فى قلوبكم والله عليم بذات الصدور » وكلمة « ذات الصُدور » معناها صاحبة الصدور . وفى الصدر يحرص الإنسان على إخفاء الأمر الذى يجب أن يحتفظ به لنفسه بِحرْص كحرص الصاحب على صاحبه ، كأن الصدر حريص على ألا يسلم ما فيه ، ولكن الله سبحانه وتعالى يفضحهم أمام الناس ، ويفضحهم أمام نفوسهم ؛ فقد يجوز أن يكونوا مغشوشين فى نفوسهم .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾ ﴾

وعندما نقرأ كلمة « اسْتَزَلَّهم » نعرف أن (الهمزة والسين والتاء) للطلب ، تطلب ما بعدها ، مثل : استفهم أى طلب الفهم ، استعلم يعنى طلب العلم ، استقوى يعنى طلب القوة ، و« اسْتَزَلّ » يعنى طلب الزّلل ، ومعنى « الزَّلَل » هو العثرة والهفوة ، أى أن الإنسان يقع فى الغلط ، إذن فالشيطان طلب أن يزلوا ، « ببعض ما كسبوا » ، كأن الشيطان لا يجترىء على أن يستزل أحداً ممن آمن إلا إذا صادف فيه

تحللاً فى ناحية ، لكن الذى ليس عنده تحلل لا يقوى عليه الشيطان ، ساعة يأتى الإنسان ويعطى لنفسه شهوة من الشهوات فالشيطان يرقمه ويضع عليه علامة ويقول : هذا ضعيف ، هذا نقدر أن نستزِلّه . لكن الذى يراه لا يطاوع نفسه فى شيء من التحلل لا يقترب ناحيته أبداً .

ولذلك فالنفس هى مطية الشيطان إلى الذنوب ، وفى الحديث الشريف : « إن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم »[1] وعندما يرى الشيطان واحدًا تغلبه نفسه فى حاجة فالشيطان يقول : هذا فيه أمل ! وهو الذى يجرى منه مجرى الدم كما سبق فى الحديث ، أما الملتزم الذى ساعة تُحدثه نفسه بشيء ويأبى فالشيطان يخاف منه ، إذن فالشيطان لا يستزل إلا الضعيف ، ولذلك فالذى يكون ربه على ذِكْر منه دائماً لا يجترىء عَليه الشيطان أبداً .

إن الله ـ سبحانه ـ قد سمى الشيطان « الوسواسَ الخناس » ، إنه يوسوس للناس ، لكنه خنَّاس فإذا ذُكِر اللّهُ يخنِس ، أى يتأخر ويختفى ولكنّه ينفرد بك حين يراك مُنعزلاً عن ربك ، لكن حين تكون مع ربك فهو لا يقدر عليك بل يتوارى ويمتنع عن الوسوسة إذا استعذت عليه بالله .

إذن فقوله : « إنما استزلهم الشيطان » يعنى طلب منهم أن يزلوا نتيجة لأنه عرف أنهم فعلوا أشياء أبْدَوْا وأظهروا فيها ضعفهم ، « إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا » . وكلمة « ببعض ما كسبوا » . . كأن قول الله « ولقد عفا الله عنهم » أنّه لم يأخذهم بكل ما كسبوا ؛ لأن ربنا يعفو عن كثير . « إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا ولقد عفا الله عنهم إن الله غفور حليم » .

« عفا الله عنهم » لماذا ؟ عفا عنهم تكريما لمبدأ الإسلام الذى دخلوا فيه بإخلاص ، ولكن نفوسهم ضعُفت فى شيء ، فيُعطيهم عقوبة فى هذه ولكنه يعفو عنهم فهذا هو حق الإسلام ، « إن الله غفور حليم » .

(١) رواه أحمد والبخارى ومسلم وأبو داود عن أنس .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَوۡ كَانُواْ غُزّٗى لَّوۡ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجۡعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسۡرَةٗ فِي قُلُوبِهِمۡۗ وَٱللَّهُ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ١٥٦ ﴾

والضرب فى الأرض هو السعى واستنباط فضل الله فى الأرض وفى سبيله لإعلاء كلمته ، فالذين كفروا يرتبون الموت والقتل والعمليات التى يفارق الإنسان فيها الحياة على ماذا ؟ على أنه ضرب فى الأرض أو خرج ليقاتل فى سبيل الله ، وقالوا : لو لم يخرجوا ما حصل لهم هذا ! سنرد عليهم ، ونقول لهم : كأنكم لم تروا أبداً ميتاً فى فراشه . كأنكم لم تروا مقتولا يسقط عليه جدار ، أو يصول عليه جمل ، أو تصيبه طلقة طائشة ، هل كل من يموت أو يقتل يكون ضارباً فى الأرض لشىء أو خارجا للجهاد فى سبيل الله ؟!

إذن فهذا حُمق فى استقراء الواقع ، وجاء الحق بذلك ليعطينا صورة من حكمهم على الأشياء ، إنه حكم غير مبنى على قواعد استقرائية حقيقية . فإذا عرفنا أنهم كفروا نقول : هذه طبيعتهم ، لأننا نجد أن حكمهم ليس صحيحا فى الأشياء الواضحة ، ومادام حكمهم ليس صحيحاً أو حقيقياً فى الجزئيات التى تحدث ـ فإذا عرفتم أنهم كفروا فهذا كلام منطقى بالنسبة لهم ـ فشأنهم أنهم لا يتثبتون فى أحكامهم فلا عجب ـ إذن ـ أن كانوا كافرين .

« أو كانوا غُزّى » ، وغُزى : جمع غازٍ ، مثل : صُوّم وقُوّم ؛ يعنى جمع : صائم

وقائم . « لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا ليجعل الله ذلك حسرة فى قلوبهم » . إذن فالله سبحانه وتعالى يصور لهم ما يقولونه ليعذبهم به ، كيف ؟ لأنهم عندما يقولون : لو كانوا عندنا لكنا منعناهم أن يخرجوا أو يُقتلوا ، إذن فنحن السبب .

وهكذا نجد أنهم كلما ذكروا قتلاهم أو موتاهم يعرفون أنهم أخطأوا ، وهذه حسرة فى قلوبهم ، ولو أنهم ردوها إلى الحق الأعلى لكان فى ذلك راحة لهم ولَمّا كانوا قد أدخلوا أنفسهم فى متاهة ، ويحدُث منهم هذا حتى نعرف غباءهم أيضاً ؛ فهم أغبياء فى كل حركاتهم وفى استقراء الأحداث الجزئية ، وأغبياء فى استخراج القضية الإيمانية الكلية ، أغبياء فى أنهم حشروا أنفسهم وأدخلوها فى مسألة ليست من شأنهم ، فأراد ربنا سبحانه وتعالى أن يجعل ذلك حسرة عليهم .

« لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قُتلوا ليجعل الله ذلك حسرة فى قلوبهم » إن القضية الإيمانية هى « والله يُحيى ويُميت » أى هو الذى يَهَب الحياة وهو الذى يَهب الموت ، فلا الضرب فى الأرض ولا الخروج فى سبيل الله هو السبب فى الموت ، ولذلك يقول خالد بن الوليد ـ رضى الله عنه ـ : لقد شهدت مائة زحف أو زهاءها وما فى جسدى موضع شبر إلا وفيه ضربةُ سيف أو طعنة رمح ، وهأنذا أموت على فراشى كما يموت العَير ـ أى حتف أنفه ـ فلا نامت أعين الجبناء .

والشاعر يقول :

ألا أيهذا الزاجرى أحضر الوغى
وأن أشهد اللذات هل أنت مُخْلِدِى ؟

أى يا من تمنعنى أن أحضر الحرب هل تضمن لى الخلود ودوام البقاء إذا أحجمت عن القتال . ويكمل الشاعر قوله :

فإن كنت لا تستطيع دفع منيتى
فدعنى أبادرها بما ملكت يدى

ويختم الحق الآية بقوله: « والله بما تعملون بصير » فكأنهم قد بلغوا من الغباء أنهم

لم يستتروا حتى فى المعصية ، ولكنهم جعلوها حركة تُرى ، وهذا القول هنا أقوى من « عليم » ؛ لأن « عليم » تؤدى إلى أن نفهم أنهم يملكون بعضاً من حياء ويسترون الأشياء ، ولكن علم الله هو الذى يفضحهم.لا ، هى صارت حركة واضحة بحيث تُبصَر . فجاء قوله : « والله بما تعملون بصير » . ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾

والذى يحرص على ألا يخوض المعركة مخافة أن يُقتل ، فما الذى يرجح عنده هذا العمل ؟ إنه يبتغى الخير بالحياة . ومادام يبتغى الخير بالحياة ، إذن فحركته فى الحياة فى وهمه ستأتيه بخير ، فهو يخشى أن يموت ويترك ذلك الخير ، إنه لم يمتلك بصيرة إيمانية ، ونقول له : الخير فى حياتك على قدر حركتك : قوة وعلما وحكمة ، أما تمتعك حين تلتقى بالله شهيداً فعلى قدر ما عند الله من فضل ورحمة وهى عطاءات بلا حدود ، إذن فأنت ضيعت على نفسك الفرق بين قُدرتك وحِكمتك وعِلمك وحَركتك فى الكسب وبين ما يُنسب إلى الله فى كل ذلك ، ولذلك يقول الحق :

« وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ أَوْ مُتُّم لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ »

وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾

ولنا أن نلحظ أن قول الحق فى الآية الأولى جاء بتقديم القتل على الموت قال تعالى : « ولئن قتلتم فى سبيل الله أو متم » وجاء فى هذه الآية بتقديم الموت على القتل قال ـ جل شأنه ـ : « ولئن متم أو قتلتم » فقدم القتل على الموت فى الآية الأولى لأنها جاءت فى المقاتلين ، والغالب فى شأنهم أن من يلقى الله منهم ويفضى إلى ربه يكون بسبب القتل أكثر مما يكون بسبب الموت حتف أنفه ، أما هذه الآية فقد جاءت لبيان أن مصير جميع العباد ومرجعهم يوم القيامة يكون إلى الله ـ تعالى ـ وأن أكثرهم تزهق نفسه وتخرج روحه من بدنه بسبب الموت ، فلذا قدم الموت هنا على القتل . إذن فكل كلمة وجملة جاءت مناسبة لموقعها . إنه قول الحكيم الخبير .

وبعد ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ ﴾

إن الآية كما نرى تبدأ بكلام إخبارى هو « فبما رحمة من الله لنت لهم » . فكأنه ـ سبحانه ـ يريد أن يقول : إن طبيعتك يا محمد طبيعة تتناسب لما يطلب منك فى هذه المسألة ، هم خالفوك وهم لم يستجيبوا لك حينما قلت : إلىّ عباد الله ، إلىّ عباد الله إنى رسول الله ، وهذا شيء يُحفِظ ويُغضِب . ولكنه لا يُحفِظ طبيعتك ولا يُغضب سجيتك لأنك مفطور مع أمتك على الرحمة . فكأنه يريد أن يُحنن رسول الله على أمته التى أصابته بالغم ؛ فقال له : إياك أن تجازيها على هذا ؛ لأن طبيعتك أنك رحيم ، وطبيعتك أنك لست فظاً ، طبيعتك أنك لست غليظ القلب ، فلا تخرج عن طبيعتك فى هذه المسألة ، مثلما تأتى لواحد مثلا وتقول له : أنت طبيعة أخلاقك حسنة ، يعنى اجعلها حسنة فى هذه .

« فبما رحمة من الله لنت لهم » أى باى رحمة أودعت فيك . ساعة تقول : بأى رحمة فأنت تبهم الأمر ، وعندما تُبهم الشيء فكأنه شيء عظيم ؛ لأن الشيء يُبهم إما لأنه صغير جدا ، وإما لأنه كبير جدا ، فالشيء إذا كان كبيرا يكون فوق المستوى الإدراكى ، وإذا كان صغيرا جدا يكون دون مستوى الإدراك . ولذلك فالأشياء الضخمة جدا نرى منها جانبا ولا نرى الجانب الآخر ، والشيء الدقيق جدا لا نراه ، ولذلك يقولون : هذا الشيء نكرة ، وذلك يدل مرة على التعظيم ويدل مرة على التحقير ، ومرة يدل على التكثير ، ومرة يدل على التقليل . فإن نظرت إلى أن الإدراك لا يستوعبه لضخامته إذن فهو كثير ، وإن رأيت أن الإدراك لا يستوعبه لِلُطفِه ودِقّته ، وأنه ليس فى متناول البصر يكون قليلا أو دقيقا .

إذن فقول الحق : « فبما رحمة » أصلها هو : برحمة من الله طُبعت عليها لِنْتَ لهم ، و« ما » لماذا جاءت هنا ؟ إنك إما أن تأخذها إبهامية . . يعنى بأى رحمة فوق مستوى الإدراك ، رحمة عظيمة . أو تقول : « فبما رحمة » أى أن « ما » تكون اسماً موصولا . وكأن الحق يقول له : فبالرحمة المُودعة من خالقك فيك والتى تُناسب مُهمتك فى الأمة لِنْتَ لهم ، ومادامت تلك طبيعتك فَلِنْ لهم فى هذا الأمر واعفُ عنهم واستغفر لهم .

وهذه الآية جاءت عقب أحداث حدثت فى أُحُد : الحدث الأول : أنه صلى الله عليه وسلم رأى ألا يخرج إلى قتال قريش خارج المدينة بل يظل فى المدينة ، فأشار عليه المحبون للشهادة والمحبون للقتال والمحبون للتعويض عما فاتهم من شرف القتال فى « بدر » أن يخرج إليهم ، فنزل رسول الله صلى الله عليه وسلم عند رأيهم ، ولبس لأمته ، فلما أحسوا أنهم أشاروا على رسول الله بما يخالف ما كان قد بدر منه ، تراجعوا وقالوا : يا رسول الله إن رأيت ألا نخرج ، فقال : « ما ينبغى لِنبى إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يقاتل » فمادام قد استعد للحرب انتهى الأمر ، هذه أول مسألة وهى مسألة المشورة .

وبعد ذلك تخلف ابن أُبىّ بثُلثُ الجيش وهذه مسألة ثانية ، أما المسألة الثالثة فهى مُخالفة الرُماة أمرَه صلى الله عليه وسلم وتَرْكهم مواقعهم على الرغم من أنه صلى الله

عليه وسلم قد حذرهم من ذلك وقال لعبدالله بن جبير الذى أمَّره على الرماة : « أنضح عنا الخيل بالنَّبل ، لا يأتونا من خلفنا ، إن كانت لنا أو علينا فأثبت مكانك لا نؤتَيَن من قِبَلك »[1] ، ولكنهم خالفوا عن أمر رسول الله . والمسألة الرابعة هى : فِرارهم حينما قيل : قُتِل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والمسألة الخامسة : أنه حين كان يدعوهم ؛ فروا لا يلوون على شيء .

كل تلك أحداث كادت تترك فى نفسه صلى الله عليه وسلم آثاراً ، فكأن الله سبحانه وتعالى يقول : أنا طبعتك على رحمة تتسع لكل هذه الهفوات ، والرحمة منى ، ومادامت الرحمة موهوبة منى فلابد أنى جعلت فيك طاقة تتحمل كل مخالفة من أمتك ومن أتباعك . ولا تظن أنك قد أُرسلت إلى ملائكة ، إنما أُرسلت إلى بشر ، والبشر خطاءون ، البشر من الأغيار ، فلهذا اجعل المسألة درساً ، وأنا فطرتك على الرحمة ، وأنت بذاتك طلبت منى كثيراً من الخير لأمتك ، ومن رحمته أن جبريل نادى رسول الله صلى الله عليه وسلم[2] فقال : إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك وقد بعث الله إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم ، قال : فنادانى ملك الجبال فسلم على ثم قال : يا محمد إن الله قد بعثنى إليك وأنا ملك الجبال لتأمرنى بأمرك ، فما شئت ؟ إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئا »[3] .

فأنا أطلب منك الرحمة التى أودعتُها فى قلبك فاستعملتها فى كل مجال ، وبهذه الرحمة لنت لهم ، وبهذه الرحمة التفُّوا حولك ، التفوا حولك لأدبك الجم ، ولتواضعك الوافر ، لجمال خلقك ، لبسمتك الحانية ، لنظرتك المواسية ، لتقديرك لظرف كل واحد حتى إنك إذا وضع أى واحد منهم يده فى يدك لم تسحب يدك أنت حتى يسحبها هو ، خُلُق عالٍ ، كل ذلك أنا أجعله حيثية لتتنازل عن كل تلك الهفوات ولْيَسَعها خُلقك وليسعها حلمك ، لأنك فى دور التربية والتأديب . والتربية والتأديب لا تقتضى أن تغضب لأى بادرة تبدر منهم ، وإلا ما كنت مُربيا ولا مُؤدبا .

---

(١) الدر المنثور للسيوطى حـ٢ صـ٦٨ . (٢) عند عودته من الطائف وقد آذاه أهلها .

(٣) رواه البخارى فى بدء الخلق ، ورواه مسلم فى الجهاد ، و[الأخشبان] جبلان فى مكة ، ابو قبيس والذى يقابله ويسمى قعيقعان أو هو الجبل الأحمر الذى يشرف عليه.وسمى الجبلان بالأخشبين لصلابتهما وغلظ حجارتهما .

« ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك » لماذا ؟ لأنك تُخرجهم عما ألفوا من أمور الجاهلية . والذى يخرج واحدا عما ألِف لا يصح أن نَجْمَعَ عليه إخراجه عما اعتاد بالأسلوب الخشن الفظ ؛ لأنه فى حاجة إلى التودد وإلى الرحمة ، لا تجمع عليه بين أمرين تقبيح فعله ، وإخراجه عما ألف واعتاد ، ولذلك يقولون للذى ينصح إنسانا ، النصح ثقيل ؛ لأن النصح معناه تجريم الفعل فى المنصوح ؛ فعندما تقول لواحد : لا تفعل هذا ، ما معناها ؟ معناها أن هذا الفعل سيىء ، فمادمت تُجرِّم فعله فلا تجمع عليه أمرين : إنك قبحت فِعْله وأخرجته مما ألِف ، وبعد ذلك تنصحه بما يكره.لا ، إنه فى حاجة إلى ملاطفة وملاينة لتستل منه الخصال القبيحة ، نحن نستعمل ذلك فى ذوات أنفسنا حين نجد مرضا يحتاج إلى علاج مر ، فنغلف العلاج المر فى غلاف من السكر بحيث يمر من منطقة الذوق بلا ألم أو نغص ، حتى ينزل فى المنطقة التى لا تحس بهذه المرارة ؛ لأن الإحساس كله فى الفم .

فإذا كنتم تفعلون ذلك فى الأمور المادية ، فلابد إذن أن نطبق ذلك أيضا فى الأمور المعنوية ، ولأن النُصح ثقيل فلا تجعله جدلا ولا ترسله جبلا ، وخِفة البيان تؤدى عنك بدون إثارة أو استثارة ، وبلطف يحمل على التقبل . .

بهذا تصل إلى ما تريد ، ومثال ذلك حكاية الملك الذى رأى فى منامه أن أسنانه كلها وقعت ، فجاء للمعبر ليعبر ، فقال له : أهلك جميعا يموتون ، التعبير لم يُسر منه الملك ، فذهب لواحد آخر فقال له : ستكون أطول أهل بيتك عمرا ، إنه التعبير نفسه ، فمادام أطول أهل بيته عمرا ، إذن فسيموتون قبله ، هى هى ، ولذلك قالوا : الحقائق مرة فاستعيروا لها خفة البيان .

« ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك » إذن فبالرحمة لِنت لهم وبلين القول تبعوك والفوك واحبوك . و« الفظُّ » هو : ماء الكرش ، والإبل عندما تجد ماءً فهى تشرب ما يكفيها مدة طويلة ، ثم بعد ذلك عندما لا تجد ماء فهى تجتر من الماء المخزون فى كرشها وتشرب منه ، فى موقعة من المواقع لم يجدوا ماء فذبحوا الإبل وأخذوا الماء من كرشها ، الماء من كرش الإبل يكون غير مستساغ الطعم ، هذا معنى « الفَظّ » ، ونظرا لأن هذا يورث غضاضة فسموا : « خشونة القول » فظاظة ، والغلظ فى القلب هو ما ينشأ عنه الخشونة فى الألفاظ .

« ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك » . إنها رحمة طُبِعت عليها يا رسول الله من الحق الذى أرسلك . وبالرحمة لِنت لهم وظهر أثر ذلك فى إقبالهم عليك وحُبهم لك ؛ لأنك لو كنت على نقيض ذلك لما وجدت أحداً حولك . إذن فالسوابق تثبت أن هذه هى طباعك ، وخلقك ، هو الرحمة واللين .

وبعد ذلك اعفُ عنهم ، وقلنا : إن « العفو » هو : مَحْو الذنب محوا تامًا وهو يختلف عن كظم الغيظ ؛ لأن كظم الغيظ يعنى أن تكون المسألة موجودة فى نفسك أيضا إلا أنك لا تُعاقب عليها ؛ لأنك كففت جوارحك وصنت لسانك ، أما المسألة فمازالت فى نفسك ، لكن العفو هو أن تمحو المسألة كلها نهائيا ، وتأكيدا لذلك العفو فأنت قد تقول : أنا من ناحيتى عفوت . لا . المسألة لا تتعلق بك وحدك ، لأنك رسول من الله ، أنت وراءك إله يغار عليك ، فلا يكفى أن تعفو عنهم . بل لابد أن تستغفر الله لهم أيضا ، فمن الممكن أن يعفو صاحب الذنب ، ولكن ربى ورب صاحب الذنب لا يعفو ، فيوضح الحق : أنت عفوت فهذا من عندك ؛ لكنه يطلب منك ان تستغفر لأجلهم . كى لا يعذبهم الله عما بدر منهم نحوك .

« فاعفُ عنهم » هذه خاصة بالرسول صلى الله عليه وسلم . . « واستغفر لهم » بسبب ما فعلوه ، وترتب عليه ما ترتب من هزيمتكم فى « أُحد » ، وشجك وجرحك ، ولا تقل : استشرتهم وطاوعتهم فى المشورة ، وبعد ذلك حدث ما حدث ، فتكره أن تشاورهم ، لا تقفل هذا الباب برغم ما حدث نتيجة تلك المشورة وأنها لم تكن فى صالح المعركة ، فالعبرة فى هذه المشقة هى أن تكون « أُحُد » معركة التأديب ، ومعركة التهذيب ، ومعركة التمحيص ، إذن فلا تُرتِّب عليها أن تكره المشورة ، بل عليك أن تشاورهم دائما ، فمادام العفو قد رضيت به نفسك ، ومادمت تستغفر لهم ربك ، واستغفارك ربك قد تستغفره بعيدا عنهم ، وعندما تشاورهم فى أى أمر من بعد ذلك فكأن المسألة الأولى انتهت ، ومادامت المسألة الأولى قد انتهت ، فقد استأنفنا صفحة جديدة ، وأخذنا الدرس والعظة التى ستنفعنا فى أشياء كثيرة بعد ذلك .

ولذلك تجد بعد هذه المعركة أن الأمور سارت سيرها المنتصر دائما ؛ لأن التجربة

والتعليم والتدريب قد أثر وأثمر ، لدرجة أن سيدنا أبا بكر - رضى الله عنه - عندما جاءت حروب الردة ، ماذا صنع ؟ شاور أصحابه ، فقال له بعضهم : لا تفعل . فهل سمع مشورتهم ؟ لا.لم يسمع مشورتهم ، إنما شاورهم . فلإنفاد المشورة حُكم ، ولرد المشورة حكْم ، المهم أن تحدث المشورة ؛ ونعمل بأفضل الآراء فالمشورة : تلقيح الرأى بآراء متعددة ، ولذلك يقول الشاعر :

شاور سواك إذا نابتك نائبة
يوما وإن كنت من أهل المشورات

لقد اهتدى الشاعر إلى كيفية تقريب المعنى لنا ، فعلى الرغم من أن الإنسان قد يكون من أهل المشورة والناس تأخذ برأيه ، فعليه أن يسأل الناس الرأى والمشورة ، لماذا ؟ هاهوذا الشاعر يكمل النصيحة :

فالعين تنظر منها ما دنا ونأى
ولا ترى نفسها إلا بمرآة

إن العين ترى الشيء القريب والشيء البعيد ، لكن هذه العين نفسها تعجز عن رؤية نفسها إلا بمرآة ، وكذلك شأن المسألة الخاصة بغيرك والتى تعرض عليك ، إن عقلك ينظر فيها باستواء ودون انفعال ؛ لأنه لاهوى لك ، والحق هو الذى يجذبك . لكن مسائلك الخاصة قد يدخل فيها هواك ويُحليها لك ويُحسنها .

إذن فالمشورة فى أُحُد كانت نتيجتها كما علمتم ، وكأن الله يقول لرسوله : إياك أن تأخذ من سابقة المشورة أن المشورة لا تنفع ، فتقاطعهم ولا تشاورهم ؛ لأنك لن تظل حيا فيهم ، وسيأتى وقت يحكمهم بشر مثلهم ، ومادام يحكمهم بشر مثلهم فلا تحرمه أن يأخذ آراء غيره ، وعندما يأخذ الآراء وتكون أمامه آراء متعددة فهو يستطيع أن يتوصل إلى الحكم الصحيح بحكم الولاية وبحكم أنه الإمام ، ويستطيع أن يفاضل ويقول : هذه كذا وهذه كذا ، إلا أن يُفوض غيره .

« وشاورهم فى الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله » وقد عزم رسول الله أيضا على

الحرب ولبس لأمته ، أكان يلبس اللأمة ـ وهى عُدة الحرب ـ وبعد ذلك يقولون له : لا تخرج فيدعها ؟ لا ؛ فالمسألة لا تحتمل التردد . « فإذا عزمت فتوكل على الله » وهذه فائدة الإيمان ، وفائدة الإيمان : أن الجوارح تعمل والقلوب تتوكل ، معادلة جميلة ! الجوارح تقول : نزرع ، نحرث ، نأتى بالبذر الجيد ، نروى ، نضع سمادًا ونفترض أن الصقيع قد يأتى ونخشى على النبات منه فنأتى بقش ونحوه ونُغطيه ، كل هذه عمل الجوارح . وبعد ذلك القلوب تتوكل .

فإياك أن تقول : المحصول آتٍ آتٍ لأننى أحسنت أسبابى ، لا . لأن فوق الأسباب مُسَبِّبها . فالجوارح تعمل والقلوب تتوكل ، هذه فائدة الإيمان لأننى مؤمن بإله له طلاقة القدرة ، يخلق بأسباب ويخلق بغير أسباب . الأسباب لك يا بشر ، أما الذى فوق الأسباب فهو لله ، فأنت حين تعمل أخذت بالأسباب ، وحين تتوكل ضمنت المسبب وهو الله ـ سبحانه ـ .

إذن فالجوارح تعمل والقلوب تتوكل . إياك أن تظن أن التوكل يعنى أن تترك الجوارح بلا عمل ، لا ، فهذا هو التواكل أو الكسل ، إنه التوكل الكاذب ، والدليل على كذب من يقول ذلك أنه يجب أن يتوكل فيما فيه مشقة ، والسهل لا يتوكل فيه ، ونقول للرجل الذى يدعى أنه يتوكل ولا يعمل : أنت لست متوكلا ، ولو كنت صادقا فى التوكل إياك أن تمد يدك إلى لقمة وتضعها فى فمك . كن متوكلا كما تدعى ، ودع التوكل يضع لك اللقمة فى فمك واترك التوكل ليمضغها لك !

وطبعا لن يفعل ذلك ، ولهذا نقول له أيضا : إن ادعاءك التوكل هو بلادة حس إيمانى وليس توكلا .

إن الحق سبحانه وتعالى يقول : « واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله » و« عزمت » تقتضى عزيمة ، والتوكل يقتضى إظهار عجز ، فمعنى أن أتوكل على الله أنى استنفدت أسبابى ، ولذلك أرجع إلى من عنده قدرة وليس عنده عجز ، وهذا هو التوكل المطلق .

وفى حياتنا اليومية نسمع من يقول : أنا وكلت فلانا ، أى أننى لا أقدر على هذا الأمر فوكلت فلانا . ومعنى توكيله لفلان أنه قد أظهر عجزه عن هذا الأمر . ولهذا ذهب إلى غير عاجز . كذلك التوكل الإيمانى ، فالتوكل معناه : تسليمك زمام أمورك إلى الحق ثقة بحسن تدبيره ، ومن تدبيره أن أعطاك الأسباب فلا ترد يد الله الممدودة بالأسباب ثم تقول له اعمل لى يارب ؛ لأننا قلنا فى سورة الفاتحة:إن الإنسان يدعو قائلا :

﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ ﴾

(سورة الفاتحة)

ومعنى « نستعين » أى نطلب منك المعونة التى نتقن بها العمل . وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١٦٠ ﴾

الحق يقول هنا : « وعلى الله فليتوكل المؤمنون » ، المؤمنون بمن ؟ بالله . وماداموا مؤمنين به فمن إيمانهم به أنه إله قادر حكيم عالم بالمصلحة ، ولا يوجد أحسن من أنك توكله .

وعندما نقرأ « إن ينصركم الله فلا غالب لكم » فقد نسأل : وما هو المقابل ؟ المقابل هو « وإن يخذلكم فمن ذا الذى ينصركم من بعده » . إذن فأنت دخلت بالأسباب التى قالها الحق سبحانه وتعالى مُؤتمرا بأمر القيادة السماوية التى مُثلت فى الرسول المبلغ عن الله ، وقد أخذت عُدتك على قدر استطاعتك ، إياك أن تقارن

عَدَدَك بعدد خصمك أو تقارن عُدتك بعُدة خصمك ؛ فالله لا يكلفك أن تقابل العدد بالعدد ولا العُدة بالعُدة ، وإنما قال : أنت تُعد ما استطعته ، لماذا ؟ لأن الله يريد أن يصحب ركب الإيمان معونة المؤمن به ؛ لأنه لو كانت المسائل قدر بعضها ، لكانت قوة لقوة . لكن الله يريد أن يكون العدد قليلاً وتكون العُدة أقل وأن نعترف ونقول : هذا ما قدرنا عليه يارب . ومادام هو الذى قدرنا عليه ، فتكون هذه هى الأسباب التى مكنتَنا منها ، ونثق بأنك يارب ستضع مع العدد القليل مدداً من عندك ، فأنت المعين الأعلى ، فسبحانك القائل :

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَأَنَّ ٱلْكَـٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾ ﴾

(سورة محمد)

والحق هنا يقول : « إن ينصركم الله فلا غالب لكم » فأنت تضمن نصر الله لك إن كنت قد دخلت على أن تنصره .

كيف نعرف أننا ننصر الله ؟ نعرف ذلك عندما تأتى النتيجة بنصرنا ، لأنه سبحانه لا يعطى قضية فى الكون وبعد ذلك يأتى بالواقع ليكذبها ، وإلا فالمسلمون يكونون قد انخدعوا ـ معاذ الله ـ لأنه لو جاء الدين بقضية ثم يأتى الواقع ليكذبها ، فلابد أن يقولوا : إن الواقع كذب تلك القضية . لكن الحق قال : « إن تنصروا الله ينصركم » ويجىء الواقع مؤكدا لهذه القضية ، عندئذ نحن لا نصدق فى هذه القضية فقط ، بل نصدق كل ما غاب عنا ، فعندما تظهر جزئية ماديَّة واقعة محسوسة لتثبت لى صدق القرآن فى قضية ؛ فأنا لا أكتفى بهذه القضية ، بل أقول : وكل ما لا أعلمه داخل فى إطار هذه القضية .

ولذلك قلنا : إن الحق سبحانه وتعالى ترك بعض أسراره فى كونه ، وهذه الأسرار التى تركها فى كونه هى أسرار لا تؤدى ضرورات ؛ إن عرفناها فنحن ننتفع بها قليلا فى الكماليات ، ويترك الحق بعض الأسرار فى الكون إلى العقول لتستنبطها ، فالشىء الذى كان العقل يقف فيه قديما يصبح باكتشاف أسرار الله مقبولا ومعقولا ، كأن الشىء الذى وقف فيه العقل سابقا أثبتت الأيام أنه حق ، إذن فما لا يُعرف من الأشياء يُؤخذ بهذه القضية أو بما أُخِذَ من الغير .

يقولون ـ مثلا ـ اكتشف الميكروب على يد « باستير » ، لكن ألم يكن الميكروب موجودا قبل « باستير » ؟ كان الميكروب موجودا ، ولم يكن أحد يراه ؛ لأن الشيء إذا دق ولطف لا نقدر أن ندركه ؛ فليس عندنا الآلة التي تدركه ، ولم نكن قد اخترعنا المجهر الذي يكبِّر الأشياء الدقيقة آلاف المرات . وكذلك اخترع الناس التلسكوب ، فبعد أن كان الشيء لا يرى لبعده ، أصبح يرى بوساطة التلسكوب ، وإن كان الشيء ضئيلا جدا ولا نراه . فقد استطعنا أن نراه بوساطة المجهر المسمى « الميكروسكوب » .

و« التلسكوب » يقرب البعيد و« الميكروسكوب » يكبر الصغير فنرى له حركة وحياة ، ونجد له مجالا يسبح فيه ، وهذا جعلني إذا حدثني القرآن أن لله خلقا غاب عن الحس لا يدرك من جن وملائكة ، فلا أكذب ذلك ، لأن هناك أشياء كانت موجودة ولم تدخل تحت حسي ولا إدراكي مع أنها من مادتي ، فإذا كانت الأشياء الأخرى من مادة أخرى مثل الملائكة من نور ، أو الجن من النار ، ويقول لي سبحانه إنهم مخلوقون وموجودون فأنا لا أكذب ما جاء عن الحق ؛ لأن هناك أشياء من جنسي كانت موجودة ولم أستطع أن أراها .

إذن فهذه قربت لي المسألة ، فعندما يقول الحق : « إن ينصركم الله فلا غالب لكم » فنحن نعرف أن نصر الله مترتب على أن تدخل المعركة وأنت تريد أن تنصر الله ، وتنصره بماذا ؟ بأنك تحقق كلمته وتجعلها هي العليا ، وليس هذا فقط هو المطلوب ، بل لتجعل ـ أيضا ـ كلمة الذين كفروا السفلى .

« وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده » إنه في ظاهر الأمر يكون معنا ، لكننا نشعر أنه تخلى عنا ، لماذا ؟ لأننا نترك بعضا من تعاليم الله ، إذن فهو في المظهر العام معكم كمسلمين ، ومن معيته لكم أن يؤدبكم على المخالفة فيخذلكم عندما تخالفون عن أمره .

ويختم الحق سبحانه الآية بقوله : « وعلى الله فليتوكل المؤمنون » وفي الآية السابقة قال سبحانه : « إن الله يحب المتوكلين » ، والذي لا يتوكل على الله عليه أن يراجع إيمانه .

ويعد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾ ﴾

ما معنى « يغُل » ؟ أولا : « الغلول » هو الأخذ في الخفاء . وهو مأخوذ من « أغل الجازر » ـ أى الجزار ـ أى عندما يسلخ الجلد يأخذ بعض اللحم مع الجلد ، ثم يطوى الجلد مخفيا ما أخذه من اللحم ، هذا هو الأصل ، وأطلق شرعا على الخيانة فى الغنائم ، ففى هول المعارك قد يجد المقاتل شيئا ثمينا فيأخذ هذا الشىء خفية ، وهذا اسمه « الغلول » ، وأيضا كلمة « الغل فى الصدور » أى إخفاء الكراهية ، وكل المادة إخفاء .

والحق يقول : « وما كان لنبى أن يَغُل » لماذا ؟ لأن من الجائز أن الرماة ـ فى غزوة أحد ـ ساعة رأوا الغنائم أقبلوا عليها ؛ لأن غنائم بدر لم تكن قد قسمت بين كل من اشتركوا فى القتال ، فالذى كان يعثر على غنيمة كان يأخذها ، وكانت بدر أول معركة ، وكان الهدف من ذلك تشجيع المقاتلين . وكان الرسول صلى الله عليه وسلم : قد قال : « من قتل قتيلا فله سلبه » .

وظن المقاتلون فى أحُد أن المسألة ستكون مثل بدر ، وظن البعض أن الرسول لن يعطيهم غنائم ، فيوضح الحق سبحانه وتعالى : بأن هذه مسألة وتلك مسألة أخرى ، فمن يفعل مثل هذا يكون قد غل . وساعة تسمع : « وما كان لنبى أن يَغُل » أى أن من طبعه صلى الله عليه وسلم ومن فطرته وسجيته ألّا يتأتى ذلك منه أبدا ، لكن من الجائز أن يحدث مثل ذلك من واحد من أمته ، إذن فهناك فرق بين امتناع

المؤمن أن يكون غالاً ، أى يأخذ لنفسه شيئا من الغنيمة ، وامتناع الرسول أن يكون غالاً ، لأن طبعه وسجيّته لا تستقيم مع هذه ، لكن الأمر يختلف مع المقاتلين ؛ فمن الممكن أن يكون أحدهم كذلك ، فسيدنا عمر فى معركة الفرس ، حينما جاء جماعة بتاج كسرى ، والتاج فيه كل النفائس وتلك سمة عظمة الملوك ، فقال الفاروق عمر : إن قوما أدوا إلى أميرهم هذا لأمناء . فقد كان من الممكن أنهم يخفونه .

« وما كان لنبى أن يغُل » وساعة تسمع « وما كان » أى : وما ينبغى ولا يصح أن يكون ذلك الأمر ، وبعد ذلك يأتى بالحكم العام فيمكن أن يحدث غلول من أحَدٍ فيقول : « ومن يغلل يأت بما غَل يوم القيامة » فالذى غل فى حاجة وخان فيها يأتى بها يوم القيامة كما صورها الرسول صلى الله عليه وسلم :

« والله لا يأخذ أحد منكم شيئا بغير حلّه إلا لقى الله يحمله يوم القيامة ، فلا أعرفن أحدًا منكم لقى الله يحمل بعيرا له رُغاء أو بقرة لها خُوار ، أو شاة تَيعَر ، ثم رفع يديه حتى رُئىَ بياض إبطيه يقول :اللهم قد بلغت »[1] .

إن من يأخذ حراما فى خفية يأتى يوم القيامة وهو يحمل البعير أو البقرة أو الشاة مثلا . وآه لو كان ما أخذه حمارا فله نهيق !!

فإذا كان سيأتى بما غَل يوم القيامة ـ فالذى أخذه سيفضحه ـ ولذلك تسمى « الفاضحة » ، و« الطامة » . إذن فمن الممكن فى الدنيا أن يأخذها خفية ويغُل . لكنه سيأتى فى يوم القيامة وهو يحمل ما أخذه على ظهره ، ثم يقول مناديا رسول الله : يا محمد . . يا محمد ، لأن كل مسلم قد علم واطمأن إلى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رءوف ورحيم وأنه لن يرضى بهذه الحكاية ، لكن رسول الله أبلغ عن عقاب من يفعل ذلك فى حياته ، وعلى كل المؤمنين به ألا يفكروا فى الغلول وأخذ الغنيمة خفية .

ولماذا تكون الغنيمة فى الحرب شرا ؟ لأن المقاتل يعيش أثناء القتال فى مهمة أن

---

(١) رواه البخارى ومسلم ، و(رُغاء) بضم الراء صوت البعير ، و(خُوار) بضم الخاء صوت البقرة ، و(تَيْعَر) : تصيح واليُعار : صوت الغنم .

تكون كلمة الله هى العليا فكيف يرضى لنفسه بهذه المهانة وهى إخفاء الغنيمة ؟ إنه يحارب من أجل أن تكون كلمة الله هى العليا ، ويجب أن يكون فى مستوى ذلك .

وبعد ذلك يأتى الحق بالقضية العامة : « ثم توفى كل نفس ما كسبت » ، وهى تشمل الغلول فى الغنيمة والغلول فى غير الغنيمة ، ولنتصور هذه بالنسبة لكل من يخون أمانة أؤتمن عليها ، وأنه سيأتى يوم القيامة يحمل عمارة ـ مثلا ـ لأنه بناها بغير أمانة أو يحمل أطنانا من سمك لأنه سرقها ، أو يحمل أطنانا من الجبن الفاسد التى استوردها . فكل من سرق شيئا سيأتى يوم القيامة وهو يحمله ، وإذا كنا نشهد أن الناس لا تطيق أن تفضح بين الخلق ، والخلق محدودون لأنهم المعاصرون ، فما بالك بالفضيحة التى ستكون لعموم الخلق من أول آدم إلى أن تقوم الساعة . إذن فعلى كل إنسان أن يحرس نفسه لأن المسألة ستنفضح .

« ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون » ومادام سبحانه سيوفى كل نفس ما كسبت فكل سيأخذ قدر ما فعل ، فلا ظلم ، فلو ترك الأمر بلا حساب لكان هذا هو الظلم وحاشا لله أن يظلم أحدا . وبعد تلك التهيئة والإيضاح يقول سبحانه :

﴿ أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ ﴾

والحق سبحانه وتعالى حين يطرح بعض القضايا طرح الاستفهام ، فهو يطرحها لا ليعلم هو فهو عالم ، ولكن ليستنطق السامع ، ونطق السامع حجة فوق خبر المخبر ، فلو قال : إن الذى يتبع رضوان الله لا يساوى من ذهب إلى سخط الله لكان ذلك إخبارا منه وهو صادق فيما يقول ، لكنه سبحانه يريد أن يستنطق عباده بالقضية ، « أفمن اتبع رضوان الله كمن باء » ، « باء » أى : رجع « بسخط من الله » .

لاشك أن كل من يسمع عن الفارق بين اتباع الرضوان ، أو الرجوع بالسخط يقول : إن اتباع الرضوان يرفع درجة الإنسان ، والذى يبوء بالسخط يهبط إلى درك الخسران ، فالقضية قالها السامع .. فكأن الحق يستنطقنا بالقضية لتكون حجة علينا ، والذى يتبع رضوان الله بالطاعة ، أيساويه من يرجع إلى سخط الله بالمعصية ؟!

أفمن يتبع رضوان الله فلا يغُل فى الغنيمة ولا يختان فى الأمانة كمن غل فى الغنيمة وخان فى الأمانة ؟

أفمن اتبع رضوان الله بأن استمع لأوامر الله حين استنفره لجهاد العدو ، كمن لم يذهب لنداء الله ليكون فى جند الله مقاتلا لعدو الله ، لا ؛ فالذى لا يستجيب لنداء الله هو من يبوء بسخط الله .

و« السخط » هو : إظهار التقبيح ، لكن إظهار التقبيح قد لا يؤثر فى أناس غليظى الإحساس ، لا تنفع فيهم اللعنة أو الشتائم ؛ لذلك جاء سبحانه بالحكم : « ومأواه جهنم وبئس المصير » و« مأواه » أى المكان الذى يأوى ويرجع إليه هو جهنم وبئس المصير . وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾ ﴾

« هم درجات » أى ينزلون فى الآخرة منازل على قدر أعمالهم ، فكما ترى الدرجات موصلة إلى المراقى العالية كذلك فى الآخرة كل إنسان مُحاسب بعمله ، ويأخذ عليه درجة ، ولنا أن نلحظ أن الحق يستخدم كلمة « درجات » بالنسبة للجنة ؛ لأن فيها منازل ورتبا ، أما فيما يتعلق بالنار ، فيأتى لفظ « دركات » ،

فالدركة تنزل ، والدرجة ترفع .

« هم درجات عند الله » فالله هو العادل الذى ينظر لخلقه جميعا على أنهم خلقه ، فلا يعادى أحدا ، إنه يحكم القضية فى هذه المسألة سواء أكانت لهم أم كانت عليهم ، وبعد ذلك يردفها ـ سبحانه بقوله : « والله بصير بما يعملون » ليطمئن هؤلاء على أن الله بصير بما يعملون فلن يضيع عنده عمل حسن ، ولن تهدر عنده سيئة بدرت منهم . « والله بصير بما يعملون » . ونحن نسمع كلمة « يعمل » وكلمة « يفعل » وكلمة « يقول » ، والعمل أهم الأحداث ، لأن العمل هو تعلق الجارحة بما نيطت به ، فالقلب جارحة عملها النية ، واللسان جارحة عملها القول ، والأذن جارحة وعملها الاستماع ، والعين جارحة وعملها أن تنظر . إذن فكل جارحة من الجوارح لها حدث تُنشِئه لتؤدى مهمتها فى الكائن الإنسانى ، إذن فكل أداءٍ مُهِمّة من جارحة يقال له : « عمل » .

لكن « الفعل » هو تعلق كل جارحة غير اللسان بالحدث ، أما تعلق اللسان فيكون قولا ومقابله فعل ، إذن ففيه قول وفيه فعل وكلاهما « عمل » إذن فالعمل يشمل ويضم القول والفعل معا ؛ لأن العمل هو شغل الجارحة بالحدث المطلوب منها ، لكن الفعل هو : شغل جارحة غير اللسان بالعمل المطلوب منها ، وشغل اللسان بمهمته يسمى : قولا ولا يسمى فعلاً ، لماذا ؟ لأن الإنسان يتكلم كثيرا ، لكن أن يحمل نفسه على أن يعمل ما يتكلمه فهذه عملية أخرى ، ولذلك يقول الحق :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٣ ﴾

(سورة الصف)

إذن فالقول مقابله الفعل ، والكل عمل « والله بصير بما يعملون » قولا أو فعلاً وبعد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾ ﴾

والذى يمن على الآخر هو الذى يعطيه عطية يحتاج إليها هذا الآخذ ، فكأن الحق يقول : وهل أنا فى حاجة إلى إيمانكم ؟ فى حاجة إلى إسلامكم ؟ أصفة من صفاتى معطلة حتى تأتوا أنتم لتكملوها لى ؟ لا ، إذن فحين أبعث لكم رسولا رحيما بكم ، فالمنة تكون لى وحدى .

« لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم » .

أكان يبعثه مَلَكا ؟ لا . بل بعثه من البشرية ؛ كى تكون الأسوة فيه معقولة . فعندما يقول لكل مسلم افعل مثلى ، فالمسلم عليه أن يطبق ما يأمره به الرسول ، لكن لو كان مَلَكا أكانت تنفع فيه الأسوة ؟ لا ، فقد يقول لك : افعل مثلى ، فتقول له : لا أقدر لأنك مَلَك ، ومن يدعى الألوهية لرسول ، فهو ينفى عنه الأسوة ؛ لأنه عندما يقول : كن مثلى ، يمكنك أن تقول : وهل نقدر ؟ أنت طبيعتك مختلفة ، فهل نصل لذلك ؟! لا نقدر ، ولذلك فالذين يقولون بألوهية رسول ، إنما يفقدون الأسوة فيه ، والمفهوم فى الرسول أن يكون أسوة سلوكية ، وأن يكون مبلغا عن الله منهجه ، وأن يعلن بشريته ويقول : أنا بشر وأستطيع أن أمثل وأطبق المنهج . إذن فهو أسوة سلوكية تطبيقية .

والرسول مبعوث للكل ، فلماذا كانت المنة على من آمن فقط !؟ لأنه هو الذى انتفع بهذه الحكاية ، لكنَّ الباقين أهدروا حقهم فى الأسوة ولذلك تكون المنة على من آمن .

« لقد من الله على المؤمنين » وما هى المنة ؟ المن : الأصل فيه أنه القطع ، لكن حين نسمعها نجدها تستعمل فى أشياء متقابلة ، فمثلا : المن هو العطاء بلا مقابل ، والمن هو : تكدير النعمة بالتحدث بها ، مثل قوله تعالى :

﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ ﴾

(سورة البقرة)

إذن فالمن الذى نحن بصدده هو العطاء بلا مقابل ، ولكن المن قد استعمل فى تكدير النعمة بكثرة الكلام فيها ، فقد يقول الإنسان لمن يمن عليه : لا أريد النعمة التى تتكلم عنها دائما ، إذن فالمن استعمل فى النعمة وفى تكدير النعمة ، تقول: مَنَّ على فلان إذ أنقذنى من ضيق كنت فيه ، ويقال : فلان ليس فيه مُنة ، أى ليس فيه قوة ، وكلها تدور فى معنى القطع ، فإذا استعمل فى النعمة والعطاء نقول : نعم فيها قطع ؛ لأن النعمة جاءت لتقطع الحاجة ، ففيه حاجة ثم جاء عطاء ، والعطاء قطع الحاجة . فاستعملت فى معناها .

فإذا جاءت نعمة بعد حاجة والحاجة انقطعت بالنعمة فلا بد أن تأتى بفعل بعدها وهو أن تشكر من أنعم عليك ، وخصوصا أنه الله ، فالمن يقطع الشكر لأنك إن مننت بالنعمة وأظهرت تفضلك بها على من أسديتها إليه فقد تسببت فى أن الآخذ لا يشكرك بل إنه يتضايق من نعمتك وقد يردّها عليك . فإذن : هنا قطع للشكر ، فإن قطعت حاجة محتاج فهذا يسمى « نعمة » وإن فخرت بنعمتك عليه حتى كدرتها فقد قطعت ومنعت شكره لك،وهذا يسمى « مَنًّا » أى أذى لأنه يؤذى مشاعر وإحساس الآخذ . وإن قطعت مطلقا اختصت باسم « المِنّة » ، يقولون : فلان لا مُنة فيه أى لا قوة عنده تقطع فى الأمور ، وهنا يقول : « لقد من الله على المؤمنين » و« مَنَّ » هنا بمعنى أعطى نعمة ، والنعمة فى الدنيا تعطيك على قدر دنياك ، و« منة » الله برسوله صلى الله عليه وسلم تعطيني عطاء على قدر الدنيا وعلى امتداد الآخرة ، فتكون هذه منة كبيرة .

« لقد من الله على المؤمنين إذ » ، و« إذ » يعنى ساعة أى حين بعث فيهم رسولا

منهم فقد عمل فيهم منة وقدم لهم ومنحهم جميلا كبيرا وأنعم عليهم نعمة ، « إذ بعث فيهم رسولا » . فإذا كان مطلق بعث رسول كى يهدى الناس إلى منهج الله يكون نعمة فماذا إذا كان الرسول من أنفسهم ؟ إن هذه تكون نعمة أخرى لأنه مادام من أنفسهم ومن رهطهم ومن جماعتهم ، هو معروف نسبًا وحسبًا ومعروف أمانة ، فلا يخون ، ومعروف صِدْقًا فلا يكذب ، كل هذه « مِنة » ولم يتعب أحدًا فى أن يبحث وراءه : أكذب قبل ذلك حتى نعتبر ذلك كذبا ؟، أخان قبل ذلك حتى نعتبر ذلك خيانة ؟ لا ، هل هو من الناس المدَّعين الذين يريدون أن يقيموا ضوضاء من حولهم ؟ لا . بل هو فى الحسب والنسب معروف ، جده عبدالمطلب سيد البطحاء ولا يوجد واحد من أهله تافها .

وعرف الجميع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الأمانة منذ صغره ، إذن فالمقدمات تجعل الناس لا تجهد نفسها فى أن تتحرى عنه أصادق هو أم غير صادق ؟ إذن فهو مِنّة ، ولذلك حينما بعث الله سيد الخلق إلى الخلق ؛ كان هناك أناس بمجرد أن قال لهم : إنى رسول الله ، آمنوا به ، لم يقدم معجزة ولم يقولوا له : ماذا ستقول أو ماذا تعمل ؟ بل بمجرد أن قال : إنه رسول الله صدقوه ، فعلى أى حيثية استندوا فى التصديق ؟ لقد استندوا على الماضى .

لقبتمـــوه أمـــين الـقـــوم فى صغـــر
وما الأمـــين عـــلى قـــول بمُـــتـهـــم

ها هو ذا سيدنا أبو بكر رضى الله عنه يقول : إن كان قد قال فقد صدق - إذن فالمقدمات التى يعرفونها عنه كانت هى الحجة فى تصديق الرسول ، وخديجة - رضى الله عنها - عندما آمنت به ، أقال لها المعجزات والقرآن ؟ لا . بل بمجرد أن قال لها : أنا رسول الله . قالت له : صدقت فلابد أن تكون رسولا ، هو نفسه كان يتشكك وهى مؤمنة به ، هو نفسه يتساءل : لعل ذلك يكون كذا ، وذهبت به خديجة - رضى الله عنها - إلى ورقة بن نوفل لتطمئنه على الرغم من أنها كانت قد توصلت إلى الحكم فى القضية التى سألت عنها ورقة بن نوفل وأوضحت لرسول الله أنّ ما تقوله لا يمكن أن يوقعك فى بلية أو خزى أو ذِلّة ؛ لأن صفاتك جاءت كمقدمات لهذه النتيجة ، وهى أنك رسول كريم « إنك لتحمل الكلّ وتكسب المعدوم وتعين على نوائب

الدهر ، والله لا يخزيك الله أبداً »[1] ، إنسان بهذه الصفات لا يمكن أن يأتيه شيطان ، وتعال نذهب معا لأهل الكتاب الذين لهم علم بهذه المسألة . كأنها آمنت برسالة رسول الله قبل أن يقول لها ورقة بن نوفل شيئاً .

إذن فقوله : « من أنفسهم » أى معروف لهم ، فلم يأت لهم بواحد سقط عليهم من السماء ، وقال : هذا رسول ، لا . إنه رسول « من أنفسهم » ، وهذه أول مِنّة ، « لقد منّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم » ، هذا إذا أخذت المحيط القريب أنه من الرهط ومن القبيلة ومعروف لهم ، « من أنفسهم » أو من جنس ونوع العرب ، وهذه أيضاً مِنّة ، فساعة أن يتكلم سيفهمونه ولا يحتاجون إلى وساطة أو ترجمة ، والرسول عندما يأتى ليخرج الناس من الظلمات إلى النور ، يريد أناساً تفهم عنه ، فأوضح لهم : لم أكلفكم لتقولوا ماذا يريد ، لا ، هو من أنفسكم ، وهو إنسان له مواصفاتكم ، ولكنهم لفرط عنادهم لم يؤمنوا مصداق ذلك قوله تعالى :

﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

إنهم يستكثرون كيف يبعث الله بشراً ويجعله رسولاً ، وهذا غباء فى الاعتراض ، ويأتى الرد الجميل من الله :

﴿ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

أنتم من البشر ، فلا بد أن نأتيكم برسول من جنسكم ، حتى إذا قال لكم : افعلوا كذا تقولون : نعم ؟ لأنه بشر ويعمل ونحن بشر نستطيع أن نعمل مثله . . لكنه لو كان مَلَكاً لقال الواحد منكم : وهل أنا أقدر أن أكون كالمَلَك ؟ إذن فلا تنفع

---

(١) رواه البخارى .

هذه الحكاية ، وهكذا منّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا . « من أنفسهم » ، إن أخذتها على أساس أنها قبيلة محدودة ومعروفة فهى منّة ، وإن أخذتها على أنه من جنس عربى فيكون اللسان واحداً فهى مِنّة ، وإن أخذتها من الجنس العام وهو الإنسان فهى مِنّة أيضاً .

وهل اعتبار معنى واحد من المعانى ينقض المعانى الأخرى أو تأتى كلها فى سلك واحد ؟ إنها معانٍ تأتى كلها فى سلك واحد ؛ لأن المتكلم هو الله ، ومادام المتكلم هو الله فيكون عطاء اللفظ أكثر من عطاء ألفاظ الخلق ، « لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفُسِهم » ، وهناك قراءة ـ وإن كانت قراءة شاذة ـ تقول : « من أنفَسِهم » (بفتح الفاء) أى من أشرفهم لأنه من بنى هاشم وهم أفضل قريش ، وقريش أفضل العرب .

وماذا يعمل الرسول ؟ يُفهم من قوله : « رسولا » أنه لا يأتى بشىء من عنده ، بل هو ـ مع هذه المنزلة الحسنة بخُلُقه الجميل وماضيه الناصع ـ هو مع هذا رسول وليس له فى الأمر شىء ، إذن فمرسله خير منه ، فلا تنتبه إلى هذا الرجل العظيم فحسب بل يجب عليك أن تسأل : من أين جاء ؟ لابد أن تلتفت إلى أن الذى بعثه أعظم منه .

« رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته » ، وكلمة « يتلو » يعنى يقرأ لأن الكلمة تتلو الكلمة ، فالذى يقرأ أى ينطق كلمة بعد كلمة ، كلمة تالية بعد أخرى « يتلو عليهم آياته » وكلمة « الآيات » ـ كما نعرف ـ تستعمل للأمور العجيبة ؛ اللافتة للنظر ، تقول مثلا : فلان آية فى الحسن . أى حُسْنُه لافت للنظر ، وتقول : فلان آية فى الذكاء ، صحيح أن هناك أذكياء كثيرين ، لكنه آية فى الذكاء . . أى أن هذا الإنسان أمره عجيب فى الذكاء ، إذن فكلمة « آية » معناها : الأمر العجيب ، وهو الذى يقف الإنسان عنده وقفة طويلة ليتأمل فى عجائبه .

والآيات نوعان : ايات منظورة فى الكون مثل قول الحق :

﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْـلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ لَا تَسْجُدُواْ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ

وَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾

(سورة فصلت)

وكل ظواهر الكون تعتبر أشياء عجيبة . والنوع الثانى : هو آيات القرآن مثل قوله الحق :

﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾

(سورة النحل)

إذن فالآيات هى الأمور العجيبة وهى قسمان : منظور ومقروء ، المنظور : كل الكون ، والمقروء : هو القرآن ، فالقرآن يفسر آيات الكون ، وآيات الكون تفسر آيات القرآن ، والرسول جاء يتلو آيات القرآن ، وكانت عجيبة عليهم ، لكن الآيات الأخرى التى فى الكون يشاهدونها ويرونها ، لقد جاء الرسول بآيات مقروءة ليلفت الناس إلى الآيات المنظورة ، وبتلك الآيات المنظورة يكون العجب من دقة خلق الكون ؛ فينتهى الإنسان إلى الإيمان بمَن خلق هذا الكون .

إن الحق يقول عن الرسول : « يتلو عليهم آياته ويزكيهم » والمسألة ليست أنه يتلو الآيات ليعجبوا منها فحسب ، لا . فالرسول له مهمة إيمانية تلفت كل سامع للقرآن إلى من خلق ذلك الكون الجميل البديع الذى فيه الآيات العجيبة . ثم يعطى الرسول من بعد ذلك المنهج الذى يناسب جمال الكون ، إذن فالرسول ينقل المؤمنين إلى المنهج الذى يُزكى الإنسان ، وأنت إذا سمعت كلمة « يُزكيهم » فأنت تعرف أنها من الزكاة . والزكاة أول معانيها : التطهير ؛ والتنقية ؛ والنماء . والآيات التى جاء بها رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما جاءت لتزكيهم .

وهذا التطهير لمصلحة المُطَهّر أو المُطَهَّر ، إنه لمصلحة المُطَهَّر . التنقية والنماء لمصلحتكم أنتم وهذا لا يشكك فى التكليف ؛ لأن التكليف لم يأت للمُكلِّف ، إنما جاء للمُكلَّف ، وأضرب هذا المثل ـ ولله المثل الأعلى ـ فالرجل يكون ميسور الحال وعنده مال وعنده عقارات وأطيان ، وبعد ذلك يحب لأولاده أن ينجحوا فى المدارس

فيشجعهم قائلا لكل منهم : إن نجحت فسأفعل لك كذا . هو لا يريد منهم شيئا لنفسه ، فعنده النعمة الكافية ، هو يريد ـ فقط ـ مصلحتهم هم .

إذن فالمكلف لن ينتفع بتكليفنا أبدا ، فالتنقية لصالحنا والتطهير لصالحنا والنَّماء لصالحنا ـ والتزكية هى : تطهير وتنقية ونماء ـ ولننظر إلى الحالة التى كانت الجاهلية عليها ، هل كانت طاهرة ؟ هل كانت نقية ؟ هل كانت نامية ؟ لم يكن بها وصف من تلك الأوصاف ، لأنها جاهلية ، فكلهم محكومون بالهوى والجبروت والسلطان والقهر ، ونعرف أن أول ما يهتم به الإنسان هو أن يستبقى حياته وبعد ذلك يستبقى نوعه ، وبعد ذلك يستديم ما حوله ، والتزكية شملت كل أمر من هذه الأمور ، تزكية فى الإنسان نفسه ، فى ذاته ، بدلا من أن يكذب لسانه طهره عن الكذب ، بدل أن تمتد عينه إلى محارم غيره طهر عينه من النظر للمحرمات ، وبدلا من أن تمتد يده خفية وتسرق فهو لا يفعل ذلك .

والسرقة ـ كما نعلم حتى عند من يسرق ـ نقيصة ، بدليل أن اللص يتوارى ويحاول أن يسترها وألا يراه أحد ، لأنها رذيلة ونقيصة . ويأتى المنهج فيقول له : لا تسرق ، ويطهر المنهج حركة جوارح الإنسان فى الأرض ، ويطهر قلبه من الحقد كى يعيش مرتاحا ، وتبقى قوته مصونة للعمل الجاد المثمر ، فلِمَ يبدد قوته ، ولِمَ يبدد نظراته ، ولِمَ يبدد علاقاته بالناس ؟

إذن فالمنهج ينمى الإنسان ، إنه تطهير وتنقية ونماء له ، وبعد ذلك عندما يصاب الإنسان بالعجز وعدم القدرة ، فلن يستذله الغير لكى يعطيه لقمة . لقد زكاه المنهج من هذه ونقاه من الذلة وجعل له فى مال القادر حقا ، والقادر هو الذى يبحث عن الضعيف ليعطيه حقه ؛ لأن العاجز عندما يرى كل المؤمنين حوله قادرين يبحثون عنه ليعطوه حقه وليس مجرد صدقة يتصدقون بها عليه حينئذ يقول : أنا لست وحدى فى الكون . أنا فى الكون بفلان وبفلان ، فتكون تنمية له ، مادام الكل يعطيه .

أما عن بقاء النوع فماذا يعنى ؟ إن الحق يريد طهارة الإنسان والذرّية التى تأتى وأن يجعل لها وعاءً شريفا عفيفا ، وإطارا لا تشوبه شائبة فجاء المنهج ليزكيكم فى كل

شىء ، يزكى حركات جوارحكم فلا تتجه الحركة إلا لتحقق المطلوب منها عند من خلقها ، فالخالق قد أوضح : ياعين حدودك كذا ، يا لسان حدودك كذا ، يا يد حدودك كذا ، يا رِجْلُ حدودك كذا ، يا قلب حدودك كذا ، فالذى خلق كل جارحة هو الذى أعطى لكل منها حدودها فلا تجاوز ولا تهاون ولا إفراط ولا تفريط ، فإن خرجت عن غير ما وضع لها فى منهج الله فقد خالفت . وهكذا نرى أن المنهج قد جاء يزكيكم أى يطهركم وينقيكم وينميكم فى كل مجال من مجالات الحياة .

« ويعلمهم الكتاب والحكمة » وساعة يقول الحق : « الكتاب » فهو يقصد الكتاب المنزل إنه القرآن ، والحكمة هى السنة . والحق يقول :

﴿ وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَـٰتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾ ﴾

(سورة الأحزاب)

وآيات الله معروفة وهى آيات القرآن ، والحكمة هى سُنَّة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وهنا يقول الحق : « يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب » ، إذن فالكتاب هو القرآن ، سيتلو عليهم آيات القرآن وبعد ذلك يعلمهم ما جاء فى هذا الكتاب . بعض المفسرين قال : لابد أن نحمل « الكتاب » هنا على معنى آخر غير القرآن ، فقالوا : الكتاب يعنى الكتابة ، وأول عمل زاولوه فى الكتابة كتابة المصحف . إذن فالتقى المعنيان ، ولذلك فى غزوة « بدر » كان يتم فداء الأسرى إما بالمال وإما أن كل أسير يجيد القراءة والكتابة إذا أراد أن يفدى نفسه فعليه أن يقوم بتعليم عشرة من المسلمين القراءة والكتابة فقد كانت الأمة أمية . يقول سبحانه وتعالى :

﴿ هُوَ الَّذِى بَعَثَ فِى الْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَـٰبَ وَالْحِكْمَةَ ﴾

(من الآية ٢ سورة الجمعة)

لذلك نجد أن تفسير الكتاب بالكتابة هو المناسب للأمية ، أو خذ هذه اللقطة على أساس أن هناك فرقا بين التلاوة والتعليم ، التلاوة : يتلو عليهم ، أى أن الرسول هو الذى يتلو ، والتعليم يكون بأن يتلوا هم القرآن . « ويعلمهم الكتاب والحكمة » و« علَّمَ » أى نقل العلم من مُعَلم إلى مُعلَّم .

ويختتم الحق هذه الآية بالقول الكريم : « وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين » وهناك أساليب تأتى فى القرآن فيها « إن » وتجد كل « إن » فى موضع لها معنى يختلف عن الآخر ، فمثلا تأتى « إن » شرطية ، يعنى يأتى بعدها فعل شرط وجواب شرط مثل قوله الحق :

﴿ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ﴾

(من الآية ١٤٠ سورة آل عمران)

أى إن يمسسكم قرح فلا تيأسوا ولا تبتئسوا . فقد مس القوم قرح مثله ، وقوله الحق :

﴿ إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ ﴾

(من الآية ٢٧١ سورة البقرة)

إننا هنا نجد أنَّ « إن » شرطية ، ففيه شرط وجواب شرط . ومرة تأتى « إن » وبعدها « إلا » :

﴿ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ ﴾

(من الآية ٢ سورة المجادلة)

وهو سبحانه يتكلم هنا عن الذين يظاهرون من نسائهم ، أى يقول الرجل لامرأته : أنت علىّ كظهر أمى ، إن أمك هى التى ولدتك وامرأتك لم تلدك ، فلو كانت أمك لكانت محرمة عليك ، « إن أمهاتهم إلا اللائى » ، فعندى هنا « إن » وبعدها « إلا » ومادام جاءت « إلا » فالذى بعدها يكون مثبتا ، والذى قبلها يكون منفيا ، مثل قولنا : « ما قام القوم إلا زيدًا » إن زيدا مختلف عنهم . « إن أمهاتهم إلا اللائى ولدنهم » أى : ما أمهاتهم إلا اللائى ولدنهم ، إذن فـ « إن » هنا ليست

شرطية لكنها هنا « إن » النافية وتعرفها بوجود « إلاّ » .

ومرة ثالثة تأتى « إن » لا هى شرطية ، ولا هى نافية مثل آيتنا هنا « وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين » . ونقول : هذه « إنْ » التى هى تخفيف « إنَّ » أى « إنْ » هنا مخففة من الثقيلة ويكون المعنى وإنّ الحال والشأن والقصة والواقع أنهم كانوا فى ضلال مبين . ويقول النحاة : اسمها ضمير الشأن ـ أى الحال والقصة ـ وهو محذوف .

وما هو الضلال ؟ يقولون : ضل فلان الطريق أى مشى فى مكان لا يوصله للغاية ، أو يوصل إلى ضد الغاية ؛ لأن الضلال فى الدنيا والأمور المادية قد لا يوصلنى لغايتى المرجوة ، وقد لا يوصلنى لشر منها أو لمقابلها ، لكن فى الأمر القيمى ماذا يفعل ؟ إنه لا يوصلك إلى الغاية المرجوة وهى الجنة فحسب ولكنه يوصل للمقابل وهو النار ، هذا هو الضلال المبين ، إنه ضلال واضح ؛ بدليل أن النقائص التى جاء الإسلام ليطهر الإنسان منها ، يحبّ مرتكبها ألا تُعلم عنه وسط الناس ، فالسارق يسرق لكن لا يحب أن يعرف الناس أنه لص ، والكاذب يكذب لكن لا يحب أن يعرف الناس أنه كذاب ، بدليل أنك عندما تقول له : يا كذاب تكون له صاعقة . إذن فالنقيصة تُفعل وصاحبها لا يريد أن يراها أحد أو يُعرف بها .

« وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين » أى ضلال ظاهر وهو ضلال يعرفه صاحبه بدليل أننا قلنا فى قصة سيدنا يوسف ؛ حيث نجد فى القصة اثنين من الفتيان قد دخلا السجن ، وماذا حدث لهما :

﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ ٱلْآخَرُ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾

(سورة يوسف)

لقد رأوا فى يوسف عليه السلام كأن عنده ميزان الإحسان فهو يعرف الحسن والقبيح ، ولأنهما يعرفان ميزان الإحسان فلا بد أن تكون المسائل بالنسبة لهما واضحة . ولماذا لم يقلها واحد منهما من قبل ؟

لقد شهدا هذه الشهادة لسيدنا يوسف لأنهما يطلبان الآن مشورته فى تأويل الرؤى . كان يوسف عليه السلام مسجونا ، ولم ينظر إليه أحد إلا كمسجون . ومن سلوكه معهما فى السجن عرفا أنه طيب ومحسن . ولذلك التفتا إليه ورأيا فيه أنه قادر على تأويل رؤيا كل منهما . مثلما قلنا : إن المنحرف نفسه يعرف قيمة الفضيلة ، وهكذا نجد أن الفضيلة مسألة ذاتية وليست نسبية ، أى أنه حتى المنحرف عن الفضيلة يرى الفضيلة فضيلة .

وبعد ذلك يعود الحق إلى قضية عجيبة ، فإذا كان الله سبحانه قد من على المؤمنين بالرسول ، ومن أنفسهم ، وجاء يتلو عليهم آيات الله ، وجاء يزكيهم طهارة ونقاء ونماء ، وجاء ليعلمهم الكتاب والحكمة وهى وضع الشىء فى مرضعه ، أو البحث عن أسرار الأشياء كان يجب عليكم ـ إذن ـ أنه إذا قال قولة لا تخالفوا عنها أبدا ، وعندما يجرى على يديه أمر فهو لا يحتاج إلى مناقشة ، إذن فما حكايتكم ؟

يقول الحق :

﴿ أَوَلَمَّا أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾ ﴾

لماذا تقولون : كيف يهزمنا الكفار ؟ لقد حدث لكم ذلك لأنكم خالفتم الرسول الذى مَنّ ربكم به عليكم ، وآتاكم ، وزكاكم ، ويعلمكم الكتاب والحكمة ، كان

مقتضى ذلك أن كل ما يقوله الرسول الذى هو بهذه المواصفات أن تطيعوه ، ولا يقولن أحدكم : لماذا تحدث هذه الهزيمة ؟ ولا يقولن أحد لماذا حكاية أُحُد وكيف يهزمنا الكفار ؟ إنّ هذا لا ينسجم مع ما قيل من أن الله مَن عليكم وبعث فيكم رسولا ، ثم إن أحُدًا ليست مصيبة بادئة ، بل مصيبة جاءت بعدما أصبتم من أعدائكم مصيبة ،ونلتم منهم ضعف ما نالوا منكم .

فأنتم بدأتم ببدر وأعطاكم الله الخير . أنتم قتلتم سبعين وأسرتم سبعين ، وهم قتلوا سبعين ولم يأسروا أحدًا فى « أُحُد » ، أنتم أخذتم غنائم فى بدر ، وهم لم يأخذوا أى غنيمة فى أُحُد ، ما العجيبة فى هذه !! كان يجب أن تبحثوا فى ذواتكم وفى نفوسكم ، هل كنتم منطقيين مع إيمانكم ومع قيادة الرسول لكم !؟ أيكون منكم ذلك السؤال وهو « أنى هذا » ، لأن « أنى » معناها استنكار أنّ هَذَا يحدث أى من أين أصابنا هذا الانهزام والقتل ونحن نقاتل فى سبيل الله وفينا النبى والوحى وهم مشركون ونقول لكم : وهل كنتم على مستوى الإيمان المطلوب ؟ إن مستوى الإيمان المطلوب يقتضى منكم أن تنفذوا ما قاله الرسول ، وأنتم لم تكونوا على هذا المستوى ، الذى كنتم عليه فى بدر .

وساعة تسمع « أو لما » فهناك همزة الاستفهام ثم « واو عطف » ، « أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا » ، و« لما » هنا هى الحينية ، فماذا يكون المعنى ، لقد آمنتم بالله إلها وآمنتم بالرسول مبلغا ، أحين تصيبكم مصيبة قد أصبتم مثليها تقولون أنى هذا ؟

كان المنطق ألا تسألوا هذا السؤال أبدا لأنكم آمنتم بإله عادل له سنن لا تتبدل ولا تتحول . أكان يترك السنن من أجلكم !؟

﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾ ﴾

(سورة الأحزاب)

وفى موقع آخر من القرآن يقول سبحانه :

﴿ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾

(من الآية ٤٣ سورة فاطر)

فلو أنكم استحضرتم الإيمان بالإله الذى أطلق السنن فى الكون ليسوس به أمر ملكه بما يحقق أمر المصلحة لما قلتم هذا ومادمتم قد آمنتم بأن الإله هو الذى صنع تلك السنن فكان الواجب عليكم أن تعلموا أن الإله لن يجاملكم بإبطال سننه من أجل أنكم نُسبتم إليه أولا بأنكم مسلمون ، فإنكم إن خالفتم فسنن الله واقعة ، وكان يجب أن تفهموا هذا الأمر ، وكان يجب ألا تسألوا هذا السؤال ، وقد آمنتم بالله إلها له سنن ، وآمنتم بالرسول المبلغ عن الله . أحين تصيبكم مصيبة مع هذا الإيمان قد أصبتم مثليها ، تقولون : أنى هذا ؟ أنتم حدث منكم أنكم أصبتم خصومكم ، وياليتكم أصبتموهم بمثل ما أصابوكم به بل أنتم أصبتم مثليها ، كان يجب أن تقارنوا : لماذا أَصَبْتُم مثليها من قبل ، ولماذا أُصِبْتُم الآن ؟ كان يجب أن تعرضوا عملكم على الموازين الإيمانية ؛ فإن عرضتموه على الموازين الإيمانية لما سألتم هذا السؤال : « أنى هذا » . .

وساعة تسمع « أنى هذا » فلها معنيان : إما أنها تأتى بمعنى (كيف يحدث هذا) ؟ وإما بمعنى (من أين يحدث هذا) ؟ فإن كانت لأعيان وتحب أن تعرف ، مثلما أحب سيدنا زكريا أن يعرف : من أين يأتى الرزق لسيدتنا مريم وهى فى المحراب :

﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾

(من الآية ٣٧ سورة آل عمران)

راجع أصله وخرج أحاديثه الدكتور أحمد عمر هاشم نائب رئيس جامعة الأزهر.

أى من أين ؟ وتأتى مرة أخرى بمعنى « كيف » :

﴿ أَوْ كَالَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَـٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ﴾

(من الآية ٢٥٩ سورة البقرة)

أى كيف يحيى ؟ إذن فمرة تكون بمعنى « من أين » ، ومرة تكون بمعنى « كيف » ، والذين دخلوا معركة أُحد كانوا ينكرون ويستعجبون لعدم انتصارهم . . فأوضح لهم الحق : لو كنتم مستحضرين قضية الإيمان بإله عادل وضع فى كونه سننا وهو لن يغير سننه ولن يحولها من أجلكم أنتم ، إن عليكم أن تعرفوا أن الله لا يتغير من أجل أحد ، ولكن يجب أن تتغيروا أنتم من أجل الله .

« أوَ لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها » : و« لما » يعنى : حين ، واسمها : « لما الحينية » و« لما » تكون أيضا من أدوات وعوامل الجزم مثل : لَمْ و« لم » تنفى ، و« لمَّا » أيضا تنفى مثل قوله الحق :

﴿ وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَـٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ﴾

(من الآية ١٤ سورة الحجرات)

أى أن الإيمان لم يدخل قلوبكم بعد . إنما من الجائز أنه قد يدخل بعد ذلك ، هذه اسمها « لَمَّا » الجازمة . وهناك « لما » الشرطية مثل قولنا : لما يقوم زيد يحدث كذا ، وهذه فيها شرط ، وفيها الزمن. أى حين يقوم يحدث كذا ، مثل قوله الحق :

﴿ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَـٰدَيْنَـٰهُ أَن يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ﴾

(سورة الصافات)

أى حين أسلم وتله للجبين وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا أى ناديناه ، والواو هنا مقحمة مثلها فى قوله تعالى : « حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها » أى قال لهم. ومعنى مقحمة، جيء بها للتوكيد والتقوية. أو جاءت الواو هنا لتفيد أن نداء الله لسيدنا إبراهيم جاء مصاحبا لإلقاء ابنه إسماعيل على وجهه ليذبحه .

فـ « لـمّا » هذه وفى الآية التى نحن بصددها هى « لما الحينية » ، أحين تصيبكم أى : أوقت تصيبكم مصيبة قد أصبتم مثليها « قلتم أنى هذا » كان يجب أن تقارنوا لماذا أَصَبْتُم فى بدر مِنْ عدوكم ضعف ما أصاب منكم ، ولماذا أصاب عدوكم منكم يوم أُحُدٍ هذا ؟ كان يجب أن تسألوا أنفسكم هذا السؤال ؛ لأن الميزان منصوب وموضوع ، ومادمتم تغافلتم عن هذا فسيأتى لكم الرد . . قل يا محمد لهم رداً على هذا : « هو من عند أنفسكم » . لقد خالفتم عن أمر الرسول ، ومادمتم خالفتم عن أمر الرسول فلا بد أن يحدث هذا بمقتضى إيمانكم بإله له سنن لا تتحول ولا تتبدل . « أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا قل هو من عند أنفسكم » .

وبعد ذلك تذيل الآية بقوله سبحانه : « إن الله على كل شىء قدير » . فما موضعها هنا ؟ موضعها أنه مادامت لله سنن ، وسنن الله لا تتبدل ، والله موصوف بالقدرة الفريدة له فلن يأتى إله آخر ويقول : نبطل هذه السنن . ومادام لا يوجد إله آخر يقول ذلك فهو سبحانه قدير على كل شىء ، وهو قدير على أن تظل سننه دائمة ، ولا توجد قوة تزحزح هذه القضية ؛ لأن السنن وضعها الله . فمن الذى يغيرها ؟ إنها لن تتغير إلا بقوة أعلى ومعاذ الله أن تكون هناك قوة أعلى من قوة الله ؛ لذلك يوضح سبحانه : أنا قدير على كل شىء وقدير على أن أصون سننى فى الكون ، فلا تتخلف ولا توجد قوة أخرى تُحَوِّل هذه السنن أو تبدلها .

ولا تظنوا أن ما أصابكم جاء فقط لأن السنن لا تتغير ، لا ، فهذا قد حدث بإذن من الله ، فالله أوضح للكون : من يخالف أمرى أفعل فيه كذا . إذن فالكون لم يحدث فيه شىء دون علم الله وإذنه .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ ﴾

أى أنه سبحانه قد جمع المؤمنين وجمع الكافرين فى أُحُد بإذن منه وبعلمه والنتيجة معروفة عنده ، وأنه سيحدث منكم كذا وكذا ، إذن فهذا أمرٌ معلوم ، أو « بإذن الله » أى فى السنن التى لا تتخلف ، فالمسألة لم تأت بغير علم الله ، لا . لقد جاءت بإذن الله ولا تتخلف ـ تطبيقا ـ عن أَحَدٍ من خلقه أبداً مهما كانت منزلته .

« وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله وليعلم المؤمنين » ساعة ترى أمراً أجراه الله ليعلم الذين نافقوا ، وليعلم المؤمنين،نعرف أن الله عالم بهم قبل أن تقع الأحداث ، ولكن علمه لا يكون حجة على الغير إلا إن حدث منه بالفعل ؛ لجواز أن يقول : يارب أنت حاسبتنى بعلمك أن هذه سيحدث ، لكن ما كنت لأفعله . فيوضح الحق : لا . أنت قد علمته لأنك فعلته وصار واقعاً منك وتقوم به الحجة عليك .

وأضرب هذا المثل ـ ولله المثل الأعلى ـ أنت كمعلم تقول لواحد من الطلبة : أنت راسب ، فيقول لك : لا ، لابد أن تمتحننى . تقول له : أنا أعرف أنك راسب . فيقول لك : أنا لا آخذ بعلمك بل لابد أن تمتحننى . تقول له : تعال أمتحنك . وتعطيه بعض الأسئلة فيرسب . وهنا يصير علمه برسوبه أمراً واقعاً ، وهو كان يعلمه بسبق علم ، لكنه الآن لا يقدر أن يجادل لأنه صار واقعا محسوساً .

ويقول الحق : « وليعلم المؤمنين » ومنهم الثابت الإيمان الذى لا يتزعزع ويعلم أنه إذا أصابته مصيبة بما قدم لنفسه ، هذه المصيبة تزيده إيماناً بإلهه .

ويقول الحق من بعد ذلك :

۞ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ ۚ يَقُولُونَ

بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ۗ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾

وقوله: « وليعلم الذين نافقوا » أى يجعلهم يظهرون وينكشفون أمام الناس، وإلا لو لم تحدث هذه الأحداث فكيف كنت تعرف المنافق ؟ سيستر نفسه . لابد إذن أن تأتى أحداث لتظهره وتفضحه ، فالمنافق يراوغ ؛ لذلك يأتيه الحق بأحداث ليظهر على حقيقته ، وقد كان .

« وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم تعالوا قاتلوا فى سبيل الله أو ادفعوا » . . وكانت المدينة مهاجمة ، وإذا انتصر الكفار فسيدخلون ويشبون ويأخذون المسلمين أسرى ويفعلون كل منكر !! فقال عبدالله بن عمرو بن حرام الأنصارى للمنافقين : اخرجوا وقاتلوا معنا ، وإن لم تخرجوا لتقاتلوا معنا . . اخرجوا لتدفعوا عن أنفسكم وعن أموالكم وعن نسائكم ؛ لأنهم إذا انتصروا على المسلمين فسيدخلون ويفعلون كذا وكذا ، إنه دعاهم إلى القتال على طريق إثارة الحمية والأنفة فيهم وذلك بعد أن يئس من أنهم لم يقاتلوا فى سبيل الله ، ولما رأى اصرارهم على عدم الخروج قال لهم عبدالله : اذهبوا أعداء الله فسيغنى الله رسوله عنكم .

إذن ففيه فرق بين القتال فى سبيل الله وبين الدفاع عن النفس فقال : « قاتلوا فى سبيل الله أو ادفعوا » . . أو ادفعوا عنا ولو بتكثير سوادنا وإظهار كثرتنا حتى يظن المشركون أن معنا أناسا كثيرين . « قالوا لو نعلم قتالاً لاتبعناكم » . . وعندما نتابع هذا المنطق فى القصة فى ذاتها نجد أن « ابن أُبَىٍّ » كان من رأيه أن يظل رسول الله فى المدينة لماذا ؟ لأنه قد ثبت بالتجربة أنه إذا جاء قوم ليغيروا على المدينة ودخلوها فأهل المدينة ينتصرون عليهم ، وإذا خرج لهم أهل المدينة فهم ينهزمون .

إذن فالقضية واضحة فى ذهن ابن أُبَىٍّ ، فهو لم يرض أن يخرج لأن التجارب أثبتت له أنهم إذا خرجوا عن المدينة ليحاربوا العدو فعدوهم ينتصر عليهم ، وإذا ظلوا انتصروا ، إذن فهو واثق من نتيجة الخروج ، ولكن مادامت المسألة قد صدرت من رأس النفاق عبدالله بن أبىّ فأنت لا تستطيع أن تحكم أين الحق ، فمن الجائز أن آثار

يوم هجرة الرسول عليه الصلاة والسلام من مكة إلى المدينة هذه الآثار كانت باقية فى نفس « ابن أبىّ » ففى ذلك اليوم الذى جاء فيه الرسول إلى المدينة كان هو اليوم الذى كان سيتوج فيه المنافق « ابن أُبَىّ » ليكون ملكاً على المدينة ، فلما جاء الرسول بهذا الحدث الكبير تغير الوضع وصار التاج من غير رأس تلبسه ، فهذه قد حملها فى نفسه .

« قالوا لو نعلم قتالاً لاتبعناكم » لقد ادّعى ابن أبىّ أن الخروج من المدينة هو كإلقائه إلى التهلكة وليس قتالاً ؛ لأن القتال تدخله وعندك مظنة أن تنتصر ، إنما هذا إلقاء إلى تهلكة وليس قتالاً ، لكن أقال : « لو نعلم قتالاً لاتبعناكم » وهو صادق ؟

إن الحق يفضحهم : « هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان » ، فقبل ذلك كانوا فى نفاق مستور ، ومادام النفاق مستوراً فاللسان يقول والقلب ينكر ويجحد ، فهم مذبذبون بين ذلك ؛ لا إلى هؤلاء ، ولا إلى هؤلاء ، هذه المسألة جعلته قريبا من الكفر الظاهر .

« يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم » . . إذن فالقلب عمله النية الإيمانية ، واللسان قد يقول ولا يفعل ما يقول ، ولذلك قلنا : إن المنافق موزع النفس ، موزع الملكات ، يقول بلسانه كلاما وقلبه فيه إنكار ، ولذلك سيكونون فى الدرك الأسفل من النار ؛ لأنهم غشاشون ، ونفوسهم موزعة .

« يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم » والقول ضرورى بالفم ؛ لأن القول يُطلق ويراد به البيان عما فى النفس ، فتوضيح الإنسان لما فى نفسه كتابة ، يعتبر قولاً ـ لغة ـ ولذلك فالذى يستحى من واحد أن يقول له كلاما فهو يكتبه له فى ورقة ، فساعة يكتب يكون قد قال ، وهؤلاء المنافقون يقولون كلماتهم لا بوساطة كتاب بل بوساطة أفواههم، وهذا تبجح فى النفاق ، فلو كانوا يستحون لهمسوا به : « يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم » إذن فاللسان لم يتفق مع القلب . فالقلب منعقد ومصر على الكفر ـ والعياذ بالله ـ واللسان يتبجح ويعلن الإيمان .

ونعرف أن « الصدق » هو أن يوافق القول الواقع ، والواقع فى القضية الإيمانية نية فى القلب وحركة تُثبت الإيمان ، أما المنافقون فلسانهم لا يوافق قلبهم ، فلما كان ما فى القلب مستورا ثم ظهر إلى الجوارح انكشفوا . وهذا هو السبب فى أنهم كانوا أقرب إلى الكفر ، « يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم » وهذا لون من نقص التصور الإيمانى فى القلب ، كأنهم يعاملون الله كما يعاملون البشر مثلهم .

وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُواْ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْۗ قُلْ فَٱدْرَءُواْ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٦٨﴾ ﴾

فعندما أراد ابن أُبَىّ أن يخذِّل الجيش ، وافقه بعض المنافقين ولم يوافقه البعض . هؤلاء الذين خرجوا للقتال والجهاد ولم يوافقوهم ثم قتلوا فرحوا فيهم ، وقالوا : لو كانوا أطاعونا ومكثوا فى المدينة ولم يخرجوا لما انهزموا ولما قتلوا ، وكأن الحق يوضح لنا أسلوبهم ؛ لذلك سنأخذهم من منطقهم . . هم قعدوا وقالوا عن إخوانهم الذين قُتلوا فى المعركة والذين هم من جماعتهم : « لو أطاعونا » كأن قولا صدر منهم: « أن اقعدوا » ولكن القوم الآخرين الذين هم أقل نفاقا . لم يطاوعوهم وخرجوا ، فحدث لهم ما حدث .

فكيف يرد الله على هذه ؟ انظروا إلى الرد الجميل : أنتم تقولون : « لو أطاعونا » ، فكأن طاعتكم كانت وسيلة لسلامتهم من القتل . إذن فأنتم تعرفون طريق السلامة من القتل . والذى يعرف طريق السلامة من القتل هل يعرف طريق السلامة من الموت ؟ ولذلك يقول الحق سخرية بهم : « فادرأوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين » وفى ذلك رد عليهم من كلامهم « لو أطاعونا ما قتلوا » .

ومادمتم تعرفون وسيلة للسلامة من القتل فاستعملوا هذه الوسيلة فى أن تدفعوا عن أنفسكم الموت . وأنتم مع المتقدمين منكم والحاضرين تموتون ولا تستطيعون رد الموت عنكم ، إذن فأنتم لا تعرفون طريق السلامة من الموت ؛ فكم من مُحارب عاد من الحرب سليما ، وكم من هَارب من القتال قد مات وانتهى ، وَهَبْ أن بعضا من المؤمنين المقاتلين قد قُتل، إن الذى قُتل فى المعركة ليس أهون على الله ممن سلم من المعركة، هؤلاء أحب إلى الله وقد عجل الله لقاءهم وأنزلهم المنزل المقرب عنده .

ونعرف أن الحدث إنما يُحمد ويُذم بالنسبة للغاية منه ، فكل حدث يُقربك من الغاية يكون محموداً ، وكل حدث يُبعِدك عن الغاية يكون غير محمود ، فإذا كانت الغاية أن تذهب إلى الاسكندرية مثلا ؛ فقد تذهب إليها ماشيا فتحتاج إلى عدة أيام ، وقد تذهب إليها راكبا دابة فتحتاج إلى زمن أقل ، أو تذهب إليها راكبا عربة فيقل الزمن لساعات ، أو تذهب إليها راكبا طائرة فتصلها فى نصف الساعة ، فكلما كانت الوسيلة قوية كان الزمن قليلا ؛ لأننا نعلم أن القوة الفاعلة فى النقلة تتناسب مع الزمن تناسبا عكسيا . وكلما زادت القوة قل الزمن ، ومادامت غايتى أن أذهب إلى الاسكندرية . فالذى يُعجل لى الزمن ويقلله لأذهب إليها أفضل أم لا ؟ إنها الوسيلة الأفضل .

فمادامت الغاية أن تذهب إلى لقاء الله وأن تعيش فى جواره ومعيته ، فحين يُعجل الله ببعضنا فيأخذهم من أقصر طريق فهذا أفضل بالنسبة لهم أم لا ؟ هذا أفضل ، وهكذا نرى أن الناس تنظر للموت نظرة حمقاء ، إن موت المؤمن الحق الصادق الإيمان إنما يقربه إلى الغاية ، فما الذى يُحزننى !

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ ﴾

أنتم تخافون الموت ، ولكن هؤلاء الذين قتلوا فى سبيل الله ليسوا بميتين ، لأن حياتهم حياة موصولة ؛

إن هناك فارقا كبيرا بين الموت والشهادة ، فالذى يقتل شهيدا تكون حياته موصولة ، ولن يمر بفترة موتنا نحن ، ولنفهم أنهم أحياء عند ربهم ، أى بقانونه سبحانه ، فلا تُحَكِّم قانونك أنت ، فأنت ـ كما قلت ـ لو فتحت القبر ستجد هؤلاء القتلى مجرد أشلاء . هم عندك أشلاء وأموات فى قانونك أنت . لكنهم أحياء عند ربهم يُرزقون .

فالحياة تختلف عن الموت فى ماذا ؟ إن الإنسان إذا زهقت روحه وفارقت جسده انقطعت حياته ، فى ظاهر الأمر انتهى ولم يعد ينتفع برزق ولا بأكل ؛ لأن الرزق جُعِلَ لاستبقاء الحياة ، ومادام الرزق قد صُنِعَ لاستبقاء الحياة وليس فيه حياة إذن فلا رزق ، لكن الله سبحانه يريد أن يعطينا مواصفات تؤكد أن الشهيد حي . ومن ضروريات الحياة أنه يُرزَق أى ينتفع باستبقاء الحياة ، وعلينا أن نفهم أن العندية عندك غير العندية عند الله . فالشهيد حى عند ربه ويُرزق عند ربه رزقا يناسب الحياة التى أرادها له ربه . ونعلم أن الرزق هو الخاصية التى توجد للأحياء . وعندما نقرأ قول الله : « أحياء عند ربهم يرزقون » قد يقول قائل : من الجائز أنك تأخذ إنسانا وتُبقيه حيا وتعطيه طعاما وشرابا لكن أهو فرح بموقعه ؟ لا . لذلك يجب أن ندرك ونعرف أن حياة الشهيد ليست فى قبره ولكنها عند ربه وهو فَرِح بموقعه لذلك يقول الحق :

﴿ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ﴾

والعدل يتحقق بين البشر بأن كلا منهم يموت . ولكن الفضل أن يعجل الله انقضاء الحياة فى الدنيا لمن يحبهم بالاستشهاد وينقلهم إلى رضوانه ونعيمه « فرحين بما آتاهم الله من

فضله » وليس هذا فقط ، بل إننا نجد الأخوة الإيمانية قد بقيت فيهم وليست كخاصية الأحياء بل أنقى وأبقى من خاصية الأحياء ، فالخاصية الإيمانية تقتضى أن يُحب المؤمن لأخيه ما يُحب لنفسه ، والشهداء فى حياتهم عند ربهم كذلك ، مما يدل على أن الحياة التى يحياها الشهداء هى حياة نامية فيها رزق ومواجيد وفرح ، وكل شهيد يعتبر أن هذا فضل من الله قد فضله به . ولذلك فالشهيد يستبشر بالذى لم يأت من بعده من إخوانه المؤمنين ويقول : يا ليتهم يأتون ليروا ما نراه .

« ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم » : « ويستبشرون » من البُشرى ، والبُشرى هى الخبر السَّار « ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم » ويلحقوا أى يأتوا بعدهم ، فالشهداء يقولون: إنهم سيأتون لنا وماداموا سيأتون لنا فنحن نُحب أن يكونوا معنا فى النعيم والخير الذى نحيا فيه . وكل منهم يشعر بالمحبة لأخيه ، لأنه يعلم قول الرسول صلى الله عليه وسلم : « لا يكمل إيمان أحدكم حتى يُحب لأخيه ما يُحبه لنفسه » . وعن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لما أصيب إخوانكم يوم أحد جعل الله أرواحهم فى أجواف طير خضر ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها ، وتأوى إلى قناديل من ذهب فى ظل العرش ، فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم وحسن فضلهم قالوا : ليت إخواننا يعلمون ما صنع الله بنا لئلا يزهدوا فى الجهاد ولا ينكلوا من الحرب. فقال الله ـ عز وجل ـ: أنا أبلغهم عنكم ، فأنزل الله هذه الآيات : « ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون » وما بعدها[1] .

ونعرف أن « البِشْرَ » عادة هو الفرحة ، وهى تبدو عَلَى بشَرة الإنسان ، فساعة يكون الإنسان فرحا ، فالفرحة تظهر وتُشرق فى وجهه ولذلك نُسميها « البشارة » ، لأنها تصنع فى وجه المُبشَّر شيئا من الفرح مما يعطيه بريقا ولمعانا وجاذبية .

« ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون » أى أن الذين خلفوا عن الشهادة لا خوف عليهم ، فهؤلاء الذين لم يستشهدوا بعد قد يخوضون معركة ما ، فيقول الحق على لسان الشهداء لكل منهم : لا تخف لأنك ستذهب لخير فى الحياة « ألاّ خوف عليهم ولا هم يحزنون » .

---

(١) رواه الإمام أحمد .

وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾ ﴾

إن الحق سبحانه لا يضيع أجر هؤلاء الذين قاتلوا فى سبيل الله ، وها هو ذا سبحانه وتعالى يقول :

﴿ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ﴾

انظر إلى المنزلة العالية كى تعلم أن الهزة التى حدثت فى أُحُد أعادت ترتيب الذرات الإيمانية فى نفوس المؤمنين . ولذلك أراد الله ألا يطول أمد الغم على مَن ندموا بسبب ما وقع منهم ، وألا يطول أمد الكفار الذين فرحوا بما أُلحق بالمؤمنين من الضرر فى المعركة الأخيرة ، هؤلاء المشركون فرحون ، وهؤلاء المسلمون فى حزن ؛ لأننا قلنا : ماداموا مسلمين ومؤمنين فلهم حق ، وإن قَصَّروا فعليهم عقوبة ، وسبحانه قد أنزل بهم العقوبة لكن بقى لإسلامهم حق على الله ؛ لأنه أجرى تلك الأقدار ليُهذب ويمحص ويُربى ، فلا يطيل أمد الغم على المؤمنين ولا يمد الفرحة للكافرين ، فيأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم والحالة كما تعلمون هكذا، ويؤذن مؤذنه صلى الله عليه وسلم فى الناس بطلب قريش قائلا : « لا يخرجن معنا إلا من حضر معنا القتال » .

ويخرج الرسول صلى الله عليه وسلم إليهم بعدد لا يزيد على عدد المقاتلين الذين كانوا يواجهونهم حتى لا يقال إنهم جاءوا بمددٍ إضافى ، بل بالعكس ، فالذين خرجوا لمطاردة الكفار هم الذين بقوا مع الرسول فى أُحُد ، ونقص منهم من قُتل ونقص منهم أيضا كل من أثقلته جراحه . لقد كانوا أقل ممن كانوا فى المعركة ، وكأن الله يريد أن يبين لنا أن التمحيص قد أدى مطلوبه .

هم فى هذه الحالة استجابوا للرسول ، كأن المسألة جاءت رد اعتبار لمن شهدوا المعركة ؛ حتى لا يضعفوا أمام نفوسهم ؛ وحتى لا يجعلوها زلة تطاردهم وتلاحقهم فى تاريخهم الطويل ، بل يعلمون أن معركة أُحُد قد انتهت وعرفوا آثارها .

وبمجرد أن أذن مؤذن الرسول صلى الله عليه وسلم بالنداء السابق استجابوا جميعا ، ولم يُسمح إلا لجابر بن عبدالله أن يكون إضافة لهم ؛ لأنه أبدى العذر فى أنه لم يكن مع القوم ؛ لأن له أخوات سبعًا من البنات وأمره أبوه أن يمكث مع أخواته لرعايتهن ، فسمح له رسول الله .

ـ وكما قلنا ـ فإن الله أراد بكل أحداث أُحُدٍ أن يُعيد ترتيب الذرات الإيمانية ، ومادامت الذرات الإيمانية قد انتظمت فقد تم إصلاح جهاز الاستقبال عن الله ، وفى لحظة واحدة يستجيبون لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى أنهم يلاحقون الكفار ، وذهبوا إلى حمراء الأسد وكان ما كان . وبعد ذلك أرسل الله لهم من جنوده من يُخَذِّلُ هؤلاء القوم الكافرين ، ويقول لهم : إن محمدا قد خرج إليكم بجيش كبير .

ونلحظ أن الحق سبحانه يجيء هنا بقوله : « الذين استجابوا » وهى تقابل « من خالفوا » أمر رسول الله وهم الرماة ، « الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح » .

لقد استجابوا وهم مُرهقون ومُتألمون ومثخنون بالجراح ؛ فكل واحد منهم قد ناله

نصيب من إرهاق القتال ، ومع ذلك استجابوا لله وللرسول ، وكل منهم أصابه القَرح أو القُرح . . يعنى الألم أو الجرح ، « من بعد ما أصابهم القرح للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم » وهم قد أحسنوا فى الاستجابة ؛ لذلك فلهم الأجر العظيم ، « أجر عظيم » لأن ما حدث منهم من أمر المخالفة قد أخذوا عليه العُقوبة .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ ﴾

المسألة ليست ذلك فقط ، المسألة أن المنافقين راحوا يُروجون إشاعات كاذبة بأن المشركين قد اسْتَدْعوا عددا جديدا من كفار مكة وذلك ليخيفوا المؤمنين ، فلم يخف مؤمن واحد « الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم » وساعة ترى كلمة « الناس » فاعرف أن الإيمان بعيد عنها ، ومادامو « أناسا » فهم يقابلون أناسا آخرين ، ومن يغلب فهو يغلب بجهده وشطارته وحسن تصرفه ، لكن المؤمن يقابل الكافر ، والمؤمن يتلقى المدد من ربه .

قيل : إن الشيطان قد يتمثل على هيئة حشد من الناس ليُرهب المؤمنين ، والشيطان من عالم الجن ، وعالم الجن يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم ، وقد أعطاه الله القدرة على أن يتشكل بما يُحب . فله أن يتشكل فى إنسان ، فى حيوان ، أو كما يريد ، ولكن إذا تشكل فالصورة تحكمه لأنه ارتضى أن يخرج عن واقعه ليتشكل بهيئة أخرى ، فإذا ما تشكل على هيئة إنسان ، فقانون الإنسان يسرى عليه ، بحيث

إن كان معك مسدس أو سيف أو خنجر وتمكنت منه وطعنته يموت . وهذا هو ما رحمنا من تخويفهم لنا .

ولذلك تجد أن الشيطان يظهر لمحة خاطفة ثم يختفى ، لأنه يخاف أن يكون الإنسان الذى أمامه واعيا بأن الصورة تحكمه ، فعندما يتمثل لك بأى شكل تخنقه فيُخنق ، لذلك يخاف من الإنسان ، فلا يظهر إلا فى لمحات خاطفة .

ويمكن أن نفهم أيضا قول الحق : « الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم » أن هناك بعضا من الكفار أشاعوا أن أبا سفيان وصحبه قد حشدوا حشودهم ، فكلمة « جمعوا » تعطى إيحاء بأنهم جاءوا بمقاتلين آخرين ، أو أن فلولهم قد تجمعت ، وسواء هذا أو ذاك فهم عندما فروا فروا فلولا ، لأن القوم المنهزمين لا يسيرون سيرا منتظما يجمعهم ، بل يسير كل واحد منهم حسب سرعته ، ويصح أن يتجمعوا ثانية ، أو جاءوا بناس آخرين ، ولنا أن نلحظ أن الأسلوب يحتمل كل ذلك .

« الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم » ومثل هذا القول قد يفت فى عضد المؤمنين ، لكن التمحيص الإيمانى قد صقل معسكر الإيمان فلم يهتموا بهذا الكلام ، وهكذا أثمر الدرس الأول ، لقد تعلموا أن المخالفة عن أمر الله الممثل فى أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم مجرد المخالفة تجعل الضعف يسرى فى النفس ، لكن التثبت والتمسك بأوامر رسول الله صلى الله عليه وسلم يُعزز الإحساس بالقوة ، لذلك لم يأبهوا لهذا التهديد بل قالوا : إن العدد هذا ليس فى بالنا ؛ لأننا نعتمد على الله وحُسن الإيمان ، إنهم قالوا : « حسبنا الله ونعم الوكيل » فلم يهتموا بالعدد وفهموا أن الإيمان يقتضى أن يقاتلوا الكافرين حتى يُعذبهم الله بأيديهم ، وفى هذا درس لكل مُحارب ، فعندما تحاربُ ، فأنت إما أن تكون منصورا بإيمانك بالله وإما أن تكون على عكس ذلك :

﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ﴾

(من الآية ١٧ سورة الأنفال)

لقد فطنوا إلى أنفسهم ، وتغير الترتيب الإيمانى فى أعماقهم ، ونلمس ذلك فى أن بعضا من الناس جاءوا يصدونهم ويخذلونهم ، فلم يستطيعوا بل زادهم هذا القول إيمانا « وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل » ، لقد فطنوا إلى أن قوة الله هى التى تنصرهم والله حسبهم وكافيهم عن أيِّ عدد من الأعداد وهو نعم الوكيل ، ومعنى « الوكيل » أننى عندما أعجز عن أمر أُوَكِّلُ أحدا فهو وكيل عنى ، وعندما نوكل الله فيما عجزنا عنه فهو نعم الوكيل ، لماذا ؟ وتأتينا الإجابة : « فانقلبوا بنعمة من الله » ، ولقد نصروا بالرعب الذى أنزله الله فى قلوب أعدائهم ولم يشتبكوا مع الكفار ، فصدق قول الله :

﴿ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ ﴾

(من الآية ١٢ سورة الأنفال)

ويأتى الحق من بعد ذلك بما يصدق القضية :

﴿ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ ﴾

وهذه القضية يجب أن يستشعرها كل مؤمن يتعرض لتمحيص الحق له ، وعلى كل مسلم أن يتذكر تلك تجربة ، تجربة أُحُد ، فليلة واحدة كانت هى الفارق بين يوم معركة أُحُد ويوم الخروج لملاحقة الكفار فى حمراء الأسد ، ليلة واحدة كانت فى حضانة الله وفى ذكر لتجربة التمحيص التى مر بها المؤمنون إنها قد فعلت العجب ؛ لأنهم حينما طاردوا الكفار ، لم يأبهوا لمحاولات الحرب النفسية التى شنها عليهم الأعداء ، بل زادهم ذلك إيمانا وقالوا : « حسبنا الله ونعم الوكيل » .

إذن فقد تجردوا من نفوسهم ومن حولهم ومن قوتهم ومن عددهم ومن أى شىء إلا أن يقولوا : الله كافينا وهو نعم الوكيل لمن عجز عن إدراك بغيته . لقد عرفوا الأمر المهم ، وهو أن يكون كل منهم دائما فى حضانة ربه ، وقد أخذ صحابة رسول الله وآل بيت رسول الله هذه الجرعة الإيمانية واستنبطوا منها الكثير فى حل قضاياهم .

وقول الله سبحانه : « حسبنا الله ونعم الوكيل » يُذكرنا بالإمام جعفر الصادق ابن سيدى محمد الباقر بن سيدى على زين العابدين وكان من أفقه الناس بالقرآن ، وكان من أعلمهم فى استنباط أسرار الله فى القرآن ، إنّه كان يجد فى قول الحق : « حسبنا الله ونعم الوكيل » استنباطا رائعا ، فهو يتعجب لأى إنسان أدركه الخوف من أى شىء يخيف ، والإنسان لا يخاف إلا أمرا يَنْقُضُ عليه رَتَابَة راحته ، ويقلقه ويهدده فى سلامه وأمنه واطمئنانه ، ويكون لهذا الخوف مصدر معلوم ، فإذا ما تعرض المؤمن لمثل هذا الخوف فعليه أن يتذكر قول الحق : « حسبنا الله ونعم الوكيل » لأنها قضية نفعت الجيش كله فى معركته مع الكفار ، فحين يأخذ الفرد هذه الجرعة فهو يستعيد رباطة الجأش . واشتداد القلب فلا يفر عند الفزع .

وينبهنا سيدنا جعفر الصادق إلى هذه القضية لنفزع إليها عند كل ما يُخيفنا فيقول : عجبت لمن خاف ولم يفزع إلى قول الله : « حسبنا الله ونعم الوكيل » إنه بِنَظرته الإيمانية يتعجب لإنسان أدركه الخوف ثم لا يفزع إلى هذا القول الكريم « حسبنا الله ونعم الوكيل » ، ثم يستنبط بإشراقاته سر هذا فيقول : لأنى سمعت الله بعقبها يقول : « فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء » وانظروا إلى قول سيدنا جعفر الصادق:« فإنى سمعت الله بعقبها » هو قرأ بنفسية المؤمن الصادق ، فالمؤمن حين يقرأ كلام الله إنما يستحضر أنه يسمع الله يتكلم إنه يقول : فإنى سمعت الله بعقبها يقول : « فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء » ولذلك فالحق يقول :

﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

فأنت حين تستمع إلى القرآن فالله هو الذى يتكلم ، ومن العيب أن يتكلم ربك

فى أذنك ثم تشغل عنه وهو ربك ، إذن فعلاج الخوف هو أن تقول من قلبك: « حسبنا الله ونعم الوكيل » وأن تقولها بحقّها ، فإن قلتها بحقها كفاك الله شرّ ذلك الخوف ، لأن الله يقول بعد « وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل » : « فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء » انظر إلى النعمة والفضل ، إنها من الله، وقد تصيبك النعمة والفضل ولكن تقدر ذلك فى أخريات الأمور ، فأوضح الله أن النعمة زادت فى أنها غنيمة باردة ، ولم يحدث فيها أن مسّنا سوء ، إن ذلك هو قمة العطاء ورأسه وسنامه ، فإذا قدرته فى أخريات الأمور فقدْ أخطأت التقدير « فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء » ونتيجة لتلك التجربة النافعة هى أن « اتبعوا رضوان الله » ، وقد نجحت التجربة مع المؤمنين .

ويقول الإمام جعفر الصادق ليكمل العلاج لجوانب النفس البشرية، ويصف الدواء. فالنفس البشرية يفزعها ويقلقها ويجعلها مضطربة أن تخاف شرّاً يقع عليها ، وعلاج هذا : « حسبنا الله ونعم الوكيل » ، ويضيف : وعجبت لمن اغتمّ ولم يفزع إلى قول الحق سبحانه :

﴿ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

(من الآية ٨٧ سورة الأنبياء)

و« الغمّ » قلق فى النفس ، ولكنك لا تدرك أسبابه ، فأسبابه مُعقّدة ، صدر يضيق ، ولذلك تقول : أنا صدرى ضيق ، أنا متعب ولا أدرى لماذا ؟ أى لم يمرّ بك الآن أشياء تستوجب هذا ، إنما قد تكون حصيلة تفاعلات لأحداث وأمور أنت لا تتذكرها الآن ، هذا اسمه « غمّ » ، فإذا ما فزع العبد إلى قول الحق سبحانه : « لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين » فالعبد يقرّ بذنبه ويقول : هذا الغمّ لم يأتنى إلا لأنى خرجت عن المنهج ، ويذكرنا سيدنا جعفر الصادق بأنه سمع بعدها قول الله :

﴿ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾

(سورة الأنبياء)

والذى قال ذلك هو سيدنا يونس « فاستجبنا له ونجيناه من الغمّ » .

وهذه الاستجابة من الله ليست خاصّية كانت ليونس عليه السلام ، لأنه سبحانه قال : « وكذلك ننجي المؤمنين » أى أنه باب واسع أدخل الله فيه كل المؤمنين ، ويضيف سيدنا جعفر الصادق : وعجبت لمن مُكر به ولم يفزع إلى قول الله :

﴿ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾

(من الآية ٤٤ من سورة غافر)

فإنى سمعت الله بعقبها يقول : « فوقاه الله سيئات ما مكروا » .

ومُكر به معناها بيّت له الشر بحيث يخفى ، لأن المكر هو : تبييت من خصمك لشرّ يُصيبك ، بينما أنت تقف بجانب الحق ، فيكون هذا المكر شراً يُبيَّتُ لخير وحق ، وهذا هو المكر السّيىء ، ويُقابله مكر حَسن ، ولذلك يقول الحق :

﴿ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ﴾

(من الآية ٤٣ سورة فاطر)

إذن فهناك مكرٌ ليس بسيّء ، كأن يُبيّت صاحب الحق لصاحب الشرّ . تبييتا يخفى عليه ، هذا اسمه مكر خير ؛ لأنه محاربة لشرٌ ؛ ولذلك يوضح لنا الله هذا الأمر : افطنوا إلى هذه ، فإن كانوا يمكرون ويُبيّتون ، فهم إن بيّتوا على الخلق جميعاً لا يُبيّتون على الله لأنه سبحانه العليم ، الخالق ، المُربى ، وإن يُبيّت الله لهم فلن يستطيعوا كشف هذا التبييت ، إذن فالله خير الماكرين ؛ لأن تبييتهم مكشوف أمام الخالق ، لذلك فهو مكر ضعيف ، أما المكر الحقيقى فهو الذى لا توجد وسيلة تعرفه بها .

ونواصل مع سيدنا جعفر الصادق قوله فى علاج النفس البشرية فيقول : وعجبت لمن طلب الدنيا وزينتها كيف لا يفزع إلى قول الله :

﴿ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾

(من الآية ٣٩ سورة الكهف)

فإنى سمعت الله يعقبها بقوله :

﴿ إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ ﴾

(من الآية ٣٩ وجزء من الآية ٤٠ سورة الكهف)

واستنبط سيدنا جعفر الصادق ذلك من حكاية صاحب الجنة :

﴿ وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ ﴾

(سورة الكهف)

إنك حين تقول: « ما شاء الله لا قوة إلا بالله » فإن الدنيا تأتيك مهرولة ، لأنك جرّدت نفسك من حولك ، ومن قوة حيلتك وأسبابك ، وتركت الأمر لله سبحانه وتعالى القادر على كل عطاء .

إذن فالجوانب البشرية فى النفس : هى خوف له علاج وَوَصْفَة ، وهمٌّ له علاج ووصفة ، ومكر بك له علاج ووصفة ، وطلب دنيا وسعادة لها علاج وَوَصْفَة ، والوصْفَة التى نحن بصددها هنا : « وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء » .

والنعمة أن يعطيك الله على قدر عملك ، والفضل من الله هو أن يزيدك عطاء ، ولم يمسس السوء أحداً من المؤمنين الذين طاردوا المقاتلين من قريش ، وكان من نتيجة ذلك أنهم جمعوا بين كل ما وهبه الله لهم ؛ من نعمة وفضل مع اتباعهم رضوان الله ؛ فقد صارت المسألة بالنسبة لهم تجربة مُحسّة ومُجرّبة « واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم » .

لقد حاول المنافقون أن يثبطوا المؤمنين عن لقاء كفّار قريش ، فيريد الحق أن يكشفهم ، ويظهر الدافع إلى مثل ذلك الموقف من المنافقين ، لذلك قالوا للمؤمنين : « إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم »

ويظهر الله للمؤمنين حقيقة موقف المنافقين :

﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾ ﴾

إنها صرخة الشيطان الذى يخوِّف أولياءه ، ويَصحُّ أن يصرخ الشيطان صرخته وهو يتمثل فى صورة بشر ، ويصح أن ينزغ الشيطان بصرخته لواحد من البشر فيصرخ هذا الإنسان بنزغ الشيطان له « إنما ذلكم الشيطان يخوّف أولياءه » .

وعندما نقرأ القرآن بدقة صفائية إيمانية فلابد أن نفهم عن القرآن بعمق ، فمن هم أولياء الشيطان ؟ أولياء الشيطان فى هذا الموقف ، إما كفّار قريش ، وإما المنافقون أو هما معا . و« أولياؤه » هم أحبابه الذين ينصرون فكرته .

كأن الحق سبحانه وتعالى يريد أن يُبلّغنا : إنما ذلكم الشيطان الذى قال:إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم ، هذا الشيطان إنما يخوف أولياءه .

وللوهلة الأولى نجد أن الشيطان مُفترض فيه أن يخوّف أعداءه . ونحن هنا أمام شيطان ينزغ بعبارة التخويف ، فمن الذى يخاف وممن يخاف ؟

المفروض أن يُخيف الشيطانُ أعداءه ، هذا هو المنطق .

فنحن فى حياتنا العادية نقول : خوّفت فلاناً من فلان ، أو خوفت فلاناً فلاناً . إذن فالشيطان يحاول هنا أن يتسلط على المؤمنين ويخوفهم من أوليائه الكفار والمنافقين ، ونعرف فى اللغة أن هناك فى بعض المواقف يمكننا أن نحذف حرف الجر ونصل الجملة ، ونُسمّيه « مفعولاً منه » . مثال ذلك قول الحق :

﴿ وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا ﴾

(من الآية ١٥٥ سورة الأعراف)

فموسى عليه السلام اختار من قومه سبعين رجلاً .

وعلى ذلك نقرأ قول الحق : « إنما ذلكم الشيطان يخوّف أولياءه » ونفهم منها ؛ أن ذلكم الشيطان يخوّفكم أنتم من أوليائه ، لأن حرف الجر فى الآية الكريمة محذوف ، ويعاضد هذا ويقويه قراءة ابن عباس وابن مسعود : يخوفكم أولياءه ، وينبه الحق المؤمنين ألاّ يخافوا من أولياء الشيطان فيقول : « فلا تخافوهم » .

وهذا يوضح لنا أن الشيطان إنما أراد أن يُخوّف المؤمنين من أوليائه وهم المنافقون والكافرون . وبعض المفَسرين قال : « يخوّف أولياءه » المقصود بهم أن الشيطان يخوّف أولياءه حتى يَجبنوا من القتال ، فنزغ فيهم أنهم إن خرجوا للقتال فقد يموتون . ولكن إن جاز ذلك القول على المنافقين الذين لم يخرجوا مع الرسول لملاقاة المشركين فكيف يجوز ذلك على الصنف الثانى من أوليائه وهم الكفار ؟ إن الكفار قد خرجوا فعلا لقتال المؤمنين . ونفهم من قول الحق : « فلا تخافوهم وخافون » أن أولياء الشيطان ليسوا هم الخائفين ولكنهم هم المخوِّفون : « إنما ذلكم الشيطان يخوِّف أولياءه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين » .

فالحق سبحانه يطلب من المؤمنين أن يصنعوا معادلة ومقارنة ، أيخافون أولياء الشيطان ، أم يخافون الله ؟ ولابد أن يصلوا إلى الخوف من الله القادر على دحر أولياء الشيطان .

ومن بعد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾ ﴾

لقد كان المنافقون فى أول المعركة مُختفين ومستورين ، ثم ظهرت منهم بادرة الانخذال فى أُحُد فكانوا أقرب إلى الكفر منهم إلى الإيمان ، ولكنهم من بعد ذلك سارعوا إلى الكفر ، كأن هناك من يلاحقهم بسوط ليتسابقوا إلى الكفر .

وها هو ذا الحق سبحانه قد حدّد عناصر المعركة ، أو قوى المعركة ، أو ميدان المعركة أو جنود المعركة ، فينبه رسوله : « ولا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر » ولم يقل : لن يضروكم شيئا ؛ لأن الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته المؤمنين ليسوا طرفاً فى المسألة ، فعداء الذين يسارعون فى الكفر هو عداء لله ؛ لذلك يقول الحق : « إنهم لن يضروا الله شيئا » . كأن المعركة ليست مع المؤمنين . ولكنها معركة الكافرين مع الله ، ومادامت المعركة مع الله فالمؤمنون جند الله ؛ وهم الصورة التى أرادها الله لهزيمة الكافرين :

﴿ قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ ﴾

(سورة التوبة)

فلو كانت معركة الكفر مع المؤمنين بالله فقط لقال الله : ولا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر إنهم لن يضروكم شيئا ، لكن المسألة ليست هكذا ، لقد أراد معسكر الكفر والنفاق أن يدخل معركة مع الله ، ولا توجد قوة قادرة على ذلك ، ولهذا يطمئن الله المؤمنين أكثر ، ليزدادوا ثباتاً على الإيمان ؛ لأن الكل من البشر مؤمنين وكفارًا أغيار ، وقد يتحول بعض من البشر المؤمنين الأغيار عن المنهج قليلاً ، فعندما تكون المعركة بين بشر وبشر فقد يغلب أحد الطرفين بقوته .

ومن أجل المزيد من الاطمئنان الكامل نقل الله المعركة مع الكفر إلى مسألة أخرى ، إنه بجلاله وكماله وجبروته هو الذى يقف ضد معسكر الكفار . والمهم فقط أن يظل المؤمنون فى حضانة الله . والرسول كان يحزنه أن يُسارع البعض إلى الكفر . فهل رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يعلم أنه إنما جاء مُبلّغاً فقط ؟ . إنه يعلم ولكنه كان يحرص ـ صلى الله عليه وسلم ـ على أن يؤمن الناس جميعاً ليذوقوا حلاوة ما جاء به ، هذا الحرص هو الذى يدفع الحُزن إلى قلب الرسول ، وعندما يرى

واحداً لا يتذوق حلاوة المنهج ، فالرسول يأمل أن يذوق الناس كلهم حلاوة الإيمان ؛ لأنه صلى الله عليه وسلم رءوف رحيم بالمؤمنين ، بل وبالناس جميعا « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » ودليل ذلك أن جاءه التخيير .

فقد نادى جبريل رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : « إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردّوا عليك ، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم . قال : فناداني ملك الجبال وسلم عليّ ثم قال : يا محمد ، إن الله قد بعثني إليك وأنا ملك الجبال لتأمرني بأمرك فيما شئت ؟ إن شئت أطبق عليهم الأخشبين ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئا »[1]

فالرسول صلى الله عليه وسلم لا يبقى على هؤلاء فقط ولكنه يحرص أيضاً على الأجيال القادمة . وقد كان . وخرج من أولاد كفار قريش صناديد وأبطال وجنود دعوة وشهداء . فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ كما أخبر الله في آيات القرآن ـ يحزن عندما لا يذوق أحد حلاوة الإيمان ، يقول الحق :

﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾ (٦)

(سورة الكهف)

وفي موقع آخر يقول الحق :

﴿ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ (٣) إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴾ (٤)

(سورة الشعراء)

والحق سبحانه وتعالى لا يريد أعناقاً ، لكنه يريد قلوباً تأتى له بعامل الاختيار والمحبة ، فباستطاعته وهو الخالق الأكرم أن يخلق البشر على هيئة غير قابلة للمعصية ، كما خلق الملائكة ، إن كل الأجناس تُسبّح بحمده ، إذن فالقرآن يُبيّن حِرصَه صلى الله عليه وسلم بأن يؤمن الناس جميعاً وأن يذوقوا حلاوة اللقاء بربهم ،

(١) رواه البخاري ومسلم .

واتّباع منهج الله ، وحلاوة التشريع الذى يُسعدهم ويُسعد كل ملكاتهم . فإذا ما جاءت المسائل على غير ما يُحبّ رسول الله . فها هو ذا قول الله سبحانه : « ولا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر » .

وهذا دليل على أن الله يريد أن يُبلّغ البشر : أيهاالناس إن من فَرْط حُبّ الرسول لكم أنه يحزن من أجلِ عِصيانكم وأنا الذى أقول له:لا تحزن . والرسول صلى الله عليه وسلم رحيم بالأمّة كلّها ، كما يقول القرآن :

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾

(سورة الأنبياء)

ويكفيه موقفه صلى الله عليه وسلم يوم القيامة ، حين تذهب كل أمة إلى رسولها نيردّها ، فتأتى الأمم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فُيكرمه الله بقبول شفاعته حتى يُعجّل الله بالفصل والحساب ، وهذه رحمة للعالمين ؛ لأنهم من هول الموقف يتمنون الانصراف ولو إلى النار .

ونحن قلنا سابقا : إن الحق سبحانه وتعالى علم انشغال سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بأمته وبرحمته بهم ، فقال له الله ـ ليريح عواطفه ومواجيده ـ ما ورد هنا فى الحديث الشريف :

فعن عبدالله ابن عمر بن العاص رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم تلا قول الله عز وجل فى إبراهيم : « ربِ إنهن أضللن كثيراً من الناس فمن تبعنى فإنه منى » .

وقول عيسى ـ عليه السلام ـ « إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم » .

فرفع يديه وقال : اللهم أمتى أمتى وبكى ، فقال الله عز وجل : يا جبريل اذهب إلى محمد وربك أعلم فسله ما يُبكيك ؟ فأتاه جبريل عليه الصلاة والسلام فسأله ، فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم بما قال وهو أعلم ، فقال الله : يا جبريل ،

اذهب إلى محمد فقل : (إنا سنرضيك فى أمتك ولا نسوؤك)[١]

ورسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ له موقف آخر يدل على كمال رحمته بأمته ، فقد أنزل الله فيما أنزل من القرآن الكريم ـ بعد فترة الوحى ـ قوله تعالى : (ولسوف يعطيك ربك فترضى) .

انظروا إلى ما ورد عن سيدنا على فى هذه الآية،فقد روىَ أنه ـ رضى الله عنه ـ قال لأهل العراق : إنكم تقولون : إن أرجى آية فى كتاب الله تعالى : (قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا) . قالوا : إنا نقول ذلك،قال : ولكنّا ـ أهل البيت ـ نقول : إن أرجى آية فى كتاب الله قوله تعالى : (ولسوف يعطيك ربك فترضى) . وفى الحديث لما نزلت هذه الآية قال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : (إذا لا أرضى وواحد من أمتى فى النار)[٢] .

كما روى أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : (لكل نبىّ دعوة مستجابه فتعجل كل نبىّ دعوته وإنى اختبأت دعوتى شفاعتى لأمتى يوم القيامة)[٣] .

وهكذا نرى شغل رسول الله بأمته كأمر واضح موجود فى بؤرة شعوره .

إذن فقول الله : « ولا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر » هو توضيح من الله لرسوله بأنهم لم يسارعوا فى الكفر تقصيراً منك ، فأنت قد أديت واجبك ، ويضيف سبحانه : « إنهم لن يضرّوا الله شيئا » ولم يقل سبحانه: إنهم لن يضروك،أولن يضروا المؤمنين ، لا بل لقد جعل سبحانه وتعالى المعركة معه وهو القوى ذو الجبروت إنّه هنا يطمئن المؤمنين .

ويريد الله ألا يجعل للذين يسارعون إلى الكفر حظاً فى الآخرة فيقول : « يريد الله

(١) رواه الأمام مسلم فى صحيحه فى كتاب الايمان .

(٢) من تفسير الإمام القرطبى .

(٣) أخرجه البخارى .

ألا يجعل لهم حظاً فى الآخرة ولهم عذاب عظيم » ومادامت هذه إرادات الله فى ألا يجعل لهم حظاً فى الآخرة ، أيكون لهم عمل يصادم مرادات ربهم ؟ لا .

إنه سبحانه يريد بما شرّع من منهج أن تأتيهم سُنّته ، والله يعذّب من يخالف سُنّته التى شرعها . لأنه جلت قدرته يطلب من المكلفين أن يطبقوا سنته التى شرعها لهم .

وفرق بين وجود « لام العاقبة » التى تأتى حين يكون فى مُراد العبد شىء ، ولكن القُدرة الأعلى تريد شيئاً آخر ، وهى تختلف عن « لام الإرادة » والتعليل فـ « لام الإرادة والتعليل » تتضح فى قولنا : ذاكر التلميذ لينجح ، لأن علّة المذاكرة هى الرغبة فى النجاح ، أما « لام العاقبة » ، فتتضح عندما يقول الأب لابنه : أنا دللتك لترسب آخر العام .

أدللّ الأب ابنه حتى يرسب ؟ لا ، ولكن الأب يأتى هنا بـ « لام العاقبة » أى كان للأب مراد ، ولكن قدرة أعلى جاءت على خلاف المراد .

ونوضح المسألة أكثر ، فالحق يقول فى قصة سيدنا موسى :

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ ﴾

(سورة القصص)

ونحن لابد أن نتنبه إلى قول الحق : « فألقيه فى اليم » والإنسان العادى لو قال لامرأة تحمل رضيعها : إن خفت على ابنك فألقيه فى البحر . هذه المرأة لن تُصدّق هذا القائل ، لكن أم موسى تلقت هذا الوحى من الله ، والتّلقى من الله لا يُصادمه فكر شيطان ولا فكر بشر ، فالإلهام من الله يتجلىّ فى قوله : « وأوحينا إلى أم موسى » .

ومادام الله هو الذى ألهمها ، فإن خاطر الشيطان لا يجىء . ولذلك قامت أم موسى بتنفيذ أمر الله . ويطمئنها الله فقال لها : « ولا تخافى ولا تحزنى إنّا رادوه إليك

وجاعلوه من المرسلين » .

ويُنبّه سُبحانه أم موسى أنه لن يردّه إليها لمجرد أنه قُرة عين ، ولكن لأن لموسى أيضاً مُهمّة مع الله . وفى لقطة أخرى يقول الحق عن مسألة الوحى لأم موسى :

﴿ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴿٣٩﴾ ﴾ (سورة طه)

والحق هنا فى هذه اللقطة يصف وقت تنفيذ العملية التى أوحى بها ، ففيه فرق بين التمهيد للعملية قبل أن تقع كما حدث فى اللقطة السابقة حيث قال لها الحق : « فإذا خفت عليه فألقيه فى اليم » . كان ذلك هو الإعداد ، ثم جاء وقت التنفيذ ، فقال الحق لموسى : « إذ أوحينا إلى أمك ما يوحى » . إنها سلسلة من الأوامر المتلاحقة التى تدل على أن هذه العملية كانت فى وقت أخذ جنود فرعون لأطفال بنى إسرائيل ليقتلوهم ، إنه سبحانه يبين لنا أن جنود الله من الجمادات التى لا تعى تلقت الأمر الإلهى بأن تصون موسى ، فكلمة « اقذفيه » تدل على السرعة ، وتلقّى « اليم » الأمر من الله بأن موسى عندما يُلقى فى البحر ، فلابد أن يلقيه إلى الساحل . « إذ أوحينا إلى أمك ما يوحى أن اقذفيه فى التابوت فاقذفيه فى اليم فليلقه اليم بالساحل » إنها أوامر للمُسخّر من المخلوقات التى لا تعصى .

لكن كيف تكون أوامر الحق لعدو لله ؟ إن الله يدخلها كخاطر مُلحّ فى رأس فرعون ليُنفّذ مُراد الله . إن امرأة فرعون تقول له ما جاء فى قوله تعالى :

﴿ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ ﴾

(سورة القصص)

لقد دخل أمر الله كخاطر ، والتقطه آل فرعون لا ليكون قرة عين لامرأة فرعون ، ولكن لأمر مختلف أراده الله . فهل ساعة الالتقاط كان فى بالهم أن يكون موسى عدوّاً

أو قرة عين ؟ إنها « لام العاقبة » التى تتضح فى قوله : « ليكون لهم عدوّا وَحَزَنا » . فالإنسان يكون فى مُراده شىء ، ولكن القدرة الأعلى من الإنسان ـ وهو الله ـ تريد شيئاً آخر .

الإنسان فى تخطيطه أن يقوم بالعملية لكذا ، ولكن القوة الأعلى من الإنسان تريد العملية لهدفٍ آخر ، وهى التى أوحت للإنسان أن يقوم بهذه العملية . ويتجلّى ذلك بوضوح فى العلة لالتقاط آل فرعون لموسى . كان فرعون يريده قُرّة عين له ، ولكن الله أراده أن يكون عدوّاً لفرعون . وفى هذا المثال توضيح شامل للفرق بين « لام العاقبة » و« لام الإرادة والتعليل » وعندما نرى أحداثاً مثل هذه الأحداث فلا نقول : « هذا مراد الله » ولكن فلنقل : (العاقبة فيها فعلوا وأحدثوا خلاف ما خططوا) .

وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَـٰنِ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾ ﴾

إنهم لن يضروا الرسول وصحابته لأنهم فى معيّة الله ، وهم لن يضرّوا الله ، وفى ذلك طمأنة للمُؤمنين ، كأن الحق سبحانه وتعالى يقول : أيها المؤمنون بى المصدّقون بمحمدّ إن المعركة مع الكفر ليست معركة المؤمنين مع الكافرين ، ولكنها معركة ربكم مع هؤلاء الكافرين . وفى هذا اطمئنان كبير .

« إن الذين اشتروا الكفر بالإيمان » ، و« الاشتراء » صفقة ، والصفقة تقتضى « ثمناً » و« مُثمناً » . و« الثمن » هنا هو الإيمان ، لأن الباء تدخل على المتروك ، و« المثْمَن » هو الكفر لأنه هو المأخوذ . فهل أخذوا الكفر ودفعوا الإيمان ثمناً له ؟

وهل معنى ذلك أن الإيمان كان موجوداً لديهم ؟

نعم كان عندهم الإيمان ؛ لأن الإيمان القديم هو إيمان الفطرة وإيمان العهد القديم الذى أخذه الله على الذّر قبل أن توجد فى الذّر الأغيار والأهواء :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

أو على الأقل كان الإيمان والكفر فى متناولهم ؛ بانضباط قانون الاختيار فى النفس البشرية ، لكنهم أخذوا الكفر بدل الإيمان . والبدلية واضحة ، فقد استبدلوا الكفر بالإيمان ، فالباء ـ كما قلت ـ دخلت على المتروك . لقد تركوا الإيمان القديم وهو إيمان الذّر ، أو تركوا إيمان الفطرة فالحديث الشريف يقول :

« كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهوّدانه أو ينصرانه أو يمجّسانه »[1] .

لقد انسلوا من الإيمان ، ودفعوه ثمناً للكفر ، فعندما يأخذ واحد الكفر ، فهو قد أخذ الكفر بدلاً من الإيمان وهم « لن يضرّوا الله شيئا ولهم عذاب أليم » لماذا ؟ لأننا إن افترضنا أن الدنيا كلها قد آمنت فهذا لن يُفيد الله فى شيء . والحديث القدسى يقول :

قال الله تعالى : (يا عبادى إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته محرما بينكم فلا تظالموا ، يا عبادى كلكم ضال إلا من هديته فاستهدونى أهدكم ، يا عبادى كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعمونى أطعمكم ، يا عبادى كلكم عارٍ إلا من كسوته فاستكسونى أكسُكم ، يا عبادى إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعا ، فاستغفرونى أغفر لكم ، يا عبادى إنكم لن تبلغوا ضُرِّى فتضرونى ولن تبلغوا نفعى فتنفعونى ، يا عبادى لو أن أولَكم وآخرَكم وإنسَكم وجنَّكم كانوا على

(١): رواه البخارى .

أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك فى ملكى شيئا ، يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكى شيئا ، يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا فى صعيد واحد فسألونى فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك مما عندى إلا كما ينقص المخْيَطُ إذا أُدْخل البحر ، يا عبادى إنما هى أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها ، فمن وجد خيرا فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومنّ إلا نفسه)[1] .

إذن ، فلا الإيمان من البشر يزيد الله شيئاً ، ولا الكفر ينقص من الله شيئاً ؛ لأن الإنسان قد طرأ على ملك الله . ولم يأت الإنسان فى ملك الله بشىء زائد ، فالإنسان صنعه الله وخلقه من عناصر ملكه ـ جلت قدرته ـ ويستمر الحديث فى توضيح أنّ الحق سبحانه لا يعالج شيئاً بيديه فيأخذ منه زمناً . لا ، إنه سبحانه جلّت مشيئته يقول للشىء : كُن ، فيكون .

وكلمة « كُن » نفسها هى أقصر أمر . إنّ أمره ألطف وأدق من أن يدركه على حقيقته مخلوق . لكن الحق يأتى لنا بالصورة الخفيفة التى تجعل بشريتنا تفهم الأمر . فالذين اشتروا الكفر بالإيمان لن يضرّو الله شيئاً ولهم عذاب أليم . فهم لن يعيشوا بِنَجْوَةٍ وبُعد عن العذاب ، بل سيكون لهم العذاب الأليم .

ونحن نجد أن الحق يقول مرة فى وصف مثوى الكافرين إنه عذاب اليم ، ومرة أخرى لهم عذاب عظيم ومرة عذاب مهين ، لماذا ؟

لأن العذاب له جهات متعددة ، فقد يُوجد عذابٌ مؤلم ، ولكن المُعَّذب يتجلد أمام من يُعذبّه ويُظهر أنه مازال يملك بقيّة من جَلَد ، إنه يتألم لكنه يستكبر على الألم ، ولَذلك قال الشاعر :

وَتجـلّدى لـلشـامـتـين أُريهـمـو
أنى لِرَيْب الـدهـر لا أتضـعـضـعُ

(١) رواه مسلم بسنده عن أبى ذر .

فالتجلّد هو نوع من الكبرياء على الواقع . ولذلك يأتى من بعد ذلك قوله الحق إن لأمثال هؤلاء عذاباً مهيناً ، أى إنهم سيذوقون الذّل والألم ، ولا أحد فيهم يستطيع التجلّد . وهذا النوع من العذاب لا يقف فقط عند حدود الألم العادى ، ولكنه عذاب عظيم فى كمّيته وقدره ، وأليم فى وقعه . ومهين فى إذلال ودكّ النفس البشرية وغُرورها ؛ لذلك فعندما نجد أن العذاب الذى أعده الله للكافرين موصوف بأنه « عذاب أليم » ومرة « عذاب عظيم » ومرة « عذاب مهين » فلنعرف أن لكل واحدة معنى ، فليست المسألة عبارات تقال هكذا بدون معنى مقصود .

وأريد أن أقف هنا فى هذا الحديث عند « لام العاقبة » لأن البعض يحاول أن يخلق منها إشكالات إنّ هؤلاء المتربصين لكلام الله يحاولون النيل منه ، وهم لا يبحثون إلا فيما يتوهّمون ـ جهلاً ـ أنه نقاط ضعف ، وهو سبحانه وتعالى يقول عن الكفار والعياذ بالله وهم فى النار :

﴿ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾

(سورة المؤمنون)

لقد انشغل الكفار بالسّخرية من أهل الإيمان بإشاراتٍ أو لمزٍ وغمزٍ أو اتهام بالرجعية أو الدروشة أو مثل ذلك من ألوان السّخرية ، لدرجة أنهم نسوا مسألة الإيمان ، فما الذى أنساهم ذكر الله ؟ لقد أنساهم ذكر الله انشغالهم بالسّخرية من أهل الإيمان .

لقد قضى الكفار وقتهم كله للسّخرية من أهل الإيمان حتى نسوا ولم يتذكروا أن هناك خالقا للكون . وهذا ما يسمى « غاية العاقبة » وليست غاية وعلة للإرادة ، لأنهم لم يريدوا نسيان ذكر الله ولكن أمرهم انتهى إلى ذلك .

وسيُعذّب الله الكافرين عذاباً أليماً وعظيماً ومُهيناً . ولكل وصف مراده فى النص

حتى يستوعب كل حالات الإهانة من إيلام ، فالذى لا يألم بشيء صغير ولا يتحمل الألم القوى سيجد الألم الكبير ، وكذلك الذى يتجلد على الألم العظيم ، سيجد الألم المهين .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾ ﴾

وعندما نسمع قول الله : « ولايحسبن » فهو نهى ، وقد نهى الله الكافرين عن ماذا ؟ إن الكافر عندما يجد نفسه قد أفلت فى المعركة من سيف المؤمنين وأن عمره قد طال فى الكفر ، فهو يظن أن الحق سبحانه وتعالى تركه لخير له ؛ لأنه يفهم أن عمره هو أثمن شيء عنده ، فمادام قد حوفظ له على عمره فهو الخير . نقول لمثل هذا الكافر : إن العمر زمن ، والزمن وعاء الأحداث ، إذن فالزمن لذاته لا يُمجد إلا بالحدث الذى يقع فيه ، فإن كان الحدث الذى يقع فى الزمن خيراً ؛ فالزمن خير . وإن كان الحدث الذى يقع فى الزمن شراً ؛ فالزمن شر ، ومادام هؤلاء كافرين ، فلابد أن كل حركاتهم فى الوجود والأحداث التى يقومون بها هى من جنس الشر لا من جنس الخير ، لأنهم يسيرون على غير منهج الله . وربما كانوا على منهج المضادة والمضارة لمنهج الله .

وذلك هو الشر . إذن فالله لا يملى لهم بقصد الخير ، إنما يملى الله لهم لأنهم ماداموا على الكفر فهم يشغلون أوقات أعمارهم بأحداث شرّية تخالف منهج الله . وكل حدث شرّى له عذابه وجزاؤه . إذن ، فإطالة العمر لهم شر .

والحق سبحانه يقول : « ولا يحسَبَنّ الذين كفروا أنما نملى لهم خير لأنفسهم » و« يحسَبَنّ » هى فعل مضارع ، والماضى بالنسبة له هو « حسِب » - بكسر السين - ولذلك قال الحق سبحانه فى موقع آخر من القرآن الكريم :

﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ ﴾

(سورة العنكبوت)

إن الماضى هو « حَسِبَ » - بكسر السين - والمضارع « يحسَب » - بفتح السين - . أما حَسَبَ « يحسِب » - بكسر السين - فى المضارع وفتحها فى الماضى فهى من الحساب والعدد ، وهو عدد رقمى مضبوط .

أمر « حَسِبَ » و« يحسَب » فتأتى بمعنى الظن ، والظن كما نعرف أمر وهمى ، والحق سبحانه يذكرهم أن ظنونهم بأن بقاء حياتهم هو خير لهم ليست حقاً . بل هى حدس وتخمين لا يرقى إلى اليقين .

صحيح أن العمر محسوب بالسنوات ؛ لأن العمر ظرف للأحداث ، والعمر بذاته - مجرداً عن الأحداث - لا يقال إن إطالته خير أو شر ، وإنما يقال : إن العمر خير أو شر بالأحداث التى وقعت فيه ، والأحداث التى تقع من الكافر تقع على غير منهج إيمانى فلا بد أن تكون شراً ، حتى ولوفعل ما ظاهره أنه خير فإنه يفعله مضارة لمنهج الله . فلو كانت المسألة بالعملية الرقمية ؛ لقلنا:« حسَب » و« يحسِب » - بفتح السين فى الماضى وكسر السين فى المضارع - لكن هى مسألة وهمية ظنية ؛ لذلك نقول: « يحسَب » - بفتح السين فى المضارع - أى يظن . وهو سبحانه يقول : « إنما نملى لهم » . ما الإملاء ؟ الإملاء هو تمديد الوقت وإطالته . ولذلك نجد فى القرآن :

﴿ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ ﴾

(سورة مريم)

إنه يأمر سيدنا إبراهيم أن يهجره مدة طويلة . هذا هو معنى « واهجرنى مليا » .

والمقصود هنا أن إطالة أعمارهم بعد أن أفلتوا من سيوف المؤمنين . ليست خيراً لهم ولا يصح أن يظنوا أنها خير لهم ، لأن الله إنما يملى لهم ؛ « ليزدادو إثماً ولهم

عذاب مهين » وهنا نجد « لام العاقبة » .

وإياك أن تقول أيها المؤمن : إن الله قد فعل ذلك ليعاقبهم . لا ؛ لأن الله سبحانه وتعالى قد وضع سننه فى الكون ويطبقها على من يخرج على منهجه،فمن يصنع إثماً يعاقبه الله عليه « إنما نملى لهم ليزدادوا إثماً » فكل ظرف من الزمن يمر عليهم يصنعون فيه أعمالاً آثمة على غير المنهج .

« ولهم عذاب مهين » وتأتى كلمة « مهين » وصفاً للعذاب مناسبة تماماً ؛ لأن الكافر قد يخرج من المعركة وقد تملكه الزهو والعجب بأن أحداً لم يستطع أن يقطّع رقبته بالسيف ، ويتيه بالعزة الآثمة ، لذلك فالإيلام هنا لا يكفى ،لأنه قد يكتم الألم ويتجلد عليه ، ولكن العذاب عندما يكون مهيناً فهو العقاب المناسب لمثل هذا الموقف . والمتكلم هنا هو الله ، وسبحانه العليم بالمناسب لكل حال .

ومن بعد ذلك يقول الحق :

﴿ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾ ﴾

وساعة نسمع « ما كان » فلنعرف أن هنا « جحوداً » أى أن هناك من يجحد القضية . ويسمونها « لام الجحود » . فقبل حادثة أُحُد ، كان المنافقون متداخلين مع

المؤمنين . أكان الله يترك الأمر مختلطاً هكذا ، ولا يُظهر المنافقين بأحداث تبين مواقعهم الحقة من الإيمان ؟ لا ، إنه سبحانه وتعالى لا يقبل ذلك ؛ حتى لا يظل المنافقون دسيسة في صفوف المؤمنين . وكان لابد أن تأتى الأحداث لتكشفهم . وجاءت أحداث أُحُد لتهيج الصف المنسوب إلى الإيمان ، وتفرزه ليتميز الخبيث من الطيب ، مصداقاً لقوله الحق :

﴿ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾

(من الآية ١٧ سورة الرعد)

إذن كانت أحداث أُحُد ضرورية .

وقوله الحق : « ما كان الله ليذر المؤمنين » مقصود بها أن الله لم يكن ليدع المؤمنين ويتركهم عرضة لاختلاط المنافقين بهم بدون أن يتميز المنافقون بشيء من الأشياء ، حتى لا تظل المسألة مقصورة على ما يُعلمه الله لرسوله من أمر المنافقين . فلو أعلم الله رسوله فقط بأمر المنافقين ، ولو أعلن الرسول ذلك للمؤمنين دون اختبار واقعى للمنافقين لكان ذلك مجرد تشخيص نظرى للنفاق يأتى من جهة واحدة ، وأراد الله أن تأتى حادثة واضحة وتجربة معملية واقعية تبين وتظهر الواقع ، حتى ينكشف المنافقون ، وحتى لا يعترض أحد منهم عندما يوصف بأنه منافق ، وحتى لا يكون هذا الوصف مجرد كلام من الخصم ، بل بفعل ارتكبوه هم عملياً ، وبذلك تكون الحجة قوية للغاية .

لقد كان المنافقون أسبق الناس إلى الصفوف الأولى فى الصلاة ؛ لأن كل منافق منهم أراد أن يَحبك مسألة نفاقه ، ويُواريه ، فيحرص على ما يندفع المؤمنون إليه ، والمنافق كان يعرف أن المؤمنين يتسابقون إلى الصلاة ، فهو يسارع ليكون فى الصف الأول من الصلاة . ويخبر الله سبحانه وتعالى رسوله :

﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٠﴾ ﴾

(سورة محمد)

أى لو لاحظت كلامهم لعرفتهم ، مثلهم مثل كل المنافقين فى الدنيا ، تلاحظ فى كلامهم لقطة من نفاق ؛ فالمؤمن حين يجلس مع جماعة من المنافقين ويأتى وقت صلاة الظهر ويدعو الأذان إلى الصلاة ، تجد المؤمن يقول : فلنقم إلى الصلاة ، وهنا يسخر المنافق ويقول للمؤمن : لتأخذنى على جناحك للجنة يوم القيامة . ومثل هذه الكلمة يكون « لحن القول » . أو عندما يدخل مؤمن على جماعة من الناس فيهم منافق ، فيستقبل المنافق المؤمن بلهجة من السخرية فى التحية ، « كيف حالك أيها الشيخ (فلان) » ؟ ومعنى ذلك أنه غير مستريح لوجود المؤمن فيسخر منه .

وذلك من « لحن القول » الذى يظهر به المنافق .

ومثل هذه العمليات عندما يواجهها المؤمن الواعى المستنير الذى يتجلّى الله عليه بالإشراقات النورانية ، مثل هذه العمليات تكون وقوداً للمؤمن وتزيد من إيمانه ؛ لأن المؤمن على منهج الحق ، وقادر على نفسه ، هذا ما يغيظ المنافق كثيراً ؛ فالمنافق يتساءل بينه وبين نفسه : لماذا يقدر المؤمن على نفسه ؟ والمنافق لا يقدر على نفسه ؛ لذلك يريد أن يسحب المؤمن من عقيدته ليكون معه على النفاق والعياذ بالله . وعلى المؤمن أن يوطن نفسه على أنه سيواجه منافقين يريدون أن يردوه عن الإيمان ، وسيجد أناساً يسخرون منه ويتغامزون عليه ، مصداقاً لقوله الحق :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمۡ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوۡهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرۡسِلُواْ عَلَيۡهِمۡ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾

(سورة المطففين)

والمنافق أو الكافر قد يقول لأهله : لقد رأيت اليوم شيخاً أو رجل دين أومتدينا فسخرت منه وأهنته ويتندر المنافق بمثل هذا القول فى بيئته الفاسدة ، ويكشفها الحق لنا بقوله الكريم . ليطمئن المؤمنين ، ويعوض كل مؤمن عما يصيبه من أهل النفاق والفساد :

﴿ فَالْيَوْمَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى الْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾

(سورة المطففين)

فالحق سبحانه يسأل المؤمنين يوم القيامة : هل قدرنا أن نجازى الكفار والمنافقين الذين سخروا منكم ؟ فيقولون : نعم يارب العالمين قد جوزوا وأثيبوا على فعلهم أوفى الجزاء وأتمه وأكمله .

إن سخرية المنافقين والكافرين من المؤمنين لها أمد دنيوى ينقضى ، ولكن السخرية فى الآخرة لا تنقضى أبداً . وعندما نقيسها نحن المؤمنين ، نجد أننا الفائزون الرابحون إن شاء الله . فلو ترك أى منافق ليتداخل فى أحضان المؤمنين ، ولا يظهر ذلك للمؤمنين لكانت المسألة صعبة العلاج ، ولهذا يقول الحق للرسول صلى الله عليه وسلم :

﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ الْقَوْلِ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٠﴾ ﴾

(سورة محمد)

والحق لا يكتفى بذلك ، لكنه يكشف لنا واقع المنافقين بتجارب معملية حتى لا يقول واحد منهم : لست منافقاً . وعندما يظهر الله المنافق ويكشفه بحادثة مدوية فعلية ، ومخجلة تبين أنه منافق ، فيكون قد وُصم بالنفاق ، لأن كثيراً من الناس الذين يظلون طوال عمرهم ينافقون اعتماداً على أنهم مسلمون فى الظاهر لا يتركهم الله ، بل لابد أن يأتى الله لهم بخاطر من الخواطر ويقعوا فى فخ اكتشاف المؤمنين لهم حتى يعرفهم المؤمنون ويقيّموهم على حقيقتهم ، فسبحانه وتعالى القائل :

« ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب » .

وكلمة « يذر » تعنى « يترك » أو « يدع » . والدارسون للنحو يعرفون أن هناك فعلين هما « يذر » و« يدع » ، أهملت العرب الفعل الماضى لهما ، فهذان الفعلان

ليس لها فعل ماضٍ . ونستخدمها فى صيغة المضارع .

والحق سبحانه لم يكن ليدع المؤمنين على ما هم عليه من الاختلاط واندساس المنافقين بينهم وعدم معرفة المؤمنين للمنافقين ، لذلك يميز ويظهر الخبيث من الطيب . فلا يكتفى بإخبار النبى بأمر الخبثاء فقط ، ولكنه يكشف الخبثاء بفعل واقعى . فيقول : « وما كان الله ليطلعكم على الغيب » ؛ لأن الله لو أطلعكم على الغيب لتعرفوا المنافقين لأنكروا أنفسهم منكم وستروها عنكم ، ولذلك يجرى سبحانه الوقائع لتكشف الخبيث من الطيب ، وبعد ذلك يوصم المنافق بالنفاق بإقرار نفسه وإقرار فعله .

« وما كان الله ليطلعكم على الغيب ولكن الله يجتبى من رسله من يشاء » . إنه جلّ وعلا يختار من رسله من يشاء ليطلعهم على بعض الغيب حتى يزدادوا ثقة فى أن الله لا يتخلّى عنهم ، أى يعطى للرسول دلالات على المنافقين ، حتى يزداد الرسول ثقة فى أن الله لا يتخلّى عنه .

والله برحمته لا يكشف الغيب لكل المؤمنين ، فلو اطلع المؤمن على الغيب لفسدت أمور كثيرة فى الكون . وَهَبْ أن الله أطلع الإنسان على غيب حياته ، فعرف الإنسان ألف حادثة سارة ثم حادثة واحدة مكدرة ؛ فإن كدر الإنسان بالحادثة الواحدة المكدرة التى تقع بعد عشرين عاماً يفسد على الإنسان تنعمه بالأحداث السارة .

وإن كان الإنسان يريد أن يطلع على غيب الناس فهل يقبل أن يطلع على غيبه أحد ؟ فلماذا تريد أيها الإنسان أن تعرف غيب غيرك ؟ أيرضى أى واحد منا أن يعرف الناس غيبه ؟ لا . إذن فستر المعلومات عن الناس وجعلها غيباً هى نعمة كبرى .

ومع ذلك فالناس تُلح أن تعرف الغيب . ونرى من يجرى على الدجالين والعرافين ومن يدعون كذباً أنهم أولياء لله ، وكل ذلك من أجل أن يعرف الواحد بعضاً من الغيب . وهنا نقول : ليست مهارة العارف فى أن يقول لك ماذا سيحدث لك فى المستقبل ، لكنها فى أن يقول واحد من هؤلاء المدّعين لمعرفة الغيب : إن حادثاً مكروهاً سيقع لك ، وسأمنعه أو أدفعه بعيداً عنك . لا أحد يستطيع دفع قدر الله ،

ولذلك فلنترك المستقبل إلى أن يقع . لماذا ؟ . حتى لا يحيا الواحد منا فى الهم والحزن قبل أن يقع . إذن فقول الحق : « وما كان الله ليطلعكم على الغيب » هو سنة من الله لأن نظام الملك ينتظم بها ويحتاج إليها .

فكل إنسان له هزات مع نفسه ، وقد تأتى له فترة يضعف فيها فى شىء من الأشياء ، فإذا ما عرف الغير منطقة الضعف فى إنسان ما ، وعرف هذا الإنسان منطقة الضعف فى أخيه ، فلسوف يبدو كل الناس فى نظر بعضهم بعضا ضعافاً . ومن فضل الله أن أخفى غيب الناس عن الناس . وجعل الله إنساناً ما قوياً فيما لا نعلم ، وذلك قويًا فيما لا نعلم ، وبذلك تسير حركة الحياة بانتظامها الذى أراده الله .

« وما كان الله ليطلعكم على الغيب ولكن الله يجتبى من رسله من يشاء » والحق يجتبى من الرسل ، أى بعضاً من الرسل ـ لا كل الرسل ـ ليطلعهم على الغيب حتى يعطى لهم الأمان بأنهم موصولون بمن أرسلهم ، فهو سبحانه لم يرسلهم ليتخلى عنهم ، لا ، إنهم موصولون به؛لذلك يطلعهم على الغيب ، وقلنا : إن الغيب أنواع : فمطلق الغيب : هو ما غاب عنك وعن غيرك . ولكنّ هناك غيباً غائباً عنك وهو معلوم لغيرك ، وهذا ليس غيباً .

مثال ذلك إن ضاعت من أحدكم حافظة نقوده ، وسارقها غيب ، ومكانها غيب عن صاحبها ، لكن الذى سرقها عارف بمكانها ، إذن فهذا غيب على المسروق ، ولكنه ليس غيباً على السارق . إنه ليس غيباً مطلقاً ، وهذا ما يضحك به الدجالون على السذج من الناس ، فبعض من الدجالين والمشعوذين قد يتصلون بالشيطان أو الجن ؛ ويقول للمسروق حكاية ما عن الشىء الذى سُرق منه وهؤلاء المشعوذون لا يعرفون الغيب ؛ لأن الغيب المطلق هو الذى لا يعلمه أحد ، فقد استأثر به الله لنفسه .

ومثال آخر : الأشياء الابتكارية التى يكتشفها البشر فى الكون ، وكانت سراً ولكن الله كشف لهم تلك الأشياء ، وقد يتم اكتشافها على يد كفار أيضاً . فهل قال

أحدٌ:إنهم عرفوا غيباً ؟ لا ؛ لأن لمثل هذا الغيب مقدمات ، وهم بحثوا فى أسرار الله ، ووفقهم سبحانه أن يأخذوا بأسبابه ما داموا قد بذلوا جهداً ، والله يعطى الناس ـ مؤمنهم وكافرهم ـ أسبابه . وماداموا يأخذون بها فهو يعطيهم المكافأة على ذلك . ولله المثل الأعلى ، وسبحانه منزه عن كل تشبيه ، أقول لكم هذا المثل للتقريب :

المدرس الذى يعطى تمرين هندسة للتلميذ ليقوم بحله ، فهل مجىء الحل غيب ؟ لا ؛ لأن التلميذ يعرف كيف يحل التمرين الهندسي ؛ لأن فيه المعطيات التى يتدبر فيها بأسلوب معين فتعطى النتيجة . ومادام التلميذ يخرج بنتيجة لتمرين ما بعد معطيات أخذها ، فذلك ليس غيباً .

ولذلك فعلينا أن نفطن إلى أن الغيب هو ما غاب عن الكل ، وهذا ما استأثر الله بعلمه وهو الغيب المطلق ، وهو سبحانه وتعالى يطلع عليه بعضاً من خلقه من الرسل ، وهو سبحانه القائل :

﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ ﴾

(سورة الجن)

وأما الأمر المخفى فى الكون ، وكان غيباً على بعض من الخلق ثم يصبح مشهداً لخلق آخرين فلا يقال إنه غيب ، وعرفنا ذلك أثناء تناولنا بالخواطر لآية الكرسى :

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾ ﴾

(سورة البقرة)

إن الحق سبحانه قد نسب هنا الإحاطة للبشر ، ولكن بإذن منه ، فهو يأذن للسر أن يولد ، تماماً كما يوجد للإنسان سلالات ولها أوقات معلومة لميلادها ، كذلك أسرار الكون لها ميلاد . وكل سر فى الكون له ميلاد ، هذا الميلاد ساعة يأتى ميعاده فإنه يظهر ، ويحيط به البشر . فإن كان العباد قد بحثوا عن السر وهم فى طريق المقدمات ليصلوا إليه ووافق وصولهم ميعاد ميلاده ؛ يكونوا هم المتكشفين له . وإن لم يحن ميعاد ميلاد هذا السر فلن يتم اكتشافه . وإذا حان ميلاد السر ولم يوجد عالم معملى يأخذ بالأسباب والمقدمات فالله يخرج هذا السر كمصادفة لواحد من البشر . وحينئذ يقال :إن هذا السر قد ولد مصادفة من غير موعد ولا توقع .

وأسرار الله التى جاءت على أساسها الاكتشافات المعاصرة ، كثير منها جاء مصادفة . فالعلماء يكونون بصدد شىء ، ويعطيهم الله ميلاد سر آخر . إذن فليس كل اكتشاف ابناً لبحث العلماء فى مقدمات ما ، ولكن العلماء يشتغلون من أجل هدف ما ، فيعطيهم الله اكتشاف أسرار أخرى ؛ لأن ميلاد تلك الأسرار قد جاء والناس لم يشتغلوا بها . ويتكرم الله على خلقه ويعطيهم هذه الأسرار من غير توقع ولا مقدمات .

ويستمر سياق الآية « فآمنوا بالله ورسله وإن تؤمنوا وتتقوا فلكم أجر عظيم » وهو سبحانه يخاطب المؤمنين . والحق سبحانه وتعالى إذا خاطب قوماً بوصف ، ثم طلب منهم هذا الوصف فما معناه ؟. ومثال ذلك قول الحق سبحانه :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ ﴾

(من الآية ١٣٦ سورة النساء)

إنهم مؤمنون ، والحق قد ناداهم بهذا الوصف . معنى ذلك أنه يطلب منهم الالتزام بمواصفات الإيمان على مر الأزمان ، لأن الإيمان هو يقين بموضوعات الإيمان فى ظرف زمنى ، والأزمان متعاقبة لأن الزمن ظرف غير قارٍ . و« غير قارٍ » تعنى أن الحاضر يصير ماضياً ، والحاضر كان مستقبلاً من قبل . فالماضى كان فى البداية مستقبلاً ، ثم صار حاضراً ، ثم صار ماضياً . والزمن « ظرف » ، ولكنه ظرف غير قار . . أى غير ثابت . لكن المكان ظرف ثابت قار . فكأن الله يخاطبك : إن الزمن الذى مر قبل أن أخاطبك شُغِل بإيمانك ، والزمن الذى يجىء أيضاً اشغله بالإيمان .

إذن معنى ذلك : يا أيها الذين آمنوا داوموا على إيمانكم . « وإن تؤمنوا وتتقوا فلكم أجر عظيم » ولنا أن نتصور عظمة عطاء الحق ، فالمنهج الإيماني يعود خيره على من يؤديه ، ومع ذلك فالله يعطى أجراً لمن اتبع المنهج . إذن فعندما يضع الحق سبحانه وتعالى منهجاً فإنه قد فعله لصالح البشر وأيضاً يثيبهم عليه ، وهو يقول :

﴿ فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ ﴾

(سورة طه)

إن المتَّبع للمنهج يأخذ نفعه ساعة تأدية هذا المنهج . ويزيد الله فوق ذلك أنه سبحانه يعطى المتبع للمنهج أجراً ، وهذا محض الفضل ، وقلنا من قبل : إن العمر الذى يمده الله للكافرين والمنافقين ليس خيراً . إذن فعلى الناس أن يأخذوا المسائل والأزمنة بتبعات وآثار ونتائج ما يحدث فيها .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾ ﴾

لقد ظن بعض من المنافقين والكفار أن طول العمر ميزة لهم ، وها نحن أولاء بصدد قوم آخرين ظنوا أن المال الذى يجمعونه هو الخير فكلما زاد فرحوا . فيقول الحق : « ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله » . فالمال قد جاءهم من

فضل الله ، ذلك بأنهم دخلوا الدنيا بغير جيوب . ولا أحد فينا قد رأى كفناً له جيوب . ولا أحد فينا قد رأى قماط طفل وليد له جيوب . فالإنسان يدخل الدنيا بلا جيب ، ويخرج بلا جيب . وكل ما يأتى للإنسان هو من فضل الله ، فلا أحد قد ابتكر الاشياء التى يأتى منها الرزق . ويمكن أن تبتكر من رزق موجود . فتطور فى الوسائل والأسباب وللإنسان جزء من الحركة التى وهبها الله له ليضرب فى الأرض ، ولكن لا أحد يأتى بأرض من عنده ليزرع فيها ، ولا أحد يأتى ببذور من عنده لم تكن موجودة من قبل ويزرعها ، ولا أحد يأتى بماء لم يوجد من قبل ليروى به ، فالأرض من الله ، والبذور عطاء من الله ، والماء من رزق الله ، وحتى الحركة التى يتحرك بها الإنسان هى من فضل الله .

فبالله لو أراد إنسان أن يحمل الفأس ليضرب فى الأرض ضربة ، فهل يعرف الإنسان كم عضلة من العضلات تتحرك ليرفع الفأس ؟ وكم عضلة تتحرك حين ينزل الفأس ؟!!

وعندما يضرب الإنسان الفأس . فهو يضربها فى أرض الله . والذى أراد لنفسه فأساً فإنه يذهب إلى الحداد ليصنعها له ، لكن هل سأل الإنسان نفسه من أين أتى الحديد ؟ وفى هذه قال الحق :

﴿ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَـٰفِعُ لِلنَّاسِ ﴾

(من الآية ٢٥ سورة الحديد)

إذن فماذا تُوجد أنت أيها الإنسان ؟

أنت تأخذ المواد الخام الأولية من عند الله ، وتبذل فيها الحركة الممنوحة لك من الله ، وأنت لا توجد شيئاً من معدوم ؛ بل إنك توجد من موجود ، فكل شىء من فضل الله . وأنت أيها الإنسان مضارب فى كون الله . فعقلك الذى يفكر ، من الذى خلقه ؟ إنه الله . وجوارحك التى تنفعل للعقل من الذى خلقها ؟ إنه الله .

وجوارحك تنفعل فى منفعل هو الأرض ، بآلة هى الفأس ، ثم ترويها بماء هو

نازل من السماء . فما الذى هو لك أيها الإنسان ؟ إن عليك أن نعرف أنه ليس لك شيء فى كل ذلك ، إنما أنت مضارب لله . فلتعطه حق المضاربة .

والحق سبحانه لا يطلب إلا قدراً بسيطاً من نتاج وثمرة الأرض . . إن كانت تروى بماء السماء فعليك عشر نتاجها . وإن كانت الأرض تروى بآلة الطنبور أو الساقية فعليك نصف العشر .

والذى يزرع أرضا فإنه يحرثها فى يوم ، ويرويها كل أسبوعين .

أما الذى يتاجر فى صفقات تجارية فهى تحتاج إلى عمل فى كل لحظة ، ولذلك فإن الحق قدّر الزكاة عليه بمقدار اثنين ونصف بالمائة . إذن فكلما زادت حركة الإنسان قلل الله قدر الزكاة . وهذه العملية على عكس البشر . فكلما زادت حركته . فإنهم يأخذون منه أكثر ! !

والله سبحانه يريد أن توجد الحركة فى الكون ؛ لأنه إن وجدت الحركة فى الكون انتفع الناس وإن لم يقصد التحرك . وبعد ذلك فأين يذهب الذى يأخذه الله منك ؟ . إنه يعطيه لأخ لك ولغيره . فمادام سبحانه يعطى أخاً لك وزميلاً لك من ثمرة ونتيجة حركتك ، ففى هذا اطمئنان وأمان لك ، لأن الغير سيعطيك لو صرت عاجزاً غير قادر على الكسب . وفى هذا طمأنينة لأغيار الله فيك . فإن جاءت لك الأغيار فستجد أناساً يساعدونك ، وبذلك يتكاتف المجتمع ، وهذا هو التأمين الاجتماعى فى أرقى معانيه . أليس التأمين أن تعطى وأنت واجد وأن تأخذ وأنت فاقد ؟ . إذن فهذا كله من فضل الله .

« ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم بل هو شر لهم » إن الذين يبخلون بفضل الله يظنون أن البخل خير لمجرد أنه يكدس عندهم الأموال ، وليس ذلك صحيحاً ؛ لأن الحق يقول : « سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة » أى أن ما بخلوا به يصنعه الله طوقاً فى رقبة البخيل ، وساعة يرى الناس الطوق فى رقبة البخيل يقولون : هذا منع حق الله فى ماله .

والرسول صلى الله عليه وسلم يصور هذه المسألة تصويراً دقيقاً حين يبين لنا أن من يُطلب منه حق الله ولم يؤده ، يأتى المال الذى منعه وضن وبخل به يتمثل لصاحبه يوم القيامة « شجاعاً أقرع » وهو ثعبان ضخم ، ويطوق رقبته . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من آتاه الله مالاً فلم يؤد زكاته مُثِّلَ له شجاعا أقرع له زبيبتان يطوقه يوم القيامة يأخذ بلهزمتيه ـ يعنى شدقيه-يقول : « أنا مالُك أنا كنزك » ثم تلا قوله تعالى : « ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله » إلى آخر الآية[1] .

إذن فالذى يدخر بخلاً على الله فهو يزيد من الطوق الذى يلتف حول رقبته يوم القيامة .

« ولله ميراث السماوات والأرض والله بما تعملون خبير » نعم فلله ميراث السماوات والأرض ، ثم يضعها فيمن يشاء ، فكل ما فى الكون نسبته إلى الله ، ويوزعه الله كيفما شاء . إن الإيمان يدعونا ألاّ ننتظر بالصدقة إلى حالة بلوغ الروح الحلقوم ، فقد روى عن أبى هريرة أنه قال : جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله أى الصدقة أعظم أجراً ؟ قال : « أنْ تصدّق وأنت صَحيح شحيح تخشى الفقر وتأمل الغنى ولا تمهل حتى إذا بلغت الحلقوم قلت:لفلان كذا ولفلان كذا وقد كان لفلان »[2] لأنه عند وصول الروح إلى الحلقوم لا يكون له مال .

قول الحق : « والله بما تعملون خبير » قضية تجعل القلب يرتجف خوفاً ورعباً ، فقد يدلس الإنسان على البشر ، فتجد من يتهرب من الضرائب ويصنع تزويراً دفترين للضرائب ، واحداً للكسب الصحيح وآخر للخسارة الخاطئة ويكون هذا المتهرب من الضرائب يملك المال ثم ينكر ذلك ، هذا الإنسان عليه أن يعرف أن الله خبير بكل ما يعمل . وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ

---

(١) تفرد به البخارى دون مسلم من هذا الوجه ، وقد رواه ابن حبان فى صحيحه .

(٢) أخرجه البخارى فى كتاب الزكاة ـ باب أى الصدقة أفضل .

وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ سَنَكْتُبُ مَاقَالُواْ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ (١٨١)

روى - فى سبب نزول هذه الآية الكريمة : قال سعيد بن جُبير عن ابن عباس - رضى الله عنهما - لما نزل قوله تعالى : « من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة » قالت اليهود : يا محمد افتقر ربك ، فسأل عباده القرض ؟ فأنزل الله « لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء »[1] .

والذين عايشوا الإسلام فى المدينة كانوا من اليهود . واليهود كما نعرف كانوا يَدِلون ويفخرون على العالم بأنهم أهل كتاب وعلم ومعرفة ، ويدلون على البيئة التى عاشوا فيها أنهم ملوك الاقتصاد كما يقولون الآن عن أنفسهم . كل من يريد شيئاً يأخذه من اليهود . وكانوا يبنون الحصون ويأتون بالأسلحة لتدل على القوة . وجاء الإسلام وأخذ منهم هذه السيادات كلها ، ثم تمتعوا بمزايا الإسلام من محافظة على أموالهم وأمنهم وحياتهم .

أكان الإسلام يتركهم هكذا يتمتعون بما يتمتع به المسلمون أمناً واطمئناناً ، وسلامة أبدان وسلامة أموال ثم لا يأخذ منهم شيئاً ؟ لقد أخذ منهم الإسلام الجزية . فلم يكن من المقبول أن يدفع المسلم الزكاة ويجلس اليهود فى المجتمع الإيمانى دون أن يدفعوا تكلفة حمايتهم . ولذلك أرسل الرسول صلى الله عليه وسلم سيدنا أبا بكر إلى اليهود فى المكان الذى يتدارسون فيه . فعن ابن عباس قال : دخل أبو بكر الصديق بيت المدراس فوجد من يهود ناساً كثيرة قد اجتمعوا على رجل منهم يقال له فنحاص ، وكان من علمائهم وأحبارهم ومعه حبر يقال : أشيع ، فقال له أبو بكر : ويحك يا فنحاص ، اتق الله وأسلم ، فوالله إنك لتعلم أن محمداً رسول الله من عند الله قد جاء بالحق من عنده ، تجدونه مكتوبا عندكم فى التوراة والإنجيل ، فقال فنحاص : والله يا أبا بكر ما بنا إلى الله من حاجة من فقر ، إنه

(١) رواه ابن مردويه وابن أبى حاتم .

إلينا لفقير، ما نتضرع إليه كما يتضرع إلينا وإنا عنه لأغنياء، ولو كان عنّا غنيًّا ما استقرض منا كما يزعم صاحبكم، ينهاكم عن الربا ويعطينا، ولو كان غنيا ما أعطانا الربا. فغضب أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ فضرب وجه فنحاص ضربا شديداً، وقال: والذي نفسي بيده لولا الذي بيننا وبينك من العهد لضربت عنقك يا عدوّ الله فأكذبونا ما استطعتم إن كنتم صادقين[1].

فذهب فنحاص إلى رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم فقال: يا محمد أبصر ما صنع بي صاحبك، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما حملك على ما صنعت يا أبا بكر»؟ فقال يا رسول الله: إن عدوّ الله قال قولا عظيما، يزعم أن الله فقير وأنهم عنه أغنياء فلما قال ذلك غضبت لله مما قال فضربت وجهه، فجحد فنحاص ذلك وقال: ما قلت ذلك. فأنزل الله فيما قال فنحاص «لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء»[2]

هؤلاء لم يفطنوا إلى سر التعبير الجميل في قوله سبحانه:

﴿ مَن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾

(من الآية ١١ سورة الحديد)

فإن هذا القول هو احترام من الحق ـ سبحانه ـ لحركة الإنسان في التملك. لماذا احترم الله حق الإنسان في التملك؟ هو سبحانه يريد أن يغري المتحرك بزيادة الحركة، ويحمل غير المتحرك على أن يتحرك. فإن طلب سبحانه شيئاً من هذا المال فهو لا يقول للإنسان: أعطني ما أعطيت لك. بل كأنه سبحانه يقول: إنني سأحترم عرقك، وسأحترم حركتك، وسأحترم فكرك، وسأحترم جوارحك وطاقاتك وكل ما فيك، فإن أخذتُ منك شيئاً فلن أقول لك أعطني ما أعطيت لك، لكن أقول لك: أقرضها لي؛ وإن أقرضتها فسوف تقرضها لا لأنتفع بها، ولكنها لأخيك. وقد اقترض من القادر فيما بعد وذلك لك أنت إذا أصابتك الحاجة. لماذا؟ لأنني أنا الله الذي استدعيت خلقي إلى الوجود. ومادمت أنا الله الذي استدعيت الخلق إلى

(١) أكذبونا: بيّنوا وأظهروا كذبنا.

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير.

الوجود فأرزاقهم مطلوبة مني .

إن الواحد من البشر عندما يدعو اثنين من أصدقائه فهو يصنع طعاماً يكفي خمسة أو عشرة أشخاص . ومادام الله هو الذي استدعى الخلق إلى الوجود فهو الذي يكفل لهم الرزق . وعندما يكفل لهم الرزق فلا بد أن يتحركوا . وعندما يتحركون فهو سبحانه يضمن آثار الحركة ، وذلك حتى ينال كلٌ ما يرضيه ، أو على الأقل ما يكفيه من الضروريات .

ولذلك عندما جاءت آثار الحركة من المال وتدخل البشر فيها تأميماً وغير ذلك من الإجراءات قلّت الحركة . لكن الله سبحانه وتعالى يعلم حرص الإنسان على منفعة نفسه فيغريه بذلك حتى يتحرك وسينتفع المجتمع بحركته ، سواء قصد الإنسان أو لم يقصد . إذن فحين يقترض الحق سبحانه وتعالى من بعض خلقه لبعض خلقه ، فهو سبحانه لا يتراجع فيما وهب . بل يقول جل وعلا :

﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ۝١١ ﴾

(سورة الحديد)

وأضرب هذا المثل ـ ولله المثل الأعلى ـ نحن البشر قد نضطر إلى هذا الموقف ؛ فالواحد منا عندما يعطي أبناءه مصروف اليد ، فكل ابن يدخر ما يبقى منه ، وبعد ذلك يأتي ظرف لبعض الأبناء يتطلب مالاً ليس في مُكنْة الوالد ساعة يأتي الحدث . فيقول الوالد لأبنائه : أقرضوني ما في « حصّالاتكم » ، وسأردها لكم مضاعفة ، هو أخذها لأخيهم ، لكن لأنه الذي وهب أولاً فلم يرجع في الهبة ، لكنه طلبها قرضاً . وعندما يأتي أول الشهر فهو يرد القرض مضاعفاً ، فإن كان ذلك ما يحدث في مجال البشر فما بالنا بما يحدث من الخالق الوهاب لعباده ؟ . هو سبحانه يقول : « من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً » .

لكن اليهودي لم يأخذ المسألة بهذا الفهم ، لكنه أخذها بغباء المادة فقال : إن الله فقير ونحن أغنياء . لذلك قال الحق سبحانه : « لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء سنكتب ما قالوا » .

ولماذا يكتب الله ذلك وهو العالم بكل شيء ؟ . جاء هذا القول ليدل على التوثيق أيضاً ، فعندما يأتى هذا الرجل ليقرأ كتابه يوم القيامة يجدها مكتوبة ؛ فالكتابة لتوثيق ما يمكن أن يُنكر ـ بالبناء للمجهول ـ فإذا كان العلم من الله فقط فالعبد قد يقول :

ـ إنك يارب الذى تعاقب . فلك أن تقول ما تقول . فإذا ما كان مكتوباً عليهم ليقرأوه . فهذا توثيق لا يمكن إنكاره .

ولم يفهم ذلك اليهودى أن القرض لله هو تلطف من الحق سبحانه وتعالى واستدرار لحنان الإنسان على الإنسان . فقد شاء الحق أن يحترم أثر مجهودك وعرقك أيها الإنسان ، فإن وصلت إلى شيء من المال فهو مالك . ولم يقل الله لك : أعط أخاك ، فسبحانه وتعالى تلطفا مع خلقه يقول : أقرضنى ؛ ليضمن الإنسان أن ما أعطاه إنما هو عند ملىء . لكن أدب بنى إسرائيل مع الله مفقود ، فقد قالوا من قبل :

﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ﴾

(من الآية ٦٤ سورة المائدة)

وسبب ذلك أنه أصابتهم سنة وجدب . وذلك بسبب تكذيبهم رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال ابن عباس : « إن الله وسع على اليهود فى الدنيا حتى كانوا أكثر الناس مالا ، فلما عصوا الله وكفروا بمحمد صلى الله عليه وسلم وكذبوه ضيّق الله عليهم فى زمنه صلى الله عليه وسلم ، فقال فنحاص بن عازوراء ومن معه من يهود : يد الله مغلولة فأنزل الله هذه الآية . إنهم قالوا : السماء بخلت علينا ويد الله مغلولة ، فلم تعطنا رزقاً . هكذا كان اجتراؤهم فى الحديث عن الله « يد الله مغلولة » ونعرف أن « الغل » هو ربط اليدين بسلسلة .

وهاهم أولاء يجترئون مرة أخرى فيقولون : « إن الله فقير » . ويورد الحق سبحانه كل ذلك تسلية لسيدنا محمد حتى إذا ما اجترأوا عليه بكلمة أو على أصحابه باستهزاء ، فسبحانه يوضح لرسوله : أنهم لم يصنعوا ذلك معك ولا مع أتباعك ،

إن هذا هو موقفهم منى أنا . فإذا كان موقفهم وسوء أدبهم وصل بهم إلى أن يجترئوا على الذات المقدسة العليّة ، ويقولون : « إنّ الله فقير ونحن أغنياء » ويقولون : « يد الله مغلولة » . أفتحزن وتأسى على أن يقولوا لك أو لأتباعك أى شيء يسيء إليكم ؟

إنها نعمت المواساة من الله لرسوله ونعمت التسلية . ويضيف الحق : « سنكتب ما قالوا » . لماذا يكتب الله ما قالوا مع أن علمه أزلى لا يُنسى ؟

﴿ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴾

(من الآية ٥٢ سورة طه)

لقد جاءت كلمة « سنكتب » حتى لا يؤاخذهم سبحانه وتعالى يوم القيامة بما يقول هو إنهم فعلوه ، ولكن بما كتب عليهم وليقرأوه بأنفسهم ، وليكون حجة عليهم ، كأن الكتابة ليست كما نظن فقط ، ولكنها تسجيل للصوت وللأنفاس ، ويأتى يوم القيامة ليجد كل إنسان ما فعله مسطوراً :

﴿ ٱقْرَأْ كِتَـٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ۝١٤ ﴾

(سورة الإسراء)

وهذا القول يدل على أنه ساعة يرى الإنسان ما كتب فى الكتاب سيعرف أنه منه ، وإذا كنا نحن الآن نسجل على خصومنا أنفاسهم وكلماتهم أتستبعد على من علمنا ذلك أن يسجل الأنفاس والأصوات والحركات بحيث إذا قرأها الإنسان ورآها لا يستطيع أن يكابر فيها أو ينكرها ؟ « سنكتب ما قالوا » وهم قالوا : « إن الله فقير ونحن أغنياء » وهذا معصية فى القمة ، وتبجح على الذات العلية ، ولم يكتفوا بذلك بل قتلوا الأنبياء الذين أرسلهم الله لهدايتهم ؛ لذلك يقول الحق : « سنكتب ما قالوا وقتلهم الأنبياء بغير حق » .

وعندما يأتى هذا النبأ لرسول الله صلى الله عليه وسلم فهو تسلية له من الحق سبحانه . لقد قالوا فى ربك يا محمد ما قالوا ، وقتلوا الأنبياء إخوانك ، فإذا صنعوا معك ما صنعوا فلا تحزن فسوف يُجازَوْن على ما كتبناه عليهم بشهادة أنفسهم ، ونقول : ذوقوا عذاب الحريق . والحريق يصنع إيلاماً إحساسياً فى النفس .

والإحساس يختلف من حاسة إلى أخرى ، فمرة يكون الإحساس بالبصر ، ومرة بالأذن ، ومرة بالشم أو باللمس أو بالذوق .

والذوق هو سيد الأحاسيس ، فهو لا يضيع من أحد أبداً ، فقد نجد إنساناً أعمى ، وآخر أصم ، أو شخصاً ثالثاً أصيب بالشلل فلا تستطيع يده أن تلمس ، وقد يصاب واحد بزكام مستمر فلا يصبح قادراً على الشم ، أما الذوق فهو حاسة لا تختفى من أى إنسان ، ذلك أن الذوق أمر من داخل الذات ؛ لذلك فهو أبلغ فى الإيلام . ونجد الحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾

(سورة النحل)

انظر إلى التعبير القرآنى « فأذاقها الله لباس الجوع والخوف » . جاء التعبير بالإذاقة ، وجاء بشيء لا يذاق وهو اللباس . وهل اللباس يذاق ؟ لا ، لكنه سبحانه يريد أن ينبه الإنسان إلى أن كل الحواس التى فيه تحس ، حتى تلك الحاسة المختفية داخل النفس ، إنّ ذلك يَشمل كل جزء فى الإنسان .

فالإذاقة تحيط بالإنسان فى هذا التصوير البيانى القرآنى الكريم : « فأذاقها الله لباس الجوع والخوف » . إذن فهى شدة وقع الإيلام ؛ واستيعاب العذاب المؤلم لكل أجزاء الجسم حتى صار الذوق فى كل مكان . « ذوقوا عذاب الحريق » ، والحريق هو النار القوية التى تحرق ومن بعد ذلك يقول الحق :

﴿ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾ ﴾

« ذلك » إشارة إلى عذاب الحريق . والحق سبحانه لم يظلمهم ، لكنهم هم الذين ظلموا أنفسهم . « بما قدمت أيديكم » . فهل معنى ذلك أن كل المعاصى من تقديم اليد ؟ إن هناك معصية للعين ، ومعصية للسان ، ومعصية للرجل ، ومعصية للقلب ، ولا حصر للمعاصى . فلماذا إذن قال الحق : « بما قدمت أيديكم » ؟

قال الحق ذلك لأن الأعمال الظاهرة تُمارس عادة باليد ؛ فاليد هى الجارحة التى نفعل بها أكثر أمورنا ، وعلى ذلك يكون قول الحق : « بما قدمت أيديكم » مقصود به : بما قدمتم بأى جارحة من الجوارح .

وبعد ذلك يخبرنا سبحانه : « وأن الله ليس بظلام للعبيد » لقد أذاقهم عذاب الحريق نتيجة ما كتبه عليهم ؛ من قول وفعل . والقول هو الافتراء باللسان حين قالوا : « إن الله فقير ونحن أغنياء » . والفعل هو قتلهم الأنبياء . فهم يستحقون ذلك العذاب .

والقضية العامة فى الإله وعدالة الإله أنه ليس بظلام للعبيد .

وهنا وقفة لخصوم الإسلام من المستشرقين ، هم يقولون : الله يقول فى قرآنهم « وأنَّ الله ليس بظلام للعبيد » ، وكلمة « ظلام » هى مبالغة فى كلمة « ظالم » ، ففيه « ظالم » وفيه « ظلاّم » ، و« الظَّلاّم » هو الذى يظلم ظلماً قوياً ومتكرراً ؛ فـ« ظلاّم » هى صيغة مبالغة فى « ظالم » .

وحتى نرد عليهم لا بد لنا أن نعرف أن صيغ المبالغة كثيرة ، فاللغويون يعرفون أنها : فعّال ، فعيل ، مفعال ، فعول ، فَعِل ، فظلاَّم مثلها مثل قولنا:« أكَّال » ، ومثل قولنا:« قَتَّال » بدلاً من أن نقول : « قاتل » فالقاتل يكون قد ارتكب جريمة القتل مرة واحدة ، لكن الـ« قتّال » هو من فعل الجريمة مرات كثيرة وصار القتل حرفته . ومثل ذلك « ناهب » ، ويقال لمن صار النهب حرفته:« نَهَّاب » أى أنه إن نهب ينهب كثيراً ، ويعدد النهب فى الناس .

وهذه تسمى صيغة المبالغة . وصيغة المبالغة إن وردت فى الإثبات أى فى الأمر

الموجب فهى تثبت الأقل ، فعندما يقال : « فلان ظلّام » فالثابت أنه ظالم أيضاً ، لأننا ما دمنا قد أثبتنا المبالغة فإننا نثبت الأقل . ومثل ذلك نقول : « فلان علّام » أو « فلان علاّمة » فمعنى ذلك أن فلاناً هذا عالم . ولكن إذا قلنا : « فلان عالم » فلا يثبت ذلك أنه « علاّمة » . فصيغة المبالغة ليس معناها « اسم فاعل » فحسب ، إنها أيضاً اسم فاعل مبالغ فيه ، لأن الحدث يأتى منه قوياً ، أو لأن الحدث متكرر منه ومتعدد . فإذا ما أثبتنا صفة المبالغة فمن باب أولى تثبت صفة غير المبالغة . فإذا ما قال واحد : « فلان أكّال » فإنه يثبت لنا أنه آكل ، هذا فى الإثبات .

والأمر يختلف فى النفى . إننا إذا نفينا صفة المبالغة ، فلا يستلزم نفى الصفة الأصلية ، فإن قلت : « فلان ليس علاّمة » فقد يكون عالماً . وهكذا نفهم لأن الإثبات يختلف عن النفى . فإذا أثْبَتَّ صفة المبالغة تثبت الصفة التى ليس فيها مبالغة من باب أولى . أما إذا نفيت صفة المبالغة فلا يستلزم ذلك نفى الصفة الأقل .

والتذييل للآية التى نحن بصددها الآن هو « وأنَّ الله ليس بظلّام للعبيد » .

يفهم المستشرقون من هذا القول أنه مجرد نفى للمبالغة فى الظلم ، لكنها لم تنف عنه أنه ظالم ولم يفهم المستشرقون لماذا تكون المبالغة هنا : إن الحق قد قال : إنه ليس بظلّام للعبيد ، ولم يقل إنه ليس بظلام للعبد . ومعنى ذلك أنه ليس بظلام للعبيد من أول آدم إلى أن تقوم الساعة ، فلو ظلم كل هؤلاء - والعياذ بالله - لقال إنه ظلام ، حتى ولو ظلم كل واحد أيسر ظلم . لأن الظلم تكرر وذلك بتكرر من ظُلِم وهم العبيد،فإن أريد تكثير الحديث فليفطن الغبى منهم إلى أن الله قال : « وأن الله ليس بظلام للعبيد » ولم يقل إنه ليس بظلام للعبد .

وإذا كان الظالم لا بد أن يكون أقوى من المظلوم ، إذن فكل ظلم يتم تكييفه بقوة الظالم . فلو كان الله قد أباح لنفسه أن يظلم فلن يكون ظالماً ؛ لأن عظم قوته لن يجعله ظالماً بل ظَلاَّما .

فإن أردنا الحدث فيكون ظلاماً ، وإن أردنا تكراراً للحدث فيكون ظلاماً . وحين

يحاول بعض المستشرقين أن يستدركوا على قول الحق : « وأن الله ليس بظلام للعبيد » فهذا الاستدراك يدل على عجز فى فهم مرامى الألفاظ فى اللغة أو أنّ هؤلاء يعلمون مرامى الألفاظ ويحاولون غش الناس الذين لا يملكون رصيداً لغوياً يفهمون به مرامى الألفاظ . ولكن الله سبحانه وتعالى يُسخر لكتابه من ينبه إلى إظهار إعجازه فى آياته .

وبعد أن انتهى الحق من غزوة أُحُد ، فهو سبحانه يريد أن يقرر مبادىء يبين فيها معسكرات العداء للإسلام : معسكر أهل الكتاب ، ومعسكر مشركى قريش فى مكة ، ومعسكر المشركين الذين حول المدينة وكانوا يغيرون على المدينة .

فبعد غزوة أُحُد التى صفّت ، وربّت ، وامتحنت وابتلت ، وعرّفت الناس قضايا الدين ، أراد الحق بعدها أن يضع المبادىء .

فأوضح القرآن : أن هؤلاء أعداؤكم ؛ تذكروهم جيداً ، قالوا فى ربكم كذا ، ويقولون فى رسولكم كذا ، وقتلوا أنبياءكم .

ومن بعد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ ۗ قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٨٣﴾ ﴾

هم يدّعون ذلك ويقولون : ربنا قال لنا هذا فى التوراة ؛ إياكم أن تؤمنوا برسول

يأتيكم ، حتى يأتيكم بمعجزة مُحسة ، هذه المعجزة الـمُحسّة هى أن يقدم الرسول قرباناً فتنزل نار من السماء تأكله .

هذا كان صحيحاً ، وكلنا نسمع قصة قابيل وهابيل :

﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ ﴾

(سورة المائدة)

ونريد أن نقبل على القرآن ونتدبر : لماذا جاء هذا اللفظ : « فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر » ؟ إن القبول من الله ، وهو مسألة سرية عنده ، فكيف نعرف نحن أن الله تقبل أو لم يتقبل ؟ لا بد أنه الله قد جعل للقبول علامة حسية . ونحن نعرف أن الإنسان قد يعمل عملاً فيقبله الله ، ونجد إنساناً آخر قد يعمل عملاً ولا يقبله الله والعياذ بالله ، فمن الذى أعلمنا أن الله قد قبل عمل إنسان وقربانه ، ولم يقبل عمل الآخر وقربانه ؟ .

وبما أن القبول سر من أسرار الله إذن فلن نعرف علامة القبول إلا إذا كانت شيئاً مُحساً ، بدليل قوله : « فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر » . وقال الذى لم يتقبل الله قربانه : « لأقتلنك » كأن الذى قبل الله قربانه قد عرف ، والذى لم يتقبل الله قربانه قد عرف أيضاً ، إذن فلا بد أن هناك أمراً حسياً قد حدث .

وقلنا : إن الله كان يخاطب خلقه على قدر رشد عقولهم حساً ومعنى ؛ ولذلك كانت معجزاته سبحانه وتعالى للأنبياء السابقين لرسول الله هى من الأمور الـمُحسة . فالمعجزة التى آتاها الله لإبراهيم كانت نارا لا تحرق ، وعصا سيدنا موسى تنقلب حية ، وسيدنا عيسى عليه السلام يبرىء الأكمه والأبرص ويُحيى الموتى بإذن الله . والمعجزة الحسية لها ميزة أنها تقنع الحواس ، ولكنها تنتهى بعد أن تقع لمرة واحدة . لكن المعجزة العقلية التى تناسب رشد الإنسانية ، هى المعجزة الباقية ،

وحتى تظل معجزة باقية فلا يمكن أن تكون حسية .

إذن فعندما تأتى معجزة خالدة لرسول هو خاتم الرسل ، والذى سوف تقوم القيامة على المنهج الذى جاء به ، هذه المعجزة لا بد أن تكون ذات أمد ممتدّ ، والامتداد يناقض الحسّية ؛ لأن الحسّية تظل محصورة فيمن رآها ، والذى لم يرها لا يقولها ولا يؤمن بها إلا إذا كان على ثقة عظيمة بمن أخبره بها . وابنا آدم ، قابيل وهابيل قرّب كل منهما قربانا .

و« قُربان » مثلها فى اللغة مثل « غفران » و« عُدوان » والقُربان هو شىء أو عمل يتقرب به العبد من الله . وقبول هذا العمل من البر هو سرّ من أسرار الله . فما الذى أدرى هؤلاء أن قربان هابيل قد تقبّله الله ولم يتقبّل الله قربان قابيل ؟ لا بد أن تكون المسألة حسّية . ولا بد أن قابيل وهابيل قد اختلفا ، ولكن القرآن لم يقل لنا على ماذا اختلفا ، إنها دعوى أن واحداً منهما مُقرّب إلى الله أكثر ، ولكن بأى شكل ؟ لم يظهر القرآن لنا ذلك ، ولو كانت المسألة مهمة لأظهرها الله لنا فى القرآن الكريم ، فلا تقل كان الخلاف على زواج أو غير ذلك . فالذى ظهر لنا من القرآن أن خلافاً قد وقع بينهما أو أنهما قد حكما السماء . ومبدأ تحكيم السماء لا يستطيع أحد أن ينقضه . وكان لكل واحد منهم شُبهة . وعندما قامت الشبهة التى لقابيل ضد الشبهة التى لهابيل ، فلا إقناع من صاحب شبهة لصاحب شبهة ، ولذلك ذهبا إلى التحكيم .

ونحن فى عصرنا الحديث عندما نختلف على شىء فإننا نقول : نجرى قرعة . وذلك حتى لا يرضخ إنسان لهوى إنسان آخر ، بل يرضخ الاثنان للقدر ، فيكتب كل منهما ورقة ثم يتركان ثالثا يجذب إحدى الورقتين . أما هابيل وقابيل فيذكر القرآن الكريم : « واتل عليهم نبأ ابنى آدم بالحق إذا قربا قرباناً فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر » .

إذن فكل واحد منهما كانت له شبهة ، ولا أحد منهما بقادر على إقناع الثانى ؛ لذلك قال قابيل بعد أن قبل الله قربان هابيل : « لأقتلنك » فماذا قال هابيل ؟. قال : « إنما يتقبل الله من المتقين » .

إذن فالذى يتقبل الله منه القربان هو الذى سيُقْتل . والذى يملأه الغيظ هو من لم يتقبل الله قربانه ، وهو الذى سوف يَقْتُل . فماذا قال صاحب القربان المقبول :

﴿ لَئِنْ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَاْ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ ﴾

(سورة المائدة)

إذن فهذا أهل لأن يتقبّل الله قربانه ، لأنه متيقظ الضمير بمنهج السماء ، وهذه حيثية لتقبل القربان .

وحتى لا نظن أن الآخر « قابيل » كله شر لمجرد أن الشهوة سيطرت عليه ، لكنْ الحق يظهر لنا أن فيه بعض الخير ، ودليل ذلك قول الحق :

﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾

(سورة المائدة)

وهذا القول يدل على أنه تردد ، فلا يقال : « طوّعت الماء » ، ولكن يقال « طوّعت الحديد » ، فكأن الإيمان كان يعارض النفس ، إلا أن النفس قد غلبت وطوّعت له قتل أخيه . وعندما قتل قابيل أخاه وهدأت شرّة الغضب وسُعار الانتقام ، رأى أخاه مُلقى فى العراء :

﴿ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾ ﴾

(سورة المائدة)

وعلى هذا النسق قال اليهود : إن الله أوصانا ألا نؤمن برسول إلا بعد أن يأتى بمعجزة من الـمُحسّات . لماذا قالوا ذلك ؟ . قالوا ذلك لأن معجزة رسول الله الكبرى وهى القرآن الكريم لم تكن من ناحية المحسّات وانتهى عهد الإعجاز بالمحسّات فقط،فرسولنا له معجزات حسية كثيرة ، ونظرا لأن هذه ينتهى إعجازها بانقضائها فكان القرآن الكريم هو المعجزة الخالدة وهو الذى يناسب الرسالة

الخاتمة ، فهم طلبوا أن تكون المعجزة بالمحسّات حتى يصنعوا لأنفسهم شبه عذر فى أنهم لم يؤمنوا ، فقالوا ما أورده القرآن :

« الذين قالوا إن الله عهد إلينا أن لا نؤمن لرسول حتى يأتينا » . . إلخ.

وعلمنا الحق فى هذه الآية أن القربان تأكله النار ، ومن هذا نستنبط كيف تقبل الله قربان هابيل ولم يتقبل قربان قابيل ، لكى نفهم أن القرآن لا يوجد به أمر مكرر . والحق سبحانه يرينا ردوده الإلهية المقنعة الممتعة :

« قل قد جاءكم رسل من قبلى بالبينات وبالذى قلتم . . » إلخ الآية .

لقد جاءكم رسل قبل رسول الله بالقربان وأكلته النار ومع ذلك كفرتم . فلو كان كلامكم أيها اليهود صحيحاً ، لكنتم آمنتم بالرسل الذين جاءوكم بالقربان الذى أكلته النار . وهكذا يكشف لنا الحق أنهم يكذبون على أنفسهم ويكذبون على رسول الله ، وأنها مجرد « مماحكات » ولجاج وتمادٍ فى المنازعة والخصومة .

والحق سبحانه يأمر رسوله أن يسأل : « فلم قتلتموهم إن كنتم صادقين » ؟

هو سبحانه يريد أن يضع لنا قضية توضح أن عهد المعجزات الحسّية وحدها قد انتهى ، ورُشد الإنسانية وبلوغ العقل مرتبة الكمال قد بدأ ؛ لذلك أتى سبحانه بآية عقلية لتظلّ مع المنهج إلى أن تقوم الساعة . ولو كانت الآية حسّية لاقتصرت على المعاصر الذى شهدها وتركت من يأتى بعده بغير معجزة ولا برهان . أما مجىء المعجزة عقلية فيستطيع أى واحد مؤمن فى عصرنا أن يقول : سيدنا محمد رسول الله وتلك معجزته . ولكن لو كانت المعجزة حسّية وكانت قرباناً تأكله النار ، فما الذى يصير إليه المؤمن ويستند إليه من بعد ذلك العصر ؟

إن الحق يريد أن يعلمنا أن الذى يأتى بالآيات هو سبحانه ، وسبحانه لا يأتى بالآيات على وفق أمزجة البشر ، ولكنه يأتى بالآيات التى تثبت الدليل ؛ لذلك فليس للبشر أن يقترحوا الآية . هو سبحانه الذى يأتى بالآية ، وفيها الدليل . لماذا ؟

لأن البعض قد قال للرسول :

﴿ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

لقد كانت كل هذه آيات حسّية طلبوها ، والله سبحانه وتعالى يرد على ذلك حين قال لرسوله : إن الذى منعه من إرسال مثل هذه الآيات هو تكذيب الأولين بها :

﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَن كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ ﴾

(من الآية ٥٩ سورة الإسراء)

فحتى هؤلاء الذين قالوا : لن نؤمن حتى تأتى بقربان تأكله النار قد جاءهم من قبل من يحمل معجزة القربان الذى تأكله النار ، ومع ذلك كذبوا ، إذن فالمسألة مماحكة ولجاج فى الخصومة . ويُسلّى الله رسوله صلى الله عليه وسلم ، وتسلية الله لرسوله هنا تسلية بالنظير والمثل فى الرسل . كأن الحق يوضح : إن كانوا قد كذبوك فلا تحزن ؛ فقد كذبوا من قبلك رسلاً كثيرين ، وأنت لست بِدَعاً من الرسل .

﴿ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾ ﴾

ويتسامى الحق سبحانه وتعالى بروح سيدنا رسول الله إلى مرتبة العلو الذى لا يرقى إليه بشر سواه ، فيقول :

﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ ﴾

(من الآية ٣٣ سورة الأنعام)

فالمسألة ليست مسألتك أنت إنهم يعرفون أنك يا محمد صادق لا تكذب أبداً « ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون » . أى هذا الأمر ليس خاصا بك بل هو راجع إلىّ فلا أحد يقول عنك إنك كذّاب هم يكذبوننى ، الظالمون يجحدون وينكرون آياتى فالحق سبحانه يخاطب رسوله صلى الله عليه وسلم هنا للتسلية ويعطيه الأسوة التى تجعله غير حزين مما يفعله اليهود والمكذبون به فيقول :

﴿ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾ ﴾

(سورة ال عمران)

ونعرف أن الشرط سبب فى وجود جوابه . فإذا كان الجواب لم يأت فالشرط هو الذى يجعله يأتى ، وإذا كان الجواب قد حصل قبل الشرط فما الحال ؟ . الحق يوضح : إن كذبوك يا محمد فقد كذبوا رسلاً من قبلك . أى أن « جواب الشرط » قد حصل هنا قبل الشرط وهذه عندما يتلقفها واحد من السطحيين أدعياء الإسلام ، أو من المستشرقين الذين لا يفهمون مرامى اللغة فمن الممكن أن يقول :

إن الجواب فى هذه الآية قد حصل قبل الشرط . وهنا نرد عليه قائلين : أقوله تعالى : « فقد كذب رسل من قبلك .. » هو جواب الشرط .. أم هو دليل الجواب ؟ لقد جاء الحق بهذه الآية ليقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم :

فإن كذبوك فلا تحزن ، فقد سبقك أن كَذّب قوم رسلَهم . إنها علة لجواب الشرط ، كأنه يقول :

فإن كذبوك فلا تحزن . إذن فمعنى ذلك أن المذكور ليس هو الجواب ، إنما هو

الحيثية للجواب « فإن كذبوك فقد كذب رسل من قبلك جاءوا بالبينات » . . إلخ .

وعندما نقول : « جاءنى فلان بكذا » فقد يكون هو الذى أحضره ، وقد يكون هو مجرد مصاحب لمن جاء به .

ولنضرب هذا المثل للإيضاح ـ ولله المثل الأعلى ـ فلنفترض أن موظفاً أرسله رئيسه بمظروف إلى إنسان آخر ، فالموظف هو المصاحب للمظروف .

إذن فالبينات جاءت من الله ، لكن هؤلاء الرسل جاءوا مصاحبين ومؤيَّدين بالبينات كى تكون حُجة لهم على صدق بلاغهم عن الله ، « فإن كذبوك فقد كذب رسل من قبلك جاءوا بالبينات » . أى جاءوا بالآيات الواضحة الدلالة على المراد . والآيات قد تكون لفتاً للآيات الكونية ، وقد تكون المعجزات .

ونعلم أن كل رسول من الرسل الذين سبقوا سيدنا رسول الله كانت معجزتهم منفصلة عن منهجهم ، فالمعجزة شىء وكتاب المنهج شىء آخر . « صحف إبراهيم » فيها المنهج لكنها ليست هى المعجزة؛ فالمعجزة هى الإحراق بالنار والنجاة، وموسى عليه السلام معجزته العصا وتنقلب حية ، وانفلاق البحر ، لكن كتاب منهجه هو « التوراة » ، وعيسى عليه السلام كتاب منهجه « الإنجيل » ومعجزته العلاج وإحياء الموتى بإذن الله ، إذن فقد كانت المعجزة منفصلة عن المنهج ، إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فإن معجزته هى عين منهجه ، معجزته القرآن ، ومنهجه فى القرآن ، لماذا ؟

لأنه جاء رسولاً يحمل المنهج المكتمل وهو القرآن الكريم ، ومع ذلك فهو صلى الله عليه وسلم الرسول الخاتم ، فلا بد أن تظل المعجزة مع المنهج ؛ كى تكون حُجة ، إذن فقول الحق سبحانه وتعالى : « جاءوا بالبينات » : أى المعجزات الدالات على صدقهم . « والزبر والكتاب المنير » أى الكتب التى جاءت بالمنهج ، فهم يحتاجون إلى أمرين اثنين : منهج ومعجزة .

و« البينات » هى المعجزة أى الأمور البينة من عند الله وليست من عند أى واحد

منهم ، ثم جاء « المنهج » فى « الزُّبُر والكتاب المنير » . ومعنى « الزِبْر » : الكتاب ، ومادام الشيء قد كُتِب فقد « زبره » أى كَتَبَهُ ، وهذا دليل على التوثيق أى مكتوب فلا ينطمس ولا يمحى فالزُّبْر الكتابة ، و« الزُّبْرُ » تعنى أيضا الوعظ ؛ لأنه يمنع الموعوظ أن يصنع ما عظم أى يمتنع عن الخطأ وإتيان الانحراف ، و« الزُّبْرُ » أيضا تعنى العقل ؛ لأنه يمنع الإنسان من أنْ يرد موارد التهلكة .

والذين يريدون أن يأخذوا العقل فرصة للانطلاق والانفلات ، نقول لهم : افهموا معنى كلمة « العقل » ، معنى العقل هو التقييد ، فالعقل يقيدك أن تفعل أى أمر دون دراسة عواقبه . والعقل من « عَقَلَ » أى ربط ، كى يقال هذا ، ولا يقال هذا ، ويمنع الإنسان أن يفعل الأشياء التى تؤخذ عليه . و« الزبر » أيضاً : تحجير البئر ؛ فعندما نحفر البئر ليخرج الماء ، لا نتركه . بل نصنع له حافة من الحجر ونبنيه من الداخل بالحجارة . كى لا يُردم بالتراب وكل معانى الزبر ملتقية ، فهو يعنى : المكتوبات ، والمكتوبات لها وصف ، إنّها منيرة ، وهذه الإنارة معناها أنها تبين للسالك عقبات الطريق وعراقيله ، كى لا يتعثر .

إذن فالحق سبحانه وتعالى يسلّى رسوله صلى الله عليه وسلم ويوضح له : لا تحزن إن كذبوك ؛ فقد كذب رسل من قبلك ،والرسل جاءوا بالمنهج وبالمعجزة ، وبعد أن يعطى الله للمؤمنين ولرسول الله مناعة ضد ما يذيعه المرجفون من اليهود وضد ما يقولون ، وتربية المناعة الإيمانية فى النفس تقتضى أن يخبرنا الله على لسان رسوله بما يمكن أن تواجهه الدعوة ؛ حتى لا تفجأنا المواجهات ويكشف لنا سبحانه بما سيقولون . وبما سيفعلونه .

ونحن نفعل ذلك فى العالم المادى : إذا خفنا من مرض ما كالكوليرا ـ مثلاً ـ ماذا نفعل ؟ نأخذ الميكروب نفسه ونُضْعِفُه بصورة معينة ثم نحقن به السليم ؛ كى نربّى فيه مناعة حتى يستطيع الجسم مقاومة المرض .

ثم بعد ذلك يأتى الحق سبحانه وتعالى بقضية إيمانية يجب أن تظل على بال المؤمن دائماً . هذه القضية : إن هم كذبوك فتكذيبهم لا إلى خلود ؛ لأنهم سينتهون

بالموت ، فالقضية معركتها موقوتة ، والحساب أخيراً عند الحق سبحانه ، ولذلك يقول :

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾ ﴾

ونلاحظ أن كلمة « ذائقة » جاءت أيضاً هنا ، ونعرف أن هناك « قتلا » وهناك « موتا » ، فالموت معناه أعم وهو : انتهاء الحياة سواء أكان بنقض البنية مثل القتل ، أم بغير نقض البنية مثل خروج الروح وزهوقها حتف الأنف ، ولذلك فالعلماء الذين يدققون فى الألفاظ يقولون : هذا المقتول لو لم يُقتل ، أكان يموت ؟ نقول : نعم ؛ لأن المقتول ميت بأجله ، لكن الذى قتله هل كان يعرف ميعاد الأجل ؟ لا . إذن فهو يُعاقب على ارتكابه جريمة إزهاق الروح ، أمّا المقتول فقد كتب الله عليه أن يفارق الحياة بهذا العمل .

إذن فكل نفس ذائقة الموت إما حتف الأنف وإمّا بالقتل . ولأن الغالب فى المقتولين أنهم شهداء ، والشهداء أحياء ، لكن الكل سيموت . يقول تعالى :

﴿ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ﴾

(من الآية ٦٨ سورة الزمر)

انظروا إلى دقة العبارة : « وإنما توفون أجوركم يوم القيامة » أى إياكم أن تنتظروا نتيجة إيمانكم فى هذه الدنيا ، لأنكم إن كنتم ستأخذون على إيمانكم ثوابا فى الدنيا

فهذا زمن زائل ينتهى ، فثوابكم على الإيمان لا بد أن يكون فى الآخرة لكى يكون ثوابا لا ينتهى .

ونعرف ما حدث فى بيعة العقبة الثانية ؛ حينما أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم على الأنصار عهوداً ، قالوا : فما لنا بذلك يا رسول الله إن نحن وفينا ؟ لم يقل لهم صلى الله عليه وسلم ستنتصرون أو ستملكون الدنيا ، بل قال : « الجنة » قالوا : ابسط يدك ، فبسط يده فبايعوه ، فلو وعدهم بأى شىء فى الدنيا لقال له أى واحد فطن منهم : ما أهونها ، ولذلك عندما قال واحد لصاحبه : أنا أحبك قدر الدنيا ، فقال له : وهل أنا تافه عندك لهذه الدرجة ؟.

فكأن الحق سبحانه وتعالى يقول : إياكم أن تفهموا أن جزاء الإيمان يكون فى الدنيا ؛ لأنه لو كان فى الدنيا لكان زائلاً ولكان قليلا كجزاء على الإيمان ، لأن الإيمان وصل بغير منتهٍ وهو الله ، فلا بد أن يكون الجزاء غير منتهٍ وهو الجنة ، فقال : « وإنما توفون أجوركم » . . وأخذ أهل اللمح من كلمة « توفون » أن هناك مقدمات ؛ لأن معنى « وفيته أجره » أى أعطيته وبقى له حاجة وأكمل له ، نعم هو سبحانه يعطيهم حاجات إيمان ، ويكفى إشراقة الإيمان فى نفس المؤمن ، فالجواب لا بد أن يكون متمشياً مع منطق من يسمع هذه الآية ؛ فقد يموت من يسمعها بعد قليل فى معركة ، وما دام قد مات فى معركة فهو لم ير انتصاراً ، ولم ير غنائم ولا أى شىء ، فماذا يكون نصيبه ؟ إنه يأخذ نصيبه يوم القيامة « توفون » فمن نال منها شيئاً فى الدنيا بالنصر ، بالغنائم ، بالزهو الإيمانى على أنه انتصر على الكفر فهذا بعض الأجر ، إنما الوفاء بكامل الأجر سيكون فى الآخرة ، لأن كلمة التوفية تفيد أن توفية الأجور وتكميلها يكون فى يوم القيامة ، وأن ما يكون قبل ذلك فهو بعض الأجور التى يستحقها العاملون .

ويقول الحق : « فمن زُحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز » عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « موضع سوط فى الجنة خير من الدنيا وما فيها اقرأوا إن شئتم : « فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز »[1]

(١) رواه ابن أبى حاتم ، ورواه البخارى ومسلم من غير هذا الوجه وبدون هذه الزيادة وأبو حاتم وابن حبان فى صحيحه والحاكم فى مستدركه

وعندما تقول : زحزحت فلاناً ، معناها أنه كان متوقفا برعب ، فكيف يحدث ذلك عند النار ؟. نعرف أن النار سببها المعصية ، والمعصية كانت لها جاذبية للعصاة ، ويأتى الإيمان ليشدهم فتأخذهم جاذبية المعصية ، فكذلك يكون الجزاء بالنار . إذن فالنار لها جاذبية لأنها ستكون فى حالة غيظ . . ولذلك يقول ربنا :

﴿ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ ﴾

(من الآية ٨ سورة الملك)

النار تتميز من الغيظ على الكافرين . وما معنى تميز من الغيظ ؟ أما رأيت قِدْراً يفور ؟ ساعة يفور القدر فإن بعض الفقاقيع تخرج منه وتنفصل عما فى القدر ، وهذا « تميز » أى تفترق ، والإنسان منا عندما يكون فى حالة غيظ تخرج منه أشياء كفقاقيع غليان القدر إنه يرغى ويزبد أى اشتد غضبه ، هذه الفقاقيع تحرق من يقف أمامها أو يلمسها ، وهى من شدة الفوران تميز بعضها وانفصل عن القدر ، كذلك النار ، ولماذا تميز من الغيظ ؟ إنها تميز من الغيظ من الكافرين ؛ لأنها أصلها مُسبّحة حامدة شاكرة ، وبعد ذلك يقول لها الحق :

﴿ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ ﴾ وتقول : ﴿ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴾

(من الآية ٣٠ سورة ق)

وذلك مما يدل على أن كلمة : « تميز من الغيظ » حقيقة ؛ ولذلك يبين لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن النار لها جاذبية ، فالنار إنما كانت نتيجة المعصية فى الدنيا ، والمعصية فى الدنيا هى التى تجذب العصاة ، يقول الرسول صلى الله عليه وسلم فى ذلك : (مثلى ومثلكم كمثل رجل أوقد نارا فجعل الفراش والجنادب يَقعْن فيها وهو يذبّهنّ عنها ، وأنا آخذ بِحُجُزكم عن النار وأنتم تَفلّتون من يدى)[١] انظر إلى التشبيه الجميل ـ حين توقد ناراً فى خلاء فأول مظهر هو أن ترى الفراش والهوامّ والبعوض تأتى على النار ، ولذلك يقولون : رُبّ نفس عشقت مصرعها .

لقد جاءت تلك الحشرات على أساس أنها جاءت للنور ، إننا نرى ذلك عندما نُشعِل موقداً فى الخلاء فأنت تجد حوله الكثير من هذه الحشرات صرعى ، تلك

(١) رواه احمد ومسلم عن جابر .

الحشرات عشقت مصرعها ، إنها قد جاءت إلى النور ولكن النار أحرقتها ، كذلك الإنسان العاصي يعشق مصرعه ؛ لأنه لا يعرف أن هذه الشهوة ستدخله النار .

« فمن زُحزح عن النار » أي أن النار لها جاذبية مثل جاذبية المعصية عندما تأخذ الإنسان ، ومجرد الزحزحة عن النار ، حتى وإن وقف بينهما لا في النار ولا في الجنة فهذا حسن ، فما بالك إنْ زُحزح عن النار وأُدخل الجنة ؟ لقد زال منه عطب وأعطى صالحاً . وهذه حاجة حسنة ، وهذا هو السبب في أن النار مضروب على متنها الصراط الذي سنمر عليه ، لماذا ؟ حتى يرى المؤمن النار . . وهو ماشٍ على الصراط التي لو لم يكن مؤمناً لنزل فيها ، فيقول : الحمد لله الذي نجاني من تلك النار .

« فمن زُحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز » والفوز هو النجاة مما تكره ، ولقاء ما تحب ، مجرد النجاة مما تكره نعمة ، وأن تذهب بعد النجاة مما تكره إلى نعمة ، فهذا فوز . ونلحظ في « زُحزح » أن أحداً غيره قد زحزحه . نعم لأنّ الله تكرّم عليه أولاً في حياته بفيض الإيمان وهو الذي زحزحه عن النار أيضا .

ويذيل الحق الآية بقوله تعالى : « وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور » .

وعندما يصف الحق سبحانه الحياة التي نعرفها بأنها « دنيا » ففي ذلك ما يشير إلى أن هناك حياة توصف بأنها « غير دنيا » وغير الدنيا هي « العليا » ، ولذلك يقول الحق في آية أخرى :

﴿ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴾

(من الآية ٦٤ سورة العنكبوت)

أي هي الحياة التي تستحق أن تُسمّى حياة ؛ لأن الدنيا لا يقاس زمانها ببدايتها إلى قيام الساعة ، لأن تلك الحياة بالنسبة للكون كله ، ولكن لكل فرد في الحياة دنيا ليس عمرها كذلك ، وإنما دنيا كل فرد هي مقدار حياته فيها . ومقدار حياته فيها لا يُعلم أهو لحظة أم يوم أم شهر أم قرن . وقصارى الأمر أنها محدودة حداً خاصا لكل عمر ، وحداً عاماً لكل الأعمار .

والمتعة فى الدنيا على قدر حظ الإنسان فى المتع ، فهى على قدر إمكاناته . فإذا نظرنا إلى الدنيا بهذا المعيار فإن متاعها يعتبر قليلاً ، ولهذا لا يصح ولا يستقيم أن يغتر الإنسان بهذه المتعة متذكراً قول الله :

﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝ ﴾

(سورة العَلَق)

فالغرور إذن أن تلهيك متعة قصيرة الأجل عن متعة عالية لا أمد لانتهائها ، فحتى لا يغتر عائش فى الدنيا فيلهو بقليلها عن كثير عند الله فى الآخرة يجب أن يقارن متعة أجلها محدود وإن طال زمانها بمتعة لا أمد لانتهائها ، متعة على قدر إمكاناتك ومتعة على قدر سعة فضل الله ؛ لذلك كانت الحياة الدنيا متاع غرور ممن غُرّ بالتافه القليل عن العظيم الجليل .

والله لم يظلم الدنيا فوصفها أنها متاع ، ولكن نبهنا إلى أنها ليست المتاع الذى يُغتَرّ به فيلهى عن متاع أبقى ، إنه الخلود . وبعد ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى لرسوله ولأتباع رسوله قضية تُنشىء فيهم وتؤكد لهم أن الإيمان وحده خير جزاء للمؤمن ، وإن لم يتأت له فى الدنيا شىء من النعيم ، ولذلك أراد أن يوطنهم على أن الذين يدخلون الإيمان ، لا يوطِّنون أنفسهم على أن الإيمان دائماً منتصر ، فلو كان دائماً منتصراً لوطّن كل واحد نفسه عليه ورضيه لأنه يضمن له حياة مطمئنة ؛ لذلك كان لا بد أن يوضح لهم : أن هناك ابتلاءات . فالقضية الإيمانية أن تبتلوا ، وموقع البلاء فى نفوسكم أو فى أموالكم ، فقال :

﴿ لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ

وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾

والبلاء فى المال بماذا ؟ بأن تأتى آفة تأكله ، وإن وجد يكون فيه بلاء من لون آخر ، وهى اختبارك هل تنفق هذا المال فى مصارف الخير أو لا تعطيه لمحتاج ، فمرة يكون الابتلاء فى المال بالإفناء ، ومرة فى وجود المال ومراقبة كيفية تصرفك فيه ، والحق فى هذه الآية قدم المال على النفس ؛ لأن البلاء فى النفس يكون بالقتل ، أو بالجرح ، أو بالمرض . فإن كان القتل فليس كل واحد سيقتل ، إنما كل واحد سيأتيه بلاء فى ماله .

« ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا » هما إذن معسكران للكفر : معسكر أهل الكتاب ، ومعسكر المشركين . هذان المعسكران هما اللذان كانا يعاندان الإسلام ، والأذى الكثير تمثل فى محاولة إيذاء الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأذى الاستهزاء بالمؤمنين ، وأهل الكفر والشرك يقولون للمؤمنين ما يكرهون ، فوطّنوا العزم أيها المسلمون أن تستقبلوا ذلك منهم ومن ابتلاءات السماء بالقبول والرضا .

ويخطىء الناس ويظنون أن الابتلاء فى ذاته شرّ ، لا . إن الابتلاء مجرد اختبار ، والاختبار عرضة أن تنجح فيه وأن ترسب ، فإذا قال الله : « لتبلون » ، أى سأختبركم ـ ولله المثل الأعلى ـ كما يقول المدرس للتلميذ : سأمتحنك « فنبتليك » يعنى نختبرك فى الامتحان ، فهل معنى ذلك أن الابتلاء شرّ أو خير ؟ . إنه شرّ على من لم يتقن التصرف . فالذى ينجح فى البلاء فى المال يقول : كله فائت ، وقلل الله مسئوليتى ، لأنه قد يكون عندى مال ولا أحسن أداءه فى مواقعه الشرعية ، فيكون المال علىّ فتنة . فالله قد أخذ منى المال كى لا يدخلنى النار ، ولذلك قال فى سورة « الفجر » :

﴿ فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾

﴿وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ﴿١٦﴾﴾

(سورة الفجر)

فهنا قضيتان اثنتان : الإنسان يأتيه المال فيقول : ربى أكرمنى ، وهذا أفضل ممن جاء فيه قول الحق :

﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾

(من الآية ٧٨ سورة القصص)

إذن فالذى نظر إلى المال وظن أنّ الغنى إكرام ، ونظر إلى الفقر والتضييق وظن أنه إهانه ، هذا الإنسان لا يفطن إلى الحقيقة ، والحقيقة يقولها الحق:« كلا » أى أن هذا الظن غير صادق ؛ فلا المال دليل الكرامة ، ولا الفقر دليل الإهانة ، ولكن متى يكون المال دليل الكرامة ؟ يكون المال دليل كرامة إن جاءك وكنت موفقاً فى أن تؤدى مطلوب المال عندك للمحتاج إليه ، وإن لم تؤد حق الله فالمال مذلة لك وإهانة ، فقد أكون غنياً لا أعطى الحق ، فالفقر فى هذه الحالة أفضل ، ولذلك قال الله للاثنين : « كلا » ، وذلك يعنى : لا إعطاء المال دليل الكرامة ولا الفقر دليل الإهانة .

وأراد سبحانه أن يدلل على ذلك فقال :

﴿كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾﴾

(سورة الفجر)

« كلا بل لا تكرمون اليتيم » ومادمتم لا تكرمون اليتيم فكيف يكون المال دليل الكرامة ؟ إن المال هنا وزر ، وكيف إن سلبه منك يا من لا تكرم اليتيم يكون إهانة ؟ . . إنه سبحانه قد نزهك أن تكون مهانا ، فلا تتحمل مسئولية المال . إذن فلا المال دليل الكرامة ، ولا الفقر دليل الإهانة .

« كلا بل لا تكرمون اليتيم ولا تحاضون على طعام المسكين » وحتى إن كنت لا تمتلك ولا تعطى أفلا تحث من عنده أن يُعطى ؟ أنت ضنين حتى بالكلمة ، فمعنى تحض على طعام المسكين . أى تحث غيرك .. فإذا كنت تضن حتى بالنصح فكيف تقول إن المال كرامة والفقر إهانة ؟ . . « كلا بل لا تكرمون اليتيم ولا تحاضون على طعام المسكين وتأكلون التراث أكلاً لـمّا » أى تأكلون الميراث وتجمعون فى أكلكم بين نصيبكم من الميراث ونصيب غيركم دون أن يتحرّى الواحد منكم هل هذا المال حلال أو حرام . . فإذا كانت المسألة هكذا فكيف يكون إيتاء المال تكريماً وكيف يكون الفقر إهانة ؟ . . لا هذا ولا ذاك .

« لتبلون فى أموالكم وأنفسكم ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا » والذى يقول هذا الكلام : هو الله ، إذن لا بد أن يتحقق ـ فيارب أنت قلت لنا : إن هذا سيحصل وقولك سيتحقق ، فماذا أعطيتنا لنواجه ذلك ؟ـ اسمعوا العلاج : « وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور » . . تصبر على الابتلاء فى المال ، تصبر على الابتلاء فى النفس ، تصبر على أذى المعسكر المخالف من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا ، إن صبرت فإن ذلك من عزم الأمور ، والعزم هو : القوة المجتمعة على الفعل . فأنت تنوى أن تفعل ، وبعد ذلك تعزم يعنى تجمع القوة ، فقوله : « فإن ذلك من عزم الأمور » أى من معزوماتها التى تقتضى الثبات منك ، وقوة التجميع والحشد لكل مواهبك لتفعل .

إذن فالمسألة امتحان فيه ابتلاء فى المال ، وابتلاء فى النفس وأذى كثير من الذين أشركوا ومن الذين أوتوا الكتاب ، وذلك كله يحتاج إلى صبر ، و« الصبر » ـ كما قلنا ـ نوعان : « صبر على » و« صبر عن » ، ويختلف الصبر باختلاف حرف الجر ، صبر عن شهوات نفسه التى تزين للإنسان أن يفعل هذه وهذه ، فيصبر عنها ، والطاعة تكون شاقة على العبد فيصبر عليها ، إذن ففى الطاعة يصبر المؤمن على المتاعب ، وفى المعصية يصبر عن المغريات .

و« لتبلون فى أموالكم وأنفسكم » توضح أنه لا يوجد لك غريم واضح فى الأمر ، فالآفة تأتى للمال ، أو الآفة تأتى للجسد فيمرض ، فليس هنا غريم لك قد تحدد ،

ولكن قوله : « ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا » فهذا تحديد لغريم لك . فساعة ترى هذا الغريم فهو يهيج فيك كوامن الانتقام . فأوضح الحق : إياك أن تمكنهم من أن يجعلوك تنفعل ، وأَجِّلْ عملية الغضب ، ولا تجعل كل أمر يَسْتَخِفّك . بل كن هادئا ، وإياك أن تُسْتَخَفّ إلا وقت أن تتيقن أنك ستنتصر ، ولذلك قال : « وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور » .

واتقوا مثل « اتقوا الله » أى اتقوا صفات الجلال وذلك بأن تضع بينك وبين ما يغضب الله وقاية . عن أسامة بن زيد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ركب على حمار عليه قطيفة فدكية وأردف أسامة بن زيد وراءه يعود سعد بن عبادة ببنى الحارث بن الخزرج قبل وقعة بدر حتى مرّ على مجلس فيه عبدالله بن أبى بن سلول وذلك قبل أن يسلم ابن أُبَىّ ، وإذا فى المجلس أخلاط من المسلمين والمشركين عبدة الأوثان وأهل الكتاب اليهود والمسلمين وفى المجلس عبدالله بن رواحة ، فلما غشيت المجلس عجاجة الدابة خمّر عبدالله بن أبى أنفه بردائه وقال : لا تغبروا علينا ، فسلم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم وقف فنزل ودعاهم إلى الله عز وجل وقرأ عليهم القرآن فقال عبدالله بن أبى : أيها المرء إنه لا أحسن مما تقول إن كان حقا فلا تُؤذنا فى مجالسنا ، ارجع إلى رحلك فمن جاءك فاقصص عليه ، فقال عبدالله بن رواحة رضى الله عنه : بلىْ يا رسول الله فاغشنا به فى مجالسنا فإنا نحب ذلك ، فاستب المسلمون والمشركون واليهود حتى كادوا يتثاورون ، فلم يزل النبى صلى الله عليه وسلم يخفضهم حتى سكتوا ، ثم ركب النبى صلى الله عليه وسلم دابته فسار حتى دخل على سعد بن عبادة فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : « يا سعد » ألم تسمع إلى ما قاله أبو حباب » ؟ يريد عبدالله بن أبى ، قال : كذا وكذا فقال سعد : يا رسول الله اعفُ عنه واصفح فوالذى أنزل عليك الكتاب لقد جاءك الله بالحق الذى نزل عليك ، ولقد اصطلح أهل هذه البحيرة على أن يتوجوه فيعصبوه بالعصابة فلما أبى الله ذلك بالحق الذى أعطاك الله شرِقَ بذلك ، فذلك الذى فعل به ما رأيت . فعفا عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم[1] .

---

(١) رواه البخارى فى صحيحه عند تفسير هذه الآية

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾ ﴾

ونعرف ـ من قبل ـ أن الله قد اخذ عهداً وميثاقاً على كل الأنبياء أن يؤمنوا برسالة محمد عليه الصلاة والسلام فى قوله :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

ونأتى هنا إلى عهد وميثاق آخذه الله على أهل الكتاب الذين آمنوا بأنبيائهم ، هذا العهد هو : « وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتواالكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه » .

فما الذى يبينونه ؟ وما الذى يكتمونه ؟

وهل هم يكتمون الكتاب ؟ نعم لأنهم ينسون بعضا من الكتاب ، وما داموا ينسون بعضاً من الكتاب فمعنى ذلك أنهم مشغولون عنه :

﴿ فَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ ﴾

(من الآية ١٤ سورة المائدة)

والذى لم ينسوه من المنهج ، ماذا فعلوا به ؟ :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ ﴾

(سورة البقرة)

لقد كتموا البينات التى أنزلها الله فى الكتاب ، فالكتم عملية اختيارية ، أما النسيان فقد يكون لهم العذر أنهم نسوه ، لكنهم يتحملون ذنباً من جهة أخرى ، إذ لو كان المنهج على بالهم وكانوا يعيشون بالمنهج لما نسوه . والذى لم ينسوه كتموا بعضه ، والذى لم يكتموه لووا به ألسنتهم وحرّفوه .

وهل اقتصروا على ذلك ؟ لا . بل جاءوا بشىء من عندهم وقالوا : هو من عند الله :

﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾

(سورة البقرة)

وقولهم : « هذا من عند الله » ما يصح أن يقال إلا لبلاغ صادق عن الله ، وكلمة « ليشتروا به ثمناً قليلا » لا بد أن توسع مدلولها قليلاً ، ولها معنى عام ، ونحن نعرف أن الثمن نشترى به ، فكيف تشترى أنت الثمن ؟ أنت إذن جعلت الثمن سلعة ، وما دام الثمن يُجعل سلعة فيكون ذلك أول مخالفة لمنطق المبادلة ؛ لأن الأصل فى الأثمان أن يُشترى بها ، أصل المسألة أنّ نَعْت رسول الله صلى الله عليه وسلم كان موجوداً عندهم فى الكتب ثم أنكروه .

﴿ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ ﴾

(من الآية ٨٩ سورة البقرة)

إذن فقوله : « لتبيننه » يعنى لتبينن أمر الرسول صلى الله عليه وسلم ، كما هو موجود عندكم دون تغيير أو تحريف ، وعندما يبينون أمر الرسول بأوصافه ونعوته فهم يبينون ما جاء حقاً فى الكتاب الذى جاءهم من عند الله . وهكذا نجد أن المعانى تلتقى ، فإن بينوا الكتاب الذى جاء من عند الله ، فالكتاب الذى جاء من عند الله فيه نعت محمد ، وهكذا نجد أن معنى تبيين الكتاب ، وتبيين نعت رسول الله بالكتاب أمران ملتقيان .

« لتبيننه للناس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم » يقال : نبذت الشىء أى طرحته بقوة ، وذلك دليل على الكراهية ؛ لأن الذى يكره شيئاً يحب أن يقصر أمد وجوده ، ومثال ذلك : لنفترض أن واحداً أعطى لآخر حاجة ثم وجدها جمرة تلسعه ، ماذا يفعل ؟ هو بلا شعور يلقيها بعيداً . والنبذ له جهات ، ينبذه يمينه ، ينبذه أمامه ، ينبذه شماله،أما إذا نبذه خلفه ، فهذا دليل على أنه ينبذه نبذة لا التفات إليها أبداً ، انظر التعبير القرآنى « فنبذوه وراء ظهورهم » .

إن النبذ وحده دليل الكراهية لوجود الشىء الذى يبغضه ، إمعان فى الكراهية والبغض ، فلو رمى إنسان شيئاً أمامه فقد يحن له عندما يراه أو يتذكره ، لكن إن رماه وراء ظهره فهذا دليل النبذ والكراهية تماما ، ولذلك يقولون : لا تجعلن حاجتى بظهر منك ، يعنى لا تجعل أمرا أريده منك وراء ظهرك ، والحق يقول : « فنبذوه وراء ظهورهم » أى أنهم جماعة و« ظهور » جمع « ظهر » ، كأن كل واحد منهم نبذه وراء ظهره . وكأن هناك إجماعاً على هذه الحكاية ، وكأنهم اتفقوا على الضلال ، واشتروا به ثمناً قليلاً فبئس ما يشترون . والمشترى هنا هو الثمن ، والثمن يُشترى به ؛ ولنتدقق النظر فى التعبير القرآنى ، فهناك واحد يشترى هذا الأمر بأكلة ، وآخر يشترى هذه الحكاية بحُلَّة أو لباس ، وهناك من يشتريها بحاجة وينتهى ، إنما هم يقولون : نريد نقوداً ونشترى بها ما نحب ، هذا معنى « واشتروا به ثمناً » .

ويعلق الحق على ما يشترونه قائلاً : « فبئس ما يشترون » لماذا ؟ لأنك قد تظن أن بالمال ـ وهو الثمن ـ تستطيع أن تشترى به كل شىء ، ولكن النقود لا تنفع الإنسان كما تنفعه الحاجة المباشرة ؛ لأننا قلنا سابقاً : هب أن إنساناً فى مكان صحراوى ومعه

جبل من ذهب وليس معه كوب ماء ، صحيح أن المال يأتى بالأشياء ، إنما قد يوجد شيء تافه من الأشياء يغني ما لا يغنيه المال ولا الذهب ، فيكون كوب الماء مثلاً بالدنيا كلها ، ولا يساويه أى مال « فبئس ما يشترون » .

وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾ ﴾

والحسبان للأمر أن يظنه السامع دون حقيقته ، والأمور التى يظنها السامع تسير أولاً على ضوء الشيء الواضح دون التدبر لما وراء واجهات الأشياء ، فالذين يفرحون بما أتوا نوعان : نوع يفرح بما أتاه مناهضاً لدعوة الحق كالمنافقين الذين فرحوا بأنهم غشوا المؤمنين ، وتظاهروا بالإيمان فعاملهم المؤمنون بحق الأخوة الإيمانية ، حدث هذا قبل أن يكشف الحق هؤلاء المنافقين للرسول صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين من بعد ذلك .

ونوع آخر يفرح لما أتاه وجاء به مناصراً لدعوة الحق فالفرح الأول ـ وهو فرح المنافقين ـ ممنوع ، والفرح الثانى مشروع . ولذلك يقول الحق :

﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ ﴾

(من الآية ٥٨ سورة يونس)

إذن فلم ينه الله عن مطلق الفرح ولكن ليفرحوا بفضل الله . إنه سبحانه قد نهى عن نوع من الفرح فى مسألة قارون :

﴿ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴾

(من الآية ٧٦ سورة القصص)

وهكذا نجد آيات تنهى عن الفرح وآيات تثبت للمؤمنين الفرح ، وتأمرهم به . إذن فالفرح فى ذاته ليس ممقوتاً ، ولكن الممقوت بعض دواعى ذلك الفرح ، فدواعيه عند المؤمن أن يفرح بنصر الله ، وأن يفرح بإعلاء كلمة الحق ، وهذه دواع مشروعة . ودواعيه الممنوعة أن يفرح بأن يقف أمام مبدأ من مبادىء الله ليدحض ذلك المبدأ ، وهذا ما يفرح به الكافر ، ولكن الفرح الحقيقى هو الفرح الذى لا يعقبه ندم ، ففرح المؤمن موصول إلى أن تقوم الساعة ، وموصول بعد أن تقوم الساعة . ولكن فرح الكافر والمنافق وأهل الكتاب الذين يصورون الله على غير حقيقته فرح موقوت وممقوت ، إذن فذلك لا يعتبر فرحاً ؛ لأن الندم بعد الفرح يعطى عاقبة شر ؛ لأن النادم يتحسر دائما على فعله فهو فى غم وحزن .

فالحق سبحانه وتعالى يريد أن يعطى للمؤمن مناعة ، إنكم أيها المؤمنون تواجهون معسكرات تعاديكم . هذه المعسكرات ستفرح بما أتته ضدكم فيجب ألا يفتّ ذلك فى عضدكم ، ولا تحسبنهم إن فعلوا ذلك بمنجاة من العذاب ، ومادام فرحهم سيؤدى بهم إلى العذاب فهو فرح أحمق .

وماذا صنع الذين جاء فيهم القول : « لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا » يحتمل أن يكون المراد هم أهل الكتاب الذين كتموا نعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لأن الآية السابقة تقول : « وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم » ماذا فعل هؤلاء إذن ؟ لقد كتموا أوصاف رسول الله ونعته الموجود فى كتبهم وفرحوا بما كتموا ، وبعد ذلك أحبوا أن يحمدوا بما فعلوا من الذين على طريقتهم فى الكفر والضلال .

إن الإنسان قد يأتى الذنب ولكنّه يندم بعد أن يفعله ، ولكنه حين يسترسل فيفرح بما فعل فذلك ذنب آخر ، وهكذا صار إتيان العمل ذنباً ، والفرح به ذنباً آخر ؛ لأنه لو ندم على ما فعله لكان الندم دليلا على التوبة ، أما أن يأتى العمل وبعد ذلك يفرح

به ثم يأتى بعد ذلك الأشد ؛ فيحب أن يُحمد بما لم يفعل ، فذلك من تمام الحمق ، إنه جرم وذنب مركب من فعل آثم ، ففرح به ، فحب لحمد على شيء لم يفعله .

أكان يحب أن يُحمد بما فعل أو بما لم يفعل ؟ بما لم يفعل ، لأنه خلع على أمره غير الحق ، وإذا قال قائل : إنها نزلت فى المنافقين الذين تخلفوا عن رسول الله فالقول محتمل ؛ لأن هؤلاء تخلفوا عن الحرب مع رسول الله وفرحوا بأن متاعب السفر ومتاعب الجهاد لم تنلهم ، وبعد ذلك اعتذروا لرسول الله صلى الله عليه وسلم اعتذارات كاذبة ولو ندموا لكان خيراً لهم،ولم يتضح للمسلمين كذبهم فحمدوا لهم ذلك الاعتذار ، إنهم قد أتوا الذنب ، وفرحوا بأنهم أتوه ، ونجوا من مغارم الحرب ، وبعد ذلك فرحوا أيضاً بأنهم أحبوا أن يحمدوا بما لم يفعلوا ، لأن اعتذارهم كان نفاقاً ، سواء كان هذا أو ذاك فالآية على إطلاقها : للذين يفرحون بما أتوا من مناهضة الحق وذلك فعل ، والفرح به ذنب آخر ، والرغبة فى الحمد عليه شيء ثالث ، إذن فالذنب مركب ، فهم يسترون الأمر ويبينون نقيضه كى نحمدهم ونشكرهم ، والحق سبحانه وتعالى يعطى لهذا دستوراً إيمانياً لمطلق الحياة .

« ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا » وهل المنعى عليهم أنهم يحبون أن يحمدوا ؟ أو المنعى عليهم والمأخوذون به أنهم يحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا ؟ إن المنعى عليهم أنهم يحبون،أن يحمدوا بما لم يفعلوا ؛ لأن الإنسان إن أحب أن يُمدح بما فعل فلا مانع ، والقرآن حين يعالج نفساً بشرية خلقها الله بملكات ، فهو يعلم مطلوبات الملكات ، بعض الملكات قد تحتاج إلى شيء فلا يتجاوز الله هذا الشئ ، إنّ الإنسان مطبوع على حب الثناء من الغير ، لأن حب الثناء يثبت له وجوداً ثانيا ، ووجودك الثانى هو أن تعبر عن نفسك بعملك الذى يكون مبعث الثناء عليك ، والناس لا تثنى على وجودك ، لكنها تثنى على فعلك .

ومادام الإنسان يحب الثناء فسيغريه ذلك بأن يعمل ما يُثنى به عليه ، ومادام يُغرى بما يُثنى عليه فسيعمل بإتقان أكثر ، وساعة يعمل فإن المحيط به ينتفع من عمله ، والله يريد إشاعة النفع فلا يمنع سبحانه حب الثناء كى يزيد فى الطاقة الفاعلة للأشياء ؛ لأنه لو حرّم ذلك الثناء فلن يعمل إلا من كانت ملكاته سوية ، وسيفقد

المجتمع طاقات من كانت ملكاته قليلة ، فصاحب الملكات القليلة يريد أن يُمدح ، فلا مانع من مدحه ليزيد من العمل ، ويُمدح مرة ثانية ، وتستفيد الناس ، والذى ينتظر الثناء من الناس تنزل منزلته ومرتبته عن مرتبة من انتظر التقدير من الله ، فهو الذى جنى على نفسه فى ذلك . لكن لابد أن نمدحه كى يعمل بما فيه من غريزة حب الثناء فنكون قد زدنا من عدد طاقات العاملين .

ولذلك نجد أن الحق سبحانه وتعالى حينما عرض لهذه القضية ، وهى قضية تزكية الصالح وتجريم الطالح الفاسد فى قصة « ذى القرنين » يقول تعالى :

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُواْ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ ﴾

(سورة الكهف)

كى تعلم أن المَمَكَّنَ لا يُمَكَّنُ بذاته وإنما هو ممكن بمن مَكّنَهُ ، فلو كان عنده تفكير إيمانى ، لما أغرته الأسباب أن يتمرد ؛ لأن الإيمان يعلمه أن الأسباب ليست ذاتية . ومن أجل أن يثبت الله أن الأسباب غير ذاتية فهو ينزع الملك ممن يشاء ، ويهب الملك من يشاء ، نقول له : لو كانت الأسباب ذاتية فتمسك بها ، لكن الأسباب هبة من الله « وآتيناه من كل شىء سببا » وحين يأتيه الله الأسباب فالأسباب أنواع : سبب مباشر للفعل ، وسبب متقدم على السبب المباشر ، فأنت إذا ارتديت ثوباً جميلاً ، فوراء ذلك أنك أتيت بالقماش الذى نسجه النساج ، والنساج استطاع إتقان عمله بعد أن قام الغزّال بغزل القطن ، والقطن نتج لأن فلاحاً بذر البذور ورعى الأرض بالحرث والرى . فأنت إن نظرت إلى الأسباب المباشرة المتلاحقة فانظر إلى نهاية الأسباب ، وستصل إلى شىء لا سبب له إلا المسبب الأعلى وهو الله ـ جلت قدرته ـ .

وسلسل أى شىء فى الوجود ستجد أنك أخيراً أمام سبب خلقه الله ، مثال ذلك النور الكهربى الذى تتمتع أنت به . ستجد أن المعمل قام بصنع الزجاج الخاص بالمصابيح الكهربية ، ونوع من المصانع يصنع الأسلاك الموجودة بالمصباح ، وستنتهى إلى شىء موجود لا يوجد فيه بشر ، فتصل إلى الحق سبحانه وتعالى .

أنت مثلاً جالس على الكرسى . وقد تقول : لقد صنعه النجار والنجار جاء بالخشب من البائع ، والبائع جاء بالخشب من الغابة ، فمن أين جاء الخشب إلى الغابة ؟ تقول : لا أعرف ، أما إذا كان عندك الحس الإيمانى فأنت تقول : أوجده الله . وحين تنتهى الأسباب وسلسلتها نجد الله الخالق « إنا مكنا له فى الأرض وآتيناه من كل شىء سببا فأتبع سببا » فعندما أعطاه الله الأسباب جاء هو بالوسائط فقط ، إذن فالأصل كله من الله .

ويتابع الحق : « حتى إذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب فى عين حمئة » هذا فى عين الناظر فقط ، فأنت حين تركب البحر ثم ترى الشمس عند الغروب تغطس فى البحر ، وعندما تذهب للمنطقة التى غطست الشمس فيها تجد الشمس موجودة ؛ لأنها لا تغيب أبدا، إنما «تغرب فى عين حمئة» أى فوجد الشمس فى نظره عند غروبها عنه كأنها تغرب فى مكان به عين ذات ماء حار وطين أسود . ويتابع الحق : « ووجد عندها قوماً قلنا يا ذا القرنين إما أن تعذب وإما أن تتخذ فيهم حسنا » .

والناس تفهم أن هذا تخيير ، يعنى إما أن تعذبهم ، وإما تُحسن إلى من كنت تعذبهم ، لكن الدقة والتمعن يوضحان لنا أن الحق قد أعطى تفويضاً لذى القرنين ، بقوله : « إما أن تعذب وإما أن تتخذ فيهم حسنا » فَفَهِمَ ذو القرنين عن الله التفويض ، ولم يأخذ التفويض وافترى ، بل قال : « أما من ظلم فسوف نعذبه » . وليس هذا هو العذاب الذى يستحقه ، لا ، نحن سنعذبه فى دنيانا كى لا يستشرى فيها الشرّ . وفوق ذلك سيعذبه الله عذاباً آخر .

« أما من ظلم فسوف نعذبه ثم يردّ إلى ربه فيعذبه عذاباً نكرا » إنه أولاً لم يصف عذابه بنكر ، إنما وصف عذاب الله فقال : « فيعذبه عذاباً نكرا » ، لأن عذاب البشر للبشر على قدر البشر ، لكن عذاب الله يتناسب مع قدرة الله ، فهل لنا طاقة بهذا العذاب والعياذ بالله ؟ ليس لنا طاقة به ، وماذا عن موقف ذى القرنين من الذى آمن ؟ إنه موقف مختلف .

يقول الحق : « وأما من آمن وعمل صالحا فله جزاء الحسنى وسنقول له من أمرنا

يسرا » هو يجازيه بالحسنى ويعطيه المكافآت ويكرمه ، وعندما يتساءل من يحب الثناء قائلاً : لماذا كرِّم هذا ؟ ويرى أسباب التكريم فيقول لنفسه لأصنعنَّ مثله كى أكرَّم . ولذلك تجد الشباب يتهافت حتى على اللعب بكرة القدم لماذا ؟ لأنهم يجدون من يضع هدفاً فى كرة القدم يكرَّم ، فيقول : أنا أريد أن أضع هدفاً .

هذا وإن ديننا الحنيف يدعونا إلى أن نشكر من قدم خيرا أو أُسدى معروفا حَفزاً للهمم وتشجيعا لبذل الطاقات وفى الأثر : « من لم يشكر الناس لم يشكر الله » إذن فحب الثناء من طبيعة الإنسان ، ولكى تُغرى الناس بأن يعملوا لابد أن تأتى لهم بأعمال تستوعب طاقاتهم المتعددة ، أما إذا اقتصر إتقان العمل على من لا يحبون الثناء ، فسنقلل الأيدى التى تفعل ، ولذلك تجد العمل حيث توجد المكافأة التشجيعية التى يأخذها من يستحقها ويقابلها من التجريم والعقوبة لمن يهمل فى عمله ، فلا يمنح رئيس عمل مكافأة لمن عملوا على هواهم ، بل عليه أن يمنحها لمن أدى عمله بإتقان . وحين يعلم الناس أنه لا يجازى بالخير ولا يكرَّم بالقول إلا من فعل فعلاً حقيقياً فالكل يفعل فعلاً حقيقياً ، لكن عندما تجد الناس أن المكافآت لا يأخذها أحدٌ إلا بالتزلف وبالنفاق وبالأشياء غير المشروعة فسيفعلون ذلك ، وهكذا تأتى الخيبة .

وهكذا تجد أن قوله الحق :« لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا » .

إن هذا القول يضع أساساً ودستوراً إيمانياً لمطلق الحياة ، وعلاقة الحاكم بالمحكومين ، وعلاقة الفرد بنفسه وبمن حوله . وعلاقة الإنسان بالعمل الصالح أو بالذنوب ؛ فالإنسان إذا ما أتى ذنباً ، فربما يكون قد نفّس عن نفسه بارتكاب الذنب ، لكن بعد ما تهدأ شِرّة المعصية يجب عليه أن ينتبه فيندم ولا يفرح . هذه أول مرحلة . ولا يتمادى فى ارتكاب الذنب ، أما إذا تمادى وخلع على فعله النقيض وادّعى أنه قد أتى فعلاً حسناً حتى يناله مدح بدلاً من أن يناله ذم فذلك ذنب مركب ، ويحشره الله ضمن من قال فيهم : « فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب » .

والمفازة هى المكان الذى يظن الإنسان أن فيه نجاته ، أى أن فى هذا المكان فوزاً

له ، ويطلقون كلمة « مفازة » على الصحراء إطلاقاً تفاؤلياً ، لا يسمونها « مهلكة » لأن الذى كان يجوبها يهلك فسموها « مفازة » تفاؤلاً بأن الذى يسلكها يفوز ، أو أن الصحراء أرض مكشوفة ، ومادام الإنسان قد وصل إلى أرض مكشوفة فلن يصادف ما يخافه من حيوانات شرسة أو من وافدات ضارة كالحيّات ، أو من عدو راصد ، وفى ذلك فوز له ، لأنه تجنب هذه المخاطر ، إنه إن سار فى الجبال والوديان فمن الممكن أن تستر عنه الوحوش المفترسة أو الهوام أو تستر عنه الذين يتتبعونه فلا يتوقاهم وقد يصيبونه بالأذى ، فإذا ما ذهب إلى الأرض المكشوفة نجا من كل هذا لأنه ينأى ويبتعد عنهم ، وتكون التسمية على حقيقتها ، ومن يرى أن الصحراء مهلكة فليعرف أنها سميت « مفازة » تفاؤلاً ، كما يسمون اللديغ الذى لدغه الثعبان بـ « السليم » .

ونحن فى أعرافنا العادية نتفاءل فنضع للشىء اسما ضد مسماه تفاؤلاً بالاسم ، مثال ذلك : إذا كنت فى ضيافة إنسان وقدم شراباً . قهوة مثلاً ، وبعد أن نشرب القهوة يأتى الخادم فيقول من قدم لك القهوة لخادمه : تعال « خذ المملوء » ولا يقول : « خذ الفارغ » وهذا لون من التفاؤل .

«فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب ولهم عذاب أليم » هم يظنون أنهم بمفازة من العذاب برغم أنهم لا يؤمنون بالحق ، ولا يؤمنون بسيطرة الحق على كل أحوالهم وكل أمورهم فهم يظنون أن انتصارهم فى معركة الدنيا لا هزيمة بعده ، ولكن الحق بعد هذه الآية قال :

﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١٨٩ ﴾

راجع أصله وخرج أحاديثه الدكتور أحمد عمر هاشم نائب رئيس جامعة الأزهر .

فهرس آيات المجلد الثالث

سورة آل عمران		الصفحة	سورة آل عمران		الصفحة	سورة آل عمران		الصفحة
الآية	١٢٥	١٧٣٥	الآية	١٤٧	١٨٠٨	الآية	١٦٩	١٨٦٩
الآية	١٢٦	١٧٣٦	الآية	١٤٨	١٨١١	الآية	١٧٠	١٨٧٠
الآية	١٢٧	١٧٣٦	الآية	١٤٩	١٨١٢	الآية	١٧١	١٨٧٢
الآية	١٢٨	١٧٣٨	الآية	١٥٠	١٨١٢	الآية	١٧٢	١٨٧٢
الآية	١٢٩	١٧٣٩	الآية	١٥١	١٨١٣	الآية	١٧٣	١٨٧٤
الآية	١٣٠	١٧٤٧	الآية	١٥٢	١٨١٧	الآية	١٧٤	١٨٧٦
الآية	١٣١	١٧٥٠	الآية	١٥٣	١٨٢٠	الآية	١٧٥	١٨٨١
الآية	١٣٢	١٧٥٠	الآية	١٥٤	١٨٢٢	الآية	١٧٦	١٨٨٢
الآية	١٣٣	١٧٥١	الآية	١٥٥	١٨٣٠	الآية	١٧٧	١٨٨٩
الآية	١٣٤	١٧٥٣	الآية	١٥٦	١٨٣٢	الآية	١٧٨	١٨٩٣
الآية	١٣٥	١٧٥٧	الآية	١٥٧	١٨٣٢	الآية	١٧٩	١٨٩٥
الآية	١٣٦	١٧٦٠	الآية	١٥٨	١٨٣٤	الآية	١٨٠	١٩٠٣
الآية	١٣٧	١٧٦٣	الآية	١٥٩	١٨٣٥	الآية	١٨١	١٩٠٦
الآية	١٣٨	١٧٧٣	الآية	١٦٠	١٨٤٢	الآية	١٨٢	١٩١٢
الآية	١٣٩	١٧٧٤	الآية	١٦١	١٨٤٥	الآية	١٨٣	١٩١٥
الآية	١٤٠	١٧٧٨	الآية	١٦٢	١٨٤٧	الآية	١٨٤	١٩٢٠
الآية	١٤١	١٧٨٥	الآية	١٦٣	١٨٤٨	الآية	١٨٥	١٩٢٤
الآية	١٤٢	١٧٨٥	الآية	١٦٤	١٨٥٠	الآية	١٨٦	١٩٢٨
الآية	١٤٣	١٧٨٦	الآية	١٦٥	١٨٦٠	الآية	١٨٧	١٩٣٣
الآية	١٤٤	١٧٨٧	الآية	١٦٦	١٨٦٤	الآية	١٨٨	١٩٣٦
الآية	١٤٥	١٨٠٠	الآية	١٦٧	١٨٦٥	الآية	١٨٩	١٩٤٢
الآية	١٤٦	١٨٠٥	الآية	١٦٨	٨١٦٨			

إنه سبحانه حكم فيما يملك ولا أحد يستطيع أن يخرج من ملكه ، ومادام لله ملك السماوات والأرض ، فحين يقول : « فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب ولهم عذاب أليم » فهذا الوعيد سيتحقق ؛ لأن أحداً لا يفلت منه ، ولذلك يقول أهل الكشف وأهل اللماحية وأهل الفيض : اجعل طاعتك لمن لا تستغنى عنه ، واجعل شكرك لمن لا تنقطع نعمه عنك ، واجعل خضوعك لمن لا تخرج عن ملكه وسلطانه .

إذن فـ « ولله ملك السماوات والأرض » تدل على أن الله حين يوعد فهو ـ سبحانه ـ قادر على إنفاذ ما أوعد به ، ولن يفلت أحد منه أبدا . وهذه تؤكد المعنى . فإذا ما سُرّ أعداء الدين فى فورة توهم الفوز ، فالمؤمن يفطن إلى النهاية وماذا ستكون ؟ ولذلك تجد أن الحق سبحانه وتعالى قال :

﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ ۝ ﴾

(سورة المسد)

وهذه السورة قد نزلت فى عمّ رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكانت هذه السورة دليلاً من أدلة الإيمان بصدق الرسول فى البلاغ عن الله ، لأن أبا لهب كان كافراً ، وكان هناك كفرة كثيرون سواه ، ألم يكن عمر بن الخطاب منهم ؟ ألم يكن خالد بن الوليد منهم ؟ ألم يكن عكرمة بن أبى جهل منهم ؟ ألم يكن صفوان منهم ؟ كل هؤلاء كانوا كفاراً وآمنوا ، فمن الذى كان يدرى محمداً صلى الله عليه وسلم أنه بعد أن يقول : « تبت يدا أبى لهب وتب ، ما أغنى عنه ماله وما كسب ، سيصلى ناراً ذات لهب ، وامرأته حمالة الحطب ، فى جيدها حبل من مسد » من كان يدرى محمداً بعد أن يقول هذا ويكون قرآناً يُتلى ويحفظه الكثير من المؤمنين ، وبعد ذلك كله من كان يدريه أن أبا لهب لن يأتى ويقول : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وقد يضيف : إن كان محمد يقول : إننى سأصلى ناراً ذات لهب فهأنذا قد آمنت ، مَن كان يدريه أنه لن يفعل ، مثلما فعل ابن الخطاب ، وكما فعل عمرو بن العاص . إن الذى أخبر محمداً يعلم أن أبا لهب لن يختار الإيمان أبداً ، فيسجلها القرآن على

نفسه ، وبعد ذلك يموت أبو لهب كافرا .

وكأن الله يريد أن يؤكد هذا فيوضح لك : إياك أن تظن أن ذلك الوعيد يتخلف ؛ لأنى أنا « أحد صمد » ، ولا أحدَ يعارضنى فى هذا الحكم ؛ لذلك يقول فى سورة الإخلاص : « قل هو الله أحد الله الصمد » .

فمادام « هو الله أحد » فيكون ما قاله أولاً لن ينقضه إله آخر ، وستظل قولته دائمة أبداً . إذن فقول الحق سبحانه وتعالى بعد قوله : « فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب ولهم عذاب أليم » ، « ولله ملك السماوات والأرض » يوضح لنا أنه قد ضم هذا الوعيد إلى تلك الحقيقة الإيمانية الجديدة : « ولله ملك السماوات والأرض » وجاء بالقوسين ؛ لأن السماء تُظِل ، والأرض تُقِل ، فكل منا محصور بين مملوكين لله ، ومادام كل منا محصوراً بين مملوكين لله ، فأين تذهبون ؟ « ولله ملك السماوات والأرض » وقد يكون هناك المَلِك الذى لا قدرة له أن يحكم ، فيوضح سبحانه ؛ لا ، إن لله المُلْكَ وله القدرة .

« والله على كل شىء قدير » ثم يأتى بعد ذلك إلى تصور إيمانى آخر ليحققه فى النفوس بعد المقدمات التى أثبتت صدق الله فيما قال بواقع الحياة :

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ﴾

سبحانه يريد أن يبنى التصور الإيمانى على جذور ثابتة فى النفس البشرية ؛ لأن الإنسان الذى يفاجأ بهذا الكون ، وفيه سماء بهذا الشكل : بلا عمد ، وتحتها الكواكب ، وأرض مستقرة ، بالله ألا يفكر فيمن صنع هذا ؟ والله لو أن واحدا

استيقظ من نومه ووجد سرادقا قد نصب فى الميدان ليلا لوقف ليسأل : ما الحكاية ؟ فما بالنا بواحد فتح عينيه فوجد هذا الكون المنتظم الذى يعطيه أسباب الحياة ؟

ولذلك يجىء فى سورة أخرى ليشرح هذه القضية شرحا يجلى لنا قضية الإيمان بالفكر الإنسانى ، فلا ننتظر الواعظ فقط الذى يأتينا بالرسالة والنبوة ليدل على المنهج المراد لمن خلق ، بل يحتم علينا أن نتنبه بالفطرة إلى من خلق ، لأننا قلنا من قبل :لو أن إنساناً وقعت به طائرة فى صحراء ، ولم يجد فيها ماء ولا شجراً ولا أناسا ولأنه مجهد غلبه النوم ، فاستيقظ فوجد مائدة عليها أطايب الطعام ، بالله قبل أن يمد يده لينتفع بها ، ألا يجول فكره فيمن صنع هذه ؟ إن دهشته من الحدث تجعله يفكر فيمن جاء بها قبلما يذوق الطعام ، رغم أنه جوعان ، فكذلك الناس الذين فتحوا عيونهم فوجدوا هذا الكون العجيب ، وبعد ذلك لم يدَّع أحد منهم أنه خلقه ، ولو كان أحد قد ادعى أنه خلقه . . لكانت المسألة تسهل ، لكن أحدا لم يدع صنعه . هذا الكون الذى نراه جميعا بانتظامه الرائع ، وقوانينه الثابتة . هل قال أحد : إننى صنعته ؟ لا ، إذن فالذى قال : إننى صنعته تسْلم له الدعوة ، حتى يأتى واحد آخر يقول : أنا الذى صنعته . لم يحدث هذا قط برغم وجود الملاحدة والمفترين على الله ، ولذلك جاء قوله تعالى :

﴿ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾

(من الآية ٦٠ سورة النمل)

كأن الحق يقول : إن لم أكن أنا الذى خلقت فمن الذى خلق إذن ؟ ولم يجرؤ أحد على أن ينسب الكون لنفسه ؛ لأن الكفار والملاحدة لا يستطيعون خلق شىء تافه من عدم . ومثال ذلك كوب الماء الذى تركه الله ولم يخلقه على الصورة التى هو عليها ، كى يصنعوه ليفهموا أن كل شىء تم بخلقه ـ سبحانه ـ كوب الماء هذا شىء تافه أترف الحياة ، وقبل أن تتم صناعة الكوب كنا نشرب ولم يكن هناك شجر يطرح ويثمر أكواباً بل صنعه إنسان أراد أن يترف الحياة ، فإذا كان هذا الشىء الصغير له صانع جال فى نواحى علوم شتى وفى المادة ، ثم نظر إلى الأرض حتى وجد المادة التى عندما تُصهر تعطى هذه الشفافية واللمعان ، فجرب فى عناصر الأرض فلم يجد إلا الرمل[1] .

(١) قيل إن رمل سيناء من أفضل المواد لهذه الصناعة .

واكتشف هذه المادة ومزجها بمواد أخرى لصهرها وإذابتها واحتاجت صناعة الكوب إلى معامل وعلماء ، كل هذا من أجل الكوب الصغير الذى قد تستغنى عنه ، انظر ما يحتاجه لصنعه ؟ احتاج طاقات جالت فى جميع مواد الأرض ، وإمكانات صناعية وأناساً يضعون معادلات كيماوية ، فما بالنا بالأشياء الأصلية وكم تحتاج ؟

إن كل صنعة تحتاج على قدرها ، ولم يقل أحد : إننى صنعتها ، فيقول الحق : من الذى صنع كل هذا ؟ وساعة يطرح سؤالاً فهو لا يريد أن يجعل القضية إخبارية منه ، وهو القادر أن يقول : أنا الذى خلق السماء والأرض ؟ فماذا يفعل المسئول ؟ إنه يتخبط فى إجابته ثم فى النهاية لا يجد إلا الله .

وكأن السائل لا يطرح هذا السؤل إلا إذا وثق أن الإجابة لا تكون إلا على وفق ما يريد « أَمَّن خلق السماوات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به » وجاء هنا بالحاجة المباشرة . . « فأنبتنا به حدائق ذات بهجة » أى أنها تسرّ النظر بما فيها من خضرة ، ونضارة ، وطراوة ، وظل ، وأزهار ، وثمار ، ولم يختصر الأمر فيقول : « لتأكلوا منها » لأن الذى يأكل هو الذى يملك فقط ، لكن جمال المنظر لا يحجزه أحد عن كل من يرى ، ويستمتع بما يراه . وكل منا عندما يرى بستاناً جميلاً يسره منظره ، صحيح أنك لا تمد يدك لتأكل منه لأنه ليس ملكك ، لكن هل يمنعك أحد أن تمتع به نظرك . وأن تمتع أنفك برائحته الجميلة ؟ لا .

وهكذا جاء الحق بالنعمة الشائعة لمن يملك ولمن لا يملك فقال : « ذات بهجة » ونعرف أن الحق سبحانه وتعالى حين يمتن بالأشياء يوضح لك : إياك أن تفهم أن الغرض من هذه المسألة أن تأكلها لتملأ بها بطنك فقط ؛ لأن هناك أشياء جميلة لا ننتفع بها أكلاً ، فهناك ألوان من الشجر ليس له ثمرة لكن لابد أن له عملاً ؛ فورقه الجميل قد يفيد فى الظل وما يشيعه من رائحة تعطر الجو ، وبه خشب نحتاج إليه ، وبجانب هذا نجد أشجاراً لها ثمار جميلة ننتفع بها .

ولذلك يقول الحق :

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا

نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ انظُرُوٓا إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾

(سورة الأنعام)

وسبحانه يستفهم من الإنسان « ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أإله مع الله بل هم قوم يعدلون » .

بسطحية راح أحد المستشرقين يردد : أَيَنْعَى الله على الخلق ويعيب عليهم أن يعدلوا ؟ ذلك أنه لم يفهم المعنى الصحيح ، فالعدل هنا بمعنى العدول عن الحق أو الميل عنه . ويقول :

﴿ أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَءِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ ﴾

(سورة النمل)

إنه سبحانه الذى خلق الأرض ومن خلالها الأنهار وجعل فيها الجبال الرواسى ، ويوضح الحق سبب وجود الجبال الرواسى فى موقع آخر من القرآن الكريم :

﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِى خَلَقَ الْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ﴾

(سورة فصلت)

فلماذا باركت يا الله ؟ بارك الله فى الجبال وقدر فيها أقواتها ، فالقوت هو ما يُنتفع به فى استبقاء الحياة . ونعرف أن القوت يؤخذ من الزرع ، والزرع ينمو دائماً فى

الأرض الخصبة ، وخصوبة الأرض تكون في الوديان ، والوادى هو المكان الذى يكون بين جبلين . ولماذا يكون الوادى خصباً بين جبلين ؟ لأن المطر حين ينزل من السماء ، إنما ينزل على الجبال ، والجبال كما نعرف معرضة لعوامل التعرية ، فالحرارة تأتى بعد البرودة ، والحرارة تجعل الأرض تمتد والبرودة تقبض المادة ، وما بين القبض والبسط يحدث للجبال التشقق السطحى . وعندما ينزل المطر فهو يجرف هذه التشققات ، فتنزل من قمة الجبل بقوة الدفع لتصير جسيمات ناعمة ، ونسميها نحن الغِرْين أو الطمى ، كالذى كان يأتى لنا من الحبشة ، والذى أحدث خصوبة وادى النيل .

إذن فالجبال هى مخازن الأقوات . ومن فضل الله أن جعل الجبال صلبة ، فلو أنها كانت هشة من أول الأمر ، لكان سيلٌ واحد من المطر كفيلاً بإزالتها كلها ، ولجعل الأرض سطحاً واحداً ، ولا انتفع البشر بنصف متر من الخصوبة . وبعد ذلك يأتى الجدب . ونعلم أن الحق جعل مع التكاثر الإنسانى تكاثراً لأسباب القوت ، فكيف يكثر الحق سبحانه من القوت ؟

نحن نرى أن للجبال قمة ولها قاعدة ، وبين كل جبل وجبل يوجد الوادى ، ونعرف أن ضيق الوادى يكون فى أدناه ، واتساع الوادى فى أعلاه ، والجبل عكس الوادى . فضيق الجبل يكون فى القمة واتساعه فى القاعدة أى أن قمة الجبل أقل اتساعا من قاعدته . وعندما ينزل الغرين بوساطة المطر من الجبل فهو ينزل إلى الوادى ، فيرفع من مستوى سطح الوادى ، وتتسع مساحة الوادى . وكلما نزل المطر على الجبال اتسعت مساحة الوديان التى بين الجبال؛ لأن المطر يحمل معه أجزاء من الجبال وهو ما يسمى بالغرين . وعندما يشاء الحق سبحانه إيذان النهاية ، تتفتت كل الجبال ويقول للساعة : « قومى الآن » .

وهو يقول : « وجعل لها رواسى وجعل بين البحرين حاجزا أإله مع الله بل أكثرهم لا يعلمون » .

وفى موقع آخر يقول الحق :

﴿ مَرَجَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ يَلۡتَقِيَانِ ۝١٩ بَيۡنَهُمَا بَرۡزَخٞ لَّا يَبۡغِيَانِ ۝٢٠ ﴾

(سورة الرحمن)

الماء له استطراق فسلكه الله ينابيع فى الأرض ، فالإنسان يحفر فى مكان من الأرض فيجد الماء عذباً ، وفى موقع آخر يدق الإنسان الأرض ويحفرها ليجد الماء ولكنه مالح . لماذا إذن لم يتسرب الماء المالح إلى الماء العذب وكلاهما تحت الأرض ؟ إذن لا بد أن للماء المالح مسارب تختلف عن مسارب الماء العذب ولا يطغى أحد على الآخر .

لماذا ؟ لأننا نجد أن الماء العذب يأتى من أعلى . ونجد دائماً منابع الأنهار عالية وتصب فى البحر . والحق لم يجعل منسوب الماء المالح أعلى من منسوب الماء العذب حتى لا يطغى الماء المالح على الماء العذب ، لأنه سبحانه يريد أن يرتوى الناس من الظمأ بالماء ، ويريد للزرع أن ينمو ، وأن يتجه الفائض من الماء العذب إلى مخزن الماء سواء فى بطن الأرض أو فى البحار ، وتأتى من بعد ذلك عملية التبخير فيتصاعد الماء بخاراً ليصير سحاباً ، ثم يمطر من بعد ذلك ماء عذبا . والقدر الذى خلقه الله من الماء أزلاً ، هو . هو ، لا يزيد ولا ينقص .

فالإنسان إذا كان قد شرب أطناناً من الماء طَوال حياته ، فهل ظلت تلك الأطنان فى جسد الإنسان أو أن تلك الأطنان قد خرجت فى فضلات الإنسان ؟ إن الإنسان لا يختزن إلا الموجود فيه الآن من الماء . والجسم الإنسانى به حوالى تسعين بالمائة من مكوناته من الماء ، وبعد ذلك يموت الإنسان فيتبخر منه الماء وتنزل بقية العناصر للأرض . إذن فكمية المياه واحدة ، ولكنها تخضع لدورة أرادها الله .

وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكۡشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجۡعَلُكُمۡ خُلَفَآءَ ٱلۡأَرۡضِۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٦٢ ﴾

(من سورة النمل)

ومعنى المضطر هو الإنسان الذى استنفد أسباب بشريته ولم يدرك ما يحفظ به حياته ولذلك يقول الحق :

﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾ ﴾

(سورة يونس)

وكذلك يقول الحق فى موضع آخر بالقرآن الكريم :

﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

ذلك أنه عندما يصاب الإنسان بحادث جسيم ، فهو لا يكذب على نفسه ، حتى الكافر بالله عندما يجد أن كل الأسباب المادية التى أمامه لا تنفعه فهو يلجأ ويعترف بأنّ هناك إلهاً واحداً خالقاً . فيقول : يارب .

إذن فالحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾

(سورة النمل)

كل هذه الآيات تؤكد قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَٰفِ الَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَأَيَٰتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

إنها ظواهر كونية . واختلاف الليل والنهار يعني أن هناك شيئاً يناقض شيئاً آخر أو يأتي بعد شيء آخر . إذن فاختلاف الليل والنهار له معنيان : فمجيء الليل بعد النهار يعني اختلافهما أي كل منهما خليفة للآخر . والزمن يمثل ذلك .

واختلاف آخر يتمثل في أن النهار منير ، والليل مظلم ، والنهار محل حركة ، والليل محل سكون . فاختلاف الليل والنهار ليس آية فقط ولكنه آيات لكثيرين .

وكأن الحق سبحانه وتعالى يوضح لنا : أنّ الفرد أعجز من أن يستنبط كل ما في الآيات ، ولكن على كل واحد منكم أنتم البشر أن يستنبط آية ، وكل إنسان يستنبط آية ينتفع بها هو وغيره من الناس وهكذا .

إنها آيات يتوزع استنباطها على الخلق الذين يملكون البصيرة والأخذ بأسباب الله ليشيع الحق الاستنباط من أسرار الله لكل خلق الله المؤمنين إلى أن تقوم الساعة ، وليبين لنا أصحاب العقول الحقيقية التي لا تنشغل بالنعمة عن المنعم بالنعمة ؛ لأن لله إمداداً حين خلق من عَدَم ، وإمداداً حين أمدّ من عُدم ، وإمداداً آخر حينما يلقى على نعمته شيئاً من البركة ، فالذى أخذ نعمة الله التي سبقت وجوده ، وبعد ذلك غفل عن الحق سبحانه وتعالى فإن النعمة تعطيه ، لكنها لا تكون مصحوبة بالبركة .

ومعنى البركة أن يكون الشيء الحاصل والمستنبط من حركتك لا يأتي منه لك ولا للناس إلا الخير . فقد يعطيك الله بالأسباب والمسببات . لكن الله لا يعطيك البركة إذا أخذت النعمة وتركت المنعم . فلو أنك عند كل شيء ذكرت الله لأخذت النعمة والبركة . فحين ترى لك شيئاً تحبه عليك أن تقول : « ما شاء الله لا قوة إلا بالله » .

أنه ليس من شغلك ولا من عملك . ولكنها مشيئة الله وقوته سبحانه .

ولذلك يقولون : إنك إذا رأيت أى نعمة لك فى مال أو ولد أو خُلق أو هندام تقول حين تراها : « ما شاء الله لا قوة إلا بالله » فأنت لا ترى فيها سوءاً أبداً ؛ لأنك رددتها إلى مَن خلقها ، فضمنت صيانة الله لها بذلك الرد ، والذى يحرسها هو الكلمة الواضحة « ما شاء الله لا قوة إلا بالله » .

ولذلك نرى فى قوله تبارك وتعالى :

﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَـٰبٍ وَحَفَفْنَـٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَـٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَـٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَـٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ ﴾

(سورة الكهف)

فماذا قال له صاحبه ؟

﴿ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّـٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ ﴾

(سورة الكهف)

فكان يجب ألا يغتر الإنسان بوجود النعمة وأن يعزوها وينسبها ويردها إلى المنعم وهذا يوضح لنا معنى قول الحق :

﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾

(من الآية ٧ سورة إبراهيم)

فقد تعطيكم الأسباب مسبباتها ، ولكن لا زيادة عن المسببات بالتفضل منه سبحانه بالبركة ، بل ربما كانت فجيعة لصاحبها ، فتعطيه الأسباب ثم ينزع العطاء فتكون حسرة عليك .

إذن فمَنْ هم أولو الألباب ؟

تكون إجابة الحق :

﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا سُبْحَـٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ ﴾

إنهم يقولون :

« ربنا ما خلقت هذا باطلاً » لأنك حق ، وخلقت السموات والأرض بالحق ، ووضعت لها نواميسها وقوانينها بالحق ، فيجب أن نستقبل النعمة التى خلقتها لنا بالحق . فإن استقبلها بعض الناس بغير الحق ، فإنها تكون وبالاً عليهم . ويقال : إن المؤمن الصادق فى بنى إسرائيل قبل رسالة عيسى عليه السلام كان إذا عبد الله بإخلاص ثلاثين سنة فإن غمامة تظله حيث سار . فكانوا عندما يرون واحداً من هؤلاء يسير تظلله غمامة ، فهم يعرفون أنه عبد الله بإخلاص ثلاثين عاماً .

وعَبَدَ واحد منهم الله ثلاثين سنة ولم ير السحابة تظلله ، فشكا ذلك لأمه فقالت له : لعل شيئا فَرطَ منك . فقال لها : يا أماه لا أذكر . فقالت له : لعلك نظرت مرة إلى السماء ولم تفكر . فقال لها : لعل ذلك حدث . فقالت : الذى يأتيك من ذاك . وهذه القصة تذكرنا بضرورة التفكير فى الله دائماً .

ويروى عن سيدنا الإمام علىّ ـ رضى الله عنه وكرم الله وجهه ـ أنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذا استيقظ فى الليل ، استاك ، ثم نظر إلى السماء .

إذن فالنظر إلى السماء هو النظر إلى العلو . والنظر إلى الأرض أيضا هو تأمل فى حكمة الخالق . لكن النظرة إلى السماء تجعل الإنسان يفطن إلى علو الخالق . ولذلك فالعربى الذى استلقى على ظهره نائما ، واستيقظ ففطن إلى لون السماء الأزرق البديع ، والنجوم تتلألأ فيها فقال : أشهد أن لَكِ رباً وخالقاً ، اللهم اغفر لى . لقد عرف الرجل متى يدعو الله وكيف يدعو ، لذلك غفر الله له .

وفيما روت كتب السيرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه جاء ليلة ونام ، وكانت ليلة عائشة رضوان الله عليها . قالت عائشة لعبدالله بن عمر رضوان الله عليه : فنام بجوارى حتى مس جلدى جلده ، ثم قال : « يا عائشة هل تأذنين لى الليلة فى عبادة ربى » ؟[1] .

لقد استأذن منها رسول الله فى حقها لأن الليلة ليلتها . وأضافت عائشة : يا رسول الله أنا أحب قربك وأحب هواك ، وقد أذِنتُ لَكَ .

لقد احتاطت الاحتياط الجميل ، فهى تحب الرسول ، وتقول : «وأنا أحب قربك » وهذا القول له معنى جميل ، وحدث أن قال بعض المتنطعين على دين الله : إن رسول الله كان كبير السن بفارق كبير بينه وبين عائشة ، وقولها ذلك إنما عن زهد فيه .

(١) رواه الترمذى عن عائشة ، ورواه ابن ماجه عن ابن عباس ورواه الطبرانى عن معاوية .

لكنها عائشة ـ رضى الله عنها ـ ردت على ذلك من قبل أن يقال . فقالت : يا رسول الله أنا أحب قربك وأحب هواك وقد أذنت لك . وهذا درس يعطيه لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نتعلم كيف نعامل أهلنا ، حتى ولو كان الأمر الذى يشغلنا عنهم هو العبادة ، وهو لا يريد أن ينشغل المؤمن عن رعاية أهله بعد أداء ما عليه من فروض ، حتى ولو كان عبادة إلا بعد استئذان الأهل .

لماذا ؟ لأن الله طلب من الزوجة فى العبادة غير المفروضة ألا تتطوع حتى تستأذن زوجها . فالزوجة إن صلت تطوعا ، أو صامت تطوعا لابد أن تستأذن زوجها ، فإن أذن لها ، فبها ، وإن لم يأذن فليس لها أن تقوم بهذه العبادة غير المفروضة .

يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « خيركم . . خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلى »[1]

لأن الزوج حين يقرب زوجته فهو يريد أن يعفها عن التطلعات البشرية ؛ لذلك فعندما تريد الزوجة أن تأخذ وقتها وخصوصا إن كان لها ضرائر ، فهذا الوقت حق لها . فإن أراده الزوج للعبادة غير المفروضة فعليه أن يستأذنها . وقد تكون الحالة النفسية للمرأة فى عدم وجود ضرائر أكثر قدرة على قبول استئذان الزوج لها ليتفرغ للعبادة . ولذلك فأنت ترى من أهل الفتوى الإيضاح الناجح لمثل هذا الأمر .

لقد ذهبت امرأة تشكو زوجها لعمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ وكان مضمون الشكوى أن زوجها لا يقربها ، وكان مع عمر صحابى جليل . فقال له عمر ابن الخطاب : افتها . فقال الصحابى للزوج : يا هذا سنفرض أنك تزوجت أربعاً ، فلزوجتك إذن ليلة بعد كل ثلاث ليال . وإذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم قد استأذن عائشة فى عبادة ربه ، فهذا معناه درس للأزواج أن يحسنوا معاملة الأهل إحساناً لا يجعل للمرأة تطلعا .

لكننا نجد أناسا لا يستأذنون أهلهم لا فى العبادة ، ولا حتى فى سهرات المعصية . وهذا ما يفسد البيوت والأسر . إن ما يفسد البيوت أن يكون الزوج مشغولا عن الزوجة ، ويذهب إلى أصحابه فى المقهى أو فى مكان آخر . ولا يهتم بأفراد أسرته .

---

١ ـ رواه ابن ماجه والدرمى فى كتاب النكاح .

لماذا لا يذهب إلى منزله ليؤانس أهله ؟ وليشبع رغبتهم ويجلس مع زوجته وأهله وأولاده وبذلك تطمئن الزوجة أن رجلها معها وليس فى مكان آخر ، وذلك حتى تستقر الأمور . إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يستأذن عائشة رضى الله عنها فتأذن له . قالت عائشة رضوان الله عليها :

« فقام إلى قربة فتوضأ ثم قام فبكى ثم قرأ فبكى ، ثم أثنى على الله وحمده فبكى ، حتى ابتلت الأرض ، ثم جاء بلال ، فقال : يا رسول الله صلاة الغداة . فرآه يبكى . فقال : يا رسول الله أتبكى وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ فقال رسول الله : أفلا أكون عبدا شكورا . . يا بلال لقد نزل على الليلة :

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَٰفِ الَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَٰتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَٰتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَٰدِ

﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾

(سورة آل عمران)

وأضاف رسول الله صلى الله عليه وسلم : (فويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها ، وويل لمن لاكها بين فكيه ولم يتأملها)[1] .

هذا ما جاء عن سيدنا رسول الله فى أواخر سورة آل عمران ، تلك الأواخر التى تبدأ بقوله تعالى : (إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار) .

إن فى تلك الآيات المنهج والاستدلال ، واصطحاب الحق سبحانه وتعالى وذكره على كل حال من القيام والقعود وعلى الجنب . إن الحق يقول : (الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض . ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار) .

ها نحن أولاء نرى أن مطلوب أولى الألباب هو أن يذكروا الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم . وقال بعض العلماء فى تفسير قول الحق : « الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم » إن المقصود بذلك هو الصلاة ، فمن لا يستطيع الصلاة قائما يصلى قاعدا .. ومن لا يستطيع الصلاة قاعدا فليصل مضطجعا .

(١) رواه البخارى فى التهجد ورواه مسلم والترمذى فى الصلاة والنسائى فى قيام الليل وابن ماجه فى الاقامة والإمام أحمد فى مسنده .

ونقول لهؤلاء العلماء : لقد خصصتم هذا المعنى حيث المقام للتعميم ، لماذا ؟ لأن القرآن لا يتعارض مع بعضه ، بل يفسر بعضه بعضا ، والحق يقول عند صلاة الخوف :

﴿ وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾ ﴾

(سورة النساء)

وحتى لا يظن المؤمن أن الفروض الخمسة هى التى يذكر فيها الله فقط قال سبحانه :

﴿ فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾ ﴾

(سورة النساء)

أى إنه حصلت الصلاة أولا ، وحصلت الصلاة ثانيا ، كأن ذكر الله أمر متصل واجب فى الصلاة ، وفى غيرها ، وبعدها يتفكر المؤمنون فى خلق السموات والأرض ويعترفون أنه سبحانه لم يخلق هذا باطلاً . ويكون المطلوب أن يقولوا :

﴿ سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾

(من الآية ١٩١ سورة آل عمران)

لماذا ؟ لأن كل هذا الذكر لا يوفى حق ربنا علينا .. لذلك قالوا :

﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ۖ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ ﴾

إنها العظمة ، فهم لا يذكرون عذاب من يدخل النار ، ولكنهم يذكرون خزى الله لمن دخل النار . وكأن الخزى مرتبة أشر من عذاب النار ، فمن الذى أعطانا كل هذا الفضل ، إنه ـ سبحانه ـ أعطانا توفيقا لذكره ، وتوفيقا لنتفكر فى خلق السموات والأرض ، فهل يصح أن نقابله بكفران النعمة ؟ وما الذى يحدث لهؤلاء الذين يدخلون النار ؟

إنه الخزى والعياذ بالله . « وما للظالمين من أنصار » أى وليس لهم أنصار يمنعون عنهم عذاب النار .

ومن بعد ذلك يقول الحق :

﴿ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَـٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ ﴾

فكأن الإنسان بقلبه وفكره قبل أن يجيء له الرسول يجب أن يتنبه إلى ما فى الكون

من آيات ، وعليه أن يستشرف أن وراء الكون قوة ، ولكن هذه القوة مبهمة فى ذهنه . ما هى ؟ إنه يرى الكون العجيب فيقول لنفسه : من المستحيل أن يكون هذا الكون بلا خالق . إن وراءه قوة لها حكمة ولها قدرة . هذا قصارى ما يصل إليه العقل ولكن أيستطيع العقل أن يدرك أن القوة اسمها الله ؟ أيستطيع العقل أن يدرك ماذا تطلب القوة منه ؟

لا . إذن لابد من رسول يبلغ عن تلك القوة . ولذلك قلنا : إن تلك هى الزلة التى وقع فيها الفلاسفة ؛ لأن الفلاسفة هم الذين بحثوا وراء المادة . ونحن نعلم أن العلم ينقسم إلى قسمين ، قسم مادى قائم على التجربة ، وقسم ميتافيزيقى يبحث فيما وراء المادة . وهذا العلم متاهة الفلاسفة . وهو المضلة التى لم تلتق فيها مدرسة بمدرسة ، ولا تلميذ فى مدرسة مع تلميذ آخر فى مدرسة .

لماذا لم يلتقوا ؟ لأنهم يبحثون وراء المادة . وما وراء المادة غيب . والغيب لا يدخل المعمل . لكن المادة تدخل المعمل . والمعمل عندما يعطى نتائج تحليلات لا يجامل فى هذه النتائج . فالذى يدخل التجربة العلمية فى المعمل بنزاهة فالمعمل يعطيه . والذى يدخل بغير نزاهة لا تعطيه المعامل شيئا .

ولذلك نقول دائما : إننا لا نجد فى العلوم المادية فارقا بين علم شيوعى روسى ، وعلم أمريكى رأسمالى ، فلا توجد كيمياء رأسمالية أو كيمياء شيوعية ولا توجد كهرباء روسية وأخرى أمريكية . إنها كيمياء واحدة ، وكهرباء واحدة لأنها ابنة المعمل وبنت التجربة المادية .

ومن العجيب الذى لا يفطن له الخلق المغرورون من هؤلاء أننا نجد العلم المادى ابن التجربة والمعمل والمادة الصماء التى لا تجامل يحاول كل معسكر أن يسرقه من غيره ، ونجد الجواسيس يسافرون من معسكر إلى معسكر ليسرقوا تصميمات الطائرات والصواريخ . وأن بعضهم يتلصص على بعض حتى يعرفوا العلم المادى .

لكن ماذا عن علم الأهواء والنظريات ؟ إننا نجد أن كل طرف يقيم جدارا حتى لا يخترق علم الأهواء المجتمع .

هم يقيمون الحواجز فى الأهواء ولكن فى العلم المادى يتحولون إلى لصوص . فلماذا لا يأخذون الأهواء مع العلم المادى ؟ إن كل معسكر حريص على العداء مع مذاهب الغير فى الحكم والاجتماع والاقتصاد . لكنهم فى العلم المادى يسرق بعضهم بعضا ؛ لأن المذاهب النظرية تتبع الأهواء ، لكن العلم المادى ـ كما قلنا ـ يتبع الحقيقة المعملية التى لا تجامل .

إذن فساعة يفكر الإنسان بعقله لابد أن يقول : إن وراء خلق الكون قوة خارقة . وقد عرفها العربى بفطرته فقال : البعرة تدل على البعير والقدم تدل على المسير ، أفلا يدل كل ذلك على اللطيف الخبير ؟!!

إنه دليل فطرى ، يدلك على وجود القوة ، لكن ما اسم هذه القوة ؟ لا نعرف . إذن فالأذن تستشرف إلى من يدلها على اسم هذه القوة . فإذا جاء واحد وقال : أنا مُرْسَلٌ من ناحية هذه القوة ، وأنَّ اسمها الله ، كان من المفروض أن تتهافت الناس عليه ؛ لأنه سيحل لها اللغز الذى يشغلهم ، لذلك فالمؤمنون يقولون :

﴿ رَبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَـٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ﴾

(سورة آل عمران)

كأن ذهن كل واحد فيهم كان مشغولا بضرورة التعرف على الخالق . وبعد ذلك يقولون :

﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ۖ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ ﴾

(من سورة آل عمران)

فأول حاجة فكروا فيها هى درء المفسدة ؛ لأن أفاضل الناس يتهمون أنفسهم بالتقصير دائما ؛ لذلك قالوا : « ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفِّر عنا سيئاتنا » .

وعندما ننظر إلى معطيات القرآن نجد أن « الذنب » شىء ، و« السيئة » شىء آخر . فالذنب يحتاج إلى غفران ، والسيئة تحتاج إلى تكفير ، على سبيل المثال « كفارة اليمين » تكون واجبة إذا ما أقسم المؤمن يمينا وحنث فيه ، وهذا التكفير هو المقابل

للحنث فى اليمين ، أما الأشياء التى تتعلق بالمعصية بين العبد وربه فهى الذنب ، والسيئة هى الأمر الذى يخالف منهج الله مع عباد الله . فحين تفعل المعصية فى أمر بينك وبين الله-فأنت لم تسئ إلى الله ، فمن أنت أيها الإنسان من منزلة الله ؟ لكنك بالمعصية تذنب ، والذنب تأتى بعده العقوبة . أما مخالفة منهج الله مع عباد الله فهى سيئة ؛ لأنك بها تكون قد أسأت .

لذلك فالمؤمنون قالوا : « ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفِّرْ عنا سيئاتنا » .

ومن الذى هداهم إلى معرفة أن هناك فرقا بين الذنب والسيئة ؛ وأن الذنب يحتاج إلى غفران ، وأن السيئة تحتاج إلى تكفير؟ إنه الرسول صلى الله عليه وسلم حامل الرسالة من الله . وهو الذى علمنا الفرق بين الذنب والسيئة . فقد كان جالساً بين أصحابه فأخذته سِنَةٌ من النوم ، ثم استيقظ فضحك .

فعن أنسٍ رضى الله عنه قال : « بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس إذ رأيناه ضحكَ حتى بدت ثناياه فقال عمر رضى الله عنه : ما أضحكك يا رسول الله ؟ قال : رجلان جثيا من أمتى بين يدى رب العزة فقال أحدهما : يارب خذ لى مظلمتى من أخى . قال الله : أعط أخاك مظلمته . قال يارب : لم يبق من حسناتى شىء ، قال : يارب يحمل عنى من أوزارى . وفاضت عينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالبكاء ثم قال : إن ذلك ليوم عظيم ، يوم يحتاج الناس إلى أن يُتَحَمَّل عنهم من أوزارهم . فقال الله للطالب : ارفع بصرك فانظر فى الجنان فرفع رأسه فقال : يارب أرى مدائن من فضة وقصوراً من ذهب مكللةٌ باللؤلؤ لأى نبى هذا ؟ لأى صِدِّيقٍ هذا ؟ لأى شهيدٍ هذا ؟ قال : هذا لمن أعطى الثمن . قال : يارب ومن يملك ثمنه ؟ قال : أنت . قال : بماذا ؟ قال : بعفوك عن أخيك . قال : يارب قد عفوت عنه ، قال : خذ بيد أخيك فأدخله الجنة . ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم فإن الله يُصلحُ بين المؤمنين يوم القيامة »[1] .

---

(١) رواه أبو يَعْلَى والحاكم وصححه ورواه السيوطى فى الدر المنثور وابن كثير فى التفسير .

هذا هو معنى التكفير أى أن نتحمل ، لذلك نقول فى الدعاء كما علمنا : « اللهم ما كان لك منها فاغفره لى ، وما كان لعبادك فتحمله عنى » . أى أن العبد يطلب أن يراضى الحق عباده من عنده ، وما عنده لا ينفد أبدا .

والعباد المؤمنون يقولون : « ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار » أى اختم لنا سبحانك هذا الختام مع الأبرار . ومن بعد ذلك يأتى قوله تعالى حكاية عنهم :

﴿ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾ ﴾

أى ربنا أعطنا ما وعدتنا على لسان رسلك ، ولتسمع قول الحق استجابة لهم :

﴿ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَـٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَـٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾ ﴾

ولنر اللفتة الجميلة فى الاستجابة : « فاستجاب لهم ربهم أنّى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض » لقد كانوا يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ، ويتفكرون فى خلق السموات والأرض . ويخشون خزى الدخول إلى النار . ودعوا الله بغفران الذنوب وتكفير السيئات . ودعوا الله أن يأتيهم ويعطيهم ما وعدهم به على ألسنة الرسل .

لم يقل الحق سبحانه: استجبت لكم ، لكنه جعل الاستجابة هى قبول العمل فقال: « أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى » فليست الحكاية كلاما يقال ، إنما يريد الله أن تدخل هذه المسائل فى حيز التطبيق والنزوع العملى ؛ فالمسألة ليست بالتمنى فقط ، فقد وضع سبحانه الشرط الواضح وهو العمل ، فمن يريد استجابة الحق فلابد له من العمل . إن التفكر فى بديع صنع الله لا يغنى عن العمل ؛ لأن الحق سبحانه يريد التفكر فيه وأنت تعمل فى أسبابه . فأسباب الحق لا تشغلك عنه .

﴿ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَـٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَـٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

فالذين هاجروا من بلادهم ومن أهلهم ومن أوطانهم ومن أحبابهم ، دون إكراه فهجرتهم هذه هى نزع وجودى ، وانتقال من مكان إلى مكان جديد وكان ذلك فى سبيل الله ـ أى ، فالذين هاجروا وخرجوا بجزء من إرادتهم ، وكذلك الذين أخرجوا من ديارهم ، وقاتلوا فى سبيل الله وتحملوا الايذاء وقُتلوا ـ هؤلاء ـ ينالون التكفير عن السيئات ويدخلون الجنة .

لقد جاء الحق هنا بالعملية التى تتضح فيها الأسوة الإيمانية ؛ لأن الإنسان ينشغل بماله وأهله ووطنه وباستبقاء الحياة ، فإذا ما ضحى الإنسان بهذا كله فى سبيل الثبات

على كلمة الله أولا ، وإعلاء كلمة الله ونشرها ثانيا . فالمؤمن من هؤلاء لم يكتف بنفسه بل جاهد فى سبيل الله لتنتقل الحياة بحلاوتها إلى غيره ، وبذلك يكون قد أحب لغيره ما أحبه لنفسه .

نخرج من كل هذا برؤية واضحة هى أن الفكر وحده لا يكفى وإذا قال واحد : إن إيمانى حسن فلا تأخذنى بالمسائل الشكلية ، نرد عليه قائلين : إن الله ليس فى حاجة إلى ذلك ، ولكنه يطلب منك أن تعمر الكون بحركتك ، وأبرك الحركات وأفضلها أن ترسخ منهج الله فى الأرض ؛ لأنك إن رسخت منهج الله فى الأرض ، أدمت للوجود جماله .

ومن بعد ذلك يقول الحق :

﴿ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴿١٩٦﴾ ﴾

وإذا ما سمعنا كلمة « تقلب الذين كفروا فى البلاد » فاعلم أن التقلب يحتاج إلى قدرة على الحركة . والقدرة على الحركة تكون فى مكان الإنسان وبلاده ، فإذا اتسعت قدرتك على الحركة وانتقلت إلى بلد آخر ، فعندئذ يقال عن هذا الإنسان : « فلان نشاطه واسع » أى أن البيئة التى يحيا فيها ليست على قدر قدرته ، بل إن قدرته أكبر من بيئته . لذلك فإنه يخرج من بلده . وكان ذلك يحدث ، فكفار قريش كانوا يرحلون من بلدهم فى رحلات خارجها . لذلك قال الحق :

﴿ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴿١٩٦﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

والتقلب كما عرفنا ينشأ عن : قدرة وحركة واتساع طموح . وسبحانه يريد أن يبين لنا أن زخارف الحياة قد تأتى لغير المؤمنين . إن كل زخرف هو متاع الحياة الدنيا وهو مرتبط بعمر الانسان فى الوجود . ومهما أخذوا فقد أخذوا زينة الحياة وغرورها ؛

فسبحانه هو القائل :

﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾

(من الآية ١٨٥ سورة آل عمران)

إنها حياة لها نهاية . أما الذى يريد أن يُصَعِّدَ النعمة ويصعد النفع فهو يفعل العمل من أجل حياة لا تنتهى . والكافرون قد يأخذون العاجلة المنتهية ، ولكن المؤمنين يأخذون الآجلة التى لا تنتهى .

وحين نقارن بين طالب الدنيا وطالب الآخرة ، نرى أن الصفقة تستحق أن نناقشها من نواحيها وهى كما يلى : لا تقس عمر الدنيا بالنسبة لذاتها ، ولكن قس عمرها بالنسبة لعمر الفرد فى الحياة ؛ لأن عمر الدنيا عند كل فرد هو مدة بقائه فيها ، فهب أن الدنيا دامت لغيرى ، فمالى ولها ، إن عمر الدنيا قصير بالنسبة لبقاء الإنسان فيها ، وإياك أن تقارنها بقولك : إن الدنيا سوف تبقى لملايين السنين ؛ لأنها ستظل ملايين السنين لملايين الخلق غيرك ، وعمر الدنيا بالنسبة لك هو عمرك فيها ، وعمرك فيها محدود ، وهذا على فرض أن الإنسان سيعيش متوسط الأعمار . فما بالك وعمرك فيها مظنون ؛ لأن الموت يأتى بلا سن ولا يرتبط بسبب أو بزمان . ولذلك فالإنسان لا يضمن متوسط الأعمار . وعمر الآخرة متيقن وهو إلى خلود .

إذن فعمر الإنسان فى الدنيا مظنون وعمره فى الآخرة متيقن ، والدنيا محدودة ، وفى الآخرة خلود ، ونعيمك فى الدنيا منوط بقدرتك على تصور النعمة وإمكاناتها . ولكن نعيمك فى الآخرة على قدر عظمة رَبِّك وعطائه العميم ؛ لذلك قال الحق عنها : إنها متاع الغرور . ولم يأت الله لها باسم أقل من اسم الدنيا ، فهل هناك اسم أقل وأحقر من هذا ؟ إن الذين يغترون بما يناله الخارجون عن منهج الله من تقلبهم فى البلاد عليهم أن يتذكروا أن كل ذلك إلى زوال وضياع . وعلينا أن نقارن التقلب فى البلاد بما أعده الله لنا فى الآخرة . وساعة تقارن هذه المقارنة تكون المقارنة سليمة . .

ولذلك يتابع الحق قوله عن تقلب الذين كفروا فى البلاد :

﴿ مَتَٰعٞ قَلِيلٞ ثُمَّ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۚ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ١٩٧ ﴾

والمهد هو المكان الذى ينام فيه الطفل . ومعنى ذلك أن الحق يقلب فيهم فى جهنم كما يريد ؛ لأنه لا قدرة لهم على أى شىء ، شأنهم فى ذلك شأن الطفل ، يزال ملازما لفراشه ومهده حتى يقلبه ويحركه غيره . ويأتى المقابل لهؤلاء وهم المؤمنون فيقول :

﴿ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّلۡأَبۡرَارِ ١٩٨ ﴾

والنزل هو المكان الذى يعد لنزول الضيف ، والنزل حينما تقيمه قدرات بشرية تتراوح حسب إمكانات البشروفى احدى السفريات نزلنا فى فندق فاخر فقال لى زملائى وإخوانى :

هذا لون من العظمة البشرية .
قلت لهم : هذا ما أعده البشر للبشر ، فكيف بما أعده الله للمؤمنين ؟

وعندما ترى تقلب الكفار فى البلاد فاعلم أنهم لن يأمنوا أن يأخذهم الله فى تقلبهم ، وفى ذلك يقول :

﴿ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

ويقول ـ سبحانه ـ :

﴿ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾

(سورة النحل)

والكافر من هؤلاء يتملكه الغرور ، وهو يتقلب فيأتيه عذاب الله بغتة . والعذاب يأتى مرة بغتة ، ومرة أخرى جهرة . إنه يأتى بغتة حتى يكون الإنسان متوقعا له فى أى لحظة . ويأتى جهرة حتى يرعب الإنسان ويخيفه قبل أن يقع . ولذلك يقول الحق :

﴿ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّـٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾

(من الآية ٥٥ من سورة البقرة)

فالموت إن جاءهم بغتة فقد لا يشعرون بهوله إلا لحظة وقوعه ، ولكن حينما يأتيهم الموت وهم ينظرون ، فهم يرونه وهم فى فزع ورعب .

والحق يقول من بعد ذلك :

﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَـٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾ ﴾

والحق سبحانه وتعالى يؤرخ للإيمان تأريخا صادقا أمينا ، فالقرآن لم يتحامل على أهل الكتاب لأنهم عاندوا رسول الله وواجهوا دعوته وصنعوا معه كل ما يمكن أن يحبط الدعوة ويقضى عليها .

إن القرآن يقول : فى شأن بعض منهم منصفا لهم : « وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله » . وهذا اسمه ـ كما قلنا ـ صيانة الاحتمال . فساعة يقول الحق : « وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله » ، ساعة ينزل هذا الكلام ، فيسمعه بعض من أهل الكتاب الذين انشغلوا فى أعماقهم بتصديق الرسول ، ويعرضون قضية الإيمان على نفوسهم ، فإذا ما كانوا كذلك ماذا يكون موقفهم وهم الذين يفكرون فى أمر الإيمان بما جاء به محمد ؟ إنهم عندئذ يقولون لأنفسهم : هذه مسألة فى أعماقنا ، فمن الذى أطلع محمدًا عليها ؟ إن ذلك دليل على أن محمداً لا ينطق عن الهوى ، وأن الله يعلمه بما فى نفوسنا مما لم يبرز إلى حيز الوجود . ومادام الحق يخبره بما لم يخرج إلى حيز الوجود فلابد أنه صادق . فإن كانت الآية قد قيلت بعد أن آمنوا فلن يكون لها هذا الوقع .

إذن فلابد أن هذا القول تبشير بأن كثيرًا من أهل الكتاب يفكرون فى تصديق رسول الله فى البلاغ من الله ، وهم بصدد أن يؤمنوا . فقول الله ذلك يجعل العملية الإيمانية فى نفوسهم مصدقة ، لأنهم يقولون : إن الرسول الذى يقول ذلك هو مبلغ عن إله يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾ ﴾

هذه الآية هى ختام سورة آل عمران . وسورة آل عمران جاءت بعد سورة

البقرة . والسورتان تشتركان معاً فى قضية عقدية أولى ، وهى الإيمان بالله والتصديق بمحمد صلى الله عليه وسلم وبما جاء به من عند الله خاتما للرسالات ومهيمناً عليها . ولذلك تكلم الحق عن قضية الإيمان وقضية الهدى وقضية الكتاب ، ثم تعرض الحق لرواسب ديانات سابقة تحولت عن منهج الله إلى أهواء البشر ، فجادل فى سورة البقرة اليهود ، وجادل فى سورة آل عمران النصارى .

وبعد ذلك عرض قضية إيمانية تتعلق بموقف المسلمين المؤمنين بالله وبتصديق رسوله فى معترك الحياة ، وعرض معركة من المعارك ابتلى فيها المؤمنون ابتلاءً شديداً ، ثم عرض للقضية الإيمانية حين يثوب المؤمن المتخاذل إلى منهج ربه . وبعد أن ينتهى من هذه ، يقول الحق : « يا أيها الذين آمنوا » أى يا من آمنتم بما تقدم إيماناً بالله ، وتصديقاً بكتابه ، وتصديقاً برسالته صلى الله عليه وسلم ، وتمحيصاً للحق مع اليهود ، وتمحيصاً للحق مع أهل الكتاب جميعا ، تمحيصاً لا جدلياً نظرياً ، ولكن واقعيا فى معركة من أهم معارك الإسلام وهى معركة أحد ، فيا من آمنتم بالله إيمانا صادقا صافيا ، استمعوا إلىّ يا من آمنتم بى « اصبروا » وهذا أمر ، و« صابروا » أمر ثان ، و« رابطوا » أمر ثالث ، و« اتقوا الله » أمر رابع .

إنها أربعة أوامر ، والغاية من هذه الأوامر هى « لعلكم تفلحون » . إذن فمن عشق الفلاح فعليه أن ينفذ هذه الأربعة : اصبر ، صابر ، رابط ، اتق الله ، لعلك تفلح .

والحق سبحانه وتعالى حين يعبر عن الفلاح إنما يعبر بأمر مشهود مُحس للناس جميعا ، لم يقل لك : افعل ذلك لتنجح أو لتفوز . إنما جاء بكلمة « الفلاح » . و« الفلاح » كما قلنا: مأخوذ من فلح الأرض . وفلح الأرض هو شقها لتتعرض للهواء ، ولتكون سهلة هينة تحت الجذير البسيط الخارج من البذرة ، فإذا فلحت الأرض بهذه المشقة حرثاً وبذراً وتعهداً بالرى ماذا يحدث لك من الأرض ؟ إنها تؤتيك خيراً مادياً مشهودا ملحوظا .

إذن فقد ضرب الله المثل فى المعنويات بالأمر المُحس الذى يباشره الناس جميعا ، وأى فَلَاح هذا الذى يقصده الحق سبحانه وتعالى ؟ إنّه فلاح الدنيا وفلاح الآخرة ؛

فلاح الدنيا بأن تنتصروا على خصومكم ، وأن تعيشوا معيشة آمنة مستقرة رغدة ، وفلاح الآخرة أن تأخذوا حظكم من الخلود فى النعيم المقيم ، ومادام سبحانه يقول : اصبروا فلابد أن يكون هذا إيذانا بأن فيه مشقة ، فالإيمان يؤدى إلى الجنة ، والجنة محفوفة بالمكاره ؛ لذلك لابد أن تكون فيه مشقات .

وإذا نظرت إلى تلك المشقات تجدها فى ذات النفس منفصلة عن المجتمع تارة ، وتجدها فى ذات النفس مع المجتمع تارة أخرى ، أما فى ذات النفس مفصولة عن المجتمع ، فإن الصبر يقتضى أن تصبر على تنفيذ أمر الله فى فعل الطاعات وعلى تحمل الألم منه فى ترك المعاصى وإن كان ذلك يمنعك عن لذة شهوة تحبها فإنك تصبر عن تلك الشهوة التى تلح عليك ، فمجاهدة المؤمن أن يصبر عن الشهوات التى نهى الله عنها ، والأشياء التى تصيب الإنسان يصبر عليها ، فالمصيبة فى النفس يصبر عليها ، والأشياء التى يصبر عنها من النواهى هى الشهوات والمتع التى يحرمها الله .

وكأن الحق سبحانه وتعالى يقول : إننى خلقتك وأعلم منازعة نفسك إلى الشهوة ، لأنك تحبها فاصبر عنها ، والأمور التى فى الطاعة إن فعلتها ستورثك مشقة فى ذاتك ، اصبر عليها ، إذن ففى الأوامر صبر على تنفيذها ، وفى المناهى صبر عن إيقاعها ، هذه كلها فى الذات ، وبعد ذلك إذا تعدت المسألة من الذاتية إلى المحيط الخارجى فالحق يقول :

﴿ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ ﴾

(من الآية ١٧٧ سورة البقرة)

يقول : « صابرين فى » ، فعندنا : « صابر على » ، و« صابر عن » ، و« صابر فى » ، « والصابرين فى البأساء » التى تقع عليهم من المجتمع الخارج عنهم ، وكيف تصيبهم البأساء من المجتمع الخارج عنهم ؟ نعم ، لأن منهج الحق إنما يجىء ليصوب الخطأ فى حركة المجتمع . والخطأ فى حركة المجتمع إنما يستفيد منه أناس وهم يحرصون جاهدين أن يصدوا من يريدون تثبيت منهج الله ، إذن فهم لا يقصرون فى إيذائهم ، وفى السخرية منهم ، وفى إتعابهم وفى حربهم ، وهذا صبر فى البأساء

والضراء وحين البأس ، وإذا كان عدوك الذى جئت لتدحض منهجه الباطل بمنهجك الحق صابرك وصابر أيضا على إيذائك ، فعليك أن تصابره .

ماذا يعنى ذلك ؟ يعنى أن « اصبر » غير « صابر » ، فاصبر هو أمر فى نفسك ستصبر عليه ، ولكن هب أن خصمك صبر أيضا على إيذائك ، وصار عنده جلد ليقف أمامك هنا ،

الحق يأمرك هنا بأن تصابره ، أى إذا كان عدوك يصبر قليلا فعليك أنت أن تقوى على الصبر عليه ، أى أن تجىء بصبر فوق الصبر الذى يعارضك ، وكل مادة « فاعَل » هكذا .

مثال ذلك : عندما تقول : فلان نافس فلانا . والمنافسة تكون بين اثنين يحتاجان ويقصدان غاية ، وكل واحد يريد أن يصل إليها ، والذى يريد أن يصل إليها يريد أن يصل بحرص ، فإن كان معاندك يحرص عليها بخطوة فاحرص عليها أنت بخطوتين ، هذه هى المنافسة ؛ فالمنافسة مغالبة على الفوز ، والحق يقول :

﴿ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴾

(من الآية ٢٦ سورة المطففين)

والأصل فيها هو : إطالة النفس حين يغطس الإنسان فى الماء ، وسيدنا عمر ـ رضى الله عنه ـ قال للعباس ـ رضى الله عنه ـ : أتنافسنى ؟ أى عرض عليه أن ينزلا معا تحت الماء ، ويرى مَن منهما أطول نفسا . إذن فالفطن الكيّس هو من يتمرس على هذا العمل ولا ينزل إلى الماء فى نفس متردد ، بل يأخذ كمية من الهواء بشهيق يتسع له تجويف صدره كله ليكون عنده حصيلة يستطيع بها أن يمكث فى الماء أطول مدة من الثانى ، أما الذى يغطس وليس عنده هذه الحصيلة ، فسيأخذ مقدار شهيق وزفير فقط ، « فنافسنى » تعنى أن نغطس فى الماء معا لنرى من منا أطول نفسا . أى أنه قادر على أن يحتفظ بكمية من الهواء تستطيع أن تؤدى وظيفة حياته مدة طويلة ، ولا يمكن أن يتأتى هذا إلا إذا أخذت شهيقا يملأ الصدر حتى إنك لا تقدر أن تزيد ، ولذلك فالطبيب عندما يريد أن يفحص حالة الرئة يقول للمريض : خذ نفسا طويلا ، لأنه يريد أن يرى المريض وقدرته .

إذن فالمصابرة تعنى إن كان خصمك يصابرك فأنت تصبر وهو يصبر ، فتصبر أنت

أكثر ، ولهذا تحتاج المسألة إلى أن يتكاتف المجتمع كله على المصابرة ، ولذلك جاء قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَالْعَصْرِ ۝ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ۝ ﴾

(سورة العصر)

أى أنك إذا رأيت أخا من إخوانك المؤمنين يخور ويضعف فى مصابرته فتحثه على المصابرة وقل له : إياك أن تخور ، لماذا ؟ لأن النفس البشرية من الأغيار ، وقد يأتى لها حدث يقوى عليها ، فالمؤمن الذى ليس عنده هذه الأغيار ينفخ بالعزيمة فيمن يخور فقال الحق : « تواصوا » ، ولم يقل : جماعة يوصون جماعة ، لا . « فالتواصى » أن تكون أنت مرة موصِياً ، ومرة مُوصًى ، فساعة لا يكون عندك ضعف الأغيار فَوصِّ ، وساعة يكون عندك ضعف الأغيار تُوَصًّى ، فكل واحد موصٍ فى وقت ، ومُوصًى فى وقت آخر ، ولا نتواصى هذه التوصية على الصبر إلا إذا كنا تواصينا أولا على الحق الذى من أجله نشأت المعركة بين صابر وصابر .

« يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون » وعرفنا الصبر ، وعرفنا المصابرة ، فما هو الرباط ؟ هو أن تشعر عدوك بأنك مستعد دائما للقائه ، هذا هو معنى الرباط . والحق يقول :

﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾

(من الآية ٦٠ سورة الأنفال)

إنها خيل مربوطة للجهاد فى سبيل الله ومستعدة ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « خيركم ممسك بعنان فرسه كلما سمع هيعة طار إليها »[١] .

أى أن نكون مستعدين قبل وقوع الهجوم ، وساعة تأتى الأمور الداهمة ننطلق لمواجهتها . ولكن يكون استعدادنا من قبل الأمر الداهم ، ولذلك حين يكون عدوك

(١) رواه مسلم فى الإمارة وابن ماجه فى الفتن ورواه أحمد .

عالما بأنك مرابط له ومستعد للحركة فى أى وقت يرهبك ويخافك ، أما إذا كنت فى استرخاء وغفلة ؛ فإنه يدهمك ، فإلى أن تستعد يكون قد أخذ منك الجولة الأولى ، إذن فما فائدة الرباط ؟

فائدة الرباط أن يُعلم أنك لم تغفل عن عدوك وأنك لن تترك العدة والاستعداد له إلى أن يأتى بالمداهمة ، ولكن تكون أنت مستعدًّا لها فى كل وقت ، والرباط لا يكون فقط أن ترابط بالخيل للعدو المهاجم هجوما ماديا ، بل المرابطة تعني : الإعداد لكل ما يمكن أن يَرُدَّ عن الحق صيحة الباطل ، فمن المرابطة أن تعد الناشئة الإسلامية لوافدات الإلحاد قبل أن تفد ، لماذا ؟ .

لأن المسألة ليست كلها غزوًا بخيل وسلاح وعُدَد ، فقد يكون الغزو بالفكر الذى يتسرب إلى النفوس من حيث لا تشعر ، فإذن لابد أن تكون أيضا فى الرباط الذى يمد المؤمن بقدرة وطاقة المواجهة بحيث إذا جاءت قضية من قضايا الإلحاد التى قد تفد على المؤمنين ، يكون عند كل واحد منهم الحصانة ضدها والقدرة على مواجهتها .

لقد قلنا : إن آفة المناهج العلمية أنهم أخذوا مناهجهم عن الغرب ، فدرسوا التاريخ كما يدرسه الغرب ، ودرسوا الطبيعة كما يدرسها الغرب ونسوا أن لنا دينا يحمينا من كل هذه الأشياء ، فعندما يأتينى رجل التاريخ بمنهجه من الغرب ، ويقول : إن الثورة الفرنسية هى التى أعلنت حقوق الإنسان ، هنا يجب أن تكون عندنا مناعة وترابط ، ونقول له : فى أى سنة نشأت الثورة الفرنسية ؟

لقد نشأت منذ سنوات قليلة ، قد تزيد أو تنقص على المائتى سنة ، وأنتم تجهلون أن الدين الإسلامى جاء منذ أربعة عشر قرنا بحقوق الإنسان ، واقرأوا القرآن . فلو أن كل تلميذ حين يسمع أن الثورة الفرنسية هى التى أعلنت حقوق الإنسان ، يقول لهم : لا ، أنت تعلم أن ذلك حدث فى القرن السابع عشر لكن لماذا لا تلتفت إلى أنه منذ أربعة عشر قرنا جاء الإسلام بهذا المبدأ والتفت إلى الاساءة فى استعمال الحق ، فإذا كنت تجهل تشريع الله فلا يصح أن يؤدى بك هذا الجهل إلى طمس معالم الحق فى منهج الله .

وإذا قال دارس للطبيعة : إن الطبيعة أمدت الحيوان الفلانى باللون الذى يناسب البيئة التى يعيش فيها حتى لا يفتك به عدوه وهو بذلك يضلله ، نقول له : إن الطبيعة لا تمد ، الطبيعة ممدة من الله ، لا تقل : إن الطبيعة أمدت . إذن فالرباط لا يكون بقوة عسكرية فحسب بل بالقوة العلمية أيضا ، فخصوم الإسلام قد يئسوا من أن ينتصروا على الإسلام بقوة عسكرية بعد أن كتلوا كل قواهم فى الحروب الصليبية ، ولم يبق لهم إلا أن يدخلوا علينا من خلال مناهجهم ومن خلال المستشرقين هناك ، والمستغربين منا فينقلوا لنا ثقافات أجنبية بعيدة عن منهجنا ، وهم معذورون لأنهم لا يعلمون منهج الله فى دين الله . إذن فالرباط لا بد أن يكون أيضا فى رباط الأفكار ، ورباط العلم المادى .

إن خصوم الإسلام يدخلون على الناس من مداخل متعددة فيجب أن ننبه النشء إليها ، يقولون : أوروبا ارتقت حضاريا وأنتم يا مسلمون تخلفتم . نقول لهم : هل كان التخلف مقارنا للإسلام ؟ لقد كانت الدولة الإسلامية هى الدولة الحضارية الأولى فى العالم لمدة ألف سنة ، وأوروبا التى تتشدقون بحضارتها كانت تعيش فى العصور المظلمة . إن هؤلاء لم يعرفوا تاريخنا أو هم يتكلمون لأناس لا يعرفون تاريخهم .

إذن فالمرابطة أن توضح أمور دينك توضيحا يقف أمام أى وافدة قبل أن تفد بالعدوان المسلح ، ويجب أن تقف لغزو الأفكار ولهدم المبادىء ، ولذلك قال الحق : « اصبروا » . و« صابروا » . و« رابطوا » ، وجماع كل ذلك « الصبر على » و« الصبر عن » و« الصبر فى » ، والمصابرة للعدو والتواصى بالصبر ، والرباط بمعنييه المادى والمعنوى ، أى بالأمور المادية والأمور المعنوية القيمية ، ويختم الحق الآية بقوله : « واتقوا الله لعلكم تفلحون » .

ونعرف أنه حين قال لك : « اتق الله » تساوى أن يقول لك : « اتق النار » فمعنى « اتقوا الله » : أى اجعلوا بينكم وبين غضب ربكم وقاية . ما هى الوقاية ؟ أن تطيع ، وما هى الطاعة ؟ أن تنفذ ما أمر ، وأن تنتهى عما نهى . فالذى يفسر التقوى بأنها الطاعة نقول له : نعم لأنها الوسيلة إلى وقايتك من غضب الله وعذابه ، فالذى

يفسرها بهذا يفسرها بالوسيلة ، والذى يفسرها بالأخرى يفسرها بالغاية ، فعندما يقال لك : اتق الله ، أى اجعل بينك وبين النار التى هى من جنود الله وقاية ، أى اجعل بينك وبين غضب الله وقاية ، وإذا قال لك : اتق الله يعنى أطعه فى أمره وفى نهيه ، فما هى الوسيلة لاتقاء النار واتقاء غضب الله ؟ إنها الطاعة ، فمرة تفسر التقوى بالوسيلة ومرة تفسر بالغاية .

وقلنا فى قوله : « لعلكم تفلحون » إن الفلاح إما أن يكون فى الدنيا وإما أن يكون فى الأخرة.فى الدنيا:بأن ترتفع كلمة الحق وكلمة الإيمان وتنتصروا ولا أحد يذلكم ولا يجعلكم أحد تابعين له . هذا لون من الفلاح ، ولكن على فرض أنهم فلحوا وضعفتم أنتم ، فى فترة من الزمن فثقوا أنكم تعملون لفلاح آخر هو فلاح الآخرة ، وإلا فالذين يخاطبون بهذه الآية قبل أن يدركوا نصرا للإسلام على أعدائه ، يفسرون الفلاح بماذا ؟ الذين جاهدوا وتعبوا وعاشوا مضطهدين لا استقرار فى حياتهم ، وبعد ذلك ماتوا قبل أن يُمكّن للإسلام ، كيف يكون فلاحهم ؟ إن فلاحهم فى الآخرة ، ولذلك تجد الاحتياط فى قصة أهل الكهف :

﴿ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُواْ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُواْ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾ ﴾

(سورة الكهف)

ونلحظ فى هذه القصة قوله الحق : « يرجموكم » هذه واحدة ، « أو يعيدوكم فى ملتهم ولن تفلحوا إذن أبدا » .

إن كانوا يرجمونكم فسينتصرون عليكم فى الدنيا ، إنما ستأخذون الآخرة ، وإن

ردوكم إلى دينهم ، فلن تفلحوا فى الدنيا ولا فى الآخرة ، إذن فعناصر الفلاح المرادة للإنسان ، إما فى الدنيا وإما فى الآخرة وإما فيهما معا.إنّ عناصر الفلاح أن ننفذ أوامر الله فى قوله : « اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون » .




(٤)
سُورَةُ النِّسَاءِ
مدنية



عرضنا ـ فيما سبق ـ خواطرنا حول تسمية السور ، وهنا تأتى سورة النساء والاسم المختار لها اسم مكرم للجنس الآخر من النوع الإنسانى ، ونلحظ أن الحق لم ينزل سورة باسم سورة الرجال ، وجاء بسورة وسماها « سورة النساء » وتتعلق بها أحكام كثيرة ، وأيضا سيتكلم فى سورة المائدة عن حقوق النساء ، وأيضا سيتكلم فى سورة الأحزاب عن النساء ، وأيضا سيتكلم فى سورة الممتحنة عن النساء ، وفى سورة المجادلة عن النساء وفى سورة الطلاق ، وفى سورة التحريم عن النساء ، إنها أحكام منصوص عليها فى القرآن عن حقوق المرأة ، وهذه الأحكام جاءت لتتكلم عن الوعاء الحاضن للنفس البشرية .

ونحن نعرف أن مهمة الرجل مع الأجناس الدنيا فى الحياة مع الجماد فى المعمل ، ومع الحيوانات يربى ، ومع الزرع يزرع . إن الرجل يعمل مع تلك الأجناس ، والأجناس كما نعلم هى : جماد ، ونبات ، وحيوان ، وإنسان ، ومجال الإنسان الرجل هو العمل مع الجماد ومع النبات ومع الحيوان ، أما مجال المرأة فمع الإنسان ، أيوجد تكريم للمرأة أكثر من أن الله جعلها الحاضنة لأكرم مخلوقاته وهو الإنسان ؟

انظر إلى طفولة كل الأشياء ، النبات والحيوان تجدها طفولات قصيرة ، هناك حيوانات لا تطول طفولتها لأكثر من شهر ، وهناك حيوانات تستمر طفولتها أياما ، وهناك نبات تكون طفولته سبع سنين ـ وهذه طفولة الشجر المعمر ـ لكن طفولة الإنسان تستمر من الميلاد حتى أربع عشرة سنة ، وهى فترة حضانة طويلة ، ولماذا يجعل الله لهذا الإنسان المكرم حضانة طويلة ؟

إن مهمة الإنسان فى الحياة جليلة . إذن فطفولته تحتاج إلى عناية،وفى مرحلة الطفولة يتشرب الإنسان نضج ما حوله ليكون سلوكياته ، وعندما يكون فى حضن أمه فهو فى حضن المرأة ، بينما يكدح والده فى الحياة ، ويأتى لهما بالرزق ، ويسكن عند الزوجة .

فالمرأة عندما قاضت الرجل وخاصمته أمام القاضي وهو يريد أن يأخذ ابنه منها ، قالت للقاضي : لقد حمله خِفا ، يعني حمله في ظهره خفيفا لا يدرى به ووضعه شهوة ، ولكنني حملته كرها على كره ؛ لذلك فبعد أن أنزل الحق في آل عمران سورة وهم قدوة الاصطفاء في الرسالات وفي التكليفات ، ومنهم جاء لنا ببعض الرسل ، وجاء منهم بمنفذين لمنهج الله مثل امرأة عمران ، فلم تكن هي ولا مريم عليهما السلام نبية ولا رسولة ولكن نفذت كل واحدة منهما ما أمرت به .

وبعد تخصيص سورة لآل عمران يأتي لنا الحق بسورة النساء .

والحق سبحانه وتعالى ساعة يخاطب الذين آمنوا فانتظروا منه تكليفا . ساعة يقول: « يا أيها الذين آمنوا » فافهم أنه يريد أن يكلفك . وسبحانه يوضح لك : أنا لا أقتحم عليك اختيارك ، ولا أكلفك إلا بما كلفت أنت به نفسك لأنك آمنت بي ، ومادمت آمنت بي ربا إلها قادرا حكيما فاسمع مني .

إنّ الله لم يدخلك في الإيمان فأنت الذي دخلت باختيارك في الإيمان فيجب أن تستمع إلى من آمنت به ، وقلنا ؛ ـ ولله المثل الأعلى ـ الإنسان منا عندما يذهب إلى الطبيب فهو يختار هذا الطبيب ؛ لأنه أنسب الأطباء لعلاجه ، وساعة يذهب إلى مثل هذا الطبيب فهو يلتزم بأوامره ، ويأخذ تذكرة العلاج ويصرفها من الصيدلية ، وإن لم يجدها يحتال على أي واحد يسافر للخارج ليأتي بها ، وينفذ المريض ما بها من أوامر .

وسبحانه يقول هنا : « يا أيها الناس » إنه لا يطلب من الانسان أي تكليفات ، لكنه يطلب منك أيها الانسان أن تؤمن . فيوضح « يا أيها الناس » . إنه ينادي الناس : تعالوا إلى جانبي كي تروا أيؤمن بي أم لا يؤمن بي ؟ والمقصود بـ « يا أيها الناس » هم آدم وذريته .

والحق يبدأ سورة النساء بقوله :

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ ﴾

وساعة يدعو الله سبحانه الناس إلى تقواه يقول : « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة » ومعنى « اتقوا ربكم » أى اجعلوا بينكم وبينه وقاية ، وماذا أفعل لأتقى ربنا ؟

أول التقوى أن تؤمن به إلها ، وتؤمن أنه إله بعقلك ، إنه ـ سبحانه ـ يعرض لك القضية العقلية للناس فيقول : « يا أيها الناس اتقوا ربكم » ولم يقل : اتقوا الله ، لأن الله مفهومه العبادة ، فالإله معبود له أوامر وله نواهٍ ، لم يصل الحق بالناس لهذه بعد ، إنما هم لايزالون فى مرتبة الربوبية ، والرب هو : المتولى تربية الشيء ، خلقا من عدم وإمدادا من عدم ، لكن أليس من حق المتولى خلق الشيء ، وتربيته أن يجعل له قانون صيانة ؟

إن من حقه ومسئوليته أن يضع للمخلوق قانون صيانة . ونحن نرى الآن أن كل مخترع أو صانع يضع لاختراعه أو للشيء الذى صنعه قانون صيانة ، بالله أيخلق سبحانه البشر من عدم وبعد ذلك يتركهم ليتصرفوا كما يشاءون ؟ أم يقول لهم : اعملوا كذا وكذا ولا تعملوا كذا وكذا ، لكى تؤدوا مهمتكم فى الحياة ؟ إنه يضع دستور الدعوة للإيمان فقال : « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم » .

إذن فالمطلوب منهم أن يتقوا ، ومعنى يتقوا أن يقيموا الوقاية لأنفسهم بأن ينفذوا أوامر هذا الرب الإله الذى خلقهم ، وبالله أيجعل خلقهم علة إلا إذا كان مشهودا بها له ؟ هو سبحانه يقول : « اتقوا ربكم الذى خلقكم » كأن خلقة ربنا لنا مشهود بها ، وإلا لو كان مشكوكا فيها لقلنا له : إنك لم تخلقنا ـ ولله المثل الأعلى .

أنت تسمع من يقول لك : أحسن مع فلان الذى صنع لك كذا وكذا ، فأنت مقر بأنه صنع أم لا ؟ فإذا أقررت بأنه صنع ما صنع فأنت تستجيب لمن يقول لك مثل ذلك الكلام . إذن فقول الله : « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم » فكأن خلق الله للناس ليس محل جدال ولا شك من أحد ، فأراد ـ سبحانه ـ أن يجذبنا إليه ويأخذنا إلى جنابه بالشيء الذى نؤمن به جميعا وهو أنه ـ سبحانه ـ خلقنا إلى الشيء الذى يريده وهو أن نتلقى من الله ما يقينا من صفات جلاله ، وجاء سبحانه بكلمة « رب » ولم يقل : « اتقوا الله » ، لأن مفهوم الرب هو الذى خلق من عدم وأمد من عُدْم ، وتعهد وهو المربى ويبلغ بالإنسان مرتبة الكمال الذى يراد منه وهو الذى خلق كل الكون فأحسن الخلق والصنع ، ولذلك يقول الحق :

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ ﴾

(سورة العنكبوت)

إذن فقضية الخلق قضية مستقرة . ومادامت قضية مستقرة فمعناها : مادمتم آمنتم بأنى خالقكم فلى قدرة إذن ، هذه واحدة ، ورببتكم إذن فلى حكمة ، وإله له قدرة وله حكمة ، إما أن نخاف من قدرته فنرهبه وإما أن نشكر حكمته فنقر به ، « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة » . لو لم يقل الحق : « وجعل منها زوجها » لما كملت ، لماذا ؟ لأنه سيقول فى آيات أخرى عن الإيجاد :

﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾

(سورة الذاريات)

إذن فخلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها هنا ، والناس تريد أن تدخل فى متاهة . هل خلق منها المقصود به خلق حواء من ضلع آدم أى من نفس آدم ؟ أناس

قالوا ذلك ، وأناس قالوا : لا ، « منها » تعنى من جنسها ، ودللوا على ذلك قائلين : حين يقول الله :

﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾

(من الآية ١٢٨ سورة التوبة)

أأخذ الله محمدا صلى الله عليه وسلم من نفوسنا وكونه ؟ لا ، إنما هو رسول من جنسنا البشرى ، وكأنه سبحانه قد أشار إلى دليل ؛ لأن خلْق حواء قد انطمست المعالم عنه ، ولأنه أعطانا بيان خلق آدم وتسويته من طين ومراحل خلقه إلى أن صار إنسانا ، ولذلك يجوز أن يكون قد جعل خلق آدم هو الصورة لخلق الجنس الأول ، وبعد ذلك تكون حواء مثله ، فيكون قوله سبحانه : « خلق منها » أى من جنسها ، خلقها من طين ثم صورها إلخ ؛ ولكن لم يعد علينا التجربة فى حواء كما قالها فى آدم ، أو المراد من قوله : « منها » أى من الضلع ، وهذا شىء لم نشهد أوله ، والشىء الذى لم يشهده الإنسان فالحجة فيه تكون بِمَنْ شهده ، وسبحانه أراد أن يرحمنا من متاهات الظنون فى هذه المسألة ، مسألة كيف خُلقنا ، وكيف جئنا ؟

إن كيفية خلقك ليس لك شأن بها ، فالذى خلقك هو الذى يقول لك فاسمع كلامه لأن هذه مسألة لا تتعلق بعلم تجريبى ؛ ولذلك عندما جاء « دارون » وأراد أن يتكبر ويتكلم ، جاءت النظرية الحديثة لتهدم كلامه ، قالت النظرية الحديثة لدارون : إن الأمور التى أثرت فى القرد الأول ليكون إنسانا ، لماذا لم تؤثر فى بقية القرود ليكونوا أناسا وينعدم جنس القرود ؟! وهذا سؤال لا يجيب عليه دارون ؛ لذلك نقول : هذا أمر لم نشهده فيجب أن نستمع ممن فعل ، والحق سبحانه يقول :

﴿ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ ﴾

(سورة الكهف)

ومادام لم يشهدهم ، فهل يستطيع أحد منهم أن يأتى بعلم فيها ؟ إن أحدا لا يأتى بعلم فيها ، وبعد ذلك يرد على من يجىء بادعاء علم فيقول : « وما كنت متخذ المضلين عضدا » ، معنى مضلين أنهم سيضلونكم فى الخلق . كأن الله أعطانا مناعة

فى الأقوال الزائفة التى يمكن أن تنشأ من هذا عندما قال : « وما كنت متخذ المضلين عضدًا » ، فقد أوضح لنا طبيعة من يضللون فى أصل الخلق وفى كيفية الخلق ، فهم لم يكونوا مع الله ليعاونوه ساعة الخلق حتى يخبروا البشر بكيفية الخلق . فإن أردتم أن تعرفوا فاعلموا أنه سبحانه الذى يقول كيف خلقتم وعلى أى صورة كنتم ، ولكن من يقول كذا وكذا ، هم المضللون ، و« المضللون » هم الذين يلفتونكم عن الحق إلى الباطل .

« يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة » ولماذا لم يقل خلقكم من زوجين وانتهى ؟ لأنه عندما يُردّ الشيء إلى اثنين قد يكون لواحد من الاثنين هوى ، وإنما هذه ردت إلى واحدة فقط ، فيجب ألا تكون لكم أهواء متنازعة ، لأنكم مردودون إلى نفس واحدة ، أما عن نظرية « دارون » وما قاله من كلام فقد قيض الله لقضية الدين وخاصة قضية الإسلام علماء من غير المسلمين اهتدوا إلى دليل يوافق القرآن ، فقام العالم الفرنسى « مونيه » ، عندما أراد أن يرد على الخرافات التى يقولونها من أن أصل الإنسان كذا وكذا ، وقال : أنا أعجب ممن يفكرون هذا التفكير ، هل توجد المصادفة ما نسميه « ذكراً » ثم توجد المصادفة شخصا نسميه « أنثى » ويكون من جنسه لكنه مختلف معه فى النوع بحيث إذا التقيا معا جاءا بذكر كالأول أو بأنثى كالثانى ؟

كيف تفعل المصادفة هذه العملية ؟

سنسلم أن المصادفة خلقت آدم ، فهل المصادفة أيضا خلقت له واحدة من جنسه . ولكنها تختلف معه فى النوع بحيث إذا التقيا معا ينشأ بينهما سيال عاطفى جارف وهو أعنف الغرائز ، ثم ينشأ منهما تلقيح يُنشىء ذكرا كالأول أو ينشىء أنثى كالثانى ؟ أى مصادفة هذه ؟ هذه المصادفة تكون عاقلة وحكيمة ، سموها مصادفة ونحن نسميها الله .

لقد ظن « مونيه » ـ هداه الله إلى الإسلام وغفر له ـ أنه جاء بالدليل الذى يرد به على دارون ، نقول له : إن القرآن قد مس هذه المسألة حين قال : « اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها » ، وهذه هى

العظمة ، إنه خلق الرجل وخلق الأنثى ؛ وهى من جنسه ، ولكنها تختلف معه فى النوع بحيث إذا التقيا معا أنشأ الله منهما رجالا ونساءً . إذن فهو عملية مقصودة ، وعناية وغاية وحكمة ، إذن فقول الله سبحانه وتعالى : « الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها » . هذه جاءت بالدليل الذى هُدِى إليه العالم الفرنسى « مونيه » أخيرا .

« وبث منهما رجالا كثيرا ونساء » وانظروا عظمة الأسلوب فى قوله « وبث » أى « نشر » وسنقف عند كلمة « نشر » لأن الخلق يجب أن ينتشروا فى الأرض ، كى يأخذوا جميعا من خيرات الله فى الأرض جميعا .

و« النشر » معناه تفريق المنشور فى الحيز ، فهناك شيء مطوى وشيء آخر منشور ، والشيء المطوى فيه تجمع ، والشيء المنشور فيه تفريق وتوزيع ، إذن فحيز الشيء المتجمع ضيق ، وحيز الشيء المبثوث واسع ، معنى هذا أن الله سبحانه وتعالى حينما يقول : « وبث منهما » أى من آدم وحواء « رجالا كثيرا ونساء » واكتفى بأن يقول « نساء » ولم يقل : كثيرات لماذا ؟ لأن المفروض فى كل ذكورة أن تكون أقل فى العدد من الأنوثة . وأنت إذا نظرت مثلا فى حقل فيه نخل ، تجد كم ذكرا من النخل وكم أنثى ؟ ستجد ذكراً أو اثنين .

إذن القلة فى الذكورة مقصودة لأن الذكر مخصب ويستطيع الذكر أن يخصب آلافا ، فإذا قال الله : « وبث منهما رجالا كثيرا » فالذكورة هى العنصر الذى يفترض أن يكون أقل كثيرا ، فماذا عن العنصر الثانى وهو الأنوثة ؟ لابد أن يكون أكثر ، والقرآن يأتى لينبهك إلى المعطيات فى الألفاظ لأن المتكلم الله ، ولكن إذا نظرت لقوله : « وبث منهما » أى من آدم وحواء وهما اثنان « رجالا كثيرا ونساء » . فتكون جَمْعاً وهذا ليدلك على أن المتكاثر يبدأ بقلة ثم ينتهى بكثرة .

ونريد أن نفهم هذه كى نأخذ منها الدليل الإحصائى على وجود الخالق ، فهو « بث منهما رجالا كثيرا ونساء » والجمع البشرى الذى ظهر من الاثنين سيبث منه أكثر . . وبعد ذلك يبث من المبثوث الثانى مبثوثا ثالثاً ، وكلما امتددنا فى البث تنشأ

كثرة ، وعندما تنظر لأى بلد من البلاد تجد تعداده منذ قرن مضى أقل بكثير جدا من تعداده الآن ، مثال ذلك كان تعداد مصر منذ قرن لا يتعدى خمسة ملايين ، ومن قرنين كان أقل عدداً ، ومن عشرة قرون كان أقل ، ومن عشرين قرنا كان أقل ، إذن فكلما امتد بك المستقبل فالتعداد يزيد ، لأنه سبحانه يبث من الذكورة والأنوثة رجالاً كثيراً ونساء وسيبث منهم أيضاً عددا أكبر .

إذن فكلما تقدم الزمن تحدث زيادة فى السكان ، ونحن نرى ذلك فى الأسرة الواحدة ، إن الأسرة الواحدة مكونة عادة من أب وأم ، وبعد ذلك يمكن أن نرى منهما أبناء وأحفاداً وعندما يطيل الله فى عمر أحد الوالدين يرى الأحفاد وقد يرى أحفاد الأحفاد . إذن كلما تقدم الزمن بالمتكاثر من اثنين يزداد وكلما رجعت إلى الماضى يقل ؛ فالذين كانوا مليوناً من قرن كانوا نصف مليون من قرنين ، وسلسلها حتى يكونوا عشرة فقط ، والعشرة كانوا أربعة ، والأربعة كانوا اثنين والاثنان هما آدم وحواء .

فعندما يقول الحق : إنه خلق آدم وحواء ، وتحاول أنت أن تسلسل العالم كله سترجعه لهما ، ومادام التكاثر ينشأ من الاثنين ، فمن أين جاءا ؟ الحق سبحانه يوضح لنا ذلك بقوله : « إنا خلقناكم من ذكر وأنثى » وهو بذلك يريحنا من علم الإحصاء . وكان من الضرورى أن تأتى هذه الآية كى تحل لنا اللغز فى الإحصاء ، وكلما أتى الزمن المستقبل كثر العالم وكلما ذهبنا إلى الماضى قل التعداد إلى أن يصير وينتهى إلى اثنين ، وإياك أن تقول إلى واحد ، لأن واحداً لا يأتى منه تكاثر ، فالتكاثر يأتى من اثنين ومن أين جاء الاثنان ؟ لابد أن أحدا خلقهما ، وهو قادر على هذا ، ويعلمنا الله ذلك فيقول : « خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء » ونأخذ من « بث » « الانتشار » ، ولو لم يقل الله هذا لكانت العقول الحديثة تتوه وتقع فى حيرة وتقول : نسلسل الخلق حتى يصيروا اثنين ، والاثنان هذان كيف جاءا ؟ - إذن لابد أن نؤمن بأن أحدا قد أوجدهما من غير شىء .

« وبث منهما رجالا كثيرا » لأن النشر فى الأرض يجب أن يكون خاصا بالرجل ، فالحق يقول :

﴿ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ ﴾

(من الآية ١٠ سورة الجمعة)

والحق يقول :

﴿ فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ ﴾

(من الآية ١٥ سورة الملك)

والأنثى تجلس فى بيتها تديره لتكون سكناً يسكن إليها ، والرجل هو المتحرك فى هذا الكون ، وهى بذلك تؤدى مهمتها .

وبعدما قال : « اتقوا ربكم » يقول : « اتقوا الله » . لقد قدم الدليل أولا على أنه إله قادر ، وخلقكم من عدم وأمدكم وسخر العالم لخدمتكم ، وقدم دليل البث فى الكون المنشور الذى يوضح أنه إله ، فلا بد أن تتلقوا تعليماته ، ويكون معبوداً منكم ، أى مطاعاً ، والطاعة تتطلب منهجاً : افعل ولا تفعل ، وأنزل الحق القرآن كمنهج خاتم ، ويقول : « واتقوا الله الذى تساءلون به » .

انظر إلى « القفشة » ، للخلق الجاحد ، إنه ـ سبحانه ـ بعد أن أخذهم بما يتعاملون ويتراحمون ويتعاطفون به أوضح لهم : أنتم مع أنكم كنتم على فترة من الرسل إلا أن فطرتكم التى تتغافلون عنها تعترف بالله كخالق لكم .

وأنت إذا أردت إنفاذ أمر من الأمور ، وتريد أن تؤثر على من تطلب منه أمراً ، تقول : سألتك بالله أن تفعل ذلك ،لقد أخذ منهم الدليل ، فكونك تقول : سألتك بالله أن تفعل ذلك فلا بد أنك سألته بمعظَّم ، إذن فتعظيم الله أمر فطرى فى البشر ، والمطموس هو المنهج الذى يقول : افعل ولا تفعل . والإنسان من هؤلاء الجاحدين عندما يسهو ، ويطلب حاجة تهمه من آخر ، فهو يقول له : سألتك بالله أن تفعل كذا . ومادام قد قال : سألتك بالله فكأن هناك قضية فطرية مشتركة هى أن الله هو الحق ، وأنه هو الذى يُسأل به ، ومادام قد سئل بالله فلن يخيِّب رجاء من سأله .

إنه فى الأمور التى تريدون بهاتحقيق مسائلكم تسألون بالله وتسألون أيضاً بالأرحام

وتقولون : بحق الرحم الذى بينى وبينك ، أنا من أهلك ، وأنا قريبك وأمُّنا واحدة ، أرجوك أن تحقق لى هذا الأمر . ولماذا جاءت « الأرحام » هنا ؟ لأن الناس حين يتساءلون بالأرحام فهم يجعلون المسئولية من الفرد على الفرد طافية فى الفكر ، فمادمت أنا وأنت من رحم واحد ، فيجب أن تقضى لى هذا الشيء . إذن فمرة تسألون بالله الذى خلق ، ومرة تسألون بالأرحام لأن الرحم هو السبب المباشر فى الوجود المادى ، ومثال ذلك قول الحق :

﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾

(من الآية ٣٦ سورة النساء)

لقد جاء لنا بالوالدين اللذين هما السبب فى إيجادنا ، والله يريد من كل منا أن يبر والديه ، ولكن قبل ذلك لابد أن ينظر إلى الذى أوجدهما ، وأن يُصعد الأمر قليلا ليَعرف أن الذى أوجدهما هو الله سبحانه .

ويختم الحق الآية بقوله : « إن الله كان عليكم رقيبا » ، لأن كلمة « اتقوا » تعنى اجعل بينك وبين غضب ربك وقاية بإنفاذ أوامر الطاعة ، واجتناب ما نهى الله عنه « إن الله كان عليكم رقيبا » ، والرقيب من « رقب » إذا نظر ويقال : « مرقب » ، ونجد مثل هذا المرقب فى المنطقة التى تحتاج إلى حراسة ، حيث يوجد « كشك » مبنى فوق السور ليجلس فيه الحارس كى يراقب . ومكان الحراسة يكون أعلى دائما من المنطقة المحروسة ، وكلمة « رقيب » تعنى ناظراً عن قصد أن ينظر ، ويقولون : فلان يراقب فلانا أى ينظره ، صحيح أن هناك من يراه ذاهباً وآتياً من غير قصد منهم أن يروه ، لكن إن كان مراقباً ، فمعنى ذلك أن هناك من يرصده ، وسبحانه يقول : « إن الله كان عليكم رقيبا » . فليس الله بصيراً فقط ولكنه رقيب أيضاً ـ ولله المثل الأعلى .

نحن نجد الإنسان قد يبصر مالا غاية له فى إبصاره ، فهو يمر على كثير من الأشياء فيبصرها ، لكنه لا يرقب إلا من كان فى باله . والحق سبحانه رقيب علينا جميعا كما فى قوله :

﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾ ﴾

(سورة الفجر)

وبعد أن تكلم سبحانه عن خلقنا أبا وأما وأنّه بث منهما رجالاً كثيراً ونساء ، أراد أن يحمى هذه المسألة وأن يحمى المبثوث . والمبثوث قسمان : قسم اكتملت له القوة وأصبحت له صلاحية فى أن يحقق أموره النفعية بذاته ، وقسم ضعيف ليست له صلاحية فى أن يقوم بأمر ذاته ، ولأنه سبحانه يريد تنظيم المجتمع ؛ لذلك لابد أن ينظر القادرون فى المجتمع إلى القسم الضعيف فى المجتمع ، ومن القسم الضعيف الذى يتكلم الله عنه هنا ؟ إنهم اليتامى ، لماذا ؟

لأن الحق سبحانه حينما خلقنا من ذكر وأنثى ، آدم وحواء ، جعل لنا أطواراً طفولية ، فالأب يكدح والأم تحضن ، ويربيان الإنسان التربية التى تنبع من الحنان الذاتى ونَعرف أن الحنان الذاتى والعاطفة يوجدان فى قلب الأبوين على مقدار حاجة الابن إليهما ، الصغير عادة يأخذ من حنان الأب والأم أكثر من الكبير ، وهذه عدالة فى التوزيع ، لأنك إذا نظرت إلى الولد الصغير والولد الكبير والولد الأكبر ، تجد الأكبر أحظهم زمنا مع أبيه وأمه والصغير أقلهم زمنا ، فيريد الحق أن يعوض الصغير فيعطى الأب والأم شحنة زائدة من العاطفة تجاهه ، وأيضا فإن الكبير قد يستغنى والصغير مازال فى حاجة ، ولذلك قال سبحانه فى أخوة يوسف :

﴿ إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ ﴾

(من الآية ٨ سورة يوسف)

أى أنهم أقوياء وظنوا أنه كان يجب على أبيهم أن يحب الأقوياء . وهذا الظن دليل على أن الأب كان يعلم أنهم عصبة لذلك كان قلبه مع غير العصبة ، وهذا هو الأمر الطبيعى ، فهم جاءوا بالدليل الذى هو ضدهم .

إذن فحين يوجد الناشيء الذى يحتاج إلى أن يُربَّى التربية التى يعين عليها الحنان والعطف ، فلا بد أن نأتى لليتيم الذى فقد مصدر الحنان الأساسى ونقنن له ، ويأتى الحق سبحانه وتعالى ليوزع المجتمع الإنسانى قطاعات ، ويحمل كل واحد القطاع المباشر له ، فإذا حمل كل واحد منا القطاع المباشر له تتداخل العمايات فى القطاعات ، هذا سيذهب لأبيه وأمه ولأولاد أخيه ، وهذا كذلك ، فتتجمع الدوائر . وبعد ذلك يعيش المجتمع كله فى تكافل ، وهو سبحانه يريد أن يجعل وسائل الحنان ذاتية فى كل نفس ، ومادام اليتيم يقيم معنا كفرد فلا بد من العناية به .

إن اليتيم فرد فقد العائل له ولذلك يقولون : « درة يتيمة » أى وحيدة فريدة ، وهكذا اليتيم وحيد فريد ، إلا أنهم جاءوا فى الإنسان وفى الأنعام وفى الطير وقالوا : اليتيم فى الإنسان من فقد أباه ، واليتيم فى الأنعام من فقد أمه ، لماذا ؟ لأن الأنعام طلوقة تلقح الذكور فيها الإناث وتنتهى . والأم هى التى تربى وترضع ؛ فإذا جاء أحد آخر يمسها تنفر منه .

أما اليتيم فى الطير فمن فقدهما معاً ، فالطير عادة الزوج منها يألف الآخر ؛ ولذلك يتخذان عشا ويتناوبان العناية بالبيض ويعملان معاً ففيه حياة أسرية ، والحق سبحانه وتعالى جاء فى اليتيم الذى هو مظهر الضعف فى الأسوة الإنسانية وأراد أن يقنن له فقال :

﴿ وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَـٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ۝٢ ﴾

وكيف نؤتى اليتيم ماله وهو لم يبلغ مبلغ الرجال بعد ، ونخشى أن نعطيه المال فيضيعه ؟

انظر إلى دقة العبارة فى قوله من بعد ذلك :

﴿ وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَـٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ﴾

(من الآية ٦ سورة النساء)

وقبل ذلك ماذا نفعل ؟ هل ندفع لهم الأموال ؟ الحق يوضح أنك ساعة تكون وليا على مال اليتيم فاحرص جيدا أن تعطى هذا اليتيم ماله كاملا بعد أن يستكمل نضجه

كاملا ، فأنت حفيظ على هذا المال ، وإياك أن تخلط مالك بماله أو تتبدل منه ، أى تأخذ الجميل والثمين من عنده وتعطيه من مالك الأقل جمالا أو فائدة .

إذن فقوله : « وآتوا اليتامى أموالهم » أى أن الله جعل المال لليتيم ولم يجعل للقيِّم عليه أن يتصرف فى هذا المال إلا تصرف صيانة ، وأيضا هنا ملحظ آخر هو ما شرحه لنا « وابتلوا اليتامى » فهناك أناس يريدون أن يطيلوا أمد الوصاية على اليتيم ، لكى ينتفع الواحد منهم بهذا المال فيوضح سبحانه : لا تنتظر إلى أن يبلغ الرشد ثم تقول ننظره ، لا . أنت تدربه بالتجربة فى بعض التصرفات وتنظر أسيحسن التصرف أم لا ؟

إن قول الحق : « وابتلوا اليتامى » أى اختبروهم ، هل يستطيعون أن يقوموا بمصالحهم وحدهم ؟ فإن استطاعوا فاطمئنوا إلى أنهم ساعة يصلون إلى حد الحلم سيحسنون التصرف ، أعطوهم أموالهم بعد التجربة ؛ لأن اليتيم يعيش فى قصور عمرى ، وهو سبحانه يفرق بين اليتيم والسفيه ، فالسفيه لا يعانى من قصور عمرى بل من قصور عقلى ، وعندما تكلم سبحانه عن هذه المسألة قال :

﴿ وَلَا تُؤْتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ﴾

(من الآية ٥ سورة النساء)

فهل هى أموالكم ؟ لا . فحين يكون المرء سفيها فاعلم أنه لا إدارة له على ملكه ، وتنتقل إدارة الملكية إلى من يتصرف فى المال تصرفا حكيما ، فاحرص على أن تدير مال السفيه كأنه مالك ؛ لأنه ليس له قدرة على حسن التصرف . لكن لما يبلغ اليتيم إلى مرحلة الباءة والنكاح والرشد يقول الحق :

﴿ فَٱدْفَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ﴾

(من الآية ٦ سورة النساء)

إنه سبحانه يقول مرة فى الوصاية : « أموالكم » وفى العطاء يقول : « أموالهم » إذن فهو يريد ألا تبدد المال ، ثم يوضح . احرص على ثروة اليتيم أو السفيه وكأنها مالك ؛ لأنه مادام سفيها فمسئولية الولاية مطلوبة منك ، والمال ليس ملكا لك . خذ منه ما يقابل إدارة المال وقت السفه أو اليتم ، وبعد ذلك يأتى الحق سبحانه

وتعالى ليعلم القائمين على أمر اليتامى أو على أمر السفهاء الذين لا يحسنون إدارة أموالهم فيقول :

﴿ وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا ﴾

(من الآية ٥ سورة النساء)

اجعلوا الرّزق مما يخرج منها ، وإياكم أن تبقوها عندكم ، وإلا فما قيمة ولايتك ووصايتك وقيامك على أمر السفيه أو اليتيم ؟ إنك تثمر له المال لا أنْ تأكله أو لا تحسن التصرف فيه بحيث ينقص كل يوم ، لا . «وارزقوهم فيها » ، و« فى » هنا للسببية ، أى ارزقوهم بسببها ، ارزقوهم رزقا خارجا منها .

« وآتوا اليتامى أموالهم ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب » والخبيث هو الحرام والطيب هو الحلال ، ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب ، فقد يكون ضمن مال اليتيم شيء جميل ، فيأخذه الوصى لنفسه ويستبدله بمثلٍ له قبيح ، مثال ذلك ، أن يكون ضمن مال اليتيم فرس جميل ، وعند الوصى فرس قبيح فيأخذه ويقول : فرس بفرس ، أو جاموسة مكان جاموسة ، أو نخلة طيبة بنخلة لا تثمر ، هنا يقول الحق : « ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب » .

وقوله سبحانه وتعالى:« ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم » يعنى إياكم ألا تجعلوا فرقا بين أموالهم وأموالكم فتأكلوا هذه مع تلك ، بل فرقوا بين أكل أموالكم والحفاظ على أموالهم لماذا ؟ تأتى الإجابة : « إنه كان حوبا كبيرا » أى إثما فظيعا .

ثم ينتقل الحق إلى قضية أخرى يجتمع فيها ضعف اليتم ، وضعف النوع : ضعف اليتم سواء أكان ذكراً أم أنثى ، وإن كانت أنثى فالبلوى أشد ؛ فهى قد اجتمع عليها ضعف اليتم وضعف النوع ، طبعا فاليتيمة عندما تكون تحت وصاية وليها ، يجوز أن يقول : إنها تملك مالا فلماذا لا أتزوجها لكى آخذ المال ؟ وهذا يحدث كثيرا .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا ﴿٣﴾ ﴾

هنا يؤكد الحق الأمر بأن ابتعدوا عن اليتامى . فاليتيم مظنة أن يُظلم لضعفه ، وبخاصة إذا كان أنثى . إنّ الظلم بعامة محرم فى غير اليتامى ، ولكن الظلم مع الضعيفة كبير ، فهى لا تقدر أن تدفع عن نفسها ، فالبالغة الرشيدة من النساء قد تستطيع أن تدفع الظلم عن نفسها . وقوله الحق : « وإن خفتم ألا تقسطوا » من « أقسط » ، أى عدل ، والقسط من الألفاظ التى تختلط الأذهان فيها ، و« القسط » مرة يطلق ويراد به « العدل » ، إذا كان مكسور القاف ، ولذلك يأتى الحق سبحانه فيقول :

﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ۚ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

وهكذا نعرف أن كلمة « قسط » تأتى مرة للعدل ومرة للجور .

فـ« قَسَطَ » « يَقْسطُ » « قَسْطا » و« قُسوطًا » أى ظَلَم بفتح القاف فى « قَسطٍ » وضمها فى « قُسوط » .

والقِسط بكسر القاف هو العدل . . والقَسط بفتح القاف ـ كما قلنا ـ هو الظلم . وهناك مصدر ثانٍ هو « قسوط » لكن الفعل واحد ، وعندما يقول الحق : « وإن خفتم ألا تقسطوا » من أقسط . أى خفتم من عدم العدل وهو الظلم . وهناك فى اللغة ما نسميه همزة الإزالة ، وهى همزة تدخل على الفعل فتزيله ، مثال ذلك : فلان عتب على فلان ، أى لامه على تصرف ما ، ويقال لمن تلقى العتاب عندما يرد

على صاحب العتاب : أعتبه ، أى طمأن خاطره وأزال مصدر العتاب .

ويقال : محمد عتب على علىّ . فماذا كان موقف على ؟ يقال : أعتب محمداً أى طيب خاطره وأزال العتاب . ويقال أعجم الكتاب . فلا تفهم من ذلك أنه جعل الكتاب معجما ، لا ، فأعجمه أى أزال إبهامه وغموضه . كذلك « أقسط » أى أزال القَسْط والظلم . إذن « القِسط » هو العدل من أول الأمر ، لكن « أقسط . إقساطاً » تعنى أنه كان هناك جور أو ظلم وتم رفعه . والأمر ينتهى جميعه إلى العدل . فالعدل إن جاء ابتداء هو : قِسط بكسر القاف . وإن جاء بعد جور تمت إزالته فهو إقساط . فحين يقال « أقسط » و« تقسطوا » بالضم ، فمعناها أنه كان هناك جور وظلم تم رفعه ، ولذلك فعندما نقرأ القرآن نجده يقول :

﴿ وَأَمَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾ ﴾

(سورة الجن)

والقاسطون هنا من القسط ـ بالفتح ـ ومن القسوط بالضم ، أى من الجور والظلم ، ونجد القرآن الكريم يقول أيضا :

﴿ وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾

(من الآية ٤٢ سورة المائدة)

أى أن الله يحب الذين إن رأوا ظلما أزالوه وأحلوا محله العدل .

الحق هنا فى سورة النساء يقول : « وإن خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى » أى إن خفتم ألا ترفعوا الظلم عن اليتامى ، ومعنى أن تخاف من ألا تقسط لأنك بار تعرف كيف تنقذ نفسك من مواطن الزلل . أى فإن خفتم أيها المؤمنون ألا ترفعوا الجور عن اليتامى فابتعدوا عنهم وليسد كل مؤمن هذه الذريعة أمام نفسه حتى لا تحدثه نفسه بأن يجور على اليتيمة فيظلمها . وإن أراد الرجل أن يتزوج فأمامه من غير اليتامى الكثير من النساء .

ومادامت النساء كثيرات فالتعدد يصبح واردا ، فهو لم يقل : اترك واحدة وخذ

واحدة ، لكنه أوضح : اترك اليتيمة وأمامك النساء كثيرات . إذن فقد ناسب الحال أن تجيء مسألة التعدد هنا ، لأنه سبحانه وتعالى يريد أن يرد الرجل الولى عن نكاح اليتيمات مخافة أن يظلمهن ، فأمره بأن يترك الزواج من اليتيمة الضعيفة ؛ لأن النساء غيرها كثيرات . « وإن خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع » .

وقوله الحق : « ما طاب لكم من النساء » أى غير المحرمات فى قوله تعالى :

﴿ وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾ ﴾

(سورة النساء)

وفى قوله سبحانه :

﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۖ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ ﴾

(سورة النساء)

إذن فما طاب لكم من النساء غير المحرمات هن اللاتى يحللن للرجل « فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت

أيمانكم ذلك أدنى ألا تعولوا » وهنا يجب أن نفهم لماذا جاء هذا النص ؛ ولماذا جاء بالمثنى والثلاث والرباع هنا ؟

إنه سبحانه يريد أن يُزَهِّدَ الناس فى نكاح اليتيمات مخافة أن تأتى إلى الرجل لحظة ضعف فيتزوج اليتيمة ظالما لها ، فأوضح سبحانه : اترك اليتيمة ، والنساء غيرها كثير ، فأمامك مثنى وثلاث ورباع ، وابتعد عن اليتيمة حتى لا تكون طامعا فى مالها أو ناظراً إلى ضعفها أو لأنها لم يعد لها ولىّ يقوم على شأنها غيرك .

ونريد أن نقف هنا وقفة أمام قوله تعالى : « فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع » ما معنى مثنى ؟ يقال « مثنى » أى اثنين مكررة ، كأن يقال : جاء القوم مثنى ، أى ساروا فى طابور وصفٍ مكون من اثنين اثنين . هذا يدل على الوحدة الجائية .

ويقال : جاء القوم ثلاث ، أى ساروا فى طابور مكون من ثلاثة ؛ ثلاثة . ويقال : جاء القوم رباع . أى جاء القوم فى طابور يسير فيه كل أربعة خلف أربعة أخرى .

ولو قال واحد : إن المقصود بالمثنى والثلاث والرباع أن يكون المسموح به تسعة من النساء . نقول له : لو حسبنا بمثل ما تحسب ، لكان الأمر شاملا لغير ما قصد الله ، فالمثنى تعنى أربعة ، والثلاث تعنى ستة ، والرباع تعنى ثمانية ، وبذلك يكون العدد ثمانية عشر ، ولكنك لم تفهم ، لأن الله لا يخاطب واحداً ، لكن الله يخاطب جماعة ، فيقول:« وإن خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع » .

فإذا قال مدرس لتلاميذه : افتحوا كتبكم ، أيعنى هذا الأمر أن يأتى واحد ليفتح كل الكتب ؟ لا ، إنه أمر لكل تلميذ بأن يفتح كتابه ، لهذا فإن مقابلة الجمع بالجمع تقتضى القسمة آحاداً .

وعندما يقول المدرس : أخرجوا أقلامكم . أى على كل تلميذ أن يخرج قلمه .

وعندما يقال : اركبوا سياراتكم ، أى أن يركب كل واحد سيارته . إذن فمقابلة الجمع بالجمع تقتضى القسمة آحاداً ، وقوله الحق : « فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم ذلك أدنى ألا تعولوا » هو قول يخاطب جماعة ، فواحد ينكح اثنتين وآخر ينكح ثلاث نساء ، وثالث ينكح أربع نساء .

والحق سبحانه وتعالى حينما يشرع الحكم يشرعة مُرة إيجاباً ومرة يشرعه إباحةً ، فلم يوجب ذلك الأمر على الرجل ، ولكنه أباح للرجل ذلك ،وفيه فرق واضح بين الإيجاب وبين الإباحة . والزواج نفسه حتى من واحدة مباح . إذن ففيه فرق بين أن يلزمك الله أن تفعل وأن يبيح لك أن تفعل . وحين يبيح الله لك أن تفعل ، ما المرجح فى فعلك ؟ إنّه مجرد رغبتك .

ولكن إذا أخذت الحكم ، فخذ الحكم من كل جوانبه ، فلا تأخذ الحكم ، بإباحة التعدد ثم تكف عن الحكم بالعدالة ، وإلا سينشأ الفساد فى الأرض ، وأول هذا الفساد أن يتشكك الناس فى حكم الله . لماذا ؟ لأنك إن أخذت التعدد ، وامتنعت عن العدالة فأنت تكون قد أخذت شقا من الحكم ، ولم تأخذ الشق الآخر وهو العدل ، فالناس تجنح أمام التعدد وتبتعد وتميل عنه لماذا ؟ لأن الناس شقوا كثيراً بالتعدد أخذاً لحكم الله فى التعدد وتركاً لحكم الله فى العدالة .

والمنهج الإلهى يجب أن يؤخذ كله ، فلماذا تكره الزوجة التعدد ؟ لأنها وجدت أن الزوج إذا ما تزوج واحدة عليها التفت بكليته وبخيره وببسمته وحنانه إلى الزوجة الجديدة ، لذلك فلابد للمرأة أن تكره زواج الرجل عليها بامرأة أخرى .

إن الذين يأخذون حكم الله فى إباحة التعدد يجب أن يلزموا أنفسهم بحكم الله أيضا فى العدالة ، فإن لم يفعلوا فهم يشيعون التمرد على حكم الله ، وسيجد الناس حيثياتٍ لهذا التمرد ، وسيقال : انظر ، إن فلاناً تزوج بأخرى وأهمل الأولى ، أو ترك أولاده دون رعاية واتجه إلى الزوجة الجديدة .

فكيف تأخذ إباحة الله فى شىء ولا تأخذ إلزامه فى شىء آخر ، إن من يفعل ذلك

يشكك الناس فى حكم الله ، ويجعل الناس تتمرد على حكم الله ـ والسطحيون فى الفهم يقولون : إنهم معذورون ، وهذا منطق لا يتأتى .

إن آفة الأحكام أن يؤخذ حكم جزئى دون مراعاة الظروف كلها ، والذى يأخذ حكما عن الله لابد أن يأخذ كل منهج الله .

هات إنساناً عدل فى العِشْرة وفى النفقة وفى البيتوتة وفى المكان وفى الزمان ولم يرجح واحدة على أخرى ، فالزوجة الأولى إن فعلت شيئاً فهى لن تجد حيثية لها أمام الناس . أما عندما يكون الأمر غير ذلك فإنها سوف تجد الحيثية للاعتراض ، والصراخ الذى نسمعه هذه الأيام إنما نشأ من أن بعضاً قد أخذ حكم الله فى إباحة التعدد ولم يأخذ حكم الله فى عدالة المعدد . والعدالة تكون فى الأمور التى للرجل فيها خيار . أما الأمور التى لا خيار للرجل فيها فلم يطالبه الله بها .

ومن السطحيين من يقول : إن الله قال : اعدلوا ، ثم حكم أننا لا نستطيع أن نعدل . نقول لهم : بالله أهذا تشريع ؟ ، أيعطى الله باليمين ويسحب بالشمال ؟ ألم يشرع الحق على عدم الاستطاعة فقال :

﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ۖ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ ۚ وَإِن تُصْلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٢٩﴾ ﴾

(سورة النساء)

ومادام قد شرع على عدم الاستطاعة فى العدل المطلق فهو قد أبقى الحكم ولم يلغه ، وعلى المؤمن ألا يجعل منهج الله له فى حركة حياته عضين بمعنى أنه يأخذ حكما فى صالحه ويترك حكماً إن كان عليه . فالمنهج من الله يؤخذ جملة واحدة من كل الناس ؛ لأن أى انحراف فى فرد من أفراد الأمة الإسلامية يصيب المجموع بضرر . فكل حق لك هو واجب عند غيرك ، فإن أردت أن تأخذ حقك فأدّ واجبك . والذين يأخذون حكم الله فى إباحة التعدد يجب أن يأخذوا حكم الله أيضا فى العدل ، وإلا أعطوا خصوم دين الله حججا قوية فى إبطال ما شرع الله ، وتغيير ما شرع الله بحجة ما يرونه من آثار أخذ حكم وإهمال حكم آخر .

والعدل المراد فى التعدد هو القسمة بالسوية فى المكان ، أى أن لكل واحدة من المتعددات مكاناً يساوى مكان الأخرى ، وفى الزمان ، وفى متاع المكان ، وفيما يخص الرجل من متاع نفسه ، فليس له أن يجعل شيئا له قيمة عند واحدة ، وشيئاً لا قيمة له عند واحدة أخرى ، يأتى مثلا ببجامة « منامة » صُوف ويضعها عند واحدة ، ويأتى بأخرى من قماش أقل جودة ويضعها عن واحدة ، لا . لابد من المساواة ، لا فى متاعها فقط ، بل متاعك أنت الذى تتمتع به عندها ، حتى أن بعض المسلمين الأوائل كان يساوى بينهن فى النعال التى يلبسها فى بيته ، فيأتى بها من لون واحد وشكل واحد وصنف واحد ، وذلك حتى لا تَدِلُّ واحدة منهن على الأخرى قائلة : إن زوجى يكون عندى أحسن هنداماً منه عندك . والعدالة المطلوبة - أيضاً - هى العدالة فيما يدخل فى اختيارك ؛ لأن العدالة التى لا تدخل فى اختيارك لا يكلف الله بها ، فأنت عدلت فى المكان ، وفى الزمان ، وفى المتاع لكل واحدة ، وفى المتاع لك عند كل واحدة ، ولكن لا يطلب الله منك أن تعدل بميل قلبك وحب نفسك ؛ لأن ذلك ليس فى مكنتك .

والرسول صلى الله عليه وسلم يعطينا هذا فيقول : عن عائشة رضى الله عنها قالت : (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقسم ويعدل ويقول : « اللهم هذا قسمى فيما أملك فلا تلمنى فيما تملك ولا أملك » يعنى القلب)[1] .

إذن فهذا معنى قول الحق :

﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ﴾

(من الآية ١٢٩ سورة النساء)

لأن هناك أشياء لا تدخل فى قدرتك ، ولا تدخل فى اختيارك ، كأن ترتاح نفسياً عند واحدة ولا ترتاح نفسياً عند أخرى ، أو ترتاح جنسياً عند واحدة ولا ترتاح عند أخرى ، لكن الأمر الظاهر للكل يجب أن تكون فيه القسمة بالسوية حتى لا تَدِلُّ واحدة على واحدة . وإذا كان هذا فى النساء المتعددات - وهن عوارض - حيث من الممكن أن يخرج الرجل عن أى امرأة - بطلاق أو فراق فما بالك بأولادها منه ؟ لابد أيضا من العدالة .

---

١ - رواه الإمام أحمد وأبو داود والدارمى .

والذى يفسد جو الحكم المنهجى لله أن أناساً يجدون رجلاً عدّد ، فأخذ إباحة الله فى التعدد ، ثم لم يعدل ، فوجدوا أبناءه من واحدة مهملين مشردين ، فيأخذون من ذلك حجة على الإسلام . والذين حاولوا أن يفعلوا ما فعلوا فى قوانين الأحوال الشخصية إنما نظروا إلى ذلك ، التباين الشديد الذى يحدثه بعض الآباء الحمقى نتيجة تفضيل أبناء واحدة على أخرى فى المأكل والملبس والتعليم !

إذن فالمسلم هو الذى يهجر دينه ويعرضه للنقد والنيل من أعدائه له . فكل إنسان مسلم على ثغرة من ثغرات دين الله تعالى فعليه أن يصون أقواله وأفعاله وحركاته وسكناته من أى انحراف أو شطط ؛ لأن كل مسلم بحركته وبتصرفه يقف على ثغرة من منهج الله ، ولا تظنوا أن الثغرات فقط هى الشىء الذى يدخل منه أعداء الله على الأرض كالثغور ، لا ، الثغرة هى الفجوة حتى فى القيم يدخل منها خصم الإسلام لينال من الإسلام .

إنك إذا ما تصرفت تصرفاً لا يليق فأنت فتحت ثغرة لخصوم الله . فسُدَّ كل ثغرة من هذه الثغرات ، وإذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم قد توسع فى العدل بين الزوجات توسعاً لم يقف به عند قدرته ، وإن وقف به عند اختياره ، فالرسول صلى الله عليه وسلم حين مرض كان من الممكن أن يعذره المرض فيستقر فى بيت واحدة من نسائه ، ولكنه كان يأمر بأن يحمله بعض الصحابة ليطوف على بقية نسائه فى أيامهن فأخذ قدرة الغير . وكان إذا سافر يقرع بينهن ، هذه هى العدالة .

وحين توجد مثل هذه العدالة يشيع فى الناس أن الله لا يشرع إلا حقاً ، ولا يشرع إلا صدقاً ، ولا يشرع إلا خيراً ، ويسد الباب على كل خصم من خصوم دين الله ، حتى لا يجد ثغرة ينفذ منها إلى ما حرم دين الله ، وإن لم يستطع المسلم هذه الاستطاعة فليلزم نفسه بواحدة . ومع ذلك حين يلزم المسلم نفسه بزوجة واحدة ، هل انتفت العدالة مع النفس الواحدة ؟ لا ، فلا يصح ولا يستقيم ولا يحل أن يهمل الرجل زوجه . ولذلك حينما شكت امرأة إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه أن زوجها لا يأتى إليها وهى واحدة وليس لها ضرائر ، فكان عنده أحد الصحابة ، فقال له : أفتها « أى أعطها الفتوى » .

قال الصحابي : لك عنده أن يبيت عندك الليلة الرابعة بعد كل ثلاث ليال .

ذلك أن الصحابي فرض أن لها شريكات ثلاثا ، فهى تستحق الليلة الرابعة . وسُر عمر ـ رضى الله عنه ـ من الصحابي ؛ لأنه عرف كيف يفتى حتى فى أمر المرأة الواحدة .

إذن قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ۖ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلْمَيْلِ ﴾

(من الآية ١٢٩ سورة النساء)

أى لا تظنوا أن المطلوب منكم تكليفياً هو العدالة حتى فى ميل القلب وحبه ، لا . إنما العدالة فى الأمر الاختيارى ، ومادام الأمر قد خرج عن طاقة النفس وقدرتها فقد قال ـ سبحانه ـ: « فلا تميلوا كل الميل » . ويأخذ السطحيون الذين يريدون أن يبرروا الخروج عن منهج الله فيقولوا : إن المطلوب هو العدل وقد حكم الله أننا لا نستطيع العدل .

ولهؤلاء نقول : هل يعطى ربنا باليمين ويأخذ بالشمال ؟ فكأنه يقول : اعدلوا وأنا أعلم أنكم لن تعدلوا ؟ فكيف يتأتى لكم مثل هذا الفهم ؟ إن الحق حين قال : « ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم » أى لا يتعدى العدل ما لا تملكون من الهوى والميل ؛ لأن ذلك ليس فى إمكانكم ، ولذلك قال : « فلا تميلوا كل الميل » .

نقول ذلك للذين يريدون أن يطلقوا الحكم غير واعين ولا فاهمين عن الله ، ونقوله كذلك للفاهمين الذين يريدون أن يدلسوا على منهج الله ، وهذه المسألة من المسائل التى تتعرض للأسرة ، وربها الرجل . فهب أن رجلاً ليس له ميل إلى زوجته ، فماذا يكون الموقف ؟ أمن الأحسن أن يطلقها ويسرحها ، أم تظل عنده ويأتى بامرأة تستطيع نفسه أن ترتاح معها ؟ أو يطلق غرائزه فى أعراض الناس ؟

إن الحق حينما شرّع ، إنما شرع دينا متكاملاً ، لا تأخذ حكماً منه لتترك حكما آخر .

والأحداث التى أرهقت المجتمعات غير المسلمة ألجأتهم إلى كثير من قضايا الإسلام . وأنا لا أحب أن أطيل ، هناك بعض الدول تكلمت عن إباحة التعدد لا لأن الإسلام قال به ، ولكن لأن ظروفهم الاجتماعية حكمت عليهم أنه لا يحل مشاكلهم إلا هذا ، حتى ينهوا مسألة الخليلات . والخليلات هنّ اللائى يذهب إليهن الرجال ليهتكوا أعراضهن ويأتوا منهن بلقطاء ليس لهم أب .

إنّ من الخير أن تكون المرأة الثانية ، امرأة واضحة فى المجتمع . ومسألة زواج الرجل منها معروفة للجميع ، ويتحمل هو عبء الأسرة كلها . ويمكن لمن يريد أن يستوضح كثيراً من أمر هؤلاء الناس أن يرجع إلى كتاب تفسير فى هذا الموضوع للدكتور محمد خفاجة حيث أورد قائمة بالدول وقراراتها فى إباحة التعدد عند هذه الآية .

وهنا يجب أن ننتبه إلى حقيقة وهى : أن التعدد لم يأمر به الله ، وإنما أباحه ، فالذى ترهقه هذه الحكاية لا يعدد ، فالله لم يأمر بالتعدد ولكنه أباح للمؤمن أن يعدد . والمباح أمر يكون المؤمن حراً فيه يستخدم رخصة الإباحة أو لا يستعملها ، ثم لنبحث بحثاً آخر . إذا كان هناك تعدد فى طرف من طرفين فإن كان الطرفان متساويين فى العدد ، فإن التعدد فى واحد لا يتأتى ، والمثل هو كالآتى :

إذا دخل عشرة أشخاص حجرة وكان بالحجرة عشرة كراسى فكل واحد يجلس على كرسى ، ولا يمكن بطبيعة الحال أن يأخذ واحد كرسياً للجلوس وكرسياً آخر ليمد عليه ساقيه ، لكن إذا كان هناك أحد عشر كرسياً ، فواحد من الناس يأخذ كرسياً للجلوس وكرسياً آخر ليستند عليه ، إذن فتعدد طرف فى طرف لا ينشأ إلا من فائض . فإذا لم يكن هناك فائض ، فالتعدد - واقعاً - يمتنع ، لأن كل رجل سيتزوج امرأة واحدة وتنتهى المسألة ، ولو أراد أن يعدد الزواج فلن يجد .

إذن فإباحة التعدد تعطينا أن الله قد أباحه وهو يعلم أنه ممكن لأن هناك فائضاً . والفائض كما قلنا معلوم ، لأن عدد ذكور كل نوع من الأنواع أقل من عدد الإناث . وضربنا المثل من قبل فى النخل وكذلك البيض عندما يتم تفريخه ؛ فإننا نجد عدداً

قليلاً من الديوك والبقية إناث . إذن فالإناث فى النبات وفى الحيوان وفى كل شىء أكثر من الذكور .

وإذا كانت الإناث أكثر من الذكور ، ثم أخذ كل ذكر مقابله فما مصير الأعداد التى تفيض وتزيد من الإناث ؟ إما أن تعف الزائدة فتكبت غرائزها وتحبط ، وتنفس فى كثير من تصرفاتها بالنسبة للرجل وللمحيط بالرجل ، وإما أن تنطلق ، تنطلق مع من ؟ إنها تنطلق مع متزوج . وإن حدث ذلك فالعلاقات الاجتماعية تفسد .

ولكن الله حين أباح التعدد أراد أن يجعل منه مندوحة لامتصاص الفائض من النساء ؛ ولكن بشرط العدالة . وحين يقول الحق : « فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة » أى إن لم نستطع العدل الاختيارى فليلزم الإنسان واحدة .

وبعد ذلك يقول الحق : « أو ما ملكت أيمانكم » .

وهناك من يقف عند « ما ملكت أيمانكم » ويتجادل ، ونطمئن هؤلاء الذين يقفون عند هذا القول ونقول : لم يعد هناك مصدر الآن لملك اليمين ؛ لأن المسلمين الآن فى خنوع ، وقد اجترأ عليهم الكفار ، وصاروا يقتطعون دولاً من دولهم . وما هبَّ المسلمون ليقفوا لحماية أرض إسلامية . ولم تعد هناك حرب بين مسلمين وكفار ، بحيث يكون فيه أسرى ، و« ملك اليمين » .

ولكنا ندافع عنه أيام كان هناك ملك يمين . ولنر المعنى الناضج حين يبيح الله متعة السيد بما ملكت يمينه ، انظر إلى المعنى ، فالإسلام قد جاء ومن بين أهدافه أن يصفى الرِّق ، ولم يأت ليجىء بالرق .

وبعد أن كان لتصفية الرق سبب واحد هو إرادة السيد . عدَّد الإسلام مصارف تصفية الرق ؛ فارتكاب ذنب ما يقال للمذنب : اعتق رقبة كفارة اليمين . وكفارة ظهار فيؤمر رجل ظاهر من زوجته بأن يعتق رقبة وكفارة فطر فى صيام ، وكفارة قتل . . إلخ . . إذن فالإسلام يوسع مصارف العتق .

ومن يوسع مصارف العتق أيريد أن يبقى على الرق ، أم يريد أن يصفيه ويمحوه ؟

ولنفترض أن مؤمناً لم يذنب ، ولم يفعل ما يستحق أن يعتق من أجله رقبة ، وعنده جوار ، هنا يضع الإسلام القواعد لمعاملة الجوارى :

- إن لم يكن عندك ما يستحق التكفير ، فعليك أن تطعم الجارية مما تأكل وتلبسها ما يلبس أهل بيتك ، لا تكلفها ما لا تطيق ، فإن كلفتها فأعنها ، أى فضل هذا ، يدها بيد سيدها وسيدتها ، فما الذى ينقصها ؟ إن الذى ينقصها إرواء إلحاح الغريزة ، وخاصة أنها تكون فى بيت للرجل فيه امرأة ، وتراها حين تتزين لزوجها ، وتراها حين تخرج فى الصباح لتستحم ، والنساء عندهن حساسية لهذا الأمر ، فتصوروا أن واحدة مما ملكت يمين السيد بهذه المواقف ؟ ألا تهاج فيها الغرائز ؟

حين يبيح الله للسيد أن يستمتع بها وأن تَستمتع به ، فإنه يرحمها من هذه الناحية ويعلمها أنها لا تقل عن سيدتها امرأة الرجل فتتمتع مثلها . ويريد الحق أيضا أن يعمق تصفية الرق ، لأنه إن زوجها من رجل رقيق فإنها تظل جارية أَمَة ، والذى تلده يكون رقيقا ، لكن عندما تتمتع مع سيدها وتأتى منه بولد ، فإنها تكون قد حررت نفسها وحررت ولدها ، وفى ذلك زيادة فى تصفية الرق ، وفى ذلك إكرام لغريزتها . لكن الحمقى يريدون أن يؤاخذوا الإسلام على هذا !!

يقول الحق : « فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم ذلك أدنى ألا تعولوا » فالعدل أو الاكتفاء بواحدة أو ما ملكت اليمين ، ذلك أقرب ألا تجوروا . وبعض الناس يقول : « أدنى ألا تعولوا » أى ألا تكثر ذريتهم وعيالهم . ونقول لهم : إن كان كذلك فالحق أباح ما ملكت اليمين ، وبذلك يكون السبب فى وجود العيال قد اتسع أكثر ، وقوله : « ذلك أدنى ألا تعولوا » أى أقرب ألا تظلموا وتجوروا ، لأن العول فيه معنى الميل ، والعول فى الميراث أن تزيد أسهم الأنصباء على الأصل ، وهذا معنى عالت المسألة ، وإذا ما زاد العدد فإن النصيب فى التوزيع ينقص .

وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحۡلَةٗۚ فَإِن طِبۡنَ لَكُمۡ عَن شَيۡءٖ مِّنۡهُ نَفۡسٗا فَكُلُوهُ هَنِيٓـٔٗا مَّرِيٓـٔٗا ٤ ﴾

والمقصود بـ « صدقاتهن » هو المهور ، و« النُحلة » هى العطية ، وهل الصداق عطية ؟ لا . إنه حق وأجر بضع . ولكن الله يريد أن يوضح لنا : أىْ فليكن إيتاء المهور للنساء نحلة ، أى وازع دين لا حكم قضاء ، والنحلة هى العطية .

وانظر إلى اللمسات الإلهية والأداء الإلهى للمعانى ، لأنك إن نظرت إلى الواقع فستجد الآتى :

الرجل يتزوج المرأة ، وللرجل فى المرأة متعة ، وللمرأة أيضا متعة أى أن كُلاًّ منهما له متعة وشركة فى ذلك ، وفى رغبة الإنجاب ، وكان من المفترض ألا تأخذ شيئاً ، لأنها ستستمتع وأيضا قد تجد ولداً لها ، وهى ستعمل فى المنزل والرجل سيكدح خارج البيت ، ولكن هذه عطية قررها الله كرامة للنساء « وآتوا النساء صدقاتهن نحلة » والأمر فى « آتوا » لمن ؟ إما أن يكون للزوج فقوله : « وآتوا النساء صدقاتهن » يدل على أن المرأة صارت زوجة الرجل ، وصار الرجل ملزماً بالصداق ومن الممكن أن يكون ديناً إذا تزوجها بمهر فى ذمته يؤديه لها عند يساره ، وإمّا أن يكون الأمر لولى أمرها فالذى كان يزوجه أختَه مثلا ، كان يأخذ المهر له ويتركها دون أن يعطيها مهرها ، والأمر فى هذه الآية ـ إذن ـ إما أن يكون للأزواج وإما أن يكون للأولياء . وحين يُشَرِّع الحق لحماية الحقوق فإنه يفتح المجال لأريحيات الفضل .

لذلك يقول : « فإن طبن لكم عن شىء منه نفسا فكلوه هنيئاً مريئاً » .

لقد عَرَّف الحق الحقوق أولاً بمخاطبة الزوج أو ولى الأمر فى أن مهر الزوجة لها لأنه أجر البضع . ولكنه سبحانه فتح باب أريحية الفضل فإن تنازلت الزوجة فهذا أمر آخر ، وهذا أدعى أن يؤصل العلاقة الزوجية وأن يؤدم بينهما . والمراد هنا هو طيب

النفس ، وإياك أن تأخذ شيئاً من مهر الزوجة التى تحت ولايتك بسبب الحياء ، فالمهم أن يكون الأمر عن طيب نفس . « فإن طبن لكم عن شيء منه نفساً فكلوه هنيئاً مريئاً » . والهنيء هو الشيء المأكول وتستسيغه حين يدخل فمك . لكنك قد تأكل شيئاً هنيئاً فى اللذة وفى المضغ وفى الأكل ولكنه يورث متعبة صحية . إنه هنيء ، لكنه غير مريء . والمقصود هو أن يكون طيب الطعم وليس له عواقب صحية رديئة . وهو يختلف عن الطعام الهنيء غير المريء الذى يأكله الإنسان فيطلب من بعده العلاج .

إذن فكل أكل يكون هنيئاً ليس من الضرورى أن يكون مريئاً . وعلينا أن نلاحظ فى الأكل أن يكون هنيئاً مريئاً .

والإمام علىّ ـ رضوان الله عليه وكرم وجهه ـ جاء له رجل يشتكى وجعاً ، والإمام علىّ ـ كما نعرف ـ مدينة العلم والفتيا ، وهبه الله مقدرة على إبداء الرأى والفتوى .

لم يكن الإمام علىّ طبيباً . . لكن الرجل كان يطلب علاجاً من فهم الإمام علىّ وإشراقاته .

قال الإمام علىّ للرجل : خذ من صداق امرأتك درهمين واشتر بهما عسلاً ، وأذب العسل فى ماء مطر نازل لساعته ـ أى قريب عهد بالله ـ واشربه فإنى سمعت الله يقول فى الماء ينزل من السماء :

﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا ﴾

(من الآية ٩ سورة ق)

وسمعته سبحانه وتعالى يقول فى العسل :

﴿ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ ﴾

(من الآية ٦٩ سورة النحل)

وسمعته يقول فى مهر الزوجة :

﴿ فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا ﴾

(من الآية ٤ سورة النساء)

فإذا اجتمع فى دواء البركة والشفاء الهنىء والمرىء عافاك الله إن شاء الله . لقد أخذ الإمام علىّ ـ رضوان الله عليه وكرّم الله وجهه ـ عناصر أربعة ليمزجها ويصنع منها دواءً ناجعاً ، كما يصنع الطبيب العلاج من عناصر مختلفة وقد صنع الإمام علىّ علاجاً من آيات القرآن .

وبعد ذلك ينتقل الحق إلى قضايا اليتامى والسفهاء والمال والوصاية والقوامة ، فيقول سبحانه :

﴿ وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَـٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۝٥ ﴾

ومن هو السفيه ؟ إنه الذى لا صلاح له فى عقل ولا يستطيع أن يصرّف ماله بالحكمة . ومَن الذى يعطى ماله إلى سفيه ؟ إن الحق يقول ذلك ليعلمنا كيفية التصرف فى المال ـ ومثال على ذلك يقول الحق :

﴿ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ﴾

(من الآية ١١ سورة الحجرات)

هل أحد منا يلمز نفسه ؟ لا ، ولكن الإنسان يلمز خصمه ، ولمز الخصم يؤدى إلى لمز النفس لأن خصمه سيلمزه ويعيبه أو لأنكما سواء . إذن فقول الحق : « ولا تؤتوا السفهاء أموالكم » يعنى أن الله يريد أن يقول : إن السفيه يملك المال ، إلا أن سفهه يمنعه من أن يحسن التصرف . وعدم التصرف الحكيم يذهب بالمال ويفسده ، وحين يكون سفيهاً فالمال ليس له ـ تصرفا وإدارة ـ ولكن المال لمن يصلحه بالقوامة .

أو أن الحق سبحانه وتعالى يعالج قضية كان لها وجود فى المجتمع وهى أنّ الرجل إذا ما كان له أبناء ، وكبروا قليلا ، فهو يحب أن يتملص من حركة الحياة ، ويعطى لهم حق التصرف فى المال . وإن كان تصرفهم لا يتفق مع الحكمة ، فكأنه قال سبحانه : « لا » إياك أن تعطى أموالك للسفهاء بدعوى أنهم أولادك . وإياك أن تملك أولادك ما وهبه الله لك من رزقك ؛ لأن الله جعل من مالك قياماً لك ، وإياك أن تجعل قيامك أنت فى يد غيرك .

« ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التى جعل الله لكم قياما . وارزقوهم فيها » وهل السفيه لا يعيش ؟ وهل يأكل السفيه دون أكل الرشيد ؟ أيَلْبَسُ السفيه دون لبس الرشيد ؟ أيسكن السفيه دون مسكن الرشيد ؟ أيبتسم الإنسان فى وجه الرشيد ولا يبتسم فى وجه السفيه ؟ لا ؛ لذلك يأمر الحق ويقول : « وارزقوهم فيها واكسوهم وقولوا لهم قولا معروفا » ذلك أمر بحسن معاملة السفيه ، وإياكم أن تعيروهم بسفههم ، ويكفيهم ما هم فيه من سفه .

ويرجع الحق من بعد ذلك إلى اليتامى :

﴿ وَٱبْتَلُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُواْ ۚ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ فَأَشْهِدُواْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ۝٦ ﴾

إن الله سبحانه وتعالى يأمر فى التعامل مع اليتامى بأن يبدأ الولى فى اختبار اليتيم

وتدريبه على إدارة أمواله من قبل الرشد ، أى لا تنتظر وقت أن يصل اليتيم إلى حد البلوغ ثم تبتليه بعد ذلك ، فقبل أن يبلغ الرشد ، لا بد أن تجربه فى مسائل جزئية فإذا تبين واتضح لك اهتداء منه وحسن تصرف فى ماله ؛ لحظتها تجد الحكم جاهزاً ، فلا تضطر إلى تأخير إيتاء الأموال إلى أن تبتليه فى رشده . بل عليك أن تختبره وتدربه وتمتحنه وهو تحت ولايتك حتى يأتى أوانُ بلوغ الرشد فيستطيع أن يتسلم منك ماله ويديره بنفسه . وحتى لا تمر على المال لحظة من رشد صاحبه وهو عندك .

فسبحانه يقول : « وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح فإن آنستم منهم رشدا فادفعوا إليهم أموالهم ولا تأكلوها إسرافا » .

فعندما يبلغ اليتيم الرشد وقد تم تدريبه على حسن إدارة المال . وعرف الوصى أن اليتيم قد استطاع أن يدير ماله ، ومن فور بلوغه الرشد يجب على الوصى أن يدفع إليه ماله ، ولا يصح أن يأكل الوصى مال اليتيم إسرافا . والإسراف هو الزيادة فى الحد ؛ لأنه ليس ماله ، إنه مال اليتيم . وعندما قيل لرجل شره : ماذا تريد أيها الشره ؟ قال الشره : « أريد قصعة من ثريد أضرب فيها بيدى كما يضرب الولى السوء فى مال اليتيم » . أنجانا الله وإياكم من هذا الموقف ، ونجد الحق يقول : « ولا تأكلوها إسرافا وبدارا أن يكبروا » .

إن الحق سبحانه يحذرنا من الإسراف فى مال اليتيم فى أثناء مرحلة ما قبل الرشد ، وذلك من الخوف أن يكبر اليتيم وله عند الولى شىء من المال أى أن يسرف الولى فينفق كل مال اليتيم قبل أن يكبر اليتيم ويرشد ، والله سبحانه وتعالى حين يشرع فهو بجلال كماله يشرع تشريعا لا يمنع قوامة الفقير العادل غير الواجد . كان الحق قادرا أن يقول : لا تعطوا الوصية إلا لإنسان عنده مال لأنه فى غنى عن مال اليتيم .

لكن الحق لا يمنع الفقير النزيه صاحب الخبرة والإيمان من الولاية .

ولذلك يقول الحق سبحانه عن الولى : « ومن كان غنيا فليستعفف ومن كان فقيرا

فليأكل بالمعروف » فلا يقولن أحد عن أحد آخر : إنه فقير ، ولو وضعنا يده على مال اليتيم فإنه يأكله . لا ؛ فهذا قول بمقاييس البشر ، لا يجوز أن يمنع أحد فقيرا مؤمنا أن يكون وليا لليتيم ؛ لأننا نريد من يملك رصيدا إيمانيا يعلو به فوق الطمع فى المال ؛ لذلك يقول الحق عن الوصى على مال اليتيم : إن عليه مسئولية واضحة .

فإن كان غنيا فليستعفف ، وإن كان فقيرا فليأكل بالمعروف . وحددوا المعروف بأن يأخذ أجر مثله فى العمل الذى يقوم به .

وكلمة المعروف تعنى الأمر المتداول عند الناس ، أو أن يأخذ على قدر حاجته . ويقول الحق : « فإذا دفعتم إليهم أموالهم فأشهدوا عليهم وكفى بالله حسيبا » وانظروا الحماية ، هو سبحانه يصنع الحماية للولى أو الوصى ، فالحق يعلم خَلْقَه ، ـ وخُلُقَه من الأغيار ـ والولى على اليتيم لابد أن يلى الأمر بحكمة وحرص ؛ حتى لا يكرهه اليتيم . وربما قد يراضيه فى كل شىء . نقول له : لا ، أعطه بقدَر حتى لا تفسده . فإذا ما أعطى الولى اليتيم بقدر ربما كرهه اليتيم ؛ لأن اليتيم قد يرغب فى أشياء كمالية لا تصلح له ولا تناسب إمكاناته ، وعندما يصل اليتيم إلى سن الرشد قد يتركز كرهه ضد الوصى ، فيقول له : لقد أكلت مالى ؛ لذلك يوضح الحق للولى أو الوصى : كما حميت اليتيم بحسن ولايتك أحميك أنا من رشد اليتيم .

لذلك يجب عليك ـ أيها الولى ـ حين تدفع المال إليه أن تشهد عليه ، لأنك لا تملك الأغيار النفسية ، فربما وَجَد عليك وكرهك ؛ لأنك كنت حازما معه على ماله ، وكنت تضرب على يده إذا انحرف . وإذا ما كرهك ربما التمس فترة من الفترات وقام ضدك واتهمك بما ليس فيك ؛ لذلك لابد من أن تحضر شهودا عدولا لحظة تسليمه المال . وهذه الشهادة لتستبرىء بها من المال فحسب ، أما استبراء الدِّين فموكول إلى الله « وكفى بالله حسيبا » .

هذا وإن سورة النساء تعالج الضعف فى المرأة والضعف فى اليتيم ، لأن الحال فى المجتمع الذى جاء عليه الإسلام أنهم كانوا لا يورثون النساء ولا يورثون الصغار الذين لم تشتد أجنحتهم ، وكانت القاعدة الغريبة عندهم هى : من لم يطعن برمح

ولم يذد عن حريم أو عن مال ولم يشهد معارك فهو لا يأخذ من التركة . وكانت هذه قمة استضعاف أقوياء لضعفاء . وجاء الإسلام ليصفي هذه القاعدة . بل فرض وأوجب أن تأخذ النساء حقوقهن وكذلك الأطفال ، ولهذا قال الحق سبحانه :

﴿ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿٧﴾ ﴾

ومَن الذى يفرض هذا النصيب ؟ إنه الله الذى ملك وهو الذى فرض .

هنا نلاحظ أن المرحوم الشهيد صاحب الظلال الوارفة الشيخ سيد قطب لحظ ملحظا جميلا هو : كيف يكون للمتوفى أولاد أو نساء محسوبون عليه ولا يأخذون ؟ إن الصغار كانوا أولى أن يأخذوا لأن الكبار قد اشتدت أعوادهم وسواعدهم ، فالصغار أولى بالرعاية ، وأيضا إذا كانت قوانين « مندل » فى الوراثة توضح أن الأولاد يرثون من أمهاتهم وآبائهم وأجدادهم الخصال الحسنة أو السيئة ، أو المرض أو العفة أو الخلقة ، فلماذا لا تورثوهم أيضا فى الأموال ؟

وحين نسمع قول الحق : « نصيبا مفروضا » فلا بد أن يوجد فارض ، ويوجد مفروض عليه ، والفارض هنا هو الله الذى ملك ، وفيه فرق دقيق بين « فرض » و« أوجب » فالفرض يكون قادما من أعلى ، لكن الواجب قد يكون من الإنسان نفسه ، فالإنسان قد يوجب على نفسه شيئا .

وحين يتكلم الحق عن النصيب المفروض ، فقد بين أن له قدرا معلوما ، ومادام للنصيب قدر معلوم ، فلا بد أن يتم إيضاحه . . ولم يبين الحق ذلك إلا بعد أن يُدخل فى العملية أناسا قد لا يورثهم ، وهم ممن حول الميت ممن ليسوا بوارثين ،

ويوضح سبحانه الدعوة إلى إعطاء مَن لا نصيب له ، إياكم أنْ يلهيكم هذا النصيب المفروض عمن لا نصيب له فى التركة .

لذلك يقول سبحانه وتعالى :

﴿ وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۝٨ ﴾

وحين يحضر أولو القُربى واليتامى والمساكين مشهد توزيع المال ، وكل واحد من الورثة الذين يتم توزيع مال المورِّث عليهم انتهت مسائله ، قد يقول هؤلاء غير الوارثين : إن الورثة إنما يأخذون غنيمة باردة هبطت عليهم مثل هذا الموقف يترك شيئا فى نفوس أولى القُربى واليتامى والمساكين .

صحيح أن أولى القُربى واليتامى والمساكين ليسوا وارثين ، ولن يأخذوا شيئا من التركة فرضاً لهم ، ولكنهم حضروا القسمة ؛ لذلك يأتى الأمر الحق : « فارزقوهم منه وقولوا لهم قولا معروفا » فلو أنهم لم يحضروا القسمة لاختلف الموقف . فيأمر سبحانه بأن نرزق اليتامى وأولى القُربى والمساكين حتى نستل منهم الحقد أو الحسد للوارث ، أو الضغن على المورِّث ، وبذلك يشيع فى الناس شىء من الألفة ومن المحبة ومن حب الخير لأنهم قد نالوا شيئا من الخير مع هؤلاء ، فلا يكونون حاقدين على الورثة ولا على المورِّث ، ولا يكتفى الحق بالأمر برزق هؤلاء الأقارب واليتامى والمساكين ، ولكن يأمر أن نقول لهم : قولا معروفا ، مثل أن ندعو الله لهم أن يزيد من رزقهم ، وأن يكون لهم أموال وأن يتركوا أولادا ويورثوهم ، ومن الذى يجب عليه أن يقوم بمثل هذا العمل ؟ إنهم الوارثون إن كانوا قد بلغوا الرشد ، ولكن ماذا

يكون الموقف لو كان الوارث يتيما ؟ فالحضور هم الذين يقولون لأولى القُربى واليتامى والمساكين : إنه مال يتيم ، وليس لنا ولاية عليه ، ولو كان لنا ولاية لأعطيناكم أكثر ، وفى مثل هذا القول تطييب للخاطر .

« وإذا حضر القسمة أولو القربى واليتامى والمساكين فارزقوهم منه وقولوا لهم قولا معروفا » يجب أن تكونوا فى ذلك الموقف ذاكرين أنه إذا كنتم أنتم الضعفاء واليتامى وغير الوارثين فمن المؤكد أن السرور كان سيدخل إلى قلوبكم لو شرعنا لكم نصيبا من الميراث . إذن فليذكر كل منكم أنه حين يطلب الله منه ، أنك قد تكون مرة فى موقف من يطلب الله له ولأولاده . إذن فالحكم التشريعى لا يؤخذ من جانب واحد ، وهو أنه يُلزم المؤمن بأشياء ، ولكن لنأخذ بجانب ذلك أنه يلزم غيره من المؤمنين للمؤمن بأشياء .

إن الحكم التشريعى يعطيك ، ولذلك يأخذ منك . ولهذا قلنا فى الزكاة : إياك أن تلحظ يا من تؤدى الزكاة أننا نأخذ منك حيفا ثمرة كدحك وعرقك لنعطيها للناس ، نحن نأخذ منك وأنت قادر لنؤمِّنك إن صرت عاجزا . وسوف نأخذ لك من القادرين . إنه تأمين ربانى حكيم . .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾ ﴾

والإنسان حين يترك ذرية ضعيفة يتركها وهو خائف عليهم أن يضيعهم الزمان .

فإن كان عندك أيها المؤمن ذرية ضعيفة وتخاف عليها فساعة ترى ذرية ضعيفة تركها غيرك فلتعطف عليها ، وذلك حتى يعطف الغير على ذريتك الضعيفة إن تركتها . واعلم أن ربنا رقيب وقيوم ولا يترك الخير الذى فعلته دون أن يردّه إلى ذريتك . وقلنا ذات مرة : إن معاوية وعَمرو بن العاص اجتمعا فى أواخر حياتهما ، فقال عمرو بن العاص لمعاوية : يا أمير المؤمنين ماذا بقى لك من حظ الدنيا ؟ . وكان معاوية قد صار أميراً للمؤمنين ورئيس دولة قوية غنية ، فقال معاوية : أما الطعام فقد مللت أطيبه ، وأما اللباس فقد سئمت ألينه ، وحظى الآن فى شربة ماء بارد فى ظل شجرة فى يوم صائف .

وصمت معاوية قليلاً وسأل عَمْراً : وأنت يا عَمرو ماذا بقى لك من متع الدنيا ؟ .

وكان سيدنا عمرو بن العاص صاحب عبقرية تجارية فقال : أنا حظى عين خرارة فى أرض خوارة تدر علىّ حياتى ولولدى بعد مماتى .

إنه يطلب عين ماء مستمر فى أرض فيها أنعام وزروع تعطى الخير .

وكان هناك خادم يخدمهما ، يقدم لهما المشروبات ، فنظر معاوية إلى الخادم وأحب أن يداعبه ليشركه معهما فى الحديث .

فقال للخادم : وأنت يا « وردان » ماذا بقى لك من متاع الدنيا ؟ أجاب الخادم : بقى لى من متع الدنيا يا أمير المؤمنين صنيعة معروف أضعها فى أعناق قوم كرام لا يؤدونها إلىّ طول حياتى حتى تكون لعقبى فى عقبهم . لقد فهم الخادم عن الله قوله :

﴿ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾ ﴾

(سورة النساء)

فالذين يتقون الله فى الذرية الضعيفة يضمنون أن الله سيرزقهم بمن يتقى الله فى ذريتهم الضعيفة .

وقد تكلمنا مرة عن العبد الصالح الذى ذهب إليه موسى عليه السلام :

﴿ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ ﴾

(سورة الكهف)

لقد جرب العبد الصالح موسى فى خرق السفينة ـ كما توضح الآيات ـ فقال العبد الصالح :

﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴿٧٣﴾ ﴾

(سورة الكهف)

ثم ما كان من أمر الغلام الذى قتله العبد الصالح وقول موسى له : « لقد جئت شيئا نكرا » .

ثم جاءا إلى أهل قرية فطلبا منهم الطعام ، وحين يطلب منك ابن سبيل طعاماً فاعلم أنها الحاجة الملحة ؛ لأنه لو طلب منك مالاً فقد تظن أنه يكتنز المال ، ولكن إن طلب لقمة يأكلها فهذا أمر واجب عليك .

فماذا فعل أهل القرية حين طلب العبد الصالح وموسى طعاماً لهما ؟ .

يقول الحق :

﴿ فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهۡلَ قَرۡيَةٍ ٱسۡتَطۡعَمَآ أَهۡلَهَا فَأَبَوۡاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارٗا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥۖ قَالَ لَوۡ شِئۡتَ لَتَّخَذۡتَ عَلَيۡهِ أَجۡرٗا ٧٧ ﴾

(سورة الكهف)

إنها قرية لئيمة ، ووجد العبد الصالح فى القرية جداراً يريد أن يسقط وينقض فأقامه ، واعترض موسى ؛ لأن عنده حفيظة على أهل القرية فقد طلبا منهم طعاماً فلم يطعموهما ، وقال سيدنا موسى : إنك لو شئت لاتخذت عليه أجراً ؛ لأن أهل القرية لئام ، وما كان يصح أن تقيم لهم الجدار إلا إذا أخذت منهم أجرا .

لقد غاب عن موسى ما لم يغَيِّب الله سبحانه عن العبد الصالح ، فبالله لو أن الجدار وقع وهم لئام لا يطعمون من استطعمهم ، ثم رأوا الكنز المتروك لليتامى المساكين ، فلا بد أنهم سيغتصبون الكنز . إذن فعندما رأيت الجدار سيقع أقمته حتى أوارى الكنز عن هؤلاء اللئام . ويقول الحق سبحانه :

﴿ وَأَمَّا ٱلۡجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيۡنِ يَتِيمَيۡنِ فِي ٱلۡمَدِينَةِ وَكَانَ تَحۡتَهُۥ كَنزٞ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحٗا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبۡلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسۡتَخۡرِجَا كَنزَهُمَا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ وَمَا فَعَلۡتُهُۥ عَنۡ أَمۡرِيۚ ذَٰلِكَ تَأۡوِيلُ مَا لَمۡ تَسۡطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرٗا ٨٢ ﴾

(سورة الكهف)

إذن فالعلة فى هذه العملية هى الحماية لليتيمين ، ولنلق بالاً ولْنَهْتَمَّ بملاحظ النص ، لا بد أن العبد الصالح قد أقام الجدار بأسلوب جَدَّد عمراً افتراضياً للجدار بحيث إذا بلغ اليتيمان الرشد وقع الجدار أمامهما ؛ ليرى كلاهما الكنز ، لقد تم بناء الجدار على مثال القنبلة الموقوتة بحيث إذا بلغا الرشد ينهار الجدار ليأخذا الكنز . إنه توقيت إلهى أراده الله ؛ لأن والد اليتيمين كان صالحاً ، اتقى الله فيما تحت يده فأرسل الله له جنوداً لا يعلمهم ولم يرتبهم ليحموا الكنز لولديه اليتيمين ، لذلك فلنفهم جيداً فى معاملتنا ، قول الحق :

﴿ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾ ﴾

(سورة النساء)

لماذا ؟ لأن الإنسان عندما يكون شاباً فذاتيته تكون هى الموجودة . لكن كلما تقدم الإنسان فى السن تقدمت ذاتية أولاده عنده ، ويحرم نفسه ليعطى أولاده ، وعندما يرى أنّ عياله مازالوا ضعافاً ، وجاءت له مقدمات الموت فهو يحزن على مفارقة هؤلاء الضعاف ، فيوضح الحق لكل عبد طريق الأمان : إنك تستطيع وأنت موجود أن تعطى للضعاف قوة ، قوة مستمدة من الالتحام بمنهج الله وخاصة رعاية ما تحت يدك من يتامى ، بذلك تؤمن حياة أولادك من بعدك وتموت وأنت مطمئن عليهم . .

والقول السديد من الأوصياء : ألّا يؤذوا اليتامى ، وأن يكلموهم كما يكلمون أولادهم بالأدب الحسن والترحيب ويدعوهم بقولهم يا بنى ويا ولدى .

وحين يتقى المؤمن الله فيما بين يديه يرزقه الله بمن يتقى الله فى أولاده .

ومازال الحق يضع المنهج فى أمر اليتامى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾ ﴾

لماذا يركز القرآن على هذه الجزئية ؟ لأن الله يريد من خلقه أن يستقبلوا قدر الله فيمن يحبون وفيمن يحتاجون إليهم برضا ، فإذا كان الطفل صغيراً ويرى أباه يسعى

فى شأنه ويقدم له كل جميل فى الحياة وبعد ذلك يموت ، فإن كان هذا الصغير قد رأى واحداً مات أبوه وكفله المجتمع الإيمانى الذى يعيش فى كفالة عوضته عن أب واحد بآباء إيمانيين متعددين ، فإذا مات والد هذا الطفل فإنه يستقبل قدر الله وخطبه بدون فزع . فالذى يجعل الناس تستقبل الخطوب بالفزع والجزع والهلع أنهم يرون أن الطفل إذا ما مات أبوه وصار يتيماً فإنه يضيع ، ويقول الطفل لنفسه : إن أبى عندما يموت سأصير مضيعاً . لكن لو أن المجتمع حمى حق اليتيم وصار كل مؤمن أباً لليتيم وكل مؤمنة أمًا لليتيم لاختلف الأمر ، فإذا ما نزل قضاء الله فى أبيه فإنه يستقبل القضاء برضا وتسليم .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾ ﴾

(سورة النساء)

إنّ كل العملية السلبية والنهبية أهم ما فيها هو الأكل ؛ لأن الأكل هو المتكرر عند الناس ، وهو يختلف عن اللباس ، فكل فصل يحتاج الإنسان إلى ملابس تناسبه ، لكن الأكل عملية يومية ؛ لذلك فأى نهب يكون من أجل الأكل . ولذلك نقول فى أمثالنا العامية عن النهاب : « فلان بطنه واسعة » إنها مسألة الأكل .

وقد أوضح الحق هذا الأمر لأكل مال اليتيم : أنت تحشو فى بطنك ناراً . ويعنى ذلك أنه يأكل فى بطنه ما يؤدى إلى النار فى الآخرة . وهذا قد يحدث عقاباً فى الدنيا فيصاب آكل مال اليتيم فى بطنه بأمراض تحرق أحشاءه ، ويوم القيامة يرى المؤمنون هؤلاء القوم الذين أكلوا مال اليتيم ، وعليهم سمات أكل مال اليتيم : فالدخان يخرج من أفواههم . وإياك أن تفهم أن البطون هى التى ستكون ممتلئة بالنار فقط ، وألا يكون هناك نار أمام العيون . بل سيكون فى البطون نار وسيصلون سعيراً .

ويقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ۖ وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُ ۚ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ ۚ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ ۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ ۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِى بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ۗ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا ۚ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾ ﴾

ونعم الرب خالقنا ؛ إنه يوصينا فى أولادنا ، سبحانه رب العرش العظيم ، كأننا عند ربنا أحب منا عند آبائنا . وقوله الكريم : « يوصيكم الله فى أولادكم » توضح أنه رحيم بنا ومحب لنا . ومادة الوصية إذا ما استقرأناها فى القرآن نجد ـ بالاستقراء ـ أن مادة الوصية مصحوبة بالباء ، فقال سبحانه :

﴿ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾

(من الآية ١٥٣ سورة الأنعام)

وقال سبحانه :

﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا ﴾

(من الآية ١٣ سورة الشورى)

وقال الحق أيضاً :

﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ ﴾

(من الآية ١٤ سورة لقمان)

كل هذه الآيات جاءت الوصية فيها مصحوبة بالباء التى تأتى للإلصاق .

لكن عندما وصّى الآباء على الأبناء قال : « يوصيكم الله فى أولادكم » فكأن الوصية مغروسة ومثبتة فى الأولاد ، فكلما رأيت الظرف وهو الولد ذكرت الوصية . وما هى الوصية ؟ إنها « للذكر مثل حظ الأنثيين » وقلنا من قبل : إن الحق قال :

﴿ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ ﴾

(من الآية ٧ سورة النساء)

ولم يحدد النصيب بعد هذه الآية مباشرة إلا بعد ما جاء بحكاية اليتامى وتحذير الناس من أكل مال اليتيم ، لماذا ؟ لأن ذلك يربى فى النفس الاشتياق للحكم ، وحين تستشرف النفس إلى تفصيل الحكم ، ويأتى الحكم بعد طلب النفس له ، فإنه يتمكن منها . والشىء حين تطلبه النفس تكون مهيأة لاستقباله ، لكن حينما يعرض الأمر بدون طلب ، فالنفس تقبله مرة وتعرض عنه مرة أخرى . ونلحظ ذلك فى مناسبة تحديد أنصبة الميراث .

فقد قال الحق سبحانه أولا :

﴿ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ ﴾

(من الآية ٧ سورة النساء)

راجع أصله وخرج أحاديثه الدكتور أحمد عمر هاشم نائب رئيس جامعة الأزهر .

وعرض بعد ذلك أمر القسمة ورعاية اليتامى والمساكين وأولى القُربى ، ثم يأتى الأمر والحكم برعاية مال اليتيم والتحذير من نهبه ، وبعد ذلك يقول : « يوصيكم الله فى أولادكم » ويأتى البند الأول فى الوصية « للذكر مثل حظ الأنثيين » ولماذا لم يقل « للأنثيين مثل حظ الذكر » . أو « للأنثى نصف حظ الذكر » ، هذه معان يمكن أن تعبر عن المطلوب .

لقد أراد الله أن يكون المقياس ، أو المكيال هو حظ الأنثى ، ويكون حظ الرجل هنا منسوبًا إلى الأنثى ، لأنه لو قال:« للأنثى نصف حظ الرجل » لكان المقياس هو الرجل ، لكنه سبحانه جعل المقياس للأنثى فقال : « للذكر مثل حظ الأنثيين » .

والذين يقولون : هذا أول ظلم يصيب المرأة ، نريد المساواة . نقول لهم : انظروا إلى العدالة هنا . فالذكر مطلوب له زوجة ينفق عليها ، والأنثى مطلوب لها ذكر ينفق عليها ، إذن فنصف حظ الذكر يكفيها إن عاشت دون زواج ، وإن تزوجت فإن النصف الذى يخصها سيبقى لها ، وسيكون لها زوج يعولها .

إذن فأيهما أكثر حظا فى القسمة ؟ إنها الأنثى . ولذلك جعلها الله الأصل والمقياس حينما قال : « للذكر مثل حظ الأنثيين » فهل فى هذا القول جور أو فيه محاباة للمرأة ؟ إن فى هذا القول محاباة للمرأة ؛ لأنه أولا جعل نصيبها المكيال الذى يُرد إليه الأمر ؛ لأن الرجل مطلوب منه أن ينفق على الأنثى ، وهى مطلوب لها زوج ينفق عليها . إذن فما تأخذه من نصف حظ الذكر يكون خالصا لها ، وكان يجب أن تقولوا : لماذا حابى الله المرأة ؟ لقد حابى الله المرأة لأنها عِرض ، فَصَانَها ، فإن لم تتزوج تجد ما تنفقه ، وإن تزوجت فهذا فضل من الله ، ثم يقول الحق : « فإن كن نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك » .

وأنا أريد أن نستجمع الذهن هنا جيدا لنتعرف تماما على مراد الحق ومسالك القرآن فى تنبيه الأذهان لاستقبال كلام الله . فقد كرم الله الإنسان بالعقل ، والعقل لا بد له من رياضة . ومعنى الرياضة هو التدريب على حل المسائل ، وإن طرأت مشكلات هيأ نفسه لها بالحل ، وأن يملك القدرة على الاستنباط والتقييم ، كل هذه من مهام العقل . فيأتى الحق فى أهم شيء يتعلق بالإنسان وهو الدين ، والدليل إلى

الدين وحافظ منهجه هو القرآن ، فيجعل للعقل مهمة إبداعية .

إنه ـ سبحانه ـ لا يأتى بالنصوص كمواد القانون فى الجنايات أو الجنح ، ولكنه يعطى فى مكان ما جُزْءًا من الحكم ، ويترك بقية القانون لتتضح معالمه فى موقع آخر من القرآن بجزئية أخرى ، لأنه يريد أن يوضح لنا أن المنهج الإلهى كمنهج واحد متكامل ، وأنه ينقلك من شيء إلى شيء ، ويستكمل حكما فى أكثر من موقع بالقرآن . وذلك حتى تتعرف على المنهج ككل . وأنك إذا كنت بصدد شيء فلا تظن أن هذا الشيء بمفرده هو المنهج ، ولكن هناك أشياء ستأتى استطرادا تتداخل مع الشيء الذى تبحث عن حكم الله فيه ، مثال ذلك : مسألة اليتيم التى تتداخل مع أحكام الميراث . وهذه الآية تعطينا مثل هذه المسألة لماذا ؟ لأن الله يريد لك يا صاحب العقل الدربة فى الإطار الذى يضم الحياة كلها . وما يهمك أولا هو دينك ، فلتعمل عقلك فيه ، فإذا أعملت عقلك فى الدين أعطيت عقلك النشاط ليعمل فى المجال الآخر .

لكن إذا غرق ذهنك فى أى أمر جزئى فهذا قد يبعد بك عن الإطار العام لتنشغل بالتفاصيل عن الهدف العام .

وأولادنا من الممكن أن يعلمونا من تجربة من ألعابهم ، فالطفل يلعب مع أقرانه « الاستغماية » ، ويختبىء كل قرين فى مكان ، ويبحث الطفل عن أقرانه .

ونحن نلعب أيضا مع أولادنا لعبة إخفاء شيء ما فى يد ونطبق أيدينا ونترك الابن يخمن بالحدس فى أى يد يكون الشيء ، إنها دربة للعقل على الاستنباط ، فإن كان الولد سريع البديهة قوى الملاحظة ويمتلىء بالذكاء ، فهو يرى يَدَىْ والده ليقارن أى يد ترتعش قليلا ، أو أى يد ليست طبيعية فى طريقة إطباق الأب لها فيختارها ، وينتصر بذلك ذكاء الولد ، وهذه عملية ترويض للطفل على الاستنباط والفهم ، وبذلك تعلم الطفل ألا يأخذ المسائل ضربة لازب بدون فكر ولا دُربة .

والحق سبحانه أراد أن تكون أحكامه موزعة فى المواقع المختلفة ، ولننظر إلى قوله : « يوصيكم الله فى أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين ، فإن كن نساء فوق اثنتين

فلهن ثلثا ما ترك » أى أنه إن لم ينجب المورث ذكرا وكان له أكثر من اثنتين فلهن ثلثا ما ترك .

أما لو كان معهن ذكر ، فالواحدة منهن ستأخذ نصف نصيب الذكر ، وإن كانت الوارثة بنتا واحدة ، فالآية تعطيها النصف من الميراث « وإن كانت واحدة فلها النصف » ويبقى شيء لم يأت الله له بحكم ، وهو أن يكون المورث قد ترك ابنتين . وهنا نجد أن الحق قد ضمن للاثنتين فى إطار الثلاث بنات أو أكثر أخذ الثلثين من التركة ، هكذا قال العلماء ، ولماذا لم ينص على ذلك بوضوح ؟ لقد ترك هذه المهمة للعقل ، فالبنت حينما ترث مع الذكر تأخذ ثلث التركة ، وعندما تكون مع ابنة أخرى دون ذكر ، تأخذ الثلث .

فإذا كانت مع الذكر وهو القائم بمسئولية الكدح تأخذ الثلث ، ولذلك فمن المنطقى أن تأخذ كل أنثى الثلث إن كان المورث قد ترك ابنتين . وهناك شيء آخر ، لتعرف أن القرآن يأتى كله كمنهج متماسك ، فهناك آية أخرى فى سورة النساء تناقش جزئية من هذا الأمر ليترك للعقل فرصة العمل والبحث ، يقول سبحانه :

﴿ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ ۚ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ۚ وَهُوَ يَرِثُهَا إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ۚ وَإِن كَانُوا إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ ۗ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا ۗ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٧٦) ﴾

(سورة النساء)

لقد جاء الحق هنا بأختى المورث وأوضح أن لهما الثلثين من التركة إن لم يكن للمورث ولد - ابن أو بنت - فإذا كان للأختين الثلثان ، فأيهما ألصق بالمورث ، البنتان أم الأختان ؟ إن ابنتى المورث ألصق به من أختيه ، ولذلك فللبنتين الثلثان ، فالابنة إن كانت مع أخيها فستأخذ الثلث ، وإن كانت قد ورثت بمفردها فستأخذ النصف . وإن كانت الوارثات من البنات أكثر من اثنتين فسيأخذن الثلثين ، وإن

كانتا اثنتين فستأخذ كل منهما الثلث ، لماذا ؟ لأن الله أعطى الأختين ثلثى ما ترك المورث إن لم يكن له أولاد .

ومن العجيب أنه جاء بالجمع فى الآية الأولى الخاصة بتوريث البنات ، وجاء بالمثنى فى الآية التى تورث الأخوات ، لنأخذ المثنى هناك ـ فى آية توريث الأخوات ـ لينسحب على الجمع هنا ، ونأخذ الجمع هنا ـ فى آية توريث البنات ـ لينسحب على المثنى هناك .

لقد أراد الحق أن يجعل للعقل مهمة البحث والاستقصاء والاستنباط وذلك حتى نأخذ الأحكام بعشق وحسن فهم ، وعندما يقول سبحانه : « يستفتونك » فمعنى يستفتونك أى يطلبون منك الفتوى ، وهذا دليل على أن المؤمن الذى سأل وطلب الفتيا قد عشق التكليف ، فهو يحب أن يعرف حكم الله ، حتى فيما لم يبدأ الله به الحكم . وقد سأل المؤمنون الأوائل وطلبوا الفتيا عشقا فى التكليف « يستفتونك قل الله يفتيكم فى الكلالة » والكلالة مأخوذة من الإكليل وهو ما يحيط بالرأس ، والكلالة هى القرابة التى تحيط بالإنسان وليست من أصله ولا من فصله .

﴿ إِنِ امْرُؤٌا هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ فَإِن كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِن كَانُوا إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾

(من الآية ١٧٦ سورة النساء)

وهذه الآية تكمل الآية الأولى . ونعود إلى تفصيل الآية الأولى التى نحن بصدد خواطرنا الإيمانية عنها : « ولأبوية لكل واحد منهما السدس مما ترك إن كان له ولد ، فإن لم يكن له ولد وورثه أبواه فلأمه الثلث » .

ومعنى ذلك أن المورث إن لم يكن له أولاد فللأم الثلث ، والأب له الثلثان ، فإن كان للمورث إخوة أشقاء أو لأب أو لأم فللأم السدس حسب النص القرآنى « فإن

كان له إخوة فلأمه السدس من بعد وصية يوصى بها أو دين » ، وذلك بعد أن تنفذ وصية المورث ، ويؤدّى الدَّين الذى عليه . والوصية هنا مقدمة على الدين ؛ لأن الدين له مُطالب ، فهو يستطيع المطالبة بدينه ، أما الوصية فليس لها مطالب ، وقد قدمها الحق للعناية بها حتى لا نهملها . ويذيل الحق هذه الآية :

﴿ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾

(من الآية ١١ سورة النساء)

فإياك أن تحدد الأنصباء على قدر ما تظن من النفعية فى الآباء أو من النفعية فى الأبناء ، فالنفعية فى الآباء تتضح عندما يقول الإنسان : « لقد ربانى أبى وهو الذى صنع لى فرص المستقبل » . والنفعية فى الأبناء تتضح عندما يقول الإنسان : إن أبى راحل وأبنائى هم الذين سيحملون ذكرى واسمى والحياة مقبلة عليهم . فيوضح الحق : إياك أن تحكم بمثل هذا الحكم ؛ فليس لك شأن بهذا الأمر : « لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعا » .

ومادمت لا تدرى أيهم أقرب لك نفعا فالتزم حكم الله الذى يعلم المصلحة وتوجيهها فى الأنصبة كما يجب أن تكون .

ونحن حين نسمع : « إن الله كان عليما حكيما » أو نسمع : « إن الله كان غفورا رحيما » فنحن نسمعها فى إطار أن الله لا يتغير ، ومادام كان فى الأزل عليما حكيما وغفورا رحيما فهو لا يزال كذلك إلى الأبد .

فالأغيار لا تأتى إلى الله ، وثبت له العلم والحكمة والخبرة والمغفرة والرحمة أزلاً وهو غير متغير ، وهذه صفات ثابتة لا تتغير . لذلك فعندما تقرأ : « إن الله كان عليماً حكيماً » أو « إن الله كان غفوراً رحيما » فالمسلم منا يقول بينه وبين نفسه : ولا يزال كذلك .

والحق يقول من بعد ذلك :

﴿ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم مِّن بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِن كَانُوا أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ (١٢) ﴾

والآيات تسير فى إيضاح حق الذكر مثل حظ الأنثيين ؛ وهذه عدالة ؛ لأن الرجل حين تموت امرأته قد يتزوج حتى يبنى حياته ، والمرأة حين يموت زوجها فإنها تأخذ ميراثها منه وهى عرضة أن تتزوج وتكون مسئولة من الزوج الجديد .

إن المسألة كما أرادها الله تحقق العدالة الكاملة . والكلالة ـ كما قلنا ـ أنه ليس للمتوفى والد أو ولد ، أى لا أصل له ولا فصل متفرع منه .

فإذا كان للرجل الكلالة أخ أو أخت فلكل واحد منهما السدس ، فإن كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء فى الثلث ، وذلك أيضاً من بعد الوصية التى يوصى بها أو دين . ولماذا يتم تقرير هذاالأمر ؟ لنرجع مرة أخرى إلى آية الكلالة التى جاءت فى آخر سورة النساء .

إن الحق يقول فيها :

﴿ فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِن كَانُوٓاْ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾

(من الآية ١٧٦ سورة النساء)

فى الآية الأولى التى نحن بصددها يكون للواحد من الإخوة سدس ما ترك إذا انفرد ، فإذا كان معه غيره فهم شركاء فى الثلث . هذا إذا كانوا إخوة من الأم . أما الآية التى يختص بها الحق الأختين بالثلثين من التركة إذا لم يكن معهما ما يعصبهما من الذكور فهى فى الإخوة الأشقاء أو الأب ، هكذا يفصل القرآن ويوضح بدقة مطلقة .

وماذا يعنى قوله الحق : « غير مضار وصية من الله والله عليم حليم » ؟

إنه سبحانه يريد إقامة العدل ، فلا ضرر لأحد على الإطلاق فى تطبيق شرع الله ؛ لأن الضرر إنما يأتى من الأهواء التى تفسد قسمة الله . فقد يكون هناك من يرغب ألا يرث العم من بنات أخيه الشقيق ، أو لأب ، أو يريد آخر ألا يُدْخل أولاد الإخوة الذكور أشقاء أو لأب فى ميراث العمة أو بنات العم الشقيق أو لأب ، لمثل هؤلاء من أصحاب الهوى نقول : إن الغرم على قدر الغنم ، بالله لو أنك مت وتركت بنات ولهن عمّ ، أليس مطلوباً من العم أن يربى البنات ؟ فلماذا يجبر الحق العم على رعاية بنات أخيه إن توفى الأخ ولم يترك شيئاً ؟ لذلك يجب أن تلتفت إلى حقيقة الأمر عندما يأتى نصيب للعم فى الميراث . وعلينا أن نعرف أن الغرم أمامه الغنم .

وقلنا:إن القرآن الكريم يجب أن يؤخذ جميعه فيما يتعلق بالأحكام ، فإذا كان فى

سورة النساء هذه يقول الحق سبحانه وتعالى فى آخر آية منها :

﴿ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ ۚ إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ۚ وَإِن كَانُوٓا۟ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۗ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿١٧٦﴾ ﴾

(سورة النساء)

فما الفرق بين الكلالة حين يجعل الله للمنفردة النصف وللاثنتين الثلثين ، وبين الكلالة التى يجعل الله فيها للمنفرد السدس ، ويجعل للأكثر من فرد الاشتراك فى الثلث دون تمييز للذكر على الأنثى ؟

لابد أن نفرق بين كلالة وكلالة . .

هما متحدتان فى أنه لا أصل ولا فرع للمتوفى . والمسألة هنا تتعلق بالإخوة .

ونقول:إن الإخوّة لها مصادر متعددة . هذه المصادر إما إخوة من أب وأم ، وإما أخوة لأب،وإما إخوة لأم . فإذا كان أخ شقيق أو لأب فهو من العصبة الأصيلة ، وهما المعنيان فى الآية ١٧٦ من السورة نفسها .

وبذلك تكون آية السدس والثلث التى نحن بصددها الآن متعلقة بالإخوة لأم . إذن فالكلالة إما أن يكون الوارث أخا لأم فقط ، وإما أن يكون أختًا لأب ، أو أختًا لأب وأم . فالحكمان لذلك مختلفان ؛ لأن موضع كل منهما مختلف عن الآخر . وإلا لو أن مستشرقاً قرأ هذه الآية وقرأ الآية الأخرى وكلتاهما متعلقتان بميراث الكلالة ، وأراد هذا المستشرق أن يبحث عن شيء يطعن به ديننا ويطعن به القرآن لقال ـ والعياذ بالله ـ : القرآن متضارب ، فهو مرة يقول : للكلالة السدس،ومرة يقول : الثلث ، ومرة أخرى النصف،ومرة أخرى الثلثان،ومرة للذكر مثل حظ الأُنثيين ! ونرد

على من يقول ذلك : أنت لم تلاحظ المقصود الفعلي والواقعي للكلالة ؛ لذلك فأنت تفهم شيئا وتغيب عنك أشياء .

والحق قال : « من بعد وصية يوصي بها أو دين » ولنا أن نلاحظ أن في كل توريث هذه « البعدية » أي أن التوريث لا يتأتى إلا من بعد الوصية الواجبة النفاذ والدَّيْن .

ولنا أن نسأل : أيهما ينفذ أولاً ، الوصية أم الدين ؟

والإجابة : لاشك أنه الدين ؛ لأن الدين إلزام بحق في الذمة ، والوصية تطوع ، فكيف تقدم الوصية ـ وهي التطوع ـ على الدين ، وهو للإلزم في الذمة .

وعندما يقول : « غير مضار » لابد أن نعرف جيداً أن شرع الله لن يضر أحداً ، وما المقصود بذلك ؟ المقصود به الموصي ، ففي بعض الأحيان يكون المورِّث كارهاً لبعض المستحقين لحقهم في ميراثه ، فيأتي ليوصي بمنع توريثهم أو تقليل الأنصباء ، أو يأتي لواحد بعيد يريد أن يعطيه شيئاً من الميراث ولا يعطي لمن يكرهه من أهله وأقاربه المستحقين في ميراثه ، فيقر لذلك الإنسان بدين ، فإذا ما أقر له بدين حتى وإن كان مستغرقاً للتركة كلها ، فهو يأخذ الدين وبذلك يترك الورثة بلا ميراث .

و هذا يحدث في الحياة ونراه ، فبعض من الناس أعطاهم الله البنات ولم يعطيهم الله ولداً ذكراً يعصِّبهم ، فيقول الواحد من هؤلاء لنفسه : إن الأعمام ستدخل ، وأبناء الأعمام سيدخلون في ميراثي ، فيريد أن يوزع التركة على بناته فقط ، فيكتب ديناً على نفسه للبنات . ونقول لهذا الإنسان : لا تجحف ، أنت نظرت إلى أن هؤلاء يرثون منك ، ولكن يجب أن تنظر إلى الطرف المقابل وهو أنك إذا مت ولم تترك لبناتك شيئاً وهن لا عصبة لهن ، فمن المسئول عنهن ؟ إنهم الأعمام ، فالغرم هنا مقابل الغنم . . ولماذا تطلب البنات الأعمام أمام القضاء ليأخذن النفقة منهم في حالة وفاة الأب دون أن تكون له ثروة . فكيف تمنع عن إخوتك ما قرره الله لهم ؟

وهناك بعض من الناس يرغب الواحد منهم ألا يعطي عمومته أو إخوته لأي سبب

من الأسباب ، فماذا يفعل ؟ إنه يضع الوصيـة ؛ لذلك حدد الإسلام الوصية بمقدار الثلث ، حتى لا تحدث مضارة للورثة .

وقد حاول البعض من هؤلاء الناس أن يدّعوا كذباً ، أن هناك ديناً عليهم ، والدين مستغرق للتركة حتى لا يأخذ الأقارب شيئاً .

والإنسان فى هذا الموقف عليه أن يعرف أنه واقف فى كل لحظة فى الحياة أو الممات أمام الله ، وكل إنسان أمين على نفسه .

لذلك قال الحق سبحانه :

﴿ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾

(من الآية ١١ سورة النساء)

والحق يلفتنا ألا نضر أحداً بأى تصرف ؛ لأنها توصية من الله لكل ما يتعلق بالحكم توريثاً ووصيةً وآداء دين ، كل ذلك توصية من الله ، والتوصية ليست من مخلوق لمخلوق، ولكنها من الله ؛ لذلك ففيها إلزام وفرض ، فسبحانه القائل :

﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا ﴾

(من الآية ١٣ سورة الشورى)

والوصية هنا افتراض ، ومثل ذلك يقول الحق :

﴿ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾

(من الآية ١٥١ سورة الأنعام)

ومادامت التوصية تأتى من المالك الأعلى ، فمعنى ذلك أنها افتراض ، ويذيل الحق سبحانه الآية التى نحن بصدد تناولها بالخواطر الإيمانية : « والله عليم حليم » أى إياكم أن تتصرفوا تصرفا قد يقره ويمضيه القضاء ، ولكنه لا يبرئكم أمام الله ؛ لأنه قد قام على باطل .

مثال ذلك : هناك إنسان يموت وعليه دين ، عندئذ يجب تسديد الدين ، لكن أن يكتب الرجل دينا على نفسه غير حقيقى ليحرم بعضا من أقاربه من الميراث فعليه أن يعرف أن الله عليم بالنوايا التى وراء التصرفات . فإن عمَّيتم أيها البشر على قضاء الأرض ، فلن تعموا على قضاء السماء .

وهذه مسألة تحتاج إلى علم يتغلغل فى النوايا ، إذن فمسألة القضاء هذه هى خلاف بين البشر والبشر ، ولكن مسألة الديانة وما يفترضه الحق ، فهو موضوع بين الرب وبين عبيده، ولذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حديث شريف : « إنما أنا بشر وأنكم تختصمون إلىّ ، فلعلّ بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض ، فأقضىَ له على نحو ما أسمع ، فمن قضيت له بحق مسلم ، فإنما هى قطعة من النار فليأخذها أو ليتركها »[1] .

إن الرسول يعلمنا أنه بشر ، أى أنه لا يملك علم الغيب ومداخل المسائل ، وعندما يرفع المسلمون إليه قضاياهم فقد يكون أحدهم أكثر قدرة على الفصاحة وذلاقة اللسان ، ويستطيع أن يقلب الباطل حقا ، والآخر قليل الحيلة ، فيحكم النبى بمقتضى البيِّنة القضائية ، ولكن الأمر الواقع يتنافى مع تسلسل الحق ؛ لذلك يعلمنا أنه بشر ، وأننا حين نختصم إليه يجب ألا يستخدم واحد منا ذلاقة اللسان فى أخذ ما ليس له ؛ لأنه حتى لو أخذ شيئا ليس له بحكم من الرسول صلى الله عليه وسلم ، فليعلم أنه يأخذ قطعة من الجحيم .

إذن فمعنى ذلك انه يجب علينا أن نحذر فى الأمور ، فلا نُعَمِّى ولا نأخذ شيئا بسلطان القضاء ونهمل مسألة الديانة . فالأمور التى تتعلق بالدِّين لا يجوز للمؤمن المساس بها ، إياكم أن تظنوا أن حكم أى حاكم يحلل حراما أو يحرم حلالا ، لا . فالحلال بيِّن ، والحرام بيِّن ، والقاضى عليه أن يحكم بالبينات الواضحة .

ومثال على ذلك : هب أنك اقترضت من واحد ألفا من الجنيهات ، وأخذ عليك صكا ، ثم جاء المقترض وسدد ما عليه من قرض وقال لمن اقترض منه : « عندما

---

(١) رواه مالك ، وأحمد والبخارى ومسلم وأبو داود عن أم سلمة رضى الله عنها .

تذهب إلى منزلك ارجو أن ترسل لى الصك » ثم سبق قضاء الله ، وقال أهل الميت: « إن الصك عندنا » واحتكموا إلى القضاء ليأخذوا الدَّين.هنا يحكم القضاء بضرورة تسديد الدين مرة أخرى ، لكن حكم الدَّين فى ذلك يختلف ، فالرجل قد سدد الدين ولا يصح أبداً أن يأخذ الورثة الدَّين مرة أخرى إذا علموا أن مورِّثهم حصل على دينه .

ولذلك يقول لنا الحق : « والله عليم حليم » حتى نفرق بين الديانة وبين القضاء . والحق يقول لنا:إنه « حليم » فإياك أن تغتر بأن واحدا حدث منه ذلك ، ولم ينتقم الله منه فى الدنيا ، فعدم انتقام الله منه فى الدنيا لا يدلّ على أنه تَصَرُّفَ حلالا ، لكن هذا حلم من الله وإمهال وإرجاء ولكنَّ هناك عقابا فى الآخرة .

وبعد بيان هذه الأمور يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ ﴾

الأحكام المتقدمة والأمور السابقة كلها حدود الله ، وحين يحدّ الله حدودا . . أى يمنع أن يلتبس حق بحق ، أو أن يلتبس حق بباطل ؛ فهو الذى يضع الحدود وهو الذى فصل حقوقا عن حقوق .

ونحن عندما نقوم بفصل حقوق عن حقوق فى البيوت والأراضى فنحن نضع حدودا واضحة ، ومعنى « حد » أى فاصل بين حقين بحيث لا يأخذ أحد ما ليس له

من آخر . والحدود التى نصنعها نحن والتى قد لا يتنبه إليها كثير من الناس ، هى نوعان : نوع لا يتعدى بالبناء ، فعندما يريد واحد أن يبنى ، فالأول يبنى على الأرض التى هى حق له ، ويكون الجداران ملتصقين بعضهما ببعض . وعندما يزرع فلاح بجانب فلاح آخر فكل فلاح يزرع فى أرضه وبين القطعتين حد ، وهذا يحدث فى النفع .

لكن لنفترض أن فلاحا يريد أن يزرع أرزا ، وجاره لن يزرع أرزا ، فالذى لن يزرع الأرز قد تأخذ أرضه مياها زائدة ، فالمياه تصلح للأرز وقد تفسد غيره ، ولذلك يكون الحكم هنا أن يقيم زارع الأرز حدا اسمه « حد الجيرة » ليمنع الضرر ، وهو ليس « حد الملكية » فزارع الأرز هنا ينقص من زراعته مسافة مترين ، ويصنع بهما حد الجيرة ، حتى لا تتعدى المياه التى يُروى بها الأرز إلى أرض الجار . إنه حد يمنع الضرر ، وهو يختلف عن الحد الذى يمنع التملك .

إذن فمن ناحية حماية الإنسان لنفسه من أن يوقع الضرر بالآخرين عليه أن ينتبه إلى المقولة الواضحة : « لا تجعل حقك عند آخر حدك ، بل اجعل حقك فى الانتفاع بعيدا عن حدك » ، وهذا فى الملكية . وذلك إذا كان انتفاعك بما تملكه كله سيضر بجارك . وكذلك يعاملنا الله ، ويقول فى الأوامر :

﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ﴾

(من الآية ٢٢٩ سورة البقرة)

وفى النواهى يقول سبحانه :

﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ﴾

(من الآية ١٨٧ سورة البقرة)

أى أنك إذا ما تلقيت أمرا ، فلا تتعد هذا الأمر ، وهذه هى الملكية ، وإذا ما تلقيت نهيا فلا تقرب الأمر المنهى عنه . مثال ذلك النهى عن الخمر ، فالحق لا يقول : « لا تشرب الخمر » ، وإنما يقول : « إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه » . أى لا تذهب إلى المكان الذى توجد فيه من الأصل ، كن فى جانب وهذه الأشياء فى جانب آخر .

ولذلك قلنا فى قصة أكل آدم من الشجرة : أقال الحق : « لا تأكلا من الشجرة » ؟ أم قال ولا تقربا هذه الشجرة ؟ سبحانه قال :

﴿ وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ ﴾

(من الآية ١٩ من سورة الأعراف)

وهذا حد اسمه « حد عدم المضارة » إنه أمر بعدم الاقتراب حتى لا يصاب الإنسان بشهوة أو رغبة الأكل من الشجرة . وكذلك مجالس الخمر لأنها قد تغريك . ففى الأوامر يقول سبحانه : « تلك حدود الله فلا تعتدوها » وهذا ما يتعلق بالملكية .

وفى النواهى يقول سبحانه : « تلك حدود الله فلا تقربوها » ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول هذا الحديث : « الحلال بيّن والحرام بيّن وبينهما أمور مُشْتَبِهات لا يعلمها كثير من الناس فمن اتقى المشبّهات فقد استبرأ لعرضه ودينه ، ومن وقع فى المشبّهات وقع فى الحرام ، كراعٍ يرعى حول الحمى يُوشك أن يُواقِعَه ، الا وإن لكل ملك حِمى ، ألا وإن حمى الله تعالى فى أرضه محارمه ، ألا وإن فى الجسد مضغة إذا صَلَحتْ صَلَحَ الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب »[1] .

لذلك تجنب حدود الله . مثال ذلك قول الحق :

﴿ وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَٰجِدِ ۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾

(من الآية ١٨٧ سورة البقرة)

إن الحق يأمر المعتكف بالمسجد أنه عندما تأتى له زوجه لتناقشه فى أمر ما فعلى المؤمن أن يمتثل لأمر الله بعدم مباشرة الزوجة فى المسجد . ولا يجعل المسائل قريبة من المباشرة ، لأن ذلك من حدود الله . وسبحانه يقول : « تلك حدود الله فلا تقربوها » .

وهنا فى مسائل الميراث يقول الحق :

(١) رواه البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه عن النعمان بن بشير .

﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ ﴾

(سورة النساء)

وكان يكفى أن يقول الحق ـ من بعد بيان الحدود ـ : «ومن يطع الله » ولكنه قال : « ومن يطع الله ورسوله » وذلك لبيان أن لرسول الله صلى الله عليه وسلم أن يضع حدودا من عنده لما حل ، وأن يضع حدودا لما حرم . وهذا تفويض من الله لرسوله فى أنه يُشرِّع ، لذلك فلا تقل فى كل شىء : « أريد الحكم من القرآن » .

ونرى من يقول : بيننا وبينكم كتاب الله ، فما وجدنا فيه من حلال أحللناه ، وما وجدنا فيه من حرام حرمناه . هؤلاء لم يلتفتوا إلى أن الرسول صلى الله عليه وسلم مفوض فى التشريع وهو القائل :

﴿ وَمَآ ءَاتَـٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَـٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾

(من الآية ٧ سورة الحشر)

إنه صلى الله عليه وسلم مفوض من الله ، وهؤلاء الذين ينادون بالاحتكام إلى القرآن فحسب يريدون أن يشككوا فى سنة رسول الله ، إنهم يحتكمون إلى كتاب الله ، وينسون أو يتجاهلون أن فى الكتاب الكريم تفويضا من الله لرسوله صلى الله عليه وسلم أن يشرع .

هم يقولون : بيننا وبينكم كتاب الله ، فما وجدنا فيه من حلال أحللناه وما وجدنا فيه من حرام حرمناه . وقولهم لمثل هذا الكلام دليل على صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يقول ، لأنهم لو لم يقولوا لقلنا :

يا رسول الله لقد قلت : روى المقدام بن معدى كرب قال : حرم النبى صلى الله عليه وسلم « أشياء يوم خيبر منها الحمار الأهلى وغيره فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يوشك أن يقعد الرجل منكم على أريكته يحدث بحديثى فيقول: بينى وبينكم

كتاب الله فما وجدنا فيه حلالا استحللناه وما وجدنا فيه حراما حرمناه وإن ما حرم رسول الله كما حرم الله »[1] .

فكيف يا سيدى يا رسول الله ذلك ، ولم يقل أحد هذا الكلام ؟

إذن فقولهم الأحق دليل على صدق الرسول فيما أخبر . ويسخرهم الحق ، فينطقون بمثل هذا القول لنستدل من قول خصوم النبى على صدق كلام النبى . .

والحق يقول : « ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات » والذى يطيع الله ورسوله فى الدنيا هو من أخذ التكليف وطبقه ويكون الجزاء هو دخول الجنة فى الآخرة . لكن إدخال الجنة هل هو منهج الدين ، أو هو الجزاء على الدين ؟

إنه الجزاء على الدين ، وموضوع الدين هو السلوك فى الدنيا ، ومن يسير على منهج الله فى الدنيا يدخل الجنة فى الآخرة ، فالآخرة ليست موضوع الدين ، لكن موضوع الدين هو الدنيا ، فعندما تريد أن تعزل الدنيا عن الدين نقول لك : لم تجعل للدين موضوعا ، إياك أن تقول:موضوع الدين هو الآخرة لأن الآخرة هى دار الجزاء ، وفى حياتنا نأخذ هذا المثل : هل الامتحان موضوع المناهج ، أو أن المناهج يقرأها الطالب طوال السنة ، وهى موضوع الامتحان ؟

إن المناهج التى يدرسها الطالب هى موضوع الامتحان ، وكذلك فالدنيا هى موضوع الدِّين ، والآخرة هى جزاء لمن نجح ولمن رسب فى الموضوع ؛ لذلك فإياكم أن تقولوا : دنيا ودين ، فلا يوجد فصل بين الدنيا والدين ؛ لأن الدنيا هى موضوع الدين . فالدنيا تُقابلها الآخرة والدين لهما . الدنيا مزرعة والآخرة محصدة . بهذا نرد على من يقول : إن الدنيا منفصلة عن الدين .

ومَن يطع الله ورسوله يدخله جنة واحدة أو جنتين أو جنات ، وهل دلالة « مَن » للواحد ؟ لا ، إن « من » تدل على الواحد ، وتدل على المثنى وتدل على الجمع ،

---

(١) رواه الطبرانى فى الأوسط عن جابر .

مثال ذلك نقول : جاء مَن لقيته أمس ونقول أيضا : جاء من لقيتها أمس ، وتقول ثالثا : جاء من لقيتهم أمس . . إذن فـ« مَن » صالحة للمفرد والمثنى والجمع .

والحق هنا لا يتكلم عن مفرد هنا أو جمع . كما قلنا فى أول الفاتحة :

﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ ﴾

(سورة الفاتحة)

على الرغم من أن القياس أن تقول : « إياك أعبد وإياك أستعين » . لكن قال الحق سبحانه : « إياك نعبد وإياك نستعين » ليوضح لنا أن المؤمنين كلهم وحدة واحدة فى العبادة .

وهناك من يقول إذا دلت : (مَن) على المفرد فقد لحظنا لفظها ، وإذا دلت على المثنى أو الجمع فقد لحظنا معناها .

ولمن يقول ذلك نقول : إن هذا الكلام غير محقق علميا ؛ لأن لفظ « من » لم يقل أحد إنه للمفرد . بل إنها موضوعة للمفرد والمثنى والجمع . فلا تقل : استعمل لفظ « من » مراعاة للفظ أو مراعاة للمعنى ، لأن لفظ « من » موضوع لمعان ثلاثة هى المفرد والمثنى والجمع .

وقد سألنى أخ كريم فى جلسة من الجلسات : لماذا يقول الحق سبحانه فى سورة الرحمن :

﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ۝٤٦ ﴾

(سورة الرحمن)

فقلت له : إن سورة الرحمن استهلها الحق سبحانه وتعالى :

﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ ﴾

(سورة الرحمن)

وبعد ذلك قال الحق :

﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ۝١٤ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ۝١٥ ﴾

(سورة الرحمن)

وقال سبحانه :

﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ۝٣١ ﴾

(سورة الرحمن)

وقال تعالى :

﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ۝٣٣ ﴾

(سورة الرحمن)

إذن فمن خاف مقام ربه ، هو من الجن أو من الإنس ، إن كان من الجن فله جنة ، وإن كان من الإنس فله جنة أخرى . إذن فمن خاف مقام ربه فله جنتان .

وهناك من يقول هناك جنتان لكل واحد من الإنس والجن ، لأن الله لا يعانى من أزمة أماكن ، فحين شاء ازلا أن يخلق خلقا أحصاهم عدا من لدن آدم إلى أن تقوم الساعة ، وعامل الكل على أنه مؤمن مطيع ، وأنشأ لكل واحد مكانه فى الجنة ، وعامل سبحانه الكل على أنه عاصٍ ، وأنشأ له مقعدا فى النار ، وذلك حتى لا يفهم احد أن المسألة هى ازمة أماكن .

فإذا دخل صاحب الجنة جنته ، بقيت جنة الكافر التى كانت معدة له على فرض أنه مؤمن ، لذلك يقول الحق :

﴿ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٧٢ ﴾

(سورة الزخرف)

فيرث المؤمنون ما كان قد أعد لغيرهم لو آمنوا .

إذن فالمعانى نجدها صوابا عند أى أسلوب من أساليب القرآن .

وهنا يقول الحق : « يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار » ويجب أن نفهم أن النهر هو الشق الذى يسيل فيه الماء وليس هو الماء ، الحق يقول : « جنات تجرى من تحتها الأنهار » فأين تجرى الأنهار ؟

أتجرى الأنهار تحت زروعها ، أم تحت بنيانها ؟ ونعرف أن الزروع هى التى تحتاج إلى مياه ، ونحن نريد أن نبعد المياه عن المبانى كيف ؟ ولكن ليس هناك شىء مستحيل على الله ، لأنها تصميمات ربانية .

فالخلق قد تشق نهرا ، ونجد من بعد ذلك النشع يضرب فى المبانى ، لكن تصميمات الحق بطلاقة القدرة ، تكون فيه الجنات تجرى من تحتها مياه الأنهار ، ولا يحدث منها نشع ، سواء من تحت أبنية الجنات أو من تحت زروعها والذى يقبل على أسلوب ربه ويسأله أن يفيض عليه ويلهمه ، فهو ـ سبحانه ـ يعطيه ويمنحه فالحق مرة يقول : « جنات تجرى من تحتها الأنهار » ومرة أخرى يقول : « جنات تجرى تحتها الأنهار » فهذا ممكن وذاك ممكن .

فقوله ـ سبحانه ـ « جنات تجرى تحتها الأنهار » قد يشير إلى أن الأنهار تكون آتية من موقع آخر وتجرى وتمر من تحت الجنات . لا . هى تجرى منها أيضا يقول الله تعالى : « جنات تجرى من تحتها الأنهار » حتى لا يظن أحد أن هناك من يستطيع أن يسد عنك المياه من أعلى . إنها أنهار ذاتية . وعندما نقرأ أن الأنهار تجرى من تحت الجنات بما فيها ومن فيها من قصور فقد يقول قائل : ألا أستطيع أن آخذ من هذه وأنا مهندس أضع تصميمات مبانى الدنيا وآخذ من قول الحق إنه من الممكن أن تقيم مبانى تجرى من تحتها الأنهار ؟ وبالفعل أخذ البشر هذا الأمر اللافت .

نحن نقيم القناطر وهى مبانٍ وتجرى من تحتها الأنهار ، وعندما تكون المواصفات

صحيحة فى الطوب والأسمنت إلى آخر المواصفات فلا نشع يحدث ولا خلخلة فى المبنى . فالخلل الذى يحدث فى المبانى عندنا ، إنما يأتى من أثر الخيانة فى التناول . ومن الممكن أن تجرى الأنهار تحت قصور الجنة . التى فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

ألَا يوحى ذلك للمهندس المسلم أن يحيا فى هذه اللفتة الإلهية ويأخذ منها علما ويستطيع أن يقيم مبانى تجرى من تحتها الأنهار ؟ لو تنبهت إلى ذلك إيمانية مهندس وأخذ يتعلم عن ربه كيفية أداء العمل . لفعل ذلك بتوفيق الله .

ولنتكلم على مصر التى تعانى من أزمة إسكان ، ونجد أن المساحة المائية تأخذ قدرا كبيرا من الأرض ، سواء أكانت النيل ، أم الفروع التى تأخذ من النيل ، وكذلك الترع الصغيرة وكذلك الطرق فلو أن هناك هندسة إيمانية لاستغلت المساحات والمسطحات المعطلة ، نقيم عليها مبانى تسع مرافق الدولة كلها ، ويتم إنجاز المبانى فوق الطرق وفوق المياه وفوق المصارف . وليس معنى ذلك أن نبنى كل الأماكن حتى تصير مسدودة بالمبانى ، ولكن نبنى الثلث ، ونترك فراغا مقدار الثلثين حتى لا نفسد المنظر ، ولا نتعدى على أرض خضراء مزروعة ، إنها إيحاءات إيمانية على المهندس المسلم أن يفكر فيها .

إن بلدا كالقاهرة تحتاج إلى مرافق مختلفة متنوعة ، ونستطيع أن نبنى على الفراغات سواء أكانت فراغات فى مساحات النيل شرط مراعاة الفراغات والزروع اللازمة لجمال البيئة وتنقيتها من التلوث . أم نبنى المرافق تحت الأرض ، ولن تكون هناك أزمات للإسكان أو المرافق ، هذا بالإضافة إلى الانتفاع بالصحراء فى هذا المجال .

والحق يقول : « جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها » صحيح أن الجنة ستكون نعيما ليس على قدر تصورك ولكن على قدر كمال وجمال قدرة الحق ، فالنعيم الذى يتنعم فيه الإنسان يكون على قدر التصور فى معطيات النعيم ، وقلنا قديما : إن عمدة إحدى القرى قال : أريد أن أبنى مضيفة وحجرة للتليفون ، ومصطبة نفرشها . هذا هو النعيم فى تصور العمدة . ونحن فى الحياة نخاف أن نترك النعيم بالموت أو يتركنا النعيم . لكن كيف يكون النعيم عند صانع كل التصورات وهو

الحق سبحانه وتعالى ؟ لذلك تكون جنات النعيم دائمة ، فلا أنت تموت ولا هى تذهب .

والخلود هنا له معنى واضح إنه بقاء لا فناء بعده « وذلك الفوز العظيم » وما هو « الفوز » ؟

إنه النصر ، إنه الغلبة ، إنه النجاح ، إنه الظفر بالمطلوب .

فإذا كان فوزنا فى الدنيا يعطينا جائزة نفرح بها ، فالفرح قد يستمر مدة الدنيا التى يملكها الواحد منا ، فما بالنا بالفوز الذى يأتى فى الآخرة وهو فوز الخلود فى جنة من صنع ربنا ، أليس ذلك فوزا عظيما ؟

إننا إذا كنا نفرح فى الدنيا بالفوز فى أمور جزئية فما بالنا بالفوز الذى يمنحه الحق ويليق بعظمته سبحانه وتعالى ، ولو قسنا فوز الدنيا بفوز الآخرة لوجدنا فوز الآخرة له مطلق العظمة ، ومهما ضحى المؤمن فى سبيل الآخرة ، فهناك فوز يعوض كل التضحيات ، ويسمو على كل هذا .

وإذا قال قائل : ألم يكن من الأفضل أن يقول : ذلك الفوز الأعظم نقول له : إنك سطحى الفهم لأنه لو قال ذلك لكان فوز الدنيا عظيما ، لأن الأعظم يقابله العظيم ، والعظيم يقابله الحقير فحين يقول الحق عن فوز الآخرة : إنه عظيم ، فمعنى ذلك أن فوز الدنيا حقير ، والتعبير عن فوز الآخرة هو تعبير من الحق سبحانه .

وبعد ذلك يأتى الحق بالمقابل : فيقول :

﴿ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾ ﴾

وسبحانه قال من قبل : « تلك حدود الله » . والحدود إما أن تبين الأوامر وحدها وإما أن تبين النواهي وحدها . فهي شاملة أن يطيعها الطائع أو يعصيها العاصي .

فإن كنت تطيع فلك جزاء الطاعة وتأخذ الجنات والخلود والفوز العظيم .
لكن ماذا عمن يعصي ؟ إن له المقابل ، وهذا هو موقفه وجزاؤه أنَّ له العذاب .
« ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله ناراً خالداً فيها وله عذاب مهين » .

هنا نجد « نارا » واحدة ، وهناك نجد « جنات » . هذا ملحظ أول ، وإذا كنا متنبهين ونقبل على كتاب الله ، ونعرف أن المتكلم هو الله ، فإننا نجد الملحظ الثاني وهو خلود للمؤمنين في الجنات ، أما الكافر فسيدخل النار . ولم يقل الحق: نيراناً ، ولم يقل الحق أيضاً : « خالدين » لماذا ؟ لأن المؤمنين سيكونون في الجنة على سرر متقابلين ، ويتزاورون ، وكل واحد يستمتع بكل الجنان ، وأيضاً إن المرء إذا كان له من عمله الصالح الكثير وقصر أولاده الذين اشتركوا معه في الإيمان ، فإن الحق ـ سبحانه ـ يلحق به ذريته ويكون هو وذريته في النعيم والجنان كرامة له . فتكون الجنات مع بعضها وهذا أدعى للإنس .

ولكن الموقف يختلف مع الكافر ، فلن يلحق الله به أحداً وكل واحد سيأخذ ناره ، وحتى لا يأنسوا مع بعضهم وهم في النار ، فالأنس لن يطولوه أيضاً ، فكل واحد في ناره تماماً مثل الحبس المنفرد في زنزانة . ولن يأنس واحد منهم بمعذب آخر . إذن فهناك « جنات » و« نار » و« خالدين » و« خالداً » ، وكل استخدام للكلمة له معنى . والطائع له جنات يأتنس فيها بذريته وإخوته أهل الإيمان ويكونون خالدين جميعاً في الجنات ، أما العاصي فهو في النار وحده خالداً « وله عذاب مهين » .

إن العذاب يكون مرة أليماً ، ومثال ذلك أن يؤلم واحد عدوه فيتجلد عدوه حتى لا يرى شماتة الذي يعذبه . ويقول الشاعر :

وتجلدي للشامتين أريهمو
أني لِرَيْبِ الدهر لا أتضعضع

فيكتم الألم عن خصمه ، لكن هذا فى الدنيا ، أما فى الآخرة فهناك إهانة فى النفس ، فعذاب الله يجمع الألم والإهانة ، إياك أن تفهم أن هناك من يقدر على أن يتجلد كما يتجلد البشر عند وقوع العذاب فى الدنيا ـ إن عذاب الآخرة مهين ومذل للنفس فى آن واحد .

وهكذا نجد أن المرحلة الأولى من سورة النساء عالجت وحدة الإنسان أباً ، ووحدته أماً ، وعالجت كيف بث الله منهما رجالاً كثيراً ونساء . وعالجت السورة أيضاً ما يطرأ مما يجرى به قدر الله فى بعض خلقه بأن يتركوا أيتاماً ضعافاً ، وأنّه سبحانه أراد استبقاء الحياة الكريمة للنفس الإنسانية ؛ لذلك طلب أن نصنع الخير والمودة مع اليتامى ، ووضع أسلوب التعامل الإيمانى معهم ، وأن نكون أوصياء قائمين بالعدالة والإرادة الحسنة العفيفة لأموالهم ، إلى أن يبلغوا سن الرشد فيتسلموها .

وأيضا عالجت السورة أمراً آخر وهو استبقاء الحياة الكريمة للنساء والأطفال ضمن النسيج الاجتماعى . ذلك أن العرب كانوا يمنعون النساء من الميراث ، ويمنعون ـ كذلك ـ من الميراث من لم يطعن برمح ولم يضرب بخنجر أو سيف ولم يشترك فى رد عدوان . فأراد الله سبحانه لهذه الفئة الذليلة المضطهدة أن تأخذ حقها ليعيش العنصران فى كرامة ويستبقيا الحياة فى عزة وهمة وفى قوة ، فشرع الحقُّ نصيباً محدداً للنساء يختلف عن نصيب الرجال مما قل أو كثر ، وبعد ذلك استطرد ليتكلم عن الحقوق فى المواريث . وأوضح سبحانه الحدود التى شرعها لهذا الأمر ، فمن كان يريد جنات الله فليطع الله ورسوله فيما حدّ من حدود . ومن استغنى عن هذه الجنات فليعص الله ليكون خالدا فى النار .

إذن فالحياة الإنسانية هبة من الله لعباده ، ومن كرمه سبحانه أن أوجد لها ـ قبل أن يوجدها ـ ما يقيم أود الحياة الكريمة لذلك الإنسان المكرم ، فوفد الإنسان على الخير ، ولم يفد الخير على الإنسان ، أى أنّ الحق سبحانه لم يخلق الإنسان أولاً ثم صنع له من بعد ذلك الشمس والقمر والأرض والعناصر . لا ، لقد خلق الله هذه العناصر التى تخدم الإنسان أولاً وأعدها لاستقبال الطارق الجديد ـ الإنسان ـ الذى اختاره سبحانه ليكون خليفة فى الأرض . فالخير فى الأرض الذى نستبقى به الحياة سبق وجود

الإنسان ، وهذه عناية من الحق الرحمن بمخلوقه المكرم وهو الإنسان . وجعل الله للإنسان وسيلة للتكاثر وربطها بعملية الإمتاع ، وهذه الوسيلة فى التكاثر تختلف عن وسائل التكاثر فى الزروع والحيوانات ، فوسيلة التكاثر فى كل الكائنات هى لحفظ النوع فقط .

وأراد ـ سبحانه وتعالى ـ أن يكون الإمتاع مصاحباً لوسيلة التكاثر الإنسانى ، ذلك أن المشقّات التى يتطلبها النسل كثيرة ، فلابد أن يجعل الله فى عملية التكاثر متعة تغرى الإنسان .

وأراد الحق سبحانه بذلك أن يأتى بالضعاف ليجعل منهم حياة قوية .

ويوصينا الحق باليتيم من البشر ، وقد يقول قائل :

مادام الحق سبحانه وتعالى يوصينا حتى ننشىء من اليتيم إنساناً قوياً وأن نحسن إلى اليتيم ، فلماذا أراد الله أن يموت والد اليتيم؟ . نقول : جعل الحق هذا الأمر حتى لا تكون حياة الإنسان ضربة لازب على الله ، إنه يخلق الإنسان بعمر محدد معروف له سبحانه ومجهول للإنسان ، فالإنسان قد يموت جنيناً أو طفلاً أو صبياً أو رجلاً أو هرماً ، بل نحن نجد فى الحياة إنساناً هرماً مازال يحيا بيننا ويموت حفيد حفيده ، لماذا ؟ .

لأن الله أراد أن يستر قضية الموت عن الناس ، فلا معرفة للإنسان بالعمر الذى سوف يحياه ولا بزمان الموت ، ولا مكان الموت ، حتى يكون الإنسان منا دائماً على استعداد أن يموت فى أى لحظة . ومادام الإنسان يعيش مستعدا لأن يموت فى أى لحظة ، فعليه أن يستحى أن يلقى الله على معصية . وأيضا لنعلم أن المنهج الإيمانى ؛ منهج يجعل المؤمنين جميعا كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا ، فإذا مات رجل وترك طفلاً يتيماً ، ووجد هذا اليتيم آباء من المجتمع الإيمانى ، فإن المنهج الإيمانى يستقر فى قلب اليتيم اطمئناناً ويقيناً . ومن حكمة الموت ألا يفتن أحد فى أبيه أو فى الأسباب الممنوحة من الله للآباء ، بل نكون جميعا موصولين بالله .

ومادام الحق سبحانه قد وضع لنا الأسباب لاستبقاء الحياة ، ووضع لنا أسلوب

السعى فى الأرض لتستبقى الحياة بالحركة فيها ، فقد وضع أيضا الوسيلة الكريمة لاستبقاء النوع وجعل من حركة الأصل ما يعود على الفرع ، فلم يُغر الله الإنسان وحده بالحركة لنفسه ، ولكن أغراه أن يتحرك فى الحياة حركة تسعه وتسع من يعول ، ويوضح الحق للإنسان : أن حركتك فى الأرض ستنفع أولادك أيضاً .

ولذلك أوجد الله سبحانه فى نفس كل والد غريزة الحنان والحب . ونحن نرى هذه الغريزة كآية من آيات الله متمكنة فى نفوس الآباء . ولهذا يسعى الأب فى الحياة ليستفيد هو وأولاده . والذى يتحرك حركة واسعة فى الحياة قد يأتى عليه زمان يكفيه عائد حركته بقية عمره ؛ لأنه تحرك بهمة وإخلاص ؛ وأفاء الله عليه الرزق الوفير ، وقد يتحرك رجل لمدة عشرين عاماً أو يزيد ويضمن لنفسه ولأولاده من بعده الثروة الوفيرة ، وهناك من يكد ويتعب فى الحياة ويكسب رزقاً يكفيه ويكفى الأبناء والأحفاد .

وهكذا نجد الذين يتحركون لا يستفيدون وحدهم ، فقط ولكن المجتمع يستفيد أيضاً . وتشاء حكمة الله العالية بأن يفتت الثروة بقوانين الميراث لتنتشر الثروة وتتوزع بين الأبناء فتشيع فى المجتمع ، وهذا اسمه التفتيت الانسيابى . كأن نجد واحدا يملك مائة فدان وله عدد من الأبناء والبنات . وبعد وفاة الرجل يرث الأبناء والبنات كل تركته ، وهكذا تتفتت الثروة بين الأبناء تفتيتاً انسيابياً وليس بالتوزيع القهرى الذى يُنشىء الحقد والعداوة ، ويريد الحق أن نحترم حركة المتحرك ، وأن تعود له حركة حياته ولمن يعول فقال سبحانه :

﴿ إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴿٣٦﴾ ﴾

(سورة محمد)

هو سبحانه لا يقول لأى واحد : هات المال الذى وهبته لك . وقلت سابقا : إنه سبحانه وتعالى يحنن عبداً على عبد فيقول :

﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾

(سورة الحديد)

إن الله سبحانه يحترم حركة العبد ، ويحترم ما ملك العبد بعرقه ، ويوصى الحق العبد الغنى : إن أخاك العبد الفقير فى حاجة ، فأقرضنى ـ أنا الله ـ بإعطائك الصدقة أو الزكاة لأخيك الفقير . ولم يقل للعبد الغنى : أقرض أخاك ، ولكنه قال أقرضنى . لماذا ؟ لأنه سبحانه هو الذى استدعى الخلق إلى الوجود ، وهو المتكفل برزقهم جميعاً . . المؤمن منهم والكافر . ولذلك ضمن الرزق للجميع وأمر الأسباب بأن تستجيب حتى للكافر ، لأنه سبحانه هو الذى استدعاه للوجود .

وسبحانه وضع هذا التوريث ، ليصنع التفتيت الإنسيابى للملكية حتى لا يأتى التفتيت القسرى الذى يجعل بعضاً من الأبناء وقد نشأوا فى نعمة وأخذوا من مسائل الحياة ما يريدون ، وعندما يأتى عليهم هذا التفتيت القسرى ، يصبحون من المساكين الذين فاجأتهم الأحداث القسرية بالحرمان ، فهم لم يستعدوا لهذا الفقر المفاجىء . لكن عندما يأتى التفتيت الانسيابى فكل واحد يعد نفسه لما يستقبله ، وبذاتية راضية وبقدرة على الحركة ، ولذلك قال الحق :

﴿ إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴿٣٦﴾ ﴾

(سورة محمد)

إنه سبحانه لا يقول : أنا الذى ملكتك هذا المال ، ولا أنا الذى رزقتك هذا الرزق ، مع أنه ـ سبحانه ـ هو الذى ملكك ورزقك هذا المال حقا ولكنه يوضح لك حقك فى الحركة ، فيقول بعد ذلك :

﴿ إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ ﴿٣٧﴾ ﴾

(سورة محمد)

ولو ألح عليك فأنت تبخل بها لأنك جنيتها بتعب وعرق . ولكن ما الفرق بين إنسان لم يسرف على نفسه ، بل عاش معتدلا ، ثم أبقى شيئا لأولاده ؛ والذى جاء بدخله كله وبدده فيما حرمه الله وأسرف على نفسه فى المخدرات وغيرها ، ما الفرق بين هذا وذاك ؟ .

الفرق هو احترام الحق سبحانه لأثر حركة الإنسان فى الحياة ، لذلك يوضح : أنا لا أسألكم أموالكم ، لأنى إن سألتكم أموالكم فقد تبخلون ، لأن مالكم عائد من أعمالكم .

ويقول الحق : « ويخرج أضغانكم » وإذا ظهر وخرج الضغن فى المجتمع فالويل للمجتمع كله ؛ ولذلك نجد أن كل حركة من هذه الحركات القسرية ينشأ منها بروز الضغن فى المجتمع كله ، وساعة يبرز الضغن فى المجتمع ، انتهى كل شىء جميل . ولذلك وضع الحق أسس ووسائل استبقاء الحياة الكريمة .

وضع أسسا للضعيف بما يحميه ، وكذلك للنساء اللاتى كن محرومات من الميراث قبل الإسلام ، وجعل الحق ـ سبحانه وتعالى ـ لتوريث الأطفال والأبناء والنساء حدوداً « تلك حدود الله » وإياكم أن تتعدوا هذه الحدود ؛ لأن الإنسان إذا ما تعدى هذه الحدود ، فلا بد أن يكون من أهل النار ـ والعياذ بالله ـ فقد وضع الله تلك القواعد لاستبقاء حياتك وحياة من تعول .

وهناك لون آخر من الاستبقاء ، هو استبقاء النوع ، لأن للإنسان عمرًا محدودًا فى الحياة وسينتهى ؛ لذلك يجب أن يستبقى الإنسان النوع فى غيره ، كيف ؟ نحن نتزوج كى يرزقنا الله بالذرية والبنين والحفدة وتستمر حلقات ، وهذا استبقاء للنوع الإنسانى

والحق يريد أن يكون الاستبقاء للنوع كريماً ؛ لذلك يأمرنا الحق ـ سبحانه ـ أن نستبقى النوع بأن نختار له الوعاء الطاهر ، فإياك أن تستبقى نوعا من وعاءٍ خبيثٍ نجسٍ ، اختلطت فيه مياه أناس متعددين ، فلا يدرى أحد لمن ينسب الولد فيصير مضيعاً فى الكون ، مجهول النسب فأوضح الله للإنسان أن يختار لنفسه الوعاء النظيف ليستبقى النوع بكرامة .

والحصول على الأوعية النظيفة يكون بالزواج . فيختار الرجل أنثى عفيفة ذات دين وترضى به زوجاً أمام أعين الناس جميعاً ، ويصير معروفا للجميع أن هذه امرأة هذا ، وهذا زوجها ، دخوله وخروجه غير ممقوت أو موقوت . وما ينشأ من الذرية

بعد ذلك يكون قطعا منسوبا إليه . ويخجل الإنسان أن يكون ابنه مهينا أو عاريا أو جائعا أو غير معترف به ؛ لذلك يحاول الأب أن يجعل من ابنه إنسانا مستوفيا لكل حقوقه مرفوع الرأس غير مهين ، لا يقدحه واحد فَيَسُبُّهُ وينال منه قائلا : جئت من أين ؟ أو من أبوك ؟ فلا يعيش الطفل كسير الجناح ذليلا طوال عمره . فأراد سبحانه استبقاء النوع برابطة تكون على عين الجميع ، وأن تكون هذه الرابطة على الطريق الشرعى .

ومن العجيب أننا نجد هذه المسألة ذات آثار واضحة فى الكون ، فالتى تحاول أن تزيل أثر جريمتها يجبرها الحنان الطبيعى كأم ألا تلقى ابنها الوليد فى البحر بل أمام مسجد ؛ فالطفل مربوط بحنان أمه ولكن الحنان غير شرعى ولذلك ترمى الأم الزانية بطفلها أمام المسجد حتى يلتقطه واحد من الناس الطيبين ، فالزانية نفسها تعرف أنه لا يدخل المسجد إلا إنسان طيب قد يحن على الوليد ويأخذ هذا الطفل ويصير مأمونا عليه .

وهى لا تلقى بوليدها عند خمارة أو دار سينما ، ولكن دائما تضعه عند أبواب المساجد ، فالحنان يدفعها إلى وضع الطفل غير الشرعى فى مثل هذا المكان ؛ لأنها تخاف عليه ، لذلك تلفه وتضعه فى أحلى الملابس ، وإن كانت غنية فإنها تضع معه بعضا من المال ؛ لأن الحنان يدفعها إلى ذلك ، والحياء من الذنب هو الذى يجعلها تتخلص من هذا الطفل .

إنها ـ كما قلنا ـ تحتاط بأن تضعه فى مكان يدخله أناس طيبون فيعثر عليه رجل طيب ، يأخذه ويكون مأمونا عليه . إذن فحتى الفاسق المنحرف عن دين الله يحتمى فى دين الله ، وهذا شىء عجيب .

والله يريد أن يبنى بقاء النوع على النظافة والطهر والعفاف ولا يريد لجراثيم المفاسد أن توجد فى البيوت ، لذلك يشرع العلاقة بين الرجل والمرأة لتكون زواجا أمام أعين الناس . ويأخذ الرجل المرأة بكلمة الله .

وأضرب هذا المثل : نحن نجد الرجل الذى يحيا فى بيت مطل على الشارع وله

ابنة وسيمة والشباب يدورون حولها ، ولو عرف الرجل أن شابا يجيء ويتعمد لينظر إلى ابنته فماذا يكون موقف الرجل من الشاب ؟ إن الرجل قد يسلط عليه من يضربه أو يبلغ ضده الشرطة ويغلى الرجل بالغيظ والغَيْرة .

وما موقف الرجل نفسه عندما تدق الباب أسرة شاب طيب يطلبون الزواج من ابنته ؟ يفرح الرجل ويسأل الابنة عن رأيها ، ويبارك للأم ويأتى بالمشروبات ويوجه الدعوات لحفل عقد القران ، فما الفرق بين الموقفين ؟

لماذا يغضب الأب من الشاب الذى يتلصص ؟ لأن هذا الشاب يريد أن يأخذ البنت بغير حق الله ، أما الشاب الذى جاء ليأخذ الابنة زوجة بحق الله وبكلمة الله فالأب يفرح به وينزل الأمر عليه بردا وسلاما . وبعد ذلك يتسامى الأمر ، ويتم الزفاف ويزور الأب ابنته صباح الزفاف ويرغب أن يرى السعادة على وجهها .

إن الفارق بين الموقفين هو ما قاله الرسول صلى الله عليه وسلم : « الصلاة الصلاة ، وما ملكت أيمانكم لا تكلفوهم ما لا يطيقون ، الله الله فى النساء فإنهن عَوانٍ فى أيديكم[1] أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله »[2] .

ومادام الله هو الذى خلق الرجل والمرأة وشرع أن يجتمعا وتكون كلمة الشاب : « أريد أن أتزوج ابنتك » بردا وسلاما على قلب الأب ، ويكون الفرح والاحتفال الكبير ؛ لأن هذه مسألة عفاف وطهر . والله يريد أن يجعل استبقاء النوع الإنسانى استبقاءً نظيفا لا يُخجل أن تجيء منه ولادة ، ولا يَخجل منه المولود نفسه ، ولا يُذَم فى المجتمع أبدا ، إذا استبقينا النوع بهذا الشكل ؛ فهذا هو الاستبقاء الجميل للنوع . واستبقاء النوع هو الذى تأتى من أجله العملية الجنسية وأراد الله أن يشرعها حلالا على علم الناس ويعرفها الجميع .

وقد سألنى سائل وأنا فى الجزائر : لماذا تقوم العلاقة بين الرجل والمرأة على كلمات

---

(١) عوانٍ : أسيرات جمع عانية .

(٢) رواه النسائى وابن ماجه .

نحو : « زوجتك موكلتى ، أو تقول هى : زوجتك نفسى » ويقبل الرجل ، وتنكسر العلاقة بكلمة « أنت طالق » ؟ وأجبته : لماذا يستبيح الرجل لنفسه أن يمتلك بضع الزوجة بكلمتين ؟ ويستكثر أن تخرج من عصمته بكلمتين ؟ فكما جاءت بكلمة تذهب بكلمة .

إن الحق سبحانه وتعالى كما استبقى الحياة بالعناصر التى تقدمت ، يريد أن يستبقى النوع بالعناصر التى تأتى ، وأوضح لنا أن كل كائن يتكاثر لابد له من إخصاب ، والإخصاب يعنى أن يأتى الحيوان المنوى من الذكر لبويضة الأنثى كى ينشأ التكاثر ، والتكاثر فى غير الإنسان يتم بعملية قسرية .

ففى الحيوانات نرى الأنثى وهى تجأر بالصوت العالى عندما تنزل البويضة فى رحمها كالبقرة مثلا ، حتى يقول الناس جميعا:إن البقرة تطلب الإخصاب ، وعندما يذهب بها صاحبها إلى الفحل ليخصبها تهدأ ، ولا تمكن فحلا آخر منها من بعد ذلك ، وهكذا يتم حفظ النوع فى الحيوانات .

أما فى النباتات ؛ فالأنثى يتم تلقيحها ولو على بعد أميال . ونحن نعرف بعضا من ذكور النبات وإناثها مثل ذكر النخل والجميز ، لكننا لا نعرف التفريق بين ذكورة وأنوثة بعض النباتات ، وقد يعرفها المتخصصون فقط ، وبعض النباتات تكون الذكورة والأنوثة فى عود واحد كالذرة مثلا ؛ فالأنوثة توجد فى « الشراشيب » التى توجد فى « كوز » الذرة ، وعناصر الذكورة توجد فى السنبلة التى يحركها الهواء كى تنزل لتخصب الأنوثة . وكذلك القمح . وهناك أنواع من النباتات لا نعرف ذكورتها ! بالله أيوجد أحدٌ عنده ذكر مانجو أو ذكر برتقال ؟

إذن هناك أشياء كثيرة لا نعرفها ، لكن لا بد من أن تتلاقح إخصابا لينشأ التكاثر ، فيوضح ربنا : اطمئنوا أنا جعلت الرياح حاملة لوسائل اللقاح ، يأخذ الريح اللواقح إلى النباتات ، والنبات الذى يكون تحت مستوى الريح يسخر الله له أنواعا من الحشرات غذاؤها فى مكانٍ مخصوصٍ من النبات وله لون يجذبها ، حشرة يجذبها اللون الأحمر ، وحشرة يجذبها اللون الأبيض ؛ لأن الحشرة تذهب للذكورة فيعلق بها حيوان الذكورة ، فتذهب إلى الأنثى المتبرجة بالزينة ، وهذه العملية تحدث

ولا ندرى عنها شيئا .

من الذى يلقح ؟ من الذى يعلمها ؟ إنه الله القيوم الذى لا تأخذه سنة ولا نوم ، فاستبقى لنا الأنواع غريزيا وقسريا ، بدون أن نعرف عن الكثير منها شيئا ، حتى المطر لا يمكن أن ينزل إلا إذا حدثت عملية تلقيح . ولذلك يقول الحق :

﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾

(سورة الحجر)

إذن الحق قد استبقى لك أيها الإنسان أنواع مقومات حياتك بما لا تدريه ، وجعل هذه المسائل قسرية بحيث يؤدى كل كائن وظيفته وتنتهى المسألة ، لكن حين كان لك اختيار ، وتوجد مشقات كثيرة فى الإنجاب وحفظ النوع ، فقد قرن ـ سبحانه ـ حفظ النوع بالمتعة ، وإياك أن تعزل حفظ النوع عن المتعة ، فإن أخذت المتعة وحدها فقد أخذت الفرع وتركت الأصل ، فلا بد أن تفعلها لحفظ النوع المحسوب عليك .

إذن فإياك أن تلقى حيوانك المنوى إلا فى وعاء نظيف ، محسوب لك وحدك كى لا تنشأ أمراض خبيثة تفتك بك وبغيرك ، ولكيلا ينشأ جيل مطموس النسب ، ولكيلا يكون مهينا ولا مدنسا فى حياته ؛ فإياكم أن تأخذوا قضية حفظ النوع منفصلة عن المتعة فيها .

ولذلك ـ فسبحانه ـ سيتكلم عن المرأة عندما تتصل بامرأة بالسحاق ، أو الرجل يكتفى بالرجل باللواط للمتعة ، أو رجل ينتفع بامرأة على غير ما شرع الله . فعندما تنتفع امرأة مع امرأة ، وينتفع الرجل بالرجل للاستمتاع ، نقول لها : أنت أيتها المرأة أخذتِ المتعة وتركتِ حفظ النوع ، وأنت يا رجل أخذت المتعة وتركت حفظ النوع ، والحق يريد لك أن تأخذ المتعة وحفظ النوع معا . فيوضح سبحانه أنه لا بد أن تكون المتعة فى ضوء منهج الله .

واسمعوا قول الله :

﴿ وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡۖ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا ﴿١٥﴾ ﴾

و« اللاتى » اسم موصول لجماعة الإناث ، وأنا أرى أن ذلك خاص باكتفاء المرأة بالمرأة . وماذا يقصد بقوله : « فاستشهدوا عليهن أربعة » ؟ إنه سبحانه يقصد به حماية الأعراض ، فلا يلغ كل واحد فى عرض الآخر ، بل لا بد أن يضع لها الحق احتياطا قويا ، لأن الأعراض ستجرح ، ولماذا « أربعة » فى الشهادة ؟ لأنهما اثنتان تستمتعان ببعضهما ، ومطلوب أن يشهد على كل واحدة اثنان فيكونوا أربعة ، وإذا حدث هذا ورأينا وعرفنا وتأكدنا ، ماذا نفعل ؟

قال سبحانه : « فأمسكوهن فى البيوت » أى احجزوهن واحبسوهن عن الحركة ، ولا تجعلوا لهن وسيلة التقاء إلى أن يتوفاهن الموت « أو يجعل الله لهن سبيلا » وقد جعل الله .

والذين يقولون : إن هذه المسألة خاصة بعملية بين رجل وامرأة ، نقول له : إن كلمة « واللاتى » هذه اسم موصول لجماعة الإناث ، أما إذا كان هذا بين ذكر وذكر . ففى هذه الحالة يقول الحق :

﴿ وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَٰنِهَا مِنكُمۡ فَـَٔاذُوهُمَاۖ فَإِن تَابَا وَأَصۡلَحَا فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابٗا رَّحِيمًا ﴿١٦﴾ ﴾

(سورة النساء)

الآية هنا تختص بلقاء رجل مع رجل ، ولذلك تكون المسألة الأولى تخص المرأة مع المرأة ، ولماذا يكون العقاب فى مسألة لقاء المرأة بالمرأة طلبا للمتعة هو الإمساك فى البيوت حتى يتوفاهن الموت ؟ لأن هذا شر ووباء يجب أن يحاصر ، فهذا الشر معناه الإفساد التام ، لأن المرأة ليست محجوبة عن المرأة ؛ فلأن تحبس المرأة حتى تموت خير من أن تتعود على الفاحشة . ونحن لا نعرف ما الذى سوف يحدث من أضرار ، والعلم مازال قاصرا ، فالذى خلق هو الذى شرع أن يلتقى الرجل بالمرأة فى إطار الزواج وما يجب فيه من المهر والشهود ، وسبحانه أعد المرأة للاستقبال ، وأعد الرجل للإرسال ، وهذا أمر طبيعى ، فإذا دخل إرسال على استقبال ليس له ، فالتشويش يحدث .

وإن لم يكن اللقاء على الطريقة الشرعية التى قررها من خلقنا فلا بد أن يحدث أمر خاطىء ومضر ، ونحن عندما نصل سلكا كهربائيا بسلك آخر من النوع نفسه . . أى سالب مع سالب أو موجب مع موجب تشب الحرائق ، ونقول : « حدث ماس كهربائى » ، أى أن التوصيلة الكهربائية كانت خاطئة . فإذا كانت التوصيلة الكهربائية الخاطئة فى قليل من الأسلاك قد حدث ما حدث منها من الأضرار ، أفلا تكون التوصيلة الخاطئة فى العلاقات الجنسية مضرة فى البشر ؟

إننى أقول هذا الكلام ليُسَجَّل ، لأن العلم سيكشف ـ إن متأخرا أو متقدما ـ أن لله سرا ، وحين يتخصص رجل بامرأة بمنهج الله « زوجنى . . وتقول له زوجتك » فإن الحق يجعل اللقاء طبيعيا . أما إن حدث اختلاف فى الإرسال والاستقبال فلسوف يحدث ماس صاعق ضار ، وهذه هى الحرائق فى المجتمع .

أكرر هذا الكلام ليسجل وليقال فى الأجيال القادمة : إن الذين من قبلنا قد اهتدوا إلى نفحة من نفحات الله ، ولم يركنوا إلى الكسل ، بل هداهم الإيمان إلى أن يكونوا موصولين بالله ، ففطنوا إلى نفحات الله . والحق هو القائل :

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾

(من الآية ٥٣ سورة فصلت)

فإذا كنا قد اهتدينا إلى معرفة أن اتصال سلك صحيح بسلك صحيح فالكهرباء تعطى نورا جميلا . أما إذا حدث خطأ فى الاتصال ، فالماس يحدث وتنتج منه حرائق ، كذلك فى العلاقة البشرية ، لأن المسألة ذكورة وأنوثة .

والحق سبحانه القائل :

﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ ﴾

(من الآية ٤٩ سورة الذاريات)

فإذا كان النور الجميل يحدث من الاتصال الصحيح بين الموجب والسالب فى غير الإنسان ، وتحدث الحرائق إن كان الاتصال خاطئا ، فما بالنا بالإنسان ؟

وفى بعض رحلاتنا فى الخارج ، سألنا بعض الناس :

ـ لماذا عَدَّدتم للرجل نساءً ، ولم تعددوا رجالا للمرأة ؟

هم يريدون أن يثيروا حفيظة المرأة وسخطها على دين الله ؛ حتى تقول المرأة الساذجة ـ متمردة على دينها ـ : « ليس فى هذا الدين عدالة » ، لذلك سألت من سألونى : أعندكم أماكن يستريح فيها الشباب المتحلل جنسيا ؟

فكان الجواب : نعم فى بعض الولايات هناك مثل هذه الأماكن .

قلت : بماذا احتطتم لصحة الناس ؟

قالوا : بالكشف الطبى الدورى المفاجىء .

قلت : لماذا ؟

قالوا : حتى نعزل المصابة بأى مرض .

قلت : أيحدث ذلك مع كل رجل وامرأة متزوجين ؟

قالوا : لا .

قلت : لماذا ؟؟ فسكتوا ولم يجيبوا ، فقلت : لأن الواقع أن الحياة الزوجية للمرأة مع رجل واحد تكون المرأة وعاء للرجل وحده لا ينشأ منها أمراض ، ولكن المرض ينشأ حين يتعدد ماء الرجال فى المكان الواحد .

إذن فالحق سبحانه وتعالى يريد أن يستبقى النوع بقاء نظيفا؛ لذلك قال :

﴿ وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡۖ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا ﴿١٥﴾ ﴾

(سورة النساء)

والمقصود بـ « نسائكم » هنا المسلمات ، لأننا لا نشرع لغيرنا ، لأنهم غير مؤمنين بالله . وطلب الشهادة يكون من أربعة من المسلمين ، لأن المسلم يعرف قيمة العرض والعدالة . وإن شهدوا فليحدث حكم الله بالحبس فى البيوت .

وقد عرفنا ذلك فيما يسمى فى العصر الحديث بالحجر الصحى الذى نضع فيه أصحاب المرض المعدى . وهناك فرق بين من أُصِبْن بـ « مرض معدٍ » ومن أصبن بـ « العطب والفضيحة » .

فإذا كنا نعزل أصحاب المرض المعدى فكيف لا نعزل اللاتى أصبن بالعطب والفضيحة ؛ لذلك يقول الحق : « فأمسكوهن فى البيوت حتى يتوفاهن الموت أو يجعل الله لهن سبيلا » أى أن تظل كل منهما فى العزل إلى أن يأتى لكل منهن ملك الموت . وحدثتنا كتب التشريع أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حمل الآية على أنها تختص بزنا يقع بين رجل وامرأة وليس بين امرأتين .

عن عبادة بن الصامت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « خذوا عنى خذوا عنى : البكر بالبكر جلد مائة ونفى سنة ، والثيب بالثيب جلد مائة والرجم »[1] .

ثم جاء التشريع بعد ذلك فصفى قضية الحدود إلى أن البكر بالبكر جلد . . والثيب بالثيب رجم . وبعض من الناس يقول : إن الرجم لم يرد بالقرآن .

---

(١) رواه مسلم عن عبادة بن الصامت .

نرد فنقول : ومن قال:إن التشريع جاء فقط بالقرآن ؟ لقد جاء القرآن معجزة ومنهجا للأصول ، وكما قلنا من قبل : إن الحق قال :

﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ ﴾

(من الآية ٧ سورة الحشر)

وبعد ذلك نتناول المسألة : حين يوجد نص ملزم بحكم ، قد نفهم الحكم من النص وقد لا نفهمه ، فإذا فهمنا فله تطبيق عملى فى السيرة النبوية .

فإذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم لم يأت بالنص فقط ولكن جاء بالعمل نفسه ، فالأسوة تكون بالفعل فى إقامة الحد ؛ لأن الفعل أقوى من النص ، فالنص قد يوجد ولا يطبق لسبب كالنُّسْخ للحكم مثلا ، أما الفعل فإنه تطبيق ، وقد رجم الرسول ماعزا والغامدية ورجم اليهودى واليهودية عندما جاءوا يطلبون تعديل حكم الرجم الوارد بالتوراة . إذن فالفعل من الرسول أقوى من النص وخصوصا أن الرسول مشرع أيضا .

وقال واحد مرة : إن الرجم لمن تزوج ، فماذا نفعل برجل متزوج قد زنا بفتاة بكر ؟

والحكم هنا : يُرجم الرجل وتجلد الفتاة ، فإن اتفقا فى الحالة ، فهما يأخذان حكما واحدا . وإن اختلفا فكل واحد منهما يأخذ الحكم الذى يناسبه .

وحينما تكلم الحق عن الحد فى الإماء ـ المملوكات ـ قال :

﴿ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ ﴾

(سورة النساء)

ويفهم من ذلك الجلد فقط ، لأن الرجم لا يمكن أن نقوم بتقسيمه إلى نصفين ، فالأمة تأخذ فى الحد نصف الحرة ، لأن الحرة البكر فى الزنا تجلد مائة جلدة ، والأَمَة تجلد خمسين جلدة .

ومادام للأمَة نصف حد المحصنة ، فلا يأتى ـ إذن ـ حد إلا فيما ينصَّف ، والرجم لا ينصَّف ، والدليل أصبح نهائيا من فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو مشرع وليس مستنبطا ، وقد رجم رسول الله . ولماذا تأخذ الأمَةُ نصف عقاب الحرة ؟ لأن الإماء مهدورات الكرامة ، أما الحرائر فلا . ولذلك فهند امرأة أبى سفيان قالت : أوَ تزنى الحرة ؟ قالت ذلك وهى فى عنف جاهليتها . أى أن الزنا ليس من شيمة الحرائر ، أما الأمَةُ فمهدورة الكرامة نظرا لأنه مُجترأ عليها وليست عرض أحد .

لذلك فعليها نصف عقاب المحصنات ، وقد تساءل بعضهم عن وضع الأمة المتزوجة التى زنت ، والرجم ليس له نصف .

نقول : الرجم فقد للحياة فلا نصف معه ، إذن فنصف ما على المحصنات من العذاب ، والعذاب هو الذى يؤلم . ونستشهد على ذلك بآية لنبين الرأى القاطع بأن العذاب شىء ، والقتل وإزهاق الحياة شىء آخر ، ونجد هذه الآية هى قول الحق على لسان سليمان عليه السلام حينما تفقد الطير ولم يجد الهدهد :

﴿ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ ﴾

(من الآية ٢١ من سورة النمل)

إذن ، فالعذاب غير الذبح ، وكذلك يكون العذاب غير الرجم . فالذى يحتج به البعض ممن يريدون إحداث ضجة بأنه لا يوجد رجم ؛ لأن الأمة عليها نصف ما على المحصنات ، والرجم ليس فيه تنصيف نقول له : إن ما تستشهد به باطل ؛ لأن الله فرق بين العذاب وبين الذبح ، فقال على لسان سليمان : « لأعذبنه عذابا شديدا أو لأذبحنه » فإذا كان العذاب غير إزهاق الروح بالذبح ، والعذاب أيضا غير إزهاق الروح بالرجم . إذن فلا يصح أن يحاول أحد الإفلات من النص وفهمه على غير حقيقته ولنناقش الأمر بالعقل :

حين يعتدى إنسان على بكر ، فما دائرة الهجوم على العرض فى البكر ؟ إنها أضيق من دائرة الهجوم على الثيب ؛ لأن الثيب تكون متزوجة غالبا ، فقصارى ما فى البكر أن الاعتداء يكون على عرضها وعرض الأب والأخ . أما الثيب فالاعتداء يكون على

عرض الزوج أيضا ، وهكذا تكون دائرة الاعتداء أكبر ، إنه اعتداء على عرض الأب والأم . والإخوة والأعمام مثل البكر ، وزاد على ذلك الزوج والأبناء المتسلسلون . فإذا كان الآباء والأمهات طبقة وتنتهى ، فالأبناء طبقة تستديم ، لذلك يستديم العار . واستدامة العار لا يصح أن تكون مساوية لرقعة ليس فيها هذا الاتساع ، فإن سوينا بين الاثنين بالجلد فهذا يعنى أن القائم بالحكم لم يلحظ اتساع جرح العرض .

إن جرح العرض فى البكر محصور وقد ينتهى لأنه يكون فى معاصرين كالأب والأم والإخوة ، لكن ما رأيك أيها القائم بالحكم فى الثيب المتزوجة ولها أولاد يتناسلون ؟ إنها رقعة متسعة ، فهل يساوى الله ـ وهو العادل ـ بين ثيب وبكر بجلد فقط ؟ إن هذا لا يتأتى أبدا .

إذن فالمسألة يجب أن تؤخذ مما صفّاه رسول الله وهو المشرّع الثانى الذى امتاز لا بالفهم فى النص فقط ، ولكن لأن له حق التشريع فيما لم يرد فيه نص ! فسنأخذ بما عمله وقد رجم رسول الله فعلا ، وانتهى إلى أن هذا الحكم قد أصبح نهائيا ، الثيب بالثيب هو الرجم ، والبكر بالبكر هو الجلد ، وبكر وثيب كل منهما يأخذ حكمه ، ويكون الحكم منطبقا تماما ، وبذلك نضمن طهارة حفظ النوع ؛ لأن حفظ النوع هو أمر أساسى فى الحياة باستبقاء حياة الفرد واستبقاء نوعه ، فاستبقاء حياة الفرد بأن نحافظ عليه ، ونحسن تربيته ونطعمه حلالا ، ونحفظ النوع بالمحافظة على طهارة المخالطة .

والحق سبحانه وتعالى يمد خلقه حين يغفلون عن منهج الله بما يلفتهم إلى المنهج من غير المؤمنين بمنهج الله ، ويأتينا بالدليل من غير المؤمنين بمنهج الله ، فيثبت لك بأن المنهج سليم . ولقد تعرضنا لذلك من قبل مراراً ونكررها حتى تثبت فى أذهان الناس قال الحق :

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾

(سورة التوبة)

فلا يقولن قائل : إن القرآن أخبر بشيء لم يحدث لأن الإسلام لم يطبق ولم يظهر على الأديان كلها . ونرد عليه : لو فهمت أن الله قال : « ليظهره على الدين كله » وأضاف سبحانه : « ولو كره المشركون » ، « ولو كره الكافرون » كما جاء فى موقع آخر من القرآن الكريم ، لقد أوضح الحق أن الإسلام يظهر ويتجلى مع وجود كاره له وهو الكافر والمشرك . ولم يقل سبحانه : إن الإسلام سيمنع وجود أى كافر أو مشرك .

وكيف يكره الكفار والمشركون إظهار الله للإسلام ؟ إنهم لا يدينون بدين الإسلام ، لذلك يحزنهم أن يظهر الإسلام على بقية الأديان . وهل يظهر الإسلام على الأديان بأن يسيطر عليها ويبطل تلك الأديان ؟ لا . إنه هو سبحانه يوضح بالقرآن والسنة كما يوضح لأهل الأديان الأخرى :

بأنكم ستضطرون وتضغط عليكم أحداث الدنيا وتجارب الحياة فلا تجدون مخلصا لكم مما أنتم فيه إلا أن تطبقوا حكما من حكم الإسلام الذى تكرهونه .

وحين تضغط الحياة على الخصم أن ينفذ رأى خصمه فهذا دليل على قوة الحجة ، وهذا هو الإظهار على الدين كله ولو كره الكافرون والمشركون ، وهذا قد حدث فى زماننا ، فقد روعت أمة الحضارة الأولى فى العالم وهى الولايات المتحدة الأمريكية منذ عام ١٩٨١ بما يثبت صدق الإسلام فى أنه حين ضمن ووضع للمخالطات التى تبقى النوع نظاما ، وهو التعاقد العلنى والزواج المشروع ، فالحق قد ضمن صحة الخلق . لكن الحضارة الأمريكية لم تنتبه إلى عظمة قانون الحق سبحانه فَرُوِّعت بظهور مرض جديد يسمى « الإيدز » و« إيدز » مأخوذة من بدايات حروف ثلاث كلمات : حرف « A » ، وحرف « I » ، و« D » .

ومعنى اسم المرض بالترجمة العربية الصحيحة « نقص مناعى مكتسب » والوسيلة الأولى للإصابة به هى المخالطة الشاذة ، ونشأت من هذه المخالطات الشاذة فيروسات ، هذه الفيروسات مازال العلماء يدرسون تكوينها ، وهى تفرز سموما وتسبب آلاما لا حصر لها ، وإلى الآن يعيش أهل الحضارة الغربية هول الفزع والهلع من هذا المرض .

ومن العجيب أن هذه الفيروسات تأتى من كل المخالطات الشاذة سواء أكانت بين رجل ورجل ، أو بين رجل وامرأة على غير ما شرع الله .

لقد جعل الحق سبحانه وتعالى عناصر الزواج « إيجابا » و« قبولا » و« علانية » إنه جعل من الزواج علاقة واضحة محسوبة أمام الناس ، هذا هو النظام الربانى للزوج الذى جعل فى التركيب الكيميائى للنفس البشرية « استقبالا » و« إرسالا » .

والبشر حين يستخدمون الكهرباء . . فالسلك الموجب والسلك السالب ـ كما قلنا ـ يعطيان نورا فى حالة استخدامهما بأسلوب طبيعى ، لكن لو حدث خلل فى استخدام هذه الأسلاك فالذى يحدث هو ماس كهربائى تنتج منه حرائق . وكذلك الذكورة والأنوثة حين يجمعها الله بمنطق الإيجاب والقبول العلنى على مبدأ الإسلام ، فإن التكوين الكيميائى الطبيعى للنفس البشرية التى ترسل ، والنفس البشرية التى تستقبل تعطى نورا وهو أمر طبيعى .

وأوضحنا من قبل أن الإنسان حين يجد شابا ينظر إلى إحدى محارمه ، فهو يتغير وينفعل ويتمنى الفتك به ، لكن إن جاء هذا الشاب بطريق الله المشروع وقال والد الشاب لوالد الفتاة : « أنا أريد خطبة ابنتك لابنى » فالموقف يتغير وتنفرج الأسارير ويقام الفرح .

إنها كلمة الله التى أثرت فى التكوين الكيميائى للنفس وتصنع كل هذا الإشراق والبِشْر ، وإعلان مثل هذه الأحداث بالطبول والأنوار والزينات هو دليل واضح على أن هناك حاجة قد عملت وأحدثت فى النفس البشرية مفعولها الذى أراده الله من الاتصال بالطريق النظيف الشريف العفيف .

فكل اتصال عن غير هذا الطريق الشريف والعفيف لابد أن ينشأ عنه خلل فى التكوين الإنسانى يؤدى إلى أوبئة نفسية وصحية قد لا يستطيع الإنسان دفعها مثل ما هو كائن الآن .

وعلى هذا فيكون قول الحق سبحانه :

﴿ وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡۖ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا ﴿١٥﴾ ﴾

(سورة النساء)

وكانت هذه مرحلة أولية إلى أن طبق الرسول إقامة الحد . ويقول الحق :

﴿ وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَٰنِهَا مِنكُمۡ فَـَٔاذُوهُمَاۖ فَإِن تَابَا وَأَصۡلَحَا فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابٗا رَّحِيمًا ﴿١٦﴾ ﴾

والحق سبحانه وتعالى تواب ورحيم ، ونعرف أن صفة المبالغة بالنسبة لله لا تعنى أن هناك صفة لله تكون مرة ضعيفة ومرة قوية ، وكل صفات الله واحدة فى الكمال المطلق . وقلت من قبل : إننى عندما أقول : « فلان أكَّال » قد يختلف المعنى عن قولى : « فلان آكل » ، فبمثل هذا القول أبالغ فى وصف إنسان يأكل بكثرة ، فهل هو يأكل كثيرا فى الوجبة الواحدة ، أو أن الوجبة ميزانها محدود لكن هذا الموصوف يعدد الوجبات ، فبدلا من أن يأكل ثلاث مرات فهو يأكل خمس مرات ، عندئذ يقال له : « أكَّال » ، أى أنَّه أكثر عدد الوجبات ، وإن كانت كل وجبة فى ذاتها لم يزد حجمها .

أو هو يأتى فى الوجبة الواحدة فيأكل أضعاف ما يأكله الإنسان العادى فى الوجبة العادية ، فيأكل بدلا من الرغيف أربعة ، فنقول:إنه « أكول » ، إذن فصيغة المبالغة فى الخلق إما أن تنشأ فى قوة الحدث الواحد ، وإما أن تنشأ من تكرار الحدث الواحد .

إن قولك: « الله توّابٌ » معناه أنه عندما يتوب على هذا وذاك وعلى ملايين الملايين من البشر ، فالتوبة تتكرر . وإذا تاب الحق فى الكبائر أليست هذه توبة عظيمة ؟ هو تواب ورحيم لأنه سبحانه وتعالى يتصف بعظمة الحكمة والقدرة على الخلق والإبداع ، وهو الذى خلق النفس البشرية ثم قنن لها قوانين وبعد ذلك جرم من يخالف هذه القوانين ، وبعد أن جرم الخروج عن القوانين وضع عقوبة على الجريمة .

والتقنين فى ذاته يقطع العذر ، فساعة أن قنن الحق لا يستطيع واحد أن يقول : « لم أكن أعلم » ؛ لأن ذلك هو القانون ، وحين يجرم فهذا إيذان منه بأن النفس البشرية قد تضعف ، وتأتى بأشياء مخالفة للمنهج ، فنحن لسنا ملائكة ، وسبحانه حين يقنن يقطع العذر ، وحين يجرم فهو إيذان بأن ذلك من الممكن أن يحدث . وبعد ذلك يعاقب ، وهناك أفعال مجرمة ، ولكن المشرِّع الأول لم يجرمها ولم يضع لها قانونا ، لا عن تقصير منه ، ولكن التجريم يأتى كفرع .

إن الله سبحانه قد قدر أن النفس البشرية قد تفعل ذلك ، كالسرقة - مثلا - إنه سبحانه وضع حدا للسرقة ، وقد تضعف النفس البشرية فتسرق ، أو تزنى ؛ لذلك فالحد موجود ، لكن هناك أشياء لا يأتى لها بالتجريم والعقوبة ، وكأنه سبحانه يريد أن يدلنا من طرف خفى على أنها مسائل ما كان يتصور العقل أن تكون . مثال ذلك اللواط ، لم يذكر له حداً ، لماذا ؟ لأن الفطرة السليمة لا تفعله ، بدليل أن اللواط موجود فى البشر وغير موجود فى الحيوان .

لكن ليس معنى ألا يجرم الحق عملا أنه لا يدخل فى الحساب ، لا ، إنه داخل فى الحساب بصورة أقوى ؛ لأن التجريم والعقوبة على التجريم تدل على أن الفعل من الممكن أن يحدث ، وحين يترك هذه المسألة بدون تجريم ، فمعنى ذلك أن الفطرة السليمة لا يصح أن تفعلها ، ولذلك لم يضع لها حدا أو تجريما ، وترك الأمر لرسول الله صلى الله عليه وسلم وهو المكلف بالتشريع أن يضع حدا لهذه المسألة .

إذن فعدم وجود نص على جريمة أو عقوبة على جريمة ليس معناه ألا يوجد حساب عليها ، لا . هناك حساب ، فقد تكون العقوبة أفظع ، وقد أمر الرسول صلى الله

عليه وسلم بإلقاء الفاعل للواط والمفعول به من أعلى جبل . إن عقوبتهما أن يموتا بالإلقاء من شاهق جبل ، إذن فالعقوبة أكثر من الرجم . وهكذا نعرف أن عدم التجريم وعدم التقنين بالعقوبة لأى أمر غير مناسب للعقل وللفطرة السليمة دليل على أن هذا الأمر غير مباح ، والحق لم يترك تلك الأمور سكوتا عنها ، ولكن هو إيحاء من طرف خفى أن ذلك لا يصح أن يحدث ، بدليل أنها لا تحدث فى الحيوانات التى هى أدنى من الإنسان .

وبعد ذلك قد يتعلل الإنسان الفاعل لمثل هذا القبح الفاحش بأنها شهوة بهيمية . نقول : يا ليت شهوتك المخطئة فى التعبير عن نفسها بهيمية ؛ لأن البهائم لا يحدث منها مثل ذلك الفعل أبدا ، فلا أنثى الحيوانات تقترب من أخرى ، وكذلك لا يوجد ذكر حيوان يقترب من ذكر آخر ، وإذا ما حملت أنثى الحيوان فإنها لا تسمح لأى ذكر من الحيوانات بالاقتراب منها ، إذن فالقبح الفاحش من المخالطة على غير ما شرع الله يمكن أن نسميها شهوة إنسانية ، فالبهائم لا ترتكب مثل تلك الأفعال الشاذة . ومن يقول عن الشهوة إنها بهيمية فهو يظلم الحيوانات . والحق سبحانه وتعالى على الرغم من هذه الخطايا يوضح لنا : أنه التواب الرحيم ، لماذا ؟

انظر الحكمة فى التوبة وفى قبولها ، فلو لم تحدث معصية من الإنسان الذى آمن ، لفقَد التكليف ضرورته . معنى التكليف أنه عملية يزاحم الإنسان فيها نفسه ويجاهدها لمقاومة تنفيذ المعاصى أو لحملها على مشقة الطاعة .

فمقاومة الإنسان للمعاصى خضوعاً للتكليف الإيمانى دليل على أن التكليف أمر صحيح ، اسمه « تكليف » وإلا لخلقنا الله كالملائكة وانتهت المسألة . وحين يشرع الله التوبة ، فذلك يدل على أن الإنسان ضعيف ، قد يضعف فى يوم من الأيام أمام معصية من المعاصى ، وليس معنى ذلك أن يطرده الله من عبوديته له سبحانه ، بل هو يقنن العقوبة ، وتقنين العقوبة للعاصى دليل على أنه سبحانه لم يُخرج الذى اختار الإسلام وعصى من حظيرة الإسلام أو التكليف ، ولو فرضنا أن الحقّ سبحانه لم يقنن التوبة لصارت اللعنة مصير كل من يضعف أمام شهوة ، ولصار العاصى متمرداً لا يأبه ولا يلتفت من بعد ذلك إلى التكليف ، يَلِغ فى أعراض الناس ويرتكب كل الشرور .

إذن فساعة شرع الله التوبة سدَ على الناس باب « الفاقدين » الذين يفعلون ذنباً ثم يستمرون فيه ، ومع ذلك فسبحانه حين تاب على العاصى رحم من لم يعص إنه القائل : « إن الله كان تواباً رحيما» . ولو قال الحق إنه تواب فقط لأذنب كل واحد منا لكى يكون الوصف معه وقائم به لا محالة ، ولكنه أيضا قال : « تواباً رحيماً » أى أنه يرحم بعضاً من خلقه فلا يرتكبون أى معصية من البداية . فالرحمة ألا تقع فى المعصية .

وبعد ذلك يشرع الحق سبحانه وتعالى للتوبة :

﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ ﴾

ولنلتفت إلى دقة الأداء القرآنى ، هو سبحانه يقول : « إنما التوبة على الله » وقد يقول واحد : مادام الحق شرع التوبة ، فلأفعل ما أريد من المعاصى وبعد ذلك أتوب . نقول له : إنك لم تلتفت إلى الحكمة فى إبهام ساعة الموت ، فما الذى أوحى لك أنك ستحيا إلى أن تتوب ؟ فقد يأخذك الموت فجأة وأنت على المعصية ، وعليك أن تلتفت إلى دقة النص القرآنى :

﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ ﴾

(سورة النساء)

وفعل السوء بجهالة ، أى بعدم استحضار العقوبة المناسبة للذنب ، فلو استحضر الإنسان العقوبة لما فعل المعصية . بل هو يتجاهل العقوبة ، لذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن »[1] .

فلو كان إيمانه صحيحاً ويتذكر تماما أن الإيمان يفرض عليه عدم الزنا ، وأن عقوبة الزنا هى الجلد أو الرجم ، لما قام بذلك الفعل .

والحق قد قال : « إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب » فهناك من يفعل المعصية ويخطط لها ويفرح بها ويُزْهَى بما ارتكب ويفخر بزمن المعصية ، وهناك من تقع عليه المعصية وبمجرد أن تنتهى يظل نادماً ويضرب نفسه ويعذبها ويتساءل لماذا فعلت ذلك ؟ .

وأضرب مثلاً للتمييز بين الاثنين ، نجد اثنين يستعد كل منهما للسفر إلى باريس ، واحد منهما يسأل قبل سفره عن خبرة من عاشوا فى عاصمة فرنسا ، ويحاول أن يحصل على عناوين أماكن اللهو والخلاعة ، وما إن يذهب إلى باريس حتى ينغمس فى اللهو ، وعندما يعود يظل يفاخر بما فعل من المعاصى .

وأما الآخر فقد سافر إلى باريس للدراسة ، وبيْنما هو هناك ارتكب معصية تحت إغراء وتزيين ، إذن هو إنسان وقعت عليه المعصية ودون تخطيط ، وبعد أن هدأت شِرَّة الشهوة غرق فى الندم ، وبعد أن عاد استتر من زمن المعصية . هكذا نرى الفارق بين المخطط للمعصية وبين من وقعت عليه المعصية .

والله سبحانه حين قدَّر أمر التوبة على خلقه رحم الخلق جميعاً بتقنين هذه التوبة ، وإلا لغرق العالم فى شرور لا نهاية لها ، بداية من أول واحد انحرف مرة واحدة فيأخذ الانحراف عملاً له ، والمهم فى التائب أن يكون قد عمل السوء بجهالة ، ثم تاب من قريب . والرسول صلى الله عليه وسلم حين حدد معنى « من قريب » قال :

---

(١) رواه أحمد والبخارى عن أبى هريرة ، وفى رواية عن مسلم وأحمد : (ولا يَغُلُّ أحدكم حين يَغُلُّ وهو مؤمن فإياكم إياكم) وزاد عبدالرزاق : (ولا ينتهب النهبة وهو مؤمن) .

(إن الله تعالى يقبل توبة العبد ما لم يغرغر)[1] .

والحوار الذى دار بين الحق وبين إبليس :

﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾

(سورة الحجر)

إن إبليس قال ذلك وظن أنه سيهلك البشر جميعا ويوقعهم فى المعصية إلا عباد الله الذين اصطفاهم وأخلصهم له ، لكن الله ـ سبحانه ـ خيّب ظنه وشرع قبول توبة العبد ما لم يغرغر ، لم يصل إلى مرحلة خروج الروح من الجسد . فإذا ما قدم العبد التوبة لحظة الغرغرة فماذا يستفيد المجتمع ؟ لن يستفيد المجتمع شيئاً من مثل هذه التوبة ؛ لأنه تاب وقت ألاّ شر له ؛ لذلك فعلى العبد أن يتوب قبل ذلك حتى يرحم المجتمع من شرور المعاصى . « إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة » هل يتوب أولا ، ثم يتوب الله عليه ؟

أنه سبحانه يقول :

﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾

(من الآية ١١٨ سورة التوبة)

هنا وقف العلماء وحق لهم أن يتساءلوا : هل يتوب العبد أولاً وبعد ذلك يقبل الله التوبة ؟ أم أن الله يتوب على العبد أولاً ثم يتوب العبد ؟ ، صريح الآية هو : « ثم تاب عليهم ليتوبوا » ونقول : وهل يتوب واحد ارتجالاً منه ، أو أن الله شرع التوبة للعباد ؟. لقد شرع الله التوبة فتاب العبد ، فقبل الله التوبة .

نحن إذن أمام ثلاثة أمور : هى أن الله شرع التوبة للعباد ولم يرتجل أحد توبته ويفرضها على الله ، أى أن أحداً لم يبتكر التوبة ، ولكن الذى خلقنا جميعاً قدّر أن الواحد قد يضعف أمام بعض الشهوات فوضع تشريع التوبة . وهو المقصود بقوله: « ثم تاب عليهم » أى شرع لهم التوبة وبعد ذلك يتوب العبد إلى الله « ليتوبوا »

---

(١) رواه أحمد والترمذى وابن ماجه والبيهقى فى شعب الإيمان ، وابن حبان فى صحيحه ، والحاكم فى المستدرك .

وبعد ذلك يكون القبول من الله وهو القائل :

﴿ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ ﴾

(من الآية ٣ سورة غافر)

تأمل كلمة « إنما التوبة على الله » تجدها فى منتهى العطاء ، فإذا كان الواحد فقيراً ومديناً وأحال دائنه إلى غنى من العباد فإنّ الدائن يفرح ؛ لأن الغنىّ سيقوم بسداد الدين وأدائه إلى الدائن ، فما بالنا بالتوبة التى أحالها الله على ذاته بكل كماله وجماله ، إنه قد أحال التوبة على نفسه لا على خلقه ، وهو سبحانه أوجب التوبة على نفسه ولا يملك واحد أن يرجع فيها ، ثم قال : « ثم يتوبون من قريب » أى أن العبد يرجو التوبة من الله ، وحين قال : « فأولئك يتوب الله عليهم » أى أن سبحانه قابل للتوب وغافر للذنب وحين يقول سبحانه : « وكان الله عليماً حكيماً » فنحن نعلم أن كل تقنين لأى شىء يتطلب علماً واسعاً بما يمكن أن يكون وينشأ . والذين يتخبطون فى تقنينات البشر ، لماذا يقنون اليوم ثم يعدلون عن التقنين غداً ؟ لأنهم ساعة قننوا غاب عنهم شىء من الممكن أن يحدث ، فلما حدث ما لم يكن فى بالهم استدركوا على تقنينهم .

إذن فالاضطراب ينشأ من عدم علم المقنن بكل أحوال من يقنن لهم ماضياً وحاضراً ومستقبلاً ، والمقنن من البشر قد لا يستوعب الأحداث الماضية ، وذلك لأنه لا يستوعبها إلا فى بيئته أو فى البيئة التى وصله خبرها ، فحتى فى الماضى لا يقدر ، ولا فى المستقبل يقدر ، وكذلك فى الحاضر أيضاً ، فالحاضر عند بيئة ما يختلف عن الحاضر فى بيئة أخرى . ونحن نعرف أن حواجز الغيب ثلاثة : أى أن ما يجعل الشىء غيباً عن الإنسان هو ثلاثة أمور :

الأمر الأول : هو الزمن الماضى وما حدث فيه من أشياء لم يرها المعاصرون ولم يعرفوها ؛ لذلك فالماضى قد حُجز عن البشر بحجاب وقوع الأحداث فى ذلك الماضى ؛ ولذلك يلفتنا الله سبحانه وتعالى فى تصديق رسوله صلى الله عليه وسلم فيقول سبحانه :

﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلۡغَرۡبِيِّ إِذۡ قَضَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلۡأَمۡرَ ﴾

(من الآية ٤٤ سورة القصص)

ورسول الله لم يكن مع موسى ساعة أن قضى الله لموسى الأمر ، ومع ذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أميًا لا يمكنه أن يقرأ التاريخ أويتعلمه . ويقول أيضا سبحانه :

﴿ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾

(من الآية ٤٤ آل عمران)

أى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يشهد تلك الأزمان التى يأتيه خبرها عن الله ، والرسول أمى بشهادة الجميع ولم يجلس إلى معلم . إذن فالذى اخترق حجاب الزمن وأخبر الرسول بتلك الأحداث هو الله .

والأمر الثانى : هو حجاب الحاضر ، حيث يكون الحجاب غير قادم من الزمن لأن الزمن واحد ، ولكن الحجاب قادم من اختلاف المكان ، فأنا أعرف ما يحدث فى مكانى ، ولكنى لا أعرف ما الذى يحدث فى غير المكان الذى أوجد به ، ولا يقتصر الحجاب فى الحاضر على المكان فقط ولكن فى الذات الإنسانية بأن يُضمر الشخصُ الشىء فى نفسه . فالحق يقول :

﴿ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ ﴾

(من الآية ٨ سورة المجادلة)

هنا يخبر الله سبحانه الرسول عن شىء حاضر ومكتوم فى نفوس أعدائه . وبالله لو لم يكونوا قد قالوه فى أنفسهم ، لما صدقوا قول الرسول الذى جاءه إخباراً عن الله . وقد خرق الله أمام رسوله حجاب الذات وحجاب المكان .

والأمر الثالث : هو حجاب المستقبل ، فيقول القرآن :

﴿ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ ﴾

(سورة القمر)

ونلحظ أن كلمة « سيهزم » فيها حرف « السين » التى تُنبىء عن المستقبل ، وقد نزلت هذه الآية فى مكة وقت أن كان المسلمون قلة وهم مضطهدون ولا يستطيعون

الدفاع عن أنفسهم . وعندما يسمعها عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ ينفعل ويقول لرسول الله : أى جمع هذا ؟

وجاء الجمع فى بدر وولّى الدبر . حدث ذلك الإخبار فى مكة ، ووقعت الأحداث بعد الهجرة . وكانت الهجرة فى الترتيب الزمنى مستقبلاً بالنسبة لوجود المسلمين فى مكة .

أكان من الممكن أن يقول سبحانه : « سيُهزم الجمع ويولون الدبر » لولا أن ذلك سيحدث بالفعل ؟

لو حدث غير ذلك لكذبه المؤمنون به .

إن الرسول صلى الله عليه وسلم قال ذلك إبلاغاً عن الله وهو واثق ، ويطلقها الله على لسان رسوله حُجة فيمسكها الخصم ، ثم يثبت صدقها لأن الذى قالها هو من يخلق الأحداث ويعلمها .

ويأتى فى الوليد بن المغيرة وهو ضخم وفحل وله مهابة وصيت وسيد من سادة قريش ، فيقول الحق :

﴿ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾ ﴾

(سورة القلم)

أى سنضربه بالسيف ضربة تجعل على أنفه علامة فى أعلى منطقة فيه . ويأتى يوم بدر ، فيجدون الضربة على أنف الوليد . لقد قالها الحق على لسان رسوله فى زمن ماض ويأتى بها الزمن المستقبل ، وعندما تحدث هذه المسألة فالذين آمنوا بمحمد وبالقرآن الذى نزل على محمد يتأكدون من صدق رسول الله فى كل شىء . ويأخذون الجزئية البسيطة ويرقونها فيصدقون ما يخبرهم به من أمر الدنيا والآخرة . ويقولون :

ـ إذا أخبرنا رسول الله بغيب يحدث فى الآخرة فهو الصادق الأمين ، ويأخذون من أحداث الدنيا الواقعة ما يكون دليلاً على صدق الأحداث فى الآخرة .

ويذيل الحق الآية : « وكان الله عليماً حكيماً » أى عليما بالتقنينات فشرّع التوبة لعلمه ـ جل شأنه ـ بأنه لو لم يشرّع التوبة ، لكان المذنب لمرة واحدة سبباً فى شقاء العالم ؛ لأنه ـ حينئذ ـ يكون يائساً من رحمة الله .

إذن فرحمة منه ـ سبحانه ـ بالعالم شرّع الله التوبة . وهو حكيم فإياك أن يتبادر إلى ذهنك أن الحق قد حمى المجرم فحسب حين شرع له التوبة ، إنه سبحانه قد حمى غير المجرم أيضا . وساعة نسمع الزمن فى حق الحق سبحانه وتعالى كقوله : « كان » فلا نقول ذلك قياساً على زماننا نحن ، أو على قدراتنا نحن ، فكل ما هو متعلق بالحق علينا أن نأخذه فى نطاق « ليس كمثله شىء » .

فقد يقول كافر : « إن علم الله كان » ويحاول أن يفهمها على أنه علم قد حدث ولا يمكن تكراره الآن ، لا ، فعلم الله كان ولا يزال ؛ لأن الله لا يتغير ، ومادام الله لا يتغير ، فالثابت له من قبل أزلاً يثبت له أبداً . والحكمة هى وضع الشىء فى موضعه . ومادام قد قدر سبحانه وضع الشىء ، فالشىء إنما جاء عن علم ، وحين يطابق الشىء موضعه فهذه هى مطلق الحكمة .

والحق يقول :

﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ ﴾

(سورة النساء)

لقد شرع الله سبحانه التوبة ليتوب عباده ، فإذا تابوا قَبِلَ توبتهم ، وهذا مبنى على العلم الشامل والحكمة الدقيقة الراسخة . وانظروا إلى دقة العبارة فى قوله : « إنما التوبة على الله » ، فساعة يوجد فعل إيجابى يقال : على مَن ، لكن عندما لا يأتى بفعل إيجابى لا يقال : على مَن ، بل يقال : ليس بالنفى . إنّ الحق عندما قرر التوبة عليه ـ سبحانه ـ وأوجبها على نفسه ، للذين يعملون السوء بجهالة ويتوبون فوراً ، إنه يدلنا أيضاً على مقابل هؤلاء ، فيقول :

﴿ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌۚ أُوْلَـٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ١٨ ﴾

هنا يوضح الحق أن توبة هؤلاء الذين يعملون السيئات لم توجد من قريب . وهم يختلفون عن الذين كتب الله قبول توبتهم ، هؤلاء الذين يعيشون وتستحضر نفوسهم قِيَم المنهج ، إلا أن النفوس تضعف مرة . أما الذين لا يقبل منهم التوبة فهم أصحاب النفوس التي شردت عن المنهج في جهات متعددة ، وهم لم يرتكبوا « سوءاً » واحداً بل ارتكبوا السيئات . فالذي ارتكب سوءاً واحداً فذلك يعني أنه ضعيف في ناحية واحدة ويبالغ ويجتهد في الزوايا والجوانب الأخرى من الطاعات التي لا ضعف له فيها ليحاول ستر ضعفه .

إنك ترى أمثال هذا الإنسان في هؤلاء الذين يبالغون في إقامة مشروعات الخير ، فهذه المشروعات تأتي من أناس أسرفوا على أنفسهم في ناحية لم يقدروا على أنفسهم فيها فيأتوا في نواحي خير كثيرة ، ويزيدوا في فعل الخير رجاء أن يمحو الله سيئاتهم التي تركوها وأقلعوا وتابوا عنها .

ومن ذلك نعلم أن أحداً لا يستطيع أن يمكر مع الله ؛ فالذي أخذ راحته في ناحية ، يوضح له الله : أنا سآتي بتعبك من نواحٍ أخرى لصالح منهجي ، ويسلط الله عليه الوهم ، ويتخيل ماذا ستفعل السيئة به ، فيندفع إلى صنع الخير . وكأن الحق يثبت للمسيء : أنت استمتعت بناحية واحدة ، ومنهجي وديني استفادا منك كثيراً ، فأنت تبني المساجد والمدارس وتتصدق على الفقراء ، كل هذا لأن عندك سيئة واحدة .

إذن فلا يمكن لأحد أن يمكر على الله ، وعبر القرآن عن صاحب السيئة بوصف هذه الزلة بكلمة « السوء » ، ولكنه وصف الشارد الموغل فى الشرود عن منهج الله بأنه يفعل « السيئات » ، فهو ليس صاحب نقطة ضعف واحدة ، لكنه يقترف سيئات متعددة ، ويمعن فى الضلال ، ولا يقتصر الأمر على هذا بل يؤجل التوبة إلى لحظة بلوغ الأجل ، بل إنهم قد لا ينسبون الخير الصادر منهم إلى الدين مثلما يفعل الملاحدة ، أو الجهلة الذين لا يعلمون بأن كل خير إنما يأمر به الدين .

مثال ذلك مذهب « الماسونية » ، يقال : إن هذا المذهب وضعه اليهود ، والظاهر فى سلوك الماسونيين أنهم يجتمعون لفعل خير ما يستفيد منه المجتمع ، وما خفى من أفعال قمة أعضاء الماسونية أنهم يخدمون أغراض الصهيونية ، وقد ينضم إليهم بعض ممن لا يعرفون أهداف الماسونية الفعلية ليشاركوا فى عمل الخير الظاهر . ونقول لكل واحد من هؤلاء : انظر إلى دينك ، تجده يحضك على فعل مثل هذا الخير ، فلماذا تنسبه إلى الماسونية ولا تفعله على أنه أمر إسلامى . ولماذا لا تنسب هذا الخير إلى الإسلام وتنسبه لغير الإسلام ؟

وفى هذا العصر هناك ما يسمّى بأندية « الروتارى » ويأخذ الإنسان غرور الفخر بالانتماء إلى تلك الأندية ، ويقول : « أنا عضو فى الروتارى » وعندما تسأله : لماذا ؟ يجيب : إنها أندية تحض على التعاون والتواصل والمودة والرحمة ، ونقول له : وهل الإسلام حرم ذلك ؟ لماذا تفعل مثل هذا الخير وتنسبه إلى « الروتارى » ، ولا تفعل الخير وتنسبه إلى دينك الإسلام ؟ إذن فهذا عداء للمنهج .

ونجد الشاردين عن المنهج ، مثلهم كمثل الرجل الذى قالوا له : ما تريد نفسك الآن ؟ وأراد الرجل أن يحاد الله فقال : تريد نفسى أن أفطر فى يوم رمضان ، وعلى كاس خمر ، وأشترى كاس الخمر هذه بثمن خنزير مسروق .

إنه يريد فطر رمضان وهو محرّم ، ويفطر على خمر وهى محرمة ، وبثمن خنزير والخنزير حرام على المسلم ، والخنزير مسروق أيضا . وسألوه : ولماذا كل هذا التعقيد ؟ فقال : حتى تكون هذه الفعلة حراماً أربع مرات .

إذن فهذه مضارة لله ، وهذا رجل شارد عن المنهج . فهل هذا يتوب الله عليه ؟ لا ، « وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت » وعند لحظة الموت يبدأ الجبن وتتمثل أخلاق الأرانب ، ولماذا لم يصر على موقفه للنهاية ؟ لأنه جاء إلى اللحظة التى لا يمكن أن يكذب فيها الإنسان على نفسه « حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إنى تبت الآن » لكن التوبة لا تقبل ، ولن ينتفع بها المجتمع ، وشر مثل هذا الإنسان انتهى ، وتوبته تأتى وهو لا يقدر على أى عمل ، إذن فهو يستهزىء بالله ؛ فلا تنفعه التوبة .

ولكن انظروا إلى رحمة الله واحترامه للشهادة الإيمانية التى يقر فيها المؤمن بأنه : « لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله » .

هذا المؤمن جعله الله فى مقابل الكافر ، فيأخذ عذاباً على قدر ما فعل من ذنوب ، ويأتى احترام الحق سبحانه لإيمان القمة لقوله : « أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله » فيوضح سبحانه : لن نجعلك كالكافر ؛ بدليل أنه عطف عليه « ولا الذين يموتون وهم كفار » ، وإنما يقدر للمؤمن العاصى من العذاب على قدر ما ارتكب من معاصٍ ، ويحترم الحق إيمان القمة ، فيدخلون الجنة ؛ لذلك لم يقل الحق : إنهم خالدونَ فى النار . وإنما قال : « أولئك أعتدنا لهم عذاباً أليماً » و« أولئك » تغنى الصنفين ـ المؤمن والكافر ـ فالعذاب لكل واحد حسب ذنبه .

ويقول الحق من بعد ذلك :

۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا۟ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا ۖ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا۟ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَـٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ

فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا ﴿١٩﴾

وقلنا : ساعة ينادى الحق عباده الذى آمنوا به يقول سبحانه : « ياأيها الذين آمنوا » ، فمعناها : يا من آمنتم بى بمحض اختياركم ، وآمنتم بى إلهاً له كل صفات العلم والقدرة والحكمة والقيومية ، مادمتم قد آمنتم بهذا الإله اسمعوا من الإله الأحكامَ التى يطلبها منكم . إذن فهو لم يناد غير مؤمن وإنما نادى من آمن باختياره وبترجيح عقله فالحق يقول :

﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ﴾

(من الآية ١٥٦ سورة البقرة)

يريد الحق سبحانه وتعالى أن يعالج قضية تتعلق بالنساء وباستضعافهم . لقد جاء الإسلام والنساء فى الجاهلية فى غَبْن وظلم وحيف عليهن . و- سبحانه - قال : « يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرهاً » وكلمة « ورث » تدل على أن واحداً قد توفى وله وارث ، وهناك شىء قد تركه الميت ولا يصح أن يرثه أحدٌ بعده ؛ لأنه عندما يقول : « لا يحل لكم أن ترثوا » ، فقد مات مورِّث ؛ ويخاطب وارثاً . إذن فالكلام فى الموروث ، لكن الموروث مرة يكون حِلاً ، ولذلك شرع الله تقسيمه ، وتناولناه من قبل ، لكن الكلام هنا فى متروك لا يصح أن يكون موروثاً ، ما هو ؟

قال سبحانه : « لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها » ، وهل المقصود ألا يرث الوارث من مورثه إماء تركهن ؟ لا . إن الوارث يرث من مورثه الإماء اللاتى تركهن ، ولكن عندما تنصرف كلمة « النساء » تكون لأشرف مواقعها أى للحرائر ، لأن الأخريات تعتبر الواحدة منهن ملك يمين ، « لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها » ، وهل فيه ميراث للنساء برضى ؟ وكيف تورث المرأة ؟

نتنبه هنا إلى قوله سبحانه « كرها » ، وكان الواقع فى الجاهلية أن الرجل إذا مات

وعنده امرأة جاء وليه ، ويلقى ثوبه على امرأته فتصير ملكا له،وإن لم تقبل فإنه يرثها كرها ، أو إن لم يكن له هوى فيها فهو يحبسها عنده حتى تموت ويرثها ، أو يأتى واحد ويزوجها له ويأخذ مهرها لنفسه ؛ كأنه يتصرف فيها تصرف المالك ، لذلك جاء القول الفصل :

« لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها ولا تعضلوهن » ، و« العضل » فى الأصل هو المنع ، ويقال : « عضلت المرأة بولدها » ، ذلك أصل الاشتقاق بالضبط . فالمرأة ساعة تلد فمن فضل الله عليها أن لها عضلات تنقبض وتنبسط ، تنبسط فيتسع مكان خروج الولد ، وقد تعضل المرأة أثناء الولادة ، فبدلا من أن تنبسط العضلات لتفسح للولد أن يخرج تنقبض ، فتأتى هنا العمليات التى يقومون بها مثل القيصرية .

إذن فالعضل معناه مأخوذ من عضلت المرأة بولدها أى انقبضت عضلاتها ولم تنبسط حتى لا يخرج الوليد ، وعضلت الدجاجة ببيضها أى أن البيضة عندما تكون فى طريقها لتنزل فتنقبض العضلة فلا تنزل البيضة لأن اختلالا وظيفيا قد حدث نتيجة للحركة الناقصة ، ولماذا تأتى الحركة ناقصة للبسط ؟ لأن الحق سبحانه وتعالى لم يشأ أن يجعل الأسباب فى الكون تعمل آليا وميكانيكيا بحيث إذا وجدت الأسباب يوجد المسبب ، لا . ففوق الأسباب مسبب إن شاء قال للأسباب : قفى فتقف .

إذن فكل المخالفات التى نراها تتم على خلاف ما تؤديه الأسباب إنما هى دليل طلاقة القدرة ، فلو كانت الأشياء تسير هكذا ميكانيكيا ، فسوف يقول الناس : إن الميكانيكا دقيقة لا تتخلف . لكن الحق يلفتنا إلى أنه يزاول سلطانه فى ملكه ، فهو لم يزاول السلطان مرة واحدة ، ثم خلق الميكانيكا فى الكون والأسباب ثم تركها تتصرف ، لا ، هو يوضح لنا : أنا قيوم لا تأخذنى سِنَةٌ ولا نوم ، أقول للأسباب اعمل أو لا تعمل ، وبذلك نلتفت إلى أنه المسيطر .

ونجد هذه المخالفات فى الشواذ فى الكون ، حتى لا تَفْتِنَّا رتابة الأسباب ، ولنذكر الله باستمرار ، ويكون الإنسان على ذكر من واهب الأسباب ومن خالقها ، فلا تتولد عندنا بلادة من أن الأسباب مستمرة دائما ، ويلفتنا الحق إلى وجوده ، فتختلف

الأسباب لتلفتك إلى أنها ليست فاعلة بذاتها ، بل هى فاعلة لأن الله خلقها وتركها تفعل ، ولو شاء لعطلها .

قلنا هذا فى معجزة إبراهيم عليه السلام ، حيث ألقاه أهله فى النار ولم يُحرق ، كان من الممكن أن ينجى الله إبراهيم بأى طريقة أخرى ، ولكن هل المسألة نجاة إبراهيم ؟ إن كانت المسألة كذلك فما كان ليمكّنهم منه ، لكنه سبحانه مكنهم منه وأمسكوه ولم يفلت منهم ، وكان من الممكن أن يأمر السماء فتمطر عندما ألقوه فى النار ، وكان المطر كفيلا بإطفاء النار ، لكن لم تمطر السماء بل وتتأجج النار . وبعد ذلك يقول لها الحق :

﴿ قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ ﴾

(سورة إبراهيم)

بالله أهذا غيظ لهم أم لا ؟ هذا غيظ لهم ؛ فقد قدرتم عليه وألقيتموه فى النار ، وبعد ذلك لم ينْزِل مطر ليطفىء النار ، والنار موجودة وإبراهيم فى النار ، لكن النار لا تحرقه . هذه هى عظمة القدرة .

إذن فما معنى « تعضلوهن » ؟ العضل : أخذنا منه كلمة « المنع » ؛ فعضلت المرأة أى قبضت عضلاتها فلم ينزل الوليد ، وأنت ستعضلها كيف ؟ بأن تمنعها من حقها الطبيعى حين مات زوجها ، وأن من حقها بعد أن تقضى العدة أنْ تتزوج من تريد أو من يتقدم لها ، وينهى الحق : « ولا تعضلوهن » أى لا تحبسوهن عندكم وتمنعوهن ، لماذا تفعلون ذلك ؟ « لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن » كأن هذا حكم آخر ، لا ترثوا النساء كرها هذا حكم ، وأيضا لا تعضلوهن حكم ثانٍ .

والمثال عندما يكون الرجل كارها لامرأته فيقول لها : والله لن أطلقك ، أنا سأجعلك موقوفة ومعلقة لا أكون أنا لك زوجا ولا أمكنك أيضا من أن تتزوجى . وذلك حتى تفتدى نفسها فتُبرىء الرجل من النفقة ومؤخر الصداق ؛ فيحمى الإسلام المرأة ويحرم مثل تلك الأفعال .

ولكن متى تعضلوهن ؟ هنا يقول الحق : « إلا أن يأتين بفاحشة مبينة » لأنهم

سيحبسونهن ، وهذا قبل التشريع بالحد . وقال بعض الفقهاء : للزوج أن يأخذ من زوجته ما تفتدى به نفسها منه وذلك يكون بمال أو غيره إذا أتت بفاحشة من زنا أو سوء عشرة ، وهذا ما يسمى بالخلع وهو الطلاق بمقابل يطلبه الزوج .

ويتابع الحق : « وعاشروهن بالمعروف » وكلمة « المعروف » أوسع دائرة من كلمة المودة ؛ فالمودة هى أنك تحسن لمن عندك ودادة له وترتاح نفسك لموادته ، أنك فرح به وبوجوده ، لكن المعروف قد تبذله ولو لم تكره ، وهذه حلت لنا إشكالات كثيرة ، عندما أراد المستشرقون أن يبحثوا فى القرآن ليجدوا شيئا يدعون به أن فى القرآن تعارضا فيقولون : قرآنكم يقول :

﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾

(سورة المجادلة)

كيف لا يواد المؤمن ابنه أو أباه أو أحداً من عشيرته لمجرد كفره . والقرآن فى موقع آخر منه يقول ؟

﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ﴾

(من الآية ١٥ سورة لقمان)

ونقول : إن هؤلاء لم يفهموا الفرق بين المودة والمعروف . فـ « الود » شىء و« المعروف » شىء آخر . الود يكون عن حُب ، لكن المعروف ليس ضروريا أن يكون عن حُب ، ساعة يكون جوعان سأعطيه ليأكل وألبى احتياجاته المادية . هذا هو المعروف ، إنما الوُد هو أن أعمل لإرضاء نفسى . وساعة يعطف الرجل المؤمن على أبيه الكافر لا يعطف عليه نتيجة للوُد ، إنما هو يعطف عليه نتيجة للمعروف ؛ لأنه حتى لو كان كافرا سيعطيه بالمعروف .

ألم يعاتب الحق ـ سبحانه ـ إبراهيم فى ضيف جاء له فلم يكرمه لأنه سأله وعرف منه : أنه غير مؤمن لذلك لم يضيّفه ؟ فقال له ربنا : أمن أجل ليلة تستقبله فيها تريد أن تغير دينه ، بينما أنا أرزقه أربعين سنة وهو كافر ؟ فماذا فعل سيدنا إبراهيم ؟ جرى فلحق بالرجل . وناداه فقال له الرجل : ما الذى جعلها تتغير هذا التغيير المفاجىء فقال له إبراهيم : « والله إن ربى عاتبنى لأنى صنعت معك هذا . فقال له الرجل : أربك عاتبك وأنت رسول فىّ وأنا كافر به ، فنعم الرب ربٌ يعاتب أحبابه فى أعدائه ، فأسلم .

هذا هو المعروف ، الحق يأمرنا أننا يجب أن ننتبه إلى هذه المسائل فى أثناء الحياة الزوجية ، وهذه قضية يجب أن يتنبه لها المسلمون جميعا كى لا يُخربوا البيوت . إنهم يريدون أن يبنوا البيوت على المودة والحب فلو لم تكن المودة والحب فى البيت لخُربَ البيت ، نقول لهم : لا . بل « عاشروهن بالمعروف » حتى لو لم تحبوهن ، وقد يكون السبب الوحيد أنك تكره المرأة لأن شكلها لا يثير غرائزك ، يا هذا أنت لم تفهم عن الله ؛ ليس المفروض فى المرأة أن تثير غريزتك ، ولكن المفروض فى المرأة أن تكون مصرفا ، إن هاجت غريزتك كيماويا بطبيعتها وجدت لها مصرفا . فأنت لا تحتاج لواحدة تغريك لتحرك فيك الغريزة ؛ ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : « إذا رأى أحدكم امرأة حسناء فأعجبته فليأت أهله فإن البضع واحد ومعها مثل الذى معها »[1] .

أى أن قطعة اللحم واحدة إن هاجت غريزتك بطبيعتها فأى مصرف يكفيك ، ولذلك عندما جاء رجل لسيدنا عمر ـ رضى الله عنه ـ وقال : يا أمير المؤمنين أنا كاره لامرأتى وأريد أن أطلقها ، قال له : أوَلَمْ تُبن البيوت إلا على الحب ، فأين القيم ؟ . لقد ظن الرجل أن امرأته ستظل طول عمرها خاطفة لقلبه ، ويدخل كل يوم ليقبلها ، فيلفته سيدنا عمر إلى أن هذه مسألة وجدت أولا وبعد ذلك تنبت فى الأسرة أشياء تربط الرجل بالمرأة وتربط المرأة بالرجل .

لذلك يقول الحق : « وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا » ، أنت كرهتها فى زاوية وقد تكون الزاوية التى كرهتها فيها

---

(١) رواه الخطيب عن عمر .

هى التى ستجعلها تحسن فى عدة زوايا ؛ لكى تعوض بإحسانها فى الزوايا الأخرى هذه الزاوية الناقصة ، فلا تبن المسألة على أنك تريد امرأة عارضة أزياء لتثير غرائزك عندما تكون هادئا ، لا . فالمرأة مصرف طبيعى إن هاجت غرائزك بطبيعتها وجدت لها مصرفا ، أما أن ترى فى المرأة أنها ملهبة للغرائز فمعنى ذلك أنك تريد من المرأة أن تكون غانية فقط . وأن تعيش معك من أجل العلاقة الجنسية فقط ، لكن هناك مسائل أخرى كثيرة ، فلا تأخذ من المرأة زاوية واحدة هى زاوية الانفعال الجنسى ، وخذ زوايا متعددة .

واعلم أن الله وزع أسباب فضله على خلقه ، هذه أعطاها جمالاً ، وهذه أعطاها عقلاً ، وهذه أعطاها حكمة ، وهذه أعطاها أمانة ، وهذه أعطاها وفاء ، وهذه أعطاها فلاحًا ، هناك أسباب كثيرة جدا ، فإن كنت تريد أن تكون منصفا حكيما فخُذ كل الزوايا ، أما أن تنظر للمرأة من زاوية واحدة فقط هى زاوية إهاجة الغريزة ، هنا نقول لك : ليست هذه هى الزاوية التى تصلح لتقدير المرأة فقط . « فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا »

وانظر إلى الدقة فى العبارة « فعسى أن تكرهوا » فأنت تكره ؛ وقد تكون محقا فى الكراهية أو غير محق ، إنما إن كرهت شيئا يقول لك الله عنه : « ويجعل الله فيه خيراً كثيراً » فاطمئن إنك إن كرهت فى المرأة شيئا لا يتعلق بدينها ، فاعلم أنك إن صبرت عليه يجعل الله لك فى بقية الزوايا خيراً كثيراً . ومادام ربنا هو مَن يجعل هذا الخير الكثير فاطمئن إلى أنك لو تنبهت لزاوية أنت تكرهها ومع ذلك تصبر عليها ، فأنت تضمن أن ربنا سيجعل لك خيراً فى نواحٍ متعددة ، إن أى زاوية تغلبت على كرهك سيجعل الله فيها خيرا كثيرا .

إن الحق يطلق القضية هنا فى بناء الأسرة ثم يُعمم ، وكان بإمكانه أن يقول : فعسى أن تكرهوهن ويجعل الله فيهن خيرا ، لا . فقد شاء أن يجعلها سبحانه قضية عامة فى كل شىء قد تكرهه ، وتأتى الأحداث لتبين صدق الله فى ذلك ، فكم من أشياء كرهها الإنسان ثم تبين له وجه الخير فيها . وكم من أشياء أحبها الإنسان ثم تبين له وجه الشر فيها ، ليدلك على أن حكم الإنسان على الأشياء دائما غير دقيق ،

فقد يحكم بكره شيء وهو لا يستحق الكره ، وقد يحكم بحب شيء وهو لا يستحق الحب .

إذن فالحق سبحانه وتعالى يأتي بالأشياء مخالفة لأحكامك « فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا » فقدر دائما في المقارنةأن الكرهَ منك وجَعْل الخير في المرأة من الله ، فلا تجعل جانب الكره منك يتغلب على جانب جعل الخير من الله .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ ﴾

فإذا ضاقت بك المسائل ، بعد أن عاشرت بالمعروف ولم يعد ممكنا أن تستمر الحياة الزوجية في إطار يرضى عنه الله ، وتخاف أن تنفلت من نفسك إلى ما حرم الله ، ماذا تفعل ؟ يقول سبحانه : « وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج » أي لك أن تستبدل مادامت المسألة ستصل إلى جرح منهج الله ، وعليك في هذا الاستبدال أن ترعى المنهج الإيماني مثلما أشار به سيدنا الحسن رضي الله عنه على الرجل الذي كان يستشيره في واحد جاء ليخطب ابنته . قال سيدنا الحسن ـ رضي الله عنه ـ : إن جاءك الرجل الصالح فزوجه ، فإنه إن أحب ابنتك أكرمها ، وإن كرهها لم يظلمها .

والحق يقول : « وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج » فهذا يعني أن الرغبة قد انصرفت عن الأولى نهائيا ، ولا يمكن التغلب عليها بغير الانحراف عن المنهج . وقد يحدث أن يضيق الرجل بزوجته وهو لا يعاني من إلحاح في الناحية الغريزية ، فيطلقها ولا يتزوج ، فما شروط المنهج في هذا الأمر ؟

يقول الحق : « وآتيتم إحداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا » . كلمة « قنطار » وكلمة « قنطرة » مأخوذة من الشيء العظيم . وقنطار تعنى « المال » . وقدروه قديما بأنه ملء مَسْك البقرة ، و« المسك » هو الجلد ، فعندما يتم سلخ البقرة يصبح جلدها مثل القربة ، وملء مَسْكها يسمى قنطارا ، والقنطار المعروف عندنا الآن له سمة وَزْنِيّة ، والحق حين يعظم المهر بقنطار يقول : « وآتيتم إحداهن قنطارا » فهو يأتى لنا بمثل كبير وينهانا بقوله : « فلا تأخذوا منه شيئا » . لماذا ؟ لأنك يجب أن تفهم أن المهر الذى تدفعه ليس منساحا على زمن علاقتك بالمرأة إلى أن تنتهى حياتكما ، بل المهر مجعول ثمنا للبضع الذى أباحه الله لك ولو للحظة واحدة ، فلا تحسبها بمقدار ما مكثت معك ، لا ، إنما هو ثمن البضع ، فقد كشفت نفسها لك وتمكنت منها ولو مرة واحدة .

إذن فهذا القنطار عمره ينتهى فى اللحظة الأولى ، لحظة تَمكُّنِك منها . « وآتيتم إحداهن قنطارا » وهذه هى المسألة التى قال فيها سيدنا عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ : أخطأ عمر وأصابت امرأة ، لأنه كان يتكلم فى غلاء المهور ؛ فقالت له المرأة : كيف تقول ذلك والله يقول : « وآتيتم إحداهن قنطارا » ، فقال : أصابت امرأة وأخطأ عمر .

عن عمر رضى الله عنه أنه نهى وهو على المنبر عن زيادة صداق المرأة على أربعمائة درهم ثم نزل ، فاعترضته امرأة من قريش فقالت : أما سمعت الله يقول : (وآتيتم إحداهن قنطارا) ؟ فقال : اللهم عفوا كل الناس أفقه من عمر ثم رجع فركب المنبر فقال : « إنى كنت قد نهيتكم أن تزيدوا فى صدُقاتهن على أربعمائة درهم فمن شاء أن يعطى من ماله ما أحب »[1] .

وعن عبدالله بن مصعب أن عمر ـ رضى الله عنه ـ قال : « لا تزيدوا فى مهور النساء على أربعين أوقية من فضة ، فمن زاد أوقية جعلتُ الزيادة فى بيت المال ، فقالت امرأة : ما ذاك لك ، قال ولِمَ ؟ فقالت : لأن الله تعالى يقول : « وآتيتم إحداهن قنطارا » فقال عمر : « امرأة أصابت ورجل أخطأ » .

---

(١) رواه سعيد بن منصور ، وأبو يعلى .

ثم ينكر القرآن مجرد فكرة الأخذ فيقول : « أتأخذونه بهتانا وإثما مبينا » لماذا ؟ لأنه ليس ثمن استمتاعك بها طويلا ، بل هو ثمن تمكنك منها ، وهذا يحدث أوّل ما دخلت عليها . وإن أخذت منها شيئا من المهر بعد ذلك فأنت آثم ، إلاّ إذا رضيت بذلك ، والإثم المبين هو الإثم المحيط .

ويأتي الحق من بعد ذلك بمزيد من الاستنكار فيقول : « وكيف تأخذونه » . إنه استنكار لعملية أخذ شيء من المهر بحيثية الحكم فيقول :

﴿ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾ ﴾

فلو أدركتم كل الكيفيات فلن تجدوا كيفية تبرر لكم الأخذ ، لماذا ؟ لأن الحق قال : « وكيف تأخذونه » وانظر للتعليل : « وقد أفضى بعضكم إلى بعض » . إذن فثمن البُضع هو الإفضاء ، وكلمة « أفضى بعضكم إلى بعض » كلمة من إله ؛ لذلك تأخذ كل المعاني التي بين الرجل والمرأة ، و« أفضى » مأخوذة من « الفضاء » والفضاء هو المكان الواسع ، و« أفضى بعضكم » يعني دخلتم مع بعض دخولا غير مضيق .

إذن فالإفضاء معناه : أنكم دخلتم معا أوسع مدَاخَلة ، وحسبك من قمة المداخلة أن عورتها التي تسترها عن أبيها وعن أخيها وحتى عن أمها وأختها تبينها لك ، ولا يوجد إفضاء أكثر من هذا ، ودخلت معها في الاتصال الواسع ، أنفاسك ، ملامستك ، مباشرتك ، معاشرتك ، مدخلك ، مخرجك ، في حمامك ، في المطبخ ، في كل شيء حدثت إفضاءات ، وأنت مادمت قد أفضيت لها وهي قد أفضت لك كما قال الحق أيضا في المداخلة الشاملة :

﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ﴾

(من الآية ١٨٧ سورة البقرة)

أى شيء تريد أكثر من هذا !؟ ولذلك عندما تشتد امرأة على زوجها ، قد يغضب ، ونقول له : يكفيك أن الله أحل لك منها ما حرمه على غيرك ، وأعطتك عرضها ، فحين تشتد عليك لا تغضب ، وتذكر حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم : « خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلى »[1] .

« وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذن منكم ميثاقا غليظا » والميثاق هو : العهد يؤخذ بين اثنين ، ساعة سألت وليها : « زوجنى » فقال لك : زوجتك ، ومفهوم أن كلمة الزواج هذه ستعطى أسرة جديدة ، وكل ميثاق بين خلق وخلق فى غير العرض هو ميثاق عادى ، إلا الميثاق بين الرجل والمرأة التى يتزوجها ؛ فهذا هو الميثاق الغليظ ، أى غير اللين ، والله لم يصف به إلا ميثاق النبيين فوصفه بأنه غليظ[2] ، ووصف هذا الميثاق بأنه غليظ . ففى هذه الآية « أفضى بعضكم إلى بعض » فهنا إفضاء وفى آية أخرى يكون كل من الزوجين لباسا وسترا للآخر « هن لباس لكم وأنتم لباس لهن » لهذا كان الميثاق غليظا ، وهذا الميثاق الغليظ يحتم عليك إن تعثرت العشرة أن تتحملها وتعاملها بالمعروف ، وإن تعذرت وليس هناك فائدة من استدامتها فيصح أن تستبدلها ، فإن كنت قد أعطيتها قنطارا إياك أن تأخذ منه شيئا ، لماذا ؟ لأن ذلك هو ثمن الإفضاء ، ومادام هذا القنطار هو ثمن الإفضاء وقد تم ، فلا تأخذ منه شيئا ، فالإفضاء ليس شائعا فى الزمن كى توزعه ، لا .

والحق يقول : « وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذن منكم ميثاقا غليظا » هنا يجب أن نفهم أن الحق حين يشرع فهو يشرع الحقوق ، ولكنه لا يمنع الفضل ، بدليل أنه قال :

﴿ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا ﴾

(من الآية ٤ سورة النساء)

(١) رواه الترمذى عن عائشة ، ورواه ابن ماجه عن ابن عباس ورواه الطبرانى فى الكبير عن معاوية .
(٢) الآية رقم ٧ من سورة الأحزاب .

إذن ففيه فرق بين الحق وما طاب لكم ، والأثر يحكى عن القاضى الذى قال لقومه : أنتم اخترتمونى لأحكم فى النزاع القائم بينكم فماذا تريدون منى ؟! أأحكم بالعدل أم بما هو خير من العدل ؟ فقالوا له : وهل يوجد خير من العدل ؟ قال : نعم ، الفضل . فالعدل : أن كل واحد يأخذ حقه ، والفضل : أن تتنازل عن حقك وهو يتنازل عن حقه ، وتنتهى المسألة ، إذن فالفضل أحسن من العدل ، والحق سبحانه وتعالى حين يشرع الحقوق يضع الضمانات ، ولكنه لا يمنع الفضل بين الناس :

فيقول ـ جل شانه ـ :

﴿ وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ﴾

(من الآية ٢٣٧ سورة البقرة)

ويقول الحق فى آية الدَّين :

﴿ وَلَا تَسْـَٔمُوٓا۟ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَـٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓا۟ ﴾

(من الآية ٢٨٢ سورة البقرة)

ويأمركم الحق أن توثقوا الدَّين . . لأنكم لا تحمون مال الدائن فحسب بل تحمون المدين نفسه ، لأنه حين يعلم أن الدَّين موثق عليه ومكتوب عليه فلن ينكره ، لكن لو لم يكن مكتوبا فقد تُحدثه نفسه أن ينكره ، إذن فالحق يحمى الدائن والمدين من نفسه قال : « ولا تسأموا أن تكتبوه » ، وقال بعدها :

﴿ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَـٰنَتَهُۥ ﴾

(من الآية ٢٨٣ سورة البقرة)

فقد تقول لمن يستدين منك : لا داعى لكتابة إيصال وصكٌ بينى وبينك ، وهذه أريحية لا يمنعها الله فمادام قد أمن بعضكم بعضا فليستح كل منكم وليؤد الذى أؤتمن أمانته وليتق الله ربه .

ومادام قد جعل للفضل مجالا مع تسجيل الحقوق فلا تنسوا ذلك . فما بالنا بالميثاق الغليظ بين الرجل والمرأة . . وغلظ الميثاق إنما يتأتى بما يتطلبه الميثاق ، ولا يوجد ميثاق أغلظ مما أخذه الله من النبيين ومما بين الرجل والمرأة ؛ لأنه تعرض لمسألة لا تباح من الزوجة لغير زوجها ، ولا من الزوج لغير زوجته . إن على الرجل أن يوفى حق المرأة ولا يصح أن ينقصها شيئا إلا إذا تنازلت هى . فقد سبق أن قال الحق :

﴿ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا ﴾

(من الآية ٤ سورة النساء)

ومادامت النفس قد طابت ، إذن فالرضا بين الطرفين موجود ، وذلك استطراق أنسى بين الرجل والمرأة . فالمهر حقها ، ولكن لا يجب أن يقبض بالفعل ، فهو فى ذمة الزوج ، إن شاء أعطاه كله أو أخره كله أو أعطى بعضه وأخر بعضه . ولكن حين تنفصل الزوجة بعد الدخول يكون لها الحق كاملا فى مهرها ، إن كان قد أخره كله فالواجب أن تأخذه ، أو تأخذ الباقى لها إن كان قد دفع جزءا منه كمقدم صداق . ولكن حين تنتقل ملكية المهر إلى الزوجة يفتح الله باب الرضا والتراضى بين الرجل والمرأة فقال : « فإن طبن لكم عن شيء منه نفسا فكلوه هنيئا مريئا » فهو هبة تخرج عن تراض . وذلك مما يؤكد دوام العشرة والألفة والمودة والرحمة بين الزوجين . وبعد ذلك يبقى حكم آخر . هَبْ أن الخلاف استعر بين الرجل والمرأة .

حالة تكره هى وتحب أن تخرج منه لا جناح أن تفتدى منه نفسها ببعض المال لأنها كارهة ، ومادامت هى كارهة ، فسيضطر هو إلى أن يبنى بزوجة جديدة ، إذن فلا مانع أن تختلع المرأة منه بشيء تعطيه للزوج :

﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ ﴾

(من الآية ٢٢٩ سورة البقرة)

والحق سبحانه وتعالى أراد أن يعطينا الدليل على أن حق المرأة يجب أن يحفظ لها ، ولذلك جاء بأسلوب تناول مسألة أخذ الزوج لبعض مهر الزوجة فى أسلوب التعجب :

﴿ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾ ﴾

(الآية ٢١ سورة النساء)

فكأن «وكيف تأخذونه» هذه دليل على أنه لا يوجد وجه من وجوه الحق يبيح لك أن تأخذ منها مهرها ، فساعة يستفهم فيقول : «كيف» فهذا تعجيب من أن تحدث هذه ، وقلنا : إن كل المواثيق بين اثنين لا تعطى إلا حقوقاً دون العرض ، ولكن ميثاق الزواج يعطى حقوقاً فى العرض ، ومن هنا جاء غلظ الميثاق ، وكل عهد وميثاق بين اثنين قد ينصب إلى المال ، وقد ينصب إلى الخدمة ، وقد ينصب إلى أن تعْقل عنه الدِّيَّة ، وقد ينصب إلى أنك تعطيه مثلاً المعونة ، هذه ألوان من المواثيق إلا مسألة العرض ، فمسألة العرض عهد خاص بين الزوجين ، ومن هنا جاء الميثاق الغليظ .

وبعد ذلك يتناول الحق سبحانه وتعالى قضية يستديم بها طهر الأسرة وعفافها وكرامتها وعزتها ، ويبقى لأطراف الأسرة المحبة والمودة فلا يدخل شىء يقضى على هذه المحبة والمودة ويُدخل نزغ الشيطان فيها . قال الحق سبحانه :

﴿ وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾ ﴾

فكأن هذه مسألة كانت موجودة ، كان ينكح الولد زوج أبيه التى هى غير أمه . و«صفوان بن أمية» وهو من سادة قريش قد خلف أباه أمية بن خلف على «فاختة بنت الأسود بن المطلب» كانت تحت أبيه ، فلما مات أبوه تزوجها هو ، ويريد الحق سبحانه وتعالى أن يبعد هذه القضية من محيط الأسرة ، لماذا ؟ . لأن الأب والابن لهما من العلاقات كالمودّة والرحمة والحنان والعطف من الأب ، والبر والأدب ، والاستكانة ، وجناح الذل من الابن ، فحين يتزوج الرجل امرأة وله ابن ، فذلك دليل على أن الأب كان متزوجاً أمه قبلها ، وكأن الزيجة الجديدة طرأت على الأسرة .

وسبحانه يريد ألا يجعل العين من الولد تتطلع إلى المرأة التى تحت أبيه ، ربما راقته ، ربما أعجبته ، فإذا ما راقته وأعجبته فأقل أنواع التفكير أن يقول بينه وبين نفسه : بعدما يموت أبى أتزوجها ، فحين يوجد له الأمل فى أنه بعدما يموت والده يتزوجها ، ربما يفرح بموت أبيه ، هذا إن لم يكن يسعى فى التخلص من أبيه ، وأنتم تعلمون سعار الغرائز حين تأتى ، فيريد الحق سبحانه وتعالى أن يقطع على الولد أمل الالتقاء ولو بالرجاء والتمنى ، وأنه يجب عليه أن ينظر إلى الجارية أو الزوجة التى تحت أبيه نظرته إلى أمه ، حين ينظر إليها هذه النظرة تمتنع نزعات الشيطان .

فيقول الحق : « ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم » والنكاح هنا يُطلق فينصرف إلى الوطء والدخول ، وقد ينصرف إلى العقد ، إلا أن انصرافه إلى الوطء والدخول ـ أى العملية الجنسية ـ هو الشائع والأَوْلى ، لأن الله حينما يقول : « الزانى لا ينكح إلا زانية » معناها أنه ينكح دون عقد وأن تتم العملية الجنسية دون زواج .

والحق هنا يقول : « ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلا ما قد سلف » فما هو السلف هذا ؟ إن ما سلف كان موجوداً ، أى جاء الإسلام فوجد ذلك الأمر متبعاً ، وجاء الإسلام بتحريم مثل هذا الأمر . فالزمن الجديد بعد الإسلام لا يحل أن يحدث فيه ذلك وإن كان عقد النكاح قد حدث قبل الإسلام ، ولذلك قال ـ سبحانه ـ : « إلا ما قد سلف » فجاء بـ(ما) وهى راجعة للزمن . كأن الزمن الجديد لا يوجد فيه هذا .

هب أن واحداً قد تزوج بامرأة أبيه ثم جاء الحكم . . أيقول سلف أن تزوّجتها قبل الحكم ! نقول : لا الزمن انتهى ، إذن فقوله : « ما قد سلف » يعنى الزمن ، وما دام الزمن انتهى يكون الزمن الجديد ليس فيه شيء من مثل تلك الأمور . لذا جاءت (ما) ولو جاءت (مَن) بدل (ما) لكان الحكم أن ما نكحت قبل الإسلام تبقى معه ، لكنه قال (إلا ما قد سلف) فلا يصح فى المستقبل أن يوجد منه شيء البتة ويجب التفريق بين الزوجين فيما كان قائما من هذا الزواج .

والحق سبحانه وتعالى يريد أن يبين لنا أنه حين يشرِّع فهو يشرع ما تقتضيه الفطرة

السليمة . فلم يقل : إنكم إن فعلتم ذلك يكون فاحشة ، بل إنه برغم وجوده من قديم كان فاحشة وكان فعلاً قبيحاً « إنه كان فاحشة ومقتاً وساء سبيلاً » وما كان يصح بالفطرة أن تكون هذه المسألة على تلك الصورة ، إلا أنّ الناس عندما فسدت فطرتهم لجأوا إلى أن يتزوج الرجل امرأة أبيه ، ولذلك إذا استقرأت التاريخ القديم وجدت أن كل رجل تزوج من امرأة أبيه كان يُسمَّى عندهم نكاح « المقت » والولد الذى ينشأ يسمُّونه « المقى » أى المكروه .

إذن فقوله : « إنه كان » اى قبل أن أحكم أنا هذا الحكم « كان فاحشة ومقتاً وساء سبيلاً » . فالله يوضح : إننى أشرع لكم ما تقتضيه الفطرة . والفطرة قد تنطمس فى بعض الأمور ، وقد لا تنطمس فى البعض الآخر لأن بعض الأمور فاقعة وظاهرة والتحريم فيها يتم بالفطرة .

مثال ذلك : أن واحداً ما تزوج أمه قبل ذلك ، أو تزوج ابنته ، أو تزوج أخته . إذن ففيه أشياء حتى فى الجاهلية ما اجترأ أحدٌ عليها . إذن جاء بالحكم الذى يحرم ما اجترأت عليه الجاهلية وتجاوزت وتخطت فيه الفطرة ، فقال سبحانه : « ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلا ما قد سلف » أى مضى .

لقد وصف سبحانه نجاح الأبناء لزوجات آبائهم بأنه « كان فاحشة » أى قبحاً ، و« مقتاً » أى مكروهاً ، « وساء سبيلاً » أى فى بناء الأسرة .

ثم شرع الحق سبحانه وتعالى يبين لنا المحرمات وإن كانت الجاهلية قد اتفقت فيها ، إلا أن الله حين يشرع حكماً كانت الجاهلية سائرة فيه لا يشرعه لأن الجاهلية فعلته ، لا . هو يشرعه لأن الفطرة تقتضيه ، وكون الجاهلية لم تفعله ، فهذا دليل على أنها فطرة لم تستطع الجاهلية أن تغيرها ، فقال الحق سبحانه وتعالى :

﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ

وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ
وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ
وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ
وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن
نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟
دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ
أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن
تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ
إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾

من الذى يحلل ويحرم ؟ إنه الله ، فهم رغم جاهليتهم وغفلتهم عن الدين حرموا زواج المحارم ؛ فحتى الذى لم يتدين بدين الإسلام توجد عنده محرمات لا يقربها . أى أنهم قد حرموا الأم والبنت والأخت . . إلخ ، من أين جاءتهم هذه ؟ الحق يوضح :

﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾

(من الآية ٢٤ سورة فاطر)

ومنهج السماء أنزله الله من قديم بدليل قوله :

﴿ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ ﴾

(سورة طه)

فبمجرد أن خلق الله آدم وخلق زوجته ، أنزل لهما المنهج ، هذا المنهج مستوفى الأركان ، إذن فبقاء الأشياء التى جاء الإسلام فوجدها على الحكم الذى يريده الإسلام إنما نشأ من رواسب الديانات القديمة ، وإن أخذ محل العادة ومحل الفطرة . . أى أن الناس اعتادوه وفطروا عليه ولم يخطر ببالهم أن الله شرعه فى ديانات سابقة .

والعلوم الحديثة أعانتنا فى فهم كثير من أحكام الله ، لأنهم وجدوا أن كل تكاثر سواء أكان فى النبات أم فى الحيوان أم فى الإنسان أيضاً ، كلما ابتعد النوعان « الذكورة والأنوثة » فالنسل يجىء قوياً فى الصفات . أما إذا كان الزوج والزوجة أو الذكر والأنثى من أى شىء : فى النبات ، فى الحيوان ، فى الإنسان قريبين من اتصال البنية الدموية والجنسية فالنسل ينشأ ضعيفاً ، ولذلك يقولون فى الزراعة والحيوان : « نهجن » أى نأتى للأنوثة بذكورة من بعيد . والنبى عليه الصلاة والسلام يقول لنا :

(اغتربوا لا تضْوُوا) وقال : « لا تنكحوا القرابة القريبة فإن الولد يخلق ضاويا »[1]

فالرسول يأمرنا حين نريد الزواج ألا نأخذ الأقارب ، بل علينا الابتعاد ، لأننا إن أخذنا الأقارب فالنسل يجىء هزيلا . وبالاستقراء وجد أن العائلات التى جعلت من سنتها فى الحياة ألا تنكح إلا منها ، فبعد فترة ينشأ فيها ضعف عقلى ؛ أو ضعف جنسى ؛ أو ضعف مناعى ، فقول رسول الله : « اغتربوا لا تضووا »أى إن أردتم الزواج فلا تأخذوا من الأقارب ، لأنكم إن أخذتم من الأقارب تهزلوا ، فإن « ضوِى » بمعنى « هزل » فإن أردتم ألا تضووا ، أى ألا تهزلوا فابتعدوا ، وقبلما يقول النبى هذا الكلام وجد بالاستقراء فى البيئة الجاهلية هذا . ولذلك يقول الشاعر الجاهلى :

أنصح من كان بعيد الهم

---

(١) رواه إبراهيم الحربى مرفوعا إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، ورواه موقوفا على عمر ، وقد روى براهيم الحربى فى غريب الحديث عن عمر رضى الله عنه قال : (يا بنى السائب قد أضويتم فانكحوا فى الغرائب) من كتاب إحياء علوم الدين للإمام الغزالى) .

تزويج أبناءِ بنات العم
فليس ينجو من ضَوًى وسُقْم

فقد يضوى سليل الأقارب ، وعندنا فى الأحياء الشعبية عندما يمدحون واحداً يقولون : « فتوة » أى فتى لم تلده بنت عم قريبة . وفى النبات يقولون : إن كنت تزرع ذرة فى محافظة الغربية لابد أن تأتى بالتقاوى من محافظة الشرقية مثلا ، وكذلك فى البطيخ الشيليان . يأتون ببذوره من أمريكا ؛ فيزرعونها فيخرج البطيخ جميلاً لذيذا ، بعض الناس قد يرفض شراء مثل تلك البذور لغلو ثمنها . فيأخذ من بذور ما زرع ويجعل منه التقاوى ، ويخرج المحصول ضعيفاً . لكن لو ظل يأتى به من الخارج وإن وصل ثمن الكيلو مبلغاً كبيراً فهو يأخذ محصولاً طيباً .

وكذلك فى الحيوانات وكذلك فينا ؛ ولذلك كان العربى يقول : ما دكَّ رءوس الأبطال كابن الأعجمية ؛ لأنه جاء من جنس آخر . أى أن هذا الرجل البطل أخذ الخصائص الكاملة فى جنس آخر . فلقاح الخصائص الكاملة بالخصائص الكاملة يعطى الخصائص الأكمل ، إذن فتحريم الحق سبحانه وتعالى زواج الأم والأخت وكافة المحارم وإن كانت عملية أدبية إلا أنها أيضاً عملية عضوية . « حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم » لماذا ؟ لأن هذه الصلة صلة أصل ، والصلة الأخرى صلة فرع ، الأمهات صلة الأصل ، والبنات صلة الفرع ، « وأخواتكم » وهى صلة الأخ بأخته إنّها بنوة من والد واحد ، « وعماتكم وخالاتكم وبنات الأخ وبنات الأخت وأمهاتكم اللاتى أرضعنكم وأخواتكم من الرضاعة » .

إذن فالمسألة مشتبكة فى القرابة القريبة . والله يريد قوة النسل ، قوة الإنجاب ، ويريد أمرا آخر هو : أن العلاقة الزوجية دائما عرضة للأغيار النفسية ، فالرجل يتزوج المرأة وبعد ذلك تأتى أغيار نفسية ويحدث بينهما خلاف مثلما قلنا فى قوله تعالى : « وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج » ؛ ويكره منها كذا وكذا ، فكيف تكون العلاقة بين الأم وابنها إذا ما حدث شىء من هذا ؟! والمفروض أن لها صلة تحتم عليه أن يظل على وفاء لها ، وكذلك الأمر بالنسبة للبنت ، أو الأخت ، أو العمة ، أو الخالة ، فيأمر الحق الرجل : ابتعد بهذه المسألة عن مجال الشقاق .

ومن حسن العقل وبعد النظر ألا ندخل المقابلات فى الزواج ، أو ما يسمى « بزواج البدل » ، حيث يتبادل رجلان الزواج ، يتزوج كل منهما أخت الآخر مثلا ، فإذا حدث الخلاف فى شيء حدث ضرورة فى مقابله وإن كان الوفاق سائداً . فحسن الفطنة يقول لك : إياك أن تزوج أختك لواحد لأنك ستأخذ أخته ، فقد تتفق زوجة مع زوجها ، لكن أخته قد لا تتوافق مع زوجها الذى هو شقيق للأخرى . وتصوروا ماذا يكون إحساس الأم حين ترى الغريبة مرتاحة عند ابنها لكن ابنتها تعانى ولا تجد الراحة فى بيت زوجها . ماذا يكون الموقف ؟ نكون قد وسعنا دائرة الشقاق والنفاق عند من لا يصح أن يوجد فيه شقاق ولا نفاق .

والحكمة الإلهية ليست فى مسألة واحدة ، بل الحكمة الإلهية شاملة ، تأخذ كل هذه المسائل ، « حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم » والمحرم هنا بطبيعة الحال هن الأمهات وإن علون ، فالتحريم يشمل الجدة سواء كانت جدة من جهة الأب ، أو جدة من جهة الأم . وما ينشأ منها . وكل واحدة تكون زوجة لرجل فأمها محرمة عليه ، « وبناتكم » وبنات الابن وكل ما ينشأ منها ، وكذلك بنات البنت ، « وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم وبنات الأخ وبنات الأخت وأمهاتكم اللاتى أرضعنكم » .

ولماذا يحرم الحق « أمهاتكم اللاتى أرضعنكم » ؟ لأنها بالإرضاع أسهمت فى تكوين خلايا فيمن أرضعته ؟ ففيه بَضْعَة منها ، ولهذه البَضْعَة حُرمة الأمومة ، ولذلك قال العلماء : يحرم زواج الرجل بامرأة جمعه معها رضاعة يغلب على الظن أنها تُنشيء خلايا ، وحلل البعض زواج من رضع الرجل منها مصة أو مصتين مثلا ، إلا أن أبا حنيفة رأى تحريم أى امرأة رضع منها الرجل ، وأفتى المحققون وقالوا : لا تحرم المرأة إلا أن تكون قد أرضعت الرجل ، أو رضع الرجل معها خمس رضعات مشبعات ، أو يرضع من المرأة يوما وليلة ويكتفى بها ، وأن يكون ذلك فى مدة الرضاع . وهى بنص القرآن سنتان . « والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين » .

وهذه المسألة حدث الكلام فيها بين سيدنا الإمام على ـ رضوان الله عليه وكرم الله

وجهه ـ وسيدنا عثمان ـ رضى الله عنه ـ حينما جاءوا بامرأة ولدت لستة شهور وكان الحمل الشائع يمكث تسعة أشهر ، وأحيانا نادرة يولد الطفل بعد سبعة أشهر ، لكن أن تلد امرأة بعد ستة شهور فهذا أمر غير متوقع . . ولذلك أراد عثمان ـ رضى الله عنه ـ أن يقيم الحد عليها ؛ لأنها مادام ولدت لستة أشهر تكون خاطئة ، لكنْ سيدنا على ـ رضوان الله عليه وكرم الله وجهه ـ أدرك المسألة .

قال : يا أمير المؤمنين ، لماذا تقيم عليها الحد ؟ فقال عثمان بن عفان : لأنها ولدت لستة أشهر وهذا لا يكون . وأجرى الله فتوحاته على سيدنا على ، وأجرى النصوص على خياله ساعة الفتيا ، وهذا هو الفتح ، فقد يوجد النص فى القرآن لكن النفس لا تنتبه له ، وقد تكون المسألة ليست من نص واحد . بل من اجتماع نصين أو أكثر ، ومن الذى يأتى فى خاطره ساعة الفتيا أن يطوف بكتاب الله ويأتى بالنص الذى يسعفه ويساعده على الفتيا ، إنه الإمام على ، وقال لسيدنا عثمان : الله يقول غير ذلك ، قال له : وماذا قال الله فى هذا ؟ قال :

﴿ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ﴾

(من الآية ٢٣٣ سورة البقرة)

إذن فإتمام الرضاعة يكون فى حولين كاملين أى فى أربعة وعشرين شهرا ، ـ والتاريخ محسوب بالتوقيت العربى ـ والحق سبحانه قال أيضا :

﴿ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ﴾

(من الآية ١٥ سورة الأحقاف)

فإذا كان مجموع أشهر الحمل والرضاع ، ثلاثين شهرا ، والرضاع التام أربعة وعشرون شهرا ، إذن فمدة الحمل تساوى ستة أشهر .

هكذا استنبط سيدنا على ـ رضى الله عنه وكرم الله وجهه ـ والإنسان قد يعرف آية وتغيب عنه آيات ، والله لم يختص زمنا معينا بحسن الفتيا وحرم الأزمنة الأخرى ، وإنما فيوضات الله تكون لكل الأزمان ، فقد يقول قائل : لا يوجد فى المسلمين من يصل بعمله إلى مرتبة الصحابة ، ومن يقول ذلك ينسى ما قاله الحق فى سورة الواقعة :

﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝١٠ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝١١ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝١٢ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٣ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ۝١٤ ﴾

(سورة الواقعة)

أى أن الآخرين أيضا لن يحرموا من أن يكون فيهم مقربون قادرون على استيعاب النصوص لاستنباط الحكم ، إذن فالرضاع : مصة أو مصتان ؛ هذا مذهب ، وعشر رضعات مذهب آخر ، وخمس رضعات مشبعات مذهب ثالث ، وأخذ جمهور الفقهاء بالمتوسط وهو خمس رضعات مشبعات تحرمن الزواج ، لكن بشرط أن تكون فى مدة الرضاع ، فلو رضع فى غير مدة الرضاعة ، نقول : إنه استغنى بالأكل وأصبح الأكل هو الذى يعطيه مقومات البنية .

إذن فمسألة الرضاع متشعبة ؛ لأن النبى عليه الصلاة والسلام قال : « يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب »[1] .

والمحرم من الرضاع هو : الأم من الرضاع ، والبنت من الرضاع ، والأخت من الرضاع ، والعمة من الرضاع ، والخالة من الرضاع ، وهكذا نرى أنها عملية متشعبة تحتاج من كل أسرة إلى اليقظة ، لأننا حين نرى أن بركة الله لا تحوم حول كثير من البيوت لا بد أن ندرك لها أسبابا ، أسباب البعد عن استقبال البركة من الله . . فالإرسال الإلهى مستمر ، ونحن نريد أجهزة استقبال حساسة تحسن الاستقبال ، فإذا كانت أجهزة الاستقبال خربة ، والإرسال مستمراً فلن يستفيد أحد من الإرسال ، وهب أن محطة الإذاعة تذيع ، لكن المذياع خرب ، فكيف يصل الإرسال للناس ؟

إذن فمدد الله وبركات الله المتنزلة موجودة دائما . . ويوجد أناس لا يأخذون هذه البركات ؛ لأن أجهزة استقبالها ليست سليمة ، وأول جهاز لاستقبال البركة أن البيت يبنى على حل فى كل شىء . . يعنى : لقاء الزوج والزوجة على حل ، وكثير من

(١) رواه أحمد والبخارى ومسلم وأبو داود والنسائى وابن ماجه عن عائشة .

الناس يدخلون فى الحرمة وإن لم يكن بقصد ، وهذا ناشىء من الهوس والاختلاط والفوضى فى شأن الرضاعة ، والناس يرضعون أبناءهم هكذا دون ضابط وليس الحكم فى بالهم . وبعد ذلك نقول لهم : يا قوم أنتم احتطتم لأولادكم فيما يؤدى إلى سلامة بنيتهم ، فكان لكل ولد ملف فيه : شهادة الميلاد ، وفيه ميعاد تلقى التطعيمات ضد الدفتريا ، وشلل الأطفال وغير ذلك .

فلماذا يا أسرة الإسلام لا تضعون ورقة فى هذا الملف لتضمنوا سلامة أسركم ، ويكتب فى تلك الورقة من الذى أرضع الطفل غير أمه ، وساعة يأتى للزواج نقول : يا موثق هذا ملفه إنه رضع من فلانة ، فى هذا الملف تُدْرج أسماء النساء اللاتى رضع منهن . . فنبنى بذلك أسرة جديدة على أسس إيمانية سليمة ، بدلا من أن نفاجىء رجلا تزوج امرأة ، وعاشا معا وأنجبا وبعد ذلك يتبين أنهما رضعا معا ، وبذلك تصير المسألة إلى إشكال شرعى وإشكال مدنى وإشكال اجتماعى ناشىء من أن الناس لم تُعد لمنهجها الإيمانى ما أعدته لمنهجها المادى .

إذن فلا بد من التزام كل أسرة أن تأتى فى ملف ابنها أو بنتها وتضع ورقة فيها أسماء من رضع منهن المولود . وعلى كل حال لم تعد هناك الآن ضرورة أن نأتى بمرضعة للأولاد ، فاللبن الجاف من الحيوانات يكفى ويؤدى المهمة ، وصرنا لا ندخل فى المتاهة التى قد تؤدى بنا فى المستقبل إلى أن الإنسان يتزوج أخته من الرضاعة أو أمه من الرضاعة ، أو أى شىء من ذلك ، وبعد ذلك تمتنع بركة الله من أن تمتد إلى هذه الأسرة . « حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم وبنات الأخ وبنات الأخت وأمهاتكم اللاتى أرضعنكم وأخواتكم من الرضاعة » . ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب »[1] .

وجاء القرآن بالأمور البارزة فيها فقط ، « وأمهات نسائكم » فإذا تزوج رجل من امرأة ولها أم ، بالله أيتزوج أمها أيضا ؟ إنها عملية غير مقبولة ، « وربائبكم اللاتى فى حجوركم من نسائكم اللاتى دخلتم بهن » . الربيبة هى بنت المرأة من غير زوجها ، فقد يتزوج رجل من امرأة كانت متزوجة من قبل وترملت أو طلقت بعد أن ولدت

(١) رواه أحمد والبخارى ومسلم وأبو داود والنسائى وابن ماجه عن عائشة .

بنتا . هذه البنت يسمونها « ربيبة » وزوج الأم الجديد سيُدخلها فى حمايته وفى تربيته ، وبذلك تأخذ مرتبة البنوة . والأمر هنا مشروط : « من نسائكم اللاتى دخلتم بهن فإن لم تكونوا قد دخلتم بهن فلا جناح عليكم » فمادام الرجل قد عقد على المرأة ولم يدخل بها تكون بنتها غير محرمة . أما العقد على البنت حتى دون دخول فإنه يحرم الأمهات .

« وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم » أى زوجة الابن ، وكلمة « من أصلابكم » تدل على أنه كان يطلق لفظ « الأبناء » على أناس ليسوا من الأصلاب ، وإلا لو أن كلمة « الأبناء » اقتصرت فى الاستعمال على أولاد الإنسان من صلبه ، لما قال : « أبنائكم الذين من أصلابكم » .

إذن كان يوجد فى البيئة الجاهلية أبناء ليسوا من الأصلاب هم أبناء التبنى ، وكانت هذه المسألة شائعة عند العرب ، فكان الرجل يتبنى طفلا ويلحقه بنسبه ويطلق عليه اسمه ويرثه . وجاء الإسلام ليقول : لا ، لا يصح أن تنسب لنفسك من لم تنجبه ، لأنه سيدخل فى مسألة أخوة لابنتك مثلا ، وسيدخل على محارمك ، ولذلك أنهى الله هذه المسألة ، وجاء هذا الإنهاء على يد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد كانت المسألة متأصلة عند العرب .

ونعلم أن زيد بن حارثة خُطف من أهله ، وبعد ذلك بيع على أنه رقيق ، واشتراه حكيم بن حزام . وأخذته سيدتنا خديجة وبعد ذلك وهبته لسيدنا رسول الله . وصار زيد بن حارثة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعندما علم أهل زيد أن ولدهم الذى خُطف قديما موجود فى مكة جاءوا إليها ، فرأوا زيد بن حارثة ، ولما سألوه أن يعود معهم قال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنا أخيره بين أن يذهب معكم أو أن يبقى معى ، انظروا إلى زيد بن حارثة كيف صنع به إيمانه وحبه لسيدنا رسول الله : قال : ما كنت لأختار على رسول الله أحداً . وظل مع سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأراد الرسول أن يكرمه على العادة التى كانت شائعة فسماه « زيد بن محمد » وتبناه .

إذن فالمسألة وصلت إلى بيت النبوة ، التبنى وصل بيت رسول الله صلى الله عليه

وسلم ، وأراد الله أن ينهى هذه المسألة فقال سبحانه :

﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ ﴾

(من الآية ٤٠ سورة الأحزاب)

هذا يدل على أن صرامة التشريع لا تجامل أحداً حتى ولا محمدا بن عبدالله وهو رسول ، « ما كان محمد أبا أحد من رجالكم » .

وبعض الناس الذين يتسقطون للقرآن يقولون : إن رسول الله كان عنده إبراهيم وكان عنده الطيب وكان عنده القاسم ، ونقول : أكان هؤلاء رجالا ؟! لقد ماتوا أطفالا ، والكلام « ما كان محمد أبا أحد من رجالكم » ، وهب أنهم كبروا وصاروا رجالا ، أقال من رجالكم أم من رجاله ؟ قال : « ما كان محمد أبا أحد من رجالكم » أى لا يمنع أن يكون أبا أحد من رجاله ، هو ابو القاسم وأبو الطيب وأبو إبراهيم هم أولاده فافهموا القول .

وهذه المسألة أخذت ضجة عند خصوم الاسلام والمستشرقين والحق سبحانه وتعالى وإن كان قد عدل لرسوله صلى الله عليه وسلم ، فتعديل الله لرسوله يشرف رسوله صلى الله عليه وسلم ؛ لأن من الذى يعدل لمحمد ؟ إنه الله الذى أرسله .

ويقول : « وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم » . ومفهوم هذه العبارة أن المحرمة إنما هى حليلة الابن من الصلب . وقوله : « من أصلابكم » يدل على أنه كان هناك أبناء ليسوا من الصلب ، إذن فالتبنى كان موجوداً قبل نزول هذا الحكم ، وأراد الله أن يبطل عادة التبنى ، وكانت متغلغلة فى الأمة العربية ، فأبطلها على يد سيدنا رسول الله ، لا مشرعا ينقل حكم الله فحسب ، ولكن مطبقا يطبق حكم الله فى ذاته وفى نفسه حتى يأخذ الحكم قداسته ، ويجب أن نفطن إلى أن فكرة التبنى كانت فى ذاتها تهدف إلى أن ولدا نجيبا يلحقه رجل به ليعطيه كل حقوق أولاده كلون من التكريم .

ولذلك علينا أن نلحظ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تصرف بالكمال البشرى

فى إطار العدل البشرى ، والعدل هو : القسط ، وساعة تبنى زيد بن حارثة وسماه زيد بن محمد إنما كان يهدف إلى أن يعوضه والده ، لأن زيداً اختار رسول الله على أبيه ، إذن فكان ذلك التبنى من رسول الله كمالا وعدلا بشريا بالنسبة للوفاء لواحد آثر اختياره على اختيار أهله فإذا أراد الله أن يصوب فيكون كمالا إلهيا وعدلا إلهيا ، فلا غضاضة عند أحد أن يُصوِّب الكمال البشرى بالكمال الإلهى ، ولا أن يصوب العدل البشرى والقسط البشرى بالعدل الإلهى والقسط الإلهى ، وأنزل الله وهو أحكم القائلين هذا الحكم بعبارة تعطى ذلك كله :

﴿ ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾

(من الآية ٥ سورة الأحزاب)

أى إن دعاءهم لآبائهم « اقسط عند الله » . وكلمة : « أقسط » إياكم أن تكونوا بعدتم ونأيتم بها عن « عظيم » و« أعظم » ، إنك ساعة تأتى بصيغة التفضيل يكون المقابل لها وصفا من جنسها ، فـ « أعظم » المقابل لها « عظيم » ، و« أقسط » المقابل لها « قِسْط » ، فما فعله رسول الله هو قِسْطٌ وعدل ، ولكن ما عدله الله اقسط مما صنعه رسول الله . إذن فيجب أن نفطن إلى أن الكمال البشرى والعدل البشرى شىء ، والكمال الإلهى والعدل الإلهى شىء آخر . ومن نقله الله من عدل بشريته إلى عدل ألوهيته يكون قد تلقى نعمة كبرى .

وإذا ما حاول المستشرقون أن يأخذوا هذه المسألة على أن ربنا عدل له ويحاولوا أن يلصقوا برسول الله صلى الله عليه وسلم خطأ ما ، نقول لهم : أنتم لا تحسنون تقدير الأمر ولا تفهمون المراد من ذلك ، فالذى صوب هو الله الذى أرسله ، وقد صوب له فعلا فعله فى إطار البشرية ، وقال الحق : « هو أقسط عند الله » ومن الذى يجعل البشر متساوين مع الله فى القسط والعدل والكمال ؟

إن هناك قصة طار بها المستشرقون فرحا وكذلك يروجها خصوم الإسلام من أبناء الإسلام ؛ لأن من مصلحة خصوم الإسلام ، وكذلك الذين لا يحملون من الإسلام إلا اسمه ؛ يروجون أن هذا الدين يحتوى على أكاذيب ـ والعياذ بالله ـ فمادام الواحد منهم لا يقدر أن يحمل نفسه على منهج الدين لا يكون له مندوحة ولا نجاة إلا أن يقول :

هذا الدين غير صحيح ؛ لأن هذا الدين إن كان صحيحا فسوف يهلك هو ومن على شاكلته ، فيكذبون أنفسهم وينكرون على الدين أملاً فى النجاة فى ظنهم إذ لا منجى ولا أمل لهؤلاء إلا أن يكون الدين كذبا كله .

لننظر إلى القصة التى طار بها المستشرقون فرحا : النبى صلى الله عليه وسلم هو محمد بن عبدالله بن عبدالمطلب ، وكان عبدالمطلب له بنت اسمها : أميمة بنت عبدالمطلب ، وهى بذلك تكون أختا لعبدالله بن عبدالمطلب . وأنجبت أميمة بنتا اسمها « برّة » ، وغير النبى صلى الله عليه وسلم اسمها ، لأنه صلوات الله وسلامه عليه كان له ملحظ فى الأسماء ، اسمها « برّة » . والاسم جميل لأنه من البر وهو صفة تجمع كل خصال الخير ، لكن رسول الله كره أن يقال فيما بعد : خرج رسول الله من عند « برّة » ، فسماها « زينب » .

« برّة » هذه هى بنت أميمة فهى ابنة عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم . وزيد ابن حارثة ـ كما قلنا ـ كان طفلا ثم خُطف وَسُرِق ، وبيع وانصرف إلى ملكية رسول الله ، وبعد ذلك أراد رسول الله أن يكرمه على ما يقتضيه كماله البشرى وعدله البشرى فسماه « زيد بن محمد » .

وعندما أراد زيد بن محمد أن يتزوج . . زوّجه رسول الله من « برة » على مضض منها ، لأنه مَوْلى ، وهى بنت سيد قريش . وكان ملحظ الرسول صلى الله عليه وسلم أنه يريد أن يجعل من المسلمين مزيجا واحداً ، فلا فرق بين مَوْلى وسيد ، وزوّج بنت عمته لزيد ، وبعد الزواج لم ينشأ بينهما ودّ ، وكل هذه تمهيدات الأقدار للأقدار .

- بالله لو أنها كانت أخذته عن حب وكان بينهما وئام ، وبعد ذلك أراد الله أن يشرّع فهل يشرع على حساب قلبين متعاطفين متحابين ليمزقهما ؟ لا ، المسألة ـ إذن ـ تمهيد من أولها ، فلم تكن لها رغبة فيه . وعندما يجد الرجل أن المرأة ليس لها رغبة فيه ، تهيج كرامته ، وخصوصا أنه صار ابنا بالتبنى لرسول الله ، ويكون رفضُ امرأةٍ له مسألةً ليست هينة ، وتصعب عليه نفسه ، فيأتى لرسول الله شاكيا ، وقال له : لم

تعجبنى معاشرة « برّة » وأريد أن أفارقها ، وكان ذلك تمهيداً من الله سبحانه لأنه يريد أن ينهى مسألة التبنى ، فقد كانوا فى الجاهلية يحرمون أن يتزوج الرجل امرأة ابنه المتبنى ، ولذلك يقول الحق :

﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ ﴾

(من الآية ٣٧ سورة الأحزاب)

ومادام يقول له : « أمسك عليك زوجك » فالكلام إذن قد جاء معبرًا عن رغبة زيد فى أن يفارقها ، لكن خصوم الإسلام وأبواقهم من المسلمين يقولون فى قوله : « وتخفى فى نفسك » إن محمدا كان معجبا بالمرأة ويريد أن يتزوجها ، ويخفى هذه الحكاية .

نقول لهم : كونوا منطقيين وافهموا النص ، فربنا يقول : « وتخفى فى نفسك » ، أنتم أخذتم منها أن النبى كان يريد أن يتزوجها . والحق قال : « وتخفى فى نفسك ما الله مبديه » . فإذا كنت تريد أن تعرف ما أخفاه رسول الله ، فاعرف ما أبداه الله ، هذه هى عدالة الاستقبال ، وبدلا من أن تقول هذا الكلام كى تشفى مرض نفسك انظر كيف أعطاك ربنا من تفاصيل الحكاية . قال سبحانه : « وتخفى فى نفسك ما الله مبديه » فماذا أبدى ربنا ؟ وحين يبدى ربنا أمرًا يكون هو عين ما أخفاه رسوله ، فلما ذهب زيد للنبى وقال له : أريد أن أفارق « برّة » قال له : « أمسك عليك زوجك » لأن رسول الله عَلِم مِنَ الله أنه يريد أن يزوجه « برة » التى هى امرأة زيد الذى تبناه كى ينهى مسألة التبنى ، وأن امرأة المتبنى لا تحرم على الرجل ، ويطبقها رسول الله صلى الله عليه وسلم على نفسه .

راجع أصله وخرج أحاديثه الدكتور أحمد عمر هاشم نائب رئيس جامعة الأزهر .

لكنْ هناك أناس مازال عندهم مرض فى قلوبهم ، وأناس منافقون ، والرسول عليه الصلاة والسلام أراد أن يكون هذا الأمر واردا من الله فى قرآنه . فلو كان قد قال هذا الأمر بمجرد الإيحاء الذى جعله الله بينه وبينه لقالوا : هذا كلام منه هو ؛ لذلك قال محمد صلى الله عليه وسلم لزيد : أمسك عليك زوجك ، فينزل ربنا الأمر كله قرآنا ، فلم يقل محمد : ألهمنى ربنا ، أو ألقى فى رُوعى ، لا ، جاء هذا الأمر قرآنا ، ولذلك يقدم الحق سبحانه وتعالى لهذه المسألة فى سورة الأحزاب فيقول :

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ ﴾

(سورة الأحزاب)

فالله أنعم على زيد بالإسلام وأنعمت أنت يا رسول الله عليه بالتبنى فلا تخش الناس أن يقولوا : طلق المرأة من زيد ليتزوجها . كأن زواج « زيد » من « زينب » ، كان لغاية واحدة وهى أن تكون « برة » التى سماها رسول الله « زينب » منكوحة لزيد الذى تبناه رسول الله بدليل : « فلما قضى زيد منها وطرا » أى أدى المهمة ، فأردنا أن نعطى الحكم : « زوّجنا » فمن الذى زوّج ؟ إنه الله ، وليس رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذى تزوج .

فإن كنتم تريدون أن تصعدوا المسألة فاتركوا رسول الله فى حاله ، وصعدوها إلى ربنا ، فقوله سبحانه : « فلما قضى زيد منها وطرا » يدل على أن أصل الزواج من البداية ممهد له ، فالغاية منه أن يقضى زيد منها وطرا وهو متبنى رسول الله ، ويكون هذا الزواج عن كره منها ، إنها غير موافقة عليه ، وتنتقل المسألة عند زيد إلى عزة

ويقول : لا أريدها . ويذهب إلى الرسول ويقول : أريد أن أطلق « برّة » فيقول له الرسول : « أمسك عليك زوجك واتق الله وتخفى فى نفسك ما الله مبديه » . والذى أبداه الله هو قوله لرسوله : « فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها » كأن الغاية من النكاح أن يقضى زيد منها وطرا وتنتهى الحكاية بالنسبة لزيد ، ويأتى الحكم بالنسبة لرسول الله فيقول ربُنا : « زوجناكها » .

فالذى يريد أن يمسك المسألة لا يمسكها على الرسول ، لكن عليه أن يصعدها إلى ربنا ، « زوجناكها لكيلا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرا » . كأن العملية جاءت من أجل أن ما أبداه ربنا فى زواج الرجل من مطلقة الولد المتبنى إذا قضى منها وطرا ، هذا ما أبداه ربنا ، إن الله حكم بأن الذى أخفاه النبى صلى الله عليه وسلم سيبديه ، إن الوحى هو الذى بيّن السبب الباعث على زواج الرسول بزينب إنه قوله تعالى : « لكى لا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرا » .

فالعلة فى هذه العملية : يا ناس ، يا محمد ، يا زيد ، يا زينب ، أو يا من يحب أن يرجف ، العلة فى كل ذلك علة إلهية من كمال إلهى وعدل إلهى يتركز فى قوله سبحانه : « لكى لا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرا وكان أمر الله مفعولا » ، والأدعياء : هم الذين يتبنونهم من غير ولادة .

ومادام ربنا يريد أمرا فلا بد أن يفعل ، وأنتم آمنتم بأنه رسول ، وإن لم تؤمنوا بأنه رسول يكون تكذيبكم برسالته أكبر من أنكم تنقدون تصرفه ، فإن كنتم مكذبين أنه رسول ، فما شأنكم إذن ؟ إن تكذيبكم له كرسول هو أشد من أن تنقدوا تصرفا من تصرفاته بأنه تزوج ممن كانت امرأة ابنه المتبنى . وإن آمنتم بأنه رسول ، فهذا الرسول مبلغ عن الله .

إذن ففعل الرسول المبلغ عن الله هو الميزان للأعمال لا ما تنصبونه أنتم من موازين . أتقولون للرسول الذى أرسله ربنا كى يبلغ منهجه ويطبق هذا المنهج ويكون هو ميزانا للتصرفات ، تقولون له : سنأخذ تصرفاتك ونعيدها على الميزان

الذى نضعه ؟ ما كان يصح أن يفعل أحد هذا ، فإن قلت ذلك فقد عملت الميزان من عندك ، ونقلت الأمر إلى غير الحق ، وهذا أول خطأ ؛ فالأصل فى الرسول أن كل فعل له هو الكمال ، ولا تأتى أنت بميزان الكمال وتأتى للرسول وتقول له : كيف فعلت هذه العملية ؟ لأنك عندما تقول ذلك فقد نصبت ميزان كمال من عندك ، وتأخذ تصرف الرسول لتزنه بميزان الكمال من عندك ، وهذا مناقض للحق لأنك آمنت بأنه رسول .

ويعد ذلك يأتى بالقضية العامة ليقول سبحانه :

﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾ ﴾

(سورة الأحزاب)

وكلمة « أبا أحد » أى لم يكن أباً لأحد ، ماذا تفهم منها ؟ نفهم منها أنه أبوكم كلكم ، « ما كان محمد أبا أحد » لأنه أبو الجميع ، بدليل أن أزواجه أمهاتكم ، ومحرمات عليكم ، فهو إذن والدكم كلكم ؛ إذن فخذ بالك من دقة الأداء « ما كان محمد أبا أحد من رجالكم » وبمنطق الواقع هو أب لكم كلكم ؛ لذلك هو لا يأخذ واحداً فقط ويقول : هذا ابنى ، لا ، هو أب لكم كلكم . وكل المؤمنين أولاده بدليل أن أزواجه أمهات لهم ، قد يقول واحد : لقد كان عنده أبناء .

نقول له : إن أبناءه لم يبلغوا سن الرجولة ، وهب أنهم بلغوا سن الرجولة حتى باعتبار ما سيكون . فهؤلاء ليسوا رجالكم ولكنهم رجاله . « ولكن رسول الله وخاتم النبيين » والرسالة وختم النبوة به فوق شرف الأبوة . وجاء الحق بذلك حتى لا يحزن زيد ، فرسول الله قد شرفه ، وإن شرفك يا زيد أنك كنت تدعى ابن محمد ، فما يشرفك أكثر أنك مؤمن بمحمد كرسول ، فالعظمة فى محمد صلى الله عليه وسلم أنه جاء رسولاً .

ولذلك قلنا : إن هذه جعلت بنوة الدم بلا قيمة عند الأنبياء ، ونجد أن النبى جاء بسلمان وهو من فارس وليس من قبيلته ولا هو بعربى وقال :

(سلمان منا آل البيت)[1]

وقول الحق : « ما كان محمد أبا أحد من رجالكم » بمفهوم العبارة ونضحها الذوقى والأدائى والأسلوبى أنه أبوكم كلكم ، فلا ينفرد به أحد دون الآخر ، « ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شيء عليماً » وبعدما كان زيدُ ابنَ محمد ، أصبح زيدا ابن حارثة ، ومحمد هو رسول الله ، ومادمت أنت مؤمنا به ـ يا زيد ـ فرسول الله هذه تعوض إلغاء الأبوة بالتبنى بالنسبة لك ، ثم إنك داخل فى الأبوة العامة من رسول الله للمؤمنين ؛ لأنك آمنت به كرسول ، إذن فعندما نحقق فى هذه العبارة نجد أنه يُسلِّ زيدًا أيضاً . وخير من هذا ـ أنك يا زيد ـ إن فقدت بين الناس اسم زيد ابن محمد ، وكنت تجعل ذلك شرفاً لك ، فأنت الوحيد من صحابة رسول الله الذى يُذكر فى القرآن باسمه الشخصى ، وتصبح كلمة « زيد » قرآنا يُذْكر ويُتلى ، ويتعبد بتلاوته ، ومحفوظا على الألسنة ؛ ومرفوع الذِّكر ، إذن فقد عوضك الله يا زيد ، فقد قال الحق : « فلما قضى زيد منها وطراً » وهب أنه بقى زيد ابن محمد ، فما الذى يحدث ؟ سنقرأها فى السيرة ، لكن يرتفع شرف ذلك عندما نقرأها فى كتاب الله المعجزة المتعبد بتلاوته ، الذى ضمن الله حفظه ، فقد ضمن الله تخليد اسم زيد إلى أن تقوم الساعة ، إذن فذكره كزيد ابن محمد فى حياته أَوْلى أو ذكر زيد فى القرآن ؟ إن ذكر اسمه فى القرآن أولى ، « ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شيء عليماً » .

إذن فقول الحق سبحانه : « وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم » يدل على أن حلائل الأبناء المتبنين حل لكم ، بعد أن كانوا ـ فى الجاهلية ـ يحرمون ذلك ، ويقول الحق من بعد ذلك : « وأن تجمعوا بين الأختين » وتحريم الجمع فى الزواج بين الأختين لأن بينهما رحماً يجب أن تظل معه المودّة والرحمة والصفاء ، لكن إذا كانتا تحت رجل واحد تحدث عداوة ، « وأن تجمعوا بين الأختين إلا ما قد سلف إن الله كان غفوراً رحيماً » وهذا الجزء من الآية « وأن تجمعوا بين الأختين » مع استثناء الحق .

فى قوله : « وأحل لكم ما وراء ذلك » قد حصل فى فهمها والمراد منها خلاف . .

---

(١) رواه الطبرانى فى الكبير ورواه الحاكم فى المستدرك .

ونقول أولا المرأة فى ملك اليمين ليس لها حق قِبَلَ سيدها فى أن يطأها أو يستمتع بها ، فملك اليمين لا يوجب على السيد أن يجعل إماءه أمهات أولاد .

إنّ الأمام عليا ـ رضى الله عنه وكرّم الله وجهه ـ وسيدنا عثمان ـ رضى الله عنه ـ أخذ كل واحد منهما موقفاً ، فسيدنا عثمان سئل عن الأختين مما ملكت اليمين ؟ فقال : « لا آمرك ولا أنهاك أحلتهما آية وحرّمتهما آية » فتوقف رضى الله عنه ولم يفت . أما سيدنا علىّ فقد حرم الجمع فى وطء الأختين بملك اليمين ، أما التملك من غير وطء فهو حلال ، وهذا هو الذى عليه أهل العلم بكتاب الله ولا اعتبار برأى من شذ عن ذلك من أهل الظاهر .

ويتابع الحق : « إلا ما قد سلف إن الله كان غفوراً رحيماً » أى أن هذا الأمر مادام قد سلف قبل أن يشرع الله ، فهو سبحانه من غفرانه ورحمته لم يؤاخذنا بالقانون الرجعى ، فلا تجريم إلا بنص ولا عقوبة إلا بتجريم ، ومادام الحكم لم يأت إلا الآن فيطبق من الآن ولا يصح أن يجمع أحدً أختين تحته فى نكاح أو فى وطء بملك يمين ، ولا يجمع أيضا بينهما فى زواج من إحداهما ووطء بملك يمين لأخرى .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۖ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ ۚ فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٢٤﴾ ﴾

وقول الحق : « والمحصنات من النساء » هو قول معطوف على ما جاء فى الآية السابقة من المحرمات ، أى سيضم إلى المحرمات السابقات المحصنات من النساء ، ومن هن المحصنات من النساء ؟ الأصل فى الاشتقاق عادة يوجد معنى مشتركا . فهذه مأخوذة من « الحصن » ، وهو مكان يتحصن فيه القوم من عدوهم ، فإذا تحصنوا فيه امتنعوا على عدوهم .. أما إذا لم يكونوا محصنين فهم عرضة أن يُغير عليهم عدوهم ويأخذهم ، هذا هو أصل الحصن ، والاشتقاقات التى أخذت من هذه كثيرة : منها ما جاء فى قوله تعالى :

﴿ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا ﴾

(من الآية ١٢ سورة التحريم)

و« أحصنت فرجها » يعنى أنها عفت ومنعت أى إنسان أن يقترب منها ، وهنا قوله : « والمحصنات » فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها ، المقصود بها المتزوجات ، فمادامت المرأة متزوجة ، فيكون بضعها مشغولاً بالغير ، فيمتنع أن يأخذه أحد ، وهى تمتنع عن أى طارىء جديد يفد على عقدها مع زوجها . هذا معنى « المحصنات من النساء » ، فالمحصنات هنا هن العفيفات بالزواج ، والحق يقول :

﴿ فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ ﴾

(من الآية ٢٥ سورة النساء)

فمادامت الإماء قد أحصن بالزواج ، هل يكن من المحصنات كالحرائر ؟ لا ، فهذه غير تلك ، فهن لا يدخلن فى المحصنات من الحرائر ، وإلا لو دخلن فى المحصنات يكون الحكم واحداً ، فهو سبحانه يقول : « فإذا أحصن فإن أتين بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب » ، وأصل الإحصان وهو العفة .. توصف به الحرة ؛ لأن الحرة عادة لا يقربها أحد . وهذه امرأة أبى سفيان فى بيعة النساء قالت : وهل تزنى الحرة؟ كأن الزنا كان خاصا بالإماء ؛ لأنهن المهينات . وليس لهن أب أو أم أو عرض ، قد يجترىء عليها أى واحد ، وليس لها شوكة

ولا أهل ، ولذلك جاء عقابها نصف عقاب الحرة ؛ لأن الأمة يحوم حولها من الناس مَن تسوّل له نفسه فعل الفاحشة .

إذن فالإحصان يُطلق ويراد به العفة ، ويطلق الإحصان ويراد به أن تكون حرة ، ويطلق الإحصان ويقصد به أن تكون متزوجة ، وتُطلق المحصنات على الحرائر . فالوضع العام للحرة هو الذى يجعل لها أهلاً ولا يجترىء عليها أحد ، لكن هَبْ أن امرأة متزوجة ثم حدث خلاف أو حرب بين قومها وبين المؤمنين وصارت أسيرة لدى المسلمين مع أنها متزوجة بطريقتهم فى بلادها ، وهى بالأسر قد انتقلت من هذا الزواج وجاءت فى البيئة الإسلامية وصارت مملوكة ، ومملوكيتها وأَسْرُها أسقطت عنها الإحصان ، فقال : « إلا ما ملكت أيمانكم » .

إذن فهى بملك اليمين يسقط عنها الإحصان ، وللمسلم أن يتزوجها أو أن يستمتع بها إذا دخلت فى ملكه وإن كانت متزوجة لأن هناك اختلافاً فى الدارين ، هى فى دار الإسلام ، وخرجت من دار حرب فصارت ملك يمين ، ولا يكون هذا إلاّ بعد استبرائها والاستيثاق من خلو رحمها من جنين يكون قد جاءت به من قومها لقوله صلى الله عليه وسلم فى سبايا أوطاس : « لا توطأ حامل حتى تضع ، ولا غير ذات حمل حتى تحيض » وهذا تكريم لها لأنها عندما بعدت عن زوجها وصارت مملوكة ملك يمين فلم يرد الحق أن يعضلها بل جعلها تتمتع بسيدها وتعيش فى كنفه كى لا تكون محرومة من التواصل العاطفى والجسدى ، بدلاً من أن يلغ سيدها فى أعراض الناس .

« والمحصنات من النساء إلا ما ملكت أيمانكم كتاب الله عليكم » و« كتاب الله » يعنى : كَتَبَ الله ذلك كتاباً عليكم ، وهو أمر مسجل موثق ، وكما هو كتاب عليكم فهو لكم أيضاً ، ويقول الحق : « وأحل لكم ما وراء ذلكم » . إذن فالمحرمات هن : محرمات نسب ، ومحرمات رضاع ، ومحرمات إحصان بزواج .

« وأحل لكم ما وراء ذلكم » أى أحل لكم أن تتزوجوهن ، ولذلك قال : « وأحل لكم ما وراء ذلكم أن تبتغوا » أى تطلبوا « بأموالكم محصنين » والمال نعلم أنه ثمرة الحركة . والحركة تقتضى التعب والمشقة ، وكل إنسان يحب ثمرة عمله ، وقد يدافع عنها إلى أن يموت دون ماله ؛ لأن المال ما جاء إلا ثمرة جدّ ، وحتى إذا

ما جاء المال عن ميراث ؛ فالذى وَرثك أيضاً ما ورَّثـك إلا نتيجة كدّ وتعب ، وعرفنا أن الذى يتعب مدّة من الزمن تساوى عشر سنوات قد يرزقه الله ما يكفيه أن يعيش بعدها مرتاحاً ، والذى يتعب عشرين سنة قد يرزقه الله ما يكفيه أن يعيش ولده مرتاحاً ، والذى يتعب ثلاثين سنة يعيش حفيده مرتاحا.

إذن فكل ما تراه من مال موروث كان نتيجة جدّ وكدّ ومشقة من الآباء ، وإذا ما قال الحق : « أن تبتغوا بأموالكم » دلّ على أن مقابل البضع يكون من جهة الرجل . . « أن تبتغوا بأموالكم » التى قال عنها سيدنا رسول الله : (يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء)[1] .

ومادام المال عزيزاً على الإنسان وأخذه من طريق الحركة وطريق الجدّ وطريق العرق فيجب ألا ينفقه إلا فيما يعود عليه بالخير العاجل ولا ينسى الخير الآجل ، فإن هو حقق به خيراً عاجلاً ثم سها وغفل عن شرّ آجل فهو لم يضع المال فى موضعه . « أن تبتغوا بأموالكم محصنين » و« محصنين » كما عرفنا لها معان متعددة . . « محصنين » أى متعففين أن تَلِغُوا وتقعوا فى أعراض الناس . بأموالكم ، أى ضع مالك الذى كسبته بكدّ فيما يعود عليك بالخير العاجل والآجل ، فلا تلغوا به فى أعراض الناس ؛ لأنه من الممكن أن يبتغى إنسان لقاء امرأة بأمواله لكنه غير محصن ، ونقول له : أنت حققت لذة ونفعاً عاجلاً ولكنك ذهلت عن شرّ آجل ، يقول فيها ربنا : « محصنين غير مسافحين » ومنه أخذ السِفاح .

فإياك أن تدفع أموالك لكى تأخذ واحدة تقضى معها وطراً . فكلمة « محصنين » تعنى التزام العفة ، وشرح الحق كلمة محصنين بمقابلها وهو : مسافحين ، من السفح وهو : الصب ، والصب هطول ونزول الماء بقوة ، فالماء قد ينزل نقطة نقطة ، إنما السفح صبّ ، ولذلك سمى سفح الجبل بذلك لأن الماء ينزل من كل الجبل مصبوباً .

---

(١) رواه البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائى عن عبدالله بن مسعود .

هنا يلاحظ أن الحق حين يتكلم عن الرجال يقول : « محصِنين » بكسر الصاد ، وحين يتكلم عن النساء يقول : « محصَنات » بالفتحة . لم يقل « محصِنات » بالكسرة ، لأن العادة أن الذكورة هى الطالبة دائماً للأنوثة ، والأنوثة مطلوبة دائما .

« غير مسافحين فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن » والاستمتاع هو إدراك متعة للنفس ، والمتعة توجد أولا فى الخطبة ، فساعة يخطب رجل امرأة فهذا استمتاع ، وساعة يعقد عليها وساعة تزف له ، هذه كلها مقدمات طويلة فى الاستمتاع ، لكن الاستمتاعَ ليس هو الغرض فقط ، يقول لك : إذا استمتعت بهن فلا بد أن تعطيهن مهورهن ، ولذلك إذا تزوج رجل بامرأة ثم طلقها قبل أن يدخل بها نقول له : ادفع نصف المهر ؛ لأنك أخذت نصف المتعة ، فلو أن المتعة هى العملية الجنسية فقط لم يكن قد أخذ شيئا وبالتالى فلا شىء عليه من المهر ، لكن نقول : إن المتعة فى أنه تقدم إلى بنت فلان وخطب وعقد ، كل هذه مقدمات متعة ، فعندما يكون ذلك فإنه يكون قد استمتع بعض الشىء .

الحق سبحانه وتعالى يريد منا أن نبنى حياة الأسرة على طهر ، وعلى أمن ملكات ، فأنت تجد الرجل حين يكون بين أهله لا يجد غضاضة فى أن يغلق عليها الباب ، لكن تصور وجوده مع امرأة دون زواج ، فالملكات النفسية تتصارع فيه ، ويتربص ، ويمكننا أن ننظر رجفته إذا سمع أى شىء ، لأن ملكاته ليست منسجمة ، هو سيمتع ملكة واحدة . لكن الملكات النفسية الباقية ملكات مفزعة ، مما يدل على أن ما يفعله ليس أمرا طبيعيا ، ومادام ليس أمرا طبيعيا فالملكات النفسية تناقضه ، الحق سبحانه وتعالى يريد أن تُبنى الأسرة على طهر وعلى أمن ، وهذا الأمن النفسى يعطى لكل ملكات النفس متعة .

وقلنا من قبل إن الإنسان إذا كان له بنت ثم رأى شابا يمر كثيرا على البيت ويلتفت كثيرا إلى الشرفة ، ثم يقع بصر والد البنت عليه ، ماذا يكون موقفه ؟ تهيج كل جوارحه ، فإذا ما جاء الولد أو أبوه وطرق الباب وقال : يا فلان أنا أريد أن أخطب ابنتك لنفسى ، أو أريد ابنتك لابنى . ماذا يكون موقف والد الفتاة ؟ إنه السرور والانشراح وتصبح الملكات راضية والنفس مطمئنة ، ويتم اعلان البهجة وهو الذى

يدعو الناس ويقيم فرحا ؛ لأن الذى خلق الزوجين الذكر والأنثى حينما شرع الالتقاء ، أعطى فى النفس البشرية وفى ذراتها رضا بهذا الحكم بالالتقاء .

ولذلك رُوى : « جَدَعَ الحلال أنف الغيْرة » .

أى أن من يغار على ابنته هو الذى يوجه الدعوات لزواجها ، فكأن الغيرة فيها حمية ، وإن طُلِبَ عرض عن غير طريق خالق الأعراض فلا بد أن تهيج النفس ، فإن طلبها على وفق ما شرع خالق الأعراض تطمئن النفس . وهذه عملية قد يكون من الصعب تصورها ، فما الذى يسبب الرضا ، ومن الذى يدفع فى القلب الحمية والغضب والثورة ؟ إنه ـ سبحانه ـ هو الذى يفعل ذلك .

والإنسان عليه أن يلتفت إلى أن كلًّا منا مكون من ملكات متعددة ، فعقد الزواج وقول: « زوجنى » و« زوجتك » وحضور الشهود ، ماذا يعمل فى ذرات تكوين النفس لكى تُسر ؟ إنها إرادة الحق . وهذا شىء معروف ، وأنت حين يكون لك إنسان تعرفه فقط ، والإلف السيال بينك وبينه مازال فى أوله ، يكفى عندما تقابله أن تلقى عليه السلام ويَنتهى الأمر ، لكنْ هناك إنسان آخر لا يكفى هذا السيال الودى بينك وبينه ، بل لا بد أن تسلم عليه بيدك ؛ لأن هناك جاذبية ومودة ولكل منهما تأثير .

إذن فعملية الود والولاء أمر يصنع تغييرا كيماويا فى النفس ، ويكون التنافر إذا ما جاء اللقاء عن طريق ما حرم الله ، والذى يأتى عن طريق ما شرع الله يحقق التجاذب . والشاعر عندما خاطب من يحبه قال :

بأبى من وددته فافترقنا
وقضى الله بعد ذاك اجتماعا
وتمنيته فلما التقينا
كان تسليمه علىَّ وداعا

كأن الشاعر يريد تطويل أمد التسليم ومسافته كى يغذى ما عنده من الود ، وكأنه يريد أن يقول : أنا التقيت مع من أوده فاختفى فى واختفيت فيه ، وهذا ناشىء من الامتزاج .

إذن فالتكوين العاطفى أو السيال أوجده الله كسيال التقاء . هذا إذا ما كان على شرع الله ، أما فى الحالة الأخرى فهو سيال كراهية . وما الذى يسبب ذلك ؟ إنه عطاء من الله وهو خالق الرجل وخالق المرأة ، فساعة يجىء اللقاء على وفق ما شرع الله فلا تستبعد أن يعدل الخالق الذرات ، فعندما يحدث الامتزاج فلا بد أن الوفاء يأتى كنتيجة طبيعية وكذلك الولاء ، ويتحقق الانسجام هذا إيجاب ، أما إذا كان اللقاء على غير طريق الله فلا انسجام فيه وهذا سلب .

إذن فالحق سبحانه وتعالى يبنى الأسرة على هذا المعنى . وأنتم تعلمون أن الالتقاءات التى تحدث عن غير طريق الله إنما تحدث فى الخفاء ، ومَنكورة الثمرة ، فإن جاء منها أثر وحمل فسيلقى الوليد فى الشارع ويكون لقيطا وقد يميتونه ، إنما الثمرة التى تأتى بالحل فالكل يفرح بها .

فالحق سبحانه وتعالى يقول : « وأحل لكم ما وراء ذلكم أن تبتغوا بأموالكم محصنين غير مسافحين فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن » والاستمتاع أشياء كثيرة ، وجاء الشيعة فى قوله : « فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن » . وقالوا : هذا نكاح المتعة بدليل أنه سبحانه سمى ما أخذ فى نظير ذلك أجرًا ونقول : كلمة « أجر » هذه واردة فى الزواج ، فسيدنا شعيب عندما جاءه سيدنا موسى عليه السلام قال له : أعطنى أجر ثمانى حجج . وسيأتى فى الآية نفسها التى يتقولون بها ويقول : « وآتوهن أجورهن بالمعروف » . فسمى المهر « أجرًا » أيضا ، فلماذا تأخذون هذا المعنى ؟ هم يقولون : نكاح المتعة حدث ، ونقول لهم : نكاح المتعة حدث ولننظر إلى أسبابه .

إن هذا النكاح قد حصل على يد مشرع وله حكمة ، ولكن ماذا بعد أن أنهى المشرع هذا الحكم وانتقل إلى الرفيق الأعلى ؟ لقد أنهى الحكم ، إن الرسول صلى الله عليه وسلم أحل زواج المتعة فى فترة وجيزة حينما كانوا فى غزوة من الغزوات ، وذهب قوم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لأنهم يريدون أن يبنوا حركة حياتهم على الإيمان الناصع . كان من الممكن أن يواروا هذه المسألة عن الرسول ، إنهم قالوا له : يا رسول الله أنستخصى ؟ أى نخصى أنفسنا ؟ فمادام الجهاد يَطلب منا أن نكون

فى هذا الموقع بعيدا عن أهلنا فلنستخص حتى لا يكون عندنا رغبة . فأباح لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم زواج المتعة ؛ ولكنه أنهاه ، والدليل على أنه أنهاه ، أن عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ ، وأنتم تعلمون منزلته ـ رضى الله عنه ـ من التشريع فى أحكام الله ، إنه كان يقترح الاقتراح فينزل القرآن موافقا له ، يقول عمر : ما يجىء واحد ليستمتع إلى أجل إلا رجمته .

إذن فانتهت المسألة . وسيدنا على ـ كرم الله وجهه ـ أقر نَهْى سيدنا عمر ، وقالوا : إن ابن عباس قال به . لكنه قال : إننى كنت قد أخطأت فيه ، ونعلم أن صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يجلسوا فى فصول تعليمية لسماع الوحى ، بل كان كل منهم يذهب إلى رسول الله بعد أن يفرغ من عمله ، فهذا سمع وذلك لم يسمع . وهذا هو السبب فى أن هذا يروى وذاك لم يرو ، فسيدنا ابن عباس قال : إننى كنت أعرف مسألة المتعة ، ولم يصح عندى خبر منعها إلا فى آخر حياتى .

إذن فقول الشيعة : إن المتعة موجودة هو نتيجة استدلال خاطىء ، فقوله سبحانه : « فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن » علينا أن نقرنه بقوله أيضا فى المهور فى الآية التالية : « فانكحوهن بإذن أهلهن وآتوهن أجورهن » لأن هناك فرقًا بين الثمن وبين الأجر ؛ فالثمن للعين ، والأجر للمنفعة من العين ، ولم يَملك الرجل بمهره المرأة . إنما ملك الانتفاع بالمرأة ، ومادام هو مِلْكَ انتفاع فيقال له أجر أيضا .

« فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن فريضة » أى أن الذى فرض ذلك هو ربنا . « ولا جناح عليكم فيما تراضيتم به من بعد الفريضة » ونلحظ هنا أن هناك فرقًا بين أن يشرع الحق لحق ، وأن يترك باب الفضل مفتوحا ، فمن حقها أنها تأخذ المهر . لكن ماذا إن تراضت المرأة مع الرجل فى ألا تأخذ المهر وتتنازل له عنه ؟ أو أن يعطيها أكثر من المهر ؟ هذا ما يدخل فى قوله تعالى : « ولا تنسوا الفضل بينكم » ، فلا لوم ولا تثريب فيما يتراضى به الزوجان من بعد الفريضة ، وكلمة « تراضيتم » تدخل فى قوله سبحانه :

﴿ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا ﴾

(من الآية ٤ سورة النساء)

وفى عصرنا نجد أن المرأة تأخذ مهرها من الرجل وتجهز منه أثاث البيت ، مع أن المفروض أن يجهز الرجل لزوجته البيت وأن يبقى المهر كاملا لها ، ولكن التعاون هو الذى يعطى العطف والتكاتف .

ويذيل الحق الآية : « إن الله كان عليما حكيما » إذن فكل أحكام الله مبنية على العلم بما يصلح خلقه ، ولا يغيب عنه أمر كى يؤخر تشريعه ، فتأخير التشريع يعنى : أن الذى شرع غاب عن ذهنه جزئيات ما كانت فى باله ساعة شرع ، وحين يأتى الواقع يأتى له بجزئيات لم تكن موجودة ، فيضطر إلى إصدار تشريع جديد يستدرك به ما لم يكن فى باله . والذين يقولون : إن التشريع الإلهى لا يغطى حاجة البشر نقول لهم : من الذى سيغطيه ؟ أنتم يا مفكرون أتعدلون على الله ؟ إن الله يكشفكم أنكم تأتون بتقنينات ، وبعد ذلك يظهر عيبها وعوارها وأخطاؤها فتضطرون أن تعدلوا ، فسبحانه عليم حكيم . فإن أخر حكما عن ميعاده فقد اقتضت الحكمة أن يكون كذلك .

ومثال ذلك تحريم الخمر ، لم يجئ به مرة واحدة ؛ لأن الشيء الذى تحكمه العادة والإلف ، لا بد فيه من التريث ، وأن يصدر التشريع على مراحل ، وكل مرحلة تسهل المسألة بالنسبة لما سبقها ، ويكون الأمر صعبا إذا كان التشريع دفعة واحدة لأن ترك العادة دون تدرج يكون عسيرا شاقا ؛ لأن أهم شيء فى الخمر أنها تقود إلى الاعتياد ، بدليل أن مدمن الخمر عندما يمر عليه الوقت يضطرب فيأخذ كأسا ليستريح ، وأول مرحلة فى التحريم أن الحق كسر الاعتياد ، ومادامت هى عادة متغلغلة فمن الصعب جدا أن ينزعها صاحبها من نفسه مرة واحدة . فأولا جاء الأمر كعظة ، وبعد ذلك يقول : « يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون » . ومادمت لا تشربها وأنت تصلى فكم مرة تصلى ؟ خمس مرات فى النهار ، إذن فعودك أن تترك وقتا من الأوقات غير ملتبس بالخمر ، وتكون قد تعودت على ترك الخمر طوال النهار . وبعد ذلك يتدرج فيقول :

﴿ يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ﴾

(من الآية ٢١٩ سورة البقرة)

لكن الأحمق عادة يرجح الإثم ويفعله؛ ومادام سبحانه قال : « فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما » . إذن فالإثم يترجح . وبعد ذلك جعلها بعلمه ـ سبحانه ـ أمرًا نهائيا ، والحكمة شاءت أن يكون التحريم بالتدريج . ويطمئننا الحق على أن علمه وحكمته منوط بها إخراج الأحكام ، ولذلك قال :

﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَآ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ ﴾

(سورة البقرة)

وسبحانه عليم لا يخفى عليه شيء ، ويعلم ان امرأة أحبت زوجها لدرجة أن هذا الأجر ليس له قيمة ، أو رجل أحب زوجته أيضا لدرجة أن النقود ليس لها قيمة عنده ، ومادام سبحانه حكيم . فهو قد يجرى الأمور لا بحتمية ما افترض ، ولكن بإبقاءٍ على فضل المتعاملين .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُم ۚ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ ۚ فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ

﴿ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ وَأَن تَصْبِرُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٢٥ ﴾

والاستطاعة تعنى أن يدخل الشيء فى طاعتى فلا يعصى ولا يتأبى على ، وافرض أننى أمسكت قطعة حديد ولويتها ، هنا تكون قطعة الحديد قد دخلت فى طوعى ، ومثال ذلك : ابنا آدم ، حين قدم كل منهما قربانا لله فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر ، فالذى لم يتقبل الله منه القربان قال :

﴿ لَأَقْتُلَنَّكَ ﴾

(من الآية ٢٧ سورة المائدة)

فماذا كان ردُّ الذى تلقى التهديد ؟ قال :

﴿ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢٨ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٢٩ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝٣٠ ﴾

(سورة المائدة)

ما معنى « طوعت له » ؟ طوعت يعنى : جعلته فى استطاعته ، وعندما نمعن النظر فى « فطوعت له نفسه » نجد أن « الهاء » تشير إليه هو ، وذلك يدل على أن الإنسان فيه ملكات متعددة ؛ ملكة تقول : اقتله ، وملكة أخرى تقول له : لا تقتله . ضميره يقول له : لا تفعل ، والنفس الأمارة بالسوء تقول له : اقتل ، ويكون هو مترددا بين الأمرين .

وقوله الحق : « فطوعت له » دليل على أن نفسه كانت متأبية عليه ، لكن النفس

الأمارة بالسوء ظلت وراءه بالإلحاح حتى أن نفسه الفاعلة طوعت له أن يقتل أخاه ، ومع أن نفسه طوعت له أن يقتل أخاه إلا أنه أصبح بعد ذلك من النادمين ، وبعدما أخذ شهوته من القتل ندم ، ويأتى هذا الندم على لسانه :

﴿ يَـٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَـٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّـٰدِمِينَ ﴾

(من الآية ٣١ سورة المائدة)

أنت الذى قتلته ، لكنك أصبحت من النادمين . لماذا ؟ لأن ملكات الخير دائما تُصعد عمل الخير وتحبط عمل الشر . والإنسان قد يبدأ شريرا ، وإن كانت ملكاته ملكات خير غالبة ، فهو ينزل من هذا الشر العالى ويخففه ، وإن كانت ملكات الشر غالبة فهو يبدأ فى الشر قليلا ثم يصعده ، فيقول فى نفسه : فلان فعل فىَّ كذا وأريد أن أصفعه صفعة ، وبعد ذلك قد يرفع من شره فيقول : « أو أضربه ضربة » . لكن إذا ما كان الإنسان خيِّراً ، فيقول : « فلان كاد لى ، أريد أن أضربه رصاصة أو أضربه صفعتين أو أوبخه » إنه ينزل من الشر ويصعد من الخير . كما فى قصة سيدنا يوسف وإخوته حين قالوا :

﴿ إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَـٰلِحِينَ ﴿٩﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَـٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَـٰعِلِينَ ﴿١٠﴾ ﴾

(سورة يوسف)

إنهم أسباط ، وأولاد النبى يعقوب ، فيقللون من الشر ، يخففونه مباشرة قائلين : « أو اطرحوه أرضا » يعنى يلقونه فى أرض بعيدة ، إذن فخففوا القتل فى نفس واحد ، كيف تم هذا الانتقال من القتل إلى اطرحوه أرضا ؟ ثم خففوا الأمر ثانية حتى لا يأكله سبع أو يتوه ، فقالوا : « وألقوه فى غيابة الجب يلتقطه بعض السيارة » .

إذن فقوله : « ومن لم يستطع منكم » أى من لم يستطع دخول الشيء فى طوعه أو أن تطوله يداه ، وهذا هو المقصود بالطول ، « فطالته يده » يعنى صار فى استطاعته ، وفلان تطول علىّ ، أى تفضل علىّ بشيء ، « وفلان تطاول علىّ » أى ما كان يصح أن يجترىء علىّ ، وكلها من الطول ، و« طولا » : تعنى قدرة تطول بها الزواج بمن تحب ، أى أنت لا تملك مالا ولا تستطيع الطول ، فهناك مرحلة أخرى ، لا داعى للحرة لأن مهرها غالٍ غاليا ؛ فخذ من الإماء الأسيرات لأن مؤنتهن ونفقتهن خفيفة ، وليس لها عصبة ولا أهل يجادلونك فى المهر ، فقال : « ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات المؤمنات فمن ما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات » . . والذى نلمحه فى الآية . أن نكاح ما ملكت اليمين يكون لغير مالكها ؛ لأن مالكها لا يحتاج ذلك ، إنه يستمتع بها ويتغشاها ، لأنها ملك يمينه وليست مملوكة للغير .

إذن فقد أباح الله للمسلم أن ينكح مما ملكت يمين غيره على شرط أن يكون ذلك بإذن مولاها ؛ لأنها بالزواج تقتطع جزءًا من وقتها وخدمتها لمن يملك رقبتها ، فلا بد أن يُستَأذَن حتى يكون أمر انقطاعها إلى الزوج فى بعض خدماته مما هو معلوم لأوليائهن ، وأمر أيضا سبحانه ألا نستهين بأنها مملوكة ومهينة فلا نأتيها مهرها . بل يجب أن يُؤدَى لهؤلاء مهورهن بما يعرف ، أى بالمتعارف عليه ؛ لأن ذلك عوض البضع ، فإذا كان الحق قد أمر بأن نستأذن مواليهن وأمر بأن نأتيهن أجورهن ، هنا بعض الإشكال لأنَّ المملوكة لا تملك ؛ لأن العبد وما ملكت يداه لسيده .

نقول له : نعم ، ولكن إذا قلت : العبد وما ملكت يداه لسيده فلا بد أن تحقق لها ملكا أولا ثم يكون ما تملكه لسيدها . . أما أن تتعداها وتعطى المال لسيدها فإنها فى هذه الحالة لم يتحقق لها مهر ، فقولك : العبد وما ملكت يداه ، أى أعطها فترة وفرصة لتكون مالكة بأن تُعطى الأجر تكريما لها ، أما كون مالها لسيدها فهذا موضوع آخر . وبعد ذلك تذهب لتتزوجها إن ذلك يصح ، فهل نفهم من ذلك أنك إن استطعت طوْلا لا تنكح الإماء ؟ لا . وهل هذا يقلل من شأن الإماء ؟ لا . لماذا ؟ انظر للحكم العالية التى لا يقولها إلا رب .

الله يريد أن يصفى مسألة الرق ، فحين يأتى واحد ويتزوج أمة مملوكة لغيره

فأولادها يتبعونها فى الرق . فالأولاد فى الدين تتبع خير الأبوين ، وفى الحرية والرق يتبع الأولاد الأم ، فإذا ما تزوج إنسان أَمَةً مملوكة لغيره فأولادها الذين سيأتون يكونون عبيدا . وحين يتركها لسيدها ويتزوج غيرها من الحرائر ، فمن تلده من سيدها يكون حرا ، إذن فسبحانه يريد أن يصفى الرق ، هذه واحدة ، الشيء الآخر أن الزواج : التقاء الذكر بالأنثى ليكونا نواة أسرة ، فإذا ما كان الزوج والزوجة أكفاء . فالزوج لا يجد فى نفسه تعاليا على الزوجة ، والزوجة لا تجد فى نفسها تعاليا على الزوج ؛ لأن كل واحد منهما كفء للآخر ، وهذه تضمن اتزان الحياة واتزان التعامل ، لكن حين يتزوج واحد أمةً ليس لها أهل فقد يستضعفها وقد يستعلى عليها . وقد يذلها . وقد يعيرها ، وحين يكون لها أولاد قد يقولون لهم : ليس لكم خال مثلا . والمشرع يريد أن يبنى حياة أسرية متزنة ، ولذلك اشترط الكفاءة ، وقال :

﴿ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ ﴾

(من الآية ٢٦ سورة النور)

وبعض من الناس تفهم عندما ترى طيبة فلا بد أن يتزوجها رجل طيب ، نقول لهم : إن هذا تشريع والتشريع تكليف وعرضة أن يطاع وعرضة أن يعصى،فسبحانه حين يشرع أن الطيبات يكن للطيبين والخبيثات للخبيثين ، فإن طبقتم التشريع تكون المسائل مستقيمة ، وهذا يحمل الرد على من يقولون : مادام ربنا يقول : « الطيبات للطيبين » فكيف يتزوج فلان بفلانة وأحدهما طيب والآخر خبيث ؟

ونقول : إن هذا الحكم ليس فى قضية كونية حادثة ، بل هو قضية تشريعية تقتضى منا أن نتبعه وأن نجعل الطيبين للطيبات والخبيثين للخبيثات ليتحقق التوازن . فإن كان خبيثا وقال لها : أنت كذا وكذا تقول له : أنت كذا وكذا . فلا يقول هذه كى لا تقول له مثلها ، أما الإنسان الطيب فهو يلين جانبه مرة وهى طيبة وتلين جانبها مرة .

« ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات المؤمنات » كلمة « المحصنات » تعنى هنا الحرائر ؛ لأنها لو كانت متزوجة فلن تكون محل تزويج لآخر . « فمن ما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات » وكلمة « فتى » نطلقها فى الحر على من له

فتوة وشباب ، ونطلق كلمة فتاة على أى أَمَة ولو كانت عجوزا ، وعلمنا رسول الله ألا نقول : هذا عبدى وهذه أمتى . وإنما نقول : « فتاى » و« فتاتى » .

« فمن ما ملكت أيمانكم ». ويتساءل البعض : وهل يتزوج الإنسان ممن يملكها ؟ نقول له: لا . إنها حلال له فهى مملوكة له ملك يمين ويستطيع أن يكون له منها ولد ، إذن فتكون ما ملكت أيمان غيركم ، لأن الله يخاطب المؤمنين على أنهم وحدة بنيانية ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا »[1] .

ويقول الحق :

﴿ وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ﴾

(من الآية ١١ سورة الحجرات)

ويقول فى موضع آخر :

﴿ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾

(من الآية ٦١ سورة النور)

فهل يسلم المؤمن على نفسه أو يسلم على من دخل عليهم ؟

إن الحق يريد بالتشريع أن يجعل المؤمنين كالجسد الواحد ، ولذلك قال أيضا :

﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ﴾

(من الآية ٢٩ سورة النساء)

أى لا تقتلوا غيركم ، والمعنى هو أن الوحدة الإيمانية يجب أن تجعلنا متكاتفين فى وحدة .

« فمن ما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات والله أعلم بإيمانكم » . وقد تقول :

---

(١) رواه البخارى ومسلم والترمذى والنسائى عن أبى موسى .

إن إيمان ملك اليمين ضعيف وتجعلها علة . يقول لك الحق : لا « والله أعلم بإيمانكم » ولعل أمة خير فى الإيمان منك ؛ لأن هذه مسألة دخائل قلوب ، وأنت يكفيك أن تعلم الظاهر .

والحق سبحانه وتعالى حين يعالج الأمر يعالجه معالجة رب . يعلم واقع ما خلق ويعطى كل مطلوبات المخلوق ، هو أولا أوضح : أنتم إن كنتم لا تستطيعون طولا أن تنكحوا المحصنات فانكحوا الإماء ، وهذا من أجل مزيد من تصفية الرق .

بعد ذلك يقول : « والله أعلم بإيمانكم بعضكم من بعض » فإن كنت ستتزوج يجب أن تجعل نصب عينيك أمرا هو : أن « بعضكم من بعض » . أى أنكم جميعا من آدم . ومادمت قد آمنت ، فالإيمان سوّى بينكما ، فإذا ذهبت لتتزوج فلا بد أن تضع هذا نصب عينيك ، إنه سبحانه يعالج واقعا .

ويقول بعد ذلك : « فانكحوهن بإذن أهلهن » . وهذا إشعار بأن من تحت يده فتاة بملك يمينه فعليه أن يعاملها معاملة الأهل ليعوّضها عما فقدته عند أهلها هناك ، ولتشعر أنها فى حضانة الإسلام مثلما كانت فى حضانة أهلها وآبائها أو أكثر .

إذن فالذى يملك لابد أن يجعل نفسه من الأهل ، وبذلك يزيد الحق سبحانه وتعالى من أبواب تصفية الرق ، وأوضح : فإن لم يُدخل واحد منكم مَن يملكه فى هذه المصاف فسوف يبقيه رقيقاً ، وإذن فعليه أن يطعمه مما يأكل ويلبسه مما يلبس ولا يكلفه ما لا يطيق ، فإن كلفه ما لا يطيق فيدك بيده . وعندما يوجد معك إنسان تلبسه من لبسك وتطعمه من أكلك ، وعندما يعمل عملاً يصعب عليه فأنت تساعده ، فأى معاملة هذه ؟ إنها معاملة أهل .

انظر كم مسألة يعالجها الحق : يعالج طالب الزواج ويعالج المملوكة ، ويعالج السادة ، إنه تشريع ربّ الجميع . فلا يشرع لواحد على حساب آخر . ومادامت ملك يمين ولها سيّد فهذا السيد له مصالح لابد أن تستأذنه ، فقد لا يستطيع أن يستغنى عنها لأنها تخدمه ، فقال : « بإذن أهلهن » ، لكن فى المهور قال :

« فانكحوهن بإذن أهلهن وآتوهن أجورهن بالمعروف » فالأمة تنكح بإذن من يملكها كى يعرف أن هناك من دخل شريكا له فى العملية ويأخذ البضع وهو الزوج ، وحين يُستأذن السيد ويزوّجها فهو يعلم أنها لم تعد له ، وبذلك لن يأخذها أحد من خلف ظهره ، وهو بالاستئذان والتزويج يرتب نفسه على أن البضع قد أغلق بالنسبة له ، وبقيت له ملكية الرقبة . أما ملك البضع فهو للزوج .

« وآتوهن أجورهن بالمعروف » فإياكم أن تقولوا : هذه مملوكة يمين وأى شىء يرضيها ويكفيها ، لا . فلها مهر بالمعروف أى بالمتعارف الذى يعطيها ميزان الكرامة فى البيئة ، « محصنات غير مسافحات ولا متخذات أخدان »وقلنا: إن المحصنة هى العفيفة ، « غير مسافحات » والمسافِحَة : هى من تمارس وتزاول عملية الزنا ، ويسمونها : امرأة عامة ، ومتخذات أخدان : أى يتخذن عشّاقا وأخدانا .

« فإذا أحصن فإن أتين بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب » أى إذا تزوجت الإماء وجاءت الواحدة منهن بفاحشة فلها عقاب . أما إن لم تحصن فليس عليهن حاكم ويقوم سيدها بتعزيرها وتأديبها ؛ لأن الأمة عادة مبتذَلة ، لكن عندما تتزوج تصير محصنة ، فإن أتت بفاحشة نقول لها : أنت لك عقابك الخصوصى ، لن نعاقبك عقاب الحرّة ؛ لأن الحرة يصعب عليها الزنا ، لكن الأمة قد لا يصعب عليها أن يحدث منها ذلك ، فليس لها أب ولا أخ ولا أسرة ، فقال : « فإن أتين بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب » ، أى نصف ما على الحرائر من العذاب .

لكن الخوارج أخذوا الكلمة فى معنى من معانيها ليخدم قضية عندهم وقالوا : إن « المحصنات » هن المتزوجات ، هم يريدون أن يأخذوها بمعنى المتزوجات كى يقولوا : مادامت الأمة عليها نصف ما على المتزوجة ، إذن فالمتزوجة ليس عليها رجم ؛ لأن الرجم لا ينصف . . والخوارج أخذوا هذه وقالوا : إن القرآن لا يوجد فيه رجم واكتفوا بجلد الزانية مائة جلدة .

ونقول لهم : أنتم أخذتم المحصنة على معنى أنها المتزوجة ، ونسيتم « ومن لم

يستطع منكم طولاً أن ينكح المحصنات » . . فالمحصنات هن الحرائر ، فلماذا أخذتم المحصنات هناك بمعنى الحرائر والمحصنات هنا بمعنى المتزوجات ؟! إن عليكم أن تأخذوها بمعنى الحرائر ولا حجة لكم فى مثل هذا الباطل . وبذلك تسقط الحجة ، فالدليل إذا تسرب إليه الاحتمال سقط به الاستدلال .

ثم نبحث بحثاً آخر ، نقول : يقول الحق : « فعليهن نصف ما على المحصنات » لو أن الحكم على إطلاقه لما قال الحق : « من العذاب » ، فكأن الذى عليها فيه النصف هو العذاب ، وما هو العذاب ؟ العذاب هو إيلام من يتألم ، والرجم ليس فيه عذاب لأنه عملية إنهاء حياة ، والآية تبين المناصفة فيما يكون عذاباً ، أما ما لا يكون عذاباً فهو لا ينصّف والحكم غير متعلق به . فالعذاب إنما يأتى لمن يتألم ، والألم فرع الحياة . والرجم مزيل للحياة ، إذن فالرجم لا يعتبر من العذاب ، والدليل على أن العذاب مقابل للموت أن الحق سبحانه وتعالى حينما حكى عن سيدنا سليمان وتفقده الطير قال :

﴿ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ۝ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ ﴾

(من الآية ٢٠/٢١ سورة النمل)

فالذبح وإزهاق الحياة مقابل للعذاب ، فقوله : « نصف ما على المحصنات » فالمتكلم فيه الآن العذاب وليس الرجم ، وليس إزهاق الحياة وبهذا يسقط الاستدلال .

والذين يقولون : إن آيات القرآن لا تدل على رجم نقول لهم : ومن الذى قال لكم إن القرآن جامع لكل أحكام منهج الله فى الإسلام وأنه فصل كل شيء ؟ . . القرآن لم يجيء كتاب منهج فقط ، وإنما جاء معجزة وكتاب منهج للأصول ، ثم ترك للرسول صلى الله عليه وسلم أن يبين للناس ما نزل إليهم فضلا على أن الرسول صلى الله عليه وسلم بنص القرآن عنده تفويض من الله أن يشرع ، وتلك ميزة تميّز بها صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء والمرسلين فالله قد أعطاه الحق فى أن يشرع ، بدليل أنه سبحانه قال فى صلب القرآن الذى يشتمل على أصول منهج الإسلام :

﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾

(من الآية ٧ سورة الحشر)

إذن فللرسول عمل مع القرآن ، وإلا فليقل لى من يدّعى أنّ فى القرآن كل حكم من أحكام دين الله ، من أين أخذ تفصيل حكم الصلوات الخمس ؟ ومن أى آية أخذ أن الصبح ركعتان ؟ وأخذ الظهر أربعاً وأخذ العصر أربعاً ، والمغرب ثلاثاً ، والعشاء أربعاً ، من أين أخذها ؟! إذن لا يوجد شيء من ذلك ، فما معنى ذلك ؟ معنى ذلك أن القرآن جاء كتاب معجزة وفيه منهج يتعلق بالأصول . ومادام المنهج الذى تعلق بأصول الأشياء قد أعطى لرسول الله صلى الله عليه وسلم أن يشرع ، إذن فتشريعه مأمور به ومأذون فيه من صلب القرآن . ولذلك إذا جاء لك حكم من الأحكام وقال لك المتعنت : هات لى هذا الحكم من القرآن ، ونظرت فى كتاب الله فلم تجد ، فقل له : دليل الحكم فى القرآن هو قول الله : « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » ، وأى حكم من الأحكام يأتى ولا تجد له سنداً من كتاب الله ويقال لك : ما سنده ؟ قل : « وما أتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » .

والمنهج أوامر ونواهٍ . إذن فالطاعة أن تمتثل أمراً وتجتنب نهياً ، تلك هى الطاعة ، كل منهج أو دين أمر ونهى ، فامتثل الأمر واجتنب النهى . وأنت إذا تصفحت القرآن وجدت آيات الطاعة المطلوبة من المؤمن بمنهج الله والذى شهد بأنه لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله تتمثل فى الأمر والنهى . فإذا ما استقرأت القرآن وجدت ـ كما قلنا سابقاً ـ أن الحق سبحانه وتعالى يقول مرة فى الطاعة :

﴿ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ﴾

(من الآية ٣٢ سورة آل عمران)

ولم يكرر الحق هنا أمر الطاعة ، فالمطاع هو المكرر ، فـ« أطيعوا » أمر واحد ، نطيع من؟ . . الله والرسول . المطاع هنا هو الله والرسول ، ومرة يكرر أمر الطاعة فيقول :

﴿ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ﴾

(من الآية ٩٢ سورة المائدة)

ومرة ثالثة يقول :

﴿ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾

(من الآية ٥٦ سورة النور)

ومرة رابعة يقول :

﴿ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾

(من الآية ٥٩ سورة النساء)

وأدخل هنا أولى الأمر أيضاً ، إذن فمرة يأمر بالطاعة ويكرر المطاع فقط . أى : يوحد أمر الطاعة ، ويكرر المطاع « قل أطيعوا الله والرسول » ، فوحد أمر الطاعة وكرر المطاع ، ومرة يكرر أمر الطاعة ، ويكرر معها المطاع : « وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول » ، ومرة يقول « وأطيعوا الرسول » فإذا قال لك : « أطيعوا الله والرسول » فالأمر قد توارد فيه حكم الله وحكم الرسول . إذن فتطيع فيه الله والرسول ، وإذا كان لله أمر إجمالىٌّ وللرسول أمر تفصيلىٌّ كالصلاة والزكاة والحج ، إذن فتطيع الله وتطيع الرسول .

وإذا لم يكن لله أمر فيه بل جاء من باطن التفويض فى قوله سبحانه : «و ما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » ، فهذا الأمر أطيع فيه الرسول ، لأنه جاء فى آية أخرى قوله : « من يطع الرسول فقد أطاع الله » ، لماذا ؟ لأن الرسول عمل بالتفويض الذى أعطاه الله له حسب قول الحق : « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » .

وبقيت طاعة أولى الأمر التى جاءت فى قوله : « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » أى أطيعوا أولى الأمر من باطن طاعة الله وطاعة رسوله ، فلم يفرد ولى الأمر بطاعة وإنما جعل طاعته من : « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول » ، فلم يقل : وأطيعوا أولى الأمر ، بل قال : وأولى الأمر ، أى من باطن طاعة الله والرسول ، إنها دقة الأداء فى القرآن . تأمل ما يقوله الحق سبحانه : « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » .

لقد قلنا : إن الطاعة امتثال أمر واجتناب نهى . . والموجود هنا « آتاكم » و« نهاكم » ؛ فـ « آتى » هذه جاءت بدل وما أمركم والنهى موجود بلفظة « وما نهاكم عنه » الأمر هو « آتاكم » ، ولماذا لم يقل : وما أمركم به الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ؟ ولماذا لم يختصر فيقول : وما آتاكم الرسول فخذوه ؟! لأن الإتيان من الرسول إما أن يكون قولاً وإما أن يكون فعلاً ، ولكن أيكون المنهىّ عنه فعلاً يفعله الرسول ؟! لا يمكن .

إذن فالنهى لا يتأتى إلا نهياً ومنعا من الفعل ، لكن الإيتاء يكون قولاً أو فعلاً ؛ لأنه عندما يقول لك : لا تشرب الخمر ، فماذا كان يفعل النبى كى نأخذه من الفعل ؟ إن الرسول قطعا لم يشرب الخمر . إذن فقول الرسول وفعله يتأتى فى المأمور به ، وأما فى المنهى عنه فلا يتأتى إلا قولاً . بالله أمِنَ الممكن أن يأتى بهذا عقل بشرى ؟ لا يمكن ، ولا يقولها إلا الله .

ثم نبحث بحثاً آخر يا خوارج . إن الرسول إنما جاء ليبلغ عن الله ـ ومراد التبليغ أن يعلمنا بالحكم ، لنؤدى مدلوله ، فإذا جاء حكم قولاً بالنص ، فالذى يشرحه لنا هو ما يفعله الرسول ، وحين يفعله الرسول أيوجد مجال للكلام فى هذا النص ؟ لا يوجد ، بل تكون المسألة منتهية . إذن فالفعل أقوى ألوان النص فى الأوامر ؛ لأن الأمر قد يأتى كلاماً نظرياً ، وقد يتأول فيه البعض . لكن عندما يفعل الرسول يكون الحكم لازماً ؛ لأن الذى فعل هو المشرع .

أرجم رسول الله أم لم يرجم ؟ قد فعل رسول الله ذلك ، وفعله هو نص عملىّ . إنّ الفعل ليس نصاً قوليًا يُتأول فيه . لقد رجم الرسول ماعزاً والغامدية ورجم اليهودى واليهودية وكانا قد أحصنا بالزواج والحرية . . وفعل الرسول هو الأصل فى الحكم . فدليل الخوارج إذن قد سقط به الاستدلال وبقى ما فعله المشرع وهو الرسول المفوض من الله فى أن يشرع قولاً أو فعلاً أو تقريراً ، أى يرى أحداً يفعل فعلاً فيقرّه عليه .

ثم نبحثها بالعقل : إذا كنت تريد ألا يوجد فى الزنا حد إلا الجلد ، أتسوى بين من لم يتزوج ومن تزوج ؟ إن المتزوجة لها عرض ولها زوج ولها نسب ونسل . هل

هذه مثل تلك التى لم تتزوج ؟! إن هذا لايتأتى أبدا بالعقل ، إذن فحكم الرجم موجود من فعل الرسول ، والدليل الذى استدل به الخوارج هو دليل تسرب إليه الاحتمال . والدليل إذا تسرب إليه الاحتمال سقط به الاستدلال .

« فإن أتين بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب ذلك لمن خشى العنت منكم » . ومن هو المقصود بـ « ذلك » ؟ المقصود به إباحة نكاح الإماء لِمن لم يجد طوْلا أن ينكح من الحرائر . وما هو « العنت » ؟ « العنت » هو المشقة والجهد ، وإرهاق الأعصاب ، وتلف الأخلاق والقيم ، لأن الإنسان إذا هاجت غرائزه إما أن يعف وإما أن ينفلت . فإن انفلت فقد تسرب الفساد إلى قيمه وإلى خلقه ، وإن لم ينفلت والتزم ، ماذا يحدث ؟ سيقع بين أنياب المرض النفسى وتأتيه الأمراض العصبية . فأباح له الله أن يتزوج الأَمَةَ ، إن لم يجد طوْلا فى الزواج من الحرائر .

وبذلك يكون مفهوم الآية : إن الذى لا يخشى العنت فليس ضروريا أن يتزوج الأَمَةَ[1] . وليس هذا تزهيدًا فى الأَمَةِ بل فيه احترام لها ، لأنها إن تزوجت ثم ولدت ممن تزوجته فسيصبح ولدها عبدا ، والله يريد أن يصفى الرق والعبودية ، فيوضح له : دعها لسيدها فإن أعجبته وَحَلَت فى عينيه ووطئها وجاءت منه بولد فستكون هى والولد من الأحرار إنهما قد دخلا فى دائرة الحرية .

إذن فالحق يريد أن يصفى الرق ، ثم قال : « وأن تصبروا خيركم لكم » أى وصبركم عن نكاح الإماء . وأنتم فى عفة وطهر عن مقارفة الإثم إن ذلك خير لكم من زواجهن ، فنكاح الحرائر أفضل .

ويذيل الحق الآية : بقوله : « والله غفور رحيم » أى إنه (غفور) لما قد بدر وحصل منكم من ذنوب استغفرتم ربكم منها (رحيم) بكم فلا يعاجلكم بالعقوبة شفقة عليكم وحبا فى رجوعكم إليه .

---

(١) من الفقهاء من يشترط لصحة نكاح الأَمَة شروطا هى : ألا يجد ما يتزوج به امرأة حرة ، وأن تكون الأمة مسلمة . وأن يخاف الوقوع فى الإثم .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ ﴾

ماذا يبين لنا ؟ إنه ـ سبحانه ـ يبين القوانين الحاكمة لانتظام الحياة . . وقلنا إنه لا يمكن أن يوجد تجريم إلا بنص ولا توجد عقوبة إلا بتجريم . فقبلما يعاقبك على أمر فهو يقول لك : هذه جريمة ويُنص عليها ، إنه لا يأتى ليقول لك : فعلت الشيء الفلانى وهذه عقوبته ؛ لأنك قد تقول له : فعلت هذا الفعل من قبل ولم أعرف أنه جريمة وعليه عقوبة . إذن فلا يمكن أن تعاقب إلا إذا أجرمت ، ولا يمكن أن تجرم إلا بنص ، فيريد الله أن يبصركم ببيان ما تصلح به حركة حياتكم ، والله آمن عليكم من أنفسكم ، لأنه هو سبحانه الذى خلق وهو يعلم من خلق .

إن سبحانه ـ وحده ـ الذى يقنن ما يصلح مخلوقه ، أما أن يخلق هو وأنت تقنن فهذا اعتداء ؛ لأنه سبحانه يقنن لما يعلم ـ ولله المثل الأعلى ـ وقلنا سابقا : إن المهندس الذى يصنع التليفزيون هو الذى يضع له قانون الصيانة ؛ لأنه هو الذى صمم الآلة ، وهو الجدير بأن يضع لها قانون صيانتها ، فيعلمنا : المفتاح هذا لكذا ، وهذا للصورة وهذا للصوت .

إن الذى خلق الإنسان هو الذى يضع قانون صيانته المتمثل فى « افعل ولا تفعل » ، وترك سبحانه أمورا لم يرد فيها افعل ولا تفعل ، وهى متروكة على الإباحة ، تفعله أو لا تفعله ، إنه سبحانه : « يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم » ، والسنة هى الناموس الحاكم لحركة الحياة . والحق يقول :

﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾ ﴾

(سورة الأحزاب)

والرسل سبقوا رسول الله صلى الله عليه وسلم . . وعرفنا الذين أطاعوا رسلهم ماذا حدث لهم ، والذين كذبوا رسلهم ماذا حدث لهم . لقد قال الحق فى شأنهم :

﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾

(سورة العنكبوت)

فالله يريد أن يبين لنا سنن من قبلنا ، أى الطرائق التى حُكموا بها ، وماذا حدث لأهل الحق وماذا حدث لأهل الباطل . إذن فهو ليس تقنينا أصم ، بل هو تقنين مسبوق بوقائع تؤكده وتوثقه ، « ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم » وهو سبحانه يبين ويوضح ويتوب ، « والله عليم » لأنه خالق ، « حكيم » يضع الأمر فى موضعه والنهى فى موضعه . فالحكمة هى : وضع الشىء فى موضعه ، وسبحانه يضعه عن علم ، فالعلم يقتضى اتساع المعلومات ، والحكمة هى وضع كل معلوم فى موقعه .

وبعد ذلك يقول سبحانه :

﴿ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ ﴾

سبحانه قال فى الآية السابقة : « يريد الله ليبين لكم » ، وبعد ذلك يقول : « ويهديكم » ، وبعد ذلك : « ويتوب عليكم » ، وفى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها : « والله يريد أن يتوب عليكم » ، فلماذا جاء أولا بـ « ويتوب عليكم » وجاء هنا ثانيا بـ «والله يريد أن يتوب عليكم » ؟

نقول : التوبة لا بد أن تكون مشروعة أولا من الله ، وإلا فهل لك أن تتوب إلى الله من الذنب لو لم يشرع الله لك التوبة ؟ أتصحُ هذه التوبة ؟ إنه سبحانه إذن يشرع التوبة أولا ، وبعد ذلك أنت تتوب على ضوء ما شرع ، ويقبل هو التوبة ، وبذلك نكون أمام ثلاث مراحل : أولا مشروعية التوبة من الله رحمة منه بنا ، ثم توبة العبد ، وبعد ذلك قبول الله التوبة ممن تاب رحمة منه ـ سبحانه ـ إذن فتوبة العبد بين توبتين من الرب : توبة تشريع ، وتوبة قبول .

« والله يريد أن يتوب عليكم » ، مادام سبحانه قد شرع التوبة أيشرعها ولا يقبلها ؟! لا ، فمادام قد شرع وعلمنى أن أتوب فمعنى ذلك أنه فتح لى باب التوبة ، وَفَتْحُ باب التوبة من رحمة العليم الحكيم بخلقه ؛ لأن الحق حينما خلق الإنسان زوده دون سائر الأجناس بطاقة من الاختيارات الفاعلة ، أى أن الإنسان يستطيع أن يفعل هذه أو يفعل تلك ، وجعل أجهزته تصلح للأمر وللنهى ، فالعين صالحة أن ترى آية فى كون الله تعتبر بها ، والعين ـ أيضا ـ صالحة أن تمتد إلى المحارم . واللسان صالح أن تسب به ، وصالح أن تذكر الله به قائلا : لا إله إلا الله وسائر أنواع الذكر . واليد عضلاتها صالحة أن ترفعها وتضرب بها ، وصالحة لأن تقيل وترفع بها عاثرا واقعاً فى الطريق .

هذا هو معنى الاختيار فى القول وفى الفعل وفى الجوارح ، فالاختيار طاقة مطلقة توجهها إرادة المختار ، وإذا نظرت إلى اليد تجد أنك إذا أردت أن ترفعها ، فإنك لا تعرف شيئاً عن العضلات التى تستعملها كى ترفع اليد . فالذى يرفع يده ماذا يفعل ؟ وما العضلات التى تخدم هذا الرفع ؟ وأنت ترى ذلك مثلاً فى الإنسان الميكانيكى أو تراه فى رافعة الأثقال ـ الونش ـ التى ترفع الأشياء ، انظر كم عملية لتفعل ذلك ؟ أنت لا تعلم شيئاً عن هذه المسألة فى نفسك ، لكنك بمجرد أن تريد تحريك يدك فأنت تحركها وتطيعك . وعندما يريد المهندس أن يحرك الإنسان الآلى فهو يوجهه بحسابات معينة ليفعل كذا وكذا ، أما الإنسان فيحرك اليد أو القدم أو العين بمجرد الإرادة .

والحق حين يسلب قدرة الإنسان ـ والعياذ بالله ـ يصيبه بالشلل ، إنه يريد

فلا تنفعل له اليد أو غيرها ولا يعلم ما الذى تعطل إلى أن يذهب إلى الأطباء ليبحثوا فى الجهاز العصبى ، ويعرفوا لماذا لم تنفذ أعصابه الأوامر ، إنها عملية طويلة . إذن فالإنسان ـ عندما يريد الحركة ـ يوَجِّه الطاقة المخلوقة لله فقط ، فليس له فعل فى الحقيقة ، فأنا إنْ أثابنى الله وجازانى على طاعة فذلك لأنّى وجهت الآلة الصالحة للفعل إلى عمل الخير ، وعندما تسمع أنه لا أحد بيده أن يفعل شيئاً فهذا صحيح ؛ لأن أحداً لا يعرف كيف يفعل أى شىء ، إنه فقط يريد ، فإن وجهت الطاقة للفعل فهذا عملك أنت . فمعنى الاختيار ـ إذن ـ أن تكون صالحاً للفعل ومقابل الفعل وهو الانتهاء والترك .

وعندما يبين الحق سبحانه وتعالى لك وينزل لك المنهج الذى يقول لك : وجه طاقتك لهذه ولا توجهها لهذه ، معنى ذلك أن طاقتك صالحة للاثنين . إذن فأنت مخلوق على صلاحية أن تفعل وألا تفعل ، وما تركه المنهج دون أن يقول لك فيه « افعل » ولا « تفعل » فإن فعلته على أى وجه لا يفسد به الكون ولا تفسد به حركة حياتك فهذا هو المباح لك .

وحينما شرع الحق سبحانه التوبة أوضح : أنه إذا انفعل مريد لعمل شىء فوجه طاقته لعمل شىء مخالف ، قد تكون شهوته أو شِرّته قد غلبت عليه ، فتوجه فى ساعة ضعف إلى عمل شرّ ؛ لذلك شرعت التوبة.لماذا ؟ لأننا لو أخرجنا هذا الإنسان من حظيرة المطيعين بمجرد فعل أول عمل شرّ لصارت كل انفعالاته من بعد ذلك شروراً ، وهذا هو الذى نسميه « فاقداً » ، فيشرع الحق : إن فعلت ذنباً فلا تيأس ، فنحن سنسامحك ونتوب عليك .

فساعة شرع الله التوبة رحم المجتمع من شراسة أول عاصٍ ، فلو لم تأت هذه التوبة لكثرت المعاصى بعد أول معصية . ومقابل قول الحق : « والله يريد أن يتوب عليكم » وتنبيهه أن الذنوب التى فعلتها قبل ذلك يطهرك منها بالتوبة ، مقابل ذلك الذين يتبعون الشهوات ويريدون منك أن تأتى بذنوب جديدة ، لذلك يقول الحق سبحانه : « ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا » والميل هو مطلق عمل الذنوب . إنّك بذلك تميل عن الحق ؛ لأن الميل هو انحراف عن جادة مرسومة لحكيم ، والجادة هى الطريق المستقيم .

هذه الجادة من الذى صنعها ؟ إنه الحكيم . . فإذا مال الإنسان مرّة فربنا يعدله على الجادة مرّة ثانية ، ويقول له : « أنا تبت عليك » ، إنه ـ سبحانه ـ يعمل ذلك كى يحمى العالم من شرّه ، لكن الذين يتبعون الشهوات لا يحبون لكم فقط أن تميلوا لمرّة واحدة ، بل يريدون لكم ميلاً موصوفا بأنه ميل عظيم . لماذا ؟ . . لأن الإنسان بطبيعته ـ كما قلنا سابقاً ـ إن كان يكذب فإنه يحترم الصادق ، وإن كان خائناً فهو يحترم الأمين ، بدليل أنه إن كان خائناً وعنده شيء يخاف عليه فهو يختار واحداً أميناً ليضع هذا الشيء عنده .

إذن فالأمانة والصدق والوفاء وكل هذه القيم أمور معترف بها بالفطرة ، فساعة يوجد إنسان لم يقو على حمل نفسه على جادة القيم ، ووجد هذا الإنسانُ واحداً آخر قدر على أن يحمل نفسه على جادة القيم فهو يصاب بالضيق الشديد ، وما الذى يشفيه ويريحه ؟ إنه لا يقدر أن يصوِّب عمله وسلوكه ويقوّم من اعوجاج نفسه ؛ لذلك يحاول أن يجعل صاحب السلوك القويم منحرفاً مثله ، وإن كانت الصداقة تربط بين اثنين وانحرف أحدهما فالمنحرف يستخذى أمام نفسه بانحرافه ، ويحاول أن يشد صديقه إلى الانحراف كى لا يكون مكسور العين أمامه . وهو لا يريده منحرفاً مثله فقط بل يريده أشد انحرافاً ؛ ليكون هو متميزاً عليه . إذن فالقيم معترف بها أيضاً حتى لدى المنحرفين ، واذكروا جيداً أننا نقرأ فى سورة يوسف هذا القول الحكيم :

﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ ٱلْآخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾

(سورة يوسف)

هم فى السجن مع يوسف ، لكن لكلٍ سبب فى أنهم سجنوه ، فسبب هؤلاء الذين سألوا يوسف هو أنهم أجرموا ، لكن سبب وجود يوسف فى السجن أنه برىء . والبرىء كل فكره فى الله ، أما الذين انحرفوا ودخلوا معه السجن عندما ينظرون إليه يجدونه على حالة حسنة ، بدليل أن أمراً جذبهم وهمّهم فى ذاتهم بأن رأوا رؤيا ،

فذهبوا لمن يعرفون أنه إنسان طيب برغم وجوده معهم فى السجن ، فقد أعجبوا به بدليل أنهم قالوا له : « إنا نراك من المحسنين » . ومن يقول : « إنا نراك من المحسنين » لابد أن تكون عنده قدرة على تمييز القيم ، ثم قاسوا فعل يوسف عليها فوجدوها حسنة ، وإلا فكيف يُعرف ؟ . إذن فالقيم معروفة عندهم ، فلما جاء أمر يهمهم فى ذاتهم ذهبوا إلى يوسف .

ومثال ذلك : هناك لص لا يمل من السرقة ولا يكف عنها ، وبعد ذلك جاء له أمر يستدعيه للسفر إلى مكان غير مأمون ، فاللص فى هذه الحالة يبحث عن إنسان أمين ليقضى الليل عنده ولا يذهب للص مثله . إذن فالقيم هى القيم ، وعندما قال أصحاب يوسف فى السجن : « إنا نراك من المحسنين » ، استغل سيدنا يوسف هذه المسألة ووجدهم واثقين فيه فلم يقل لهم عن حكايتهم ابتداء ويؤول لهم الرؤيا ، بل استغل حاجتهم إليه وعرض عليهم الإيمان قال :

﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ ﴾

(سورة يوسف)

لقد نقلهم من حكايتهما لحكايته ، فمادام يريدان استغلال إحسانه فلماذا لا يستغل حاجتهما له ويعظهما ويبشرهما بدين الله ؟ وكأنه يقول لهما : أنتما جئتما إلىّ لأنكما تقولان إننى من المحسنين . وأنتما لم تريا كل ما عندى بل إن الله أعطانى الكثير من فيضه وفضله ، ويقول الحق على لسان يوسف :

﴿ لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ تُرۡزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا بِتَأۡوِيلِهِۦ ﴾

(من الآية ٣٧ سورة يوسف)

أى أن يوسف الصديق عنده الكثير من العلم ، ويقر لهما بفضل الله عليه : فليس هذا العلم من عندى :

﴿ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ ﴾

(من الآية ٣٧ سورة يوسف)

وبعد ذلك يدعوهما لعبادة الإله الواحد كى يستنجدا به بدلاً من الآلهة المتعددة

التى يتخذانها معبودا لهما وهى لا تضر ولا تنفع .

﴿ ءَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾

(من الآية ٣٩ سورة يوسف)

إذن فالقيم واحدة ، والله يريد أن يتوب عليكم ، ولكن الذين يتبعون الشهوات يريدون أن تميلوا ميلاً عظيماً ، حتى لا تكونوا مميزين عليهم تميزاً يحقرهم أمام أنفسهم ، فهم يريدون أن تكونوا فى الانحراف أكثر منهم ، لأنهم يريدون أن يكونوا متميزين فى الخير أيضاً ويقولون لأنفسهم : « إن كنا شريرين فهناك أناس شرٌ منا » .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الْإِنسَانُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾ ﴾

فسبحانه بعد أن قال : « يريد الله ليبين لكم » ليبصر ، و « الله يريد أن يتوب عليكم » ليغفر ، والآن يقول : « يريد الله أن يخفف عنكم » لييسر ، وهى ثلاثة أمور هامة . ويقول سيدنا ابن عباس ـ رضى الله عنه وعن أبيه ـ : « فى سورة النساء ثمانى آيات لأمة محمد هى خير مما تطلع عليه الشمس وتغرب :

الأولى قول الحق :

﴿ يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ ﴾

(سورة النساء)

والثانية هى قول الحق :

﴿ وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ ﴾

(سورة النساء)

والثالثة هى قول الحق :

﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾ ﴾

(سورة النساء)

والرابعة هى قول الحق :

﴿ إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ ﴾

(سورة النساء)

والخامسة هى قول الحق :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾ ﴾

(سورة النساء)

والسادسة هى قوله سبحانه :

﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ ﴾

(سورة النساء)

والسابعة هى قوله تعالى :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ ﴾

(سورة النساء)

والثامنة هى قوله تعالى :

﴿ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾ ﴾

(سورة النساء)

هذه هى الآيات الثمانى التى لم تؤت مثلها أى أمة إلا أمة محمد عليه الصلاة والسلام . ومنها قول الحق : « يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفا » . وما هو ضعف الإنسان ؟ . الضعف هو أن تستميله المغريات ولا يملك القدرة على استصحاب المكافأة على الطاعة أو الجزاء على المعصية ، لأن الذى تتفتح نفسه إلى شهوة مايستبعده ـ غالباً ـ خاطر العقوبة ، وعلى سبيل المثال ، لو أن السارق وضع فى

ذهنه أن يده ستقطع إن سرق ، فسيتردد فى السرقة ، لكنه يقدر لنفسه السلامة فيقول : أنا أحتال وأفعل كذا وكذا كى أخرج .

إذن فضعف الإنسان من ناحية أن الله جعله مختارا تستهويه الشهوات العاجلة ، لكنه لو جمع الشهوات أو صعد الشهوات فلن يجد شهوة أحظى بالاهتمام من أن يفوز برضاء ولقاء الله فى الآخرة .

وقول الحق : « يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفا » نلحظ فيه أن التخفيف مناسب للضعف ، والضعف جاء من ناحية أن الإنسان أصبح مختاراً وخاصة فى أمور التكليف ، فالذى جعل فيه الضعف جعله مختاراً يفعل كذا أو يفعل كذا ولكل أمر مغرياته . ، ومغريات الشهوات حاضرة . ومغريات الطاعة مستقبلة . فهو يغلب دائماً جانب الحاضر على جانب المستقبل .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَـٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَـٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ۚ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ ﴾

وعندما يريد الحق سبحانه وتعالى أن يلفت خلقه إلى أن يؤمنوا به يلفتهم إلى الكون ، ويلفتهم إلى ما خلق الله من ظواهر ليتأكدوا أن هذه الظواهر لا يمكن أن تكون قد نشأت إلا عن قادر عليم حكيم ، فإذا ما انتهوا إلى الإيمان به استقبلوا التكليف الذى يتمثل فى افعل كذا ولا تفعل كذا ، فحين يخاطبهم بالتكليف يجعل لأمر التكليف مقدمة هى أنك ألزمت نفسك فى أن تدخل إلى هذا التكليف ، ولم يرغمك الله على أن تكون مكلفاً ، وإنما أنت دخلت إلى الإيمان بالله باختيارك

وطواعيتك .ومادمت قد دخلت على الإيمان باختيارك وطواعيتك فاجعل إيمانك بالله حيثية كل حكم يحكم به الله عليك . من افعل كذا ولا تفعل كذا ، ولا تقل : لماذا أفعل كذا يارب ، ولماذا لا أفعل كذا يارب ؟ بل يكفى أن تقول : الذى آمنت به إلها حكيماً قادراً هو سبحانه مأمون على أن يأمرنى وأن ينهانى . ولذلك يجىء الحق دائما قبل آيات التكليف بقوله سبحانه : « ياأيها الذين آمنوا » فهو لم يكلف مطلق الناس ، وإنما كلف من آمن به .

إذن فحين يكلف من آمن به لا يكون قد اشتط وجار عليه لأنه قد آمن به بمحض اختياره .

وإذا لفتَّ إنسانا ونبهته وأمرته بأمر تكليفى مثل صَلِّ ، أو امتنع عن فعل المنكر فقال لك : « لا إكراه فى الدين » هنا يجب أن تقول له : أنت لم تفهم معنى قول الحق : « لا إكراه فى الدين » فأصل التدين والإيمان بالله ألاّ يكرهك أحد عليه ، بل ادخل إلى الإيمان بالله باختيارك ، لكن إذا دخلت إلى الإيمان بالله فالتزم بالسماع من الله فى « افعل » و « لا تفعل » فحين يقول الحق : « ياأيها الذين آمنوا » فهو يعطينا حيثيات التكليف ، أى علة الحكم . فعلّة الحكم أنك آمنت بالله إلهاً حكيماً قادراً . ومادمت آمنت بألله إلها حكيماً قادراً فسلم زمام الأوامر والنواهى له سبحانه ، فإن وقفت فى أمر بشىء أو نهى عن شىء فراجع إيمانك بالله .

إذن فقوله : « لا إكراه فى الدين » أى أنك حر على أن تدخل فى الإيمان بالله أو لا تدخل ، لكن إذا ما دخلت فإياك أن تكسر حكماً من أحكام الله الذى آمنت به ، وإن كسرت حكماً من أحكام الله تدخل معنا فى إشكال ارتكاب السيئات أو الذنوب .

والأحكام التى سبقت للذين آمنوا هى أحكام تعلقت بالأعراض وبإنشاء الأسرة على نظام طاهر نقى كى يأتى التكاثر تكاثراً نقياً طاهراً ، وتكلمت الأيات عن المحرمات من النساء وكذلك المحللات ؛ وهاهو ذا سبحانه يتكلم عن المال ، وهو الذى يقيم الحياة ، والمال كما نعرف ثمرة الجهد والمشقة ، وكل ما يتمول يعتبر مالاً ، إلا أن المال ينقسم قسمين : مال يمكن أن تنتفع به مباشرة ، فهناك من يملك

الطعام ، وآخر يملك الشراب ، وثالث يملك أثوابا، وهذا نوع من المال ينتفع به مباشرة ، وهناك نوع آخر من المال ، وهو « النقد » ولا ينتفع به مباشرة ، بل يُنتفع به بإيجاد ما ينتفع به مباشرة .

وهكذا ينقسم المال إلى رزق مباشر ورزق غير مباشر . والحق سبحانه وتعالى يريد أن يحمى حركة الحياة ، لأنه بحماية حركة الحياة يغرى المتحرك بأن يتحرك ويزداد حركة . ولو لم يحم الحق حركة الحياة ، وثمرة حركة الحياة فماذا يقع ؟ تتعطل حركة الحياة .

وإننا نلاحظ أن كل مجتمع لا يؤمن فيه على الغاية والثمرة من عمل الإنسان تقل حركة العمل فيه ، ويعمل كل واحد على قدر قوته . ويقول لنفسه : لماذا أعمل ؟ لأنه غير آمن . لكن إذا كان آمناً على ثمرة حركته يغريه الأمن على ماله على أن يزيد فى حركة العمل ، وحين تزيد حركة العمل فالمجتمع ينتفع وإن لم يقصد المتحرك . فليس ضرورياً أن يقصد الإنسان بكل حركته أن ينفع المجتمع . لا ، اجعله يعمل لنفع نفسه .

لقد ضربنا هذا المثل سابقاً : إنسان مثلاً عنده آلاف الجنيهات وبعد ذلك وضعها فى خزانة ثم تساءل : لماذا أضعها فى خزانة ؟ لماذا لا أبنى بها بيتاً آخر وأكرى منه شقتين ، فسيأتينى منه عائد ؟ هل كان المجتمع فى بال مثل هذا الإنسان ؟ لا ، إن باله مشغول بمصلحته ؛ لذلك فلنجعل مصلحة كل إنسان فى باله ، وهنا سيستفيد المجتمع بحركته قصد أو لم يقصد . لأنه ساعة يأتى ليحفر الأساس سيعطى أناساً أجورهم ؛ وساعة يأتى بالطوب يشتريه بثمن ، وساعة يبنى يعطى المهندس والعمال أجورهم ؛ لذلك أقول : اعمل لنفسك فى ضوء شرع الله ، وسينتفع المجتمع قهراً عنك .

ومن العجيب أنك تريد أن تنفع نفسك فيُبَيِّنُ لك ربنا : أنت ستنفع غيرك قبل أن تنتفع بعائد المنزل الذى بنيته ، ولا تظن أن أحداً سيأخذ رزق ربنا ولن يجريه على الخلق ، لا ، إن المجتمع سينتفع بالرغم منك .

إذن فمن حظ المجتمع أنْ نصون حركة الحياة . ونؤمن كل متحرك فى الحياة على ماله . لكن إن كنا حاكمين يجب أن تكون أعيننا مبصرة : أيكسب من حلّ أم لا ؟ فإذا كان الكسب حلالاً نشكره ، أما إذا كان يكسب من حرام ، فنحن نسائله ، وإن عمل على غير هذا توقفت حركة الحياة ، وإن توقفت حركة الحياة فهذا أمر ضار بالذين لايقدرون على الحركة ، لماذا ؟ لأن الله قسم المواهب على الناس ، فليس كل واحد من الناس يملك الطموح الحركى ، ولا يملك كل إنسان فكراً يخطط به ، فقد لا يكون فى المجتمع إلا قلة تخطط ، والباقون هم جوارح تنفعل للفكر المخطط ، والفكر يعمل لجوارح كثيرة ، فكذلك يكون هناك مفكر واحد هو الذى يضع خطة ينتفع بها الكثير من الناس .

إذن فلا بد أن نرعى حركة المتحرك وننميها ؛ لأن المجتمع ينتفع منها ، وإن لم يقصد المتحرك إلا مصلحة نفسه ، صحيح أن الذى ليس فى باله إلا نفسه إنما يحبط ثواب عمله ، وصحيح أن من يضع الناس فى باله إنما يُعطى ثمرة عمله ويأخذ ثواباً أيضاً من الله .

والحق سبحانه وتعالى يأتى فى مسائل المال ويوضحها توضيحا تامًا ليحمى حركة الحياة ويُغرى الناس بالحركة ـ وبذلك يتعدد المتحركون وتتعدد الحركات ، ويستفيد المجتمع ، فقال : « يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل » وساعة تجد أمراً لجماعة فى جمع مأمور به فقسّم الأفراد على الأفراد .

مثال ذلك : عندما نقول لجماعة : اركبوا سياراتكم أى : ليركب كل واحد منكم سيارته ، والمدرس يدخل الفصل ويقول للتلاميذ : أخرجوا كتبكم . أي أن كل تلميذ عليه أن يخرج كتابه . فمقابلة الجمع بالجمع تقتضى القسمة آحاداً ، وقول الحق : « لا تأكلوا » فهذا أمر لجمع . و« أموالكم » أيضا جمع ، فيكون معناه : لا يأكل كل واحد ماله ، وكيف لا يأكل كل واحد منكم ماله ؟ ـ يوضح الحق : « بالباطل » . فيكون مطلوبا من كل واحد منكم ألا يأكل ماله بالباطل . والإنسان يأكل الشيء لينتفع به . والحق يوصيك ويأمرك : إياك أن تصرف قرشاً من مالك وتضيعه إلا فى حق ، هذا إذا كنا سنقابل المفرد ، فلا يأكل واحد منكم ماله

بالباطل ، بل يوجهه إلى الأمر النافع ، الذى ليس فيه حرمة ، والذى لا يأتى بعذاب فى الآخرة .

وإذا كان المراد أن لا أحد يأكل مال الآخر ، فسنوضحه بالمثل الآتى : لنفترض أن تلميذاً قال لمدرسه : يا أستاذ قلمى كان هنا وضاع . فيقول الأستاذ للتلاميذ : لا تسرقوا أقلامكم ، فهل معنى ذلك أن الأستاذ يقول : لا يسرق كل واحد قلمه أو لا يسرق كل واحد قلم أخيه ، إذن فيكون المعنى الثانى « لا تأكلوا أموالكم » ، أى لا يأكل كل واحد منك مال أخيه بالباطل .

وكيف يقول : « أموالكم »؟ ومادام مالهم فليس عليهم حرج ؟ لا ، لأن معناها المقصود : لا يأكل كل واحد منكم مال أخيه . ولماذا لم يقل ذلك وقال : « أموالكم » ؟ لأن عادة الأوامر من الحق ليست موجهة إلى طائفة خُلِقت على أن تكون آكلة ، وطائفة خُلِقت على أن تكون مأكولة ، بل كل واحد عرضة فى مرة أن يكون آكلاً لمال غيره ؛ ومرة أخرى يكون ماله مأكولاً . فأنا إذا أكلت مال غيرى فسوف يأكل غيرى مالى . فأكون قد عملت له أسوة ويأكل مالى أيضاً ، فكأنه سبحانه عندما يقول لك : لا تأكل مالك إنما ليحمى لك مالك .

إن الحق سبحانه وتعالى يريد أن يصنع من المجتمع الإيمانى مجتمعاً واحداً . ويقول إن المال الذى عند كل واحد هو للكل . وأنك إن حافظت على مال غيرك حافظ غيرك على مالك . وأنت إن اجترأت على مال غيرك فسيجترىء المجموع على مالك . وأنت ساعة تأكل مال واحد تجرِّىء آلاف الناس على أن يأكلوا مالك . وحين لا تأكل مال غيرك كأنك لم تأكل مالك .

« لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل » وكلمة « أكل » معناها : الأخذ ؛ لأنّ الأكل هو أهم ظاهرة من ظواهر الحياة ، لأنها الظاهرة المتكررة ، فقد تسكن فى بيت واحد طوال عمرك ، وتلبس جلباباً كل ستة أشهر ، لكن أنت تتناول الأكل كل يوم ، وحينما نزلت الآية قال المسلمون : نحن لا نأكل أموالنا بالباطل . وتحرجوا أن يأكلوا عند إخوانهم . وبعد ذلك رفع الأمر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأوضح أن

أكل التكارم ليس بالباطل - أنزل الله قوله :

﴿ لَيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ﴾

(من الآية ٦١ سورة النور)

هذه رفعت عندهم الحرج ، إنما ساعة سمعوا أكل الباطل قالوا : لا آخذ حاجة من أحد إلا بمقابل .

وما هو « الباطل »؟ . الباطل هو أن تأخذ الشيء بغير حقه . مثال ذلك الربا ، لأن معنى « ربا » أن واحدا عنده فائض وآخر يحتاج ، والمحتاج ليس عنده الأصل أنطلب منه أن يرد الأصل وزيادة ، ويعطى الزيادة لمن عنده ؟

كيف يتأتّى هذا ؟ هذا هو الأخذ بالربا ، أو الأخذ بالسرقة ، بالاختلاس أو بالرشوة أو بالغش فى السلع ، كل ذلك هو أكل مال بالباطل،وساعة تريد أن تأكل مالاً بالباطل ؛ كأنك تريد أن تتمتع بثمرة عمل غيرك ، وأنت بذلك تتعود على التمتع بثمرة عمل غيرك ، وتضمحل عندك قدرة العمل ويصير أخذك من غيرك . أخذاً لماله كَرْهاً وبغير وجه حق وبذلك تتعطل حركة متحرك فى الحياة وهو ذلك العاطل « البلطجى » ، ويخاف المتحرك فى الحياة وهو من تُفرض عليه الإتاوة فيقل ويضعف نشاطه فى الحياة ، كيف يكون شكل هذا المجتمع ؟ إن المجتمع فى هذه الحالة سيعانى من كرب وصعوبات فى الحياة .

فقوله سبحانه : « لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل » هو أمر لكل مسلم : لا ترابِ ، ولا تسرق ، ولا تغش ، ولا تدلس ، ولا تلعب ميسراً ، ولا تختلس ،

ولا ترتش ؛ لأن كل هذه الأمور هى أكل أموال بالباطل . وعندما ندقق فى مسألة لعب الميسر نجد أمراً عجيباً ؛ فالذين يلعبون الميسر يدعون أنهم أصدقاء ، وينتظر بعضهم بعضاً ويأكلون معاً ، وكل واحد منهم يجلس أمام الآخر وهو حريص أن يأخذ ما فى جيبه ، فأى صداقة هذه ؟.

إذن فساعة يقول الحق : « لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل » ، وساعة يأمرك الحق : إياك أن يصعب عليك التكليف ؛ لأنه شاق عليك ، ولكن قدر ما يأخذه منك التكليف من تضييق حركة تصرفك ، وما يعطيك التكليف من تضييق حركة الآخرين ، الحق قال لك : لا تأخذ مال غيرك لكى لا يأخذ غيرك مالك ، وبذلك تكسب أنت ويكسب كل المجتمع ، فحين يصدر أمر لإنسان أن يكف يده عن السرقة فهو أمر للناس جميعاً كى يكفوا عن سرقة هذا الإنسان ؛ لذلك فحين تستقبل أى حكم عن الله لا تنظر إلى ما أخذه الحكم من حريتك ، ولكن انظر إلى ما أعطاه الحكم لصالحك من حرية الآخرين .

ومثال ذلك : حين يوضح الحق وينهى عن النظر إلى المرأة الأجنبية فإياك أن تمد عينك إلى محارم غيرك ، هو أمر لا يخصك وحدك ، ولكنه أمر لملايين الناس ألا يمدوا عيونهم إلى محارمك ، وعندما توازن الأمر فأنت الذى تكون أكثر كسباً .

إننى لذلك أقول دائماً : لا تنظر إلى ما فى التكليف من مشقة أو إلى ما أُخذ منك ، ولكن انظر فيه إلى ما يعطى لك ؛ فإن نظرت هذه النظرة وجدت كل تكليف من الحق هو ربح لك أنت . وإلا لو أننا أطلقنا يدك فى الناس جميعاً لا بد أن تقدر أننا نطلق أيدى الناس جميعاً فيك . وأنت إذا أطلقت يدك فى الناس فلن تؤثر فيهم مثلما يؤثرون فيك لو أطلقوا أيديهم فيك وفيما يخصك ، فمن مصلحتك ألا تطلق يدك فى الناس .

« يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم » وكلمة « إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم » أى إلّا فى النفعية المتبادلة تبادل الأعواض،فشىء عوض شىء . وجاءت التجارة ؛ لأن التجارة هى

الحلقة الجامعة لأعمال الحياة ؛ فالتاجر هو وسيط بين من ينتج سلعة ومن يستهلكها . والسلع فى حركتها إنتاج واستهلاك . والإنتاج قد يكون زراعيا او صناعياً أو خدمياً . إذن فالتجارة جامعة لذلك كله .

وكلمة « عن تراض » تدل على أن رضا النفس البشرية فى الأعواض مشروط ، حتى ما أخذ بسيف الحياء يكون حراما ؛ لذلك أقول : على كل واحد أن يغربل إيمانه ، وينظر هل حياته فى أعواض الأموال وأعواض التجارة وأعواض المبادلات مستوية أو غير مستوية ؟ فإن لم تكن مستوية ؛ فعليه أن يفكر فيها قليلاً حتى يُعطى كل ذى حق حقه . وحتى لا يدخل فى دائرة حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« إنما أنا بشر وإنكم تختصمون إلىّ ، فلعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضى له على نحو ما أسمع ، فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هى قطعة من النار فليأخذها أو ليتركها »[1] .

ويتابع الحق : « ولا تقتلوا أنفسكم » وهنا أيضاً مقابلة جمع بجمع ، ويعنى : لا يقتل كل واحد منكم نفسه ، وهذا ما يفعله المنتحر ـ ولا يقتل نفسه إلا إنسان وجد نفسه فى ظرف لا يستطيع فى حدود أسبابه أن يخرج منه . ونقول له : أنت نظرت لنفسك كإنسان معزول عن خالق أعلى ، لكن المؤمن لا يعزل نفسه عن خالقه ؛ فساعة يأتيه ظرف فوق أسبابه ولا يقوى عليه فعليه أن يفكر : وهل أنا فى الكون وحدى ؟ لا ، إن لى ربًّا . ومادام لى رب فأنا لا أقدر وهو ـ سبحانه ـ يقدر ، وهنا يطرد فكرة الانتحار ؛ لأن المنتحر هو إنسان تضيق أسبابه عن مواجهة ظروفه فيقتل نفسه .

وإن فائدة الإيمان أنه ساعة يأتى ظرف عليك وتنتهى أسبابك تقول : إن الله لن يخذلنى وهو يرزقنى من حيث لا أحتسب ، ويفتح لى أبواباً ليست فى بالى ، وضربنا مثلاً كى نقرب المعنى ، وقلنا : هب أن إنساناً يسير فى الطريق ومعه « جنيه واحد »

(١) رواه مالك فى الموطأ ورواه أحمد فى مسنده ورواه البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه عن أم سلمة .

فى جيبه ، ثم ضاع الجنيه ، وليس فى بيته إلا هو ؛ لذلك يحزن جداً على ذلك الجنيه . لكن من يضيع منه « جنيه » وعنده فى البيت خمسة « جنيهات » فالمصيبة تكون خفيفة ، كذلك من فقد أسبابه فعليه أن يخفف الأمر على نفسه فلا ييأس ، فَلِمَ يقتل نفسه ؟ الله يقول فى الحديث القدسى :

(بادَرَنى عبدى بنفسه حرمت عليه جنتى)[1] .

وهل أنت من وهبت الحياة لنفسك ؟ لا ، ولذلك فواهب الحياة هو الذى يأخذها ، ومن ينتحر لا يدخل الجنة ، لأنه لم يتذكر أن له إلهاً . ولنذكر هنا موقف قوم موسى عليه السلام عندما خرجوا ، وطاردهم قوم فرعون . فماذا قال قوم موسى ؟ قالوا :

﴿ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾

(من الآية ٦١ سورة الشعراء)

وهذا كلام صحيح فأمامهم البحر ومن ورائهم فرعون ، وهم قد قالوا ذلك بأسبابهم وبشريتهم . لكن ماذا قال سيدنا موسى ؟

﴿ قَالَ كَلَّآ ﴾

(من الآية ٦٢ سورة الشعراء)

و« كلا » هذه نفى ، وكيف يقول موسى : « كلا » وما رصيدها ؟ إنه لم يقل : « كلا » ببشريته ، ولكن قالها برصيده من الإيمان بالإله العظيم فقال :

﴿ كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴾

(من الآية ٦٢ سورة الشعراء)

إذن فقوله : « ولا تقتلوا أنفسكم » أى ولا يقتل كل واحد منكم نفسه ؛ لأنك لا تقتل نفسك إلا إذا ضاقت أسبابك عن مواجهة ما تعانيه ، وهذا يدل على أنك

---

(١) رواه البخارى فى الجنائز .

عزلت نفسك عن ربك ، ولو ظللت على الإيمان بأن لك خالقاً لانفرجت عنك الكروب ، وأى مسألة تأتى تقول : « إن معى ربى سيهدين » .

إن الإيمان يعطيك صلابة استقبال الصعاب . وقد تأخذ « ولا تقتلوا أنفسكم » معنى آخر أى ، ولا تؤدوا بأنفسكم لأن تقتلوا ، أى لا تلق بنفسك إلى التهلكة ، أو « ولا تقتلوا أنفسكم » على أن المؤمنين هُم وحدة إيمانية ، أو أنّ المشرع لهذه الوحدة قال : الذى يَقتل يُقتل فإياك أن تقتل نفسك ، أى لا تقتل غيرك حتى لا يصير الأمر إلى أنك تَقْتُل نفسك لأنه سيقتص منك .

فقوله : « ولا تقتلوا أنفسكم » يعنى : لا تفعلوا ما يؤدى بكم إلى القتل ، ويحنن الحق الإنسان على نفسه وليس على الناس فحسب ، فلا يقول لك : لا تَقْتُل حتى لا تُقْتَل ، لأنه سبق أن قال :

﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُو۟لِي ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾

(سورة البقرة)

وعندما يعرف القاتل أنه إن قَتَلَ يُقْتَل ، فهو يتجنب ذلك ، ونلحظ أن الحق قال فى آية أخرى :

﴿ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ ﴾

(من الآية ٦١ سورة النور)

وهل أنا سأسلم على نفسى أو على الناس الداخل عليهم ؟ إن الإنسان يسلم على هؤلاء الناس ، وعندما تقول : « السلام عليكم » ، يعنى الأمان لكم . فسيقولون لك : « وعليكم السلام » فكأنك قد سلمت على نفسك . أو أن الحق قد جعل المؤمنين وحدة واحدة ، ومعنى « وحدة » يعنى أن ما يحدث لواحد يكون للكل .

إذن فقوله : « ولا تقتلوا أنفسكم » أى ولا يقتل واحد منكم نفسه ، فتصلح « ولا تقتلوا أنفسكم » بمعنى : ولا يقتل واحد منكم نفسه بأن ينتحر ، هذه واحدة ، ولا يقتل واحدٌ منكم نفسه بأن يلقى بها إلى التهلكة ، أو لا يقتل واحد منكم نفسه بأن يقتل غيره فيقتَل قصاصاً ، أو لا تقتلوا أنفسكم يعنى : لا يقتل أحد منكم نفس

غيره لأنكم وحدة إيمانية وليس واحداً بعينه هو المأمور بل الكل مأمور ، فلا يقتل واحد منكم نفس غيره .

ويذيل الحق الآية : « إن الله كان بكم رحيماً » . وبالله ، ساعة ينهانى الحق عن أن أقتل نفسى أو أقتل غيرى ، أليست هذه منتهى رحمة الصانع بصنعته ؟ إنها منتهى الرحمة .

ويقول سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ ﴾

« ذلك » : « ذا » وحدها للإشارة ، و « الكاف » للخطاب ، والخطاب إذا أُفرد ، فالمراد به خطاب الله لرسوله ، والمؤمنون فى طى ذلك الخطاب . ومرة يقول : « ذلكم » أى أنه يخاطبنا نحن ، مثل :

﴿ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ ﴾

(من الآية ٢٣٢ سورة البقرة)

وذلك إشارة لما تقدم مباشرة فى الآية الخاصة بقتل النفس ، وكذلك ما قبلها وهو أكل الأموال . والبعض يأخذها لكل ما تقدم من أول قوله : « ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلا ما قد سلف » ، والبعض الآخر يأخذها من أول الأوامر والنواهى من أول السورة إلى هنا ، وكلها تصح .

« ومن يفعل ذلك عدواناً وظلماً » . والعدوان هو التعدى ، والتعدى قد يكون ظلماً وقد يكون نسياناً . ومن يتعدى بالظلم يكون عارفاً ويأخذ حق غيره ، أما

التعدى بالنسيان فيقتضى أن يراجع الإنسان سلوكه ، لماذا ؟ لأن العاقبة مريرة .

وقوله تعالى : « ومن يفعل ذلك عدواناً وظلماً فسوف نصليه ناراً » والفعل إذا أسند لفاعله أخذ قوته من فاعله . فعندما يقول لك أحد : إن عملت هذه فابنى الصغير سيصفعك صفعة ، وهو قول يختلف عن التهديد بأن يضربك شاب قوى ، لماذا ؟ لأن قوة الحدث نأخذها من فاعل الحدث ، من الذى يُصْلى المعتدى النار ؟ إنه الله ، وسبحانه سيجعله يصطلى بها .

ويقول الحق : « وكان ذلك على الله يسيرا » لأن فعل الله ليس عن معالجة بل ينفذ فوراً . ونعلم أن فعل المعالجة هو كل فعل يحتاج لوقت ، فهناك عمل يحتاج لساعة وكل دقيقة من هذه الساعة تأخذ جزئية من العمل ، وعندما تقسم العمل لستين جزئية ، ينتهى العمل فى ساعة ، وإن كان العمل ينتهى فى عشرة أيام تقول له : أسقط أوقات الراحة وعدم مزاولة العمل ، وقسم العمل على الباقى من الوقت . هذا هو ما يسمى علاجاً ؛ لأن ذلك من عمل الإنسان ، لكن عمل الله يختلف ، فالحق يقول للشىء : « كن فيكون » إذن فكل فعل على الله يسير مادامت المسألة : « كن فيكون » قال سبحانه :

﴿ مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾

(من الآية ٢٨ سورة لقمان)

وسبحانه يوضح : أنا لا أُوجد كل واحد مثلما خلقت آدم وأشكله وأخلقه ثم أبعثه ، لا ، بل كل الخلق كنفس واحدة .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ إِن تَجْتَنِبُوا كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ ﴾

هذه الآية هى إحدى ثمانى آيات قال عنها ابن عباس ـ رضى الله عنه ـ : فى هذه السورة ـ سورة النساء ـ ثمانى آيات خير لهذه الأمة مما طلعت عليه الشمس أو غربت ، وقلنا : إن هذه الآيات تبدأ بقوله سبحانه : « يريد الله ليبين لكم » ، « والله يريد أن يتوب عليكم » ، « يريد الله أن يخفف عنكم » ، ثم جاءت : « إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه » . و « الاجتناب » ليس معناه عدم مزاولة الحدث أو الفعل ، ولكن عدم الاقتراب من مظان الحدث أو الفعل حتى يسدّ المؤمن على نفسه مخايلة شهوة المعصية له وتصوره لها وترائيها له .

هذه الآيات الكريمات كانت خيراً لهذه الأمة مما طلعت عليه الشمس أو غربت ، لأنها تحمى من حق الاختيار الذى وجد فى الإنسان حين لا يلتزم بمنهج الله ، ولو أن الإنسان كان مسيَّراً وَمُكْرَهاً على الفعل لارتاح من هذا الاختيار . وتعب الإنسان جاء من ناحية أن اغترّ بميزته على سائر خلق الله ، والميزة التى ميَّز الله بها الإنسان هى العَقل الذى يختار به بين البديلات . بينما سائر الأجناس كلها رضيت من الله أن تكون مسخرة مقهورة على ما جعلها له بدون اختيار . ونعرف أن الحق قال :

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ ﴾

(سورة الاحزاب)

فالإنسان قد ظلم نفسه ، لأنه أرجح نفسه عند اختيار الشهوة أو اختيار مرادات منهج الله ، بينما المقهورون أو المسخرون ليست عندهم هذه المسألة . وكل كائن منهم يقوم بعمله آلياً وارتاح من حق الاختيار ـ فهذه الآيات طمأنت الإنسان على أنه إن حمق اختياره فى شىء فالله يريد أن يبصره ، والله يريد أن يتوب عليه ، والله يريد أن يخفف عنه . والله يريد إن اجتنب الكبائر أن يرفع عنه السيئات ويكفرها . كل هذه مطمئنات للنفس البشرية حتى لا تأخذها مسألة اليأس من حق الاختيار ، فيوضح : أنا خالقك وأعرف أنك ضعيف لأنَّ عندك مسلكين : كل مسلك يغريك ، تكليف الله بما فيه من الخير لك وما تنتظره من ثواب الله فى الآخرة يُغرى ، وشهوة النفس العاجلة تُغرى .

ومادامت المسألة قد تخلخلت بين اختيار واختيار فالضعف ينشأ ؛ لذلك يوضح

سبحانه : أنا أحترم هذا فيك لأنه وليد الاختيار ، وأنا الذى وهبت لك هذا الاختيار .

والحق حين وهب الاختيار لهذا الجنس الذي هو سيد الأجناس كلها ، يُحبُّ أن يأتى لربه راغبا محبًا : لأن هناك فارقاً بين أن يسخر المسخر ولا يستطيع أن ينفلت عما قدر له أن يعمله ، وتلك تؤديها صفة القدرة لله ، لكن لم تعط لله صفة المحبوبية ؛ لأن المحبوبية أن تكون مختاراً أن تطيع ومختاراً أن تعصى ثم تطيع ، هذه صفة المحبوبية، والله يريد من الإنسان أن يثبت بطاعته صفة المحبوبية له سبحانه ، فالإنسان المحب لمولاه برغم أنه مختار أن يفعل الطاعة أولا يفعلها ينحاز بالإيمان إلى جانب الطاعة .

« إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه » كأن الله بعد تكليفاته فى أمور الأعراض والأموال وتكليفاته فى الدماء من قتل النفس وغيرها ، أوضح : إياكم أن تستقبلوا الأشياء استقبالاً يجعلكم تيأسون من أنكم قد تعجزون عن التكليف لبعض الأمور ، فأنا سأرضى باجتناب الكبائر من المساوى : فالصلاة إلى الصلاة كفارة لما بينهما ، والجمعة للجمعة كفارة ، ومن رمضان لرمضان كفارة ، لكن بشرط ألا يكون عندكم إصرار على الصغائر لماذا ؟ لأنك إن قدرت ذلك فقدر أنك لا تقدر عَلى استبقاء حياتك إلى أن تستغفر ، فلا تقل : سأفعل الذنب ثم أستغفر ، هذه لا تضمنها ، وأيضا تكون كالمستهزىء بربه .

« إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم » ـ فى السيئات يقول : « نكفر عنكم سيئاتكم » وقلنا : إن « الكفر » هو « الستر » أى يسترها ـ ومعنى نسترها يعنى لا نعاقب عليها ، فالتكفير إماطة للعقاب ، والإحباط إماطة للثواب . فإن ارتكب إنسان أمراً يستحق عليه عقاباً وقد اجتنب الكبائر يكفر عنه الله أى يضع ويستر عنه العقاب ، أماّ مَن عمل حسنة ولم يقبلها الله ، فهو يحبطها ، إذن فالتكفير ـ كما قلنا ـ إماطة للعقاب ، و« الإحباط » إماطة للثواب كما فى قوله :

﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ ﴾

(من الآية ٢١٧ سورة البقرة)

أى ليس لهم على تلك الأعمال ثواب ؛ لأنهم فعلوها وليس فى بالهم الذى يعطى الثواب وهو الله . بل كان فى بالهم الخلق ، ولذلك يقول النبى صلى الله عليه وسلم :

(فعلت ليقال وقد قيل) .

أنت فعلت ليقال وقد قيل ، وقالوا عنك إنك محسن كبير ، قالوا : إنك بنيت المسجد ، وقرأوا اللافتة التى وضعتها على المسجد وسط احتفال كبير . ويقول الحق :

﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ ﴾

(سورة الفرقان)

أنت فعلت ليقال وقد قيل ، ولذلك فالذين عملوا مثل هذه ووضعوا لافتات من رخام عليهم أن يفطنوا لهذا الأمر ، وإن كان الواحد منهم حريصاً على أنه يأخذ الثواب من يد الله فليرفع هذه اللافتة ويسترها وتنتهى المسألة ، فالله سبحانه وتعالى يحب ممن يتصدق أن يكون كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى شأن السبعة الذين يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله منهم :

(ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه)[1] .

فأنت حين تتصدق لماذا تفضح من يتقبل الصدقة . والحق يقول : « إن تجتنبوا » ، و « الاجتناب » هو إعطاء الشىء جانباً . ولذلك يقولون : فلان ازورّ جانبه عنى ، أى أنه عندما قابلنى أعطانى جانبه ، والمراد فى قوله : « إن تجتنبوا » هو التباعد ، والحق ساعة يطلب منك ألا تصنع الحدث ويطلب منك بأسلوب آخر أن تجتنبه ، فهذا يدل على أن الاجتناب أبلغ ، لأن الاجتناب معناه ألا تكون مع المنهى عنه فى مكان واحدٍ فعندما يقول الحق :

﴿ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَـٰنِ ﴾

(من الآية ٣٠ سورة الحج)

---

(١) رواه البخارى ومسلم وأحمد والنسائى والترمذى .

وعندما يقول :

﴿ وَٱجْتَنِبُواْ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴾

(من الآية ٣٠ سورة الحج)

فاجتنبوه أي : ابتعدوا عنه . لماذا ؟ لأن حمى الله محارمه . .

وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الحلال بين والحرام بين وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمها كثير من الناس فمن اتقى المشبهات فقد استبرأ لعرضه ودينه ومن وقع فى المشبهات وقع فى الحرام كراع يرعى حول الحمى يوشك أن يواقعه ألا وإن لكل ملك حمى ألا وإن حمى الله تعالى فى أرضه محارمه . . »[1] .

والحق يقول :

﴿ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾

(من الآية ٩٠ سورة المائدة)

واجتنابه يكون بألا توجد معه فى مكان واحد يخايلك ويشاغلك ويتمثل لك ، فعندما تكون مثلاً فى منطقة الذين يشربون الخمر يقول لك الحق : اجتنبها . أى لا تذهب إليها ؛ لأن الخمر عندما توجد أمامك وترى من يشربون وهم مستريحون مسرورون . . فقد تشربها ، لكن عندما تجتنب الخمر ومجالسها فأنت لا تقع فى برائنها وإغرائها ، ولذلك قلنا : إن الاجتناب أبلغ من التحريم ، وهناك أناس يبررون الخمر لأنفسهم ويقولون : إن الخمر لم يرد فيها تحريم بالنص !! نقول لكل واحد منهم : حسبك أن شرب الخمر قرن بالرجس من الأوثان ، فالحق يقول :

﴿ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾

(من الآية ٣٦ سورة النحل)

فاجتناب الطاغوت ليس معناه ألا تعبده ، بل إياك أن تراه ، إذن فاجتناب الخمر ليس بألا تشربها ، بل إياك أن تكون فى محضرها .

(١) رواه البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجة .

« والكبائر » جميع « كبيرة » ، ومادام فيه « كبيرة » يكون هناك مقابل لها وهى « صغيرة » و« أصغر » ، فالأقل من « الكبيرة » ، ليس « صغيرة » فقط ، لأن فيه « صغيرة » ، وفيه « أصغر » من « الصغيرة » وهو « اللمم » .

والحق يقول : « إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم » و« السيئات » منوطة بالأمر الصغير وبالأصغر ، لكن هذه المسألة وقف فيها العلماء ، قالوا : معنى ذلك أننا سنغرى الناس بفعل السيئات ماداموا قد اجتنبوا الكبائر فقد يفعلون الصغائر . نقول : لا ، فالإصرار على الصغيرة كبيرة من الكبائر ؛ لذلك لا تجز الصغائر لنفسك ؛ فالحق يُكَفِّر ما فلت منك فقط ؛ ولذلك يقول الحق :

﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ ﴾

(من الآية ١٧ سورة النساء)

يفعلون الأمر السيىء بدون ترتيب وتقدير سابق وهو سبحانه قال بعد ذلك :

﴿ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ ﴾

(من الآية ١٨ سورة النساء)

إذن فمعنى أنك تصرّ على صغيرة وتكررها إنّها بذلك تكون كبيرة ، وإن لم نجتنب الكبائر ووقعنا فيها فماذا يكون ؟ . يقول العلماء الذين جعلهم الله هبات لطف ورحمة على الخلق : لا كبيرة مع الاستغفار ، ولا صغيرة مع الإصرار . فإن أخذت هذه فخذ تلك ، خذ الاثنتين ، فلا كبيرة مع الاستغفار ، ومقابلها لا صغيرة مع الإصرار .

وحينما أراد العلماء أن يعرفوا الكبيرة قالوا : الكبيرة هى ما جاء فيها وعيد من الله بعذاب الآخرة ، أو جاء فيها عقوبة كالحد مثلاً فهذه كبيرة ، والتى لم يأت فيها حد فقد دخلت فى عداد السيئة المغفورة باجتناب الكبيرة أو الصغيرة أو الأصغر .

وأن سيدنا عمرو بن عبيد عالم من علماء البصرة وزاهد من زهادها ، وهو الذى قال فيه أحد الخلفاء : كلهم طالب صيد غير عمرو بن عبيد ، أى أن كل العلماء

يذهبون إلى هناك ليأخذوا هبات وهدايا إلا عمرو بن عبيد ، إذن فقد شهد له ، هذا العالم عندما أراد أن يعرف مدلول الكبيرة ، وأصر ألا يعرف مدلولها بكلام علماء ، بل قال : أريد أن أعرفها من نص القرآن ، الذى يقول لى على الكبيرة يأتينى بنص من القرآن . ودخل ابن عبيد البصرى على سيدنا أبى عبدالله جعفر بن محمد الصادق ، ونعرف سيدنا جعفر الصادق وهو أولى الناس بأن يُسأل ؛ لأنّه عالم أهل البيت ، ولأنه قد بحث فى كنوز القرآن وأخرج منها الأسرار وعاش فى رحاب الفيض ، فقال ابن عبيد : هذا هو من أسأله ، فلما سلّم وجلس قرأ قول الله سبحانه :

﴿ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ﴾

(من الآية ٣٢ سورة النجم)

ثم سكت !! فقال له سيدنا أبو عبدالله جعفر الصادق : ما أسكتك يا بن عبيد ؟ قال : أحب أن أعرف الكبائر من كتاب الله .

وانظروا إلى الثقة بمعرفة كنوز القرآن ، ساعة قال له : « أحب أن أعرف الكبائر من كتاب الله » . قال أبو عبدالله : نعم ، أى على خبير بها سقطت ، أى جئت لمن يعرفها ، ثم قال : « الشرك بالله ، قال تعالى :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾

(من الآية ٤٨ سورة النساء)

وقال تعالى :

﴿ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ ﴾

(من الآية ٧٢ سورة المائدة)

وأضاف : واليأس من رحمة الله فإن الحق قال :

﴿ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾

(من الآية ٨٧ سورة يوسف)

وهكذا جاء سيدنا أبو عبدالله جعفر الصادق بالحكم وجاء بدليله ، وأضاف : ومن أمن مكر الله ؛ لأنه سبحانه قال :

﴿ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾

(من الآية ٩٩ سورة الأعراف)

والكبيرة الرابعة : عقوق الوالدين ؛ لأن الله وصف صاحبها بأنه جبار شقى ، قال تعالى :

﴿ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ ﴾

(سورة مريم)

وقتل النفس . قال تعالى :

﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا ﴾

(من الآية ٩٣ سورة النساء)

وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات . قال تعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ ﴾

(سورة النور)

وأكل الربا . قال تعالى :

﴿ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ﴾

(من الآية ٢٧٥ سورة البقرة)

والفرار يوم الزحف ، أى إن هوجم المسلمون من أعدائهم وزحف المسلمون فرّ واحد من الزحف . فقد قال تعالى فى شأنه :

﴿ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٦﴾ ﴾

(سورة الأنفال)

وأكل مال اليتيم . قال تعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾ ﴾

(سورة النساء)

والزنا . قال تعالى :

﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ ﴾

(جزء من الآية ٦٨ ، والآية ٦٩ سورة الفرقان)

وكتمان الشهادة . قال تعالى :

﴿ وَلَا تَكْتُمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ ﴾

(من الآية ٢٨٣ سورة البقرة)

واليمين الغموس وهو أن يحلف إنسان على شىء فَعَله وهو لم يفعله أو أقسم أنه لم يفعله ، وهو قد فعله ، أى القسم الذى لا يتعلق بشىء مستقبل . قال تعالى :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

والغلول أى أن يخون فى الغنيمة . قال تعالى :

﴿ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾

(من الآية ١٦١ سورة آل عمران)

وشرب الخمر ؛ لأن الله قرنه بالوثنية . قال تعالى :

﴿ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾

(من الآية ٩٠ سورة المائدة)

وترك الصلاة ؛ لأن الله قال :

﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ ﴾

(سورة المدثر)

ونقض العهد ، وقطيعة الرحم وهو مما أمر الله به أن يوصل . قال تعالى :

﴿ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ

وَيُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ ۚ أُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾

(سورة البقرة)

إذن فكل هذه ، هي الكبائر بنص القرآن ، وكل كبيرة معها حكمة ، عرضها لنا سيدنا ابن عبيد لأنه خاطب عالماً ، فإذا ما نظرنا إلى الاستنباط الذى جاء به سيدنا ابن سيدنا « جعفر الصادق » عندما سأله ، ثم يجيبه بهذا الترتيب وبشجاعة من يقول لابن عبيد . . « نعم » أى إن جوابك عندى ، ثم يذكرها رتيبة بدون تفكير ، وهذا دليل على أنها مسألة قد اختمرت فى ذهنه ، وخصوصاً أنها ليست آيات رتيبة مسلسلة متتابعة ! بل هى آيات يختارها من هنا ومن هناك ، مما يدل على أنه يُعايش أسرار القرآن .

لقد نشأ هذا الرجل فى بيت سيدنا جعفر الصادق وهو الذى وضع للمؤمن منهجاً بحيث لا يصيبه شىء فى نفسه إلا وجد له علاجاً ودواء فى كتاب الله ، إنه وجد أن الزوايا التى تعكّر على الإنسان أنّه يخاف من شىء ، والذى يخاف من شىء يكون هذا الشىء - غالبا - محدوداً معروفاً .

أنا أخاف من الشىء الفلانى ، ولكنّ واحداً يصيبه غمّ وهمّ لا يدرى سببه ، فيقول لك : أنا مغتمّ دون أن أعرف السبب . إذن ففيه انقباض لا يعرف سببه ، وهناك مثلاً إنسان يكيد له أناس كثيرون ويمكرون له ويأتمرون به ، وهناك ثالث يحب الدنيا ويريد أن تكون الدنيا عنده ، كل هذه هى مشاغل النفس البشرية : أن تخاف من شىء ، أن تغمّ من شىء ، أن تشفق من مكر بك وكيد لك ، أن تتطلب أمراً من أمور الدنيا ، وسيدنا جعفر هو الذى قال : عجبت لمن خاف ولم يفزع إلى قول الله سبحانه :

﴿ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾

(من الآية ١٧٣ سورة آل عمران)

انظر لاستنباط الدليل ، الذى يقوله سيدنا جعفر : فإنى سمعت الله بعقبها يقول :

﴿ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ ﴾

(من الآية ١٧٤ سورة آل عمران)

انظر دقة الأداء ، يقول : سمعت الله ، ولم يقل:قرأت ، كأن الإنسان ساعة يقرأ قرآناً لابد أن يتأكد أن الله هو الذى يتكلم . وجلال القديم يغطى على جدية الحادث ، فالذى يقرأ أمامك حادث ، لكنه يقرأ كلام الله ، إذن فجلال القديم يغطى على جدية الحادث . ويضيف سيدنا جعفر : وعجبت لمن اغتم ولم يفزع إلى قول الله سبحانه :

﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾

(من الآية ٨٧ سورة الأنبياء)

ثم يقول : فإنى سمعت الله بعقبها يقول :

﴿ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾

(سورة الأنبياء)

ويضيف سيدنا جعفر : وعجبت لم مُكِرَ به ولم يفزع إلى قول الله سبحانه :

﴿ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾

(من الآية ٤٤ سورة غافر)

فإنى سمعت الله بعقبها يقول :

﴿ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ﴾

(من الآية ٤٥ سورة غافر)

وعجبت لمن طلب الدنيا كيف لا يفزع إلى قول الله سبحانه :

﴿ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾

(من الآية ٣٩ سورة الكهف)

فإنى سمعت الله بعقبها يقول :

﴿ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ ﴾

(من الآية ٣٩ وجزء من الآية ٤٠ سورة الكهف)

هذه هى الاستنباطات الإيمانية ، والاستنباطات هنا كالاستنباطات هناك ، وإذا ما نظرت إلى الاستنباطات التى قالها سيدنا جعفر تجدها تغطى زوايا النفس الاجترائية ؛ لأن التكليف حينما يأتى يحدّ حركة الإنسان عن الشهوات ، فالآيات

جاءت لتحدّ من الاجتراء ، وتجدها تأخذ بالقمة من أول الاجتراء على الوحدانية فى الألوهية إلى قطيعة الرحم ، وقد غطت الآيات كل جوانب الاجتراءات فى النفس البشرية ، أول اجتراء : هو الشرك . . لأنه قال : « إن الشرك لظلم عظيم » والظلم الذى نعرفه : أنك تحكم بشيء للغير وليس من حقه ، فبالله عندما تحكم أن ربنا له شريك ، أليس هذا أعظم الظلم ، وهو ظلم لنفسك ، فإياك أن تظن أنك تظلم الله ؛ لأن ربنا أغنى الشركاء عن الشرك ؛ ولذلك يقول فى الحديث القدسى :

(أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملا أشرك فيه معى غيرى تركته وشركة)[1] .

إن هذا ظلم لنفسك ؛ لأنك حين تعتقد أنّ لله شركاء فقد أتعبت نفسك تعب الأغبياء . واقرأ قول الله :

﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الزمر)

فعبد مملوك لعشرة أسياد ، وياليت العشرة الأسياد متفقون ، بل هذا يقول له : اذهب ، وهذا يقول له : تعال ، إذن فقد أتعب نفسه وأرهقها . إذن فقد ظلمها . . قال تعالى :

﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾

(من الآية ٤٤ سورة يونس)

إن الإيمان بإله واحد يجعلك غير خاضع إلا لوجهة واحدة ، ولا أوامر من جهة أخرى أبداً ، إذن فقد أرحت نفسك ، وهذه قضية يثبتها الواقع ؛ لأن الله قد أنزل فى قرآنه المحفوظ المتلو المقروء :

﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ ﴾

(من الآية ١٤ سورة طه)

فالمؤمن يقول : هذه كلمة صدق ، والكافر يقول ـ والعياذ بالله ـ : هذه الكلمة غير صدق ، والمسألة على أى تقدير منتهية ، واحد جاء وأخذ الكون وقال : لا يوجد

(١) رواه مسلم وابن ماجه عن أبى هريرة .

إله إلا أنا ، والذى أخذ منه الكون إله ولكن أَعَلِمَ أن الكون أخذ منه أم لم يعلم بذلك ؟ إن لم يكن قد درى تكون مصيبة فى هذا الإله ، وإن كان قد درى فما الذى أسكته ؟ فالمسألة ـ إذن ـ محلولة ، هذه مسألة الشرك .

إن الإيمان بوحدانية إله جاءت لتريح النفس البشرية من كثرة تلفتاتها إلى آلهة متعددين ، إنّه هو الحق ، وهو الذى ينفع ويضر ، إنكم حين تكونون لإله واحد كمثل العبد يكون لمالك واحد ، أما عندما تعبدون آلهة متعددين تكونون كمثل العبد الذى له شركاء وياليتهم متفقون ؛ بل هم مختلفون .

بعد ذلك يأتى فى المرحلة الثانية وهى : اليأس من رَوْح الله ، و« الرَّوْح » من « الرائحة » وهى النسيم ، فساعة تكون فى ضيق والجو حار تلتفت لتجد واحة فتأوى إلى ظلها وهوائها وتلجأ إلى حضنها ، هذه الراحة يعطيها الله لمن لا ييأس من روْح الله فتعطيه صلابة إيمانية لاستقبال أحداث الحياة ؛ لأن الحياة أغيار ، وأحداثها متعددة ، وللعالم وللكون الظاهر سنن فى الأسباب والمسببات .

هَبْ أن أسبابك ضاقت بشىء ولم يعد عندك أسباب له أبداً ، فالذى لا يؤمن بإله قوى يخرق الأسباب ، ماذا يفعل ؟ ينتحر كما قلنا .

إذن فاليأس من روْح الله هو من جعل قوة الله العليا التى خلقت النواميس متساوية مع النواميس بحيث إذا ضاقت وعزت أسبابها البشرية فى شىء يئس منها ، أما المؤمن فنقول له : أنت لا تيأس ؛ لأنك مؤمن بإله قادر فوق النواميس ؛ فالذى ييأس من روْح الله كأنه يعطل طلاقة القدرة الإلهية على النواميس الكونية ، إنّ الله ، هو خالق هذه النواميس . فعندما ييأس إنسان من روح الله ، يكون قد سوّى الله ـ بطلاقة قدرته ـ بالنواميس ، إنّ الذى تأباه النواميس فسبحانه قادر أن ييسره .

وبعد ذلك جاء بـ « عقوق الوالدين » وهما الخلية الأولى التى يواجهها الإنسان ، وهما السبب المباشر فى إيجادك ؛ لأنك حين تعق وتعصى من كان سبباً مباشراً لوجودك تكون قد عققت وعصيت من كان سبباً أولياً لوجودك ، وهو الله الذى لم تره ، إذن

فاحترامها والبرّ بها ليس ـ فقط ـ لأنها سبب فى وجودك وإنما ـ أيضا ـ لأنها ربياك صغيراً فعليك بالبر بها ، وهذا يحثك ويدفعك إلى أن تحفظ الجميل لمن كان سبباً فى إيجادك ، وتربيتك،وعندما ترقيها وتتساءل : من أوجد أباك ؟ جدّك . ومن أوجد جدّك ؟ تصل إلى أين ؟ لا يمكن أن تكون لها نهاية إلا أن تتصل بمن لا نهاية له ، وهو أن الله قد خلق آدم .

ثم قال : قتل النفس ، والقتل هو نقض بنية الكائن ، وهو يختلف عن الموت ، فالموت أن يموت الإنسان وبنيته سليمة ، لكن إن تلقى ضربة على رأسه فهو يموت منها ، هذا هو نقض البنية سواء أكان الضرب بحجر أم برصاصة أم بأى شىء . ولنقرأ القرآن بإمعان ، إنّ الحق يقول :

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ﴾

(من الآية ١٤٤ سورة آل عمران)

فالموت هو سلب الحياة بدون نقض بنية ، وهذا لا يجريه إلا الله ، إنما القتل بهدم البنية ، فأى إنسان يستطيع أن يفعله ، فتخرج الروح بإذن الله ، وليس معنى ذلك أن أحداً عجّل بأجل القتيل ، لا ، ولكنه تدخل فى بنيان أقامه الله فهدمه ، ولو لم يتدخل أحد فى بنيان الله ليهدمه لكان أجله قد جاء . إذن فالقاتل يُعاقب لأنه تدخل فى هدم البنية وهو يعرف أن هذه الروح لا تحل إلا فى بنيان له مواصفات خاصة تقتضى أن يكون المخ سليماً ، وكذلك القلب ، وبقية أجزاء الجسم . لكن حين يجىء الأجل يموت الإنسان ولو لم ينقض أحد البنية .

وضربنا مثلاً لنقرّب هذا الأمر ـ ولله المثل الأعلى :

إنّ هذه الروح نشبهها بالكهرباء ، فأنت لا تعرف الروح ولم ترها ولم تسمعها ولم تشمّها ولم تذقها ، إذن فبأى وسيلة من وسائل الإدراك أنت لا تعرفها . لكنك تعرف أنها تُدير حياة جسمك كله ، بدليل أن الروح عندما تُسحب من الجسم يصير رِمّة . وقد جعلها الله كدليل ذاتى فى النفس البشرية على وجود إله لا تدركه الأبصار وهو

يدرك الأبصار ، تقول : لا نرى الله . نقول لك : نعم ، فهو سبحانه يقول :

﴿ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾

(سورة الذاريات)

إن الحق لا يطالبك بأن تبصر ما فى الكون فقط من آيات ، بل إن الأدلة لاتتعداك أنت أولاً ، فروحك التى تدير جسمك أين هى ؟ ما شكلها ؟ ما لونها ؟ ما رائحتها ؟ أتعرف ؟ لا ، ولكنها موجودة فيك وأنت لا تراها ، فكيف تطلب أن ترى إلهاً وقد خلق شيئاً لم تقو على أن تراه ؟ أمخلوق لا تقدر أن تراه ، وبعد ذلك تريد أن ترى خالقه . إذن فمن عظمته أنه لا يُدْرَك ، ويقول الحقّ سبحانه وتعالى عن لحظة تنزل الروح فى الجسم :

﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾

(سورة ص)

لأنه سيكون إنساناً سوياً ، فإن شبهنا تلك الروح بالكهرباء ـ ولله المثل الأعلى ـ هل تعرف ماهى هل رأيتها ؟ . لم ترها ، هل أحد عرفها ؟ الذين اكتشفوها ، أعرفوا ماهى ؟ لم يعرفوا ، إنما نعرفها بآثارها ، فساعة نرى المصباح منيراً نقول : جاءت الكهرباء ، وساعة تدور المروحة تقول : الكهرباء جاءت . إذن فأنت تعرفها بآثارها ، كذلك تعرف الشخص أنه مات عندما لاتجد له حركة . وعندما تخف الحركة وتَخْفُت يقولون : خذ الحركة من شىء إن وقف يكون الموت ، وليس من اليد ، لأن اليد قد لاتتحرك لإصابتها بالشلل ، بينما الإنسان مازال حيا ؛ ولذلك هات المرآة وضعها أمام مخرج النفس ، فإن وجدت بخاراً على المرآة فهذا يعنى أن هذا الإنسان مازال حياً ، وفيه روح ، وكذلك عندما ينكسر المصباح الكهربائى فالكهرباء لاتعمل عملها ؛ لأن الكهرباء لاتظهر إلا فى قالب من هذا النوع ، زجاجة مفرغة الهواء مصنوعة بشكل خاص إن انكسرت أو تلفت يذهب النور .

إذن فعندما نهدم الجسم لاتجد الروح الوعاء الذى تظهر فيه ، فكذلك المصباح الكهربائى إن انكسر تكون الكهرباء موجودة فى الأسلاك إنما لايوجد نور ، وعندما تأتى بمصباح جديد يأتى النور ، كذلك الروح لاتظهر إلا فى الجسد الذى له مواصفات خاصة ، هذا وإن القتل هو دليل عجز القاتل ، لأن القاتل حين يقتل خصمه فهذه شهادة

منه أنه أعجز من خصمه ، صحيح أنه قد قدر عليه وضربه وأماته وهذا مظهر قدرة بشرية حمقاء . لكن فى الواقع أن هذا عجز .

إن معنى القتل ونقض الحياة أن القاتل يعلن أمام الملأ أنه لا يستطيع أن يواجه حركة حياة خصمه ، ولايرتاح إلا اذا مات هذا الانسان ، إذن فقد شهد القاتل حين يقتل بعجزه . فلو علم القاتل أن قتله لنفس أخرى ليس دليل قدرة وقوة له ولكنها شهادة عجز ، وأنه لايمكن أن يواجه حياة هذا الحى إلا بأن يميته لما قتله ، والحق يحمى النفس البشرية من القتل حتى لايكون أى انسان مهددا ، وحتى لاتتعطل الخلافة التى أرادها الله فى الكون .

ثم تأتى كبيرة أخرى وهى : قذف المحصنات الحرائر ، ونعرف أن ركناً من أركان المجتمع السليم أن تظل الحرائر مصونات كى لايعانى النشء والنسل الذى ينسل منهم من ظن الريبة والعار ، وحين لاتظن النفس البشرية بريبة فهى تواجه الحياة بمنتهى طلاقتها وبمنتهى قدرتها ؛ لذلك فالذى يحب أن تشيع الفاحشة ويقذف المحصنات والحرائر بغير ما اكتسبن فهو يحدث زلزلة فى المجتمع ، زلزلة فى نسب أفراد المجتمع ، ويضار بها من ليس له ذنب ، يضار بها الأولاد الصغار ، وما ذنبهم وقد قال تعالى :

﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾

(من الآية ١٨ سورة فاطر)

وبعد ذلك قال : أكل الربا ؛ لأن الربا يصنع خللاً إقتصادياً فهو يحمل غير الواجد أن يزيد ثروة الواجد .

والزنا كبيرة من الكبائر والحق يقول :

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ ﴾

(سورة الاسراء)

فالزنا يجعل العلاقة بين الرجل والمرأة علاقة استمتاع فقط ، والعلاقة الأولى التى أرادها الله حينما أوجد حواء لآدم هى أن تكون المرأة سكناً وليست أداة استمتاع

فقط ، والاستمتاع إنما جاء لحفظ النوع وأطلقه فى النفس البشرية ؛ لأن آثار هذا الاستمتاع تبعتها طويلة من تربية للأطفال الذين تطول طفولتهم ويحتاجون لرعاية ، ولو لم يربطها بهذا الاستمتاع لكان كثير من الناس يزهد فى الأولاد .

وكذلك الفرار يوم الزحف كبيرة من الكبائر ، لأن الفرار يصنع خللاً فى المجتمع الإيمانى ؛ لأن معنى الزحف أن أعداء الاسلام أغاروا علينا ، وماداموا قد أغاروا علينا فكل مسلم يقف على ثغرة من ثغور الاسلام ، حتى لايمكّن أعداء الإسلام من ديار الإسلام ، ولتظل كلمة الله هى العليا ، ففرار المسلم يعطى أسوة على ضعف الإيمان فى النفس ، ولذلك لاتغتروا بأن هذا صار مؤمناً وذاك صار مؤمناً ، فلو كان مؤمناً حقاً ووثق بالغاية فهو لايهاب القتال ؛ لأنه إن قتل صار شهيداً ومبشراً من الله بكذا وكذا ، لذلك فالفرار فى يوم الزحف يعطى أسوة سيئة ليس فى الحرب فقط ، بل سيعطى شيوع خلخلة إيمانية فى النفس البشرية ، والحق سبحانه وتعالى أوضح أن المؤمن عندما يدخل الحرب يرغب فى أحد أمرين كلاهما حسن : النصر أو الشهادة ، فقال سبحانه :

﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ﴾

(من الآية ٥٢ سورة التوبة)

والمؤمن يتربص بالكافر ليحقق ماقاله الله :

﴿ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ﴾

(من الآية ٥٢ سورة التوبة)

فإذا كان الحق سبحانه وتعالى يريد من المؤمن أن يثبت يقين إيمانه بأن يفقد الحياة التى هى سبب التمسك بمظاهر الحياة لأنه ذاهب لحياة أحسن ، ولكن الحق سبحانه وتعالى لايحب للمؤمنين أن يقدموا على عمليات انتحارية إلا حين تكون هناك مظنة للنصر بدليل قوله الحق :

﴿ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾

(من الآية ١٦ سورة الأنفال)

فالإنسان لايدخل فى معركة وهو غير مستعد لها ، أو ليس لديه مظنة النصر ، إنه إن فعل ذلك فإنما ينقص المسلمين واحداً ، فماذا أفادنا ؟ إن على المؤمن أن يقبل على الاستشهاد بثمن يخصه وهو الجنة ، وبثمن يُبقى للجماعة الأمان أو النصر .

وبعد ذلك قال : واليمين الغموس . واليمين الغموس تمثل قضية من قضايا خلل المجتمع ؛ لأن اليمين الغموس هى السبب الذى يغمس صاحبه فى النار ؛ لأنه حلف على شىء أنه كان وهو لم يكن ، أو على شىء لم يكن وهو قد كان ، وبهذا يتسلل الكذب إلى الصدق ، ولايعرف القاضى التمييز حين يفصل فى الحقوق ، هناك إنسان يكذب ويشهد ويحلف اليمين أن هذا حدث ويؤدى ذلك إلى ضرر بالغير ، فمن يريد أن يظلم لن يعدم شاهدين على باب المحكمة يحلفان له ، عندئذ يصبح الإنسان غير مطمئن إلى حركة حياته ولا إلى مصالحه .

وتأتى كبيرة أخرى وهى الغلول . وتعنى أن المسلمين حين يلتحمون بأعدائهم ويأخذون منهم الغنائم وهى مانسميها « السَلَب » . .وهى أسلحة الأعداء وماعندهم من أشياء . . فبالله من يدخل معركة بهذا الشكل ويجد غنيمة ويأخذها ، أيكون قد نقض عملية الحرب فى سبيل الله أم لا ؟ إنه ينقض عملية الحرب فى سبيل الله ، إن الحرب فى سبيل الله شرعت لتكون كلمة الله هى العليا ، ولذلك يقول الحق :

﴿ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ ﴾

(من الآية ١٦١ سورة آل عمران)

لقد قلنا : إن كان قد غلّ بقرة . . فسيحملها يوم القيامة ، وسيكون لها خوار . .

وإن غل فى أسمنت فسيأتى حامله يوم القيامة ، ومن غلّ فى حديد أو استورد لحوما فاسدة أو سمكا نتنا فإنه سيأتى وهو يحمله يوم القيامة .

ثم تأتى كبيرة وهى شهادة الزور . فشهادة الزور أيضا ركن من أركان فساد المجتمعات كلها ؛ لأنها لاتجعل المؤمن مطمئنا على حقه .

أما السحر فهو كبيرة تهدد المجتمع بما يفزع كيانه ، لأنه ينتهى إلى قوة خفية ، إذ

ليس أمام الذى يتعرض للإصابة به عدو مباشر يواجهه ، حتى يرتب لنفسه الحماية منه . ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِى الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ﴾

(من الآية ١٠٢ سورة البقرة)

أى ليس له نصيب فى الآخرة ، وربما يقول قائل : إذا كانت هذه مضرة السحر فى هدم كيان المجتمع وتفزيعه ، فلماذا وجد ؟ نقول له : إن الكائنات مخلوقة لله ، وكل كائن له قانون ، وقد يكون قانون كائن أخف وأسرع من قانون آخر ، فأفراد الجنس الواحد محكومون بقانون واحد . وحين يوجد لأفراد الجنس الواحد قانون يحكم حركته يكون قد وجد فى ذلك الجنس تكافؤ الفرص ، بمعنى أن لك فرصة هى لغيرك . أما أن توجد لك فرصة ولا توجد لغيرك ، فهذا يمثل خللاً فى تكافؤ الفرص فى الجنس الواحد .

إن تكافؤ الفرص هو الأمر الذى يحمى المجتمع ، بأن تكون فرصك أنت وفرصى أنا متساوية ، فيكون صاحب الحركة فى مادة الكون هو الذى يتغلب ، وبذلك لا آخذ أنا فرصة غير موجودة عندك . فتكافؤ الفرص هو الذى يرحم البشرية .

وإذا كانت قوة الشرق تتمثل فى الشيوعية فى روسيا قد سقطت وبقيت قوة فى الغرب تتمثل فى أمريكا ، فهناك قوى جديدة تحاول أن تعدل الميزان ، اليابان ، ألمانيا الموحدة ، وأوروبا التى تبحث عن الوحدة ، وكل ذلك من أجل أن تتوازن القوى فى الفرص المادية الموجودة . وهذا هو مايحمى الكون من الدمار ؛ لأن أى واحد يفكر فى أى شر جارف يخاف من رد الفعل ، ويخاف أن يردوا عليه بشر أشد ، ولو تيقنوا أن واحدة أقوى من الأخرى لجاء الخراب ، إذن فحماية الجنس البشرى إنما تنشأ من تكافؤ الفرص بين أفراده ، ولكن الإنسان جنس ، والجن جنس آخر ، والإنس والجن مكلفان من الله ، فعنصر الاختيار موجود فيهما ، ولذلك حكى القرآن :

﴿ قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۝ يَهْدِى إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ۝ ﴾

(سورة الجن)

وعندما قسموا قال القرآن :

﴿ وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّـٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ۝١١ ﴾

(سورة الجن)

إذن فهم مثلنا .. لكنهم لهم قانون ولنا قانون :

﴿ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ﴾

(من الآية ٢٧ سورة الأعراف)

إذن فقانون الجن أنه يرى الإنسان ، والإنسان لايراه ، وقانونه أخف من قانون الإنسان ؛ لأن كل جنس يستمد قانونه من جرثومة تكوينه الأولى ، فنحن البشر مخلوقون من طين .. أى أن لنا مادية محسة وكثيفة . والجن مخلوق من النار ، والمخلوق من مادة الطين مثلنا ، النبات والحيوان ، تفاحة مثلاً مخلوقة من مادة الطين لأنها أخذت عناصر غذائها وتكوينها من تربة الأرض وخصوبتها . هب أنها خلف جدار وأنت جالس . أيتعدّى طعمها لك ؟ أتتعدّى رائحتها لك ؟ أيتعدّى لونها لك ؟ لا ، إذن فالجرمية المحيزة لاتجعلك تنتفع به .

لكن هب أن ناراً موضوعة وراء الجدار ، وبعد مضى مدة ستشعر بالحرارة ، أى أن الحرارة قد نفذت . والجن له شفافية وله خفة فى قانونه وفى انتقاله ولاتوجد مثل هذه الشفافية والخفة للإنسان ، ولذلك لاحظوا أن الحق سبحانه وتعالى حينما أراد أن يبين لنا هذا ، ضرب لنا المثل بسيدنا سليمان عليه وعلى نبينا السلام الذى سخر الله له الجن :

﴿ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَـٰرِيبَ وَتَمَـٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَـٰتٍ ﴾

(من الآية ١٣ سورة سبأ)

وحينما اجتمع فى جنوده ومن حوله من الناس قال :

﴿ مَالِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ۝٢٠ ﴾

(من الآية ٢٠ سورة النمل)

وبعد ذلك جاءه الهدهد وقال له :

﴿ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ۝٢٢ إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ

وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ ﴾

(جزء من الآية ٢٢ والآية ٢٣ سورة النمل)

وهذا كله ليس بمهم ، إنما المهم هو قول الهدهد :

﴿ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾

(من الآية ٢٤ سورة النمل)

وهذا ما يهم سيدنا سليمان كرسول . فسيدنا سليمان يتميز بأنه رسول وملك ، فجاء بالملكية أولاً : « إنى وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم » هذه مقومات المُلك ، أما المسألة التى تهم سيدنا سليمان : « وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله » ، والسجود للشمس من دون الله ضايق الهدهد وهو الطائر ، كأن الهدهد عارف لقضية التوحيد وقضية الإيمان بدليل أنه غضب ، ثم يقول :

﴿ أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾

(من الآية ٢٥ سورة النمل)

إذن فهو يعرف من الذى يستحق السجود ، ولاحظ أنه جاء بـ« الخَبْء » لأن طعامه دائماً من تحت الأرض ، ينقر ويُخرج رزقه .

واستمرت القصة حتى قال سليمان لمن يجلس معه :

﴿ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾

(من الآية ٣٨ سورة النمل)

وهذا يدل على أن سليمان عليه السلام كان على علم بأن بلقيس ـ ملكة سبأ ـ فى الطريق إليه ، ومعنى أن يقول : « أيكم يأتينى بعرشها قبل أن يأتونى مسلمين » . معناها أن الذى يتصدّى لهذا الأمر عليه أن يذهب من عند بيت المقدس إلى اليمن ويحلّ ويحمل العرش ويأتى به قبل أن تأتى بلقيس .

بالله هل من قانون بشرى يأتى به ؟ وكيف ذلك ؟ . ولذلك لم يتكلم إنسيٌّ عادى ، فالإنس العادى يعرف أن قانونه البشرى لا يقدر على تلك المهمة ، لأن سليمان قال :

« قبل أن يأتونى » ، ومادام قال ذلك فقد علم أنهم فى الطريق . فهل يذهب إنسان عادى ويحلّ العرش ويحمله ويأتى به قبل أن يأتوا ؟ لا ، ولذلك عرفنا من هذه قول الحق :

﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ﴾

(من الآية ٣٦ سورة الإسراء)

وهنا يتصدّى أحد الأذكياء من الجن قائلاً :

﴿ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ ﴾

(سورة النمل)

ومن يقول ذلك ليس بجن عادى ، فالجن أيضاً فيهم عفاريت أذكياء وفيهم من هو عاجز قليل الذكاء ، مثل الإنسان ، ومن قال ذلك أكد أنه قادر على أن يأتى بعرش بلقيس قبل أن يقوم سليمان من مقامه ، فكم يمكث من الوقت ؟ لا نعرف ، ترى هل يجلس سليمان مع القوم ساعتين أو ثلاث ساعات لا نعرف ، إذن فتأخذ هذه العملية زمن مقامه ، لكن ها هو ذلك الإنسيّ الذى أعطاه الله فتحاً من الكتاب وعلماً يقول :

﴿ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴾

(من الآية ٤٠ سورة النمل)

الإنسيّ العادى لم يتكلم ، والعفريت من الجن قال : « أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك » أما الإنسيّ الذى أعطاه الله الفتح من الكتاب فقد قال : « أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك » ولذلك انظر إلى الأداء العاجل فى القرآن أداء الحركة :

﴿ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ ﴾

(من الآية ٤٠ سورة النمل)

فالمسألة حدثت على الفور .

والمهم لنا هنا أن نعرف أن الجن قال : « أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك » ، ومنها نعرف أن له قانوناً فى الحركة والسرعة ، والإنسان الذى وهبه الله علماً بالكتاب له قدرة وحركة . إذن فكل جنس من الأجناس له القانون المناسب له .

وقد يقف بعض الناس كما وقف كثير من سطحيى المفكرين قائلين : ما الجن والملائكة والعالم الخفىّ الذى تحدثوننا به ؟ نقول : ألا تؤمن إلا بالمحُسّ بالنسبة لك ؟ فما رأيك فى الميكروبات التى ظهرت الآن بعدما اختُرع المجهر ؟ لقد كانت موجودة ، أكنت تعرفها ؟ لقد كانت غيباً عنك ، فلماذا لا تأخذ من أن شيئاً لم يكن موجوداً تحت حسّك وغير مُدرك بإدراكك ، كان موجوداً وكنت لا تملك آلة إدراكه ، لماذا لا تأخذ من ذلك دليلاً على وجود أجناسٍ غير مُدركة ، وعندما يحدثك القرآن عن هذه الأجناس غير المدركة تتساءل عنها ؟ فما المشكلة فى هذا ؟.

وبعد ذلك عندما يقول سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الحديث الشريف :

(وإن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم)[1]

قد تتساءل : وهل الشيطان يجرى مجرى الدم ، أهو سائل أم ماذا ؟

نقول : هو خلق لطيف خفىّ له قانونه الخاص ، فربنا فضح الفكر الملحد وفضح التشكيك فى الغيبيات التى يذكرها الله ، واكتشفنا أن هناك مخلوقات هى الميكروبات ، وهى من الجنس المادى من الطين ، لكنها ضئيلة جداً ، وماذا يفعل الميكروب ؟ إنه ينفذ فى الجسم ولا تدرى أنت به وهو داخل فى جسمك ، وبعد ذلك ماذا يفعل فى حرارتك ؟ وماذا يفعل فى جسمك ؟ـ فعندما يقول لك الرسول المبلغ عن الله : إن الشيطان سيجرى منك مجرى الدم فما التناقض فى هذا ؟ إذا كان هناك شىء من مادتك ضئيل ولا تعرف كيف دخل ، ولا تشعر به وهو داخل ، ثم يقلب ميزانك فى الحرارة ويمارس العبث بكل جسمك ، فتهيج الكرات البيضاء لتقاومه وتخرج الصديد . أى تناقض إذن ؟

إن ربنا ترك من غيبيات كونه المادى ما يثبت صدقه فى التحدث بغيبيات أخرى : « قال الذى عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك » ، لقد جاء

(١) رواه أحمد والبخارى ومسلم وأبو داود وابن ماجه .

الحق بواحد من الإنس حتى لا يظنن الجن أنه أخذ خفة قانونه وشفافيته وسرعته من عنصر تكوينه بل إنه أخذها بإرادة المكون ـ سبحانه ـ إذن فالمسألة ليست عنصرية بل هى إرادة الله إنه ـ جلت قدرته ـ أوضح: أنا أستطيع أن أجعل من الجنس القوى بقانونه وهو الجن محكوماً لواحد من الإنس ، ويجعله يعمل ما يريده . ولم يطلقها الله كطاقة ممنوحة لكل البشر حتى لا تحدث فتنة عند من يعرفها ؛ لأنها ستعطيه فرصة ليست موجودة عند غيره . وقد يطغى بها وهذا هو السحر . وأوضحنا ذلك عند قوله سبحانه :

﴿ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ﴾

(من الآية ١٠٢ سورة البقرة)

فتنة ، لماذا ؟ ، لأنك تأخذ فرصة ليست موجودة لغيرك ، وعندما توجد عندك فرصة ليست موجودة لغيرك فأنت لا تضمن نفسك أن تستعملها فى الضار فقد تستعملها فى ذلك ؛ فستذهب بك إلى النار . والحق يقول :

﴿ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ﴾

(من الآية ١٠٢ سورة البقرة)

إذن فالحق سبحانه وتعالى من طلاقة قدرته يعطى للجنس الضعيف وهو الإنسان شيئا يستطيع به أن يسخرّ الأقوى وهو الجن ، والجن يعرف هذه الحكاية . ولذلك فكل الذين يتمثل لهم الجن لا يأتى ويدوم بل يأتى لمحة خاطفة ؛ لأنه لا يستطيع أن يستقر على صورته التى يتمثل فيها ، فلو تمثل بإنسان أو بحيوان مثلا لحكمته الصورة ، وإن حكمته الصورة ، واستطاع من يراه أن يطلق عليه رصاصة من « مسدسه » لقتله !

ولذلك فالجن يأتى لمحة مثل ومضة البرق ويختفى ، إنها طلاقة قدرة الحق التى

يمكن أن تعطى للجنس الأقل ـ الإنسان ـ قوة القدرة على أن يُسخّر الجنس الأقوى ـ الجن ـ ، لكن هذه ليست فى مصلحة الإنسان ، ولذلك فالمؤمن من الجنّ يقول : أنا أكتفى فى جنسى بقانونى ، فربما يجعلنى عدم تكافؤ الفُرص طاغياً ، لأن من يملكون هذه القدرة يطغون فى الناس . والذى يقوم بعمل تكره به المرأة زوجَها ويكره به الزوج امرأته هو نفسه من يَحِلّ مثل هذا العمل ، وَمن مصلحته أن تستمر هذه الحكاية .

ولذلك لا أحد يتغلب على تلك المسألة إلا إذا استحضر قول الحق : « وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله » فالسحر وارد بنص القرآن ، لكن يجب أن تعلم أن هذه ليست طبيعية فى السحرة ولا ذاتية فيهم ، وإذا أراد الله ألا يضار الإنسان بالسحر فلن ينفع السحر ، وإن اتسعت المعرفة بهذا الأمر تكون فتنة للناس ، والذى يتبع هؤلاء السحرة ويذهب لهم ليفكّوا له السحر ، ويذهب لهم ليسحروا له الخصوم ، وينفتن فيهم يعيش طوال عمره مُرهقاً مصداقاً لقوله الحق :

﴿ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾ ﴾

(سورة الجن)

صحيح أنهم يقدرون أن يسحروا ، لكن ذلك السحر يزيد المتسبب فيه رهقاً وتعبا .

وعلى المؤمن أن يحمى نفسه بهذا الدعاء : « اللهم قد أقدرت بعض خلقك على السحر ، واحتفظت لذاتك بإذن الضر ، فأعوذ مما أقدرت عليه بما احتفظت به » .

عندئد لن يخافهم ولن يجدوا سبيلاً لهم إليه ، فهم يستغلون الضعيف فقط ، والسحر يُوجد عدم تكافؤ فرص ، ويفتن الناس فى الناس ، ويؤدى إلى إخلال توازن المجتمع .

وبعد ذلك تجىء كبيرة منع الزكاة ، والحق سبحانه وتعالى حين يطلب منا أن نُزكى ، إنما يلفتنا إلى أننا لم نأت بشىء من عندنا ؛ فالعقل الذى يخطط للعمل مخلوق لله ، والجوارح التى تعمل مخلوقة لله ، والأرض التى تعمل فيها أو الصنعة التى

نصنعها مخلوقة لله . إذن فكل حاجة لله ، لكنه أوضح لك : سأحترم عملك ، وعليك أن تعطى أخاك الفقير بعضاً مما رزقتك به .

ويقول قائل : مادام هو ربُّ الكلّ ، فلماذا يترك واحداً فقيراً ؟ نقول : لكى يُثبت الأغيار فى الكون ، ويعرف الغنىّ أن الفقر قد يلحقه ، ويعرف القوى أن الضعف قد يلحقه ، إذن فالمسألة جاءت لنظام الكون ، فيحُنن الخالق قلب الواجد على المعدم ليعطيه ، فيوم تمنع الزكاة يظهر أثر ذلك فى الكون لأنها مسألة محسوبة بحساب دقيق ، ولذلك فإذا رأيت واحداً جوعان بحق فاعرف أن واحداً ضيع زكاته فلم يؤدها ، وإن رأيت عورة فى المجتمع فاعرف أن فيه حداً مضيّعاً لله ، لأن ربنا جعل المجتمع متساوياً والنقص هنا يكمّله من هناك ، فإن رأيت نقصاً عاماً فاعرف أن فيه حقاً لله مضيعاً .

وبعد ذلك حدثنا سيدنا جعفر الصادق عن كبيرة ترك الصلاة ، ونعرف أن الصلاة هى إعلان دوام الولاء للإله الواحد ، فأنت تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله مرّة واحدة فى العمر ، وتُزكّى إن كنت واجداً وقادراً مرّة واحدة فى السنة ، وتحجُ مرّة واحدة فى العمر ، وتصوم شهراً واحداً فى السنة ، وإن كنت مريضاً لاتصوم وقد يسقط عنك هذا الركن إذا كان هناك مرض لايرجى شفاؤه أو أصبح الشخص لايقوى على الصوم لكبر سنه ، وإذا كنت فقيراً لاتزكى ، فقد سقطت الزكاة عنك أيضاً ، وإن كنت غير مستطيع فلا تحج ويسقط عنك الحج .

هاهى ذى ثلاثة أركان لك عذر إن لم تفعلها . ويبقى ركنان اثنان من أركان الإسلام : شهادة أن لاإله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، والصلاة ، وشهادة أن لا إله إلا الله يكفى أن تقولها فى العمر مرة ، فماذا بقى من أركان الإسلام ؟ بقيت الصلاة ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم :

« الصلاة عمود الدين »[1] .

---

(١) رواه أبونعيم الفضل بن دكين فى الصلاة عن عمر وهو حديث حسن ، ورواه البيهقى فى شعب الإيمان بلفظ (الصلاة عماد الدين) عن عمر ولكنه ضعيف .

إذن فترك الصلاة معناه : أنه تمرد على إعلان العبودية والولاء للحق . وقد طلبها الله فى اليوم خمس مرات ، وحتّم الجماعة فيها فى يوم الجمعة فى الأسبوع . لماذا ؟ حتى يرانا كل العبيد لله عبيداً لله . فلا يعبد واحد ربنا سراً وبعد ذلك لايرى أحد منا أحداً فكلنا نسجد لله ولا بد من إعلان الولاء لله ، فيوم تُترك الصلاة ينعدم إعلان الولاء له ـ سبحانه ـ .

ومن العجيب أن الصلاة فرضها الله عليك بأنك تذهب له خمس مرات فى اليوم ، هذا بالأمر والتكليف ، وإن لم تذهب تأثم إنه ما أغلق الباب اذهب له فى أى وقت تجده فى استقبالك فى أى مكان تقف وتقول : الله أكبر تكون فى حضرة ربنا ، وقلنا سابقاً : إن من له السيادة فى الدنيا حين تطلب لقاءه تقدم طلباً حتى تلقاه . ويحدد لك الميعاد ، وبعد ذلك يسألك أحد رجاله : ستتكلم فى ماذا . وقد يقف المسئول أو السيد فى الدنيا وينهى المحادثة . لكن ربنا ليس كذلك . أنت تذهب له فى أى وقت وفى أى زمان وتطيل كما تحب ولن ينهى المقابلة إلا إذا أنهيتها أنت . ولذلك يقولون :

حسبُ نفسى عزاً بأنى عبد
يحتفى بى بلا مواعيد ربّ
هو فى قدسه الأعزُّ ولكن
أنا ألقى متى وأيْن أحِبّ

صحيح هو يأمرنى أن ألقاه خمس مرات فى اليوم ، لكن الباب مفتوح للقائه فى أى وقت ، وأوضحنا سابقاً ـ ولله المثل الأعلى ـ هب أن صنعة تعرض على صانعها خمس مرات كل يوم ـ أيوجد فيها عطب ؟ لا . وأنت تعرض على خالقك وصانعك كل يوم خمس مرات . والصنعة العادية يُصلحها صانعها بسلك أو بمسمار أو بوصلة يضعها ، أما أنت المخلوق لله وربّك غيب وهو يُصلح جهازك بما يراه مناسباً .

وبعد ذلك بقى من الكبائر نقض العهد وقطيعة الرحم ، ونقض العهد لايجعل إنساناً يثق فى وعد إنسان آخر . فينتشر التشكك فى نفوس الجماعة الإيمانية بعضها من بعض ، والوعد قد يحل مشاكل للناس/المعْسرين ، فعندما يقول قادر لغير قادر : أعدك بكذا . ويعطيه ماوعده به ، فإن وعده المدين بسداد الدين وأخلفه مرة فلن

يصدقه بعد ذلك . وإن وعده وصدق ثم وعده وصدق ثم وعده وصدق ، يصبح صادقاً ، وكل ماعند الناس يصبح عنده ، ولذلك يقولون : من يأخذ ويعطى يكون المال ماله .

وبعد ذلك تأتى كبيرة قطيعة الرحم : لأن الحق سبحانه وتعالى اشتق للرحم اسماً من اسمه فهو القائل فى الحديث القدسى :

(أنا الرحمن خلقت الرحِم وشققت لها اسماً من اسمى فمن وصلها وصلته ومن قطعها قطعته)[1] .

ونعلم جميعاً حكاية سيدنا معاوية عندما دخل عليه الحاجب وقال له : يا أمير المؤمنين هناك واحد بالباب يقول : إنه أخوك ، فيقول معاوية للحاجب : أى إخوتى هو ؟ ألا تعرف إخوتى ؟ فقال الحاجب : إنه يقول : إنه أخوك . فلما دخل الرجل ، سأله معاوية : أأنت أخى ؟ قال : نعم فقال معاوية : وأى إخوتى أنت ؟ . فقال : أنا أخوك من آدم ! فقال معاوية : رَحِمٌ مقطوعة ، لأكونن أول من وصلها .

تلك هى الكبائر التى ذكرها سيدنا جعفر الصادق وهى تمثل مايمكن أن يكون نقضاً للمجتمع كله من أساسه ، فكل كبيرة تنقض ناحية من نواحى المجتمع ، وهذا يخالف الإيمان ، لأن الإيمان هو منهج إن اتبعناه جميعاً عشنا فى أمن . والإسلام أيضاً منهج إن اتبعناه جميعاً عشنا فى سلام ، فيوم تأتى ـ أيها المسلم ـ كبيرة من هذه الكبائر فأنت تزلزل بها ركناً من الأركان ، وحينئذ لايكون هناك أمان ولاسلام ، ولذلك يقول الحق سبحانه : « إن تجتنبوا كبائر ماتنهون عنه» وعندما ندقق فى كلمة «تنهون عنه» نلتفت إلى أن أصل الفضائل : أن تسلب نقيصة وأن توجب كمالاً ، فقبلما توجب الكمال بالأوامر اسلب النقائص بالنواهى ؛ ولذلك يقولون : التخلية قبل التحلية .

« إن تجتنبوا كبائر ماتنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم».و« نكفر » أى نستر ، لأن

---

(١) رواه أحمد والبخارى فى الأدب المفرد ، وأبو دواد والترمذى والحاكم عن عبدالرحمن بن عوف .

الكفر هو الستر ، وقلنا : إن التكفير للذنوب إماطة للعقاب ، والإحباط إماطة للثواب ، «وندخلكم مدخلاً كريماً» فلن نسقط عنكم العذاب فقط بل نعطيكم المدخل الكريم - يقول الحق :

﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾

(من الآية ٢٦ سورة يونس)

وقد كان يكفى ألا تعاقب ، لكنك حينما تتجنب الكبائر لايسقط عنك العقاب فقط ، بل يدخلك الله مدخلاً كريماً ، والمدخل الكريم يتناسب مع من يدخلك فى مدخله ، فانظر ، إلى المدخل الكريم من الله وما شكله ؟ يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : قال الله تعالى :

(أعددت لعبادى الصالحين مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر واقرأوا إن شئتم : « فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين »)[1] .

وبذلك تنتقل الصورة إلى شيء جديد ، وهو : التوازن بين أفراد الجنس الإنسانى ، كل هذا الكلام كى يُحفظ الجنس الإنسانى مع بعضه ، وبعد ذلك يريد الله أن يقيم توازناً ومصالحة إيمانية بين نوعى الجنس الإنسانى ، والجنس الإنسانى فيه ذكورة وفيه أنوثة . ونعرف أن كل جنس من الأجناس لاينقسم إلى نوعين إلا إذا كان فيه قدر مشترك يجمع النوعين من الجنس ، وفيه شيء مفترق يجعل هذا نوعاً وهذا نوعاً ولو لم يكن فيه شيء مفترق لما كان نوعين ، إذن فما دام الجنس الواحد نوعين فلا بد أن يجمعهما فى شيء مشترك ، ومادام الجنس الواحد قد انقسم لنوعين فكل نوع له مهمة . والذكورة والأنوثة هما نوعان لجنس البشر ، فالذكر والأنثى يشتركان فى مطلوبات الجنس ، وبعد ذلك ينفردان فى مطلوبات النوع ، وبعد ذلك كل نوع ينقسم إلى أفراد . والأفراد أيضاً ليسوا مكررين ، بل فيه قدر مشترك يجمع كل الأفراد ، وبعد ذلك كل واحد له موهبة وله ريادة وله شطارة فى مجال كذا أو كذا ، وبذلك يتكامل أفراد الجنس البشرى .

ومادام الجنس البشرى قد انقسم لنوعين ، فيكون للرجال خصوصية وللنساء

(١) رواه البخارى ومسلم .

خصوصية . وربنا سبحانه وتعالى لايأتى حتى فى البنية العامة ليجعل الجنسين مستويين فى خصائص البنية ، صحيح البنية واحدة : رأس وجذع وأرجل،إنما يأتى ويميز بنية كل نوع بشيء ، الرجل له شكل مميز ، والمرأة لها شكل مميز . ولذلك فالذين يقولون : نسوى الرجل بالمرأة أو المرأة بالرجل نقول لهم : المرأة لها تكوين خاص ، والرجل له تكوينه الخاص ، فإذا سويت المرأة بالرجل أعطيت لها مجالات الرجل ، وبقيت مجالاتها التى لايمكن للرجل أن يشاركها فيها ، معطلة لايقوم بها أحد .إذن فأنت حملتها فوق ماتطيق وأنت مخطىء ؛ لأنك تأتيها بمتاعب أخرى .

إن الحق سبحانه وتعالى ساعة يخلق جنساً ، وساعة يقسم الجنس إلى نوعين ، يوضح : تنبهوا أن كل نوع له مهمة وفيه شيء مشترك ، المشترك بين الأنوثة والذكورة ، ماهو ؟ إن هذا إنسان وذلك إنسان ، وإن هذا من ناحية الإيمان مُطالب منه أن يكون له عقيدة إيمانية ولا أحد يسيطر على الآخر فى عقيدته الإيمانية ، الاثنان متساويان فيها ، ولا يفرضها واحد على الآخر ، وضرب الله سبحانه وتعالى لنا مثلاً على تشخص الذكورة وتشخص الأنوثة فى الأمر الأولى للإيمان ، وإن اختلفت فى الأمر الثانوى للأحكام ، فيقول :

﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾ ﴾

(سورة التحريم)

وهذان رسولان ، ومع ذلك لم يستطيعا إقناع زوجتيهما بالتوحيد إذن فكل إنسان له حرية العقيدة والتعقل ، ولا أحد تابع لآخر فى هذه المسألة أبداً . ويقول الحق :

﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾ ﴾

(سورة التحريم)

فرعون الذى ادعى الألوهية لم يقدر أن يرغم إمرأته على أن تكفر والحق سبحانه وتعالى قال فيها :

﴿ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ ﴾

(من الآية ١١ سورة التحريم)

إذن ففى مسألة العقيدة الكل فيها سواء ، الذكورة والأنوثة ، فيها عقل وفيها تفكير . ولعل المرأة تشير برأى قد يعزّ على كثير من الرجال . ولنا المثل من زوج رسول الله (أم سلمة) وموقفها فى صلح الحديبية فعندما يأتى الرسول صلى الله عليه وسلم ليعقد المعاهدة ، ويحزن أصحابه ومنهم عمر رضى الله عنه الذى قال : أنقبل الدنية فى ديننا فيقول له سيدنا أبوبكر : الزم غرزك ياعمر إنه رسول الله . فدخل رسول الله مغضباً ، طبعاً من حمية عمر وحزن الصحابة ، لأنها مسألة تعز على النفس البشرية ، لكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يذهب فيجد أم سلمة فيقول لها : هلك المسلمون « ألا ترين إلى الناس آمرهم بالأمر فلا يفعلونه وهم يسمعون كلامى وينظرون وجهى ؟ فقالت يارسول الله : لاتلمهم فإنهم قد داخلهم أمر عظيم مما أدخلت على نفسك من المشقة فى أمر الصلح ورجوعهم بغير فتح يا نبى الله اخرج إليهم ولا تكلم أحدا كلمة حتى تنحر بُدْنَك وتدعو حالقك فيحلقك » .

لقد وقّع رسول الله صلح الحديبية وانتهت المسألة . ولكن رحمة الله بالمؤمنين الذين وقفوا أمام رسول الله فى هذه المسألة ، ورحمة الله لهم بأم سلمة أوضح لهم الرسول : سأبين لكم : أنتم لو دخلتم مكة وفيها أناس مسلمون لاتعرفونهم إنهم يكتمون إيمانهم وإسلامهم ، والبيت الكافر قد يكون فيه واحد مسلم ، وقد تقتلون أناساً مسلمين لا تعرفونهم فتصيبكم معرة أى ما تكرهونه ويشق عليكم مصداقاً لقول الحق تعالى :

﴿ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾

(من الآية ٢٥ سورة الفتح)

لو تزيلوا أى لو تميز المؤمنون فى منطقة لعاقبنا الكافرين عقابا شديدًا . إذن لقد أوضح لهم العلة ، فرضى الكل ، ولنا أن نلتفت إلى أن المسألة جاءت من سيدتنا

أم سلمة ، وهذا دليل على أن الله لا يمنع أن يكون لامرأة عقل وتفكير ناضج ، ولذلك نجد القرآن يؤكد ذلك فى قصة بلقيس ، لقد فكرت بلقيس فى الرجل الآتى ليزلزل ملكها : يا ترى هل هو طالب ملك ، فجاء على لسانها فى القرآن الكريم :

﴿ قَالَتْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَـٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَـٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَتْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ ﴾

(سورة النمل)

فماذا قال القادة ؟ قالوا : لا ، هذه ليست مسألتنا ، وجاء القرآن بقولهم :

﴿ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾

(سورة النمل)

كان رجل الحرب يُؤتمر فقط ، يحارب أو لا يحارب ، لكن الذى يقدر هذا هم الساسة الذين ليس عندهم حمية وحركية القتال . نقول لقائد الجند : أنت تنتظر الأمر ، وتجعل الساسة الهادئين يفكرون فى عواقب الأمور ؛ لذلك قال قادة الجند لبلقيس : « نحن أولوا قوة وأولوا بأس شديد والأمر إليك » لقد وضعوا الأمر فى رقبتها وهى امرأة ، ففكرت : سأجرب وأختبره وأنظر أهو طالب مُلك أم صاحب دين ـ فأرسلت هدية له ، فلما جاءته الهدية جاء القرآن بما قاله سيدنا سليمان عندما تلقى الهدية :

﴿ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴾

(من الآية ٣٦ سورة النمل)

فعرفت بلقيس أن المُلك ليس هدفه ، وبعد ذلك عرفت أنه صاحب رسالة ، فقالت : أذهب له وأسلم ، انظر أداء العبارة القرآنية عندما تصور إيمان ملكة قالت :

﴿ وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَـٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾

(من الآية ٤٤ سورة النمل)

يعنى : أنا وهو أصبحنا عبيداً لله ، هذه رفعة الإيمان ؛ فلا غضاضة مادامت هى وهو عبيداً لإله واحد ، وبلقيس امرأة ولم يحرمها ربنا من الرأى الحسن أيضاً ومن الأداء الجميل ، وهى عندما ذهبت ووجدت عرشها وقد جاء به من عنده علم من الكتاب وأقامه ، لقد تركت العرش فى بلدها وجاءت إلى سليمان فوجدت عرشها ، وكان لا بد أن يلتبس عليها الأمر ، وقالوا لها : أهكذا عرشك ؟ :

﴿ فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ ﴾

(من الآية ٤٢ سورة النمل)

فأجابت إجابة دبلوماسية وكياسة :

﴿ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ ﴾

(من الآية ٤٢ سورة النمل)

هى امرأة ولم يحرمها الله من تميز الفكر ؛ لذلك لا يصح أن نحرم المرأة من أن يكون لها فكر . لكن المهم أن تعلم أن لها حدوداً فى إطار نوعيتها ، ولا تعتبر النقص فى شيء للرجل أنه نقص فيها ، فإذا ما كان عندها كمال لا يوجد عند الرجل فلتعلم أنه حتى فى البنية يختلف الرجل عن المرأة ؛ الرجل فيه خشونة وفيه صلابة وفيه قوة ، والمرأة فيها رقة وفيها ليونة ومستميلة ، ولها عاطفة فياضة ، وفيض حنان ، والرجل فيه صلابة حزم وعزم ، إذن فكل واحد معدّ لمهمة . فلا يقولن أحد : أنا ناقص فى هذه ، لكن انظر غيرك إنه ناقص فى ماذا وهو عندك أيضاً كامل .

ويأتى الدين ليوضح : يا مؤمنون .. الحرير حرام على الذكور وحلال للإناث الذهب حرام على الذكور وحلال للإناث ، أى تدليل أكثر من هذا ؟ . لقد حرم على الرجال التمتع بالحرير والذهب وأعطاهما للنساء ، والدين يطلب أن تكون المرأة سكناً للرجل ، فالمفروض أن الرجل هو الذى يتحرك حركة الحياة خارجاً ، وعندما يعود لمنزله فهو يسكن لزوجه ، والذى يصقل السيف ويحده ، مثل الشجاع الذى يضرب به تماماً.كل له عمل يكمل عمل الآخر ، وكذلك الرجل عندما يدخل منزله ويجد حياته مرتبة بفضل جهد زوجته فهو يرتاح ويشكر لها ما شاركته من أعباء الحياة .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ ۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ ۚ وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا (٣٢) ﴾

الحق سبحانه وتعالى خلق الكون وفيه أجناس ، وكل جنس يشمل أنواعاً أو نوعين ، وتحت كل نوع أفراد . فإذا ما رأيت جنساً من الأجناس انقسم إلى نوعين ، فاعلم أنهما يشتركان فى مطلوب الجنس ، ثم يختلفان فى مطلوب النوع ، ولو كانا متحدين لما انقسما إلى نوعين . كذلك فى الأفراد . وإذا نظرنا إلى الجماد وجدنا الجماد جنسا عاما ولكنه انقسم إلى عناصر مختلفة ، لكل عنصر من هذه العناصر مهمة مختلفة ، فمثلاً إذا أردنا إقامة بناء ، فهذا البناء يتطلب رملاً ، ويتطلب أسمنتاً ، ويتطلب آجُرًّا ، ويتطلب حديداً ، فجنس الجماد كله مشترك فى إقامة البناء ، ولكن للأسمنت مهمة ، وللجبس مهمة ، وللرمل مهمة ، وللمرو ـ وهو الزلط ـ مهمة ، فلا تأخذ شيئا فى مهمة شىء آخر . وكذلك انقسم الإنسان إلى نوعين ، إلى ذكورة تتمثل فى الرجال ، وإلى أنوثة تتمثل فى النساء ، وبينهما قدر مشترك يجمعهما كجنس ، ثم بينهما اختلاف باختلاف نوعيهما . فلو أردت أن تضع نوعاً مكان نوع لما استطعت .

إذن فمن العبث أن يخلق الله من جنسٍ نوعين ، ثم تأتى لتقول : إن هذا النوع يجب أن يكون مثل هذا النوع . وأيضاً نعرف ذلك عن الزمن ، فالزمن ظرف للأحداث ، أى أن كل حدث لا بد له من زمن ، لكن لكل زمن حدث يناسبه . فالزمن وهو النهار ظرف للحدث فى زمنه ، والليل أيضاً ظرف للحدث فى زمنه . ولكن الليل حدثه السكون والراحة ، والنهار حدثه الحركة والنشاط . فإن أردت أن تعكس هذا مكان هذا أحلت وجمعت بين المتناقضين .

لقد أوضحنا أن الله يلفتنا إلى شىء قد نختلف فيه بشىء قد اتفقنا عليه ، فيبين

لك : هذا الذى تختلف فيه ردّه إلى المتفق عليه . فالزمن لا خلاف فى أنك تجعل الليل سكناً ولباساً وراحة وهدوءاً ، والنهار للحركة . وكل الناس يصنعون ذلك . فالحق سبحانه وتعالى يوضح : كما جعل الزمن ظرفاً لحركة إلا أن حركة هذا تختلف عن حركة هذا ، وهل معنى ذلك أن الليل والنهار نقيضان أو ضدان أو متكاملان ؟

إنهما متكاملان ؛ لأن راحة الليل إنما جُعلت لتصح حركة النهار . فأنت تنام وترتاح لتستأنف نشاطاً جديداً . إذن فالليل هو الذى يعين النهار على مهمته . . ولو أن إنساناً استيقظ ليلة ثم جاء صباحاً لما استطاع أن يفعل شيئاً . إذن فما الذى أعان حركة النهار ؟ . . إنه سكون الليل ، فالحق سبحانه وتعالى بيّن : أن ذلك أمر متفق عليه بين الناس جميعاً متدينين وغير متدينين . . فإذا اختلفتم فى أن الذكورة والأنوثة يجب أن يتحدا فى العمل والحركة والنوع نقول لكم : لا ، هذا أمر متفق عليه فى الزمن ، فخذوا ما اتفقتم عليه دليلاً على صحة ما اختلفتم فيه . ولذلك ضرب الله المثل فقال :

﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝١ ﴾

(سورة الليل)

فعندما يغشى الليل يأتى السكون . وقال الحق بعد ذلك :

﴿ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢ ﴾

(سورة الليل)

وعندما تبزغ الشمس تدب الحركة ، ثم جاء بالشىء المختلف فيه ، فأتبع سبحانه ذلك بقوله :

﴿ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ۝٣ إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ ۝٤ ﴾

(سورة الليل)

أى أن لكل جنس مهمة..

وهكذا نعرف أن الإنسان ينقسم إلى نوعين : الذكورة والأنوثة وفيهما عمل مشترك وخاصية مشتركة . وأن كلا منهما إنسان له كرامة الإنسان وله حرية العقيدة فلا يوجد رجل يرغم امرأة على عقيدة، وضربنا المثل بامرأة نوح وامرأة لوط وامرأة فرعون .

إذن فالقدر المشترك هو حرية الاعتقاد ، فلا سلطان لنوع على نوع ، وكذلك حرية التعقل فى المهمات ، وعرفنا كيف أن أم سلمة ـ رضى الله عنها ـ أشارت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة الحديبية إشارة أنقذت المسلمين من انقسام فظيع أمام حضرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعرفنا قصة بلقيس ـ ملكة سبأ ـ التى استطاعت أن تبرم أمراً تخلّى عنه الرجال ، إذن فمن الممكن أن يكون للمرأة تعقل وأن يكون للمرأة فكر ، وحتى قبل أن يوجد الإسلام كانت هناك نساء لهن أصالة الرأى ، وحكمة المشورة فى نوع مهمتها .

فمثلاً يحدثنا التاريخ أن ملك « كِندة » سمع عن جمال امرأة اسمها « أم إياس » بنت عوف بن محل الشيبانى ، فأراد أن يتزوجها ، فدعا امرأة من « كِندة » يقال لها : « عصام » وكانت ذات أدب وبيان وعقل ولسان ، وقال لها : اذهبى حتى تعلمى لى علم ابنة عوف . أى أرسلها خاطبة . فلما ذهبت إلى والدة « أم إياس » واسمها « أمامة بنت الحارث »وأعلمتها بما جاءت له . وأرسلت الأم تستدعى الابنة من خيمتها ، وقالت لها : هذه خالتك جاءت لتنظر إلى بعض شأنك فلا تسترى عنها شيئاً أرادت النظر إليه من وجه وخلق ونَاطِقِيها فيما استنطقتك به . فلما اختلت « عصام » بالبنت فعلت مثل ما أمرتها أمها . وكشفت للخاطبة « عصام » عن كل ما تريد من محاسنها ، فقالت الخاطبة كلمتها المشهورة : « ترك الخداع ما انكشف القناع » ، وصار هذا القول مثلاً ، أى أن القناع عندما يزول يرى الإنسان الحقيقة ، وعادت الخاطبة « عصام » إلى الملك فسألها : ما وراءك يا « عصام » إنه يسأل : أى خبر جئت به من عند « أم إياس » ؟ . فقالت : أبدى المخض عن الزبد . والمخض هو : هزّ الحليب فى القربة ليفصل الزبد عن اللبن . وذلك يعنى أن رحلتها قد جاءت بنتيجة .

فقال لها : أخبرينى .

قالت : أخبرك حقاً وصدقاً . ووصفتها من شعرها إلى قدمها وصفاً أغرى الملك . فأرسل إلى أبيها وخطبها وزفت إليه .

وفى ليلة الزفاف نرى الأم العاقلة توصى ابنتها فى ميدان عملها ، فى ميدان

أمومتها ، فى ميدان أنوثتها . قالت الأم لابنتها : « أى بنية ، إن النصيحة لو تركت لفضل أدب لتركت لذلك منك ـ أى أنها كأم تثق فى أدب ابنتها ولا تحتاج فى هذا الأمر لنصيحة ـ ولكنها معونة للغافل وتذكرة للعاقل . إنك غداً ستذهبين إلى بيت لم تعرفيه ، وقرين لم تألفيه . فكونى له أمَةً يكن لك عبداً . واحفظى عنى عشر خصال تكن لك ذخراً » .

وانظروا إلى الخصال التى استنبطتها المرأة من ميدان رسالتها ، تستمر كلمات الأم : « أما الأولى والثانية : فالمعاشرة له بالسمع والطاعة والرضا بالقناعة ، وأما الثالثة والرابعة : فالتعهد لموقع عينه وموضع أنفه فلا تقع عينه منك على قبيح ، ولا يشم منك إلا أطيب ريح . والخامسة والسادسة : التفقد لوقت طعامه والهدوء عند منامه فإن تنغيص النوم مغضبة ، وحرارة الجوع ملهبة . أما السابعة والثامنة : فالتدبير لماله والإرعاء على حشمه وعلى عياله . وأما التاسعة والعاشرة : فألا تفشى له سرّاً ولا تعصى له أمراً ؛ فإنك إن أفشيت سرّه لم تأمنى غدره ، وإن عصيت أمره أوغرت صدره ، وإياك بعد ذلك والفرح إن كان ترحاً والحزن إن كان فرحاً » .

فذهبت أم إياس بهذه النصائح إلى زوجها وأنجبت له البنين والبنات وسعدت معه وسعد معها .

تلك نصيحة من أم تدل على منتهى التعقل ، ولكن فى أى شىء ؟. فى ميدان مهمتها . إذن فالمرأة يمنحها الله ويعطيها أن تتعقل ولها ميدان ولا يأتى هذا التعقل غالباً إلا فى ميدانها . لأن ميدان الرجل له حركة تتطلب الحزم ، وتتطلب الشدة ، والمرأة حركتها تتطلب العطف والحنان ؛ والأمثال فى حياتنا اليومية تؤكد ذلك ، إن الرجل عندما يدخل بيته ويحب أن ينام ، قد يأتى له طفله صارخاً باكياً ، فيثور الأب على زوجته ويسب الولد ويسب أمه ، وقد يقول ألفاظاً مثل : « اكتمى أنفاسه إنى أريد أن أستريح » . وتأخذ الأم طفلها وتذهب تربت على كتفه وتسكته ، ويستجيب لها الطفل ، فهذه مهمة الأم ، ولذلك نجد أن الأحداث التاريخية العصيبة تبرز الرجل فى مكانه والمرأة فى مكانها .

فمثلا : سيدنا إبراهيم عليه السلام أسكن هاجر وابنها إسماعيل بوادٍ غير ذى

زرع ، قالت له : أتتركنا فى مكان ليس فيه حتى الماء ، أهذا نزلته برأيك أم الله أنزلك فيه ؟. قال لها : أنزلنى الله هذا المكان . فقالت له : اذهب كما شئت فإنه لا يضيعنا . هذه المهمة للمرأة . هاجر مع طفل فى مكان ليس فيه مقوم الحياة الأول وهو الماء . فانظروا عطفها وحنانها ، ماذا فعلت ؟ لقد سعت بين الصفا والمروة ، صعدت الجبل إلى أن أنهكت قواها .

إن الذى يذهب إلى الحج أو العمرة ويجرب الأشواط السبعة هذه يعرف أقصى ما يمكن أن تتحمله المرأة فى سبيل ابنها ؛ لأن هذا موقف عطف وحنان ، ابنها يريد أن يشرب . وكأن الله قال لها : إنك قد سعيت ولكنى سأجعل رزقك من حيث لا تحتسبين ، أنت سعيت بين الصفا والمروة ، والماء ينبع تحت قدمي ولدك . إذن فصدقت فى قولها : إنه لا يضيعنا ، ولو أن سعيها جاء بالماء لظننا جميعاً أن السعى هو الذى يأتى بالماء ، ولكن اسع ولا تعتقد فى السعى ، بل اعتقد فى الرزّاق الأعلى ، تلك مسألة ظاهرة فى أمنا هاجر .

وحينما جاء موقف الابتلاء بالذبح ، اختفت هاجر من المسرح ، وجاء دور سيدنا إبراهيم بحزمه وعزمه ونبوته . ورأى فى الرؤيا أنه يذبح ابنه ، أين أمه فى هذا ؟ اختفت من المسرح ؛ لأن هذا موقف لا يتفق مع عواطفها وحنانها . إذن فكل واحد منهما له مهمة . والنجاح يكون على قدر هذه المهمة . ولذلك يقول الحق : « ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض » فساعة ترى جنساً أخذ شيئاً وجنساً آخر أخذ شيئاً ، إياك أن تشغل بالك وتتمنى وتقول : « أريد هذه » ، ولكن اسأل الله من فضله ، لأن كلمة « ولا تتمنوا » هى نهى عن أن تتمنى ما فضل الله به بعضا على بعض ، ولذلك يقول : « واسألوا الله من فضله » . ومادمت تسأل الله من فضله ، فهنا أمل أن يعطيك .

وقد يرى البعض هنا مشكلة فيتساءل : كيف ينهانا الله عن أن نتمنى ما فضل الله به بعضنا على بعض فقال : « ولا يتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض » مع أن فضل الله من شأنه أن يفضل بعضنا على بعضٌ بدليل قوله:(ورفعنا بعضكم فوق بعض درجات) فضلا على أننى أطمع فى أن أسأل الله ليعطينى ، لأنه ـ سبحانه ـ

ما أمرنا بالسؤال إلاّ ليعطينا .

ونقول : لا ، التمنى عادة أن تطلب شيئاً يستحيل أو لم تجر به العادة ، إنما السؤال والدعاء هو مجال أن تأتى إلى شيء تستطيع الحصول عليه ، فأوضح : لا تذهب إلى منطقة التمنى ، ولذلك ضربوا المثل للتمنى ببيت الشاعر :

ألا ليت الشباب يعود يوماً
فأخبره بما فعل المشيب

تمنّى الشاعر أن يعود الشباب يوماً فهل هذا يتأتى ؟ إنه لا يتأتى . أو أن يقول قائل : ليت الكواكب تدنو لى فأنظمها ، هل يمكن أن يحدث ذلك ؟ لا . ولكن هذا القول يدل على أن هذا الشيء محبوب وإن كان لم تجر به العادة ، أو هو مستحيل ، إذن فالسؤال يجب أن يكون فى حدود الممكن بالنسبة لك . والحق يوضح : لا تنظروا إلى ما فضل الله به بعضكم على بعض . ومادام الله قد فضل بعضاً على بعض فليسأل الإنسان لا فى منطقة ما فضل الله غيره عليه ويطلبه لنفسه ويسلبه من سواه ، ولكن فى منطقة أن توفق فى إبراز ما فضلك الله به ؛ ولذلك نجد الحق فى آيات التفضيل يقول :

﴿ وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلرِّزۡقِ ﴾

(من الآية ٧١ سورة النحل)

وما هو الرزق ؟ هل هو نقود فقط ؟ لا . بل الرزق هو كل ما ينتفع به ، فالحلم رزق ، والعلم رزق ، والشجاعة رزق ، كل هذا رزق ، وقوله الحق : « ما فضل الله به بعضكم على بعض » يجعلنا نتساءل : من هو المفضل ومن هو المفضل عليه ؟ لأنه قال : « بعضكم » . لم يبينها لنا ، إذن فبعض مفضل وبعض مفضل عليه .

وسؤال آخر : وأى بعض مفضل وأى بعض مفضل عليه ؟ إن كل إنسان هو فاضل فى شيء ومفضول عليه فى شيء آخر ، فإنسان يأخذ درجة الكمال فى ناحية ، وإنسان يفتقد أدنى درجة فى تلك الناحية ، لكنه يملك موهبة أخرى قد تكون كامنة

ومكتومة . وهذا يعنى التكامل فى المواهب ، وهذا التكامل هو أسنان الحركة فى المجتمع .

لننتبه إلى التروس ، نحن نجد الترس الزائد يدخل فى الترس الأقل ، فتدور الحركة ، لكن إذا وضعنا ترساً زائدا مقابل ترس زائد مثله فلن تحدث الحركة . إذن فلابد أن يكون متميزا فى شىء والآخر متميزًا فى شىء آخر فيحدث التكامل بينهما، ومثل ذلك قلنا:الليل والنهار ، الليل يعيننى على حركة النهار ، وقلنا : إن السيف فى يد الفارس يضرب به ويقتل ، ولو لم يسنّه خبير فى الحدادة ويشحذه ويصقله لما أدى السيف مهمته ، وقد لا يستطيع هذا الخبير فى صقل السيوف الذهاب للمعركة ، وقد يخاف أن يضرب بالسيف ، لكن له فضل مثل فضل المحارب بالسيف .

إن كل واحد له مهمة يؤديها ، والأقدار تعطى الناس مواهبهم المتكاملة وليست المتكررة المتعاندة ، ومادامت المواهب متكاملة فلا أحسد من تفوّق علىّ فى مجال ما ؛ لأننى أحتاج إليه ، وهو لا يحسدنى إن تفوقت عليه فى موهبة أو عمل لأنه يحتاج إلى ، إذن فأنا أريده أن يتفوق ، وهو يريدنى أن أتفوق ، وذلك مما يحبب الناس فى نعم ومواهب الناس ، فأنا أحب النعمة التى وهبها الله للآخر ، وهو يحب النعمة والموهبة التى عندى .

مثال ذلك عندما نجد رجلا موهوبا فى تفصيل الملابس ويحيك أجود الجلابيب فالكل يفرح به ، وهذا الرجل يحتاج إلى نجار موهوب ليصنع له باباً جيداً لدكانه ، ومن مصلحة الاثنين أن تكون كل نعمة عند واحد محمودة ، ولذلك سماها الله « بعضا » و« بعضا » ويتكون الكل من بعض وبعض ، فأنت موهوب فى بعض الأمور ولا تؤدى كل الأمور أبداً ، ولكن بضميمة البعض الآخر نملك جميعاً مواهب بعضنا بعضا .

ويتابع الحق : « للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن » فمهمة النجاح للرجل أو المرأة هو أن يكون كل منهما صالحاً ومؤديا للمهمة التى خُلق من أجلها ، بعد ذلك يكون حساب الثواب والعقاب وكل واحد على قدر تكليفه .

فالثواب والعقاب يأتى على مقدار ما يقوم كل مخلوق مما كلف به .

والمثال على اختلاف مهمة الرجل عن مهمة المرأة، يتجلى فى أننا نجد الرجل عندما تغضب امرأته أو تمرض ، ويكون عنده ولد رضيع ، فهل يستطيع هو أن يرضع الطفل ؟ طبعاً لا ؛ لأن لكل واحد مهمة ؛ فالعاقل هو من يحترم قدر الله فى خلقه ، ويحترم مواهب الله حين أعطاها ، وهو يسأل الله من فضله ، أى مما فضله به ليعطى له البركة فى مقامه . وحين يقول الحق : « ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن » نلحظ أن هذه تساوى تلك تماماً .

« واسألوا الله من فضله إن الله كان بكل شىء عليما » ومن واسع علمه سبحانه أنه وزع المواهب فى خلقه حتى يتكامل المجتمع ولا يتكرر ؛ لأن تكرار المجتمع هو الذى يولد الشقاق ، أما تكامله فيولد الوفاق ، وسبب نزول الآية « ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض » أن النساء قلن : إننا لم يكتب علينا الجهاد وأعطانا ربنا نصف الرجل من الميراث ، وقد أوضح الحق من قبل للمرأة أنها أخذت نصف الرجل لأنها محسوبة على غيرها ولن تصرف وتنفق من دخلها على نفسها ، بل سيصرف الرجل وينفق عليها، والمسألة بذلك تكون عادلة. وكذلك قال الرجال: مادام الله قد فضلنا فى الميراث، وأعطانا ضعف نصيب المرأة فلعله يفضلنا فى الآخرة ويعطينا ضعف ثوابها ، فيصنع الرجل العمل الواحد ويريد الضِّعف ! .

وانظر لذكاء المرأة ، حينها قالت : مادام ربنا أعطانا نصف ميراثكم فلماذا لا يعطينا نصف العقوبة إذن ؟ فأوضح لهم الله : اهدأوا « ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض » أى أن على كل واحد أن يرضى بما قسمه الله له .

وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِيَ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ

وَالْأَقْرَبُونَ ۚ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٣٣﴾

وساعة ترى لفظة « لكل » وتجدها منونة ، فاعرف أن هناك حاجة مقدرة ، وأصلها « لكل إنسان » ، وحذف الاسم وجاء بدلاً منه التنوين ، مثل قوله :

﴿ فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾

(سورة الواقعة)

ونجد التنوين فى « حينئذٍ » أى حين بلغت الروح الحلقوم ، فحذف حين بلغت الروح الحلقوم وعوض عنها التنوين فى « حينئذٍ » إذن فالتنوين جاء بدلاً من المحذوف .

وقول الحق : « ولكل جعلنا موالى » ، و« الموالى » جمع « مَوْلى » . وقبل أن تنزل آيات الميراث ، آخى النبى بين الأنصار والمهاجرين ، فكانوا يتوارثون بهذه المؤاخاة ، وكان هناك شيء اسمه « مولى المناصرة » وهو أن يستريح اثنان لبعضهما ويقول كل منهما للآخر : أنا أخوك وأنت أخى ، حربى حربك ، وسلمى سلمك ، ودمى دمك ، وترث منى وأرث منك ، وتعقل عنى وأعقل عنك ، أى أن فعلتُ جناية تدفع عنى ، وإن فعلتَ أنت جناية أدفع عنك . مؤاخاة .

هؤلاء كان لهم نصيب فى مال المتوفى ، فالحق يبيّن : لكل إنسان من الرجال والنساء جعلنا ورثة يرثون مما ترك الوالدان ، والأقربون . . أى لهم نصيب من ذلك ولأولياء المناصرة بعض من الميراث كذلك.فإياكم أن تأتوا أنتم وتقولوا: لا ، لابد أن تعطوهم نصيبهم الذى كان مشروطاً لهم وهو السدس .

لكن أظل ذلك الحكم ؟ لا.لقد نسخ وأنزل الله قوله :

﴿ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧٥﴾ ﴾

(من الآية ٧٥ سورة الأنفال)

فمادام الله قد قال : « ولكل جعلنا موالى مما ترك الوالدان والأقربون » . أى ولكل إنسان من الموالى شىء من آثار ما ترك الوالدان والأقربون . فإياكم أن تقولوا : هم ذهبوا فلا نعطيهم شيئا ، لا.ما كانوا متفقين فيه وعقدوا أيمانهم عليه آتوهم نصيبهم مصداقاً لقوله الحق : « فآتوهم نصيبهم إن الله كان على كل شىء شهيدا » فالله شهيد على هذه . وشهيد على أنكم تنفذون أو لا تنفذون .

وبعد ذلك جاء ليتكلم فى قضية متصلة بقول الحق سبحانه : « ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض » فقال :

﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُۚ وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُواْ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًاۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾ ﴾

«الرجال قوامون على النساء»، أول ما نلتفت إليه أن بعضهم لم يفسروا الآية إلاّ على الرجل وزوجته على الرغم من أنّ الآية تكلمت عن مطلق رجال ومطلق نساء ، فليست الآية مقصورة على الرجل وزوجه ، فالأب قوام على البنات ،والأخ على أخواته . ولنفهم أولاً « الرجال قوامون » وماذا تعنى ؟ وننظر أهذه تعطى النساء التفوق والمر كز

أم تعطيهن التعب . والحق سبحانه وتعالى يطلب منا أن نحترم قضية كونية ، فهو الخالق الذى أحسن كل شيء خلقه وأوضح القضية الإيمانية « الرجال قوامون على النساء » والذى يخالف فيها عليه أن يوضح - إن وجد - ما يؤدى إلى المخالفة ، والمرأة التى تخاف من هذه الآية ، نجد أنها لو لم ترزق بولد ذكر لغضبت ، وإذا سألناها : لماذاإذن ؟ تقول : أريد ابنًا ليحمينا . كيف وأنت تعارضين فى هذا الأمر ؟.

ولنفهم ما معنى « قَوَّام » ، القوَّام هو المبالغ فى القيام . وجاء الحق هنا بالقيام الذى فيه تعب ، وعندما تقول : فلان يقوم على القوم ؛ أى لا يرتاح أبدا . إذن فلماذا تأخذ « قوامون على النساء » على أنه كتم أنفاس ؟ لماذا لا تأخذها على أنه سعى فى مصالحهن ؟ فالرجل مكلف بمهمة القيام على النساء ، أى أن يقوم بأداء ما يصلح الأمر . ونجد أن الحق جاء بكلمة « الرجال » على عمومها ، وكلمة « النساء » على عمومها ، وشيء واحد تكلم فيه بعد ذلك فى قوله : « بما فضل الله بعضهم على بعض » فما وجه التفضيل ؟.

إن وجه التفضيل أن الرجل له الكدح وله الضرب فى الأرض وله السعى على المعاش ، وذلك حتى يكفل للمرأة سبل الحياة اللائقة عندما يقوم برعايتها . وفى قصة آدم عليه السلام لنا المثل ، حين حذر الحق سبحانه آدم وزوجته من الشيطان ، إبليس الذى دُعى إلى السجود مع الملائكة لآدم فأبى ، وبذلك عرفنا العداوة المسبقة من إبليس لآدم ، وحيثيتها :

﴿ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴾

(من الآية ٦١ سورة الاسراء)

وأوضح الحق لآدم : إذا هبطت إلى الأرض فاذكر هذه العداوة . وأعلم أنه لن يتركك ، وسيظل يغويك ويغريك ؛ لأنه لا يريد أن يكون عاصياً بمفرده ، بل يريد أن يضم إليه آخرين من الجنس الذى أبى أن يسجد هو لأبيهم آدم يريد أن يغويهم ، كما حاول إغواء آدم :

﴿ إِنَّ هَـٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ ﴾

(من الآية ١١٧ سورة طه)

وهل قال الحق بعدها : فتشقيا أو فتشقى ؟ قال سبحانه :

﴿ فَتَشْـقَىٰٓ ﴾

(من الآية ١١٧ سورة طه)

فساعة جاء الشقاء فى الأرض والكفاح ستر المرأة وكان الخطاب للرجل . وهذا يدل على أن القوامة تحتاج إلى تعب ، وإلى جهد ، وإلى سعى ، وهذه المهمة تكون للرجل .

ونلحظ أنه ساعة التفضيل قال : « الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض » لقد جاء بـ « بعضهم » لأنه ساعة فضل الرجل لأنه قوّام فضل المرأة أيضا لشىء آخر وهو كونها السكن حين يستريح عندها الرجل وتقوم بمهمتها .

ثم تأتى حيثية القوامة : « وبما أنفقوا من أموالهم » . والمال يأتى نتيجة الحركة ونتيجة التعب ، فالذى يتعب نقول له : أنت قوّام ، إذن فالمرأة يجب أن تفرح بذلك ؛ لأنه سبحانه أعطى المشقة وأعطى التعب للجنس المؤهل لذلك . ولكن مهمتها وإن كانت مهمة عظيمة إلا أنها تتناسب والخصلة المطلوبة أولاً فيها : الرقة والحنان والعطف والوداعة . فلم يأت بمثل هذا ناحية الرجل ، لأن الكسب لا يريد هذه الامور ، بل يحتاج إلى القوة والعزم والشدة ، فقول الله:« قوامون » يعنى مبالغين فى القيام على أمور النساء .

ويوضح للنساء : لا تذكرن فقط أنها حكاية زوج وزوجة . قدرن أن القيام يكون على أمر البنات والأخوات والأمهات . فلا يصح أن تأخذ « قوام » على أنها السيطرة ؛ لأن مهمة القيام جاءت للرجل بمشقة ، وهى مهمة صعبة عليه أن يبالغ فى القيام على أمر من يتولى شئونهن .

« وبما أنفقوا من أموالهم » فإذا كان الزواج متعة للأنثى وللذكر . والاثنان يستمتعان ويريدان استبقاء النوع فى الذرية ، فما دامت المتعة مشتركة وطلب الذرية أيضا مشتركا فالتبعات التى تترتب على ذلك لم تقع على كل منهما ، ولكنها جاءت على

الرجل فقط . . . صداقاً ونفقة حتى ولو كانت المرأة غنية لا يفرض عليها الشرع حتى أن تقرض زوجها .

إذن فقوامة الرجال جاءت للنساء براحة ومنعت عنهن المتاعب . فلماذا تحزن المرأة منها ؟ فـ « الرجال قوامون على النساء » أى قائمون إقامة دائمة ، لأنه لا يقال قوّام لمطلق قائم ، فالقائم يؤدى مهمة لمرة واحدة ، لكن « قوّام » تعنى أنه مستمر فى القوامة .

« الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم » وما دمنا نكدح ونتعب للمرأة فلابد أن تكون للمرأة مهمة توازى ذلك وهى أن تكون سكناً له ، وهذه فيها تفضيل أيضاً .

لقد قدم الحق سبحانه وتعالى فى صدر الآية مقدمة بحكم يجب أن يُلتزم به؛ لإنه حكم الخالق الذى أحسن كل شىء خلقه ، فأوضح القضية الإيمانية : « الرجال قوامون على النساء » ثم جاء بالحيثيات فقال : « بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم » ويتابع الحق : « فالصالحات قانتات حافظات للغيب » والمرأة الصالحة هى المرأة التى استقامت على المنهج الذى وضعه لها من خلقها فى نوعها ، فمادامت هى صالحة تكون قانتة ، والقنوت هو دوام الطاعة لله ، ومنه قنوت الفجر الذى نقنته ، وندعو ونقف مدة أطول فى الصلاة التى فيها قنوت .

والمرأة القانتة خاضعة لله ، إذن فحين تكون خاضعة لله تلتزم منهج الله وأمره فيما حكم به من أن الرجال قوامون على النساء ، « فالصالحات قانتات حافظات للغيب » وحافظات للغيب تدل على سلامة العفة . فالمرأة حين يغيب عنها الراعى لها والحامى لعرضها كالأب بالنسبة للبنت والابن بالنسبة للأم ، والزوج بالنسبة للزوجة ، فكل امرأة فى ولاية أحد لا بد أن تحفظ غيبته ؛ ولذلك فالرسول صلى الله عليه وسلم حينما حدد المرأة الصالحة قال فى حديث عن الدنيا :

« الدنيا كلها متاع ، وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة »[1]

(١) رواه أحمد ومسلم والنسائى عن ابن عمرو .

لقد وضع صلى الله عليه وسلم قانوناً للمرأة الصالحة يقول فيه :

« خير النساء التى تسرّه إذا نظر وتطيعه إذا أمر ولا تخالفه فى نفسها ولا مالها بما يكره »[1] .

وأى شيء يحتاج الرجل إليه أحسن من ذلك . وكلمة « إن نظرت إليها سرّتك » إياك أن توجهها ناحية الجمال فقط ، جمال المبنى ، لا ، فساعة تراها اجمع كل صفات الخير فيها ولا تأخذ صفة وتترك صفة ؛ لأن النبى صلى الله عليه وسلم حذرنا من أن نأخذ صفة فى المرأة ونترك صفة أخرى ، بل لابد أن نأخذها فى مجموع صفاتها . فقال :

« تنكح المرأة لأربع : لمالها ولحسبها ولجمالها ولدينها ، فاظفر بذات الدين تربت يداك »[2] .

المطلوب ألا تنظر إلى زاوية واحدة فى الجمال ، بل انظر إلى كل الزوايا ، فلو نظرت إلى الزاوية التى تشغل الناس ، الزاوية الجمالية ، لوجدتها أقل الزوايا بالنسبة إلى تكوين المرأة ؛ لأن عمر هذه المسألة « شهر عسل » ـ كما يقولون ـ وتنتهى ، ثم بعد ذلك تبدو المقومات الأخرى . فإن دخلت على مقوم واحد وهى أن تكون جميلة فأنت تخدع نفسك ، وتظن أنك تريدها سيدة صالون ! ونقول لك : هذه الصفة أمدها بسيط فى عمر الزمن ، لكن ما يبقى لك هو أن تكون أمينة ، أن تكون مخلصة ، أن تكون مدبرة ؛ ولذلك فالفشل ينشأ فى الأسرة من أن الرجال يدخلون على الزواج بمقياس واحد هو مقياس جمال البنية ، وهذا المقياس الواحد عمره قصير ، يذهب بعد فترة وتهدأ شِرَّته . وبعد ذلك تستيقظ عيون الرجل لتتطلع إلى نواحى الجمال الأخرى ، فلا يجدها . فيحدث الفشل ؛ لذلك لابد أن تأخذ مجموعة الزوايا كلها . إياك أن تأخذ زاوية واحدة ، وخير الزوايا أن يكون لها دين . وكذلك المقياس بالنسبة لقبول المرأة للزوج ، أيضاً خير الزوايا أن يكون له دين ، قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ :

---

(١) رواه أحمد والنسائى والحاكم .

(٢) رواه البخارى ومسلم وأبوداود والنسائى وابن ماجه .

« إذا أتاكم من ترضون خلقه ودينه فزوجوه إن لا تفعلوا تكن فتنة فى الأرض وفساد عريض »[١] .

وعندما استشار رجل سيدنا الحسن بن على ـ رضى الله عنهما ـ قال : زَوّجها من ذى الدين ، إن أحبها أكرمها ، وإن كرهها لم يظلمها .

إذن فالدين يرشدنا : لا بد أن ننظر إلى المسألة التى سيكون لها عمر طويل فى الحياة الممتدة ، وبعد ذلك إذا أرادت أن تكون ناجحة فعليها أن ترى إطار نوعيتها وتنبغ فيه ، ومن الممكن إن كان عندها وقت أن توسع دائرة مهمتها فى بيتها ، فإذا كان عندها أولاد فعليها أن تتعلم الحياكة وتقوم بتفصيل وحياكة ملابسها وملابس أولادها فتوفر النقود ، أو تتعلم التطريز كى لا تدفع أجرة ، أو تتعلم التمريض حتى إذا مرض ولدها استطاعت أن تمرضه وترعاه ، أن تتعلم كى تغنى عن مدرس خصوصى يأخذ نقوداً من دخل الأسرة ، وإن بقى عندها وقت فلتتعلم السباكة لتوفر أجرة السباك إذا فسد صنبور ماء ، أو تتعلم إصلاح الكهرباء لتصلح مفتاح الإضاءة . وتستطيع المرأة أن تقوم بأى عمل وهى جالسة فى بيتها وتوفر دخلاً لتقابل به المهام التى لا تقدر أن تفعلها ، والمرأة تكون من « حافظات الغيب » ليس بارتجال من عندها أو باختيار ، بل بالمنهج الذى وضعه الله لحفظ الغيب ؟ . .

فما المنهج الذى وضعه الله لحفظ الغيب ؟ تحافظ على عرضها وعلى مال زوجها فى غيبته ، فتنظر المنافذ التى تأتى منها الفتنة وتمتنع عنها ، لا تخرج إلى الشوارع إلا لحاجة ماسة أو ضرورة كى لا ترى أحداً يفتنها أو يفتن بها ، لأن هذه هى مقدمات الحفظ ، ولا تذهب فى زحمة الحياة ، وبعد ذلك نقول لها:« حافظى على الغيب » بل عليها أن تنظر ما بيّنه الله فى ذلك . فإن اضطررت أن تخرجى فلتغضى البصر ؛ ولذلك قال سبحانه :

﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ﴾

(من الآية ٣١ سورة النور)

---

(١) رواه الترمذى وابن ماجه والحاكم عن أبى هريرة .

فالمرأة إن لم تغض النظر يحدث التفات عاطفى ؛ لأن كل شعور فى الإنسان له ثلاث مراحل : مرحلة أن يدرك ، ومرحلة أن يجد فى نفسه ، ومرحلة أن ينزع ، أى يحول الأمر إلى سلوك ، ونضرب دائماً المثل بالوردة . وأنت تسير ترى وردة فى بستان وبمجرد رؤيتك لها فهذا إدراك ، وإذا أعجبتك الوردة وعشقتها وأحببتها فهذا اسمه وجدان . وإذا اتجهت لتقطفها فهذه عملية نزوعية ، فكم مرحلة ؟ ثلاث مراحل : إدراك ، فوجدان . فنزوع .

ومتى يتدخل الشرع ؟ الشرع يتدخل فى عملية النزوع دائماً . يقول لك : أنت نظرت الوردة ولم نعترض على ذلك ، أحببتها وأعجبتك فلم نقل لك شيئاً ، لكن ساعة جئت لتمدّ يدك لتأخذها قلنا لك : لا ، الوردة ليست لك .

إذن فأنت حرّ فى أن تدرك ، وحرّ فى أن تجد فى نفسك ، إنما ساعة تنزع نقول لك : لا ، هى ليست لك ، وإن أعجبتك فازرع لك وردة فى البيت ، أو استأذن صاحبها مثلاً . .

إذن فالتشريع يتدخل فى منطقة النزوع ، إلا فى أمر المرأة فالتشريع يتدخل من أول الإدراك ؛ لأن الذى خلقنا علم أننا إن أدركنا جمالاً ، نظرنا له ، وستتولد عندنا مواجيد بالنسبة للأشياء التى نراها ونشتهيها ، وساعة يوجد إدراك واشتهاء ، لا يمكن أن ينفصل هذا عن النزوع ؛ لأنك ـ كرجل ـ مركب تركيباً كيميائيا بحيث إذ أدركت جمالاً ثم حدث لك وجدان واشتهاء ، فالاشتهاء لا يهدأ إلا بنزوع ، فيبين لك الشرع : أنا رحمتك من أول الأمر ، وتدخلت من أول المسألة . وكل شىء أتدخل فيه عند النزوع إلا المرأة فقد تدخلت فيها من أول الإدراك ؛ لذلك أمر الحق الرجل أن يغض البصر ، وكذلك أمر المرأة .

لماذا ؟ لأنك إن أدركت فستجد ، وإن وجدت فستحاول أن تنزع ونزوعك سيكون عربدة فى أعراض الناس ، وإن لم تنزع فسيبقى عندك كبت ؛ لذلك حسم الحق المسألة من أولها وقال :

﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ

﴿ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ۝ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ ﴾

(الآية ٣٠ وجزء من الآية ٣١ سورة النور)

فامنعوا المسألة من أول مراحلها لماذا ؟ لأننى عندما أرى وردة ، ثم قالوا لى : هى ليست لك فلا تقطفها ، فلا يحدث عندى ارتباك فى مادتى ، لكن عندما يرى الرجل امرأة جميلة وتدخل فى وجدانه فسيحدث عنده النزوع ؛ لأن له أجهزة مخصوصة تنفعل لهذا الجمال ، ولذلك يوضح لك الحق : أنا خالقك وسأتدخل فى المسألة من أول الأمر ، فقوله : « بما حفظ الله » أى بالمنهج الذى وضعه الله للحفظ : ألا أعرض نفسى إلى إدراك ، فينشأ عنه وجدان ، وبعد ذلك أفكر فى النزوع ، . فإن نزعت أفسدت ، وإن لم تنزع تعقدت ، فيأتى شرّ من ذلك ، هذا معنى « بما حفظ الله » ، يعنى انظروا إلى المنهج الذى وضعه الله لأن تحفظ المرأة غيبة زوجها ، وهى تحفظه ليس بمنهج من عندها . بل بالمنهج الذى وضعه خالقها وخالقه .

وها هو ذا الحق سبحانه وتعالى حينما يربّى فى عبده حاسة اليقظة قال : « واللاتى تخافون نشوزهن » فالنشوز لم يحدث بل مخافة أن يحدث ، فاليقظة تقتضى الترقب من أول الأمر ، لا تترك المسألة حتى يحدث النشوز ، و« النشوز » من « نشز » أى ارتفع فى المكان . ومنه « النشز » وهو المكان المرتفع ، ومادام الحق قد قال : « الرجال قوامون على النساء » فالمعنى هنا : مَن تريد أن تتعالى وتوضع فى مكانة عالية ؟؛ ولذلك فالنشاز حتى فى النغم هو : صوت خارج عن قواعد النغم فيقولون : هذه النغمة نشاز ، أى خرجت عن قاعدة النغمة التى سبقتها . وكذلك المرأة المفروض فيها أنها تكون متطامنة ، فإن شعرت أن فى بالها أن تتعالى فإياك أن تتركها إلى أن تصعد إلى الربوة وترتفع . بل عليك التصرف من أول ما تشعر ببوادر النشوز فتمنعه ، ومعنى قوله : « واللاتى تخافون » يعنى أن النشوز أمر متخوف منه ومتوقع ولم يحدث بعد .

، وكيف يكون العلاج ؟ يقول الحق : « فعظوهن » أى ساعة تراها تنوى هذا فعظها ، والوعظ : النصح بالرقة والرفق ، قالوا فى النصح بالرقة : أن تنتهز فرصة

انسجام المرأة معك ، وتنصحها فى الظرف المناسب لكى يكون الوعظ والإرشاد مقبولاً فلا تأت لإنسان وتعظه إلا وقلبه متعلق بك .

ولنفترض أن ابناً طلب من والده طلباً ، ولم يحضره الأب ، ثم جاءت الأم لتشكو للأب سلوك الابن ، فيحاول الأب إحضار الطلب الذى تمناه الابن ، ويقول له :

ـ تعال هنا يا بنى ، إن الله قد وفقنى أن أحضر لك ما طلبت .

وفى لحظة فرح الابن بالحصول على ما تمنى ، يقول له الأب : لو تذكرت ما قالته لى أمك من سلوكك الردىء لما أحضرته لك .

ولو سب الأب ابنه فى هذه اللحظة فإن الابن يضحك .

لماذا ؟ لأن الأب أعطى الابن الدرس والعظة فى وقت ارتباط قلبه وعاطفته به . ولكن نحن نفعل غير ذلك . فالواحد يأتى للولد فى الوقت الذى يكون هناك نفور بينهما ، ويحاول أن يعظه ؛ لذلك لا تنفع الموعظة ، وإذا أردنا أن تنفع الموعظة يجب أن نغير من أنفسنا ، وأن ننتهز فرصة التصاق عواطف من نرغب فى وعظه فنأتى ونعطى العظة .

هكذا « فعظوهن » هذه معناها : برفق وبلطف ، ومن الرفق واللطف أن تختار وقت العظة ، وتعرف وقت العظة عندما يكون هناك انسجام ، فإن لم تنفع هذه العظة ورأيت الأمر داخلاً إلى ناحية الربوة ؛ والنشوز فانتبه . والمرأة عادةً تَدِل على الرجل بما تعرف فيه من إقباله عليها . وقد تصبر المرأة على الرجل أكثر من صبر الرجل عليها ؛ لأن تكوين الرجل له جهاز لا يهدأ إلا أن يفعل . لكن المرأة تستثار ببطء ، فعندما تنفعل أجهزة الرجل فهو لا يقدر أن يصبر ، لكن المرأة لا تنفعل ولا تستثار بسرعة ، فأنت ساعة ترى هذه الحكاية ، وهى تعرفك أنك رجل تحب نتائج العواطف والاسترسال ؛ فأعط لها درساً فى هذه الناحية ، اهجرها فى المضجع .

وانظر إلى الدقة ، لا تهجرها فى البيت ، لا تهجرها فى الحجرة ، بل تنام فى جانب وهى فى جانب آخر ، حتى لا تفضح ما بينكما من غضب ، اهجرها فى المضجع ؛ لأنك إن هجرتها وكل البيت علم أنك تنام فى حجرة مستقلة أو تركت البيت وهربت ، فأنت تثير فيها غريزة العناد ، لكن عندما تهجرها فى المضجع فذلك أمر يكون بينك وبينها فقط ، وسيأتيها ظرف عاطفى فتتغاضى ، وسيأتيك أنت أيضاً ظرف عاطفى فتتغاضى ، وقد يتمنى كل منكما أن يصالح الآخر .

إذن فقوله : « واهجروهن فى المضاجع » كأنك تقول لها : إن كنت سَتُدِلِّينَ بهذه فأنا أقدر على نفسى . ويتساءل بعضهم : وماذا يعنى بأن يهجرها فى المضاجع ؟ . نقول : مادام المضجع واحداً فليعطها ظهره ويشرط ألا يفضح المسألة ، بل ينام على السرير وتُغلق الحجرة عليهما ولا يعرف أحد شيئاً ؛ لأن أى خلاف بين الرجل والمرأة إن ظل بينهما فهو ينتهى إلى أقرب وقت ، وساعة يخرج الرجل وعواطفه تلتهب قليلاً ، يرجع ويتلمسها ، وهى أيضاً تتلمسه . والذى يفسد البيوت أن عناصر من الخارج تتدخل ، وهذه العناصر تورث فى المرأة عناداً وفى الرجل عناداً ؛ لذلك لا يصح أن يفضح الرجل ما بينه وبينه المرأة عند الأم والأب والأخ ، ولنجعل الخلاف دائماً محصوراً بين الرجل والمرأة فقط . فهناك أمر بينهما سيلجئهما إلى أن يتسامحا معاً .

« فعظوهن واهجروهن فى المضاجع واضربوهن » وقالوا : إن الضرب بشرط ألا يسيل دماً ولا يكسر عظماً . . أى يكون ضرباً خفيفاً يدل على عدم الرضا ؛ ولذلك فبعض العلماء قالوا : يضربها بالسواك .

وعلمنا ربنا هذا الأمر فى قصة سيدنا أيوب عندما حلف أن يضرب امرأته مائة جلدة ، قال له ربنا :

﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ﴾

(من الآية ٤٤ سورة ص)

والضغث هو الحزمة من الحشيش يكون فيها مائة عود ، ويضربها ضربة واحدة فكأنه ضربها مائة ضربة وانتهت . فالمرأة عندما تجد الضرب مشوباً بحنان الضارب

فهى تطيع من نفسها ، وعلى كل حال فإياكم أن تفهموا أن الذى خلقنا يشرع حكماً تأباه العواطف ، إنما يأباه كبرياء العواطف ، فالذى شرع وقال هذا لابد أن يكون هكذا .

« واللاتى تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن فى المضاجع واضربوهن » أى ضرباً غير مبرح ، ومعنى : غير مبرح أى ألا يسيل دماً أو يكسر عظماً ويتابع الحق : « فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا » .

فالمسألة ليست استذلالاً . بل إصلاحا وتقويما ، وأنت لك الظاهر من أمرها ، إياك أن تقول : إنها تطيعنى لكن قلبها ليس معى ؛ وتدخل فى دوامة الغيب ، نقول لك : ليس لك شأن لأن المحكوم عليه فى كل التصرفات هو ظاهرالأحداث . أما باطن الأحداث فليس لك به شأن مادام الحق قال : « أطعنكم » ؛ فظاهر الحدث إذن أن المسألة انتهت ولا نشوز تخافه ، وأنت إن بغيت عليها سبيلاً بعد أن أطاعتك ، كنت قوياً عليها فيجب أن تتنبه إلى أن الذى أحلها لك بكلمة هو أقوى عليك منك عليها وهذا تهديد من الله .

ومعنى التهديد من الله لنا أنه أوضح : هذه صنعتى ، وأنا الذى جعلتك تأخذها بكلمتى « زوجنى .. زوجتك » .. ومادمت قد ملكتها بكلمة منى فلا تتعال عليها ؛ لأننى كما حميت حقك أحمى حقها . فلا أحد منكما أولى بى من الآخر ، لأنكما صنعتى وأنا أريد أن تستقر الأمور ، وبعد هذا الخطاب للأزواج يأتى خطاب جديد فى قول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴿٣٥﴾ ﴾

وقوله : « وإن خفتم شقاق بينهما » يعنى أن الشقاق لم يقع بعد ، إنما تخافون أن يقع الشقاق ، وما هو « الشقاق » ؟ الشقاق مادته من الشق ، وشق : أى أبعد شيئاً عن شيء ، شققت اللوح : أى أبعدت نصفيه عن بعضهما ، إذن فكلمة « شقاق بينهما » تدل على أنهما التحما بالزواج وصارا شيئاً واحداً ، فأى شيء يبعد بين الاثنين يكون « شقاقاً » إذ بالزواج والمعاشرة يكون الرجل قد التحم بزوجه هذا ما قاله الله :

﴿ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴾

(من الآية ٢١ سورة النساء)

ويتأكد هذا المعنى فى آية أخرى :

﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ﴾

(من الآية ١٨٧ سورة البقرة)

وهذا يعنى أن المرأة مظروفة فى الرجل والرجل مظروف فيها . فالرجل ساتر عليها وهى ساترة عليه ، فإذا تعدّاهما الأمر ، يقول الحق : « وإن خفتم شقاق بينهما » مَن الذين يخافون ؟ . . أهو ولىّ الأمر أم القرابة القريبة من أولياء أمورها وأموره ؟ أى الناس الذين يهمهم هذه المسألة .

« وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها » إنهم البيئة والمجال العائلى ، إذن فلا ندع المسائل إلى أن يحدث الشقاق ، كأن الإسلام والقرآن ينبهنا إلى أن كل أناس فى محيط الأسرة يجب أن يكونوا يقظين إلى الحالات النفسية التى تعترض هذه الأسرة ، سواء أكان أباً أم أخاً أم قريباً عليه أن يكون متنبهاً لأحوال الأسرة ولا يترك الأمور حتى يحدث الشقاق بدليل أنه قال : « وإن خفتم شقاق بينهما » . . فالشقاق لم يحدث ، ويجب الا تترك المسألة إلى أن يحدث الشقاق ، « وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا » وهذا القول هو لولىّ الأمر العام أيضا إذا كانت عيونه يقظة إلى أنه يشرف على علاقات كل البيوت ، ولكن هذا أمر غير وارد فى ضوء مسئوليات ولى الأمر فى العصر الحديث . إذن فلا بد أن الذى سيتيسر له تطبيق هذا الأمر هم البارزون من الأهل هنا وهناك ، وعلى كل من لهم وجاهة فى الأسرة أن يلاحظوا الخط البيانى للأسرة ، يقولون : نرى كذا وكذا .

ونأخذ حَكَماً من هنا وحكماً من هناك وننظر المسألة التى ستؤدى إلى عاصفة قبل أن

تحدث العاصفة ؛ فالمصلحة انتقلت من الزوجين إلى واحد من أهل الزوج وواحد من أهل الزوجة ، فهؤلاء ليس بينهما مسألة ظاهرة بأدلتها ، ولم تتبلور المشكلة بعد ، وليس فى صدر اى منهما حُكْمٌ مسبق ، ويجوز أن يكون بين الزوجين أشياء ، إنما الحكَم من أهل الزوج والحكَم من أهل الزوجة ليس فى صدر أى منهما شيء ، ومادام الاثنان ستوكل إليهما مهمة الحكم . فلا بد أن يتفقا على ما يحدث بحيث إذا رأى الاثنان أنه لا صلح إلا بأن تطلق ، فهما يحكمان بالطلاق ، والناس قد تفهم أن الحكم هم أناس يُصْلِحُون بين الزوجين فإن لم يعجبهم الحكم بقى الزوجان على الشقاق ، لا . فنحن نختار حكماً من هنا وحكماً من هناك .

إن ما يقوله الحكمان لابد أن ننفذه ، فقد حصرت هذه المسألة فى الحكمين فقال : « إن يريدا إصلاحاً يوفق الله بينهما » . . فكأن المهمة الأساسية هى الإصلاح وعلى الحكمين أن يدخلا بنية الإصلاح ، فإن لم يوفق الله بينهما فكأن الحكمين قد دخلا بالا يصلحا .

إن على كل حكم أن يخاف على نفسه ويحاول أن يخلص فى سبيل الوصول إلى الإصلاح ؛ لأنه إن لم يخلص فستنتقل المسألة إلى فضيحة له.. فالذى خلق الجميع : الزوج والزوجة والحكم من أهل الزوج والحكم من أهل الزوجة قال : « إن يريدا إصلاحاً يوفق الله بينهما » فليذهب الاثنان تحت هذه القضية ، ويصرّا بإخلاص على التوفيق بينهما ؛ لأن الله حين يطلق قضية كونية ، فكل واحد يسوس نفسه وحركته فى دائرة هذه القضية . وحين يطلق الله قضية عامة فهو العليم الخبير ، ومثال ذلك قوله :

﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾

(سورة الصافات)

إنه سبحانه قال ذلك ، فليحرص كل جندى على أن يكون جندياً لله ؛ لأنه إن انهزم فسنقول له : أنت لم تكن جندياً لله ، فيخاف من هذه . إذن فوضع القضية الكونية فى إطار عقدى كي يجند الإنسان كل ملكاته فى إنجاح المهمة ، وعندما يقول الله : « إن يريدا إصلاحاً يوفق الله بينهما » ، فإياك أن تغتر بحزم الحكمين ، وبذكاء الحكمين ، فهذه أسباب . ونؤكد دائماً : إياك أن تغتر بالأسباب ؛ لأن كل شيء من

المسبب الأعلى ، ولنلحظ دقة القول الحكيم : « يوفق الله بينهما » . فسبحانه لم يقل : إن يريدا إصلاحاً يوفقا بينهما . بل احتفظ سبحانه لنفسه بفضل التوفيق بين الزوجين .

ويذيل سبحانه الآية : « إن الله كان عليما خبيرا » أي بأحوال الزوج ، وبأحوال الزوجة ، وبأحوال الحكم من أهله ، وبأحوال الحكم من أهلها ، فهم محوطون بعلمه . وعلى كل واحد أن يحرص على تصرفه ؛ لأنه مسئول عن كل حركة من الحركات التي تكتنف هذه القضية ؛ فربنا عليم وخبير .

وما الفرق بين « عليم » و« خبير » ؟ . . فالعلم قد تأخذه من علم غيرك إنما الخبرة فهي لذاتك .

وبعد أن تكلم الحق على ما سبق من الأحكام في الزواج وفي المحرمات ، وأخذنا من مقابلها المحللات ، وتكلم عمن لا يستطيع طولاً وتكلم عن المال . . وحذرنا أن نأكله بالباطل ، وتكلم عن الحال بين الرجل والمرأة ، وبعد ذلك لفتنا الحق ووجهنا ونبهنا إلى المنهج الأعلى وهو قوله سبحانه :

﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ۖ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ ﴾

وعندما يقول لنا الحق : « واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا » أى : إياكم أن تدخلوا فى قضية من هذه القضايا على غير طاعة الله فى منهجه . . والعبادة هى : طاعة العابد للمعبود ، فلا تأخذها على أنها العبادات التى نفعلها فقط من : الصلاة والصوم والزكاة والحج ؛ لأن هذه أركان الإسلام ، ومادامت هذه هى الأركان والأسس التى بنى عليها الإسلام ، إذن فالإسلام لا يتكون من الأركان فقط بل الأركان هى الأسس التى بنى عليها الإسلام ، والأسس التى بنى عليها البيت ليست هى كل البيت ؛ لذلك فالإسلام بنيان متعدد . فالذين يحاولون أن يأخذوا من المصطلح التصنيفى ، أو المصطلح الفنى فى العلوم ويقولون : إن العبادات هى : الصلاة وما يتعلق بها . . والزكاة والصوم والحج ؛ لأنها تسمى فى كتب الفقه « العبادات » فلقد قلنا : إن هذا هو الاسم الاصطلاحى ، لكن كل أمر من الله هو عبادة .

ولذلك فبعض الناس يقول : نعبد الله ولا نعمل . نقول لهم : العبادة هى طاعة عابد لأمر معبود ، ولا تفهموا العبارة على أساس أنها الشعائر فقط ، فالشعائر هى إعلان استدامة الولاء لله . وتعطى شحنة لنستقبل أحداث الحياة ، ولكن الشعائر وحدها ليست كل العبادة ، فالمعاملات عبادة ، والمفهوم الحقيقى للعبادة أنها تشمل عمارة الأرض ، فالحق سبحانه وتعالى قال :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ﴾

(من الآية ٩ سورة الجمعة)

كأنه أخرجهم من البيع إلى الصلاة ، ولم يخرجهم من فراغ بل أخرجهم من حركة البيع ، وجاء بـ« البيع » لأنه العملية التى يأتى ربحها مباشرة ؛ لأنك عندما تزرع زرعا ستنتظر مدة تطول أو تقصر لتخرج الثمار ، لكن البيع تأتى ثمرته مباشرة ، تبيع فتأخذ الربح فى الحال . والبيع ـ كما نعلم ـ ينظم كل حركات الحياة ، لأن معنى البيع : أنه وسيط بين منتج ومستهلك ، فعندما تبيع سلعة ، هذه السلعة جاءت من منتج ، والمنتج يبحث عن وسيط يبيعها لمستهلك ، وهذا المستهلك تجده منتجاً أيضاً ، والمنتج تجده أيضاً مستهلكاً . فالإنتاج والاستهلاك تبادل وحركة الحياة كلها فى البيع وفى الشراء ، ومادام هناك بيع ففيه شراء . فهذا استمرار لحركة الحياة . والبائع دائماً يحب أن يبيع ، لكن المشترى قد لا يحب أن يشترى ؛ لأن المشترى

سيدفع مالاً والبائع يكسب مالاً ، فيوضح الله : أتركوا هذه العملية التى يأتى ربحها مباشرة ، ولبّوا النداء لصلاة الجمعة . لكن ماذا بعد الصلاة ؟ يقول الحق :

﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾ ﴾

(سورة الجمعة)

إذن فهذا أمر أيضاً . فإن أطعنا الأمر الأول : « فاسعوا إلى ذكر الله » فالأمر فى « فانتشروا فى الأرض » يستوجب الطاعة كذلك . إذن فكل هذه عبادة ، وتكون حركة الحياة كلها عبادة : إن كانت صلاة فهى عبادة ، والصوم عبادة ، وبعد ذلك .. ألا تحتاج الصلاة لقوام حياة ؟ لا بد أن تتوافر لك مقومات حياة حتى تصلى . وما هى مقومات حياتك ؟ إنها طعام وشراب ومسكن ومَلْبس ، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب . إذن فجماع حركة الحياة كلها سلسلة عبادة ، ولذلك فالحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾

(من الآية ٦١ سورة هود)

إذن فكل عمل يؤدى إلى عمارة الكون واستنباط أسرار الله فى الوجود يعتبر عبادة لله ؛ لأنك تخرج من كنوز الله التى أودعها فى الأرض ما يلفت الناس إلى الحقيقة الكونية التى جاء بها الإيمان .

وإياك أن تظن أن العبادة هى فقط العبادة التصنيفية التى فى الفقه « قسم العبادات » و« قسم المعاملات » .. لا ، فكله عبادة ، لكن الحركات الحياتية الأخرى لا تظهر فيها العبادة مباشرة ؛ لأنك تعمل لنفعك ، أما فى الصلاة فأنت تقتطع من وقتك ، فسميناها العبادة الصحيحة ؛ لأن العمليات الأخرى يعمل مثلها من لم يؤمن بإله ، فهو أيضا يخرج للحياة ويزرع ويصنع .

ولماذا سموها العبادات ؟ لأن مثلها لا يأتى من غير متدين . إنما الأعمال الأخرى من عمارة الكون والمصلحة الدنيوية فغير المتدين يفعلها ولكن كل أمر لله نطيعه فيه اسمه عبادة . هذا مفهوم العبادة الذى يجب أن يتأكد لنا أن نخلص العمل بالعقول التى

خلقها الله لنا بالطاقات المخلوقة لنا ، فى المادة المخلوقة وهى الأرض وعناصرها لنرقى بالوجود إلى مستوى يسعدنا ويرضى الله عنه .

« واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا » . بعدما قال كل هذا الكلام السابق ، لفتنا ربنا إلى قضية يجب أن نلحظها دائما فى كل تصرفاتنا هى أن نأتمر بأمر الله فى منهجه ، وألا نشرك به شيئاً ؛ لأن الشرك يضر قضية الإنسان فى الوجود ، فإن كنت فى عمل إياك أن تجعل الأسباب فى ذهنك أمام المسبب الأعلى . . بل اقصد فى كل عمل وجه الله .

ويضرب الحق المثل لراحة الموحد ولتعب المشرك فقال :

﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾

(سورة الزمر)

فهذا عبد مملوك لجماعة ، والجماعة مختلفة ومتشاكسة ، وهو لا يعرف كيف يوفق بين أوامر كل منهم التى تتضارب ، فإن أرضى هذا ، أغضب ذاك . إذن فهو عبد مبدد الطاقة موزع الجهد ، مقسم الالتفاتات ، ولكن العبد المملوك لواحد ، لا يتلقى أمراً إلا من سيد واحد ونهياً من السيد نفسه . والحق يشرع القضية لعباده بصيغة الاستفهام ، وهو العليم بكل شىء ليجعل المؤمن به يشاركه فى الجواب حتى إذا ما قال الحق : « هل يستويان » ؟ هنا يعرضها الإنسان على عقله ويريد أن يجيب ، فماذا يقول ؟ سيجيب بطبيعة الفطرة وطبيعة منطق الحق قائلاً : لا يارب لا يستويان .

إذن فأنت أيها العبد المؤمن قد قلتها ، ولم يفرضها الله عليك . وقد طرحها الحق سبحانه سؤالاً منه إليك ؛ حتى يكون جوابك الذى لن تجد جواباً سواه . فإذا ما كنت كذلك أيها العبد المؤمن قد ارتحت فى الوجود وتوافرت لك طاقتك لأمر واحد ونهى واحد ، هنا تصبح سيداً فى الكون ، فلا تجد فى الكون من يأخذ منك عبوديتك للمكون . وتلك هى راحتنا فى تنفيذ قول الله : « واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا »

لأن الإشراك بالله ـ والعياذ بالله ـ يرهق صاحبه . وياليت المشركين حين يشركون يأخذون عون الله ، ولا يأخذون عون الشركاء . لكن الله يتخلى عن العبد المشرك ، لأنه سبحانه يقول :

(أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملا أشرك فيه معى غيرى تركته وشركه)[1] .

الحق إذن يتخلى عن العبد المشرك . وليت العبد المشرك يأخذ حظه من الله كشريك . . وإنما ينعدم عنه حظ الله ؛ لأن الله غنى أن يشرك معه أحدا آخر . وهكذا يكون المشرك بلا رصيد إيمانى ، ويحيا فى كد وتعب . ويردف الحق سبحانه وتعالى عبادته بالإحسان إلى الوالدين فيأتى قوله ـ جل شأنه ـ:« وبالوالدين إحسانا » والوالدان هما الأب والأم ؛ لأنهما السبب المباشر فى وجودك أيها المؤمن . ومادامت عبادتك لله هى فرع وجودك ، إذن فإيجادك من أب وأم كسببين يجب أن يلفتك إلى السبب الأول ؛ إن ذلك يلفتك إلى من أوجد السلسلة إلى أن تصل إلى الإنسان الأول وهو آدم عليه السلام .

« وبالوالدين إحسانا » . . انظر إلى المنزلة التى أعطاها الله للوالدين ، وهما الأب والأم . والخطاب لك أيها المسلم لتعبد الله ، والتكليف لك وأنت فرع الوجود ؛ لأن الخطاب لمكلف ، والتكليف فرع الوجود ، والوالدان هما السبب المباشر لوجودك ، فإذا صعّدت السبب فالوالدان من أين جاءا ؟ . . من والدين ، وهكذا حتى تصلْ لله ، إذن فانتهت المسألة إلى الواحد ؛ لأن التكليف من المُكلِّف إلى المُكَلَّف فرع الوجود . والوجود له سبب ظاهرى هما « الوالدان » ، وعندما تسلسلها تصل لله إنه ـ سبحانه ـ أمر : اعبدنى ولا تشرك بى شيئا ، وبعد ذلك . . « وبالوالدين إحسانا » . . كلمة « الإحسان » تدل على المبالغة فى العطاء الزائد . . الذى نسميه مقام الإحسان . .

« وبالوالدين إحسانا » . . الحق سبحانه وتعالى حينما قرن الوالدين بعبادته؛لأنه إله واحد ولا نشرك به شيئا ، لم ينكر أو يتعرض لإيمانهما أو كفرهما ، لأن هناك آية أخرى

(١) رواه مسلم وابن ماجه عن أبى هريرة .

يقول فيها :

﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ﴾

(من الآية ١٥ سورة لقمان)

صحيح لا تطعهما ولكن احترمهما ؛ لأنهما السبب المباشر فى الوجود وإن كان هذا السبب مخالفاً لمن أنشأه وأوجده وهو الله ـ جلت قدرته ـ ، « وصاحبهما فى الدنيا معروفا » والمعروف يصنعه الإنسان فيمن يحبه وفيمن لا يحبه ، إياك أن يكون قلبك متعلقاً بهما إن كانا مشركين ، لكن صاحبهما فى الدنيا معروفا ؛ ولذلك قال : « وصاحبهما فى الدنيا » أى انظر مصلحتهما فى أمور الدنيا معروفاً منك . والمعروف تصنعه فيمن تحب وفيمن لا تحب .

والحق يقول : « وبالوالدين إحسانا » . . ويكررها فى آيات متعددة . . فقد سبق فى سورة البقرة أن قال لنا :

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾

(من الآية ٨٣ سورة البقرة)

وبعد ذلك تأتى هذه الآية التى نحن بصددها . . « واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحسانا » .

وبعد ذلك يأتى أيضاً قوله سبحانه :

﴿ قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾

(من الآية ١٥١ سورة الأنعام)

وبعد ذلك يأتى الحق سبحانه وتعالى فيقول :

﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ﴾

(من الآية ١٥ سورة الأحقاف)

ويأتي أيضاً في سورة العنكبوت فيقول :
﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ﴾

(من الآية ٨ سورة العنكبوت)

لكن إن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعمها ، فإن كان الوالدان مشركين فلا بد أن نعطف عليهما معروفا . . والمعروف كما أوضحنا يكون لمن تحب ومن لا تحب ، ولكن الممنوع هو : الودادة القلبية ؛ ولذلك قال :
﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾

(من الآية ٢٢ سورة المجادلة)

ولا يوجد تناقض أو شبه تناقض بين الآية التي نحن بصددها وبين آية سورة المجادلة . وهناك آيات تكلم فيها الحق وقرن عبادته بالإحسان إلى الوالدين ، وهناك آيتان جاء الأمر فيهما بالتوصية بالوالدين استقلالا .

وذلك في قوله تعالى :
﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَـٰنًا ﴾

(من الآية ١٥ سورة الأحقاف)

وفي قوله سبحانه :
﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ﴾

(الآية ٨ سورة العنكبوت)

ففيه « إحسان » ، وفيه « حسن » ، « الإحسان » : هو أن تفعل فوق ما كلفك الله مستشعراً أنه يراك . فإن لم تكن تراه فإنه يراك ، و« الإحسان » من « أحسن » ، فيكون معناها أنه ارتضى التكليف وزاد على ما كلفه . وعندما يزيد الإنسان على ما كلفه الله أن يصلي الخمس المطلوبة ثم يجعلها عشرة ، ويصوم شهر رمضان ، ثم يصوم يومي الاثنين والخميس أو كذا من الشهور ، ويزكي حسب ما قرر الشرع باثنين ونصف في المائة وقد يزيد الزكاة إلى عشرة في المائة ، ويحج ثم يزيد الحج مرتين . إذن فالمسألة أن تزيد على ما افترض الله ، فيكون قد أدخلك الله في مقام الإحسان ؛ لأنك حين جربت أداء الفرائض ذقت حلاوتها . وعلمت مما أفاضه الله عليك من معين التقوى ومن رصيد قوله :

﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ ﴾

(من الآية ٢٨٢ سورة البقرة)

علمت أن الله يستحق منك أكثر مما كلفك به ؛ ولذلك فبعض الصالحين في أحد سبحاته قال : « اللهم إني أخشى ألا تثيبني على الطاعة لأنني أصبحت أشتهيها » . . أي صارت شهوة نفس ، فهو خائف أن يفقد حلاوة التكليف والمشقة فيقول : يارب إنني أصبحت أحبها ، ومفروض منا أننا نمنع شهوات أنفسنا لكنها أصبحت شهوة فماذا أفعل ؟

إذن فهذا الرجل قد دخل في مقام الإحسان واطمأنت نفسه ورضيت وأصبح هواه تبعا لما أمر به الله ورضيه .

ولذلك يجب أن نلحظ أن الحق سبحانه وتعالى حينما تكلم عن المتقين قال :

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ ﴾

(سورة الذاريات)

لماذا هم محسنون يارب ؟ . .

يقول الحق :

﴿ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ ﴾

(سورة الذاريات)

وهل كلفني الله . ألا أهجع إلا قليلاً من الليل ؟ إن الإنسان يصلي العشاء من أول الليل وينام حتى الفجر ، هذا هو التكليف ، لكن أن تحلو للمؤمن العبادة ، ويزداد الإيمان في القلب والجوارح ، ويأنس العبد بالقرب من الله ، فالحق لا يَرُدُّ مثل هذا العبد بل إنه يستقبله ويدخله في مقام الإحسان .

﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾

وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ﴿١٨﴾ ﴾

(جزء من الآية ١٦ ، والآيتان ١٧ ، ١٨ سورة الذاريات)

وربنا لم يكلفهم بذلك ، إنما كلفهم فقط بخمسة فروض . ونعرف قصة الأعرابي الذي قال للرسول صلى الله عليه وسلم : هل علىّ غيرها ؟ قال له : لا ، إلا أن تَطَّوَّعَ ، وذكر له رسول الله صلى الله عليه وسلم الزكاة ، فقال : هل علىّ غيرها ؟ قال : لا ، إلا أن تطّوّع ، قال : فأدبر الرجل وهو يقول : والله لا أزيد على هذا ولا أنقص منه . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (أفلح إن صدق)[1] .

وبذلك دخل هذا الأعرابي فى نطاق المفلحين . إذن فالذى يزيد على هذا يدخله الله فى نطاق المحسنين :

﴿ كَانُواْ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِىٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ﴿١٩﴾ ﴾

(سورة الذاريات)

ولنلحظ دقة الأداء ، إن الحق لم يذكر أن للمحرومين فى أموال المحسنين حقاً معلوماً . لماذا ؟ ؛ لأن الحق سبحانه ـ ترك للمحسن الحرية فى أن يزيد على نسبة الزكاة التى يمنحها للسائل والمحروم ، وحينما يتكلم سبحانه عن مطلوب الإيمان يقول :

﴿ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقٌّ مَّعۡلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ﴿٢٥﴾ ﴾

(سورة المعارج)

إذن فالذى يزيد على ذلك ينتقل من مقام الإيمان ليدخل فى مقام الإحسان . كأنه يقول لك فى الآية التى نحن بصددها : إياك أن تعمل مع والديك القدر المفروض فقط ، بل ادخل فى برّهما والإنعام عليهما والتلطف بهما والرحمة لهما وذلّة الانكسار فوق ما يطلب منك ، ادخل فى مقام الإحسان ، ثم يأتى فى آية أخرى ليرشدنا بعد أن أدخلنا فى مقام الإحسان ، إنه يصف ذلك الإحسان بشىء آخر وهو « الحسن » :

---

(١) رواه مسلم فى كتاب الإيمان .

﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا ﴾

(من الآية ٨ سورة العنكبوت)

وما هو المقابل « للحسن » ؟ إنه « القبح » ، إذن فالحق أدخلنا فى مقام الجمال مرة ، وفى مقام الإحسان مرة أخرى ، وهنا أكثر من ملحظ يجب ألا يغيب عن بال المسلم ، أولاً : نجد أن المفروض فى الشائع الغالب أنّ الوالدين يربيان أبناءهما ، ومن النادر أن يصبح الولد يتيماً ويربيه غير والديه ، فقال : الحظ سبب التربية بعد الوجود ، فسبب الوجود : يوجب عليك أن تعطيهما حقوقهما وفوق حقوقهما وتدخل فى مقام الإحسان ، ولكنه جاء فى آية وعلل ذلك فقال :

﴿ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴾

(من الآية ٢٤ سورة الإسراء)

لقد جاء الحق بالتربية حيثية فى الدعاء لهما وفى البر التوصية بهما ، لكن لو أن إنساناً أخذ فيك منزلة التربية ولم يأخذ فيك سببية الإيجاد ، أله حق عليك أن يكون كوالديك ؟

إن الحق يقول : « كما ربيانى » ، فإذا كان والدى لهما هذا الحق ، فكذلك من قام بتربيتى من غير الوالدين له هذا الحق أيضا ! مادام جاء الحق بالوالدين فى علة الإحسان : « وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا » .. فمرة نلحظ أنه لا يجىء بمسألة التربية كى نعلم أن الوالدين هما سبب الوجود ، ومرة يلفتنا إلى أن من يتولى التربية يأخذ حظ الوالدين ، وشىء آخر : وهو أن الحق سبحانه وتعالى حينما وصى بالوالدين إحسانا ، جاء فى الحيثيات بما يتعلق بالأم ولم يأت بما يتعلق بالأب :

﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا ﴾

(من الآية ١٥ سورة الأحقاف)

هنا جاء الحق بالحيثيات للأم وترك الأب بدون حيثية ، وهذا كلام رب ؛ لأن إحسان الوالدة لولدها وجد وقت أن صار جنيناً . فهى قد حافظت على نفسها وسارت بحساب وحرص فانشغلت به وهو مازال جنيناً . وحاولت أن توفر كل المطالب قبلما يتكون له عقل وفكر . بينما والده قد يكون بعيداً لا يعرفه إلا عندما يكبر ويصير غلامًا ليربيه لكفاح الحياة ، أما فى فترة الحمل والمهد فكل الخدمات تؤديها الأم ولم يكن

للطفل عقل حتى يدرك هذا ، إنما بمجرد أن وجد العقل وجد أباه يعايشه ويعاشره ، وكلما احتاج إلى شيء قالت له الأم : أبوك يحققه لك ، وكل حاجة يحتاج إليها الطفل يسأل أباه أن يأتيه بها ، وينسى الطفل حكاية أمه وحملها له فى بطنها وأنها أرضعته وسهرت عليه ؛ لأنه لم يكن عنده إدراك ساعة فعلت كل ذلك ، فمن الذى - إذن - يحتاج إلى الحيثية ؟ إنها الأم ، أما حيثية إكرام الأب فموجودة للإنسان منذ بدء وعيه لأنه رأى كل حاجته معه ؛ لذلك قال الحق :

﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا ﴾

(من الآية ١٥ سورة الأحقاف)

والطفل لا يعرف حكاية الحمل هذه ، وعندما يتنبه يجد أن والده هو الذى يأتى بكل حاجة ، ومادام أبوه هو الذى فى الصورة ، فتكون الحيثية عنه موجودة ، والأم حيثيتها مغفولة ومستورة ، فكان لابد من أن يذكرنا الله بالحيثية المتروكة عند الإنسان مكتفياً بالحيثية للأب الموجودة والواضحة عند الابن ، ولذلك تجد النبى صلى الله عليه وسلم حينما يوصّى قال : أمك ثم أمك ثم أمك ، وبعد ذلك قال : ثم أبوك . كما جاء فى الحديث : عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : « جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله من أحق الناس بحسن صحابتى ؟قال : أمك. قال : ثم من ؟ قال : أمك قال ثم من ؟ قال :أمك. قال:ثم من ؟ قال : أبوك »[1] .

ولو حسبتها تجدها واضحة ، وأيضا فالأبوة رجولة ، والرجولة كفاح وسعى . والأمومة حنان وستر ، فهى تحتاج ألا تخرج لسؤال الناس لقضاء مصالحها ، أبوك إن خرج ليعمل فعمله شرف له . إنما خروج الأم للسعى للرزق فأمر صعب على النفس ، فالحق سبحانه وتعالى يقول : « وبالوالدين إحسانا » . . أو « بوالديه حسنا » إنها . . مقرونة فى ثلاث آيات بعبادة الله وعدم الإشراك به ، ثم أفردهما بالإحسان فى آيتين ، ويلاحظ هنا أن الحق سبحانه وتعالى حينما تكلم قال :

(١) رواه البخارى ومسلم .

﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ﴾

(من الآية ١٥ سورة لقمان)

لكن هذا لا يمنع أن تعطيهما المعروف وما يحتاجان إليه ، ونلحظ أن الحق لم يأت لهما بطلب الرحمة وهما على الشرك والكفر كما طلبها لهما فى قوله :

﴿ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴾

(من الآية ٢٤ سورة الإسراء)

لأنهما وإن ربيا جسد الولد فلم يربيا قلبه وإيمانه ، فلا يستحقان أن يقول : ارحمهما ؛ لأن الحق أراد أن يسع الولد والديه فى الدنيا وإن كانا على الكفر .

والحق سبحانه وتعالى حينما يريد أن يشيع الإحسان فى الكون كله ، يبتدىء بالأقرب فالقريب فالجار ، فقال : « وبالوالدين إحسانا وبذى القربى » . إذن ففيه دوائر . ولو أن كل واحد أحسن إلى أبويه . فلن نَجد واحداً فى شيخوخته مهيناً أبداً ؛ لذلك يوسع سبحانه دوائر الهمّة الإيمانية فجاء بالوالدين ثم قال بعدها : « وبذي القربى » أى صاحب القربى ، وما القربى ؟ إن كل من له علاقة نَسَبيَّة بالإنسان يكون قريباً . هذه هى الدائرة الثانية ، ولو أن كل إنسان موسعاً عليه وقادرا أخذ دائرة الوالدين ثم أخذ دائرة القربى فستتداخل ألوان البر من أقرباء متعددين على القريب الواحد ، ومادامت الدوائر ستتداخل ، فالواحد القريب سيجد له كثيرين يقومون على شأنه فلا يكون أحد محتاجا .

وبعد ذلك يتكلم سبحانه عن اليتامى ، واليتيم ـ كما نعلم ـ هو : من فقد أباه ولم يبلغ مبلغ الرجال ، إنه يحتاج إلى حنان أولى . لكن بعد أن يبلغ مبلغ الرجال فهو لا يعتبر يتيماً ؛ فقد أصبح له ذاتية مستقلة ؛ ولذلك يتخلى عنه الوصف باليتم ، والذى تموت أمه لا نسميه « يتيماً » ، لكن اليتيم فى الحيوانات ليس من فقد أباه بل من فقد أمه ، وإن كانت طفولة الحيوانات تنتهى بسرعة ؛ لأن والدة الحيوان هى التى ترعاه فى طفولته القصيرة نسبياً . إذن فيتم الحيوان من جهة الأم ، والإنسان يتمه هو فَقْد الأب ؛ لأن الإنسان أطول الحيوانات طفولة لأنه مُربًّى لمهمة أسمى من الحيوانية ، وعرفنا من قبل أنك عندما تأتى لتزرع ـ مثلاً ـ فِجْلاً . . فبعد خمسة عشر يوماً تأكل منه ، لكنك حينما تزرع نخلة أو تزرع شجرة « مانجو » تمكث كذا سنة ،

حتى تثمر . . إذن فطول مدة الطفولة وعدم النسل للمثل يتوقف على المهمة الموكولة للشيء ، فإن كانت مهمته كبيرة ، تكن مدة طفولته أطول .

والله سبحانه وتعالى يريد أن يوسع دائرة الإحسان . فإياك أن تقتصر على الوالدين فقط أو أصحاب القربى فقط . خذ فى الدائرة أيضاً « اليتيم » ، لأن اليتيم فقد أباه ، ثم يرى كثيراً من زملائه وأقربائه لهم آباء ، ولو لم يوصّ الحق سبحانه وتعالى بهذا اليتيم لنشأ هذا الولد وفى قلبه جذوة من الحقد على المجتمع ، وقد يتمرد على الله ، ويتساءل : لماذا لا يكون لى أب وكل واحد من أقرانى له أب يأتيه بحاجته ، لكن حين يرى أنه فقد أباً واحداً ثم وجد فى الجو الإيمانى آباء متعددين فهو لا يسخط على أن الله أمات أباه .

إن الذين يخافون أن يموتوا ويتركوا من بعدهم ذرية ضعافا ، عليهم بالإحسان إلى اليتيم . فلو رأى الواحد منا يتيماً يُكرم فى بيئة أبوة إيمانية لما شغل نفسه ولما خاف أن يموت ويترك ولداً صغيراً ، بل يقول الإنسان لنفسه : إن المجتمع فيه خير كثير ، وبذلك يستقبل الإنسان قدر الله بنفس راضية ، ولا يؤرق نفسه ، وهذه مسألة تشغل الناس فنقول لكل إنسان قادر : إذا كنت فى بيئة إيمانية . واليتيم يجد رعاية من آباء إيمانيين متعددين فسينشأ اليتيم وليس فيه حقد ؛ ولذلك يقول الحق :

﴿ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَـٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ۝٩ ﴾

(سورة النساء)

لأنك إن رأيت المجتمع الإيمانى قد رعى أيتام غيرك فستكون على ثقة من أنه يرعى أيتامك ، فإن جاء الموت أو لم يأت فلا تشغل نفسك به ، لكن إذا رأى الإنسان يتيماً مضيعاً ، فهو يعض على أسباب الحياة ويريد أن يأتى بالدنيا كلها لولده ، ونقول لمثل هذاالأب : اعمل لابنك بأن تضع ما تريد أن تدخره له فى يد الله ؛ لأن الذى خلق آمن من المخلوق ؛ ولذلك قلنا من قبل : إن سيدنا معاوية وسيدنا عمرو بن العاص كانا يجلسان ـ فى أخريات حياتهما ـ يتكلمان معاً ، فيقول عمرو بن العاص لمعاوية : يا أمير المؤمنين : ماذا بقى لك من متع الدنيا ؟ قال معاوية : أما الطعام فقد سئمت

أطيبه ، وأما اللباس فقد مللت ألينه ، وحظى الآن فى شربة ماء بارد فى يوم صائف تحت ظل شجرة .

وهذه كلمة تعطى الإنسان طموحات إيمانية فى الكون ، فبعدما صار معاوية خليفة وأميراً للمؤمنين والكل مقبل عليه قال : حظى فى شربة ماء بارد فى ظل شجرة فى يوم صائف ، وهذه توجد عند ناس كثيرين . كأن الطموح انتهى إلى ما يوجد عند كل أحد : شربة ماء بارد ، ثم قال معاوية لعمرو : وأنت يا عمرو . ماذا بقى لك من متع الدنيا ؟ قال عمرو بن العاص : بقى لى أرض خوارة ـ يعنى فيها حيوانات تخور مثل البقر ـ فيها عين خرارة . . أى تعطى ماءً وفيراً لتروى الأرض ، وتكون لى فى حياتى ولولدى بعد مماتى ، وكان هناك خادم يخدمهما اسمه « وردان » . أراد أمير المؤمنين أن يلاطفه فقال له : وأنت يا وردان ، ماذا بقى لك من متاع الدنيا ؟ انظروا إلى جواب العبد كى تعرفوا أن الإيمان ليس فيه سيد ومسود ، فقال له : حظى يا أمير المؤمنين : « صنيعة معروف أضعه فى أعناق قوم كرام لا يؤدونه إلىّ فى حياتى » أى لا يرون هذا الجميل لى . حتى تبقى لعقبى فى عقبهم . إذن فحظه صنيعة معروف يضعه فى أعناق قوم كرام لا يؤدونه إليه فى حياته حتى تكون لعقبه أى لمن سيترك من أولاده .

كأنه يفهمنا أنه لا شيء يضيع ، فكما تمد يدك يمد غيرك يده لك ، والرسول صلى الله عليه وسلم يعطينا هذه المنزلة فيقول : أنا وكافل اليتيم فى الجنة هكذا « وأشار بإصبعيه متجاورين » ، أىّ منزلة هذه ، فبالله بعد ذلك ألا يبحث كل واحد منّا عن يتيم يكفله لكى يكون مع النبى صلى الله عليه وسلم فى الجنة . وهذه المنزلة كانت أمنية كل صحابى .

فقد جاء رجل من الأنصار إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو محزون فقال له النبى صلى الله عليه وسلم:« يا فلان مالى أراك محزونا؟» فقال: يا نبىَّ الله شيء فكرت فيه فقال : (ما هو ؟) قال:نحن نغدو عليك ونروح ننظر إلى وجهك ونجالسك وغداً ترفع مع النبيين فلا نصل إليك ، فلم يرد عليه النبى صلى الله عليه وسلم ونزل عليه جبريل بهذه الآية :

﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ﴾

(سورة النساء)

فبعث النبى صلى الله عليه وسلم فبشّره .[1] .

فالحق يقول لهؤلاء : لا تحزنوا ، فمادمتم تحبون رسول الله صلى الله عليه وسلم وتفرحون فى الدنيا لأنكم معه فلا تخشوا مسألة وجودكم معه بالجنة فسوف أبعثكم معه فى الجنة ، فالمرء مع من أحب ، ولذلك أقول لكل مسلم : ابحث عن يتيم تكفله كى تأخذ المنزلة الإيمانية ، المنزلة العلية فى الآخرة .

فقد قال عليه الصلاة والسلام : « أنا وكافل اليتيم فى الجنة هكذا وأشار بالسبّابة والوسطى وفرّج بينهما »[2] .

فقل لى:إذا عاملنا اليتيم فى ضوء هذه التعاليم فماذا يحدث ؟ سينتشر التكافل فى المجتمع .

ويقول الحق بعد ذلك : « والمساكين » . . ونعرف أن المساكين . . كما قال الفقهاء عنهم وعن الفقراء : إن كلهم فى حاجة ، فهل المسكين هو من لا يملك حاجة ، أو الفقير هو الذى لا يملك حاجة أو يملك دون حاجته . كأن يكون إيراده مثلاً عشرة بينما حاجتهُ تحتاج إلى عشرين ؟ ،المهم أنه يكون محتاجاً . وكلمة « فقير » مأخوذة من فقار الظهر أى مصاب بما يقصم الوسط والظهر . وهو اسم معبر .

و« مسكين » أيضاً اسم معبر من المسكنة والسكن أى ليس له استعلاء فى شىء . . مغلوب ومقهور . . فاللفظ نفسه جاء معبراً ، و« الجار » كلمة « جار » تعنى : عدل ، كقولنا : جار عن الطريق أى عدل عنه ، فكيف أسمى من فى جانبى « جاراً » ؟ لأن مَن فى جانبك حدد مكاناً له من دنيا واسعة ، فيكون قد ترك الكثير

(١) من تفسير القرآن العظيم للإمام ابن كثير .
(٢) رواه البخارى .

وجاء للقليل ، وأصبح جارك ، أى أنه عدل عن دنياواسعة وجاء جانبك ، فسموا الجار لمن جار ، أى عدل عن كل الأمكنة الواسعة وجاء إلى مكان بجانبك .

وهذا الجار يوصى به الله سبحانه وتعالى كما أوصى بالقريب ، وباليتيم وبالمسكين ، للجار حقوق كثيرة ؛ لذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم كما جاء فى الحديث : « الجيران ثلاثة : فجار له حق واحد ، وهو أدنى الجيران حقا . وجار له حقان ، وجار له ثلاثة حقوق : فأما الذى له حق واحد فجار مشرك لا رحم له ، له حق الجوار ، وأما الذى له حقان فجار مسلم له حق الإسلام وحق الجوار ، وأما الذى له ثلاثة حقوق فجار مسلم ذو رحم له حق الإسلام وحق الجوار وحق الرحم »[1] .

ويقول صلى الله عليه وسلم فى حق الجار :

« مازال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورثه »[2] .

أى سيجعل له من الميراث ، وما هى حدود الجار ؟ . حدوده : الأقرب بابا إليك ، إلى أربعين ذراعاً ، وقالوا : إلى أربعين داراً ، هنا يقول الحق : « والجار ذى القربى » . فأعطاه حق القربى وحق الجوار ، وقال ؛ « والجار الجنب » . لأن فيه جاراً قريباً وجاراً بعيداً وقوله : « الجنب » أى البعيد ، « والصاحب بالجنب » « الصاحب » هو المرافق . و« بالجَنْب » أى بجانبه . قالوا : هو الزوجة أو رفيق السفر ؛ لأن الرفقاء فى السفر مع بعضهم دائماً ، أو التابع الذى يتبعك طمعاً فيما عندك من الرزق سواء كان الرزق مالاً أو علماً أو حرفة يريد أن يتعلمها منك ؛ فهو الملازم لك ، والخادم أيضاً يكون « بالجنب » وكل هذا يوسع الدائرة للإحسان ، ولو حسبت هذه الدوائر لوجدتها كلها متداخلة .

وها هو ذا النبى عليه الصلاة والسلام يقول لأبى ذرٍ رضى الله عنه :

---

(١) رواه البزار وأبو الشيخ فى الثواب ، وأبو نعيم فى الحليه عن جابر ، وهو حديث ضعيف .
(٢) رواه أحمد والبخارى ومسلم وأبو داود والترمذى عن ابن عمر .

« يا أبا ذر إذا طبختَ مرقة فأكثر ماءها وتعاهد جيرانك »[1]

والمهم أن تتواصل مع جارك ، أو الجار ذى القربى : أى الذى قربته المعرفة ، وكثير من الجيران يكون بينهم ودّ ، وهناك جار لا تعرف حتى اسمه ، فهذا هو « الجار الجنب » ، و« الصاحب بالجنب وابن السبيل » وابن السبيل، فقد تقول مثلاً : فلان بن فلان ، كأنك لا تعرف أباه ، أو تقول:فلان ابن البلد الفلانية أى لا تعرف عنه شيئاً سوى أنه منسوب لبلد معين ، وعندما تقول:ابن سبيل تعنى أنه غريب انقطعت به كل الأسباب حتى الأسباب التى يمكن أن تعرفه بها ، فساعة تراه تقول « ابن سبيل » أى ابن طريق ، ولا تجد مكانا ينسب إليه إلا الطريق ، لا يجد أبا ينسب إليه ، لا يجد أمّا ، لا يجد قبيلة ، لا تعرف عنه شيئا .

« وما ملكت إيمانكم » وسبق أن تكلمنا عن ملك اليمين وقلنا : إن الإسلام إنما جاء لا ليشرع رقاً . . ولكن جاء لينهى رقاً ، ويسد منابعه التى كانت موجودة قبل الإسلام ، ولا يبقى إلا منبع واحد.هذا المنبع الواحد هو الحرب المشروعة ، ولماذا لم يطلقهم ؟ . لأن الحرب المشروعة عرضة أن يأخذ الخصوم من أبنائى وأنا آخذ من أبنائهم ، فلا أطلق أبناءهم إن جاءوا فى يدى حتى يطلقوا أبنائى الذين فى أيديهم ، ويصير الأمر إلى المعاملة بالمثل ، التى انتهى إليها العالم الحديث وهى تبادل الأسرى .

وقد نهانا الإسلام فى ملك اليمين عن أن يقال : «عبدى» بل يقال : فتاى . ولا يقال: « أمتى » بل يقال:فتاتى ، حتى التسمية أراد الشرع أن يهذبها ، كى لا تنصرف العبودية إلا لله .

الحق سبحانه وتعالى جاء بالإسلام والرق كان موجوداً ، وله ينابيع متعددة فوق العشرين ، وليس له إلا مصرف واحد هو إرادة السيد ، فجاء الإسلام ليصفى الرق ، وأول تصفية لشىء هو أن تسد منابعه . وبدل أن يكون مجرد مصرف واحد ، وهى رغبة السيد ، جعل له الإسلام مصارف متعددة ، إذن فنكون قد حددنا المنابع فى نبع واحد ، وعددنا المصارف . . فالذنب بينك وبين الله تكفره بأن تعتق رقبة ،

---

(١) رواه مسلم .

أو أحدثت ظهاراً مثلا تُعتق رقبة ، وهذه رغبة من يريد أن يصفى الرق ، فإذا لم توجد عند أى مالك أسباب لتصفية الرق وظل الفتى أو الفتاة تحت يمينه ، فالإسلام يرشدك ويهديك : مادمت لم تؤثر أن تعتقه واستبقيته فأحسن معاملته ، أطعمه مما تطعم وألبسه مما تلبس ، ولا تكلفه ما لا يطيق ، فإن كلفته فيدك معه ، وهات لى واحداً يلبس من ملابس سيده ويأكل مثله وعندما يعمل عملاً فوق طاقته تجدُ يَد السيد بيده . . أليست هذه هى المعاملة الطيبة ! قال الله : « وما ملكت أيمانكم » .

وبعد ذلك يجىء الحق سبحانه وتعالى فى ختام الآية بما يدك كبرياء ذى الإحسان ، فإياك أن تكون النعمة أو البذل الذى ستبذله يعطيك فى نفسك غرور الاستعلاء ؛ لأن غرور الاستعلاء هذا يكون استعلاء كاذباً . وأنت إذا استعليت على غيرك بأعراض الحياة ، فهذه الأعراض تتغير ، ومعنى « أعراض » أنها تأتى وتزول . فالذى يريد أن يستعلى ويستكبر فعليه أن يستعلى ويستكبر بحاجة ذاتية فيه ؛ ولذلك لا يوجد كبرياء إلا لله ، إنما الأغيار من البشر. فنحن نرى من كان قوياً يصير إلى ضعف ، ومن كان غنياً يصير إلى فقر ، ومن كان عالماً يصبح كمن لا يعلم :

﴿ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا ﴾

(من الآية ٥ سورة الحج)

فلا كبرياء إذن لمخلوق ، ومن يريد أن يستعلى ويتكبر على غيره فليتكبر - كما قلنا - بحاجة ذاتية فيه ، أى بشىء لا يسلب منه ، والخلق كلهم فى أغيار ، والوجود الإنسانى تطرأ عليه الأغيار ، إذن فاجعل الكبرياء لصاحبه ، وإياك أن تظن أنه عندما قلنا لك : اعمل كذا وأحسن لذى القربى واليتامى والمساكين ، إياك أن تحبط هذه الأعمال بأن تستعلى بها ؛ لأنها موهوبة لك من الله ، ومادامت موهوبة لك من الله فاستح ؛ لأن الذى يتكبر هو الذى لا يجد أمام عينه من هو أكبر منه .

هات واحداً يتكبر لأن عنده مليوناً من الجنيهات ثم دخل عليه واحد آخر عنده أكثر منه ماذا يفعل ؟ إنه يستحى ويتضاءل ، ولا يتكبر الإنسان إلا إذا وجد كل الموجودين أقل منه ، لكنه لو ظل ناظراً إلى الله لعلم أن الكبرياء لله وحده .

إذن فعندما يتكبر المتكبر ، إنما يفعل ذلك لأن الله ليس فى باله . لكن لو كان الحق المتكبر بذاته فى باله لاستحى ، فإذا كان فى بالك من يعطيك لاستحييت .

إذن فمعنى المتكبر أن ربنا غائب عن باله ، لذلك يقول الحق فى ختام الآية : « إن الله لا يحب من كان مختالاً فخوراً » وما « الاختيال »؟وما « الفخر » ؟

إن المادة كلها تدل على زهو الحركة ، ولذلك نسمى الحصان « خيلا »؛لأنها تتخايل فى حركتها ، وعندما يركبها أحد تتبختر به ؛ ولذلك نسمى الخيلاء من هذه . إذن « الاختيال » : حركة مرئية ، « والفخر » حركة مسموعة ، فالحق ينهى الإنسان عن أن يمشى بعنجهية ، كما نهاه عن أن يسير مائلا بجانبه ولا أن يعتبر نفسه مصدراً للنعمة حتى لا ينطبق عليه قوله سبحانه :

﴿ ثَانِيَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٩﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٠﴾ ﴾

(سورة الحج)

أما الفخر فهو أن يتشدق الإنسان بالكلام فيحكى عما فعل وكأنه مصدر كل عطاء للبشر ، والخيلاء والفخر ممنوعان ، وعلى المسلم أن يمتنع عن الحركة المرئية وعن كلام الفخر ، ولماذا جاء الحق بهذا هنا ؟ إنه جاء به حتى لا يظن عبد أنه يحسن إلى غيره من ذاتيته ، إنه يحسن مما وهبه الله .

ولا يصح أن تستخدم من أحسنت إليهم وتتخذهم عبيداً ؛ لأنك تحسن عليهم . وعندما تنظر إلى سيادتك على هؤلاء لأنك تعطيهم ، فلماذا لا تنظر إلى سيادة من أعطاك ؟ إنك عندما تفعل ذلك وتنظر إلى سيادة خالقك فإنك قد التزمت الأدب معه وبعدت عن الاختيال والفخر بما قدمت لغيرك ، يقول الحق :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴾

(من الآية ٣٦ سورة النساء)

وبعدما قال الحق : « وبالوالدين إحسانا » قال : « وبذى القربى واليتامى » .

وتحدث عن البذل والأريحية والجود والسماح وبسط اليد ، أتى سبحانه بالحديث عن المقابل وهو :

﴿ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٣٧﴾ ﴾

وما معنى البخل ؟ إنه مشقة الإعطاء . فعندما يقطع حاجة من خاصة ماله ليعطيها لغيره يجد فى ذلك مشقة ولا يقبل عليها؛ لكن الكريم عنده بسط يد ، وأريحية . ويرتاح للمعروف ، إذن فالبخل معناه مشقة الإعطاء ، وقد يتعدى البخل ويتجاوز الحد بضن الشخص بالشىء الذى لا يضر بذله ولا ينفع منعه ؛ لأنه لا يريد أن يعطى . وهذا البخل والشح يكون فى نفس البخيل ؛ لأنه أولاً قد بخل على نفسه ، فإذا كان قد بخل على نفسه ، أتريد أن يجود على الناس ؟ .

والشاعر يصور بخيلاً اسمه « عيسى » ويريد أن يذمه؛لأنه بخيل جداً ؛ ويظهر صورة البخل بأنه ليس على الناس فقط بل على نفسه أيضاً ، فيما لا يضر بذله ولا ينفعه منعه . ومادام يقتر على نفسه فسيكون تقتيره على غيره أمراً متوقعاً :

يقتر عيسى على نفسه ... وليس بباق ولا خالد
فلو يستطيع لتقتيره ... تنفس من منخر واحد

إنه بخيلٌ لدرجة أنه يفكر لو استطاع أن يتنفس من فتحة أنف واحدة لفعل ؛ حتى لا يتنفس بفتحتى أنفه .

والشاعر الآخر يأتى بصورة أيضاً توضح كيف يمنع البخيل نفسه من الأريحية

والإنسانية فيقول :

لـو أن بيتـك يـا ابن عم محمـد   إبر يضيق بها فضـاء المنـزل
وأتـاك يـوسف يستعـيرك إبـرة   ليخيط قَـدَّ قميصـه لم تفعـل

فالشاعر يصور أن سيدنا يوسف لو جاء إلى هذا البخيل وقال له : أعطنى إبرة لكى أخيط قد القميص الذى مزقته زليخاء ، وهذا البخيل عنده بيت يمتلىء فناؤه بالإبر ، لضن البخيل ورفض .

إذن فالبخيل : هو من يضيق بالإعطاء ، حتى أنه يضيق بإعطاء شيء لا يضر أن يبذله ولا ينفعه أن يمنعه ، ويقول الحق عن البخلاء :

﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

فالحق يجعل للبخيل مما بخل به طوقاً حول عنقه ، ولو أن البخيل قد بذل قليلاً ، لكان الطوق خفيفاً حول رقبته يوم القيامة . لكن البخيل كلما منع نفسه من العطاء ازداد الطوق ثقلاً .

ولقد قال الحق أيضاً عن الذين يكنزون الذهب والفضة :

﴿ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

(جزء من الآية ٣٤ والآية ٣٥ سورة التوبة)

فإن كان اكتنازهم لكميات كبيرة فما سيحمى على النار منها يكون كثيراً، ويكوون

به . إذن فالإنسان لا بد أن يخفف عن نفسه الكىّ ، والذين يبخلون لا يكتفون بهذه الخسيسة الخلقية فى نفوسهم بل يحبون أيضاً أن تتعدى إلى سواهم كأنهم عشقوا البخل ، ويؤلمهم أن يروا إنساناً جواداً ؛ يقول لك البخيل : لا تنفق ؛ لأنه يتألم حين يرى إنساناً جواداً ، ويريد أن يكون الناس كلهم بخلاء ؛ كى لا يكون أحد أحسن منه .

إنه يعرف أن الكرم أحسن ، بدليل أنه يريد أن يكون الناس كلهم بخلاء ، والبخل : ضن بما أوتيته على من لم يؤت . وهل البخل يكون فى المال فقط ؟ . لا،بل يكون فى كل موهبة أوتيتها وتنقص عند غيرك ويفتقر إليها ، إن ضننت بها فأنت داخل فى البخل .

إن الذى يبخل بقدرته على معونة العاجز عن القدرة ، والذى يبخل بما عنده من علم على من لا يعلم ، هذا بخل ، والذى يبخل على السفيه حتى بالحلم هذا بخل أيضاً ، فإن كانت عندك طاقة حلم فابذلها . إذن فالبخل معناه : أنك تمنع شيئا وهبه الله لك عن محتاجه ، معلم ـ مثلا ـ عنده عشرة تلاميذ يتعلمون الصنعة ، ويحاول أن يستر عنهم أسرار الصنعة ؛ يكون قد بخل .

« الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل » والآية معناها يتسع لكل أمر مادى أو قيمى . ونحن نأخذها أيضاً فى المعانى العالية ، فالذين أوتوا الكتاب كانوا يعرفون صفته صلى الله عليه وسلم ، ويعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، فلما جاءهم مصدقاً لما معهم كفروا برسالته صلى الله عليه وسلم وكتموا معرفتهم به عن الناس ، وكتموا معرفتهم بما جاء به من علم وهو الصادق المصدوق . وهذا بخل فى القمة ، وبعد ذلك استمروا يأمرون الناس بالبخل .

وأنتم تعرفون أن الأنصار كانت عندهم الأريحية الأنصارية ، وساعة ذهب إليهم المهاجرون ، قاسموهم المال ، حتى النعمة التى غرس الله فى قلب المؤمن الغيرة عليها من أن ينالها أحد حتى ولو كان كارهاً لها ، وهى نعمة المرأة ؛ لأن الرجل حتى وإن كره امرأته فهو يغار أن يأخذها أحد ، ولكن الأنصار اقتسموا الزوجات ، فكم من

رجل كان متزوجاً من أكثر من واحدة ، طلق زوجة ليزوجها لمهاجر ، فالحق سبحانه وتعالى يصعد أريحية الأنصار حتى أن الأنصارى يأتى بالمهاجر ويقول له : انظر إلى إحدى زوجتي أو إحدى زوجاتى فاختر ما يروقك فأطلقها وتتزوجها .

أية أريحية سامية هذه ؟ فإذا كنت ذا نعمة وأنت مؤمن فأنت تحب أن تعدى أثر نعمتك إلى غيرك ، فإذا كان عندك سيارة فاخرة قد تحب أن تتصدق بها ، لكن المرأة ، لا . لكن هذه الإريحية جاءت من الأنصار وقالوا : هؤلاء مهاجرون وتاركون أهلهم . وكان هذا ارتقاءً إيمانياً فى ذات الأنصار .

لقد جاء إليهم المهاجرون وفيهم شباب يمتلئون فتوة ، وكانت قريش قد منعت أهليهم عنهم ، ليس معهم زوجات . فيقول الأنصارى : لماذا لا أطلق إحدى زوجاتى ، وليتزوجها أخى المهاجر لأنفس عن عواطفه . وأقل ما فيها أن أمنع نظره أن يتحول حراماً . لكنَّ اليهود والمشركين والمنافقين يقولون لهم : لا تنفقوا على من عند رسول الله . ويقول القرآن الكريم فى هذا الموقف :

﴿ هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْ ۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَـٰكِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾ ﴾

(سورة المنافقون)

لقد أخطأوا الظن بمن آمنوا برسول الله ، ظنوا أنهم إن لم ينفقوا عليهم فسيرتدون عن إيمانهم . ونسوا أن المؤمنين المهاجرين قد تركوا أموالهم وتركوا بلادهم ، فمن ترك أمواله للهجرة فى سبيل الله أيكفر به عندما لا يجد شيئاً ؟ لا ؛ لأنه ترك كل شيء فى سبيل الله . وها هوذا سيدنا مصعب بن عمير المدلل فى قريش ، وكانت أمه تغدق عليه النعمة وهو صاحب العطور ، وبعد ذلك يذهب إلى المدينة ، فيلبس جلد شاة ، فينظر له النبى صلى الله عليه وسلم ويقول لأصحابه : انظروا كيف صنع الإيمان بصاحبكم ، فعندما يقول المنافقون كعبدالله بن أبىّ للأنصار : لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضّوا ، يظنون أن المؤمنين يمكن أن يبيعوا إيمانهم بلقمة وكأنهم نسوا أن الذى يبيع إيمانه باللقمة هو من يحمل على مبدأ باطل ، لكن من يعتنق ويعتقد مبدأ حق يجد حلاوته فى النفس ، وأجره مدخر عند ربه . إنه

لا يتحول عنه. قال على بن أبى طالب رضى الله عنه :

« فجئت المسجد ، فطلع علينا مصعب بن عمير فى بردة له مرقوعة بفروة ، وكان أنعم غلام بمكة وأَرْفَهَ ، فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر ما كان فيه من النعيم ، ورأى حاله التى هو عليها فذرفت عيناه عليه ، ثم قال : أنتم اليوم خير أم إذا غدى على أحدكم بجفنة من خبز ولحم ؟ فقلنا : نحن يومئذ خير نُكفى المؤنة ونتفرغ للعبادة ، فقال : « بل أنتم اليوم خير منكم يومئذ »[1] .

وقلنا : يجب أن تذكروا جيداً أن من حلاوة اليقين وحلاوة الإيمان أن المؤمن يضحّى بكل شىء فى سبيل رفعة الإيمان . لكن أصحاب المبادىء الباطلة لا يدخلون غيرهم فيها إلا إن دفعوا الثمن مقدماً ، أى أنهم يشترونهم . فإذا رأيت مبدأً من المبادىء يشترى البشر فاعرف أنه مبدأ باطل . . ولو كان مبدأ حق لدفع الإنسان من أجل أن يدخل فيه نفيس ماله ، بل ويضحى فى سبيله بنفسه أيضا .

ومن عجائب مبادىء الإسلام أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حينما أخذ العهد لنفسه فى بيعة العقبة ، قال له الأنصار : فإن نحن وفَّينا بهذا فماذا يكون لنا ؟ كأنهم يقولون : أنت أخذت مَالك فماذا يبقى لنا ؟ . .

انظروا إلى سمو الإيمان ، ويقين المصطفى بأن الإيمان نفسه جائزة ، فهل بشرهم بأنهم سيملكون الأرض ؟ هل بشرهم بأن هؤلاء المستضعفين هم الذين سيمكنون فيها ؟ لا ، بل قال لهم : لكم الجنة . فلو قال لهم : لكم سيادة الدنيا ، لكان فى ذلك نظر ، صحيح أن الدنيا دانت وخضعت لهم ، لكن منهم من مات قبل أن تدنو له الدنيا وتذل ، فأين صدق النبوءة ؟

إذن فقد قال لهم عن الشىء المضمون ، الشىء الذى يجد المؤمن فيه نفسه من فور أن يموت . قال لهم : لكم الجنة . فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ وحوله

(١) رواه الترمذى فى صفة القيامة باب حال مصعب بن عمير بعد الاسلام وأخرجه الحاكم ، وأورده ابن سعد فى طبقاته وابن الأثير فى « أسد الغابة » .

عصابة من أصحابه ـ : « تعالوا بايعونى على ألا تشركوا بالله شيئاً ولا تسرقوا ولا تزنوا ولا تقتلوا أولادكم ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم ولا تعصونى فى معروف ، فمن وَفَّى منكم فأجره على الله ، ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب به فى الدنيا فهو كفارة له ، ومن أصاب من ذلك شيئاً فستره الله فأمره إلى الله إن شاء عاقبه وإن شاء عفا عنه »[١] .

لم يغرهم بأنهم سيكونون أصحاب سلطان ، ولم يقل لهم : أنتم ستجلسون على البُسُط والدنيا ستدين لكم ، إنما قال لهم فى أول البيعة : لكم الجنة ، فإياكم أن يطمع أحد منكم فى شىء إلا فى الجنة ؛ ولذلك فالأنصار محبوبون لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولما كانت غزوة حنين وأعطى المهاجرين بعضاً من الغنائم ولم يكن للأنصار منها شىء ، وجد الأنصار فى نفوسهم . فلفتهم رسول الله لفتة إيمانية وقال لهم :

« ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعوا برسول الله إلى رحالكم ؟ فوالذى نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرأً من الأنصار ، ولو سلك الناس شِعباً وسلكت الأنصار شِعبا آخر لسلكت شعب الأنصار ، اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار »[٢] .

فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم وقالوا : رضينا برسول الله قسماً وحظاً .

أى سموّ إيمانى هذا ؟ لكن المنافقون قالوا للأنصار : لا تنفقوا أموالكم على من عند رسول الله حتى ينفضّوا .

لكنّ المؤمنين لم ينفضّوا . إنهم قد تركوا النعيم والأموال فى مكة وجاءوا إلى الهجرة ، فهم لم يأتوا ليأخذوا نعيماً مظنوناً محدوداً قليلا ، وحسبهم ما وعدوا به من نعيم متيقن عريض باق . لقد عرفوا بالإيمان أن نعيم الدنيا إما أن تفوته بالموت وإمّا أن يفوتك بالتقلب ، لكن نعيم الآخرة ليس له حدّ ينتهى عنده ، ولا يفوتك ولا تفوته .

---

(١) رواه البخارى .

(٢) رواه البخارى فى كتاب المغازى ورواه مسلم فى كتاب الزكاة باب إعطاء المؤلفة قلوبهم .

ثم سبحانه يقول : « ويكتمون ما آتاهم الله من فضله » ، وساعة ترى شيئا يكتم شيئاً ، لابد أن تفهم منها أن هذا الكتم معناه : منع شيء يريد أن يخرج بطبيعته ، وكما يقولون : اكتم الدم فلو لم تكتمه يستطرق . كأن المال أو العلم يريد أن يخرج للناس ولكن أصحابه يكتمونه . وكأن الفطرة الطبيعية فى كل رزق سواءً أكان رزقا مادياً أم رزقاً معنوياً أنه يستطرق ؛ لأن كل شيء مخلوق لخدمة الإنسان ، فعندما يأتى إنسان ويحوز شيئاً مما هو مخلوق لخدمة الإنسان ويحجبه فهو بذلك يمنع الشيء المكتوم من رسالته ؛ لأن كل شيء مخلوق لخدمة بنى آدم ، فعندما تعوقه عن هذه الخدمة فالشيء يحزن ، وليتسع ظنكم إلى أن الجمادات تحزن أيضاً .

﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الدخان)

فالسماء والأرض لهما بكاء ، ليس بكاء دموع إنما بكاء يعلم الله كنهه وحقيقته ، إذن فقوله : « ويكتمون ما آتاهم الله من فضله » . كأنه يقول : ما آتاه لك الله من فضله ليس ملكك ، وليس ذاتية فيك ، فأنت لم تأت به من عندك . وانظر إلى الكون حولك تجده كله أغيارا ، ألم تر فى حياتك قادراً أصبح عاجزاً ؟ ألم تر غنياً أصبح فقيراً ؟ فالدنيا دول ، وما من واحد إلا ويمر أمام عينيه وفى تاريخه وفى سماع من يثق بكلامه أنه « كان » هناك غنىٌّ ثم صار فقيراً ، فلماذا لا تعتبر بالأغيار التى قد تمر بك ، وبعد أن كان يُطلب منك أن تعطى ، صرت فى حال يطلب الحق سبحانه من غيرك أن يعطيك ، ادخر لنفسك الآن ـ بالخير تبذله ـ حتى إذا جاءتك الأغيار تجد لك ما ينتظرك .

« الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ما آتاهم الله من فضله وأعتدنا للكافرين عذاباً مهينا » انظر ماذا فعل فيه البخل ، إنه جعل صاحبه كافراً ، لأن البخيل ستر نعمة كان من الممكن أن تتسع له ولغيره ، فجاء له بالشيء الذى يخيف : « وأعتدنا للكافرين عذاباً مهينا » « أعتدنا » أى أعددنا وهيأنا . فالمسألة موجودة وقد أعدت ، والنبى صلى الله عليه وسلم حينما يتكلم عن الجنة يقول :

(عُرضت علىّ الجنة لو مددتُ يدى لتناولت من قطوفها)[1].

---

(١) رواه النسائى وأحمد ، وأورده المتقى الهندى فى كنز العمال .

هذه ثقة اليقين فى أنها مسألة جاهزة وليست تحت الإعداد ، ومن الذى أعد ؟ إنه الله ، قوى القوى، قدرة القدر هى التى تعد، وهو يعدها على قدر سعة قدرته، عذاب مهين ، لأنه قد يتطاول أحد ويقول : انا أتحمل العذاب ، كما قال الشاعر :

وتجلدى للشامتين اريهمو أنى لريب الدهر لا اتضعضع

فسبحانه يوضح : لن يلقى البخيل العذاب فقط ، بل سيلقى عذابا مهينا . ثم يأتى الحق سبحانه بالمقابل ، يأتى بغير البخيل ، فيقول :

﴿ وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۗ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا ﴿٣٨﴾ ﴾

إن هذه الآية الكريمة تتحدث عن الذى ينفق ، لكن الغاية غير واضحة عنده . الغاية ضعيفة لأنه ينفق رئاء الناس ، إنه يريد بالإنفاق مراءاة الناس ؛ ولذلك يقول العارفون بفضل الله : اختر من يثمن عطاءك . فأنت عندما تعطى شيئاً لإنسان فهو يثمن هذا الشيء بإمكاناته وقدراته ، سواء بكلمة ثناء يقولها مثلاً أو بغير ذلك ، لكن العطاء لله كيف يُثَمِّنه سبحانه ؟ لابد أن يكون الثمن غالياً .

إذن فالعاقل ينظر لمن سيعطى النعمة ، ولنا الأسوة فى سيدنا عثمان رضى الله عنه عندما علم التجار أن هناك تجارة آتية له ، جاء كل التجار ليشتروا منه البضاعة ثم يبيعوها ليربحوا وقال لهم : جاءنى أكثر من ثمنكم ، وفى النهاية قال لهم : أنا بعتها لله ـ إذن فقد تاجر سيدنا عثمان مع الله ، فرفع من ثمن بضاعته ، فالذى يعطى لرئاء الناس نقول له : أنت خائب ؛ لأنك ما ثمنت نعمتك ، بل ألقيتها تافهة الثمن ، ماذا سيفعل لك الناس ؟ هم قد يحسدونك على نعمتك ويتمنون أن يأخذوها منك ،

فلماذا ترائيهم ؟ إذن فهذه صفقة فاشلة خاسرة ؛ ولذلك قال الحق :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ﴾

(من الآية ١١١ من سورة التوبة)

ومادام سبحانه هو الذى اشترى فلابد أن الثمن كبير ؛ لأنه يعطى النعيم الذى ليس فيه أغيار ، ففى الجنة لا تفوت النعمة مؤمناً ، ولا هو يفوتها . فالذى يرائى الناس خاسر ، ولا يعرف أصول التجارة ؛ لأنه لم يعرف طعم التجارة مع الله ؛ ولذلك شبه عمله فى آية أخرى بقوله :

﴿ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ﴾

(من الآية ٢٦٤ سورة البقرة)

و « الصفوان » هو المروة وجمعه مرو وهى حجارة بيض براقة ، والمروة ناعمة وليست خشنة . لكنْ بها بعضٍ من الثنايا يدخل فيها التراب ؛ ولأن المروة ناعمة جداً فقليل من الماء ولو كان رذاذاً يذهب بالتراب . والذى ينفق ماله رئاء الناس هو من تتضح له قضية الإيمان ولكن لم يثبت الإيمان فى قلبه بعد ، فلو كنت تعلم أنك تريد أن تبيع سلعة وهناك تاجر يعطيك فيها ثمنا أغلى فلماذا تعطيها للأقل ثمنا ؟ إنك إن فعلت فقد خبت وخسرت فأوضح لك الحق : مادمت تريد رئاء الناس إذن فأنت ليس عندك إيمان بالذى يشترى بأغلى ، فتكون فى عالم الاقتصاد تاجرا فاشلاً ، ولذلك قلنا : ليحذر كل واحد حين يعطى أن يخاف من العطاء ، فالعطاء يستقبله الله بحسن الأجر ، ولكن عليه ألا يعطى بضجيج ودعاية تفضح عطاءه ؛ ولذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم - ضمن السبعة الذين يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله :

(رجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه)[1]

إنّ العبد الصالح حين يعطى فهو يعلم أن يده هى العليا ويده خير من اليد السفلى ، فليستر على الناس المحتاجين سفلية أيديهم ، ولا يجعلها واضحة .

ولكن الحق سبحانه وتعالى لا يريد أن يضيق مجال الإعطاء فقال :

(١) رواه أحمد والبخارى ومسلم والنسائى عن أبى هريرة .

﴿ إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٢٧١) ﴾

(سورة البقرة)

فإبداء الصدقات لا مانع منه إن كان من يفعل ذلك يريد أن يكون أسوة ، المهم أن يخرج الرياء من القلب لحظة إعطاء الصدقة ، فالحق يوضح : إياك أن تنفق وفيك رئاء ، أما من يخرج الصدقة وفي قلبه رياء فالله لا يحرم المحتاجين من عطاء معطٍ ؛ لأنه سبحانه يؤكد : خذوا منه وهو الخاسر ؛ لأنه لن يأخذ ثواباً ، لكن المجتمع ينتفع .

إن الذين ينفقون أموالهم رئاء الناس هم من الذين « لا يؤمنون بالله » لأنه سبحانه هو المعطى ، وهو يحب أن يضع المسلم عطاءه في يده « ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر » فلو كانوا يؤمنون باليوم الآخر لرأوا الجزاء الباقي ، فأنت إذا كنت تحب نعمتك فخذ النعمة وحاول أن تجعلها مثمرة . . أي كثيرة الثمار ، فالذي لم يتصدق من ماله ولم ينفقه حتى على نفسه يكون قد أنهى مسألة المال وعمر ماله معه عند هذا الحدّ ، أما الذي أنفقه في سبيل الله فسيجده في الآخرة ، فيكون قد أطال عمر ماله .

فالبخيل هو عدو ماله ؛ لأنه لم يستطع أن يثمره ، ولذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحديث الشريف :

« إن الله تعالى إذا كان يوم القيامة ينزل إلى العباد ليقضي بينهم وكل أمةٍ جاثية ، فأول من يدعو به رجل جمع القرآن ، ورجل قُتل في سبيل الله ، ورجل كثير المال . فيقول الله للقارئ : ألم أعلمك ما أنزلت على رسولي ؟

قال : بلى يارب ، قال : فماذا عملت فيما علمت ؟ قال : كنت أقوم به آناء الليل وآناء النهار ، فيقول الله له : كذبت وتقول الملائكة : كذبت ، ويقول الله له : بل أردت أن يُقال : فلان قارئ فقد قيلَ ذلك ، ويؤتى بصاحب المال . . . . . . »[1]

لكن هل قال لك الدين : لا تفعل؟ لا ، افعل لينتفع الناس بالرغم منك .

(١) رواه الترمذي في الزهد ، وأخرجه ابن خزيمة ومسلم .

والبخيل عندما يُكَثِّر ماله يكون قد حرّم على نفسه هذا المال ثم يأتى ابن له يريد أن يستمتع بالمال ، ولذلك يقال فى الريف : مال الكُنزى للنُزهى ، ولا أحد بقادر أن يخدع خالقه أبداً !! فسبحانه يوضح : أنا أعطيتك نعمة أنت لم تعطها لأحد ، لكنى سأيسر السبيل لطائع لى ، إياك أن تظن أنك خدعتنى عندما بخلت ، فبخلك يقع عليك . إذن فأنت قد ضيقت رزقك بالبخل ولو أنفقت لأعطاك الله خيرا كثيرا « وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه » لكنك تركته لورثتك وسيأخذونه ليكون رزقهم متسعاً ، وأيضاً فإنك حين تمنع المال عن غيرك فأنت قد يسرت سبيلاً لمن يبذل .

كيف ؟ لنفترض أن إنساناً كريماً ، وكرمه لا يدعه يتوارى من السائل ، والناس لها أمل فيه . وبعد ذلك لم ينهض دخله بتبعاته ، فإن كان عنده « فدانان » فهو يبيع فداناً ليفرج به على المحتاجين ، وعندما يبيع الفدان سيشتريه من يكتنز ، فيكون المكتنز قد يسّر سبيلاً للكريم ، فإياك أن تظن أنك قادر على خداع من خلقك وخلق الكون وأعطاك هذه النعمة ، وهذا يشبه صاحب السيئة الذى منّ الله عليه بالتوبة والرجوع إلى الله ، إننا نقول له : إياك أن تعتقد أنك اختلست شهوة من الله أبداً . أنت اختلست شهوة ستلهبك أخيراً ، وتجعلك تفعل حسنات مثلها عشرين مرة ، لأنه سبحانه قد قال :

﴿ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾

(من الآية ١١٤ سورة هود)

فأنت لن تضحك على خالقك لأنه سيجعلها وراءك ، فتعمل خيراً كثيراً ، كذلك البخيل نقول له : ستيسر سبيلاً لكريم بذّال ، والحق سبحانه وتعالى بينّ فى آخر الآية السبب الذى حمله على ذلك ، إن الأسباب متعددة . لكن تجمعها كلمة « شيطان » ، فكل من يمنعك من سبيل الهدى هو شيطان ، ابتداءً من شهوات نفسك وغفلة عقلك عن المنهج ، إنّها قرين سوء يزين لك الفحشاء ، ويزين لك الإثم ، إنّ وراء كل هذه الأمور شيطانا يوسوس إليك ، وكل هؤلاء نسميهم « شيطاناً » لأن الشيطان هو من يبعدك عن المنهج ، وهناك شياطين من الجن ، وشياطين من الإنس ، فالنفس حين تحدث الإنسان ألاّ يلتزم بالمنهج ؛ لأن التزامه بالمنهج سيفوت عليه فرصة شهوة ـ هى شيطان . إنّ النفس التى ترى الشهوة العاجلة وتضيع منها شهوة آجلة لا حدود لها ـ هى شيطان. فالشيطان إذن هو الذى جعلهم

يبخلون ويأمرون الناس بالبخل .. وهذا الشيطان وساعة يكون قريناً للإنسان ، فمعنى ذلك أنه مقترن به ، والقِرن بكسر القاف ـ هو من تنازله .

وكلمة « قَرْن » تطلق أيضاً على فترة من الزمن هى مائة عام ، لأنها تقرن الأجيال ببعضها ، فالشيطان قرين أى ملازم لصاحبه ومقترن به ، فيقول الحق : « ومن يكن الشيطان له قريناً فساء قريناً» ، أى بئس هذا القرين لأنه القرين الذى لا ينفعنى ولا يصدنى عن مجال ضار .

ولذلك فالناس قد يحب بعضهم بعضا فى الدنيا لأنهم يجتمعون على معصية . أما فى الآخرة فماذا يفعلون ؟ يقول الحق :

﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾

(سورة الزخرف)

لأن المتقين يعين بعضهم بعضا على الطاعة ، فالواحد منهم يقول لصاحبه : كنت تعيننى على الطاعة ، كنت توجهنى وتذكرنى إن غفلت ، فيزداد الحب بينهما . لكن الإنسان يلعن من أغواه وأول من نلعن يوم القيامة نلعن الشيطان ، وكذلك الشيطان أول ما يتبرأ يتبرأ منّا ، ولذلك فعندما تحين المجادلة نجد الشيطان يقول لمن أغواهم وأضلهم :

﴿ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ﴾

(من الآية ٢٢ سورة إبراهيم)

والسلطان هو : القوة العالية التى تجبر مَنْ دونها ، فالإنسان تُجبر مادته وبنيته بسلطان القهر المادى ، ويُقهر فى اعتقاداته بالدليل والحجة . والإكراه فى المادة إنما يتحكم فى القالب ، لكنه لا يتحكم فى القلب ، فقد تكون ضعيفًا أمام واحد قوى ولكنك تمسك له سوطا وتقول له : اسجد لى . اخضع ، فيسجد لك ويخضع . وأنت بذلك تقهر القالب ، لكنك لم تقهر القلب ، هذا هو السلطان المادى الذى يقهر القالب ، لكن إذا جاء لك إنسان بالحجج وأقنعك ، فهذا قهر إقناع ، وقدرة قهر العقول بالإقناع نوع من السلطان أيضاً .

إذن فالسلطان يأتى من ناحيتين : سلطان يقهر القالب ، وسلطان يقهر فقه القلب ، فسلطان القالب يجعلك تخضع قهراً عنك ، وسلطان الحجة والبرهان يجعلك تفعل برضى منك ، والشيطان يقول لمن اتبعوه : يا من جعلتمونى قريناً لكم لا تفارقونى ؛ أنتم أغبياء ؛ فليس لىَ عليكم سلطان ، وما كان لىَ من القوة بحيث أستطيع أن أرغمكم على أن ترتكبوا المعاصى ، وما كان عندى منطق ولا حجة لكى أقنعكم أن تفعلوا المعاصى ، لكنكم كنتم غافلين ، أنا أشرت لكم فقط فلست أملك قوة أقهر مادتكم بها ، ولا برهان عندى لأسيطر على عقولكم :

﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم ﴾

(من الآية ٢٢ سورة إبراهيم)

إذن فالخيبة منكم أنتم ؛ ولذلك يقول الحق :

﴿ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ﴾

(من الآية ٢٢ سورة إبراهيم)

ماذا يعنى « مصرخكم »؟ إنها استغاثة واحد فى أزمة لا يقدر عليها وضاقت به الأسباب ، عندئذ يستنصر بغيره ، فيصرخ على غيره ، أى يناديهم لإنقاذه ولنجدته ، فالذى يستجيب له ويأتى لإنقاذه يقال له : أزال صراخه ، إذن فاصرخه يعنى سارع وأجاب صرخته ، والشيطان يقول : إن استنجدتم بى فلن أنجدكم وأنتم لن تنجدونى ، فكل واحد منا عرف مسئوليته وقدرته . وبالنسبة للإنسان فقد قال الحق :

﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ﴾

(من الآية ١٣ سورة الإسراء)

فمن يتخذ الشيطان قريناً ، « فساء قرينا » وكلمة « ساء » مثل كلمة « بئس » كلتاهما تستعمل لذم وتقبيح الشىء أى ، فبئس أن يكون الشيطان قريناً لك ؛ لأن الشيطان أخذ على نفسه العهد أمام الله ألا يغوى من يطيعه سبحانه ويغوى مَن سواهم من الناس أجمعين .

وعندما نتأمل الآية ، نجد أن الحق يقول : « والذين ينفقون أموالهم رئاء الناس ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ومن يكن الشيطان له قرينا فساء قرينا » . فالآية إذن تتناول لونا من الإنفاق يحبط الله ثوابه . فنفقة المرائى تتعدى إلى نفع غيره لكن لا ينتفع المرائى منها ، بل تكون قد أنقصت من ماله ولم تثمر عند ربه .

والحق يلفتنا إلى أن ذلك كله راجع إلى معوقات الإيمان الذى يتطلب من الإنسان أن يكون فى كل حركات حياته على منهاج ربه ، هذه المعوقات تظهر فى النفس البشرية وفى شهواتها التى تزين الإقبال على المعصية للشهوة العاجلة ، وتزين الراحة فى ترك الأوامر ، والشيطان أيضاً يتمثل فى المعوقات ، والشيطان كما نعلم : اسم للعاصى من الجنس الثانى من المكلفين وهم الجن ويتمثل فى إبليس وفى جنوده ، ويطلق على كل متمرد من الإنس أيضا يقول تعالى : « وكذلك جعلنا لكل نبى عدواً شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا » وأنت حين تريد أن تعرف المعوق أهو من نفسك أم من الشيطان ؟ . فانظر إلى نفسك حيال المعصية ، أهى معصية تدفعك نفسك أن تأتيها وحدها ، أم معصية إن عزّ عليك أن تفعلها فأنت تنتقل إلى معصية سواها ؟ هل هى معصية ملازمة أو معصية تنتقل منها إلى غيرها ؟ .

فهب أن إنساناً كانت معصية نفسه فى أن يشتهى ما حُرّم عليه ، أو أن يسرق مال غيره ، نقول له : أوقفت فى المعصية عند هذه بحيث لا تتعداها إلى غيرها ؟ يقول نعم . فبقية المعاصى لا ألتفت إليها . نقول : تلك شهوة نفس ، فإن كانت المعصية حين تمتنع عليك من سرقة مثلاً فأنت تلتفت إلى معصية أخرى . فهذا لون من المعاصى ليس من حظ النفس ، وإنما هو حظ الشيطان منك ؛ لأن الشيطان يريد العاصى عاصياً على أى لون من المعصية ، فإن عزّ عليه أن يلوى زمامه إلى لون من المعصية ، انتقل إلى معصية أخرى لعلّه يصادف ناحية الضعف فيه .

لكن النفس حين تشتهى فإنها تشتهى شيئاً بعينه ، فأنت إذن تستطيع أن تعرف المعوق من قبل نفسك أم من قبل الشيطان ، فإن وقفت عند معصية واحدة لا تتعداها وتلح عليك هذه المعصية ، وكلما عزّ عليك باب من أبوابها تجد باباً آخر

لتصل إليها ، فتلك شهوة نفسك . وإن عزّت عليك معصية تنتقل إلى معصية أخرى فهذا من عمل الشيطان ؛ لأن الشيطان لا يريد عاصياً من لون واحد ، وإنما يريدك عاصياً على إطلاقك .

وعداوة الشيطان ـ كما نعلم ـ هى عداوة مسبقة ؛ فقد امتنع الشيطان عن السجود لآدم بحجة أنه خير من آدم . وحذر الله آدم . ولابد أن آدم عليه السلام قد نقل هذا التحذير لذريته وأَعْلَمَهُم أن الشيطان عدو . ولكن الغفلة حين تسيطر على النفوس تفسح مجالا للشيطان لينفذ إلى نفس الإنسان ، والشيطان ـ كما نعرف ـ لا يأتى للعاصى الذى تغويه نفسه ؛ لأن العاصى تكفيه نفسه ؛ لذلك يأتى الشيطان للطائع ليفسد عليه طاعته ، ولهذا يقول الله عنه :

﴿ لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾

(من الآية ١٦ سورة الأعراف)

إذن فمقعد الشيطان ليس فى الخمارة أو فى مكان فساد ، إنما يجلس على باب المسجد ، لكى يفسد على كل ذاهب إلى الطاعة طاعته . وهذا معنى : « لأقعدن لهم صراطك المستقيم » ؛ ولذلك كانوا يقولون : إن الطوائف الأقلية غير المسلمة فى أى بلد إسلامى لا تحدث بينهم الشحناء ، ولا البغضاء ، ولا حرق الزروع ولا سمّ المواشى ، ولا القتل ، وتأتى هذه المعاصى فى جمهرة المسلمين ، نقول : نعم ؛ لأن الشيطان ضمن أن هؤلاء وصلوا إلى قمة المعصية فابتعد عن إغوائهم ، أما المسلمون فهم أهل الطريق المستقيم ، لذلك يركز الشيطان فى عمله معهم ، إذن فمادام عمل الشيطان على الطريق المستقيم فهو يأتى لأصحاب منهج الهداية ، أما الفاسق بطبيعته ، والذى كَفَرَ كُفر القمة فالشيطان ليس له عمل معه ؛ لأنه فعل أكثر مما يطلب الشيطان من النفس البشرية .

والحق سبحانه وتعالى يقول : « والذين ينفقون أموالهم رئاء الناس » أى : أنفقوا وأنقصوا مالهم فلماذا المراءاة إذن ؟ لأن الشيطان قرينهم ، وعندما ينفقون فهذا عمل طاعة ، ولماذا يترك لهم هذا العمل ليسلم الثواب لهم ؟ فلا بد أن يفسد لهم هذا العمل الذى عملوه ، وهو يقول : « ومن يكن الشيطان له قريناً فساء قرينا » مثل هذا القرين أيمدح أم يذم ؟ إنه يذم بطبيعة الحال ؛ ولذلك قال الله : « فساء

قرينا » أى بئس ذلك القرين ، فالقرين الذى يلفتك عن فعل الخير هو الذى بعد أن أنقص مالك بالنفقة أفسد عليك الثواب بالرياء .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾ ﴾

وقوله سبحانه : « وماذا عليهم » وأى تبعة ومشقة وضرر عليهم من الإيمان والإنفاق فى سبيل الله ؟ إنه سبحانه لم يستفهم منهم عما يصيبهم من ذلك ولكنه ـ جل شأنه ـ يَذُمُّهُمْ ويوبخهم ويصفهم ويصمهم بالجهل والغفلة عما ينفعهم .

فالتلميذ الذى يلعب ، فيرسب تقول له : وماذا عليك لو أنك ذاكرت ؟! يعنى أى ضرر عليك فى هذا ، إذن فمعنى ذلك أنها لا تقال إلا لإنسان فى قدرته أن يفعل الفعل ، فمثل هذا التلميذ يقدر أن يذاكر . لكننا لا نأتى لإنسان فيه صفة لا دخل له فيها كالقصر فى القامة مثلاً ثم نقول لك : ماذا عليك لو كنت طويلاً ؟! هذا قول لا ينفع ولا يصح .

إذن فماذا عليك . لا تقال إلا لمن فى قدرته الاختيارية أن يكون كذلك ، أما من لا يكون فى قدرته ألا يكون كذلك فلا تقال له . ونقول ذلك لأن طائفة الجبريّة قالت : إن الذى كفر لا يقدر أن يؤمن فالكافر يظل كافراً ، لكنهم لم يلتفتوا إلى قول ربنا : « وماذا عليهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر » فمعنى هذا القول أن الباب مفتوح . وإلا لو كانوا ملزمين بالكفر لما قال ربنا : « وماذا عليهم » . وهذه الآية لا ترد فقط على مذهب الجبريّة ، بل تهدم مذهب الجبريّة كله . فالإنسان ليس مجبراً على فعل وتنتهى المسألة ، وكما يقولون : كالريشة فى مهب الريح . ومثلما قال الشاعر :

ألقاه فى اليم مكتوفاً وقال لـه
إيـاك إيـاك أن تبتـل بـالمـاء

نقول لهم : أنتم نسبتم لله ـ والعياذ بالله ـ الظلم ، فالله سبحانه وتعالى لم يطلب من الإنسان أن يؤمن به إلا وقد أودع فيه قوة اختيارية تختار بين البديلات . وأنتم لم تفطنوا إلى حقيقة كتابة كل شىء أزلاً فأخذتم منها الشىء الذى لا بد للناس أن تنفذه ، ولم تلتفتوا إلى أن هناك فرقاً بين أن يكون قد كتب ليلزم ، وأن يكون قد كتب لأنه علم .

هو سبحانه كتب لماذا ؟ لأنه علم أزلاً أن عبده سيختار كذا ويختار كذا . إذن فالكتابة ليست للإلزام ولكن لسبق العلم . والعلم صفة انكشاف لا صفة تأثير .

وحتى نوضح ذلك نقول : إن الصفات نوعان : صفة تكشف الأشياء على ما هى عليه بصرف النظر عن أن تقهر أو لا تقهر ، والقدرة صفة إبراز وليست صفة انكشاف ، ومثال ذلك عميد الكلية الذى يأتى فيقول لأستاذ مادة من المواد : جاءت لى مكافأة للطالب النابغ فى مادة كذا ، فاصنع اختباراً للطلاب حتى نعطى هذه الجائزة لمن يستحقها . فيقول أستاذ المادة : لا ضرورة للاختبار لأننى أعلمهم وأعرف مواقعهم من الجدّ ومواقعهم من الاجتهاد ومواقعهم من فقه العلم ، فلان هو الأول وأعطه الجائزة ، فلا يقتنع عميد الكلية ، ويضع هو اختباراً أو يأتى بأساتذة آخرين يضعون الاختبار دون هذا الأستاذ . وبعد ذلك يفوز الطالب الذى حدده الأستاذ مسبقاً بالدرجة الأولى .

أساعة أجاب الطالب عن الأسئلة التى وضعت له . أكان مع الطالب الذى فاز بالمركز الأول من يرغمه على أن يكتب المادة العلمية التى جعلته يحصل على الجائزة ؟ لا . فلماذا قال الأستاذ عنه ذلك ؟ لأنه علم بمن عنده قدرة من العلم . لقد حكم الأستاذ أولاً لأنه يعلم .

ولله المثل الأعلى من قبل ومن بعد ، فالحق سبحانه وتعالى أعطى للناس الاختيار

بين البديلات ، لكنه أوضح : أنا أعلم أن عبدى سيختار كذا وكذا . إذن فهذه سبق علم لا قهر قدرة . فالقدرة لها تأثير والعلم لا تأثير له ولا قهر . وقول الله هنا : « وماذا عليهم لو آمنوا بالله » فقوله : « وماذا عليهم » تعنى أى ضرر يلحقهم . كلمة « عليهم » دائماً تكشف للإنسان ما عليه ، لذلك لا يقول « لهم » بل يقول : أى ضرر كان يلحقهم لو أنهم آمنوا بالله ؛ ولذلك يقول الحق :

﴿ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَـٰقُواْ رَبِّهِمْ ﴾

(من الآية ٤٦ سورة البقرة)

لم يقل سبحانه : الذين يتيقنون . بل إن مجرد الظن بلقاء الله جعلهم يعملون الأعمال الصالحة ، فما بالك إذا كان العبد متيقناً ؟ إن المتيقن يقوم بالعمل الصالح مِن باب أولى . ولذلك فهذه المسألة أخرجت « المعرّى » عما اتهموه به من أنه ينكر البعث ، صحيح أنه فى أول حياته قال :

تحطمنا الأيام حتى كأننا ... زجاج ولكن لا يُعاد لنا سَبْكُ

فقالوا : إن قوله « لا يعاد له سبك » معناه أنه ينفى قدرةالحق على أن يبعثنا مرة ثانية ، مع أنه من الممكن أن يتأول فيها ، أى لا يعاد لنا سبك فى حياتنا هذه ، ونحن لا نرى من مات يعود مرة ثانية . ونقول كذلك:إن هذه قالها فى أول حياته . ولكنه قال فى آخر الأمر :

زعم المنجم والطبيب كلاهما ... لا تحشر الأجساد قلت إليكما
إن صح قولكما فلست بخاسر ... أو صح قولى فالخسار عليكما

فهو يطلب من الطبيب والمنجم أن يكفا عن إفساد العقول بالشك . وهب أنه اعتقد ألا بعث ، وواحد آخر اعتقد أن فيه بعثاً ، نقول له : إما أن يجىء بعث فيكذب من قال : لا بعث ، وإما ألا يجىء بعث ، فإذا لم يجىء البعث ، ما الذى ضر من آمن بالبعث ؟ وإذا جاء البعث فمن الذى خسر ؟ سيخسر من أنكره ، إذن فالذى ينكر البعث يخسر ولا يكسب ، لكن من قال : إن هناك بعثاً لا يخسر ، وهكذا .

وقول الحق : « وماذا عليهم » إنه تساؤل عن أى ضرر كان يلحقهم«لو أنهم آمنوا بالله واليوم الآخر وأنفقوا مما رزقهم الله » إن من يعطى الصدقة ويضعها فى يد الله يستثمرها عند المعطى ، لكن عندما يقوم بذلك رئاء الناس فهو يثمر عند من لا يعطى ، وبذلك يكونون قد خسروا أموالهم وخسروا تثمير الأموال فى يد الله بالثواب فى الآخرة .

« وماذا عليهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر وأنفقوا مما رزقهم الله وكان الله بهم عليما » . وعلم الله متغلغل وسبحانه يعلم الخفايا . وسبحانه محيط بكل شىء علما ؛ لذلك يقول الحق بعد ذلك :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ ﴾

والظلم : الأصل فيه محبة الانتفاع بجهد غيره ، فعندما تظلم واحداً فهذا يعنى أنك تأخذ حقه ، وحقه ما جاء به بجهده وعرقه ، وتأخذه أنت بدون جهد ولا عرق . ويتبع هذا أن يكون الظالم قوياً . لكن ماذا عن الذى يظلم إنساناً لحساب إنسان آخر ؟ إنه لم ينتفع بظلمه ولكن غيره هو الذى انتفع . وهذا شرّ من الأول : عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (بادروا بالأعمال ستكون فتنا كقطع الليل المظلم يصبح الرجل مؤمناً ويمسى كافراً أو يمسى مؤمنا ويصبح كافرا يبيع دينه بعرض من الدنيا)[1] .

لأنه ظلم إنساناً لنفع عبد آخر ولم يأخذ هو شيئاً لنفسه .

إذن فالظلم إما أن يكون الانتفاع بثمرة جهد غيرك من غير كد ، وإما أن تنفع شخصا بجهد غيره ، والله سبحانه وتعالى إذا نظرنا إليه ـ وهو قوة القوى ـ إذا أراد أن يظلم ـ وحاشا لله أن يظلم ـ فماذا يكون شكل ظلمه ؟ إن الظلم يتناسب مع قوة

(١) رواه مسلم ، والترمذى ، وأحمد .

الظالم ، إذن فقوة القوى عندما تظلم فظلمها لا يُطاق ، ثم لماذا يظلم ؟ وماذا يريد أن يأخذ وهو من وهب ؟ إنه سبحانه مستغنٍ ، ولن يأخذ من هذا ليعطى ذاك ، فكلهم بالنسبة له سواء ؛ لأنه سبحانه لم يتخذ صاحبةً ولا ولداً ، كلهم متساوون ، فلماذا يظلم ؟

إن الظلم بالنسبة لله محال عقلياً ومحال منطقياً ، فلا يمكن لله أن يضيع عمل حسنة ولا أن يضاعف سيئة . فهذه لا تتأتى ، وتلك لا تتأتى ، والله واهب كل النعم للناس جميعاً . ومادام هو من وهب كل النعم ، فسبحانه غير منتفع بآثاره فى خلقه . إن الحق سبحانه وتعالى ينفى عن نفسه الظلم فى قوله :

﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾ ﴾

(من الآية ٤٦ سورة فصلت)

فكلمة « ظلاّم » مثل قولنا : فلان « أكّال » وفلان « نوّام » . وهى تختلف عن قولنا : فلان نائم، يعنى نام مرة، ولكن «نوام» فهذا يعنى مداومته على النوم كثيراً، أى أنه إما أن يكون مبالغاً فى الحدث ، وإما أن يكون مكرراً للحدث . فالمبالغة ـ كما نعرف ـ تأتى مرة لأن الحدث واحد لكنه قوى ، ومرة يكون الحدث عادياً لكنه مكرر ، هذه هى المبالغة ، فقوله سبحانه وتعالى : « وما ربك بظلاّم » نفى للمبالغة ، وهذا لا يقتضى نفى غير المبالغة . ونقول : الله لو ظلم لكان ظلمه مناسبا قدرته فيكون كبيراً كثيراً ، ولو كان ظالما لشمل ظلمه وعَمّ الخلق جميعا فيكون كذلك كبيراً كثيراً ولكن الله ـ سبحانه ـ يقول : « إن الله لا يظلم مثقال ذرة » . وسبحانه يحسب السيئة سيئة واحدة . أما الحسنة فيضاعفها ، « إن الله لا يظلم مثقال ذرة » « مثقال » : يعنى ثقل ووزن ، والثقل هو : مقدار جاذبية الأرض للشىء . فعندما يكون وزن الشىء قليلاً وتُلقيه من أعلى ، فهو ينزل ببطء ، أما الشىء الثقيل فعندما تلقيه من أعلى فهو ينزل بسرعة ؛ لأن قوة الجاذبية له تكون أقوى ، والإنسان منا حين ينظر إلى كلمة « مثقال » ؛ ويعبر عنها بأنها وزن ، فمعيار الميزان هنا « الذرة » . وما « الذرة » ؟.

قال العلماء فيها : هى رأس النملة الصغيرة التى لا تكاد تُرى بالعين المجردة ، أو النملة نفسها . هذه مقولة ، أو الذرة كما قال ابن عباس حين سُئل عنها : أخذ شيئاً

من تراب الأرض ثم نفخه ، فلما نفخ تطاير التراب فى الهواء ، فقال لهم : كل واحدة من هذه اسمها « ذرة » وهو ما نسميه « الهباء » ، ونحن الآن الموجودين فى مكان واحد لا نرى شيئاً فى الجو ، لكن انظر إلى حزمة ضوئية - أى ثقب تدخل منه أشعة الشمس - فساعة ترى ثقباً يُدخل أشعة الشمس ترى غباراً كثيراً يسبح . والمهم أنك لا تراه جارياً إلا فى شعاع الشمس فقط ، فهو كان موجوداً ونستنشقه ، فما الذى جعلنى لا أراه ؟. لأنه بلغ من الصغر واللطف مبلغاً فوق طوق العين أن تراه ، فالذرة واحدة من هذا الغبار ،واسمه « الهباء » وواحدة الهباء هى الذرة .

إن الحق سبحانه وتعالى يوضح لنا : أن كل شىء موزون إلى أقل درجات الوزن وهو الذرة ، وهى الهباء ، ونحن لا نراها إلا فى نور محجوز ، لأننا فى النور القوى لا نرى تلك الذرات ، بل نراها فقط فى نور له مصدر واحد ونافذ ، والحق سبحانه وتعالى لا يظلم مثقال ذرة ، وهذا تمثيل فقط ؛ لأن الذرة يمكن أن تكبر ، فالذى يكبر يمكن أن يصغر ، وقال الحق ذلك ولم يكن عند الإنسان المقياس الذى يُفتّت به الذرة ، وقد حدث أن استطاع الإنسان ذلك ، فبعد الحرب العالمية الأولى صنعت ألمانيا اسطوانات تحطيم الجوهر الفرد ، أو الجزء الذى لا يتجزأ كما كان يصفه الفلاسفة قديماً ، ومعنى جزء لا يتجزأ أى لا يمكن أن يأتى أقل منه . ولم يلتفتوا إلى أن أى شىء له مادة إن كان يقبل التكبير فهو أيضاً يقبل التصغير . والمهم أن توجد عند الإنسان الآلة التى تدرك الصغر .

ومثال ذلك عندما صعدت الأقمار الصناعية وأخذوا من الجو صورة لمدينة نيويورك ؛ خرجت الصورة صغيرة لمدينة نيويورك . بعد ذلك كبروا الصورة ؛ فأخرجوا أرقام السيارات التى كانت تسير ! . كيف حدث هذا ؟ لقد كانت الصورة الصغيرة تحتوى تفاصيل أكثر دقة لا تراها العين المجردة ، وعندما يتم تكبيرها يتضح كل شىء حتى أرقام السيارات وضحت بعد أن كانت غير ظاهرة ، وإن كنت موجودا فى نيويورك فى هذه الساعة أكنت تظهر بها ؟ لا يمكن أن تظهر .. لماذا ؟ .. لأنّ صورتك صغرت إلى الحد والقدر الذى لا يمكنك أن تراها وهى بهذا الحجم وهكذا ، فالنور عندما يكون محزوماً ، فالحزمة الضوئية التى تدخل إلى مكان ما ، لها من القوة التى تظهر ذرة الهباء الذى لم تكن تراها .

إذن فنور من الله مخلوق ظهرت فيه الذرة ، أيخفى على نور الخالق ذرة ؟ لا يمكن أن تخفى عليه سبحانه ذرة ؛ لأن النور الذى خلقه أظهر الذرة والهباء الذى كان موجوداً ولا نراه ، فلن يخفى على نور النور ذرة فى الأرض .

وهكذا نعرف أن المسألة بالنسبة لله عملية قطعية ، وعندما اخترعوا اسطوانة تحطيم الجوهر الفرد كانت مثل عصارة القصب ، ونحن نعرف أن عود القصب يوضع بين عمودين من الحديد . والعمود الواحد اسمه « اسطوانة » وعندما يضيقون الاسطوانتين ثم يمررون عود القصب بينهما ، فلا بد أن تكون المسافة بينهما ضيقة حتى إذا نفذ عود القصب يُعصر ، إذن فكلما ضيقت بين الاسطوانتين يزداد العصر ، ومادامت الاسطوانتان تجرى كل واحدة منهما على الأخرى فهنا فراغ ضئيل جداً ، وحاول العلماء الألمان تضييق الاسطوانتين تضييقاً يفتت لنا هذه الذرة ، ونجحوا ، وأصبح هناك شىء آخر أقل من الذرة .

وظن السطحيون الذين يتربصون بالإسلام وبكتاب الله الدوائر ، ويريدون أن يجدوا فيه منفذاً . قالوا : إن الله قال : « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره » . على أنها أقل شىء وظهر أن هناك أقل من مثقال ذرة ؛ لأن الذرة تحطمت . وقلنا لهؤلاء : أنتم أخذتم آية ونسيتم آيات ، فالقرآن قد جاء معجزة ليواجه مجتمعات شتى من لدن رسول الله إلى أن تقوم الساعة ، فلا بد أن يكون فيه ما يشبع العقول من لدن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أن تقوم الساعة . ولو أن عطاء القرآن صُب مرة واحدة فى عصر الرسالة لجاءت القرون التالية وليس للقرآن عطاء . فأراد ربنا أن يكون القرآن هو المعجزة والمنهج المتضمن للأحكام والكليات ، وهذه أمور مفهومة بالنسبة لعهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وإلى أن تقوم الساعة . لكن لا يزال هناك كونيات ونواميس للحق فى الوجود لم تظهر بعد ، فسبحانه يعطى كل عصر على قدر اتساع فهمه .

وعندما نعرف أسرار قضية كونية لا يزيد علينا حكم ، فعندما نعرف قضية مثلاً كقضية الذرة وتفتيتها ووجود إشارات لها فى القرآن الكريم لا يزيد ذلك علينا أى حكم . بل ظلت الأحكام كما هى . فالأحكام واضحة كل الوضوح ؛ لأن من

يفعلها يثاب ، ومن لا يفعلها يعاقب . والناس الذين سيتقوم عليهم الساعة مثل الناس الذين عاصروا حضرة النبى عليه الصلاة والسلام ؛ لذلك لابد أن تكون الأحكام واحدة ، فمن ناحية أن القرآن كتاب أحكام فهذا أمر واضح وضوحاً لا زيادة فيه ، ولم يفهم المعاصر لرسول الله حكماً ثم جاء الإنسان فى زماننا ليفهم حكماً آخر ، بل كل الأحكام سواء .

والقرآن كمعجزة هو أيضاً معجزة للجميع . ولابد أن تكون هناك معجزة لكل جيل . ولكل عصر ، ويأتى الإعجاز فى الآيات الكونية التى لو لم نعرفها فلن يحدث شيء بالنسبة للأحكام . مثال ذلك : لو لم نعرف أن الأرض تدور أكان انتفاعنا بالأرض يقل ؟ لا . . فنحن ننتفع بالأرض سواء أعلمنا كرويتها أم لم نعلم ، لكن الحق سبحانه وتعالى يواجه العقول بما يمكن أن تطيقه . فإذا ما ارتقت العقول وتنورت واستنارت بمقتضى طموحاتها العلمية فى الكون . فالقرآن إن لم يؤيدها فهو لا يعارضها .

وعندما فتتوا الذرة قال المشككون : إن ربنا يضرب بالذرة المثل لأصغر شيء « ومن يعمل مثقال ذرة شرّاً يره » لكن هناك ما هو أقل من الذرة . ونرد عليهم : أنتم نظرتم إلى آية ونسيتم آيات . أنتم لم تنتبهوا ـ كما قلنا ـ إلى أن من فتتوا الذرة إلى إلكترونات وأيونات وموجب وسالب حاولوا بعد ذلك أن يفتتوا ما فُتت . والآية التى نحن بصددها الآن : « إن الله لا يظلم مثقال ذرة » أرضت العقول التى تعرف الذرة الأصلية هذه واحدة ، ولماذا لا نسمع قول الله :

﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾ ﴾

(سورة يونس)

إذن فهناك ذرة وهناك أصغر من الذرة ، ولم تأخذوا فى بالكم أن « أصغر » هذه أفعل تفضيل ، ولا يوجد أصغر إلا إن وجد صغير ، إذن فهناك ذرة ، وهناك صغير

عن الذرة ، وهناك أصغر من الصغير ، فهناك إذن ثلاث مراحل ، فإن فتتوها فلنا رصيد فى القرآن يقول بالصغر ، فإن فتتم المفتت ، فلنا رصيد فى القرآن بأصغر ؛ ، لأن كل أصغر لا بد أن يسبقه صغير ، وإن كنت ستفتت المفتت فما زال عندنا رصيد من القرآن يسبق عقولكم فى الابتكار ، فإن قلت تفتيت جاز ، وإن قلت تجميع جاز ؛ لأنها أصغر وأكبر ، تفتيت أو تجميع ، والمعقول أنك تقول : لا يغيب الأصغر والصغير ، والذرة كذلك لا تغيب فكيف يعبر عن الأكبر بأنه لا يغيب مع أنه ظاهر وواضح ؟ .

ونقول لك : إن المتكلم هو ربنا ، فالشيء لا يدرك إما لأنه لطيف فى غاية الدقة بحيث لا تتعلق به الباصرة فلا يُرى ، وأيضاً لا يُدرك لأنه كبير بصورة أكبر من أن تحيط به الباصرة ، فحين ترى جبلاً كبيراً على بعد اثنين من الكيلو مترات أو ثلاثة فأنت لا تدركه ؛ لأنه أكبر من أن يحيط به إشعاع بصرك ، ولكن الأمر بالنسبة لله يختلف فلا يوجد صغير يدِقّ لا يراه ، ولا كبير يكبر لا يراه ، إذن فلا بد أن تأتى « ولا أصغر من ذلك ولا أكبر » . وفى آية أخرى يقول سبحانه :

﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ ﴾

(سورة سبأ)

وانظروا إلى دقة الحق فى الرد على الإنكار للساعة وهى قضية كونية تنسحب على كل العصور . . فيقول سبحانه :

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٣﴾ ﴾

(سورة سبأ)

كان يكفى أن يقول : إن الساعة آتية ، لكنه أوضح : اعرفوا أن الساعة آتية ، وكل ما فعلتموه معروف ، ولماذا يقولون : لا تأتى الساعة ؟ إن هذا لون من تكذيب النفس لأنهم لم يعملوا على مقتضى ما يتطلبه قيام الساعة ، فالذى لم يعمل لذلك يود

لأن من مصلحته ذلك - أن تكون مسألة الساعة كذب ؛ لأنه قد عمل أشياء يخاف أن يحاسب عليها ، فجاء سبحانه بالآية لكى تردّ على المقولة وعلى الدافع للمقولة . وكل مقولة لها دافع . لقد كان الدافع لمقولتهم هو إسرافهم على أنفسهم فلم يقدموا عملاً صالحاً فمن مصلحتهم الآمالية ألا تأتى الساعة ، كى لا يعاقبوا ، وسبحانه يعلم أزلا ما فعلوا وردّ على المقولة وردّ على الدافع الذهنى للمقولة ، فأوضح سبحانه : أنا عالم كل أمر ولن يغيب عنى عمل من أعمالكم .

وقول الحق فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها : « وإن تك حسنة » يعنى : وإن يكن الوزن لحسنة يضاعفها الله ، وعندما يحدثنا سبحانه عن الحسنة وأنها تضاعف ثم لا يتكلم عن السيئة فهذا يدل على أن السيئة بمثلها ، والحق قد تكلم عن المضاعفة للحسنة فى كثير من الآيات « والله يضاعف لمن يشاء » .

وفى آية أخرى يقول الحق :

﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ﴾

(من الآية ٢٦١ سورة البقرة)

وبعد ذلك يقول :

﴿ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ﴾

(من الآية ٢٦١ سورة البقرة)

ففيه فرق بين نظام حساب الحسنات ونظام حساب السيئات ، فالحسنة تضاعف لعشر أمثالها لسبعمائة ضعف ، هذا هو نظام الحساب ، وإرادة خالق هذا النظام تعطى كما تريد ، إذا كنا نحن - كبشر - عندما نوظف واحداً نقول : أنت تدخل السلم الوظيفى ، وتبدأ السلم الوظيفى من أول درجاته ثم تترقى درجة بعد درجة ، ثم يأتى رئيس الدولة ليعينك فى درجة أعلى من ذلك بكثير ، فما بالنا بحساب الرب الأعلى ؟ إنه يعطى بعملية حسابية فيها زيادة فضل ؛ ولذلك قال بعد هذه الآية : « وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً » أى إنه سبحانه يعطى من عنده ذلك الأجر العظيم ، وهذا اسمه « محض الفضل » وكيف يسميه الله أجراً مع

أنه زائد ؟ لأن هذا الفضل جاء تابعا للأجر ، فإذا لم يعمل الإنسان هذا العمل فإنه لا يستحق أجراً ، وبالتالى فلا ينال فضلا وحين يضرب الله الأمثال للناس فذلك لتقريب المعانى ؛ لأن الله قاله والله صادق فيما يقول ، فيعطى الحق سبحانه وتعالى مُثلاً إيناسية فى الكون ، حتى لا تستبعد أن الحسنة تذهب لهذه الأضعاف المضاعفة . فيوضح لك : هذه الأرض أمامك هات حبة واحدة وضعها فى الأرض تخرج لك سبع سنابل وكل سنبلة فيها مائة حبة فإذا كانت الأرض ـ وهى مخلوقة لله ـ أعطت سبعمائة ضعف ، فكم يعطى من خلق الأرض ؟ إنه يعطى بغير حساب .

إذن فكلمة « من لدنه » هذه تعطيك الباب الواسع الذى يتناسب مع الله . فالأرض تعطيك على قدر جهدها ، وعلى قدر العناصر الغذائية الموجودة فيها . . والذى عنده وبيده الخير وخلق كل الكون يوضح : إذا كان خلق من خلقى يعطى حتى الكافر ، سبعمائة ضعف فالذى خلق هذا يعطى للمؤمن أجراً للحسنة بلا حدود ؛ ولذلك فالإيناسات التمثيلية فى الكون يتركها الله لتقرب للعقل المعنى البعيد الذى قد يقف فيه. فالإنسان منا مادة: هى البدن وتحل فيه الروح. وعندما تسحب الروح من البدن ، ماذا يصير؟ يصير الجسد رِمة ، ويتحلل لعوامله الأولى وتنتهى منه مظاهر الحياة .

إذن فالروح هى السبب فى الحركة ، وفى أن كل جهاز يقوم بعمله ، وفى النمو ، وعندما تسحب الروح ينتهى الأمر ، إن الروح هى التى تدير كل هذا الجسم ، والروح لا لون لها ، ولا أحد يراها ، ولا يشمها كائن ، فكيف ندركها إذن ؟

نقول : إن الجوهر الذى يدخل فى جسدك ويعطيه الحركة فيديره . أنت لا تراه ولا تحسّه ، وهو غيب بالنسبة لك ، فإذا حُدّثت أن ربك غيب فلا تتعجب ، فروحك التى بين جنبيك لا تعرف كُنهها ، وعليك إذن أن تصدق عندما يقال لك : ربك ليس بمحدود بمكان وعندما يقول سبحانه :

﴿ لَا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ ﴾

(من الآية ١٠٣ سورة الأنعام)

فكلنا نقول : نعم هذا كلام صحيح ؛ لأنه إذا كان هناك مخلوق لله وهو الروح لم

تدركه الأبصار ، افتريد أن يُدرَك من خَلَقَ ؟ لا يمكن.وهو سبحانه من عظمته أنه لا يُدرَك .

وسبحانه يقول : « ويؤت من لدنه أجراً عظيماً » ونقف عند كلمة « من لدنه » . ونعرف أن فيه فرقا بين الإتيان بالناموس ـ وهو النظام الموضوع ـ والعطاء المباشر ، وعندما يقول الحق : « من لدنه » فهذا يعنى أن الوسائط تمتنع . ونعلم قصة سيدنا موسى عندما ذهب ليقابل العبد الصالح قال تعالى فى وصف العبد الصالح :

﴿ وَعَلَّمْنَـٰهُ مِن لَّدُنَّا ﴾

(من الآية ٦٥ سورة الكهف)

وهذا يعنى أن العبد الصالح قد تعلم ليس بوساطة أحد . بل من الله مباشرة ، بدليل أن الذى جاء ليتعلم منه وتعلم منه ثم وقف معه فى أمور جاءت على خلاف ما تجرى به النواميس والعادات.فكلمة « من لدنا » تعنى تجاوز الحجب ، والوسائط ، والأنظمة .

والحق سبحانه يحترم أصل عملك ويسمى عطاءه لك « أجراً » ، لأنه أعطى من لدنه بعدما أعطى له النصيب المقدر كأجر ، وهذا الأجر موصوف بأنه عظيم؛لأنه مناسب للمعطى .

ثم يقول الحق :

﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَـٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ ﴾

وساعة تسمع كلمة « كيف » فاعرف أن هناك شيئا عجيبا ، تقول مثلاً : أنت سببت السلطان فكيف إذا واجهوك ووجدته أمامك ماذا تفعل ؟ كأن مواجهة

السلطان ذاتها مسألة فوق التصور . . فكل شيء يتعجب منه يؤتى فيه بـ « كيف » ، ومثال ذلك قوله الحق :

﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ ﴾

(من الآية ٢٨ سورة البقرة)

وهذا يعنى تعجبيا من مصيبة وكارثة هى الكفر بالله ، فقولوا لنا : كيف جاءت هذه ؟ إنها مسألة عجيبة ، ونقول : فكيف يكون حال هؤلاء الكافرين ، كيف يكون حال هؤلاء العُصاة ، فى يوم العرض ا لأخير ، « فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد » و « الشهيد » هو : الذى يشهد ليقرر حقيقة ، ونحن نعلم أن الحق أخبرنا :

﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾

(من الآية ٢٤ سورة فاطر)

وهذا النذير شهيد على تلك الأمة أنه بلغها المنهج ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم شهيد على أمته أنه بلغ ، فقوله : « وجئنا بك على هؤلاء » من هم ؟ ننظر قوله : « فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد » وهو رسولها الذى بلغ عن الله منهجه ، وكيف يكون الموقف إذا جاء وقال : أنا أبلغتهم الموقف ولا عذر لهم لأننى أعلمتهم به ، « وجئنا بك » يا محمد ـ صلى الله عليك وسلم « على هؤلاء » فهل المعنى بـ « هؤلاء » هم الشهداء الذين هم الرسل أو على هؤلاء المكذبين لك ؟ وتكون أيضاً شهيداً على هؤلاء مثلما أنت شهيد على أمتك ؟ إن كلا من الحالين يصح ، لماذا ؟ .

لأن الله جاء بكتابه المعجزة وفيه ما يثبت أن الرسل قد بلغوا أممهم ، فكأن الرسول حين سُجل فى كتابه المعجزة وكتابه المنهج أن الرسل قد بلغوا أممهم فهو سيشهد أيضاً : هم بلغوكم بدليل أن ربنا قال لى فى كتاب المعجزة وفى المنهج . ويكون رسولنا شهيداً على هؤلاء المكذبين الذين أرسل إليهم وهم أمة الدعوة.فالمعنى هذا يصلح ، وكذلك يصلح المعنى الآخر . ولا يوجد معنى صحيح يطرد معنى صحيحا فى كتاب الله ، وهذه هى عظمة القرآن . إن عظمة القرآن هى فى أنه يعطى إشعاعات كثيرة مثل فص الماس ، فالماس غالٍ ونفيس ؛ لأنه قاسٍ ويُكسر به وكل ذرة فيه لها شعاع ، المعادن الأخرى لها إشعاع واحد ، لكن كل ذرة فى الماس لها إشعاع ؛ ولذلك يقولون إنه يضوى ويتلألأ ، فكل ذراته تعطى إشعاعاً .

والحق سبحانه وتعالى يوضح : أن حال هؤلاء سيكون فظيعاً حينما يأتى يوم العرض يوم القيامة ، ويقولون : إننا بلغناكم ، أو الحق سبحانه وتعالى عرض هذه المسألة بالنسبة للرسل وأممهم ، وبالنسبة لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمته أو للأمم كلها ، فنحن أيضاً سنكون شهداء :

﴿ لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾

(من الآية ١٤٣ سورة البقرة)

وهذه ميزة لأمة محمد صلى الله عليه وسلم لأن أمة محمد هى الأمة الوحيدة التى أمنها الله على أن يحملوا المنهج إلى أن تقوم الساعة ، فلن يأتى أنبياء أبداً بعد رسول الله ، فيقول : « لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا » إذن فنحن بنص هذه الآية أخذنا امتداد الرسالة .

عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« اقرأ علىّ القرآن فقلت يارسول الله : أقرأ عليك وعليك أُنزل ؟.

قال : نعم إنى أحب أن أسمعه من غيرى ، فقرأت سورة النساء حتى أتيت إلى هذه الآية (فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا) فقال: حسبك ، فإذا عيناه تذرفان الدموع »[1] .

فإذا كان الشهيد بكى من وقع الآية فكيف يكون حال المشهود عليه ؟ الشهيد الذى سيشهد بكى من الآية ، نعم؛لأنك تعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ملء قلبه رحمة بأمته ، ولذلك قلنا:إن حرص رسول الله صلى الله عليه وسلم على أمته جعل ربه يعرض عليه أن يتولى أمر أمته ، بعد أن علم سبحانه مدى عنايته صلى الله عليه وسلم بهذه الأمة :

﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ۝ ﴾

(سورة الشعراء)

---

(١) رواه البخارى ومسلم وأحمد .

فأمر أمته صلى الله عليه وسلم كان يقلقه جداً على الرغم من أن الحق سبحانه قد أوضح له : أنت عليك البلاغ وليس عليك أن تهدى بالفعل ، وهو صلى الله عليه وسلم يعرف هذا . إنما حرصه ورحمته بأمته جعله يحب أن يؤمنوا ، وعليه الصلاة والسلام خاف على أمته من موقف يشهد فيه عليهم ضمن من سيشهد عليهم يوم الحشر . فلما رأى الحق سبحانه وتعالى أن رسوله مشغول بأمر أمته قال له : لو شئت جعلت أمر أمتك إليك .

وانظر إلى العظمة المحمدية والفهم عن الله ، والفطنة ، فقال له : لا يارب . أنت أرحم بهم منى .

وكأنه صلى الله عليه وسلم يقول للخالق : « أتنقل مسألتهم فى يدى وأنا أخوهم ، إنما أنت ربى وربهم ، فهل أكون أنا أرحم بهم منك ؟ لقد كان من المتصور أن يقول رسول الله : نعم أعطنى أمر أمتى لكنه صلى الله عليه وسلم قال : يارب أنت أرحم بهم منى . فكيف يكون ردّ الرب عليه ؟ . قال سبحانه : فلا أخزيك فيهم أبداً ، وسبحانه يعلم رحمة سيد البشر محمد صلى الله عليه وسلم بأمته .

عن عبدالله بن عمرو بن العاص ـ رضى الله عنهما ـ أن النبى صلى الله عليه وسلم تلا قول الله عز وجل فى إبراهيم : « رب إنهن أضللن كثيرا من الناس فمن تبعنى فإنه منى . . » وقول عيسى عليه السلام : « إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم » فرفع يديه وقال : « اللهم أمتى أمتى وبكى ، فقال الله عز وجل : يا جبريل اذهب إلى محمد وربك أعلم فسله ما يبكيك »؟ فأتاه جبريل عليه الصلاة والسلام فسأله فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم بما قال وهو أعلم ، فقال الله : « يا جبريل اذهب إلى محمد فقل : إنا سنرضيك فى أمتك ولا نسوؤك »[1] .

« فكيف إذا جئنا » أى كيف يكون حال هؤلاء العصاة المكذبين . . « إذا جئنا من كل أمة بشهيد » أنه أدّى وبلغ عن الله مراده من خلقه . « وجئنا بك على هؤلاء شهيدا » ؟

(١) رواه مسلم .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾ ﴾

وساعة ترى « يومئذ » وتجد فيها هذا التنوين فاعلم أنه عوض عن شيء محذوف والمحذوف هنا أكثر من جملة ويصبح المعنى : يوم إذْ نجيء من كل أمة بشهيد وتكون أنت عليهم شهيداً ، في هذا اليوم « يودّ الذين كفروا وعصو الرسول » لأنهم فوجئوا بعملية كانوا يكذبونها ، فلم يكونوا معتقدين أن الحكاية جادة ، كانوا يحسبون أن كلام الرسول مجرد كلام ينتهي ، فعندما يفاجئهم يوم القيامة ماذا يكون موقفهم ؟ « يودّ الذين كفروا وعَصَوْا الرسول لو تُسوّى بهم الأرض » وما معنى « تُسوّى بهم الأرض » ؟ كما تقول : سأسوِّي بفلان الأرض ؛ أي تدوسه دوسة بحيث يكون في مستوى الأرض .

« ولا يكتمون الله حديثا » . فكيف لا يكتمون الله حديثا ؟ وهو قد قال في آية أخرى :

﴿ قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ ﴾

(سورة المؤمنون)

قال الحق ذلك عنهم لأن الأمر له مراحل : فمرة يتكلمون ، ويكذبون ، فهم يكذبون عندما يقولون :

﴿ وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾

(من الآية ٢٣ سورة الأنعام)

وسيقولون عن الأصنام التي عبدوها :

﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ ﴾

(من الآية ٣ سورة الزمر)

إذن فقوله : « ولا يكتمون الله حديثا » دليل على أن الحديث مندفع ولا يقدر صاحبه أن يكتمه . فالكتم : أن تعوق شيئاً يخرج بطبيعته من شيء آخر فتكتمه . والواحد منهم فى الآخرة : لا يقدر أن يكتم حديثا ؛ لأن ذاتية النطق ليست فى أداة النطق كما كان الأمر فى الدنيا فقط ، بل سيجدون أنفسهم وقد قدموا إقرارات بخطاياهم ، وبألسنتهم وبجوارحهم ؛ لأن النطق ليس باللسان فقط ، فاللسان سيشهد ، والجلود تشهد ، واليدان تشهدان ، بل كل الجوارح تشهد .

إذن فالمسألة ليست تحت سيطرة أحد ، لماذا ؟ ؛ لأن هناك ما نسميه « ولاية الاقتدار » ، ومعناها أن : هناك قادراً ، وهناك مقدور عليه . ولكى نقرب الصورة ، عندما توجد كتيبة من الجيش وعليها قائد . وبعد ذلك قامت الكتيبة فى مهمة ، والقانون العام فى هذه المهمة : أن يجعل لهذا القائد قادرية الأوامر وعلى الجنود طاعته ؛ وألا يخالفوا الأوامر العسكرية ، فإذا أصدر هذا القائد أمراً تسبب فى فشل معركة ما ، وذهب الجنود للقائد الأعلى منه ، ويسمونه الضابط الأعلى من الضابط الصغير ، فيكون للجنود معه كلام آخر ، إنهم يقدرون أن يقولوا : هو الذى قال لنا ونفذنا أوامره .

أقول ذلك لتقريب المعنى لحظة الوقوف أمام الحق سبحانه وتعالى . فحينما خلق سبحانه الإنسان خلق جوارحه منفعلة لإرادته ، وإرادته مكيفة حسب اختياره . فإرادة الطائع إطاعة أمر واجتناب نهى ، وإرادة العاصى على العكس ؛ لا يطيع الأمر ولا يتجنب المنهى عنه. فواحد أراد أن يشرب الخمر ، فرجله مشت ، ولسانه نطق لِلرَّجُلِ الذى يعطيه الكأس ، ويده امتدت وأخذت الكأس وشرب ، والجوارح التى تقوم بهذه العملية هى خاضعة لقادرية إرادته ، فقد خلقها ربنا هكذا ، وبعد ذلك ، حين تذهب إلى من دبر هذا الأمر فى الآخرة تقول له : يارب هو عمل بى كذا وكذا ، لماذا ؟ لأن قادرية الإرادة امتنعت :

﴿ لِمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ﴾

(من الآية ١٦ سورة غافر)

وليس لى ولا لأحد إرادة فى الآخرة ، ومادام ليس لى إرادة فاليد تتكلم وتعترف : عمل بى كذا كذا وكنت يارب مقهورة لقادرية إرادته التى أعطيتها له فبمجرد ما يريد

فأنا أنفذ . عندما أراد أن أضرب واحداً لم أمتنع . ويعترف اللسان بسبّه لفلان ، أو مدحه لآخر ، إذن فكل هذه ولاية القادرية من الإرادة على المقدورات من الجوارح . لكن إذا ما ذهبت إلى من وهب القادرية للإرادة ؛ فلا يوجد أحد له إرادة . فكأن الجوارح حين تصنع غير مرادات الله بحكم أنها خاضعة للمريد وهو غير طائع تكون كارهة؛لذلك تفعل أوامر صاحبها وهى كارهة ، فإذا ما انحلت إرادته وجدت الفرصة فتقول ما حدث :

﴿ وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾

(من الآية ٢١ سورة فصلت)

« يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تُسوَّى بهم الأرض » ، لأن الكافر سيقول :

﴿ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًا ﴿٤٠﴾ ﴾

(من الآية ٤٠ سورة النبأ)

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُواْ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾ ﴾

هنا ينقلنا الحق من الأوامر ، من العبادات وعدم الإشراك بالله ، من التحذير من النفقة رئاء الناس وأنه سبحانه لا يظلم أحداً وأننا كلنا سنجتمع أمامه يوم لا ظل إلا ظله ، بعد ذلك أراد أن يصلنا به وصل العِبادية التى تجعلك تعلن ولاءك لله فى كل يوم ، خمس مرات ، وسبحانه يريدك أن تقبل عليه بجماع عقلك وفكرك وروحك بحيث لا يغيب منك شيء .

هو سبحانه يقول : « لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى » ولم يقل : لا تصلوا وأنتم سكارى ؟ أى لا تقاربوا الصلاة ولا تقوموا إليها واجتنبوها ، وفيه إشارة إلى ترك المسكرات ، فما معنى « لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى »؟ معنى ذلك أنهم إذا كانوا لا يقربون الصلاة إذا ما شربوا الخمر ، فيكون تحريم المسكرات لم يأت به التشريع بعد ، فقد مرّ هذا الأمر على مراحل ؛ لأن الدين حينما جاء ليواجه أمة كانت على فترة من الرسل أى بعدت صلتها بالرسل ، فيجىء إلى أمر العقائد فيتكلم فيها كلاماً حاسماً باتاً لا مَرْحليَّة فيه ، فالإيمان بإله واحد وعدم الشرك بالله هذه أمور ليس فيها مراحل ، ولا هوادة فيها . لكن المسائل التى تتعلق بإلف العادة ، فقد جاءت الأوامر فيها مرحلية . فلا نقسر ولا نكره العادة على غير معتادها بل نحاول أن نتدرج فى المسائل الخاضعة للعادة مادام هناك شيء يقود إلى التعود .

إن الحق سبحانه وتعالى من رحمته بمن يشرع لهم جعل فى مسائل العادة والرتابة مرحليات ، فهذه مرحلة من المراحل : « لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى » ، والصلاة هى : الأقوال والأفعال المعروفة المبدوءة بالتكبير والمنتهية بالتسليم بشرائطها الخاصة ، هذه هى الصلاة ، اصطلاحياً فى الإسلام وإن كانت الصلاة فى المعنى اللغوى العام هى : مطلق الدعاء .

و« سُكارى » جمع « سكران » وهو من شرب ما يستر عقله ، وأصل المسألة مأخوذة من السَّكْرُ ما سد به النهر؛ فالماء حين ينساب يضعون سداً، هذا السد يمنع تدفق الماء ، كذلك الخمر ساعة يشربها تمنع تدفق الفكر والعقل ، فأخذ من هذا المعنى ، « لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى » المفهوم أن الصلاة تأخذكم خمسة أوقات للقاء الله ، والسُّكر والخُمار ؛ وهو ما يمكث من أثر المسْكِر فى النفس ، ومادام لن يقرب الصلاة وهو سكران فيمتنع فى الأوقات المتقاربة بالنهار . إذن فقد حملهم على أن

يخرقوا العادة بأوقات يطول فيها أمد الابتعاد عن السُّكر . وماداموا قد اعتادوا أن يتركوها طوال النهار وحتى العشاء ، فسيصلى الواحد منهم العشاء ثم يشرب وينام . إذن فقد مكث طوال النهار لم يشرب ، هذه مرحلة من المراحل ، وأوجد الحق سبحانه وتعالى فى هذه المسألة مرحليات تتقبلها النفس البشرية . فأول ما جاء ليتكلم عن الخمر قال :

﴿ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ﴾

(من الآية ٦٧ سورة النحل)

ويلاحظ هنا أن « السَّكَر » مقدم ، على الرزق الموصوف بالحسن ، ففيه سكر وفيه رزق . كأنهم عندما كانوا يأكلون العنب أو البلح فهذا رزق ، ووصف الله الرزق بأنه حسن . لكنهم كانوا أيضا يأخذون العنب ويصنعون منه خمراً ، فقدم ربنا « السَّكَرَ » لأنهم يفعلون ذلك فيه،ولكنه لم يصفه بالحسن ، بل قال : « تتخذون منه سكراً » ، لكن كلمة رزق وُصفت بالحسن .

بالله عندما نسمع « سكَراً ورزقاً حسناً » ألا نفهم أن كونه سكراً يعنى غير حسن ، لأن مقابل الحسن : قبيح . وكأنه قال : ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرا أى شرابا قبيحا ورزقاً حسناً ، ولاهتمامكم أنتم بالسكر ، قدمه ، وبعد ذلك ماذا حدث ؟ عندما يريد الحق سبحانه وتعالى أن يأتى بحكم تكون المقدمة له مثل النصيحة ؛ فالنصيحة ليست حكماً شرعياً ، والنصيحة أن يبين لك وأنت تختار ، يقول الحق :

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ﴾

(من الآية ٢١٩ سورة البقرة)

هو سبحانه شرح القضية فقط وأنت حر فى أن تختار فقال : « قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس » ولكن الإثم أكبر من النفع ، فهل قال لنا ماذا نفعل ؟ لا ؛ لأنه يريد أن يستأنس العقول لترجح من نفسها الحكم ، وأن يصل الإنسان إلى الحكم بنفسه ، فسبحانه قال : « وإثمهما أكبر من نفعهما » فمادام الإثم أكبر من النفع فما مرجحات البدائل ؟ مرجحات البدائل تظهر لك حين تقارن بين بديلين ثم تعرف أقل البديلين شرّاً وأكثر البديلين خيراً .

فحين يقول الحق : « فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما » إذن فهذه نصيحة ، ومادامت نصيحة فالخير أن يتبعها الإنسان ويستأمن الله على نصيحته . لكن لا حكم هنا ، فظل هناك ناس يشربون وناس لا يشربون ، وبعد ذلك حدثت قصة من جاء يصلى وقرأ سورة الكافرون،ولأن عقله قد سدّ قال : قل يأيها الكافرون أعبد ما تعبدون فوصلت المسألة ذروتها وهنا جاء الحكم فنحن لا نتدخل معك سواء سكرت أم لا ، لكن سكرك لا يصح أن يؤدى بك أن تكفر فى الصلاة ، فلا تقرب الصلاة وأنت مخمور . هذا نهى ، وأمر ، وتكليف .

« لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى » ومادام لا نقرب الصلاة ونحن سكارى فسنأخذ وقتاً نمتنع فيه ، إذن ففيه إلف بالترك ، وبعد ذلك حدثت الحكاية التى طلبوا فيها أن يفتى الرسول صلى الله عليه وسلم فى أمر الخمر ، فقالوا للنبى : بيِّن لنا فى الخمر بياناً شافياً ، فنزل قوله الحق :

﴿ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَـٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ ﴾

(من الآية ٩٠ سورة المائدة)

إذن فقوله : « يأيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى » ، مرحلة من مراحل التلطف فى تحريم الخمر ، فحرمها زمناً ، هذا الزمن هو الوقت الذى يلقى الإنسان فيه ربه ، إنّه أوضح لك : اعملها بعيداً ، لكن عندما تأتينى فعليك أن تأتى بجماع فكرك وجماع عقلك ، « حتى تعلموا ما تقولون » فكأن هذه أعطتنا حكماً : أن الذى يسكر لا يعرف ماذا يقول ، هذه واحدة ، ومادام لا يعرف ما يقوله ، إن كان فى المسائل العادية فليقل ما يقول ، إنما فى العبادة وفى القرآن فلا يصح أن يصل إلى هذا الحدّ ، وعندما تصل إلى هذا الحدّ يتدخل ربنا فيقول : « لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون » .

ثم جاء بحكم آخر . « ولا جنباً إلا عابرى سبيل حتى تغتسلوا » ومعروف ما هى الجنابة : إنها الأثر الناتج من التقاء الرجل بالمرأة . ويقال : إنها اللذة التى يغيب فيها الفكر عن خالقه ، وهذه لذة يسمونها « جماع اللذات » ؛ لأنها تعمل فى البدن تلك الرعشة المخصوصة التى تأخذ خلاصات الجسم ؛ ولذلك قيل : إنه نور عينيك ومخّ ساقك فأكثر منه أو أقلل.يعنى أنا أعطيك هذه المقدرة وأنت حرّ.ونحن نغتسل لنعيد النشاط إلى النفس البشرية ، وليس لأحد شأن بهذه المسائل مادامت تتم فى ضوء

شريعة الله وشأننا فى ذلك أن نأتمر بأمر ربنا ونغتسل من الجنابة سواء فهمنا الحكمة من وراء ذلك أو لم نفهم .

« ولا جنباً إلا عابرى سبيل » إذا كان المراد بالصلاة ، فلا تقربوا الصلاة ، بالسكر أو بالجنابة ولم يقل : « لا تصلوا » . والصلاة مكانها المسجد ، فقول : « لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون ولا جنباً » ، أى لا تقربوا الصلاة ، والقرب عرضة أن يكون ذهابا للمسجد ، فكأنه يقول : لا تذهب إلا إذا كان المسجد لا طريق للماء إلا منه .

« وإن كنتم مرضى أو على سفر » أى كان عندكم عذر يمنع من الماء . « أو جاء أحد منكم من الغائط » ، و « الغائط » هو : الأرض الوطيئة ، الهابطة قليلاً ، وكانوا يقضون فيها حاجاتهم ، وأصبح علماً على قضاء الحاجة ، وكل واحد منا يكنى عنها بأشياء كثيرة فيقول واحد : أنا أريد أن أذهب إلى « بيت الماء » ويتساءل آخر أين « دورة المياه ؟ » وفى هذا تلطف فى الإخبار عن عملية تستقذرها النفس ؛ ولذلك نقول فى العبارات الشائعة : أنا ذاهب - أعمل زى الناس - يعنى أنا لست بدعاً أن أقضى حاجتى ، فكل الناس تعمل هذا .

فربنا سبحانه وتعالى يقول : « أو جاء أحد منكم من الغائط أو لا مستم النساء فلم تجدوا ماءً فتيمموا صعيداً طيبا » ومن رحمة الله بأمة محمد صلى الله عليه وسلم ، ومن لطف الحق بها أن التشريع جاء ليقبل عليه الإنسان ؛ لأنه تشريع فلا تقل لى مثلا : أنا أتوضأ لكى أنظف نفسى ولكننا نقول لك : هل تتوضأ لتنظف نفسك وعندما تفقد الماء تأتى بتراب لتضعه على وجهك ؟ فلا تقل لى النظافة أو كذا ، إنّه استباحة الصلاة بالشىء الذى فرضه الله ، فقال لى : توضأ فإن لم تجد ماءً فتيمم ، أينقلنى من الماء الذى ينظف إلى أن أمسح كَفَّىَّ بالتراب ثم ألمس بهما وجهى ؟! نعم ، لأن المسألة أمر من الله فُهمت علّته أو لم تُفهم ، ولذلك فالنبى عليه الصلاة والسلام يقول : « أعطيتُ خمسا لم يُعطهن أحد من الأنبياء قبلى : نصرت بالرعب مسيرة شهر وجُعلت لى الأرض مسجداً طهوراً فأيما رجل من أمتى أدركته الصلاة فليصل وأحلت لى الغنائم ولم تحل لأحد قبلى وأعطيت الشفاعة وكان كل نبى يبعث إلى قومه خاصة

وبعثت إلى الناس عامة »[1].

« فتيمموا صعيداً طيباً » ، أى أن تكون واثقاً أنه ليس عليه نجاسة ، « فامسحوا بوجوهكم وأيديكم » ، المسألة فيها « جنب » وفيها كذا وكذا . . « وتيمم » ، إذن فكلمة « فامسحوا بوجوهكم وأيديكم » ليس ذلك معناه أن التيمم خَلَف وبديل عن الوضوء فحسب ، ففى الوضوء كنت أتمضمض ، وكنت أستنشق ، وكنت أغسل الوجه ، وكنت أغسل اليدين ، وأمسح الرأس والأذنين . . مثلاً ، وأنا أتكلم عن الأركان والسنن . وفى هذه الآية يوضح الحق : مادامت المسألة بصعيد طيب وتراب فذلك يصح سواء أكانت للحدث الأصغر أم للجنابة ، إذن فيكفى أن تمسح بالوجه واليدين .

« فامسحوا بوجوهكم وأيديكم » وتساءل بعضهم : أهى ضربة واحدة نلمس بها الأرض أم ضربتان ؟ نقول : سبحانه قال : « فامسحوا بوجوهكم وأيديكم » ، وبعض العلماء قال : ضربة واحدة ، وبعضهم قال : ضربتان وكلها تيسير . وهذا التخفيف مناسب لكلمة العفو ، فيقول الحق : « إن الله كان عفواً غفوراً » ولكن ماذا حدث هنا ليذكر المغفرة ؟ لأنه غفر وستر علينا المشقة فى ضرورة البحث عن الماء ويسر ورخص لنا فى التيمم .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّواْ ٱلسَّبِيلَ ﴿٤٤﴾ ﴾

حين يريد الحق سبحانه وتعالى أن يؤكد قضية من قضايا الكون ليمهد لقضية من قضايا العقائد التى تحرس نظام الكون فهو يخاطب رسوله صلى الله عليه وسلم

(١) رواه البخارى ومسلم والنسائى عن جابر .

بقوله : « ألم تر » . والرؤية عمل العين ـ وعمل العين متعلق بانكشاف الأحداث التي تتعرض لها العين ـ والشيء المرئى دليله معه ، لأن الشيء المسموع دليله يؤخذ من صدق قائله ، وصدق قائله أمر مظنون ، أيكذب أم يصدق ؟ أما المرئى فدليله معه ، ولذلك قالوا : ليس مع العين أين ، أى أنك إذا رأيت شيئاً فلا تقل:أين هو ، وليس الخبر كالعيان ، فالخبر الذى تسمعه ليس كالمشاهدة ، إذن فالمشاهدة دليلها معها ، فلا يقال: دلل على أن فلاناً يلبس جلباباً أبيض وأنت تراه .

إذن فحين يريد الحق أن يؤكد قضية يقول : أرأيت . ولذلك فأنت إذا حدثت إنساناً عن انحراف إنسان آخر . قد يصدقك وقد لا يصدقك ، لكن إذا ما رأيت الإنسان يلعب ميسراً أو يشرب خمراً ثم تقول لمن حدثته من قبل : أرأيت من قلت لك عليه ، كأن الرؤية دليل . والحق سبحانه وتعالى حين يخاطب رسوله صلى الله عليه وسلم بقوله : « أرأيت » ننظر إلى الأمر ، فإذا كان مشهوداً لرسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يراه بذلك تكون « أرأيت » على حقيقتها ، كما يقول له :

﴿ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰٓ ۝ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ۝ ﴾

(سورة العلق)

هو صلى الله عليه وسلم قد رآه ، فتكون « أرأيت » على حقيقتها أم ليست على حقيقتها ؟ ولماذا يأتى بهمزة الاستفهام « أرأيت » ؛ على الرغم من أنه صلى الله عليه وسلم قد رأى من ينهى إنساناً عن الصلاة ولماذا لم يقل : « رأيت الذى ينهى عبداً إذا صلى » ، لا ؛ لأن الحق يريد أن يؤكد الخبر بمراحل . فمرة يكون الخبر خبراً تسمعه الأذن ، ومرة يكون رؤية تراه ، ومرة لا يقول له : أنت رأيت ، ولكن يستفهم منه بـ « أرأيت » لكى ينتظر منه الجواب . وبذلك يأتى الجواب من المخاطب نفسه وليس من المتكلم ، وهذه آكد أنواع البيان وآكد ألوان التحقيق ، فحين يخاطب الحق سبحانه وتعالى بقوله : « أرأيت » نقول : أكان ذلك مشهداً لرسول الله رآه ، فتكون الرؤية على حقيقتها . فإذا كان الأمر لم يكن معاصراً لرسول الله ثم يخاطب الله رسوله بقوله :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَـٰبِ ٱلْفِيلِ ۝ ﴾

(سورة الفيل)

ونعلم أن أصحاب الفيل كانوا عام ميلاده صلى الله عليه وسلم ، فهو حين

يخاطب رسوله لم يكن المشهد أمامه ، فـ« ألم تر » هنا بمعنى أعلمت ، ولماذا عدل هنا عن أعلمت إلى قوله : « ألم تر » ؟. لأن الحق سبحانه وتعالى حين يخاطب رسوله بأمر منه فهو يوضح له : إن أخبرتك بشيء فاعلم أنى أصدق من عينك ، فإذا قال سبحانه : « ألم تر » فهذا يعنى أنك علمت من الحق سبحانه وتعالى ، وإخبار الحق ليس كإخبار الخلق ؛ لأن إخبار الخلق يحتمل الصدق والكذب ، لكن إخبار الحق لا يعنى إلا الصدق ، إذن فرؤية عينك قد تخونك ؛ لأنك قد تكون غافلاً فلا ترى كل الحقيقة ، لكن إذا أخبرك الحق سبحانه وتعالى فسيخبرك بكل زوايا الحقيقة . إذن فإخبار الحق أوثق وآكد من رؤية العين وسبحانه عندما قال :

﴿ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ۝ ﴾

(سورة العلق)

هذه مثلت الأولى ، وحين قال سبحانه :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝ ﴾

(سورة الفيل)

كأنك تراهم الآن ، فـ« ألم تر » تعنى كأن المشهد أمامك .

إذن فوسائل تأكيد الأشياء : خبر من خلق يحتمل الصدق ويحتمل الكذب . هذه واحدة ، ورؤية من خلق تحتمل أنها استوعبت كل المرئى أو أحاطت ببعضه ، أو خبر من خالق أحاط بكل شيء ، فيجب أن يكون الخبر من الخالق أوثق الأخبار فى تصديقهم .

« ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب » جاءت هذه الآية ورسول الله يعاصره قوم من اليهود . ورأى منهم بالفعل أنهم أوتوا نصيباً من الكتاب ، لأنهم أهل كتاب ، ومع ذلك يشترون الضلالة ؛ ولا يقولون الحق ، فيكون هذا أمرا مشهديا بالنسبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم . وحينما أرسل الله محمداً جعله ختاماً للأنبياء وختم به ركب النبوة ، وهذا يعنى : أن النبوة كان لها ركب . وفى كل عصر من العصور يأتى نبى على مقدار اتساع الحياة ، وعلى مقدار التقاء الكائنين فى الحياة ، وعلى مقدار الداءات والأمراض التى تأتى فى المجتمع ، ولكن الله علم أزلاً أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سيأتى فى فترة ورسالته ومنهجه ينتظم ويضم كل قضايا الزمن إلى أن

تقوم الساعة . وهو زمن يعلم الله أن فوارق المواصلات فيه ستنتهى ، وفوارق الحواجز فيه ستنتهى ، فيحدث الخبر فى أدنى الشرق وأعلاه فتسمعه فى أدنى الغرب وأعلاه ، والخبر فى الغرب تسمعه فى الشرق . والداء يوجد مرة فى أمريكا وبعد يوم أو يومين يوجد فى أى بلد من البلاد .

إذن فالمسافات انتهت ، وجعلت المواصلات العالم كقطعة واحدة ، إذن فالداءات فى المجتمع القديم لعسر الاتصال كانت تنعزل انعزالاً إقليمياً وكل داء فى جماعة قد لا يصل إلى الجماعة الأخرى ، فهؤلاء لهم داء لا يصل إلى الجماعة الأخرى ؛ لذلك كان الحق يرسل رسولاً لكل جماعة ليعالج داءاتها،لكن إذا التحم العالم هذا الالتحام ؛ فلا بد أن يأتى رسول واحد جامع للناس جميعاً ؛ لأن قضايا الداءات ستكون واحدة . ونحن نرى الآن كل يوم عجبا ، كلما تحدث حادثة هناك نجدها عندنا .

إذن فلا بد أن تتوحد الرسالة . وحين تتوحد الرسالة فلا يأتى رسول ليستدرك بعد ذلك ، فرسول الله صلى الله عليه وسلم جاء خاتماً ؛ ولذلك أخذ الله العهد على كل رسول أن يبشر قومه بأنه سيأتى رسول خاتم ليكون عند أهل كل ديانة خَلْفية تطمئنهم على أنه إذا جاء رسول ، فقد عرفوا خبر مقدمه ويقولون : لقد قالت لنا رسلنا ؛ ولذلك قال الحق :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ﴾

(من الآية ٨١ سورة آل عمران)

ثم قال :

﴿ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ ﴾

(من الآية ٨١ سورة آل عمران)

راجع أصله وخرّج أحاديثه فضيلة الدكتور / أحمد عمر هاشم نائب رئيس جامعة الأزهر .

إذن فرسول الله مشهود له من كل الرسل ؛ ولذلك أكد صلى الله عليه وسلم ديانات كل الرسل . وجاء دينه بديانات كل الرسل ؛ لأنهم معه على منهجه الذى نزل به ، والذين يلتحمون بالإيمان بالسماء بواسطة الرسل السابقين ؛ إذا ما جاءهم خبر رسالة محمد صلى الله عليه وسلم فقد يجعلهم تعصبهم لدينهم ينصرفون عنه ، فأعطاهم الحق الخميرة الإيمانية وأوضح لهم : سيأتى رسول خاتم فتنبهوا يا كل الأقوام إذا ما جاء الرسول الخاتم فلا بد أن تؤمنوا به . وكان عندهم فى كتبهم الدلالات والإخبارات . إذن فالله أعطاهم نصيبا من الكتاب . وانظروا إلى دقة الأداء القرآنى : « ألم تر » يا محمد « إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب » جاء هذا القول وهو يحمل لهم عذرهم إن فاتهم شىء من الكتاب ؛ لأنه سيقول فى آية أخرى :

﴿ وَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ ﴾ (من الآية ١٣ سورة المائدة)

وماداموا قد نسوا فهم معذورون ، لكن من عندهم كفاية فى العلم من الذين « أوتوا نصيباً من الكتاب » ، كان المفروض فيهم أن تكون آذانهم مستشرفة إلى صوت داعية الحق الخاتم ، وهذا كان معروفا لهم من قبل ؛ لذلك يقول لنا ربنا :

﴿ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾

(من الآية ٨٩ سورة البقرة)

فهم كانوا يقولون لعبدة الأوثان من العرب : نحن فى انتظار النبى الخاتم الذى سيرسله الله لنسبقكم إلى الإيمان به ، فإذا ماسبقناكم إلى الإيمان به وظللتم على كفركم ، سنقتلكم به قتل عاد وإرم . إذن فهم معتصمون بالإيمان بالسماء ، فقل لى : إذا قالوا هذا القول ، وهم معروفون أنهم أهل كتاب فلماذا كفروا بالرسول صلى الله عليه وسلم ؟ إن كفار قريش لم يقولوا : إننا أهل كتاب ، بل كانوا على فترة من الرسل ، فكان المفروض أنه إذا ما جاء الرسول تسابق أهل الكتاب إلى الإيمان به لأنه سبق لهم أن توعدوا به العرب . لقد أعطاهم الله منزلة عالية لكنهم من لؤمهم لم ينتفعوا بها ؛ فيقول الحق :

﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾ ﴾

(سورة الرعد)

لقد جعلكم الحق شهوداً على صدق الدعوة ، هو شاهد وأنتم شهود ، وهذه منزلة كبيرة ، لكنهم لم يلتفتوا إلى تلك المنزلة وركبوا سفينة العناد الغارقة :

﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ ﴾

(من الآية ٨٩ سورة البقرة)

ولكن يجب أن نفطن إلى أن الحق سبحانه وتعالى حينما يرسل قضية عقدية فى الكون فيخالفها مخالف يظن أنه يضار الله ، نقول له : لا.أنت تفعل ذلك لشهوة فى نفسك . لكن الحق سيجعلها لنصرة الدين الخاتم ، وتكون أنت مغفلاً فى هذا الموقف . فإياك أن تظن أنك قادر أن تصادر مرادات الله حين كذبت بمحمد وجعلك ربنا تقول هذه الكلمة للمشركين من قريش ، فانظر ماذا ستفعل هذه الكلمة ؟ . ولكى تعرف أنت بإنكارك ماذا قدمت للإيمان . أنت فهمت أنك صادمت الإيمان . لا . أنت أيدت ونصرت الإيمان لكن بتغفيل ! وعليك وزر .

فلما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأعلن دعوته من ربه . قال العرب المشركون الوثنيون : إن هذا النبى هو الذى توعدتنا به اليهود ، فهيا نسبق إلى الإيمان به قبل أن يسبقونا .

إذن أخدموا الإيمان أم لا ؟ . . لقد خدموا الإيمان . إذن فلا يظنن عاصٍ أنه يقدر أن يطفىء نور الله ، لأن الله يتم نوره ولو كره الكافرون . ومثال لذلك عندما غيّر ربنا القبلة ويوضح : يا محمد أنا أعرف أنك مستشرف ومتشوق إلى أن تتوجه إلى الكعبة ، وأنا قد وجهتك أولاً لبيت المقدس لمعنى . ولكن أنا سأوجهك للكعبة وعليك أن تلاحظ أنى حين أوجهك إلى الكعبة سيقول السفهاء « وهم اليهود » :

﴿ مَا وَلَّىٰهُمۡ عَن قِبۡلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيۡهَا ﴾

(من الآية ١٤٢ سورة البقرة)

فهم يتساءلون : ما الذى جعلهم يتركون القبلة التى كانوا عليها ؟ فإن كانت قبلة إبراهيم هى الكعبة فلماذا لم يتجه إليها من أول الأمر ؟ هم سيقولون هذا الكلام . ونزل به قرآن يتلى ويسجل . ومن تغفيلهم ساعة تغيرت القبلة قالوا ذلك القول أيضاً ، ولم يلتفتوا إلى أن الحق قال من قبل :

﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ﴾

(من الآية ١٤٢ سورة البقرة)

فعلى الرغم من ذكائهم إلا أنهم قالوا هذا الكلام ، مما يدل على أن الكفر مظلم والكافر فى ظلام فلا يعرف كيف ينصر نفسه . وجعل الله الكفر وسيلة للإيمان . فلو أنهم كانوا أذكياء بحق وأصحاب بصيرة لكانوا بمجرد أن قال القرآن : « سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها » ، لجمعوا بعضهم وقالوا : القرآن قال : إننا سنقول كذا وكذا ، فهيَّا لا نقول كى يكون القرآن غير صادق . لكنهم لم يقدروا على ذلك . إذن فالكافر مغفل . هم يظنون أنهم بكفرهم يطمسون الإيمان بالله . لا ؛ لأن الله جعل الكفر وسيلة للإيمان ، والحديث الشريف يقول :

(إن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر)[1] .

فالحق سبحانه وتعالى يبيّن : هؤلاء أوتوا نصيباً من الكتاب ، وكان المفروض لمن أوتوا نصيباً من الكتاب أن يكونوا أول من آمن . لكنهم لم يؤمنوا ، هذه أول مرتبة ، وليتهم اقتصروا فى الشرّ على هذه ، وبذلك تقف المسألة وتظل معلقة بهم ، ولكنهم يشترون الضلالة ، ليس فقط فى نفوسهم بل يريدون أن يُضلوا غيرهم ، وهذه هى المرحلة الثانية ، فهناك من يَضِل فى ذاته وهو حرّ ، لكن أن يحاول إضلال غيره فهذا كفر مركب . أنت ضَلَلْت وانتهيت ، فلماذا تريدنى أن أضل ؟ لأن الضال أو المنحرف أو الذى ليس على طريق مستقيم إنما يعرف الطريق المستقيم جيداً . ولكن الصعوبة فى أنه لا يستطيع أن يحمل نفسه عليه . فإذا ما وجد إنساناً مؤمناً فهو يستصغر نفسه ، « لماذا آمن هو وأنا لم أؤمن » ؟

إذن فلا أقل من أن يحاول جذبه فى صفه حتى لا يكون هو المنحرف الوحيد ، فإذا رأيت مثلاً فى بلد من البلاد بعض المنحرفين ، ويرون واحداً مستقيماً فهم يتضاءلون أمامه ، وينظرون إليه نظرة حقد ، ويقولون : لماذا هو مستقيم ؟ لا بد أن نسحبه للانحراف .

---

(١) رواه البخارى .

ولذلك يجب على المستقيمين أن ينتبهوا جيداً إلى أن شياطين الإنس لن تتركهم فى طاعتهم ، بل إنهم سيحاولون أن يستميلوهم ، لأنه يعزّ عليهم أنهم لا يقدرون على أنفسهم ويحزّ فى نفوسهم أكثر أن يجدوا بشراً مثلهم قد قدر على نفسه واستقام . ولذلك يقولون : هيا نكون كلنا معاً فى المعصية حتى لا يرفع أحد رأسه على الآخر. فلنكن كلنا كذابين حتى لا يوجد فينا واحد صادق يذلنا . والكذاب كلما رأى الصادق يشعر أن هناك حربة تنغرز فى قلبه !! والخائن ساعة يرى الأمين تكون الرؤية حربة تنزل فى قلبه ؛ فيريد أن يكون الكل مثله ، هذه معنى « يشترون الضلالة » .

والحق يقول لهم : أنتم أحرار بشرائكم الضلالة وستجدون الجزاء فى النار ، فلماذا تريدون أن تضلوا الناس ؟ إذن فيجب أن ينتبه أهل الطاعة إلى هذا الأمر ، وعندما يستهزىء أحد من طاعتهم فعليهم أن يلتفتوا إلى قول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ﴾

(سورة المطففين)

وهذا ما يحدث إذا رأى بعض المنحرفين واحداً يذهب إلى المسجد أو يصلى ، يقولون له : « خذنا على جناحك » ويسخرون منه ويستهزئون ، لأنهم ساعة يرونه مقبلاً على الطاعة وهم غير قادرين على أن يكونوا طائعين يتضاءلون أمام أنفسهم ؛ لذلك يريدون أن يكون الكل غير طائع ، وهذه هى الصورة التى نراها الآن ، وعندما يقابل هؤلاء أهاليهم يتضاحكون بسرور من أنهم ضايقوا مؤمناً ، ويقولون : قابلنا مؤمناً واستهزأنا به ، ويتابع الحق :

﴿ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرْسِلُواْ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾

(سورة المطففين)

فالله سبحانه وتعالى يوضح لنا : أن هؤلاء المستهزئين بالدين يتهمون المتدينين بأنهم على ضلال . فإياكم أن تيأسوا أمام هؤلاء ، إياكم أن تهزموا أمام هؤلاء لأننى سأنتقم عياناً من هؤلاء ، وذلك يأتى يوم الآخرة ويقول الله بعد أن ينزل بهم النكال والعذاب :

﴿ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ (سورة المطففين)

فالحق يتساءل ليأتى الجواب على ألسنتنا ، والسؤال هو : هل قدرنا أن نجازيهم على ما فعلوه فيكم ؟ فاسخروا أنتم منهم ، واضحكوا عليهم كما سخروا منكم فى الدنيا .

وفى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها يقول الحق : « ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب » وهم اليهود . و « أوتوا نصيباً من الكتاب » أى أنهم لم يأخذوا بكل الكتاب بدليل أنهم نسوا حظاً مما ذكروا به ، « ويشترون الضلالة » ، وساعة تسمع كلمة « يشترى » اعرف أن هناك معاوضة ومبادلة ، سلعة وثمنا ، فيشترون الضلالة بماذا ؟ ماذا سيدفعون ؟ الحق يقول فى آيه أخرى :

﴿ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ ﴾

(من الآية ١٦ سورة البقرة)

أى أنهم دفعوا الهدى ثمناً وأخذوا الضلالة سلعة ، وعادة ما ندفعه يضيع من يدنا ، وما نشتريه نأخذه لنا . فحين تشترى سلعة بجنيه . فالجنيه يضيع ، بعد أن كان معك أولاً ، فحين يقول : « اشتروا الضلالة بالهدى » فهل كان معهم هدى وقدموه وأخذوا الضلالة ؟! نعم ، كان معهم هدى الفطرة . فكل واحد عنده هدى الفطرة .

إياك أن تظن أن العقل الواعى ينتظر رسولاً ليدله على الله ، إنما هو ينتظر رسولا ليبلغه مرادات الله منه ، ذلك أن الإيمان بالله أمر من أمور الفطرة ، فالإنسان عندما يتفتح وعيه يجد أشياء فى الكون تخدمه ، خدمة مستقيمة رتيبة ، ولا تتخلف عن خدمته أبداً ، هناك شمس تطلع كل يوم ، وهواء يمر ، أرض عندما تزرعها تعطيك خيراً كثيرا . ألك قدرة على شىء من هذا ؟ هل ادعى إنسان مثلك أن له قدرة عليه ؟ كل هذه الكائنات أنت تطرأ عليها ، ولم تأت بها .

وعندما يولد الإنسان ويرى كل هذه النعم موجودة . ألا يؤمن بأنها من عطاء خالق ؟ الإنسان فوجىء عندما ولد بوجود النعم . وأيضاً آدم عندما خلق فوجىء بالنعم موجودة، إذن فهو قد طرأ عليها، بالله مادام هو قد طرأ عليها ألا يفكر من الذى أقام هذه النعم له ؟ كان لابد أن يفكر من الذى صنع له كل هذه النعم ، وضربنا من

قبل مثلاً بمن انقطعت به الوسائل وهو فى الصحراء ولم يجد ماءً ولم يجد طعاماً، ثم يئس فنام ، ثم استيقظ فوجد مائدة عليها أطايب الطعام ، بالله قبلما يأكل ألا ينظر ويفكر ويقول فى نفسه : من الذى أعدّ وأقام تلك المائدة ؟ أنت ـ إذن ـ وارد على الكون بخيره كله ، ولا أحد قال لك : أنا الذى فعلته ، لا أبوك ولا جدك ولا جد جدك قال هذا ، فلا بد أن تنتبه إلى أن له خالقاً .

إذن فالذين اشتروا الضلالة بالهدى ، أكان معهم هدى فقدموه وأخذوا الضلالة ؟ ! نعم كان معهم هدى الفطرة ، ولذلك حين سُئل الإمام على ـ كرّم الله وجهه ـ : أعرفت ربك بمحمد أم عرفت محمداً بربك ؟

قال : لو عرفت محمداً بربى ما احتجت إلى رسول ، إذن فلايصلح أيضا أن يقال لأحد « عرفت ربك بمحمد »،لذلك قال على كرم الله وجهه : ولكنى عرفت ربى بربى ، وجاء محمد فبلغنى مراد ربى منى . إذن فقوله : « الذين اشتروا الضلالة بالهدى » ماذا فعلوا ؟ باعوا هدى الفطرة واشتروا الضلالة . وهنا يقول الحق : « ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يشترون الضلالة ».

ولم يأت بـ « الهدى » هنا ، وهذا يدل على أن الفطرة انطمست عندهم انطماسا بحيث لم يقدموا ثمناً للضلالة من الهدى .

« ويريدون أن تضلوا السبيل »و الإرادة هى : أن يرجح الشخص المختارُ حكماً على حكم ، ومثال ذلك : أنت أمامك جوربان مثلا ، فلك أن تختار واحداً منهما ، لكن لو كان أمامك جورب واحد فإرادتك لاترجح . إن الإرادة ترجح اختيارا على اختيار ، وما معنى « تضلوا »؟ الضلال يطلق بإطلاقات متعددة ، فحواها كلها أن هناك أمراً من الحق ليس على بالك ، فهل يحدث ذلك لأنك نسيته أو عرفته وتعمدت أن تتركه ؟ . فالذى نسى هذا الأمر معذور.لكنْ هناك إنسان آخر يعرف هذا الأمر لكنه تعمد أن يتركه ، إذن فالضلال يطلق مرة على النسيان كما فى قول الحق :

﴿ أَن تَضِلَّ إِحْدَٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ ﴾

(من الآية ٢٨٢ سورة البقرة)

فالضلال هنا نسيان لكن هناك من يضل لأنه يفتقد المنهج الحق ويتشوف ويتطلع إليه ليتبعه ، كما فى قوله :

﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝ ﴾

(سورة الضحى)

أى أن المسائل متشعبة على الإنسان فيرى هذا وذاك ، فأوضح الحق لك : لاتتعب نفسك لأنى سأعطيك السبيل المستقيم . إذن فالضلالة لها معان متعددة ، وفحواها جميعاً أنها لاتوصلك إلى الغاية ، والحق سبحانه وتعالى حينما يعرض قضية إيمانية عقدية معنوية يستعمل فيها الألفاظ التى يستعملها الناس فى الكونيات ، ولذلك فما هو السبيل؟ . السبيل - عندنا - هو الطريق ، وكلنا حتى غير المؤمنين يعرفون أن الطريق يُصنع ليوصل إلى غاية ، ولكن لابد أن نعرف الهدف أولاً وبعد ذلك نرصف الطريق ونعبّده ، ففيه فرق بين السبب الدافع والواقع .

نحن قبلما نرصف الطريق نرى إلى أين يذهب؟ إذن فالغاية أولاً وبعد ذلك نلتمس أقصر طريق يوصلنا إلى المطلوب . وعندما نكتشف أقصر طريق يوصلنا للمطلوب نمهده ونعبّده لكيلا نتعب الناس ، إذن فالسبيل هو : الطريق الموصل إلى الغاية . ولذلك أوضح لنا الحق أن الطريق إلى الإيمان مستقيم كى لا يأخذ مسافات ، فالخط المستقيم هو أقصر الخطوط .

إننا لا بد أن نعرف الغاية قبل أن نعرف السبيل إلى الغاية . وآفة الدنيا وأهلها أنهم يعيشون فيها ولايعرفون غاياتهم النهائية ، إنما يعرفون غاياتهم الجزئية ، فالطالب يريد أن يتعلم كى يكون موظفا ، لكى يتزوج ويقيم أسرة ، والتاجر يتاجر لكى يعمل كذا ، هذه هى الغايات الجزئية ، والذكى هو من لايذهب للغايات القريبة المنتهية ، بل ينظر إلى الغايات الأخيرة ؛ لأن الناس تختلف فى الغايات المنتهية ، فواحد يعيش خمسين سنة ، وآخر يعيش ستين عاماً ، وثالث يعيش لمدة سنة ، إذن فلابد أن تنظر إلى الغاية التى سيذهب لها الكل ، وآفة الناس أنها تعمل للدنيا ، يعنى للغايات القريبة ، برغم أن « الدنيا » تعنى الأقل والأتفه ، ولذلك اسمها « الدنيا » ، ومادامت « دنيا » إذن فهناك « عليا » .

إن تعب الناس يأتى من أنها تعمل للغايات الدنيا ؛ لذلك نقول لكل إنسان : انظر الغاية العليا التى سيكون الكل شركاء فيها ، والكل لابد أن يصل لها . فإذا ما عرفنا الغاية العليا نجونا من إرهاق قصر النظر والغرق فى الغايات المحدودة ، مثلاً : أنت تبعث ابنك ليتعلم من سن الحضانة ثم إلى الروضة ثم الابتدائى ثم الإعدادى ثم الثانوى ثم التعليم العالى ثم يتخصص فى مجال معين فى التعليم العالى ، وتصل سنوات عمره إلى العشرين سنة ليتخرج ويتوظف ويقدر أن يعيش بكده وعرقه،والأب يعمل لهذه الغاية ، وقد لا يصل الابن إلى الوظيفة ، وقد يُتعب الابن والده ولا يكمل تعليمه وبذلك تفلت منه الغاية . لكن نحن نريد الغاية التى لا تفلت ، فأنت الآن تعيش فى أسباب خلقها لك الحق ، فاجعل غايتك أن تعيش مع الحق .

إنك فى الدنيا تعيش مع الأسباب التى خلقها لك الحق ، لكنك فى الآخرة ستكون مع الحق نفسه . أنت فى الدنيا تعيش بالأسباب ، ولكنك تعيش فى الآخرة بالمسبب ، ومهما ارتقت أسبابك . فأنت لن تستطيع أن تصل إلى مستوى رفاهة الآخرة . صحيح أنه إذا ارتقت حياتك فى الدنيا فقد تضغط على زر فى الحجرة ويأتيك فنجان قهوة ، أو تضغط على زر فيأتيك الأكل ، ولكن قل لى مهما ارتقت الحياة أيوجد ارتقاء بحيث إذا خطر الشىء على بالك يأتيك ؟ لا يمكن ، وهذا ما سيكون لنا فى الآخرة ، إذن فهذه هى الغاية الحسنة ، ونحن نعيش فى الدنيا مع أسباب الله الممدودة لنا ، أما فى الآخرة فسوف نعيش مع الله ولذلك أوضح سبحانه : سأعطى المؤمن والكافر الأسباب فى الدنيا ، فالكافر عندما يزرع يجد نتاجاً ، وعندما يبحث فى الكون وينظر أسراره فالأسرار تتكشف له ، لأن الأسباب خلقها الله لمن يأخذ بها سواء أكان مؤمناً أم كافراً . لكن المسبب لا يذهب له إلا من آمن به ، أما الكافر فقد آمن بالأسباب فأخذ الأسباب ، ولم يمنعها الله منه:

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾ ﴾

(سورة الشورى)

إذن فهل غايتك أن تبقى مع الأسباب أو تذهب إلى المسبب ؟ انظر إلى غايات

الدنيا القريبة ، ستجد أنها قد تنتهى قبل أن تصل إليها ويكون تعبك قد ذهب هباء . ولذلك أخفى الله الموت وأسبابه وزمنه كى يختبر الإنسان ، فهناك من يحقق كل ما رغب فيه وفى آخر الأمر تنتهى المسألة بالموت ، وهو قد أخذ الهباء لأنه لم يؤمن بالمسبب ، هب أنه أخذ الدنيا كلها عنده ، نقول له : سيأتيك الموت ، يعنى إما أن تفارق أنت النعمة وإما أن تفارقك النعمة ، ولكن فى الحياة الآخرة أنت لا تفارق النعمة ولا النعمة تفارقك.فهذه ـ إذن ـ هى الغاية الحقة ، غاية العقلاء . ومتعتك فى دنياك كما قلنا على قدر أسبابك.أما متعتك فى الآخرة فهى على قدر المسبب ، وسبحانه لا يقادر قدره ولا أحد يماثله فى فعله . والعاقل هو من ينظر إلى الغاية البعيدة .

إذن فالسبيل لا يمكن أن يكون طريقاً إلا إذا علمت الغاية ، والذى يجعل الناس تتعب فى الدنيا ، أنهم لا يعرفون إلا الغايات القريبة ، ولذلك سماها « الدنيا » ولا يوجد اسم أدنى من ذلك لها ، وكان يجب أن يوحى هذا الاسم بأنها فانية وهناك باقية . إذن فقبلما ترسم السبيل لابد أن تحدد الغاية . وبعدما تحدد الغاية تختار السبيل الذى يوصلك للغاية ، وهكذا نعرف أن هناك فرقا بين واقع ودافع ، الشىء الدافع هو أن تنصب الغاية أولاً وتحددها ، فالتلميذ يجتهد كى ينجح ، وينجح لكى يأخذ حظه فى الحياة ، وهذه الغاية لابد أن توجد فى ذهنه قبلما يتعلم ، وعندما يتصور النجاح ولذته فى ذهنه فهو يبدأ فى المذاكرة ، وعندما يذاكر يصل إلى الغاية وهى النجاح ، فالغاية نوعان : غاية دافعة ، وغاية واقعة ، فالغاية الدافعة تسبق الطريق ، والغاية الواقعة تتأخر عن الطريق ، ومن الذى يحدد الغاية ؟ .

إن الذى يحدد غاية كل شىء هو من صنعه ، وغايتك أنت من الذى يحددها ؟ أنت تحدد الغايات الدنيا ، أما الغايات العليا فعليك أن تتركها للأعلى ليحددها وهو الله . ومادام هو سبحانه الذى يحددها لأنك صنعته وخَلقه ؛ لذلك تسأله : أنت سبحانك الذى تعلم موقعها فهيىء لنا الطريق الذى يوصلنا لها . لابد إذن من الإيمان إذا ما كانت الغاية هى أن تعيش مع الحق ، والسبيل هو المنهج :

﴿ وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾

(من الآية ١٥٣ سورة الأنعام)

أى أن سبلكم أنتم لا توصلكم إلىّ ؛ لأنكم حددتموها بغاياتكم ، أمّا أنا فقد

حددت السبيل بغايتى فمن أراد أن يصل إلىّ فلينظر إلى طريقى . وكلمة « السبيل » ، و« الطريق » كلها أمور حسية ، والحق يستعملها لنا ليدلنا على المعانى العقدية والمعانى المعنوية يوضحها ـ سبحانه ـ بأمور حسية أمامنا ، وعندما توجد فى مفترق طرق وتريد أن تصل إلى المنطقة الفلانية . فانحرافك بمقدار ملليمتر واحد فى بداية الطريق ، يبعدك عن الهدف ، وكلما امتد بك السير اتسع المشوار وتبعد المسافة ، فأنت تتوه ، ونمثل لهذا بشىء بسيط جداً : كلنا نركب القطارات ، والقطارات تسير على قضبان مستقيمة . فإذا أردنا أن نحول القطار فنحن لا نرفعه ونضعه على قضيب آخر ، بل نأتى بتحويلة لا تتجاوز اثنين من الملليمتر ونقربها إلى حد الالتصاق فى القضيب الأصلى ، وهذا ما يفعله « المحولجى » ، فينحرف القطار لينتظم الخط وليصل إلى المحطة المطلوبة .

ولفتنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ذلك بما رواه سيدنا حذيفة ـ رضى الله عنه ـ حينما قال : حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثين قد رأيت أحدهما ، وأنا أنتظر الآخر ، حدثنا : أن الأمانة نزلت فى جذر قلوب الرجال ـ أى أن الإيمان فطرى ـ ثم نزل القرآن ، فعلموا من القرآن وعلموا من السنة .

ثم حدثنا رسول الله عن رفع الأمانة قال :

«ينام الرجل النومة فتغيض الأمانة من قلبه فيظل أثرها مثل الوكت ـ وهو اللسعة التى توجد أثراً على الجلد ـ ثم ينام الرجل النومة فتغيض الأمانة من قلبه فيظل أثرها مثل أثر المَجْل» (والمجل هو أثر الجمرة التى تظل مدة طويلة على جلد الإنسان فتسبب ورماً فيه مياه ـ كجمر دحرجته على رجلك فنفط ـ أى انتفخ ـ فتراه منتبراً وليس به شىء) فيصبح الناس يتبايعون فلا يكاد يوجد أحد منهم يؤدى الأمانة حتى يقال : « إن فى بنى فلان رجلاً أميناً »[(١)] .

ويستمر سيدنا حذيفة قائلاً :

ولقد مر علىّ زمان وما كنت أبالى أيكم بايعت لئن كان مسلماً ليردنه علىّ دينه ،

(١) رواه البخارى ومسلم والترمذى وابن ماجه وأحمد .

ولئن كان نصرانياً ليردنه علىّ ساعيه ـ أى المحتسب ـ وأما الآن فما كنت أبايع منكم إلا فلاناً وفلاناً .

إن الإيمان فطرى . إنّ قصارى ما يعطيك هذا الإيمان الفطرى أن وراء هذا الكون الدقيق قوة عظمى ؛ فالكون المنظم ، الرتيب ، الذى لا يدخل تحت طاقتك ولا تحت قدرتك ، هذا الكون يسير على أحسن نظام . والقوة العظمى القادرة التى وراء ذلك الكون تتصف بالقدرة ، وبالعلم ، وبالحكمة ، وبكل صفات الكمال .

لكن أيعطيك فكرك وعقلك اسم هذه القوة ؟ لا يمكن أن يعطى العقل اسم هذه القوة . أيعطيك فكرك وعقلك مرادات هذه القوة ؟ إنك لا تستطيع أن تعرف مرادات هذه القوة إلا برسول ترسله ليبلغ عنها . والرسول عندما يأتى يقول : إن القوة التى تبحثون عنها ، والتى آمنتم بها إيماناً مجملاً اسمها « الله » . فلا بد أن نصدق الرسول . فالعقل لا يقول لنا اسم القوة الخالقة . ولكن الذى يقول لنا اسم هذه القوة هو البلاغ ، ويعطينا الحق هذا البلاغ من خلال الرسول بكل مراداته من وجودنا .

وهذا هو أقصر طريق للوصول إلى الحق بعيداً عن تعقيدات الفلسفة أو تعقيدات المنطق ، وسفسطة الجدل ، هذا الطريق الذى يثبت أن من يعبد أى قوة غير الله لا حق له فى مثل هذه العبادة . فالذى يعبد الشمس مثلاً هل يستطيع أن يقول لنا ما هو منهج الشمس الذى تطلبه من الإنسان ؟ وماذا قالت لمن يعبدها جزاءً للفعل الحسن أو عقاباً على الفعل السيىء ؟ ماذا تستطيع هذه الشمس أن تفعل لمن لا يعبدها ؟ . إنها لا تملك ثواباً ولا عقاباً ، ولا منهج لها ، وإله بلا منهج لا يصلح أن يكون إلهاً . فالإله لا بد له من منهج يدل الناس على صواب الفعل وينهى عن سوء الفعل ويملك سلطان الثواب والعقاب . والشمس لا تملك منهجاً تعطيه،وكذلك الحجر أو القمر .

إذن فهذه الأشياء مخلوقة بدورها من قبل خالق ولا تصلح أن تكون آلهة . ووجود الرسل المبلغين عن الله دليل على صدق الدعوة. فالحق سبحانه وتعالى يعطينا إيماناً بوجوده من خلال المنهج . . ونحن قبل البلاغ نعرف أن هناك قوة خالقة لا نعرف

اسمها ولا مرادها ؛ ولذلك فعندما يأتى الرسول بالبلاغ فهذه رحمة من الله بالخلق . أما من يحاول أن يخطط بعقله لحياته بدون الرسول فنقول له : أنت تصيب نفسك وروحك بالتعب ولن تصل إلى شيء . ونضرب هذا المثل دائماً ـ ولله المثل الأعلى ـ هب أننا نجلس فى غرفة والباب مغلق ثم طرق الباب طارق . هنا نتفق نحن الجلوس فى الغرفة فى أن وراء الباب طارقاً .

ولكن إذا أردنا تحديد هذا الطارق وتعيينه فسنختلف . فيقول قائل : إنه رجل . . ويقول آخر : لا. إنه امرأة . ويقول ثالث : لا. إنه طفل . ويقول رابع : هذا بشير . ويقول خامس : هذا نذير . ويقول سادس : إنه القادم لنا بالقهوة . ويقول سابع : إنه رجل مكلف بالقبض علينا .

هكذا نتفق على أن طارقاً بالباب ونختلف فى تحديد « مَن الطارق » . وهكذا الكون ، الكون وراءه قوة هائلة وعندما يحاول الإنسان أن يقول اسم هذه القوة بعقله أو مرادات هذه القوة فهذا يسبب الخلاف . ولكن حينما ترسل القوة عن نفسها رسولاً ليقول : إن القوة الخالقة اسمها الله ومرادات الله كذا ، ففى ذلك حسم للخلاف .

إن الذى أرهق الفلاسفة ووصل ببعضهم إلى دهاليز التيه ، هو أن بعضهم لم يكتف بتعقل القوة التى خلقت الكون . بل إنهم أرادوا أن يتصوروا القوة وما هياتها ومراداتها . ونقول : إن نظرة الفلاسفة إلى الخالق لا تصلح ؛ لأنهم بتلك النظرة يظلون فى التيه ، ولكن البلاغ عن طريق رسول هو الذى يحسم هذه المسألة . والحديث الذى رواه لنا سيدنا حذيفة عن الأمانة يصور لنا مهمة الإيمان وكيف يتعلم المؤمن من القرآن والسنة ، وعندما يهمل هذا العلم ، فما الذى يحدث ؟

إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يمثل لنا مراحل فقدان الأمانة . وينبهنا : احذروا من أن تتسلل الانحرافات بنومة قليلة ، ثم إلى أخرى أكبر منها ، ثم إلى ثالثة أكبر وأوسع . وشرحنا ذلك بمثل الانحراف المقصود لقطارات السكك الحديدية .

إن قوله الحق سبحانه : « يشترون الضلالة ويريدون أن تضلوا السبيل » كى لا ينفردوا ـ وحدهم ـ بالضلال ، والحق سبحانه يعطينا مناعة ضد كلامهم ، فهم لهم حظ من علم الكتاب وهذا قد يجعلنا نحسن الظن بأن لهم صلة بالسماء؛لأنهم أتباع رسل ، فسبحانه يوضح لنا : هؤلاء يريدون أن تضلوا السبيل ويتخذوا من نصيب الكتاب الذى عندهم وسيلة كى يضلوكم .

وفى عصرنا نجد أن أعدى أعداء أى عقيدة ليسوا أعداءها الظاهرين وإنما أعداؤها من أنفسهم . لأن عدوّى الظاهر الكافر يجابهنى وأنا واثق أنه يريد أن يدس لدينى ويدلس ويحرف فيه ، لكن عندما يكون هناك مسلم مثلى يأتى ليكلمنى فربما آخذ كلامه على أنه مسلم ؛ ولذلك فخصوم الإسلام يئسوا أن يواجهوا الإسلام مواجهة صريحة ؛ ولذلك نجد الغرب قد توقف الآن عن مسألة الاستشراق ، وما بقى من الاستشراق فهذا هو القديم . وكان المستشرق من هؤلاء يؤلف كتاباً ؛ ساعة يقرأه المسلم قد يقول : إنه رجل يعمل على خدمة العلم وعلى خدمة الثقافة ، وخدمة سنة رسول الله . وقد يكتفى هذا المؤلف بأن يدس فى الكتاب الواحد فكرة واحدة بعد أن يجعل القارىء يثق فيه .

وعندما علموا أننا فطنا لهذا دخلوا علينا بالمستغربين . وهم أناس منا ذهبوا إلى الغرب فأخذوا الداءات من هناك وجاءوا فبثوها فى مناهج تعليمنا ، وفى برامجنا ، وفى وسائل الإعلام ، وفى الصحافة ، والواحد من هؤلاء المستغربين يفعل ذلك وهو مسلم ، فيكون محل ثقة ، ووجد الغرب أن أيسر طريق لهم الآن أن يدخلوا إلينا عن طريق بعض المسلمين الذين أوتوا نصيباً من الكتاب ؛ لأن الإنسان سيكون مطمئناً إلى أن هؤلاء مسلمون ؛ فالحق سبحانه وتعالى يريد أن يبين لنا : أن خصومك الظاهرين أهون عليك من خصومك المنسوبين إلى دينك ؛ لأن هؤلاء يدخلون عليك بالثقة الأولى ، ثقة انتسابهم للإسلام ؛ ولذلك يوضح لنا ربنا هذا الأمر لأنه قد يتعب ويصيب المؤمنين بالعنت لذلك يقول : « أوتوا نصيباً من الكتاب » وهم يعيشون على هذه .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾ ﴾

فقد يكون عندكم علم بالأعداء فيقال : أنتم عالمون بأعدائكم . لكن الله أعلم بالأعداء جميعا؛ لأنه قد تكون لك عداوة بينك وبين نفسك ، أو عداوة من زوجتك ، أو عداوة من أولادك أو كلِ هذه العدوات جميعها أو بعضها . وهؤلاء فى ظاهر الأمر لا يمكن للإنسان أن يتبينَ عداوتهم جميعا ، لكن الله أعلم بهم وبما يخفون ؛ لذلك يقول : « والله أعلم بأعدائكم » .

وجاء بها بعد قوله : « ويريدون أن تضلوا السبيل » أى مخافة أن نقول : إن هؤلاء أهل كتاب أو مسلمون مثلنا وكذا وكذا . ومادام الله هو الأعلم بالأعداء . فهو لن يخدعنا ولن يغشنا ، فيجب أن ننتبه إلى ما يقوله الحق من أنهم أعداؤنا ، ويقول بعدها : «وكفى بالله وليًّا» وحين يقول هذا، فالقول يعنى أنك لا تريد وليّاً بعد ذلك، كما يقولون : كفانى فلانٌ ؛ أى أنك قد تحتاج إلى هذا وهذا ثم تقول : لَكنَّ فلاناً عرفته فكفانى عن كل ذلك ، أى لا يحوجنى إلى أحد سواه ؛ لأننى أجد عنده الكفاية التى تكفينى فى كل حركة حياتى .

«وكفى بالله وليّاً » . . نعم كفى به وليّاً لأن غيره من البشر إنما يملكون الأسباب ، والحق سبحانه وتعالى هو الذى خلق الأسباب ، فيملك ما هو فوق الأسباب . ولذلك يقول مطمئناً لنا :

﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾

(سورة الطلاق)

و« الولى » دائماً هو من يليك مباشرة أى أنه قريب منك . « وكفى بالله نصيرا » إذن فهناك قريب ، وهناك أيضا نصير ، فقد يكون هناك من هو قريب منك ولا ينصرك، لكن الله ولىّ ونصير ، فمادامت المسألة مسألة معركة « والله أعلم بأعدائكم وكفى بالله ولياً وكفى بالله نصيراً » ، كأن الحق ينبهنا : إياكم أن تقولوا إننا نلتمس

النصرة عند أحد ، اصنعوا ما فى استطاعتكم أن تصنعوه ثم اتركوا ما فوق الاستطاعة إلى الله . ولذلك فالحق سبحانه وتعالى أوضح لنا : إياكم أن تتخذوا من أعدائكم أولياء ، وإياكم أن تقولوا ؛ ماذا نفعل ونحن ضعفاء ، ونريد أن نكون فى حمى أحد ، وماذا نفعل فى أعدائنا ؟ لا تقولوا ذلك؛لأن الله أعلمنا : أنا أنصركم بالرعب بأن أُلقِىَ فى قلوب أعدائكم الخوف فينهزموا من غير سبب وفيهم قوة وغلبة ، فإن لم يكن عندكم أسلحة فسأنصركم بالرعب . ومادام سينصرنا بالرعب فهذه كافية ؛ لأنه ساعة ينصرنى بالرعب ؛ يلقى عدوى سلاحه وأنا آخذه ؛ ولذلك قال : اعملوا ما فى استطاعتكم ، ولم يقل : أعدوا لخصومكم ما تحققون به النصر ، فهو سبحانه قادر على أن ينصرنا بالرعب :

﴿ سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُوا۟ بِٱللَّهِ ﴾

(من الآية ١٥١ سورة آل عمران)

ومادام ألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب فوسائلهم كلها تكون للمؤمنين وتنتهى المسألة .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾ ﴾

تكلّم الحق فى سورة النساء عن الخلق الأول وأوضح : أننى خلقتكم من نفس واحدة وهى « آدم » وبعد ذلك خلقت منها زوجها ، ثم بثثت منهما رجالاً كثيراً ونساء ، والبث الكثير للرجال والنساء لتستديم الخلافة للإنسان ، لكن كيف يأتى ذلك ؟ أوضح سبحانه : أريد مجتمعاً قوياً ، وإياكم أن يضيع فيه اليتيم . وبعد ذلك مادمت أريد استدامة هذا الاستخلاف فليأخذ الأيتام نصيباً ، وتكلم ـ سبحانه ـ عن التركة ، ثم تكلم عن السفهاء غير المؤتمنين على مالهم ، وبعد ذلك تكلم عن كيفية الزواج .

إذن فكل هذه العملية ليبنى لنا نظام حياة متكاملا ؛ لأن الخلافة فى الأرض تقتضى دوام هذه الخلافة بالتكاثر ، والتكاثر لا يؤدى مراده إلا إذا كان تكاثر أقوياء ، أما تكاثر الضعاف فهو لا ينفع . فإن كان فيكم يتيم لا بد أن تلاحظوه ، وإن كان فيكم سفيه لا يستطيع أن يدبر ماله فدبروا أنتم له ماله ، واجتهدوا لتتركوا من حركة حياتكم للناس الذين سيأتون بعدكم إلى أن تقوى نفوسهم على الحركة . وأوضح سبحانه منهاج الميراث ، وأمر سبحانه : أن تزاوجوا ، لكن للتزاوج شروطه وقد أوضحها ، ثم أعطانا المنهج العام : « واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا » ، ووضح هذه الأحكام كلها .

وبعد ذلك ما الحكمة فى أنه ـ سبحانه ـ يرجع بنا مرة ثانية لليهود ؟ الحق سبحانه وتعالى يوفى الأحكام ، وإلقاء الأحكام شىء وحمل النفس على مراد الله فى الأحكام شىء آخر ، فيوضح لنا : أن هناك ناساً ستعلم الحكم لكنها لا تقدر أن تحمل نفسها عليه ، فإياكم أن تكونوا كذلك . واعلموا أن هناك أناساً عندهم نصيب من الكتاب أيضاً ، ويعلمون مثلكم تماماً ، إنما اشتروا الضلالة ، إذن فهو شرَح لنا ؛ إنه الواقع الملموس ولا يأتينا ـ سبحانه ـ بكلام خبرى أو إنشائى ، قد تقول : يحدث أو لا يحدث ، إنّه يأتيك بأحداث من واقع الكون ، وينبهنا : إياكم أن تكونوا مثلهم ، فقال : « من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه » والتحريف : أنك تأتى باللفظ الذى يحتمل معنيين : معنى خير ، ومعنى شرّ ، ولكنك تريد منه الشرّ ، مثل الذى يقول : « السام عليكم ـ والعياذ بالله ـ» هى فى ظاهرها أنه يقول : السلام عليكم ، لكنه يقول : السام . يعنى « الموت » ، إذن ففى اللفظ ما يُلحظ مَلحظ الخير ، ولكن العدو يميله إلى الشرّ .

ومثل هذا ما قالوه للنبى : « قالوا راعنا » وهى من المراعاة ، لكنهم كانوا يأخذونها من الرعونة ، فيأتى الأمر : اترك الكلمة التى تحتمل المعنيين . واقطع الطريق على الكلمة التى تحتمل التوجهين ؛ لأن المتكلم ، قد يريد بها خيراً وقد يريد بها شرّاً ، فمعنى تحريف الكلام أى أن الكلام يحتمل كذا ويحتمل كذا . والمثال على ذلك : الرجل الذى ذهب لخياط ليخيط له قَباء[1] ـ وكان الخياط كريم العين ـ أى له عين واحدة ـ فلم يُعجب الرجُل بِخياطة القَباء فقال : والله مادمت أفتضح بهذا الثوب الذى خاطه لى أمام الناس فلا بد أن أقول فيه شعراً يفضحه فى الناس ، فقال :

خاط لى عمرو قَباء ليت عينيه سواء

فقوله : ليت عينيه سواء يظهر ماذا ؟ . هل يا ترى يتمنى له أن تكون عينه المريضة مثل السليمة ؟ أو يتمنى أن تكون العين السليمة مثل المريضة ؟ إذن فالكلام يحتمل الخير والشر ، ومثلما حكوا لنا أن واحداً من الولاة طلب من الخطيب أن يسب سيدنا عليًّا ـ كرم الله وجهه وآله ـ وأن يلعنهم على المنبر .

فقال الخطيب : اعفنى .

فقال الوالى : لا ، عزمت عليك إلاّ فعلت .

فقال له الخطيب : إن كنت عزمت على إلاّ فعلتُ ، فسأصعد المنبر وأقول : طلب منى فلان أن أسب عليًّا فقولوا معى يلعنه الله .

فقال له : لا تقل شيئاً . فقد فهم الوالى مقصد الخطيب وقدرته على استعمال الكلام على معنيين .

والحق يقول : « من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه » . وأريد أن تتنبهوا إلى أن أسلوب القرآن يأتى فى بعض المواقع بألفاظ واحدة ، ولكنه يعدل عن عبارة

(١) القباء : ثوب يلبس فوق الثياب ويتمنطق عليه .. أى يشد عليه حزام ، ولعله ما يسمى بالقفطان .

إلى عبارة ، فيخيل لأصحاب النظرة السطحية أن الأمر تكرار ، ولكنه ليس كذلك ، مثلما يقول مرة : « يشترون الضلالة بالهدى » ومرة لا يأتى بالهدى كثمن للضلالة ويقول : « يشترون الضلالة » ، ولم يلتفتوا إلى أن هدى الفطرة مطموس عندهم هنا ، ومثال آخر هو قول الحق :

﴿ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ ﴾

(من الآية ٤١ سورة المائدة)

وفى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها يقول سبحانه : « يحرفون الكلم عن مواضعه » ، فكأن المسألة لها أصل عندهم ، فالكلام المنزل من الله وضع ـ أولا ـ وضعه الحقيقى ثم أزالوه وبدّلوه ووضعوا مكانه كلاما غيره مثل تحريفهم الرجم بوضعهم الحد مكانه .

أما قوله : « من بعد مواضعه » فتفيد أنهم رفعوا الكلام المقدس من موضعه الحق ووضعوه موضع الباطل ، بالتأويل والتحريف حسب أهوائهم بما اقتضته شهواتهم ، فكأنه كانت له مواضع . وهو جدير بها ، فحين حرفوه تركوه كالغريب المنقطع الذى لا موضع له ، فمرة يبدلون كلام الله بكلام من عندهم ، ومرة أخرى يحرفون كلام الله بتأويله حسب أهوائهم .

« ويقولون سمعنا وعصينا » . فهم يقولون قولاً مسموعاً « سمعنا » ثم يقولون فى أنفسهم « إنّا عصينا » . فقولهم: « سمعنا وعصينا » ففى نيتهم « عصينا » ، إذن فقولهم « سمعنا » يعنى سماع أذن فقط . إنما « عصينا » فهى تعنى : عصيان التكليف ، وهم قالوا بالفعل سمعنا جهرا وقالوا عصينا سرًّا أو هم قالوا : سمعنا ، وهم يضمرون المعصية ، « واسمع غير مسمع » ورسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذى يُسْمِعُكم ، بدليل أنكم قلتم : سمعنا ، فماذا تريدون بقولكم : اسمع ؟ هل تطلبون أن يسمع منكم لأنه يقول كلاماً لا يعجبكم وستردون عليه ، أو أنتم تريدون استخدام كلمة تحتمل وجوهاً أخرى فتقلبونها إلى معانٍ لا تليق ، مثل قولكم: « غير مُسْمع » ما يسرّك ، أو « غير مسمع » أى لا سمعت ، لأنهم يتمنون له ـ معاذ الله ـ الصمم ، وقد تكون سباباً من قولهم : أسمع فلان فلانا إذا سبّه وشتمه ، فالكلام محتمل .

« واسمع غير مسمع وراعنا ليّاً بألسنتهم » لم يقولوا:« راعنا » من الرعاية بل من الرعونة ، فقال : لا . اتركوا هذا اللفظ؛لأنهم سيأخذون منه كلمة يريدون منها الإساءة إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ و« اللى » : هو فتل الشىء ، والفتل : توجيه شقى الحبل الذى تفتله عن الاستقامة ، وهذا الفتل يعطيه القوة ، وهم يعملون هذه العمليات لماذا ؟ لأنهم يفهمون أنها تعطى قوة لهم .

« ليّاً بألسنتهم وطعناً فى الدين » ، وماداموا يلوون الكلام عن الاستقامة فهم يريدون شرّاً ؛ لأن الدين جاء استقامة ، فساعة يلويه أحد فماذا يريد ؟ . . إنه يريد « طعناً فى الدين » ، « ولو أنهم قالوا سمعنا » ، وبدلاً من إضمار المعصية يقولون : « وأطعنا واسمع وانظرنا » بدلاً من « راعنا » ، فـ« انظرنا » لا تحتمل معنى سيئاً .

إذن فمعنى ذلك أن الله سبحانه وتعالى يريد أن يخبر أحباب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن خصومه يأتون بالألفاظ محتملة لذم رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لذلك يوضح : احذروا أن تقولوا الألفاظ التى يقولونها ؛ لأنهم يريدون فيها جانب الشر وعليكم أن تبتعدوا عن الألفاظ التى يمكن أن تحول إلى شرّ . فلو قالوا سمعنا وأطعنا « واسمع وانظرنا لكان خيراً لهم وأقوم ولكن » ، وساعة تسمع كلمة « لكن » فلتعلم أن الأمر جاء على خلاف ما يريده المشرع ؛ لأنه يقول : « ولو أنهم قالوا » ، لكنهم لم يقولوا ، إذن فالأمر جاء على خلاف مراد المشرع .

« ولكن لعنهم الله بكفرهم » و« اللعن » هو : الطرد والإبعاد ، فهل تجنَّى الله عليهم فى لعنهم وطردهم ؟ لا . هو لم يلعنهم إلا بسبب كفرهم ، إذن فلا يقولن أحد : لماذا لعنهم الله وطردهم وما ذنبهم ؟ نقول : لا . هو سبحانه لعنهم بسبب كفرهم ، إذن فالذى سبق هو كفرهم ، وجاء اللعن والطرد نتيجة للكفر .

« ولكن لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا » . وساعة تسمع نفى حدث « لا يؤمنون » ثم يأتى استثناء « إلا » ، فهو يثبت بعض الحدث ، تقول مثلاً : لا يأكل إلا قليلاً ، كلمة « لا يأكل » نفت الأكل ، « وإلا قليلاً » أثبتت بعض الأكل ، فهو سبحانه يقول : « فلا يؤمنون إلا قليلاً » . والإيمان حدث يقتضى محدثاً

هو : من آمن ، إذن ، فعندى حدث وفاعل الحدث ، فساعة تسمع استثناء تقول : هذا الاستثناء صالح أن يكون للحدث ، وصالح أن يكون لفاعل الحدث ، كلمة « فلا يؤمنون إلا قليلاً » تعنى : فلا يؤمنون إلا إيماناً قليلاً ؛ لأنهم يؤمنون قليلاً بالصلاة ، وبأنهم لا يعملون يوم السبت ، أما بقية مطلوبات الإيمان فليست فى بالهم ولا يؤدونها ، أو فلا يؤمنون إلا قليلاً فقد يكون بعض منهم هو الذى يؤمن ، وهذا صحيح عندما نقوله ؛ لأن بعضاً منهم آمن بالفعل ، ونجد أيضاً أنهم يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض ، فيكون إيمانهم قليلاً بالحدث نفسه .

وهناك أناس منهم بعدما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتُلِى القرآن ورأوا صورته فوجدوه مثلما وُصف عندهم تماماً فآمنوا ، ولكن هل آمن كل يهود ، أو آمن قليل منهم ؟ آمن قليل منهم مثل : عبدالله بن سَلَام ، وكعب الأحبار ، إنما عبدالله بن صُورْيَا ، وكعب بن أسد ، وكعب بن الأشرف وغيرهم من اليهود فلم يؤمنوا .

إذن فإن أردت أن بعضاً « قليلاً منهم » هو الذى آمن فهذا صحيح ، ويصح أيضاً أن الكافرين منهم كانوا يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض ، وفى ذلك تعبير من الحق سبحانه وتعالى نسميه « صيانة الاحتمال » ؛ لأن القرآن ساعة ينزل بمثل هذا القول فمن الجائز ـ وهذا ما حدث ـ أن هناك أناساً من اليهود يفكرون فى أنهم يعلنون الإيمان برسول الله ، فلو قال:« فلا يؤمنون » فقط لكان من الصعب عليهم أن يعلنوا الإيمان ـ لكن عندما يقول:« إلا قليلا » فالذى عنده فكرة عن الإيمان يعرف أن الذى يخبر هذا الإخبار عالم بدخائل النفوس ، فصان بالاحتمال إعلان هؤلاء القلة للإيمان .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلْنَا

مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾

نعلم أن كل التشريعات التى جاءت من السماء لا يوجد فيها تضارب ؛ فالمشرع واحد . ولن يشرع اليوم شريعة ثم يأتى رسول آخر يشرع شريعة أخرى جديدة . فأصول الأديان كلها التى جاء بها ركب الرسالات واحدة ، ولا تختلف إلا فى بعض الأحكام التى تتطلبها ظروف العصور ، وفى التشريع الواحد تتطور الأحكام وخصوصاً ما يتعلق بالعادات . وما كان الله سبحانه وتعالى الرحيم بعباده يأتى لمسألة من المسائل تعرض الناس فيها لعادة فتمكنت منهم تلك العادة ، وأصبحت تقودهم أن يفعلوها ثم يأتى لينهيها بكلمة . لم تأت الكلمة الفصل إلا فى العقيدة . لكن المسائل التى تحتاج إلى التعود فالحق يتلطف فى أن يخرجها خروجاً ميسوراً ، بمعنى أنه يجعلها مرحليات كى لا توجد فجوة الانتقال .

ويمكننا أن نشبه فجوة الانتقال : مثلما يكون هناك من يدخن السجائر ، ويصل معدل تدخينه فى اليوم مائة سيجارة ، فإذا قلنا له : اجعله خمسين سيجارة ، ثم ثلاثين ، وهكذا ، وبذلك نكون قد وزعنا عادته على بعض الزمن ، وبدلاً من أن تكون المسافة بين السيجارة والسيجارة عشر دقائق أو نصف ساعة فلنجعلها ساعة فنكون قد كسرنا جزءاً من الاعتياد ، وكذلك مرحليات الأمور الاجتماعية التى تنشأ من رتابة التعود .

إن الحق سبحانه وتعالى يقول : « يا أيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما نزّلنا مصدقاً لما معكم » . فالحق يوضح : لم نأت بحاجة جديدة ، بل كلها مما عندكم . قد يقول قائل : مادامت مما عندهم فما الداعى لها ؟ . نقول : لأن هناك جديداً فى أقضية العصر التى لم تكن موجودة عندهم ، والذى زاد هو معالجة تلك الأقضية الجديدة ،

ولكن أصل الإيمان موجود بالقرآن المعجز الذى ينزل من السماء ؛ بالمعجزة ، بالتوحيد ، والقضايا العقدية ، كل هذه لا يوجد فيها خلاف .

« يا أيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا » ، وكلمة « أوتوا الكتاب » إلزام لهم بالحجة ، وتعنى : نحن لا نكلمكم بكلام لا تعرفونه ؛ لأنه يقول : « مصدقاً لما معكم » إنّهم يعلمون ما معهم جيداً ، فكان من الواجب أن يقارنوا ويوازنوا ما جاء لهم من جديد على يد رسول الله صلى الله عليه وسلم بما عندهم ، فإن وجدوه مصدقاً لما عندهم فقد انتهت المسألة .

ثم انظر إلى التهديد « من قبل أن نطمس وجوهاً فنردها على أدبارها أو نلعنهم كما لعنّا أصحاب السبت ، وكان أمر الله مفعولا » ، سبحانه يناديهم : بادروا ، كما نقول مثلاً : « الحق نفسك وآمن » ويقول الحق : « من قبل أن نطمس وجوهاً فنردها على أدبارها » . والطمس هو : المحو . فالشيء الذى طمس هو الذى محى بعدما كان شيئاً مميزاً ، وكلمة « وجوه » وردت فى القرآن بمعانٍ متعددة ، فتطلق مرة فى البدن على ما يواجه وهو « الوجه » كما فى قوله :

﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ ﴾

(من الآية ١٠٦ سورة آل عمران)

ونطلق الكلمة مرة على القصد والنية والوجهة ، قال تعالى :

﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ ﴾

(من الآية ١١٢ سورة البقرة)

و« أسلم وجهه » تعنى قصده ووجهته ونيته .

إذن فمرة يطلق الوجه على الوجه الذى به المواجهة ، ومرة يطلق على القصد ، وما العلاقة بين القصد ، والنية ، والوجه ؟ . لأن الإنسان إذا قصد شيئاً اتجه إليه بوجهه ، وسار له . إذن فالوجه يطلق على هذه الجارحة « الوجه » ، ويطلق على القصد والنية . ومادام يطلق بإطلاقين فيطلق على الوجه المعروف فينا ، ويطلق على القصد والنية التى توجهنا فالاثنان يصحان .

وقوله:« نطمس وجوهاً » لأنه سبحانه أوضح : أنا مكرمكم وجعلت لكم سمات تميزكم ، بشكلها : حواجب ، وعينين ، وأنفا جيلاً ، وفماً ، بحيث إنك لو أردت أن تخلق هذه الخلقة ، لما استطعت ، وسبحانه يعلن : أنا أقدر أن أطمس هذه الوجوه التى تميزكم ، بحيث أردها على الأدبار ، فيكون الوجه مثل القفا ، وتصبح كقطعة اللحم ، هذا إن أردنا بقوله:« وجوهاً » ، الوجه الذى فى البدن .

وإن أردنا بالوجه « القصد » نقول : الذين يشترون الضلالة ، والذين يريدون أن تضلوا السبيل ، والذين يحرفون الكلام عن مواضعه ، والذين يقولون : « راعنا » ، والذين يقولون : « اسمع غير مسمع » . أليس لهم وجهة ؟ وما وجهتهم فى هذا الموقف وما قصدهم ؟

إن قصدهم هو صرف أنفسهم وصرف الناس عن اتباع محمد ، فكأنه يقول لهم : بادروا وآمنوا قبل أن نطمس ونمحو قصدكم فلا يصل إلى منتهاه مِنْ صدكم عن الإيمان برسول الله ، الحقوا أنفسكم قبل أن يحدث ذلك ونلعنكم ونطردكم من رحمتنا ، ولذلك نجد سيدنا عبدالله بن سلام عندما سمع الآية ، ذهب إلى رسول الله ويده على وجهه وقال : والله لقد خفت قبل أن أسلم أن يُطْمس وجهى .

وهذا دليل على أنه آمن بأن الذى قال هذا الكلام قادر على الإنفاذ . وفى عهد سيدنا عمر ـ رضى الله عنه ـ نجد كعب الأحبار يذهب له ، ولم تكن الآية قد بلغته ، فلما بلغته ذهب إلى سيدنا عمر وهو واضع يده على وجهه خائفا أن يُطمس وجهه قبل أن يعلن إسلامه . وذلك دليل على يقينه من أن الذى قال هذا الكلام قادر على الإنفاذ .

وقد يقول قائل : ولكنْ منهم أناس لم يؤمنوا ولم يحدث لهم هذا الطمس . نقول ؛ أهو قال سنطمس الوجوه فقط ؟ لا ، بل قال أيضاً : « أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت » ويكفى أن هناك أناساً اعتقدوا أن الطمس قد يجىء وهم من وجوه أهل الكتاب ومن أحبارهم ، فالذين آمنوا برسول الله من هؤلاء كانوا يعلمون كيد اليهود ، فسيدنا عبدالله بن سلام قبل أن يسلم قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم :

أنا أحب أن أُسلم ، ولكنى أخشى إن أسلمت أن يقول اليهود فىَّ شرّاً فقبل أن أُسلم أسألهم عنى ، فسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم أحبار اليهود : ماذا تقولون فى عبدالله بن سلام ؟ قالوا : سيدنا وابن سيدنا وعالمنا وحبرنا ومجدوه ، فلما سمع ابن سلام منهم هذا الكلام قال : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله فقالوا : هو ابن كذا وابن كذا وسبوه ، فقال ابن سلام : يا رسول الله ألم أقل لك : إنهم قوم بهت(١) .

فقد روى أن عبدالله بن سلام لما سمع بمقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاه فنظر إلى وجهه الكريم فعلم أنه ليس بوجه كذاب ، وتأمله فتحقق أنه النبى المنتظر ، فقال له : إنى سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبى : ما أول شرائط الساعة ؟ وما أول طعام يأكله أهل الجنة ؟ والولد ينزع إلى أبيه أو إلى أمه ؟ فقال عليه السلام : « أما أول أشراط الساعة فنار تحشرهم من المشرق إلى المغرب ، وأما أول طعام أهل الجنة فزيادة كبد الحوت ، وأما الولد فإن سبق ماء الرجل نزعه ، وإن سبق ماء المرأة نزعته » فقال : أشهد أنك رسول الله حقا فقام ثم قال : يا رسول الله ، إن اليهود قوم بهت فإن علموا بإسلامى قبل أن تسألهم عنى بهتونى عندك ، فجاءت اليهود فقال لهم النبى صلى الله عليه وسلم : أىُّ رجل عبدالله فيكم ؟ فقالوا : خيرنا وابن خيرنا وسيدنا وابن سيدنا وأعلمنا وابن أعلمنا ، قال : أرأيتم إن أسلم عبدالله ؟ قالوا أعاذه الله من ذلك ، فخرج إليهم عبدالله فقال : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، فقالوا:شرنا وابن شرنا وانتقصوه ، قال : هذا ما كنت أخاف يا رسول الله وأحذر. قال سعد بن أبى وقاص ـ رضى الله عنه ـ:ما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لأحد يمشى على الأرض : إنه من أهل الجنة إلا لعبدالله بن سلام ، وفيه نزل : « قل أرأيتم إن كان من عند الله وكفرتم به وشهد شاهد من بنى إسرائيل على مثله »(٢) .

« من قبل أن نطمس وجوهاً فنردها على أدبارها » فإن أردنا طمس الوجه حقيقة ، فهو الأمر الذى خاف منه عبدالله بن سَلام وكعب الأحبار ، هذا ذهب إلى رسول الله

(١) قولهم بهت فلان فلاناً . قذفه بالباطل وافترى عليه الكذب ، واسم الفاعل بهوت والجمع بُهُت مثل : رسول ورسل .
(٢) رواه البخارى ومسلم والنسائى .

وذاك ذهب إلى عمر ، وكل منهما كان يمسك وجهه خشية أن يطمس ، إذن فقوله : « نطمس وجوهاً » أى نجعلها مثل « القفا » مجرد قطعة لحم من غير تمييز ، أو نحول بينهم وبين قصدهم أى لا نمكنهم من الوصول إلى ما يريدون من صدهم الناس عن الإيمان برسول الله . . « من قبل أن نطمس وجوهاً فنردها على أدبارها أو نلعنهم » أو أن نطردهم من رحمتنا ومن ساحة إيماننا ، فيقول الحق :

﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾

(من الآية ٧ سورة البقرة)

ماداموا هم قد كفروا نقول لكل منهم : ألم تكن تريد أن تكفر؟ والله سيزيد لك الختم على قلبك وسنعينك على هذه الحكاية أيضاً قال تعالى :

﴿ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ﴾

(من الآية ١٠ سورةالبقرة)

فإذا كنت أنت تريد هذه فسنعطيك ما فى نفسك « فنردها على أدبارها أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت » وسبحانه يخاطب اليهود ، واليهود يعرفون قصة السبت ويعرفون أنها واقعة حدثت ، وطردهم الله وأهلكهم ولعنهم وأعدّ لهم عذاباً عظيماً . إذن فهو لا يأتيهم بمسألة وعيد بدون رصيد ، لا ، فهذا وعيد يسبقه رصيد . . أنتم ـ يا معشر يهود ـ تؤمنون به وتذكرونه وله تاريخ عندكم ، « كما لعنا أصحاب السبت » ، وقصة أصحاب السبت معروفة وإن كانت ستأتى فى سورة أخرى ، و« السبْت » وهو السكون والراحة ، ومنه السُّبات أى النوم ، فسبت يسبت يعنى سكن واستقر وارتاح .

« أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت » ، واللعن قالوا فيه : إنه الطرد والإهانة ، وقالوا فى معناه : إنه الإهلاك . والذين يحاولون أن يشككوا فى مفهومات آيات القرآن يقولون : أنتم لا تقفون عند معنى واحد للكلمة ، إما أن يراد كذا ، وإما أن يراد كذا . نقول لهم : أنتم ليست لكم ملكة فى اللغة حتى وإن تعلمتم اللغة فتعلمكم للغة تعلم صنعة لا تعلم ملكة . وتعلم الصنعة يعطيك القاعدة ولكن لا يعطيك قدرة وضع اللفظ فى معناه الحقيقى ولا بيان المراد منه ـ واللعن ـ إذا كان

معناه الطرد ـ كان يجب أن تفهموا أن الطرد يقتضى طارداً ، ويقتضى مطروداً ويقتضى مطروداً منه .

ومن الذى يَطْرد ؟.
ومن الذى يُطرد ؟.
وعن أى شيء يُطرد ؟.

حين تأخذون المعنى على هذاالوضع لا تجدون غضاضة فى أن تتعدد معانى الطرد . فهب أنك تجلس للأكل ثم جاءك كلبك الذى تعتز به للحراسة ليحوم حول مائدتك ، ماذا تصنع له ؟. تطرده عن المائدة ، ذلك طرد . وهب أنّ ابنك مثلاً صنع شيئاً وعندك ضيوف فأردت أن تخرجه من المجلس وقلت له : اذهب عند أمك ، هذا طرد .

وإذا كان ذنب الابن كبيراً ولك سيطرة فأنت قد تخرجه من البيت فلا يجلس فيه ، وهذا طرد . وإذا كان ذنب الابن لا يُحتمل فأنت تخرجه من القرية ، وهذا طرد . فإذا كان هناك إنسان قد أذنب ذنباً كبيراً وكنت صاحب قوة نافذة فأنت تخرجه من الحياة كلها فتكون قد أبعدته من الحياة كلها . إذن فكل ذلك طرد . فإن أردنا الخزى والهوان يتأتى اللعن ، وإن أردنا الإهلاك فقد هلك منهم الكثير فى المعارك ونالوا الخزى والهوان ؛ لأننا سبينا نساءهم وبناتهم ، وقهرناهم ، وأهلكناهم ، وأخرجناهم من ديارهم إلى بلاد الشام وإلى أذرعات ، وأهلكهم الله بالموت . إذن فكل معانى الطرد تتأتى . فقد جاء يمس كل الذى حدث لهم ، ولكنه يختلف باختلاف الطارد ، وباختلاف المطرود ، وباختلاف المطرود منه .

وحين يقول الحق : « كما لعنّا أصحاب السبت » فهذا يدل على أن اللعن له أشياء مختلفة ، أنا سآخذ منها لعن أصحاب السبت ، والسبت يوم من أيام الأسبوع ، أى وحدة زمنية فى الأسبوع ، ونلحظ أن بقية أيام الأسبوع السبعة فيها إشارات إلى العدد، يوم الأحد يعنى واحداً ويوم الاثنين نعنى اثنين.وهكذا فى الثلاثاء والأربعاء والخميس، ففيه خمسة أيام بأعداد موجودة إلا يومين اثنين لم يؤثر فيهما العدد : يوم « الجمعة »،

ويوم « السبت » ، وهذان اللفظان أخذا معانى غير العددية ، ولكنهما يأخذان معنى العددية بالبعدية أو القبلية .

يعنى عندما نقول مثلاً « الخميس » فيكون يوم الجمعة يعنى « ستة » ، إنما لم يقل « ستة » وقال « الجمعة » ويوم « السبت » يكون سبعة ، إذن فأنت تستطيع أن تضع العدد البعدى بعد الأعداد : واحد . اثنين ، ثلاثة ، أربعة ، خمسة ، ستة ، سبعة ، لكننا نجد أن لهما اسمين مختلفين ؛ لأن فى كل واحد منهما حدثاً غلب العددية . فـ« الجمعة » للاجتماع ، فتركنا كلمة « ستة » وأخذنا بدلا منها « الجمعة » ، و« السبت » للسكون ؛ لأن مادتها فى اللغة : سبت يسبت ، أى سكن وهدأ ولم يتحرك ، مثل قول الحق :

﴿ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ ﴾

(سورة النبأ)

أى سكوناً وهدوءاً .

والحق سبحانه وتعالى حين يريد ابتلاء بعض خلقه ليعْلَم منازلهم من الإيمان واليقين والانصياع لأوامر الحق ، يأتى فيحرم حدثاً فى زمن وهو مباح فى غير ذلك الزمن ، فقد يحرم الصيد فى أحد الأيام وكان مسموحاً بأن يصطادوا فى كل يوم . وكانوا يأتون بالسمك كرزق من البحر ، فجاء فى هذا اليوم خصوصاً وقال لهم : لاتصطادوا فى هذا اليوم ، أى أن يسكنوا عن الحركة ، هذا هو « السبت » بمعنى السكون ، و« أصحاب السبت » هم الجماعة الذين اجتمعوا على حادثة تتعلق بالسبت أو تتعلق بالسكون ، أى تتعلق بعدم العمل وبعدم الحركة ، وقضية أصحاب السبت شرحها الحق وتكلم عنها إجمالياً فى سورة البقرة :

﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ ﴾

(من الآية ٦٥ سورة البقرة)

وقوله هنا: « كما لعنَّا أصحاب السبت » ، لكن القصة بالتفصيل ذكرها الحق سبحانه وتعالى وقال مخاطباً رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فالله الآمر ، والرسول هو الذى سأله الله أن يسأل ، والمسئولون هم أصحاب الحكاية وهم اليهود ، وحين

يطلب الحق خبراً مؤكداً من الأخبار ، قد يلقيه خبراً فيصدقه أهل اليقين الذين يثقون فى الله ويصدقونه ، وقد لايتركه خبراً ، بل يأتى به فى صيغة الاستفهام ؛ لأنه واثق أن المستفهم منه لايجد جواباً إلا الحق الذى يريده سبحانه وتعالى ، وعندما يقول ربنا لنبيه :

﴿ وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴾

(١٦٣ سورة الأعراف)

ذلك حدث لايستطيعون إنكاره ، وكان من الممكن أن يقص الله الحدث من عنده ، ولكنه يريد أن يوثق الحدث توثيقاً لايحتمل إنكار منكر ولا مكابرة مكابر ، فأوضح : أنا لاأقول عن الحدث ، ولكن يامحمد اسألهم أنت عن هذه الحادثة فسيكون جوابهم جواباً مطابقاً لما حدث ، لأنها مسألة واضحة لا تنكر .

« واسألهم عن القرية التى كانت حاضرة البحر » وكلمة « قرية » نأخذها من « القِرَى » . والقِرَى هو أن تكرم واحداً مقبلاً عليك كضيف مثلاً . ولكن ليس عندك مايعطيه « قرى كاملاً » أى مايقيم حياته لأيام أو شهور ، بل عندك « قرْيَة واحدة » ، أى أكلة واحدة تكفيه لوجبة واحدة ، فمادام قد مر عليك فأنت تعطيه قرية واحدة ـ وجبة واحدة ـ فإن كانت البلد « أم القرى » : فيكون فيها حاجات كثيرة ؛ أو لأنها أعظم القرى شأناً .والقَرْية التى جاء ذكرها فى سورة الأعراف يتم تعريفها بأنها : « حاضرة البحر » والحاضر هو القريب . فيقال : حضر فلان أى أصبح على مقربة منى ، و« الحاضرة » أيضاً هى : التى إن طلبت فيها شيئاً وجدته ، كما قال شوقى ـ رحمة الله عليه :

ليلى بجانبى كل شىء إذن حضر

فكذلك « الحضر » معناه : أن كل حاجة فيها موجودة ، أما البادية فحاجاتها تكون على قدر أهلها فقط ، ولذلك فـ« حضر » ضد « بادية » وأخذوا منها « الحواضر » مثل العواصم الآن ، إذن فقوله : « حاضرة البحر » تأخذها بمعنى قريبة

من البحر ، أو أنها هى البلد المتحضر على البحر ، أو الجامعة لأنواع الخير على البحر ، وهى التى كانت بين « مدين » و« الطور » واسمها « أيلة » .

وقصتهم : أن الله أراد أن يبتليهم بشىء وهو : تحريم الصيد فى ذلك اليوم ، ومادامت « حاضرة البحر » ، فرزقهم على الصيد ، فقال : لاتصطادوا فى هذا اليوم ، ولكن الله حين يريد أن يحكم الابتلاء ليعلمَ علم إبراز لخلقه مدى تنفيذهم للابتلاء ، وإلا فهو عالم ماذا سيفعلون . فقال : لاتصطادوا فى هذا اليوم . قد يقول قائل : لماذا حرم هذا الحدث فى ذلك الزمن ؟ . نقول له : أنت تريد أن تعلم من الله أن كل تحريم له مضارة ، نقول لك : لا ، فقد يكون تحريم ابتلاء واختبار ، ولذلك قال تعالى :

﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ ﴾

(من الآية ١٦٠ سورة النساء)

« الطيبات » هى الحلال ، لكنهم هم فعلوا مايستحقون عليه العقاب ، فقلنا لهم : مادمتم تجاوزتم حدودكم وأخذتم ماليس حلاً ، فجعلتموه حلاً فلابد أن أجعل من الحل الذى هو لكم حراماً عليكم ، هذه مقابل تلك ، فلماذا اجترأت على محرم فأحللته ؟وما دمت قد فعلت ذلك ولم ترتض تحليلى وتحريمى فأنا سآخذ شيئاً من الذى كان حلاً لك وأحرمك منه .

إذن فلا يتطلب من كل تحريم أن يكون فيه مضارة ، إن الحق سبحانه وتعالى يريد أن يكون الإيمان له أصول ثابتة ، ولذلك يقول :

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١١﴾ ﴾

(سورة الحج)

إذن فالحق لايريد من الناس أن يعبدوه على حرف . . أى على طرف من الدين بل فى وسطه وقلبه . . أى أنهم على قلق واضطراب فى دينهم لا على سكون وطمأنينة ، كالذى على طرف العسكر والجيش . . فإن أحسّ بظفر ونصر وغنيمة سكن واطمأن ، وإلاّ فرّ وطار على وجهه . هو يريد منك إيماناً حقاً ، ولذلك فبعض الناس

يقول : سأزكى لأزيد من مالى . نقول له : اخرج من بالك ظنك أن مالك سيزيد ، بل أنت تزكى لأن الله طلب منك أن تزكى . أما أن يزيد مالك فهذا شيء آخر ، فلعل الله يبتلى إيمانك ويريد أن يرى : أأنت مقبل على الحكم لأن الله قاله ، أم لأنه سيعطيك ربحاً زائداً ؟ وسبحانه حين يعطى ربحاً زائداً ستزكيه أيضاً ، لكن هو يريد من يقبل على الحكم لأنه سبحانه قد قاله .

وقد حرم الحق سبحانه وتعالى عليهم الصيد يوم السبت بظلم منهم ، وكان من الجائز جداً ألَّا يكون هناك مغريات على المخالفة ، ولكنه أراد أن يبلوهم بلاءً حقاً فيأتى فى اليوم المحرم فيه الصيد ويُكْثِر من السمك ، ترى السمكة ظاهرة مثل شراع المركب ، وهذا معناه إغراء بالمخالفة ، فلو لم يظهر السمك فى هذا اليوم لكانت المسألة عادية ، لكنهم حين ينظرون السمك وقد « شرع » مثل المراكب سابحاً فى الماء ، « إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شُرَّعاً ويوم لايسبتون لاتأتيهم » .

إذن فالابتلاء جاء من أكثر من زاوية : يوم سبتهم تأتى الحيتان شُرَّعاً ، وفى غير يوم السبت لاتأتى ، وهذا الأمر يجعلهم فى حالة قلق . فلو كانوا على اليقين والإيمان لالتزموا بالأمر .

والله سبحانه وتعالى يريد أن يمحصهم التمحيص الدقيق ، فماذا هم فاعلون ؟ هم يريدون أن ينفذوا الأمر ، إنما طمعهم المادى يصعب عليهم ألا يصطادوا هذا السمك الذى يأتيهم يوم السبت ، ولو أنهم وثقوا بعطاء الله فى المنع لنجحوا فى الاختبار . ذلك أن الحق قد يجعل فى المنع عطاء ، لكن مَن الذى يتنبه لذلك ؟

لم يقولوا : ما عند الله خيرمن هذا السمك الشُّرع الذى يأتينا ويلفتنا . لكنهم احتالوا حيلاً ، مثلاً : صنعوا من الأسلاك والحبال « مصايد » و« جُبَّى » .. و« ملاقف » يحجزون بها هذا السمك الشُّرع فى الماء ثم يأتون فى اليوم التالى فيجدونه محبوساً ، وظنوا أنهم بذلك احتالوا على الله ولم يتفهموا معنى الصيد ، فالصيد هو جعل السمك فى حيازتك ، ومادمت قد عملت بحيث تتمكن من حيازة السمك فى أى وقت تكون قد اصطدت . إذن فهم يحتالون على الله ؛ ولذلك قال سبحانه :

﴿ وَسْئَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾

(١٦٣ سورة الأعراف)

ومادام الواحد منهم يفسق ويحل لنفسه شيئاً حرمه ربنا عليه ، فيوضح له ربنا : مادمت قد فعلت ذلك فسوف أحرم عليك شيئاً أحللته لك ؛ لأنك أعطيت لنفسك حرية فى أن تُحل ماحرمت ، فأنا سأحرم ما أحللت لك .

﴿ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

وهذا دليل على وجود عناصر خير فيها بينهم ، وقالت عناصر الخير : اتقوا الله . فقال لهم آخرون : لِمَ تعظون قوماً الله مهلكهم ، إذن فهناك ثلاث جماعات : جماعة خالفوا ، وجماعة أرادوا أن يعظوهم كى لايقعوا فى المخالفة ، وجماعة لاموا من يعظونهم وقالوا : دعوهم ليهلكهم الله أو يعذبهم .. « الله مهلكهم أو معذبهم عذاباً شديداً » ، فقالت الجماعة التى تعظ : نحن نريد بالوعظ أن يكون لنا عذر أمام الله بأننا لم نسكت على المنكر ونحن نعمل لأنفسنا . « قالوا معذرة إلى ربكم » وأيضا فلعلهم يتقون ربّهم بترك ماهم فيه من المعصية والفسق . فماذا حدث ؟ . . يقول الحق :

﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

ومادام قد قال : « أنجينا » ، فهناك مقابلها وهو « أهلكنا » ، إذن فجاء هنا « اللعن » بمعنى الهلاك .

ويختم الحق الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها : « وكان أمر الله مفعولاً » نعم لأن الحق سبحانه وتعالى بقدرته الشاملة وصفات جلاله الكاملة ، لا يتخلف شىء فى

وجوده عن أمره ، فإذا وعد بشيء فلابد أن يحدث ، فأمر الله غير أوامر البشر ، فأوامر البشر هي التي تتخلف أحياناً سواء أكانت وعداً أم وعيداً ، لأنك قد تعد إنساناً بخير ، ولكنك ساعة أداء الخير لا تستطيعه ، فتكون قدرتك هي التي تحتاج إلى أداء الخير . أو توعد إنساناً وتهدده بشرّ ، وستعمل فيه كذا غداً ، وقد يأتيك غداً مرض يقعدك فلا تستطيع إنفاذ وعيدك .

إذن فأنت قد لا تستطيع إنفاذ شيء من وعدك ولا شيء من وعيدك ؛ لأن قدرتك من الأغيار ، ومادامت قدرتك من الأغيار فقد توجد أو لا توجد . لكن الحق سبحانه وتعالى إذا قال بوعد أو قال بوعيد أيوجد شيء يغير هذا ؟ لا . إذن فساعة يقول ربنا بوعد أو وعيد فاعرف أن هذا سيحدث في الوعد ، أما في الوعيد فإن الله قد يتجاوز عنه كرما وفضلا ما عدا الشرك بالله .

ونعرف أن الحق سبحانه وتعالى يوزع الأحداث على الزمن ، فلا زمن يقيده ؛ لأنه يملك كل الزمن ، أما أنت كواحد من البشر فتتكلم عن الحدث حسب زمانه.فإن كان هناك حدث قد حصل قبل أن تتكلم أنت عنه ، فتقول : فعل « ماض » . أي أن الحدث قد وقع في زمن قبل زمن تكلمك ، وإن كان الحدث يقع في وقت تكلمك ، كان الفعل « مضارعا » ، والمضارع صالح للحال وللاستقبال ، تقول : فلان يأكل . وذلك يعني أنه يأكل الآن . وإن قلت : « سيأكل » - أي أنه سيأكل بعد قليل ، فإذا قلت عن أمر مستقبل إن هذا الأمر سيحدث ، أتملك أنت أن يحدث ؟ لا . إذن فالكلام منك على الاستقبال قد يكذب وقد يصدق ، لكن إذا قال الحق وأخبر عن أمر مستقبل وعبّر عنه بالفعل الماضي فمعنى ذلك أنه حادث لا محالة ؛ ولذلك فالزمن عند ربنا مُلغى .

وعندما نقرأ قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾

(من الآية ١ سورة النحل)

« وأتى » هذه فعل ماض ، وقوله : « أتى » يدل على أنه أمر قد حدث قبل أن يتكلم ، وقوله : « فلا تستعجلوه » دلّ على أنه لم يحدث ،فالذي يشكك في القرآن يقول : ما هذا الذي يقوله القرآن .؟ يقول : « أتى » وهو لم يأت ؟ . . نقول له : هذا الكلام عندك أنت . لكن إذا قال الله : إنه « أتى » فهو آتٍ لا محالة ، فاحكم

على الحدث المستقبل من الله على أنه أمر كائن كما يكون كائناً ماضياً ، مادام قال فلا رادّ لأمره . « أتى أمر الله » فهى تعنى سيأتى . ولا توجد قدرة فى خلقه تصرف مراده أو تعجزه عن أن يفعل .

وقوله سبحانه : « وكان أمر الله مفعولا » جاء لأنه قال من قبل « أو نلعنهم » هذه مستقبل . وقد يقول قائل : أن « نلعنهم » تعنى أن اللعنة لم تأت وقد لا تحدث ، ونقول: لا ؛ لأن أمر الله كان مفعولاً ، فإياك أن تأخذ « نلعن » هذه التى للمستقبل كى تطبقها عند ربنا ، لأن الحق سبحانه وتعالى يوضح لك : أنت الذى عندك المستقبل ، والمستقبل قد يقع منك أو لا يقع ؛ لأنك لا تملك أسباب نفسك ، تقول : سأعمل الشىء الفلانى غداً . وقد يأتى غداً وتكون أنت غير موجود هذه واحدة، أو تقول: سأقابل فلانا. وفلان هذا قد لا يكون موجوداً فقد يموت، أو قد يتغير رأيك ويأتيك الشىء الذى كنت تطلبه قبل أن تتكلم مع ذلك الإنسان ، أو قد تقول : أنا سأنتقم من فلان ، وعندما يأتى وقت الانتقام يهدأ قلبك .

إذن فأنت لا تملك شيئاً من هذا ، فلا يصح أن تجادل ؛ ولذلك يعلمنا الله الأدب مع الأحداث ومع الكون ومع المكون ، ويخرجنا عن أن نكون كذابين فيقول لرسوله :

﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾

(الآية ٢٣ وجزء من ٢٤ سورة الكهف)

يعلمك الحق ذلك حتى لا تكون كذاباً ، فإن قلت : أنا فاعل ذلك غداً ثم لا تفعله ، ومادمت لا تفعله فتكون كذاباً مجترئا ؛ لأنك افترضت فى نفسك القدرة على الوجود .

وكل حدث من الأحداث مثلما قلنا : يحتاج إلى « فاعل » ، ويحتاج إلى « مفعول » يقع عليه ، ويحتاج إلى « زمن » ويحتاج إلى « سبب » ، ويحتاج إلى « قدرة » تبرزه فى المستقبل ، قل لى بالله عليك : ماذا تملكه من عناصر الفعل ؟

أنت لا تملك وجود نفسك ولا تملك وجود المفعول ولا تملك السبب ، ولا تملك

القدرة ، ولا تملك شيئاً ، فأدباً منك عليك أن تقول : « إن شاء الله » فإن لم يحدث تقول : أنا قلت إن شاء الله وهو لم يشأ ، فتكون قد خرجت من التبعة ، ولم تكن كذاباً . إذن فقول الحق : « وكان أمر الله مفعولاً » لأنه قال : « أو نلعنهم » . و« نلعن » هذا فعل مضارع ويأتى من بعد ذلك ، فواحد قد يقول : إنه سبحانه قال : سيلعن ، فهل ستتحقق اللعنة ؟ نقول له : نعم ؛ لأنه قال : « وكان أمر الله مفعولاً » . وكذلك ساعة تقرأ أو تقول : « وكان الله غفوراً رحيماً » . فعليك أن تضيف : ولايزال غفوراً رحيماً ، لأن صفة الرحمة لم توجد له ساعة وجد المرحوم ، لا . بل معنى « رحيم » أنه سبحانه يرحم غيره والذى وُجد ليتلقى رحمته سبحانه إنما جاء بعد أزليّة رحمة الله ومغفرته. فسبحانه أزلىّ قديم . والصفة أزلية وقديمة بقدمه - سبحانه قبل أن يوجد من يرحمه ، وهو لا تأتيه أغيار . ومادام سبحانه رحيماً قبل أن يُوجِدَ مرحوماً له فإذا أوجد مرحوماً له ، أتنحلّ الصفة أم تبقى ؟ إنها باقية دائماً فكان الله ولا يزال غفوراً رحيماً ، « وكان أمر الله مفعولاً » نعم ، لأنه قد يفعله بأسبابه وقد يفعله بدون أسباب فالأمر متروك لمشيئته فإما أن يوجد الشىء من غير سبب أو يوجده بسبب، والشىء الموجود بالسبب مخلوق بالمسبب ـ فسبحانه خلق الأسباب .

وبعد ذلك ينتقل الحق سبحانه إلى قضية عقدية أساسية فى صلة الإنسان بالحق سبحانه وتعالى . يقول :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾ ﴾

هذه من أرجى الآيات فى كتاب الله ، ولذلك فحينما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما موجبات الإيمان ؟ أى ما الذى يعطينا الإيمان ؟ فقال صلى الله عليه وسلم :

« من قال لا إله إلا الله دخل الجنة » .

وعن عثمان رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من مات وهو يعلم أنه لا إله إلا الله دخل الجنة »[١]

ونحن نقول إن من يشرك بالله فهو يرتكب الخيانة العقدية العظمى ، وقد أخذنا هذا المصطلح من القوانين الوضعية ، وإن كانت القوانين الوضعية ليس غرضها أن تؤكد قضايا دينية ، لكن غفلتهم تجعلنا نلتقط منها أنها تؤكد القضايا الدينية أيضاً. هب أن جماعة قاموا بحركة ، وبعد ذلك استغل واحد منهم الحركة فى نفع خاص له ، وواحد آخر استغل الحركة فى أن تكون له لا للآخر ، أى ينقلب عليه ، فالأول القائم على النظام يسميها خيانة عظمى ، أما من لا يقاوم بغرض خلع الحاكم ولكنّه يظلم الناس فقد يعاقبه الحاكم على ما حدث منه وليس على الخيانة العظمى. إذن ففى قانون البشر أيضاً خيانة عظمى ، وفيه انحراف وهو الذى لا يتعرض للسيادة ، لكن أى حركة تتعرض للسيادة يكون فيها قطع رقاب ، وكل أمر آخر إنما يؤخذ بدرجة من العقوبة تناسب ذنبه .

فالحق سبحانه وتعالى يوضح : أصل القضية الإيمانية أن الله سبحانه وتعالى يريد منكم أن تعترفوا بأنه الإله الواحد الذى لا شريك له ، وحين تعترف بأنه الإله الواحد الذى لا شريك له . فأنت تدخل حصن الأمان ، ولذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الحديث الشريف :

« أشهد ألا إله إلا الله وأنى رسول الله لا يلقى الله بهما عبد غير شاك منهما إلا دخل الجنة »[٢] .

وأبو ذر عندما قال للنبى فى محاورة بينهما حول هذه الآية ، قال له : « مامن عبد قال لا إله إلا الله ثم مات على ذلك إلا دخل الجنة ، قلت : وإن زنى وإن سرق ؟ قال وإن زنى وإن سرق ، قلت وإن زنى وإن سرق ؟ قال وإن زنى وإن سرق (ثلاثا)

---

(١) رواه مسلم .
(٢) رواه مسلم .

ثم قال فى الرابعة : على رغم أنف أبى ذر[1] .

لقد كان أبو ذر غيوراً على حدود الله ، فهل ساعة قال رسول الله : على رغم أنف أبى ذر ؛ هل هذه أحزنت أبا ذر ؟ لا ، لم تحزنه ، ولذلك عندما كان يحكيها ويقولها : من قال لا إله إلا الله دخل الجنة وإن رغم أنف أبى ذر وهو مسرور ، لماذا ؟ لأنها فتحت باب رحمة الحق ، لأنه إذا لم يكن هذا فما الفارق بين من اعتقدها وقالها وبين من لم يقلها ؟ فلا بد أن يكون لها تمييز . وكل جريمة موجودة فى الإسلام ـ والحق سبحانه قد جرمها ـ فهذا يعني أنها قد تحدث . مثال ذلك . . . يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا ﴾

(من الآية ٣٨ سورة المائدة)

وهذا يعنى أنه من الجائز أن يسرق المؤمن ، وكذلك قد يزنى فى غفلة من الغفلات ، وفى أسس الاستغفار يأتى البيان الواضح : من الصلاة للصلاة كفارة ما بينها ، الجمعة للجمعة كفارة ، الحج كفارة ، الصوم كفارة .

عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة كفارة لما بينهن ما لم تُغْشَ الكبائر »[2] .

أى أن ربنا قد جعل أبواباً متعددة للمغفرة وللرحمة ، وهو سبحانه يقول : « إن الله لا يغفر أن يشرك به » وهذه المسألة ليست لصالحه إنما لصالحكم أنتم حتى لا تتعدد آلهة البشر فى البشر ويرهق الانسان ويشقى من كثرة الخضوع لكل من كان قويا عنه ، فأعفاك الله من هذا وأوضح لك : لا ، اخضع لواحد فقط يكفك كل الخضوع لغيره ، واعمل لوجه واحد يكفك كل الأوجه ، وفى ذلك راحة للمؤمن .

إن الإيمان إذن يعلمنا العزة والكرامة ، وبدلاً من أن تنحنى لكل مخلوق اسجد للذى خلق الكون كله بصفات قدرته وكماله ، فلم تنشأ له صفة لم تكن موجودة ، هل أنتم زدتم له صفة ؟ لا . فهو بصفات الكمال أوجدكم وبصفات الكمال كان قيوماً عليكم ، فأنتم لم تضيفوا له شيئاً ، فكونك تشهد أن لا إله إلا الله .

(١) رواه مسلم .
(٢) رواه مسلم والترمذى .

ما مصلحتها بالنسبة لله ؟ إن مصلحتها تكون للعبد فحسب .

ولذلك قلنا:إن الحق سبحانه وتعالى يريد من عباده أن يجتمعوا كل أسبوع مرة ؛ لأنك قد تصلى فرضاً فرضاً في مصنعك أو فى مزرعتك أو فى أى مكان ، إنما يوم الجمعة لا بد أن تجتمع مع غيرك ، لماذا ؟ لأنه من الجائز أنك تذل لله بينك وبينه ، تخضع وتسجد وتبكى بينك وبين الله ، لكنه يريد هذه الحكاية أمام الناس ، لترى كل من له سيادة وجاه يسجد ويخشع معك لله.وفى الحج ترى كل من له جاه ورئاسة يؤدى المناسك مثلك ، فتقول بينك وبين نفسك أو تقول له : لقد استوينا فى العبودية ، فلا يرتفع أحد على أحد ولا يذل له بل كلنا عبيد لله ونخضع له وحده .

إذن فالمسألة فى مصلحة العبد ، « إن الله لا يغفر أن يشرك به » ، لأنه لو غفر أن يشرك به لتعدد الشركاء فى الأرض ، وحين تتعدد الشركاء فى الأرض يكون لكل واحد إله ،وإذا صار لكل واحد إله تفسد المسألة ، لكن الخضوع لإله واحد نأتمر جميعاً بأوامره يعزنا جميعاً . . فلا سيادة لأحد ولا عبودية لأحد عند أحد ، فقوله : « إن الله لا يغفر أن يشرك به » . . هذا لمصلحتنا .

« ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » .

وروى ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس قال أتى وحشىٌّ وهو قاتل سيدنا حمزة فى غزوة أحد ، أتى على النبى صلى الله عليه وسلم ـ فقال : يا محمد أتيتك مستجيرا فأجرنى حتى أسمع كلام الله.فقال رسول الله : « قد كنت أحب أن أراك على غير جوار فأما إذ أتيتنى مستجيرا فأنت فى جوارى حتى تسمع كلام الله قال : فإنى أشركت بالله وقتلت النفس التى حرم الله وزنيت هل يقبل الله منى توبة ؟ فصمت رسول الله حتى نزلت :

﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَـٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾

(سورة الفرقان)

فتلاها عليه فقال : أرى شرطا فلعلىّ لا أعمل صالحا ، أنا فى جوارك حتى أسمع كلام الله فنزلت :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾ ﴾
(سورة النساء)

فدعا به فتلا عليه قال : فلعلّ ممن لا يشاء ، أنا فى جوارك حتى أسمع كلام الله فنزلت :

﴿ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ ﴾
(سورة الزمر)

فقال نعم : الآن لا أرى شرطا فأسلم .

إذن فالمسألة كلها تلطف من الخالق بخلقه ، واعتبار عمليات الغفلة عمليات طارئة على البشر ، ومادام الحق يقنن تقنينات فمن الجائز أنها تحدث ، لكن إذا حدثت معصية من واحد ثم استغفر عنها ، إياك أن تأتى بسيرتها عنده مرة أخرى وتذكره بها وافرض أن واحداً شهد زوراً ، افرض أن واحداً ارتكب ذنباً ، ثم استغفر الله منه وتاب . إياك أن تقول له : يا شاهد الزور ، لأنه استغفر من يملك المغفرة ، فلا تجعله مذنباً عندك ، لأن الذى يملكها انتهت عنده المسألة .

لماذا ؟ لكيلا يذلّ الناس بمعصية فعلت ، بل العكس ؛ إنّ أصحاب المعاصى الذين أسرفوا على أنفسهم يكونون فى نظر بعض الناس هينين محقرين . ولذلك نقول: إن الواحد منهم كلما لذعته التوبة وندم على ما فعل كُتبت له حسنة ، فعلى رغم أنه ذاق المعصية لكنه مع ذلك تاب عنها ، وهذا هو السبب فى أن الله يبدل سيئاتهم حسنات ، وعندما نعلم أن ربنا يبدل سيئاتهم حسنات فليس لنا أن نحتقر المسرفين على أنفسهم . بل علينا أن نفرح بأنهم تابوا ، ولانجعل لهم أثرا رجعيا فى الزلة والمعصية .

« ومن يشرك بالله فقد افترى إثماً عظيماً » و « الافتراء » هو الكذب المتعمد . لأن

هناك من يقول لك قضية على حسب اعتقاده ، وتكون هذه القضية كاذبة ، كأن يقول لك : فلان زار فلاناً بالأمس .

هو قال ذلك حسب اعتقاده بأن قالوا له أو رأى أثرا للزيارة ، على الرغم من أن مثل هذه الزيارة لم تحدث فيكون كذباً فقط ، أما الشرك فهو تعمد الكذب على الله وهذا يطلق عليه : « افترى إثماً عظيماً » لأنه مخالف لوجدانية الفطرة ، كأن وجدانية الفطرة تقول : لا تقل إلا ما تعرفه فعلاً وأنت متأكد بل عليك ألاّ تخالف فطرتك متعمدا وتجعل لله شريكا .

والحق سبحانه وتعالى عندما يقول : لا إله إلا الله وحده لا شريك له . إما أن تكون هذه الكلمة صادقة فننتهى ، وإما ألا تكون صادقة ـ والعياذ بالله ـ أى أن هناك أحداً آخر معه ، وهذا الآخر سمع أن هناك واحداً يقول : لا إله إلا أنا . أسكت أم لم يسمع ؟ إن لم يكن قد سمع فيكون إلهاً غافلاً ، وإن كان قد سمع فلماذا لم يعارض ويقول : لا ، لا إله إلا أنا ، ويأتى بمعجزة أشد من معجزة الآخر ولم يحدث من ذلك شيء. إذن فهذه لا تنفع وتلك لا تنفع ، فـ « لا إله إلا الله » حين يطلقها الله ويأتى بها رسول الله ويقول الله : أنا وحدى فى الكون ولا شريك لى ، ولم ينازعه فى ذلك أحد فالمسألة صادقة لله بالبداهة ولا جدال .

« ومن يشرك بالله فقد افترى إثماً عظيماً » والافتراء كما يكون فى الفعل وفى الكلام ويكون فى الاعتقاد أيضاً . « إثم عظيم » ، وهذا يعنى أن هناك إثماً غير عظيم ، « الإثم العظيم » هو الذى يُخلّ قضية عقدية واحدة فى الكون تشمل الوجود كله هى أنه لا إله إلاّ الله .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى عوْداً على هؤلاء اليهود :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾ ﴾

وتقدم أن أشرنا إلى قول الحق : « ألم تر » ، فإن كانت الصورة التى يخاطب عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم مرئية أمامه تكن الرؤية على حقيقتها ، وإن لم تكن مرئية أمامه وكان مراد الحق سبحانه أن يعْلمه بها وهى غير معاصرة لرؤياه فالحق يقول : « ألم تر » يعنى : ألم تعلم ، وكأن العلم بالنسبة لخبر الله يجب أن يكون أصدق مما تراه العين ، لأن العين قد تكذبه والبصر قد يخدعه ، « ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم » و « التزكية » هى أولاً : التطهير من المعايب وهذا يعنى سلب النقيصة ، وبعد ذلك إيجاب كمالات زائدة فيها نماء ، والتزكية التى زكّوا بها أنفسهم أنهم قالوا :

﴿ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ﴾

(من الآية ١٨ سورة المائدة)

وجاء الرد عليهم فى هذه القضية بقوله الحق :

﴿ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ ﴾

(من الآية ١٨ سورة المائدة)

يعنى : إن كنتم أحباءه وأبناءه فلماذا يعذبكم ؟ إذن فهذه قضية باطلة ، ثم ما فائدة أن تقولوها لنا ؟ أنملك لكم شيئاً ؟ إذا كنتم تكذبونها على مَن يملك لكم كل شيء وهو الله ـ سبحانه ـ فما لنا نحن بكم ؟ والتزكية التى فعلوها أنهم مدحوا أنفسهم بالباطل وبرأوا أنفسهم من العيوب وادعوا أنهم أبناء الله وهم ليسوا أبناء الله وليسوا أحباءه ، وقالوا أيضاً :

﴿ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ﴾

(من الآية ١١١ سورة البقرة)

وتلك أيضاً قضية باطلة ، وهنا نسأل : هل إذا زكى الإنسان نفسه بحق تكون تلك التزكية مقبولة ؟ . نقول : علينا أن نسأل : ما المراد منها ؟ إن كان المراد منها الفخر تكن باطلة ، لكن تكون التزكية للنفس واجبة فى أمر يحتم ذلك . مثاله : عندما تركب جماعة زورقاً ويكون القائد أو من يجدف أو يمسك الشراع متوسط الموهبة ، ثم قامت عاصفة ولا يقوى متوسط الموهبة على قيادتها.هنا يتقدم إنسان يفهم فى قيادة الزوارق أثناء العواصف ويقول لمتوسط الموهبة : ابتعد عن القيادة فأنا أكثر فهماً وكفاءة وقدرة منك على هذا الأمر ويزحزحه ويمسك القيادة بدلاً منه ، هذه تزكية

للنفس ، وهى مطلوبة ، لأن الوقت ليس وقت تجربة ، وهو يزكى نفسه بحق ، إذن فهناك فرق بين التزكية بالباطل وبين التزكية بالحق .

ونحن نعلم قصة سيدنا يوسف ، ونعلم قصة رؤيا الملك حيث رأى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف !! وكان المفروض العكس ، انظر إلى الملحظية ، لأن سنين الجدب ستأكل سنين الخصب ، لكن من الذى يتنبه إلى رموز الرؤيا . فتعبير الرؤيا ليس علماً . بل هبة من الله يمنحها لأناس ويجعلهم خبراء فى فك رموز ـ شفرة ـ الرؤيا ، ودليل ذلك أن الملك قال هذه الرؤيا للناس فقالوا له : « أضغاث أحلام » ، و « أضغاث » مفردها « ضغث » وهو الحشيش المخلوط والمختلف ، لكنهم أنصفوا فقالوا :

﴿ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَـٰمِ بِعَـٰلِمِينَ ﴾ (من الآية ٤٤ سورة يوسف)

لقد أنصفوا فى قولهم . لأن الذى يقول لك : لا أعلم فقد أفتى ، فمادام قد قال : لا أدرى فسيضطرك إلى أن تسأل سواه ، لكن إن قال لك أى جواب فستكتفى به وتتورط ، إذن فمن قال : لا أدرى فقد أجاب . فهم عندما قالوا : أضغاث أحلام فقد احتالوا واحتاطوا لأنفسهم أيضا وقالوا : « وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين » ، وكان الحق سبحانه وتعالى قد صنع التمهيد ليوسف وهو فى السجن عندما دخل عليه الفتيان :

﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ ۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا ۖ وَقَالَ ٱلْـَٔاخَرُ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ ۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ ﴾
(من الآية ٣٦ سورة يوسف)

ما الذى جعل الفتيين يعرفان أن يوسف المسجون هذا يعرف تأويل الأحلام ؟ لقد قالا وأوضحا العلة :

﴿ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾

(من الآية ٣٦ سورة يوسف)

ومعنى ذلك أنهما شهدا سمته وسلوكه ، وعرفا أنه إنسان مسالم ، فلما حَزَبهما واشتد عليهما أمرٌ يتعلق بذاتهما قالا : لا يوجد أحسن من هذا الإنسان نسأله، وقلت ولا أزال أكررها : إن القيم هى القيم ، والصادق محترم حتّى عند الكذاب ، والذى لا يشرب الخمر محترم عند من يشرب بدليل أنهما عندما حَزَبهما أمر قالا : « إنا نراك من المحسنين » .

وهل يحكم واحد على آخر أنه محسن إلا إذا كان عنده مقياس يعرف به الحسن ويميزه عن القبح ؟ وعندما قالا ذلك الأمر لسيدنا يوسف ، كان من الممكن أن يجيبهما إلى تأويل رؤياهما ، ولكن هذه ليست مهمته ، بل فكر : لماذا لا يستغل هو حاجتهما إليه لأمر يتعلق بشخصيهما ، وبعد ذلك ينفذ إلى مراده هو منهما قبل أن ينفذا إلى مرادهما منه ، فهو نبى ومن سلالة أنبياء فأوضح لهما : وماذا رأيتما من إحسانى ؟ إن عندى أشياء كثيرة :

﴿ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ﴾

(من الآية ٣٧ سورة يوسف)

فقد زكى نفسه ، لكن انظروا لماذا زكى نفسه ؟ هو يريد أن يأخذ بيدهما إلى ربه هو ، بدليل أنه قال :

﴿ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ ﴾

(من الآية ٣٧ سورة يوسف)

إذن فالتزكية هنا مطلوبة ، وقد ردّها لله ، وأعلن أن تلك ليست خصوصية لى ، بل كل واحد من خلق الله يستطيع أن يكون مثلى :

﴿ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾

(من الآية ٣٧ سورة يوسف)

وبعد ذلك قال :

﴿ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ﴾

(من الآية ٣٨ سورة يوسف)

إذن فمن الممكن أن تكونوا مثلى إذا ماتبعتم هذا الطريق ، بعد ذلك قال لهم :

﴿ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴾

(من الآية ٣٢ سورة النجم)

أى أإله واحد أحسن أم آلهة متعددة ؟ فأنتم يا أصحاب الآلهة المتعددة جئتم لصاحب الإله الواحد مع أن التعدد ـ فى الظاهر ـ يعطى القوة ، لكن هذا التعدد أعطى الضعف . لأنكم يا أصحاب الآلهة المتعددة لجأتم إلى صاحب الإله الواحد :

﴿ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴾

(من الآية ٣٩ سورة يوسف)

إذن فهو زكى نفسه أمامهما لكى يأخذهما إلى جانب من زَكَّى ، وهو الحق سبحانه وتعالى ، وبعد ذلك عندما علم الملك قال : ائتونى به أستخلصه لنفسى ، ويكون مقرباً منى . ثم بعد ذلك جاءت سنون الجدب التى تنبأ بها أولاً فى تفسير الرؤيا ، وأشار عليهم بضرورة الادخار من سنين الخصب لسنين الجدب ، لقد كانت التجربة إخباراً لأشياء ستحدث ، فلما وقعت علم أن المسألة ليست تجارب بل هى مسألة دقيقة . . فقال للملك :

﴿ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ﴾

(من الآية ٥٥ سورة يوسف)

إذن فقد زكى نفسه ، وجاء بالحيثية :

﴿ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾

(من الآية ٥٥ سورة يوسف)

لأن هذه المسألة تحتاج حفظاً وعلماً ، فهى أمر غير خاضع للتجريب ، فيجرب واحد فيخيب ، ويجرب آخر فيخيب ، لا ، إنها تحتاج لحفظ وعلم ، ومثال ذلك أيضاً عندما كان النبى صلى الله عليه وسلم يقسم الغنائم ، قال له المنافقون : اعدل يامحمد ! فيقول لهم : والله إنى لأمين فى السماء أمين فى الأرض ، فهو يزكى نفسه ، إذن فمتى تكون التزكية مطلوبة ؟ أولاً : أن تكون بحق ، وأن يكون لها هدف عند

من يعلم التزكية وإلى من يعطيك التزكية ويثنى عليك بما فيك وما أنت أهل له فتكون هذه تزكية صحيحة ؛ ولذلك يقول الحق :

﴿ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾ ﴾

(من الآية ٣٢ سورة النجم)

لأنك تزكى نفسك عند الذى سيعطى الجزاء وهو يعلم ، إذن فمن الحمق أن يزكى الإنسان نفسه فى غير المواقف التى يحتاج فيها الأمر إلى تزكية تكون لفائدة المسلمين لا لفائدته الخاصة ، والحق يقول :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾ ﴾

(سورة النساء)

إنّ الحق سبحانه وتعالى لاتخفى عليه خافية ، فمن الممكن أن واحداً يتصنع ويتكلف فى نفسه مدّة من الزمن أمامك ، لكن هناك أشياء أنت لا تدركها ، لكن ربنا عندما يزكى تكون تزكيته عن علم وعن خبرة ، ومع ذلك أحين يزكون أنفسهم ، أهذه محت حسناتهم ؟ لا . فعلى الرغم من أنهم زكوا أنفسهم فالحق لن يأخذهم هكذا ، ويضيع حسناتهم ولكنهم « لايظلمون فتيلا » وهذه مطلق العدالة .

ونعرف أن القرآن نزل بلسان عربى على نبى عربى ، والذين باشروه أولاً عرب ، ونعرف أن أغلب إيحاءاته كانت متوافقة مع البيئة ، وكان عندهم « النخل » وهى الشجرة المفضلة؛لأنها شجرة لايسقط ورقها ، وكل ما فيها له فائدة ، فلا يوجد شيء فى النخلة إلا وفيه فائدة .

عن عبدالله بن عمر ـ رضى الله عنهما ـ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن من الشجر شجرة لايسقط ورقها وهى مثل المسلم ، حدثونى ماهى ؟

فوقع الناس فى شجر البادية ووقع فى نفسى أنها النخلة » قال عبد الله فاستحييت ، فقالوا : يارسول الله أخبرنا بها ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« هى النخلة » قال عبدالله : فحدّثتُ أبى بما وقع فى نفسى ، فقال : لأن تكون قلتها أحبُّ إلىَّ من أن يكون لى كذا وكذا »[1] .

وللنخلة فوائد كثيرة ، فكل مانأخذه منها نجد له فائدة حتى الليف حولها يحمل الجريد نأخذه ونصنع منه مكانس وليفاً و« مقاطف » و« كراسى » . وحينما يطلب سبحانه وتعالى مثالاً على شىء معنوى فهو يأتى بالشىء المحس فى البيئة العربية .

«ولا يظلمون فتيلاً» و« الفتيل » من « الفتلة » ، ومن معناها : الشىء بين الأصابع ، فأنت حين تدلك أصابعك مهما كانت نظيفة يخرج بعض « الوساخات مِثل الفتلة »، أو « الفتيل » هو : الخيط فى شق نواة البلحة ونواة التمرة ، جاء سبحانه وتعالى فى القرآن بثلاثة أشياء متصلة بالنواة .

بـ « الفتيل » هنا ، وجاء بـ « النقير » : وهو النقرة الصغيرة فى ظهر النواة ومأخوذة من المنقار ، كأنها منقورة ، وجاء بـ « قطمير » : وهى القشرة التى تلف النواة ، مثل قشرة البيض الداخلية وهى قشرة ناعمة ، إذن ففى النواة ثلاثة أشياء استخدمها الله . الفتيل و « النقير » ، و« القطمير ».

والحق يقول :

﴿ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ﴾

(من الآية ٥٣ سورة النساء)

إذن فالحق سبحانه وتعالى أخذ من النواة ثلاثة أشياء ويعطينا من الشىء المحس أمامنا أمثالاً يراها العربى فى كل وقت أمامه ويأخذ الحق أيضا أمثالا من السماء فيأتينا بمثل : « الهلال » ، يقول فى الهلال وهو صغير :

﴿ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴾

(من الآية ٣٩ سورة يس)

فسباطة البلح فيها شماريخ ، وفيها يد تحمل الشماريخ ، فهذا اسمه « العرجون » ، والعرجون عندما يكون جديداً يكون مستقيما ، لكنه كلما

---

(١) رواه البخارى .

قَدَمَ ينثنى وينحنى ، فجاء لهم من الهلال فى السماء وأعطاهم مثالاً له فى الأرض « كالعرجون القديم »، والعرب قد أخذوا أمثالاً كثيرة ، لكن هناك حاجات قد لاأُيتنبه إليها مثل قول العربى :

وغاب ضوء قُمَيْر كنت أرقبه ... مثل القُلاَمَة قد قُدَّتْ من الظُّفر

فساعة تقص أظافرك تجدها مقوسة . لكن هذه المسألة لايتنبه لها كل واحد ، فهو جاء بشىء واضح وقال : « كالعرجون القديم » إذن فالحق سبحانه وتعالى حين يعطى مثالاً لأمر معنوى فهو يأتى من الأمر المحس أمامك ليقرب لك المعنى ، وعندما تأكل التمرة لاتلتفت إلى الفتيلة مما يدل على أنها شىء تافه ، والنقير والقطمير كذلك . إذن فربنا أخذ من النواة أمثلة ، وأخذ من النخلة أمثلة كى يقرب لنا المعانى . « ولايظلمون فتيلا» .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ انظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٠﴾ ﴾

وقول الحق « انظر » هى أمر لرسول الله صلى الله عليه وسلم وكل خطاب لرسول الله هو خطاب لأمته ، وعرفنا من قبل أن « الافتراء » : كذب متعمد « يفترون على الله الكذب » فى قولهم عندما أرادوا أن يزكوا أنفسهم :

﴿ نَحْنُ أَبْنَاؤُا اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ ﴾

(من الآية ١٨ سورة المائدة)

وقولهم :

﴿ وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى ﴾ (من الآية ١١١ سورة البقرة)

« انظر كيف يفترون على الله الكذب وكفى به إثماً مبينا » ، لماذا ؟ لأنك إن تكذب على مثلك ممن قد يصدقك فهذا معقول ، لكن إن تكذب على إله فهذه قحة ؛ لذلك قال الحق : « وكفى به إثماً مبينا » .

إذن فالكذب مطلقاً هو إثم و الكذب المبين : هو الكذب على الله ، والمهم أنه لم يُفدك .

ثم يقول الحق بعد ذلك :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ ﴾

قوله : « أوتوا نصيباً من الكتاب » يعنى عندهم صلة وعلاقة بالسماء وبالرسل ، وبالكتب المنزلة من السماء على الرسل التى تحمل مناهج الله ، ولو كانوا أناساً ليس لهم مثل هذا الحظ لكان كلامهم هذا معقولا لانقطاع أسباب السماء عنهم . إنما هؤلاء عندهم نصيب من الكتاب ، وأولى مهمات الكتب السماوية أن تربط المخلوق بالخالق ، وربط المخلوق بالخالق هو تربيب لقدرات المخلوق وتنميتها ؛ لأن أسباب الله فى الكون قد تعزّ عليك ، وقد تقفر يدك منها . فإذا لم يكن لك إله تلجأ إليه عند عزوف الأسباب انهرت ، وربما فارقت حياتك منتحراً ، لكن المؤمن بالله ساعة تمتنع عنه أسبابه يقول : لاتهمنى الأسباب ، لأن عندى المسبب .

إذن فالإيمان بالله يعطيك قوة . والإيمان بالله يقف المؤمنين على أرض صُلبة ، فمهما عزّت أسبابك وانتهت فاذكر المسبب . وحين تذكر المسبب تجد آفاق حياتك

رحبة ، فالذين ينتحرون إنما يفعلون ذلك لأن الأسباب ضاقت عليهم ، وعلموا أنه لامناص من أنهم فى عذاب . لكن المؤمن يقول : يارب ، ومجرد أنه يقول : يارب ، فهذا قول يريحه حتى قبل أن يجاب ؛ لأنه التفت إلى مسبب الأسباب حين عزّت عليه الأسباب .

وساعة يلتفت إلى مسبب الأسباب عند امتناع الأسباب فهو يأخذ قوة الإيمان من حيث لايحتسب ، إنك بمجرد أنك قلت : يارب تجد نفسك قد ارتاحت ؛ لأنك وصلت كل كيانك بالخالق ، وكيانك منه ما هو مقهور لك ، ومنه ماهو غير مقهور لك . والكيان نفسه سيأتى فى الآخرة ويشهد على الإنسان .

ستشهد الأرجل والجلود وغيرها من الأبعاض . لأنها فى الدنيا كانت مقهورة لإرادتى ، أنا أقول ليدى : افعلى كذا ، ولرجلى : اسعى لكذا ، وللسانى : سب فلاناً ، فالله سخر الجوارح وأمرها : ياجوارح أنت خاضعة لإرادة صاحبك فى الدنيا . لكن فى يوم القيامة أيكون لى إرادة على جوارحى ؟ لا ، ستتمرد علىّ جوارحى :

﴿ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾

(من الآية ٢١ سورة فصلت)

وتقول الجوارح لنا : أنتم استخدمتمونا فى الدنيا وحملتمونا أن نفعل أشياء نحن نكرهها ، فدعونا اليوم لنشهد ، إنها تخرج أسرارها ؛ لأن الملك الآن للواحد القهار :

﴿ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾

(من الآية ١٦ سورة غافر)

انتهت سيطرة الإنسان وليس لأحد غير الله إرادة على الأبعاض .

إذن فالنصيب من الكتاب هو أول شىء يربط المخلوق بالخالق ، فإذا ارتبط

المخلوق بالخالق قويت أسبابه ، ويستقبل الأحداث بثبات ، ويأتيه فرج ربنا ، وعندما نقرأ القرآن يجب أن نلتفت إلى اللقطات العقدية فيه ، فقد عرفنا مثلاً : أن سيدنا موسى عندما أراد أن يأخذ بنى إسرائيل من فرعون ويخرج بهم ، وقبل أن يصل بهم إلى البحر تنبه لهم قوم فرعون وجاءوا بجيوشهم ، وكان قوم فرعون من ورائهم والبحر من أمامهم ، فقال قوم موسى إيماناً بالأسباب :

﴿ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾

(من الآية ٦١ سورة الشعراء)

بالله أأحد يكذِّب هذه المقولة ؟! لا ، فماذا قال موسى عليه السلام ؟ لم يقل مثلما قال قومه ، ولكنه نظر للمُسبب الأعلى فقال بملء فيه :

﴿ كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾

(من الآية ٦٢ سورة الشعراء)

وهل تُكذَّب مقولته ؟ لا.لا تُكذب ؛ لأنه لم يقل : « كَلَّا » اعتماداً على أسبابه . فليس من محيط أسبابه أن يخرج من مثل هذا الموقف ، بل قال : « إن معى ربى سيهدين » ، هذه ثمرة الإيمان ، فلما قال : « إن معى ربى سيهدين » ، ماذا قال له الله ؟

قال له :

﴿ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ﴾

(من الآية ٦٣ سورة الشعراء)

لم يقل له : اهجم عليهم واغلبهم ، لا.بل قال : « اضرب بعصاك البحر » ؛ كى يعطى الشيء ونقيضه ، ولتعرف أن مرادات الحق سبحانه وتعالى تعطى الشيء ونقيضه ، ولا أحد من البشر يقدر أن يصنع مثل ذلك ، فلما قال له : اضرب بعصاك البحر ، ضرب موسى البحر بالعصا ، وكان موسى يعلم قانون الماء استطراقا وسيولة ، لكن ها هى ذى المعجزة تتحقق :

﴿ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴾

(من الآية ٦٣ سورة الشعراء)

و« الطود » هو الجبل ، والجبل فيه صلابة ، والماء فيه رخاوة . فكيف انتقلت الرخاوة إلى صلابة ؟ إن الماء مهمته الاستطراق ، أى لا يمكن أن توجد منطقة منخفضة والماء أعلاها ، بل لابد أن ينفذ منها ، وعندما أطاع موسى أمر الله أراد أن يطمئن بأسباب البشر ، فأراد أن يضرب البحر كى يعود البحر مثلما كان ؛ حتى لا يأتى قوم فرعون وراءه فقال له ربنا :

﴿ وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا ﴾

(من الآية ٢٤ سورة الدخان)

أى : اتركه كما هو على هيئته قارًّا ساكنا ؛ لأنى أريد أن يغريهم ما يرون من اليبس فى البحر فينزلوا ، فأعيد الماء إلى استطراقه وأُطْبِقهُ عليهم ، فأكون قد أنجيت وأهلكت بالشىء الواحد .

يقول الحق : « الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت » وكيف ذلك ؟

بعد موقعة أُحد جاء حُيَيّ بن أخطب وكعب بن الأشرف وابن أبى الحقيق ، وأبو رافع . هؤلاء هم صناديد اليهود ، وأخذوا أيضاً سبعين من اليهود معهم ونزلوا على أهل مكة ، ونقضوا العهد الذى بينهم وبين رسول الله . وبعد ذلك نزل كعب ابن الأشرف ـ زعيمهم ـ على أبى سفيان وقال له : نريد أن نتعاهد على أننا نقف أمام محمد . فقال أبوسفيان : أنت صاحب كتاب ، وعندك توراة ، وعندك إيمان بالسماء ، وعندك رسول ، ونحن ليس عندنا هذا ، و« محمد » يقول : إنه صاحب كتاب ورسول ، إذن فبينكما علاقة الاتصال بالسماء ، فما الذى يدرينا أنك متفق معه علينا فى هذه الحكاية ؟ إننا لا نأمن مكرك ،ولن نصدق كلامك هذا إلا إذا جئت لآلهتنا وأقمت مراسم العبادة عندها فسجدت لها .

و« الجبت والطاغوت » هما صنمان لقريش ، وذهب إليهما اليهود أصحاب التوراة الذين عندهم نصيب من الكتاب وخضعوا لهما ، أو « الجبت » هو كل من يدعو لغير الله سواء أكان شيطاناً أم كاهناً أم ساحراً ، فإذا كان هذا هو « الجبت » . فـ « الطاغوت » من « طغى » وهو اسم مبالغة وليس « طاغيًا » . . بل « طاغوت »

وهو الذى كلما أطعته فى ظلم ارتقى إلى ظلم أكثر . . وسواء أكان الجبت والطاغوت صنمين أم إلهين من الآلهة التى يتبعونها ، المهم أن وفد اليهود خضعوا لهم وسجدوا ، لكى تصدق قريش عداء اليهود لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وبعد ذلك سأل كعب بن الأشرف أبا سفيان : ماذا فعل محمد معكم ؟ قال له : فارَق دين آبائه ، وقطع رحمه وتركهم وفر إلى المدينة ، ونحن على غير ذلك . نحن نسقى الحجيج ، ونقرى الضيف ، ونفك العانى ـ الأسير ـ ونصل الرحم ، ونعمر البيت ونطوف به . وعظّم أبو سفيان فى أفعال قريش ! ، فقال الذين أوتوا الكتاب ـ لعداوتهم لمحمد ـ قالوا لأبى سفيان وقومه : أنتم أهدى من محمد سبيلا !

ويوضح ربنا : يا محمد انظر لعجائبهم ؛ إنهم أوتوا نصيبا من الكتاب ، ومع ذلك فعداوتهم لك ووقوفهم أمام دينك وأمام النور الذى جئت به ، جعلهم ينسون نصيبهم من الكتاب ، ويؤمنون بالجبت والطاغوت ؛ وهم القوم أنفسهم الذين كانوا يقولون للعرب قديماً : إنه سيأتى نبى منكم نتبعه ونقتلكم به قتل عاد وإرم . لكن هاهم أولاء يذهبون ويؤمنون بالطاغوت والجبت ، فهل عند مثل هؤلاء شىء من الدين ؟

إن الحق سبحانه يريد أن يطمئن رسول الله بأن هؤلاء انعزلوا عن مدد السماء ، فإن نشب بينك وبينهم حرب أو خلاف فاعلم أن الله قد تخلى عنهم لأنهم تركوا النصيب من الكتاب الذى أوتوه . وإياك أن يأتى فى بالك أن هؤلاء أصحاب كتاب .

إن الحق يطمئن رسوله أنه سبحانه قد تخلى عنهم وأن الله ناصرك ـ يا محمد ـ فلا يغرنك أنهم أصحاب مال أو أصحاب علم أو أصحاب ثروات ، فكل هذا إلى زوال ؛ لأن حظهم من السماء قد انقطع ؛ ولأن الشرك قد حازهم وملكهم وضمهم إليه وقد جعلوا العداوة لك والانضمام إلى الكفار الذين كانوا يستفتحون عليهم ، ببعثك ورسالتك ، ثمناً لأن يتركوا الإيمان .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَمَن يَلۡعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴾ ﴿٥٢﴾

وقوله: « أولئك » هى اسم إشارة مكون من « أولاء » التى للجمع ، ومن «الكاف» التى هى لخطاب رسول الله ، ونحن ـ المسلمين ـ فى طى خطابه صلى الله عليه وسلم ، « أولئك » هى للذين أوتوا نصيبا من الكتاب ويؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا : هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا ، أو « أولئك » لكل من اليهود والمشركين ، ولنأخذها إشارة لهم جميعاً ، فى قوله تعالى : « أولئك الذين لعنهم الله » و« اللعن » إما أن يكون « الطرد » ، وإما أن يكون « الخزى » وإما أن يكون « الإهلاك » .

وكيف يلحق الله الخزى بالكافرين ؟ لأنك تجد المد الإسلامى كل يوم يزداد ، وهم تتناقص أرضهم :

﴿ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا نَأۡتِي ٱلۡأَرۡضَ نَنقُصُهَا مِنۡ أَطۡرَافِهَا ﴾

(من الآية ٤١ سورة الرعد)

« أولئك الذين لعنهم الله » . . إذن فالطارد هو الله ، فحين يكون الطارد مساوياً للمطرود، ربما صادف من يعينه، لكن إذا كان الطارد هو الله فلا معين للمطرود ، « ومن يلعن الله » أى من يطرده ربنا « فلن تجد له نصيراً » ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى مادام قد طرده . . فسبحانه يُدخل فى رُوع الناس كلهم أن يتخلوا عنه لأى سبب من الأسباب فلا ينصره أحد « أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيراً » . ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ أَمۡ لَهُمۡ نَصِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُلۡكِ فَإِذٗا لَّا يُؤۡتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ﴾ ﴿٥٣﴾

وما هى حكاية قوله : « أم لهم نصيب من الملك فإذاً لا يؤتون الناس نقيرا »؟

إنه ـ سبحانه ـ يصفهم بفرط البخل وشدة الشح ، أى أنهم ـ فى واقع الأمر ـ ليس لهم ملك الدنيا وليس لهم ـ أيضا ـ ملك الله ؛ فالملك له وحده ـ جل شأنه ـ يؤتيه من يشاء وينزعه ممن يشاء ولكنهم لو أعطوا ملك الدنيا وملك الله لبخلوا وضنوا بما فى أيديهم . كما جاء فى قوله سبحانه :

﴿ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّيٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

أى إنكم تخشون الإنفاق حتى لا تقل الأموال عندكم ، فلو أخذتم خزائن ربنا فستقولون لو أخذنا منها وأعطينا الناس لقلت ! وفحوى العبارة : أن كل هؤلاء سواء أكانوا كفار قريش أم كبراء اليهود ، كانوا يحافظون على مكانتهم وأموالهم ؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء ليسوى بين الناس ، فمن الذى يحزن ؟ الذى يحزن هم الذين كانت لهم السيادة لأنهم لا يريدون أن تتساوى الرءوس ، وياليتهم عندما أخذوا السيادة جعلوها خيراً للناس ، لكنهم لم يفعلوا . فلو كان لهم الملك والأموال لن يُعطوا للناس نقيراً ؛ لأن الإنسان بطبيعته لا ينزل عن جبروته ؛ لأن هذا الجبروت يعطيه سلطاناً ، ومادام الجبروت أعطاه سلطاناً فلا يلتفت إلى حقيقة الإيمان ، فإن خير الخير أن يدوم الخير ، فليس فقط أن تكون فى خير وسلطة لكن اضمن أنه يدوم ، وهذا الدوام ستأخذه بعمر الدنيا وأمدها قليل وعمرك فيها غير مضمون ، إذن فدوام الخير هناك فى الآخرة :

﴿ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ ﴾

(سورة الواقعة)

فأنتم إن كنتم تحرصون على هذا الجاه ، وتريدون أن يكون لكم هذا الملك والجاه والعظمة فهل أنتم تعطون الناس من خيركم هذا حتى يكون هناك عذر لكم فى الحرص على المال بأن الناس تستفيد منكم ؟

فلماذا تريدون أن يديم ربنا عليكم هذه وأنتم فى قمة البخل والشح ؟ لا يمكن أن يديمها عليكم .

ولذلك فالحق سبحانه وتعالى يقول فى سورة الفجر يوضح هذه العملية :

﴿ فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ ﴾

(سورة الفجر)

إذن فالذى عنده نعمة يقول : (ربى أكرمن) ، والذى ليس عنده نعمة يقول : (ربى أهانن) ، فيقول الحق تعقيباً على القضيتين (كلا) .

ومادام سبحانه يقول تعقيباً على القضيتين : (كلا) فمعنى هذا أن كلا الطرفين كاذب ؛ فأنت تكذب يا من قلت : إن النعمة التى أخذتها دليل الإكرام ، وأنت كذاب أيضاً يا من قلت : عدم المال دليل الإهانة ، فلا إعطاء المال دليل الإكرام ، ولا سلب المال دليل الإهانة . وهى قضية غير صادقة وخاطئة من أساسها . وقال الحق فى حيثيات ذلك :

﴿ كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ ﴾

(سورة الفجر)

أى عندكم المال ولا تكرمون اليتيم ، إذن فهذا المال هو حجة عليكم ، فهو ليس إكراما لكم بل سيعذبكم به . ويضيف سبحانه :

﴿ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ ﴾

(سورة الفجر)

فكيف يكون المال ـ إذن ـ إكراماً وهو سيأتيك بمصيبة ؟ فعدمه أفضل ؛ فالمال الذى يوجد عند إنسان ولا يرعى حق الضعفاء فيه هو وبال وشرّ ؛ لأن الحق يقول :

﴿ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾

(من الآية ١٨٠ سورة آل عمران)

فإن بخلت كثيراً فستطوّق بغُل أشد ؛ ولذلك عندما يشتد عليه الغُلّ يقول : يا ليتنى خففت هذا الغل ، والحق يتساءل فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها لماذا يتفقون مع معسكر الشرك ، ويتركون النصيب الذى أعطوه من الكتاب ، ويذهبون ليقولوا للذين كفروا : أنتم أهدى من محمد سبيلاً مع أنهم يعلمون بحكم ما عندهم من نصيب الكتاب أن محمداً على حق ؟.

لقد كانوا يحافظون على سيادتهم ، ومعسكر الشرك يحافظ على سيادته ، ونعلم أن اليهود كانوا فى المدينة من أصحاب الثروات ، وكانوا يعيشون على الربا ، وهم أصحاب الحصون ، وأصحاب الزراعات وأصحاب العلم ، إذن فقد أخذوا كل عناصر السيادة . وعندما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم تزلزلت كل هذه المسائل من تحت أقدامهم ، وحزنوا . وكذلك كفار قريش : كانت لهم السيادة على كل الجزيرة ، فلا يستطيع أحد من أى قبيلة فى الجزيرة أن يتعرض لقافلة قريش ؛ لأن القبائل تخاف من التعرض لهم ، ففى موسم الحج تذهب كل القبائل فى حضن قريش . والمهابة المأخوذة لهم جاءت لهم من البيت الحرام الذى حفظه الله ورعاه وهزم من أراده بسوء وردّ كيده ودمره تدميرا تاما . كما جاء فى قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍۭ ۝٥ ﴾

(سورة الفيل)

وعلّة هذه العملية تأتى فى السورة التالية لها ، وهى قوله سبحانه :

﴿ لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝٢ ﴾

(سورة قريش)

فلولا أنه سبحانه جعل هذا البيت لعبادته لانتهى وانتهت منهم السيادة فلا يقدرون أن يذهبوا إلى رحلة الشتاء ولا إلى رحلة الصيف ؛ ولذلك يقول سبحانه :

﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ﴿٣﴾ ﴾

(سورة قريش)

فسبحانه الذى جعل لهم السيادة والعزّ . وهو :

﴿ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴿٤﴾ ﴾

(سورة قريش)

وجاء لهم بثمرات كل شيء ، وآمنهم من خوف حين تسير قوافلهم فى الشمال وفى الجنوب .

« أم لهم نصيب من الملك » فإذا كان لهم هذا النصيب ، فلا يأتون الناس نقيرا أى لا يعطونهم الشيء التافه .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۖ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ ﴾

والحسد هنا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لأن ربنا قد اصطفاه واختاره للرسالة ،

ولذلك قال بعض منهم :

﴿ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ۝٣١ ﴾

(سورة الزخرف)

إذن فالقرآن مقبول في نظرهم ، لكن الذى يحزنهم أنه نزل على محمد ، وهذا من تغفيلهم ، وهو مثل تغفيل من قالوا :

﴿ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾

(من الآية ٣٢ سورة الأنفال)

لقد تمنوا الموت والقتل رميا بالحجارة من السماء ولم يتمنوا اتباع الحق ، وهذا قمة التغفيل الدال على أنها عصبية مجنونة ، ولذلك يقول الحق :

﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ ﴾

(من الآية ٣٢ سورة الزخرف)

وسبحانه يؤكد لنا أنه يختص برحمته من يشاء ، فلماذا الحسد إذن ؟ إنهم يحسدون الناس أن جاءهم محمد صلى الله عليه وسلم ، ولو أنهم استقبلوا ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم استقبالاً عادلاً بعين الإنصاف لوجدوا أن كل ما جاء به هو كلام جميل . من يتبعه تتجمل به حياته . وكان مقتضى من آتاهم الله من فضله علماً من الكتاب أن يبشروا برسول الله صلى الله عليه وسلم كما دعاهم إلى ذلك ما نزل عليهم في كتابهم وأن يكونوا أول المصدقين به ، ولكنهم لم يفعلوا ذلك ، بل كذبوا وصدوا عن سبيله وَفَضَّلوا عليه الكافرين الوثنيين . فقالوا إنهم أهدى من محمد سبيلاً .

والحق سبحانه وتعالى حين يتفضل على بعض خلقه بخصوصيات يحب سبحانه أن تتعدى الخصوصيات إلى خلق الله ؛ لأننا نعرف أن في كل خلق من خلق الله خصوصية مواهب ، فإذا ما تفضل المتفضل بموهبته على الخلق تفضل بقية الخلق عليه بمواهبهم ، إذن فقد أخذ مواهب الجميع حين يعطى الجميع .

وهؤلاء قوم آتاهم الله نصيباً فبخلوا وضنّوا ، وليتهم ضنّوا على أمر يتعلق بهم ، بل على الأمر الذى وصلهم بالإله ، وهو أنهم أصحاب كتاب عرفوا عن الله منهجه ،

وعرفوا عن الله ترتيب مواكب رسله ، فيريد الحق سبحانه أن يقول لهم : أنتم أوتيتم نصيباً من الكتاب فلم تؤدوا حقه ، وأيضاً أنكم لو ملكتم الملك فإنكم لن تؤدوا حقه ، ولن تعطوا أحداً مقدار نقير وهو النقرة على ظهر النواة ، ولذلك قال :

﴿ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ ﴾

(سورة النساء)

إذن فلا هم فى المعنويات والقيم معطون ، ولا هم فى الماديات معطون . فإذا كانوا قد بخلوا بما عندهم من القيم فهم أولى أن يبخلوا بما عندهم من المادة ، وبذلك صاروا قوماً لا خير فيهم أبداً .

ثم يوضح الحق : إذا كان هؤلاء قد أوتوا نصيباً من الكتاب يعرِّفهم سمات الرسول المقبل الخاتم فما الذى منعهم أن يؤمنوا به أولاً ويؤيدوه ؟ . لاشك أنه الحسد ، على الرغم من أنه صلى الله عليه وسلم جاء مصدقاً لما معهم ، إنهم لاشك حسدوا الرسول صلى الله عليه وسلم ، والحسد لا يتأتى إلا عن قلب حاقد ، قلب متمرد على قسمة الله فى خلقه ؛ لأن الحسد كما قالوا : هو أن تتمنى زوال نعمة غيرك ، ويقابله « الغبطة » وهى أن تتمنى مثل ما لغيرك ، فغيرك يظل بنعمة الله عليه ، ولكنك تريد مثلها . وأنت إن أردت مثلها من الله فلا بد أن تغبطه ، والحق يقول :

﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ ﴾

(من الآية ٩٦ سورة النحل)

ولذلك يجب أن يكون الناس فى عطاء الله غير حاسدين وغير حاقدين . لكن بعض الناس ربما حسدوا غيرهم من الذين يعطيهم الأغنياء رغبة فى أن يكون ذلك لهم وحدهم فإنك إن كان عندك كَمٌّ من المال ثم اتصل بك قوم فى حاجة فأعطيتهم منه ، ربما قال الآخرون ممن يرغبون فى عطائك ويأملون فى خيرك : إنك ستنقص مما عندك بقدر ما تُعطى هؤلاء ؛ لأن ما عندك محدود ، ولكن هنا العطاء ممن لا ينفد ما عنده ، إذن فيعطيك ويعطى الآخرين ولا ينقص مما عنده شىء .

إذن فالغبطة أمر بديهى عند المؤمن ؛ لأنه يعلم أن عطاء الله لواحد لا يمنع أن

يعطى الآخر ، ولو أعطى سبحانه كل واحد مسألته ما نقص ذلك مما عنده إلا كما ينقص المخْيط إذا غمس فى البحر ، وذلك كما جاء فى الحديث القدسى : « يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا فى صعيد واحد فسألونى فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك مما عندى إلا كما ينقص المخْيط إذا أدخل البحر »[1] .

« أم يحسدون الناس على ما آتاهم » ، فالحسد ـ كما عرفنا ـ هو : أن يتمنى إنسان زوال نعمة غيره ، هذا التمنى معناه أنك تكره أن تكون عند غيرك نعمة ، ولا تكره أن يكون عند غيرك نعمة إلا إذا كنت متمرداً على من يعطى النعم .

إن أول خطأ يقع فيه الحاسد هو : ردّه لقدر الله فى خلق الله ، وثانى ما يصيبه أنه قبل أن ينال المحسود بشرّ منه ؛ فقلبه يحترق حقداً . ولذلك قالوا : الحسد هو الذنب أو الجريمة التى تسبقها عقوبتها ؛ لأن كل جريمة تتأخر عقوبتها عنها إلا الحسد ، فقبل أن يرتكب الحاسد الحسد تناله العقوبة ؛ لأن الحقد يحرق قلبه وربما قال قائل : وما ذنب المحسود ؟ . . ونقول : إن الله جعل فى بعض خلقه داء يصيب الناس ، والحسد يصيبهم فى نعمهم وفى عافيتهم . وما ذنب المقتول حين يوجه القاتل مسدسه ليقتله به ؟ هذه مثل تلك . فالمسدس نعمة من نعم الله عند إنسان ليحمى نفسه به ، وليس له أن يستعمله فى باطل .

وهب أن الله سبحانه وتعالى خلق فى الإنسان شيئاً يكره النعمة عندغيره ، فلماذا لا يتذكر الإنسان حين يستقبل نعمة عند غيرك أن يقرنها بقوله: (ما شاء الله لا قوة إلا الله) . فلو قارنت كل نعمة عند غيرك بما شاء الله الذى لا قوة إلا به لرددت عن قلبك سم حقدك . إنك ساعة ترى نعمة عند غيرك وتقول : ما شاء الله لا قوة إلا بالله ، فأنت تتذكر أن الإنسان لم يعط نفسه أى نعمة . إنما ربنا هو الذى أعطاه ، وسبحانه قادر على كل عطاء ، ومن الممكن أن يحسد الإنسان . لكن الذى يجد الحسد فى نفسه ويريد أن يطفئه ، عليه أن يردّ كل شىء إلى الله ، ومادام قد ردّ كل شىء إلى الله فقد عمل وقاية لنفسه من أن يكون حاسداً . ووقاية للنعمة عند غيره من أن تكون محسودة ، والحق سبحانه وتعالى يبين لنا ذلك فى قوله سبحانه :

---

(١) رواه مسلم فى باب تحريم الظلم ، ورواه أحمد .

﴿ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝ ﴾

(سورة الفلق)

إذن فمن الممكن أن يمتلىء قلب أى واحد منا بالحقد على نعمة وبعد ذلك يحدث منها حسد ، وعلى كل واحد منا أن يمنع نفسه من أن يدخل تيار الحقد على قلبه ؛ لأن تيار الحقد يحدث تغييراً كيماوياً فى تكوين الإنسان ، وهذا التغير الكيماوى هو الذى يسبب التعب للإنسان ، وما يدرينا أن هذا التوتر الكيماوى من النعمة عند غيره تجعل فى نفس الإنسان وفى مادته تفاعلات ، وهذه التفاعلات يخرج منها إشعاع يذهب للمحسود فيقتله ؟ لأن الحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝ ﴾

(سورة الفلق)

وعندما تستعيذ بالله من شر الحاسد ألاّ يصيبك ، قد يصيبك ، ولكن استعاذتك من شره تعنى أنه إن أصابك فعليك أن تسترجع ، فتقول : «إنا لله وإنا اليه راجعون» وتعلم أن ذلك خير لك ؛ فإن أصابك فى نعمة فاعلم أن هذه المصيبة فيها خير ، فالحاسد إذا أصابك فى شىء من نعم الله عليك ، فالشر هو أن تحرم الثواب عليها !! . . فالمصاب هو من حرم الثواب ، فإذا جاءت مصيبة لأى واحد وقال : إنا لله وإنا إليه راجعون . . اللهم إنك ربى وإنك لا تحب لى إلاّ الخير لأنى صنعتك ولم تجر علىّ إلاّ الخير . . لكننى قد لا أستطيع أن أفهم ذلك الخير .

إن المسلم إذا صنع ذلك فالله سبحانه وتعالى يبين له فيها بعد أنها كانت خيراً له ، فإن أصابه فى ولده وقال : من يدرينى لعل ولدى الذى أماته الله كان سيفتننى فأكفر أو أسرق له وآخذ رشوة من أجله . لكن الله أخذه منى ومنع عني ذلك الشرّ ، أو أن النعمة قد تطغينى ، وقد تجعلنى أتجبر على الناس ، وقد تجعلنى أتطاول وأعتدى على الخلق ، فيقول لى ربنا : امرض قليلا واهدأ . وهكذا نرى أن المصاب لا بد أن يتوقع الخير وأن يسترجع وأن يقول : لا بد أنه سيأتينى من الابتلاء خير ، وقد يقول قائل : نحن نقول :

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ۝ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝

﴿ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّـٰثَـٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ۝٤ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝٥ ﴾

(سورة الفلق)

نقرأ ونكرر هذه السورة ولم يعذنا الله من شرّ الحاسدين . ويحسدنا الحاسدون أيضاً !

نقول له : أنت لم تفهم معنى قوله : « من شرّ حاسد إذا حسد » . إنك تفهمه على أساس ألا يصيبك حسده ، لا . . إن حسده قد يصيبك ، لكن عليك أن تعرف قدر الله فى تلك الإصابة وتقول : يارب إنك أجريتها علىّ لخير عندك لى . فإن فعلتَ ذلك فقد كفيت شرّاً .

ونحن نعيش فى عالم نرى فيه أنه كلما ارتقت الدنيا فى العلم بيّن لنا ربنا آيات فى كونه وفى أسرار الوجود تقرب لنا كثيراً من المعانى ؛ فالذين يصنعون الآن أسلحة الفتك والتدمير ، كلما يلطف السلاح ويدق ولا يكون داخلاً تحت مرائى البصر ، كان عنيفاً ويختلف عن أسلحة الأزمنة القديمة حيث كان الإنسان يرمى آخر بحجر ، ثم آخر يرمى بمسدس ، ثم صار فى قدرة دولة أن تصنع قنبلة ذرية لا ينوب أى فرد منها إلا قدر رأس مسمار لكنها تقتل ، إذن فأسلحة الفتك كلما لطفت - أى دقت - عنفت . ونرى الآن الأسلحة كلها بالإشعاع ، والإشعاع ليس جِرْماً ، وعمل الإشعاع نافذ لكن لايوجد له جرم ، وكما يقول الأطباء : نجرى العملية من غير أن نسيل دماً بوساطة الأشعة ، ومثال ذلك أشعة الليزر ، إذن فكلما دقّ السلاح كان عنيفاً وفتاكاً .

وهذا مثال يوضح ذلك : لنفرض أنك أردت أن تبنى لك قصراً فى خلاء ، ثم مرّ عليك صديق فقال : لماذا لم تضع لنوافذ الدور الأول حديداً ؟ تقول له : لماذا ؟ . فيقول لك : هنا سباع وذئاب . فتضع الحديد ليمنع الذئاب ، وآخر يمرّ على قصرك فيقول : إن فتحات الحديد واسعة وهنا توجد ثعابين كثيرة ، فتضيق الحديد . وثالث يقول : هناك بعوض يلسع ويحمل الميكروبات . فتضع سلكاً على النوافذ .

إذن فكلما دقّ العدو كان عنيفاً فيحتاج احتياطاً أكبر . ونحن نعلم أن الميكروب

الذى لا يُرى يأتى فيفتك بالناس ، فالآفة التى تصيب الناس كلما لطفت ، ـ أى دقت وصغرت ـ عنفت ، فلو كانت ضخمة فمن الممكن أن يدفعها الإنسان قليلاً قليلاً ، لكن عندما تصل إلى مرتبة من الدقة والصغر ، هنا لا يستطيع الإنسان أن يدفعها . وأفتك الميكروبات هى التى تدِق لدرجة أن الأطباء يقولون عن بعض الأمراض : لا نعرف لها فيروساً ؛ بمعنى أن هذا الفيروس المسبب للمرض صار دقيقاً جداً حتى عن معايير المجاهر .

إذن فما الذى يجعلنا نضيق ذرعاً بأن نقدر أن هناك شرارة من ميكروب تخرج من كيماوية الإنسان الحاقد الحاسد الذى تشقيه النعمة عند غيره، وشرارة الميكروب هذه مثل أشعة الليزر تتجه لشىء فتفتك به !! ما المانع من هذا ؟! إننا نفعل ذلك الآن ونسلط الأشعة على أى شىء ، والأشعة هى من أفتك الأسلحة فى زماننا ، ولماذا لانصدق أن كيماوية الحاسد عندما تهيج يتكون منها إشعاع يذهب إلى المحسود فيفتك به ؟ ومثلها مثل أى نعمة ينعمها ربنا عليك ، وبعد ذلك تستعملها فى الضرر . ومثال ذلك الرجل الذى عنده بعض من المال ؛ ومع ذلك يغلى حقداً على خصومه . فيشترى مسدساً أو بندقية ليقتلهم ؛ إنه يأخذ النعمة ويجعلها وسائل انتقام ، وهذا يأتى من هيجان الغريزة الداخلية المدبرة لانفعالات الإنسان .

إذن فهؤلاء القوم عندما جاء رسول الله مصدقاً بما عندهم ، ماالذى منعهم أن يصدقوه ؟ . لا شك أنهم حسدوه فى أن يأخذ هذه النعمة ، ونظروا إلى نعمة الرسالة على أنها مزية للرسل ، وهل كان ذلك صحيحا ؟ حقا إنها مزية للرسل ولكنها مع ذلك عملية شاقة عليهم ، والناس فى كل الأمم ـ ماعدا الأنبياء ـ يورثون أولادهم مالهم ، أما الأنبياء فلا يورثون أولادهم .

إنهم لم يأتوا ليأخذوا جاهاً ، أو ليستعلوا على الناس ، بل كلِّفوا بمتاعب جمة . إذن فأنتم تنظرون إلى السلطة التى أعطاكم الله إياها فى مسألة علم الدين . وتجعلونها أداة للترف والرفاهية وللعنجهية وللعظمة ، وحين يجىء رسول لكى ينفض عنكم ويخلصكم من هذه السيطرة ، ماذا تفعلون ؟ أنتم تحزنون ؛ لأنكم أقمتم لأنفسكم سلطة زمنية ولم تجعلوا أنفسكم فى خدمة القيم ، وأخذتم عظمة السيطرة فقط ، فلما جاء رسول يريد أن يزيل عنكم هذه السيطرة قلتم : لا . لن نتبعه . فإذا كنتم

تحسدون النبى عليه الصلاة والسلام على الرسالة وجعلتموها مسألة يُدَلِّله الله بها أو أنها تعطيه سيطرة ، فلماذا الحسد على سيدنا محمد وقد أعطى الله سيدنا إبراهيم الملك ، وأعطى لداود الملك ، وأعطى لسليمان الملك ، وأعطى ليوسف الملك ، فلماذا الحسد إذن عندما أراد الله سبحانه وتعالى أن يكرم الفرع الثانى من إبراهيم وهو إسماعيل عليه السلام ؟ .

لقد كرم الله سبحانه الفرع الأول فى إسحاق وجاء من إسحاق يعقوب ، ومن يعقوب يوسف ، ثم جاء موسى وهارون ثم داود وسليمان ، كل هؤلاء قدكرموا ، وعندما يكرم سبحانه الفرع الثانى لإبراهيم وهو ذرية إسماعيل ويرسل منهم رسولاً ، تحزنون وتقفون هذا الموقف ؟

لماذا لا تنظرون إلى أن إسماعيل وفرعه أتى من ذرية إبراهيم ، ولماذا اعتبرتم الرسالة والنبوة نعمة مدللة ، ولم تنتبهوا إلى أنها عملية قاسية على الرسول ؟ لأن عليه أن يكون النموذج التطبيقى على نفسه وعلى آله ، ولا أحد من أهله يتمتع بذلك بل العكس ؛ فالنبى صلى الله عليه وسلم يقول : (إنا معشر الأنبياء لا نورث)[1] .

ويَحْرِم صلى الله عليه وسلم آل بيته من الزكاة . ويقول صلى الله عليه وسلم أيضا : (إن الصدقة لاتنبغى لآل محمد إنما هى أوساخ الناس)[2] .

وهكذا نرى أنه لم يكن يعمل لنفسه ولا لأولاده .

ويتابع الحق : « فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكاً عظيماً » و« الكتاب » هو المنهج الذى ينزل من السماء ، و« الحكمة » هى الكلام الذى يقوله الرسول مفسراً به منهج الله ، ومع ذلك آتاهم الله الملك أيضاً . فسيدنا يوسف صار أميناً على خزائن الأرض ، وأصبح عزيز مصر ، وسيدنا داود ، وسيدنا سليمان آتاهما الله الملك مع النبوة . إذن ففيه نبوة وفيه ملك ، ومحمد صلى الله عليه وسلم أعطاه

---

(١) رواه أحمد .

(٢) رواه مسلم .

ربنا النبوة ولم يعطه الملك فما وجه الحسد منكم له ؟! . ثم ماذا كان موقفكم من أنبيائكم الذين أعطاهم الله النبوة والملك ؟ يجيب الحق :

﴿ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ ۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾ ﴾

وقوله سبحانه: « فمنهم من آمن به » . والمقصود الإيمان بما جاء فى منهج إبراهيم والرسل الذين جاءوا من بعده الذين آتاهم الله النبوة والملك ، أو «منهم» أى من أهل الكتاب الذين تتكلم عنهم من آمن برسول الله صلى الله عليه وسلم كعبدالله بن سلام ، وكعب الأحبار مثلاً ، « ومنهم من صدّ عنه » أى أن منهم من كفر بمنهج الله ؛ لذلك يقول سبحانه بعدها : « وكفى بجهنم سعيراً » فكأن نتيجة الصدّ عن المنهج أنّه لا يأتى بعده إلا العذاب بجهنم ليصلوا بنارها ، وتكون مسعرة عليهم جزاءً على مافعلوا .

وبعد أن بين الحق سبحانه وتعالى موكب الرسل حينما أرسله الله على تتابع فى كونه ، جاء ليذكر الناس بالمنهج ، فالمنهج هو الأصل الأصيل فى مهمة آدم وذريته ؛ لأنه سبحانه وتعالى قد قال :

﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾

(من الآية ١٢٣ سورة طه)

وينقل آدم إلى ذريته معلوماته عن حركة الحياة وعن الحق وعن المنهج . إلا أن الله قدّر الغفلة فى خلقه عن منهجه ؛ فهذه المناهج تأتى دائماً ضد شهوات النفس الحمقاء العاجلة ، لكن لو نظرت إلى حقيقة المنهج الإلهى فأنت تجده يعطى النفس شهوات لكنها مُعلاة .

مثال ذلك عندما يقول :

﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾

(من الآية ٩ سورة الحشر)

وكل واحد عنده أشياء ويحتاج إليها ، لكنه يجد أخاه المؤمن يحتاج إليها أكثر منه فيؤثره على نفسه ، أهو يفضله عن نفسه ؟ لا ؛ لكنه يعطى هذا الشيء القليل فى الفانية كى يأخذه فى الباقية ، فأخذ شهوة نفسه لكن بشهوة معلاة ، والذى قلنا له : غض طرفك عن محارم غيرك . ظاهر هذا الأمر أننا نحجبه عن شهوة يشتهيها ، لكننا ساعة نحجبك عن شهوة تشتهيها فى حرام الفانية ، نريد أن نحقق لك شهوة فى حلال الخالدة . فأيها أعشق للجَمَالِ ؟ الذى ينظر بتفحص للمرأة الجميلة وهى تسير ، أم الذى يغض عينه عنها ؟ الأعشق للجمال هو الذى غض بصره .

إن الدين لم يأت إلا ضد النفس الحمقاء التى تريد عاجل الأمر وإن كان تافهاً . ويوضح له : كن للآجل ومعه ؛ لأنه يبقى فلا يتركك ولا تتركه ، أما أى شهوة تأخذها فى هذه الدنيا فإما أن تتركها وإما أن تتركك ، لكن فى الآخرة لا تتركها ولا تتركك .

لقد عرف الصالحون الورعون كيف يستفيدون ، لكنّ الآخرين هم الحمقى الذين لم يستفيدوا ، فالحق سبحانه وتعالى يوضح لنا أن الحسرة تكون لمن أراح نفسه بشهوة عاجلة ثم أعقبها العذاب الآجل المقيم ، فهذه هى الخيبة الحقة ، فالدنيا دار الأغيار ، يأتى للإنسان فيها ما يؤلمه وما يسره ، وليس فيها دوام حال أبداً ؛ لأنها دنيا الأغيار ، ومادامت دنيا الأغيار فيكون كل شيء فيها متغيرًا . . ومادام كل شيء فيها متغيرًا . إذن فالذى فى نعمة قد يصيبه شيء من الضر ، والذى فى قوة قد يصيبه شيء من الضعف ، والذى فى ضعف قد تأتيه قوة ، وإلا لو ظل الضعيف ضعيفاً وظل القوى قوياً لما كانت الدنيا أغياراً .

ولذلك يقولون : احذر أن تريد من الله أن يتم عليك نعمته كلها ؛ لأنها لو تمت لك النعمة كلها وأنت فى دارالأغيار فانتظر الموت ؛ فتمام النعمة هو صعود لأعلى

منطقة فى الجبل وأنت فى دار الأغيار ، فهل تظل على القمة ؟ لا ، بل لابد أن تنزل ، فإياك أن تُسرَّ عندما تبلغ المسألة ذروتها ؛ لأنه سبحانه وتعالى يوضح : إنكم لابد أن تأخذوا هذه الدنيا على أنها معبر ، والذى يتعب الناس أنهم لا يحددون الغاية البعيدة ، بل إنهم يحددون الغايات القريبة .

إن من حق بعض الناس أن يحزن الواحد منهم على فراق حبيب أو قريب له ، وخذها بالمنطق : ما غايتنا جميعاً ؟ إنها الموت ونعود إلى خالقنا . وهل عندما نعود إلى خالقنا نحزن ؟ لا ، بل يجب أن نسر ؛ لأننا فى الدنيا مع الأسباب ، أما بعد أن ننتقل إلى الآخرة فنكون مع المسبب . ففى الدنيا تكون مع النعمة وستصبح بعد ذلك مع المنعم ، فما يحزنك فى هذا ؟ إن هذا يحزنك ساعة أن كنت مع النعمة ولم تُراعِ المنعم ، لكن لو كنت مع النعمة وراعيت المنعمَ لسررت أنك ذاهب للمنعم .

وإن كانت المسألة هى أن نصل إلى المنعم الحق ونكون فى حضانته فلماذا الحزن إذن ؟ ومن الحمق أن بعض الناس لا تعامل الحق سبحانه وتعالى كما يعاملون أنفسهم .

هب أن إنساناً من غايته أن يخرج من أسوان إلى القاهرة ، إذن فالقاهرة هى الغاية . ثم جاء واحد وقال له : سنذهب سيراً على الأقدام ، وقال الآخر : أنا سآتى بمطايا حسنة نركبها . وقال ثالث : سآتى بعربة ، وقال رابع : سنسافر بطائرة وقال خامس : سنسافر بصاروخ ، إذن فكل وسيلة تقرب من الغاية تكون محمودة ، ومادامت غايتنا أن نعود إلى الحق فلماذا نحزن عندما يموت واحد منا ؟ أنت ـ إذن ـ تحزن على نفسك ولا تحزن على من مات ، إن الذى يموت بعد أن يرعى حق الله فى الدنيا يكون مسروراً لأنه فى حضانة الحق ومع المنعم ، وأنت مع النعمة الموقوتة إنّه يسخر منك لأنك حزنت ، ويقول : انظر إلى الساذج الغافل ، كان يريدنى أن أبقى مع الأسباب وأترك المسبب !

إننا نجد الذين يحزنون على أحبائهم لا يرونهم فى المنام أبداً ؛ لأن الميت لا تأتى روحه لزيارة من حزن لأنه ذهب إلى المنعم ، وعلى الناس أن تدرك الغاية من الوجود

بأن تكون مع أسباب الحق فى الدنيا ثم تصير مع الحق ، والموت هو النقلة التى تنقلك من الأسباب إلى المسبب ، فما الذى يحزنك فى هذا ؟

نحن نقصرُ عليك المسافة . . فبدلاً من أن تقابلك عقبات الطريق ، وقد تنجح أو لا تنجح ، وبعضهم يقول : مات وهو صغير ولم ير الدنيا ، نقول لهم : وهل هذه تكون خيراً له أو لا ؟ أنت مثلاً كبرت وقد تكون مقترفاً للمعاصى ؛ فلعل الله أخذ الصغير حتى لا يعرضه للتجربة ، ضع المسألة أمامك واجعلها حقيقة .

عن الحارث بن مالك الأنصارى أنه مرّ برسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له : كيف أصبحت يا حارث ؟ فقال : أصبحت مؤمنا حقا . قال : « انظر ما تقول ؛ فإن لكل شىء حقيقة فما حقيقة إيمانك ؟ فقال : عزفت نفسى عن الدنيا فأسهرت ليلى ، وأظمأت نهارى وكأنى أنظر إلى عرش ربى بارزا ، وكأنى انظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها ، وكأنى أنظر إلى أهل النار يتضاغوْن[1] فيها فقال : « يا حارث عرفت فالزم ، ثلاثا »[2] .

ولنا العبرة فى سيدنا حذيفة ـ رضى الله عنه ـ حينما سأله رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له : كيف أصبحت ؟ أى كيف حالك الإيمانى ؟ قال حذيفة : يا رسول الله ، عزفت نفسى عن الدنيا فاستوى عندى ذهبها ومدرها ـ أى أن الذهب تساوى مع الحصى ، هذه هى مسألة الدنيا ـ وأضاف حذيفة : وكأنى أنظر أهل الجنة فى الجنة ينعمون ، وإلى أهل النار فى النار يعذبون

وساعة لا تغيب عن بال سيدنا الحارث صورة الآخرة ، فهو يسير فى الحياة مستقيما . . فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : « عرفت فالزم » .

الحق سبحانه وتعالى حين يذكر لنا بعض الأحكام يذكر لنا أيضاً خبر بعض الناس الذين يتمردون على الأحكام ، ثم يذكرنا بحكاية الجنة والنار ؛ ولذلك يقول لنا :

---

(١) يتضاغون : يصيحون من الألم
(٢) رواه الطبرانى .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾ ﴾

و « نصليهم » من الاصطلاء ، قد يقول قائل : مادام يصلى النار وكلنا يعرف أن نار الدنيا حين تحرق شيئاً ينتهى إلى عدم ، وحين ينتهى إلى عدم إذن فلا يوجد ألم ! ونقول : لتنتبه إلى أن الحق سبحانه وتعالى يقول فى هذا الأمر « كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب » . . إذن فالعذاب ليس كنار الدنيا ، لأن نار الدنيا تحرق وتنتهى المسألة . أما نار الآخرة فإنها عذاب سرمدى دائم مكرر « كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب » . . فإذا ما حرّقت الجلود فإن جلوداً أخرى ستأتى ، أهى عين الأولى أم غيرها ؟ وحتى أوضح ذلك : أنت عندما يكون عندك خاتم مثلاً ، ثم تقول : أنا صنعت من الخاتم خاتماً آخر ، فالمادة واحدة أيضاً ، فهل التعذيب للجلود أو للأعضاء ؟ إن العذاب دائماً للنفس الواعية ، بدليل أن الإنسان قد يصيبه ورم فيه بعض الصديد « دُمّل » يتعبه ولا يقدر على ألمه . . وبعد ذلك يغفل فينام ، بمجرد أن ينام فلا ألم . لكن عندما يستيقظ يتألم من جديد .

إذن فالألم ليس للعضو بل للنفس الواعية ، بدليل أننا عندما ارتقينا فى الطب ، قلنا إن النفس الواعية نستطيع أن نخدرها بحيث يحدث الألم ولا تشعر به ، ويفتح « الدُّمل » بالمشرط ولا يحس صاحبه بأى ألم . وهكذا تجد أن الجلود والأعضاء ليس لها شأن بالعذاب ، إنما هى موصلة للمعذب ، والمعذَّب هى النفس الواعية . . بدليل أنها ستشهد علينا يوم القيامة . . تشهد الجلود والجوارح ، وستكون آلة لتوصيل العذاب . . ومسرورة لأنها توصل لهم العذاب .

إنه نظام إلهى فلا تتعجبوا من القرآن ، فإن العلم كلّما تقدم هدانا إلى شيء من آيات الله فى الكون . أنتم ـ الآن ـ تخدرون النفس الواعية وتشقون الجسد بالمشارط

كما يحلو لكم فلا يحدث له ألم ، وعرفتم أن الألم ليس للعضو ، إنما الألم للنفس الواعية ، إذن فكل الجوارح هى آلات توصِّل الألم للنفس الواعية ، وتكون مسرورة ؛ لأن النفس الواعية تعذب ، وهذه يشبهونها ـ مثلا ـ بواحد عنده « حكة » فى جلده ، فيهرش ، والهرش يسيل دمه فيكون مستلذاً .

إذن فقوله : « كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب » أى أن الجلود تبدل وتنشأ جلود أخرى من نفس مادتها توصل العذاب للنفس الواعية ، وهكذا .

« إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم نارا كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب » . نحن نعلم أن الحق سبحانه وتعالى أنزل كتاباً هو القرآن ، وجعله معجزة ومنهجا ، وهذه هى الميزة التى امتاز بها الإسلام . فمنهج الإسلام هو عين المعجزة ، وكل رسول من الرسل كان منهجه شيئا ومعجزته كانت شيئا آخر .

إن سيدنا موسى منهجه التوراة ومعجزته : العصا ، وسيدنا عيسى منهجه : الإنجيل ، ومعجزته : إبراء الأكمه والأبرص بإذن الله ، لكن معجزة رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت القرآن ؛ لأن دينه سيكون الامتداد النهائى لآخر الدنيا ، ولذلك جعل الله منهجه هو عين معجزته ، لتكون المعجزة دليلًا على صدق المنهج فى أى وقت ، ولا يستطيع واحد من أتباع أى نبى سابق على رسول الله أن يقول : إن معجزة الرسول الذى أتبعه هى منهجه ؛ لأن معجزات الرسل السابقين على رسول الله كانت عمليات كونية انتهت مثل عود كبريت احترق ، فمن رآه رآه وانتهى ، لكن المسلم يستطيع أن يقف ويعلن بملء فيه : إنَّ محمداً رسول الله وصادق ، وتلك معجزته . فمعجزة محمد صلى الله عليه وسلم باقية بقاءً أبدياً ، ومتصلة به أبداً . أما معجزة كل رسول سبق رسول الله فقد أدت مهمتها لمن رآها وانتهت ، وانفصلت معجزة كل رسول سابق على رسول الله عن منهجه .

والمنهج القرآنى فيه أحكام ، والأحكام معناها ؛ افعل كذا ، ولا تفعل كذا . وهى واضحة كل الوضوح منذ أن أنزل الله القرآن على رسوله وحتى تقوم الساعة . ومن فعل مطلوب الأحكام يثاب ، ومن لم يفعله يعاقب . وكل الناس سواسية فى مطلوب الأحكام إلى أن تقوم الساعة .

أما آيات الله الكونية التي لا تتأثر . . فأى فائدة للإنسان إن عرفها أو لم يعرفها : فقد طمرها الله وسترها فى القرآن مع إشارة إليها ، لأن العقل المعاصر لنزول الكتاب لم يكن قادرا على استيعابها فى زمن الرسالة . ولو أن القرآن جاء بآية واضحة تقول : إن الأرض كروية وتدور ، بالله ماذا كان المعاصرون لرسول الله يقولون ؟ إن بعضاً من البشر الآن يكذبون ذلك ، فما بالنا بالبشر المعاصرين لرسول الله صلى الله عليه وسلم الذين لو قال لهم رسول الله ذلك لانصرفوا عن اتباع ما جاء به .

لقد كانوا يستفيدون من كروية الأرض ، مثلما يستفيد منها الفلاح أو البدوى ، ومثلما يستفيد الناس الآن الذين لم يدرسوا الكهرباء برؤية التليفزيون وضوء المصباح الكهربائى وغير ذلك من الاستخدامات، دون معرفة علمية بتفاصيل ذلك ، إنّ الشمس تسطع على الدنيا فيتبخر الماء من الأنهار والمحيطات والبحار ليصير سحاباً ، ثم ينزل المطر من السحاب . وكل هذه الآيات الكونية لم يعط الله أسرارها إلا بقدر ما تتسع العقول ، وترك فى كتابه ما يدل على ما يمكن أن تنتهى إليه العقول الطموحة بالبحث العلمى .

وعندما نتعرف نحن ـ المسلمين ـ على اكتشاف علمى جديد فى الكون ، نقول : إن القرآن قد أشار له ، لكن قبل ذلك لا يصح أن نقول ذلك حتى لا يكذب الناس هذا الكتاب المعجز ، فسبحانه القائل :

﴿ بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ﴾

(من الآية ٣٩ سورة يونس)

لو أن القرآن قال : إن كل شيء فى الوجود يتكاثر ، وفيه موجب وفيه سالب ، ذكر وأنثى ، أكانوا يصدقون ذلك ؟ . لا ؛ لأنهم كانوا لا يعرفون الذكر والأنثى إلا فى الرجل والمرأة ، ويعرفون ذلك فى الحيوانات ؛ وأيضاً فى بعض النباتات مثل النخل ، لكن هناك نباتات كثيرة لا يعرفون حكاية التكاثر فيها ، ومثال ذلك القمح الذى نزرعه ونأكله ، وكذلك الذرة ، لم يكونوا عارفين بأن عنصر الذكورة يوجد فى « الشواشى » العليا فى كوز الذرة وأن الهواء يضرب تلك الشواشى فتنزل منها حبوب اللقاح فيخرج الحب ، ولذلك نجد الزّارع الذكى هو الذى يفتح «كوز الذرة» من أعلاه قليلاً حتى يتيح لحبوب اللقاح أن تصل إلى موقعها . وقد يفتح الفلاح أحد « كيزان الذرة » فيجد حبة ميتة وسط الحبوب المتراصة ويكتشف أنها حبة ليس لها خيط أى لم تتصل بحبوب اللقاح وهو ما يقولون عنه فى الريف « سنة عجوز » .

إذن فكل تكاثر له ذكورة وأنوثة ، ولذلك يقول ربنا :

﴿ سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾

(سورة يس)

وكنا نعرف الأزواج فى الأنفس ، ثم عرفناها فى النبات ، وجاء الحق بـ « مما لا يَعلمون » لِتُدخل كل شيء ، وتكشف الموجب والسالب فى الكهرباء ، وصرنا نعرف أن كل كائن فيه ذكر وأنثى ، وكلما تقدم العلم فهو يشرح الآيات الكونية .

ومن رحمة الحق سبحانه بعقول الأمة المكلَّفة برسالة محمد لم يشأ أن يجعل نواميسه فى الكون واضحة صريحة حتى لا تقف العقول فيها وتعجز عن فهمها ، وخاصة أن الكتاب واجه أمّة أمّيّة ؛ ليست لها ثقافة . وهب أنه واجه العالم المعاصر ، إن هناك قضايا فى الكون لا يعلمها العالم المعاصر ، فلو أن القرآن تعرض لها بصراحة لكانت سبباً من الأسباب التى تصرف الناس عن الكتاب . والقرآن جاء كتاب منهج ، والمعجزة أمر جاء لتأييد المنهج ، فلم يشأ أن يجعل من المعجزة ما يعوق عن المنهج ، لكنه ترك فى الكون طموحات للعقل المخلوق لله والمادة الكونية المخلوقة لله ، وكل يوم يكتشف العقل البشرى أشياء ، وهذا الاكتشاف لا يأتى من فراغ ، بل يأتى من أشياء موجودة .

إذن فلو رددت أدق أقضية العلم التى يصل إليها العقل المعاصر ، ونسبتها فى الكون لرجعت إلى الأمر البديهى . فلا يوجد صاحب عقل ابتكر أو جاء بحاجة جديدة ، إنما هو أعمل عقله فى موجود فاستنبط من مقدمات الموجود قضية معدومة ، ثم أصبحت القضية المعدومة مقدمة معلومة ليستنبط منها من يجيء بعد ذلك . ولذلك فالعلماء عادة قوم يغلبهم طابع التهذيب عندما يقولون : اكتشفنا الأمر الفلانى ، يعنى كأنه كان موجوداً .

إن الحق سبحانه وتعالى يعطى لنا فكرة تقرب لنا الفهم ، فنحن عندما كنا نتعلم الهندسة مثلاً ؛ عرفنا أن الهندسة مكونة من نظريات ، تبدأ من نظرية « واحد » ،

وتنتهى إلى ما لا نهاية ، وحين جاء لنا مدرس ليبرهن لنا على نظرية « مائة » ، استخدم فى البرهان على ذلك النظرية التسع والتسعين ، وعندما كان يبرهن على النظرية « التسع والتسعين » استعمل ما قبلها .

إذن فكل برهان على نظرية يستند إلى ما قبلها ، والعقل الواعى المفكر المستنبط هو الذى يرتب المقدمات ويستخلص منها النتائج . وكل شيء فى الكون يشترك فيه كل الناس . لكن العقل الذى يرتب ويستنبط يخيل إليه وإلى الناس أنه جاء بجديد ، وهو لم يأت بجديد . بل ولَّد من الموجود جديداً ، مثال ذلك الطفل عندما يولد من أبويه ، هل هما جاءا به من عدم ؟ لا ، بل جاء الولد من تزاوج ، وعندما نسلسل الأمر نصل إلى آدم ، فمن الذى جاء بآدم ؟ . إنه الله .

إذن فالبديهيات التى فى الكون هى خميرة كل علم تقدمى وهى من صنع الله الذى أتقن كل شيء صنعاً ، وكل نظرية مهما كانت معقدة فى الكون منشؤها من الأمر البديهى ، مثال ذلك البخار ؛ عندما اكتشفوه وقبل أن يسيّروا به الآلات ماذا حدث ؟ . كان هناك من يجلس فالتفت فوجد الإناء الذى به الماء يغلى ثم وجد غطاء الإناء يرتفع وينخفض ، وعندما تعرف على السرّ ، اكتشف أن كل بخار يستطيع أن يعطى قوة دافعة ، وبذلك بدأ عصر البخار . إذن فهو ذكى ، وقد أخذ اكتشافه من بديهية موجودة فى الكون ، فإياك أن تغتر وتقول : إن العقل هو الذى اخترع ، ولكن العقل عمل بالجهد فى مطمورات الله فى الوجود ، ورتب ورتب ثم أخرج الاكتشاف .

لذلك فعندما يبتكر العقل البشرى شيئاً جديداً نقول له : أنت لم تبتكر ، بل اكتشفت فقط ، والحق سبحانه وتعالى يترك هذه العملية فى الوجود . ويقول :

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾

(من الآية ٥٣ سورة فصلت)

والبشرية عندما تكتشف شيئاً جديداً ، نقول لهم : القرآن مسّها وجاء بها ، فيقولون : عجباً هل فعل القرآن ذلك منذ أربعة عشر قرناً ، على الرغم من أنه نزل

ليخاطب أمة أمية ، وجاء على لسان رسول أمّى . ونقول : نعم .

والآية التى نحن بصددها فيها هذا :

﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا ﴾

(من الآية ٥٦ سورة النساء)

والجلود والأحاسيس شرحناها من قبل ، ونظرية « الحسّ » ـ كما نعرف ـ شغلت العلماء الماديين ، وأرادوا أن يعرفوا كيف نحسّ ؟ منهم من قال : نحن نحسّ بالمخ . نقول لهم : لكن هناك مسائل لا تصل للمخ ونحس بها ، بدليل أنه عندما يأتى واحد أمام عينى ويوجه أصبعه ليفتحها ويثقبها فقبلما يصل أصبعه أغلق عينى أى أن شيئاً لم يصل للمخ حتى أحسّ . وبعض العلماء قال : إن الإحساس يتم عن طريق النخاع الشوكى والحركة العكسية ، ثم انتهوا إلى أن الإحساس إنما ينشأ بشعيرات حسية منبطحة مع الجلد ؛ بدليل أنك عندما تأخذ حقنة فى العضل ، فالحقنة فيها إبرة ، ويكون الألم مثل لدغة البرغوث يحدث بمجرد ما تنفذ الإبرة من الجلد ، وبعد ذلك لا تحس .

إذن فمركز الإحساس فى الإنسان هو الشعيرات الحسية المنبطحة على الجلد ، بدليل أن ربنا أوضح : أنه عندما يحترق الجلد يمتنع الإحساس ، فأنا أبدل لهم الجلد ليستمر الإحساس : « كلما نضجت جلودهم » أى صارت محترقة احتراقا تاما وتعطلت عن الإحساس بالألم ، آتيهم بجلد آخر لأديم عليهم العذاب؛ لأنه هو الذى سيوصل للنفس الواعية فتتألم ، إذن فالآية مسّت قضية علمية معملية ، لو أن القرآن تعرض لها بصراحة وجاء بصورة فى الإحساس تقول : يا بنى آدم محلّ الإحساس عندكم الجلد ، لما فهموا شيئاً . لكنه تركها لتنضج فى العقول على مهل .

« كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب » . فتكون علّة التبديل للجلود التى أحرقت بجلود جديدة كى يدوم العذاب .ويذيل الحق الآية : « إن الله كان عزيزا حكيما » والعزيز : هو الذى لا يُغلب ولا تَقدر أن تحتاط من أنه يهزمك أبداً ، فقد يقول كافر : لقد تلذذنا بالمعصية مرة لمدة خمس دقائق ، ومرة لمدة

ساعتين فما يضيرنى أن يحترق جلدى وتنتهى المسألة !! نقول له : لا.إن الذى يعذبك لا يُغلب فسوف يديم عليك العذاب بأن يبدل لك الجلد بجلد آخر ، وسبحانه حكيم.فالمسألة ليست مسألة جبروت يستعمله ، لا . هو يستعمل جبروته بعدالة .

وبعد أن جاء بالعذاب أو بالجزاء المناسب لمن رفضوا الإيمان ، لم ينس المقابل؛ لكى يكون البيان للغايتين : غاية الملتزم وغاية المنحرف . ولذلك يقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَّهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾ ﴾

وفى هذه الآية يصف الحق ثواب الفئة المقابلة للفئة السابقة وهم الذين آمنوا ، ونعلم أن آخر موكب من مواكب الرسالة هو رسالة محمد صلى الله عليه وسلم . إذن فأمة سيدنا محمد هى أقرب الأمم إلى لقاء الله . فالأمم من أيام آدم أخذت زمناً طويلاً ، لكننا نحن المسلمين قريبون ، ولذلك يقول النبى صلى الله عليه وسلم :

« بُعِثْتُ أنا والساعة كهاتين »[1] ، .

ولذلك لم يقل الحق فى هذه الآية : سوف ندخلهم . بل قال : « سندخلهم » ، أما مع الآخرين فاستخدم سبحانه « سوف » لأنها بعيدة ، أو أن هذا كناية وإشارة من الله لإمهال الكفار ليتوبوا ، وعندما يقرب لنا سبحانه المسافة فإنه يغرينا بالطاعة ، المسألة ليست بعيدة ، بل قريبة ؛ لذلك يعبر عنها : « سندخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار » .

(١) رواه أحمد والبخارى ومسلم والترمذى عن أنس .

إن كلمة « الجنة » مأخوذة من « الجَن » ، والستر ، و« الجَنَّة » هى البستان الذى به شجر إذا سار فيه الإنسان يستره ، وهو غير البساتين الزهرية التى تخرج زهراً قريباً من الأرض تمثل ترفا للعيون فقط ، أما الجنة ففيها أشجار عالية كثيفة بحيث لو سار فيها أحد يُستر ، ففيها الاقتيات وفيها كل شيء ، فهى تسترك عن أن تلتفت إلى غيرها لأن فيها ما يكفيك ، فالذى عنده حاجة لا تكفيه يتطلع إلى ما يكفيه ، لكن من عنده حاجة تكفيه فقد انستر عن بقية الوجود ، والحق سبحانه وتعالى يعطينا صورة عن شيء هو الآن عنا غيب ، وسيصير بإذن الله وبمشيئته مشهداً ، ونحن نعرف أن الجنة بها كل ما تتمناه النفس ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : قال الله عز وجل :

« أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر »[1] مصداق ذلك فى كتاب الله « فلا تعلم نفس ما أُخْفِىَ لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون » .
كانوا يعملون »

ونعلم أن الكائنات الوجودية يعرفها الإنسان بما يناسب إدراكه . . فقال : « ما لا عين رأت ولا أذن سمعت » ، والعين حين ترى تكون محدودة ، لكن السمع دائرته أوسع من الرؤية ، لأنه سيسمع ممن رأى ، إنه سمع فوق ما رأى ، إذن فدائرة الإدراكات تأتى أولاً : بأن يرى الإنسان ، ثم بأن يسمع ، وهو يسمع أكثر مما يرى ، وعلى سبيل المثال قد أرى أسوان لكننى أسمع عن أمريكا ، فدائرة السماع أوسع .

وبعد ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : « ولا خطر على قلب بشر » أى أن ما فى الجنة أكبر من التخيلات ، إذن فكم صفة هنا للجنة ؟ الأولى قوله : ما لا عين رأت، والعين مهما رأت فدائرتها محدودة ، والثانية : قوله : ولا أذن سمعت، والأذن إن سمعت فدائرتها أوسع قليلاً . والثالثة : قوله : ولا خطر على قلب بشر، وهذا أوسع من التخيلات ، فإذا كنت يا حق سبحانك ستعطينا فى الجنة : ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، فبأى الألفاظ يا ربى تؤدى لنا هذه الأشياء ، وألفاظ اللغة إنما وضعت لمعانٍ معروفة ، ومادمت ستأتى بحاجة لم ترها عين ، ولم تسمعها إذن ولم تخطر على قلب بشر ، فأى الألفاظ ستؤدى هذه المعانى ؟

---

(١) رواه مسلم فى صفة الجنة .

لقد أوضح صلى الله عليه وسلم : أنّه لا توجد ألفاظ ؛ لأن المعنى يُعرف أولاً ثم يوضع له اللفظ ، فكل لفظ وضع فى اللغة معروف أن له معنى ، لكن ما دامت الجنة هذه لم ترها عين ، ولم تسمعها أذن ، ولم تخطر على قلب بشر ، فلا توجد كلمات تعبر عنها ، لذلك لم يقل صلى الله عليه وسلم : إن الجنة هكذا بل قال : « مثل الجنة » أما الجنة نفسها ، فليس فى لغتنا ألفاظ تؤدى هذه المعانى ، وحيث إن هذه المعانى لا رأتها عين ولا سمعتها أذن ولا خطرت على قلب بشر ؛ لذلك فليس فى لغة البشر ما يعطينا صورة عن الجنة ، وأوضح الحق سبحانه : سأختار أمراً هو أحسن ما عندكم وأعطيكم به مثلاً فقال :

﴿ مَثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ﴾

(من الآية ١٥ سورة محمد)

ونحن نرى الأنهار ، والحق يطمئننا هنا بأن أنهار الجنة ستختلف فهو سبحانه سينزع منها الصفة التى قد تعكر نهريتها ؛ فقد تقف مياه النهر وتصبح آسنة متغيرة ، فيقول : « أنهار من ماء غير آسن » ، إذن فهو يعطينى اسماً موجودا وهو النهر ، وكلنا نعرفه ، لكنه يوضح : أنا سأنزع منه الأكدار التى تراها فى النهر الحادث فى الحياة الدنيا، وأيضاً فأنهار الدنيا تسير وتجرى فى شق بين شاطئين،لكن أنهار الجنة سترى الماء فيها وليس لها شطوط تحجز الماء لأنها محجوزة بالقدرة . . وستجد أيضاً أنهاراً من لبن لم يتغير طعمه .

إن العربى كان يأخذ اللبن من الإبل ويخزنه فى القِرَب ، وبعد ذلك ترحل الإبل بعيداً إلى المراعى وإلى حيث تسافر ، وعندما كان الأعرابى يحتاج إلى اللبن فلم يكن أمامه غير اللبن المخزن فى القرب ، ويجده متغير الطعم لكنْ لا يجد غيره ؛ لذلك يوضح الحق : سأعطيكم أنهاراً من لبن فى الجنة لم يتغير طعمه ، ثم يقول : « وأنهار من خمر » وهم يعرفون الخمر ولنفهم أنها ليست كخمر الدنيا ؛ لأنه يقول :

« مثل » . . ولم يقل الحقيقة فقال : أنهار من خمر لكنها خمر « لذة للشاربين » ، وخمر الدنيا لا يشربها الناس بلذة ، بدليل أنك عندما ترى من يشرب كأس خمر . . فهو يسكبه فى فمه مرة واحدة ! ليس كما تشرب أنت كوباً من مانجو وتتلذذ به ، إنه يأخذه دفعة واحدة ليقلل سرعة مروره على مذاقاته لأنه لاذع ومحمض ؛ وتغتال العقول وتفسدها . لكن خمر الآخرة لا اغتيال فيها للعقول .

إذن فحين يعطينى الحق مثلاً للجنة . . فهو ينفى عن المثل الشوائب ، ولذلك نجد الأمثال تتنوع فى هذا المجال ؛ فالعربى عندما كان يمشى فى الهاجرة ، ويجد شجرة « نبق » ويقال لها : « سدر » كان يعتبرها واحة يستريح عندها ، ويجد عليها النبق الجميل، فهو يمد يده ليأكل منها لكنّه قد يجد شوكاً فيتفادى الشوك، وفى بعض الأحيان تشكه شوكة ، وعندما لا يجد فى هذا الشجر شوكا يقول : هنا « سدر مخضوض » أى شجرة نبق لا شوك فيها ، والحق يأتى بكل الآفات التى فى الدنيا وينفيها عن جنة الآخرة .

« وأنهار من عسل مصفى » وكان العرب يأخذون العسل من الجبال فالنحل يصنع خلاياه داخل شقوق الجبال ، وعندما كانوا يخرجون العسل من الجبال يجدون فيه رملاً وحصى ، فأوضح الحق : ما يعكر عليك العسل هنا فى الدنيا أنا أصفيه لك هناك ، ومع أنه مثل لكنه يصفيه أيضاً ، ولماذا مثّل ؟ . . لأنه مادام نعيم الجنة « لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر » . . فتكون لغة البشر كلها لا تؤدى ما فيها . . لكنه ـ سبحانه ـ يعطينا صورة مقربة ، ويضرب الله المثل بالصورة المقربة للأشياء التى تتعالى عن الفهم ليقربها من العقل ، ومثال ذلك عندما أراد سبحانه أن يعطينا صورة لتنوير الله للكون ، وليس لنور الله الذاتى ، بل لتنوير الله للكون ، فيقول :

﴿ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ﴾

(من الآية ٣٥ سورة النور)

إنه يعطينا مثلاً مقرباً لأن لغتك ليس فيها الألفاظ التى تؤدى الحقيقة ، ولذلك يقول :

﴿ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾

(من الآية ١٠٠ سورة التوبة)

ومادامت جنات ففيها شجر ملتف وعالٍ ، ونحن نعرف أن الشجر لا بد أن يكون فى منطقة فيها مياه ؛ لذلك قال : « تجرى من تحتها الأنهار » ، ومرة يقول : « تجرى تحتها الأنهار » لأن ما يجرى تحتها قد يكون آتيا من مكان آخر ، ويكون منبعها من مكان بعيد وتجرى الأنهار تحت جنّتك ، وقد تظن أن بإمكان صاحب النبع أن يسدّها على جنتك ، فيشرح الحق : لا.هى جاءت من تحتها مباشرة .

ويقول الحق عن أهل الجنة : « خالدين فيها » وهو سبحانه وتعالى يخاطب قوماً شهدوا بعض النعيم فى دنياهم من آثار نعمه عليهم ، لكنهم شهدوا أيضاً أن النعمة تزول عن الناس ، أو شهدوا أناساً يزولون عن النعمة ، فقال سبحانه عن جنة الآخرة : « خالدين فيها أبداً » فلا هى تزول عنهم ولا هم يزحزحون عنها .

ويعطينا سبحانه أيضاً صورة من النعيم الذى يوجد عندنا فى الدنيا لكنه يزول أيضاً أو نزول نحن عنه : « ولهم فيها أزواج مطهرة » وأزواج جمع « زوج » ، وعندما يصف الحق سبحانه وتعالى جمعا فهو يأتى فى الصفة بجمع أيضاً مثل قوله :

﴿ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ﴾

(من الآية ١٣ سورة سبأ)

لأن « قدور » جمع « قِدر » ، ولم يقل هنا : وأزواج مطهرات وجاء بها مفردة لأن الرجل فى الدنيا قد يتزوج بأكثر من واحدة فينشأ بين الزوجات المتعددات ظلال الشقاق فكأنهن متنافرات ، فقال : إنهن كلهن سيكنّ أزواجاً على صورة واحدة من الطهر ، وليس فى أى منهن ما يعكر صفو الأزواج كما يكون الأمر فى الدنيا ، ولا يقولن واحد : « كيف تقبل المرأة أن يكون لها ضَرة فى الآخرة ؟ » لأن الحق سبحانه نزع من الصدور كل ما كان يكدر صفو النفوس فى الدنيا فقال :

﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ ﴾

(من الآية ٤٣ سورة الأعراف)

إذن فكأنهن ـ وإن تعددن ـ فى سياق واحد من الطهر مما لا يعكر صفو الزوج ، إنّه يعجبك شكلها ، ستعجبك ، أخلاقها ليس فيها عيب ولا نقص مما كان يوجد فى الدنيا إنها مطهرة من ذلك كله . إذن فهو يعطينى خلاصة ما يمكن أن يتصور من النعيم فى الأزواج .

ويكمل الحق : « وندخلهم ظلًّا ظليلاً » . ولغة العرب إذا أرادت أن تؤكد معنى فهى تأتى بالتوكيد من اللفظ نفسه ، فيقول العربى مثلاً : «هذا ليل أليل» أى ليل حالك ، وعندما يبالغ فى « الظل » يقول:« ظليل » . وما هو « الظل » ؟ . « الظل » هو : انحسار الشمس عن مكان كانت فيه أو لم تدخله الشمس أصلاً كأن يكون الإنسان داخل كهف أو غار مثلاً .

إن كلمة ظل ظليل يعرفها الذين يعيشون فى الصحراء ، فساعة يرى الإنسان هناك شجرة فهو يجلس تحتها ويتمتع بظلها ، والظل نفسه قد يكون ظليلاً ، مثال ذلك « الخيام المكيفة » التى يصنعونها الآن ، وتكون من طبقتين : الطبقة الأولى تتعرض للشمس فتتحمل السخونة ، والطبقة الثانية تحجز السخونة ، ويسمون هذا السقف « السقف المزدوج » . ويوجد خاصة فى الأماكن العالية ؛ لأن الشقة على سبيل المثال التى تعلوها أدوار تكون محمية ، لكن الشقق الموجودة فى آخر دور خصوصاً فى البلاد الحارة تكون السخونة فيها صعبة وشديدة ؛ لذلك يصنعون سقفاً فوق السقف ، وبذلك يكون الظل نفسه فى ظل .

ولماذا الإنسان يسعد بالظل تحت شجرة أكثر من سعادته بالظل فى جدار ؟ لأن الظل فى جدار مكون من طبقة واحدة ، صحيح أنه يمنع عنا الشمس لكنه أيضاً يحجب الهواء ، لكن الجلوس فى ظل الشجرة يتميز بأن كل ورقة من أوراق الشجرة فوقها ورقة ، وأوراقها بعضها فوق بعض ، وكل ورقة فى ظل الورقة الأعلى . ولأن كل ورقة خفيفة لذلك يداعبها الهواء ، فتحجب عن الجالس تحت الشجرة حرارة الشمس ، وتعطيه هواء أيضاً ، هذا هو معنى قوله : « ظلًّا ظليلاً » .

ولذلك فعندما أراد الشاعر أن يصف الروضة قال :

وقـانـا لفحـةَ الـرمضـاءِ وادٍ ... سقـاه مضـاعف الغيث العميم
نـزلنـا دوحـه فحنـا علينـا ... حنـو المرضعات عـلى الفطيم
وأرشفـنـا عـلى ظـمـأ زلالاً ... ألـذ مـن المـدامـة للنـديـم
يصـد الشـمس أنى واجهتـنـا ... فيحجبهـا ويـأذن للنسـيـم

والشاعر هنا يصف الموقف حين يسير الإنسان فى صحراء ثم ينزل فى وادٍ به دوح وهذا الدوح يحنو على الإنسان حنو الأم على طفلها فى سن الفطام . وأنه قد سقاهم من مائه ما يلذ . وتصد الشمس عنهم الأشجار الكثيفة ولكن النسيم يمر بين أوراق الشجر . وهكذا نفهم أن كلمة « ظل ظليل » ، أى أن الظل فى ذاته مظلل .

وبعد أن تكلم الحق عن الغايات التى تنتظر الصنفين من خلقه : الصنف الذى يتأبى على منهج الله ، والصنف الذى يتطامن لمنهج الله : الصنف الأول أعد له الله النار التى تشوى جلوده ويبدله جلودا غيرها ليذوق العذاب ، والصنف المؤمن الذى أعد الله له الجنة ذات المواصفات المذكورة . وبعدما يجعل الغاية واضحة فى ذهننا من الكلام عن النار والكلام عن الجنة يلفتنا إلى حكم جديد ؛ لأن النفس تكون كارهة للنار ومحبة للجنة ، وعندما يأتى حكم جديد تتعلق النفس به وتنفذه ؛ لأنها قريبة العهد ، بالترهيب من النار والترغيب فى الجنة،فيجعل الحق هذا الأمر مرة تذييلاً لما تقدم ، ومرة أخرى يجعله تمهيداً لما يأتى ؛ كى تستقبل الأحكام الجديدة فى ذهنك وتتضح لك الغاية التى تنتظر مَن التزم ، والغاية التى تنتظر من انحرف .

وعندما يأتى الحكم والغاية متضحة فى الذهن ومهيئة للإنسان فالتكليف يوضع فى بؤرة الشعور ؛ لأن هناك حاجات كثيرة تعلمها النفس البشرية ، ورحمة الله بالخلق أن هذا الرأس الذى فيه حافظة ، وفيه ذاكرة ، وفيه مخيلة ، لا يقدر أن يستوعب كل المعلومات فى بؤرة الشعور مرة واحدة ، ولا يمكن أن يجىء لك معنى جديد إلا إذا تزحزح المعنى الذى كنت مشغولاً به فى ذهنك قليلاً عن بؤرة الشعور وذهب إلى حاشية الشعور ، فإن بقى المعنى فى مكانه فلن يأتى لك خاطر جديد .

راجع أصله وخرّج أحاديثه د. أحمد عمر هاشم نائب رئيس جامعة الأزهر .

إذن فبؤرة الشعور هى التى فيها ما أنت الآن بصدده فلا يمكن أن تتداخل الأفكار فى البؤرة الشعورية ، ولذلك عندما تريد أن تستدعى حاجة فى بؤرة الشعور . فالمعانى تتداعى كى تأتى بما فى حاشية الشعور إلى بؤرة الشعور . وساعة يأتى ما تريده فى بؤرة الشعور يذهب الخاطر الأول .

إياك أن تظن أن العقل البشرى يستطيع أن يواجه فى بؤرة الشعور كل المعلومات ، لا . فمن رحمة الله أنه وضع لشعورك نظاما تخزن فيه معلوماتك ، ولذلك فأنت قد تتذكر حاجة من عشر سنوات ، فإذا كانت قد ذهبت من فكرك فكيف تذكرتها ؟. إذن فهى موجودة لكنها موجودة فى الحواشى البعيدة للشعور . . وعندما تداعت المعانى خرجت الخاطرة أو الحادثة إلى بؤرة الشعور ؛ ثم تؤدى مهمتها وتذهب ؛ وتأتى أخرى فى بؤرة الشعور .

إن هذا الذهن البشرى فيه قوة وطاقة يختزن فيها الأحداث ، وعلى الرغم من ذلك تختلف قدرات الناس ، فهناك من يحفظ قصيدة من عشر مرات ، وهناك ذهن يحفظ من مرتين ، وهناك من يحفظ من ثلاث مرات . إن الذهن كآلة التصوير « الفوتوجرافى » يلتقط من مرة واحدة ، والمهم فقط أن تكون بؤرة شعورك خالية ساعة الالتقاط . فإن كانت بؤرة شعورك خالية من غيرها تلتقطها .

أنت تكرر القصيدة أو الآية أو الكلمة كى تحفظها ؛ لأنك لو قدرت أن تجعل بؤرة شعورك مع النص لحفظت النص مباشرة ، لكنك لا تحفظ النص ؛ لأن هناك خواطر تأتيك فتخطف التركيز ، وتكون بؤرة الشعور مشغولة بسواها فلا تستطيع أن تحفظ المعلومة الجديدة ، فتكرر الحفظ إلى أن تصادف كل جزئية من جزئيات الشعر أو القصيدة أو الآية خلو بؤرة الشعور ؛ لذلك يقولون :هناك طالب يحفظ ببطء ، وآخر يحفظ بسرعة ، إن الذى يقدر أن يركز ذاكرته لما هو بصدده ، فذهنه يلتقط ما يقرأ من مرة واحدة أما الذى لا يركز فإن حفظه يكون بطيئا .

وأضرب هذا المثل ، وقد يكون أغلبنا مرّ به ، وخصوصاً من تعرض للعلم وللامتحانات : هب أنك طالب فى امتحان ، وبعد ذلك دق الجرس لتدخل مكان

الامتحان ، ثم جاء زميل لك وقال لك : القطعة الفلانية سيأتى منها سؤال ، وأنت لم تكن قد ذاكرتها ، هنا تخطف أى كتاب وتقرؤها بإمعان ، فهل وأنت فى هذه الحالة تفكر فى ماذا ستأكل على الغداء ؟ أو تفكر فى من كان معك بالأمس ؟ لا ؛ لأن الوقت ضيق ولن يتركز فكرك إلا فى هذه القطعة التى تقرؤها ثم تدخل الامتحان فتجد سؤالاً فى القطعة التى ذاكرتها من دقائق ولمدة قصيرة فتضع الإجابة الصحيحة ، وقد لا يعرفها مَن ذاكرها لمدة شهر ؛ لأنه ذاكرها وباله مشغول ، أما أنت فتضع إجابة السؤال كما يجب لأنك ذاكرتها وليس فى ذهنك غيرها ؛ لأن الوقت ضيق وكانت بؤرة شعورك محصورة فيها .

ومثال آخر : نجد تلميذاً من التلاميذ يشكو من عدم فهمه من أستاذه لكن هناك تلميذ آخر يفهم ، والتلميذ الذى لا يفهم هو من انصرف ذهنه عنه فى أثناء الشرح فى مسألة بعيدة عن العلم الذى يدرسه ، وعندما يجىء درس جديد ، فهو يفاجأ بمعلومات لا بد أن تستقر وتبنى على معلومات سابقة كان ذهنه مشغولاً عنها ، فلما شرح المدرس الدرس الجديد ، قال التلميذ الذى لا يفهم : ماذا يقول هذا المدرس ؟. لكن التلميذ المنتبه له والذى يربط المعلومات بعضها ببعض ؛ يفهم ما يقوله المدرس ، ولذلك فالأستاذ الجيد لا بد أن يثيرالانتباهات دائماً لطلابه ، بمعنى أن يفاجئهم ، يقول مثلاً كم جملة ثم يقول للتلميذ : قم ، ماذا قلت الآن ؟. فيجلس كل تلميذ وهو عُرضة أن يُسأل ، فيخاف أن يُحرجه الأستاذ ، فينتبه للدرس ويجعل بؤرة شعوره مع المدرس دائماً .

فالحق سبحانه وتعالى بعدما تكلم عن النار وعن الجنة وجعل هذا الأمر مستقراً فى بؤرة شعورهم ينزل الأحكام بعد ذلك ، ولذلك تجد دائماً بعد أن يذكر سبحانه الجنة والنار يأتى بعدها بأمهات الأحكام التى إذا نفذوها نالوا الجنة وابتعدوا عن النار . فبعدما شحنت بؤرة الشعور بالجنة والنار بالغاية المنفرة والغاية المرغبة ، هنا يأتى الحكم ، فيقول الله تعالى :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا

﴿ وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾ ﴾

وقوله سبحانه : « أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها » ، أوجز الله فيها كل تكاليف السماء لأهل الأرض ، لأن الأمانات هي : الأمانة العليا وهي الإيمان بالله ، والأمانة التي تتعلق ببني الجنس ، والأمانة التي على النفس لكل الأجناس .

ومعنى الأمانة هو : ما يكون لغيرك عندك من حقوق وأنت أمين عليها ، إن شئت فعلتها ، وإن شئت لم تفعلها ، أنت تقول : أنا أودعت عند فلان أمانة ، هذه الأمانة لو كانت بإيصال لما كانت أمانة ؛ لأن هناك دليلاً ، ولو كان ما أودعته عند ذلك الإنسان عليه شهود لا تكون أمانة . فالأمانة : أن تودع عنده شيئاً ، وضميره هو الحكم ، إن شاء أقر بما عنده لك حين تطلبه ، وإن شاء لم يقر به ، قال الحق :

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ ﴾

(سورة الأحزاب)

فما هي الأمانة التي عرضت على السماوات والأرض والجبال فأبت أن تحملها ثم حملها الإنسان ، وعلة تحمله لها أنه كان ظلوماً جهولاً ؟ إن الكون كما نعلم فيه أجناس ، أدناها الجماد ، وأوسطها النبات ، وأعلى من الأوسط الحيوان ثم الإنسان ، والإنسان هو سيد هذه الأجناس؛ لأنها تخدمه جميعها ، لكن الجماد والنبات والحيوان لا اختيار لأي منها في أن يفعل أو لا يفعل ، وإنما كل جنس منها قد خلق لشيء ليؤديه ، ولا اختيار له في أن يمتنع عن الأداء .

الأرض والسماوات والجبال لم تقبل أن تكون مختارة أو أن تحمل أمانة وتكون المسألة فيها راجعة إلى اختيارها إن شاءت فعلت وإن شاءت لم تفعل . وأشفقت الأرض والسماوات والجبال من حمل الأمانة لعدم الثقة بحالة النفس وقت أداء

الأمانة . فيجوز أن يعقد الكائن العزم عند تحمل الأمانة أن يؤديها ، ولكن عند أدائها لا يملك نفسه ، فربما خانته نفسه وجعلته لا يقر بها . لقد احتاطت السماوات والأرض والجبال وقالوا : لا نريد هذه الأمانة ولا نريد أن نكون مختارين بين أن نفعل أو نترك ، نطيع أو نعصى ، وإنما يارب نريد أن نكون مسخرين لما تحب دون اختيار لنا . فسلمت الأرض والسماوات والجبال ، لكن الإنسان بما فيه من فكر يرجح الاختيار بين البديلات قال : أنا أقبلها وإن فكرى سيخطط لأدائها . ولم يلتفت الإنسان ساعة تحمله الأمانة إلى حالة أدائه لها .

ومثال ذلك : من الجائز أن يعرض عليك إنسان مبلغاً من المال كأمانة عندك ، فأخذته وأنت واثق أنك ستؤديه حين يطلبه منك ، ولكنك ساعة الأداء قد لا تملك نفسك ، فقد تمر بك ظروف فتصرف شيئاً من المال ، أو أن تكون ـ والعياذ بالله ـ قد خربت ذمتك .

إذن فالإنسان لا يملك نفسه وقت الأداء وإن ملك نفسه وقت الأخذ ، فالذين يحتاطون يقولون : أبعد عنا تحمل الأمانة ، فلا نريد أن نحمل لك شيئا ولكن الإنسان قبل تحمل الأمانة ؛ لأنه « كان ظلوما جهولا » ظلم نفسه وجهل بحالته وقت الأداء ، إذن فالأمانة التي عرضت على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وحملها الإنسان هي أمانة الاختيار التي يترتب عليها التكليف من الله .

إن التكليف محصور فى « افعل » و« لا تفعل » ، فإن شئت فعلت فى « افعل » ، وإن شئت لم تفعل فى « لا تفعل » . وإن شئت العكس ، ومعنى ذلك أن الأمانة فى هذا المعنى مقصورة على ما طلبه الله من الإنسان وقت العرض . لكنها لم تتعرض للأمانات التى توجد بيننا ، والأمانة كذلك هى ما يتعلق بذمتك بحق غيرك ؛ لذلك فحين يعطى إنسان إنساناً شيئاً يصير الآخذ مؤتمناً فإن شاء أدى وإن شاء لم يؤد .

لكن هناك أمانات أخرى لم يعطها إنسان لإنسان ، وإنما أعطاها رب الإنسان لكل إنسان ، فالعلم الذى أعطاه الله للناس أمانة . فهل الذى علمك علماً وأعطاه لك وبعد ذلك قال لك : أدّه لى ، كمثل من يكون مأموناً على مال ؟

تقول للعالم : العلم ليس من عندك حتى تعطيه لغيرك وبعد ذلك يرده لك ولكن الله يجازيك عليه ثواباً وكذلك فى الحلم والشجاعة ، ولا تتضح هذه المسائل بين العبد والعبد إلا فى المال ، لكن فى بقية الأشياء ؛ نقول لك : أنت أمين عليها أمام خالقك ، وقد أمنك ربنا على هذه الأشياء كى تؤديها إلى من لا يعلم ، فأمنك على قدرةٍ وأمرك : أعطها لمن لا يقدر ، وأمنك على علم وأوضح لك : أعطه لمن لا علم له . .

إذن فمن الذى أعطاك هذه الأمانة ؟ الله . فليس ضرورياً أن تكون الأمانة من صاحبها الذى أعطاها لك لتردها إليه ، فالأمانة : ما تصير مأموناً عليه مِمن خَلَقَ أو من مخلوق ، فأدها ، والأمانة بهذا المعنى أمرها واسع ، فاستحقاق الله للتوحيد أمانة عندك ، أهليتك للتكليف من الله حين كلفك أمانة عندك ، وأهليتك فى المواهب المختلفة أمانة عندك ، فكل إنسان عنده موهبة هو أمين عليها ولابد أن يؤديها وينقل آثارها لمن لا توجد عنده هذه الموهبة . فربنا أعطى هذا الإنسان قوة عضل ، وأعطى ذلك قوة فكر ، وأعطى ثالثاً قوة حلم ، وأعطى رابعاً علمًا . كل هذه الأشياء أمانات أودعها الله فى خلقه ليتكامل الخلق ، فحين يؤدى كل إنسان أمانته لكل إنسان يصبح كل إنسان عنده مواهب كل الآخرين .

والحق سبحانه وتعالى حينما يقول : « إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها » نتذكر على الفور قمة الأمانة أن تعبده ولا تشرك به أحدًا ، والأمانة فى التكاليف التى كلفك الله بها ؛ لأنها أمانة لغيرك عندك ، وأمانة عندك لغيرك . فحين يكلفك الله بألا تسرق ، يكون قد كلف الناس كلهم ألا يسرقوك .

إن كل أمانة عند غيرك تقابلها أمانة عندك ، فإن أديت مطلوبات الأمانة عندك أدى المجتمع الذى يحيط بك الأمانة التى عنده ، وهكذا تكون الأمانة هى : أداء حق فى ذمتك لغيرك .

وقوله تعالى : « إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها » قيل نزلت فى عثمان ابن طلحة ابن أبى طلحة وكان سادن ـ خادم ـ الكعبة وحين دخل رسول الله صلى الله

عليه وسلم مكة يوم الفتح أغلق عثمان باب الكعبة وصعد السطح ، وأبى أن يدفع المفتاح إليه وقال لو علمت أنه رسول الله لم أمنعه فلوى عليٌّ بن أبي طالب - رضي الله عنه - يده وأخذه منه وفتح ودخل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وصلى ركعتين ، فلما خرج سأله العباس أن يعطيه المفتاح ويجمع له السقاية والسِّدانة فنزلت هذه الآية فأمر أن يرده إلى عثمان - رضي الله عنه - ويعتذر له فقال عثمان لعلي : أكرهت وآذيت ثم جئت ترفق ، فقال لقد أنزل الله فيك قرآنا وقرأ عليه الآية فأسلم عثمان وهبط جبريل وأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن السِّدانة في أولاد عثمان أبدًا .

وهذا ويقابل الأمانة شيء بعد ذلك اسمه العدل ، فلو أدى كل واحد ما لغيره عنده من حق لما احتجنا إلى عدل ، فالعدل إنما ينشأ من خصومة وتقاضٍ ، والتقاضي معناه : أن واحداً أنكر حق غيره . فلو أدى كل واحد منا ما في ذمته من حق لغيره لما وجد تقاضٍ ، ولما وجدت خصومة فلا ضرورة إلى العدل حينئذٍ .

ولكن الحق الذي خلق الخلق وعلم الأغيار فيهم قدر أن بعض الناس يغفل عن هذه القضية وينشأ منها أن الإنسان قد لا يعطي الحق الذي في ذمته لغيره ، فقضى سبحانه بشيء آخر اسمه « العدل » . ولو أن المسألة الاولى انتهت لما احتجنا للعدل .

إذن فالعدل هو علاج للغفلة التي تصيب البشر من الأغيار التي تطرأ على نفوسهم ، فشاء الله أن يقول : « وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل » ، في الأولى لم يقل : إذا أتمنتم فأدوا ، لا . بل قال : « إن الله يأمركم أن تؤدوا » . فإذا حدثت منكم غفلة عن هذه فما الذي يحمي هذه المسألة ؟ هنا يأتي العدل وهو أن تقضي بحق في ذمة غيرك لغيره ، أي ليس في ذمتك أنت ؛ لأنك تحكم كي ترجح مسألة وتضع الأمر في نصابه .

وبذلك نعرف أن مطلوبات أداء الأمانة تكون في شيء عندك تؤديه لغيرك ، لكن مطلوبات العدل : تكون في أشياء في ذمة غيرك لغيرك . ولذلك قال الحق : « وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل » ، وكما أن آية أداء الأمانة عامة ، كان لابد أن تكون آية العدل عامة أيضاً .

إن قوله تعالى : ﴿ وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ﴾ ليست خاصة للحاكم فقط ، بل إنّ كل إنسان مطالب بالعدل ، فلو كنت مُحَكَّما من طرف قوم ورضوا بك أن تحكم فاحكم بالعدل حتى ولو كان الحكم فى الأمور التى يتعلق بها التكريم والشرف والموهبة ؛ فليس ضرورياً أن يكون الحكم بالعدل فى أمر له قيمة مادية ، مثلاً : سيدنا الإمام على ـ رضوان الله عليه وكرم الله وجهه ـ يرى غلامين يتحاكمان إلى ابنه الحسن ؛ ليحكم بينهما أى الخطين أجمل من الآخر ، وهذه مسألة قد ينظر لها الناس على أنها مسألة تافهة لكنها مادامت شغلت الطفلين وأراد كل واحد منهما أن يكون خطه أجمل ، فلابد أن يكون الحكم بالعدل . فقال الإمام على لابنه الحسن : يا بنى انظر كيف تقضى ، فإن هذا حكم والله سائلك عنه يوم القيامة .

إن هذا يعطينا صورة فى دقة العدل حتى ولو كان الأمر صغيراً . وفى مباريات كرة القدم تجد الحكم الذى يقول هذه اللعبة تحتسب هدفاً أو لا تحتسب ، هذا الحكم يحتاج إلى مهارة لأنه سيترتب عليها فوز فريق أو هزيمته ، بدليل أنك حتى وأنت تراقب الكرة ثم وجدت الحكم لم يحتسب خطأ تثور عليه .

وهنا أتساءل : لماذا طبقتم قانون الجد فى اللعب ، ثم تركتم الجد بدون قانون ؟ وهذا ما يحدث . نحن ننقل قوانين الجد إلى اللعب ، ونترك الجد فى بعض الأحيان بدون قانون ، ولو اعتنينا بهذه كما اعتنينا بتلك . لتساوت الأمور ، فالعدل إذن هو حق فى ذمة غير لغير حتى ولو كانت مباراة فى اللعب ، ومادام الأمر قد شغل طرفين ، وجعل بينهما نزاعا وخلافا وتسابقًا فعليك أن تنهى هذا الخلاف بالعدل .

ويتابع الحق : ﴿ إن الله نعما يعظكم به ﴾ و﴿ نعما ﴾ يعنى نعم ما يعظكم به الله ، أى لا يوجد أفضل من هذه العظة التى هى : أداء الأمانة والحكم بالعدل ، فبهذا تستقيم حركة الحياة . فإذا أدى الناس الأمانة فلا نزاع ولا خلاف ، وإذا أدوا عدالة الحكم فإن كان هناك خلاف ينتهى . وقال العلماء : إذا علم المجتمع أن عدلا يحرس حقوق الناس عند الناس فلن يجرّىء ذلك ظالماً على أن يظلم بعد ذلك ، فيقول الظالم : فلان ظلم ولم يحاكم ، فيغرى ذلك الظالم أن يزيد فى ظلمه ، لكن ساعة

يرى الناس أحداً يأخذ حق غيره ثم جاء الحاكم فردعه ، ورد الحق لصاحبه فلن يظلم أحد أحداً .

وسبحانه فى أمره هذا لا حاجة له فى أن تفعلوا أو لا تفعلوا ، فهى أشياء لا تؤثر عنده فى شيء ، إنما هى فى مصالحكم أنتم بعضكم مع بعض ، وأحسن ألوان الأمر هو ما لا يعود على الآمر بفائدة ، لأن الأمر إذا ما كان فيه عود بالفائدة على الآمر قد يشكك فى الأمر . لكن أن تأمر بأمر ليس لك فيه فائدة فهذا قمة العدل . وقد يوجد إنسان يأمر بما لا فائدة له فيه ، لكنه قد لا يكون واسع العلم ولا واسع الحكمة ، والأمر هنا يختلف لأن الله سبحانه وتعالى ليس له مصلحة فى الأمر ، هذه واحدة ، وأيضاً فهو ـ سبحانه ـ واسع العلم والحكمة ؛ لذلك كانت هذه العظة مقبولة جداً ، وهى نعمة من الله وأما ما عداها فبئست العظة ؛ لأن الله لا ينتفع بأمره هذا وهو مأمون على العباد جميعاً ، والثانية : أنه قد يوجد غير لا ينتفع بالأمر ولكنه قاصر العلم وقاصر الحكمة فلا نعمت العظة منه ، فقوله : « إن الله نعما » يعنى : نعم ما يعظكم به الله أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها ، وأن تحكموا بالعدل .

ونلحظ الأداء البيانى فى القرآن فى قوله : « تؤدوا » هذه للجماعة ، وهذا يعنى أن كل واحد مطالب بهذا الحكم أولاً ، « وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل » ، فيكون كل واحد مطالبًا بالحكم أيضاً ، كأن مهمتكم الأمانية ليست مقصورة على أن تصونوا حقوقكم بينكم وبين أنفسكم ، لا ، فأنتم مكلفون بأن تصونوا الحقوق بين الناس والناس ولو لم يكونوا مؤمنين .

إن قوله : « وإذا حكمتم بين الناس » . يُفهم منها أيضاً حماية حقوق من آمن بالإسلام ومن لم يؤمن بدين الإسلام ؛ لأن الحق جل وعلا يريد منا أن نؤدى الأمانة إلى « أهلها » ، ولم يقل « أهلها » المؤمنين أو الكافرين .

إن كلمة « الناس » هذه تدل على عدالة الأمر من إله هو رب للجميع ، فسبحانه هو الذى استدعى الإنسان للدنيا ، والإنسان منه مؤمن ومنه كافر . لكن أحداً لا يخرج عن نطاق الربوبية لله ، فربنا يُربُّ ويرعى كل إنسان ـ مؤمناً كان أو كافراً ـ هو يرزق الجميع ولذلك أمر الكون : يا كون أعط من فَعَلَ الأسبابَ الغاية من

المسببات إن كان مؤمناً أو كافراً . وهذا هو عطاء الربوبية ، إنه ـ سبحانه ـ رزق الإنسان وسخّر الأشياء له ، فهو لم يسخر الكون للمؤمن فقط وإنما سخره للمؤمن وللكافر ، فكذلك طلب منا أن نؤدى الأمانة للمؤمن والكافر ، وطلب منا أن نعدل بين المؤمن والكافر .

ولنا فى الرسول صلى الله عليه وسلم الأسوة الحسنة ، فقد حدث أن « طعمة ابن أبيرق » أحد بنى ظُفر سرق درعاً[1] من جارٍ له اسمه « قتادة بن النعمان » ، فى جراب دقيق والاثنان مسلمان ، إلا أن منافذ الحق لمرتكب الجريمة ضيقة مهما ظن اتساعها ، مثلما نقول : « الجريمة لا تفيد » ، فوضع الدرع المسروقة فى جراب كان فيه دقيق ، فجعل الدقيق ينتثر من خرق فى الجراب وهو يسير من بيت قتادة بن النعمان وخبأ الدرع عند يهودى اسمه « زيد بن السمين » ، فلما فطن قتادة بن النعمان لضياع الدرع قال : سرق الدرع . سرق الدرع . فتتبعوا الأثر فوجدوه إلى بيت طعمة ابن أبيرق ، فحلف ما أخذها وما له بها علم فتركوه . فتتبعوا الأثر ثانية فوجدوا الدرع عند اليهودى « زيد بن السمين » فقال اليهودى دفعها إلى طعمة وشهد له ناس من اليهود ، ورفع الأمر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجاء بنو ظفر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألوه أن يجادل عن صاحبهم وقالوا : إن لم تفعل هلك صاحبنا وافتضح وبرىء اليهودى فهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يفعل وأن يعاقب اليهودى فأنزل الله عليه حكمه الفصل :

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾ ﴾ (سورة النساء)

أى لا تكن يا محمد مدافعاً عن الخائنين واستغفر الله إن كان هذا الخاطر قد جال برأسك بأن ترفع رأس مسلم على يهودى ؛ لأن الحق أولى من المسلم ؛ فمادام هو قبل

(١) الدرع : هو القميص من حلقات من الحديد متشابكة تلبس وقاية من الطعن بالسلاح .

أن يخون فلا تجادل عنه ، ولماذا طلب بنو ظفر التغاضي عن جريمة مسلم وإلصاقها بيهودى ؟ أيستخفون من الناس ولا يستخفون من الله ؟ وافرض أن هذه برأتهم عند الناس . أتبرئهم عند الله ؟ ويقول فى آية أخرى :

﴿ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾

(من الآية ١٠٩ سورة النساء)

إذن فقول الحق سبحانه وتعالى : « وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل » لابد أن نأخذه على أنه مطلب تكليفى من الله للمسلمين حتى يشيع فى كل الناس ولا يخص المؤمنين يتعاملون به فيما بينهم ، وإنما يشمل أيضا ما بين المؤمنين والكافرين ، وما بين الكافرين بعضهم مع بعض إن ارتضوا حكم رسول الله .

« إن الله نعما يعظكم به إن الله كان سميعاً بصيراً » وحين ترون تذييل آية بصفتين من صفات الحق أو باسمين من أسماء الحق ، فلا بد أن تعلموا أن بين الصفتين أو بين الاسمين وبين متعلق الآية علاقة ، وهنا يعلمنا الحق أنه سميع وبصير . بعد أداء الأمانة ، والحكم بالعدل بين الناس ، لأن الرسول شرح ذلك حين أمر من يقضى بين الناس أن يسوى بين الخصمين فى لحظه ولفظه أى لا ينظر لواحد دون الثانى ، ولا يكرم واحداً دون الآخر ، فيسوى بين الاثنين ومادام سيسوى بين الاثنين ، فلا بدّ أن تكون النظرة واحدة ، والألفاظ واحدة .

روى أن يهوديا خاصم سيدنا عليا بن أبى طالب كرم الله وجهه إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فنادى أمير المؤمنين عليا فقال : « قف يا أبا الحسن » فبدا الغضب على علىّ رضى الله عنه ، فقال له عمر : « أكرهت أن نسوى بينك وبين خصمك فى مجلس القضاء ؟ فقال على رضى الله عنه : « لا . ولكنى كرهتُ منك أن عظمتنى فى الخطاب فناديتنى بكنيتى ولم تصنع مع خصمى اليهودى ما صنعت معى »

إذن فحين يقول عمر رضى الله عنه لأبى موسى الأشعرى : « آس بين الناس فى مجلسك ووجهك »[1] .

(١) من كتاب سيدنا عمر رضى الله عنه لأبى موسى الأشعرى بعد تكليفه بالقضاء .

فلا بد أن يقوم بتلك التسوية كل حاكم أو محكم بين خصمين فلا يميز ولا يرفع خصما على خصمه .

و« اللحظ » عمل العين . وهذا يحتاج إلى بصير ، واللفظ يحتاج إلى أذن تسمع ، أى إلى سميع ، فقال : « إن الله كان سميعاً بصيراً » . لماذا قدم سبحانه هنا سميعاً على بصير ؟ لأن ما يُسمع فيه تعبير واضح . أما النظرة فلا يعرفها إلا من يلاحظ أنه ينظر بحنان وإكبار ، وهل وجدت له سبحانه صفة السمع بعد أن وجد ما يسمعه ، وهل وجدت له صفة البصر بعد أن وجد ما يبصره ؟ أو أن صفة السمع أزلية قديمة قبل أن يخلق خلقاً يسمع منه ، وأن صفة البصر أزلية قديمة قبل أن يخلق خلقاً ليبصر أفعالهم ؟ إنه سبحانه قديم أزلاً ، موجود قبل كل موجود . وصفاته قديمة بقدمه .

إذن ففيه فرق بين أن تقول : سميع وبصير ، وسامع ومبصر ، فأنت تكون سامعاً إذا وجد بالفعل من يُسْمع ، إذن فما معنى كلمة « سميع » ؟ أن يكون المدرِك على صفة يجب أن تدرك المسموع إن وجد المسموع وإن لم يوجد المسموع فهو ليس سامعًا فقط ، إنما هو سميع ، وكذلك بصير .

وأضرب المثل ـ ولله المثل الأعلى ، وهو منزه عن كل تشبيه ـ الشاعر الذى يقول القصيدة ، إنه قبلما يقول القصيدة كان شاعراً فى ذاته وقال القصيدة بوجود ملكة الشعر فى ذاته . والحق سبحانه وتعالى « غفَّار » قبل أن يخلق الخلق ، أى أنه على صفة تدرك الأمر إن وجد . . وهو غفار قبل أن يوجد الخلق ويرتكبوا ما يغفره ، وهو « سميع بصير » أزلاً . أى قبل أن يخلق الخلق الذين سينشأ منهم ما يُبصر وينشأ منهم ما يُسْمع .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ

وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾

هذه الآية كثر كلامنا فيها ، وفى كل مناسبة من المناسبات جاء الكلام عنها ، ولكن علينا أيضاً أن نعيد بشيء من الإيجاز ما سبق أن قلناه فيها ، الله سبحانه وتعالى يقول : « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول » ، ولماذا أطيع الله وأطيع الرسول ؟ لأن فيه الحيثيات المقدمة ، فأنت عندما ترى حكماً من القاضى تجد أن هناك حيثيات الحكم أى التبرير القانونى للعقوبة أو للبراءة ؛ فيقول القاضى : بما أنه حدث كذا فقانونه كذا حسب المادة كذا . هذه هى الحيثيات . و« الحيثيات » مأخوذة من : حيث إنه حدث كذا فحكمنا بكذا . أو حيث إنه لم يحدث كذا فحكمنا بكذا ، إذن فحيثيات الحكم معناها : التبريرات التى تدل على سند الحكم لمن حكم .

هنا يقول سبحانه : « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول » . وهل الحق سبحانه وتعالى قال : يا أيها الناس أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ؟ لا . لم يقل ذلك ، لقد قال : « يا أيها الذين آمنوا » . إذن فما دمت قد آمنت بالله إلهاً حكيماً خالقاً عالماً مكلِّفاً فاسمع ما يريد أن يقوله لك ، فلم يكلف الله مطلق أناس بأن يطيعوه ، إنما دعا مطلق الناس أن يؤمنوا به . ومن يؤمن يقول له : أطعنى مادمت قد آمنت بى .

إذن فحيثية الطاعة لله وللرسول صلى الله عليه وسلم نشأت من الإيمان بالله وبالرسول . وهذه عدالة كاملة ؛ لأنه سبحانه لا يكلف واحداً أن يفعل فعلاً إلا إذا كان قد آمن به ـ سبحانه ـ مكلِّفاً ، آمن به آمراً ، أما الذى لا يؤمن به فهو لا يقول له : افعل كذا ولا تفعل كذا ، إنه سبحانه يطالبه أن يؤمن به أولاً ، فإذا ما آمن به يقول له : استمع إلى ، ولذلك تجد كل تكليف يصدر بقوله سبحانه : « يا أيها الذين آمنوا » .

إن حيثية إطاعة الله وإطاعة الرسول هى : الإيمان به ، هذه هى الحيثية الإيمانية الأولى ، أما إن جال ذهنك لتدرك سر الطاعة ، فهذا موضوع آخر ، ولذلك أوضح : إياكم أن تقبلوا على أحكام الله بالبحث فيها أولا فإن اقتنعتم بها أخذتموها

وإن لم تقتنعوا بها تركتموها ، لا . إن مثل هذا التصرف معناه أنك شككت فى الحكم. بل عليك أن تقبل على تنفيذ أحكامه ؛ لأنه سبحانه قالها وأنت مؤمن بأنه إله حكيم . لكن هل ذلك يمنع عقلك من أن يجول ليفهم الحكمة ؟

نقول لك : أنت قد تفهم بعض الحكمة ، ولكن ليست كل الحكمة ؛ لأن كمالات حكمة الله لا تتناهى ، فقد تعرف جزءًا من الحكمة وغيرك يعرف جزءًا آخر ، ولذلك قالوا : إن الفرق بين أمر البشر للبشر ، وأمر الله للمؤمنين به شيء يسير جداً هو : أمر الله للبشر تسبقه العلة وهى أنك آمنت به ، أما أمر البشر للبشر فأنت تقول لمن يأمرك : أقنعنى لماذا أفعل هذه ؟؛ لأن عقلك ليس أرقى من عقلى . فأنت لا تصنع شيئا إلا إذا اقتنعت به . وتكون التجارب قد أثبتت لك أصالة رأى من تستمع له وأنه لن يغشك .

وهكذا نرى أن طاعتنا لله تختلف عن طاعتنا للمخلوق ؛ فنحن نطيع الله لأننا آمنا به وحينما يطلب سبحانه منا أن نطيعه ، ننظر هل هذه الطاعة لصالحنا أو لصالحه ؟ فإذا وثقنا أنه بكل صفات الكمال الموجودة له خلقنا ؛ إذن فسبحانه لا يريد صفة جديدة تكون له ؛ لأنه لم يخلقنا إلا بصفات الكمال فيه ، وسبحانه قد خلقك دون أن يكون لك حق الخلق عنده ، خلقك بقدرته ، وأمدك لاستبقاء حياتك بقيوميته ، فحين يطلب منك الإله الذى يتصف بتلك الكمالات شيئا فهو يطلبه لصالحك ، كما ترى أى إنسان من البشر ـ ولله المثل الأعلى ـ يُعنى بصنعته ويحب أن تكون صنعته متميزة ، فكذلك الحق سبحانه وتعالى يريد أن يباهى بهذا الخلق . ويباهى بهذا الخلق ليس بالإكراه على أن يفعلوا ما يأمر به بالتسخير لا . بل بالمحبوبية لأمر الله وأن نعلن بسلوكنا : نحن نحبك يا ربنا . وإلا فأنت ـ أيها الإنسان ـ قد تختار أن تكون عاصيا . وما دمت مخيرا أن تكون عاصياً ثم أطعت ، فهذه تثبت لله صفة المحبوبية لأنه ؛ ـ كما نعرف ـ هناك فرق بين من يقهر بقدرته ومن يعطيك الاختيار حتى تأتيه وأنت محب ، على الرغم من أنه قادر على أن يقهرك .

فساعة قال الحق : « أطيعوا الله » معناها : أنه لم يطلب منا شططاً ، وكيف نطيع الله ؟ . أن نطيعه فى كل أمر ، وهل أَمَرَ اللَّهُ خَلْقَه منفردين ؟ . لا ، بل أمرهم كأفراد

وكجماعة ، وأعطاهم الإيمان الفطرى الذى يثبت أن وراء الكون قوة أخرى خلقته . وهذه القوة لا يعرف أحد اسمها ، ولا مطلوباتها ، أو ماذا ستعطى لمن يطيعها ؛ إذن فلا بد أن يوجد مُبلِّغ . ولذلك فأنا أرى أن بعض الفلاسفة قد جانبوا الصواب عندما قالوا : إن العقل كاف فى إدراك الدين ، وأقول لهم : لا . العقل كاف فى إدراك من ندين له ، ولكن العقل لا يأتى لنا بكيفية الدين ومنهجه .

لذلك لا بد من بلاغ عنه يقول : افعلوا كذا وكذا وكذا ، نقول لهؤلاء الفلاسفة : إن العقل كافٍ فى استنباط وجود قوة وراء هذا الكون ، أما شكل هذه القوة ، واسمها وماذا تريد ؛ فلا أحد يعرف ذلك إلا أن يوجد مبلِّغ عن هذه القوة ، ولا بد أن تكون القوة التى آمنت بها بفطرتك قد أرسلت من يقول : اسمه كذا ، ومطلوبه كذا ، إذنِ فقوله : « أطيعوا الله » يلزم منها إطاعة الرسول .

وبعد ذلك قال : « وأولى الأمر » ، و«وأولى الأمر» هنا لم يتكرر لهم الفعل ، فلم يقل : وأطيعوا أولى الأمر لنفهم أن أولى الأمر لا طاعة لهم إلا من باطن الطاعتين : طاعة الله وطاعة الرسول ، ونعلم أن الطاعة تأتى فى أساليب القرآن بثلاثة أساليب : « أطيعوا الله والرسول » و« أطيعوا الله وأطيعوا الرسول » ، وأطيعوا الرسول فقط . إذن فثلاثة أساليب فى الطاعة :

الأسلوب الأول : أطيعوا الله والرسول ؛ فأمر الطاعة واحد والمطاع هو الله والرسول .

والأسلوب الثانى : أطيعوا الله وأطيعوا الرسول .

والأسلوب الثالث : أطيعوا الرسول ، نعم . فالتكليفات يأمر بها الحق سبحانه وتتأكد بحديث من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو فعله أو تقريره ، وهنا تكون الطاعة فى الأمر لله وللرسول ، أو أن الحق قد أمر إجمالاً والرسول عين تفصيلاً ؛ فقد أطعنا الله فى الإجمال وأطعنا الرسول فى التفصيل فتكون الطاعة لله ، وتكون الطاعة للرسول ، أو إن كان هناك أمر لم يتكلم فيه الله وتكلم الرسول فقط . ويثبت ذلك بقول الحق :

﴿ من يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ﴾

(من الآية ٨٠ سورة النساء)

وقوله تعالى :

﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾

(من الآية ٧ سورة الحشر)

إذن فهذه تثبت أن لرسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة ملاحظ فى التشريع : ملحظ يشرع فيه ما شرع الله تأكيداً له أو أن الله قد شرع إجمالا ، والرسول عين تفصيلا . والأمثلة على ذلك : أن الله فرض علينا خمس صلوات ، وفرض علينا الزكاة ، وهذه تكليفات قالها ربنا ؛ والرسول يوضحها : النصاب كذا ، والسهم كذا ، إذن فنحن نطيع ربنا فى الأمر إجمالاً ، ونطيع الرسول فى الأمر التفصيلى ، أو أنّ الأمر لم يتكلم فيه الله حكماً ، وإنما جاء من الرسول بتفويض من الله ، ولذلك فإن قال لك أى إنسان عن أى حكم من الأحكام : هات دليله من القرآن ولم تجد دليلاً من القرآن فقل له : دليل أى أمر قال به الرسول من القرآن هو قول الحق :

﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾

(من الآية ٧ سورة الحشر)

هذا دليل كل أمر تكليفى صدر عن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقد يقول قائل : هناك فارق بين الأمر الثابت بالسنة والفرض . نقول : لا تخلط بين السنة وهى الأمر الذى إن فعلته تثاب وإن لم تفعله لا تعاقب ، والفرض الذى يجب على المكلفُ أن يفعله ، فإن تركه أثم وعوقب على الترك ، وهذا الفرض جاء به الحق وأثبته بالدليل كالصلوات الخمس وعدد الركعات فى كل صلاة ، فالدليل فى الفرض هنا ثَبت بالسنة وهذا ما يسمى سنية الدليل ؛ وهناك فرق بين سنية الحكم كأن يصلى المسلم قبل الظهر ركعتين وقبل الصبح ركعتين وفرضية الحكم كصلاة الصبح والظهر . . إذن ففيه فرق بين الشىء الذى إن فعلته تثاب عليه وإن لم تفعله لا تعاقب عليه والشىء الذى يفرض عليك أداؤه ، فإن تركته أثمت وعوقبت ، وأما سنية الدليل فهى شرح ما جاءت به الفروض شرحاً تطبيقياً ليتبعه المسلمون .

أما الأمر بطاعة أولى الأمر فقد جاءت بالعطف على المطاع دون أمر بالطاعة ، مما يدل على أن طاعة ولىّ الأمر ملزمة إن كانت من باطن طاعة الله وطاعة رسوله ، وفى ذلك عصمة للمجتمع الإيمانى من الحكام المتسلطين الذين يحاولون أن يستذلوا الناس بقول الله : « وأولى الأمر » ويدعون أن طاعتهم واجبة ، يقول الواحد منهم : ألستُ ولى أمر ؟ . فيرد العلماء : نعم أنت ولى أمر ولكنك معطوف على المطاع ولم يتكرر لك أمر الطاعة ، فدلّ ذلك على أن طاعتك واجبة إن كانت من باطن الطاعتين . فإن لم تكن من باطن الطاعتين فلا طاعة لك ، لأن القاعدة هى « لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق » ، هكذا قال أبو حازم لمسلمة بن عبدالملك حينما قال له : ألسنا ولاة الأمر وقد قال الله : « وأولى الأمر » . قال : ويجب أن نفطن أيضاً إلى أنها نزعت فى قوله سبحانه : « فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول » . إذن فالحاكم المسلم مطالب أولاً بأداء الأمانة ، ومطالب بالعدل ، ومطالب أيضاً أن تكون طاعته من باطن طاعة الله وطاعة رسوله . فإن لم تكن فيه هذه الشروط ، فهو حاكم متسلط .

« فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول » إذن فالتنازع لابد من أن يكون فى قضية داخلة فى نطاق مأمورات الطاعة ، ويجب أن يكون لها مردّ ينهى هذا التنازع « فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر » .

والذين يعرفون هذه الأحكام هم العلماء ، فإن تنازع المحكوم مع الحاكم نذهب إلى العلماء ليبينوا لنا حكم الله فى هذه المسألة ، إذن فإن أريد بـ « أولى الأمر » الحاكم ، نقول له : « فردوه إلى الله والرسول » أى على الحاكم أن يتبع ما ثبت عن الله والرسول ، والحجة فى ذلك هم العلماء المشتغلون بهذا الأمر ، وهم الملاحظون لتنفيذ حكم الله بما يعرفونه عن الدين . والحق سبحانه وتعالى حين يطلب منا ذلك ، يريد أن ينهى مسألة التنازع ، لأن التنازع يجعل حركات الحياة متضاربة ، هذا يقول بكذا وذلك يقول بكذا ، فلا بد أن نرده إلى مردّ أعلى ، والحق يقول :

﴿ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ﴾

(من الآية ٨٣ سورة النساء)

إذن فقد يكون المراد بأولى الأمر « العلماء » .

نقول : إن الآية الأولى عامة وهى التى جاءت بها طاعة ولى الأمر ضمن طاعة الله والرسول ، والثانية التى تخص الاستنباط يكون المقصود بأولى الأمر هم العلماء .

و أولوا الأمر في القضية الأولى التى عندما نتنازع معهم فى أمر نرده إلى الله والرسول هم الذين يشرفون على تنفيذ أحكام الله ، وهذه سلطة تنفيذية ، أما سلطة العلماء فهى تشريعية إيمانية .

« فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر » إذن فالذى لا يفعل ذلك يجازف بأن يدخل فى دائرة من لا يؤمن بالله واليوم الآخر ، ونقول لكل منهم : راجع إيمانك بالله واليوم الآخر ـ ابتداءً فى تلقى الحكم ، وإيمانا باليوم الآخر ـ لتلقى الجزاء على مخالفة الحكم ، فالحق لم يجعل الدنيا دار الجزاء .

وينبهنا الحق فى ختام الآية : « ذلك خير وأحسن تأويلاً » أى فى ذلك خير للحكام وللمحكومين معاً ؛ لأن الخير هو أن يقدر الإنسان ما ينفعه فى الدنيا والآخرة ، وكل شهوة من الشهوات إن قدَّرت نفعها فلن تنفعك سوى لحظة ثم يأتى منها الشر .

والتأويل هو : أن تُرْجع الأمر إلى حكمه الحقيقى ، من « آل » يئول إذا رجع . «وأحسن تأويلا» تعنى أحسن مَرْجعاً وأحمد مغبة وأجمل عاقبة ؛ لأنك إن حرصت بما تريد على مصالح دنياك ، فما ترجع إليه سيكون فيه شر لك . إذن فالأحسن لك أن تفعل ما يجعلك من أهل الجنة ، أو «وأحسن تأويلا» فى الاستنباط ، لأن العلماء سيأخذونه من منطلق مفهوم قول الله وقول الرسول ، وأنت ستأخذها بهواك ، وفهمك عن الله يمنعك من الشطط ومن الخطأ .

فإن كنتم تريدون الخير فلاحظوا الخير فى كل أحيانه وأوقاته ، ولا ينظر الإنسان إلى الخير ساعة يؤدى له ما فى هواه ، ولكن لينظر إلى الخير الذى لا يأتى بعده شر . وإذا ما نظرنا تاريخ الكثير من الحكام ووجدناهم قد أمنوا على انتقادهم فى حياتهم بما فرضوه من القهر والبطش ، فلما ماتوا ظهرت العيوب ، وظهرت الحملات ، إن الواجب على من يحكم أن يعتبر بما سمع عمن حكم قبله . فالذى حكم قبله كمم الأفواه وكسر الأقلام ، وبعدما انتهى ، طالت الألسنة وكتبت الأقلام ، فيجب أن

نحسن التأويل وأن ننظر إلى المرجع النهائى ، فمن استطاع أن يحمى نفسه فى حياته بسطوته وجبروته لا يستطيع أن يحمى تاريخه وسمعته . إنه بعد أن انتهت السطوة والجبروت قيل فيه ما قيل ، ونحن مازلنا فى الدنيا ولم نذهب إلى الآخرة بعد ؛ فإذا كان هذا هو جزاء الخلق . فما شكل جزاء الحق إذن ؟!

« ذلك خير وأحسن تاويلاً » اى مرجعاً وعاقبة .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ ﴾

نعرف أن « ألم تر » تعني : ألم تعلم ، إن كان المعلوم قد سبق الحديث عنه ، أو إن كان المعلوم ظاهراً حادثاً بحيث تراه ، ونعرف أن الحق عبّر بـ « ألم تر » فى كثير من القضايا التى لم يدركها المخاطب وهو سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ليدلنا على أن ما يقوله الله ـ وإن كان خبراً عما مضى ـ يجب أن تؤمن به إيمانك بالمرئى لك الآن ، لأن الله أوثق فى الصدق من عينك ؛ فعينك قد تخدعك ، لكن حاشا أن يخدعنا الله .

« ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك » والمراد هم المنافقون وبعض من أهل الكتاب الذين زعموا الإيمان برسالة محمد صلى الله عليه وسلم . و« الزعم » : مطية الكذب ، فهم « يزعمون أنهم آمنوا بما أُنزل إليك »

وهو القرآن ؛ « وما أنزل من قبلك » ، وهو التوراة والإنجيل و« يريدون » بعد ادعاء الإيمان ؛ « أن يتحاكموا إلى الطاغوت » ، والتحاكم إلى شيء هو : الاستغاثة أو اللجوء إلى ذلك الشيء لينهى قضية الخلاف . فعندما نقول:« تحاكمنا إلى فلان » ، فمعنى قولنا هذا : أننا سئمنا من آثار الخلاف من شحناء وبغضاء ، ونريد أن نتفق إلى أن نتحاكم ، ولا يتفق الخصمان أن يتحاكما إلى شيء إلا إذا كان الطرفان قد أجهدهما الخصام ، فهما مختلفان على قضية ، وأصاب التعب كُلًّا منهما .

« يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت » . و« الطاغوت » - كما عرفنا - هو الشخص الذي تزيده الطاعة طغياناً ، فهناك طاغٍ أي ظالم ، ولما رأى الناسَ تخافه استمرأ واستساغ الظلم مصداقاً لقول الحق :

﴿ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ﴾

(من الآية ٥٤ سورة الزخرف)

وهذا اسمه « طاغوت » مبالغة في الطغيان . والطاغوت يطلق على المعتدى الكثير الطغيان سواء أكان أناساً يُعبدون من دون الله ولهم تشريعات ويأمرون وينهون ، أم كان الشيطان الذي يُغرى الناس ، أم كان حاكماً جبّاراً يخاف الناس شرّه ، وأى مظهر من تلك المظاهر يعتبر طاغوتاً . وقالوا : لفظ الطاغوت يستوى فيه الواحد والمثنى والجمع فنقول : رجل طاغوت، ورجلان طاغوت ، ورجال طاغوت ، يأتى للجمع كقوله الحق :

﴿ ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّـٰغُوتُ ﴾

(من الآية ٢٥٧ سورة البقرة)

ويأتى للمفرد كقوله الحق :

﴿ وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ ﴾

(من الآية ٦٠ سورة النساء)

إذن فمرة يأتى للجمع ومرة يأتى للمفرد ، وفى كل حكم قرآنى قد نجد سبباً

مخصوصاً نزل من أجله الحكم ، فلا يصح أن نقول : إن حكماً نزل لقضية معينة ولا يُعدَّى إلى غيرها ، هو يُعدَّى إلى غيرها إذا اشترك معها فى الأسباب والظروف ، فالعبرة بعموم الموضوع لا بخصوص السبب .

لقد نزلت هذه الآية فى قضية منافق اسمه « بشر » . حدث خلاف بينه وبين يهودى ، وأراد اليهودى أن يتحاكم إلى رسول الله ، وأراد المنافق أن يتحاكم إلى « كعب بن الأشرف » ، وكان اليهودى واثقاً أن الحق له ولم يطلب التحاكم إلى النبى حباً فيه ، بل حباً فى عدله ، ولذلك آثر مَن يعدل ، فطلب حكم رسول الله ، أما المنافق الذى يعلن إسلامه ويبطن ويخفى كفره فهو الذى قال : نذهب إلى كعب بن الأشرف الطاغوت ، وهذه تعطينا حيثية لصدق رسول الله فى البلاغ عن الله فى قوله : « وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل » .

وكون اليهودى يريد أن يتحاكم إلى رسول الله ، فهذه تدل على ثقته فى أن رسول الله لن يضيع عنده الحق ، ولم يطلب التحاكم إلى كبير من كبراء اليهود مثل « كعب بن الأشرف » لأنه يعرف أنه يرتشى .

ويختم الحق الآية : « ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيداً » فهما حين يتحاكمان إلى الطاغوت وهو « كعب بن الأشرف » ؛ وبعد ذلك يقضى لمن ليس له حق ، سيغرى مثل هذا الحكم كل من له رغبة فى الظلم أن يظلم ، ويذهب له ليتحاكم إليه ! فالضلال البعيد جاء هنا لأن الظلم سيتسلسل ، فيكون على القاضى غير العادل وزر كل قضية يُحكم فيها بالباطل ، هذا هو معنى « الضلال البعيد » ، وليت الضلال يقتصر عليهم ، ولكن الضلال سيكون ممتداً .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى

ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾

وعندما نسمع قول الحق : « تعالوا » ، فهذا يعنى نداء بمعنى : اقبلوا ، ولكن كلمة « أقبلوا » تعنى الإقبال على المساوى لك ، أما كلمة « تعالوا » فهى تعنى الإقبال على الأعلى . فكأن لقضايا البشر تشريعاً هابطاً ؛ لأنه من صناعة العقل البشرى ، وصناعة العقل البشرى فى قوانين صيانة المجتمعات ـ على فرض أننا أثبتنا حسن نياتهم وإخلاصهم ـ تكون على قدر مستوياتهم فى الاستنباط واستقراء الأحداث .

لكن التشريع حينما يأتى من الله يكون عالياً ؛ لأنه ـ سبحانه ـ لا تغيب عنه جزئية مهما صغرت ، لكن التقنين البشرى يوضع لحالة راهنة وتأتى أحداث بعدها تستوجب تعديله ، وتعديل القانون معناه أن الأحداث قد أثبتت قصور القانون وأنه قانون غير مستوعب للجديد ، وهذا ناشىء من أن أحداثاً جدّت لم تكن فى بال من قنّن لصيانة المجتمع ، وكان ذهن مشرع القانون الوضعى قاصراً عنها ، كما أن تعديل أى قانون لا يحدث إلا بعد أن يرى المشرع الآثار الضارة فى المجتمع ، تلك الآثار التى نشأت من قانونه الأول ، وضغطت أحداث الحياة ضغطاً كبيراً ليعدّلوا فى الأحكام والقوانين .

أما تشريع الله فهو يحمى المجتمع من أن تقع هذه الأحداث من البداية ، هذا هو الفارق بين تشريع وضعى بشرى جاء لينقذنا من الأحداث ، وتشريع ربانى إلهى يقينا من تلك الأحداث . فالتشريع البشرى كمثل الطب العلاجى . أما التشريع السماوى فهو كالطب الوقائى ، والوقاية خير من العلاج .

لذلك جاء الحق سبحانه وتعالى بالتشريعات التى تقينا وتحمينا من شرّ الأحداث ، أى أنه يمنع عن الإنسان الضرر قبل أن يوجد ؛ وبذلك تتحقق رحمته سبحانه لطائفة من البشر عن أن تعضّهم الأحداث ، بينما نجد للقانون الوضعى ضحايا ، فيرق قلب المشرعين بعد رؤية هؤلاء الضحايا ليضعوا التعديل لأحكام وضعوها من قبل ،

ففى القانون الوضعى نجد بشراً يقع عليهم عبء الظلم لأنه قانون لا يستوعب صيانة الإنسان صيانة شاملة ، وبعد حين من الزمن يتدخل المشرعون لتعديل قوانينهم ، وإلى أن يتم التقنين يقع البشر فى دائرة الغبن وعدم الحصول على العدل . أما الخالق سبحانه فقد برأ وخلق صنعته وهو أعلم بها ؛ لذلك لم يغبن أحداً على حساب أحد ؛ فوضع تشريعاته السماوية ، ولذلك يقول الحق :

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾

(من الآية ٨٢ سورة الإسراء)

« شفاء » إذا وجد الداء من غفلة تطرأ علينا ، « ورحمة » وذلك حتى لا يأتى الداء . الحق سبحانه وتعالى يقول : « وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدودا » . إنه ـ سبحانه ـ يضع من الأحداث ما يفضحهم فيتصرفون بما يكشف نفاقهم ، وبعد ذلك يخطرهم الرسول ويعرف عنهم المجتمع أنهم منافقون .

وهم « يصدون عنك صدوداً » أى يُعرضون عنك يا رسول الله لأنهم منافقون ، وكل منافق عنده قضيتان : قضية لسانية وقضية قلبية ؛ فهو باللسان يعلن إيمانه بالله وبرسول الله ، وفى القلب تتعارض ملكاته عكس المؤمن أو الكافر ، فالمؤمن ملكاته متساندة ؛ لأن قلبه انعقد على الإيمان ويقود انسجام الملكات إلى الهدى ، والكافر أيضاً ملكاته متساندة ؛ لأنه قال : إنه لم يؤمن ويقوده انسجام ملكاته إلى الضلال ، لكن المنافق يبعثر ملكاته !! ملكة هنا وملكة هناك ، ولذلك سيكونون فى الدرك الأسفل من النار ، الكافر منطقى مع نفسه ، فلم يعلن الإيمان ؛ لأن قلبه لم يقتنع ، وكان من الممكن أن يقول كلمة الإيمان لكن لسانه لا يرضى أن ينطق عكس ما فى القلب ، وعداوته للإسلام واضحة . أما المنافق فيقول : يا لسانى . . أعلن كلمة الإيمان ظاهراً ؛ كى أنفذ من هذا الإعلان إلى أغراضى وأن تطبّق علىّ أحكام الإسلام فأنتفع بأحكام الإسلام ، وأنا من صميم نفسى إن وجدت فرصة ضد الإسلام فسأنتهزها . ولذلك يقول الحق :

﴿ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَـٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا

قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾

والمنافقون يواجهون تساؤلاً : لماذا ذهبتم للطاغوت ليحكم بينكم وتركتم رسول الله ؟. فقالوا : نحن أردنا إحساناً ، وأن نرفق بك فلا تتعب نفسك بمشكلاتنا ، ونريد أن نوفق توفيقاً بعيداً عنك كيلا تصلك المسائل فتشق عليك ، ولم نرد مخالفة لك ولا تسخطا على حكمك ؛ وهم يقولون هذا بعد أن انفضحوا أمام الناس .

« فكيف إذا أصابتهم مصيبة » والمصيبة هي الأمر يطرأ على الإنسان بما يضرّه في عُرفه ؛ ولأنهم منافقون فهم يريدون أن يكون هذا النفاق مكتوماً ، فإذا جاءت حادثة لتفضحهم صارت مصيبة . على الرغم من أنّ الحادثة في واقعها ليست مصيبة . فعندما نعرف المنافقين ونظهرهم أمام أنفسهم وأمام الناس فنحن نكفى أنفسنا شرّهم . وهم يريدون بالنفاق أموراً لأنفسهم .

وهكذا يكون الكشف لنفاقهم مصيبة بالنسبة لهم ، هم يرون النفاق نفعاً لهم ؛ فبه يستفيدون من أحكام الإسلام وإجرائها وتطبيقها عليهم ، وعندما ينفضح نفاقهم يشعرون بالمصيبة ، مثلهم كمثل الذى ذهب ليسرق ، ثم فوجىء وهو داخل المكان ليسرق أن الشرطة موجودة لتقبض عليه ، وهذا في الواقع نعمة لأنها تضرب على أيدى المجرم العابث ، لكنها بالنسبة له مصيبة .

وعندما تحدث لهؤلاء المنافقين مصيبة فهم يحلفون بالله كذباً لأنهم يريدون استدامة نفاقهم . . ويحاولون أن يعتذروا عما حدث ، يحلفون بالله إنهم بالذهاب إلى الطاغوت وأرادوا الإحسان والتوفيق بينهم وبين خصومهم . لكن الحق يعلم ما يخفون وما يعلنون .

فيقول سبحانه :

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَعِظۡهُمۡ وَقُل لَّهُمۡ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَوۡلَۢا بَلِيغٗا ٦٣ ﴾

وناهيك بعلم الله ، ولذلك يقول ربنا :

﴿ وَلَوۡ نَشَآءُ لَأَرَيۡنَٰكَهُمۡ فَلَعَرَفۡتَهُم بِسِيمَٰهُمۡۚ وَلَتَعۡرِفَنَّهُمۡ فِي لَحۡنِ ٱلۡقَوۡلِ ﴾

(من الآية ٣٠ سورة محمد)

يعني : نحن لو شئنا أن نقول لك من هم لقلنا لك ودللناك عليهم حتى تعرفهم بأعيانهم ، ولكن الله ستر عليهم إبقاء عليهم لعلهم يتوبون ، ولتعرفنهم من فحوى كلامهم وأسلوبهم .

« أولئك الذين يعلم الله ما فى قلوبهم » لقد ذهبوا ليتحاكموا إلى الطاغوت ، وقد ذهبوا إلى هناك لعلمهم أنهم ليسوا على حق ، ولأنهم إن ذهبوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسيحكم بالحق ، والحق يضارُّهم ويُضايقهم ، فهل كانوا بالفعل يريدون إحساناً وتوفيقاً ، أو كانوا لا يريدون الحق ؟. لقد أرادوا الحكم المزور .

لذلك يأتى الأمر من الحق لرسوله : « فأعرض عنهم » ؛ لأنك إن عاقبتهم فقد أخذت منهم حقك ، والله يريد أن يبقى حقك ليقتص ـ سبحانه ـ لك منهم ، وأعرض أيضاً عنهم لأننا نريد أن يُظهر منهم فى كل فترة شيئاً لنعلّم المجتمع الإيمانى اليقظة إلى أن هناك أناساً مدسوسين بينهم ، لذلك لا بد من الحذر والتدبر . كما أنك إذا أعرضت عنهم أسقطتهم من حساب دعوتك .

« وعظهم » أى قل لهم : استحوا من أفعالكم . « وقل لهم فى أنفسهم قولاً بليغاً » أى قل لهم قولاً يبلغ الغاية من النفس البشرية ويبلغ الغاية من الوعظ ، أى

يوعدهم الوعيد الذى يخيفهم كى يبلغ من انفسهم مبلغاً ، أو « قل لهم فى أنفسهم » أى افضح لهم ما يسترون ؛ كى يعرفوا أن الله مطلعك على ما فى أنفسهم فيستحوا من فعلهم ولا يفعلوه ، قل لهم ذلك بدون أن تفضحهم أمام الناس ؛ لأن عدم فضحهم أمام الناس يجعل فيهم شيئا من الحياء ، وأيضاً لأن العظة تكون ذات أثر طيب إذا كان الواعظ فى خلوة مع الموعوظ فيناجيه ولا يفضحه ، ففضح الموعوظ أمام الناس ربما أثار فيه غريزة العناد ، لكن عندما تعظه فى السرّ يعرف أنك لا تزال به رحيماً ، ولاتزال تعامله بالرفق والحسنى .

« وعظهم وقل لهم فى أنفسهم » وإنك لو فعلت ذلك علناً فستعطى الأسوة لغيرك أن يفعل . والله قد أطلعك على ما فى قلوب هؤلاء من الكفر أما غيرك فلا يطلعه الله على غيب ولو رمى أحدًا بذنب أو كفر فلعله لا يصادف الحق والواقع وتشريعنا يقول لنا :

« ادرأوا الحدود بالشبهات » .

والتطبيق لهذا التشريع نجده عندما يتم القبض على سارق ، لكن هناك شبهة فى الاتهام ، هذه الشبهة يجب أن تفسر فى صالح المتهم ، ونذرأ الحد لوجود شبهة ؛ فليس من مصلحة المسلمين أن نقول كل يوم : إننا قطعنا يد سارق أو رجمنا زانية . لكن إذا افتضحت الجرائم وليس فى ارتكابها شبهة والمسألة واضحة فلا بد أن نضرب على أيدى المجرمين . فنحن ندرأ الحد بالشبهة حتى لا نلحق ضرراً أو ننال من برىء ، ونطبق الحد حتى يرتدع كل من تسول له نفسه أمراً محرّما حتى لا يرتكب الأمر المحرّم . وعندما يقام الحدّ فى أى بيئة ، فإنه لا يقام إلا لفترة قليلة وتتراجع بعدها الجرائم ، ولا يرى أحد سارقاً أو زانياً .

إذن فقول الله : « وعظهم وقل لهم فى أنفسهم قولاً بليغاً » يعنى : قل لهم ما يهددهم تهديداً يصل إلى أعماق نفوسهم ، أو «وقل لهم فى أنفسهم» بأن تكشف مستورات عيوبهم أو قل لهم فى أنفسهم بينك وبينهم ؛ لأن هذا أدعى إلى أن يتقبلوه منك ولا يوغر صدورهم ويثير فيهم غريزة العناد .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ جَآءُوكَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡتَغۡفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابٗا رَّحِيمٗا ٦٤ ﴾

الغرض من إرسال الحق للرسول هو أن يعلم الناس شرع الله المتمثل فى المنهج ، وأن يهديهم إلى دين الحق . والمنهج يحمل قواعد هى : افعل ، ولا تفعل ، وما لا يرد فيه « افعل ولا تفعل » من أمور الحياة فالإنسان حرّ فى اختيار ما يلائمه . وأى رسول لا يأتى بتكليفات من ذاته ، بل إن التكليفات تجىء بإذن الله . وهو لا يطاع إلا بإذن من الله . فالرسول صلى الله عليه وسلم جاء بطاعة الله إلا أن يفوّض من الله فى أمور أخرى ، وقد فوّض الحق سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم بقوله الحق :

﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ ﴾

(من الآية ٧ سورة الحشر)

فالمؤمنون برسالة محمد صلى الله عليه وسلم ـ إذن ـ عليهم طاعة الرسول فى إطار ما فوّضه الله والله أذن له أن يشرع .

ويتابع الحق : « ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيماً » . وظلم النفس : أن تحقق لها شهوة عاجلة لتورثها شقاء دائماً . وظلم النفس أشقى أنواع الظلم ، فمن المعقول أن يظلم الإنسان غيره ، أما أن يظلم نفسه فليس معقولاً . وأى عاص يترك واجباً تكليفياً ويقبل على أمر منهى عنه ، قد يظن فى ظاهر الأمر أنه يحقق لنفسه متعة ، بينما هو يظلم نفسه ظلماً قاسياً ؛ فالذى يترك الصلاة ويتكاسل أو يشرب الخمر أو يرتكب أى معصية نقول له : أنت ظلمت نفسك ؛ لأنك ظننت أنك تحقق لنفسك متعة بينما أورثتها

شقاءً أعنف وأبقى وأخلد ، ولست أميناً على نفسك .

والنفس - كما نعلم - تطلق على اجتماع الروح بالمادة ، وهذا الاجتماع هو ما يعطى النفس الإنسانية صفة الاطمئنان أو صفة الأمارة بالسوء ، أو صفة النفس اللوامة . وساعة تأتى الروح مع المادة تنشأ النفس البشرية . والروح قبلها تتصل بالمادة هى خيّرة بطبيعتها ، والمادة قبلها تتصل بالروح خيرة بطبيعتها ؛ فالمادة مقهورة لإرادة قاهرها وتفعل كل ما يطلبه منها . فإياك أن تقول : الحياة المادية والحياة الروحية ، وهذه كذا وكذا . لا .

إن المادة على إطلاقها خيّرة ، طائعة ، مُسَخَّرة ، عابدة ، مُسبِّحة . والروح على إطلاقها كذلك ، فمتى يأتى الفساد ؟ . ساعة تلتقى الروح بالمادة ويوجد هذا التفاعل نقول : أنت يا مكلف ستطمئن إلى حكم الله وتنتهى المسألة أم ستبقى نفسك لوّامة أم ستستمرىء المعصية وتكون نفسك أمارة بالسوء ؟

فمَن يظلم مَن إذن ؟ . إنه هواك فى المخالفة الذى يظلم مجموع النفس من روحها ومادتها ، فأنت فى ظاهر الأمر تحقق شهوة لنفسك بالمخالفة ، لكن فى واقع الأمر أنك تتعب نفسك ، « ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم » . ولنعلم أن هناك فرقاً بين أن يأتى الفاحشة إنسانٌ ليحقق لنفسه شهوة . وأن يظلم نفسه ، فالحق يقول :

﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَـٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾

(من الآية ١٣٥ سورة آل عمران)

إذن فارتكاب الفاحشة شىء وظلم النفس شىء آخر ، « فعل فاحشة » قد متع إنسان نفسَه قليلاً ، لكن من ظلم نفسه لم يفعل ذلك . فهو لم يمتعها ولم يتركها على حالها ، إذن فقد ظلم نفسه ؛ لا أعطاها شهوة فى الدنيا ؛ ولم يرحمها من عذاب الآخرة ، فمثلاً شاهد الزور الذى يشهد ليأخذ واحدٌ حقَّ آخر ، هذا ظلم قاسٍ للنفس ، ولذلك قال الرسول : « بادروا بالأعمال فتنا كقطع الليل المظلم يصبح

الرجل مؤمنا ويمسى كافرا ، أو يمسى مؤمنا ويصبح كافرا ، يبيع دينه بعرضٍ من الدنيا »[1] .

« ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله » . وظلم النفس أيضاً بأن يرفع الإنسان أمره إلى الطاغوت مثلاً ، لكن عندما يرفع الإنسان أمره للحاكم ، لا نعرف أيحكم لنا أم لا ؛ وقد يهديه الله ساعة الحكم .

إن قوله : « ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك » فالمسألة أنهم امتنعوا من المجيء إليك يا رسول الله ؛ فأول مرتبة أن يرجعوا عما فعلوه ، وبعد ذلك يستغفرون الله ؛ لأن الذنب بالنسبة لعدم مجيئهم للرسول قبل أن يتعلق بالرسول تعلق بمن بعث الرسول ، ولذلك يقولون : إهانة الرسول تكون إهانة للمرسِل ؛ فصحيح أن عدم ذهابهم للرسول هو أمر متعلق بالرسول ولكن إذا صعدته تجده متعلقاً بمن بعث الرسول وهو الله ، لأن الرسول لم يأت بشيء من عنده ، وبعد أن تطيب نفس الرسول فيستغفر الله لهم ، إذن فأولاً : يجيئون ، وثانياً : يستغفرون الله وثالثاً : يستغفر لهم الرسول .

وبعد ذلك يقول سبحانه : « لوجدوا الله تواباً رحيماً » إذن فوجدان الله تواباً رحيماً مشروط بعودتهم للرسول بدلاً من الإعراض عنه ثم أن يَستغفروا الله ؛ لأن الله ما أرسل من رسولٍ إلا ليطاع بإذنه ، فعندما تختلف معه لا تقل : إنني اختلفت مع الرسول ؛ لا . إنك إن اختلفت معه تكون قد اختلفت مع من أرسله وعليك أن تستغفر الله .

ولو أنك استغفرت الله دون ترضية الرسول فلن يقبل الله ذلك منك . فلا يقدر أحد أبداً أن يصلح ما بينه وبين الله من وراء محمد عليه الصلاة والسلام .

وحين يفعلون ذلك من المجيء إلى الرسول واستغفارهم الله واستغفار الرسول لهم سيجدون الله تواباً رحيماً ، وكلمة « توّاب » مبالغة فى التوبة فتشير إلى أن ذنبهم كبير .

(١) رواه مسلم .

إن الحق سبحانه وتعالى خلق خلقه ويعلم أن الأغيار تأتى فى خواطرهم وفى نفوسهم وأن شهواتهم قد تستيقظ فى بعض الأوقات فتنفلت إلى بعض الذنوب ، ولأنه رب رحيم بيّن لنا ما يمحص كل هذه الغفلة ، فإذا أذنب العبد ذنباً أربُّهُ الرحيم يتركه هكذا للذنب ؟ لا . إنه سبحانه شرع له العودة إليه ؛ لأن الله يحب أن يئوب عبده ويرجع إليه وإن غفل بمعصيته .

إن الحق سبحانه وتعالى يعلمنا كيف نزيل عنا آثار المعاصى ، فقال : « ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك » فالعلاج من هذه أن يجيئوك لأنهم غفلوا عن أنك تنطق وتبلغ من قِبَل الحق فى التشريع وفى الحكم ، وبعد المجىء يستغفرون الله ويستغفر لهم الرسول ، تأييداً لاستغفارهم لله ، حينئذ يجدون الله تواباً رحيماً .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ ﴾

إذن لا بد أن نستقبل الإيمان بالإقبال على كل ما جاء به رسول الله ، فساعة حكّم المنافقون غيره برغم إعلانهم للإسلام جاء الحكم بخروجهم من دائرة الإيمان ، وعلى المؤمنين أن يتعظوا بذلك .

ونلحظ فى قول الحق : « فلا وربك » وجود « لا » نافية ، وأنه ـ سبحانه ـ أقسم بقوله : « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك » ، ونعلم أن المنافقين قد ذهبوا فحكّموا غير رسول الله ، مع أنهم شاهدون بأنه رسول الله فكيف يشهدون أنه رسول الله ، ثم يحكمون غيره ولا يرضون بقضائه ؟ وتلك قضية يحكم الحق فيها

فيقول : لا . هذه لا تكون أبداً . إذن فـ« لا » النافية جاءت هنا لتنفى إيمانهم وشهادتهم أنه رسول الله ؛ لأنهم حكَّموا غيره . فإذا ثبت أنهم شهدوا أنه رسول الله ثم ذهبوا لغيره ليقضي بينهم إذا حدث هذا . فحكمنا فى القضية هو : لا يكون لهم أبداً شرف شهادة أنه رسول الله .

وبعد ذلك أقسم الحق فقال : « وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم » ونحن الخلق لا نقسم إلا بالله ، لكنه سبحانه له أن يقسم بما شاء على ما يشاء ، يقسم بالمادة الجبلية :

﴿ وَالطُّورِ ۝١ ﴾

(سورة الطور)

ويقسم بالذاريات :

﴿ وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ۝١ ﴾

(سورة الذاريات)

والذاريات هى الرياح ، ويقسم بالنبات :

﴿ وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ۝١ ﴾

(سورة التين)

ويقسم بالملائكة :

﴿ وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ۝١ ﴾

(سورة الصافات)

ولكنك إن نظرت إلى الإنس فلن تجده أقسم بأحد من سيد هذا الكون وهو الإنسان إلا برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأقسم بحياته فقال :

﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ۝٧٢ ﴾

(سورة الحجر)

و« لعمرك » يعنى : وحياتك يا محمد إنهم فى سكرتهم يعمهون ، أى هم فى غوايتهم وضلالهم يتحيرون فلا يهتدون إلى الحق ، وأقسم الله بعد ذلك بنفسه ، فقال :

﴿ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ﴾

(من الآية ٢٣ سورة الذاريات)

وساعة يقول : « فورب السماء والأرض » . فلا بد أن يأتى بربوبيته لخلق عظيم نراه نحن ، ولذلك قال :

﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ ﴾

(من الآية ٥٧ سورة غافر)

يعنى إذا فكرت أيها الإنسان فى خلق السماوات والأرض لوجدته أكبر من خلق الناس .

وفى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها يقول الله تعالى : « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم » وهذا تكريم لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ودليل على أن محمداً عليه الصلاة والسلام ذو منزلة عالية ، إياكم أن تظنوا أنه حين قال : « لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس » أن محمداً قد دخل فى الناس ، إنّه سبحانه يوضح : لا ، سأقسم به كما أقسمت بالسماء والأرض ، « فوربك لنسئلنهم » ، ولماذا يقسم برب السماء والأرض ؛ لأن الربّ له قدرة عظيمة هائلة ، فهو يخلق ويربى ، ويتعهد ويؤدب .

إن خلق السماوات والأرض يكفى فيها الخلق وناموس الكون والتسخير . لكن عندما يخلق محمداً فلا يريد الخلق والإيجاد فقط، بل يريد تربية فيها ارتقاءات النبوة مكتملة فيقول له : فوربك الذى خلقك ، والذى سواك ، والذى رباك ، والذى أهّلَكَ لأن تكون خير خلق الله وأن تكون خاتم الرسل ، ولأن تكون رحمة الله للعالمين ، يقسم بهذا كله فيقول : « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم » أبعد ما يدخل سبحانه فينا هذه المهابة بالقسم برب رسول الله نقول : لا نحكم محمداً ومنهجَه فى حياتنا ؟ .

إذن فقوله : « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم » وحَكَّم كل مادتها مثل « الحُكْم » و« التحكيم » و« الحكمة » و« التحكم » وكل هذا مأخوذ من الحَكَمَة وهى حديدة اللجام الذى يوضع فى فم الفرس يمنعه به صاحبه أن يشرد ، ويتحكم فيه يميناً ويساراً ، فكذلك « الحِكْمَة » تعوق كل واحد عن شروده فى أخذ حق غيره ، فالتحكيم والحكم ، والحكمة ، كلها توحى بأن تضع الشيء فى موضعه الصحيح .

وكلمة « شجر » مأخوذة من مادة (الشين والجيم والراء) وإذا رأيتها فافهم أنها مأخوذة من الشجر الذى تعرفه . وهناك نباتات لا تلتصق ببعضها ، وهناك نباتات تكبر فيلتصق بعضها ببعض فتتشابك ، كما نرى مثلاً شجراً متشابكاً فى بعضه ، وتداخلت الأفرع مع بعضها بحيث لا تستطيع أيها الناظر أن تقول : إن هذه ورقة هذه الشجرة أو ورقة تلك الشجرة . وإذا ما أثمرتا وكانتا من نوع واحد لا تقدر أن تقول : إن هذه الثمرة من هذه الشجرة ، ولا هذه الثمرة من تلك الشجرة ، أى أن الأمر قد اختلط .

« وشجر بينهم » أى قام نزاع واختلاط فى أمر ، فأنت تذهب لتفصل هذه الشجرة عن تلك ، وهذه الثمرة عن تلك الثمرة ، وساعة ترى أشجاراً من نوع واحد ، وتداخلت مع بعضها واختلطت ، لا يعنيك إن كنت جانى الثمرة أن تكون هذه الثمرة التى قطفتها من هنا أو من هناك ، فأنت تأخذ الثمرة حيث وجدت ، لا يعنيك أن تكون من هذه أو من تلك ، وإن كنت تستظل تحت شجر لا يعنيك أن تعرف هل جاء هذا الظل من ورق هذه الشجرة أو من تلك الشجرة ، فهذه فائدة اختلاط المتساوى ، لكن إذا أردتُ ورقة شجرة من نوع معين فأنتقيها لأننى أريدها لأمر خاص .

والخلق كلهم متساوون فكان يجب إن اختلطوا أن تكون المسألة مشاعاً بينهم ، لكن طبيعة النفس الشُحّ ، فتنازعوا ، ولذلك فالقاضى الذكى يقول للمتخاصِمَيْن : أتريدان أن أحكم بينكما بالعدل أم بما هو خير من العدل ؟ . فيفزعان ويقولان : أهناك خير من العدل ؟ . يقول : نعم إنه الفضل ، فمادامت المسألة أخوة واحدة ، والخير عندك كالخير عندى فلا نزاع ، أمّا إذا حدث الشجار فلا بد من الفصل .

ومن الذى يفصل ؟ . إنه سيدنا رسول الله بحكم قول الحق : « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم » . . فالإيمان ليس قولة تقال فحسب وإنما هو قولة لها وظيفة ، فأن تقول : لا إله إلا الله وتشهد أن محمداً رسول الله فلا بد أن لهذا القول وظيفة ، وأن تُحكِم حركة حياتك على ضوء هذا القول ، فلا معبود إلا الله ، ولا آمر إلا الله ، ولا نافع إلا الله ، ولا ضار إلا الله ، ولا مشرع إلا الله ، فهى ليست كلمة تقولها فقط ! وينتهى الأمر ، ثم عندما يأتيك أمر يحتاج إلى تطبيقها تفرّ منه . « فلا وربك لا يؤمنون » بمنهج الإسلام « حتى يحكموك » فهذا هو التطبيق « فيما شجر بينهم » ولا يصح أن يحكموك صورياً ، بل لا بّد أن يحكموك برضا فى التحكيم ، « ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجاً » أى ضيقا « مما قضيت » . فعندما يحكم رسول الله لا تتوانوا عن حكمه ، ولا تضيقوا به « ويسلموا تسليما » أى يُذْعِنُوا إذعاناً .

إذن فالإيمان لا يتمثل فى قول يقال وإنما فى توظيف ذلك القول . بأن تلجأ إليه فى العمليات الحركية فى الحياة ، « فلا وربك لا يؤمنون » حتى يترجم الإيمان إلى قضية واقعية اختار الحق لها أعنف ساعات الحرج فى النفس البشرية وهى ساعة الخصومة التى تولد اللدد والميل عن الحق ، « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجاً » لأنه قد يجد حرجاً ولا يتكلم .

ولننظروا إلى الثلاثة : الأولى : « ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك » ، هذه واحدة ، « فاستغفروا الله » هذه هى الثانية ، « واستغفر لهم الرسول » هذه هى الثالثة ، هذه ممحصات الذنوب ، والذى يدخلك فى حظيرة الإيمان ثلاثة أيضاً : « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم » هذه هى الأولى ، « ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجاً مما قضيت » هذه هى الثانية ، « ويسلموا تسليماً » هذه هى الثالثة . إذن فالقولان فى رسول الله صلى الله عليه وسلم : دخول فى حظيرة إيمان ، وخروج من غلّ ذنب .

وهنا وقفة لا أبالغ إذا قلت : إنها شغلتنى أكثر من عشر سنين ، هذه الوقفة حول قول الله ﷻ « ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيماً » ذلك يارب تمحيص من عاصر رسولك صلى الله عليه

وسلم ، فما بال الذين لم يعاصروه ؟ فأين الممحص الذى يقابل هذا لمن لم يعاصر حضرة النبى صلى الله عليه وسلم ، والرسول إنما جاء للناس جميعاً ، فكيف يوجد ممحص لقوم عاصروا رسول الله ثم يحرم من جاءوا بعد رسول الله من هذا التمحيص ؟

هذه مسألة ظلت فى ذهنى ولا أجد لها جواباً ، إلا أنى قلت : لقد ثبت عندى وعند بعض أهل العلم أن رسول الله صلى لله عليه وسلم قال مطمئنا المؤمنين فى كافة العصور :

(حياتى خير لكم تُحَدِثون ويُحْدَثُ لكم فإذا أنا مت كانت وفاتى خيرا لكم تُعْرض علىَّ أعمالكم فإن رأيتُ خيرا حمدت الله وإن رأيت شرا استغفرتُ لكم)[1] .

انظر إلى التطمين فى قوله صلى الله عليه وسلم :

(تعرض علىّ أعمالكم فإن رأيت خيراً حمدت الله ، وإن رأيت غير ذلك استغفرت لكم)[2] .

فاستغفار الرسول لنا موجود . إذن فما بقى منها إلا أن نستغفر الله ، وما بقى إلا « جاءوك » أى يجيئون لسنتك ولما تركت منها فصلى الله عليه وسلم هو القائل :

(تركت فيكم شيئين لن تضلوا بعدهما كتاب الله وسنتى ولن يتفرقا حتى يردا علىّ الحوض)[3] .

فكما كان الأحياء يجيئونه ، فنحن نجىء إلى حكمه وسنته وتشريعه ، وهو يستغفر لنا جميعاً ، إذن فهذه منتهية ، فبقى أن نستغفر الله قائلين : نستغفر الله العظيم الذى لا إله إلا هو الحىّ القيوم ونتوب إليه .. نفعل ذلك إن شاء الله .

(١) رواه ابن سعد عن بكر بن عبدالله مرسلا ورمز السيوطى له بالحسن .

(٢) رواه ابن سعد .

(٣) رواه الحاكم عن أبى هريرة .

وقوله سبحانه وتعالى : « ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً » أى لا يجدوا حرجاً عندما يذعنون لأى حكم تكليفى أو حكم قضائى ، والحكم التكليفى نعرفه فى : افعل ولا تفعل ، أما الحكم القضائى فهو عندما يتنازع اثنان فى شيء وهذا يقتضى أن نقبل الحكم فى النزاع إذا ما صدر عن رسول الله أو عن منهجه . إذن فلا بد أن نسلم تسليماً فى الاثنين : فى الحكم التكليفى ، وفى الحكم القضائى .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا (٦٦) ﴾

وهنا يساوى الحق بين الأمر بقتل النفس والأمر بالإخراج من الديار ، فالقتل خروج الروح من الجسد بقوة قسرية غير الموت الطبيعى ، والإخراج من الديار هو الترحيل القسرى بقوة قسرية خارج الأرض التى يعيش فيها الإنسان ، إذن فعملية القتل قرينة لعملية الإخراج من الديار ، فساعة يُقتل الإنسان فهو يتألم ، وساعة يخرج من وطنه فهو يتألم ، وكلاهما شاق على الإنسان ، ويأتى الحق بهذين الحكمين اللذين سبقا فى قوم موسى عليه السلام ، فالحق يقول :

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ﴾

(من الآية ٥٤ سورة البقرة)

ويقال : إن قوم موسى عندما سمعوا هذا الحكم قام سبعون ألفاً منهم بقتل أنفسهم ، ونعلم أيضاً أن قوم موسى أخرجوا من ديارهم وذهبوا فى التيه . يقول سبحانه وتعالى :

قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ

(من الآية ٢٦ سورة المائدة)

أى لا يدخلونها ولا يملكونها . والحق هنا يوضح : أن الإسلام لم يأت بمثل ما جاءت به الشرائع السابقة التى كانت التوبة فيها تقتضى قتل النفس ، تلك الشرائع التى رأت أن النفس تغوى صاحبها بمخالفة المنهج فلا بد أن يضيعها . ومن لطف الله أنه سبحانه لم يصدر علينا مثل هذا الحكم ، ولذلك فسيدنا عبدالله ابن مسعود ، وسيدنا عمار بن ياسر ، وثابت بن قيس ؛ كل هؤلاء قالوا : والله لو أمرنا بهذا لفعلنا ، وقال سيدنا عمر : والله لو أمرنا بهذا لفعلنا والحمد لله الذى لم يفعل بنا ذلك . إذن فهذا لطف ، إنه بيّن لهم : لو كتبنا عليهم أن يقتلوا أنفسهم أو يخرجوا من ديارهم كما حدث لقوم موسى . ماذا كانوا يفعلون ؟ لكن ربنا استجاب لدعائهم :

﴿ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ﴾

(من الآية ٢٨٦ سورة البقرة)

لقد استجاب الحق لهم ، لكن ماذا كان يحدث منكم لو كتب عليكم ذلك ؟ وسبب هذه الحكاية أن رسول الله صلى الله عليه وسلم له ابن عمة اسمه « الزبير بن العوام » وهو من العشرة المبشرين بالجنة ، وهناك واحد آخر اسمه « حاطب بن أبى بلتعة » كانا فى المدينة ، ومن زار المدينة المنورة يجد هناك منطقة اسمها « الحرة » وأرضها من حجارة سوداء كأنها محروقة ، وفيها بعض « الحيطان » أى : البساتين ؛ لأنهم يسمون البستان « حائطاً » ، فقد كانوا يخافون من طغيان السيل فيبنون حول الأرض المزروعة حائطاً ، يرد عنها عنف السيل ويحدد الحيازة فيها ، فكان لحاطب بن أبى بلتعة أرض زراعية منخفضة عن أرض الزبير بن العوام ، فالسيل يأتى أولاً من عند

أرض الزبير ثم ينزل إلى أرض حاطب ، ونعلم أن الأمطار تنزل متفرقة فى مكان ثم يتجمع الماء فى جدول صغير يسمونه « شراج » ومنه يروون بساتينهم .

فلما جاء السيل وأرادوا أن يرووا بساتينهم حدث خلاف بين الزبير بن العوام وحاطب بن أبى بلتعة ، فأرض الزبير تعلو أرض حاطب ، وحاطب يريد أن تمر المياه لأرضه أولاً ثم يروى الزبير أرضه بعد ذلك . فلما تحاكما إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حكم للزبير فقد كان الحق معه ، ولم يكن الرسول ليلوى الحق لمجرد القرابة ، فمن الناس من يحكم بالظلم ليشتهر بين الناس بالعدل ، فقد يتخاصم ابنه مع واحد آخر والحق مع ابنه ، فلكيلا يقول الناس : إنه جامل ابنه . يحكم على ابنه ! وهذا ليس عدلاً ؛ فالعدل أن تحكم بالحق ثم تطلب من ابنك أن يتنازل عن حقه ليصبح عطاؤه لغيره فضلاً . فالشجاعة هى أن تحكم بالحق ، وهناك شجاعة أقوى وهى أن تحكم بالحق وإن كان على نفسك ، لأن الحق أعز من نفسك .

ونص هذه الواقعة كما أوردها الإمام البخارى فى صحيحه بسنده قال :
« حدثنا أبو اليمان أخبرنا شعيب عن الزهرى قال أخبرنى عروة بن الزبير أن الزبير كان يحدث أنه خاصم رجلا من الأنصار قد شهد بَدْرًا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى شراج من الحرة كان يسقيان به كلاهما فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم للزبير : اسقِ يا زبير ثم أرسل إلى جارك ، فغضب الأنصارى ، فقال : يا رسول الله آن كان ابن عمتك ؟ فتلون وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال : اسق ثم احبس حتى يبلغ الجدر فاستوعى رسول الله صلى الله عليه وسلم حينئذ للزبير حقه وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل ذلك أشار على الزبير برأى فيه سعة له وللأنصارى ، فلما أحفظ الأنصارى رسول الله صلى الله عليه وسلم استوعى للزبير حقه فى صريح الحكم ، قال عروة : قال الزبير : والله ما أحسب هذه الآية نزلت إلا فى ذلك « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم »[1] .

فلما حكم رسول الله للزبير بأن يسقى زرعه ثم يرسل الماء إلى جاره لم يعجب ذلك

(١) رواه البخارى فى الصلح ومسلم فى الفضائل ، والترمذى فى الأحكام والنسائى فى القضاة وابن ماجه فى المقدمة .

حاطب بن أبي بلتعة ، فقال : لأن كان ابن عمتك ، والعربى يقول الكلمة ويترك لنباهة السامع أن يستنبط الباقى ، وكأنه يعنى : حكمت له لأنه ابن عمتك . ولوى شدقيه ، فتغير وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم لحظة علمه أن ابن أبي بلتعة لم يقدر عدالة الحق والحكم . . وكان كثير من الناس ممن كانوا يتصيدون للإسلام يقولون : هو قد حكم أولاً أن يروى الزبير ثم يطلق الماء لحاطب ، فلما غضب حاطب بن أبي بلتعة قال له : اسق يا زبير واستوف حقك ، وخذ من الماء ما يكفيك ثم أرسله لجارك ، فقالوا : لماذا حكم أولاً بأن يسقى ثم يرسل الماء إلى جاره ثم عدل فى الحكم ؟

الناس لم تفهم أن أرض الزبير عالية بينما أرض حاطب منخفضة ، وأنتم إذا نظرتم إلى أى وادٍ ؛ تجدون الخضرة والخصب فى بطن الوادى وليس فى السفح ؛ لأن الماء وإن جاء من الأرض العالية سينزل إلى الأرض المنخفضة ، وإذا رويت المنخفض أولا وأعطيته لا يصيب العالى شىء .

إذن فالحكم الأول كان مبنياً على التيسير والفضل من الزبير ، والحكم الثانى جاء مبنيًّا على العدل ، ورسول الله بالحكم الثانى ـ وهو أن يستوفى الزبير حقه ويأخذ من الماء ما يكفيه ـ كأنه قال له : سنعدل معك بعدما كنا نجاملك ، فقال الحق سبحانه وتعالى : « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً » .

وإذا كان هذا هو الأمر فكيف لو فعلنا بهم مثلما فعل الرسول من الأمم السابقة؟ عندما أمروهم أن يقتلوا أنفسهم أو أن يخرجوا من ديارهم، هذا الحكم لم ينفذه إلا عدد قليل منهم وهم الثابتون فى الإيمان . وهكذا نعلم أن الحق لم يخل الأمة من ممتثلين ملتزمين يؤدون أمر الله كما يجب .

« ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به » ولو فرضنا أن الله قال : اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم ثم بعد ذلك فعلوه لوجدوا فى ذلك الخير عما كان فى بالهم ؛ لأن الناس يجب أن تفطن إلى أن تسأل نفسها ما غاية المؤمن حين يؤمن بإله ؟ وما غاية هذا الإيمان ؟

أنت فى دنياك تعيش مع أسباب الله المخلوقة لك ، وحين تنتقل إلى الله تعيش مع المسبب ، فما الذى يحزنك عندما قال لك : اقتل نفسك ؟ إنه قال لك : اقتل نفسك لماذا ؟ لأنك تنتقل للمسبب وتحيا دون تعب .

إن الحكم من الله هو ارتقاء بالإنسان ، ونحن فى حياتنا الدنيا نجد من يدق الجرس فيأتيه الطعام ، ويدق الجرس فيأتيه الشاى ، ويدق الجرس فتأتيه الحلوى . لكن لا يمكن أن ترتقى الدنيا إلى أن يوجد ارتقاء بحيث إذا خطر الشيء ببال الإنسان وُجد الشيء أمامه ، فلا يدق جرسا ولا يجهد نفسه ، فبالله الذى يعيش فى الأسباب ثم نريد أن ننقله إلى أن يعيش مع المسبب ، فهل هذه تحزنه ؟ لا ؛ لأنهم سيجدون خيرا أكثر .

إنك : لو قارنت الأمر لوجدت الدنيا عمرها بالنسبة لك مظنون ، ومحدود ، ونعيمك على قدر إمكاناتك . لكنك حين تنتقل إلى لقاء الله لا تكون محدوداً ، لا بعمرك ولا بامكاناتك بل تعيش زمناً ليس له حدود ، وتنعم فيه على قدر سعة فضل الله .

« ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيراً لهم وأشد تثبيتاً » . . وهذا الخير أشد تثبيتاً لغيرهم ؛ لأن من يرونهم ينفذون حكم الله . فلا بد أنهم وثقوا أنهم سيذهبون إلى خير مما عندهم . إذن فهو يثبت من بعدهم . أو المعنى : لو أنهم فعلوا ما أمروا به من اتباع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وطاعته والانقياد لما يراه ويحكم به لأنه الذى لا ينطق عن الهوى لكان ذلك خيرا لهم فى دنياهم وأخراهم وأقوى وأشد تثبيتا واستقرارا للإيمان فى قلوبهم وأبعد عن الاضطراب فيه .

﴿ وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ ﴾

فهم إذا فعلوا ما يوعظون به ، « وإذاً لآتيناهم من لدنا أجراً عظيما » وساعة تسمع

. « من لدنًا » اعرف أنها ليست من شأن ولا فعل الخلق . بل من تفضل الخالق . فالحق سبحانه وتعالى يرسل لنا منهجه بوساطة الرسل ، لكنه يوضح أن بعضاً من الناس منحهم عطفاً وأعطاهم من لدنه علماً ، فهو القائل :

﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا ءَاتَيْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَـٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ ﴾

(سورة الكهف)

أى أن العلم الذى أعطاه الله لذلك العبد لم يَعْلَمْه موسى ، وعطاء الله للعلم خاضع لمشيئته ، ونعرف من قبل أن الحسنات والأعمال لها نظام ، فمن يعمل خيراً يأخذ مقابله كذا حسنة ، ولكنْ هناك أعمال حسناتها من غير حساب ويجازى عليها الحق بفضله هو . وأضرب هذا المثل ـ ولله المثل الأعلى ـ نحن نجد ذلك متمثلاً لنا فى كثير من تصرفاتنا ، تقول لابنك مثلاً : يا بنى كم أجرك عندى من هذا العمل ؟ فيقول لك : مائة جنيه . فتقول له : هذه مائة هى أجرك ، وفوقها خمسون من عندى أنا ، ماذا تعنى « من عندى أنا » هذه ؟ إنها تعنى أنه مبلغ ليس له دخل بأجر العمل .

« ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم » لقد عرفنا من قبل أن هناك فرقًا بين القتل والموت ، صحيح أن كليهما فيه إذهاب للحياة ، لكن الموت : إذهاب للحياة بدون نقض البنية للجسم ، ولكن القتل : إذهاب للحياة بنقض البنية كأن يكسر إنسان رأس إنسان آخر ، أو يطلق رصاصة توقف قلبه ، وهذا هدم للبنية ، والروح لا تحل إلا فى بنية لها مواصفات ، والروح لم تذهب أولاً . بل إن البنية هدمت أولاً . فلم تعد صالحة لسكنى الروح ، والمثل المعروف هو مصباح الكهرباء : إنك إن رميت عليه حجرا صغيرًا ، ينكسر وينطفىء النور برغم أن الكهرباء موجودة لكنها لا تعطى نوراً إلا فى وعاء له مواصفات خاصة ، فإذا ذهبت هذه المواصفات الخاصة يذهب النور ، فتأتى بمصباح جديد له المواصفات الخاصة الصالحة فتجد النور قد جاء .

وكذلك الروح لا تسكن إلا فى جسم له مواصفات خاصة ، فإن جئت لهذه المواصفات الخاصة وسيدها المخ ، وضربته ضربة قاسية ، فقد نقضت البنية ، وفى هذه الحالة تغادر الروح الجسد لأنه غير صالح لها ، لكن الموت يأتى من غير نقض

للبنية ، ومصداق ذلك هو قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ﴾

(من الآية ١٤٤ سورة آل عمران)

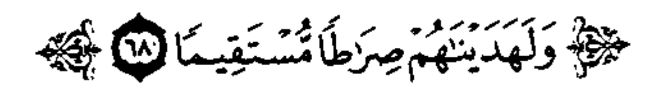
أى أن هناك أمرين : هناك موت ، وهناك قتل ، فالموت هو سلب الحياة ، والقتل هو سلب الحياة ، ولكن القتل سلب الحياة بعد نقض البنية التى تسكن فيها الروح ، ويختلف عن الموت لأن الموت هو خروج الروح دون قتل ، ولذلك يقولون : مات حتف أنفه . أى مات على فراشه ولم يحدث له أى شيء .

والذى يُقتل فى الشهادة يقول فيه ربنا :

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

فإذا كان من يقاتل فى سبيل الله قد امتثل لأمر الله فسوف يجد فضلاً أكثر ، فكيف يكون جزاء من يقتل نفسه امتثالا لأمر ربه ؟ إن امتحان النفس يكون بالنفس ، وليس امتحان النفس بالعدو . وما الميزة فى سيدنا إبراهيم ؟ هل قال له الحق : أنا سأميت ولدك ؟ أقال له إن واحداً آخر سيقتل ابنك ؟ لا ، بل قال له : اذبحه أنت . وهذه هى ارتقاء قتل النفس ، فيفدى الحق إسماعيل عليه السلام بكبش عظيم . إذن فإذا جاء الأمر بأن يقتل الإنسان نفسه فلا بد أن هناك مرتبة أعلى . « ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيرا لهم وأشدّ تثبيتاً ، وإذاً لآتيناهم من لدنا أجرا عظيما » . ويقول الحق بعد ذلك :



ونحن أمام أمرين : إما أن يقتلوا ، وإما أن يخرجوا من ديارهم ، فقوله : « ولهديناهم صراطاً مستقيماً » لمن ؟ للذى قُتِل أم لمن خَرَج ؟ هو قول لمن اخرج من دياره لأنه مازال على قيد الحياة .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَـٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ﴾

والفعل هنا : « يطع » والمطاع هو : الله والرسول ، أى أن هذا الأمر تشريع الله مع تطبيق رسوله ، أى بالكتاب والسنة ، وساعة تجد الرسول معطوفاً على الحق بدون تكرير الفعل فاعلم أن المسألة واحدة . . أى ليس لكل واحد منهما أمر ، بل هو أمر واحد ، قول من الله وتطبيق من الرسول لأنه القدوة والأسوة ؛ ولذلك يقول الحق فى الفعل الواحد :

﴿ وَكَفَرُواْ بَعْدَ إِسْلَـٰمِهِمْ وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْ ۚ وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ ۚ فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ ﴾ (من الآية ٧٤ سورة التوبة)

فما أغناهم الله غنىً يناسبه وأغناهم الرسول غنىً يناسبه فالفعل هنا واحد . فالغنى هنا من الله ورسوله ؛ لأن الرسول لا يعمل إلا بإذن ربه وامتثالا لأمره ، فتكون المسألة واحدة .

هناك قضية تعرض لها الكتاب وهى قضية قد تشغل كثيراً من الناس الذين عاصروا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كان مجلسه صلى الله عليه وسلم لا يُصد

عنه قادم ، يأتى فيجلس حيث ينتهى به المجلس ، فالذى يريد النبى دائما يستمر فى جلوسه ، والذى يريد أن يراه كل فترة يأتى كلما أراد ذلك.فثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم كان شديد الحب لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، قليل الصبر عنه ، فأتاه يوما ووجهه متغير وقد نحل وهزل جسمه ، وعُرِف الحزن فى وجهه ، فسأله النبى قائلا : ما بك يا ثوبان ؟ فقال والله ما بى مرض ولا علة ، ولكنى أحبك وأشتاق إليك ، وقد علمت أنى فى الدنيا أراك وقتما أريد ، لكنك فى الآخرة ستذهب أنت فى عليين مع النبيين ، وإن دخلتُ الجنة كنت فى منزل دون منزلك ، وإن لم أدخل فذاك حين لا أراك أبدا .

ونص الحديث كما رواه ابن جرير ـ بسنده ـ عن سعيد بن جبير قال : « جاء رجل من الأنصار إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ وهو محزون ـ فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : « يا فلان مالى أراك محزونا » ؟ فقال : يا نبى الله شىء فكرت فيه فقال : « ماهو » ؟ قال : نحن نغدو عليك ونروح ننظر إلى وجهك ونجالسك ، وغدا تُرفع مع النبيين فلا نصل إليك ، فلم يرد عليه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ شيئا فأتاه جبريل بهذه الآية : « ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين » .. فبعث النبى صلى الله عليه وسلم إليه.فبشره[1] » .

وكيف تأتى هذه على البال ؟! إنه إنسان مشغول بمحبته لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ وفكر : هل ستدوم له هذه النعمة ؟ وتفكر فى الجنة ومنازلها وكيف أن منزلة الرسول ستعلو كل المنازل . وثوبان يريد أن يطمئن على أن نعمة مشاهدته للنبى صلى الله عليه وسلم لن تنتهى ولن تزول منه ، إنه يراه فى الدنيا ، وبعد ذلك ماذا يحدث فى الآخرة : فإما أن يدخل الجنة أو لا يدخلها ، إن لم يدخل الجنة فلن يراه أبداً . وإن دخل الجنة والنبى فى مرتبة ومكانة عالية . فماذا يفعل ؟

انظر كيف يكون الحب لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فالله سبحانه وتعالى يلطف بمثل هذا المحب الذى شغل ذهنه بأمر قد لا يطرأ على بال الكثيرين ، فيقول الحق سبحانه وتعالى تطمينا لهؤلاء : « ومن يطع الله والرسول فأولئك » أى المطيعون

(١) رواه ابن جرير .

لله والرسول « مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا » والمسألة جاءت خاصة بثوبان ، بعد أن نبه الأذهان إلى قضية قد تشغل بال المحبين لرسول الله ، فأنت مع من أحببت ، ولكن الأمر لا يقتصر على ثوبان . لقد كان كلام ثوبان سبباً فى الفتح والتطمين لكل الصديقين والشهداء والصالحين . وهى أصناف تستوعب كل المؤمنين ، فأبو بكر الصديق صِدِّيقٌ لماذا ؟ لأنه هو : المبالغ فى تصديق كل ما يقوله سيدنا رسول الله ، ولا يعرض هذا القول للنقاش أو للتساؤل : أى هذه تنفع أو لا تنفع ؟ فعندما قالوا لسيدنا أبى بكر : إن صاحبك يدعى أنه أتى بيت المقدس وعاد فى ليلة ونحن نضرب إليها أكباد الإبل ، ماذا قال أبو بكر ؟ قال : إن كان قال ذلك لقد صدق .

لم يعلل صدقه إلا بـ « إن كان قد قال ذلك » ، فهذا هو الصديق الحق ، فكلما قال محمد شيئا صدقه أبو بكر ، وأبو بكر ـ رضوان الله عليه ـ لم ينتظر حتى ينزل القرآن مصدقا للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بل بمجرد أن قال صلى الله عليه وسلم : إنى رسول . قال أبو بكر : نعم . إذن فهو صديق .

لقد كانت هناك تمهيدات لأناس سَبَقوا إلى الإسلام ؛ لأن أدلتهم على الإيمان سبقت بعثة الرسول ، هم جربوا النبى عليه الصلاة والسلام ، وعرفوه ، فَلَمَّا تحدث بالرسالة ، صدقوه على الفور ؛ لأن التجارب السابقة والمقدمات دلت على أنه رسول ، ومثال ذلك : سيدتنا خديجة ـ رضوان الله عليها ـ ماذا قالت عندما قال لها النبى : إنه يأتينى كذا وكذا وأخاف أن يكون هذا رَئِيًّا ومَسًّا من الجن يصيبنى .

فقالت خديجة : « كلا والله ما يُخزيك الله أبدا ؛ إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكَلّ ، وتكسب المعدوم ، وتقرى الضيف وتعين على نوائب الحق »[1] . وهذا أول استنباط فقهى فى الإسلام .

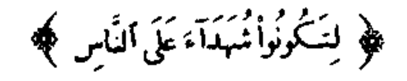
هذا هو معنى « مع النبيين والصديقين » ، « والشهداء » هم الذين قتلوا فى سبيل الله ، لكن على المؤمن حين يقاتل فى سبيل الله ألا يقول : أنا أريد أن أموت شهيداً . ويلقى بنفسه إلى التهلكة ، إياك أن تفهمها هكذا ، فأنت تدافع عن رسالة ولا بد أن تقاتل عدوك بدون أنك تمكنه من أن يقتلك ؛ لأن تمكينه من قتلك ، يفقد المسلمين

(١) رواه البخارى .

مقاتلاً . فكما أن الشهداء لهم فضل ؛ فالذين بقوا بدون استشهاد لهم فضل . فالإسلام يريد أدلة صدق على أن دعوته حق ، وهذه لا يثبتها إلا الشهداء .

لكن هل يمكن أن نصبح جميعاً شهداء ؟ ومن يحمل منهج الله إلى الباقين ؟ إذن فنحن نريد من يبقى ومن يذهب للحرب ، فهذا له مهمة وهذا له مهمة ، ولذلك كانت « التقية » وهى أن يظهر رغبته عن الإسلام ويوالى الكفار ظاهراً وقلبه مطمئن بالعداوة لهم انتظارًا لزوال المانع وذلك استبقاء لحياته كى يدافع ويجاهد فى سبيل الله . وسببها أن الإسلام يريد من يؤكد صدق اليقين فى أن الإنسان إذا قتل فى سبيل الله ذهب إلى حياة أفضل وإلى عيش خير ، هذا يثبته الشهيد . ولذلك فالحق سبحانه وتعالى عندما تأتيهم غرغرة الشهادة يريهم ما هم مقبلون عليه ، فيتلفظون بألفاظ يسمعها من لم يقبل على الشهادة ، فهناك من يقول : هبى يا رياح الجنة ، ويقول كلمة يتبين منها أنه ينظر إلى الجنة كى يسمع من خلفه ، ومفرد شهداء ، إما شهيد وهو الذى قتل فى سبيل الله ، وإمّا هى جمع شاهد ، فيكون الشهداء هم الذين يشهدون عند الله أنهم بلغوا من بعدهم كما شهد رسول الله أنه بلغهم .

والمعانى كلها تدور حول معنى أن يشهد شيئاً يقول به وبذلك نعرف أننا نحتاج إلى الاثنين : من يقتل فى سبيل الله ، ومن يبقى بدون قتل فى سبيل الله ؛ لأن الأول يؤكد صدق اليقين بما يصير إليه الشهيد ، والثانى يُعطينا بقاء تبليغ الدعوة فهو شاهد أيضاً :



(من الآية ١٤٣ من سورة البقرة)

و« الصالحين » والصالح هو المؤهل لأن يتحمل مهمة الخلافة الإيمانية فى الأرض . فكل شيء يؤدى نفعاً يتركه على حاله ، وإن أراد أن يزيد فى النافع فليرق النفع منه ، فمثلاً : الماء ينزل من السماء ، وبعد ذلك يكون جداول ، ويسير فى الوديان ، وتمتصه الأرض فيخرج عيوناً ، فعندما يرى عيناً للمياه فهو يتركها ولا يردمها فيكون قد ترك الصالح على صلاحه ، وهناك آخر يرقى النفع من تلك النعمة فيبنى حولها كى يحافظ عليها . إذن فهذا قد أصلح بأن زاد فى صلاحه .

وهناك ثالث يقول : بدلاً من أن يأتى الناس من أماكنهم متعبين بدوابهم ليحملوا الماء فى القِرَب أو على رءوس الحاملين ، لماذا لا أستخدم العقل البشرى فى الارتقاء بخدمة الناس لينتقل الماء إلى الناس فى أماكنهم ، وهنا يصنع الصهاريج العالية ويصلها بمواسير وأنابيب إلى كل من يريد ماء فيفتح الصنبور ليجد ما يريد . ومن فعل ذلك يسَّر على الناس ، فيكون مصلحاً بأن جاء إلى الصالح فى ذاته فزاده صلاحاً .

ويختم الحق الآية بقوله : « وحسن أولئك رفيقاً » . و« أولئك » تعنى النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، ولا توجد رفقة أفضل من هذه ، والرفيق هو : المرافق لك دائماً فى الإقامة وفى السفر ، ولذلك يقولون : خذ الرفيق قبل الطريق ، فقد تتعرض فى الطريق لمتاعب وعراقيل ؛ لأنك خرجت عن رتابة عادتك فخذ الرفيق قبل الطريق . ونعرف أن الأصل فى المسائل المعنوية : كلها منقولة من الحسيات ، وفى يد الإنسان يوجد المرفق . . يقول الحق :

﴿ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ ﴾

(من الآية ٦ سورة المائدة)

وساعة يكون الواحد مرهقاً ورأسه متعباً يتكئ على مرفقه ليستريح ، وساعة يريد أن ينام ولم يجد وسادة يتكئ على مرفقه أيضاً . إذن فالمادة كلها مأخوذة من الرفق ، فالرفيق مأخوذ من الرفق و« المرافق » مأخوذة من الرفق لأنها ترفق بالجسم وتريحه ، وفى كل بيت توجد المرافق وهى مكان إعداد الطعام وكذلك دورة المياه ، وفى الريف تزيد المرافق ليوجد مكان لمبيت الحيوانات التى تخدم الفلاح ، وبيوت الفقراء قد تكون حجرة واحدة فيها مكان للنوم ، ومكان الأكل ، وقد يربط الفقير حماره فى زاوية من الحجرة ، لكن عندما يكون ميسور الحال فهو يمد بيته بالمرافق المكتملة . أى يكون فى المنزل مطبخ مستقل ، ومحل لقضاء الحاجة ، وحظيرة مستقلة للمواشى ، وكذلك يكون هناك مخزن مستقل ، وهذه كلها اسمها « مرافق » لأنها تريح كل الناس .

إذن فقوله : « وحسن أولئك رفيقا » مأخوذة من الرفق وهو : إدخال اليسر ، والأنس ، والراحة ، ويكون هذا الإنسان الذى أطاع الله ورسوله بصحبة النبيين ،

والصديقين ، والشهداء ، والصالحين .

وقد يقول قائل : كيف يجتمع كل هؤلاء فى منزلة واحدة ؛ على الرغم من اختلاف أعمالهم فى الدنيا ، أليس الله هو القائل :

﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ ﴾

(سورة النجم)

ونقول : مادام المؤمن أطاع الله وأطاع الرسول ، أليس ذلك من سعيه ؟ فهذه الطاعة والمحبة لله ولرسوله هى من سعى العبد ؛ وعلى ذلك فلا تناقض بين الآيتين ؛ لأن عمل الإنسان هو سعيه ، ويصبح من حقه أن يكون فى معية الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين . وقد تكون الصحبة تكريما لهم جميعا ليأنسوا بالصحبة ، وهذه المسألة ستشرح لنا قوله :

﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ ﴾

(من الآية ٤٣ سورة الأعراف)

فساعة يرى واحد منزلته فى الآخرة أعلى من آخر ، إياك أن تظن أنه سيقول : منزلتى أعلى من هذا ؛ لأنه مادام قد ترك الأسباب فى الدنيا وعاش مع مسبب الأسباب ، فهو من حبه لله يحب كل من سمع كلام ربنا فى الدنيا فيقول لكل محب لله : أنت تستحق منزلتك ، ويفرح لمن منزلته أعلى منه .

وأضرب هذا المثل ـ ولله المثل الأعلى ـ لنفرض أن هناك فصلاً فيه تلاميذ كثيرة ، بعضهم يحب أن ينجح فقط ، وبعضهم يحب العلم لذات العلم ، وعندما يجد عشاق العلم تلميذاً نجيباً ، أيكرهونه أم يحبونه ؟ إنهم يحبونه ويسألونه ويفرحون به ويقولون : هذا هو الأول علينا ؛ لأنه لا يحب نفسه بل يحب الآخرين ، فكذلك المؤمن الذى يكون فى منزلة بالجنة ويرى غيره فى منزلة أعلى ، إياك أن تقول إن نفسه تتحرك عليه بالغيرة ، لا . لأنه من حبه لربه وتقديره له يحب من كان طائعاً لله ويفرح له ، مثله مثل التلميذ الذى ينال مرتبة عالية فيحب التفوق للآخرين من غير حقد . وهكذا نجد أن الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها لا تخدش قول الحق : « وأن ليس للإنسان إلا ما سعى » .

وهناك بحث آخر فى قوله الحق : « وأن ليس للإنسان إلا ما سعى » . فـ « اللام » تفيد الملك والحق ، كقولنا : ليس لك عندى إلا كذا ، أى أن هذا حقك ، فقوله : « وأن ليس للإنسان إلا ما سعى » أى هى حق للمؤمن وقد حددت العدل فى الحق ولم تحدد الفضل ، ولذلك قال بعدها :

﴿ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾ ﴾

فالفضل من الله يستمد حيثيته من سعى الإنسان ، فقوله : « وأن ليس للإنسان إلا ما سعى » حددت الحق الذى لك والذى توجبه عدالة التكليف ، لكن ربنا لم يقل : إن هذا العطاء لله من الحق والعدل . بل هو من الفضل ، والفضل من الله هو مناط فرح المؤمن ؛ لأنك مهما عملت فى التكليف فلن تؤديه كما يجب بالنسبة لله ، ولذلك أوضح سبحانه لنا : تنبهوا .. أنا كلفتكم وقد تعملون وتجتهدون ، لكن لا تفرحوا مما سيجمعه هذا العمل من حسنات ، ولكن سيكون فرحكم بما يعطيكم ربكم من فضله قال سبحانه :

﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾

(سورة يونس)

وذلك الفضل من الله يرد على من يقول : كيف يجيء « ثوبان » أو مَن دون « ثوبان » ويكون فى الجنة مع النبيين والصديقين والشهداء ومع الصالحين ، ونقول : لو لم تكن منزلته أدنى لما كان فى ذلك تفضل ، إنه ينال الفضل بأن كانت طاعته لله ولرسوله فوق كل طاعة ، أما حبه لله وللرسول ، فهذا من سعيه وعمله بتوفيق الله له ـ وما توفيقى إلا بالله ـ والفضل هو مناط فرح المؤمن ، « ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليما » . ونحن نرضى ونفرح ونكتفى بعلم الله ؛ لأنه سبحانه يرتب أحكامه على علم شامل ومحيط ، ويعرف صدق الحب القلبى وصدق الودادة ،

وصدق تقدير المؤمن لمن زاد عنه فى المنزلة .

وبعد أن أمّن الحق لنا داخلية وطننا الإيمانى ، وتجمعنا الإسلامى بالأصول التى ذكرها ، وهى : أن نؤدى الأمانات ، وإذا أدينا الأمانات فلن نحتاج إلى أن نتقاضى ، فإذا غفل بعضنا ولم يؤد أمانة ، وحدث نزاع فسيأتى الحكم بالعدل . وبعد ذلك نحتكم فى كل أمورنا إلى الله وإلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا نحتكم إلى الطواغيت ، وهات لى مجتمعا إيمانيا واحدا يؤدى الأمانة ولا يشعر بالاطمئنان .

وعرفنا أن الأمانة هى : حق لغيرك فى ذمتك أنت تؤديه ، وكل ما عداك غير . وأنت غير بالنسبة لكل ما عداك ، فتكون كلها مسألة فى الخير المستطرق للناس جميعا ، وإذا حدثت غفلة يأتى العدل . والعدل يحتاج حكما ، وعندما نأتى لنحكم نحتكم لله وللرسول ، وإياك أن تتحاكم إلى الطاغوت . وكان « كعب بن الأشرف » يمثل الطاغوت سابقا ، والآن أيضا يوجد من هم مثل كعب بن الأشرف . بل هناك طواغيت كثيرة .

إنك إذا رأيت خللاً فى العالم الإسلامى فأعلم أن هناك خللاً فى تطبيق التكليف الإسلامى ، فكيف تستقيم لنا الأمور ونحن بعيدون عن منهج تكاليف الإسلام المكتملة ؟ ولو استقامت الأمور لكانت شهادة بأن هذا المنهج لا ضرورة له . لكن إذا حدث شىء فهذا دليل صدق التكليف .

وبعد أن طمأننا على المصير الأخروى مع النبيين والصديقين والشهداء أوضح سبحانه : لاحظوا أن كل رسالة خير تأتى من السماء إلى الأرض ما جاءت إلا لمحاربة فساد وقضاء على فساد طام فى الأرض ؛ لأن النفس البشرية إما أن يكون لها وازع من نفسها بحيث إنها قد تهم مرة بمعصية ثم توبخ نفسها وتعود إلى المنهج ، فتكون مناعتها ذاتية ، وإما أن المناعة ليست ذاتية فى النفس بل ذاتية فى البيئة ، فمثلاً نجد واحداً لا يقدر على نفسه . لكنه يجد واحداً آخر يقول له : « هذا عيب » . وهذا يعنى أن البيئة مازال فيها خير ، وكانت الأمم السابقة قد خلت من المناعة وصارت على هيئة ومسلك واحد وهو ما يصوره الحق بقوله :

﴿ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ﴾

(من الآية ٧٩ سورة المائدة)

إذن فقد فسدت مناعة الذات ، ولا توجد مناعة فى المجتمع ، فتتدخل - إذن - السماء . لكن الحق فضل أمة محمد صلى الله عليه وسلم وميزها على غيرها من الأمم لأن مناعتها دائماً فى ذوات أفرادها . فإن لم تكن فى ذوات الأفراد ففى المجموع ، فلا يمكن أن يخلو المجتمع الإيمانى من فرد يقول : لا . ولذلك لن يأتى رسول بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم . فلو كانت ستحدث طامة وفسد بها المجتمع ولا نجد فيه من يقول : لا . . لكان ولا بد أن يأتى رسول ، لكن محمدا كان خاتم النبيين؛لأن الله سبحانه وتعالى فضل أمة محمد بأن جعل وازعها دائما إما من ذاتها بحيث يرد كل فرد نفسه وتكون نفسه لوّامة ، وإمّا مناعة فى المجتمع وكل واحد فيه يوصِى ، وكل واحد يوصَى ، واقرأ قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ ۝٣ ﴾

(سورة العصر)

تواصوا لماذا ؟ لأن النفس البشرية أغيار ، فقد تهيج نفسى لأخرج عن المنهج مرة ؛ فواحد آخر ينهانى ، وأنا أردها له وأهديه وأرشده إلى الصراط المستقيم ، وواحد آخر أخطأ فأنا أقول له وأنهاه . إذن فقوله : « وتواصوا » يعنى : ليكن كل واحد منكم موصياً وموصًى . فكلنا يَنظر بعضنا ويلاحظه ؛ مَن ضعف فى شىء يجد من يقوِّمه ، فلا ينعدم أن يوجد فى الأمة المحمدية موصٍ بالخير ومُوصى أيضا بالخير ، وتوجد فى النفس الواحدة أنه موصٍ فى موقف ومُوصًى فى موقف آخر ؛ بحيث لا يتأبى إن وصاه غيره ؛ لأنه كان يوصى بالأمس ، وكما قالوا : « رحم الله امرأ أهدى إلى عيوبى » .

وبعد أن استكمل الحق بناء البيئة الإيمانية برسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، وصرتم أنتم آخر الأمم . فهو سبحانه يطمئننا على أن الشر لا يطم عندنا وستبقى فينا مناعة إيمانية حتى وإن لم يلتزم قوم فسيلتزم آخرون . وإن لم يلتزم الإنسان فى كل

تصرفاته ، فسيلتزم فى البعض ويترك البعض ، ولو لم تتدخل السماء بمنهج قويم لصار العالم متعبا . وكيف يتعب العالم ؟ إن العالم يتعب إذا تعطلت فيه مناهج الحق الذى استخلفنا فى الأرض . فتطغى مظاهر الجبروت والقوة على مظاهر الضعف . ويتحكم فى كل إنسان هواه .

وفى عالمنا المعاصر نرى حتى فى الأمم التى لا تؤمن بدين لا تترك شعوبها لهوى أفرادها ، بل ينظمون الحياة بتشريعات قد تتعبهم ، ووضعت الأمم غير المتدينة لنفسها نظاما يحجز هوى النفس ، ونقول لهم : أنتم عملتم على قدر فكركم ، وعلى قدر علمكم بخصال البشر ، وعلى قدر علمكم بالطبائع وأنتم تجنيتم فى هذه ؛ لأنكم تقننون لشئ لم تخلقوه بشئ لم تصنعوه .

وأصل التقنين : أن تقنن لشئ صنعته ، كما قلنا : إن الذى يضع برنامج الصيانة لأى آلة هو من صنع الآلة ، فالذى صَنَع التليفزيون أيترك الجزار يضع للتليفزيون برنامج الصيانة ؟ لا ، فمن صنع التليفزيون هو الذى يضع قانون صيانته ، فما بالنا بالذى خلقنا ؟ إنه هو الذى يضع قانون صيانتى : بـ « افعل ولا تفعل » ، فأنتم يا بشر تتحكمون فى أشياء بأهواء بعض الناس وتقولون : افعل هذه ولا تفعل هذه ، فعلى أى أساس عرفتم شرور المخالفات ؟ هل خلقتم أنتم النفس وتعرفون ملكاتها ؟ لا . بدليل أنكم تعدلون قوانينكم ، ويحدث التعديل - كما قلنا - لأن المشرع يتبين خطأ فيستدرك الخطأ ، والمشرع البشرى يخطئ لأنه يقنن لما لم يصنع ، فإذا كنا لا نريد أن يظهر خطأ فلنترك التقنين لمن صنع وهو الله .

والتاريخ البشرى يؤكد أن الفساد يطم عندما يتعطل منهج السماء ، والسماء تتدخل برسالة ، وكل رسالة جاءت كان لها خصوم وهم المنتفعون بالشر ، وهؤلاء لن يتركوا منهج الله يسيطر ليسلبهم هذه الهيمنة والسيطرة والقهر والجبروت والانتفاع بالشر ، بل يحاربون رسالات السماء ، ويلفتنا الحق إلى أن أهل الشر والناس المنفلتين من مناهج السماء وغير المتدينين ، سيسببون لكم متاعب ، فبعدما توطنون أنفسكم التوطين الإيمانى انتبهوا إلى خصومكم وإلى أعدائكم فى الله لقد قال الحق سبحانه وتعالى فى هذه القضية :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعٗا ٧١ ﴾

لا يقال لك : خذ حذرك إلا إذا كان هناك عدو يتربص بك ؛ فكلمة : «خذ حذرك» هذه دليل على أن هذا الحذر مثل السلاح ، مثلما يقولون : خذ بندقيتك ، خذ سيفك ، خذ عصاك ، فكأن هذه آلة تستعد بها في مواجهة خصومك وتحتاط لمكائدهم ، ولا تنتظر إلى أن تغير عليك المكائد ، بل عليك أن تجهز نفسك قبل ذلك على احتمال أن توجد غفلة منك ، هذا هو معنى أخذ الحذر ، ولذلك يقول الحق :

﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ ﴾

(من الآية ٦٠ سورة الأنفال)

وهذا يعنى : إياك أن تنتظر حتى يترجموا عداءهم لك إلى عدوان ؛ لأنهم سيعجلونك فلا توجد عندك فرصة زمنية كى تواجههم . فلا بد لكم أيها المؤمنون من أخذ الحذر لأن لكم أعداء ، وهؤلاء الأعداء هم الذين لا يحبون لمنهج السماء أن يسيطر على الأرض . فحين يسيطر منهج السماء على الأرض فلن يوجد أمام أهواء الناس فرصة للتلاعب بأقدار الناس . ومن ينتفعون بسيطرتهم وبأهوائهم على البشر فلن يجدوا لهم فرصة سيادة .

«فانفروا ثبات أو انفروا جميعا» أى لتكن النفرة منكم على مقدار ما لديكم من الحذر ، و«ثبات» جمع ثُبَة وهى الطائفة أى انفروا سَرِيَّة بعد سَرِيَّة و«جميعا» أى اخرجوا كلكم لمواجهة العدو ، وعلى ذلك يجب أن نكون على مستوى ما يهيج من الشر . فإن هاجمتنا فصيلة أو سرية ، نفعل كما كان يفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فقد كان يرسل سرية على قدر المسألة التى تهددنا ، وإن كان الأمر أكبر من ذلك ويحتاج لتعبئة عامة فنحن ننفر جميعا . ولاحظوا أن الحق يخاطب المؤمنين ويعلم أن لهم أغيارًا قد تأتى فى نفوسهم مع كونهم مؤمنين . فقد تخور النفس عند مواجهة الواقع على الرغم من وجود الإيمان .

ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى فى سورة البقرة :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾

(من الآية ٢٤٦ سورة البقرة)

لقد كانوا هم الذين يطلبون القتال ، ومادامو هم الذين قد طلبوا القتال فلا بد أن يفرحوا حين يأتى لهم الأمر من الله بذلك القتال ، لكن الله أعلم بعباده لذلك قال لهم :

﴿ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا ﴾

(من الآية ٢٤٦ سورة البقرة)

فأوضح لهم الحق أن فكروا جيدا فى أنكم طلبتم القتال وإياكم ألا تقاتلوا عندما نكتب عليكم هذا القتال لأننى لم أفرضه ابتداءً ، ولكنكم أنتم الذين طلبتم ، ولأن الكلام مازال نظريا فقد قالوا متسائلين :

﴿ وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا ﴾

(من الآية ٢٤٦ سورة البقرة)

لقد تعجبوا واستنكروا ألا يقاتلوا فى سبيل الله ، خصوصاً أنهم يملكون السبب الذى يستوجب القتال وهو الإخراج من الديار وترك الأبناء ، لكن ماذا حدث عندما كتب الحق عليهم القتال ؟ :

﴿ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾

(من الآية ٢٤٦ سورة البقرة)

لقد هربت الكثرة من القتال وبقيت القلة المؤمنة . وكانت مقدمات هؤلاء المتهربين من القتال هى قولهم رداً على نبيهم عندما أخبرهم أن الله قد بعث لكم طالوت ملكاً فقالوا :

﴿ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ﴾

(من الآية ٢٤٧ سورة البقرة)

كانت تلك أول ذبذبة فى استقبال الحكم ، فأوضح لهم الحق السرّ فى اصطفاء طالوت ، فهو قوى والحرب تحتاج إلى قوة ، وهو عالم ، والحرب تحتاج إلى تخطيط دقيق ؛ فقال سبحانه :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ﴾

(من الآية ٢٤٧ سورة البقرة)

وعندما جاءوا للقتال أراد الحق أن يمحصهم ليختبر القوى من الضعيف فقال لهم طالوت :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ ۚ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ﴾

(من الآية ٢٤٩ سورة البقرة)

والتمحيص هنا ليعرف من منهم يقدر على نفسه وليختبر قوة التحمل عند كل فرد مقاتل ، فليس مسموحاً بالشرب من ذلك النهر إلا غرفة يد . فشربوا من النهر إلا قليلاً منهم ، هكذا أراد الحق أن يصفيهم تصفية جديدة ، وعندما رأوا جيش جالوت قالوا :

﴿ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ﴾

(من الآية ٢٤٩ سورة البقرة)

وما الضرورة فى كل هذه التصفيات ؟ لقد أراد الله ألاّ يَحْمِلَ الدفاعَ عن منهجه إلا المؤمنون حقاً ، وهم مَنْ قالوا :

﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾

(من الآية ٢٤٩ سورة البقرة)

وقوله تعالى :

﴿ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾

(من الآية ٢٥١ سورة البقرة)

لماذا أعطانا ربنا هذه الصورة من التصفيات ؟ كى نفهم أن النفس البشرية حين تواجه بالحكم نظرياً لها موقف ، وحين تواجه به تطبيقياً لها موقف ولو بالكلام ، وحين تواجه به فعليا يكون لها موقف ، وعلى كل حال فقليل من قليل من قليل هم الذين نصرهم الله . إذن فيريد سبحانه أن يربى فى نفوسنا أنه جل وعلا هو الذى يهزم ، وهو الذى يَغْلِب مصداقاً لقوله الحق :

﴿ قَـٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ ﴾

(من الآية ١٤ سورة التوبة)

إذن فالحق سبحانه وتعالى يوضح لنا : أنا قلت لكم انفروا ثبات أو انفروا جميعاً واعلموا أن النفس البشرية هى بعينها النفس البشرية ، وستتعرض للذبذبة حين تواجه الحكم للتطبيق ، ولذلك يأتى هنا بقوله الحق :

﴿ وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَـٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَىَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ۝٧٢ ﴾

فساعة ندعو إنساناً منكم للحرب قد يبطىء ويتخاذل ، مثلما قال فى آية أخرى :

﴿ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ ﴾

(من الآية ٣٨ سورة التوبة)

و« اثاقلتم » تعنى : أن هناك من يتثاقل أى ينزل إلى الأرض بنفسه ، وعلينا أن نفرق بين من ينزل بجاذبية الأرض فقط ، وبين من يساعد الجاذبية فى إنزاله ، فمعنى « أثاقل » أى تباطأ ، وركن ، وهذا دليل على أنه يريد أن يتخاذل ، وهؤلاء لم يتباطأوا فحسب بل إنهم أقسموا على ذلك . ومنهم من كان يثبط ويُبَطِّىء غيره عن الغزو كالمنافق عبدالله بن أبىّ .

« وإن منكم لمن ليبطئن » فافهموا وخذوا هذه المناعة ضد من يعوق زحف المنهج قبل أن تبدأ المعركة ، حتى إذا وقعت المعركة نكون قد عرفنا قوتنا وأعددنا أنفسنا على أساس المقاتلين الأشداء . لا على من يتباطأون ويتثاقلون ، فهناك من يفرح ببقائه حياً عندما يرى هزيمة المسلمين أو قتل بعضهم لأنه لم يكن معهم ، فيظهر الحق أمثال ذلك ويقول : « فإن أصابتكم مصيبة قال قد أنعم الله علىّ إذ لم أكن معهم شهيداً » . لقد تراخى وبقى ، وعندما تأتيهم المصيبة من قتل ، أو من هزيمة يقول لنفسه : الحمد لله أننى لست معهم .

إذن تثاقله وتخلفه وتأخره عن الجهاد ، كان عن قصد وإصرار فى نفسه . وهذه قمة التبجح فهو مخالف لربنا وعلى الرغم من ذلك يقول : أنعم الله علىّ ، مثله كمثل الذى يسرق ويقول : ستر الله علىّ ، وهذه لهجة من لم يفهم المنهج الإيمانى ، فيقول : « قد أنعم الله علىّ إذ لم أكن معهم شهيداً » . إنه لم يكن معهم ولم يكن شهيداً ويعتبر هذا من النعمة ، ولذلك قال بعض العارفين : إن من قال ذلك دخل فى الشرك ، فالمصيبة فى نظره إما قتل وإما هزيمة . ثم ماذا يكون موقف المتخاذل المتثاقل المتباطىء عند الغنيمة أو النصر ؟ يقول الحق :

﴿ وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن

لَّمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾

إذن فالعلّة في قوله : يا ليتنى كنت معهم ليست رجوعاً عما كان فى نفسه أولاً ، بل هو تحسّر أن فاتته الغنيمة ، وجاء الحق سبحانه وتعالى هنا بجملة اعتراضية فى الآية تعطينا لقطة إيمانية ، فيقول : « ولئن أصابكم فضل من الله ليقولن كأن لم تكن بينكم وبينه مودة يا ليتنى كنت معهم فأفوز فوزاً عظيماً » .

والجملة الاعتراضية هى قوله : كأن لم تكن بينكم وبينه مودة كأن المودة الإيمانية ليس لها ثمن عنده ، فلو كان لها أدنى تقدير لكان عليه ألا يقول فى البداية : أنعم الله علىّ إذ لم أكن معهم شهيداً ، ولكان مع المقاتلين المسلمين ، لكنه يرغب فى الفوز والغنيمة فقط ، ويبتعد عن المسلمين إذا ما أصابتهم الهزيمة أو استشهد عدد منهم .

وبذلك يكشف لنا الحق موقف المتخاذلين ويوضح لنا : إياكم أن تتأثروا بهؤلاء حين تنفرون ثباتٍ أو حين تنفرون جميعاً. واعلموا أن فيكم مخذلين وفيكم مبطئين وفيكم متثاقلين ، لا يهمهم إلا أن يأخذوا حظاً من الغنائم ، ولذلك يحمدون الله أن هزمتم ولم يكونوا معكم ، ويحبون الغنائم ويتمنونها إن انتصرتم ولم يكونوا معكم ، إياكم أن تتأثروا بهذا وقد أعطيتم هذه المناعة حتى لا تفاجأوا بموقفهم منكم وتكونوا على بصيرة منهم . والمناعات ما هى إلا تربية الجسم ، إن كانت مناعة مادية ، أو تربية فى المعانى ، إن حدث مكروه فأنت تملك فكرة عنه لتبنى ردّ فعلك على أساس ذلك .

ونحن عندما يهاجمنا مرض نأتى بميكروب المرض نفسه على هيئة خامدة ونطعّم به المريض ، وبذلك يدرك ويشعر الجسم أن فيه مناعة ، فإذا ما جاء الميكروب مهاجماً الجسم على هيئة نشيطة ، فقوى المقاومة فى الجسم تتعارك معه وتحاصر الميكروب ، فكأن إعطاء حقن المناعة دربة وتنشيط لقوى المقاومة فى الجسم ، وقد أودعها الله فى

دمك كى تؤدى مهمتها ، كذلك فى المعانى يوضح الحق لكم : سيكون منكم من يفعل كذا وكذا ، حتى تعدُّوا أنفسكم لاستقبال هذه الأشياء إعداداً ولا تفاجأون به ؛ لأنكم إن فوجئتم به فقد تنهارون . فإياكمْ أن تتأثروا بهذا .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾ ﴾

ومادة : « شرى » ومادة « اشترى » كلها تدل على التبادل والتقايض ، فأنت تقول : أنا اشتريت هذا الثوب بدرهم ؛ أى أنك أخذت الثوب ودفعت الدرهم ، وشرى تأتى أيضا بمعنى باع مثل قول الحق :

﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾

(سورة يوسف)

فالجماعة الذين وجدوا سيدنا يوسف عليه السلام فى الجب كانوا فيه من الزاهدين . وبعد ذلك باعوه بثمن بخس ، إذن فـ « شرى » من الأفعال التى تأتى بمعنى البيع وبمعنى الشراء ؛ لأن المبيع والمشترى يتماثلان فى القيمة ، وكان الناس قديماً يعتمدون على المقايضة فى السلع ، فلم يكن هناك نقد متداول ، كان هناك من يعطى بعض الحب ويأخذ بعض التمر ، فواحد يشترى التمر وآخر يشترى الحب ، والذى جعل المسألة تأخذ صورة شراء وبيع هو وجود سلع تباع بالمال .

وما الفرق بين السلع والمال ؟ . السلعة هى رزق مباشر والمال رزق غير مباشر .

فأنت مثلاً تأكل رغيف الخبز وثمنه خمسة قروش ، لكن لو عندك جبل من ذهب وتحتاج رغيفا ولا تجده ؛ أينفعك جبل الذهب ؟. لا . إذن فالرغيف رزق مباشر ؛ لأنك ستأكله ، أما الذهب فهو رزق غير مباشر ؛ لأنك تشترى به ما تنتفع به . وبذلك نستطيع أن نحدد المسألة ؛ فالسلعة المستفاد منها مباشرة هى رزق مباشر ، ندفع ثمنها مما لا ننتفع به مباشرة ، والحق سبحانه وتعالى يريد أن يعقد مع المؤمن به صفقة فيها بيع وشراء . وأنتم تعلمون أن البائع يعطى سلعة ويأخذ ثمنا ، والشارى يعطى ثمنا ويأخذ سلعة ، والحق يقول هنا :

﴿ فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ﴾

(من الآية ٧٤ سورة النساء)

فالمؤمن هنا يعطى الدنيا ليأخذ الآخرة التى تتمثل فى الجنة والجزاء ، ومنزلة الشهداء ؛ ولذلك يقول الحق فى آية أخرى :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ﴾

(من الآية ١١١ سورة التوبة)

وقال بعدها :

﴿ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ﴾

(من الآية ١١١ سورة التوبة)

تلك هى الصفقة التى يعقدها الحق مع المؤمنين ، وهو سبحانه يريد أن يعطينا ما نتعرف به على الصفقات المربحة ، فكل منا فى حياته يجب أن يعقد صفقة مربحة بأن يعطى شيئاً ويأخذ شيئاً أكبر منه ، ولذلك يقول فى آية أخرى :

﴿ يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴾

(من الآية ٢٩ سورة فاطر)

هنا أيضاً تجارة ، وأنت حين تريد أن تعقد صفقة عليك أن تقارن الشيء الذى تعطيه بالشيء الذى تأخذه ثم افرق بينهما ، ما الذى يجب أن يضحى به فى سبيل الآخر ؟.

والحق قد وصف الحياة بأنها « الدنيا » ولا يوجد وصف أدنى من هذا ، فأوضح المسألة : إنك ستعطي الدنيا وتأخذ الآخرة ، فإذا كان الذى تأخذه فوق الذى تعطيه فالصفقة ـ إذن ـ رابحة ، فالدنيا مهما طالت فإلى نهاية ، ولا تقل كم عمر الدنيا ، لأنه لا يعنيك أن يكون عمر الدنيا ألف قرن ، وإنما عمر الدنيا بالنسبة لكل فرد : هو مقدار حياته فيها ، وإلا فإن دامت لغيرى فما نفعى أنا ؟..

إذن فقيمة الدنيا هى : مقدار عمرك فيها ، ومقدار عمرك فيها مظنون ، وعلى الرغم من ارتفاع متوسطات الأعمار فى القرن العشرين ، فالبعض يقول : متوسط الأعمار فى أمريكا سبعون أو خمس وستون سنة ، لكن ذلك لا يمنع الموت من أن يأخذ طفلاً ، أو فتى ، أو رجلاً ، أو شيخاً .

إن عمر الدنيا بالنسبة لكل إنسان هو : مقدار حياته فيها ، فلا تقارنها بوجودها مع الآخرين ، إنما قارنها بوجودها معك أنت ، وهب أنه متيقن ولكنه محدود بسبعين عاماً على سبيل المثال ، ستجد أن تنعمك خلالها مهما كبر وعظم فهو محدود .

والإنسان منا يظل يُربىَّ إلى أن يبلغ الحُلُم . فإذا ما بلغ الحُلُمَ وأصبحت له حياة ذاتية ، أى أن إرادته لم تعد تابعة للأب أو للأم ، بينما فى طفولته كان كل اعتماده على أسرته ، أبوه يأتى له بالملبس فيلبسه ، وبالمطعم فيأكله ، ويوجهه فيتوجه ، لكن حينما توجد له ذاتية خاصة يقول لأبيه : هذا اللون لا يعجبنى ! والأكل هذا لا يعجبنى !! هذه الكلية لن أذهب إليها . ولا توجد للإنسان ذاتية إلا إذا وصل إلى مرحلة من العمر يستطيع أن ينسل مثله ، فإذا ما أصبح كذلك نقول له : هذا هو النضج ، وهو الذى يجعل لك قيمة ذاتية .

إنك إذا زرعت شجيرة بطيخ . فأنت ترعاها سقياً وتنظيفاً وتسميداً ، وهى مازالت صغيرة وتتعهدها كى لا تخرج مشوهة ، حتى تنضج ، وساعة تنضج يكون الشغل الشاغل قد انتقل من الشجيرة إلى الثمرة « البطيخة » ، فيقال صار لها ذاتية ؛ لأنك إن شققتها لتأكلها تجد « اللب » قد نضج ، وإن زرعته تأتى منه شجيرة أخرى .

ولكن إذا ما قطفت الثمرة قبل النضج فأنت قد تجد « اللب » أبيض لم ينضج بعد ، فلا تصلح تلك البذور لأن تأتى وتثمر مثلها ، وإذا كان « اللب » نصفه أبيض ونصفه أسود ، فهى لم تنضج تماما ، أما إذا وجدت « لبّها » أسمر اللون داكناً فهو صالح للزراعة والإثمار ، وتجد الحلاوة متمشية مع نضج البذرة . فلو كانت الثمار تنضج قبل البذور لتعجل الخلق أكل الثمرة قبل أن تُربى وتنضج البذور ولانْقَطَعَ النوع ؛ لذلك لم يجعل ربنا حلاوة الثمرة إلا بعد أن تنضج البذور ، وكذلك الإنسان ، والحق يقول :

﴿ وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾

(من الآية ٥٩ سورة النور)

وعندما يكون الإنسان طفلاً فنحن نتركه يلهو ويرتع فى البيت ويرى هذه وهذه ، لكن إذا كان قادراً على نسل مثله واكتملت رجولته فعليه أن يستأذن ، وحين يكون الإنسان بهذا الشكل تصير له ذاتية ، ولنفترض أنه سيعيش عدداً من السنين تبلغ حوالى الخمسة والخمسين عاماً بعدما صارت له ذاتية ويستطيع النسل إنّه سيقضى مراهقته فى التعلم إلى أن يصبح صالحاً لأن يكسب ويعيش ويتمتع ، ثم لنسأل : كم سنة سيتمتع ؟ سنجدها عدداً قليلاً من السنوات .

إذن فالحياة محدودة ، والمتعة فيها على قدر إمكاناته ، فقد يسكن فى شقة من حجرتين أو فى شقة مكونة من ثلاث حجرات ، أو فى منزل خاص صغير أو حتى فى قصر ، وقد يركب سيارة أو يمشى على قدميه ، باختصار على قدر إمكاناته ، أما فى الآخرة فالموقف مختلف تماماً ، سيسلم نفسه إلى حياة عمرها غير محدود ، فإن قارنت المحدود بغير المحدود ستجد الغلبة للآخرة لأنها متيقنة والنعيم فيها على قدر سعة فضل الله وقدرته ، فالأحسن لنا أن نبيع الدنيا ونأخذ الآخرة ، فتكون هذه هى الصفقة الرابحة التى لا تبور .

ولماذا يدخل الله العبد فى عملية البيع هذه ؟ ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى قبل أن يعرض عليك الصفقة لتدخل فى عملية البيع التى تجهدك إن لم تَقْتُل أو تُقْتَل فى سبيل الله لابد أن يوضح لك كيفية الغاية التى تأخذ بها الفوز فى الآخرة ، ولن تأخذ هذا

الفوز بالكلام فقط ، ولكن انظر إلى المنهج الذى ستقاتل من أجله ، إنّه تأسيس المجتمع الذى يؤدى كل امرىء فيه الأمانة ، وهذا الأمر لا يحزن منه إلا من يريد أن يأخذ عرق الناس ويبنى جسمه من كدهم وتعبهم ، وهات مجتمعاً لا يؤمن بالله وقل : يأيها الناس نريد أن يؤدى كل واحد منكم الأمانة التى عنده ، نريد أن نحكم بالعدل ، فسيفرح أهل هذا المجتمع .

إذن فلكى نحمى المجتمع لابد أن نؤدى الأمانة وأن نقيم العدالة . ومن قبل ذلك أمرنا أن نعبد إلهاً واحداً فلا نتشتت ، ثم أوصانا بالوالدين والأقربين ، واليتامى والمساكين .

قل لى بالله عليك : لو لم يكن هذا دينا من السماء ، وكان تشريعاً من أهل الأرض ، أهناك أعدل من هذا ؟.

إن مثل هذا المنهج الذى يكفل أمان الجميع يستحق أن يدافع الإنسان عن تطبيقه . وقبل أن يفرض علينا القتال أوضح سبحانه : هذا هو المجتمع الذى ستقاتلون من أجله ، واعلم أنك ساعة تذهب إلى القتال ، أقصى ما فيها أن تقتل ، فستأخذ صفقة الآخرة ، وقصرت مسافة غاياتك ؛ لأن كل شىء إنما يقاس بزمن الغاية له ، فإن قتلت فقد قصرت المدة للوصول إلى الغاية ، فتصل إلى الجنة ، والحمق هو الذى يصيب الناس عندما يموت عزيز أو حبيب فيغرقون فى الحزن . نقول لهم : ألسنا جميعاً سائرين إلى هذه الغاية ، فلماذا الغرق فى الحزن إذن ؟.

والحق سبحانه وتعالى يكافىء من يقتل فى سبيل الله بحياة فى عالم الغيب وفيها رزق أيضاً . وبعض من الناس يظنون أنهم إن فتحوا قبر الشهيد فسيجدونه حياً يُرزق . ونقول لهم : إن الحق لم يقل : إن الشهداء أحياء عندكم ، بل أحياء عنده فى عالم الغيب . والحق سبحانه يطلب من الذى اقتنع بالإسلام أن ينشره ، وأن يعدل المسلمون بين أنفسهم لتنصلح أمورهم ، وأن يواجهوا أصحاب الشرّ الذى لا يعلمون إلا ظاهراً من الحياة .

ولم تأمر السماء بقتال قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد كان الرسول من

السابقين على محمد صلى الله عليه وسلم يبلغ قومه برسالته ، فإن آمنوا فبها ونعمت وإن لم يؤمنوا تتدخل السماء بالعقاب ، بريح صرصر ، رجفة ، صيحة ، خسف الأرض بهم ، إغراق ، فالرسول قبل محمد صلى الله عليه وسلم كان يبلغ ، والسماء تعاقب من لم يؤمن . وما وجد قتال إلا إذا اقترحوا هم القتال ، مثل بنى إسرائيل ، قال الحق :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُواْ لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾

(من الآية ٢٤٦ سورة البقرة)

هم الذين اقترحوا ، لكن القتال الذى يُثَبِّت المبدأ وينشر المنهج لإعلاء كلمة الله ، وسيطرة الخلافة الأمنية الإيمانية على الأرض ، لم يشرع إلا على يد رسول الله صلى الله عليه وسلم . فكأن الله لم يأمن خلقاً على خلق إلا أمة محمد صلى الله عليه وسلم فقد جعلها أمينة . فأنتم أمناء أن تتولوا عن السماء تأديب المخالف ، وبذلك أخذتم المستوى العالى فى المنهج والمستوى العالى فى الرسالة . وأكرم الله نبيّه فقال :

﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ﴾

(من الآية ٣٣ سورة الأنفال)

فجاء القتال وحارب المسلمون ـ وهم ضعاف ـ المجتمعات الفاسدة القوية . والشاعر يقول :

فقوى على الضلال مقيم وقطيع من الضعاف يُجارِى

هذا القتال لو لم يجىء به دين ، ألاَ تقوم به الأمم التى لا دين لها لإصلاح أمرها ؟ إنها تقاتل ، فلماذا يكون مباحاً منهم أن يقاتلوا كى يقرروا مبادئهم ، وعندما يأتى الدين ليشرع القتال يقولون : لا . هذا دين سيف .

نقول لهم : بالله لماذا إذن تحارب الشعوب ؟ أنت تجد شعوبا تتحارب وتجد ظلما يحارب ظلما آخر ، فإذا ما وجد عدل ليزحزح ظلما نقف فى طريقه ؟ لا . وذلك حتى

نعرف أن المسألة مسألة رسالة من السماء لا طغيان ذوات اجتمعوا أو بيتوا مؤامرة لصنع انقلاب يسيطرون به على الناس.

لقد جاء الإسلام وآمن به الضعاف الذين لا يملكون أن يقاتلوا ، فلم يكن باستطاعتهم أن يحموا حتى أنفسهم ؛ ذلك حتى نعرف أن الحق ساعة يأتى ، يأتى عادة لا من قوى بل يأتى من ضعيف تعب كثيراً كى يثبت الإيمان ، والإسلام نادى ودعا به رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مكة لكنه لم ينتصر كدين ولم يسطع إلا من المدينة . فمكة بلد محمد وفيها قبيلته قريش التى ألفت السيادة على الجزيرة كلها ولا أحد يستطيع أن يقرب منها بعدوان ، ولم تكن هناك قوة تستطيع أن تعترض قوافلها بالتجارة إلى الجنوب أو إلى الشمال .

إن أى قبيلة تخاف أن تتعرض لها فى الطريق ؛ لأن القبائل ستأتى إلى قريش فى موسم الحج ، وتخاف كل قبيلة من انتقام قريش ، فلو أن الإسلام الذى صاح به رسول الله صلى الله عليه وسلم انتصر فى مكة ربما قالوا : قبيلة عشقت السيادة ، ودانت لها أمة العرب فما المانع من أن تطمح فى أن يدين لها العالم كله ؟

وأراد الحق أن تكون قريش هى أول من يضطهد رسول الله ويحاربه ، والضعاف هم الذين يتبعونه ، وبعد ذلك يأتى النصر لدين الله من مكان بعيد عن مكة من « المدينة » لتشهد الدنيا كلها أن الإيمان بمحمد هو الذى خلق العصبية لمحمد ، ولم تخلق العصبية لمحمد الإيمان بمحمد ، وها هوذا سيدنا عمر كان يسمع قول الله سبحانه :

﴿ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ ﴾

(سورة القمر)

فيقول : أى جمع هذا ونحن لا نقدر أن نحمى أنفسنا ؟ ويقول الحق :

﴿ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾ ﴾

(سورة القلم)

فيقول عمر : كيف ونحن لا نقدر أن ندافع عن أنفسنا ؟

وبعد ذلك تأتي موقعة « بدر » فتثبت له صدق هذا ، والعجيب أن الآية تنزل وهم لا يستطيعون أن يدافعوا عن أنفسهم ، فلا يمكن أن يقال: إن هناك مقدمات لذلك بحيث تستنتج النتيجة ؛ فالمقدمات لا توحي بأي نصر ، لكن ربنا هو الذي قال ، ورأوا صحيحاً أن الوليد بن المغيرة ضُرب على أنفه وتركت الضربة علامة على أنفه ؛ لأن الذي قال ذلك من قبل قادر على إنفاذ ما يقول بدون قوة تحول دون ذلك أبداً ، وهذا يدلنا على اختبار المبادىء .

إنك تجد أنّ الذي يؤمن بالمبادىء هو الذي يضحي أولاً ، يدفع ماله وقد يدفع دياره ، بأن يخرج منها ، وقد يدفع نفسه فيقتل ، كل ذلك من أجل المبدأ ، لكن الأمر يختلف مع المبادىء الباطلة ؛ فقبل أن يدخلها واحد نجده يأخذ الثمن . ومن يروجون للمبادىء الباطلة يقولون لمن يغررون به : خذا مالاً وعش واستمتع ، واشتر أحسن الثياب .

أما أصحاب مبدأ الحق فهم الفقراء الذين يدفعون الثمن ، ولهم الحق أن يدفعوا الثمن لأن المثمن غال ، لكن في الباطل لا يعرفون مثمناً . والذي ينظر لمبدأ من المبادىء الهدامة ، يرى كيف يعيش قادتها ، بينها الرعية تحيا في بؤس ، فيقول : أنا آخذ الثمن مقدماً،والأمر يختلف مع المؤمنين ، فهم الذين يدفعون الثمن . لينعموا بالجزاء في الآخرة .

والحق سبحانه وتعالى حين يشرع القتال لأمة محمد صلى الله عليه وسلم يشرعه أولا دفاعا ، كانوا يطلبون من رسول الله ، يقولون : يا رسول الله ، إئذن لنا نقاتل على قدر جهدنا ، فيقول : « اصبروا فإني لم أؤمر بالقتال »[1] .

وبعد ذلك يؤمر بالقتال كي يدافع عن الخلية الإيمانية بعدما ذهبوا إلى المدينة ، ونعلم أن القتال عملية ضرورية في الحياة . فالحق سبحانه هو القائل :

﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ ﴾

(من الآية ٢٥١ سورة البقرة)

(١) الكاف الشاف في تخريج أحاديث الكشاف لابن حجر .

وهو القائل :

﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴾

(من الآية ٤٠ سورة الحج)

إذن فدفع الله بعض الخلق بالخلق أمر ضرورى واقعى . وحين يعاب على الإسلام أمر القتال ، نقول لهم : إن الحق سبحانه وتعالى حينما شرع هذا القتال فقد شرعه لأن قوى البغى هى التى تحول دون تطبيق منهج من مناهج العدالة المعروفة ، ولا يستطيع أحد أن يجادل فيها . ولو لم يكن العدل قادماً من السماء لما كان هناك منهج صالح يحكم الناس ، فإذا أراد الله أن يصنع العدل بمنهج أنزله هو ، فلماذا يأتى من يقف فى الطريق ويقول للرسول : أنت جئت لكى ترغم الناس أن يؤمنوا بمنهجك ؟!

ويوضح الحق مسيرة الرسول أنه جاء لكى يثبت كرامة الإنسان فهو سيد الأجناس التى تحيط به ، فالجماد مسخر ، والنبات مسخر ، والحيوان مسخر ، وليس لأى منهم حرية فى أن يقول : افعل ولا تفعل ، فلا توجد إرادة ولا اختيار عند كل الأجناس إلا عند الإنسان ؛ فالحق هو القائل عن أمانة الاختيار .

﴿ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا ﴾

(من الآية ٧٢ سورة الأحزاب)

إذن فبأى شيء تميز الإنسان على هؤلاء الأجناس ؟ تميز عليهم بالعقل ، ومهمة العقل أن يختار بين البديلات ، أما إذا كان هناك أمر ليس له بديل ، فليس للعقل عمل فيه .

ومثال ذلك : هناك مكان نريد أن نذهب إليه ، فيوضح لك إنسان : لا يوجد إلا هذا الطريق ، فهل تفكر أن تذهب عن طريق آخر ؟ طبعا لا ، إذن فالعقل لا عمل له إلا الاختيار بين البديلات ، فإن لم يكن هناك بديل فلا عمل له . وإذا أراد العقل أن يختار بين البديلات ألا نضمن له حرية الاختيار أم نقيد حرية الاختيار لديه ؟

إنك إن قيدت حرية الاختيار بالإكراه فقد أخذت النعمة التى أعطيتها له ، وجعلته مقهوراً مسخراً مكرهاً ؛ ولذلك فالمكره لا يكون له حكم على الأشياء بل هو مجبر ومسخر .

ومادمت تقول : إن العقل هو الذى يختار بين البديلات ، فلا بد أن يكون حق الاختيار موجوداً ، فإن كان فى الإنسان عطب كأن يكون مجنونا ، فلا اختيار له ، وإن كان العقل موجودا لكنه لم ينضج بعد نقول أيضا : لا اختيار .

إذن فلا بد أن يكون العقل موجودا وناضجا للاختيار بين البديلات ، ويكون للإنسان حرية أن يختار ، فإن لم يكن العقل موجودا فهو مجنون فلا تكليف له . والمجنون قد سلبه الله أعز ما أعطى للإنسان وهو العقل ، لكن أعفاه الله أن يسأله أحد عن شىء ، فيفعل ما يفعل دون سؤال ، فلا تكليف لمجنون ، فالتكليف إذن لصاحب العقل الناضج ، وكذلك لا تكليف من قبل البلوغ .

إذن فالإسلام جاء ليحمى كرامة الإنسان فى حرية الاختيار ، ويعرض عليك أمر الإيمان ، فالذى حمل السيف ، لم يحمله ليجبر أحداً على الإيمان ، إنما ليرد كيد من أرادوا قهر الناس ، والجزية إنما فرضت لإعفاء غير المسلمين من مسئولية القتال ، ولو كان الإسلام يفرض الإيمان على الناس فى البلاد التى فتحها لما وجدنا أتباع أى دين فى البلاد التى دخلها الإسلام . وهذه شهادة للمسلمين .

إن الإسلام لم يجئ ليفرض دينا وإنما جاء ليحمى حرية اختيار الدين ؛ والذين يقولون:إن الإسلام جاء بالسيف نقول لهم : افهموا جيدا ، لقد كان المؤمنون الأوائل ضعافا وظلوا على الضعف مدة طويلة ، والبلاد التى فتحت بالإسلام مازال فيها أناس غير المسلمين ، وهذا دليل أن الإسلام جاء ليحمى حرية الاختيار :

﴿ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الكهف)

ثم نأتى لنقطة أخرى وهى أن الإسلام لم يأخذ الجزية إلا لأن غير المسلم سيستمتع

بكل خيرات بلاد الإسلام ، والمسلم يدافع وأيضا يدفع الزكاة والخراج . إذن فالمسألة عدالة منهج ، وعلى ذلك يجب أن نفهم أن قول الحق :

﴿ فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾ ﴾

(سورة النساء)

فالقتال إنما جاء حتى تسيطر مناهج السماء ، وسبحانه حينما يقول : « فليقاتل فى سبيل الله » فهذا يدلنا على أن هناك قتالاً فى غير سبيل الله ، كأن يقاتل الرجل حمية ، أو ليعلم مكانه من الشجاعة ، فقتال الرجل دائما حسب نيته ، ولذلك تساءل بعض الناس : من الشهيد ؟ قال العلماء : هو من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فيكون شهيدا . إذن فالقتال مرة يكون فى سبيل الله ، ومرة يكون فى سبيل النفس ، ومرة يكون فى سبيل الشيطان .

يقول الحق : « فليقاتل فى سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة » أى يبيعون الدنيا ليأخذوا الآخرة ، « ومن يقاتل فى سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجرا عظيما » .

إذن فالذى يدخل القتال هو أمام أمرين اثنين : إما أن يُقْتل من الأعداء ، وإما إن ينتصر ، وهذه هى القضية الجدلية التى تنشأ بين معسكر الإيمان ومعسكر الكفر ، والمقاتل من معسكر الإيمان يقول لمعسكر الكفر : أنا أقاتل لإحدى الحسنين : إما أن أُقتل فأصبح شهيدًا آخذ حياة أفضل من هذه الحياة ، وإما أن أنتصر عليك ، فلماذا تتربصون بنا أيها الكفار ؟

إن المؤمن يثق أنه فائز بكل شىء ؛ فإن قُتل ذهب إلى الجنة وإلى حياة أفضل من حياتكم ، وإما أن ينتصر ، والحالتان على سواء من الخير .

وهذا للاستدلال بأن هذا المنهج يراق فيه الدم ، وشهادة لهذا الدين بأنه صحيح ، وإلا فلن يذهب أحد للقتال إن لم يكن مقتنعا بالدين ، فكل واحد يعمل

لحياته ونفسه ، فكل الأمور بالنسبة للإنسان نفعية حتى فى الدين ، ولذلك يقولون : لا تكن أنانيا رخيصا بل عليك أن تكون أنانيا غاليا ، والدين هو ممارسة لأنانية عليا .

ونضرب هذا المثل ـ ولله المثل الأعلى ـ الذى ليس معه إلا جنيه وهو يحتاج إليه ثم رأى واحدا فى حاجة ماسة ، فيقول المؤمن لنفسه : لقد أكلت ، وقد يكون هذا الإنسان لم يأكل بعد فلأعطه الجنيه .

بالله أهو يحب الذى أخذ الجنيه عن نفسه ؟ لا ، بل هو يحب نفسه ، لكنها أنانية عليا ؛ أنانية معلاة . وسبق أن قلنا : إن الذى يجلس ويرى امرأة جميلة فغض عينه أمره يختلف عن واحد آخر « يبحلق » ويحدّق وينظر إليها بشدة ، فأيهما يحب الجمال أكثر ؟ إن الذى غضّ بصره هو من يحب الجمال أكثر ؛ لأنه لا يريدها لحظة فقط ، بل يريدها مستديمة .

فما بالنا بالذى يبيع الدنيا ويقتل فى سبيل الله ويأخذ الآخرة التى ليس فيها قتل أو أى شيء مكدر ؟ إذن فهذه أنانية عليا ، والحق سبحانه وتعالى يعاملنا بقانون النفعية ، لكنها نفعية عليا وليست نفعية رخيصة أو قصيرة المدى ، فيجعلنا نبيع الرخيص بالثمن الغالى .

ولقد رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين يقاتلون فى سبيل الله وعرض عليه منظرهم وهو فى ليلة الإسراء والمعراج ، رأى صلى الله عليه وسلم جماعة يزرعون ويحصدون بعد البذر مباشرة ؛ لأن الذى قتل فى سبيل الله إنما فعل ذلك إعلاء لكلمة الله ، فلا ينتهى قطفه أبدا للخير الذى بذله ، وحياته مستمرة فى حياة الملايين . « ومن يقاتل فى سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجرا عظيما » وعرفنا أن كل مؤمن يقاتل فى سبيل الله إنما يقول لمعسكر الكفر ما جاء به الحق فى قوله :

﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾

(سورة التوبة)

فالمؤمن يعلم أنه إما أن يُقتل ويكون شهيداً ، وإما أن يَغلب معسكر الكفر . وهو يتربص بالكافرين أن يُصيبهم الله بعذابٍ من عنده أو بأيدى المؤمنين ، إذن فالمؤمنون رابحون على كل حال ، والكافرون خاسرون على كل حال .

و« المعرى » قبل أن يهديه الله وكان متشككاً قال :

تُحطمنا الأيام حتى كأننا زجاج ولكن لا يُعاد لنا سبك

فقالوا:إنه ينكر البعث ، فمادام قد جاء بمثل يقول فيه إن الإنسان كالزجاج إن تحطم فلن يستطيع أحد أن يعيده إلى سيرته الأولى ، قال ذلك أيام تكبر الفكر ، وهذه تأتى فى أيام الغرور ، ثم جاءت الأحداث لتلويه وتضرب فى فكره وينتهى إلى الإيمان ، لكن أكان ضامناً أن يعيش حتى يؤمن ؟ فلماذا لم يخلص نفسه من مرارة تجربة الشك ؟ ولكنه بعد أن آمن قال : « هأنذا أموت على عقيدة عجائز أهل نيسابور . ربنا حَقٌّ وربنا سميع وربنا بصير وقال :

زعم المنجم والطبيب كلاهما لا تحشر الأجساد قلت إليكما
إن صحّ قولكما فلست بخاسر أو صحّ قولى فالخسار عليكما

أى إن صحّ قولكما على أنه لا بعث وقمت أنا بالأعمال الطيبة فى الدنيا ، فماذا أكون قد خسرت ؟ إننى لن أخسر شيئاً ، وإن صحّ قولى وفوجئتم بالآخرة والبعث فأنا الذى يكسب والخسران والبوار والعذاب عليكما ، إذن فإيمانى إن لم ينفعنى فلن يضرنى ، وكلامكما حتى لو صح ـ وهو غير صحيح ولا سديد ـ فلن يضرنى .

والحق يقول : « ومن يقاتل فى سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجراً عظيما » وسبحانه هنا يطيل أمد العطاء . انظروا دقة الأداء القرآنى،لأن الذى يتكلم هو الله ، ولنر كيفية ترتيب فعل على فعل ، فحين أقول لك : « احضر لى أكرمك » ، فبمجرد الحضور يحدث الإكرام ، ولكن إن قلت لك : « إن حضرت إلىّ فسأكرمك » ، فهذا يعنى أن الزمن يمتد قليلاً ، فلن تكرم من فور أن تأتى بل أنت تحضر عندى وبعد ذلك تأخذ تحيتك ، ويأتيك الإكرام بعد قليل .

وإن أردت أنا أن أطيل الزمن أكثر فإنى أقول : « إن حضرت إلىّ فسوف أكرمك » . إذن فنحن أمام ثلاث مراحل لترتيب الجزاء على الفعل : جزاء يأتى من فور حصول الشرط ، وجزاء يأتى بعد زمن يسير تؤديه « السين » ، وجزاء يأتى بعد زمن أطول تؤديه « سوف » .

ولم يقل الحق : من يقاتل فى سبيل الله نؤتيه أجراً عظيماً ، ولم يقل : فسنؤتيه أجراً عظيما ، ولكنه قال : « فسوف نؤتيه أجرا عظيماً » وهذا القول سيبقى ليوم القيامة ؛ لذلك كان لابد أن تأتى « سوف » هنا ، وهذا دليل على أنه جزاء موصول لا مقطوع ولا ممنوع .

وهكذا نرى إحكام الأداء القرآنى ، والحق سبحانه وتعالى حين يتكلم عن نفسه وذاته ، يأتى بأساليب كثيرة : فمرة يأتى بأسلوب الجمع ، ونحن نقول ، كما علمونا فى النحو : « النون للتعظيم » كما فى قوله :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩ ﴾

(سورة الحجر)

لم يقل : أنا أنزلت . . فكل شىء يكون نتيجة فعل من أفعال الله . تأتيه « نون التعظيم » ؛ لأنه سبحانه حين يصنع شيئاً لخلقه من متعة أو من نعيم ، يريد صفات كثيرة : قدرة للإبراز ، وعلما لترتيب النعمة ، وتدبيرا وحكمة ، وبسطا ، فيقول هنا : « نؤتيه » ، لأن الصفات تتكاتف لتعمل الخير ، لكنه حين يتكلم عن ذاته مجرداً عن الفعل . فسبحانه يتكلم بالوحدانية مثل قوله الحق :

﴿ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى ﴾

(من الآية ١٤ سورة طه)

وكذلك قوله الحق :

﴿ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ۝١٣ ﴾

(سورة طه)

فساعة يتكلم سبحانه عن ذاته فهو يتكلم بالوحدانية ، ولا تقل بالإفراد تأدباً مع الله فليس له شريك أو مثيل ، وحينما يتكلم سبحانه عن فعله يأتى بالجمع فيقول : « نحن » وهذه حلت لنا إشكالات كثيرة ، مثلما حدث عند قراءة قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ﴾

(من الآية ٢٧ سورة فاطر)

لقد جاء سبحانه فى صدر الآية بـ « أنزل » وكان يناسبها أن يأتى بعدها « أخرج » ، لكنه قال : « فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها» فلماذا هذه « مفردة » وتلك « جمع » ؟ ؛ لأنه ساعة قال : « أنزلنا من السماء ماءً » لم يكن لأحد من خلقه ولو بالأسباب فعل فى إنزال المطر ، لكن ساعة أن أنزل المطر ، نجد واحداً قد حرث الأرض ، وثانياً بذر ، وثالثاً روى الأرض ، وكل ذلك من أسباب خلقه ، فلم يهضم الله خلقه فقال : « أنزل من السماء ماءً » ثم بعد ذلك : أنا وخلقى بما أمددتهم ومنحتهم « فأخرجنا به ثمرات مختلفاً الوانها » . إذن فلا بد أن ننتبه إلى دلالة الكلمة حين تأتى بالمفرد وحين تأتى بالجمع .

وقوله سبحانه : « نؤتيه أجراً عظيماً » يلفتنا إلى أن كل فعل إنما هو حدث يتناسب مع فاعله أثراً وقوة . فالطفل عندما يصفع آخر لا تكون صفعته فى قوة الشاب أو قوة الرجل ، فإذا كان الذى يعطى الأجر مثيلاً لك فسيعطيك أجراً على قدره ، لكن إذا كان من يعطى هو ربنا ، فسيعطى الأجر على قدره ، ولا بد أن يكون عظيماً . والأجر هو الشيء المقابل للمنفعة .

وهناك فرق بين الأجر والثمن ؛ فالثمن مقابل العين ، أما الأجر فهو مقابل المنفعة ، أنا اشتريت هذه ، فهذا يعنى أنى دفعت ثمناً ، لكن إن استأجرت شيئاً فهو لصاحبه ولكن أخذته لأنتفع به فقط ، وجزاء الحق لمن يقتل فى سبيل الله أهو أجر أم ثمن ؟، ولنلتفت هنا أن الحق قد أوضح : أنا لم أثمن مَن قتل ، بل نظرت لعمله ، فأخذت أثر عمله ، وأعطيته « أجراً عظيماً » .

وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ﴾

والآية تبدأ بالتعجيب ، ذلك أنه بعد إيضاح لون الجزاء على القتال فى سبيل الله كان لا بد أن يصير هذا القتال متسقاً مع الفطرة الإنسانية ، ونحن نقول فى حياتنا العادية : وما لك لا تفعل كذا ؟ كأننا نتساءل عن سبب التوقف عن فعلٍ يوحى به الطبع ، والعقل . فإن لم يفعله الإنسان صار عدم الفعل مستغرباً وعجيباً . فالقتال فى سبيل الله بعد أن أوضح الله أنه يعطى نتائج رائعة ، فالذى لا يفعله يصبح مثاراً للتعجب منه ، ولذلك يقول الحق : « ومالكم لا تقاتلون فى سبيل الله » أى لإعلاء كلمة الله ، ومرة يأتى القتال وذلك بأن يقف الإنسان المؤمن بجانب المستضعف الذى أوذى بسبب دينه . ويكون ذلك أيضا لإعلاء كلمة الله .

يقول سبحانه : « ومالكم لا تقاتلون فى سبيل الله والمستضعفين » أى أن القتال يكون فى سبيل الله وفى خلاص المستضعفين ، وفى ذلك استثارة للهمم الإنسانية حتى يقف المقاتل فى سبيل رفع العذاب عن المستضعفين ، بل إننا نقاتل ولو من باب الإنسانية لأجل الناس المستضعفين فى سبيل تخليصهم من العذاب ؛ لأنهم ماداموا صابرين على الإيمان مع هذا العذاب ، فهذا دليل على قوة الإيمان ، وهم أولى أن ندافع عنهم ونخلصهم من العذاب .

ويعطينا سبحانه ذلك فى أسلوب تعجب : « وما لكم لا تقاتلون فى سبيل الله والمستضعفين » فكأن منطق العقل والعاطفة والدين يحكم أن نقاتل ، فإذا لم نقاتل ، فهذه مسألة تحتاج إلى بحث .

وساعة يطرح ربنا مثل هذه القضية يطرحها على أساس أن كل الناس يستوون عند رؤيتها فى أنها تكون مثاراً للعجب لديهم ، مثلها مثل قوله الحق :

﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ ﴾

(من الآية ٢٨ سورة البقرة)

يعنى كيف تكفرون بربنا أيها الكفار ؟ إن هذه مسألة عجيبة لا تدخل فى العقل ، فليقولوا لنا إذن : كيف يكفرون بربنا ؟

« وما لكم لا تقاتلون فى سبيل الله والمستضعفين من الرجال » وكلمة «والمستضعفين» يأتى بعدها « من الرجال » والمفروض فى الرجل القوة ، وهذا يلفتنا إلى الظرف الذى جعل الرجل مستضعفاً ، ومَنْ يأتى بعده أشد ضعفاً . « المستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك وليّاً واجعل لنا من لدنك نصيرا » فقد بلغ من اضطهاد الكفار لهم أن يدعوا الله أن يخرجهم من هذه القرية الظالم أهلها ، والقرية هى « مكة » .

وقصة هؤلاء تحكى عن أناس من المؤمنين كانوا بمكة وليست لهم عصبية تمكنهم من الهجرة بعد أن هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهم ممنوعون من أن يهاجروا ، وظلوا على دينهم ، فصاروا مستضعفين : رجالاً ونساءً وولداناً ، فالاضطهاد الذى أصابهم اضطهاد شرس لم يرحم حتى الولدان ، فيقول الحق للمؤمنين : « وما لكم لا تقاتلون فى سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان » .

وهؤلاء عندما استضعفوا ماذا قالوا ؟ . قالوا : « ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك وليّاً » وعبارة الدعاء تدل على أنهم لن يخرجوا بل سيظل منهم أناس وثقوا فى أنه سوف يأتيهم ولىّ يلى أمرهم من المسلمين ، فكأنها أوحت لنا بأنه سيوجد فتح لمكة . وقد كان .

لقد جعل الله لهم من لدنه خير ولىّ وخير ناصر وهو محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فتولاهم أحسن التولى ونصرهم أقوى النصر .

هذه الجماعة من المستضعفين منهم « سلمة بن هشام » لم يستطع الهجرة ، ومنهم « الوليد بن الوليد » و« عياش بن أبي ربيعة » ، و« أبو جندل بن سهيل بن عمرو » . وسيدنا ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ قال : لقد كنت أنا وأمي من هؤلاء المستضعفين من النساء والولدان ، وكانوا يضيقون علينا فلا نقدر أن نخرج ، فمثل هؤلاء كان يجب نصرتهم ، لذلك يحنن الله عليهم قلوب إخوانهم المؤمنين ويهيج الحمية فيهم ليقاتلوا في سبيلهم ؛ فظلم الكافرين لهم شرس لا يفرق بين الرجال والنساء والولدان في العذاب .

« الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك ولياً واجعل لنا من لدنك نصيراً » وكان رسول الله والمسلمون نصراء لهم .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓاْ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾ ﴾

وعرفنا أن الطاغوت هو : المبالغ والمسرف في الطغيان ، ويطلق على المفرد وعلى المثنى ، وعلى الجمع : فتقول : رجل طاغوت ، رجلان طاغوت ، رجال طاغوت ، والحق يقول :

﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ ﴾

(من الآية ٢٥٧ سورة البقرة)

إذن فالطاغوت يطلق على المفرد وعلى المثنى وعلى الجمع ، وهل الطاغوت هو الشيطان ؟ . يصح . أهو الظالم الجبار الذى يطغيه التسليم له بالظلم ؟ يصحّ ، أهو الذى يفرض الشرّ على الناس فيتقوا شرّه ؟ يصحّ ، وكل تلك الألوان اسمها « الطاغوت » .

والأسلوب القرآنى يتنوع فيأتى مرة ليقول :

﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِي فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ ﴾

(من الآية ١٣ سورة آل عمران)

وانظر للمقابلة هنا : « الذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله والذين كفروا يقاتلون فى سبيل الطاغوت » ، هنا « آمنوا » و« كفروا » وهنا أيضا فى « سبيل الله » و« فى سبيل الطاغوت » هذه مقابل تلك . لكى نعرف العبارات التى ينثرها ربنا سبحانه وتعالى علينا أن ندرك فيها الخطفة الإعجازية ، قال فى هذه الآية : « الذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله والذين كفروا » مقابلات ، لأن الكافر مفهوم أنه طاغوت ، ولكن : إذا ذكرت فى الثانية مقابلا لمحذوف من الأولى ، أو حذفت من الأولى مقابلاً من الثانية ، هذا يسمونه فى الأسلوب البيانى احتباكا كيف ؟

ها هوذا قوله سبحانه وتعالى : « قد كان لكم آية فى فئتين التقتا فئة تقاتل فى سبيل الله وأخرى كافرة » أى تقاتل فى سبيل الطاغوت ، ويقابلها الفئة التى تقاتل فى سبيل الله ولا بد أن تكون مؤمنة .

إذن فالكلام كله منسجم ، فقال : « قد كان لكم آية فى فئتين التقتا فئة » وترك صفتها كمؤمنة وقال : « تقاتل فى سبيل الله » وسنعرف على الفور أنها مؤمنة ، وربنا يحرك عقولنا كى لا يعطينا المسائل بوضوح مطلق بل لنعمل فكرنا ، كى لا يكون هناك تكرار ، ولكى تعرف أنه إذا قال : « فى سبيل الله » يعنى مؤمناً ، وإذا قال : « فى سبيل الطاغوت » يكون كافراً .

ويتابع الحق : « فقاتلوا أولياء الشيطان » . أى نصراء الشيطان الذين ينفخون فى مبادئه ، والذين ينصرون وسوسته فى نفوسهم ليوزعوها على الناس ، هؤلاء هم

أولياء الشيطان ؛ لأن الشيطان ـ كما نعرف ـ حينما حدث الحوار بينه وبين خالقه . قال :

﴿ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ ﴾

(من الآية ٨٢ سورة ص)

لكنه عرف حدوده ولزمها فقال :

﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾

(سورة ص)

أي أن من تريده أنت يارب لا أقدر أنا عليه . وهذه تدلنا على أن المعركة ليست بين إبليس وبين الله ، فتعالى الله أن يدخل معه أحد في معركة ، بل المعركة بين إبليس وبين الخائبين من الخلق ، فعندما قال : « فبعزتك لأغوينهم أجمعين » دلّ على أنه عرف كيف يُقْسِم ويحلف ؛ لأن ربنا لو أراد الناس كلهم مؤمنين لما قدر الشيطان أن يقرب من أحد ، لكن ربنا عزيز عن خلقه ، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر . ومن هنا دخل الشيطان ، فالشيطان قد دخل من عزّتك على خلقك سبحانك لأنك لو كنت تريدهم كلهم مؤمنين لما استطاع الشيطان شيئاً ، بدليل قوله : « إلا عبادك منهم المخلصين » أي أنا لا أقدر عليهم . ودلّ قَسَم الشيطان أنه دارس ومنتبه لمسألة دخوله على العباد فقال :

﴿ لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾

(من الآية ١٦ سورة الأعراف)

إذن فالشيطان لن يأتي على الصراط المعوجّ ؛ لأن الذي يسير على الصراط المعوج والطريق الخطأ لا يريد شيطاناً ؛ فهو مريح للشيطان ، ويعينه على مهمته ، فيكون وليّه . فأولياء الشيطان هم كل المخالفين للمنهج ، وهم نصراء الشيطان .

والحق يأمرنا : « فقاتلوا أولياء الشيطان » . هؤلاء الذين بينهم وبين الشيطان ولاء ، هذا ينصر ذاك ، وذاك ينصر هذا ، ويطمئننا الحق على ذلك فيقول : « إن كيد الشيطان كان ضعيفاً » ؛ لأن الشيطان عندما يكيد سيكون كيده في مقابل كيد

ربه ، فلا بد أن يكون كيده ضعيفاً جداً بالقياس لكيد الله ، وليس للشيطان سلطان يقهر قالب الإنسان على فعل ، ولا يستطيع أن يرغمك على أن تفعل ، وليس له حجة يقنعك بها .

والفرق بين من يكره القالب ـ قالبك ـ : أنك تفعل الفعل وأنت كاره . كأن يهددك ويتوعدك إنسان ويمسك لك مسدساً ويقول لك:اسجد لى ـ مثلاً ـ إذن فقد قهر قالبك . لكن هل يقدر أن يقهر قلبك ليقول:« أحبنى » ؟. لا يمكن . إذن فالمتجبر يستطيع أن يكره القالب لكنه لا يقدر أن يقهر القلب ، فالذى يقهر القلب هو الحجة والبرهان ، بذلك يقتنع أن يفعل الفعل وليس مرغماً عليه . إذن فالأول يكون قوة ، والثانى يكون حجة .

والحق سبحانه وتعالى يوضح لنا : اعرفوا أن هذا الشيطان ضعيف جداً ، فهو لا يملك قوة أن يرغمك فإذا أغواك تستطيع أن تقول له : لن أفعل . . ولا يستطيع أن يأتى لقلبك ويقول لك : لا بد أن تفعل ويحملك على الفعل قهرا عنك . فليس عنده حجة يقنعك بها لتفعل ، فهو ضعيف ، فلماذا تطيعونه إذن ؟. إنكم تطيعونه من غفلتكم وحبكم للشهوة ، والشيطان لا يقهر قلبكم ، ولا يقهر قالبكم . بل يكتفى أن يشير لكم !!، ولذلك سيقول الشيطان فى حجته يوم القيامة على الخلق :

﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي ﴾

(من الآية ٢٢ سورة إبراهيم)

أى لم يكن لى عليكم سلطان : لا سلطان قدرة أرغمكم على فعلكم بالقالب ، ولا سلطان حجة أرغمكم على أن تفعلوا بالقلب ، أى أنتم المخطئون وليس لى شأن ، إذن فكيد الشيطان ضعيف . و« الكيد » ـ كما نعرف ـ هو : محاولة إفساد الحال بالاحتيال ، فهناك من يفسد الحال لكن ليس بحيلة ، وهناك من يريد أن يفسدها بحيث إذا أمسكت به يقول لك : لم أفعل شيئاً ؛ لأنه يفعل الخطأ فى الخفاء . ويفسد الحال بالاحتيال . والكيد لا يقبل عليه إلا الضعيف .

إن القوى هو من يواجه من يكيد له ، فالذى يدسّ السّم لإنسان آخر فى القهوة

ـ مثلاً ـ هو من يرتكب عملاً لإفساد الحال باحتيال ، لأنه لا يقدر أن يواجه ، أما القوى فهو يتأبى على فعل ذلك ، وحتى الذى يقتل واحداً ولو مواجهة نقول له : أنت خائف ، أنت أثبت بجرأتك على قتله أنك لا تطيق حياته ، لكن الرجولة والشجاعة تقتضى أن تقول : أبقيه وأنا أمامه لأرى ماذا يقدر أن يفعل .

إذن فكيد الشيطان جاء ضعيفاً لأنه لا يملك قوة يقهر بها قالباً ، ولا يملك حجة يقهر بها قلباً ليقنعك ، فهو يشير لك باحتيال وأنت تأتيه : ولا يحتال إلا الضعيف . وكلما كان ضعيفاً كان كيده أكثر ، ولذلك كانوا يقولون مثلاً : المرأة أقوى من الرجل لأن ربنا يقول :

﴿ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾

(من الآية ٢٨ سورة يوسف)

ونقول لهم : مادام كيدهن عظيما ؛ إذن فضعفهن أعظم ، وإلا فلماذا تكيد ؟ . ولذلك يبرز الشاعر العربى هذا المعنى فيقول :

وضعيفة فإذا أصابت فرصة ... قتلت كذلك قدرة الضعفاء

لأن الضعيف ساعة يمسك خصمة مرة . وتمكنه الظروف منه ؛ يقول : لن أتركه لأننى لو تركته فسيفعل بى كذا وكذا . لكن القوى حينما يمسك بخصمه ، يقول : اتركه وإن فعل شيئاً آخر أمسكه وأضربه على رأسه ، إذن فإن كان الكيد عظيماً يكون الضعف أعظم .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ

يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُوا۟ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾

نعرف أن الحق ساعة يقول : « ألم تر » يعنى : إن كانت مرئية فى زمنها ، فلك أن تتأمل الواقعة على حقيقتها ، وإن كانت غير مرئية فمعناها : ألم تعلم ، ولكن العلم بإخبار الله أصدق من العين . وحين يقول الحق : « كفّوا أيديكم » لا بد أن تكون بوادر مدّ الأيدى موجودة ، فلن يقال لواحد لم يمد يده : كف يدك . والكلام هنا فى القتال ، فيكون قد كفوا أيديهم عن القتال ، بدليل أن الحق سبحانه وتعالى جاء فى المقابل فقال : « فلما كتب عليهم القتال » إذن فقد قيل لهم : « كفوا أيديكم » لأن بوادر مدّ الأيدى للقتال قد ظهرت منهم إما قولاً بأن يقولوا : دعنا يا رسول الله نقاتل ، وإما فعلاً بأن تهيأوا للقتال . وعندما يقول القرآن : « فلما كُتِبَ عليهم القتال » دل هذا القول على وجود زمنين بصدد هذه الآية : زمن قيل لهم : كفّوا أيديكم ، وزمن كُتِبَ عليهم القتال ، فنفهم من هذه أنه كانت هناك بوادر لمدّ اليد إلى القتال قبل أن يكتب عليهم القتال والذين قالوا:دعنا نقاتل هم : ابن عوف وأصحاب له ، ولو كان الأمر بالقتال متروكا للرسول لكان قد أمرهم بمجرد أن قالوا ذلك .

عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ أن عبدالرحمن بن عوف وأصحابا له أتوا النبى صلى الله عليه وسلم بمكة . فقالوا : يا نبى الله ، كنا فى عزة ، ونحن مشركون ، فلما آمنا صرنا أذلة قال : « إنى أمرت بالعفو فلا تقاتلوا القوم » فلما حوله الله إلى المدينة أمره بالقتال ، فكفوا ، فأنزل الله «ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم »[1] .

(١) رواه ابن أبى حاتم ، ورواه النسائى والحاكم .

راجع أصله وخرّج أحاديثه د. أحمد عمر هاشم نائب رئيس جامعة الأزهر .

وهذا دليل على أنه منتظر أمر السماء . وبعد ذلك كتب الله عليهم القتال ، فلما كتب عليهم القتال تملص البعض منه . . مصداقاً لقول الحق : « فلما كُتِبَ عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية » فلماذا هذه الخشية وهم مؤمنون : هل هذا يعنى أنهم خافوا الناس أو رجعوا فى الإيمان ؟. كما طلب بعض من بنى إسرائيل القتال :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ ﴾

(سورة البقرة)

إذن فعندما تصل المسألة إلى الأمر التطبيقى ، قد يدب فى نفوسهم الخَوَر والخوف ، والحق سبحانه لم يمنع الأغيار أن تأتى على المؤمن ، فمادام الإنسان ليس رسولا ولا معصوما فلا تقل : فلان عمل كذا أو فلان عمل كذا ؛ لأن فلانا هذا لم يدع أنه معصوم ، ولذلك يصح أن تأتى منه الأخطاء ، وتأتيه خواطر نفسه ، وتأتيه هواجس فى رأسه ، ويقف أحياناً موقف الضعف ، ولذلك عندما يقول لك واحد : فلانة عملت كذا وفلان عمل كذا ، قل له : وهل قال أحد إن هؤلاء معصومون ؟ ومادامو غير معصومين فقد يتأتى منهم هذا .

والله يقول : « إذا فريق منهم » وهذا يعنى أنهم ليسوا سواء ، ففريق منهم أصابه الضعف ، وفريق آخر بقى على شدته وصلابته فى إيمانه لم تلن له قناة ولم ينله وهن ولا ضعف ، ثم انظر أدب الأداء . لم يقل : فلان أو فلان . بل قال : « إذا فريق منهم » وهذا يستدعى أن يبحث كل إنسان فى نفسه ، وهذه عملية أراد بها الحق الستر للعبد ، ومادام الستر قد جاء من الرب ، فلنعلم أن ربنا أغير على عبده من نفسه ، ولذلك نقول دائما : ساعة يستر ربنا غيب الناس على الناس فهذا معناه : تكريم للناس جميعا .

وهب أن الله أطلعك على غيب الناس أتحب أن يطّلع الناس على غيبك ؟! لا ، إذن فأنت عندما ترى أن ربنا قد ستر غيبك عن الناس وستر غيب الناس عنك فاعرف أن هذه نعمة ورحمة ؛ لأن الإنسان ابن أغيار ، فيصح أن واحداً أساء إليك فى نفسه ولم يرغب أن تعرف ذلك ، وأنت أيضاً تريد أن تتخلص منه وتكرهه ، فلو أطلعه الله على ما فى قلبك ، أو أطلعك على ما فى قلبه لكانت معركة يجرح فيه كل منكما كرامة الآخر ، لكن ربنا ستر غيب خلقه عن خلقه رحمة بخلقه .

وأنت أيضاً أيها العبد قد تعصيه ويحب أن يستر عليك ، ويأمر الآخرين ألا يتقصوا أخبار معصيتك له . بالله أيوجد رب مثل هذا الرب ؟ شيء عجيب ؛ فقد تكون عاصياً له ويحب أن يستر عليك ، ويأمر غيرك : إياكم أن تتبعوا عورات الناس ، فقد يكون عندهم بعض الحياء ، ويكونون مستترين فى أسمالهم وملابسهم لماذا ؟ حتى لا يفقدوا أنفسهم أو يضلوا طريق التوبة لربهم .

إذن فالحق يرحم المجتمع ، ولكن الخيبة من الناس أنهم يلحون على أن يعلموا الغيب ويبحثوا عمن يكشف لهم الطالع . ونقول لمن يفعل ذلك : يا رجل لقد ستر الله الغيب عنك نعمة منه عليك ، فاجعله مستورا كما أراد الله .

إن الحق سبحانه وتعالى يقول : « إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية » والواحد من هذا الفريق يخشى القتال والقتل ، ويخاف من الموت ؛ لأنه سيأخذه إلى جزاء العمل الذى عمله فى الدنيا . ولذلك نجد أحد الصحابة يقول : أكره الحق .

فتساءل صحابى آخر : كيف تكره الحق ؟ قال : أكره الموت ومن منا يحبه !

ولماذا يخشى الناس القتال ؟ لأن الله حين يُميت ؛ يُميت بدون هدم بنية ، ولكن الأعداء فى القتال قد يقطعون جسد الإنسان ويمثلون به ، لكن إن استحضر العبد الجزاء على هذه المُثْلَة تهون عليه المسألة .

« إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية وقالوا ربنا لم كتبت علينا

القتال » وكأنهم قد نسوا أنهم طلبوا القتال ، كى نعرف أن النفس البشرية حين تكون بمنأى عن الشيء تتمناه ، وعندما يأتيها تعارضه .

« وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب » فهل جاء هذا الكلام منهم على سبيل الاستفهام ؟ يوضح الله لنا ذلك : إنهم يقولون : يارب لماذا ابتليتنا هذا الابتلاء ، وقد لا نقدر عليه فى ساعة الخوف من لقاء المعارك ؟ لذلك طلبوا أن يؤجل الله ذلك وإن يجعلهم يموتون حتف أنوفهم لا بيد العدو ، وكلمة « إلى أجل قريب » توضح أن كل واحد منهم يعى تماماً أنه سيموت حتماً ، لكن لا أحد منهم يريد أن تنتهى حياته بالقتل .

ولماذا تطلبون التأخير ؟ أحُباً فى الدنيا ومتاعها ؟ ويأتى جواب الحق : « قل متاع الدنيا قليل » ولا يصح أن تحرصوا عليه أيها المؤمنون حرصاً يمنعكم أن تذهبوا لتقاتلوا ، فكلكم ستموتون ، وكل منا يجازيه ربنا على عمله ، أما الذى يُقتل فى سبيل الله فسيجازيه على عمله فورا ، ويعطيه حياة أخرى مقابل الموت . لأنه سيأخذ الشهادة ، ولذلك يأمر الحق رسوله بأن يقول : « قل متاع الدنيا قليل » إن قارنته بما يصل إليه المرء من ثواب عظيم إن قتل فى الحرب جهاداً فى سبيل الله . قال بعضهم : اذا كان لا مفر من الموت ، فلماذا لا نذهب لنقاتل فى سبيل الله ، فإن قتلنا فليكن موتنا بثمن زائد عن عملنا ، إذن فهذا تربيب وتنمية للفائدة ، ولذلك قال الحكيم :

ولو أن الحياة تبقى لحى ... لعددنا أضلَّنا الشجعان

أى أن الحياة لو كانت تبقى لحى لكان أضل ناس فينا هم الشجعان الذين يقتلون أنفسهم فى الحرب ، لكن المسألة ليست كذلك ، والشاعر العربى يقول :

ألا أيها الزاجرى أحضر الوغى ... وأن أشهد اللذات هل أنت مُخلدى

والمتنبى يقول :

أرى كلنا يبغى الحياة لنفسه ... حريصا عليها مستهاما بها صبا
فحب الجبان النفس ورثه التقى ... وحب الشجاع النفس أورده الحربا

إذن فالاثنان يحبان نفسيهما ، لكن هناك فرق بين الحب الأحمق والحب الأعمق .

وعندما ننظر إلى إجمالى السياق فى الآية نجد أن الحق سبحانه يربى - فى صدر الإسلام - الفئة المؤمنة تربية إيمانية لا تخضع لعصبية الجاهلية ولا لحمية النفس، ففريق من المؤمنين بمكة الذين ذاقوا الاضطهاد أحبوا أن يقاتلوا ، لكن الرسول صلى الله عليه وسلم يبلغهم أنه لم يؤمر بالقتال بعد ، وأمرهم بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، وأن يصبروا على ما هم فيه حتى يأذن الله بالقتال ، وتلك تربية أولى للفئة المؤمنة ؛ لأن الإسلام جاء وفى نفوس العرب حمية وعصبية وعزة وأنفة ، فكلما أهيج واحد منهم فى شيء فزع إلى سيفه وإلى قبيلته وشنها حرباً ، فيريد الله سبحانه أن يستل من الفئة المؤمنة الغضب للنفس والغضب للعصبية والغضب للحمية ، وأراد أن يجعل الغضب كله لله .

وحينما جاء الإذن بالقتال ، جاء لا ليفرض على الناس عقيدة ، ولا ليكرههم على إسلام ، وإنما جاء ليحمى النفس الإنسانية من أن يتسلط عليها الأقوى الذى يريد أن يجعل الأضعف تبيعاً له ، فأراد سبحانه أن يحرر الاختيار فى الإنسان فكان القتال حفاظا على كرامة الإنسان أن يكون تبيعاً فى العقيدة لغيره ، وبعد ذلك يعرض قضية الإسلام عرضاً عقلياً ؛ فمن استجاب له فمرحباً به ، ومن لم يستجب فله أن يظل على دينه . وهذا يدل على أن الإسلام دين منع التسلط على عقائد الناس ، وضمن لهم الحرية فى أن يختاروا ما يحبون من العقائد بعد أن بين لهم الرشد من الغى .

وحينما شرع الله القتال فقد شرعه دون أن يكون هناك أدنى تدخل لغضب النفس ولا لحميتها ولا لعزتها ، ويشاء الحق سبحانه وتعالى أن يصور العواطف الإنسانية التى تواجه الإسلام ويواجهها الإسلام تصويرا طبيعياً . فبين لنا أن الطبع الإنسانى يعالج بالتربية ، ولهذا نجد أن بعضاً من الذين طلبوا القتال خافوا : « إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية » .

إذن فهناك فرق بين نظرية أن نقاتل ، وأن نخوض القتال بالفعل ؛ لذلك تجد أن منهم من خاف الذهاب إلى القتال خشية أن يُقتلوا ، والقتل كما تعلمون : هدم بنية ، ولكن الموت حتف الأنف هو الذى يسحب به الله الروح الإنسانية ، دون

هدم بنية أو نقض لها . وأيضا فالقتال يكون مظنة القتل ، والخوف من القتال مظنة التراخى فى الأجل ، فالقتل موت مقرب أمام المقاتل ، لكن الموت حتف الأنف علمه عند الله ؛ لذلك قالوا : « ربنا لم كتبت علينا القتال » .

فهل كان طلبهم للقتال لقصد الحمية ، وسبحانه يريد أن يبرىء المؤمن أن يكون قتاله للحمية ؛ لأنه جل وعلا يريد أن تكون المعركة إيمانية ؛ لتكون كلمة الله هى العليا حتى ولو كان المخالف له صلة نسب أو صلة عصب أو صلة عواطف .

والحق سبحانه وتعالى يريد أن يعلمنا ذلك ؛ لأن الأمة الإسلامية ستواجه عنفا شرسا فى تثبيت قاعدة الاختيار الإيمانى فى البشر ، فقال الحق لرسوله صلى الله عليه وسلم : إن قالوا لك ذلك « قل متاع الدنيا قليل » ، فالحرص على أن يستبقى المؤمن نفسه من القتل ليموت بعد أجل قريب يعنى أنه يريد أن يأخذ من الحياة فرصة أكبر ، فأوضح الحق : لا ، ضعوا مقياسا تقيسون به الجدوى ، فسبحانه قال :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ﴾

(من الآية ١١١ سورة التوبة)

إنه شراء وبيع . وأيضاً قال سبحانه فى الصفقة الإيمانية :

﴿ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾

(من الآية ١٠ سورة الصف)

إذن فالله يعاملنا بملحظ النفعية الإنسانية ، واللبق ، الفطن ، الذكى هو الذى يتاجر فى الصفقة الرابحة أو المضمونة أو التى تكون جدواها والفائدة منها أكثر من سواها . فلو أننا قارنا الدنيا ، لعلمنا أنها مهما طالت لا تؤثر ولا تزيد فى عمر الفرد ؛ لأن الدنيا تطول فى الزمن ، لكنها بالنسبة للأفراد تكون بمقدار عمر كل واحد فيها ، لا بمقدار أعمار الآخرين ، فإن دامت للآخرين طويلاً ، فما دخل الفرد فى ذلك ؟

إذن فالدنيا بالنسبة للفرد هى زمن محدد ، والله يبشر المؤمن الذى يقتل فى سبيله أنه يأخذ من الصفقة زمناً غير محدود . وأيضاً فالبقاء فى الدنيا بدون قتل وإلى أن

يموت الواحد حتف أنفه ، هو بقاء مظنون وغير متيقن . ونحن نرى من يموت طفلاً أو شاباً أو كهلاً . أما الآخرة فهى غير محدودة وهى متيقنة .

إن النعيم فى الدنيا يكون على مقدار تصور الفرد للنعيم وإمكانات الفرد فى تحقيق النعيم . وأما النعيم فى الآخرة فيكون على المقدار الذى أعده الله لعباده بطلاقة قدرته وسعة رحمته . فإن قارنا صفقة الدنيا بالآخرة لوجدنا أن متاع الدنيا على فرض أنه متاع هو قليل بالنسبة للآخرة .

إذن فالحق ينمى فينا قيمة الصفقة الإيمانية ، ويعلم أن كل إنسان يحب الخير لنفسه ، فلا يظنن أحد أن الدين جاء ليسلبه الحرية ، أو ليستذله ، فالدين إنما جاء ليربب للمؤمن النفعية وينميها له .

ومثال ذلك عندما منع الدين واحداً أن يسرق الآخرين فهو قد منع أيضاً كل الآخرين أن يسرقوا من أى واحد ، وبذلك يكسب كل إنسان حماية الدين له ، فحين يمنع الواحد عن فعل خطأ فى حق الآخرين فهو قد منع الآخرين وهم ملايين أن يخطئوا فى حقه . فإذا قال الدين لواحد : لا تمد عينيك إلى محارم غيرك ، ففى هذا القول ما يوصى كل غير فى الدنيا : لا تمدوا أعينكم إلى محارم فلان ، فالكسب العظيم ـ إذن ـ يعود على الفرد .

وقول الحق : « قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى » يوضح لنا عظمة الصفقة الإيمانية ، وبعد ذلك يؤكد لنا العدل فى قوله : « ولا تظلمون فتيلاً » ونعرف أن الفتيل هو ما فُتل من الأقذار حينما يدعك الإنسان كفيه معاً ، فيخرج ناتجا كالفتلة ، أو الفتيل هو الفتلة فى بطن النواة ، أى لا نظلم حتى فى الشىء التافه . والعدالة هنا بمشروطها ؛ لأن الله أوضح أن من يصنع السيئة يجازى بسيئة مثلها ، ومن يصنع حسنة يجازى بعشرة أمثالها أو أكثر .

وهكذا لا ترهق العدالة مؤمناً لأنها تأتى بفضلها ، فالحسنة بعشر أمثالها أو أكثر ، وتحسب الحسنة عند الله فى ميزان العدالة بما أخذ من الفضل ، فلا يقولن واحد : إن هناك عدلاً من الله بدون فضل .

إذن فقول الحق : « ولا تظلمون فتيلاً » هو بضميمة الفضل إلى العدل . ولذلك نحن ندعو الله قائلين : اللهم عاملنا بالفضل لا بالعدل ، لأن مجرد العدل قد يتعبنا . وندعو الله : وبالإحسان لا بالميزان ، لأنه لو عاملنا بالميزان قد نتعب . وندعو الله : وبالجبر لا بالحساب ، والجبر هو أن يجبرنا الله ، وهكذا نرى أن قوله الحق : « ولا تظلمون فتيلاً » بلاغ من الحق لنا : أننا سنعدل معكم بالفضل فتكون السيئة بواحدة ، وتكون الحسنة بعشر أمثالها أو أكثر .

وقوله الحق : « ولا تظلمون فتيلاً » يعنى فيما قضى به سبحانه متفضلاً بالفضل مع العدل . وسبحانه يريد أن يطمئننا على أن قضايا الإيمان يجب أن يحافظ عليها ، فإياك أن تظن أن عملك هو الذى سيعطيك الجزاء ، إنما فضل الله هو الذى سيعطيك الجزاء . يقول الحق :

﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾

(سورة يونس)

فالفضل هو الذى يُفرح قلب المؤمن . ثم يأتى الحق سبحانه ليرد من بعد ذلك على قضية قالها المنافقون حينما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أحد ، ثم قتل من قتل من المسلمين ؛ فقال المنافقون : « لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا » ففهموا أن العندية عندهم حصن لهم من الموت ، وأن الذهاب إلى القتال هو الذى يجلب الموت . ونعرف أن كل حدث من الأحداث له زمان وله مكان ونسميه الظرف .

إن الذين درسوا « الظرف » فى النحو يقولون : « ظرف زمان أو ظرف مكان » ، فكل حدث من الأحداث لا بد أن يوجد له زمان ومكان . والزمان فى الموت مبهم والمكان فى الموت أيضاً مبهم ، فظرف حدث الموت زماناً أو مكاناً مبهم ، وحين يبهم الله شيئاً ؛ فلا تظنوا أنه يريد أن يخفيه ويُغمضه علينا ، إن الحق يبهم الأمر ليوضحه أوضح بيان ، فالإبهام من عنده أوضح بيان ، كيف ؟ .

إنه سبحانه حين يجهلنا بزمن الموت ويخفيه علينا فمعنى ذلك أن الإنسان قد يستقبل الموت فى أى لحظة ، وهل هناك بيان أوضح من هذا ؟ . فحين جهَّلنا بزمن الموت فهو لم يمنع عنا معرفة زمنه ، ولكنه أشاع زمنه فى كل زمن ، فلا أحد بقادر على

الاحتياط من زمن الموت ، وكذلك الحال فى مكان الموت .

وها هوذا الحق يقول :

﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ فَمَالِ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ ﴾

والحق هنا يتعرض لقضية الموت مع المكان فقال : « أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة » فالعقل البشرى الذى يتوهم أن بإمكانه الاحتياط من الموت ـ مكاناً ـ عليه أن يعى جيداً أنه لا يستطيع ذلك ، فوجود الشخص عند ظرف ما لا يدفع ولا يمنع عنه الموت ، فالعندية سواء فى معسكر الكفر أو فى معسكر الإيمان لن تمنع حدوث الموت .

والعندية ـ كما نعلم ـ تعطى ظرف المكان . فلطافة تغلغل الموت تخترق أى مكان وزمان مادام الحق قد قضى به . وأعداء الإنسان فى عافيته وفى حياته كثيرون ، لكن إن نظرنا إليها فى العنف نجدها تتناسب مع اللطف . فكلما لطف عدو الإنسان ودق ؛ كان عنيفا ، وكلما كان ضخما كان أقل عنفا . فالذى له ضخامة قد يهول الإنسان ويفزعه ، ولكن بإمكان الإنسان أن يدفعه . لكن متى يكون العدو صعباً ؟ . يكون العدو صعبا كلما صغر ولطف ولا يدخل تحت الإدراك . فيتسلل إلى الإنسان .

ومثال ذلك : هب أن واحداً يبنى بيتاً فى خلاء ويمر عليه إنسان ليبارك له وضع

أساس البيت فيقول لصاحب البيت : إنك لم تحتط لمثل هذا المكان ، فهو يمتلىء بالذئاب والثعالب ويجب أن تضع حديداً على النوافذ التى فى الدور الأول ، وذلك حتى لا تدخل إليك هذه الحيوانات المفترسة .

ويضع صاحب البيت حديداً على نوافذ الدور الأول . ويجىء واحد ثان ويقول له : لقد فاتك أن هذا المكان به ثعابين كثيرة وعليك أن تضيق فتحات الحديد ، ويفعل ذلك صاحب البيت ليرد الثعابين . ويجىء ثالث لزيارة صاحب البيت فيقول : إننى أتعجب منك كيف تحترس من الذئاب والثعابين ولا تحتاط من ذباب هذه المنطقة ؟. إنه ذباب سام . وهنا يضع صاحب البيت سلكاً على النوافذ . ويجىء واحد رابع ليقول لصاحب البيت ؛ فى هذه المنطقة حشرات أقل حجماً من الذباب وأكثر عنفاً من البعوض ويمكنها أن تتسلل من فتحات السلك الذى تضعه على نوافذك ، فيخلع صاحب البيت السلك المعلق على نوافذ البيت ويقوم بتركيب سلك آخر فتحاته أكثر ضيقاً بحيث لا تمر منه هذه الحشرات . إذن فعدوك كلما لطف ودق عن الإدراك كان عنيفاً .

ولذلك فأخطر الميكروبات التى تتسلل إلى الإنسان ، ولا يدرى الإنسان كيف دخلت إلى جسده ولا كيف طرقت جلده ، ولا يعرف إصابته بها إلا بعد أن تمر مدة التفريخ الخاصة بها وتظهر بجسده آلامها ومتاعبها . إنها تدخل جسم الإنسان دون أن يدرى ولا يعرف لذلك زماناً أو مكاناً .

ويلفتنا سبحانه إلى أن الشىء عندنا كلما لطف ازداد عنفاً ، ولا تمنعه المداخل . فما بالكم بالموت وهو ألطف من كل هذا ، ولا أحد يستطيع أن يحتاط منه أبداً .

وما مقابل الموت ؟. إنه الحياة حيث توجد الروح فى الجسد . وما كنه الروح ؟ لا يعرف أحد كنه الروح على الرغم من أنه يحملها فى نفسه ، ولا أحد يعرف أين تكون الروح أو ما شكلها ، ولا أحد يعرف من رآها أو سمعها أو لمسها .

وعندما يقبضها الله فإن الحياة تنتهى . والحق هو الذى جعل للحىّ روحاً ، وعندما ينفخها فيه تأتى الحياة .

إن الحق ـ سبحانه ـ يلفتنا وينبهنا إلى ذلك فيترك فى بعض ماديتنا أشياء لا يستطيع العلماء بالطب ولا المجاهر أن يعرفوا كنهها وحقيقتها ، فنحن لا نعرف ـ مثلاً ـ الفيروس المسبب لبعض الأمراض .

فإذا كان الله قد جعل للإنسان روحاً يهبه بها الحياة ، فلماذا لا نتصور أن للموت حقيقة ، فإذا ما تسلل للإنسان فإنه يسلب الروح منه ، وبذلك نستطيع أن نفهم قول الحق سبحانه وتعالى فى سورة الملك :

﴿ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾

(الآية ١ وجزء من الآية ٢ سورة الملك)

إذن فالموت ليس عملية سلبية كما يتوهم بعض الناس ، بل عملية إيجابية ، وهو مخلوق بسرّ دقيق للغاية يناسب دقة الصانع . ووصف الحق أمر الموت والحياة فى سورة الملك وقدم لنا الموت على الحياة ؛ مع أننا فى ظاهر الأمر نرى أن الحياة تأتى أولاً ثم يأتى الموت . لا ، إن الموت يكون أولاً ، ومن بعده تكون الحياة . فالحياة تعطى للإنسان ذاتية ليستقبل بها الأسباب المخلوقة، فيحرث الأرض أو يتاجر فى الأشياء أو يصنع ما يلائم حياته ويمتع به السمع والبصر ، فيظن أن الحياة هى المخلوقة أولاً .

ينبهنا ويوضح لنا الحق : لا تستقبل الحياة إلا إذا استقبلت قبلها ما يناقض الحياة ، فيقول لنا عن نفسه : « الذى خلق الموت والحياة » وهذا ما يسهل علينا فهم الحديث القدسي الشريف الذى يشرح لنا كيف يكون الحال بعد أن يوجد أهل الجنة فى الجنة وأهل النار فى النار ويأتى الحق سبحانه بالموت فى صورة كبش ويذبحه .

عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يؤتى بالموت يوم القيامة ، فيوقف على الصراط ، فيقال : يا أهل الجنة فيطلعون خائفين وَجِلِين أن يخرجوا من مكانهم الذى هم فيه . فيقال : هل تعرفون هذا ؟ قالوا :

نعم رَبَّنَا ، هذا الموتُ ، ثم يُقال : يا أهل النار ، فيطلعون فرحين مستبشرين ، أن يخرجوا من مكانهم الذى هم فيه . فيُقال : هل تعرفون هذا ؟ قالوا : نعم هذا الموت ، فيأمر به فيُذبح على الصراط ، ثم يقال للفريقين « كلاهما »[1]: « خلود فيما تجدون لا موت فيه أبدا »[2] .

وتجسيد الموت فى صورة كبش معناه أن للموت كينونة . ويعلمنا الله أنه يقضى على الموت ، فنحيا فى خلود بلا موت . وينبه الناس الذين كفروا وظنوا أن الذين قتلوا فى سبيل الله لو كانوا عندهم لما ماتوا . نقول لهم : العندية عندكم لا تمنع الموت . ولو كان من دنا أجله وحان حَيْنه يسكن فى بروج مشيدة لأدركه الموت .

إن الأداء القرآنى يتنوع ؛ فهناك من الأداء ما نفهمه من الألفاظ ، وهناك ما نفهمه من المَدَى الأسلوبى للقرآن ؛ لأنه خطاب الرب . فالبشر فيما بينهم يتخاطبون بملكات لغوية وملكات عقلية ، لكن عندما يخاطب الحقُّ الخلقَ فسبحانه يخاطب كل ملكات النفس . ولذلك نجد طفلاً صغيراً يحفظ القرآن ويمتلئ بالسرور ، فيسأله واحد من الكبار : ما الذى يسرك فى حفظ القرآن ؟ . فيجيب الصغير : إننى أحس بالانسجام وكفى . هو لا يعرف لماذا يحس بالانسجام من سماع القرآن أو حفظه ، فالمتحدث هو الله ، وسبحانه بقدرته وجمال كماله يخاطب كل الملكات النفسية .

وسبحانه وتعالى يقول : « أينما تكونوا يدرككم الموت » أى أينما توجدوا يدرككم الموت . وكلمة « يدرككم » دليل على أن الإنسان عندما تدب فيه الروح ينطلق الموت مع الروح ، إلى أن يدركها فى الزمن الذى قدره الله . وكلمة « يدرك » توضح لنا أن الموت يلاحق الروح حتى إذا أدركها سلبها وكما قال الأثر الصالح عن ملاحقة الموت للحياة : « حتى إذا أدركها جرت ، فلا أحد منكم إلا هو مُدْرَك » ، ولذلك يقول أهل المعرفة والإشراق : « الموت سهم أرسل إليك وإنما عمرك هو بقدر سفره إليك » .

---

(١) كلمة (كلاهما) هكذا جاءت بالأصل ، والمعروف فى القاعدة « كليهما » ؛ لأن الكلمة توكيد لمجرور ، ولعله على لغة من يلزم المثنى الألف .

(٢) الحديث أخرجه الإمام أحمد فى مسنده جـ ٢٤ ص ٢٠٤ .

وهكذا نعرف أن قوله الحق : « يدرككم » تدل على أن الموت يلاحق حياة الإنسان ويجرى وراء روحه حتى يدركها .

ويقول الحق : « ولو كنتم فى بروج مشيدة » . وعندما نبحث فى الحروف الأصلية لمادة كلمة « البروج » نستطيع أن نرى المعنى العام لها . والحروف الأصلية فى هذه الكلمة هى « الباء » و« الراء » و« الجيم » وكلها تدل على الارتفاع والظهور .

فيقال : « هذه امرأة فيها بَرَج » أى أن عيونها واسعة وتحتل قدراً كبيراً من وجهها وتكون واضحة ، فالبَرَجُ هو الاتساع والظهور .

والأبراج عادة كان بناؤها مرتفعاً كحصون وقلاع نبنيها نحن الآن من الأسمنت والحديد . والقصد من « مشيدة » أى أنها بروج تم بناؤها بإحكام ، فالشىء قد يكون عالياً ولكنه قد يكون هشاً . أما الشىء المشيد فهو من « الشِّيد » وهو « الجص » ، ومن « الشَّيْد » وهو « الارتفاع » ، والمقصود أن لبنات البرج تلتحم أبعاضها وأجزاؤها بالجص فهى مرتفعة متماسكة .

إنك إذا رأيت جمعاً وقوبل بجمع فمعنى ذلك أن القسمة تعطينا آحاداً . فساعة يدخل المدرس الفصل يقول لطلابه : أخرجوا كتبكم . فمعنى هذا القول أن يخرج كل تلميذ كتابه . وعلى ذلك يكون القياس . فلو بنى كل إنسان لنفسه برجاً مشيداً لجاءه الموت .

والجمع مقصود أيضا : أى لو كنتم جميعا معتصمين ببرج محاط ببرج آخر وثالث ورابع ، كأنه حصن محصن فالحصون فى بعض الأحيان يتم بناؤها وكأنها نقطة محاطة بدائرة صغيرة . وحول الدائرة دائرة أخرى أوسع . وبذلك تجد الحصن نقطة محاطة بعدد من الحصون . والموت يدرك البشر ولو كانوا فى برج محاط ببروج . وكلا المعنيين يوضح قدرة الحق فى إنفاذ أمره بالموت .

وساعة يتكلم سبحانه عن الموت وعن الحياة فى الجهاد فهو يريد أن يخرج الناس

من الظلمات إلى النور ؛ لأن الدين هو نور طارىء على ظلمة ، والذين يعيشون فى الظلام يكونون قد ألفوا الظلمة والفوضى وكل منهم يعربد فى الآخرين . وعندما جاء الدين فرّ بعضهم من مجىء النور ؛ لأن النور يحرمهم من لذات الضلال ؛ ولأن النور يوضح الرؤية .

لذلك يوضح سبحانه وتعالى أنه أتى بالموت ليؤدى حاجتين : الحاجة الأولى : أنّ مَن يؤمن عليه أن يستحضر الموت لأن جزاءه لا يكون له منفذ إلا أن يموت ويلقى ربه ، ويعلم أن الحاجب بينه وبين جزاء الخالق هو الموت ، فساعة يسمع كلمة الموت فهو يستشرف للقاء الله ؛ لأنه ذاهب إلى الجزاء .

والحاجة الثانية : أن غير المؤمن يخاف الموت ويخشاه ولا يستعد له ويخاف أن يلاقى ربه . إذن فكلمة « الموت » تعطى الرَّغَب والرَّهَب . فصاحب الإيمان ساعة يسمع كلمة الموت يقول لنفسه : إن متاعب الدنيا لن تدوم ، أريد أن ألقى ربى .

ولذلك يجب أن يستحضر المؤمنون بالله تلك القضية . وحين يستحضرون هذه القضية يهون عليهم كل مصاب فى عزيز ؛ فالإنسان مادام مؤمناً فهو يعرف أن العزيز الذى راح منه إما مؤمن وإمَّا غير مؤمن ، فإن كان مؤمناً فليفرح له المؤمن الذى افتقده ؛ لأن الله عجَّل به ليرى خيره ، فإن حزنت لفقد قريب مؤمن فأنت تحزن على نفسك . وإن كان الذى ذهب إلى ربه غير مؤمن ، فالمؤمن يرتاح من شره . إذن الموت راحة ، والذى عمل صالحاً يستشرف إليه ، وهذا رَغَب ، أما الكافر فهو خائف ؛ وهذا رَهَب .

ولذلك فمن الحمق أن يحزن الإنسان على ميّت ، وعليه أن يلتفت إلى قول الحق : « أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة » .

ويتابع الحق : « وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك قل كل من عند الله فمال هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً » . ومثل هذا الكلام أليق بمن ؟

الذى يقول عن الحسنة إنها من عند الله فهو يؤمن بالله وهذه الكلمة لها فى ذهنه تصور . والآية لا تريد هذا الصنف من الناس ولكن بعضهم يريد أن يفرق بين محمد وربه . فينسب الخير والحسنة لله ، وينسب الشر والسيئة لمحمد ، وعلى هذا فالذين قالوا مثل هذا الكلام إما أن يكونوا من المنافقين الذين أعلنوا إسلامهم وولاءهم لرسول الله وفى قلوبهم الكفر ، وإمّا أن يكونوا من بعض أهل الكتاب لأنهم يؤمنون بالله ولكنهم لا يعترفون برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهؤلاء وأولئك ينظرون إلى الأمر الذى فيه خير على أساس أنه من عند الله ، ويلقون اتهاماً باطلاً لرسول الله أنه مسئول عن الشرور التى تحدث لهم . كأنهم يريدون أن يقيموا انعزالاً بين محمد وربه .

لا . فسبحانه لا يتيح لهم ذلك ؛ فقد أنزل قرآناً يتلى إلى أبد الآبدين :

﴿ مَن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾ ﴾

(سورة النساء)

والحق يقول :

﴿ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾

(من الآية ٣١ سورة آل عمران)

فلا أحد يملك أن يصنع مضارة بين محمد وربه ؛ لأن محمداً رسول من عند الله مبلغ لقول الله ومنهجه ، وسبحانه يقول :

﴿ وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ﴾

(من الآية ٧٤ سورة التوبة)

والحق سبحانه وتعالى لا يرضى عن عبد يستغفر الله فقط ، ولكن لا بد أن يذهب العبد ويطلب من رسول الله أن يستغفر له الله ، فلا أحد يمكنه أن يقيم صلحاً مع الله من وراء محمد رسول الله ، فلا تفرقوا بين أمر الله وأمر رسول الله ، ومن يريد أن يصنع مضارة بين الله ورسوله بأن يقول عن الحسنة إنها من عند الله ، وأن السيئة من عند محمد ، فهذا قول خاسر .

ما حكاية هذا القول ؟ إنهم إن ذهبوا إلى حرب فغنموا قالوا : « إن الله أسعدنا بالغنائم » . وإن هُزِموا قالوا : إن محمدا هو الذى أوقع بنا الهزيمة ، وكأن لمحمد تصرفاً دون تصرف الله . فإياك أن تُخدع بمن يحاول أن يعزل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ربه .

إن محمداً قد بعثه الله وأنزل عليه القرآن .

وكان رسول الله حين نزلت الدعوة يأمل أن يستجيب له القوم الذين يؤمنون بالله وهم أهل الكتاب . وكانوا أقرب إلى قلبه من القوم الذين لا يؤمنون بالله وهم المشركون ، وكان هناك معسكران : معسكر الفرس ، ومعسكر الروم ، وكان معسكر الفرس يعبد النار ـ معاذ الله ـ أما معسكر الروم فهو يؤمن بالله وبالكتب السابقة على رسول الله ولكنه كافر بمحمد .

والذى يؤمن بالله كان قريباً إلى قلب محمد ممن كفر بالله ، وهذا دليل على أن عصبية محمد قد أتت له من الله . وقد ينصرف المعنى إلى اليهود . فحينما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة كان من المصادفة أن تقل ثمارهم ومزارعهم ؛ فقالوا : مزارعنا وثمارنا فى نقص منذ قدم هذا الرجل . وهل كان ذلك الأمر مصادفة أو أننا نجد له تعليلاً مادياً ؟

فحينما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة أنكروه بعد أن كانوا يستفتحون به على الذين كفروا ، وسلب مجيئه منهم السلطة الزمنية التى كانت لهم ؛ لأنهم كانوا أهل مال ، ويتعاملون بالربا ويثيرون العصبية ، ويتاجرون من أجل أن تظل لهم السيادة ، وهم أهل علم بالكتاب وحاولوا التجارة بكلمات الله . فكانت لهم السيادة من ثلاث جهات : علمياً ومالياً ومنهجياً .

وعندما جاء الإسلام ألف بين الأوس والخزرج فبارت أسلحتهم وضاعت منهم السلطة التى صنعوها بالتفرقة ، وضاعت منهم سيادة المال ؛ لأن الإسلام حرم الربا ، وضاعت منهم سيادة المنهج لأن الإسلام كشف تحريفهم للكتاب وأنزل الله كتابا ـ وهو القرآن ـ غير قابل للتحريف .

وهكذا انتهت وسائل السيطرة ، لذلك وقعوا فى الحزن وانشغلوا بهذا الهم . وكان الواحد من اليهود لا يسارر الآخر من اليهود ولا يناجيه إلا فى أمر محمد . ومادامت هذه المسألة قد شغلتهم إلى هذه الدرجة فلا بد أنها قد شغلتهم عن الزراعة والاهتمام بها .

هم انشغلوا عن الأسباب فكانت النتيجة هى ما حدث . ولكنهم حاولوا إلصاق ذلك برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان من الصعب عليهم أن يفهموا الأمر الحادث لهم ، وإمّا أن يكون تفسير ذلك هو أن السماء أرادت لهم عقاباً لأنهم حاولوا المكر برسول الله صلى الله عليه وسلم وذلك شغل وقتهم عن الأخذ بالأسباب . وإمّا أن يكون ذلك من آفة سماوية فلماذا لم يلتفتوا إلى أن دين محمد هو المنقذ لهم مما هم فيه ؟

لقد كانوا يستعزون به . لكنهم لم يؤمنوا به (فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به) فنزل بهم أكثر من عقاب . فالذين كانوا يتعاملون مع اليهود بالربا امتنعوا عن ذلك ، وكذلك نقصت الزروع والثمار .

إذن فالمسألة جاءتهم بنقص من الأموال ؛ فقالوا ما قاله الله مما أورده الحق على ألسنتهم : « وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك قل كل من عند الله » . أى كل من الحسنة والسيئة من عند الله . وما الحسنة وما السيئة ؟

الحسنة هى الظفر والغنيمة والسراء والرخاء والخصب . والسيئة هى الهزيمة والقتل والضراء والبؤس والجدب . هذا ما فهموه، ونحن ـ المؤمنين ـ نفهم الحسنة فهماً دقيقاً ؛ فالحسنة فى الشرع هى ما يأمر به الله ، والسيئة هي ما ينهى عنه الله ؛ بدليل أن المؤمن قد يصاب فى عزيز لديه ثم يقف موقفاً إيمانياً فى استقبال هذه المصيبة ويقول : « إن حزنى لن يرده فالأفضل أن أكسب به الجنة » . ويزيد على ذلك : « يكفينى عزاءً الأجرُ عليه ، فأنا لم أكن سآخذ منه طيلة حياته مثل الأجر الذى سآخذه فى صبرى على مصيبتى فيه » .

إن رسول الله صلى الله عليه وسلم ينبهنا بقوله : إياك أن تظن أن الحسنة هى

ما تستطيبه نفسك ، أو أن السيئة هى ما تشمئز منها نفسك ، لا ، فالمصاب فى عُرْف الشرع هو من حُرم الثواب . ولذلك جاء القول : « قل كل من عند الله » أى أن الحسنة والسيئة من عند الله .

وهل يصنع الله سيئة ؟ ونقول : نستغفر الله ؛ فالسيئة فى نظر الإنسان والحسنة فى نظر الإنسان ، وكلها من عند الله ، ولكن إذا نسبنا الفعل إلى الله فكل ما يصدر عنه حسن ، وافتقاد المقاييس الصحيحة هو الذى يتعب . وعندما نحاول أن نحسب مثل تلك الأمور بحساب بالكمبيوتر تستقيم لنا النتائج .

ومثال ذلك : تلميذ أهمل فى المذاكرة وفى حضور الدرس لذلك فهو يرسب آخر العام ، ولكنه ينظر إلى الرسوب على أنه سيئة ، ولكنها فى عرف الحق عموماً حسنة . فنجاح مثل ذلك الخائب ضياع لمقاييس الاجتهاد ولَمّا ذاكر أحد ولا نطمس العلم . وحينما وضع الله قانون أن من لا يستذكر يرسب ، فهذا إحياء للحسنة فى آلاف غيره ، ويكون الراسب نموذجاً واضحا ووافيا وتطبيقيا ، وخاضعًا لسنة الكون . وكذلك الذى لم يزرع أرضه أو تكاسل عن الحرث أو أهمل الرى ، فهو يأتى يوم الحصاد ولا يُؤْتى ثماراً وهذا أمر سيئ بالنسبة له ، أما بالنسبة لقضية الحق الكونية فى ذاتها فهى حسنة ؛ لأن ذلك يدفع كل واحد إلى عدم إهمال أى سبب من الأسباب ؛ فالمصاب بنتيجة عمله يفسر المصيبة على أنها سيئة ؛ لأن فيها مساءة وإضرارا به ، ولكن لو قاس مسها له بما فعله لوجد أن ذلك هو سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلا .

وحين يضع الحق سبحانه وتعالى سنناً فى كونه فالذى يأخذ بالأسباب يعطيه ، ويحرم سبحانه من لا يأخذ بالأسباب .

وعندما نقيس الأمور بهذا المقياس نرى الناجح هو المجدّ ، والمتكاسل هو الراسب ، والنتيجة كلها من عند الله تقنيناً كونياً .

والحق سبحانه وتعالى حينما يعرض أقوال طرف فإن كان مقراً بما فيه يتركه من غير تعليق عليه ، وإن كانت قضية باطلة يكر عليها بالحجة ليبطلها ويدحضها .

وهذا يلفتنا إلى أن الحق سبحانه وتعالى لا يريد أن نلف قضايا الخصوم لفاً بحيث لا نعرفها ، ولكنه يعرض قضية الخصوم عرضاً ثم يكر عليها بالنقد ليربى - كما قلنا - المناعة الإيمانية ، حتى لا تفاجئ قضيةٌ كفرية عقيدةً إيمانية ؛ فسبحانه يعرض قضايا الكفار ويوضح لنا : سيقولون كذا فقولوا لهم كذا . .

مثال ذلك : عندما قالوا : إن الله اتخذ ولداً قال الحق :

﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴾

(من الآية ٥ سورة الكهف)

فهو سبحانه يعرض قضايا الخصوم ؛ لأن الذى يحاول أن يلف قضية الخصوم يكون مشفقاً منها ، لكن من يعرضها ينبه عقل السامع إليها ليبطلها ويقول : « ها هى ذى نقاط الضعف فى هذه القضية » . .

وحينما قالوا : « وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك » أرادوا بهذا القول أن يصنعوا مضارة بين الله ورسوله ، فأوضح الحق سبحانه ؛ قل لهم يا محمدُ :« كل من عند الله »، وتتجلى دقة الحق سبحانه فى أنه جعل محمداً صلى الله عليه وسلم وكيلاً فى البلاغ عنه ، وكان من الممكن أن يسوق الحق القضية بدون « قل » .

لكنه سبحانه أراد فى هذه أن يوسط رسوله صلى الله عليه وسلم فى أنه يقول : « قل كل من عند الله » . و« كل » تعنى : كُلًّا من الحسنة ومن السيئة . ويريد الحق سبحانه وتعالى أن يبين لنا أن قضايا الوجود تتسق مع فطرة الإيمان .

ولقد وقع خلاف طويل بين العلماء فى أفعال العباد ، وتساءلوا : هل يفعل العبد أى فعل بنفسه ، أو أن الله هو الذى يجرى على عباده الأفعال ؟ . فإذا كان العبد هو الذى يفعل الفعل فمن العدالة أن يتلقى الثواب أو العذاب جزاء ما قدم . وإذا كان الله هو الذى يجرى كل الأفعال فلماذا يعذبه الله ؟ . ودخل العلماء فى متاهة كبيرة .

وهنا نقول : يجب أن تفهم أن الحق حينما خلق الكون جعل فيه سُنناً ، ومن

عجيب الأمر أن السُنن تنتظم وتشمل وتضم المؤمن والكافر مما يدل على أنه لا أحد فى كون الله أولى بربوبية الله من الآخر ، فحتى الذين لا يؤمنون بالله أدخلهم الحق فى ربوبيته فأمر الأسباب التى خلقها استجيبى لمن يخدمك وأعطيه المسببات ولا تلتفتى إلى أنه مؤمن أو كافر لأننى أنا الذى خلقته وأوجدته فى الكون ، ومادمت أنا الذى أوجدته فى الكون فلا بد أن أتكفل بكل ما يقيم حياته ، وأنا سأعرض منهجى ، وأقول لعبادى : أنا أحب هذا الفعل وأنا أكره هذا الفعل فمن يؤمن بى فسيكون له وضعٌ آخر ، سيكون عبداً لله .

إذن فالله بالألوهيّة مناط التكليف لمن يؤمن به ، والرب بالربوبية مناط الخلق والرزق وقيومية الاقتيات للخلق جميعا ، لكل العباد ؛ فالسنن والنواميس الكونية تخدم الكل ، بدليل أن بعض السنن كانت تحب أن تتمرد لأنها عصبية إيمانية لله . عندما ترى الله يعطى بعضاً من عباده وهم غير مؤمنين به .

فالسنن والنواميس كجنودٍ لله نجدها متأبية على ابن آدم من عدم شكره لله ، لكن الحق يوضح للخلق المسخر : هم خلقى وأنا الذى استدعيتهم للوجود . فصنع الحق نواميس للكون تؤدى مهمتها للمؤمن وللكافر جميعا ، ثم أنزل سبحانه تكليفاً بوساطة الرسل . يوضح : أنا أحب كذا وأكره كذا فالذى يحبنى يعمل بتكليفى . إذن فمناط الربوبية غير مناط الألوهية .

مناط الربوبية خلق من عَدم وإمداد من عُدم . ومناط الألوهية طاعة ، والطاعة تقتضى أمراً ونهياً . فكل ما كان من مدلول الأمر والنهى ـ الذى هو التكليف ـ فهذه مطلوبات الألوهية .

وكل ما كان من مطلوبات السنن الكونية فهو من مناط الربوبية . والسنن الكونية لا تتخلف أبداً . فمثلا الذى يريد أن ينجح فى مادة من المواد فى مدرسة ما . . لا بد أن يحصل على خمسين بالمائة من مجموع الدرجات . ومن يريد أن ينجح فى مادة أخرى لا بد أن يحصل على أربعين بالمائة . وحين تنطبق هذه الشروط على طالب ما . فهل هذا الطالب هو الذى أنجح نفسه أو أن القانون هو الذى أعطاه النجاح ؟

إن القانون هو الذى أعطاه النجاح . وصحيح أن القانون لم يقل للطالب وهو يكتب الإجابة : إن مستوى إجابته سيحقق له درجات النجاح ، إنّه قد بذل جهداً فى التحصيل الدراسى ، وحقق له هذا الجهد النجاح فى نطاق ما تم تقديره . فالقانون لا ينجح أحداً ، ولا يتسبب فى رسوب أحد ، ولكن الطالب الذى يبذل جهداً ينجح ، والطالب الذى لا يبذل جهداً يرسب . وعلى ذلك فكل شىء فى الوجود له قانونه .

إن اليد المخلوقة لله ، لو نظرنا إلى حركتها ، لا نعرف كيف تزاول مهمتها . وعندما يرفع أحدنا شيئاً من الأرض لا أحد فينا ـ غالباً ـ يعرف العضلات التى تتحرك لتحمل هذا الشىء . فالذى فعل حقيقة هو الله . واليد سواء أفعل الإنسان بها خيراً ؛ أم شرّاً ، فالفاعل الحقيقى لكل فعل هو الله . وقام الإنسان فقط بتوجيه الطاقة الصالحة للسلام على واحد ، أو لصفع واحد آخر ، فاليد صالحة للمهمتين . وعندما يوجه الإنسان يده للصفع فهو يأخذ عقاباً ، وعندما يوجهها للسلام يأخذ ثواباً .

صحيح أن الإنسان ليس له دخل فى العمل ذاته ولكن له دخل فى توجيه الطاقة الصانعة للعمل ؛ فالثواب أو العقوبة ليست للفعل ولكن لتوجيه الطاقة . والسكين ـ كمثال آخر ـ يذبح بها الإنسان الدجاجة ، أو يطعن بها إنساناً ، وهى لا تعصى توجيه الإنسان إن ذبح الدجاجة ؛ ولا تعصاه إن طعن إنساناً .

والحق قد خلق قانوناً للسكين أن تذبح ، والإنسان يقوم بتوجيه الآلة التى خلقها الله صالحة لأن تذبح إلى الذبح ، سواء أكان الذبح فيما حرم الله ، أم فيما أحل ، إذن فالله هو الفاعل لكل شىء . ومادام الفعل فى نطاق أوامر المكلِّف صاحب السنن فهو الذى يقوم بكل فعل .

وعندما تدقق النظر تجد أن كل فعل من عند الله ، وليس للإنسان سوى توجيه الطاقة ؛ فالشاب الذى يذاكر دروسه ، لم يخلق عقله ولا خلق عينيه اللتين يقرأ بهما ، ولكن عقله صالح أن يفكر فى الأمر الحسن الصالح ، أو أن يفكر فى الأمر الردىء ، وعيناه صالحتان لأن ينظر بهما فى مجلة هزلية أو ينظر بهما فى كتاب .

إذن فهو ساعة يفعل هذا أو يفعل ذلك هل يفعل ذلك من وراء رَبِّه ؟ . لا ، إنه لم يفعل شيئاً على الإطلاق سوى توجيه الطاقة التى خلقها الله صالحة لأن تفعل هذا وتفعل ذاك .

إذن فثوابك وعقابك يكونان على توجيه الطاقة الفاعلة إلى الأمر الصالح أو الأمر السيىء . فعندما يقول ربنا : « كل من عند الله » نقول : هذا حق وصدق ؛ فالذى أهمل فى زراعة أرضه ولم يسمدها أو لم يروها وأصابه جدب فهذا نتيجة عدم توجيهه الطاقة المخلوقة لله فى مجالها الصحيح .

لكن عندما يمتنع المطر فلا عمل فى ذلك للإنسان . فالنواميس الكونية صنعها الله . ومن يأخذ بأسبابها تعطه وإن أصابت الإنسان سيئة فى إطار هذه فهى من عند الإنسان ؛ لأنه لم يأخذ بالأسباب .

وما ينطبق على الفرد ينطبق أيضاً على الجماعة ؛ فالذى يلعب الميسر ويأتى له الخراب والدمار ، هذا من نفسه ؛ لأنه تلقى الأوامر من الحق بألا يمارس تلك الألعاب . وأى أمة اشتكت من ضيق الأرض الزراعية وضيق الرزق فهذا بسبب الأمة نفسها ؛ لأن القائمين بالأمر كان عليهم العمل لتنمية الموارد بالنسبة لنمو السكان .

والذى يتعبنا ويرهقنا أننا نتحمل غفلة أجيال ، فتجمعت المشكلات فوق رءوس جيل واحد . ولو أن كل جيل سبق قام بمسئوليته لكانت مهمة الأجيال الحالية أقل تعباً . فمادامت لدينا أرض صالحة لأن تنبت كان علينا أن نعدها ونستغل المياه الجوفية فى زراعتها . فالمسألة إذن كسل من أجيال سابقة . ومادام هناك مخزون فى المياه الجوفية كان يجب أن نعمل العقل لنستنبط أسرار الله فى الكون . فليس من الضرورى أن ينزل المطر ، لأن الحق يقول :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾

(من الآية ٢١ سورة الزمر)

وجعل الله للمياه مسارب فى الأرض حتى تستطيع البلاد ذات الحرارة الشديدة الوصول إلى المياه الجوفية ولا تتعرض المياه المنتشرة فى مسطحات كبيرة للتبخر . لقد أخفى الله جزءاً من المياه فى الأرض لصالح الإنسان . وفى البلاد الحارة نجد الملح واضحاً على سطح التربة دليل على أن الحق وضع قانون تقطير المياه العذبة لتكون صالحة للشرب والزراعة .

وكلنا يعرف قانون التبخر ، فعندما نأتى بكوب من المياه وننشره على مسطح حجرة مساحتها خمسة وعشرون متراً مربعاً فالمياه تتبخر بسرعة . لكن لو تركنا كمية المياه نفسها فى كوب الزجاج فلن تنقص إلا قدراً ضئيلاً للغاية . إذن فكلما زاد المسطح ، كان البخر أسرع . وأراد الحق أن تكون ثلاثة أرباع اليابسة من المياه ؛ لأن الماء أصل كل شىء حى . وجعل بعضها من الماء المالح حتى لا تأسن ولا تتغير ، وتوجد هذه المياه فى مساحة متسعة حتى تتبخر وتنزل مطراً ، فما يجرى فى الوديان يجرى ، والمتبقى من المياه يصنع له الحق مسارب فى الأرض لأنه ماء عذب ، حتى يستخدم الإنسان ذكاءه الموهوب له من الله فيستخرج المياه من الأرض ، فالحق خلق لنا كل ما يمكن أن يحقق لنا استخراج قوت الحياة .

وسبحانه القائل :

﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ﴾

(سورة فصلت)

فإياكم أن تقولوا : إن السكان سيزيدون عن القوت الذى فى الأرض ، ولكن اعترفوا بخمول القدرات الإبداعية للاستنباط . فبعد أن يقول الله : « وقدر فيها أقواتها » فلا قول يصدِّق من بعد قول الله . وهب أن موظفاً ـ ولله المثل الأعلى ـ جاء فى أول الشهر بتموين الشهر كله ووضعه فى مخزن البيت ، وجاء ظهر اليوم ولم يجد زوجته قد أعدَّت الغذاء ، فماذا يحدث ؟ إنه يغضب . ولقد وضع ربنا أقواتنا مخزونة

فى الأرض ، ونحن لا نعمل بالقدر الكافى على استنباط الخير منها . وسبحانه يوضح لنا : إن الإنسان إن لم يستفد بالنواميس التى خلقها الله له ، ولم ينفذ التكاليف أمراً ونهياً فلسوف يتعب الإنسان نفسه ؛ فتكون معيشته ضنكاً . فسبحانه يقول :

﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾

(سورة النحل)

هذه القرية كانت تتمتع بالأمن والاطمئنان لكنها كفرت بأنعم الله . والكفر فى المعنى العام هو : ألا تشكر النعمة لله . وعندما نمعن النظر بدقة لنرى قانون ربط السبب بالمسببات ، وربط السنن الكونية بالكون والمكون والمكون له نجد أشياء عجيبة ، فهذه القرية كانت آمنة مطمئنة والرزق يأتيها رغداً من كل مكان . إذن فالقرية هى مكان السكن ، وليس مكان السكن فقط هو الذى فيه الرزق بل يأتيها رزقها رغداً من كل مكان ، فكأن كل مكين فى بقعة ؛ له بقع خالية فى مكين آخر تخدمه . وتلك القرية كفرت بأنعم الله .

والكفر فى معناه الواضح هو الستر ، والقرية التى كفرت بأنعم الله هى التى سترت نعمة الله ، فنعمة الله موجودة ولكن البشر الذين فى تلك القرية هم الذين ستروا هذه النعمة بالكسل وعدم الاستنباط للنعمة وترك استخراجها من الأرض .

أو أن سكان هذه القرية استخرجوا نعمة الله واستنبطوها وستروها عن الخلق ، وفساد الكون إنما يأتى من هذين الأمرين :

اى أن هناك أمماً متخلفة ، كسل سكانها عن توجيه طاقاتهم لاستنباط النعم من الأرض . أو أن هناك أممًا أخرى تملك الثراء والخير وترميه فى البحر حتى لا يذهب إلى الأمم المتخلفة . والخراب الذى نلمسه فى علاقات العالم ببعضه البعض يقول لنا : إن العالم هو القرية التى ضرب الله بها المثل :

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾﴾

(سورة النحل)

ولنر دقة الأداء القرآنى ، فى قوله : « فأذاقها الله لباس الجوع » ، ونعلم أن الذى يُذاق هو الطعم . والطعم يكون باللسان وحده : أما اللباس فيعم كل الجسم ، والحق هنا يعطى الإذاقة ولا يكون الذائق هو الفم فقط بل كل الجسم ، فالفم إنما يتناول لصالح بقية الجسم ، وعندما لا تصل مادة الحياة إلى بقية الجسم فكل الجسم يذوق الجوع أيضاً .

والكون المخلوق لله مصنوع على نظام دقيق من أجل أن تسير السنن الكونية فى مجالاتها التى حددها الله ، وعندما تنتظم هذه السنن فى حركتها فهى تعطى النتائج للإنسان ولو بعد حين ، حتى إن بعض المفسرين والمتكلمين بعمق يقولون : إن الأمراض الوراثية التى تنتقل من أجيال سابقة إلى أجيال لاحقة كان السبب فيها تقصير آباء واجتراءهم على أشياء مخالفة لمنهج السماء ، فإذا شرع الله سنة كونية للفرد ثم خالفها تصيبه نتيجتها السيئة من بعد ذلك ، وكذلك الأمة والجماعة .

لكن المسائل التى يقف فيها العقل فقط هى المصائب التى تصيب الناس بغير عملهم . وكان على الفلسفة أن تبحث هذا المجال ، أما الدين فهو يقول لنا أسباب تلك المسائل ؛ فالشىء الذى له مقدمات من أسباب تكاسل الإنسان عنها ، ثم أصابته كارثة فهذا من فعل الإنسان فى نفسه . أما الأشياء التى تأتى قدرية فهذا أمر مختلف . فإذا كان ديننا قد وضع للإنسان أسباباً كونية وحكمة الإنسان الإيمانية قالت له : افعل ذلك حتى يحدث كذا ، ولا تفعل ذلك حتى لا يحدث كذا فعلى الإنسان أن يعرف أن الله لم يعطه كل ما يستطيع به استيعاب كل حكمة المكوِّن فى الكون ، ليلفت سبحانه الإنسان دائما على أن طلاقة القدرة مازالت موجودة ، فيحدث شىء من الأشياء يتساءل فيه الإنسان : ما سبب ذلك ؟ ولماذا ؟ ومثال ذلك

الزلزال أو البركان أو السيل الجارف والريح العاصف ، كل هذه الأحداث لا دخل للإنسان فيها ، وهى أحداث تقول للإنسان :

لو أن المسائل فى الكون فيها رتابة أسباب لما ارتبطنا بقوة غيبية خفية نضرع إليها دائما لِنَسْلَم .

وجاءت بعض مدارس الفلسفة فى ألمانيا ـ مثلا ـ وقالت : إن وجود الشر فى الكون دليل على أنه لا يوجد إله ، فلو كان هناك إله حكيم لما أفلتت منه هذه المسائل ، ولما خرج واحد بعين واحدة ولا خرج أعرج ولا مشوه . وقالت مدرسة أخرى فى العصر نفسه : لا . إن رتابة النظام فى الكون دليل على أنه لا يوجد إله ، فلو كان هناك إله لخرق القانون والناموس ولأخرج بعض الأحداث عن هذا الناموس .

وهكذا نرى أنهم يريدون الكفر من أجل الكفر بدليل أن مدرسة أخذت النظام فى الكون كدليل للكفر ، ومدرسة أخرى أخذت الشواذ فى الكون كدليل على الكفر . وكُلّ من أقطاب المدرستين إنما يبحث عن سبب للكفر .

ونقول لهم : كلاكما غبى ؛ الذى يريد منكم النظام سببا لوجود إله حكيم ، والذى يريد الشذوذ سبباً لوجود إله قادر ، هذان الأمران موجودان فى الكون ، وكلاهما دليل على وجود الإله الحكيم القادر لو كنتم منصفين .

انظر إلى النظام فى الكون الأعلى ؛ فلو فسدت فيه مسألة صغيرة لانهدم الكون كله . انظروا إلى الشمس والمطر والكواكب والنجوم ، إنها خاضعة لنظام محكم . فيا من تريد النظام دليلاً على حكمة مكون ، فالنظام موجود ، ويا من تريد الشذوذ دليلاً على أن هناك إلهاً يسيطر على ميكانيكية الكون فهذه أمور موجودة . والشذوذ إنما يتأتى من الأفراد ، فإن شذ فرد فلن يفسد القضية العامة ، فالذى يولد بعين واحدة مبصرة سنجد مئات الملايين امتلكوا البصر كاملاً .

لكن عندما يأتى الشذوذ فى نظام الكون وحركة الأفلاك فالذى يحدث هو دمار للعالم .

فمن أراد أن يرى النظام السائد يدل على الحكمة نقول له : انظر إلى الفلك الأعلى . ومن يريد الشذوذ دليلا على أن هناك قوة تتحكم فى ميكانيكية العالم نقول له : هذا موجود ، ولكن الشذوذ موجود فى الأفراد . فإن شذ فرد فلا يعطب بقية الأفراد .

ونعرف ـ أيضا ـ أن رتابة النعمة قد تلهى الإنسان عن المنعم . فالإنسان منا يظل لمدة طويلة وأسنانه سليمة فلا يتذكر مسألة أسنانه ، لكن إن آلمه ضرس واحد فهو يتذكر أن له ضرساً ، وكذلك إن آلمته إحدى عينيه ، أو إذا آلمته كُلْيَته فهو يجرى إلى الطبيب . وهذه أمور لافتة حتى تُخرج الإنسان من رتابة النعمة عليه ليتذكر المنعم بالنعمة . وعندما نرى إنساناً أكرمه الله بفقدان البصر ، فالواحد منا يقول : الحمد لله ويمسك الإنسان منا عينيه مخافة أن تذهبا،وكذلك عندما نرى أبرص أو أعرج ، وهذه هى وسائل إيضاح فى الكون حتى لا تغفل الناس عن المنعم بالنعمة .

فإذا ما نظرنا إلى الأشياء التى تصيب الإنسان فرداً ، أو تصيب الأمة كمجموع فنحن نجدها بما قدمت يدها ؛ لأنها صنعت شيئاً يخالف التوجيه . فإن كان هناك شىء خارج عن قدرة الإنسان فنحن نقول : هذه هى حكمة المكوِّن حتى يلفتنا إلى أنه المنعم . ولهذا نرى الشواذ فى الخلقة قلة لا كثرة ، ويعوض الله من أصيب بشذوذ فى شىء بدوام مَلَكَةٍ فى شىء آخر . ولذلك يقول الشاعر :

عميت جنيناً والذكاء من العمى فجئت عجيب الظن للعلم موئلا
وغاب ضياء العين للعقل رافداً لعلم إذا ما ضيع الناس حصلا

وضربت المثل مرة ببتهوفن الموسيقار العالمى الذى أطرب العالم بسمفونياته . . إنّه كان أصم .

ولذلك نحن نسمع فى لغة العامة : كل ذى عاهة جبار . فإذا كان الله قد جعله وسيلة إيضاح ليلفت الناس إلى نعم الله سبحانه عليها فهو يعوضه بموهبة أخرى ويلتفت الناس فيها إلى صاحب العاهة فيرون فضل الله عليه أيضا . إذن فالمصائب التى تحدث وليس للإنسان دخل فيها هى الملحظ الذى يجب أن نبحثه . وهذه هى مكونات الحكمة كى يلتفت الإنسان دائما إلى أن الكون غير متروك بلا قيادة .

إن الله خلق الكون وخلق القانون والنواميس ليدلنا على أنه موجود . ولا تزال يده فى الكون . فإذا حدثت حادثة فلا بد أن نلتمس لها حكمة . والحكمة خرق وخروج عن النواميس يلفت إلى أن فوق ميكانيكية العالم وقوانينها قوة أخرى تقول لها : « تعطلى » .

ولذلك فمعجزات بعض الرسل من هذا اللون ، فطبيعة النار أنها تحرق ، ولكنها لم تحرق سيدنا إبراهيم عليه السلام . أكان مراد الحق سبحانه وتعالى أن ينجّىَ إبراهيم من النار ؟ لو كان مراده هو نجاة إبراهيم من النار فحسب لما مَكّن خصومه من أن يمسكوه . وبعد أن أمسك خصوم سيدنا إبراهيم به ، وأشعلوا النار وأججوها . كان باستطاعة الحق سبحانه أن يأتى بغمامة لا قدرة لخصوم إبراهيم عليها وتمطر مطراً يطفىء النار . لا . فقد أراد الله النار ناراً متأججة وأن يقدر خصوم إبراهيم عليه ويمسكوا به ولا تنطفئ النار ، وأن يلقوه فى النار ، وبعد ذلك يوضح الحق :

أنا أزاول سلطانى فى الناموس ؛ لأنى خالق الناموس وأعطله متى شئت ، « يا نار كونى برداً وسلاماً على إبراهيم » . أما لو حدثت المسألة الأولى وانطفأت النار ، لقالوا : آه لو لم تنطفئ النار ، وآه لو لم ينزل الماء على النار .

إن الحق أراد أن يدحض كل دعاوى الخصم . فعندما تحدث أحداث لا دخل للإنسان فيها نقول : دعها لحكمة الخالق لأنه يريد أن يلفت الخلق إلى أنه صاحب اليد العليا فى الكون . فميكانيكية الكون تحير العقول ؛ لأنها مضبوطة بدقة ، ولكنها لم تفلت من يد ربنا . ولذلك نرى فى بعض الأحيان رياحاً عنيفة تثير الغبار فلا يرى الإنسان شيئاً على الإطلاق . ومعنى ذلك أن الذرات تراكمت وتراكبت حتى صارت جداراً ، ويحدث ذلك مهما حاولت الأجهزة العلمية التحكم فى ذلك أو منعه .

ومن العجيب أن الحق يترك لنا لذعة تقول : لقد كرمتك بالعقل ولكنى لم أدع لك كل الفهم ، فقد يوجد صاحب غريزة لا عقل له ويكون أقدر على فهم الأشياء منك أيها الإنسان .

وعندما يحدث زلزال فى منطقة ما ، فأول ما يخرج من المكان هى الحمير . وهذا لفت للإنسان حتى لا يقع فريسة للغرور :

﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝ ﴾

(سورة العلق)

فإذا ما رأيت حدثا فى الكون ولا دخل للإنسان فيه ولا للأمم دخل فيه ؛ فلتعلم أن لله فيه حكمة حتى يلفتنا إلى المكون الأعلى ؛ وحتى لا يظن أحد أن لميكانيكية الكون رتابة ، إنما هى نظام يجريه الله على وفق قدرته وإرادته وحكمته .

ولذلك يقولون : إن العقل الإلكترونى لا يخطىء ، وهم لا يعرفون أن من الخيبة ألا يخطىء ، لأنه كما تملؤه وتمده بالمعلومات سيخرج لك هذه المعلومات . ليس له خيار فى شيء . أما العقل البشرى فهو قادر على الاستنباط والاستكشاف وعدم ذكر بعض المعلومات التى قد تضر . هذه هى العظمة .

ويقول بعضهم ـ كمثال آخر ـ إن الورد الصناعى لا يذبل ، نقول : إن عيبه أنه لا يذبل لأن الذبول حيوية ، وعدم الذبول دليل على أنه لا حياة فيه ، وأنّه جمود فقط .

وساعة يجرى الحق سبحانه وتعالى شيئاً فى كونه ولا دخل لأحد فيه فهو يريد أن يلفت الكون إلى بقاء القيومية العليا والقدرة الإلهية فى الكون ؛ حتى لا تغتر بميكانيكية الكون . ولذلك يعرض القرآن بصيصاً من هذه الأشياء ، إذا أخذتها بحكم العقل فهو لا يقبلها ، لكن حين يفسرها من أجراها نجدها فى منتهى العقل . مثال ذلك : سيدنا موسى عندما ذهب إلى العبد الصالح ، ما الذى حدث ؟ .

قال العبد الصالح :

﴿ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴾

(من الآية ٦٧ سورة الكهف)

ويلتمس العبد الصالح لموسى العذر فيقول له :

﴿ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ ﴾

(سورة الكهف)

فيقول سيدنا موسى وهو من أولى العزم من الرسل :

﴿ قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ ﴾

(سورة الكهف)

فيخرق العبد الصالح السفينة . وخرق السفينة فى السطحية الفهمية شرّ ، وعلى الرغم من أن سيدنا موسى وعد العبد الصالح بعدم عصيان الأمر وأن يكون صابراً ، على الرغم من ذلك لم يطق حادثة خرق السفينة ، فقال للعبد الصالح :

﴿ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴾

(من الآية ٧١ سورة الكهف)

لقد شك سيدنا موسى فى ظاهر الأمر ، ولكن عندما يدرك الحكمة يجدها عين الخير . فلو لم يخرق العبد الصالح السفينة لأخذها الملك الظالم الذى يأخذ كل سفينة صالحة وسليمة غصباً :

﴿ وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴾

(من الآية ٧٩ سورة الكهف)

فلو لم يخرقها العبد الصالح لما استرد أصحاب السفينة سفينتهم ، وبالخرق للسفينة ستظل لأصحابها ؛ لأن بها عطبا يستطيعون إصلاحه بعد ذلك . إذن ، كل شيء يجرى على غير ما تشتهيه سطحية الفهم البشرى فلنعلم أنها مادامت ليست من أحد ، وهى من المكون الأعلى فوراءها حكمة .

وهل يوجد أكثر بشاعة من القتل ؟ لقد قتل العبد الصالح غلاماً . ما الحكمة فى ذلك ؟ . إن الواحد منا يولد له ابن فيكون قرة عين وسنداً ، وقد يكون هذا الابن سببا فى فساد دين أبيه ويحمله على الكذب والرشوة والسرقة فهذا الابن يقود أباه إلى الجحيم ، ومن الخير أن يبعد الله هذا الولد من طريق الوالد فلا يطغى .

ويقول قائل : وما ذنب الولد ؟. نقول : أنت لا تفهم الأمور ، لقد ذهب إلى الحق بدون تجربة فى أن يطيع أو يعصى الله ، ذهب إلى رحمة الله مباشرة ، وهذا أفضل له . وكان فى ذلك القتل للولد رحمة لوالديه ؛ فالشيء إن حدث للنفس إن كان من مخالفة الإنسان للناموس فيكون الإنسان هو الذى فعل الضر بنفسه . . وكذلك الأمة حين تخالف ناموساً شرعياً أو كونياً . لكن لو كانت الأمور فوق طاقة البشر فلا بد أن لله فيها حكمة . وقصة العبد الصالح وموسى مليئة بالحكم . فقد ذهب الاثنان إلى قرية واستطعما أهلها أى طلبا من أهلها طعاماً :

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا۟ أَن يُضَيِّفُوهُمَا ﴾

(من الآية ٧٧ سورة الكهف)

ولم يطلب أى منهما نقوداً ، وذلك حتى لا تثار الظنون السيئة ، ولكن طلبا الطعام ليأكلاه . وهو أول الحاجات الضرورية للإنسان .

فقالوا لهما : لا لن نعطيكما لأن أهل تلك القرية كانوا لئاماً . ولذلك اتجه العبد الصالح إلى جدار يريد أن ينقض فأقامه ، فقال سيدنا موسى للعبد الصالح : لماذا لا تأخذ منهم أجراً ؟

وأخيراً يوضح العبد الصالح لسيدنا موسى :

﴿ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾ ﴾

(سورة الكهف)

فأهل القرية اللئام الذين طُلِبَ منهم الطعام لم يكونوا قادرين على تحمل أمانة حفظ الكنز للغلامين . فأمر الله العبد الصالح بحجب الكنز عن أهل تلك القرية . إذن ، فالمسائل إن جرت على الإنسان بسبب منه فهو الذى فعل الضر بنفسه ، أما إذا كان الأمر لا دخل للإنسان فيه فعليه أن يثق بحكمة مَن يجريه وبذلك يستقبل الإنسان كل شيء يصيبه بالراحة .

إن صاحب الإيمان يلقى الأحداث بقلب قوى . فإن كانت من نفسه فهو يعدل سلوكه ، وإن كانت من ربه فهو يثق بحكمة ربه « قل كل من عند الله » وهذا إيضاح لك حتى تفهم أن أى فعل هو من عند الله . فليس للإنسان فى الطاقة أى فاعلية ولكن للإنسان توجيه المخلوق من طاقات وجوارح إلى الطاعة أو إلى المعصية .

ومادام كل من عندالله فهو سبحانه يريد لنا أن نتلو العجب من هؤلاء ونقرأه فيقول سبحانه : « فمال هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً » كأن منطق العقل والفكر يقودان إلى ضرورة الفهم . وعندما لا يفهمون ذلك فنحن نستعجب من عدم فهمهم . ولا نستعجب من عدم فهمهم إلا إذا كان الأمر المطروح أمامهم أمراً يستوعبه العقل . والحق يقول : « لا يكادون يفقهون حديثاً » وساعة تقول فلان لا يفقه ، فهذا معناه أن عقله ممنوع من الفهم . أما عندما نقول : لا يكاد يفقه . فهو يعنى : لا يقرب حتى من الفهم .

والقول الثانى هو الأكثر بلاغة .

ومن بعد ذلك يقول الحق :

﴿ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾ ﴾

فإن جرت عليك سنة كونية خيراً فهو من الله ، أما إن أصابتك سيئة فيها لك فيه دخل فهى من نفسك . كأن المسألة قسمان : شىء لك فيه دخل ، وشىء لا دخل لك فيه . ولا بد أن تعتبره حسنة لأنه يقيم قضية عقدية فى الكون .

فالمؤمن بين لوم نفسه على مصيبة بما له فيه دخل ، وثقة بحكمة مَن يجرى ما لا دخل له فيه وهو الله ـ سبحانه ـ « ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من

سيئة فمن نفسك وأرسلناك للناس رسولاً » .

ومن هو الرسول ؟.

الرسول مبلغ عمن أرسله إلى من أرسل إليه . ومادام رسولاً مبلغاً عن الله فأى شيء يحدث منه فهو من الله .

وعندما يقول الحق : « وكفى بالله شهيداً » أى لا يضرك يا محمد أن يقولوا : إن ما أصابهم من سيئة فمن عندك ؛ لأنه يكفيك أن يكون الله فى صفك ؛ لأنهم لا يملكون على ما يقولون جزاء ، وربك هو الذى يملك الجزاء وهو يشهد لك بأنك صادق فى التبليغ عنه وأنك لم تحدث منك سيئة كما قالوا .

ومن بعد ذلك يقول الحق :

﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا ۝٨٠ ﴾

والطاعة للرسول هى طاعة لله ، وذلك أمر منطقى ؛ لأنه رسول ، فمن أطاع الرسول فطاعته طاعة لله ؛ لأن الرسول إنما يبلغ عمن أرسله .

ولذلك ففى المسائل الذاتية التى كان يفعلها سيدنا رسول الله كبشر وبعد ذلك يطرحها قضية من عنده كبشر ، وعندما يثبت عدم صحتها يعطينا رسول الله مثالاً عن أمانته .

فعن أنس رضى الله عنه ، أن النبى صلى الله عليه وسلم مرَّ بقوم يُلَقِّحون ، فقال : لو لم تفعلوا لصلح ، قال : فخرج شيصا ، فمَرّ بهم ، فقال : مَالِنَخْلِكم ؟ قالوا : قلت : كذا وكذا ، قال : « أنتم أعلم بأمر دنياكم »[1]

---

(١) رواه أحمد وابن ماجه ومسلم واللفظ له .

أى فى المسائل الخاضعة للتجربة فى المعمل والتى لا دخل للسماء فيها. أما الأمور الخاضعة لنواميس الكون فلا يتركها للعباد . ومن العجيب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين يتصرف فى شىء لم يكن لله فيه حكم مسبق ويعدله له الله بينه وبين نفسه فمحمد هو الذى يبلغنا بهذا التعديل لنشهد ـ واقعا ـ أنه صادق فى البلاغ عن الله ولو كان على نفسه . وجاءت هذه الآية الكريمة بعد قول الحق سبحانه :

﴿ وَأَرْسَلْنَـٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾

(من الآية ٧٩ سورة النساء)

والرسول ـ كما نعلم ـ هو من بلغ عن الله شرعه الذى يريد أن يحكم به حركة حياة الخليفة فى الأرض وهو الإنسان . وإذا ما نظرنا إلى المادة المأخوذة من الراء والسين واللام وجدنا الحق سبحانه وتعالى يقول فى آية أخرى :

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ ﴾

(من الآية ٥٢ سورة الحج)

إذن فالرسول قد يكون رسولاً بالمعنى المفهوم لنا ، وقد يكون نبياً ، كلاهما مرسل من الله . ولكن الفارق أن الرسول يجىء بشرع يؤمر به ؛ ويؤمر هو ـ أيضا ـ بتبليغه للناس ليعملوا به ، ولكن النبى إنما يرسله الله ليؤكد سلوكاً نموذجياً للدين الذى سبقه ؛ فهو مرسل كأسوة سلوكية . ولكن الرسول على إطلاقه الاصطلاحى يأتى بمنهج جديد قد يختلف فى الفروع عن المنهج الذى سبقه . وكلاهما رسول ؛ هذا يجىء بالمنهج والسلوك ويطبقه ، والنبى يأتى بالسلوك فقط يطبقه ليكون نموذجاً لمنهج سبقه به رسول .

وإذا كان الحق سبحانه وتعالى قد أرسل الرسل ، وجعل خاتم الرسل سيدنا محمدا فمعنى ذلك أن رسالته صلى الله عليه وسلم ستكون رسالة لا استدراك للسماء عليها ، وإذا كانت رسالته صلى الله عليه وسلم رسالة لا استدراك للسماء عليها ، فكيف يعقل أن تكون رسالته موضوعاً لاستدراك البشر عليها ؟

فمادام الله قد ختم به الرسالة ، وأنزل عليه قوله : « اليوم أكملت لكم دينكم

وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا » إذن فلم يعد للسماء استدراك على هذه الرسالة ، فكيف يأتى بعد ذلك إنسان معاصر أو غير معاصر ليقول : لا ، إننا نريد أن نستدرك كذا أو نقول : الحكم كذا أو هذا الحكم لا يلائم العصر إذا كان الله لم يجعل للسماء استدراكاً على الرسالة لأن الله أكملها وأتمها فكيف يسوغ للبشر أن يكونوا مستدركين على الرسالة ؟.

إن الرسول حين يضاف ، يضاف مرة إلى الله ، ويضاف مرة إلى المرسل إليهم ؛ لأنه واسطة التعلق بين المُرْسِل والمرْسَل إليه ، فإن أردت الإضافة بمعنى « مِن » الابتدائية ؛ تقول : رسول الله ، أى رسول مِن الله . وإن أردت الغاية من الرسالة تقول : رسول إلى الناس أو رسول للناس . إذن فالإضافة تأتى مرة بمعنى « من » وتأتى مرة بمعنى « اللام » ، وتأتى مرة بمعنى « إلى » .

وأمر الرسالة ضرورى بالنسبة للبشر ؛ لأن الإنسان إذا ما استقرى وتتبع الوجود كله بفطرته وبعقله السليم من غير أن يجىء له رسول ، فإنّه يهتدى بفطرته إلى أن ذلك الكون لا يمكن أن يكون إلا عن مُكَوِّن له قدرة تناسب هذه الصفة المحكمة البديعة . ولا بد أن يكون قيوماً لأنه يمدنا دائماً بالأشياء ، لكن أنعرف بالعقل ما تريد هذه القدرة ؟ نحن ننتهى فقط إلى أن وراء الكون قوة ، هذه القوة لها من القدرة والحكمة والعلم والإرادة وصفات الكمال ما يجعلها تخلق هذا الكون العجيب على تلك الصورة البديعة ذات الهندسة الدقيقة ، وهذا الكون له غاية . أيمكن ـ إذن ـ للعقل أن يضع اسماً لهذه القوة ؟. فكونها قوة يستلزم أن يكون لها قدرة وحكمة ، لكننا لا نعرف اسمها ، فكان ولا بد أن يجىء رسول ، هذا الرسول يعطى للناس جواب ما شغلهم وهو : ما القوة التى خلقت هذا الكون وجعلته بهذه الصنعة العجيبة .

ويقف العقل هنا وقفة ، فعندما يأتى الرسول ويقول : أنا أدلكم على هذه القوة اسماً ومطلوباً ، كان يجب على الخلق أن يرهفوا آذانهم له ؛ لأنه سيحل لهم ذلك اللغز الذى رأوه بأنفسهم وأوقعهم فى الحيرة ـ المؤمن منهم والكافر يؤمن بهذا ـ لأنه يجد نفسه فى كون تخدمه فيه أجناس أقوى منه ، ولا تتخلف عن خدمته أبداً ،

وأجناس لا تدخل تحت طاقته ولا تحت قدرته وتصنع له أشياء لا يفهم عقله كيف تعمل ، فكان الواجب أن يؤمن .

لقد ضربنا مثلاً وقلنا : لو أن إنساناً وقعت به طائرة أو انقطع به طريق فى صحراء ، وليس معه زاد ولا ماء ، وبعد ذلك جلس فغلبه النوم فنام ، ثم استيقظ فوجد مائدة منصوبة فيها أطايب الطعام وفيها الشراب السائغ . بالله قولوا لى : ألا يشتغل عقله بالفكر فيمن جاء بالأطعمة قبل أن يتناول منها شيئاً ؟ لذلك كان من الواجب قبل أن ننتفع بهذه الأشياء أن نلفت ذهننا : من الذى صنع هذه الصنعة ؟! ومع ذلك تركنا الله فترة حتى نفكر ، حتى إذا جاء رسول يقول : القوة التى تبحث عنها بعقلك هذه اسمها كذا ومطلوبها منك كذا ، وأنت كائن ومخلوق لها أولاً وإليها تعود أخيراً .

وخلاصة المسألة أن الله سبحانه وتعالى قبل أن يخلق الخلق أعد لهم مائدة الكون ، وفيها الأجناس التى تخدمه ـ كما قلنا ـ : سلسلة الأجناس وخدمتها تجعلك تتعجب وتتساءل : كيف يخدمنى الأقوى منى ؟.

الشمس التى لا تدخل تحت قدرتى ، والقمر الذى لا أستطيع أن أتناوله ، والريح التى لا أملك السيطرة عليها ، والأرض التى لا أستطيع أن أتفاهم معها ، كيف تؤدى لى هذه الخدمات ؟. لا بد أن يكون هناك من هو أقوى منى ومنها هو الذى سخرها لخدمتى . وهل رأيت شيئاً من هذه الأشياء امتنع أن يؤدى لك الخدمة أو نقص منها شيئا ؟. لم يحدث ، لأنها مسخرة ، فإذا جاء رسول من الله ليحل لنا لغز هذه الحياة ويدلنا على موجدها ، كان يجب أن نفتح له آذاننا ونسمعه ، فإذا ما قال لى : الذى خلق لك الكون هو الله ، والذى خلقك هو الله وهو صانعك ، وأرسلنى بمنهج لك كى تؤدى مهمتك كما ينبغى فافعل كذا ولا تفعل كذا ، وأنت صائر إليه ليحاسبك على ما فعلت ، وهذا المنهج هو خلاصة الأديان كلها .

ولذلك يكون مجىء الرسول ضرورياً وبعد ذلك يؤيده سبحانه بمعجزة تثبت صدقه ، ومادام قد أرسله بالمنهج الذى هو : افعل ولا تفعل ، فهذا يعنى أن تطيع هذا الرسول ، ويقول ربّنا فى آية أخرى :

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾

(من الآية ٦٤ سورة النساء)

أى ليست الطاعة ذاتية له ، إنما الطاعة صادرة من الله ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يتميز عن سائر الرسل ؛ لأن معجزته التى تؤيد صدقه فى بلاغه عن الله هى عين كتاب منهجه فى الأصول ، وكل الرسل كانت على غير ذلك . كان الرسول يأتى بمعجزة ويأتى بكتاب منهج ، العصا واليد البيضاء كانت لموسى هذه معجزته ؛ ولكن منهجه فى « التوراة » ، إذن فالمعجزة منفصلة عن المنهج .

سيدنا عيسى معجزته ـ مثلاً ـ : أنّه يبرىء الأكمه والأبرص ، لكن كتاب منهجه « الإنجيل » ، إلا سيدنا رسول الله فإن معجزته وهى القرآن هى عين منهجه ؛ لأن الله أراد للدين الخاتم ألا تنفصل فيه المعجزة من المنهج .

إن معجزات الرسل السابقين على رسول الله من رآها يؤمن بها ، والذى لم يرها يسمع خبراً عنها ، وإن كان واثقاً ممن أخبره يصدقه ، وإن لم يكن واثقا ـ لأنها ليست أمامه ـ فلا يصدقه ، ولولا أن الله أخبرنا بهذه المعجزات فى القرآن لكان من الممكن أن نقف فيها .

أما معجزته صلى الله عليه وسلم فباقية ببقاء منهجه ، ويستطيع كل مسلم أن يقول فى آخر عمر الدنيا : محمد رسول الله وتلك معجزته ، أما غيره من الرسل فلا يأتى أحد ويقول : فلان رسول الله وتلك معجزته ، لأنها حدثت وانتهت ، أما القرآن فهو باق ببقاء الرسالة والكون .

والرسول صلى الله عليه وسلم حين يأتى بالبلاغ عن الله فالحق يبيّن لنا : أنا أرسلت الرسول ليطاع . والمنطق أن يقول القرآن : « من يطع الرسول فقد أطاع الله » ؛ لأن الرسول جاء مبلغاً عن الله ؛ فالمباشر لنا هو رسول الله ، وعرفنا من قبل أنه إذا ما توارد أمر الطاعة من الله مع أمر مع رسوله نطيع الاثنين ، وإذا كان الله قد جاء بأمر إجمالى كالزكاة والحج ، وجاء الرسول ففصل ، فنطيع الله فى الأمر الإجمالى ونطيع الرسول فى الأمر التفصيلى ، وإذا كان الله لم يجئ بحكم لا مجمل

ولا مفصل ، فقد جاء التشريع من الرسول بالتفويض الذى فوض الله فيه رسوله بقوله :

﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾

(من الآية ٧ سورة الحشر)

فالرسول الوحيد الذى أعطاه الله تفويضاً فى التشريع هو محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكل الرسل بلغوا عن الله ولم يبلغ واحد منهم عن نفسه شيئاً إلا سيدنا رسول الله ، فقد فوّضه الله سبحانه وتعالى بقوله : « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » - إذن فللرسول مهمة داخلة فى إطار القرآن أيضاً ، ومثال ذلك فى حياتنا نجد من يقول لموظف : إن الموظف الذى يغيب خمسة عشر يوماً فى قانون الدولة يفصلونه ، فيأتى موظف ومعه دستور البلاد ليرد ويقول : هذا هو الدستور وقد قرأته فلم أجد فيه هذا القانون ، وهذا الكلام الذى تقوله عن فصل الموظف غير دستورى .

نقول له : إن الدستور قال فى هذه المسألة : وتؤلف هيئة تنظم أعمال العاملين فى هذا المجال ، إذن فبالتفويض توجد هيئة تضع نظاماً ليطبق على العاملين فتكون هذه من الدستور ، فكل بنود قانون العاملين تدخل فى التفويض الذى نص عليه فى الدستور للهيئات أو للجان التى تضع التشريعات الفرعية ، فكذلك إذا قيل لك : هات دليلاً من القرآن على أن صلاة المغرب ثلاث ركعات وأن الفجر ركعتان ، وأن الظهر أربع ركعات ، وأن العشاء أربع ركعات ، هات دليلاً من القرآن على هذه ، تقول : دليلى من القرآن : « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » ، والرسول صلى الله عليه وسلم كى يضمن سلامة المنهج من هذه التحريفات التى يفترونها يقول :

« لاأُلْفِيَنَّ أحدكم متكئا على أريكته ، يأتيه أمرٌ مما أمرْت به ، أو نَهَيْتُ عنه ، فيقول : لا أدرى ما وجدنا فى كتاب الله اتبعناه » .

وفى رواية أخرى : عن المِقْدَام بن معديكرب قال : قال رسول الله صلى الله عليه

وسلم : ألا هل عسى رجلٌ يَبْلُغُه الحديثُ عَنى وهو متكىء على أريكته ، فيقول : بيننا وبينكم كتاب الله ، فما وجدنا فيه حلالا اسْتَحْلَلْنَاهُ ، وما وجدنا فيه حراما حرمناه ، وإن ما حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم كما حرم الله »[1] .

أروى هذا الحديث عن الرسول كى تعرفوا غباء القائلين بهذا ، ولنقل لهم : قولكم هذا دليل على صدق الرسول ، بالله فلو لم يأت واحد بمثل قولكم بأنه لا يوجد إلا القرآن ، بالله ماذا كنا نقول للمحدثين الذين رووا حديث رسول الله ، ولو لم يقولوا هذا لقلنا : النبى قال : يتكئ رجل على أريكته ويتحدث ، ولم يتكلم أحد بما يخالف هذا الكلام . إذن فوجود هؤلاء دليل صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومادام الله قد أرسله صلى الله عليه وسلم منه إلى خلقه فيكون مع هذه الرسالة الطاعة والطاعة هى : الاستجابة للطلب . وأنواع الطلب كما يقول الذين يشتغلون فى البلاغة والنحو كثيرة ، فمرة تتمنى شيئاً مستحيلاً مثل قول القائل : ليت الكواكب تدنو لىّ فأنظمها

ليت الكواكب تدنو لى فأنظمها
عقود مدح فما أرضى لكم كَلِمى

والكواكب لن تنزل بطبيعة الحال . أو كقول الشاعر :

ألا ليت الشباب يعود يوماً فأخبره بما فعل المشيب

هذا لون من الطلب يدل على أن الطلب محبوب ، لكنه لا يقع وقد يقع ، وكذلك الاستفهام طلب شىء لأنك تستفهم عن شىء كقولك لمن تزوره : مَن عندك ؟ . وأما أن تطلب شيئاً ليفعل فهذا هو الأمر ، أو تطلب شيئاً ليجتنب فهذا هو النهى ، فتكون الطاعة هى : أن تجيب طالباً إلى ما طلب .

والطالب إما أن يطالب بأمر لتفعله وإما بنهى لتجتنبه . وإذا أطلقت الطاعة إطلاقاً عاماً فهى لا تنصرف إلا لطاعة العبد لربه ، وبعد ذلك تقول : الولد أطاع أباه ، الطالب أطاع أستاذه ، العامل أطاع معلمه ، فهذه طاعة مضافة إلى مطاع ،

---

(١) رواه الترمذى فى العلم واللفظ له ، ورواه أحمد وابن ماجه .

لكن إن أطلقت كلمة الطاعة فهى تنصرف إلى طاعة العبد لله ، وهذه أسلم أنواع الطاعات ، لماذا ؟.

لأن أمر كل آمر ، أو نهى كل ناهٍ ؛ قد يشككك فيه أنّه أمرك بكذا ليعود عليه بالفائدة ، أو نهاك عن كذا ليعود عليه بالفائدة ، لكن إذا كان الذى طلب منك هو فى غنى عن عملك وعن انتهائك ، فهذه مسألة لا يكون فيها شبهة ، فالذى يشكك الإنسان فى الطاعة هو المخافة أن يكون الطالب قد طلب أمراً يعود عليه بالمنفعة ، أو نهى عن أمر يعود على الناهى بالمنفعة أو يدفع عنه مضرّة . لكن إذا كان الطالب له كل صفات الكمال المطلق قبل أن توجد أنت ، فوجودك وعملك وعدم عملك لا يعود عليه بشيء ، فتكون هذه هى أسلم أنواع الطاعة .

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من أطاعنى فقد أطاع الله ومن عصانى فقد عصى الله . . »[1] .

إن المنافقين هم الذين يتعبهم وجود نور لأنهم ألفوا الحياة فى ظلام ، ويرهقهم وجود عدل ؛ لأنهم استمرأوا الحياة فى المظالم ، لذلك فهم يحاولون أن يتصيدوا شيئاً ليقفوا فى أمر هذه الدعوة ، فقالوا : أما سمعتم لصاحبكم . إنه قارب الشرك . . يقول : لا تعبدوا إلا الله ومع ذلك يريد أن يجعل من نفسه رباً له حب وله طاعة .

وينزل الحق على رسوله قوله : « من يطع الرسول فقد أطاع الله » .

إذن فالطاعة هنا ليست ذاتية للرسول ؛ لأنها إما بلاغ عن الله فى النص الجزئى ، وإما بلاغ عن الله فى التفويض الكلى ، ومادامت بلاغا من الله فى التفويض الكلى فيكون الله قد أمنه أن يشرع : « من يطع الرسول فقد أطاع الله » .

ما هو مقابل الطاعة ؟. إنه التولّى والعصيان ، ورأينا الناس تنقسم تجاه الرسول إلى قسمين : قسم يطيعه فى « افعل ولا تفعل » ، وما لم يرد فيه : « افعل

(١) رواه ابن أبى حاتم ، ورواه البخارى ومسلم .

ولا تفعل » ؛ فهو داخل فى حكم المباحات ؛ إن شئت فعلته وإن شئت لم تفعله ؛ فالذين يستجيبون للرسول أى يطيعونه فى « افعل ولا تفعل » هم من أقبلوا على المنهج . والذين لا يطيعونه فقد « تولوا » أى أعرضوا وصدّوا .

انظروا إلى الحق سبحانه وتعالى كيف يحمى نفسية الرسول فيقول سبحانه : « ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظاً » فالذى يتولى ولا يطيع الرسول ، فالحق لم يرسلك يا محمد لترغمهم على الإيمان .

وهناك فرق بين « أرسلناك لهم » أو « أرسلناك إليهم » ، و« أرسلناك عليهم » . فـ « أرسلناك لهم » تعنى أنك تبلغ فقط ، إنما « عليهم » فهى تعنى لتحملهم على كذا ، أى يجب أن تنتبه يا محمد إنا أرسلناك للناس ـ لا على الناس ـ لتبلغهم ، فمن شاء فليطع ومن شاء فليعص ، فلا تجهد نفسك وتظن أننا أرسلناك عليهم لترغمهم على أن يؤمنوا ، فتكلف نفسك أمرًا ما كلفك الله به :

﴿ لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴾

(من الآية ٢٧٢ سورة البقرة)

والحق يقول أيضاً :

﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ ﴾

(سورة الغاشية)

وفى آية أخرى يقول :

﴿ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ ﴾

(من الآية ٤٥ سورة ق)

« جبار » يعنى تجبرهم على أن يطيعوا . فالإجبار يتنافى مع التكليف ويتنافى مع دخول الإيمان طواعية ويتنافى مع الاختيار . « فما أرسلناك عليهم حفيظا » والحفيظ هو : الحافظ بمبالغة ، تقول مثلا : هذا حافظ مال فلان ، وهذا حفيظ مال الناس جميعاً يعنى عنده مبالغة فى الحفظ ، إذن فالمبالغة جاءت فى تكرير الحدث فهو يحفظ

لذلك الإنسان ولغيره . والحق يؤكد ذلك لمصلحته صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه سبحانه بين لنا شغل رسول الله بأمته ، وأنه يجب أن يكونوا جميعا مؤمنين ملتزمين مطيعين ، ولذلك يقول الحق :

﴿ لَعَلَّكَ بَـٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ ﴾

(سورة الشعراء)

إنهم لا يؤمنون ، فيوضح له سبحانه : أرح نفسك ، فعليك البلاغ فقط . وهكذا يخفف الله مهمة الرسول .

ونجد أغلب عتابات الله لرسول الله ، لا لأنه خالف ، ولكن لأنه حَمَّلَ نفسه فوق ما تفرضه عليه الرسالة ، مثل من يثيرون قصة ابن أم مكتوم ، فيقولون : النبى أخطأ ولذلك قرعه الله ووبخه .

نقول لهم : كان الرسول يرغب أن يؤمن به صناديد قريش العتاة الكافرون ، وجاءه ابن أم مكتوم مؤمناً ويريد أن يستفهم ، وكان من الأسهل أن يتعرض لابن أم مكتوم ولا يتعرض للصناديد الذين يخالفونه ! لكن النبى صلى الله عليه وسلم ترك السهل وذهب للصعب ، فكأنه سبحانه يتساءل : لماذا أتعبت نفسك . « وما عليك ألا يزكى » أى ما الذى يجعلك تتعب ، إذن فهو يلومه لصالحه لا لأنه خالف .

فكأن الحق سبحانه وتعالى حينما يقول لرسوله صلى الله عليه وسلم : « فما أرسلناك عليهم حفيظاً » ، إنما قاله ليخفف عن الرسول . إذن الحفيظ هو الذى يحافظ على من يبلغه أمر الله وأن يكون سائراً على منهج الله . إن أراد أن ينحرف يعدله ، فيوضح سبحانه : أنا لم أرسلك حفيظاً عليهم ، أنا أرسلتك لتبلغهم ، وهم أحرار يدخلون فى التكليف أو لا يدخلون .

إذن فالحفيظ هو المهيمن والمسيطر ، كما قال فى الآيات الأخرى : والمسيطر أو الجبار هو الذى يحملهم على الإيمان . . والكلام فى الطاعة المقصودة لله . وأن تنفذ جوارحك ما يأمر به سبحانه فيما تسمعه أذنك وما ينطق به لسانك ، وليست الطاعة أن تقول : يا رسول الله نحن طائعون ، وبعد ذلك تحاول أن تخدش هذه الطاعة بأن

تجعلها طاعة لسان وليست طاعة جوارح . فطاعة اللسان دون الجوارح غير محسوبة من الإيمان .

ولهذا يقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾ ﴾

هنا يوضح الحق لرسوله : ستتعرض لطائفة من أمة الدعوة وهم الذين أمرك الله أن تدعوهم إلى الدخول فى الإسلام ،-أما أمة الإجابة فهم الذين استجابوا لله وللرسول وآمنوا فعلا - إن هؤلاء يقولون لك حين تأمرهم بشيء أو تطلب منهم شيئاً أمراً أو نهياً : « يقولون طاعة » يعنى : أمرنا وشأننا طاعة ، أى أمرك مطاع ، « فإذا برزوا من عندك بَيّت طائفة منهم غير الذى تقول » ، ويقال : برز أى خرج للبَرَاز ، والبَرَاز هى : الأرض الفضاء الواسعة ، ولذلك يقول المقاتل لمن يتحداه : ابرز لى ، أى اخرج من الكن أو الحصن ، وكان العرب سابقاً لا يقضون حاجتهم فى بيوتهم ، فإذا ما أرادوا قضاء حاجتهم ذهبوا إلى الغائط البعيد ، وجاء من هذه الكلمة لفظ يؤدى قضاء الحاجة فى الخلاء .

« فإذا برزوا من عندك » أى خرجوا ، فهم يديرون أمر الطاعة التى أمروا بها فى رءوسهم فيجدونها شاقة ، فيبيتون أن يخالفوا ، ونعرف أن كلمة « بيّت » تعنى المأوى الذى يؤوى الإنسان . وأحسن أوقات الإيواء هو الليل ، فسموا البيت الذى نسكنه « مبيتاً » لأننا نبيت عادة فى البيت المقام فى مكان والمكون من حجرات ؛ والمستور ، ويقولون : هذا الأمر بُيِّت بليل ، أى دبروه فى الليل ، وهل المراد الا يبيتوا فى

النهار ؟ لا ، لكن الشائع أن يبيتوا فى ليل . يفعلون ذلك وهم بعيدون عن الأعين ، فيدبرون جيداً ؛ وإن كان المقصود هو التبييت فى ظلام فهذا المعنى يصلح أيضاً ، وإن كان سراً فالمعنى يصح أيضا .

إذن فالأصل فى التبييت إنما يكون فى البيت . والأصل أن تكون البيتوتة ليلا ، ومدار المادة كلها الاستخفاء ، فإذا بُيت فى ظلام نقول:إنه بُيت بليل ، وإذا بُيِّتَ سراً نقول : بُيِّتَ بليل أيضاً .

« ويقولون طاعة فإذا برزوا من عندك بيت طائفة منهم غير الذى تقول » أى إنهم إذا ما خرجوا بيتوا أمراً غير الذى تقول ، فهم يعلنون الطاعة باللسان بينما يكون سلوكهم على العكس من ذلك ، فسلوكهم هو العصيان أو « طاعة » غير الذى تقولها . فإن قلت : افعلوا فلن يفعلوا ، وإن قلت : لا تفعلوا فهم يفعلون عكس ما تأمر به . إنهم يطيعون أهواءهم وشياطينهم .

« ويقولون طاعة فإذا برزوا من عندك بيت طائفة منهم غير الذى تقول » يعنى قالت طائفة : أمرنا وشأننا طاعة لما تقول ، أو أطعناك طاعة ولكنهم يبيتون غير ما تقول فهم إذن على معصية . « والله يكتب ما يبيتون » وسبحانه يكتب نتيجة علمه ، وجاء بكلمة « يكتب » حتى يعلموا أن أفعالهم مسجلة عليهم بحيث يستطيعون عند عرض كتابهم عليهم أن يقرأوا ما كتب فيه ، فلو لم يكن مكتوباً فقد يقولون : لا لم يحدث ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحذر من هذه الطائفة ، لأنها ستثبط أمر الدعوة ، لذلك يوضح الحق : إنك لن تُنصَرَ بمن أرسلت إليهم وإنما تنصر بمن أرسلك ، فإياك أن ينال ذلك من عزيمتك أو يثبطها نحو الدعوة . فإذا حدث من طائفة منهم هذا فـ « أعرض عنهم » أى لا تخاطبهم فى أمر من هذه الأمور ودعهم ودع الانتقام لى ؛ لأننى سأنصرك على الرغم من مخالفتهم لك ، واتجه إلى أمر الله الذى أرسلك .

ونعلم أن المصلحة فى كل الرسالات إنما تكون عند من أرسل ، ولكن المرسل إليه قد تتعبه الدعوة الجديدة ؛ لأنها ستخرجه عن هوى نفسه ، ومستلزمات طيشه ، فالذى أرسلك يا محمد هوالضامن لك فى أن تنجح دعوتك .

« فأعرض عنهم وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا » لماذا ؟ لأن الذين يؤمنون بك محدودو القدرة ، ومحدودو الحيلة ، ومحدودو العدة ، ولكن الذى أرسلك يستطيع أن يجعل من عدد خصومك ومن عُدَّة خصومك جنوداً لك ، وينصرك من حيث لا تحتسب . ولذلك فالحق سبحانه وتعالى بدأ قضية الإسلام وكان المؤمنون بها قلة ، فلو جعلهم كثرة لقالوا : كثرة لو اجتمعت على ظلم لنجحت ، ولكن عندما تكون قلة وتنجح ، فهذا فأل طيب ويشير على أنك لست منصوراً بهؤلاء وإنما أنت منصور بمدد الله .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ ﴾

وإذا سمعت كلمة « أفلا » فاعلم أن الأسلوب يقرّع من لا يستعمل المادة التى بعده . « أفلا يتدبرون القرآن » أى كان الواجب عليهم أن يتدبروا القرآن ، فهناك شىء اسمه « التدبر » ، وشىء اسمه « التفكر » ، ثالث اسمه « التذكر » ، ورابع اسمه « العلم » ، وخامس اسمه « التعقل » ، ووردت كل هذه الأساليب فى القرآن ، « أفلا يعلمون » ، « أفلا يعقلون » ، « أفلا يتذكرون » ، « أفلا تتفكرون » . هى إذن تدبر ، تفكر ، تذكر ، وتعقل ، وعلم .

وحين يأتى مخاطبك ليطلب منك أن تستحضر كلمة « تدبر » ؛ فمعنى هذا أنه واثق من أنك لو أعملت عقلك إعمالاً قوياً لوصلت إلى الحقيقة المطلوبة ، لكن الذى يريد أن يغشك لا ينبه فيك وسائل التفتيش ، مثل التاجر الذى تدخل عنده لتشترى قماشاً ، فيعرض قماشه ، ويريد أن يثبت لك أنه قماش طبيعى وقوى وليس صناعياً ، فيبله لك ويحاول أن يمزقه فلا يتمزق ، إنه ينبه فيك الحواس الناقدة ، فإذا نبه فيك الحواس الناقدة فمعنى ذلك : أنه واثق من أن إعمال الحواس الناقدة فى

صالح ما ادعاه ، ولو كان قماشه ليس فى صالح ما ادعاه لحاول خداعك ، لكنه يقول لك : انظر جيداً وجرب .

والحق يقول : « أفلا يتدبرون القرآن » والتدبر هو كل أمر يُعرض على العقل له فيه عمل فتفكر فيه لتنظر فى دليل صدقه ، هذه أول مرحلة ، فإذا ما علمت دليل صدقه فانظر النتيجة التى تعود عليك لو لم تعملها ؛ و« تتدبر » تعنى أن تنظر إلى أدبار الأشياء وأعقابها ، فالرسول يبلغك : الإله واحد ، إبحث فى الأدلة بفكرك ، فإذا ما انتهيت إليها آمنت بأن هناك إلهًا واحدًا . وإياك أن تقول إنها مسألة رفاهية أو سفسطة ؛ لأنك عندما تنظر العاقبة ماذا ستكون لو لم تؤمن بالإله الواحد . سيكون جزاؤك النار .

إذن فتدبرت تعنى : نظرت فى أدبار الأشياء وحاولت أن ترى العواقب التى تحدث منها ، وهذه مرحلة بعد التفكر . فالتفكر مطلوب أن تتذكر ما عرفته من قبل إن طرأ عليك نسيان . فالتفكر يأتى أولاً وبعد ذلك يأتى التدبر . وأنت تقول ـ مثلاً ـ لابنك : لكى يكون مستقبلك عاليا وتكون مهندسا أو طبيبا عليك أن تذاكر وتجتهد ، فيفكر الولد فى أن يكون ذا مكانة مثل المتفوقين فى المهن المختلفة فى المجتمع ، ويبذل الجهد .

إذن فأول مرحلة هى : التفكر ، والثانية هى : التدبر ، فإذا غفلت نقول لك : تذكر ما فكرت فيه وانتهيت إليه وتدبر العاقبة ، هذه كلها عمليات عقلية : فالتفكير يبدأ بالعقل ، والعقل ينظر أيضا فى العاقبة ثم تعمل الحافظة لتذكرك بما فات وبما كان فى بؤرة الشعور ثم انتقل إلى حاشية الشعور ، فإذا كنت قد تعقلت الأمر لذاتك يقال : عقلته . فإن فهمت ما عقله غيرك فقد علمت ما عقله فلان .

إذن فليس ضروريا أن تكون قد انتهيت إلى العلم بعقلك ، بل أنت أخذت حصيلة تعقل غيرك ، ولذلك عندما ينفى ربنا عن واحد العلم فإنه قد نفى عنه التعقل من باب أولى ؛ ذلك أن العلم يعنى قدرته على تعقل قدرات غيره ، دون الوصول إلى قوانينها وقواعدها وأصولها ، إنه فحسب يعلم كيف يستفيد وينتفع بها ، وفى حياتنا اليومية نجد أن الأمى ينتفع بالتليفزيون وينتفع بالكهرباء ، أى انتفع بعلم غيره . لكنه لا يتعقل قدرات ذلك العَالِم . إذن فدائرة العلم أوسع ؛ لأنك تعرف بعقلك أنت. أما فى دائرة العلم فإنك تعلم وتفهم ما عقله سواك .

ولذلك فعندما يأتى ربنا ليعرض هذه القضية يقول :

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ ﴾

(سورة البقرة)

وفى المعنى نفسه يأتى فى آية أخرى عندما يقول لهم :

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾

(سورة المائدة)

فى الآية الأولى قال سبحانه : « لا يعقلون » لأنهم قالوا : « بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا » بدون طرد لغيره ، وفى الثانية قالوا : « حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا » بإصرار على رفض غيره والخضوع لسواه ، فقال : « أو لو كان آباؤهم لا يعلمون شيئا ولا يهتدون » ، وسبحانه هنا نفى عن آبائهم العلم الذى هو أوسع من نفى التعقل ؛ لأن نفى التعقل يعنى نفى القدرة على الاستنباط . لكنه لا ينفى أن ينتفع الإنسان بما استنبطه غيره .

« أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا » . . والحق سبحانه وتعالى حينما يحث المستمعين للاستماع إلى كلامه وخاصة المخالفين لمنهجه أن يتدبروا القرآن ، معناه أنه يحب منهم أن يُعملوا عقولهم فيما يسمعون ؛ لأن الحق يعلم أنهم لو أعملوا عقولهم فيما يسمعون لانتهوا إلى قضية الحق بدون جدال ، ولكن الذى يجعلهم فى مواقف يعلنون الطاعة « فإذا برزوا من عندك بيت طائفة منهم غير الذى تقول » ، إن هذا دليل على أنهم لم يتدبروا القرآن ، وقوله الحق : « أفلا يتدبرون » تأتى بعد تلك الآية ، كأنها جاءت ودليلها يسبقها ، فهم لو تدبروا القرآن لعلموا أن الرسول صادق فى البلاغ عن الله وأن هذا كلام حق .

وبالله حين يبيتون فى نفوسهم أو يبيتون بليل غير الذى قالوه لرسول الله ، فمن الذى قال لرسول الله : إنهم بيتوا هذا ؟!

إذن فلو تدبروا مثل هذه لعلموا أن الذى أخبر رسول الله بسرائرهم وتبييتهم ومكرهم إنما هو الله ، إذن فرسول الله صادق فى التبليغ عن الله ، ومادام رسول الله صادقا فى التبليغ عن الله ، فتعود للآية الأولى « من يطع الرسول فقد أطاع الله » ، وكل الآيات يَخدم بعضها بعضا ، فالقرآن حين نزل باللسان العربى شاء الله ألا يجعل كل مستمع له من العرب يؤمن به أولا ، لأنهم لو آمنوا به جميعا أولاً لقالوا : إيمانهم بالقرآن جعلهم يتغاضون عن تحدى القرآن لهم . لكن يظل قوم من المواجهين بالقرآن على كفرهم ، والكافر فى حاجة إلى أن يُعَارِض ويُعارَض . فإذا ما وجد القرآن قد تحداه أن يأتى بمثله ، وتحداه مرة أن يأتى بعشر سور من مثله ، وتحداه بأن يأتى بأقصر سورة من مثله ، هذا هو التحدى للكافر . . ألا يهيج فيه هذا التحدى غريزة العناد ؟ ولم يقل منهم أحد كلمة ، فما معنى ذلك ؟ معناه : أنهم مقتنعون بأنه لا يمكن أن يصلوا لذلك واستمروا على كفرهم وكانوا يجترئون ويقولون ما يقولون . ومع ذلك فالقرآن يمر عليهم ولا يجدون فيه استدراكاً .

كان من الممكن أن يقولوا : إن محمدا يقول القرآن معجز وبليغ وقد أخطأ فى كذا وكذا . ولو كانوا مؤمنين لأخفوا ذلك ، لكنهم كافرون والكافر يهمه أن يشيع أى خطأ عن القرآن ، وبعد ذلك يأتى قوم ليست لهم ملكة العربية ولا فصاحة العربية ، ليقولوا إن القرآن فيه مخالفات ! فكيف يتأتى لهم ذلك وليس عندهم ملكة العربية ، ولغتهم لغة مصنوعة ، وليس لهم ملكة فصاحة ، فكيف يقولون:إن القرآن فيه مخالفات ؟ لقد كان العرب الكافرون أولى بذلك ، فقد كانت عندهم ملكة وفصاحة وكانوا معاصرين لنزول القرآن ، وهم كافرون بما جاء به محمد ولم يقولوا:إن فى القرآن اختلافاً !! هذا دليل على أن المستشرقين الذين ادعوا ذلك يعانون من نقص فى اللغة .

ونقول لهم : لقد تعرض القرآن لأشياء ليُثبت فصاحته وبلاغته عند القوم الذين نزل لهم أولا . فمنهم من سيحملون منهج الدعوة ، ثم حمل القرآن معجزات أخرى لغير الأمم العربية ، فمعجزة القرآن ليست فصاحة فقط ، وإلا لقال واحد : هو أعجز العرب ، فما شأن العجم والرومان ؟ ونقول له : أكل الإعجاز كان فى أسلوبه ؟ لا ، الإعجاز فى أشياء تتفق فيها جميع الألسنة فى الدنيا ؛ لأنه يأتى ليثبت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بشهادة خصومه لم يبارح الجزيرة إلا فى رحلة

التجارة للشام ، ولم يثبت أنه جلس إلى معلم ، وكلهم يعرف هذا ، حتى الغلطة التى أخطأوا فيها ، جاء ربنا بها ضدهم فقال :

﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ ﴾

(سورة النحل)

يقصدون بـ : « بشر » هذا غلامًا كان لحويطب بن عبدالعزى قد أسلم وحسن إسلامه ، أو غلاما آخر روميًا أو سلمان الفارسى ، فأوضح الحق : تعقلوا جيدا ، فمحمد لم يجلس إلى معلم ، ولم يذهب فى رحلات . وبعد ذلك جاء القرآن تحدياً لا بالمنطق ولا باللغة ولا بالفصاحة ولا بالبيان فحسب ، بل بالأمر الشامل لكل العقول وهو كتاب الكون . ووقائعه وأحداثه التى يشترك فيه كل الناس .

والكون ـ كما نعرف ـ له حجب ، فالأمر الماضى حجابه الزمن الماضى والذى كان يعيش أيامه يعرفه ، والذى لم يكن فى أيامه لا يعرفه ، إذن فأحداث الماضى حجبها الزمن الماضى ، وأحداث المستقبل حجزها المستقبل؛لأنها لم تقع بعد . والحاضر أمامنا ، فيجعل له حاجزاً هو المكان ، فيأتى القرآن فى أساليبه يخرق كل هذه الحجب ، ثم يتحدى على سبيل المثال ويقول :

﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾

(سورة القصص)

وسبحانه يقول :

﴿ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ﴾

(من الآية ٤٥ سورة القصص)

وسبحانه يقول :

﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾

(سورة العنكبوت)

وكل « ما كنت » فى القرآن تأتى بأخبار عن أشياء حدثت فى الماضى . بالله لو كانوا يعلمون أنه علم أو جلس إلى معلم ، أكانوا يسكتون ؟ طبعا لا ، لأن هناك كفارًا أرادوا أى ثغرة لينفذوا منها ، وبعد ذلك يأتى القرآن لحجاب الزمن المستقبل ويخرقه ، يحدث ذلك والمسلمون لا يقدرون أن يحموا أنفسهم فيقول الحق :

﴿ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ ﴾

(سورة القمر)

حتى أن عمر بن الخطاب يقول : أى جمع هذا ؟ وينزل القرآن بآيات تتلى وتسجل وتحفظ . . وتأتى غزوة « بدر » ويهزم الجمع فعلاً . وتنزل آية أخرى فى الوليد ابن المغيرة الجبار المفترى :

﴿ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾ ﴾

(سورة القلم)

ويتساءل بعضهم : هل نحن قادرون أن نصل إليه ؟ وبعد ذلك تأتى غزوة « بدر » فينظرون أنفه فيجدون السيف قد خرطه وترك سمة وعلامة عليه ، فمن الذى خرق حجاب الزمن المستقبل ؟ إنه الله . وليس محمداً ، فإذا تدبرتم المسائل حق التدبر لعلمتم أن محمداً ما هو إلا مبلغ للقرآن ، وأن الذى قال القرآن هو الإله الذى ليس عنده ماضٍ ولا حاضر ولا مستقبل ، بل كل الزمن له ، ويأتى القرآن فيقول :

﴿ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ ﴾

(من الآية ٨ سورة المجادلة)

هم قالوا فى أنفسهم ولم يسمع لهم أحد ، ثم ينزل القرآن فيخبر بما قالوه فى أنفسهم . . فماذا يقولون إذن ؟ وهم لو تدبروا القرآن لعلموا أن الحق سبحانه وتعالى هو الذى أخبر رسول الله بما قالوا فى أنفسهم . . فهذه الآية «أفلا يتدبرون القرآن » جاءت بعد « فإذا برزوا من عندك بيت طائفة منهم غير الذى تقول » ، إذن فقد فُضحوا ، فلو كانوا يتدبرون لعلموا أن الله الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق هو الذى أخبره بما بيتوا ، والذين لا يفهمون اللغة يطيرون فرحاً باختلاف توهموا أنه موجود بالقرآن ، يقولون : إن الحدث الواحد المنسوب إلى فاعل واحد لا ينفى مرة ويثبت مرة أخرى ، فإن نفيته لا تثبته ، وإن أثبته لا تنفه ، لكن القرآن فيه هذا .

وهيئ لهم ذلك فى قول الحق :

﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ﴾

(من الآية ١٧ سورة الأنفال)

و« ما رميت » هو نَفْى « الرمى » ، و« إذ رميت » أثْبت « الرمى » وجاء القرآن بالفعل وهو « رميت » ، والفاعل هو « رسول الله صلى الله عليه وسلم » فكيف يثبت الفعل مرة وينفيه مرة فى آية واحدة ؟ ونقول لهم : لأنكم ليس عندكم ملكة العربية قلتم هذا الكلام ، أما من عنده ملكة العربية وهى أصيلة وسليقة وطبيعة وسجية فيه ، فقد سمع الآية ولم يقل مثل هذا الكلام ، مما يدل على أنه فهم مؤداها .

ثم لماذا نبتعد ونقول من أيام الجاهلية ، لنأخذ من حياتنا اليومية مثلاً ، أنت إذا ما جئت مثلاً لولدك وقلت له : ذاكر لأن الامتحان قد قرب ، وأنا جالس معك لأرى هل ستذاكر أو لا . فيأخذ الولد كتابه ويجلس إلى مكتبه وبعد ذلك يفتح الكتاب ويقلب الأوراق ويهز رأسه . وبعد مدة تقول له : تعال انظر ماذا ذاكرت . فتمسك الكتاب وتسأله سؤالين فيما ذاكر . . فلا يجيب ، فتقول له : ذاكرت وما ذاكرت . أى أنك فعلت شكلية المذاكرة ، ولا حصيلة لك فى موضوع المذاكرة .

قولك:« ذاكرت » هو اثبات للفعل ، وقولك:« وما ذاكرت » هو نفى للفعل . فإذا جاء فعل من فاعل واحد مثبت مرة ومنفى مرة من كلام البليغ . فاعلم أن جهة الإثبات غير جهة النفى .

وقوله الحق : « وما رميت إذ رميت » فكأن رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما جاء إلى المعركة أخذ حفنة من الحصى ، وجاء ورمى بها جيش العدو .

إذن فالعملية الشكلية قام بها النبى صلى الله عليه وسلم ،لكن أَلِرَسول الله قدرة أن يُرسل الحصى إلى كل جيش العدو؟ إن هذه ليست فى طاقته ، فقول الحق : « وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى » . أنت أخذت شكلية الرمى ، أما موضوعية الرمى فهى لله سبحانه وتعالى .

ويأتى مثلاً فى آية أخرى يقول :

﴿ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

(من الآية ٦ سورة الروم)

وهذا نفى . ثم يقول بعدها مباشرة :

﴿ يَعْلَمُونَ ظَـٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾

(من الآية ٧ سورة الروم)

وتتساءلون أيقول : « لا يعلمون » .. ثم يقول : « يعلمون » بعدها مباشرة ؟ نعم فهم لا يعلمون العلم المفيد ، وقوله : « يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا » أنهم لا يعلمون بواطن الأمور ولا عواقبها . فإذا جاء فعل فثبت مرة ونفى مرة أخرى فلا بد أن الجهة منفكة .

مثال ذلك هو قول الحق :

﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾ ﴾

(سورة الرحمن)

ثم يقول القرآن فى موقع آخر :

﴿ وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾

(سورة الصافات)

ومعناها أنهم سيُسألون . ونقول : اجعلوا عندكم ملكة العربية ، ألا يسأل الأستاذ تلميذه . إذن فالسؤال قد يقع من العالم ليُعْلم ما عند المسئول ويُقِرُّ به ، وليس ليَعْلَم العالم ما عند المسئول ، وعندما يقول ربنا : « وقفوهم إنهم مسئولون » . فإياكم أن يذهب ظنكم إلى أن الله يسأل لأنه لا يعلم ، وإنما يسأل ليقرركم لتكون حجة الإقرار أقوى من حجة الاختبار . إذن فإن رأيت شيئاً نفى ، وأثبت فى مرة أخرى فاعلم أن الجهة منفكة . وحينما نتكلم عن إعجاز القرآن نجده يقول :

﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَـٰدَكُم مِّنْ إِمْلَـٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾

(من الآية ١٥١ سورة الأنعام)

وجاء فى الآية الثانية وقال ربنا :

﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ﴾

(من الآية ٣١ سورة الإسراء)

قد يقول من لا يملك ملكة اللغة : فأيها بليغة ؟ إن كانت الأولى فالثانية ليست بليغة ، وإن كانت الثانية فالأولى ليست بليغة .

نقول له : أنت أخذت عجز كل آية فقط . وعليك أن تأخذ عجز كل آية مع صدرها . صحيح أن عجز الآية مختلف ؛ لأنه يقول فى الأولى : « نحن نرزقكم وإياهم » وفى الثانية يقول : « نحن نرزقهم وإياكم » . ولكن هل صدر الآية متحد ؟ لا ، فصدر كل آية مختلف ؛ لأنه قال : « ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم » . فكأن الإملاق موجود . . حاصل ؛ لذلك شغل المخاطب برزقه قبل أن يشغل برزق ولده . . ويخاف أن يأتى له الولد فلا يجد ما يطعمه . لأنه هو نفسه فقير . فيطمئنه الله على رزقه أولا ثم بعد ذلك يطمئنه على رزق من سيأتى : « نحن نرزقكم وإياهم » . . لكن فى الآية الثانية لم يقل ذلك . . بل قال : « ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق » كأنه يخاف أن يفقد ماله ويصير فقيراً عندما يأتى الولد ، ومادام قد قال : « خشية إملاق » فهذا يعنى أن الإملاق غير موجود ، ولكنه يخاف الإملاق إن جاء الولد ، يخاف أن يأتيه الولد فيأتيه الفقر معه ، فأوضح الحق له : لا تخف فسيأتى الولد برزقه . . « نحن نرزقهم وإياكم » إذن إن نظرت إلى الآية عجزها مع صدرها . . تجد العلاقة مكتملة ، ويحاول بعضهم أن يجد منفذاً للطعن فى بلاغة القرآن فيتساءل لماذا يقول الحق فى آية فى القرآن :

﴿ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾

(من الآية ١٧ سورة لقمان)

وفى سورة ثانية يقول :

﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾ ﴾

(سورة الشورى)

ونقول لهم : أنتم لم تفهموا الآيات على حقيقتها . ففى الآية الأولى يقول : « واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور » أى فى المصائب التى لا غريم لك فيها . ومادام ليس لك غريم فيها . . فماذا تفعل ؟ لكن إذا كان لك غريم وخصم فقد تتحرك نفسك بأن تنتقم منه . ولذلك فانتبه لقوله الحق : « واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور » يناسب الموقف الذى لا يوجد فيه غريم ، وفى

الآية الثانية : « إن ذلك لمن عزم الأمور » فالآية تناسب الموقف الذى فيه غريم لأنك ستصبر على المصيبة وعلى من عملها من غريم ؛ لأنك كلما رأيته تهيج نفسك وهذا يحتاج لتأكيد الصبر بقوة ، وتلك هى كلمات المستشرقين الذين يريدون الطعن فى القرآن ويقولون لنا : أنتم تنظرون للقرآن بقداسة لكنكم لو نظرتم إليه بتفحص لوجدتم أن فيه اختلافات كثيرة ، نقول لهم : قولوا لنا المخالفات ، ونحن رددنا على هذا فى ثنايا خواطرنا عن القرآن ، ومنهم من يقول لك مثلاً : القرآن عندما تعرض لقضية خلق السموات والأرض جاءت كل الآيات لتؤكد أن الله سبحانه خلقها فى ستة أيام .. لكنهم يقولون عندما نذهب إلى آيات التفصيل فى قوله :

﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِى خَلَقَ الْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَىٰٓ إِلَى السَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا السَّمَآءَ الدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٢﴾ ﴾

(سورة فصلت)

نجدها ثمانية أيام فقالوا : هذا خلاف . نقول لهم : أنتم لم تفهموا . فسبحانه حين قال : « قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض » ، فهل تكلم عما تستقيم به الحياة على الأرض ؟ إنه عندما تكلم عن الأرض يقول : « قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين وتجعلون له أنداداً ذلك رب العالمين وجعل فيها رواسى من فوقها » ، فهذه تكون تتمة الأرض لأنه يتكلم عن الأرض .. « وجعل فيها » أى الأرض .. « رواسى من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها » .. وكل ذلك فى الأرض .. إذن فالمرحلة الثانية مرحلة تتمة خلق الأرض فسبحانه خلق الأرض كجرم أولاً ، وبعد ذلك جعل فيها الرواسى وجعل فيها الأقوات وبارك فيها . فى كم يوما ؟ فى أربعة أيام فكأن اليومين الأولين دخلا فى الأربعة ، لأن هذه تتمة خلق الأرض .

ولله المثل الأعلى ، مثلما تقول : سرت من هنا إلى الإسماعيلية فى ساعة ، وإلى بورسعيد فى ساعتين ، فقولك : إلى بورسعيد فى ساعتين ، يعنى أن الساعة الأولى تم حسابها ، إذن فهؤلاء المستشرقون لم يفهموا معطيات القرآن ؛ لذلك يقول سبحانه : « أفلا يتدبرون القرآن » فإن وجدت شيئا ظاهريا يثير تساؤلا فى القرآن فأعمل عقلك ، وأعمل فكرك كى تعرف أن التناقض فى فهمك أنت وليس التناقض فى القرآن ؛ لأنه مِنْ عند مَن إذا قص واقعا قصه على حقيقته ، وعند مَن لا يغيب شىء عنه ، لا حجاب الزمن الماضى ، ولا حجاب الزمن المستقبل ، ولا حجاب المكان ، ولا حجاب المكين « أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا » ، فالقرآن كتاب كبير به أربع عشرة ومائة سورة ، بالله هاتوا أى أديب من الأدباء كى يكتب هذا، ثم انظروا فى فصاحته، إنّكم ستجدونه قويا فى ناحية وضعيفا فى ناحية أخرى ، وبعد ذلك قد تجدونه أخل بالمعنى ، وقال كلمتين هنا ثم جاء بما يناقضها بعد ذلك ! مثلما فعل أبو العلاء المعرى عندما قال :

تحطمنا الأيام حتى كأننا زجاج ولكن لا يعاد لنا سبك

وكان أيام قوله هذا: ينكر البعث .

وعندما رجع إلى صوابه بعد ذلك قال :

زعم المنجم والطبيب كلاهما لا تحشر الأجساد قلت إليكما
إن صحّ قولكما فلست بخاسر أو صحّ قولى فالخَسار عليكما

إذن فالتناقض يأتى مع صاحب الأغيار الذى كان له رأى أولاً ثم عدلته التجربة أو الواقع إلى رأى آخر . لكن ربنا سبحانه وتعالى لا يتغير ومعلومه لا يتغير فهو الحق ، إذن فالتناقض يأتى إما من واحد يكذب ؛ لأن الواقع لم يحكمه ، وإما من واحد هو فى ذاته متغير ، فرأى رأياً ثم عدل عنه ، فيكون متغيراً . لكن الحق سبحانه وتعالى لا يتغير . ويقول على الواقع الحق : « أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً » . .

والواقع أيضاً أننا نجد كل قضية قرآنية تعرض كنص من نصوص القرآن أنزله الله على رسوله . . هذه القضية القرآنية فى كون له تغيرات ، والتغيرات بعضها يكون من

مؤمن بالقرآن ، وبعضها يكون من غير مؤمن بالقرآن ، فهل رأيت قضية قرآنية ثم جاءت قضية الكون حتى من غير المؤمنين فكذبتها ؟. لا ، هم فى الغرب مثلاً بعد الحرب العالمية الأولى اخترعوا أسطوانة تحطيم الجوهر الفرد والجزء الذى لا يتجزأ . . وكانت تلك أول مرحلة فى تفتيت الذرة ، ونجد القرآن يضرب المثل بالذرة ، وأنها أصغر شىء فى قوله سبحانه :

﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ ﴾

(سورة الزلزلة)

وضع العلماء أيديهم على قلوبهم لأن الذرة قد تفتت . فوجد ما هو أصغر من الذرة !! ووجدنا من قرأ القرآن . . وقال : إن القرآن نزل فى عصر كان أصغر شىء فيه « الذرة » عند العربى القديم ، والله يعلم أزلا أن العلم سيطمح ويرتقى ويفتت الذرة ، فقال :

﴿ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ۝٣ ﴾

(سورة سبأ)

لقد تدبر صاحب هذا القول القرآن وفهم عن الله الذى تتساوى عنده الأزمنة ، فالمستقبل مثل الماضى ، ليس عنده علم مستقبل وعلم حاضر وعلم ماضٍ ، وأوضح لنا : أن هناك ما هو أصغر من الذرة . فلو فتتوا المفتت منها لوجدنا فى القرآن له رصيداً .

تعالوا للقضايا الاجتماعية مثلاً . تجدوا أى قضية قرآنية يجتمع لها خصوم القرآن ليجدوا مطعناً ، فنجد من لم يفهموا من المسلمين يجرون وراءهم ويقولون : هذه الأمور لم تعد ملائمة للعصر ، ثم نجد أعداء الإسلام يواجَهُون بظروف لا يجدون حلاً لمشكلاتهم إلا ما جاء فى القرآن .

« أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً » .

مثال آخر : بعض الناس يقولون : هناك اختلاف فى القراءات . . مثل قوله تعالى :

﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤ ﴾

(سورة الفاتحة)

ويقول : هناك من يقرؤها « ملك يوم الدين » . . لكن هناك ما يُسمى « تربيب الفائدة » لأن كلمة « مالك » وكلمة « مَلِك » معناهما واحد ، والقرآن كيف يكون من عند غير الله ؟ « أفلا يتدبرون القرآن ولو كان » ـ أى القرآن ـ « من عند غير الله » أغير الله كان يأتى بقرآن ؟! لا . إنما القرآن لا يأتى إلا من الله سبحانه وتعالى ، « ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا » .

إن قوله سبحانه : « أفلا يتدبرون القرآن » تكريم للإنسان ، فكأن الإنسان قد خلقه الله ليستقبل الأشياء بفكر لو استعمله استعمالاً حقيقياً لانتهى إلى مطلوبات الحق ، وهذه شهادة للإنسان ، فكأن الإنسان مزود بآلة فكرية . . هذه الآلة الفكرية لو استعملها لوصل إلى حقائق الأشياء ، والحق لا يريد منا إلا أن نعمل هذه الآلة : « أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيرا » فالقرآن كلام الله ، وكلام الله صفته ، وصفة الكامل كاملة ، والاختلاف يناقض الكمال . فمعنى الاختلاف أنك تجد آية تختلف مع آية أخرى ، فكأن الذى قال هذه نسى أنه قالها !! وبعد ذلك جاء بأمر يناقضها ، ولو كان عنده كمال لعرف ما قال أولاً كى لا يخالفه ثانياً . .

إذن فلا تضارب ولا اختلاف فى القرآن ؛ لأنه من عند الله .

وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ وَإِذَا جَآءَهُمۡ أَمۡرٞ مِّنَ ٱلۡأَمۡنِ أَوِ ٱلۡخَوۡفِ أَذَاعُواْ بِهِۦۖ وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ

لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡۗ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ لَٱتَّبَعۡتُمُ ٱلشَّيۡطَٰنَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٨٣﴾

الحق سبحانه وتعالى يربى الأمة الإيمانية على أسلوب يضمن ويؤمّن لهم سرّية حركتهم وخاصة أنهم قوم مقبلون على صراع عنيف ولهم خصوم أشداء ، فيربيهم على أن يعالجوا أمورهم بالحكمة لمواجهة الجواسيس . فيقول : « وإذا جاءهم أمر » . أى إذا جاءهم خبر أمر من الأمور يتعلق بالقوم المؤمنين أو بخصومهم ، وعلى سبيل المثال : يسمعون أن النبى عليه الصلاة والسلام سيخرج فى سرية إلى المنطقة الفلانية ، وقبيلة فلان تنتظره كى تنضم إليه ، وعندما يسمع الضعاف المنافقون هذا الخبر يذيعونه . فيحتاط الخصوم بمحاصرة القبيلة التى وعدت الرسول أن تقاتل معه كى لا تخرج ، أو يقولون مثلاً : إن النبى سيخرج ليفعل كذا فيذيعوا أيضاً هذا الخبر ! فأوضح لهم الحق : لا تفعلوا ذلك فى أى خبر يتعلق بكم كجماعة ارتبطت بمنهج وتريد لهذا المنهج أن يسيطر ؛ لأن هذا المنهج له خصوم .

إياكم أن تسمعوا أمراً من الأمور فتذيعوه قبل أن تعرضوه على القائد وعلى من رأى القائد أنهم أهل المشورة فيه ، فقوله : « وإذا جاءهم أمر من الأمن » يقصد به أن المسألة تكون فى صالحهم « أو الخوف » أى من عدوهم « أذاعوا به » .

كلمة « أذاعه » غير كلمة « أذاع به » ، فـ « أذاعه » يعنى « قاله » ، أما « أذاع به » فهى دليل على أنه يقول الخبر لكل من يقابله ، وكأن الخبر بذاته هو الذى يذيع نفسه ، فهناك أمر تحكيه وتنتهى المسألة ، أما « أذاع به » فكأن الإذاعة مصاحبة للخبر وملازمة له تنشره وتخرجه من طىّ محدود إلى طى غير محدود . . أو من آذان تحترم خصوصية الخبر إلى آذان تتعقب الخبر ، ثم يقول : « ولو ردوه إلى الرسول » فالرسول أو من يحددهم الرسول صلى الله عليه وسلم هم الذين لهم حق الفصل فيما يقال وما لا يقال : « لعلمه الذين يستنبطونه منهم » والاستنباط مأخوذ من « النّبط » وهو ظهور الشيء بعد خفائه ، واستنبط أى استخرج الماء مجتهدا فى ذلك والنَبط هو أول مياه تخرج عند حفر البئر فنقلت الكلمة من المحسات فى الماء إلى المعنويات فى

الأخبار . وصرنا نستخدم الكلمة فى المعانى ، وكذلك فى العلوم . مثلما تعطى الطالب مثلاً تمريناً هندسياً ، وتعطيه معطياته ، ثم يأخذ الطالب المعطيات ويقول بما أن كذا = كذا . . ينشأ منه كذا ، فهو يستنبط من موجودٍ معدوماً .

وهنا يوضح الحق لهم : إذا سمعتم أمراً يتعلق بالأمن أو أمراً يتعلق بالخوف ، فإياكم أن تذيعوه قبل أن تعرضوه على رسول الله صلى الله عليه وسلم أو تعرضوه على أولياء الأمر الذين رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعطيهم بعض السلطة فيه ؛ لأنهم هم الذين يستنبطون . . هذا يقال أو لا يقال .

ويقول الحق : « ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان إلا قليلاً » كأنهم أذاعوا بعض أحداث حدثت ، لكنهم نجوا منها بفضل من الله سبحانه وتعالى وبعض إلهاماته فكان مما أذاعوا به ما حدث عندما عقد رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ العزم على أن يذهب إلى مكة فاتحاً . . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أراد غزوة وَرَّى بغيرها . . أى أنه لا يقول الوجهة الحقيقية كى يأخذ الخصوم على غرة ، وعندما يأخذ الخصوم على غرة يكونون بغير إعداد ، فيكون ذلك داعياً على فقدانهم قدرة المقاومة .

وانظروا إلى الرحمة فيما حدث فى غزوة الفتح ، فقد أمر رسول الله المسلمين بالتجهيز لغزو مكة حتى إذا ما أبصر أهل مكة أن رسول الله جاء لهم بجنود لا قبل لهم بها ؛ يستكينون ويستسلمون فلا يحاربون وذلك رحمة بهم . وكان « حاطب بن أبى بلتعة » قد سمع بهذه الحكاية فكتب كتاباً لقريش بمكة ، وأخذته امرأة وركبت بعيرها وسارت . وجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم بعلى ومن معه وقال لهم : إن هناك امرأة فى روضة خاخ معها كتاب من حاطب بن أبى بلتعة إلى قريش يخبرهم بقدومنا إلى مكة ، فذهبوا إلى الظعينة فأنكرت ، فهددها سيدنا علىٌّ وأخرج من عقاصها ـ أى من ضفائر شعرها ـ الكِتَاب ، فإذا هو كتاب من حاطب بن أبى بلتعة إلى قريش ، فاستحضر رسول الله صلى الله عليه وسلم حاطباً وقال له : أهذا كتابك ؟. قال : نعم يا رسول الله ، فقال : وما دعاك إلى هذا ؟ قال : والله يا رسول الله لقد علمت أن الله ناصرك ، وأن كتابى لن يقدم ولن يؤخر . وأنا رجل

ملصق فى قريش ولم أكن من أنفسهم ليس لى بها عصبية ولى بين أظهرهم ولد وأهل فأحببت أن أتقدم إلى قريش بيد تكون لى عندهم يحمون بها قرابتى وما فعلت ذلك كفرا ولا ارتدادا عن دينى ولا رضا بالكفر بعد الإسلام فقال له النبى : قد صدقت .

إذن فالحق سبحانه وتعالى يريد أن يبنى القضايا الإيمانية وخاصة ما يتعلق بأمر المؤمنين مع أعدائهم على الصدق ، ولا يستقيم الأمر أن يفشى ويذيع كل واحد الكلام الذى يسمعه ، بل يجب أن يردوا هذا الكلام إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وإلى أولى الأمر لأنهم هم الذين يستنبطون ما يناسب ظرفهم من الأشياء ، ربما أذنوا لكم فى قولها ، أو أذنوا بغيرها إذا كان أمر الحرب والخداع فيها يستدعى ذلك . وهذا يدل على أن الحق سبحانه وتعالى وإن كان قد ضمن النصر والغلبة لهم وأوضح : أنا الوكيل وأنا الذى أنصر ولا تهابوهم ، إلا أنه سبحانه يريد أن يأخذ المؤمنون بالأسباب . . وبكفايتهم به على أنه هو الناصر . .

« ولولا فضل الله عليكم ورحمته لا تبعتم الشيطان إلا قليلاً » وهذا يدل على أن هذه المسألة قد حدثت منهم ولكن فضل الله هو الذى سندهم وحفظهم فلم يجعل لهذه المسألة مغبة أو عاقبة فيها يسوؤهم . « ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان إلا قليلاً » ونعرف أنه كلما جاء فعل من الأفعال وجاء بعده استثناء . فنحن ننظر:هل هذا الاستثناء من الفاعل أو من الفعل ؟ . . وهنا نجد قوله الحق : « لاتبعتم الشيطان إلا قليلاً » فهل كان اتباع الشيطان قليلاً أى اتبع الشيطان قلة وكثيرون لم يتبعوا الشيطان . فهل نظرت إلى القلة فى الحدث أو فى المحدِث للحدث ؟ . فإن نظرت إلى القلة فى الحدث فيكون : لاتبعتم الشيطان إلا اتباعاً قليلاً تهتدون فيه بأمر الفطرة ، وإن أردت القلة فى المحدث : « لاتبعتم الشيطان إلا قليلاً » أى إلاَّ نفرا قليلا منكم سلمت فطرتهم فلا يتبعون الشيطان .

فقد ثبت أن قوماً قبل أن يرسل ويبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم جلسوا ليفكروا فيما عليه أمر الجاهلية من عبادة الأوثان والأصنام ، فلم يرقهم ذلك ، ولم يعجبهم ، فمنهم من صَدّ عن ذلك نهائياً ، ومنهم من ذهب ليلتمس هذا العلم من مصادرة فى البلاد الأخرى ، فهذا « زيد بن عمرو بن نفيل » ، وهذا « ورقة بن

نوفل » الذى لم يصدق كل ما عرض عليه ، و« أمية بن أبى الصلت » ، و« قُسّ بن ساعدة » ، كل هؤلاء بفطرتهم اهتدوا إلى أن هذه الأشياء التى كانت عليها الجاهلية لا تصح ولا يستقيم أن يكون عليها العرب فهؤلاء كانوا قلة وكانوا يسمون بالحنفاء والكثير منهم كان يعبد الأصنام ثم أكرمهم الله ببعثة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

إذن فقول الحق : « ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان إلا قليلاً » أى لأن الحق سبحانه وتعالى بفضله ورحمته لن يدع مجالاً للشيطان فى بعض الأشياء . . بل يفضح أمر الشيطان مع المنافقين . فإذا ما فضح أمر الشيطان مع المنافقين أخذكم إلى جانب الحق بعيداً عن الشيطان ، فتكون هذه العملية من فضل الله ورحمته .

وبعد ذلك يقول الحق سبحانه مخاطباً سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم :

﴿ فَقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفۡسَكَۚ وَحَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأۡسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأۡسٗا وَأَشَدُّ تَنكِيلٗا ﴿٨٤﴾ ﴾

وحين ترى جملة فيها الفاء فاعلم أنها مسببة عن شىء قبلها ، وإذا سمعت مثلاً قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقۡبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ﴾

(سورة عبس)

ومعنى ذلك أن القبر جاء بعد الموت ، فإذا وجدت « الفاء » فاعرف أن ما قبلها سبب فيما بعدها ، ويسمونها « فاء السببية » .

فما الذى كان قبل هذه الآية لتترتب عليه السببية فى قول الله سبحانه لسيدنا رسول الله : « فقاتل فى سبيل الله لا تكلف إلا نفسك » نقول : مادام الأمر جاء « فقاتل » ، فعلينا أن نبحث عن آيات القتال المتقدمة ، ألم يقل قبل هذه الآية :

﴿ فَلْيُقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾ ﴾

(سورة النساء)

والآية الثانية :

﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ ﴾

(من الآية ٧٥ سورة النساء)

إذن أمر القتال موجود من الله لمن ؟ لرسول الله ، والرسول يبلغ هذا الأمر للمؤمنين به ، والرسول يسمعه من الله مرة واحدة ؛ لذلك فإنّه صلى الله عليه وسلم أول من يصدق أمر الله فى قوله : « فليقاتل فى سبيل الله » . ثم ينقلها إلى المؤمنين ، فمن آمن فهو مصدق لرسول الله فى هذا الأمر . فالرسول هو أول منفعل بالقرآن فإذا قال الحق :

﴿ فَلْيُقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴾

(من الآية ٧٤ سورة النساء)

أو عندما يقول له الحق :

﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾

(من الآية ٧٥ سورة النساء)

ومادام الرسول صلى الله عليه وسلم هو أول منفعل بأوامر الله ، فإذا جاءه الأمر فعليه أن يلزم نفسه أولاً به ، وإن لم يستمع إليه أحد وإن لم يؤمن به أحد أو لم يتبعه أحد ، وهذا دليل على أنه واثق من الذى قاله له : « ومالكم لا تقاتلون فى سبيل الله » ومادام صلى الله عليه وسلم هو أول منفعل فعليه أولاً نفسه ؛ لأنه صلى الله

عليه وسلم بإقباله على القتال وحده ، إنما يدل مَن سمع القرآن على أن الرسول الذى نزل عليه هذا القرآن ، أول مصدق ، ومحمد لن يغش نفسه . فقبل أن يأمر المؤمنين أن يقاتلوا ، يقاتل هو وحده . ولذلك نجد أن سيدنا أبا بكر الصديق ـ رضوان الله عليه ـ حينما انتقل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى وحدثت الردة من بعض العرب ، وأصرّ خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن يقاتل المرتدين وقال : لو منعونى عقال بعير كانوا يؤدونه لرسول الله صلى الله عليه وسلم لجالدتهم عليه بالسيف . وحاول بعض الصحابة أن يثنى أبا بكر الصديق عن عزمه فقال : والله لو عصت يمينى أن تقاتلهم لقاتلتهم بشمالى .

إذن فقول الله لرسوله صلى الله عليه وسلم : « فقاتل فى سبيل الله » ينبهنا إلى أن هناك فرقاً بين البلاغ وبين تنفيذ المبلَّغ . ومادام الرسول صلى الله عليه وسلم قد سمع من الله ، فهو ملزم بتطبيق الفعل أولاً ، وبعد ذلك يبلغ الرسولُ المؤمنين ، فمن استمع إليه فعل فعله .

وقول الحق : « لا تكلف إلا نفسك » هو تكليف بالفعل لا بالبلاغ فقط ، فالرسول يبلغ ، لكن أن يفعل المؤمنون ما بلغهم به عن الله أو لا يفعلوا فهذا ليس من شأنه ولا هو مكلف به . ولكن على الرسول أن يلزم ويكلف نفسه ليقاتل فى سبيل الله . « فقاتل فى سبيل الله لا تكلف إلا نفسك » .

أمعنى ذلك أن يترك الرسول الذين آمنوا به لنفوسهم ؟ . لا.فالحق قد أوضح : عليك أيضاً أن تحرضهم على القتال فلا تتركهم لنفوسهم : « وحرض المؤمنين عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا » ومعنى « حرض » مأخوذ من « الحُرْض » وهو ما به إزالة العوائق وما ينظف الأيدى والملابس مما يرين عليها ويعلوها من الوسخ والدنس ، فعليك يا رسول الله أن تنظر فى أمر صحابتك وأتباعك وتعرف لماذا لا يريدون أن يقاتلوا ، وعليك أن تنفض عنهم الموانع وتزيل العوائق التى تمنعهم أن يقاتلوا .

« وحرض المؤمنين عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا » ، وكأن الحق سبحانه وتعالى يريد أن يقول لرسوله : إنك لا تنصر بالكثرة المؤمنة بك ، ولكن المؤمنين هم

ستر ليد الله فى النصر ، فالنصر منه سبحانه :

﴿ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنـدِ ٱللَّهِ ﴾

(من الآية ١٢٦ سورة آل عمران)

وورود كلمة « بأس » فى الآية التى نحن بصددها ، يراد بها القوة والشدة فى الحرب ، ويراد بها المكيدة ، ويراد بها هزيمة الأعداء . فكلمة « بأس » فيها معانٍ متعددة . والحق يبلغ رسوله : إنك يا محمد لا تكلف إلا نفسك وإياك أن يخطر على بشريتك : كيف أقاتل هؤلاء وحدى فإن القوم المؤمنين معك وإذا ما دخلوا القتال فهم لا ينصرونك ولكنهم يسترون يد الله فى النصر :

﴿ قَـٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ ﴾

(من الآية ١٤ سورة التوبة)

ولماذا لا ينصر الله المؤمنين والرسول مباشرة دون قتال لغيرهم من الكفار والمشركين ؟ . لأن النصر لو جاء بسبب غيبى من الحق ربما قالوا ظاهرة طبيعية قد نشأت . . ولكن الحق يريد أن يظهر أن القلة المؤمنة هى التى غلبت ، فالمؤمن يقبل على الأسباب ولا ينسى المسبب ، فحينما نظر المسلمون إلى الأسباب فقط فى « حنين » ، وقال بعضهم : لن نهزم عن قلة فنحن كثير ، هنا ذاق المسلمون طعم الهزيمة أولاً ، وبعد أن أعطاهم الحقُّ الدرس التأديبى أولاً . . نصرهم ثانياً . والحق يقول :

﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا ﴾

(من الآية ٢٥ سورة التوبة)

وهذا لفت للمؤمنين أن يكونوا مع الأسباب ويتذكروا المسبب دائماً ؛ لأن الأسباب إنما تأتى فقط لإثبات أن الله مع المؤمنين فلو أن المؤمنين انتصروا بأى سبب غيبى آخر لقال الأعداء : إن هذا الذى حدث هو ناتج ظاهرة طبيعية . والفرق بين الظاهرة الطبيعية والظاهرة المادية فى الخصوم ما حدث لسيدنا إبراهيم عليه السلام . فلم يرد الحق مجرد إنقاذ سيدنا إبراهيم من النار ؛ لأن الأمر لو كان كذلك لما مكّن أعداء إبراهيم عليه السلام من القبض عليه . . ولو فعل الحق ذلك لقال أعداء سيدنا

إبراهيم : آه لو كنا قد أمسكنا به ، ولكان ذلك فرصة لكفرهم .

ولكن الحق يجعلهم يمسكون بإبراهيم عليه السلام : وَتَرَكَ النارَ تتأجج ، ويقطع سبحانه الأسباب :

﴿ قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ ﴾

(سورة الأنبياء)

هذه هى النكاية ، فلو جاء إنقاذ إبراهيم بطريق غير ذلك من الأمور الغَيبية غير المادية المحسة ، لوجد خصوم إبراهيم المخارج لتبرير هزيمتهم .

ولذلك فالحق سبحانه وتعالى يوضح لرسوله : يا محمد أنا الذى أرسلتك ، ولم أكِلْك إلى نصرة من يؤمن بك ، وإننى قادر على نصرك وحدك بدون شيء ، ولكن أردت لأمتك التى آمنت بك أن ينالها يُمْنُ الإيمان بك فيستشهد بعضها ، فتثاب الأمة ، وتنتصر فتعلو وترتفع هامتها على العرب ، فلو كان الأمر مقصوراً على نصر رسول الله لنصره الله دون حرب أو جهاد .

وقول الحق سبحانه : « عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا والله أشد بأساً وأشد تنكيلاً » أى أنه سبحانه قادر على أن يوقف ويمنع حرب وكيد الكافرين فيُبطله ويهزمهم . وهذا ما حدث ، فبعد موقعة « أحد » التى ماعت نهايتها ولا يستطيع أحد أن يحدد مَن المنتصر فيها ومن المهزوم ؛ لأن رسول الله قد انتصر أولاً ، ثم خالف الرماة أمر رسول الله ، فحدث خلل فى صفوف المقاتلين المسلمين ، ولكن لم يبق المحاربون من قريش فى مكان المعركة ، وأيضا لم يتجاوزوها إلى داخل المدينة ، ولذلك لم تنته معركة أُحُد بنصر أَحَد . وبعد ذلك هددوا بأن الميعاد فى بدر الصغرى فى العام القادم .

ومر العام ، وجاء الميعاد ، وأراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يخرج ، فلما طالب بالخروج وجد كسلاً من القوم ، ولم يطعه إلا سبعون رجلاً ، وخرجوا إلى المكان المحدد . وأثبتوا أنهم لم يخافوا الموقف ، وقذف الله الرعب فى قلب أبى سفيان وقومه فلم يخرجوا . إذن فربنا قادر أن يكف بأس الذين كفروا ، فقد أقام رسول الله

فى المكان ، وجلس مع المقاتلين وكان معهم تجارة وباعوها وغنم المسلمون الكثير من هذه التجارة .

« عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا والله أشد بأساً وأشد تنكيلاً » وكلمة « عسى » فى اللغة تأخذ أوضاعاً متعددة ، فـ « عسى » معناها فى اللغة الرجاء ، كقول واحد : عسى أن يجيء فلان . أى : أرجو أن يجيء فلان . أو قول واحد مخاطباً صاحباً له : عسى أن يأتيك فلان بخير . وهذا رجاء أن يأتى فلان إلى فلان ببعض الخير ، وقد يأتى فلان بالخير وقد لا يأتى ، لكن الرجاء قد حدث .

وقد يقول واحد لصاحبه : عسى أن آتيك أنا بخير . هنا يكون الرجاء أكثر قوة ؛ لأن الرجاء فى الأولى فى يد واحد آخر غير المتحدث ، أما الخير هنا فهو فى يد المتحدث . لكن أيضمن المتحدث أن توجد له القوة والوجود حتى يأتى بالخير لمن يتحدث إليه ؟.

إنه صحيح ينوى ذلك ولكنه لا يضمن أن توجد عنده القدرة .

وإذا قال قائل : عسى الله أن يأتيك بالفرج . هذه هى الأوغل فى الرجاء . لكن هل من يقول ذلك واثق من أن الله يجيب هذا الرجاء ؟. قد يجيب الله وقد لا يجيب وفقاً لإرادة الله لا لمعايير من يرجو أو المرجو له . أما عندما يقول الحق عن نفسه : « عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا » فهذا هو القول البالغ لنهايات كل الرجاءات . فـ « عسى » بمراحلها المختلفة تبلغ قمتها عندما يقول الحق ذلك .

وهكذا نرى مراحل « عسى » . أن يقول قائل : عسى أن يفعل لك فلان خيراً . هذه مرحلة أولى فى الرجاء ، وأن يقول قائل : عسى أن آتيك أنا بخير . هذه مرحلة أقوى فى الرجاء ، فقد يحب الإنسان أن يأتى بالخير لكن قد تأتى له ظروف تعوقه عن ذلك . وأن يقول قائل : عسى الله أن يفعل كذا ، هذه مرحلة أكثر قوة ؛ لأن الخير فيها منسوب إلى القوة العليا ، لكن هذا الرجاء قد يجيبه الله وقد لا يجيبه .

والأقوى على الإطلاق هو أن يقول الله عن نفسه : « عسى الله أن يكف بأس

الذين كفروا » و« عسى » بالنسبة لله رجاء محقق لأنه إطماع من الله عز وجل،والإطماع منه واجب تحققه لأنه ـ سبحانه ـ هو الذى يحثنا ويدفعنا إلى الطمع فى فضله لأنه كريم ، وهو القائل سبحانه : « عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا والله أشد بأساً وأشد تنكيلاً » لأن أصحاب البأس من الخلق هم أهل أغيار ، فالقوى منهم قد يضعف أو يصاب ببعض من الرعب فتخلخل عظامه . أما واهب الفعل وواهب القوى لخلقه فهو القادر على أن يفعل فهو الأشد بأساً وهو سبحانه أشد تنكيلاً .

وساعة يسمع الإنسان أى شيء من مادة « نكل » فعليه أن يعرف أنها مأخوذة من « النِكْل » وهو القيد . وعندما يوقع الحاكم ـ مثلا ـ العذاب على مرتكب لجريمة ، والشخص الذى يرى هذا العذاب يخاف من ارتكاب مثل هذه الجريمة ، فكأن الحاكم قد قيدهم بالعذاب الذى أنزله بأول مجرم أن يفعلوا مثل فعله . ولذلك يقال على ألسنة الحكام : سأجعل من فلان نَكالاً . أى أن القائل سيعذب فلاناً ، بحيث يكون عبرة لمن يراه فلا يرتكب جريمة مثلها أبداً خوفا من أن تنزل به العقوبة التى نزلت ولحقت بِمن فعل الجريمة .

إذن فالتنكيل والنكال والنِكل كلها راجعة إلى القيد الذى يمنع إنساناً أن يتحرك نحو الجريمة ، أو قيد يمنع الإنسان أن يرجع إلى الجريمة التى فعلها أولاً ، أو أن هذا القيد وهو العذاب الذى عوقب به مرتكب الجريمة يكون ماثلا أمام الناس يحذرهم من الوقوع فيها كى لا تنالهم عقوبتها ونكالها .

إن الحق سبحانه وتعالى حين خلق الخلق ووزع عليهم فضل المواهب فلا يوجد واحد قد جمع كل المواهب ؛ لأن فكر الإنسان وطاقته وزمنه وظروفه شاء الله أن تختلف وشاء سبحانه ألا يجعل الإنسان موهوباً فى كل مجال ، وحين يوزع الله على كل عبد جزءًا من المواهب ويعطى العبد الآخر جزءا آخر حتى يتكامل العباد معاً . فلو أن صاحب موهبة تجمعت لديه مواهب الآخرين لاستغنى كل إنسان عن مواهب الآخرين ، والله يريد منا مجتمعاً متسانداً متكافلاً متكاملاً ، فما أفقده أنا أجده عند غيرى . فتجد بارعاً فى الهندسة وعندما يصاب هذا المهندس البارع بألم فهو يطلب طبيبا ، والطبيب الذى يريد بناء عيادة يطلبها من المهندس . وكلاهما يطلب مشورة المحامى فى كتابة العقود ، وكل هؤلاء فى حاجة إلى من يقيم البناء ، والذين يقيمون

البناء من مهن متعددة أخرى يحتاج بعضهم إلى بعض .

إذن لا يوجد فرد واحد قادر على أن يقوم بكل هذه العمليات بمفرده ، ولو أن هناك واحداً يستطيع كل ذلك لما احتاج إلى أحد ، ولو حدث ذلك لكان التفكك فى المجتمع . ولذلك جاء قول الحق :

﴿ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ﴾

(من الآية ٣٢ سورة الزخرف)

والناس حين تنظر لتفضيل الله لبعض الناس على بعض درجات ينظرون إلى ذلك فى مجال المال فقط .. ونقول لمن يظن ذلك : ـ أنت مخطئ ، فإن فضلك الله فى القوة والجسم فهذه رفعة ، وإن فضلك فى العلم فذلك رفعة أيضاً ، وإن فضلك فى الحلم فهذه رفعة ، إن تفضيل الحق لك فى أى مجال هو رفعة لك ، فأنت كعبد تكون مفضلاً ؛ ومفضلاً عليك .

إذن فحين يقول الحق : « ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات » . قد يسأل إنسان : أى بعض مرفوع وأى بعض مرفوع عليه ؟. ونقول : كل واحد مرفوع بموهبته ، وغيره مرفوع عليه بموهبته .

ومن القصور أن ننظر إلى التفضيل فى مجال المال فقط ، فلا يصح أن ننظر إلى هذه الزاوية وحدها ولكن لننظر من كل الزوايا . وعندما ننظر فى الزوايا جميعها نجد الفرد مرفوعاً فى شيء ، ومرفوعاً عليه فى أشياء ، وكل منا مسخر لغيره . إذن فعندما خلق الله العباد جعل كُلًّا منهم مسخراً للآخر ، ومادام الأمر كذلك ، فيجب ألا يُترك الفرد فى البيئة الإيمانية فذاً ، بل على كل ذى موهبة يفقدها غيره أن يمده بهذه الموهبة . فبعد أن كان فذاً ـ أى فرداً ـ يصير شَفْعاً . والشَّفْعُ ـ كما نعلم ـ هو ضم شيء إلى مثله ، فما ضم إلى غيره ليصيرا زوجا فهو شَفْع بخلاف الوتر فإنه الواحد .

فإذا كان الواحد منا موهوباً فليضم موهبته للثانى ، حتى يصبح الاثنان شَفْعاً ، وبذلك ينطبق عليه قول الحق :

﴿ مَّن يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا ﴿٨٥﴾ ﴾

وما هى الشفاعة الحسنة ؟ الذين من الريف يعرفون مسألة « الشُّفْعَة » فى العرف . فيقال : فلان أخذ هذه الأرض بالشفعة . أى أنه بعد أن كان يملك قطعة واحدة من الأرض ، اشترى قطعة الأرض المجاورة لتنضم لأرضه ، فبدلاً من أن تكون له أرض واحدة صارت له أرضان .

وعندما يأتى واحد لشراء أرض ما ، فالجار صاحب الأرض المجاورة يقول : أنا أدخل بالشفعة ، أى أنه الأولى بملكية الأرض . إذن فمعنى يشفع ، هو من يقوم بتعدية أثر الموهبة منه إلى غيره من إخوانه المؤمنين ولهذا فإنه يكون له نصيب منها .

فالشفاعة الحسنة هى التوسط بالقول فى وصول إنسان إلى منفعة دنيوية أو أخروية أو إلى الخلاص من مضرّة وتكون بلا مقابل . إذن فكل واحد عنده موهبة عليه أن يضم نفسه لغير الموهوب ، فبعد أن كان فرداً فى ذاته صار شفعاً . ولذلك يقال : فلان سيشفع لى عند فلان ، أى أنه سيضم صوته لصوت المستعين به . والحق سبحانه وتعالى فيما يرويه سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الله قال لسيدنا داود : إن الرجل ليعمل العمل الواحد أحكّمه به فى الجنة .

أى أن رجلا واحداً يؤدى عملا ما ، فيعطيه الله فضلاً بأن يقوم بتوزيع الأماكن على الأفراد فى الجنة ، وكأنه وكيل فى الجنة ، أى أنه لا يأخذ منزلا له فقط ، ولكنه يتصرف فى إعطاء المنازل أيضاً ، فتساءل داود : يارب ومن ذلك ؟ قال سبحانه : مؤمن يسعى فى حاجة أخيه يحب أن يقضيها قضيت أو لم تقض .

قال صلى الله عليه وسلم : « من مشى فى حاجة أخيه وبلغ فيها كان خيرا له من

اعتكافه عشر سنين ، ومن اعتكف يوما ابتغاء وجه الله تعالى جعل الله بينه وبين النار ثلاثة خنادق أبعد مما بين الخافقين »[1] .

ذلك لأن العبد الذى سعى فى قضاء حاجة أخيه يكون قد أدى حق نعمة الله فيما تفضل به عليه ، ويكون من أثر ذلك أنه لا يسخط أو يحقد غير الواجد للموهبة على ذى الموهبة . وبذلك فسبحانه يزيل الحقد من نفس غير الموهوب على ذى الموهبة ؛ فغير الموهوب يقول : إن موهبة فلان تنفعنى أنا كذلك ، فيحبّ بقاءها عنده ونماءها لديه .

ويقول الحق : « من يشفع شفاعة حسنة يكون له نصيب منها » ثم يأتى الحق بالمقابل ، فهو سبحانه لا يشرع للأخيار فقط ، ولكنه يضع الترغيب للأخيار ويضع الترهيب للأشرار ، فيقول : « ومن يشفع شفاعة سيئة يكن له كفل منها » .

ولنر المخالفة والفارق بين كلمة « النصيب » وكلمة « الكفل » . كلمة « النصيب » تأتى بمعنى الخير كثيرا . فعندما يقول واحد : أنت لك فى مالى نصيب . هذا القول يصلح لأى نسبة من المال . أما كلمة « كفل » فهى جزء على قدر السيئة فقط . وهذا هو فضل من الله ، فمن جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ، وهذا نصيب كبير . ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها .

وهذه الآية قد جاءت بعد تحريض الرسول للمؤمنين على القتال ، أى أنك يا رسول الله مُطالب بأن تضم لك أناساً يقاتلون معك ؛ فتلك شفاعة حسنة سوف ينالون منها نصيباً كبيرا وثوابا جزيلا .

أما قول الحق : « ومن يشفع شفاعة سيئة يكن له كفل منها » أى يكون له جزء منها ، أى يصيبه شؤم السيئة ، أما الجزاء الكبير على الحسنة فيدفع إلى إشاعة مواهب الناس لكل الناس . ومادامت مواهب الناس مشاعة لكل الناس فالمجتمع يكون متسانداً لا متعانداً ، ويصير الكل متعاوناً صافى القلب ، فساعة يرى واحد النعمة عند أخيه يقول : « سيأتى يوم يسعى لى فيه خير هذه النعمة » .

---

(١) رواه البيهقى .

ولذلك قلنا : إن الذى يحب أن تسرع إليه نعم غيره فليحب النعم عند أصحابها . فإنك أيها المؤمن إن أحببت نعمة عند صاحبها جاءك خيرها وأنت جالس . وإذا ما حُرمت من آثار نعمة وهبها الله لغيرك عليك فراجع قلبك فى مسألة حبك للنعمة عنده ، فقد تجد نفسك مصاباً بشىء من الغيرة منها أو كارهاً للنعمة عنده ، فتصير النعمة وكأنها فى غيرة على صاحبها ، وتقول للكاره لها : « إنك لن تقربنى ولن تنال خيرى » .

ويختم الحق الآية : « وكان الله على كل شىء مُقيتاً » جاء هذا القول بعد الشفاعة الحسنة والشفاعة السيئة ، وفى ذلك تنبيه لكل العباد : إياكم أن يظن أحدكم أن هناك شيئاً مهما صغر يفلت من حساب الله ، فلا فى الحسنة سيفلت شىء ، ولا فى السيئة سيضيع شىء . وأخذت كلمة « مُقيتاً » من العلماء أبحاثاً مستفيضة . فعالم قال فى معناها : إن الحق شهيد ، وقال آخر : « إن الحق حسيب » ، وقال ثالث : إن « مقيتاً » معناها « مانح القوت » ورابع قال : « إنه حفيظ » وخامس قال : « إنه رقيب » .

ونقول لهم جميعاً : لا داعى للخلاف فى هذه المسألة ، فهناك فرق بين تفسير اللفظ بلازم من لوازمه وقد تتعدد اللوازم ، فكل معنى من هذه المعانى قد يكون صحيحاً ، ولكن المعنى الجامع هو الذى يكون من مادة الكلمة ذاتها . و« مُقيت » من « قاته » أى أعطاه القوت ، ولماذا يعطيهم القوت ؟ ليحافظ على حياتهم ، فهو مقيت بمعنى أنه يعطيهم ما يحفظ حياتهم ، ومعناها أيضاً : المحافظ عليهم فهو الحفيظ . وبما أنه سبحانه يعطى القوت ليظل الإنسان حياً ، فهو مشاهد له فلا يغيب المخلوق عن خالقه لحظة ، وبما أنه يعطى القوت للإنسان على قدر حاجته فهو حسيب . وبما أنه يرقب سلوك الإنسان فهو يجازيه .

إذن كل هذه المعانى متداخلة ومتلازمة ؛ لذلك لا نقول اختلف العلماء فى هذا المعنى ، ولكن لنقل إن كل عالم لاحظ ملحظاً فى الكلمة ، فالذى لاحظ القوت الأصلى على صواب ، فلا يعطى القوت الأصلى إلا المراقب لعباده دائماً ، فهو شهيد ، ولا يعطى أحداً قوتاً إلا إذا كان قائماً على شأنه فهو حسيب . وسبحانه لا يُقيت

الإنسان فقط ولكن يقيت كل خلقه ، فهو يقيت الحيوان ويلهمه أن يأكل صنفاً معيناً من الطعام ولا يأكل الصنف الآخر .

إننا إذا رأينا العلماء ينظرون إلى « مقيت » من زوايا مختلفة فهم جميعا على صواب ، سواء من جعلها من القوت أو من الحفظ أو من القدرة أو من المشاهدة أو من الحساب ، وكل واحد إنما نظر إلى لازم من لوازم كلمة « مقيت » وسبحانه يقيت كل شيء ، فهو يقيت الإنسان والحيوان والجماد والنبات .

ونجد علماء النبات يشرحون ذلك ؛ فنحن نزرع النبات ، وتمتص جذور النبات العناصر الغذائية من الأرض ، وقبل أن يصبح للنبات جذورٌ ، فهو يأخذ غذاءه من فلقتى الحبة التى تضم الغذاء إلى أن ينبت لها جذر ، وبعد أن يكبر جذر النبات فالفلقتان تصيران إلى ورقتين ، وسبحانه على كل شيء مقيت ، ويقول العلماء من بعد ذلك : إن الغذاء قد امتصه النبات بخاصية الأنابيب الشعرية . أى أن النبات يمتص الغذاء من التربة بواسطة الجذور الرفيعة التى تمتص الماء المذاب فيه عناصر الغذاء . وفتحة الأنبوبة فى الأنابيب الشعرية لا تسع إلا مقدار الشعرة ، وعندما توضع فى الإناء فالسائل يصعد فيها ويرتفع الماء عن مستوى الحوض ، وعندنا تتوازى ضغوط الهواء على مستويات الماء فالماء لا يصعد .

ومثال ذلك : عندما نأتى بماء ملون ونضعه فى إناء ، ونضع فى الإناء الأنابيب الشعرية، فالسائل الملون يصعد إلى الأنابيب الشعرية، ولا تأخذ أنبوبة مادة من السائل، وتترك مادة بل كل الأنابيب تأخذ المادة نفسها . لكن شعيرات النبات تأخذ من الأرض الشيء الصالح لها وتترك الشيء غير الصالح . وهو ما يقول عنه علماء النبات « ذلك هو الانتخاب الطبيعى » . ومعنى الانتخاب هو الاختيار ، والاختيار يقتضى عقلاً يفكر ويرجح ، والنبات لا عقل له ، ولذلك كان يجب أن يقولوا إنه « الانتخاب الإلهى » ، فالطبيعة لا عقل لها ولكن يديرها حكيم له مطلق العلم والحكمة والقيومية .

وسبحانه يقول عن ذلك :

﴿ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾

(من الآية ٤ سورة الرعد)

فالفلفل يأخذ المادة المناسبة للحريفية ، والقصب يأخذ المادة التى تصنع حلاوته ، والرمان يأخذ المادة الحمضية . هذا هو الانتخاب الإلهى .

« وكان الله على كل شىء مُقيتاً » وساعة تسمع « كان الله » فإياك أن تتصور أن لـ « كان » هنا ملحظاً فى الزمن ، فعندما نقول بالنسبة للبشر « كان زيد غنياً » فزيد من الأغيار وقد يذهب ثراؤه . لكن عندما نقول « كان الله » فإننا نقول « كان الله ومازال » ، لأن الذى كان ويتغير هو من تدركه الأغيار . وسبحانه هو الذى يُغَيِّر ولا يَتَغَيَّر ، وموجود منذ الأزل وإلى الأبد . وحين أوضح لنا سبحانه الشفاعة وأمرنا أن يعدى الواحد منا مواهبه إلى غيره فذلك حتى تتساند قدرات المجتمع لأنه يربب الفائدة للعبد المؤمن ويربيها للجميع .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾ ﴾

الحق هنا يريد أن يربب معنى الحياة . فما معنى : « حُييتم » ؟ الكلام السطحى الأولى فيها : إذا حياك واحد وقال لك : « السلام عليكم » فعليك أن ترد السلام . وكان العرب قديماً يقولون : حياك الله . وبعد أن جاء الإسلام جعل التحية فى اللقاء هى السلام :

﴿ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ ﴾

(من الآية ٤٤ سورة الأحزاب)

أو كما قال الحق فى موقع آخر :

﴿ فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾

(من الآية ٦١ سورة النور)

ولنفهم معنى كلمة « حياك » . مادة الكلمة هى « الحاء » ، و« الياءان » ، ومنها كلمة « حياة » ، التى منها حياتنا . والحياة إذا نظرنا إليها قد تأخذ معنًى سطحياً عند الناس وهو ما نشأ عنه الحس الحركى وهى أول ظاهرة فينا ، وبعد ذلك فى الحيوان ، وإن ارتقيت فى الفهم تجد أن كلمة « الحياة » تنتظم كل أجناس الوجود حتى الجماد ، لكن الإنسان لا يتعرف إلى الحياة إلا فى المظهر الحسى والحركى ، ولكن لكل كائن حياة تناسبه .

وعندما كانوا يعلموننا فى المدارس علم المغناطيسية كنا نرى تجربة المغناطيس ونأتى بقضيب مغناطيسى ، ثم نأتى ببرادة الحديد ، ونسير به فى اتجاه واحد وذلك حتى نرتب الجزئيات ترتيباً يتناسب مع اتجاه المغناطيسية فى القضيب الحديدى . هذا القضيب الذى نراه مادة جامدة فى نظرنا ، ولكن توجد فيها ذرات دون إدراك الإنسان تتكيف بحركة خاصة بها ، ويُعاد ترتيب السالب منها والموجب ولا توجد قدرة عند المشاهد لها كى يدرك حركتها .

وحتى يقربها المدرسون إلى ذهن التلاميذ ، جاءوا بأنبوبة زجاجية ووضعوا فيها برادة الحديد وجاءوا بالقضيب الممغنط ومرّروه بجانب البرادة ، فرأى التلاميذ البرادة وهى تتقافز إلى أن تستقر ، وهنا يتعلم التلاميذ أن برادة الحديد غير الممغنطة عندما يمر عليها القضيب الممغنط فى اتجاه واحد فذراتها تترتب على أساس واضح ، حتى تصير ممغنطة .

وهذا دليل الحس ؛ فقد انقلبت السوالب فى جهة والموجبات فى جهة . . فالقضيب المغناطيسى له حركة ولكننا لا ندرك حسه ولا حركته لأننا لا نملك المقاييس اللازمة لذلك .

ومثال آخر : لنفترض أننا نتحرك وجاءت طائرة من أعلانا والتقطت صورة لنا .

وعندما يأخذون الصورة من قريب ، فهم يرون الحركة ، لكن كلما ابتعدت الطائرة فنحن لا نرى الحركة حتى تصير نقطة بعيدة وكأنها ثابتة . وهى ليست ثابتة ، وإنما هى متحركة بصورة دقيقة جداً لدرجة أنها لا تُدرك . فكل شىء - إذن - فيه حياة خاصة تناسبه ، وكل شىء له الحس والحركة الخاصة به . وعندما نأتى للقرآن ، نرى كيف عالج هذه القضية فيقول :

﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾

(من الآية ٨٨ سورة القصص)

استثنى القول وجه الله . أى ذاته ، فكل شىء ما عداه هالك .

ومعنى « هالك » أى ليس فيه حياة ، ومادام كل شىء يهلك فهذا دليل أن فى كل شىء حياة ، حتى يأتى الإذن من الحق أن تذهب الحياة من كل شىء إلا وجهه سبحانه ، وقد يتساءل إنسان ومن الذى قال : إن كلمة « هالك » تعنى ليس فيه حياة ؟. نقول : إن القرآن حين يتعرض لقضية لا يقسم العلوم إلى أبواب ولكنه يضع فى كل آية جزئية تشرح لنا ما خفى علينا فى جزئية أخرى كى نفهم أن القرآن متكامل ، فيقول الحق :

﴿ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ ﴾

(من الآية ٤٢ سورة الأنفال)

فيكون الهلاك ضد الحياة .

ونحن إذا ما نظرنا إلى الصناعات التى نصنعها ، وليكن البلاستيك مثلاً ، إننا نصنع منه أوانى للغسيل أو لخلافه ، وأول ما نشتريه للاستعمال نجده زاهى اللون ، وبعد استعماله لفترة يزول عنه البريق ويصبح شاحب اللون ، فما الذى حدث له ؟ . لقد تغير . ما الذى أحدث التغيير ؟ . يقال : الاستعمال وأشعة الشمس وغير ذلك . إذن ففيه حس لأنه تأثر وحركة لأنه تغيرّ ، وكذلك الأحجار الكريمة والمرمر والرخام وغيرها يقدرون عمرها بمئات السنين وأحياناً بآلاف السنين ، وكلما طال عمرها تغير لونها من الحياة والتفاعلات .

وعندما نمسك ورقة ونضعها تحت المجهر فإننا نرى عدداً هائلاً من الغرف الصغيرة ، ولا حصر لهذه الغرف ، ويقول المؤمن :

﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴾

(من الآية ١٤ سورة المؤمنون)

فكل شيء فى الوجود له حياة تناسبه ، إذ استقريتها وتتبعتها بدقة واستطعت أن توجد الآلات التى تستنبط والتى تساعد على الإدراك فإنك ترى الحركة وتشاهدها بالحس .

إلا أن الحياة بالنسبة لأرقى الأجناس ـ وهو الإنسان ـ المنتفع بكل كائن حى فى الكون ، هذه حياة تنتهى فى ميعاد مجهول بالنسبة للإنسان معلوم بالنسبة لله . وأراد الله أن يكلفه تكليفاً إن استمع إليه ونفذه فهو سبحانه يعطيه حياة لا تنتهى . وعندما نقيس الحياة التى لا تنتهى بالحياة التى تنتهى ، فأى منهما جديرة بأن تسمى حياة ؟. إنها الحياة الأخرى التى لا تنتهى ، ولذلك يقول الحق :

﴿ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾

(من الآية ٦٤ سورة العنكبوت)

هذه هى الحياة الحقة ، وإلا فما قيمة هذه الحياة الدنيا التى تهددك فيها الآفات والآلام والاضطرابات والأسقام والأمراض ، وبعد ذلك تنتهى ، فيوضح الحق : خذ حياة لا مقطوعة ولا ممنوعة ، فهذه هى الحياة حقاً ، ولذلك فالحق عندما تعرض لهذه المسألة أوضح : إياكم أن تعتقدوا أن هذه الحياة الدنيا هى التى أريدها لكم ، أنا أريد لكم حياة أخلد من هذه ، ولذلك قال :

﴿ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾

(من الآية ٢٤ سورة الأنفال)

هو يخاطبهم إذن فهم أحياء بالقانون المتعارف عليه ، وأنهم إن لم يستجيبوا إلى ما دعاهم إليه الحق والرسول لن يأخذوا لوناً أرقى من الحياة ، وهى حياة لا تهددها الآفات ولا الأثقال ولا الأمراض ولا الفناء ، إنها الحياة الحقة ، ولذلك يسميها الحق

« الروح » لأنها تحرك الجسم وتعطيه حياة وإن كانت تنتهى فيقول :

﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى ﴾

(من الآية ٧٢ سورة ص)

هذه أولى مراحل الحياة الممنوحة للمؤمن والكافر .

ويسمى سبحانه الحياة الأكبر منها والتى لا تنتهى يسميها الحق (روحاً) أيضاً :

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ﴾

(من الآية٥٢ سورة الشورى)

وهذه هى التى سوف تعطى الحياة الأرقى . الأولى اسمها « روح » تعطى حياة فانية . والثانية هى « روح » أيضاً ، إنها ما أوحى الله به ، لأن الناس إذا عملوا به يحيون حياة دائمة خالية من الشقاء والكدر . إذن فقوله : « إذا دعاكم لما يحييكم » هى دعوة إلى الحياة الخالدة ، والحياة الأبدية السعيدة فى الآخرة مرهونة بأن يلتزم الإنسان منهج الله فى حياته ، وإن كانت منتهية .

والحياة الدنيا يرى الإنسان فيها الأغيار والأسقام والمهيجات ، فإذا جاء له من يطمئنه ومن ينفى عنه القلق والخوف فكأنه يحسن حياته . وكلمة « حياك الله » أو « السلام عليكم » تعنى : « كن آمناً مطمئناً » وإلا فما قيمة الحياة بدون أمن واطمئنان ؟ .

إذن فكلمة « حياك الله » أو « السلام عليكم » أى الأمان والاطمئنان لك . فأنت لا تعرف هل يجىء القادم إليك بخير أو بشر ، لكن ساعة يقول : السلام عليكم ، فقد يجعل بهذه التحية الأمان فى قلب المتلقى به ويشعر بقيمة حياته .

إذن فقوله الحق : « وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها » يعنى : إذا ربتم حياتكم بالتحية التى هى السلام والتى تضمن الأمن والاطمئنان عليكم رد التحية . فكلمة « تحية » إعطاء لقيمة الحياة ، وكذلك كلمة « حيوا » أى أعط من أمامك شيئاً من الحياة المستقرة الآمنة المطمئنة . فالحياة بدون أمن وبدون اطمئنان ، كلا حياة .

والشاعر العربى يقول :

ليس من مات فاستراح بميْت إنما الميْت ميّت الأحياء

فقول الحق : « وإذا حييتم » أى أنه إذا ربيتم حياتكم وبوركتم بالأمن وبالسلام « فحيوا بأحسن منها أو ردوها » أى عليكم أن تردوها إما بالتحية مثلها وإما بأفضل منها . والعلماء عندما جاءوا ليتكلموا عن هذا ، قصروا المسألة على تحيات اللقاء . فمن قال لك : السلام عليكم ، فقل له : وعليكم السلام ورحمة الله . أى أنك تزيد عليه .

عن سلمان الفارسى قال : جاء رجل إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : السلام عليك يا رسول الله ، فقال : وعليك السلام ورحمة الله ، ثم جاء آخر فقال : السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : وعليك السلام ورحمة الله وبركاته ، ثم جاء آخر فقال : السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته ، فقال له : وعليك : فقال له الرجل : يارسول الله ـ بأبى أنت وأمى ـ أتاك فلان وفلان فسلما عليك فرددت عليهما أكثر مما رددت على ، فقال : إنك لم تدع لنا شيئا قال الله تعالى : « وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها فرددناها عليك »[1] .

وعندما تكلم العلماء فى مسألة السلام ، صنفوا لها فقالوا : الماشى يسلم على القاعد . والراكب يسلم على الماشى ، والصغير يسلم على الكبير . والمبصر يسلم على الكفيف . والقليل يسلم على الكثير . وكل خطاب موجه للمؤمنين ينتظم ويشمل ذكورهم وإناثهم إلا أن يكون الحكم مما يخص النساء .

وهنا يقول الحق : « وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها » أللنساء تحية ؟ . نعم ، لهن تحية ، المرأة تحيى المرأة ، والمرأة تحيى زوجها ، والمرأة تحيى محارمها ، والمرأة العجوز التى لا إربة فيها تبدأ التحية وتردها ، أما المرأة الشابة فهى لا تبدأ أحداً بالسلام ولا ترد السلام . لا تبدأ بالسلام إلا إذا كان معها مثلها ، لأنهم

---

(١) رواه ابن جرير .

يقولون : المرأة على المرأة عين أكثر من ألف رجل ، أى أن المرأة تحرس المرأة أكثر من ألف رجل ، فعندما تكون معها مثيلتها تحفظها ، ولذلك يقال : إن المرأة إن بدأت بالسلام أو ردت السلام فذلك حرام ، وإذا بدأها واحد بالسلام أو رد عليها السلام فذلك مكروه . لماذا؟ لأن بَدْءَها له إثارة ، ولكنه إذا بدأ هو بالسلام فليس ضرورياً أن تستجيب . فإن كان معها أحد أو جماعة تُؤمن عليها فلا حرج من أن ترد السلام .

وقالوا : وإذا كان الذى يلقى السلام ويبدأه به غير مؤمن ؟ النبى عليه الصلاة والسلام أوضح أنهم يلوون فى الكلام ، فإذا قالوا لكم : « السلام » فقولوا : وعليكم . وذلك يعنى إن قالوها كلمة طيبة لها معنى طيب فأهلاً بها وعليهم مثلها ، وإن كانت كلمة خبيثة كقولهم : « السام عليكم » فقولوا:«وعليكم » ، لأن السام معناها الموت ، فلكيلا يستهزئوا بكم ، قولوا : وعليكم . وبعض العلماء قال : المقصود بـ « فحيوا بأحسن منها » أى بالنسبة للمؤمن ، و« ردوها » بالنسبة للكافر .

لكن أتلك هى التحية فقط ؟ . إذا كان الذى حياك بقول وأمّنك بقول ، فكيف لا تحذر من يؤمن بالقول نفاقاً ، يظهر لك الأمن ثم يقول : السلام عليكم ، ومعه الضر ؟ . كما أن الحق علمنا أن نرد التحية بمثلها لأن نقل القضايا من قولية إلى فعلية هى المحك والأساس ، فإذا حياك إنسان بخير عنده فعلى المسلم أن يقدم التحية بخير منها ، وإن لم يستطع فليرد على الأقل بمثلها ، وعندما يرد الإنسان بمثلها يصبح التكارم بين الناس إن لم يزد فهو لم ينقص ، ويكون الخير متنامياً ، فإذا قدم إنسان خيرا لإنسان آخر ، وردّ عليه بعمل أفضل منه ، ففى ذلك نماء للخير ، وإن لم يستطع فليرد بمثل العمل وبذلك لا ينقص من خيره ، فيكون خير كل إنسان محجوزاً على نفسه ؛ لأنه مادام سيعطى التحية ويأخذ على قدر ما يعطى ، فكأنه لم ينقص من خيره شيئاً .

والحق سبحانه وتعالى حين يسخّى النفوس فى أن تعطى أكثر مما حييت به ، فهذا يبين أن المؤمن فى البيئة الإيمانية إنما يتكاثر خيره ، لأنّه كلما فعل خصلة خير فهى تعود عليه بالخير . ولذلك فهناك أناس كثيرون إذا أرادت خيراً من أحد ، أعطته خيراً

يناسب قدرها ، ليعطى هو خيراً يناسب قدره ، وهذه تحدث كثيراً خصوصاً مع الملوك ، ومثال ذلك : كان المواطن السعودى يقول للملك عبدالعزيز آل سعود : أريد أن تشرب القهوة عندى ، ويذهب الملك عبدالعزيز آل سعود ليشرب القهوة ، ويؤدى لصاحب الدعوة خدمة تعادل القهوة مليون مرة ، فكل من يحيى الملك يرد عليه التحية بأكثر منها .

إذن فقول الحق سبحانه وتعالى : « وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها » وجاءت كلمة « أو ردوها » من أجل أن يطمئن من قدم تحية أنه سيجد رد تحيته أو أكثر منها .

والحق سبحانه وتعالى عندما يرى خلقه المؤمنين به يتكارمون ، فهو يضعها فى الحساب ؛ لذلك يقول سبحانه : « إن الله كان على كل شىء حسيباً » فالحساب لا ينتهى عند أن يرد المؤمن التحية أو يؤدى خيراً منها ، ولكن هناك جزاءً أعلى وأفضل عند مليك مقتدر .

وفى تناولنا لمسألة التحية عَلِمْنَا أن كلمة التحية وهى « السلام عليكم » معناها أمان واطمئنان ، والأمان والاطمئنان كلاهما يعطى الحياة بهجة ، فالحياة بدون أمن أو اطمئنان ليس لها قيمة . فكأن إشاعة السلام بقولنا : « السلام عليكم » أو « السلام عليكم ورحمة الله » أو « السلام عليكم ورحمة الله وبركاته » تجعل المجتمع مجتمعا صفائيا ، ومادام المجتمع كله مجتمعا صفائيا ، فخير أى واحد يكون عند الآخر . ويتعدى ذلك إلى أن يطلب المؤمن خير الله لأخيه المؤمن .

إن الإنسان حين يصعد التحية بعد قوله:« السلام عليكم » بإضافة « ورحمة الله وبركاته » فهو يربط النفس البشرية برباط إيمانى بالحق سبحانه وتعالى . وبذلك تتذكر وتعى أن الخلق عيال الله ، وسبحانه يحب أن يكون خلقه منسجمين بالعلاقات الطيبة فيما بينهم ، وعندما يكون الخلق على علاقة طيبة بعضهم مع بعض فسبحانه يعطيهم من خيره أكثر وأكثر .

« وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها إن الله كان على كل شىء حسيباً » ومن الطبيعى أن نفهم أن رد التحية يعنى أن نقول: تحية مثل التى قالها لنا، فالرد ليس

مقصوداً به أن نرد التحية نفسها ، ولكننا نقول مثلها . فالضمير مبهم ويوضحه مرجعه .

مثال ذلك أن تقول : « لقيت رجلاً فأكرمته » هنا الضمير مبهم ويوضحه مرجعه ، مثال آخر « تصدقت بدرهم ونصفه » فهل معنى ذلك أننى تصدقت بدرهم ثم استرددته وقسمته قسمين وتصدقت بنصفه ؟ لا ، إن معنى ذلك هو أننى تصدقت بدرهم ، ونصف مثل الدرهم ، فإذا قال الحق : « فحيوا بأحسن منها أو ردوها » أى ردوا التحية بأفضل منها أو بمثل التى تتلقاها ، فإذا ما قيل لك:« السلام عليكم » فقل « وعليكم السلام » .

والحق سبحانه وتعالى يبلغ المؤمنين : لا تظنوا أيها المؤمنون أنى بخلقى لكم وإعطائى لكم حرية الاختيار فى الإيمان أو فى الفعل أو فى الترك إياكم أن تظنوا أنى لا أحاسبكم بل سأجازيكم بالثواب على الطاعة وبالعقاب على المعصية ، فحين آمركم بفعل ، فمعناه أننى خلقتكم صالحين أن تفعلوا ، وحين أنهاكم عن فعل فمعناه أننى خلقتكم صالحين ألا تفعلوا .

إذن فعندما يأتى أمر ؛ فمعنى هذا أن الذى خلقنى علم أزلاً بصلاحيتى لتنفيذ هذا الفعل أو عدم تنفيذه . . أى صلاحيتى أن أطيع وأن أعصى ، إذن فهناك فعل يقول الحق للعبد فيه : « افعله » ، وفعل يقول له فيه : « لا تفعله » ، والمخالفات والمعاصى إنما تنشأ من نقل « افعل » فى مجال « لا تفعل » ، ومن نقل « لا تفعل » فى مجال « افعل » ، هذا هو معنى المعصية . والحازم لا يأخذ الاختيار الممنوح له ليحقق شهواته بوساطة هذا الاختيار ، بل لا بد أن يضع بجانب الاختيار أنه مردود إلى من أعطاه الاختيار .

وحين تعلم أيها العبد أنك مردود وراجع ومصيرك إلى من أعطاك الاختيار وأنه سوف يجازيك ، فإنك لن تنقل أمراً من مجال « لا تفعل » إلى مجال « افعل » ، أو من مجال افعل إلى مجال لا تفعل . فلو أخذت الاختيار لتريح نفسك لحظة وهى فانية ، فكيف تتعب نفسك فى الباقية ؟ فإن أردت أن تكون حازماً وعاقلاً فلا تفعل ذلك ؛ فالمؤمن يمتلك الكياسة والفطنة فلا يُقْدِمُ على مثل هذا .

راجع أصله وخرَّج أحاديثه د. أحمد عمر هاشم نائب رئيس جامعة الأزهر .

وبعد ذلك يقول سبحانه :

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۗ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾ ﴾

وهذا يعني : أنّه لا يوجد إله آخر سيأتي ليتدخل وينهى المسائل من خلف ظهر الخالق الأعلى سبحانه . « الله لا إله إلا هو » فليس هناك إله سواى ، لا تشريع يرسم صلاح البشر إلا تشريعى وسترجعون إلىّ ، وليس هناك واحد يقول:« افعل » « ولا تفعل » ، والآخر يقول بالعكس ، إنه إله واحد ، والأمر منه بـ« افعل » هو الأمر الوحيد الصالح للإنسان . والنهى منه بـ« لا تفعل » هو النهى الوحيد الذى يجب على العاقل أن يتجنبه ، ولذلك تجده يقول :

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴿٦﴾ ﴾

(سورة الكافرون)

إنه سبحانه يوضح : ليس هناك مضارة بين دينين ، دين للكافرين ، ودين للمؤمنين ، لا ، بل هو دين ومنهج واحد صالح للإنسان هو منهج التوحيد جاءت به الرسل جميعا وختم بالإسلام الذى لا دين بعده ، ولذلك جاء بعدها مباشرة :

﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴿١﴾ ﴾

(سورة النصر)

ويأتى بعد ذلك بسورة المسد :

﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا

﴿ ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۝٥ ﴾

(سورة المسد)

أما كان أبو لهب يقدر أن يقول بعدها : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ؟ كان يقدر ، ولو قالها لشكك فى هذه الآية ، ولقالوا : إنه لن يصلى ناراً ذات لهب . إن هذا الأمر كان له فيه اختيار ، ولم يوفقه الله إلى أن يقولها ولو نفاقاً ، لماذا ؟ لأن الحق قال بعد هذه الآية مباشرة :

﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ﴾

(سورة الإخلاص)

أى فليس هناك إله آخر يرد أمره سبحانه وتعالى : « الله لا إله إلا هو ليجمعنكم إلى يوم القيامة » . وكلمة « يجمع » تعنى أنه يخرجنا مع بعضنا من قبورنا جميعا ، ويحشرنا جميعاً أمامه ، وقد تعنى « ليجمعنكم » أى ليحشرنكم من قبوركم لتلقى جزاء يوم القيامة .

لماذا جاء هذا القول ؟ جاء لكى يتفحصه العاقل ، فلا يأخذ انفلات نفسه من منهج الله إلا بملاحظة الجزاء على الانفلات من المنهج ، فلو أخذ نفسه منفلتاً عن منهج الله بدون أن يقدر الجزاء لكان أحمق وأخرق .

ولذلك قلنا : إن الذين يسرفون على أنفسهم فى المعصية لا يستحضرون أمام عيونهم الجزاء على المعصية . ولذلك يقولون : كل الجرائم إنما تتم فى غفلة صاحبها عن الجزاء ؛ فالمجرم يرتكب جريمته وهو مقدر السلامة لنفسه ، والسارق يذهب إلى السرقة وهو مقدر السلامة ، لكن لو وضع فى ذهنه أنه من الممكن أن يتم القبض عليه لما فعلها أبداً .

والحق سبحانه وتعالى يوضح : إياك يا من تريد ـ بالاختيار الذى أعطيته لك ـ الانحراف عن منهجى ألاّ تقدر الجزاء على هذه المخالفة . بل عليك أن تأخذها قضية واضحة ، واسأل كم ستعطيك المعصية من نفع وكم سيُعطيك الله من خير على الطاعة ، وضع الاثنين فى كفتى ميزان ؛ فالذى يعطيك الخير الأبقى افعله ، وابتعد عما لا يعطيك الخير بل إنه يوقعك فى الشقاء والشر .

« الله لا إله إلا هو ليجمعنكم إلى يوم القيامة » ويوم القيامة هو اليوم الذى قال فيه الحق :

﴿ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَـٰلَمِينَ ۞ ﴾

(سورة المطففين)

ولماذا يوم القيامة ؟ لأن آخر مظهر من مظاهر دنيا الناس أنهم حين يموتون ينامون ، وهذا ما نراه ، وبعد ذلك ندخله إلى القبر ولا نعرف كيف يأتى قائماً من نومه إلا بقول الحق : « ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه » .

اى يجب أن يكون الإيمان بيوم القيامة لاشك فيه ؛ لأنك لو قدرت أن العالم الذى خلقه الله مختاراً ، إن شاء فعل الخير وإن شاء فعل الشر، وهو ـ سبحانه ـ زود العباد بالمنهج ، وجعل لهم الاختيار ، وأنه ـ سبحانه ـ هو القادر على الجمع يوم القيامة لو قدرت هذا لا ميت بما طلبه الله منك .

ونضرب هذا المثل لا للتشبيه ، ولكن للتقريب ـ ولله المثل الأعلى ـ الوالد يعطى ابنه جنيهاً ويقول له : اشتر ما تريد ، ولكن لاحظ أنك إن اشتريت شيئا مفيداً فسأكافئك ، وإن اشتريت شيئاً فاسداً كأوراق اللعب أو غيرها فسأعاقبك .

ساعة أعطى الوالد ابنه القوة الشرائية وقال له : انزل اشتر ما تريد ، والابن ساعة اشترى أوراق اللعب . هل هذاالشراء قد تم قهراً عن أبيه ؟ لا ، لأن الأب هو من أعطاه الاختيار ، لكن الابن فعل فعلاً غير محبوب لأبيه .

فما بالنا بالعبد عندما يعطيه الحق الاختيار ؟ ولو أراد الله الناس جميعاً على هداية لجعلهم كالملائكة ، ولما جرؤ ولا قَدَرَ أحد أن يفعل معصية . فالعاصى عندما يرتكب المعصية إنما يفعلها لأن الله خلق له الاختيار . ولذلك فعندما يقول واحد : كل فعل من الله ، هو صادق . ولماذا يتعذب مرتكب المعصية مع أنّه يوجه آلة الاختيار إلى ما تصلح له ؟ ونقول إنّه وجهها مخالفًا لأمر الله ، فالسكين للذبح، إن ذُبحت بها دجاجة لما استحق الذابح على ذلك عقاباً ، لكن لو ذبحنا بها إنساناً لوقعنا فى محظور يشبهه الحق بقتل الناس جميعاً . فالذى جاء بالسكين إلى المنزل هل نقول له : « أنت أتيت بأداة الجريمة » ؟ لا ؛ لأنه جاء بأداة صالحة لأن تكون أداة لذبح ما يحل ذبحه أو أداة

لجريمة . إذن فحتى المختار لم يفعل اختياره إلا من باطن أن الله خلقه مختاراً .

لكن هل ألزمه الحق سبحانه وتعالى بأن يفعل المعصية ؟ لا ، فسبحانه أوضح لك : هذا لا أحبه ، وهذا أحبه . واختيارك له مجال ، ولك أن تختار الشيء الذى يأتى بالنفع ولا يأتى بالضرر أو أن تختار عكس ذلك .

« الله لا إله إلا هو ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه » هذا خبر من الله . والكلام الخبرى عندنا يحتمل الصدق والكذب لذاته ، لكن لأن الخبر من الله فهو صادق . أما الكلام فى ذاته فيحتمل الصدق ويحتمل الكذب ، ولذلك يذيل الحق الآية بما يلى : « ومن أصدق من الله حديثاً » وهل الصدق فيه تفاضل ؟ . ليس فى الصدق تفاضل ، فمعنى الصدق مطابقة الكلام للواقع ، فالإنسان قبل أن يتكلم وهو عاقل ، يدير المسألة التى يريد الكلام فيها لِيُعمل العقل فيها ، وبعد هذا ينطق بالكلام .

إذن ففى الكلام نسبة ذهنية ، ونسبة كلامية ، ونسبة واقعية . فعندما يقول واحد : « زيد مجتهد » هو قبل أن يقول ذلك جاء فى ذهنه أنه مجتهد ، وهذه هى « النسبة الذهنية » ، وعندما ينطقها صاحبها تكون « نسبة كلامية » ، ولكن هل صحيح أن هناك واحداً اسمه « زيد » وأنه مجتهد ؟ . إن طابقت النسبة الواقعية كُلاً من النسبة الذهنية والنسبة الكلامية يكون الكلام صدقاً . وإن لم يكن هناك أحد اسمه زيد ولا هو « مجتهد » لا تتطابق النسبة الخارجية الواقعية مع النسبتين « الذهنية والكلامية » فيكون الكلام كذباً . فالصدق يقتضى أن تتطابق النسبة الكلامية مع الواقع ، أى مع النسبة الخارجية الحاصلة .

ولماذا يكذب الكذاب إذن ؟ . ليحقق لنفسه نفعاً يفوّته ولا يحققه الصدق فى نظره أو يدفع عنه ضُرًّا . مثال ذلك : يكسر الابن شيئاً فى المنزل كمنضدة .فالأب يقول لابنه : هل كسرت هذه المنضدة ؟ . وينكر الابن : لا لم أكسرها . هو يريد أن يحقق لنفسه نفعاً أو يدفع عنها ضرراً وهو الإفلات من العقاب ، لأنه يعلم أن الصدق قد يسبب له عقاباً . ولا يحمله على الكذب إلا تفويت مضرة قد تصيبه من الصدق فيلجأ إلى الكذب . ويقول كلاماً يخالف الواقع .

إذن هو يريد أن يحقق لنفسه نفعاً أو يدفع عن نفسه ضرراً . والذى ينفع الإنسان لابد أن يكون أقوى منه ، وكذلك الذى يضرّه . لكن بالنسبة لله لا يوجد من يسبب له سبحانه نفعاً أو ضراً . إذن فإذا قال الله فقوله الصدق ؛ لأن الأسباب التى تدفع إلى الكذب هو ـ سبحانه ـ منزه عنها .

وإذا كان الحق يعطينا الكلام الذى يوضح لنا واقع الحياة ويعطينا الكلام الذى لا يدخل فى واقع حياتنا ويصف لنا الغيب الذى لا يدخل فى نطاق ما نراه ، إذن فهو يكلمنا كثيراً .

فقوله الحق : « ومن أصدق من الله حديثاً » مؤكد بالنسبة لنا . وأفعل التفضيل هنا لا تأتى للتمييز بين كلام صادق وكلام أصدق ، ولكن لنعرف أن كلام الله لنا كثير . فالتكثير هنا إنما يجىء من ناحية كثرة الكلام ،لا من ناحية أن هناك كلاماً صادقاً وكلاماً أصدق .

والتفاوت قد يوجد فى الصدق أيضاً ، كيف ؟. لنفرض أن إنساناً رأى حادثة يقتل فيها إنسان إنساناً آخر ، فيشهد الشاهد بأنه رأى الدم ينزف من القتيل إثر التحام القاتل به ، ولكن هناك شاهد آخر يروى كل التفاصيل التى بدأت من قبل المشاجرة بين القاتل والقتيل إلى أن صار هناك قاتل وقتيل . وهكذا نجد أن الشاهد الثانى أشمل فى الصدق من الشاهد الأول ، صحيح أن الشاهد الأول قال شهادة صادقة ، لكن شهادة الشاهد الثانى أشمل فى القضية نفسها .

إذن فقوله الحق : « ومن أصدق من الله حديثاً » أى أن الحق هو الأصدق بمعنى أنّ إخباره لنا جاء بالشمول الكامل ، وهو صدق لا تفاوت فيه ، فالصدق هو مطابقة النسبة الكلامية للواقع ، ومادام هو كذلك فليس هناك صادق وأصدق ، ولكن أفعل التفضيل تأتى فى « أصدق » باعتبار أن كمية الصدق الصادرة لا حدود لها وأنّه سبحانه يعلم الأشياء على وفق ما هى عليه أى بشمول كامل . وخلقه إن حدث منهم صدق فى شىء فقد يحدث منهم الكذب فى شىء آخر.فقد تقول قضية تعلم أنها صدق ، ولكنها فى الواقع لا تكون صدقاً .

مثلاً ؛ فقد يقول قائل : زار فلان فلاناً بالأمس . هو اعتقد ذلك لأنه رأى حجرة الاستقبال فى بيت فلان مضاءة فسأل عن الزائر فقيل له : « فلان » فهو يروى خبر هذه الزيارة على وفق ما يعتقد ، ولا يقال : إن القائل قد كذب .

إننا يجب أن نفرق بين « الخبر » وبين « المخبر » ، كيف ؟ . إذا قلنا : « زيد مجتهد » ، أيوجد واحد اسمه زيد ومجتهد بالفعل ؟ . هذا اسمه الواقع . وهل أنت تعتقد هذا ؟ . إذن فالإنسان هنا يحتاج إلى أمرين : معرفة وجود الشيء ، واعتقاد الشيء ، وبذلك يكون الخبر صادقاً والمخبر صادقا أيضاً .

وافرض أنك أخبرت أن زيداً مجتهد بناءً على أن أحداً قد أخبرك بذلك ولكنه لم يكن كذلك ، أنت هنا صادق وفق اعتقادك . لكن الخبر غير صادق فى الواقع . إذن ففيه فرق بين صدق الخبر وصدق المخبر . فإذا التقى الاعتقاد بالواقع صدق الخبر وصدق المخبر . وإذا كان الخبر موافقاً للواقع ومخالفاً للاعتقاد فالخبر صادق كموقف المنافقين الذين قال الحق فيهم :

﴿ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ قَالُواْ نَشْـهَدُ إِنَّكَ لَرَسُـولُ ٱللَّهِ ﴾

(من الآية ١ سورة المنافقون)

هذه القضية واقعة صادقة وأعلنوا هم ذلك ، ولكن الحق أضاف :

﴿ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ لَكَـٰذِبُونَ ﴾

(من الآية ١ سورة المنافقون)

فالقضية صادقة ولكنهم كاذبون ؛ لأنهم قالوها بلا اقتناع فكانوا كاذبين . والدقة هنا توضح الفرق بين صدق الخبر وكذب الاعتقاد . إذن فصدق المخبر أن يطابق الكلام الاعتقاد . والتكذيب واضح فى قولهم : « نشهد » ؛ وليس فى مقول القول وهو « إنك لرسول الله » فالشهادة تقتضى أن يواطىء ويوافق اللسان القلب .

ولذلك عندما يقرأ بعض الناس القرآن دون فهم اللغة العربية . . فيفهم بالسطحية هذه الآية فهماً خاطئاً :

﴿ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ۝١ ﴾

(سورة المنافقون)

فكيف يشهد الله أنهم كاذبون ، على الرغم من أنه سبحانه يعلم مثلما شهد المنافقون ؟ . ونرد : إن الخبر هنا لم يكن كذباً ، ولم يقل الحق ما يكذب الخبر ، لكنه أوضح صدق الخبر وكذب المنافقين فى شهادتهم لأنهم يظهرون غير ما يبطنون ويعتقدون ، فالتكذيب منصب على شهادتهم لا على خبر أن محمداً رسول الله .

« الله لا إله إلا هو ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه ومن أصدق من الله حديثاً » .

إنّ المؤمن يعتقد أن يوم القيامة لاشك فيه ، فيوم القيامة يجب منطقياً ألا يوجد شك فيه ؛ لأنه لوكان هناك ريب لكان الذين انحرفوا فى الحياة الدنيا وولغوا فى أعراض الناس وأخذوا أموالهم وعاثوا فى الأرض فساداً هم الذين كسبوا وفازوا ، ويكون الطيبون والأخيار قد عاشوا فى سذاجة . فالمنطق يقتضى أنه مادام قد وُجد أناس قد ظلموا واعتدوا ، وأناس اعتدى عليهم ، فلا بد أن يكون هناك حساب . ولا يكون هناك حساب إلا إذا انتهت حكاية الموت ، بالإحياء والحشر والخروج إلى لقاء الله . ودليل هذا من الجاحدين أنفسهم ، كيف ؟ .

نحن نعرف أن المجتمعات غير المتدينة يضع قادتها القوانين التى تكفل حماية حركة المجتمع . هم يضعون مثل هذه القوانين ، ومن يخالفها يتم حسابه وعقابه . فإذا كان العقاب يمنع المجاهرة بالجريمة ، فماذا يكون الموقف ؟ إن الماهر إذن هو من يفلح فى المداراة عن عيون قادة هذا المجتمع ، ويستر نفسه عنهم حتى لا يناله العقاب .

إن هذه المجتمعات الملحدة تضع التقنينات لحماية نفسها ، فماذا تفعل هذه المجتمعات فى الذين ستروا أنفسهم ؟ . هم بقانون هذه المجتمعات كان يجب أن يعاقبوا ، وكان يجب أن تقولوا أنتم إن هناك مكاناً آخر وداراً أخرى يتم فيها عقاب من أفلت منا . فأنت أيها الملحد قد قننت لمن خالف تقنينك عقوبة . وهذا إن وقعت

عليه عينك ، وقبضت عليه يدك ، فما قولك فيمن لم تقع عليه عينك ولم تقبض عليه يدك ؟.

إذن فنحن أهل الإيمان عندما نقول للملحد : إننا نكمل لك تفكيرك الناقص ونقول لكل الخلق : إنكم إن عَمِّيتُم على قضاء الأرض فلن تعمّوا على قضاء السماء الذى لا تخفى عليه خافية . إذن فغير المؤمن بمنهج نأخذ منه الدليل على ضرورة المنهج . وعلى غير المؤمن بالمنهج أن يشكر أهل الإيمان ؛ لأننا نحن أهل الإيمان قد أكملنا له نقصاً فى تقنين البشر ، وهذا لحماية المجتمع من الكيد بالجريمة والستر بالمخالفة .

« ومن أصدق من الله حديثاً » أى لا أحد أصدق من الله فى الحديث . و« أصدق » جاءت كأفعل تفضيل لا لأن هناك صدقاً يعلوه صدق أصدق ، بل الصدق واحد ؛ لأنه مطابقة النسبة الكلامية للواقع ، ولكن « أصدق » هنا لكثرة الحديث الذى حدثنا الله به عما نشهد من عالم الملك ومما لا نشهد من عالم الملكوت ، فإن تحدث الناس فإنما يتحدثون فى عالم الملك الذى يدركونه بحواسهم ، ولكن الله إذا حدثنا فسبحانه يحدثنا عن عالم الملكوت أيضا ، فالله أصدق حديثاً ؛ لأنه أكثر مَن حدّث .

وبعد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ فَمَا لَكُمْ فِي ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓا۟ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا۟ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿٨٨﴾ ﴾

كل جملة سبقتها « فاء » فمن اللازم أن يكون هناك سبب ومسبب ، علة ومعلول ، مقدمة ونتيجة ، وكل الأشياء التى تكلم الحق عنها سبحانه وتعالى فيها

يتعلق بمشروعية القتال للمؤمنين ليحملوا المنهج إلى الناس ، ويكون الناس - بعد سماعهم المنهج - أحراراً فيما يختارون . إذن فالقتال لم يشرع لفرض منهج ، إنما شرع ليفرض حرية اختيار المنهج ، بدليل قول الحق :

﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ﴾

(من الآية ٢٥٦ سورة البقرة)

وعلى ذلك فالإسلام لا يفرض الدين ، ولكنه جاء ليفرض حرية الاختيار فى الدين ، فالقُوَى التى تعوق اختيار الفرد لدينه ، يقف الإسلام أمامها لترفع تسلطها عن الذين تبسط سلطانها عليهم ثم يترك الناس أحراراً يعتنقون ما يشاءون ، بدليل أن البلاد التى فتحها الإسلام بالسيف ، ظل فيها بعض القوم على دياناتهم . فلو أن القتال شُرع لفرض دين لما وجدنا فى بلد مفتوح بالسيف واحداً على غير دين الإسلام .

وبعد أن تكلم الحق عن القتال فى مواقع متعددة من سورة النساء ، وقال للنبى صلى الله عليه وسلم :

﴿ فَقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ۚ وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ﴿٨٤﴾ ﴾

(سورة النساء)

شرع الحق سبحانه وتعالى قضية استفهامية هنا ، فيها معنى الإنكار وفيها معنى التوبيخ وذلك شائع فى كل الأساليب التى تتفق معها فى القرآن الكريم . فإذا سمعت كلمة «فمالك لا تفعل كذا» ، فكأن قياس العقل يقتضى أن تفعل ، والعجيب ألا تفعل . ولا يمكن أن يأتى هذا الأسلوب إلا إذا كان يستنكر أنك فعلت شيئا كان ينبغى ألا تفعله أو أنك تركت شيئا كان عليك أن تأتى به .

فالأب يقول للابن مثلاً : «مالك لا تذاكر وقد قرب الامتحان ؟» كأن منطق العقل يفرض على الابن إن كان قد أهمل فيما مضى من العام ، فما كان يصح للابن أن يهمل قبل الامتحان ، وهذا أمر بدهى بالقياس العقلى ، فكأن التشريع والقرآن يخاطبان المؤمنين ألا يقبلوا على أى فعل إلا بعد ترجيح الاختيار فيه بالحجة القائمة

عليه ، فلا يصح أن يقدم المؤمن على أى عمل بدون تفكير ، ولا يصح أن يترك المؤمن أى عمل دون أن يعرف لماذا لم يعمله ، فكأن أسلوب « فما لكم » ، و« فما لك » مثل قول أولاد سيدنا يعقوب :

﴿ مَالَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ ﴾

(من الآية ١١ سورة يوسف)

ما معنى قولهم هذا ؟ معناه : أى حجة لك يا أبانا فى أن تحرمنا من أن نكون مؤتمنين على يوسف نستصحبه فى خروجنا . فكأن القياس عندهم أنهم إخوة ، وأنهم عصبة ، ولا يصح أن يخاف أبوهم على يوسف لا منهم ولا من شىء آخر يهدد يوسف ؛ لأنهم جماعة كثيرة قوية . وكذلك قول الحق :

﴿ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾

(سورة الانشقاق)

أى أن القياس يقتضى أن يؤمنوا . وقوله الحق :

﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾ ﴾

(سورة المدثر)

كان القياس ألا يعرضوا عن التذكرة . إذن فأسلوب « فماله » ، و« فمالك » و« فمالهم » ، و« فمالكم » كله يدل على أن عمل المؤمن يجب أن يُستقبل أولاً بترجيح ما يصنع أو بترجيح ما لا يصنع . أما أن يفعل الأفعال جزافاً بدون تفكير فى حيثيات فعلها ، أو فى حيثيات عدم فعلها فهذا ليس عمل العاقلين .

إذن فعمل العاقل أنه قبل أن يُقبل على الفعل ينظر البديلات التى يختار منها الفعل ؛ فالتلميذ إن كان أمامه اللعب وأمامه الاستذكار ، ويعرف أنه بعد اللعب إلى رسوب ، وبعد الرسوب إلى مستقبل غير كريم ، فإذا اختار الاجتهاد فهو يعرف أن بعد الاجتهاد نجاح ، وبعد النجاح مستقبل كريم . فواجب التلميذ ـ إذن ـ أن يبذل قدراً من الجهد ليتفوق . وكل عمل من الأعمال يجب أن يقارنه الإنسان بالنتيجة التى يأتى بها وبترجيح الفعل الذى له فائدة على الأفعال التى لا تحقق الهدف المرجو .

والآية هنا تقول : « فمالكم فى المنافقين فئتين » كأن القياس يقتضى ألا نكون فى نظرتنا إلى المنافقين فئتين ، بل يجب أن نكون فئة واحدة . وكلمة « فئة » تعنى جماعة ، والجماعة تعنى أفراداً قد انضم بعضهم إلى بعض على رغم اختلاف الأهواء بين هؤلاء الأفراد وعلى رغم اختلاف الآراء ، إلا أنهم فى الإيمان يجمعهم هوى واحد ، هو هوى الدين ، ولذلك قال الرسول :

(لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به)[1] .

فالمسبب للاختلاف هو أن كل واحد له هوى مختلف ولا يجمعهم هوى الدين والاعتصام بحبل الله المتين . وما حكاية المنافقين وكيف انقسم المؤمنون فى شأنهم ليكونوا فئتين ؟

والفئة ـ كما عرفنا ـ هى الجماعة ، ولكن ليس مطلق جماعة ، فلا نقول عن جماعة يسيرون فى الطريق لا يجمعهم هدف ولا غاية : إنهم فئة ؛ فالفئة أو الطائفة هم جماعة من البشر تجتمع لهدف ؛ لأن معنى « فئة » أنه يرجع ويفىء بعضهم إلى بعض فى الأمر الواحد الذى يجمعهم ، وكذلك معنى « الطائفة » فهم يطوفون حول شىء واحد . والحق يقول : « فما لكم فى المنافقين فئتين » . هذا لفت وتنبيه من الحق بأن ننزه عقولنا أن نكون فى الأمر الواحد منقسمين إلى رأيين ، وخصوصاً إذا ما كنا مجتمعين على إيمان بإله واحد ومنهج واحد . والمنافقون ـ كما نعرف ـ هم الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر .

إننا نعرف أن كل المعنويات يؤخذ لها أسماء من الحسيات ؛ لأن الإدراك الحسى هو أول وسيلة لإدراك القلب ، وبعد ذلك تأتى المعانى . وعندما نأتى لكلمة « منافقين » نجد أنها مأخوذة من أمر حسى كان يشهده العرب فى بيئتهم ، حيث يعيش حيوان اسمه « اليربوع » مثله مثل الفأر والضب . واليربوع مشهور بالمكر والخداع ، ولكى يأمن الحيوانات التى تهاجمه فإنه يبنى لنفسه جحرين ، أو جحورا متعددة ، ويفر من الحيوان المهاجم إلى جحر ما ، ويحاول الحيوان المهاجم أن ينتظره عند فوهة هذا

(١) رواه البغوى فى شرح السنة ، وابن أبى عاصم فى السنة ، والمتقى الهندى فى كنز العمال ، والخطيب البغدادى فى تاريخ بغداد .

الجحر ، فيتركه اليربوع إلى فتحة أخرى ، كأن اليربوع قد خطط وأعد لنفسه منافذ حتى يخادع ، فهو يصنع فوهة يدخل فيها فى الجحر ، وفوهة ثانية وثالثة ، وذلك حتى يخرج من أى فتحة منها ، وكذلك المنافق .

ونعرف أن المسائل الإيمانية أو العقدية على ثلاثة أشكال : فهناك المؤمن وهو الذى يقول بلسانه ويعتقد بقلبه وهو يحيا بملكات منسجمة تماماً . وهناك الكافر وهو الذى لا يعتقد ولا يدين بالإسلام ولا يقول لسانه غير ما يعتقد ، وملكاته منسجمة أيضاً ، وإن كان ينتظره جزاء كفره فى الآخرة ؛ فملكاته منسجمة ـ لكن ـ إلى غاية ضارة ، وهى غاية الكفر . أما « المنافق » فهو الذى يعتقد الكفر وينعقد عليه قلبه لكن لسانه يقول عكس ذلك ، وملكاته غير منسجمة ؛ فلسانه قد قال عكس ما فى قلبه ؛ لذلك يحيا موزعاً وقلقاً ، يريد أن يأخذ خير الإيمان وخير الكفر ، هذا هو المنافق .

وهناك جماعة ـ فى تاريخ الإسلام ـ حينما رأوا انتصار المسلمين فى غزوة بدر ، قالوا لأنفسهم : « الريح فى جانب المسلمين ، ولا نأمن أنهم بعد انتصار بدر وقتل صناديد قريش وحصولهم على كل هذه الغنائم أن يأتوا إلينا » ، هذه الجماعة حاولت النفاق وادعت الإسلام وهم بمكة ، حتى إذا دخل المسلمون مكة يكونون قد حصنوا أنفسهم . أو هم جماعة ذهبوا إلى المدينة مهاجرين ، ولم يصبروا على مرارة الهجرة والحياة بعيداً عن الوطن والأهل والمال ، ففكروا فى هذه الأمور ، وأرادوا العودة عن الدين والرجوع إلى مكة ، وقالوا للمؤمنين فى المدينة : « نحن لنا أموال فى مكة وسنذهب لاستردادها ونعود » .

وبلغ المسلمون الخبر وانقسم المسلمون إلى قسمين : قسم يقول : نقاتلهم ، وقسم يقول : لا نقاتلهم . الذين يقولون : « نقاتلهم » دفعهم إلى ذلك حمية الإيمان . والذين يقولون : « لا نقاتلهم » قالوا : هذه الجماعة أظهرت الإيمان ، ولم نشق عن قلوبهم ، وربما قالوا ذلك عطفاً عليهم لصلات أو أواصر .

فجاء القرآن ليحسم مسألة انقسام المسلمين إلى قسمين ، ويحسم أمر الاختلاف .

وعندما يأتى القرآن ليحسم فهذا معناه أن رب القرآن صنع جمهور الإيمان على عينه ، وساعة يرى أى خلل فيهم فسبحانه يحسم المسألة ، فقال : « فمالكم فى المنافقين فئتين » .

والخطاب موجه للجماعة المسلمة ، فقوله : « فمالكم » يعنى أنهم متوحدون على هدف واحد ، وقوله : « فئتين » تفيد أنهم مختلفون .

إذن فـ « فئتين » تناقض الخطاب الذى بدأه الحق بـ « فمالكم » ، كأن المطلوب من المتلقى للقرآن أن يقدر المعنى كالآتى : فمالكم افترقتم فى المنافقين إلى فئتين ؟ إذن فهذا أسلوب توبيخى وتهديدى ولا يصح أن يحدث مثل هذا الأمر ، فهل ينصب هذا الكلام على كل المخاطبين ؟ ننظر ، هل القرآن مع من قال : « نقتل المنافقين » أو مع من قال بغير ذلك ؟ فإن كان مع الفئة الأولى فهو لا يؤنب هذه الفئة بل يكرمها ، إن القرآن مع هذه الفئة التى تدعو إلى قتال المنافقين وليس مع الفئة الثانية ؛ لذلك فهو يؤنبها ، ويوبخها . والأسلوب حين يكون توبيخاً لمن يرى رأياً ، فهو تكريم لمن يرى الرأى المقابل ، ويكون صاحب الرأى المكرم غير داخل فى التوبيخ ، لأنّ الحق أعطاه الحيثية التى ترفع رأسه .

والحق يقول : « فمالكم فى المنافقين » أى إن الحق يقول : أى حجة لكم فى أن تفترقوا فى أمر المنافقين إلى فئتين ، والقياس يقتضى أن تدرسوا المسألة دراسة عقلية ، دراسة إيمانية لتنتهوا إلى أنه يجب أن تكونوا على رأى واحد ، ومعنى الإنكار هو : لا حجة لكم أيها المؤمنون فى أن تنقسموا إلى فئتين .

ويقول الحق : « والله أركسهم بما كسبوا » وساعة تسمع كلمة « أركسهم » ماذا نستفيد منها حتى ولو لم نعرف معنى الكلمة ؟ نستفيد أن الحق قد وضعهم فى منزلة غير لائقة . ونشعر أن الأسلوب دل على نكسهم وجعل مقدمهم مؤخرهم أى أنهم انقلبوا حتى ولو لم نفهم المادة المأخوذة منها الكلمة ، وهذا من إيحاءات الأسلوب القرآنى ، إيحاءات اللفظ ، وانسجامات حروفه .

« والله أركسهم بما كسبوا » و« أركسهم » مأخوذة من « ركسهم » ومعناها

« ردهم » . كأنهم كانوا على شيء ثم تركوه ثم ردهم الله إلى الشيء الأول ، وهم كانوا كفاراً أولاً ، ثم آمنوا ، ثم أركسهم ، لكن هل الله أركسهم تعنتاً عليهم أو قهراً ؟ لا ؛ فهذا حدث « بما كسبوا » ، وذلك حتى لا يدخل أحد بنا فى متاهة السؤال ولماذا يعاقبهم الله ويوبخهم مادام هو سبحانه الذى فعل فيهم هذا ؛ لذلك قال لنا الحق : إنه «أركسهم بما كسبوا» . و« أركسهم » مادته مأخوذة من شيء اسمه « الركس » - بفتح الراء - وهو رد الشيء مقلوبا ومنه « الرِّكس » بكسر الراء وهو الرجيع الذى يرجع من معدة الإنسان قبل أن يتمثل الطعام . مثلما نقول : « إن فلاناً غمت نفسه عليه » أو « فلان يرجع ما فى بطنه » .

وعندما ننظر إلى هذه العملية نجد أن الطعام الذى يشتهيه الإنسان ويحبه ويقبل عليه ويأكله بلذة ، وتنظر عيونه إليه باشتهاء ، ويده تقطع الطعام بلذة ويمضغ الطعام بلذة ، هذا الطعام بمجرد مضغه مع بعضه ينزل فى المعدة وتضاف إليه العصارات المهضمة ، فإذا رجع فإنه فى هذه الحالة يكون غير مقبول الرائحة ، بل إن الإنسان لو هضم الطعام وأخذ منه المفيد وأخرج الباقى بعد ذلك ، فرائحة الفضلات الطبيعية ليست أسوأ من رائحة الطعام لو رجع بدون تمثيل . فلو رأيت إنساناً يقضى حاجة وآخر يتقيأ الطعام ، فالنفس تتقزز من الذى يتقيأ أكثر مما تتقزز من الذى يقضى حاجته ؛ لأن « الترجيع » يخرج طعاماً خرج من شهوة المضغ والاستمتاع . ولم يصل إلى مسألة التمثيل .

ولذلك نسمع المثل « كل ما فات اللسان صار نتان » . و« الرِّكس » هو الرجيع الذى يرجعه الإنسان بعد الطعام قبل أن يتمثله . فالطعام بعد أن يتمثل ويخرج من المكان المخصص له يصبح روثاً ، وغائطا وبرازاً. والحق سبحانه وتعالى قد جاء بالكلمة التى تصفهم : « والله أركسهم » أى أنهم ارتدوا من قبل أن ينتفعوا بأى شيء من الإيمان .

هذا هو التعبير القرآنى الذى جاء بالعبارة التى تؤدى هذا المعنى ، وتؤدى إلى نفرتنا منهم ، فيكون الإركاس هو الرد ، وهل هو مطلق الرد ، أو رد له كيفية ؟ هو رد بإهانة أيضاً ، كيف ؟ لأن الشيء إن كان قوامه أن يقف رأسياً ، يكون الركس أن تجعل رأسه فى مكان قدمه وقدمه فى مكان رأسه. وعلى ذلك فالرد ليس رداً عادياً بل إنه

رد جعل المردود هُزُوًا . وإن كانت استقامة الأمر على الامتداد الطولى ، يكون الركس بأن تأتى بما فى الخلف إلى الأمام ، وبما فى الأمام إلى الخلف ، فتقلب له كيانه . وتعكس حاله .

والقرآن يصف الكافرين والمنافقين :

﴿ ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ ﴾

(من الآية ٦٥ سورة الأنبياء)

لماذا ، لأن الرأس مبنيّ على القامة والهامة والارتفاع . هذا الرأس يُجْعَلُ مكان القدم ، والقدم يكون محل الرأس . إذن فقوله : « والله أركسهم » أى لم يردهم مطلق الرد ، بل ردّهم ردا مهيناً ، ردّاً يقلب أوضاعهم .

« والله أركسهم بما كسبوا » إذن فلا يقولن أحد : مادام الله قد أركسهم فما ذنبهم ؟ إن الله قد أركسهم « بما كسبوا » ، فهم كانوا فاعلين لا منفعلين .

وإليكم هذا المثل ـ ولله المثل الأعلى ـ حين تضع المدرسة أو الجامعة درجات للنجاح فى كل مادة . تجد مادة يجب أن يحصل الطالب فيها على نسبة ستين فى المائة . وأخرى على سبعين فى المائة ، ويدخل التلاميذ الامتحان ، وعندما يرسب أحدهم لا يقال : إن المدرسة قد جعلته يرسب ، صحيح هى أرسبته ولكن وفق القوانين التى وضعتها المدرسة أو الجامعة من قبل أن يدخل التلميذ الامتحان ، ولأنه لم يبذل الجهد الكافى للنجاح ، فقد أرسب نفسه .

إذن ، فالله لم يأت بالرّكس ورماه عليهم . بل هم الذين كسبوا كسباً جعل قضية السنة الكونية هى التى تؤدى بهم إلى الركس ، مثلهم مثل التلميذ الذى لم يستذكر فلم يُجب فى الامتحان ، فلا يقال عن هذا التلميذ : إن المدرسة أرسبته . ولكنه هو الذى أرسب نفسه .

ولذلك عندما يقال : الله هو الذى أضلهم ، فما ذنبهم ؟ هذه هى القضية التى يقول بها المسرفون على أنفسهم . ولهؤلاء نقول هذه الآية : « والله أركسهم بما كسبوا » وكذلك أضل الله الضالين بفعلهم ، كيف ؟ .

نحن عرفنا أن الهداية تأتى بمعنيين ، هداية الدلالة وهداية المعونة ، ويأتى المسرفون على أنفسهم الذين يودون أن تكون قضية الدين كاذبة ـ والعياذ بالله ـ لأن قضية الدين عندما تكون صدقاً فإن الذين أسرفوا على أنفسهم يتيقنون أنهم ذاهبون إلى داهية وأمر منكر شاق عليهم ؛ لذلك نجد الواحد منهم يتمحك فى محاولة عدم التصديق ، والدخول إلى متاهات يصنعها الفهم السطحى للدين . ولذلك نجد المناقشات التى يناقشونها تدل على أنها مناقشات المسرف على نفسه ، فيقول الواحد منهم : مادام الله هو الذى كتب علىّ كل شىء فلماذا يعذبنى وهو الذى كتب علىّ المعاصى ؟.

نقول له : ولماذا آمنت فى هذا الموقف بالذات أن الله هو الذى كتب ؟، ومادمت قد آمنت بأن الله هو الذى كتب فلماذا لا تؤمن به وترتضى أحكام منهجه ؟. ولكن الواحد منهم يحاول أن يقف وقفة ليست عقلية ، فالوقفة العقلية الصحيحة تقتضى أن تأتى بالقضية المقابلة وهى أن الله إذا كان قد كتب على العبد الطاعة فلماذا يثيبه ؟. لماذا تناسى قضية الطاعة والثواب عليها ؟؛ لأنه يعرف أنها القضية التى تجلب الخير ، ووقف فى القضية المقابلة التى تأتى بالشرّ ، ولا يقول هذا القول إلا مسرف على نفسه . ولا نرى ملتزماً بمنهج الإيمان يقول مثل هذه القضية ، فالمؤمن يجب أن تسير الأمور على ضوء منهج الله ، ولذلك أنا إلى الآن ـ وليسامِحْنى الله وليغفر لى ـ أتعجب من أن العلماء الذين سبقونا جعلوا من هذه المسألة محل خلاف . وقالوا : معتزلة وأهل سنة (!!)

المسألة كلها يجب أن تفهم على أساس أن الإسلام دين فطرة ، ولم يأت للفلاسفة فقط ، إنّه جاء للعقل الفطرى ، ورَاعى الشاة فى الإسلام كالفيلسوف ، ومن يكنس الشارع أو يمسح الأحذية مساوٍ لمن درس الفلسفة أو الحقوق ؛ لأن الإيمان لم يأت لطائفة خاصة ، ولكن المنهج قد جاء للجميع ، ولابد أن تكون أدلته واضحة للجميع ، فعندما يقال لنا : إن الله يعلم كل شىء فيك ، لا يدخل معك فى متاهة ، هو ـ سبحانه ـ يقول لك :

﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾

(سورة الملك)

فالذى صنع الكرسى ـ ولله المثل الأعلى ـ ألا يعرف أن الكرسى مصنوع من الخشب ، ونوع الخشب « زان » أو « أرو » أو « مجنه » ، وأن المسمار الذى يربط الجزء بالجزء إما مسمار صلب وإما من معدن آخر ، وكذلك يعلم صانع الكرسى أى صنف من الغراء استعمل فى لصق أجزاء الكرسى ، وكذلك مواد الدهان التى تم دهن الكرسى بها .

إذن فقول الحق : « ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير » لا يحتاج إلى جدال . ولذلك نجد النَّجار الذى يرغب أن تكون صنعته مكشوفة واضحة يقول للمشترى :

سوف أصنع لك الكرسى من خشب الزان وعليك أن تمر يومياً لترى مراحل فعله .

ويبدأ صناعة الكرسى مرحلة مرحلة تحت إشراف الزُّبون . وكذلك يعرف البدوى كيف يتكون الرحل . وهو ما يوضع على ظهر البعير للركوب ، العربى يعرف كيف يتكون الفسطاط وهو بيت يتخذ من الشَّعْرِ . وقد جاء سبحانه بما يدحض أى جدل ، وبدون الدخول فى أية مهاترات أو مناقشات لها مقدمات ونتائج ومقدم وتال . جاء الحق بهذا القول الفصل :

﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾

(سورة الملك)

هو يعلم وهذا أمر سهل عليه ، ولذلك أتعجب كيف أدخل هؤلاء العلماء هذه المسألة فى متاهة فلسفية ، فالإسلام دين الفطرة .

ولذلك نجد العلماء الذين ناقشوا هذه المسألة ـ جزاهم الله خيراً ـ جاءوا فى آخر مطافهم ، وقالوا :

نهاية إقدام العقول عِقال
وأكثر سعى العالمين ضلال
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا
سوى أن جمعنا فيه قِيلَ وقالوا

وأنا أريد أن أعرف ماذا قدمت الفلسفة النظرية للدنيا من خير؟. لقد انفصلت عنها الفلسفة المادية ودخلت المعمل وأخرجوا لنا الابتكارات التى انتفع بها الخلق ، فماذا فعلت الفلسفة النظرية ؟. لا شيء . ونقول : جاء الإسلام بالعقيدة الفطرية ، ومعنى العقيدة الفطرية أن الناس فيها سواء ، فالأدلة العقلية تقتضى الوضوح لمن تَعَلَّم ولمن لم يتعلم .

والفلاسفة هم الذين قالوا : بأدلة الغاية وأدلة العناية وأدلة القصد . لكن البدوى الذى سار فى الصحراء وجد بعر البعير ووجد الرمل وعليه أثر قدم ، فقال : إذا كانت البعرة تدل على البعير والقدم تدل على المسير أفلا يدل كل ذلك على اللطيف الخبير؟. هو لم يدخل فى فلسفة أو متاهة مثلما دخل الفلاسفة مع بعضهم فى متاهات عقلية وحلها البدوى فى جملة واحدة . وكذلك نجد واحداً من الناس يسأل واحداً من أهل الإشراق : ألا تشتاق إلى الله ؟. فيقول له : إنَّما يُشتاق إلى غائب ، ومتى غاب الله حتى يشتاق إليه ؟!.

لذلك نقول لمن اختلفوا فى أمر رد الله لهؤلاء : نريد أن نكرم عقولكم وننظر لماذا اختلفتم فى هذه الحكاية « أركسهم بما كسبوا » .

نقول مع حسن الظن بهم ، إن كل واحد منهم تعصب لصفة من صفات الحق ، فواحد منهم يقول : « الله خالق كل شيء » . فنقول له : أنت قد تعصبت لصفة القدرة وطلاقتها فى الحق .

وجاء ثانٍ وقال : ولكن الله عادل . ولا يمكن أن يخلق فى الكافر كفره ثم يعذبه عليه . إنّه متعصب لصفة العدل . وكل منهما ذاهب إلى صفة واحدة من صفات الحق . وتناسى الاثنان أن هذه الصفات إنما هى لذاته ـ تعالى ـ فسبحانه قادر وعادل معاً . فلا هذه تفلت منه ولا تلك .

ونقول لمن يقول : إنه الله خالق كل شيء وخالق كل فعل . ما الفعل ؟. الفعل هو توجيه جارحة لإحداث حدث ، فالذى يمسح وجهه بيديه يوجه يديه لوجهه حتى يمسحه ، وهذا الفعل لا يفعله صاحب الفعل ، ودليلنا على ذلك الإنسان الآلى

نضغط على أكثر من زر ليتحقق هذا الفعل ، هذا الإنسان الآلى حتى يتحرك حركة واحدة لابد من ضغط وتحريك عدد آخر من القوى ، لكن الإنسان حتى يمسح وجهه بيديه اكتفى بأنه بمجرد أن أراد مسح الوجه باليد مسح الوجه . فهل أمسك من يمسح وجهه بشيء وضغط عليه ليمسح وجهه ؟.

إنه بمجرد أن أراد فعَل . وسائق جرافة التراب يحرك عدداً من الأذرع الحديدية حتى يحرك الجرافة إلى أسفل ، ثم حركة أخرى ليفتح كباشة التراب ، وحركة تقبض أسنان الكباشة وحركة أخرى ترفع التراب ، كل ذلك من أجل أن يرفع التراب من مكان ما إلى مكان آخر ، والواحد منا بمجرد أن يريد أن يمسح وجهه فهو يمسح وجهه ولا يعرف أى عضلات تحركت ، فمن الذى فعل كل ذلك ؟. إنه الله .

فيا من تتعصب لصفة القدرة . فالله هو الذى فعل والعبد هو الذى وجه الطاقة التى تنفعل بالله.فإذا كانت إلى غير مراد الله يصير العبد عاصياً ، وإن وجهها إلى مراد الله فيكون طائعاً ، ويكون له الكسب فقط ، فالذى يقتل واحداً ، هو لم يقتله ؛ لأنه لم يقل له : « كن قتيلاً » فيكون قتيلاً ، ولكن القاتل يأتى بسكين أو سيف أو مسدس ويرتكب فعل القتل . فأداة القتل هى التى قامت بالفعل ، والقاتل إنما أخذ الآلة الصالحة لفعل ما ولغيره ، فوجهها لذلك الفعل . فيا من تريد العدل ، إن الله يعذب على المعصية ؛ لأن الإنسان استعمل أداة مخلوقة للفعل ولعدمه ، فجعلها تؤدى فعلاً غير مرادٍ لله أى لا يرضى عنه الله ولا يحبه ، ومع ذلك فالله هو الفاعل لكل شيء .

ونعود إلى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها : « فما لكم فى المنافقين فئتين والله أركسهم بما كسبوا » ومادام هو سبحانه الذى أركسهم بما كسبوا ، وأنتم مؤمنون بالله فلا بد أن يكون الرأى فيهم واحداً ؛ لذلك يتساءل الحق : « أتريدون أن تهدوا من أضل الله »؟ وسبحانه لا يريد أن يقدم لهم العذر ، إنما يريد أن يظهر لهم هدايته سبحانه وهى هداية لا تتأتى لهم ؛ لأنه قد أضلهم فأنّى لهم الهداية . فلماذا يقف جانب من المؤمنين فى صفهم ؟.

لأن الله حين يهدى فهو يهدى من يشاء ويضل من يشاء بوضع القوانين الموضحة

للهداية أو الضلال . ونحن إن سمعنا « أن الله هدى » نفهمها على معنيين ؛ المعنى الأول أنه « دل » ، والمعنى الثانى أنه « أعان ومكّن » . فـ« هدى » تكون بمعنى « دل » ، وهدى تكون بمعنى « أعان » . وسبق أن قلنا : إذا كان هناك إنسان يمشى فى الطريق ويريد الاتجاه إلى الإسكندرية وهو لا يعرف الطريق الموصل . فيسأل شرطى المرور فيشير الشرطى : هذا هو الطريق الموصل إلى الإسكندرية.إنّ الشرطى هدى هذا الإنسان ودله على الطريق ، لكنه لم يحمل الإنسان على أن يسير فى الطريق ، فإذا ما صدّق المسافر قول الشرطى وقال له : إننى أشكرك وأكثر الله من خيرك والحمد لله أننى وجدتك ، فلولا وجودك لتعبت ، هنا يقول الشرطى : أنت رجل طيب والطريق إلى الإسكندرية به « مطب » وعقبة ، سأركب معك حتى أدلك على مكان هذه العقبة . وبذلك يتجاوز الشرطى مرحلة « الدلالة » إلى مرحلة « المعونة » وسبحانه أوضح : سأهدى الناس جميعاً وأرشدهم وأدلهم ، فالذى يقبل على الإيمان بى سأعاونه على ذلك .

ولذلك يقول :

﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَـٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ﴾

(من الآية ١٧ سورة فصلت)

و« هديناهم » هنا بمعنى « دللناهم » فقط ، أما أن يسلكوا سبل الهداية أو لا فالأمر متروك لهم . والهداية ـ إذن ـ ترد بمعنى الدلالة ، وترد بمعنى الإعانة . والحق يعين من ؟. يعين من آمن به ولكن من يكفر به لا يعينه :

﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾

(من الآية ٣٧ سورة التوبة)

وكذلك :

﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴾

(من الآية ٢٤ سورة التوبة)

إذن فلله هدايتان : هداية عم الناس بها جميعاً وهى هداية الدلالة ، وأخرى خص بها من جاءه مؤمناً به ، وهى هداية « المعونة » . ولذلك قال الحق للرسول صلى الله عليه وسلم :

﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾

(من الآية ٥٦ سورة القصص)

وهذا القول فيه نفى الهداية عن الرسول ، وهو سبحانه القائل أيضاً :

﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾

(من الآية ٥٢ سورة الشورى)

وليس من المعقول أن ينفى الحق الهداية عن الرسول ثم يثبتها له . ونفهم من ذلك : إنك يا رسول الله تدل على الحق ، ولكنك لا تعين عليه . فالله هدى الناس جميعاً فدلهم على طريق الخير . فمن آمن به وأقبل عليه يسر له الأمر .

وبذلك نكون قد عرفنا تماماً معنى قوله الحق : « والله أركسهم بما كسبوا أتريدون أن تهدوا من أضل الله ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلاً » . فالذى يضله الله هو من اكتسب ما يوجب أن يضله فلا تجد له سبيلاً . وكان من الممكن أن يقول الله : أتريدون أن تهدوا من أضل الله ومن يضلل الله فلا تستطيعون أن تهدوه ، ولكن الأبلغ هو ما يوضحه سبحانه لنا : أنتم لا تستطيعون هداية هذا المكتسب للضلال ؛ ذلك أنه لا يوجد سبيل حتى تهدوه إليه . فالسبيل هو الممتنع وليس الهداية فقط .

والسبيل هو الطريق الذى يعطيك حقاً فى الهداية ، فإذا ما امتنع السبيل فماذا تفعل ؟ ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلاً فى أن ينقض هذا القرار ، أى لا حجة له على الإطلاق . ولذلك أخذنا المعنيين هنا ، فالذين ينافقون يظهرون الإيمان مرة وينقلبون إلى الكفر مرة ، هم ينكرون الإيمان بقلوبهم والذى يقولون بألسنتهم هو الإسلام ، أمّا الإيمان فلمّا يدخل فى قلوبهم .

وما هو الأعز على النفس البشرية ؟ مكنونات القلب أم مقولة اللسان ؟

الأعز هو مكنونات القلب . وماداموا هم لا يؤمنون بقلوبهم ويقولون فقط بألسنتهم ، فالعقيدة داخلهم معقودة على الكفر ، ومادامت العقيدة معقودة على الكفر فهم لا يريدون أن يأتوا إلى صف الإيمان ، ولكنهم يريدون جر المؤمنين إلى معسكر الكفر ؛ لذلك يقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءً فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾ ﴾

و« ودوا » ضميرها يعود على المنافقين الذين اختلف فيهم المسلمون إلى فئتين ، وحكم الله فى صالح الفئة التى أرادت أن تقف منهم موقف القوة والبطش والجبروت ، فقال سبحانه وتعالى تعليلاً لنفاقهم : « ودّوا لو تكفرون كما كفروا » ثم إن نفاقهم معناه قلق يصيبهم من مستوى حالهم مع مستقبل الإسلام أو حاضره ؛ لأنهم كافرون بقلوبهم ، ولكنهم يخافون أن يظهر الإسلام فيعاملهم معاملة الكافرين به ، فيحاولون أن يظهروا أنهم مسلمون ليحتاطوا لنصرة الإسلام وذيوعه ، فهم فى كرب وتعب ، وهذا التعب يجعلهم يديرون كثيراً من الأفكار فى رءوسهم : يقولون نعلن أمام المسلمين أننا مسلمون ، ونعلن أمام الكافرين أننا كافرون .

وما الذى ألجأهم إلى هذا الحال ، وقد كانوا قديماً على وتيرة واحدة ، ألسنتهم مع قلوبهم قبل أن يجيء الإسلام ؟ إذن فالذى يعيدهم إلى حالة الاستقرار النفسى وينزعهم من القلق والاضطراب والخوف على حاضرهم ومستقبلهم هو أن تنتهى قضية الإسلام ، فلا يكون هناك مسلمون وكافرون ومنافقون . بل يصير الكل كافراً .

« ودوا لو تكفرون كما كفروا » والودادة عمل القلب ، وعمل القلب تخضع له جميع الجوارح إن قدرت ، فمادموا يودون أن يكون المسلمون كافرين ، إذن سيقفون فى سبيل انتصار المسلمين ، وسيضعون العقبات التى تحقق مطلوبات قلوبهم . لذلك فاحذروهم ، سأفضح لكم أمرهم لتكونوا على بينة من كل تصرفاتهم وخائنات أعينهم وخائنات ألسنتهم .

« ودوا لو تكفرون » ونعرف أن كلمة « الكفر » تعنى « الستر » ، فالفعل « كفر » معناه « ستر » . ومن عظمة الإيمان بالإسلام وعظمة الحق فى ذاته هو أنه لا يمكن أبداً أن يطمسه خصومه ، فاللفظ الذى جاء ليحدد المضاد لله هو عينه دليل على الإيمان بالله . فعندما نقول : « كفر بالله » أى « ستر وجوده » ، كأنه قبل أن يستر الوجود فالوجود موجود ، ولذلك نجد أن لفظ « الكفر » نفسه دليل على الإيمان ، فلفظ « الكفر »فى ذاته تعنى إيمانا موجوداً يجاهد صاحبه نفسه أن يغطيه ويستره .

« ودوا لو تكفرون كما كفروا » . وهذا القول جاء بعد أن قال الحق :

﴿ فَمَا لَكُمْ فِى ٱلْمُنَـٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ ﴾

(من الآية ٨٨ سورة النساء)

ويدل على أنهم يوصفون مرة بالمنافقين ويوصفون مرة بالكافرين . وسماهم الله فى آية بـ « المنافقين » ويصفهم الحق فى هذه الآية بأنهم كفروا « ودوا لو تكفرون كما كفروا » والكفر الذى يجىء وصفه هنا يدل على مكنون القلب ، فالنفاق لم يعطهم إلا ظاهريات الإسلام ، لكن الباطنيات لم يأخذوها ، ولذلك سيكونون فى الدرك الأسفل من النار فى الآخرة ؛ وإن كانوا فى الدنيا يعاملون معاملة المسلمين احتراماً لكلمة « لا إله إلا الله محمد رسول الله » . لكن الله يعاملهم فى الآخرة معاملة الكافرين ، ويزيد عليها أنهم فى الدرك الأسفل من النار .

إذن فأصحاب الباطل إن كانت لهم قوة يجعلون لسانهم مع قلوبهم فى الجهر بالباطل ، وإن كان عندهم ضعف يجعلون قلوبهم للباطل ولسانهم للحق . وهذه العملية ليست مريحة فى كلا الموقعين . فالمريح لهم ألاّ توجد للحق طائفة . لذلك يقول سبحانه وصفاً لحقيقة مشاعرهم : « ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء » . فهم يتمنون إزالة طائفة الحق حتى لا يكون هناك أحد أفضل من أحد ، مثلما نقول : مفيش حد أحسن من حد .

مثال ذلك : نجد مجموعة من الموظفين فى مصلحة حكومية ، ويكون من بينهم واحد مختلس أو لا يؤدى عمله على الشكل الراقى المطلوب ، لذلك فهو لا يحب أن يؤدى الآخرون أعمالهم بمنتهى الإتقان ، ويريدهم فاسدين ، ويحاول أن يغريهم

بالفساد حتى يكونوا مثله ؛ كى لا يظهروه أمام نفسه بمظهر النقيصة . وحتى لا يكون مكسور العين أمامهم .

ومن العجيب أننا نجد الذى يسرق يحترم الأمين ، وكثيرا ما نسمع عن لص من فور ما يعلم أن هناك كميناً ينتظره ليقبض عليه فهو يبحث عن رجل أمين يضع عنده المسروقات كأمانة .

وقول الحق عن أمنية المنافقين الكافرين بقلوبهم هو أن يكون المؤمنون مثلهم « فتكونون سواء » . وهذه شهادة فى أن صاحب الباطل يحب من صاحب الحق أن يكون معه ؛لأنه حين يجده فى الحق ، فصاحب الباطل يحتقر نفسه ، وقد حدثت العجائب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لقد كفروا به وعذبوا صحابته ، ولكنه هو الأمين باعترافهم جميعاً . فها هوذا الرسول صلى الله عليه وسلم يهاجر من مكة وخلف « عليا » كرم الله وجهه ليرد الودائع والأمانات التى عنده .

هم كذبوه فى الرسالة ، ولكنه الأمين باعترافهم جميعاً ، لذلك أودعوا عنده الأمانات . إذن فصاحب الفضيلة محترم حتى عند صاحب الرذيلة . وحتى نتعرف تماماً على هذا المعنى ، فلنفترض أن إنساناً وقع فى مشكلة ، سبّ أحداً من الناس ورفع المعتدى عليه دعوى قضائية على هذا المعتدى الذى سبّه ، ولهذا المعتدى صديق عزيز ، استشهد به المعتدى عليه ، فيقول المعتدى : أتشهد علىّ ؟ ويذهب الصديق إلى المحكمة ليقول : « لا يقول صديقى مثل هذا السباب » . وهنا شهد الصديق لصديقه شهادة زور . ولنفترض أن هذا المعتدى قد تاب وأناب وصار من الأتقياء ، وجعله الناس حكماً بينهم ، وجاء له الصديق الذى شهد الزور من أجله ليشهد أمامه ، فهل يقبل شهادته ؟ طبعا لا .

إذن صاحب الفضيلة محترم حتى عند صاحب الرذيلة ، فإذا ما حاول أحد من أصحاب الرذيلة أن يشد صاحب الفضيلة إلى خطأ ، فهو يسعى إلى إضلاله ، وينطبق على ذلك قول الحق : « ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء » ومادام هذا هو هدفهم وفكرتهم ألا يتركوا المؤمنين على إيمانهم ، لأجل أن يأخذوهم إلى صف الكفر . وهم بذلك كمنافقين كفار قلوب غير مخلصين لصف الإيمان . وهم

لا يقفون من الإيمان موقف الحياد ، ولكنهم يقفون منه موقف العناد والعداوة . « ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء » وفى هذا تحذير واضح للمؤمنين هو : إياكم أن تأمنوهم على شيء يتعلق بمصالحكم وإيمانكم .

ويصدر الحق الحكم فى هذه القضية بمنتهى الوضوح : « فلا تتخذوا منهم أولياء » أى إياكم أن تتخذوا من المنافقين نصراء لكم أو أهل مشورة ؛ لأن الله سبحانه فضح لكم دخائل نفوسهم ، وهذه المسألة ليست ضربة لازب ، فإن آب الواحد منهم وأناب ورجع إلى حظيرة الإيمان فلن يرده الله ، فسبحانه وتعالى لا يضطهد أحداً لمجرد أنه ارتكب الذنب ؛ لأنه الحق غفور ورحيم ، فمادام قد عاد الإنسان إلى الصواب وبَعُد عن الخطأ ، فعلى المؤمنين أن يقبلوا من يعود إليهم بإخلاص ، فالكراهية لا تنعقد ضد أحد لأنه أخطأ ؛ لأن الكراهية تكون للعمل الخطأ ، وليست موجهة ضد الإنسان المخلوق لله ، فإن أقلعوا عن الخطأ ؛ فهم مقبولون من المؤمنين .

وهاهوذا قاتل زيد بن الخطاب يمر أمام عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ وقال له بعض الناس هاهوذا قاتل أخيك زيد . فيقول عمر بن الخطاب : وماذا أفعل به وقد هداه الله للإسلام ؟!

وهكذا نرى أن الكراهية لم تتعد إلى ذات القاتل ، ولكن الكره يكون للفعل ، فإن أقلعت الذات عن الفعل فالذات لها مكانتها . وهكذا يصدر الحكم الربانى : « فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا فى سبيل الله » .

والهجرة فى سبيل الله كانت تكلف الإنسان أن يخرج من ماله ومن وطنه ومن أهله ، ويذهب إلى حياة التقشف والتعب والمشقة ، وفى هذا ما يكفر عنه ، ويتعرف المؤمنون هنا أنه قد تاب إلى الله فتاب الله عليه وآن له الأوان أن يدخل فى حوزة الإيمان . فإن فعل ذلك فقد عاد إلى الإيمان . ولذلك يجب على الناس أن يفصلوا الذوات عن الأفعال . لماذا ؟ لأن الذوات فى ذاتها لا تستحق أن تكره ، وإنما يكره فعل الذات إن كان قبيحا سيئا .

وحين نقرأ القرآن نجده يعرض مثل هذه المسألة ، فسيدنا نوح عليه السلام عندما تلقى وحى الله بأن يصنع السفينة ، وجلس يصنعها ويمر عليه الناس فيسخرون منه فيقول لهم سيدنا نوح : سنسخر منكم غداً كما تسخرون منا . ويأتى له ابن ليس على منهجه ، فيدعوه نوح إلى المنهج فيقول الابن : « لا » . ويركب نوح السفينة ويقول لله : لقد وعدتنى أن تنجينى أنا وأهلى .

وهنا يوضح الحق : صحيح أنا أنجيك أنت وأهلك ، ولكن ما الذى جعلك تعتبر ابنك من أهلك ، إن الذوات عند الأنبياء لا نسب لها ، إنما نسب الأنبياء الأعمال :

﴿ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ﴾

(من الآية ٤٦ سورة هود)

إن العمل هو الذى يتم تقييمه . ولذلك يقول الحق : « فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا فى سبيل الله » والهجرة من « هجر » ، و« هجر » يعنى أن الإنسان قد عدل من مكان إلى مكان ، أو عن ود إلى ود ، أو عن خصلة إلى خصلة ، والذى يَهجر عادة يتجنى على من « هُجر » ، لنلاحظ أن الله سبحانه وتعالى فى كتابه عندما يأتى بالحدث . يأتى بـ« هاجر » ، ولم يأت بالحادث « هجر » ، فالنبى صلى الله عليه وسلم لم يهجر مكة . ولكنه هاجر منها ، ويقول صلى الله عليه وسلم :

« والله إنك لأحب أرض الله إلىّ وإنك لأحب أرض الله إلى الله ولولا أن أهلك أخرجونى منك ما خرجت »[1] .

فالهجرة جاءت ؛ لأن أهل مكة هجروه أولاً ، فاضطر أن يهاجر . و« هاجر » على وزن « فاعل » . والمتنبى يقول :

إذا ترحلت عن قوم وقد قدروا
ألا تفارقهم فالراحلون همو

ولذلك جاء الحق بالهجرة على صيغة المفاعلة . لقد كرهوا دعوته . واستجاب الرسول للكراهية فهاجر .

---

(١) رواه أحمد والترمذى .

ويوضح سبحانه أن الذى يخلص هؤلاء المنافقين من حكمنا عليهم ، ألا يتخذ المؤمنون منهم أولياء هو : أن يهاجروا فى سبيل الله ؛ لأن ذلك هو حيثية صدق الإيمان . فالمهاجر يحيا عيشة صعبة . وقد عاش المهاجرون على فيض الله من خير الأنصار ، ولم يؤسسوا حياتهم بشكل لائق . إذن فمن ينضم إلى ذلك الموكب هو مؤمن اشترى الإيمان وقدر على أن يكفّر عما بدر منه . فليست الهجرة مجرد هجرة ، ولكنها هجرة فى سبيل الله .

ولذلك نرى القاعدة الايمانية فى الحديث النبوى : « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله . . فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه »[1] .

وهكذا يعامل المؤمنون المنافق إن عاد من كفره ونفاقه إلى الإيمان . لكن ماذا لو تولّى المنافقون ؟ . « فإن تولوا فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم ولا تتخذوا منهم ولياً ولا نصيراً » والأخذ إذا جاء فى مقام النزاع فمعناه الأسر . وقتلهم فى ساحة القتال أمر واجب ، ولا يصح أن يتخذهم المؤمنون أولياء أو نصراء ؛ لأن الواحد من المنافقين يكون دسيسة على المؤمنين ، ويحاول أن يعرف أمور وأحوال المسلمين ، ويطلع خصوم الإسلام على ما يمكن أن ينفذ منه العدو إلى المسلمين . ويستميت ليعرف ما يبيت المسلمون للكافرين .

واتخاذ الولى أو النصير ممن نعلم أنه لا يحب الإيمان وليس على مبدأ الإسلام وعقيدته أمر يشككك فى صدق بصيرة الإنسان الذى يتولى ويود غير المسلمين المخلصين . فحين يرى الواحد منا إنساناً آخر لا يحبه ويكيد المكائد ، وعندما يراك تثق فيه وتحسن إليه ، يقول هذا الكاره : هذا إنسان فاقد البصيرة فلو عرف ما فى قلبى لما فعل ذلك . فإذا اتخذ المؤمنون من المنافقين أولياء أو نصراء والمنافقون على ما هم عليه من نفاق لقال المنافقون : إن المسلمين فاقدو البصيرة وهم لا يعلمون ما فى قلوبنا ؛ لذلك ينير الحق بصيرة المؤمنين حتى لا نأخذ رأياً من المنافقين ينال منا .

وقد يقول المنافقون : إن هؤلاء المسلمين ليس لهم ربٌّ ينصرهم ، فلماذا يدعون

(١) رواه البخارى .

أن لهم إلهاً ؟. لو كان لهم إله لبصرهم بما فى نفوسنا . ونجد هذا الفضح لهم عندما يقول الحق :

﴿ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ ﴾

(من الآية ٨ سورة المجادلة)

وعدم تعذيب الحق له وقت كفرهم له فائدة ورحمة سيدركونها فيها بعد . فمِن هؤلاء مَن سيكون سيفاً للإسلام بعد أن كان سيفاً على الإسلام ؛ فقد ادخرهم الله ليكون بعض منهم سيفاً للإسلام ، فها هو ذا ابن الوليد يهتدى ، وها هو ذا عمرو بن العاص ، وهاهو ذا عكرمة بن أبى جهل ، هؤلاء سيكونون سيوفاً للإسلام ، ولا يظنن منهم أحد أنه سترَ مكنونَ نفسه عن الله :

﴿ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ ﴾

(من الآية ٨ سورة المجادلة)

هذا القول قد أدى أمرين :

الأمر الأول : أوضح أن هناك رباً مطلعاً على خائنة الأعين وخفايا الصدور . والأمر الثانى : أوضح أن الله لم يعذبهم لأن منهم من سيمس الإيمان قلوبهم وسيكونون سيوفاً للإسلام وسيخرج من ذريتهم قادة يحملون الدعوة لله . ولذلك نجد النبى صلى الله عليه وسلم وقد جاءه جبريل وقال له : « إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمرهُ بما شئت فيهم فنادانى ملك الجبال فسلم علىّ ثم قال يا محمد : إن الله قد سمع قول قومك وأنا ملك الجبال وقد بعثنى ربّك إليك لتامرنى بأمرك بما شئت ؟ إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين[1] . فقال الرسول صلى الله عليه وسلم : بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم مَن يعبد الله وحده لا يشرك به شيئا »[2] .

وقد حدث ذلك . إن أسلوب معاملة المنافقين يحدده الله فى هذه الآية بما يلى : هم قومٌ الكفر يسكن القلب منهم ومظهرهم يَدَّعى الإسلام ويتمنون أن يكون

(١) الأخشبان : هما جبلان بمكة : أبو قبيس ، والذى يقابله وهو قعَيْقعان .

(٢) رواه البخارى ومسلم .

المؤمنون على شاكلتهم ، فلذلك لا يتخذ المسلم وليا من النافقين ولا نصيراً .

ولكن إن هاجر المنافق فرحابة الإيمان تتسع له ، أما إن تولّى المنافق وأعرض عن ذلك . فأسلوب المعاملة يكون كما يحدده الله : « فإن تولوا فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم ولا تتخذوا منهم ولياً ولا نصير » لكن بعد أن يُطلق هذا الأمر توجد عقبة فى تنفيذه ، إنها عقبة الأحلاف والعهود والمواثيق التى كان يعطيها رسول الله لبعض القبائل ، وكانت هذه العهود تتلخص فى أن الرسول يعاهد بعض القبائل بعدم الإغارة على المسلمين وعدم إغارة المسلمين عليهم . ولذلك يحترم الحق هذه المواثيق والأحلاف .

إن الحق يوضح لنا : لا تأخذوا هذا الأمر أيها المسلمون على إطلاقه ؛ لأن الإسلام دين الوفاء بالعهود ، وقد أعطيتم بعض القبائل عهوداً بأن من لجأ إليهم يؤمنونه ويدخل فى حمايتهم ، وكذلك الذى يصل ويلجأ إلى المسلمين فعليهم حفظه ومنع التسلط عليه .

لذلك قال الحق فى هذا الاستثناء :

﴿ إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ ۚ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٩٠﴾ ﴾

والآية تبدأ باستدراك حتى لا تفتح مجالاً لإغضاب من كان للإسلام تعاهد معهم وتعاقد ، فالذين يصلون ويلجأون إلى قوم بينهم وبين المسلمين تحالف أو ميثاق

لا ينطبق عليهم ما جاء فى الآية السابقة وهو الأخذ والقتل .

مثال ذلك ما حدث من عهد بين المسلمين وهلال بن عويمر الأسلمى على ألّا يعينوه ولا يعينوا عليه وعلى أن من وصل إلى هلال ولجأ إليه فله الجوار مثل الذى لهلال . والاستثناء يشمل أيضاً من جاءوا إلى المسلمين ، فمن ذهب من المنافقين إلى من عاهده المسلمون فهو يحصل على الأمان ، وكذلك يُؤَمِّنُ الرسول من جاءه من المنافقين وقال من الأسباب ما يجعله يطلب حماية الرسول والإسلام : فعلى الرغم من نفاقه يؤمنه الإسلام .

« أو جاءوكم حصرت صدورهم أن يقاتلوكم أو يقاتلوا قومهم » كأن يقول الواحد منهم : أنا لا أقدر أن أقاتلكم ، ولا أقدر أن أقاتل قومى فاغفر لى هذا واقبلنى معكم . هؤلاء يقبلهم الرسول لأنهم أقروا بما هم فيه من ضيق ، فهم لا يستطيعون التصرف لا أمام المسلمين فيعلنون الإيمان ، ولا أمام الكافرين فيعملون فى معسكر الكفر . ولا يستطيعون أن يتخذوا موقفاً حاسماً حازماً بين المسلمين والكافرين ، فهم يقرون بضعفهم ، ويعترفون به .

« ولو شاء الله لسلطهم عليكم » . فما الذى يجعلهم يلوذون إلى قوم يتحالفون مع المسلمين بميثاق حتى يحتموا فيهم ؟ أو يقرون أن صدورهم ضيقة وأنهم غير قادرين على التصرف ، ويعلنون : لا نستطيع أن نقاتلكم ولا أن نقاتل قومنا . ويوضح الحق : أنا فعلت هذا وألقيت الرعب فى نفوسهم ، ولو شئت لسلطتهم وجرأتهم عليكم ، وقاتلوكم ، إذن فسبحانه ينصرنا بالرعب ويمنع قتالهم لنا .

« فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلاً » .

إن اعتزلوكم ولم يقاتلوكم وألقوا السلم واعترفوا بأنهم لا يملكون طاقة اختيار بين قتال المسلمين أو قتال قومهم ، فليس لكم أيها المسلمون حجة أن تعتدوا عليهم ؛ فالاعتداء عليهم فى مثل هذه الحالة ينهى الله عنه .

وعين الحق لا تقتصر على ما نعرف ، ولكنها تتعدى إلى أدق التفاصيل ؛ فهى عين لا ترى ما عرفناه فقط ولكنها تكشف لنا الحجب التى لا نعرفها ، فيقول سبحانه :

﴿ سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا۟ فِيهَا ۚ فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنًا مُّبِينًا ﴿٩١﴾ ﴾

تبدأ هذه الآية بفعل يتحدث عن المستقبل : « ستجدون آخرين يريدون أن يأمنوكم ويأمنوا قومهم » . معنى ذلك أن المسلمين لحظة نزول هذه الآية لم يكونوا قد وجدوا مثل هؤلاء القوم الذين يتحدث عنهم الحق ، ولو لم يحدث للمعاصرين لنزول القرآن أن وجدوا مثل هؤلاء ماذا كانوا يقولون عن هذا الخبر؟ . لو لم يجدوا مثل هؤلاء القوم لتشككوا فى القرآن . وسبحانه يوضح أنى عين معكم ، وعين لكم ، أخبرتكم بما حدث واختلفتم فيه ، وأخبركم بما لم يصل إلى أذهانكم وعلمكم فلا تختلفوا فيه ، وهذا دليل على أنكم فى رعايتى وفى عنايتى .

« ستجدون آخرين يريدون أن يأمنوكم » وهؤلاء القوم هم قوم من بنى أسد وغطفان ، وكانوا على مشارف المدينة ، وكانوا يقابلون المسلمين فيقولون : « نحن معكم » ، وكانوا أيضاً يقابلون الكفار فيقولون : « نحن معكم » ، والحقيقة أنهم عاجزون عن مواجهة أى معسكر . ولذلك يصفهم القرآن : « ستجدون آخرين يريدون أن يأمنوكم ويأمنوا قومهم كلما ردوا إلى الفتنة أركسوا فيها » . وهؤلاء كلما جاءهم الاختبار « أركسوا فيها » . أى فشلوا فى الاختبار ، فعناصرهم الإيمانية لم تقو بعد ، ومازالوا فى حيرة من أمرهم . وعندما جاءتهم الفتنة لتصهرهم وتكشف ما فى

أعماقهم ازدادت حيرتهم . فالفتنة هى اختبار ، وليست الفتنة شيئاً مذموماً ، وعندما يقال : إن فلانا فى فتنة فعلى المؤمن أن يدعو له بالنجاح فيها ، فالفتنة ليست مصيبة تقع ، ولكن المصيبة تقع إذا رسب الإنسان فى الفتنة .

ونعلم أن الفتنة مأخوذة من الأمر الحسى ، فتنة الذهب وكذلك الحديد : فتنة الذهب هى صهر الذهب فى البوتقة حتى ينصهر ؛ فتطفو كالزبد كلُّ العناصر الشائبة المختلطة بالذهب ، وكذلك الحديد ، يتم صهره حتى تنفصل الذرات المتماسكة بعضها عن بعض . ويطفو الخبث .

ونعرف أن الحديد أنواع : فالحديد الزهر شوائبه ظاهرة فيه وسهل الكسر . بينما نجد الحديد الصلب بلا خبث فهو صلب . وفتنة الذهب والحديد تكشف عن المعادن الغريبة المختلطة به . ونقلت كلمة « الفتنة » من المحسات إلى المعانى ، وصارت الفتنة هى الاختبار الذى ينجح فيه الإنسان أو يرسب ، فهى ليست ضارة فى ذاتها ، ولكنها ضارة لمن يرسب فيها .

وهكذا كان تنبؤ القرآن الذى يخبر المسلمين بأمر قوم على حدودهم ، تجعلهم الفتنة لا يقوون على الإيمان ، أى فكلما دعاهم قومهم إلى الشرك وقتال المسلمين رُدُّوا على أعقابهم وانقلبوا على رءوسهم أقبح قلب وأشنعه وكانوا شرًّا من كل عدو عليكم ، ويشرح القرآن كيفية سلوك المؤمنين تجاه هؤلاء المرتكسين والمنقلبين فى الفتنة : « فإن لم يعتزلوكم ويلقوا إليكم السلم ويكفوا أيديهم فخذوهم واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأولئكم جعلنا لكم عليهم سلطاناً مبيناً » ونلحظ أن الحق أمر بتأمين من لجأوا بضعفهم على الرغم من نفاقهم إما إلى المسلمين وإما إلى حلفاء المسلمين حين قال فى الآية السابقة :

﴿ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴾

(من الآية ٩٠ سورة النساء)

وهذا إنصاف وتنبيه إلهى من الحق ألا يسمع أحد صوت حفيظته ويفترس قوماً ضعفاء . أما الذين يحاولون التمرد والاستسلام لصوت الكفر وإيقاع الأذى بالمسلمين ، ولم يلقوا بالسلم للمسلمين ويكفوا أيديهم عنهم ، هؤلاء يأتى فيهم الأمر الإلهى :

خذوهم واقتلوهم . وجعل الله للمسلمين على هؤلاء السلطانَ المبين . والسلطان ـ كما نعرف ـ هو القوة ، والقوة تأخذ لونين : هناك قوة تقهر الإنسان على الفعل كأن يأتى واحد ويأمر إنساناً بالوقوف فيقف ، وكأنْ يأمر القويُّ الضعيفَ بالسجود فيسجد . وهذا سلطان القوة الذى يقهر القالب ، لكنه لا يقدر على قهر القلب أبداً . والسلطان الثانى هو سلطان الحجة ، وقوة المنطق وقوة الأداء والأدلة التى تقنع الإنسان أن يفعل .

والفارق بين سلطان القوة وسلطان الحجة أن سلطان القوة قد يقهر الإنسان على السجود ، لكن سلطان الحجة يجعل الإنسان يسجد بالاقتناع . والسلطان المبين الذى جعله الله للمؤمنين على المنافقين الذين يقاتلون المؤمنين ، هذا السلطان يمكن لكم أيها المسلمون قوة تفعلون بها ما تريدون من هؤلاء ماداموا حاولوا القتال وإلحاق الأذى بالمسلمين ، فالحزم والعدل هو أخذهم بالعنف .

وحتى نفهم معنى السلطان جيداً فلنتذكر الجدل الذى سيحدث فى الآخرة بين الشيطان والذين اتبعوا الشيطان ، سنجد الشيطان يقول : لقد أغويتكم ، هذا صحيح ، وأنتم اتبعتمونى ، فأنتم المسئولون عن ذلك ، فلم يكن لى عليكم من سلطان قوة أو سلطان إقناع :

﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ﴾

(من الآية ٢٢ سورة إبراهيم)

وبعد أن تكلم الحق عن القتال ومشروعيته ، وقتال المنافقين ، وقتال الآخرين . نجد الكلام يصل إلى موضوع القتل . فأوضح لهم : المسألة أننى أنا الذى عملت البنيان الآدمى ، والحياة أنا الذى أهبها ، وليس من السهل لبانى البنيان أن يحرض على هدمه ، إنما أنا أحرض على هدم هؤلاء الذين يقاتلونكم ؛ لكى يسلم باقى البنيان لكم ، وإياكم أن تجترئوا على بنيانات الناس ، فملعون من يهدم بنيان الله ؛ فالنفس التى خلقها الله ، إياك أن تقترب من ناحيتها إلا بحقها وذلك بأن اجْتَرَأْتَ على حدود الله ؛ لأنه سبحانه هو الذى خلق الحياة وهو الذى يأخذ الحياة، وحياة الناس ليست ملكاً لهم ؛ فحياة الإنسان نفسه ليست ملكاً لنفسه ، ولذلك فمن يقتل واحداً، عُدْوانا دون حق نقتص منه ، وأما إن كان ذلك قد قتل خطأ فنأخذ منه الدية،

وتنتهى المسألة . لكن قاتل نفسه تحرم عليه الجنة .

إذن فقبل أن يقول لى : لا تقتل غيرك قال لى : إياك وأن تقتل نفسك . إذن فسبحانه ليس بغيور فقط على الناس منك ، بل يغار عليك أيضاً من نفسك ، ولذلك فحين شرع سبحانه القصاص فى القتل شرعه ليحميك لا ليجرئك على أن تقتل ، أما عندما يأمر سبحانه : أن من قَتَلَ يُقتل.فهو يقسط ويعدل ، والقصد من هذا الحفاظ على حياتين ؛ لأنك إن علمت أنك إن قَتَلْتَهُ قُتِلْت لا تقتل . ومادمت لا تقتل فقد حميت حياتين حياة من كنت ستقتله وحياتك من أن يُقتص منك وهذا هو معنى قوله :

﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُوْلِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾

(من الآية ١٧٩ سورة البقرة)

إذن فالذى يتفلسف ويقول : هذه بشاعة وكذا وكذا نقول له : الذى يشرع القصاص أيريد أن يَقتل ؟ لا ، بل يريد أن يحمى حياتك ؛ لأن القاتل عندما يعلم أنه إن قَتَلَ يُقتل فلا يقتل ، ومادام لا يقتل نكون قد حافظنا على حياته وحياة الآخر . إذن فقوله : « ولكم فى القصاص حياة » قول صدق .

وعندما تكلم الحق عن القتال والقتل ينبهنا : إياكم وأن تجترئوا بسبب هذه المسائل على دماء الناس ولا على حياتهم ؛ لذلك يتكلم سبحانه عن القتل المحظور فى الإيمان والإسلام ويقول :

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا ۚ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ ۚ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ

رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾

جاء هذا القول بعد أن تكلم سبحانه عن القتال لتثبيت أمر الدعوة ، ولما كان القتال يتطلب قتل نفس مؤمنة نفسًا كافرة،ناسب ذلك أن يتكلم الحق سبحانه عن القتل .

والقتل ـ كما نعلم ـ محاولة إزهاق روح الحى بنقض بنيته . والحى وإن لم ننقض بنيته حين يأتى أجله يموت . إذن فنقض البنية من الإنسان الذى يريد أن يقضى على إنسان عملٌ غايتُه إنهاء الحياة ، فلا يظنن ظان أن القاتل الذى أراد أن ينقض بنية شخص يملك أن ينهى حياته ، ولكنه يصادف انقضاء الحياة ، فالذى ينهى الحياة هو الحق سبحانه وتعالى . ولذلك قلنا : إن الجزاء إنما وقع على القاتل لا لأنه أمات القتيل ولكن لأن القاتل تعجل فى أمر استأثر الله وحدهُ به ، والقتيل ميت بأجله ، فالحق سبحانه وتعالى هو الذى استخلف الإنسان فى الكون ، والاستخلاف شرحه الحق فى قوله :

﴿وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾

(من الآية ٦١ سورة هود)

فالله هو الذى جعل الإنسان خليفة فى الكون ليعمر هذا الكون ، وعمارة الكون تنشأ بالتفكير فى الارتقاء والصالح فى الكون ، فالصالح نتركه صالحاً ، وإن استطعنا أن نزيد فى صلاحه فلنفعل .

الأرض ـ على سبيل المثال ـ تنبت الزرع ، وإن لم يزرعها الإنسان فهو يجد زرعاً

خارجاً منها ، والحق يريد من الإنسان أن ينمى فى الأرض هذه الخاصية فيأتى الإنسان بالبذور ويحرث الأرض ويزرعها . فهذا يزيد الأمر الصالح صلاحاً . وهذا كله فرع وجود الحياة .

إذن فالاستخلاف فى الأرض لإعمارها يتطلب حياة واستبقاء حياة للخليفة . ومادام استبقاء الحياة أمراً ضرورياً فلا تأتى أيها الخليفة لخليفة آخر مثلك لتنهى حياته فتعطل إحياءه للأرض واستعماره لها . فالقتال إنما شُرِع للمؤمنين ضد الكافرين ؛ لأن حركة الكافرين فى الحياة حركات مفسدة ، ودرء المفسدة دائماً مقدم على جلب المصلحة . فالذى يفسد الحياة يقاتله المؤمنون كى ننهى الحياة فيه ، ونُخَلِّص الحياة من معوق فيها .

إذن فيريد الحق أن تكون الحياة لمن تصلح الأرض بحياته . والكافرون يعيشون فى الأرض فساداً ، ويعيشون على غير منهج ، ويأخذون خير الضعيف ليصيروا هم به أقوياء ، فشرع الله القتال إما ليؤمنوا فيخضعوا للمنهج ، وإما ليخلص الحياة من شرهم . فإذا ما وجه الإنسان القتل لمؤمن ـ وهو فى ذاته صالح للاستعمار فى الحياة ـ يكون قد جنى على الحياة ، وأيضاً لو قتل الإنسان نفسه يكون قد جنى على الحياة كذلك ، لماذا ؟ لأنه أفقد الحياة واحداً كان من الممكن أن يعمر بحركته الأرض .

فإن اجترأ على حياته أو على حياة سواه فلا بد أن نؤدبه . كيف ؟ قال سبحانه :

﴿ وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا ﴾

(من الآية ٢٧ سورة يونس)

والتشريع الإسلامى وضع للقاتل عن سبق إصرار وترصد عقاباً هو القتل . وبذلك يحمى التشريع الحياة ولا ينمى القتل ، بل يمنع القتل . إذن ، فالحدود والقصاصات إنما وضعت لتعطى الحياة سعة فى مقوماتها لا تضييقا فى هذه المقومات ، والحق سبحانه وتعالى حينما تكلم عن القتال المشروع أراد أن يوضح لنا : إياكم أن تتعدوا بهذه المسألة ، وتستعملوا القتال فى غير الأمر المشروع ، فإذا ما اجترأ إنسان على إنسان لينهى حياته فى غير حرب إيمانية شرعية فماذا يكون الموقف ؟

يقول التشريع : إنه يقتل ، وكان يجب أن يكون فى بالك ألا تجترىء على إزهاق حياة أحد إلا أن يكون ذلك خطأ منك ، ولكن إن أنت فعلت خطأ نتج عنه الأثر وهو القتل . فماذا يكون الأمر ؟ هناك منفعل لك وهو القتيل وأنت القاتل ولكن لم تكن تقصده ، هما - إذن - أمران : عدم القصد فى ارتكاب القتل الخطأ ، والأمر الثانى هو حدوث القتل .

يقول التشريع فى هذه المسألة : إن القاتل بدون قصد قد أزهق حياة إنسان ، وحياة هذا الإنسان لها ارتباطات شتى فى بيئته الإيمانية العامة ، وله ارتباطاته ببيئته الأهلية الخاصة كعائلته ، العائلة له أو العائل لها أو الأسرة أو الأقرب من الأسرة وهو الأصل والفرع ، فكم دائرة إذن ؟ دائرة إيمانية عامة ، ودائرة الأهل فى عمومها الواسع ، ودائرة الأسرة ، ودائرة خصوصيةالأسرة فى الأصل والفرع . وحين تنهى حياة إنسان فى البيئة الإيمانية العامة فسوف تتأثر هذه البيئة بنقصان واحد مؤمن خاضع لمنهج الله ومفيد فى حركته ؛ لأن الدائرة الإيمانية فيها نفع عام .

لكن الدائرة الأهلية يكون فيها نفع خاص قليلاً والدائرة الأسرية نجد أن نفعه فيها كان خاصا بشكل ما ، وفى الأصل والفرع نجده نفعا مُهِمًّا وخاصاً جداً . إذن فهذا القتل يشمل تفزيعاً لبيئة عامة ولبيئة أسرة ولبيئة أصل وفرع .

ولذلك أريد أن تلاحظوا فى أحداث الحياة شيئا يمر علينا جميعا ، ولعل كثيراً منا لا يلتفت إليه ، مع أنه كثير الحدوث ، مثلاً : إذا كنا جالسين فى مجتمع وجاء واحد وقال : « فلان مات » ، وفى هذا المجتمع أناس يعرفونه معرفة عامة . وآخرون يعرفونه معرفة خاصة ولهم به صلة ، وأناس من أهله ، وفيه والد الميت أو ابنه ، انظروا إلى أثر النعى أو الخبر فى وجوه القوم ، فكل واحد سينفعل بالقدر الذى يصله ويربطه بمن مات . فواحد يقول : « يرحمه الله » وثانٍ يتساءل بفزع : « كيف حدث ذلك » ؟ وثالث يبكى بكاء مرًا ، ورابع يبكى جارياً ليرى الميت . الخبر واحد فلماذا يتعدد أثر وصدى الانفعالات ، ولماذا لم يكن الانفعال واحداً ؟

نقول : إن الانفعال إنما نشأ قهراً بعملية لا شعورية على مقدار نفع الفقيد لمن ينفعل لموته ؛ فالذى كان يلتقى به لِمَاماً ويسيراً فى أحايين متباعدة يقول : « رحمه

الله » . والذى كان يجالسه كل عيد يفكر فى ذكرياته معه ، وحتى نصل إلى أولاده فنجد أن المتخرج الموظف وله أسرة يختلف انفعاله عن الخريج حديثاً أو الذى يدرس ، أو البنت الصغيرة التى مازالت تتلقى التعليم ، هؤلاء الأولاد يختلف تلقيهم للخبر بانفعالات شتى ، فالابن الذى له أسرة وله سكن يتلقى الخبر بانفعال مختلف عن الابن الذى مازال فى الدراسة ، وانفعال الابنة التى تزوجت ولها أسرة يختلف عن انفعال الابنة التى مازالت لم تجهز بعد .

إذن فالانفعال يحدث على مقدار النفعية ، ولذلك قد نجدها على صديق أكثر مما نجدها على شقيق . وقالوا : من أحب إليك ، أخوك أم صديقك ؟ . قال : النافع . إذن تلقى خبر انتهاء الحياة يكون مختلفاً ، فالحزن عليه والأسف لفراقه إنما يكون على قدر إشاعة نفعه فى المجتمع .

فالذى تجد المجتمع كله هائجا وثائرا وحزينا لفراقه كان نافعاً للمجتمع كله ، والذى تبكى عليه أسرته فقط نقول : إنه كان على قدر نفعه لأسرته وأولاده ، وقد يموت واحد ولا يحس أحد أن الكون قد نقص . وهذا هو السبب فى أنهم أرادوا أن يجعلوا لكل واحد وطناً . وقالوا : إن أوطان الناس على قدر همتهم . فواحد ليس له وطن إلا نفسه فقط ؛ يرى كل شىء لنفسه ولا يرى نفسه لأحد حتى ولو كانوا أولاده .

وهناك واحد يكون وطنه أسرته يعمل على قدر نفعها ، وواحد يكون وطنه عائلته وقريته ، وواحد وطنه أمته . وواحد وطنه العالم كله . إذن فعندما يفجع المجتمع فى واحد فالهزة تأتى على قدر وطنه ، وعندما يفاجأ الناس بواحد يُقتل عن طريق الخطأ فالفاعل معذور . ولكن عذره لم يمنع أن تعدى فعله وأن الآخر قد قتل ؟ . فالأثر قد حصل ، وتحدث الهزة للأقرب له فى الانتفاع ، ولأن القتل خطأ فلن يتم القصاص من القاتل ، ولكن عليه أن يدفع دية ، وهذه الدية توزع على الناس الذين تأثروا بفقدان حياته ؛ لأن هناك قاعدة تقول : « بسط النفع وقبض الضر » .

إنك ساعة ترى شيئاً سينفعك فإن النفس تنبسط ، وعندما ترى شيئاً سيضرك فإن النفس تنقبض . وعندما يأتى للإنسان خبر موت عزيز عليه فإن نفسه تنقبض ، وساعة يأتيه من بعد ذلك خير وهو حصوله على جزء من دية القتيل فالنفس تنبسط ، وبذلك يتم علاج الأثر الحادث عن القتل الخطأ .

والدية بحكم الشرع تأتى من العاقلة ، وبشرط ألا تؤخذ من الأصول والفروع ، فلا تجتمع عليهم مصيبة فقد إنسان على يد أحد من أصولهم أو فروعهم وهم بذلك يفزّعون فلا يجمع عليهم هذا الأمر مع المشاركة فى الدية . كأن التشريع أراد أن يعالج الهزة التى صنعها انحراف بعلاج هو وقاية من رد الفعل فيحقق التوازن فى المجتمع . فمن يقتل خطأ لا يقتص منه المجتمع ولكن هناك الدية . ومن أجل إشاعة المسئولية فالقاتل لا يدفعها ، ولكن تدفعها العاقلة ؛ لأن العاقلة إذا ما علمت أن من يجنى من أهلها جناية وأنّها ستتحمل معه فإنها تعلِّم أفرادها فن صيانة حقوق غيرهم ؛ لأن كل واحد منها سيدفع ، وبذلك يحدث التوازن فى المجتمع .

والحق سبحانه وتعالى يعلمنا أن نستبعد أن يقتل مؤمن مؤمناً إلا عن خطأ ، فلا يستقيم أن يحدث ذلك عمدا فيقول : « وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً إلا خطأ » ومعنى هذا أن مثل هذا القتل لا يصح أن يحدث عن قصد ؛ لأن اللُّحمة ـ بضم اللام ـ الإيمانية تمنع هذا . لكن إن حدث هذا فما العلاج ؟ . «وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً إلا خطأ ومن قتل مؤمناً خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة إلى أهله » .

ولا يذكر سبحانه هنا القصاص ، فالقصاص قد تقدم فى سورة البقرة فى قوله تعالى :

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِي ٱلْقَتْلَى ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ ﴾

(من الآية ١٧٨ سورة البقرة)

والقصاص حق الولى فلهُ أن يعفو أو أن يأخذ الدية ، كأن يقول : عفوت عن القصاص إلى الدّية . ويجب أن نفرق بين الحد وبين القصاص . فالقصاص حق الولى ، والحد حق الله . وللولى أن يتنازل فى القصاص ، أما الحدود فلا يقدر أحد أن يتنازل عنها ، لأنها ليست حقاً لأحد ولكنها حق لله .

إذن فالقتل الخطأ قال فيه : « فتحرير رقبة مؤمنة » وهنا قد نسأل : وماذا يستفيد أهل المجنى عليه بالقتل من تحرير رقبة مؤمنة ؟ . هل يعود ذلك على أهل القتيل ببسط فى النفعية ؟ . قد لا تفيدهم فى شيء ، لكنها تفيد المجتمع ؛ لأن مملوك الرقبة وهو العبد أو الأمة هو مملوك لسيده ، والسيد يملك حركة العبد ، ولكن عندما يكون

العبد حرّاً فهو حر الحركة ؛ فحركة العبد مع السيد محدودة ، وفى حريته حركة مفيدة للمجتمع .

إذن فالقبض الذى حدث من قتل نفس مؤمنة يقابلها بسط فى حرية واحد كان محكوماً فى حركته فنقول له : انطلق فى حركتك لتخدم كل مجتمعك . ويريد الحق بذلك أن يفتح مصرفاً لحرية الأرقاء ضمن المصارف الكثيرة التى جعلها الإسلام لذلك .

وبعد هذا القول « ودية مسلمة إلى أهله » لكى تصنع البسط فى نفوس أهله ليعقب القبض نتيجة خبر القتل . ولذلك نجد أسرة قد فجعت فى أحد أفرادها بحادثة وعاشوا الحزن أياماً ثم يأخذون الأوراق ويصرفون بها الدية أو التعويض ، مما يدل على أن فى ذلك شيئاً من السلوى وشيئاً من التعزية وشيئاً من التعويض ، ولو كانت المسألة مزهوداً فيها لقالوا : « نحن لا نريد ذلك » ، ولكن ذلك لا يحدث .

وبعد ذلك نجد الذى فقد حياة حبيب لا يظل فى حالة حزن ليفقد حياة نفسه ، ففى الواقع يكون الحزن من الحزين على نفسه بمقدار ما فات عليه من نفع عندما قُتل له القتيل ، والحزين إنما حزن لأن القتيل كان يثرى حياته ، فلما مات صارت حياة النفع منه بلا إثراء .

ولو رأينا إنساناً يحزن لفقد واحد وقلنا له : احتفظ بجثمانه لمدة أسبوع لترتوى من أشواقك إليه ، وبعد ذلك نأخذه منك لندفنه أيرضى ؟. لن يرضى أبداً بذلك . أو نقول للحزين : « لن نقدم لك طعاماً لمدة أسبوع لأنك فى حالة حزن هنا لن يوافق الحزين ، وزوجة الفقيد تذرف عيناها الدمع وتبكى عليه لكنها تأكل وتشرب .

إذن فالمسألة يجب أن تكون واضحة لاستقبال أقضية الحق وهى أقضية لا تنقض نواميس الله فى الكون. وبعد ذلك يريد الحق أن يشيع التعاطف بين الناس، فإذا قال أهل القتيل لأهل القاتل : نحن لا نريد دية ، لأن مصيبتكم فى القتيل مثل مصيبتنا فيه ، وكلنا إخوة فما الذى يجرى فى المجتمع ؟. الذى يحدث من النفع هو أضعاف أضعاف ما تؤديه الدية ، إذن فهذا ترييب للدية ، فساعة يعرف الطفل فى العائلة أنه

كان مطلوباً منهم دية لأن أباه قد قَتَل ، وعفا أهل القتيل فلم يأخذوا الدِّية ، هذا الطفل سيعرف عندما يَشِبُّ ويعقل الأمور أن كل خير عند أسرته ناتج من هذا العفو وهذه العفّة ، فيحدث الود .

إذن فالحق سبحانه وتعالى يريد أن يربب إشاعة المودة والصفاء والنفعية . فإذا ما حزن واحد لفقدان إنسان بالقتل الخطأ قد يأخذ الدية فينتفع ، وإن لم يأخذها فهو ينتفع أكثر ؛ لذلك يقول الحق : « ودية مسلّمة إلى أهله إلا أن يصدقوا » .

وهذا ما يحدث إذا ما قتل مؤمن مؤمناً خطأ فى بيئة إيمانية ، ولكن ما الذى يحدث عندما يتم قتل مؤمن لواحد من قوم أعداء والمقتول مؤمن ويعيش بين الكفار ؟ . ها نحن أولاء نرى عدالة التشريع الإلهى ، وحتى نزداد يقيناً بأن الله هو رب الجميع ؛ لذلك قال الحق : « فإن كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن » أى كان المقتول من قوم فى حالة عداء مع المسلمين فهو لا يستحق الدية ؛ لأنه يحيا فى قوم كافرين .

هكذا نجد التشريع هنا قد شرع لثلاث حالات : شرع لواحد فى البيئة الإيمانية ، وشرع لواحد مؤمن فى قوم هم أعداء للمؤمنين ، وشرع لواحد قد قُتل وهو من قوم متحالفين مع المسلمين . وكل واحدة لها حكم ، والحكم فى حالة أن يكون القتيل من قوم بينهم وبين المسلمين عداء وهو مؤمن ، فتحرير رقبة مؤمنة ، وذلك للتعويض الإيمانى فينطلق عبد كان محدود الحركة لأنّ هناك مَن مات وانتهت حركته ، وفى هذا تَعويض للمجتمع عندما تشيع حركة العبد . وماذا نفعل فى الدية ؟ . لا يأخذون الدية ؛ لأن الدية موروثة ، وهم من الكفار وليس بين الكفار والمسلمين توارث أى فليس هنا دية .

وعندما ننظر إلى قول الحق : « فإن كان من قوم عدو لكم » نجد أن كلمة « عدو » مفردة فى ذاتها ، ولكنها تشمل كل القوم ، وفى اللغة نقول : « هو عدو » و« هما عدو » و« هم عدو » وإن تنوعت عداوتهم فهم أعداء ، ولكن عندما يتحد مصدر العداء فهم عدو واحد . والحق يقول : « فإن كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة » ولم يورد سبحانه هنا الدية لأن القوم على عداء للإسلام فلا دية لهم ؛ لأنه لا توارث .

ويقول الحق : « وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلَّمةٌ إلى أهله وتحرير رقبة مؤمنة » فإذا أعطى المسلمون قوماً عهداً من العهود فلا بد من الوفاء . هذا الوفاء يقتضى تسليم دية لأهله ؛ لأن هذا احترام للعهد ، وإلا فما الفارق بيننا وبينهم . . . والدية ـ كما نعلم ـ تدفعها العاقلة ، ويقول الحق فى بيان حق الله فى أمر القتل خطأ : « وتحرير رقبة مؤمنة فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين توبة من الله » أى فمن لم يجد الرقبة أو لم يتسع ماله لشرائها فصيام الشهرين بكل أيامهما ، فلا يفصل بينهما إلا فاصل معذر كأن يكون القاتل ـ دون قصد ـ على مرض أو على سفر . وبمجرد أن ينتهى المرض أو السفر فعليه استكمال الصوم .

ولماذا هذا التتابع الحكمى ؟ . لأن الله سبحانه وتعالى يريد أن يجعل هذه المسألة شاغلة لذهن القاتل ، ومادامت تشغل ذهنه فالصيام لا بد أن يكون متتابعاً ، فلو لم يكن الصيام متتابعاً لأصابت القاتل غفلة . « فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين توبة من الله » .

ولماذا قال الحق : « توبة من الله » ؟ . والتوبة ـ كما نعرف ـ قد تكون من العبد فنقول : « تاب العبد » .

وقد تسند التوبة إلى الحق فيقال : « تاب الله عليه » ومراحل التوبة ثلاث : حين يشرع الله التوبة نقول : تاب الله على العباد فشرع لهم التوبة فلا أحد يتوب إلا من باطن أن الله شرع التوبة ؛ لأنه لو لم يشرع الله التوبة لتراكمت على العباد الذنوب والخطايا .

وتشريع التوبة هو تضييق شديد لنوازع الشر ، فلو لم يشرع الله التوبة لكان كل من ارتكب ذنباً يعيث فى الأرض بالفساد . فحين شرع الله التوبة عصم المجتمع من الأشرار . فلأنه شرّع التوبة ، فهو ـ سبحانه ـ يتوب ، هذه هى المرحلة الأولى . ومادام الله قد شرع التوبة فالمذنب يتوب ، هذه هى المرحلة الثانية ، وساعة شرع الله التوبة ويتوب المذنب فالله يقبل التوبة ، هذه هى المرحلة الثالثة .

وهكذا نرى دقة القرآن حين قال :

﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾

(من الآية ١١٨ سورة التوبة)

وبعد أن يتوبوا فإن الله يقبل التوبة عن عباده .

إذن فالتوبة الأولى من الله تشريع . والتوبة الثانية من الله قبول ، والوسط بينهما هى توبة الإنسان .

ويذيل الحق الآية : « توبة من الله وكان الله عليماً حكيماً » فسبحانه يشرع التشريع الذى يجعل النفوس تحيا فى مُناخ طبيعى وفى تكوينها الطبيعى ، فلو تصورنا أن إنساناً قد قُتل خطأ وتركنا أهل المقتول بلا ترضية فلن يستفيد المجتمع الإيمانى من قتله .

إذن فالعلم من الله بالنفس البشرية جعل من قتل خطأ يُفيد المجتمع الإيمانى بتحرير رقبة ، فيزيد المجتمع إنساناً حراً يتحرك حركة إيمانية ؛ لذلك اشترط الحق أن تكون الرقبة مؤمنة ، حتى نضمن أن تكون الحركة فى الخير ، فنحن لا نحرر رقبة كافرة ؛ لأن الرقبة الكافرة عندما تكون مملوكة لسيد فشرها محصور ، لكن لو أطلقناها لكان شرها عاماً . وبعد تحرير الرقبة هناك الدية لننثرها على كل مفزع فى منفعته فيمن قُتل ، ولا نأخذها من أصول القاتل وفروعه ، فلا نجمع عليهم مصيبتين القتل الذى قام به أصلهم أو فرعهم ؛ لأن ذلك - لاشك - سيصيبهم بالفزع والخوف والاشفاق على مَن جنى منهم . وأن يشتركوا فى تحمل الدية . وذلك العمل ناشىء عن حكمة . فإذا كان الذى يضع الأشياء فى موضعها هو خالقها ، فلن يوجد أفضل من ذلك لتستقيم الأمور .

وفى المجال البشرى نجد أن أى آلة من الآلات - على سبيل المثال - مكونة من خمسين قطعة ، وكل قطعة ترتبط بالأخرى بمسامير أو غير ذلك ، ومادامت كل قطعة فى مكانها فالآلة تسير سيراً حسناً ، أما إذا توقفت الآلة فإننا نستدعى المهندس ليضع كل قطعة فى مكانها ، وكل شىء حين يكون فى موضعه فالآلة تمشى باستقامة ، وكل حركة فى الوجود مبنية على الحكمة لا ينشأ فيها فساد ؛ فالفساد إنما ينشأ من حركات

تحدث بدون أن تكون على حكمة . والحكمة مقولة بالتشكيك ، فهناك حكيم وهناك أحكم . وقديماً ـ على سبيل المثال ـ كنا نرى الأسلاك الكهربائية دون عوازل فكان يحدث منها « ماس » كهربائى . وعندما اكتشفنا العوازل استخدمناها وعدلنا من تصنيعنا للأشياء . وكنا نجد الأسلاك فى السيارة ـ مثلاً ـ ذات لون وحجم واحد ، فكان يحدث الارتباك عند الإصلاح ، لكن عندما تمت صناعة كل سلك بلون معين ، فسهل هذا عملية الإصلاح .

فالحكمة هى وضع الشيء فى موضعه ، فما بالنا حين يكون من يضع الشيء فى موضعه هو خالقنا ؟ لن نجد أفضل ولا أحسن من ذلك .

فإذا ما رأينا خللاً فى مجتمع فلنعلم أن هناك شيئاً قد ناقض حكمة الله . وعندما نبحث عن العطب سوف نجده ، تماماً مثلما تبحث عن العطب فى أى آلة وتأتى لها بالمهندس الذى يصلحها . ويجب أن نرده إلى من خلق المجتمع ، ونبحث عن علاج الخلل بحكم من أحكام الله . ولذلك أرشدنا الحق إلى أننا إن اختلفنا فى شيء فلنرده إلى الله وإلى الرسول حتى لا نظل فى تعب .

وبعد ذلك يتكلم الحق عن القتل العمد ، وقد يقول قائل : أما كان يجب أن يحدثنا الله عن القتل العمد أولاً ؟ ونقول : الحق لو تكلم عن القتل العمد أولاً لكان ذلك موحياً أنه يحدث أولاً ، ولكن الحق يوضح : لا يصح أن تأتى هذه على خيال المؤمن .

ويسأل سائل : لماذا لم يقل الحق : « وما كان لمسلم » . ونقول : يجب أن ننتبه إلى أن الحق نادى المؤمن لأن الإيمان عمل قلبى ، ولهذا كان النداء للمؤمنين ولم يكن النداء للمسلمين ؛ لأن الإسلام أمر ظاهرى ، فقد يقتل إنسان يتظاهر بالإسلام إنساناً مؤمناً . لهذا نادى الحق بالنداء الذى يشمل المظهر والجوهر وهو الإيمان .

وحين يشرع الحق فلا بد أن يأتى بالجزاء والعقاب للذى يقتل عمداً . وهو يقول :

﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾ ﴾

والقتل هنا لمؤمن بعمد ، فالأمر إذن مختلف عن القتل الخطأ الذى لا يدرى به القاتل إلا بعد أن يقع . وجزاء القاتل عمداً لمؤمن هو جهنم ، وليس له كفارة أبداً . هكذا يبشع الحق لنا جريمة القتل العمد . لأن التعمد يعنى أن القاتل قد عاش فى فكرة أن يقتل ، ولذلك يقال فى القانون « قتل عمد مع سبق الإصرار » . أى أن القاتل قد عاش القتل فى تخيله ثم فعله ، وكان المفروض فى الفترة التى يرتب فيها القتل أن يراجعه وازعه الدينى ، وهذا يعنى أن الله قد غاب عن باله مدة التحضير للجريمة ، ومادام قد عاش ذلك فهو قد غاب عن الله ، فلو جاء الله فى باله لتراجع ، ومادام الإنسان قد غاب باله عن الله فالله يغيبه عن رحمته .

« ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها » وقالوا فى سبب هذه الآية : إن واحداً اسمه مِقْيَسْ بن ضبابة كان له أخ اسمه هشام ، فوجد أخاه مقتولاً فى بنى النجار ، وهم قوم من الأنصار بالمدينة . فلما وجد هشامًا قتيلا ذهب مِقْيَس إلى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخبره بالخبر ، فأرسل معه رجلاً من بنى فهر وكتب إليهم أن يدفعوا إلى مِقْيَس قاتل أخيه ، فقال بنو النجار والله ما نعلم له قاتلا ، ولكننا نؤدى الدية فأعطوه مائة من الأبل ثم انصرفا راجعين إلى المدينة فعدا مِقْيَس على الفِهرى فقتله بأخيه وأخذ الإبل وانصرف إلى مكة مرتدًا وجعل ينشد :

قتلت بـه فِهـراً وحملت عقله ... سراة بنى النجار أرباب فارع
حللت به وترى وأدركت ثورتى ... وكنت إلى الأوثـان أول راجـع

فلما بلغ سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك أهدر دمه . ومعنى « أهدر دمه » أباح دمه ، أى أن مَن يقتله لا عقاب عليه ، إلى أن جاء يوم الفتح فَوُجد

« مقيس » متعلقاً بأستار الكعبة ليحتمى بها ، فأمر رسول الله صلى الله عيه وسلم بقتله ، « ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذاباً عظيماً » .

وهنا نجد أكثر من مرحلة فى العذاب : جزاء جهنم ، خُلود فى النار ، غَضب من الله ، لعنة من الله ، إعداد من الله لعذاب عظيم . فكأن جهنم ليست كل العذاب ؛ ففيه عذاب وفيه خلود فى النار وفيه غضب وفيه لعنة ثم إعداد لعذاب عظيم . وهذا ما نستعيذ بالله منه . فبعضنا يتصور أن العذاب هو جهنم فحسب ، وقد يغفل بعض عن أن هناك ألوانًا متعددة من العذاب . وفى الحياة نرى إنساناً يتم حبسه فنظن أن الحبس هو كل شيء ، ولكن عندما وصل إلى علمنا ما يحدث فى الحبس عرفنا أن فيه ما هو أشر من الحبس .

وهنا وقفة وقف العلماء فيها : هل لهذا القاتل توبة ؟ واختلف العلماء فى ذلك ، فعالم يقول : لا توبة لمثل هذا القاتل . وعالم آخر قال : لا ، هناك توبة . وجاء سيدنا ابن العباس وجلس فى جماعة وجاء واحد وسأله : أللقاتل عمداً توبة ؟ قال ابن العباس : لا . وبعد ذلك بمدة جاء واحد وسأل ابن العباس : أللقاتل عمداً توبة ؟ فقال ابن العباس : نعم . فقال جلساؤه : كيف تقول ذلك وقد سبق أن قلت لا ، واليوم تقول نعم .

قال ابن العباس : سائلى أولاً كان يريد أن يقتل عمداً ، أما سائلى ثانياً فقد قتل بالفعل ، فالأول أرهبته والثانى لم أقّنطه من رحمة ربه .

وكيف فرق ابن العباس بين الحالتين ؟ إنها الفطنة الإيمانية والبصيرة التى يبسطها الله على المفتى . فساعة يوجد النبى صلى الله عليه وسلم فى صحابته يسأله واحد قائلا : « أى الإسلام خير » ؟ فيقول صلوات الله وسلامه عليه : « تطعم الطعام وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف »[1] ويسأله آخر فيجيبه بقوله : « من سلم المسلمون من لسانه ويده » وهكذا كان عليه الصلاة والسلام يجيب كل سائل بما

(١) رواه مسلم .

يراه أصلح لحاله أو حال المستمع ، ويجيب كل جماعة بما هو أنفع لهم .. ويسأله عبدالله ابن مسعود رضي الله عنه : أى الأعمال أفضل ؟ فيقول صلوات الله وسلامه عليه : « الصلاة على ميقاتها . قلت : ثم ماذا يا رسول الله ؟ قال : أن يسلم الناس من لسانك »[1] .

ونعرف أن آية القتل العمد تتطلب المزيد من التفكر حول نصها « فجزاؤه جهنم خالداً فيها » . وهل الخلود هو المكث طويلاً أو على طريقة التأبيد .. بمعنى أن زمن الخلود لا ينتهى ؟ ولو أن زمن الخلود لا ينتهى لما وصف الحق المكث فى النار مرة بقوله :

﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا ﴾

(من الآية ٨٨ سورة آل عمران)

ومرة أخرى بقوله :

﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴾

(من الآية ١٦٩ سورة النساء)

هذا القول يدل على أن لفظ التأبيد فى « أبداً » فيه ملحظ يزيد على معنى الخلود دون تأبيد . وإذا اتحد القولان فى أن الخلود على إطلاقه يفيد التأبيد ، وأن « خالدين فيها أبداً » تفيد التأبيد أيضاً ، فمعنى ذلك أن اللفظ « أبداً » لم يأت بشىء زائد . والقرآن كلام الله ، وكلام الله منزه عن العبث أو التكرار . إذن لا بد من وقفة تفيدنا أن الخلود هو المكث طويلاً ، وأن الخلود أبداً هو المكث طويلاً طولاً لا ينتهى ، وعلى ذلك يكون لنا فهم . فكل لفظ من القرآن محكم وله معنى . ثم إن كلمة « خالدين » حين وردت فى القرآن فإننا نجد الحق سبحانه وتعالى يقول فى خلود النار :

﴿ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ ﴾

(سورة هود)

(١) رواه الطبرانى .

فكأن الحق سبحانه وتعالى استثنى من الخلود « إلا ما شاء ربك » . والاستثناء لا بد له من زمن ، فلا نأخذ الخلود بمعنى التأبيد ، ولكن الخلود هو زمن طويل ، وكذلك يقول فى خلود الجنة :

﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾ ﴾

(سورة هود)

وقوله الحق : « إلا ما شاء ربك » تفيد أن الخلود عندهم ينتهى . مادام هناك استثناء ؛ فالاستثناء لا بد له من زمن ، والزمن مستثنى من الخلود وعلى ذلك لا يكون الخلود تأبيدياً .

وعلينا أن نتناول الآيات بهذه الروح ، وفى هذه المسألة نجد وقفة لعالم من أعلام العقائد فى العصر العباسى هو عمرو بن عبيد ، وكان عمرو من العلماء الذين اشتهروا بالمحافظة على كرامة العلم وعزة العلماء لدرجة أن خليفة ذلك الزمان قال عنه وسط بعض المنتسبين إلى العلم : « كلهم طالب صيد إلا عمرو بن عبيد » وقد كانت منزلته العلمية عالية ونفسه ذات عزة إيمانية تعلو على صغائر الحياة . وكان عمرو بن عبيد دقيق الرأى ، ويحكى عنه قيس بن أنس هذه الحكاية : كنت فى مجلس عمرو بن عبيد فإذا بعمرو بن عبيد يقول: « يؤتى بى يوم القيامة فيقال لى: لم قلت بأن قاتل العمد لا توبة له . قال:فقرأت الآية : « فجزاؤه جهنم خالداً فيها » وكان يجب أن يلتفت عمرو بن عبيد إلى أن الإلهام الذى جاءه أو الرؤيا التى أراها له الله بأنه سوف يؤتى به يوم القيامة ليسأل لماذا أفتى بألا توبة لقاتل العمد ، كان يجب أن يلتفت إلى أن ذلك يتضمن أن لقاتل العمد توبة ؛ لأن سؤاله عن ذلك يوم القيامة يشير إلى عتاب فى ذلك .

نقول ذلك لنعرف أنَّ الحق سبحانه وتعالى جعل فوق كل ذى علم عليما . . ولكنَّ عمرا ذكر ما جاء فى قول الحق : « فجزاؤه جهنم خالداً فيها » . وقال قيس بن أنس : وكنت أصغر الجالسين سناً ، فقلت له : لو كنت معك لقلت كما قلت : « فجزاؤه جهنم خالداً فيها » وقلت أيضاً :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾

(من الآية ٤٨ سورة النساء)

قال قيس : فوالله ما رد على عمرو بن عبيد ما قلت . ومعنى ذلك موافقة عمرو بن عبيد .

ماذا تفيد هذه ؟. تفيد ألا نأخذ كلمة « خالدين فيها » بمعنى التأبيد الذى لا نهاية له ؛ لأن الله قد استثنى من الخلود فى آية أخرى .

والحق سبحانه وتعالى بعد أن شرح حكم القتل العمد والقتل الخطأ ، بحث العلماء ووجدوا أن هناك قتلاً اسمه « شبه العمد » أى أنه لا عمد ولا خطأ ، كأن يأتى إنسان إنساناً آخر ويضربه بآلة لا تقتل عادة فيموت مقتولاً ، وهنا يكون العمد موجوداً ، فالضارب يضرب ، ويمسك بآلة ويضرب بها ، وصادف أن تقتل الآلة التى لا تقتل غالبا ، وقال العلماء : القتل معه لا به ، فلا قصاص ، ولكن فيه دية .

وأراد الحق سبحانه وتعالى أن يوضح : بعد ما حدث وحدثتكم عن القتل بكل صوره وألوانه سواء أكان القتل مباحا كقتل المسلمين الكافرين فى الحرب بينهما ، أم القتل العمد ، أم القتل الخطأ ، أم القتل شبه العمد ، لذلك ينبهنا : يجب أن تحتاطوا فى هذه المسألة احتياطاً لتتبينوا أين تقع سيوفكم من رقاب إخوانكم ، فيقول :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَٰلِكَ

كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٩٤﴾

فيأيها المؤمنون حين تضربون فى سبيل الله فتبينوا وتثبتوا فلا تعمل سيوفكم أو رماحكم أو سهامكم إلا بعد أن تتثبتوا : « ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً تبتغون عرض الحياة الدنيا فعند الله مغانم كثيرة كذلك كنتم من قبل فمن الله عليكم فتبينوا إن الله كان بما تعملون خبيراً » .

إذن فهذه آية تجمع بين كل المعانى ، ففيها الحكم وحيثيته والمراد منه ، وسبحانه يبدأها بقوله : « يا أيها الذين آمنوا » ، والخطاب الإيمانى حيثية الالتزام بالحكم ، فلم يقل : « يا أيها الناس إذا ضربتم فتبينوا » ، ولكنه قال : « يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم فى سبيل الله فتبينوا » فهو يطلب المؤمنين به بحكم لأنهم آمنوا به إلهاً ، وماداموا قد آمنوا فعليهم اتباع ما يطلبه الله . فحيثية كل حكم من الأحكام أن المؤمن قد آمن بمن أصدر الحكم ، فإياك أيها المؤمن أن تقول : « ما العلة » أو « ما الحكمة » وذلك حتى لا تدخل نفسك فى متاهة . ولا نزال نكرر هذه المسألة ، لأن هذه المسألة تطفو فى أذهان الناس كثيراً ، ويسأل بعضهم عن حكمة كل شىء ، ولذلك نقول : الشىء إذا عرفت حكمته صرت إلى الحكمة لا إلى الأمر بالحكم .

ونرى الآن المسرفين على أنفسهم الذين لا يؤمنون بإله ، أو يؤمنون بالله ولكنهم ارتكبوا الكبائر من شهادة زور ، إلى ربا ، إلى شرب خمر ، وعندما يحلل الأطباء للكشف عن كبد شارب الخمر ـ على سبيل المثال ـ نجده قد تليف ، وأن أى جرعة خمر ستسبب الوفاة . هنا يمتنع عن شرب الخمر.لماذا امتنع ؟. لأنه عرف الحكمة . وقد يكون قائلها له مجوسياً ، فهل كان امتناعه عن الحكم تنفيذاً لأمر إلهى ؟. لا ، ولكن المؤمن يمتنع عن الخمر لأنها حرمت بحكم من الله والمؤمن ينفذ كل الأحكام حتى فى الأشياء غير الضارة ، فمن الذى قال : إن الله لا يحرم إلا الشىء الضار ؟ إنه

قد يحرم أمراً تأديباً للإنسان . ونضرب هذا المثل ـ ولله المثل الأعلى ـ نجد الزوج يقول لزوجه : إياك أن تعطى ابننا بعضاً من الحلوى التى أحضرتها. هو يحرم على ابنه الحلوى لا لأنها ضارة ، ولكنه يريد تأديب الابن والتزامه .

والحق يقول :

﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ ﴾

(من الآية ١٦٠ سورة النساء)

فالذى يذهب إلى تنفيذ حكم الله إنما يذهب إليه لأن الله قد قاله ، لا لأن حكمة الحكم مفيدة له ، فلو ذهب إنسان إلى الحكم من أجل فائدته أو ضرره فإن الإيمان يكون ناقصاً ، والله يدير فى كثير من الأوقات حكمته فى الأحكام حتى يرى الإنسان وجهاً من الوجوه اللا نهائية لحكمة الله التى خفيت عليه ، فيقول الإنسان : أنا كنت أقف فى حكمة كذا ، ثم بينت لى الأحداث والأيام صدق الله فيما قال . وهذا يشجع الإنسان أن يأخذ أحكام الله وهو مسلِّم بها .

والحق يقول : « يا أيها الذين آمنوا » والإيمان هو الحيثية ، يا من آمنت بى إلهاً قادراً حكيماً . . اسمع منى ما أريده منك : « يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم فى سبيل الله » والضرب ـ كما نعرف ـ هو انفعال الجارحة على شىء آخر بعنف وقوة . وقوله :

﴿ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾

(من الآية ١٠١ سورة النساء)

معناها أن الحياة كلها حركة وانفعال ، ولماذا الضرب فى الأرض ؟. لأن الله أودع فيها كل أقوات الخلق ، فحين يحبون أن يُخرجوا خيراتها ؛ يقومون بحرثها حتى يهيجوها ، ويرموا البذور ، وبعد ذلك الرّى . ومن بعد ذلك تخرج الثمار ، وهذه هى عملية إثارة الأرض . إذن كل حركة تحتاج إلى شدة ومكافحة ، والحق يقول :

﴿ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ﴾

(من الآية ٢٠ سورة المزمل)

ومادامت المسألة ضرباً فى الأرض فهى تحتاج إلى عزم من الإنسان وإلى قوة .

ولذلك يقال : الأرض تحب من يهينها بالعزق والحرث . وكلما اشتدت حركة الإنسان فى الأرض أخرجت له خيراً . والضرب فى سبيل الله هو الجهاد ، أو لإعداد مقومات الجهاد . والحق سبحانه يقول لنا :

﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾

(من الآية ٦٠ سورة الأنفال)

فالإعداد هو أمر يسبق المعارك ، وكيف يتم الإعداد ؟ .

أن نقوم بإعداد الأجسام ، والأجسام تحتاج إلى مقومات الحياة . وأن نقوم بإعداد العُدُد . والعدد تحتاج إلى بحث فى عناصر الأرض ، وبحث فى الصناعات المختلفة لنختار الأفضل منها . وكل عمليات الإعداد تطلب من الإنسان البحث والصنعة . ولذلك يقال فى الأثر الصالح :

« إن السهم الواحد فى سبيل الله يغفر الله به لأربعة » .

لماذا ؟ . لأن هناك إنساناً قام بقطع الخشب الذى يتم منه صناعة السهم وصقله ، وهناك إنسان وضع للسهم الريش حتى يطيره إلى الأمام ، وهناك واضع النَّبْل ، وهناك من يرمى السهم بالقوس .

والحق يريد منا أن نكون أقوياء حتى يكون الضرب منا قوياً ، فيقول : « إذا ضربتم فى سبيل الله فتبينوا » ونعرف أن الضرب فى سبيل الله لا يكون فى ساعة الجهاد فقط ، ولكن فى كل أحوال الحياة ؛ لأن كل ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب . و« تبينوا » تعنى ألا تأخذوا الأمور بظواهرها فلا تمضوا أمراً أو تعملوا عملاً إلا إذا تثبتم وتأكدتم حتى لا يصيب المؤمنون قوماً بظلم .

ولهذا الأمر قصة ، كان هناك رجل اسمه « محلِّم بن جَثّامة » ، وكان بينه وبين آخر اسمه « عامر بن الأضبط الأشجعى » إحن ـ أى شيء من البغضاء ـ وبعد ذلك كان « محلم » فى سرية ، وهى بعض من الجند المحدود العدد وصادف « عامراً الأشجعى » ، وكان « عامر » قد أسلم ، لذلك ألقى السلام إلى « محلّم » فقال « محلم » : إن عامراً قد أسلم ليهرب منى . وقتل محلم عامراً . وذهب إلى رسول الله

صلى الله عليه وسلم ، وسأله الرسول : ولماذا لم تتبين ؟. ألم يلق إليك السلام ، فكيف تقول إنّه يقول : « السلام عليكم » لينقذ نفسه من القتل ؟

فقال « محلّم » : استغفر لى يا رسول الله .

وإذا ما قال أحد لرسول الله : استغفر لى يا رسول الله .. فرسول الله ببصيرته الإيمانية يعرف على الفور حالَ طالبِ الاستغفار ، فإن قال رسول الله: « غفر الله لك » فهو يعلم أنه كان معذوراً ، وإن لم يقل رسول الله ذلك ، فيعرف طالب الاستغفار أنه مذنب . ولأن بين « محلم » و« عامر » إحنا وعداوات قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لمحلم : « لا غفر الله لك » ؛ لأن الرسول صلى الله عليه وسلم علم أن الإِحَنَ والبغضاء هى التى جعلته لا يدقق فى أمر « عامر » .

وقال الرواة : ومات محلّم بعد سبعة أيام من هذه الحادثة ، ودفنوه فلفظته الأرض . فجاءوا إلى النبى صلى الله عليه وسلم فذكروا ذلك له فقال : (إن الأرض تقبل مَن هِو شر من صاحبكم ولكن الله أراد أن يعظكم ، ثم طرحوه بين صدفى جبل وألقوا عليه الحجارة)[1] .

وعندما كانت تأتى آية مخالفة لنواميس الدنيا المفهومة للناس فالنبى يريد ألا يفتتن الناس فى هذه الآيات ، ومثال ذلك عندما مات إبراهيم ابن النبى . . انكسفت الشمس . . وقال الناس : انكسفت الشمس من أجل ابن رسول الله . ولكن لأن المسألة مسألة عقائد فقد وضحها رسول الله صلى الله عليه وسلم كما جاء فى الحديث الشريف :

عن المغيرة بن شعبة قال : كسفت الشمس على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم مات إبراهيم ، فقال الناس : كسفت الشمس لموت إبراهيم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الشمس والقمر لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته فإذا رأيتم فصلوا وادعوا الله »[2] .

---

(١) تفسير القرآن العظيم للإمام ابن كثير .

(٢) رواه البخارى .

لقد قالوا ذلك تكريماً لرسول الله وابنه إبراهيم ، ولكن الرسول يريد أن يصحح للناس مفاهيمهم وعقائدهم . وكذلك عندما لفظت الأرض « محلم » حتى لا يفتتن أحد ولا يقولن أحد. إن كل من لا تلفظه الأرض هو حسن العمل ، فهناك كفار كثيرون قد دفنوا ولم يلفظوا . لذلك قال رسول الله : إن الأرض قبلت من هو شر من « محلم » ولكن الله أراد أن يعظ الناس حتى لا يعودوا لمثلها ، ولو لم يقل ذلك ، فماذا كان يحدث ؟. قد تحدث هزة قليلة فى جزئية ولظن الناس وقالوا : إن كل من لم تلفظه الأرض فهو حسن العمل ، ولكان أبو جهل فى حال لا بأس به ، وكذلك الوليد بن المغيرة . لكن الرسول صلى الله عليه وسلم يضع مثل هذه الأمور فى وضعها الصحيح ؛ لذلك قال : إن الأرض تقبل من هو شر من « محلم » ، ولكن الله أراد أن يعظ القوم ألاّ يعودوا[1] .

« ياأيها الذين آمنوا إذا ضربتم فى سبيل الله فتبينوا ولا تقولو لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً » .

وعلى ذكر ذلك قال لى أخ كريم : كنت أسمع إحدى الإذاعات وأخطأوا وقالوا (فتثبتوا) بدل من (فتبينوا) فى قوله الحق :

﴿ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ ﴾

(من الآية ٦ سورة الحجرات)

وأقول : هذه قراءة من القراءات ، والمعانى دائماً ملتقية ، فـ « تبين » معناها « طلب البيان ليَتثبت » . ونعرف أن القرآن قد نزل على سبعة أحرف ، وكتابة القرآن كانت بغير نقط وبغير شكل ، وهذا حال غير حالنا ؛ حيث نجد الحروف قد تم تشكيلها بالفتحة والضمة والكسرة .

ونحن نعرف أن هناك حروفاً مشتبهة الصورة . فـ « الباء » تتشابه مع كل من : « الياء » ، والـ « نون » والـ « تاء » والـ « ثاء » ، ولم تكن هذه النقط موجودة ، ولم تكن هذه العلامات موجودة قبل الحجاج الثقفى ، وكانوا يقرأون من ملكة العربية ومن

(١) رواه أحمد وابن جرير .

تلقين واتباع للوحى ، ولذلك : « فتبينوا » ممن تتكون ؟ تتكون من : الـ « فاء » ولم يحدث فيها خلاف ، والـ « تاء » وبقية الحروف هى الـ « باء » والـ « ياء » والـ « نون » .

وكل واحدة من هذه الأحرف تصلح أن تجعلها « تثبتوا » بوضع النقاط أو تجعلها « تبينوا » ، إنه خلاف فى النقط . ولو حذفنا النقط لقرأناها على أكثر من صورة ، والذى نتبعه فى ذلك هو ما ورد عن الوحى الذى نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولذلك عندما جاءوا بشخص لم يكن يحفظ القرآن وأحضروا له مصحفاً ليقرأ ما فيه فقال : (صنعة الله ومن أحسن من الله صنعة) .

ولم يحدث خلاف فى الـ « صاد » ولكن حدث خلاف فى الـ «باء » فهى صالحة لتكون باءً أو نونًا ، وكذلك « الغين » يمكن أن تكون « عينًا » وقراءة هذه الآية فى قراءة « حفص » :

﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ﴾

(من الآية ١٣٨ سورة البقرة)

وعندما قرأها الإنسان الذى لا يجيد حفظ القرآن قال : (صنعة الله ومن أحسن من الله صنعة) . والمعنى واحد .

ولكن قراءة القرآن توقيفية ، واتباع للوحى الذى نزل به جبريل ـ عليه السلام ـ من عند الله على رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولا يصح لأحد أن يقرأ القرآن حسب ما يراه وإن كانت صورة الكلمة تقبل ذلك وتتسع له ولا تمنعه ، ولذا قالوا : أن للقراءة الصحيحة أركانا هى :

١ ـ أن تكون موافقة لوجه من وجوه اللغة العربية .
٢ ـ أن تكون موافقة لرسم أحد المصاحف العثمانية .
٣ ـ أن يصح إسنادها إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بطريق يقينى متواتر لا يحتمل الشك .

وهذه الضوابط نظمها صاحب طيبة النشر فقال :

وكل ما وافق وجه نحو   وكان للرسم احتمالا يحوى
وصح إسنادا هو القرآن   فهذه الثلاثة الأركان

وقوله تعالى :

﴿ قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنۡ أَشَآءُ ﴾

(من الآية ١٥٦ سورة الأعراف)

هذه هى قراءة « حفص » وقرأ الحسن : (قال عذابى أصيب به من أساء) .

صحيح أن كلمة « أساء » وهى من الإساءة فيها ملحظ آخر للمعنى ، لكن القراءة الأخرى لم تبعد بالمعنى ، وعلى ذلك فكلمة « فتبينوا » تُقْرأ مرة « فتثبتوا » ومرة تقرأ « فتبينوا » ، سواء فى هذه الآية التى نحن بصددها ، أو فى الآية التى يقول فيها الحق :

﴿ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ ﴾

(من الآية ٦ سورة الحجرات)

و« التبين » القصد منه التثبت ، والتبين يقتضى الذكاء والفطنة فيرى ملامح إيمان من ألقى إليه بالسلام :

﴿ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنۡ أَلۡقَىٰٓ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَٰمَ ﴾

(من الآية ٩٤ سورة النساء)

فالمسلم يجب أن يفطن كيلا يأخذ إنساناً بالشبهات ، ولذلك نجد النبى يحزم الأمر مع أسامة بن زيد الذى قتل واحداً بعد أن أعلن هذا الواحد إسلامه ، فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : (فكيف بلا إله إلا الله . هل شققت عن قلبه) ؟

ويقول أسامة للرسول : لقد قال الشهادة ليحمى نفسه من الموت . وتكون الإجابة : هل شققت قلبه فعرفت ، فكيف بلا إله إلا الله ؟! فلقول:« لا إله إلا الله » حرمة .

وقد روى أن الذى نزلت فيه هذه الآية هو محلم بن جثامة ، وقال بعضهم : أسامة بن زيد ، وقيل غير ذلك . عن ابن عباس رضى الله عنهما « ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمنا » وقال : كان رجل فى غنيمة له فلحقه المسلمون فقال : السلام عليكم فقتلوه وأخذوا غنيمته ، فأنزل الله فى ذلك : « ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمنا »[1] .

وأهل العلم بالله يقولون : نجاة ألف كافر خير من قتل مؤمن واحد بغير حق .

وجاء فى بعض الروايات الأخرى أنه المقداد ، وذلك فيما رواه البزار بسنده عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سرية فيها المقداد بن الأسود فلما أتوا القوم وجدوهم قد تفرقوا وبقى رجل له مال كثير لم يبرح ، فقال أشهد أن لا إله إلا الله ، وأهوى إليه المقداد فقتله فقال له رجل من أصحابه : أقتلت رجلا شهد أن لا إله إلا الله ؟ والله لأذكرن ذلك للنبى صلى الله عليه وسلم ، فلما قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا يا رسول الله : إن رجلا شهد أن لا إله إلا الله فقتله المقداد فقال : ادعوا لى المقداد . يا مقداد أقتلت رجلا يقول : لا إله إلا الله ؟ فكيف لك بلا إله إلا الله غدا ؟ قال : فأنزل الله « ياأيها الذين آمنوا إذا ضربتم فى سبيل الله »[2] .

« ياأيها الذين آمنوا إذا ضربتم فى سبيل الله فتبينوا ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً تبتغون عرض الحياة الدنيا» و« ألقى إليكم السلام » يعنى جاءكم مستسلما ، أو قال تحية المسلمين ، وليس من حق أحد أن يلقى الاتهام بعدم الإيمان على من جاء مسلماً ، أو يقول بتحية الإسلام .

وكلمة « عرض » إذا ما سمعناها ، فلنعلم أنها فى المعنى اللغوى : كل ما يعرض ويزول وليس له دوام أو استقرارأو ثبات . ونحن البشر أعراض ؛ لأنه ليس لنا دوام أبداً ، ويقال : إن الإنسان عرض إذا ما قاس الواحد منا نفسه بالنسبة للكون ؛ لأن

---

(١) رواه البخارى .

(٢) رواه البزار .

الكون لا يتم بناؤه على الإنسان ؛ فالكون كله الذى نراه هو عرض وسيأتى يوم ويزول .

والعرض بالنسبة للإنسان أن الواحد منا قد يرى نفسه صحيحاً أو سقيماً ، هنا تكون الصحة عرضا وكذلك المرض ، وكذلك السمنة والنحافة ، ولون البشرة إذا ما لوحته الشمس قد يتغيرمن أبيض إلى أسمر ، وكذلك الغنى والفقر . وكل شيء يمكن أن يذهب فى الإنسان ويجيء هو عرض بالنسبة للإنسان ، ويكون الإنسان جوهراً بالنسبة له . فإذا قسنا الإنسان بالنسبة إلى ثابت عنه ، فالإنسان عرض ، فهذا أمر نسبى ، وإلاّ فكل شيء عرض ، وكل شيء زائل « ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام » .

« ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً تبتغون عرض الحياة الدنيا » . وعرض الحياة الدنيا هنا هو أن يطمع القاتل فيما يملكه الذى يلقى السلام ، وقد يكون عرض الحياة الدنيا ـ هنا ـ هو كبرياء نفس الإنسان عندما ينتقم من إنسان بينه وبينه إحن أو بغضاء .

وعندما نجد كلمة « عرض » وهذا العرض فى « الحياة الدنيا » نفهم ـ إذن ـ أنه عرض فيما لا قيمة له . ولذلك نجد الشاعر يعبر عن مشاعر الإنسان حينما يحزن لفقدان شيء كان عنده ، وينسى الإنسان أنه هو شخصياً معرض للموت ، أى للذهاب عن الدنيا فيقول :

نفسى التى تملك الأشياء ذاهبة
فكيف آسى على شيء لها ذهبا

وكذلك عرض الحياة الدنيا . ونفهم كلمة « دنيا » على أساس الاشتقاق ، فهى من « الدنو » ومقابله « العلو » ومقابل « الدنيا » هو « العليا » . ومن يُقَوِّم عرض الحياة الدنيا التقويم الصحيح فهو يملك الذكاء والحكمة والفطنة ، لذلك لا يأخذ هذا العرض ممن سيقتله عندما يلقى إليه بالسلام ؛ لأنه يستخدم البصيرة الإيمانية ويأخذ الحياة الدنيا ممن خلقها . والعاقل حتى لو أراد الحياة الدنيا فهو يطلبها من صاحب الحياة كلها ، ولا يأخذها من إنسان مثله ، فالحياة الدنيا لا تنفعه ؛ بدليل أنه معرض للقتل .

« تبتغون عرض الحياة الدنيا فعند الله مغانم كثيرة » والحق سبحانه وتعالى ساعة يخاطب النفس البشرية التى خلقها ، ويعلم تعلقها بالأشياء التى تنفعها أو تطيل نفعها ، مثال ذلك : أنّ الإنسان يكون سعيداً إذا ما ملك غداءه ، وتكون سعادته أكثر إذا امتلك الغداء والعشاء ، ويكون أكثر سعادة واطمئنانا عندما يملك فى مخزن طعامه ما يقيته شهراً أو عاماً ، ويكون أكثر إشراقاً عندما يمتلك أرضاً يأخذ منها الرزق ، ويمتلكها أولاده من بعده .

إذن فالإنسان يحب الحياة لنفسه ، ويحب امتداد حياته فى غيره ، ولذلك يحزن الإنسان عندما لا يكون له أولاد ؛ فهو يعرف أنه ميت لا محالة ، لذلك فهو يتمنى أن تكون حياته موصولة فى ابنه ، وإن جاء لابنه ابن وصار للإنسان حفيد فهو يسعد أكثر ؛ لأن ذكره يوجد فى جيلين . ونقول لمثل هذا الإنسان : لنفرض أنك ستحيا ألف جيل ، لكن ماذا عن حالتك فى الآخرة ، ألَا تُنشِىء ولدك على الصلاح حتى يدعو لك ؟

ولذلك يفاجىء الحق النفس البشرية التى تهفو إلى المغانم ، ويكشفها أمام صاحبها ، فيأتى بالحكم الذى يُظهر الخواطر التى تجول فى النفس ساعة سماع الحكم . وعندما أراد سبحانه أن يُحرم دخول المشركين البيت الحرام ، وسبحانه يعلم خفايا النفوس ؛ لأن المشركين حين يدخلون البيت الحرام بتجاراتهم وأموالهم إنما يدخلون مكة من أجل موسم اقتصادى يبيعون فيه البضائع التى يعيشون من ريعها وربحها طوال العام . وساعة يحرم سبحانه دخول المشركين إلى البيت الحرام ، يعلم أن أهل الحرم ساعة يسمعون هذا الحكم سيتذكرون مكاسبهم من التجارة ، فقال :

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَـٰذَا ﴾

(من الآية ٢٨ سورة التوبة)

وقبل أن يقول أهل الحرم فى أنفسهم : وكيف نعيش ونصرف بضائعنا ؟ ، يتابع سبحانه :

﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ ﴾

(من الآية ٢٨ سورة التوبة)

وبذلك يكشف الحق أمام النفوس خواطرها الدفينة ؛ فهو العليم بأن الحكم ساعة ينزل ما الذى سيحدث فى أذهان سامعيه ؛ فهو خالقهم ، ولذلك فلا أحد له من بعد ذلك تعليق !

وقوله الحق : « تبتغون عرض الحياة الدنيا » ينطبق فى كل عصر وفى كل زمان . ويقول الحق بعد ذلك : « فعند الله مغانم كثيرة » . فسبحانه الرزّاق الوهاب . ولذلك أنا أحب أن يزين الناس أماكنهم ومساكنهم بلوحات فنية مكتوب عليها :

﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ ﴾

(من الآية ٢٨ سورة التوبة)

وكذلك قول الحق :

﴿ تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ ﴾

(من الآية ٩٤ سورة النساء)

لعل ذلك يمس قلوب من بيدهم الأمر ، فيلتفتوا إلى الله . وبعد ذلك يقول الحق : « كذلك كنتم من قبل فمن الله عليكم فتبينوا إن الله كان بما تعملون خبيرا » .

وفى هذا دعوة لأن يمر من نزل فيهم القرآن بتاريخهم القريب ويسترجعوا ماضيهم ، فلماذا يتهم المسلم أخاه الذى يلقى السلام بأنه مازال كافراً ولا يفكر أن الذى ألقى إليه السلام هو إنسان يستر إسلامه بين أهله لأنهم كفار ؟ وكان المسلم يمر بهذه الحالة عند بداية الإسلام ؛ كان المسلم يستر إسلامه عن أهله الذين كانوا كافرين . وكان المسلمون الأوائل قلة مستذلة تدارى إيمانها ، فهل سلط الله عليهم أحداً يجترىء على التفتيش على النوايا ؟ إذن فمثلما حدث لكم قدروه لإخوانكم .

« كذلك كنتم من قبل فمن الله عليكم » والحق يمن عليهم بأنهم صاروا أهل رفعة بكلمة الإسلام ، وصار المسلم منهم يمشى عزيز الجانب ولا يجرؤ واحد أن يوجه إليه أى شىء . ويأتى سبحانه هنا بكلمة « فتبينوا » مرة أخرى بعد أن قالها فى صدر الآية . وكان مقصوداً بها ألا يقتل مسلم إنساناً ألقى السلام لمجرد أن المسلم يفكر فى

المسألة الاقتصادية ، وها هوذا يعيد سبحانه كلمة « تبينوا » ، لقد جاءت أولاً كتمهيد للحيثية ، وهى قوله : « تبتغون عرض الحياة الدنيا » وتأتى هاهنا نتيجة للحيثية « فتبينوا إن الله كان بما تعملون خبيرا » .

وسبحانه حين يشرع لا يشرع عن خلاء ، لكنه خبير بكل ما يصلح النفس الإنسانية ، ولا يعتقدن أحد أنه خلقنا ثم هدانا إلى الإيمان ليخذلنا فى نظام الحياة ، بل خلقنا وأعطانا المنهج لنكون نموذجاً ، وليرى الناس جميعاً أن الذى يحيا فى رحاب المنهج تدين له الدنيا .

« إن الله كان بما تعملون خبيرا » . كأن الحق يقول : إياك أن تستر بلباقتك شيئاً وتخلع عليه أمرا غير حقيقى ؛ لأن الذى تطلب جزاءه هو الرقيب عليك والحسيب ، ويعلم المسألة من أولها إلى آخرها . فالذى قتل إنساناً ألقى إليه السلام ، لم يقتله لأنه لم يُسلم ، ولكن لأن بينهما إحناً وبغضاء ، وعليه أن يعرف أن الله عليم بما فى النفوس .

ويريد الحق أن يتثبت المؤمن من نفسه حين يوجهها إلى قتل أحد يشك فى إسلامه أو فى إيمانه ، وحسبه من التيقن أن يبدأه صاحبه بالسلام ، ويُذَكّر الحق سبحانه المؤمنين بأنهم كانوا قبل ذلك يستخفون من الناس بالإيمان وكانوا مستترين .

فإذا كنتم أيها المؤمنون قد حدث لكم ذلك فاحترموا من غيركم أن يحصل منه ذلك ، وثقوا تمام الثقة أن الله عليم خبير ، لا يجوز عليه ـ سبحانه ـ ولا يخفى عليه أن يدس أحدكم الإحن النفسية ليُبرر قتل إنسان مسلم كانت بينه وبين ذلك المسلم عداوة .

وبعد أن تكلم الحق عن قتال المؤمنين للكافرين ، وبعد أن تكلم عن تحريم قتل المؤمن للمؤمن حتى لا يفقد المؤمنون خلية الإيمان ، بل تكون حياة كل مؤمن خيراً للحركة الإيمانية فى الأرض ، لذلك علينا أن نحافظ على حياة كل فرد مؤمن لأنه سيساعدنا فى اتساع الحركة الإيمانية ، فإن حدث أن قتل مؤمن مؤمناً خطأ ، فقد بين سبحانه وتعالى الحكم فى الآية رقم ٩٢ من سورة النساء .

وبعد ذلك أراد الحق سبحانه وتعالى أن يبين الفارق بين من قعد عن الجهاد فى سبيل الله ومن جاهد فقال سبحانه :

﴿ لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ ﴾

ولهذه الآية قصة .. واقتناص الخواطر من هذه القصة يتطلب يقظة تعلمنا كيف يخاطب الحق خلقه . فقد حدثنا سيدنا زيد بن ثابت وهو المأمون على كتابة وحى رسول الله . وهو المأمون على جمع كتاب الله من اللخاف[1] ومن العظام ومن صدور الصحابة ، حدثنا فقال :

ـ كنت إلى جنب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فغشيته السكينة ـ وهذه كانت دائماً تسبق نزول الوحى على رسول الله ـ فوقعت فخذه على فخذى حتى خشيت أن تَرُضَّها .

أى أن فخذ رسول الله كانت ثقيلة .

والوحى ساعة كان يأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ربّما كان يصنع فى كيماوية رسول الله تأثيرا مادياً بحيث إذا كان على دابة عرف الناس أنه يوحى إليه ؛ لأن الدابة كانت تئط تحته فإذا كانت فخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم على فخذ

(١) اللِّخاف : حجارة بيض رقاق ، واحدها لخفة .

زيد بن ثابت ، فلابد أن يشعر سيدنا زيد بثقل فخذ رسول الله وقد جاءه الوحى . قال زيد : خشيت أن ترضّ فخذه فخذى ـ أى تصيبها بالدّق الشديد أو الكسر . فلما سُرى عنه قال اكتب : « لا يستوى القاعدون من المؤمنين والمجاهدون » ، فقال سيدنا ابن أم مكتوم ، وكان ـ كما نعلم ـ ضريراً مكفوف البصر قال : فكيف بمن لا يستطيع الجهاد من المؤمنين يا رسول الله ؟

إنها اليقظة الإيمانية من ابن أم مكتوم ، لأنه فهم موقفه من هذا القول ، ومن أنه لا يستطيع الجهاد ، وعلم أنه إن كانت الآية ستظل على هذا فلن يكون مستوياً مع من جاهد ، ولهذا قال قولته اليقظة : فكيف بمن لا يستطيع ذلك يا رسول الله ؟

فأخذت رسول الله السكينة ثانيةً ، ثم سرى عنه ، فقال لزيد بن ثابت : اكتب : « لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون فى سبيل الله » .

فكأنها نزلت جواباً مطمئناً لمن لا يستطيع القتال مثل ابن أم مكتوم. ولقائل أن يقول : وهل كانت الآية تنتظر أن يستدرك ابن أم مكتوم ليقول هذا ؟ .

ونقول : إن الحق سبحانه وتعالى أراد أن ينبه كل مؤمن أنه حين يتلقى كلمة من الله أن يتدبر ويتبينّ موقعه من هذه الكلمة ؛ فإذا كان ذلك حال سيدنا ابن أم مكتوم فيما سمع رسول الله عن ربه فهو يعلمنا كيف نستحضر دورنا من أية قضية نسمعها . وحينما سمع ابن أم مكتوم الآية رأى موقفه من هذه الآية ، وهذا ما يريده الحق من خلقه .

وقال زيد بن ثابت : فكتبتها .

إنها الدقة فى أداء زيد بن ثابت لتدلنا على صدق الرواية ، فحين يكتب أولاً « لا يستوى القاعدون من المؤمنين والمجاهدون » ألا تلتصق كلمة « والمجاهدون » بكلمة « المؤمنين » فإذا زاد الحق سبحانه وتعالى « غير أولى الضرر » فأين تكتب ؟

كأن زيد بن ثابت كان عليه أن يقوم بتصغير الكتابة ليكتب « غير أولى الضرر » بين كلمة « من المؤمنين » وكلمة « المجاهدون » . قال سيدنا زيد بن ثابت : لقد

نزلت « غير أولى الضرر » وحدها وكأنى أنظر إلى ملحقها عند صدع الكتف ـ فقد كانوا يكتبون على أكتاف العظم ـ والكتف التى كتب عليها سيدنا زيد بن ثابت كانت مشروخة وكانت هذه علامة بها .

ويريد الحق بذلك أن ينبه المؤمنين إلى أنهم حين يتلقون كتاب الله يجب أن يتلقوه بيقظة إيمانية بحيث لا تسمع آذانهم إلا ما يمر على عقولهم أولاً ليفهم كل مؤمن موقفه منها ، وتمر الآية على قلوبهم ثانية لتستقر فى ذاتهم عقيدة .

كذلك كانت قصة زيد بن ثابت وابن أم مكتوم والوحى فى هذه الآية : « لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون » .

وهناك حالات يأتى الفعل فلا يصلح له فاعل واحد بل لابد له من اثنين . . مثال ذلك عندما نقول : تشارك زيد وعمرو . وعندما نصف لاعبى الكرة ، نجد من يتلقف الكرة واحداً بعد الآخر ، فنقول : تلقف اللاعبون الكرة رجلاً بعد رجل .

وعندما يقول الحق : « لا يستوى » فهذا يدل على أن هناك شيئين لا يتساويان ، فأيهما غير المساوى للآخر ؟ . كلاهما لا يتساوى مع الآخر ، ولذلك يكون الاثنان فى الإعراب « فاعلا » ، فلا يساوى المجاهدون القاعدين ولا يساوى القاعدون المجاهدين ؛ لأن كلا منهما فاعل ومفعول .

وعندما نقول : « لا يستوى القاعدون من المؤمنين » فما هو مقابل « القاعدين » فى الآية الكريمة ؟ إنه « المجاهدون » ، لكن المقابل فى الحياة العادية للـ « القاعدين » هو « القائمون » ، ومقابل « المجاهدين » هو « غير المجاهدين » . وبذلك كان من الممكن القول : لا يستوى القاعدون والقائمون ، أو أن يقال : لا يستوى المجاهدون وغير المجاهدين . فما الحكمة فى مجىء القاعدين والمجاهدين ؟

إن الحق يريد أن يبين أنه فى بداية الإسلام كان كل مؤمن حين يدخل الإسلام يعتبر نفسه جندياً فى حالة تأهب ، وكانوا دائماً على درجة استعداد قصوى ليلبوا النداء فوراً ؛ فالمسلم لم يكن فى حالة استرخاء ، بل فى تأهب وكأنه واقف دائماً ليلبى

النداء ، وكأن القاعد هو الذى ليس من صفوف المؤمنين ، ويبين لنا ذلك قول الرسول عليه الصلاة والسلام : « من خير معاش الناس لهم رجل ممسك عنان فرسه فى سبيل الله يطير على متنه ، كلما سمع هَيْعَةً أو فزعة طار إليها يبتغى القتل والموت مَظَانَّه ، أو رجل فى غنيمة فى رأس شعفة من هذه الشعف ، أو بطن واد من هذه الأودية يقيم الصلاة ويؤتى الزكاة ويعبد ربه حتى يأتيه اليقين ، ليس من الناس إلا فى خير »[1] .

فإن لم يكن المؤمن متأهباً فهو قاعد ، والقاعد ـ كما نعرف ـ هو ضد القائم . والحق يقول :

﴿ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا ﴾

(من الآية ١٠٣ سورة النساء)

من هذا القول نعرف أن المقابل للقيام هو القعود .

وعلينا أن نعرف أن لكل لفظ معنىً محدداً ، فبعضنا يتصور أن القعود كالجلوس ، ولكن الدقة تقتضى أن نعرف أن القعود يكون عن قيام ، وأن الجلوس يكون عن الاضطجاع ، فيقال : كان مضطجعاً فجلس ، وكان قائما فقعد .

وعندما يقول الحق هنا : « لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر » فالقعود مقابل القيام ، فكأن المجاهد حالته القيام دائما ، وهو لا ينتظر إلى أن يقوم ، لكنه فى انتباه واستعداد . ويوسع الحديث الشريف الدائرة فى مسئوليات المجاهد فيرسم صورة للمقاتل أنه على أتم استعداد وعلى صهوة الفرس وممسك باللجام حتى لا تدهمه أية مفاجأة .

وهل كانت هناك مظنة أن يستوى القاعد والمجاهد ؟ . لا ، ولكن يريد الله أن يبين قضية إيمانية مستورة ، فيظهرها بشكل واضح لكل الأفهام .

ونحن نقول للطالب : « إن من يستذكر ينجح ومن لا يستذكر يرسب » وهذه

(١) رواه مسلم فى الإمارة وابن ماجه فى الفتن ورواه أحمد . و(الهيعة) هى الصوت عند حضور العدو . و(الفزعة) هى النهوض إلى العدو . و(الشعفة) هى أعلى الجبل .

مسألة بديهية ، لكننا نقولها حتى نجعلها واضحة فى بؤرة شعور التلميذ فيلتفت لمسئولياته .

وعندما يقول الحق : « لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون فى سبيل الله » هل معنى ذلك أن عقلاً واحداً فى زمن رسول الله كان يظن المساواة بين القاعد والمجاهد ؟ لا ، ولكن الحق يريدها قضية إيمانية فى بلاغ إيمانى من الله . وبعد ذلك يلفت الأنظار إلى صفة القاعدين الذين لا يستوون مع المجاهدين فيقول : « غير أولى الضرر » . والضرر هو الذى يفسد الشىء مثل المرض ، وهذا ما يوضحه قوله الحق :

﴿ لَيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾

(سورة التوبة)

فالضعف ضرر أخرج الإنسان عن مقومات الصحة والعافية ، والمرض ضرر ، والذين لا يجدون مالاً ينفقون منه ، ولا الذين يجيئون لرسول الله فلا يكون بحوزة الرسول دواب تحملهم ، فينصرفون وأعينهم تفيض من الدمع حزناً لأنهم لا يجدون ما ينفقون . وكان المؤمن من هؤلاء يحزن لأن رسول الله لم يجد له فرساً أو دابة تنقله إلى موقع القتال :

﴿ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾

(سورة التوبة)

لقد تولوا وأعينهم تفيض من الدمع . وكلمة « تولوا » هنا لها معنى كبير ، فلم يقل الحق : إن أعينهم تفيض من الدمع من غير التولى ، هم لا يدمعون أمام

النبى ، ولكنهم يدمعون فى حالة توليهم ، وهذا انفعال نفسى من فرط التأثر ؛ لأنهم لا يشتركون فى القتال . وكلمة « تفيض » تدل على أن الدمع قد غلب على العين كلها ، فهم لا يصطنعون ذلك ، لكن الانفعال يغمرهم ؛ لأن الذى يتصنع ذلك يقوم بتعصير عينيه ويبذل جهداً للمُراءاة ، ولكن انفعال المؤمنين الذين لا يقاتلون يغلبهم فتفيض أعينهم من الدمع .

وهناك آية أخرى حدد فيها الحق الحالات التى لا يطالب فيها المؤمن بالقتال :

﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ﴾

(من الآية ١٧ سورة الفتح)

هؤلاء ـ إذن ـ هم أولو الضرر .

« لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم » وماداموا لا يستوون فمن الذى فيهم يكون هو الأفضل ؟ .

ذلك ما توضحه بقية الآية التى تحمل المقولة الإيمانية الواضحة : « فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة وكلا وعد الله الحسنى » . وسبحانه وعد الاثنين بالحسنى الإيمانية ؛ لأن كُلًّا منهما مؤمن ، ولكن للمجاهد درجة على القاعد . وإن تساءل أحد : ولماذا وعد الله القاعد من أولى الضرر بالحسنى ؟ وهنا أقول : علينا أن ننتبه وأن نحسن الفهم والتدبر عندما نقرأ القرآن ؛ لأن الذى أصابته آفة فناله منها ضرر ، فصبر لحكم الله فى نفسه ، ألا يأخذ ثواباً على هذه ؟ .

لقد أخذ الثواب ولابد ـ إذن ـ أن يعطى الحق من لم يأخذ ثوابا مثله فرصة ليأخذ ثواباً آخر حتى يكون الجميع فى الاستطراق الإيمانى سواء . لذلك يقول سبحانه : « وكلا وعد الله الحسنى » .

والحسنى فى أولى الضرر أنه أخذ جزاء الصبر على المصيبة التى أصابته ، والذى لم يصب بضرر سيأخذ ثواب الجهاد ، وبذلك يكون الجميع قد نالوا الحسنى من الله .

« وكلا وعد الله الحسنى وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً » .

وسبحانه يضع أجراً جديداً للقائم مجاهداً على القاعد ، ففى صدر الآية جاء بـ « درجة » أعلى للقائم مجاهداً ، وهنا « أجر عظيم » . ما تفسير هذا الأجر العظيم ؟. التفسير يجيء فى قوله :

﴿ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾ ﴾

فسبحانه قد أعطى لأولى الضرر درجة ، وفضّل المجاهد فى سبيل الله على القاعد من غير أولى الضرر درجات عدة . وساعة نسمع كلمة « درجة » فهى المنزلة ، والمنزلة لا تكفى فقط للإيضاح الشامل للمعنى ، ولكن هى المنزلة الارتقائية . أما إن كان التغير إلى منازل أخرى أقل وأدنى ، فنحن نقول : « دركات » ولا نقول : « درجات » .

ولكن هل الدرجات هى لكل المجاهدين ؟. لا ، لأننا لابد أن نلحظ الفرق بين الخروج من الوطن وترك الأهل للجهاد ؛ وعملية الجهاد فى ذاتها ؛ فعملية الجهاد فى ذاتها تحتاج إلى همة إيمانية ، ولذلك جاء الحق بنص فى سورة التوبة :

﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ

ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾ ﴾

(سورة التوبة)

هنا يوضح الحق أنه لا يصح لأهل المدينة والأعراب الذين حولهم أن يتخلفوا عن الجهاد مع رسول الله ، ولا يرضوا لأنفسهم بالسعة والدعة والراحة ورسول الله صلى الله عليه وسلم فى الشدة والمشقة ، فكما ذهب إلى القتال يجب أن يذهبوا ؛ لأن الثواب كبير ، فلا يصيبهم تعب إلا ولهم عليه أجر العمل الصالح ، ولا يعانون من جوع إلا ولهم أجر العمل الصالح ، ولا يسيرون فى مكان يغيظ الكفار إلا ولهم أجر العمل الصالح . ولا ينالون من عدو نَيلا إلا ويكتبه الله لهم عملاً صالحاً ، فسبحانه يجزى بأحسن ما كانوا يعملون .

وقام العلماء بحصر تلك العطاءات الربانية بسبع درجات ، فواحد ينال الدرجات جميعاً . وآخر أصابه ظمأ فقط فنال درجة الظمأ ، وآخر أصابه نصب فأخذ درجة النصب أى التعب ، وثالث أصابته مخمصة ، ورابع جمع ثلاث درجات ، وخامس جمع كل الدرجات ..

وعندما نقوم بحساب هذه الدرجات نجدها : الإصابة بالظمأ ، النَّصَب - أى التعب - الجوع ، ولا يطأون موطئا يغيظ الكفار أى لا ينزلون فى مكان يتمكن فيه المسلمون منهم ويبسطون سلطانهم عليهم ، والمقصود الحصن الحصين عند الكافر ، النَّيْل : التنكيل بالعدو ، النفقة الصغيرة أو الكبيرة ، وقطع أى واد فى سبيل الله ، وهذه هى الدرجات السبع التى يجزى الله عنها بأحسن مما عمل أصحابها ، كما فسرها العلماء ، فمن نال الدرجات السبع فقد نال منزلة عظيمة ، وكل مجاهد على حسب ما بذل من جهد . فمن المجاهدين من ينال درجة أو اثنتين أو ثلاث أو أربع أو خمس أو ست أو سبع درجات . وعندما نقرأ الآيتين معاً :

﴿ لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا

﴿ دَرَجَٰتٖ مِّنۡهُ وَمَغۡفِرَةٗ وَرَحۡمَةٗۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمًا ٩٦ ﴾

(سورة النساء)

نجد أن الله يُرغّب المؤمنين فى أن يكونوا مجاهدين ، وأن يبذلوا الجهد لتكون كلمة الله هى العليا . فإذا ما آمن الإنسان فليس له أن يتخلف عن الصف الإيمانى ، لأنه مادام قد نفع نفسه بالإيمان فلِمَ لا ينضم إلى ركب من ينفع سواه بالإيمان ؟ . ويريد الله أن يعبئ كل مَنْ مسّ الإيمان قلبه ، وحتى ولو كان موجوداً فى مكان يسيطر عليه الكفار ، فيدعوه لأن يتخلص من التفاف الكفار حوله وليخرج منضماً إلى إخوته المؤمنين . وليشيع الإيمان لسواه ويعبر عملياً عن حبه للناس مما أحبه لنفسه . ولكن هناك من قالوا : نحن ضعاف غير قادرين على الهجرة أو القتال فى سبيل الله . فيأتى القرآن بقطع العذر لأى إنسان يتخلف عن ركب الجهاد فى سبيل الله وسبيل نصرة دين الله فيقول الحق :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمۡۖ قَالُواْ كُنَّا مُسۡتَضۡعَفِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ قَالُوٓاْ أَلَمۡ تَكُنۡ أَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٗ فَتُهَاجِرُواْ فِيهَاۚ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ٩٧ ﴾

هؤلاء هم الذين يظلمون أنفسهم بعدم المشاركة فى الجهاد وهذا ما يحدث لهم عندما تقبض الملائكة أرواحهم . و« التوفى » معناه « القبض » ؛ فيقال:« توفيت دَيْنى » أى قبضته مستوفياً . ويقال:« توفى الله الإنسان » أى قبضه إليه مستوفياً . والقَبض له آمر أعلى ، وهو الحق . ومن بعد ذلك هناك موكل عام هو « عزرائيل » ملك الموت ، وهناك معاونون لعزرائيل وهم الملائكة . فإذا نسبت الوفاة فهى تنسب مرة لله ، فالله يتوفى : لأنه الآمر الأعلى ، وتنسب الوفاة للملائكة فى قوله :

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾

(من الآية ٦١ سورة الأنعام)

وتنسب الوفاة إلى عزرائيل .

﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾

(من الآية ١١ سورة السجدة)

وإذا ما أطلق الحق هذه الأساليب الثلاثة فى وصف عملية الوفاة فهل هذا اختلاف وتناقض وتضارب فى أساليب القرآن ؟ لا ، بل هو إيضاح لمراحل الولاية التى صنعها الله ، فهو الأمر الأعلى يصدر الأمر إلى عزرائيل ، وعزرائيل يطلق الأمر لجنوده . وفى حياتنا ما يشرح لنا هذا المثل - ولله المثل الأعلى - فالتلميذ قد يذهب إلى المدرسة بعد امتحان آخر العام ويعود إلى بيته قائلاً : لقد وجدت نفسى راسباً ، والسبب فى ذلك هم المدرسون الذين قصدوا عدم إنجاحى .

ويرد عليه والده : المدرسون لم يفعلوا ذلك ، ولكن اللوائح التى وضعتها الوزارة لتصحيح الامتحانات هى التى جعلتك راسباً . فيرد التلميذ : لقد جعلنى الناظر راسباً . وهذا قول صحيح ؛ لأن الناظر يطبق القوانين التى يحكم بمقتضاها على الطالب أن يكون ناجحا أو راسبا . وقد يقول التلميذ : إن وزير التربية والتعليم هو من جعلنى راسباً . وهذا أيضاً صحيح ؛ لأن الوزير يرسم مع معاونيه الخطوط الأساسية التى يتم حساب درجات كل تلميذ عليها ، فإذا قال التلميذ : لقد جعلتنى الدولة راسباً ، فهو قول صحيح ؛ لأنه فهم تسلسل التقنين إلى مراحل العلو المختلفة ، وأى حلقة من هذه الحلقات تصلح أن تكون فاعلاً . ومن هنا نفهم أن الحق سبحانه حين يقول :

﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾

(من الآية ٤٢ سورة الزمر)

فهذا قول صحيح ، مثل قوله سبحانه :

﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾

(من الآية ١١ سورة السجدة)

ومثل قوله سبحانه :

﴿ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا ﴾

(من الآية ٦١ سورة الأنعام)

كل هذه الأقوال صحيحة ؛ لأنها تتعلق بمدارج الآمر .

« إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم » والظلم هو أن تأتى لغير ذى الحق وتعطيه ما تأخذ من ذى الحق ، والظلم يقتضى ظالماً ومظلوماً وأمرا وقع الظلم فيه . فكيف يكون الإنسان ظالماً لنفسه وتتوفاه الملائكة على ذلك ؟. لابد أنهم فعلوا ما يستحق ذلك.فساعة تأتى للإنسان الشخصية المعنوية الإيمانية بعد أن آمن بالله وآمن بالمنهج ، ثم تحدثه نفسه بالمخالفة ، هنا يواجه صراعاً بين أمرين : مسئولية الشخصية الإيمانية التى تَقَبَّل بها المنهج من الله ، ووازع النفس التى تلح عليه بالانحراف . ويدور ما هو أشبه بالحوار بين المسئولية الإيمانية ووازع النفس الملح بالانحراف . وعندما تتغلب النفس الإيمانية يعرف الإنسان أن نفسه صارت مطمئنة وسعيدة ، ويقول لنفسه : إنك إن طاوعت وازع الانحراف تكن قد حققت شهوة عاجلة ستكْوى بها فى آخر الأمر ، وأنت برفضك للشهوة تكون قد أنصفت نفسك . ولو طاوعت شهوتك العاجلة تكون قد ظلمت نفسك .

ومثل ذلك يحدث فى حياتنا العادية : عندما تدلل الأم ابنها بينها يطلب منه والده الاستذكار ويحاول أن يردعه ليقوم بمسئوليته الدراسية ، إن هذه الأم تظلم ابنها ، وكذلك يعطينا الحق فكرة عن الصراع بين الشخصية الإيمانية والنفس الانحرافية التى تريد الهوى فقط فيقول :

﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾

(سورة المائدة)

هنا يقول هابيل لقابيل :

ـ ولماذا تقتلنى ؟. إننى لست أنا الذى تقبل القربان ولكن الذى تقبله هو الله فما ذنبى ؟.

ويأتى بعد ذلك الحوار :

﴿ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢٨ ﴾

(سورة المائدة)

ولنلتفت إلى هذا القول الحكيم :

﴿ فَطَوَّعَتۡ لَهُۥ نَفۡسُهُۥ قَتۡلَ أَخِيهِ ﴾

(من الآية ٣٠ سورة المائدة)

كأن هناك صراعاً فى نفس قابيل بين أمرين « اقتل » و« لا تقتل » ، النفس الإيمانية تقول : « لا تقتل » والنفس الشهوانية تقول : « بل عليك أن تقتل » .

وتغلبت النفس الشهوانية عندما طوعت له قتل أخيه ، ومهدت له ذلك . وبعد أن قتل أخاه ، وضاعت شِرَّة الغضب صار من النادمين ، ثم بدأت الحيثيات تظهر وتتضح . ويبعث الله غراباً يبحث ويحفر فى الأرض ليوارى جثة غراب آخر . هنا قال قابيل :

﴿ أَعَجَزۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِثۡلَ هَٰذَا ٱلۡغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوۡءَةَ أَخِي ﴾

(من الآية ٣١ سورة المائدة)

وهكذا نرى أن ظلم النفس هو أن نخالف ما شرع الله للنفس لينفعها نفعاً أبدياً مستوفياً ، ولكن النفس قد تندفع وراء حبها للشهوات وتمنيها للنفع العاجل الذى لا خلود له ، وعندما يحقق الإنسان هذا النفع العاجل لنفسه فهو يظلم نفسه .

« إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا فيم كنتم » إذن فالملائكة تسأل ظالمى أنفسهم : « فيم كنتم » أى فى أى شىء كنتم من أمر دينكم ؟ والاستفهام هنا للتوبيخ والتقريع أى لماذا ظلمتم أنفسكم ؟ ولماذا لم تفعلوا مثلما فعل إخوانكم وهاجرتم وانضممتم لموكب الإيمان وموكب الجهاد ؟ . ، ولماذا ظللتم فى أماكنكم محجوزين ومحاصرين ولا تستطيعون الحركة ولا تستطيعون الفِكاك ؟ وتكون إجابة

الذين ظلموا أنفسهم : « قالوا كنا مستضعفين فى الأرض » . وبالله عندما يحكى لنا الله هذه الصورة التى تحدث يوم القيامة فهل سيكون عندنا وقت للاستفادة منها ؟ . طبعاً لا ؛ لأنه لن يكون لنا قدرة الاستدراك لنصحح الخطأ .

والحق حين يقص علينا هذا المشهد فذلك من لطفه بنا ، وتنبيه لكل منا : احذروا أن يأتى موقف ويحدث فيه ما أوضحته لكم ولن يستطيع أحد أن يستدرك الحياة ليصنع العمل الطيب . وعلى كل منكم أن يبحث أمر نفسه الآن .

« إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين فى الأرض » وكلمة « كنا مستضعفين فى الأرض » تفيد أن قوماً استضعفوهم ، أى أنهم لم يكونوا قادرين على الخروج والهجرة ولا يعرفون السبيل إليها ، وخافوا على أموالهم وديارهم ، والقوم الذين استضعفوهم قالوا لهم : إن خرجتم لا تأخذوا شيئاً من أموالكم . هذه هى بعض مظاهر الاستضعاف . وهنا تقول الملائكة ما يفيد أن هذا الكلام لا يليق ولا ينفع ، تقول الملائكة : « ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها » .

وكأن هذا تنبيه آخر ، وإعلان أن مثل هذا القول ومثل تلك الحجة لا قيمة لها ؛ لأن الذى يمسكه مكانه وماله دون الله إنما هو من وضع وربط يقينه بالأسباب . أما الذى يضع منهج الله فوق مكانه وولده وكل شيء فهذا هو الذى وثق بالله لأنه هو المسبب وهو مانح ومعطى الأسباب .

« ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها » وهذا القول على لسان الملائكة قادم من القانون الأعلى ، فقد خلق الحق الخلق جميعاً وأسكنهم فى الأرض ، وهذه الأرض ليست لأحد دون أحد ، فمن يضق به مكان فليذهب إلى مكان آخر .

وإذا كان الإنسان من ظلمه وجبروته وعتوه قد صنع تحديدا للمكان ، فلا ينتقل إنسان من مكان إلى مكان إلا بعد سلسلة طويلة من التعقيدات التى تحول دون الانتقال من مكان إلى مكان ، فذلك مناقضة لقضية الخلافة فى الأرض ؛ لأن الخلافة لم توزع كل جماعة على أرض ما . ولكن الإنسان ، كل إنسان خليفة فى الأرض كل الأرض ، مصداقاً لقول الحق :

﴿ وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴿١٠﴾ ﴾

(سورة الرحمن)

فقد جعل الله الأرض متضعة مسخرة مذللة للإنسان ، والأرض هى أى أرض ، والأنام هم كل الأنام . وإن لم ينتبه العالم إلى هذه القضية ويجعلها قضية كونية اجتماعية ، سيظل العالم فى فساد وشقاء . فالذى يجعل الحياة فى الأرض فاسدة هو خروج بعض الآراء التى تقول : إن الكثافة السكانية تمنع أن نجد الطعام لسكان بلد ما . يقولون ذلك فى حين أن أرضاً أخرى تحتاج إلى أيد عاملة ، ولذلك نجد أن البشرية أمام وضع مقلوب ، فأرض فى بلاد تحتاج إلى أناس ، وأناس فى بلاد يحتاجون إلى الأرض .

ومن الواجب أن تسيح المسألة فتأخذ الأرض التى بلا رجال ما تحتاجه من الرجال من البلاد التى لا أرض فيها . وهذا الضجيج الذى يعلو فى الكون سببه أنه يوجد فى كون الله أرض بلا رجال ورجال بلا أرض ، فإذا ما ضاق مكان بإنسان فله أن يذهب إلى مكان آخر ، ولو كان الأمر كذلك لسعدت البشرية ، ومن ينقض هذه القضية فعليه أن يعرف أنه يأخذ الخلافة فى الأرض بغير شروطها ، فالذى يفسد الأمر فى الأرض أن الإنسان الخليفة فى الأرض نسى أنه خليفة واعتبر نفسه أصيلاً فى الكون . وما دام قد اعتبر نفسه أصيلاً فى الكون فهذا هو الفساد :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ ﴾

(سورة النساء)

إذن ، فإن أقام الإنسان على ضيم ولم يعمل فكره وعقله ولم يطرح قضية الكون أمامه ليرى الأرض التى تسعه فيهاجر فيها فعليه أن يعرف أنه مهدد بسوء المصير ؛ لأن الله قد جعل له الكون كله ليكون فيه خليفة ، أمّا الذين سوف ينجون من هذا العقاب ومن تعنيف الملائكة لهم ساعة الوفاة فهم مَن يقول عنهم الحق فى الآية التالية :

﴿ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ ﴾

وعلينا أن نعرف أن هناك فرقاً بين « مستضعف دعوى ومستضعف حقيقى » ، فهناك مستضعف قد قبل استضعاف غيره له وجعل من نفسه ضعيفاً. هذا هو « مستضعف دعوى » .

أما « المستضعف الحقيقى » فهو مِن هؤلاء الذين يحددهم الحق :

« إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً » . هؤلاء هم المستضعفون فعلاً حسب طبيعة عجزهم من الرجال والنساء والولدان .

هل الولد من الولدان يكون مستضعفاً ؟ نعم ؛ لأن الاستضعاف إما أن يكون طارئاً وإما أن يكون ذاتياً ؛ فبعض من الرجال يكون مملوكاً لغيره ولا يقدر على التصرف أو الذهاب ، وكذلك النساء ؛ فالمرأة لا تستطيع أن تمشى وحدها وتحمى نفسها ، بل لا بد أن يوجد معها من يحميها من زوج أو محرم لها ، وكذلك الولدان ؛ لأنهم بطبيعتهم غير مكلفين وهم بذلك يخرجون عن نطاق التعنيف من الملائكة ، لأنهم لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً .

وهذه دقة فى الأداء القرآنى ، فالإنسان مكلف بالخروج عن ظلم غيره له ولو بالاحتيال ، والاحتيال هو إعمال الفكر إعمالاً يعطى للإنسان فرصة أكثر مما هو متاح له بالفعل . فقد تكون القوة ضعيفة . ولكن بالاحتيال قد يوسع الإنسان من فرص القوة . ومثال ذلك : الإنسان حين يريد أن يحمل صخرة ، قد لا يستطيع ذلك بيديه ، لكنه أن يأتى بقضيب من الحديد ويصنع منه عتلة ويضع تحت العتلة عجلة ، ليدحرج الصخرة ، هذه هى حيلة من الحيل ، وكذلك السّقالات التى نبنى عليها ، إنها حيلة .

والذى قام ببناء الهرم ، كيف وضع الحجر الأخير على القمة ؟ لقد فعل ذلك

بالحيلة ، والذى جلس لينحت مسلة من الجرانيت طولها يزيد على العشرة الأمتار ، ثم نقلها وأقامها .إنّه فعل ذلك بالحيلة . فالحيلة هو فكر يعطى الإنسان قدرة فوق قدرته على المقدور عليه ، كذلك معرفة السبيل إلى الهجرة . وكانت معرفة الطرق إلى الهجرة من مكة إلى المدينة فى زمن رسول الله تحتاج إلى خبرة حتى يتجنب الواحد منهم المفازات والمتاهات ، وحينما قام الرسول بالهجرة أحضر دليلاً للطريق ، وكان دليله كافراً ، فلا يتأتى السير فى مثل هذه الأرض بلا دليل .

ولننظر إلى قول الحق سبحانه :

﴿ فَأُولَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾ ﴾

« فأولئك » إشارة إلى من جاء ذكرهم فى الآية السابقة لهذه الآية :

﴿ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ ﴾

(سورة النساء)

ومع ذلك فإن الله حين أشار إلى هؤلاء المستضعفين بحق قال :

﴿ فَأُولَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ﴾

(من الآية ٩٩ سورة النساء)

وكان مقتضى الكلام أن يقول الحق : « فأولئك عفا الله عنهم » ، لكن الحق جاء بـ « عسى » ليحثهم على رجاء أن يعفو الله عنهم ، والرجاء من الممكن أن يحدث أو لا يحدث . ونعرف أن « عسى » للرجاء ، وأنها تستخدم حين يأتى بعدها أمر محبوب نحب أن يقع .

فقد ترجو شيئاً من غيرك وتقول : عساك أن تفعل كذا . وقد يقول الإنسان :

عساى أن أفعل كذا ، وهنا يكون القائل هو الذى يملك الفعل وهذا أقوى قليلاً ، ولكن الإنسان قد تخونه قوته ؛ لذلك فعليه أن يقول : عسى الله أن يفعل كذا ، وفى هذا اعتماد على مطلق القوة . وإذا كان الله هو الذى يقول : « عسى الله أن يعفو عنهم » ، فهذا إطماع من كريم قادر .

وبعد أن يذكر لنا القصة التى تحدث لكل من مات وتوفته الملائكة ظالماً نفسه بأن ظل فى أرض ومكث فيها ، وكان من الممكن أن يهاجر إلى أرض إيمانية إسلامية سواها ؛ ومع ذلك فالذى يضع فى نفسه شيئاً يريد أن يحقق به قضية إيمانية فهو معانٌ عليها لأن الله سبحانه وتعالى يقول :

۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾

فالذى يهاجر فى سبيل الله سيجد السعة إن كان قد وضع فى نفسه العملية الإيمانية . وفى البداية كان المسلمون يهاجرون إلى الحبشة ؛ لأنهم لم يكونوا آمنين فى مكة على دينهم .

ولذلك قيل : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم بسط الله له كونه واستعرض قضية العدالة فى الكون ، فلم يقبل النبى إلا أن يذهب المهاجرون إلى الحبشة . ولا بد أن الحق قد أعلمه أن الحبشة فى ذلك الزمان هى أرض بلا فتنة .

وقد يقول قائل : ولماذا لم يختر النبى أن يهاجر المهاجرون الأوائل إلى قبيلة عربية فى الجنوب أو فى الشمال ؟

لقد كانت لقريش السيادة على كل الجزيرة العربية بقبائلها ، فكل القبائل تحج عند قريش ولم تكن هناك أى بيئة عربية قادرة على أن تقف أمام هوى قريش . ولذلك استعرض سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم البلاد جميعاً إلى أن أمرهم بالهجرة إلى الحبشة ، والعلة فى الذهاب إلى الحبشة أن هناك ملكاً لا يظلم عنده أحد . وكان العدل فى ذاته وساماً لذلك الملك وسماها المؤمنون دار أمن ، وإن لم تكن دار إيمان . وأما الهجرة إلى المدينة فقد كانت إلى دار إيمان . وعلينا أن نعرف نحن الذين نعيش فى هذا الزمان أنه لا هجرة بعد الفتح ، إلا إن كانت هجرة يقصد بها صاحبها المعونة على طاعة الله . وهو ما يوضحه قوله صلى الله عليه وسلم : (المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه)[1] .

وهناك هجرة باقية لنا وهى الحج ، أو الهجرة إلى طلب العلم ، أو الهجرة لأن هناك مجالاً للطاعة أكثر ، فلنفترض أن هناك مكاناً يضيق الحكام فيه على الذهاب إلى المسجد ، فيترك أهل الإيمان هذا المكان إلى مكان فيه مجال يأخذ فيه الإنسان حرية أداء الفروض الدينية ، كل هذه هجرات إلى الله . والنية فى هذه الهجرات لا يمكن أن تكون محصورة فقط فى طلب سعة العيش . ولذلك لا يصح أن يكون الشغل الشاغل للناس ما يشغلهم فى هذا الزمان هو سعة العيش .

وها هو ذا الإمام على ـ كرم الله وجهه ـ يقول : عجبت للقوم يَسْعَوْنَ فيما ضُمِن ـ بالبناء للمفعول ـ لهم ويتركون ما طلب منهم . فكل سعى الناس إنما هو للرزق والعيش وهو أمر مضمون لهم من خالقهم جل وعلا :

﴿ وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾ ﴾

(سورة النساء)

ولن يجد المهاجر إلا السعة من الله ، والشاعر يقول :

لعمرك ما ضاقت بلاد بأهلها ... ولكن أخلاق الرجال تضيق

(١) رواه البخارى وأبو داود والنسائى عن ابن عمرو .

وقد يقول الإنسان : إننى أطلب سعة الرزق بالهجرة ، ونقول : أنت تبحث عن وظيفة لها شكل العمل وباطنها هو الكسل لأنك فى مجال حياتك تجد أعمالاً كثيرةً .

ونجد بعضاً ممن يطلبون سعة الرزق يريد الواحد منهم أن يجلس على مكتب ويقبض مرتباً ، بينما يبحث المجتمع عن العامل الفنى بصعوبة ، كأن الذين يبحثون عن سعة الرزق يريدون هذه السعة مع الكسل ، لا مع بذل الجهد .

« ومن يهاجر فى سبيل الله يجد فى الأرض مراغماً كثيراً » وساعة تقرأ كلمة « مراغم » تعرف أنها تفتح المجال أمام المستضعفين الذين يستذلهم الجبارون . ومادة « مراغم » هى « الراء والغين والميم » والأصل فيها « الرَّغام » أى « التراب » . ويقال : سوف أفعل كذا وأنف فلان راغم ، أى أنف فلان يذهب إلى التراب وسأفعل ما أنا مصمم عليه . ومادام هناك إنسان سيفعل شيئاً برغم أنف إنسان آخر ، فمعناه أن الثانى كان يريد أن يستذله وأراد أن يرغمه على شيء ، لكنه رفض وفعل ما يريد .

وعندما يرى الإنسان جباراً يشمخ بأنفه ويتكبر ، فهو يحاول أن يعانده ويصنع غير ما يريد ويجعل مكانة هذا الأنف فى التراب ، ويقال فى المثل الشعبى : أريد أن أكسر أنف فلان .

وعندما يهاجر من كان مستضعفا ويعانى من الذلة فى بلده ، سيجد أرضاً يعثر فيها على ما يرغم أنف عدوه . فيقول العدو : برغم أننى ضيقت عليه راح إلى أحسن مما كنت أتوقع . ويرغم الإنسان بهجرته أنف الجبارين .

وكلمة « مراغم » هى اسم مفعول ، وتعنى مكانًا إذا ما وصلت إليه ترغم أنف خصمك الذى كان يستضعفك ، فهل هناك أفضل من هذا ؟

راجع أصله وخرج أحاديثه الدكتور أحمد عمر هاشم نائب رئيس جامعة الأزهر .

فهـرست ايـات المجـلد الرابـع

تفسير الشعراوي

المجلد الخامس

من الآية ١٠١ « سورة النساء » إلى الآية ٥٤ « سورة المائدة »

« ومن يهاجر فى سبيل الله يجد فى الأرض مراغماً كثيراً » أى أنه سبحانه يعطى المهاجر أشياء تجعل من كان يستضعفه ويستذله يشعر بالخزى إلى درجة أن تكون أنفه فى الرَّغام .

والمستضعف فى أرضٍ ما يجد من يضيق عليه حركته ، لكنه عندما يهاجر فى سبيل الله سيجد سعة ورزقاً .

ويتابع الحق الآية : « ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله وكان الله غفوراً رحيماً » ولا أحد يعرف ميعاد الموت . فإن هاجر إنسان فى سبيل الله فقد لا يصل إلى المراغم ؛ لأن الموت قد يأتيه ، وهنا يقع أجره على الله . فإذا كان سبحانه قد وعد المهاجر فى سبيله بالمكان الذى يرغم أنف خصمه وذلك سبب ، ومن مات قبل أن يصل إلى ذلك السبب فهو قد ذهب إلى رب السبب ، ومن المؤكد أن الذهاب إلى رب السبب أكثر عطاءً . وهكذا نجد أن المهاجر رابح حياً أو ميتاً .

« ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله وكان الله غفوراً رحيماً » وكلمة « وقع أجره على الله » أى سقط أجره على الله . كأن الحق سبحانه وتعالى يقول للعبد : أنت عندما تهاجر إلى أرض الله الواسعة ، إن أدركك الموت قبل أن تصل إلى السعة والمراغم ، فأنت تذهب إلى رحابى . والمراغم سبب من أسبابى وأنا المسبب .

وحتى نفهم معنى : « وقع أجره على الله » علينا أن نقرأ قوله الحق :

﴿ وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ ﴾

(من الآية ٨٢ سورة النمل)

والوقوع هنا هو سقوط ، ولكنه ليس كالسقوط الذى نعرفه ، بل هو الذهاب إلى الله . ولماذا يستخدم الحق هنا « وقع » بمعنى « سقط » ؟

هو سبحانه يلفتنا إلى ملحظ هام : حيث يكون الجزاء أحرص على العبد من حرص العبد عليه ، فإذا ما أدرك العبد الموت فالجزاء يسعى إليه وهو عند الله ،

ويعرف الجزاء مَن يذهب إليه معرفة كاملة .

وهكذا يجب أن نفهم قوله الحق :

﴿ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾ ﴾

(سورة النساء)

والله غفور رحيم حتى لمن توانى قليلاً ، وذلك حتى يلحق بالركب الإيمانى ويتدارك ما فاته ؛ لأن الله يغفر ما فات إن حاول العبد تداركه . والهجرة تقتضى ضرباً فى الأرض ، وتقتضى الجهاد .

وبعد أن جعل الله للإسلام أركاناً ، جاء فحمل المسلم ما يمكن أن يؤديه من هذه الأركان ، فأركان الإسلام هى : الشهادة ؛ والصلاة ؛ والصوم ؛ والزكاة ؛ والحج لمن استطاع إلى ذلك سبيلاً ، والمسلم ينطق بالشهادة ويؤدى الصلاة ، ولكنه قد لا يملك مالاً ؛ لذلك يعفيه الحق من الزكاة . وقد يكون صاحب مرض دائم فلا يستطيع الصوم ، فيعفيه الله من الصوم . وقد لا تكون عنده القدرة على الحج فيعفيه الحق من الحج . أما شهادة « لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله » فقد لا يقولها المسلم فى العمر إلا مرة واحدة . ولم يبق إلا ركن الصلاة وهو لا يسقط عن الإنسان أبداً ما دامت فيه الصلاحية لأدائها ، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(رأس الأمر كله الإسلام وعموده الصلاة)[1] .

ولأن الصلاة هى الركن الذى لا يسقط أبداً فقد جمع الله فيها كل الأركان ، فعند إقامة الصلاة يشهد المسلم ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وخلال الصلاة يصوم الإنسان عن الطعام والشراب ، وإضافة إلى ذلك يصوم ويمتنع عن الكلام أيضا ، وهكذا نجد الصلاة أوسع فى الإمساك عن ركن الصيام . فالإنسان وهو يقيم

(١) رواه الترمذى وأحمد .

الصلاة يحبس نفسه عن أشياء كثيرة قد يفعلها وهو صائم ، فالصوم ـ مثلاً ـ لا يمنع الإنسان من الحركة إلى أى مكان لكن الصلاة تمنع الإنسان إلا من الوقوف بين يدى الله .

إذن فالصلاة تأخذ إمساكاً من نوع أوسع من إمساك المؤمن فى الصيام . والزكاة هى إخراج جزء من المال ، والمال يأتى به الإنسان من الحركة والعمل . والحركة والعمل تأخذ من الوقت . وحين يصلى المسلم فهو يزكى بالأصل ، إنه يُزكى ببذل الوقت الذى هو وعاء الحركة ، إذن ففى الصلاة زكاة واسعة .

والحج إلى البيت الحرام موجود فى الصلاة ؛ لأن المسلم يتحرى الاتجاه إلى البيت الحرام كقبلة فى كل صلاة ، وهكذا .

ولذلك اختلفت الصلاة عن بقية الأركان . فلم تشرع بواسطة الوحى ، وإنما شرعت بالمباشرة بين رب محمد ومحمد صلى الله عليه وسلم . ولأن هذه هى منزلة الصلاة نجد الحق يحذرنا من أن يشغلنا الضرب فى الأرض عنها ، بل شرع سبحانه صلاة مخصوصة اسمها « صلاة الحرب وصلاة الخوف » حتى لا يقولن أحد إن الحرب تمنعنا من الصلاة ، ففى الحرب يكون من الأولى بالمسلم أن يلتحم بمنهج ربه .

كذلك فى السفر يشرع الحق قصر الصلوات :

﴿ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُوا۟ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿١٠١﴾ ﴾

والضرب فى الأرض مقصود به أن يمشى المؤمن فى الأرض بصلابة وعزم وقوة .

والقصر فى الصلاة هو اختزال الكمية العددية لركعاتها . وفى اللغة « اختصار »

و« اقتصار » . « الاقتصار » أن تأخذ بعضا وتترك بعضاً ، و« الاختصار » هو أخذ الكل بصفة موجزة . مثال ذلك عندما نختصر كتاباً ما فنحن نوجز كل المعانى التى فيه فى عدد أقل من الكلمات .

وقد يفكر إنسان فى أن يكتب خطاباً ، ثم يقول لنفسه : سأرسل برقية فى الموضوع نفسه . وهنا لا بد أن يختزل الكلمات لتحمل معانى كثيرة فى ألفاظ موجزة .

والإسهاب ـ كما نعلم ـ لا يأخذ من الوقت مثلما يأخذ الإيجاز ؛ فعندما يريد الإنسان الإيجاز فهو يقدح ذهنه ـ فى وقت أطول ـ ليصل إلى المعانى فى كلمات أقل .

ويحكى عن سعد زغلول ـ زعيم ثورة ١٩١٩ المصرية ـ أنه كتب رسالة لصديق فأطال ، وأنهى رسالته بهذه الكلمات :

وإنى أعتذر إليك عن التطويل فليس عندى الوقت الكافى للإيجاز . ويحكى التاريخ عن الخليفة المسلم الذى أراد أن يهدد قائد الروم . . فكتب إليه ؛ أما بعد : فسآتيك بجيش أوله عندك وآخره عندى . وهكذا أوجز الخليفة حجم الخطر الداهم الذى سيواجه ملك الروم من جيش عرمرم سيملأ الأرض إلخ .

وينقل التاريخ عن أحد قادة العرب وموقفه القتالى الذى كان صعبًا فى « دومة الجندل » أنه كتب إلى خالد بن الوليد كلمتين لا غيرهما « إياك أريد » ولم يقل أكثر من ذلك ليتضح من هذا الإيجاز حجم المعاناة التى يعانيها . وقد أوردنا هذا الكلام ونحن بصدد الحديث عن القصر والإيجاز .

والقصر فى الصلاة هو أن يؤدى المؤمن كُلًّا من صلاة الظهر والعصر والعشاء ركعتين بدلاً من أربع ركعات ، أما الصبح والمغرب فكلاهما على حاله ، الصبح ركعتان ، والمغرب ثلاث ركعات . وحكمة مشروعية ذلك أن الصلاة فى وقت الحرب تقتضى ألا ينشغل المقاتلون عن العدو ، ولا ينشغلوا أيضا عن قول الحق :

﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا ﴾

(من الآية ١٠٣ سورة النساء)

فإذا شرع الله للخوف صلاة ، وللحرب صلاة فمعنى ذلك أنه لا سبيل أبداً لأن ينسى العبد المؤمن إقامة الصلاة . وإذا كانت الصلاة واجبة فى الحرب فلن تكون هناك مشاغل فى الحياة أكثر من مشاغل الحرب والسيف . وصلاة الحرب ـ أى صلاة الخوف ـ جاء بها القرآن ، أما صلاة السفر فقد جاءت بها السنة أيضا ، وفيها يقصر المؤمن صلواته أيضاً :

﴿ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُوا۟ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿١٠١﴾ ﴾

(سورة النساء)

ولو رأى الكافرون المؤمنين مصفوفين جميعاً فى الصلاة فقد يهجمون عليهم هجمة واحدة . ولذلك شرع الحق قصر الصلاة .

ويكون الخطاب من بعد ذلك موجهاً للرسول صلى الله عليه وسلم :

﴿ وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓا۟ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا۟ فَلْيَكُونُوا۟ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا۟ فَلْيُصَلُّوا۟ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا۟ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ۗ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ

أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓا۟ أَسْلِحَتَكُمْ ۖ وَخُذُوا۟ حِذْرَكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾

وحين يقول الحق : « فلتقم طائفة منهم » نفهم أن ينقسم المؤمنون إلى طائفتين : طائفة تصلى مع رسول الله ، وأخرى ترقب العدو وتحمى المؤمنين .

ولكن كيف تصلى طائفة خلف رسول الله ولا تصلى أخرى وكلهم مؤمنون يطلبون شرف الصلاة مع رسول الله ؟ ويأمر الحق أن يقسم النبى صلى الله عليه وسلم الصلاة ليصلى بكل طائفة مرة ، ليشرف كل مقاتل بالصلاة خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقصر الصلاة ـ كما عرفنا ـ ينطبق على الصلاة الرباعية وهى الظهر والعصر والعشاء أما صلاة الفجر وصلاة المغرب فلا قصر فيهما ، فليس من المتصور أن يصلى أحد ركعة ونصف ركعة ، وفى علم الحساب نحن نجبر الكسور إلى الرقم الأكبر .

وقد صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الخوف بهيئات متعددة ، ولا مانع من أن نلم بها إلماماً عاجلاً ؛ لأن تعليم هذه الصلاة عادة يكون واجباً على الأئمة والعلماء الذين يصلون بالجيوش فى حالة الحرب . ولصلاة الخوف طرق وكيفيات : كان الرسول صلى الله عليه وسلم يُقَسِّم الجيش إلى قسمين ؛ قسم يصلى معه وقسم يرقب العدو ، ويصلى بكل فرقة ركعتين .

وهناك طريقة أخرى وهى أن يصلى بطائفة وفرقة ركعة واحدة ، ثم ينصرفون وتأتى الطائفة التى حمت الطائفة الأولى فى أثناء الصلاة لتصلى هذه الطائفة الثانية ركعة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهنا يسلم رسول الله لأنه أنهى الصلاة .

وبعد ذلك تصلى الطائفة الأولى الركعة الثانية التى عليها فى القصر وتسلم ، ثم تصلى الطائفة الثانية الركعة الثانية التى عليها فى القصر وتسلم .

وهناك كيفية ثالثة وهى أن تأتى الطائفة الأولى تصلى مع النبى صلى الله عليه وسلم ركعة ، ولا يصلى النبى معها الركعة الثانية بل يظل واقفاً قائماً إلى أن تخرج من صلاتها بالتسليم لتنادى الطائفة التى تقف فى مواجهة العدو لتصلى خلف النبى الركعة الثانية بالنسبة للنبى بينما هى الركعة الأولى بالنسبة إليها ، ويظل النبى قاعداً إلى أن تأتى الطائفة الثانية بركعتها الثانية ويسلم النبى صلى الله عليه وسلم بها وتنال الطائفة الأولى شرف بدء الصلاة مع الرسول صلى الله عليه وسلم وتحظى الطائفة الثانية بشرف السلام معه صلى الله عليه وسلم .

وهنا نسأل : هل هذه الصلاة بهذا الأسلوب مقصورة على عهد النبى صلى الله عليه وسلم واتماماً به لأن الصلاة معه هى الشرف ؟ فكيف يصلى المقاتلون صلاة الخوف بعده صلى الله عليه وسلم ؟ قال العلماء : إذا كنت تعتبر القائمين بأمر القيادة هم خلفاء لرسول الله فى الولاية فتقام صلاة الخوف على صورتها التى جاءت فى القرآن ، ولكن إذا كان لكل جماعة إمام فلتصل كل جماعة صلاة القصر كاملة خلف الإمام .

« وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة فلتقم طائفة منهم معك وليأخذوا أسلحتهم » وهذه الأسلحة المقصود بها الأسلحة الحقيقية مثل السيف أو الرمح أو النبلة أو البندقية فليأخذها المقاتل معه ، أما من معه سلاح ثقيل فلن يأخذه بطبيعة الحال إلى الصلاة .

« فإذا سجدوا فليكونوا من ورائكم ولتأت طائفة أخرى لم يصلوا فليصلوا معك وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم » والقول القرآنى هنا ليس مجرد ألفاظ تقال ولكنها ألفاظ لها مدلولات من رب العالمين ، فمن قدموا إلى الصلاة أولاً ؛ تركوا خلفهم من يحميهم .

ولكن الطائفة الثانية التى سوف تترك المواقع من أجل الركعة الثانية خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم فبالهم مشغول بذواتهم وبحماية من يصلون ، فلعلهم حين يذهبون إلى الصلاة مع رسول الله تلهيهم المسألة ؛ لذلك قال الله : « وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم » وهكذا نجد أن الطائفة الأولى ملزمة بأخذ السلاح ، والطائفة الثانية ملزمة بأخذ الحذر والسلاح .

وقد يقول قائل : صحيح إن الأسلحة تؤخذ ، ولكن كيف يؤخذ الحذر وهو عملية معنوية ؟

ونقول : إنه سبحانه يصور المعنويات ويجسمها تجسيم الماديات حتى لا يغفل الإنسان عنها ، فكأن الحذر آلة من آلات القتال ، وإياك أيها المقاتل أن تغفل عنها .

وهذا أمر يشيع فى أساليب القرآن الكريم ، فالحق سبحانه يقول :

﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ وَالْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾

(من الآية ٩ سورة الحشر)

والدار هى مكان باستطاعة الإنسان أن يتبوأه ويقيم به ، فما معنى أن يتبوأ الإنسان الإيمان وهو أمر معنوى ؟. إنه سبحانه فى هذا القول يصف الأنصار الذين أكرموا وفادة المهاجرين ، والدار ـ كما نعرف ـ هى المكان الذى يرجع إليه الإنسان ، والإيمان هو مرجع كل أمر من الأمور .

إذن فقد جعل الحق سبحانه الإيمان كأنه يُتبوأ ، أى جعله شيئاً ينزل الإنسان فيه ، والإيمان كذلك حقاً ، والدار فى هذا القول مقصود بها هنا المدينة المنورة ، حيث استقبل الأنصار المهاجرين .

﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ وَالْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ ﴾

(سورة الحشر)

وهكذا يجسم الحق المعنويات لنفهم منها الأمر وكأنه أمر حسّى ، تماماً كما قال الحق : « فليصلوا معك وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم ود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة » .

وهذا ما يوضح لنا لماذا أمر الله أن يأخذ المسلمون الحذر والأسلحة ؛ لأن المقاتل يجب أن يخاف على سلاحه ومتاعه . فلو فقدها المقاتل لفقد أداة القتال ولصارت

أدوات قتاله قوة لعدوه . فحين يأخذ المقاتل السلاح من عدوه ، يتحول السلاح إلى قوة ضد العدو .

لذلك كان التحذير من فقد الأسلحة والأمتعة حتى لا تضاف قوة السلاح والمتاع إلى قوة العدو ؛ لأن فى ذلك إضعافاً للمؤمن وقوة لخصمه . وعدو الإسلام يود أن يغفل المسلمون عن الأسلحة والمتاع ، والمؤمن ساعة الصلاة يستغرق بيقظته مع الله ، ولكن على الإنسان ألا يفقد يقظته إن كان يصلى أثناء الحرب ، فلا يصح أن ينسى الإنسان سلاحه أثناء القتال حتى وهو يصلى ، فالقتال موقف لله ، فلا تفصل القتال فى سبيل الله عن الصلاة لله .

« ود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم » والغفلة هى نسيان طارىء على ما لا يصح أن يُنسى ، وفى هذا تحذير واضح ؛ لأن الغفلة أثناء القتال هى حلم للكافرين حتى يحققوا هدفهم المتمثل فى قول الله : « فيميلون عليكم ميلة واحدة » . فمعسكر الكفر يتمنى أن يهجم على المؤمنين فى لحظة واحدة ، هذا هو المقصود بقوله : « فيميلون عليكم ميلة واحدة » .

ولكن لنر من بعد ذلك قول الحق :

﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓا۟ أَسْلِحَتَكُمْ ۖ وَخُذُوا۟ حِذْرَكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾

(من الآية ١٠٢ سورة النساء)

ونجد هنا أن كلمة « الحذر » تكررت ، وسبحانه بجلال جبروته أعد للكافرين عذاباً مهيناً ، وفى ذلك بشارة منه أن الكافرين لن ينالوا من المؤمنين شيئاً ، فلماذا جاء الأمر هنا بأخذ الحذر ؟ . إن أخذ الحذر لا يعنى أن الله تخلى عن المؤمنين ، ولكن لتنبيه المؤمنين أن يأخذوا بالأسباب ، ولا يغفلوا عن المسبب لأنه سبحانه هيأ وأعد العذاب المهين للكافرين . « إن الله أعد للكافرين عذاباً مهيناً » .

وهذا ما يجب أن نفهمه حتى لا يتوهم أحد أن الله عندما نبه كثيراً بضرورة الأخذ بالحذر ثم أنه يتخلى عنا ، لا . إنّه سبحانه يوضح لنا أن نأخذ بالأسباب ولا نهملها

وهو القائل « إن الله أعد للكافرين عذاباً مهيناً » .

ومن بعد ذلك قال الحق :

﴿ فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ۚ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ ۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾ ﴾

كأن المؤمن مطالب بألا يسوِّف ويُؤَخِّر الصلاة عن وقتها ، وأن يذكر الله قائماً وقاعداً و على جنبه ، وذلك لتكون الصلاة دائماً في بؤرة شعور الإنسان ، بل إن المؤمن مطالب بذكر الله حتى وهو ينسايف عدوه وينازله ، فهو يحمل السيف ولسانه رطب بذكر الله ويقول : « سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم » .

والإنسان حين يسبح الله حتى وهو في حالة الاشتباك مع العدو لا ينساه الله . والمؤمن قد يؤخر الصلاة في حالة الاشتباك مع العدو والالتحام به ، ولكن عليه أن يدفع قلبه ونفسه إلى ذكر الله ، ففى وقت الصلاة يكون مع ربه فليذكره قائماً وقاعداً و في كل حال ، وبعد أن يطمئن المسلم لموقفه القتالى فليقض الصلاة . وأنه لا يترك ربه أبداً بل وهو في الحرب يكون ذلك منه أولى ؛ لأنه في حالة الاحتياج إليه سبحانه ، والقتال يدفع المؤمن إلى الاستعانة بربه ، وإذا كان المسلم يعرف أن لله في أوقاته تجليات ، فلا يحرمن واحد نفسه من هذه التجليات في أى وقت ، وذكر الله يقرِّب العبد من مولاه ـ فسبحانه ـ مع عبده إذا ذكره ، فإن كان الإنسان مشبعاً بالاطمئنان وقت الخوف والقتال فليذكر الله ليدعم موقفه بالقوة العليا .

وقوله الحق : « فإذا اطمأننتم فأقيموا الصلاة » أى إذا انتهى الاشتباك القتالى فعلى المؤمن أن ينتقل من ذكر الله أثناء الاشتباك إلى الصلاة التى حان ميقاتها أثناء القتال . فقد كان ذكر الله وقت الاشتباك من أجل ألا يضيع وقت الصلاة بلا كرامة لهذا الوقت ، وبلا كرامة للقاء العبد مع الرب . ولماذا كل ذلك ؟ ويأتى القول الفصل : « إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً » .

وقد أوضح لنا الحق صلاة الخوف ، وشرع سبحانه لنا ذكره إذا ما جاء وقت الصلاة فى أثناء الاشتباك القتالى، وإذا ما اتفق توقيته مع وقت الصلاة ، وشرحت لنا سنة النبى صلى الله عليه وسلم كيفية قصر الصلاة فى أثناء السفر، لماذا كل ذلك ؟ لأن الصلاة فرض لا غنى عنه على الإطلاق « إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً » . أى أن الصلاة لها وقت .

ولا يصح أن يفهم أحد هذا المعنى ـ كما يفهمه البعض ـ بأن صلاة الظهر ـ على سبيل المثال ـ وقتها ممتد من الظهر إلى العصر ، وصحيح أن الإنسان إذا عاش حتى يصلى الظهر قبيل العصر فإنها تسقط عنه ، ولكن ماذا يحدث لو مات العبد وقد فات عليه وقت يسعها ؟ إذن فقد أثم العبد ، ومن يضمن حياته حتى يؤدى الصلاة مؤجلة عن موعد أدائها ؟ .

وقد يقول قائل : أحياناً أسمع أذان الصلاة وأكون فى عمل لا أستطيع أن أتركه ؛ فقد أكون فى إجراء جراحة . أو راكباً طائرة . ونقول : أسألك بالله إذا كنت فى هذا العمل الذى تتخيل أنك غير قادر على تركه وأردت أن تقضى حاجة ، فماذا تصنع ؟ إنك تذهب لقضاء حاجتك ، فلماذا استقطعت جزءاً من وقتك من أجل أن تقضى حاجتك ؟ وقد تجد قوماً كافرين يسهلون لك سؤالك عن دورة المياه لتقضى حاجتك .

وساعة يراك هؤلاء وأنت تصلى فأنت ترى على وجوههم سمة الاستبشار ؛ لأن فيهم العبودية الفطرية لله ، وتجد منهم من يسهل ذلك ويحضر لك مُلاءة لتصلى فوقها ، ويقف فى ارتعاش سببه العبودية الفطرية لله ، فلا تقل أبداً : إن الوقت لا يتسع للصلاة ؛ لأن الله لا يكلف أبداً عبده شيئا ليس فى سعته ، والحق كلف العبد بالصلاة ومعها الوقت الذى يسعها .

ولله المثل الأعلى ، نحن نرى رئيس العمال فى موقع ما يوزع العمل على عماله بما يسع وقت كل منهم ، فما بالنا بالرب الخالق ، ولذلك يقول الحق :

﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾

(من الآية ٢ ومن الآية ٣ سورة الطلاق)

والصلاة رزق عبودى يحررك من أى خوف ، وفضلها لا حدود له لأن فارضها هو الخالق المربى ، فكيف تبخل على نفسك أن تكون موصولا بربك ؟

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝١٠٤ ﴾

وهذه الآية تذكرة لنا بكيفية الرد على من يدعون التحرر ويحاولون إظهار الإسلام بأنّه يصلح للعصر الذى نحياه عندما نؤوله ونطوّعه لمرادات العصر ، ناسين مرادات الإسلام ؛ فهم يقولون : لقد شرع الحق الحرب فى الإسلام لرد العدوان . ونقول لهم : صحيح أن الحرب فى الإسلام لرد العدوان ، والحرب فى الإسلام أيضاً هى لتوسيع المجال لحرية الاعتقاد للإنسان .

إن الذى يخيف هؤلاء أن يكون القتال فى الإسلام فريضة ، فيقاوم المسلمون الطغيان فى أى مكان . وهذه محاولة من أعداء الإسلام لصرف المسلمين حتى لا يقاوموا قهر الناس والطغيان عليهم ؛ لأن أعداء الإسلام يعرفون تماماً قوة الإسلام الكامنة والتى يهبها لمن يؤمن به ديناً ، وينخدع بعض المسلمين بدعاوى أعداء الإسلام الذين يقولون : إن الإسلام لم يشرع الحرب إلا لرد العدوان .

ولذلك نقول لهؤلاء وأولئك : لا ؛ إن الإسلام جاء بالقتال ليحرر حق الإنسان

فى الاعتقاد . والمسلم مطلوب منه أن يعلن كلمة الله ، وأن يقف فى وجه من يقاوم إعلانها ، ولكن الإسلام لا يفرض العقيدة بالسيف ، إنما يحمى بالسيف حرية المعتقِد ، فالحق يقول : « ولا تهنوا فى ابتغاء القوم » أى لا تضعفوا فى طلب القوم الذين يحاربون الإسلام ، والابتغاء هو أن يجعل الإنسان شيئاً بغية له ، أى هدفاً وغاية ، ويجند لها كل تخطيطات الفكر ومتعلقات الطاقة ، كأن الإنسان لا يرد القوم الكافرين فقط ساعة يهاجمون دار الإسلام ، ولكن على المسلم أن يبتغيهم أيضاً امتثالاً لقول الله : « ولا تهنوا فى ابتغاء القوم » . فعلى المسلمين أن يُعْلُوا كلمة الله ويدعوا الناس كافة إلى الإيمان بالله . وهم فى هذه الدعوة لا يفرضون كلمة الله ، لكنهم يرفعون السيف فى وجه الجبروت الذى يمنع الإنسان من حرية الاعتقاد . إن على المسلمين رفع الجبروت عن البشر حتى ولو كان فى ذلك مشقة عليهم لأن الحق قال :

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ﴾

(من الآية ٢١٦ سورة البقرة)

وقد خلق الله فى المؤمن القدرة على أن يبتغى عدو الإسلام ليرفع الجبروت عن غيره من البشر ، صحيح أن الحرب مسألة مكروهة من البشر وليست رحلة سهلة ، ولكنها أحياناً تكون واجبة ، والذين أدركوا الحرب العالمية الثانية عرفوا أن « تشرشل » جاء رئيسا لوزراء بريطانيا بعد « تشمبرلن » الذى عرف عنه أنه رجل سلام ، وحاول « تشمبرلن » أن يماطل ويلوح بالسلام مع ألمانيا حتى تستعد انجلترا بالحرب ، وعندما استعدت انجلترا أعلن « تشمبرلن » أن سياسته غير نافعة ، وجاء « تشرشل » وقاد دفة الحرب ، وقال للإنجليز :

ـ انتظروا أياماً سوداء وانتظروا الجوع .

لقد قال تشرشل ذلك للإنجليز ، حتى إذا ما جاء الواقع بأقل من قوله ، فهم يستبشرون ويفرحون .

والحق سبحانه يقول : « ولا تهنوا فى ابتغاء القوم إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون » . إن الحرب ترهقهم أيضاً كما ترهقكم ، لكنكم أيها المؤمنون تمتازون على الكافرين بما يلى : « وترجون من الله ما لا يرجون وكان الله عليماً حكيماً » . فأنتم

وهم فى الألم سواء ، ولكن الاختلاف هو أن المؤمنين يرجون ما لا يرجوه الكافرون ، إن المؤمنين يعلمون لحظة دخولهم الحرب أن الله معهم وهو الذى ينصرهم ومن يمت منهم يذهب إلى جنة عرضها السموات والأرض ، وهذا ما لا يرجوه الكفرة .

والحق سبحانه وتعالى يطالب الفئة المؤمنة التى انتهت قضية عقيدتها إلى الإيمان بإله واحد ؛ هو ـ سبحانه ـ أنشأهم وخلقهم وإليه يعودون ، وهذه القضية تحكم حركات حياتهم ؛ إنه ـ سبحانه ـ يطالبهم أن يؤدوا مطلوبات هذه القضية ، وأن يدافعوا عن هذه العقيدة التى تثبت للناس جميعاً أنه لا معبود ـ أى لا مطاع ـ فى أمر إلا الحق سبحانه وتعالى .

وحين تحكم هذه القضية أناساً فهى توحد اتجاهاتهم ولا تتضارب مع حركاتهم ، ويصبحون جميعاً متعاونين متساندين متعاضدين ؛ لذلك جعل الله الطائفة المؤمنة خير أمة أخرجت للناس ؛ لأن رسولها صلى الله عليه وسلم خير رسول أرسل للناس ، وطلب الحق من أهل الإيمان أن يجاهدوا الكافرين والمنافقين لتصفو رقعة الإيمان مما يكدر صفو حركة الحياة .

والحق يعامل خلقه كبشر ، إنّه خلقهم ويعلم طبائعهم وغرائزهم ولا يخاطبهم على أنهم ملائكة ، وإنما يخاطبهم على أنهم بشر ، وهم أغيار ، ومن الأغيار أن يصفو لهم أمر العقيدة مرة ، وأن تعكر عليهم شهواتهم صفو العقيدة مرة أخرى ؛ لذلك يؤكد لهم أن طريق العقيدة ليس مفروشاً بالرياحين والورود ، وإنما هو مفروش بالأشواك حتى لا يتحمل رسالة الحق فى الأرض إلا من صبر على هذه البلايا وهذه المحن . فلو كانت القضية على طرف الثمام[1] أى سهلة التناول لا مشقة فى الحصول عليها وتدرك بدون آلام وبدون متاعب فسيدعيها كل إنسان ويصبح غير مأمون على حمل العقيدة .

من أجل ذلك لم ينصر الله الإسلام أولاً ، إنما جعل الإسلام فى أول أمره ضعيفاً مضطهداً ، لا يستطيع أهله أن يحموا أنفسهم ، حتى لا يصبر على هذا الإيذاء

(١) الثمام : عشب لا يطول له زهر يسهل أخذه وقطفه .

إلا من ذاق حلاوة الإيمان مما يجعله لا يشعر بمرارة الاضطهاد ووطأة التعذيب ومشقته . فقال الحق سبحانه وتعالى : « ولا تهنوا فى ابتغاء القوم » أى لا تضعفوا فى طلب القوم .

وكلمة « لا تهنوا فى ابتغاء القوم » أى فى طلبهم تدل على أن الأمة الإسلامية ليس مطلوبا منها فقط أن تدفع عن نفسها عدواناً ، بل عليها أن تطلب هؤلاء الذين يقفون فى وجه الدعوة لتؤدبهم حتى يتركوا الناس أحراراً فى أن يختاروا العقيدة .

إذن فالطلب منه سبحانه : ألّا تهنوا ولا تضعفوا فى طلب القوم الذين يقفون فى وجه الدعوة . ثم قال سبحانه : « إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون » أى إنه إذا كان يصيبكم ألم الحرب والإعداد لها ، فأنتم أيضاً تحاربون قوماً يصيبهم ألم المواقع والحروب والإعداد لها ؛ فأنتم وهم متساوون فى إدراك الألم والمشقة والتعب ، ولكن يجب ألا تغفلوا عن تقييم القوة فلا تهملوها ؛ لأنها هى القوة المرجحة . فأنتم تزيدون عليهم أنكم ترجون من الله ما لا يرجون . والأشياء يجب أن تُقَوّم بغاياتها والثواب عليها . لا يقولن أحد أبداً « هذا يساوى ذلك » . . فلا يهمل أحد قضية الثواب على العمل . ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى فى شرح هذه المعادلة حتى تكون الأذهان على بينة منها إعداداً وخوضاً للحرب واحتمالاً لآلامها :

﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ﴾

(من الآية ٥٢ سورة التوبة)

عليكم أيها الكافرون أن تعلموا أن الذى ينتظرنا هو إحدى الحسنيين . . إما أن ننتصر ونقهركم ، وإما أن نستشهد فنظفر بالحياة الأخرى . وماذا عن تربص المؤمنين بالكافرين :

﴿ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ﴾

(من الآية ٥٢ سورة التوبة)

كفة مَن ـ إذن ـ هى الراجحة فى المعادلة ؟ إنها كفة المؤمنين ؛ لذلك قال الحق : « ولا تهنوا فى ابتغاء القوم إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون » فلا تضعفوا أيها المؤمنون فى طلب القوم لأنهم يألمون كما تألمون ، ولكن

لكم مرجِّحا أعلى وهو أنكم ترجون من الله ما لا يرجون .

ويذيل الحق قضية حث المؤمنين على طلب الكافرين وكيف يزيد المؤمنون على الكافرين بأنهم يرجون من الله ما لا يرجوه الكافرون فيقول : « وكان الله عليماً حكيماً » إنه عليم بكل ما يصيب المؤمن من ألم ، فلا تعتقد أيها المؤمن أن لك أجراً سيضيع منك ؛ فالشوكة التى تشاك بها فى القتال محسوبة لك ، وهو سبحانه وتعالى حين يتركك تألم أمام الكافر كما يألم . فذلك لحكمة هى أن تسير إلى القتال وأنت واثق من قدرة إيمانك على تحمل تبعات هذا الدين .

عن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (ما يُصيب المؤمنَ مِنْ شوكة فما فوقها إلا رفعه الله بها درجة أو حط عنه بها خطيئة)[1] .

وبعد أن تكلم الحق عن القتال فى سبيل نصرة دينه لم يحرم المؤمنين من توجيه يصفى أيضاً حركة الحياة ، لماذا ؟ لأنه علم أن قوماً يؤمنون به وينضوون تحت لوائه صلى الله عليه وسلم ، فيوضح : أن انضواءكم أيها المؤمنون تحت لواء الإسلام له تبعات ، فأنتم أول من يُطبق عليه حكم الله ، وإياكم أن تظنوا أنكم بإيمانكم وإعلان إسلامكم لله واتباعكم لرسول الله قد أخذتم شيئاً يميزكم عن بقية خلق الله ، فكما قلنا لكم دافعوا الكفار ودافعوا المنافقين نقول لكم أيضاً : دافعوا أنفسكم ؛ لأن واحداً قد ينضم إلى الإسلام وبعد ذلك يظن أن الإسلام سيعطيه فرصة ليكون له تميز على غيره ، ولمثل هذا الإنسان : نقول لا . ولذلك يخاطب رسوله صلى الله عليه وسلم ويقول له :

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ ﴾

(١) رواه مسلم فى البر.

والحق سبحانه وتعالى حين يتكلم عن نفسه ؛ يتكلم فيما يتعلق بالفعل بصفة التعظيم والجمع . مثال ذلك قوله : « إنا أنزلنا » . وهذه « نون الجماعة » حيث يتطلب إنزال القرآن قوى متعددة لا تتوافر إلا لمن له الملك فى كل الكون. ولنضرب لذلك مثلا ولله المثل الأعلى . . إننا نجد أن رئيس الدولة أو الملك فى أى بلد يصدر قراراً فيقول : « نحن فلانا أصدرنا القرار » . والملك أو الرئيس يعرف أنه ليس وحده الذى يصدر القرار ، ولكن يصدره معه كل المتعاونين معه وكل العاملين تحت رئاسته ، فما بالنا بالحق الأعلى سبحانه وتعالى ؟ لذلك فحين يتكلم سبحانه فيما يتعلق بالذات يكون الحديث بواسطة ضمير الأفراد فيقول :

﴿ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ﴿١٤﴾ ﴾

(سورة طه)

ولا يأتى هنا ضمير الجمع أبداً ، ولا تأتى « نون التعظيم » . ولكن فى هذه الآية نجد الحق يقول : « إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق » . . ونرى « نون التعظيم » واضحة ، فالقرآن كلام الله ، ونزول القرآن يتطلب صفات متعاضدة . فسبحانه مرة يقول :

﴿ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ ﴾

(من الآية ٤٧ سورة العنكبوت)

ومرة يقول :

﴿ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ﴾

(من الآية ٥١ سورة العنكبوت)

ومرة ثالثة يقول :

﴿ لَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ كِتَٰبٗا فِيهِ ذِكۡرُكُمۡۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿١٠﴾ ﴾

(سورة الأنبياء)

ما الغاية من الإنزال ؟ الغاية من الإنزال أن يوجد على الأرض منهج يحكم حركة الحياة . والقرآن قد أنزل إلى الرسول وإلى من آمن بالرسالة . وحين يقول الحق : « أنزلنا عليك » فمعنى ذلك نزول التكليف . وساعة نسمع كلمة « أنزلنا » فعلينا أن

نعرف أن كل شيء يجيء من الحق فهو ينزل إلينا منه سبحانه ، وكلمة « أنزل » تشعر السامع أو القارىء لها أن الجهة التى أنزلت هى جهة أعلى ، وليست مساوية لمن أُنْزِلَ إليه ، وليست أدنى منه أيضاً .

وكلمة « أنزلنا » تدل على أن جهة أنزلت ، وجهة أُنزل إليها ، وشيء أنزلته الجهة إلى المُنَزَّلِ إليه . والكتاب هو المنزل . والذى أنزله هو الله . والمُنَزَّلِ إليه هو رسول الله وأمته . وهل أنزل الحق سبحانه الكتاب فقط أو أنزل قبل ذلك كل ما يتعلق بمقومات الحياة ؟

وعندما نقرأ هذا القول الكريم :

﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ ﴾

(من الآية ٢٦ سورة الأعراف)

إنه لباس جاء من أعلى ؛ لذلك استخدم الحق كلمة « أنزلنا » وهو ليس لباساً فقط ولكنه أيضاً يزينكم مأخوذ من ريش الطائر لأنه لباسه وزينته ، فهو لا يوارى العورة فحسب ولكنه جميل أيضاً ، والأجمل منه أنه لباس التقوى .

لقد جاء الحق بالمقوم للحياة ستراً ورفاهية ، وبعد ذلك أنزل الحق لباس التقوى وهو الخير . فاللباس الأول يوارى عورة مادية ، ولباس التقوى يوارى العورات القيمية والمعنوية ، وكل ذلك إنزال من أعلى . وفى آية أخرى يقول الحق سبحانه :

﴿ لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَأَنزَلۡنَا ٱلۡحَدِيدَ فِيهِ بَأۡسٞ شَدِيدٞ ﴾

(من الآية ٢٥ سورة الحديد)

إذن فكلمة « الإنزال » تدل على أن كل ما جاء من قِبَلِ الحق الأعلى إلينا ، فهو نازل إلينا بشيء يعالج مادتنا وقوامنا ، وبشيء يعالج معنوياتنا وقيمنا .

ويقول الحق فى الآية التى نحن بصدد تناولها الآن : « إنا أنزلنا إليك الكتاب » وحين يُطلق الكتاب فالمعنى ينصرف إلى الكتاب الجامع المانع المهيمن على سائر

الكتب وهو القرآن ، وإن كان « الكتاب » يطلق على المكتوب الذى نزل على أى رسول من الله سبحانه وتعالى .

« إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق » والحق هو الشيء الثابت الذى لا يأتى واقع آخر لينقضه . وعلى سبيل المثال : أنت فى حياتك العادية حين تقول قضية صدق تحكى بها واقعا حدث مهما تكررت روايتك لهذه التفاصيل مدة عشرين سنة فهى لا تتغير ؛ لأنها مطابقة للواقع . وأنت حين تقولها تستحضر الواقع الذى حدث أمامك . ولكن إذا حَدّث إنسان بقضية كذب لا واقع له . فماذا يكون موقفه ؟ سيحكى القضية مرة بأسلوب ، وإن مر عليه أسبوع فهو ينسى بعضاً مما قاله فى أول مرة فيحكى وقائع أخرى ، ذلك أن ما يرويه ليس له واقع ؛ لذلك يقول كلاماً مغايراً لما قاله فى المرة الأولى ، وهنا يعرف السامع أن هذه المسألة كاذبة .

إذن فالحق هو الشيء الثابت الذى لا ينقضه واقع أبداً . وأنزل الله الكتاب بالحق أى أنزله بالقضايا الثابتة التى لا يأتيها الباطل من بين يديها ، فهو ثابت لا ينقضه واقع .

ويقال فى حياتنا للتلميذ الناجح من أساتذته : لقد أعطيناك المرتبة الأولى على زملائك بالحق . أى أن هذا التلميذ قد أخذ حقه لأنه يستحق هذه المكانة . وقوله الحق سبحانه : « إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق » أى إن إنزال الكتاب على سيدنا رسول الله ليبلغه جاء ملتبسا ومرتبطا بالحق ولا ينفك عنه وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل لأن ينزل عليه الكتاب . ووجود معنى بجانب معنى فى القرآن هو من أسرار إشعاعات الكلمات القرآنية ، فهى لا تتناقض ولكنها توضع بحكمة الخالق لتجلو لنا المعانى .

« إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس » وهذا يوضح لنا أن حكومة الدين الإسلامى وعلى رأسها الحاكم الأول رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما جاء لا ليحكم بين المؤمنين به فقط ، بل ليحكم بين الناس . ومن شرط الحكم بين الناس القيام بالعدل فيما يختصمون فيه ، فلا يقولن واحد : هذا مسلم ، وذاك كافر ، فإذا كان الحق مع الكافر فلا بد أن تعطيه له ، وإذا كان الحق مع المسلم فيجب أن تعطيه له ؛ لأنك لا تحكم بين المؤمنين فقط ولكنك تحكم بين الناس .

وأنت إن حكمت بين الناس حكماً يتفق مع منطق الواقع والحق . تجعل الذى حُكم له يشهد أن دينك حق ، فعندما يكون الحق مع الكافر ، وتحكم على المؤمن بالحكم الحق الذى لا حيف فيه حتى وإن كان عقابا ، فالكافر يقرع نفسه على أنه لم يكن من أهل هذا الدين الذى يعترف بالحق ويحكم به ولو كان على مسلم . وأيضاً يعرف المسلم ساعة يُحكم عليه لصالح واحد غير مسلم أن المسألة ليست نسبة شكلية إلى الإسلام ، ولكنها نسبة موضوعية ، فلا يظنن أحد أن الإسلام قد جاء ليحابى مسلما على أى إنسان آخر ، ولكن الإسلام قد جاء ليأخذ الجميع بمنطق الحق ، ويطبق على الجميع منهج الحق ، وليكون المسلم دائما فى جانب الحق .

وسبحانه وتعالى يعطى هذه القضية لواقعة حدثت معاصرة لرسول الله . والوقائع التى حدثت معاصرة لرسول الله كانت بمثابة إستدرار السماء للأحكام ، فالقضية تحدث وينزل فيها الحكم ، ولو جاءت الأحكام مبوبة وسقطت ونزلت مرة واحدة ، فقد تحدث الحادثة ويكون لدى المؤمنين الحكم ويحاولون البحث عنه فى الكتاب . لكن إذا ما جاء الحكم ساعة وقوع الحادثة فهو ينصب عليها ، ويكون الأمر أدعى للإذعان له ؛ لأنه ثبت وأُيِّد ووثق بواقعة تطبيقية .

والحكم الذى نزل هو : « إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيماً » . وعندما يقول سبحانه « أراك » أو « علّمك » فلتعلم أن تعليم الله هو أكثر تصديقاً من رؤيتك الإنسانية ، وكأنك تتمثل الشيء الذى يعلمه لك الله وكأنه مجسد أمامك ، وليس مع العين أين .

والواقعة التى حدثت هى : كان فى « بنى ظفر » واحد اسمه « طعمة بن أبيرق » وسرق « طعمة » درعا ، وهذا الدرع كان « لقتادة بن النعمان » . وخاف « طعمة » أن يحتفظ بالدرع فى بيته فيعرف الناس أنه سرق الدرع . وكان « طعمة » فيما يبدو مشهوراً بأنه لص ، فذهب إلى يهودى وأودع عنده الدرع ، وكان الدرع فى جراب دقيق . وحينما خرج به « طعمة » وحمله صار الدقيق ينتثر من خرق فى الجراب وتَكَوّنَ مَن الدقيق أثراً فى الأرض إلى بيت اليهودى وكان اسمه « زيد بن السمين » ، وعندما تتبعوا أثر الدقيق وجدوه إلى بيت طعمة ، ولكنه حلف ما أخذها وما له بها

علم فتركوه واتبعوا أثر الدقيق حتى انتهى إلى منزل اليهودى فأخذوها وقالوا : « لقد سرق ابن السمين » . وهنا قال ابن السمين : « أنا لم أسرق الدرع ولكن أودعه عندى « طعمة بن أبيرق » . وذهبوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وجاء « بنو ظفر » وهم مسلمون « وطعمة بن أبيرق » منهم وقالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم : لو حكمت على المسلم ضد اليهودى فستكون المسألة ضد المسلمين وسيوجد العار بين المسلمين .

ونعلم أن الحق سبحانه وتعالى أرسل رسوله لِيُعَدِّل منهج الغرائز البشرية . والغريزة البشرية بحسب اندفاعها وقصر نظرتها قد تتصور أن الحكم على المسلم وتبرئة اليهودى هو إضعاف للمسلمين . ويريد الحق سبحانه وتعالى أن يقيم الأمر بالقسط فينزل على رسوله :

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ ﴾

(سورة النساء)

أى إياك أن تقول : إن هذا مسلم ولا يصح أن نلصق به الجريمة التى ارتكبها حتى لا تكون سُبة عليه ، وإياك أن تخشى ارتفاع رأس اليهودى ؛ لأن هناك لصاً قد ظهر من بين المسلمين . ومن الشرف للإسلام أن يعاقب أى إنسان ارتكب خطأ لأنه مادام قد انتسب للإسلام فعليه أن يصون هذا الانتساب . وعقاب المسلم على خطأ هو شهادة للإسلام على أنه لم يأت ليجامل مسلماً . وعلى كل مسلم أن يعرف أنه دخل الإسلامَ بحق الإسلام .

لقد نظر بعض السطحيين إلى قوله الحق : « ولا تكن للخائنين خصيماً » قائلين : إن كان هناك لص أو خائن أو مستغل لقوته فاتركه ولا تنظر إليه ولا تلتفت حتى لا يسبب لك تعباً . ولهؤلاء نقول : لا ، فسبحانه وتعالى يقول : « ولا تكن للخائنين خصيماً » و« اللام » التى فى أول « الخائنين » هى للملكية أى أن الحق يأمر النبى صلى الله عليه وسلم ألا يقف موقفا لصالح الخائن ، بل عليه أن يخاصم لمصلحة الحق .

وقد حاول العلماء أن يقربوا المسافة فقالوا : ربما لا يتنبه أحد لمسألة اللام وأنها هنا للنفعية ، فيكون المنهى عنه أن يقف مسلم موقفا ينفع خائنا ، بل لا بد أن يكون على الخائن وليس معه . فاللام هنا تكون بمعنى « عن » . كأن الحق يقول : ولا تكن عن الخائنين خصيما . أى لا تكن يا محمد مدافعاً عن الخائنين .

ولماذا لم يقل الحق « عن » بدلاً من « اللام »؟ نقول : إن الغاية من الدفاع عن الخصم أن ترجح أمره وتكون له لا عليه ، لذلك جاء الحق بـ « اللام » هنا من أجل أن نعرف الغاية من « عن » واضحة . فاللام تفيد ألا ينفع المسلم خائناً ، فلا تكون المسألة له ، ولذلك جاء الحق بها إيضاحاً واختصاراً لنعرف أن رسوله لن يقف فى جانب الخائن ولن يأتى له بما ينفعه . ولذلك قال العلماء : إن اللام هنا بمعنى « عن » . والقرآن فيه الكثير من مثل هذا .

وبعض الناس يقول : لماذا لا يأتى باللفظ الواضح الذى يجعلنا نعرف المعنى مباشرة ؟ ونقول : إن الملحظية هنا مفيدة لنعرف فى أى صف يقف القرآن والرسول المبلغ عن ربه ، مثال ذلك قوله الحق :

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾ ﴾

(سورة سبأ)

القائل هم الذين كفروا ، والمقول له هو الحق . وبعض الناس كان يفترض أن المنطق يقتضى أن يقول الكفار : إنك سحر مبين . وكأن الآية هى : وإذ تتلى آياتنا بينات قال الذين كفروا للحق لما جاءهم أنت سحر مبين . ولنلحظ أنهم لم يقولوا للحق ، ولكنهم قالوا عن الحق . ولم يقولوا للحق ذلك ، بل قال بعضهم لبعض . و« الحق » هنا مُحَدَّث عنه وليس مخاطباً . فقالوا عنه : إنه سحر مبين .

وهناك آية أخرى يقول الحق فيها :

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾

(من الآية ١١ سورة الأحقاف)

والقائل هنا هم الذين كفروا . والمقول لهم هم الذين آمنوا . والمقصود هو : أن الذين كفروا قالوا للذين آمنوا لو كان الإسلام خيراً ما سبقتمونا إليه .

ولكن الحق سبحانه أوردها : « لو كان خيراً ما سبقونا إليه » وذلك ليدلنا على أنهم قالوا ذلك فى غير محضر المؤمنين ، بل هم يتبادلون هذا القول فيما بينهم . وإلا لو أن القول من الكافرين للمؤمنين لكان السياق يقتضى أن يكون : لو كان خيرا ما سبقتمونا إليه .

ومن بعد ذلك يقول الحق :

﴿وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾﴾

والأمر بالاستغفار يجيء على مجرد وجود خاطر التردد بين نصرة المسلم أو نصرة اليهودى ، فلم يكن الرسول قد نصر أحداً على أحد بعد ، ولكن مجرد هذا الخاطر يتطلب الاستغفار . والذى يصدر الأمر بذلك هو الحق سبحانه لرسوله ، ولا اعتراض ولا غضاضة أن يعدل لنا ربنا أمراً ما .

أو أن كل خطاب من هذا اللون موجه لمن جعل المسألة موضع مساومة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كقول « بنى ظفر » عندما أرادوا ألا يحكم الرسول على اللص الذى من بينهم ، وتمحكوا فى الإسلام . لذلك يأمر الحق الذين حدثوا رسول الله عن هذا الموضوع بالاستغفار ، أو أن يستغفر الرسول لهم الله ؛ لأنهم لم يقولوا ذلك إلا رغبة فى ألا ينفضح أمر المسلمين .

وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾ ﴾

وسبحانه يريد أن يشبع هذه القضية بحثاً ، فقد كان يكفى أن يقول لنا ما سبق . لكنه يريد أن يحسم مثل هذه الأمور ؛ فلا مجادلة فى الذين يختانون أنفسهم . والجدل كما نعرف هو الفتل . وحين يفتل الإنسان شيئاً ، مثل أن يحضر بعضاً من الشعر أو الصوف أو الليف ويجدلها ليصنع حبلاً ، فهو يفتل هذا الغزل ليقويه ويجعله غير هش وقابلاً للشد والجذب ، ولذلك يقال عن مثل هذه العملية : إننا نجدل الحبل حتى نعطيه القوة . وكذلك شأن الخصمين ؛ كل واحد منهما يريد تقوية حجته ، فيحاول جاهداً أن يقويها بما يشاء من أساليب لَىّ القول ولحنه أو الفصاحة فى الأسلوب . لذلك يأتى الأمر إلى الرسول : لا تقو مركز أى إنسان يختان نفسه .

والقرآن حين يعدل عن يخونون أنفسهم إلى « يختانون أنفسهم » ، فلا بد أن لهذا معنى كبيراً ؛ لأن الخيانة هى أن تأخذ غير الحق . ومن المحتمل أن يخون الإنسان غيره ، لكن أَمِنَ المعقول أن يخون الإنسان نفسه ؟ إن مثل هذه العملية تحتاج إلى افتعال كبير ، فقد يخون الإنسان غيره من أجل مصلحة نفسه ، أو ليعطى نفسه شهوة ومعصية عليها عقوبة ، وهذه خيانة للنفس ؛ لأن الإنسان فى مثل هذه الحالة يغفل عن العقوبة الآجلة بالشهوة العابرة العاجلة .

وهكذا نرى أن الذى يخون الناس إنما يخون ـ ضمناً ـ مصلحة نفسه . وإذا ما خان الإنسان نفسه فهذا ليس سهلاً ويتطلب افتعالاً ، ولذلك يقول الحق : « ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم إن الله لا يحب من كان خواناً أثيماً » .

والآية التى تحدثت من قبل ذلك عن هذا الموقف لم تأت بكلمة « خوانين » ولكن جاءت بالخائنين ، وهنا يأتى الحق بكلمة خوّان . وفيه فرق بين « خائن » ، و« خوّان » ، فالخائن تصدر منه الخيانة مرة واحدة ، أما الخوّان فتصدر منه الخيانة

مراراً . أو يكون المعنى هو : أن الخائن تصدر منه الخيانة فى أمر يسير صغير ، أما الخوّان فتصدر منه الخيانة فى أمر كبير . إذن . فمرة تأتى المبالغة فى تكرير الفعل ، وأخرى فى تضخيم الفعل .

ومن لطف الله أنه لم يقل « خائن » ؛ لأن الخائن هو من خان لمرة عابرة وانتهى الأمر ، ولم يخرجه الله عن دائرة الستر إلاّ إذا أخذ الخيانة طبعاً وعادة وحرفة . وقد جاءت لسيدنا عمر ـ رضى الله عنه ـ امرأة أخذ ولدها بسرقة ، وأراد عمر ـ رضى الله عنه ـ أن يقيم على ذلك الولد الحد ، فبكت الأم قائلة : يا أمير المؤمنين والله ما فعل هذا إلا هذه المرة . قال عمر : كذبت . والله ما كان الله ليأخذ عبداً بأول مرة .

ولذلك يقولون : إذا عرفت فى رجل سيئة انكشفت وصارت واضحة . فلتعلم أن لها أخوات ؛ فالله لا يمكن أن يفضح أول سيئة ؛ لأنه سبحانه يحب أن يستر عباده ، لذلك يستر العبد مرة وثانية ، ثم يستمر العبد فى السيئة فيفضحها الله : « إن الله لا يحب من كان خواناً أثيماً » ، والإثم أفظع المعاصى . والقوم الذين ذهبوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليستشفعوا عنده لابن أبيرق لكى يحكم له الرسول ضد اليهودى ، لماذا صنعوا ذلك ؟. لأنهم استفظعوا أن يفضح أمر مسلم ويبرأ يهودى ، استحيوا أن يحدث هذا ، وعالج القرآن هذه القضية وذلك ليأتى بالحيثية التى دعتهم إلى أن يفعلوا هذا ويقضى على مثل هذا الفعل من أساسه ، فقال :

﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ ﴾

إنهم يطلبون البراءة أمام الناس فى أن « طعمة » لم يفعل السرقة ، ولكن هل يملك الناس ما يملكه الله عنهم ؟. إنه سبحانه أحق بذلك من الناس . فإذا كنتم تريدون

التعمية فى قضاء الأرض فلن تعموا على قضاء السماء . وهذه القضية يجب أن تحكم حركة المؤمن ، فإذا ما فكر إنسان منسوب إلى الإسلام أن يفعل شيئاً يغضب الله فعليه أن يفكر : أنا لو فعلت ذلك لفضحت نفسى أو فضحت ولدى أو فضحت أسرتى أو فضحت المسلمين ، وعلى الإنسان المسلم ألا يخشى الناس إن فعل أخ له شيئاً يشين المسلمين ، بل عليه أن يأخذ على يديه ويردهُ عن فعله . ونقول لمن يستتر عن الناس : أنت استخفيت من الناس ، ولم تستخف من الله ؛ لذلك فأنت غير مأمون على ولاية .

« يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم » ، وكلمة « معهم » هذه تريد أن تجعل المؤمن مصدقاً أن الله لا تخفى عليه خافية ، إنه من الممكن أن يستتر الشخص عن الناس ، ولكنه لا يستطيع أبداً أن يستتر عن الله ؛ لأن الله مع كل إنسان فى الخلوة والجلوة والسر والعلن . فإن قدر واحد على الاستخفاء من الناس فهو لن يقدر على الاستخفاء من الله .

« يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم إذ يبيتون ما لا يرضى من القول » و« يبيت » أى أنه يفعل أمره فى الليل ؛ لأن الناس كانت تلجأ إلى بيوتهم فى الليل ، ومعنى « يبيت » أن يصنع مكيدة فى البيت ليلا ، وكل تدبير بخفاء اسمه « تبييت » حتى ولو كان فى وضح النهار ، ولا يبيت إنسان فى خفاء إلا رغبة منه فى أن ينفض عنه عيون الرائين . فنقول له : أنت تنفض العيون التى مثلك ، لكن العيون الأزلية وهى عيون الحق فلن تقدر عليها .

﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ ﴾

(سورة النساء)

حين نسمع كلمة « محيط » فلنعلم أن الإحاطة هى تطويق المحيط للمحاط ، بحيث لا يستطيع أن يفلت منه علماً بحاله التى هو عليها ولا قدرة على أن يفلت منه مآلا وعاقبة ، فهو سبحانه محيط علماً لأنه هو الذى لا تخفى عليه خافية ، ومحيط قدرة فلا يستطيع أن يفلت أحد منه إلى الخارج . وسبحانه محيط علماً بكل جزئيات الكون وتفاصيله وهو القادر فوق كل شىء . فإذا ما سمعنا كلمة « محيط » فمعناها أن

الحق سبحانه وتعالى يحيط ما يحيط به علماً بكل جزئياته فلا تستطيع جزئية أن تهرب من علم الحق . وسبحانه محيط بكل شيء قدرة فلا يستطيع أن يفلت من مآله شيء من الجزاء الحق .

وبعد ذلك يقول الحق جل وعلا :

﴿ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلۡتُمۡ عَنۡهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيۡهِمۡ وَكِيلٗا ﴿١٠٩﴾ ﴾

فالذى جادل عن ابن أبيرق كان يريد أن يبرىء ساحته أمام الناس ويدين اليهودى ، وفى أنه قد جادل أمام بشر عن بشر ، فهل تنتهى المسألة بهذا اليسر؟ لا ؛ لأن الدنيا ليست دار جزاء . وهب أنه أفلت من العقوبة البشرية ، أيفلت من عقوبة الله فى الآخرة ؟ لا ، إذن فالذى يجادل يريد أن يعمى على قضاء الأرض ، ولن يستطيع أن يعمى على قضاء الحق ، ولن يجد من يجادل عن مثل هذا الخطأ يوم القيامة . وليس هذا فقط ، ولكن الحق يذيل الآية : « أم من يكون عليهم وكيلاً » أى فمن إذن يستطيع أن يكون وكيلاً عن هؤلاء يوم القيامة ؟ . ونعرف أن الوكيل هو الشخص اللبق الذى يختاره بعض الناس ليكون قادراً على إقناع من أمامه . فمن يستطيع أن يقوم بذلك العمل أمام الله ؟ لا أحد .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَمَن يَعۡمَلۡ سُوٓءًا أَوۡ يَظۡلِمۡ نَفۡسَهُۥ ثُمَّ يَسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿١١٠﴾ ﴾

وسبحانه وتعالى حينما خلق الخلق جعلهم أهل أغيار ، لذلك لم يشأ أن يُخرج مذنباً بذنب عن دائرة قدرته ورحمته ، بل إنه ـ سبحانه ـ شرع التوبة للمذنب حماية للمجتمع من استشراء شره . فلو خرج كل من ارتكب ذنباً من رحمة الله ، فسوف يعانى المجتمع من شرور مثل هذا الإنسان ، ويصبح كل عمله نقمة مستطيرة الشر على المجتمع . إذن فالتوبة من الله ، مشروعية وقبولاً ، إنما هى حماية للبشر من شراسة من يصنع أول ذنب . وهكذا جاءت التوبة لتحمى الناس من شراسة أهل المعصية الذين بدأوا بمعصية واحدة .

إن الذين وقفوا فى محاولة تبرئة « ابن أبيرق » انقسموا إلى قسمين : قسم فى باله أن يبرىء « ابن أبيرق » ، وقسم فى باله ألا يفضح مسلماً . وكل من القسمين قد أذنب . ولكن هل يخرجهم هذا الذنب من رحمة الله ؟ . لا ، فسبحانه يقول : « يجد الله غفورا رحيماً » والحق يعفو عن تلك المسألة . إن القسمين جميعا أصبحوا مطالبين بعمل طيب بعد أن أوضح لهم الرسول ، وفهموا مراد الحق . وسبحانه يبقيهم فى الصف الإيمانى ، وقد حكم رسول الله على « ابن أبيرق » لصالح اليهودى ، وبعد ذلك ارتد « ابن أبيرق » ، وذهب إلى مكة مصاحباً لِعادة الخيانة ، فنقب حائطا على رجل ليسرق متاعه فوقع الحائط عليه فمات .

والحق سبحانه يضع المعايير ، فمن يرتكب ذنباً أو يظلم نفسه بخطيئة ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً . ونلاحظ أن بعض السطحيين لا يفهمون جيداً قول الحق : « ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً » فيتساءلون : أليس الذى ارتكب العمل السيىء قد ظلم نفسه ؟

ونقول : إن دقة القرآن توضح لنا المعنى ؛ فمعنى عمل سوءًا أضرّ بهذا العمل آخرين ، إنّه غير الذى ارتكب شيئاً يضرّ به نفسه فقط ؛ فالذى سرق أو قتل أو اعتدى على آخر قذفاً أو ضرباً أو إهانة ، مثل هذه الأعمال هى ارتكاب للسوء ؛ فالسوء هو عمل يكرهه الناس ، ويقال : فلان رجل سوء ، أى يلقى الناس بما يكرهون .

لكن الذى يشرب الخمر قد يكون فى عزلة عن الناس لم يرتكب إساءة إلى أحد ،

لكنه ظلم نفسه ؛ لأن الإنسان المسلم مطلوب منه الولاية على نفسه أيضاً ، والمنهج يحمى المسلم حتى من نفسه ، ويحمى النفس من صاحبها ، بدليل أننا نأخذ من يقتل غيره بالعقوبة ، وكذلك يحرم الله من الجنة من قتل نفسه انتحاراً .

وهكذا نرى حماية المنهج للإنسان وكيف تحيطه من كل الجهات ؛ لأن الإنسان فرد من كون الله ، والحق يطلب من كل فرد أن يحمى نفسه . فإن صنع سوءا أى أضر بغيره ، فهذا اسمه « سوء » . أما حين يصنع فعلاً يضر نفسه فهذا ظلم النفس :

﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

وهل فعل الفاحشة مخالف لظلم النفس ؟. إنه إساءة لغيره أيضا ، لكن ظلم النفس هو الفعل الذى يسىء إلى النفس وحدها . أو أن الإنسان يصنع سيئة ويمتع نفسه بها لحظة من اللحظات ولا يستحضر عقوبتها الشديدة فى الآخرة . وقد تجد إنساناً يرتكب المعصية ليحقق لغيره متعة ، مثال ذلك شاهد الزور الذى يعطى حق إنسان لإنسان آخر ولم يأخذ شيئاً لنفسه ، بل باع دينه بدنيا غيره ، وينطبق عليه قول الرسول صلى الله عليه وسلم :

« بادروا بالأعمال ستكون فتنة كقطع الليل المظلم يصبح الرجل مؤمنا ويُمسى كافرا ، أو يمسى مؤمنا ويصبح كافراً يبيع دينه بعرض الدنيا »[1] .

« ومن يعمل سوءًا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً » والله غفور ورحيم أزلاً ودائماً ، والعبد التائب يرى مغفرة الله ورحمته .

ويقول الحق من بعد ذلك :

---

(١) رواه مسلم والترمذى وأحمد .

﴿ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾ ﴾

ويورد الحق كلمة « كسب » عندما يتناول أمراً خَيِّرًا فعله الإنسان ، ويصف ارتكاب الفعل السيىء بـ « اكتسب » ، لماذا ؟ لأن فعل الخير عملية فطرية فى الإنسان لا يستحيى منه ، لكن الشر دائماً هو عملية يستحيى منها الإنسان ؛ لذلك يجب أن يقوم بها فى خفية ، وتحتاج إلى افتعال من الإنسان .

ولنضرب هذا المثل للإيضاح ـ ولله المثل الأعلى ـ نحن نجد الرجل ينظر إلى وسامة زوجته بكل ملكاته ، لكنه لو نظر إلى واحدة أخرى من غير محارمه فهو يقوم بعملية لخداع ملكات النفس حتى يتلصص ليرى هذه المرأة . ويحاول التحايل والافتعال ليتلصص على ما ليس له . ولذلك يقال عن الحلال : إنه « كسب » ويقال عن الحرام : إنه « اكتساب » .

فإذا ما جاء القرآن للسيئة وقال : « كسب سيئة » فهذا أمر يستحق الالتفات ؛ فالإنسان قد يعمل السيئة ويندم عليها بمجرد الانتهاء منها إن كان من أهل الخير ، ونجده يوبخ نفسه ويلومها ويعزم على ألا يعود إليها . لكن لو ارتكب واحد سيئة وسعد بذلك وكأنها حققت له كسباً ويفخر بها متناسياً الخطر الجسيم الذى سوف يواجهه يوم القيامة والمصير الأسود ، وهو حين يفخر بالمعصية ففى ذلك إعلان عن فساد الفطرة ، وسيادة الفجور فى أعماقه ، وهو يختلف عن ذلك الذى تقع عليه المعصية ولحظة ما يتذكرها يقشعر بدنه ويستغفر الله .

« ومن يكسب إثماً فإنما يكسبه على نفسه » فإياك أيها الإنسان أن تظن أنك حين تظلم أحداً بعمل سوء قد كسبت الدنيا ؛ فوالله لو علم الظالم ماذا أعد الله للمظلوم لضن على عدوه أن يظلمه . وأضرب هذا المثل للإيضاح ـ ولله المثل الأعلى دائماً ـ هب أن رجلاً له ولدان . وجاء ولد منهما وضرب أخاه أو خطف منه شيئا يملكه ، ورأى الأب هذا الحادث ، فأين يكون قلب الأب ومع من يكون ؟

إن الأب يقف مع المظلوم ، ويحاول أن يرضيه ، فإن كان الأخ الظالم قد أخذ منه شيئاً يساوى عشرة قروش ، فالأب يعوض الابن المظلوم بشيء يساوى مائة قرش . ويعيش الظالم فى حسرة ، ولو علم أن والده سيكرم أخاه المظلوم لما ظلمه أبداً . إذن فالظلم قمة من قمم الغباء .

ومن ضمن المفارقات التى تروى مفارقة تقول : إن كنت ولا بد مغتاباً فاغتب أبويك . ولا بد أن يقول السامع لذلك : وكيف أغتاب أبى وأمى ؟ فيقول صاحب المفارقة : إن والديك أولى بحسناتك ، فبدلاً من أن تعطى حسناتك لعدوك ، ابحث عمن تحبهم وأعطهم حسناتك . وحيثية ذلك هى : لا تكن أيها المغتاب أحمق لأنك لا تغتاب إلا عن عداوة ، وكيف تعطى لعدوك حسناتك وهى نتيجة أعمالك ؟

ونعرف ما فعله سيدنا الحسن البصرى ، عندما بلغه أن واحداً قد اغتابه . فأرسل إلى المغتاب طبقاً من البلح الرطب مع رسول ، وقال للرسول : اذهب بهذا الطبق إلى فلان وقل له : بلغ سيدى أنك اغتبته بالأمس فأهديت له حسناتك ، وحسناتك بلاشك أثمن من هذا الرطب . وفى هذا إيضاح كاف لذم الغيبة .

« ومن يكسب إثماً فإنما يكسبه على نفسه وكان الله عليماً حكيماً » ونعلم أنه إذا جاءت أى صفة من صفات الحق داخلة فى صورة كينونة أى مسبوقة بـ « كان » فإياكم أن تأخذوا « كان » على أنها وصف لما حدث فى زمن ماض ، ولكن لنقل « كان ومازال » . لماذا ؟ لأن الله كان أزلاً ، فهو غفور رحيم قبل أن يوجد مغفور له أو مرحوم ؛ فالله ليس من أهل الأغيار ، والصفات ثابتة له ؛ لأن الزمن فى الأحداث يتغير بالنسبة للأغيار فقط ، وعلى سبيل المثال نجد الواحد من البشر صحيحاً فى زمن ومريضاً فى زمن آخر .

ولذلك لا يخرج الزمن المستقبل عن الزمن الماضى إلا أصحاب الأغيار . وكذلك لا يخرج الزمن المستقبل عن الزمن الحاضر إلا فى أصحاب الأغيار . ومادام الله هو الذى يغير ولا يتغير فلن يغيره زمن ما ، بل كان فى الأزل غفوراً رحيما ، ولايزال أيضاً غفوراً رحيماً . وكذلك كان علم الله أزلياً وحكمته لا حدود لها .

ويعد ذلك يقول الحق :

﴿ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾ ﴾

قالوا : إن الخطيئة هى الشيء غير المتعمَّد ، مثال ذلك حين نعلِّم التلميذ قاعدة من قواعد النحو ، ثم نطلب منه أن يطالع نصاً من النصوص ، ونلتفت لنجد التلميذ قد نصب الفاعل ورفع المفعول ، ونصحح له الخطأ ، إنه لم يتعمده ، بل نسى القاعدة ولم يستحضرها . ونظل نصحح له الخطأ إلى أن يتذكر القاعدة النحوية ، وبالتدريب يصبح الإعراب ملكة عند التلميذ فلا يخطيء .

والخطيئة ـ إذن ـ هى الخطأ غير المتعمد . أما الإثم فهو الأمر المتعمَّد . فكيف إذا رمى واحد غيره بإثم ارتكبه أو خطيئة ارتكبها هو . . ما حكم الله فى ذلك ؟

﴿ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾ ﴾

(سورة النساء)

لقد ارتكب الخطيئة أو الإثم ، ويا ليته اكتفى بهذا ، لا ، بل يريد أن يصعد الجريمة بارتكاب جريمة ثانية وذلك بأن يرمى بالخطيئة أو الإثم بريئاً ، إنَّ إثمه مركب ، ولذلك قال الحق : « فقد احتمل بهتاناً وإثماً مبيناً » واستخدام الحق هنا لكلمة « احتمل » وليس « حمل » تؤكد لنا أن هناك علاجاً ومكابدة وشدة ليحمل الإنسان هذا الشيء الثقيل ؛ فالجريمة جريمتان وليست واحدة ، لقد فعل الخطيئة ورمى بها بريئاً ، وفاعل الخطيئة يندم على فعلها مرة ، ويندم أيضاً على إلصاقها ببريء ، إذن فهى حمل على أكتافه . ونعلم أن الإنسان ساعة يقع أسير سُعار العداوة ؛ يهون عليه أن يصنع المعصية ، ولكن بعد أن يهدأ سعار العداوة فالندم يأتيه . قال الحق :

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾﴾

(سورة المائدة)

هابيل - إذن - يسأل قابيل : وما ذنبى أنا فى ذلك ، إن الله هو الذى يتقبل القربان وليس أنا فلماذا تقلتنى ؟

ويستمر القول الحكيم :

﴿لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾﴾

(سورة المائدة)

وماذا يقول الحق من بعد ذلك :

﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾

(سورة المائدة)

كأن مسألة القتل كانت عملية شاقة وليست سهلة ، وأخذت مغالبة . وعلى سبيل المثال : لن يقول أحد : « لقد طوعت الحبل » ولكن هناك من يقول : « أنا طوعت الحديد » . وسعار الغضب جعل قابيل ينسى كل شيء وقت الجريمة ، وبعد أن وقعت ، وهدأ سعار الغضب الذى ستر موازين القيم ، هنا ظهرت موازين القيم ناصعة فى النفس .

ولذلك نجد من يرتكب جريمة ما ، ويتجه بعد ذلك لتسليم نفسه إلى الشرطة ، وهو يفعل ذلك لأن سعار الجريمة انتهى وظهر ضوء موازين القيم ساطعاً . وعلى ذلك نفهم قول الحق : « فقد احتمل بهتاناً وإثماً مبيناً » .

وهذا يدل على أن من يصنع جريمة ثم يرمى البرىء بالإثم إنما يرتكب عملاً يتطلب مشقة وتتنازعه نفسه مرة بالندم ؛ لأنه فعل الجريمة ، وتتنازعه نفسه مرة ثانية لأنه رمى بريئاً بالجريمة ؛ لذلك قال الحق : « فقد احتمل بهتاناً وإثماً مبيناً » وساعة

نسمع كلمة « بهتان » فهى مأخوذة من مادة « بهت » . والبهتان هو الأمر الذى يتعجب من صدوره من فاعله . مثال ذلك قوله الحق فى شرح قضية سيدنا إبراهيم مع النمرود ، حيث يقول سبحانه على لسان سيدنا إبراهيم :

﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِي بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ ﴾

(من الآية ٢٥٨ سورة البقرة)

فماذا كان موقف الرجل ؟

﴿ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ﴾

(من الآية ٢٥٨ سورة البقرة)

أى أنه سمع شيئاً عجيباً يخرسه عن أن يتكلم ؛ فقد جاء له سيدنا إبراهيم بأمر عجيب لا يخطر على باله ، ولا يستطيع أن يجد منه مفراً ، فكأن الأمور المخالفة لمنطق الحق ولمطلوب القيم أمور غريبة عن الناس إنَّما هى البهتان ، والدليل على ذلك أنها أمور يستتر فاعلها عن الناس .

وإذا ما نظرنا إلى القضية التى نزلت الآية بسببها . وجدنا أن سارقاً سرق وأراد أن يبرىء نفسه وأن يُدخل فى الجريمة بريئاً . ويلصقها به ، وأن يرتكب المجرم الجريمة فهذا يحمِّله إثماً . أما أن ينقل الجريمة إلى سواه فهذا يدل على وجود طاقة أخرى حتى يحتمل ما فعله ، وهذا صعب على النفس ، ولا يتعجب أحد لسماع شىء إلا إذا كان هذا الشىء مخالفاً لما هو مألوف ومعروف . وإنّ فى الحوار بين سيدنا إبراهيم والنمرود لدليلاً واضحاً وناصعاً ؛ فعندما قال النمرود :

﴿ أَنَا أُحْيِۦ وَأُمِيتُ ﴾

(من الآية ٢٥٨ سورة البقرة)

قصد بذلك قدرته على أن يقتل إنساناً ، ويترك إنساناً آخر لمسعاه . وهنا عاجله سيدنا إبراهيم بالقضية التى تبهته ولا يدخل فيها هذا التماحك اللفظى . فقال :

﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِي بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ﴾

(من الآية ٢٥٨ سورة البقرة)

أى أن النمرود سمع قولاً عجيباً وليس عنده من الذكاء ما يحتاط به إلى دفعه ، وكذلك الرجل الذى صنع الجريمة ثم رمى بها غيره احتاج إلى طاقة تتحمل هذا ، مما يدل على أن الفطرة السليمة كارهة لفعل القبيح . فإذا ما فعل الإنسان ذنباً فقد حمل بهتاناً ، وإذا ما عَدَّى ذلك إلى أن يحمله إلى برىء ، فذلك يعنى أن الأمر يحتاج إلى طاقة أخرى .

إذن فقوله الحق : « فقد احتمل بهتاناً وإثماً مبيناً » أى أنه احتمل أمراً عجيباً يبهت السامع ويتعجب كيف حدث ذلك . ويحتمل من يفعل ذلك الإثمَ أيضاً .

والإثم - كما عرفنا - هو السيئة المتعمَّدة . ويوضح الحق سبحانه وتعالى هذه القضية : إن الله سبحانه وتعالى يحوطك يا محمد بعنايته وبرعايته وبفضله ، وإن حاول بعض من قليلى الإيمان أن يخرجوك عن هذه المسألة ، وأن يزينوا لك أن تبرىء مذنباً لتجرم آخر بريئاً وإن كان المذنب مسلماً وإن كان البرىء غير مسلم ، والله لم يرسل محمداً ليحكم بين المؤمنين فقط ، ولكن صدر هذه الآية يوضح لنا أن الله أرسل رسوله ليحكم بالحق : « لتحكم بين الناس » أى ليحكم بين الناس على إطلاقهم . فإياك حين تحكم أن تقول : هذا مسلم وذلك كافر . أو تقول : هذا مسلم وذلك من أهل الكتاب ، بل كل الناس أمام قضايا الحق سواء .

ولذلك أخذ الرسول صلى الله عليه وسلم تلك الجرعة الإيمانية التى جاءت بها حادثة من الحوادث ليقول بعد ذلك فى قصة المخزومية حينما سرقت وأراد أن يقيم عليها الحد ، وكلّمه حبيبه أسامة بن زيد فى أن يرفع عنها الحد ، فقال رسول الله :

عن عائشة رضى الله عنها أن قريشا أهمهم شأن المرأة المخزومية التى سرقت فقالوا : مَنْ يكلم فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقالوا : ومن يجرؤ عليه إلا أسامة حب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكلمه أسامة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أتشفع فى حد من حدود الله ؟! ثم قام فاختطب فقال : « أيها الناس : إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإن سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد ، وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها »[1] .

---

(١) رواه مسلم .

هذا القول مستخلص من القضية السابقة . ويقول سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾ ﴾

وهنا نتساءل : هل هَمَّ أحد بإضلال رسول الله ؟ علينا أن نفهم أن « الهمّ » نوعان : هم إنفاذ ، وهم تزيين . وقد رفض رسول الله هم الإنفاذ ، ودفعه الله عنه لأنه سبحانه وتعالى يحوط رسوله بفضله ورحمته ويأتى بالأحداث ليعلمه حكماً جديداً . وفضل الله على رسوله ورحمته جعل الهم منهم هم تزيين فقط وحفظ الله رسوله منه أيضا . وعندما تعلم الرسول هذا الحكم الجديد ، صار يقضى به من بعد ذلك فى كل قضايا الناس . فإذا ما جاء حدث من الأحداث وجاء له حكم من السماء لم يكن يعلمه رسول الله صلى الله عليه وسلم فالفضل لله لأنه يزيد رسوله تعليما .

﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ﴾

(من الآية ١١٣ سورة النساء)

وكان قصد الذين دافعوا عن « ابن أبيرق » أن يزينوا لرسول الله ، وهذا هو هم التزيين لا هم الإنفاذ . وكان الهدف من التزيين أن يضروا الرسول ويضلوه والعياذ بالله ، ليأخذوه إلى غير طريق الحق وغير طريق الهدى ، وهذا أمر يضر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلو أن رسول الله برأ المذنب الذى يعلم أنه مذنب لاسْتقرّ فى ذهن المذنب أن قضايا الدين ليست جادة ، أما البرىء الذى كان مطلوباً أن يدينه رسول الله ماذا يكون موقفه ؟ لا بد أن يقول لنفسه : إن دين محمد لا صدق فيه لأنه يعاقب بريئاً . إذن فَهَمُّ التزيين يضر بالرسول عند المبرأ وعند من يراد إلصاق الجريمة

به . لكن الله صان رسوله بالفضل وبالرحمة عن هذا أيضا .

﴿ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾

(من الآية ١١٣ سورة النساء)

لقد أنزل الحق كتاباً ليفصل فى القضية . ونزول الحكم بعد وقوع تلك الحادثة إنما جاء ليبين ضمن ما يبين سر نزول القرآن منجماً ؛ لأن القرآن يعالج أحداثاً واقعية ، فيترك الأمر إلى أن يقع الحدث ثم يصب على الحدث حكم الله الذى ينزل من السماء وقت حدوث الحدث ، وإلا كيف يعالج القرآن الأحداث لو نزل مرة واحدة بينما الأحداث لم تقع ؟ لذلك أراد الله أن تنزل الأحداث أولاً ثم يأتى الحكم . وقد سبق أن قال الكفار :

﴿ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ﴾

(من الآية ٣٢ سورة الفرقان)

لا ؛ فقد أراد الله القرآن منجماً ومتفرقاً ومُقَسَّطاً لماذا ؟

﴿ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴾

(من الآية ٣٢ سورة الفرقان)

فكلما حدثت هزة للفؤاد من اللّدَد والخصومة الشديدة ومن العناد الذى كان عليه الكفار وردّهم للحق ـ وهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ـ ينزل نجم من القرآن ، وفى شغب البشر مع الرسول تنزل رحمة السماء تُثَبِّت الفؤاد ؛ فإن تعب الفؤاد من شغب الناس ؛ فآيات اتصال الرسول بالسماء وبالوحى تنفى عنه هذه المتاعب . ورسول الله صلى الله عليه وسلم فى أمر الدعوة كانت تحدث له كل يوم هزات ؛ لذلك كان فى كل لحظة يحتاج إلى تثبيت . وعندما ينزل النجم القرآنى بعد العراك مع الخصوم فإن حلاوة النجم القرآنى تُهَوِّنُ عليه الأمر ، وإذا ما جاء للرسول صلى الله عليه وسلم أمر آخر يعكر صفوه ، فهو ينتظر حلاوة الوحى لتنزل عليه ، وهذا معنى قوله الحق :

﴿ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ﴾

(من الآية ٣٢ سورة الفرقان)

أى أنزلناه منجماً لنثبت به فؤادك . ولو نزل القرآن جملة واحدة لقلل من مرات اتصال السماء بمحمد صلى الله عليه وسلم ، وهو يريد مداومة اتصال السماء به . بدليل أن الوحى عندما فتر جلس الرسول يتطلع إلى السماء ويتشوق . لماذا ؟ ففى بداية النزول أرهقه الوحى ، لذلك قال الرسول : « فضمنى إليه حتى بلغ منى الجهد »[1] .

ورأته خديجة ـ رضى الله عنها ـ « وإن جبينه ليتفصد عرقاً » فاتصال جبريل بملكيته ونورانيته برسول الله صلى الله عليه وسلم فى بشريته لا بد أن يحدث تغييراً كيميائيا فى نفس رسول الله صلى الله عليه وسلم .

عن عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها أن الحارث بن هشام رضى الله عنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله كيف يأتيك الوحى ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أحيانا يأتينى مثل صلصلة الجرس وهو أشد علىّ فيفصم عنى وقد وعيت عنه ما قال ، وأحيانا يتمثل لى الملك رجلاً فيكلمنى فأعى ما يقول . قالت عائشة رضى الله عنها : ولقد رأيته ينزل عليه الوحى فى اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقا »[2] .

إن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يواجه المتاعب وأراد الله بفترة الوحى أن يحس محمد حلاوة الوحى الذى نزل إليه ، وأن يشتاق إليه ، فالشوق يعين الرسول على تحمل متاعب الوحى عندما يجىء ، ولذلك نجد أن عملية تفصد العرق لم تستمر كثيرا ، لأن الحق قال :

﴿ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴾

(سورة الضحى)

أى أن الحق أوضح لرسوله : إنك ستجد شوقا وحلاوة ولذة فى أن تستقبل هذه الأشياء .

---

(١) رواه البخارى فى كتاب : بدء الوحى .

(٢) رواه البخارى فى كتاب : بدء الوحى .

﴿ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴾

(من الآية ٣٢ سورة الفرقان)

وهكذا كان القرآن ينزل منجماً ، على فترات ، ويسمع الصحابة عدداً من آيات القرآن . ويحفظونها ويكتبها كُتَّابُ الوحى ، وبعد ذلك تأتى معجزة أخرى من معجزات القرآن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتنزل سورة كاملة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبعد أن يُسرى عنه يقول للكتبة : اكتبوا هذه . ويرتب رسول الله الآيات بمواقعها من السورة . ثم يقرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم السورة فى الصلاة ويسمع المصلون الترتيل الذى تكون فيه كل آية فى موقعها ، وهذا دليل على أن المسألة مدروسة دراسة دقيقة ، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين يحكى إنما يحكى صدقاً .

وإلا فَقُولُوا لى : كيف ينزل الوحى على رسول الله بسورة بأكملها ويمليها للكتبة ، ثم يقرؤها فى الصلاة كما نزلت وكما كتبها أصحابه ، كيف يحدث ذلك إن لم يكن ما نزل عليه صدقاً كاملاً من عند الله ؟ ونحن قد نجد إنساناً يتكلم لمدة ربع ساعة ، لكن لو قلنا له : أعد ما تكلمت به فلن يعيد أبداً الكلمات نفسها ، لكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يعيد الآيات كما نزلت . مما يدل على أنه يقرأ كتاب الله المحفوظ الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه إنه تنزيل من حكيم حميد . ولذلك يقول الحق :

﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾ ﴾

(سورة الفرقان)

أى لا يأتونك بحادثة تحدث إلا جئناك بالحق فيها .

إذن لم يكن للقرآن أن ينزل منجماً إلا ليثبت فؤاد رسول الله صلى الله عليه وسلم من تتابع الهزات التى يتعرض لها ، وأراد الله أن ينشر اتصال السماء برسول الله صلى الله عليه وسلم على الثلاثة والعشرين عاماً التى استغرقتها الرسالة .

والترتيل هو التنجيم والتفريق الذى ينزل به القرآن فيقرأه الرسول فى الصلاة مثلما نزل عليه قبل ذلك دون تحريف أو تبديل ، والحق يقول :

﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴿٦﴾ ﴾

(سورة الأعلى)

وكل حادثة تحدث ينزل لها ما يناسبها من القرآن . كما حدثت حادثة سرقة ابن أبيرق فنزل فيها الحكم والحق يقول : « وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً » .

فإذا ما علمك الله ـ يا رسول الله ـ ما لم تكن تعلم بنزول الكتاب ، فهل أنت يا سيدى يا رسول الله مشرع فقط بما نزل من الكتاب ؟ لا ؛ فالكتاب معجزة وفيه أصول المنهج الإيمانى ، ولكن الله مع ذلك فوض رسوله صلى الله عليه وسلم أن يشرّع ؛ وتلك ميزة لم تكن لرسول قبله ، بدليل قوله الحق :

﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾

(من الآية ٧ سورة الحشر)

فالرسل من قبل الرسول صلى الله عليه وسلم يتناولون ما أخذوه عن الله ، وميز سبحانه محمداً صلى الله عليه وسلم بتفويض التشريع . وأوضح الحق أنه عَلَّمَ رسوله الكتاب والحكمة . والحكمة مقصود بها السنة ، فسبحانه القائل :

﴿ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ﴾

(من الآية ٣٤ سورة الأحزاب)

وسبحانه صاحب الفضل على كل الخلق وصاحب الفضل على رسوله : « وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً » ولنا أن نلحظ أن « فضل الله » تكرر فى هذه الآية مرتين . ففضل الله الأول فى هذه الآية أنه عصمه من أن تضله طائفة وتنأى به عن الحق ، ثم كان فضل الله عليه ثانيا أنه أنزل عليه الكتاب بكل أحكامه وأعطاه الحكمة وهى التفويض من الله لرسوله أن يشرّع . إذن فالحق سبحانه وتعالى جعل من سنة الرسول صلى الله عليه وسلم امتداداً لوحيه . ولذلك إذا قيل من قوم يحاولون التشكيك فى حديث رسول الله : إن الصلاة لم تأت فى القرآن .

نقول سائلين الواحد منهم : هل تؤدى الصلاة أم لا .؟

فيقول : إنني أصلي . .

فنقول له : كم فرضاً تصلي ؟.

فيقول : خمسة فروض .

فنقول : هات هذه الفروض الخمسة من القرآن . ولسوف يصيبه البهت ، وسيلتبس عليه أمر تحديد الصبح بركعتين والظهر بأربع ركعات ، والعصر بمثلها ، والمغرب بثلاث ، والعشاء بأربع ركعات . وسيعترف أخيراً أنه يصلي على ضوء قول الرسول : (صلوا كما رأيتموني أصلي)[1] وهذه من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

« وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً » وقد نجد واحداً من أهل السطحية واللجاجة يقول : القرآن يكرر الكلمات في أكثر من موقع ، ولماذا يذكر فضل الله في صدر هذه الآية ، ويذكره مرة أخرى في ذيل نفس الآية ؟.

نقول : أنت لم تلحظ فضل الله في الجزئية الأولى لأنه أنقذ رسوله من همّ التزيين بالحكم على واحد من أهل الكتاب ظلماً ، وفي الجزئية الثانية هو فضل في الإنعام بأنه علم رسوله الكتاب والحكمة وكان هذا الفضل عظيماً حقاً .

وساعة يذهب هؤلاء الناس ليحدثوا الرسول في أمر طعمة ابن أبيرق ، ألم يجلسوا معا ليتدارسوا كيف يفلت طعمة بن أبيرق من الجريمة ؟.

لقد قاموا بالتداول فيما بينهم لأمر طعمة واتفقوا على أن يذهبوا للرسول ؛ فكانت الصلة قريبة من النجوى . ولذلك حرص أدب الإسلام على أن يحترم كرامة أي جليس ثالث مع اثنين فلا يتناجى اثنان دون صاحبهما ؛ لأن ذلك يحزنه .

وقد يكون الأمر جائزاً لو كان الجلوس أربعة ، فواحد يتحدث مع آخر ، وهناك يستطيع اثنان أن يتناجيا . إذن فالنجوى معناها المسارّة ، والمسارّة لا تكون إلا عن أمر لا يحبون أن يشيع ، وقد فعل القوم ذلك قبل أن يذهبوا إلى الرسول ليتكلموا عن

---

(١) رواه البخاري والبيهقي في السنن الكبرى .

حادثة طعمة بن أبيرق ، ولذلك يفضح الحق أمر هذه النجوى ، فينزل القول الحق :

﴿ لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾ ﴾

وسبحانه يوضح أمر هذه النجوى التى تحمل التبييت للإضلال ، ولكن ماذا إن كانت النجوى لتعين على حق ؟ إنه سبحانه يستثنيها هنا ، لذلك لم يصدر حكماً جازماً ضد كل نجوى ، واستثنى منها نجوى مَن أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس ، بل ويجزى عليها حسن الثواب . لذلك قال : « ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضات الله فسوف نؤتيه أجراً عظيماً » . ويستخدم الحق هنا كلمة « سوف » ، وكان من الممكن أن يأتى القول « فسنؤتيه أجراً عظيماً » لكن لدقة الأداء القرآنى البالغة جاءت بأبعد المسافات وهى « سوف » .

ونعرف أن جواب شرط الفعل إذا ما جاء على مسافة قريبة فنحن نستخدم « السين » ، وإذا ما جاء جواب الشرط على مسافة بعيدة فنحن نستخدم « سوف » . وجاء الحق هنا بـ « سوف » لأن مناط الجزاء هو الآخرة ، فإياك أيها العبد المؤمن أن تقول : لماذا لم يعطنى الله الجزاء على الطيب فى الدنيا ؟! لأن الحق سبحانه وتعالى لم يقل:« فسنؤتيه » ولكنه قال : « فسوف نؤتيه أجراً عظيماً » مما يدل على أن الفضل والإكرام من الله ؛ وإن كان عاجلاً ليس هو الجزاء على هذا العمل ؛ لأن جزاء الحق لعباده المؤمنين سيكون كبيراً ، ولا يدل على هذا الجزاء فى الآخرة إلاّ « فسوف » . ونعرف أن الرسول صلى الله عليه وسلم حين يمنى أمته الإيمانية بشىء فهو يمنيها بالآخرة ، ولننظر إلى بيعة العقبة عندما جاء الأنصار من المدينة لمبايعة رسول الله :

فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وحوله عصابة من أصحابه : « بايعونى على ألا تشركوا بالله شيئا ولا تسرقوا ولا تزنوا ولا تقتلوا أولادكم ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم ولا تعصوا فى معروف ، فمن وفَّى منكم فأجره على الله ، ومن أصاب من ذلك شيئا فعوقب به فى الدنيا فهو كفارة له ، ومن أصاب من ذلك شيئا ثم ستره الله إن شاء عفا عنه وإن شاء عاقبه[1] .

لقد أخذت لنفسك يا رسول الله ونحن نريد أن نأخذ لأنفسنا ، ماذا لنا إن نحن وفّينا بهذا ؟ ولنر عظمة الجواب وإلهامية الرد ، قال الرسول صلى الله عليه وسلم : (لكم الجنة) .

كان فى استطاعة رسول الله أن يقول لهم : إنكم ستنتصرون وإنكم ستأخذون مشارق الأرض ومغاربها وسيأتى لكم خير البلاد الإسلامية كلها . لكنه بحكمته لم يقل ذلك أبدًا فقد يستشهد واحد منهم فى قتال من أجل نصرة دين الله ، فماذا سيأخذ فى الدنيا ؟. إنه لن يأخذ حظه من التكريم فى الدنيا ، ولكنه سينال الجزاء فى الآخرة . لذلك جاء بالجزاء الذى سيشمل الكل ، وهو الجنة ليدلهم على أن الدنيا أتفه من أن يكون جزاء الله محصوراً فيها ، ويحض كل المؤمنين على أن يطلبوا جزاء الآخرة ؛ ونعلم جميعاً هذه الحكاية ، ونجد رجلاً يقول لصاحبه : أتحبنى ؟ فأجاب الصاحب : نعم أحبك . فسأل السائل : على أى قدر تحبنى ؟ قال الصاحب : قدر الدنيا . أجاب الرجل : ما أتفهنى عندك !!.

يقول الحق : « ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضات الله فسوف نؤتيه أجراً عظيماً » ومن صاحب « نؤتيه » والفاعل لهذا العطاء ؟ إنه الحق سبحانه وتعالى الذى وصف الأجر بأنه أجر عظيم . وكأن الحق يبلغنا :

ـ يا معشر الأمة الإيمانية التحموا بمنهج رسول الله وامتزجوا به لتكونوا معه شيئاً واحداً . وإياكم أن يكون لكم رأى منفصل عن المنهج ؛ فهو مبلغ عن الله ، فمن آمن به فليلتحم به . ولذلك نجد سيدنا أبا بكر الصديق ـ رضى الله عنه ـ ساعة

(١) رواه البخارى فى كتاب الإيمان .

حدثوه فى حكاية الإسراء والمعراج نجده يسأل محدثه : أقال رسول الله ما قلتموه . . ؟ فيقولون : بلى ، لقد قال . فيرد عليهم الصديق : إن كان قال فقد صدق ؛ فالصديق أبو بكر لا يحتاج إلى دليل على صدق ما قال رسول الله .

ويأتى الحق بالمقابل فيقول :

﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ١١٥ ﴾

وكلمة « يشاقق » تدل على أن شقاً قد حدث فى أمر كان ملتحماً ، مثلما نشق قطعة الخشب فنجعلها جزئين بعد أن كانت كتلة واحدة . وأنتم أيها المؤمنون قد التحمتم بمنهج رسول الله إيماناً ، واعترفتم به رسولا ومبلغ صدقٍ عن الله ، فإياكم أن تشرخوا هذا الالتحام . فإن جاء حكم وحاول أحد المؤمنين أن يخرج عنه ، فهذا شقاق للرسول والعياذ بالله . أو المعنى ومن سلك غير الطريقة التى جاء بها الرسول بأن صار فى شق وشرع الله فى شق آخر .

« ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى » نعم فقد تبين الهدى للمسلم حينما آمن بالله خالقاً ورباً . وآمن بالرسول مبلغاً وهو بذلك قد أسلم زمامه إلى الله . ولذلك قلنا : إن عمل العقل هو أن ينظر فى أدلة الوجود الأعلى لله ، فإذا ما آمن الإنسان بالوجود الأعلى لله ، بقيت مرتبة ، وهى أن يؤمن الإنسان بالرسول المبلغ عن الله ؛ لأن قصارى ما يطلبه العقل من الدليل الإيمانى على وجود الله أن وراء الإنسان ووراء الكون قوة قادرة حكيمة عالمة فيها كل صفات الكمال .

إن العقل لا يستطيع معرفة اسم هذه القوة . ولا يستطيع العقل أن يتعرف على مطلوباتها ؛ لذلك لابد من البلاغ عن هذه القوة ، وإذا تبين للإنسان الهدى فى

الوجود الأعلى وفى البلاغ عن الله فلا بد للإنسان أن يلتحم بالمنهج الذى جاء به المبلغ عن الله . ويفعل الإنسان مطلوب القوة العليا ؛ لأن الله قد أمر به ؛ ولأن رسول الله قد بلغ الأمر أو فعله أو أقرّه . أما إذا دخل الإنسان فى مماحكات فإننا نقول له : راجع إيمانك بالله أولاً وإيمانك برسول الله ثانياً . لذلك يقول الحق :

﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ ﴾

(سورة النساء)

والهدى ـ كما نعرف ـ هو الطريق الموصل إلى الغاية . فكل فعلٍ من أفعال الخلق لابد له من هدف . ومن فعل فعلاً بلا هدف يعتبره المجتمع فاقداً للتمييز . أما إذا كان الإنسان صاحب هدف فهو يتعرف على جدّية هدفه وأهميته . ويبحث له عن أقصر طريق ، هذا الطريق هو ما نسميه الهدى . ومن يعرف الطريق الموصل إلى الهدى ثم يتبع غير سبيل المؤمنين فهو يشاقق الرسول ، ولا يلتحم بمنهج الإيمان ولا يلتزم به ، ومن يشاقق إنما يرجع عن إيمانه .

وهكذا نعرف أن هناك سبيلا وطريقا للرسول ، ومؤمنين اتبعوا الرسول بالتحام بالمنهج ، ومن يشاقق الرسول يخالف المنهج الذى جاء به الرسول ، ويخالف المؤمنين أيضاً .

والحق هو القائل :

﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ ﴾

(من الآية ١٥٣ سورة الأنعام)

فليس للحق إلا سبيل واحد . ومن يخرج عن هذا السبيل فما الذى يحدث له ؟ . ها هى ذى إجابة الحق : « نولّه ما تولّى ونصله جهنم وساءت مصيراً » . وقد يأتى لفظ من المحتمل أن يكون أداة شرط ويحتمل أن يكون اسماً موصولاً مثل قولنا : مَن يذاكرُ ينجحُ . بالضم فيهما ، و« من » هنا هى اسم موصول ؛ فالذى يذاكر هو مَن ينجح . وقد نقول : مَن يذاكرْ ينجحْ . بالسكون وهنا « مَن » شرطية .

وفى الاسم الموصول نجد الجملة تسير على ما هى ، أما إذا كانت شرطية ، فهناك الجزم الذى يقتضى سكون الفعل ؛ ويقتضى ـ أيضا ـ جواباً للشرط . و« من » تصلح أن تكون اسماً موصولاً ، وتصلح أن تكون أداة شرط ، ونتعرف ـ عادة ـ على وضعها مما يأتى بعدها . مثال ذلك قوله الحق :

« ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبعْ » ونجد « يتبع » هنا عليها سكون الجزم ، وهذا يدل على أن « مَنْ » شرطية .

وتختلف القراءة لو اعتبرنا « مَن » اسم موصول ؛ لأن هذا يستدعى ترك الفعل « يشاققِ » فى وضعه كفعل مضارع مرفوع بالضمة ، وكذلك يكون « يتبعْ » فعلا مضارعاً مرفوعاً بالضمة ؛ عند ذلك نقول : « نوليه ما تولى ونصليه » . ولكن إن اعتبرنا « مَن » أداة شرط ـ وهى فى هذه الآية شرطية ـ فلا بد من جزم الفعل فنقرأها « ومن يشاققْ الرسول من بعد ما تبين له الهدى » . وكذلك نجزم الفعل المعطوف وهو قوله : (ويتبعْ) ويجزم جواب الشرط وما عطف عليه وهو قوله :(نولِّهِ) (ونصْلِه) والجواب وما عطف عليه مجزومان بحذف حرف العلة وهى الياء من آخره « ويتبعْ غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيراً » . ومعنى « تَوَلَّى » أى قرب ، ويقال : فلانٌ وَلِى فلان ؛ أى صار قريباً له . ومن يتبع غير سبيل المؤمنين ، فالحق لا يريده بل ويقربه من غير المؤمنين ويكله إلى أصحاب الكفر . وها هو ذا الحق سبحانه يقول : « أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملاً أشرك معى فيه غيرى تركته وشركه »[1] .

فالذى يحتاج إلى الشرك هو من به زاوية من ضعف ، ويريد شريكاً ليقويه فيها . وعلى سبيل المثال ـ ولله المثل الأعلى ـ لا نجد أحداً يشارك واحداً على تجارة إلا إذا كان لا يملك المال الكافى لإدارة التجارة أو لا يستطيع أن يقوم على شأنها . وسبحانه حين يعلمنا : « أنا أغنى الشركاء عن الشرك . من عمل عملاً أشرك معى فيه غيرى تركته وشركه »[1] .

أى أن له مطلق القوة الفاعلة التى لا تحتاج إلى معونة ، ولا تحتاج إلى شريك ؛ لأن الشركة أول ما تشهد فإنها تشهد ضعفا من شريك واحتياجاً لغريب . ولذلك

(١) رواه مسلم وابن ماجه عن أبى هريرة .

فمن يشاقق الرسول فى أمر إيمانى فالحق يوليه مع الذى كفر ويقربه من مراده . وسبحانه يعلم أن الإنسان لن ينتفع بالشيء المشاقق لرسول الله ، بل يكون جزاء المشاقق لرسول الله والمتبع لغير سبيل المؤمنين أن يقربه الله ويدنيه من أهل الكفر والمعاصى،ويلحقه بهم ويحشره فى زمرتهم . ولا يعنى هذا أن الله يمنع عن العبد الرزق ، لا ، فالرزق للمؤمن وللكافر ، وقد أمر الله الأسباب أن تخدم العبد إن فعلها . ومن رحمة الله وفضله أنه لا يقبض النعمة عن مثل هذا العبد ، فالشمس تعطيه الضوء والحرارة ، والهواء يهب عليه ، والأرض تعطيه من عناصرها الخير :

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾ ﴾

(سورة الشورى)

ويقول سبحانه :

﴿ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

وهكذا نجد العطاء الربانى غير مقصور على المؤمنين فقط ولكنه للمؤمن وللكافر ، ولو لم يكن لله إلا هذه المسألة لكانت كافية فى أن نلتحم بمنهجه ونحبه .

« ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيراً » ولا بد أن يكون المصير المؤدى إلى جهنم غاية فى السوء . وبعد ذلك تأتى سيرة الخيانة العظمى للإيمان ، إنها قول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾ ﴾

والحق هنا يتكلم عن إنسان لم تحدث له توبة عن الشرك فيؤمن ؛ لأن الإيمان يَجُبُّ ما قبله أى يقطع ما كان قبله من الكفر والذنوب التى لا تتعلق بحقوق الآخرين كظلم العباد بعضهم بعضا . ومن عظمة الإيمان أن الإنسان حين يؤمن بالله وتخلص النية بهذا الإيمان ، وبعد ذلك جاءه قدر الله بالموت ، فقد يعطيه سبحانه نعيما يفوق من عاش مؤمنا لفترة طويلة قد يكون مرتكباً فيها لبعض السيئت فينال عقابها .

مثال ذلك « مخيريق » فحينما خرج النبى صلى الله عليه وسلم إلى أحد قال مخيريق لليهود : ألا تنصرون محمداً والله إنكم لتعلمون أن نصرته حق عليكم فقالوا : اليوم يوم سبت فقال : لا سبت . وأخذ سيفه ومضى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقاتل حتى أثبتته الجراحة (أى لا يستطيع أن يقوم معها) فلما حضره الموت قال : أموالى إلى محمد يضعها حيث شاء . فلم يصل فى حياته ركعة واحدة ومع ذلك نال مرتبة الشهيد ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مخيريق سائق يهود وسلمان سائق فارس وبلال سائق الحبشة » .

وسبحانه يبلغنا هنا : « إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » ولله المثل الأعلى نرى فى حياتنا مجتمعاً قد تقوم فيه ثورة أو انقلاب ، ونجد قادة الثورة أو الانقلاب يرون واحداً يفعل ما شاء له فلا يقتربون منه إلى أن يتعرض للثورة بالنقد أو يحاول أن يصنع انقلابا ، هنا تتم محاكمته بتهمة الخيانة العظمى ، فما بالنا بالذى يخرج عن نطاق الإيمان كلية ويشرك بالله ؟ سبحانه لا يغفر ذلك أبداً ، ولكنه يغفر ما دون ذلك ، ومن رحمة الله بالخلق أن احتفظ هو بإرادة الغفران حتى لا يصير الناس إلى ارتكاب كل المعاصى . ولكن لا بد من توبة العبد عن الذنب . ونعلم أن العبد لا يتم طرده من رحمة الله لمجرد ارتكاب الذنب . ونعلم أن هناك فرقاً بين من يأتى الذنب ويفعله ويقترفه وهو يعلم أنه مذنب وأن حكم الله صحيح وصادق ، لكن نفسه ضعفت ، والذى يرد الحكم على الله . وقد نجد عبداً يريد أن يرتكب الذنب فيلتمس له وجه حل ، كقول بعضهم : إن الربا ليس حراماً . هذا هو رد الحكم على الله . أما العبد الذى يقول : إننى أعرف أن الربا حرام ولكن ظروفى قاسية وضروراتى ملحة . فهو عبد عاصٍ فقط لا يرد الحكم على الله ، ومن يرد الحكم على الله هو ـ والعياذ بالله ـ كافر .

« إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » ولننتبه إلى أن بعض المستشرقين الذين يريدون أن يعيثوا فى الأرض فساداً . ولكنهم بدون أن يدروا ينشرون فضيلة الإسلام ، وهم كما يقول الشاعر :

وإذا أراد الله نشر فضيلة
طويت أتاح لها لسان حسود

وحين يتكلمون فى مثل هذه الأمور يدفعون أهل الإيمان لتلمس وجه الإعجاز القرآنى وبلاغته .

إنهم يقولون : بَلَّغ محمد قومه « إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » لكن يبدو أن السهو قد غلبه فقال فى آية أخرى :

﴿ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴾

(من الآية ٥٣ سورة الزمر)

هم يحاولون نسبة القرآن إلى محمد لا إلى الله . ويحاولون إيجاد تضارب بين الآيتين الكريمتين . ونقول رداً عليهم : إن الواحد منكم أمى ويجهل ملكة اللغة ، فلو كانت اللغة عندكم ملكة وسليقة وطبيعة لفهم الواحد منكم قوله الحق :

﴿ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴾

(من الآية ٥٣ سورة الزمر)

وكان الواجب أن يفهم الواحد منكم أن الشرك مسألة أكبر من الذنب ؛ فالذنب هو أن يعرف الإنسان قضية إيمانية ثم يخالفها ، ولكن المشرك لا يدخل فى هذا الأمر كله ؛ لأنه كافر فى القمة . ولذلك فلا تناقض ولا تعارض ولا تخالف بين الآيتين الكريمتين . والمستشرقون إنما هم قوم لا يفقهون حقيقة المعانى القرآنية .

« إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد

ضل ضلالاً بعيداً » . والمشرك مهما أخذ من متع لحياته فحياته محدودة ، فإن بقيت له المتع فلسوف يتركها ، وإن لم تبق له المتع فهى تخرج منه . إذن ، هو إما تارك للمتع بالموت ، أو المتع تاركة له بحكم الأغيار ، فهو بين أمرين : إمّا أن يفوتها وإمّا أن تفوته. وهو راجع إلى الله ، فإذا ما ذهب إلى الله فى الآخرة والحساب ، فالآخرة لا زمن لها ، ولذلك ما أطول شقاءه بجريمته ، وهذا ضلال بعيد جداً . أما الذى يضل قليلاً فهو يعود مرة أخرى إلى رشده . ومن المشركين بالله هؤلاء الذين لا يجادلون فى ألوهية الحق ولكنهم يجعلون لله شركاء . وهناك بعض المشركين ينكرون الألوهية كلها وهذا هو الكفر . فهناك إذن مشرك يؤمن بالله ولكن يجعل له شركاء .

ولذلك نجد أن المشركين على عهد رسول الله يقولون عن الأصنام :

﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾

(من الآية ٣ سورة الزمر)

ولو قالوا : لا نذبح لهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ، مثلا ، لكان من الجائز أن يدخلوا فى عبادة الله ، ولكنهم يثبتون العبادة للأصنام ؛ لذلك لا مفر من دخولهم فى الشرك . ويقول سيدنا إبراهيم عن الأصنام :

﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾

(سورة الشعراء)

إنه يضع الاستثناء ليحدد بوضوح قاطع ويقول لقومه :

إن ما تعبدونه من الأصنام ، كلهم عدو لى ، إلا رب العالمين . كأن قوم إبراهيم كانوا يؤمنون بالله ولكن وضعوا معه بعض الشركاء . ولذلك قال إبراهيم عليه السلام عن الله :

﴿ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ ﴾

(سورة الشعراء)

إذن الشرك ليس فقط إنكار الوجود لله بل قد يكون إشراكاً لغير الله مع الله . ولنر من يعبدونه ويدعونه فى مصائبهم :

﴿ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ ﴾

و« إن » هنا بمعنى ما ، فـ « إن » مرة تكون شرطية ، ومرة تكون نافية . مثل قوله فى موقع آخر :

﴿ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ ﴾

(من الآية ٢ سورة المجادلة)

أى إن الحق يقول : «إن أمهاتهم إلاّ اللائى ولدنهم» . وكذلك « إنْ » فى قوله : « إن يدعون من دونه إلا إناثاً » ، وكان العرب ينسبون إلى المرأة كل ما هو هيّن وضعيف ولذلك قال الحق :

﴿ أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ ﴾

(سورة الزخرف)

فالإناث فى عرف العرب لا تستطيع النصر أو الدفاع ، ولذلك يقول الشاعر :

وما أدرى ولست أخال أدرى ... أقوم آل حصن أم نساء

والقوم هنا مقصود بهم الرجال لأنهم يقومون لمواجهة المشكلات فلماذا تدعون مع الله إناثاً ؟ . هل تفعلون ذلك لأنها ضعيفة ، أو لأنكم تقولون : إن الملائكة بنات الله ؟ . وكانوا يعبدون الملائكة . وعندما تريدون القسمة لماذا تجعلون لله البنات ؟ . على الرغم من أنه سبحانه خلق البنين والبنات .

ولذلك قال الحق :

﴿ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ ﴾

(سورة النجم)

أى قسمة جائرة لم يراع فيها العدل .

وعندما ننظر إلى الأصنام كلها نجد أن أسماءها أسماء مؤنثة :

﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٢٠﴾ ﴾

(سورة النجم)

وكذلك كان هناك صنم اسمه « إساف » و« نائلة » ، فهل هذه الأصنام إناث ؟ وكيف تدعون النساء والنساء لا ينصرن ولا ينفعن ؟ . وهل ما تعبدون من دون الله أصنام بأسماء إناث ، أو هى نساء ، أو هى ملائكة ؟

والحق يقول : « إن يدعون من دونه إلا إناثاً » والأسلوب هنا أسلوب قطع . أى ما يدعون إلا إناثاً ، تماماً مثلما نقول « ما أكرم إلا زيداً » وهذا نفى الإكرام لغير زيد ، وإثبات للإكرام لزيد . فساعة يقول الحق : « إن يدعون من دونه إلا إناثاً » فغير الإناث لا يدعونهم ، ولذلك يعطف عليها الحق : « وإن يدعون إلا شيطاناً مريداً » .

واستخدم الحق فى صدر الآية أسلوب القصر ، وأسلوب القصر معناه أن يقصر الفعل على المقصور عليه لا يتعداه إلى غيره ؛ فهم يعبدون الإناث ، هذا قصر أول ، ثم قصر ثانٍ هو قوله الحق : « وإن يدعون إلا شيطاناً مريداً » .

وكان خدم الأصنام يدعون أن فى جوف كل صنم شيئاً يتكلم إليهم ؛ لذلك كان لابد أن يكون فى جوف كل صنم شيطان يكلمهم . . وكان ذلك لوناً من الخداع ، فالشياطين ليست جناً فقط ولكن من الإنس أيضاً .

فهناك سدنة وخدم يقومون على خدمة الآلهة ويريدون أن يجعلوا للآلهة سلطاناً ونفوذاً حتى يأتى الخير للآلهة كالقرابين والنذور ويسعد السدنة بذلك ؛ لذلك كانوا يستأجرون واحداً له صوت أجش يتكلم من وراء الصنم ويقول : اذبحوا لى كذا . أو هاتوا لى كذا . تماماً كما يحدث من الدجالين حتى يثبتوا لأنفسهم سلطاناً . وهكذا كان الذى يتكلم فى جوف هذه الأصنام إما شيطان من الجن، وإمّا شيطان من الإنس . والشيطان من « الشطن » وهو « البعد » .

ووصف الشيطان بأنه مريد يتطلب منا أن نعرف أن هناك كلمة « مارد » وكلمة

« مريد » . وكل الأمور التي تغيب عن الحس مأخوذة من الأمور الحسية . وعندما نمسك مادة « الميم والراء والدال » نجد كلمات مثل « أمرد » و « امرأة مرداء » و« شجرة مرداء » ، و« صرح ممرد » .

إن المادة كلها تدور حول الملمس الأملس . فأمرد تعنى أملس ؛ أى أن منابت الشعر فيه ناعمة . وصرح ممرد كصرح بلقيس أى صرح مصقول صقلاً ناعماً لدرجة أنها اشتبهت فى أنه ماء ، ولذلك كشفت عن ساقيها خوفاً أن يبتل ثوبها . والشجرة المرداء هى التى لا يمكن الصعود عليها من فرط نعومة ساقها تماماً كالنخلة فإنه لا تبقى عليها الفروع ، ولذلك يدقون فى ساق هذه النخلة بعض المسامير الكبيرة حتى يصعدوا عليها .

والشيطان المريد هو المتمرد الذى لا تستطيع الإمساك به . إذن . فـ « مارد » و« مريد » و« ممرد » و« مرداء » و« أمرد » ، كلها من نعومة الملمس .

« وإن يدعون إلا شيطاناً مريداً » .

وعندما يحاول العصاة الإمساك بالشيطان فى الآخرة يقول لهم :

﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ﴾

(من الآية ٢٢ سورة إبراهيم)

وهو بذلك يتملص من الذين اتبعوه ؛ لأنه لم يكن يملك قوة إقناع أو قوة قهر ، فقط نادى بعضاً من الخلق فزاغت أبصارهم واتبعوه من فرط غبائهم .

والشيطان موصوف بأن الله طرده من رحمته . فالحق يقول :

﴿ لَّعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ ﴾

لماذا هذا اللعن ؟ لقد أذنب الشيطان وعصى الله . وآدم أذنب أيضا وعصى الله .

فلماذا لعن الله الشيطان ، ولماذا عفا الله عن آدم ؟ نجد الإجابة فى القرآن :

﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٖ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ ﴾

(سورة البقرة)

ونعرف بهذا القول : أنّ هناك فرقاً بين أن يرد المخلوق على الله حكماً ، وفعل المعصية للغفلة .

فحين أمر الحق إبليس بالسجود لآدم قال إبليس :

﴿ قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ﴾

(من الآية ١٢ سورة الأعراف)

وهذا رد للحكم على الله ، ويختلف هذا القول عن قول آدم وحواء ، قالا :

﴿ رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا ﴾

(من الآية ٢٣ سورة الأعراف)

وهكذا نجد أن آدم قد اعترف بحكم الله واعترف بأنه لم يقدر على نفسه . ولذلك فليحذر كل واحد أن يأتى إلى ما حرّم الله ويقول : لا ، ليس هذا الأمر حراما لكن إن كان لا يقدر على نفسه فليعترف ويقول : إن ما حرم الله حرام . لكنى غير قادر على نفسى . وبذلك يستبعد الكفر عن نفسه ، ويكون عاصياً فقط ولعل التوبة أو الاستغفار يذهبان عنه سيئات فعله . أما من يحلل ما حرّم الله فهو يصر على الكفر ، وطمس الله على بصيرته نتيجة لذلك .

وسبحانه وتعالى يصف الشيطان بقوله ـ سبحانه ـ : « لعنه الله » أى طرده من رحمته . وليتيقظ ابن آدم لحبائل الشيطان وليحذره ؛ لأنه مطرود من رحمة الله .

ولو أن سيدنا آدم أعمل فكره لفند قول الشيطان وكيده ، ذلك أن كيد الشيطان ضعيف . ولكن آدم عليه السلام لم يتصور أن هناك من يقسم بالله كذباً . فقد أقسم الشيطان :

﴿ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

وكانت غفلة آدم ـ عليه السلام ـ لأمر أراده الله وهو أن يكون آدم خليفة فى هذه الدنيا ؛ لذلك كان من السهل أن يوسوس الشيطان لآدم ولزوجه :

﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

وأغوى الشيطان آدم وحواء بأن الله قد نهاهما عن الأكل من تلك الشجرة حتى لا يكونا ملكين ، وحتى لا يستمرا فى الخلود . ولو أن آدم أعمل فكره فى المسألة لقال للشيطان : كل أنت من الشجرة لتكون ملكاً وتكون من الخالدين ، فأنت أيها الشيطان الذى قلت بخوف شديد لله :

﴿ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾

(من الآية ٣٦ سورة الحجر)

والحق يريد لنا أن نتعلم من غفلة آدم ؛ لذلك لا بد للمؤمن أن يكون يقظاً .

فسبحانه يقول عن الشيطان : « لعنه الله وقال لأتخذن من عبادك نصيباً مفروضا » .

والقرآن الكريم حين يعالج قضية ما فهذه القضية تحتاج إلى تدبر . ونلحظ أن إبليس قد تكلم بذلك ولم يكن موجوداً من البشر إلا آدم وحواء ، فكيف علم ما يكون فى المستقبل من أنه سيكون له أتباع من البشر ؟ وكيف قال : « لأتخذن من عبادك نصيباً مفروضاً » ؟.

لقد عرف أنه مادام قد قدر على أبيهم آدم وأمهم حواء فلسوف يقدر على أولادهما ويأخذ بعضاً من هؤلاء الأولاد إلى جانبه ، قال ذلك ظناً من واقع أنه قدر على آدم وعلى حواء . والذين اتبعوا إبليس من البشر صدقوا إبليس فى ظنه . وكان هذا الظن ساعة قال : « لأتخذن من عبادك نصيباً مفروضاً » .

وأخذ إبليس هذا الظن لأنه قدر على آدم وحواء مع أن آدم وحواء قد أخذا

التكليف من الله مباشرة ، فما بالك بالأولاد الذين لم يأخذوا التكليف مباشرة بل عن طريق الرسل . إذن كان ظن إبليس مبنياً على الدليل فالظن ـ كما نعلم ـ هو نسبة راجحة وغير متيقنة ، ويقابلها الوهم وهو نسبة مرجوحة :

﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ ﴾

(من الآية ٢٠ سورة سبأ)

ولذلك قال إبليس أيضاً :

﴿ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴾

(من الآية ٦٢ سورة الإسراء)

وقال كذلك :

﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ ﴾

(سورة ص)

مادام إبليس قد قال : « لأتخذن من عبادك نصيباً مفروضاً » .

فهذا اعتراف بأنه لن يستطيع أن يأخذ كل أولاد آدم . والفرض ـ كما نعلم ـ هو القطع . ويقال عن الشيء المفروض : إنه المقطوع الذى لا كلام فيه أبداً .

وما وسيلة إبليس ـ إذن ـ لأخذ نصيب مفروض من بنى آدم ؟

ويوضح الحق لنا وسائل إبليس ، على لسان إبليس :

﴿ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ

﴿ وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ ﴾

فى هذه الآية تفصيل لطرق أخذ إبليس لنصيب مفروض من بنى آدم . فإبليس هو القائل كما يحكى القرآن :

﴿ لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾

(من الآية ١٦ سورة الأعراف)

وعرفنا من قبل أنه لن يقعد إلا على الطريق الطيب ؛ لأن طريق من اختار السلوك السيىء لا يحتاج إلى شيطان ؛ لأنه هو نفسه شيطان ؛ لذلك لا يذهب إبليس إلى الخمارة ، ولكنه يقف على باب المسجد ليرى الناس وهى تفعل الخير فيوسوس لهم ، وفى هذا إجابة لمن يقولون : إن الوساوس تأتينى لحظة الصلاة . والصلاة - كما نعلم - هى أشرف موقف للعبد ؛ لأنه يقف بين يدى الرب ، لذلك يحاول الشيطان أن يلهى الإنسان عنها حتى يحبس عنه الثواب . وهذه الوساوس ظاهرة صحية فى الإيمان ، ولكنها تحتاج إلى اليقظة ، فساعة ينزغ الشيطان الإنسان نزغة فليتذكر قول الحق :

﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ﴾

(من الآية ٢٠٠ سورة الأعراف)

وعندما نستعيذ بالله فوراً يعرف الشيطان أنك منتبه له ، حتى ولو كنت تقرأ القرآن فى أثناء الصلاة ووسوس لك الشيطان ، اقطع القراءة واستعذ بالله ، ثم واصل القراءة والصلاة ، وحين يعرف الشيطان أنك منتبه له مرة واثنتين وثلاثاً فهو يبتعد عنك فلا يأتى لك من بعد ذلك إلاّ إذا أحسّ منك غفلة .

ويبين لنا الحق طريقة الشيطان فى أخذ النصيب المفروض من عباد الله فقال عن إبليس : « ولأضلنهم » . والإضلال معناه أن يسلك الشيطان بالإنسان سبيلاً غير مؤدٍ للغاية الحميدة ؛ لأنه حين يسلك الشخص أقصر الطرق الموصلة إلى الغاية المنصوبة ، فمعنى ذلك أنه اهتدى ، أما إذا ذهب بعيداً عن الغاية ، فهذا هو

الضلال . والحق سبحانه وتعالى بوضعه منهج الهداية أعطانا أقصر طريق مستقيم إلى الغاية ، فإذا ما انحرفنا هنا أو هناك ، فالانحراف فى البداية يتسع حتى ننتهى إلى غير غاية .

وضربنا قديماً هذا المثل وقلنا : إن هناك نقطة فى منتصف كل دائرة تسمى مركز الدائرة ، فإذا ما انحرف المتجه إليها بنسبة واحد على الألف من المليمتر فتتسع مسافة ابتعاده عنها كلما سار على نسبة الانحراف نفسها ، برغم أنه يفترض فى أن كل خطوة يخطوها تهيىء له القرب إلى الغاية .

لقد ضربنا مثلاً توضيحياً بـ « الكشك » الذى يوجد قبل محطات السكك الحديدية ، حيث ينظم عامل « الكشك » اتجاهات القطارات على القضبان المختلفة ويتيح لكل قطار أن يتوقف عند رصيف معين حتى لا تتصادم القطارات ، ومن أجل إنجاح تلك المهمة نجد عامل التحويلات فى هذا « الكشك » يحرك قضيباً يكون سمكه فى بعض الأحيان عدداً من المليمترات ، ليلتصق هذا القضيب بقضيب آخر وبذلك يسمح لعجلات القطار أن تنتقل من قضيب إلى آخر .

الضلال ـ إذن ـ أن يسلك الإنسان سبيلاً غير موصل للغاية ، وكلما خطا الإنسان خطوة فى هذا السبيل ابتعد عنها ، وهذا الابتعاد عن الغاية هو الضلال البعيد ، والإضلال من الشيطان يكون بتزيينه الشر والقبح للإنسان ليبعده عن مسالك الخير والفضيلة .

ومن بعد ذلك يأتى على لسان الشيطان ما قاله الحق فى هذه الآية : « ولأمنينهم » والأمانى هى أن ينصب الإنسان فى خياله شيئاً يستمتع به من غير أن يخطو له خطوة عمل تقربه من ذلك ، ومثال ذلك الإنسان الذى نراه جالساً ويمنى نفسه قائلا : سيكون عندى كذا . . وكذا وكذا ولا يتقدم خطوة واحدة لتحقيق ذلك .

ولذلك يقول الشاعر تسلية لنفسه :

مُنًى . . إن تكن حقاً . . تكن أحسن المنى
وإلا فقد عشنا بها زمنا رغداً

أى أنه استمتع بهذه الأمانى فى أحلام اليقظة سواء أكانت هذه الأحلام امتلاك قصر أم سيارة أم غير ذلك . وكل أمنية لا تحفز الإنسان إلى عمل يقربه منها هى أمنية كاذبة ، ولذلك يقال : « إن الأمانى بضاعة الحمقى » والشيطان يمنى الإنسان بأنه لا يوجد بعث ولا جزاء .

ومن بعد ذلك يقول الشيطان : « ولآمرنهم فليبتكن آذان الأنعام » والبتك هو : القطع . والأنعام : هى الإبل والبقر والغنم ، أى قطع آذان الأنعام . والقرآن قال فى الأنعام :

﴿ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ ﴾

(الآية ١٤٣ وجزء من الآية ١٤٤ سورة الأنعام)

لو كان الزوج يطلق على « الاثنين » لكان العدد أربعة فقط ، ويعلمنا التعبير القرآنى ويوضح لنا أن نفرق جيداً لنفهم أن معنى كلمة « زوج » ليس أبداً « اثنين » ، ولكن معناها : واحد معه غيره من نوعه أو جنسه . فيقال عن فردة الحذاء « زوج » لأن معها فردة أخرى ، ومثال آخر أيضا : كلمة « توأم » التى نظن أنها تعنى « اثنين » ، لكن المعنى الحقيقى أن التوأم هو واحد له توأم آخر ، فإذا ما أردنا التعبير عن الاثنين قلنا : « توأمان » .

وحين أورد من خطط الشيطان « ولآمرنهم فليبتكن آذان الأنعام » فلهذا قصة . ونحن نعرف أن المنتفعين بالضلالات يصنعون لهم سلطة زمنية حتى يربطوا الناس بأشخاصهم هم . وكان المشرفون على الأصنام يقومون على خدمتها ، ولم يلحظ أحد أنه من الغباء تَقَبُّلُ فكرة أن يخدم البشر الآلهة ، فالإله هو القيوم على خلقه يرعاهم ويقوم بأسبابهم ، وكان هؤلاء الناس هم المنتفعين بخيبة الغفلة عند البشر ، وكانوا يعيشون سدنة ليأخذوا الخير ، وبطبيعة الحال فالشيطان من البشر أو الجن يجدها

وسيلة ، فيجلس فى جوف الصنم ويتكلم فيأخذ السدنة والخدم هذه المسألة لترويج الدعايات للصنم ، فيأتى الأغبياء له بالأنعام من الإبل والبقر والغنم فيذبحونها ويأكلونها . ولذلك كان السدنة دائماً وفى أغلب الحالات أهل سمنة لأنهم أهل بطنة ، والنبى صلى الله عليه وسلم قال :

(إن الله يبغض الحَبْرَ السمين)[1] .

فمثل هذا الحَبْرْ يستسهل أكل خير الناس والانتفاع به ، فهو ينتفع بضلالات الناس ، ومن ينتفع بالضلالة يرى أن حظه فى أن تستمر الضلالة ، مثله فى ذلك مثل المنتفع من تجارة المخدرات إنه يتمنى أن يتعاطى الناس جميعهم المخدرات . . وعندما تقوم حملات لمقاومة المخدرات يغضب ويحزن .

ومثل ذلك أيضاً تاجر السوق السوداء الذى يصيبه الغمّ عندما تأتى البضائع على قدر حاجات الناس وتكفيهم . فكل فساد مستتر وراءه أناس ينتفعون به . وعندما يرى المنتفع بالفساد هبّة إصلاح يغضب ويحاول أن يجد وسيلة لاستمرار الفساد ، ولهذا كان السدنة ينفخون فى الأصنام لتصدر أصواتاً ليطلبوا من وراء ذلك مطالب من الأغبياء المصدقين لهم ، مثلهم مثل الدجالين الذين نسمع عنهم حيث يقول الواحد منهم لأهل المريض : إن على المريض عفريتاً ، والعفريت يطلب ناقة أو ذبيحة أو دما .

هكذا كان يفعل السدنة ، ويحاولون بشتى الطرق من الحيل والخدع حتى يأخذوا من الغافلين السذج الإبل والبقر والغنم . وعندما يقطع صاحب الإبل أو البقر أو الغنم أذن أى واحدة منها ، فهذا يعنى أنها منذورة للأصنام ، والأصنام بطبيعتها لا تأكل ولكن السدنة يأكلون .

وفى آية أخرى يقول فيها الحق :

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا ﴾

(من الآية ٥٩ سورة يونس)

---

(١) أخرجه الواحدى فى أسباب النزول ، وعند أبى نعيم فى الطب النبوى وعزاه أبو الليث السمرقندى فى بستانه لأبى أمامة الباهلى مرفوعا .

ويورد الحق أيضاً فى هذا الأمر :

﴿ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

فهل المحرم هو « الذكران » أو الأنثيان أو الذى اشتملت عليه أرحام الأنثيين ؟.

لا شيء من هذه كلها محرّم ؛ فقد خلقها الله كلها رزقاً حلالاً . والنعمة نفسها تعرف وظيفتها ، ونلحظ فى الريف المصرى عندما تختنق جاموسة أو بقرة أو خروف بالحبل . أو يصاب بأذى أو مرض فإنه ينام ويمد عنقه فيقال : « لقد طلب الحلال » ، كأن البهيمة تقول لصاحبها : الحقنى بالذبح لتستفيد من لحمى ونتعجب لأن الحمار مثلاً لا يفعل ذلك ؛ لأن لحمه غير محلل . لكن البهيمة تعرف فائدتها بالنسبة للإنسان فتمد رقبتها طالبة الذبح ، كما نعرف أنها فى أثناء حياتها تخدم الإنسان إما فى أن تحمل الأثقال ، وإمّا أن يأخذ منها الألبان أو الوبر أو الصوف أو الشعر ، ولحظة ما يدهمها ويغشاها ويصيبها خطر فهى تمد رقبتها كأنها تطلب الذبح ليستفيد الإنسان من لحمها ، فهى مسخرة للإنسان وتعرف ذلك إلهاما وتسخيراً .

ومادام الله قد جعل لنا كل هذا . . فلم نقبل تحريم غير المحرّم وتحليل غير الحلال ؟ لكن السدنة كانوا يفعلون الأعاجيب للسيطرة على الناس ، فإذا ما ولدت الناقة أربعة أبطن وجاءت بالمولود الخامس ذكرا يقول السدنة : يكفى أنها جاءت بأربعة بطون وأتت بالخامس فحلاً ذكراً ويشقون أذن الناقة ويتركونها ؛ وعندما يراها أحد ويجد أذنها مشقوقة فالعرف يقضى بألا تستخدم فى أى شيء ، لا فى الرضاعة ، ولا فى الحمل ولا يحلب لبنها ولا تمنع من المياه أو الكلأ وتسمى

« البحيرة » ويأخذها السندة فى أى وقت ؛ لأنهم لا يريدون تخزين اللحوم ، يريدونها حية ليذبحوها فى الوقت الذى يتراءى لهم ، ولذلك قال الحق :

﴿ مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ ﴾

(من الآية ١٠٣ سورة المائدة)

والبحيرة - إذن - هى الناقة التى تبحر آذانها - أى تشق - فذلك يعنى أنها جاءت بأربعة أبطن تباعاً ثم جاءت بالذكر فى البطن الخامسة ويهبها صاحبها للأصنام . والبحيرة سائبة مع وجود سائبة أخرى ، وهى وإن لم تأت بأربعة أبطن ولا بالذكر فى البطن الخامسة ولكن صاحبها يقدمها نذراً أو هدية لأحد الأصنام . وتسمى « سائبة » لأن أحداً لا يقوم على شأنها ، ولكنها ترعى فى أى أرض وتشرب من أى ماء ولا أحد يأخذ من لبنها أو يركبها ، ويأخذها السدنة وقت احتياجهم للحم الطازج الغض . وإذا ولدت الشاة أنثى جعلوها لهم ، وإن ولدت ذكرا جعلوه لآلهتهم ، وإن ولدت ذكرا وأنثى لم يذبحوا الذكر لآلهتهم وقالوا عن الشاة : وصلت أخاها فهذه هى الوصيلة ؛ لأن الناس كانت تحتفظ بالإناث من البهائم فهى وعاء النسل ، لذلك فهبة الفحل للسدنة كان أمراً مقدوراً عليه . ويقول الشاعر :

وإنما أمهات القوم أوعية ... مستحدثات وللأحساب آباء

ونرى فى المزارع أن إناث المواشى تحتاج إلى فحل واحد ؛ وقد يكون فى البلدة كلها فحل واحد أو اثنان لإناث الماشية من النوع نفسه ، ويفرح الأطفال فى الريف حين تلد الماشية ذكراً ؛ لأنه سيتغذى قليلاً ثم يتم ذبحه ويأكلون منه . ويغضب الأطفال حين تلد الماشية أنثى لأنه سيتم تربيتها ، ولن يأكلوا منها .

أى أنهم قديماً عندما كانت الماشية تلد فى بطن واحد أنثى وذكراً لا يذبحون الذكر ويقولون : الأنثى وصلت أخاها ويضمن الذكر حياته ويستخدم كفحل ليلقح بقية الإناث ، ويقال عنها : الوصيلة .

هكذا نجد البحيرة هى الناقة التى أنجبت خمسة أبطن آخرها ذكر ، والسائبة وهى النذر من أول الأمر ، والوصيلة وهى التى ولدت أنثى ومعها ذكر ، فيقال وصلت الأنثى أخاها ، أى قدمت له الحماية . والحام هو الذكر الذى نتجت من صلبه عشرة

أبطن فلا يركب ولا يحمل عليه ، ولا يمنع من ماء ولا مرعى وقالوا : حمى ظهره .

وهناك من يتحذلق فى عصرنا قائلاً : أنا نباتى ، لا آكل اللحم ، على الرغم من أن الواحد منهم قد يذبح إنساناً ويدعى الحزن عند ذبح دجاجة ، ونقول لهؤلاء : انتبهوا ؛ إن الله قد سخر لنا هذه الأنعام وهى نفسها تحب أن ينتفع بها .

ومن وسائل الشيطان ما يقوله الحق : « ولآمرنهم فليبتكن آذان الأنعام » وعرفنا أنهم كانوا يفعلون ذلك من أجل إرضاء سدنة الأصنام ، هؤلاء السدنة الذين أحبوا أن تظل هذه الأصنام وهذه الأنعام المرصودة من أجلها . ولذلك أقول دائماً : آه من أن يرتبط رجل دين بمسائل دنيا ؛ فهذا مصدر للخوف من أن يزيف الدين لمصلحة الأهواء .

ومن وسائل الشيطان ما يقوله الحق على لسان الشيطان : « ولآمرنهم فليغيرن خلق الله » . وكشف لنا الحق كيف صار للشيطان أمر على هؤلاء الناس ، مع أن الأمر يجب أن يكون لله وحده ، ونتساءل : كيف يغيرون من خلق الله ؟ وكل شىء هو من خلق الله .

والخلق ـ كما نعلم ـ إيجاد من عَدم ، وسبحانه خلق كل شىء وجعل لكل كائن وظيفة ما ، فهو خلق عن حكمة لغاية ، وهذه الغاية موجودة فى علم الخالق أزلاً ـ ولله المثل الأعلى ـ نجد المستحدَث الصناعى فى الأسواق كغسالة الملابس مثلا ونعرف أن الذى صممها إنما صممها من أجل راحة الناس ، وقد فكر فى هذا الهدف قبل أن يصنع ويصمم الآلة التى تؤدى هذا العمل لتريح الناس من تعب غسل الملابس بأيديهم ، وكذلك من صمم « الميكرفون » أراد فى البداية هدفاً هو أن يصل الصوت لمن هو بعيد ، ثم بدأ البحوث والتطبيقات من أجل أن يصل إلى الغاية والقصد .

والحق سبحانه وتعالى خلق كل خلق من خلقه لغاية ، فإن استعملنا مخلوقه لغايته ، فلن نقع فى محظور تغيير خلق الله ، ولكن لو استعملنا المخلوق لغير الغاية فهذا هو التغيير لخلق الله ، وساعة نريد فهم لفظ من الألفاظ فلنبحث فى القرآن عن

نظائره ، وقد نجد فى القرآن نفسه ما يفسر القرآن نفسه ، فالحق يقول هنا : « فليغيرن خلق الله » ، وفى موقع آخر يقول :

﴿ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ﴾

(من الآية ٥٤ سورة الأعراف)

والخلق المعروف نراه فى الكائنات ، وهناك ما لا نراه أيضاً ، والأمر مقصود به قوله الحق :

﴿ كُن فَيَكُونُ ﴾

(من الآية ٨٢ سورة يس)

وآية أخرى تقربنا أكثر من هذا الموضوع :

﴿ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ﴾

(من الآية ٣٠ سورة الروم)

وهذا يعنى أن الخلق كله على أصل الفطرة . فإذا ما حاول أحد أن يغير الفطرة فهذا تغيير لخلق الله . ما الفطرة إذن ؟. إنها الصفاء الأولىّ فى النفس والطبيعة . ومثال ذلك حين يوجد الإنسان فى بيئة لا تكذب فلن يعرف فى حياته الكذب . وعندما يوجد الإنسان فى بيئة لا تسرق فلن يعرف ما السرقة ؛ فالإنسان إنما يتعرف على الموبقات من النقص المجتمعى ، بدليل أن البلدان التى طبقت الشريعة الإسلامية وتم قطع عدد قليلٍ من الأيدى عقوبة وحداً فى السرقة انتهت فيها السرقة . ونشأ جيل لم ير سارقاً . ومن يترك شيئا فى مكان ما يظل فى مكانه إلى أن يعود صاحبه ليجده ، هذه هى الفطرة السليمة ، ودليلنا على أن الفطرة سليمة بطبيعتها هو أننا نجد أن الذى يحاول صنع أمر ما يخالف الفطرة إنما يتلصص ويستتر ؛ لأنه يعرف أن هذا الأمر غير سليم .

لقد ضربت المثل على ذلك بالرجل حين ينظر إلى زوجته ، إنّه ينظر بكل ملكاته ، أما إن نظر ـ والعياذ بالله ـ إلى محارم غيره فهو يتلصص ليختلس النظر بعيداً عن الآخرين . فالإنسان حين يرتكب إثماً يتكلف شيئاً متنافراً ومغايراً لطبيعته . والتكلف هو الإتيان بشيء خارج عن الفطرة الإنسانية . وتغيير كل ما يتعلق بالفطرة هو تغيير لخلق الله .

وصور الفساد لا تأتى إلا من هذه الناحية .

كيف ؟ .

إننا نرى الحق قد خلق الزوجين الذكر والأنثى . ونجد من الرجال من يستأنث ـ أى أنه يحاول أن يكون أنثى ـ وقد يتصرف كما تسلك المرأة وتتصرف ويتزين بزينتها ويتخنث ، هذا إنسان يريد أن يغير خلق الله . وكذلك قد نجد امرأة تريد أن تسترجل ، فهى تريد أن تغير خلق الله .

ولذلك فإننا نرى أستاذاً عالماً هو الدكتور حسن جاد ـ أمده الله بالعافية ـ وهو شاعر وزميل لى ونشأنا معاً ، رأى هذه الظاهرة ، ظاهرة محاولة البعض تغيير خلق الله فقال قصيدة مشهورة جاء فيها :

من حيرتى من الذين اللاتى ... حرت بين الفتى وبين الفتاة

الشاعر يعلن حيرته ؛ لأنه لا يتعرف على الفارق بين الفتى والفتاة ، ففى بعض الأحيان صارا من « الذين واللاتى معاً » لأن الفتى يتشبّه بالفتاة ، والفتاة تتشبّه بالفتى . على الرغم من احتفاظ كل منهما بخصائص نوعه ، وبما يميزه عن النوع الآخر . وبعض النساء يقمن بإجراءات لتغيير الخلقة ، كنزع شعر الحواجب من منابته وإعادة رسم مكانه بوضع خط بالقلم الملون ، ويفضح ذلك نبتُ الشعر من جديد ، فتتحول إلى شكل قبيح وتنسى أن الجمال إبداع تقاسيم ، فقد يكون سرّ جمال واحدة أن يكون شعر الحاجبين كثيفا ، وقد يكون سرّ الجمال للمرأة اتساع الفم ، أو طول الأنف .

لقد سمعنا أن أنف كليوباترا لو كان قصيراً بعض الشيء لتغير وجه التاريخ . والحق سبحانه وتعالى كما وزع الأمزجة على العباد وزع أيضاً أسلوب الخلق بما يغطى هذه الأمزجة . ألا ترى فى الحياة اليومية شاباً يتقدم لخطبة فتاة فلا تعجبه ، أو لا يعجبها ، ويأتى آخر فيعجب بالفتاة نفسها وتعجب الفتاة به . هو سبحانه الذى أنشأ السيال العاطفى ليتواءم الخلق بهذا السيال . وقد تحاول فتاة أن تغير من خلق الله فتسبب بذلك فساداً للسيال العاطفى .

وقد تريد المرأة أن تجعل حمرة خديها فى لون الورد فتضع عليهما بعضاً من

المساحيق ، ألا تعلم هذه المرأة أن زوجها وأقاربها يعرفون أنها قد صنعت ذلك بمواد خارجية ، وماذا يكون موقفها عندما يراها زوجها فى الصباح وقد أفسدت الألوان بشرتها ، وماذا يكون موقفها عندما تتقدم بها السن وتكون المساحيق قد خنقت مسام جلدها ومنعت الجلد من التنفس ، ويتحول شكلها باستمرار سوء فعلها إلى كائن أقرب إلى وجه القرد والعياذ بالله ؟ لقد غيرت بسوء الفعل خلق الله .

وكذلك الأظافر التى يتم خنقها بطبقات من « البلاستيك » الملون . هل تظن واحدة أن هناك رجلاً قد يتصور أن هذا هو لون أظافرها الطبيعى ؟. إن الأظافر ذات لون أراده الله بحكمه ، لها نظام ، فلماذا تحرم المرأة أظافرها من الحياة الطبيعية ومن نعمة تنفس الهواء ، فالأظافر تتنفس أيضا . وقد يفتى واحد بأنه يصح للمرأة أن تتوضأ بعد أن تضع هذا الطلاء ، وأقول : اتق الله ؛ فهذه ليست أصباغاً ، لأن الأصباغ تتخلل الجلد أو الظفر ولا يذهب لون الصبغة إلا بذهاب الجلد أو الظفر - مثل الحنة - وفى هذه الحالة يصل الماء فى الطهارة إلى الجلد ، أما طبقة البلاستيك التى على الظفر فلا تُزال إلا بمادة كيماوية ويمكن إزالتها وهى لون من الطلاء وليست صبغة ولا يصل الماء معها فى الغسل أو الوضوء إلى البشرة .

ومن تفعل ذلك إنما تخدع نفسها ومن يُعجب بها . ولنا أن نعرف أن الحق سبحانه وتعالى يريد أن يعدل من مزاج الكون فيعطى للإنسان سكناً ومتعة ولكن بتوازن عاطفى وعقلى ، فلو أراد الله لخدّ المرأة التوهج لتثير غرائز الرجل لخلق الله الخدين على هذا الأسلوب ، لكنه أراد للخدود أن تكون بألوانها الطبيعية حتى تهيج الغرائز على قدر القوة التى فى الرجل ، وعندما تكبر المرأة نجد جمالها قد ذبل قليلاً على قدر نسبة ذبول قدرة الرجل ، فسبحانه يعطى على قدر الطاقة حتى لا تتحول المسألة إلى إهاجة للغرائز فقط .

إن هناك فرقا بين تصريف الغرائز وإهاجة الغرائز وإلهابها ، وما يحدث من وسائل التجميل هو تغيير لخلق الله . وكذلك المرأة التى تحدث وشماً[1] ، أو الرجل الذى يفعل ذلك إنما يغيران من خلق الله ، ولو كان الحق يرى أن مثل هذه الأعمال تزيد من الجمال لفعلها « فليغيرن خلق الله » .

---

(١) الوشم : ما يكون من غرز الإبرة فى البدن ، وذرّ ونثر مادة عليه تستخرج من نبات النيل تسمى : « النِّيلَج » حتى يَزْرَقَّ أثره أو يخضرّ .

ويقول الحق من بعد ذلك : « ومن يتخذ الشيطان ولياً من دون الله فقد خسر خسرانا مبيناً » والولى للشيطان هو الذى يليه ويقرب منه . ومن فعل ذلك فقد ترك الأفضل وذهب إلى الأضعف الذى يورده مهاوى وموارد الهلاك ، ويخسر الخسران الواضح والمحيط من كل الجهات ، ولا انفلات من مثل هذا الخسران .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ ﴾

وهذا يعنى أن الشيطان يقدم الوعود الكاذبة لمواليه ويخبرهم بشىء يسرهم ، فالوعد هو أن يخبر أحد آخر بشىء يسرّه أن يوجد .

والمثال على ذلك نراه فى الحياة العادية فالإنسان منا يحب ماله الذى قد جاء بالتعب ، والصدقة فى ظاهر الأمر تنقص المال ، فيقول الحق :

﴿ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ ﴾

(من الآية ٢٦٨ سورة البقرة)

لماذا ؟ .

لأن الشيطان يوسوس فى صدر صاحب المال قائلاً : إنك عندما تتصدق ببعض المال فمالك ينقص . وويل لمن يرضخ لوساوس الشيطان ؛ لأنه يورده موارد التهلكة ، والشيطان أيضاً يقدم الأمانى الكاذبة فى الوساوس : « ويمنيهم » . ومثال ذلك ما جاء على لسان المتفاخر على أخيه بلون من الاستهزاء والعياذ بالله :

﴿ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ ﴾

(سورة الكهف)

المتفاخر يقول : مادام الله قد أعطانى فى الدنيا ، ومادامت مهمة الله هى العطاء الدائم فلا بد أن يعطينى ربى فى الآخرة أضعاف ما فى الدنيا ؛ ذلك أن سعيد الدنيا هو سعيد فى الآخرة ، فماذا كان جزاؤه ؟ .

لقد رأى انهيار زراعته وعرف سوء مصير الغرور ؛ لأنه استجاب لوعود الشيطان ، ووعود الشيطان ليست إلا غروراً « وما يعدهم الشيطان إلا غرورا » .

فما هو الغرور ؟ . هناك « غُرور » ـ بضم الغين ـ ، و« غَرور » ـ بفتح الغين ـ . والغُرور ـ بضم الغين ـ هو الشيء يُصوَّر لك على أنّه حقيقة وهو فى الواقع وَهْم . والغَرور ـ بفتح الغين ـ هو من يفعل هذه العملية ، ولذلك فالغَرور ـ بفتح الغين ـ هو الشيطان ؛ لأنه يزين للإنسان الأمر الوهمى ، ويؤثر مثلما يؤثر السراب ؛ فالإنسان حين يرى انكسار الأشعة يخيل إليه أنه يرى ماء ، ويقول الحق عن ذلك :

﴿ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا ﴾

(من الآية ٣٩ سورة النور)

وكذلك الغُرور ، حيث يزين الشيطان شيئاً للإنسان ويوهمه أنه سيستمتع به . فإذا ما ذهب الإنسان إليه فلن يجد له حقيقة ، بل العكس ، ولذلك يفصل لنا الحق أعمال الكفار فيقول عنها :

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ ﴾

(سورة النور)

ويفاجأ الكافر بوجود الله الذى كان كافراً به ، ويصير أمام نكبتين : نكبة أنه كان ذاهباً إلى ماء فلا يجده فيخيب أمله ، والنكبة الثانية أن يجد الله الذى يحاسبه على الإنكار والكفر .

ويقول الحق :

﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ ﴾

(سورة الفرقان)

وقد يأتى واحد ويدعى لنفسه الإنسانية ويظن أنه يتكلم بالمنطق فيقول :

ـ هل هؤلاء الناس الذين قدموا للبشرية كل هذه المخترعات التى أفادت الناس كالمواصلات وغيرها ، أيصيرون إلى عذاب ؟. ونقول : هؤلاء سيأخذون جزاء الكفر ؛ لأن الواحد منهم قد عمل أعماله وليس فى باله الله . بل قام بتلك الأعمال وفى باله عبقرية الابتكار والإنسانية وهو يأخذ من الإنسانية التكريم ، وعليه أن يطلب أجره ممن عمل له وليس ممن لم يعمل له ، وينطبق عليه قول الرسول :

عن أبى هريرة قال : سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم يقول : (إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد فأتى به فعرّفه نعمه فعرفها قال : فما عملت فيها ؟ قال : قاتلت فيك حتى استشهدت . قال : كذبت ولكنّك قاتلت لأن يقال جرىء فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار ، ورجل تعلم العلم وعلمه ، وقرأ القرآن فأتى به فعّرفه نعمه فعرفها قال : فما عملت فيها ؟ قال : تعلمت العلم وعَلّمته ، وقرأت فيك القرآن . قال : كذبت ، ولكنك تعلمت العلم ليقال عالم ، وقرأت القرآن ليقال هو قارىء فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار ، ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كله فأتى به فعّرفه نعمه فعرفها قال فما عملت فيها ؟ قال : ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلاّ أنفقت فيها لك . قال : كذبت ولكنك فعلت ليقال هو جواد فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه ثم ألقى فى النار)[1] .

ولم يغمطهم الله جزاء أعمالهم فى الدنيا . فقد أخذوا من الدنيا كل التكريم .

ووزع سبحانه فضل هذه المواهب على الناس الذين فى بالهم الله ؛ لذلك ترى المسلم غير المتعلم يركب الطائرة ليحج بيت الله ويُسجل أحاديث الإيمان على شرائط ليسمعها من لم يحضر ويشاهد هذه الشعيرة ، إذن فهؤلاء الكافرون مسخرون للمؤمنين لأنهم أتاحوا لهم الانتفاع بعلمهم واكتشافاتهم ، والمؤمنون أيضاً مطالبون بأن يأخذوا بأسباب الله لينالوا كرم الله فى عطاء العلم ، بل إن ذلك واجب عليهم يأثمون إذا لم يقوموا به حتى لا يكونوا عالة على سواهم ، فلا يستذلون .

(١) أخرجه الإمام مسلم فى صحيحه فى الجهاد . وأخرجه كذلك النسائى والترمذى وابن ماجه .

« وما يعدهم الشيطان إلا غرورا » وماذا يكون نصيب هؤلاء فى الآخرة ؟ يقول سبحانه :

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾ ﴾

وكلمة « مأوى » معناها المكان الذى يضطر الإنسان إلى أن يأوى إليه ، فهل هذا الاضطرار يكون اندفاعاً أو جذباً ؟ سبحانه يقول عن النار إنها ستنطق قائلة :

﴿ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴾

(من الآية ٣٠ سورة ق)

كأن النار ستجذب أصحابها . وهم لن يجدوا عنها محيصاً ، أى لا مهرب ولا مفر ولا معدى ، وكان باستطاعة الواحد منهم أن يفر من مخلوق مثله فى دنيا الأغيار ، ولكن حين يكون الأمر لله وحده فلا مفر .

﴿ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾

(من الآية ١٦ سورة غافر)

والمقابل لذلك يورده الحق :

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾ ﴾

وحين يأتى سبحانه بأمر يتعلق بالكفار وعقابهم فالنفوس مهيأة ومستعدة لتسمع عن المقابل ، فإذا كان جزاء الكفار ينفر الإنسان من أن يكون منهم ، فالنفس السامعة تنجذب إلى المقابل وهو الحديث عن جزاء المؤمنين أصحاب العمل الصالح . وسبحانه قال من قبل :

﴿ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾

(من الآية ١١٤ سورة النساء)

وهنا يقول : « سندخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار » . والمتيقن من الله والواثق به يعلم أنه لا توجد مسافة تبعده عن عطاء الله ، مثال ذلك حينما سأل النبىُّ أحد الصحابة وكان اسمه الحارث بن مالك الأنصارى : (كيف أصبحت يا حارث ؟) .

قال : أصبحت مؤمنا حقاً . لقد أجاب الصحابى بكلمة كبيرةالمعانى وهى الإيمان حقاً ؛ لذلك قال الرسول : انظر ما تقول فإن لكل شىء حقيقة فما حقيقة إيمانك » ؟

أجاب الصحابى : عزفت نفسى عن الدنيا فأسهرت لذلك ليلى وأظمأت نهارى ، وكأنى أنظر إلى عرش ربىّ بارزا وكأنى أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون وكأنى أنظر إلى أهل النار يتضاغون فيها (يتصايحون فيها) .

فقال : « يا حارث : عرفت فالزم ثلاثا »[1] .

والحق ساعة يقول : « سـ » وساعة يقول : « سوف » فلكل حرف من الحروف الداخلة على الفعل ملحظ ومغزى وكل عطاء من الله جميل . « والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار » .

والجنة ـ كما قلنا من قبل ـ على إطلاقها تنصرف إلى جنة الآخرة فهى الجنة بحق ، أما جنة الدنيا فمن الممكن أن يتصوّح نباتها وشجرها وييبس ويتناثر ، أو يصيبها الجدب ، أمّا جنة الآخرة فهى ذات الأكل الدائم ، وإن لم تُطلق كلمة « الجنة » من

١ ـ رواه الطبرانى فى الكبير وأبو نعيم فى الحلية . وضعفه الدارقطنى وابن حبان .

أى قيد أو وصف بل قيدت ، فالقصد منها معنى آخر ؛ كقول الحق :

﴿ إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُواْ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ ﴾

(سورة القلم)

وقوله سبحانه :

﴿ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ ﴾

(من الآية ٢٦٥ سورة البقرة)

والجنة بربوة هى البستان على مكان عال ، وهى ذات مواصفات أعلى مما وصل إليه العلم الحديث ؛ لأن الأرض إذا كانت عالية لا تستطيع المياه الجوفية أن تفسد جذور النبات المزروع فى هذه الأرض ، فيظل النبات أخضر اللون ، ويقول الحق عن مثل هذه الجنة :

﴿ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ ﴾

(من الآية ٢٦٥ سورة البقرة)

ويزيد على ذلك أنها بربوة ، وأنها تروى بالمطر من أعلى ، ومن الطل ، فتأخذالرّى من المطر للجذور،والطل لغسل الأوراق . كل ذلك يطلق على الجنة .

وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى : « جنات تجرى من تحتها الأنهار » ويطمئننا سبحانه على احتفاظها بنضرتها وخضرتها ، وأول شىء يمنع الخضرة هو أن يقل الماء فتذبل الخضرة .

ونجد القرآن مرة يقول : « جنات تجرى تحتها الأنهار » وهذا يعنى أن منبع المياه بعيد . ومرة أخرى يقول : « جنات تجرى من تحتها الأنهار » ويعنى أن منبع المياه لن يحجزه أحد ؛ لأن الأنهار تجرى وتنبع من تحتها . ويعد الحق المؤمنين أصحاب العمل الصالح بالخلود فى الجنة ، والخلود هو المكث طويلاً ، فإذا قال الحق : « خالدين فيها أبداً » أى أن المكث فى الجنة ينتقل من المكث طويلاً إلى المكث الدائم .

وهذا وعد مَن ؟ « وعد الله حقاً ومن أصدق من الله قيلاً » . وحين يعدك من

لا يخرجه شيء عن إنفاذ وعده ، فهذا هو وعد الحق ـ سبحانه ـ . أما وعد المساوى لك فى البشرية فقد لا يتحقق ، لعله ساعة إنفاذ الوعد يغير رأيه ، أو لا يجد الوُجد واليسار والسَّعة والغنى فلا يستطيع أن يوفى بما وعد به ، أو قد يتغير قلبه من ناحيتك ، لكن الله سبحانه وتعالى لا تتناوله الأغيار ، ولا يعجزه شيء ، وليس معه إله آخر يقول له لا . إن وعده سبحانه لا رجوع فيه ولا محيص عن تحقيقه .

قول الله هنا « وعد الله حقاً ومن أصدق من الله قيلا » هو كلام منه ليوضح لكل واحد منا : أنا لا أريد أن أستفهم منك ، لكنه جاء على صورة الاستفهام لتكون الإجابة من الخلق إقرارا منهم بصدق ما يقوله الله ، أيوجد أصدق من الله ؟

وتكون الإجابة : لا يمكن ، حاشا لله ؛ لأن الكذب إنما يأتى من الكذاب ليحقق لنفسه أمراً لم يكن الصدق ليحققه ، أو لخوف ممن يكذب عنده ، والله منزه عن ذلك ، فإذا قال قولاً فهو صدق .

ومن بعد ذلك يقول الحق :

﴿ لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ ﴾

والأمنية ـ كما عرفنا ـ هى أن يطمح الإنسان إلى شيء ممتع مسعد بدون رصيد من عمل ، إنَّ الحق سبحانه وتعالى حينما استخلف الإنسان فى الأرض طلب منه أن يستقبل كل شيء صالح فى الوجود استقبال المحافظ عليه ، فلا يفسد الصالح بالفعل ، وإن أراد الإنسان طموحاً إلى ما يسعد ، فعليه أن يزيد الصالح صلاحاً .

والمثل الذى نضربه لذلك ، عندما يوجد بئر يشرب منها الناس ، فهذه البئر لها

حواف وجوانب وأطراف ، وتفسد البئر إذا جاء أحد لهذه الحوافى وأزاح ما فيها من الأتربة ليطمر البئر .

ومن يرد استمرار صلاح البئر فهو يتركها كما هى وبذلك يترك الصالح على صلاحه . وإن شاء إنسان أن يطمح إلى عمل مسعد ممتع له ولغيره فهو يعمل ليزيد الصالح صلاحاً . . كأن يأتى إلى جوانب البئر ويبنى حولها جداراً من الطوب كى لا يتسلل التراب إلى الماء أو على الأقل يصنع غطاءً للبئر ، فإن طمح الإنسان أكثر فهو يفكر فى راحة الناس ويحاول أن يوفر عليهم الذهاب إلى البئر ليملأوا جِرارهم وقِرَبهم فيفكر فى رفع المياه بمضحة ماصة كابسة إلى صهريج عال ، ثم يخرج من هذا الصهريج الأنابيب لتصل إلى البيوت ، فيأخذ كل واحد المياه وهو مرتاح ، إنه بذلك يزيد الصالح صلاحاً .

أما إن أراد الإنسان أن يطمح إلى ممتع دون عمل . . فهذه هى الأمانى الكاذبة . ولو ظل إنسان يحلم بالأمنيات ولا ينفذها بخطة من عمل . . فهذه هى الأمانى التى لا ثمرة لها سوى الخيبة والتخلف .

إذن فالأمنية هى أن يطمح إنسان إلى أمر ممتع مسعد بدون رصيد من عمل . ونعلم أن الحق سبحانه وتعالى أعطانا من كل شىء سببا ، ولنلحظ أن الحق قد قال :

﴿ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ ﴾

(سورة الكهف)

أى أن الإنسان مطالب بأن يصنع أشياء تُرَقِّىَ أساليب الحياة فى الأرض ، فالله ضمن للإنسان الخليفة مقومات الحياة الضرورية ، وعندما يريد الإنسان الترف والتنعم فلا بد أن يكدح . ومثال ذلك : لقد أعطى الحق الإنسان المطر فينزل الماء من السماء ، وينزل ماء المطر فى مجارٍ محددة ، حفرها المطر لنفسه ، وقد يكون فى كل مجرى تراب من صخور أو طمىٍ ؛ لذلك يقوم الإنسان بترويق المياه ، ويرفعها فى صهاريج لتأتيه إلى المنزل ، وبدلاً من أن يشربها بيده من النهر مباشرة ، يصنع كوباً جميلا . وصنع الإنسانُ الكوبَ فى البداية من الفخار ، ثم من مواد مختلفة كالنحاس ثم البللور . وهكذا نجد أن كل ترف يحتاج إلى عمل يوصل إليه ، فليست المسألة بالأمانى .

وكذلك الانتساب إلى الدين ، ليست المسألة أن يمتثل الإنسان وينتسب إلى الدين شكلاً ، فالرسول صلى الله عليه وسلم جاء ليحكم بين الناس جميعاً ، ولا يمكن لواحد أن ينتسب شكلاً إلى الإسلام ليأخذ المميزات ويتميز بها عن بقية خلق الله من الديانات الأخرى ، لا ؛ فالإنسان محكوم بما يدين به . والمسلم أول محكوم بما دان به .

كذلك قال الحق : « ليس بأمانيكم » والخطاب هنا لمن ؟. إن كان الخطاب للمؤمنين فالحق يوضح لهم : يا أيها المؤمنون ليست المسألة مسألة أمانى ، ولكنها مسألة عمل ؛ لأن انتسابكم للإسلام لا يعفيكم من العمل ؛ فكم من أناس يعبرون الدنيا وتنقضى حياتهم فيها ولا يصنعون حسنة ، فإذا قيل لهم : ولماذا تعيشون الحياة بلا عمل ؟ يقولون : أحسنّا الظن بالله . ونسمع الحسن البصرى يقول لهؤلاء : ليس الإيمان بالتمنى ولكن ما وقر فى القلب وصدقه العمل ، إن قوماً ألهتهم أمانىّ المغفرة حتى خرجوا من الدنيا ولا حسنة لهم وقالوا : نحسن الظن بالله وكذبوا ، لو أحسنوا الظن بالله لأحسنوا العمل له .

وسبحانه يقول لهؤلاء : « ليس بأمانيكم » . أما إن كان الخطاب موجهاً لغير المؤمنين ؛ فالحق لم يمنع عطاء الدنيا لمن أخذ بالأسباب حتى ولو لم يؤمن . أما جزاء الآخرة فهو وعد منه سبحانه للمؤمنين الذين عملوا صالحاً ، وهو الوعد الحق بالجنة ، هذا الوعد الحق ليس بالأمانى بل إن الوصول إلى هذا الوعد يكون بالعمل .

إذن فقد يصح أن يكون الخطاب بـ « ليس بأمانيكم » شاملاً أيضا الكفار والمنافقين وأهل الكتاب . وكان للكفار بعض من الأمانى كقول المنكر للبعث :

﴿ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ ﴾

(سورة الكهف)

هذه هى أمانى الكفار . ولن يتحقق هذا الوعد بالجنة لأهل الكتاب ، فقد قال الحق عن أمانيهم :

﴿ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ﴾

(من الآية ١١١ سورة البقرة)

وقالوا :

﴿ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ﴾

(من الآية ٨٠ سورة البقرة)

كل هذه أمانى خادعة ؛ لأن منهج الله واحد على الناس أجمعين ، من انتسب للإسلام الذى جاء خاتماً فليعمل ؛ لأن القضية الواضحة التى يحكم بها الله خلقه هى قوله سبحانه : « من يعمل سوءاً يُجز به ولا يجد له من دون الله ولياً ولا نصيراً » .

وأبو هريرة رضى الله عنه يقول : لما نزلت هذه الآية شق ذلك على المسلمين فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : « سدّدوا وقاربوا فإن فى كل ما يصاب به المسلم كفارة حتى الشوكة يشاكها والنكبة ينكبها »[1] .

وقال بعض العلماء : المراد بالسوء فى هذه الآية هو الشرك بالله ؛ لأن الله وعد أن يغفر بعض الذنوب . واستند فى ذلك إلى قوله الحق :

﴿ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ﴾

(من الآية ٣٦ سورة فاطر)

كأن الجزاء المؤلم يكون للكفار ، أما الذين آمنوا ، فالإيمان يرفعهم إلى شرف المنزلة ليقبل الله توبتهم ويغفر لهم ، فسبحانه الحق جعل الصلاة إلى الصلاة كفارة لما بينهما ، وجعل صلاة الجمعة إلى صلاة الجمعة كفارة لما بينهما ، وجعل الحج كفارة لما سبقه ، وكل ذلك امتيازات إيمانية . أما جزاء الكفار فهو : « من يعمل سوءاً يُجز به ولا يجد له من دون الله ولياً ولا نصيراً » .

ولا يقال فلان لا يجد إلا إذا بحث هذا الشخص عن شىء فلم يجده ، فالإنسان بذاته لا يستغنى ، ولكن من يعمل سوءا فليبحث لنفسه عن ولى أو نصير ولن يجد .

والولى هو الذى يلى الإنسان ، أى يقرب منه ، ومثلها النصير والمعاون ، ولا يلى

---

١ ـ رواه مسلم وأحمد والترمذى والنسائى من حديث سفيان بن عيينة .

الإنسان ولا يقرب منه إلا من أحبه . ومادام قد أحب قوىٌّ ضعيفاً ، فهو قادر على الدفاع عنه ومعاونته .

ولماذا أورد الحق هنا « الولى » ، و« النصير » ؟ . والولى ـ كما عرفنا ـ هو القريب الذى يلى الإنسان ، أما كلمة « نصير » فتوحى أن هناك معارك وخصومة بين المؤمن وغيره ، وهناك قوة كبرى قد يظهر للإنسان أنها لا تسأل عنه لأنه فى سلام ورخاء ، إن هذه القوة عندما تعلم أن هناك خصوماً للمؤمن تأتى لنصرته ، بينما لا يجد الكافر ولياً أو نصيراً ، ولن يجد من يقرب منه ولن يجد من ينصره إن عضته الأحداث ، وعض الأحداث هو الذى يجعل الناس تتعاطف مع المصاب حتى إن البعيد عن الإنسان يفزع إليه لينصره ، لكن أحداً لا ينصر على الله .

ومن بعد ذلك يقول الحق :

﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾ ﴾

وجاءت كلمتا « ذكر » و« أنثى » هنا حتى لا يفهم أحد أن مجىء الفعل بصيغة التذكير فى قوله (يعمل) أن المرأة معفية منه ؛ لأن المرأة فى كثير من الأحكام نجد حكمها مطموراً فى مسألة الرجل ، وفى ذلك إيحاء بأن أمرها مبنى على الستر .

لكن الأشياء التى تحتاج إلى النص فيها فسبحانه ينص عليها . « ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى » . وجاء سبحانه هنا بلفظة (مِن) التى تدل على التبعيض . . أى على جزءٍ من كلّ فيقول : « ومن يعمل من الصالحات » ولم يقل: « ومن يعمل الصالحات » لأنه يعلم خلقه . فلا يوجد إنسان يعمل كل الصالحات ، هناك من يحاول عمل بعضٍ من الصالحات حسب قدرته . والمطلوب من المؤمن أن يعمل من الصالحات على قدر إمكاناته ومواهبه .

وتبدأ الأعمال الصالحة من أن يترك الإنسان الأمور الصالحة على صلاحها ، فإبقاء الصالح على صلاحه معناه أن المؤمن لن يعمل الفساد ، هذه هى أول مرتبة ، ومن بعد ذلك يترقى الإنسان فى الأعمال الصالحة التى تتفق مع خلافته فى الأرض ، وكل عمل تصلح به خلافة الإنسان فى الأرض هو عمل صالح ؛ فالذى يرصف طريقاً حتى يستريح الناس من التعب عمل صالح ، وتهيئة المواصلات للبشر حتى يصلوا إلى غايتهم عمل صالح ، ومن يعمل على ألا ينشغل بال البشر بأشياء من ضروريات الحياة فهذا عمل صالح .

كل ما يعين على حركة الحياة هو عمل صالح . وقد يصنع الإنسان الأعمال الصالحة وليس فى باله إله كعلماء الدول المتقدمة غير المؤمنة بإله واحد . كذلك العلماء الملاحدة قد يصنعون أعمالاً صالحة للإنسان ، كرصف طرق وصناعة بعض الآلات التى ينتفع بها الناس ، وقاموا بها للطموح الكشفى ، والواحد من تلك الفئة يريد أن يثبت أنه اخترع واكتشف وخدم الإنسانية ونطبق عليه أنه عمل صالحاً ، لكنه غير مؤمن ، لذلك سيأخذ هؤلاء العلماء جزاءهم من الإنسانية التى عملوا لها ، وليس لهم جزاء عند الله .

أما من يعمل الصالحات وهو مؤمن فله جزاء واضح هو :

﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾ ﴾

(سورة النساء)

قد يقول البعض : إن عدم الظلم يشمل من عمل صالحاً أو سوءا ونجد من يقول : من يعمل السوء هو الذى يجب أن يتلقى العقاب ، وتلقيه العقاب أمر ليس فيه ظلم ، والحق هو القائل :

﴿ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا ﴾

(من الآية ٢٧ سورة يونس)

ومن يصنع الحسنة يأخذ عشرة أمثالها . وقد يكون الجزاء سبعمائة ضعف ويأتيه ذلك فضلا من الله ، والفضل من الله غير مقيد وهو فضل بلا حدود ، فكيف يأتى فى

هذاالمقام قوله تعالى : (ولا يظلمون نقيرا) وهم قد أعطوا أضعافاً مضاعفة من الجزاء الحسن ، ونقول : إن الفضل من الخلق غير ملزم لهم ، مثل من يستأجر عاملاً ويعطيه مائة جنيه كأجر شهرى ، وفى آخر الشهر يعطيه فوق الأجر خمسين جنيهاً أو مائة ، وفى شهر آخر لا يعطيه سوى أجره ، وهذه الزيادة إعطاؤها ومنحها فضل من صاحب العمل . أما الفضل بالنسبة لله فأمره مختلف . إنه غير محدود ولا رجوع فيه . وهذا هو معنى « ولا يظلمون نقيراً » ، فسبحانه لا يكتفى بجزاء صاحب الحسنة بحسنة ، بل يعطى جزاء الحسنة عشر أمثالها وإلى سبعمائة ضعف ، ولا يتراجع عن الفضل ؛ فالتراجع فى الفضل ـ بالنسبة لله ـ هو ظلم للعبد . ولا يقارن الفضل من الله بالفضل من البشر . فالبشر يمكن أن يتراجعوا فى الفضل أما الله فلا رجوع عنده عن الفضل .

وهو القائل :

﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾

(سورة يونس)

وأصحاب العمل الصالح مع الإيمان يدخلون الجنة مصداقاً لقوله تعالى : « فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا » والنقير هو : النقرة فى ظهره النواة ، وهى أمر ضئيل للغاية . وهناك شىء آخر يسمى « الفتيل » وهو المادة التى تشبه الخيط فى بطن نواة التمر ، وشىء ثالث يشبه الورقة ويغلف النواة واسمه « القطمير » .

وضرب الله الأمثال بهذه الأشياء القليلة لنعرف مدى فضله سبحانه وتعالى فى عطائه للمؤمنين .

ومن بعد ذلك يقول الحق :

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ

وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾

وساعة نسمع استفهاماً مثل قوله الحق : « ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله » فحسن الاستنباط يقتضي أن نفهم أن الذى أسلم وجهه لله هو الأحسن ديناً ، وفى حديثنا اليومى نقول : ومن أكرم من زيد ؟. معنى ذلك أن القائل لا يريد أن يصرح بأن زيداً هو أكرم الناس لكنه يترك ذلك للاستنباط الحسن . ولا يقال مثل هذا على صورةالاستفهام إلا إذا كان المخبر عنه محدداً ومعيناً ، والقائل مطمئن إلى أنّ من يسمع سؤاله لن يجد جواباً إلا الأمر المحدد المعين لمسئول عنه . وكأن الناس ساعة تدير رأسها بحثاً عن جوابٍ للسؤال لن تجد إلا ما حدده السائل .

« ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله » والإجابة على مثل هذا التساؤل : لا أحد أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله . وهكذا نرى أن الله يلقى خبراً مؤكداً فى صيغة تساؤل مع أنه لو تكلم بالخبر لكان هو الصدق كله :

﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا ﴾

(من الآية ١٢٢ سورة النساء)

وسبحانه يلقى إلينا بالسؤال ليترك لنا حرية الجواب فى الكلام ، كأنه سبحانه يقول :

ـ أنا أطرح السؤال عليك أيها الإنسان وأترك لك الإجابة فى إطار ذمتك وحكمك فقل لى من أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله ؟ وتبحث أنت عن الجواب فلا تجد أحسن ممن أسلم وجهه لله فتقول :

ـ لا أحد أحسن ممن أسلم وجهه لله . وبذلك تكون الإجابة من المخاطب إقراراً ، والأقرار ـ كما نعلم ـ سيد الأدلة .

راجع أصله وخرج أحاديثه الدكتور أحمد عمر هاشم نائب رئيس جامعة الأزهر .

« ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله » ونعلم أن الكلمة إذا أطلقت فى عدة مواضع فهى لا تأخذ معنى واحداً . بل يتطلب كل موضع معنى يفرضه سياق الكلام ، فإذا قال الله تعالى :

﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾

(من الآية ١٠٦ سورة آل عمران)

فذلك لأن الوجه هو العضو المواجه الذى توجد به تميزات تبين وتوضح ملامح الأشخاص . لأننا لن نتعرف على واحد من كتفه أو من رجله ، بل تعرف الأشخاص من سمات الوجوه .

وعندما نسمع قول الحق :

﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾

(من الآية ٨٨ سورة القصص)

فإننا نتساءل : ما المراد بالوجه هنا ؟

إن أردنا الوجه الذى يشبه وجوهنا فهذا وقوع فى المحظور ، لأن كل شىء متعلق بالله سبحانه وتعالى نأخذه على ضوء « ليس كمثله شىء » نقول ذلك حتى لا يقولن قائل : مادام وجه الله هو الذى لن يهلك يوم القيامة فهل تهلك يده أو غير ذلك ؟ . لا ؛ إن الحق حين قال : « كل شىء هالك إلا وجهه » فالمقصود بذلك ذاته فهو سبحانه وتعالى منزه عن التشبيه وسبحانه القائل :

﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ﴾

(من الآية ١١٥ سورة البقرة)

إذن فوجه الله ـ هنا ـ هو الجهة التى يرتضيها ، والإنسان يتجه بوجهه إلى الكعبة فى أثناء الصلاة . وإياك أن تظن أنك حينما تولى وجهك صوب الكعبة أنها وجه الله ؛ لأن الله موجود فى كل الوجود ، فأى متجه للإنسان سيجد فيه الله ، بدليل أننا نصلى حول الكعبة ، وتكون شرق واحد وغرب آخر ، وشمال ثالث ، وجنوب رابع ، فكل الجهات موجودة فى أثناء الطواف حول الكعبة وفى أثناء الصلاة ، والكعبة موجودة هكذا لنطوف حولها ، ولتكون متجهنا إلى الله فى جميع الاتجاهات .

﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ﴾

(من الآية ١١٥ سورة البقرة)

أى الجهة التى ارتضاها سبحانه وتعالى .

ونحن هنا فى هذه الآية نرى قول الله : « ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله » . وأسلم وجهه أى أسلم اتجاهه ؛ لأن الإنسان حين يكون ذاهباً إلى قصد أو هدف أو غرض ، فيكون وجهه هو المتجه ؛ لأن الإنسان لا يسير بظهره . والوجه هنا ـ إذن ـ هو الاتجاه .

ولماذا جاء الحق بالوجه فقط ، برغم أن المؤمن يسلم مع الوجه كل الجوارح ؟؛ لأن الوجه أشرف الأعضاء ، ولذلك جعل سبحانه السجود أشرف موقع للعبد ؛ لأن القامة العالية والوجه الذى يحرص الإنسان على نظافته يسجد لله .

إذن أسلم وجهه لله ، أى أسلم وجهته واتجاهه لله ، ومعنى « أسلم » من الإسلام ، فـ « أسلم » تعنى : سلّم زمام أموره لواحد . وحين يسلم الإنسان زمامه إلى مساو له فهذه شهادة لهذا المساوى أنه يعرف فى هذا الأمر أفضل منه . ولا يسلم لمساو إلا إن شهد له قبل أن يلقى إليه بزمامه أنّه صاحب حكمة وعلم ودراية عنه . فإن لم يلمس الإنسان ذلك فلن يسلم له . وما أجدر الإنسان أن يسلم نفسه لمن خلقه ، أليس هذا هو أفضل الأمور ؟.

إن الإنسان قد يسلم زمامه لإنسان آخر لأنه يظن فيه الحكمة ، ولكن أيضمن أن يبقى هذا الإنسان حكيماً ؟ إنّه كإنسان هو ابن أغيار ، وقد يتغير قلبه أو أن المسألة المسلم له بها تكون مستعصية عليه ، لكن عندما أسلم زمامى لمن خلقنى فهذا منتهى الحكمة . ولذلك قلنا : إن الإسلام هو أن تسلم زمامك لمن آمنت به إلهاً قوياً وقادراً وحكيماً وعليماً وله القيومية فى كل زمان ومكان . وحين يسلم الإنسان وجهه لله فلن يصنع عملاً إلا كانت وجهته إلى الله .

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾

(من الآية ١٢٥ سورة النساء)

ولماذا جاءت كلمة « محسن » هنا ؟ وقد تكلم صلى الله عليه وسلم عن الإحسان ، ونعرف أننا آمنا بالله غيباً ، لكن عندما ندخل بالإيمان إلى مقام الإحسان ، فإننا نعبد الله كأننا نراه فإن لم نكن نراه فهو يرانا . والحوار الذى دار بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وأحد صحابته وكان اسمه الحارث فقال له : « كيف أصبحت يا حارث ؟ فقال : أصبحت مؤمنا حقا . فقال الرسول صلى الله عليه وسلم : « انظر ما تقول ؛ فإن لكل شىء حقيقة فما حقيقة إيمانك ؟ » قال : عزفت نفسى عن الدنيا فأسهرت لذلك ليلى وأظمأت نهارى ، وكأنى أنظر إلى عرش ربى بارزا ، وكأنى أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها وكأنى أنظر إلى أهل النار يتضاغون فيها (يتصايحون فيها) فقال : « يا حارث عرفت فالتزم ثلاثا »[1] .

ويعرف الإنسان من أهل الصلاح أنّه فى لقاء دائم مع الله ، لذلك يضع برنامجاً لنفسه موجزه أنه يعلم أنه لا يخلو من نظر الله إليه (وهو معكم أينما كنتم) إنه يستحضر أنه لا يغيب عن الله طرفة عين فيستحيى أن يعصيه .

ويوضح الحديث ما رواه سيدنا عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ عندما سأل جبريل ـ عليه السلام ـ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقال له : فأخبرنى عن الإحسان ؟ قال : « أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك »[2] .

وعندما تتيقن أن الله ينظر إليك فكيف تعصيه ؟ أنت لا تجرؤ أن تفعل ذلك مع عبدٍ مساوٍ لك . . فكيف تفعله مع الله ؟!!

وتتجلى العظمة فى قوله الحق : « ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة إبراهيم حنيفاً » لماذا إذن « ملة إبراهيم » ؟ لأن القرآن يقول عن إبراهيم :

﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا ﴾

(من الآية ١٢٠ سورة النحل)

ومعنى كونه « أُمَّةً » : أنّه الجامع لكل خصال الخير التى لا تكاد تجتمع فى فرد إلا

---

١ ـ رواه الطبرانى فى الكبير وأبو نعيم فى الحلية . وضعّفه الدارقطنى وابن حبان .

٢ ـ من حديث طويل رواه الإمام مسلم .

إن وزعنا الخصال فى أمة بأكملها ؛ فهذا شجاع وذلك حليم والثالث عالم والرابع قوى ، وهذه الصفات الخيِّرة كلها لا تجتمع فى فرد واحد إلا إذا جمعناها من أمة . وأراد الحق سبحانه لإبراهيم عليه السلام أن يكون جامعاً لخير كثير فوصفه بقوله :

﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً ﴾

(من الآية ١٢٠ سورة النحل)

ويقول هنا عن ملة إبراهيم : « واتبع ملة إبراهيم حنيفاً » . والملة هى الديانة و« حنيفاً » أى « مائلا عن الباطل إلى الحق » . والمعنى اللغوى لكلمة « حنيف » أنه هو « المائل » . وكان إبراهيم حنيفاً عن الباطل . ومتى تُرسل الرسل إلى الأقوام نعرف أن الرسل تأتى إذا طمّ الفساد وعمّ ، وحين تكون المجتمعات قادرة على إصلاح الفساد الذى فيها . . فالحق سبحانه يمهل الناس وينظرهم ، لكن إذا ما بلغ الفساد أوْجَهُ ، فالحق يرسل رسولاً . وحين يأتى الرسول إلى قوم ينتشر فيهم الفساد ، فالرسول يميل عن الفساد ، بهذا يكون الميل عن الاعوجاج اعتدالا . « واتبع ملة إبراهيم حنيفاً » .

ويأتى الحق من بعد ذلك بالغاية الواضحة « واتخذ الله إبراهيم خليلاً » فما هى حيثيات الخُلَّة ؟ لأنه يتبع أفضل دين ، ويسلم لله وجهه ، وكان محسناً ، واتبع الملة ، وكان حنيفاً ، هذه هى حيثيات الخُلَّة . وكلها كانت صفات سيدنا إبراهيم عليه السلام .

لقد حدثونا أن جبريل عليه السلام قد جاء لسيدنا إبراهيم عندما ألقاه أهله فى النار ، فقال جبريل يا إبراهيم : ألك حاجة ؟. فقال إبراهيم : « أما إليك فلا » ، فقال جبريل فاسأل ربك فقال : « حسبى من سؤالى علمه بحالى » فقال الله : « يا نار كونى بردا وسلاما على إبراهيم »[1] أى أنه لا يطلب من جبريل بذاته شيئاً .وتلك قمة الإسلام لله . كما أننا نعرف مدى أنس الناس بأبنائها ؛ ونعلم إن إسماعيل قد جاءه ولداً فى آخر حياته ، وأوضح له الحق أنه مبتليه ، وكان الابتلاء غاية فى الصعوبة ؛ فالابن لا يموت ؛ ولا يقتله أحد ولكن يقوم الأب بذبحه ، فكم درجة من الابتلاء مر بها إبراهيم عليه السلام ؟!

---

١ ـ من الجامع لأحكام القرآن للقرطبى ، وذكر نحوه فى تفسير ابن كثير وفى الكشاف للزمخشرى .

وسار إبراهيم لتنفيذ أمر ربه ، ولذلك نقرأ على لسان إبراهيم عليه السلام :

﴿ يَـٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ﴾

(من الآية ١٠٢ سورة الصافات)

ويجعل الحق ذلك برؤيا فى المنام لا بالوحى المباشر . ولننظر إلى ما قاله إسماعيل عليه السلام . لم يقل : « افعل ما بدا لك يا أبى » ولكنه قال :

﴿ يَـٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾

(من الآية ١٠٢ سورة الصافات)

أى أن إسماعيل وإبراهيم أسلما معاً لأمر الله .

فماذا فعل الله ؟ :

﴿ وَنَـٰدَيْنَـٰهُ أَن يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَـٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَـٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَـٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَـٰهُ بِإِسْحَـٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ ﴾

(سورة الصافات)

ولا يكتفى الحق بإعطاء إبراهيم إسماعيل ابناً ، وله فداء ، ولكن رزق الله إبراهيم بابن آخر هو إسحاق . « واتخذ الله إبراهيم خليلاً » .

وجلس العلماء ليبحثوا معنى كلمة « خليلاً » ، ويبحثوا ما فيها من صفات ، وكل الأساليب التى وردت فيها . والكلمة مأخوذة من « الخاء ولام ولام » . و« الخَل » ـ بفتح الخاء ـ هو الطريق فى الرمل ، وهو ما نسميه فى عرفنا « مدقاً » ، وعادة يكون ضيقاً ، وحينما يسير فيه اثنان فهما يتكاتفان إن كان بينهما ودّ عالٍ ، وإن لم يكن بينهما ودّ فواحد يمشى خلف الآخر . ولذلك سموا الاثنين الذين يسيران متكاتفين « خليل » فكلاهما متخلل فى الآخر أى متداخل فيه . والخليل أيضاً هو من يسد خلل

صاحبه . والخليل هو الذى يتحد ويتوافق مع صديقه فى الخِلال والصفات والأخلاق . أو هو من يتخلل إليه الإنسان فى مساتره ، ويتخلل هو أيضاً فى مساتر الإنسان . والإنسان قد يستقبل واحداً من أصحابه فى أى مكان سواء فى الصالون أو فى غرفة المكتب أو فى غرفة النوم . لكن هناك من لا يستقبله إلا فى الصالون أو فى غرفة المكتب ..

« واتخذ الله إبراهيم خليلاً » أى اصطفاه الحق اصطفاءً خاصاً ، والحب قد يُشارَك فيه ، فهو سبحانه يحب واحداً وآخر وثالثاً ورابعاً وكل المؤمنين ، فهو القائل :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ ﴾

(من الآية ٢٢٢ سورة البقرة)

وسبحانه القائل :

﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾

(من الآية ٧٦ سورة آل عمران)

وهو يعلمنا :

﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾

(من الآية ١٤٦ سورة آل عمران)

ويقول لنا :

﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾

(من الآية١٤٨ سورة آل عمران)

ويقول أيضاً :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾

(من الآية ٨ سورة الممتحنة)

لكنه اصطفى إبراهيم خليلاً ، أى لا مشاركة لأحد فى مكانته ، أما الحب فيعم ، ولكن الخلَّة لا مشاركة فيها . ولذلك نرى رسول الله صلى الله عليه وسلم يخرج إلى

قومه قائلاً : (أما بعد أيها الناس فلو كنت متخذا من أهل الأرض خليلا لاتخذت أبا بكر بن أبي قحافة خليلا وإن صاحبكم خليل الله تعالى) يعنى نفسه[1] .

وإسماعيل صبرى الشاعر المصرى الذى كان أسبق من أحمد شوقى وكان شيخا للقضاة . التقط هذا المعنى من القرآن ومن الألفاظ التى دارت عليه فى القرآن ، ويقول :

ولما التقينا قرب الشوق جهده
خليلين زادا لوعة وعتابا
كأن خليلاً فى خلال خليله
تسرب أثناء العناق وغابا

وشاعر آخر يقول :
فضمنا ضمة نبقى بها واحداً

ولكن إسماعيل صبرى قال ما يفوق هذا المعنى : لقد تخللنا كأن بعضنا قد غاب فى البعض الآخر .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا ﴿١٢٦﴾ ﴾

وسبحانه أوضح فى آية سابقة أنه لا ولى ولا نصير للكافرين أو للمنافقين .

ويؤكد لنا المعنى هنا : إياكم أن تظنوا أن هناك مَهْرَباً أو محيصاً أو معزلاً أو مفراً ؛

١ ـ رواه مسلم وأحمد عن ابن مسعود وفى البخارى : (لو كنت متخذا خليلا غير ربى لاتخذت أبا بكر ولكن أخوة الإسلام ومودته) .

فلله ما فى السموات وما فى الأرض ، فلا السموات تُؤوى هارباً منه ، ولا مَن فى السموات يعاون هارباً منه ، وسبحانه المحيط علماً بكل شيء والقادر على كل شيء .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِى ٱلنِّسَآءِ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ فِى يَتَـٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّـٰتِى لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ وَأَن تَقُومُوا۟ لِلْيَتَـٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا ﴿١٢٧﴾ ﴾

« ويستفتونك » أى يطلبون الفتيا ، ونعرف أن الدين قد مرّ بمراحل منها قول الحق : (يسألونك) .

وهى تعبير عن سؤال المؤمنين فى مواضع كثيرة . ومرحلة ثانية هى : « ويستفتونك » . وما الفارق بين الاثنين ؟

لقد سألوا عن الخمر والأهلّة والمحيض والإنفاق . والسؤال هو لرسول الله صلى الله عليه وسلم مع أنه قال :

« ذرونى ما تركتكم فإنما هلك من قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه »[1] .

١ ـ رواه الإمام مسلم وغيره .

أى أنه طلب منهم ألّا ينبشوا وألّا يُفتشوا فى أشياء قد يجلبون بها على أنفسهم تكاليف جديدة ، ومع ذلك سألوه عن رغبة فى معرفة أى حكم يحدد حركة الإنسان فى الحياة .

ولو كانوا لا يريدون تحديد حركة حياتهم فلماذا يسألونه ؟ . كان السؤال دليلاً على أن السائل قد عشق منهج الله فأحب أن يجعل منهج الله مسيطرا على كل أفعاله ، فالشيء الذى أجمله وأوجزه الله يجب أن يسأل عنه .

وأيضاً فالإسلام جاء ليجد عاداتٍ للجاهلية وللعرب ولهم أحكام يسيرون عليها صنعوها لأنفسهم فلم يغير الإسلام فيها شيئاً ، فما أحبوا أن يستمروا فى ذلك لمجرد أنه من عمل آبائهم ، ولكن أحبوا أن يكون كل سلوك لهم من صميم أمر الإسلام ؛ لذلك سألوه فى أشياء كثيرة .

أما الاستفتاء فهو عن أمر قد يوجد فيه حكم ملتبس ، ولذلك يقول الواحد فى أمر ما : فلنستفت عالماً فى هذا الأمر ؛ لأن معنى الاستفتاء عدم قدرة واحد من الناس أو جماعة منهم فى استنباط حكم أو معرفة هذا الحكم ، ولذلك يردون هذا الأمر إلى أهله .

والحق يقول :

﴿ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ﴾

(من الآية ٨٣ سورة النساء)

الاستفتاء ـ إذن ـ يكون لحكمٍ موجود ، ولكن المستفتى لا يملك القدرة على استنباطه . ولذلك نجد المجتمعات الإسلامية تخصص داراً للإفتاء ؛ لأن المؤمن قد لا يعلم كل الجزئيات فى الدين . وقد يعيش حياته ولا تمر به هذه الجزئيات ، مثل أبواب الوقف أو المضاربة أو الميراث ، فإن حدثت له مسألة فهو يستفتى فيها أهل الذكر . فالسؤال يكون محل العمل الرتيب ، أما الفتوى فهى فى أمر ليس المطلوب أن تكون المعرفة به عامة . ولذلك يتجه المستفتى إلى أهل الذكر طالباً الفتيا .

والحق يقول : ﴿ ويستفتونك فى النساء ﴾ كأنهم قالوا للرسول : نريد حكم الله فيما يتعلق بالنساء حلاً وحرمة وتصرفاً .

فكيف يكون الجواب ؟ : « قل الله يفتيكم فيهن » ولم يؤجل الله الفتوى لاستفتائهم بل سبق أن قاله ، وعلى الرغم من ذلك فإنه ـ سبحانه ـ يفتيهم من جديد .

فلعل الحكم الذى نزل أولاً ليس على بالهم أو ليسوا على ذكر منه .

فقال الحق :

﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِى ٱلنِّسَآءِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ فِى يَتَـٰمَى ٱلنِّسَآءِ ﴾

(من الآية ١٢٧ سورة النساء)

أى أن الحق يفتيكم فى أمرهن ، وسبق أن نزل فى الكتاب ، آية من سورة النساء . قال الحق فيها :

﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَـٰمَىٰ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَـٰثَ وَرُبَـٰعَ ﴾

(من الآية ٣ سورة النساء)

وتوالت آيات من بعد ذلك فى أمر النساء .

فقوله الحق : « قل الله يفتيكم فيهن وما يتلى عليكم فى الكتاب » .

إنما يعلمنا أن الإنسان لا يصح أن يتعجل الاستفتاء فى شىء إلا إذا استعرض قبل ذلك ما عنده من علم لعله يجد فيه الجواب الذى يغنيه عن أن يستفتى .

ومع أن الاستفتاء فى أمر النساء جملة : صغيرات وكبيرات ، يتيمات وغير يتيمات فلماذا جاء الجواب فى يتامى النساء ؛ لأن النساء الكبيرات لهن القدرة على أن يبحثن أمورهن ، ولسن ضعيفات ، أمّا اليتيمة فهى ضعيفة الضعيفات ، وعرفنا معنى اليتيم ، واليتيم حيث لا يبلغ الإنسان المبلغ الذى يصبح فيه مستقلاً ، فلا يقال لمن بلغ حَدّ البلوغ سواء أكان رجلاً أم امرأة أنه يتيم ؛ لذلك جاء الجواب خاصاً بيتامى النساء ؛ لأن يتامى النساء هُنَّ دائماً تحت أولياء ، هؤلاء الأولياء الذين نسميهم فى

عصرنا بـ« الأوصياء » . وكان للأوصياء حالتان : فإن كانت البنت جميلة وذات مال فالوصى يحب أن ينكحها ليستمتع بجمالها ويستولى على مالها . وإن كانت دميمة فالوصى لا يرغب فى زواجها لذلك يعضلها ، أى يمنعها من أن تتزوج ؛ لأنها إن تزوجت فسيكون الزوج هو الأولى بالمال .

فاحتاجت هذه المسألة إلى تشريع واضح . وها نحن أولاء نجد سيدنا عمر ـ رضى الله عنه ـ وكانت له الفراسات التى تسمى الفراسات الفاروقية جاءه واحد يسأله عن أمر يتيمة تحت وصايته ، فقال سيدنا عمر :

ـ إن كانت جميلة فدعها تأخذ خيراً منك ، وإن كانت دميمة فخذها زوجة وليكن مالها شفيعاً لدمامتها .

ويقول الحق :

﴿ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ الَّتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ ﴾

(من الآية ١٢٧ سورة النساء)

والذى كتب لهن إما أن يكون مهوراً . وإمّا أن يكون تركة ، وجاء القول الحكيم ليرفع عن المرأة عسف الولى . وجاء الأمر بهذا الأسلوب العالى الذى لا يمكن أن يقوله غير رب كريم ، ونجد مادة « رغب » تعنى « أحب » . فإذا ما كان الحال « أحب أن يكون » يقال : « رغب فيه » ، وإذا « أحب ألاّ يكون » فيقال : « رغب عنه » . ولذلك قال الحق :

﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ ﴾

(من الآية ١٣٠ سورة البقرة)

ومادامت « عن » جاءت كما فى الآية فما بعدها هو المتروك . لكن لو كان القول « رغب فى » فهو لأمر محبوب . وكلمة « ترغبون » فى هذه الآية نجدها محذوفة الحرف الذى يقوم بالتعدية حباً أو كرهاً ؛ لأنها تقصد المعنيين . فإن كانت الرغبة فى المرأة . . تصير « ترغبون فى » وإن كانت المرأة دميمة وزهد فيها فالقول يكون : « ترغبون عن » ولا يقدر أحد غير الله على أن يأتى بأسلوب يجمع بين الموقفين المتناقضين . وجاء الحق ليقنن للأمرين معاً .

ويأتى الحق من بعد ذلك بالقول : « والمستضعفين من الولدان » بجانب اليتيمات

وهو الصنف المستضعف الآخر ، أى اليتيم الذى لم يبلغ مبلغ الرجال ، وحينما يتكلم سبحانه عن الولاية والوصاية على مثل هؤلاء فهو يتكلم بأسلوبين اثنين ، وإن لم يكن للإنسان ملكة استقبال الأسلوب البليغ فقد يقول : هذا كلام متناقض ، لكن لو تمتع الإنسان بملكة استقبال الأسلوب البليغ فقد يقول : إن عظمة هذا الأسلوب لا يمكن أن يأتى به إلا رب كريم . فالحق قال :

﴿ وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ﴾

(من الآية ٥ سورة النساء)

قال الله ذلك على الرغم من أن الأموال هى فى الأصل ملك للسفهاء ؛ فالمال ليس ماله إلى أن يعود إليه رشده ، وقد جعل الإسلام الأخوة الإيمانية للتكاتف والتكافل ، وساعة يرى المسلمون واحداً من السفهاء فهم يحجرون على سلوكه حماية لماله من سفهه ، والمال يصان ويحفظ ومطلوب من الوصىّ والولى أن يحميه ، هذا ما قاله الحق فى السفهاء .

والحق يتكلم فى اليتامى . فيقول سبحانه :

﴿ وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَـٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ﴾

(من الآية ٦ سورة النساء)

لأن السفيه أو المبذر ليس لأى منهما سلطة التصرف فى المال بل سلطة التصرف تكون للوصى ، وينتسب المال فى هذه الحالة للوصى لأنه القائم عليه والحافظ له ، لكن ما إن يبلغ القاصر الرشد فعلى الوصى أن يرد له المال .

ونحن أمام آية تضع القواعد لليتامى من النساء والمستضعفين من الولدان :

﴿ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ فِى يَتَـٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّـٰتِى لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ وَأَن تَقُومُوا۟ لِلْيَتَـٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا ﴾

(من الآية ١٢٧ سورة النساء)

ما معنى القيامة لليتامى بالقسط ؟ والقسط ـ بالكسر ـ تعنى العدل . وتختلف عن « القَسط » ـ بفتح القاف ـ وهو يعنى الجور ، قَسَط ـ يقْسِط أى عدل ، وقسط يَقْسُط ، أى جار ، فالعدل مصدره « القِسط » بالكسر للقاف ، والجور مصدره « القَسط » بالفتح للقاف .

وبعض من الذين يريدون الاستدراك على كلام الله سفها بغير علم ـ قالوا :

ـ يأتى القرآن بالقسط بمعنى العدل فى آيات متعددة ، ثم يأتى فى موقع آخر ليقول :

﴿ وَأَمَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ۝١٥ ﴾

(سورة الجن)

و« القاسطون » هى اسم فاعل من قسط ، ونقول : ومن قال لكم : إن « قسط » تستخدم فقط فى معنى « عدل » ، إنها تستعمل فى « عدل » وفى « جار » . وسبحانه يقول عن العادلين :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾

(من الآية ٤٢ سورة المائدة)

القاسط يذهب إلى النار ، وهى مأخوذة من « قَسَط يقسُط » . والمقسط يذهب إلى الجنة ، ومقسط مأخوذة من أقسط .

وعندما نرى « أقسط » نراها تبدأ بهمزة الإزالة ، أى كان هناك جور فأزلناه . أما القِسط ـ بالكسر ـ فهو العدل من البداية والمقسط هو الذى وجد جوراً فأزاله ، والذى يفصل بين الاثنين هو الفعل المضارع ؛ ففى العدل هو « يقسِط » . بكسر السين فى المضارع ، أما يقسُط ـ بضم السين فى المضارع ـ تعنى « يجور ويظلم » . ومن محاسن اللغة نجد اللفظ الواحد يُستعمل لأكثر من معنى ؛ ليتعلم الإنسان لباقة الاستقبال ، وليفهم الكلمات فى ضوء السياق .

وقديماً كانت اللغة ملكة لا صناعة كما هى الآن فى عصرنا . كانت اللغة ملكة إلى درجة أنهم إذا شكلوا الكتاب إلى المرسل إليه يغضب ، ويرد الكتاب إلى مرسله ويقول لمن أرسله : أتشك فى قدرتى على قراءة كتابك دون تشكيل ؟ . فتشكيل

الكتاب سوء ظن بالمكتوب إليه ، وفى عصرنا نجد من يلقى خطاباً يطلب تشكيل الخطاب حتى ينطق النطق السليم .

والحق سبحانه وتعالى يقول : « وأن تقوموا لليتامى بالقسط » وجاء الحكم فى قوله الحق : (وآتوا اليتامى أموالهم) وسبحانه يتكلم فى المهور والأموال ويرتفع بالأمر إلى مرتبة اعتبار حسن التصرف فى أمور اليتامى من المسئولية الإيمانية ؛ فقد تكون اليتيمة لا مال لها وليست جميلة حتى يُطمع فيها أو فى مالها ، وفى هذه الحالة يجب على الولى أن يرعاها ويرعى حق الله فيها .

وقوله الحق : « وأن تقوموا لليتامى بالقسط » هو أمر بأن يقوم المؤمن على أمر اليتامى بالعدل ؛ لأن اليتيمة قد تكون مع الولى ومع أهله ، وقد يكون لليتيمة شىء من الوسامة ، فيسرع إليها الولى بعطف وحنان زائد عن أولاده ، وينبه الحق أن رعاية اليتيمة يجب أن تتسم بالعدل ، ولا تزيد . ويقول سبحانه :

« وما تفعلوا من خير فإن الله كان به عليماً » ليدلنا على أن أمر الفعل والقيام به ليس مناط الجزاء ، ولكن أمر النية فى الفعل هو مناط الجزاء ، فإياك أيها المؤمن أن تقول : فعلت ، ولكن قل : فعلت بنيّة كذا .

إن الذى يمسح على رأس اليتيم يكون صاحب حظ عظيم فى الثواب ، ومن يكفل اليتيم فهو مع النبى صلى الله عليه وسلم فى الجنة . والذى يقدر ذلك هو الله ـ سبحانه ـ العليم بالخفايا حسب نية الشخص الذى يقوم بهذا العمل ؛ فقد يتقرب واحد من يتيم ويتكلف العطف والحنان بينما يقصد التقرب إلى أم اليتيم ؛ لذلك فمناط الجزاء ومناط الثواب هو فى النيّة الدافعة والباعثة على العمل . ولا يكفى أن يقول الإنسان : إن نيّتى طيبة ، ولا يعمل ؛ فالحديث الشريف يقول :

(إنما الأعمال بالنيّات وإنما لكل امرىء ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه)[1] .

١ ـ رواه البخارى ومسلم وغيرهما من أصحاب السنن .

أى لا بد من ارتباط واقتران النيّة بالعمل ؛ لأن الله يريد منا أن نعمل الخير وبذلك يعدى الإنسان الخير من نفسه إلى غيره وهذا هو المطلوب ، فوجود النيّة للخير وحدها لا يكفى ، وإن افتقد الإنسان النيّة وأدّى العمل فغيره يأخذ خيره ولا يأخذ هو شيئاً سوى التعب . فإن أراد الإنسان أن يكون له ثواب فلا بد من وجود نيّة طيبة ، وعمل صالح .

ولم يقل الحق : « وما تفعلوا من خير فإن الله به عليم » ؛ لأنه سبحانه عليم لا بعد أن نصنع العمل بل بكمال قدرته يعلم قبل أن نصنع الخير ، وكل شيء كان معلوماً لله قبل أن يخلق الوجود ، ولا ينتظر سبحانه إلى أن يقوم الإنسان بالعمل حتى يحصل ويحدث منه العلم . بل إنه ـ جل شأنه ـ يعلم كل شيء علما أزليًا ؛ لذلك قال : « فإن الله كان به عليماً » ؛ لأن كل أمر برز فى الوجود إنما كان على وفق ما علمه الله أزلاً قبل أن يوجد الوجود .

وفى المجال البشرى نرى المهندس يتلقى التعليمات من صاحب الأرض الخلاء ويقول له : صمم لى قصراً صغيراً على مساحة كذا ومكوناً من كذا حجرة . وعدد محدود من دورات المياه ، وبعد ذلك يصمم المهندس الرسم الهندسى على الورق حسب أوامر صاحب الأرض . وقد يكون صاحب الأرض دقيقا فطنا غايةً فى الدقة فيقول للمهندس : إننى أريد أن تصنع لى نموذجا صغيراً قبل البناء بحيث أرى تطبيقاً واقعياً بمقياس هندسى مصغر ، وأن تبنى الحجرات بقطاعات واضحة حتى أرى ألوانها وكيفيتها .

هكذا العالَم قبل أن يوجد ، كان معلوما علما تفصيليا بكل دقائقه وأبعاده عند خالقه ، والنماذج المصغرة التى يصنعها البشر قد يقصر البشر فيها عن صناعة شيء لعدم توافر المواد ، كالنجار الذى يقصر فى صنع حجرة نوم من خشب الورد لندرته ، فيستعيض بخشب من نوع آخر ، وذلك خلل فى علم وقدرة المنفذ . أما خلق الله فهو يبلغ تمام الدقة ؛ لأنه ـ سبحانه ـ هو الصانع الأول . هذا ما يجب أن نفهمه عندما نقرأ : « فإن الله كان به عليماً » .

وبعد ذلك يتكلم الحق عما يتعلق بالنساء فيقول :

﴿ وَإِنِ ٱمۡرَأَةٌ خَافَتۡ مِنۢ بَعۡلِهَا نُشُوزًا أَوۡ إِعۡرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يُصۡلِحَا بَيۡنَهُمَا صُلۡحًاۚ وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٞۗ وَأُحۡضِرَتِ ٱلۡأَنفُسُ ٱلشُّحَّۚ وَإِن تُحۡسِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ١٢٨ ﴾

وساعة نرى « إن » وبعدها اسم مرفوع كما فى قوله :

﴿ وَإِنۡ أَحَدٌ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٱسۡتَجَارَكَ فَأَجِرۡهُ ﴾

(من الآية ٦ سورة التوبة)

فلنعرف أن « إنْ » هذه داخلة على فعل ، أى أن ترتيبها الأساسى هو : وإن استجارك أحد من المشركين فأجره.. وهنا فى هذه الآية : يكون التقدير : وإن خافت إمرأة من بعلها نشوزاً ، وما الخوف ؟. هو توقع أمر محزن أو مسىء ؛ لم يحدث بعد ولكن الإنسان ينتظره ، وحين يخاف الإنسان فهو يتوقع حدوث الأمر السىء . وهكذا نجد أنّ الخوف هو توقع ما يمكن أن يكون متعباً . وقوله الحق : « وإن امرأة خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضاً » أى أن النشوز لم يحدث ولكن المرأة تخاف أن يحدث . ورتب الحق الحكم على مجرد الخوف من النشوز لا حدوث النشوز بالفعل ، وهذه لفتة لكل منا ألا يترك المسائل حتى تقع ، بل عليه أن يتلافى أسبابها قبل أن تقع ؛ لأنها إن وقعت ربما استعصى عليه تداركها وإن رأت المرأة بعضاً من ملامح نشوز الزوج فعليها أن تعالج الأمر .

ونلحظ أن الحق يتكلم هنا عن نشوز الرجل ، وسبق أن تكلم سبحانه عن نشوز المرأة :

﴿ وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ ﴾

(من الآية ٣٤ سورة النساء)

ما النشوز ؟ عندما نسمع عن الموسيقى نجد من يقول : « هذه نغمة نشاز » أى أنها نغمة خرجت عن تسلسل النغم وإيقاعه . والأصل فيها مأخوذ مَن النشز ، وهو ما ارتفع وظهر من الأرض ، والمفروض فى الأرض أن تكون مبسوطة ، فإن وجدنا فيها نتوءا فهذا اسمه نشوز .

والأصل فى علاقة الرجل بزوجته ، أن الرجل قد أخذ المرأة سكناً له ومودة ورحمة وأفضى إليها وأفضت إليه ، واشترط الفقهاء فى الزواج التكافؤ أى أن يكون الزوجان متقاربين ؛ ولذلك قال الحق :

﴿ ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ﴾

(من الآية ٢٦ سورة النور)

حتى الكفاءة تكون فى الطيبة أو الخبث ، فلا يأتى واحد بامرأة خبيثة ويزوجها لرجل طيب كى لا تتعبه ، ولا يأتى واحد برجل خبيث ويزوجه بامرأة طيبة كى لا يتعبها ؛ لأن الطيب عندما يتزوج طيبة تريحه وتقدره .

وكذلك الخبيث عندما يتزوج خبيثة فإنهما يتوافقان فى الطباع والسلوك ، وفى هذا توازن ، والخبيث إن لم يخجل من الفضيحة ، فالخبيثة لا تخجل منها أيضاً ، أما الطيب والطيبة فكلاهما يخشى على مشاعر الآخر ويحافظ على كرامته ، فإن خافت امرأة من بعلها نشوزاً أى ارتفاعاً عن المستوى المفترض فى المعاملة ، فى السكن والمودة والرحمة التى ينبغى أن تكون موجودة بين الزوجين ، وهى قد أفضت إليه وأفضى إليها ، فإن خافت أن يستعلى عليها بنفسه أو بالنفقة أو ينالها بالاحتقار ، أو ضاعت منه مودته أو رحمته ، هذا كله نشوز . وقبل حدوث ذلك على الزوجة الذكية أن تنتبه لنفسها وترى ملامح ذلك النشوز فى الزوج قبل أن يقع ، فإن كانت الأسباب من جهتها فعليها أن تعالج هذه الأسباب ، وترجع إلى نفسها وتصلح من الأمر . وإن كانت منه تحاول كسب مودته مرة أخرى .

« وإن امرأة خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضاً » والإعراض يعنى أنه لم ينشز بعد ولكنه لا يؤانس الزوجة ولا يحدثها ولا يلاطفها على الرغم من أنه يعطيها كل حقوقها . وعلى المرأة أن تعالج هذه المسألة أيضاً . والقضية التى بين اثنين ـ كما قلنا ـ وقال الله عنها :

﴿ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ﴾

(من الآية ٢١ سورة النساء)

وقال فى ذلك أيضاً :

﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ﴾

(من الآية ١٨٧ سورة البقرة)

أى أن يغطى الرجل المرأة وتغطى المرأة الرجل فهى ستر له وهو ستر لها وحماية . ونعرف أن المرأة إن دخل عليها أبوها أو أخوها فهى تدارى أى جزء ظاهر من جسمها ، أما عندما يدخل عليها زوجها فلا تستر ولا تخفى شيئاً .

ويعرف كل رجل متزوج وكل امرأة متزوجة أن بينهما إفضاءً متبادلاً ، فقد أباح الله للرجل من زوجته ما لا يبيحه لأحد ، وكذلك المرأة ، فلا يقول الرجل أى نعت أو وصف جارح للمرأة ، وعلى المرأة أن تحافظ كذلك على زوجها . ولها أن تتذكر أنها اطلعت على عورته بحق الله ، واطلع على عورتها بحق الله .

والحق سبحانه وتعالى يريد أن ينهى هذا الخلاف قبل أن يقع ؛ لذلك أوجب على المرأة أن تبحث عن سبب النشوز وسبب الإعراض فقد تكون قد كبرت فى العمر أو نزلت بها علة ومرض وما زال فى الرجل بقية من فتوة . وقد يصح أن امرأة أخرى قد استمالته ، أو يرغب فى الزواج بأخرى لأى سبب من الأسباب ، هنا على المرأة أن تعالج المسألة علاج العقلاء وتتنازل عن قَسْمها ، فقد تكون غير مليحة وأراد هو الزَّواج فلتسمح له بذلك ، أو تتنازل له عن شيء من المهر ، المهم أن يدور الصلح بين الرجل وزوجته ، وهى مهمة الرجل كما أنها مهمة المرأة .

« فلا جناح عليهما أن يُصلحا بينهما صلحاً » والصلح هنا مهمة الاثنين معاً ؛ لأن كل مشكلة لا تتعدى الرجل والمرأة يكون حلها يسيراً ، والذى يجعل المشكلات صعبة هم هؤلاء الذين يتدخلون فى العلاقة بين الرجل والمرأة ، وليس بينهما ما بين الرجل والمرأة ، والرجل قد يختلف مع المرأة ويخرج من المنزل ويهدأ ويعود ، فتقول له الزوجة كلمة تنهى الخلاف لكن إن تدخل أحد الأقارب فالمشكلة قد تتعقد من تدخل من لا يملك سبباً أو دافعاً لحل المشكلة .

لذلك يجب أن ننتبه إلى قول الحق هنا : « فلا جناح عليهما أن يُصلحا بينهما » .

وأولى درجات الصلح بين الرجل والمرأة هو أن يقوم كل منهما بمسئوليته وليتذكر الاثنان قول الحق :

﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾

(من الآية ٢١٦ سورة البقرة)

وكذلك قول الحق سبحانه :

﴿ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾

(من الآية ١٩ سورة النساء)

ولا يظنن رجل أن هناك امرأة هى مجمع كل الجمال والخيرات ؛ لأن كل خصال الخير التى تتطلبها الحياة ، قد لا تتوافر فى المرأة الجميلة . بل قد توجد فى المرأة التى ليست على حظ من الحسن ؛ لأن ذات الحسن قد تستند إلى رصيد حسنها . أما التى ليس لها حظ من الحسن فهى تحاول أن تكون أمينة ومطيعة ومدبرة وحسنة التصرف مع أهل الزوج ؛ لأنها تريد أن تستبقى لنفسها رصيد استبقاء .

ولذلك نجد اللاتى ليس لهن حظ من الحسن هن الغالبية الكبيرة فى حمل أعباء تكوين الأسرة ، فلا يصح أن يأخذ الرجل الزاوية الوحيدة للجمال الحسّى ، بل عليه أن يأخذ الجمال بكل جوانبه وزواياه ؛ لأن الجمال الحسّى قد يأخذ بعقل الرجال ، لكن عمره قصير . وهناك زوايا من الجمال لا نهاية لها إلا بنهاية العمر .

وقد حدَّثونا عن واحد من الصالحين كانت له امرأة شديدة المراس والتسلط عليه ، وهو رجل طيب فقال لها : آه لو رأيتنى وأنا فى دروس العلم والناس يستشرفون إلى سماعى . لقد ظن أنها عندما تراه فى مجلس العلم سترتدع ، وتكون حنونة عليه .

وذهبت لحضور درس العلم ، ورآها ، وظن أن ذلك سيزرع هيبة له فى قلبها ، وعاد إليها آخر النهار وقال لها : لقد رأيتنى اليوم . فقالت : رأيتك ويا حسرة ما رأيت ، رأيت كل الناس تجلس باتزان إلا أنت فقد كنت تصرخ .

وحدثونا عن هذا الرجل أن الله كان يكرمه بالمدد جزاء صبره على امرأته ، وكان المريدون يرون إشراقات الله فى تصرفاته ، وماتت امرأته . وذهب المريدون ولم يجدوا عنده الإشراقات التى كانت عنده من قبل . فسألوه : لماذا ؟ فقال : ماتت التى كان يكرمنى الله من أجلها .

فكما أن المطلوب من المرأة أن تصبر على الرجل ، فالرجل مطلوب منه أن يصبر على المرأة . والذى يصبر عليها يؤتيه الله خيرها ، ولذلك قالوا : « إن عمران بن حطان كان من الخوارج وكان له امرأة جميلة وكان هو دميم الملامح ، فنظرت إليه زوجته مرة وقالت : الحمد لله فقال لها : على أى شى تحمدين الله ؟ قالت : على أنى وأنك فى الجنة . قال : لم ؟. قالت : لأنك رزقت بى فشكرت ، ورزقت بك فصبرت ، والشاكر والصابر كلاهما فى الجنة .

ولا يظنن واحد أنه سيجد امرأة هى مجمع الجمال والحسن فى كل شيء ، فإن كانت متدنية المستوى فى جانب فهى متميزة فى جانب آخر ، فلا تضيع الامتياز الذى فيها من أجل قصورها فى جانب ما . وزوايا الحياة كثيرة . وقلنا سابقاً : إنه لا يوجد أحد ابناً لله ، بل كلنا بالنسبة لله عبيد . ومادمنا جميعاً بالنسبة لله عبيداً وليس فينا ابن له . وسبحانه أعطانا أسباب الفضل على سواء ، فهناك فرد قد أخذ الامتياز فى جانب ، والآخر قد نال الامتياز فى جانب آخر ـ هذا النقص فى زاوية ما ، والامتياز فى زاوية أخرى ، أراد به الله أن يجعل مجموع صفات ومزايا أى إنسان يساوى مجموع إنسان آخر حتى يتوازن العالم .

فإن وجد الإنسان شيئاً لا يعجبه فى المرأة ، ووجدت المرأة شيئاً لا يعجبها فى الرجل ، فعلى الرجل أن يضم الزوايا كلها ليرى الصورة المكتملة للمرأة ، وأن تضم المرأة كل الزوايا حتى ترى الصورة المكتملة للرجل .

والرجل الذى ينظر إلى كل الزوايا يحيا مرتاح البال ؛ لأنه يرى من الزوايا الحسنة أضعاف الزوايا التى ليست كذلك ، والذى يرضى هو من ينظر إلى المحاسن . والذى يغضب هو من ينظر إلى المقابح . والعادل فى الغضب والرضا هو مَن ينظر إلى مجموع هذا ومجموع هذا ، إنّ الحق سبحانه وتعالى يريد أن تُبنى الأسرة على السلامة فيوضح لنا :

- لا تنتظر أيها الرجل ولا تنتظرى أيتها المرأة إلى أن يقع الخلاف ، فما أن تبدو البوادر فعليكما بحل المشكلات ، فليس هناك أحد قادر على حل المشكلات مثلكما ؛ لأنه لا يوجد أحد بينه وبين غيره من الروابط والوشائج مثل ما بين الرجل وزوجته ؛ لذلك قال سبحانه : « فلا جناح عليهما أن يُصلحا بينهما صلحاً » .

إننا فى بعض الأحيان نجد الصلح يأخذ شكلية الصلح ، أما موضوع الصلح وهو إنهاء الجفوة والمواجيد النفسية فقد لا يوجد ، والذى يعرقل الصلح هو أننا نقوم بالشكلية ولا نعالج الأسباب الحقيقية المدفونة فى النفوس ، والتى تتسرب إلى موضوعات أخرى ؛ لذلك يجب أن يكون الصلح ، ويتم بحقيقته كقول الله تعالى : « أن يُصلحا بينهما صلحاً والصلح خير » وعندما تتراضى النفوس يعم الخير على الزوجين وعلى المجتمع .

وبعد ذلك يتابع الحق : « وأحضرت الأنفس الشح وإن تُحسنوا وتتقوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا » . يوضح لنا سبحانه : أنا خالقكم وأعلم طبائعكم وسجاياكم وأعلم أننى عندما أطلب من المرأة أن تتنازل عن شىء من نفقتها كمهرها أو هدية الخطبة الأولى « الشبكة » ، أو أن تتنازل له عن ليلتها لينام عند الزوجة الأخرى . وأعلم أن هذا قد يصعب على النفس ، وكذلك يصعب على الرجل أن يتنازل عن مقاييسه ، إياكم أن يستولى الشح على تصرفاتكم بالنسبة لبعضكم البعض . وجاء الحق فى آية وقال :

﴿ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾ ﴾

(سورة النساء)

وهنا يقول : « وأحضرت الأنفس الشح وإن تُحسنوا وتتقوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا » وهناك فرق بين الحقوق التى قد يتمسك بها أحد الزوجين ، والإحسان الذى يَتطوع به . ونعرف ما فعله قاضٍ فاضل عندما قال لخصمين : أأحكم بينكما بالعدل أم بما هو خير من العدل ؟

فسأل واحد : وهل هناك خير من العدل ؟ فقال القاضى : نعم إنه الفضل . فالعدل إعطاء الحق فقط ، والفضل أن يتنازل الإنسان عن حقه بالتراضى لأخيه .

ويذيل الحق الآية : « وإن تُحسنوا وتتقوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا » وسبحانه وتعالى يريد أن يحل مشكلة نفسية قد تتعرض لها الأسر التى لا توجد فيها خميرة عقدية إيمانية ، لا عند الرجل ولا عند المرأة ، ولو كانت هذه الأسر تملك الخميرة الإيمانية المسبقة وأخذت أحكام الله بحقها لما وجدت هذه المشكلة ، إنها مشكلة التعدد .

ظاهر الأمر أن الرجل حين يعدد زوجاته يكون محظوظاً ؛ لأنه غير مقيد بواحدة بل له إلى أربع ،والمغبون هى المرأة ؛ لأنها مقيدة بزوج واحد ، فليست كل امرأة مهضومة ، لأن الزوجة الجديدة تشعر بالسعادة . وقد نجد امرأة قال لها زوجها : سأتزوج بثانية ، ورضيت هى بذلك ، بعد أن وازنت بين أمورها فاختارت خير الأمور .

روى أن امرأة أراد زوجها أن يطلقها لرغبته عنها ، وكان لها منه ولد فقالت لا تطلقنى ودعنى أقوم على ولدى وتقسم لى فقال : إن كان هذا يصلح فهو أحب إلىّ فأقرها . إذن فالغمة فى زواج الرجل من زوجة أخرى لا تعم كل النساء ، فإن أحدث الزواج الغم والحزن عند الزوجة الأولى فهو يحدث سروراً عند الزوجة الثانية . والمرأة معذورة فى ذلك لأن الرجل أخذ حكم الله فى أن يعدد ولم يأخذ مع هذا الحكم أن يعدل . والرجل يظلم المرأة حين يأخذ الحكم الذى فى صالحه وهو إباحة التعدد ولا يأخذ من مبيح التعدد وهو المشرع الأعلى ـ وهو الله ـ الأمر بأن يعدل بين زوجاته .

لقد جنحت المجتمعات لأنهم رأوا الرجل حين يتزوج بأخرى لا يلتفت إلا للزوجة الجديدة ، ويهمل القديمة وأولاده منها ؛ لذلك فالنساء معذورات فى أن يغضبن مِن هذه المسألة . ولو أن الرجل أخذ حكم الله بالعدل كما أخذ إباحة الله فى التعدد لحدث التوازن . وحين تعرف المرأة الأولى أن حقها لن يضيع لا فى نفسها ولا فى بيتها ولا فى رعاية أولادها . فهى تقول : « من الأفضل أن يكون متزوجاً أمام عينى بدلاً من أن يدس نفسه فى أعراض الناس » .

إذن فالذى يثير المسألة كإشكال أن الرجل يأخذ بعض الكتاب فيعمل به ويترك بعضه فلا يطبقه ولا يعمل به . والذين يأخذون إباحة الله فى التعدد لا بد أن يأخذوه

بأصوله التى وضعها الله فى إطار العدالة . وحين يكون للرجل امرأتان مثل سيدنا معاذ بن جبل ، فكل امرأة لها حق فى البيتوتة ، ليلة لزوجة وليلة لأخرى مثلا ، وكان ـ رضى الله عنه ـ لا يتوضأ عند واحدة فى ليلة الأخرى مع أن الوضوء قربة لله . والأعجب من ذلك عندما ماتت الزوجتان فى الطاعون ، أمر بدفن الاثنتين فى قبر واحد .

والحق سبحانه وتعالى هو الذى خلق الخلق وأمر بالعدالة فى المستطاع ، وعلى الرجل أن يعدل زَمَناً ، ويعدل نفقة ، ويعدل ابتسامة ، ويعدل مؤانسة ومواساة ، والرجل فى كل ذلك يستطيع ، لكنه لا يستطيع أن يعدل فى ميل القلب ، وهو أمر مكتوم ، لذلك قال الحق :

﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟ أَن تَعْدِلُوا۟ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ۖ فَلَا تَمِيلُوا۟ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ ۚ وَإِن تُصْلِحُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٢٩﴾ ﴾

أى أن العدل الحبّى مستحيل . وقال النبى عليه الصلاة والسلام : (اللهم هذا قَسْمِى فيما أملك فلا تلمنى فيما تملك ولا أملك) ـ يعنى القلب ـ[1] .

إذن ففيه فرق بين ميل القلب وهو مواجيد نفسية والنزوع النفسى . والعملية الوجدانية لا يقدر عليها أحد ، ولا يوجد تقنين يقول للرجل : « أحب فلانة » . . إلا إذا أراد الحب العقلى ، أما الحب العاطفى فلا . والذى يأمر به الشرع هو أن يحب الإنسان بالعقل ، أما حب العاطفة فلا تقنين له أبداً .

وقد يحب الإنسان الدواء المر بعقله لا بعاطفته ويسرّ الإنسان من صديق جاء بهذا

---

١ ـ رواه أحمد وأبو داود والدارمى .

الدواء من الخارج ؛ لأن الدواء سيشفيه بإذن الله .

إذن « ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل » ، ما هو كل الميل ؟ ويوضحه ـ سبحانه ـ بقوله : « فتذروها كالمعلقة » وهى المرأة التى لا هى أيّم أى لا زوج لها فتطلب الزواج ، ولا هى متزوجة فتستمتع بوجود زوج ، ويحجزها الرجل دون أن يمارس مسئوليته عنها ، فيوضح الحق : أنا لا أطلب منك أن تميل بقلبك هنا ، أو هناك ، لأن هذه المسألة ليست ملكاً لك ، ولكنى أريد العدالة فى الموضوعات الأخرى ؛ كأن تسوّى فى البيتوتة والنفقة ، ومطلوبات أولادك ، وأن تعدل بين أزواجك فى المؤانسة . أما المعنى الآخر وهو ميل القلب فأنا لا أكلف به .

وسبحانه حين يشرّع لخلقه أعلم بمن خلق ، وقد جعل لكل مخلوق منا عواطف ينشأ عنها ميل ، وجعل له غرائز ، وخيارات فى الانفعالات ولو أراد سبحانه أن يحجر على الميل لما خلقه ، ولكنه ـ جل وعلا ـ يطلق الميول لتتم بالميول مصالح الكون مجتمعة ، فحين يمنح القلب أن يحب ، يعلم سبحانه أن عمارة الكون تنشأ بالحب . فلو لم يحب العالم أن يكتشف أسرار الله فى خلقه لما حمّل نفسه متاعب البحث والاطلاع والتجربة ، وكل ما يترتب على ذلك من مشقات .

ولو لم يحب الإنسان إتقان عمله لما رأيت عملاً مجوَّداً . ولو لم يحب الإنسان أولاده لما تحمل المشقة فى تبعات تربيتهم . إذن فالحب له مهمة . والله لا يريد منا أن نمنع الحب . لكنه يريد منا أن نعلى مطالب الحب ، فنجعل للحب مجالاته المشروعة لا أن ينطلق الحب فى الكون ليعربد فى أعراض الناس .

إنك حين تجعل الحب موجهاً إلى خير لا يأتيك منه أو للناس شرّ . وعندما ننظر ـ مثلا ـ إلى دافع وغريزة حب الاستطلاع نجد أن الله قد خلقها فى الإنسان ليصعد ابتكاراته المسعدة فى الحياة . ولو لم توجد غرائز حب الاستطلاع لما تعب المكتشف فى أن يبتكر شيئاً أو يخترعه ويكتشفه حتى يريحنا نحن البشر ، ولما فكر الإنسان فى أن يستعمل البخار ليحمل عن الناس مشقات السفر ومشقات حمل الثقيل. إن هذا الاكتشاف أراحنا باختراع الباخرة أو القطار .

ولكن الله سبحانه وتعالى يريد أن يعلى غريزة حب الاستطلاع فينبغى أن نجعلها

فى مجالها المشروع فلا نجعلها تجسساً على عورات الناس مثلاً ، وكذلك جعل الله غريزة حب المال فى الإنسان ؛ لأن حب المال يدفع الإنسان إلى أن يعمل ، ويستفيد الناس من عمله أراد أو لم يرد . كذلك غريزة الجنس جعلها الله فى الإنسان ولها سعار ليحفظ بها النوع الإنسانى . إنّه سبحانه لا يريد منها أن تنطلق انطلاقاً يلغ فى أعراض الناس . إذن فالغرائز خلقها الله لمهمة . والشرائع جاءت لتحفظ الغرائز فى مجال مهمتها وتمنع عنها انطلاقاتها المسعورة فى غير المجالات التى حددها لها المنهج .

إذن فالميل أمر فطرى فى النفس البشرية وقد أوضح الحق سبحانه : أنا خلقت الميل ليخدم فى عمارة الكون ، ولكن أريد منكم أن تصعدوا الهوى وتعلوه فى هذا الميل ، وحين تعددون الزوجات . لا أطلب منكم البعد عن كل الميل ؛ لأن ذلك أمر لا يحكمه منطق عقلى ، ولكن أحب أن تحددوا الميل وتجعلوه فى مجاله القلبى فقط ، ولا يصح أن يتعدى الميل عند أحدكم إلى ميله القالبى .

أحب أيها العبد المؤمن من شئت وأبغض من شئت ، لكن لا تجعل هذا الحب يقود قالبك لتعطى من تحب خير غيره ظلماً ، وأبغض أيها العبد من شئت ، فلا يستطيع مقنن أن يقنن للقلب أن يبغض أو يحب ، لكن بغضك لا تعديه عن قلبك إلى جوارحك لتظلم من تبغض .

ولنا الأسوة فى سيدنا عمر بن الخطاب ـ رضوان الله عليه ـ حينما مرّ عليه قاتل أخيه ، ولفت نظره جليس له : هذا قاتل أخيك .

هنا قال عمر ـ رضى الله عنه ـ : وماذا أفعل به وقد هداه الله للإسلام ؟ كأن إسلام هذا القاتل قد أنهى المسألة عند عمر ـ رضى الله عنه ـ . وعندما جاء هذا القاتل لمجلس عمر ، قال له سيدنا عمر : إذا أقبلت علىّ إلوِ وجهك عنى ، لأن قلبى لا يرتاح لك . فسأل الرجل : أو عدم حبك لى يمنعنى حقاً من حقوقى ؟ . قال عمر : لا .

قال الرجل : إنما يبكى على الحب النساء . هذا عمر وهو الخليفة ، والرجل من الرعية . لكن عمر الخليفة يخاف من الظلم ، ويملك هذا الشخص وهو تحت إمرة وحكم الخليفة عمر ـ رضى الله عنه ـ قدرة الرفض لمشاعر الحب أو الكراهية ما دامت لا تمنع حقوقه كمواطن .

إن الحق سبحانه وتعالى حينما يخلق ميول القلوب يضع أيضاً القاعدة : إياك أيها المؤمن أن تعدى ميل القلب إلى القالب ، وليكن ميل القلب كما تحب . كذلك إن أنت أيها المؤمن تزوجت وبعد ذلك تزوجت امرأة أخرى فالمنهج لا يطلب منك أن تعدل العدل المطلق الذى ينصب على شيء لا تملكه وهو ميل قلبك . ولكن المنهج يضع لك القواعد التى يسير عليها سلوك قالبك . وعليك أن تعدل فى قسمة الزمن والنفقة والكسوة وبشاشة الوجه وحسن الحديث . ولا تخضع ذلك لميل القلب ، وبعد ذلك أنت وقلبك أحرار .

ونرى بعضا من الذين يحبون أن يظهروا بين الناس كفاهمين للقرآن أو دعاة تجديد ، يركبون الموجة ضد التعدد . ونقول : قبل أن يركب الواحد منكم الموجة ضد التعدد ، ويقف منه موقف الرافض له مدعيا أنه يفهم النص القرآنى ، إنّنا نقول له : عليك أن تبحث عن أسباب السخط على التعدد ، هى ليست من التعدد فى ذاته ، ولكنها تأتى من أن المسلم يأخذ إباحة الله للتعدد . ولا يأخذ حكم الله فى العدالة . فلو أن المسلم أخذ بالعدالة مع التعدد لما وجدنا مثل هذه الأزمة . ولذلك يقول الواحد من هؤلاء : إن الحق سبحانه وتعالى أمر بلزوم واحدة والاقتصار عليها عند خوف ترك العدل فى التعدد فقال :

﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً ﴾

(من الآية ٣ سورة النساء)

ثم جاء فى آية أخرى وقال : « ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم » .

ونقول : إن الواحد منكم إن أراد أن يفهم القرآن ، فعليه أن يعلم أن الحق سبحانه لم يقف فى هذه الآية عند قوله : (ولو حرصتم) إنما فرع على عدم الاستطاعة فى العدل فقال : « فلا تميلو كل الميل » إنه ـ سبحانه ـ فرع على عدم الاستطاعة فى العدل فأمر بعدم الميل كل الميل . وتلك حكمة المشرع الأول الذى يعلم مَن خلق وكيف خلق . ولو أن الحق لم يفرِّع على « ولن تستطيعوا » لجاز لهؤلاء الذين يركبون الموجة المطالبة بعدم التعدد أن يقولوا ما يقولون ؛ لذلك نقول لهم : انتبهوا إلى أن الحق سبحانه أوضح : عدم استطاعتكم للعدل هو أمر أنا أعلمه ، ولذلك أطلب منكم ألا تميلوا كل الميل وذلك باستطاعتكم . ومعنى هذا أنه سبحانه قد أبقى الحكم ولم يسلبه .

« فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة » . وفى هذا القول أمر بألا يترك الرجل زوجته الأولى كالمعلقة وهى المرأة التى لم يتحدد مصيرها ومسارها فى الحياة ، فلا هى بغير زوج فتتزوج ، ولا هى متزوجة فتأخذ قسمها وحظها من زوجها ، بل عليه أن يعطيها حظها فى البيتوتة والنفقة والملبس وحسن الاستقبال والبشاشة والمؤانسة والمواساة .

ويقول الحق من بعد ذلك : « وإن تصلحوا وتتقوا فإن الله كان غفوراً رحيماً » .

وقوله : « تصلحوا » دليل على أنه كان هناك إفساد موجود والمطلوب أن نقوم بالبحث عن الأسباب التى جعلت الرجل يفسد فى علاقته الزوجية ليقضى عليها . وبعد ذلك على المسلم أن يستأنف تقوى جديدة فى المعاملة على ضوء ما شرع الله . وحين يصلح المسلم ما أفسد من جعل الزوجة الأولى كالمعلقة ويعطيها حقها فى البيتوتة والنفقة ورعاية أولادها والإقبال عليها وعلى الأولاد بصورة طيبة فالله سبحانه يغفر ويرحم ، ولا يصلح المسلم ما أفسد إلا وهو ينوى ألا يستأنف عملاً إلا إذا كان على منهج التقى ، ويجد الحق غفوراً لما سبق ورحيماً به .

وإن لم يستطع الرجل هذا ، ولا قبلت المرأة أن تتنازل عن شىء من قسمها ترضية له تكن التفرقة ـ هنا ـ أمراً واجباً . فليس من المعقول أن نحكم الحياة الزوجية والحياة الأسرية بسلاسل من حديد ، ولا يمكن أن نربط الزوجين بعدم الافتراق إن كانت القلوب متنافرة وكذلك لا نأمن على المرأة أن تعيش هكذا .

إن الذى يقول : لا يصح أن نفرق بين الزوجين ، نقول له : كيف تريد أن تحكم الحياة الزوجية بالسلاسل ؟ والزواج صلة مبناها السكن والمودة والرحمة ، فإن انعدمت هذه العناصر فكيف يستمر الزواج وكيف ترغم زوجاً على أن يعايش زوجة لا يحبها ولا يقبلها وترغم زوجة أن تعيش مع زوج لا تحبه ؟ إن التفريق بينهما فى مثل هذه الحالة قد يكون وسيلة أرادها الله سبحانه وتعالى ليرزق الزوج خيراً منها ويرزق الزوجة خيراً منه .

وكثيراً ما شهدنا هذا فى واقع الحياة ، وعاش الزوج مع الزوجة الجديدة سعيداً ، وعاشت الزوجة مع الزوج الجديد سعيدة ، أما الذين تشدقوا بمسألة عدم التفريق مع

استحالة الحياة الزوجية وهاجموا الإسلام فى هذا المجال . فهم يرددون ما كان عند أهل الغرب : من أن الزواج لا انفصال فيه .

إننا نرى العالم كله الآن بكل النصارى واليهود وغيرهم من الملل والنِّحَل يلجأون إلى الطلاق ؛ لأن الأحداث اضطرتهم إلى أن يشرعوا الطلاق ، فكأنهم ذهبوا إلى الإسلام لا على أنه إسلام ، ولكن على أنه الحل الوحيد لمشكلاتهم . فإذا ثبت أن الذين يهاجمون جزئية من جزئيات الدين يضطرون إليها تحت ضغط الأحداث فيجب أن ننبههم إلى عدم التسرع والعجلة والحكم على قضايا الدين الإسلامى بأنها غير صالحة ؛ لأن الحق أرغم من لم يكن مسلماً على أن ينفذ قضية إسلامية . فهو القائل :

﴿ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾ ﴾

وسبحانه عنده الفضل الواسع ، وهو القادر أن يرزق الزوج زوجة صالحة تشبع كل مطالبه ، ويرزق الزوجة زوجاً آخر يشبع كل احتياجاتها ويقبل دمامتها لو كانت دميمة ، ويجعله الله صاحب عيون ترى نواحيِ الخير والجمال فيها . وقد نجد رجلاً قد عضته الأحداث بجمال امرأة كان متزوجاً بها وخبلته وجعلت أفكاره مشوشة مضطربة وبعد ذلك يرزقه الله بمن تشتاق إليه ، بامرأة أمينة عليه ، ويطمئن عندما يغترب عنها فى عمله . ولا تملأ الهواجس صدره ؛ لأن قلبه قد امتلأ ثقة بها وإن كانت قليلة الحظ من الجمال .

« وإن يتفرقا يغن الله كلاً من سعته وكان الله واسعاً حكيماً » فإياك أن تظن بأن الله ليس عنده ما يريح كل إنسان . فسبحانه عنده كل ما يريح كل الناس . وصيدلية منهج الله مليئة بالأدوية ، وبعض الخلق لا يفقهون فى استخدام هذه الأدوية لعلاج أمراضهم .

ومن الحكمة أنه سبحانه لا يرغم اثنين على أن يعيشا معاً وهما كارهان ؛ لأنهما افتقدا المودة والرحمة فيما بينهما .

ومن بعد ذلك يعقب الحق بآية :

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾ ﴾

وسبحانه هو الذى يُرضى الزوج إن افترق عن زوجته ، ويرضى الزوجة إن افترقت عن زوجها ؛ لأنه ـ جل وعلا ـ خلق الدنيا التى لن تضيق بمطلوب الرجل أو المرأة بعد الانفصال بالطلاق ، فله ملك السموات والأرض وهو القادر على أن يرزق الرجل امرأة هى خير ممن فارق،ويرزق المرأة رجلا هو خير ممن فارقت ، فلا شيء خرج عن ملك الله وهو الواسع العطاء .

إننا كثيرا ما نجد رجلاً كان يتزوج امرأة ولا تلد ويشاع عنها أنها عقيم ، ويذهب الإثنان إلى معامل التحليل ، ويقال أحياناً : المرأة هى السبب فى عدم النسل ، أو : الرجل هو السبب فى عدم النسل ، ويفترق الاثنان ويتزوج كل منهما بآخر ، فتلد المرأة من الزوج الجديد ، ويولد للرجل من الزوجة الجديدة ؛ لأن المسألة كلها مرادات الله ، وليست أمور الحياة مجرد اكتمال أسباب تُفرض على الله بل هو المسبب دائماً فهو القائل :

﴿ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا

﴿ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ ﴾

(سورة الشورى)

كم صورة إذن عندنا لمثل هذا الموقف ؟. يهب لمن يشاء إناثا ، ويهب لمن يشاء الذكور ، أو يزوجهم ذكراناً وإناثاً ، ويجعل من يشاء عقيماً ، هى بأربعة مقادير تجرى على الرجل والمرأة . وعندما يهب الله المؤمنَ الإناثَ يكون سعيداً . وكذلك عندما يهبه الذكور ، وعندما يهب الله لأسرة أبناء من الذكور فقط . فالزوجة تحن أن يكون لها ابنة . وإن وهب الحق لأسرة ذرّية مِن الإناث فقط ، فالمرأة والرجل يتمنيان الابن ، وإن أعطاهما الله الذكور والإناث نجدهما قد وصلا إلى الحالة التى تقر بها العيون عادة . والحالة التى تقر بها العيون عادة مؤخرة .

إن الحالة التى تزهد النفس فيها فالحق يقربها إلى أوليات الهبة ، فقال أولاً : « يخلق ما يشاء » ، وبعد ذلك : « يهب لمن يشاء إناثا » ثم ذكر عطاء الذكور ، ثم يأتى بالحالة التى يكون العطاء فيها فى القمة : « أو يزوجهم ذكراناً وإناثاً » .

وأخيراً يأتى بالقَدَر الرابع الذى يجريه على بعض خلقه وهو : « ويجعل من يشاء عقيماً » .

ولماذا يُسر الإنسان بقدرِ الله حينما يهبه الله الإناث أو الذكور ، ويزداد السرور بقدر الله حينما يهبه ـ سبحانه ـ الذكور والإناث . ولماذا لا تُسر إذن أيها الإنسان بقدر الله حينما يجعلك عقيماً ؟ أتعتقد أنك تأخذ القدر الذى تهواه ، وترد القدر الذى ليس على هواك ؟ إن المواقف الأربعة هى قَدَر من الله .

ولو نظر الإنسان إلى كل أمر من الأمور الأربعة لرضى بها .

إنّه سبحانه يخلق ما يشاء ويجعل من يشاء عقيماً ، إن قالها الإنسان باستقبال مطمئن لقدر الله فالله قد يقر عينه كما أقر عيون الآخرين بالإناث أو بالذكور ، أو بالذكور والإناث معاً . وأقسم لكم لو أن إنساناً ـ أو زوجين ـ أخذا قدر الله فى العقم كما أخذاه فى غيره من المواقف السابقة برضا إلا رزقهم الله ، لا أقول ببنين وبنات يرهقونهم فى الحمل والتربية وغيرها ، بل يرزقهم بأناس يخدمونهم ، وقد ربَّاهم

غيرهم ، والذى يجعل الأزواج المفتقدين للإنجاب يعيشون فى ضيق ، هو أنهم فى حياتهم ساخطون على قدر الله ـ والعياذ بالله ـ فيجعل الله حياتهم سخطاً . فهو القائل فى حديثه القدسى :

عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال : قال النبىّ ـ صلى الله عليه وسلم ـ : يقول الله تعالى : (أنا عند ظن عبدى بى ، وأنا معه إذا ذكرنى ، فإن ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى ، وإن ذكرنى فى ملأ ، ذكرته فى ملأ خير منهم ، وإن تقرّب إلىّ بشبر تقربت إليه ذراعاً ، وإن تقرّب إلىّ ذراعا ، تقربت إليه باعا وإن أتانى يمشى ، أتيته هرولة)[1] .

إذن فالحق سبحانه وتعالى يقول : « ولله ما فى السموات وما فى الأرض » فإياك أن تقول كون الله سيضيق عن رزق الرجل المفارق لزوجته أو المرأة المفارقة لزوجها من عطاء الله لهما فما دام سبحانه قد قرر الفراق كحل لعدم توافق فى حياتهما معاً .. فهو سبحانه سيعطى عن سعة للزوج وعن سعة للزوجة . وعليك أيها المسلم أن تطيع منهج الحق كما أطاع كل ما فى السموات وكل ما فى الأرض ، ثم اسأل نفسك هذا السؤال : مَن يقضى مصالحك كلها ؟ .

إنه الحق سبحانه الذى سخر أشياء ليست فى طوق قدرتك ، أأرغمت الشمس أن تشرق لك بالضوء والحرارة ؟ . أأرغمت الماء أن يتبخر وينزل مطراً نقيًّا ؟

أأرغمت الريح أن تهب ؟ أضربت الأرض لتقول لها : غذّى ما أضعه فيك من بذر بالعناصر اللازمة له والمحتاج إليها لينتج النبات ؟ . كل هذا ليس فى طوق إرادتك بل هو مسخر لك بأمر الله . وإن أردت الاستقامة فى أمرك ، لكنت كالمسخر فيما جعل الله لك فيه اختيار ولقلت لله : أنا أحب منهجك يا رب وما يطلبه منى سأنفذه قدر استطاعتى . فتكون بقلبك وقالبك مع أوامر المنهج ونواهيه ، فينسجم ويتوافق الكون معك كما انسجم الكون المسخر المقهور المسير .

« ولله ما فى السموات وما فى الأرض » ، وهذا تذكير بأن كل شىء مملوك لله وفى

---

(١) رواه البخارى فى كتاب التوحيد ، وأخرجه مسلم فى صحيحه بثلاث طرق .

طاعته ، فلا تشذ أيها الخليفة لله عن الكون ، فكل ما فيه يخدمك . ولتسأل نفسك : أتعيش فى ضوء منهج الله أم لا ؟ لأن الكون قد انسجم وهو مسخر لله ، ولم يحدث أى خلل فى القوانين الكلية ، وسبحانه القائل :

﴿ وَالسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ۝ أَلَّا تَطْغَوْاْ فِى الْمِيزَانِ ۝ وَأَقِيمُواْ الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُواْ الْمِيزَانَ ۝ ﴾

(سورة الرحمن)

وهذا إيضاح من الحق تبارك وتعالى : إن أردتم أن تستقيم لكم أموركم الاختيارية فانظروا إلى الكون ، فالأشياء المسخرة لا يحدث منها خلل على الإطلاق ، ولكن الخلل إنما يأتى من اختيارات الإنسان لِغير منهج الله .

« ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله » يوضح سبحانه : لقد وصينا الذين أنزلنا إليهم المنهج من قبلكم ، ووصيناكم أنتم أهل الأمة الخاتمة أن التزموا المنهج بالأوامر والنواهى ؛ لتجعلوا اختياراتكم خاضعة لمرادات الله منكم حتى تكونوا منسجمين كالكون الذى تعيشون فيه ، ويصبح كل شيء يسير منتظماً فى حياتكم ، ولم يقل الحق هذه القضية للمسلمين فقط لكنها قضية كونية عامة جاء بها كل رسول : « ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم » .

ولم يقل : شرعنا للذين أوتوا الكتاب من قبلكم ، ولم يقل : فرضنا ، إنما قال : « ولقد وصينا » . وكلمة « وصية » تشعر المتلقى لها بحب الموصى للموصَى . « ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله » وتقوى الله تعنى أن نفعل أوامر الله وأن نتجنب نواهيه ؛ لنحكم حركة اختياراتنا بمنهج ربنا ، فإن حكمنا حركة اختياراتنا بمنهج الله صرنا مع الكون كأننا مسخرون لقضايا المصلحة والخير .

ومن بعد ذلك يقول الحق : « وإن تكفروا فإن لله ما فى السموات وما فى الأرض وكان الله غنياً حميداً » ومقابل الكفر هو الإيمان ، ومن يخرج عن الإيمان فالله غنى عنه ، فلا تعتقدوا أيها المخاطبون بمنهج الله أننى أستميلكم إلى الإيمان لأنى فى حاجة إلى إيمانكم ، لا ، لكنى أريد منكم فقط أن تكونوا مجتمعاً سليماً ، مجتمعاً سعيداً ، وإن تكفروا فسيظل الملك كله لله ، وستظل حتى ـ ولو كنت متمرداً ـ فى قبضة

مرادات ربك . فلن تتحكم فى مولد أو فى ممات أو فى مقدورات . فالكون ثابت وسليم . وجاء القرآن باللفت إلى انتظام الكون يقول الحق :

﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴿١١﴾ ﴾

(سورة ق)

وفى لحظة من اللحظات يأمر الحق كوناً من كونه فيختل نظامه فترى الأرض المستقرة وقد تزلزلت ، والتى قال عنها سبحانه :

﴿ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ ﴾

(من الآية ١٥ سورة النحل)

وسبحانه هو الذى يملكها فيجعلها تضطرب ويُحدث فى موقع منها زلزالاً ، فتندثر المبانى التى عليه حتى تفهم أن الدنيا ليست محكومة حكماً آلياً ، بل محكومة بالأسباب ، وزمامها مازال فى قيومية المسبب ، ونلتفت مرة إلى بعض من الزوابع من التراب وهى تغلق المجال الجوى كله بحيث لا يستطيع واحد أن ينظر من خلاله ، وهذا لفت من الله لنا يوضح : لقد صنعت هذه القوانين بقدرتى ، ولن تخرج هذه القوانين عن طلاقة قدرتى .

ونرى بلاداً تحيا على أمطار دائمة تغذى الأرض ، فنجد الخضرة تكسو الجبال ولا نجد شبراً واحداً دون خصوبة أو خضرة أو شجر ، وقد يظن ظان أن هذه المسألة أمر آلى ، ويأتى الحق ليجرى على هذه المنطقة قدر الجفاف فيمنع المطر وتصير الأرض الخصبة إلى جدب ، وتنفق وتهلك الماشية ويموت البشر عطشاً ، وذلك ليلفتنا الحق إلى أن المسألة غير آلية ولكنها مرادات مُريد .

وفى موقع آخر من الكرة الأرضية نجد أرضاً منبسطة هادئة يعلوها جبل جميل ،

وفجأة تتحول قمة الجبل إلى فوهة بركان تلقى الحمم وتقذف بالنّار وتجرى الناس لتنقذ نفسها ، ولذلك علينا أن نعرف أن عقل العاقل إنما يتجلى فى أن يختار مراداته بما يتفق مع مرادات الله ، وعلى سبيل المثال . . لم يؤت العقل البشرى القدرة الذاتية على التنبؤ بالزلازل ، لكن الحمار يملك هذه القدرة .

« وإن تكفروا فإن لله ما فى السموات وما فى الأرض وكان الله غنياً حميداً » وصدر الآية بالمقولة نفسها : « ولله ما فى السموات وما فى الأرض » وذلك لتثبيت وتأكيد ضرورة الطاعة لمنهج الله حتى ينسجم الإنسان مع الكون . وتجيء المقولة مرة ثانية فى الآية نفسها ليثبت الحق أنه غنيّ ، ولا تقل إن المقولة تكررت أكثر من مرة فى الآية الواحدة ، ولكن قل : إن الحق جاء بها فى صدر الآية لتثبت معنى ، وجاءت فى ذيل الآية لتثبت معنى آخر ، فسبحانه هو الغنى عن العباد :

﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الكهف)

ومجيء « ولله ما فى السموات وما فى الأرض » لإثبات حيثية أن يطيع العبد خالقه . ومجيء « لله ما فى السموات وما فى الأرض » فى ذيل الآية لإثبات حيثية غنى الله عن كل العباد . والمقولة نفسها تأتى فى الآية التالية حيث يقول سبحانه :

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾ ﴾

ومجيء المقولة لثالث مرة لطمأنة الإنسان أن الله يضمن ويحفظ مقومات الحياة . فلن تتمرد الشمس يوماً ولا تشرق . أو يتمرد الهواء ولا يهب . أو تضن الأرض عليك بعناصرها ؛ لأن كل هذه الأمور مسخّرة بأمر الله الذى خلقك وقد خلقها وقدّر فيها قوتك .

ولذلك يوضح ربنا : أنا الوكيل الذى أكفلكم وأكفيكم وأغنيكم عن كل وكيل .

والوكيل هو الذى يقوم لك بمهامك وتجلس أنت مرتاح البال . والإنسان منا عندما يوكل عنه وكيلاً ليقوم ببعض الأعمال يحسّ بالسعادة على الرغم من أن هذا الوكيل الذى من البشر قد يخطىء أو يضطرب أو يخون أو يفقد حكمته أو يرتشى ، لكن الحق بكامل قدرته يطمئن العبد أنه الوكيل القادر ، فلتطمئن إلى أن مقومات وجودك ثابتة ؛ فسبحانه مالك الشمس فلن تخرج عن تسخيرها ، ومالك المياه ومالك الريح ومالك عناصر الأرض كلها . ومادام الله هو المليك فهو الحفيظ على كل هذه الأشياء . وهو نعم الوكيل ؛ لأنه وكيل قادر وليس له مصلحة .

وتعالوا نقرأ هذا الحديث :

فقد ورد أن أعرابيا جاء فأناخ راحلته ثم عقلها ثم صلى خلف رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فلما صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ أتى راحلته فأطلق عقالها ثم ركبها ثم نادى اللّهم ارحمنى ومحمداً ولا تشرك فى رحمتنا أحداً . فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « أتقولون هذا أضل أم بعيره ألم تسمعوا ما قال ؟» قالوا : بلى ، قال : « لقد حَظرت[1] رحمة واسعة . إن الله ـ عز وجل ـ خلق مائة رحمة فأنزل رحمة يتعاطف بها الخلق جِنّها وإنْسها وبهائمها وأَخَّر عنده تسعاً وتسعين رحمة أتقولون هو أضل أم بعيره »[2] .

هو إذن كفى بالله وكيلاً وهو نعم الوكيل ، وهو يطمئن عباده ويبين أنه ـ سبحانه ـ هو القيوم،وتعنى المبالغة فى القيام ، إذن كل شىء فى الكون يحتاج إلى قائم ؛ لذلك فهو قيوم . ويوضح الحق لكل إنسان : أنِ اجتهد فى العمل وبعد أن تتعب نم ملء جفونك،لأنى أنا الحق لا تأخذنى سنة ولا نوم . فهل هناك وكيل أفضل من هذا ؟ . « وكفى بالله وكيلاً » .

ثم يأتى الحق بحيثية أخرى تؤكد لنا أنه غنى عن العالمين ، فلا يكفى أن يقول : إنه غنى وإنه خلق كل ما فى السموات وما فى الأرض ، وإن كفرت أيها الإنسان فالذنب عليك ، وإن آمنت فالإيمان أمان لك ، وأوضح : إياكم أيها البشر أن تعتقدوا أنكم خُلِقْتُم وشردتم وأصبحتم لا سلطان لله عليكم . لا . فالله سبحانه يقول :

(١) حظرت : منعت وحجرت .

(٢) رواه أحمد وأبو داود .

﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾ ﴾

وبعض الفاقدين للبصيرة من الفلاسفة قالوا : صحيح أن الله قد خلقنا ولكنا خرجنا من دائرة نفوذه . لا ، بل سبحانه إن شاء لذهب بكم جميعاً وأتى بآخرين ، وما ذلك على الله بعزيز ، وهو القائل : « وكان الله على ذلك قديراً » .

حين نقرأ « كان » بجانب كلمة « الله » فهى لا تحمل معنى الزمن ؛ فالله قدير حتى قبل أن يوجد مقدور عليه ، فلم يكن قديراً فقط عندما خلق الإنسان ، بل بصفة القدرة خلق الإنسان ؛ لأن الله سبحانه وتعالى ليس له أغيار ؛ لذلك يظل قديراً وموجودا فى كل لحظة ، وهو كان ولا يزال .

ومن بعد ذلك يقول الحق :

﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾ ﴾

ومادام الرسل قد أبلغوا الإنسان أن عند الله ثواب الدنيا والآخرة فلِمَ الغفلة ؟ ولِمَ لا تأخذ الزيادة ؟، ولماذا نذهب إلى صفقة الدنيا فقط مادام الحق يملك ثواب الدنيا من صحة ومال وكل شيء ، وإن اجتهد الإنسان فى الأسباب يأخذ نتيجة أسبابه . فالحق يقول :

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾ ﴾

(سورة الشورى)

ولم يقل الحق : إن « الآخرة » فى مقابلة للدنيا ؛ وأن من يأخذ الدنيا لن يأخذ الآخرة أو العكس ، بل يريد ـ سبحانه ـ للإنسان أن يأخذ الدنيا والآخرة معاً ، فيا من تريد ثواب الدنيا لا تحرم نفسك بالحمق من ثواب الآخرة . وكلمة « ثواب » فيها ملحظ ؛ فهناك أشياء تفعل لك وإن لم تطلب منها أن تفعل ، وتنتفع بعملها وإن لم تطلب من الأشياء أن تفعل . وهناك أشياء أخرى تنفعل بحركتك ، فإن تحركت وسعيت وعملت فيها تعطك .

مثال ذلك الأرض ، فإن بذرت فيها تخرج الزرع ، واختلافات الناس فى الدنيا تقدماً وتأخراً وحضارة وبداوة وقوة وضعفاً إنما تأتى من القسم الذى ينفعل للإنسان ، لا من القسم الذى يُفْعَل للإنسان . ويسخر له ، وتقدم بعض البشر فى الحضارة إنما جاء لأنهم بحثوا فى المادة والعناصر ، وأنجزوا إنجازات علمية هائلة فى المعامل ، فإن أردت أن تكون متقدماً فعليك أن تتعامل مع العناصر التى تنفعل لك ، والأمم كلها إنما تأخذ حضارتها من قسم ما ينفعل لها ، وهم والمتأخرون شركاء فقط فيما يُفعل لهم ويسخَّر لصالحهم .

وإن أردنا الارتقاء أكثر فى التحضر . . فعلينا أن نذهب إلى ما يُفْعل ويسخّر لنا ونتعامل معه حتى ينفعل لنا . . كيف ؟ .

الشمس تمدنا بالضوء والحرارة ، ونستطيع أن نتعامل مع الشمس تعاملاً آخر يجعلها تنفعل لنا ، مثلما جئنا بعدسة اسمها « العدسة اللاّمة » التى تستقبل أشعة الشمس وتتجمع الأشعة فى بؤرة العدسة ؛ فتحدث حرارة تشعل النار ، أى أننا جعلنا ما يُفْعَل لنا يتحول إلى منفعل لنا أيضاً . ويسمون ذلك الطموح الانبعاثى . والمطر يفعل للإنسان عندما ينزل من السماء فى وديان ، ويستطيع الإنسان أن يحوله إلى منفعل عندما يضع توربينات ضخمة فى مسارات نزوله فينتج الكهرباء .

إذن فحضارات الأمم إنما تنشأ من مراحل . المرحلة الأولى : تستخدم ما ينفعل لها ، والمرحلة الثانية : ترتقى فتستخدم ما ينفعل معها . والمرحلة الثالثة : تستخدم ما يفعل لها كمنفعل لها ؛ مثال ذلك استخدام الطاقة الشمسية بوساطة أجهزة تجمع هذه الطاقة ارتقاءً مع استخدام ما يفعل للإنسان لينفعل مع الإنسان .

وأسمى شيء فى الحضارة الآن هو أشعة الليزر التى تصنع شبه المعجزات فى دنيا الطب . وكلمة « ليزر » مأخوذة كحروف من كلمات تؤدى معنى تضخيم الطاقة بواسطةالانبعاث الاستحثاثى ، فكلمة « ليزر » - إذن - مثلها مثل كلمة « ليمتد » فاللام من كلمة . والياء من كلمة ، والميم من كلمة ، والتاء من كلمة ، والدال من كلمة ، وذلك لتدل على مسمّى .

وترجمة مسمّى « ليزر » هو تضخيم الطاقة عن طريق الانبعاث الاستحثاثى . ففيه انبعاث تلقائى هو مصدر الطاقة الذى يُفعل للإنسان وإن لم يطلبه ، أما الانبعاث الاستحثاثى فينتج عندما يحث الإنسان الطاقة لتفعل له شيئاً آخر . والانبعاث التلقائى متمثل فى الشمس فتعطى ضوءا وحرارة . وعندما جلس العلماء فى المعامل وصمموا العدسة التى تنتج هذه الأشعة أهاجوها وأثاروها وأخذوها ليصنعوا منها طاقة كبيرة . وهكذا أنتجوا أشعة الليزر التى هى تضخيم للطاقة عن طريق الانبعاث الاستحثاثى ، ولأن العنوان طويل فقد أخذوا من كل كلمة حرفاً وكوّنوا كلمة « ليزر » .

إذن فالارتقاءات الحضارية تأتى عن طريق تعامل الإنسان مع القسم الذى ينفعل للإنسان،واستحثاث واستخدام ما يُفعل له بطريقته التلقائية لينفعل معه كأشعة الشمس مثلا .

وجئنا بذكر كل ذلك من أجل أن نستوضح آفاق قول الحق : « من كان يريد ثواب الدنيا » . وكلمة « ثواب » إذن توحى بأن هناك عملاً ، فالثواب جزاء على عمل . فإن أردت ثواب الدنيا ، فلا بد أن تعمل من أجل ذلك . فلا أحد يأخذ ثواب الدنيا بدون عمل .

ومن عظمة الحق ولطفه وفضله ورحمته أن جعل ثواب الدنيا جائزة لمن يعمل ، سواء آمن أم كفر ، ولكنه خص المؤمنين بثواب باق فى الآخرة .

ولذلك يقال:« الدنيا متاع » . ويزيد الحق على ذلك : « فعند الله ثواب الدنيا والآخرة وكان الله سميعاً بصيراً » . ومن الحمق أن يوجد طريق يعطى الإنسان جزاءين ثم يقصر همته على جزاء واحد .

وهنا ملحظ آخر ؛ فحينما تكلم الحق عن ثواب الدنيا ، دل على أنه لا بد من العمل لنأخذ الدنيا ، ولم يذكر الحق ثواباً للآخرة ، بل جعل سبحانه الثواب للاثنين . . الدنيا والآخرة ، إذن فالذى يعمل للدنيا من المؤمنين إنما يأخذ الآخرة أيضاً ؛ لأن الآخرة هى دار جزاء ، والدنيا هى مطية وطريق وسبيل . فكأن كل عمل يفعله المسلم ويجعل الله فى باله . . فالله يعطيه ثواباً فى الدنيا ، ويعطيه ثواباً فى الآخرة .

ويذيل الحق الآية : « وكان الله سميعاً بصيراً » ـ إذن ـ فثواب الدنيا والآخرة لا يتأتى إلا بالعمل ، والعمل هو كل حدث يحدث من جوارح الإنسان ، القول ـ مثلاً ـ حدث من اللسان ، وهو عمل أيضاً ، والمقابل للقول هو الفعل . فالأعمال تنقسم إلى قسمين : إلى الأقوال وإلى الأفعال . ولتوضيح هذا الأمر نقرأ قول الحق :

﴿ كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ ﴾

(سورة الفجر)

وعندما سمع الأغنياء هذا القول عرفوا سلوكهم ، ولما سمع الفقراء هذا القول ، كأنهم قالوا : نحن لا نملك ما نطعم به المسكين ، فكان فى قوله تعالى : « ولا تحاضون على طعام المسكين » ما يوضح لهم الطريق إلى العطاء : أى حضوا غيركم على العطاء . أى أن الذى لا يملك يمكنه أن يكلم الغنى ليعطى المسكين ، والحض هو كلام . والكلام نوع من العمل .

والحق سبحانه وتعالى يستنفر المؤمنين لينصروا دين الله فيقول :

﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ ﴾

(سورة التوبة)

هو سبحانه أعفى الضعفاء والمرضى والذين لا يجدون ما ينفقون فى القتال وأسقطه عنهم ولم يحاسبهم عليه ، ولكن فى الآية نفسها ما يحدد المطلوب من هؤلاء ، وهو أن ينصحوا لله ورسوله . إذن فغير القادر يمكنه أن يتكلم بفعل الخير ويذكر به الآخرين

وينصح به ، هذا هو معنى قول الحق : « وكان الله سميعاً بصيراً » فسبحانه يسمع قول مَن لا يستطيع ولا يملك القدرة على سلوك ما ، وسبحانه بصير يرى صاحب كل سلوك .

إذن فثواب الدنيا يحتاج إلى عمل ، والعمل هو انفعال كل جارحة بمطلوبها ، فاللسان جارحة تتكلم ، واليد تعمل ، وكل جوارح الإنسان تعمل ، لكن ما عمل القلوب ؟ عمل القلوب لا يُسمع ولا يُرى ، ولذلك قال الحق عن إخلاص القلب فى حديث قدسى :

(الإخلاص سرّ من أسرارى استودعته قلب من أحببت من عبادى)[1] .

وهكذا نعرف أن نية القلوب خاصة بالله مباشرة ولا تدخل فى اختصاص رقيب وعتيد وهما الملكان المختصان برقابة وكتابة سلوك وعمل الإنسان ، ولذلك نجد الحق يصف ذاته فى مواقع كثيرة من القرآن بأنه لطيف خبير ، لطيف بعلم ما يدخل ويتغلغل فى الأشياء ، وخبير بكل شىء وقدير على كل شىء . ونجد الحديث الشريف يقول لنا :

(إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى . فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه)[2] .

فالعمل يكون بالجوارح ، ومن الجوارح اللسان ، وحتى نضبط هذه المسألة لنفرق ما بين الفعل والعمل . نقرأ ونفهم هذه الآية :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ ﴾

(سورة الصف)

ونجد المقابل للقول هو الفعل . والكل عمل . ويأتى نوع آخر من الأعمال ، لا هو قول ولا هو فعل ، وهو « النية القلبية » . وعندما يقول الحق : إنه كان سميعاً بصيراً ، فالمعنى أنه سميع للقول ، وبصير بالفعل .

---

(١) رواه أبو القاسم القشيرى فى الرسالة من حديث على بن أبى طالب بسند ضعيف ، والأيات القرآنية والأحاديث الصحيحة كثيرة فى هذا الباب .

(٢) رواه البخارى ومسلم وغيرهما من أصحاب السنن .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾ ﴾

وساعة ينادى الحق عباده المؤمنين قائلاً : يا أيها الذين آمنوا ، فكأنه يقدم حيثية الحكم الذى يأتى بعده ، ونحن نرى القضاء البشرى قبل أن ينطق بمنطوق الحكم ، يورد حيثيته ، فيقول : « بما أن المادة القانونية رقم كذا تنص على كذا ، حكمنا بكذا » . إذن : فالحيثيات تتقدم الحكم . وحيثيات الحكم الذى يحكم به الله هى الإيمان به ، مثل قول الحق :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ ﴾

(من الآية ١٨٣ سورة البقرة)

حيثية الكتابة هنا وفى أى حكم آخر هى إيمان العبد بالله رباً ، فليسمع العبد من ربه . وسبحانه لا يكلف كل الناس بالتكاليف الإيمانية ، ولكنه يكلف المؤمنين فقط . وهو يقول : « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط » فالمؤمن يدخل على الإيمان بقمة القِسط ، فالقسط هو العدل ، والعدل أن يعطى العادل كل ذى حق حقه . وحق الإله الواحد أن يؤمن به الإنسان ويعترف أنه إله واحد .

إن قمة القِسط ـ إذن ـ هى الإيمان . ومادام المؤمن قد بدأ إيمانه بقمة القِسط وهو الإيمان ، فليجعل القِسط سائداً فى كل تصرفاته . وإياك أن تجعل القسط أمراً أو حدثاً يقع مرة وينتهى ، وإلا لما قال الحق مع إخوانك المؤمنين : « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط » .

ولم يقل الحق لك مع إخوانك المؤمنين : كونوا قائمين بالقسط ، بل قال « كونوا قوّامين بالقسط » أى أن المطلوب هو الاستمرارية للسلوك العادل . فنحن نقول : « فلان قائم » و« فلان قَوَّام » . ونعرف أن كلمة « قَوَّام » هى صيغة مبالغة . وعلى ذلك يكون الأمر الإلهى لكل مؤمن : لا تقم بالقسط مرة واحدة فقط ، بل اجعله خصلة لازمة فيك ، ولتفعل القسط فى كل أمور حياتك . والقِسط كما علمنا من قبل فى ظاهر أمره هو العدل ، وأيضاً الأقساط هى العدل .

وقد أحدثت كلمة « القسط » ضجة عند العلماء ، وقلنا تعليقا على ذلك : إن المسألة يسيرة . . فقسط يقسُط قسوطاً أى جار وظلم ، فإذا أذهب الإنسان الجور والظلم يقال:« أقسط فلان » أى أذهب الجور . إذن : « القِسط ـ بكسر القاف ـ هو العدل الابتدائى ، لكن الإقساط هو عدل أزال جوراً كان قد وقع .

وهب أن أناساً جاءوا لقاضٍ فحكم بينهم بالعدل ، فهذا هو القِسط ، وقد يستأنف أحد الطرفين حكم المحكَمة الابتدائية ووجدت محكمة الاستئناف خطأ فى التطبيق فأصدرت حكماً بإزالة الجور ، وهذا الحكم الذى من الدرجة الثانية اسمه إقساط . وهكذا ينتهى جدل العلماء حول هذه المسألة ، فالقِسط عدل من أول درجة ، والإقساط يعنى أنه كان هناك جور فرُفع ، لأنه مسبوق بهمزة اسمها « همزة الإزالة » ، فيقال : أعجم الكتاب . أى أن الكتاب كان فيه عجمة ، أى كان بالكتاب شيء مستتر وخفيّ عليهم فأزال ما به من عجمة . وتسمى قواميس اللغة « المعاجم » والواحد معجم أى يعطى معانى الألفاظ فيزيل خفاءها . وكذلك معنى « أقسط » أى أزال الجور .

والحق يقول : « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط » فأنت أيها المؤمن قد فعلت بالعقل أول مرتبة فى القسط ؛ ورددت الإيمان إلى الرب فهو المستحق له وعليك إشاعة كل القسط فى كل سلوكك .

« كونوا قوامين بالقسط شهداء لله » ولا يكفى أن يكون المؤمن قائماً بالقسط فقط ، بل لابد أن تكون الشهادة لله . لماذا ؟ .

هب أن رجلاً كافراً بالله ـ والعياذ بالله ـ ويقيم العدل بين الناس لكنه لا يدخل

بذلك العدل فى حيثية الإيمان ، فالذى يدخل فى حيثية الإيمان يكون قائماً بالقسط وفى باله الله وبذلك تكون الشهادة وإقامة حقوق الله لا لمنفعةٍ ولا لغايةٍ ولا لهوى ولا لغرضٍ ، وإنما ليستقيم كون الله كما أراد الله ، وإلا لو حكم أحد بهوى لفسدت الأرض ، والحق يقول :

﴿ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ﴾

(من الآية ٧١ سورة المؤمنون)

لذلك لا بد أن يكون المؤمن قوّاماً بالقسط وفى باله الله ، ولذلك فالقيام بالقسط وحده لا يكفى ، ونحن نسمع : فلان عادل ولو أنه من ديانة أخرى غير الإسلام أو كان ملحداً . ونقول : هذا العادل من أى دين أو عقيدة غير الإسلام يأخذ ثناء البشر لكنه لا يأخذ ثناء الله ولا ثوابه ، ولذلك فالقوّام بالقسط يجب أن يفعل بقصد امتثال أمر الله لينال الثواب من الله .

« كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم » والشاهد فى العادة هو من يشهد لمصلحة واحد ضد آخر ، وعندما يقر الشاهد بذنب فهو قد شهد على نفسه ، والشاهد لمصلحة واحد إنما يفعل ذلك ليرجح الحكم ، والشاهد على نفسه يقر بما فعل ، والإقرار سيد الأدلة . وشهادة الشاهد تقدم للقاضى الدليل الذى يرتب عليه الحكم . وهكذا يشهد المؤمن على نفسه .

وهناك معنى آخر : أنه يشهد على نفسه ولو كانت الشهادة تجر وبالا عليه ، وهذه المعانى من معطيات الإشعاعات القرآنية ؛ فالمؤمن يشهد على نفسه للإقرار ، وقد لا تكون الشهادة على النفس بل قد تكون الشهادة واجبة عليه يؤديها لمصلحة غيره ولا يخاف فيها الشاهد من السلطان حتى وإن جار السلطان على المؤمن وأصابه بوبال فى نفسه أو ماله ، ومن الناس من أصابه وبال فى نفسه أو أهله من السلطان لمجرد كلمة حق قيلت . فالسلطان قد لا يأخذ الإنسان بذنبه ، بل قد يأخذ أهل الإنسان بهذا الذنب . والحق يوضح للعبد : لا تهتم بذلك ولا تقولن سيعذبون العيال أو سيأخذون كل شىء ، إننى أنا الموجود المتكفل بعبادى .

ويطلب الحق من المؤمنين : « كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو

الوالدين والأقربين » . وحين يشهد الإنسان على نفسه فلن يكون أبوه أو أمه أو أحد أقاربه أعز منه .

ثم يدخل بنا الحق إلى أن استحثاثات مخالفة العدالة تدخل فيها الأهواء ، وحين يرجح إنسان الباطل غير الواقع على حق واقع ، فالمرجح هو هوى النفس ، ومنشأ الهوى أن يكون المشهود عليه غنياً فيخاف الإنسان أن يشهد عليه ، فيمنعه من خير ما .

ولذلك حدد الحق قوامة المؤمنين بالقسط والشهادة لله ولو على النفس أو الأب أو الأم أو الأقارب ، ولا يصح أن يضع أحد من المؤمنين ثراء أو فقر المشهود له أو عليه في البال ، بل يجب أن يكون البال مع الله فقط ؛ لذلك قال : « إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا » .

وقد يقول قائل : إن الهوى قد ينحاز إلى الغنيّ طمعاً في ثرائه ؛ فلماذا يذكر الله الفقير أيضاً ؟ ونقول : قد ينحاز الهوى إلى الفقير رحمةً بالفقير فيحدِّث الشاهد نفسه « أنه فقير ويستحق الرحمة » ؛ لذلك يحذرنا الحق من الانحياز إلى الغنى أو إلى الفقير .

ولا دخل للشهادة بثراء الثرى أو بفقر الفقير ؛ لأن العبد المؤمن ليس أولى أو أحق برعاية مصالح الناس من خالقهم - جل شأنه - ولذلك جاء بالحيثية الملجمة « فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا » أى أنك أيها العبد لم تخلق أحداً منهما ولكن الله خالق الاثنين وهو أولى بهما فليس لك أن تقيم شهادتك على الثراء أو على الفقر لأنك لست القَيِّم على الوجود .

والذى يفسد ويشوش على العدل هو الهوى ، والمثل العربى يقول : «آفة الرأى الهوى» . وإياكم أيها المؤمنون واتباع الهوى حتى لا تفسد قدرتكم على العدل وتجنحوا بعيداً عنه . والتاريخ العربى يحتفظ لنا فى ذاكرته حكاية رجل فاضل ذهب إلى الخليفة وقال له : أعفنى من القضاء ! فقال الخليفة : فمن يكون للقضاء إذن وأنت العادل الذى شهد له كل الناس بذلك ؟

فقال القاضي : والله يا أمير المؤمنين لقد عرف الناس عني أني أحب الرُّطب - أي البلح - وبينما أنا في بيتي وإذا بالخادم قد دخل ومعه طبق من رطب وكنا في بواكير الرطب ، ومن الطبيعي أن تكون النفس في لهفة عليه مادامت تحبه ، ويتابع القاضي حكايته للخليفة : فقلت للخدام من جاء به ؟ فأجاب الخادم : إنه واحد صفته كذا وكذا فتذكرت أن مَن أرسل الرطب هو واحد من المتقاضين أمامي ، فرددت عليه الرطب ، ولما كان يوم الفصل في قضية صاحب الرطب ، دخل الرجل عليّ فعرفته فوالله يا أمير المؤمنين ما استويا في نظري هو وخصمه على الرغم من أني رددت الطبق . وهكذا استقال القاضي العربي المسلم من منصب القضاء .

ويتابع الحق سبحانه : « وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً » . أن تلووا في الشهادة واللّيّ هو التحريف . . أي تحرفوا الشهادة وتغيروها ، فإن الله بما تعملون خبير ، أو أن يُعْرِض الشخص عن أداء الشهادة لأنه يخاف من المشهود عليه ، لذلك يقال : إنه خائف من المشهود عليه ؛ لأن الشهادة ترجح حكم المشهود له ؛ لهذا فهو يعرض عن الشهادة ، وإن جاء للشهادة فهو يلف الكلمات ويلوى لسانه بها ؛ لذلك يقول الحق : « وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً » .

إذن فالذي يفسد العدل هو الهوى ، والهوى عمل القلب ؛ لذلك نحتاج إلى خبرة الخبير اللطيف . فعلينا أن نعلم أن النيات عمل القلوب ، وبذلك صار العمل ينقسم الآن أمامنا إلى ثلاثة أقسام : قول لسان ، وفعل بجوارح غير اللسان ، ونيات قلوب وهوى .

ومن بعد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ

وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾

وقد يقول إنسان ما : كيف يقول الحق فى صدر هذه الآية منادياً المؤمنين بالإيمان فقال : آمنوا ، وبعد ذلك يطالبهم بأن يؤمنوا ؟ ونقول : نرى فى بعض الأحيان رجلاً يجرى كلمة الإيمان على لسانه ويعلم الله أن قلبه غير مصدق لما يقول ، فتكون كلمة الإيمان هى حق صحيح ، ولكن بالنسبة لمطابقتها لقلبه ليست حقاً . وتعرضنا من قبل لقول الحق :

﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴿١﴾﴾

(سورة المنافقون)

لقد شهد المنافقون أن رسول الله مرسل من عند الله ، هذه قضية صدق ، لكن الله العليم بما فى القلوب يكشف أمرهم إلى الرسول فيقول :

﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾

(من الآية ١ سورة المنافقون)

لقد وافقت شهادتهم بألسنتهم ما علمه الله . لكن القول منهم يخالف ما فى قلوبهم ، فشهد الحق إنهم لكاذبون . ويعلم سبحانه كذبهم فى شهادتهم ؛ لأن المنافق منهم لم يشهد صحيح الشهادة ؛ لأن الشهادة الحقة هى أن يواطىء اللسانُ القلبَ . وبعض من الأغبياء الذين يحاولون الاستدراك على القرآن قد عميت بصيرتهم عن الإحساس باللغة والفهم لأسرارها ، لذلك يتخبطون فى الفهم . فهم لا يعرفون صفاء التلقى عن الله . وقالوا : إن بالقرآن تضارباً ، ولم يعرفوا أن كذب المنافقين لم يكن فى مقولة: إن محمدًا رسول الله، ولكن فى شهادتهم بذلك ، وكذبهم الله فى قولهم: « نشهد » فقط ، فقد أعلنوا الإيمان بألسنتهم ولم تؤمن قلوبهم .

وإن أردنا أن نفهم أن الخطاب للمؤمنين عامة ، بأن يؤمنوا ، فهذا طلب للارتقاء

بمزيد من الإيمان ، ولنا فى قول الحق المثل الواضح فى حديثه للنبى ؛ قال الحق :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾ ﴾

(سورة الأحزاب)

الحق هنا يقول للمتقى الأول محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اتق الله » ، أى يأمره بالقيام دائماً على التقوى .

إذن فمعنى قول الحق : « يا أيها الذين آمَنُوا آمِنُوا » أن الحق يخاطبكم بلفظ الإيمان . ويريد أن يتصل إيمانكم بعد كلامه الحق مع إيمانكم قبل كلامه ، فلا ينقطع ولا ينفصم خيط الإيمان أبداً . بل لا بد من المداومة على الإيمان ، وألا يترك مؤمن هذا الشرف . فإن رأى واحد منكم منادًى بوصف طُلِب منه الوصفُ بعده فليعلم أن المراد هو المداومة .

ونعلم أن الحق هنا يخاطب مؤمنين ومنافقين وأهل كتاب ؛ لذلك فلا بد أن تشملهم الآية : « يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله » لأن الإنسان إن آمن بالله فقط ، فهذا يقتضى أن يبحث المؤمن بالله عن مطلوب الله ، ومطلوب الله إنما جاء به رسول ، لذلك فالإيمان بالله يقتضى أن يؤمن الإنسان برسول ، لأن قصارى ما يعطيك العقل أيها الإنسان أن تؤمن بأن وراء الكون إلهاً خلقه ويدبره . ولكن ما اسم هذا الإله ؟ لا يعرف الإنسان ذلك إلا عن طريق الرسول .

إن هذه أمور لا تعرف بالعقل ولكن لا بد من الإخبار بها ، وكذلك مطلوبات الله ، وكذلك جزاء المؤمنين على حسن إيمانهم ، ولذلك لا بد من مجىء رسول للبلاغ .

إذن فلا بد مع الإيمان بالله أن تؤمن بالرسول . ومادمت أيها المؤمن قد آمنت برسوله فلا بد أن تؤمن بالكتب التى جاءت على لسان الرسول . وهذه الكتب تقول لك : إن هناك خلقاً لله لا تراهم وهم الملائكة ، والمَلَكُ يأتى بالوحى وينزل به على الرسول ، على الرغم من أنك لم تر الملك فأنت تؤمن بوجوده .

إذن فالقمة الإيمانية هى أن تؤمن بالله ، ولازمها أن تؤمن برسول الله ، وأن تؤمن

بكتاب مع الرسول ، وأن تؤمن بما يقوله الله عن خلق لا تستطيع أن تدركهم كالملائكة . وهذا الأمر بالإيمان هو مطلوب من أهل الكتاب لأنهم آمنوا برسلهم ، ويطلب منهم أن يؤمنوا برسول الله وبما أنزل عليه .

ويترك الحق سبحانه وتعالى لخلقه أن يكتشفوا وجوداً لكائنات لم تكن معلومة لأنهم حُدِّثوا بأن فى الكون كائنات أبلغنا الله بوجودها ولا ندركها وهم الملائكة . ـ إذن ـ فالدليل عندهم يحثهم ويدفعهم إلى الكشف والبحث .

والمثال على ذلك الميكروب الذى لم تعرفه البشرية إلا فى القرن السابع عشر الميلادى ، وكان الميكروب موجوداً من البداية ، لكننا لم نكن ندركه ، وبعد أن توصلت البشرية إلى صناعة المجاهر أدركناه وعرفنا خصائصه وفصائله وأنواعه ، ومازالت الاكتشافات تسعى إلى معرفة الجديد فيه ، هو جديد بالنسبة لنا ، لكنه قديم فى وجوده .

ومعنى ذلك أن الله يوضح لنا : إذا حُدثتَ أيها الإنسان من صادق على أن فى الكون خلقاً لا تدركه أنت الآن فعليك بالتصديق ؛ فقبل اكتشاف الميكروب لو حدث الناسَ أحدٌ بوجود الميكروب فى أثناء ظلام العصور الوسطى لما صدقوا ذلك ، على الرغم من أن الميكروب مادة من مادة الإنسان نفسها لكنه صغير الحجم بحيث لا توجد آلة إدراك تدركه . وعندما اخترعنا واكتشفنا الأشياء التى تضاعف صورة الشيء مئات المرات استطعنا رؤيته ، فعدم رؤية الشيء لا يعنى أنه غير موجود .

فإذا ما حدثنا الله عن خلق الملائكة والجن والشيطان الذى يجرى فى الإنسان مجرى الدم ، فهنا يجب أن يُصدق ويؤمن الكافر والملحد بذلك ، لأنه يُصدق أن الميكروب يدخل الجسم دون أن يشعر الإنسان ، وبعد ذلك يتفاعل مع الدم ثم تظهر أعراض المرض من بعد ذلك ، وقد علم ذلك بعد أن تهيأت أسباب الرؤية والعلم . فإذا كان الله قد خلق أجناساً من غير جنس مادة الإنسان فلنصدق الحق :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ

﴿ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ﴾

(من الآية ١٣٦ سورة النساء)

والمعروف أن الكتاب هو القرآن وهو عَلَمٌ عليه ، أما الكتاب الذى أنزل من قبل فلنعرف أن المراد به هو جنس الكتاب . . أى كل الكتب التى نزلت على الرسل السابقين على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولذلك يقال على « الـ » السابقة لكلمة الكتاب الثانية : « هى « الـ » الجنسية . والجنس كما نعلم ـ تحته أفراد كثيرة بدليل أن الحق سبحانه وتعالى يأتى بالمفرد ويدخل عليه الألف واللام ويستثنى منه جماعة ، مثال ذلك :

﴿ وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾

(سورة العصر)

نجد « الإنسان » هنا مفرد ، ودخلت عليه « الـ » ، واستثنى من الإنسان جماعة هم الذين آمنوا ، وهذا دليل على أن « الإنسان » أكثر من جماعة . ولذلك يقولون : إن الاستثناء معيار العموم . . أى أن اللفظ الذى استثنينا وأخذنا وأخرجنا منه لفظ عام .

ويطالبنا الحق بالإيمان بالكتاب أى القرآن ؛ فإذا أطلقت كلمة « الكتاب » انصرفت إلى القرآن ؛ لأن « الـ » هنا (للغلبة) ، مثال ذلك : يقال : « هو الرجل » ، وهذا يعنى أنه رجل متفرد بمزايا الرجولة وشهامتها وقوتها ، فإذا أطلقنا الكتاب فهى تعنى القرآن ؛ لأن كلمة الكتاب غلب إطلاقها على القرآن فلا تنصرف إلّا إليه ، أو أنه هو الكتاب الكامل الذى لا نسخ ولا تبديل له ، فـ« الـ » هنا للكمال أما الكتاب الذى أنزل من قبل فهو يشمل التوراة والإنجيل وسائر الكتب ، والصحف المنزلة على الأنبياء السابقين .

« ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالاً بعيداً » أى إن آمن بالله وكفر ببقية ما ذكر فى الآية فهو كافر أيضا .

وكان بعض اليهود كعبدالله بن سلام ، وسلام بن أخته ، وسلمة بن أخيه ،

وأسد وأسيد ابنى كعب ، وثعلبة بن قيس ، ويامين بن يامين قد ذهبوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا : نحن نؤمن بك وبكتابك وموسى والتوراة وعزير، ونكفر بما سواه من الكتب والرسل ، فقال عليه الصلاة والسلام : « بل آمنوا بالله ورسوله محمد وكتابه القرآن وبكل كتاب كان قبله » فقالوا : لا نفعل . فنزلت فآمنوا كلهم[1] .

والخطاب والنداء يشمل أيضا المنافقين . أى يأيها الذين آمنوا فى الظاهرنفاقا ، أخلصوا لله واجعلوا قلوبكم مطابقة لألسنتكم ، فالنداء ـ إذن ـ يشمل المؤمنين ليستديموا ويستمروا على إيمانهم ، ويضم الكافرين من أهل الكتاب ليؤمنوا بكل رسول وبكل كتاب ، وهو أيضا للمنافقين ليخلصوا فى إيمانهم حتى تطابق وتوافق قلوبهم ألسنتهم .

إذن فمن يكفر بأى شيء ذكره الله فى هذه الآية فقد كفر بالله .

« ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالاً بعيداً » و« ضل » أى سار على غير هدى ، فعندما يتوه الإنسان عن هدفه المقصود يقال : ضل الطريق ، والذى « ضل ضلالاً بعيداً » هو من يذهب إلى متاهة بعيدة ، والمقصود بها متاهة الكفر .

وهناك ضَلال عن الهدى يمكن استدراكه ، أما الضلال البعيد والغرق فى متاهة الكفر فمن الصعب استدراكه ، والضُلَّال متحدون فى نقطة البداية ، لكنهم فريقان يختلفان ، فأحدهما يسير فى طريق الإيمان وهو منتبه دائماً إلى غايته وهى رضاء الله بتطبيق مطلوباته ، ويحذر أن يخالف عن أمره ، والآخر انحرف من البداية فوصل إلى متاهة الكفر .

ويقول الحق من بعد ذلك :

---

(١) الكشاف لجار الله الزمخشرى .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا ﴿١٣٧﴾ ﴾

وهؤلاء هم المنافقون الذين أعلنوا الإيمان وأبطنوا الكفر وقال الله عنهم :

﴿ وَقَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ءَامِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا ءَاخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

إذن ، هم حولوا الإيمان من عقيدة إلى مجرد كلمة تقال ، وكانوا فى غاية الحرص على تأدية مطلوبات الإسلام بالأعمال الظاهرية حتى يدفعوا عن إسلامهم الريبة . أما قلوبهم فهى مع الكفر ؛ لذلك أرادوا أن يُلَبِّسوا فى المنطق ويُدَلِّسُوا فيه .

﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾

(من الآية ١٤ سورة الحجرات)

ويفضحهم الحق أمام أنفسهم . وبالله عندما يعرفون أنهم مجرد مسلمين باللسان ولكن قلوبهم لم تؤمن ويخبرهم الرسول بذلك ويقول لهم بلاغاً عن الله : « قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم » . وكانوا أسبق الناس إلى صفوف الصلاة ، وعندما فضحهم الرسول وأوضح لهم : أنتم لم تؤمنوا ولكنكم أسلمتم فقط . هنا عرفوا أن محمداً قد عرف خبايا قلوبهم بلاغاً عن الله .

ولو قالوا : إن محمداً هو الذى عرف هذه الخبايا لما اقتصر اعترافهم به كرسول ، بَلْ رُبَّما تمادوا فى الغىّ وأرادوا أن يجعلوه إلهاً . ولكن رسول الله يحسم الأمر : ويبيّن لهم أن الله هو الذى أبلغنى ، بدليل أنه أمِر أن يقول لهم : « قل لم تؤمنوا » .

ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقر بأن هذا الأمر ليس فيه شيء من عنده بل هو مأمور بالبلاغ عن الله ربّه . وفى عصرنا قال برنارد شو : إن الذين يكذبون أن محمداً رسول من عند الله يريدون أن يجعلوه إلهاً ، فمن أين أتى بهذه الأشياء التى لم تكن معلومة فى عصره ؟ . .

إن الناس جميعا مطالبون بالتصديق بمحمد رسولاً من عند الله ؛ لأنه قال عن أشياء لا يمكن أن يقولها واحد من البشر . والرسول صلى الله عليه وسلم بذاته يوضح بحسم هذا الكلام ويبيّن أن هذا ليس من عندى ، لكنه من عند الله .

« قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم » . وهذا كشف محرج ومنطقى لما فى قلوبهم ؛ لهذا قال السامعون للآية : الحمد لله أن هناك أملاً فى أن يدخل الإيمان قلوبنا . وقد دخل الإيمان فى قلوبهم بالفعل لأن كلمة (لمّا) تفيد نفى الإيمان عنهم فى الزمن الماضى ولكنها تفيد أيضا توقع وحصول الإيمان منهم وقد حصل .

« إن الذين آمنوا ثم كفروا ، ثم آمنوا ثم كفروا ، ثم ازدادوا كفراً » أى ماتوا على الكفر ، أو آمنوا بموسى ، ثم كفروا بعيسى ، وجاء أناس آخرون آمنوا بعيسى ، وازدادوا كفراً بعدم الإيمان بمحمد ، فليس من بعد محمد صلى الله عليه وسلم استدراك .

ويخبرنا سبحانه بمصيرهم : « لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلاً » لأنهم دخلوا فى الإيمان مرة ثم خرجوا من الإيمان . ومعنى سلوكهم أنهم قصدوا الفتنة لأن الآخرين سيشاهدونهم وقد آمنوا ، وسيشاهدونهم وهم يكفرون ، وسيعللون ذلك بأنهم عندما تعمقوا فى المسائل العقدية كفروا وهم يفعلون ذلك ليهوّنوا من شأن الإسلام ، ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

هم إذن يقصدون الفتنة بإظهار الإيمان ثم إعلانهم الكفر وفى ذلك تشكيك للمسلمين ، ويكون مصير مَن تردّدَ بَيْنَ الإيمان والكفر ، وكان عاقبة أمرهم أنهم ازدادوا كفرا يكون مصيرهم ما جاء فى قوله : « لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلاً » فهم قد دخلوا فى الخيانة العظمى الإيمانية التى يحكمها قوله الحق :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾

(من الآية ٤٨ سورة النساء)

ويقول الحق عنهم هنا : « لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلاً » . والهداية ـ كما نعلم ـ ترد بمعانٍ متعددة . . فقد يكون المقصود منها الدلالة ، فإن شئت تدخل الإيمان وإن شئت لا ، ولا شأن لأحد بك . والمعنى الثانى هو المعونة ، أى يقدم لك الله ما يهديك بالفعل . وعندما تعرض القرآن لهذه المسألة قال :

﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ ﴾

(سورة فصلت)

فسبحانه هنا قد دلهم على الهداية ، ولم يقدم لهم الهداية الفعلية لأنهم استحبوا العمى على الهدى ، فكأن الله قد دل على المنهج الذى يوصل الخير والبر لكل الناس ، فمن أقبل بإيمان فالحق يمده بهداية المعونة ويعاونه على ازدياد الهدى ، مصداقاً لقوله :

﴿ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴾

(من الآية ١٣ سورة الكهف)

ولا نريد لهذا المثل أن يغيب عن الأذهان ؛ لذلك أؤكده دائما : شرطى المرور الواقف فى بداية الطريق الصحراوى . يسأله سائل : ذاهب إلى الإسكندرية عن الطريق ؛ فيدله على الطريق الموصل للإسكندرية ، هنا قام الشرطى بالدلالة ، ثم شكر الرجلُ الشرطيَّ وحمد الله على حسن شرح الشرطى ؛ ويحس ويشعر رجل المرور بالسعادة ، ويحذر الرجل المسافر من عقبات الطريق ، ويركب معه ليشير له على تلك العقبات حتى يتفاداها . أى أنه من بعد الدلالة قد حدثت المعونة . كذلك الحق يدل الناس على الإيمان وعلى المنهج ، فالذى يؤمن به يساعده ويخفف عليه

الطاعة ، قال الحق سبحانه فى شأن الصلاة :

﴿ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَـٰشِعِينَ ﴾

(من الآية ٤٥ سورة البقرة)

إذن نحن نجد الهداية على مرحلتين : هداية الدلالة ، وهداية المعونة .

ويريد الحق لقضية الإيمان أن تكون قضية ثابتة متأصلة بحيث لا تطفو إلى العقل لتناقش من جديد . فمبدأ الإيمان لا يتغير فى مواكب الرسالات من سيدنا آدم إلى أن ختمها بسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم .

وقال سبحانه :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾ ﴾

(سورة النساء)

إذن سبحانه يريد من المؤمن أن يؤمن بالقمة العليا ، وهى الإيمان بالله واجب الوجود الأعلى ، وأن يؤمن بالبلاغ عنه كتاباً ، وأن يؤمن بالبلاغ عنه رسالة على لسان أى رسول . والذين يؤمنون مرة برسول ثم يكفرون برسول آخر ، أو الذين يؤمنون برسول ثم يكفرون بنسبة الصاحبة أو الولد لله ثم يزدادون كفراً بالخاتم وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس لهم مجال مع الهداية إلى الله ؛ لأن الإسلام جاء بالنهاية الخاتمة وليس للسماء من بعد ذلك استدراك ، وليس لأحد من بعد ذلك استدراك ، ولذلك قال فى أول الآية : « آمنوا ثم كفروا . ثم آمنوا . ثم كفروا » . وقال فى آخر الآية: « ثم ازدادوا كفرا » أى أنهم لم يؤمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم وليس هناك مجال أن ينتظروا رسولاً آخر لينسخوا كفرهم بمحمد ويؤمنوا بالرسول الجديد .

ويوضح سبحانه : لم يكن الله ليهديهم لأنهم هم الذين صرفوا أنفسهم عنه ، فالله لا يمنع الهداية عمن قدم يده ومدّها إليه ، بل يعاونه فى هدايته ، أما من ينفض يده من يد الله فلا يبايعه على الإيمان فالله غنى عنه ، ومادام الله غنياً عنه فسيظل فى ضلاله ؛ لأن الهداية لا تكون إلا من الله . ولم يكن الله ليهديهم سبيلاً إلى هداية

أخرى ولا هادى إلا هو . ولم يكن الله ليهديهم سبيلاً إلى الجنة ؛ لأنهم لم يقدموا الأسباب التى تؤهلهم للدخول إلى الجنة .

ولذلك يشرحها الله فى آية أخرى :

﴿ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴾

(من الآية ١٦٨ ومن الآية ١٦٩ سورة النساء)

وهكذا نجد طريق جهنم معبداً مُذَلَّلاً بالنسبة لهم .

وبعد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ﴾

سمة التردد والتذبذب بين الإيمان والكفر لا تأتى من أصيل فى الإيمان ، بل تأتى من متلون فى الإيمان ، تبدو له أسباب فيؤمن ، وبعد هذا تبدو له أغيار فيكفر . وذلك شأن المنافقين المذبذبين بين هؤلاء وهؤلاء . فيقول الحق : « بشر المنافقين بأن لهم عذاباً أليماً » .

ونحن نعلم أن المنافق هو الذى جمع بين أمرين : إعلان إسلام ، وإبطان كفر . والنفاق مأخوذ من نافقاء اليربوع ، وهى إحدى جحوره التى يستتر ويختفى فيها ، واليربوع حيوان صحراوى يخادع من يريد به شراً فيفتح لنفسه بابين ؛ يدخل أمام الرجل من باب ثم يخرج من باب آخر . فإن انتظره الرجل على باب فاليربوع يخرج من الآخر .

« بشر المنافقين » والبشارة هى الإخبار بشىء يسر سيأتى زمنه بعد . وهل المنافقون يبشرون ؟ لا . إن البشارة تكون بخير ؛ لذلك نتوقع أن ينذر المنافقون ولا يبشرون ، ولكن لله فى أساليبه البلاغية تعبيرات لتصعيد العذاب . فلو قال :

أنذرهم بعذاب أليم ، لكان الكلام محتملاً ، فهم ـ كمنافقين ـ مستعدون لسماع الشر . ولكن الحق يقول : « بشر المنافقين بأن لهم عذاباً أليماً » وذلك هو التهكم والاستهزاء والسخرية ، وهى من معينات البليغ على أداء مهمته البلاغية . ونسمع المفارقات أحياناً لتعطينا صورة أصدق من الحقيقة . فإذا جئت إلى بخيل مثلاً ، وقلت له : مرحباً بك يا حاتم . ماذا يكون موقف من يحضر هذا اللقاء ؟

أنت تنقله من واقع البخيل إلى تصور حاتم الطائى أصل الكرم . وبذلك نقلت البخيل نقلتين : نقلة من وضعه كبخيل ؛ ثم السخرية منه ؛ لأن قولك لبخيل ما : يا حاتم هو تقريع وتهكم وسخرية واستهزاء ، لأنك نقلته من وصف خسيس وحقير إلى وصف مقابل هو سَام ورفيع وعظيم تحقيرا له واستهزاء به ، ومن المقارنة يبدو الفارق الكبير . وإذا ما جئت مثلاً لرجل طويل جداً ، وقلت : مرحبا بك يا قزم . هذه هى المفارقة ، كما تقول لقصير : مرحبا يا مارد . أو إذا جئت لطويل لتصافحه ، فيجلس على الأرض ليُسلم عليك . . هذه أيضاً مفارقة . وإن جئت لرجل قصير لتصافحه فتجلس على الأرض لتسلم عليه فهذه هى السخرية والتهكم .

وهذه المفارقات إنما تأتى للأداء البلاغى للمعنى الذى يريده المتكلم ، فقول الحق : « بشر المنافقين » معناه : أنكم أيها المنافقون قد صنعتم لأنفسكم بالنفاق ما كنتم تحبون ، وكأنكم نافقتم لأنكم تحبون العذاب . ومادمتم قد نافقتم لأنكم تحبون العذاب ، فأنا أبشركم بأنكم ستتعذبون . والذى ينافق ألا يريد من ذلك غاية ؟ لذلك يصور له الحق أن غايته هى العذاب ، فقال الحق : « بشر المنافقين بأن لهم عذاباً أليماً » .

إنك حين تريد تصعيد أمر ما ، فأنت تنقل مخاطبك من شيء إلى الشيء المقابل وهو النقيض ، مثال ذلك : إنسان عطشان لأنه محجوز أو مسجون وأراد أن يشرب شربة ماء ، من الممكن أن يقول له الحارس : لا . ويجعله ييأس من أن يَأتى له بكوب ماء ، أما إن أراد الحارس تصعيد العذاب له فهو يذهب ويأتى بكوب ماء ويقربه منه ، فإذا مد السجين يده ليأخذ كوب الماء فيسكب الحارس كوب الماء على الأرض هذا هو تصعيد العذاب . وحين يقال:« بَشّر » فالمستمع يفهم أن هناك شيئاً

يسر ، فإذا قال الحق : « بأن لهم عذاباً أليماً » فمعنى ذلك أن الغم يأتى مركباً . فقد بسط الحق أنفسهم بالبشارة أولاً ، ثم أنهاها بالنذارة .

وعلى سبيل المثال ـ ولله المثل الأعلى ـ يقول الأب لابنه : استذكر يا بنى حتى لا ترسب ، لكن الابن يستمر فى اللعب ثم يقول الأب : يابنى لقد اقترب الامتحان ولا بد أن تذاكر . ولا يأبه الابن لكلام الأب ، ثم يأتى الامتحان ويذهب الأب يوم اعلان النتيجة ، فيكون الابن راسباً ؛ فيقول الأب لابنه : أهنئك لقد رسبت فى الامتحان ! فقوله أهنئك تبسط نفس الابن ؛ لأنه يتوقع سماع خبر سار ، ويسمع بعدها لقد رسبت تعطيه الشعور بالقبض .

والحق سبحانه وتعالى يبلغ رسوله : « بشر المنافقين بأن لهم عذاباً أليماً » « بشر » لها علاقة بالمدلول الاشتقاقى ؛ لأن الانفعالات يظهر أثرها على بشرة وجهه ؛ فإن كان الانفعال حزنا فالوجه يظهر عليه الحزن بالانقباض ، وإن كان الانفعال سروراً فالوجه يظهر عليه السرور بالانبساط . وتعكس البشرة انفعالات النفس البشرية من سرور وبشاشة وإشراق أو عبوس وتجهم ، فالبشارة تصلح للإخبار بخبر يسر ، أو بخبر يحزن ويسيء ، ولكنها غلبت على الخبر السار ، وخصت النذارة بالخبر الذى يحزن وتنقبض النفس له .

« بشر المنافقين بأن لهم عذاباً أليماً » . والبشارة ـ كما قلنا ـ توحى بأن هناك خبراً ساراً ، فيأتى الخبر غير سار . وكما يقول الحق فى آية أخرى يصور بها عذاب الكافرين يوم القيامة وكيف أنه يصعد العذاب معهم :

﴿ وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الكهف)

ساعة نسمع « وإن يستغيثوا يغاثوا بماء » نفهم أن برداً يأتى لهم أو رحمة تهب عليهم ، ولكن الإغاثة التى تأتى لهم هى :

﴿ كَٱلْمُهْلِ ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الكهف)

ويتساءل السامع أو القارىء : هل هذه إغاثة أو تعذيب ؟ وهذا تصوير لتصعيد العذاب ؛ فالماء الذى يعطى لهم كالمهل يصعِّد الألم فى نفوسهم .

والعذاب ـ كما نعام ـ يأخذ قوته من المعذِّب ، فإن كان المعذِّب ذا قوة محدودة ، كان العذاب محدوداً . وإن كان المعذِّب غير محدود القوة فالعذاب غير محدود ، فإذا ما نسب العذاب إلى قوة القوى وهو الله فكيف يكون ؟ والعذاب يوصف مرة بأنه أليم ، ومرة بأنه مهين ، ومرة بأنه عظيم ، هذه الأوصاف كلها تتجمع ولكل وصف منها جهة ؛ فالألم هو إحساس النفس بما يتعبها ، والعذاب العظيم هو العذاب الذى يبلغ القمة ، وقد يبلغ العذاب القمة ولكن المعذِّب يتجلد ، وعذاب الحق يفوق قدرة متلقى العذاب فلا يقدر أن يكتم الألم ؛ لأن درجة تحمل أى إنسان مهما تجلد لا تستطيع أن تدفع الألم ، ومع العذاب العظيم ، نجده أليما أيضا ، فيكون العذاب الأليم العظيم مؤلما للمادة ، لكن النفس قد تكون متجلدة متأبية ثم تنهار ، حينئذ يكون العذاب مهينا .

ولأن المنافقين والكفار غارقون فى المادية آثر الله وصف العذاب بأنه أليم لأن الإيلام يكون للمادة ، ثم يذكر الحق سبحانه وتعالى بعض الأوصاف للمنافقين فيقول :

﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾ ﴾

وأول مظهر من مظاهر النفاق أن يتخذ المنافقُ الكافرَ ولياً له ؛ يقرب منه ويوده ، ويستمد منه النصرة والمعونة ، والمؤانسة ؛ والمجالسة ، ويترك المؤمنين . وعرفنا أن كل فعل من الأفعال البشرية لا بد أن يحدث لغاية تُطْلَب منه ، ولا يتجرد الفعل عن

الغاية إلا فى المجنون الذى يفعل الأفعال بدون أى غاية ، لكن العاقل يفعل الفعل لغاية ، ولهدف يرجوه . والمنافقون يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين لأى غاية ولأى هدف ؟

ويكشف الحق هذه المسألة فيوضح : أنهم يبتغون العزة من الكافرين ، ولذلك اتخذوهم أولياء من دون المؤمنين . ويلفتهم - جل شأنه - إلى جهلهم ؛ لأنهم أخذوا طريقاً يوصلهم إلى ما هو ضد الغاية .

فمادام يبتغون العزة فليعرفوا أولاً : ما العزّة ؟ . العزة مؤخوذة من معنى مادى وهو الصلابة والشدة . فالأرض العَزَاز أى الصلبة التى لا ينال منها المعول ، ثم نقلت إلى كل شديد ، فكل شيء شديد فيه عِزّة . والمراد بها هنا : الغلبة والنصر ، وكل هذه المعانى تتضمنها العزة .

فإذا قيل : الله عزيز . . أى أنه سبحانه وتعالى غالب على أمره شديد لا يمكن أن يقدر على مِحاله أو مكره أو قوته أو عقابه أحد . وإذا قيل: فلان عزيز أى لا يُغلب ، وإذا قيل: هذا الشيء عزيز أى نادر ، ومادام الشيء نادراً فهو نفيس ، والمعادن النفيسة كلها أخذت حظها من ندرتها وقلتها .

وما دمتم أيها المنافقون تطلبون العزة ، ألا تطلبونها ممن عنده ؟ . أتطلبونها من نظائركم ؟ . وعندما تطلبون العزة فذلك لأنكم لا تملكون عزة ذاتية ، فلو كانت عندكم عزة ذاتية لما طلبتم العزة من عند الكافرين . وهذا دليل على فقدانهم العزة لأنهم طلبوها من مساوٍ لهم من الأغيار ، فالنافقون بشر ، والكفار بشر ، وبما أن كل البشر أغيار ، فمن الممكن أن يكونوا أعزاء اليوم وأذلاء غداً ؛ لأن أسباب العزة هى غنًى أو قوة أو جاه ، وكل هذه من الأغيار .

فأنتم أيها المنافقون قد طلبتم العزة ممن لم يزد عليكم ، وهو من الأغيار مثلكم ، ولم تطلبوها من صاحب العزة الذاتية الأزلية الأبدية وهو الحق سبحانه وتعالى ، ولو أردتم العزة الحقيقية التى تغنيكم عن الطلب من الأغيار مثلكم فلتذهبوا إلى مصدر العزة الذى لا تناله الأغيار وهو الحق سبحانه وتعالى .

لذلك أوضح لهم الحق : إن أردتم أن تتعلموا طلب العزة فعليكم أن تغيروا من أسلوبكم فى طلبها ، فأنتم تتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين وتبتغون عندهم العزة وهم من أهل الأغيار ، والأغيار تتبدل من يوم إلى يوم ، فإن كان الكفار أغنياء اليوم ، فغداً لن يكونوا كذلك ، ولقد رأيتم كبشر أن الغَنِىَّ يفتقر ، ورأيتم قوياً قد ضعف ، وطلب العزة من الأغيار يعنى أنكم غير أعزاء ، ومع ذلك فأنتم تطلبون العزة من غير موضعها . فإن أردتم عزة حقيقية فاطلبوها ممن لا تتغير عزته وهو الحق سبحانه وتعالى : « فإن العزة لله جميعاً » .

وفى هذا القول تصويب لطلب العزة . وليطلب كل إنسان العزة إيمانا بالله ؛ فسبحانه الذى يهب العزة ولا تتغير عزته : « فإن العزة لله جميعاً » . وكلمة « جميعاً » هذه دلت على أن العزة لها أفراد شتى : عزة غنى ، عزة سلطان ، عزة جاه ، فإن أراد واحد أن يعرفها ويعلمها فهى ـ جميعا ـ فى الحق سبحانه وتعالى .

والمؤمنون فى عبوديتهم لله عبيد لإله واحد ؛ وقد أغنانا الله بالعبودية له عن أن نذل لأناس كثيرين . وسبحانه قد أنقذ المؤمن بالإيمان من أن يذل نفسه لأى مصدر من مصادر القوة ، أنقذ الضعيف من أن يذل نفسه لقوى ، وأنقذ الفقير من أن يذل نفسه لغنى ، وأنقذ المريض من أن يذل نفسه لصحيح .

إذن ساعة يَقول الحق : « فإنّ العزة لله جميعا » فمعناها : إن أردت أيها الإنسان عزاً ينتظم ويفوق كل عز فاذهب إلى الله ؛ لأنه سبحانه أعزنا فنحن خلقه ، وعلى سبيل المثال نجد أن الحق لم يجعل الفقير يقترض ، بل قال :

﴿ مَّن ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ ﴾

(من الآية ٢٤٥ سورة البقرة)

وهنا يرفع الله عبده الفقير إلى أعلى درجات العزة . العبد الفقير لا يقترض ، ولكن القرض مطلوب لله ، ولذلك قال أحدهم لأحد الضعفاء : إنك تسأل الناس ، ألا تعف ولا تسأل ؟ . فقال : أنا سألت الناس بأمر الله ، فالسائل يسأل بالله ، أى أنه يتخذ الله شفيعاً ويسأل به . وعندما يطلب الإنسان العزة من مثيل له ، فهو يعتز بقوة هذا الكائن وهى قوة ممنوحة له من الله وقد يستردها ـ سبحانه ـ

منه . فما بالنا بالقوة اللانهائية لله ، وكل قوة فى الدنيا موهوبة من الله ، المال موهوب منه ، والجاه موهوب منه ، وكل عزة هى لله .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾ ﴾

يأمر الحق المؤمنين أنهم إذا سمعوا بعضاً من الكافرين يهزأ بآيات الله أو يكفر بها فلا يقعدوا معهم إلا أن يتحولوا إلى حديث آخر ، وذلك حتى لا يكونوا مثل الكافرين لأنه سبحانه سيجمع المنافقين والكافرين فى جهنم ، وبذلك يحمى الله وحدهُ أهل الإيمان ، ويصونهم من أى تهجم عليهم ، فالذين يغارون على الإيمان هم الذين آمنوا ، فمادمت قد آمنت وارتضيت لنفسك الإسلام فإياك أن تهادن من يتهجم على الدين ؛ لأنك إن هادنته كان أعز فى نفسك من الإيمان ، ومادمت أيها المؤمن قد ارتضيت الإيمان طريقاً لك وعقيدة فلتحم هذا الإيمان من أن يَتَهَجَّم عليه أحد ، فإن اجترأ أحد على الإيمان بشىء من النقد أو السخرية أو الرمى بالباطل . . فالغيرة الإيمانية للمسلم تحتم عليه أن يرفض هذا المجلس .

وكان المؤمنون فى البداية قلة مستضعفة لا تستطيع الوقوف فى وجه الكافرين أو المنافقين ، فساعة يترك المؤمنون الكافرين أو المنافقين لحظة اللغو فى آيات الله ، فالكافرون والمنافقون يعلمون بذلك السلوك أن عِرض الإيمان أعز على المسلمين من مجالسة هؤلاء . أما إذا جالسهم مسلم وهم يخوضون فى الإيمان . . فهذا يعنى أنهم أعز من الإيمان ، والكافرون قد يجعلونها حديثاً مستمراً لسبر غور الإيمان فى قلوب

المسلمين . أما حين يرى الكافر مؤمناً يهب وينفر من أى حديث فيه سخرية من الإسلام ، هنا يعرف الكافر أن إيمان المسلم عزيز عليه .

وهذه الآية ليست آية ابتدائية إنما هى إشارة إلى حكم سبق ، ونعرف أنها نزلت فى المدينة ؛ فالحق يقول : « وقد نزّل عليكم فى الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها » ومعنى هذا أن هناك آية قد نزلت من قبل فى مكة ؛ ويقول فيها الحق :

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

ويشير الحق هنا إلى أنه قد أنزل حكماً فى البداية ، وهو الحكم الذى نزل مع الكافرين فى مكة ؛ حيث استضعف الكافرون المؤمنين ، ولم يكن المنهج الإيمانى قد جاء بمنع المؤمنين أن يجالسوا الكافرين ، فقد كان بعض المؤمنين عبيداً للكافرين ، وبعض المسلمين الأوائل كان لهم مصالح مشتركة قائمة مع الكافرين وجاء الحكم : إن ولغ هؤلاء الكافرون فى الدين بالباطل فاتركوا لهم المكان .

وسبحانه هنا فى سورة النساء يذكر المؤمنين بأن حكم ترك الكافرين لحظة اللغو فى الإيمان هو حكم ممتد منقول للمؤمنين من البيئة الأولى حيث كنتم أيها المؤمنون مع المشركين عبدة الأصنام ، والحكم مستمر أيضاً فى المدينة حيث يوجد بعض أهل الكتاب . والتكليف من الله ، هو تكليف بما يطيقه الجنس البشرى ؛ فالإنسان عرضة لأن ينسى ، وعليه بمجرد أن يتذكر فليقم تاركاً هؤلاء الذين يخوضون فى آيات الله . وقد نزل فى القرآن أن إذا سمع المؤمنون من يكفر بآيات الله ويستهزىء بها فليغادروا المكان ، ونلحظ أن الذى نزل فى الآية الأولى ليس سماعاً بل رؤية :

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾

(من الآية ٦٨ سورة الأنعام)

ويأتى السماع فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها : « وقد نزل عليكم فى الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها » والمهم هو مجرد العلم سواء كان رؤية أو

سماعاً بأنهم يخوضون فى دين الله ؛ فقد يخوض أهل الشرك أو غيرهم من أعداء الإسلام بما يُرى ، وقد يخوضون بما يسمع ، وقد يخوض بعض المشركين بالغمز أو اللمز من فور رؤيتهم لمسلم .

وقوله الحق : « فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا فى حديث غيره » يوحى أنهم إذا ما خاضوا فى حديث غير الخوض فى آيات الله فليقعد المؤمنون معهم . وكان ذلك فى صدر الإسلام ، والمؤمنون لهم مصالح مشتركة مع المشركين وأهل الكتاب ، ولا يستطيع المجتمع الإسلامى آنئذ أن يتميز بوحدته ، فلو قال لهم الحق على لسان رسوله : لا تقعدوا مع الكافرين أو المشركين فوراً . لكان فى ذلك قطع لمصالح المؤمنين .

وكلمة « يخوضون » تعطى معنى واضحاً مجسماً ؛ لأن الأصل فى الخوض أن تدخل فى مائع . . أى سائل ، مثل الخوض فى المياه أو الطين ، والقصد فى الدخول فى سائل أو مائع هو إيجاد منفذ إلى غاية .

وساعة تخوض فى مائع فالمائع لا ينفصل حتى يصير جزءاً هنا وجزءاً هناك ويفسح لك طريقاً ، بل بمجرد أن يمشى الإنسان ويترك المائع يختلط المائع مرة أخرى ، ولذلك يستحيل أن تصنع فى المائع طريقاً لك . أما إذا دخل الإنسان فى طريق رملىّ فهو يزيح الرمال أولاً ويفسح لنفسه طريقاً . ولا تعود الرمال إلى سَدّ الطريق إلا بفعل فاعل ، وأخذوا من هذا المعنى وصفَ الأمر الباطل بأنه خوض ؛ ذلك أن الباطل لا هدف له وهو مختلط ومرتبك ، والجدال فى الباطل لا ينتهى إلى نتيجة .

إذن « الخوض » هو الدخول فى باطل ، أو الدخول إلى ما لا ينتهى الكلام فيه إلى غاية . ويقرر العلماء : لا تخوضوا فى مسألة الصفات العلية ؛ لأنه لا يصح الخوض فيها ، والكلام فيها لن ينتهى إلى غاية . ولذلك يقول الحق فى موقع آخر بالقرآن الكريم :

﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ

تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾

(سورة الأنعام)

لقد أبلغتهم يا محمد أن الذى أنزل الكتاب عليك هو الحق سبحانه وتعالى الذى أنزل من قبلُ التوراةَ فأخفيتم بعضها وأظهرتم البعض الآخر ، ثم بعد البلاغ اتركهم يخوضون فى باطلهم .

وفى موقع آخر يتكلم الحق من الخوض :

﴿ يَحْذَرُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَـٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾

(سورة التوبة)

إذن الخوض هو الدخول فى مائع ، ومادمت قد دخلت فى مائع فلن تجد فيه طريقاً محدداً بل يختلط المدخول فيه بالمدخول عليه فلا تتميز الأشياء ، وأخذ منه الخوض بالباطل أو الخوض باللعب الذى ليس فيه غاية .

« وقد نزل عليكم فى الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يُكفر بها ويُستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا فى حديث غيره » .

وتأتى الكلمة التى ترهب المؤمن وترعبه : « إنكم إذاً مثلهم » أى إنكم إذا قعدتم معهم وهو يخوضون فى آيات الله تكفرون مثلهم ، لأنكم تسمعون الخوض فى الدين بالباطل ، ومن يرض بالكفر يكفر .

لقد أعطتنا الآية مرحلية أولية ، فإذا ما كانت البيئة الإيمانية مجتمعاً ذاتياً متكافلاً فليس لأحد من المؤمنين أن يجالس الكافرين ، ولا نواليهم إلا إذا والونا ؛ لأن

الجلوس معهم فى أثناء الخوض فى الدين يجرئهم على مناهج الله ، وعلى المؤمن أن ينهر أى ساخر من الدين . وعلى المؤمنين أن يعرضوا عمنّ ينحرف عن منهج الله أو يتعرض له . ولكن المجتمعات المعاصرة تكرم من يخوض بالباطل ؛ وفى ذلك إغراء للناس على أن يخوضوا فى الدين بالباطل .

لكن لو أعرضنا عن ذلك فسيلتمس الخارجون عن منهج الله وسيلة غير طريق الاجتراء على الدين والخوض بالباطل فى دين الله ومنهجه . وفساد المجتمع إنما يأتى من أننا نرى من يخوض فى دين الله بالباطل يكرمه البعض ويعطيه مكانة ومنزلة .

وقوله الحق : « وقد نزل عليكم فى الكتاب أن إذا سمعتم » نعلم منه وسيلة للإعلام البشرى هى أن يرى الإنسان فعلاً أو يسمع قولاً . فإن رأيت أيها المسلم فعلاً يشجع منهج الفساد فى الأرض فاعلم أن ذلك خوض فى دين الله بالباطل .

وقوله الحق : « فلا تقعدوا معهم » هو إيذان بالمقاطعة ؛ فلو أن إنساناً بهذا الشكل يسكن فى منزل ، ويذهب إلى البقال ليشترى منه شيئاً ليأكله فيرفض البيع له ، وكذلك الجزار ، وكذلك أى إنسان فى يده مصلحة لمثل هذا الخارج عن المنهج ، وبذلك تكون المقاطعة حتى يتأدب ، ويعلم كل إنسان أن المجتمع غيور على دينه الذى آمن به ، وأن الله أعز عليهم من كل تكريم يرونه فى مجتمعهم ، ولو أن كل واحد من هؤلاء المنحرفين والموغلين فى الباطل لو رأوا المجتمع وقد قاطعهم ووضع لهم حدوداً لذهبوا إلى الصواب ولبحثوا عن شىء آخر ومجال آخر يأكلون العيش منه ويطعمون أولادهم اللقمة الحلال من هذا العمل المشروع .

ويقول الحق : « إن الله جامع المنافقين والكافرين فى جهنم جميعا » ولا تستبطئوا هذه الحياة ؛ لأن المسلم لا يأخذ الأمور بعمر الدنيا كقرن أو اثنين أو حتى عشرة قرون ، بل عليه أن يعرف أن الدنيا بالنسبة له هى عمره فيها ، والعمر يمكن أن ينتهى فجأة ، ويعمل المسلم لا من أجل الدنيا فقط ، ولكن من أجل أن يلقى الله مسلما فى الآخرة ، والمؤمن يخشى أن يحشره الله مع المنافقين والكافرين فى جهنم ، وهذا مصير من يقبل السخرية أو الاستهزاء بدينه .

وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَـٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَـٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾ ﴾

وقوله الحق : « الذين يتربصون بكم » وصف للمنافقين ، ويتربص فلان بفلان . أى أن واحداً يتحفز ليتحسس أخبار آخر ، ويرتب حاجته منه على قدر ما يرى من أخبار ، وعرفنا هذا المعنى من قوله الحق :

﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ﴾

(من الآية ٥٢ سورة التوبة)

ويتربص المنافقون بالمؤمنين لأنهم إن وجدوا خيراً قد أتى لهم فهم يريدون الاستفادة منه ، وإن جاء شر فالمنافقون يتجهون للاستفادة من الخصوم ، فظاهراً هم يعلنون الإيمان وهم فى باطنهم كفار . وهم يتربصون بالمؤمنين انتظاراً لما يحدث وليرتبوا أمورهم على ما يجىء .

« الذين يتربصون بكم فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم » فإن فتح الله بنصره على المؤمنين فى معركة وأخذوا مغانم قال المنافقون : « ألم نكن معكم » ، فلابد لنا من سهم فى هذه الغنيمة . وإذا انتصر الكفار يذهبون إلى الكافرين مصداقاً لقول الحق : « وإن كان للكافرين نصيب قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين » .

هم يحاولون إذن الاستفادة من الكفار بقولهم : لقد تربصنا بالمؤمنين وانتظرنا ما يحدث لهم ، ولا بد لنا من نصيب . ويقول الحق على ألسنتهم : « قالوا ألم

نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين » واستحوذ على الشيء أى حازه وجعله فى حيزه وملكه وسلطانه . والحق هو القائل :

﴿ ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ﴾

(من الآية ١٢ سورة المجادلة)

أى جعلهم الشيطان فى حيزه ، وقول المنافقين للكافرين : « ألم نستحوذ عليكم » يكشف موقفهم عندما تقوم معركة بين معسكرى الكفر والإيمان فيحاول المنافقون معرفة تفاصيل ما ينويه المؤمنون ، ولحظة أن يدخل المنافقون أرض المعركة فهم يمثلون دور من يأسر الكافرين حماية لهم من سيوف المؤمنين . ثم يقولون للكافرين : نحن استحوذنا عليكم أى منعناكم أن يقتلكم المؤمنون ، ويطلبون منهم الثمن .

ولنر الأداء البيانى للقرآن حين يقول عن انتصار المؤمنين : « فإن كان لكم فتح » أما تعبير القرآن عن انتصار الكافرين فيأتى بكلمة « نصيب » أى مجرد شيء من الغلبة المؤقتة . ثم يأتى القول الفصل من الحق : « فالله يحكم بينكم يوم القيامة ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً » .

وحين يرد الله أمر الكافرين والمؤمنين لا يرده دائماً إلى أمد قد لا يطول أجل السامع وعمره ليراه فى الدنيا ، فيأتى له بالمسألة المقطوع بها ؛ لذلك لا يقول للمؤمن : إنك سوف تنتصر . فالمؤمن قد يموت قبل أن يرى الانتصار . ولذلك يأتى بالأمر المقطوع وهو يوم القيامة حين تكون الجنة مصيرًا مؤكداً لكل مؤمن ؛ لأن الحياة أتفه من أن تكون ثمناً للإيمان .

ويعلمنا الرسول صلى الله عليه وسلم ألا نطلب الثمن فى الدنيا ؛ لأن الغايات تأتى لها الأغيار فى هذه الدنيا ، فنعيم الحياة إما أن يفوت الإنسان وإما أن يفوته الإنسان . وثمن الإيمان باقٍ ببقاء من آمنت به . إن القاعدة الإيمانية تقول : من يعمل صالحاً يدخل الجنة ، والحق يقول عن هؤلاء الصالحين :

﴿ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾

(من الآية ١٠٧ سورة آل عمران)

أى أن الجنة باقية بإبقاء الله لها ، وهو قادر على إفنائها ، أما رحمة الله فلا فناء لها لأنها صفة من صفاته وهو الدائم أبداً . وحين يقول الحق سبحانه وتعالى : « فالله يحكم بينكم يوم القيامة » أى لن يوجد نقض لهذا الحكم ؛ لأنه لا إله إلا هو وتكون المسألة منتهية . وقد حكم الحق سبحانه وتعالى على قوم من أقارب محمد صلى الله عليه وسلم ، لقد حكم الله على عم الرسول ، فقال فيه :

﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۝٥ ﴾

(سورة المسد)

قول الحق سبحانه : « سيصلى ناراً ذات لهب » يدل على أن أبا لهب سيموت على الكفر ولن يهديه الله للإيمان ، مع أن كثيراً من الذين وقفوا من رسول الله مواقف العداء آمنوا برسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويشهد معسكر الكفر فقدان عددٍ من صناديده ، ذهبوا إلى معسكر الإيمان ، فها هوذا عمر بن الخطاب ، وخالد ابن الوليد ، وعكرمة بن أبي جهل وغيرهم كل هؤلاء آمنوا . فما الذى كان يدرى محمداً صلى الله عليه وسلم أن أبا لهب لن يكون من هؤلاء ؟ ولماذا لم يقل أبو لهب : قال ابن أخى : إننى سأصلى ناراً ذات لهب ، وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وقلت كلمة الإيمان . لكنه لم يقل ذلك وعلم الله الذى حكم عليه أنه لن يقول كلمة الإيمان .

ألم يكن باستطاعة أبى لهب وزوجه أن يقولا فى جمع : نشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، ويتم انتهاء المسألة ؟ ولكن الله الذى لا معقب لحكمه قد قضى بكفرهم ، وبعد أن ينزل الحق هذا القول الفصل فى أبى لهب وزوجه يأتى قول الحق فى ترتيبه المصحفى ليقول ما يوضح : إياكم أن تفهموا أن هذه القضية تنقض ، فسيصلى أبو لهب ناراً ذات لهب وامرأته حمالة الحطب ، وقال الحق بعدها مباشرة :

﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ ﴾

(سورة الإخلاص)

فلا أحد سيغير حكم الله . .

إذن فقوله الحق : « فالله يحكم بينهم يوم القيامة » أى لا معقب لحكم الله ،

فلا إله غيره يعقب عليه . « ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً » وهذه نتيجة لحكم الله ، فلا يمكن أن يحكم الله للكافرين على المؤمنين . ولن يكون للكافرين حجة أو قوة أو طريق على المؤمنين . وهل هذه القضية تتحقق فى الدنيا أو فى الآخرة ؟ ونعلم أن الحق يحكم فى الآخرة التى تعطلت فيها الأسباب ، ولكنه جعل الأسباب فى الدنيا ، فمن أخذ بالأسباب فنتائج الأسباب تعطيه ؛ لأن مناط الربوبية يعطى المؤمن والكافر ، فإن أخذ الكافرون بالأسباب ولم يأخذ المؤمنون بها ، فالله يجعل لهم على المؤمنين سبيلاً ، وقد ينهزم المؤمنون أمام الكافرين .

والحكمة العربية تعلمنا : إياك أن تعتبر أنّ الخطأ ليس من جند الصواب . لأن الإنسان عندما يخطىء يُصَحَّحُ له الخطأ ، فعندما يعلم المدرس تلميذه أن الفاعل مرفوع ، وأخطأ التلميذ مرة ونصب الفاعل ؛ فهذا يعنى أنه أخذ القاعدة أولاً ثم سها عنها ، والمدرس يصحح له الخطأ ، فتلتصق القاعدة فى رأس التلميذ بأن الفاعل مرفوع . وهكذا يكون الخطأ من جنود الصواب . والباطل أيضاً من جنود الحق .

فعندما يستشرى الباطل فى الناس يبرز بينهم هاتف الحق . وهكذا نرى الباطل نفسه من جند الحق ، فالباطل هو الذى يظهر اللذعة من استشراء الفساد ، ويجعل البشر تصرخ ، وكذلك الألم الذى يصيب الإنسان هو من جنود الشفاء ؛ لأن الألم يقول للإنسان : يا هذا هناك شيء غير طبيعى فى هذا المكان . ولولا الألم لما ذهب الإنسان إلى الطبيب .

علينا ـ إذن ـ أن نعرف ذلك كقاعدة : الخطأ من جنود الصواب ، والباطل من جنود الحق ، والألم من جنود الشفاء ، وكل خطأ يقود إلى صواب ، ولكن بلذعة ، وذلك حتى لا ينساه الإنسان . وتاريخ اللغة العربية يحكى عن العلامة سيبويه ، وهو من نذكره عندما يلحن أحد بخطأ فى اللغة ؛ فنقول : « أغضب المخطىء سيبويه » ؛ لأن سيبويه هو الذى وضع النحو والقواعد حتى إننا إذا أطلقنا كلمة الكتاب فى عرف اللغة فالمعنى ينصرف إلى كتاب سيبويه ؛ فهو مؤلف الكتاب .

وسيبويه لم يكن أصلاً عالم نحو ، بل كان عالم قراءات للقرآن ، حدث له أن كان جالساً وعيبت عليه لحنة فى مجلس ، أى أنه أخطأ فى النحو وعاب عليه من حوله

ذلك ، فغضب من نفسه وحزن ، وقال : والله لأجيدن العربية حتى لا ألحن فيها . وأصبح مؤلفاً فى النحو .

ومثال آخر : الإمام الشاطبى ـ رضى الله عنه ـ لم يكن عالم قراءات بل كان عالماً فى النحو ، وبعد ذلك جاءت له مشكلة فى القراءات فلم يتعرف عليها ، فأقسم أن يجلس للقراءات ويدرسها جيداً . وصار من بعد ذلك شيخاً للقراء . فلحنة ـ أى غلطة ـ هى التى صنعت من سيبويه عالماً فى النحو ، ومشكلة وعدم اهتداء فى القراءات جعل من الإمام الشاطبى شيخاً للقراء ؛ على الرغم من أن سيبويه كان عالم قراءات ، والشاطبى كان رجل نحو .

ولذلك أكررها حتى نفهمها جيداً : الخطأ من جنود الصواب ، والباطل من جنود الحق ، والألم من جنود الشفاء والعافية .

وقد نجد الكافرين قد انتصروا فى ظاهر الأمر على المؤمنين فى بعض المواقع مثل أحد ، وكان ذلك للتربية ؛ ففى « أحد » خالف بعض المقاتلين من المؤمنين رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانت الهزيمة مقدمة للتصويب ، وكذلك كانت موقعة حنين حينما أعجبتهم الكثرة :

﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾

(من الآية ٢٥ سورة التوبة)

والشاعر العربى الذى تعرض لهذه المسألة قال :

إن الهزيمة لا تكون هزيمة ... إلا إذا لم تقتلع أسبابها
لكن إذا جهدت لتطرد شائباً ... فالحمق كل الحمق فيمن عابها

فعندما يقتلع الإنسان أسباب الهزيمة تصبح نصراً ، وقد حدث ذلك فى أحد ، هم خالفوا فى البداية فغلبهم الأعداء ، ثم كانت درساً مستفاداً أفسح الطريق للنصر .

فإن رأيت أيها المسلم للكافرين سبيلاً على المؤمنين فلتعلم أن الإيمان قد تخلخل فى نفوس المسلمين فلا نتيجة دون أسباب ، وإن أخذ المؤمنون بالأسباب أعطاهم النتائج . فهو القائل :

﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾

(من الآية ٦ سورة الأنفال)

فإن لم يعدّ المؤمنون ما استطاعوا ، أو غرّتهم الكثرة فالنتيجة هى الهزيمة عن استحقاق ، وعلى كل مؤمن أن يضع فى يقينه هذا القول الربانى :

﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾

(من الآية ٤٣ سورة فاطر)

إن إعلان الإيمان بالله ليس هو نهاية أى شىء بل هو البداية ، والمؤمن بالله يأخذ جزاءه على قدر عمله . ويغار الله على عبده المؤمن عندما يخطىء ، لذلك يؤدبه ويربيه ـ ولله المثل الأعلى ـ نجد أن الإنسان منا قد لا يصبر على مراجعة الدروس مع أولاده فيأتى بمدرس ليفعل ذلك ؛ لأن حب الأب لأولاده يدفع الأب للانفعال إذا ما أخطأ الولد ، وقد يضربه . أما المدرس الخارجى فلا ينفعل ؛ بل يأخذ الأمور بحجمها العادى . إذن فكلما أحب الإنسان فهو يتدخل بمقياس الود ويقسو أحيانا على من يرحم .

والشاعر العربى يقول :

فقسى ليزدجروا ومن يكُ حازما   فليقس أحيانا على من يرحمُ

ومثال آخر ـ ولله المثل الأعلى ـ الإنسان إذا ما دخل منزله ووجد فى صحن المنزل أطفالاً يلعبون الميسر منهم ابنه وابن الجار ، وطفل آخر لا يعرفه ، فيتجه فوراً إلى ابنه ليصفعه ، ويأمره بالعودة فوراً إلى الشقة ، أما الأولاد الآخرون فلن يأخذ ابن الجار إلا كلمة تأنيب ، أما الطفل الذى لا يعرفه فلن يتكلم معه .

وهكذا نجد العقاب على قدر المحبة والود ، والتأديب على قدر المنزلة فى النفس .

ومن لا نهتم بأمره لا نعطى لسلوكه السيىء بالاً . وساعة نرى أن للكافرين سبيلاً على المؤمنين فلنعلم أن قضية من قضايا الإيمان قد اختلت فى نفوسهم ، ولا يريد الله أن يظلوا هكذا بل يصفيهم الحق من هذه الأخطاء بأن تعضهم الأحداث . فينتبهوا إلى أنهم لا يأخذون بأسباب الله .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ ﴾

نعرف واقع المنافقين أنهم يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر ؛ ويوضح الحق : إياكم أن تظنوا أن فى قدرة مخلوق أن يفعل شيئاً بدون علم الله ، وقد يمكر إنسان بك ، وهو يعلم أنك تعلم بمكره ، فهل هذا مكر ؟ لا ؛ لأن المكر هو الأمر الذى يتم خفية بتدبير لا تعلمه ، والأصول فى المكر ألا يعلم الممكور به شيئاً . والمنافقون حين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر يخادعون من يعلم خافية الصدور . وكان يجب أن يأخذوا درساً من معاملة الله بوساطة المؤمنين لهم ، فقد صان المؤمنون دم المنافقين ومالهم . وأجرى المسلمون على المنافقين أحكام الإسلام ، لكن ما الذى يبيته الله لهؤلاء المنافقين ؟ لقد بيت لهم الدرك الأسفل من النار . فمن الأقدر ـ إذن ـ على الخداع ؟

إن الذكى حقاً هو من لا يخدع من يعلم أنه قادر على كشف الخداع . وكلمة « خدع » تعنى مكر به مكراً فيبدى له قولاً وفعلاً ويخفى سواهما حتى يثق فيه . وبعد ذلك ينفذ المكر . وهناك كلمة « خدع » وكلمة « خادع » . والحق فى هذه الآية لم يقل إن الله يخدعهم ، بل قال : « يخادعون الله وهو خادعهم » .

و« خادع » تعنى حدوث عمليتين ، مثل قولنا : قاتل فلان فلانا . فالقتال يحدث

بين طرفين . وكذلك نقول : شارك فلان فلانا ؛ لأن مادة « فاعل » تحتاج إلى طرفين . لكن عندما نقول « قتل » ، فالفعل يحدث من جانب واحد . والخداع يبدأ من واحد ، وعندما يرى الشخص الذى يُراد خداعه أن خصمه أقوى منه فإنه يبيت له خداعاً آخر . وتسمى العملية كلها « مخادعة » ، ويقال : خادعه فخدعه إذا غلبه وكان أخدع منه . ومن إذن الذى غلب ؟ إن الذى بيَّت الخداع رداً على خداع خصمه هو الغالب .

ولأن الخداع يحدث أولاً ، وبعد ذلك يتلقى « المخدوع » الأمر بتبييت أكبر ؛ فهو « خادع » ، والذى يغلب نقول عنه : « أخدعه » أى أزال خداعه . والله سبحانه وتعالى عاملهم بمثل ما أرادوا أن يعاملوا به المؤمنين ، فالمنافقون أظهروا الإيمان أولاً وأضمروا الكفر ، وأعطاهم الله فى ظاهر الأمر أحكام المسلمين ، وفى الباطن قرر أن يعذبهم عذاب الكافرين بل وأشد من ذلك ؛ لأنهم سيكونون فى الدرك الأسفل من النار .

« إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم » وإياك أيها المسلم أن تشتق من هذه العملية اسما لله وتقول « المخادع » ؛ لأن أسماء الله توقيفية أى لا نسمى الله إلا بالأسماء التى سمَّى بها نفسه . وسبحانه يفعل الفعل ، لكن لا تأخذ من هذا الفعل اسماً ، والحق يعطينا هنا « مشاكلة » ليوضح لنا أن المنافقين يمكرون ويبيتون شراً للمؤمنين ، وأنت أيها المسلم تعرف أن الإنسان إنما يبيت الشر على قدر طاقته التى مهما كبرت فهى محدودة بجانب طلاقة قدرة الله . ولذلك يفضح الله هذا الشر المبيت من هؤلاء المنافقين ، وهم حين يمكرون فالله بطلاقة قدرته يمكر بهم أى يبطل مكرهم ويجازيهم على سوء فعلتهم ، ولا نقول : « الله ماكر » . ولله أن يقول فى الفعل المشاكل ما يشاء .

« إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى » .

إن الغايات من الأحداث هى التى تضفى على الجوارح الإقبال على الأحداث ، فإذا كنت تحب الحدث الذى تقبل عليه فأنت تقبل عليه بكل اشتياق ولهفة . ويقيسون لهفة اللقاء لأنها تحدد درجة المحبة . والشاعر العربى يصف لقاء حبيب بحبيبته :

لقـاء الاثنـين يبـين حَـدَّهْ تلهف كَيْفٍ واستـطالـة مُـدَّهْ

فلحظة اللقاء تبين ما بين الحبيبين من مودة ، فإن كانت المسألة بينهما عشر خطوات فهما يسرعان باللهفة فيقطعان العشر الخطوات فى ثلاث خطوات ، وهذا معناه تقصير زمن الابتعاد ، وكذلك تظهر الكيفية التى يتم بها السلام درجة المودة ، فقد يسلم أحدهما على الآخر ببرود أو بنصف ود ، أو بود كبير ، أو بود مصحوب بلهفة وأخذ متبادل بالأحضان ؛ وكذلك المدة التى يحتضن كلاهما الآخر ، هل هى دقيقة أو دقيقتان أو ثلاث ؟

إذن فالذى يبين قيمة الود : التلهف ، الكيفية ، المدة . وهذه العناصر الثلاثة أخذها الشعراء للتعبير عن المودة والحب بين البشر ، وقديماً كان الذين يُتَيَّمون بالنساء يسترون فى السلام مودتهم . وفى الحضارة الغربية التى سقطت فيها قيم الأديان نجد أن الرجل يتلقى المرأة بالقبلات .

وفى بعض البلاد نجد الرجل يصافح المرأة ، فهل يصافحها بتلهف ، وهل تبادله هذه اللهفة ؟ فإن وجدت الكف مفرودة ومبسوطة للمصافحة فقط فهذا سلام عادى . أما إذا ثنى أحدهما إصبعه البنصر على كف الآخر فعليك أن ترى أى طرف هو الذى قام بثنى أصبعه ليحتضن اليد كلها فى يده ، فإن كان ذلك من الرجل فاللهفة منه ، وإن كان من المرأة فاللهفة منها ، وإن كان من الاثنين فاللهفة منهما معا ، ثم ما المدة التى يستغرقها بقاء اليد فى اليد ؟

وقد يحلو لكليهما أن يتكلما معاً ـ رجل وامرأة ـ وكأن الكلام قد أخذهما فنسى كل منهما يده فى يد الآخر .

سـلام نـوعـين يبـين حَـدَّهْ تلهف كيف واستـطالـة مُـدَّهْ

هكذا يقابل الإنسان الأحداث ، فإن كان الحدث ساراً فالإنسان يقبل عليه بلهفة . وإن كان غير ذلك فالإنسان يقوم إليه متثاقلاً . وكان المنافقون يقومون إلى الصلاة بتثاقل وتكاسل : « وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى » كأنهم يؤدون الصلاة كستار يخفون به نفاقهم ، ويستترون بها عن أعين المسلمين . ولم يكن قيامهم للصلاة

شوقاً إلى لقاء الله مثلما كان يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم لبلال ـ رضى الله عنه ـ طالبا منه أن يؤذن للصلاة :

« يا بلال أرحنا بالصلاة »(١) .

لأن المؤمن يرتاح عندما يؤدى الصلاة ، أما المنافق فهى عملية شاقة بالنسبة إليه لأنه يؤديها ليستتر بها عن أعين المسلمين ولذلك يقوم إليها بتكاسلٍ . « وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلاً » .

هم يقيمون الصلاة ظاهرياً أمام الناس ليخدعوا المسلمين وليشاهدهم غيرهم وهم يصلون . وفى الصلاة التى يراءون بها الناس لا يقولون كل المطلوب منهم لتمامها ، يقولون فقط المطلوب قوله جهراً . كأن يقرأوا الفاتحة وبعض القرآن ولكنهم فى أثناء الركوع لا يسبحون باسم الله العظيم وكذلك فى السجود لا يسبحون باسم الله الأعلى .

ففى داخل كل منافق تياران متعارضان . . تيار يظهر به مع المؤمنين وآخر مع الكافرين . والتيار الذى مع المؤمنين يجبر المنافق على أن يقوم إلى الصلاة ويذكر الله قليلاً ، والتيار الذى مع الكافرين يجعله كسولاً عن ذلك ، ولا يذكر الله كثيرا .

وإذا ما حسبنا كم شيئا يجهر به المصلى وكم شيئاً يجريه سراً ، فسنجد أن ما يجريه المصلى سراً فى أثناء الصلاة أكثر من الجهر . ففى الركوع يقول : سبحان ربى العظيم ثلاث مرات ، ويقول : سبحان ربى الأعلى ، فى كل سجود ثلاث مرات ، أما المنافق فلا يذكر الله إلا جهراً ، وهو ذكر قليل . ونجد المنافق لا يفعل فعلاً إلا إذا كان مَرْئيا ومسموعا من غيره ، هذا هو معنى المراءاة . أما الأعمال والأقوال التى لا تُرَى من الناس ولا تُسمع فلا يؤديها .

ولا يهز المجتمعات ولا يزلزلها ويهدُّها إلا هذه المراءاة ؛ لأن الحق سبحانه يحب أن يؤدى المسلم كل عمل جاعلاً الله فى باله ، وهو الذى لا تخفى عليه خافية . ويلفتنا

(١) رواه الإمام أحمد فى مسنده .

إلى هذه القضية سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم حيث يقول عن الإحسان :

« أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك »[١] .

وإذا كان الإنسان يخجل من أن يغش واحداً مثله من البشر غشاً ظاهرياً فما بالنا بالذى يحاول غش الله وهو يعلم أن الله يراه ؟ ولماذا يجعل ذلك العبد ربه أهون الناظرين إليه ؟

وعندما يغش واحداً آخر واكتشف الآخر غشه فهو يعاقبه فما بالنا بغش الله ؟! ولذلك تجد الرسول صلى الله عليه وسلم ينقل لنا حال المرائى للناس فيقول : « إنَّ أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر ، قالوا وما الشرك الأصغر يا رسول الله ؟ قال : الرياء ، يقول الله ـ عز وجل ـ يوم القيامة إذا جازى العباد بأعمالهم اذهبوا إلى الذين كنتم تراءون فى الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم الجزاء ؟»[٢] .

وقال صلى الله عليه وسلم :

« إن المرائى ينادى عليه يوم القيامة « يا فاجر » « يا غادر » «يا مرائى » ضل عملك وحبط أجرك فخذ أجرك ممن كنت تعمل له »[٣] .

إذن فالمنافق إنما يخدع نفسه ، هو يتظاهر بالصلاة ليراه الناس . ويزكى ليراه الناس ، ويحج ليراه الناس ، هو يعمل ما أمر الله به ، لكنه لا يعمله لله ، ولذلك قال القرآن :

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ ﴾

(سورة النور)

وقال عن لون ثان من نفاقهم :

---

(١) رواه مسلم من حديث جبريل .

(٢) رواه أحمد والبيهقى فى الشعب ، والطبرانى من رواية محمود بن لُبَيْد عن رافع بن خديج .

(٣) ابن أبى الدنيا واسناده ضعيف .

﴿ كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾

(من الآية ٢٦٤ سورة البقرة)

والصفوان هو الحجر الأملس تماما وهو الذى ليس فيه خشونة ، لأن الحجر إن كان به جزء من خشونة وعليه تراب ثم سقط عليه المطر ، فالتراب يتخلل الخشونة . أما الحجر الأملس فمن فور نزول المطر ينزلق من عليه التراب . ومن يرائى المؤمنين عليه أن يأخذ أجره ممن عمل له .

ويستكمل الحق وصف الحالة النفسية للمنافقين فيقول :

﴿ مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾ ﴾

والشيء المذبذب مثل المعلق فى خيط فيأخذه الريح إلى ناحية ليقذفه فى ناحية أخرى لأنه غير ثابت ، مأخوذ من « المذبة » ومنه جاءت تسمية « الذباب » الذى يذبه الإنسان فيعود مرة أخرى ، فمن سلوك الذباب أنه إذا ذُبّ عن مكان لا بد أن يعود إليه .

« مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء » فهل هم الذين ذبذبوا أنفسهم أم تلك هى طبيعتهم ؟ ولنتأمل عظمة الحق الذى سوى النفس البشرية ؛ ففى الذات الواحدة آمر ومأمور ، والحق يقول :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا ﴾

(من الآية ٦ سورة التحريم)

أى أن الإنسان يقى نفسه بأن يجعل الآمر يوجه الأمر للمأمور ، ويجعل المأمور يطيع الآمر ، ودليل ذلك قول الحق عن قابيل :

﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ ﴾

(من الآية ٣٠ سورة المائدة)

أى أن جزءًا من الذات هو الذى طوَّع بقية ذات قابيل لتقتل هابيل . فقد خلق الله النفس البشرية كملكات متعددة ، ملكة تحب الأريحية وأخرى تحب الشح ، والملكة التى تحب الأريحية إنما تطلب ثناء الناس ، والتى تحب الشح إنما تفعل ذلك ليطمئن صاحبها أنه يملك ما يغنيه . وكلتا الملكتين تتصارع فى النفس الواحدة ؛ لذلك يقول الحق : « قوا أنفسكم » فالنفس تقى النفس ؛ لأن الملكات فيها متعددة . وبعض الملكات تحب تحقيق المتعة والشهوة ، لكن هناك ملكة إيمانية تقول : تذكر أن هذه الشهوات عاجلة ولكنها عظيمة المتاعب فيها بعد .

إذن فهناك صراع داخل ملكات الإنسان ، ويوضح لنا الحق هذا الصراع فى قوله : (فطوعت له نفسه قتل أخيه) .

لأن قابيل أراد أن يقتل هابيل بغريزة الاستعلاء ، ونازعته نفسه بالخوف من الإثم . لقد دارت المراودة فى نفس قابيل إلى أن سيطرت غريزة الاستعلاء فأمرت بالقتل وطوعت بقية النفس . وهذا يكشف لنا أن النفس البشرية فيها ملكات متعددة ، كل ملكة لها مطلوب . والدين هو الذى يقيم التعايش السلمى بين الملكات .

مثال آخر : الغريزة الجنسية تقيم السعار فى النفس ، فيقوم الوعى الإيمانى بردع ذلك بأن تقول النفس الإيمانية : إياك أن تلغ فى أعراض الناس حتى لا تلغ الناس فى أعراضك ، ولماذا لا تذهب وتتزوج كما شرع الله ، ولا ترم أبناءك فى فراش غيرك ؛ لأن الغريزة مخلوقة لله فلا تجعل سلطان الغريزة يأمر وينهى .

وهكذا نرى أن النفس تضم وتشمل الملكات والغرائز ، ولا يصح أن يعدى الإنسان غريزة إلى أمر آخر ؛ لأنه إن عدى الشهوات فسدت الدنيا .

وعلى سبيل المثال نحن نستخدم الكهرباء التى تعطى لنا النور فى حدود ما يرسم لنا مهندس الكهرباء ، الذى وضع القطب الموجب فى مجاله وكذلك القطب السالب ، بحيث نأخذ الضوء الذى نريده أو تعطينا شرارة لنستخدمها كقوة لإدارة آلة ، لكن لو التقى القطب الموجب بالقطب السالب على غير ما صنع المهندس لحدثت قفلة كهربائية تسبب حريقاً أو فساداً . وكذلك النفس البشرية ، إن التقى الذكر مع الأنثى كما شرع الله فإن البشرية تسعد ، وإن حدث غير ذلك فالذى يحدث فى المجتمع يصير حريقاً نفسياً واجتماعياً لا حدود لآثاره الضارة ، وهكذا نرى أن النفس ليس فيها دافع واحد بل فيها دوافع متعددة .

ونجد غريزة الجوع تحرك النفس إلى الطعام ، ويستجيب الدين لذلك لكنه يوصى أن يأكل الإنسان بشرط ألا يتحول تناول الطعام إلى شره ، كما جاء فى الحديث : « بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه »[1] .

فالطعام لبقاء النوع . والإنسان محب للاستطلاع ، فيأمر الإسلام الإنسان بأن يستطلع أسباب الله فى الكون ليزيد من صلاح الكون ، وينهى الإسلام عن استخدام حب الاستطلاع فى التجسس على الناس ، وهكذا تتوازن الملكات بمنهج الإسلام ، وعلى المسلم أن يعايش ملكاته فى ضوء منهج الله معايشة سليمة حتى تكون النفس الإنسانية متساندة لا متعاندة ، لتعيش كل الملكات فى سلام ، ويؤدى كل جهاز مهمته كما أراد الله .

لكن المنافق يحيا مذبذباً وقد صنع ذلك بنفسه ، فقد أرخى لبعض ملكاته العِنان على حساب ملكات أخرى « مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء » إن الكافر يمتاز عن المنافق ـ ظاهرا ـ بأنه منسجم مع نفسه ، هو غير مؤمن بالإسلام ويعلن ذلك ولكنه فى حقيقة الأمر يتصارع مع فطرته التى تدعوه إلى الإيمان .

قد يقول قائل : وكيف يتساوى الذى أظهر الإيمان وأبطن الكفر مع الذى أعلن الكفر ؟ ونقول : الكافر لم يخدع الطائفة المؤمنة ولم يقل كالمنافق إنه مع الفئة المؤمنة

---

(١) من حديث رواه الترمذى والنسائى وابن ماجه .

وهو ليس معها ؛ بل يعلن الكافر كفره منسجماً مع نفسه ، لكن المنافق مذبذب خسيس فى وضعه الإنسانى والرجولى .

« مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلاً » .

والله لا يضل عبداً بشكل مباشر ؛ فسبحانه يُعلم خلقه أولاً بالرسل والمنهج ، لكنه يضل من يصر على عدم الإيمان ، لذلك يتركه على ضلاله وعماه . صحيح أن فى قدرة الله أن يأخذه إلى الإيمان قهراً ، لكنه سبحانه يترك الإنسان لاختياره .

فإن أقبل الإنسان على الله فسبحانه يعينه على الهداية ، أما إن لم يقبل فليذهب إلى تيه الضلال . ويزين له الدنيا ويعطيه منها لكنه لن يجد سبيلاً ؛ فسبيل الله واحد . وليس هناك سبيلان .

ونذكر هذه الحكاية ؛ لنعرف قيمة سبيل الله . كان الأصمعى ـ وهو مؤلف عربى له قيمة كبيرة ـ يملك أذناً أدبية تميل إلى الأساليب الجميلة من الشعر والنثر ، ووجد الأصمعى إنساناً يقف أمام باب الملتزم بالكعبة المشرفة ، وكان الرجل يدعو الله دعاء حاراً « يارب : أنا عاصيك ، ولولا أننى عاصيك لما جئت أطلب منك المغفرة ، فلا إله إلا أنت ، كان يجب أن أخجل من معصيتك ولكن ماذا أفعل » . وأعجب الأصمعى بالدعاء ، فقال : يا هذا إن الله يغفر لك لحسن مسألتك .

ومن بعد ذلك يقول الحق :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَـٰنًا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾ ﴾

راجع أصله وخرج أحاديثه الدكتور أحمد عمر هاشم نائب رئيس جامعة الأزهر .

لقد أخذ الحق على المنافقين أنهم يتخذون الكافرين أولياء من دون الله ؛ وكذلك أخذ المؤمنون على المنافقين أنهم اتخذوا من معسكر الكفر ولياً لهم من دون الله ومن دون المؤمنين ، ولهذا فأولى بالمؤمنين ألا يصنعوا ذلك ، ويوضح سبحانه : لقد أخذنا على المنافقين أنهم اتخذوا الكافرين أولياء من دون الله ، فإياكم أن تفعلوا مثلهم .

« يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطاناً مبيناً » .

وهذا أمر منطقى يستقيم مع منهج الإيمان ؛ لأنكم إن فعلتم ذلك . فإنما تقدمون الحجة ليعذبكم الله ، وتعلمون أن المنافق يعلن الإيمان بلسانه ويخفى الكفر فى قلبه ، فكيف يكون وضع المؤمن مع الكافر مثل وضع المنافق مع الكافر ؟ ذلك أمر لا يستقيم . ومن يفعل ذلك إنما يقدم حجة لله ليعذبه .

الحق سبحانه فى إرساله للرسل وفى تأييد الرسل بالمعجزات وفى إرساله المناهج المستوفية لتنظيم حركة الإنسان فى الحياة ، كل ذلك ليقطع الحجة على الناس حتى لا يقولن واحد : أنت لم تقل لنا يارب كيف نسير على منهج ما ؛ لذلك لم يترك ـ سبحانه ـ الإنسان ليفكر بعقله ليصل بفكره إلى وجود الله ، ويكتشف أن هناك خالقا للكون . لم يتركنا سبحانه لهذه الظنون ، ولكنه أرسل لنا الرسل بمنهج واضح ، من أجل ألا يكون للناس على الله حجة من بعد الرسل ، فلا يقولن واحد : أنت لم تنبهنى يارب ، والجهل بالقانون فى الشرع البشرى لا يعفى الإنسان من العقوبة إن ارتكب جرما ، لكن الله لا يفعل ذلك ؛ فهو أكرم على عباده من أنفسهم ، لذلك يرسل الرسول ليحمل المنهج الذى يبين الحلال من الحرام :

﴿ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ ﴾

(من الآية ٤٢ سورة الأنفال)

فلا يقولن واحد : لقد أخذنا الله على غرّة . وأنتم أيها المؤمنون إن اتخذتم الكافرين أولياء من دون المؤمنين وتقربتم إليهم ونصرتموهم فأنتم أكثر شرا من المنافقين ؛ لأن المنافق له أسبابه ، وفى أعماقه خيط من الكفر وخيط من الإيمان ، والحجة واضحة عليكم أيها المؤمنون ؛ فقد أبلغكم الحق المنهج وأعلنتم الإيمان به .

فإن صنعتم غير ذلك تعطون الحق الحجة فى أن يعذبكم .

« أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطاناً مبيناً » والسلطان المبين هو السلطان الواضح المحيط الذى لا يستطيع أن يدفعه أحد ، فإذا ما كانت هناك حجة ، قد يستطيع الإنسان أن ينقضها ، كالمحامى أمام المحاكم . لكن حجة الله هى سلطان مبين . أى لا تنقض أبداً .

ومن بعد ذلك يقول الحق :

﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ ﴾

ولنر دقة التربية الإيمانية . فلم يأت الحق بفصل فى كتابه عن المنافقين يورد فيه كل ما يتعلق بالمنافقين ، لا ، بل يأتى بلمحة عن المنافقين ثم يأتى بلقطة أخرى عن المؤمنين ، حتى ينفّر السامع من وضع المنافق ويحببّه فى صفات المؤمن ، وهنا يقول : « إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيراً » . والدرك مرة تنطق بسكون الراء ، وتنطق مرة بفتح الراء ، مثل كلمة « نهر » . والدرك دائماً فى نزول . والأثر الصالح يميز لنا ذلك بالقول :

« النار دركات كما أن الجنة درجات »[1] .

فالنزول إلى أسفل هو الدرك ، والصعود إلى أعلى هو صعود الدرج . وفى عصرنا نضع مستوى سطح البحر كمقياس ؛ لأن اليابسة متعرجة ، أما البحر فهو مستطرق .

ونستخدم فى الأمر الدقيق ـ أيضا ـ ميزان المياه ، وعندما تسقط الأمطار على الطرق تكشف لنا عمل المقاول الذى رصف الطرق ، هل أتقن هذا العمل أو لا ؟ ونحن نلقى دلوا من المياه فى الحمام بعد تبليطه حتى ينكشف جودة أو رداءة عمل

---

(١) تفسير الإمام ابن كثير .

العامل ، إذن هناك شيء يفضح شيئا آخر . والقول المصرى الشائع : « إن الذى يقوم بعمل المحارة هو الذى يكشف عامل البناء » . فلو أن الحائط غير مستو ؛ فعامل المحارة مضطر أن يسد الفجوات والميول حتى يستوى سطح الحائط . . والذى يكشف جودة عامل المحارة هو عامل طلاء الحائط ؛ لأنه إما أن يستخدم المعجون بكثرة ليملأ المناطق غير المستوية فى الحائط ، وإما أن يجد الأمر سهلا . والذى يكشف جودة أو رداءة عمل عامل الطلاء هى أشياء طبيعية مثل الغبار . والعامل الذى يريد أن يغش هو الذى يسرع بتسليم البناء ؛ لأن الغبار الذى يوجد فى الجو يمشى فى خط مستقيم ، وعندما يوجد جدار تم طلاؤه بمادة غير جيدة فالغبار يلتصق به ، وكأن الله قد أراد بذلك أن يفضح من لا يتقن عمله ، وكل شيء مرده إلى الله حتى يصل الخلق جميعا إلى الحق سبحانه مفضوحين ، إلا المؤمنين الذين يعملون صالحاً ، فهؤلاء يسترهم الله بعملهم الصالح .

« إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيراً » . وسبحانه وتعالى سبق أن عرض لنا صورة المنافقين المهزوزة التى لا ثبات لها على رأى ، ولا وجود لها على لون يحترمه المجتمع الذى يعيشون فيه فقال عنهم :

﴿ مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾

(من الآية ١٣٤ سورة النساء)

والذبذبة لون من أرجحة الشخصية التى لا يوجد لها مقوم ذاتى . وسبحانه وتعالى حين عرضهم هذا العرض المشوه ، يوضح : أن جزائى لهم حق يناسب ما فعلوه .

وقد هيأ الحق الأذهان ليجعلها مستعدة لقبول الحكم الذى أنزله عليهم حتى لا تأخذ الناس شفقة عليهم أو رحمة بهم ، وسبحانه حين يحكم حكما فهو يضمن بقيوميته ووحدانيته ألا يوجد منازع له فى الحكم . وكان من الممكن أن يقول سأجعله فى الدرك الأسفل من النار . ولن توجد قوة أخرى تنتشل المنافق ؛ لذلك أتبع الحق الحكم بقوله : « ولن تجد لهم نصيراً » أى أنه حكم مشمول بالنفاذ ، ولن يعدله أحد من خلق الله ، فسبحانه له الملك وحده ، وقد جعل سبحانه الملك فى الدنيا لأسباب الناس أيضاً ، أما فى الأخرة فلا مِلك لأحد ولا مُلك لأحد .

﴿ لِمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾

(من الآية ١٦ سورة غافر)

وبعد ذلك يتيح الحق لأقوام من المنافقين أن يعدلوا رأيهم فى المسألة وأن يعلنوا إيمانهم وأن يتوبوا عما فعلوه ، إنه ـ سبحانه ـ أتاح لهم أن يراجعوا أنفسهم ويحاسبوها فلم يغلق الباب دونهم بل قال :

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَٱعْتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾ ﴾

إذن فمن الممكن أن توجد فتحة خير قد تدفع الإنسان إلى التوبة ، وحتى لا يظن أحد أن الحكم هنا نهائى ، وذلك حتى لا يفقد الإنسان نفسه ويتورط فى مزيد من الشرور ، لذلك قال : « إلا الذين تابوا » أى تاب عن نفاقه الأول ، وإذا ما كان قد ترتب على نفاقه السابق إفساد فلا بد أن يصلح ما أفسده ويعتصم بالله ويُخْلِص لله نيّةً وعملاً . « إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله » . إذن فشروط النجاة من الدرك الأسفل من النار هى التوبة ، وإصلاح ما أفسد ، والاعتصام بالله ، وإخلاص دينه لله .

والتوبة هنا إقلاع عن النفاق ، وألا يترك المنافق الفساد الذى صنعه نفاقه بل عليه أن يحاول جاهداً أن يصلح ما أفسده بهذا النفاق . والاعتصام بالله كيف يكون ؟

لقد عرفنا من قبل أنهم كانوا يفعلون ذلك لابتغاء العزة عند الكافرين .. أى أن نفس المنافق تطمئن إلى هؤلاء الكافرين فيفزع إليهم ويعتز بشدتهم وبصلابتهم ؛ لذلك يوضح الله : انزعوا هذه الفكرة من رءوسكم وليكن اعتصامكم بالله وحده لأنه لا يُجِير أحد على الله ، واجعلوا العزة لله والمرجع إليه وحده .

والملاحظ أن الذى يتوب ويصلح ويعتصم بالله يكون قد استوفى أركان اليقين الإيمانى بالله ، لكن الحق يقول : « وأخلصوا دينهم لله » فلماذا أكد على الإخلاص

هنا ؟ لأن تدبير النفاق كان ينبع من قلوبهم أولا . ونعلم أن القلب قد يذنب ، فذنب الجارحة أن تعتدى ، مثال ذلك العين تذنب حين تعتدى على محارم الآخرين ، واللسان يذنب إن تعرض بالسب أو الشتم للناس . إذن . فكل جارحة لها مجال معصية ، وهنا مجال معصية القلب هو النفاق وهو الأمر المستور . إذن فقوله الحق : « وأخلصوا دينهم لله » جاء ليؤكد ضرورة الإخلاص فى التوبة عن النفاق ، والإخلاص محله القلب .

فكأن توبة القلوب غير توبة الجوارح ، فتوبة الجوارح تكون بأن تكف الجوارح عن مجال معاصيها . أما توبة القلب فهو أن يكف عن مجال نفاقه بأن يخلص . وبذلك أثبت الحق مزية المؤمنين الذين لم ينغمسوا فى النفاق . وجعل التائبين من المنافقين مع المؤمنين ، فكأن الأصل فى التنعيم وفى نيل الجزاء العظيم هو الوجود مع المؤمنين . « فأولئك مع المؤمنين وسوف يؤت الله المؤمنين أجراً عظيما » .

ومن هنا نعلم أن الأجر العظيم يكون للمؤمنين . ومن يوجد مع المؤمنين ينال الأجر نفسه . وقد جعل الحق الجزاء من جنس العمل . وكان المنافقون ينافقون ليأخذوا من المؤمنين ظواهر الإسلام كصون المال والدماء وليعتبرهم الجميع ظاهريا وشكليا من المسلمين ، وهم حين نافقوا المسلمين أعطاهم المسلمون ما عندهم . وعندما تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا الدين لله جعلهم الله مع المؤمنين ، ويعطى سبحانه لأهل الإيمان أجراً عظيماً .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾ ﴾

وسبحانه قد أوضح من قبل أن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار ، واستثنى منهم من تاب وأصلح واعتصم بالله وأخلص ، ويتحدث هنا عن فكرة العذاب

نفسها ، ليجليها فيقول : « ما يفعل الله بعذابكم » وهذا استفهام ، والاستفهام أصلاً سؤال من سائل يتطلب جواباً من مجيب . وسبحانه وتعالى يريد أن يعرض قضية موثوقا بها فهو لا يأتى بها خبراً ، فهو القادر على أن يقول : أنا لا أفعل بعذابى لكم ولا أحقق لذاتى من ورائه شيئا ، فلا استجلب به لى نفعا ولا أدفع به عنى ضرا .

لكنه هنا لا يأتى بهذه القضية كخبر من عنده ، بل يجعل المنافقين يقولونها . مثال ذلك ـ ولله المثل الأعلى ـ يقول واحد لآخر : أنت أهنتنى . ومن الجائز أن يرد الآخر : أنا لم أهنك . وأقسم لك أننى ما أهنتك . وقد يضيف : ابغنى شاهداً . وهنا نجد مراحل المسألة تبدأ بالإبلاغ عن عدم الإهانة ، ثم القسم بأن الإهانة لم تحدث ، ومن بعد ذلك طلب شاهدًا على أن الإهانة المزعومة قد حدثت .

وقد يقول الإنسان رداً على من يتهمه بالإهانة : أنا أترك لك هذه المسألة ، فماذا قلت لك حتى تعتبره إهانة ؟ ومن يقول ذلك واثق أن من شعر بالإهانة لو أدار رأسه وفكره فلن يجد كلمة واحدة تحمل فى طياتها شبهة الإهانة .

ولو كان الإنسان واثقا من أنه أهان الآخر ، فهو يخاف أن يقيم الآخر دليلا على صحة اتهامه له ، ولكن حين يقول له : وماذا قلت لك حتى تعتبر ذلك إهانة ؟ . فعليه أن يبحث ولن يجد . وبذلك يكون الحكم قد صدر منه هو .

وإذا كان الله يقول : « ما يفعل الله بعذابكم » فهذا خطاب لجماعة كانت ستتعذب . وكانت فيهم محادة لله . ورضى الله شهادتهم ، فكأن هذه لفتة على أن العاصى يستحق العذاب بنص الآية : « ما يفعل الله بعذابكم » ، ومستعد لهذا العذاب لأنه محاد لله . ولكن الله يقبل منه ومن أمثاله أن يشهدوا . وهذا دليل على أن الإيمان الفطرى فى النفس البشرية ، فإذا ما حزبها واشتد عليها الأمر لم تجد إلا منطق الإيمان .

ويوضح الحق للمنافقين : ماذا أفعل أنا بعذابكم ؟ فلن يجدوا سببا خاصا بالله ليعذبهم ، فكأن الفطرة الطبيعية قد استيقظت فيهم ؛ لأنهم سيديرون المسألة فى نفوسهم .

وعلى مستوانا نحن البشر نرى أن الذى يدفع الإنسان ليعذب إنسانا آخر إنما يحدث ذلك ليشفى غيظ قلبه ، أو ليثأر منه ؛ لأنه قد آلمه فيريد أن يرد هذا الإيلام . أو ليمنع ضرره عنه . والله سبحانه وتعالى لا يمكن أن يكون فى أى موقع من هذه المواقع . فإذا أدار المنافقون هذه المسألة فطريا بدون إيمان فلن يكون جوابهم إلا الآتى : لن يفعل الله بعذابنا شيئا ، إن شكرنا وآمنا .

ونستخلص من ذلك أن الحق سبحانه وتعالى حين يريد عرض قضية يثبت فيها الحكم من الخصم نفسه ، يلقيها على هيئة سؤال . وكان من الممكن أن يجرى هذه المسألة خبرا ، إلا أن الخبر هو شهادة من الله لنفسه ، أما السؤال فستكون إجابته اقرارا من المقابل . وهذا يعنى أنهم كانوا عاصين ومخالفين . وكأنه سبحانه قد ائتمنهم على هذا الجواب ؛ لأن الجواب أمر فطرى لا مندوحة عنه . وحين يدير الكافر رأسه ليظن بالله ما لا يليق ، فلن يجد مثل هذا الظن أبدا .

« ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم وكان الله شاكرا عليما » . وإن لم يشكروا ولم يؤمنوا فما الذى يناله الحق من عذابهم ؟ ونعلم أن عظمة الحق أنه لا يوجد شى من طاعة يعود إلى الله بنفع ، ولا يوجد شىء من معصية يعود إلى الله بالضرر . ولكنه يعتبر النفع والضرر عائدين على خلق الله لا على الله ـ سبحانه ـ .

وسبحانه يريدنا طائعين حتى نحقق السلامة فى المجتمع ، سلامة البشر بعضهم من بعض . إذن فالمسألة التى يريدها الحق ، لا يريدها لنفسه ، فهو قبل أن يخلق الخلق موجود وبكل صفات الكمال له ، وبصفات الكمال أوجد الخلق . وإيجاد الخلق لن يزيد معه شيئا ، ولذلك قال فى الحديث القدسى :

« يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وانسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك فى ملكى شيئا ، يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وانسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكى شيئا ، يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وانسكم وجنكم قاموا فى صعيد واحد فسألونى فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك مما عندى شيئا إلا كما يُنقص المخيط إذا أدخل البحر . . »[1] .

---

(١) رواه مسلم وأبوعوانه وابن حبان والحاكم عن أبى ذر .

إذن فالطاعة بالنسبة لله والمعصية بالنسبة لله ، إنما لشيء يعود على خلق الله . ولننظر إلى الرحمة من الحق سبحانه وتعالى الذى خلق خلقاً ثم حمى الخلق من الخلق ، واعتبر سبحانه أن من يحسن معاملة المخلوق مثله فهو طائع لله ، ويحبه الله لأنه أحسن إلى صنعة الله .

« ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم » فإن تشكروا وتؤمنوا فلن يفعل الله بعذابكم شيئا . . أى فقد أبعدتم أنفسكم عن استحقاق العذاب .

وسبحانه يريد أن يعدل مزاج المجتمع وتفاعلات أفراده مع بعضهم بعضاً ، وذلك حتى يكون المجتمع ذا بقاء ونماء وتعايش . ونعلم أن لكل إنسان سمة وموهبة ، وهذه الموهبة يريدها المجتمع .

فمن الجائز أن يكون لإنسان ما أرض ويريد أن يقيم عليها بناء ، وصاحب الأرض ليس مفترضا فيه أن يدرس الهندسة أولاً حتى يصمم البناء ورسومه ، وليس مفترضا فيه أن يتقن حرفة البناء ليبنى البيت ، وكذلك ليس مفروضا فيه أن يتعلم حرفة الطلاء والكهرباء وغيرهما .

وكذلك ليس من المفروض فيمن يريد ارتداء جلباب أن يتعلم جز الصوف من الغنم أو غزل القطن وكيف ينسجه وكيف يقوم بتفصيله وحياكته من بعد ذلك ، لا ، لا بد أن يكون لكل إنسان عمل ما ينفع الناس . إذن فلكل إنسان عمل ينفع الناس به حتى يتحقق الاستطراق النفعى ، ولأن كلاً منا يحتاج إلى الآخر فلا بد من إطار التعايش السلمى فى الحياة . لا أن يكون العراك هو أساس كل شيء ؛ لأن العراك يضعف القوة ويذهب بها سدى ، وسبحانه يريد كل قوى المجتمع متساندة لا متعاندة ، ولذلك قال : « ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم » . أما إن لم تشكروا وتؤمنوا ، فعذابكم تأديب لكم ، لا يعود على الله بشيء .

ولماذا وضع الحق الشكر مع الإيمان ؟ لنعرف أولاً ما الشكر ؟ الشكر : هو إسداء ثناء إلى المنعم ممن نالته نعمتهُ ، فتوجيه الشكر يعنى أن تقول لمن أسدى لك معروفا : « كثر خيرك » ، وما الإيمان ؟ إنه اليقين بأن الله واحد .

لكن ما الذى يسبق الآخر . الشكر أو الإيمان ؟ إن الإيمان بالذات جاء بعد الانتفاع بالنعمة ، فعندما جاء الإنسان إلى الكون وجد الكون منظما ، ولم يقل له أحد أى شيء عن أى دين أو خالق . ألا تهفو نفس هذا الإنسان إلى الاستشراف إلى معرفة من صنع له هذا الكون ؟

وعندما يأتى رسول ، فالرسول يقول للإنسان : أنت تبحث عن القوة التى صنعت لك كل هذا الكون الذى يحيط بك ، إن اسمها الله ، ومطلوبها أن تسير على هذا المنهج . هنا يكون الإيمان قد وقع موقعه من النعمة . فالشكر يكون أولا ، وبعد ذلك يوجد الإيمان ، فالشكر عرفان إجمالى ، والإيمان عرفان تفصيلى . والشكر متعلق بالنعمة . والإيمان متعلق بالذات التى وهبت النعمة .

« ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم وكان الله شاكرا عليما » والحق سبحانه يوضح لنا : أنا الإله واهب النعمة أشكركم . كيف يكون ذلك ؟

لنضرب هذا المثل ـ ولله المثل الأعلى ـ أنت اشتريت لابنك بعضا من اللعب ، ولم تفعل ذلك إلا بعد ان استوفيت ضرورات الحياة ، فلا أحد يأتى باللعب لابنه وهو لم يأت له بطعام أو ملابس .

إذن فأنت تأتى لابنك باللعب بعد الطعام والملبس ليملأ وقت فراغه ، وهذا يعنى أن الضرورات قد اكتملت . وحين تقول لابنك : إن هذه اللعبة للعب فقط ، ستأخذها ساعة تحب أن تلعب ، وتضعها فى مكانها وقت أن تذاكر ، فكل شيء هنا فى هذا المنزل له مهمة يجب أن يؤديها . وهذا يعنى إنك كوالد تريد أن تؤدب ابنك حتى يلعب بلعبته وقت اللعب ولا يلعب بأى شيء غيرها فى المنزل ؛ لأنه لو لعب بكل شيء فى المنزل فلا بد من أن يكسر شيئا ، فلا مجال للعب فى التليفزيون أو فى الساعة أو الثلاجة أو الغسالة حتى لا تتعطل تلك الأجهزة .

وأنت كوالد تريد أن تفرق بين شيء يلعب به وشيء يُجد به . وأشياء الجد لا توجد إلا عند طلبها فقط ؛ فالغسّالة لا تستخدم إلا ساعة غسل الملابس ، والساعة لا نستخدمها إلا لحظة أن نرغب فى معرفة الوقت . والثلاجة لا تفتحها إلا ساعة

تريد أن تستخرج شيئا تأكله أو تشربه ، والوالد يأتى للابن بقليل اللعب ليضع له حدا بين الأشياء التى يمكنه أن يلعب بها وبين الأشياء التى لا يصح أن يلعب بها ، فأشياء المنزل يجب ألا يقرب منها الابن إلا وقت استعمالها . لكن بالنسبة للعبة فالابن يلعب بها عندما يحين وقت اللعب ، لكن عليه أن يحافظ عليها . وعندما يرقب الوالد ابنه ، ويجده منفذا للتعليمات ، ويحافظ على حاجات المنزل ، ويلعب بلعبه محافظا عليها . وإن لم يُعَلِّم الأب ابنه ذلك فقد يفسد الابن لعبه .

وحين يقوم الابن بتنفيذ تعليمات أبيه فالأب يرضى عنه ويسعد به . وعندما تخرج لعبة جديدة فى السوق فالأب الراضى عن ابنه يشترى له هذه اللعبة الجديدة ؛ لأن الولد صار مأمونا ؛ لأنه يعرف قواعد اللعب مع المحافظة على أداة اللعب . ويعرف أيضا كيف يحافظ على حاجات المنزل . ويزداد رضاء الأب عن تصرفات الابن . وينشأ عن هذا الرضاء أن يشترى الأب لعبا جديدة . فإذا كان ذلك هو ما يحدث فى العلاقة ما بين الأب والابن ، وهما مخلوقان لله ، فما بالنا بالخالق الأعلى سبحانه وتعالى الذى أوجد كل المخلوقات ؟

إن الإنسان حين يضع كل المسائل فى ضوء منهج الله ، فالله شاكر وعليم ؛ لأن الله يرضى عن العبد الذى يسير على منهجه ، وعندما يرضى الرب عن العبد فهو يعطى له زيادة . فالله شاكر بمعنى أن البشر إن أحسنوا استقبال النعمة بوضع كل نعمة فى مجالها فلا تتعدى نعمة جادة على نعمة هازلة ، ولا نعمة هازلة على نعمة جادة ، فالله يرضى عن العباد .

ومعنى رضاء الله أن يعطى البشر أشياء ليست من الضرورات فقط ولكن ما فوق ذلك . فسبحانه يعطى الضرورات للكل حتى الكافر . ويعطى سبحانه ما فوق الضرورات وهى أشياء تسعد البشر .

إذن فمعنى أن الله شاكر . . أى أنه سبحانه وتعالى راض . ويثيب نتيجة لذلك ويعطى الإنسان من جنس الأشياء ويسمو عطاؤه ، مصداقا لقوله الحق :

﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾

(من الآية ٧ سورة إبراهيم)

فالشكر هنا موجه من العبد للرب ، والزيادة من الرب إلى العبد . وإياك أيها الإنسان أن تصنع الأشياء شكليا ، مثل الطفل الذى يصون لعبته لحظة أن يرى الأب . ومن فور أن يختفى الأب من أمام عينى الطفل فهو يفسد اللعبة ، والله ليس كالأب أبداً ، فالأب قدراته محدودة ، ولكن الله هو الخالق الأعلى الذى لا تخفى عليه خافية أبداً وسبحانه شاكر ، وهو أيضاً عليم .

ومن بعد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾ ﴾

إنه سبحانه وتعالى يريد أن يحمى آذان المجتمع الإيمانى من « قالات السوء » . . أى من الألفاظ الرديئة ؛ لأننا نعلم أن الناس إنما تتكلم بما تسمع ، فاللفظ الذى لا تسمعه الأذن لا تجد لسانا يتكلم به ، ونجد الطفل الذى نشأ فى بيت مهذب لا ينطق ألفاظا قبيحة ، وبعد ذلك تجيء على لسانه ألفاظ قبيحة وحينئذ نتساءل : من أين جاءت هذه الألفاظ على لسان هذا الابن ؟ ونعرف أنها جاءت من الشارع ؛ لأن البيئة الدائمة للطفل ليس بها ألفاظ رديئة ، وعندما يتقصى الإنسان عن مصدر هذه الألفاظ ، يعرف أن الطفل المهذب قضى بعضاً من الوقت فى بيئة أخرى تسربت إليه منها بعض الألفاظ الرديئة .

إذن فاللغة هى بنت المحاكاة . وما تسمعه الأذن يحكيه اللسان . ونعلم أن اللغة ليست جنسا وليست دما ، بمعنى أن الطفل الإنجليزى لو نشأ فى بيئة عربية ، فهو يتحدث العربية . ولو أخذنا طفلا عربيا ووضعناه فى بيئة إنجليزية فسيتكلم الإنجليزية .

واللغة الواحدة فيها ألفاظ لا يتكلم بها لسان إلا إن سمعها ، وإن لم يسمعها الإنسان فلن ينطق بها . والحق سبحانه وتعالى يريد أن يحمى المجتمع الإيمانى من قالات السوء التى تطرق آذان الناس لأنها ستعطيهم لغة رديئة ؛ لأن الناس إن

تكلمت بقالات السوء ، فسيكون شكل المجتمع غريبا ، وتتردد فيه قالات سوء فى آذان السوء ، فكأن الحق سبحانه يوضح : إياكم أن تنطق ألسنتكم بأشياء لا يحبها الله ، فليست المسألة أن يريح الإنسان نفسه فقط بنطق كلمة ، ولكن نطق هذه الكلمة سيرهق أجيالاً ؛ لأن من يسمع الكلمة الرديئة سيرددها ، وسيسمعها غيره فيرددها ، وتتوالى القدوة السيئة . ويتحمل الوزر الإنسان الذى نطق بكلمة السوء أولاً .

وقالات السوء هذه قد تكون بالحق وقد تكون بالباطل ، فإن كانت فى الحق مثلا فلن نستطيع أن نقول : إن كل الناس أهل سوء . وقد يبتدىء إنسان آخر بسباب ، ويجوز أن يدعى إنسان على آخر سبابا . إذن فالحق سبحانه وتعالى يريد أن يحمى الآذان الإيمانية من ألسنة السوء ، لذلك يقول : « لا يحب الله الجهر بالسوء من القول » ومقابلها بالطبع هو : أن الله يحب الجهر بالحسن من القول . وساعة يحبك الحق المجتمع هذه الحبكة الإيمانية ، أيعالج ملكة على حساب ملكة أخرى ؟. لا .

ونعلم أن النفس فيها حب الانتقام وحب الدفاع عن النفس وحب الثأْر وما يروح به عن نفسه ويخفف ما يجده من الغيظ . والمثل العربى يقول : « من استُغْضِب ولم يغضب فهو حمار » ؛ لأن الذى يُستغضب ولا يغضب يكون ناقص التكوين ، فهل معنى ذلك أن الله يمنع الناس من قول كلمة سوء ينفث بها الإنسان عن صدره ويريح بها نفسه ؟ لا ، لكنه ـ سبحانه ـ يضع شرطاً لكلمة السوء هو : « إلا من ظُلِم » ؛ لأن الظلم هو أخذ حق من إنسان لغيره . وكل إنسان حريص على نفسه وعلى حقوقه . فإن وقع ظلم على إنسان فملكات نفسه تغضب وتفور ، فإما أن ينفث بما يقول عن نفسه ، وإما أن يكبت ويكتم ذلك .

فإن قال الله : « لا يحب الله الجهر بالسوء من القول » واكتفى بذلك ، لكان كبتاً للنفس البشرية . وعملية الكبت هذه وإن كانت طاعة لأمر الله لأنه لا يحب الجهر بالسوء من القول ، ولكن قد ينفلت الكبت عند الانفعال ، وينفجر ؛ لذلك يضع الحق الشرط وهو وقوع ظلم . فيوضح سبحانه : أنا لا أحب الجهر بالسوء من القول ، وأسمح به فى حدوده المنفثة عن غيظ القلوب ؛ لأنى لا أحب أن أصلح ملكة على حساب ملكة أخرى . ولذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

« إن الغضب جمرة توقد فى القلب ألم تروا إلى انتفاخ أوداجه وحمرة عينيه فإذا وجد أحدكم من ذلك شيئا فإن كان قائما فليجلس ، وإن كان جالسا فلينم فإن لم يزُل ذلك فليتوضأ بالماء البارد أو يغتسل فإن النار لا يطفئها إلا الماء »[1] .

أى أن يتحرك الإنسان من فور إحساسه بالغضب ؛ فيغير من وضعه أو يقوم إلى الصلاة بعد أن يتوضأ أو يغتسل ؛ لأنه بذلك ينفث تنفيثاً حركياً ليخفف من ضغط المواجيد على النفس الفاعلة ؛ تماماً كما يفك إنسان صماماً عن آلة بها بخار ليخرج بعض البخار .

إذن فمن وقع عليه ظلم له أن يجهر بالسوء . والجهر له فائدتان : الأولى : أن ينفث الإنسان عن نفسه فلا يكبت ، وثانياً : أنه أشاع وأعلن أن : هذا إنسان ظالم ، وبذلك يحتاط الناس فى تعاملهم معه . وحتى لا يخدع إنسان نفسه ويظن أنه بمنجاة عن سيئاته ، فلو ستر كل إنسان الظلم الذى وقع عليه لاستشرى الظلم فى عمل السيئات . ولكن إياك أن تتوسع أيها العبد فى فهم معنى كلمة « ظلم » هذه ؛ لأن الذى ينالك ممن ظلمك إما فعل وإما قول . وعليك أيها المسلم أن تقيس الأمر بمقياس دقيق على قدر ما وقع عليك من ظلم .

﴿ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾

(من الآية ١٩٤ سورة البقرة)

إذن فالحق سبحانه وتعالى لا يعطينا فى الاستثناء إلا على قدر الضرورة . ويوضح : إياكم أن تزيدوا على هذه الضرورة ، فإن كان ظلمكم بقول فأنا السميع . وإن كان ظلمكم بفعل فأنا العليم ، فلا يتزيد واحد عن حدود اللياقة .

وبذلك يضع الحق الضوابط الإيمانية والنفسية فأزاح الكبت وفى الوقت نفسه لم يقفل باب الطموح الإيمانى . لقد سمح للعبد أن يجهر إن وقع عليه ظلم . لكن إن امتلك الإنسانُ الطموحَ الإيمانى فيمكنه ألا يجهر وأن يعفو . إذن فهناك فارق بين أمر يضعه الحق فى يد الإنسان ، وأمر يلزمه به قسرا وإكراها عليه ؛ فمن ناحية الجهر ، جعل سبحانه المسألة فى يد الإنسان ، ويحب سبحانه أن يعفو الإنسان ؛ لأن المبادىء

---

(١) رواه البيهقى فى الشعب ، والترمذى من حديث أبى سعيد دون قوله (توقد) . ورواه أحمد وأبو داود .

القرآنية يتساند بعضها مع بعض . وسبحانه يقول :

﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾

(من الآية ٣٤ سورة فصلت)

فإن أباح الله لك أن تجهر بالسوء من القول إذا ظلمك أحدٌ ، فقد جعل لك ألّا تجهر بل تعفو عنه ، وغالب الظن أن صاحب السوء يستخزى ويعرف أن هناك أناساً أكرم منه فى الخلق ، ولا يتعب إنسانٌ إلا أن يرى إنساناً خيراً منه فى شيء . وعندما يرى الظالمُ أن المظلوم قد عفا فقد تنفجر فى نفسه الرغبة أن يكون أفضل منه .

إذن فالمبدأ الإيمانى : « ادفع بالتى هى أحسن » جعله الله مجالاً محبوباً ولم يجعله قسراً ؛ لأنك إن أعطيت الإنسان حقه ، ثم جعلت لأريحيته أن يتنازل عن الحق فهذا إرضاء للكل . وهكذا ينمى الحق الأريحية الإيمانية فى النفس البشرية ؛ لأنه لو جعلها قسراً لأصلح ملكة على حساب ملكة أخرى . ولذلك إذا رأيت إنساناً قد اعتدى على إنسان آخر ، فدفع الإنسان المعتدى عليه بالتى هى أحسن وعفا وأصلح فقد ينصلح حال المعتدى ، وسبحانه القائل : (ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم) .

فإذا تمادى من بعد ذلك فعلى الإنسان أن يعرف أن الله لا يكذب أبداً ، ولا بد أن الخلل فى سلوكك يا من تظن أنك دفعت بالتى هى أحسن .

قد يكون الذى دفع بالتى هى أحسن قد قال بلهجة من التعالى : سأعفو عنك ، ومثل هذا السلوك المتكبر لا يجعل أحداً وليًّا حميًا . لكن إن دفع حقيقة بالتى هى أحسن تواضعاً وسماحة ، فلا بد أن يصير الأمر إلى ما قاله الله : (فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم) . والتفاعلات النفسية المتقابلة يضعها الله فى إطارات واضحة وسبحانه القائل :

﴿ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾

(من الآية ١٩٤ سورة البقرة)

وذلك حتى لا يستشرى المعتدى أيضاً ، فهناك إنسان إذا تركناه مرة ومرة . يستشرى ، لكن إذا ما أوقفناه عند حده فهو يسكت ، وبذلك نرحم المجتمع من استشراء الفساد . ويُصعب الحق المسألة فى رد الاعتداء .

ويثور سؤال : من القادر على تحقيق المثلية بعدالة ؟ . ونجد على سبيل المثال إنسانا ضرب إنساناً آخر صفعة على الوجه ، فبأية قوة دفع قد ضرب ؟ وفى أى مكان ضرب ؟ ولذلك نجد أن رد العدوان على درجة المثلية المتساوية أمر صعب . ومادام المأمور به أن أعتدى بمثل ما اعتدى به على ؛ ولن أستطيع تحقيق المثلية ، ولربما زاد الأمر على المثلية ؛ وبعد أن كنت المعتدَى عليه صرت المعتدِى ، بذلك يكون العفو أقرب وأسلم .

والعمليات الشعورية التى تنتاب الإنسان فى التفاعلات المتقابلة يكون لها مواجيد فى النفس تدفع إلى النزوع . والعملية النزوعية هى رد الفعل لما تدركه ، فإن آذاك إنسان وأتعبك واعتدى عليك فأنت تبذل جهدًا لتكظم الغيظ ، أى أن تحبس الغيظ على شدة . فالغيظ يكون موجوداً ، ولكن المطلوب أن يمنع الإنسان الحركة النزوعية فقط . وعلى المغتاظ أن يمنع نفسه من النزوع ، وإن بقى الغيظ فى القلب .

﴿ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ ﴾

(من الآية ١٣٤ سورة آل عمران)

هذه مرحلة أولى تتبعها مرحلة ثانية هى :

﴿ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ﴾

(من الآية ١٣٤ سورة آل عمران)

فإذا كان المطلوب فى المرحلة الأولى منع العمل النزوعى ، فالأرقى من ذلك أن تعفو ، والعفو هو أن تخرج المسألة التى تغيظك من قلبك . وإن كنت تطلب مرحلة أرقى فى كظم الغيظ والعفو فأحسن إليه ؛ لأن من يرتكب الأعمال المخالفة هو المريض إيمانياً . وعندما ترى مريضاً فى بدنه فأنت تعاونه وتساعده وإن كان عدواً لك . وتتناسى عدواته ؛ فما بالنا بالمصاب فى قيمه ؟ إنه يحتاج منا إلى كظم الغيظ ، أو العفو كدرجة أرقى ، أو الاحسان إليه كمرحلة أكثر علواً فى الارتقاء .

إذن فالحق سبحانه وتعالى يبيح أن تعتدى بالمثل ، ثم يفسح المجال لنكظم الغيظ فلا نعتدى ولكن يظل السبب فى القلب ، ثم يرتقى بنا مرحلة أخرى إلى العفو وأن نخرج المسألة من قلوبنا ، ثم يترقى ارتقاء آخر ، فيقول سبحانه : (والله يحب المحسنين) ، ومن فينا غير راغب فى حب الله ؟ وهكذا نرى أن الدين الإسلامى يأمر بأن يحسن المؤمن إلى من أساء إليه .

وقد يتساءل إنسان : كيف تطلب منى أن أحسن إلى من أساء إلى ؟ والرد : أنت وهو لستما بمعزل عن القيوم ؛ فهو قيوم ولا تأخذه سنة ولا نوم ، وكل شيء مرئى له وكلاكما صنعة الله ، وعندما يرى الله واحداً من صنعته يعتدى عليك أو يسىء إليك فسبحانه يكون معك ويجيرك ، ويقف إلى جانبك لأنك المعتدَى عليه . إذن فالإساءة من الأخر تجعل الحق سبحانه فى جانبك ، وتكون تلك الإساءة فى جوهرها هدية لك .

وعندما نفلسف كل المسائل نجد أن الذى عفا قد أخذ أكثر مما لو كان قد انتقم وثأر لنفسه ؛ لأنه إن انتقم سيفعل ذلك بقدرته المحدودة ، وحين يعفو فهو يجعل المسألة لله وقدرته سبحانه غير محدودة ، إن أراد أن يرد عليه ، وبعطاء غير محدود إن أراد أن يرضي المعتدى عليه . هذا هو الحق سبحانه وتعالى عندما يلجأ إليه المظلوم العافى المحسن . وهو السميع العليم بكل شيء . ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ إِن تُبْدُواْ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾ ﴾

لقد عرفنا أن الحق لا يسمح لك بالجهر بالسوء من القول إلا إذا كنت مظلوماً . وهذا يعنى أن المسألة تحتمل الجهر وتحتمل الإخفاء ، فقال : « إن تبدو خيراً » أى إن تظهر الخير ، أو تخفى ذلك ، أو تعفو عن السوء . وكل هذه الأمور من ظاهر وخفى من الأغيار البشرية ، لكن شيئاً لا يخفى على الله . ولا يمكن أن يكون للعفو مزية

إيمانية إلا إذا كان مصحوباً بقدرة ، فإن كان عاجزاً لما قال : عفوت . وسبحانه يعفو مع القدرة . فإن أردت أن تعفو فلتتخلق بأخلاق منهج الله ، فيكون لك العفو مع القدرة . ولنا أن نعلم أن الحق لا يريد منا أن نستخزى أو نستذل ولكن يريد منا أن نكون قادرين ، ومادمنا قادرين فالعفو يكون عن قدرة وهذه هى المزية الإيمانية ؛ لأن عفو العاجز لا يعتبر عفواً .

والناس تنظر إلى العاجز الذى يقول : إنه عفا ـ وهو على غير قدرة ـ تراه أنه استخزى . أما من أراد أن يتخلق بأخلاق منهج الله فليأخذ من عطاءات الله فى الكون ، ليكون قادراً وعزيزاً بحيث إن ناله سوء ، فهو يعفو عن قدرة « فإن الله كان عفواً قديراً » .

وقلنا من قبل : إنك إذا لمحت كلمة « كان » على نسبة لله سبحانه وتعالى كنسبة الغفران له أو الرحمة ، فعلينا أن نقول : كان ولايزال ؛ لأن الفعل مع الله ينحل عن الزمان الماضى وعن الحاضر وعن المستقبل ؛ فهو سبحانه مادام قد كان ، وهو لا تناله الأغيار ، فهو يظل إلى الأبد .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ ﴾

وسبحانه يريد أن يجعل من قضية الإيمان قضية كلية واحدة لا أبعاض فيها ، فليس إعلان الإيمان بالله وحده كافياً لأن يكون الإنسان مؤمناً ؛ لأن مقتضى أن تؤمن بالله يحتاج إلى رسول يعرفك أن الخالق هو الذى سخر لك قوى الكون واسمه الله .

وأنت لا تهتدى إلى معرفة اسم القوة الخالقة لك إلا بوساطة رسول منزل من عند الله .

ونعرف أن عمل العقل فى الاستنباط العقدى عاجز عن معرفة اسم خالق الكون ؛ لأن الإنسان قد طرأ على كون منظم ، وكان من الواجب عليه أن يلتفت لفتة ليعلم القوة التى سبقت هذا الوجود وخلقته وأن الإنسان قد طرأ على وجود متكامل . وقد يسمع الإنسان من أبيه ـ مثلاً ـ أن هذا البيت بناه الأب أو الجد ، وذلك الشيء فعله فلان ابن فلان . لكن لم يسمع أحداً يقول له : « ومن بنى السماء ؟» ولم يسمع أحداً يقول : « ومن خلق الشمس ؟» ، مع أن الناس تدعى ما ليس لها ، فكيف يُترك أعظم ما فى كون الله بدون أن نعرف من أوجده ؟ .

إننا نجد الناس تؤرخ للشيء التافه أو المهم نسبياً فى حياتهم ، نجد دراسات عن تاريخ أحجار ، ودراسات عن تاريخ صناعة الأشياء ؛ تاريخ المصباح الكهربى الذى اخترعه اديسون وقام بتوليد الكهرباء من مصادر ضئيلة ويسيره ، باختصار ، نجد أن كل شيء فى هذا الوجود له تاريخ ، وهذا التاريخ يرجع بالشيء إلى أصل وجوده . وأنت إن نسبت أى صنعة مهما كانت مهمة أو تافهة نكتشف أن واحداً تلقاها عن واحد ، ولم يبتكرها هو دفعة واحدة .

إن كل مبتكر أخذ ما انتهى إليه سابقه وبدأ عملاً جديداً إلى أن وصلت المخترعات بميلادها ، ومن يصدق أن مصباحاً يُضيء وينطفيء ويحترق يصنعه إنسان ونعرف له تاريخاً ، وبعد ذلك ننظر إلى الشمس التى لم تخفت ولم تضعف ولم تنطفيء ولم تحترق ، والمصباح ينير حيزاً قليلا يسيرًا ، والشمس تنير كوناً ووجوداً ، ألا تحتاج الشمس إلى من يفكر فى تاريخها ؟

لقد سبق لنا أن قلنا : إن الإنسان حينما ينظر إلى الكون نظرة بعيدة عن فكرة الدين وبعيداً عن بلاغ الرسل عن الخالق وكيفية الخلق ومنهج الهداية ، فهو يقول لنفسه : تختلف مقادير الناس باختلاف مراكزها وقوتها فيما يفعلون ، هناك من يجلس على كرسى من شجر الجميز . وآخر على كرسى مصنوع من شجر الورد ، وثالث يجلس على حصيرة .

إن الإنسان يعيش بصناعات غيره من البشر حسب قدره ومكانته ؛ فالريفى أو البدوى يشعل النار بصك حديدة بحجر الصوان ويحتفظ بالنار لمدة ليستخدمها لأكثر من مرة ، وعندما يرتقى فى استخدام النار يستخدم « مسرجة » ، ولمّا ازداد تحضرا استخدم « مصباح جاز » بزجاج ولها أرقام تدل على قدرتها على الاضاءة .

فهناك مصباح رقم خمسة ، ورقمها دليل على قوتها الخافتة ، وتتضاعف قوة « المصباح » من بعد ذلك حسب المساحة المطلوب إنارتها . ولمّا ارتقى الإنسان أكثر استخدم « الكلوب » . ولمّا ارتقى أكثر استخدم الكهرباء أو النيون أو الطاقة الشمسية ، فإذا ما أشرقت الشمس فكل إنسان يطفىء الضوء الذى يستخدمه ، فنورها يغنى عن أى نور . وفى الليل يحاول الإنسان أن تكون حالة الكهرباء فى منزله جيدة خشية أن ينقطع سلك ما فيظلم المكان . فما بالنا بالشمس التى لا يحدث لها مثل ذلك .

إننا نجد الإنسان على مر التاريخ يحاول أن يرقى إلى فهم طلاقة قدرة الحق ، وإن لم يأت رسول ، أما أسماء القدرة الخالقة فلا يعرفها أحد بالعقل بل بوساطة الرسل . فاسم « الله » اسم توقيفى . فكيف يتأتى ـ إذنْ ـ مثل قول هؤلاء : سنؤمن بالله ونكفر برسله ؟ كيف عرفوا ـ إذن ـ أن القوة التى سيؤمنون بها اسمها الله ؟ لا بد أنهم قد عرفوا ذلك من خلال رسول ؛ لأن الإيمان بالله إنما يأتى بعد بلاغ عن الله لرسول ليقول اسمه لمن يؤمن به .

وهل الإيمان بالله كقوة خفية قوية مبهمة وعظيمة يكفى ؟ أو أن الإنسان لا بد له أن يفكر فيما تطلبه منه هذه القوة ؟ وإذا كانت هذه القوة تطلب من الإنسان أن يسير على منهج معين ، فمن الذى يبلغ هذا المنهج ؟

لا بد إذن من الرسول يبلغنا اسم القوة الخالقة ومطلوبها من الإنسان للسير على المنهج ، ويشرح لنا كيفية طاعة هذه القوة . فلا أحد ـ إذن ـ يستطيع أن يفصل الإيمان بالله عن الرسول ، وإلا كان إيمانا بقوة مبهمة . ولا يجترىء صاحب هذا اللون من الإيمان أن يقول : إن اسم هذه القوة « الله » ؛ لأن هذا الاسم يحتاج إلى بلاغ من رسول .

إذن فعندما يسمع أحدنا إنساناً يقول : أنا أؤمن بالله ولكن لا أؤمن بالرسل : علينا أن نقول له : هذا أول الزلل العقلى ؛ لأن الإيمان بالله يقتضى الإيمان ببلاغ جاء به رسول ؛ لأن الإيمان بالله لا ينفصل عن الإيمان بالرسول .

والحق سُبحانه وتعالى خلق آدم بعد أن خلق الكون وبقية المخلوقات ، ولا نجد من يدعى أن آدم هو أول من عمر هذا الوجود .

وما آدم فى منطق العقل واحد ولكنه عند القياس أوادم

ومن الممكن أن نقول : إن هناك خلقاً كثيرًا قد سبقوا آدم فى الوجود ، ولكن آدم هو أول الجنس البشرى . وعندما خلقه الله علمه الأسماء كلها حتى يستطيع أن يسير فى الوجود ، فلو لم يكن قد تعلم الأسماء لما استطاع أن يتحدث مع ولد من أولاده ، ولما استطاع ـ على سبيل المثال ـ أن يقول لابن من أبنائه : انظر أأشرقت الشمس أم لا ؟

إذن كان لا بد لآدم من معرفة الأسماء كلها من خلال معلم ؛ لأن اللغة بنت المحاكاة ؛ لأن أحداً لا يستطيع أن يتكلم كلمة إلا بعد أن يكون قد سمعها . والواحد منا سمع من أبيه ، والآباء سمعوا من الأجداد ، وتتوالى المسألة إلى أن تصل إلى آدم ، فممن سمع آدم حتى يتكلم أول كلمة ؟ لا بد أنه الله ، وهذه مسألة يجب أن يعترف بها كل إنسان عاقل . إذن قول الحق فى قرآنه :

﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾

(من الآية ٣١ سورة البقرة)

هو كلام منطقى بالإحصاء الاستقرائى ، وهو قول يتميز بمنتهى الصدق .

والإنسان منا عندما يعلم ابنه الكلام يعلمه الأسماء . أما الأفعال فلا أحد يعرف كيف تعلمها . الإنسان يقول لابنه : هذا كوب ، وهذه منضدة ، وذلك طبق ، وهذا طعام ، لكن لا أحد يقول لابنه : « شرب » معناها كذا ، و« أكل » معناها كذا . إذن فالخميرة الأولى للكلام هى الأسماء ، وبعد ذلك تأتى المزاولات والممارسات ليتعلم الإنسان الأفعال .

لقد ترك الحق لنا فى كونه أدلة عظيمة تناسب عظمته كخالق لهذا الكون . والرسول هو الذى يأتى بالبلاغ عنه سبحانه ، فيقول لنا اسم القوة : « الله » ، وصفاتها هى « كذا » ، ومن يطعها يدخل الجنة ، ومن يعصها يدخل النار ، ولو لم يوجد رسول نظل تائهين ولا نعرف اسم القوة الخالقة ولا نعرف مطلوبها ، وهذا ما يرد به على الجماعة التى تعبد الشمس أو تعبد القمر أو النجوم ونقول لهم : هل أنتم تعبدون الشمس ؟ لعلكم فعلتم ذلك لأنها أكبر قوة فى نظركم .

لكن هناك سؤال هو : « ما العبادة » ؟ الإجابة هى : العبادة طاعة عابد لمعبود ، فماذا طلبت منكم الشمس أن تفعلوه وماذا نهتكم ومنعتكم الشمس ألا تفعلوه ؟ ويعترف عبدة الشمس : لم تطلب الشمس منا شيئاً . وعلى ذلك فعبادتهم للشمس لا أساس لها ؛ لأنها لم تحدد منهجا لعبادتها ، ولا تستطيع أن تعد شيئا لمن عبدها ، فإله بلا منهج لا قيمة له . وهكذا نرى أن عبادة أى قوة غير الله هى عبادة تحمل تكذيبها ، والإيمان بالله لا ينفصل أبداً عن الإيمان بالقوة المبلغة عن الله إنها الرسل .

ويشرح الرسول لنا كيف يتصل بهذه القوة الإلهية ، وتشرح القوة الإلهية لنا كيفية اتصاله بالرسول البشرى بوساطة خلق آخر خلقته هذه القوة المطلقة ؛ لأن الرسول من البشر ، والبشر لا يستطيع أن يتلقى عن القوة الفاعلة الكبرى . ونحن نفعل مثل هذه الأشياء فى صناعتنا . ونعلم أن الإنسان عندما يريد أن ينام لا يرغب فى وجود ضوء فى أثناء نومه ، فيتخذ الليل سكنا ويتمتع بالظلمة ، لكن إن استيقظ فى الليل فهو يخاف أن يسير فى منزله بدون ضوء حتى لا يصطدم بشىء ، لذلك يوقد مصباحاً صغيراً فى قوة الشمعة الصغيرة ليعطى نفسه الضوء ، ونسميها « الوناسة » .

ولا نستطيع توصيل هذا المصباح الصغير بالكهرباء مباشرة ، وإنما نقوم بتركيب محول صغير يأخذ من القوة الكهربية العالية ويعطى للمصباح الصغير ، فما بالنا بقوة القوى ؟

إن الله جعل خلقاً آخر هم الملائكة ليكونوا واسطة بينه وبين رسله . وهؤلاء الرسل أعدهم سبحانه إعداداً خاصاً لتلقى هذه المهمة . إذن فالذين يريدون أن يؤمنوا بالله ثم يكفروا برسله نقول لهم : لا ، هذا إيمان ناقص . ووضع الحق

سبحانه وتعالى الإيمان بالرسل كلهم فى صيغة جمع حتى لا تفهم كل أمة أن رسولها فقط هو الرسول المنزل من عند الله ، بل لا بد أن تؤمن كل أمة بالرسل كلهم ؛ لأن كل رسول إنما جاء على ميعاده من متطلبات المجتمع الذى يعاصره ، وكلهم جاءوا بعقائد واحدة ، فلم يأت رسول بعقيدة مخالفة لعقيدة الرسول الآخر ؛ وإن اختلفوا فى الوسائل والمسائل التى تترتب عليها الارتقاءات الحياتية . وقد خلق الحق أولاً سيدنا آدم وخلق منه زوجته حواء ، اثنين فقط ثم قال سبحانه :

﴿ وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ﴾

(من الآية ١ سورة النساء)

كان الاثنان يعيشان معاً وأنجبا عدداً من الأبناء ، وتناسل الأبناء فصار مطلوباً لكل أسرة من الأبناء بيتاً ، وكل بيت فيه أسرة يحتاج إلى رقعة من الأرض ليستخرج منها أفراد الأسرة خيرات تكفى الطعام . وكل فرد يحتاج على الأقل إلى نصف فدان ليستخرج منه حاجته للطعام . وكلما كثر النسل اتسعت رقعة الوجود بالمواصلات البدائية ، فهذا إنسان ضاقت به منطقته فرحل إلى منطقة أخرى فيها مطر أكثر ليستفيد منه أو خير أكثر يستخرجه . وتنتشر الجماعات وتنعزل . وصارت لكل جماعة عادات وتقاليد وأمراض ومعايب غير موجودة فى الجماعة الأخرى . ولذلك ينزل الحق سبحانه وتعالى رسولاً إلى كل جماعة ليعالج الداءات فى كل بيئة على حدة . وسخر الحق سبحانه وتعالى بعض العقول لاكتشافات الكون ، وبعد ذلك يصبح الكون قطعة واحدة ، فالحدث يحدث فى أمريكا لنراه فى اللحظة نفسها فى مصر . وزادت الارتقاءات . ولذلك كادت العادات السيئة تكون واحدة فى المجتمع الإنسانى كله ، فتظهر السيئة فى أمريكا أو ألمانيا لنجدها فى مجتمعنا . إذن فالارتقاءات الطموحية جعلت العالم وحدة واحدة : آفاته واحدة ، وعاداته واحدة . وعندما يأتى الرسول الواحد يشملهم كلهم .

ولذلك كان لا بد أن يأتى الرسول الخاتم الجامع صلى الله عليه وسلم ؛ لأن العالم لم يعد منعزلاً ، ليخاطب الجمع كله ، وهو خير الرسل ، وأمته خير الأمم إن اتبعت تعاليمه . ومن ضرورة إيمان رسول الله والذين معه أن يؤمنوا بمن سبق من الرسل . والذين يحاولون أن يفرقوا بين الرسل هم قوم لا يفقهون . فاليهود آمنوا بموسى عليه السلام وأرهقوه وكفروا بعيسى . وعندما جاء عيسى عليه السلام آمن به بعض ،

وعندما جاء محمد صلى الله عليه وسلم آمن به بعض وكفر به بعض . ولذلك سمى الحق كفرهم بالنبى الخاتم : (ثم ازدادوا كفراً) . أى أنه كفر فى القمة ، فلن يأتى نبى من بعد ذلك . واكتمل به صلى الله عليه وسلم موكب الرسالات .

إذن فالمراد من الآية أن الإيمان فيه إيمان قمة ، تؤمن بقوة لكنك لا تعرف اسم هذه القوة ولا مطلوبات هذه القوة ولا ما أعدته القوة من ثواب للمطيع ولا من عقاب للعاصى . ولذلك كان ولا بد أن يوجد رسول ؛ لأن العقل يقود إلى ضرورة الإيمان بالله والرسل . وجاء الرسل فى موكب واحد لتصفية العقيدة الإيمانية لإله واحد ، فلا يقولن واحد : لقد آمنت بهذا الرسول وكفرت ببقية الرسل . والآية التى نحن بصددها الآن تتعرض لذلك فتقول :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ ﴾

(سورة النساء)

ونحن نعلم أن « كفر » معناها « ستر » . والستر - كما نعلم - يقتضى شيئا تستره ، والشىء الذى يتم ستره موجود قبل الستر لا بعد الستر . والذى يكفر بوجود الله هو من يستر وجود الله ؛ فكأن وجود الله قد سبق الكفر به . إذن فكلمة الكفر بالله دليل على وجود الله . ونقول للكافر : ماذا سترت بكفرك ؟ وستكون إجابته هى : « الله » . أى أنه آمن بالله أولاً .

« إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله » هم الحمقى ؛ لأن هذا أمر غير ممكن ، وكل رسول إنما جاء ليصل المرسل إليهم بمن أرسله . ولذلك نجد قوله الحق :

﴿ وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ ﴾

(من الآية ٧٤ سورة التوبة)

إنه حدث واحد من الله ورسوله . لذلك نجد أن الحمقى هم من يريدون أن يفرقوا بين الله ورسله : « ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض » لهؤلاء نقول : إن الإيمان قضية كلية ، فموكب الرسالة من الحق سبحانه وتعالى يتضمن عقائد واحدة

ثابتة لا تتغير . والحق يقول :

﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ ﴾

(من الآية ١٦٣ سورة النساء)

وهذا يؤكد أن قضايا العقائد إنما جاءت من نبع واحد لعقيدة واحدة . فماذا ـ إذن ـ يريدون بمسألة الإيمان ببعض الرسل والكفر بالبعض الآخر ؟ يريدون السلطة الزمنية . وكان القائمون على أمر الدين قديماً هم الذين يتصرفون فى كل أمر ، فى القضاء وفى الهندسة وفى كل شىء ، لذلك وثق فيهم الناس على أساس أنهم المبلغون عن الله الذين ورثوا النبوات وعرفوا العلم عن الله . ونجد العلوم الارتقائية فى الحضارات القديمة كحضارة قدماء المصريين كالتحنيط وغيرها تلك التى مازالت إلى الآن لغزاً ، إنما قام بأمرها الكهنة ، وهم ـ كما نعلم ـ المنسوبون إلى الدين . كأن الأصل فى كل معلومات الأرض هى من هبة السماء . لماذا إذن أخرج البشر وسنوا قوانين من وضعهم ؟ لقد فعل البشر ذلك لأن السلطة الزمنية استولى عليها رجال الدين .

ما معنى كلمة « سلطة زمنية » . كان الناس يلجأون إلى رجل الدين فى كل أمورهم ، ويفاجأ رجل الدين بأنه المقصود من كل البشر ، ويغمره الناس بأفضالهم ويعطونه مثل القرابين التى كانت تعطى للآلهة ، فيعيش فى وضع مرفه هو وأهله ويزداد سمنة من كثرة الطعام والمتعة . وعندما يأتى إليه أحد فى مسألة فهو يحاول أن يقول الرأى الذى يؤكد به سلطته الزمنية ، فإذا ما جاء رسول ليلغى هذه الامتيازات ، يسرع بتكذيبه ؛ ليظل ـ كرجل كهنوت ـ على قمة السلطة . ولذلك قال فيهم الحق :

﴿ ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾

(من الآية ٩ سورة التوبة)

أى استبدلوا بآيات الله ثمنا قليلا من متاع الدنيا . فأخذوا الشىء الحقير من متاع الدنيا وتركوا آيات الله دون أن يعملوا بها .

وعندما نبحث فى تاريخ القانون . نجد قانوناً إنجليزياً وآخر فرنسياً أو رومانياً ، ونجد أن المصادر الأولى لهذه القوانين هى ما كان يحكم به الكهنة . والذى جعل

الناس تنعزل عن الكهنة هو استغلالهم للسلطة الزمنية . والتفت البشر الذين عاصروا هؤلاء الكهنة أن الواحد منهم يقضى فى قضية بحكم ، ثم يقضى فى مثيلاتها بحكم مخالف ، ويغير من حكمه لقاء ما يأخذ من أجر ، فتشكك فيهم الناس ، وعرفوا أنهم يلوون الأحكام حسب أهوائهم ؛ لذلك ترك الناس حكم الكهنة ، ووضعوا هم القوانين المناسبة لهم .

إذن فالسلطة الزمنية هى التى جعلت من أتباع بعض الرسل يتعصبون لرسلهم . فإذا ما جاء رسول آخر ، فإن أصحاب السلطة الزمنية يقاومون الإيمان برسالته حتى لا يأخذ منهم السلطة الزمنية . ولذلك يعادونه ؛ لأن الأصل فى كل رسول أن يبلغ أتباعه والذين آمنوا به ، أنه إذا جاء رسول من عند الله فعليكم أن تسارعوا أنتم إلى الإيمان به .

﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

وهكذا أخذ الله الميثاق من النبيين بضرورة البلاغ عن موكب الرسالة حتى النبى الخاتم .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ ﴾

(سورة النساء)

أى أنهم يحاولون أن يفرقوا بين الله ورسله بأحكامهم التى كانوا يتبعون فيها أهواءهم للإبقاء على السلطة الزمنية ، من أجل أن يقيموا أمراً هو بين بين ، وليس فى الإيمان « بين بين » ؛ فإما الإيمان وإما الكفر . والنظرة إلى كل هذه الآية نجدها فى معظمها معطوفات ، ولم يتم فيها الكلام وهى فى كليتها مبتدأ ، لا بد لها من خبر ، ويأتى الخبر فى الآية التالية :

﴿ أُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّاۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾ ﴾

و« الكافرون حقاً » مقصود بها أن حقيقة الكفر موجودة فيهم ؛ لأننا قد نجد من يقول : وهل هناك كافر حق ، وكافر غير ذلك ؟ نعم . فالذى لا يؤمن بكل رسالات السماء قد يملك بعضاً من العذر ، لأنه لم يجد الرسول الذى يبلغه . أما الذى جاءه رسول وله صلة إيمانية به ؛ وهذه الصلة الإيمانية لحمته بالسماء بوساطة الوحى ، فإن كفر هذا الإنسان فكفره فظيع مؤكد . « أولئك هم الكافرون حقاً » .

ونلحظ أن الحق ساعة يتكلم عن الكافرين لا يعزلهم عن الحكم والجزاء الذى ينتظرهم ، بل يوجد الحكم معهم فى النص الواحد . ولا يحيل الحق الحكم إلى آية أخرى : « أولئك هم الكافرون حقاً واعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً » وقد جاء هنا بالجزاء على الكفر ملتصقاً بالكفر ، فسبحانه قد جهز بالفعل العذاب المهين وأعدّه للكافرين ولم يؤجل أمرهم أو يسوفه . ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« إن الجنّة عرضت علىّ ولو شئت أن آتيكم بقطاف منها لفعلت »(١)

لقد أعد الحق الجنة والنار فعلاً وعرضها على الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولو شاء الرسول أن يأتى المؤمنين بقطاف من ثمار الجنة لفعل . فإياكم أن تعتقدوا أن الله سيظل إلى أن تقوم الساعة ، ثم يرى كم واحداً قد كفر فيعد لهم عذاباً على حسب عددهم ، أو كم واحداً قد آمن فيعد لهم جنة ونعيماً على قدر عددهم ، بل أعد الحق الجنة على أن كل الناس مؤمنون ولهم مكان فى الجنة ، وأعد النار على أن كل الناس كافرون ولهم أماكن فى النار . فيأتى المؤمن للآخرة ويأخذ المكان المعد له ، ويأخذ أيضاً بعضاً من الأماكن فى الجنة التى سبق إعدادها لمن كفر . مصداقاً لقوله الحق :

﴿ أُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١﴾ ﴾

(سورة المؤمنون)

---

(١) رواه البخارى فى الأذان ، وابن ماجه فى الإقامة ، وأحمد .

فسبحانه لم ينتظر ولم يؤجل المسألة إلى حد عمل الإحصائية ليسأل من الذى آمن ومن الذى كفر ، ليعد لكل جماعة حسب تعدادها ناراً أو جنة ، بل عامل خلقه على أساس أن كل الذى يأتى إليه من البشر قد يكون مؤمناً ، لذلك أعد لكل منهم مكاناً فى الجنة ، أو أن يكون كافراً ، فأعد لكل منهم مكاناً فى النار . ونجد السؤال فى الآخرة للنار :

﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾ ﴾

(سورة ق)

فالنار تطلب المزيد للأماكن التى كانت معدة لمن لم يدخلها لأنه آمن بالله . ويرث الذين آمنوا الأماكن التى كانت معدة لمن لم يدخل الجنة لأنه كفر بالله وبرسله وفرق بين الله ورسله وقال نؤمن ببعض ونكفر ببعض . ويأتى من بعد ذلك المقابل للذين كفروا بالله ورسله وهم المؤمنون ، هذا هو المقابل المنطقى .

والمجىء بالمقابلات أدعى لرسوخها فى الذهن . مثال ذلك عندما ينظر مدير المدرسة إلى شابين ، كل منهما فى الثانوية العامة ، فيقول : فلان قد نجح لأنه اجتهد ، والثانى قد خاب وفشل . هذه المفارقة تحدث لدى السامع لها المقارنة بين سلوك الاثنين .

وهاهو ذا الحق يأتى بالمقابل للكافرين بالله ورسله :

﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُولَٰئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٥٢﴾ ﴾

ويؤكد الحق هنا على أمر واضح : هو : « ولم يفرقوا بين أحد منهم » وكلمة « أحد » فى اللغة تطلق مرة ويراد بها المفرد ، ومرة يراد بها المفردة ، ومرة يراد بها المثنى مذكراً أو المثنى مؤنثاً أو جمع الإناث وجمع التذكير . وهكذا تكون « أحد » فى

هذه الآية تشمل كل الرسل ، بدليل قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ﴾

(من الآية ٣٢ سورة النساء)

فكلمة أحد يستوى فيها المذكر والمؤنث والمثنى والمفرد والجمع . وكما قال الحق عن الذين يكفرون بالله ورسله أو يفرقون بين الرسل : « أولئك هم الكافرون حقاً وأعتدنا للكافرين عذابا مهيناً » . يقول الحق فى هذه الآية عن الذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم : « أولئك سوف يؤتيهم أجورهم وكان الله غفوراً رحيماً » فكل مقابل قد جاء معه حُكْمُه . ومن بعد ذلك يقول الحق :

﴿ يَسۡـَٔلُكَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيۡهِمۡ كِتَٰبٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِۚ فَقَدۡ سَأَلُواْ مُوسَىٰٓ أَكۡبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓاْ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلۡمِهِمۡۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُواْ ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ فَعَفَوۡنَا عَن ذَٰلِكَۚ وَءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينٗا ﴿١٥٣﴾ ﴾

هذا خطأ منهم فى السؤال ، وكان المفروض أن يكون : يسألك أهل الكتاب أن تسأل الله أن ينزل عليهم كتاباً . وقد حاول المشركون فى مكة أن يجدوا فى القرآن ثغرة فلم يجدوا وهم أمة فصاحة وبلاغة ولسان ، واعترفوا بأن القرآن عظيم ولكن الآفة بالنسبة إليهم أنه نزل على محمد صلى الله عليه وسلم :

﴿ وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ ﴾

(سورة الزخرف)

هم اعترفوا بعظمة القرآن ، واعترافهم بعظمة القرآن مع غيظهم من نزوله على رسول الله صلى الله عليه وسلم جعلهم مضطربين فكرياً ، لقد اعترفوا بعظمة القرآن بعد أن نظروا إليه . . فمرة قالوا : إنه سحر ، ومرة قالوا : إنه من تلقين بعض البشر ، وقالوا : إنه شعر ، وقالوا : إنه من أساطير الأولين . وكل ذلك رهبة أمام عظمة القرآن . ثم أخيرا قالوا : ﴿لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم﴾ .

ولكن ألم يكن هو القرآن نفسه الذى نزل ؟ إذن . فالآفة ـ عندهم ـ أنه نزل على محمد صلى الله عليه وسلم ، وذلك من الحسد :

﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾

(من الآية ٥٤ سورة النساء)

لأن قولهم لا يتسم أبداً بالموضوعية ، بل كل كلامهم بُعْدٌ عن الحق وتخبط . لقد قالوا مرة عن القرآن : إنه سحر ، وعندما سألهم الناس : لماذا لم يسحركم القرآن إذن ؟ فليس للمسحور إرادة مع الساحر . ولم يجدوا إجابة . وقالوا مرة عن القرآن : إنه شعر ، فتعجب منهم القوم لأنهم أمة الشعر ، وقد سبق لهم أن علقوا المعلقات على جدار الكعبة ، لكنه كلام التخبط .

إذن فالمسألة كلها تنحصر فى رفضهم الإيمان ، فإذا أمسكتهم الحجة من تلابيبهم فى شىء ، انتقلوا إلى شىء آخر .

ويوضح سبحانه : إن كانوا يطلبون كتاباً فالكتاب قد نزل ، تماماً كما نزل كتاب من قبل على موسى . وماداموا قد صدقوا نزول الكتاب على موسى ، فلماذا لا يصدقون نزول الكتاب على محمد ؟ ولا بد أن هناك معنى خاصاً وراء قوله الحق : « يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً من السماء » . ونعلم أن الكتاب نزل على موسى مكتوباً جملة واحدة ، وهم كأهل كتاب يطلبون نزول القرآن بالطريقة نفسها ، وعندما ندقق فى الآية نجدهم يسألون أن ينزل عليهم الكتاب من السماء ؛ وكأنهم يريدون أن يعزلوا رسول الله وأن يكون الكلام مباشرة من الله لهم ؛ لذلك يقول الحق فى موقع آخر :

﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ ﴾

(من الآية ٣٢ سورة الزخرف)

الحق ـ إذن ـ قسم الأمور فى الحياة الدنيا ، فكيف يتدخلون فى مسألة الوحى وهو من رحمة الله : « يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً من السماء » . وهم قد نسبوا التنزيل إلى رسول الله ، ورسول الله ما قال إنى نَزَّلْت ، بل قال : « أنزل علىّ » .

ويقال فى رواية من الروايات أن كعب بن الأشرف والجماعة الذين كانوا حوله أرادوا أن ينزل الوحى على كل واحد منهم بكتاب ، فيقول الوحى لكعب : « يا كعب آمن بمحمد » .

ويُنَزِّلُ إلى كل واحد كتاباً بهذا الشكل الخصوصى . أو أن ينزل الله لهم كتاباً مخصوصاً مع القرآن . وكيف يطلبون ذلك وعندهم التوراة ، ويوضح الله تسلية لرسوله صلى الله عليه وسلم : لا تستكثر منهم يا محمد أن يسألوك كتاباً ينزل عليهم لأنهم سألوا موسى أكبر من ذلك ، وطلبهم تنزيل الكتاب ، هو طلب لفعل من الله ، وقد سبق لهم الغلو أكثر من ذلك عندما قالوا لموسى : (أرنا الله جهرة) . وهم بمثل هذا القول تعدوا من فعل الله إلى ذات الحق سبحانه وتعالى ، لذلك لا تستكثر عليهم مسألة طلبهم لنزول كتاب إليهم ، فقد سألوا موسى وهو رسولهم رؤية الله جهرة : « يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً من السماء فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة فأخذتهم الصاعقة بظلمهم » .

ولحظة أن ترى كلمة « الصاعقة » تفهم أنها شىء يأتى من أعلى ، يبدأ بصوت مزعج . وقلنا من قبل أثناء خواطرنا حول آية فى سورة البقرة :

﴿ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ ﴾

(من الآية ١٩ سورة البقرة)

أى أنهم يضعون أصابعهم فى آذانهم من الصواعق ، وهذا دليل على أن صوت

الصاعقة مزعج قد يخرق طبلة الأذن ، ودليل على أن ازعاج الصاعقة فوق طاقة الانسداد بأصبع واحدة ؛ لأن الإنسان ساعة يسد أذنيه يسدها بطرف الأصبع لا بكل الأصابع . ويبلغ من شدة ازعاج الصوت أنهم كلما وضعوا أناملهم فى آذانهم لم يمتنع الصوت المزعج .

إذن فالصاعقة صوت مزعج يأتى من أعلى ، وبعد ذلك ينزل قضاء الله إما بأمر مهلك وإمّا بنار تحرق وإما بريح تدمر « فأخذتهم الصاعقة بظلمهم » والظلم هو أن تجعل حقاً لغير صاحبه ؛ ولا تجعل حقاً لغير صاحبه إلا أن تكون قد أخذت حقاً من صاحبه . وسؤالهم هذا لون من الظلم ؛ لأن الإدراك للأشياء هو إحاطة المُدرِك بالمُدْرَك .

وحين تدرك شيئاً بعينك فمعنى ذلك أن عينك أحاطت بالشىء المدَرَك وحيَّزته بالتفصيل ، وكذلك الأذن عندما تسمع الصوت ، وكذلك الأنف عندما تشم الرائحة ، وكذلك اللمس لمعرفة النعومة أو الخشونة ، وكذلك الذوق ليحس الإنسان الطعم . إذن فمعنى الإدراك بوسيلة من الوسائل أن تحيط بالشىء المُدْرَك إحاطة شاملة جامعة .

فإذا كانوا قد طلبوا أن يروا الله جهرة ، فمعنى ذلك أنهم طلبوا أن تكون آلة الإدراك وهى العين محيطة بالله . وحين يحيط المُدْرِك بالمُدْرَك ، يقال قدر عليه . وهل ينقلب القادر الأعلى مقدوراً عليه ؟ حاشا لله . وذلك مطلق الظلم ونهايته ، فمن الجائز أن يرى الإنسان إنسانا ، ولكن لا يستقيم أبدا ولا يصح أن ينقل الإنسان هذه المسألة إلى الله ، لماذا ؟ لأنه سبحانه القائل :

﴿ لَا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَـٰرَ ﴾

(من الآية ١٠٣ سورة الأنعام)

ومادام الله إلها قادراً فلن ينقلب إلى مقدور .

ونحن إن أعطينا لواحد مسألة ليحلها ، فهذا معناه أن فكره قد قدر عليها . وأما إذا أعطيناه مسألة ولم يقدر على حلها ففكره لم يقدر عليها . إذن فكل شىء يقع تحت دائرة الإدراك ، يقول لنا : إن الآلة المدرِكة قد قدرت عليه .

والحق سبحانه وتعالى قادر أعلى لا ينقلب مقدوراً لما خلق . « فأخذتهم الصاعقة بظلمهم ثم اتخذوا العجل من بعد ما جاءتهم البينات » . وكان يكفى بعد أن أخذتهم الصاعقة أن يتأدبوا ولا يجترئوا على الله ، ولكنهم اتخذوا العجل من بعد أن جاوز الحق بهم البحر وعبره بهم تيسيرا عليهم وتأييداً لهم وأراهم معجزة حقيقية ، بعد أن قالوا :

﴿ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾

(من الآية ٦١ سورة الشعراء)

فقد كان البحر أمامهم وفرعون من خلفهم ولا مفر من هلاكهم ؛ لأن المنطق الطبيعى أن يدركهم فرعون ، وآتى الله سيدنا موسى إلهامات الوحى ، فقال :

﴿ قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ﴿٦٢﴾ ﴾

(سورة الشعراء)

لقد لجأ موسى إلى القانون الأعلى ، قانون الله ، فأمره الله أن يضرب بعصاه البحر ، ويتفرق البحر وتصير كل فرقة كالطود والجبل العظيم ، وبعد أن ساروا فى البحر ، وأغرق فرعون أمامهم ، وأنجاهم سبحانه ، لكنهم من بعد ذلك كله يتخذون العجل إلهاً !!

هكذا قابلوا جميل الله بالنكران والكفران . « ثم اتخذوا العجل من بعد ما جاءتهم البينات فعفونا عن ذلك وآتينا موسى سلطاناً مبيناً » والسلطان المبين الذى آتاه الله لموسى عليه السلام هو التسلط والاستيلاء الظاهر عليهم حين أمرهم بأن يقتلوا أنفسهم ، وجاءوا بالسيوف لأن الله قد أعطى سيدنا موسى قوة فلا يخرج أحد عن أمره ، والقوة سلطان قاهر .

ومن بعد ذلك يقول الحق :

﴿ وَرَفَعۡنَا فَوۡقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمۡ وَقُلۡنَا لَهُمُ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا وَقُلۡنَا لَهُمۡ لَا تَعۡدُواْ فِي ٱلسَّبۡتِ وَأَخَذۡنَا

﴿ مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿١٥٤﴾ ﴾

إذن اجتراؤهم فى البداية كان فى طلب رؤية الله جهرة ، ثم العملية الثانية وهى اتخاذهم العجل إلها . ويعالج الله هؤلاء بالأوامر الحسية ، لذلك نتق الجبل فوقهم :

﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ ﴾

(من الآية ١٧١ سورة الأعراف)

مثل هؤلاء لا يرضخون إلا بالآيات المادية ، لذلك رفع الله فوقهم الجبل ، فإما أن يأخذوا ما آتاهم الله بقوة وينفذوا المطلوب منهم ، وإما أن ينطبق عليهم الجبل ، وهكذا نرى أن كل اقتناعاتهم نتيجة للأمر المادى ، فجاءت كل الأمور إليهم من جهة المادة . « وقلنا ادخلوا الباب سجدا » . أى أن يدخلوا ساجدين ، وهذا إخضاع مادى أيضاً . وكان هذا الباب الذى أمرهم موسى أن يدخلوه ساجدين هو باب قرية أريحا فى الشام . « وقلنا لهم لا تعدوا فى السبت » وسبحانه قال عنهم :

﴿ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ ﴾

(من الآية ١٦٣ سورة الأعراف)

وكلمة « السبت » لها اشتقاق لغوى من « سبت » و« يسبت » أى سكن وهدأ . ويقول الحق سبحانه :

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا ﴾

(من الآية ٤٧ سورة الفرقان)

أى جعل النوم سكنا لكم وقطعا لأعمالكم وراحة لأبدانكم . « وقلنا لهم لا تعدوا فى السبت » أى نهاهم الله أن يصطادوا فى يوم السبت . ويأتى يوم السبت فتأتيهم الحيتان مغرية تخرج أشرعتها من زعانفها وهى تعوم فوق الماء ، أو تظهر على وجه الماء من كل ناحية ، وهذا من الابتلاءات . « ويوم لا يسبتون لا تأتيهم » أى أن الأيام التى يكون مسموحاً لهم فيها بالصيد لا تأتى لهم الأسماك ، ولذلك يحتالون ويصنعون الحظائر الثابتة من السلك ليدخلها السمك يوم السبت ولا يستطيع الخروج منها .

لقد احتالوا على أمر الله . هكذا يبين الحق سبحانه وتعالى مراوغة بنى إسرائيل . وفعل الله بهم كل ذلك ولكنهم احتالوا وتمردوا وردّوه ، وحين يهادن الحق القوم الذين يدعوهم إلى الإيمان فسبحانه يُقدر أنه خلقهم ويُقدر الغريزة البشرية التى قد يكون من الصعب أن تلين لأول داع ، فهو يدعوها مرة فلا تستقبل ، فيعفو . ثم يدعوها مرة فلا تستقبل فيعفو ، ثم يدعوها مرة فلا تستقبل فيعفو . وأخذ الله عليهم العهد الوثيق المؤكد بأن يطيعوه ولكنهم عصوا ونقضوا العهد ، وبعد ذلك يقول لنا الخبر لنتعلم أن الله لا يمل حتى تملوا أيها البشر . فسبحانه يقول من بعد ذلك :

﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ ﴾

لقد نقضوا كل المواثيق والأشياء التى تقدمت . ومعنى الميثاق هو العهد المؤكد الموثق . ونقض الميثاق هو حله ، وهذا ما يستوجب ما يهددهم الله به ، وكفروا بآيات الله التى أنزلها لتؤيد موسى عليه السلام ، وقتلوا أنبياء الله بغير حق . وادعوا ـ تعليلاً لذلك ـ أن قلوبهم غلف لا تسمع للدعوى الإيمانية ، أى أن قلوبهم مغلفة مغطاة أى جُعل عليها غلافٌ ، بحيث لا يخرج منها ما فيها ولا يدخل فيها ما هو خارج عنها . وأرادوا بذلك الاستدراك على الله ، فقالوا : قلوبنا لا يخرج منها ضلال ولا يدخل فيها إيمان . وسبق أن تقدم مثل هذا فى قول الحق :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾ ﴾

(سورة البقرة)

ونقول : أهي القلوب خُلقت غلفاً . . أي أن القلوب خلقت مختوماً عليها بحيث لا يدخلها هدى ولا يخرج منها ضلال ، أم أنتم الذين فعلتم الختم وأنتم الذين صنعتم الغلاف ؟

وسبحانه أوضح فى آيتى سورة البقرة أنه جل وعلا الذى ختم على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة . فالختم على القلب حتى لا يتعرفوا إلى الدليل ؛ لأن القلب محل الأدلة واليقين والعقائد . والختم على الأسماع والأبصار هو الختم على آلات إدراك الدلائل البينات على وجود الحق الأعلى ؛ فمقر العقائد مختوم عليه وهو القلب ، ومضروب على الآذان وعلى البصر غشاوة ، فهل هذا كائن بطبيعة تكوين هؤلاء ؟ لا ؛ لأنه إذا كان هذا بطبيعة التكوين فلماذا خصَّهم الله بذلك التكوين ؟ ولماذا لم يكن الذين اهتدوا مختوماً لا على قلوبهم ولا على أسماعهم ولا على أبصارهم ؟

غير أن الواحد منهم يبرر لنفسه وللآخرين انحرافه وإسرافه على نفسه بالقول : « خلقنى الله هكذا » وهذا قول مزيف وكاذب ؛ لأن صاحبه إنما يكفر أولاً ، فلما كفر وانصرف عن الحق تركه الله على حاله ؛ لأن الله أغنى الشركاء عن الشرك ، فمن اتخذ مع الله شريكاً فهو للشريك وليس لله . إذن فالختم جاء كنتيجة للكفر .

وقدمت آيات سورة البقرة الحيثية : أن الكفر يحدث أولاً ، ثم يأتى الختم على القلب والسمع والبصر نتيجة لذلك . وهنا فى آية سورة النساء : « وقولهم قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلاً » . فالكفر جاء أولاً ، وفى ذلك رد على أى إنسان يقول : « إن الله لا يهدينى » . ولا يلتفت إلى أن الله لا يهدى من كفر به ، وكذلك الفاسق أو الظالم ، والمثال الأكبر على ذلك إبليس الذى كفر أولاً ، وبعد ذلك تركه الله لنفسه واستغنى عنه .

ولنا هنا وقفة لفظية مع قوله الحق : « فبما نقضهم » لأن الفهم السطحى لأصول الأسلوب قد يتساءل : لماذا جاءت « ما » هنا ؟ وبعضهم قال : إن « ما » هنا زائدة . ونقول : إياك أن تقول إن فى كلام الله حرفاً زائداً ؛ لأن معنى ذلك أن المعنى يتم بغير وجوده ويكون فضولاً وزائدا على الحاجة ولا فائدة فيه ، ولكن عليك أن تقول : « أنا لا أفهم لماذا جاء هذا الحرف » ، خصوصاً ونحن فى هذا العصر نعيش

كأمة بلاغتها مصنوعة ، ولا نملك اللسان العربى المطبوع . ولولا أننا تعلمنا العربية لما استطعنا أن نتكلمها . أما العربى الفصيح الذى نزل عليه القرآن فقد كان يتكلم اللغة العربية دون أن يجلس إلى معلم ، ولم يتلق العلم بأن الفاعل مرفوع والمفعول منصوب بل تكلم اللغة بطبيعته وملكته .

أما نحن فنعيش فى زمن مختلف . وطغت علينا العجمة وامتلأت آذاننا باللحن ، وصرنا نُعلّم أنفسنا قواعد اللغة العربية حتى نتكلم بأسلوب صحيح .

وقد جاءت القواعد فى النحو من الاستنباط من السليقة العربية الأولى التى كانت بغير تعليم . واستقرأ العلماء الأساليب العربية فوجدوا أن الفاعل مرفوع والمثنى يُرفع بالألف ، وجمع المذكر السالم يُرفع بـ « الواو » ؛ وهكذا أخذنا القواعد من الذين لا قواعد لهم بل كانوا يتكلمون بالسليقة وبالطبيعة والملكة .

لقد سمع العربى قديماً ساعة نزل القرآن قوله الحق : « فبما نقضهم » ولم يتنبه واحد منهم إلى أن شيئاً قد خرج عن الأسلوب الصحيح ، ونعلم أن بعضاً من العرب كانوا كافرين برسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا يصدقون القرآن ، ولو كانت هناك كلمة واحدة تخرج عن المألوف فى اللغة لصرخوا بها وأعلنوها . ولكن القرآن جاء بالكلام المعجز على لسان محمد صلى الله عليه وسلم ليبلغهم به ، موضحاً : جئت بالقرآن معجزة تعجزون عن محاكاته ؛ مع أنكم عرب وفصحاء .

والمتحدّى يحاول دائماً أن يتصيد خطأ ما ، ولم يقل واحد من العرب إن فى القرآن لحناً ، وهذا دليل على أن الأسلوب القرآنى يتفق مع الملكة العربية .

وقوله الحق : « فبما نقضهم » هى فى الأصل : بنقضهم الميثاق فعلنا بهم ما صاروا إليه ، و« ما » جاءت هنا لماذا ؟ قال بعض العلماء : إنها « ما » زائدة ، وهى زائدة للتأكيد . ونكرر : إياك أن تقول إن فى كلام الله حرفاً زائداً ، لقد جاءت « ما » هنا لمعنى واضح . والحق فى موقع آخر من القرآن يقول :

﴿ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ﴾

(من الآية ١٩ سورة المائدة)

وقالوا : إن أصل العبارة « ما جاءنا بشير » ، وإن « مِن » جاءت زائدة حتى يتسق اللفظ . ونقول : لو أن العبارة جاءت كما قالوا لما استقام المعنى ، ولإيضاح ذلك أضرب هذا المثل ـ ولله المثل الأعلى ـ عندما يقول واحد : « ما عندى مال » فهذا نفى أن يكون عند القائل مال ، ولعل لديه قدًرا من المال القليل الذى لا يستأهل أن يسميه مالاً . ولكن إذا قال واحد : « ما عندى من مال » فالمعنى أنه لا يملك المال على إطلاقه أى أنه مفلس تماماً ، ولا يملك أى شيء من بداية ما يقال إنه مال . إذن « ما جاءنا بشير » ليست مثل قوله : « ما جاءنا من بشير » . فالمعنى أنه لم يأتهم أى رسول بشير أو نذير من بداية ما يقال إنه رسول .

إذن فقوله الحق : « فبما نقضهم ميثاقهم » أى بسبب نقض الميثاق فعلنا بهم كذا . لماذا إذن أثار العلماء هذه الضجة ؟ السبب فى ذلك هو وجود ما بعد « الباء » وقبل المصدر ، أى أنهم نقضوا العهد بكل صورة من صوره ، فنقض العهد والميثاق له صور متعددة فـ (ما) هنا استفهامية جاءت للتعجيب أى على أيّة صورة من صور نقض ونكث العهد لعناهم ؟ لعناهم لكثرة ما نقضوا من العهود والمواثيق . والحق قد قال :

﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ ﴾

(سورة النساء)

ولم يقل : فبما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق وقولهم قلوبنا غلف ، طبع الله على قلوبهم . فوجود « بل » يدلنا على أن هناك أمراً أضربنا عنه . فنحن نقول : جاءنى زيد بل عمرو . أى أن القائل قد أخطأ ، فقال : « جاءنى زيد » واستدرك لنفسه فقال : « بل عمرو » . وبذلك نفى مجيء زيد وأكد مجيء عمرو .

والحق قال : « بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلاً » . كان المقتضى فى الأسلوب العادى أن يقول : « بكفرهم وبقتلهم الأنبياء طبع الله على قلوبهم » . ولكن سبحانه لم يقل ذلك لحكمة بالغة . وحتى نعرف تلك الحكمة فلنبحث عن المقابل لـ « طبع الله على قلوبهم » ، المقابل هو « فتح الله على قلوبهم بالهدى » .

وجاء قول الحق معبراً تمام التعبير عن موقفهم : (فبما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق وقولهم قلوبنا غلف بل طبع الله عليها) .

وهكذا نرى عظمة القرآن الذى يأتى بالمعنى الدقيق ويجب أن نفكر فيه ونتدبر كل كلمة منه .

الحق ـ إذن ـ يقدم الأسباب لما صنعه بهم بالحيثيات ، من نقضهم للميثاق ، وكفرهم بآيات الله ، وبقتلهم للأنبياء بغير حق ؛ لذلك لم يفتح الله عليهم بالهدى ، بل طبع الله على قلوبهم بالكفر . فوجود « بل » دليل على أن هناك أمراً قد نفى وأمراً قد تأكد . والأمر الذى نفاه الله عنهم أنه لم يفتح عليهم بالهدى والإيمان ، والأمر الذى تأكد أنه سبحانه قد طبع على قلوبهم بالكفر . وفى آية أخرى قال عنهم :

﴿ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾

(سورة البقرة)

فقلوبهم ليست غلفاً ، ولكن هى لعنة الله لهم وإبعاده لهم وطردهم واستغناؤه عنهم ؛ لذلك تركهم لأنفسهم فغلبت عليهم الشهوات . ولماذا ذيل الحق الآية بقوله : « فلا يؤمنون إلا قليلاً » ؟ لأن المقصود به عدم إغلاق باب الإيمان على إطلاقه أمام هؤلاء الناس ، وهو ـ كما عرفنا من قبل ـ « صيانة الاحتمال » . فقد يعلن واحد من هؤلاء إيمانه الذى خبأه فى نفسه ، فكيف يجد الفرصة لذلك إن كان الله قد قال عنهم جميعاً « طبع الله على قلوبهم » ؟

إن الذى يَرْغَبُ فى إعلان الإيمان منهم لا يجد الباب مفتوحاً ، ولكن عندما يجد الحق قد قال : « فلا يؤمنون إلا قليلاً » فهو يعلم أن باب الإيمان مفتوح للجميع .
وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ ﴾

ويقول قائل : ألم يقل الحق من قبل إن « كفرهم » هو سبب من أسباب طبع الله

على قلوبهم ؟ وأقول : إياك أن تقول إن هناك كلمة فى القرآن مكررة لأن الذى يتكلم هو الله سبحانه وتعالى الذى لا ينسى شيئاً ، ولا يكرر من غير داع ، والكفر أيضاً على درجات ، مرة يكون الكفر بالله ، ومرة يكون الكفر بآيات الله ، وثالثة يكون الكفر بالرسل ، ورابعة يكون الكفر ببعض النبيين ، وخامسة يكون الكفر ببعض الكتب السماوية .

إذن فألوان الكفر شتى . والكفر فى الآية السابقة كان كفراً بآيات الله ، أما كفرهم فى هذه الآية فالحق يشرحه : « وبكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً » . لقد كفروا بعيسى عليه السلام ، وقالوا البهتان العظيم على مريم ، هذا كفر بآيات الله وبرسول من عند الله .

وقوله الحق : « وبكفرهم » هو عطف على « نقضهم » وعلى « كفرهم بآيات الله » وعلى « قتلهم الأنبياء » وعلى « قولهم قلوبنا غلف » . ونلاحظ هنا أن الحق لم يذكر الباء التى جاءت فى أول الآية السابقة حين قال : « فبما نقضهم ميثاقهم » .

وهذا يدل على أننا أمام مناط الرحمة من ربنا سبحانه وتعالى . فقد كان يكفى ارتكابهم لأى واحدة من هذه الأعمال المذكورة لكى يطبع الله على قلوبهم ، ولكنهم ارتكبوا كل الأعمال المذكورة مجتمعة ، ولم يرتكبوا فعلاً واحداً منها . وهذا دليل على أن الله لا يترصد لعبيده ، ولا يتصيد ويحتال ليوقعهم فى الكفر ولكن يحنن العباد إلى الإيمان .

لقد ارتكبوا أربعة أفعال جسيمة : نقضوا الميثاق ، وكفروا بآيات الله ، وقتلوا الأنبياء بغير حق ، وادعوا أن الله طبع على قلوبهم .

وحين جعل هذه الأفعال الأربعة جريمة واحدة فهذا فضل ورحمة منه .

وبعد ذلك يذكر لهم جريمة أخرى : « وبكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيما » وهنا نجد أنه سبحانه قد ساوى بين قولهم البهتان على مريم وبين كل الأفعال السابقة ؛ لأنهم اعترضوا على رسالة ونبوة عيسى عليه السلام وهو نبى من أولى العزم

من الرسل بأشياء قد تكون ضمن الأسباب التى فتنت بعض الناس فيه ، لقد خلقه الله خلقاً خاصاً . فسبحانه خلق الناس جميعاً من آدم عليه السلام الذى صوره الله من طين ثم نفخ فيه الروح ، وجاء الخلق من التزاوج .

أما عيسى عليه السلام فقد خلقه الله بطريقة خاصة ، فكيف كفروا به وكيف يتهمون أمه مريم عليها السلام وهى البتول ؟.

ومن الجائز أن تُتهم المرأة وترمى وتوصف بكل شيء : كاذبة ، سارقة ، أو دميمة ، لكن الاتهام فى العرض : لا . والحق هنا يحدد موضوعين للكفر : قولهم البهتان على مريم وهو كفر بالله ، وكفرهم بعيسى الذى جاء بميلاد على غير طريقة الميلاد العادية على الرغم من أن هذا تكريم له ولذع لليهود الذين غرقوا فى المادية حتى إنهم قالوا : (أرنا الله جهرة) .

بل إن الحق رزقهم برزق غيبى لا يعرفون أسبابه : فى التيه رزقهم بالمن والسلوى ، والمن فى لون القشدة وطعم العسل الأبيض وهو شيء يقع على أوراق الشجر فى بعض البيئات ، والسلوى طائر يشبه السُّمانى ، وكانوا يأخذون المن من الأشجار ويجمعونه ويأكلونه رزقاً يأتيهم ولا يزرعونه ولا يتعبون فيه . لكنهم قالوا : لا ، نحن نريد أن نزرع نباتاً ينمو من الأرض ولا ننتظر الغيب ، لأن الغيب قد يضن علينا .

﴿ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا ﴾

(من الآية ٦١ سورة البقرة)

هم ـ إذن ـ لا يثقون بما فى يد الله ، ويريدون الأمر المادى ، ولذلك يلفتهم الحق سبحانه وتعالى لفتة قسرية ، ويأتى بأمر يناقض قانون المادة من أساسه ؛ وهو ميلاد عيسى عليه السلام بأسلوب غير تقليدى ، والإنسان يأتى إلى الدنيا من أب وأم ، ويأتى الحق بعيسى مخلوقاً من أم دون أب ، فانتقضت المادية ، وهم كماديين غفلوا عن الخلق الأول :

﴿ أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾ ﴾

(سورة ق)

إذن فلماذا الفتنة فى عيسى عليه السلام ؟. لقد نقض أمامهم الأساس التقليدى المادى لمجىء الإنسان إلى الدنيا من ذكر وأنثى ، وجاء عيسى عليه السلام من أم دون أب . ليثبت سبحانه طلاقة القدرة وأنه جعل الأسباب للبشر ، فإن أراد البشر مُسَبَّباً فعليهم أن يأخذوا الأسباب ، أما سبحانه وتعالى فهو مسبِّبُ الأسباب وخالقها وهو القادر ـ وحده ـ على ايجاد الشىء بتنحية كل الأسباب .

ونعلم أن قضية الخلق دارت على أربعة أنحاء ، إما أن ينشأ الشىء من وجود الشيئين ، هذه هى الصورة الأولى . وإما أن ينشأ الشىء من عدم وجود الشيئين وهذه هى الصورة الثانية . وإما أن ينشأ الشىء من وجود الشىء الأول وعدم وجود الشىء الثانى ، وهذه هى الصورة الثالثة ، وإما أن ينشأ الشىء من وجود الشىء الثانى مع عدم وجود الشىء الأول ، وهذه هى الصورة الرابعة .

تلك هى الصور الأربع لوجود شىء ما . ولم يشأ الله أن يجعل الخلق ـ وهو الإنسان المكرم الذى سخر له الحق كل ما فى الكون ـ على نحو واحد ؛ حتى لا يقولن أحد : إن السببية مشروطة للوجود .

بل المسبَّب هو المشروط فى الوجود بدليل أنه سبحانه خلق آدم عليه السلام من غير أب ولا أم ، وخلقنا جميعاً نحن من أب وأم ، وخلق عيسى عليه السلام من أم دون أب ، وخلق حواء من أب دون أم .

هذه هى القسمة العقلية الواضحة ، فليست المسألة عنصرية موجودة ، ولكن قيمة واقتدار واجد . وقدرة الحق تتجلى أيضاً أمامنا حينما تكون الأسباب موجودة كالأب والأم . لكن يشاء سبحانه أن يكون الاثنان عقيمين فهو القائل :

﴿ لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ﴾

(سورة الشورى)

إذن فليست المسألة مدار أسباب تُوجَد ، بل مسبَّب يريد أن يُوجِد ، وأراد الحق

أن يكون مجىء عيسى عليه السلام بهذه الصورة ليلفت بنى اسرائيل لعلهم يخرجون من ضلالات المادية ، فأوجده من أم دون أب ، فكان هذا آية على طلاقة قدرته ، ولكن اليهود استقبلوا هذه المسألة استقبالاً على غير مراد الله ، فكذبوا عيسى ، وقد حدث التكذيب من قبل أن يتكلم عيسى بالإنجيل . ووقفوا أمام رسالته بعنف ، والذى يدلنا على أنهم قوم كذابون ، هو رغبتهم فى استمرار السيطرة الدينية لهم ، وكان عندهم شريعة تقتضى الرجم للزانية ، فلماذا إذن لم يتهموا مريم بالزنا عندما ولدت عيسى ؟ ولماذا لم يعاقبوها حسب شريعة التوراة ؟ ولماذا انتظروا إلى أن يجىء عيسى عليه السلام بالإنجيل ليقولوا : يا فاعل يا ابن الفاعلة . كان انتظارهم دليلاً على أن ميلاد عيسى عليه السلام كان آية بينة صدعتهم وصدتهم عن ذلك ، فقد نطق عيسى عليه السلام بعد ميلاده ولم تتكلم مريم قط ؛ لأن ما حدث أمر فوق منطقها ، وجهزها الله لهذا الموقف ، وأمرها بالصمت عندما يسألونها ، وأن تشير إلى المولود الذى فى المهد :

﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَـٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَـٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ ﴾

(سورة مريم)

وانبهروا انبهاراً فتت فيهم القوى ، فقوى الخصومة ساعة ترى هذا لا تجد إلا الانهيار ، فالحق أبلج ، والباطل لجلج . إذن كان الأمر بيدهم وفى توراتهم أن من يزن يرجم ، فلماذا لم يرجموا أم عيسى إذن ؟ . لابد أنهم صدموا بقوة جعلت موازين حقدهم تختل ، المعجزة الباهرة هى كلام عيسى ابن مريم فى المهد : (إنى عبدالله آتانى الكتاب وجعلنى نبياً) وجعلت المفاجأة أقوى الأقوياء فيهم ينهار ، وتخور قواه .

هذا من ناحية اليهود ، فماذا عن ناحية بعض أتباع عيسى عليه السلام ؟ . إن صبياً يتكلم فى المهد هو معجزة بكل المقاييس ، فكيف تخلو كتبهم من قول عيسى فى المهد : « إنى عبدالله » وكان لابد أن تكون الكلمة مدروسة بعناية ، وألا تنسى . وحفظ جنود الله سبحانه وتعالى الكلمة ، التى تؤكد بشرية عيسى عليه السلام .

وعندما نقول هذا الكلام فليس الهدف منه تصحيح عقائد أحد ، ولكننا فقط

نريد أن يتضح منطق الإيمان فى عقول المسلمين ، أما أبناء الديانات الأخرى فهم أحرار فيما يعتقدون ، والمهم بالنسبة لنا أن يكون ديننا وقرآننا متضحاً أمام أعيننا ، ولا يجرؤ أحد أن يميل به .

« وبكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيما » ونحن كمسلمين نستنكف أن نقول ما قالوه من بهتان على مريم البتول ، والبهتان هو الكذب الشرس . فهناك لون من الكذب قد يكون مقبولاً ، ولون من الكذب غير مقبول : فأن يقول قائل عن رجل ورع : إنه شرب الخمر ، والقائل يعلم أنه كاذب ، فهذا كذب ثقيل شرس ، يتحير ويتعجب من يسمعه ؛ وهذا هو البهتان . ولم يستح ويمتنع اليهود حينما رموا مريم ـ الطاهرة بأمر الله ـ بالبهتان مع أنهم علموا أن لمريم سابقة خير واستقامة .

لقد كان ماضى مريم ناصعاً ، عاشت فى المحراب متبتلة لمن خلقها ، لذلك يصف الحق هذا البهتان بأنه عظيم ؛ لأنه جرح مريم فى عرضها ، ولو رجعوا إلى تاريخهم قبل ميلاد عيسى من مريم لوجدوا أن كل واحدة من بنات بنى إسرائيل كانت تستشرف أن يكون النبى المولود بعد موسى من بطنها . وكانوا يعرفون أن النبى القادم من بعد موسى ستلده عذراء ، وأبلغ بنو إسرائيل بناتهم بكيفية مجىء النبى القادم عيسى ابن مريم ، تماماً مثل قضية البشارة برسول الله محمد صلى الله عليه وسلم :

﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾

(من الآية ٨٩ سورة البقرة)

ومن رحمة الله بمريم نفسها أن الله جعل لها التمهيدات التى تثبت لها أمام نفسها أنها بريئة ، وأن العملية كلها قد تمت بـ« كن » من الله ، لم يجعل الله المسألة سرّاً عن مريم فتحمل بأمر قوله : « كن » دون أن تدرى ، لا . بل أراد سبحانه أن تكون عملية مادية . وجاء الملك لمريم ونفخ فيها بالحمل . وعرفت هى السبب مادياً بالملك والنفخ حتى لا تتهم نفسها أو تشك بأن شيئاً قد حدث لها وهى نائمة أو غير ذلك .

لقد أراد الله المسألة على تلك الصورة ليجعلها أمراً يقطع الشك لديها ، وهى التى بُشرت به ـ إيناساً لها ـ عندما كانت صغيرة قبل البلوغ وجاءها زكريا وهو الكفيل لها والذى يأتيها بالطعام ودخل عليها المحراب فوجد عندها الرزق وسألها :

(أنى لك هذا) أجابت :

﴿ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾

(من الآية ٣٧ سورة آل عمران)

لقد نطقت مريم البتول من قبل : « إن الله يرزق من يشاء بغير حساب » ومن الحساب أن يكون للمرأة زوج لترزق بالولد ، ولكن الله يرزق من يشاء بغير حساب . ومن العجيب أنها فى هذا القول نبهت زكريا إلى قضية كانت فى بؤرة شعوره ؛ ولذلك يقول الحق :

﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِىَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِى عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

إذن فقد شجعت مريم زكريا على أن يدعو ربه ، وتلك سلسلة تمهيدية ليطمئن إحساس مريم أن ولادتها لعيسى عليه السلام إنما جاءت بـ «كن » وجاء لها الحق بفاكهة الصيف فى الشتاء ، وعندما قالت لسيدنا زكريا : « إن الله يرزق من يشاء بغير حساب » تنبه ودخل من هذا الباب ، فدعا ربه على الرغم من علمه أن امرأته عاقر ، وأنه بلغ من الكبر عتياً ، ومفهوم لنا معنى قول الرجل عن نفسه إنه بلغ من الكبر عتيا ؛ أى أنه لم يعد يملك القدرة على الإنجاب . وهذه القضية تعطينا سبقاً قرآنيا لكثير من قضايا العلم :

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا ﴾

(من الآية ٤ سورة مريم)

هذا القول هو أشبه بمذكرة تفسيرية لبلوغه من الكبر عتيا . ويثبت العلم الحديث أن العظام هى آخر وعاء لتغذية الإنسان ، فإن امتنع الإنسان عن الطعام فالدهون التى فى جسده تغذيه . وإن امتنع الماء عن الإنسان وهو المكوّن لتسعين فى المائة من وزنه يمتص الإنسان الماء من خلايا الجسم والعضلات واللحم . ولذلك يقال فى المثل

العربى : سنة أذابت الشحم ، وسنة أفنت اللحم ، وسنة محت العظم .

فكأن البداية تكون التغذية من الشحم ومن بعد ذلك من اللحم ومن بعد الشحم واللحم يأخذ الجسم غذاءه من العظم . وهذه هى التى جاءت على لسان سيدنا زكريا : (قال رب إنى وهن العظم منى) . فآخر مخزن للتغذية لم يعد به ما يمكن أن يستمد منه زكريا طاقة الإنجاب .

وما الذى يغذيه العظم من الجسم ؟ إنه يغذى المخ ، وهو السيد الأعلى الذى يدير كل جارحة فى الجسم ، وتعمل كل جارحة فى خدمته ، ويعيش المخ بطبيعة الحال كل عمره فى خدمة الجوارح ، يرتب لها قدرات العمل والتفكير والإحساس والسلوك ، ومادام المخ موجوداً ، فكل شىء يتم تعويضه .

ولذلك يحاولون ـ الآن ـ تعريف الموت طبياً ، فيقولون : لا يحدث الموت مادامت خلايا المخ حية ؛ فإذا ماتت خلايا المخ فهذا هو الموت . ومن عجيب الأمر أن سيد الإنسان له مكان فى أعلى الجسم إنه هو المخ ، داخل الجمجمة ، أما النبات فسيده فى الجذور . وإن لم تجد الجذور مياها تذيب بها العناصر فى الأرض فالنبات يأخذ غذاءه من الورق ، وبعد أن يذبل الورق يأخذ النبات غذاءه من الفروع الصغيرة . وعندما تذبل تلك الفروع وتجف ولا ينقذ النبات إلا مجىء بعض الماء للجذور . وكذلك المخ بالنسبة للإنسان .

فكأن مريم شجعت سيدنا زكريا عندما قالت أمامه : (إن الله يرزق من يشاء بغير حساب) فدعا سيدنا زكريا الله أن يرزقه بالولد ، فجاءه الولد . وهذه القضية نطقت بها مريم وتمت تجربتها فى سيدنا زكريا . وبعد ذلك جاءها البشير بميلاد المسيح عيسى ابن مريم :

﴿ إِذْ قَالَتِ الْمَلَـٰٓئِكَةُ يَـٰمَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى الدُّنْيَا وَالْأَخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِى الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّـٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

كيف يصوغ القرآن هذه الصياغة ، وكيف تقول هى :

﴿ قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ﴾

(من الآية ٤٧ سورة آل عمران)

لقد كانت سيدتنا مريم البتول تحسن الاستقبال عن الله ، فساعة سمعت أن اسمه المسيح عيسى ابن مريم ، عرفت أن نسبه لها يعنى أنه بلا أب . وعرفت أن الحق سبحانه ما نسبه إليها إلا لأنه لا أب له .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ ﴾

ونلاحظ أن الآية تبدأ بواو العطف على ما قبلها ، وهو قوله الحق :

﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ ﴾

(سورة النساء)

ويعطف سبحانه على جرائمهم هذه الجريمة الجديدة : (وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله) وأكثر ما يدهش فى هذا القول هو كلمة « رسول الله » ، فهل هى هنا من قولهم ؟ إن كانوا قد قالوها فهذا دليل اللجاجة المطلقة ، ولو قالوا : إنهم قتلوه فقط لكان الجرم أقل وطأة ، ولكن إن كانوا قد عرفوا أنه رسول الله وقتلوه

فهذا جرم صعب للغاية . أو أن كلمة « رسول الله » هنا فى هذه الآية ليست من مقولهم الحقيقى وإنما من مقولهم التهكمى .

وأضرب المثل لأوضح هذا الأمر . . كأن يأتى شخص ذو قوة هائلة ومشهور بقوته ويأتى له شخص آخر ويضربه ويهزمه ويقول لجماعته : لقد ضربت الفتى القوى فيكم . إذن قد يكون قولهم : « رسول الله » هو من قبيل التهكم ، أو أن كلمة « رسول الله » هنا هى من قول الحق سبحانه وتعالى مضافاً إلى قولهم ليبشع عملهم .

« وقولهم : « إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله » فكأن الحق لم يشأ أن يذكر عيسى ابن مريم إلا مرتبطا أو موصوفاً بقوله : « رسول الله » لنعلم بشاعة ما فعلوه ، فعيسى ابن مريم رسول الله على رغم أنوفهم ، وخاصة أن الكلام فى مجال انكارهم وجحودهم لنعم الله ، وكفرهم بآيات الله ، وكأن الحق يسخر منهم ؛ لأنه ما كان الله ليرسل رسولاً ليبين منهجه للناس ثم يسلط الناس على قتله قبل أن يؤدى مهمته . وجاء بكلمة « رسول الله » هنا كمقدمة ليلتفت الذهن إلى أن ما قالوه هو الكذب .

وبعد ذلك يقول لنا سبحانه : « وما قتلوه وما صلبوه » . وكلمة « وما صلبوه » هنا هى لتوضيح أن مجرد ظنهم أنهم قتلوا المسيح جعلهم يشيعون ذلك ويعلنونه للناس ، وهم قد فعلوا ذلك قبل أن يتوجهوا إلى فكرة الصلب ، فقد قتلوا شخصاً شبهه الله لهم ولم يكن هو المسيح وصلبوه من بعد ذلك ، وبمجرد قتل هذا الشخص طاروا بخبر القتل قبل أن تبدأ فكرة الصلب . ويقطع الله عليهم هذا الأمر ، فيقول : « وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم » .

وقد لفتنا سبحانه من قبل إلى أن عملية ميلاد المسيح تم استقبالها من بنى إسرائيل بضجة ، فعلى رغم علمهم خبر مجىء المسيح بالميلاد من غير أب ، وعلى رغم أنهم علموا بناتهم الاستشراف أن يكون لأية واحدة منهن شرف حمل المسيح ، وعلى رغم ذلك قالوا البهتان فى مريم التى اصطفاها الله . وكذلك كان لمسألة الوفاة ضجة .

واقتران الضجتين : ضجة الميلاد وضجة الوفاة معاً فى رسالة السيد المسيح يدلنا

على أن العقل يجب أن تكون له وحدة تفسيرية ، فساعة يتكلم العقل عن قضية الميلاد بالنسبة لعيسى ابن مريم لا بد أن يستشعر الإنسان أن الأمر قد جاء على غير سنة موجودة ، وساعة يبلغنا الحق أن بنى إسرائيل بيتوا النية لقتل عيسى ابن مريم ، وأن الله رفعه إليه تكون المسألة قد جاءت أيضا بقضية مخالفة ، ولا بد أن نصدق ما بلغنا الله به ، وأن يتذكر العقل أن الميلاد كان مخالفاً ، فلماذا لا تكون النهاية مخالفة أيضاً ؟

وكما صدقنا أن عيسى ابن مريم جاء من غير أب ، لا بد أن نصدق أن الحق قد رفعه فى النهاية وأخذه ، فلم يكن الميلاد فى حدود تصور العقل لولا بلاغ الحق لنا ، وكذلك الوفاة لا بد أن تكون مقبولة فى حدود بلاغ الحق لنا . والميلاد والنهاية بالنسبة لعيسى ابن مريم كل منهما عجيبة . وإن فهمنا العجيبة الأولى فى الميلاد فنحن نعتبرها تمهيداً إلى أن عيسى ابن مريم دخل الوجود ودخل الحياة بأمر عجيب ، فلماذا لا يخرج منها بأمر عجيب ؟ وإن حدثنا الحق أن عيسى ابن مريم خرج من الحياة بأمر عجيب فنحن لا نستعجب ذلك ؛ لأن من بدأ بعجيب لا عجب أن ينتهى بعجيب .

وسبحانه وتعالى حكم وقال : « وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم » وكلمة « شبه لهم » هذه هى دليل على هوج المحاولة للقتل ، فقد ألقى شبهه على شخص آخر . وذلك دليل على أن المسألة كانت غير طبيعية ، ليس فيها حزم التبيّن من المتربصين القتلة . ونعلم أن الحواريين وأتباع سيدنا عيسى كانوا يلفون رءوسهم ويدارون سماتهم ، ولذلك قال الحق لنا : « ولكن شبه لهم » أى أنهم قد شبه لهم أنهم قتلوه .

واختلفت الروايات فى كلمة « شبه لهم » ، فمن قائل : إنهم حينما طلبوا عيسى ابن مريم ليقتلوه دخل خوخة ، والخوخة هى باب فى باب ، وفى البيوت القديمة كان يوجد للبيت باب كبير لإدخال الأشياء الكبيرة ، وفى هذا الباب الكبير يوجد باب صغير يسمح بمرور الأفراد ، وفى سقف البيت توجد فتحة وكوّة اسمها (روزنة) أو (ناروظة) .

فلما طلبوا عيسى دخل الخوخة ، ودخل خلفه رجل اسمه « تطيانوس » وعندما

رأى سيدنا عيسى هذا الأمر ألهمه الله أن ينظر إلى أعلى فوجد شيئاً يرفعه ، فلما استبطأ القومُ « تطيانوس » خرج عليهم فتساءلوا : إن كان هذا تطيانوس فأين عيسى ؟ وإن كان هذا عيسى فأين تطيانوس ؟

إذن فقد اختلط عليهم الشبه بين « تطيانوس » وعيسى ، وألقى الله شبه عيسى على « تطيانوس » فقتلوه . أو أن عيسى عليه السلام حينما دخلوا عليه كان معه الحواريون وقال لهم عيسى : أيكم يُلقى عليه شبهى وله الجنة ؟ فماذا إذن يريد الحوارى لنفسه أكثر من الجنة ؟ وقدم عيسى عليه السلام الجائزة الكبرى لأى مؤمن ، وقبل واحد من الحواريين هذه المهمة ، ويقال له « سرخس » . فألقى شبه المسيح عيسى عليه ، فقتل اليهود « سرخس » .

وقالوا : إنه حينما عرف بعض الذين ذهبوا لقتل عيسى أنه رُفع ، خافوا أن تنتشر حكاية رفع عيسى بين الناس فيؤمنوا برسالة عيسى ، وقد ينتقم الناس من الذين أرادوا قتله . ولذلك جاء القتلة بشخص وقتلوه وألقى على هذا القتيل شبه عيسى وأعلن القتلة أنهم قتلوا المسيح عيسى ابن مريم . أو أن القتيل هو واحد ممن باعوا نبى الله عيسى لليهود ، ولما رأى المشهد ووجد المتربصين بعيسى يدخلون على الحواريين وفيهم عيسى وسأل المتربصون الحواريين : أيكم عيسى ؟ فتيقظت ملكة التوبه فى نفس الذى وشى بعيسى وقاده تأنيب الضمير على خيانة الرسول إلى أن يقول : « أنا عيسى » . ولم يتصور المتربصون أن يجيب إنسان على قولهم : « أيكم عيسى » . إلا وهو عيسى بالفعل ؛ لأن مشهد المتربصين يوحى أنهم سيقتلون عيسى . وقتلوا الذى اعترف على نفسه دون تثبت . أو أن واحداً باع عيسى لقاء ثلاثين ديناراً وتشابه عليهم فقتلوا الواشى ، ولم يظفروا بعيسى ابن مريم . ونحن كمسلمين لا نهتم اهتماماً كبيراً بتلك الروايات . فالمهم أنهم قالوا قتلنا عيسى . وصلبناه .

وقرآننا الذى نزل على رسولنا صلى الله عليه وسلم قال : « وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم » . وقال الحق لنا : إنه رفع عيسى إليه ، وانتهت المسألة بالنسبة لنا ؛ لأننا كمؤمنين لا نأخذ الجزئيات الدينية أولاً فإن صدقناها آمنا ، لا . نحن نؤمن أولاً بمُنَزِّل هذه الجزئيات ونصدق من بعد ذلك كل ما جاء منه سبحانه ، وهو قال ذلك فآمنا به وانتهت المسألة .

إن البحث فى هذا الأمر لا يعنينا فى شىء ، ويكفينا أن الحق سبحانه وتعالى قال : « وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم » . ويدلنا هذا القول على عدم تثبت القتلة من شخصية القتيل ، وهو أمر متوقع فى مسألة مثل هذه ، حيث يمكن أن تختلط الأمور .

إننا نرى ذلك فى أية حادثة تحدث مع وجود أعداد كبيرة من البشر وأعينهم مفتوحة ، وعلى الرغم من ذلك تختلف فيها الروايات . بل وقد تكون الحادثة مصورة ومسجلة ومع ذلك تختلف الروايات ، فما بالنا بوجود حادثة مثل هذه فى زمن قديم لا توجد به كل الاحتياطات التى نراها فى زماننا ؟ إذن فاضطراب الآراء والروايات فى تلك الحادثة أمر وارد ، ويكفينا أن الحق سبحانه وتعالى قال : « وما قتلوه وما صلبوه » .

فعيسى باق ؛ لأن الحق لم يأت لنا بخبر موت عيسى . ويبقى الأمر على أصل ما وردت به الآيات من أن الله سبحانه وتعالى رفع عيسى ابن مريم . وكمسلمين لا نستبعد أن يكون الحق سبحانه وتعالى قد رفعه إلى السماء ؛ لأن المبدأ ـ مبدأ وجود بشر فى السماء ـ قد ثبت لرسولنا صلى الله عليه وسلم ، فقد حدثنا صلى الله عليه وسلم أنه عُرج به إلى السماء ، وأنه صعد وقابل الأنبياء ورأى الكثير من الرؤى ، إذن فمبدأ صعود واحد من البشر من الأرض وهو لايزال على قيد الحياة البشرية المادية إلى السماء أمر وارد . والخلاف يكون فى المدة الزمنية ، لكنه خلاف لا ينقض مبدأً ، سواء صعد وبقى فى السماء دقائق أو ساعات أو شهوراً . فإن حاول أحد أن يشكك فى هذه المسألة نقول له : كل أمر قد يقف العقل فيه يتناوله الحق سبحانه وتعالى تناولاً موسعاً . فسبحانه خالق رحيم لا يورد نصاً بحيث يتوقف العقل أمامه ، فإن قبل العقل النص كان بها ، وإن لم يقبله وجدت له مندوحة ، لأنه أمر لا يتعلق بصلب العقيدة .

فهب أن إنساناً قال إن عيسى لم يرفع بل مات ، فما الذى زاد من العقائد وما الذى نقص ؟ ذلك أمر لا يضر ولا ينفع . ومثل ذلك الإسراء ، جاء فيه الحق بالقول القرآنى :

﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى

﴿ بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَٰتِنَآۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ۝١ ﴾
(سورة الإسراء)

ولم يقل الحق أى قول فى أمر المعراج ، لأن الإسراء آية أرضية ، انتقل فيها الرسول صلى الله عليه وسلم من مكة إلى بيت المقدس . ونعلم أن رسول الله لم يذهب إلى بيت المقدس قبل الإسراء ، بدليل أن كفار مكة أرادوا إحراج الرسول فقالوا له : صف لنا بيت المقدس . وهم واثقون من عدم ذهابه إليه من قبل . وكان فى الطريق قوافل لهم رآها صلى الله عليه وسلم ، ووصف صلى الله عليه وسلم بيت المقدس وقال لهم عن أخبار قوافلهم . وجاءت القوافل مثبتة لصدق محمد صلى الله عليه وسلم .

إذن كان الإسراء برسول الله صلى الله عليه وسلم آية أرضية يمكن أن يقام عليها الدليل . ولذلك جاء بها الحق صريحة فقال : (سبحان الذى أسرى بعبده ليلاً مّن المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى) .

لكن المعراج لم يذكره الحق صراحة ، فلم يكن من قريش ولا من أهل الأرض من رأى سدرة المنتهى ، ولم يكن لأحد من أهل الأرض القدرة على أن يصف طريق المعراج .

إذن فالآيات التى يقف فيها العقل يتناولها القرآن تناولاً موسعاً رحمة بالعقول ؛ لأن الإنسان إن اعتقد بها فهذا أمر جائز ، وعدم الاعتقاد بها لا يؤثر فى أصل العقيدة ، ولا فى أصول التكليفات ، ومدارها التصديق . ومادام الحق سبحانه وتعالى قد فوض رسوله أن يعطينا أحكاماً . إن عملنا بها جزانا الله الثواب ، وإن لم نعمل بها نالنا العقاب « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » ، فكيف لا يفوضه فى أن يقول لنا بعضاً من الأخبار ؟!

ورسول الله صلى الله عليه وسلم فيما روى عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ وذكره البخارى فى صحيحه أنه قال :

« والذى نفسى بيده ، ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً عدلاً ، فيكسر

الصليب ، ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية ، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد ، وحتى تكون السجدة الواحدة خيرًا من الدنيا وما فيها » . ثم يقول أبو هريرة : اقرأوا إن شئتم « وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً »[1] .

هذه أخبار أخبرنا بها رسول الله صلى الله عليه وسلم . إذن لا توجد قضية عقدية تقف مستعصية أمام عقول المسلمين خاصة . أن البعض قد يقول : إن الحق سبحانه قد قال :

﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾

(من الآية ٥٥ سورة آل عمران)

وقد شرحنا من قبل فى خواطرنا عن سورة آل عمران كل الشرح لهذه المسألة . قلنا : إن علينا أن ننتبه إلى « واو العطف » بين « متوفيك » و« رافعك » .

ومن قال إن « واو العطف » تقتضى الترتيب ؟ إن « واو العطف » تقتضى الجمع فقط كقولنا : « جاءنى زيد وعمرو » ، هذا يعنى أن زيداً جاء مع عمرو . أو أن زيداً جاء أولاً ، أو أن عمراً جاء أولاً وتبعه زيد ، فـ « الواو » لا تقتضى الترتيب ، وإنما مقتضاها الجمع فقط

لكن إن قلنا « جاءنى زيد فعمرو » فزيد هو الذى جاء أولاً وتبعه عمرو ؛ لأن « الفاء » تقتضى الترتيب ، أما « الواو » فتأتى لمطلق الجمع ولا تتعلق بكيفية الجمع ، وسبحانه قال : « إنى متوفيك ورافعك إلىَّ » هذا الضرب من الجمع لا يدل على أن التوفى قد تم قبل الرفع ، ودليلنا أن الحق سبحانه أنزل فى القرآن آيات تدل على مثل هذا ، كقوله الحق :

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ ﴾

(من الآية ٧ سورة الأحزاب)

فسبحانه أخذ الميثاق من محمد صلى الله عليه وسلم وجمع معه سيدنا نوحاً وإبراهيم ، فهل هذا الجمع كان قائماً على الترتيب ؟ لا ؛ لأن نوحاً متقدم جداً فى

---

(١) أخرجه البخارى ومسلم .

الموكب الرسالى وسبق سيدنا رسول الله بسنوات طويلة ويفصل بينهما رسل كثيرون .
إذن فـ « الواو » لا تقتضي الترتيب فى الجمع . ولماذا جاء الحق بأمر الوفاة مع أمر الرفع ؟ جاء الحق بذلك ليشعر عيسى أن الوفاة أمر مقطوع به ، لكن الرفع مجرد عملية مرحلية .

أو جاء قوله الحق : « إنى متوفيك ورافعك إلىّ » ؛ لأن الإنسان المخلوق لله مكون ومركب من مادة وفى داخلها الروح ، وعندما يريد الحق أن ينهى حياة إنسان ما ، فهو يقبضه بدون سبب وبدون نقض فى البنية ، ويموت حتف أنفه ، أما إذا ما ضرب إنسان إنساناً ضربة عنيفة على رأسه فالمضروب أيضاً يموت ، لأن الروح لا تحل فى جسم به عطب شديد .

إذن فالحق أوضح لعيسى : أنا آخذك إلىّ وأرفعك متوفياً وليس بجسدك أىُّ نقضٍ لبنيتك أو هدم لها أو لبعضها ، بل آخذك كاملاً . فـ « متوفيك » تعنى الأخذ كاملاً دون نقض للبنية بالقتل .

ونحن ـ كما عرفنا من قبل ـ نفرق بين القتل والموت . فالموت هو أن تُقبض الروح حتف الأنف ، أما القتل فهو هدم للبنية فتزهق الروح ، والدليل على ذلك أن الحق فى كتابه الكريم قال :

﴿ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ﴾

(من الآية ١٤٤ سورة آل عمران)

إذن فحين قال بنو إسرائيل : إنهم قتلوا عيسى ابن مريم كذبهم الحق وقال : « وما قتلوه وما صلبوه » . ورفعه الله إليه كاملاً ، وسبحانه وتعالى يقول : (وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وإن الذين اختلفوا فيه لفى شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقيناً) . ويوضح الحق سبحانه وتعالى : لم يتيقنوا أنهم قتلوا عيسى ابن مريم ، لكنهم شكوا فيمن قُتل ، فلم يعرف المتربصون لقتله أقتلوا عيسى أو تطيانوس أو سرخس ؟

والحق سبحانه جاء هنا بنسبتين متقابلتين ، فبعد أن نفى سبحانه نبأ مقتل عيسى

ابن مريم قال : « وإن الذين اختلفوا فيه لفى شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن » . والنسبة الأولى المذكورة هنا هى الشك ، وهو نسبة يتساوى فيها الأمران . والنسبة الثانية هى اتباعهم للظن ، وهو نسبة راجحة . لقد بدأ الأمر بالنسبة إليهم شكاً ثم انقلب ظناً .

وينهى الحق ذلك بعلم يقينى « وما قتلوه يقيناً » وسبحانه ينفى بذلك أنهم قتلوه يقيناً ، واليقين ـ كما نعلم ـ هو الأمر الثابت المعقود فى الواقع والأعماق بحيث لا يطفو إلى الذهن ليناقش من جديد أو يتغير ، وله مراحل هى : مرحلة العلم ، واسمها علم اليقين ، ومرحلة العين ، واسمها عين اليقين ، ومرحلة الحقيقة ، واسمها حق اليقين .

وعندما يخبرنا واحد من الناس أن جزءا من نيويورك اسمه « مانهاتن » . وأن مانهاتن هذه هى جزيرة يصل تعداد سكانها إلى عشرة ملايين نسمة ، وفيها ناطحات سحاب ، وجاء هذا الخبر ممن لا نعرف عنه الكذب فيسمعه من لم ير نيويورك ، فيصير مضمون الخبر عنده علماً متيقناً ؛ لأن الذى أخبر به موثوق به . وإن جاء آخر ووجه للسامع عن نيويورك دعوة لزيارتها ولبى السامع الدعوة وذهب إلى نيويورك ، هنا تحول الخبر من « علم اليقين » إلى « عين اليقين » . وإن جاء ثالث وصحب السامع إلى قلب نيويورك وطاف به فى كل شوارعها ومبانيها ، فهذا هو « حق اليقين » .

وأسمى أنواع اليقين هو « حق اليقين » ، وقبلها « عين اليقين » ، وقبل « عين اليقين » « علم اليقين » . وحينما عرض سبحانه المسألة قال :

﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ﴿٥﴾ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴿٧﴾ ﴾

(سورة التكاثر)

هو سبحانه يعطينا علم اليقين ، ويصدقه المؤمنون بهذا العلم قبل أن يروه ، وسيرى المؤمنون وهم على الصراط النارَ وذلك عين اليقين . أما مسألة دخول الذين يرون الجحيم إليها فأمر سكت عنه الحق ؛ لأن هناك من يدخل الجنة ولا يدخل

النار ، وهناك من يدخل النار ولا يدخل الجنة . والكافرون بالله هم الذين سيرون الجحيم حق اليقين . ويأتى « حق اليقين » فى موضع آخر من القرآن الكريم :

﴿ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ ﴾

(سورة الواقعة)

فكل مكذب ضال سينزل إلى الحميم ويصلى الجحيم ويعانى من عذابها حق اليقين . إذن فقوله الحق عن مسألة قتل عيسى ابن مريم : « وما قتلوه يقيناً » يصدقه الذين لم يشاهدوا الحادث ، تصديق علم يقين لأن الله هو القائل . والذين رأوا الحادث عرفوا أنهم لم يقتلوه ولكنهم شكوا فى ذلك . وأما من باشر عملية القتل لإنسان غير عيسى عليه السلام فهو الذى عرف حقيقة اليقين . والذى حدث هو ما يلى :

﴿ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ ﴾

لقد رفعه العزيز الذى لا يغلبه أحد على الإطلاق ، فهو القوى الشديد الذى لا ينال منه أحد ، فإذا كانوا قد أرادوا قتل رسوله عيسى ابن مريم ، فالله غالب على أمره ، وهو العزيز بحكمة .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾ ﴾

و« إن » هنا هى « إن » النافية ، وهى غير « إن » الشرطية . وإليكم هذا المثال عن « إن » النافية من موضع آخر من القرآن حين قال الحق :

﴿ ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ ۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ ﴾

(من الآية ٢ سورة المجادلة)

يصحح الحق هنا الخطأ الذى وقع فيه هؤلاء الذين يظاهرون من نسائهم بقول الواحد منهم لزوجته : « أنت علىّ كظهر أمى » ، فيقول سبحانه :

﴿ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا ﴾

(من الآية ٢ سورة المجادلة)

فيوضح سبحانه : ما أمهاتهم إلا اللائى ولدنهم . و« إن » فى هذه الآية التى نحن بصدد خواطرنا الآن عنها هى « إن » النافية .

كأن الحق يقول : ما من أهل الكتاب أحد إلا ليؤمنن به قبل موته . وهذا شرح لمعنى « إن النافية » . وقد يقول قائل : ما حكاية الضمائر فى هذه الآية ؟ فالآية بها أكثر من ضمير ، مثل قوله الحق : « وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته » وعلى من تعود « به » ؟ وعلى من تعود الهاء فى آخر قوله « موته » ؟ هل هو موت عيسى أو موت أى واحد من أهل الكتاب ، فالمذكور عيسى ، ومذكور أيضاً أهل الكتاب ، فيصح أن يكون القول كالآتى :

لن يموت واحد من أهل الكتاب إلا بعد أن يؤمن بعيسى ، ويصح أيضاً : لن يموت عيسى إلا بعد أن يؤمن به كل واحد من أهل الكتاب ، ولأن الضمير لا يعرف إلا بمرجعه ، والمرجع يبين الضمير . فإن كانت هناك ألفاظ سبقت . . فكل منها يصح أن يكون مرجعاً ، أو أن يعود الضمير على بعض مرجعه كقول الحق :

﴿ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ﴾

(من الآية ١١ سورة فاطر)

والمعمَّر هو الإنسان الذى طعن فى السن ، ولا ينقص من عمر هذا المعمَّر إلا كما أراد الله ، والهاء فى « عمره » تعود إلى بعض من المعمَّر . ذلك أن كلمة « معمَّر »

مكونة من عنصرين هما « ذات الرجل » و« عمر الرجل » ، فلما عاد الضمير عاد على الذات دون التعمير ، فيكون المعنى هو : وما يعمَّر من معمَّر ولا ينقص من عمر ذات لم يثبت لها التعمير . وماذا يكون الحال حين يوجد مرجعان ؟ مثل قوله الحق :

﴿رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَا﴾

(من الآية ٢ سورة الرعد)

هنا نجد مرجعين : « السماء » و« العمد » فعلى أى منهما تعود الهاء الموجودة فى كلمة « ترونها » ، هل تعود « الهاء » إلى المرجع الأول وهو السموات ، أو للمرجع الثانى وهو « العمد » ؟ يصح أن تعود « الهاء » إلى السموات . . أى خلق السموات مرتفعة قائمة بقدرته لا تستند على شىء وأنتم تنظرون إليها وتشاهدونها بغير دعائم ، ويصح أيضاً أن تعود إلى العمد . أى بغير العمد التى نعرفها ولكن رفعها الحق بقوانين الجاذبية . أو رفع السموات « بغير عمد ترونها » أى أن العمد مختفية عن رؤية البشر . وهكذا يصح أن يُنسب الضمير ويعود إلى أحد المرجعين .

والآية التى نحن بصددها ، نجد أنه قد تقدم فيها شيئان هما المسيح وأهل الكتاب ، وفيها ضميران اثنان . فهل يعود الضميران على عيسى ، أو يعودان على أهل الكتاب ؟ أو يعود ضمير منهما على عيسى والآخر على أهل الكتاب ؟ وأى منهما الذى يرجع على عيسى ، وأى منهما الذى يرجع على أهل الكتاب ؟ أو أن هناك مرجعاً ثالثاً لم يُذكر ويعلم من السياق هو محمد صلى الله عليه وسلم ، ونجد أن الضميرين قد يرجعان إلى المرجع الثالث ، أى إلى محمد صلى الله عليه وسلم الذى بشر بمجيئه عيسى ابن مريم ، وتواتر الأحاديث عن أن عيسى يوشك أن ينزل فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ، ولسوف يصلى عيسى ابن مريم خلف واحد من أمة رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم .

ولماذا التقى النصارى مع اليهود فى مسألة القتل والصلب ؟ هم معذورون فى ذلك ؛ لأن الحق لم يأت ببيان فيها آنئذ . وقوله : « وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم » يدل على أنهم معذورون إن قالوا ذلك . ولكن كان الواجبُ أن يتمردوا على مسألة الصلب هذه ، إن كان فيه ألوهية أو جزء من ألوهية ، وكان من الواجب أن يخفوا مسألة الصلب . ويأتى الإسلام ليبرىء عيسى عليه السلام من هذه المسألة ويعين أتباع عيسى على تبرئته منها .

ولكن لم يلتفت أتباع عيسى إلى قول الإسلام فى هذه القضية « ولكن شبه لهم » وكان يجب أن يلتفت إليها أتباع المسيح . وحين يقص الحق كل ذلك فهو يحكم من بعد ذلك حكماً إلهياً : (بل رفعه الله إليه) النصارى يقولون بالرفع ، ولكن بعد الصلب . ونحن المسلمين نقول بالرفع ولا صلب ، رفعه الله إليه وسينزل . وحكمة ذلك أنه لم يوجد رسول من الرسل السابقين فُتن فيه قومه فجعلوه بعضاً من إله أو إلهاً فلم تسكت السماء عن ذلك ، فرفعه سبحانه وسينزله ليسفه هذه القضية ، وبعد ذلك يجرى عليه قدر الله فى خلقه وهو الموت .

إن الذين يقفون فى هذه المسألة يجب ألا يقفوا ، لأن مسألة سيدنا عيسى عليه السلام بدأها الله بعجيبة خرقت النواميس لأنه وُلد من أم دون أب . فإن كنتم قد صدقتم العجيبة فى الميلاد ، فلماذا لا تصدون العجيبة فى مسألة الرفع ؟

وإن قال واحد منا : لقد مات عيسى عليه السلام . نقول : ماذا تقولون فى نبيكم محمد عليه الصلاة والسلام ؟ أصعد إلى السماء معروجاً به إليها ؟ ألم يكن رسول الله حياً بقانون الأحياء ؟ نعم كان حياً بقانون الأحياء . وظل رسول الله صلى الله عليه وسلم مدة وجيزة فى السماء ثم نزل إلينا ، إذن فالمسألة فى أن يذهب خلق من خلق الله بإرادة الحق وقدرته إلى السماء وهو حى ثم ينزل إلى الأرض وهو حىٌ ليس عجيبة .

والخلاف بين رفع عيسى وصعود محمد صلى الله عليه وسلم بالمعراج خلاف فى المدة . وهذا لا ينقض المبدأ ؛ فالمهم أنه صعد بحياته ونزل بحياته ، وظل فترة من الزمن بحياته ، إذن فمسألة الصعود إلى السماء والبقاء فيها لمدة أمر وارد فى شريعتنا الإسلامية . ولتأكيد هذه المسألة يقول الحق :

﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ﴾

(من الآية ١٥٩ سورة النساء)

السامع السطحى لهذه الآية قد يقول : إنهم أهل كتاب ولا بد أن يكونوا قد آمنوا به ، وأقول : لا . لقد آمنوا به إيماناً مراداً لأنفسهم ، وليس الإيمان المراد لله ، آمنوا به إلهاً أو جزءًا من إله وهو ما يسمى لديهم بالثالوث ـ الآب والابن وروح القدس ـ ولكن الله يريد أن يؤمنوا به رسولاً وبشرًا وعبدًا .

وإذا قال الحق : « وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً » فمعنى هذا : ما أحد من أهل الكتاب إلا ويؤمن بعيسى عليه السلام رسولاً وعبداً وبشراً قبل أن يموت .

والضمير فى قوله:« إلا ليؤمنن به » يرجع إلى عيسى . والضمير الآخر الموجود فى « قبل موته » قد يرجع إلى عيسى أى قبل موت عيسى ولن يموت عليه السلام الموتة الحقيقية التى تنهى أجله فى الحياة إلا بعد أن يؤمنوا به عبداً ورسولاً وبشراً ، ولن يتحقق ذلك إلا إذا جاء بشحمه ولحمه ودمه ليقول لهم : أنتم مخطئون فى أنكم أنكرتم بشارتى بمحمد الخاتم ، وأنتم مخطئون فى اتهامكم لأمى ، والدليل على خطئكم هو أننى جئت مبشراً برسول للناس كافة هو محمد بن عبدالله ، وهأنذا أصلى خلف واحد من أمة ذلك الرسول . فلن يأتى عيسى ـ عليه السلام ـ بتشريع جديد بل ليصلى خلف واحد من المؤمنين بمحمد بن عبدالله صلى الله عليه وسلم .

وحين يصنع عيسى ابن مريم ذلك ، ماذا سيقول الذين فُتِنوا فيه ؟ لاشك أنهم سيعلنون الإيمان برسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، أو أن كل كتابى من الذين عاشوا فى المسافة الزمنية من بعد رفعه وحتى نزوله مرة أخرى سيعلن الإيمان بعيسى كبشر ورسول وعبد قبل أن يموت ولو فى غيبوبة النهاية عندما تبلغ الروح الحلقوم وتتردد فى الحلق عند الموت . فقد يصح أن تكون الآية عامة « وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته » ويعود الضمير فيها إلى كل كتابى قبل أن يموت .

إن النفس البشرية لها هوى قد يستر عنها الحقائق ويغلق دونها باب اليقين ويدفعها إلى ذلك غرور الحياة ، فإذا ما جاءت سكرة الموت بالحق ، انتهى كل شىء يُبعد الإنسان عن منهج الحق واليقين ؛ ولا تبقى إلا القضايا بحقها وصدقها ويقينها ، وتستيقظ النفس البشرية لحظة تظن أنها ستلقى الله فيها ويسقط غرور الحياة ، ويراجع الإنسان منهم نفسه فى هذه اللحظة ، ويقول : أنا اتبعت هوى نفسى . ولكن أينفع مثل هذا اللون من الإيمان صاحبَه ؟ لا ؛ لأن مثله فى ذلك مثل إيمان فرعون ، فقد قال حين أدركه الغرق :

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾

(من الآية ٩٠ سورة يونس)

فيسمع صوتَ الحق فى تلكَ اللحظة :

﴿ ءَآلْـَٔـٰنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٩١ ﴾

(سورة يونس)

فلم ينتفع فرعون لحظة الغرق بالإيمان .

ويقول ـ سبحانه ـ :

﴿ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝١٨ ﴾

(سورة النساء)

ويذيل الحق الآية : « ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً » وهذا يؤكد أن عيسى عليه السلام سيشهد على من عاصروا نزوله فى الدنيا ، وسوف يشهد يوم القيامة على الذين ادعوا له بالألوهية :

﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ ۝١١٦ ﴾

(سورة المائدة)

ويعاود الحق سبحانه الكلام عن فظائع اليهود فيقول :

﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَـٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۝١٦٠ ﴾

هو سبحانه يوضح أن تحريم بعض الطيبات على بنى إسرائيل جاء نتيجة لمواقف يعددها الله ، لقد ارتكبوا ما ارتكبوا من ذنوب كبيرة وظلموا أنفسهم وظلموا

غيرهم ، وصدوا عن دين الله ، بمعنى أنهم لم يدخلوا فى الإسلام .

وتستمر الحيثيات للتحريم لبعض الطيبات لتزيد على هذين الموقفين :

﴿ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾ ﴾

وأى ظلم يتحدث عنه الحق فى قوله : « فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم » ؟ . الظلم معناه أن يحكم واحد لغير ذى الحق بحق ، وقمة الظلم أن يحكم واحد بأن لله شريكاً ، ولذلك قال سبحانه :

﴿ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾

(من الآية ١٣ سورة لقمان)

وحيثيات حكم الله بتحريم أشياء كانت حلالاً لبنى إسرائيل متعددة . وحين يحرم الله شيئاً فمن المؤكد أنه محدود بالنسبة للمحلَّل ؛ فالمحرم قليل ، وبقية ما لم يذكره الله إنما يدخل فى نطاق الحلال .

مثال ذلك قوله الحق :

﴿ قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۖ وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ

ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾

(سورة الأنعام)

يورد الحق هنا المحرمات وهى أشياء محددة محدودة ، أما النعم كلها فحلال . ومن هذا الأمر نفهم اتساع مدى رحمانية الحق بالخلق ، فقد وهبنا الكثير والكثير من النعم التى لا تعد ولا تحصى ولم يحرم إلا القليل . وتحريم القليل جاء لتبقى كل نعمة فى مجالها .

فإذا قال إنسان : حرم الله هذا الشيء لأنه ضار نقول : ما تقوله جائز ، ولكن ليس الضرر هو سبب الحكم لِكل المحرمات ، فقد يحرم سبحانه أمراً لتأديب قوم ما . ـ ولله المثل الأعلى ـ نرى المسئول عن تربية أسرة قد يحرم على ولد فيها لوناً من الطعام أو جزءاً من مصروف اليد ويكون القصد من ذلك هو العقوبة .

ولماذا استحق بنو إسرائيل عقوبة التحريم ؟. لقد جاءوا من خلف منهج الله وأحلوا لأنفسهم ما حرم الله . وماداموا قد زاغوا فأحلوا ما حرم الله فالحق يرد عليهم : لقد اجترأتم على ما حرمت فحللتموه ، ومن حقى أن أحرم عليكم ما أحللت لكم قبل ذلك ، حتى لا يفهم الإنسان أنه بتحليله لنفسه ما حرم الله قد أخذ شيئاً من وراء الله فلا أحد يمكنه أن يغلب الله . ولذلك يحرم سبحانه عليه شيئاً من حلاله .

والتحريم إما أن يكون تحريم تشريع ، وإما تحريم طبع أو فطرة أو ضرورة . نجد الرجل الذى أسرف على نفسه فى تناول محرمات كالخمر ـ مثلاً ـ يحرم الله عليه أشياء كانت حلالاً له ، ويقول له الطبيب : تهرأ كبدك وصار من الممنوع عليك أن تأكل صنوفاً كثيرة من الطعام والشراب . وهكذا نرى ظلم الإنسان لنفسه ، وكيف نتج عنه تحريم أشياء كانت حلالاً له .

ومن أسرف على نفسه فى تناول صنف معين من الطعام كالسكر مثلاً فأكَله فوق ما تدعو به الحاجة ، نجد سنة الله الكونية تقول له : لقد أخذت أكثر من حقك . وعطلت فى جسدك القدرة على حسن استخدام السكر فصرت مريضاً ، إياك أن

تتناول السكريات مرة أخرى . ويشتهى المريض السكر والحلوى ويملك القدرة على شرائهما ، ولكنها محرمة عليه ، وكأن الحق سبحانه وتعالى يقول له : بظلم منك لنفسك حرمت ما أحللته لك .

وآخر يملك الثروات والخدم والمزارع الشاسعة ، ويقوم له الآخرون بطحن الغلال ، ويأمر بأن يصنعوا له الخبز من أنقى أصناف الدقيق الخالى من أية قدر من « النخالة » ، ويصنعون له الخبز الأبيض ، ويأكله بينما الاتباع يصنعون لأنفسهم الخبز من الدقيق الأقل نقاوة ، فتقول له سنة الله : ستأكل الخبز المصنوع من النخالة بأمر الطبيب علاجاً لأمعائك لأنك أسرفت على نفسك فى أكل الخبز المصنوع من أنقى أنواع الدقيق وليأكل رعاياك وعمالك الخبز المصنوع من أفخر ألوان الدقيق ، فبظلم منك حرمنا ما أحل لك .

وعندما نَرى إنساناً قد حُرِمَ من نعمة من نعم الله التى هى حلال له ، نعلم أنه قد حلل لنفسه شيئاً حرمه الله عليه ، أو أسرف فى استعمال حق أحله الله له ، ولا أحد منا يفلت من رقابة الله . إذن فالتحريم قد يكون بالتشريع ، إذا كانت العقوبة التحريم من المشرع ، وقد يكون تحريماً بالطبع والفطرة إن كان فى الأمر إسراف من النفس .

ولنقرأ دائماً هذه الآية : « فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيراً » وكذلك الذين يأخذون مالاً بالربا ، لقد أخذوا الربا ليزيد مالهم ، لماذا تريدون المال ؟. أتريدون المال لذات المال ؛ أم لهدف آخر ؟. صحيح أن المال رزق ، لكنه رزق غير مباشر ؛ لأنه يَشْترى به الأشياء التى ينتفع بها الإنسان ، وهى الرزق المباشر . وقلنا قديماً : هب أن إنساناً فى صحراء ومعه جبل من ذهب لكن الطعام انقطع منه ، وجبل الذهب فى مثل هذه الحالة لا ينفع ، بل يصبح رغيف الخبز وكوب الماء فى تلك الحالة أغلى من الذهب . والذى يزيد ماله بالربا ، أيريد تلك الزيادة من أجل المتع ؟. سبحانه يمحق ذلك المال ويُذهبه فى كوارث .

ومن أراد أن يبقى له ما أحل الله إلى أن يأتى أجله فعليه ألا يبيح لنفسه أى شىء

حرمه الله . وبذلك يظل متمتعاً بنعم الله عليه . فالحق هو القائل : (وما ربك بظلام للعبيد) .

الإنسان ـ إذن ـ هو الذى يظلم نفسه مصداقاً لقوله الحق :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَـٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾

(سورة يونس)

وهكذا ظلم اليهود أنفسهم فحرم الله عليهم طيبات أُحِّلت لهم . ومن الذى نقل الأمر الطيب إلى أمر غير طيب ؟ . إنه الإنسان . ولكن هل نقل ذات الشىء أو حكم الشىء ؟ . لقد نقل حكم الشىء ، فجعل الشىء الحرام شيئاً حلالاً . « فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيراً » .

كيف يكون باستطاعتهم الصد عن سبيل الله ؟ . لقد ظلموا أنفسهم وأخذوا الربا وتلك أمور تجعلهم فى ناحية الضلال وفى جانب الباطل ، وليت الأمر وقف عند هذا . بل أرادوا أيضاً إضلال غيرهم ، وهذا هو مضمون الصد عن سبيل الله . وجعلهم هذا الأمر أصحابَ وزر آخر فوق أوزارهم ، فلم يكتفوا بضلالهم بل تحملوا أوزار إضلال غيرهم .

﴿ لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾

(سورة النحل)

وقد يسمع متشكك هذا القول . فيتساءل : كيف يناقض القرآن بعضه فيقول :

﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾

(من الآية ١٦٤ سورة الأنعام)

ونقول : إن لكل وزر طريقاً وحساباً ، فالإنسان يحمل وزر ضلاله وحده إن لم يضل به أحداً غيره ، ولكن إن حاول إضلال غيره فهو يتحمل وزر هذا الإضلال .

ويقول الحق فى تكملة ظلمهم لأنفسهم : « وأخذهم الربا وقد نهوا عنه وأكلهم

أموال الناس بالباطل وأعتدنا للكافرين منهم عذاباً أليماً » ، وقد تعرضنا للربا من قبل . وقد أخذوا الرشوة ، وهو أكل لمال الناس بالباطل ؛ وكذلك السرقة ، والغش فى السلع ، كل ذلك أخذ مال من الناس بغير حق ، وما أخذ بغير الحق فهو باطل ، وأعد سبحانه لهم مسبقاً عذاباً أليماً . ولكل إنسان مقعدان : مقعد من الجنة إن قُدّر إيمانه ، ومقعد من النار إن قُدّر كفره ، ولا مجال للظن بإمكان ازدحام الجنة أو ازدحام النار ، فقد خلق الله مقاعد الجنة على أساس أن كل الناس مؤمنون ، وجعل مقاعد النار على أساس أن كل الناس كافرون .

ولذلك يقول الحق :

﴿ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿١١﴾ ﴾

(سورة المؤمنين)

وحين يتبوأ المؤمن مقعده فى الجنة يورثه الله المقعد الآخر الذى أعده للكافر ؛ فقد كان للكافر قبل أن يكفر مقعدٌ فى الجنة لو اختار الإيمان . وقد أعد الحق العذاب الأليم لهم أى الشديد إيلامه ، وهو مهين أيضا أى أن فى قدرته قهر أى إنسان يتجلد للشدة ، فلا أحد يقدر على الجَلَد أمام عذاب الله .

وهل هذا هو كل ما كان من أهل الكتاب ؟ . ألم يوجد فى أهل الكتاب من كان يدير مسألة الإيمان برسول الله صلى الله عليه وسلم فى عقله ، ويبحث فى القضايا والسمات التى جاءت مبشرّة به صلى الله عليه وسلم فى التوراة والإنجيل ؟ . كان من بينهم من فعل ذلك ، ويورد الحق سبحانه وتعالى التاريخ الصادق ، فيستثنى من أهل الكتاب الراسخين فى العلم فيقول :

﴿ لَّـٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ۚ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦٢﴾ ﴾

إذن لم يعمم الله الحكم على أهل الكتاب ، الذى سبق بكفرهم وظلمهم لأنفسهم وأخذهم الربا وغير ذلك ، بل وضع الاستثناء ، ومثال لذلك « عبدالله بن سلام » الذى أدار مسألة الإيمان برسول الله فى رأسه وكان يعلم أن اليهود قوم بُهت .

فقال لرسول الله : إنى أومن بك رسولاً ، والله لقد عرفتك حين رأيتك كمعرفتى لابنى ومعرفتى لمحمد أشد .

ويقول الحق عن مثل هذا الموقف : « الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم » . ولا أحد يتوه عن معرفة ابنه ؛ كذلك الراسخون فى العلم يعرفون محمداً رسولاً من الله ومبلغاً عنه ، والراسخ فى العلم هو الثابت على إيمانه لا يتزحزح عنه ولا تأخذه الأهواء والنزوات . بل هو صاحب ارتقاء صفائى فى اليقين لا تشوبه شائبة أو شبهة .

« لكن الراسخون فى العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك » ، وقوله الحق: « بما أنزل إليك » هو القرآن ، وهو أصل يُرد إليه كل كتاب سابق عليه ، فحين يؤمنون بما أنزل إلى سيدنا رسول الله ، لابد أن يؤمنوا بما جاء من كتب سابقة .

والملاحظ للنسق الأسلوبى سيجد أن هناك اختلافاً فيما يأتى من قول الحق : « والمقيمين الصلاة » فقد بدأ الحق الآية : « لكن الراسخون فى العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك والمقيمين الصلاة » .

ونحن نعلم أن جمع المذكر السالم يُرفع بالواو وينصب ويُجر بالياء ، ونجد هنا « المقيمين » جاءت بالياء ، على الرغم من أنها معطوفة على مرفوع ، ويسمى علماء اللغة هذا الأمر بـ« كسر الإعراب » ؛ لأن الإعراب يقتضى حكماً ، وهنا نلتفت لكسر الحكم . والأذن العربية التى نزل فيها القرآن طُبِعَتْ على الفصاحة تنتبه لحظة كسر الإعراب .

لذلك فساعة يسمع العربى لحناً فى اللغة فهو يفزع . وكلنا يعرف قصة العربى الذى سمع خليفة من الخلفاء يخطب ، فلحن الخليفة لحنة فصرّ الأعرابى أذنيه ، أى جعل أصابعه خلف أذنيه يديرهما وينصبها ليسمع جيداً ما يقول الخليفة ، ثم لحن الخليفة لحنة أخرى ، فهب الأعرابى واقفاً ، ثم لحن الثالثة فقال الأعرابى : أشهد أنك وُلِّيت هذا الأمر بقضاء وقدر . وكأنه يريد أن يقول : « أنت لا تستحق أن تكون فى هذه المكانة » .

وعندما تأتى آية فى الكتاب الذى يتحدى الفصحاء وفيها كسر فى الإعراب ، كان على أهل الفصاحة أن يقولوا : كيف يقول محمد إنه يتحدى بالفصاحة ولم يستقم له الإعراب ؛ لكن أحداً لم يقلها ، مما يدل على أنهم تنبهوا إلى السرّ فى كسر الإعراب الذى يلفت به الحق كل نفس إلى استحضار الوعى بهذه القضية التى يجب أن يقف الذهن عندها : « والمقيمين الصلاة » .

لماذا ؟ لأن الصلاة تضم وتشمل العماد الأساسى فى أركان الإسلام ؛ لأن كل ركن من الأركان له مدة وله زمن وله مناط تكليف . فالشهادة بأن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله يكفى أن يقولها المسلم مرة واحدة فى العمر ، والصوم شهر فى العام وقد لا يصوم الإنسان ويأخذ برخص الإفطار إن كانت له من واقع حياته أسباب للأخذ برخص الإفطار . والزكاة يؤديها المرء كل عام أو كل زراعة إن كان لديه وعاء للزكاة . والحج قد يستطيعه الإنسان وقد لا يستطيعه . وتبقى الصلاة كركن أساسى للدين . ولذلك نجد هذا القول الكريم :

﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ ﴾

(سورة المدثر)

وأركان الإسلام - كما نعلم - خمسة وهى واضحة ، ومن الجائز ألا يستطيع المسلم إقامتها كلها بل يقيم فقط ركنين اثنين ، كالشهادة وإقامة الصلاة . وحين يقول الحق : « والمقيمين الصلاة » . يلفت كل مؤمن إلى استمرارية الودادة مع الله ؛ فهم قد يودُّون الله شهراً فى السنة بالصيام ، أو يودُّون بإيتاء الزكاة كلما جاء لهم عطاء من أرض أو من مال ، أو يودون الله فقط إن استطاعوا الذهاب إلى الحج . وبالصلاة يودُّ المؤمن ربَّه كل يوم خمس مرات ، هى - إذن - إعلان دائم للولاء

لقد قلنا : إن الصلاة جمعت كل أركان الدين ، ففيها نقول:« أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله » ، ونعلم أننا نزكى بالمال ، والمال فرع العمل ، والعمل يحتاج إلى وقت ؛ والإنسان حين يصلى يُزكى بالوقت . والإنسان حين يصلى يصوم عن كل المحللات له ؛ ففى الصلاة صيام ، ويستقبل المسلم البيت الحرام فى كل صلاة فكأنّه فى حج .

إذن فحين يكسر الحق الإعراب عند قوله : « والمقيمين الصلاة » إنما جاء ليلفتنا إلى أهمية هذه العبادة . ولذلك يقولون : هذا كسر إعراب بقصد المدح .-فهى منصوبة على الاختصاص-ويخص به الحق المقيمين الصلاة ؛ لأن إقامة الصلاة فيها دوام إعلان الولاء لله . ولا ينقطع هذا الولاء فى أى حال من أحوال المسلم ولا فى أى زمن من أزمان المسلم مادام فيه عقل .

ويقول الحق من بعد ذلك : « والمؤتون الزكاة والمؤمنون بالله واليوم الآخر » كأن كل الأعمال العبادية من أجل أن يستديم إعلان الولاء من العبد للإيمان بالله . والإيمان ـ كما نعلم ـ بين قوسين : القوس الأول : أن يؤمن الإنسان بقمة الإيمان وهو الإيمان بالله . والقوس الثانى : أن يؤمن الإنسان بالنهاية التى نصير إليها وهى اليوم الآخر . ويقول سبحانه جزاءً لهؤلاء : « أولئك سنؤتيهم أجراً عظيماً » هو أجر عظيم ؛ لأن كل واحد منهم قد شذ عن جماعته من بقية أهل الكتاب ووقف الموقف المتأبى والرافض المتمرد على تدليس غيره ، ولأنه فعل ذلك ليُبيِّن صدق القرآن فى أن الإعلام بالرسول قد سبق وجاء فى التوراة .

ومن بعد ذلك يقول الحق :

۞ إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ

وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ وَءَاتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾

ونعلم أن الحق حينما يتكلم ، يأتى بضمير التكلم . وضمير التكلم له ثلاثة أوجه ، فهو يقول مرة : « إنا » ومرة ثانية : « إننى » وثالثة يخاطب خلقه بقوله : « نحن » . وهنا يقول : « إنا أوحينا إليك كما أوحينا » . ونشاهد فى موقع آخر من القرآن الكريم قوله الحق :

﴿ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ ﴾

(من الآية ١٤ سورة طه)

وفى موضع ثالث يقول :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾

(سورة الحجر)

لأن الذكر يحتاج إلى صفات كثيرة ومتنوعة تتكاتف لتنزيل الذكر وحفظه . وحين يخاطب الله خلقه يخاطبهم بما يُجلى مواقع الصفات من الكون الذى نعيش فيه . والكون الذى نعيش فيه يمتلىء بالكائنات التى تخدم الإنسان ، وهذه الكائنات قد احتاجت إلى الكثير لتهيىء للإنسان الكون قبل أن يوجد الإنسان ، وذلك حتى يأتى إلى الكون ليجد نعم الله له ؛ فالإنسان هو الذى طرأ على كون الله .

هذا الكون الذى صار إلى إبداع كبير احتاج إلى صفات كثيرة لإعداده ، احتاج إلى علم عن الأشياء ، وإلى حكمة لوضع كل شىء فى مكانه ، ولقدرة تبرزه ، وإلى غنى بخزائنه حتى يفيض على هذا الموقع بخير يختلف عن خير الموقع الآخر ، وساعة يكون العمل مُتطلباً لمجالات صفات متعددة من صفات الحقّ ، يقول سبحانه : « إنّا » أو « نحن » . وعندمّا يأتى الحديث عن ذات الحق سبحانه وتعالى يقول : « إنى أنا الله » . ولا تأتى فى هذه الحالة « إنّا » ولا تأتى « نحن » .

والحق هنا يقول : « إنَّا أوحينا إليك » أى أنه أوحى بمنهج ليصير الإنسان سيداً فى

الكون ، يصون نفسه والكون معاً ، وصيانة الكائن والكون تقتضى علماً وحكمة وقدرة ورحمة ؛ لذلك فالوحى يحتاج إلى صفات كثيرة متآزرة صنعت الكون . ورحمة من الله بخلقه أن جعل لهم مدخلاً فيقول على سبيل المثال :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ﴾

(من الآية ٢٧ سورة فاطر)

هو الذى أنزل من السماء ماء ، وليس لأحد من خلقه أى دخل فى هذا ؛ لأن الماء إنما يتبخر دون أن يدرى الإنسان ، ولم يعرف ذلك إلا منذ قرون قليلة . وعرفنا كيف يتكون السحاب من البخار ، ثم ينزل المطر من بعد ذلك . إذن لا دخل للإنسان بهذا الأمر ؛ لذلك يقول الحق : « ألم تر أن الله أنزل من السماء ماءً » . ويأتى من بعد ذلك إنصاف الحق للخلق ، فيقول : « فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها » . ولم يقل : « فأخرجت » . بل أنصف الحق خلقه وهم المتحركون فى نعمه بالعقول التى خلقها لهم ، فسبحانه يقدر عمل الخلق من حرث وبذر ورى وذلك حتى يخرج الثمر .

إذن الأسلوب القرآنى حين يأتى بـ « إنى » يشير إلى وحدة الذات ، وحين يأتى بـ « إنَّا » يشير إلى تجمع صفات الكمال ؛ لأن كل فعل من أفعال الله يقتضى حشداً من الصفات علماً وإرادة وقدرة وحكمة وقبضاً وبسطاً وإعزازاً وإذلالاً وقهاريةً ورحمانيةً ، لذلك لا بد من ضميرالتعظيم الذى يقول فيه النحويون : إن « نحن » و« نا » للمعظم نفسه . وقد عظم الحق نفسه ؛ لأن الأمر هنا حشد صفات يتطلبها إيجاد الكون والقيام على أمر الكون . ولذلك نجد بعض العارفين الذى لمحوا جلال الله فى ذاته وجماله فى صفاته يقولون :

فسبحان رب فوق كل مظنة .٠. تعالى جلالاً أن يُحاط بذاته
إذا قال « إنى » ذاك وحدة قدسه .٠. وإن قال « إنَّا » ذاك حشد صفاته

وعندما ننظر إلى هذه المسألة ، نجد أن الحق سبحانه وتعالى أنصف خلقه لعلهم يعرفونه ، فجعل لهم إيجاد أشياء وخلق أشياء . وحين يتعرض سبحانه لأمر يكون له فيه فعل ويكون لمن أقدره سبحانه من خلقه فيه فعل ، فهو يأتى بنون التعظيم لأنه ـ سبحانه ـ هو الذى أمدهم بهذه القدرات .

وحين أوجد الحق خلقه من عدم ، جعل لخلق من خلقه إيجاداً ؛ ولكنْ هناك فرق بين إيجاد المادة ، وإيجاد ما يتركب من المادة.فقد خلق سبحانه كل شيء من عدم ، ولكن جعل لخلقه أن يخلقوا أشياء لكن ليست من عدم . وما ضنَّ سبحانه وتعالى عليهم بأن يذكرهم بلفظ الخلق فقال :

﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴾

(من الآية ١٤ سورة المؤمنون)

فكأنه سبحانه وتعالى جعل من خلقه خالقين ، لكن الخالقين من خلقه لم يخلقوا من عدم محض ، وإنما كونوا مركّباً من موجود فى مواده . فأخذوا من مواد خلقها الله فركّبوا وأوجدوا . والإنسان الذى صنع كوب الماء لم ينشىء الكوب من عدم محض وإن كانت « الكلية » فى الكوب غير موجودة فجزئيات إيجاد الكوب موجودة ، فالرمل موجود فى بيئات متعددة ، وموجود أيضاً ما يصهر الرمل ، والعقل الذى يأخذ تلك العناصر ، والفكر الذى يصنع من الرمل عجينة ، ومصمم الآلات التى تصنع هذا الكوب موجود . إذن فقد أوجد الإنسان كوباً من جزئيات موجودة . فالفارق - إذن - بين خلق الله وخلق خلق الله ؛ أن الله خلق من عدم محض ، لذلك وصف ذاته بقوله : (فتبارك الله أحسن الخالقين) .

فأنتم أيها البشر إنما تخلقون من مخلوقات الله ولم تخلقوا من غير مخلوق لله ؛ فهو سبحانه وتعالى أحسن الخالقين . وكما أنصف الحق خلقه بأن نسب لهم خلقاً ، فلا بد من أن يصف نفسه بأنه أحسن الخالقين . وأيضاً إن خلق الخلق - كما قلنا وأنا لا أزال أكررها لتستقر ثابتة فى الأذهان - يجمد الشيء على ما أوجدوه عليه ، فيخلقون الكوب ليظل كوباً فى حجمه وشكله ولونه ، ولكنهم لم يخلقوا كوباً ذكراً وكوباً أنثى ليجتمعا معاً وينشئا أكواباً صغيرة تنمو وتكبر ، ولكن الله ينفخ بسرّ الحياة فى كل شيء فيوجده ، لذلك هو أحسن الخالقين .

ولو نظرت إلى كل شيء فى الوجود لوجدت فيه سر الذات الفاعلة ، فلو نظرت إلى ذات نفسك ، لوجدت لك وسائل إدراك ، لوجدت لك سمعاً ، ولوجدت لك عيناً ، ولوجدت لك أنفاً ولمساً وذوقاً ، ولكن لبعض الآلات تحكم فى اختيارك ، فأنت حين تفتح عينيك ترى وإن لم ترد أن ترى تغمض عينيك . ولكن إذا أردت

ألا تسمع ، أتستطيع أن تجعل فى أذنك آلة تقول « لا أسمع » ؟ وأنت تفتح فمك لتأكل وتتذوق ، ولكن أنت لا تفتح أنفك لتشم . أنت تمد يدك لتلمس . وقل لى بالله أى انفعال لك أن أردت أن تضحك ؟ ما الآلة التى فى بدنك تحركها لتضحك ؟ أنت لا تعرف شيئاً إلا سبباً مثيراً يضحك ، لكنك لا تعرف ما هى الآلات التى تعمل فى جسمك لتضحك . وكذلك حينما تبكى ما هى الآلات التى تعمل فى ذاتك لتجعلك باكياً ؟ أنت لا تعرف . ولذلك جعل الله الإضحاك والإبكاء مع الإيجاد بالحياة ، والعدم بالموت جعل ذلك له سبحانه وتعالى .

﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ ﴾

(سورة النجم)

جعل الحق فى ذاتك الإنسانية أشياء تفعل ولكنك لا تعرف بأى شىء تفعل ولا بأى شىء تنفعل . والأذن ليس لها ما يسدها عن السمع ، لذلك لا يأمرك الحق بألا تسمع أى شىء ، ولكن الأثر الصالح يأمر : (لا تتسمّع إلى القيلة) .

لم يقل الأثر الصالح « لا تسمع إلى قيلة » لأن الإنسان لا يستطيع أن يصم أذنيه عما يدور حوله ، لكنه يستطيع ألا يتسمّع بألاّ يلقى بأذنيه إلى ما يقال . إذن فقد جعل الحق التكليف فى مقدور اختيارات المسلم ولذلك قال :

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ﴾

(من الآية ٦٨ سورة الأنعام)

واستخدم هنا كلمة « رأيت » لأن المسلم لا يملك شيئاً يسد به أذنيه حتى لا يسمع حديث الذين يخوضون فى آيات الله ، لكن أمر الله الذين يسمعون ذلك أن يسيروا بعيداً معرضين عن هؤلاء الخائضين . وسبحانه يوضح لنا ما خفى عنا ، وكل شىء فى الكون وإن كان ظاهره أنه « يفعل » ، لكنه فى الحقيقة هو مقهور لما ينفعل لمرادات الله بأمر الله . ولذلك يقول العارفون بالله : من جميل إحسانه إليك أن فعل ونسب إليك .

فسبحانه وتعالى الذى يفعل كل شىء ، وليس على الإنسان إلا توجيه الآلة

الفاعلة . ومن عظمة الحق سبحانه وتعالى أن الإنسان حين يكون قوياً لا يمكنه أن يعطى قوته لضعيف ، فلا أحد منا يقول لضعيف : خذ قدراً من قوتى لتساعدك على التحمل ، بينما يوضح الله للضعيف عملياً : تعال إلى أعطك من مطلق قدرتى قدراً من القوة لتفعل .

إذن القوة فى المخلوق لا يعطيها أبداً لمثله ، بل يعطى أثرها . مثال ذلك عندما لا يستطيع شخص أن يحمل شيئاً ثقيلاً ، فيأتى آخر قوىّ ليحمله عنه ، والقوى بفعله إنما يعدى أثر قوته للضعيف ، لكنه لا يستطيع أن ينقل قوته إلى ذات الضعيف ليحمل الشىء الثقيل .

والله لا يعدى أثر قوته فحسب ولكنه يمنح ويعطى قوة إلى كل ضعيف يلجأ إليه وإلى كل قوى أيضاً . وسبحانه يتفضل بالغنى والسعة لكل غنى وفقير وبرحمته إلى كل رحيم ، وبقدرته لكل قادر ، وبحكمته لكل حكيم . إذن فكل هذه مستمدات من الحق سبحانه وتعالى . هذا هو كلامنا فى « إنَّا » .

وحين يتكلم الحق قائلا : « أوحينا » فهو سبحانه يأتى بصيغة الجمع . وما الوحى ؟ قال العلماء الوحى : إعلام بخفاء ؛ لأن وسائل الإعلام شتى ، ووسائل الإعلام هى التى تنقل قولاً يقوله المبلِّغ فيعلم السامع ، أو هو إشارة يشير بها فيفهم معناها الرائى . وهذه إعلامات ليست بخفاء . بل بوضوح . وعندما يقول : « أوحينا » فهو يعنى أنه قد أعلم ، ولكن بطريق خفى . وحين تطلق كلمة « وحى » يكون لها معانٍ شتى ، فكل إعلام بخفاء وحى . لكن من الذى أوحى فى خفاء ؟ ومن الذى أوحى إليه فى خفاء ؟ وما الذى أوحى به فى خفاء ؟ نجد أن الحق سبحانه وتعالى جاء فى أجناس الوجود ، وقال عن الأرض وهى الجماد :

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝ وَقَالَ الْإِنسَانُ مَا لَهَا ۝ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۝﴾

(سورة الزلزلة)

أى أن الحق قد ضبط الأرض على مسافة زمن قيام القيامة ، فتتحدث عندئذ

ـ ولله المثل الأعلى ـ نحن نقدر العمر الافتراضي لما نصنع لينتهي في وقت محدد . إذن فقد أوحى الله للجماد وهي الأرض .

ويترك لنا سبحانه في صناعة المخلوقين ما يقرب لنا صنعة الخالق ، فعندما يريد الإنسان أن يستيقظ في الثالثة صباحاً ، وهو وقت لم يعتد فيه هذا الإنسان على الاستيقاظ ، فهو يضبط المنبه ليصدر عنه الجرس في الوقت المحدد ، كأن الإنسان بهذا الفعل قد أوحى للمنبه ، كذلك الحق صنع الأرض وأوحى لها : في الوقت المحدد ستنفجرين بحكم تكويني لك . ويوحي الحق إلى جنس الحيوان :

﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾﴾

(سورة النحل)

هذا إعلام بخفاء من الله للنحل . فقد جعل الله في تكوينها الغرزي ما يؤدي إلى ذلك . وهناك فرق بين التكوين الغرزي والتكوين الاختياري ؛ فالتكوين الغرزي يسير بنظام آلي لا يعدل عنه ، أما التكوين الاختياري فيصح أن يعدل عنه .

ومثال آخر على الآلية نجد الحاسب الآلي المسمى العقل الإلكتروني ويقوم الإنسان بتخزين المعلومات فيه ، وهذا الحاسب الآلي لا يستطيع أن يقول لواضع المعلومات فيه : لا تقل هذه الحقيقة ، ولا يستطيع أن يمتنع عن إعطاء ما فيه لمن يطلب هذه المعلومات إن كان يعرف كيفية استدعائها . فلا اختيار للحاسب الآلي .

ويختلف الوضع في العقل البشري الذي يتميز بالقدرة على انتقاء المعلومات ويعرف كيف يدلي بهذه المعلومات حسب المواقف المختلفة ، ويتحكم بوعي فيما يجب أن يُستر وفيما لا يجب ستره ، بل إن العقل البشري قد يكذب ويلون المعلومات . وهو قادر على تغيير الحقائق والتحكم فيها ، بينما الحاسب الآلي المسمى بعقل إليكتروني لا يقدر على ذلك ؛ لأنه يدلي بالمعلومات حسب ما تم « برمجته » به وتخزينه ووضعه فيه ، وهكذا يرتقي الإنسان في الفكر .

والحق سبحانه وتعالى حين خلق الخلق ، أعطى لكل كائن الغرائز التكوينية التي

تناسبه ، أعطى الإنسان القدرة على الاختيار بين البديلات ، أما بقية الكائنات فقد أخذت حكم الغريزة . والكائن الذى يسير بحكم الغريزة لا اختيار له ، ولذلك تسير كل أموره مستقيمة بناموس ثابت .

ونرى هذا الأمر بوضوح فى حكم قهر السموات والأرض والكواكب التى لا اختيار لها ؛ فهى تسير حسب القوانين التى وضعها الله لها ، وكذلك النبات . فالإنسان قد يزرع شجرة فتنمو بالتسخير القرسى الذى وضعه الله فيها ، وتمتد الشعيرات من الجذور فى باطن الأرض ؛ لتمتص ـ بتسخير الله لها ـ بعض العناصر المحددة فى التربة ، وينتفع نبات ما بمادة معينة قد لا تصلح لنبات آخر .

ويأتى علماء النبات ليعملوا فى حقل دراسات نمو النباتات ، وقد يكون بعضهم ضعيف الإيمان بالله ، أو أن قدرات الخالق لا توجد فى بؤرة شعوره دائماً . فيقول : إن النبات يتغذى حسب خاصية الأنابيب الشعرية . وخاصية الأنابيب الشعرية ـ كما نعرفها ـ هى صعود السائل إلى الأنابيب التى تكون الواحدة منها لا يزيد قطرها واتساعها على قطر الشعرة . ويصعد فيها السائل إلى ما فوق سطح الإناء . وكل سائل فى أى إناء إنما يأخذ استطراقاً واحداً . وعندما نضع الأنابيب الشعرية فى قلب هذا الإناء ، فالسائل يصعد داخل هذه الأنابيب فوق مستوى الإناء ؛ لأن الضغط الجوى داخل الأنابيب يختلف بالنسبة لحجم المياه عنها فى داخل الإناء . وظن العلماء أن النبات يتغذى بهذه الطريقة .

ونقول لهؤلاء : كيف هذا والنبات يختار عناصر معينة من السائل ؛ بينما الأنابيب الشعرية يصعد فيها الماء بكل العناصر الموجودة فى الماء ؟ . إنك أيها العالم الذى غاب الله عن بؤرة شعورك قد تدعى أن الطبيعة هى التى تفعل ذلك ، ولا تلتفت إلى حقيقة واضحة وهى أن النبات ينتقى بالتسخير الربانى الخاص بعضاً من العناصر الموجودة فى التربة ، لا بخاصية الأنابيب الشعرية .

وصدق القول الحق :

﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣﴾

(سورة الأعلى)

فسبحانه الذى قدر فهدى كل شىء إلى احتياجاته . ويقول الحق أيضاً :

﴿ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾

(من الآية ٤ سورة الرعد)

إذن فسبحانه يوحى لكل نبات بخاصية تكوين غريزى تختلف عن النبات الآخر ؛ لذلك نجد الفلاح يضع شجرة الفلفل بجانب عود القصب ، بجانب شجرة الرمان ، فنجد الفلفل يخرج وله مذاق حريف ، والقصب له مذاق حلو ، والرمان له مذاق فيه الحلاوة والحموضة ، إنه مختلف عن القصب وعن الفلفل ، وهذا الاختلاف لم يتم بخاصية الأنابيب الشعرية . ويقول آخر : هذا الاختلاف إنما حدث بظاهرة الانتخاب الطبيعى . ونقول : لماذا لا تقول الانتخاب الإلهى وتستريح ؟ .

إذن فالوحى هو إعلام بخفاء ، وقد يكون مطموراً فى تكوين الشىء بحيث إذا جاء وقته ينفعل ، تماماً مثلما يدق جرس المنبه فى الميعاد المحدد . والوحى إلى الحيوان يتحدد فى قوله الحق :

﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾

(سورة النحل)

ومن العجيب أن العالم الأمريكى الذى رصد حياته لدراسة النحل فى أطواره وأصنافه وأجناسه وبيئاته ، قال : أول إنتاج للنحل كان فى الجبال وأقدم عسل وجده الإنسان للنحل كان فى الخلايا التى عثر عليها فى الجبال . وبعد ذلك وجد الإنسان النحل وعسله فى الشجر العالى الذى لا يملكه ، ثم استأنس الإنسان النحل وأقام له البساتين والبيوت والخلايا ومما يعرشون . ولم يقرأ هذا العالم القرآن ليعرف المراحل الثلاث التى جاءت به ، لكنه درس بصدق البحث التجريبى ، وخرج بالنتيجة نفسها التى جاء بها القرآن . وفى كل وقت وزمان نجد عالماً من الكافرين يكتشف أشياء تؤيد وتؤكد قضية الإيمان عند المؤمنين . أما الوحى بالنسبة للإنسان فيأخذ أشكالاً أخرى ، يقول الحق :

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ ﴾

(من الآية ٧ سورة القصص)

ولم يأت إلى أم موسى رسول يُوحى إليها . لكن الأمر قد استقر فى ذهنها ، وقد تعب العلماء كثيراً ليقربوا معنى الوحى لأذهاننا ، فقالوا عنه : إنه عرفان يجده الإنسان فى نفسه ولا يعرف مصدره ، ومع هذا العرفان دليل أنه من الله . ولذلك لا يطلب العقل عليه دليلاً . والذى يصّدق على هذا هو أننا سمعنا قول الحق : « وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه فى اليم » .

وبالله عليكم ، اجمعوا الدنيا كلها وقولوا لامرأة : إن خفت على ابنك فألقيه فى البحر ، هل تصدق الأم ذلك ؟! لا يمكن ، لكن أم موسى أخذت هذا الأمر كقضية مسلم بها ، فساعة دخل الإيحاء من الله إلى قلبها ، أو الإعلام بخفاء إلى وجدانها آمنت به ، ومادام الإعلام من الله فلا شيطان يزاحمه ، بل يدخل إلى النفس فتستقبله استقبال اليقين والإيمان بلا مناقشة . وألقت أم موسى بابنها بعد أن أرضعته . وأراد الله أن يطمئنها . فأوضح لها : أنا أصدرت الأمر إلى البحر ليلقى الرضيع إلى الساحل . وأصدرت الأوامر ليلتقطه العدو فرعون . وأصدرت الأوامر أن يقوم بيت فرعون بتربيته .

وبعد ذلك هناك وحى للحواريين . يقول الله :

﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾ ﴾

(سورة المائدة)

وهناك وحى للملائكة كقول الحق :

﴿ إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ ﴾

(من الآية ١٢ سورة الأنفال)

الوحى ينتظم ويشمل - إذن - كل أجناس الوجود بطريقة خفية عند عالم خفى

عنا ، وهم الملائكة ، وعالم ملحوظ لنا ولأمثالنا مثل الحواريين ، ومثل أم موسى .

وساعة يقول : « أوحينا » ينبهنا إلى أن الإعلام بخفاء أمر غير مقصور على الله ؛ ذلك أن الشياطين يوحون إلى أوليائهم :

﴿ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾

(من الآية ١٢١ سورة الأنعام)

ويقول أيضاً عن الشياطين :

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

إذن الوحى هو إعلام بخفاء ، وليس الأمر مقصوراً على الحق سبحانه وتعالى ، بل يصح أن يكون الوحى من الله ، أو من الشياطين ، أو من جنود الشياطين .

وقد يكون الوحى إلى الجماد وإلى الحيوان وإلى الملائكة وإلى الإنسان .

وعندما نحدد معنى الوحى فإننا نقول :

الوحى فى اللغة إعلام بخفاء من أىّ ـ سواء أكان من الله أم من الشياطين ـ ولأىّ ما ـ سواء للأرض أو للحيوان أو للإنسان ـ وفى أىّ ـ سواء فى خير أو شر ـ.

وكلمة « وحى » تصلح لأى معنى من هذه المعانى بحيث إذا أطلقت انصرفت إليه . ولكن هى بالمعنى الشرعى لا تطلق إلاّ على الإعلام بخفاء من الله لرسوله ، ومثل ذلك حدث لمعنى الصلاة ، فالصلاة معناها اللغوى الدعاء ، وهناك الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم ، والصلاة المكتوبة هى الأقوال والأفعال ، وأخذ

الشرع معنى الصلاة واصطلح على أن كلمة الصلاة حين يطلقها الفقيه تنصرف إلى الأقوال والأفعال المخصوصة المبتدأة بالتكبير والمختتمة بالتسليم .

وفى هذا المعنى الشامل للصلاة نجد سيدنا عمر ـ رضى الله عنه ـ وقد دخل عليه حذيفة فسأله : كيف أصبحت ؟ . أجاب حذيفة : أصبحت أحب الفتنة وأكره الحق وأصلى بغير وضوء ولى فى الأرض ما ليس لله فى السماء . وغضب سيدنا عمر ، ولولا دخول سيدنا على بن أبى طالب لكان لسيدنا عمر شأن آخر مع حذيفة .

وسأل علىٌّ عمر : ما يغضبك يا أمير المؤمنين ؟ . قال عمر : سألت حذيفة كيف أصبحت فقال كذا وكذا . فقال على ـ كرم الله وجهه ـ : نعم يا أمير المؤمنين ، أصبح يحب الفتنة ، أى يحب ماله وولده ، فالحق قال : « إنما أموالكم وأولادكم فتنة » ، وهو يكره الموت والموت حق ومن فينا يحبه يا أمير المؤمنين ؟ وهو يصلى بغير وضوء على النبى صلى الله عليه وسلم ، وله فى الأرض زوجة وله ولد وهو ما ليس لله فى السماء .

إذن فقد أخذ حذيفة الفتنة على معنى مخصوص ، وكذلك الموت ، والصلاة . وضربت هذا المثل لأفرق بين المعانى الشرعية والمعانى اللغوية .

ونوضح الفارق بين معنى الوحى الاصطلاحى والمعنى اللغوى ، المعنى اللغوى للوحى هو : إعلام بخفاء من أىّ لأىّ بأى . والوحى بمعناه الشرعى : إعلام بخفاء من الله لرسوله . وكل الألوان الأخرى من الوحى نأخذها بالمعنى اللغوى .

وقوله الحق هنا فى الآية التى نحن بصددها : « إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح » . و« أوحينا » هنا قد جاءت للإعلام بخفاء من الله لرسول من رسله . ونعلم أن صفات الكمال للحق سبحانه وتعالى هى صفات الكمال المطلق . وكل الخلق مقدورون لقدرته سبحانه . ولا يمكن لأحد أن يتصل اتصالاً مباشراً بالأعلى المطلق . ولا يستطيع أحد أن يتحمل ذلك حتى الرسول . ولذلك يأتى الحق بنورانيِّين من الملائكة ليأخذوا منه ليعطوا للرسول . ويسبق ذلك إعداد الرسول لهذه المهمة .

إذن فالمسألة تمر بمراحل تصفية ، الأعلى يعطى للملائكة ، والملائكة يعطون للمصطفى من الخلق ، والمصطفى مصنوع على عين الله ليتلقى الوحى ، ومن بعد ذلك يعطى الرسول لغيره من البشر . وكل ذلك لتقريب مسافات الالتقاء . وعلى رغم تقريب مسافات الالتقاء تحصل الهزة من آخر مرحلة حين يستقبل من أدنى مرحلة ، فحين يستقبل الرسول الوحى من ملك تحدث له هِزّة . والرسول صلى الله عليه وسلم يقول عن أول لقاء له مع الوحى :

(حتى جاءه الحق وهو فى غار حراء فجاءه الملك فقال : اقرأ . قال : ما أنا بقارىء قال : فأخذنى فغطنى حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى . فقال : اقرأ فقلت : ما أنا بقارىء فأخذنى فغطنى الثانية حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى . فقال : اقرأ فقلت : ما أنا بقارىء فأخذنى فغطنى الثالثة ثم أرسلنى . فقال : اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق اقرأ وربّك الأكرم)[١] .

وكان جبينه يتفصد عرقاً ، ورجف فؤاده ودخل على زوجه خديجة بنت خويلد فقال : « زملونى زملونى » فزملوه حتى ذهب عنه الرَّوْع . وكان ذلك أمراً طبيعياً ؛ فهذا الملك جبريل متصل ببشر هو محمد بن عبدالله ولا بد أن يحدث ذلك للرسول ، وذلك حتى يتكيف ليستقبل من المَلَك .

لكن أتظل هذه الرجفة المتعبة ؟ . لا ، إن الوحى يَفتر لفترة وتذهب عنه متاعبه فيشتاق الرسول إليه ويصير قادراً على تحمل متاعبه ، مثل تفصد الجبين بالعرق ، ومثل الثقل فى الحركة حتى إذا جاءه الوحى وهو على دابة فهى تئط وتئن ، وإن جاءه الوحى وهو جالس وفخذه على فخذ واحد من الصحابة ، فيكاد ثقل الرسول يرض عظام الرجلِ ويكسرها ، كل ذلك من المتاعب تحدث للرسول فى أثناء الوحى ؛ لأن تغييراً كيماوياً يحدث فى بدنه صلى الله عليه وسلم ليتأكد أن الكلام الذى يتلقاه ليس كلاماً عادياً ، لكنه كلام قد جاء بإعجاز ، وأنه من عند الله .

---

(١) رواه البخارى من حديث عائشة أم المؤمنين .

راجع أصله وخرج أحاديثه الدكتور أحمد عمر هاشم نائب رئيس جامعة الأزهر .

لقد كان للوحى صلصلة كصلصلة الجرس . وكأن هذا الصوت إعلان أن زمن وساعة الوحى قد جاءت فاستعد لها يا رسول الله . وعندما تعب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى البداية ، كان من رحمة الله به أن جعل الوحى يفتر عنه ، فيشتاق صلى الله عليه وسلم للوحى بسبب حلاوة ما أوحى إليه ، ويجعله هذا الشوق مستشرفاً للمتاعب . وعندما فتر الوحى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال خصومه : رب محمد ودعه وجَفاه . ولم يتذكروا أن لمحمد رباً إلاّ فى هذه المسألة بعد أن اتهموه بالكذب ولم يمتلكوا الذكاء حتى يعبروا عن هذا الأمر بتعبير لا يتناقض مع موقفهم السابق منه . وحين رأى الحق الإجهاد الحاصل لرسوله جعل الوحى يفتر ، حتى تبقى حلاوة ما يوحَى به ويذهب التعب ويشتاق رسول الله إلى ما يُوحى إليه .

إن الشوق وتلك المحبة يجعلان رسول الله لا يشعر بوطأة الألم المادى البشرى ، والإنسان منا حين يذهب إلى حبيب له يسير فى الشوك والوحل ولا يبالى . إذن ففتور الوحى كان لتربية الشوق فى نفسه صلى الله عليه وسلم ليستقبل الوحى ، ولينتبه كل منا حين يقرأ قول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ﴿٤﴾ ﴾

(سورة الضحى)

أى أن ما سيأتى لك من بعد ذلك سيسرك . ويقول الحق بعدها :

﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾ ﴾

(سورة الشرح)

وحين عرض الحق هذه المسألة بهذه الكيفية أراد أن يبلغنا : لا تظنوا أن رب محمد ـ كما يقولون ـ قد جفاه ، لا ، بل يعده ليستقبل أكثر مما جاء من قبل ، فسنن الكون أمامكم ، لكن كفرهم أعمى أبصارهم وبصيرتهم ، ويقول سبحانه :

﴿ وَٱلضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾ ﴾

(سورة الضحى)

وسبحانه يقسم بما شاء على ما شاء . والضحى هو ضحوة النهار وهى محل الحركة

والكدح والجهد والجد والتعب ، والليل محل الراحة والسكون .

كأن الحق يوضح : إنكم إن نظرتم فى آية الكون لوجدتم أن الله قد جعل الضحى للكدح والليل لنسكن فيه ، وفتور الوحى هو سكون ليعاود محمد نشاطه فى حركة الوحى الجديدة ، هو الحق ـ سبحانه ـ يقسم : « والضحى . والليل إذا سجى . ما ودعك ربك وما قلى » أمجىء الليل بعد النهار ضن من الله على الناس بالنهار ؟ لا ، إنما الليل عطاء من الله ليسكنوا وليستقبلوا النهار الجديد .

وأنزل سبحانه الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها حينما سأل اليهود النبى صلى الله عليه وسلم أن ينزل عليهم كتاباً من السماء : (يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً من السماء فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة) .

فيأمره الحق أن يوضح : أنا قد أوحى الله إلىّ كما أوحى إلى الرسل السابقين ، فهل أنتم شككتم فى وحى الله لموسى ؟ أشككتم فى وحى الله لمن سبق موسى ؟ صحيح أنكم شككتم فى مسألة عيسى ، لكن لنضع الأمر الذى تكذبون فيه جانباً ولنأخذ ما أنتم مصدقون به ، فيقول سبحانه : « إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده » .

إذن فأنت يا محمد لست بدعاً فى هذه المسألة : « إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده » ويمر العلماء على هذه المسألة مروراً سريعاً ، لكننا نقف عندها ونقول : قد يوحى هذا القول أن أول وحى كان لنوح . والحقيقة أن الوحى الأول كان لآدم من قبل ، لكنْ هناك فارق بين الوحى لآدم والوحى للأنبياء من بعده .

ومثال ذلك نوح ، فنوح طرأ على أمته وكانت أمته موجودة ثم جاء هو إلى هذه الأمة مبشراً ونذيراً . أما آدم عليه السلام فقد طرأت عليه أمته ، لذلك لم يرسله الله بمعجزة ، فهو أب للجميع . والأبناء يقلدون الآباء ، بل حتى أبناء الملاحدة يقلدون آباءهم . وقد أوحى الله لآدم وقال له : (فإما يأتينكم منى هدى فمَن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون) وإرسال الهدى لآدم هو مجىء الوحى إليه .

ولماذا جاء نوح فى هذه الآية أولاً ؟ لأن نوحاً عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام قد

طرأ على أمته ؛ لذلك احتاج إلى وحى وإلى معجزة . وأرسل الله نوحاً إلى الناس كافة ؛ لعموم الموضوع ، فلم يكن هناك من البشر غيرهم . لكنّ محمداً صلى الله عليه وسلم أرسله الله للناس كافة ؛ لأن الإسلام هو الدين الخاتم . وكان قوم محمد موجودين . وكذلك كان غيرهم موجوداً .

« إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده وأوحينا إلى إبراهيم » . لماذا قال الحق : « والنبيين من بعده » أى من بعد نوح ؟، ولماذا قال : « وأوحينا إلى إبراهيم » وذكر أسماء الأنبياء من بعد إبراهيم ؟

يقول العلماء : هنا عطف خاص على عام لزيادة التنبيه على شرف هؤلاء ، « وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبوراً » ، وكأن الحق يقول : حين يسألك اليهود ـ يا محمد ـ أن تنزل عليهم كتابا من السماء قل لهم : إن الله أوحى إلىّ كما أوحى إلى الأنبياء السابقين ؛ فلست بدعا من الرسل . وحتى لو أنزل إليهم محمد كتاباً فى قرطاس ولمسوه بأيديهم لقالوا : هذا سحر مبين ، كما قال :

﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَـٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

فالمنْكِر يريد الإصرار على الإنكار فقط . وليست المسألة جدلاً فى حق وإنما هى لَجَاج فى باطل .

ويتابع سبحانه وتعالى أسماء الأنبياء الذين أوحى الله إليهم : « وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبوراً » ونلحظ أنه جل وعلا ذكر الوحى عاماً ؛ لكنه حينما جاء لداود ذكر اسمَ كتابِه « الزبور » ولم يأت فى الآية بأسماء الكتب المنزلة على الرسل السابقين مثل نزول التوراة على موسى ، والإنجيل على عيسى ؛ لأن ما جاء به داود فى الزبور أمر تُجمع عليه كل الشرائع ، وهو تحميد الله والثناء عليه فلم توجد فى الزبور أية أحكام .

وقد يقول قائل : إن عيسى أيضاً لم تنزل عليه أحكام فى الإنجيل . ونقول : لأن الإنجيل يلتحم بالتوراة ؛ وجاء بالوجدانيات الدينية وكانت التوراة موجودة قبله وفيها الأحكام . ولذلك فمن عجيب أمر أهل الكتاب من يهود ونصارى ، أنهم على رغم اختلافهم فى قمة الأمور وهى مسألة عيسى وأم عيسى ، جاءوا آخر الأمر ليلتقوا ويسموا الكتابين « العهد القديم والعهد الجديد » ويَعْتبروهما كتاباً واحداً يسمونه الكتاب المقدس .

وما معنى « الزبور » ؟ المادة كلها مأخوذة من « زَبَرَ البئر » ، فعندما يقوم الناس بحفر بئر ليأخذوا منها الماء ، يخافون أن ينهال التراب من جوانبها عليه فتطمر البئر ؛ لذلك يصنعون لجدران البئر بطانة من الحجارة ، وفى الريف المصرى نجد أنهم يصنعون تلك البطانة من الأسمنت .

وكلمة « زَبَرَ البئر » تؤدى معنى كل عملية لإصلاح البئر ؛ ثم أخذ الناس هذه الكلمة فى معانٍ مختلفة ، فسموا العقل « زَبْرًا » لأنه يعقل الأمور . وإذا كان السياج من الحجارة يعقل التراب عن البئر ويمنعه ، فكذلك العقل يحمى الإنسان من الشطط وليضبط الإنسان حريته فى إطار مسئوليته ليفكر ، ويعقل الغرائز عن الفكاك بالإنسان إلى الشتات والضلال . ويخطىء الناس فى بعض الأحيان فى فهم معنى « العقل » ؛ ويظنون أن العقل هو إطلاق الحبل على الغارب للأفكار دون انتظام أو مسئولية ، ونقول : افهموا أولاً معنى كلمة العقل حتى تعرفوا مهمته .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ ﴾

والرسل الذين ذكرهم الله فى الآية السابقة ليسوا كل الرسل الذين يجب الإيمان

بهم تفصيلا فحسب ، فكما علمونا فى الأزهر الشريف يجب أن نؤمن بخمسة وعشرين رسولا وقد نظمهم بعض الشعراء فى قوله :

فى تلك حجتنا منهم ثمانية
من بعد عشر ويبقى سبعة وهمو
إدريس ، هود ، شعيب ، صالح ، وكذا
ذو الكفل ، آدم ، بالمختار قد ختموا

وفى سورة الأنعام نجد قوله الحق :

﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

وفى هذه الآيات ثمانية عشر رسولاً ، وبالإضافة إلى سبعة هم إدريس وهود وشعيب وصالح وذو الكفل وآدم ومحمد صلى الله عليه وسلم ، هم إذن خمسةوعشرون رسولاً ذكرهم الله ، لكن الآية التى تسبق الآية التى نحن بصددها لم يذكر الله كل أسماء الرسل . وذكر أسماء بعض الرسل فى سورة الأنعام وبعضهم فى سورة هود وبعضهم فى سورة الشعراء . ويقول الحق :

﴿ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ ﴾

(سورة النساء)

أى أن الخمسة والعشرين رسولاً ليسوا كل الرسل الذين أرسلهم الحق إلى الخلق ، فقد قال :

﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾

(من الآية ٢٤ سورة فاطر)

أى أنه قد قص علينا أعلام الرسل الذين كانت أممهم لها كثافة أو حيّز واسع أو لرسلهم معهم عمل كثيف ، ولكن هناك بعض الرسل أرسلهم سبحانه إلى مائة ألف أو يزيدون مثل يونس عليه السلام :

﴿ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ ﴾

(سورة الصافات)

وكان العالم قديماً فى انعزالية . ولم يكن يملك من وسائل الالتقاء ما يجعل الأمم تندمج . وكان لكل بيئة داءاتها ، ولكل بيئة طابع مميز فى السلوك ، ولذلك أرسل الله رسولاً إلى كل بيئة ليعالج هذه الداءات ، ولا يذكر الداءات الأخرى حتى لا تنتقل من مجتمع إلى مجتمع آخر بالأسوة . وحين علم الحق بعلمه الأزلى أن خلقه بما أقدرهم هو سبحانه على الفكر والإنتاج والبحث فى أسرار الكون سيبتكرون وسائل الالتقاء ؛ ليصير العالم وحدة واحدة ، وأن الشيء يحدث فى الشرق فيعلمه الغرب فى اللحظة نفسها ، وأن الداءات ستصبح فى العالم كله داءات واحدة ؛ لذلك كان ولابد أن يوجد الرسول الذى يعالج الداءات المجتمعة ، فكان صلى الله عليه وسلم الرسول الخاتم والرسول الجامع والرسول المانع .

﴿ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ ﴾

(سورة النساء)

ويتكلم الحق سبحانه عن تاريخ النبوات مع قومهم بكلمة « قصصنا » ولذلك حكمة ، فالقصص معناه أنه لا عمل فى الأحداث للرسول ، بل تأتى الأحداث فى السياق كما وقعت . وسبحانه يعلم أزلاً أن خلقه سيبتكرون فناً اسمه « فن القصص » .

ومن العجيب أنهم يسمونه فن القصص ، وينسج المؤلفون حكايات خيالية أو حكايات ليس لها واقع . وعندما يأتون إلى التاريخ الواقع يزيد المؤلف جزءا من الأحداث أو يضيف من خياله أشياء ، ويقولون هذه متطلبات إتقان فن القص ،

ويحرمون أنفسهم من أمانة النقل . ولذلك يأتى الحق ليوضح لنا أن القص الخاص بالرسل وبغيرهم فى القرآن قصص واقعى ، حقيقى ، حدث فعلاً .

وكلمة « القصص » مأخوذة من قص الأثر أى أن نسير مع القدم كما تَذهب ، فلا نذهب هنا ولا نذهب هناك . وحكايات الأنبياء فى القرآن واقعية . ومن رواية الحق لا من رواية الخلق ، وثمة فارق بين ما يرويه الحق لخلقه ليسيروا على المنهج . وما يرويه الخلق بعضهم لبعض للتسلية أو غير ذلك . ونجد روايات الخلق تزدحم فى بعض الأحيان بخيال البشر ، مثل روايات جورجى زيدان عن الإسلام والأنبياء ، وعندما سألوه لماذا أضاف من عنده إلى الواقع ، أجاب الإجابة التقليدية : فعلت ذلك من أجل الحبكة القصصية .

ويجب أن نميز ونفرق بين روايات الخلق وقصص الحق ونضعه فى بؤرة الشعور حتى لا يُدخل أحد من خياله على قصص القرآن ما ليس فيه ، وحتى لا يأتى واحد ذات يوم ويقول : إن كل القصص واحد . فنحن فى القرآن لسنا أمام مؤلف ، بل أمام الخالق الأعلى الذى يروى لنا ما يعلمنا . وسبحانه علم أزلاً ما سيدور فى كونه ، لذلك قال :

﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَـٰفِلِينَ ﴿٣﴾ ﴾

(سورة يوسف)

وسبحانه قد قص على الرسول صلى الله عليه وسلم فى القرآن أحسن القصص ؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم سيعالج أجناس العالم التى توزعت على جميع الرسل من إخوانه ، ومادام عمل رسول الله صلى الله عليه وسلم سيكون مع كل الأجناس البشرية الذين تفرقوا من قبل على الرسل من إخوانه ، فلا بد أن يوضح سبحانه للرسول صلى الله عليه وسلم ولأمته من بعده : أنّه حدث مع الرسول فلان كذا ، وكان مبعوثاً إلى قوم كان موقفهم منه كذا ، وكانت دأءات ذلك المجتمع هى كذا وكذا . ومحمد صلى الله عليه وسلم ـ كما نعلم ـ مَوْكولٌ إليه علاج كل أجناس البشر وكذلك أمته من بعده ، ولابد أن يعرفوا أخبار كُل المجتمعات والرسل : (نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين) .

إذن فكلمة « قصص » تدل على أنها حكايات لحركة العقيدة التى كانت مع كل الرسل . والتاريخ ـ كما نعلم ـ هو ربط الأحداث بأزمانها ، فمرة نجعل الحدث هو المؤرِّخ له ، ثم نأتى بأشخاص كثيرين يدورون حول الحدث . ومرة نجعل الشخص هو الأصل والأحداث تدور حوله ، فإذا قلنا كلمة « سيرة » فنعنى أننا جعلنا الشخص هو محور الكلام ؛ ثم تدور الأحداث حوله . وإن أرخنا للحدث ، نجعل الحدث هو الأصل ، والأشخاص تدور حوله .

مثال ذلك : عندما نأتى لنتكلم عن حدث الهجرة ؛ نجعل هذا الحدث هو المحور ، ونروى كيف هاجر رسول الله ومعه أبو بكر ، وكيف هاجر عمر بن الخطاب وغيره من الصحابة ، وبذلك تكون الهجرة هى المحور وكيف دار الأشخاص حول هذا الحدث الجليل .

ومثال آخر : عندما نروى سيرة من السير ، مثل سيرة النبى صلى الله عليه وسلم ، نجعل النبى صلى الله عليه وسلم محور الحديث والتاريخ ، ونروى كيف دارت الأحداث فى حياته .

إذن فأخبار وقصص الرسل تكون هى المحور ونلتقط الأحداث التى مرت عليهم ؛ لأن الرسالات حين تأتى النّاسَ بمنهج السماء ؛ تنقسم إلى قسمين : قسم نظرى يريد الحق أن يعلمه لخلقه بواسطة الرسول ، وهو القسم العلمى ، فتلك قضايا يجب أن يعلموها . وقسم عملى ؛ لأن الحق يريد من خلقه أن يعلموا ويريد منهم ـ أيضا ـ بعد أن يعلموا أن يطوعوا حركة حياتهم على ضوء ما علموا . فليست المسألة رفاهية علم ، ولكنها مسئولية تطبيق ما علموا فى محور « افعل » و« لا تفعل » . ولو كانت المسألة أن يعلم الخلق فقط ، لكان من الممكن أن نقول : ما أيسرها من رحلة .

لقد وجدنا كفار قريش عندما طلب الرسول منهم أن يشهدوا أن لا إله إلا الله ، قاوموا ذلك . ولو كانوا يعلمون أنها مجرد كلمة تقال لقالوها . لكنهم عرفوا مطلوب الكلمة ، وعرفوا أنه لن توجد سيادة ولا عبودية ولا أوامر لأحد غير الله ، ومعنى ذلك المساواة المطلقة بين العباد .

إذن فكل تكليف من السماء إنما نزل ، والقصد من العلم به هو العمل به ، أى توظيف العلم تطبيقاً ، فلا قيمة لعلم دون عمل . وعندما يبلغ الرسول القوم : هذا هو الحكم ، ومطلوب من كل واحد منكم أن يطوّع حركة حياته على ضوء هذا الحكم . وتجىء الأحكام دائماً فى طاقة البشر .

وهناك أناس قد علموا وعملوا وهذه هى قصصهم ، هذه قصة فلان وقصة فلان . فالقصص يعطينا الجانب العملى المطلوب للمنهج ، ولذلك قصَّ لنا الحق قصص الرسل فى القرآن . ويبلغنا الحق بالنسب الإيمانى ، ويعلمنا النسب المعترف به عند الأنبياء ، فيحكى قصة نوح عليه السلام ، عندما أوْحى إليه بضرورة أن يصنع السفينة ، وسَخِر قومُه منه ، وبعد أن صنعها جاءه الأمر الإلهى بأن يحمل فيها من كل زوجين اثنين . ويقول الحق :

﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُواْ مِنْهُۚ قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾﴾

(سورة هود)

قوله الحق « إلا من سبق عليه القول » كان يجب ألا تمر على فطنة نوح ؛ ذلك لأنها تتضمن أن هناك أناساً من أهله لن يؤمنوا ، فيقول لابنه :

﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾

(من الآية ٤٢ سورة هود)

وكان الرد :

﴿قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ﴾

(من الآية ٤٣ سورة هود)

فقال نوح :

﴿ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ﴾

(من الآية ٤٣ سورة هود)

وبعد أن غرق ابن نوح وابتلعت الأرض ماءها ، نادى نوح ربه فقال :

﴿ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾

(من الآية ٤٥ سورة هود)

نحن ـ إذن ـ أمام لقطة قصصية فى قصة نوح . يلفتنا بها الحق إلى مسألة بنوة الرسالات ، فالبنوة هنا منهجية . ومن يتبع النبى هو الذى يكون من نسبه . ومن لا يتبع النبى فليس من نسبة ؛ لذلك قال الحق : (يا نوح إنه ليس من أهلك) . فأهل النبوة هم الذين اتبعوا منهج النبى . ويشرحها لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حينما قال عن سلمان الفارسى :

(سلمان منا أهل البيت)[1] .

ولم يقل : إن سلمان عربى ، أو إنّه من المسلمين ، لكنه قال : إنه من أهل البيت . وقد أوضح الحق ذلك فى قصة ابن نوح : (إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح) .

وخاض فى معنى « ليس من أهلك » بعض الخائضين باللغو وقالوا : إن أم ابن نوح قد فعلت السوء ، ولهؤلاء نقول : استغفروا ربكم وانظروا إلى حيثية الحكم :

﴿ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ﴾

(من الآية ٤٦ سورة هود)

إذن فنسبة الأبناء للآباء من الأنبياء نسبة عمل لا نسبة دم ولا نسبة عن زواج أو إنجاب ، أما الذين قالوا السوء فى امرأة نوح فعليهم أن يستغفروا الله ، فالحق

(١) رواه الحاكم فى المستدرك . والطبرانى فى الكبير عن عمرو بن عوف .

سبحانه منزه عن التدليس على رسوله . وهب أن أم الولد قد فعلت ذلك ـ معاذالله ـ فما ذنب الولد حين تصير أمه إلى هذا ؟ لا دخل للولد بذلك ، لكن قول الله : « إنه عمل غير صالح » يدل على أن ثبوت البنوة الإيمانية يكون بالعمل فقط .

ولننظر إلى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم لأهله وعشيرته . . فعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال : لما نزلت (وأنذر عشيرتك الأقربين ، جعل النبي صلى الله عليه وسلم يدعو بطون قريش بطنا بطنا : يا بني فلان أنقذوا أنفسكم من النار حتى انتهى إلى فاطمة فقال : يا فاطمة ابنة محمد انقذى نفسك من النار لا أملك لكم من الله شيئا غير أن لكم رحمًا سأبلها ببلالها)[1] .

ويضرب الله المثل في الزوجات ؛ فيقول :

﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾ ﴾

(سورة التحريم)

وليس المقصود بالخيانة هنا الخيانة الجنسية ؛ لكن لنستدل على أن الرسول وإن كان رسولاً ليس له من القدرة على أن يقهر زوجه وامرأته على عقيدة ؛ فهي تملك حرية الاعتقاد ؛ فلا ولاية هنا للرجل على المرأة في العقيدة حتى إن ادعى الألوهية ؛ كفرعون مثلاً يقول الحق عن امرأته :

﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾ ﴾

(سورة التحريم)

هذه اللقطات تدلنا على أن قضية الإيمان لا ينفع فيها النسب أو الزواج . فالابن هو العمل الصالح ، والحيثية في ذلك قول الحق عن ابن نوح : « إنه عمل غير صالح » فلم يذكر ذات الابن ولكنه ذكر العمل .

ولكل نبي قصة يذكرها الحق ليتضح المنهج في أذهان الناس . ويأتي الله بالمثل في

---

(١) رواه الإمام أحمد . ورواه مسلم في الإيمان ، والبخاري في الأدب والترمذي في التفسير والنسائي في الوصايا .

المصطفَيْنَ الأخيار الذين اصطفاهم الله لهداية الناس مثل قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام . الذى يبتليه ـ سبحانه ـ فى أول حياته بالإحراق فى النار . كان إبراهيم شاباً يمتلىء بالأمل فى الحياة ، فماذا كان من إبراهيم ؟

أراد الحق نجاة إبراهيم من النار . وتركهم يتمكنون منه ويضعونه فى قلب النار . ولم تمطر السماء لتطفىء النار ، وكل ذلك لتكون حجة الحق واضحة ، وحتى يكون كيد الله كاملاً لهؤلاء الكافرين . إن إبراهيم عليه السلام لم يهرب منهم ، ولم تمطر السماء ، بل ظلت النار ناراً ويعطل سبحانه ناموس النار حين دخول إبراهيم إليها .

(روى عن أبى بن كعب عن النبى صلى الله عليه وسلم أن إبراهيم حين قيدوه ليلقوه فى النار قال : لا إله إلا أنت سبحانك رب العالمين ، لك الحمد ولك الملك لا شريك لك . قال : ثم رموا به فى المنجنيق من مضرب شاسع فاستقبله جبريل فقال : يا إبراهيم ألك حاجة ؟ قال : أما إليك فلا . فقال جبريل فاسأل ربك . فقال : حسبى من سؤالى علمه بحالى. فقال الله : يا نار كونى برداً وسلاماً على إبراهيم)[1] .

وفى هذا غيظ ودحض لمكر الذين مكروا بإبراهيم . إذن يعطينا الحق فى القصص القرآنى المثل لنجمع من حياة كل رسول العبر ونستفيد منها ، لنكون بحق خير أمة أخرجت للناس ؛ لأننا أخذنا تجارب كل رسول وجعلناها منهجاً لنا فى حياتنا .

وقد ابتلى الحق إبراهيم فى أول حياته فى نفسه ، وابتلاه فى أخريات حياته فى ابنه ، ونجح إبراهيم فى الابتلاء الأول حين كانت حياته أهم بالنسبة إليه من كل شىء ، وحين يتقدم فى السن ، فمن المفروض أن تكون كل حياته لمن بعده من الأبناء فيبتليه الله فى ابنه . لم يقل له : إن ابنك سيموت وعليك بالصبر . ولم يقل له : إن واحداً سيقتل ابنك وعليك بالصبر ؛ بل يأمره بذبح ابنه ، تلك قمة الابتلاء . لأنه لم يأت بوحى مباشر كالنفث فى القلب أو الكلام من وراء حجاب أو يرسل له الله ملكا يبلغه ما يريد ، بل برؤيا منامية : (قال يا بنى إنى أرى فى المنام أنى

---

(١) تفسير القرطبى وذكر نحوه ابن كثير فى تفسيره والزمخشرى فى الكشاف .

أذبحك) . ويقول إبراهيم لابنه المسألة كما رآها فى المنام . والرؤيا عند الأنبياء حق .

وقد يقول قائل : ولماذا لم يرد إسماعيل على أبيه بأن هذه المسألة هى مجرد رؤيا ؟ ولماذا لم يأخذ إبراهيم ولده على غرة دون أن يقول له ؟.

ونقول : إن إبراهيم من فرط وشدة حنانه وحبه لابنه آثر أن ينال الابن الثواب العظيم والجزاء الجليل بأن يقتل ويقدم حياته امتثالا لأمر الله ، فقال إبراهيم :

﴿ يَـٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ﴾

(من الآية ١٠٢ سورة الصافات)

وها هوذا قول إسماعيل :

﴿ قَالَ يَـٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾

(من الآية ١٠٢ سورة الصافات)

ولم يقل إسماعيل لأبيه : « افعل الذبح » ولكنه قال : « افعل ما تؤمر » أى أن إسماعيل لم يأخذ الكلام على أنه كلام من أبيه ، بل أخذه كأمر من الله . ولو أخذه أبوه على غرة قد يتحرك قلب الابن غيظاً على أبيه وحقداً عليه فيعتدى على الأب ، وهنا نجد حنان الأب على الابن جعله يخبره بالأمر الآتى من السماء ؛ والشأن فى حنان الأب على الابن أن ييسر له كل أمور حياته . أما حنان الحنان فهو تيسير كل خير بعد مماته ؛ لذلك لم يشأ إبراهيم أن يحرم إسماعيل من الامتثال لأمر الله ؛ فينال الاثنان معاً شرف الامتثال لله . وأعطاه كل الحنان فى الزمان الأبقى والزمان الأخلد فى الدار الآخرة ؛ حتى نعلم أن الحق سبحانه وتعالى لا يريد منا إلا الامتثال لقضائه وقدره ، ويقول الحق :

﴿ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ ﴾

(سورة الصافات)

هذا شرف الامتثال فى التسليم لله . . ففى البداية أسلم إبراهيم أمره لله ، وعندما عرض الأمر على ابنه سلم الابن أمره لله ، فنال الاثنان منزلة الشرف فى التسليم لأمر الله . ونجح الاثنان فى الاختبار ، فقال الحق :

﴿ وَنَـٰدَيْنَـٰهُ أَن يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ ﴾

(سورة الصافات)

لقد أنقذ الحق إبراهيم وابنه من مسألة الذبح ، ولهذا نقول دائماً : لا يُرفع قضاء من الله على خلقه إلا أن يستسلم الخلق للقضاء ، والذين يطيلون أمد القضاء على نفوسهم هم الذين لا يرضون به . وأتحدى أى إنسان أن يكون الله قد أجرى عليه قضاء مرض فيرضى به ويعتبر أن ذلك صحة اليقين ، ولا يرفع الله عنه المرض . فالإنسان بالصحة يكون مع نعمة الله ، ولكنه بالمرض يكون مع الله .

فقد حدثنا أبو هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إن الله عز وجل يقول يوم القيامة : يا بن آدم مرضت فلم تعدنى . قال : يارب كيف أعودك وأنت رب العالمين ؟ قال : أما علمت أن عبدى فلاناً مرض فلم تعده !! أما علمت أنك لو عدته لوجدتنى عنده ؟)[1] .

من إذن يجرؤ على الزهد فى معية الله ؟ وعندما يعرف المريض أنه فى مرضه الذى يتأوه منه هو فى معيةالله لاستحى أن يقول : « آه » ، ولكننا لا نطلب من المريض ألا يقول « آه » ، ولكن نطلب منه أن يتوجه إلى الله ويقول : « ولكن عافيتك أوسع لى » .

وقول الحق : (فلما أسلما وتله للجبين) هذا القول يدلنا على أن القضاء لا يُرفع إلا بالرضا به ، فإن رأينا واحداً قد استمر معه القضاء فلنعلم أنه لم تحن ولم تأت عليه لحظة رضى فيها بالقضاء . ولم يرفع الله القضاء فقط عن إبراهيم ، ولم يُفْد إسماعيل فقط بذبح عظيم ، بل بشر الله إبراهيم بولد آخر هو إسحاق :

﴿ وَبَشَّرْنَـٰهُ بِإِسْحَـٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ ﴾

(سورة الصافات)

وها هى ذى لقطة أخرى نأخذها من القصص القرآنى مع سيدنا موسى ؛ لنتبين ماذا يصنع المنهج الإيمانى فيمن اقتنع به ، وحدثت هذه القصة فى وقت تهيئة سيدنا

(١) من حديث أبى هريرة رواه مسلم فى صحيحه فى كتاب البر .

موسى للرسالة ، حدثت هذه الواقعة وهو ذاهب إلى شعيب ، ولم يكن رسولاً بعد ، مما يدل على أن فطرية الإيمان كانت موجودة عنده ، وأن الله قد صنعه على عينه ، لقد ورد ماء مدين ووجد الفتاتين تذودان وتطردان الماشية عن الماء ، فماذا دار بينه وبينهما من حوار ؟. وكيف كانت رؤيته لهما أولاً :

﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ (٢٣) ﴾

(سورة القصص)

وفى قول المرأتين : « لا نسقى حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير » قدر من المبادىء فخروجهما من البيت سببه أن الأب شيخ كبير ، ومع أنهما فى ضرورة وخرجتا للعمل فلم تنس واحدة منهما أنها أنثى يجب أن تحترم أنوثتها فقالتا : « لا نسقى حتى يصدر الرعاء » أى إنهما ستسقيان من بعد أن يذهب الزحام من الرجال حول البئر . إذن فقد أخذت بنتا شعيب الضرورة فى حجمها ولم تتخذ إحداهما من الضرورة حجة لإهدار الأنوثة والتزاحم للوصول إلى البئر . فماذا حدث من موسى ؟. (فسقى لهما) .

تلك الهمة الإيمانية التى وُجدت فى موسى قبل أن يصير رسولاً ، وذلك ما يوضحه لنا الحق حتى لا يقول إنسان : كيف أكون مثل رسول من عند الله ؟.

كأن الهمة الإيمانية التى وصَفتها تلك اللقطة القصصية توقظ مسئولية كل مؤمن ليسلك مثل هذه السلوك . فعندما يرى امرأةً قد خرجت عن محيط بيتها لأى عمل ، فعليه أن يقضى لها حاجتها حتى ترجع إلى بيتها وذلك دون أن يتخذ من ذلك ذريعة ووسيلة إلى أمر ينزل بهمته وينال من مروءته . ولو انتشرت بيننا تلك الهمة الإيمانية لما وجدنا امرأة فى الطريق إلا للضرورة . لقد أوضحت لنا تلك اللقطة القصصية حرص المرأة على موضعها وموقعها من الستر ، فتقول واحدة من المرأتين لأبيها شعيب بعد أن استقدمه ليجزيه أجر ما سقى لهما :

﴿ يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴾

(من الآية ٢٦ سورة القصص)

كان المرأة لا يحل لها أن تتحرك فى الكون هذا اللون من الحركة الواسعة ، ويسمع شعيب وهو الرجل العاقل لابنته فكيف يستأجر رجلاً وعنده ابنتان ، فيفكر شعيب ويعثر على الحل الصحيح بفطنة إيمانية ، فيستدعى موسى ويقول له :

﴿ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖ ﴾

(من الآية ٢٧ سورة القصص)

وفى مثل هذه الحالة سيكون موسى متزوجاً بواحدة ومُحَرَّماً على الأخرى .

وهذه اللقطات القصصية نلتفت إليها لنتعلم منها الفطنة الإيمانية . وها نحن أولاء مع موسى وقد ناداه الحق ليجعله رسولاً ، ولنر صفاء النفس الإيمانية وهى تتلقى مهمة الرسالة ؛ إن موسى يرغب فى أن يكون أداؤه للرسالة كاملاً ؛ لذلك يطلب من الحق أن يرسل معه أخاه هارون :

﴿ وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفۡصَحُ مِنِّي لِسَانٗا فَأَرۡسِلۡهُ مَعِيَ رِدۡءٗا يُصَدِّقُنِيٓۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ ﴾

(سورة القصص)

هو يرشح معه هارون للرسالة لأنه حريص على النجاح فى دعوته لأن لسانه ثقيل لرتَّة ولثغة وتردد فى النطق من أثر الجمرة التى أصاب بها لسانه وهو صغير ، والرسالة تحتاج إلى بيان وبلاغة فيطلب مساعدة أخيه ولم يستنكف ذلك . فما بالنا بما هو حادث وحاصل فى أيامنا ، حين يختار الحاكم رئيساً للوزراء فلا يطلب معاونة الأكْفَاء ، بل قد يخشى أن يكون له نائب له كفاية عالية فوق كفاءته .

واللقطات القصصية فى القرآن تعلمنا الكثير ، وأراد الحق أن يثبت بها للأمة المحمدية دقة المنهج الإيمانى ، فمادام قد أرسل لنا منهجاً لنعلمه ، فهو يطلب منا أن نطبق هذا المنهج ونوظفه فى حياتنا . وليس ذلك بدعا ، بل هو موجود فى قصص الرسل الذين عَلِموا المنهج فطبقوه فى ذواتهم أولاً ؛ لأن الآفة أن نعلم العلم ولا نطبقه .

وفى زماننا يقال ويشاع : إن التعليم الدينى فى المدارس لا يأتى بثمار طيبة فى سلوك

الطلاب . ونقول لمن يرددون ذلك : أنتم لا تفهمون طبيعة التعليم الدينى ؛ فتعليم الدين لا يمكن أن يتساوى مع تعليم الجغرافيا أو الهندسة وغيرهما من العلوم ؛ لأننا عندما نعلم طالباً الهندسة فهو يستطيع أن يكون عالماً متفوقاً فيها ويأخذ المعطيات والنظريات ويتفوق فى المجال الهندسى ، ولكن لم تطلب منه أية نظرية هندسية أن يعدل سلوكه فى الحياة بأن ترشده فى السلوك اليومى : افعل كذا ولا تفعل كذا .

فالنظريات الهندسية لا تتدخل فى حياة الطلاب ، لكن الطالب عندما يتعلم الدين إنما يتعلم أن يفعل الأمر الدينى ، ولا يفعل الأشياء المنهى عنها . والصعب فى التعليم الدينى هو التطبيق العملى . وعندما لا يرى التلميذ التطبيق العملى من الذين يعلمونه الدين أو من الأسرة ، فإنه لا يتعلم الدين ، فيقال للطالب : الدين ينهى عن الكذب ، لكن الطالب يجد الكذب سلعة رائجة فى المجتمع . ويقول الدين له : الصلاة عماد الدين وتنهى عن الفحشاء والمنكر ، ولا يجد الطالب من يصلى أمامه أو يجد من يصلى ولا يقيم عمارة الدين باتباع ما تأمر به الصلاة من نهى عن المنكر ، إذن ففشل التعليم الدينى لا يأتى من ناحية غياب المعلم ولكن من عدم وجود التطبيق العملى للسلوك الدينى .

ونعود للقص القرآنى . جاء القصص ليوضح لنا التطبيق للجانب النظرى من الدين ، وطبَّقهُ الرسل على أنفسهم . وأنتم يا أمة الإسلام لستم أقل من أحد ، بل أنتم خير أمة أخرجت للناس ، وعليكم أن تأخذوا الخير الذى حدث فى موكب الرسالات كلها وتطبقوه فى ذواتكم .

هذا هو معنى قوله الحق : « ورسلاً قد قصصناهم عليك من قبل ورسلاً لم نقصصهم عليك » . وقد جاء لنا القرآن بعيون القصص حتى نأخذ منها لقطات العبرة . ويقول قائل : ومن هو الرسول ؟

يقول العلماء : هناك رسول وهناك نبى . وأقام بعضهم مشكلة حول هذا الأمر ، فقال بعضهم : كل رسول نبى ولا عكس . ونقول لأصحاب هذا الرأى : لو نظرنا إلى المعنى اللغوى والمعنى الاصطلاحى لأرحنا أنفسنا جميعاً ، فالقرآن يقول :

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ ﴾

(من الآية ٥٢ سورة الحج)

إذن فالنبى أيضاً مرسل من الله ، وعلى ذلك فكلاهما ـ النبى والرسول ـ مرسل من عندالله ، لكنْ يوجد فرق بين أن يرسل الحق تشريعاً مع رسول ، ويكون هذا التشريع مستوعباً لأشياء وأحكام لم تكن موجودة فى الرسالة السابقة عليه ، وبين أن يأتى إنسان مصطفى من الله ليطبق فقط ما جاء فى الرسالات السابقة ، فالأنبياء قد أرسلهم الله ليكونوا نموذجاً تطبيقياً للشرع السابق عليهم ولم يَأتوا بشرع جديد ، لكن الرسول هو من أرسله الله بشرع جديد ليعمل به وأمره الحق بتطبيقه . هذا هو الزائد فى مهمة الرسول .

إن الحق أرسل الرسل بالشرع والتبليغ والتطبيق ، وأرسل الحق الأنبياء ليكونوا الأسوة السلوكية فيطبقوا ما أرسل به الرسل السابقون عليهم ، وهذا أمر لا يأتى إلا فى الأمم التى لها سجل فِى المكابرة مع الرسل .

ولذلك نجد أن اللجاجة دفعت بنى إسرائيل إلى التفاخر بأنهم أكثر الأمم أنبياء ، صحيح أنهم أكثر الأمم أنبياء . لكن علينا أن نعرف أن النبوات والرسالات إنما تأتى لتشفى الناس مما بهم من داءات ؛ فعندما نقول عن إنسان إنّه أكثر الناس تردداً على الأطباء ، فمعنى ذلك أن أمراضه كثيرة ، وكذلك بنو إسرائيل كانت داءاتهم كثيرة . وكثرة الرسل إليهم لا ترفع من منزلتهم . بل تدل على كثرة أمراضهم .

إذن فالرسول والنبى كلاهما مرسل . والفارق أن الرسول معه تشريع سماوى ليبلغه ويطبقه ، والنبى مرسل للتطبيق ، فإن جئنا لمعنى الرسول اصطلاحياً ؛ فهو الموحِي إليه بشرع يعمل به وأمره الله بتبليغه . ويذيل الحق الآية : « وكلم الله موسى تكليماً » ولاشك أن موسى كان من هؤلاء النبيين الذين شملهم قوله الحق : « إنا أوحينا » . ولسائل أن يسأل فيقول : ولماذا خص الله موسى بقوله : « وكلم الله موسى تكليماً » ؟.

ونقول : الوحى الذى يوحى الله به لأنبيائه هو الوحى الاصطلاحى الشرعى الذى نتكلم عنه دون الوحى اللغوى الذى سبق أن أفضنا فيه . والحق سبحانه وتعالى قد بين الطريقة التى يخاطب بها أنبياءه المصطفَين لأداء رسالتهم إلى خلقه ، فقال :

﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ﴾

(من الآية : ٥١ سورة الشورى)

إذن ، فطريقة التقاء الحق بالأنبياء ؛ إما أن تكون بالوحى ، وإما أن تكون من وراء حجاب ، وإما أن تكون بإرسال رسول كجبريل عليه السلام . فإذا ما نظرنا إلى الآية وجدنا أن الوحى ينقسم إلى ثلاثة أقسام : وحى خاص ، وكلام من وراء حجاب ، وإرسال رسول ، وكل هذه الأقسام الثلاثة تدخل فى إطار الوحى « وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً » .

أى ما كان لبشر أن يكلمه الله إلا إلهاماً وقذفا فى القلب ، أو يكلمهُ « من وراء حجاب » وهو كلام من الله يسمعه الرسول ، لكنه لا يرى المتكلم وهو الله . أما الوحى بواسطة الرسول ، فهو نزول جبريل إلى الرسول بما أوحى به الله .

فإذا ما نظرنا إلى قوله الحق : « وكلم الله موسى تكليماً » فكأنه سبحانه قد خصه بهذه العبارة ليدل على أنه أوحى لموسى بطريقين ، أولاً : بالطريق الذى أوحى به إلى غيره من الأنبياء ، ثانياً : بالطريق الخاص وهو كلام الله الذى بدأ به موسى بالوادى المقدس .

وقوله الحق : « تكليماً » يدفعنا إلى التساؤل : لماذا جاء الحق بالمصدر هنا ؟ . لأن مطلق الوحى بأى وسيلة سماه الله كلاماً . إذن فالنفخ فى الرُّوع كلام ، والكلام من وراء حجاب كلام ، وإرسال الرسول بالوحى كلام . والكلام هو ما يدل على مراد المتكلم من المخاطب ، بدليل أن الله سمى الوحى فى صوره الثلاث كلاماً « وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحى بإذنه ما يشاء » .

والخفاء فى الوحى إما أن يكون خفاء فى الأسلوب ، أى لا يسمعه أحد غير الرسول ، وقد لا يسمعه الرسول ويكون بقذف الكلام فى رُوع الرسول وقلبه وهو يؤدى مؤدى الكلام أى الدلالة على ما فى نفس المتكلم الذى يريد نقله للمخاطب .

أما أن يقول الحق : إنه « تكلم » مع موسى ، فهذا نقل من الخفاء إلى العلن ، أو يرسل الحق رسولاً بالكلام الموحى به . وحين قال سبحانه : « وكلم الله موسى تكليماً » إنما ينبهنا إلى أن الوحى لموسى ليس من الكلام الذى قسمه الحق فى قوله : « وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا » ؛ لأن الله قال فى كلامه لموسى : « وكلم الله موسى تكليما » .

ووقف العلماء هنا وقفة عقلية وقالوا : كيف يتكلم الله إذن ؟ . ونقول : إن كل وصف لله ويوجد مثله لخلقه إنما نأخذه بالنسبة لله فى إطار : (ليس كمثله شىء) فإن قلت : إن لله وجوداً وللإنسان وجوداً ، فوجود الإنسان ليس كوجود الله ، وإن قلنا : إن لله علماً ، وللإنسان علماً ، فعلم الإنسان ليس كعلم الله ، وإن قلنا : إن لله قدرة ، وللإنسان قدرة ، فقدرة الإنسان ليست كقدرة الله ، وإن قلنا : إن لله استواء على العرش وللإنسان استواء على الكرسى ، فاستواء الله ليس كاستواء الإنسان . إذن فلابد أن تؤخذ كل صفة من صفات الله التى يوجد مثلها فى البشر فى إطار قوله :

﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾

(من الآية ١١ سورة الشورى)

وبذلك ينتهى الخلاف كله فى كل ما يتعلق بصفات الحق .

فالحق له يدان وله وجه ، ولكن لا يمكن للإنسان أن يصور يد الله كيد البشر ، بل نأخذها فى إطار « ليس كمثله شىء » وكذلك وجه الله . ومادمنا نأخذ صفات الله فى إطار « ليس كمثله شىء » فلا داعى للمعركة الطاحنة بين العلماء فى الصفات وفى تأويل الصفات ، ولا داعى أن ينقسم العلماء إلى عالم يؤوّل الصفات وعالم لا يؤول ؛ لا داعى أن يقول عالم : إن يد الله هى قدرته فيؤول ، وعالم آخر لا يؤول ويقول : لا . إن لله يداً ويسكت . ونقول للعالم الذى لا يؤول : قل : إن لله يداً وهى تناسب قوله : « ليس كمثله شىء » . وإذا كنا نحن قد عرفنا فى عالمنا أن الأشياء تختلف مواجيدها فى الناس باختلاف الناس ، فلا بد من أن نعرف أن الله لا مثيل له .

وعلى سبيل المثال : يتلقى الإنسان دعوة لمائدة عمدة قرية ما ، فيقدم له ألوان

طعام تناسب مقام القرية ومنصب القيادة فيها ، ويتلقى الإنسان دعوة لمائدة محافظ مدينة فيقدم له طعاماً يناسب مقام المدينة ومنصب القيادة فيها . ويتلقى الإنسان دعوة رئيس الدولة فيقدم له طعاماً يناسب مقام الدولة وهيبة منصب القيادة فيها ، إذن لا تتساوى مائدة طعام العمدة فى قرية مع مائدة طعام المحافظ مع مائدة طعام رئيس الدولة ، فإذا كان فى البشر يوجد الشيء الواحد وهو ملون بألوان مقامات المخلوقين فكيف لنا بمقامات الخالق ؟! « ليس كمثله شيء » .

فإذا كان الحق قد أخبرنا أنه كلم موسى تكليماً فى قصة الوادى عندما آنس موسى ناراً وذهب إلى النار . فقال الحق :

﴿ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى ﴿١٢﴾ وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخۡفِيهَا لِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا تَسۡعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنۡهَا مَن لَّا يُؤۡمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرۡدَىٰ ﴿١٦﴾ ﴾

(سورة طه)

قال له الحق كل ذلك ، وبدأه سبحانه بالكلام . وبعد ذلك جاء لموسى الوحى على طريقة مجيء الوحى للأنبياء .

والحق سبحانه وتعالى أوحى لنبيه صلى الله عليه وسلم على شتى ألوان الوحى . فقد جاء الوحى لرسول الله إلهاماً ، وجاء الوحى لرسول الله من وراء حجاب ، وجاء الوحى لرسول الله من خلال رسول .

ومثال الوحى إلهاماً هو الحديث القدسى ، وكذلك التشريع النبوى الذى تركه لنا الرسول صلى الله عليه وسلم ، ومثال الوحى من وراء حجاب هو التكليف بالصلاة ، فلم تفرض الصلاة بواسطة جبريل ، بل فرضت من الله مباشرة .

ولا أدخل فى نقاش لا جدوى منه حول : أحين فرض الحق على رسوله الصلاة كلمه وسمع منه رسول الله ، أم أن رسول الله قد رأى الله وهو يتكلم معه . لا داعى

للخوض فى أمر لم يخبرنا الله عن كيفيته ، والأدب مع الله يقتضى ذلك . قال تعالى : « ولا تقف ما ليس لك به علم » .

وإن القرآن لم يثبت بأية طريقة من طرق الوحى إلا بإرسال رسول ، فكل وحى القرآن جاء بواسطة جبريل ، فلم تأت آية بالنفخ فى الرُّوع . إنما جاء بالنفخ فى الروع الحديث القدسى ؛ لأن النفخ فى الروع قد يتصور واحد أنه خاطر من الجن أو أمثال ذلك . وجاءت كل الآيات القرآنية بواسطة جبريل ؛ بمقدمات بدنية ، ويحدث تغير كيماوى فى نفس رسول الله فلا يشك أبدًا فى أنه جبريل . وأراد الحق أن يكون الوحى بالقرآن بطريقة لا شك فيها .

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يسمع صوتاً كصلصلة الجرس ؛ وبعد ذلك يتفصد جبين الرسول عرقاً ، ويثقل جسم رسول الله حتى إن كان على دابة فهى تئط وتئن ويثقل عليها وتكاد أن يمس بطنُها الأرض . وإن كان رسول الله يلاصق فخذه فخذ أحد الصحابة ، فيكاد أن يرض فخذ الصحابى ، وتلك علامات مادية كونية ، لا يمكن أن يحدث فيها لبس .

ولقد قالوا من قبل استنادا إلى ظاهر قوله :

﴿ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَـٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَـٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾ ﴾

(سورة طه)

لو لم يرسل الحق الرسول لكان لهم حجة . ونقول للعلماء : لنفهم هذه المسألة حتى نوضح لكم أنكم تختلفون فى أمر كان يجب عليكم ألا تختلفوا فيه . أبالعقل يعلم الإنسان مطلوب الله منه ؟ أم أن العقل يهدينى إلى وجود قوة أعلى خلقت هذا الكون وتدبره ؟ . وما اسم هذه القوة ؟ . وما مطلوب هذه القوة ؟ . أيعرف العقل ثواب من يتبع المنهج وعقاب من يخرج عن المنهج ؟ . كل هذه أمور لا يعرفها العقل ، فالعقل حجة فى الإيمان بقوة عُليا فوق ذلك الكون وهى التى خلقته وتدبره وتديره ، أما الرسول فهو مبلغ بمطلوبات المنهج واسم القوة التى أرسلت والشرائع التى يجب أن يسير على هداها الإنسان ، إذن فليس هناك خلاف بين الرأيين .

وأسأل : من الذى اكتشف الكهرباء ؟. إنه العقل البشرى الباحث وراء أسرار الله فى الكون ، ولا أحد يجهل هذه المسألة . وكذلك أسأل : من أول من تكلم فى النسبية ؟ إنه أينشتين . وإن سألنا : من أول من تكلم فى الجاذبية الأرضية ؟. إسحاق نيوتن ، وكل واحد اكتشف شيئاً فى الكون صرنا نعرفه . والذى صمم توليد الكهرباء التى تنير وتضىء وندير بها المصانع ، وجعل من سوق الكهرباء صناعة رائجة تعمل فيها القدرات المالية ليشترى الإنسان مصابيح تنير حيزاً محدوداً ، ومصانع تعمل فى خدمة الإنسان .

أبالله عليكم تعرفون اسم مصمم مولدات الكهرباء ومصمم ومكتشف المصباح الكهربائى ، ولا تدرون اسم من خلق الشمس التى تنير نصف الكرة الأرضية كل نصف يوم . ولم يَدَّعِ أحد لنفسه صناعة الشمس ، ولا يوجد ابتكار فى الكون إلا ومعلوم مَن أبدع هذا الابتكار . فالذى صنع المصباح إنما ينير به حيزاً محدوداً مهما كبر ضوء المصباح ، وبعد محيط دائرى معلوم يتلاشى الضوء ويصير الأمر إلى ظلمة ، فما بالنا بالشمس التى تنير نصف الكرة الأرضية كل نصف نهار .

إن خلق الشمس يحتاج إلى قدرة تناسب خلقها ، وتحتاج إلى حكمة تناسبها ، وليس لهذه الشمس محيط من الزجاج ينكسر ونغيره مثلما نفعل مع المصابيح . كان لابد للعقل البشرى أن يفهم أن هذه الكائنات التى فى الكون لها صانع يناسبها . ولا يمكن أن يكون صانعها من الخلق ويسكت عن حقه فى صناعة هذه المعجزات ، ونحن نرى بعضاً من الناس فى بعض الأحيان تدعى ملكية ما ليس لها ، فإذا ما جاء الخالق وأبلغنا بواسطة الرسل بصناعته للكون ولم يوجد له مُعارض ، فهل هذه الأشياء والكائنات من خلقه أو لا ؟. إنها من خلقه إلى أن يوجد له معارض .

هذه هى مهمة العقل أى أنّه يهتدى إلى القوة التى تخلق وتدبر أمر هذا الكون ولا يغنى العقل عن الرسل ، ولكن العقل يؤمن فى القمة الإيمانية بأن هناك قوة مبهمة عالية تناسب عظمة هذا الكون الذى طرأ عليه الإنسان ، ولا يعرف اسم القوة ولا يعرف مطلوب القوة فى « افعل » ، و« لا تفعل » ، ولا يعرف العقل ماذا ادخرت القوة من ثواب للمحسن وعقاب للمسىء . لذلك لابد من وجود رسول .

إن الحجة ـ إذن ـ تكون من شقين : الشق الأول الخاص بالعقل هو فى الإيمان بالقوة العليا المبهمة ، والشق الثانى الخاص بالرسل هو الإيمان بالبلاغ عن الله اسما وصفة ومطلوباً وجزاء ، هكذا نرى فاتفقوا أيها العلماء ولا ضرورة للخلاف .

أقول ذلك حتى لا يتمادى الذى يتصيدون لدين الله وأضيف : اتفقوا أيها العلماء على أشياء محددة لأنكم تشتتون الناس بهذه الخلافات ؛ فالرسول هو الحجة فى الأشياء التى لا دخل للعقل فيها .

ونعرف تاريخياً أن آفة الفلسفة أنها تضع وتتخذ عدداً ضيقاً من المجالات لتبحث فيها ، وكانت الفلسفة قديماً هى أمُّ العلوم مجتمعة ، فالهندسة كانت فرعاً منها ، وكذلك كل الرياضيات ، وأيضاً المواد العلمية كالكيمياء والفيزياء وكذلك أصول اللغات .

لكن عندما رأى العلماء أصحاب التجارب المعملية أن الفلاسفة يدخلون فى متاهات نظرية ولا يدخلون إلى مجال التجارب العلمية التطبيقية ، تركوا الفلاسفة وأسسوا العلوم التجريبية منفصلة عن الفلسفة . وأنتج العلم التجريبى لنا كل هذه الاختراعات والاكتشافات المعاصرة التى تسهل علينا الحياة ونستفيد منها .

لقد ظل الفلاسفة على حالهم يبحثون فى النظريات بعيدين عن مجال التجارب العلمية التطبيقية . ولا تلتقى مدرسة فلسفية بمدرسة أخرى ؛ لأنهم يختلفون حيث الجهل طبيعة مسيطرة على الغيب الذى يبحثون عنه ولا يمكن الاهتداء أبداً إلى أسرار الغيب ، إنما الغيب يبلغ به الرسل .

والمثال الذى أضربه دائماً وأكرره حتى يستقر فى الأذهان : لنفترض أننا نجلس فى حجرة ثم دق الجرس ، هنا تستوى عقولنا جميعاً فى أن طارقاً بالباب ، ولا نختلف فى هذا الأمر . لكن عندما ندخل فى تصور من الطارق ؟ يقول واحد : « الطارق رجل » وثانٍ يقول : « الطارق امرأة » وثالث يقول : « الطارق رجل شرطة » ورابع يقول : « صديق لنا » وخامس يقول : « بشير » وسادس يقول : « نذير » ، يحدث ذلك لأننا دخلنا إلى متاهات التصور . وأقول : هذه الأمور لا تُترك للعقل ، فلو

أردتم راحة أنفسكم لآمنتم بالتعقل ، تعقل أن هناك طارقاً بالباب ، ثم تتركون للطارق أن يعلن عن نفسه ويقول لكم : أنا فلان واسمى كذا وصفتى كذا وجئت إليكم من أجل كذا ، وبذلك نتفق جميعاً .

لكن الفلاسفة أدخلوا التصور فى التعقل . ولا يمكننا أن نعرف اسم الخالق بالعقل أبداً ولا مطلوبه . بل لابد أن يبلغ عن نفسه ، فإذا انشغل العقل بأن هذا الكون العظيم لابد له من قوة خالقة ، فلماذا لا تبلغنا عن نفسها ؟ . وإذا ما جاء رسول من أجل أن يحل اللغز الوجودى الذى يعيشه البشر فيبلغنا أن القوة الخالقة اسمها الله . هنا أراح الحق النفس البشرية بما كانت تتمنى أن تعرفه ، ومن عقل العاقل أن يفرح بمجىء الرسول ويستشرف إلى السماع عنه ؛ لأن الرسول إنما جاء يحل اللغز الشاغل للنفس البشرية من تفسير مَن خلق الكون بهذه الدقة ، وما هى مطلوبات هذه القوة ؟

ويحسم الرسول الخلاف عندهم ويحل اللغز الشاغل للبال . ولذلك نرى الإمام عليا ـ كرم الله وجهه ـ أمام سؤال من أحدهم :

ـ أعرفت محمداً بربك ؟ أم عرفت ربك بمحمد ؟ .

فأجاب الإمام علىّ وكان باب العلم : لو عرفت ربى بمحمد لكان محمد أوثق عندى من ربى ، ولو عرفت محمداً بربى لما احتجت إلى رسول ، ولكنى عرفت ربى بربى وجاء محمد فبلغنى مراد ربى منى .

هكذا حدد لنا سيدنا علىّ المسألة . . فالعقل الفطرى يؤمن بقوة مبهمة وراء هذا الكون هى التى خلقت وهى التى رزقت وهى التى أمدت بقيوميتها وقدرتها ، وبعد ذلك تجىء الرسل من أجل تعريفنا باسم القوة ومطلوبها منا .

والذين يختلفون حول دور العقل فى الحجة ودور الرسول فى الحجة ، عليهم ألا يتوهوا فى متاهات نحن فى غنى عنها ؛ لأن العقل لا يمكن أن يكون الحجة بمفرده ، والرسول إنما هو مبلغ عن القوة ، وقد يقول قائل : إذن لابد لكل رسول من رسول ، وقد يبلغ التفلسف الطريق المسدود .

لكن عندما نعلم أن الحق قد صنع كل رسول على عينه معصوماً ليبلغ ، وعلى سبيل المثال نجد سيدنا محمد بن عبدالله استطاع أن يصنع أمة فى ثلاث وعشرين سنة ليمتد خيرها إلى يوم القيامة ، فعل صلى الله عليه وسلم ذلك مبلغاً عن الله ليهدى أمته إلى كيفية عمل الطيب والابتعاد عن العمل الخبيث . وخلق الله محمداً على خلق عظيم . وهكذا نعرف أن الحق قد أراح العقل من ضرورة البحث عن اسم القوة الخالقة ومطلوبها فأرسل الرسل .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾ ﴾

نعرف أن البشارة تكون بأمر سار يأتى من بعد . والنذارة هى إخبار بأمر مسىء يأتى من بعد . والعزيز سبحانه لا يُغلب . والحكيم سبحانه وضع كل شىء فى موضعه ، لماذا ؟ . لأن الرسل يبشرون وينذرون بأن هناك جنة وناراً وحساباً ، فإياكم أن تظنوا أن الذى كفر بقادر على أن يصنع شيئاً لنفسه ؛ والله عزيز وغنى عن خلقه جميعاً .

ونعلم أن الحق لا يجرم سلوكاً إلا بنص ، وقبل أن يعاقب فهو يضع القواعد التى لا يصح الخروج عنها . وحين يقول الحق : « وكان الله عزيزاً حكيماً » فعزته وحكمته هى التى أتاحت لنا أن نعرف منهجه . ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُۥ

﴿ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾ ﴾

وساعة نسمع « لكن » فمعنى ذلك أن هناك استدراكاً . وقوله الحق : « لكن الله يشهد » نأخذ منها بلاغاً من الحق . خصومك يا محمد لا يشهدون أنك أهل لهذه الرسالة ، ويستدرك الله عليهم ويوضح لهم أنه سبحانه هو الذى خلق الإنسان وهو أعلم بقانون صيانته . ومنهج الله إلى البشر بواسطة الرسل هو قانون صيانة ذلك الإنسان .

وإذا كان أهل الكتاب لا يشهدون بما أنزل الله إلى رسوله صلى الله عليه وسلم وينكرون ما فى كتبهم من البشارة بمحمد صلى الله عليه وسلم كرسول خاتم ، فإن الله يشهد وكفى بالله شهيداً .

لقد أنزل القرآن بعلمه ، وهو الذى لا تخفى عليه خافية ، وهو الذى خلق كل الخلق ويعلم - وهو العليم - ما يصلح للبشر من قوانين . وفى أعرافنا البشرية نجد أن الذى يصنع الصنعة يضع قانون صيانتها لتؤدى مهمتها كما ينبغى ، كذلك الله الذى خلق الإنسان ، هو سبحانه الذى وضع له قانون صيانته بـ« افعل » و« لا تفعل » . ولذلك يقول الحق :

﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾

(سورة الملك)

ونجد الإنسان منا يذهب بساعته إلى عامل إصلاح الساعات فيكشف عليها ويقرر ما فيها من فساد ، فما بالنا بخالق الإنسان . إنّ العبث الذى يوجد فى العالم سببه أن الناس قد استقبلوا خلق الله لهم ، ولم يدع أحد أنه خلق نفسه أو خلق غيره ، ومع ذلك يحاولون أن يقننوا قوانين صيانة للإنسان خارجة عن منهج الله .

ونقول : دعوا خالق الإنسان ، يضع لكم قانون صيانة الإنسان بـ« افعل »

ولا « تفعل » وإن أردتم أن تشرِّعوا ، فلتشرعوا فى ضوء منهج الله ، وإن حدث أى عطب فى الإنسان فلنرده إلى قانون صيانة الصانع الأول وهو القرآن ؛ لأن المتاعب إنما تنبع من أن الإنسان يتناسى فى بعض الأحيان أنه من صنعة الله ، ويحاول أن يصنع لنفسه قانون صيانة بعيداً عن منهج الله ، والذى يزيل متاعب الإنسانية هو أن تعود إلى قانون صيانتها الذى وضعه الخالق تبارك وتعالى .

« لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه والملائكة يشهدون » والملائكة تشهد لأنها نالت شرف أن يكون المبلغ لرسول الله منهم وهو جبريل عليه السلام ، وهم أيضاً الذين يحسبون حسابات العمل الصالح أو الفاسد للإنسان ويكتبونها فى صحيفته ، وهم كذلك الذين حملوا ما فى اللوح المحفوظ وبلغوا ما أمروا بتبليغه وهم يعرفون الكثير « وكفى بالله شهيداً » لماذا لم يقل الله هنا وكفى بالله وبالملائكة شهوداً ؟ . لأن الحق سبحانه وتعالى لا يأخذ شهادة الملائكة تعزيزاً لشهادته .

ونحن لا نأخذ شهادة الملائكة تعزيزاً لشهادة الله وإلا كانت الملائكة أوثق عندنا من الله . وسبحانه يؤرخ شهادة الناس وشهادة الملائكة ، لكنك يا رسول الله تكفيك شهادة الله .

ومن بعد ذلك يقول الحق :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّواْ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴿١٦٧﴾ ﴾

إنّ كُفر الكافر إنما يعود عليه ، وهو يملك الاختيار بين الكُفر والإيمان ، لكن أن يصد الكافر غيره عن الإيمان فهذا ضلال متعدّ ؛ لقد ضل فى نفسه ، وهو يحاول أن يضل غيره ؛ لذلك لا يحمل وزره فقط ولكن يحمل أوزار من يضلّهم .

وكيف يكون الصدّ عن سبيل الله ؟ . بمحاولة أهل الضلال أن يمنعوا آيات الهُدى

من أن تصل إلى آذان الناس ، فيقولوا ما رواه الحق عنهم :

﴿ لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾

(من الآية ٢٦ سورة فصلت)

ولو فهموا معنى هذه الآية لما قالوا ما جاء فيها ، فقولهم : « لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه » أى اصنعوا ضجة تشوّش على سماع القرآن ، وهم قد علموا أن هذا القرآن عندما يصل إلى الأسماع فإنه يبلغ الهداية ، ولو كان القرآن غير مؤثر لما قالوا ذلك ، إذن هم يعترفون بأنهم يُغلَّبون عندما يصل صوت القرآن إلى آذان البشر المدعوين إلى الهداية .

« إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله قد ضلوا ضلالاً بعيداً » . كان يكفى أن يقول الحق « قد ضلوا » ، لكنه جاء بالمصدر التأكيدى « قد ضلوا ضلالاً بعيداً » أى إنه الضلال بعينه ، وهو فوق ذلك ضلال بعيد .

وعندما ننظر فى كلمة « بعيد » ، نعرف أن الشيء البعيد هو الذى بينه وبين مصدره مسافة زمنية طويلة . والذى يضل قصارى ضلاله أن ينتهى بانتهاء حياته ، لكن الذى يعمل على إضلال غيره فهو يجعل الضلال يمتد ، أى أن الضلال سيأخذ فى هذه الحالة زمناً أكبر من حياة المُضل ، ويتوالى الضلال عن المضلين أجيالاً ، وهكذا يصبح الضلال ممتداً .

والضلال المعروف فى الماديات البشرية هو ـ على سبيل المثال ـ أن يسير الإنسان إلى طريق فيضل إلى طريق آخر . وقصارى ما يضل فيه هو أن يذهب إلى مفازة ـ أى صحراء ـ ولا يجد ماء ولا طعاماً فيموت . لكن الضال المضل يجعل ضلاله يأخذ زمن الدنيا والآخرة وبذلك يكون ضلاله ممتداً .

ومن بعد ذلك يقول الحق :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ

لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾

والحديث هنا يبدأ عن الكفر والظلم « إن الذين كفروا وظلموا » . والكفر هو ستر الوجود الأعلى ، والظلم معناه أنهم عاشوا بمنهج بشرى لا يؤدى لهم متاعاً ولا سعادة فى حياتهم الدنيا ، وبذلك يكونون قد ظلموا أنفسهم . ومن بعد ذلك يقودهم هذا المنهج إلى عذاب الآخرة . والذى كفر ستر وجود الله وحرم نفسه بستر الوجود الأعلى من المنهج الذى يأتى به الله إنه بذلك قد ضل ضلالاً بعيداً . وسبحانه القائل :

﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾

(من الآية ١٢٣ سورة طه)

وهناك آية أخرى يقول فيها الحق :

﴿ فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾

(من الآية ٣٨ سورة البقرة)

والذى يأخذ بهوى نفسه وبمنهج البشر فإن له معيشة ضنكا ضيقة شديدة . ولا يظنن ظان أن الذى يأخذ ويتناول الأمور بهواه قد أخذ انطلاقاً بلا حدود وراحة لا نهاية لها ، لا ؛ لأن الذى يفعل ذلك قد يرتاح مرة لكنه يقابل التعب ويعيش فيه ولا ينفك عنه من بعد ذلك ، وهكذا يظلم نفسه .

وقد يقول قائل : لقد ظلموا أنفسهم ، ومعنى ذلك أنه لا بد من وجود ظالم ومظلوم . فمن هو الظالم ومن هو المظلوم ؟ . كل واحد منهم الظالم . وكل واحد منهم المظلوم ؛ لأن الإنسان مركب من ملكات متعددة ، ملكة شهوات تريد أن تنطلق إلى الشهوات ، وملكة قيم تريد أن يحفظ الإنسان نفسه ويسير على صراط القيم المستقيم .

وفى حالة من يكفر ولا يتبع منهج الله إنما يترك الفرصة لملكة الشهوات أن تظلم

ملكة القيم . والإسلام إنما جاء ليوازى بين الملكات لتتساند فى النفس البشرية ، فلا يطغى سيال ملكة على سيال ملكة أخرى .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾ ﴾

(سورة النساء)

هذا هو حكم الحق فى الذين يكفرون ويظلمون أنفسهم ، لن ينالوا مغفرة الله وليس أمامهم إلا طريق جهنم خالدين فيها أبدا .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا لَّكُمْ وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧٠﴾ ﴾

فبعد أن وصف لنا ـ بإيجاز محكم ـ سلسلة المعارك التى نشأت بين الرسول واليهود مرة ، ومرة أخرى بينه وبين المشركين ، وها هوذا سبحانه يخاطب الناس جميعاً ، ليصفى مركز منهج الله فى الأرض ، فيقول منبهاً كل الناس : لقد جاءت رسالة محمد عليه الصلاة والسلام تصفية لكل الرسالات التى سبقت ، وعلى الناس جميعاً أن يميزوا ، ليختاروا الحياة الإيمانية الجديدة ؛ لأن الرسول قد جاء بالنور والبرهان ، البرهان الذى يرجح ما هو عليه صلى الله عليه وسلم على ما هم عليه ، والنور الذى يهديهم سواء السبيل .

لقد كان الناس قبل رسول الله على مِلَلٍ وعلى أديان ونحل شتى ، فجاء البرهان

بأن الإسلام قد جاء ناسخاً وخاتماً . والبرهان هو تعاليم هذا الدين وأدلته ، فلا حجة لأحد أن يتمسك بشيء مما كان عليه . وجاء محمد بالنور الذى يهدى الإنسان إلى سواء السبيل ، وهذه تصفية عقدية شاملة ، أو كما نقول بالعامية « أوكازيون إيمانى » تتخلص به البشرية من كل ما يشوب عقائدها ، ولتبدأ مرحلة جديدة .

« يا أيها الناس قد جاءكم الرسول بالحق من ربكم » والحق هو الشيء الثابت الذى لا يتغير مهما تغيرت عليه الظروف ؛ لأن الحق صدق له لون واحد ، فإذا ما رأيتم جميعاً حادثة واحدة ، ثم جاء كل واحد منكم فأخبر بها إخبار صدق فلن تختلف رواية الحادثة من واحد لآخر . أما إن سولت نفس بعض الناس لهم أن يتزيدوا فى الحادثة فكل واحد سيحكى الحادثة على لون مختلف عن بقية الألوان ، وقد يسافر خيال أحدهم فى شطحة الكذب ويسترسل فيه .

إذن فالذى لا يتغير فى الحق هو أن يحكوا جميعاً الرواية الواحدة بصدق ولو كانوا ملايين الناس ، لكن إن سولت نفوس بعضهم الكذب وحسنته له وأغرته به لاختلفت الرواية ؛ لأن الكذب مشاع أوهام ولا حقيقة له . والحق سبحانه وتعالى يوضح لنا : لقد جاءكم الرسول بالحق مهما تغيرت الظروف والأحوال ، ومهما جئتم إليه من أى لون ، سواء فى العقديات أو فى العباديات أو فى الأخلاق أو فى السلوك . وستجدون كل شيء ثابتاً لأنه الحق .

ويضرب الحق سبحانه وتعالى لنا مثلاً فى هذا الحق :

﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ﴾

(من الآية ١٧ سورة الرعد)

كل وادٍ يأخذ ماء على قدر حجمه ، وساعة ينزل السيل من الجبال يحمل معه التراب والقش والأشياء التى لا لزوم لها ،وهو ما نسميه « الريم » وهو الزَّبَد الرابى . وكذلك الحديد أو النحاس أو الذهب الذى نصنع منه الحلى أو أدوات المتاع ، وعندما نضع هذه المعادن فى النار ، نجد الزَّبَد يفور على سطح هذه المعادن

عندما تنصهر ، وتسمى هذه الأشياء الخبث . ويوضح الحق لنا كيف يضرب الحق والباطل .

﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾

(من الآية ١٧ سورة الرعد)

ومهما اختلطت بالحق أشياء فهو كحق يبعد ويطرد هذه الفقاقيع والخبث وينحيها عنه . فإن علا الباطل يوماً على الحق فلنعلم أنه علو الزَّبَد الذى يذهب جفاء مرميا به ومطروحا ، وسيظل الحق هو الحق . وسبحانه يقول : « يا أيها الناس قد جاءكم الرسول بالحق من ربكم فآمنوا خيراً لكم » . والإيمان هو اعتناق العقيدة بوجود الإله الأعلى ، والبلاغ عنه بواسطة الرسل ، وأن للحق ملائكة ، وأن هناك بعثاً بعد الموت ، وحساباً . ويقتضى الإيمان أن نعمل العمل وَفق مقتضياته وذلك هو اختيار الخير ، ولنعلم جيداً أن الإيمان لا ينفصل عن العمل .

وماذا يحدث لو لم يؤمن الناس ؟ ها هوذا الحق يقول : « وإن تكفروا فإن لله ما فى السموات والأرض وكان الله عليماً حكيماً » وسبحانه غنى ، وسيظل كَونُه الثابت ـ بنظرية القهر والتسخير ـ هو كونه ، ولن يتغير شىء فى الكون بكفر الكافرين ، سوى سخط الكون عليهم لأنه مسخر لهم ؛ لأن الكون ملك لله ، ولن تتغير السماء ولا النجوم ولا القمر ولا المطر ولا أى شىء .

ونقول لك : لو نظرت إلى الدنيا لوجدت الفساد فيها ناشئاً مما فعلته وأحدثته يد الإنسان على غير منهج الله ، أما الشىء الذى لم تدخل فيه يد الإنسان فهو لا يفسد ، ولم نر يوماً الشمس وقد عصيت عن الشروق أو الغروب ، وكذلك القمر لم تختل حركته ، وكذلك النجوم فى الأفلاك ، وتسير الرياح بأمر خالقها ، وكل شىء فى الكون منتظم الحركة ، اللهم إلا الأشياء التى يتدخل فيها الإنسان ، فإذا كان قد دخلها بمواصفات منهج الله فهى منسجمة مع نفسها ومع الكون ، وإن دخلها بغير مواصفات منهج الله فلن تستقيم ، بل تفسد .

ولذلك قال الحق :

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾

(من الآية ١١ سورة الرعد)

إن الأمر الفاسد إنما يأتى من داخل نفوس البشر عندما يضلون عن منهج الله ، ولذلك نقول : أشكى الناس أزمة ضوء ؟. لا ؛ لأن الشمس ليست فى متناولنا ، وكذلك لم يشك الناس أزمة هواء ، لكنهم يشكون أزمة طعام ؛ لأن الطعام ينبت من الأرض ، فإما أن يكسل الإنسان مثلاً فلا يعمل ، وإما أن يعمل ويخرج ثمراً فيأخذه بعضهم ويضنوا ويبخلوا ولا يعطوه لغيرهم ، وهذا سبب من أسباب الفساد الناشىء فى الكون .

وجاء الحق لهم بما يمكن أن يكون فتحاً يدخلون فيه بالإيمان بمنهج الرسول الخاتم ، ويكفرون عن أخطائهم مع أنبيائهم ومع محمد صلى الله عليه وسلم ، يقول سبحانه :

﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ﴿١٧١﴾ ﴾

يبدأ الحق بأمر موجه لأهل الكتاب:« لا تغلوا فى دينكم » والغلو هو الخروج عن حد الاعتدال فى الحكم ، لأن كل شىء له وسط وله طرفان ، وعندما يمسك شخص طرفاً نطلب منه ألا يكون هناك إفراط أو تفريط . وقد وقع أهل الكتاب فى هذا

المأزق ، فلم يأخذوا الأمر بالاعتدال دون إفراط وتفريط ، لقد كفر اليهود بعيسى واتهموا مريم بالزنا ، وهذا غلو فى الكُرْه ، وغالى النصارى فى الحب لعيسى فقالوا : إنه إله أو ابن إله أو ثالث ثلاثة ؛ وهذا غلو ، ويطلب الحق منهم أن يقفوا من أمر الدين موقف الاعتدال : « لا تغلوا فى دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق » .

إن أمر المنهج لا يحتاج إلى غلو ، ولذلك جاء محمد صلى الله عليه وسلم من عند الله بالدين الوسط الذى يضع كل أمر فى نصابه . وشرح لنا بإخبارات النبوةوإلهامها ما سوف يحدث للإمام على بن أبى طالب - رضى الله عنه - ، وقد حدث ما تنبأ به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فالخوارج كفروا علياً ، والمسرفون بالتشيع قالوا : إنه نبى ، وبعضهم زاد فى الإسراف فجعله إلهاً .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلىّ - كرم الله وجهه - :

« إن فيك من عيسى مثلا . أبغضته اليهود حتى بهتوا أُمَّهُ ، وأحبته النصارى حتى أنزلوه المنزل الذى ليس له » .

وكما قال سيدنا على - كرم الله وجهه - : « ألا وإنه يهلك فىّ اثنان : محبٌ يقرظنى بما ليس فىّ ، ومبغض يحمله شنآنى على أن يبهتنى ، ألا إنى لست بنبىّ ولا يوحى إلىّ ، ولكنى أعمل بكتاب الله وسنة نبيه - صلى الله عليه وسلم - ما استطعت ، فما أمرتكم من طاعة الله فحق عليكم طاعتى فيما أحببتم وكرهتم »[1] .

وقد أخبر الرسول صلى الله عليه وسلم علياً أن المحب الذى يغالى فى حبه ليس مع علىّ وكذلك الكاره المبغض ؛ فالذى يحب عليا بغلو جعل منه إلهاً أو رسولاً ، والذى أبغض علياً جعله كافراً . وكذلك النصارى من أهل الكتاب جاءوا إلى عيسى فأحبوه بغلو وجعلوه إلهاً أو ابن إله أو ثالث ثلاثة ، فيقول لهم الحق : « لا تغلوا فى دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله » . وقوله الحق : « عيسى ابن مريم رسول الله » رد على غلو اليهود الذين رفضوا الإيمان بعيسى ، وقالوا فى عيسى وأمه البهتان العظيم .

١ - رواه الإمام أحمد فى مسنده .

وقوله الحق عن عيسى ابن مريم : « رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه » رد على غلو النصارى الذين نصبوه إلهاً أو جعلوه ابناً لله أو ثالث ثلاثة ، فعيسى عليه السلام هو ابن مريم وعندما بشرها به الحق وقالت :

﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾

(من الآية ٤٧ سورة آل عمران)

قالت ذلك بفطنة الصديقية التي جعلتها تنبه إلى أنها لم يمسسها بشر ، ومادام الحق قد نسبه إليها فليس له أب ، سيولد عيسى دون أن يمسسها بشر ، ويوضح سبحانه ذلك عندما يقول : « إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه » . فعيسى روح من الحق ؛ لأنه سبحانه قال :

﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾

(من الآية ٩١ سورة الأنبياء)

وما معنى « كلمته » ؟. هذا القول يدل على أن الروح نفخت ثم جاءت كلمة « كن » التي قال عنها سبحانه :

﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾

(من الآية ٤٧ سورة آل عمران)

لقد احتاج وجود عيسى إلى أمرين : « روح » و« كن » . والشبهة عند النصارى مردها إلى أن عنصر الذكورة لم يلمس مريم ؛ وقالوا : مادام الله قد قال : إن عيسى روح منه فهو جزء من الله ، ونسوا أن كل شيء من الله ، وسبحانه القائل :

﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾

(من الآية ١٣ سورة الجاثية)

فهل هذا يعني أن « الأرض » قطعة من الله وكذلك الشمس ؟. لا . فإذا كانت الشبهة قد جاءت من غياب عنصر الذكورة مع وجود عنصر الأنوثة لكان من الواجب منطقياً أن تكون الشبهة في آدم قبل أن تكون الشبهة في عيسى ؛ لأن آدم جاء من غير ذكورة ولا أنوثة ؛ فلا أب له ولا أم له ؛ لقد قال القرآن بمنتهى البساطة ومنتهى الوسع :

﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

ولا يملك أحد القيد على فضل الله ووسعه ، ومسألة آدم كانت أدق ، لكن الله بتفضله يساوى بين خلق عيسى وخلق آدم ، وهذا هو التلطف فى الجدل . وأخبرنا سبحانه عن عيسى أنه جاء بأمر منه ، وقال فى آدم :

﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الحجر)

إذن فآدم قد احتاج إلى الأمرين نفسيهما : «كن » ، و« النفخ فيه من الروح » ، وعندما ننظر إلى هذه المسألة نجد أننا لا بد أن نتعرض لقضية خلق آدم ، حتى نعرف كيف تسلسلت مسألة الخلق ، سواء أكان الخلق ملائكة أم خلق آدم أم خلق حواء أم غيرهم من الخلق ، كذلك خلق عيسى . لقد كان خلق آدم غيباً عن آدم ، وليس لآدم نفسه ولا لمن جاء بعده أن يتكلم كيف خُلق ؛ لأن هذه مسألة لا دخل لأحد بها ، ويقول لنا الحق محذرا من أن نستمع إلى قوم يقولون بغير ذلك عن الخلق فقال :

﴿ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ ﴾

(سورة الكهف)

ولا يمكن ـ إذن ـ أن نستمع إلى هؤلاء الذين افترضوا أن أصل الإنسان قرد أو غير ذلك ؛ لأن الذى يتكلم عن الخلق بغير علم من عند الله ، فهو يتكلم فى أمر لم يشهده . والخلق الأول أمر لا يمكن أن يدخل المعمل التجريبى ؛ لأن المعمل التجريبى إنما يحلل مواد موجودة بالفعل . إذن فالحكم على أمور بغير ما أخبرنا بها الله أمر باطل . ولم يكن هناك أحد مع الله ساعة خلق الخلق ليقول لنا كيف تم ذلك . وعَلِمْنا هذه المسائل بإخبار الخالق لنا فهو الأعلم بنا ، والخالق أخبرنا أنه خلقنا من ماء وتراب وطين وحمأ مسنون وصلصال كالفخار ، وحدثنا بذلك فى آيات متعددة . والذين يريدون أن يكذبوا القرآن يقولون : إن القرآن لم يأت بخبر واحد عن خلق

الخلق ، فمرة يقول إن الخلق كان من ماء ومرة كان من تراب ، ومرة كان من طين ، ومرة كان من صلصال .

ونقول : أحين يتكلم الحق عن مراحل الخلق فهل فى هذا تضاد ؟ . أصل الخلق ماء ، خلطه الحق بتراب ، وبعد وضع الماء على التراب صار الإثنان طيناً ، ثم إذا تركنا الطين إلى أن يختمر ، يصير حمأ مسنوناً ، وبعد ذلك يصير صلصالاً ، ومن بعد ذلك خلق منه الحق آدم . إذن فكل شيء تكلم عنه سبحانه فى خلق آدم إنما يتفق مع كل الآيات التى جاءت عن هذا الخلق . وهو القائل عن آدم :

﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الحجر)

وبعد صنع الله القالب الذى يشبه التمثال الذى نراه ، ولكن تنقصه الحركة والحياة ، فيأتى النفخ فى الروح بكلمة « كن » . إذن نحن نحتاج إلى روح وإلى كلمة . والروح عنصر وجودى . وعندما تختلط بالقالب تحدث الحياة ، ولا بد من بعد ذلك من الإرادة بكلمة « كن » . ولذلك نجد الإنسان قد يصنع نفس خلطة الإنسان الكيماوية لكنها لا تصير إنساناً ؛ لأن الأمر ينقص الإذن بميلاد الإنسان .

وساعة يتكلم الحق عن خلق آدم وهو أمر لم نشهده ، فذلك من رحمته بنا ، ويترك لنا سبحانه فى الكون دليلاً على صدقه عن خلق آدم ، فإذا كنا لم نشهد خلق الحياة فنحن نشهد نقيض الحياة وهو الموت ، الذى يحدث فيه أولاً خروج الروح ، ومن بعد ذلك ينتفخ الجسم كأنه الحمأ المسنون ، ثم يتبخر الماء ، وبعد ذلك يتحلل إلى تراب . هذه هى مراحل الموت التى تبدأ من خروج الروح ويتصلب الجسم إلى أن يَرِم ثم يتبخر الماء ، وتبقى العناصر فى الأرض .

وإذا كنا لم نعرف كيف بدأت الحياة ، فنحن نعرف كيف انتهت الحياة أمامنا بالأمر المشهدى ، وجعل سبحانه أمر انتهاء الحياة أمامنا دليلاً على صدقة فى إخبارنا بالحياة وكيف بدأت ؛ لأن نقض الحياة يكون بالموت ، ونقض أى شيء إنما يتم على عكس طريقة بنائه . وآخر أمر دخل فى الإنسان هو الروح ، ولذلك فهى أول ما يخرج من الإنسان عند الموت . وبعد ذلك يتصلب الجسم ، وبعد ذلك يصير رمة وهى الحمأ المسنون . وبعد ذلك يتبخر الماء ويبقى أخيراً التراب .

وقد حللوا الإنسان حديثاً . فوجدوا فيه عناصر كثيرة ، ثم حللوا طينة الأرض الخصبة التى يخرج منها الزرع الذى يقتات منه الإنسان ، فوجدوا هذه الطينة مكونة من هذه العناصر .

ومن العجيب أن العناصر المكونة للإنسان هى نفسها المكونة لطين التربة الخصبة ، مما يدل على تأكيد الصدق فى أن الله خلقنا من طين ، وجعل استبقاء حياتنا مما يخرج من هذا الطين بعناصره المختلفة ، حتى يمد كل عنصر من الطين كل عنصر من الوجود الإنسانى . ولما قاموا بتحليل الإنسان مقارناً بتحليل التربة وجدوا أن أضخم عنصر فى تكوين الإنسان هو الأوكسجين ونسبته على ما أذكر سبع وستون بالمائة ، وبعده عنصر الكربون ، ونسبته على ما أذكر تسع عشرة بالمائة ، إلى أن تنتهى العناصر المكونة للإنسان والتربة إلى المنجنيز ونسبته تقل عن واحدة بالمائة ، وأهم هذه العناصر هو :

الأوكجسين ، الكربون ، الهيدروجين ، النتروجين ، الكلور ، الكبريت ، الكالسيوم ، والفوسفور ، والبوتاسيوم ، الصوديوم ، الحديد ، اليود ، والسيلوز ، والمنجنيز . هذه هى أهم وأكثر العناصر المكونة لتركيب الإنسان وهى العناصر نفسها الموجودة فى تركيبة الطين وبعضها عناصر مكونة للمركبات العضوية وبعضها عناصر غير عضوية وبعضها عناصر وظائفها ثابتة ومعروفة.ويسأل أهل الذكر فى تفاصيل ذلك .

وبطبيعة الحال فالذين قاموا بتحليل التربة وعناصر الإنسان لم يكونوا علماء دين ، ولم يكن فى بالهم إقامة الدليل على صدق الله فى القرآن ، ذلك أن بعضهم يجهل مسألة القرآن كلها ، ولكن الحق سبحانه وتعالى أجرى على لسان رسوله حديثاً يشرح لنا حقيقة إثبات صحة كل ما فيه ولو جاء على لسان رجل فاجر ، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(إن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر)[1] .

فسبحانه ـ إذن ـ أراد أن ينصر الدين بالكافرين ، وجعل بعضاً منهم يصلون إلى أشياء لو أنهم علموا أنها ستخدم قضايا الهدى لما أعلنوها . ومن حكمة الله أن جعل الكافرين غير قادرين على إغفال نصرة الدين ، وجعل سبحانه بعضاً منهم يخدمون

(١) رواه البخارى فى الجهاد والقدر ، ورواه مسلم فى الإيمان ورواه أحمد ، والدارمى فى السيرة .

الدين على رغم أنوفهم . ونريد أن نأخذ من هذه المسألة فهماً عميقاً ، يتسم باللطف والسماحة ، فإذا كان الله قد خلق الإنسان الأول من طين ، وهناك آية أخرى قال عنها الحق :

﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الحجر)

وآية ثالثة قال فيها سبحانه :

﴿ كُن فَيَكُونُ ﴾

(من الآية ٤٧ سورة آل عمران)

إذن فخلق آدم احتاج إلى أمرين : النفخ من روح الحق ، والأمر « كن » ، وهما الأمران أنفسهما فى مسألة خلق عيسى ، روح من الحق ، وكلمته التى ألقاها إلى مريم ، وهذه دليل صدق لقوله الحق :

﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ﴾

(من الآية ٥٩ سورة آل عمران)

والحق قد قص لنا أنه خلق آدم من طين وصنع القالب وسواه بيديه :

﴿ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ ﴾

(سورة ص)

فإذا كان الهيكل الذى خلقه الله ونفخ فيه الروح ، ودبت فيه الحياة ثم تناسل النسل من آدم إلى أن تقوم الساعة ، فهل مجىء عيسى على الصورة التى جاء بها يكون أمراً عسيراً على الله ؟ . لا . وساعة أنجب آدم أول ذرية له ؛ ألم يخرج لحظتها حيوان منوى من آدم إلى البويضة فى رحم حواء ؛ وأراد به الله ميلاد أول نسل من آدم وهو جزء من آدم ، وهذا الحيوان المنوى له مادة وله حياة ، ومادته معروفة ، وحياة هذا الحيوان المنوى هى التى تسمح له بالحركة لتلقيح البويضة ، هذه المادة مخلوقة من آدم ، والحياة التى فيه من روح آدم ، وآدم نفسه خلقه الله بيديه ، وهذا إثبات أن الحيوان المنوى هو جزء مما خلقه الله بيديه وهو آدم ، وفى الحيوان المنوى حياة مما نفخه

الله من روحه ، وانتقل إلى رحم حواء وأخصب البويضة وولدته حواء ، واستمر ميلاد حيوانات منوية حية تخصب بويضات حية ليستمر الخصب والنسل والأحفاد .

إننا إذا سلسلنا نسل آدم إلى أن تقوم الساعة ، فكل ذرة من ذرات من يوجد آخر الدنيا مكونة من شيء به خلق من خلق الله فى القالب ، وفيه شيء من نفخ الله فى الروح ؛ ولم يطرأ عليه موت أبداً ؛ فلو طرأ عليه موت أو فناء لما صلح أن ينجب مثله . وهكذا نعلم أن كل واحد فينا به جزء من القالب الذى صنعه الله بيديه ، وفيه جزء من نفخ الروح .

وأكرر المثل الذى أضربه دائماً ليستقر فى أذهان الناشئة ؛ لو جئنا بسنتيمتر مكعب من سائل ملون مركز ، وأضفناه إلى لتر من الماء ، ثم أخذنا قطرة من لتر الماء سنجد بها جزءا ضئيلاً من السنتيمتر المكعب الملون . وإذا أخذنا هذه القطرة وأضفناها إلى برميل من المياه فيصير فى البرميل جزء من السنتيمتر المكعب الملون . وإذا أخذنا من البرميل قطرة من المياه ، وأضفناها إلى البحر فإن جزءا من السنتيمتر الملون يصير بالبحر . إذن فكل نسل آدم ـ إلى أن تقوم الساعة ـ فيه جُزَىْء ـ من آدم عليه السلام .

ونلحظ أن كثيراً من المفكرين والمثقفين فى الغرب صاروا يبتعدون عن فكرة بنوة عيسى لله . وعندما يدخلون فى نقاش حول هذه المسألة يقولون:إنها بنوة حب . وإذا كانت المسألة بنوة حب ، فالله يحب جميع عباده ونصير نحن مثل المسيح ويصير المسيح مثلنا . فالخلق كلهم عيال الله ، والحديث القدسى يقول :

(الناس كلهم عيال الله وأحبهم إلى الله أنفعهم بعياله)[1] .

ولو أخذنا هذا القول بالدقة التجريبية المعملية نجد أن هذا القول صدق وحق ؛ لأننا جميعاً قد صدرنا عن قدرة الله وإرادته وكل منا فيه شيء من صنع الله منذ بداية خلق آدم ، إذن هو بشر مثلنا ويتميز عنا بأن السماء اختارته رسولاً . أما القول بالثالوث . فبعضهم يقول : نقصد بالثالوث ثالوث الصفات . وهل ثالوث الصفات

(١) رواه ابن عدىّ عن ابن مسعود . ورواه مسلمٌ فى العتق .

تأتى فيه إضافيات ؟. كالقول « بالآب والابن والروح القدس » ؟ لن يوجد أب إلا إذا وُجد ابن ، ولن يوجد ابن إلا إذا وجد أب .

إننا نعلم أن هناك حقائق ثابتة وهناك حقائق إضافية ؛ فالإنسان يكون ابناً وأباً ، فهو ابن بالنسبة لوالده ، وهو أب بالنسبة لابنه ، وكل هذه صفات إضافية ، وصفات الحق يُفترض فيها أنها تجتمع لا أن تكون إضافية ، وعندما يقال : « الأب والابن والروح القدس » فهذا القول لا يحمل صفات إلهية ، بل صفات إضافية ، وحاول بعضهم أن يقول : « إن فاتحة الكتاب يوجد فيها التثليث ؛ لأنكم تقولون بسم الله الرحمن الرحيم ، أنتم تفتتحون القرآن بثلاث صفات هى الله والرحمن والرحيم » وقلت لهم : نحن نقول « بسم الله الرحمن الرحيم » ولا نقول « بسم الله و الرحمن والرحيم » .

وما الذى يجعل الحق يُنجب ابناً منذ أكثر من ألف وتسعمائة سنة ؟. ثم يترك سبحانه الأزمان السابقة على ميلاد المسيح محرومة من ميلاد ابن له ؟. لماذا يترك الله الأزمان كلها بدون ابن لله ، ويختص البشرية بابن له منذ حوالى عشرين قرناً فقط ؟. ثم ما المدة الزمنية التى شرفها الله بابنه بأن أوجده فيها ؟

أتكفى ثلاثة وثلاثون عاماً فقط ـ وهى عمر المسيح ـ لتشريف البشرية بوجود ابن الله ؟. ولماذا يحرم الله ـ إذن ـ بقية الأزمان من بدء الخليقة إلى يوم القيامة من هذا الشرف ؟.

ونسأل أيضاً لماذا يريد أى كائن إنجاب ابن ؟. إنه يرغب ذلك ليضمن استبقاء الحياة ؛ لأن الإنسان يعرف أنه سيموت ، والحق سبحانه وتعالى هو الذى خلق الموت والحياة وهو الباقى أبدا ، وليس فى حاجة لاستبقاء حياته فى أحد من البشر . ويؤكد لنا ذلك فى سورة الإخلاص .

﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌ ۝٤ ﴾

(سورة الإخلاص)

وهم يقولون:« إله واحد » ، ومرة أخرى يقولون:« إله أحد » . وواحد لا تساوى « أحد » والدارسون للغة والمنطق يعرفون أن هناك شيئاً اسمه « الكل » وشيئاً اسمه « الجزء » وشيئاً اسمه « الكلى » وشيئاً اسمه « الجزئى » .

« فالكلى » يطلق على ماله أفراد مثل الإنسان : كخالد ومحمد وعلىّ ، و« الكل » يُطلق على ماله أجزاء ، مثال ذلك الكرسى نجده مكوناً من أشياء ؛ كالخشب والغراء والمسامير وغير ذلك من مواد . فالكرسى ـ إذن ـ « كُلّ » لأنه مصنوع من مواد كثيرة . وحقيقة الخشب تختلف عن حقيقة المسمار ؛ لذلك فالكرسى « كُلّ » لأنه مكون من أشياء كثيرة مختلفة الحقائق . ولا يصح أن نطلق على أى شىء من مكونات الكرسى اسم « كُل » . فلا نقول:« المسمار كرسى » أو « الخشب كرسى » ؛ لأن الكرسى يُطلق على مجموع الخشب والمسامير والغراء والطلاء فى شكل وترتيب معين .

ومثال آخر ، كلمة « إنسان » وهى كلمة تطلق على كثيرين ، ولأن الحقائق متفقة نطلق على الإنسان كلمة « كُلّى » .

ويصح أن نطلق على أى كائن يتمتع بالصفات المتفق عليها للإنسان لقب إنسان ، فنقول محمد إنسان وزيد إنسان ، وعلىٌّ إنسان . « فالكل » له أجزاء ، وللـ« كلى » جزئيات ، ويكون الكل شيئا واحداً ولكنه ذو أجزاء ، فقد يكون عندنا كرسى واحد . ولكن لهذا الكرسى أجزاء .

وهل نقول على الحق سبحانه وتعالى :انه « كل » أو « كلى » ؟. لا نقول على اسم الحق « كل » أو « كلى » ؛ لأنه اسم لا يطلق على كثيرين فليس كليا لأنه واحدٌ ، وليس له أجزاء ؛ لأنه أحد ، وليس له أفراد لأنه واحد . فلا يقال لله سبحانه وتعالى « كل » أو « جزء » أو « كلى » أو « جزئى » ، فلو كان كُلّياً لكان ـ كما قلنا ـ له أفراد ولو كان « كُلًّا » لكان له أجزاء ، ولكن الله واحد لا أفراد له ، وأحد لا أجزاء له .

ولذلك يَرُدُّ القرآن على أى قائل بغير هذا ، فيقول :

﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ﴾

(سورة الإخلاص)

ويقول أيضاً :

﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ﴾

(من الآية ١٦٣ سورة البقرة)

وقد قلت كل ذلك لنفهم قوله الحق :

﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ ۚ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ۖ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ ۚ انتَهُوا خَيْرًا ﴾

(من الآية ١٧١ سورة النساء)

وقوله الحق:« انتهوا » أي اقضوا على كلمات الباطل ، و« خيراً لكم » أى تمسكوا بكلمات الحق ، وفى قوله:« انتهوا خيراً لكم » تخلية وإبعاد لكلمات الباطل ، نأخذ ذلك من قوله : (انتهوا) وتحلية لكلمات الحق ونأخذها من قوله ـ سبحانه ـ : (خيراً لكم) .

ويقول الحق : « إنما الله إله واحد » أى أنه سبحانه لا أفراد له ، ويضيف : « سبحانه أن يكون له ولد » ، وساعة نسمع كلمة « سبحانه » فلنفهم أنها تنزيه للذات الخالقة .

ولذلك نجد كلمة « سبحانه » تأتى فى الأمور العجيبة التى يقف فيها العقل ، وعلى الرغم من وجود كفار فى هذا الوجود ، وعلى الرغم من وجود مجترئين على الله فى هذا العالم ، وعلى الرغم من وجود من ينعتون البشر بألفاظ الألوهية ، إلا أن إنساناً واحداً لم يجترىء على أن يقول لمخلوق كلمة:« سبحانك »،ولذلك نقول لله عز وجل « سبحانك أيضاً فى سبحانك » . كذلك لم نجد أحداً من أى ملة أو عقيدة أو دين قد سمى نفسه باسم « الله » ، وهو سبحانه يتحدى به حتى الكفرة والملاحدة أن يسمى هذا الاسم لمسمى أى مسمى . وبالله هل يوجد واحد من المتبجحين الكافرين يسمى ابناً له « الله » ؟.

حتى هذه لم توجد ؛ لأن هذا الكافر غير واثق أنه على حق . ومن الجائز أن يفعل ذلك فتحدث له كارثة . ولو كان هناك كافر واحد مؤمن بما يقول بأنه لا إله لهذا الكون لسمّى ابناً له « الله » . لكن أحداً لا يجترىء على هذه :

﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾

(من الآية ٦٥ سورة مريم)

وكان هذا التحدى موجوداً من قبل أن تنزل هذه الآية . فماذا عن الذى جاء بعدها بزمن ؟ وهل اجترأ أحد على أن يسمى ابناً له « الله » ؟ لم يجترىء أحد على هذه أيضاً على الرغم من أنهم يسمون بكل شىء ؛ وكان عندنا فى القرية واحد أطلق على ابنته اسماً طويلاً عجيباً . لقد سمّاها « ورد انتشى فى دندشة روح الفؤاد والملك وفا » وهو حرّ فى ذلك ، لكن لم يجرؤ أحد على الإطلاق أن يسمى ابنه « الله » ، وهذا دليل على أن الملاحدة والكفار على باطل . ويخاف أى منهم أن يجترىء على هذه المسألة ، ويتحدى الحق بسبحانك ويتحدى بالذات « الله » ، ولذلك فليقل كل واحد « سبحانك » وهو مطمئن ، « ولا تقال إلا لك » ، واستقرئوا وتتبعوا المدائح التى قيلت للناس جميعاً ، أقال واحد من البشر لواحد من البشر « سبحانك » ؟

ما قالها أحد قط . وهكذا يتحكم الله فى أمر للإنسان اختيار فيه ، ولا يجرؤ إنسان على إطلاق هذه الأسماء على أحد من البشر . « إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد له ما فى السموات وما فى الأرض » و« الولد » كما نعلم يكون مما فى السموات أو مما فى الأرض ؛ فكيف يكون له وملكه ، وهو ابنه ؟ إن هذا الادعاء لا يستقيم أبداً ، ولذلك يذيل الحق الآية : « وكفى بالله وكيلا » .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾﴾

مصدر الشرف للإنسان أن يحس ويشعر بتجلى الله عليه بعبوديته له ، وسبحانه عندما أراد أن يتجلى على نبينا الخاتم صلى الله عليه وسلم ويسرى به إلى المسجد الأقصى ؛ قال :

﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ ﴾

(من الآية ١ سورة الإسراء)

ولم يقل :« سبحان الذى أسرى برسوله » ولكنه قال : « سبحان الذى أسرى بعبده » ؛ لأن « العبودية » عطاء علوى من الله ، فكأن سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم عندما تناهى فى العبودية لله نال تناهى الخير ، فمن إذن يستنكف أن يكون عبداً لله ؟ لا يستنكف المسيح ذلك ، وكذلك الملائكة لا تستنكف أن تكون عبيداً لله . « ولا الملائكة المقربون » ويسمون ذلك ارتقاء فى النفى ، مثلما يقول فلاح : لا يستطيع شيخ الخفر أن يقف أمامى ولا العمدة .

إذن فالملائكة فى الخلق أحسن من البشر . ولذلك قال الحق : « لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون » وقال بعض العلماء : إن خواص البشر أفضل من خواص الملائكة ، وعوام الملائكة أفضل من عوام البشر والأصل فى اللغات أن توضع الألفاظ أولاً لمحسّات ، ثم تنتقل من المحسّات إلى المعنويات ؛ لأن إلف الإنسان فى أول تكوين المدركات له إنما يكون بالحسّ ، كما قال الحق :

﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾

(سورة النحل)

إذن مادام سبحانه قد قال : « لا تعلمون شيئا » فالذى يأتى من بعدها إنما يأتى كوسيلة للعلم ، وهى حواس السمع والإبصار والقدرة على تكوين الخبرة . ومثال ذلك عندما ندرس فى الفقه موضوع الغصب . والغصب هو أن يأخذ أحد حق غيره قهراً وعلانية ، وهو غير السرقة التى يأخذها السارق خفية . وغير الخطف ؛ لأن الخطف هو أن تمتد يد لتشد شيئاً من أمام صاحبه ويجرى الخاطف بعيداً ، أما الغصب فهو الأخذ عنوة .

وكلها ـ الغصب ، والسرقة ، والخطف ـ هى أخذ لغير الحق . والغصب مأخوذ من أمر حسىّ هو سلخ الجلد عن الشاة . وسُمِّىَ أخذ الحق من صاحبه غصباً ، كأنه أخذ للجلد . ونقل المعنى من المحسّات إلى المعنويات . وفى الآية التى نحن بصددها يقول الحق : « لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون » . و« يستنكف » مثلها مثل « يستفهم » ، ومثل « يستخرج » .

إذن فهناك مادة اسمها « نكف » ، و« النُّكْف » عملية حسّية تتمثل فى أن يزيل الإنسان دمعة العين بأصبعه . ولنفرض أن إنساناً يعلم أن له كرامة فى البيت وجاء له ظرف نفسى جعله يبكى ، فدخل عليه ابنه أو زوجته ، فهو يحاول إزالة الدمع بأصبعه . « واستنكف » معناها أزال « النُّكْف » . والنكف معناه أن يزيل الدمع بأصبعه . وإزالة الدمع بالأصبع تعنى أن صاحب الدمع يستكبر أن يراه أحد باكياً لأنه مقهور على أمر قد كان ، وهذه العملية لا تحدث إلا عندما يريد الإنسان أن يستر بكاءه عن أحد .

وانتقلت هذه الكلمة من المعنى الحسىّ إلى أى مجال فيه استعلاء ، مثلما يستنكف إنسان أن يسير فى طريق إنسان آخر ، أو أن يجلس مع آخر ، أو يجلس فى مقعد أقل من مقعد آخر .

ويشرح ذلك المعنى الدارج بأن المسيح لا يجد غضاضة أن كان عبداً لله ، ولا يستكبر على ذلك بل هو يُشرف به . والملائكة المقربون أيضاً تشرف بهذا الأمر ، والملائكة المقربون هم الذين لا يعلمون شيئاً عن هذا العالم وليس لهم عمل إلا التسبيح لله ؛ لأنهم عرفوا العبودية لله . وهى عبودية ليست لمن يَسْتَذِل ، لكنها لمن يُعزّ ، وليست عبودية للذى يأخذ ولكنها للذى يعطى . والذى يستنكف من ذلك لا يعرف قيمة العبودية لله ؛ لذلك لا يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ، ولا الملائكة المقربون .

ويضيف الحق : « ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعاً » المستنكفون ؛ أو الذين على طريقة الاستنكاف ، ومن يشجعهم على ذلك ، كل هؤلاء يصيرون إلى جهنم .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٣﴾ ﴾

لماذا لم يأت الله بشرط الآية الثانى الذى يتحدث عن المستنكفين والمستكبرين مقدماً على شطر الآية الأول ؟. ولماذا لم يواصل الحديث عن الذين استنكفوا واستكبروا ليستكمل ما جاء بشأنهم فى الآية السابقة ويبيّن كيف أن مصيرهم إلى العذاب حيث لا يجدون من دون الله ولياً ولا نصيراً ، ثم بعد ذلك يحدثنا عن الذين آمنوا وعملوا الصالحات ؟.

ذلك أن الحق ساعة يتكلم عن جماعة خرجت عن المنهج فهو لا يمنحهم ثواب هؤلاء الذين لم يخرجوا عن المنهج ، فيأتى أوّلاً بثواب الطائعين ليستشرف إليه الخارجون عن طاعة الله ، ثم يحرمهم من هذا الثواب لتكون حسرة الخارجين عن المنهج أشد . « والضد يظهر حسنه الضد » .

لقد قال الحق : « فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله » ونعلم أن الأجر على العمل . لماذا الفضل إذن ؟. لقد عرفنا من قبل أن العمل جاء فيه حديث شريف :

(لن يُدخل أحداً عمله الجنة ، قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : لا ، ولا أنا إلا أن **يتغمدنى الله بفضل ورحمة ، فسددوا وقاربوا ولا يتمنين أحدكم الموت ، إما محسنا**

فلعله أن يزداد خيرا ، وإما مسيئا فلعله أن يستعتب)[١] .

والحق قد قال :

﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ ﴾

(من الآية ٥٨ سورة يونس)

وفطن الناس إلى ذلك فقالوا : « اللهم بالفضل لا بالعدل » ؛ لأن الفضل هو الذى يعطينا المنازل المتميزة ، وقد يضيعنا العدل .

ويقول الحق مرة أخرى عن هؤلاء الذين استنكفوا واستكبروا : « وأما الذين استنكفوا واستكبروا فيعذبهم عذاباً أليماً ولا يجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيراً » أى أنهم لن يجدوا من يشفع لهم عند الله ، ولا من ينصرهم ولا أحد بقادر أن يرد عنهم العذاب .

وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَـٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ ﴾

والبرهان هو الإعجاز الدال على صدق المبلغ الأخير عن الله ، وهو الحجة الدامغة .

وقد يقول قائل : ما هو البرهان وما هو النور ؟ . ونعلم أن كل رسول يأتى بمعجزة تثبت صدق بلاغه عن ربه قد تكون المعجزة بعيدة عن المنهج ، ثم يعطيهم الرسول المنهج ببلاغ من الله ؛ مثال ذلك أن معجزة سيدنا موسى كانت العصا لكن منهجه هو التوراة . إذن فالمعجزة هى البرهان على صدق الرسول فيما بلغ عن ربه ، وقد

(١) رواه البخارى فى كتاب الطب . والرقاق ، ومسلم فى المنافقين ، وابن ماجه فى الزهد والدارمى فى الرقاق ، وأحمد .

لا يكون للمعجزة صلة بالمنهج ، فعيسى عليه السلام كانت معجزته إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله ومنهجه الإنجيل .

أما رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم وهو النبى الخاتم فقد تجلت معجزته فى أنها عين منهجه ، إنّها القرآن ولم تنفصل المعجزة عن المنهج ؛ لأنه رسول عام إلى الناس كافة وإلى أن تقوم الساعة . هذا هو البرهان . أما « النور » فقد جاء أيضاً من أمر حسّى ؛ لأن النور يمنع الإنسان من أن يتعثر فى مشيته أو أن يخطىء الطريق أو أن يصطدم بالأشياء فيؤذيها أو تؤذيه . إذن النور الموجود فى القرآن هو حقائق القيم ، أما نور الله فى الماديات فهو أمر معروف للكافة .

ومن بعد ذلك يقول الحق :

﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾ ﴾

لقد آمنوا بالله واعتصموا به ، ما معنى الاعتصام ؟ . قديماً كان الرجل عندما يقع فى هوة يصرخ ليجذبه إنسان خارج الهوة بيده ، وهذا هو الأصل فى الاعتصام ، أى يستمسك الإنسان بمن ينقذه من هاوية أو كارثة ، والحق يعطى الأسباب ، فإذا جاءت الشمس وسار فيها إنسان فقد أعطاه الله الشجرة ليستظل بها . وإذا ما نزل المطر فيمكن أن نستتر منه بمظلة ، وإذا عطش إنسان فالله يعطيه سبباً ليأخذ كوب ماء ، والعاقل هو الذى يذكر عند كل سبب من أوجد السبب .

فإياك أيها المؤمن أن تغتر بالأسباب ؛ لأن عدم الاغترار بالأسباب يحمى الإنسان . فعندما تأتيه أمور فى ظاهرها شر ، فمادام مجريها عليك هو الله فهى خير بالتأكيد ، لكنك لا تعلم .

وما أضل علم الإنسان فى كثير من المسائل ؛ فالإنسان قد يحسب أمرا أنّه هو الحسن ، فيظهر له بعد حين أنه السوء ، وقد يعتبر إنسان أمرا هو السيىء ، فيظهر له بعد حين أنه الحسن ، ولا يوجد واحد منا إلا وفى حياته أشياء كان يظنها خيرا ؛ فإذا بها شر ، أو كان يظنها شراً فإذا بها خير . والشر هو ما يأتيه الإنسان لنفسه بعمله ، أما الأمور التى تقع على الإنسان فحكمتها تمشى على مقتضى علم الله لا على مقتضى هوى البشر .

إننا نجد من يقول : إننى أدعو الله بكذا ولا يستجيب لى . ونقول : إنك تدعو بأشياء تظنها الخير لك ؛ لكن الله يعلم أن هذه الأشياء ليست هى الخير ؛ لذلك لا يعطيها لك ، فإن كنت مؤمناً بالله ومعتصماً به فأنت تهمس لنفسك : ألِيَ فى هذا الأمر مدخل أم لا مدخل لى فيه ؟ . فإذا كان لك فيه مدخل فاللوم على نفسك . وإن كان الله قد أجراه عليك فهو خير لك ولله حكمة فى ذلك .

وحَظِّى من الدنيا سواء لأننى
رضيت بحكم الله فى العسر واليسر
فإن أقبلت كان الجزاء على النجا
وإن أدبرت كان الجزاء على الصبر

« فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم فى رحمة منه وفضل ويهديهم إليه صراطاً مستقيماً » . ومادامو قد آمنوا بالله واعتصموا به فسيهديهم صراطه المستقيم ، وعاقبة الهداية وثمرتها فسرها وبيّنها قوله الحق :

﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾ ﴾

(سورة محمد)

وقال لنا الرسول صلى الله عليه وسلم :

(من عمل بما عَلِم ورّثه الله عِلْمَ ما لم يعلم)[1] .

أى يصير مأموناً على العلم ؛ لأن العلم الذى أخذه عن الله وظَّفه فى خدمة غيره ،

(١) أبو نعيم فى الحلية ، اتحاف السادة المتقين للزبيدى ، ورواه السيوطى فى الدرّ المنثور والقرطبى فى التفسير ، والفوائد المجموعة للشوكانى .

ولم يدخره أو يعطله . ويختتم الحق سبحانه وتعالى سورة النساء بقوله :

﴿ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ ۚ إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ۚ وَإِن كَانُوٓا۟ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۗ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿١٧٦﴾ ﴾

والاستفتاء هو طلب الفتيا . ومعناها إرادة معرفة حكم شرعى لله فى أمر لا يجد السائل علماً له فيه . وكان الصحابة يستفتون رسول الله ، مع أنه صلى الله عليه وسلم قال لهم :

(ذرونى ما تركتكم فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم ، فإذا أمرتكم بشىء فأتوا منه ما استطعتم ، وإذا نهيتكم عن شىء فدعوه)[١] .

وجاء القرآن فى كثير من الآيات بـ« يسألونك » . كأن الحق يعلمنا أن الصحابة أرادوا أن يثبتوا أنهم أحبوا منهج الله فأرادوا أن يبنوا حياتهم كلها على منهج الله ، ولو كانوا قد كرهوا منهج الله لما سألوا ، لقد وجدوا أن الإسلام قد جاء ، ووجد أشياء فى

(١) رواه أحمد والنسائى ومسلم وابن ماجه عن أبى هريرة .

الجاهلية وأقرها ، ووجد أشياء قام بتغييرها ؛ ولم يرد الصحابة أن يصنعوا الأشياء على أنّها امتداد لصنع الجاهلية ، بل أرادوا أن يصنعوها على أنها حكم للإسلام ؛ لذلك جاءت أسئلتهم الكثيرة . والفتوى تكون فى حكم . والسؤال يكون فى حكم وفى غير حكم . وهم يطلبون الفتوى فى الكلالة ، ودقة القرآن فى إيجاز السؤال : « يستفتونك قل الله يفتيكم فى الكلالة » وقد تقدم من قبل الحديث عن الكلالة :

﴿ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَـٰلَةً ﴾

(من الآية ١٢ سورة النساء)

إلا أن الذى تقدم هناك كان عن الصلة من ناحية الأم ، وسؤال جابر بن عبدالله كان عن الصلة من ناحية الأب .

فعن جابر بن عبدالله ـ رضى الله عنه ـ قال :

(مرضت مرضا فأتانى النبىّ ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأبو بكر وهما ماشيان فوجدانى أغمى علىّ ، فتوضأ النبىّ ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثم صبّ وَضوءه علىّ فأفقت فإذا النبىّ ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقلت يا رسول الله كيف أصنع فى مالى ؟ كيف أقضى فى مالى ؟ فلم يجبنى بشىء حتى نزلت آية الميراث »[1] .

وفى رواية أخرى عن الإمام أحمد فقلت : إنه لا يرثنى إلا كلالة ، فكيف الميراث ؟ فأنزل الله آية الفرائض . وبعض العلماء قال : إن كلمة « كلالة » مأخوذة من كلال التعب ؛ لأن الكلالة فى الشرع هو من ليس له ولد ولا والد ، والإنسان بين حياتين ؛ حياة يعولها والد ، وعندما يكبر ويضعف تصير حياته يعولها ولد ؛ لذلك فالذى ليس له والد ولا ولد يعيش مرهقاً ؛ فليس له والد سبق بالرعاية ، وليس له ولد يحمله فى الكبر ؛ لذا سمى بالكلالة .

وبعضهم قال : إنها من الإكليل ؛ أى التاج . وهو محيط بالرأس من جوانبه والمقصود به الأقارب المحيطون بالإنسان وليس لهم به صلة أعلى أى من الآباء ، أو من أدنى أى من الأبناء .

١ ـ أخرجه البخارى .

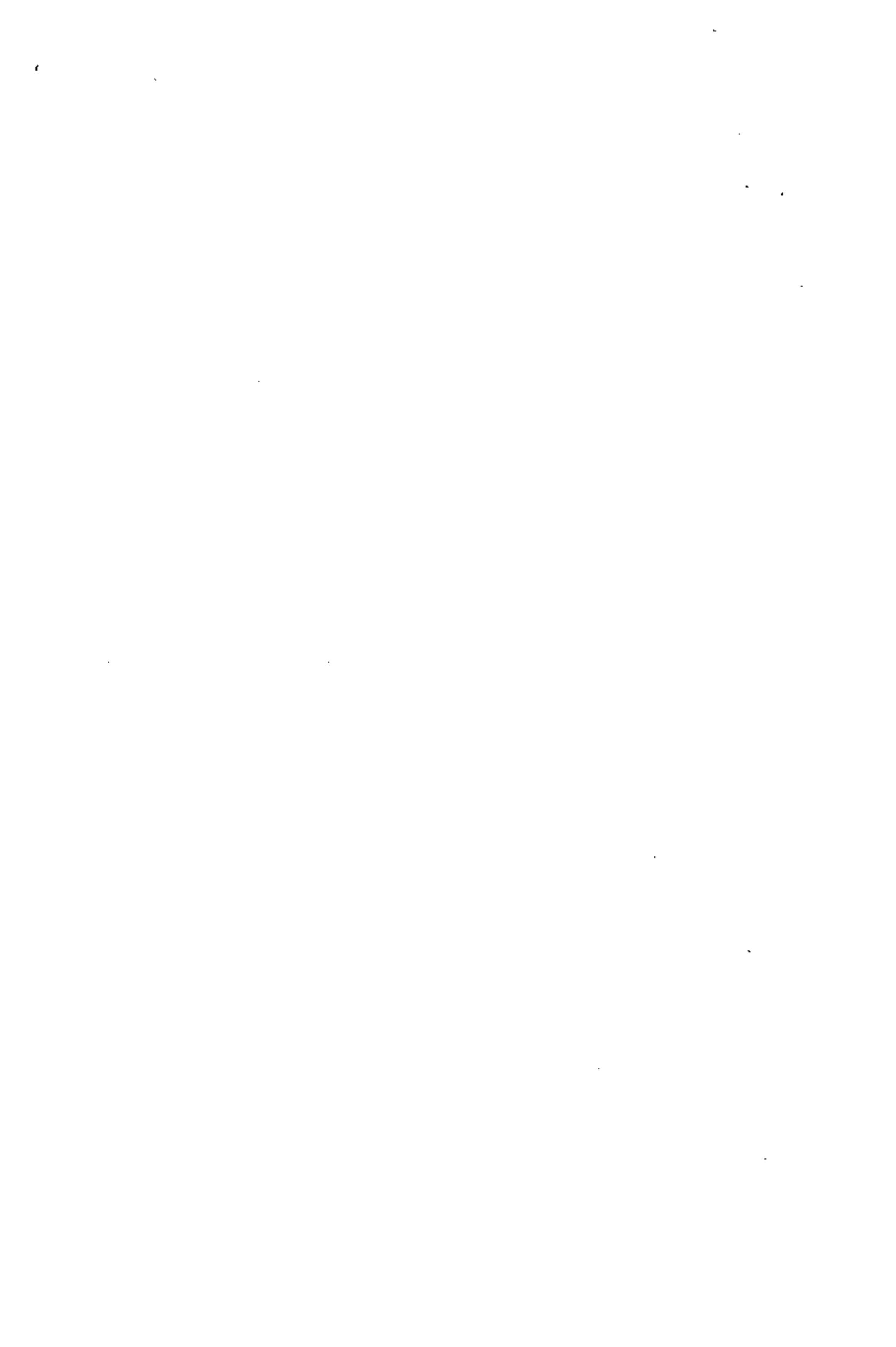
« إن امرؤ هلك ليس له ولد وله أخت فلها نصف ما ترك وهو يرثها إن لم يكن لها ولد » أى إن الكلالة هى أن يموت أحد وله أخت شقيقة أو أخت من أب فهى ترث النصف ؛ وإذا ماتت هذه الأخت فالأخ يرثها سواء أكان شقيقاً أم أخاً لأب . وإن ترك الرجل الكلال أختين أو أكثر فلهما الثلثان مما ترك ذلك الأخ . وإن كان له إخوة من رجال ونساء ، فها هوذا قول الحق : « وإن كانوا إخوة رجالاً ونساء فللذكر مثل حظ الأنثيين » . أى أن للذكر من الإخوة مثل حظ الأنثيين .

ويختم الحق الآية : « يبين الله لكم أن تضلوا والله بكل شىء عليم » .

أى أنه الحق يبين أحكامه خشية أن يصيب القوم الضلال . وقد علم سبحانه أزلاً بكل سلوك ، وكل خافية ، وهو العليم أبداً بما ينفع الناس جميعاً . وبذلك انتهينا بعون الله من خواطرنا فى سورة النساء .




سُورَةُ المَائِدَةِ



نستقبل الآن سورة المائدة التى تلى سورة النساء فى الترتيب المصحفى . ونعلم أن القرآن له ترتيبان ؛ ترتيب نزول ، وترتيب مصحف . وربما يحلو لبعض الناس الذين يحاولون أن يأخذوا على الإسلام شيئاً أن يقولوا : لماذا لم يرتب القرآن حسب نزوله بحيث يبدأ بأول آية نزلت منه ، وينتهى بآخر آية نزلت فيه ؟

ونقول : نزل القرآن لا كتاب منهج فقط ، لكنه منهج ومعجزة ، ورسالته صلى الله عليه وسلم جامعة لجميع الأمم فى جميع العصور إلى أن تقوم الساعة ؛ لأنها جامعة ومانعة فلن يأتى بعد الرسول رسول ؛ لذلك ينفرد صلى الله عليه وسلم بمعجزة تبقى بقاء رسالته إلى أن تقوم الساعة ، وبمنهج يغطى كل أقضية الحياة إلى أن تقوم الساعة .

وكان الرسل يرسلون إلى أمم مخصوصة فى أمكنة مخصوصة لزمان مخصوص ؛ لأن العالم كان فى شبه انعزال لعدم وجود الآلات التى تيسر الالتقاء بين الناس ، وشاء الله سبحانه أن يختم الرسالات برسالة محمد صلى الله عليه وسلم لتكون على موعد مع رشد العقل البشرى فى أن يجعل العالم كله وَحدة بحيث إن ظهر داء فى الشرق فهو ينتقل إلى الغرب فى الوقت نفسه ولذلك يجب أن يكون العلاج والمعالج واحداً .

أما رسولنا صلى الله عليه وسلم فقد انفرد بمعجزة تبقى ، وتظل موجودة مع المنهج ، ليستطيع كل متبع لرسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقول : منهج الإسلام هو القرآن ومعجزة نبى الإسلام هى القرآن ، لكن لو جاءت المعجزة على طبيعة وطريقة ونمط المعجزات السابقة لإخوانه السابقين من الرسل لانتهت بانتهاء زمانها بحيث تصبح خبراً وتاريخاً ، ونحن نعلم أن البحر قد انشق لموسى نعرفه خبراً ولكن لم نشهده مشهداً ، ونعرف أن عيسى عليه السلام أبرأ الأكمه والأبرص وأحيا الموتى بإذن الله ، ولكننا لا نرى ذلك الآن إلا خبراً ، ولولا أننا نؤمن بالقرآن ، وهو الذى قصّ علينا مثل هذه الأمور ربما كنا نتوقف فيها .

والذين يقولون إن الإعجاز كان للبلاغة والفصاحة وللمنطق وللبيان وأمة العرب أمة بيان نقول : لقد فاقت هذه المعجزة ما كان لدى العرب من بلاغة وفصاحة وأعجزهم وأفحمهم القرآن ، وعندما نقلنا المنهج إلى الإنجليز أو الفرنسيين أو الألمان أو إلى الإيطاليين أو إلى أية أمة من العالم ظل المنهج على إعجازه .

وهكذا نرى أن الله قد أراد أن يكون فى القرآن جانب يظل معجزاً لكل الأقوام ، وهى المعجزات التى لا تختلف فيها اللغات ولا تختلف فيها الأمم ، وهى المعجزات العقلية ، بمعنى أن يخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أمته الأمية ، وهو الأمى لم يُعرف له نشاط فى علم ولا نشاط فى ثقافة ؛ ويأتى بأشياء تتحقق بعد مضى القرون ويعترف بها الذين لا يؤمنون بأنه جاء بها من عند الله .

لقد حاول بعضهم أن يرفعوا محمداً إلى مرتبة الألوهية ؛ ذلك أنه قال بأشياء منذ أربعة عشر قرناً وتتحقق الآن ، لا يقولها إلا عالم بما يكون فى كونه ، ولكنهم عرفوا أن رسول الله أقرّ ببشريته . وينزل بالمنهج مواكبا للأحداث ، وينزل بالمعجزة فى مسألة الكونيات التى تشترك فيها كل الأمم والتى لا تختص بلغة دون لغة .

نزل المنهج ليحكم العالم من أمة أمية ، لم ترق إلى وضع وسنّ قانون أو دستور ولم تتعود على ذلك . فقد كانت أمة من الرُّحل وسكان الصحراء لم يجمعها قانون واحد ، بل كان لكل قبيلة قانون ، ولكل بطن قانون ، ولكل أسرة فى كل بطن قانون . وجاء الرسول مبعوثا من عند الله إلى الأمة الأمية لينشىء لها منهجاً يغطى كل أقضية الحياة إلى أن تقوم الساعة . وإذا ما فزع قوم من قضية من قضايا مجتمعهم لا يجدون حلاً لها إلا حلاً لو نظرنا نحن إليه لوجدنا أنه إما أن يتطابق مع ما جاء به الإسلام ، وإمّا أنه لا يخرج عن إطار الإسلام وأحكامه .

وإذا كان القرآن فى الأحكام قد جاء حسب الأحداث التى وقعت ، فهذا من إرادة الحق للخير بمن نزل فيهم القرآن . ونجد فى القرآن أسئلة سيتعرض لها رسول الله ، وكثرة الأسئلة التى تعرض لها رسول الله تُعتبر من الظواهر الصحية فى الإيمان ؛ لأن الذين سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن بيان أحكام بأشياء . أرادوا ـ كما قلنا ـ إقامة حياتهم على ضوء المنهج الذى عشقوه ، ولم يكونوا كبنى إسرائيل الذين قال رسول الله فى شأنهم :

(إنما أمروا بأدنى بقرة ولكنهم لما شدّدوا شدّد الله عليهم ، وأيم الله لو أنهم لم يستثنوا لما بُيِّنت لهم آخر الأبد)[1] .

---

١ ـ تفسير الإمام ابن كثير .

أى لو لم يقولوا : (وإنا إن شاء الله لمهتدون) . لما اهتدوا إلى تلك البقرة .

وهناك أشياء أقرّها الإسلام كما كانت فى الجاهلية لأنها أمور عقلية ومنطقية ؛ لأن الإسلام لم يأت ليزيل نظماً عاصرها ، وإنما جاء ليزيل الفساد فقط . أما الصالح بطبيعته فليبق . وإن لم يكونوا قد اهتدوا إليه فالإسلام يشرح لهم الأمر ؛ لذلك كان لابد أن ينزل نص قرآنى لكل أمر كبير فى حياتهم ، وحين يجىء النص القرآنى بعد أن تتطلبه الأحداث ، يتمكن فى القلوب . وضربنا مثلاً لذلك :

هب أن رجلاً لديه صندوق أدوية بالمنزل ، وطرأ على بعض أهله حالة صحية تستدعى دواءً معيناً ؛ ولأن الرجل لا يعرف موضع هذا الدواء ، فإنه يبحث محتويات الصندوق جميعاً ليهتدى إلى الدواء المطلوب ، وقد يمضى وقت طويل ولا يهتدى إلى ما يريد . لكن لو أن هذا الرجل لا يملك أى دواء بالصندوق ، وأصاب ابنه صداع يسير فإنه يطلب أن يشتروا له قرصاً من الأسبرين من الصيدلية . فهذا القرص قد جاء لحالة الصداع وعلاجها وانتهى الأمر .

إذن فعندما يأتى الحل عند وقوع الحادثة فهو تثبيت لليقين . وقد يكون الحل موجوداً فى القرآن . لكنه يغيب عنهم ولا يستطيعون الوصول إليه . ولهذا ترك الحق الأحداث تجرى وجعلهم يلتفتون ويتجهون إلى السماء لتنجدهم بالحل . ويأتى الحل عند الحادثة فلا يصير فى الأمر خلاف أو تعب . لذلك كان لا بد أن يكون للقرآن نزول حسب الأحداث ، وحين تتم الأحداث ويتم المنهج بعد ثلاث وعشرين سنة من بدء نزول القرآن يشاء الله سبحانه أن يكون ترتيب القرآن ترتيباً مصحفيا .

إن كلا من الترتيب المصحفى والترتيب النزولى يعطى معجزة للقرآن ولمحمد صلى الله عليه وسلم ؛ فيه سور طوال ، وآيات كثيرة ، ويعلمه جبريل : ألحق هذه الآية بالمكان الفلانى . ويقرأ النبى هذه الآيات فى الصلاة ويزيد عليها الآيات الجديدة ، وتتجلى عظمة الرسول حين يصلى بالآيات ويزيد عليها بما نزل عليه ، وتلك مسألة مقصودة . ويقف رسول الله صلى الله عليه وسلم للصلاة معتمداً على أن الذى أنزل عليه القرآن قال له :

﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝ ﴾

(سورة الأعلى)

وعندما يقرأ الرسول فهو يقرأ الذى نزل عليه فى اليوم نفسه متصلا بما نزل عليه من عام قبل ذلك ، وتلك معجزة بكل المقاييس ؛ لأن الفرد العادى إذا تكلم فى موضوع ما لعشر دقائق ثم يسأله أى فرد من بعد ذلك بساعة : هل تسمح بإعادة ما كنت تقول منذ ساعة ؟ . فإنه لن يستطيع أن يتذكر بالحروف والمعانى ما قاله من قبل . لكن ها نحن أولاء أمام رسول يأمر صحابته أن يكتبوا ويأمر الحافظين للقرآن أن يحفظوا ، ثم يقف فى الصلاة ليقرأ الآية التى نزلت من عام ملحقة بآية نزلت بعدها بستة أشهر ملحقة بآية نزلت بعدها بشهر ، ملحقة بآية نزلت بعدها بالأمس . وكان هذا دليلاً على أن أمر هذا القرآن ليس بيد محمد ، بل بأمر رب محمد صلى الله عليه وسلم ، الذى رتّب حروف القرآن ليقرأها رسول الله صلى الله عليه وسلم مصداقاً لقوله الحق :

﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝ ﴾

(سورة الأعلى)

ويأتى جبريل كل عام ليرتب مع محمد صلى الله عليه وسلم القرآن ويدارسه فى رمضان . ويأتى جبريل فى رمضان الأخير فى العام الأخير من حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم ليعرض عليه القرآن مرتين .

إذن فالمسألة ليست نزول قرآن فحسب ، ولكنها نزول للقرآن ثم ترتيب للقرآن على صورة تخالف الحالة والصورة التى نزل عليها . فلو كان القرآن قد ترتب حسب النزول ، لقال بعضهم إنه مجرد تعبير عن مواقف مختلفة . لكن الحق أراد أن يعيد ترتيب القرآن ليكون معجزة أبدية . فالقرآن ليس بأمر محمد صلى الله عليه وسلم . وكل حرف نزل بهذا الترتيب مقصود به إثبات أن رسول الله صلى الله عليه وسلم هو المبلغ بالقرآن ، فما كان لعقل بشرى أن يرتب هذا الترتيب . بل رتبه الذى أنزل القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم ، إنه الله ـ سبحانه ـ وتعالى جل شأنه .

وهكذا جاءت سورة المائدة بعد سورة النساء فى الترتيب المصحفى ، وعندما ننظر إلى « سورة المائدة » . نعلم أولاً ما معنى المائدة ؟ إنها الخوان عليه الطعام والشراب

أو الطعام نفسه ، وقد سميت بهذا الاسم لأن عيسى عليه السلام دَعَا ربّه أن ينزل مائدة من السماء بعد أن ألح الحواريون عليه بأن ينزلها الله فقال سبحانه حكاية عن عيسى عليه السلام .

﴿ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾

(من الآية : ١١٤ سورة المائدة)

ويختار الحق المناسبة الجميلة فيبدأ سبحانه وتعالى هذه السورة بقوله :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِ ۚ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴿١﴾ ﴾

البداية ـ إذن ـ عن ضرورة الوفاء بالعقود وتحليل تناول بهيمة الأنعام كطعام . وسورة المائدة ـ كما نعلم ـ جاءت فى الترتيب المصحفى بعد سورة النساء التى تتضمن الكثير من العقود الإيمانية ؛ فقد تضمنت سورة النساء عقود الإنكاح والصداق والوصية والدَّين والميراث ، وكلها أحكام لعقود ، فكأن الحق سبحانه وتعالى من بعد سورة النساء يقول لنا : لقد عرفتم ما فى سورة النساء من عقود ، فحافظوا عليها وأوفوا بها .

ونلحظ أن سورة البقرة جاءت بعدها سورة آل عمران ، وفى كلتيهما حديث عن الماديين من اليهود ، وسورة النساء والمائدة تواجه أيضاً المجتمع المدنى بالمدينة بعد أن كان القرآن بمكة يواجه مسألة تربية وغرس العقيدة الإلهية الواحدة والنبوات . وقد خدمت سورة البقرة وسورة آل عمران مسألة العقيدة المنهجية والأنبياء ، وسورة النساء تتضمن حسم العقيدة الحكمية .

وها نحن أولاء أمام سورة المائدة التى يقول فيها الحق : « يا أيها الذين آمنوا أوفوا

بالعقود » والحق يخاطب المؤمنين بالاسم الموصول ، ولم يقل : يا أيها المؤمنون » ، وهذا يدل على أن الإيمان ليس أمراً عابراً يمر بالإنسان فترة من الزمن ؛ ولكن الإيمان أمر يتجدد بتجدد الفعل حتى ينفذ المؤمن الأحكام التى جاء بها العقد الإيمانى . وحين يتوجه الحق بخطابه للذين آمنوا ، إنما يؤكد لنا أنه لا يقتحم على أحد حياته ليكلفه ، وإن كان سبحانه كرب للعالمين قد خلق الخلق وأوجد الوجود وسخرّه للخلق .

الله ـ سبحانه وتعالى ـ لم يستخدم هذا الحق ليأمر البشر بالإيمان ، بل دعا الناس جميعاً أولاً إلى الإيمان ، فمن آمن ينزل إليه التشريف بالتكليف ويكون القول الحق : « يا أيها الذين آمنوا » أى يا من آمنتم بالله إلهاً . والإله لابد له من صفات تناسب الألوهية ، كطلاقة القدرة والجاه والحكمة والقهر . وسبحانه لا يكلف مَن لم يؤمن به ، بل يدعو من لم يؤمن إلى الإيمان ، ولذلك نجد أن كل آيات الأحكام تبدأ بالقول الحق : « يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم » ؛ لأن لكل إيمان تبعة .

« يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود » ونعرف أن اللغة بها أسرة ألفاظ ؛ فـ « أوفوا » على سبيل المثال فيها « وفى » . والمضارع هو « يفى » ، وفى أفعالها « أوفى » و« وفَّى » ، حسب المراحل المختلفة قوة وضعفاً وكثرة وقلة ، مثال ذلك قوله الحق :

﴿ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ ﴾

(سورة النجم)

وقد قام سيدنا إبراهيم عليه السلام بالكثير من الإنجاز :

﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ﴾

(من الآية ١٢٤ سورة البقرة)

ولا بد أن يكون قوله الحق : « وإبراهيم الذى وفَّى » شرحاً لما قام به إبراهيم من مواجهة الابتلاء ،فالتوفية هى الإتمام . والحق يقول : « يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود » أى عليكم يا من آمنتم بالله أن تتموا العقود . والتمام إما أن ينطلق إلى الأفراد ويشملها فلا ينقص فرد ، وإما أن يلتفت إلى الكيفيات فلا تختل كيفية ، هذا هو التمام . وقد يأتى إنسان بكل فصول الكتاب ويقرأها ، فيكون قد وفى قراءة كل الأجزاء ، ولكن الحق يريد أن يتقن الإنسان تنفيذ كل جزئية فى كتاب التكليف .

وسبحانه طلب منا أن نشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وأن نقيم الصلاة وأن نؤتى الزكاة وأن نصوم رمضان وأن نحج البيت إن استطعنا إلى ذلك سبيلا ، وقد يؤدى شخص كل هذه الأعمال وبذلك يكون قد قام بآداء التكليف ، لكن هناك إنسان آخر يؤدى كل جزئية بتمامها فلا يختصر شيئاً منها بل إنّه يوفيها بلا تدليس .

والحق هنا يخاطب المؤمنين : « يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود » أى أننا أمام « إيمان » و« عقد » . وشرحنا معنى الإيمان ، أما العقد فهو العلاقة الموثقة بين طرفين ، وعلى كل طرف أن يلتزم بما عليه وأن يأخذ ما له . وسمى العقد عقداً ؛ لأن العقد هو الربط ، أى شىء لا ينحل من بعد ذلك . ولذلك نسمى ما يستقر فى مواجيد الناس ونفوسهم « عقيدة » . لأنها الأمر المعقود ، وليس الأمر الطارىء الذى يأتى اليوم وينتهى غداً . والشىء المعقود فى نظر الفقه هو الأمر الذى لا يطفو إلى العقل ليُبحث من جديد ، بل إنه مستقر وثابت فى القلب . ويأمر سبحانه بالوفاء بالعقود . والعقود ـ كما نعلم ـ هى جمع لـ « عقد » وبالإسلام عقود كثيرة ، تبدأ بالعقد الأول وهو عقد الذر :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ﴾

(من الآية ١٧٢ سورة الأعراف)

ويريد سبحانه الوفاء بهذا العهد الأول فلا يأتى الإنسان ساعة التطبيق ويفر منها ، ثم نأتى إلى عهد الاستخلاف فى الأرض وبه استخلف فيها آدم وذريته من بعده ، وإياك أن تظن أنك الأصيل فى الكون حين تدوم لك الأسباب وتدين لك بعض الوقت . لا تظن أن الأشياء قد دانت لك بمهارتك أنت فقط ، وحين تبذر البذور فى الأرض وتروى الأرض فاعلم أن الزرع ينبت بتسخير الله أرْضَه لك .

وإياك من الظن لحظة تركب المهر أنك الخيال الفارس الذى روّض المهر ، لا ، إنه تسخير الحق للفرس . ونجد الفرس فى بعض الأحايين يجمح ليقع الفارس من فوق ظهره ، لعلنا ننتبه إلى الجزئية التى لا يصح أن تغيب عنا ، فلو لم يذلل الله الخيل لنا لما استطعنا أن نركبها .

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ۝ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ۝ ﴾

(سورة يس)

وعلى المؤمن أن يتذكر أيضاً أن الحق سبحانه ذلل الجمل لصاحبه ، وجعل الطفل الصغير يأمر الجمل فيرقد على الأرض ؛ ليضع عليه الأحمال الثقيلة ، ويأمره فيقوم . أما إن واجه الثعبان أو الحية فهو لا يجرؤ على تذليلها ، وهذا لفت من الحق للخلق لقدرته المطلقة ؛ فقد ذلل لهم الكبير ، وأفزعهم أضعاف ذلك من الثعبان ذى الجسم الصغير .

﴿ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ۝ ﴾

(سورة يس)

ومن التذليل يأتى رضوخ بقية الكائنات للإنسان ؛ فالحمار عند الفلاح يحمل السماد للأرض من بقايا فضلات الإنسان والحيوان ، ولا ينطق الحمار معترضاً ، ويأتى الفلاح ليرتقى فى حياته ويصير شيخاً للخفر ، فيأمر أن يستحم الحمار ، ويشترى له السرج ليركبه وهو ذاهب للقاء المأمور فى المركز ، ولم يعص الحمار فى الحالتين . إنه التذليل .

إياك أن تظن أن مهارتك وحدها أيها الإنسان هى التى ذللت لك الكائنات ، فلو اعتمد الأمر على المهارة وحدها ، لذلل الإنسان البرغوث الصغير الذى يهاجمه فى أى وقت ، وقد يفزعك ذلك البرغوث الصغير طوال الليل . وقد تسهر أسرة بأكملها من أجل قتل برغوث واحد .

﴿ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴾

(من الآية ٧٣ سورة الحج)

ولذلك أمرنا الحق أن نقول قبل البدء فى أى عمل « بسم الله الرحمن الرحيم » . وإياك أن تقبل على العمل بقوتك وحدها . فالعمل إنما ينفعل لك لأنه سبحانه قد أخضعه لك . وأنت تبدأ العمل باسم الله لأنه سبحانه الذى استخلفك وأخضع لك الكائنات المذللة .

ثم هناك ذلك العهد الذى قال فيه الحق لآدم :

﴿ فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾

(من الآية ١٢٣ سورة طه)

والعهد الذى قال فيه الحق :

﴿ فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾

(من الآية ٣٨ سورة البقرة)

وهذا عهد لكل البشر ، والمسلمون عاهدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى العقبة بأن ينصروه ويمنعوا عنه ما يمنعون عن أنفسهم . وعاهدوا الرسول فى الحديبية .

إن الحق سبحانه يأمر بالوفاء بكل العقود ، وكل ما نتج عن قمة العقائد وهو الإيمان بالله ؛ فما جاء من الله الذى آمنت به يُعتبر عقداً أنت شريك فيه ، لأن القعد يكون دائماً بين طرفين ، ولم يرغم الله أحداً على الإيمان به ، ولكن الإنسان يؤمن بالله اختياراً . ومادام المؤمن قد آمن بالله من طوع اختياره ، فلا بد أن يتبع منهجه .

ومن آمن هو الذى يذهب إلى الحق قائلاً : يارب إن ما تأمر به سأفعله . وهذا اعتراف بالعقد . وكتابة أى عقد إيمانى هو تنفيذ لهذا العقد والتوقيع مع الله ، وبذلك يشترك العبد مع الله فى هذا التعاقد ؛ لأن إيمان العبد بالله يجعله طرفاً فى العقد . والإله يشرع له ، وينفذ العبد التشريع ليتلقى الجزاء الأوفى .

العقد إذن قد يكون بين العبد وربّه ، أو بين العبد وخلق الله المساوين له ، أو بين العبد ونفسه ، لكنهم أطلقوا على العقد الذى بين الإنسان ونفسه اسماً هو « العهد » وهو النذر ، كأن ينذر العبد الصيام أو الصلاة ، ويجب على العبد تنفيذ ما نذر به مادام عاهد الله على ذلك . والعقد الذى بين العبد وغيره من البشر وكذلك العقد بينه وبين نفسه إنما ينبعان من العقد الأساسى وهو العقد الأول . . إنّه الإيمان بالله .

إذن فقوله الحق : « أوفوا بالعقود » أى نفذوا ما أمر الله به حلالاً ، وامتنعوا عن

الشيء الذى جعله الحق حراماً . ولا داعى ـ إذن ـ للاختلاف فى معنى « العقود » والتساؤل : هل هى العقود التى بين العبد وربه ، أو بين العبد والناس ، أو بين العبد ونفسه ، فكل ما نبع من العقد القمة هو عقد على المؤمن وإلزام عليه أن يوفى به .

« يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود أحلت لكم بهيمة الأنعام » سبحانه يستهل السورة بالوفاء بالعقود ، ثم إعلان تحليل بهيمة الأنعام . ونعرف أن الإنسان قد طرأ على الكون ، وأنه سبحانه قد خلق الكون أولاً . ثم خلق الإنسان فيه ، وهذا من رحمة الله بالإنسان فلم يخلق الإنسان أولا ، بل خلق له الشمس وأعد الكون قبل أن يخلق الإنسان ، وحين طرأ الإنسان على الكون وجد فيه قوام الحياة من الجماد ومن النبات ومن الحيوان .

وقمة المسخرات للإنسان هى الحيوان ؛ لأن الجماد والنبات يخدمان الحيوان ، ويشترك الحيوان مع الإنسان فى أن له حياة ودماء وجوارح . وجاء الحق هنا بالإعلان عن أعلى المنزلة فى خدمة الإنسان وهو بهيمة الأنعام « أحلت لكم بهيمة الأنعام » ويأمرنا بأن نوفى بالعقود ، وله سبحانه وتعالى كل الحق فقد قدم لنا الثمن بخلق الكون مسخراً لنا وقمة المخلوقات المسخرة هى الأنعام . كأن « أحلت لكم بهيمة الأنعام » حيثية مقدمة من الحق . ونلحظ أنه جاء هنا بصيغة المبنى للمجهول فى « أحلت » ؛ لأن الإيمان جعلنا طرفاً فى أن تكون بهيمة الأنعام حِلاً لنا .

ووقف العلماء عند « بهيمة الأنعام » . وفى اللغة العربية نجد صيغة « فعيل » التى تأتى بمعنى « فاعل » وتأتى بمعنى « مفعول » ، مثلما نقول « الله رحيم » أى أنه راحم ؛ هو « فاعل » ، ونقول « فلان قتيل » أى مقتول أى مفعول به . و« بهيمة الأنعام » هنا تأتى بأى معنى ، أهى بمعنى فاعل أو بمعنى مفعول ؟ ، و« بهيمة » إن نظرنا إلى أنها مبهمة ، لأن أمورها مجهولة يصعب إدراكها علينا ولا نعرف حركتها أو إشاراتها أو لغاتها التى تتفاهم بها فتكون فعيلة بمعنى مفعولة . وتصلح أن تكون فعيلة بمعنى فاعل ؛ لأنها لا تفهم ، ونحن المبهمون عليها . ونقول : هى محكومة بالتسخير .

ولم يصنف الإنسان طعامها وهو العلف إلا بعد أن رآها وهى سائبة حرة تتجه إلى العلف لتأكله ، إذن فهى التى علمت الإنسان صنف طعامها . فلا يقولن إنسان :

إنها بهيمة لا تفهم ، وليعرف أنها لم تخلق لتفهم مسائل الإنسان ، لأنها مسخرة له وقد يتعلم هو منها .

ودليلنا أن الله امتن على بعض المصطفين من خلقه بأن علمهم منطق الطير ، فقد حزّ فى نفس الهدهد أن رأى ملكة سبأ وقومها يسجدون للشمس من دون الله ، وهو الطائر فقد فهم أن السجود لا يكون إلاّ لله الواحد القهار لا للشمس ، وهكذا نرى الإنسان يتعلم الكثير من أخلاق الحيوانات وعاداتها ؛ ولذلك نجد هواة تربية الحيوانات يتعرفون على طعام هذه الحيوانات بعد أن يتتبعوها ويعرفوا ماذا تأكل ، وعن أى شيء تبتعد ، والفلاح يقدم البرسيم للجاموس ولا يقدم له النعناع ؛ لأنه رأى الجاموس وهو حرّ لا يأكل النعناع بل يأكل البرسيم ، وقال الحق على لسان النمل :

﴿ ٱدْخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ ﴾

(من الآية ١٨ سورة النمل)

نحن إذن الذين لا نفهم لغة النمل ، ونجد البهيمة محكومة بالغريزة ، لكن الإنسان يملك العقل ، لكنه يغطى عقله بالهوى .

وقول الله : « أحلت لكم » دليل على أن الذى أحلها ، جعل التحليل لها فى التسخير بدليل أن الحبل إن التف حول رقبة جاموسة أو رقبة خروف وقبل أن يختنق نجد الحيوان يمد رقبته ، فيقول الناس : لقد طلب الحلال ، فنادوا الجزار . وكأنه ـ وهو الحيوان ـ يطلب الذبح لينتفع الناس به ، وكأنه يحس بالخسارة إن ضاع لحمه بلا فائدة ، وهذا دليل على أنه مذلل ، أما الحيوان غير المحلل فمن العجيب أنه لو حدث معه ذلك لما مد رقبته .

والأنعام هى المذكورة فى قوله الحق :

﴿ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ ﴾

(من الآية ١٤٣ سورة الأنعام)

وكذلك قول الرحمن :

﴿ وَمِنَ ٱلۡإِبِلِ ٱثۡنَيۡنِ وَمِنَ ٱلۡبَقَرِ ٱثۡنَيۡنِ ﴾

(من الآية ١٤٤ سورة الأنعام)

إنها ثمانية أزواج ؛ ثم أحق الحق رسول الله صلى الله عليه وسلم الظباء وحمر الوحش ، ولم يحرم إلا كل ذى ناب كالسباع وكل ذى مخلب من الطير ، ولو لم يقيد الله هذا التحليل لانصرف بدون قيد ، ولأسأنا إلى أنفسنا بأكل الميتة والموقوذة والمتردية ، ولكن الحق أنقذنا من ذلك وحرم علينا تلك الأشياء الضارة .

« يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود » إذن فمن حق الله عليكم أيها المؤمنون أن توفوا بالعقود ؛ لأنه قدم لكم الكون بكل أجناسه وكل عناصره لخدمتكم . وأحلّ أقرب الأجناس إلى الإنسان لما فيه من حياة وحس وحركة ، فيقول : « غير محلى الصيد وأنتم حُرُمٌ إن الله يحكم ما يريد » ولو لم يضع الحق ذلك التشريع لأكَل الإنسان ـ وهو مُحْرِمٌ ـ بهيمة الأنعام ، وقد حرم سبحانه الصيد فى أثناء الإحرام ، وكذلك فى حمى الحرم . والحَرَم ـ كما نعلم ـ مركزه الكعبة ، وحول الكعبة المسجد .

وتختلف مناطق الإحرام وتسمى الميقات المكانى ، فالميقات المكانى للحج والعمرة لمن كان خارج الحرم (ذو الحليفة) وذلك للمتوجه من المدينة وهى (آبار على) ، والجحفة وهى الآن (رابغ) للمتوجه من مصر والشام المغرب ، و(يَلَمْلَم) للمتوجه من تهامة ، و(قَرْن المنازل) للمتوجه من نجد اليمن ونجد الحجاز ، و(ذات عرق) للمتوجه من المشرق والعراق وغيره .

أما الميقات المكانى للحج لمن بمكة فهو مكة نفسها ، أما ميقات العمرة المكانى لمن بالحرم فهو الخروج لأدنى الحل وهى الجعرانة ثم التنعيم (مسجد عائشة) ثم الحديبية .

والميقات الزمانى للحج شوال وذو القعدة وعشر ليال من ذى الحجة ، أما ميقات العمرة الزمانى فهو جميع السنة إلاّ إذا كان محرما بحج أو بعمرة أخرى أو كان ذلك قبل النفر لانشغاله بالرمى والمبيت فيمتنع الإحرام بها . والتنعيم والجعرانة والحديبية ، تلك هى حدود الحرم . والصيد فى حدود الحرم حرام ، فى كل زمان وعلى كل إنسان ، أما فى غير الحرم ، فالصيد حرام لمن كان محرماً فقط ، وغير المحرم من حقه الصيد .

وبذلك يؤدب الحق سبحانه وتعالى خلقه ويجعلهم على ذكر دائم للمنهج فيأتى لهم فى مكان ويقول لهم : الصيد محرم فى هذا المكان ، والطعام والشراب محرم فى هذا الزمان ؛ كصوم رمضان . وعدة الشهور عندنا كمسلمين اثنا عشر شهرا . أربعة منها حُرُم . ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب .

وفى الميقات يحرم الصيد على الحاج فقط ، وهذا انضباط إيمانى . وعندما يأتى الإنسان إلى الميقات فهو يحرم ، أى يغير وضعه ويلبس لباساً خاصا بالحج ، يلبسه كل الناس ليكون الكل سواسية ؛ لأن الناس إنما يتميزون بهندامهم وهيئاتهم ، فيأمر سبحانه أن يطرح الإنسان هذا التمايز من فور الإحرام . وما كان من الحلال أن يفعله المسلم قبل الميقات وقد منعه الإسلام منه لا يجرؤ على أن يفعله بعد الميقات والإحرام .

ويستطيع المسلم قبل الميقات أن يحلق ويتطيب ويصطاد ويقطع من النبات ؛ لكنه ما إن يبدأ الإحرام يمتنع عن ذلك حتى يستعد لما يشحن أعماقه بالوجود مع المنعم لا مع النعمة ، هذا هو التهيؤ للدخول إلى بيت المنعم ، ولذلك يضع المسلم النعمة على جانب ليبقى مع المنعم . ويمنع الإنسان أن يصيد فى الحرم محرماً كان أو غير محرم ليشعر الكل أن الحرم لله فقط . وتستعد كل النفوس للقاء المهابة . ويمتنع الإنسان من أول الميقات عن أشياء كثيرة بداية من الصيد والاستمتاع بالحقوق الزوجية ؛ ثم يدخل منطقة يحرم فيها الصيد على كل الناس كرمز للمهابة .

ويحج المسلم فى حياته مرة واحد كأداء للفريضة ؛ وفى كل مرة تحج وتقصد بيت ربّك يوضح الله لك فيها : لا تنشغل بالنعم لأنك ذاهب إلى المنعم ، ويمحو سبحانه بالحج كل الذنوب . « غير محلى الصيد وأنتم حُرُم » فإن أردناها محرمين فهى صحيحة ، وإن أردناها للحرم فهى صحيحة ؛ لأن الصيد محرم فى منطقة الحرم للحاج أو لغيره .

ويذيل الحق الآية : « إن الله يحكم ما يريد » وسبحانه بدأ الآية بقوله: « يا أيها الذين آمنوا » هكذا نرى أن التذييل منطقى يتفق فيه آخر الآية مع صدرها ؛ لأن الله حين يخاطب المؤمنين الذين آمنوا به ، فمن لوازم الإيمان أن ينفذوا حكم الله الذى

آمنوا به ، ومادام المؤمن قد آمن بالله إلهاً فليتجه إلى ما يريده الله من أحكام ليفعلها لكن عمومية الآية قد تجعل واحداً يعزل عجز الآية عن صدرها ، رغبة فى التشكيك فى الإسلام ، فيقول : إن الله يقول إنه يحكم ما يريد ، وقد أراد من الناس من يؤمن ومن لا يؤمن ، فكيف يقول: « يحكم ما يريد » ، بينما لا يؤمن الكل ؟ .

ونقول : لا تعزل عجز الآية عن صدرها ؛ لأن الله إنما يخاطب فى هذه الآية من آمن به رباً ، ومن آمن بالإله يعمد ويقصد ويتجه إلى ما يريده الله من حكم ليطبقه . ولا يعتقدن أحد أنّ الكافرين خارجون عن إرادته سبحانه فى قوله : « إن الله يحكم ما يريد » فالذى تمرد على حكم الله يقتضيه المنطق أن يظل متمرداً على حكم الإله .

لكن المتمرد على حكم الله التكليفى الشرعى لا يجرؤ ولا يملك أن يكون منطقياً مع نفسه ، فإن حكم الله عليه بالضعف . فليقل للضعف : لا ، أنا لن أضعف وأنا قوى . لا أحد يملك من مثل هذا الأمر شيئاً . المتمرد يأخذه ملك الموت وهو غير مريض ، فماذا إذن يصنع تمرد المتمرد إزاء الموت ؟

إذن هناك أمور يخضع فيها الإنسان ـ كل إنسان ـ لحكم الله . وخضوع الإنسان لحكم الله فى بعض الأمور أقوى من خضوع المؤمن لها ؛ لأن المؤمن حين آمن بالله يستقبل الموت ـ على سبيل المثال ـ كحكم من الله ، أما المتمرد الذى لا يصلى ولا يؤدى أى أمر تكليفى ، ويتعرض للأغيار بما فيها الموت ، فهو يعانى من كل ذلك مشقةً وَحِدّة تفوق حدة استقبال المؤمن للأغيار أو الموت .

إذن فقوله الحق : « إن الله يحكم ما يريد » هو قضية عامة ؛ لأن الذى تمرد على حكمه سبحانه فيما له فيه اختيار ،كان من الواجب أن يكون منطقياً مع نفسه ، فيتمرد على حكم يجريه الله عليه ، وذلك بعكس كثير من الأحكام الوضعية فإنها لا تقوى على هذا التمرد ، ويكون هنا حكم الله أقوى ؛ لأن المتمرد لن يجرؤ على الرد على أمر الله . فلا يظنن ظان أن الله جعل للاختيار فى العبد طلاقة ، لكنه جعل للاختيار فى العبد تقييداً ، وللقدرة القادرة طلاقة ، فإن تمرد متمرد على الإيمان ؛ فلن يجرؤ على التمرد فى أشياء أخرى . إذن فالله يحكم ما يريد .

ومن بعد ذلك يقول الحق :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَلَا ٱلْهَدْىَ وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًا ۚ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُواْ ۚ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُواْ ۘ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢﴾ ﴾

بداية هذه الآية تقول : « يا أيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله » وهى تأتى بعد آية أَحلّت أشياء ، كأن الحق يقول للعبد : مادمت قد أعطيت فأنا أمنع عنك ؛ أعطيتك أشياء وأمنعك أشياء . وسبحانه حين يحظر على الإنسان شيئاً ويمنعه منه ؛ فهو يعطى هذا الشىء لأخ مؤمن ، ومادام الأمر كذلك فلا يستطيع ولا يصح أن تنظر إلى الشىء المسلوب منك فقط بل انظر إلى المسلوب من غيرك بالنسبة لك .

وعلى سبيل المثال حين يأمرك الحق : « لا تسرق » ، فأنت شخص واحد ، ويقيد سبحانه حريتك بهذا الأمر ، وقيد فى الوقت نفسه حرية كل الناس بالنسبة إليك . وعندما تقارن الأمر بالنسبة لنفسك تجد أنك المستفيد أساساً ؛ لأن كل الناس ستطبق حكم الله بألا يسرقوا منك شيئاً ، وفى هذا خدمة لكل عبد . وهب أن واحداً سرق ، إنه لن يستطيع أن يسرق من كل الناس . ولو سرق ألف من الناس شخصاً واحداً فما الذى يبقى له ؟!

وحين يأمر الحق العبد ألا ينظر إلى محارم غيره ، فظاهر الأمر أنّه تقييد لحركة

العبد ، لكن الواقع أنه سبحانه قيد حركة الناس كلها من أجل هذا العبد ، وأمرهم ألا ينظروا إلى محارم غيرهم .

إذن ساعة ترى أيها المسلم نهياً أمر به الله ، فلا تصب النهى عليك . ولكن صب النهى أيضا على كل الناس بالنسبة لك . وساعة يقول الحق: «ياأيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله » أى لا تجعلوا شعائر الله حلالاً . والشعائر هى معالم الدين كلها . ونقول « هذه الدولة شعارها النسر » معنى ذلك أننا إذا رأينا الشعار نعرف البلد . وكذلك أعلام الدول ، فهذا علم لمصر ، وذاك علم لانجلترا ، وثالث علم لفرنسا ، وكل محافظة فى مصر ـ على سبيل المثال ـ تضع لنفسها شعاراً وعلماً ، إذن فالشعار هو المَعْلَم الذى يدل على الشيء . وشعائر الله هى معالم دين الله المتركزة فى « افعل » و« لا تفعل » زماناً ومكاناً ، عقائد وأحكاماً .

لكن الشعائر غلبت على ما نسميه مناسك الحج ، وأول عملية فى مناسبك الحج هى الإحرام ، أى لا نهمل الإحرام . ومن شعائر الحج الطواف ، فلا تحل شعائر الله ، ووجب عليك أن تطوف حول البيت ، وكذلك السعى بين الصفا والمروة ، والوقوف بعرفات ، ورمى الجمار ، كل هذه شعائر الله التى أمر ألا يحلها المؤمنون ، أى أمر ـ سبحانه ـ ألا يتهاونوا فيها ؛ لأن هذه الشعائر هى الضابط الإيمانى . وأن ننظر إلى أن أمر الله لكل حاج أو معتمر بالإحرام هو أمر بالعزلة لبعض الوقت عن النعمة ؛ لأن الإنسان يذهب للحج فى رحلة إلى المنعم . وأن الإنسان يغير ملابسه بملابس موحدة ولا يتفاضل فيها أحد على أحد ؛ لأن الناس فى الحياة اليومية تتفاضل بهندامهم ، وتدل الملابس على مواقعهم الاجتماعية . وعندما يخلعون جميعاً ملابسهم ويرتدون لباساً موحداً ، تكون السمة المميزة هى إعلان الولاء لله .

وكذلك عندما يأتى الأمر بألا يقص الإنسان شعرة منه سواء أكان عظيماً فى مجتمعه أم فقيراً ويتراءى الناس جميعاً وينظر بعضهم إلى بعض فيجدون أنهم على سواء على الرغم من اختلاف منازلهم وأقدارهم وتكون ذلة الكبير مساوية لذلة الصغير . وذلك انضباط إيمانى لا بين الإنسان والمساوى له ، ولكنه الانضباط مع الكون كله ، بكل أجناسه . فالشجرة بجانب الحرم محرم على كل إنسان أن يقطعها أو يقطع جزءا منها . وبذلك يأمن النبات فى الحرم ، وكذلك الحمام والحيوانات وأيضاً يأمن

الإنسان ؛ لأن الجميع فى حَرمِ رب الجميع ، وتلك مسألة تصنع رعشة ورهبة إيمانية فى النفس البشريةِ . وتكون فترة الحج هى فترة الانضباط الإيمانى . وتتوافق فيها كل أجناس الوجود . فالإنسان يتساوى مع الإنسان ولا يلمس الحيوانَ وكذلك النباتَ ، ويبقى الجماد وهو خادم الجميع من أجناس الكون ؛ لأن الحيوان يخدم الإنسان ، والنبات يخدم الحيوان ، والجماد يخدم الكل ، وهو خادم غير مخدوم . ويصنع الحق حماية للجماد فى الكعبة نفسها ، فيأمر الناس باستلام الحجر الأسود أو بتقبيله إذا تيسر ذلك أو بالإشارة إليه .

فهذا السيد العالى ـ الإنسان ـ على النبات والحيوان يأتى إلى جماد فيعظمه ويوقره ، فالذى لا يستطيع تقبيل الحجر الأسود عليه تحيته بأن يشير إليه بيده ، حتى يكون الحج مقبولاً منه ؛ لذلك يتزاحم الناس للذهاب إلى الحجر الأسود ، وهكذا يكون الجماد مصوناً فى بيت الله الحرام . ويعوضه الله بأن جعله منسكاً ، وجعله شعيرة وجعل الناس تزدحم عليه وتقبله بينما لا يقبل الإنسان الحيوان أو النبات ، لكنه يقبّل الجماد أدنى الأجناس . وهذه قمة التوازن الوجودى . فالإنسان المختار المتعالى على الأجناس يذهب صاغراً لتقبيل أو استلام الحجر الأسود بأمر الله .

ويرجم الإنسان حجراً آخر هو رمز إبليس ، وذلك حتى يعرف الإنسان أن الحجرية ليست قيمة فى حد ذاتها ، ولكنها أوامر الآمر الأعلى ، حتى لا يستقر فى ذهن الإنسان تعظيم الحجر ، فالحاج يقبل حجراً ويرجم ويرمى حجراً آخر .

« يا أيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله » ؛ لأن الله جعل الشعائر لتحقق الانضباط الإيمانى ، وبقاء ذكر الاستخلاف لله فلا يدعى أحد أنه أصيل فى الكون ، بل الكل عبيد لله . والوجود كله هو سلسلة من الخدمة ؛ فالإنسان يخدم الإنسان ، والحيوان يخدم الإنسان ، والنبات يخدم الإنسان والحيوان ، والجماد يخدم الكل ؛ لكن لا أحد أفضل من أحد ، بل الجماد نفسه مسبح بحمد الله ، وقد لا يسبح الإنسان .

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ ﴾

(سورة الأحزاب)

وهذا الأمر بعدم الحل لشعائر الله جعل كل شعيرة تأخذ حقا من التقدير والاحترام ، ولا يظنن ظان أن شعيرة من الشعائر ستأخذ لذاتها تقديساً ذاتياً ، بل كله تقديس موهوب من الله ويسلبه الله .

« لا تحلوا شعائر الله ولا الشهر الحرام » أى لا تحلوا الشهر الحرام ، أى عليكم أن تحرموا هذا الشهر الحرام ، فقد جعله الله شهراً حراماً لمصلحة الإنسان ، ويحمى به سبحانه عزة وذلة الإنسان أمام عدوه ، يحمى انكسار نفس الضعيف أمام القوى . فالقوىّ القادر على القتال قد تهفو نفسه إلى أن يتوقف عن الحرب فترة يلتقط فيها الأنفاس ، ولو فعل ذلك لكان إعلاناً للتخاذل أمام الخصم ، ولذلك يأتى الحق بزمان يقول فيه : أنا حرمت الحرب فى الأشهر الحرم . هنا يقول المقاتل : لقد حرم الله القتال فى الأشهر الحرم ، وتلك حماية للإنسان ، وليذوق لذة الأمن والسلام والطمأنينة ؛ فقد يعشق الإنسان القوى السلامَ من بعد ذلك .

لماذا إذن جاء الحق هنا بالشهر الحرام بينما نحن نعرف أن الأشهر الحرم أربعة ؟ إن نظرنا إلى الأشهر الحرم كجنس فهى تطلق على كل شهر من الشهور الأربعة ، وإذا اعتبرنا الشهر الحرام أشهر الحج وهى شوال وذو القعدة وعشر ليال من ذى الحجة ، فالمعنى صحيح ونعرف أن الأشهر الحرم أربعة ، ثلاثة متصلة ، وهى ذو القعدة وذو الحجة والمحرم وواحد منفصل هو رجب ، وسبحانه وتعالى يعلم أن كل فعل من الأفعال لابد له من زمان ولابد له من مكان . فحين لا يوجد حدث ، لا يوجد زمان ولا مكان ، ولم يأت الزمان والمكان إلا بعد أن أحدث الله فى كونه شيئاً . ولا يقولن واحد : متى كان الله ولا أين كان الله ؛ لأن « متى » و« أين » من مخلوقات الله . وجعل سبحانه لكل حدث زماناً ومكاناً . ولذلك يأتى الحق سبحانه وتعالى ليحمى عزة الناس وليجعل لهم من تشريعه الرحيم ستاراً يستتر فيه ضعيفهم ، ويراجع فيه قويهم لعله يرعوى ويرجع عن غيّه وظلمه فأوجد أماكن محرمة ، وأزمنة محرمة ، والأماكن المحرمة هى التى عند الحرم :

﴿ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ﴾

(من الآية ٩٧ سورة آل عمران)

حيث يُؤَمِّن الإنسان أخاه الإنسان إذا ما دخل الحرم . وكذلك فى الزمان جعل سبحانه الأشهر الحرم .

لقد أخذ الحق الحدث للزمان والمكان . وكان القوى قديماً يحارب ويقترب من النصر . وعندما يهل الشهر الحرام يستمر فى الحرب ، ثم يعلن أن الشهر الحرام هو الذى سيأتى بعد الحرب ، ولذلك يأمر سبحانه بعدم تغيير زمان الشهر الحرام ؛ لأن الله يريد بالشهر الحرام أن ينهى سعار الحرب .

وبعد ذلك يقول الحق : « ولا الهدى » والهدى هو ما يهدى إلى الحرم ؛ وهو جمع هدية ، وهناك من يقدم للكعبة هدية ، ومجموع الهدايا تسمى هدياً . وهدى الحرم إنما جعله الله للحرم ؛ فالحرم قديماً كان بوادٍ غير ذى زرع ، ولم تكن به حيوانات كثيرة . وكانوا يأتون بالهدى معهم عندما يحجون ، لذلك حرم الله الاقتراب من الهدى لأنها هدايا إلى الحرم . والحجيج أفواج كثيرة ، وعندما يأتى أناس كثيرون فى وادٍ غير ذى زرع يحتاجون إلى الطعام ، ولا يصح أن يجعل المؤمن الهدى لغير ما أُهدى إليه ، فقد يشتاق إنسان صحب معه الهدى إلى أكل اللحم وهو فى الطريق إلى الكعبة فيذبحه ليأكل منه ؛ وهذا الفعل حرام ؛ لأن الهدى إنما جاء إلى الحرم ويجب أن يُهدى ويقدم إلى الحرم . وعلى الإنسان أن يصون هدى غيره أيضاً .

« ولا القلائد » وهى جمع « قلادة » والقلادة هى ما تعلق بالرقبة . وقديماً كان الذاهب إلى الحج يخاف على الهدى أن يشرد منه ، لذلك كانوا يضعون حول عنق الهدى قلادة حتى يعرف من يراه أنه « هدى » ذاهب إلى الحرم . والهدى الأول هو الهدى العام الذى لا قلائد حول عنقه ، والقلائد تعبر عن الهدى الذى توجد حول رقابه قلائد وتدل عليه وتكون علامة على أنه مهدى إلى الحرم ، وقد يكون النهى هنا حتى عن استحلال القلادة التى حول رقبة الهدى حتى لا تضيع الحكمة . والحق سبحانه وتعالى حين يعبر بعبارة ما فهو يعبر بعبارة تؤدى المعنى ببلاغة .

وكانوا قديماً عندما لا يجدون قلادة يأخذون لحاء الشجر وقشره ويقطعون منه قطعة ويربطونها حول رقبة الهدى ، وذلك حتى يعرف الناس أن هذا هدى ذاهب إلى الحرم . ويضمن سبحانه اقتيات الوافد إليه . لا من القوت العادى ولكن يطعمه من اللحم أيضاً ، ويجعل ذلك من ضمن المناسك . أليس هو من دعا هؤلاء الناس إلى الحج ؟ أليس هؤلاء هم ضيوف الرحمن ؟!

إن الإنسان منا يقوم بذبح الذبائح لضيوفه ، فما بالنا بالحق الأعلى سبحانه

وتعالى ؟ لذلك جعل الهدى طعاماً لضيوفه . وتزدحم الناس فى منى وعرفات بكثرة لا حدود لها ، ولابد أن يكرمهم الله بألذ وأطيب الطعام ، والفقير يذهب إلى المذبح ويأخذ من اللحم أطيبه ويقوم بتجفيفه فى الهواء والشمس ويخزنه ليطعم منه طويلا وهو ما يعرف ويسمى بالقديد . والحق سبحانه وتعالى يأتى بالحكم بطريقة لها منتهى البلاغة ، فهو يحرم حتى قلادة الهدى أن يلمسها أحد .

ويقول سبحانه : « ولا الشهر الحرام ولا الهدى ولا القلائد ولا آمّين البيت الحرام يبتغون فضلاً من ربهم ورضواناً » أى لا تمنعوا أناساً ذاهبين إلى بيت الله الحرام ولا تصدوهم عن السبيل ، فهم وفد الله . وقد جاء هذا القول قبل أن يُنَزِّل الحق قوله :

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ ﴾

(من الآية ٢٨ سورة التوبة)

وكان غير المسلمين يحجون بيت الله الحرام من قبل نزول هذه الآية ، فلم يكن الحكم قد صدر . ونتساءل : هل الكافرون بالله يبتغون فضلاً من الله؟. نعم ففضل الله يغمر الجميع حتى الكافر ، لكن رضوان الله لا يكون على الكافر . والفضل من التجارة التى كانوا يتاجرون بها ، وفضل الله موجود حتى فى أيامنا هذه على الكفار أيضاً .

لكن كيف يتأتى رضوان الله على الكافر ؟ . إنه رضوان الله المتوهم فى معتقدهم . فهم يعتقدون أنهم يفعلون ذلك إرضاء لله . وتتجلى دقة القرآن حين يقول : « فضلاً من ربهم ورضوانا » ، فلم يقل : فضلاً من الله ورضواناً ؛ لأن العبد المؤمن هو من يختص بتنفيذ التكاليف الإيمانية .

ولله عطاءان : عطاء الربوبية ، فهو المربى الذى استدعى إلى الكون المؤمن والكافر ـ وسبحانه ـ سخر الأسباب للكل ؛ هذا هو عطاء الربوبية ، فالشمس تشرق على المؤمن والكافر ، والأسباب قد تعطى المؤمن والكافر ، أما عطاء الألوهية فيتمثل فى « افعل » و« لا تفعل » . ويقول الحق هنا : « يبتغون فضلاً من ربهم » . إذن فجناحا المنهج الإيمانى ـ افعل ولا تفعل ـ ليست فى بالهم . ومن بعد ذلك يقول الحق : « وإذا حللتم فاصطادوا » أى إذا انتهى الإحرام ، وبعد أن يخرج الحاج من الحرم ويتحلل من إحرامه فمن حقه أن يصطاد .

« ولا يجرمنكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام » وقبل أن ينزل تحريم زيارة المشركين للبيت الحرام كان من حسن المعاملة ألا يأخذ المؤمنون الكفار الذين يزورون البيت الحرام فيعتدوا عليهم انتقاماً لما فعله الكفار من قبل ؛ لذلك أمر الحق المؤمنين ألا يقولوا : ها هم أولاء قد جاءوا لنا فلنرد لهم الصاع صاعين مثلما فعلوا معنا فى صلح الحديبية عندما منعونا من البيت الحرام . لأنكم أيها المؤمنون قد أخذتم من الله القوامة على منهجه فى الأرض ، والقائم على منهج الله فى الأرض يجب ألا تكون له ذاتية ولا عصبية أسرية ، ولا عصبية قبلية ؛ لأنه جاء ليهيمن على الدنيا كلها ، ومن الصَّغار أن ينتقم المؤمن من الكافر عندما يأتى إلى بيت الله . ولا يليق ذلك بمهمة القوامة على منهج الله .

ولذلك قال الحق لرسوله :

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ ﴾

(سورة النساء)

وحينما أمر الحق رسوله أن يحكم بين الناس فذلك الحكم يقتضى عدم تمييز المؤمن على الكافر ؛ لأن المسلمين هم القُوَّام ، وهم خير أمة أخرجها الله للناس كافة . ولو فهم الناس أن خير الأمة الإسلامية عائد عليهم لما حاربوها .

فنحن - المسلمين - لسنا خيراً لأنفسنا فقط ، ولكننا أمة لخير الناس جميعاً . ولذلك قال الحق : « لا يجرمنكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا » أى لا يصح أن يحملكم الغضب على قوم أن تعتدوا عليهم لأنهم صدوكم عن المسجد الحرام عام الحديبية . وعندما يسمع الكافر أن الله سبحانه وتعالى يوصى من آمن به على من كفر به ماذا يكون موقفه ؟ إنه يلمس رحمة الرب . وفى ذلك لذع للكافر لأنه لم يؤمن ، لكن لو اعتدى المؤمن على الكافر رداً على العدوان السابق ، لقال الكافر لنفسه : لقد رد العدوان .

أما حين يرى الكافر أن المؤمن لم يعتد امتثالاً لأمر الله بذلك ، عندئذ يرى أن الإسلام أعاد صياغة أهله بما يحقق لهم السمو النفسى الذى يتعالى عن الضغن والحقد والعصبية ، ويعبر الأداء القرآنى عن ذلك بدقة ، فلم يأت الدين ليكبت عواطف أو

غرائز ولا يجعل الإنسان أفلاطونياً كما يدعون . ولم يقل : اكتموا بغضكم ، ولكنه أوضح لنا أى : لا يحملكم كرههم وبغضهم على أن تعتدوا عليهم . فسبحانه لا يمنع الشنآن ، وهو البغض ، لأنه مسألة عاطفية .

فسبحانه يعلم أن منع ذلك إنما يكبت المؤمنين وكأنه يطلب منهم الأمر المحال . لذلك فالبغض من حرية الإنسان . ولكن إياك أن يحملك البغض أو الكره على أن تعتدى عليهم .

ونرى سيدنا عمر يمر عليه قاتل أخيه زيد بن الخطاب ، يقول له أحدهم : هذا قاتل زيد ، فيقول عمر : وماذا أصنع به وقد هداه الله إلى الإسلام ، فإذا كان الإسلام جبّ الكفر ألا يجب دم أخٍ لعمر ؟ ولكن عمر ـ رضى الله عنه ـ يقول لقاتل أخيه :

عندما ترانى نحّ وجهك عنى . قال ذلك لأنه يعرف دور العاطفة ويعرف أنه لا يحب قاتل أخيه ، فقال قاتل أخى عمر : وهل عدم حبك لى يمنعنى حقاً من حقوقى ؟ فقال عمر : لا . بل تأخذ حقوقك كلها . فقال قاتل أخى عمر : لا ضير ؛ إنما يبكى على الحب النساء . فالإيمان هو الذى منع عمر من أن ينتقم من قاتل أخيه .

« ولا يجرمنكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا » أى أنه سبحانه لا يمنع مواجيد المؤمنين ووجدانهم وضمائرهم وقلوبهم التى تنفعل بالبغض والكره ؛ لأنه يعلم أن ذلك لا يطيقه الإنسان ؛ لأنها أمور عاطفية . والعواطف لا يقنن لها بتشريع . ولكن اعلموا أن هذه العواطف لا تبيح لكم الاعتداء .

وهكذا يتدخل الإسلام فى الحركة الإنسانية ليفعل الإنسان أمراً أو يتجنب فعل أمر ما ؛ فالإسلام لا يتدخل إلا فى النزوع وهى تعبير عن مرحلة لاحقة للإدراك الذى يسبب للإنسان العاطفة محبة أو كراهية ، ثم يعبر الإنسان عن هذه العاطفة بالنزوع ؛ لأن مظاهر الشعور ثلاثة : إدراك ، ووجدان ، ونزوع ، فحين يمشى إنسان فى بستان فيه أزهار ويرى الوردة فهذا إدراك ، ولا يمنع الإسلام هذا

الإدراك . وعندما يعجب الإنسان بالوردة ويحبها فهذه حرية ، لكن أن تمتد اليد لتقطف الوردة فهذا ممنوع .

إن التشريع لا يتدخل فى العملية النزوعية فقط إلا فى مجال واحد وهو ما يتعلق بالمرأة . إن الإسلام يتدخل من أولى المراحل من مرحلةالإدراك . فالرجل حين يرى امرأة جميلة فهذا إدراك ، وعندما ينشغل قلبه بحبها فهذا وجدان ، لكن أن يقترب منها الإنسان فهذا نزوع .

لقد رأف الحق بالرجل أن أمره أن يغض البصر من البداية ؛ لأن الإنسان لن يستطيع مطلقاً أن يفصل بين الإدراك والوجدان والنزوع . فكل من الإدراك والوجدان يصنعان تفاعلاً فى التركيب الكيماوى للرجل . فإما أن يعف الإنسان نفسه ويكبت أحاسيسه ، وإما ألا يعف فيلغ فى أعراض الناس ، لذلك يخدم الشرع الإنسان من أول الأمر حين يأمره بغض البصر :

﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ۝ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ ﴾

(سورة النور)

هنا يتدخل الشرع من أول مرحلة الإدراك ، فبعدها لا يمكن فصل النزوع عن المواجيد ؛ لأن رؤية المرأة تحدث تفاعلاً كيماوياً فى نفس الرجل ، وكذلك الرجل يحدث تفاعلاً كيماوياً فى نفس المرأة . أما الوردة فلا تحدث مثل هذا التفاعل . ويستطيع الإنسان اقتناء زهرية للورود .

إذن فالمراد أن الحق سبحانه وتعالى لم يمنع المؤمن أن تجيش عواطفه البشرية بالبغض وبالكره ؛ لأن ذلك انفعال مطلوب للإيمان . وبعض من أعداء الإسلام يقول : آيات القرآن تتعارض ؛ لأنه يقول :

﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا

ءَابَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ ﴾

(من الآية ٢٢ سورة المجادلة)

والنسب الإيمانى يمنع ذلك .

ويقول القرآن فى موضع آخر

﴿ وَإِن جَـٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ﴾

(من الآية ١٥ سورة لقمان)

والذى يتعمق جيداً يعرف أن المعروف يصنعه الإنسان مع من يحب ومن لا يحب . أما الودّ فهو عمل القلب ، وهذا ما نهى عنه الله بالنسبة للمشركين به ، أما المعروف فالمسلم مطالب أن يفعله حتى بالنسبة لمن يكرهه .

« ولا يجرمنكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام » إذن فالحق لم يمنع البغض . ولكنه منع النزوع المترتب على الشنآن ولو وُجد سبب من الأسباب كما حدث فى صلح الحديبية . وبعد ذلك يأمر : « وتعاونوا على البر والتقوى » .

وهذه الآية هى التى تجعل مسألة الإيمان قضية عالمية ، وكلمة « تعاون » على وزن « تفاعل » ، والتفاعل يأتى من اثنين ؛ مثلما نقول « تشارك » ؛ فهى تقتضى اثنين ؛ كأن نقول : تشارك زيد وعمرو أو : شارك زيد عمراً أو شارك عمرو زيداً . وكلاهما متساو . . اللهم إلا تغليب واحد بأن يأتى فاعلا مرة ومفعولا مرة ثانية ، والفاعل فى هذه الحالة فاعل ومفعول فى آن واحد ، والمفعول أيضاً فاعل فى الوقت نفسه .

ومثال ذلك قولنا « قاتل فلان فلاناً » أى أن الاثنين اشتبكا فى قتال أى مفاعلة . وساعة يأتى اثنان فى فعل واحد ، فهناك فاعل ومفعول . وهناك فرق بين أن تقول : أعن فلاناً ، فالمطلوب هنا أمر لواحد بالمعاونة لآخر .

راجع أصله وخرج أحاديثه الدكتور/ أحمد عمر هاشم نائب رئيس جامعة الأزهر .

وهذا يختلف عن القول : تعاون مع فلان ، أى أن تتشاركا معاً فى المعاونة . ومسائل الحياة أكثر من أن تستوعبها موهبة واحدة . فأنت حين تبنى بيتاً تحتاج إلى من يحفر الأساس ويبنى الجدران . ومن يصنع الطوب ومن يصنع الأسمنت ومن يصنع الحديد ، ولا يستطيع إنسان واحد أن يتعلم كل هذه الحرف ليبنى بيتاً ، لكن التعاون خصص لكل إنسان عملا يقوم به ، فهناك متخصص فى كل جزئية يحتاج إليها الإنسان فى حياكة الملابس ، والطب ، والصيدلة وغيرها من أوجه احتياجات الحياة ، والحق يأمر : « وتعاونوا » ليسير دولاب الحياة ويستفيد الإنسان من كل المواهب لقاء إخلاصه فى أداء عمله ، و« تعاونوا » هى أن تأتى بشيء فيه تفاعل ما ، ومعنى الشيء الذى فيه تفاعل أنه يوجد « مُعين » و« مُعان » .

ولكن المعين لا يظل دائما معينا ، بل سينقلب فى يوم ما إلى أن يكون مُعانا ، والمعان لا يظل مُعانا ، بل سيأتى وقت يصير فيه مُعينا ، وهذا هو التفاعل الذى تحتاج إليه أقضية الحياة التى شاءها الله للإنسان الخليفة فى الأرض والمطالب أن يعبد الله الذى لا شريك له ، وأن يعمر هذه الأرض . ولا تتأتى عمارة الأرض إلا بالحركة فيها ، والحركة فى الأرض أوسع من أن تتحملها الطاقة النفسية لفرد واحد ، بل لا بد أن تتكاتف الطاقات كلها لإنشاء هذه العمارة .

إننا حين نبنى عمارة واحدة نستخدم أجهزة كثيرة لطاقات كثيرة بداية من المهندس الذى يرفع مساحة القطعة من الأرض ويرسمها ، وإن شاء الترقى فى صنعته يصنع نموذجا مجسدا لما يرغب فى بنائه ، وبعد ذلك يأتى الحافر ليحفر فى الأرض ، ثم من يضع الأساس ، ومن يضع الحديد . ومن يصنع « الخرسانة » المسلحة .

ثم يأتى من يرفع البناء ، ومن يقوم بالأعمال الصحية من توصيلات للمياه والمجارى ، ثم يأتى من يصمم التوصيلات الكهربائية ، وهكذا تتعاون طاقات كثيرة لبناء واحد ، ولا تتحمله طاقة إنسان واحد .

إذن فالتعاون أمر ضرورى للاستخلاف فى الحياة . ومادام الاستخلاف فى الحياة يقتضى من الإنسان عمارة هذه الحياة ، وعمارة الحياة تقتضى ألا نفسد الشيء الصالح بل نزيده صلاحا ، وحين يقول الحق : « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على

الإثم والعدوان » أى أنه يريد كوناً عامراً لا كوناً خرباً . والشيء الصالح فى ذاته يبقيه على صلاحه . إذن فعمارة الحياة تتطلب منا أن نتعاون على الخير لا على الإثم .

والبر ، ما هو ؟ البر هو ما اطمأنت إليه نفسك ؛ والإثم ما حاك فى صدرك وخشيت أن يطلع عليه أحد ، فساعة يأتى إليك أمر تريد أن تفعله وتخاف أن يراك غيرك وأنت ترتكبه فهذا هو الإثم ، لأنه لو لم يكن إثما لأحببت أن يراك الناس وأنت تفعل ذلك . إذن قولة الحق : « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان » هو أمر لكل جماعة أن تتعاون على الخير ، وهذه مناسبة لأقول لكل جماعة :

تعاونوا معاً بشرط ألا تجعلوا لجمعياتكم نشاطاً يُنسب إلى غير دينكم . مثال ذلك الجمعيات المسماة بـ «الروتارى » أو « الماسونية » ويقال : إن نشاطها خيرى . ونقول : كل جمعية خيرية على العين والرأس ولكن لماذا تكونونها وأنتم تقلدون فيها الغرب ؟ لماذا لا تصنعون الخير باسم دينكم فيعرف العالم أن هذا خير قادم من بلاد مسلمة . والخير كل الخير ألا نأخذ هذه الأسماء الأجنبية ونطلقها على جمعياتنا حتى لا يظنن ظان أن الخير يصنعه غيرنا . وإن كان للواحد منا طاقة على العمل الخيرى ؛ فليعمل من خلال الدين الإسلامى . وليعلم كل إنسان أن الدين طلب منا أن تكون كل حياتنا للخير . وهذا ما يجب أن يستقر فى الأذهان حتى لا يأخذ الظن الخاطىء كل من يصيبه خير من هذه الجمعيات بأن الخير قادم من غير دين الإسلام .

إننا مكلفون بنسبة الخير الذى نقوم به إلى ديننا ؛ لأن ديننا أمرنا به وحثنا عليه ، وليعلم كل مسلم أنه ليس فقيراً إلى القيم حتى يتسولها من الخارج ، بل فى دين الإسلام ما يغنينا جميعاً عن كل هؤلاء . وإذا كنا نفعل الخير ونقدم الخدمة الاجتماعية للناس فلماذا نسميها هذا الاسم وننسبها إلى قوم آخرين ، ولنقرأ جميعاً قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾

(سورة فصلت)

فعلى الإنسان منا أن يعمل الخير وهو يعلن أن الإسلام يأمره بذلك ، ولا ينسب

عمل الخير إلى « الروتارى » أو غير ذلك من الجمعيات . فنسبة الخير من المسلم إلى جمعيات خارجة عن الإسلام حرام على المسلم ؛ لأنه تعاون ليس لله ، والحق يقول : « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان » هو يريد منا أن نبنى الخير وأن نمنع الهدم ، وعلى كل منا أن يعرف أنه لا يستطيع وحده أن يقيم كل أبنية الخير .

وقد نسأل الفقير صاحب الثوب الواحد من أين أتى برغيف الخبز ، فيشير إلى بقال أعطاه هذا الرغيف . ونلتفت إلى أن الله قد سخر هذا البقال أن يأتى بالخبز ليشترى منه كل الناس ، ويتصدق ببعضه على الفقير . وهذا تيسير أراده الله . وعندما نذهب إلى المخبز ، نجد أن الدقيق جاء إلى المخبز من المطحن ، وفى المطحن نجد عشرات العمال والمهندسين يعملون من أجل طحن الدقيق الذاهب للمخبز ليعجنه واحد ، ويخبزه آخر ، ويبيعه ثالث .

ويجب أن نلتفت هنا إلى قدرة الله الذى سخر بعضا من الممولين الذين فكروا فى خير أنفسهم واشتروا هذه الآلات الضخمة للطحين وإنضاج الخبز ، وهى آلات لا يستطيع الفرد أن يشتريها بمفرده ، لارتفاع ثمنها وتأتى من الدول الأجنبية ، وتلك الدول فيها من المعامل والعلماء الذين يدرسون الحركة والطاقة من أجل تصميم هذه الأجهزة ، ليأكل الإنسان رغيفاً واحداً .

هذه هى مشيئة الحق من أجل أن تنتظم كل حركة الحياة ؛ فالرغيف يعرضه البقال ، وعمل فيه الخباز ومن قبله الطحان ، والعجان ومن استورد الآلة ؛ ومن صممها ، وشاركت فيه المدرسة التى علمت المهندس الذى صمم الآلة ؛ كل ذلك عمل فيه تعاون من أجل خدمة رغيف الخبز ، على الرغم من أن الإنسان منا لا يفكر فى رغيف الخبز إلا ساعة أن يجوع .

إذن فحركة الحياة كلها تم بناؤها على التعاون . لكن ماذا إن تعاون الناس على الإثم ؟ إنهم إن فعلوا ذلك يهدمون الخير ؛ لأن التعاون على الإثم إنما يبدأ من كل من يعين على أمر يخالف أمر الله ، وأوامر الله تنحصر فى « افعل » و « لا تفعل » ، ما ليس فيه « افعل » و« لا تفعل » فهو مباح ، إن شئت فعلته وإن شئت لا تفعله .

والذى يأمر بتطبيق « افعل » ويجزم الأمر مع « لا تفعل » وينهى عنه ويجرِّم من يفعله هو متعاون على البر والتقوى .

ومن يعمل ضد ذلك ؛ يتعاون على الإثم والعدوان ؛ لأنه ينقل الأفعال من دائرة « افعل » إلى دائرة « لا تفعل » . وينقل النواهى من « لا تفعل » إلى دائرة « افعل » ؛ هذا هو التعاون على الإثم .

وقوله الحق : « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان » ضَمِن عمارة الكون وضَمِن منع الفساد فى الكون . فالذى يرتشى والذى يسهل عملية الرشوة ، وهو الوسيط والسفير بين الراشى والمرتشى ويُسمَّى الرائش والذى يحمل الخمر والذى يدلس ، كل هؤلاء متعاونون على الإثم والعدوان ، حتى البواب الذى يجلس على باب عمارة ويعلم أن بها شقة تدار لأعمال مشبوهة ويأخذ ثمن ذلك هو متعاون على الإثم .

نقول لكل هؤلاء : إياكم أن تفتنوا بما يدره عليكم فعل الإثم ؛ لكن لننظر مصير كل منكم فلن يترك الله أمثالكم دون أن ينهى الواحد منهم حياته بمأساة ، حتى المرأة التى استنزفت الناس بجمالها ، تنتهى حياتها بالضنك من العيش ثم لا تجد مأوى إلا القلوب الرحيمة التى لم تفتتن بهذا الجمال ولم تتمتع به فى الحرام ؛ لأن الرجل إن نظر إلى امرأة أعانته على الإثم سيتذكر كل المصائب التى جاءته منها فيكرهها .

لقد أراد الحق بهذا عدالة فى الكون ليستقيم ، وكل من يأخذ شيئا من إثم يكتوى بنار هذا الإثم فى الحياة ، وكل فرد فيكم مطالب بعمل حصر وإحصاء للمال الذى جاءه من عرقه وحلاله ويكتبه ، والقرش الذى جاءه من حرام . وبعد ذلك يقوم بعمل حصر وإحصاء للكوارث التى أصابته . وكم كلفته من مصاريف .

إنه لو فعل ذلك لوجد أن الكوارث تأخذ كل الحرام وتجور على المال الذى كسبه من حلال . ولا تختلف هذه المسألة أبداً ولا يتركها الله للآخرة ؛ فسبحانه يريد أن يعدل نظام الكون ، وإلا كيف يشهد من لا يؤمن بيوم الحساب قدرة الله على إجراء التوازن فى كونه ؟ إن الحق أراد الحساب فى الدنيا حتى لا يعربد من لا يؤمن بيوم الحساب فى كون الله .

إن كل معربد سوف يرى مصير معربد سبقه . كذلك الذين يتمتعون بثمرات الإثم فى هذه الدنيا يجب أن يفطنوا إلى نفوسهم قبل أن يفوتهم الأوان ، المعذور فقط هم الأطفال الذين لا نضج لهم ولا دراية ، لأنهم يعيشون من أموال الإثم . لكن ما إن يبلغ الولد الرشد وكذلك البنت ثم ترى مالا يتدفق عليها من مصادر غير حل ، عليها أن تستحى من شراء « فستان » من هذا المال أو أن تأكل منه لقمة خبز ، وليفطن الإنسان أن الله قد أباح للإنسان أن يسأل عن مصدر المال حتى لا يأخذ لنفسه من المال الموبوء الخبيث . وأن يسأل الإنسان الصدقة خير من أن يصرف على نفسه مالاً موبوءا . ولن يترك الحق مثل هذا الإنسان سائلا أبداً .

وليكتب كل واحد منكم هذا القول الكريم أمامه : « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان » . وليجعلها ميزاناً يزن بها صور الذين يراهم فى الكون ؛ حتى ولو كانت صورة سائق التاكسى الذى يدلس على رجل وامرأة فى طريق مظلم ويأخذ أجراً على هذا ، ليحسب هذا الرجل النقود التى ستأتى من هذا الباب ، وليحسب النقود التى ستخرج على ألم فيه ، أو ألم فيمن يرعى من ولد أو بنت .

« وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان » وصور العدوان شتى يعانى منها المجتمع وتهزه بعنف ، عدوان على الوقت لأن الإنسان يأخذ أجراً على العمل ولا يقوم به ، وعدوان يضرُّ به إنسانا بأن يأخذ حقه أو أن يرتشى ، كل ذلك عدوان . وحتى يصير المجتمع مجتمعا إيمانيا سليما لا بد أن يحافظ على قضية الاستخلاف فى الأرض ، وأن يعلم أن هذا يقتضى عمارة الكون وعدم الإفساد فيه .

« ولا تعاونوا على الإثم والعدوان واتقوا الله إن الله شديد العقاب » فكأن هذه المخالفات السابقة التى تحدث هى نتيجة عدم التعاون على البر ، ونتيجة التعاون على الإثم والعدوان ، ولهذه المخالفة عقاب شديد ، أما التقوى فمعناها أن نفعل ما أمر به الله أن نفعله ، وأن ننتهى عما نهى الله عنه ، فلا ننقل فعلاً من دائرة « لا تفعل » إلى دائرة « افعل » وكذلك العكس . وبذلك نجعل بيننا وبين الجبار وقاية .

وبعض السطحيين قد ينظر إلى بعض من آيات القرآن ويقول : إن بها تناقضاً ؛ فيقولون : بعض من آيات القرآن تقول : « اتقوا النار » ، وبعض الآيات تقول :

« اتقوا الله » فهل للنار وقاية ؟ وهل لله وقاية ؟ وهؤلاء لا يفهمون أن « اتقوا » تعنى : اجعل وقاية بينك وبين ما يؤذيك ويتعبك ، فـ «اتقوا الله » تعنى اجعل بينك وبين عقاب الله وقاية وهى الدرع التى يقيمها الإنسان بتنفيذ أوامر الله بـ « افعل » والامتثال لنواهي الله بـ « لا تفعل » .

وعندما تجعل بينك وبين الله وقاية ، فأنت تجعل بينك وبين غضب الله وقاية ، وهكذا تتساوى « تقوى الله » مع « اتقاء النار » .

ويذيل الحق الآية « إن الله شديد العقاب » . إنّ ما يجعل الناس تتهاون فى التعاون على البر ويجترئون على الإثم أنهم لا يجدون من مجتمعاتهم رادعاً ، ولو وجدوا الردع من المجتمع لحمى المجتمع أفراده من الإثم . وإن صار للمجتمع وعى إيمانى لقاطع المخالفين وأشعرهم بأنهم منبوذون ، وساعة يرى أمثال هؤلاء الناس أنهم منبوذون من المجتمع الإيمانى فهم يرجعون إلى المنهج الحق .

فما يغرى الناس على الجرائم الكبيرة إلاّ تهاون المجتمع فى الجرائم الصغيرة . ولذلك يلفتنا الحق أنه لن يترك الأمر كما تركه بعض من خلقه ؛ لأن الخلق قد يجاملون وقد لا يقفون أمام ما يفعله بعضهم من آثام ، لكن الله شديد العقاب ، سيأتى العقاب فى وقت ليس للفرد فيه جاه من مال أو حسب أو نسب يحميه من الله ، فإن أطمعك ضعف المجتمع فى أن تتعاون على الإثم فعليك أن تخاف الله ؛ لأن عقابه شديد .

وكيف يأتى العقاب إلى المذنب ؟ لا نعرف ، لأننا لسنا آلهة ، ونجد العقاب يتسلل إلى المذنب فى نفسه كمرض مؤلم لا يصرف المذنب فيه ما عنده من مال فقط ، لكنه قد يسأل الناس ليعالج نفسه ، أو يعالج من يحب . وجنود عقاب الله قد لا تتأخر للآخرة بل تتسلل إلى حياة المذنب دون أن يعرفها وهذه هى شدة العقاب .

وبعد ذلك يأتى الحق بأمر تحريم أشياء بعد أن حلل الله أشياء فى قوله : « أحلت لكم بهيمة الأنعام » . لقد أراد الحق سبحانه وتعالى أن يبين تخصيصا لما أحل من الأنعام . . فقد حلل الله من الضأن اثنين ومن المعز اثنين ومن الإبل اثنين ومن البقر

اثنين . وألحق الرسول بها الظباء وبقر الوحش ، وكل ذات أربع من حيوان البحر ، وكان قول الله : « إلا مايتلى عليكم » مؤذناً بأن هناك تحريماً قادماً سيأتى ، ويبين الحق بالقرآن ما يحرمه الله :

﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَـٰمِ ۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ۗ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ۚ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣﴾ ﴾

الآية تبدأ بقوله : « حرمت عليكم الميتة » ونلحظ أن البداية فعل مبنى للمجهول. على الرغم من أن الفاعل فى التحريم واضح وهو الله. ولم يقتحم سبحانه على أحد ، فالإنسان نفسه اشترك فى العقد الإيمانى مع ربه فألزمه ـ سبحانه ـ والعبد من جانبه التزم ؛ لذلك يقول الحق : « حرمت » ، حرمها سبحانه كإله وشاركه فى ذلك العبد الذى آمن بالله إلها .

والميتة هى التى ذهبت منها الحياة أو خرجت منها الروح بدون نقض للبنية ، أى ماتت حتف أنفها ، فذهاب الحياة له طريقان : طريق هو الموت أى بدون نقض بنية ، وطريق بنقض البنية ؛ فعندما يخنق الإنسان كائناً آخر يمنع عنه النفس وفى هذا إزهاق للروح بنقض شىء فى البنية ؛ لأن التنفس أمر ضرورى ، وقد يزهق الإنسان

روحا آخر يضربه بالرصاص ؛ لأن الروح لا تحل إلا فى جسد له مواصفات خاصة .

لكن هناك جوارح يمكن أن تبقى الروح فى الجسم دونها ، والمثال على ذلك اليد إن قطعت ، أما إن توقف قلب الإنسان فقد يشقون صدره ويدلكون هذا القلب فينبض مرة أخرى بشرط أن يكون المخ مازال حيا ، وأقصى مدة لحياة المخ دون هواء سبع دقائق فى حالات نادرة . فما أن يصاب المخ بالعطب حتى يحدث الموت . ولذلك عرف الأطباء الموت الإكلينيكى بأنه توقف المخ . إذن فهناك موت ، وهناك قتل ، وفى كليهما ذهاب للروح .

وفى الموت تذهب الروح أولاً ، وفى القتل تذهب الروح بسبب نقض البنية . والميتة هى التى ذهبت منها الحياة بدون نقض البنية ، ومن رحمة الله أن حرم الميتة ؛ لأنها ماتت بسبب لا نراه فى عضو من أعضائها ، حتى لا نأكلها بدائها .

وكذلك حرم الدم ، وهو السائل الذى يجرى فى الأوردة والشرايين ويعطى الجسم الدفء والحرارة وينقل الغذاء ، وللدم مجالان فى الجريان ؛ فهو يحمل الفضلات من الكلى والرئة ، وهناك دم نقى يحمل الغذاء ، والأوعية الدموية بها لونان من الدم : دم فاسد ودم صالح . وعندما نأخذ هذا الدم قد يكون فيه النوع الصالح ويكون فيه أيضاً النوع الذى لم تخرج منه الشوائب التى فى الكلى والرئة ، ولذلك يسمونه الدم المسفوح ، أى الجارى ؛ وكانوا يأخذونه قديما ويملأون به أمعاء الذبائح ويقومون بشيه ويأكلونه .

وهناك دم غير فاسد ، مثال ذلك الكبد ، فهو قطعة متوحدة ، وكذلك الطحال ، والنبى صلى الله عليه وسلم قال :

(أحلت لكم ميتتان ودمان ، فأما الميتتان : فالسمك والجراد ، وأما الدمان : فالكبد والطحال)[١] .

إذن فالكبد والطحال مستثنيان من الدم ، لكن إذا جئنا للدم المسفوح فهو حرام . والحكمة فى تحليل السمك والجراد هى عدم وجود نفس سائلة بهما ، فليس

(١) رواه أحمد وابن ماجه والدارقطنى .

فى لحمها دم سائل ، وعندما نقطع سمكة كبيرة لا ينزل منها دم . بل يوجد فقط عند الأغشية التى فى الرأس ولا يوجد فى شعيراته . وعندما يموت السمك ويؤكل فلا خطر منه ، وكذلك الجراد .

ويأتى بعد ذلك فى سلسلة المحرمات « ولحم الخنزير » . ولا يقولن مؤمن : لماذا حرم الله لحم الخنزير ؟ لقد ذهب العلم إلى كل مبحث ليعرف لماذا حرم الله الميتة وكذلك الدم حتى عرف العلماء أن الله لا يريد أن ينقل داء من حيوان ميت إلى الإنسان ، وكذلك حرم الله الدم لأن به فضلات سامة « كالبولينا » وغيرها .

ولكل تحريم حكمة قد تكون ظاهرة ، وقد تكون خافية . والقرآن قد نزل على رسول أمى فى أمة أمية لا تعرف المسائل العلمية الشديدة التعقيد ، وطبق المؤمنون الأوائل تعاليم القرآن لأن الله الذى آمنا به إلها حكيما هو قائلها ، وهو يريد صيانة صنعته ؛ وكل صانع من البشر يضع قواعد صيانة ما صنع . ولم نجد صانع أثاث ـ مثلا ـ يحطم دولاب ملابس ، بل نجده باذلا الجهد ليجمل الصنعة ، ومادام الله هو الذى خلقنا وآمنا به إلها ؛ فلا بد لنا أن ننفذ ما يأمرنا به ، وأن نتجنب ما نهانا عنه ، ولا يمنع ذلك أن نتلمس أسباب العلم ، رغبة فى ازدياد أسباب الإيمان بالله ومن أجل أن نرد على أى فضولى مجادل ، على الرغم من أنه ليس من حق أحد أن يجادل فى دين الله ؛ لأن الذى يرغب فى الجدال فليجادل فى القمة أولاً ؛ وهى وجود الله ، وفى البلاغ عن الله بواسطة الرسول ؛ فإن اقتنع ، فعليه أن يطبق ما قاله الله . فالدين لا يمكن أن نبحثه من أذنابه ، ولكن يبحث الدين من قمته . ونحن ننفذ أوامر الله . ولذلك نجد أول حكم يأتى لم يقل الحق فيه : يا أيها الناس كتب عليكم كذا ، ولكن سبحانه يقول : « يا أيها الذين آمنوا » أى يا من آمنت بى خذ الحكم منى .

وأكرر المثل الذى ضربته سابقاً : أثمن ما عند الإنسان صحته ، فإذا تعرضت صحته للاختلال فهو يدرس الأسباب ؛ إن كان يرهقه الطعام يختار طبيبا على درجة علم عالية فى الجهاز الهضمى ، ويكتب الطبيب الدواء ، ولا يقول المريض للطبيب : أنا لن أتناول هذا الدواء إلا إذا قلت لى لماذا وماذا سيفعل هذا الدواء .

إذن فالعقل مهمته أن ينتهى إلى الطبيب الذى اقتنع به ، وما كتبه الطبيب من تعاليم فعليك تنفيذها ، وكذلك الإيمان بالله ، فمادام الإنسان قد آمن بالله إلها فعليه أن ينفذ الأوامر فى حركة الحياة بـ « افعل » و « لا تفعل » ، والمريض لا يناقش طبيبا ، فكيف يناقش أى إنسان ربه : « لم كتبت على هذا » ؟

والطبيب من البشر قد يخطىء ؛ وقد يتسبب فى موت مريض ، وعندما نشك فى قدرة طبيب ما نستدعى عدداً من الأطباء لاستشارة كبيرة . وننفذ أوامر الأطباء ، ولا يجرؤ أحد أن يناقش الله سبحانه وتعالى بل نقول : كل أوامرك مطاعة .

إننا ننفذ أوامر الأطباء فكيف لا ننفذ أوامر الله ؟ إن الإنسان يضع ثقته فى البشر الخطائين ، ولا يمكن ـ إذن ـ أن تعلو على الثقة فى رب السماء ؛ لذلك فالعاقلون هم الذين أخذوا أوامر الله وطبقوها دون مناقشة ؛ لأن العقل كالمطية يوصل الإنسان إلى عتبة السلطان ، ولكن لا يدخل معك عليه ، وحين تسمع من الله فأنت تنفذ ما أمر به .

« حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير » وقد أثبتت التحليلات أن بلحم الخنزير دودة شريطية ودودة حلزونية وعددا آخر من الديدان التى لا يقهرها علاج .

والمحرمات من بعد ذلك « وما أهل لغير الله به » أى رفع الصوت به لغير الله كقولهم : باسم اللات والعزى عند ذبحه ، ولا يقال عند ذبحه : « الله أكبر بسم الله » ؛ لأن الإنسان منتفع فى الكون الذى يعيش فيه بالأجناس التى طرأ عليها ، لقد وجد الإنسان هذه الأجناس فى انتظاره لتخدمه لأنه خليفة الله فى الأرض ، والحيوان له روح ولكنه يقل عن الإنسان بالتفكير ، والنبات تحت الحيوان ، والجماد أقل من النبات . وساعة يأخذ الإنسان خدمة هذه المسخرات ، فعليه أن يذكر الخالق المنعم ، وعندما يذبح الإنسان حيوانا ، فهو يذبحه بإذن الأكبر من الإنسان والحيوان والكون كله ، يذبحه باسم الخالق .

إن هناك من ينظر إلى اللحم قائلاً : أنا لا آكل لحم الحيوانات لأنى لا أحب الذبح للحيوان شفقة ورحمة ، لكن آكل النبات . ونقول : لو أدركت ما فى النبات من حياة أكنت تمتنع عن أكله ؟ لقد ثبت فى عصرنا أن للنبات حياة ، بل وللجماد حياة أيضاً ؛ لأنك عندما تفتت حصوة من الصوان أو أى نوع من الأحجار ، فأنت تعاند بدقات

المطرقة ما فى تلك الحصوة من تعانق الجزيئات المتماسكة ، وقد تفعل ذلك وأنت لا تدرى أن فيها حياة .

﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾

(من الآية ٤٤ سورة الإسراء)

والصالحون من عباد الله يعرفون ذلك ويديرون أعمالهم وتعاملهم مع ما سواهم من المخلوقات جميعا ـ حيوان أو جماد ـ على أنها مسبّحة لذلك لا يمتهنون الأشياء ولا يحتقرونها مهما دقت وحقرت وإنما يتلطفون معها حتى لو ذبحوا حيوانا فإنهم يرحمون ذلك الحيوان فلا يشحذون ولا يسنون السكين أمامه ولا يذبحون حيوانا أمام حيوان آخر فضلا على أنهم يطعمون ويسقون ما يريدون ذبحه لأنهم يعلمون أنه مسبح ولكنهم فعلوا فيه ما فعلوا لأن الله أباح لهم ذلك ليستديموا حياتهم بأكله فهم أهل تكليف من الله ، أما ما عداهم فهم أهل تسخير .

« وما أهل لغير الله به » تشرح لنا أن الحق هو الذى حلل لنا أن نأكل من الذى له حس وحركة ، كالحيوان الذى يتطامن للإنسان فيذبحه ، ولا بد للإنسان أن يعرف الشكر لواهب النعمة ، فـ « بسم الله الله أكبر » تؤكد أنك لم تذبحه إلا باسم من أحله لك .

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾

(سورة يس)

إذن فالأكل من ضمن التذليل ، وعندما تذبح الحيوان لا بد أن تذكر من ذلل لك ذلك . ويحرم الحق أكل المنخنقة ، أى الحيوان الذى مات خنقاً ؛ لأن قوام الحياة ثلاثة : طعام ، شراب ، هواء ، وهذا من حكمة الخالق الذى خلق الصنعة ورتب الأمر حسب الأهم والمهم ، فالإنسان قد يصبر على الجوع إلى ثلاثين يوماً ؛ لأن ربنا سبحانه وتعالى قدر لك ـ أيها الإنسان ـ ظروف الأغيار ، فجعل فى جسمك مخزونا لزمن قد تجوع فيه ، وجعل للإنسان شهوة إلى الطعام ، وغالبا لا يأكل الإنسان ليسد الرمق فقط ، ولكن بشهوة فى الأكل .

إن ربنا يوضح لنا : أنا أحترم شهوتك للطعام ، ولتأخذ حركتُك الضروريَّ لها

من الطاقة ، والزائد سيُخزن فى الجسم كدهون ولحم ، فإن جاء يوم لا تجد فيه طعاماً أخذت من الدهون المخزونة طاقة لك . وهذه من دقة الصنعة ، وإن قارنتها بسيارة صنعها الإنسان إذا ما فرغ منها الوقود فإنها تقف ولا تسير ، أما صنعة الخالق فهى لا تقف إن توقف الطعام بل تستمر إلى ثلاثين يوماً ، وربما حن على الإنسان قلب إنسان آخر فأحضر له الطعام ، وربما احتال الإنسان ليخرج من مأزق عدم وجود الطعام .

إن المرأة العربية وصفت الشدة والعوز فقالت : « سنة أذابت الشحم ، وسنة أذهبت اللحم ، وسنة محت العظم » أى أن الأمر درجات ، فالإنسان يتغذى من دهنه ثم من لحمه ثم من عظامه ، ويصبر الإنسان على الماء مدة تتراوح ما بين ثلاثة ، وعشرة أيام ، حسب كمية المياه المخزونة فى الجسم . أما الهواء فلا يصبر عنه الإنسان إلا بمقدار الشهيق والزفير ، فإن حُبس الهواء عن الإنسان مات . فالنَفَس هو أهم ضرورة للحياة ، ولذلك نجد من حكمة الحق سبحانه أنه لم يملّك الهواء لأحد ، لأن أحداً لو امتلك الهواء بالنسبة لإنسان آخر فقد يمنع عنه الهواء لحظة غضب فتنتهى منه الحياة .

واللغة العربية فيها من السعة ومن دقة الأداء ما يدل على أن هناك أسرارا للمعانى ، تلتقى عند شىء ما ، فمثلاً إذا قلت : نَفْس ، أو نفيس ، أو نَفَس ، نجد أنها ثلاث كلمات مكونة من مادة واحدة هى « النون والفاء والسين » ، النفْس هى اتصال الروح بالمادة فتنشأ الحياة بها ، ويلهم ربنا النفس فجورها وتقواها ، والنَفَس : وهو الريح تدخل وتخرج من فم وأنف الحى ذى الرئة حال التنفس ولا تدوم الحياة إلا به ، ومادام أساس الحياة هو النفَس فيجب ألا تكون حياتك إلا من أجل نفيس ، ويجب أن تحترم خلق الله لك وألا يكون سعيك فى الدنيا إلا من أجل نفيس ، ولا نفيس إلا الإيمان .

وفى اللغة العربية أمثلة كثيرة لما يسمى بالجناس ، فنحن نسمى الأكل فى الميعاد « وجبة » ، ونسمى المسئولية « واجبا » ونسمى دقة القلب « الوجيب » . ولذلك عندما أراد الشعراء أن يتفننوا جاء واحد منهم بلفظين متماثلين ولكل منهما معنى مختلف فقال :

رحلت عن الديار لكم أسير وقلبى فى محبتكم أسير

فأسير فى الشطر الأول بمعنى أمشى ، وأسير فى الشطر الثانى من البيت بمعنى مأسور ومقيد .

فالمنخنقة إذن هى التى منع عنها النفس ، ومادام مَنْع النفس أوصلها إلى الخنق فهى إلى الموت ، فلماذا جاء ذكرها مرة أخرى بعد الميتة ؟ لقد جاء ذكر المنخنقة لأن الإنسان قد يلحقها بالذبح ، فإن سال منها دم ، وطرفت فيها عين أو تحرك الذيل فهى حلال . أما إن لم يلحقها الإنسان وذبحها ولم يسل منها دم فهى حرام ، ويحرم الحق الموقوذة ، وهى البهيمة التى يتم ضربها بأى شىء إلى أن تصل للموت ، فهى قد ماتت ، بنقض بنية وكذلك المتردية التى وقعت من ارتفاع حتى ماتت ، وكذلك « النطيحة » أى التى نطحها حيوان آخر إلى أن ماتت . « وما أكل السبع » وهو ما يبقى من أكل السبع من لحم ما افترسه من حيوان مأكول ، « إلا ما ذكيتم » ، والذكاة هى الذبح الذى يسيل منه الدم وتأتى بعده حركة من المذبوح . والمقصود بقوله : « إلا ما ذكيتم » هو المنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة ، فإن أدركها الإنسان وذبحها وسال منها دم وصدرت منها حركة فهى حلال .

هذا هو رأى على بن أبى طالب ـ كرم الله وجهه ـ وهو مفتى الإيمان . وابن عباس ـ رضى الله عنه ـ وهو حَبْرُ الأمة قال ـ أيضا ـ فى قوله الحق : « إلا ما ذكيتم » هو استثناء لغير الميتة والدم ولحم الخنزير ومقصود به المنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة . وهذا يوضح لنا أن هناك حيوانات شرسة قد لا يقوى الإنسان عليها . وأحياناً قد يقدر الإنسان عليها فيقوم بتكتيفها بالحبال ، وأحيانا يضربها بآلة لتختل وتضعف قليلا ويتملكها الجزار ليذبحها .

ونلاحظ أن الحق لم يحدد الحيز من الجسم الذى أصيبت فيه الموقوذة سواء أكان البطن أم الرأس أم الظهر ، فالحيوان المضروب رميا بالحجارة قد تأتى الأحجار فى الرأس أو البطن أو الظهر ، فمن الجائز أن يضرب الإنسان الحيوان الشرس ليستطيع أن يذبحه .

والحجة عندنا فى التحليل أو التحريم هى : أيسيل منها الدم ساعة الذبح أم لا ؟

وهل يصدر عن جسمها حركة ولو طرفة عين ؟ فإن توافر ذلك فى الذبيحة فهى حلال ، وهكذا نعرف أن قوله الحق : « إلا ما ذكيتم » هو استثناء لغير الثلاثة الأول وهى : الميتة والدم ولحم الخنزير ومعها ما أهل لغير الله به لأنه محرم بطبيعة الإيمان العقدى .

« وما أكل السبع إلا ماذكيتم وما ذبح على النصب » ويحرم الحق ما أكله السبع إلا إذا كان الحيوان الذى أكله السبع لم يمت واستطاع واحد أن يذبحه الذبح الشرعى . وسبحانه يحرم ما لم يذبح بالأسلوب الشرعى ، فلا يحل ذَبْح بعظم أو بِسِنّ والذى ذبح على النصب ، أى المذبوح على الأحجار المنصوبة كالأصنام فهو حرام ، والكلام هنا عقدى ، والتحريم هنا بعارض عقدى .

و« النُّصُب » من الألفاظ التى وردت مفرداً ووردت جمعاً . فـ« نصُب » هى جمع ، مثلما نجمع كلمة « حمار » ونقول « حُمُر » ، وفى هذه الحالة يكون مفردها « نِصاب » ، ومرة تكون « نصب » مفرداً ، مثلها مثل « طُنُب » وهو الحبل وجمعها « أطناب » أى حبال ، وفى هذه الحالة يكون جمع « نُصُب » هو « أنْصَاب » .

والنُّصُب هى حجارة كانت منصوبة حول الكعبة يذبح عليها المشركون الذبائح تقرباً للآلهة . والتحريم هنا بسبب عقدى مثله مثل تحريم ما أهل لغير الله به ، فما أهل لغير الله فيه شرك بالله فافتقد ذكر الله الذى ذلل للإنسان هذا الحيوان القريب من الإنسان فى الحس والحركة وغير ذلك . وكذلك أيضاً ما ذبح على النصب محرم ؛ لأن النصب غير واهب ولا معط ، والواجب أن نتقرب إلى الواجد الواهب .

« وأن تستقسموا بالأزلام » واستقسم أى طلب القسمة ، وكانت القسمة فى بعض الأحيان عملية محرجة فيريدون إلصاقها بغيرهم ، وهنا يقال : « إن الأزلام هى التى أمرتنى » . والأزلام هى قداح من الخشب مكتوب على بعضها : « أمرنى ربى » ومكتوب على البعض الآخر : « نهانى ربى » وبعض من هذه القداح غفل بغير كتابة . وكان المشرك إذا أراد السفر فهو يذهب إلى سادن الكعبة أو الكاهن ، ويخرج السادن أو الكاهن الأزلام من الكيس ، ويحرك القداح ويختار المشرك قِدْحاً ، فإن قرأ عليه « أمرنى ربى » يسافر إلى المهمة التى يريدها ، وإن لم يقرأ عليه ووجده غفلا فهو يعيد الكَرَّة ؛ فإن وجد « نهانى ربى » لا يسافر .

ونسأل : من هو الرب الذى أمر ؟ هل هو الرب الأعلى ، أو الرب الذى كانوا يعبدونه ؟ وأى إله كانوا يقصدون ؟ إن كان المقصود به الإله الأعلى ، فمن أدراهم أن الله أمر بهذا السفر أو نهى عن ذلك السفر ؟ إن ذلك كذب على الله . وإن كان الذى أمر هو الرب الذى يعبدونه ، فهذا أمر باطل من أساسه ، إذن فـ « استقسم » أى أنّه طلب حظه وقسمته بواسطة القداح . وكان الاستقسام يتم فى مسائل الزواج أو عدم الزواج ، والكلام هنا فى هذه الآية عن الأكل ؛ فالسياق عن تحليل ألوان الطعام فلماذا هذا الاستقسام ؟

من هذا نعرف أنهم كانوا فى الجاهلية يخضعون للون من الاستقسام بالأزلام ، كانت عندهم عشرة قداح وكان مكتوبا عليها أسماء ، فواحد على سبيل المثال مكتوب عليه « الفذ » وعليه علامة واحدة . أى أن الذى يسحب هذا القدح يأخذ نصيبا واحداً ؛ أما المكتوب عليه « التوأم » فيأخذ نصيبين ، والمكتوب عليه « الرقيب » يأخذ ثلاثة أنصباء ، والمكتوب عليه « الحِلس » يأخذ أربعة أنصباء ، والمكتوب عليه « النافر » يأخذ خمسة أنصباء ؛ والمكتوب عليه « المُسْبل » يأخذ ستة أنصبة ، والمكتوب عليه « المُعلّى » يأخذ سبعة أنصبة ، والباقى ثلاثة أنواع مكتوب على كل واحد منها إما « المنيح » وإمّا « السفيح » وإمّا « الوغد » .

وعندما يقومون بذبح الجمل كانوا يقسمونه إلى ثمانية وعشرين نصيباً بعدد الأنصبة التى ينالها الأشخاص السبعة الأوائل ، أما من خرج لهم « المنيح » أو « السفيح » أو « الوغد » فلا نصيب لهم ويدفعون ثمن الذبيحة .

إذن فقوله الحق : « وأن تستقسموا بالأزلام » أى أن مسألة طلب القسمة بواسطة الأزلام هو أسلوب مجحف وحرام ، وهو لون من الميسر ، والاستسقام بالأزلام خلاف القرعة ، فالقرعة تكون بين اثنين متساويين ولا يريد أحدهما أن يظلم الآخر ، فيخرجا الهوى من الاختيار .

مثال ذلك : اثنان من البشر يملكان بيتاً ، وتحرى كل منهما العدل فى القسمة ويلجآن إلى القرعة بأن يكتب كل منهما اسمه فى ورقة ثم يضعا الورقتين فى إناء ضيق ويحضر طفل صغير لا يعرف المسألة ويغمض عينيه ويشد ورقة من الاثنتين ، فيأخذ كل واحد النصيب الذى حددته القرعة .

ومثال آخر : الرجل المتزوج بأكثر من واحدة ، عليه أن يقرع بين النساء إن أراد صحبة إحداهن فى سفر ، والقرعة هنا حتى لا تغضب واحدة من الزوجات ، وحتى لا يكون الهوى هو الحكم ، وبذلك يخرج من دائرة لوم مَن لا تخرج قرعتها .

ولنا فى رسول الله صلى الله عليه وسلم الأسوة الحسنة ، فعندما أراد صلى الله عليه وسلم ألا يكسر خاطر أى واحد من الأنصار عندما هاجر إلى المدينة ، وتطلع كل واحد من الأنصار إلى أن ينزل رسول الله فى بيته ، وحاول كل واحد أن يمسك بزمام الناقة وأن يجعلها تقف أمام بيته ، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(خلوا سبيلها فإنها مأمورة)[1] .

فعندما تميل الناقة وتقف عند أى بيت لن يقول أحد : إن النبى آثر فلاناً على فلان . جعلها الرسول فى يد من لا يقدر أحد على أن يخالفه عليه ، وكذلك فالاستخارة غير الاستقسام . إذن فالاستقسام بالأزلام هو المحرم شرعاً ؛ لأنها عملية غير مناسبة وهى ظالمة ، ووردت هنا فى سياق ألوان الطعام .

ويقول سبحانه عن كل تلك الألوان من المحرمات ؛ إنَّ ارتكابها فسق . « ذلكم فسق » والفسق هو الخروج عن الطاعة . والمعانى ـ كما علمنا من قبل ـ مأخوذة من المحسّات ؛ لأن إلف الإنسان فى أول إدراكاته بالمحسات ، فهو يرى ويسمع ويشم ، وبعد ذلك تأتى الأمور العقلية .

وأصل الفسق هو خروج الرطبة عن قشرتها ؛ فالبلحة عندما ترطب تنكمش الثمرة داخل القشرة وتخرج منها عندئذ يقال : « فسقت الرطبة » أى خرجت من قشرتها ، وكذلك من يخرج عن منهج الله يسمونه فاسقاً ؛ تماماً مثل الرطبة ، وفى هذا رمزية تدل على أن شرع الله سياج يحيط بالإنسان ؛ فالذى يخرج عن منهج الله يكون فاسقاً . وإياك أيها المسلم أن تخرج عن شرع الله ؛ لأن الرطبة عندما تخرج عن القشرة فالذباب يحوم حولها ويصيبها التراب وتعافها النفس ، فكان دين الله كإطار يحمى الإنسان بالإيمان .

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ، وأخرجه ابن كثير فى البداية والنهاية ، وابن سعد فى الطبقات الكبرى .

وهذه الأحكام كلها تبنى قضية الدين ، قضية عقدية فى الألوهية ، قضية البلاغ عن الألوهية بواسطة الرسالة . وأحكام تنظم حركة المجتمع بالعقود والأمانات والأنكحة وغيرها ، كل هذه الأحكام تصنع هيكل الدين العام . وقد مر هيكل الدين العام بمرحلتين : المرحلة المكية وكان كل هدفها التركيز على العقيدة والإيمان بوحدانية الله والنبوات والبلاغ عن الله ، وبعد ذلك فى المرحلة المدنية جاءت سورة النساء وسورة المائدة لتتكلما عن الأحكام .

وبالعقيدة وبالبلاغ عن الله وبالأحكام يكتمل الدين ؛ لذلك يقول الحق : « اليوم يئس الذين كفروا من دينكم » كأن الكافرين كان لهم أمل فى أن يحبطوا هذا الدين وأن يبطلوه وأن ينقضوه ، وكذلك المؤمنون بأديان سابقة أو بكتب سابقة كانوا يحبون أن يطرأ على القرآن الأفعال التى مارسوها مع كتابهم من النسيان والترك والتحريف ، وسبحانه هو القائل عن أصحاب الكتب السابقة :

﴿ وَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ ﴾

(من الآية ١٣ سورة المائدة)

إذن فقد أرادوا أن ينسى المسلمون ـ أيضاً ـ حظاً من القرآن ، لكن الحق يخبر بأنهم يئسوا أن ينسى المسلمون حظا مما ذكروا به ؛ لأن الصحابة حفظوا القرآن فى الصدور وكتبوه فى السطور ومن لسان الرسول مباشرة . ولم يحدث مثلما حدث مع الرسل السابقين . فقد تم تسجيل هذه الكتب المنزلة عليهم بعد ثلاثة أو أربعة قرون ، بل أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بكتابة القرآن من فور نزول كل نجم من الآيات ، وكان يأمر بوضع الآيات بترتيب معين .

إن على الذين كفروا أن ييأسوا من أن ينسى المسلمون حظاً مما ذكروا به . وهؤلاء القوم من أهل الكتاب لم ينسوا حظاً مما ذكروا به فقط ، بل أيضاً حرفوا الكتاب عن مواضعه وكتموا ما أنزل الله :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۙ أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ ﴾

(من الآية ١٧٤ سورة البقرة)

وهم يئسوا من أن يكتم المسلمون ما أنزل الله ، بدليل أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يأتى بحكم فى شىء ، ثم يغير الله ذلك الحكم ، فلا يستحى رسول الله أن يبلغ : أن الحكم الذى قلته لكم قد غيره الله لى . وهل يستنكف أن يعدل الله له ؟وهذا دليل على أمانة البلاغ عن الله ، لذلك يئس الكافرون بألوانهم المختلفة من أن ينسى المؤمنون حظا مما ذكروا به ؛ لأن تسجيل القرآن كان أمينا بصورة لا نهاية لها ، وظل القرآن مكتوباً فى السطور ومحفوظاً فى الصدور .

والحق يعلن عن يأس الكفار من مشركين وأهل كتاب بقوله : « اليوم يئس الذين كفروا من دينكم » يئسوا لأن المراحل التى مرت بالكتب السابقة لن تمر بهذا الدين . وقد توهم أهل الكتاب أن الإسلام سيمر بما طرأ عليهم ، وظن بعضهم أن المسلمين سيصيرون إلى ما صار إليه أهل الكتاب من ترك لدينهم وإهدار له . وكذلك ظن بعض كفار قريش أن المسلمين سيصيرون إلى ما صار إليه أهل الكتاب ، فقد كانت عندهم التوراة وهم مع ذلك لا يتبعون كتابهم ، فيرد الحق على كل هؤلاء : اليوم يئس الذين كفروا من دينكم » .

وقوله : « اليوم » يعنى الزمان الذى مضى والزمان المستقبل ، فقد أتم الله دين الإسلام ورضيه لنا وفتحت مكة للمسلمين ودخل الناس فى دين الله أفواجا . وصار القرآن مكتوباً ومحفوظاً . وبذلك تأكد يأس الكافرين والمشركين أن يُنسى القرآن أو أن يُكتم القرآن ؛ لأن من أنزل عليه الكتاب ، كان إذا جاء أمر يتعلق به فهو يقوله . وعندما مال قلب المسلمين ذات مرة إلى تبرئة المسلم الذى سرق وأن تلصق التهمة باليهودى البرىء ، هنا نزل من القرآن قوله :

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ ﴾

(سورة النساء)

لقد أمر الحق أن يكون النبى هو الحكم العدل حتى ولو كان حكماً ضد مسلم . ويأمر الحق رسوله أن يستغفر الله إن كان قد ألم به خاطر أن ينصر المسلم الخائن على اليهودى الذى لم يسرق ، إنها سماحة دين الإسلام .

« اليوم يئس الذين كفروا من دينكم » . ولقد تم دين الله . ودخل الناس إلى الإسلام أفواجا . ولن يُنسى القرآن . ولن يكتم القرآن أحد . ولن يحرف القرآن أحد . ولن يحدث للقرآن ما حدث للكتب السابقة من نسيان وكتمان وتحريف ، أو الإتيان بأشياء أخرى والقول والزعم بأنها من عند الله ، وهى ليست من عند الله . إذن فقد يئس الذين كفروا من أن يتزيد المسلمون فى دينهم . ولن توجد بين المسلمين تلك المثالب والعيوب التى ظهرت فى الأقوام السابقة .

« اليوم يئس الذين كفروا من دينكم » لقد يئسوا من أن يُغلب الإسلام ، بل إن الإسلام سَيَغْلب . وأرادوا أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره .

« اليوم يئس الذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم » وقد حكم سبحانه ألا يأتى أمر يحقق لأعداء الإسلام الشماتة به ، أو أن تتحقق لهم الفرصة فى انكسار الإسلام ، فلا تخشوهم أيها المسلمون لأنكم منصورون عليهم ، ولن تدخلوا فى أسباب الخيبة التى دخلوا فيها . وعليكم أيها المؤمنون بخشية الله .

ولو أراد أحد تغيير شىء من منهجه سبحانه فسيلقى العقاب ، وسبحانه لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، فكتاب الله معكم وترك فيكم رسول الله صلى الله عليه وسلم منهجه ، فإن خالفتم المنهج فستلقون العقاب ، كما هزم الله المسلمين فى أُحُد أمام المشركين لأنهم خالفوا المنهج . فما نفعهم أنهم كانوا مسلمين منسوبين للإسلام بينما هم يخالفون عن أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم . إذن فلا خشية من المسلمين لأعدائهم . ولكن الخشية تكون لله ، فإن خفتم فخافوا الله وحافظوا على تنفيذ منهج الله . ومادام سبحانه هو الآمر : لا تخش أعداء الله لأنه زرع فى قلوبهم اليأس من أن ينسى المسلمون المنهج ، أو أن يتزيدوا فى الدين ، أو يكتموا الدين ، فهم لا يحرفونه ولا يزيدون فيه . إذن فالعيب كل العيب ألا تطبقوا منهج الله .

« اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا فمن اضطر فى مخمصة غير متجانف لإثم فإن الله غفور رحيم » والإكمال هو أن يأتى الشىء على كماله ، وكمال الشىء باستيفاء أجزائه ، واستيفاء كل جزء للمراد منه . وقد أتم الله استمرار النعمة بتمام المنهج .

لقد رضى الحق الإسلام ديناً للمسلمين . ومادام رضى سبحانه الإسلام منهجاً، فإياكم أن يرتفع رأس ليقول : لنستدرك على الله ؛ لأن الله قال : « أكملت » فلا نقص . وقال : « أتممت » فلا زيادة . وعندما يأتى من يقول : إن التشريع الإسلامى لا يناسب العصر . نرد : إن الإسلام يناسب كل عصر ، وإياك أن تستدرك على الله ؛ لأنك بمثل هذا القول تريد أن تقول : إن الله قد غفل عن كذا وأريد أن أصوب لله ، وسبحانه قال : « أكملت » فلا تزيد ، وقال : « أتممت » فلا استدراك ، وقال : « ورضيت » فمن خالف ذلك فقد غَلَّب رضاه على رضا ربه .

إن الخالق سبحانه هو أعلم بخلقه تمام العلم ، ويعلم جل وعلا أن الخلق ذو أغيار ، وقد تطرأ عليهم ظروف تجعل تطبيق المنهج بحذافيره عسيراً عليهم أو متعذراً فلا يترك لهم أن يترخصوا هم ، بل هو الذى يرخص ، فلا يقولن أحد : إن هذه مسألة ليست فى طاقتنا . فساعة علم الحق أن هناك أمراً ليس فى طاقة المسلم فقد خففه من البداية . ومادمنا ذوى أغيار ، وصاحب الأغيار ينتقل مرة من قوة إلى ضعف ، ومن وجود إلى عدم ، ومن عزة إلى ذلة ؛ لذلك قدر سبحانه أن يكون من المؤمنين بهذا المنهج الكامل من لا يستطيع القيام لمرض أو مخمصة ، فرخص لنا سبحانه وتعالى : « فمن اضطر فى مخمصة غير متجانف لإثم فإن الله غفور رحيم » .

إذن فالحق قد ذكر أن شيئاً من الأغيار قد يطرأ على النفس البشرية ، ومادام استبقاء الحياة يتطلب القوت ، والإنسان قد يمر بمخمصة وهى المجاعة التى تسبب الضمور فى البطن ، هنا يرخص الحق للجائع فى مخمصة أن يأكل الميتة أو ما فى حكمها بشرط الاضطرار لاستبقاء الحياة ، فلا يقول واحد على سبيل المثال :

أنا مضطر لأن أتعامل مع البنك بالربا لأنى أريد أن أتاجر فى مائة ألف جنيه وليس معى إلا ألف جنيه . وهذا ما هو حادث فى كل الناس . هنا أقول : لا . عليك بالتجارة فى الألف التى تملكها ولا تقل أنا مضطر للتعامل فى الربا . فالمضطر هو الذى يعيش فى مجاعة وإن لم يفعل ذلك يموت أو يموت من يعول . وقد رخص الشرع للإنسان الذى لا يملك مالاً أن يقترض من المرابى إن لم يجد من يقرضه ليشترى دواء أو طعاماً أو شيئا يضطر إليه لنفسه أو لمن يعول . والإثم هنا يكون على المرابى ، لا على المقترض لأنه مضطر .

ولذلك قال الحق : « فمن اضطر فى مخمصة غير متجانف لإثم » ، أى أنه كاره للإثم وإن ذهب إليه . ولذلك يباح للمضطر على قدر دفع الضرورة . لدرجة أن رجال الشريعة قالوا : إن على الإنسان المضطر ألا يأكل من الميتة أو ما فى حكمها بالقدر الذى يشبع ، بل يأخذ أقل الطعام الذى يمسك عليه رمقه ويبقى حياته فقط . فإذا كان يسير فى الصحراء فعليه ألا يأخذ من الميتة أو ما فى حكمها إلاَّ قدراً يسيراً لأنه لا يجد شيئاً يتقوت به .

إذن فمعنى اضطر فى مخمصة شرط أن يكون غير متجانف لإثم ، أى لا يكون مائلاً إلى الإثم فرحا به ، فعليه ألا يأخذ إلا على قدر الضرورة . ومادام على قدر الضرورة فهو لن يحمل معه من هذه الأشياء المحرمة إلا ما يقيم أوده ويمسك روحه . والمضطر هو من فقد الأسباب البشرية . وسبحانه وتعالى قد بسط أسبابه فى الكون ومد بها يديه إلى خلقه ، وأمر الأسباب : استجيبى لهم مؤمنين كانوا أو كافرين ، فالذى يزرع ويحسن الزراعة والرى والبذر والحرث فالله يعطيه ، والذى يتقن عمله كتاجر تتسع تجارته وتزيد أرباحه .

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ﴾

(من الآية ٢٠ سورة الشورى)

إن عطاء الأسباب هو عطاء الربوبية . والمضطر هو من فقد أسبابه . ولذلك فالحق يجيب المضطر إذا دعاه . وقد يقول قائل : إننى أدعو الله ولا يجيبنى . ونقول : إنك غير مضطر لأنك تدعو ـ على سبيل المثال ـ بأن تسكن فى قصر بدلاً من الشقة التى تسكنها ، وأنت تدعو بأن يعطيك الله سيارة فارهة وأنت تملك وسيلة مواصلات عادية . فالمضطر ـ إذن ـ هو الذى فقد الأسباب ومقومات الحياة .

﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ ﴾

(من الآية ٦٢ سورة النمل)

وقد ضربنا من قبل المثل ـ ولله المثل الأعلى ـ بتاجر يستورد بضائع تصله من الخارج فى صناديق ثقيلة . تحملها السيارات الضخمة ، ويقوم أحد العمال أمامه بحمل صندوق ضخم ، فغلب الصندوق العامل . وهنا يقفز التاجر ليسند العامل .

وهذه هي المساندة في المجال البشرى ، إذن فلا يَردّ واحد أسبابَ الله من يده ويقول من بعد ذلك : يارب أعنى ؛ لأن الله فى تلك اللحظة يوضح للعبد : إنّ عندك أسبابى ومادامت أسبابى موجودة ، فلا تطلب من ذاتى إلا بعد أن تنفد أسبابى من عندك ؛ لذلك يباح للمضطر أن يأخذ القدر الذى يردّ به السوء عن نفسه .

« فمن اضطر فى مخمصة غير متجانف لإثم فإن الله غفور رحيم » ومادام سبحانه قد رخص لنا ذلك ، فما الداعى أن يذيل الآية بمغفرته ورحمته ؟ ولنفهم أن الإنسان يأخذ الغفر مرة على أنه ستر العقاب عنه ، وقد يكون الغفر سترَ الذنب عن العبد لأن الله رحيم . وهذا ما يشرح لنا ما قاله الحق لرسوله :

﴿ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ ﴾

(من الآية ٢ سورة الفتح)

فسبحانه يغفر بستر العقاب ، ويقدم الغفر لستر الذنب فلا يقارفه الإنسان ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ ۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَـٰتُ ۙ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤﴾ ﴾

فبعد أن بين الحق ما حرم وما أحل ، نجد أن المحَلّل غير محصور ، بل المحصور هو المحرم ؛ لأن الحق حينما حرم عشرة أشياء ، فإن هذه الأشياء العشرة ليست هى كل الموجودات فى الكون ، فالموجودات فى الكون كثيرة . وسبحانه وتعالى حين خلق آدم وجعله يتناسل ويتكاثر للخلافة فى الأرض ؛ قدر فى هذه الأرض مقومات استبقاء الحياة لذلك النوع .

والاستبقاء نوعان : استبقاء حياة الذات للإنسان ، واستبقاء حياة نوع الإنسان ، واستبقاء حياة الذات تكون بالتنفس والشراب والطعام ، واستبقاء حياة النوع تكون بالإنكاح والتناسل .

إذن يوجد بقاءان لاستمرار الخلافة : البقاء الأول : أن تبقى الحياة وذلك بمقوماتها ، والبقاء الثانى : أن يبقى نوع الحى وذلك بالتكاثر . وحتى تبقى الحياة ويتكاثر الإنسان لا بد من وجود أشياء وأجناس تخدم الإنسان وتعطيه الطاقة .

وطمأننا سبحانه وتعالى على الرزق حينما قال :

﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِى خَلَقَ الْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَٰلَمِينَ ۝ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ۝ ثُمَّ اسْتَوَىٰٓ إِلَى السَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ۝ ﴾

(سورة فصلت)

وهو بذلك يخبرنا بأنه قدر فى الأرض أقواتها ، وقدر هذه الأقوات للإنسان الخليفة فى الأرض ، لتقيت الإنسان لهذه الحياة ، ويُبقى الإنسان نوعه بالإنكاح . وحين يعد العبد النعم التى وفرها له الحق يجدها لا تحصى . ولم يحاول الإنسان على طول تاريخه أن يحسب ويحصى نعم الله فى الأرض ؛ لأن الإقبال على الإحصاء يكون نتيجة المظنة بالقدرة على الإحاطة بالنعم . وقد عرف الإنسان بداية أنه لا يقدر على الإحاطة بنعم الله ؛ فلم يجرؤ أحد على أن يعدها . ولذلك قال الحق سبحانه :

﴿ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾

(من الآية ٣٤ سورة إبراهيم)

وقد استخدم « إن » وهى للأمر المشكوك فيه . إذن فهى نعم كثيرة لا نقدر على إحصائها . ونسأل : أيقول الحق لنا النعم المحللة أم الأشياء المحرمة ؟ وبما أن المحلل كثير لا نهاية له ، وبما أن المحرم محصور ؛ لذلك يورد لنا الأشياء المحرمة . وقد بين لنا الحق عشرة أشياء محرمة من النعم . ونلاحظ أن الحق سبحانه وتعالى

حينما تكلم عن عدم قدرة الإنسان على إحصاء نعمه سبحانه وتعالى قال فى آية :

﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾ ﴾

(سورة إبراهيم)

وقال فى آية أخرى :

﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾ ﴾

(سورة النحل)

وظاهر كلام الناس يقول : إنها عبارات تقال وتتكرر ، ولكننا نقول : يجب أن ننتبه إلى أن النعمة تحتاج إلى من يعطيها وهو المُنعِم ، ومن تعطى له وهو المنعم عليه . إذن فنحن أمام ثلاثة عناصر : نعمة ، ومُنعِم ، ومُنْعَم عليه . أما من جهة النعمة وأفرادها فلن يقدر البشر على إحصائها لأنها فوق الحصر . ومن جهة المنعم فهو غفور رحيم . ومن جهة المنعم عليه فهو ظلوم كفار . لماذا يأتى الله لنا بمثل هذه الحقائق ؟

إنه سبحانه لو عاملنا بكفرنا وجحودنا وظلمنا لمنع النعمة ، ولكن استدامة نعمة الله علينا فضل منه ورحمة لأنها تشملنا حتى ولو كنا ظالمين وكنا كفارا ؛ لذلك كان من اللازم أن يأتى بهاتين الآيتين ، فمن ناحية النعمة لن نقدر على حصرها . ومن ناحية المنعم فهو غفور رحيم . ومن ناحية المنعم عليه فهو ظلوم كفار . ولذلك فعندما يرتكب الإنسان ذنبا فإن أهل الإيمان يقولون له : لا تيأس ؛ فربك هو ، هو ، إنه غفور رحيم . ولذلك لا تستحى أيها العبد أن تطلب من ربك شيئا على الرغم من معصيتك ، فالله غفور رحيم . وعندما ننظر إلى مقومات الأشياء ، فإننا نعرف المقوم الأساسى .

لكن هناك مقومات تخدم المقوم الأساسى . ومثال ذلك نحن نأخذ القمح وندرسه ، ونصنع من حبوب القمح دقيقا لنصنع منه خبزاً . ويحتاج القمح إلى مقومات كثيرة حتى يخرج من الأرض ـ وهو مقوم أساسى ـ إن القمح يحتاج إلى رى منتظم وحرث وخلاف ذلك ، إذن فالذى خلقنا قدر لنا هذه الأشياء ، ومادام قد قدر لنا كل هذه الأشياء ، فعلينا أن نسمع تعاليمه . وهو قد أوضح : إياك أن تظن أن كل ما خلقت من خلق فأنا مُحِلّه لك ؛ لأنى قد أخلق خلقاً ليس من طبيعته أن

تتناوله ، وليس من طبيعتك أن تتناوله ، ولكن لهذا المخلوق عمل فيها تتناوله كالحرث والرى والتسميد للقمح ، إنها وسائل وأسباب للحصول عليه . فإذا ما قال قائل : مادام هو سبحانه قد خلق هذه المحرمات فلماذا حرمها ؟

ونقول : هذه الأشياء ليس لها عمل مباشر فيك ولكن لها عمل آخر فى الكون . وإذا كنا نحن البشر نصنع آلة ما ، ويقول المخترع لنا : قد صممت هذه الآلة ـ على سبيل المثال ـ لتدار بالديزل ، وآلة أخرى تدار بالبنزين ، والبنزين أنواع ، ولو جئنا للآلة التى تدار ببنزين ووضعنا لها سولارا ، ما الذى يحدث لها ؟ إنها تفسد ، هذا فى المجال البشرى فما بالنا بخالق البشر ؟

لقد صنع الحق صنعته وهى الإنسان ووضع المواصفات التى تسير هذه الآلة ، وعلينا أن نخضع لتعاليمه حتى لا تفسد حياتنا فلا نخرج عن تلك التعاليم ؛ لأنك عندما تخالف وتخرج عما وضعته لصنعتك من نظام ، فالآلة التى من صناعتك تفسد .

وفى حياتنا آلاف الأمثلة . . فالذى صنع الكهرباء ووضع العلامات للأسلاك السالبة والأسلاك الموجبة ، لنأخذ الضوء أو الحركة . وإذا ما حدث خطأ فى هذه التوصيلات الكهربية ؛ نفاجأ بحدوث قطع فى الكهرباء ، وقد تحدث حرائق نتيجة شرارة من الاتصال الخاطىء .

إذن فكل تكاثر وإنجاب من كل سالب وموجب أى ذكر وأنثى لا بد أن يكون على مواصفات من صنعه وإلا يحدث قطع ودمار ، فإن تزوجنا بشرع الله ورسوله ، استقامت الحياة ، وإن حدث شىء على غير شرع الله ، تشتعل الحرائق فى الكون .

ولذلك تجد العجب أمامك عندما تشهد عقد قران ، تجد ولى الزوجة وهو مبتسم منشرح يوجه الدعوات للناس لأن شابا جاء يتزوج ابنته ويقدم الحلوى ، لكن لو كانت هذه العروس تجلس فى المنزل وحاول شاب أن يتلصص لرؤيتها ، فما الذى يحدث فى قلب والدها ؟ إنه يغلى من الضيق والغضب والتوتر ومن الذى يتلصص لأنه ذهب إلى الفتاة بغير ما أحل الخالق . لكن عندما يدق الباب ويخطبها من أبيها ؛

فالأب يفرح ، فقد جاء فى الأثر : (جدع الحلال أنف الغيرة) .

ونجد الأب ينتقل من موقف الغيرة إلى موقف الفرح يوم زفاف ابنته ، وتذهب الأم صباح اليوم التالى للزفاف لترى حالة ابنتها ولتطمئن ، هل الابنة سعيدة أو لا ؟ إذن . فلا يقولن أحد:إن الله خلق أشياء فلماذا حرمها ؟ ، لأن الله خلق تلك الأشياء ولها عمل فيما أحل ، ومادام سبحانه قد جعل لهذه الأشياء عملاً فيما أحل . فليس لك دخل إلا بالحلال .

ولذلك يقول الحق رداً على تساؤل المؤمنين : « يسألونك ماذا أحل لهم قل أحل لكم الطيبات » أى أن كل طيب قد حلله الله ، وكل خبيث حرمه الله ، فلا تقولن : هذا طيب فيجب أن يكون حلالاً ، وهذا خبيث فيجب أن يكون حراما ، ولكن قل : هذا حلال فيجب أن يكون طيبا ، وهذا حرام فيجب أن يكون خبيثا . وإياك أن تحكم أولا بأن هذا طيب وهذا خبيث ثم تبنى على ذلك التحريم والتحليل ، فأنت لا تعرف مثلما يعرف خالقك عن كيفية وجدوى ترتيب الأشياء بالنسبة لك ، حتى لا تقع فى دائرة الذين يستطيبون المسائل الضارة ؛ كهؤلاء الذين يتناولون المخدرات والسموم والخمور ، بل يجب أن تحرص على فهم ما أحل الله فستراه طيبا ، وترفض ما حرم الله لأنه خبيث ، فلا تظن أبداً أن كل طيب ظاهريا محلل لك ؛ لأن هذا الشىء الطيب فى ظاهره قد يكون خبيثا .

وعليك أن تترك تحديد الطيب والخبيث لخالقك ، فهو أدرى بك وبالمناسب لك . أمّا أنت فتعرف الشىء الطيب من تحليل الله له . وتعرف الخبيث من تحريم الله له . والحكم هنا يكون للتكليف ، فالله هو الذى خلق ، والله هو الذى يعلم الصالح للإنسان . فالمسألة إذن ليست العناصر ؛ ولكنها إرادة الخالق لتلك العناصر ، فهو الذى قدر فهدى .

الخلاصة إذن فى هذا الموضوع هى : أن الحق أحل للمؤمنين الطيبات وكل شىء أحله الله يكون طيباً ، وكل شىء حرمه الله يكون خبيثاً ، فلا تنظر أنت إلى الآراء البشرية التى يقول بعضها على شىء إنه طيب فيكون حلالاً ، وإن ذلك الشىء خبيث فيكون حراماً ، فأنت وغيرك من البشر لا يعرفون ترتيب الأشياء ولا فائدتها

ولا مضرتها بالنسبة لك . والدليل : أن البشر يتدخلون فى بعض الأحيان فى تحريم أشياء بالنسبة لبعضهم البعض ، فنجد الطبيب يقول للمريض : أنت مريض بالسكر فلا يصح أن تتناول النشويات والسكريات .

فإذا كنا نسمع كلام الطبيب وهو من البشر ، أفلا يجدر بنا أن نستحى ونستمع لأمر الخالق ؟! بل نتجاسر ونسأل : لماذا حرمت علينا يا رب الشيء الفلانى ؟ وقد يخطىء الطبيب لكن الله لا يمكن أن يخطىء . فهو ربنا المأمون علينا ، فما أحله الله يكون الطيب وما حرمه يكون الخبيث ، وهذه قضية يتعرض لها أناس كثيرون ، فعلى سبيل المثال نسمع من يستشهد الاستشهاد الخاطىء وفى غير موضوعه بقول الحق :

﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾

(من الآية ٢٨٦ سورة البقرة)

ويقول : إن عملى يأخذ كل وقتى . ولا فسحة عندى لإقامة الصلاة ، والله لم يكلفنا إلا ما فى الوسع . ونقول : وهل أنت تقدر الوسع وتبنى التكليف عليه ؟ لا . عليك أن تسأل نفسك : أكلفك الله بالصلاة أم لا ؟ . فإذا كان الحق قد كلفك بالصلاة ، وغيرها من أركان الإسلام فهو الذى علم وسع الإنسان فى العمل . ويجب أن تقدم التكليف أولاً لتعرف طاقة الوسع من بعد ذلك . وكذلك أسأل نفسك عما حلله الله واعرف أنه طيب وما حرمه الله فهو خبيث .

« يسألونك ماذا أحل لهم قل أحل لكم الطيبات » وإذا سألنا ما تلك الطيبات ؟ عرفنا أنها غير ما حرم الله ، فكل غير محرم طيب ، أو أنهم سألوا عن أشياء سيكون الجواب السابق هو الإجابة الطبيعية لها ، وقدم الله الإجمال الذى سبق أن شرحناه . وبعد ذلك يكون المسئول عنه فى مسألة الصيد بالكلاب ، فجاء لهم بالبيان فى مسألة الصيد بالكلاب . وكانت تلك مسألة مشهورة عند العرب فى الجاهلية ، وكذلك صيد الطيور . فقال : « قل أحل لكم الطيبات وما علمتم من الجوارح » فقد وضع الحق القضية العامة أولاً ، ثم خصص بعد ذلك .

لقد كانت مسألة صيد الجوارح موضوع سؤال من عدى بن حاتم ـ رضى الله عنه ـ عن الصيد بالكلاب وبالطيور . وعلينا أن نحسن الفهم عن القرآن بحسن

الفهم عن النص ، فالحق يقول هنا : « أحل لكم الطيبات وما عَلَّمْتُم من الجوارح » فهل الكلاب والفهود والنمور التى تصطاد بواسطتها هى المحللة لنا لأننا علمناها الصيد ؟ لا . « أحل لكم الطيبات » هى قضية منتهية . وبعد ذلك فهنا كلام جديد هو : « وما علمتم من الجوارح مكلبين تعلمونهن مما علمكم الله فكلوا مما أمسكن عليكم » .

إذن فالذى أُحل هو ما أمسكت ما علمت من الجوارح ، وليست الجوارح التى يعلمها الإنسان ، أى أن الحق أحل لنا الطيبات وأكل ما أمسكت علينا الكلاب التى علمناها الصيد . و« الجوارح » مفردها « جارح » ومعناها « كاسب » ، ولذلك تسمى أيدينا جوارح ، وعيوننا جوارح ، وآذاننا جوارح ؛ لأننا نكسب بها المدركات . فالعين جارحة تكسب المرئى ، والأذن جارحة تكسب المسموع . والأنف جارجة تكسب المشموم . واللمس جارحة لأننا نكسب بها الملموس . ويقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّـٰكُم بِٱلَّيۡـلِ وَيَعۡلَمُ مَا جَرَحۡتُم بِٱلنَّهَارِ ﴾

(من الآية ٦٠ سورة الأنعام)

و« ما جرحتم » أى ما كسبتم ، إذن فالجارحة هى الكاسبة . وقوله الحق : « وما علمتم من الجوارح » مقصود به الحيوانات التى نعلمها كيف تصطاد لنا ، وسميت جوارح ، لأنها كاسبة لأصحابها الصيد ، فالإنسان يطلقها لتكسب له الصيد ، أو أنها فى الغالب تجرح ما اصطادته . وكلا المعنيين يصح ويعبر .

والأصل فى ما عَلَّم الإنسان من الجوارح هو الكلاب ، وألحق بالكلاب غيرها مثل الفهود والنمور والصقور . والحق قال : « وما علمتم من الجوارح مكلبين تعلمونهن مما علمكم الله » أى ما بذلتم من جهد فى تدريب هذه الجوارح للصيد ، فالإنسان لا يطلق الكلب أو الصقر ليصطاد ، لكنه يقوم ـ أولاً ـ بتدريب الحيوان على ذلك .

ومثال ذلك : عندما يقوم مدرب القرود بتدريب كل قرد على الألعاب المختلفة ، وكذلك مدرب « السيرك » الذى يقوم بتدريب الأسود والفيلة ، فهذا الفيل الضخم يقف بأربعة أرجل على اسطوانة قطرها متر واحد ، وذلك كله ممكن بالتدريب بما علمكم الله وألهمكم أيها البشر وبما أعطاكم من طول البال وسعة الحيلة .

وننتبه هنا إلى نقطة هامة : إن الإنسان يقوم بتدريب الحيوان على ألعاب ومهام مختلفة ولكن الفيل ـ على سبيل المثال ـ لا يقدر على تدريب ابنه الفيل الصغير على الألعاب نفسها . وهذا هو الفارق بين الإنسان والفيل ، فابن الإنسان يتعلم من والده وقد يتفوق عليه ، لكن تدريب الحيوان مقصور على الحيوان نفسه ولا يتعداه إلى غيره من الحيوانات من الجنس نفسه أو الذرية فلا يستطيع الحيوان الذى درّبته وروّضته وعلمته أن ينقل ذلك إلى ذريته ونسله فلا يستطيع أن يعلم ابنه .

وكلمة « مكلب » تعنى الإنسان الذى يعلم الكلاب ويدربها على عملية الصيد . وقال البعض : إن « مكلب » أى الرجل الذى يقتنى الكلاب ؛ لكنا نقول : إن الإنسان قد يقتنى الكلاب لكنه لا يقوم بتدريبها ، إذن المكلب هو الذى يحترف تدريب الكلاب ، ومثله مثل سائس الخيل الذى يدرب الخيل ؛ فالحصان يحتاج إلى تدريب قبل أن يمتطيه الإنسان أو قبل أن يستخدمه فى جر العربات .

ولماذا ذكر الله « المكلبين » ولم يذكر مدربى الفهود ؟ . لأن الغالب أن الكلب شبه مستأنس ، أما استئناس الفهد فأمر صعب بعض الشىء . و« مكلبين » تعنى المنقطعين لتعليم الكلاب عملية الصيد . ويعرف معلم الكلاب أن الكلب قد تعلم الصيد بأنه إذا ما أغراه بالصيد فإن الكلب يذهب إليه . وإذا ما زجره المدرب فهو يرجع من الطريق . وإذا ما ذهب الكلب إلى الصيد بعد تعليمه وتدريبه وأمره المدرب أن يحمل الصيد ويأتى ؛ فالكلب يطيع الأمر . ويأتى بالصيد سليماً ولا يأكل منه . فهذه أمارة وعلامة على أن الكلب تعلم الصيد ويمكن تلخيصها فى هذه الخطوات : إذا أرسلته للصيد ذهب ، وإذا زجرته انزجر ، وإذا استدعيته جاء ويأتى بالصيد سليماً لا يأكل منه . فإن أكل الكلب من الصيد فهو غير معلم ؛ لأنه أمسك الصيد على نفسه ، ولم يمسكه على صاحبه . ولذلك حدد الحق عملية الصيد بقوله عن الحيوانات التى تؤدى هذه المهمة : « مما أمسكن عليكم » .

ومن ضمن عملية التدريب هناك إطار إيمانى ، فالتدريب العضلى هو عملية يعلمها المكلِّب للكلب ، أما الإطار الإيمانى فهو ذكر اسم الله على الصيد : « واذكروا اسم الله عليه » وذلك حتى يكون الصيد حلالاً ، ولا يقع فى دائرة « ماأهل لغير الله به » . وإذا ما هجم الكلب على الصيد وقتله ، يكون الصيد حلالاً ، إن كان

صاحب الكلب قد قال : « بسم الله والله أكبر » قبل أن يرسل الكلب إلى الصيد . وإن لم يذكرٍ اسم الله فعليه أن ينتظر إلى أن يعود الكلب بالصيد ، فإن كان فى الصيد الحياة فليذكه أى يذبحه ، ويذكر اسم الله ، وإن مات الصيد قبل ذلك فلا يأكل منه . وكذلك إذا ما اصطاد الإنسان بالبندقية . . إن ذكر اسم الله أولاً وقبل أن يطلق الرصاصة فليأكل من الصيد .

« يسألونك ماذا أحل لهم قل أحل لكم الطيبات » هذه هى القضية العامة ، ومن بعد ذلك يحدد لنا الحق ألا نأكل الكلاب ، ولكن هذه الكلاب التى نعلمها الصيد وتصطاد لنا ما نأكله بشرط أن تذكر اسم الله على الصيد قبل إطلاق الكلب للصيد ، أو بعد أن تذبح الصيد الذى اصطاده الكلب ، فذكر اسم الله مسألة أساسية فى تناول النعم ، لأننا نذكر المذلل والمسخر ، ولا يصح أن نأخذ النعمة من وراء صاحبها دون أن نتذكره بكلمة .[١] .

ويذيل الحق الآية بقوله : « واتقوا الله إن الله سريع الحساب » وتقوى الله فى هذا المجال تعنى ألا يؤدى الإنسان هذه الأمور شكلياً ، وعلى المؤمن أن يتقى الله فى تنفيذ أوامره بنية خالصة ودقة سلوك ؛ لأنه سبحانه سريع الحساب بأكثر من معنى ، فمهما طالت دنياك فهى منتهية . ومادام الموت هو نهاية الحياة فالحياة قصيرة بالنسبة للفرد . وإياك أن تستطيل عمر الدنيا ؛ لأن عمر الدنيا لك ولغيرك فلا تحسب الأمر بالنسبة إليك على أساس عمر غيرك الذى قد يطول عن عمرك . إذن مدة الحياة محدودة ، ومادام الموت قد جاء ، فعلى المؤمن أن يتذكر قول رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« إذا مات أحدكم فقد قامت قيامته »[٢] .

والإنسان منا يعرف من خبر القرآن أن الموت مثل النوم . لا يعرف الإنسان منا كم ساعة قد نامها ، ونعرف من خبر أهل الكهف أنهم تساءلوا فيما بينهم :

﴿ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ

---

(١) وذهب بعض الفقهاء إلى حل الأكل من الذبيحة أو الصيد الذى لم يذكر اسم الله عليه واكتفى بالتسمية عند الأكل ، هذا إذا لم يكن الذبح أو الصيد قد أهل به لغير الله .

(٢) ابن أبى الدنيا فى الموت وأخرجه المتقى الهندى فى كنز العمال ، والزبيدى فى اتحاف السادة المتقين .

﴿... يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ ...﴾

(من الآية ١٩ سورة الكهف)

إذن هم لم يتبينوا أنهم ناموا ثلاثمائة عام وتسعة أعوام إلا بعد أن سألوا، وكذلك من يموت فهو لن يدرى كم مات إلا يوم البعث . أو أنه سبحانه سريع الحساب أى أن له حساباً قبل حساب الآخرة ، وهو حساب الدنيا . فعندما يرتكب العبد المخالفات التى نهى عنها الله ، ويأكل غير ما حلل الله ، فهو سبحانه قادر على أن يجازى العبد فى الدنيا فى نفسه بالأمراض أو التعب أو المرض النفسى ، ويقف الأطباء أمام حالته حائرين . وقوله الحق : « إن الله سريع الحساب » يصح أن تكون السرعة فى الحساب فى الدنيا ويصح أن تكون فى الآخرة .

أو أنه سبحانه سريع الحساب بمعنى أنه يحاسب الجميع فى أقل من لمح البصر ، فالبعض يظن ظناً خاطئاً أنهم سيقفون يوم القيامة فى طابور طويل ليتلقى كل واحد حسابه . لا ، هو سبحانه يحاسب الجميع بسرعة تناسب طلاقة قدرته . ولذلك عندما سئل الإمام على ـ كرم الله وجهه ـ : كيف سيحاسب الله كل الناس فى وقت واحد ويقال إن مقداره كنصف يوم من أيام البشر ؟ فقال الإمام على : فكما يرزقهم جميعاً فى وقت واحد هو قادر على حسابهم فى وقت واحد .

فسبحانه لم يجعل البشر تقف طابورا فى الرزق ، بل كل واحد يتنفس وكل واحد يأكل ، وكل إنسان يسعى فى أرض الله لينال من فضله . ولا أحد بقادر على أن يحسب الزمن على الله ؛ لأن الزمن إنما يُحسب على الذى يحدث الحدث وقدرته عاجزة ، لذلك يحتاج إلى زمن .

إننا عندما ننقل حجراً متوسط الحجم من مكانه فإن ذلك لا يكلف الرجل القوى إلا بعضاً من قُوَّته ، لكن هذا العمل بالنسبة لطفل صغير يحتاج إلى وقت طويل ، فما بالنا بخالق الإنسان والكون ؟ وما بالنا بالفاعل الذى هو قوة القوى ؟ هو لا يحتاج إلى زمن ، وهو سريع الحساب بكل المعانى .

ومن بعد ذلك يقول الحق :

﴿ ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٥﴾ ﴾

سبحانه يبدأ الآية بتكرار الأمر السابق : « اليوم أحل لكم الطيبات » . وأعادها حتى يؤكد على أن الإنسان لا يصح أن ينظر إلى الأمر الطيب إلا من زاوية أنه محلل من الله .

وبعد أن تكلم الحق سبحانه عن كيفية تناول المحللات ، وأسلوب التعامل مع الصيد . تأتى هنا لوقفة ، فسبحانه يقول : « وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم » فهل كل طعام أهل الكتاب حل لنا ؟ إن بعضهم يأكل الخنزير . لا ، بل الحلال من طعام أهل الكتاب هو الطعام الذى يكون من جنس ما حلل الله لكم ، ولا يستقيم أن يستنكف الإنسان من أنه طعام أهل كتاب ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى يريد أن يجعل من الإنسان الذى ارتبط بالسماء ارتباطا حقيقيا كالمسلمين ، ومن ارتبطوا بالسماء وإن اختلف تصورهم لله ، يريد سبحانه أن يكون بينهم نوع من الاتصال لأنهم ارتبطوا جميعا بالسماء ، ويجب أن يعاملوا على قدر ما دخلهم من إيمان باتصال الأرض بالسماء .

إياك أن تقول بمقاطعة أهل الكتاب لا ، ولكن انظر إلى طعامهم فإن كان من جنس الطعام المحلل فى الإسلام فهو حلال . ولا يصح أن تمنع واحداً من أهل الكتاب من طعامك ؛ لأن الله يريد أن ينشىء شيئا من الألفة يتناسب مع الناس الذين سبق أن السماء لها تشريع فيهم ويعترفون بالإله وإن اختلفوا فى تصوره .

وضرب لنا ـ سبحانه ـ المثل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ففى أول مجىء الدعوة الإسلامية ، واجهت معسكرا ملحدا يعبد النار ، ولا يؤمن بالإله وهو معسكر فارس ؛ ومعسكراً يؤمن بالإله وهو معسكر الروم ؛ كانت هناك قوتان فى العالم : قوة شرقية وقوة غربية . وعندما يأتى رسول ليأخذ الناس إلى طريق الله ، فلا بد أن يكون قلبه وقلوب المؤمنين معه مع الذين آمنوا بإله وبمنهج ورسالة ، ولا يكون قلبه مع الملاحدة الذين يعبدون غير الله .

ولنر العظمة الإيمانية فى الرسول عليه الصلاة والسلام . نجد الذين يؤمنون بالله ويكفرون به كرسول أولى عنده ممن يكفرون بالله . ولذلك عندما قامت الحرب بين فارس والروم كانت الغلبة أولا لفارس . وكانت عواطف الرسول والذين آمنوا معه مع الروم ؛ لأنهم أقرب إلى معسكر الإيمان الوليد وإن كانوا يكفرون بمحمد فقد كانوا يؤمنون بالله ، وأن هناك منهجا وهناك يوم بعث ، ولذلك يضربها الحق مثلا فى القرآن ليعطينا عدة لقطات ، وأولى هذه اللقطات هى أن المسلمين فى جانب من عنده رائحة الإيمان ، فيقول سبحانه :

﴿ الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝٣ فِى بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝٤ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥ ﴾

(سورة الروم)

وتبدأ هذه الأيات بخبر عن هزيمة الروم ، ثم نبوءة من الحق بأنهم سيغلبون فى بضع سنين . ويوم نصرهم سيفرح المؤمنون بنصر الله . وتنظر القوة الإسلامية التى جاءت لتؤسس دينا واسعا جامعا مانعا إلى معركة بين دولتين عظمين كلتيهما على أقصى ما يكون من الرقى الحضارى ، هذه القوة الإسلامية تتعاطف مع الروم وتحزن ـ القوة الإسلامية ـ لأن الفرس قد غلَبت . فيأتى الحق بالخبر اليقين وهو سَتَغْلِبُ الروم .

وبالله من الذى يستطيع أن يحكم فى نهاية معركة بين قوتين عظمين ؟ إنه حكم لا يستغرق يوما ، حتى ولو كان قائله عرف أن هناك مددا قادما للقوة التى ستنتصر ،

إنه حكم يستغرق بضع سنين . فمن الذى يستطيع أن يتحكم فى معركة ستحدث بعد بضع سنين ؟ لا يستطيع الرسول صلى الله عليه وسلم أن يجازف بهذا الحكم ، وهو لا يعرف استعدادات كل قوة وحجم قواتها وأسلحتها ، لكن الأمر يأتى كخبر موثق من الله :

﴿ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَ ﴾

(سورة الروم)

وهذا كلام موثق ، لأنه قرآن مسطور يقرأه المؤمنون تعبداً . وعندما سمع أبو بكر الصديق هذه الآية ، قال : لقد أقمت رهاناً بأن الروم ستنتصر بعد ثلاث سنين ، وطالبه الرسول صلى الله عليه وسلم أن يمد مدة الرهان لأن الله قال : « فى بضع سنين » والبضع ما بين الثلاث إلى التسع ، ولذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم لسيدنا أبى بكر ـ رضى الله عنه ـ فزايده فى الخطر ومادّه فى الأجل فجعلت مائة قلوص (ناقة) إلى تسع سنين . كأن هذا الأمر قد لقى الوثوق الكامل من المؤمنين ؛ لأن الله سبحانه وتعالى قد أخبر بالنصر .

لقد أوردنا ذلك هنا حتى نفهم أن عواطف الرسول صلى الله عليه وسلم كانت مع الذين يؤمنون بكتاب وبرسول . ونحن هنا نجد الحق يحلل لنا مطاعمة أهل الكتاب حتى تكون هناك صلة بيننا وبين من يؤمن بإله وبمنهج السماء : « وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم » .

وأوضح الحق سبحانه ذلك فى آيات أخرى حينما قال :

﴿ لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ۝٨ إِنَّمَا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَأَخۡرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخۡرَاجِكُمۡ أَن تَوَلَّوۡهُمۡۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٩ ﴾

(سورة الممتحنة)

فسبحانه يريد أن نوازن فى أسلوب تعاملنا فلا نساوى بين ملحد مشرك ومؤمن بصلة السماء بالأرض وإن كفر برسول الله . وأن يكون هناك قدر محدود من التواصل الإنسانى . فالذى يحل للمؤمنين من طعام أهل الكتاب هو الذى يكون حلالا فى منهج الإسلام . ويجب أن ينتبه المسلم إلى أن بعض أطعمة أهل الكتاب تدخلها الخمور وعليه الامتناع عن كل ما هو محرم فى ديننا وليأكل من طعامهم ما هو حلال لدينا . فلا يشرب المسلم خمراً ، ولا يأكل المؤمن لحم الخنزير .

والطعام كما نعلم وسيلة لاستبقاء الحياة . وها هوذا ينتقل إلى استبقاء النوع وهو التناسل ؛ فقد أحل الله لنا أن نتزوج من بناتهم « والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم إذا آتيتموهن أجورهن محصنين غير مسافحين ولا متخذى أخدان » .

والمحصنة لها معنيان : وهى إما أن تكون الحرة فى مقابل الأمة ، وإما أن تكون المتزوجة ؛ لأن الإحصان يعنى الوقاية من أن تختلط اختلاطا غير شريف . وكانت الحرة قديما لا تفعل الفعل القبيح . وكان البغاء مقصورا على الإماء ؛ لأن الأمة لا أب لها ولا أخ ولا عائل ، وهى مُهْدَرة الكرامة . ولذلك نجد أن هنْدا زوجة أبى سفيان عندما سمعت عن الزنا من رسول الله صلى الله عليه وسلم تساءلت : يا رسول الله أَوَ تزنى الحرة ؟! كأن الحرة لم تكن لتزنى فى الجاهلية ؛ لأن الحرة تستطيع أن تمتنع عكس غيرها .

والمحصنة أيضاً هى المتزوجة . ويساوى الحق بين المحصنة من المؤمنات والمحصنة من أهل الكتاب ، والمراد هنا الحرة العفيفة ويشترط وضع المهر لكل واحدة منهن . وبعض العلماء يقول : عندما تتزوج مسلمة يكفى أن تسمى لها المهر ، لأن الدين الواحد يعطى الأمان العهدى ، أما الزواج من كتابية فيجب أن يحدد الإنسان المهر وأن يقرره وأن يوفى بذلك . فالإيتاء هو أن يسمى الإنسان المهر ويقرره ويشهد عليه الشهود . ويستطيع أن يجعل الإنسان المهر كله مؤخراً . والشرط أن يكون الرجل محصناً أى متعففاً .

ويحدد الحق : « غير مسافحين ولا متخذى أخدان » أى صدائق لهم دون زواج ،

والسفح هو الصب . والمرأة البغى هى من يسفح معها أى رجل ، والخدن هى الخليلة أو العشيقة دون زواج ، والخدن كذلك يطلق على الذكر كما يطلق على الأنثى . وإياك أن تفكر فى أمر إقامة علاقة زواج متعة ، بل لا بد أن يكون الإقبال على الزواج بنية الزواج التأبيدى لا الزواج الاستمتاعى .

ويقول الحق من بعد ذلك : « ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله وهو فى الأخرة من الخاسرين » ؛ لأن فائدة الإيمان أن يستقبل المؤمن الأحكام ممن آمن به إلها وينفذها . فإن سترت شيئا من أحكام الله التى آمنت بها فقد كفرت بالإيمان . والحق لا يضره أن يكفر الناس جميعا ؛ لأنه هو الذى خلق الخلق بداية وهو متصف بكل صفات القدرة والكمال .

إذن فالعالم كله لا يضيف إلى الله شيئا ، فقبل أن يخلق الله الإنسان كانت كل صفات الكمال موجودة لله . وكل ثمار الطاعة والعبادة والإيمان إنما تعود على الإنسان . فإن جاء الإنسان إلى الأحكام التى شرعها الله له ، وستر حكما منها فكأنه كفر بقضية الإيمان . وإن أنكر جزئية من جزئيات الإيمان ، فهذا لون من الكفر ، ويا ليت من يفعل ذلك أن يقول : « إن هذه الجزئية صحيحة ولكن لا أقدر على نفسى » .

ففى هذه الحالة يكون الإنسان مؤمنا عاصيا يستغفر الله أو يتوب ، أما الكفر فلا . والكفر بالإيمان يؤدى إلى حبط العمل . وهذا دليل على أن الحق يخاطب إنسانا يلتزم فى بعض الأشياء ولا يلتزم فى البعض الآخر . وهنا يوضح الحق للإنسان : إن ما أديت من خير فى أعمالك سيذهب بثوابه ويحبط جزاءه ما منعت تنفيذه من أحكام الله ، وجاء الحق بكلمة « حبط » التى تدل على أن العمل بطل وذهب ذهابا لا يعود . فالماشية حين تأكل طعاما لم ينضج بعد وإن كان من جنس ما تطعم مثل البرسيم فى بدايته ويسمى « الرِّبة » ، هذا اللون من الطعام عندما ترعى فيه البهائم يحدث لها انتفاخ فى البطن وتموت .

والعرب تسمى هذا الداء الحُباط . فالحَبَط إذن هو انتفاخ البطن فى الماشية التى تأكل أكلا غير مناسب لها . ويظن صاحبها أنها قد سمنت بينما هى تموت فى الواقع .

وكذلك يكون العمل على غير ما شرع الله . والحق بدأ قضايا الإيمان فى هذه السورة بقوله :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَوْفُوا۟ بِٱلْعُقُودِ ﴾

(من الآية ١ سورة المائدة)

فكل عقد إيمانى يتعلق بالوحدانية لله وبالبلاغ عن الله ، وكل عقد عُقد بين المؤمنين بعضهم بعضا ، وكل عقد عقده الإنسان بينه وبين نفسه ؛ هذه العقود مطلوب الوفاء بها ، ومن يكفر بهذه الأشياء فقد حبط عمله . وحبط العمل يأتى نتيجة أن الإنسان أنهى عمله وختمه بهذا اللون من الكفر وظن أنه عمل عملا صالحا . لكن العمل يحبط تماما كما تذهب البهيمة لترعى شيئا لا يتناسب معها فينتفخ بطنها . فيخيل للرائى أن ذلك شبع وأن ذلك عافية ، ثم لا تلبث أن تنفق وتموت . كذلك عمل الذى يكفر بالإيمان ، يظن أنه عمل شيئا ولكن ذلك الشيء متلف له . والآيات القرآنية تكلمت عن هذا المعنى كثيرا ؛ فالحق يقول عن الكافرين بالله :

﴿ أَعْمَـٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا ﴾

(من الآية ٣٩ سورة النور)

ونعلم أن السراب هو شيء من انعكاسات الضوء يخدع الرائى السائر فى الصحراء فيظن أنه ماء ، ويسير إليه الإنسان فلا يجده ماء ، هكذا يكون عمل الذى يكفر بآيات الله . إنها أعمال تبدو متوهمة النفع . وقول الحق سبحانه : « ووجد الله عنده » أى أن مثل هذا الإنسان يفاجأ بوجود الله ، كأن مسألة وجود الإله لم تكن بخياله من قبل ، والإنسان لا يأخذ أجره إلا لمن عمل له . فهل عمل الواحد من هؤلاء لله حتى يأخذ منه أجراً ؟ . لا . لم يعمل لله ، ولذلك نجد أن بعض السطحيين فى الفهم يقولون : كيف لا يجزى الله الجزاء الحسن هؤلاء العلماء الذين اخترعوا العلاجات للأمراض ، والعلماء الذين ابتكروا الأشياء التى تنفع الناس ؟ كيف لا يحسن الله جزاءهم فى الآخرة ؟

ونقول : لقد فعلوا ذلك ولم يكن الله فى بالهم ، كان فى بالهم الإنسانية ، وقد أعطتهم الخلود فى الذكرى وأقامت لهم التماثيل ومنحتهم أوسمة ووضعت فيهم

المؤلفات لتمدحهم . هم قد عملوا للناس فأعطاهم الناس . وهؤلاء الكافرون بتقدمهم فى العلوم ؛ مسخرون للإنسان المؤمن ؛ فالمؤمن يستفيد من الكهرباء ، وينتفع بها المسلمون ليقرأوا القرآن والعلم والذكر . ويستفيد المسلم من الطائرات فيذهب بها إلى الحج وزيارة المدينة المنورة ، وينتفع بها كذلك فى شئون دنياه ، وعلى المؤمنين أن يأخذوا بالأسباب حتى لا يكونوا أذلة وعالة على غيرهم . والحق يسخر علم الكفار للمؤمنين ، ولا يثاب الكفار على هذا العمل من الله . ولذلك يقول الحق عن أعمالهم مرة :

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَـٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ ﴾

(سورة النور)

ومرة أخرى يقول الحق :

﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَـٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَـٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٨﴾ ﴾

(سورة إبراهيم)

وها هوذا سبحانه وتعالى يقول :

﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَـٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُولَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ﴾

(سورة الكهف)

إذن فالإنسان الذى يستر الإيمان بعضه أو كله ، هو إنسان حابط العمل ، وهو فى الآخرة من الخاسرين ؛ لأن النجاح فى الآخرة نتيجة لعمل الدنيا . ومادام قد عمل لغير الله فى الدنيا فلا بد أن يكون من الخاسرين فى الآخرة .

وقوله الحق : « وهو فى الآخرة من الخاسرين » يوضح لنا ضرورة ألا نخدع ويغرر

بنا لأن بعضاً من الكافرين يكسب بعضاً من الشهرة والجاه والثروة نتيجة اختراعاتهم ؛ فكل ذلك أمور فانية ، وهم مستسلمون لسنة الله ، فإما أن يفوتهم النعيم وإما أن يفوتوا النعيم . والحساب الختامى يكون فى الآخرة ، فالكافر وإن أخذ شيئاً من الكسب فى ظاهر هذه الحياة الدنيا فهو خاسر فى الآخرة .

وبعد ذلك ينتقل الحق ليربط لنا كل قضايا الدنيا رباطاً وافياً . فبعد أن يتكلم عن مقومات الحياة وعن مقومات النوع بالإنكاح وغيره ، يوضح : كل هذه نعم أعطيتها لكم وأريد أن آخذ بأيديكم بعد أن بينت لكم فضل هذه النعم عليكم ؛ لتلتقوا بصاحب كل هذه النعم . هو سبحانه يريد أن يأخذنا من مشاغل الدنيا لنلقى المنعم . وحتى تلقى أيها المسلم الإله المنعم ـ سبحانه ـ فلا بد أن تعد نفسك لهذا اللقاء ؛ لأنها ليست مسألة طارئة ؛ فلا بد من الإعداد الروحى والإعداد البدنى والإعداد المكانى والإعداد الزمانى .

إن الإعداد البدنى يكون بالطهارة . والإعداد الزمانى هو مواقيت الصلاة . والإعداد المكانى هو وجود مكان طاهر لإقامة الصلاة وإعداد اتجاهى بتحديد وجهة الصلاة إلى القبلة . وهذه كلها مواصفات تهيىء النفس البشرية للوقوف بين يدى من أنعم على الإنسان بكل النعم . ولذلك نقول : إن الصلاة إعلان استدامة الولاء الإيمانى للخالق الممد المنعم ؛ فهو الذى خلق من عدم وأمد من عدم . وقد فرض الحق سبحانه وتعالى الصلاة خمس مرات فى اليوم ؛ ليقطع على الإنسان سبيل الغفلة عنه . وإذا ما أراد الإنسان أن يلقى الله فى الأوقات التى بين الصلوات ؛ وأراد أن يعلن استدامة الإيمان وهو يقوم بأى عمل غير الصلاة فليذكر الله ؛ لأننا نعرف القاعدة الشرعية القائلة :

[ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب] .

مثال ذلك أن الإنسان حين يصلى فهو يحتاج إلى قوة . والقوة تتولد فى الجسم نتيجة تناول الطعام . إذن عملية صناعة الطعام أمر واجب وكل ما يترتب على ذلك عملية واجبة . ولذلك عندما يأتى واحد ويقول : أريد أن أنقطع للعبادة وأعتزل حركة الحياة . لنقل له : افعل ذلك بشرط واحد هو ألا تنتفع بحركة متحرك واحد

فى الحياة ، ولا تتناول أى طعام ، ذلك أن الرغيف الذى يقدمه لك إنسان هو من عمل بشر كثيرين لم ينقطعوا عن الحياة . ولنقل أيضاً : لماذا ترتدى هذا الجلباب ؟ . إنه نتيجة حركة حياة بشر آخرين ، فهناك من زرع القطن وآخر حلج هذا القطن وثالث حوله إلى غزل ورابع نسجه وخامس قام بتفصيل هذا الجلباب . ولتنظر إلى ما خَلْف كل واحد من آلات . وإياك أن تنتفع بحركة واحد مشغول بالأسباب مادمت قد قررت الانقطاع عن حركة الحياة .

إن الشغل بالأسباب عبادة ؛ لأن العبادة لا تتم إلا به . وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب . ولذلك فَتَعَلُّم المهارات المفيدة للحياة هو فرض كفاية ؛ والفرض الواجب على الإنسان : أحد اثنين : إما فرض عين وهو الأمر المكلف به الفرد ولابد أن يؤديه ولا يجوز أن يؤديه أحدٌ نيابة عنه ؛ كالصلاة ، وإما فرض كفاية : وهو ما لا يتم الواجب إلا به لذلك كان واجباً ، فكل منا يريد الطعام .

لذلك لا بد من تقسيم العمل ، فهذا يزرع وهذا يصنع ، فلا بد من زراعة القمح ولا بد من إقامة المطاحن ولا بد من إقامة الأفران . ولا بد من مهندسين يصممون هذه الآلات . وكل ذلك أمور تسهل للإنسان أن يمتلك القوة لأداء الصلاة ؛ وأن يقف بين يدى الحق ليؤدى الصلاة . إذن فكل ذلك أمر واجب ، وهو فرض كفاية . أى أنه فرض إذا قام به البعض سقط عن الباقين ، وإن لم يقم به بعضنا يكون الإثم على الجميع .

ومثال آخر هو الصلاة على الميت هى فرض كفاية ، فمن يصلى على الميت فهو يؤدى عنا ، وإن لم يصل أحد على الميت يكون الإثم على كل مسلم ، هكذا تتسع رقعة الإثم . وكل الأعمال التى لا يتم الواجب إلا بها فهى واجب ، ولذلك فهى فرض كفاية ، إن قام به البعض سقط الطلب عن الباقين ، وإن لم يقم به البعض فالإثم على الجميع .

وما موقف ولى الأمر فى هذا ؟. على ولى الأمر أن يفرض القيام بفرض الكفاية على أحد الناس ، وإلا تعطلت الواجبات التى نقول عنها : إنها واجبات دينية . فحين يذهب المسلم إلى السوق فلا يجد خبزاً ؛ يضعف ولا يملك الفكاك من

المجاعة ؛ ولن يقدر على الصلاة أو العمل لينتج أو يجد ادخاراً يكفيه أن يحج . إذن : ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب ؛ لذلك نجد الحق سبحانه وتعالى حينما حثنا على أداء الصلاة فى يوم الجمعة يقول :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ ﴾

(سورة الجمعة)

هو سبحانه يخرجنا من العمل إلى الصلاة ، ولم يخرجنا إلى الصلاة من فراغ ، لنلتفت إلى دقة الأداء القرآنى حين يقول الحق : « وذروا البيع » وحين يذر الإنسان البيع ، فهو يذر الشراء من باب أولى ؛ لأن البيع والشراء وجهان لعملية واحدة . والخلاف فقط أن المشترى قد يشترى السلعة وهو كاره لأن يشترى ؛ لأنه يستهلك نقوده فيما يشتريه ، أما البائع فيريد أن يحصل على ثمن البيع فوراً ، وغالبا ما يحصل على ربح من وراء ذلك ، وتلك هى قمة الكسب . فكسب الزارع ـ على سبيل المثال ـ يأتيه بعد شهور من الزراعة . وكسب الموظف يأتيه أول الشهر . لكن البائع يحصل على الكسب فوراً . ولذلك يأمرنا الحق أن نذر البيع إذا سمعنا نداء الصلاة يوم الجمعة ، وماذا بعد انتهاء الصلاة ؟ .

ها هوذا الحق يقول :

﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾ ﴾

(سورة الجمعة)

إذن فلا يقولن أحد أنا منقطع طوال حياتى للصلاة . فلن يستطيع أحد أن يذهب إلى الصلاة ما لم يكن يملك مقومات حياته . ومقومات الحياة تقتضى أن يضرب الإنسان فى الأرض . ولا بد أن يبتغى الإنسان من فضل الله . إذن ، فالسعى فى الأرض هو عبادة ؛ لأن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب . ويريد الحق سبحانه وتعالى ألا يعزل قضية تتعلق بمقومات الحياة طعاماً وإنكاحاً عن الصلاة . فيأتى الحق سبحانه وتعالى بشروط الوضوء استعداداً للصلاة بعد أن يتحدث عن

أحكام تحليل الأطعمة وتحريم بعضها ، وبعض من أحكام النكاح ، وذلك لنعرف أن مسئوليات الإيمان كلها مترابطة ، فلا يصح أن نعزل عملاً ونقول:هذا عمل تعبدى وذاك عمل غير تعبدى .

والمؤلفون عندما يضعون الكتب فى الفقه ويخصصون أقساماً فى هذه الكتب للعبادات وأقساماً للمعاملات ، فهذا التقسيم تقسيم تصنيفى تأليفى ، لكن كل ما يطلبه الكون لينصلح فهو عبادة لخالق هذا الكون ، بدليل أنه قال : « فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع » وهذا أمر . ويتلوه أمر آخر : « فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض » .

إن الإنسان لا ينفذ أمراً ويهمل أمراً آخر ، ولكن عليه بمقتضى الإيمان أن ينفذ الأمرين معاً ، فإن تأخر الإنسان فى أى من الأمرين فهو مذنب ؛ لذلك يخبرنا سبحانه ـ من بعد الحديث عن النعم التى أنعم بها علينا ـ بما أحل لنا من بهيمة الأنعام ، وبما قص علينا من الزواج من المحصنات ؛ ها هوذا يدخلنا إلى رحابه بالاستعداد للصلاة لأنه واهب كل النعم . ويأمرنا بالاستعداد للصلاة وأن يعد كل واحد منا نفسه لها .

وهذا الإعداد يؤهل المسلم ليلقى الحق فقال :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ وَإِن كُنتُمۡ جُنُبٗا فَٱطَّهَّرُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ

فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٦

سبحانه يأمرنا بوضوح محدد : إذا أردتم القيام إلى الصلاة فلا بد لكم من تنفيذ عملية الوضوء .

وتتعرض الآية إلى الأركان الأساسية فى الوضوء . وقد يلتبس الأمر على بعض الناس ولا يستطيع أن يميز بين سنن الوضوء وأركان الوضوء ؛ لأن السنن تقتضى أن يغسل الإنسان يديه ثم يتمضمض ، ثم يستنشق الماء وهكذا . هذه هى السنن التى تمتزج بالأركان الأساسية للوضوء .

ويبدأ الحق أركان الوضوء الأساسية بقوله : « فاغسلوا وجوهكم » والغسل يتطلب إسالة الماء على العضو وأن يقطر منه الماء بعد ذلك . والمسح هو اللمس بالماء ليصيب العضو ولا يتقطر منه الماء ؛ إنه مجرد بلولة بالماء . والحق سبحانه وتعالى حينما تكلم فى هذه الآية عن الوضوء ، تكلم عن أشياء تُغسل وعن شىء يُمسح . فالأمر بالغسل يشمل الوجه واليدين إلى المرافق والرجلين إلى الكعبين . والأمر بالمسح يشمل بعض الرأس . والغسل قد يكفى مرة أو اثنتين أو ثلاثا ليتأكد الإنسان تماما من الغسل ، ولكن إذا كانت المياه قليلة فيكفى أن يغسل الأجزاء المطلوبة مرة وأن يتأكد أنه قد غسل المساحات المطلوبة .

إن الزيادة على المرة الواحدة إلى ثلاث مرات أمر مسنون لا واجب وغسل الوجه معروف تماما للجميع ، فالوجه هو ما به المواجهة . والمواجهة تكون من منبت الشعر إلى الذقن ، وتحت منتهى لحييه وهما العظمان اللذان تنبت عليهما الأسنان السفلى ، هذا فى الطول، وفى العرض يشمل الوجه ما بين شحمتى الأذنين. ولا أحد يختلف فى

تحديد الوجه ، ولذلك أطلق الحق الوجه ولم يعينه بغاية ، فلم يقل : اغسل وجهك من كذا إلى كذا ؛ ولكنه أمر بغسل الوجه ، فلا اختلاف في مدلول الوجه لدى الجميع . والكل متفق عليه ، هذا إذا ما بدأنا بالفروض الأساسية . لكن إذا ما بدأنا بالسنن فنحن نغسل الكفين إلى الرسغين أولا ثم نتمضمض ونستنشق .

وبعض العارفين بالله يقول عن هذه المقدمات التي هي من السنن : إنها لم تأت اعتباطا ؛ لأن تعريف الماء هو : السائل الذي لا لون له ولا طعم ولا رائحة ، وإن تغير أي وصف من هذه الأوصاف يكون السائل قد خرج عن المائية . فساعة تأخذ الماء بيديك ستطمئن على لون الماء ، وتعرف أنه لا لون له ، وعندما تتمضمض فأنت تطمئن إلى أنه لا طعم له ؛ وعندما تستنشق فأنت تطمئن على أن الماء لا رائحة له ، وبذلك تطمئن إلى أن الماء الذي تستعمله في الوضوء يكون قد استوفى الأوصاف قبل أن تبدأ في عمل المطلوب من أركان الوضوء التي يطلبها الله ، والسنة تقدمت هنا على الأركان لحكمة هي أن توفر للإنسان الثقة في الماء الذي يتوضأ منه . وبعد ذلك يغسل الإنسان الوجه من منابت شعر الرأس وتحت منتهى لحييه وذلك طولا وما بين شحمتي الأذنين عرضًا .

وبعد غسل الوجه قال الحق : « وأيديكم إلى المرافق » وميز الحق هنا الأيدي بتحديد المساحة المطلوب غسلها بأنها إلى المرافق ، أي أنه زاد غاية لم توجد في الوجه ، ولكن جاء الأمر بغسل اليدين إلى المرافق ؛ لأن اليد تطلق في اللغة ويراد بها الكف ، مثال ذلك في حكم الحق على السارق والسارقة :

﴿ فَاقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا ﴾

(من الآية ٣٨ سورة المائدة)

وتطلق اليد أيضا ويراد بها الكف والساعد إلى المرفق . وتطلق اليد أيضا ويراد بها إلى الكتف . فلليد ثلاث إطلاقات . ولو أن الحق قد أمر بغسل اليد ولم يحدد الغسل بـ« إلى المرافق » لغسل البعض كفيه فقط ، وغسل البعض يديه إلى المرافق ، ولغسل البعض يديه إلى الكتفين ؛ ولأن الحق يريد غسل اليد على وجه واحد محدد ؛ لذلك قال : « وأيديكم إلى المرافق » .

إذن فساعة يريد الحق شيئا محددا ، فهو يأتي بالأسلوب الذي يحدده تحديدا يقطع

الاجتهاد فى هذا الشىء . وكلمة « إلى » تحدد لنا الغاية ، كما أن « مِن » تحدد الابتداء ، ولكن هل تدخل الغاية هنا أم لا ؟ هل تدخل المرافق فى الغسل أم لا ؟ إن « إلى » قد تدخل الغاية ومرة أخرى لا تدخل الغاية .

فمثال إدخالها الغاية قوله تعالى :

﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ ﴾

(من الآية ١ سورة الإسراء)

هل أسرى الحق برسوله صلى الله عليه وسلم إلى المسجد الأقصى ولم يدخله ؟ لا أحد يعقل ذلك . إن « إلى » هنا تقتضى أن تدخل الغاية ؛ لأن الرسول صلى الله عليه وسلم كان قد ذهب إلى المسجد الأقصى بمراد الإسراء إليه والدخول والصلاة فيه . ويقول سبحانه :

﴿ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ ﴾

(من الآية ١٨٧ سورة البقرة)

فهل يدخل الليل فى الصيام ؟ لا ، لأننا لو أدخلنا الليل فى الصوم لصار فى الصيام وصالٌ أى نصل الليل بالنهار صائمين . إذن فمع « إلى » نجد الغاية تدخل مرة ، ونجدها لا تدخل مرة أخرى . واختلف بعض العلماء حول المرفق هل يدخل فى الغسل أو لا ؟ وصار فى عموم الاتفاق أن يدخل المرفق فى الغسل احتياطيا ؛ لأن أحداً لا يستطيع تحديد المرفق من اين وإلى اين . ونعرف أن هناك احتياطات للتعقل ، فمرة نحتاط بالاتساع ومرة نحتاط بالتضييق .

مثال ذلك عندما نصلى فى البيت الحرام . ونحن نعرف أن الكعبة بناء واضح الجدران ، وبجانب جدار من جدران الكعبة يوجد الحطيم وهو حجر إسماعيل وهو جزء من الكعبة يحيطه قوس . وعندما يصلى إنسان حول الكعبة ، هل يتجه إلى الحطيم أم إلى بناء الكعبة ؟ لأنه مقطوع بكعبيته ، والاحتياط هنا احتياط بالنقص ، فنتوجه إلى الكعبة وهى البناء العالى فقط ، ولكن عند الطواف . فإننا نطوف حول

الكعبة والحطيم ، أى ان الاحتياط هنا يكون بالزيادة ؛ لأننا إذا ما طفنا حتى من وراء المسجد فهو طواف حول البيت الحرام .

إذن فالاحتياط يكون مرة بالنقص ومرة يكون بالزيادة . وفى مجال الوضوء يكون غسل المرافق هو احتياط بالزيادة ؛ ذلك أن « إلى » تكون الغاية بها مرة داخلة ، ومرة تكون الغاية بها غير داخلة .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى من بعد ذلك : « وامسحوا برءوسكم » الأسلوب هنا يختلف ؛ فالمطلوب هو المسح . كان المطلوب أولاً هو الغسل للوجه على اطلاقه ؛ لأنه لا خلاف على الوجه ، ثم غسل اليدين إلى المرافق ، وتم تحديد الغاية لأن الحق يريد الغسل لليدين على لون يقطع الجدل والاجتهاد فيه . ولو قال الحق : « امسحوا رءوسكم » مثلما قال : « اغسلوا وجوهكم » لما كان هناك خلاف . لكن لو قال : « امسحوا بعض رءوسكم » فهل يوجد خلاف ؟ نعم فذلك البعض لم يحدد . ولو قال : « امسحوا ربع رءوسكم » فهل يوجد خلاف ؟ نعم قد يوجد خلاف لأن تحديد الربع عسير وشاق .

لماذا إذن اختار الحق هنا هذا الأسلوب « امسحوا برءوسكم » مع أن فى الآية أساليب كثيرة ، منها أسلوب مجرد عن الغاية ، وأسلوب موجود به الغاية ، وهذا الأسلوب لا هو مجرد ولا هو موجود به الغاية ؟ وقال الحق : « امسحوا برءوسكم » ولنا أن نبحث عن كيفية استعمال حرف (الباء) التى تسبق « رءوسكم » .

إن « الباء » فى اللغة تأتى بمعان كثيرة . قال ابن مالك فى الألفية :

بالباء استعن وعد عوض الصق
ومثل « مع » و« من » و« عن » بها انطق

ومقصود بها أن تعطى الحرية للمشرع ؛ لأن الباء تأتى لمعان كثيرة ، للاستعانة مثل : كتبت بالقلم ، ولتعدية الفعل اللازم نحو : ذهبت بالمريض إلى الطبيب ، وللتعويض مثل : اشتريت القلم بعشرين جنيها ، والالتصاق نحو : مررت بخالد ، وتأتى بمعنى « مع » مثل : بعتك البيت بأثاثه أى مع أثاثه ، وبمعنى « من » مثل : شرب بماء النيل أى من ماء النيل ، وبمعنى « عن » مثل قوله تعالى : « سأل سائل بعذاب واقع » أى عن عذاب واقع ، وتأتى أيضا للظرفية نحو : ذهبت إلى

فلان بالليل أى فى الليل ، وتكون للسببية نحو : باجتهاد محمد منح الجائزة أى بسبب اجتهاده ، إلى غير ذلك من المصاحبة نحو : « فسبح بحمد ربك » أى سبح مصاحبا حمد ربك .

إن الذى يقول : امسحوا بعض رءوسكم ولو شعرة ، فهذا أمر يصلح ويكفى وتسعفه الباء لغة ، والمسح يقتضى الإلصاق ، والآلة الماسحة هى اليد . وهناك من يقول:نأخذ على قدر الأداة الماسحة وهى اليد أى مسح مقدار ربع الرأس .

إذن كل حكم من هذه الأحكام يصلح لتمام تنفيذ حكم مسح الرأس ، ولو أن الله يريدها على لون واحد لأوضح ما أراد ، فإن أراد كل الرأس لقال : « امسحوا رءوسكم » كما قال : « فاغسلوا وجوهكم » ، وإن كان يريد غاية محددة ، لحدد كما حدد غسل اليدين إلى المرفقين . ومادام سبحانه قد جاء بالباء ، والباء فى اللغة تحتمل معانى كثيرة ؛ لذلك فمن ذهب إلى واحدة منها تكفى ، لأن أى غاية محتملة بالباء أمر صحيح .

والأمر هنا أن يتفهم كل منفذ لحكم محتمل ألا يُخَطِّىءَ الحكم الآخر . بل عليه أن يقول : هذا هو مقدار فهمى لحكم الله . والله ترك لنا أن نفهم بمدلول الباء كما أرادها فى اللغة . وقد خلقك الحق أيها الإنسان مقهورا لأشياء لا قدرة لك فيها ؛ كحركة الجوارح ، وكالأشياء التى تصيب الإنسان كالموت .

إن هناك أشياء أنت مخير فيها ، ولذلك كان تكليف الحق لك مبنيا على هذا ؛ ففى أشياء يقول لك : « افعل كذا » أو « لاتفعل كذا » وفى أشياء أخرى يترك لك حرية التصرف فى أدائها . وذلك حتى يتسق التكليف مع طبيعة التكوين الإنسانى . فلم يَصُب الله الإنسان فى قالب حديدى . ولنا فى سلوك الرسول صلى الله عليه وسلم القدوة الحسنة ؛ هذا الرسول الذى أوكل إليه الحق إيضاح كل ما غمض من أمور الدين ؛ فقال له الحق :

﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

(من الآية ٤٤ سورة النحل)

وحينما كان الرسول صلى الله عليه وسلم مع المؤمنين فى غزوة الأحزاب التى قال عنها الحق :

﴿ هُنَالِكَ ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ ﴾

(سورة الأحزاب)

هذه المعركة كانت قاسية ، حرك الحق فيها الريح وتفرق فيها أعداء الإسلام ، وصرف الحق الأحزاب ورجع الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المدينة . وكان من المفروض أن يرتاح المؤمنون المقاتلون . لكن قبل أن يخلعوا ملابس الحرب جاء جبريل إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وقال : أوَ قد وضعت السلاح يا رسول الله ؟ قال : نعم : فقال جبريل : فما وضعت الملائكة السلاح بعد ، وما رجعت الآن إلا من طلب القوم ، إن الله عز وجل يأمرك يا محمد بالمسير إلى بنى قريظة فإنى عامد إليهم فمزلزل بهم . فـ (أمر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مؤذنا فأذن فى الناس : « لا يصلين أحدٌ العصرَ إلا فى بنى قُريظة فأدرك بَعْضِهُم العصرُ فى الطريق ، فقال بعضهم لا نصلى حتى نأتيها وقال بعضهم بل نصلى لم يُردْ منا ذلك فذُكر للنبى صلى الله عليه وسلم فلم يُعَنِّف أحدًا منهم »[1] .

هى مسألة كبرى إذن . والتزاما بأمر النبوة خرج الصحابة إلى مواقع بنى قريظة . وكادت الشمس تغرب وهم فى الطريق ؛ وانقسموا إلى قسمين ؛ قسم قال : ستغيب الشمس ولم نصل العصر فلنصله قبل أن تغيب الشمس . وقال القسم الثانى : لقد أمرنا النبى ألا نصلى العصر إلا فى بنى قريظة ، ولن نصليه إلا هناك وإن غابت الشمس . وصلى القسم الأول ولم يصل القسم الثانى .

وعندما ذهبوا إلى المشرع وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم وذكروا له الأمر لم يعب على أى جانب منهم شيئا ، وأقر هذا وأقر ذاك . وتلك فطنة النبوة ، فالنبى صلى الله عليه وسلم يعلم أن كل حدث من الأحداث يتطلب زمانا ويتطلب مكانا ، والذين صلوا نظروا إلى عنصرية الزمن ، وخافوا أن تغيب الشمس قبل ذلك . والذين لم يصلوا نظروا إلى عنصرية المكان فلم يصلوا العصر إلا فى مواقع بنى قريظة . وأقر رسول الله الأمرين معا .

إن هذا يدلنا على أن هناك أشياء يتركها الحق قصدا دون تحديد قاطع لأنه يحبها على أى لون ، مثال ذلك أن فعل من يمسح ربع رأسه فى الوضوء جائز ، وفعل من يمسح رأسه كلها جائز ، وجاء الحق بالباء الصالحة لأى وجه من وجوه مسح الرأس ،

---

(١) رواه البخارى فى صلاة الخوف وفى المغازى .

وكذلك شأن الخلافات فى الأمور الاجتهادية . وإذا كانت القاعدة الشرعية تقول : « لا اجتهاد مع النص » فهذا لا يكون إلا مع النص الذى لا يحتمل الاجتهاد .

وليس كل التشريع هكذا ؛ لأنه سبحانه أوضح ما لا يحتمل الاجتهاد ، وأوضح ما يحتمل الاجتهاد ؛ وحينما كلف الله عبده الإنسان بتكليفات ، إنما كلفه بما يتناسب وتكوينه ، وكما أن تكوين الإنسان فيه أشياء هو مقهور عليها . فهناك الأحكام التى لا اختيار له فيها ، وهناك أمور اختيارية ، وما وصل إليه المجتهد هو حق وصواب يحتمل الخطأ ، وما وصل إليه غيره خطأ يحتمل الحق والصواب . وكل ما وصل إليه طرف من الاجتهاد حق لأن النبى صلى الله عليه وسلم صوّب من صلى العصر قبل أن يصل إلى أرض بنى قريظة ، وصوب كذلك من صلى العصر بعد أن وصل إلى مواقع بنى قريظة . فالرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ اعتبر فعل كل فريق منهما صوابا .

ويقول الحق من بعد الأمر بمسح الرأس : « وأرجلكم » . وكان سياق النص يقتضى كسر اللام فى « أرجلكم » ولكن الحق جاء بالأرجل معطوفة على غسل الوجه واليدين . وغير معطوفة على « برءوسكم » وهذا يعنى أن الرجلين لا تدخلان فى حيز المسح ؛ إنما تدخلان فى حيز الغسل .

ونبه الحق بالحركة الإعرابية على أنها ليست معطوفة على الجزء المصرح بمسحه ، ولكنها معطوفة على الأعضاء المطلوب غسلها . ولم يأت الحق بالممسوح فى جانب والمغسول فى جانب ليدل على أن الترتيب فى هذه الأركان أمر تعبدى وإلا لجاء بالمغسول معا والممسوح معا ، ويحدد الحق أيضا غسل الرجلين إلى الكعبين : « وأرجلكم إلى الكعبين » . والرجل تطلق على القدم ، وتطلق على القدم والساق إلى أصل الفخذ . ويريد سبحانه غسل الرجلين محدودا إلى الكعبين .

وحتى نعلم أن هذه مسائل تعبدية ؛ عرفنا أن اليد تطلق على الكف ، ومن أطراف الأصابع إلى الكتف يطلق عليه « يد » أيضا ، والمرفق فى اليد هو الحد الوسط ، و« الكعبين » هو الحد الأول فى الساق ؛ لأن الوسط بعد الساق هو الركبة . إذن . ترتيب المسألة فى اليدين كف وساعد وعضد ؛ والمرفق فى وسط اليد ، وفى الرجلين يقف الأمر عند الحد الأول وهو الكعبان . هى ـ إذن ـ مسألة تعبدية وليست مسألة قياسية .

ويبين الحق لنا أنه إذا أراد أمراً بدقة فهو يحدده بلا تدخل أو خلاف . أما إذا جاء بأمر غير واضح فهو إذْنٌ منه سبحانه أن نجتهد فيه لنشعر أن لنا بعض الاختيار فى بعض ما تعبدنا الله به ، وكله داخل فى مرادات الله ؛ لأن إيراد النص ـ شاملا ـ لكل المفهومات هو إذْنٌ بهذا المفهوم وإذْنٌ بذلك المفهوم .

« فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق وامسحوا برءوسكم وأرجلكم إلى الكعبين وإن كنتم جنبا فاطهروا » . إن الوضوء شرع لغير الجنب . أى أنه لمن يُحْدِث حدثا أصغر . وهناك فرق بين إخراج ما ينقض الوضوء وهو ما يؤذى ، وبين إخراج ما يُمتع ، فإنزال المنى أو حدوث الجماع يقتضى الطهارة بالاغتسال . ونعلم أن الإنسان حين يستمتع بطعام ؛ أو يستمتع برائحة ، أو بأى شىء هو محدود بوسيلة الاستمتاع به ، أما الاستمتاع بالجماع فلا يعرف أحد بأى عضو أدرك لذته . وهى مسألة معقدة إلى الآن . ولا يعرف أحد كيف تحدث ، مما يدل على أن جميع ذرات التكوين الإنسانى مشتركة فيها . ومادام الأمر كذلك فالطهور يقتضى أن يغسل الإنسان كل جسمه :

« وإن كنتم جنبا فاطهروا وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا فامسحوا بوجوهكم وأيديكم » .

وقد يقول قائل : أليست « لامستم النساء » كالجنابة ؟

ونقول : إن الذى يجىء هنا هو حكم ثان يوضح لنا ما ينوب عن المياه ، لأن الحق يرتب لعبادة لا تسقط عن المكلف أبداً ؛ لذلك لن يكلفه بشىء قد لا يجده ، فقد لا يجد الإنسان المياه ، وعليه إذن بالتيمم ؛ لأن الصلاة عبادة لا تسقط أبدا عن المكلف حتى فى حالة مرضه الذى لا يستطيع أن يحرك معه أى عضو من جسمه ، هنا يسمح سبحانه للمريض أن يصلى جالسا ، أو مستلقيا أو يصلى بالإيماء برأسه ، أو يصلى بأهداب عينيه ، وحتى مريض الشلل عليه إجراء خواطر الصلاة وأركانها على قلبه ؛ لأن فرض الصلاة عبادة لا تسقط أبدا عن الإنسان مادام فيه عقل .

إننا نعرف أن الصلاة هى الركن الوحيد من أركان الإسلام الذى يتطلب الاستدامة ، فيكفى المرء أن يقول الشهادة مرة واحدة فى العمر ، ويسقط الصوم عن

الإنسان إن كان مريضا ، ويطعم غيره ، أو يؤديه فى أوقات أخرى إن كان مريضا مرضا مؤقتا أو على سفر . وقد لا يؤدى الإنسان الزكاة لأنه فقير ، وكذلك الحج لا يجب على من لم يملك الاستطاعة من مال أو عافية ، ولا تبقى من أركان الإسلام غير الصلاة فإنها لا تسقط أبداً .

إن عظمة الصلاة توضحها كيفية تشريعها ؛ لأن تشريعات أركان الإسلام كانت بالوحى ، أما تشريع الصلاة فقد جاء وحده بالمباشرة ولم يقل الله لجبريل : « قل للنبى التكليف بالصلاة » . بل استدعى الله النبى صلى الله عليه وسلم إليه وكلفه بالصلاة .

وقلنا من قبل ـ ولله المثل الأعلى ـ حين يريد الإنسان أن يقدم أمراً لمرءوسيه ، فالموضوع قد يأخذ دوره فى الأوراق اليومية التى تنزل منه إليهم . أما إذا كان الموضوع مُهمًا فهو يتصل بالقائد التنفيذى للمرءوسين ويوضح مدى أهمية الموضوع ، أما إذا كان الموضوع غاية فى الأهمية فالرئيس يستدعى القائد التنفيذى للمرءوسين ويبلغه أهمية الموضوع . إذن فكيفية إنزال التكليف تكون على قدر أهمية الموضوعات فما بالنا ـ إذن ـ بركن استدعى الله فيه محمداً إلى السماء ليكلفه به ؟

وقد رأينا أن بعض التكليفات تجىء إلى رسول الله بالإلهام أن يفعله ، وبعضها جاء بالوحى من جبريل أن يفعله ، أما الصلاة فقد فرضها الله عندما استدعى محمداً إلى السماء إلى الرفيق الأعلى وفرض الله عليه الصلاة بالمباشرة ، وعلى أمة محمد أن تؤدى هذا الفرض خمس مرات فى اليوم ، ولا تسقط أبداً . ولذلك جعلها الحق فارقة بين المسلم والكافر ، إن المسلم ساعة أذان الصلاة يقوم إلى الصلاة ، وهى استدعاء من الخالق لمن خلقه ليحضر فى حضرته كل يوم خمس مرات . وأنت حر بعد ذلك ألا تبرح لقاء ربك ، ولا يمل الله حتى يمل العبد .

وإياكم أن تجعلوا للزمان مع الله تخطيطا ؛ فتقولوا : هذا للعمل والضرب فى الأرض ، وذلك لذكر الله ؛ فمع ضربكم فى الأرض لتبتغوا من فضل الله ، إياكم أن تنسوا الله ؛ لأن ذكر الله أمر دائم فى كل حركة يقصدها الإنسان لعمارة هذا الوجود ، وقد أراد الحق منا بوجودنا أن نعبده وحده لا شريك له :

﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ ﴾

(سورة هود)

إذن فكل ما يؤدى إلى عمارة الكون والارتقاء به هو أمر عبادى ، والحق سبحانه وتعالى يربط « العبادة » الاصطلاحية فى الفقه بحركة الحياة كلها . ونجد مثالا لذلك حينما تكلمنا فى سورة البقرة عن الأسرة كما جاء فى قوله تعالى :

﴿ لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ ۚ وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾ ﴾

(سورة البقرة)

ذلك أمر الدنيا ومصالح الأسرة ، وهو كلام فى شئون تنظيم الأسرة ، ثم ينقلنا من بعد الكلام فى تنظيم الأسرة إلى أمر نقول عنه إنه العبادة وهو قوله الحق :

﴿ حَٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا ۖ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾ ﴾

(سورة البقرة)

ثم يعود بعد ذلك إلى شئون تنظيم الأسرة فيقول سبحانه :

﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ ﴾

(من الآية ٢٤٠ سورة البقرة)

إذن فقد أخرجنا من كلام فى نظام الأسرة إلى الصلاة ، ثم عاد بنا مرة أخرى إلى نظام الأسرة حتى تتداخل كل الأمور لتكون عبادة متماسكة متحدة فلا تقول : « هذه عبادة وتلك ليست عبادة » ، وأيضا ؛ لأن الكلام فى الصلاة وسط كلامه عن أمور الأسرة ينبهنا : إذا ذهبت إلى الصلاة فربما هدّأت الصلاة من شِرة غضبك وحماسك ونزلت عليك سكينة تعينك ألا تنسى الفضل بينك وبين زوجك .

فى هذه السورة ـ سورة المائدة ـ صنع الحق معنا مثلما صنع فى سورة البقرة ؛ فبعد أن تكلم فى أشياء وقص علينا أمر النعمة ، ها هوذا يدخل بنا إلى رحاب المنعم ، إلا إنه سبحانه لم يدخلنا على المنعم إلا بتهيئة طهورية . طهارة أبعاض ؛ كالوضوء بأن نغسل الوجه ونغسل اليدين إلى المرفقين ونمسح على الرأس ونغسل الرجلين إلى الكعبين . وأحكم فى أشـياء وترك للاجتهاد مدخلا فى أشياء ، أحكمها فى ثلاثة ؛ غسل الوجه ، وغسل اليدين إلى المرفقين ، وغسل الرجلين إلى الكعبين ، لكنه حينما تكلم عن الرءوس لم يقل : « امسحوا رءوسكم » ولا : « امسحوا ربع رءوسكم » ، ولا « امسحوا بعض رءوسكم » مما يدل على أن للمجتهد أن يفهم فى « الباء » ما تتيحه اللغة من « الباء » . إذن أعطانا الحق أشياء محكمة وأشياء للاجتهاد . وبعد طهارة الأبعاض يذكرنا بطهارة البدن من الجنابة .

ونلتفت إلى الكلام الذى تقدم حيث أورد الحق فيه ما أحل لنا من بهيمة الأنعام من طعام وشراب ، ثم تكلم فى النكاح حتى أنه وسع لنا دائرة الاستمتاع ودائرة الإنسال بأن أباح لنا أن نتزوج الكتابيات ، وفى هذا توسيع لرقعة الزواج فلم يقصر الزواج على المسلمات .

ولما كان الطعام الذى أحله الله ينشأ عنه ما يخرج منا من بول وغائط ، والنكاح الذى أحله الله يغير كيماوية الجسد ؛ لذلك جعل الله الوضوء لشىء ، والجنابة لها شىء آخر ؛ فعن الطعام ينشأ الأخبثان ، وعن الجماع أو خروج المنى ينشأ الحدث الأكبر ؛ فكان ولا بد بعد أن يتكلم عن طهارة الأبعاض فى الحدث الأصغر أن يتكلم عن التطهير الكلى فى الحدث الأكبر ؛ فقال : « وإن كنتم جنباً فاطهروا » .

الله سبحانه وتعالى يريد لنا أن نستديم اتصالاتنا به ولم يشأ أن يجعل الوسيلة للصلاة بأمر الماء فقط ؛ لأننا قد نفقد الماء وقد يوجد الماء ولا نقدر على استعماله ؛

فلم يشأ الحق أن يقطع الصلة بأن يجعل الوسيلة الوحيدة للتطهر هى الماء ، فأوجد وسيلة أخرى . فإن فقدت الماء أيها الإنسان فلا بد أن تدخل إلى لقاء الله بنية تطهير آخر وهو التيمم . هذا أمر لا يفقده من عاش على الأرض . إذن فعندنا تَطَهُّر بالماء وعندنا تَطَهُّر بالتراب . لذلك يقول سبحانه :

« وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لا مستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيداً طيباً » فإن كان الإنسان مريضاً لا يقدر على استعمال الماء ، أو كان على سفر ولا يجد الماء ؛ أو جاء أحد من الغائط ، أى من قضاء الحاجة فى مكان غويط وهو الوطىء المنخفض من الأرض ، وكانت العرب قديماً تفعل ذلك حتى لا يراهم أحد ويكونوا فى ستر ، رجالاً أو نساءً ، وحتى بعد ملامسة النساء . إن لم يجد الإنسان بعدها ماء فالتيمم هو البديل، وإياكم أن تقولوا إن الماء هو الوسيلة الوحيدة للتطهر ، فقد جعل للماء أيضاً خليفة وهو التراب . والتراب أوسع دائرة من الماء . فكأنه سبحانه وتعالى يريد أن يديم علينا نعمة اللقاء به . ولكى يديم علينا نعمة اللقاء به جعل للماء ـ الذى يكون محصوراً ـ خليفة وهو التراب وهو غير محصور .

ولا نريد أن ندخل فى متاهات الخلاف عن الطهارة من ملامسة النساء ، بين اللمس والملامسة ؛ فاللمس لا يقتضى المفاعلة ، أما الملامسة فتقتضى المفاعلة . واقتضاء المفاعلة ينقل المسألة من مجرد اللمس إلى معنى آخر هو الجماع .

وفى حالة الجنابة وعدم وجود الماء فالتيمم هو البديل « فتيمموا صعيدا » و« الصعيد » هو ما صعد على وجه الأرض من جنس الأرض بحيث لا تدخله صناعة الإنسان كالتراب والحجر ، لكن الطوب الأحمر (الأُجُرّ) الذى نصنعه نحن فليس من الصعيد الصالح للتيمم ؛ لأن صنعة الإنسان قد دخلته .

والأركان المفروضة فى طهارة الأبعاض أربعة ، أما طهارة الجسم فهى طهارة واحدة تشمل كل الجسم . وفى حالة التيمم جعل الحق الطهارة استعدادا للصلاة عوضاً عن الوضوء بمسح الوجه واليدين ، وكذلك فى الطهارة من الجنابة . ونلحظ أنه سبحانه جاء بالمسح فى الوضوء على بعض من الرأس كإيناس متقدم ، وذلك حتى يكون لنا إلف بالمسح حينما نتيمم .

« فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج » وجعل الحق الطهارة بالماء أو التراب إزالة للحرج ؛ فالإنسان الذى لن يجد ماء سيقع فى الحرج بالتأكيد ؛ لأنه يريد أن يصلى ولا يجد وسيلة للطهارة . وإذا كان عنده القليل من الماء ليشرب فهل يتوضأ أو يستديم الحياة ويُبقى على نفسه بشرب الماء ؟. ولا يريد الله أن يُعْنت خلقه ولا أن يوقعهم فى الحرج ، بل خفف عليهم وجعل عنصر التراب يكفى كبديل للماء . « ولكن يريد ليطهركم » .

وإياك أن تفهم أن الطهارة هى للتنظيف ، لأن معنى الطهارة لو اقتصر على التنظيف لكانت الطهارة بالماء فقط ، فلماذا إذن نمسح وجوهنا بالتراب ؟ إن هذا يوضح أن الطهارة غير النظافة ، فلو قال قائل : سأنظف نفسى بـ« الكولونيا » . نقول له : لا . ليس هذا هو المطلوب . والله لا يطلب نظافة بهذا المعنى ، ولكن يطلب التطهير . والتطهير يكون بشرط من تدخل عليه ـ وهو الله سبحانه ـ وقد وضع الحق لذلك أمرين : إما بالماء وإما بالتيمم بالتراب . فالطهارة تجعل المرء صالحا ليستقبل ربه على ضوء ما شرع به . والذى يضع الشرط لذلك هو الله وليس أنت أيها العبد . وسبحانه قد أوضح أن العبد يكون طاهراً بالماء أو بالتراب ، وبهذه الطهارة يكون صالحاً لاستقبال الله له . وأعاد الله الإنسان فى قربه منه إلى أصل إيجاده وهو الماء والتراب .

« وليتم نعمته عليكم » والإنسان مغمور بنعم كثيرة . فهب أن إنساناً غاب عنه أبوه لكن خير الأب يصله كل يوم من مال وطعام وشراب ووسائل ترفيه ، وبذلك يأخذ الإنسان نعمة الغاية من وجود أب له . ومع ذلك يشتاق هذا الإنسان المستمتع بنعمة والده الغائب إلى أن يكون مع والده ، هذا هو تمام النعمة بين الأب والابن وكلاهما مخلوق لله ، فما بالنا بتمام النعمة من الخالق لعباده ؟

إن العبد الصالح يتمنى أن يرى مَن أنعم عليه ؛ لذلك وضع الحق شرط الطهارة للقائه . وعندما يحضر الإنسان لحضرة ربه بالصلاة ويكبر : « الله أكبر » فهو منذ تلك اللحظة يوجد فى حضرة الله . وإذا كانت الفيوضات تتجلى على الإنسان من نعمة مخلوق مثله سواء أكان أخاً أم أباً أم قريباً وهى نعمة مادية يراها الإنسان سواء أكانت طعاماً أم شراباً أم لباساً . فما بالنا بفيوضات المنعم الخالق الذى أنعم على

الإنسان ، إنها فيوضات من غيب ؛ فكرمه لك غيب كالاعتدال فى المزاج والعافية ورضا النفس وسمو الفكر .

إذن فقوله الحق : « وليتم نعمته عليكم » أى أنكم عشتم قبل ذلك مع نعمة المنعم ، وسبحانه يدعوكم إلى لقاء المنعم ، ذلك تمام النعمة . واضرب هذا المثل ـ ولله المثل الأعلى ـ إننا نجد الابن ينظر إلى هدايا الأب الغائب ويقول : أنا لا أريد هذه الأشياء ولكنى أريد أبى .

إن تمام النعمة ـ فى المستوى البشرى ـ أن يرى الإنسانُ المنعِمَ عليه وهو إنسان مثله ، أما تمام النعمة على المخلوق من الخالق فيستدعى أن يتطهر الإنسان بما حدده له الله وأن يصلى فيلقى الله .

« وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون » ساعة نسمع : أنا فعلت ذلك وذلك لعلك تشكر ، فهذا يعنى أنك إن فعلت ما آمرك به فستجد أمراً عظيماً . والأمر الطبيعى يقتضى أن تَشْكُر عليه كأن ما فعله الله للإنسان يوجب عند الإنسان نعمة اخرى لا يمكن أن يستقبلها إلا بالشكر ، مثلما قال الله :

﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾

(سورة النحل)

إنَّ السمع والأبصار والأفئدة هى منافذ الإدراك . ومادام الحق قد خلقنا ولا نعلم شيئاً ، وجعل لنا أدوات الإدراك . وأوضح : أنا خلقت لك هذه الأدوات للإدراك لعلك تشكر ، أى تلمح آثارها فى نفسك مما يربى عندك ملكة الإدراك للمدركات .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِى

وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذۡ قُلۡتُمۡ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٧

وللإنسان أن يسأل : وما هو الذكر ؟. الذكر هو حفظ الشيء أو استحضاره ، فإذا كان حفظ الشيء فهو حفظ لذاته ، لكن الاستحضار يكون لمعنى الشيء . إذن فهناك فرق بين حفظ الشيء واستحضار الشيء ، هذا هو معنى الذكر . وقد يكون الذكر بمعنى القول ؛ لأنك لا تقول الشيء إلا بعد أن تستحضره . ولذلك نجد فى تكوين الجهاز العصبى الأعلى ذاكرة ، وحافظة ، ومخيلة .

ومن عجيب أمر التكوين الخلقى أن تمر أحداث على الإنسان فى زمن مضى ولا يذكرها الإنسان لمدة طويلة تصل إلى سنوات ، ثم يأتى للإنسان ظرف من تداعى المعانى فيذكر الإنسان هذا الشيء الذى حدث منذ عشرين عاماً .

إذن فالشيء الذى أدركه الإنسان منذ عشرين سنة على سبيل المثال لم يذهب ، ولو ذهب ما ذكره الإنسان ، لكنه غاب فقط عن الذهن عشرين عاماً أو أكثر ؛ فلما تداعت المعانى تذكره الإنسان . ومعنى ذلك أن هذاالشيء كان محفوظاً عند الإنسان وإن توارى عنه مدة طويلة .

فالذاكرة ـ إذن ـ معناها أن يستدعى الإنسان المحفوظ ليصير فى بؤرة شعوره . مثال ذلك : حادث وقع بين إنسان وآخر منذ أكثرمن عشرين عاماً . ونسى الإنسان هذا الحادث . فلما التقى بصديقه ، وجلسا يتذاكران الماضى تذكر الصديق الحادث الذى حدث له منذ أكثر من عشرين عاماً .

إذن فالحادثة لم تذهب من الذاكرة ، ولكنها محفوظة موجودة فى حواشى الشعور البعيدة ، وكلما بعد الإنسان فى الزمن يبدو وكأنه نسى الحادثة ، لكن عندما يأتى تداعى المعانى فالحادثة تأتى فى بؤرة الشعور . فإذا ما جاءت فى بؤرة الشعور من حواشى الشعور حيث مخزن الحافظة ، يتذكرها الإنسان . وهذه هى قوة الخالق جل وعلا .

وقد يسجل أحدنا على شريط تسجيل بعضاً من الكلام . ومن بعد ذلك يجب أن يسجل كلاماً آخر على الشريط نفسه فيمسح الكلام الذى سجله أولاً ، ولكن ذاكرة الإنسان تختلف ، فساعة تأتى المسائل فى بؤرة شعوره فالإنسان يتذكرها . وإذا ما جاءت مسألة أخرى بعدها فلا بد أن تتزحزح المسألة الأولى من بؤرة الشعور إلى حاشية الشعور ؛ لأن بؤرة الشعور لا تستقبل إلا خاطراً واحداً ، فإن شغلت بؤرة الشعور بخاطر آخر فهى تحفظ الخاطر الأول فى حواشى الحافظة . ولا يمسح خاطر خاطراً آخر . فإن أراد الإنسان أن يستدعى الخاطر القديم ، كان ذلك فى مقدوره ، وهذا هو الفارق بين تسجيل الخالق وتسجيل المخلوق .

وبعد ذلك نجد أن التذكر يكون للمعانى ، فالذى يخزن فى ذاكرة الإنسان ليس أَجْرَاماً ، فلو كانت أجراماً لما وسعها المخ . ولهذا فالمعانى لا تتزاحم فيه ، بل تتراكم بحيث إذا ما جاء تداعى المعانى فالإنسان يتذكر ما يريد أن يذكره ، وذلك لا يمكن أن يحدث إلا إذا كان المخ من صنع الخالق الأعلى . ومادامت المعانى ليس لها حيز فالإنسان يقدر على حفظها فى الذاكرة .

الإنسان قد يجلس ليتذكر أسماء الجبال فى العالم فيقول : من جبال العالم قمة « إفريست » ، وجبال « الهمالايا » ، وجبل « أحد » وجبل « ثور » . وساعة يتذكر هذه الأسماء فهو يتصور معانيها ، فالموجود فى ذهن الإنسان معانى هذا الكلمات وليس أجرام هذه الكائنات ، لذلك فلا تزاحم أبداً فى المعانى بل تظل موجودة ومختزنة فى الذاكرة وحاشية الشعور .

وإياكم أن تفهموا أن إنساناً يملك من الذكاء ما يحفظ به الشىء من مرة واحدة : وآخرَ أقل ذكاء يحفظ بعد قراءة الشىء مرتين ، وثالثاً يحفظ عن ثلاث مرات لا ؛ لأن الإنسان يملك ذهناً كآلة التصوير يلتقط من مرة واحدة ، لكن لو أخذ الإنسان صورة لمكان وجاء شىء يضبب عدسة الصورة فهو يعيد التصوير ، وكذلك الذهن إن أراد الإنسان أن يأخذ لقطة لشىء ما لتستقر فى بؤرة الشعور وفى بؤرة الشعور شىء آخر ، فالشىء لا يستقر فى الذهن ، بل لا بد من قراءة مضمون اللقطة مرة ثانية ليؤكد الإنسان المعلومات لتنطبع فى بؤرة الشعور .

ومثال ذلك الطالب الذى يدخل ساحة المدرسة التى يُعقد بها الامتحان . وقبل أن

يدق جرس الامتحان بخمس دقائق يأتى له واحد من زملائه ويقول له : هل ذاكرت الموضوع الفلانى . فيقول الطالب : لا لم أستذكره . فيقول الصاحب : هذا الموضوع سيأتى منه سؤال فى الامتحان . فيخطف الطالب كتابا ويقرأ فيه هذا الموضوع لمرة واحدة . هذا الطالب فى هذه اللحظة لا يتذكر ماذا سيأكل على الغداء هذا اليوم ، أو من سيقابل . بل يعرف أنه بصدد أمر فرصته ضيقة ، ويركز كل ذهنه ليستقبل ما يقرأه . وفى لحظة واحدة يحفظ هذا الموضوع . وإذا جاء الامتحان ووجد السؤال فهو يجيب عليه بأدق التفاصيل . وقد نجد طالبا آخر جلس لأيام يحاول استذكار هذا الدرس بلا طائل .

إذن فالذهن يلتقط مرة واحدة ، شريطة ألا يستقبل الإنسان ما يقرأه أو يسمعه من معلومات والذهن مشغول بأشياء أخرى . والدليل على ذلك : أن الإنسان قد يسمع القصيدة مرة واحدة أو يسمع الخطبة مرة واحدة فيحفظ من القصيدة أكثر من بيت ، أو يحفظ من الخطبة أكثر من مقطع ؛ لأن ذهن الإنسان فى تلك اللحظة كان خاليا فالتقط الأبيات التى حفظها ، وكذلك الخطبة ، أما بقية أجزاء القصيدة أو الخطبة فقد يكون الذهن شرد إلى أشياء أخرى . ولذلك يحاول الإنسان أن يكرر الاستماع والإصغاء والقراءة أكثر من مرة ليهيىء ويعد بؤرة الشعور ، فيحفظ الإنسان ما يريد .

إذن فالذهن يلتقط مرة واحدة ، أما الذاكرة فهى تتذكر أى تستحضر المعانى التى قد تختفى فى الحافظة ، ولا شىء يضيع فى الحافظة أبدا ، بحيث إذا جاء الاستدعاء طفت المعانى على السطح . كأن انطباعات الإنسان فى نعم الله لا تُنسى أبدا . وهى موجودة عند الإنسان ، ولكنها تريد من الإنسان أن يستدعيها من الحافظة ويطلبها .

ولنر دقة الأداء القرآنى : « واذكروا نعمة الله عليكم » سبحانه يقول هنا « نعمة » مع أن نعم الله كثيرة ، ولكن الله قد آثر أن يأتى بالمفرد ولم يأت بالجمع . وذلك ليبين للإنسان أن أية نعمة فى أية زاوية من حياة الإنسان تستحق أن يذكرها الإنسان ؛ فنعم الله كثيرة ،ولكن ليتذكر الإنسان ولو نعمة واحدة هى نعمة الإيجاد من عدم ، أو نعمة البصر ، أو السمع . وكل نعمة من هذه النعم تستحق من الإنسان أن يتذكرها دائما ، ولا تطرد نعمة نعمة أخرى ، فما بالنا إذا كانت النعم كثيرة ؟

ولو تمعن الإنسان فى كل نعمة لاحتاجت إلى أن يتذكرها دائما ، أو أن النعمة اسم للجنس كله ، لأن المفرد يطلق على كل الجنس ، مثل الإنسان فإنها تطلق على كل فرد من أفراده مثل محمد وعلى وخالد .

وكلمة « النعمة » قد تُنسب إلى سببها كنعمة سببها مروءة واحد من البشر ، وهى محدودة بمقدار الأثر الذى أحدثته . لكن نحن هنا أمام نعمة المسبب وهو الله ، ولا بد أن تناسب نعمة الله جلال وجمال عظمته وعطائه .

« واذكروا نعمة الله عليكم وميثاقه الذى واثقكم به » و« واثق » تقتضى أمرين : فالإنسان طرف الاحتياج والفقر والأخذ ، والرب صاحب الفضل والعطاء والغنى ، إنه هو الربوبية وأنت العبودية ، وهو الحق القائل :

﴿ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ ﴾

(من الآية ٤٠ سورة البقرة)

إذن فـ « واثقكم » تعنى التأكيد من طرفين ؛ لأن « واثق » على وزن « فاعَلَ » ، ولا بد فى « فاعَلَ » أن تكون من اثنين . ومثال ذلك « شارك » تقولها لاثنين أو أكثر ؛ فنقول : « شارك زيد عمراً » ؛ وكذلك « قاتل زيد عمراً » . وحين يقول الحق : إنه « واثق عباده » أى أنه شاركهم فى هذا الميثاق وقبله منهم . لكن أى ميثاق هذا ؟

ونحن نعرف الميثاق الأول الذى هو ميثاق الذر :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

وهو ميثاق الفطرة قبل أن توجد النفس وشهواتها . وبعد ذلك هناك ميثاق العقل الذى نظر به الإنسان إلى الوجود واستطاع أن يخرج من تلك الرؤية بأن الوجود محكم ومنظم وواسع ، ولا بد لهذا الوجود من واجد وهو الله . وبعد ذلك ميثاق الإيمان بالله ، فالرسول صلى الله عليه وسلم حينما عرض منهج الإسلام آمن به بعض

الناس ، أى أخذ منهم عهداً على أن ينفذوا مطلوبات الله ، ألم يأخذ الرسول عهداً فى العقبة حين قالوا له :

خذ لنفسك ولربّك ما أحببت . فتكلم ـ رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ فتلا القرآن ودعا إلى الله ورغّب فى الإسلام ثم قال : « أبايعكم على أن تمنعونى مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم » فأخذ البراء بن معرور بيده ثم قال : نعم والذى بعثك بالحق لنمنعنّك مما نمنع منه أُزُرنا فبايعنا يا رسول الله فنحن أبناء الحرب وأهل الحلقة (السلاح) ورثناها كابرا عن كابر[1] .

وحدث هذا ـ أيضا ـ عند بيعة الرضوان تحت الشجرة . إذن فمعنى « واثقكم به » إما أن يكون العهد العام الإيمانى فى عالم الذر ، وإما أن يكون العهد الإيمانى الذى جاء بواسطة الرسل .

« وميثاقه الذى واثقكم به إذ قلتم سمعنا وأطعنا » وحين يؤمن الإنسان يقول : سمعت وأطعت ، وهكذا تنتهى مسألة التعاقد . ويتبع الحق ذلك بقوله : « واتقوا الله إن الله عليم بذات الصدور » . واتقوا أى اجعلوا بينكم وبين صفات الجلال من الله وقاية ، فالمطلوب منا أن نلتحم بمنهج الله إلتحاما كاملا ، وعلينا كذلك أن نجعل بيننا وبين صفات غضب الله وقاية . وعرفنا أن قوله الحق : « اتقوا الله » متساوٍ مع قوله : « اتقوا النار » ، وقد يقول قائل : وهل للنار أوامر ونواه ؟

ونقول : أحسن الفهم عن ربك واجعل بينك وبين غضب الله وقاية ، فالنار جند من جنود الله . وسبحانه يوضح : اجعلوا بينكم وبين صفات الجلال وقاية ؛ لأن الحق له صفات جلال هى الجبروت والانتقام والقهر ، وللحق صفات جمال فهو الغفور الرحيم المغنى ، الحكيم إلى غير ذلك من صفات الجمال ، إذن فلنجعل بيننا وبين صفات الجلال وقاية تقينا من جنود صفات الجلال ومنها النار .

وقلنا من قبل: إن الرسول صلى الله عليه وسلم أبلغنا أنه فى الليلة الأخيرة من رمضان يتجلى الجبار بالمغفرة . والنظرة السطحية تتساءل : ولماذا لم يقل : يتجلى الغفار

(١) رواه أحمد وذكر فى السيرة النبوية لابن هشام .

بالمغفرة ؟ ذلك أن (الجبار) صفة من صفات الجلال التى تقتضى معاقبة المذنب ، والذنب متعلق بصفات الجلال لا بصفات الجمال ، إذن فالمنطق يقتضى أن يقف المذنب أمام شديد الانتقام ؛ لأن المقام يناسب صفات الجلال ، ولكن علينا أن نتذكر جيدا أن الله يرخى العِنان للمذنب لعله يتوب ، وأن الله يفرح بتوبة عبده وأن رحمته تَغْلب غضبه .

ويذيل الحق الآية : « إن الله عليم بذات الصدور » والتقوى ـ كما نعلم ـ لا تنشأ من الأفعال المحسة المدركة فقط ، بل تنشأ أيضا فى الأحوال الدخيلة المضمرة . ومثال ذلك نية سيئة ونية حسنة . فالحقد ، الحسد ، التبييت ، المكر ، كل ذلك صفات سيئة ؛ فإياكم أن تقولوا إن التقوى للمدركات فقط ؛ بل للمحسات أيضا . وعمل القلوب له دخل فى تقوى الله . ومن بعد ذلك يقول الحق :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝٨ ﴾

إنّ الحق ـ كما علمنا ـ حين ينادى المؤمنين بقوله : « يا أيها الذين آمنوا » إنه سبحانه لم يقتحم على الناس تصرفاتهم الاختيارية لمنهجه ، بل يلزم ويأمر من آمن به ويوجب عليه ؛ فيوضح : يا من آمنت بى إلها حكيما قادرا خذ منهجى . ولكن الحق يقول : « يا أيها الناس » حين يريد أن يلفت كل الخلق إلى الاعتقاد بوجوده ، أما من يؤمن به فهو يدخل فى دائرة قوله الحق : « يا أيها الذين آمنوا » وهذا النداء يقتضى بأن يسمع المؤمن التكليف ممن آمن بوجوده .

ونعلم أننا جميعا عبيد الله ، لكن لسنا جميعا عباد الله . وهناك فرق بين « عبيد » و« عباد » . فالعبيد هم المرغمون على القهر فى أى لون من ألوان حياتهم ، ولا يستطيعون أن يدخلوا اختيارهم فيه . قد نجد متمرداً يقول : « أنا لا أؤمن بإله » ولكن هل يستطيع أن يتمرد على ما يقضيه الله فيما يجريه الله عليه قهرا ؟ فإذا مرض وادعى أنه غير مريض فما الذى يحدث له ؟ أيجرؤ واحد من هؤلاء المتمردين على ألا يموت ؟!! لا أحد يقدر على ذلك .

إذن فكل عبد مقهور لله ، وكلنا عبيد الله يستدعينا وقتما يريد ويجرى علينا ما يريد بما فوق الاختيارات . أما « العباد » فهم الذين يأتون إلى ما فيه اختيار لهم ويقولون لله : لقد نزعنا من أنفسنا صفة الاختيار هذه ورضينا بما تقوله لنا « افعل كذا » و« لا تفعل كذا » . إذن فالعبيد مقهورون بما يجريه عليهم الحق بما يريد ، والعباد هم الذين يرضون ويكون اختيارهم وفق ما يحبه الله ويرضاه ؛ إنهم أسلموا الوجه لله . فهم مقهورون بالاختيار ، أمّا العبيد فمقهورون بالإجبار .

« يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله » . و« قوام » صفة مبالغة والأصل فيها قائم ، فإن أكثر القيام نطلق عليه كلمة « قوام » . ومثال ذلك رجل لا يحترف النجارة وجاء بقطعة من الخشب وأراد أن يسد بها ثقبا فى باب بيته ؛ هذا الرجل يقال له : « ناجر » ولا يقال له : « نجار » ، ذلك أن تخصصه فى الحياة ليس فى النجارة . وكذلك الهاوى الذى يخرج بالسنارة إلى البحر ؛ واصطاد سمكتين ؛ يقال له : « صائد » لكنه ليس صياداً ؛ لأن الصيد ليس حرفته .

إن الحق يطلب من كل مؤمن ألا يكون قائما لله فقط ، ولكن يطلب من كل مؤمن أن يكون قواما ؛ أى مبالغ فى القيام بأمر الله . والقيام يقابله القعود . وبعد القعود الاضطجاع وهو وضع الجنب على الأرض ثم الاستلقاء ، وبعد ذلك ينام الإنسان . ونحن أمام أكثر من مرحلة : قائم وقاعد ومستلق ، ونائم . والنائم ليس عليه تكليف . والمستلقى هو المستريح على ظهره والحق يقول :

﴿ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ﴾

(من الآية ١٠٣ سورة النساء)

أى اجعلوا الله دائما على بالكم ؛ فالإنسان يملك فى حالته الطبيعية نشاطا يمكنه أن يقوم ويقعد ؛ فإن قيل : « قام فلان بأمر القوم » أى أنه بذل كل جهد لإدارة أمور الناس ، والقيام فى حركات الناس أصعب شىء . وسبحانه لا يريد منا أن نكون قائمين فقط ؛ بل يريد أن نكون قوامين . ومادمنا قوامين فلن تخلو لحظة من قيامنا أن نكون لله ؛ لله توجها . لا نفعا ؛ لأن أية حركة من أى عبد لا تفيد الله فى شىء ؛ فالله خلق خلقه بمجموع صفات الكمال فيه ، ولم ينشىء خلقه له صفة جمال أو كمال جديدة . وعندما يؤدى الإنسان أى عمل لله فهو يؤديه طاعة وتقربا لله . وإذا أراد الله من المؤمنين أن يكونوا قوامين لله ، عندئذ تكون كل حركات المجتمع الإيمانى حركات ربانية متساندة متصاعدة . وإذا كانت حركات المجموع الإيمانى متساندة فسوف تكون النتيجة لهذه الحركة سعادة البشرية ؛ فالإنسان إذا ما كان قواما فهو قوام لنفسه وللآخرين .

والمراد أن نكون مداومين على قيامنا فى كل أمر لله . ولا تعتقد أيها المؤمن أنك تعامل خلق الله ، إنما تعامل الله الذى شرع لك ليضمن لك ويضمن منك ، فأنت إن طولبت بالأمانة ، فقد طولب كل الناس بالأمانة فيما هو خاص بك لا بغيرك ، وحين ينهاك الله عن الخيانة فقد أمر الحق الناس جميعاً بالانتهاء عن الخيانة لك .

إذن إن نظرت إلى تكليفات الله لوجدتها لصالحك أنت.فلا يظنن ظان أن الدين إنما جاء ليقف أمام نفسه هو ، فالدين وقف أمام النفس لدى الناس جميعاً ، فحين يأمرك : ألاّ تمد يدك إلى مال غيرك فأنت واحد من الناس ، وفى هذا القول أمر موجه لكل الناس : لا تمدوا أيديكم إلى مال فلان لتسرقوه . فانظر إلى أن الحق حين شرع عليك شرع لك . ولذلك يجب أن يكون كل قيامك لله سبحانه . ولذلك يظهرالحق سبحانه وتعالى فى بعض خلقه أشياء وأحداثاً تُفهم الناس أن الذى يعمل لخلق الله مسلوب النعيم ، و الذى يعمل لله يكون موصول النعيم ؛ فنجد الواحد من الناس يقول : « لقد فعلت لفلان كذا وكذا وكذا وأنكرنى » . نقول له : أنت تستحق لأنك صنعت له ، ولكنك لو صنعت لله لكفاك الله كل أمر . ولذلك يقول الحق عن هؤلاء الذين صنعوا لله :

﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا﴾

(من الآية ٣٠ سورة آل عمران)

إذن فالمؤمن يجب أن يوضح حركة قيامه وينميها ؛ بمعنى أن يجعل كل حركته لله ؛ فإن كانت كل حركته لله ، فالله سبحانه لا يضيع أجر من أحسن عملا . والخاسرون هم الذين يعملون للناس ؛ لأن الناس لا يملكون لهم نفعاً وربما تخلوا عنهم وربما أضمرت وحملت قلوبهم الضغن والحقد لمن أحسن إليهم ، وربما تحولوا إلى أعداء لهم ، فالمصنوع له الجميل قد يعطيه الله بعضاً من الجاه ، وحين يلقى صانع الجميل بعد ذلك قد تتخاذل نفسه وتذل ، ونرى فى بعض الأحيان واحداً يجلس بين الناس وقد أخذته العزة ، ثم يدخل عليه إنسان كان له فضل عليه ، وساعة يراه يكره وجوده فى مجلسه ، ويتمنى ألا يحدث هذا اللقاء ، وإذا ما لقيه بعد ذلك فى طريق فهو يشيح بوجهه ؛ لأن الذى صنع الجميل يسبب حرجاً له ، ويجعل نفسه تتضعضع ، وهو يريد أن يستكبر على الناس . إذن فالله يوضح : اعملوا لله ؛ لأنه لا يضيع عنده شىء . واعلموا أن الله رقيب عليكم ولن يضيع عملٌ عنده .

وعندما سئل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن الإحسان قال : (أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك)[1] .

أتستطيع أنت أيها الإنسان أن تصنع فى إنسان آخر ما يسوؤه أمامه ؟ . أنت تسىء إلى الآخر من وراء ظهره . فلماذا إذن يُسىء الواحد منكم إلى الله بالعصيان ، وهو الناظر إليكم جميعاً ؟

إذن حين يريد الحق سبحانه وتعالى أن تحسن معاملة نفسك وغيرك فعليك أن تحتسب كل عمل لك عند الله . فقد سخر لنا الحق كل الوجود وأعطانا كل مقومات الحياة ، ويوضح لكل واحد منا : يا عبدى اجعل كل قيامك لله ؛ ولا تكن قائماً فقط ولكن كن قوّاماً . . بمعنى أنه مادامت فيك بقية من العافية للعمل فاعمل ، ولا تعمل على قدر حاجتك فقط ، ولكن اعمل على قدر طاقتك ؛ لأنك لو عملت على قدر حاجتك فإن الذى لا يقدر على العمل لن يجد ما يعيش به .

إذن فاعمل على قدر طاقتك لتتسع حركتك للناس جميعاً . ويكون الفائض من

---

(١) رواه البخارى . باب سؤال جبريل عن الإيمان بالإسلام والإحسان ، ورواه مسلم فى كتاب الإيمان .

عملك لغيرك . وحين يقول سبحانه : « كونوا قوّامين لله شهداء بالقسط » يعلمنا الا نضيع مجهودنا هباء ، بل نوجه المجهود للعمل ونقوم به لوجه الله ، لأنه سبحانه لا ينسى أبداً جزاء عبده ، وهو الذى يرد كل جميل . إنه ـ سبحانه ـ يقول :
« هل جزاء الإحسان إلا الإحسان » .

ويقول أيضا :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾

(من الآية ١٢٠ سورة التوبة)

وحين يكون الواحد منا قوّاماً لله يكون قد استغل حركة وجوده لخير خلق الله ، وهذا العمل مطلوب منك . ولا يكفى أن تكون حركتك محصورة فى ذلك ، بل يجب أن تمتد أيضا حركة حياتك لتكون شاهداً بالعدل . وكذلك توجه للعدل من تحدثه نفسه أن ينحرف . وحين تكون قوّاماً لله فهذا أمر حسن ، وعليك أن تحاول إقناع غيرك بأن يكون قيامه لله بأن تكون شاهداً بالقسط والعدل . وحين تكون شاهداً بالقسط والعدل لا يتمادى ظالم فى ظلمه . فالذى يجعل الظالم يشتد ويستشرى ظلمه ويتفاقم شره هو أنه يجد من يدلسون على العدالة ويسترون ويخفون العيوب ويخادعون الناس .

لكن لو وُجِد الإنسان الذى ينير الطريق أمام العدالة لما وجد ظلم . لكن الظالم يحب من يدلس عليه ؛ فيقول لنفسه : إن فلاناً ارتكب جريمة مثل جريمتى ونال البراءة . وتدليس الشهادة يقود إلى خراب المجتمعات . ولو أن المجتمع حينما يرى أن شهادة أفراده هى شهادة بالقسط وشهادة بالعدل ، فإن كل فرد فى المجتمع إذا هَمَّ بظلم يرتدع قبل أن يفعل الظلم ، ولكان الظالم ينال عقابه ويصير مثالاً لارتداع غيره . والمؤمن مطالب أولاً بالقيام لله بإصلاح ذاته ، ومطالب ثانياً أن يشهد بالقسط والعدل لإصلاح غيره .

وكلمة « القسط » تأتى منها اشتقاقات كثيرة ، وهى من الألفظ التى قد تدل على العدل وقد تدل على الجور ، وهى من الألفاظ التى تستعمل فى الأمر وفى نقيضه . وهذا من محاسن اللغة . ويتطلب ذلك أن يمحص السامع الكلمة ويتعرف على معناها بما يتطلبه السياق .

« وقَسَطَ » معناها « عدل » . والفعل المضارع لها هو يقسط . والمصدر « قِسطا » ، ومرة يكون المصدر « قُسوطا » . والمصدر هو الذى قد يحول المعنى من العدل إلى الجور . فالقِسط بمعنى العدل . وقَسَطَ يَقْسِطُ قُسُوطاً . أى جار وظلم . هنا نجد الفعل يأتى بالمعنى وضده ؛ حتى يمتلك السامع اليقظة والفطنة التى تجعله يعرف التمييز بين معنى العدل ومعنى الجور .

وحين نقول « أقسط » فإنها بمعنى عدل ، وهنا نتنبه إلى ما يلى : أن هناك فرقاً بين عَدْلٍ يأتى من أول الأمر وذلك هو القِسط ، وهناك حكم ظالم يحتاج إلى حكم آخر يزيل الظلم . وذلك الذى نستعمل له « أقسط » أى أزال الظلم ، فكأن جوراً كان موجوداً وأزاله الحكم . فالقِسط ـ إذن ـ هو العدل الابتدائى . ولذلك نسمع قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَأَمَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ۝١٥ ﴾

(سورة الجن)

والقاسطون هنا هم الظالمون ، فالقسط هنا من قسط يقسط قُسوطا .

وفى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها يقول الحق : « شهداء بالقسط » أى شهداء بالعدل . واللباقة فى السامع هى التى توجه اللفظ إلى معناه المراد من خلال السياق ، فالسامع للقرآن يُفْترض فيه الأريحية اللغوية بحيث يستطيع أن يفرق بين الشىء والمشابه له من شىء آخر . إذن فهناك قسط وأقسط ، قسط بمعنى عدل ، وأقسط بمعنى أقام القسط بإزالة الجور . والقسوط معناه الجور .

والحق يقول : « إن الله يحب المقسطين » و« المقسطين » هى جمع « مُقسط » ؛ من : أقسط أى أزال الظلم والجور ، إذن فالذى يرجح المعنى هنا سياق الكلمة ومصدرها . وقد يراد بالكلمة المعنى المصدرى . والمعنى المصدرى لا يختلف باختلاف منطوقه ، فيقال : « رجل عدل » ويقال : « امرأة عدل » . ويقال : « رجلان عدل » ، ويقال : « امرأتان عدل » ، و« رجال عدل » ، و« نساء عدل » . إذن فإن أردنا بالكلمة المصدر فهى لا تتغير فى المفرد والمثنى وجمع المذكر وجمع المؤنث . والقرآن الكريم يقول :

﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ ﴾

(من الآية ٤٧ سورة الأنبياء)

وهناك قول آخر:

﴿ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ ﴾

(سورة الشعراء)

وفى الريف المصرى نجد أن التاجر يصنع لنفسه الموازين من الأحجار، فيعاير قطعة من الحجر بوزن الكيلو جرام، ويعاير قطعاً أخرى لأجزاء الكيلو جرام؛ ومن كثرة الاستعمال وملامسة الحجر يعرف التاجر أن الحجر يتآكل، لذلك يعيد وزن الأحجار التى يستعملها فى الميزان كل فترة متقاربة من الزمن. ويقال: إنه يعاير الأوزان. وسمى القسطاس؛ فالقسطاس هو الذى تعاير به الموازين، فإذا صنع الإنسان شيئاً للميزان مما يتآكل أو يتأثر باللمس فيجب عليه أن يعايره كل فترة حتى لا يظلم أحداً ولو بمقدار اللمسة الواحدة. ولذلك يقول الحق: «ذلكم أقسط عند الله» «أقسط» هنا معناها «أعدل». فموازين الله غير موازين البشر، فموازين البشر قد يحدث فيها اختلاف. ونرى بعض التجار ينقصون الميزان بأن يضعوا شيئاً تحت كفة الميزان أو غير ذلك من الخدع، لكن الحق هو العادل الحق. وهو صاحب الميزان الأعدل وهو القائل: «ذلكم أقسط عند الله».

جاءت هذه الآية لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أصدر حكماً؛ وهو حكم صحيح وعادل بقواعد البشر، فأوضح الحق له الحكم الأقسط، صحيح أن عدلك يا رسول الله لا يدخله هوى ولا يميل به غرض أو شهوة. ولكن العدل عند الله أكثر دقة وله مطلق الدقة. وقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم هذا الحكم بمنطق القسط البشرى فى أمر زيد بن حارثة وكان مولى لرسول الله صلى الله عليه وسلم، كان عبداً لخديجة ـ رضى الله عنها ـ وهبته لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وبعد فترة علم أهل زيد بخبر اختطافه وبيعه كعبد وكيف آل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فجاء أهل زيد إلى رسول الله وطالبوا بابنهم. ورفض زيد أن يعود معهم وأراد أن يبقى مع رسول الله، وأراد رسول الله أن يكرم زيداً الذى فضله على أبيه وأهله مصداقاً لقول الله:

﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ﴾

(من الآية ٦ سورة الأحزاب)

لذلك كان لا بد للنبى صلى الله عليه وسلم أن يقدر زيد بن حارثة ؛ فأعتقه ودعاه « زيد بن محمد » تكريماً له ، على عادة العرب فى تلك الأيام . لكن الله يريد أن يلغى مسألة التبنّى :

﴿ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ﴾

(من الآية ٤ سورة الأحزاب)

وأجرى الله الأحداث ليصحح مسألة التبنى لكل العرب ، وكان بداية تطبيق ذلك على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويتنزل القول الحق :

﴿ ٱدْعُوهُمْ لِأَبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾

(من الآية ٥ سورة الأحزاب)

لم ينف الله القسط عن محمد ، ولكن الأقسط يأتى من عند الله . ويطيب الله خاطر زيد بعد أن عاد إليه اسمه الفعلى منسوباً لأبيه لا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويكافىء الله زيداً بأن يجعل اسمه هو الاسم الوحيد فى الإسلام الذى يذكر فى القرآن ويتعبد المؤمنون بتلاوته إلى أن تقوم الساعة :

﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا ﴾

(من الآية ٣٧ سورة الأحزاب)

لقد صار اسمه فى القرآن يتلوه المسلمون إلى قيام الساعة . وفى ذلك كل السلوى . إذن فـ « أقسط عند الله » جاءت فى محلها ، وإذا كان الحق سبحانه وتعالى قد طلب منا أن يكون قيامنا مبالغاً فيه ؛ أى ألا نترك فرصة لعمل الخير وأن نبالغ فى الدقة فى أداء العمل ، وأن نَعْدل فى المجتمع بأن نكون شهداء بالقسط . وبذلك يأخذ كل إنسان حقه فلا يقدر قوى أن يظلم ضعيفاً ؛ لأن الضعيف سيجد أناساً يشهدون معه بالحق .

وإياكم أن تدخلوا الهوى فى مقاييس العدل . وهب أن المسألة تتعلق بعدوكم أو بخصومكم فالعدل هنا أكثر أهمية وأكثر وجوبا .

« ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا » . أى لا يحملنكم بغض قوم على ألا تعدلوا فتعتدوا عليهم ، فمن له حق يجب أن يأخذه . ونعرف القصة التى حدثت ، عندما سرق مسلم درع مسلم آخر وأراد السارق وأهله أن يلصقوا التهمة بيهودى وأن يبرىء نفسه ، ولكن الله أنزل قرآناً :

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ ﴾

(سورة النساء)

أى لا تكن يا محمد لصالح الخائنين مخاصما للبرآء . وقوله الحق هنا : « ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا » أى لا يحملنكم بغض قوم على ألا تعدلوا ، وإلا سيكون البغض لصالح عدوكم ، وبغض المؤمن إذا حمله على اتباع هواه سيكون لصالح العدو ؛ لأن الله سيعاقب المؤمن لو أدخل الهوى والبغض فى إقامة الميزان العادل . فتحكيم البغض والعِداء والهوى يكون لصالح الخصوم ؛ لذلك لا يحملنكم أيها المؤمنون شنآن - أى بغض - قوم على ألا تعدلوا .

ويضيف الحق : « اعدلوا هو أقرب للتقوىٰ » والعدالة حين تُطلب مع الخصم هى تقريع لذلك الخصم لأنه خالف الإيمان . ومن المؤكد أن الخصم يقول لنفسه : إن عدالة هذاالمسلم لم تمنعه من أن يقول الحق ولا بد أن عقيدته تجعل منه إنساناً قوياً ، وأن دينه الذى أمره بذلك هو نعم الدين .

إذن ساعة تحكم أيها المؤمن بالعدل لخصمك فأنت تقرعه لأنه ليس مؤمناً ، لكن لو رأى خصمك أنك قد جُرت ولم تذهب إلى الحق ، فأنت بذلك تشجعه على أن يبقى كافراً ؛ لأنه سيعرف أنك تتبع الهوى . أما إذا رآك وأنت تقف موقفاً يرضى الله مع أنه خصم لك ، فهو يستدل من ذلك على أن العقيدة التى آمنت بها هى الحق ، وأنك تقيم الحق حتى فى أعدائك . وهكذا يقرع الخصمُ العقدى نفسَه ، وقد يلفته ذلك إلى الإيمان .

« اعدلوا هو أقرب للتقوى » أقرب إلى اى تقوى ؟ أأقرب إلى تقوى المؤمن ؟ أم أن الخصم يكون أقرب إلى التقوى حين يرى المؤمن مقيماً للعدل والحق ، فلعله

يرتدع ويعاود نفسه ويقول : إن الإيمان قد جعل هذا المسلم يتغلب على البغض وحكم بالحق على الرغم من أنه يعلم أننى عدو له .

ولنا فى قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام الأسوة الحسنة ، فقد جاءه رجل غريب يسأله طعاماً أو مبيتاً ، فسأله إبراهيم عن دينه . فوجده كافراً ، فلم يجب مسألته . وسار الرجل بعيداً ، فأنزل الله سبحانه على إبراهيم وحياً : أنا قبلته كافراً بى ومع ذلك ما قبضت نعمتى عنه . وسألك الرجل لقمة أو مبيتَ ليلةٍ فلم تجبه . وجرى سيدنا إبراهيم خلف الرجل واستوقفه ، فسأل الرجل سيدنا إبراهيم ؛ ما الذى حدث لتغير موقفك ، فقال سيدنا إبراهيم : إن ربى عاتبنى فى ذلك . فقال الرجل : نعم الرب إله يعاتب أحبابه فى أعدائه ، وآمن الرجل .

وهذا يوضح لنا معنى « أقرب للتقوى » فقد صار الرجل الكافر أقرب للتقوى . إذن : فالمعنى النفسى الذى يصيب خصمك أو من يبغضك أو من بينك وبينه شنآن ، حين يراك آثرت الحق على بغضك له ، يجعله يلتفت إلى الإيمان الذى جعل الحق يعلو الهوى ويغلبه ويقهره ، ويصير أقرب للتقوى . وأيضاً من يشهد بالقسط هو أقرب للتقوى .

ويذيل الحق الآية بقوله : «واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون» فهو ـ سبحانه ـ الخبير بما نعمل . وإياك أيها المؤمن أن تصنع ذلك لشهرة أن يُقال عنك إنك رجل حكمت على نفسك . ولكن اعمل من أجل الله حتى وإن كان الموقف يستحق منك الفخر .

إن كثيرا من الناس يحكمون بالظلم ليشتهروا بين الناس بالعدل ، كيف ؟ لنفرض أنه قد عُرضت عليك قضية هى خصومة بين ابنك وابن جارك ؛ الشجاعة الأولى تفرض أن تحكم لابن جارك وهو غير محق على ابنك ، لكن الشجاعة الأقوى أن يكون الحق لابنك وتحكم له ، أما إن حكمت لابن جارك ـ وهو غير محق ـ ففى هذه الحالة تكون قد حكمت بالظلم لتشتهر بين الناس بالعدل !

يجب أن يكون الحق أعز عليك من ابنك وابن جارك ، وإياكم أن تعملوا أعمالاً

ظاهرها عدل وباطنها رياء ؛ لأننا نعلم أن لكل جارحة من الجوارح مجالاً تؤدى فيه وظيفتها ؛ فاللسان أداؤه ووظيفته القول ، والأذن فعلها أن تسمع ، والأنف أداؤه أن يشم ، ويجمع الجميع العمل . فالعمل إما أن يكون قولاً وإما أن يكون فعلا .

قال تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝ ﴾

(سورة الصف)

إذن فالقول محله اللسان ، والفعل محله بقية الجوارح ، والاثنان يجمعهما العمل .

ومن بعد ذلك يقول الحق :

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ۝ ٩ ﴾

وعندما نتأمل كلمة « وعد » نجدها تأتى ، وتأتى أيضاً كلمة « أوعد » و« وعد » وكذلك أوعد إذا لم تقترن بالموعود به ، تكون وَعَد للخير ، و« أَوْعَد » للشر . ولكن لو حدث غير ذلك وجئت بالموعود به ، فالاثنان متساويان ، فيصح أن تقول « وعدته بالخير » ويصح أيضاً أن تقول « وعدته بالشر » . لكن إن لم تذكر المتعلق ، فإن « وعد » تستعمل فى الخير . و« أوعد » تستعمل فى الشر . والشاعر يقول :

وإنّى إنْ أوعدته أو وعدته
لَمُخْلِفُ إيعادى ومُنْجِزُ موعدى

وحين يقول : « وعد الله » فهذا وعد مطلق لا إخلال به ؛ لأن الذى يخل بالوعد هو الإنسان الذى تعتريه الأغيار ؛ فقد يأتى ميعاد الوفاء بالوعد ويجد الإنسان نفسه فى

موقف العاجز أو موقف المتغير قلبياً ، لكن ساعة يكون الله هو الذى وعد فسبحانه الذى لا تداخله الأغيار ، بل هو الذى يُجرى الأغيار ، لذلك يكون وعده هو الوعد الخالص الذى لا توجد قوة أخرى تحول دون أن ينفذ الله وعده . أما وعد البشر فقد تأتى قوة أخرى تعطل هذا الوعد .

« وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة » سبحانه وتعالى يوضح أن مغفرته لكل عباده ولا يختص فقط الصالحين الورعين بل إنه يوجه حديثه إلى هؤلاء الذين ارتكبوا المعاصى فإن تابوا ، فلهم مغفرة ؛ لأن درء المفسدة مقدم على جلب المصلحة ؛ فأنت قد تكون جالسا ويأتى واحد جهة اليمين ليقدم لك تفاحة ، وفى اللحظة نفسها التى تمتد يدك لتأخذ التفاحة تلتفت لتجد إنساناً آخر يريد أن يصفعك ، أى اتجاهات سلوكك تغلب ؟ . لا بد أنك سترد على من يضربك أولا . والحق يزيل الذنوب أولاً بالمغفرة . ونجده سبحانه وتعالى يأتى بأشياء تلفت القلب فهو يقول :

﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴾

(من الآية ١٨٥ سورة آل عمران)

فالخطوة الأولى للفوز هى الزحزحة عن النار ، والخطوة التالية بعد ذلك هى دخول الجنة . فسبحانه يمنع المفسدة ويقدم دفعها ودرأها على جلب المنفعة ؛ لذلك يقول الحق بداية : « لهم مغفرة » . والإنسان منا ساعة تأتى له الخواطر يفكر فى أشياء يطمح إليها ، وهناك أشياء يخاف منها . وينشغل الذهن أولاً بما يخاف منه ، يخاف من المفسدة ، يخاف من عدم تحقيق الآمال . إذن فدرء المفسدة مقدم على جلب المصلحة .

« لهم مغفرة وأجر عظيم » . وكل أجر على عمل يأخذ عمره بقدر حيزه الزمنى ، فأجر الإنسان على عمله فى الدنيا يذهب ويزول ؛ لأن الإنسان نفسه يذهب إلى الموت ، أما أجر الآخرة فهو الباقى أبداً ، وهو أجر لا يفوت الإنسان ولا يفوته الإنسان ، ذلك هو الأجر العظيم .

وحين يتكلم الحق عن معنى من المعانى يتعلق بالإيمان والعمل الصالح تكون

النفس مستعدة ؛ لأن هناك تأميلا فى الخير وترهيباً من الشر ؛ لذلك يتبع الحق هذه الآية بآية أخرى فيقول :

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ۝١٠ ﴾

وحين نسمع قوله : « أصحاب الجحيم » تتزلزل النفوس رهبة من تلك الصحبة التى نبرأ منها ، فالصحبة تدل على التلازم وتعنى الارتباط معاً ، وألا يترك أحدهما الآخر ؛ كأن الجحيم لا تتركهم ، وهم لا يتركون الجحيم ، بل تكون الجحيم نفسها فى اشتياق لهم . وللجحيم يوم القيامة عملان ؛ العمل الأول : الصحبة التى لا يقدر الكافر على الفكاك منها ، والثانى : لا تترك الجحيم فرصة للكافر ليفك منها . ويقول الحق عن النار :

﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ۝٣٠ ﴾

(سورة ق)

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١١ ﴾

والذكر ـ كما عرفنا ـ يعنى استحضار الشيء إلى الذهن ؛ لأن الغفلة تطرأ على

الإنسان وعليه ألا يستمر فيها . وبعض أهل الإشراق والشطح يتلاعبون بالمواجيد النفسية فيقول واحد منهم : يعلم الله أنى لست أذكره . وحين يسمع الإنسان مثل هذا القول قد يوجه لصاحبه التأنيب والنقد العنيف ، لكن القائل يحلل الأمر التحليل العرفانى فيكمل بيت الشعر بالشطر الثانى :

« إذْ كيف أذكره إذْ لست أنساه » .

وهنا ترتاح النفس ، ويقول الحق هنا أيضاً : « نعمة الله » ولم يقل : « نعم » ؛ لأن كل نعمة على انفراد تستحق أن نشكر الله عليها ؛ فكل نعمة مفردة فى عظم وضخامة تستحق الشكر عليها ، أو أن نعمة الله هى كل فيضه على خلقه ، فأفضل النعمة أنه ربنا ، وسبحانه يقول : « اذكروا نعمة الله عليكم إذ همّ قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم فكف أيديهم عنكم » . ومادام قد جاء بـ « إذ » فالمراد نعمة بخصوصها ؛ لأن « إذ » تعنى « حين » فالحق يوضح : اذكروا نعمة الله عليكم فى ذلك الوقت الذى حدثت فيه هذه المسألة ، لأنه جاء بزمن ويطلب أن نذكر نعمته فى هذا الموقف ، إنه يذكرنا بالنعمة التى حدثت عندما همّ قوم ببسط أيديهم إليكم .

وهناك « قبض » لليد و« بسط » لليد . والبسط المنظور أن ترى النعمة . وفى الآية تكون النعمة هى كف أيدى الكافرين ، ذلك أن أيديهم كانت ممدودة بالسوء والشر . ولو وقفنا عند بسط اليد ؛ لظننا أنه سبحانه قد جعل من أسباب خلقه معبراً للنعم علينا أى أن نعم الله تعبر وتصل إلينا عن طريقهم وبأيديهم ، لكن هذا ليس مرادا من النص الكريم ؛ لأننا حين نتابع قراءة الآية ، نعرف أن كف أيديهم هو النعمة ، فهؤلاء القوم أرادوا أن يبسطوا أيديهم بالإيذاء . ويقولون عن بذاءة اللسان : « بسط لسانه » ويقولون أيضاً : « بسط يده بالإيذاء » .

ونعرف أن الحق جاء بـ «إليكم » أو « عنكم » وكلاهما فيه ضمير يعود على المؤمنين مع النبى صلى الله عليه وسلم ، فالمؤمنون ملتحمون بمنهج النبى صلى الله عليه وسلم ، فإذا همّ قوم أن يبسطوا أيديهم إلى رسول الله ، ففى ذلك إساءة للمؤمنين برسول الله ؛ لأن كل شيء يصيب رسول الله ، يصيب المؤمنين أيضاً . وكانت هناك واقعة حال فى زمن مقطوع وسابق، فهل يعنى الحق سبحانه وتعالى بحادثة بنى

النضير ، وكان بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبنى النضير معاهدة ألا يعينوا عليه خصوم الإسلام وإذا حدث قتل من جهة المسلمين فعلى بنى النضير المعاونة فى الدية ، وكان النبى قد أرسل مسلماً فى سرية فقتل اثنين من المعاهدين خطأ ، فطالبوا بدية للقتيلين . ولم يكن عند النبى ؛ مال فذهب إلى بنى النضير كى يساعدوه بدية القتيلين ، فقالوا له : « مرحبا » نطعمك ونسقيك وبعد ذلك نعطيك ما تريد ، ثم سلطوا واحداً ليرمى الرسول بحجر . فصعد الرجل ليلقى على الرسول صخرة ورسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قاعد إلى جانب جدار من بيوتهم فأخبر الحق رسوله فقام خارجاً ، ولم ينتظر شيئا .

« إذ همّ قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم فكف أيديهم عنكم » لقد أخبر الحق نبيه بما يبيتون قبل أن يتمكنوا من الفعل . و « الهمّ » هو حديث النفس ، فإذا ما خرج إلى أول خطا النزوع فذلك هو القصد ، و« الهم » هو الشيء الذى يغلب على فكر الإنسان فى نفسه ويكون مصحوباً بغم .

وفى اللغة الدارجة نسمع من يقول : « أنا فى هم وغم » ؛ لأن « الهم » هو الأمر الذى لا يبارح النفس حديثاً ويسبب الغم . فالهم هو العدو الذى لا يقدر أن يقهره أحد ؛ لأنه يتسرب إلى القلب ، أما أى عدو آخر فالإنسان قد يدفعه ، ونعرف عن سيدنا الإمام على ـ رضوان الله عليه وكرم الله وجهه ـ أنه كان مشهوراً بأنه المفتى ؛ فهو يُستفتى فى الشيء فيجيب عليه ، لدرجة أن سيدنا عمر نفسه يقول : « قضية ولا أبا حسن لها » أى أنها تكون قضية معضلة إذ لم يوجد أبو حسن لها فيحلها ، وكان سيدنا عمر يستعيذ من أن يوجد فى مكان لا يوجد به سيدنا على . وعندما عرف الناس عنه ذلك تساءلوا : من أين يأتى بهذا الكلام ؟ . فجاءوا بلغز وانتظروا كيف يخرج منه . فقالوا : إن الكون متسع وفيه أشياء أقوى من كل الأشياء ، وقوى تتسلط على قوى ، وحاولوا الاتفاق على شيء أقوى من كل الأشياء ؛ فقال واحد : الجبل هو أقوى الأشياء . وقال الآخر : لكنا نقطع منه الأحجار بالحديد . وبينما هم يسلسلون هذه السلسلة جاء سيدنا على فقالوا له : يا أبا الحسن ما أشد جنود الله ؟ .

فأجاب سيدنا على ـ كرم الله وجهه ـ كأنه يقرأ من كتاب بدليل أنه عرف جنود الله وعرف الأقوى وحصر عددهم ، وقال سيدنا على : أشد جنود الله عشرة .

وكأنه انشغل بهذه المسألة من قبل ، ودرسها .

قال : الجبال الرواسي والحديد يقطع الجبال ، والنار تذيب الحديد ، والماء يطفىء النار ، والسحاب المسخر بين السماء والأرض يحمل الماء ، والريح يقطع السحاب ، وابن آدم يغلب الريح يستتر بالثوب أو الشيء ويمضي لحاجته ؛ والسُّكر يغلب ابن آدم ، والنوم يغلب السكر ، والهم يغلب النوم ، فأشد جنود الله الهم . ولا يمكننا أن نمر على كلمة « الهم » فى القرآن إلا أن نستعرض مواقعها فى كتاب الله . وأهم موقع من مواقعها نتعرض له من أسئلة الكثيرين فى رسائلهم وفى لقاءاتنا معهم هو مسألة يوسف عليه السلام حينما قال الحق سبحانه وتعالى بخصوص مراودة امرأة العزيز له :

﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ ﴾

(من الآية ٢٤ سورة يوسف)

ولنحقق هذه المسألة ، فالذين يستبعدون على سيدنا يوسف عليه السلام هذا الأمر ، يستبعدون على صاحب العصمة أن يُفكر فى نفسه ، وإن كان التفكير فى النفس لم يبلغ العمل النزوعى فهو محتمل . بل قد يكون التفكير فى الشيء ثم عدول النفس عنه أقوى من عدم التفكير فيه ؛ لأن شغل النفس بهذا الأمر ثم الكف يعنى مقاومة النفس مقاومة شديدة . ولكنهم يُجِلّون ويعظمون ـ أيضاً ـ سيدنا يوسف عن أن يكون قد مر بخاطره هذا الأمر فضلاً على أن يوسف ـ عليه السلام ـ لم يكن قد أرسل إليه، أى أنه لم يكن رسولا آنذاك .

الآية تقول :

﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا ﴾

(من الآية ٢٤ سورة يوسف)

أى أن امرأة العزيز هى التى بدأت المراودة ليوسف عليه السلام فهل تم نزوع إلى العمل ؟ . لا ؛ لأن النزوع إلى العمل يقتضى أن يشارك فيه سيدنا يوسف . إذن فـ « همت به » أى صارت تحب أن تصنع العملية النزوعية وجاء المانع من سيدنا يوسف . وبالنسبة للمُرَاوَدِ وهو سيدنا يوسف ، قال الحق :

﴿ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ ﴾

(من الآية ٢٤ سورة يوسف)

ونضرب لذلك مثلاً حتى نفهم هذا ؛ إذا قال لك قائل : أزورك لولا وجود فلان عندك ، هذا يعنى أن القائل لم يزرك ، وبالقياس نجد أن يوسف عليه السلام رأى البرهان فلم يهم . فمن أراد أن ينزه يوسف حتى عن حديث نفسه نقول : الأمر بالنسبة لها أنها همت به ، وحتى يتحقق الفعل كان لا بد من قبول لهذا الأمر ، وصار الامتناع لكنّه ليس من جهتها بل جاء الامتناع من جهته . وهو قد همّ بها لولا أن رأى برهان ربه .

لماذا جاء الحق : بأنه همَّ بها لو أن رأى برهان ربه ؟ جاء الحق بتلك الحكاية ليدلنا على الحكمة فى امتناع يوسف عن موافقته على المراودة ، فلم يكن ذلك عن وجود نقص طبعى جسدى فيه ، ولولا برهان ربه لكان من الممكن أن يحدث بينهما كل شىء . وأراد الحق أن يخبرنا أن رجولته كاملة وفحولته غير ناقصة واستعداده الجنسى موجود تماماً ، والذى منعه من الإتيان لها هو برهان ربه ، إنه امتناع دينى . لا امتناع طبيعى . وبذلك يكون إشكال الفهم لمسألة الهم عند امرأة العزيز ويوسف قد وضح تماماً .

ونعود إلى الآية التى نحن بصددها : « إذ همّ قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم » وكلمة « قوم » إذا سمعتها ففيها معنى القيام ، والقيام هو أنشط حالات الإنسان . وكما أوضحنا من قبل نجد الإنسان إما أن يكون قائما وإما أن يكون قاعدا وإما مضطجعا وإما مستلقيا وإما نائما . ونجد أن الراحات على مقدار هذه المسألة ، فالقائم هو الذى يتعب أكثر من الآخرين ، لأن ثقل جسمه كله على قدميه الصغيرتين ، وعندما يقعد فإن الثقل يتوزع على المقعدة . وإذا اضطجع فرقعة الاحتمال تتسع . ولذلك يطلقونها على الرجال فقط ؛ لأن من طبيعة الرجل أن يكون قواماً ، ومن طبيعة المرأة أن تكون هادئة وديعة ساكنة مكنونة . فالقوم هم الرجال ، ومقابل القوم هنا « النساء» . إذن فالنساء ليس من طبيعتهن القيام .

والشاعر يقول :

وما أدرى ولست إخال أدرى
أقوم آل حصن أم نساء

وحين يقول الحق : « إذ همّ قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم » فمعنى ذلك أنّه لم يكن هناك نساء قد فكرن فى أن يؤذين رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ونجد هنا أيضاً أن البسط مجال تساؤل ، هل البسط يعنى الأذى أو الكرم ؟.

والحق يقول :

﴿ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾

(من الآية ٢٧ سورة الشورى)

هذا (فى مجال العطاء) أما فى مجال الأذى فالحق يقول على لسان ابن آدم لأخيه :

﴿ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ﴾

(من الآية ٢٨ سورة المائدة)

والأيدى لاتطلق إلا إذا أردنا حركة نزوعية تترجم معنى فى النفس سبق أن مرّ على العقل من قبل ، فمد الأيدى يقتضى التبييت بالفكر ، وهكذا نعرف أن القوم قد بسطوا أيديهم إلى رسول الله والمؤمنين .

وعندما ننظر فى التاريخ المحمدى مع أعدائه ، نجد الحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾

(سورة الأنفال)

أى أنهم قعدوا للتبييت . ونحن لا نعرف ذلك التبييت إلا إذا امتدت الأيدى للعمل ، فقد مكروا وبيتوا للشر وأرادوا أن يثبتوا رسول الله أى أرادوا تحديد إقامته بحبسه أو تقييده أو إثخانه بالجراح حتى يوهنوه ويعجزوه فلا يستطيع النهوض والقيام أو يقتلوه أو يخرجوه من بلده . بإثباته ومنعه فلا يبرح ، أو يخرجوه من المكان كله أو يقتلوه ، فماذا كان الموقف ؟

لقد هموا أن يبسطوا إليه أيديهم . وبسط اليد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم

يؤذى المؤمنين كلهم ، لأنه لا يستقيم أمر المؤمنين إلا برسول الله ، فلو بسط الكفار أيديهم إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، لكان معنى ذلك بسط أيديهم على الكل . ويأتى التاريخ المحمدى بأمور يبسط فيها الكافرون أيديهم بالأذى إلى رسول الله وإلى المؤمنين ويكف الله أيديهم ويمكر بهم أى يجازيهم على ذلك بالعقاب .

والمكر ـ كما نعلم ـ هو الشجر الملتف بعضه على بعضه الآخر حيث لا نعرف أى ورقة تنمو من أى جذع أو فرع . والمكر فى المعانى هو التبييت فى خفاء . وهو دليل ضعف لا دليل قوة . فالأقوياء يواجهون ولا يبيتون ؛ ولذلك يقال : إن الذى يكيد لغيره إنما هو الضعيف ؛ لأن الإنسان الواضح الصريح القادر على المواجهة هو القوى . ونجد البعض يجعل ضعف النساء دافعا لهن على قوة المكر استنادا لقول الحق :

﴿ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾

(من الآية ٧٦ سورة النساء)

وإلى قول الحق :

﴿ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾

(من الآية ٢٨ سورة يوسف)

فلا يكيد إلا الضعيف . ومن لا يقدر على المواجهة فهو يبيت ، ولو كان قادراً على المواجهة لما احتاج إلى ذلك . وقد يمكر البشر ويبيتون بخفاء عن غيرهم . لكنهم لا يقدرون على التبييت بخفاء عن الله ، لأنه عليم بخفايا الصدور . وأمر الحق فى التبييت أقوى من أمر الخلق ؛ لذلك نجد قوله سبحانه :

﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾

(من الآية ٣٠ سورة الأنفال)

راجع أصله وخرج أحاديثه الدكتور/ أحمد عمر هاشم نائب رئيس جامعة الأزهر .

ولنلحظ أن تبييت الله خير . وقد أراد الحق سبحانه وتعالى أن يُعلم أعداء الإسلام أنه بعد هذا التبييت لن تنالوا من رسولى ، لن تنالوا منه بكل وسائلكم سواء أكانت تعذيباً لقومه أم تبييتا له . وعلى الرغم من أنهم بيتوا كثيراً إلا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج من بيته فى مكة إلى المدينة وهم نائمون :

﴿ فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾

(من الآية ٩ سورة يس)

ونجد العجب فى كف أيدى الكافرين عن رسول الله . فكل أجناس الوجود قد اشتركت فى عملية كف أيدى الكافرين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم سواء أكانت تلك الأجناس جماداً أم نباتاً أم حيواناً أم إنساناً ، نثر رسول الله التراب وهو جماد فأغشى به الكافرين ، وصار التراب من جنود الله .

وها هى ذى أسماء بنت أبى بكر تحمل الطعام لهم فى الغار وهى ترعى الغنم ، والأغنام تجد الحشائش فترعاها وتزيل الأثر الذى أحدثه ركب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

لقد اشترك النبات فى كف أيدى الكافرين عن رسول الله ، وكذلك الأغنام وهى من الحيوان ، وكذلك فرس سراقة التى ساخت وغاصت قوائمها فى الأرض ، ثم الحمامة التى بنت عشها على الغار ، وكذلك العنكبوت الذى بنى بيته على الغار ، ورضخت كل جنود الله لأمر الله فشاركت فى عملية كف أيدى الكافرين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

والأعجب من ذلك أن الحق سبحانه وتعالى قد كف أيدى الكافرين بالكافرين ، فالرسول الذى جاء ليهدى الخلق ويسير بهم إلى النور من الظلمات ، نجد الذى يهديه فى طريقه إلى المدينة هو أحد الكفار . وهكذا نرى أن هداية المعانى تستخدم هداية المادة ، والرسول هو الحامل لهداية المعانى يستخدم هداية المادة ممثلة فى ذلك الكافر . ونعرف أن من جنود الإسلام فى دار الهجرة كان اليهود ـ برغم أنوفهم ـ ألم يقولوا للأوس والخزرج : سيأتى من بينكم نبى نتبعه ونقتلكم معه قتل عاد وإرم ؟ فلما سمع الأوس والخزرج أن نبياً ظهر فى مكة ، قالوا : هذا هو النبى الذى توعدتنا به

اليهود ، فلا يسبقنكم إليه ، فسبقوا إليه وأسلموا وبايعوه ، فقد ورد أن يهودا كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قبل مبعثه ، فلما بعثه الله من العرب كفروا به وجحدوا ما كانوا يقولون فيه . فقال لهم معاذ بن جبل وبشر بن البراء بن معرور وداود بن سلمة : يا معشر يهود اتقوا الله وأسلموا فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد صلى الله عليه وسلم ونحن أهل شرك وتخبروننا بأنه مبعوث وتصفونه بصفته ، فقال سلام بن مشكم أخو بنى النضير : ما جاءنا بشيء نعرفه وما هو بالذى كنا نذكر لكم[1] .

ثم كانت المدينة داراً للهجرة .

هكذا نرى أن الباطل يخدم الحق ، والكفر يخدم الإيمان ، فها هو ذا عبدالله بن أريقط ـ وكان كافراً ـ يضع نفسه كدليل للرسول وصاحبه أثناء الهجرة ولا ينظر إلى الجُعْل الذى رصدته قريش لمن يأتيها بمحمد . هكذا نجد أن كف الأيدى كانت له صور كثيرة .

وقد تعرض رسول الله صلى الله عليه وسلم لأشياء ومواقف رآها الصحابة ، ونشأت له خوارق من الحق سبحانه وتعالى تؤيد صدقه ، وشاهد تلك الخوارق بعض الصحابة ولا نقول عنها معجزات ؛ لأن معجزة الإسلام إلى قيام الساعة هى القرآن . ولكن رسول الله لم تخل حياته من بعض المعجزات الكونية مثل التى حدثت لغيره من الرسل . وأرادها الحق لا للمسلمين عموماً ولكن شاهدها بعضهم كما شاهدها بعض الكفار ؛ لأن رسول الله كان فى حاجة إلى أن يؤكد له الله أنه رسول الله . فها هو ذا سيدنا جابر بن عبدالله يقول :

« كان بالمدينة يهودى وكان يسلفنى فى تمرى إلى الجذاذ ، وكان لجابر الأرض التى بطريق رومة فجلست[2] فخلا[3] عاما فجاءنى اليهودى عند الجذاذ[4] ولم أجذ منها شيئا ، فجعلت استنظره[5] إلى قابل فيأبى فأخبر بذلك النبى صلى الله عليه وسلم

(١) تفسير ابن كثير عن محمد بن إسحاق مرويا عن ابن عباس.

(٢) فجلست : أى فتأخرت الأرض عن الإثمار ، وفى رواية فخاست أى خالفت ما كان معهودا منها من التمر

(٣) فخلا : أى تأخر السلف عاما .

(٤) الجذاذ : (بكسر الجيم وفتحها وبالذال المعجمة ويجوز إهمالها) زمن قطع ثمر النخل .

(٥) استنظره : اطلب منه أن يمهلنى .

فقال لأصحابه : امشوا نستنظر لجابر من اليهودى ، فجاءونى فى نخل فجعل النبى - صلى الله عليه وسلم - يكلم اليهودى فيقول : أبا القاسم لا أُنظره ، فلما رأى النبى صلى الله عليه وسلم قام فطاف فى النخل ثم جاءه فكلمه فأبى ؛ فقمت فجئت بقليل رطب فوضعته بين يدى النبى - صلى الله عليه وسلم - فأكل ثم قال : أين عريشك يا جابر ، فأخبرته فقال : افرش لى فيه ففرشته ، فدخل فرقد ثم استيقظ فجئته بقبضة أخرى فأكل منها ثم قام فكلم اليهودى فأبى عليه ، فقام فى الرطاب فى النخل الثانية ثم قال : يا جابر ، جذ واقض ؛ فوقف فى الجذاذ فجذذت منها ما قضيته وفضل منه فخرجت حتى جئت النبى صلى الله عليه وسلم فبشرته فقال : أشهد أنى رسول الله »[1] .

مثال آخر : كان الماء قليلاً عند قوم من الصحابة فيغمس رسول الله يده فى الماء ويشرب كل الناس . وهل يجرؤ أحد من الذين رأوا تلك المعجزة أن يجادل فيها ؟ طبعاً لا ، لكن هل هذه المعجزة لنا ؟ إن وثقنا فيمن أخبر فلن نستكثر على الله أن يكثر الماء لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، ولكن نحن نعلم أن الله قد تكفل بحفظ القرآن ليكون هو المعجزة الباقية فقال تعالى : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » وقال : « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد » .

وقد ثبت أن رسول الله جمع قليلا من الزاد ودعا ما شاء الله أن يدعو وأطعم به جيشا . والذى عاش بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم له أن يصدق تلك المعجزات أو لا يصدقها ، ولكن على المؤمن الذى علم مقام ومكانة الرسول عند ربه ، أن يصدق تلك الخوارق متى ثبت ذلك بطريق يقينى قطعى ، ولذلك لا ضرورة لإقامة الجدل مع هؤلاء الذين ينكرون المعجزات الكونية . ونقول لهم : ليس أحدكم مسئولا بهذه المعجزات ، أنت مسئول بمعجزة القرآن فقط . والخوارق التى وقعت إما أن تكون بغرض تثبيت رسول الله مصداقا لقوله الحق :

﴿ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ﴾

(من الآية ٣٢ سورة الفرقان)

---

(١) رواه البخارى ومسلم (متفق عليه) .

وإما أن تكون لتثبيت أصحاب رسول الله ؛ فقد كانت الأهوال تمر عليهم وتزلزلهم :

﴿ هُنَالِكَ ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ ﴾

(سورة الأحزاب)

وكان لا بد أن ترسل السماء لهم آيات لتثبت أقدامهم فى الإيمان .

والخلاصة أن كل الخوارق الكونية التى حدثت لرسول الله صلى الله عليه وسلم ليس المقصود بها عامة المسلمين ، ولكن المقصود بها من وقعت له أو وقعت أمامه ، وننفض بذلك أى نزاع حول تلك الخوارق ؛ لأن المعجزة الملزمة للجميع هى كتاب الله سبحانه وتعالى .

وقد همّ بالأذى كثير من أعداء الرسول صلى الله عليه وسلم . ألم ترد امرأة من اليهود أن تسمّه وكف الله يديها ؟ وحكاية بنى النضير الذين أرادوا أن يلقوا عليه الحجر ، فقام قبل أن يلقى مندوب بنى النضير الحجر عليه صلى الله عليه وسلم .

وها هو ذا صفوان بن أمية له ثأر عند رسول الله من غزوة بدر يستأجر عمير ابن وهب الجمحى ويقول له : اذهب إلى المدينة واقتل محمداً وعلىّ دينك ، أنا أقضيه عنك وعيالك مع عيالى أواسيهم ما بقوا .

ويذهب عمير إلى المدينة ويدخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : « ما جاء بك يا عمير ؟ قال : جئت لهذا الأسير الذى فى أيديكم فأحسنوا إليه ـ وكان له ابن أسير لدى المسلمين ـ قال : فما بال السيف فى عنقك ؟ فقال : قبحها الله من سيوف وهل أغنت عنا شيئا ؟ قال : أصدقنى ما الذى جئت له ؟ قال : ما جئت إلا لذلك . فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : بل قعدت أنت وصفوان بن أمية فى الحِجر فذكرتما أصحاب القليب من قريش ثم قلت لولا دين علىّ وعيال عندى لخرجت حتى أقتل محمداً فتحمل صفوان بدينك وعيالك على أن تقتلنى له ، والله حائل بينك وبينى فقال عمير . أشهد أنك رسول الله . قد كنا يا رسول الله نكذبك بما كنت تأتينا به من خبر السماء وما ينزل عليك من الوحى .

وهذا أمر لم يحضره إلا أنا وصفوان ، فوالله إنى لأعلم ما آتاك به إلا الله ، فالحمد لله الذى هدانى للإسلام »[١] .

ومثال آخر : ما رواه سيدنا جابر ـ رضى الله عنه ـ فى غزوة ذات الرقاع . « قال : جاء رجل يقال له غورث بن الحارث فقام على رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم بالسيف فقال : من يمنعك منى ؟ قال : الله . فسقط السيف من يده فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم السيف وقال : (ومن يمنعك منى) ؟ فقال : كن خير آخذ . قال : تشهد أن لا إله إلا الله ؟ قال : لا ، ولكن أعاهدك على ألا أقاتلك ولا أكون مع قوم يقاتلونك . فخلى سبيله فأتى أصحابه وقال : جئتكم من عند خير الناس »[٢] .

وعندما سمع الرجل لأول مرة أن الله هو الذى يمنع الرسول منه وقع السيف من يده ، ذلك أن ذرات الكفر فى الرجل تزلزلت وعاد إلى إيمان الفطرة ، وعندما أمسك النبى بالسيف وسأل الرجل : من يمنعك منى ؟ لم يقل الرجل:« هبل » أو « اللات » أو « العزى » فالرجل يعلم أن مسألة الأصنام كذب فى كذب ، ولو كان مؤمناً بآلهته لقال أحد أسمائها . وعندما تزلزلت ذرات الكفر فى كيانه عاد إلى الفطرة الأولى التى لا تكذب أبداً . وإن كذب الإنسان على الناس جميعاً لا يكذب على نفسه . وكلمة « الله » هى التى زلزلت كفر الرجل وأعادته إلى الحق .

وفى معركة بدر نجد أن سيدنا أبا بكر الصديق كان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بينما ابنه عبدالرحمن كان مع الكفار ، وبعد أن أسلم ابنه بفترة جلس الولد مع أبيه يتسامران ، فقال الابن : لقد رأيتك يوم أحد فصدفت[٣] عنك فقال أبو بكر : لكنى لو رأيتك ما صدفت عنك[٤] . فقد رأى ابن أبى بكر والده ولم يقتله ، ولاشك أن مقارنة نفسية باطنية فكرية قد حدثت بين معزة أبيه وبين مكانة هبل أو تلك الحجارة ، وعرف ابن أبى بكر أن والده أفضل بكثير من تلك الأحجار . ولكن

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام عن ابن إسحاق عن محمد بن جعفر بن الزبير عن عروة بن الزبير .

(٢) البيهقى عن جابر وفى البداية (٨٤/٤) .

(٣) صدفت عنك : اعرضت عنك .

(٤) اخرجه ابن أبى شيبة عن ايوب وأخرج الحاكم عن أيوب نحوه .

أبا بكر حينما يقول : ولو كنت رأيتك لقتلتك ، فالمقارنة النفسية هنا تكون بين الإيمان بالله وبين الابن ، ومن المؤكد أن الإيمان يغلب فى نفس أبى بكر . وكل من أبى بكر وابنه كان منطقيا مع نفسه .

ومثال آخر : « عن جابر بن عبدالله أنه غزا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ قبل نجد فلما قفل رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ قفل معه فأدركتهم القائلة ـ شدة الحر فى وسط النهار ـ فى وادٍ كثير العضاه ـ شجر عظيم له شوك ـ فنزل رسول الله ، وتفرق الناس فى العضاه يستظلون بالشجر ونزل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ تحت سَمُرَة فعلق بها سيفه ، قال جابر : فنمنا نومة فإذا رسول الله يدعونا فجئناه فإذا عنده أعرابى جالس فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إن هذا اخترط سيفى وأنا نائم فاستيقظت وهو فى يده صلتاً فقال لى : من يمنعك منى ؟ فقلت له : الله . فها هوذا جالس ثم لم يعاقبه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ »[1] .

ولماذا حدث ذلك ؟ لأن الفطرة المستلهمة بدون تدخل من أحد تنضح بالإيمان . وها نحن أولاء نرى الصحابة فى العهد الأول حينما اضطهدوا فى مكة وهاجروا هجرتهم الأولى إلى الحبشة ؛ هل ذهبوا إليها خبط عشواء ؟ أو ذهبوا بتخطيط نبوى كريم ؟ لقد درس النبى أولاً الأرض التى تصلح لاستقبالهم ويقبلهم فيها أهلها كمهاجرين . ودرس النبى أوضاع الجزيرة العربية ووجد أن قريشا تتمكن من كل قبيلة فى الجزيرة العربية عندما يأتى موسم الحج ، لذلك لن توجد القبيلة التى تحمى المهاجرين فيقول لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكاً لا يظلم عنده أحد وهى أرض صدق ، حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه »[2] .

---

(١) رواه البخارى فى المغازى وعند ابن إسحاق بعد قوله : (الله) فدفع جبريل فى صدره فوقع السيف من يده فأخذه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقال : من يمنعك منى . قال : لا أحد . وعند الواقدى أنه أسلم ورجع إلى قومه فاهتدى به خلق كثير .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام عن ابن إسحاق .

وبالفعل ذهب المسلمون إلى الحبشة مهاجرين . وحاولت قريش أن تسترد المسلمين من أرض النجاشي . وأرسلت قريش بعثة لاستردادهم ورفض النجاشي . وسمع النجاشي عن النبي صلى الله عليه وسلم وعلم أنه النبي الذى بشر به الإنجيل . ولاشك أن النجاشي قد أسلم لأن النبي صلى الله عليه وسلم صلى على النجاشي عندما مات . وكان إسلام النجاشي مكافأة له من الله ؛ لأنه حمى المؤمنين بالله وبرسوله عنده . وما أعظم المكافأة التى نالها النجاشي أن يموت على الإسلام وأن يصلى عليه سيدنا رسول الله صلاة الغائب .

إن كل هذا من كف أيدى الكافرين عن المؤمنين وعن رسول الله ، ومن أجل أن يثبت الحق للجميع أن المؤمنين على حق وأن الله لن يخذلهم ، فلا يخطر ببال المؤمنين أن عدوهم أقوى منهم ؛ فالله أقوى من خلقه . « فكف أيديهم عنكم » وكف أيدى الكافرين عن المؤمنين لأنه ـ سبحانه ـ يعد المؤمنين ليكونوا حملة منهجه إلى الخلق . ولذلك يجب أن يداوم المؤمنون على تكاليف الإيمان وتقوى الله ليكف الله أيدى الكافرين عنهم ، فلا يتغلب كافر على مؤمن فى لحظة من اللحظات إلا إذا كان المؤمن قد تخلى عن شيء فى منهج الله ؛ لأن الحق لا يقول قضية قرآنية ثم يترك القضايا الكونية التى تحدث فى الحياة لتنسخ هذه القضية القرآنية . لقد قال :

﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾

(سورة الصافات)

إذن فعندما ترى جنداً من المسلمين قد انهزموا فلتعلم أنهم قد تخلوا عن منهج الله فتخلى الله عنهم ، بدليل أن بعضاً من المسلمين ساعة لم ينفذوا ما أمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم غلبهم الكفار ، فالله لا يغير سنته من أجل أناس نسبوا إليه ولم ينفذوا تعاليم منهجه . والحق يقول :

﴿ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾

(من الآية ٧ سورة محمد)

ويقول سبحانه :

﴿ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ ﴾

(من الآية ١٥٢ سورة البقرة)

إنك إن انتسبت إلى الإسلام فيجب أن تنتسب إلى الإسلام بحق ، وإن رأيت المؤمنين قد دخلوا معركة وانهزموا فلتبحث مصادر تخليهم عن منهج الحق ، فسبحانه يقول :

﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْءَاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

لقد أصاب المقاتلين مع النبى شيء ، فلم يضعفوا ولكنهم صبروا وطلبوا من الحق أن يغفر لهم ذنوبهم ، لقد عرفوا مصادر ضعفهم واستعانوا بالله على هذا الضعف ، فماذا فعل الله لهم ؟. نصرهم سبحانه بأن آتاهم ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة والله يحب المحسنين . وكل ذلك السلوك الإيمانى الذى يقى من الهزيمة وكيد العدو ، هو من تقوى الله ، حتى يظل المؤمنون فى معية الله . وعندما يكون المسلم فى معية الله لا يجرؤ خلق من خلق الله أن ينال منه . وننظر إلى الهجرة كمثال لذلك ؛ لنجد أن سيدنا أبا بكر كان حريصاً على حماية النبى صلى الله عليه وسلم . فعن أنس بن مالك قال : « لما كان ليلة الغار ، قال أبو بكر : يا رسول الله دعنى فلادخل قبلك فإن كانت حيّة أو شيء كانت لى قبْلك . قال : ادخل ، فدخل أبو بكر فجعل يلتمس بيديه فكلما رأى جُحراً جاء بثوبه فشقه ثم ألقمه الجحر حتى فعل ذلك بثوبه أجمع ، قال : فبقى جحر فوضع عقبه عليه ثم أدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : فلما أصبح قال النبى صلى الله عليه وسلم : « فأين ثوبك يا أبا بكر ؟» فأخبره بالذى صنع فرفع النبى صلى الله عليه وسلم يده فقال : « اللهم اجعل أبا بكر معى فى درجتى يوم القيامة » فأوحى الله تعالى إليه « إن الله قد استجاب لك »[1] .

ويرى أبو بكر الكفار وهم يمرون أمام الغار فيقول لرسول الله : « لو أن أحدهم

(١) أبو نعيم فى الحلية .

نظر تحت قدميه لأبصرنا ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « ما ظنك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما »[1] .

وفى ذلك رد كامل ؛ لأن الاثنين فى معية الله ، ومادام المؤمن فى معية من لا تدركه الأبصار فلن تدركه الأبصار ، كيف ؟. نحن لا نعرف كل أسرار الله ولكنه القادر الأعلى .

وفى حياة البشر نجد الطفل الصغير قد يخرج بمفرده فيصيبه غيره من الأطفال بالضرر ؛ ولكن إذا خرج الطفل مع عائله ، مع أبيه مثلاً أو مع أخيه الأكبر ، فالأطفال لا يقتربون منه ؛ فما بالنا ونحن جميعاً عيال الله ؛ وماذا يحدث عندما نتشبث بمعية الله ؟. إذن فتقوى الله هى التى تجعل المؤمن فى معية ربه طَوال الوقت . ومن يُرِدِ المؤمن بسوء فإن جنود الله تحمى المؤمن . ويذيل الحق الآية : « وعلى الله فليتوكل المؤمنون » . وإياكم أن تقولوا:إننا بلا عَدَد أو عُدَّة . إنك مسئول أن تعد ما تقدر عليه وتستطيعه وأترك الباقى لله :

﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ ﴾

(من الآية ٦٠ سورة الأنفال)

ويقول التاريخ الإيمانى لنا إنه كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله . وقد يقول قائل : هذه المسألة مادية تحتاج إلى عدد وعُدد . ونرد : إن الحق قد طالب بأن نعد ما نستطيعه لا فوق ما نستطيعه . وهو سبحانه عنده من الجند اللطيف الخفىّ الدقيق الذى لا يُرى :

﴿ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ ﴾

(من الآية ١٢ سورة الأنفال)

ومادام الله قد ألقى الرعب فى قلوب الأعداء فالمسألة تنتهى ولا تفلح عُدد أو عَدَد . ويكون التوكل على الله بعد أن يعد الإنسان ما يستطيعه وهو الاستكمال الفَعَّال للنصر ، ولنعلم أن التوكل غير التواكل . إن المتوكل على الله يقتضى أن يعلم الإنسان أن لكل جارحة فى الإنسان مهمة إيمانية ، أن تطبق ما شرع الله ؛ فالأذن تسمع ، فإن سمعت أمراً من الحق فأنت تنفذه ، وإن سمعت الذين يلحدون فى

(١) متفق عليه .

آيات الله فأنت تعرض عنهم . واللسان يتكلم ، لذلك لا تقل به إلا الكلمة الطيبة ؛ فلكل جارحة عمل ، وعمل جارحة القلب هو اليقين والتوكل ، ولنتذكر أن السعى للقدم ، والعمل لليد والتوكل للقلب ، فلا تنقل عمل القلب إلى القدم أو اليد ؛ لأن التوكل الحقيقى أن تعمل الجوارح وتتوكل القلوب ، وكم من عاملٍ بلا توكل فتكون نتيجة عمله إحباطاً .

إننا نجد الزارع الذى لا يتوكل على الله ينمو زرعه بشكل جيد ومتميز ثم تهب عليه عاصفة أو يتغير الجو فيصيبه الهلاك وتكون النتيجة الإحباط . واحذر إهمال الأسباب ؛ أو أن تفتنك الأسباب ؛ لأنك إن أهملت الأسباب فأنت غير متوكل بل متواكل . تنقل عمل القلب إلى الجوارح . وإذا قال لك واحد : أنا لا أعمل بل أتوكل على الله ، قل له : هيا نر كيف يكون التوكل . وأحضر له طبق طعام يحبه . وعندما يمد يده إلى الطعام ، قل له : اترك الطعام يقفز من الطبق إلى فمك .

ويجعل الحق سبحانه وتعالى من قصص الرسل على رسول الله صلى الله عليه وسلم تثبيتاً للإيمان وتربية للأسوة وإنماء لها ، حتى لا يضيق صدر الرسول صلى الله عليه وسلم بما يفعله اليهود أو المشركون ، فإن كان قد حدث معك ـ يا محمد ـ شيء من هذا الإنكار والإيلام ، فقد حدث الكثير من تلك الأحداث مع الرسل من قبلك ، فيقول سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن

﴿ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٢﴾ ﴾

يُذَكِّر الحق هنا رسوله بالميثاق الذى أخذه من بنى إسرائيل . وقد يكون المقصود هو ميثاق الذر أو يكون المراد بالميثاق ما جاء فى قوله تعالى :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾

(سورة آل عمران)

أو أن يكون المراد بالميثاق هو ما بينه بقوله سبحانه :

﴿ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَـٰكُم بِقُوَّةٍ ﴾

(من الآية ٦٣ سورة البقرة)

ويقول سبحانه : « وبعثنا منهم اثنى عشر نقيباً » ولنر « التكتيك » الدينى الذى أراده الحق ، فهو لا يجمع أجناس الخلق المختلفة على واحد من نوع منها ؛ لأن ذلك قد يعرض الدعوة لعصبية ؛ فاختار سبحانه اثنى عشر نقيباً على عدد الأسباط حتى لا يقولن سبط : كيف لا يكون لى نقيب ؟. وحسم الله الأمر ، ولم يجعله محلا للنزاع ؛ فجعل لكل سبط نقيباً منهم . والنقيب هو الذى يدير حركتهم العقدية والدينية . وساعة نسمع كلمة « نقيب » نعرف أنها من مادة « النون و القاف والباء » ، « والنقب » هو إحداث فجوة لها عمق فى أى جسم صلب .

إن اختيار الحق لكلمة نقيب ، يَدل على أن النقيب الصادق ينبغى أن يكون صاحب عينين فى منتهى اليقظة حتى يختار لكل فرد المهمة التى تناسبه ويركز على كل فرد بما يجعله يؤدى عمله بما ينفع الحركة الكاملة . وبذلك يكون كل فرد فى السبط له عمله ومكانه المناسب . ولا يتأتى ذلك إلا بالتنقيب ، أى معرفة حالة كل واحد وميوله فيضعه فى المكان المناسب .

إذن فالنقيب هو المنقب الذى لا يكتفى بظواهر الأمور بل ينقبها ليعرف ظروف وأسباب كل واحد . واختار الحق من كل سبط نقيباً ، ولم يجعل لسبط نقيباً من سبط

آخر حتى يمنع السيطرة من سبط على سبط ، ويمنع أن يكون النقيب على جهالة بمن يريد حركتهم من الأسباط الآخرين .

ونحن نسمع فى حياتنا اليومية وصفاً لإنسان : فلان له مناقب كثيرة ، أى أن له فضائل يذكرها الناس ، كأنّ على صاحب الفضائل ألا يتباهى بها بنفسه بل عليه أن يترك الناس لينقبوا عن فضائله ، ولذلك كانت كنوز الأرض وكنوز الحضارات مدفونة ننقب عليها ، أما ما يظهر على سطح الأرض فتذروه الرياح وعواملُ التعرية ولا يبقى منه شيء .

إذن فكلمة « نقيب » فى كل مادتها تدور حول الدخول إلى العمق ، لذلك تصف الرجل الفاضل : فلان له مناقب أى إن نقبت وجدت له فضائل تذكر ، وقد أعطاه الله موهبة الخير ولا يتعالم بها ، بل يدع الناس هم الذين يحكمون ويذكرون هذه الصفات . ومن نفس المادة « النقاب » أى أن تغطى المرأة وجهها .

وقوله الحق:« إنى معكم » يعطيهم خصلة إيمانية ، فلا يظنن أحد أنه يواجه أعداء منهج الله بذاته الخاصة بل بمعونة الله فلا يضعف أحد أو يهن مادام مؤمناً ، وكما قال الحق :

﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾

(من الآية ٦٠ سورة الأنفال)

وبعد أن يعد المؤمنون ما استطاعوا فليتركوا الباقى على الله .. وجاء أيضاً قوله : « وقال الله إنى معكم » أى أن كل نقيب على سبط ليس له مطلق التصرف ، ولكن الله يوضح : « أنا معكم وسأنظر كيف يدير كل نقيب هذه المسائل » أى أنه سبحانه وتعالى مطلع على واقعكم ، فليس معنى الولاية أن يكون للوالى مطلق التصرف فى جماعته ؛ لا ؛ لأن الله رقيب . وقوله الحق : « إنى معكم » تدل على أن من ولى أمراً فلا بد أن يتابعه ويراه .

وبعد ذلك قال : « لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتم برسلى وعزرتموهم وأقرضتم الله قرضاً حسناً لأكفرن عنكم سيئاتكم » . و« لئن » تضم شرطاً وقسماً ، كأن الحق يقول : وعزتى لئن أقمتم الصلاة وفعلتم كذا وكذا ليكونن الجزاء أن أكفر

عنكم السيئات . ودلت « اللام » على القسم ، ودلت « إن » على الشرط فهى « إن » الشرطية .

والقسم - كما نعلم - يحتاج إلى جواب ، والشرط يحتاج إلى جواب أيضاً ، فالواحد منا يقول للطالب : إن تذاكر تنجح . والواحد منا يقول: « والله لأفعلن كذا » ، و« الله » هى القسم . و« لأفعلن » جواب القسم المؤكد باللام . وحين يأتى القسم فى جملة بمفرده فجوابه يأتى ، وحين يأتى الشرط بمفرده فى جملة فجوابه يأتى أيضاً . ولكن ماذا عندما يأتى القسم مع الشرط ؟ هل يأتى جوابان : جواب للشرط وجواب للقسم ؟. عندما تجد هذه الحالة فانظر إلى المقدم منهما ، هل هو القسم أو الشرط ؟؛ لأن المقدم منهما هو الأهم ؛ فيأتى جوابه ، ويغنى عن جواب الثانى . والمتقدم هنا هو القسم ، تماماً مثل قولنا :

- لئن قام زيد لأقومن ، وهنا يكون الجواب جواب القسم ، أما إن قلنا : إن قام زيد والله أكرمه ، فالجواب جواب الشرط ؛ فقدم الشرط على القسم . هذا إن لم يكن قد تقدم ما يحتاج إلى خبر كالمبتدأ أو ما فى حكمه ، فإن جاء والخبر أى المحتاج إلى الخبر فالشرط هو الراجح ، أى فالراجح أن نأتى بجواب الشرط ونحذف جواب القسم ؛ لأن الشرط تأسيس والقسم توكيد . وابن مالك فى الألفية يوضح هذه القاعدة :

واحذف لدى اجتماع شرط وقسم
جواب ما أخّرت فهو مُلتَزَمْ
وإن تواليا وقَبْلُ ذو خبر
فالشرط رَجِّحْ مطلقا بلا حَذَرْ

والقسم قد تقدم فى هذه الآية ، لذا نجد الجواب هنا جواب القسم ، وهو : « لأكفرن عنكم سيئاتكم » .

وقوله الحق : « أقمتم الصلاة » يوضح أن الإقامة تحتاج إلى أمرين ؛ فروض تؤدى ، وكل فرض فيها يأخذ حقه فى القيام به . وبعد ذلك « وآتيتم الزكاة » وفى كتب الفقه نضع الصلاة ، والزكاة فى باب العبادات . وجاء التقسيم الفقهى لتسهيل إيضاح الواجبات ، لكن كل مأمور به من الله عبادة ؛ لأن العبادة هى أن تطيع مَن

تعبد فى كل ما أمر به ، وأن تجتنب ما نهى عنه ، فكل أمر إلهى هو عبادة .

وقلنا من قبل : إن الحق سبحانه قال :

﴿ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ﴾

(من الآية ٩ سورة الجمعة)

وقوله تعالى :

﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ﴾

(من الآية ١٠ سورة الجمعة)

هنا نجد أمراً تعبدياً أن نترك البيع إلى الصلاة ، وأمراً تعبدياً ثانياً أن ننتشر فى الأرض ابتغاء لفضل الله بعد انقضاء الصلاة ، وأى إخلال بالأمرين ، إخلال بأمر تعبدى ؛ فأنت مأمور أن تتحرك فى الأرض على قدر قوتك حركةً تكفيك وتفيض عن حاجتك ليعم هذا الفائض على غيرك .

وقوله الحق : «وآمنتم برسلى وعزرتموهم» أى أن ينعقد الإيمان فى القلب فلا يطفو الأمر بعد ذلك لمناقشته ، وأن تعزروا الرسل ، أى وقرتموهم ونصرتموهم ، والعَزْر فى اللغة معناه المنع ، ولكن المنع هنا مراد به أن يمنع الناس عن رسول الله من يريده بسوء ؛ فإن أراد أحد من الأعداء السوء برسول من الله فليمنع المؤمنون هذا العدو عن الرسول صلى الله عليه وسلم .

وأنت فى حياتك إن كان لك حبيب أراده إنسان بسوء ، وكنت لا تدركه لأنه بعيد عنك فأنت تتمنى أن تأخذ صاحبك وتحميه من أن يناله العدو . لكن إن كان العدو أمامك فأنت تصده عن حبيبك . فالعزر هو المنع ، أى أن تمنعه من عدوه وتحول بينه وبينه ، أو تمنع عدوه من أن يناله بشر . والرسول بالنسبة للمؤمنين به تكون حياته أغلى من حياتهم ، ففى أثناء المنع قد يصاب أحد المؤمنين ، وفى ذلك تعظيم للرسول ونصرة له وتوقير .

نقول ذلك حتى نرد على الذين يتصيدون ويقولون : علماء المسلمين لا يتفقون على شىء ، فمرة يقولون : إن «عزرتموهم» معناها «نصرتموهم» ، ومرة أخرى

يقولون : إن « عزرتموهم » معناها « منعتموهم » . ونقول : كل المعانى هنا ملتقية ، فالعزر هو الرد والمنع ، إما بمنع العدو عن الرسول ، وإمّا أن يمنع الناس الرسول من أن يناله العدو ، أو الاثنان معاً ، ويجوز أيضا أن يكون معنى « عزرتموهم » هو نصرتموهم . وكذلك يجوز أن يكون معناها « وقرتموهم » ؛ لأن التعظيم والتوقير هما السبب فى نصرة الإنسان للرسول .

وبعد ذلك يقول الحق : « وأقرضتم الله قرضاً حسناً » . ويدبر الحق لنا سياسة المال ، سواء للواجد أو لغير القادر ، فالواجد يوضح له الحق : لا تجعل حركة حياتك على قدر حاجتك ، بل اجعل حركة حياتك على قدر طاقتك ، وخذ منها ما يكفيك ويكفى مَن تعول ، والباقى رُدّه على مَن لم يقدر . ولو جعل كل إنسان حركة حياته على قدر حاجته ، فلن يجد من لا يقدر على الحركة ما يعيش به . ولنذكر جيداً أن الحق سبحانه وتعالى قد قال :

﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝ ﴾

(سورة المؤمنون)

وحين قال سبحانه : والذين هم للزكاة فاعلون، ليس معناها مجرد أداء زكاة، بل تعنى أن يتحركوا فى الحياة بغرض أن يتحقق لهم فائض يخرجون منه الزكاة ، وإلا فما الفارق بين المؤمن والكافر ؟ الكافر يعمل ليقوت نفسه ويقوت من يعول وليس فى باله الله ، أما مزية المؤمن فهو يعمل ليقوت نفسه ، ويقوت من يعول ويبقى لديه فائض يعطيه للضعيف ؛ فكأن إعطاء الضعيف كان فى باله ساعة الفعل . وهذا هو المقصود بقوله الحق :

﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝ ﴾

(سورة المؤمنون)

أى أن كل فعل للمؤمن يُقصد منه أن يكفيه ويكفى أن يزكى منه . وهناك حق آخر فى المال غير الزكاة ؛ بأن يسد به ولى الأمر ما يحتاج إليه المجتمع الإيمانى بشرط أن يقيم ولى الأمر كل شرع الله .

والزكاة هى إخراج المال على نحو مخصوص ، أما الصدقة فهى غير محسوبة من الزكاة لكنها فوق الزكاة . وهناك القرض ، وهو المال الذى تتعلق به النفس ، لأن الإنسان يقدمه لغيره شريطة أن يرده ، ولذلك قيل إن القرض أحسن من الصدقة ، ذلك أن المقترض لا يقترض إلا عن حاجة ، أما الذى تتصدق عليه فقد يكون غير محتاج ، ويسأل دون حاجة ، وأيضاً لأن نفس المتصدق تخرج من الشيء المتصدق به ولا تتعلق به ، أما الذي يقدم القرض فنفسه متعلقة بالقرض وكلما صبر عليه نال حسنة ، وكلما قدم نَظِرَةً إلى ميسرة فهذا له أجر كبير ، هكذا يكون القرض أحسن من الصدقة .

فالحق يريد أن تفيض حركة الحياة بالكثير . وكيف يقول سبحانه : « وأقرضتم الله قرضا حسنا » وهو الواهب لكل النعم وهو الولى لكل النعم ؟ وكيف يهب الحق للإنسان النعم ، ثم يقول له : أقرضنى ؟

هو سبحانه وتعالى يحترم حركة الإنسان وعرقه مادام قد ضرب فى الأرض وسعى فيها ، فالمال مال الإنسان ، ولكن أخا الإنسان قد يحتاج إليه ، ولذلك فليقرضه ويعتبر سبحانه هذا قرضاً من الإنسان لله . ونحن نجد عائل الأسرة يقول لأحد أبنائه : بما أنك تدخر من مصروف يدك فأعط أخاك ما يحتاج إليه واعتبر ذلك قرضا عندى ، صحيح أن العائل هو الذى أعطى المال لكل من يعول ، فما بالنا بالذى أوجدنا جميعا ، وهو الحق سبحانه وتعالى ؟ لقد وهب كلاً منا ثمرة عمله واعتبر تلك الثمرة ملكاً لصاحبها . ويعتبر فوق ذلك إقراض المحتاج إقراضاً له .

ويصف الحق القرض بأنه حسن حتى لا يكون فيه مَنٌّ ، أو منفعة تعود على المقرض وإلا صار فى القرض ربا . ولنا الأسوة الحسنة فى أبى حنيفة عندما كان يجلس فى ظل بيتِ صاحبٍ له . واقترض صاحب هذا البيت من أبى حنيفة بعض المال . وجاء اليوم التالى للقرض وجلس أبو حنيفة بعيداً عن ظل البيت ، فسأله صاحب البيت لماذا ؟ أجاب أبو حنيفة : خفت أن يكون ذلك لونا من الربا . فقال صاحب البيت : لكنك كنت تقعد قبل أن تقرضنى . فقال أبو حنيفة : كنت أقعد وأنت المتفضل على بظل بيتك فأخاف أن أقعد وأنا المتفضل عليك بالمال .

والقرض الحسن هو الذى لا يشوبه مَنٌّ أو أذًى أو منفعة ؛ ولأن القرض دَيْنٌ ، وضع الحق القواعد :

﴿ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ ﴾

(من الآية ٢٨٢ سورة البقرة)

فالحق يحمى المقترض من نفسه ؛ لأنه إذا علم أن الدين مكتوب ، يحاول جاهداً أن يتحرك فى الحياة ليسد هذا الدين ، ويستفيد المجتمع من حركته أيضاً .

وعندما يُكتب القرض فهذا أمرٌ دافع للسداد وَحَاثٌ عليه . لكن إن لم يكتب القرض فقد يأتى ظرف من الظروف ويتناسى القرض . ولو حدث ذلك من شخص فلن تمتد له يد من بعد ذلك بالمعاونة فى أى أزمة ، فيريد الحق أن يديم الأسباب التى تتداول فيها الحركة ، ولذلك يقال فى الأمثلة العامية : من يأخذ ويعطى يصير المال ماله . ويكون مال الدنيا كلها معه ، ولذلك يقول الحق :

﴿ وَلَا تَسْـَٔمُوٓاْ أَن تَكْتُبُوهُ ﴾

(من الآية ٢٨٢ سورة البقرة)

وفى ذلك حماية للنفس من الأغيار ، ولم يمنع الحق الأريحية الإيمانية فقال :

﴿ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ ﴾

(من الآية ٢٨٣ سورة البقرة)

وهكذا يحمى الله الحركة الاقتصادية . ونجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الرحيم بالمؤمنين ، وقد بلغه أن واحداً قد مات وعليه دين ، فقال للصحابة : صلوا على أخيكم . لكنه لم يصل على الميت . وتساءل الناس لماذا لم يصل رسول الله على هذا الميت وما ذنبه ؟ كأن رسول الله أراد أن يعلم المؤمنين عن دين المدين فلم يمنع الصلاة ، ولكنه لم يصل عليه حفزا للناس ودَفْعاً لهم إلى أن يبرئوا ذمتهم بسداد وأداء ما عليهم من دين . وقال :

« من أخذ أموال الناس يريد أداءها ، أدى الله عنه . ومن أخذها يريد إتلافها أتلفه الله »[1] .

فمادام قد مات وهو مدين وليس عنده ما يسد الدين ؛ فربما كان لا ينوى رد الدين ، وأن نفسه قد حدثته بألا يرد الدين .

---

(١) رواه البخارى وأحمد من حديث أبى هريرة .

وفى فلسفة هذا الأمر نفسياً نجد أن المقترض عندما يقترض شيئا كبيرا لا يستطيع أن يتجاهله أو ينساه ، ثم لا يمر بذهن الذى أقرض أن فلاناً مدين ، بل وقد تبلغ الحساسية بالذى قدم القرض ألا يمر على المقترض حتى لا يحرجه . ونثق أن الله قد قذف هذا الخاطر فى نفس المقرض لأن المقترض يريد أن يسدد القرض . أما إن تحرك قلب الدائن على المدين ، وجلس يفكر فى قيمة الدين ، فليُفهم أن عند الذى اقترض بعض ما يسدد به الدين ، أى أن المدين عنده القدرة على الوفاء بالدَّيْن أو ببعضه ، ذلك أن الله لا يُحرج من يَجِد ويجتهد فى السعى لسداد دينه .

« وأقرضتم الله قرضا حسنا » . وقد يقول قائل : كان السياق اللفظى يقتضى أن يقول : « أقرضتم الله إقراضا » ؛ لكن الحق جاء بالقرض الحسن ؛ لأن الإقراض هو العملية الحادثة بين الطالب للقرض والذى يقرض . وسبحانه يضع القرض الحسن فى يده ، ولنا أن نتصور ما فى يد الله من قدرة على العطاء . ومثل ذلك قوله الحق :

﴿ وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ﴾

(سورة نوح)

و« أنبتكم » تعبر عن عملية الإنبات ، والأرض تخرج نباتا لا إنباتا.فمرة يأتى الله بالفعل ، ويأتى من بعد ذلك بالمصدر من الفعل ؛ لأنه يريد به الاسم . و« أنبت » يدل على معنى وينشىء الله لكم منها نباتا .

وهكذا قال الله عن القرض : « وأقرضتم الله قرضا حسنا لأكفرن عنكم سيئاتكم » وفى ذلك جواب للقسم ، ومن بعد ذلك يقول سبحانه : « ولأدخلنكم جنات تجرى من تحتها الأنهار » وقد تكلمنا من قبل كثيرا عن الجنات . ويذيل الحق الآية الكريمة بقوله : « فمن كفر بعد ذلك منكم فقد ضل سواء السبيل » ألم يكن الذى كفر من قبل ذلك قد ضل سواء السبيل ؟ بلى ، إنه قد ضل فعلا ، ولكن الذى ضل بعد أن جاء ذكر تلك النعم والثواب فيها فالضلال أكثر . وكلمة « سواء » نقرأها فى القرآن ونراها فى الاستعمالات اللغوية ؛ كمثل قوله الحق :

﴿ لَيْسُوا سَوَاءً ﴾

(من الآية ١١٣ سورة آل عمران)

وسواء معناها وسط ، ومتساوون . والمعانى ملتقية ؛ لأنه عندما يكون هناك وسط فمعنى ذلك أن هناك طرفين . ومادام الشيء فى الوسط فالطرفان متساويان ، وعندما نقول:وسط ، فهذا يقتضى أن نجعل المسافة بينه وبين كل طرف متساوية . ولذلك يجب أن ننتبه إلى أن كثيراً من الألفاظ تستعمل فى شيء وفى شيء آخر ، وهذا ما يسمى بالمشترك اللفظى .. أى اللفظ واحد والمعنى متعدد ، مثال ذلك قوله الحق :

﴿ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ﴾

(من الآية ١٤٤ سورة البقرة)

والشطر هو الجهة . والشطر هو النصف . النصف هو الجهة بمعنى أن توجه إنسان ما إلى الكعبة يقتضى أن يكون الإنسان واقفاً فى نقطة هى مركز بالنسبة لدائرة الأفق . وهذه النقطة بالنسبة لمحيط الأفق تقطع كل قطر من أقطارها فى المنتصف تماماً . إذن . فعندما يقول:الجهة ، نقول : صدقت ، وعندما يقول النصف . نقول : صدقت .

« فقد ضل سواء السبيل » والقرآن قد نزل على أمة تعيش فى البادية وطرقها بين الجبال ، وقد يكون الطريق معبّداً من ناحية ، وقد يكون الطريق بين هاويتين . وقد يكون الطريق بين جبلين ، ومن يأخذ بالأحوط فهو يمشى فى الوسط . ولذلك قال الإمام على ـ كرم الله وجهه ـ : اليمين والشمال مضلة وخير الأمور الوسط ؛ لأن الإنسان قد يتجه يميناً فيقع . أو يتجه شمالاً فيقع ؛ أو تقع عليه صخرة . ونجد الوالد ينصح ابنه فيقول له : امش ولا تلتفت يميناً أو يساراً واتجه إلى مقصدك . ونجد الحق يصف الطريق الذى يمشى عليه المؤمن يوم القيامة :

﴿ فَاطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ۝ ﴾

(سورة الصافات)

وسواء الجحيم هو نقطة المنتصف فى النار ؛ أى أنه لا يستطيع الذهاب يميناً أو شمالاً . ويقول الحق من بعد ذلك :

۞ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا

قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾

وساعة يقول الحق: « ميثاقاً » فالميثاق يتطلب الوفاء . فهل وفوا بهذا الميثاق ؟ . لا ، لقد نقضوا المواثيق فلعنهم الله . واللعن هو الطرد والإبعاد ، والحق فى ذلك يقول : « فبما نقضهم ميثاقهم لعنّاهم » أى بسبب نقضهم الميثاق لعنهم الله . لقد أثار وجود « ما » هنا بعض التفسيرات ، فهناك من العلماء من قال : إنها زائدة ، وهناك آخرون قالوا : إنها « صلة » . ولكن الزيادة تكون عند البشر لا عند الله . ولا يمكن أن يكون بالقرآن شيء زائد ؛ لأن كل كلمة فى القرآن جاءت لمقتضى حال يحتم أن تكون فى هذا الموضع . فها هوذا الحق يخبرنا بما وصى به لقمان ابنه :

﴿ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾

(من الآية ١٧ سورة لقمان)

وفى آية أخرى يقول سبحانه :

﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾ ﴾

(سورة الشورى)

فى الآية الأولى لم يورد « اللام » لتسبق « مِن » ، وفى الآية الثانية أورد « اللام » لتسبق « مِن » ، وليس ذلك من قبيل التفنن فى العبارات ، فقوله : « واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور » دعوة للصبر على مصيبة ليس للإنسان غريم فيها ، كالمرض ، أو موت أحد الأقارب ، وهذه الدعوة للصبر تأتى هنا كعزاء وتسلية ، أما قوله الحق : « ولمن صبر وغفر إن ذلك لَمِن عزم الأمور » فالدعوة للصبر هنا مع الغفران تقتضى وجود غريم يسبب للإنسان كارثة .

هنا يطلب الله من المؤمن أن يغفر لمن أصابه وأن يصبر . ومادام هناك غريم ؛ فالنفس تكون متعلقة بالانتقام ، وهذا موقف يحتاج إلى جرعة تأكيدية أكثر من الأولى ؛ فليس فى الموقف الأول غريم واضح يُطلب منه الانتقام ، أما وجود غريم فهو يحرك فى النفس شهوة الانتقام ، ولذلك يؤكدها الحق سبحانه وتعالى : إن ذلك لمن عزم الأمور » . ويقول سبحانه فى موقع آخر :

﴿ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ ﴾

(من الآية ١٩ سورة المائدة)

وعندما يقوم النحاة بإعراب « بشير » فهم يقولون : « إنها فاعل مرفوع بضمة مقدرة على آخرة منع من ظهورها حركة حرف الجر الزائد . إنه التفاف طويل ، ولا يوجد حرف زائد ، فالإنسان يقول : ما عندى مال . وهذا القائل قد يقصد أنه لا يملك إلا القليل من المال لا يعتد به . وعندما يقول الإنسان « ما عندى من مال » فـ « من » هنا تعنى أنه لا يملك أى مالٍ من بداية ما يقال له مال.ولذلك فـ «مِن » هنا ليست زائدة ، ولكنها جاءت تعنى لمعنى . إذن « ما جاءنا من بشير » أى لم يأت لنا بداية من يقال له بشير .

وها هوذا قول الحق :

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ﴾

(من الآية ١٥٩ سورة آل عمران)

وقد يحسب البعض أن « ما » هنا حرف زائد ، ولكنا نقول : ما الأصل فى الاشتقاق ؟. إن الأصل الذى نشتق منه هو المصدر . ومرة يأتى المصدر ويراد به الفعل ، كقول القائل : « ضرباً زيدا » أى « اضرب زيدا » . ومجىء المصدر هنا قول مقصود به الفعل ، وكذلك قوله الحق : « فبما نقضهم ميثاقهم لعنّاهم » .

مادام النقض مصدراً فمن الممكن أن يقوم مقام الفعل . ومادام المصدر قد قام مقام الفعل فمن الجائز أن يأتى فعل آخر ، فيصبح معنى القول : فبما نقضوا ميثاقهم لعنّاهم . إذن « ما » تدل هنا على أن المصدر قد جاء نيابة عن فعل . وبقيت « ما » لتدل على أن المصدر من الفعل المحذوف ، أو أن « ما » جاءت استفهامية للتعجيب . . أى فبأى نقض من ألوان وصور نقضهم للعهد لعناهم ؟ وذلك لكثرة ما نقضوا من العهود على صور وألوان شتى من النقض للعهد .

وقوله الحق : « فبما نقضهم ميثاقهم لعنّاهم » . والنقض هو ضد الإبرام ؛ لأن الإبرام هو إحكام الحكم بالأدلة . والنقض هو حل عناصر القضية ، كأن العهد الموثق الذى أخذه الله عليهم قد نقضوه . ونحن نسمى العقيدة الإيمانية عقيدة ، لماذا ؟ ؛ لأنها مأخوذة من عقد الشيء بحيث لا يطفو ليناقش من جديد فى الذهن . كذلك الميثاق إنه عهد مثبت ومؤكد . وعندما ينقضونه فهم يقومون بحله ، أى أنهم أخرجوا أنفسهم عن متطلبات ذلك العقد . وجاء اللعن لأنهم نقضوا الميثاق .

« وجعلنا قلوبهم قاسية » وهم عندما نقضوا المواثيق ، طبع الله على قلوبهم ؛ لأنه لم يطبع على قلوبهم بداية ؛ فقد كفروا أولاً ، وبعد ذلك تركهم الله فى غيهم وضلالهم وطبع على القلوب فَمَا فيها من كفر لا يخرج ، والخارج عنها لا يدخل إليها . و« قاسية » تعنى صُلبة . وفيها شدة . والصلابة مذمومة فى القلوب وليست مذمومة فى الدفاع عن الحق ؛ لأننا نقيس كل موجود على مهمته . فعندما يكون كل موجود على مهمته يكون كل الكون جميلاً . مثال ذلك ؛ نحن لا نقول عن الخُطاف ذماً فيه إنه أعوج . فالخُطّاف لا بد له من العوج ؛ لأن ذلك العوج مناسب لمهمته ، إذن فعوج الخطاف استقامة له . وكذلك القسوة غير مذمومة شريطة أن تكون فى محلها ، أما إن جاءت فى غير محلها فهى مذمومة . إن القلوب القاسية مذمومة ؛ لأن الحق يريد للقلوب أن تكون لينة :

﴿ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾

(من الآية ٢٣ بسورة الزمر)

والقسوة مأخوذة من القَسيّ وهو الصلب الشديد ، ونعرف أن الدنانير كانت تضرب من الذهب والدراهم تضرب من الفضة . وعندما يفحصها الصيرفى قد يُخرج واحداً منها ويقول : هذا زيف أو زائف لأنه قد سمع رنينها ، أهى صلبة فى الواقع أم لا ؟. وعندما تكون صلبة يقال لها : دراهم قاسية .

إنّ الذهب لين . والفضة لينة . فعندما نقول : إن هذا ذهب عيار أربعة وعشرين أى ذَهَبٌ ليس به نسبة من المواد الأخرى التى تجعله قابلاً للتشكيل ، لأنه عندما يكون ذهباً صافياً على إطلاقه فلن يستطيع الصائغ أن يصوغ منه الحلى ؛ لذلك يخلطه الصائغ بمعدن صُلب ، حتى يعطيه المعدن درجة الصلابة التى تتيح له

تشكيل الحلى منه . وتختلف نسبة الصلابة من عيار إلى عيار فى الذهب وكذلك الفضة . والمصوغات المصنوعة من عيار مرتفع من الذهب ليست عرضة للتداول ، كالسبائك الذهبية .

وإذا ما دخل المعدن الصلب إلى الذهب أو الفضة جعلها قاسية ؛ أى صلبة . الصلابة - إذن - فيما يناسبها محمودة . وفيما لا يناسبها مذمومة كصلابة القلوب وقسوتها .

ويقول الحق : « يحرفون الكلم عن مواضعه » مثل ذلك نقلهم أمر الله الذى طلب منهم أن يقولوا: « حطة » فقالوا: « حنطة » « ونسوا حظاً مما ذكروا به » وكانت وسائل النسخ فى الكتب التى سبقت القرآن هى نسيان حظٍّ مما ذكروا به ، والنسيان قد يكون عدم قدرة على الاستيعاب ، لكنه أيضاً دليل على أن المنهج لم يكن على بالهم . فلو كانت كتب المنهج على بالهم لظلوا على ذكر منه ، كما أنهم كتموا ما لم ينسوه ، والذى لم ينسوه ولم يكتموه حرّفوه ولووا ألسنتهم به . وياليت الأمر اقتصر على ذلك ، ولكنهم جاءوا بأشياء وأقاويل وقالوا إنها من عند الله وهى ليست من عند الله :

﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَـٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَـٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾

(سورة البقرة)

هى أربعة ألوان من التغيير ، النسيان ، والكتم ، والتحريف ، ودسّ أشياء على أنها من عند الله وهى ليست من عند الله .

ولنا أن نتأمل جمال القول الحكيم : « ونسوا حظاً مما ذكروا به » فهم على قدر كبير من السوء بدرجة أنستهم الشيء الذى يأتى لهم بالحظ الكبير ، مثل نسيانهم البشارات بمحمد عليه الصلاة والسلام وكتمانها ، ولو كانوا قد آمنوا بها ، لكان حظهم كبيراً ؛ ذلك أنهم نسوا أمراً كان يعطيهم جزاء حسناً ، إذن فقد جنوا على أنفسهم ؛ لأن الإسلام لن يستفيد لو كانوا مهتدين أو مؤمنين والخسار عليهم هم ، ولم يدعهم الله ويتركهم على نسيانهم ليكون لهم بذلك حجة ، بل أراد أن يذكرهم بما نسوه . وكان

مقتضى ذلك أن ينصفوا أنفسهم بأن يعودوا إلى الإيمان ؛ لأن الحق ذكرهم بما نسوا ليحققوا لأنفسهم الحظ الجميل . وقد يراد أنهم تركوا ذلك عامدين معرضين عنه مُغْفِلين له عن قصد .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾

(من الآية ١٣ سورة المائدة)

أى أن خيانتهم لك يا رسول الله ولأتباعك ولمنهج الله الحق فى الأرض ستتوالى ، ولا أدل على ذلك مما حدث منهم ضد رسلهم أنفسهم مع أنهم من بنى جلدتهم ومن عشيرتهم ، إنهم من بنى إسرائيل مثلهم ، فما بالك بنبى جاء من جنس آخر ليقتحم عليهم سلطتهم الزمنية ؟

إذن فخيانتهم لله متصورة. و« خائنة » بمعنى « خيانة » مثلها مثل « قائلة » وهى القيلولة أى المسافة الزمنية بعد الظهر ، وفعلها : قال يقيل أى نام وسط النهار أو « خائنة » أى « نفس خائنة » . أو « خائنة » مثل امرأة خائنة ، أو « خائنة » مبالغة كما نقول « راوٍ » و« راوية » ونحن نعنى رجلًا ، أو نقول « جماعة خائنة » .

إذن فالكلمة الواحدة هنا مستوعبة لكل مصادر الخيانة منهم ، رجل أو امرأة أو جماعة أو كل هؤلاء . والذى يتكلم هنا هو رب العالمين ، ويتكلم للعرب وهم أهل فصاحة ، إنه أداء لغوى عال .

ومن فرط دقة القرآن وصدقه يأتى الحق بقوله : « إلّا قليلًا منهم » طبقا لقانون صيانة الاحتمال . فحين يخاطب الله رسوله صلى الله عليه وسلم ليبين له موقف اليهود منه ، ألا يُحتمل أن يُوجد قوم من اليهود يغلبهم الفهم العميق فيفكروا فى أن يؤمنوا بهذا الرسول ، ويهدئوا من شراسة ظنهم به ؟ وقد فكر بعضهم وأعلن الإسلام .

وهؤلاء القوم عندما يسمعون أحكام الله على اليهود أجمعين ، ألا يقولون : وما لنا

ندخل فى هذه الزمرة ؛ ونفكر فى أن ننطق بالإيمان ؟ فكأن قوله : « إلا قليلا منهم » صان قانون الاحتمال أن يكون إنسان منهم فكر فى الإيمان . ومن فكر فى الإيمان فسوف يجد قوله الحق : « إلا قليلا منهم » وسيرى هذا الإنسان فى نفسه أن القرآن دليل نزل على نور . وقد كان وأعلن قليل منهم إسلامه ، وماذا يكون موقفه صلى الله عليه وسلم بعد أن يخبره الحق : بأنك ستتعرض مستقبلا لخيانتهم ؟ ألا يحرك ذلك نفسية رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين عليهم ، فإذا فعل اليهود خائنة فلا بد أن ينتقموا منهم ، وتطبيقا للقاعدة الأساسية فى رد العدوان بأن من يعتدى عليك فاعتد عليه .

لم يشأ الله ـ سبحانه ـ أن يترك الموقف لعواطف البشر مع البشر بل قال : « فاعف عنهم واصفح إن الله يحب المحسنين » والعفو هو كما نقول : فلان عفّى على آثارى ، أى أن آثارك تكون واضحة على الأرض وتأتى الريح لتمسحها فتعفى على الأثر . والأمر بالعفو أى امسح الأثر لذنب فعلوه . والخطيئة التى ارتكبوها عليك أن تعتبرها كأنها لم تحدث ، ولكن أيظل أثرها باقيا عند رسول الله ؟ لا ، فالأمر بالصفح يأتى وهناك فرق بين أن تمحو الخطيئة وتبقى أثرها فى نفسك وتظل فى حالة من الغيظ والحقد .

والحق هنا يأمر بالعفو أى إزالة أثرها ويأمر بالصفح أى أن تُخْرِجَ أثر الخطيئة من بالك ؛ لأن الإنسان منا له مراحل ؛ المرحلة الأولى بعد أن يرتكب أحدهم ذنبا فى حقه ، فلا يقابل العدوان بمثله ، وهذا هو العفو ، والمرحلة الثانية : ألا يترك أثر هذا الذنب يعمل فى قلبه بل يأتى الصفح حتى لا ينشغل قلب المؤمن بشىء قد عفا عنه ، والمرحلة الثالثة : فرصة مفتوحة لمن يريد أن يتمادى فى مرتبة الإحسان وترقى اليقين والإيمان بأن يحسن الإنسانُ إلى من أساء إليه . وهذه المراحل الثلاث يوضحها قوله الحق :

﴿ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾

(من الآية ١٣٤ سورة آل عمران)

وعملية الإحسان مع المسىء أو المعتدى : أهى عملية منطقية مع النفس الإنسانية ؟ قد تكون غير منطقية مع النفس الإنسانية ، ولكنك أيها الإنسان لا تشرع

لنفسك ، إنما الذى يشرع لك هو الأعلى من النفس الإنسانية . والخالق يقول لك : لو علمت ما قدَّمه لك من أساء إليك لأحسنت إليه . لأنك إن أسأت إلى خلق من خلق الله فالذى يثأر ويأخذ الحق لمن أسىء إليه هو رب هذا المخلوق . ويأتى الله فى صف الذى تحمل الإساءة .

إذن فإساءة العدو لك جعلت الله فى صفك وفى جانبك ، ألا يستحق ذلك المسىء أن نشكره ؟ ألا تقول لنفسك القول المأثور : ألا تحسن إلى من جعل الله فى جانبك . إذن هذا هو التشريع : « إن الله يحب المحسنين » والإحسان هنا خرج بالترقى الإيمانى عن مرحلة :

﴿ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾

(من الآية ١٩٤ سورة البقرة)

والإحسان أن تفعل شيئا فوق ما افترضه الله ، ولكن من جنس ما افترضه الله ؛ والمحسن الذى يدخل فى مقام الإحسان هو من يعبد الله كأنه يراه فإن لم يكن يراه فهو سبحانه وتعالى يرى كل خلقه . ونعرف قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ ﴾

(سورة الذاريات)

ما الذى جاء بالإحسان هنا ؟ وتكون الإجابة :

﴿ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ ﴾

(سورة الذاريات)

وهل يكلف الله خلقه ألا يهجعوا إلا قليلا من الليل ؟ لا . فقد كلف الله المسلم بالصلاة ، وأعلمه بأنه حر بعد صلاة العشاء ، وله الحق أن ينام إلى الفجر ، فإن سمع أذان الفجر فليقم إلى صلاة الفجر . لكن المحسن يريد الارتقاء بإيمانه فيزيد من صلواته فى الليل . ويضيف الحق مذكرا لنا بصفات المحسنين :

﴿ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ ﴾

(سورة الذاريات)

أكلف الله الخلق بأن يستغفروا بالأسحار ؟ لا . بل إن الرسول يجيب على رجل سأله عن الفروض الأساسية المطلوبة منه ، فذكر له أركان الإسلام ومن بينها الصلوات الخمس المكتوبة ، فقال الرجل : والله لا أزيد على هذا ولا أنقص فقال الرسول صلى الله عليه وسلم : « أفلح إن صدق »[1] .

ويضيف الحق فى استكمال صفات المحسنين :

﴿ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾ ﴾

(سورة الذاريات)

ونلحظ أن الحق هنا لم يقل : « حق معلوم » إنما قال : « حق للسائل والمحروم » فالحق المعلوم هو الزكاة ، أما المحسن فللسائل والمحروم فى ماله حق غير معلوم ، وذلك ليفسح سبحانه المجال للطموحات الإيمانية ، فمن يـزد فى العطاء فله رصيد عند الله . والحق يقول : « فاعف عنهم واصفح إن الله يحب المحسنين » ؛ لأن الإحسان إليهم يهيج فيهم غريزة العرفان بالجميل ، فيستل ذلك الإحسان الحقد من قلوبهم ، ويفتحون آذانهم وقلوبهم لكلمة الحق :

﴿ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴾

(من الآية ٣٤ سورة فصلت)

لأن العداوة لا تشتد إلا إذا وُجد مُؤجج لها من عداوة فى المقابل . فعندما تعامل عدوك بالحسنى ولا ترد على عدائه بالعدوان فكم من الزمن يصير عدواً لك ؟ إنه اعتدى مرة وسَكَتَّ أنت عليه ، واعتدى ثانية وسكت أنت عليه . لا بد أنه يهدِّىء من نفسه .

إذن فالعداوة لا تتأجج إلا إذا قابلتها عداوة أخرى . ولذلك نرى ما حدث فى المعركة التى قامت بين فرعون وسيدنا موسى عليه السلام حين أراد الله أن يجعل العداوة لا من جهة واحدة ولكن من جهتين اثنتين لتكون معركة حامية ؛ لأن العداوة لو كانت من جهة واحدة لهدأ الطرف المعتدى :

﴿ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ﴾

(من الآية ٨ سورة القصص)

(١) أخرجه البخارى فى كتاب الإيمان .

فهل هم التقطوه ليكون عدواً ؟ لا . لقد التقطوه ليكون قرة عين . ولكن قدر الله سبق . كان الأمل فى أن يصير موسى قرة عين آل فرعون ، ولكن الله أراد أن يقوموا بتربيته ، ثم يصير من بعد ذلك عدواً لهم . وهكذا يتضح لنا أن تدبير السماء فوق تدبير الأرض . وموسى السامرى مثلاً ربته السماء بواسطة جبريل ، وولدته أمه منقطعا فى الصحراء ، فكان جبريل ينزل عليه بما يطعمه إلى أن كبر ، وموسى ابن عمران ذهب إلى فرعون ليربيه ، لكن موسى السامرى - الذى رباه جبريل - صار كافراً ، وموسى بن عمران الذى رباه فرعون أصبح رسولاً إلى بنى إسرائيل . وكلا القدرين أرادهما الله ، ولذلك يقول الشاعر :

إذا لم تصادف فى بريق عناية
فقد كذب الراجى وخاب المؤمل
فموسى الذى رباه جبريل كافر
وموسى الذى رباه فرعون مرسل

كأن آل فرعون قد قاموا بتربية موسى بن عمران ليكون عدواً لهم لا قرة عين . والعداوة تكون من جهة موسى لفرعون ، وتجىء العداوة من فرعون لموسى ، فيقول الحق :

﴿فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ﴾

(من الآية ٣٩ سورة طه)

هكذا صارت العداوة من طرفين . والحق سبحانه وتعالى أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يصفح عن الخيانات التى تحدث منهم ، لعل الوعى الإيمانى يستيقظ فيهم ، ويقولون : لم يعاملنا بمثل ما عاملناه به ، ويعترفون به نبياً رحيماً رءوفاً كريماً ، ولا يقفون فى وجه دعوته . لكن أيظل العفو والصفح هما كل التعليمات الصادرة من الحق إلى نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ؟ لا . فقد مر الأمر الإلهى بمرحليات متعددة ؛ فالرسول يستقطب النفس الإنسانية بأن يستعبدها بالإحسان ، فإن لم يستعبدها الإحسان فلا بد أن يشمر النبى عن الساعد ويفعل ما يأمره به الله ، ولنقرأ قوله الحق :

﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن

﴿ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ﴾

(من الآية ١٠٩ سورة البقرة)

إذن فهناك أمر خفى هو :

﴿ حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ﴾

(من الآية ١٠٩ سورة البقرة)

وسبحانه قد أمر بأن يتركهم الرسول مع الصفح والعفو لمرحلة قادمة يأتى فيها الأمر بتأديبهم . وهذه عملية إنسانية فطرية عرفها العربى الجاهلى وخَبَرها قبل أن يأتى الإسلام ؛ فقد كان العربى يحسن إلى عدوه مرة وثانية وثالثة ، وعندما يجد أن الإحسان لم يثمر ثمرته ؛ يقاتل العدو ، وكما قال الشاعر :

أناة فإن لم تغن قدم بعدها ... وعيداً فإن لم يغن أغنت عزائمه
من الحلم أن تستعمل الحزم دونه ... إذا لم يسع بالحلم ما أنت عازمه

وقال الشاعر :

صفحنا عن بنى ذهل ... وقلنا القوم إخوان
عسى الأيام أن يرجعـ ... ـن قوماً كالذى كانوا
فلما صَرَّحَ الشر ... وأضحى وهو عريان
مشينا مشية الليث ... غَدَا والليث غضبان
بضرب فيه تأييم ... وتفجيع وإرنان
وطعن كفم الزق ... غَدَا والزق ملآن
وفى الشر نجاة حيـ ... ـن لا ينجيك إحسان
وبعض الحلم عند الجهـ ... ـل للذلة إذعان

ومثل ما جرى للنبى صلى الله عليه وسلم مع اليهود ، حدث مع النصارى وأورد الحق سبحانه وتعالى هذا فقال :

﴿ وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَهُمۡ فَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغۡرَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَاوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ وَسَوۡفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ١٤ ﴾

لقد قالوا إنهم نصارى . وأخذ الحق الميثاق منهم ، إما ميثاق الذر وإما ميثاقهم لنبيهم عيسى ابن مريم ، فنسوا حظاً مما ذكروا به وتركوا ما أمرهم به الإنجيل ونقضوا الميثاق ، فتفرقوا فى عداء ملحوظ فِرَقاً شتى ، وجاء أمر الله كما وعد :

﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ١٥ ﴾

كأن الحق سبحانه وتعالى يعطيهم الفرصة والعذر حتى لا يقولن واحد منهم : لم يبلغنى عن رسولى شىء . وهناك فترة لم يأت فيها رسول . وها هوذا رسول من الله يأتى حاملاً لمنهج متكامل . ويجىء الرسول يمنحهم ويعطيهم فرصة لتجديد ميثاق الإيمان . وهم قد أخفوا من كتبهم بعض الأحكام . مثل الرجم والربا ، وقال بعض من بنى إسرائيل فى الربا ما ذكره القرآن عنهم :

﴿ لَيۡسَ عَلَيۡنَا فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٞ ﴾

(من الآية ٧٥ سورة آل عمران)

أى أنهم أقروا الإقراض بالربا لمن هم على غير دينهم ، ولكن لا ربا فى تعاملهم

مع أبناء دينهم . وأراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يلم الشمل وأن يجمع أيديهم مع يده ؛ لأنه نبى انتظروه ولهم فى كتبهم البشارة به . وأن يقف الجمع المؤمن أمام موجة الإلحاد فى الأرض حتى يسيطر نظام السماء على حركة الأرض ، لذلك قال الحق : « قد جاءكم من الله نور » . ومعنى ذلك أن كتمانهم لبعض منهج الله قد صنع ظلمة فى الكون . ومادامت قد حدثت ظلمانية فى الكون ، وخاصة ظلمانية القيم ، إذن فالكون صار فى حاجة إلى من ينير له الطريق . ونعرف أن النور هو ما نتبين به الأشياء .

وحين يعرض الحق لنا قضية النور الحسى يريد أن يأخذ بيدنا من النور الحسى إلى النور المعنوى ؛ فالنور الحسى يبدد ظلام الطريق حتى لا نصطدم بالأشياء أو نقع فى هوة أو نكسر شيئاً ، لكن عندما يحمل الإنسان نوراً فهو يمشى على بينة من أمره . والنور الحسى يمنع من تصادم الحركات فى المخلوقات ، حتى لا تبدد الطاقة ، فتبديد الطاقة يرهق الكون ولا يتم إنجاز ما .

إن الشمس فى أثناء النهار تضىء الكون ، ثم يأتى القمر من بعد الشمس ليلقى بعضاً من الضوء ، وكذلك النجوم بمواقعها تهدى الناس فى ظلمات البر والبحر . وجعل الله هذه الكائنات من أجل ألا تتصادم الحركة المادية للموجودات ، فإذا كان الله قد صنع نوراً مادياً حتى لا يصطدم مخلوق بمخلوق ، فهو القادر على ألا يترك القيم والمعانى والموازين بدون نور ، لذلك خلق الحق نور القيم ليهدى الإنسان سواء السبيل ، فإذا كان الكافر أو الملحد يتساوى مع المؤمن فى الاستفادة بالنور المادى لحماية الحركة المادية فى الأرض ، ولم نجد أحداً يقول:أنا فى غير حاجة للانتفاع بالنور المادى ، ونقول للكافرين والملاحدة : مادمتم قد انتفعتم بهذا النور فكان يجب أن تقولوا : إن لله نوراً فى القيم يجب أن نتبعه . ويلخص المنهج هذا النور بـ « افعل ولا تفعل » .

فالمنهج ـ إذن ـ نور من الله . ولنقرأ :

﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾

(من الآية ٣٥ سورة النور)

إنه يأخذ بيدنا فى الطريق بالنور المادى الذى يستفيد منه الكل ، سواء من كان

مؤمنا أو غير ذلك ، ويضرب سبحانه لنا مثل النور .

﴿ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ﴾

(من الآية ٣٥ سورة النور)

والمشكاة هى الطاقة التى توجد فى الجدار وهى غير النافذة ، إنّها كوة فى الجدار يوضع فيها المصباح الزيتى أو « الكيروسينى » وتوجد فى المبانى البدائية قبل أن يخترع الإنسان المصابيح الكهربية والثريات . ولا تتجاوز مساحة الكوة ثلاثين سنتيمترا ، وطولها أربعون سنتيمتراً ولا يزيد عمقها على خمسة عشر سنتيمتراً ؛ أما الحجرة فمساحتها تزيد أحياناً على ثلاثة أمتار فى الطول والعرض والارتفاع .

ويتحدث الحق عن الكوة فقط ولا يتحدث عن الحجرة . وأى مصباح فى الكوة قادر على إنارة الحجرة . ولننتبه إلى أن هذا المصباح غير عادى ، فهو مصباح فى زجاجة . ونعرف أن المصباح الذى فى زجاجة هو من الارتقاءات الفكرية للبشر . فالمصابيح قديماً كانت بدون زجاجة وكان يخرج منها ألسنة من السِّناج « الهباب » الذى يسوّد ما حولها ، فالسِّناج أثر دخان السراج فى الحائط وغيره . وقد ينطفىء المصباح لأن الهواء يهب من كل ناحية ، ثم وضع الإنسان حول شعلة المصباح زجاجة تحمى النار وتركز النور وتعكس الأشعة ويأخذ المصباح من الهواء من خلال الزجاجة على قدر احتياج الاشتعال .

﴿ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ﴾

(من الآية ٣٥ سورة النور)

أى أن النور من هذا المصباح أشد قوة ؛ لأن الزجاجة تعكس أشعة المصباح وتنشر الضوء فى كل المكان . والزجاجة التى يوجد فيها هذا المصباح ليست عادية :

﴿ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ ﴾

(من الآية ٣٥ سورة النور)

والكوكب نفسه مضىء ، وتكون الزجاجة كأنها هذا الكوكب الدرى فى ضيائه ولمعانه . والمصباح يوقد من ماذا ؟ .

﴿ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ ﴾

(من الآية ٣٥ سورة النور)

وهذا ارتقاء فى إضاءة المصباح من زيت شجرة زيتون ، والشجرة غير عادية :

﴿ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ ﴾

(من الآية ٣٥ سورة النور)

فهى شجرة يتوافر لها أدق أنواع الاعتدال :

﴿ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ﴾

(من الآية ٣٥ سورة النور)

ذلك هو من قدرة الله فى نور الكونيات المادية ، ولذلك فليس من المعقول أن يترك القيم والمعنويات بدون نور . فكما اهتدى الإنسان فى الماديات فينبغى أن يفطن إلى قدرة الحق فى هداية المعنويات ، بدليل أن الله قال :

﴿ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾

(من الآية ٣٥ سورة النور)

يهدى الله بنور القيم والمنهج والمعانى من يريد . وقد يهتدى الملحد بنور الشمس المادى إلى الماديات ولكن بصره أعمى عن رؤية نور المنهج والقيم ؛ لذلك يوضح سبحانه أن هناك نوراً إلهياً هو المنهج . وضرب هذا المثل ليوضح المعانى الغيبية المعنوية بالمعانى الحسية . ونحن على مقاديرنا نستضىء ، فالفقير أو البدائى يستضىء بمصباح غازى صغير ، والذى فى سعة من العيش قد يشترى مولداً كهربياً . وكل إنسان يستضىء بحسب قدرته . ولكن عندما تشرق الشمس فى الصباح ما الذى يحدث ؟ .

يطفىء الإنسان تلك المصابيح ، فالشمس هى نور أهداه الله لكل بنى الإنسان ، ولكل الكون . كذلك إذا فكرنا بعقولنا فيما ينير حياتنا فكل منا يفكر بقدرة عقله . ولكن إذا ما نزل من عند الله نور فهو يغنى عن كل نور آخر . وكما نفعل فى الماديات نفعل فى المعنويات :

﴿ نُورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ﴾

(من الآية ٣٥ سورة النور)

والذى يدلنا على أن النور الثانى هو نور القيم الذى يكشف لنا بضوء « افعل ولا تفعل » أن الله قال بعد ذلك :

﴿ فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ ﴾

(من الآية ٣٦ سورة النور)

ولو بحثت عن متعلق الجار والمجرور لم تجده إلا فى قوله : (فى بيوت أذن الله أن ترفع) كأن النور على النور يأتى من مطالع الهدى فى مساجده . فهى بيوت لله نقبل عليها ليفيض منها نور الحق على الخلق .

﴿ فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ ۝ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾

(سورة النور)

وكلمة « لا تلهيهم تجارة » لا تعنى تحريم التجارة ، فالإنسان الصادق لا تلهيه التجارة عن ذكر الله . وليكن الله على بال المؤمن دائما ، فعندما يكون الإنسان على ذكر لله فالله يعطيه من مدده .

إذن يا أهل الكتاب قد جاءكم النور ، وبين لكم الرسول كثيراً مما تختلفون فيه . وتسامح عن كثير من خطاياكم ، ويريد أن يجرى معكم تصفية شاملة . فعليكم أن تلتفتوا وتنتبهوا وتعدلوا من موقفكم من هذا الدين الجديد . ولتبحثوا ماذا يريد الله بهذا المنهج . والله قد ضرب المثل بالنور ، وهذا النور يهدى إلى « افعل ولا تفعل » . ومن الذى يقول لنا إن هذا النور قادم من الله ؟ إنه الرسول ، ومن الذى يدلنا على أن الرسول صادق فى البلاغ عن الله ؟ الذى يدل على صدقه هو قول الله :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ۝١٧٤ ﴾

(سورة النساء)

فالذى جاء أولا من ربكم هو البرهان على أن رسول الله صادق فى البلاغ عن

الله ، وليبلغنا أن الكتاب قد جاء بالمنهج . والقرآن يتميز بأنه البرهان على صدق النبى وهو المنهج النورانى ؛ لأن البرهان هو الحجة على صدق الرسول فى البلاغ عن الله .

ونعرف البرهان فى حياتنا التعليمية أثناء دراسة مادة الهندسة عندما نقابل تمرينا هندسيا فنأخذ المعطيات وبعد ذلك ننظر إلى المطلوب إثباته . ونعيد النظر فى المعطيات لنأخذ منها قوة للبرهنة على إثبات المطلوب . وإن كانت المعطيات لا تعطى ذلك فإننا نتجه إلى خطوة أخرى هى العمل على إثبات المطلوب . وهذا الكون فيه معطيات ، وهو كون محكم ، ونلمس إحكامه فيما لا دخل لحركتنا فيه :

﴿ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ﴾

(من الآية ٤٠ سورة يس)

كون موزون بالسماء والأرض وحركة الرياح وغير ذلك ، وتلك الأمور التى لا دخل للإنسان فيها نجد القوانين فيها مستقيمة تمام الاستقامة وكمالها . فإن أراد الإنسان أن يأخذ المعطيات من الكون ، فليأخذ فى اعتباره النظر إلى الأمور التى للإنسان دخل فيها ولسوف يجدها تتعرض للفساد ؛ لأن الهوى فى البشر له مدخل على هذه الأشياء . لكن الخالق الأعلى لا تطوله ولا تتناوله أمور الهوى . ولذلك يقول سبحانه :

﴿ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧ ﴾

(سورة الرحمن)

فلا السماء تنطبق على الأرض ، ولا كوكب يزاحم كوكبا آخر . ويبين لنا الحق كيفية السير بنظام الكون :

﴿ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ۝٨ ﴾

(سورة الرحمن)

فإن أردتم أن تكون حركتكم منتظمة فانظروا إلى ما لأيديكم دخل فيه واصنعوه كصنع الله فيما ليس لأيديكم مدخل فيه .

﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ۝٩ ﴾

(سورة الرحمن)

فإن كنتم معجبين باتزان الكون الأعلى فذلك لأنه مصنوع بنظام دقيق . وإذا كان الحق قد وضع لنا نظاما دقيقا هو المنهج بـ « افعل كذا ولا تفعل كذا » فذلك حتى لا تفسد حركتك الاختيارية إن اتبعت المنهج ، وتصرفت فى حياتك بمنهج الله ويكون الميزان معتدلاً . إذن فقد أعطانا الحق معطيات عندما ينظر الإنسان فيها نظرا فطريا بدون هوى فإنها تأخذ بيده إلى الإيمان . وهذه الكائنات الموزونة لا بد لها من خالق ؛ لأن الإنسان طرأ عليها ولم تأت هى من بعد خلق الإنسان . ولا أحد من البشر يدعى أنه صنع هذا الكون .

إذن لا بد من البحث عمن صنع هذا الكون الدقيق ، والدعوى حين تسلم من الضعف ، أتكون صادقة أم غير صادقة ؟ تكون صادقة تماما . والله هو الذى قال إنه خلق السماء والأرض والكون . ولم يأت مدع آخر يقول لنا : إنه الذى خلق . إذن يثبت الأمر لله إلى أن يوجد مدعٍ ، ومع توالِى الأزمنة وتطاولها لم يدع ذلك أحد .

وكان لا بد أن تكون مهمة العقل البشرى أن يفكر ويقدح الذهن ليتعرف على صانع هذا الكون ، وكان لا بد أن يتوجه بالشكر لمن جاء ليحل له هذا اللغز .

وقد جاءت الرسل لتحل هذا اللغز ولتدلنا على مطلوب عقلى فطرى ، ولو أننا سلسلنا الوجود لوجدنا أن الإنسان هو سيد هذا الوجود ؛ لأن كل الكائنات تعمل وتجهد فى خدمته . وأجناس الوجود كما نعرفها التى تخدم الإنسان هى الحيوان ويتميز عنه الإنسان بالعقل ، وهناك جنس تحت الحيوان هو النبات فيه النمو ، وهناك جنس أدنى وهو الجماد . وكل هذه الأجناس مهمتها خدمة الإنسان . والجماد ليس هو الشىء الجامد ، بل الهواء جماد والشمس جماد والتربة جماد ، وكل ذلك يمارس مهمته فى الوجود لخدمة الأجناس الأعلى منها ويستفيد الإنسان منها جميعا والحيوان يستفيد من الجماد وكذلك النبات يستفيد من الجماد ، والحيوان يستفيد من النبات والجماد ، والمحصلة النهائية لخدمة الإنسان .

أليس من اللائق والواجب ـ إذن ـ أن يسأل الإنسان نفسه من الذى وهبه هذه المكانة ؟ فإذا جاء الرسول ليحل هذا اللغز ويبلغنا أن الذى خلق الكون هو الله وهذه صفاته ، ويبلغنا أن هذا المنهج جاء من الله ويحمل معه معجزةً هى دليل صدقِ

البلاغ عن الله ، وهى معجزة لا يقدر عليها البشر ، ويتحدى الرسول البشر أن يأتوا بمثل معجزته . إذن فلا بد أن يؤمن كل البشر لو صَدَقُوا الفهم وأخلصوا النية .

ما هو البرهان إذن ؟ البرهان هو المعجزة الدالة على صدق الرسول فى البلاغ عن الله . هذا البلاغ عن الله الذى بحث عنه العقل الفطرى وآمن أنه لا بد أن يكون موجودا ، لكنه لم يتعرف على أنه « الله » . إن الرسول هو الذى يبلغنا عن اسم الخالق ، وهو الذى يقدم لنا المنهج .

إذن فمجيء الرسل أمر منطقى تحتمه الفطرة ويحتمه العقل . ولذلك أنزل الحق النور العقدى ، أنزل ـ سبحانه ـ المنهج ليحمى المجتمع من الاضطراب ، ولذلك يقول الحق :

﴿ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ ﴾

(من الآية ٧١ سورة المؤمنون)

إذن فالدين جاء من الله ليتدخل فى الأمور التى تختلف فيها الأهواء ، فحسم الله النزاع بين الأهواء بأن انفرد سبحانه أن يشرع لنا تشريعا تلتقى فيه أهواؤنا ، ولذلك يقول صلى الله عليه وسلم : « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به »[1] .

أى أن تتحد الأهواء تحت مظلة تشريع واحد ؛ لأن كل إنسان إن انفرد بهواه ، لا بد أن نصطدم ، ولا نزال نكرر ونقول : إن خلافات البشر سواء أكانت على مستوى الأسرة أم الجماعة أم الأمة أم العالم ، جاءت من اختلاف الأهواء ، ولكن الأشياء التى لا دخل للأهواء فيها فالعالم متفق فيها تماما ، بدليل أننا قلنا : إن المعسكر الشرقى السابق والمعسكر الغربى الحالى اختلفا بسياستين نظريتين ، هذا يقول : « شيوعية » ؛ وهذا يقول : « رأس مالية » .

إنه لا يوجد معمل مادى كى ندخل فيه الشيوعية أو الرأسمالية ونرى ما ينفعنا . إنها أهواء ، لذلك تصادما فى أكثر من موقع ، وانهزمت الشيوعية وبقيت آثارها تدل

(١) اخرجه الديلمى .

عليها . لكن الأمور المادية المعملية . لم يختلفوا فيها . ونقول الكلمة المشهورة : « لا توجد كهرباء روسى ولا كهرباء أمريكانى » . « ولا توجد كيمياء روسى ولا كيمياء أمريكانى » ؛ فكل الأمور الخاضعة للتجربة والمعمل فيها اتفاق ، والخلاف فقط فيما تختلف وتصطدم فيه الأهواء .

فكأن الله ترك لنا ما فى الأرض لنتفاعل معه بعقولنا المخلوقة له ، وطاقاتنا وجوارحنا المخلوقة له ، ويوضح : إن التجربة المعملية المادية لن تفرقكم بل ستجتمعون عليها . وسيحاول كل فريق منكم أن يأخذ ما انتهى إليه الفريق الآخر من التجارب المادية ولو تلصصها ، ولو سرقها ، أما الذى يضركم ويضر مجتمعكم فهو الاختلاف فى الأهواء . وليت الأمر اقتصر على الاتفاق فى الماديات والاختلاف فى الأهواء ، لا ، بل جعلوا مما اتفقوا عليه من التجارب المادية والاختراعات والابتكارات وسيلة قهرية لفرض النظرية التى خضعت لأهوائهم . فكأننا أفسدنا المسألة . . أخذنا ما اتفقنا فيه لنفرض ما اختلفنا عليه .

إن الحق سبحانه وتعالى أعطانا كل هذه المسائل كى تستقيم الحياة ، ولا تستقيم الحياة إلا إن كان الحق سبحانه وتعالى هو الذى يحسم فى مسائل الهوى ، ولذلك حتى فى الريف يقولون : « من يقطع إصبعه الشرع لن يسيل منه دم » ؛ لأن الذى يقول ذلك مؤمن ، أى أن الحكم حين يأتى من أعلى فلا غضاضة فى أن نكون محكومين بمن خلقنا وخلق لنا الكون ، وتدخلت السماء فى مسألة الأهواء بالمنهج : افعل هذا ولا تفعل هذا ، لكن ما ليس فيه أهواء أوضح سبحانه : أنتم ستتفقون فيها غصبا عنكم ، بل ستسرقونها من بعضكم ، إذن فلا خطر منها .

إن الخطر فى أهوائكم . ولذلك اذكروا : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أمهات المسائل التى يترتب عليها حسن نظام المجتمع كما يريده الله كان ـ عليه الصلاة والسلام ـ يتحمل هو التجربة فى نفسه ، ولا يجعل واحداً من المؤمنين به يتحمل التجربة ، فمسألة التبنى حين أراد ربنا أن ينهيها حتى لا يدعى واحد آخر أنه ابنه وهو ليس أباه ، أنهاها الله فى رسوله صلى الله عليه وسلم :

﴿لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ﴾

(من الآية ٣٧ سورة الأحزاب)

وفى مسألة الماديات والأهواء يقول أنس بن مالك رضى الله عنه: إن النبى صلى الله عليه وسلم مر بقوم يلقحون فقال : « لو لم تفعلوا لصلح » قال : فخرج شيصا ، فمر عليهم فقال : « ما لنخلكم » قالوا : قلت كذا وكذا قال : « أنتم أعلم بأمر دنياكم »[1] . إنه - صلى الله عليه وسلم - تركهم لتجربتهم .

السماء - إذن - لا تتدخل فى المسائل التجريبية ؛ لأنه سبحانه وهب العقل ووهب المادة ووهب التجربة ، ورأينا رسول الله يتراجع عما اجتهد فيه بعد أن رأى غيره خيرا منه كى يثبت قضية هامة هى أن المسائل المادية المعملية الخاضعة للتجربة ليس للدين شأن بها فلا ندخلها فى شئوننا ، فلا نقول مثلاً : الأرض ليست كروية ، أو أن الأرض لا تدور . فما لهذا بهذا ؛ لأن الدين ليس له شأن بها أبداً ، وهذه مسائل خاضعة للتجربة وللمعمل وللبرهان وللنظرية ، بل دخل الدين ليحمينا من اختلاف أهوائنا ؛ فالأمر الذى نختلف فيه يقول فيه : افعل كذا ولا تفعل كذا بحسم ، والأمر الذى لم يتدخل فيه بـ« افعل ولا تفعل » أوضح لك : سواء فعلته أم لم تفعله لا يترتب عليه فساد فى الكون ، وخذوا راحتكم فيما لم يرد فيه « افعل ولا تفعل »، وأريحوا أنفسكم واختلفوا فيه ؛ لأن الخلاف البشرى مسألة فى الفطرة والجبلّة والخلقة .

وهنا يقول : « قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين » و« النور » أهو الكتاب أم غيره ؟. وفى آية أخرى يقول :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَـٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ ﴾

(سورة النساء)

وهذا القول يدل على أن النور هنا هو « القرآن » وجمع بين أمرين ؛ برهان . . أى معجزة ، ونور ينير لنا سبيلنا .

« فآمنوا بالله ورسوله والنور الذى أنزلنا » والإيمان بالله مسألة تطبيقية مرحلية . « الله » هو قمة الإيمان و« رسوله » هو المبلغ عن الله ؛ لأنه جاء لنا بالنور . إلا أن أهل الشطح يقولون : النور مقصود به النبىّ صلى الله عليه وسلم، ونقول: نحن لا نمانع

(١) رواه مسلم وأحمد وابن ماجه .

أنه نور ، وإن كان النص يحتمل أن يكون عطف تفسير ، وحتى لا ندخل فى متاهة مع بعض من يقولون : لا ليس الرسول نوراً ، لأنه مأخوذ من المادة وسنجد من يرد عليهم بحديث جابر : ما أول ما خلق الله يا رسول الله ؟ قال له : نور نبيك يا جابر .

فعن جابر بن عبدالله قال : قلت يا رسول الله بأبى أنت وأمى أخبرنى عن أول شيء خلقه الله تعالى قبل الأشياء . قال : « يا جابر إن الله خلق قبل الأشياء نور نبيّك من نوره فجعل ذلك النور يدور بالقدرة حيث شاء الله ولم يكن فى ذلك الوقت لوح ولا قلم ولا جنّة ولا نار ولا مَلَك ولا سماء ولا أرض ولا شمس ولا قمر ولا جنى ولا إنسى »[1] .

وحتى لا ندخل فى مسألة غيبية لا تستوى الأذهان فى استقبالها ونفتن بعضنا . ويقول فلان كذا ويقول علان كذا . هنا نقول:من تجلى له أن رسول الله نور ، نور ، نور ، فليعرفها هو ويلزمها . وليس من المفروض أن يقنع بها أحداً كى لا ندخل فى متاهة ، وعندما يتعرض أحد لحديث جابر ـ رضى الله عنه ـ نسأل : أهو قال : أول خلق الله نبيك يا جابر أم نور نبيك يا جابر ؟ . قال الحديث : نور نبيك ولم يقل النبى نفسه الذى هو من لحم ودم ، فمحمد صلى الله عليه وسلم من آدم وآدم من تراب ؛ لذلك ليس علينا أن نتناول المسائل التى لا يصل إليها إلا أهل الرياضات المتفوقة ، حتى لا تكون فتنة ؛ لأن من يقول لك : أنت تقول:النور هو رسول الله ، ونقول : على العين والرأس ، فرسول الله نور ولاشك ؛ لأن النور يعنى ألا نصطدم ، وجاء محمد صلى الله عيه وسلم بالمنهج كى ينير لنا الطريق ، والقرآن منهج نظامى ، والرسول منهج تطبيقى ، فإن أخذت النور كى لا نصطدم ، فالحق يقول :

﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾

(من الآية ٢١ سورة الأحزاب)

إذن فسنأخذ بالمنهج النظرى الذى هو القرآن ، ونأخذ بالمنهج التطبيقى .

« قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين » و« مبين » أى محيط بكل أمر وكل شيء مصداقاً لقوله الحق :

(١) رواه عبدالرزاق بسنده عن جابر وذكر فى كتاب كشف الخفا .

﴿ مَا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ﴾

(من الآية ٣٨ سورة الأنعام)

أى مما تختلف فيه أهواؤكم ، وسُئل الإمام محمد عبده ، وهو فى باريس : أنتم تقولون « ما فرطنا فى الكتاب من شيء » فكم رغيفاً فى أردب الدقيق ؟. فقال : انتظروا : واستدعى خبازاً وسأله : كم رغيفا فى أردب القمح ؟. فقال له : كذا رغيف . فقالوا له : أنت تقول إنه فى الكتاب . فقال لهم : الكتاب هو الذى قال لى :

﴿ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾

(من الآية ٤٣ سورة النحل)

إن قوله:« ما فرطنا فى الكتاب من شيء » أى مما تختلف فيه الأهواء أو تفسد فيه حركة الحياة فى الأرض . فربنا هو ـ سبحانه ـ جعل أناساً تتخصص فى الموضوعات المختلفة .

« قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين » يعنى : يا أهل الكتاب انتبهوا إلى أن هذه فرصتكم لنصفى مسألة العقيدة فى الأرض وننهى الخلاف الذى بين الدينين السابقين ونرجع إلى دين عام للناس جميعاً ، ولا تبقى فى الأرض هذه العصبية حتى تتساند الحركات الإنسانية ولا تتعاند ، ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الفتح)

انظر كيف يجمع الإسلام بين أمرين متناقضين : فلم يجىء الإسلام كى يطبع الإنسان ليكون شديداً ؛ لأن هناك مواقف شتى تتطلب الرحمة ، ولم يطبعه على الرحمة المطلقة لأن هناك مواقف تتطلب الشدة ، فلم يطبع الإنسان فى قالب ، ولكنه جعل المؤمن ينفعل للحدث .

ويقول الحق :

﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾

(من الآية ٥٤ سورة المائدة)

أى لا تقل إنّه طبع المؤمن على أن يكون ذليلاً ولا طبعه ليكون عزيزاً ، بل طبعه ليكيّف نفسه التكييف الذى يتطلبه المقام ، فيكون مرة ذليلاً للمؤمن وعزيزاً على الكافر . وقال الإسلام لنا :

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾

(من الآية ١٤٣ سورة البقرة)

أى لا بد أن تعرف الطرفين أولاً ، ثم تحدد ، لأن الوسط لا يعرف إلا بتحديد الطرفين ؛ فاليهودية بالغت فى المادية ، والنصرانية بالغت فى الروحانية والرهبانية :

﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا ﴾

(من الآية ٢٧ سورة الحديد)

وعندما سئل سيدنا عيسى عن مسألة ميراث قال : « أنا لم أبعث مورثاً » ؛ لأنه جاء ليجدد الشحنة للطاقة الدينية ، وبرغم الخلاف العميق بين اليهودية والنصرانية جاء أهل الفكر عندهم ليضعوا العهد القديم والعهد الجديد فى كتاب واحد ، ومع ذلك فقد جاء من اعتبر الإسلام خصماً عنيفاً عليهم على رغم أن الإسلام ليس خصماً إنما جاء ليمنح الناس حرية الاختيار ، وعندما ننظر إلى المنهج المادى والمنهج الروحانى نجد أن اليهود أسرفوا فى المادية وقالوا :

﴿ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً ﴾

(من الآية ٥٥ سورة البقرة)

لقد أسرفوا فى المادية لدرجة أن المسألة المتعلقة بقُوتِهم حينما كانوا فى التيه وأنزل ربنا عليهم المن والسلوى ، و« المن » كما نعرف طعام مثل كرات بيضاء ينزل من السماء على شجَر أو حجر ينعقد ويجف جفاف الصمغ وهو حلو يؤكل وطعمه يقرب من عسل النحل ، وجاء لهم الحق بالسلوى وهو طائر يشبه الدجاج وهو السُّمانى فقالوا :

﴿ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ ﴾

(من الآية ٦١ سورة البقرة)

إننا نريد مما تخرجه الأرض من بقلها ، والذى دعاهم إلى غلوهم فى الأمر المادى أنهم قالوا : قد لا يأتى المن ، وقد لا نستطيع صيد الطير ، نحن نريد أن نضمن

الطعام . إذن فالغيبيات بعيدة عنهم فهم قد أسرفوا فى هذه المادية وأراد الحق سبحانه وتعالى أن يعدل هذا النظام المادى المتطرف فأنزل منهجية روحانية متمثلة فى منهج عيسى عليه السلام ، وشحنهم بمواجيد دينية ليس فيها حكم مادى ، كى تلتحم هذه بتلك ويصير المنهج مستقيماً ، لكن الخلاف دب بينهم ، فكان ولا بد أن يأتى دين جديد يجمع المادية المتعقلة الرزينة المتأنية ، والروحانية المقسطة التى لا تفريط فيها ولا إفراط ، إنها الروحانية المتلقاة من السماء دون ابتداع دين يأتى بالاثنتين فى صلب دين واحد . فقال لنا :

﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الفتح)

وهذه كلها قيم تعبدية . فيكون هؤلاء ماديين وروحانيين فى آن واحد . ويتابع الحق :

﴿ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الفتح)

كأن الله ضرب فى التوراة مثلاً لأمة محمد صلى الله عليه وسلم : يا من أسرفتم فى المادية سيأتى رسول ليعدل ميزان العقائد والتشريع ، فتكون أمته مخالفة لكم تماماً . فأنتم ماديون وقوم محمد ركع سجد ، يبتغون فضلاً من الله ورضوانا سيماهم فى وجوههم من أثر السجود . أى : مافقدتموه أنتم فى منهجكم سيوجد فى أمة محمد . ويقول الحق :

﴿ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الفتح)

فمثلهم فى التوراة ما فُقد عند اليهود ؛ ومثلهم فى الإنجيل ما فُقد عند النصارى . إذن فدين محمد صلى الله عليه وسلم جمع بين القيم المادية والقيم الروحية فكان ديناً وسطاً بين الاثنين . فقال : « قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين » أى

انتهزوا الفرصة لتصححوا أخطاءكم ولتستأنفوا حياة صافية تربطكم بالسماء رباطاً يجمع بين دين قيمى يتطلب حركة الدنيا ويتطلب حركة الآخرة .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَـٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾ ﴾

ومادام الله هو الذى يهدى فسبحانه منزه عن الأهواء المتعلقة بهم ، وهكذا نضمن أن الإسلام ليس له هوى . لأن آفة من يشرع أن يذكر نفسه أو ما يحب فى ما يشرع ، فالمشرع يُشترط فيه ألا ينتفع بما يشرع ، ولا يوجد هذا الوصف إلا فى الله لأنه يشرع للجميع وهو فوق الجميع .

« قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ، يهدى به الله من اتبع رضوانه » إنَّ من اتبع رضوانه يهديه الله لسبل السلام ، إذن ففيه رضوان متبع ، وفيه سبل سلام كمكافأة . وهل السلام طرق وسبل ؟ . نعم ؛ لأن هناك سلام نفس مع نفسها ، وهناك سلام نفس مع أسرتها ، هناك سلام نفس مع جماعتها ، هناك سلام نفس مع أمتها وهناك سلام نفس مع العالم ، وسلام نفس مع الكون كله ، وهناك سلام نفس مع الله ، كل هذا يجمع السلام . إذن فسُبل السلام متعددة ، والسلام مع الله بأن تنزه ربك أيها العبد فلا تعبد معه إلهاً آخر ، ولا تلصق به أحدا آخر . . أى لا تشرك به شيئا ، أو لا تقل : لا يوجد إله .

ولذلك نجد الإسلام جاء بالوسط حتى فى العقيدة ؛ جاء بين ناس تقول : لا يوجد إله ، وهذا نفى ؛ وناس تقول : آلهة متعددة ؛ الشرُّ له إله ، والخير له إله ،

والظلمة لها إله ، والنور له إله ، والهواء له إله ، والأرض لها إله !!

إن الذين قالوا بالآلهة المتعددة : استندوا على الحس المادى ونسى كل منهم أن الإنسان مكون من مادة وروح ، وحين تخرج الروح يصبح الجثمان رمّة ؛ ولم يسأل أحدهم : نفسه ويقول : أين روحك التى تدير نفسك وجسمك كله هل تراها ؟، وأين هى ؟. أهى فى أنفك أم فى أذنك أم فى بطنك أين هى ؟، وما شكلها ؟. وما لونها ؟. وما طعمها ؟. أنت لم تدركها وهى موجودة . إذن فمخلوق لله فيك لا تدركه فهل فى إمكانك أن تدرك خالقه ؟. إن هذا هو الضلال . فلو أُدرِك إلهٌ لما صار إلهاً ؛ لأنك إن أدركت شيئاً قدرت على تحديده ببصرك ، ومادام قد قدرت على تحديده يكون بصرك قد قدر عليه ، ولا ينقلب القادر الأعلى مقدوراً للأدنى أبداً .

وحينما أراد الله أن يدلل على هذه الحكاية قال :

﴿ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾

(سورة الذاريات)

انظر فى نفسك تجد روحك التى تدير جسدك لا تراها ولا تسمعها ومع ذلك فهى موجودة فيك ، فإن تخلت عنك صرت رمة وجيفة، فمخلوق لله فيك لا تقدر أن تدركه ، أبعد ذلك تريد أن تردك مَنْ خَلَقَ ؟ إن هذا كلام ليس له طعم ! والاتجاه الآخر يقول بآلهة متعددة ؛ لأن هذا الكون واسع ، وكل شىء فيه يحتاج إلى إله بمفرده ، فيأتى الإسلام بالأمر الحق ويقول : هناك إله واحد ؛ لأنه إن كان هناك آلهة متعددة كما تقولون ، فيكون هناك مثلا . إله للشمس وإله للسماء وإله للأرض وإله للماء وإله للهواء ، حينئذ يكون كل إله من هذه الآلهة عاجزا عن أن يدير ويقوم على أمر آخر غير ما هو إله وقائم عليه ولنشأ بينهم خلاف وشقاق يوضح ذلك قوله تعالى :

﴿ لَذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾

(من الآية ٩١ سورة المؤمنون)

فإله الشمس قد يفصلها عن الكون ، وإله الماء قد يمنعه عن بقية الكائنات ، ويحسم الحق الأمر فيقول :

﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْاْ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

ويقول سبحانه : (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا) .

إذن فالنواميس التى تراها أيضاً محكومة بالإله الواحد ، ويأتى الرسول ليقول لك : هناك إله واحد ، ويبلغنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا إله إلا الله ، و« لا إله » نفت أنه لا آلهة أبداً . وبعدها قال : إلا الله ، وهذه من مصلحة الإنسان حتى لا يكون ذليلاً وخاضعاً وعبداً لإله الشمس أو لإله الهواء أو لإله الماء . وقال الحق :

﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الزمر)

فربنا يريد أن يريحنا من « الخيْلة » ، والوهم والاضطراب والتردد . . إنه إله واحد ، وعندما يحكم الله حكماً فلا أحد يناقضه ، وسبحانه يهدينا بما يشرعه لنا ؛ لأنه سبحانه ليس له هوى فيما يشرع ؛ لأن معنى الهوى أن تجعل الحركة التى تريدها خادمة لك فى شيء ، والله لا يحتاج إلى أحد لأنه خلق الوجود كله قبل أن يخلق الخلق ، وليس لأحد ممن خلق ـ مهما أوتى من العلم ورجاحة العقل أن تكون له قدرة أو أى دخل فى عملية الخلق أو تنظيمه .

« يهدى به الله من اتبع رضوانه » ، مادام قد اتبع رضوانه فيهديه إلى سبل السلام ، إذن فإن هناك هدايتين اثنتين : يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ، وقال فى آية أخرى :

﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾ ﴾

(سورة محمد)

فإياك أن تظن أن التقوى لن تنال ثوابها وجزاءها إلا فى الآخرة ؛ لأنه كلما فعلت أمراً وتلتفت وجدت آثاره فى نفسك ، تصلى تجد أمورك خفّت عن نفسك ، فلا ترتكب السيئة فى غفلة من الناس ، قلبك لا يكون مشغولاً بأى شيء ، ويحيا

المؤمن فى سلام مع نفسه أبداً . إذن فسبل السلام متعددة : سبل السلام مع الله ، سبل السلام مع الكون كله ، سبل السلام مع مجتمعه ، سبل السلام مع أسرته ، سبل السلام مع نفسه .

ويقول الحق :

﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾

(من الآية ١٥٣ سورة الأنعام)

إذن فهناك سبل سلام وسبل ضلال .

وفى هذه الآية يقول الحق : « ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم » ، والظلمات هى محل الاصطدام ، وعندما يخرجهم من الظلمات إلى النور يرون الطريق الصحيح الموصل إلى الخير ، والطريق الموصل إلى غير الخير . وبعدما يخرجون من الظلمات إلى النور تكون حركاتهم متساندة وليست متعاندة ، ولا يوجد صدام ولا شيء يورثهم بغضاء وشحناء ، أو المراد أنّه يهديهم إلى الصراط المستقيم وهو الجنة .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ ﴾

وقال سبحانه من قبل :

﴿ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ ﴾

(من الآية ١٤ سورة المائدة)

فمن اتبعوا اليعقوبية قالوا شيئاً ، والنصرانية قالت شيئاً ، والملكانية قالت شيئاً ثالثاً ، فجاء بالقمة : « لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم » .

ويأتى قوله سبحانه : « قل » ، رداً عليهم : « فمن يملك من الله شيئاً » أى من يمنع قدر الله أن ينزل بمن جعلتموه إلهاً « إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن فى الأرض جميعاً » .

لقد زعموا أن الله هو المسيح عيسى ابن مريم وفى هذا اجتراء على مقام الألوهية المنزهة عن التشبيه وعن الحلول فى أى شىء . وفى هذا القول الكريم بلاغ لهؤلاء أن أحداً لا يستطيع أن يمنع إهلاك الله لعيسى وأمه وجميع من فى الأرض . فهو الحق الملك الخالق للسموات والأرض . وما بينهما يخلق ما يشاء كما يريد . فإن كان قد خلق المسيح دون أب ؛ فقد جاءنا البلاغ من قبل بأنه سبحانه خلق آدم بدون أب ولا أم ، وخلق حواء دون أم ، جلت عظمته وقدرته لا يعجزه شىء . إن عيسى عليه السلام من البشر قابل للفناء ككل البشر .

« ولله ملك السموات والأرض وما بينهما يخلق ما يشاء » جاء الحق هنا بالسماء كنوع علوى والأرض كنوع سفلى ، وقوله : « يخلق ما يشاء » يرد على الشبهة بإيجاز دقيق : « يخلق ما يشاء » ؛ لأن الفتنة جاءت من ناحية أن عيسى عليه السلام مُيّز فى طريقة خلقه بشىء لم يكن فى عامة الناس ؛ فأوضح الحق : لا تظنوا أن الخلق الذى أخلقه يشترط علىّ أن تكون هناك ذكورة وأنوثة ولقاح ، هذا فى العرف العام الذى يفترض وجود ذكورة وأنوثة ، وإلا لكان يجب أن تكون الفتنة قبل عيسى فى آدم ؛ لأنه خلق من غير أب ولا أم . إذن فالذى يريد أن يفتتن بأنه من أم دون أب ، كان يجب أن يفتتن فى آدم لأنه لا أب له ولا أم . ويوضح لهم : الله يخلق ما يشاء فلا يتحتم أو يلزم أن يكون من زوجين أو من ذكر فقط أو من أنثى فقط .

إن ربنا سبحانه وتعالى له طلاقة القدرة فى أن يخلق ما يشاء ، وقد أدار خلقه على

القسمة العقلية المنطقية الأربعة : إما أن يكون من أب وأم مثلنا جميعاً ، وإما أن يكون بعدمهما مثل آدم ، وإما أن يكون بالذكر دون الأنثى كحواء ، وإما أن يكون بالأنثى دون الذكر كعيسى عليه السلام ، فأدار الله الخلق على القواعد المنطقية الأربعة كي لا تفهم أن ربنا يريد مواصفات خاصة كي يخلق بل هو يخلق ما يشاء . والدليل على ذلك أن الزوجين يكونان موجودين مع بعضهما ومع ذلك لا يُنْجَبُ منهما ، فهل هناك اكتمال أكثر من هذا ؟!

﴿ لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ﴾

(سورة الشورى)

إذن فالمسألة ألا يُفرض على ربنا عناصر تكوين ، لا ، بل هي إرادة مُكوِّن لا عنصرية مَكوَّن . إنه « يخلق ما يشاء » ، ومشيئته مطلقة وقدرته عامة . ولذلك لا بد أن يأتي القول : « والله على كل شيء قدير » .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ ﴾

وهل كل اليهود قالوا : نحن أبناء الله ؟ هل كل النصارى قالوا : نحن أبناء الله ؟ لا . فبعض من اليهود قال : إن عزيراً ابن الله وبعض النصارى قالوا : إن

عيسى ابن الله ، وجاء مسيلمة الكذاب وادّعى النبوة ، وكان كل أهل مسيلمة يقولون : نحن الأنبياء ، أى منا الأنبياء حتى أنصار سيدنا عبدالله بن الزبيرأبى خبيب، قال أنصاره : نحن الخبيبيون أى نحن أتباع ابن الزبير الذى هو أبو خبيب، فكانوا ينسبون لأنفسهم ما لغيرهم . فمعنى « نحن أبناء الله » يعنى : نحن أشياع العزير ، الذى هو ابن الله ؛ ونحن أشياع عيسى الذى هو ابن الله . هذه نأخذ لها دليلاً من القرآن ، نعرف قصة مؤمن آل فرعون :

﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَـٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَـٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَـٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾

(سورة غافر)

والقوم جماعة . بالله أكان القوم كلهم ملوكا ؟ . لا ، فالذى كان ملكاً هو فرعون فقط . لكن مادام فرعون هو الملك ، فيكون كل الذين كانوا أتباعا وأنصارا له ومن شيعته ملوكا لأنهم يعيشون فى كنف ورعاية الملك . وأيضاً قال لليهود : « وجعلكم ملوكاً » ، ولذلك عندما أرادوا أن يحددوا معنى « ملك » قالوا : إن « الملك » هو الرجل الذى عنده دار واسعة وفيها ماء يجرى ، وواحد آخر قال : « الملك » هو الذى يكون عنده حياة رتيبة وعنده من يخدمه ولا ينشغل بخدمة نفسه فى بيته ، وفى الخارج يخدم نفسه . وقال آخر : من عنده مال لا يحوجه للعمل الشاق ، فهو ملك ، ولذلك قال سيدنا الشيخ عبدالجليل عيسى فى هذه المسألة : لا تستعجبوا ذلك فالأميون ينطقون وبلسانهم يقولون : هذا ملك زمانه ، أى رجل مرتاح لا يعمل أعمالا شاقة وعنده النقود يصرفها كما يريد . إذن فأبناء الله يعنى ليس

كلهم أبناءه ، ولذلك قال الله لرسوله صلى الله عليه وسلم : « قل » رداً عليهم : « فَلِمَ يعذبكم بذنوبكم بل أنتم بشر ممن خلق » ، وستدخلون فى مشيئة المغفرة .

« يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء » ، ولن تخرجوا عن المشيئة الغافرة أو المشيئة

المعذبة ، «ولله ملك السموات والأرض وما بينهما وإليه المصير» .

ويقول الحق تصفية للمسألة العقدية فى الأرض :

﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ عَلَىٰ فَتۡرَةٖ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٖ وَلَا نَذِيرٖۖ فَقَدۡ جَآءَكُم بَشِيرٞ وَنَذِيرٞۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٩ ﴾

ورسولنا هو محمد صلى عليه وسلم ويبين لكم ـ يا أهل الكتاب ـ ما اختلفتم فيه أولاً وما يجب أن تلتقوا عليه ثانياً ، وما زاده الإسلام من منهج فإنّما جاء به ليناسب أقضية الحياة التى يواجهها إلى أن تقوم الساعة . وقد جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم على فترة من الرسل ، ومعنى الفترة : الانقطاع . وفترة من الرسل أى على زمن انقطعت فيه الرسالات ، وهى الفترة التى بينه صلى الله عليه وسلم وبين أخيه عيسى عليه السلام ، وقام الناس بحسابها فقال بعضهم : إنها ستمائة سنة وقال البعض : خمسمائة وستون عاماً . ولا يهمنا عدد السنين ، إنما الذى يهمنا هو وجود فترة انقطعت فيها الرسل ، اللهم إلا ما كان من قول الحق سبحانه :

﴿ وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلًا أَصۡحَٰبَ ٱلۡقَرۡيَةِ إِذۡ جَآءَهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ ١٣ إِذۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمُ ٱثۡنَيۡنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزۡنَا بِثَالِثٖ فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيۡكُم مُّرۡسَلُونَ ١٤ قَالُواْ مَآ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَكۡذِبُونَ ١٥ قَالُواْ رَبُّنَا يَعۡلَمُ إِنَّآ إِلَيۡكُمۡ لَمُرۡسَلُونَ ١٦ ﴾

(سورة يس)

هؤلاء المرسلون أهم مرسلون من قبل الله بين عيسى وبين محمد صلى الله عليه

وسلم ؟. أم هم مرسلون من قبل عيسى عليه السلام إلى أهل أنطاكية ؟. وقد كفر الناس أولاً بهذين الرسولين ، فعززهم الحق بثالث .

وقال الناس لهم :

﴿ قَالُواْ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ ﴾

(سورة يس)

وهنا قال الرسل :

﴿ قَالُواْ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾

(سورة يس)

فما الفرق بين « إنا إليكم مرسلون » وبين « ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون » ؟. إن الأخبار دائماً تُلقى من المتكلم للسامع لتعطيه خبراً ، فإن كان السامع خالى الذهن من الخبر ، أُلقى إليه الكلام بدون تأكيد . وأما إن كان عنده شبه إنكار ، ألقى إليه الكلام بتأكيد على قدر إنكاره . فإن زاد فى لجاج الإنكار يزيد له التأكيد . فأصحاب القرية أرسل الله إليهم اثنين فكذبوهما ، فعززهما بثالث ، وهذا تعزيز رسالى ، فبعد أن كانا رسولين زادهما الله ثالثاً ، وقال الثلاثة :

﴿ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴾

(من الآية ١٤ سورة يس)

صحيح ثمة تأكيد هنا . لأن الجملة إسمية ، وسبقتها « إنّ » المؤكدة ؛ فلما كذبوهم وقالوا لهم: «ماأنتم إلا بشر مثلنا وماأنزل الرحمن من شيء» وكان هذا لجاجاً منهم فى الإنكار فماذا يكون موقف الرسل ؟ أيقولون : « إنا إليكم مرسلون » كما قيل أولاً ؟. لا . إن الإنكار هنا ممعن فى اللجاجة والشدة ، فيأتى الحق بتأكيد أقوى على ألسنة الرسل :

(ربنا يعلم) .

وذلك القول فى حكم القسم ؛ هذا هو التأكيد الأول ، والتأكيد الثانى :

(إنا إليكم لمرسلون) .

وكما نعلم فـ « إن » هنا مؤكِدّة ، واللام التي في أول قوله : « لمرسلون » لزيادة التأكيد . وحين تأتي كلمة تدور على معانٍ متعددة ، فالمعنى الجامع هو المعنى الأصلي ، وكذلك كلمة « فترة » ، فالفترة هي الانقطاع . فإن قلت مثلاً : ماء فاتر أي ماء انقطعت برودته ، فالماء مشروط فيه البرودة حتى يروى العطش . وعندما يقال : ماء فاتر أي ماء فتر عن برودته ، ولذلك يكون قولنا : « ماء فاتر » أي ماء دافىء قليلاً ؛ أي ماء انقطعت عنه البرودة المرغبة فيه .

ويقال أيضاً في وصف المرأة : في جفنها فتور أي أنها تغض الطرف ولاتحملق بعينيها باجتراء . بل منخفضة النظرة . إذن فالفترة هي الانقطاع . ولقد انقطعت مدة من الزمن وَخَلَتْ من الوحي ومن الرسل . وكان مقتضى هذا أن يطول عهد الغفلة ، ويطول عهد انطماس المنهج ، ويعيش أهل الخير في ظمأ وشوق لمجيء منهج جديد ، فكان من الواجب ـ مادام قد جاء رسول ـ أن يرهف الناس آذانهم لما جاء به ، فيوضح الحق أنه أرسل رسولاً جاء على فترة ، فإن كنتم أهل خير فمن الواجب أن تلتمسوا ما جاء به من منهج ، وأن ترهفوا آذانكم إلى ما يجيء به الرسول صلى الله عليه وسلم لسماع مهمته ورسالته .

وقد أرسل الله إليهم الرسول على فترة حتى يقطع عنهم الحجة والعذر فلا يقولوا : « ما جاءنا من بشير ولا نذير » فقد جاءهم ـ إذن ـ بشير وجاءهم نذير . والبشير هو المعلم أو المخبر بخير يأتي زمانه بعد الإخبار . ومادام القادم بشيراً فهو يشجع الناس على أن يرغبوا في منهج الله ليأخذوا الخير . ولا بد من وجود فترة زمنية يمارس فيها الناس المنهج ، ولا بد أيضاً أن توجد فترة ليمارس من لم يأخذوا المنهج كل ما هو خارج عن المنهج ليأتي لهم الشر .

مثال ذلك قول الأستاذ : بَشِّرْ الذي يذاكر بأنه ينجح . وعند ذلك يذاكر من الطلاب من يرغب في النجاح ، أي لابد من وجود فترة حتى يحقق ما يوصله إلى ما يبشر به . وكذلك النذارة لا بد لها من فترة حتى يتجنب الإنسان ما يأتي بالشر .

« قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير » . ومجيء « أن تقولوا » إيضاح بأنه لا توجد فرصة للتعلل بقول: « ما جاءنا من بشير ولا نذير » .

ويقول الحق : « فقد جاءكم بشير ونذير والله على كل شيء قدير » وسبحانه وتعالى القدير أبداً . فقد جعل الخلق يطرأون على كون منظم بحكمة وبكل وسائل الخير والحياة على أحسن نظام قبل أن يطرأ هؤلاء الخلق على هذا الكون ، فإذا ما طرأ الخلق على هذا الخير ، أيتركهم الخالق بدون هداية ؟ . لا . فسبحانه قد قدر على أن يُوجد خلقه كلهم ، ويعطى لهم ما يحفظ لهم حياتهم ويحفظ لهم نوعهم .

ألا يعطى الحق الخلق إذن ما يحفظ لهم قيمهم ؟ .

إنه قادر على أن يعطى رزق القوت ورزق المبادىء والقيم وأن يوفى خلقه رزقهم فى كل عطاء . وإرسال الرسل من جملة عطاءات الحق لعلاج القيم . ثم يرجع ثانية إلى قوم موسى ولكنه فى هذه المرة يجعل المتكلم رسولهم :

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾

وساعة تسمع « إذ » فاعلم أنها ظرفية تعنى « حين » كأن الحق يقول : اذكر حين قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم . ويقول الحق لرسوله ذلك لأن هذا اللون من الذكر يعين الرسول صلى الله عليه وسلم على تحمل ما يتعرض له فى أمر الدعوة والرسالة سواء من ملاحدة أو من أهل كتاب .

إن الحق حينما قال : « وإذ قال موسى لقومه » أى اذكر يا محمد ، أو أذكر يا من تتبع محمداً ، أو اذكر يا من تقرأ القرآن إذ قال موسى لقومه : يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم . ولا يقول موسى لقومه : « يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم » إلا إذا كان قد رأى منهم عملاً لا يتناسب مع النعم التى أنعم الله بها عليهم ، وذلك ـ ولله المثل الأعلى ـ كما يقول الواحد منا لولد عاق : اذكر ما فعله والدك معك . ولا يقولن

الواحد منا ذلك إلا وقد بدرت من الابن بوادر لا تتناسب مع مقدمات النعم ومقدمات الفضل عليه . فكأن قوم موسى قد أرهقوه وتحمل منهم الكثير ؛ لدرجة أنه قال لهم على سبيل الزجر ما قد يجعلهم يفيقون وينتبهون ويفطنون إلى ذكر نعمة الله عليهم ، ومعنى ذكرالنعمة هو الاستماع إلى منهج الله وتنفيذ أوامر الحق واجتناب النواهي .

« وإذ قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم » وعرفنا أن « النعمة » يقصد بها الجنس والمراد بها النعم كلها، أو كأن كل نعمة على انفرادها خليقة وجديرة أن تُذكر وتُشكر ، والدليل على أن النعمة يراد بها كل النعم أن الله قال :

﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾

(من الآية ٣٤ سورة إبراهيم)

ومادام عدّ النعمة لا نستطيع معه أن نعرف إحصاءها ؛ فهي نعم متعددة . إذن فالمراد بالنعمة كل النعم لأنها اسم جنس .

« وإذ قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم » وذكر النعمة يؤدي إلى شكر المنعم ويؤدي أيضاً إلى الاستحياء من أن نعصي من أنعم ، ويجعلنا نستحي أن نأخذ نعمته لتكون معينا لنا على معصيته . « اذكروا نعمة الله عليكم » وهي نعم كثيرة تمتعوا بها ، ألم يفلق الحقُّ لهم البحرَ :

﴿ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ﴾

(من الآية ٦٣ سورة الشعراء)

وبعد أن ضرب الماء بالعصا :

﴿ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴾

(من الآية ٦٣ سورة الشعراء)

فقد صار الماء السائل جبالاً . وضرب لهم الحجر ؛ بأمر الله فانفجرت منه المياه :

﴿ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ﴾

(من الآية ٦٠ سورة البقرة)

إنها عجائب كثيرة تتجلى فيها قدرة الخالق الأعظم ، وتبين القدرة مجالات تصرفها ، فقد ضرب موسى البحر فصار كل فرق كالطود العظيم ، وكأن الماء صار صخرا . وضرب موسى الصخر فتفجرت المياه . إنها عجائب القدرة . ألم يظللكم بالغمام ؟ ألم ينزل عليكم فى التيه المن والسلوى ؟ وكل هذه النعم ألا تستحق الذكر لله والشكر لله والاستحياء من أن تعصوه أو أن ترهقوا الرسول الذى جاء لهدايتكم ؟

إن كل هذه النعم تستحق الشكر ، والشكر ذكر . « اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكاً » وكلما أدركتهم غفلة فإن الحق يرسل لهم نبياً كأسوة سلوكية . ولم يغضب عليهم ولم يقل : أرسلت لهم رسولا واثنين وثلاثة وأربعة . ولم يهتدوا ، بل كلما عصوا الله واستعصت داءاتهم أرسل لهم رسولا ، مثلهم فى ذلك مثل المريض الذى لا يضن عليه عائله بطبيب أو بطبيبين أو ثلاثة أو أربعة ، بل كلما لاحظ عائله شيئا فإنه يرسل له طبيباً . وفى ذلك امتنان ؛ لأن الله أرسل إليهم كثيراً من الرسل . وكان عليهم أن يعلموا أن داءاتهم قد كثرت وصار مرضهم مستعصيا ؛ لأنه لو لم يكن المرض مستعصيا ؛ لما كانوا فى حاجة إلى هذه الكثرة من الأطباء والأنبياء . ومع ذلك رحمهم الله وكلما زاد داؤهم أرسل لهم نبيا .

ولم يكتف الحق بأن جعل فيهم أنبياء ؛ بل قال : « وجعلكم ملوكا » وليس معنى ذلك أنهم كلهم صاروا ملوكاً ؛ ولكن كان منهم الملوك . « والملك » كلمة أخذت اصطلاحاً سياسياً ، فكل إنسان مالك ما فى حوزته ؛ مالك لثوبه ، أو مالك اللقمة التى يأكلها ، أو مالك البيت الذى ينام فيه ، لكن المَلِك هو الذى يملك وَيْملِك مَن مَلك .

إذن فكل واحد عنده القدرة أن يملك شيئاً ويملك مَن مَلَك يكون مَلِكاً ، فرجل عنده رُعيان يقومون برعى القطعان من الماشية التى يملكها ، وعنده أناس يخدمون فى المنزل وأناس يعملون فى المزرعة ، وعنده أكثر من سائق ، وعنده أناس كثيرون يأتمرون بأمره ولا يدخلون عليه إلا بإذنه ولا يتكلف فى لقائهم أى حرج أو مشقة ، هذا الرجل لا بد أن يكون ملكاً . إذن فقد أعطاهم الحق نعمة وفيرة .

والنبى صلى الله عليه وسلم يحدد الملكية الواسعة التى تحدد الفرد تحديداً إيمانياً

فقال : « من أصبح منكم آمنا فى سربه معافًى فى جسده ، عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها »[١] .

ومادام قد حيزت له الدنيا بحذافيرها بهذه الأشياء فهو ملك . وقد أعطاهم هذه المسائل أى جعلهم ملوكاً . « وآتاكم ما لم يؤت أحداً من العالمين » أى أنه سبحانه أعطاهم ما لم يعطه لأحد مِمّن حولهم ؛ ووالى عليهم ذلك العطاء ، ألم يعط ـ سبحانه ـ نبى الله سيدنا سليمان وهو من بنى إسرائيل مُلْكاً لا ينبغى لأحد من بعده ؟ تلك الواقعة لم يقلها موسى عليه السلام لأنها حدثت من بعد موسى بأحد عشر جيلاً .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ ﴾

وهذا بلاغ من موسى بما أوحى الله به إليه ، ومتى حدث ذلك ؟ نعرف أن صلة بنى إسرائيل بمصر كانت منذ أيام يوسف عليه السلام ، وعندما جاء يوسف بأبيه وإخوته وعاشوا بمصر وكونوا شيعة بنى إسرائيل ، ومكن الله ليوسف فى الأرض وعاشوا فى تلك الفترة . والعجيب أن المس القرآنى للأحداث التاريخية فيه دقة متناهية ، ولم نعرف نحن تلك الأحداث إلا بعد مجىء الحملة الفرنسية إلى مصر . فعندما جاءت تلك الحملة صحبت معها بعثة علمية . وكانت تلك البعثة تنقب عن المعلومات الأثرية ليتعرفوا على سر حضارة المصريين ، وسر تقدم العرب القديم ، الذى سبق أوربا بقرون ، وأخذت منه أوربا العلوم والفنون ، فى حين صار هذا العالم العربى إلى غفلة .

إن العرب المسلمين هم الذين اخترعوا أشياء ذهل لها العالم الغربى ، ويحكى لنا

---

(١) أخرجه الترمذى .

التاريخ عن هدية من أحد ملوك العرب إلى شارلمان ملك فرنسا وكانت الساعة دقاقة ، وظن الناس من أهل فرنسا أن بهذه الساعة الدقاقة شيطانا . وفكرة تلك الساعة أن العالم الذى صممها وضع فيها إناء من الماء به ثقب صغير تنزل منه القطرة بثقلها على شيء يشبه عقرب الساعة ، فتتحرك الساعة دقيقة واحدة من الزمن . وكانت الساعة تسير بنقطة الماء . وكان ضبطها فى منتهى الدقة . وحين رآها الناس فى بلاط شارلمان ملك فرنسا ظنوا أن بداخلها شياطين . وهذا نموذج من نماذج كثيرة لا حصر لها ولا عدد تدخل فى نطاق قوله الحق :

﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾

(من الآية ٥٣ سورة فصلت)

وحينما جاء الفرنسيون إلى القاهرة كان معهم تلك البعثة العلمية ومعهم مطبعة ، وعرض هؤلاء العلماء الفانوس السحرى ، وجعلوا الناس البسطاء يذهلون من تقدمهم العلمى . واستترت تلك الحملة بعروض أقرب إلى « الأكروبات » . وكان عمل العلماء هو البحث عن سر حضارة المصريين والمسلمين ؛ لأنهم يعلمون أن الحضارة الإسلامية انتقلت إلى مصر بالإضافة إلى حضارة المصريين القدماء .

لقد كانوا يعرضون ألعابهم السحرية العلمية بدرب الجماميز ، وذلك حتى ينبهر الناس بالحضارة الفرنسية . وكان علماؤهم فى الوقت نفسه يكتشفون ما نقش على حجر رشيد ، وهو الحجر الذى اكتشفه ضابط فرنسى شاب اسمه شامبليون ، وعلى هذا الحجر كتبت الكلمات الهيروغليفية . واستطاع شامبليون أن يفصل أسماء الأعلام الهيروغليفية ومن خلال ذلك استطاع أن يصل إلى أبجدية تلك اللغة . وكأن الله أراد أن يسخر الكافرين بمنهج الله ليؤيدوا منهج الله .

إن فى كل لغة شيئا اسمه « منطق الأعلَام » ومثال ذلك أن يوجد اسم رجل أو أمير أو إنسان ، فهذا الاسم مكون من حروف لا تتغير ، مثال ذلك نأخذه من اللغة الإنجليزية ؛ كان اسم رئيس وزراء انجلترا فى وقت من الأوقات هو « تشرشل » هى كلمة إذا ترجمناها ترجمة حرفية لم تدل على صاحبها ولم تعرفنا به لأننا عندما نترجمها نكتفى بكتابة الاسم بالحروف العربية بدلاً من اللاتينية .

إذن فالأعْلَام لا يتغير نطقها .

وكشف شامبليون عن الحروف التى لم تتغير . واهتدى إلى فك طلاسم حروف اللغة الهيروغليفية ؛ فعرف كيف يقرأ المكتوب على حجر رشيد ، واستطاع أن يقدم لنا بدايات اكتشاف تاريخ مصر القديمة . واستطاع أن يقرأ اللغة المرسومة على ذلك الحجر .

ولنا أن نرى عظمة القرآن حينما تعرض للأقدمين . . تعرّض لعادٍ وتعرَّض لثمود وتعرض لفرعون . تعرض لتلك الحضارات كلها فى سورة الفجر ، فقال سبحانه وتعالى :

﴿ وَٱلْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ۝٣ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ۝٤ هَلْ فِى ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ ۝٥ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧ ﴾

(سورة الفجر)

وإرم ذات العماد هى التى فى الأحقاف ـ فى الجزيرة العربية ـ ولم نكتشفها بعد ، ولم نعرف عنها حتى الآن شيئاً ، وهى التى يقول عنها الحق :

﴿ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ ۝٨ ﴾

(سورة الفجر)

ثم يتكلم بعدها عن فرعون :

﴿ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ۝١٠ ﴾

(سورة الفجر)

والأهرام أقيمت بالفعل على أوتاد ، وكذلك المسلات المصرية القديمة والمعابد . وغيرها من العجائب التى بهرت الناس فى مختلف العصور .

﴿ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ ۝٨ ﴾

(سورة الفجر)

ثم جاء بحضارة ثمود .

﴿ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ۝٩ ﴾

(سورة الفجر)

وقد رأينا هذه الحضارة التى كان الناس أثناءها ينحتون البيوت فى الصخر ، كما رأينا حضارة مصر . وحضارة عاد هى التى لم نرها حتى الآن ؛ ولا بد أن تكون مطمورة تحت الأرض . ونعرف أن الهبة الرملية الواحدة عندما تهب فى تلك المناطق تطمر القافلة كلها ، فما بالنا بالقرون الطويلة التى مرت وهبت فيها آلاف العواصف الرملية ، إذن لا بد أن ننقب كثيراً لنكتشف حضارة عاد . والحق تكلم عن حضارة مصر القديمة فقال : (وفرعون ذى الأوتاد) ، وعندما تكلم عن موسى عليه السلام ، تكلم ـ أيضاً ـ عن المعاصرين له وكان أحد هؤلاء الفراعنة ، فقال سبحانه لموسى ولأخيه هارون عليهما السلام :

﴿ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ ﴾

(سورة طه)

ويذهب موسى إلى فرعون حتى يخلص بنى إسرائيل من ظلم فرعون . ولماذا ظلمهم فرعون ؟ نحن نعرف أن كل سياسة تعقب سياسة سابقة عليها تحاول أن تطمس السياسة الأولى ، وتعذب من نصروا السياسة الأولى ، وتلك قضية واضحة فى الكون . وهذا ما يتضح لنا من سيرة سيدنا يوسف الذى صار وزيراً للعزيز ودعا أباه وأمه وشيعته إلى مصر ، ولم تأت سيرة فرعون فى سورة يوسف .

وعندما تكلم القرآن على رأس الدولة فى أيام يوسف قال :

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ ﴾

(من الآية ٥٤ سورة يوسف)

لم يقل الحق : « فرعون » على الرغم من أنه قال قبل ذلك عنه إنه : « فرعون » وأيام موسى ذكر فرعون ، لكن فى أيام يوسف لم يأت بسيرة فرعون إنما جاء بسيرة مَلِك . وعندما جاء اكتشاف حجر رشيد ، ظهر لنا أن فترة وجود يوسف عليه السلام فى مصر هى فترة ملوك الرعاة أى الهكسوس الذين غَزَوْا مصر وأخذوا الـمُلْكَ من المصريين وحكموهم وصاروا ملوكاً ، وسمى عصرهم بعصر الملوك .

وقال القرآن : (وقال الملك ائتونى به) . ولم يأت بذكر لفرعون . وعندما استرد الفراعنة ملكهم وطردوا ملوك الرعاة ، استبد الفراعنة بمن كانوا يخدمون الملوك وهم بنو إسرائيل . هكذا تتأكد دقة القرآن عندما ذكر فرعون لأنه كان الحاكم أيام موسى ، لكن فى زمن يوسف سمى حاكم مصر باسم الملك . وتلك أمور لم نعرفها

إلا حديثاً . ولكن القرآن عرفنا ذلك . وكانت تحتاج إلى استنباط . وهى تدخل ضمن الآيات التى لا حصر لها فى قوله الحق :

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْآفَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ ﴾

(من الآية ٥٣ سورة فصلت)

فسبحانه وتعالى بعد أن أيد موسى بالآيات وأغرق فرعون ، هنا قال لهم موسى :

﴿ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ ﴾

(سورة المائدة)

فقد انتهت المهمة بتخليص بنى إسرايل من فرعون ، وخلصوا أهل مصر من فرعون . وكانت الدعوة لدخول الأرض المقدسة . وكلمة الأرض إذا أطلقت صارت علماً على الكرة الجامعة . ووردت كلمة « الأرض » فى قصة بنى إسرائيل فى مواضع متعددة لمواقع متعددة .

فها هو ذا قول الله فى آخر سورة الإسراء :

﴿ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ ﴾

(من الآية ١٠٤ سورة الإسراء)

فهل هناك سكن إلا الأرض ؟ إن أحداً لا يقول : اسكن كذا إلا إذا حدد مكاناً من الأرض ؛ لأن السكن بالقطع سيكون فى الأرض ، فكيف يأتى القول : « اسكنوا الأرض » ؟ والشائع أن يقال : اسكن المكان الفلانى من المدن ، مثل : المنصورة أو أريحا ، أو القدس . وقوله الحق : « اسكنوا الأرض » هو لفتة قرآنية ، ومادام الحق لم يحدد من الأرض مسكوناً خاصاً ، فكأنه قال : ذوبوا فى الأرض فليس لكم وطن ، وانساحوا فى الأرض فليس لكم وطن ، أى لا توطن لكم أبداً ، وستسيحون فى الأرض مقطعين ، وقال سبحانه :

﴿ وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ﴾

(من الآية ١٦٨ سورة الأعراف)

وحين يأتى القرآن بقضية قرآنية فلنبحث أأيدتها القضايا الكونية أم عارضتها ؟ القضية القرآنية هنا هى تقطيع بنى إسرائيل فى الأرض أمما ، أى تفريقهم وتشتيتهم ولم يقل القرآن : « أذبناهم » بل قال : « قطعناهم » وتفيد أنه جعل بينهم أوصالاً ولكنهم مفرقون فى البلاد. وعندما نراهم فى أى بلد نزلوا فيها نجد أن لهم حيا مخصوصا، ولا يذوبون فى المواطنين أبداً ، ويكون لهم كل ما يخصهم من حاجات يستقلون بها ، فكأنهم شائعون فى الأرض وهم مقطعون فى الأرض ولكنهم أمم ، فهناك « حارات » وأماكن خاصة لليهود فى كل بلد .

حدث ذلك من بعد موسى عليه السلام ، لكن ماذا كان الأمر فى أيام موسى ؟ قال لهم الحق : « ادخلوا الأرض المقدسة التى كتب الله لكم » أى بعد رحلتكم مع فرعون اذهبوا إلى الأرض التى كتبها الله لكم . ونلحظ هنا أن كلمة « الأرض المقدسة » فيها تحييز وتحديد للأرض .

ولكن ما معنى « مقدسة » ؟ المادة كلها تدل على الطهر والتطهير . فـ « قَدَّس » أى طهّر ونزّه ، ومقدسة يعنى مطهرة . والألفاظ حين تأتى تتوارد جميع المادة على معانٍ متلاقية . ففى الريف المصرى نجد ما نسميه « القَدَس » أو « القادوس » وهو الإناء الذى يرفع به الماء من الساقية ، وكانوا يستعملونه للتطهير ، فالقادوس فى الريف المصرى هو وعاء الماء النظيف . وعندما يقال : « مقدسة » أى مطهرة .

إن من أسماء الحق « القُدُّوس » ، ويقال : «قُدِّس الله » أى نزه ، فالله ذات وليست كذات الإنسان ، وله سبحانه صفات منزهة أن تكون كصفاتك ، وهو سبحانه له أفعال ، ولكن قدسه وطهره منزهة أن تكون كأفعالك . فذات الحق واجبة الوجود وذات الإنسان ممكنة الوجود ؛ لأن ذات الإنسان طرأ عليها عدم أول ، ويطرأ عليها عدم ثانٍ ، وهو سبحانه واجب الوجود لذاته ، والإنسان واجب لغيره وهو قادر سبحانه أن ينهى وجود العبد . ولله حياة وللإنسان حياة ، لكن أحياتك أيها الإنسان كحياة الله ؟ لا .

إن حياته سبحانه منزهة وذاته ليست كذاتك ، وصفاته ليست كصفاتك ، فأنت قادر قدرة محدودة وله سبحانه طلاقة القدرة ، وهو سبحانه سميع والعبد سميع ؛ لكن سمع البشر محدود وسمعه سبحانه لا حدود له .

إذن فصفاته مقدسة ، ولذلك فعندما تسمع أنه سبحانه سميع عليم فليس سمعه كسمعنا ،وله فعل غير فعلنا . وعندما يقول الحق : إنه فعل ، ففعله منزه عن التشبيه بفعل البشر ؛ لأن البشر من خلق الله ، وفعل البشر معالجة ، ويكون للفعل بداية ووسط ونهاية ويفرغ من الأحداث على قدر الزمن . ونحن نحمل الأشياء فى أزمان متعددة ويحتاج من يحمل الأشياء إلى قوة . ولكن فعل الحق مختلف ، إنه فعل بـ « كن » لذلك قال :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾ ﴾

(سورة ق)

أى أنه سبحانه وتعالى منزه عن التعب ، فهو يقول : « كن فيكون » ولذلك قلنا فى مسألة الإسراء:إننا يجب أن ننسب الحدث إلى الله لا إلى محمد صلى الله عليه وسلم ، حتى نعرف أن الذين عارضوا رسول الله فى مسألة الإسراء كانوا على خطأ ؛ فقد قالوا : أنضرب لها أكباد الإبل شهراً وتدعى أنك أتيتها فى ليلة ؟!

إن رسول الله لم يدع لنفسه هذا الأمر ، لأنه لم يقل : سريت من مكة إلى بيت المقدس » حتى تقولوا : أنضرب لها أكباد الإبل شهراً وتدعى أنك أتيتها فى ليلة » .

لكن الرسول صلى الله عليه وسلم قال : أُسْرِىَ بى . أى أنه صلى الله عليه وسلم ليس له فعل فى الحدث . والفعل إذن لله . ومادام هو من فعل الله فهو لا يحتاج إلى زمن ؛ لذلك كان يجب أن يفهموا على أى شىء يعترضون . ولكنا نعرف أن الله سبحانه وتعالى أراد لهم أن يفهموا على تلك الطريقة ؛ لأنه سيأتى أناس من المتحذلقين المعاصرين ويقولون : « إن الإسراء كان بالروح » نقول لهم : بالله لو قال محمد للعرب : أنا سريت بروحى أكانوا يكذبونه ؟ تماما مثلما يقول لنا قائل : « أنا كنت فى نيويورك الليلة ورأيتها فى المنام » فهل سيكذبه أحد ؟ لا . إذن لقد كذب العرب لأنهم فهموا أنه أُسْرِىَ به بمعنى كامل . . أى كان الإسراء بالجسد والروح معا ، بدليل أنهم قارنوا فعلاً بفعل ، وحدثاً بحدث ، ونقلة بنقلة ، وقالوا قولهم السابق . لقد جاءت هذه المسألة لتخدم الإسلام .

إذن فـ « قدوس » يعنى مطهر ومنزه . وساعة ترى شيئاً مخالفاً لقضية العقل اقرنه

بفعل الله ، ولا تقرنه بفعلك أنت أيها العبد ؛ لأن الفعل يتناسب مع قوة الفاعل طرداً أو عكسا . فإن كان الفاعل صاحب قدرة قوية . فزمنه أقل . مثال ذلك : نقل أردب من القمح من مكان إلى مكان ، فإن كان الذى يحمل الأردب طفلاً فلن ينقل الأردب إلا قدحا بقدح ؛ وإن كان رجلا ناضجا سينقل الأردب « كيلة بكيلة » . وإن كان صاحب قوة كبيرة قد ينقل الأردب كله مرة واحدة . إذن فالزمن يتناسب مع القوة تناسبا عكسيا . فإن كثرت القوة قل الزمن . وهات أى فعل بقدرة الله فلن يستغرق أى زمن .

إذن قدس الله فى كل شيء . والأرض المقدسة هى المطهرة ، وذلك بإرادة الحق سبحانه ، تماما كما أراد سبحانه أن تكون بقعة من الأرض هى الحرم ، لا يتم فيها الاعتداء على صيد أو نبات أو اعتداء بعضكم على بعض ، وهل ذلك كلام كونى أو كلام تشريعى ؟

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا ﴾

(من الآية ٦٧ سورة العنكبوت)

لو كانت المسألة إرادة كونية ، فكان لا بد ألا يحدث خلل أبداً وألا يعتدى أحد على أحد. وما الفرق بين الكونى والتشريعى؟ إن الكونى يقع لأنه لا معارض فى الأمور القهرية ، فالحق يريد أن يكون عبداً طويل القامة ، فتلك إرادة كونية تحدث ولا دخل للعبد بها . ولكن إن أراد الحق أن تكون طائعا مصليا ، فتلك إرادة تشريعية . والإرادة تكون تشريعية فيما إذا كان للمريد اختيار ، يصح أن يفعلها ويصح ألا يفعلها ، لكن الإرادة الكونية هى فيما لا إرادة للإنسان فيه وواقع على رغم أنف الإنسان .

والله سبحانه وتعالى يريد الحرم آمناً . وتلك إرادة تشريعية لأنه حدث أن أهيج فيه أناس ولم يأمنوا . ولو كانت إرادة كونية لما حدثت أبداً . لذلك فهى إرادة تشريعية ، فإن أطعنا ربنا جعلنا الحرم آمنا ، وإن لم نطعه فالذى لا يطيع يهيج فيه الناس ويفزعهم ويخيفهم . فمراد الله عز ومطلوبه شرعا « أن يكون الحرم آمنا » .

«ادخلوا الأرض المقدسة التى كتب الله لكم» فهل هذه الأرض المقدسة كتبها الله لهم

كتابة كونية أو كتابة تشريعية ؟ إن كانت كتابة كونية لكان من اللازم أن يدخلوها ولكنه قال :

﴿ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ﴾

(من الآية ٢٦ سورة المائدة)

إذن هي إرادة تشريعية وليست إرادة كونية . فإن أطاعوا أمر الله وتشجعوا ودخلوا الأرض المقدسة فإنهم يأخذونها ، وإن لم يطيعوه فهي محرمة عليهم . إذن فلا تناقض بين أن يقول سبحانه : إنه كتبها لهم ، ثم قوله من بعد ذلك : إنها محرمة عليهم ، لقد كتبها سبحانه كتابة تشريعية . فإن دخلوها بشجاعة ولم يخافوا ممن فيها واستبسلوا ووثقوا أن وراءهم إلهاً قوياً سيساندهم ؛ فإنهم سيدخلونها ، أما إن لم يفعلوا ذلك فهي محرمة عليهم .

﴿ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ ﴾

(سورة المائدة)

وجاءت الأرض هنا أكثر من مرة :

﴿ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ ﴾

(من الآية ١٠٤ سورة الإسراء)

وعرفنا مراد ذلك القول . والدقة هنا أنه سبحانه جاء بأمر السكن في الأرض لبني إسرائيل أي في الأرض عموما ومحكوم عليهم أن يكونوا قطعا ومشردين .

﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴾

(من الآية ١٠٤ سورة الإسراء)

أي أنه سبحانه يجمعهم من كل بلد ويجيء بعد ذلك وعد الآخرة الذي جاء في أول سورة الإسراء :

﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

لأن الحق حينما قال :

﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ ﴾

(من الآية ١ سورة الإسراء)

أى أنه سبحانه وتعالى يدخل بهذه الآية المسجد الأقصى فى مقدسات الإسلام . وأوضح الحق لهم : يا أيها اليهود أنتم ستعيشون فى مكان بعهد من رسولى ، ولكنكم ستفسدون فى المكان الذى تعيشون فيه وسيتحملكم القوم مرة أو اثنتين وبعد ذلك يسلط الله عباداً له يجوسون خلال دياركم ويشردونكم من هذه البلاد .

والحق يبلغنا : نحن أعلمنا بنى إسرائيل فى كتابهم ما سيحدث لهم مع الإسلام :

﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

وبعض الناس يقولون : إن هذا كان أيام بختنصر ، ونقول لهم : افهموا قول الحق : « فإذا جاء وعد أولاهما » وكلمة « وعد » لا تأتى لشىء يسبق الكلام بل الشىء يأتى من بعد ذلك . إذن فلم يكن ذلك فى زمان بختنصر . فـ « إذا » الموجودة أولاً هى ظرف لما يُستقبل من الزمان ، أى بعد أن جاء هذا الكلام . ثم هل كان بختنصر يدخل ضمن عباد الله ؟. إن قوله الحق : « عباداً لنا » مقصود به الجنود الإيمانيون ، وبختنصر هذا كان فارسيا مجوسيا .

وهذا القول الحكيم يشير إلى الفساد الأول مع رسول الله بعد العهد الذى أعطاه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم أجلاهم . وهل هى تقتصر على هذه ؟ يقول سبحانه :

﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ

ٱلدِّيَارِۚ وَكَانَ وَعۡدٗا مَّفۡعُولٗا ﴿٥﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

ولنا أن نسأل : وهل لم يفسد بنو إسرائيل فى الأرض إلا مرتين ؟. لا ، لولا أنهم لم يفسدوا فى الأرض سوى مرتين ، لكان ذلك بالقياس إلى ما فعلوه أمراً طيباً ؛ فقد أفسدوا أكثر من ذلك بكثير. ولابد أن يكون إفسادهم فى الأرض المقصودة هو الفساد الذى صنعوه بالأرض التى كانت فى حضانة الإسلام ، وسبحانه قد قال : « بعثنا عليكم عباداً لنا أولى بأس شديد » فمادام يوجد « عباد الله » خالصو الإيمان وأعدوا العدة فلا بد أن يتحقق وعد الله ، لكن إذا ما تخلى الناس عن هذا الوصف ؛ فعلى الناس الذين يعانون من إفساد بنى إسرائيل أن يتلقوا ما قاله الله :

﴿ ثُمَّ رَدَدۡنَا لَكُمُ ٱلۡكَرَّةَ عَلَيۡهِمۡ ﴾

(من الآية ٦ سورة الإسراء)

فكأن الكَرَّة لا ترد إلا إذا كان القوم المؤمنون على غير مطلوب الإيمان . فإذا ما تساءل بعض المؤمنين : ولماذا تجعل يا الله الكَرَّة لبنى إسرائيل ؟. تكون الإجابة : لأنكم أيها الناس قد تخلفتم عن مطلوب العبودية الخالصة لله . ومادمنا قد تخلفنا عن مفهوم « عباد الله » فلا بد أن تحدث لنا تلك السلسلة الطويلة التى نعرفها من عدوان بنى إسرائيل . ونحن الآن فى مواجهة اليهود فى مرحلة قوله الحق :

﴿ ثُمَّ رَدَدۡنَا لَكُمُ ٱلۡكَرَّةَ عَلَيۡهِمۡ ﴾

(من الآية ٦ سورة الإسراء)

فإذا كنا عباداً لله فلن يتمكنوا منا . والله سبحانه وتعالى حينما يتكلم بقضية قرآنية فلا بد أن تأتى القضية الكونية مصدقة لها .

ولو استمر الأمر بدون كرّة من اليهود علينا ، بينما نحن قد ابتعدنا عن منهجنا وأصبح كل يتبع هواه ، لكانت القضية القرآنية غير ثابتة . ولكن لا بد من أن تأتى أحداث الكون مطابقة للقضية القرآنية . ولذلك رأينا أن بعض العارفين الذين نعتقد قربهم من الله حينما جاء أحدهم خبر دخول اليهود بيت المقدس سجد لله .

فقلنا : « أتسجد لله على دخول اليهود بيت المقدس » . فقال : نعم . صدق ربنا

لأنه قد قال : « وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة » هكذا قال الحق ، وهل يكون دخول لثانى مرة إلا إذا كان هناك خروج من أول مرة ؟. لقد حمد ذلك العارف بالله ربنا لأن قضايا القرآن تتأكد بالكونيات ، فإذا ما قال الحق :

﴿ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ ﴾

(من الآية ٦ سورة الإسراء)

فليست المسألة أنهم لكونهم يهوداً لا يعطيهم الله الكَرَّةَ . ولكن القضية هى أننا عندما نكون عباداً لله حقيقة .. اعتقادا وسلوكا .. قولا وعملا ننتصر عليهم .

﴿ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

وهم أغنياء لأنهم يديرون معظم حركة المال فى العالم المعاصر . ولأنهم جميعاً فى الجيش المدافع عن دولتهم . وذلك معنى بنين وأكثر نفيرا . النفير هو ما يستنفره الإنسان لنجدته ؛ لأن قوة ذاته قاصرة عن الفعل . واليهود ليسوا قوة ذاتية بمفرد دولتهم ، ولكن وراءهم أهم قوى فى العالم المعاصر .

إذن فقوله الحق :

﴿ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ ﴾

(من الآية ٦ سورة الإسراء)

قول صدق وحق .

وقوله الحق :

﴿ وَبَنِينَ ﴾

(من الآية ٦ سورة الإسراء)

قول صدق وحق .

وقوله الحق :

﴿ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴾

(من الآية ٦ سورة الإسراء)

قول صدق وحق .

ثم بعد ذلك يحسم الله قضيته ويقول لليهود :

﴿ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ﴾

(من الآية ٧ سورة الإسراء)

وهل تستمر الكرّة يارب ؟.

لا . فها هوذا الحق سبحانه يقول :

﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ ﴾

(من الآية ٧ سورة الإسراء)

كأن الحق يعطينا البشارة بأننا سننتصر ؛ ويكون الانتصار مرهونا بتنفيذ القاعدة التى شرعها الله بأن نكون عباداً لله حقا ، عندئذ سَيَكِلُ الله لنا تنفيذ وعده لليهود :

﴿ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ ﴾

(من الآية ٧ سورة الإسراء)

وأشرف ما فى الإنسان هو الوجه ، وعندما نكون عباداً لله سنسوء وجوههم ، وفوق ذلك :

﴿ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا ﴾

(من الآية ٧ سورة الإسراء)

ولم يأت الحق بذكر المسجد من قبل ، فها هوذا قوله الكريم :

﴿ وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ۝ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ۝ ﴾

(سورة الإسراء)

إذن فالحق هنا لم يأت بذكر المسجد فى أول مرة . فكيف يكون دخولنا المسجد إذن ؟. لقد دخلنا المسجد الأقصى أول مرة فى الامتداد الإسلامى فى عهد عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه . والمسجد الأقصى أيام عمر بن الخطاب لم يكن فى نطاق بنى إسرائيل ، ولكن كان فى نطاق الدولة الرومانية ، فدخولنا المسجد أول مرة لم يكن نكاية فيهم . ولكن الحق جاء بالمرة الثانية هنا والمسجد فى نطاق سيطرة بنى إسرائيل :

﴿ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾

(من الآية ٧ سورة الإسراء)

سنكون نحن إذن عبادًا لِلَّهِ ذوى البأس الشديد الذين سندخل المسجد الأقصى كما دخلناه أول مرة ، وجاء الحق سبحانه بالمسجد هنا ؛ لأن دخول المسجد أول مرة لم يكن إذلالاً لليهود ، فقد كانت السلطة السياسية فى ذلك الزمن تتبع ـ كما قلنا ـ الدولة الرومانية .

ويضيف الحق من بعد ذلك :

﴿ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ﴾

(من الآية ٧ سورة الإسراء)

وحتى نتبر ما يُعْلُونه ـ أى نجعله خرابا ـ لا بد أن تمر مدة ليعلوا فى البنيان .

وعلينا أن نعد أنفسنا لنكون عباداً لله لنعيش وعد الآخرة وقد جعلها الله وعدا تشريعياً ، فإذا عدنا عباداً لله فسندخل المسجد ونتبر ما علوا تتبيرا ، والحق سبحانه وتعالى فى آيات سورة المائدة التى نحن بصدد خواطرنا عنها يأتى بلقطة عن بلاغه لسيدنا موسى بعد خروجه مع قومه من مصر ، فقال :

﴿ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ ﴾

(سورة المائدة)

وقلنا إن الكتابة هنا تشريعية وليست كونية ، فلو كان الأمر كونياً لدخلوا الأرض

المقدسة بدون عقبات وبدون صراع وبدون قتال . والدليل على أن الكتابة تشريعية هو قوله الحق : « ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين » أى أنكم إن ارتددتم على أدباركم انقلبتم خاسرين . فإن أطعتم الله ودخلتم الأرض دون إدبار ، فستدخلون الأرض ، وإن لم تفعلوا فلن تدخلوها . إذن ليست كتابة الأرض هنا كونية ، ولكنها تشريعية .

وقوله الحق : « ولا ترتدوا على أدباركم » يشرح لنا طبيعة مواجهة الخصم ؛ فالإنسان حين يواجه خصمه فهو يواجهه بوجهه . فإن فرّ الخصم من أمامه فهو يولى أدباره . والتولى على الأدبار يكون على لونين : لون هو الإدبار من أجل أن ينحرف الإنسان إلى جماعة وفئة لتشتد قوتهم ويقووا على هزيمة العدو أو يصنع مكيدة ؛ ليعيد مواجهة الخصم ، ولون آخر وهو الفرار وذلك مذموم ، ومن المعاصى الموبقات المهلكات . وفى ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾

(من الآية ١٦ سورة الأنفال)

فالارتداد على الأدبار ليس مذموماً إن كان من أجل حيلة أو صنع كمين للعدو . وفى هذه الحالة لا بأس أن يرتد الإنسان ، أما خلاف ذلك فهو مذموم . وهل الارتداد على الأدبار رجوع بالظهر إلى الوراء مع الاحتفاظ بالوجه فى مواجهة الخصم ؟. أو هو التفات بالوجه ناحية الدبر وفرار من العدو ؟. كلا الأمرين يصح . وقد جاء الأمر إلى بنى إسرائيل بعدم الفِرار ليدخلوا الأرض فماذا كان موقفهم مادامت الكتابة لهذا الأمر تشريعية ؟.

﴿ قَالُواْ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾

كيف إذن يعلنون هذا التمرد على أمر الحق ؟. وكيف علموا أن فيها قوماً جبارين ؟. ولنا أن ننتبه إلى أن الحق قد قال من قبل :

﴿ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا ﴾

(من الآية ١٢ سورة المائدة)

فقد ذهب النقباء أولاً وتجسسوا ونقبوا وعرفوا قصة هذه الأرض المقدسة ، وأن فيها جماعة من العمالقة الكنعانيين . وساعة رأوا هؤلاء القوم ، قالوا لأنفسهم : هل سنستطيع أن نقاوم هؤلاء الناس ؟ إن ذلك أمر لا يصدق ؛ لذلك لن ندخلها ماداموا فيها . إذن فقد تخاذلوا وارتدوا على أدبارهم . « قالوا يا موسى إن فيها قوماً جبارين » .

وساعة أن تسمع كلمة « جَبَّار » تجدها أمراً معنوياً أُخذ من المحسات ؛ فالجبارة هى النخلة التى لا تطولها يد الإنسان إذا أراد أن يجنى ثمارها . وعندما تكون ثمار النخلة فى متناول يد الإنسان حين يجنى ثمارها فهى دانية القطوف ، أما التى لا تطولها يد الإنسان لحظة الجنى للثمار فهى جَبَّارة ؛ لذلك أخذ هذا المعنى ليعبر عن الذى لا يقهر فسمى جباراً ، وقد يكون الجبار مُكرِهاً ولكن على الإصلاح ، وفى بلادنا نطلق على من يصلح كسور العظام « المجبراتى » .

أى أنه يجبر العظام على أن تعود إلى مكانها الطبيعى . وقد يتألم الإنسان من ذلك ، ولكن فى هذا إصلاح لحياة الإنسان . و« الجَبَّار » اسم من أسماء الله ؛ لأنه سبحانه يَقْهَر ولا يُقهَر . وقد يُكرهنا سبحانه وتعالى حتى يصلحنا . ويختبرنا بالابتلاءات حتى يمحصنا وتستوى حياتنا .

إذن فـ « الجبار » صفة كمال فى الحق لأنه يستعمل جبروته فى الخير ويقهر الظالمين والمعاندين والمكابرين ، وذلك لمصلحة الأخيار الطيبين . وهو سبحانه وتعالى لا يُقهَر . فعندما يكون فى صف جماعة فإن أحداً لا يغلبهم ، أما الجبار كصفة فى الخلق فهى مذمومة ؛ لأن التجبر هنا بدون أصالة كالبناء الأجوف . فالمتجبر قد يصيبه قليل من الصداع فيرقد متوجعاً .

إننا نرى أمثلة لذلك فى حياتنا ، نجد المتجبر يصاب بأزمة قلبية فيحمل على نقالة

إلى المستشفى ، ونجد جباراً آخر يصاب بقليل من المغص ، فيجرى وهو ممسك ببطنه فيضحك عليه الأطفال . ويقولون له ما معناه : العب بعيداً فلست جباراً ولا فتوة ولا أى شيء . والجبار إن أراد أن يكون كذلك فعليه أن يكون صاحب رصيد مستمر ، فلا تراه يوماً غير جبار . ولا يكون التجبر صفة ذاتية إلا لله سبحانه وتعالى .

ويقول الحق : « وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها » وساعة نسمع « لن » تسبق الفعل فلنعرف أنها للنفى . والنفى قد يأخذ زمناً طويلاً ، وقد يأخذ زمناً تأبيدياً . والفرق بين الدخول فقط والدخول التأبيدى ، أن الدخول الأول له زمن ينهيه ، والدخول الثانى لا زمن له لينهيه كدخول المؤمنين الجنة .

وإذا عين الدخول بغاية كقولهم : « وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها » أى أن النفى التأبيدى مرتبط بغاية وهى خروج القوم الجبارين . والتأبيد هنا إضافى لأنهم قالوا : إنهم لن يدخلوا الأرض فى مدة وجود الجبارين .

« فإن يخرجوا منها فإن داخلون » ونقول : وهل الأمم التى تخطو إلى الشر وتمارسه يمتنع فيها وجود عناصر الخير ؟ . لا ؛ لأن الحق يبقى بعضاً من عناصر الخير حتى لا ينطمس الخير ، وهذا ما يوضحه الحق فى بنى إسرائيل عندما قالوا لموسى هذا القول ، فقد خالفهم رجلان منهم :

﴿ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُواْ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾

وهما رجلان يخافان النكوص عن أمر الله ، بينها بنو إسرائيل ـ كمجموع ـ لم يفهوا عن الله

حق الفهم ؛ لأنهم لو نفذوا أمر الله لهم بالدخول إلى الأرض المقدسة ولم ينكصوا لمكنهم الله من ذلك . لكن لم يفهم عن الله فيها إلا رجلان . وهما كالب ، ويوشع بن نون ، أحدهما من سبط يهوذا والآخر من سبط افرايم ، وهما ابنا يوسف عليه السلام ، فقد قالا : مادام الله قد كتب لكم الدخول ، فهو لا يطلب منا إلا قليلاً مــن الجهاد .

فحين يأمر الله الإنسان بعمل من الأعمال ، فيكفيه أن يتوجه إلى العمل اتجاهاً والمعونة من الله . وسبحانه يقول للعبد :

(أنا عند ظن عبدى بى وأنا معه إذا ذكرنى . فإن ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى ، وإن ذكرنى فى ملإٍ ، ذكرته فى ملأ خير منهم ، وإن تقرّب إلىّ بشبر تقربت إليه ذراعاً ، وإن تقرب إلىّ ذراعاً تقربت إليه باعاً ، وإن أتانى يمشى أتيته هرولة)[1] .

فإذا كان الشأن فى المشى أن يتعب الذاهب والسائر ، فالله لا يريد أن يرهق بالمشى من يقصده ويطلبه ؛ لذلك يُهرول فضله ورحمته ـ سبحانه ـ إلى العبد . فالرغبة الأولى أن يكون العمل لك أنت أيها العبد . ومن عظائم فضل الله أنه فعل ونسب إليك . وسبحانه يسعد بالعبد الساعى إليه . وأضرب هذا المثل ـ ولله المثل الأعلى ـ لنفترض أنك أردت أن تمسك سيفاً ، لماذا لا تحلل المسألة ؟ . السيف الذى تمسكه ، صنعته من الحديد ، والحديد استخرجته من الأرض .

والحق قال :

﴿ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ ﴾

(من الآية ٢٥ سورة الحديد)

إن الحق هو الذى أنزل الحديد ، وهو الذى علمنا كيف نصقل الحديد ونشكله بالنار :

﴿ وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ﴾

(من الآية ٨٠ سورة الأنبياء)

---

(١) رواه البخارى ومسلم (متفق عليه) .

وأنا أريد من علماء وظائف الأعضاء أن يحددوا لنا ساعة أن يمسك الإنسان بشيء وليكن السيف . فبأى عضلة يمسك الإنسان السيف ؟. وكيف يأمرها الإنسان بذلك ؟. وكم عضلة وكم خلية عصبية تحركت من أجل أداء هذا الفعل ؟. على الرغم من أن الإنسان بمجرد إرادته أن يمسك شيئاً . فهو يمسك به . والإنسان إذا ما مشى خطوة واحدة ، فبأى العضلات بدأ المشى .

إن الإنسان عندما يحرك ذراعاً آلياً فى جهاز آلى ؛ يصمم عشرات الوصلات والأدوات والدورات الكهربية من أجل تحريك ذراع آلى ، فكم إذن من عضلات فى الإنسان تتحرك بالسير لخطوة واحدة ؟ إن الكثير جداً من أجهزة الإنسان تتحرك بالسير لخطوة واحدة . إن الكثير جداً من أجهزة الإنسان تتحرك لمجرد الإرادة منه !!. فإذا كانت إرادة الإنسان تفعل لمجرد أن يريد سواء أكانت هذه الإرادة هى الإمساك بالسيف أم حتى المشى لخطوة واحدة ، أم حتى الإمساك بالقلم بين الأصابع للكتابة . فليعلم الإنسان أن الإرادة عطاء من الله والإنسان لا يستطيع تحديد مواقع إرادته من جسده فما بالنا بالحق حين يريد أمراً ؟

ولنعد إلى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها الآن :

﴿ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُواْ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾

(سورة المائدة)

لقد أنعم الله على هذين الرجلين بحسن الفهم عن الله ، فقالا لبنى إسرائيل : ساعدوا أنفسكم بدخول هذه الأرض وسينصركم الله . ومثل الرجلين كمثل الأم التى طلب منها ابنها أن تدعو له بالنجاح ، فقالت الأم لابنها : سأدعو لك ولكن عليك فقط أن تساعد الدعاء بالإقبال على الاستذكار . وكأن الخوف من مخالفة أمر الله نعمة على هذين الرجلين ، وكأن الفهم عن الله لعباراته نعمة .

« ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون » كأنهم بمجرد الدخول سيغلبون هؤلاء العمالقة . فلم يطلب الله منهم قتال هؤلاء العمالقة . بل ساعة يراهم القوم الجبارون يدخلون عليهم فجأة فسوف يذهلهم الرعب .

وهم عندما نسجوا الأساطير حول هذه القصة قالوا : إن أحد هؤلاء العمالقة واسمه عوج بن عناق خرج إلى بستان خارج المدينة ليقطف بعض الثمار لرئيسه ؛ فخطف اثنين من هؤلاء الناس وخبأهما فى كمّه ، وألقاهما أمام رئيسه وهو يقدم الفاكهة إليه وقال الرجل العملاق لرئيسه : هذان من الجماعة التى تريد أن تدخل مدينتنا . هذه هى المبالغة التى صنعها خوفهم من هؤلاء العمالقة ، برغم أن رجلين منهما أحسنا الفهم عن الله بقولهما : « ادخلوا عليهم الباب » ؛ لأن هذا هو مراد الله ، وهو الذى يحقق لهم النصر .

وبعض المفسرين قالوا فى شرح هذه الآية : إن الرجلين اللذين قالا ذلك ليسا من بنى إسرائيل ؛ لأن هؤلاء المفسرين فهموا القول الحكيم : « قال رجلان من الذين يخافون » قالوا هما رجلان من الذين يخاف منهم بنو إسرائيل ، وقالا لبنى إسرائيل: لا يُخيفكم ولا يُرهبكم عظم أجسام هؤلاء فإن جنود الله ستنصركم :

﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾

(من الآية ٣١ سورة المدثر)

ويختتم الحق الآية بهذا التذييل : « وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين » أى لا تتوقفوا عند حساب العدد فى مواجهة العدد ، والعُدة فى مواجهة العُدة ، ولكن احسبوا الأمر إيمانياً لأن الله معكم « إن تنصروا الله ينصركم » .

وهو سبحانه القائل :

﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾

(سورة الصافات)

وعلى المؤمن بالله أن يضع هذا الإيمان فى كف قوته . فإن كان هؤلاء الناس من بنى إسرائيل المأمورين بدخول تلك الأرض مؤمنين بحق فليتوكلوا على الله .

فماذا قال هؤلاء القوم :

﴿ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُواْ فِيهَا ﴾

﴿ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾

كأن خلاصة قولهم لموسى عليه السلام : لا ترهق نفسك معنا ووفّر عليك جهدك فنحن لن ندخل هذه الأرض ، مادام هؤلاء العمالقة فيها . وإن كنت مصراً على دخولنا هذه الأرض فاذهب أنت وربك فقاتلا ونحن بانتظاركما هنا قاعدون . هكذا بلغ بهم الخوف أن سخروا من موسى وربّ موسى . وهكذا وصل بهم الاستهزاء إلى تلك الدرجة المُزرية . ولم يكن ذلك بالأمر الجديد عليهم فقد قالوا من قبل :

﴿ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً ﴾

(من الآية ١٥٣ سورة النساء)

ومن قبل ذلك أيضاً عبدوا العجل . فماذا يقول موسى :

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾

وكان هارون أخاً لموسى عليه السلام ومُرسلاً مثله ؛ فكأن موسى عليه السلام قد أعلن عدم ثقته فى هؤلاء القوم الذين أرسله اللّه إليهم ؛ حتى ولا يوشع بن نون ولا كالب ، وهما الرجلان اللذان قالا لبنى إسرائيل : إنه يكفى دخول الباب لتهزموا هؤلاء الناس العمالقة . لكن أكانت نفس أخيه مملوكة له ؟ أم أنه قال ما فحواه : إنى لا أملك إلا نفسى وكذلك أخى لا يملك إلا نفسه ، أما بقية القوم فقد سمعت منهم يارب أنهم لن يدخلوا هذه الأرض مادام بها هؤلاء العمالقة . إذن فأنا وأخى فى طرف وبقية القوم فى طرف آخر ؛ لذلك افصل بيننا وبين هؤلاء القوم الفاسقين .

والحق سبحانه وتعالى فى هذا التعبير القرآنى يأتى بهذه الكلمات على لسان سيدنا

موسى والتى تحتمل أن يرقّ لها قلب واحد من أتباع موسى عليه السلام فيقول لموسى : إننى معك . ولذلك جاء قول موسى : « فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين » . ومعنى الفاسقين ـ كما عرفنا ـ هم من خرجوا عن الإيمان ، كما تفسق الرطبة ؛ فالبلحة عندما ترطّب فإن قشرتها تتسع عن حجمها ؛ فتخرج الرطبة من قشرتها ؛ ويقال فسقت الرطبة ؛ فكأن الإيمان كالجلد والجلد كالقشرة . وهو كغلاف يحيط بالإنسان . وعندما يفسق الإنسان عن الإيمان فهو يخرج عن قانون الصيانة ، وكذلك كان فسق بنى إسرائيل ؛ لذلك قال الحق :

﴿ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾

فهل كان التحريم مدته أربعون عاما ؟ أو أنه قال : « إنها مُحَرّمة عليهم » وانتهى الأمر لأنهم تأبّوا على أن يدخلوها ؟ . ولذلك فكل الذين قالوا : « لن ندخلها أبداً ماداموا فيها » لم يعش منهم أحد ليدخل هذه الأرض . وبعد ذلك صدر الحكم الآتى : « أربعين سنة يتيهون فى الأرض » فهل هذا القول هو استئناف للقول السابق فيكون ظرفاً لـ « مُحَرّمة » . أو هو حكم منفصل ؟ .

تصح هذه ، وتصح تلك . والتيه هو كما نقول : فلان تاه أى سار على غير هدى ولا يعرف لنفسه مدخلاً ولا مخرجاً ، والواحد عندما يدخل فى مجال متشعب المسالك ومتعرج الطرقات ، فهو لا يعرف كيفية الخروج منه ، هذا هو التيه . ولكن كم فرسخاً هى مساحة التيه ؟ . حدّدها العلماء بستة فراسخ [والفرسخ قدر ثلاثة أميال] . كيف يتيهون فى تلك المساحة الضيقة من الأرض ؟

لقد أراد الله ذلك ، لأنهم ساعة يمشون ويرهقون فينامون ويأتى عليهم الصباح ليجدوا أنفسهم عند النقطة التى بدأوا منها ، وكانوا يضعون العلامات لإيضاح الطريق ، لكنهم كل صباح كانوا يجدون العلامات قد انتقلت من مكانها . وظلّوا

على هذا الوضع وفى هذا التيه إلى الأمد والوقت الذى حدده الله وهو أربعون سنة يتيهون فى الأرض . وحين يؤدبّ الله عاصياً يحفظ له من القوت والرزق ما يبقى به حياته ولو كان كافرا؛ لأنه سبحانه هو الذى استدعاهم إلى الوجود، ولهذا لم يضنّ عليهم فى التيه بما لم يضنّ به على الكافرين به سبحانه .

إذن حفظ الحياة أمر ضرورى . وعندما يرتكب إنسانٌ مَا ذنباً كبيراً فى حق المجتمع فإننا نضعه فى السجن ، ولكننا نطعمه ونسقيه ، وعندما يرتقى المجتمع الإنسانى ، فهو يوفّر للسّجين عملاً يتناسب مع مواهبه ويحبس عنه حُرية الحركة فى المجتمع ، والسجين المذنب يظل فى السجن ، ولكنه يأكل ويشرب وينام ويعمل ، فقط تختلف المسألة فى النقطة المهمة فى الحياة وهى أن يتحرك المتحرك وفق حريته ، فما بالنا بالحق الأعظم عندما سجنهم فى التيه ؟. لقد أطعمهم الله وسقاهم وأنزل عليهم المَنّ والسَّلوى .

وقد يقول قائل : إن الله قد أنزل عليهم المَنّ والسَّلوى ليعيشوا كُسَالى وغَرقى فى التَكبر والغرور . ونقول : لا . فذلك الإجراء الإلهى من ضمن حكمه البالغة أن يطيل عليهم الوقت . فلو أنه سبحانه وتعالى قد جعلهم يزرعون ويحرثون لانشغلوا بأمور الحياة اليومية ، لكن الحق أراد أن يُطيل عليهم الإحساس بالزمن . فالمسألة ليست طعاماً وشراباً . ولكن هناك كرامة فوق الطعام وفوق الشراب .

إننا نرى ذلك عندما نسمع عن اعتقالات لبعض الأفراد الذين أساءوا للمجتمع . وتسمح لهم السلطات بالطعام الذى يأتيهم من منازلهم . ولكنّ هؤلاء المعتقلين يشعرون بالضيق من تقييد الحركة . إذن أراد الحق لهم عقاباً صارماً فى فترة التيه . ولذلك نجد بعضهم يحسب المسألة والزمن فى فترة التيه ، فيقول الواحد منهم ما ذكره الحق :

﴿ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى ﴾

(من الآية ١٤٢ من سورة الأعراف)

وبعد أن رحل موسى عن القوم عبدوا العجل الذى صنعه لهم موسى السامرىّ ، وعاد إليهم موسى وعاتب أخاه هارون العتاب القاسى ، وعاقبهم ربهم على كفرهم أربعين سنة. كأن كل يوم من عبادة العجل صار سنة من العقاب فى التيه . ولأنه رَبٌّ ورحيم لم يتركهم دون أن يحفظ لهم حياتهم بالقوت ، فكان القوت هو المَنّ والسَّلوى . هل كان موسى عليه السلام معهم فى التيه أم لا ؟ وهل مات معهم فى التيه أم لا . ؟ تلك أسئلة لا تهمنا الإجابة عنها بالرغم من أن بعض العلماء قد شغلوا أنفسهم بها ؛ فتلك أمور لا تنفع ولا تضر . المهم أن بنى إسرائيل لم يدخلوا أريحا إلا على يد يوشع بن نون بعد الأربعين سنة :

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ إِلَّا نَفۡسِي وَأَخِيۖ فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ۝٢٥ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيۡهِمۡۛ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗۛ يَتِيهُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ۝٢٦ ﴾

(سورة المائدة)

ولنا أن نقرأ هذا القول الحكيم كما يلى : « قال ربِّ إنى لا أملك إلا نفسى وأخى فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين . قال فإنها مُحرَّمة عليهم » . وهذا الوقف يعطينا الفهم بأن الأرض المقدسة صارت مُحرَّمة عليهم إلى الأبد . وبعد ذلك يأتى أمر الله بعقابهم فى التيه أربعين سنة : « أربعين سنةً يتيهون فى الأرض فلا تأسَ على القوم الفاسقين » . أما لو قرأنا هذا القول الحكيم كما يلى : « قال ربِ إنى لا أملك إلا نفسى وأخى فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين قال فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون فى الأرض فلا تأس على القوم الفاسقين » فهذه القراءة تتيح لنا الفهم بأن مدة العقوبة لهؤلاء القوم الفاسقين أربعون سنة فى التيه . ودخلوا بعدها مدينة أريحا .

ويأمر الحق موسى ألاَّ يحزن على هؤلاء القوم الفاسقين ، ذلك أن موسى عليه السلام عندما دعا الله بقوله : « فافرق بيننا » انتابه قدرٌ من الضّيق من هذا الدُّعاء وقال لنفسه : لماذا لم ادعُ لهم بالهداية بدلاً من أن أدعو بالفراق ؟ ، ولذلك قال له الحق : « فلا تأس على القوم الفاسقين » أى فلا تحزن عليهم لأنهم أَوْلَى بالعذاب لفسقهم ومخالفاتهم .

راجع أصله وخرج أحاديثه الدكتور/ أحمد عمر هاشم نائب رئيس جامعة الأزهر .

ومن بعد ذلك يقول الحق :

﴿ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱبۡنَيۡ ءَادَمَ بِٱلۡحَقِّ إِذۡ قَرَّبَا قُرۡبَانٗا فَتُقُبِّلَ مِنۡ أَحَدِهِمَا وَلَمۡ يُتَقَبَّلۡ مِنَ ٱلۡأٓخَرِ قَالَ لَأَقۡتُلَنَّكَۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ۝٢٧ ﴾

وساعة يتلو الإنسان ـ أى يقرأ ـ فهو يتكلم بترتيب مارآه من صُور؛ ذلك أن الإنسان عندما يرى أمراً أو حادثة فهو يرى المجموع مرة واحدة ، أو يرى كل صورة مكّونة للحدث منفصلة عن غيرها . وعندما يتكلم الإنسان فهو يرتّب الكلمات ، كلمة من بعد كلمة ، وحرفاً من بعد حرف ؛ إذن فالمتابعة والتلاوة أمر خاص بالكلام . « واتل عليهم نبأ ابنى آدم بالحق » والنبأ هو الخبر المهم ، فنحن لا نطلق النبأ على مطلق الخبر . ولكن النبأ هو الخبر اللافت للنظر . مثال ذلك قوله الحق :

﴿ عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلۡعَظِيمِ ۝٢ ﴾

(سورة النبأ)

إذن فكلمة « نبأ » هى الخبر المهم الشديد الذى له وقع وأثر عظيم .

« واتل عليهم نبأ ابنى آدم بالحق » وساعة نسمع قوله الحق : « بالحق » فلنعلم أن ذلك أمر نزل من الحق فلا تغيير فيه ولا تبديل . ولذلك قال سبحانه :

﴿ وَبِٱلۡحَقِّ أَنزَلۡنَٰهُ وَبِٱلۡحَقِّ نَزَلَ ﴾

(من الآية ١٠٥ سورة الإسراء)

أى أن ما أُنزل من عند الله لم يلتبس بغيره من الكلام ، وبالحق الجامع لكل أوامر الخير والنواهى عن الشر نزل . وعندما يقول سبحانه : « واتل عليهم نبأ ابنى آدم بالحق » فسبحانه يحكى قصة قرآنية تحكى واقعة كونية . ومادام الله هو الذى يقصّ فهو سيأتى بها على النموذج الكامل من الصدق والفائدة . ولذلك يسمّيه سبحانه « القصص الحق » :

﴿ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ﴾

(من الآية ٦٢ سورة آل عمران)

ويُسمّيه سبحانه :

﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ ﴾

(من الآية ٣ سورة يوسف)

وسبحانه يقول : « واتل عليهم نبأ ابنى آدم بالحق إذ قرّبا قرباناً فتقبّل من أحدهما ولم يتقبّل من الآخر » ونعرف أن آدم هو أول الخلق البشرى ، وأن ابنى آدم هما هابيل وقابيل ، كما قال المفسرون . وقد قرّب كل منهما قرباناً . والقُربان هو ما يتقرب به العبد إلى الله ، و« قربان » على وزن « فعلان » . فيقال : « كَفَر كُفرانا » و« غَفَر غُفرانا» . وهى صيغة مبالغة فى الحدث . وهل قدّم الاثنان قرباناً واحداً ؛ أم أن كلا منهما قدّم قرباناً خاصّاً به ؟ مادام الحق قد قبل من واحد منهما ولم يتقبّل من الآخر فمعنى ذلك أن كلًّا منهما قدّم قرباناً منفصلاً عن الآخر ؛ لأن الله قبل قربان واحد منهما ولم يتقبل قربان الآخر .

و« القربان » مصدر . والمصادر فى التثنية وفى الجمع وفى التذكير والتأنيث لا يتغير نطقها أو كتابتها . فنحن نصف الرجل بقولنا : « رجل عدل » وكذلك « امرأة عدل » و« رجلان عدل » و« امرأتان عدل » و« رجال عدل » و« نساء عدل » . إذن فالمصدر يستوى فيه المفرد والمثنى والجمع والمذكر والمؤنث . ونعلم أن آدم هو أول الخلق الأدمى ، وجاءت له حواء ؛ وذلك من أجل اكتمال زوجية التكاثر ؛ لأن التكاثر لا يأتى إلا من ذكر وأنثى :

﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ ﴾

(من الآية ٤٩ سورة الذاريات)

فكل موجود أراد له الحق التكاثر فهو يخلق منه زوجين .

﴿ سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ ﴾

(من الآية ٣٦ سورة يس)

ونرى ذلك حين نقوم بتلقيح النخلة من طلع ذكر النخل . وهناك بعض الكائنات لا نعرف لها ذكراً وأنثى ؛ إما لأن الذكر غير موجود تحت أعيننا ، ولكن يوجد على بعد والريح هى التى تحمل حبوب التلقيح :

﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ﴾

(من الآية ٢٢ سورة الحجر)

فتأتى الريح بحبوب التلقيح من أى مكان لتخصب النبات ، وإما أن الذكورة والأنوثة يوجدان معاً فى شىء واحد أو حيز واحد ، مثال ذلك عُود الذّرة ؛ حيث نجد ذكورته وأنوثته فى شىء واحد ؛ فقمّة العود فيها الذكورة ويخرج من كل « كوز » ذرة قدراً من الخيوط الرفيعة التى نسمّيها « الشّوشة » . وهذه هى حبال الأنوثة . وينقل الهواء طلع الذكورة من سنبلة الذرة إلى « الشوشة » ، وكل شعرة تأخذ من حبوب اللقاح كفايتها لتنضج الحبوب ، وعندما تلتصق أوراق كوز الذرة ولا تسمح بخروج الخيوط الرفيعة لحبال الأنوثة ، ولا تصلها حبوب اللقاح ، فيخرج كوز الذرة بلا نضج وبلا حبوب ذرة . وعندما نمسك بكوز الذرة ونفتحه قد نجد بعضا من حبوبه ميتة وهى تلك التى لم تصلها حبوب اللقاح ؛ لأنها لم تملك خيطا من الحبال الرفيعة لتلتقط به حبوب اللقاح . وحبّة الذّرة التى لم يخرج لها خيط رفيع لالتقاط حبوب اللقاح لا تنضج . إذن فكل شىء فيه الذكورة والأنوثة .

﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا ﴾

(من الآية ٣٦ سورة يس)

وكذلك قوله : (وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى) .

وكل ما يقال له شىء لا بد له من ذكر وأنثى ، حتى المطر لا بد أن يلقح فلو لم يتم تلقيح المطر بالذرات لما نزل المطر ، وحتى الحصى فيه ذرات موجبة وذرات سالبة . وعندما اخترعنا الكهرباء واكتشفنا الموجب والسالب ارتحنا . إذن فعندما يقول الحق :

﴿ وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾

(سورة الذاريات)

وقوله سبحانه :

﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾

(سورة يس)

وهذا أول علم للعرب ، فلم يكونوا من قبل القرآن أمّة علم .

وقد أوصل القرآن كل العلم للعرب حتى فاقوا غيرهم ، عندما أخذوا بأسباب الله ، لكن عندما تراخوا وواصل غيرهم الأخذ بالأسباب تقدمت الاكتشافات ، وهذه الاكتشافات نجدها مطمورة فى القرآن :

﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾

(سورة يس)

إذن فكل ما يجدُّ ويحدث ويكتشف من شيء فيه موجب وسالب أى ذكورة وأنوثة ؛ يدخل فى نطاق :

﴿ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾

(من الآية ٣٦ سورة يس)

والإنسان سيد الوجود لا بد له من زوجين ذكر وأنثى وذلك للتكاثر لا للإيجاد ، أما الإيجاد فهو لله سبحانه وتعالى الذى أوجد كل شيء من لا شيء . وعندما جاء آدم وحواء وبدأ اللقاح والتكاثر أخذ عدد سكان الأرض فى النمو . ولو أننا رجعنا بالأنسال فى العالم كله رجعة متأخرة نجد العدد يقل إلى أن يصل إلى آدم وحواء . مثال ذلك لو عدنا إلى الوراء مائة عام لوجدنا تعداد مصر لا يتجاوز خمسة ملايين نسمة على الأكثر ، ولو عدنا إلى الوراء قروناً أكثر فإن التعداد يقل ، إلى أن نصل إلى الخلق الأول الذى خلقه الله وهو آدم وخلق له حواء . فالإنسان بمفرده لا يأتى بنسل .

إذن عندما نجرى عملية الإحصاء الإنسانى فى العالم ونرجع بها إلى الوراء ، نعود

إلى الخلق الأول . وكذلك كل شيء متكاثر سواء أكان حيواناً أم نباتاً . وعندما نسير بالإحصاء إلى الأمام فإننا سنجد الأعداد تتزايد ، وتكون القفزة كبيرة . وعندما يبلغنا الحق أنه خلقنا من نفسٍ واحدةٍ وخلق منها زوجها وبثَّ منهما رجالاً كثيراً ونساء ، فإن عِلم الإحصاء إنما يؤكد ذلك . والتكاثر إنما يأتى بالتزاوج . والتزاوج جاء من آدم وحواء . وأراد الحق أن يرزق آدم بتوائم ليتزوج كل توأم بالتوأم المخالف له فى النوع من الحمل المختلف . أى يتزوج الذكر من الأنثى التى لم تولد معه فى بطن واحدة .

وجاء ربّنا لنا بهذه القصة كى يبين لنا أصل التكاثر بياناً رمزياً . أوضح سبحانه : أن التباعد الزوجى كان موجوداً ، ولكنه التباعد الإضافى ، صحيح سيكون هذا الولد أخا للبنت هذه ، وهذه البنت أخته ؛ لكن حين تكون مولودة مع هذا ، وتأتى بطن ثانٍ فيها ذكر وأنثى ، فسيكون فيها بُعد إضافى ، فتتزوج البنت لهذا البطن بالذكر فى البطن الثانى . والذكر للبطن الثانى للبنت فى البطن الآخر ، وهذا هو البُعد الإضافى الذى كان مُتاحاً فى ذلك الوقت ؛ لأن العالم كان لا يزال فى بداية طفولته الواهية .

ونلحظ مثل هذا الأمر فى الريف ، حين يقول فلاح لآخر : « الذرة بتاعك خايب » ، يقول الفلاح الثانى : إنى آخذ من الأرض التى أخذت منها الذرة وأعطيها تقاوى منها ، فأنا قد زرعت فداناً من ذرة ، وأحجز كيلتين أو ثلاثا أستخدمها تقاوى لأزرعها ، فتخرج الذرة ضعيفة ، فيقول الفلاح الناضج : يا شيخ هات من ذرة جارك . فيكون ذرة جارى فيه شيء من البُعد . وبعد ذلك تصير النوعية واحدة ، فيقول الفلاح الناضج : هات من بلد أخرى . وبعد ذلك من بلد ثالثة ، ولذلك فالتهجين والتكاثر كيف نشأ ؟ من أين نأتى بالتقاوى ؟ كلما جئنا بها من الخارج يكون الناتج قوياً .

كذلك التزاوج ليكون فى هذه الزوجية مواهب ، ولذلك فطن العربى قديماً لها ، ومن العجيب أن هذا العربى البدوى الذى لم يشتغل بثقافة ولم نعرف له تعليما ولا علماً، يهتدى إلى مثل هذه الحقيقة اهتداءً يجعلها قضية عامة فطرية . ويريد أن يمدح رجلاً بالفتوة ، فيقول عنه :

فتى لم تلده بنتُ عمٍ فيضوى ۔ وقد يضوى سليل الأقارب

كيف اهتدى هذا الشاعر لهذه ؟! وبعد ذلك يقول :

تجاوزت بنت العَمِ وهى حبيبة إلىّ
مخافة أن يضوى على سليلها

أى هو يحبها ، لكنه تجاوزها ، حتى لا يضوى سليلها .

ولذلك يقول الشاعر فى هذه القضية :

أنصح من كان بعيد الهم
تزويج أولاد بنات العم
فليس ينجو من ضوى وسقم

الشاعر العربى الذى ليس فى أمة مثقفة ولا تعرف التهجين ولا تعرف هذه الأشياء ، انتبه إلى هذه المسألة ، كيف ؟ إما أن يكون قد اهتدى إليها فى واقع الكون فوجد أن زواج القريبات يُنشىء نسلاً ضعيفاً ، وإما أن يكون ذلك من رواسب الديانات السابقة القديمة والعظات الأولى التى ظل الإنسان محتفظاً بها ، فإذا أراد الله أن يبدأ تكاثر فلا بد أن يتزوج أخ بأخته ، ولكن سبحانه يريد أن نتباعد ، نعم أخ وأخت لكن نتباعد فنأخذ البطن المختلف ، ولذلك حينما جاءوا لينسبوا قصة ابنى آدم قابيل وهابيل ، صحيح اختلفوا . مثلا : « سِفْر التكوين » تكلم ، ونحن نأخذ من « سفر التكوين » لأن التغيير فيه لا يهمهم . فقد كان التغيير فى المسائل التى تهمهم ، كمسألة نبوّة محمد صلى الله عليه وسلم ، إنما المسائل الأخرى لا تهم ، ومع ذلك ففيها أيضا الكثير .

إنهم يقولون : إن هابيل هو أول قتيل فى الإنسانية وقتله « قابيل » وبعض القصص تقول : لم يكن يعرف كيف يُميته أو يقتله ، فالشيطان مَثَّل له بأنه جاء بطير ووضع رأسه على حجر ثم أخذ حجرا آخر فضرب به رأسه حتى قتله ، فعلّمه كيف يقتل ، مثلما سيأتى الغراب ويعلّمه كيف يدفن ، أما مسألة كيف يقتل هذه لم تأت عندنا ، إنما كيف يدفن فقد جاءت عندنا .

﴿ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِي سَوْءَةَ أَخِيهِ ﴾

(من الآية ٣١ سورة المائدة)

فهذا هو أول من توفّى وقتل ، لكن كيف تقولون : إنه لم يكن يعرف القتل حتى جاءه الشيطان وعلّمه كيف يقتل أخاه ؟ نقول : أنتم لم تنتبهوا . فالحق قال :

﴿ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٨ ﴾

فقابيل - إذن - فاهم للقتل ، فلا تقل إنه تعلم القتل ، صحيح مسألة الدفن هذه جديدة ، والقصة جاءت لتثبت لنا كيف بدأ التكاثر ، ليجمع الله فيه بين الزوجين البُعد الإضافى ؛ لأن البُعد غير الإضافى غير مُمكن فى هذا الوقت فتكون هذه بالنسبة لهذا أجنبية ، وهذا بالنسبة لهذه أجنبى إلى أن يتوسع الأمر ، وبعد ذلك يُعاد التشريع بأن الأخت من أى بطن محرّمة على أخيها تحريماً أبديًّا ، وبعد ذلك نتوسع فى الأمر وننقله إلى المحرمات الأخريات من النسب والرضاع فلا بد أن لهذه القصة أصلا . هم قالوا نقرب قرباناً . . لماذا ؟ « إذ قربا قرباناً فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر » .

لماذا يريدان أن يُقرّبا قُرباناً ؟ قالوا:ان أخت قابيل التى كانت فى بطن معه كانت حلوة وجميلة ، وأخت هابيل لم تكن جميلة ، فطبقا لقواعد التباعُد فى الزوجية كان على هابيل أن يأخذ أخت قابيل ، وقابيل يأخذ أخت هابيل ، فَحسد قابيل أخاه وقال : كيف يأخذ الحلوة ، أنا أولى بأختى هذه . وكان سيدنا آدم مازال قريب العهد بالوحى ، فقال : قربوا قرباناً وانظروا . لأنه يعلم جيداً أن القربان سيكون فى صف التباعد. « إذ قربا قرباناً فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر ». وبعض المفسرين يقول : والله نحن لم نعرف طريقة التقبّل هذه . نقول له : فلنبحث عن « قُربان » فى القرآن . ننظر ما هو القُربان ؟ قد وردت هذه الكلمة فى القرآن فى أكثر من موضع . قال :

﴿ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيۡنَآ أَلَّا نُؤۡمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأۡتِيَنَا بِقُرۡبَانٖ تَأۡكُلُهُ ٱلنَّارُ ﴾

(من الآية ١٨٣ سورة آل عمران)

والحق يقول لهم ردًّا عليهم :

﴿ قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ ﴾

(من الآية ١٨٣ سورة آل عمران)

« وبالذى قُلتم » ما هو ؟ إنه القُربان الذى تأكله النار . إذن كان القُربان معروفاً والاحتكام إلى قربان وتأكله النار علامة التقبّل من السماء ويكون صاحبه هو المُقرَّب ، والقُربان فى مسألة هابيل وقابيل لكى يعرف كل منهما من يتزوج الحلوة ومن يتزوج الأخرى ، وتقبل الله قربان هابيل . لكن أرضِى المهزوم ؟ لا ، بل حَسَده ، وهذا أول تأب على مُرادات الحق فى تكليفه . « فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر » . وقالت لنا القصص : إن هابيل كان صاحب ضرع أى ماشية وبذلك يكون عنده زبْد ولبن وجبن ، وحيوانات للحم ، والثانى صاحب زرع ، وقالوا : إن قابيل قدّم شِرار زرعه ، وهابيل قدّم خيار ماشيته . « فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر » . « قال لأقتلنك » وسبحانه قال : « أحدهما » ولم يقل قابيل أو هابيل ، « إذ قربا قرباناً فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر » . فقوله : « قال لأقتلنك » من الذى قال ؟ الذى قال هو من لم يتقبل قربانه ؛ لأنه لم يحقق مُراده وغرضه .

« قال لأقتلنك قال إنما يتقبل الله من المتّقين » . وهل هذا الرّد مُناسب لقوله : « لأقتلنك » ؟ نعم ؛ لأن « لأقتلنك » بسبب أن قربانك قُبِل وقربانى لم يُقبَل . قال: فما دخلى أنا بهذه العملية ؟ الدخل فى العملية للقابل للقربان ، فأنا ليس لى دخل فيها ، وربّنا لم يتقبله لأن الله لا يتقبل إلا من المتقين . وهو يعلم أنك لست بمتقٍ ؛ فلن يتقبل منك لأنك تأبيت عن حكاية الزواج بابنة البطن المخالف ، وهذا أول تمرُّد على منهج الله وعلى أمره لذلك قال هابيل : لا تلُمنى فأنا لا دخل لى فى القربان المتقبل ؛ لأن هذا من عند الله . والله لم يظلمك ؛ لأن ربنا يتقبل من المتقين . وأنت لست بمتقٍ ؛ لأنك لم ترْضَ بالحكم الأول فى أن تبتعد البطون « إنما يتقبل الله من المتقين » .

﴿ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ ﴾

(سورة المائدة)

وكلمة « البسط » ضد « القبض » ، وهناك : « بسط له » ، و« بسط إليه » .

وتجد « بسط له » كأن البسط لصالح المبسوط له .

﴿ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ ﴾

(من الآية ٢٧ سورة الشورى)

ولم يقل : « إلى عباده » بل قال : « لعباده » ، إذن فالبسط لصالح المبسوط له ولذلك لا يكون بإلى إلاّ فى الشر ، وشرحنا من قبل هذه المسألة فى قوله الحق :

﴿ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ ﴾

(من الآية ١١ سورة المائدة)

إذن فالذى يبسط لك يعطيك نفعا والذى يبسط إليك يكون النفع له هو .

« لئن بسطت إلى يدك لتقتلنى ما أنا بباسط يدى إليك لأقتلك » . وبيّنت « لتقتلنى » مدلول « إلىّ » . والعلة لا عجز عن مقابلة قوّتك بقوة ، لا ، وإنما لأننى أخاف الله ، فليس فى هذا تقصير فى الدفاع عن نفسى لأننى أريد أن أُحَنّنك تحنيناً يرجعك إلى صَوابك . وساعة يأتى واحد يريد أن يقتل واحداً يقول له : والله لن أقاتلك لأننى أخاف ربنا .

إذن فبينّ له أن خَوفه من الله مسألة مُستقرة فى الذهن حتى ولو كانت ضد استبقاء الحياة ، وقد يعرفها فى نفسه لأن أخاه كان يستطيع أن يقدّم دفاعاً قويا ، لقد ردّ الأمر إلى الحقّ الأعلىٰ . فلا تقل كان هابيل سَلبيّا لا . إنه صعّد الأمر إلى الأقوىٰ .

ويقول الحق :

﴿ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾

و« تبوء » أى ترجع من صفقة قتلى بأن تحمل إثم تلك الفعلة وتنال عقوبتها

و« إثمك » وكذلك الإثم الذى كان من أجله أنك أردت أن تقتلنى ؛ لأنك تأبيت على المنهج ، حين لم يتقبل ربنا قربانك . فقد أثمت فى عدم قبولك التباعُد المطلوب فى الزوجية . إذن فأنت عندك إثمان : الإثم الأول : وهو رفضك وعدم قبولك حكم الله ومنهجه وهو الذى من أجله لم يَقبل الله قربانك ، والإثم الثانى : هو قتلى وأنا لا دخل لى فى هذه المسألة ؛ لأن الظالم لا بد أن يأخذ جزاءه .

إن هابيل يقول: « إنى أريد أن تبوء بإثمى وإثمك » لم يتمن أن يكون أخوه عاصياً. بل قال : إن كان يعصى بهذه يبوء بإثمى ويأخذ جزاءه ؛ فيكون قد تمنى وأراد له أن يعود إلى العقاب ويناله إن فعل وهو لا يريده أن يفعل .

« إنى أريد أن تبوأ بإثمى وإثمك فتكون من أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين » وجزاء الظالمين تربية عاجلة للوقوف أمام سُعارات الظلم من الظالمين ؛ لأن الحق لو تركها للآخرة لاستشرى الظُّلم ، والذى لا يؤمن بالآخرة يصبح مُحترفاً للظُّلم ، ولذلك قلنا من قبل : إن الحق سبحانه وتعالى ضرب لنا ذلك المثل فى سورة « الكهف » حينما ذكر لنا قصة ذى القرنين : الذى آتاه الله من كل شىء سببا فأتبع سببا ، وبعد ذلك بين لنا مُهمة من أوتى الأسباب واتبع الأسباب ، وجعل قضيته فى الأرض لعمارة الكون وصلاحه ، وتأمين المجتمع . ماذا قال :

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغۡرِبَ ٱلشَّمۡسِ وَجَدَهَا تَغۡرُبُ فِى عَيۡنٍ حَمِئَةٍ ﴾

(من الآية ٨٦ سورة الكهف)

هذا فى رأى العين ، فحين تكون راكباً البحر . ترى الشمس تغرب فى الماء ، هى لا تغرب فى الماء ؛ لأن الماء هو نهاية امتداد أُفقك .

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغۡرِبَ ٱلشَّمۡسِ وَجَدَهَا تَغۡرُبُ فِى عَيۡنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوۡمًاۗ قُلۡنَا يَٰذَا ٱلۡقَرۡنَيۡنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمۡ حُسۡنًا ﴿٨٦﴾ ﴾

(سورة الكهف)

إذن فقد خيره : إما أن تعمل هذا وإما أن تعمل ذاك .

﴿ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ﴾

(من الآية ٨٧ سورة الكهف)

ذلك هو القانون الذى يجب أن يسير فى المجتمع . حتى لا أترك لمن لا يؤمن بإله ولا يؤمن بآخرة أن يستشرى فى الظلم . فَلْيأخذ عقابه فى الدنيا .

﴿ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ ﴾

(من الآية ٤٧ سورة الطور)

أى قبل الآخرة لهم عذاب.ولذلك حين يرى الناس مصرع الظالم ، أو ترى الخيبة التى حدثت له فهم يأخذون من ذلك العظة ، وجيلنا نحن عاصر ظالمين كثيرين نكل بعضهم ببعض ؛ ولو مُكِّن المظلومون منهم ما فعلوا بهم ما فعله بعضهم ببعض ، وأراد الحق أن يجرى عذابهم أمامنا لتتضح المسألة .

﴿ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ﴾

(من الآية ٨٧ سورة الكهف)

ولا ينتهى أمره بذلك ، وبعد ذلك يُرَدّ لمن ؟ يُرَدّ لله :

﴿ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴾

(من الآية ٨٧ سورة الكهف)

يعنى عذاب الدنيا،إن عذابها سيكون محتملا لأنه عذاب منوط بقدرة العاجزين ، إنما العذاب فى الآخرة فهو بقوة القادر الأعلى :

﴿ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ﴾

(سورة الكهف)

تلك هى مهمة الله القوى المتين : إنّ الذى يظلم يضرب على يده ، والذى يحسن عمله يعطيه الحوافز .

والحق يقول هنا فى الآية التى نحن بصددِ خواطرنا عنها :

﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝٣٠ ﴾

ولا يقال : طوعت الشيء إلا إذا كان الشيء متأبيا على الفعل ، فلا تقل : أنا طوّعت الماء ، إنما تقول : طوّعت الحديد ، وقوله : « فطوَّعَت له نفسه قتل أخيه » فهل نفسه هى التى ستقتل وهى نفسه التى طوَّعَت ؟

ولنتنبه هنا أن الإنسان فيه ملَكتان اثنتان ؛ ملكة فطرية تُحبّ الحق وتُحبّ الخير ، وَملَكَة أهوائية خاضعة للهوى ، فالملكتان تتصارعان .

« فطوَّعَت له نفسُه قَتْل أخيه » كأن النفس الشريرة الأهوائية تغلبت على الخيّرة ، فكأن هناك تجاذبا وتصارعاً وتدافعاً ؛ لأن الإنسان لا يحب الظلم إن وقع عليه . لكن ساعة يتصور أنه هو الذى يظلم غيره فقد يقبل على ذلك .

« فطوَّعتَ له نفسه » إنه لايزال فيه بقيّة من آثار النُّبوة ؛ لأنه قريب من آدم ، ولاتزال المسألة تتأرجح معه ، والشر من الأخيار ينحدر ، والشر فى الأشرار يصعد . فقد تأتى لرجل طيب وتثير أعصابه فيقول : إن رأيته لأضربنه رصاصة أو أصفعه صفعتين ، أو أوبِّخه ، والشرِّير يقول : والله إن قابلته أبصق فى وجهه ، أو أضربه صفعتين ، أو أضربه رصاصة . إذن فالشر عند الشرِّير يتصاعد ، ويجد العملية لا تكفى للغضب عنده فيصعدها . إنما نفس الخير تُنفِّس عن غضبها وبعد ذلك ينزل عنها بكلمة ، ولذلك نلاحظ فى سورة سيدنا « يوسف » :

﴿ إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ ﴾

(من الآية ٨ سورة يوسف)

والعجيب أنهم جاءوا بالتعليل الذى ضدّهم ؛ كى يعرفك أن الهوىٰ والغضب والحسد والحقد تقلب الموازين ، « ونحن عُصبة » هذه تدل على أنهم أقوياء . وهى التى جعلت أباه يعقوب يعطف على الصغير . أنتم تقولون : « ليوسف وأخوه أحب

إلى أبينا منا » نعم ؛ لأنه صغير ، وسألوا العربى : مالك تُحب الولد الصغير ، قال : لأن أيامه أقصر الأيام معى ، البكر مكث معى طويلاً ، فأنا أعوض للصغير الأيام التى فاتته ببعض الحب وأعطيه بعض الحنان ، قولهم : « نحن عُصبة » هذه ضدهم ، مما يدل على أن الرجل ساعة تختلط عليه موازين القيم ، يأتى بالحُجّة التى ضده ويظن أنها معه ! وبعد ذلك يقولون :

﴿ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾

(من الآية ٨ سورة يوسف)

واتفقوا . فبدأوا بقولهم :

﴿ ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ ﴾

(من الآية ٩ سورة يوسف)

وقالوا :

﴿ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا ﴾

(من الآية ٩ سورة يوسف)

ولأنهم أسباط وأولاد يعقوب تنازلوا عن القتل والطرح فى الأرض وقال قائل منهم :

﴿ لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ ﴾

(من الآية ١٠ سورة يوسف)

وهل يرتب أحد النجاة لمن يكرهه ؟

كأن النفس مازال فيها خير ، فأولا قالوا : « اقتلوا يوسف » هذه شدة الغضب . أو « اطرحوه أرضاً » يطرحونه أرضاً فقد يأكله حيوان مفترس ، فقال واحد : نلقيه فى غيابة الجب ويلتقطه بعض السيارة ، إذن فالأخيار تتنازل .

« فطوّعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين » . ونعرف الخسران فى قضية التجارة ؛ لأن هناك مكسبًا وهناك خسارة ، و« مكسب » أى جاء رأس المال

بزيادة عليه ، و« الخسارة » أى أن رأس المال قد قلّ ، فلماذا قتل أخاه وكان أخوه الوحيد وكان يأنس به فى الدنيا ؟ إن هذا حدث من حكاية البنت . فقد أراد أن يأخذ أخته الحلوة ويترك الأخرى ، ولما قدّما القربان ولم يقبل منه تصاعد الخلاف وقتل أخاه ، إذن فَفَقد رأس المال ، بينما كان يريد أن يكسب « فأصبح من الخاسرين » .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾ ﴾

ونعرف السوءة وهى ما تَتكرّهه النفس . وهى من « ساء ، يسوء ، سوءا » أى يتكره ، وسمينا « العَورة » سَوْءَة ؛ لأنها تتكره .

« فبعث الله غُراباً يبحث فى الأرض » . هل بعثه الله حتى يُرى قابيل كيف يوارى سوءة هابيل ، أم أن الغراب هو الذى سيقول له ؟ كلا الأمرين متساو ؛ لأن ربنا هو الذى بعث ، فإن كنت ستنظر للوسيلة القريبة فيكون الغُراب ، وإن كنت ستنظر لوسيلة الباعث يكون هو الله ؛ فالمسألة كلها واصلة لله ، وأنت حين تنسب الأسباب تجدها كلها من الله .

« قال يا ويلتى » . ساعة تسمع كلمة « يا ويلتى » يكون لها معنيان فى الاستعمال : المعنى الأول للويل : هو الهلاك ، وإن أردنا المبالغة فى الهلاك نأتى بتاء التأنيث ونقول : ويلة ، ولذلك عندما نحب أن نبالغ فى وصف عالم نقول : فلان عالم وفلان علاّم وفلان عَلاّمة ، وتأتى التاء هنا لتؤكد المعنى ، إذن فالويل : الهلاك ، و«ويلة » تعنى أيضا الهلاك ، وماذا تعنى « يا ويلتى » ؟

إننا نعرف أن النداء يكون بـ « يا » فكيف تُنادى الويل والهلاك ؟ وهل يُنادىٰ غير العاقل ؟ نعم ، يُنادىٰ ؛ لأنه مادام « الويل » و« الويلة » : الهلاك . كأنك تقول : أنا لم أعد أطيق ما أنا فيه من الهم والغم ، ولا يُخلصنى فيه إلا الهلاك ، يا هلاكى تعال فهذا وقتك ! إذن فقوله : « يا ويلتى » يعنى يا هلاك تعال ، والمتنبى فطن لهذه المسألة وقال :

كفى بك داء أن ترى الموت شافيا
وحسب المنايا أن يكنّ أمانيا

فأى داء هذا الذى تقول فيه : يارب أرحنى بالموت !! إذن فالذى يراه من ينادى الهلاك هو أكثر من الموت . المعنى الأول : أنك تنادى الهلاك أن يحضر ؛ ولذلك يقول الحق :

﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَـٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَـٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَـٰذَا ٱلْكِتَـٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ﴾

(من الآية ٤٩ سورة الكهف)

إنهم يتمنّون الموت ، وكذلك قال قابيل : « يا ويلتى » .

وهل تأتيه الويلة عندما يطلبها ؟ لا ، فقد انتهت المسألة وصار قاتلاً لأخيه .

والمعنى الثانى : أن تأتى « ياويلتنا » بمعنى التعجب من أمر لا تعطيه الأسباب ، وهناك فرق بين عطاء الأسباب وبين عطاء المُسبِّب . فلو ظل عطاء الأسباب هو المُتحكّم فى نواميس الكون ، لكان معنى هذا أن الحق سبحانه قد زاول سلطانه فى مُلْكه مرة واحدة ، وكأنه خلق الأسباب والنواميس وتركها تتحكم ونقول : لا . فبطلاقة القدرة خلقت الأسباب ، وهى تأتى لتثبيت ذاتية القدرة وقيّوميّتها ، فيقول الحق حينما يشاء : توقفى يا أسباب .

إذن فهناك أسباب وهناك مُسبّب . والأمر العجيب لا تعطيه الأسباب . وحين لا يعطى السبب يتعجب الإنسان ، ولذلك يَرُدّ الأمر إلى الأصل الذى لا يتعجب منه . وها هو ذا سيدنا إبراهيم عليه السلام عندما جاءه الضيوف وقدم لهم الطعام

ورأى أيديهم لا تصل إليه نكرهَم ونفر منهم ولم يأنس إليهم وأوجس منهم خِيفة . ويقول الحق عن هذا الموقف :

﴿ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُواْ لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ۝٢٨ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ۝٢٩ ﴾

(سورة الذاريات)

وقال الحق أيضاً فى هذا الموقف :

﴿ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ۝٧١ ﴾

(سورة هود)

وهنا قالت امرأة سيدنا إبراهيم :

﴿ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴾

(من الآية ٧٢ سورة هود)

أى أن الأسباب لا تعطى ، ورُدّت إلى المُسبّب . (أتعجبين من أمر الله) ؟ كان لك أن تتعجبى من الأسباب لأنها تعطلت ، أما حين تصل الأسباب إلى الله ، فلا عجب .

وقال سيدنا زكريا عليه السلام مثل قولها ؛ فحين رأى السيدة مريم وهو الذى كَفلها ، وكان يجىء لها بمطلوبات مقومات حياتها ، وفُوجىء بأن عندها رزقا من طعام وفاكهة . فسألها :

﴿ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ﴾

(من الآية ٣٧ سورة آل عمران)

كيف يقول لها ذلك ؟ لا بد أنه رأى شيئا عندها لم يأتِ هُو به ، وهنا ردّت عجبه لتنبهه بالحقيقة الخالدة :

﴿ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾

(من الآية ٣٧ سورة آل عمران)

ويشاء الحق أن تقولها سيدتنا مريم وهى صغيرة السن ، وكأنها تقول ذلك كتمهيد ؛ لأنها ـ كما قلنا سابقا ـ ستتعرض لمسألة لا يمكن أن يحلها إلا المُسبِّب ، فسوف تلدِ بدون رُجولة ، وهى مسألة عجيبة ، لذلك كان لا بد أن تفهم هى وأن تنطق :

﴿ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾

(من الآية ٣٧ سورة آل عمران)

وكأن الحق ينبئها ضمناً بأن عليها أن تتذكّر أنها هى التى قالت هذه الكلمة ؛ لأن المستقبل سوف يأتى لك بأحداث تحتاج إلى تذكُر هذا القول . وهى التى تُذكِرّ سيدنا زكريا عليه السلام بهذه الحقيقة . ولنر دِقّة إشارة القرآن إلى الموقع الذى ذكرت له مريم فيه تلك الحقيقة :

﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ﴾

(من الآية ٣٨ سورة آل عمران)

كأن ساعة سمع هذه المسألة قرّر أن يدعو الله بأمنيته فى المحراب نفسه . وهل كان سيدنا زكريا لا يعرف تلك الحقيقة ؟ كان يعرفها ، ولكن هناك فرق بين حكم يكون فى حاشية الشعور ، وبين حكم يكون فى بؤرة الشعور .

وقول مريم لزكريا : « هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب » جعل القضية تنتقل من حاشية الشعور إلى بؤرة الشعور .

﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ﴾

(من الآية ٣٨ سورة آل عمران)

لماذا لم يدعُ ربَّه من البداية ؟ . كان سيدنا زكريا سائراً مع الأسباب ورتابة الأسباب قد تذهل وتُشغل عن المُسبِّب ، وعندما سمع من مريم : « يرزق من يشاء بغير حساب » أراد أن يدخل من هذا الباب ، فدعا ربه ؛ وبشره الحق بأنه سيأتى له بذرّية ، وتعجّب زكريا مرّة أخرى من هذا الأمر شارحاً حالته :

﴿ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِى عَاقِرٌ ﴾

(من الآية ٤٠ سورة آل عمران)

ومادمت يا زكريا قد دعوت الله أن يهبك الذُرّية وقفزت قضية رزق الله لمن يشاء من حاشية شعورك إلى بؤرة شعورك . فقد جاء أمر الله :

﴿ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ ﴾

(من الآية ٩ سورة مريم)

إذن فلا بحث فى الأسباب والمسببات . فهى إرادة الله . ويوضح الحق حيثيّات « إن الله يرزق من يشاء بغير حساب » ويأتيك بالولد ؛ فيقول سبحانه :

﴿ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴾

(من الآية ٩ سورة مريم)

وكل هذه مقدمات من مريم ومن سيدنا زكريا الكفيل لها ؛ ذلك أن سيدنا زكريا سوف يكون عنصراً شاهداً عندما يأتيها الولد من غير أب وتلد ، وهو كفيل لها ، وهو الذى سيتعرض لهذا الأمر .

ولماذا كل هذا التمهيد ؟ ؛ لأن خرق الأسباب وخرق النواميس وخرق السُنن إنما حدث فى أمور أخرى غير العِرْض ، لكن عند مريم سيكون ذلك فى العِرض وهو أقدس شيء بالنسبة للمرأة ، لذلك لابد من كل هذه التمهيدات . إذن ، هو أمر عجيب لكنه ليس بعجيب على الله .

وها هوذا قابيل يقول : « يا ويلتى أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب » كأن عملية الغراب أظهرت لقابيل أنه لم يعرف شيئاً يفعله الطائر الذى أمامه ، فها هى ذى مسألة يفعلها غراب ولا تفعلها أنت يا قابيل ، لقد امتلكت قدرة لتقتل بها أخاك ، لكنك عاجز أن تفعل مثل هذا الغراب . فقابيل لا يقولها ـ إذن ـ إلا بعد أن مرّ بمعنى نفسيّ شديد قاسٍ على وجدانه .

لقد قدر على أخيه وقتله وهو لم يعرف كيف يواريه ، بينما عرف الغراب كيف يوارى جثة غراب آخر . وهكذا أصبح قابيل من النادمين « فأصبح من النادمين » .

إن علينا أن ننتبه إلى الفارق بين « نَدَمٍ » و« نَدَمٍ » . وعلى سبيل المثال : هناك إنسان قد جرؤ على حدود الله وشرب الخمر بالنقود التى كان عليه أن يشترى بها طعام

الأسرة . وعندما عاد إلى منزله ووجد أهله فى انتظار الطعام ، ندم لأنه شرب الخمر ، فهل كان ندم الرجل على أنه عصى الله ، أو ندم لأنه لم يشتر الطعام لأهله ؟. لقد ندم على عدم شراء الطعام وذلك ندم مرفوض ، ليس من التوبة .

وقد يكون هذا الشارب للخمر قد ارتدى أفخر ثيابه وخرج فشرب الخمر ووقع على الأرض ، وهنا ندم لأن شُرب الخمر أوصله إلى هذا الحال ؛ فهل ندم لأنه عصى ربه ؟. أو ندم لأنه صار هُزْأة بين الناس ؟. وكذلك كان ندم قابيل ، لقد ندم على خيبته؛لأنه لم يعرف ما عرفه الغراب .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾

نجد الحق قال:إنه قد كتب على بنى إسرائيل ما جاء بهذه الآية من قانون واضح ؛ لأن معنى كلمة « من أجل » هو « بسبب » ؛ و« أَجْل » مِن أَجَل شرا عليهم يأْجُله ،،أى جنى جناية ؛ أى من جريرة ذلك .

أو من هذه الجناية شرعنا هذا التشريع : « من قتل نفساً بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جيعاً » . إذن فساعة تسمع « من أجل » فاعرف أنها تعنى « بسبب ذلك » أو « بوقوع ذلك » أو « بجريرة ذلك » أو « بهذه الجناية كان ذلك » .

ولكن هل هذا الكَتْب خاص ببنى إسرائيل ؟ . بعض العلماء قال:إن ابنى آدم ليس ابنى آدم مباشرة ؛ ولكنهما من ذُرِّية آدم وهما من بنى إسرائيل . ونَردّ : من هو إسرائيل أولاً الذى نُسب إليه أبناء إسرائيل ؟ . إنه يعقوب بن إسحاق ؛ بن إبراهيم ، وإبراهيم يصل إلى نوح بأحد عشر أباً ويصل نوح إلى شيث . وبعد ذلك إلى آدم ؛ **فهل كانت كل هذه السلسلة لا تعرف كيف تدفن الميت إلى أن جاء بنو إسرائيل ؟**

طبعاً لا ؛ ومادام الحق أوضح أنه سبحانه قد بعث غُراباً يبحث فى الأرض ليُرِيَه كيف يُوارى سَوْءَة أخيه ، فهذا دليل على أن هابيل هو أول إنسان تَمَّ دفنه ، ومن غير المقبول ـ إذن ـ أن نقول:إن الإنسان لم يعرف كيف يوارى جثمان الميّت إلى أن وصلت **البشرِّية إلى زمن بنى إسرائيل ، وأنهم هم الذين علموا البشرية ذلك !**

ولماذا جاء الحق هنا ببنى إسرائيل ؟ . سبب ذلك أن بنى إسرائيل اجترأوا لا على قتل النفس فقط بل اجترأوا على قتل النفس الهادية ، وهى النفس التى تحمل رسالة النّبوة ، ولذلك كان التخصيص ، فقد قتلوا أنبياءهم الذين حملوا لهم المنهج التطبيقى ؛ لأن الأنبياء يأتون كنماذج تطبيقية للمناهج حتى يلفِتوا الناس إلى حقيقة تطبيق منهج الله . الأنبياء ـ إذن ـ لا يأتون بشرع جديد ، ولكنهم يسيرون على شرع من قبلهم . فلماذا قتل بنو إسرائيل بعضاً من الأنبياء ؟ لقد تولّدت لدى بنى إسرائيل حفيظة ضد هؤلاء الأنبياء .

ونعلم أن الإنسان الخيِّر حين يصنع الخير ويراه الشرّير الذى لا يقدر على صناعة الخير فتتولد فى نفس الشرّير حفيظة وحقد وغضب على فاعل الخير . ففاعل الخير كلما فعل خيراً إنما يلدغ الشرّير ، ولذلك يحاول الشرّير أن يُزيح فاعل الخير من أمامه . وكان الأنبياء هم القدوة السلوكية ، وقد قال الحق عن بنى إسرائيل :

﴿ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ ﴾

(من الآية ٩١ سورة البقرة)

وجاء الحق هنا بـ «من قبل » هذه لحكمة ؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان فى عداءٍ مع اليهود ، وقد تَهبّ عليهم الخواطر الشرّيرة فيحاولون قتل النّبى .

وقد حاولوا ذلك . مثلما أرادوا أن يلقوا عليه حجراً ، ودسُّوا له السّم ، ولذلك قال الله : « من قبل » أى إن قدرتكم على قتل الأنبياء كانت فى الماضى ؛ أما مع محمد المصطفى فلن تُمكَّنُوا منه .

ويقول سبحانه : « من أجل ذلك كتبنا على بنى إسرائيل أنه من قتل نفساً بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً » . وهذا توضيح لإرادة الحق فى تأسيس الوحدة الإيمانية ليجعل من المجتمع الإيمانى رابطة يوضحها قول رسول الله فيما رواه أبو موسى الأشعرى عنه :

(المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً) .

وإياك أن تنظر إلى مجترىء على غيرك ، بالباطل ، وتقف مكتوف اليدين ؛ لأن الوحدة الإيمانية تجعل المؤمنين جميعاً كالجسدالواحد ، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسّهر والحُمى . فإن قَتل إنسان إنساناً آخر ووقف المجتمع الإيمانى موقف العاجز . فهذا إفسادٌ فى الأرض ، ولذلك يجب أن يقابل المجتمع مثل هذا الفعل لا على أساس أنه قتل نفسا واحدة ، بل كأنه قتلٌ للناس جميعاً ما لم يكن قتل النفس لقصاص أو إفساد فى الأرض .

ويكمل الحق سبحانه الشق الثانى من تلك القضية الإيمانية : « ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً » ، وهذه هى الوحدة الإيمانية ، فمن يعتدى على نفس واحدة بريئة ، كمن يعتدى على كل الناس ، والذى يسعف إنساناً فى مهلكة كأنه أنقذ الناس جميعاً .

وفى التوقيع التكليفى يكون التطبيق العملى لتلك القاعدة ، فالذى يقتل بريئاً عليه لعنة الله وغضبه ويعذبه الله ، وكأنه قتل الناس أجمعين ، وإن نظرنا إليها من ناحية الجزاء فالجزاء واحد .

« ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا » . وسبحانه وتعالى يريد ألا يستقبل المجتمع الإيمانى مجترئاً بباطل على حق إلا أن يقف كل المجتمع أمامه ، فلا يقف

المعتدَى عليه بمفرده ؛ لأن الذى يُجرِّىء أصحاب الشّر هو أن يقول بعض الناس كلمة « وأنا مَالِى » .

و« الأنا مالية » هى التى تُجرِّىء أصحاب الشرور ، ولذلك اقرأوا قصة الثيران الثلاثة : الثور الأسود والثور الأحمر والثور الأبيض ، فقد احتال أسد على الثورين الأحمر والأسود ، فسمحا له بأكل الثور الأبيض . واحتال الأسد على الثور الأسود فسمح الثور الأسود للأسد بأكل الثور الأحمر ؛ وجاء الدور على الثور الأسود ؛ فقال للأسد :

ـ أكِلتُ يوم أُكِلَ الثور الأبيض . كأن الثور التفت إلى أن « أنا ماليته » جعلته ينال مصرعه . لكن لو كان الثيران الثلاثة اجتمعوا على الأسد لقتلوه .

وهاهوذا الحديث النبوى الشريف الذى يمثل القائم على حدود الله والواقع فيها :

عن النعمان بن بشير رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « مثل القائم فى حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فصار بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها وكان الذين فى أسفلها إذا استقوا من الماء مرّوا على من فوقهم فقالوا: لو أنا خرقنا فى نصيبنا خرقاً ولم نؤذ من فوقنا . فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا وإن أخذوا على أيديهم نَجَوْا ونجوا جميعاً »[1] .

كذلك مثل القائم على حدود الله ومثل الواقع فيها ، فكأن الحق سبحانه وتعالى يقول لنا : لا تنظر إلى أن نفساً قتلت نفساً بغير حق ، ولكن انظر إليها كأن القاتل قتل الناس جميعاً ؛ لأن الناس جميعاً متساوون فى حق الحياة . ومادام القاتل قد اجترأ على واحد فمن الممكن أن يجترىء على الباقين .

أو أن يكون فعله أُسْوَة لغيره ، ومادام قد اسْتَن مثل هذه السُّنة ، سنجد كل من يغضب من آخر يقتله ، وتظل السلسلة من القتلة والقتلى تتوالى .

(١) رواه البخارى فى الشركة والشهادات ، ورواه الترمذى فى الفتن ، ورواه أحمد فى مسنده .

والحديث النبوى يقول :

« من سن فى الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء ، ومن سن فى الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء » .

إنه الاحتياط والدقة والقيد : « من قتل نفساً بغير نفس أو فساد فى الأرض » ولو كان التشريع تشريعاً بشرياً فمرّت عليه هذه المسألة يمكن أن يستدركها بعد ذلك بشرح أو تعديل ، ولكن المُشرّع الأعلى لا يستدرك .

« من قتل نفساً بغير نفس أو فساد فى الأرض » . فكأن من قتل نفساً بنفس أو بفساد فى الأرض ، لا يقال عليه : إنه قتل الناس جميعاً ، بل أحيا الناس جميعاً ؛ لأن التجريم لأى فعل يعنى مجيء النص الموضح أن هذا الفعل جريمة ، وبعد ذلك نضع لهذه الجريمة عقوبة . ولا يمكن أن تأتى لواحد ارتكب فعلاً وتقول له : أنا أؤاخذك به وأعاقبك عليه بغير أن يوجَد نص بتجريم هذا الفعل .

وهناك توجد قاعدة شرعية قانونية تقول : « لا تجريم إلاّ بنص ولا عُقوبة إلاّ بتجريم » . أى أننا نُرتّب العقوبة على الجريمة ، أو ساعة يُجرّم فعل يُذكر بجانب التجريم العقوبة ، فهل القصد هو عقاب مُرتكب الجُرم ؟ لا إنما القصد هو تفظيع العقاب حتى يراه كل إنسان قبل أن يرتكب الجريمة ، والهدف هو منع الجريمة ، ولذلك نجد الحكمة البشرية القائلة : « القتل أنفى للقتل » ، وبطبيعة الحال لا يمكن أن ترقى تلك الحكمة إلى قول الحق :

﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾

(من الآية ١٧٩ سورة البقرة)

لأننا يمكن أن نتساءل : أىّ قتل أنفى للقتل ؟ . وسنجد أن المقصود بالحكمة ليس القتل الابتدائى ولكن قتل الاقتصاص . وهكذا نجد الأسلوب البشرى قد فاتته اللمحة الفعّالة فى منع القتل الموجودة فى قوله الحق : « من قتل نفساً بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً » . وكلمة « أحياها » لها أكثر من معنى . وبالتحديد لها معنيان : المعنى الأول : أنه أبقى فيها

الروح التى تحرك المادة ، والمعنى الثانى : إحياء الروح الإيمانية ، مصداقاً لقول الحق :

﴿ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾

(من الآية ٢٤ سورة الأنفال)

ولنا أن نلتفت إلى أن الحق وضع الفساد فى الأرض مُستحقاً لعقوبة القتل . والفساد هو إخراج الصالح عن صلاحيته ، والمطلوب منا إيمانياً أن الأمر الصالح فى ذاته علينا أن نُبقيه صالحاً ، فإن استطعنا أن نزيده صلاحاً فلنفعل وإن لم نستطع فلنتركه على صلاحه .

ولماذا جاء الحق بعقاب للفساد فى الأرض ؟. مدلول الأرض : أنها المنطقة التى استخلف الحق فيها البشر ، وساعة يقول الحق : « أو فساد فى الأرض » فمعنى ذلك أن كل فساد عائد على كل مظروف فى الأرض . وأول مظروف فى الأرض أو السيد لها هو الإنسان . وعندما نفسد فى الإنسان ، فهذا معناه قتل الإنسان .

إذن لا بد أن يكون الفساد فى أشياء أخرى : هى الأكوان أو الأجناس الأخرى ؛ الحيوانات والنباتات والجمادات . والفساد فى هذه الكائنات بكون بإخراجها عن مستحوزها ملكيةً ، كأن تسطو جماعة على بضاعة إنسان آخر ، أو أن يأخذ واحد ثمار زرع لأحد ، أو أن يأخذ بعضاً من إنتاج منجم منجنيز أو حديد أو خلافه .

إن الفساد نوعان : فساد فى الأرض وهو متعلق بالمظروف فى الأرض ، والمظروف فى الأرض سيد وهو الإنسان ، والفساد فيه قتله أو أن تُسبب له اختلالاً فى أمنه النفسى كالقلق والاضطراب والخوف . ونلحظ أن الحق سبحانه قد امْتَنّ على قريش بأنه أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف .

إذن فمن الفساد تفزيع الناس وترويعهم وهو قسمان : قسم تُفَزِّع فيه مَن لك عنده ثأر أو بينك وبينه ضغينة أو بُغض ، أو أن تُفَزِّع قوماً لا علاقة بينك وبينهم ولم يصنعوا معك شيئاً . فمن يعتدى على إنسان بينه وبينه مشكلة أو عداوة أو بغضاء ، لا نُسمّيه خارجاً على الشريعة ؛ بأخذ حقه ، ولكنه لا يستوفى فى حقه بيده بل لا بد

من حاكم يقوم بذلك كى ينضبط الأمر ويستقيم ، إنه يخرج على الشريعة فقط فى حالة العُدوان .

أما الذى يذهب للاعتداء على الناس ولم يكن بينه وبينهم عداء ؛ فهذه هى الحرابة . كأن يخرج ليقطع الطريق على الناس ويخيف كل من يلقاه ويُسبِّب له القلق والرّعب والخوف على نفسه وماله ، والمال قد يكون من جنس الحيوان أو جنس النبات أو جنس الجماد . وذلك ما يسميه الشرع حرابة وستأتى لها آية مخصوصة .

إذن . فالفساد فى الأرض معناه إخراج صالح عن صلاحه مظروف فى الأرض ، والمظروف فى الأرض سيده الإنسان ، والإفساد فيه إما بقتله أو إهاجته وإشاعة الرّعب فيه ، وإما بشىء مملوك له من الأشياء التى دونه فى الجنسية مثل الزروع أو النباتات أو الحيوانات . فكأن الفساد فى الأرض - أيضاً - يؤهل لقتل النفس :

« منْ قتل نفساً بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جَميعاً » . أى أن القتل بغير إفساد فى الأرض ؛ هو القتل الذى يستحق العقاب . أما القتل بإفساد فى الأرض فذلك أمر آخر ؛ لأن هناك فارقا بين أن يُقتل قِصاصاً أو أن يقتل حدّاً من المُشرِّع ؛ وحتى عفو صاحب الدم عن القاتل فى الحرابة وقطع الطريق لا يشفع فى ذلك ولا يسقط الحد عن الذى فعل ذلك ؛لأنها جريمة ضد المجتمع كله .

ويتابع سبحانه : « ولقد جاءتهم رُسلنا بالبيّنات ثم إن كثيراً منهم بعد ذلك فى الأرض لمسرفون » والمُسرف هو المُتجاوز للحَد ، وهو من لا يأخذ قدر تكوينه وموقعه فى الوجود ، بل يحاول أن يخرج عن قدر إمكاناته فى الوجود .

مثال ذلك : رجل حاول أن يسطو على حق غيره فى الوجود ؛ متخطياً منزلة الاعتدال فلا يأخذ حقه فقط . مثل قطاع الطريق أو النهابين يأخذون عرق غيرهم وتعودوا أن يعيشوا كذلك وبراحة . والمصيبة لا تكون فى قاطع الطريق وحده ، ولكن تتعداه إلى المجتمع . فيقال : إن فلاناً يجلس فى منزله براحة وتكفيه ساعة بالليل ليسرق الناس .

إن الأمـر لا يقف عند حدود ذلك الإنسان إنما يتعـدّاه إلى غيره . ويحيا من

يملك مالاً فى رُعب ، وعندما يُفجَع فى زائد ماله ، يفقد الرغبة فى أن يتحرك فى الحياة حركة زائدة تُنتج فائضاً لأنه لا يشعر بالأمن والأمان . وعندئذ يفقد العاجز عن الحركة فى المجتمع السند والعون من الذى كان يتحرك حركةً أوسع . إذن من رحمة الله أنه فتح أمام البشر أبواب الآمال فى التملُّك ، مادام السعى إلى ذلك يتم بطرق مشروعة .

ونضرب هذا المثل ـ ولله المثل الأعلى ـ : الرجل المُرابى الذى يُقرض مُحتاجاً مائة جنيه ، كيف يطلب المرابى زيادة ممّن لا يجد شيئا يقيم به حياته ؟ إنه بذلك يكون قد أعطى مَن وجد أزيد مما أخذ منه مع فقره وعجْزه . إن ذلك هو الإسراف عينه .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِى ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡىٌ فِى ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِى ٱلۡأَخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ ﴾

أول شيء فى الحرب هو الاستيلاء ؛ فمعنى أن يحارب قوم قوماً غيرهم أى يرغبون فى الاستيلاء على خيرات أو ممتلكات الطرف الآخر . فكيف يحارب قومٌ اللَّهَ وهو غيب ؟ . وأول حرب للَّه هى محاولة الاستيلاء على سلطانه ، وهو تشريعه . فإن حاولت أيها الإنسان أن تشرع أنت على غير منهج الله فأنت تريد أن تستولى على حق الله فى التشريع . وهذه أول حرب لله .

والذين يحاربون الله أَهُمُ الذين يريدون أن يستولوا على ملك الله ؟ لا ؛ لأن يد الله فى مُلكه أزلا ، وستبقى أبدًا وسبحانه لن يسلّمه لأحد من عباده . فعلى ماذا

ـ إذن ـ يريدون الاستيلاء ؟. إنهم يريدون تزييف تشريعات الله ، بينما سبحانه هو المُشرّع وحده . والتشريع ـ كما قلنا ـ هو قانون صيانة للصّنعة . إذن لماذا لا نترك خالق الإنسان ليضع القواعد التى تصون البشر ؛ لذلك فأول افتيات يفعله الناس أنهم يُشرّعون لأنفسهم ؛ لأن قانون صيانة الإنسان يضعه خالق الإنسان ، فإذا ما جاء شخص وأراد أن يضع للإنسان ـ الذى هو منه ـ قانون صيانة نقول له : إنك تستولى على حق الله .

وكيف يحاربون الرسول ؟.

نعرف أن الرسول صلى الله عليه وسلم له وضعان ؛ فالله غيب ؛ لكن الرسول كان مشهداً من مشاهدنا فى يوم من الأيام ، وقد حورب بالسيف ، وعندما انتقل الرسول إلى الرفيق الأعلى أصبحت حربه كحرب الله ، فنأخذ سلطته فى التشريع ، وهى السلطة الثانية ونقول لها : نحن سنشرع لأنفسنا ولا ضرورة لهذا الرسول ، أو أن يقول نظام ما : سنأخذ من كلام الله فقط وذلك ما ينتشر فى بعض البلدان . ونقول لكل واحد من هؤلاء : أتؤدى الصلاة ؟. فيقول : نعم . نسأله : كم ركعة صليت المغرب ؟. فيجيب ثلاث ركعات . نسأله : من أين أتيت بذلك ؟. ومن أين عرفت أن صلاة المغرب ثلاث ركعات وهى لم تذكر فى القرآن الكريم ؟. هنا سيصمت .

ونسأله : كيف تخرج الزكاة وبأى حساب تحسبها ؟ فيقول : أخرج الزكاة بقدر اثنين ونصف بالمائة فى النقدين والتجارة مثلا .

نقول له : كيف ـ إذن ـ عرفت ذلك ؟. وأيضا كيف عرفت الحج ؟. إذن فللرسول صلى الله عليه وسلم مهمة ، وحرب النبى تكون فى ترك قول أو فعل أو تقرير له عليه الصلاة والسلام .

ومثال ذلك هؤلاء الذين يقولون : إن أحاديث رسول الله كثيرة . ونقول لهم : كانت مدة رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة وعشرين عاماً وكل كلامه حديث ، فكل كلمة خرجت من فمه حديث شريف ، ولو كنا سنحسب الكلام فقط لكان مجلدات لا يمكن حصرها ، وكل كلام سمعهُ وأقرّه من غيره حديث ، وكل

فعل فعله غيره أمامه وأقرّه ولم يعترض عليه حديث ، فكم تكون أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ . وكيف يستكثر بعض الناس قدراً من الأحاديث التى وصلتنا بعد قدر هائل من التنقية البالغة ؟ ؛ لأنهم قالوا : لأن نبعد عن رسول الله ما قاله خير من أن ندخل على رسول الله ما لم يفعله . إنهم يدعون أن هذا حفظ للإسلام ولكن فاتهم أن الله حافظ دينه ، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد وضع القواعد لغربلة الأحاديث فقال :

« من كذب على مُتعمداً فليتبوّأ مقعده من النار »[١] .

وها هوذا البخارى ينقل عن المعاصرين لرسول الله صلى الله عليه وسلم والذين قابلوه ، وسيدنا مُسلم يعتبر المعاصرة كافية لأنّها مظنّة المقابلة وتحرى كل منهما الدقة الفائقة . وأى شخص كان به خدشة سلوكية لا يؤخذ بقوله ، ولذلك عندما حاول البعض أن ينال من الأحاديث وقال أحدهم : « أنا يكفينى أن أقول لا إله إلا الله » ، تساءلت : كيف لا يذكر أن محمداً رسول الله ؟ وكيف يمكن أن يؤدى الأذان للصلاة ؟ وكيف يؤدى الصلاة ؟ وكيف يمكن أن يفهم قول الحق :

﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ ﴾

(من الآية ٧ سورة الحشر)

وهذا تفويض من الله فى أن يكون لمحمد صلى الله عليه وسلم تشريع .

وكذلك الاجتراءات على الأئمة ، هم يجترئون أولاً على النبى ثم يزحفون على الدين كله . وجاء فيهم قول الحق : « إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فساداً » أى يخرجون الصالح بذاته عن صلاحه ليكون فاسداً . الجزاء أن يُقتَّلوا أو يُصَلَّبوا ، وهذا التفعيل فى قوله : (أن يقتلُوا أو يصلَّبُوا) جاء للشدة والتقوية ؛ حتى يقف منهم المجتمع الإيمانى العام موقف القائم على هذا الأمر ، والسلطة الشرعية قامت عن الجميع فى هذا الأمر ، كما يقال : إن النائب العام نائب عن الشعب فى أن يرفع الدعوى ، حتى لا ينتشر التقتيل بين الناس ، دون أن يفقهوا حكمة كل أمر .

« أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من

(١) رواه أحمد والترمذى والحاكم عن على كرم الله وجهه .

الأرض » . وهل « أو » هنا تخييرية ، أو أنّ هنا ـ كما يقال ـ « لف ونشر » ؟ واللف هو الطى . والنشر هو أن تبسط الشيء وتفرقه .

فما اللف ، وما النشر ـ إذن ـ ؟ مثل ذلك ما يقوله الشاعر :

قلبى وجفنى واللسان وخالقى . .

لقد ذُكر مُتعدّد ولكن الأحكام غير مذكورة ، هذا هو اللف ؛ فجمع المبتدءات دون أن يذكر لكل واحد منها خبره ؛ ثم جاء بالأحكام على وفق المحكوم عليه . فأكمل بيت الشعر بقوله :

راضٍ وباكٍ شاكرٌ وغفورُ

ولنقرأ البيت كاملاً :

قلبى وجفنى واللسان وخالقى
راضٍ وباكٍ شاكرٌ وغفورُ

والحق يقول :

﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ ﴾

(من الآية ٧٣ سورة القصص)

فقوله : « لتسكنوا فيه » راجع إلى الليل ، وقوله : « ولتبتغوا من فضله » راجع إلى النهار . وهنا جاء باللف ، ثم جاء بالنشر .

والفساد ـ كما نعلم ـ له صُور متعددة ، فالفساد فى الإنسان قد يعنى قتله . أو قتله وأخذ ماله . أو الاستيلاء على ماله دون قتله . أو إثارة الرعب فى نفس الإنسان دون أخذ ماله أو قتله . فكأن كلمة الفساد طوى فيها ألوان الفساد ، نفس تقتل ، أو نفس تقتل مع مال يُسلب ويؤخذ ، أو مال يُؤخذ دون نفس تقتل ، أو تخويف وتفزيع .

ويقول الحق : « أو ينفوا من الأرض »، والنفى معناه الطرد والإبعاد ، والطرد لا يتأتى إلا لثابت مُستقر ، والإبعاد لا يتأتى إلا لمُتمكن . إذن ، فقبل أن يُنفى لا بد

أن يكون له ثبوت وتمكُّن فى موضع ما ، وهو ما نسميه اصطلاحاً السكن ، أو الوطن ، أو المكان الذى يقيم به الإنسان لأنه ثابت فيه . ومعنى ثابت فيه . أى له حركة فى دائرته ، إلا أنه يأوى إلى مكانٍ مُستقر ثابت ، ولذلك سُمى سكناً ؛ أى يسكن فيه من بعد تحركه فى مجالاته المختلفة . ومعنى النفى على هذا هو إخراجه من مسكنه ومن وطنه الذى اتخذه موطناً له وكان مجالاً للإفساد فيه . ولكن إلى أى مكان نُخرج إليه هذا الذى نحكم عليه بالنفى ؟ قد يقول قائل : أنت إن أخرجته من مكان أفسد فيه وذهبت به إلى مكان آخر فقد تشيع فساده !

لا ؛ لأن النفى لا يتيح له ذلك الإفساد ، ذلك أن التوطن الأول يجعل له إلفاً بجغرافية المكان ، وإلفاً بمن يخيفهم ؛ فهو يعرف سلوك جيرانه ويعرف كيف يخيف فلانا وكيف يغتصب بضاعة آخر وهكذا . ولكنه إن خرج إلى مكان غير مستوطن فيه فسوف يحتاج إلى وقت طويل حتى يتعرف إلى جغرافية المكان ومواقع الناس فيه ، ومواطن الضعف فيهم . وعلى ذلك يكون النفى هو منعٌ لإفساد الفاسد .

وحين يقول سبحانه : « أو ينفوا من الأرض » نعرف أن كلمة « الأرض » لها مدلول ونسمى الأرض الآن : الكرة الأرضية . وكانوا قديماً يفهمونها على أنها اليابسة وما فيها من مياه ، وبعد أن عرفنا أن جَوَّ الأرض منها صار جو الأرض جزءا من الأرض . ولذلك قلنا فى المقدسات المكانية : إن كل جو يأخذ التقديس من مكانه ؛ فجو الكعبة كعبة ؛ بدليل أن الذى يصلى فى الدور الثالث من الحرم ؛ ويتجه إلى الكعبة . يصلى متجها إلى جو الكعبة . ومن يستقل طائرة ويرغب فى إقامة الصلاة يتجه إلى جو الكعبة ، وعندما ازدحم الحجيج وصار المسعى لا يتسع لكل الحجيج أقاموا دوراً ثانياً حتى يسعى الناس فيه . إذن فالمسعى ليس هو المكان المحدد فقط ، ولكن جوه أيضا له قدسية ؛ فإن بنينا كذا طابقا فهى تصلح أيضا كمسعى .

إذن فجو الأرض ينطبق عليه ما ينطبق على الأرض . ولذلك كانوا يُحرمون ـ قبل أن يوجد طيارون مسلمون ـ أن يُحَوِّم فى جو الحرم طيار غير مسلم ؛ لأن الطيار غير المسلم مُحرم عليه أن يدخل الكعبة والحرم . ومادام هناك إنسان ممنوع من دخول الكعبة فهو أيضا ممنوع من الطيران فى جَوّ الكعبة .

لأن جَوّ المكان يأخذ قُدسية المكان أو حكمه ؛ فالجَوّ من الأرض ، ونعرف أن الغلاف الجوى يدور مع الأرض . ومن هذا نعرف العطاءات القرآنية من القائل لكلامه وهو سبحانه الخالق لكونه . ومادام القائل للقرآن هو الخالق للكون ، إذن لا يوجد تضارب بين حقيقة كونية وحقيقة قرآنية . وإنما يوجد التضارب من أحد أمرين : إما أن نعتبر الأمر الذى لايزال فى طور النظرية حقيقة فى حين أنها لم تصبح حقيقة بعد ؛ وإما أن نفهم أن هذا حقيقة قرآنية ، على الرغم من أنه ليس كذلك ، فإذا كان الأمر هو حقيقة كونية بحق وحقيقة قرآنية بحق ، فلا تضارب على الإطلاق . ودليل ذلك على سبيل المثال قول الحق سبحانه :

﴿ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ﴾

(من الآية ٣٤ سورة لقمان)

ويأتى العلم الحديث بالبحث والتحليل ، ويقول بعض السطحيين :

لا ، إن العلم يعرف ما فى الرّحم من ذكر أو أنثى . ونقول : نحن لا نناقش ذلك ؛ لأنها حقيقة كونية وهى لا تتصادم مع الفهم الصحيح للحقيقة القرآنية ؛ لكننا نسأل : متى يعرف العلماء ذلك ؟ هم لا يعرفون هذا الأمر إلا بعد مُضى مُدة زمنية ، ولكن الحق يعلمه قبل مرور أية مدة زمنية . ثم مَن قال : إن الحق يقصد بـ«ويعلم ما فى الأرحام» ذكراً أو أنثى فحسب؟ وهل لمدلولها وجه واحد؟ لا ، بل له وجوه متعددة فلن يعرف أحد أن ما فى الرحم سيكون من بعد إنسانا طويلاً أو قصيراً ؛ ذكيا أو غبيّاً ؛ شقيّاً أو سعيداً ؛ طويل العمر أو قصير العمر ؛ حليماً أو غضوباً . فلماذا نحصر «ما» فى مسألة الذكر والأنثى فقط ؟

إنه هو سبحانه يعلم المستقبل أزلاً قبل أن يعلم أى عالم وقبل أن يحصل العالم على أية عينة . ثم هل تذهب كل حامل إلى الطبيب ليفحص معملياً ما الذى تحمله فى بطنها ؟ طبعاً لا ، ونحن لا نعلم ماذا فى بطنها ولكن الخالق الأعظم يعلم . ثم هل تذهب كل النساء الحوامل فى العالم لطبيب واحد ؟ بالطبع لا ، ولكن الخالق الأعظم يعلم ما فى كل الأرحام .

إذن فالحقيقة القرآنية لم تصطدم بأية حقيقة كونية ، لكن الصدام يحدث عندما

نفهم فهما خطأ أن الحقيقة القرآنية فى قوله الحق : « ويعلم ما فى الأرحام » مقصود به العلم بالذكر والأنثى فقط .

ومثال آخر ، يقول الحق :

﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَـٰهَا ﴾

(من الآية ١٩ سورة الحجر)

ويُخطىء البعض الفهم عن الله فيظن أن المقصود بذلك أن الأرض بساط أمام الإنسان . وقد ثبتت للبشر حقيقة كونية هى أن الأرض كروية بالأدلة خلال رحلة ماجلان ثم بالقواعد الخاصة بوضع الأعمدة ؛ وظهور أعالى الأشياء قبل أسافلها وغير ذلك ، ثم صارت فى عصرنا مُشاهدة من الأقمار الصناعية . إذن هذه الحقيقة الكونية لا كلام فيها ، وكان الخطأ هو فهم مدلول الحقيقة القرآنية والفهم الصواب فى مدلول الحقيقة القرآنية الخاصة بقوله تعالى : « والأرض مددناها » ؛ إننا كلما وقفنا فى مكان نجد أرضا ، أى أن الأرض لا نهاية لها وليس لها حافة .

إذن فسبحانه قد مَد الأرض أمام الإنسان بحيث إذا سار الإنسان فى أى اتجاه ؛ يجد أرضاً . ولا يتأتى ذلك إلا إذا كانت الأرض كروية . لهذا كان الخطأ فى فهم مدلُول الحقيقة القرآنية ؛ لأن التضارب إنما ينشأ من فهم أنها حقيقة كونية وهى ليست كذلك ، أو من فهم أنها حقيقة قرآنية على نحو خاطىء ، إنهما لا تتعارضان ، فالقائل هو الخالق عينه . ولهذا عرفنا متأخراً أن الجو من الأرض وأن الغلاف الجوى يدور مع الأرض ، وكنا نقول : سرنا على الأرض ، لكنه سبحانه قال وهو العليم :

﴿ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾

(من الآية ١١ سورة الأنعام)

وهو سبحانه علم أزلاً أن الجو جزء من الأرض . فمهما سار الإنسان على اليابسة ففوقه الغلاف الجوى . إذن فالإنسان إنما يمشى فى الأرض وليس على الأرض . أما إن سار الإنسان فوق الغلاف الجوى فهو يسير فوق الأرض .

ونعود إلى قوله الحق : « أو ينفوا من الأرض » وقد عرفنا أن النفى هو الطرد والإبعاد ، فأى أرض ينفون منها وإلى أى أرض ؟ ولا يكون الطرد إلا لمستقر

ولا الإبعاد إلا لثابت . وحتى فى اللغة نعرف ما يسمى النفى والإثبات . وكل ذلك مأخوذ من شىء حِسى ؛ فعندما نأخذ الماء من البئر نُنزل إلى قاع البئر دلواً ، وكل دلو ينزل إلى البئر له « رِشاء » وهو الحبل الذى نُنزل بواسطته الدلو .

إننا ساعة نُخرج الدلو من البئر ، يكون قد أخذ من الماء على قدر سعته وحجمه . فهل لدينا حركة ثابتة نستطيع بها المحافظة على استطراق الماء إلى تمام حافة الدلو ؟ طبعاً هذا أمر غير ممكن ؛ بل نجد قليلا من الماء يتساقط من حوافى الدلو ، وهذا الماء المتساقط يُسمى « النِّفِى » ؛ لأننا لا نستطيع استخراج الدلو وهو ملآن لآخره بحركة ثابتة مستقرة بحيث تحافظ على استطراق الماء .

إن الماء ـ كما نعلم ـ له استطراق دقيق إلى الدرجة التى جعلت البشر يصنعون منه ميزاناً للاستواء . ومن « النَّفْى » تؤخذ معان كثيرة ، فهناك « النفاية » وهى الشىء الزائد . إذن كيف يكون النفى من الأرض ؟ وهل نأخذ الأرض بمفهومها العام أو بمعناها الخاص ؟ أى الأرض التى حدث فيها قطع الطريق ؟

إن أخذناها بالمعنى الخاص فالنفى يكون لأى أرض أخرى . وإن أخذنا الأرض بالمعنى العام فكيف يكون النفى ؟ ونرى أن الحق سبحانه قد قال فى موضع آخر من القرآن :

﴿ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ ﴾

(من الآية ١٠٤ سورة الإسراء)

هم بلا جدال يسكنون فى الأرض . وجاء هذا القول لمعنى مقصود ، ونعرف أننا لا نذكر السكن إلا ويكون المقصود تحييز مكان فى الأرض ، كأن يقول قائل : « اسكن ميت غمر » أو « اسكن الدقهلية » أو « اسكن طنطا » ، وهذا تحديد لموقع من الأرض للاستقرار ، والمعنى المقصود إذن أن الحق يبلغنا أنه سيقطعهم فى الأرض تقطيعاً بحيث لا يستقرون فى مكان أبدا . وذلك مصداقا لقول الله :

﴿ وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ﴾

(من الآية ١٦٨ سورة الأعراف)

فليس لهم وطن خاص . وتمت بَعْثَرَتُهم فى كل الأرض ، وهذا هو الواقع الذى

حدث فى الكون . أوُجِدَ لبنى إسرائيل استقرار فى أى وطن ؟ . لا . وحتى الوطن الذى أقاموه بسبب وعد بلفور لم يترك الحق أمره . بل أعطى وعده للمؤمنين بأن يدخلوا المسجد إذا ما أحسنوا العمل لاسترداده . ومازال اليهود بطبيعتهم شتاتاً فى أنحاء الأرض . ولهم فى كل وطن حىّ خاص بهم . وتحتفظ كل جماعة منهم فى أى بلد بذاتيتهم ولا يذوبون فى غيرهم :

﴿ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

وحين يأتى بهم الحق فى الجولة الآخرة سيأتون لفيفاً أى مجتمعين ؛ لأن الأمّة المؤمنة حين يقوّيها الله لتضرب على هؤلاء القوم ضربة لا بد أن يكونوا مُجتمعين . وكأن الله قد أراد أن يكون هذا « الوطن القومى » حتى يتجمعوا فيه وبعد ذلك يرسل الضربة عليهم لأنه جاء بهم لفيفاً ؛ لذلك لا نحزن لأنه قد صار لهم وطن ، فقد جاء بهم لفيفاً .

ونعود إلى الآية التى نحن بصددها . كيف يكون النفى من الأرض ؟ حين يريد الله تَحييز مكان فهو يقول على سبيل المثال :

﴿ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ﴾

(من الآية ٢١ سورة المائدة)

إذن فقد نفى غيرها . وهو يقول أيضاً :

﴿ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ﴾

(من الآية ١١٠ سورة الأعراف)

وكان المقصود بها مصر .

فإذا أخذنا الأرض بالمعنى العام فحكمها حُكم « اسكنوا الأرض » . والنفى هو صورة من صور العقوبات للإفساد ، والإفساد فى الأرض ينقسم إلى أربعة أقسام ؛ قتل ، قتل وأخذ مال ، أخذ مال فقط ، ترويع . وقد زاد رسول الله صلّى الله عليه وسلم شيئاً وفعله فى سيرته ، فقد جاء لنا بأمر جديد فى أمر الإفساد . وكان على

العلماء أن يتنبهوا له ، فأول نفى حصل فى الإسلام كان نفى رسول الله الحَكَم بن أبى العاص من المدينة إلى الطائف ؛ لأن الحكم ـ والعياذ بالله ـ كان يُقلّد مِشْيَة النبىّ باستهزاء ، وكان النبى صلّ الله عليه وسلم إذا مشى تكفأ تكفؤاً كأنما يَتحدَّر من صَبَبٍ . فقد كانت مشية النبى مشية خاصة . وعلم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الحَكَمَ يقلد مِشيته فى استهزاء والتفت النبى ـ ذات مرة ـ فجأة ، فوجد الحكم يقلده فى مِشيته فنفاه من المدينة إلى الطائف ، وظل الحكم فى الطائف طوال حياة رسول الله صلّ الله عليه وسلم . فلما جاءت خلافة أبى بكر الصديق ، ذهب أهل الحَكَم إلى أبى بكر ، فقال :

ـ ما كنت لأحلّ عقدة عقدها رسول الله صلى الله عليه وسلم . وذهبوا إلى عمر بن الخطاب فلم يوافق . وعندما جاءت خلافة عثمان وكان رضى الله عنه حَيياً وخجولاً فقال : لقد أخذت كلمة من رسول الله صلّ الله عليه وسلم تحمل شبهة الإفراج عنه . ويفرج عنه عثمان بن عفان رضى الله عنه .

وأثناء حياة الحَكَم فى الطائف كان يربى بعض شُويهات وبعض غُنيمات وكان يرعاها عند جبيلات الطائف . وكان لهذه المسألة آثار من بعد ذلك . فأنتم تعلمون أن معاوية رضى الله عنه أنجب يزيد الذى تولّى الخلافة من بعده . وانتقلت الخلافة بعد يزيد لآل مروان بن الحَكَم .

وكان خالد بن يزيد الذى ترك الخلافة لمروان عالماً كبيراً فى الكيمياء وله أخ اسمه عبدالله ، وكان لعبدالله جياد يتسابق بها . وكان لولد من أولاد عبدالملك بن مروان جياد أيضاً ، وجرت جياد عبدالله مع جياد ابن عبدالملك فى مضمار سباق ، فلما جاءت خيل عبدالله لتسبق . . حدث خلاف بين عبدالله وابن عبدالملك ؛ فنهر ابن عبدالملك عبدالله ، فذهب عبدالله واشتكى لأخيه خالد . وهنا ذهب خالد لعبدالملك بن مروان ، وقال له :

ـ لقد حدث من ابنك لأخى كذا وكذا . وكان عبدالملك فصيحاً فى العرب وما جربوا عليه لحناً أبداً . وربّى أولاده على ألا يلحنوا فى اللغة . وكان له ولد اسمه الوليد غير قادر على استيعاب النطق الصحيح للغة دون لحن .

فلما دخل خالد إلى عبدالملك أراد أن يجد فيه شيئاً يعيبه به ، قال عبدالملك لخالد : أتكلمنى فى عبدالله وقد دخل علىّ آنفاً فلم يخل لسانه من اللحن ؟

وقال خالد ـ معرضا بالوليد ـ : والله يا عبدالملك لقد أعجبتنى فصاحة الوليد . فقال عبدالملك : إن يكن الوليد يلحن فإن أخاه سليمان لا يلحن . فقال خالد : وإن كان عبدالله يلحن فإن أخاه خالداً لا يلحن .

فقال عبدالملك : اسكت يا هذا فلست فى العير ولا فى النفير .

وأظن أن قصة العير والنفير معروفة . فالعير هى التى كانت مع أبى سفيان وعليها البضائع من الشام وتعرض لها رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم نجا بها أبو سفيان . والنفير هم الجماعة التى استنفرها أبو سفيان من مكة لأنه خاف من المسلمين وكانت زعامتهم لعتبة . فالعير كانت زعامته لأبى سفيان والنفير كانت زعامته لعتبة بن ربيعة ، وكان عتبة هو جدّ خالد لأمه ، وأبو سفيان هو جدّه لأبيه . فقال خالد : ومن أولى بالعير وبالنفير منى ، جدّى أبو سفيان صاحب العير ، وجدى عُتّبة صاحب النفير ، ولكن لو قلت غنيمات وشويهات وجبيلات وذكرت الطائف ورحم الله عثمان لكان أولى . وأسكته .

إذن . فالنفى كان أول عقاب أنزله الرسول صلىّ الله عليه وسلم ، فهل ما فعله « الحَكَم » يُعتبر فساداً ؟ . ونقول : إن كل فساد إنما يترتب على الفساد الذى يمس رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكان الحَكَم يستهزىء بمِشية رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقد يقول مُشرّع ما : إن السجنْ يقوم مقام النفى ونقول : لا ، إن السجن الآن فيه الكثير من الرفاهية . فقد كان السجن قديماً أكثر قسوة . والهدف من السجن الإبعاد لتخفيف شرور المُفسِد وإن كان لا يبعده عن مستقره ووطنه . وذلك أمر متروك للحاكم يفعله كيف يشاء وخاصة إذا لم يكن هناك أرض إسلامية متعددة . بحيث يستطيع أن ينفيه من أرض إلى أرض أخرى .

ويتبع الحق هذا بقوله : « ذلك لهم خزى فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب عظيم »

وهذا القول لاحق لعقاب محدد للمفسدين فى الأرض المحاربين لله ورسوله وهو : « أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض » . وهذه العقوبات خزى لهم .

إن كلمة « خزى » ترد فى اللغة بمعنيين ؛ مرة بمعنى الفضيحة ، « خَزِىَ ، يَخْزَى ، خِزياً » ، أى انفضح ، ومرة ثانية هى « خَزِى ، يَخْزَى ، خَزاية وَخَزًى » بمعنى استحى . والمعنيان يلتقيان ، فمادام قد افتضح أمر عبدٍ فهو يستحى مما فعل . وتلك الأفعال خزى ، كالذى قطع طريقاً على أناس آمنين ، ونقول لمثل صاحب هذا الفعل : إن قوّتك ليست ذاتية بل قوّة اختلاسية ؛ فلو كانت قُوّتك ذاتية لاستطعت أن تتأبّى لحظة أن يأخذوك ليقتلوك أو يصلبوك أو يقطعوا يدك ورجلك . فقد اجترأت على العُزّل الذين ليست لهم استطاعة الدفاع عن أنفسهم ، وفى هذا خزى لك . خصوصاً وأنت ترى من كانوا يخافونك وأنت تنال العقاب . وخزيك الآن هو مقدمة لعذاب آخر فى الآخرة ، فسوف تنال عذاباً عظيماً .

« ذلك لهم خزى فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب عظيم » . وكل جزاء فى الدنيا إنما يأتى على قدر طاقات البشر فى العقاب ، ولكن ماذا إذا وُكِلُوا إلى طاقة الطاقات ؟. ها هى ذى عدالة الحق تتجلّى ، فهو سبحانه وتعالى يفسح المجال للمُسرفين على أنفسهم ؛ أولاً بالتوبة ؛ لأن الله الرّحيم بعباده لو أخذ كل إنسان بجريرة فعلها أو عاقب كل صاحب ذنب بذنبه لاستشرى فى الأرض فساد كل من ارتكب ذنباً لأنه يئس من رحمة الله فتشتد ضراوته وقسوته . وسبحانه فتح باب التوبة لكل من أسرف على نفسه . وإن لم توجد التوبة لصار المُسرف فاقِدا . وهب أن واحداً من الذين فعلوا ذلك استيقظ ضميره ، فإن تاب قبل أن تقدروا عليه فهناك حُكم ، أما إن تاب بعد أن يقدر عليه المجتمع فلا توبة له .

ويقول الحق :

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِن قَبۡلِ أَن تَقۡدِرُوا۟ عَلَيۡهِمۡۖ فَٱعۡلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٣٤﴾ ﴾

ومادام الإنسان قد تاب وقام بتسليم نفسه دون أن يقدر عليه المجتمع فقبول التوبة حَقٌّ له ، ويجب أن نأخذ « أن الله غفورٌ رحيم » فى نطاق ما جعله الله لنفسه ، أما ما جعله الله لأولياء المُعتدى عليهم فلا بد من العقاب للمعتدى إن طلبه أصحابه .

« إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم فاعلموا أن الله غفورٌ رحيم » . والقرآن يجعل من المنهج الإيمانى عجينة واحدة . لذلك يُقسّم المسائل إلى فصول كالتقنينات البشرية التى تُبوّب ؛ لذلك نجد القرآن يعامل الأقضية وكأنها فُرص استيقاظ للنفس ؛ لذلك يأخذ النفس إلى أمرٍ توجيهى بالطاعة .

وضربنا من قبل المثل حينما تكلم القرآن عن مسائل الأسرة فى سورة البقرة :

﴿ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ ۚ وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾ ﴾

(سورة البقرة)

ومن بعد ذلك يأتى إلى أمر الصلاة :

﴿ حَـٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَـٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا ۖ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾ ﴾

(سور البقرة)

وضع الله ـ إذن ـ الصلاة بين أمرين من أمور الأسرة ، حيث قال من بعد أمره بالحفاظ على الصلاة حتى أثناء القتال :

﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَـٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ ۚ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ ﴾

(من الآية ٢٤٠ سورة البقرة)

وجاء بأمر الحفاظ على الصلاة بين المشكلات الأسرية ، وذلك ليجعل الدين لبنة واحدة ، وأيضاً لأن النفس المشحونة بالبغضاء وزحام أمور الزواج والوصيّة والطلاق ؛ هذه النفس عندما تقوم إلى الصلاة لله فهي تهدأ . ولنا في رسول الله صلىّ الله عليه وسلم أسوةٌ حسنة . فقد كان إذا حَزَبَه أمرٌ واشتد عليه قام إلى الصلاة .

إذن فالحق سبحانه وتعالى لا يأتي بأمور الدين كأبواب منفصلة ، باب للصلاة ، وآخر للصوم ، وثالث للزكاة ، لا . بل يمزج كل ذلك في عجينة واحدة . ولذلك فعندما أنزل بالمفسدين المحاربين لله عقاب التقتيل والتصليب والتقطيع والنفي . كان ذلك لتربية مهابة الرُّعب في النفس البشرية . وساعة يستيقظ الرُّعب في النفس البشرية يقول الحق :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَـٰهِدُوا۟ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٣٥ ﴾

لقد أخرجنا من جَوٍّ صارمٍ وحديث في عقوباتٍ إلى تقوى الله . والتقوى ـ كما نعرف ـ أن يجعل الإنسان بينه وبين ما يؤذيه وقاية .

وعرفنا أن الحق سبحانه الذي يقول « اتقوا الله » هو بعينه الذي يقول « اتقوا النار » ، وعرفنا كيف نفهم تقوى الله . بأن نجعل بيننا وبين الله وقاية . وإن قال قائل :

إن الحق سبحانه يطلب منا أن نلتحم بمنهجه وأن نكون دائماً في معيّته . فلنجعل الوقاية بيننا وبين عقابه . ومن عقابه النار .

إذن فقوله الحق : « يا أيها الذين آمنوا اتّقوا الله » أي أن نتقي صفات الجلال ،

والنار من خلق الله وجنده . وقوله سبحانه : « وابتغوا إليه الوسيلة » أى نبحث عن الوُصْلة التى تُوصّلنا إلى طاعته ورضوانه وإلى محبّته . وهل هناك وسيلة إلا ما شرّعه الله سبحانه وتعالى ؟ وهل يتقرّب إنسان إلى أى كائن إلا بما يعلم أنه يُحبّه ؟ .

وعلى المستوى البشرى نحن نجد من يتساءل : ماذا يُحب فلان ؟ . فيقال له : فلان يُحب ربطات العُنق ؛ فيُهديه عدداً من ربطات العُنق . ويقال أيضاً : فلان يحب المسبحة الجيدة ، فيحضر له مسبحة رائعة . إذن كل إنسان يتقرّب إلى أى كائن بما يُحب ، فما بالنا بالتقرب إلى الله ؟ . وما يُحبه سبحانه أوضحه لنا فى حديثه القدسى :

(من عادى لى وليّاً فقد آذنته بالحرب ، وما تقرّب إلىّ عبدى بشىء أحبّ إلىّ مما افترضته عليه ، وما يزال عبدى يتقرّب إلىّ بالنوافل حتى أحبّه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى بها ، وإن سألنى لأعطينه ولئن استعاذنى لأعيذنه)[1] .

فالحق سبحانه وتعالى يفسح الطريق أمام العبد ، فيقول سبحانه فى الحديث القدسى :

(ما يزال عبدى يتقرب إلىّ بالنوافل) .

أى أن العبد يتقرب إلى الله بالأمور التى لم يلزمه الحق بها ولكنها من جنس ما افترضه سبحانه ، فلا ابتكار فى العبادات . إذن فابتغاء الوسيلة من الله هى طاعته والقيام على المنهج فى « افعل » و« لا تفعل » .

والوسيلة عندنا أيضاً هى منزلة من منازل الجنة . والرسول صلّى الله عليه وسلم طلب منا أن نسأل الله له الوسيلة فقال :

(إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ثم صلّوا علىّ فإنه من صلّى علىّ صلاة

(١) رواه البخارى فى الرقاق ، ورواه ابن ماجه فى العين .

صلى الله عليه بها عشراً ثم سلوا الله لى الوسيلة فإنها منزلة فى الجنة لا تنبغى إلا لعبدٍ من عباد الله وأرجو أن أكون أنا هو فمن سأل الله لى الوسيلة حلّت له الشّفاعة)[1] .

ولا نريد أن ندخل هنا فى مجال التوسل بالنبى أو الأولياء ؛ لأنها مسألة لا يصح أن تكون مثار خلاف من أحد . فبعضهم يحكم بكفر هؤلاء .

ونقول لمن يكفر المتوسلين بالنبى أو الولى : هذّبوا هذا القول قليلاً ؛ إنّ حدوث مثل هذا القول هو نتيجة عدم الفهم ، فالذى يتوسل إلى الله بالنبى أو الولى هو يعتقد أن له منزلة عند الله . وهل يعتقد أحد أن الولىّ يجامله ليعطيه ما ليس له عند الله ؟. طبعا لا . وهناك من قال : إن الوسيلة بالأحياء مُمكنة ، وأن الوسيلة بالأموات ممنوعة . ونقول له : أنت تضيق أمراً مُتسعاً ؛ لأن حياة الحى لا مدخل لها بالتوسل ، فإن جاء التوسل بحضرته صلّى الله عليه وسلم إلى الله ، فإنك قد جعلت التوسل بحبك لمن علمت أنه أقرب منك إلى الله ؛ فحُبك له هو الذى يشفع . وإياك أن تظن أنه سيأتى لك بما لا تستحق .

والجماعة التى تقول : لا يصح أن نتوسل بالنبى ؛ لأن النبى انتقل إلى الرفيق الأعلى ، نقول لهم : انتظروا قليلاً وانتبهوا إلى ما قال سيدنا عُمر ـ رضوان الله عليه ـ ؛ قال : كنا فى عهد رسول الله إذا امتنع المطر نتوسل برسول الله ونستسقى به . ولما انتقل رسول الله صلّى الله عليه وسلم ، توسل بعمه العباس . وقالوا : لو كان التوسل برسول الله جائزاً بعد انتقاله لما عدل عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ عن التوسل بالنبى بعد انتقاله ، وذهب إلى التوسل بعم النبى . ونسأل : أقال عمر « كنا نتوسَّل بنبيك والآن نتوسَّل إليك بالعباس؟أم قال:والآن نتوسل إليك بعم نبيك » ؟.

ولذلك فالذين يمنعون ذلك يوسعون الشقة على أنفسهم ؛ لأن التوسُّل لا يكون بالنبى فقط ولكن التوسل أيضاً بمن يمت بصلة إلى النبى صلّى الله عليه وسلم . فساعة يتوسل واحد إلى غيره يعنى أنه يعتقد أن الذى توسل به لا يقدر على شىء، إننى أتوسل به إلى الغير لأنى أعرف أنه لا يستطيع أن ينفذ لى مطلوبى . إذن فلنبعد

(١) رواه أحمد ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائى .

مسألة الشرك بالله عن هذا المجال ، ونقول : نحن نتوسل به إلى غيره لأننا نعلم أن المتوسل إليه هو القادر وأن المتوسل به عاجز . وهذا هو منتهى اليقين ومنتهى الإيمان .

ولكن المتوسِّل به قد ينتفع وقد لا ينتفع ، وعندما توسَّل سيدنا عمر بالعباس عَمّ النبى كان يفعل ذلك من أجل المطر . والمطر فى هذه الحالة لا ينتفع به رسول الله لذلك جاء بواحدٍ من آل البيت وكأنه قال : « يا ربِّ عمُّ نبيك عطشان فمن أجله نريد المطر » .

إذن فتوسُّل عمر بن الخطاب بعم النبى دليل ضد الذين يمنعون التوسل بالنبى بعد الانتقال إلى الرفيق الأعلى . وحتى نخرج من الخلاف . نقول : إن العمل الصالح المتمثل فى « افعل كذا » و« لا تفعل كذا » هو الوسيلة الخالصة . وبذلك نخلص من الخلاف ولا ندخل فى متاهات .

« ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة وجاهدوا فى سبيله لعلكم تفلحون » ولنر الإيثار الإيمانى الذى يريد الحق أن يُربّيه فى النفس المؤمنة بتقوى الله التى تتمثل فى الابتعاد عن مَحارِمه ، وابتغاء الوسيلة إلى الله فى اتباع أوامرِه .

إن الدِّين لم يأتِكَ من أَجل نفسك فحسب ، ولكن إيمانك لن يصبح كاملاً إلا أن تُحب لأخيك ما تحبه لنفسك ، فإن كنت قد أحببت لنفسك أن تكون على المنهج فاحرص جيداً على أن يكون ذلك لإخوانك أيضاً . وإخوانك المؤمنون ليسوا هم فقط الذين يعيشون معك ، ولكن هم المقدر لهم أن يوجدوا من بعد ذلك . ولذلك عليك أن تجاهد فى سبيل الله لتعلو كلمة الله . وهكذا تتّسع الهِمَّةُ الإيمانية ، فلا تنحصر فى النفس أو المعاصرين للإنسان المؤمن . ولذلك يضع لنا الحق الطريق المستقيم ويوضحه ويبيّنه لنا .

وكانت بداية الطريق أن المؤمن بالله حينما وثق بأن لله نعيماً وجزاءً فى الآخرة هو خير مما يعيشه قدَّم دمه واستشهد ؛ لذلك قال صحابى جليل : أليس بينى وبين الجنة إلا أن أدخل هذه المعركة فإما أن أقتلهم وإما أن يقتلونى . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : نعم .

وألقى الصحابى تمرات كان يأكلها ودخل المعركة .

لا بد إذن أنه قد عرف أن الحياة التى تنتظره خير من الحياة التى يعيشها ؛ ومع ذلك لم يضع الله الجهاد كوسيلة فى أول الأمر ، بل ظل يأمرهم بالانتظار والصبر حتى يُرَبِّيَ من يحملون الدعوة . فلن يجعلها سبحانه عملية انتحارية .

وبعد ذلك نرى أثناء رحلة الدعوة للإسلام أن صحابياً يحزن لأنه فى أثناء القتال قد أفلت منه عَمرو بن العاص ، وأن خالد بن الوليد قد هرب . وتثبت الأيام أن البشر لا يعرفون أن علم الله قد ادّخر خالداً وأنجاه من سيف ذلك الصحابى من أجل أن ينصر الإسلام بخالد . وكذلك عَمرو بن العاص قد ادَّخره الله إلى نصرٍ آخر للإسلام .

إذن فالجهاد فى سبيل الله ضمانٌ للمؤمن أن يظل المنهج الذى آمن به موصولاً إلى أن تقوم الساعة ، وذلك لا يتأتّى إلا بإشاعة المنهج فى العالم كله . والنفس المؤمنة إذا وقفت نفسها على أن تجاهد فى سبيل الله كان عندها شىء من الإيثار الإيمانى . وتعرف أنها أخذت خير الإيمان وتُحب أن توصّله إلى غيرها ، ولا تقبل أن تأخذ خير الإيمان وتحرم منه المعاصرين لها فى غير ديار الإسلام ، وتحرص على أن يكون العالم كله مؤمناً ، وإذا نظرنا إلى هذه المسألة نجدها تمثل الفهم العميق لمعنى الحياة ، فالناس إذا كانوا أخياراً استفاد الإنسان من خيرهم كله ، وإذا كانوا أشراراً يناله من شرِّهم شىء .

إذن فمن مصلحة الخيِّر أن يشيع خيره فى الناس ؛ لأنه إن أشاع خيره فهو يتوقع أن ينتفع بجدوى هذا الخير وأن يعود عليه خيره ، لأن الناس تأمن جانب الرجل الطيب ولا ينالهم منه شر . لأنه يجب أن يكون كل الناس طيبين وعلى ميزان الإيمان ؛ لأنهم إن كانوا على ميزان الإيمان فالطيب يستفيد من خيرهم . أما إن بقى الناس على شرِّهم وبقى الإنسان الطيب على خيره ، فسيظل خير الطيب مبذولاً لهم ويظل شرُّهم مبذولاً للطيب .

إذن من حكمة الإيمان أن « يعدّى » الإنسان الخير للغير . وإن دعوة المؤمن إلى سبيل الله ، ومن أجل انتشار منهج الله لا بد من الإعداد لذلك قبل اللقاء فى

ساحات المعارك ؛ فقبل اللقاء مع الخصم فى ساحة المعركة لا بد من حُسْنِ الإعداد . وعندما يعدّ المؤمن نفسه يجد أن حركة الحياة كلها تكون معه ؛ لأن الدعوة إلى الله تقتضى سُلوكاً طيباً ، والسُلوك الطيب ينتشر بين البشر ، وهنا يقوى معسكر الإيمان ، فيرتقى سلوكاً وعملاً ، وعندما يقوى معسكر الإيمان يمكنه أن يستخرج كنوز الأرض ويحمى أرض الإيمان بالتقدم الصناعى والعلمى والعسكرى . والحق يقول:

﴿ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَـٰفِعُ لِلنَّاسِ ﴾

(من الآية ٢٥ سورة الحديد)

سبحانه أنزل القرآن وأنزل الحديد ، ويتبع ذلك :

﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ﴾

(من الآية ٢٥ سورة الحديد)

وجاء معنى البأس من أجل ذلك ، وهذا هو السبب الثانى الذى أوصانا به الحق :

إياكم أن تأخذوا منهج الله فقط الذى ينحصر فى « افعل ولا تفعل » ولكن خذوا منهج الله بما يحمى منهج الله وهو التقدم العلمى باستخراج كنوز الأرض وتصنيعها كالحديد مثلاً ، فسبحانه كما أنزل القرآن يحمل المنهج ، فقد أنزل الحديد وعلى الإنسان مهمة استنباط الحديد والمواد الخام التى تُسَهّل لنا صناعة الأجهزة العلمية ونقيم المصانع التى تنتج لنا من الحديد فولاذاً ، ونحوّل الفولاذ إلى دروع ، ونصنع أدق الأجهزة التى تهيىء للمقاتل فُرصة النصر . وكذلك نَدّخر المواد الغذائية لتكفى فى أيام الحرب .

إذن حركة الحياة كلها جهاد ، وإياك أن تقصر فكرة الجهاد عندك على ساحة المعركة ، ولكن أعدّ نفسك للمعركة ؛ لأنك إن أعددت نفسك جيّداً وعلم خصمك أنك أعددت له ، ربما امتنع عن أن يحاربك . والذى يمنع العالم الآن من معركة ساخنة تدمره هو الخوف من قِبَل الكتل المتوازنة لأن كل دولة تُعدّ نفسها للحرب . ولو أن قوة واحدة فى الكون لهدمت الدنيا .

وقول الحق : « وجاهدوا فى سبيله » نأخذه على أنه جهاد فى سبيل منهج الله ؛

وندرس هذا المنهج ونفهمه وبعد ذلك نجاهد فيه باللسان وبالسِّنان ، ونجاهد فيه بالكتاب ونجاهد فيه بالكتيبة .

إذن فقوله الحق : « وجاهدوا فى سبيله » يصنع أمة إيمانية مُتحضرة ، حتى لا تترك الفرصة للكافر بالله ليأخذ أسباب الله وأسراره فى الكون . فمن يعبد الإله الواحد أولى بسرّ الله فى الوجود ، ولو فرضنا أنه لن تقوم حرب ، لكننا نملك المصانع التى تنتج ، وعندنا الزراعة التى تكفى حاجات الناس ، عندئذ سنحقق الكفاية . وما لا تستعمله فى الحرب سيعود على السلام . ويجب أن تفهموا أن كل اختراعات الحياة التقدمية تنشأ أولاً لقصد الحرب . وبعد ذلك تهدأ النفوس وتأخذ البشرية هذه الإنجازات لصالح السلام .

ومن بعد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُواْ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾ ﴾

الحق سبحانه تحدث من قبل عن العقوبات والقصاص والتقتيل والتقطيع ، ثم ينقلنا من هذا الجو إلى أن نتقى الله ونبتغى إليه الوسيلة ونجاهد فى سبيله حتى نفلح ، وكان لا بد أن يأتى لنا الحق بالمقابل ، فالعقاب الذى جاء من قبل كقصاص وقتل هو عقاب دنيوى . ولكن ما سيأتى فى الآخرة أدهى وأمرّ .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُواْ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾ ﴾

(سورة المائدة)

ولنا أن نتصور الجماعة الكافرة التى تتكبر فى الدنيا ويعتلون ويرتفعون بالجبروت ،

فماذا عن موقفهم يوم القيامة ؟ . لقد أقمتم الجبروت بقوّتكم على غيركم ، وها هى ذى القُوّة تضيع وتفلت . لقد كانت القوة تعيش معكم فى الدنيا بالأسباب الممنوحة من الله لكم . ولم تَضِنّ عليكم سُنَنُ الله أن ترتقوا ، وسبحانه قد خلق السُّنَن ومن يبحث فى أسباب الله ، ينلْ نتيجة ما بذل من جهد ، لكن ها هوذا يوم القيامة ، وها أنتم أولاء تعرفون أن الأسباب ليست ذاتية . وأن قوّتكم لم تكن إلا عطاءً من الله . ها أنتم أولاء أمام المشهد الحيّ ، فلو أن ما فى الدنيا جميعاً معكم وحتى ولو كان ضعف ما فى الدنيا وتريدون أن تقدّموه فِدْيةً لكم من عذاب جهنم فالله لا يتقبله ، وتلك قِمّة الخِزْى ، ولن يستطيعوا تخليص أنفسهم من عذاب جهنم .

وهذا المشهد يجعل النفس تستشعر أن المسألة ليست لعباً ولا هزلاً ، ولكن هى جِدّ فى منتهى الجدّ . وعلى الإنسان أن يقدِّر العقوبة قبل أن يستلذّ بالجريمة . والذى يجعل الناس تستشرى فى الإسراف على أنفسهم ، أن الواحد منهم يعزل الجريمة عن عقوبة الجريمة . ولو قارن الإنسان قبل أن يسرف على نفسه العقوبة بالجريمة لما ارتكبها . وكذلك الذى يكسل عن الطاعة ؛ لو يقارن الطاعة بجزائها لأسرع إليها .

وأضرب هذا المثل - ولله المثل الأعلى - نفترض أن إنساناً فى صحراء نظر إلى أعلى الجبل ورأى شجرة تفاح ، واسْتَدَلّ على التفاح بأن رأى تُفاحة عَطبة واقعة على الأرض ، وقال الرجل لنفسه : هأنذا أرى مصارع الناس ؛ فهذا يصعد إلى الجبل فيقع من على حافته . وذلك تهاجمه الذئاب . وثالث يتوه عن الطريق . كل ذلك على أمل أن فى الشجرة ثماراً . ولا بد لى من أن أختار الطريق السليم إلى الثمار . والطريق إلى ثمار الدنيا الطاعة لمنهج الله ، وهو الطريق إلى ثمار الآخرة .

وأيضاً : الطالب المجتهد الذى يتغلب على النعاس ويتوضأ ويُصلّى ويخرج إلى مدرسته فى برد الشتاء ليحصل الدروس . ويعود إلى المنزل لتقدّم له أمه الطعام ، ولكنه مشغول بالدرس . إن هذا الشاب يستحضر نتيجة هذا الجهد ؛ لذلك فكل تعب فى سبيل التعلُّم صار سهلاً عليه ، ولو اهمل ونام ولم يقم مبكراً إلى المدرسة ، وإن استيقظ وخرج من المنزل ليتسكع فى الطرقات مع أمثاله ؛ يكون فى مثل هذه الحالة غير مُقدِّر للنتيجة التى تقوده إليها الصَّعْلَكة . والعيب فى البشر أنهم يعزلون

العمل عن نتيجته ، ويفصلون بين الجريمة وعقوبتها ، والطاعة عن ثوابها . إننّا لو وضعنا النتيجة مقابل العمل لما ارتكب أحد معصية ولا أهمل أحد فى طاعة .

ولنا أن نتصور مشهد الجبارين فى الدنيا وهم فى نار الآخرة ، هم بطشوا فى الدنيا ونهبوا، ولنفترض أن الواحد منهم قد امتلك كل ما فى الدنيا ـ على الرغم من أنّ هذا مستحيل ـ وفوق ذلك أخذ مثل ما فى الدنيا معه ويريد أن يقدمه افتداء لنفسه من عذاب جهنم فيرفضه الحق منه « ما تقبل منهم ولهم عذاب أليم » وتلك هى قمة الخزى التى يجب أن يبتعد عنها الإنسان .

وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾ ﴾

وكلما مَسَّهم لفحُ النار يريدون أن يخرجوا منها ، لكن كيف تأتى لهم إرادة الخروج من النار . لا بد ـ إذن ـ أن لحظة لفحها عليهم وتقلبهم هنا وهناك تدفعهم ألسنة اللهب إلى القرب من الخارج فيظنون أن العذاب قد انتهى . ألم يقل الحق سبحانه من أجل أن يضع أمامنا التجسيد الكامل لبشاعة الجحيم :

﴿ وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الكهف)

هذا القول يُوحى أولاً بأن رحمةً ما ستصل إليهم ، ولكن ما يأتى بعد هذا القول يرسم الهول الكامل ويجسده :

﴿ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الكهف)

وهذه قمة الهول . وهناك فرق بين الابتداء المُطمع والانتهاء المُوئس .

مثال ذلك السجين العطشان الذى يطلب كوب ماء . ويستطيع السجّان أن يقول له : لا . ليس هناك ماء . أما إذا أراد السجان تعذيبه بأكثر من ذلك فهو يقول له : سآتى لك بالماء ويحضر له كوباً من ماء زلال ، ويمد السجين يده لكوب الماء ، لكن السجان يسكب كوب الماء أرضاً . هذا هو الابتداء المُطْمع والانتهاء المُوئِس . وكذلك رغبتهم فى الخروج من النار ؛ فلا إرادة لهم فى الخروج إلا إذا كانت هناك مظنة أن يخرجوا نتيجة تقليب ألسنة اللهب لهم ، ولذلك يقول الحق أيضاً عن هؤلاء :

﴿ فَبَشِّرْهُم ﴾

(من الآية ٢١ سورة آل عمران)

وتثير البُشرى فى النفس الأمل فى العفو ، فيفرحون ولكن تكون النتيجة هى :

﴿ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾

(من الآية ٢١ سورة آل عمران)

وهكذا يريد لهم الحق صدمة الألم الموئس بعد الرجاء المطمع .

﴿ يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾ ﴾

(سورة المائدة)

وبعد ذلك ينقلنا الحق إلى قوله سبحانه :

﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ ﴾

جاء الحق من قبل بعقاب قطاع الطريق والمفسدين فى الأرض ، وهنا يأتى بقضية أخرى يريد أن يصون بها ثمرة حركة المؤمن فى مجتمعه ؛ لأن الإيمان يحب من المؤمن أن يتحرك ، وحتى يتحرك الإنسان لا بد أن يضمن الإنسان ثمرة حركته . أما إن تحرك الإنسان وجاءت الثمرة ثم جاء من يأخذها فلا بد أن يزهد المتحرك فى

الحركة ، وحين يزهد الإنسان فى الحركة يتوقف تقدم الوجود ؛ لذلك من حظنا أن تستمر حركة الحياة ، ولا تستمر حركة الحياة إلا إذا أمن الإنسان على حركته ، وأن تكون حركته فيما شرع الله .

وحين يتحرك الإنسان فيما شرع الله ويكسب من حلال ؛ فليس لأحد دخل ؛ لأن حركة هذا الإنسان تفيد المجتمع سواء أكان ذلك فى باله أم لم يكن .

وقلنا من قبل : إن الرجل الذى يملك مالاً يكتنزه يجد الحق يأمره بأن يستثمر هذا المال ؛ لأنه سبحانه أمر بفتح أبواب الخير لمن يجد المال ، فيدفع بخاطر بناء عمارة شاهقة فى قلب صاحب المال ، فيقول الرجل لنفسه : إن المال عندى مكتنز فلأبنى لنفسى عمارة ، ويزين له الحق هذا الأمر . ويفكر الرجل فى أن يبنى عمارة من عشرة طوابق وفى كل طابق أربع شقق ، وليكن إيجار كل شقة مائة جنيه . وهو حصيلة شهرية لا بأس بها .

لقد حسب الرجل المسألة وهو لا يدرى أن الله سبحانه وتعالى يقذف فى باله الخواطر ، فيُسرع ليشترى قطعة الأرض . وبعد ذلك يأتى بمن يُصمّم بنيان العمارة ومن يقوم بالبناء ، وتخرج النقود المكتنزة . وهكذا نرى أن الثرى قبل أن ينتفع بعمارته كان غيره قد انتفع بماله حتى أكثر طبقات المجتمع فقرا . ويحدث كل ذلك بمجرد الخاطر . ولكل إنسان خواطره ، فالبخيل له من يسرف فى ماله ، والكريم له من يكتنز من ماله . وإياك أن تظن أن هناك حركة فى الوجود خارجة عن إرادة الله . فالحق يقول :

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ ﴾

(من الآية ٨٩ سورة آل عمران)

وهم يفعلون ذلك لأن الذنوب تطاردهم ، فيعوضون ذلك بإصلاح أعمالهم . ولذلك نجد أن الخير إنما يأتى من المسرفين على أنفسهم فيريدون إصلاح أمورهم وليس هناك من يستطيع أن يأخذ شيئاً من وراء الله .

﴿ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾

(من الآية ١١٤ سورة هود)

كأن الحق سبحانه وتعالى بمجرد الخواطر يدفع الناس إلى ما يريد . نعم . فهو غيب قيّوم ؛ ولذلك يكون تدبيره فى الكون غيباً . وفى قرانا يخصّصون يوماً للسّوق ونرى ساحته فى اليوم المُخصص ونتأملها فنتعجب من إبداع مُحرّك الكون ؛ ففى الصباح يسير رجال إلى السوق ومعهم عصيّهم ولا يحملون شيئاً . وهؤلاء ذاهبون لشراء ما يحتاجون إليه ، وآخرون يسوقون أمامهم العجول أو الحمير ، وهؤلاء يذهبون لبيع بضائعهم . ونرى نساء تحمل كل واحدة منهُن صنفاً من الخضار فنعرف أنهن يذهبن للبيع فى السوق . ونرى أخريات يحملن سِلالاً فارغة ، ونعرف أن كلاً منهن ذاهبة للشراء . وفى آخر النهار نرى المسألة معكوسة ، من كان يحمل فى الصباح شيئاً حمله غيره ، فمن الذى هيّج الخواطر ليذهب من يرغب فى البيع إلى السوق ليبيع ؟

من الذى حرّك الشارى للشراء ؟ هو الحق سبحانه يحقق للرّاغب فى البيع أن يوجد المشترى ، ويحقق للراغب فى الشراء أن يوجد البائع . إنه ترتيب الحىّ القيّوم . ونسمع من يقول : لقد أنزلنا فى السوق اليوم عشرين طناً من الطماطم وأربعين طناً من الكوسة . وغيرها من الأطنان . ونجد آخر النهار أن كل شىء قد بيع . إنها خواطر الله المتوازنة فى الناس والتى توازن المجتمع .

إذن الحق سبحانه وتعالى يريد أن يحمى حركة المُتحرّك . ويُريد أيضاً ألاّ يقتات الإنسان أو يتمتّع بغير مجهود ؛ لأن من يسرق إنما يأخذ مجهود غيره . وهذا الفعل يُزَهِّدُ الغير فى العمل .

إذ فى الإسلام قاعدة هى : عندما تكثر البطالة يقال لك لا تتصدق على الناس بنقود من ملكك ، ولكن افتح أى مشروع ولو لم تكن فى حاجة إليه كأن تحفر بئراً وتردمها بعد ذلك وأعط الأجير أجره حتى لا يتعوّد الإنسان على الكسل ، بل يجب تعويده على العمل ، ومن لا يقدر على العمل فلا بد له من ضمان . فضمان الإنسان لقوته يكون من عمله أولاً ، فإن لم يكن قادراً على العمل ، فضمانه من أسرته وقرابته ، فإن لم توجد له أسرة أو قرابة ، فأهل محلّته مسئولون عنه ، وإن لم يستطع أهل القرية أو المحلّة أن يوفروا له ذلك ، فبيت المال عليه أن يتكفّل بالفقراء .

إذن فالأرضية الإيمانية تَحُثُنا على أن نضمن للإنسان العمل ، أو نعوله ونقوم بما

يحتاج إليه إن كان عاجزاً . ولكن الآفة أن بعضاً من الناس يحبُّون عملاً بذاته ، فهذا يرغب في التوظّف في وظيفة لا عمل فيها ، ونقول له :

في العالم المعاصر أزمة عمالة زائدة فتعلّم أي مهارة ؛ فما ضنت الحياة أبداً على طالب قوت من عمل .

ولنا في رسول الله صلّى الله عليه وسلم الأُسْوَة حين أقام أول مزادٍ في الإسلام . عندما جاء له رجلٌ من الأنصار يسأله ، فقال له :

(أما في بيتك شيء . قال الرجل : بلى ، حِلْسٌ نلبس بعضه ونبسط بعضه ، وقَعْبٌ - أي قدح - نشرب فيه من الماء . قال : إيتني بهما . فأتاه بهما . فأخذهما رسول الله صلّى الله عليه وسلم بيده وقال : من يشتري هذين ؟ قال رجل : أنا آخذهما بدرهم . قال : من يزيد على درهم ؟ - مرتين أو ثلاثاً - قال رجل : أنا آخذهما بدرهمين . فأعطاهما إياه ، وأخذ الدرهمين وأعطاهما للأنصاري وقال : اشتر بأحدهما طعاماً فانبذه - أي أَلْقِهِ - إلى أهلك ، واشتر بالآخر قَدُوماً فائتني به)(١) .

إذن أشار النبي صلّى الله عليه وسلم على الرجل وأمره بأن يحضر الحِلْس الذي ينام عليه والقدح الذي يشرب فيه ، حتى يعرف الرجل أنه تاجَر في شيء يملكه ، لا في عطاء من أحد . وجاء الرجل إلى حضرة النبي عليه الصلاة والسلام ووجد أن النبي قد سوّى له يداً للقدوم وقال للرجل :

(اذهب فاحتطب وبِعْ ، ولا أرينَّك خمسة عشر يوماً)(٢) .

وذهب الرجل يحتطب ويبيع امتثالاً لأمر النبي صلّى الله عليه وسلم وجاء بعد خمسة عشر يوماً وقد أصاب عشرة دراهم ، فاشترى ببعضها ثوباً وببعضها طعاماً .

فقال النبي صلّى الله عليه وسلم :

(هذا خير لك من أن تجيء المسألة نكتة في وجهك يوم القيامة)(٣) .

---

(١) رواه أبو داود في الزكاة ، وابن ماجه في التجارات ورواه أحمد .

(٢) ، (٣) رواه أحمد وأبو داود في الزكاة وابن ماجه في التجارات .

هذه هى التربية .

إذن فالغرض الأساسى أن يحمى الإسلام أفراد المجتمع ، فالذى لا يجد قُوتَه نساعده بالرأى وبالعلم والقدرة والقوة . والخير أن نعلّمهم أن يعملوا لأنفسهم . ولذلك جاء الحق لنا بقصة ذى القرنين المليئة بالعِبر :

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ ﴾

(سورة الكهف)

أى أنه لا توجد صلة للتفاهم . ولكنهم قالوا :

﴿ قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ ﴾

(سورة الكهف)

وها هو ذو القرنين يعلن أنه فى غير حاجة إليهم ، ولكن يكلفهم بعمل حتى يحقق لهم مُرادهم :

﴿ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ ﴾

(سورة الكهف)

ومن العجيب أن القرآن عندما يحكى أمراً فهو لا يحكيه إلا لهدف ، هم طلبوا من ذى القرنين أن يبنى سدّاً ، لكنه اقترح أن يجعل لهم رَدماً ، ما الفرق ؟ لقد تبين من العلم الحديث أن السَدّ قد تحدث له هزّة من أى جانب فينهدم كله ، أما الرَدْم فإن حدثت له هزّة يزددْ تماسكاً . ولم يعمل ذو القرنين لهم ، ولكن علّمهم كيف يصنعون الرَدْم ، وذلك حتى لا يعيشوا مع الإحساس بالعجز . وهكذا يُعلّمنا القرآن أن الإنسان لا بد له من عمل . لكن ماذا إن سَرَق ؟ .

أولاً ما هى السَّرقة ؟ إنها أَخذُ مالٍ مقوّم خفية . فإن لم يكن الأخذ خفية فهو اغتصاب ، ومرة أخرى يكون خطفاً ، ومرة رابعة يكون اختلاساً .

فالأخْذُ له أنواع مُتعددة ؛ فالتاجر الذى يقف فى دكانه ليبيع أى شىء ، وجاء طفلٌ صغير وخطف قطعةً من الحلوى وجرى ولا يستطيع التاجر أن يطول الطفل أو أن يقدر على الإمساك به ، هذا خَطْف . أما الذى يغتصب فهو الذى قهر صاحب الشيء على أن يتركه له . أما الاختلاس فهو أن يكون هناك إنسان أمين على مال فيأخذ منه ، أما السرقة فهى أخذ لمال مقوَّم خفية وأن يكون فى حرز مثله ؛ أى يكون فى مكان لا يمكن لغير المالك أن يدخله أو يتصرف فيه إلا بإذنه . أما الذى يترك بابه مفتوحاً أو يترك بضاعته فى الشارع فهو المُقصّر ، فكما يأمرنا الشرع بألا يسرق أحد أحداً ، كذلك يأمر بعدم الإهمال ، بل لابد للإنسان أن يعقل أشياءه ويتوكل . وسبحانه هو المُشرّع العَدْل الذى يُقيم اليقظة على الجانبين . حدّد الشّرع السرقة بما قيمته ربع دينار . وربع الدينار فى ذلك الزمن كان يكفى لأن يأكل إنسان هو وعياله ويزيد ، بل إن الدرهم كان يكفى أن يقيم أود أسرة فى ذلك الوقت .

وكيف نقوِّم ربع الدينار فى زماننا ؟ . إن كان لا يكفى لمعيشة ، فيجب أن ترفع النصاب إلى ما يُعيش ، ومادام الدينار كان فى ذلك الزمان ذهباً ؛ فربع الدينار ترتفع قيمته . وقديماً كان الجنيه الذهب يساوى سبعة وتسعين قرشاً ونصف القرش . أما الجنيه الذهب حاليا فهو يساوى أكثر من مائتين وسبعين جنيهاً ، وقد يكون هناك إنسان يسرق لأنه محتاج أو جائع ، ولذلك وضع الشرع له قدرا لا يتجاوزه المحتاج لحفظ حياته وحياة من يعول هو الدرهم . وسرقة الدرهم لا حد فيها كما لا إثم فيها ، وذلك إذا استنفد كل الطرق المشروعة فى الحصول على القوت ، ونعرف أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أعطى الدرهم للرجل وقال :

(اشتر طعاماً لك ولأسرتك) .

وكان الدرهم - كما قلنا - يكفى فى ذلك الزمن . والدرهم جزء من اثنى عشر جزءا من الدينار ، فربع الدينار ثلاثة دراهم ، والدرهم يساوى فى زمننا هذا أكثر من عشرين جنيها .

والسطحيون يقولون : إن سيدنا عمر ألغى حَدّ السّرقة فى عام الرّمادة ؛ ونقول لهم : لا . لم يسقط عمر بن الخطاب الحد ، فالحد باقٍ ولكنه لم يدخل الحادثة التى حصلت فيها يوجب الحد . والحادثة التى حدثت فى عام الرمادة أو عام الجوع هى

وجود الشبهة . وبفطنته كأول أمير للمؤمنين ، لم يدخل الحوادث فيما يوجب الحد .
وفى مسألة عبدالرحمن بن حاطب بن أبى بلتعة . عندما سرق غلمانه ، فماذا حدث ؟
قال الغلمان لعمر : كنا جوعى ولم يكن ابن أبى بلتعة يعطينا الطعام . ودرأ سيدنا عمر الحَدَّ بالشُّبهة .

إذن الحق سبحانه وتعالى يريد أن يحمى حركة المتحرك وثمرة حركة المتحرك . ، لكن بعض السطحيين فى الفهم يقولون مثل ما قال المعرّى :

يد بخمس مئين عسجد وُدِيَتْ
ما بالها قطعت فى ربع دينار
تناقضٌ ما لنا إلا السكوت له
وأن نعوذ بمولانا من النار

وهنا ردّ عليه العالِم المؤمن فقال :

أنت تعترض لأننا نعطى دية اليَد خمسمائة دينار ، وعندما يسرق إنسان . نقطع يد السارق لأنها أخذت ربع دينار .

وقال العالم المؤمن :

عِز الأمانة أغلاها وأرخصها
ذُل الخيانة فافهم حكمة البارى

ونلاحظ أن التشريعات الجنائية وتشريعات العقوبات ليست تشريعات بشرية ، لكنها تشريعات فى منتهى الدقة . بالله لو أن مُقنّنا يقنن للسارق أو السارقة ، ويُقَنّن للزانى والزانية ماذا يكون الموقف ؟

إن الذى يتكلم هو رب العالمين ، فقال هنا : « والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله والله عزيز حكيم » . والسرقة عادة ما تكون رغبة فى الحاجة وهى غالبا ما تكون من عمل الرجل . أما فى الزانى والزانية ، فلو أن الرجل لم يُهَيج ويستثر بجمال امرأة لما فكر فى الزِّنا . إذن فهى صاحبة البا 'ية . وينص سبحَانه على العقوبة وجاء بالحكمة . وعندما يُشرع للقصاص وهى الحالة التى يغلى فيها دم أقارب القتيل ، فيقول :

﴿ فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌۢ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ ﴾

(من الآية ١٧٨ سورة البقرة)

ولنر الحَنانَ الموجود فى كلمة «أخيه». ولا نجد تقنينا يدخل التحنين بين سطوره، إلا تقنين الرَّب الذى خلق الإنسان وهو أعلم به.

«والسارق والسارقة فاقطعوا أيديها». هذا ما انتهى إليه حَد السَّرقة فى تشريعات السماء، وحتى فى زمن سيدنا موسى كان السّارق يُستَرَق بسرقته؛ أى يتحوَّل الحُرّ إلى عَبد نتيجة سرقته. ولذلك نلاحظ ونحن نقرأ سورة سيدنا يوسف:

﴿ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ﴾

(من الآية ٧٠ سورة يوسف)

و«السقاية» هى الإناء الذى كان يشرب فيه الملك، وكان اسمها «صواع الملك» وأخذوها ليكيلوا بها. وبعد أن جعل السقاية فى رحل أخيه، ماذا حدث؟

﴿ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ۝٧٠ قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ۝٧١ قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ۝٧٢ ﴾

(سورة يوسف)

وهنا قال إخوة يوسف بأنهم لم يأتوا ليفسدوا فى الأرض، لذلك ترك لهم يوسف الأسلوب فى تحديد الجزاء، ولم يحاكمهم بشرع الملك:

﴿ قَالُوا جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّٰلِمِينَ ۝٧٥ ﴾

(سورة يوسف)

لقد جعلهم يعترفون، ويحاكمهم حسب شريعتهم لأن شرع الملك أن من يسرق شيئا عليه أن يغرم ضعفى ما أخذ.

وهذا ما يوضح معنى قول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ﴾

(من الآية ٧٦ سورة يوسف)

أى أنها حيلة ليستبقى يوسف أخاه معه . ولو استعمل قانون مصر فى ذلك الزمن لما أخذ أخاه معه . وهذا كيد لصالح يوسف ؛ لأن « اللام » تفيد الملكية أو النفعية . وأضاف إخوة يوسف قائلين :

﴿ قَالُوٓاْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ ۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ ﴾

(من الآية ٧٧ سورة يوسف)

ولماذا قالوا ذلك ؟ أصل هذه المسألة أن يوسف كان يحيا عند عمته . وعندما كبر وأرادوا أن يأخذوه أرادت العمة أن تستبقيه فدست فى متاعه تمثالاً . أو منطقة كانت لها من أبيها إسحاق وادعت أنها فقدت ذلك ؛ ففتشوا الولد فعثروا معه على الشىء الذى ادعت عمته سرقته فاستبقته بشرع بنى إسرائيل . وكان جزاء السرقة فى الشريعة هو الاسترقاق . ونُسخ هذا الشرع وجاءت آية حد السرقة تأكيداً للنسخ . وإن لم يكن قد نُسخ فهذه الآية هى بداية للنسخ . « والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاءً بما كسبا نكالا من الله والله عزيز حكيم » .

والسُّنة هى التى تبين لنا كيفية القطع ، وكان القطع لليد اليمنى؛لأنها عادة التى تباشر مثل ذلك العمل . وفى إحدى رحلاتى إلى أمريكا ، حدثنى أخ مسلم ضمن جماعة تحضر إحدى محاضراتى وقال : إن التَّيمُّن يجب أن يكون فى كل شىء ، فلماذا يأكل البعض بيده اليسرى ؟

قلت : إن هذه مسألة تكوينية بدليل أن بعض الناس أجهزتها تختلف ، فليست المسألة ميكانيكية . وأضفت : إن من خيبة بعض الاختراعات البشرية أنها لا تخطىء كالحاسب الآلى . ولو كان ينتقى ويختار لأمكن أن يخطىء ، أما العقل فهو يعرف الانتقاء . وقلت : إننى أطلب من السائل أن يقف . فلما وقف طلبت منه أن يتقدم جهتى فلما تقدم جهتى مَد رجله اليمنى ، فقلت تعليقا على هذا : « إنه تكوين خلقى » . ولذلك فالذى عنده ولد تتأبى عليه يمينه فإياك أن تُرغِمه على ذلك لأن مثل هذه العملية أرادها الخالق لتَشُذّ فى الخلق ، ولتظهر قدرة الخالق .

فلا داعى لقهر الابن الذى تتأبى عليه يَمينه ؛ لأن العلماء قالوا إن مراكز السيطرة ليست فى اليد ولكن فى المخ . وقد أوجد الحق تلك الأمور فى الكون حتى نفهم أن

خالق الكون لم يخلق الكون وتركه بسننه ، لا . إنه يخرق السنن كلما أراد . لكن لو تأبى إنسان على استعمال اليد اليمنى فى الأكل مثلا وهو قادر على ذلك فإنه يكون مخالفا لسنة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومجافيا للفطرة .

« فاقطعوا أيديهما جزاءً بما كسبا نكالا » وإذا سمعنا كلمة « كسب » فهى تعنى الأخذ لأكثر من رأس المال . والسارق يكسب السيئة لأنه أخذ ما فوق الضرورة . والنكال : العقاب أو هو العبرة المانعة من وقوع الجرم سواءً لمن ارتكب الجريمة وكذلك لمن يراها . والحق يقول عن بعض الأمور :

﴿ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾

(من الآية ٢ سورة النور)

وضرورة الإعلان عن تنفيذ عقوبة الفعل المؤثِّم من أجل الاعتبار والعظة ، فالتشريع ليس من بشر لبشر ، إنما تشريع خالق لمخلوق . والخالق هو الذى صنع الصنعة فلا تتعالم على خالق الصنعة . والشريعة لا تقرر مثل هذا العقاب رغبة فى قطع الأيدى ، بل تريد أن تمنع قطع الأيادى .

وإن ظل التشريع على الورق دون تطبيق فلن يرتدع أحد . والذين قالوا « قطع الأيدى فعل وحشى » ، نقول لهم : إن يداً واحدة قطعت فى السعودية فامتنعت كل سرقة . وإذا كان القتل أنفى للقتل ؛ فالقطع أنفى للقطع ، أما عن مسألة التشويه التى يتنطنون بها فحادثة سيارة واحدة تشوه عدداً من الناس وكذلك حادثة انفجار لأنبوبة « بوتاجاز » تفعل أكثر من ذلك . فلا تنظروا إلى القصاص مفصولا عن السرقة إن انتشرت فى المجتمع . وإبطاء القائمين على الأمر للإجراءات التى يترتب عليها العقوبات يُنسى المجتمع بشاعة الجريمة الأولى ، وعندما يحين وقت محاكمة المُجرم تكون الرحمة موجودة .

لكن إن وُقِّعَ العقاب سَاعَةَ الجُرم تنته المسألة . وساعة يسمع اللصوص أننا سنقطع يد السارق ، سيفكر كل منهم قبل أن يسرق ولا يرتكب الجُرم ؛ لأن المُراد من الجزاء العبرة والعِظة ومقصد من مقاصد التربية وتذكرة للإنسان بمطلوبات الله عنده إن أخذته الغفلة فى سياسة الحياة فالجزاء هنا نكالا أى عقابا و« نكولا » وهو

الرجوع عن فعل الذنب أى العبرة المانعة من وقوع الجُرم . فكأن الجزاء كان المقصود منه أن يرى الإنسان من قطعت يده فيمتنع عن التفكير فى مثل ما آلت إليه هذه الحالة .

أو أن يحافظ الذى قُطعت يده على ما بقى من جوارحه الباقية ؛ لأنه قد قُطعت يمينه وإن عاد قُطِعت يساره ، فإن عاد قُطِعت رجله اليمنى ثم إن عاد قطعت رجله اليسرى ويكون النكال لمنع الرجوع للجريمة ، وهو إما رجوع ممن رأى العقوبة تقع على السارق أو الرجوع من السارق نفسه إن رأى أى جارحة من جوارحه قد نقصت . فيحرص أن تظل الجوارح الباقية له . ويعامل الحق خلقه بسُنة كونية هى : أن من يأخذ غير حقه يُحرم من حقه . ومثال ذلك قوم من بنى إسرائيل قال الله حكما فيهم : لقد استحللتم ما حرمته عليكم فلا جزاء لكم إلا أن أضيق عليكم وأحرم عليكم ما أحللت لكم . فقال :

﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَـٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ ﴾

(من الآية ١٦٠ سورة النساء)

إذن ليس فى قدرة أحد أن يضحك على الله أو أن يخدع الله أو أن يأخذ ما ليس حقا له . فإن أسرف الإنسان فى تعاطى أشياء حرمها الله عليه فسيأتى وقت يحرمه الله فيه من أشياء حللها له كالذى أسرف فى شُرب الخمر أو فى تناول المواد المخدِّرة التى تغيب عن الوعى ، يبتليه الحق بما يجعله محروماً من مُتع أخرى كانت حلالا . وإن أسرف الإنسان مثلا فى تناول الحلوى . فإن المرض يأتيه ، ويحرم الله عليه أشياء كثيرة .

ولو قاس المسرف على نفسه ما أحله لنفسه بما حرمه الله عليه لوجد الصفقة بالنسبة له خاسرة . فالذى أسرف بغير حق فى أن يأكل مال أحد ، يرى ماله وهو يضيع أمام عينيه . ولنا فى ذلك المثل . كان السادة فى الريف ـ قديما ـ يقومون بتنقية الدقيق إلى درجة عالية حتى يصبح فى تمام النقاء من « الردة » . ويسمون هذا النوع من الدقيق « الدقيق العَلاَمَة » وكانوا يأكلون منه ويتركون البقية من الدقيق مختلطا بالردة ليأكله الخدم أو الفقراء ، فتأتى فترة يُحرم الأطباء عليهم هذا الدقيق الأبيض ، ولا يجد الواحد منهم طعاما إلا الدقيق « السِّن » الذى كان يرفضه قديما فعلينا ـ إذن ـ أن ننظر إليها كقضية سائدة فى الكون كله ، ولنجعل قول الله أمامنا :

﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ ﴾

(من الآية ١٦٠ سورة النساء)

فانت إن أخذت كسب يد واحدة يحرمك الحق من يدٍ لا من كسب . فإن زدت حرمك الله من جارحة أخرى ، وهكذا . وتلك سُنّة كونية تعدل نظام الكون بالنسبة للناس ، وخصوصا من يستبطئون جزاء الآخرة ، ومن يُغريهم ويَغُرهم ويطمعهم حِلْم الله عليهم .

وأنت إذا ما نظرت وصنعت لنفسك رُقعة جغرافية فى البيئة التى تعيش فيها فى أسرتك ، أو حيك ، أو بلدك أو أمتك ، فأنت تجد قوما قد حرموا بأنفسهم من غير أن يحرم عليهم أحد ، فتجد واحداً مصاباً ـ والعياذ بالله ـ بالبولينا : ولا يقدر أن يأكل قطعة من اللحم ، أو آخر مصابا بمرض السكر ؛ وتراه غير قادر على أن يأكل قطعة من الحلوى ، أو ملعقة من العسل . لأن أحداً لن يستطيع أن يأخذ شيئا بدون علم الله . وصنع الله ذلك لأنه عزيز لا يُغلَب . فإياك أن تظن أن بإمكانك أخذ شيء من وراء شرع الله أو تظن انك خدعت شرع الله ، فهو سبحانه عزيز لا يُغلَب أبداً . ونرى فى حياتنا الذين يأخذون أموالاً بغير حق رشوةً أو سرقةً أو اختلاساً ، نرى مصارف هذه الأشياء أو الرشاوى أو الأموال قد ذهبت وأنفقت فى مهالك ومصائب ؛ إننا نجدها قد أخذت ما أخذوه من حرام ، ومالت وجارت على ما كسبوه من حلال . وأريد من المسرفين على أنفسهم أن يضعوا لأنفسهم كشف حساب ، فيكتبوا فى ناحية القرش الذى كسبوه من حرام ، ويكتبوا فى ناحية أخرى كل قرش كسبوه من حلال . وليشاهد كل مسرف على نفسه فى أكل حقوق الناس المصائب التى سيبتليه الله بها ، ولسوف يجد أنه قد صرف لمواجهة المصائب كل الحرام وبعضا من الحلال . ولذلك قال الأثر الصالح : « من أصاب مالا من نهاوش أذهبه الله فى نهابر »[1] .

وكنت أعرف اثنين من الناس ، ولكل واحد منهما ولد فى التعليم . وكنت أجد أحدهما يعطى ولده خمسة قروش . فيقول الابن لأبيه : « معى مصروف الأمس » .

(١) رواه القضاعى عن أبى سلمة الحمصى مرفوعا ، وعزاه الديلمى ليحيى بن جابر وليس صحابيا ، والمعنى من اصاب مالا من غير حله اذهبه الله فى مهالك وامور متبدّدة .

وكان الآخر يعطى ولده عشرة قروش فيقول الابن له : « إنها لا تكفى شيئاً » . وشاء الحق أن يجمعنا نحن الثلاثة فى مكتب يتبع وزارة الرى بالزقازيق ، فلما جئنا لنخرج إذا برئيس كتاب تلك المصلحة يأتى بظرف أصفر كبير به أشياء كثيرة ويناوله لواحد منهما ، فسألته : ما هذا ؟ فقال : بعض من الورق الأبيض وبعض من ورق النشاف وعدد من الأقلام حتى يكتب الأولاد واجبهم المدرسى . فقلت له : هذا سر خيبة أولادك الدراسية وإسرافهم والدروس الخصوصية التى تدفع فيها فوق ما تطيق وسر قول ابنك لك : إن القروش العشرة لا تكفى شيئا . أما الشخص الآخر فابنه يقول له : لا أريد مصروف يد اليوم لأن معى خمسة قروش هى مصروف أمس ولا أريد أن آخذ دروسا خصوصية لأنى أحب الاعتماد على نفسى .

وسبحانه الحق القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم . ويقول لنا بلاغا :

قال أبو الجلد : « أوحى الله تعالى إلى نبى من الأنبياء : قل لقومك : ما بالكم تسترون الذنوب من خلقى وتظهرونها لى ؟ إن كنتم ترون أنى لا أراكم فأنتم مشركون بى ، وإن كنتم ترون أنى أراكم فَلِمَ تجعلوننى أهون الناظرين إليكم »[1] .

إذن قوله الحق : « جزاء بما كسبا نكالا من الله » واضح تماما ، ويردف الحق قوله هذا : « والله عزيز حكيم » . وسبحانه عزيز لا يغلبه أحد ، حتى الذى يسرق ، إنما يسرق الرزق المكتوب له ؛ لأن العلماء اتفقوا على أن الشىء المسروق رزق أيضا لأنه يُنتفَع به . ووالله لو صبر لجاءه وطرق عليه بابه . فإياكم أن تحتالوا على قدر الله ؛ لأنه حكيم فى تقديره .

وكلمة « حكيم » لها فى حياتنا قصة ، كنا ونحن فى مقتبل حياتنا التعليمية نحب الأدب والشعر والشعراء ، وبعد أن قرأنا للمعرى وجدنا عنده بعضا من الشعر يؤول إلى الإلحاد ، فزهدنا فيه وخصوصا عندما قرأنا قوله فى قصيدته :

تحطمنا الأيام حتى كأننا
زجاج ولكن لا يعاد لنا سبك

---

(١) أورده ابن رجب فى شرحه فى كتاب (جامع العلوم والحكم) .

وأخذنا من ذلك القول أنّه ينكر البعث ؛ فقلنا : يغنينا الله عنه . ولكن صديقنا الشيخ فهمى عبداللطيف ـ رحمه الله ـ رأى المعرى فى الرؤيا وكان مولعا بالمعرى ، فجاء إلى ذات صباح ونحن فى الزقازيق وقال لى : يا شيخ لقد رأيت المعرى الليلة فى الرؤيا وهو غاضب منك أنت لأنك جفوته . فقلت : أنا جفوته لكذا وكذا وأنت تعلم السبب فى ذلك . وقال الشيخ فهمى عبداللطيف : هذا ما حصل .

وقلت لنفسى : يجب أن أعيد حسابى مع المعرى ، وجئنا بدواوينه « سقط الزند » و« لزوم ما لا يلزم » . ووجدنا أن للرجل عُذراً فى أن يعتب علينا ؛ لأن آفة الناس الذين يسجلون خواطر أصحاب الفكر أنهم لا ينظرون إلى تأريخ مقولاتهم ، وقد قال المعرى قوله الذى أُنكره عليه وقت أن كان شابا مفتونا بفكره وعندما نضج قال عكسه . وكثير من المفكرين يمرون بذلك ، مثل طه حسين والعقاد ، بدأ كل منهما الحياة بكلام قد يؤول إلى الإلحاد ولكنهما كتبا بعد النضج ما يحمل عطر الإيمان الصحيح ؛ لذلك لا يصح لمن يحكم عليهم أن يأخذهم بأوليات خواطرهم التى بدأوها بالشك حتى يصلوا إلى اليقين . وجلست أبحث فى المعرى الذى قال :

تحطمنا الأيام حتى كأننا
زجاج ولكن لا يعاد لنا سبك

فوجدته هو نفسه الذى قال بعد أن ذهبت عنه المراهقة الفكرية :

زعم المنجم والطبيب كلاهما
لا تحشر الأجساد قلت إليكما
إن صح قولكما فلست بخاسر
أو صح قولى فالخسار عليكما

كأنه عاد إلى حظيرة الإيمان :

وكذلك قال المعرى :

يد بخمس مئين عسجد وُدِيَتْ
ما بالها قُطِعَت فى ربع دينار

وقال بعد ذلك :

تناقض ما لنا إلا السكوت له
وأن نعوذ بمولانا من النار

وقلت للشيخ فهمى عبداللطيف : للمعرى حق فى العتاب وسأحاول أن أعاود قراءة شعره ، والأبيات التى أرى فيها خروجا ساعدها قليلا . وعندما جئت إلى ذلك البيت . قلت : لو أنه قال ـ وأنا أستأذنه ـ :

لحكمة ما لنا إلا الرضاء بها
وأن نعوذ بمولانا من النار

فلكل شيء حكمة . وحين نرى طبيباً يمسك طفلا قلبه لا يتحمل المُرقد ـ أى البنج ـ أثناء إجراء عملية جراحية ، فهل يظن ظان أن الطبيب ينتقم من هذا الطفل ؟ طبعا لا ، إذن فلكل شيء حكمة ، ويجب أن ننظر إلى الشيء وأن نربطه بحكمته . والله عزيز أى لا يغلبه أحد ولا يحتال عليه أحد . وهو حكيم فيما يضع من عقوبات للجرائم ؛ لأنه يزن المجتمع نفسه بميزان العدالة . ومن بعد ذلك يفتح الحق سبحانه باب التوبة رحمة لمن يتوب ورحمة للمجتمع ؛ لذلك يقول الحق :

﴿ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾ ﴾

والسارق ظالم ؛ لأنه أخذ حق غيره ، فإن تاب أى ندم على الفعل وعزم على ألا يعود شريطة ألا تكون التوبة بالكلام فقط ، بل يصلح ما أفسده ، هنا تقبَل التوبة . ولكن كيف يفعل ذلك ؟

إذا كان الشيء المسروق فى حوزته فعليه أن يرده إلى صاحبه . وإن كان قد تصرف

فيه فعليه أن يأتى لصاحب الشيء ويستحله ويقول له : كنت فى غفلة نفسى وفى زهوة الشيطان منى ففعلت كذا وكذا . وأعتقد أن أى إنسان سرق من إنسان آخر وبعد فترة اعترف له وطلب العفو منه فأنا أقسم بالله أنه سيعفو عنه راضيا . وبذلك يستحل الشيء الذى أخذه . لكن ماذا إن كان السارق لا يعرف صاحب الشيء المسروق . كلص « الأتوبيسات » ؟

إن كان قد سرق محفظة نقود من شخص ووجد العنوان يستطيع أن يرد الشيء المسروق بحوالة بريدية من مجهول تحمل قيمة المبلغ المسروق ويطلب فيها السماح عن السرقة . وإن لم يعرف من سرقه فعليه أن يقول : الله أعلم بصاحب هذا المبلغ وأنا سأتصدق به فى سبيل الله وأقول : يارب ثوابه لصاحبه .

إذن فوجوه الإصلاح كثيرة . وإن كان يخجل من رد الشيء المسروق فليقل : فُضوح الدنيا أهون من فُضوح الآخرة . وفى القرآن تأتى آيات كثيرة عن التوبة :

﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ ﴾

(من الآية ١١٨ سورة التوبة)

كأن توبة الله مكتوبة أولا ؛ ثم يتوب العبد من بعد ذلك . وسبحانه يقول :

﴿ وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ ﴾

(من الآية ٨٢ سورة طه)

وللتوبة ـ كما نعلم ـ ثلاث مراحل . فالحق حين شرع التوبة كان ذلك إذنًا بها . وبعد ذلك يتوب العبد ، فيتوب الله عليه ويمحو عنه الذنب ويكون الغفران بقبول الله للتوبة . ولذلك يقول الحق : « فإن الله يتوب عليه إن الله غفور رحيم » .

وَصِفَةُ المغفرة وصِفَةُ الرحمة كل فى مطلقها تَكُون لله وحده ، وهى توبة للجانى ورحمة للمجنى عليه . وكلمة « إن الله غفور رحيم » توضح لنا أنه سبحانه له طلاقة القدرة فى أن يغفر وأن يرحم . فإياك أن تقول : إن فلانا لا يستحق المغفرة والرحمة ؛ لأنه سبحانه مالك السماء والأرض ، وهو الذى أعطى للبشر ما يستحقون بالحق الذى أوجبه على نفسه ، وله طلاقة القدرة فى الكون ؛ ولذلك يقول من بعد ذلك :

﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤٠) ﴾

ويستخدم الحق سبحانه من أساليب البيان ما يخرجنا عن الغفلة ، فلم يقل : « الله له ملك السموات والأرض » ، ولو كان قد قال ذلك لكان الأمر خبراً من المتكلم وهو الله ، ولكنه يريد أن يكون الخبر من المُخاطَب إقراراً من العبد . ولا يخرج الخَبَر مَخرج الاستفهام إلا وقائل الخبر واثِقٌ من أن جواب الاستفهام فى صالحه ؛ والمثال على هذا هو أن يأتيك إنسان ويقول : « أنت تهملنى » . فتقول : أنا أحسنت إليك .

ولكن إن أردت أن تستخرج الخَبَر منه فأنت تقول : ألم أُحسِن إليك ؟ وبذلك تستفهم منه ، والاستفهام يريد جوابا . فكأن المسئول حين يجيب عليه أن يدير ذهنه فى كل مجال ولا يجد إلا أن يقول : نعم أنت أحسنت إلىّ . ولو جاء ذلك من المتكلم لكانت دعوى ، لكن إن جاءت من المُخاطَب فهى إقرار ، ومثال ذلك قول الحق :

﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ (١) ﴾

(سورة الشرح)

إنه خَبرٌ من المتكلم والإقرار من المتلقى . وقد يقول قائل ولماذا لم يقل الحق : « أشرحنا لك صدرك » ؟ كان من الممكن ذلك ، ولكن الحق لم يقلها حتى لا يكون فى السؤال إيحاء بجواب الإثبات بل جاءت بالنفى .

وفى وقوله الحق :

﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤٠) ﴾

(سورة المائدة)

نجد منطوق الآية ليس دعوى من الحق ، ولكنه استفهام للخلق ليديروا الجواب على هذا ، فلا يجدوا جواباً إلا أن يقولوا : « لله ملك السموات والأرض » . وهذا أسلوب لإثبات الحجة والإقرار من العباد ، لا إخباراً من الحق : « ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض » ، وقد يقول إنسان : إن هناك أجزاء من الأرض ملكا للبشر . ونقول : صحيح أن فى الأرض أجزاء هى ملك للبشر ، ولكن هناك فرق بين أن يملك إنسان ما لا يقدر على الاحتفاظ به . . كملك البيت والأرض ، إنه مِلْك ـ بكسر الميم ـ لمالك . وهناك « مُلْك » ـ بضم الميم ـ لِمَلِكٍ هو الله . وفى الدنيا نجد أن لكل إنسان ملكية ما . ولكن المَلِك فى الأرض يملك القرار فى أملاك شعبه ، وهذا فى دنياالأسباب ، أما فى الآخرة فالأسباب كلها تمتنع :

﴿ لِمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾

(من الآية ١٦ سورة غافر)

فلا أحد له مُلكٌ يوم القيامة .

« ألم تعلم أن الله له مُلك السموات والأرض يُعذِّب من يشاء ويغفر لمن يشاء » والقارىء بإمعان للقرآن يجد فيه عبارات تجمع بين أمرين أحدهما يتقدم ، والآخر يتأخر . ويأتى الأمر فى أحيان أخرى بالعكس . ولكن هذا القول هو الوحيد فى القرآن الذى يأتى على هذا النسق ، فكل ما جاء فى القرآن يكون الغفران مقدّماً على العذاب ؛ لأن الحق سبحانه قال فى الحديث القدسى :

(إن رَحمتى سبقت غَضبى)[1] .

فلماذا جاء العذاب فى هذه الآية مقدماً على الغُفران : « يعذب من يشاء ويغفر لمن يشاء » هل السبب هو التَّفنُّن فى الأساليب ؟ لا ؛ لأن جمهرة الآيات تأتى بالغفران أولاً ، ثم بالوعيد بالعذاب لمن يشاء سبحانه . ولننظر إلى السِّياق . جاء الحديث أولاً عن السارق والسارقة ، وبعد ذلك عمّن تاب . فالسرقة إذن تقتضى التعذيب ، والتوبة تقتضى المغفرة ، إذن فالترتيب هنا منطقى .

(١) رواه البخارى فى التوحيد وبدء الخلق ، ورواه مسلم فى التوبة ورواه الترمذى فى الدعوات ، وابن ماجه فى المقدمة .

ونلحظ أن هذا القول قد جاء بعد آية السرقة وبعد آية الإعلام بأن له مُلْكَ السموات والأرض . ولذلك كان لا بد من تذييل يخدم الاثنين معاً . ليؤكد سيطرة القدرة . وحين يريد الحق أن يرحم واحداً . فليس فى قدرة المرحوم أن يقول : « لا أريد الرحمة » . وحين يعذب واحداً لن يقول المعذَّب - بفتح الذال - : « لا داعى للعذاب » . فسيطرة القدرة تؤكد أنه لا قدرة لأحد على رَدّ العذاب أو الرحمة . إذن فالآية قد جاءت لتخدم أغراضاً مُتعددة . فإن حسبناها فى ميزان الأحداث فللحق كل القدرة . وإن حسبناها فى ميزان الزمن ، فكيف يكون الأمر ؟ .

نعرف أن التعذيب للسَّرقة قسمان . . تعذيب بإقامة الحَدّ ، وفى الآخرة تكون المغفرة . إذن فالكلام منطقى مُتَّسق .

إننى أقول دائماً : إياكم أن تُخدَعوا بأن الكافر يكفر ، والعاصى يعصى دون أن ينال عقابه ؛ لأن من تعوَّد أن يتأبّى على منهج الله ، فيكفر أو يعصى لا بد له من عقاب . لقد تمرَّدَ على المنهج ، ولكنه لا يجرؤ على التَمرُّد على الله .

إن الإنسان قد يتمرد على المنهج فلا يؤمن أو لا يقيم الصلاة ، لكن لا قدرة لإنسان أن يتمرّد على الله ، لأنه لا أحد يقدر على أن يقف فى مواجهة الموت ، وهو بعضٌ من قُدْرةِ الله . وسبحانه وتعالى يحكم ما يريد . وقد أراد أن يوجِد للإنسان اختياراً فى أشياء ، وأن يقهر الإنسان على أشياء ، فيا من مرَّنت نفسك على التمردّ على منهج الله عليك أن تحاول أن تتمرّد على صاحب المنهج وهو الله . ولن تستطيع لا فى شكلك ولا لونك ولا صحتك ولا ميعاد موتك . وليفتح كل مُتمرِّد أذنيه ، وليعرف أنه لن يقدر على أن يَتمرَّد على صاحب المنهج وهو الله . إذن صدق قول الله : « والله على كل شيء قدير » .

ومن بعد ذلك يقول الحق :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَـٰرِعُونَ

فِي ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ ۛ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ ۖ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُواْ ۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌ ۖ وَلَهُمْ فِي ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾

نأتى فى النِّداء بحرف الإقبال وهو « يا » وندخله على « المُنادى » أى أنك تطلب إقباله . فهل نطلب إقباله لمجرد الإقبال أو لشيء آخر ؟ مثال ذلك قول الحق :

﴿ قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ﴾

(من الآية ١٥١ سورة الأنعام)

إذن النِّداء هنا لتلاوة التكليف عليهم . وحين يُنادى الحق سبحانه وتعالى أشرف من ناداهم وهم رُسُله ، نجد أنه نادى كل الرُّسل بمُشخصاتِهم العَلَمِيّة . (يا آدم) ، والمُشَخّص العَلَمى هو الاسم ، وهو لا يعطى وصفاً إلا تشخيص الذات بدون صفاتها .

وكذلك نادى الحق إبراهيم عليه السلام :

﴿ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ﴾

(سورة الصافات)

وكذلك نادى الحق نوحاً :

﴿ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ ﴾

(من الآية ٤٨ سورة هود)

وكذلك نادى الحق موسى عليه السلام :

﴿ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ ﴾

(من الآية ٣٠ سورة القصص)

وكذلك نادى الحق عيسى ابن مريم عليه السلام :

﴿ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ﴾

(من الآية ١١٦ سورة المائدة)

كُل الرُّسُل ناداهم الحق بالمُشَخِّص العَلَمى الذى لا يعطى إلا التشخيص ، ولكن رسول الله صلّى الله عليه وسلم خاتم الرُّسُل ما ناداه الله باسمه أبداً ، إنما ناداه الله بالوصف الزائد عن مُشَخِّصات الذات فيقول : (يا أيّها الرسول) ، ويقول : (يا أيّها النبى) .

حقًا إنّ الجميع رُسُل ، ولكنه سبحانه يريد أن يبلغنا أن محمداً صلّى الله عليه وسلم هو الرسول الذى جاء ناسخاً للكُلّ ومؤمناً بالكُلّ ، هو الذى يستحق النّداء بالوصف الزائد عن مُشَخّصات الذات : « يا أيّها الرسول » . وهو الرسول الذى تقوم عليه الساعة . ولذلك نجد خطاب الحق لرسوله دائما : « يا أيّها الرُّسُول » أو : « يا أيُّها النبى » ، وهذا نوع من التكريم .

والحق يقول هنا : « يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر » . أى لا تحزن يا رسول الله من الذين يسارعون فى الكفر . وحين يخاطب الحق رسوله فى ألا يحزن ، علينا أن نعرف على ماذا يكون الحزن ؟ . سبحانه يوضح لرسوله : إياك أن تحزن لأنى معك فلن ينالك شر خصومك ولا يمكن أن أختارك رسولاً وأخذُلَك ، إنهم لن ينالوا منك شيئاً .

وقد يكون حزن النبى صلى الله عليه وسلم حزناً من لون آخر ، اسمه الحزن المُتَسَامِى الذى قال فيه الحق :

﴿ فَلَعَلَّكَ بَـٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَـٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ ﴾

(سورة الكهف)

لأن الحق لو شاء أن يجعلهم مؤمنين لما جعل لديهم القدرة على الكفر .

﴿ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَـٰقُهُمْ لَهَا خَـٰضِعِينَ ﴿٤﴾ ﴾

(سورة الشعراء)

وهل الله يريد أعناقا ؟ لا . بل يريد قلوباً ؛ لأن سيطرة القُدرة بإمكانها أن تفعل ما تريد ، بدليلِ أن السماء والأرض والجبال وكل الكائنات أتت للخالق طائعة . فلا يمكن أن يتأبى الكون على خالقه . والقدرة أفادت القهر وأفادت السيطرة والعزة والغلبة فى سائر الكون ، ولكن الله أَحَب أن يأتى عبده ـ وهو السيد ـ للإيمان مختاراً ؛ لأن الإيمان الأول هو إيمان القهر والقدرة ، ولكن الإيمان الثانى هو إيمان المحبة .

وقد ضربنا من قبل المثل على ذلك ولنوضحه : هب أن عندك خادمين ربطت أحدهما فى سلسلة لأنك إن تركته قليلاً يهرب ، وعندما تريده تجذب السلسلة فيأتى ، إنه يأتى لسيطرة قُدرتك عليه والقهر منك ، أما الخادم الآخر فأنت تتركه حُرّاً ويأتيك من فور النداء . فأيهما أحب إليك ؟ لاشك أنك تحب الذى يجىء عن حُب لا عن قهر . وكل أجناس الكون مُسخَّرة بالقدرة ، وشاء الحق أن يجعل الإنسان مُختاراً لذلك قال :

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَـٰنُ ﴾

(من الآية ٧٢ سورة الأحزاب)

إذن فقد رفضت كل الأجناس حمل الأمانة . خوفا وإشفاقا من أنها قد لا تستطيع القيام بذلك . والحق يقول لرسوله : « لا يحزنك » فأمّا إذا كان الحزن بسبب الخوف على المنهج منهم ، فالحق ينصره ولن يمكنهم منه . وأما إن كان الخوف عليهم فلا ،

لأنه سبحانه خلق الإنسان مختاراً غير مقهور على القيام بتعاليم المنهج ، وسبحانه يُحب أن يعرف من يأتيه حُباً وكرامة .

ويقول الحق لرسوله محمد صلّى الله عليه وسلم : « لا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر » .

وهذه رُبوبية التعبير ، فنحن نعلم أن السرعة تكون إلى الشيء ، لا فى الشيء كما قال الحق :

﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ ﴾

(من الآية ١٣٣ سورة آل عمران)

ولكن هنا نجده يقول : « يسارعون فى الكفر » . ولو قال الحق : « يسارعون إلى الكفر » لكان قد ثبت لهم إيمان وبعد ذلك يذهبون إلى الكُفر ، لا . الحق يريد أن يوضح لنا : أنهم يسارعون فى دائرة الكفر . ويعلمنا أنهم فى البداية فى الكفر ، ويسارعون إلى كفر أشد . ونعرف أن « فى » فى القرآن نستطيع أن نضع من أجلها المجلدات . فقد قلنا من قبل قال الله تعالى : (سيروا فى الأرض) .

ولم يقل سبحانه سيروا على الأرض .

والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَلَا تُؤْتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ﴾

(من الآية ٥ سورة النساء)

وهى ليست أموال المخاطبين ، ولكنها فى الأصل أموال السفهاء . ولكن سبحانه يبلغنا أن السُّفهاء غير مأمونين على المال ، ولذلك يأتى الحق بالوصىّ والقيّم على المال ويأمره أن يعتبر المال ماله حتى يحافظ عليه . ويأمره بألا يخزن المال ليأكل منه السُّفيه ؛ لأن المال إن أكل منه السُّفيه ودفع له الزكاة ، قد ينضب وينفد . لذلك قال الحق :

﴿ وَلَا تُؤْتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَـٰمًا ﴾

(من الآية ٥ سورة النساء)

ومن بعد ذلك يقول الحق :

﴿ وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا ﴾

(من الآية ٥ سورة النساء)

لم يقل ارزقوهم منها ، ذلك أنه سبحانه شاء أن يعلمنا أن الرزق مطمور فى رأس المال ويجب أن يتحرك رأس المال فى الحياة حتى لا ينقص بالنفقة ، وحتى لا تستهلكه الزكاة ، وحتى يبلغ السَّفيه رُشده ويجد المال قد نما . هذه بعض من معطيات « فى » . وهناك آية الصَّلب :

﴿ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ ﴾

(من الآية ٧١ سورة طه)

بعض المفسرين يقولون فى هذه الآية : « لأصلبنكم على جذوع النخل » ونقول : إن الذين قالوا ذلك لم يُفسّروا هذه الآية وكان يجب أن يقولوا فى تفسير ذلك :

لأصلبنكم على جذوع النخل تصليباً قوياً يدخل المصلوب فى المصلوب فيه . ومثال ذلك لو جئنا بعدو ثقاب وربطناه على الأصبع بخيط رفيع وأوثقنا الربط ، فعود الثقاب يغوص فى الأصبع حتى يصير وكأنه داخل الأصبع . وعندما يقول الحق : « ولأصلبنكم فى جذوع النخل » فيجب ألا نفهم هذا القول إلا على أساس أنه تصليب على جذوع النخل تصليباً قوياً يُدْخِلُ المصلوب فى المصلوب فيه . وتلك هى العِلّة فى وجود « فى » وعدم وجود « على » .

والحق يقول هنا : « لا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر » فكأن المسارعة إما أن تكون بـ « إلى » وإما أن تكون بـ « فى » . فإن كانت بـ « إلى » فهى انتقال إلى شىء لم يكن فيه ساعة بدْء السرعة ، وإن كانت بـ « فى » فهى انتقال إلى عمق الشىء الذى كان فيه قبل أن يبدأ المسارعة .

« لا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم » فالإيمان محلّه القلب ، والإسلام محلّه الجوارح ؛ ولذلك قال سبحانه :

﴿ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا ﴾

(من الآية ١٤ سورة الحجرات)

إنهم يسارعون إلى الصف الأول فى الصلاة وهذا إسلام ، أما الإيمان فمحلّه القلب . إذن فالذين قالوا بأفواههم آمنا ، لهم أن يعرفوا أن منطقة الإيمان ليست الأفواه ولكنها القلوب . وهم قالوها بأفواههم وما مرّت على قلوبهم . وماداموا قد قالوا بأفواههم آمنا وما مرّتِ على قلوبهم فهؤلاء هم المنافقون ، ومعنى ذلك أنهم فى كل يوم ستظهر منهم أشياء تُدخِلهم فى الكفر ؛ لأنهم من البداية قد أبطنوا الكفر ، وبعد ذلك يسارعون فى مجال الكفر .

« من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ومن الذين هادوا » هم إذن صنفان اثنان يسارعان فى الكفر ؛ المنافقون الذين قالوا بأفواههم آمنا ، والذين هادوا . ويصفهم الحق بقوله : « سماعون للكذب » وساعة تسمع مادة « السين والميم والعين » فهذا يعنى أن الأذن قد استقبلت صوتاً من مُصَوِّت ، هذا المُصوِّت إما أن يكون مُتكلماً بالكلام الحقّ فيجذ من الأذن الإيمانية استماعاً بإنصات ؛ ثم يتعدى الاستماع إلى القبول ؛ فيقول المؤمن : أنا استمعت إلى فلان ، لا يقصد أنه سمع منه فقط ولكن يقصد أنه سمع وقبل منه ما قال .

إننا نعلم أن كثيراً من الورعين يسمعون كذباً ، لكن الفيصل هو قبول الكذب أو رفضه . وليس المهم أن يكون الإنسان سامعاً فقط ، ولكن أن يصدق ما يسمع . ونرى فى الحياة اليومية إنساناً يريد أن يصلح شيئاً من أثاث منزله فيأتى بالأدوات اللازمة لذلك ، ويقال هنا عن هذا الرجل :« نجر فهو ناجر » ولا يقال له : « نجّار » ؛ لأن النجار هو من تكون حرفته النّجارة .

إذن كلمة : سامع للكذب لا تؤدى المعنى ، ولكن « سمّاع » تؤدى المعنى ، أى أن صناعته هى التسمّع ، وعندما يقول الحق : « سمّاعون للكذب سمّاعون لقوم آخرين لم يأتوك » أى ألِفُوا أن يقبلوا الكذب . وكيف يكون مزاج من يقبل الكذب ؟. لا بد أن يكون مزاجاً مريضاً بالفطرة .

وما معنى الكذب هنا ومن هم السمّاعون ؟ إما أن يكون المقصود بهم الأحبار والرهبان الذين قالوا لأتباعهم كلاماً غير ذى سندٍ من واقع من أجل الحفاظ على مراكزهم . وإما أن يكونوا سماعين للكذب لا لصالحهم هم ، ولكن لصالح قوم

آخرين . كأنهم يقومون بالتجسس . والتجسس ـ كما نعلم ـ يكون بالعين أو بالأذن . وتقدمت هذه الوسائل فى زماننا حتى صار التجسس بالصوت والصورة . وكأن الحق يريد أن يبلغنا أنهم سماعون للكذب ، أى أنهم يسمعون لحساب قوم آخرين . والقوم الآخرون الذى يسمعون لهم هم القوم الذين أصابهم الكبر والغرور واستكبروا أن يحضروا مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم . وهم فى الوقت نفسه لا يطيقون الانتظار ويريدون معرفة ماذا يقول رسول الله ، لذلك يرسلون الجواسيس إلى مجلس النبى صلى الله عليه وسلم لينقلوا لهم .

أولئك السماعون للكذب هم سماعون لحساب قوم آخرين لم يأتوا إلى مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم تكبُّراً . وهؤلاء المتكبرون هم كبار اليهود ، وهم لا يذهبون إلى مجلس رسول الله حتى لا يضعف مركزهم أمام أتباعهم . وعندما يُنقَل إليهم الكلام يحاولون تصويره على الغرض الذى يريدون ، ولذلك يقول عنهم الحق : « يُحرِّفون الكَلِم من بعد مواضِعهِ » . أى أنهم يُحرِّفون الكلام بعد أن استقر فى مَواضعه ويستخرجونه منها فيهملونه ويزيلونه عن مواضعه بعد أن وضعه الله فيها وذلك بتغيير أحكام الله ، وقال الحق فيها أيضاً من قبل ذلك :

﴿ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ﴾

(من الآية ١٣ سورة المائدة)

أى أنهم حَرَّفُوا الكلام قبل أن يستقر . « سماعون للكذب سماعون لقوم آخرين لم يأتوك يحرفون الكلم من بعد مواضعه يقولون إن أوتيتم هذا فخذوه » وهم الذين يقولون لأتباعهم من جواسيس الاستماع إلى مجلس رسول الله : « إن أوتيتم هذا فخذوه وإن لم تؤتوه فاحذروا » . فكأنهم أقبلوا على النبى بهذا ، فإن أخذوا من رسول الله معنى يستطيعون تحريفه فعلوا . وإن لم يجدوا ما يحرفونه فعليهم الحذر .

ومن دراسة تاريخ القوانين الوضعية نعرف معنى السلطة الزمنية . فالقوانين التى تواضع عليها بشر ليحكموا بها نظام الحياة تأخرت فى الظهور إلى الواقع عن نظام الكهنة ، فقد كان الكهنة يَدَّعُون أن لهم صلة بالسماء ولذلك كان الحكم لهم ، أى أن التقنين فى الأصل هو حكم السماء والذى جعل الناس تتجه إلى وضع قوانين خاصة بهم أنهم جربوا الكهنة فوجدوهم يحكمون فى قضية ما حُكْماً . وفى القضية المشابهة يحكمون حُكْماً آخر . لقد كان كلام الكهنة مقبولا عندما ادعوا لأنفسهم

الانتساب إلى أحكام السماء . لكن عندما تضاربت أحكامهم خرج الناس على أحكام الكهنة ورفضوها ووضعوا لأنفسهم قوانين أخرى .

والحكاية التاريخية توضح لنا ذلك : فقد زَنَى أحد أتباع ملك فى العصر القديم وحاولوا أن يقيموا عليه الحد الموجود بالتوراة . لكن الملك قال للكهنة : لا أريد أن يُرجَم هذا الرجل وابحثوا عن حكم آخر .

ورضخ الكهنة لأمر الملك وقالوا : نُحَمِّم وجه الزّانى ـ أى نُسَوِّد وجْهه بالحُمم وهو الفحم ـ ونجعله يركب حماراً ووجه إلى الخلف ونطوف به بين الناس بدلاً من الرَّجم . وهكذا أعطت السلطة الزمنية السياسية الأمر للسلطة الزمنية الدينية ليُغيِّروا فى القوانين . فلما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة حاولوا أن يستغلوا وجوده فى استصدار أحكام فيها هوادة ولين . وعرضوا عليه بعضا من القضايا من أجل ذلك ، فإن جاء الحكم بالتخفيف قبلوه ، وإن كان الحكم مُشدّداً لم يقبلوه . وتكررت مسألة الزّنا . وحاولوا الحصول على حكم مخفف من سيدنا رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم .

وجاء رسول الله بالحكم الذى نزل من السماء وهو الرَّجم . ولكنهم قالوا للرَّجم لا . يكفى أن نجلده أربعين جلدة وأن نَسود وجهه وأن نجعله يركب حماراً ووجهه للخلف ويُطاف به . وهنا سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم :

أليس عندكم رجل صالح له علم بالكتاب ؟ وهنا صمتوا . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هل تعرفون شابا أمرد أبيض أعور يسكن « فدك » يقال له : « ابن صوريا » . فقالوا : نعم ، هو أعلم يهود على وجه الأرض . فأمر الرسول بإحضاره ليرى الحُكم النازل فى الزِّنا بالتوراة ، وجاء الرجل وناشده رسول الله بالذى لا إله إلا هو وبحق من أرسل موسىٰ ، وبحق من أنزَل التوراة على موسىٰ ، وبحق من فلق البحر ، وبحق من أغرق فرعون ، وبحق من ظللهم بالغمام . وأراد صلى الله عليه وسلم أن يُزلزل فيه كل باطل وأن يشحنه بالطاعة حتى ينطق الحق ، فقال ابن صوريا : نعم نجد الرَّجم للزِّنا . وهنا سَبَّ اليهود الرجل الصالح .

لقد أرادوا أن يحصلوا على حُكم مُخفف من رسول الله ليُنقذوا الزانى صاحب المقام

العالى ، وكذلك الزانية ذات الحسب والنسب ؛ لذلك قال الحق على لسانهم : « إن أوتيتم هذا ». أى التخفيف المراد فخذوه، وإن وجدتم العقاب القاسى فاحذروه ولا تقبلوه .

إذن فهم لم يذهبوا إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ابتغاء الحق ولكنهم يبتغون التخفيف . فإن وافق الحكم هواهم قالوا : إن محمداً هو الذى حَكَم ، ومن العجيب أنهم أعداء لمحمد وكافرون به . وبرغم ذلك يُحكِّمونه .

هذه الواقعة يرويها الإمام مسلم رضى الله عنه وهى : « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى يهودى ويهودية قد زنيا فانطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى جاء يهود فقال : ما تجدون فى التوراة على مَنْ زنى ؟ قالوا : نسوِّدُ وجوههما ونحمِّمهما ونحملهما ونخالف بين وجوههما ، ويُطاف بهما ، قال : (فأتوا بالتوارة فاتلوها إن كنتم صادقين) قال : فجاءوا بها ، فقرأوها ، حتى إذا مرّ بآية الرجم وضع الفتى الذى يقرأ يده على آية الرجم وقرأ ما بين يديها وما وراءها ، فقال له عبدالله بن سلام وهو مع رسول الله صلى الله عليه وسلم: مُرْهُ فليرفع يده، فرفع يده فإذا تحتها آية الرجم، فأمر بهما رسول الله صلى الله عليه وسلم فرُجما ، قال عبدالله بن عمر : كنت فيمن رجمهما فلقد رأيته يقيها من الحجارة بنفسه »[1] .

إنهم يريدون الحكُم السهل الهين اللين . وقال البعض : إن سبب نزول هذه الآية هى قصة القَوَد . والقود هو القصاص .

وقصة القود فى إيجاز هى ـ كما رواها الإمام أحمد وأبو داود وغيرهما عن ابن عباس رضى الله عنه ـ أن طائفتين من اليهود هما بنو النضير وبنو قريظة كانتا قد تحاربتا فى الجاهلية ، فقهرت بنو النضير بنى قُريظة ، فكانت النضير وهى العزيزة إذا قتلت أحداً من بنى قُريظة وهى الذليلة لم يُقيدوهم أى لم يعطوهم القاتل ليقتلوه بقتيلهم . إنما يعطونهم الدية . وكانت قُريظة إذا قَتَلت أحداً من بنى النضير لم يرضوا منهم إلا بالقود . فلما قدم النبى صلى الله عليه وسلم المدينة تحاكموا إليه فى هذا الأمر فحَكَم بالتسوية بينهم ، فسَاءَهم ذلك ولم يقبلوا . وأى قصة منها هى مؤكِّدة للمعنى .

---

(١) رواه مسلم .

ومن بعد ذلك يقول الحق : « ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئا » والفتنة هى التعذيب بالنار ، وسبحانه يقول :

﴿ يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾ ﴾

(سورة الذاريات)

والفتنة أيضاً هى الابتلاء والاختبار ، ويقال : « فتنت الذهب » أى وضعت الذهب فى بوتقة وحوّلته بالحرارة العالية من جسم صُلب إلى سائل حتى تستخلصه من المواد العالقة الشائبة التى فيه ليصير نقياً . والفتنة فى ذاتها ليست مذمومة . ولكن المذموم منها هو النتيجة التى تصل إليها ؛ أينجح الإنسان فيها أم يرسُب ؛ لأن الاختبارات التى يمر بها الإنسان كلها هى فتنة ، والذى ينجح تكون الفتنة بالنسبة إليه طيبة . والذى يرسُب ويفشل فالفتنة بالنسبة إليه سيئة . وعندما يريد الله فتنة بشر أى يريد اختبارهم : أيأتون طوعا واختياراً أم لا ؟

ومادام الحق سبحانه وتعالىٰ أعطىٰ للإنسان قدرة الاختيار حتى يُثبت صفة المحبوبية فسبحانه أراد ذلك ، ولا أحد بقادر أن يجعل الإنسان مقهوراً . وقد أراده الله مُختاراً وأن يبتلى وأن يختبر . أينجح أم يرسُب ، أيكون مُؤمناً أم كافراً :

« ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئا » . وجعل سبحانه ذلك قانونا لخلقه بمنتهى الوضوح ، وهناك جانب فى الإنسان مُسَخَّر ، وجانب آخر مُخَيَّر . « ومَن يُرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئا » . أى أن أحداً لا يجرؤ أن يغير نواميس الكون ولن يغير الله نواميس الكون من أجل أى أحد ؛ لأن النواميس لا بد أن تسير كما أرادها الله حتى على رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم .

وقد عرفنا ما حدث فى أُحُد ؛ عندما تخاذل الرُّماة ولم يستمعوا إلى نصيحة القائد الأعلىٰ سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ؛ أَغَيَّر الله سُنّته من أجل وجود حبيبه معهم ؟ لا ، وانهزموا على رغم وجود رسول الله معهم ؛ لأن الله أراد للسُّنة الكونية أن تسير كما هى من أجل إصلاح الأمر . فلو فُرِض أنهم انتصروا من أجل خاطر النبى ، ماذا يكون الموقف فى أوامره صلى الله عليه وسلم فيما بعد ؟ كان من الممكن أن يقول شخص منهم : « خالفناه وانتصرنا » . إذن لا بد لسُنَّة الله أن تُنَفَّذ .

﴿ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُولَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾

(من الآية ٤١ سورة المائدة)

لماذا لم يرد الله أن يُطهِّر قلوبهم ؟ لأنهم منافقون . وفي قلب المنافق مرض . وعندما تأتى أحداث ينتفع بها المسلمون فالمنافق يزداد حِقداً ومَرضا لأنّ قلبه مُمتلىء بالغل ، ولا يريد الله تطهير قلب إنسان إلا أن يقبل على الله ولذلك قال تعالى :

﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾

(من الآية ٢٦٤ سورة البقرة)

وقال سبحانه :

﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾

(من الآية ٨٦ سورة آل عمران)

فهل عدم هداية الله لهم نشأت أولاً ، ثم نشأ الكُفر ، أو نشأ الكُفر منهم فجاء عدم الهداية ؟ نعلم أن عدم الهداية مرتبة على أنه ظالم أو كافر ، وقلنا من قبل: إن هناك إرادة كونية وإرادة شرعية . والإرادة الكونية هى ما يحدث فى كون الله . ولا شيء قد حدث في كون الله غصبا عن الله . والاختيار خلقه الله فى الإنسان ليصير الإنسان مُخيراً بين الكُفر والإيمان . ومادام الحق قد خلق الإنسان مُختاراً لهذا أو لذلك إذن فهو سبحانه مُريد كَوْنيًّا ما يصدر عن الإنسان اختياراً كفراً أو هدايةً . لكن أمُريد هو سبحانه ذلك شرعاً ؟ لا .

إن الشرع أمر سماوى إما أن يُنفّذه العبد وإما أن يعصيه . ونعرف أن هناك أشياء مُرادة كونياً وأشياء مُرادة شرعيا . والمُراد الكونى هو الذى يكون : أما الإنسان فقد خلقه الله وله الاختيار ، فالذى يسرق لا يسرق غصبا عن الله ولكن ما أعطاه له الله من اختيار ومن طاقة ، إما أن يوجهها إلى الخير وإما إلى الشر .

ونحن حين ننظر إلى الساعة التى نضعها حول المعصم وقد صنعها الصانع صالحة

لأن يديرها الإنسان على توقيت أى بلد ، فهل هذا يتم غصبا عن الصانع ؟ لا . وكذلك جهاز « التليفزيون » ؛ إن أذعنا فيه برامج دينية فهو صالح للهدف ، وإن أذعنا فيه حفلة راقصة فهو صالح لذلك أيضا . والذى صنع التليفزيون جعله صالحاً لهذا ولذاك ، المهم هو توجيه الطاقة وكذلك الإنسان . والإرادة الكونية هى كل ما يكون فى ملك الله ، والإرادة الشرعية هى كل ما يكون فى شرع الله « افعل ولا تفعل » . ومادام هناك أمرٌ كونى وأمر شرعى فالكون قد أوجده الله لخدمة المؤمن والكافر والعاصى ، لكن الأمر الشرعى جعله الله للمؤمن .

إذن فإيمان المؤمن أراده الله كونا ؛ لأنه سبحانه قد وضع الإيمان منهجا ، وأراد الله إيمان المؤمن شرعا . وكفر الكافر لم يتم غصبا عن الله . ولكن الإنسان بخلْقِه مختاراً . صار كُفره أمراً كونياً ، ولكنه غير مُراد شرعاً ، فكفر الكافر مُراد كونا غير مُراد شرعا . وإيمان الكافر غير مُراد كوناً وكفر المؤمن غير مُراد كونا . وبهذا نكون أمام أربعة أقسام فى المُراد كونا وشرعا . وهذه هى القسمة العقلية .

إذن من يُرِد الله فتنته كوناً فلا راد لإرادة الله ؛ فإذا لم يطع الشرع ، فذلك لأنه مخلوق صالح للطاعة وصالح للمعصية .

وأضرب هذا المثل ـ ولله المثل الأعلىٰ ـ الوالد يعطى لابنه جنيها ويقول له : أنت حُر فى هذا المبلغ فإن اشتريت مصحفا أو كتاب دين أو شيئاً تأكله أنت وإخوتك فسأكافئك وأستأمنك على أشياء كثيرة . أما إن اشتريت ورق اللعب المُسمّى « كوتشينة » فسأغضب منك .

وحين يذهب الولد ليشترى ورق اللعب المُسمّى « كوتشينة » ، هل اشترى ذلك غصبا عن أبيه ؟ لا . لكن الولد يصبح غير محبوب من أبيه . هذا هو الفارق بين المُراد كونا والمُراد شرعا . وبين المُراد كونا لا شرعا . والمُراد شرعا لا كونا .

« أولئك الذين لم يَرِد الله أن يُطهِّر قلوبهم » كان ذلك كونا ؛ لأنه سبحانه خلقهم قابلين للتطهير وقابلين لغيره ، فإن فعلوا أى شىء فهم لن يفعلوه غَصبا عن الله ؛ لذلك يذيل الحق الآية : « لهم فى الدنيا خزى ولهم فى الآخرة عذاب عظيم » فكأن

معنى ذلك أن فى قلوبهم أشياء ضد الطهارة ، ولهم فى الدنيا خزى . والخزى يطلق على الفضيحة ويطلق على الاستحياء ، والمعنيان يلتقيان . وهنا فى مجال هذه الآية : أى خزى وأى فتنة ؟ إنهما فتنتان ؛ المنافقون واليهود . وكان المنافقون كلما فعلوا شيئا ينفضح . وعندما يبيّتون أى شيء فإن الله يخبر رسوله بما يبيّتون .

﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ﴾

(من الآية ٣٠ سورة محمد)

وكذلك الذين هادوا : يأتيهم الخزى أى الافتضاح ، أى أن يصيروا إلى المُسترذل بعد أن كانوا فى المُستحسن . والرسول صلى الله عليه وسلم دخل المدينة واليهود سادة هذه البقعة ؛ سادتها علما لأنهم أهل كتاب ، أما الأوس والخزرج فأميون لا يعرفون شيئا. وكان اقتصاد المدينة فى أيدى اليهود، من مال وصنعة وزراعة. وعنجهية الجاه. وعندما يأتى الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المدينة يجدهم السادة ، ثم ينفضح أمرهم وكذبهم ، ويتم إجلاؤهم ، وتُسبى نساؤهم ويُقتل بعضهم . وعندما يدبرون كيدا لرسول الله ، يفضحهم الله ، وكل ذلك خزى ، وليس الخزى هو الجزاء الوحيد لهم ، بل يلقون فى الآخرة عذاباً أليماً .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾

وفى اللغة ألفاظ مفردة ، مثال : « سجنجل » وتفتح القاموس فتجد معناها

« البلور » ، وكذلك الصفا والمروة ؛ وعندما تبحث فى القاموس عن كلمة « مروة » تعرف أن معنى اللفظ بعيد عن النسبة ، فأول عمل للغة أن تعرف معنى الألفاظ بعيداً عن نسبتها . ومهمة القاموس أن يشرح لك معنى اللفظ بعيداً عن النسبة دون إثبات أو نفى ، مثال ذلك « الجو » معناها هو ما يحيط بك من هواء أو غير ذلك ، لكن القاموس لايشرح هل الجو مُكفهر أو صافٍ أو باردٌ .

وإن تقدمنا مرحلة أخرى وأخذنا اللفظ لنصنع له نسبته ، كأن نقول : « الجو صحو » ، هنا ننتقل من فهم معنى كلمة « جَوّ » ، إلى أننا نسبنا الصحو إليه . والكلام المفيد يأتى فى النِسب . ولا تأتى النِسب إلا بعد معرفة معانى الألفاظ . والنِسب تعنى أن ننسب شيئا إلى شىء ، كأن نقول : « محمد مجتهد » هنا نسبنا لمحمد الاجتهاد ، وذلك بعد أن عرفنا معنى كلمة « محمد » بمفردها ، ومعنى « مجتهد » بمفردها .

إذن الكلام المفيد يتأتى فى النسب . وقد تكون الإفادة بضميمة كلمة إلى ما سبقها ، فعندما يسألك إنسان : « من عندك » ؟ فتقول : « محمد » ؛ هذا القول أفاد ؛ لأنه انضم إلى كلمة أخرى فصار المعنى : « محمد عندى » .

إذن هناك نسب ، والنسب هى أن تنسب حكماً إلى شىء إما إيجابا وإما نفياً .

والنسبة تنقسم إلى قسمين ؛ نسبة واقعة ، ونسبة غير واقعة . وإن كانت النسبة واقعة فهل تعتقدها ؟ وهل تستطيع أن تقيم عليها دليلاً ؟ إن كانت النسبة الواقعة ومقام عليها الدليل تكون علماً . وإن كانت نسبة وواقعة وأنت تعتقدها ولا تستطيع أن تدلل عليها ، فهذا تقليد ، مثل الطفل الذى يقلد أباه فيقول : « الله أحد » ، والطفل فى هذه الحالة لا يستطيع أن يقيم على هذه النسبة دليلاً .

إن العلم أعلى مراتب النسب لأنه نسبة معتقدة وواقعة وعليها دليل . أما إذا كانت نسبة معتقدة وغير واقعة ، فهذا هو الجهل ؛ لأن الجاهل هو الذى يعرف الشىء على غير وجهه الصحيح . أما الأمى فهو الذى لا يعرف شيئا ونجد صعوبة فى الشرح للجاهل ، مثال ذلك الذى يقول الأرض مبسوطة ويدافع عنها ، إنه يقول نسبة يعتقدها ، ولكنها غير الواقع لأنها كروية .

راجع أصله وخرج أحاديثه الدكتور أحمد عمر هاشم نائب رئيس جامعة الأزهر .

والجهل ـ إذن ـ أن تعرف نسبة تعتقدها وهى غير واقعة . ولا يرهق الدنيا غير الجاهل ، لا الأمى ؛ لأن الأمى له عقل فارغ يكفى أن تقول له الحقيقة فيصدقها ، أما الجاهل فيحتاج إلى أن نخلع من أفكاره الفكر الخاطىء ونضع له الفكر الصحيح .

أما إن كانت النسبة غير واقعة . فالنفى فيها يساوى الإثبات ، وهذا هو الشك . وإن كانت هناك نسبة راجحة فهو الظن . والنسبة المرجوحة هى الوهم . إذن هناك عدد من النسب : نسبة علم ، نسبة تقليد ، نسبة جهل ، نسبة شك ، نسبة ظن ، نسبة وهم . وعلى ذلك يكون الكذب نسبة غير واقعة ، فإن كنت تعتقدها فأنت من الجاهلين .

ويقابل الكذب الصدق ، وعندما يقول الحق : « سماعون للكذب » . فالنسبة هنا غير مطابقة للواقع . ويقتنص الملبِّسون بعض النسب التى تأتى فى بعض من أسلوب القرآن ويقولون : فى القرآن كلام لو محَّصناه لوجدناه غير دقيق . مثال ذلك :

﴿ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ ﴾

(من الآية ١ سورة المنافقون)

كلام المنافقين هنا قد طابق كلام الله ، ولكن لماذا يقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴾

(من الآية ١ سورة المنافقون)

النسبة واحدة ، لكن الله يكذب المنافقين . وإن فطنا إلى قول الله حكاية عنهم :

﴿ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ﴾

(من الآية ١ سورة المنافقون)

أى أن الله يُكذِّب شهادتهم ، لأن محمداً رسول الله بالفعل ، ولكنهم كاذبون لأنهم لا يعتقدون ذلك ، فالشهادة هى ما يوافق اللسان ما فى القلب .

إذن قوله الحق : « سماعون للكذب أكالون للسُّحت » أى أن عملهم الاستماع

للكذب ، وأكل السُّحت وكأنهم يرهقون إن أكلوا حلالاً ، وأكّال صيغة للمبالغة ؛ وتكون إما فى الحدث ، وإما فى تكرار أنواع الحدث . فيقال : « فلان أكال » ، و« فلان أكول » وهو الإنسان الذى يأكل بشراهة أو يأكل كثيراً ، والمبالغة ـ إذن ـ إما أن تكون فى الحدث وإما فى تكرير الحدث .

« أكّالون للسُّحت » ومادة « سَحت » تعنى « استأصل ومحا » ، ولكنها تزيد أنها استأصلته استئصالاً لم يبق له أثراً وتعدى الاستئصال إلى ظرفه . مثال ذلك عند ظهور بقعة من زيت أو طعام على ثوب ، نستطيع استئصال البقعة ، ونستطيع المبالغة فى استئصالها إلى أن تنحت من الثوب . والسُّحت استئصال مبالغ فيه لدرجة الجوْر على الأصل قليلاً . أى يستأصل الذى جاء ومعه بعض من الأصل أيضاً ؛ لذلك جاء المفسرون إلى هذا المعنى فى شرح الرِّبا لأن الله يصفه بالقول :

﴿ يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَوٰا ﴾

(من الآية ٧٦ سورة البقرة)

والربا فى مفهومنا أنه زيادة ، ولكن الحق أوضح لنا أنه ليس بزيادة ؛ لأنه يَدْخل ويستأصل ويأكل ويكحت أصل المال . وظاهر الرِّبا الزيادة وباطنه محق واستئصال .

أما الزكاة فظاهرها نقص ، ولكنها نماء ، وبذلك نرى اختلاف مقاييس الخلق عن مقاييس الحق . والمثل الواضح : أن النفس تلتفت دائماً إلى رزق الإيجاب ، ولا تلتفت إلى رزق السلب . فرجل راتبه خمسمائة جنيه ، وآخر راتبه مائة جنيه ، صاحب الراتب البالغ الخمسمائة فتح الله عليه أبواباً تحتاج إلى ألف من الجنيهات ، والذى يأخذ مائة جنيه سَدَّ الحق عنه أبواباً لا تأخذ منه كل راتبه بل يتبقى له عشرة جنيهات .

هناك ـ إذن ـ رزق إيجاب يزيد الدخل ، ورزق سلب أن يسلب الحق عنك المصارف فى المصائب والمهالك ويبارك لك فيما أعطاك .

والسُّحت هو كل شىء تأخذه من غير طريق الحلال ، كالرشوة أو الربا أو السرقة أو الاختلاس أو الخطف . وكل أنواع المقامرة والمراهنة ، كل ذلك اسمه سُحت .

« سماعون للكذب أكّالون للسُّحت » وهذا القول دليل على أن أُذنَهُم اعتادت سماع الكذب ويقبلون عليه . وعندما نقول نحن فى الصلاة : « سمع الله لمن حمده » ، أى أننا ندعو الله أن يقبل الحمد . وهم سماعون للكذب أى يقبلون الكذب . والسماع جارحة ، والأكل بناء ما به الجارحة لأنه مقوم لها . مثلما يأكل لينمو ، وإن كان ناضجاً يحفظ له الطاقة والقدرة .

فالنّمو ـ إذن ـ معناه أن يدخل جوفه أكثر مما يخرج منه . وبعد فترة يدخل إلى جسمه على قدر ما يخرج منه ، ثم الشيخوخة نجد فيها أن ما يخرج أكثر مما يدخل . وماداموا سماعين للكذب أكّالين للسُّحت ، فهم فى بوارٍ دائم ، لأن أكل السُّحْت حيثية من حيثيات الاستماع المصدِّق للكذب ؛ لأنهم قد بنوا ذرات أجسادهم من حرام ، فكيف ترفض آذانهم الكذب ؟ بل آذانهم تستدعى الكذب ، وألسنتهم تحترفه . وعيونهم تستدعى المحارم ، وأيديهم تستدعى السرقة ، إنها الأبعاض التى بناها أصحابها من حرام .

ولم يقل الحق عنهم : « سامعون » ، بل قال : « سماعون » أى جعلوا صناعتهم أن يتسمعوا ، وهم الجواسيس ، وإلا فإذا كان الأمر غير ذلك لكان كل من سمع كذبا يُعَد من هؤلاء . والقول مقصود به من جعل السماع صنعة له ، ولا يجعل إنسان السماع صنعة له إلا إذا كان عينا لغيره ، والعين للغير يتلصص على أمانة المجالس ، ولكل مجلس أمانة . فإذا ما حضر إنسان مجلسا فليس له أن ينقل ما فى ذلك المجلس إلى غيره إلا أن يكون ذلك هو صناعته ، وتلك هى مهمته .

« سماعون للكذب أكّالون للسُّحْت » وهنا قضيتان . فهل السماع للكذب سببه أكل السُّحت ، أم أكل السُّحت سببه السماع للكذب ؟

إن الحق سبحانه وتعالى حينما خلق الإنسان من طينة الأرض وصوره على شكل آدم نفخ فيه من روحه ، وحين صوره من طينة الأرض جعل كل مقومات حركة حياته من طبيعة طينة الأرض ، فإذا ما أخذ الإنسان شيئاً من حِل ، اعتدلت الذرات فى نفسه على الهيئة التى خلقها الله . وإن تدخل فيها بحرام جعل فى الذرات اختلالا تكوينيا . وهذا الاختلال التكوينى هو الذى جعل آكل الحرام سماعا للكذب . ولو لم

يكن فيه ذلك الاختلال التكوينى الذى صنعه بنفسه لما سمع الكذب أبداً .

أو أنه عندما أكل السُّحْت صار سماعا للكذب . أو سمع كذبا فصار أكّالاً للسُّحْت . ولنلاحظ أن الحق لم يقل : « آكل للسُّحْت » ، ولم يقل : « سامع للكذب » ؛ ولكنه قال : « سماعون للكذب أكّالون للسُّحت » أى أنهم تعودوا سماع الكذب وتعودوا أكل السُّحت ، فالواحد منهم أخذ حراما من أول الأمر ، وعندما صار أكالا وسمّاعًا للكذب فى آن واحد ، اختلت ذرّات تكوينه ، ولم يعد فى أعماقه نور ليرفض الكذب . بل أقبل عليه ، ويغريه الكذب ثانية بأن يأكل السُّحْت ، والأمر دائر بين سماع كذب وأكل سحت .

وقضية الكذب هى قضية صراع الباطل مع الحق . ومادام الكذب غير مطابق لوازع كونى أو لواقع منهجى تكليفى فهذا يصنع خللاً فى الكون . وحينما أراد الحق سبحانه وتعالى أن يضرب لنا المثل فى ذلك جاء بالمثل فى أمرٍ حسى حتى نراه جميعا :

﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا ﴾

(من الآية ١٧ سورة الرعد)

أى أن كل وادٍ تحمَّل على قدر طاقته . ومن بعد ذلك يقول الحق :

﴿ فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ﴾

(من الآية ١٧ سورة الرعد)

فقبل أن ينزل السيل من على الجبال إلى الوديان ، يأخذ كل الأشياء التى تصادفه على الجبل من آثار الرياح ، ومن أوراق النبات ، فينزله إلى الوادى ، وتلك هى الأشياء التى تصنع الزَّبد ونقول عنه فى لغتنا العامية : « الرَّغاوى » .

﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ﴾

(من الآية ١٧ سورة الرعد)

و« رابياً » أى عائماً وعاليا وطافيا فوق المياه ، لماذا ؟ لأنه مادام زبداً ففيه فقاقيع هواء تجعل حجمه أكبر من وزنه . وتصبح كثافته أقل من المياه ؛ لذلك يطفو فوقها . وماذا يكون الموقف بعد ذلك ؟

﴿ فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ﴾

(من الآية ١٧ سورة الرعد)

ومن العجيب أنه سبحانه جعل المثلين فى الماء والمضاد له وهو النار ، فالماء يأتى بزبد وغثاء يطفو على المياه ، وكذلك النار حين ندخل فيها المعادن . ومن رأى الحداد ينفخ فى كيره على قطعة من الحديد يرى الخبث ، والمواد الغريبة الممتزجة بالحديد والتى تنفصل أثناء الصهر عن الحديد ليصير صافيا . إذن فهناك زبد فى الحديد تخرجه النار عند صهره ، وزبد يطفو فوق الماء .

﴿ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ﴾

(من الآية ١٧ سورة الرعد)

ولهذا نرى الباطل وقد أتى عليه زمن ليطفو فوق السطح ، ويخرج الخَبث طافيا على أصيل الحديد . لكن أيظل الباطل كذلك ؟ يُطمئننا الحق أنه يحمى الحق فيقول :

﴿ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾

(من الآية ١٧ سورة الرعد)

وحين نرى الباطل وقد طفا على السطح نفاجأ بعد وقت من الزمن أن الزبد ينتهى ويصبح الماء صافياً ، وكذلك الزبد الذى يطفو على الحديد ، ينفضه الحديد ليبقى صافياً . فإذا رأينا الباطل مرة يعلو ، فلنعلم أنه لا بقاء لهذا العُلو ؛ لأن ما ينفع الناس يمكث فى الأرض .

ولماذا لا يُعلن الحق عن نفسه من البداية ؟ أراد الله ذلك ليجعل الباطل من جنود الحق ، ولو لم يَعَض الباطل الناس ويُتعبهم أيتجهون إلى الحق ؟ لا ؛ لذلك كان لا بد أن يأتى إليهم الباطل ويتعبهم ليبحثوا عن الحق . وهكذا نرى الباطل كجندى من جنود الحق . وضربنا المثل من قبل وعرفنا أن الألم عند المريض من جنود العافية ، فلولا ذلك الألم لاستشرى الداء دون أن يشعر المريض ، فكأن الألم يلفته إلى موضع الداء ويدفعه للبحث عن وسائل الشفاء . وبذلك يتعرف على حلاوة العافية .

إذن فالباطل من جنود الحق والألم من جنود الشفاء ؛ لأن أمور الحياة لو سارت على وتيرة واحدة لما عرف الإنسان أوجه الحياة ، فلو لم يأتِ الألم إلى المريض لأكله المرض . فإذا كان الألم من جنود الشفاء ، فالكفر أيضاً من جنود الإيمان ؛ لأننا عندما نرى الكُفر ونشهد آثار الكُفر فساداً في المجتمع ، نتساءل : ما الذى يخلِّصنا من ذلك ؟ ونعرف أن الذى يخلصنا من الفساد هو الإيمان .

وأُكرِّر دائماً : كلمة الكُفر بذاتها هي الدليل الأول على الإيمان ؛ لأن الكُفر هو السَّتْر ، ومادام الكفر هو السَّتر ، والكافر يستر الإيمان ، وظهور الكفر على السطح دليل وجود الإيمان فى الأصل .

ومادام الحق قد قال : « سماعون للكذب أكّالون للسُّحت » فلا بد بعد هذا التشخيص أن يرسم لرسوله أسلوب التعامل معهم : « فإن جاءوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم وإن تعرض عنهم فلن يضروك شيئاً » . فأنت يا رسول الله بالخيار بين أن تحكم بينهم فى القضية التى جاءوا من أجلها أو تعرض عنهم ، فليس عليك تجاههم إلزام ما ؛ لأنهم السماعون للكذب الأكّالون للسُّحْت . وهم حينما يأتونك يا رسول الله طلباً لحكم إنما يفعلون ذلك لا رغبة فى معرفة الحق ولا هم يلتمسون العدل . بل جاءوك مظنة تيسير أمر الباطل وأكل السُّحت لنفوسهم . وقد طلبوا الحكم فى قضية الزِّنا وعندهم فى التوراة كان الرَّجم عقاباً للزنا .

لقد ذهبوا لرسول الله لأنهم أرادوا أن يستروا حكم الزِّنا فى التوراة ، والاكتفاء بالجلد وتسويد وجه الزانى وركوبه حماراً فى الوضع العكسى بحيث يكون وجهه فى اتجاه الذيل وقفاه فى اتجاه رأس الحمار ، وأن يطوفوا بالزانى وهو على هذه الهيئة حول البلدة . ولما لم يسمعوا ذلك الحكم من الرسول ابتعدوا عنه . إذن هم يطلبون التخفيف لأنهم كانوا سماعين للكذب وأكّالين للسُّحت . ولأن الذى سيطبق عليه الحد رجل له جاه وله مكانة وهم يريدون التقرب إليه بتخفيف العقاب عنه . وهل هناك تعارض بين قول الحق فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها وبين قول الحق :

﴿ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ ﴾

(من الآية ٤٨ سورة المائدة)

لا تعارض . والبعض يقول : إن فى قوله الحق : « فاحكم بينهم بما أنزل الله » إلزاماً . ونقول : المعنى الواضح هو أنك يا رسول الله ، إن رجحت جانب أن تحكم وتقضى بينهم فاحكم بما أنزل الله ، ولننظر إلى الأداء القرآنى لأن المتكلم إله وحكيم : « فإن جاءوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم » . ونلحظ أن الأمر هنا جاء بطريقة تؤكد أن الإعراض ممكن ؛ لأنهم أرادوا أن يحكم لهم رسول الله على هواهم ، وطمأنه الله بأنه سيحميه من شرهم إن أعرض عنهم ، وكأن الحق يقول لرسوله : إياك أن تفكر حين تعرض عنهم أنهم سينالونك بالشر لأنك لم تحقق لهم التيسير الذى ابتغوه عندك « وإن تعرض عنهم فلن يضروك شيئا » وإياك أن تجعل الضرر منهم مُرجِّحاً للحكم ؛ فأنت بالخيار ؛ إما أن تحكم وإما أن تعرض . ولا تخش من شرهم لأن الذى أرسلك يحميك .

« وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط إن الله يحب المقسطين » والحكم فى هذه الآية يأتى كالقوس فى البداية وفى النهاية ، والحكم بينهم يكون بالقسط ؛ أى بالعدل . والعدل ليس كما يراه الهوى ولكن حسب ما أنزل الله . أى أن الله يحب الذين يزيلون الجْور . ومادام الحكم بالعدل يأتى ليزيل الجور ، فكأنه كان من قبل جوْرٌ مُقنن ؛ إذن فـ « أقْسط » أى أزال جورًا مقننًا وأعاد توازن الميزان ليعود الانسجام بين الإنسان والكون . والكون كله يسير بميزان ؛ الأرض تدور والشمس تؤدى مهمتها ، ولا كوكب يصطدم بكوكب آخر :

﴿ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾

(من الآية ٤٠ سورة يس)

فإن أردتم أن تستقيم لكم أموركم الاختيارية ، فانظروا إلى الأمور الإجبارية التى حولكم ، فإن كانت بنظام وميزان واعتدلت الأمور ، اعدلوا ـ إذن ـ فى إدارة شئونكم حتى تنسجموا كما انسجم الكون ، ولذلك نقرأ قوله تعالى :

﴿ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝٥ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۝٦ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطْغَوْاْ فِي ٱلْمِيزَانِ ۝٨ ﴾

(سورة الرحمن)

أمامكم الموازين العليا فى الكون ، ولا تستطيعون إفسادها لأنها تسير بنظام لا دخل لكم به ؛ لذلك عليكم أن تتعلموا منها وأن تديروا أمور حياتكم بميزان حتى تستقيم أموركم الاختيارية .

﴿ أَلَّا تَطْغَوْاْ فِي ٱلْمِيزَانِ ۝ وَأَقِيمُواْ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُواْ ٱلْمِيزَانَ ۝ ﴾

(سورة الرحمن)

فإن رأيت حولك كونا غير مُضطرب ، وغير مُتصادم ، ويؤدى حركته دون تعارض أو تصادم ، فافهم أنه قائم على ميزان الحق ، ووضع سبحانه لك ميزاناً فى الأمور الاختيارية ، والمرجحات الاختيارية هى أحكام التكليف من الله ، فإن أردت أن تستقيم لك الأمور الاختيارية فسر بها على الميزان الذى وضعه الله .

ثم يلفتنا الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك بقوله :

﴿ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٤٣ ﴾

يوضح سبحانه : كيف يأتون طلبا للحكم منك وعندهم التوراة ، وهم لم يؤمنوا بك يا محمد رسولاً من الله ، فكيف يرضاك من لم يؤمن بك حَكَما ؟ لا بد أن فى ذلك مصلحة مناقضة لما فى التوراة ، ولو لم تكن تلك المصلحة مناقضة لنفذوا الحكم الذى عندهم ، وهم إنما جاءوا إليك يا رسول الله طمعا فى أن تعطى شيئا من التسهيل وظنوا ـ والعياذ بالله ـ أنك قد توفر لهم أكل السُّحت وسماع الكذب .

« وكيف يحكمونك وعندهم التوراة » وهى مسألة عجيبة يجب أن يُفطن إليها ؛ لأن عندهم التوراة فيها حكم الله ، فلو حكموك فى أمر ليس فى التوراة لكان الأمر مقبولاً ، لكن أن يحكموك فى أمر له حكم فى التوراة ، وبعد ذلك يطلعك الله عليه

لتكشفه فتقول يا رسول الله : هاتوا ابن صوريا ليأتى بحكم التوراة . ويعترف ابن صوريا بوجود حكم الرَّجم فى التوراة . إذن هم رغبوا فى الاحتيال ، وأراد الله أن يثبت لرسوله صلى الله عليه وسلم لوناً فى الإعلام عن هؤلاء المارقين على أحكام الله ، هم يعلمون أن الرسول أمّى ، لم يقرأ ولم يكتب ، فمن الذى أخبره بالحكم الموجود بالتوراة ؟

إذن أخبره من ارسله ، وإذا كانوا قد أرادوا البحث عن حكم مُخفَّف فالحق أراد ذلك ليكون سَبباً من أسباب الخزى لهم .

﴿ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾

(سورة المائدة)

وهذا دليل على أن الرسول عندما حكم بغير مطلوب تيسيرهم . اعرضوا عن الحكم . ولو كانوا طالبين للحكم بادىء ذى بدء لقبلوا الحكم بالرجم كما قاله لهم رسول الله ، لكنهم غير مؤمنين حتى بتوراتهم .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًاۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾

الهدى هو الطريق أو الدرب المُوَصِّل للغاية . وتأتى على الطريق أحقاب الليل والنهار ، فالطريق مُظلم ليلاً ، وقد تعترض السائر فيه عقبات ، أو قد لا يمشى السائر فى سواء السبيل أى وسط الطريق ، فيقع فى حفرة أو يصطدم بحجر .

ويوضح الحق هنا : لقد صنعت لكم الدرب وأنرته لكم حتى لا تصطدموا بشىء أو تأتى لكم عقبات ، وتمثّل ذلك فى المنهج الذى جاء به موكب الرُّسل كلهم . وقديما كان العالم مفككا ، متناثر الجماعات ، فلا توجد مواصلات ، وتعيش كل جماعة فى انعزال وشبه استقلال ، فإن حصلت داءات فى بقعة ما تظل محصورة فى هذه البقعة ، ويأتى رسول ليعالج هذه الداءات ، فهذا يعالج أمر عبادة الأصنام ، وذلك يعالج مسألة الكيل والميزان ، وثالث يعالج الأمور المنظمة للحياة الزوجية عند اليهود .

هذه الداءات كانت متعددة بتعدد الجهات ، وعندما أراد الحق سبحانه أن يبصر الناس بأسرار كونه ليستنبطوا منها ما يقرب المسافات ويمنع المشقات لتلتقى الأمم . وعندما تلتقى الأمم لا يوجد فصل بين الداءات ، فالداء الواحد يحصل فى الشرق لينتقل إلى الغرب . وكأن الداءات تتحد فى العالم أيضاً .

إذن لا بد أن يجىء الرسول الجامع ليعالج الداءات كلها ، فيأتى صلّى الله عليه وسلم الجامع المانع ، فإذا ما قال الحق : إنه أنزل التوراة فيها هدى ونور ، فالإنجيل أيضاً فيه هدى ونور ، وكل هدى ونور فى أى كتاب إنما هو للداءات الموجودة فى البيئة المنعزلة . مثال ذلك أن سيدنا إبراهيم كان موجوداً ، ومعه فى الزمن نفسه سيدنا لوط . وها هوذا سيدنا موسى كان موجودا . وكذلك سيدنا شعيب ، إذن كانت الرُّسل تتعاصر فى بعض الأحيان لأن كلا منهم يعالج داء معينا . وهكذا كانت الرسالات تأتى محدودة الزمان ومحدودة المكان .

أما محمد صلى الله عليه وسلم فقد بعثه الله للناس كافة بكل أجناسهم وتقوم على منهجه الساعة ؛ لذلك لم تعد الأرض فى حاجة إلى رسول آخر ، وصار من المنطقى أن يكون هو الرسول الخاتم .

« إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا » لماذا إذن يأتى

الحق بإسلام الأنبياء هنا ؟ جاء سبحانه بأمر إسلام الأنبياء تشريفا للإسلام لأنه جوهر منهج كل نبى .

إننا نجد الشعراء يتفننون فى هذا المعنى :

ما إن مدحت محمداً بمقالتى
لكن مدحت مقالتى بمحمدِ

والشاعر الآخر يقول :

قالوا أبو الصقر من شيبان قلت لهم
كلا لعمرى ولكن منه شيبان

فالقبيلة بالنسبة لأبى الصقر هى التى تنتسب إليه وليس هو الذى ينتسب إليها .

ويردف قائلا :

وكم أبٍ قد علا بابن ذُرَا شرفٍ
كما علا برسول الله عدنان

إذن فالنبيون عندما يصفهم الحق بأنهم أسلموا ، إنما يريد الحق أن يشرف الإسلام بأن النبيين أسلموا قيادهم وزمامهم إلى الله لأنهم وجدوه الخير لهم . وإسلام النبيين هو الإسلام بمعناه الكامل ، أى هو الانصياع لأوامر الله ، فكلما فكر نبى منهم فى أن هناك شراً سيأتى له بسبب دعوته ، أو أن يضطهده أحد ، أو يحلو لأحدٍ أن يسىء إليه فهو يسلم أمره لله ؛ لأن الرسول منهم إنما يقول كلمة الحق ولا يبالى بما يحدث بعدها .

« يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا » وهم يحكمون بالتوراة بين الذين هادوا ، أى من يهود ، وكذلك يحكم بها الربانيون والأحبار . والربانى منسوب للرب ، أى أن كل تصرفاته منسوبة إلى الله . والأحبار هم العلماء حملة أوعية العلم ، لكن هل ينفذونه أو لا ينفذونه فهذا شىء آخر . صحيح أن كل عالم وعاءٌ

علم ، لكن قد ينتفع هو بعلمه ، وقد لا ينتفع ، لكنه ينقل علمه إلى من ينتفع به .
ولذلك يقول أحد العلماء :

فخذ بعلمي ولا تركن إلى عملي
واجْنِ الثمار وخلِّ العود للنار

فلا تقل : إن هذا العالم يقول لنا كذا وكذا ، ونراه في تصرفاته عكس ما يقول ، لأن عليك أن تأخذ ثمرة العلم ، واترك العود للنار . ولكن على العالم أن يكون أول من يمتثل ويطبق ما يقوله حتى لا يعذب ولا يدخل تحت قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا لِمَ تقولون ما لا تفعلون ، كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون » .

« والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله » وعرفنا أن التوراة فيها نور وهدى ويحكم بها النبيون والربانيون والأحبار بالوسيلة التي طلب الله منهم أن يحفظوها ، وبما طلبه رسولهم منهم أن يحفظوا هذه التوراة . وقال الحق : « استحفظوا » ولم يقل : « حفظوا » ليبين لنا الفارق بين كل كتاب سابق للقرآن وبين القرآن ، لأننا عرفنا أن كل رسول قد جاء بمعجزة تدل على أنه صادق البلاغ عن الله .

ولكل الرسل من السابقين على رسول الله معجزة منفصلة عن المنهج ، مثال ذلك سيدنا موسى فمعجزته العصا وفلق البحر ، أما منهجه فهو التوراة . وسيدنا عيسى معجزته إبراء الأكمه والأبرص ، والمنهج الذي جاء به هو الإنجيل . أما سيدنا رسول الله فمعجزته هي عين منهجه ، وهي القرآن . وكان الأمر الموجود بالنسبة لكل رسولٍ مرتبطا بزمانه وجماعته ومحتاجا إلى معجزة مناسبة ومنهج مناسب ، لكن الرسول الذي أرسله الله إلى الناس جميعا وخاتما للأنبياء لا بد أن تظل معجزته عين منهجه بحيث يستطيع أي مسلم أن يقول حتى قيام الساعة : محمد رسول الله وهذه معجزته وهي عين منهجه .

وسيظل القرآن معجزة ظاهرة إلى أن تقوم الساعة ؛ لأن الله أرادها مختلفة عن بقية المناهج والمعجزات . فالمعجزات السابقة كانت كعود الثقاب الذي يشتعل مرة

واحدة ؛ فمن رآه لحظة الاشتعال فالأمر بالنسبة إليه واضح ، أما من لم يره فهو لن يصدق تلك المعجزة إلا أن يخبره من يصدقه . وقد استحفظ الله الربانيين والأحبار بالتوراة ، أى طلب منهم أن يحفظوها ، وكان هذا أمراً تكليفياً ، والأمر التكليفى عُرضة لأن يُطاع وعُرضة لأن يُعصى . واستحفظهم الله التوراة والإنجيل :

﴿ فَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ ﴾

(من الآية ١٤ سورة المائدة)

وصار أمر المنهج منسياً . وليس على بالهم كثيراً ؛ لأن الأمر إذا توارد على البال واستقر دائما فى بؤرة الشعور يظل فى الذهن ، لكن النسيان يأتى عندما يكون الأمر بعيداً عن البال .

والحق طلب منهم أن يحفظوا المنهج ، ولكنهم ـ ماعدا النبيين ـ لم ينفذوا ، وكل أمر تكليفى يدخل فى دائرة الاختيار ، ولذلك نجد أن الأحبار والربانيين قد نسوا ، وما لم ينسوه كتموه . وأول مرحلة من مراحل عدم الحفظ أنهم نسوا ، والمرحلة الثانية هى كتمان ما لم ينسوه ، والثالثة هى : ما لم يكتموه حرّفوه ولووا به ألسنتهم . وياليتهم اقتصروا على هذه المراحل فقط ، ولكنهم جاءوا بأشياء وقالوا : هى من عند الله وهى ليست من عند الله :

﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾

(من الآية ٧٩ سورة البقرة)

إذن فالحفظ منهم لم يتم ؛ لذلك لم يدع الله القرآن للحفظ بطريق التكليف ؛ لأنه سبحانه اختبر البشر من قبل ، ولأنه أراد القرآن معجزة باقية ؛ لذلك لم يكل الله سبحانه أمر حفظه إلى الخلق ، ولكنه تكفل ـ سبحانه ـ بأمر حفظ القرآن :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩ ﴾

(سورة الحجر)

ومصداق هذا النص ، أن بعضاً من المسلمين أسرفوا على أنفسهم فى هجر منهج الإسلام ومنهج القرآن إلا أنك تجد عجباً ، فبمقدار بُعدهم عن منهج الإسلام تطبيقاً يحافظون على القرآن تحقيقاً ، فيكتبون القرآن بكل ألوان الكتابة وبكافة الأحجام ، فهناك حجم ذهبى ترتديه النساء فى صدورهن ، وحجم يوضع فى اليد ، وبعد ذلك

نجد الكفرة أنفسهم يخترعون طريقة لكتابة القرآن فى صفحة واحدة .

إذن فالله يُسخر لحفظ القرآن حتى من لم يكن مسلماً . وتلك خواطر من الله . ونحن نرى كل يوم من يبتعدون بسلوكهم عن المنهج لكنهم يرصدون المال لحفظ القرآن . ونجد القرآن محققاً بألف وسيلة حفظ : الرجل يضع فى سيارته مصحفاً ، وفى حجرة نومه مصحفاً ، وقد تكون المرأة سافرة وصدرها مكشوف ولكنها تعلق مصحفاً ذهبياً . وهذا يثبت لنا أن حفظ القرآن ليس أمراً تكليفياً . بل هو إرادة الله .

فلو كان الأمر تكليفياً لكان نسيان القرآن وارداً ؛ لأن المسلمين ابتعدوا فى بعض أمورهم عنه كمنهج ، ويناسب ذلك أن ينفصلوا عنه حفظاً . ولكن الأمر صار بالعكس . فعلى الرغم من بُعد المسلمين عن المنهج ، لكن حفظ القرآن لا يقل أبداً ، ومن العجيب أن الكثيرين من المسرفين على أنفسهم ، إن سمع واحد منهم أن شيئاً يمس المصحف ، يقيم الدنيا ويقعدها ، فالمسألة ليست مسألته ، ولكنها مسألة الحافظ جل شأنه . وإن حدث أى تحريف يسير فى القرآن من أعداء الإسلام ، نجد أمة الإسلام تقف وقفة رجل واحد . ولقد أراد بعض المدلسين أن يدسوا على القرآن ما ليس فيه وجاءوا إلى آية فى سورة الفتح وهى :

﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الفتح)

وقالوا : « محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم » وكأنهم يرغبون فى زيادة التكريم لرسول الله ، فلما عرف المسلمون ذلك قامت ضجة وأحرقوا تلك المصاحف . ومنع المسلمون التحريف مهما كان باب الدخول إليه .

« فلا تخشوا الناس واخشون » والخشية : خوف متوَهَّم ممن تظن أنه قادر على الضر ، ولا أحد غير الله قادر على النفع والضر ؛ لذلك لا يصح أن يخاف الإنسان من سواه ، أما أن تظن أن السلطان أو القريب منه قادر على الضر ، فهذا أمر غير صحيح ، وليخشَ كل إنسان الحق سبحانه وهو جل وعلا نصحنا أن تكون الخشية منه دون سواه .

وإن غيَّر أحد أحكام المنهج من أجل السلطان أو أقارب السلطان أو أصدقاء

السلطان فذلك عين الفساد . والآفات والشرور تأتى من ذلك . بل قد لا يدرى السلطان شيئاً عن ذلك، وقد يتدخل قريب للسلطان ـ دون علم السلطان ـ ليطلب من العلماء تغيير بعض من المنهج ولا يستسلم له إلا الضعاف منهم ، وقد فطن سيدنا عمر رضى الله عنه إلى هذا الأمر فقال : إن الفساد قد لا يأتى من السلطان ، ولكن من الذين حول السلطان .

والخشية هنا تكون من غير الله ، ولذلك كان سيدنا عمر يجمع أقاربه والملتفين حوله ويقول لهم : لقد اعتزمت أن أصدر كذا وكذا فوالذى نفسى بيده من خالفنى منكم إلى شيء من هذا جعلت نكالاً للمسلمين .

هذا هو أسلوب من أراد أن يخدم ويحكم ولا يحمل أوزاراً ، ونرى صور الفساد إنما جاءت نتيجة مخالفة القاعدة الحكيمة : « فلا تخشوا الناس واخشون » .

ويتابع الحق من بعد ذلك : « ولا تشتروا بآياتى ثمناً قليلاً » وثمن آيات الله مهما بولغ فى تقييمها فلن يتجاوز نفعه هذه الدنيا ؛ لأن الدنيا ـ كما قلنا سابقا ـ لا تقاس بعمرها الحقيقى أى إلى أن يُفنى الله البشر ، وإنما دنيا كل حىّ تقاس بعمره فيها .

فهب أن الحياة طالت لملايين السنين فما نفع الفرد المحدود العمر بهذه الملايين من السنين ؟ إذن فدنيا كل إنسان هى مقدار عمره فى الحياة . وعمر الفرد فى الدنيا له حد محدود غير معروف لأحد غير الله ، فلكل أجل كتاب . ولذلك تجد واحداً يعيش متوسط الأعمار وهو سبعون عاماً . ويختلف العمر من إنسان لآخر ؛ وقد يموت آخر عند الستين وثالث يموت فى الأربعين ورابع يموت فى المائة ، وخامس يموت وهو طفل رضيع .

إذن فدنيا الفرد قد تكون لحظة . ومادامت مسألة العمر لا يحكمها زمن ولا يحكمها سبب فهى ـ إذن ـ بإرادة الحق غيب .

وأقضية الموت فى الوجود جعلها الله شائعة فى كل زمن ولم يجعلها الحق بعد الميلاد . بمعنى أن يولد الإنسان ليموت من بعد ذلك ، لا ، فقد يموت الكائن

البشرى وهو جنين فى بطن أمه ؛ فهذا حمل يسقط من بعد ساعة ، وذاك حمل يسقط من بعد شهر أو شهور ، وجعل الحق لنا ذلك لنأخذ من الأمر الغيبى وهو الجنين فى البطن مراحلَ تكوينه . إنه يعطينا شكل الجنين بعد نصف ساعة من التكوين ، ويعطينا شكل الجنين من بعد ساعة . وكل الأزمنة فى الحياة والموت موجودة . وعندما نحلل تلك الأشكال نجد أمامنا كل أطوار الجنين ، وكل أطوار الحياة ليكون ذلك واضحا جليا حتى لا يحسب أحد لنفسه عمراً فى هذه الدنيا .

ومادام الثمن الذى يأخذه المرتشون ليغيّروا آيات الله وأحكامه سينفعهم فى هذه الدنيا ، وأعمارهم فى هذه الدنيا محدودة ، كان عليهم أن يتذكروا أن حياتهم زمنياً قليلة بالنسبة لعمر الدنيا . وحتى يقوم الإنسان بعملية اقتصادية لا بد أن يتعرّف إلى أن عمره محدود بقدر سنوات مجهولة بالنسبة له فى هذه الحياة ، وهو عمر محدود مهما طال . وإن قارنها الإنسان بالحياة فى العالم الآخر فسيجد أن عمره الدنيوى منهى ، فإن قايضه بعمر غير منهى هو عمره فى الآخرة ، فذلك هو الفوز العظيم ؛ لأن وجود الإنسان فى الدنيا مظنون ، ووجود الإنسان بالنسبة للآخرة متيقن . ونعيم الفرد فى الدنيا هو على قدر إمكاناته ولو فى السلب . ونعيم الإنسان فى الآخرة ينسب إلى طلاقة قدرة الله سبحانه وتعالى .

إذن فأى صفقة تكون هى الرابحة ؟ محدود مقابل غير محدود ، ومظنون مقابل متيقن ، ونعيم على قدر مكنة وسلطان الفرد ولو بالسلب مقابل نعيم على قدر طلاقة قدرة الحق ، أى صفقة هى الرابحة ؟ إذن فصفقة الدنيا قليلة بالنسبة لما وعد الله به المتقين . ومن بعد ذلك يقول الحق : « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون » .

ماذا يعنى الحكم بما أنزل الله ؟.

نعلم أن الحق سبحانه وتعالى جعل لكل قضية مخالفة فى الكون حكماً ، فإذا أردت أيها الإنسان أن تحكم فى أمرٍ فعليك أن تبحث عن جوهره بسلسلة تاريخ هذا الأمر . ونجد أن قمة كل الأمور هى العقيدة ، وهو وجود الواجب الأعلى وهو الله ، فإن حكمت بأنه غير موجود فذلك هو الكفر . وإن آمن الإنسان بالله ثم جاء إلى أحكام

الله التى أنزلها وقال : لا ، ليس من المعقول أن يكون الحكم هو هكذا . فهذا لون من رد الحكم على الله وهو لون من الكفر .

أما إن آمن الإنسان بالحكم وقال : إننى أصدق حكم الله ، ولكن لا أقدر على نفسى فهل هذا كفر ؟ أم هذا ظلم ؟. إنه ليس كفراً ، ويكون ظلماً إن كان حكماً بين اثنين . وهو فسق إن كان بين الإنسان وبين نفسه ؛ لأنه يفسق عن الحكم كما تفسق الرطبة عن قشرتها .

فالفاسق هو من له إطار من التكليفات ويخرج عن هذا الإطار كالرطبة التى خرجت من قشرتها . ومادامت الرطبة قد خرجت من قشرتها فهى عرضة للتلوث .

إذن فإن سمعت قول الله :

﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾

(من الآية ٤٤ سورة المائدة)

وعندما تسمع :

﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾

(من الآية ٤٥ سورة المائدة)

وعندما نسمع :

﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾

(من الآية ٤٧ سورة المائدة)

فتذكر أحكام الله وحاول أن تقدر على نفسك . وقيل : إن ذلك لليهود ؛ لأن الحق قال :

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ﴾

(من الآية ٤٤ سورة المائدة)

وقيل : إن الثانية جاءت للنصارى الذين لم يحكموا بالإنجيل .

ولنا أن نقول رداً على مثل هذه الأقوال : أمن الممكن أن يكون ذلك للأديان السابقة على الإسلام وليس موجوداً بالإسلام ؟ ذلك أمر لا يقبله العقل أو المنطق ، فهى آيات نزلت فى مناط الحكم عامة . فإن حكم إنسان فى قضية القمّة وهى العقيدة بغير الحق ، فذلك هو الكفر . وإن ردّ الإنسان الحكم على منشئه ـ وهو الحق الأعلى ـ فهذا لون من الكفر . وإن آمن الإنسان بالقضية وهو مؤمن بالإله فغلبته نفسه فهذا هو الفسق . وإن حكم إنسان بين اثنين وحاد ومال عن حكم الله فهذا هو الظلم .

إذن فـ « كافرون » و« ظالمون » و« فاسقون » تقول لنا : إن الألفاظ اختلفت باختلاف المحكوم به . فلا يقولن أحد : إن تلك آية نزلت لتلك الفئة ، وتلك الآية نزلت لفئة أخرى ، وثالثة نزلت لفئة ثالثة ، ولكنها أحكام عامة لمناط التكليف عامة . والحق قال فى بداية كل حكم « ومَن » ومَن كما نعلم كلمة عامة . والدليل على ذلك أن من يحكم بغير ما أنزل الله إنما هو يشترى بآيات الله ثمناً قليلاً ورد الحكم على الله . وقال الحق فى الآية اللاحقة :

﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ ﴾

(من الآية ٤٥ سورة المائدة)

إنها أحكام تتعلق بجرائم ، وعقوبات على جرائم ، وهنا يكون الحكم بغير ما أنزل الله ظلماً . إذن فالأمر يختلف حسب المحكوم عليه .

وحينما تعرضنا لقضية الخلق الأول وهو خلق آدم ، وطلب الله من الملائكة المكلفين بتدبير أمور الخلق فى الأرض أن يسجدوا لآدم . وقلنا إن هذا السجود هو رمزية لأن يكونوا فى خدمة آدم ؛ لأن كل مظهر من مظاهر القوة فى الكون لا نرى الملك الذى يديره ، فكل قوة لها ملك معين ، ولأن ذلك الأمر من الغيب فنحن لا نراه ، إنها ملائكة مدبرات أمر . وحين يبلغهم الحق أن الطارىء على الكون وهو آدم ، وأنهم فى خدمته ، ومن أجل ذلك أمرهم بالسجود لآدم . ولذلك نجد أن بعضاً من الملائكة الذين ليسوا من المدبرات أمرا لم يشملهم الأمر . ويكلم الحق إبليس عندما رفض السجود قال سبحانه :

﴿ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴾

(من الآية ٧٥ سورة ص)

إن « العالين » هم الذين يسبحون الليل والنهار لا يفترون ولا يدرون ولا يعلمون بأمر آدم ، فقد سأل الحق إبليس : أأنت مستكبر عن السجود أم أنت من العالين الذين لم يشملهم أمر السجود ؟ وقلنا إن إبليس لم يكن من الملائكة ، لأنه بنص القرآن :

﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓ﴾

(من الآية ٥٠ سورة الكهف)

ولذلك لا يصح أن يكون « إبليس » محل خلاف أهو من الملائكة أم لا ! فهو ليس من الملائكة . وفى القرآن نص صريح يثبت جنسية إبليس . وهو من الجن . وكان من المختارين ، له أن يطيع أو أن يعصى . لأن الجن داخلون فى قانون الاختيار . فإن ألزم الجنى نفسه بمنهج الله إلزاماً يتساوى به مع الملائكة وجب عليه أن يقوم بذلك . ولكنه لم يفعل . وكان من الواجب أن يطيع إبليس الأمر . ومادام الحق هو الذى أمر بالسجود ، فالأدنى وهو إبليس كان عليه أن يسجد ؛ لأن المراتب محفوظة كما نعلم ، فرئيس الجمهورية عندما يدخل على الوزراء فهم يطيعون أمره ، وإن كان يجلس مع الوزراء بعض وكلاء الوزارات فهم يطيعون أوامره ؛ ذلك أنهم يدخلون فى الأمر من باب أولى . ولو كان إبليس أعلى من الملائكة لكان أولى له أن يستجيب لأمر الخالق الأعلى ولا يعصى ويتأبى ، أما وإنه كان أقل من الملائكة فكان لا بد من باب أولى - أن ينصاع لأمر الله . لكن إبليس علل أمر عدم السجود ، فقال :

﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ﴾

(من الآية ١٢ سورة الأعراف)

وفى آية أخرى قال سبحانه :

﴿ءَأَسۡجُدُ لِمَنۡ خَلَقۡتَ طِينٗا﴾

(من الآية ٦١ سورة الإسراء)

وحين يتأبّى كائن على الحكم ، أيتأبّى على الحكم الأصم ، أى على الحكم من حيث هو حكم دون النظر إلى الحاكم ، أم على مَن حكم بالحكم وهو الأعلى سبحانه ؟ . تأبى إبليس على من حكم بالحكم ، ولذلك طرده الحق من الجنة وصار ملعوناً . لكن آدم عصى ربه وقرب من الشجرة التى نهاه الله عنها . ومن رحمة الله

تعالى أنه جعل فى التكليفات مقدمات تنطبق على حالة المكلف نفسه ، فلم يقل الحق لآدم : لا تأكل من الشجرة . ولكنه قال :

﴿ وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ ﴾

(من الآية ٣٥ سورة البقرة)

لأن الحق علم أن آدم إنسان ، والإنسان من الأغيار ، وهو عندما يرى الشجرة بثمارها قد لا يقدر على نفسه ، ولذلك كان من الأفضل ألا يقرب من هذه الشجرة . وسبحانه يريد أن يحمى الإنسان ؛ لأن التكليفات التشريعية لا يرفعها الحق ، ولا يُعفى المكلف من القيام بها إلا فى الأمر الذى ليس للإنسان فيه اختيار ، ولذلك أراد الحق أن يحمى الإنسان من الاقتراب من تلك الشجرة حتى لا تغريه وجاء الحق بمثل هذا الأمر فى الخمر فلم يقل : لا تشربوا الخمر . ولكنه قال :

﴿ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ ﴾

(من الآية ٩٠ سورة المائدة)

لأن الإنسان لو جلس فى مجلس خمر ورأى السُّكارى قد سعدوا وضحكوا فقد تراوده نفسه على شرب الخمر . إذن فالأمر بالاجتناب هنا أبلغ من « لا تشربوه » . ونجد أن تكليفات الحق إنما تأتى للعمل النزوعى ، ومعنى العمل النزوعى أن يتحرك الإنسان للعمل . أما بالنسبة للإدراكات فمن الجائز أن يدرك الإنسان الأمر . ويترك الحق لنا حرية حب من نشاء وكراهية من نشاء . ولكن هذا الحب لا يصح أن يصدر عنه عمل نزوعى فنجامله بالباطل . وكذلك الكراهية فليس هناك أمر بالكراهية ، ولكن إن كره إنسان إنساناً فلا يصح أن يظلمه . فالمنهىّ عنه هو الظلم ، ولذلك قال الحق :

﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ﴾

(من الآية ٨ سورة المائدة)

أى لا يحملنكم بغض قوم على ألا تعدلوا . إذن فالحق لم يحرم البغض لأنه مسألة عاطفية . ولكن التحريم ينحصر على الإقدام على عمل يخل بميزان العدل مع من تكره . ويجب أن يؤمن الإنسان إيماناً جازماً بأن من ظلمه بمعصية ، فلا يجازيه الإنسان إلا بطاعة الله . وآدم أكل من الشجرة ، فهو ـ إذن ـ قد تجاوز مسألة

الاقتراب إلى مسألة الأكل من الشجرة ؛ لأنه لو قرب منها لكان مخالفاً ، فما بالنا وهو قد أكل منها أيضاً ؟ إذن فقد أوغل آدم فى المعصية ، لكنه قال : (ظلمنا أنفسنا) .

وهذا اعتراف واضح بأن حكمك يا الله هو الحكم الحق ، لكنى لم أقدر على نفسى يا ربى . إذن فهو لم يَرُدَّ الحكم على الله ، ولكنه اعترف بأنه لم يقدر على تنفيذ الحكم ، لذلك أعطاه الله كلمات ليقولها فيتوب عليه . وسبحانه هو الذى علم آدم كيف تكون التوبة . فآدم ـ إذن ـ ليس كإبليس الذى رد الحكم على الله ؛ لأن آدم قال : أنا لم أقدر على نفسى .

إذن فمن لم يحكم بما أنزل الله رادّاً للحكم على الله ومخطّئاً لله ـ سبحانه ـ فهو كافر . وإن كان حكماً بين اثنين وحكم بغير ما أنزل الله فهو ظالم . أما إن كان حكماً على النفس ولم يقدر عليه الإنسان فهذا فسق . وكل وصف جاء حسب حكمه . ولا داعى ـ إذن ـ للجدل ولا للخلاف ولا ادعاء أن هناك قولاً يقصد به اليهود ، وآخر ورد فى النصرانية ، ولا يصح أن يزين الإنسان الباطل لأحد ، لأن ورود الحكم بما أنزل الله فى الإسلام أمر جازم يوجب الالتزام به .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾

لقد كتب الحق على اليهود فى التوراة التى وصفها من قبل بأنها هدى ونور ، كتب

وأوجب عليهم أن النفس بالنفس ، وعلينا أن نأخذ كل أمر وما يناسبه من الحدث . أى أن النفس تُقتل بالنفس . ولكن عندما يقول الحق : « والعين بالعين » ، فهل يعنى ذلك أن تقتل العين؟ لا . ولكن العين تقلع مقابل عين . وكذلك « والأنف بالأنف » . أى الأنف المجدوعة ، مقابل جدع أنف أخرى . وكذلك قوله الحق : « والأذن بالأذن » أى إصابة أذن بالصمم مقابل إصابة أذن بالصمم . إذن فلكل ما يقابله . فهناك النفس تقتل بالنفس وهناك العين تفقأ بالعين ، وكذلك الأمر فى جدع الأنف ، وصلم الأذن .

إن تعبيرات اللغة واسعة تعطى لكل وصف ما يناسبه . فالإنسان مثلاً قد يكون جائعاً . ولكن إلى ماذا ؟ إن كان جائعاً لطعام فهو جوعان . وإن أراد خصوصية أكل ويشتهيه كاللحم فلا يقال له:جوعان ، ولكن يقال « قَرِم » . وإن كان يشتهى اللبن يقال له : « عَيْمان » ، وإن كان فى حاجة للماء يقال له : « عطشان » . وإن كان جائعاً للجنس فهو « شَبِق » .

وذلك يكشف لنا أن الإنسانية تحتاج إلى أمور متعددة ، وكل أمر له اسم . وكل شىء له تعبير . ومثال آخر : يقال:فلان جلس ، أى قعد . وهذا فى المعنى العام . ولكن الجلوس يكون عن اضطجاع . أما قعد ، فهى عن قيام ، أى كان قائماً وقعد . ولذلك قال الحق : « قياماً وقعوداً » .

ومثال آخر : يقال : « نظر » و« رمق » و« لمح » ؛ وكل كلمة لها موقفها ؛ فالنظر يكون بجميع عينيه . و« رَمِق » أى لحظ لحظا خفيفاً . و« لَمَحَ » أى اختلس النظر إليه . وكذلك قوله الحق معناه : أننا كتبنا عليهم فيها أن النفس مقتولة بالنفس ، والعين مفقوءة بالعين ، والأنف مجدوعة بالأنف ، والأذن مصلومة بالأذن ، والسن مخلوعة بالسن . وبعد ذلك يقول الحق عن الجروح : « والجروح قصاص » لأن الجرح قد يكون فى أى مكان . والقصاص يكون بمثله ومساوياً للشىء ، وهو مأخوذ من قص الأثر ؛ أى السير تبعاً لما سارت عليه القدم السابقة دون انحراف . ولما كان القصاص هو أمر مطلوب فيه المماثلة فذلك أمر صعب ، صحيح أن الحق قال :

﴿ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾

(من الآية ١٩٤ سورة البقرة)

لكن القصاص أمر صعب ، فالصفعة من يد جائع متهافتة بعكس الصفعة التى تأتى من يدٍ صاحبُها فى منتهى النشاط والقوة . فكيف يكون القصاص مناسباً لقوة الذى فعل الفعل ؟

إذن لا يصح أن يدخل الإنسان فى متاهة . ويمكنه أن يتصدق بالقصاص فلا يأخذه . ونحن نعلم حكاية « تاجر البندقية » ذلك المرابى اليهودى الذى أقرض نقوداً مقابل رطل من لحم صاحب القرض ، وكتب الاثنان التعاقد وجاءا بالشهود . ولم يستطع الرجل أن يُسدِّد المال فى الميعاد ولكن القاضى أنار الله بصيرته . فقال : خذ الرطل من لحم الرجل ولكن إن أنقصت أوقية فسنأخذها منك أو إن زدت أوقية فسنأخذها منك . فقال المرابى : لا أريد .

وقد قنن الحق للجريمة ، ولم يغلق سبحانه باب الطموحات الإيمانية ، فقال : « فمن تصدق به فهو كفارة له » . ومعنى « تصدق » أنه دفع وأعطى شيئا غير مستحق ، ولا واجب عليه أى تبرع به ابتغاء وجه الله . إن الذى يتعب البشر فى تقنيناتهم أنهم يطيلون إجراءات التقاضى ، فساعة تقع جريمة يستمر التحقيق فيها بواسطة القضاء لأكثر من عام فتنبهت بشاعة الجريمة فى النفس البشرية. ومن الواجب كذلك أن يكون الأمر لولى القصاص ؛ لأنك إن مكنته أرضيت نفسه بأول شفاء . وساعة يُعطى الإنسان ذلك الحكم فقد يزهد فيه ؛ لأن الأمر حين يكون فى يده ويقدر على القصاص فمن المحتمل أن يعفو .

وسيظل المتصدَّق عليه طيلة حياته يدين بحياته أو بجارحة من جوارحه لصاحب القصاص . وبدلاً من إيعازات الثأرات تنشأ المودة . وحين يشرع المشرع الأعلى يوضح لنا : لا تحكم بأنك دائماً معتدى عليك ، بل تصور مرة أنك معتد ، ألا تحب فى مثل هذه الحالة أن يتصدق عليك صاحب القصاص ؟ فإذا أرادت الحكومات أن تنهى الثأرات فلهم فى التشريع الأعلى الحكم الواضح .

وفى صعيد مصر ، ساعة يُقتل إنسان نجد الذى عليه الثار يأخذ كفنه ويذهب إلى العائلة الطالبة للثار ، ولحظة يدخل عليهم حاملاً كفنه بيديه ، تشفى النفوس من طلب الثأر . ويحيا ، وصاحب الثأر متفضل عليه بالعيش « فمن تصدق به فهو كفارة

له » تكون الصدقة هنا من ولى القصاص . والفعل « تصدق » يحتاج إلى اثنين هما : « متصدِّق » و« متصدَّق عليه » . وسبحانه الحق يكفر عن المتصدق من الذنوب بقدر ما تسامح فيه لأخيه ، وهنا يحنن الله الخلق بعضهم على بعض ؛ لذلك تأتى المسألة هنا من ناحية صاحب القصاص لترغبه فى التصدق .

وينهى الحق الآية بقوله : « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون » وعرفنا من قبل ضرورة الحكم بما أنزل الله . وبعد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾

وقفينا أى أتبعنا ، فعيسى جاء من بعد موسى ، فعندما يمشى رجل خلف رجل نجد أن قفا الأول يكون فى وجه الثانى . وعندما يقول الحق : « وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم مصدقاً لما بين يديه » أى مصدقاً لموسى الذى جاء بالتوراة . « وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور » . وعرفنا أن « الهدى والنور » يناسبان البيئة التى نزلت إليها تلك الهداية وذلك النور .

إن هناك مقولات اسمها « المقولات الإضافية » ، كأن يقول إنسان فى قرية لابنه : أشعل الضوء . ويشعل الولد المصباح الكيروسينى ؛ أما إذا قال إنسان فى مدينة لابنه : أضىء النور ، فالابن يضغط على الزر ليضىء المصباح الكهربائى . وهذه الإضافات قد تجعل اللفظ يحمل معنيين . ومثال آخر أكثر وضوحاً : يسكن الإنسان فى منزل ما ، ويعرف أن السقف عال بالنسبة له ، ولكنه أرض بالنسبة لأصحاب الدور الثانى ، إنه علو وسفل وهذا هو المعنى الإضافى . وكذلك عندما

نقول : فلان ابن فلان ، فهذا لا يمنع أن هذا الابن يكون أباً بالنسبة لابنه .

إذن « هدى ونور » هى معان إضافية . وكل « هدى ونور » يناسب البيئة التى نزل فيها . فالبيئة المادية الأولى كانت فى حاجة إلى تقنين ، لذلك جاءت التوراة ، ومن بعد ذلك صارت هذه البيئة المادية فى حاجة إلى طاقة روحية ؛ لذلك جاء الإنجيل بكل الروحانيات ، وعندما سئل عيسى ابن مريم عليه السلام فى قضية الميراث قال : أنا لم أرسل مورِّثاً ، فهو يعلم أنه جاء بشحنة روحية فيها مواجيد ومواعظ .

ويتابع الحق من بعد ذلك :

﴿ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾

والحق أنزل فى الإنجيل أن الأحكام تؤخذ من التوراة . أى أن الإنجيل تضمن إلى جانب روحانياته أسس الأحكام الموجودة فى التوراة . ولذلك أوضح الحق : من لم يحكم بما أنزل الله فهو فاسق مادام قد خرج على الطاعة . فإن خرج أحد على الطاعة فى أمر الألوهية والربوبية فهو كافر . ومن خرج على الأحكام بالنسبة للحكم بين الناس فهو ظالم . إذن فالمسألة كلها متداخلة ، فالشرك ظلم عظيم أيضاً .

وبعد أن تكلم الحق عن التوراة والإنجيل ، جاء بما نزل إلى النبى الخاتم :

﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَٱحْكُم بَيْنَهُم

بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗاۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَكُمۡ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمۡۖ فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾

وساعة نسمع كلمة « أنزلنا » نعرف أن هناك تشريعاً جاء من أعلى . وهناك من يريد أن يلبس الناس أهواءه ، فيقول : إن الإسلام دين تقدمى ، أو يقول : الإسلام دين رجعى ، وكلاهما يحاول أن يلبس الإسلام بما ليس فيه ، ونقول : لا تقولوا ذلك ولكن قولوا الإسلام فوقى ؛ لأنه جاء من الله ، فإن كان للتقدمية مزايا فهو تقدمى ، وإن كان للرجعية مزايا فهو رجعى ، وإن كان لليمين مزايا فهو يمينى وإن كان لليسار مزايا فالإسلام يسارى ؛ فقد جاء الإسلام بالاستطراق الاجتماعى والتقدم العلمى الأصيل ؛ لأن مفهوم التقدم هو أن يرتقى الإنسان بنفسه ارتقاءً متقدماً يجعل الناس متكافئين .

إن الإسلام ليس تقدمياً فقط بالنسبة للحياة الدنيا ولكن بالنسبة لحياة أخرى خالدة فوق هذه الحياة . إن الذين يناقشون تلك الأفكار لا يحسنون فهم أفكارهم سواء أكانت تقدمية أم رجعية أم يمينية أم يسارية . ونرى أن المناهج المعاصرة التى تسبب كل هذا الصراع فى الدنيا من شرق وغرب هى : الرأسمالية والشيوعية والاشتراكية والوجودية وغيرها .

وعندما ننظر ـ على سبيل المثال ـ إلى القائمين على أمر الثورة الشيوعية عام ١٩١٧ ، نجد قولهم : إنهم مازالوا فى بداية الطريق إلى الشيوعية ، ولكنه اختيار الطريق الاشتراكى .

كان يجب أن يتجهوا إلى ما نادوا به ، ولكن ها نحن أولاء نرى أنهم كلما تقدموا فى الزمن تراجعوا عن أفكارهم الأولى . حتى انقلبوا على أنفسهم . وذلك دليل على أن المنهج الذى اتخذوه لأنفسهم غير صحيح .

والمنهج الرأسمالى أظل كما هو؟ لا ؛ لأن الأحداث قد اضطرت الرأسمالية أن تعطى العمال حقوقاً وبذلك لم تبق لرأس المال شراسته . كما سارت الشيوعية إلى معظم أساليب الرأسمالية . والرأسمالية سارت إلى بعض من أساليب الاشتراكية وهما ـ إذن ـ يريدان أن يلتقيا . ولكن الإسلام أوجد هذا اللقاء من البداية ، فاحترم رأس المال ، واحترم العمل . وكل إنسان لزم حدوده . وضمن وجود واستمرار حركة الحياة . ولذلك نجد أن الرأسمالية تقول : يجب أن توفر الحوافز للعمل . ولم تصل الشيوعية أيضا إلى مداها ، بل قامت بإهدار حقوق الناس ، ثم ماذا عن الذين لم تمتد إليهم يد الشيوعية ـ قبل أن توجد ـ وكان فيهم من يستغل الناس ؟

كان العقل يحتم أن تؤمن الشيوعية بأن هناك آخرة يعاقب فيها من استغلوا الناس من قبل ، ومن مصلحتهم إذن أن توجد آخرة . وكان من اللازم أن يكونوا متدينين . وكذلك الرأسمالية التى لا تعترف إلا بالربح المادى ، امتلأت مجتمعاتها بالضحايا الذين فقدوا المعنويات . وقول الحق : « أنزلنا » يعتبر أن هناك منهجاً نزل من أعلى . وحين نأخذ معطيات البيان القرآنى ، نجده سبحانه يبلغنا تعاليمه : « قل تعالوا » . أى ارتفعوا إلى مستوى السماء ولا تهبطوا إلى حضيض الأرض .

ولذلك قال الحق : « وأنزلنا إليك الكتاب بالحق » ونرى أن آيات القرآن تتآزر وتخدم كل منها الأخرى . ونزول الكتاب بالحق يحتاج إلى صدق دليل أنه ينزل من الله حقا ، وأن تأتى كل قوانين الحق فى حركة الحياة بالانسجام لا بالتنافر ، وهناك آية تشرح كلمة « الحق » :

﴿ وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَـٰهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ ﴾

(من الآية ١٠٥ سورة الإسراء)

أى أنه نزل من عند الله وليس من صناعة بشر . (وبالحق نزل) أى نزل بالمنهج من عند الله الذى يقيم منطق الحق فى كل نفس وكل مكان ، ويضمن كل حق يقيم حركة الحياة .

وهنا أجملت الآية ، فقالت : « وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب » أى أن القرآن مصدق للكتب السماوية السابقة . وما الفارق بين كلمة « الكتاب » الأولى التى جاءت فى صدر الآية ، وكلمة « الكتاب » الثانية ؟

إننا نعلم أن هناك « ال » للجنس ، و« ال » للعهد ، فيقال « لقيت رجلا فأكرمت الرجل » ، أى الرجل المعهود الذى قابلته . فكلمة الكتاب الأولى اللام فيها للعهد أى الكتاب المعهود المعروف وهو القرآن ، وكلمة الكتاب الثانية يراد بها الجنس أى الكتب المنزلة على الأنبياء قبله ، فالقرآن مهيمنٌ رقيبٌ عليها ؛ لأنها قد دخلها التحريف والتزييف .

كلمة « الحق » ـ إذن ـ تعنى أن كتاب الله الخاتم لكتبه المنزلة وهو القرآن قد نزل بالحق الثابت فى كل قضايا الكون ومطلوب حركة الإنسان . ونزل بالحق بحيث لم يصبه تحريف ولا تغيير .

إذن فالحق هو فى مضمونه وفى ثبوت نزوله . وقد نزل القرآن بعد كتب أنزلها الله متناسبة مع الأزمنة التى نزلت فيها ؛ لأنه سبحانه خلق الخلق لمهمة أن يشهدوا أن لا إله إلا الله ، وأن يعمروا هذا الكون بما أمدّهم به من عقل يفكر ، وطاقات تنفّذ ، ومادة فى الكون تنفعل ، فإن أرادوا أصل الحياة مجرداً عن أى ترقٍ أو إسعاد فلهم فى مقومات الأرض ما يعطيهم ، وإن أرادوا أن يرتقوا بأنفسهم فعليهم أن يُعملوا العقل الذى وهبه الله ليخدم الطاقات التى خلقها الله فى المادة التى خلقها الله ، وحينئذ يأخذون أسرار الله من الوجود .

إن أسرار الله فى الوجود كثيرة ، وتفعل لنا وإن لم نعرف نحن السر . فنجد الجاذبية التى تمسك الأفلاك تفعل لنا ، وإن لم نكن قد اكتشفنا الجاذبية إلا أخيراً . والكهرباء السارية فى الكون سلباً وإيجاباً تعمل لنا وإن لم نعرف ما تنطوى عليه من سرّ .

إن الحق سبحانه حين يريد ميلاد سر فى الكون سبحانه يمد الخلق بأسباب بروز هذا السر . واعلموا أن كل سر من أسرار الكون المسخر للإنسان له ميلاد كميلاد

الإنسان نفسه ، إما أن يصادف ـ هذا الميلاد ـ عمل العقل فى مقدمات تنتهى إليه ، وحينئذ يأتى الميلاد مع مقدمات استعملها البشر فوصلوا إلى النتيجة ، تماماً مثل التمرين الهندسى الذى يقوم الطالب بحله بعد أن يعطيه الأستاذ بعضاً من المعطيات ، ويستخدمها التلميذ كمقدمات ليستنبط ما يريد المدرس أن يستنبطه من مطلوب الإثبات . فإن صادف أن العقل بحث فى الشىء معملياً وتجريبياً وصل ميلاد السر مع البحث . وإن جاء ميلاد السر فى الكون ، ولم يشغل الإنسان نفسه ببحث مقدمات توصل إليه ، وأراد الله ذلك الميلاد للسر فماذا يكون الموقف ؟

أيمنع الله ميلاد السر لأننا لم نعمل ؟. لا . بل يخرج سبحانه السر إلى الوجود كما نسمع دائماً عن مصادفة ميلاد شىء على يد باحث كان يبحث فى شىء آخر، فنقول: إن هذا السر خرج إلى الوجود مصادفة .

وإذا نظرت إلى الابتكارات والاختراعات وأمهات المسائل التى اكتشفت لوجدتها من الصنف الثانى ، ونجد المفكر أو العالم وقد غرق فى بحث ما ، ثم يعطيه الله سراً من أسرار الكون لم يكن يبحث عنه ، فيقال عن الاكتشاف الجديد : إنه جاء مصادفة، وحينما جعل الله لكل سر ميلاداً ، فهو قد أعطى خلقه حياة من واسع فضله ، وأعطاه قدرة من فيض قدرته وأعطاه علماً من عنده (وعلمناه من لدنا علما) ، ووهبه حكمة يُؤتى بها خيرا « ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا » . وهو سبحانه وتعالى يريد من خلقه أن يتفاعلوا مع الكون ليبرزوا الأشياء ، وإذا كان سبحانه يريد منا أن ننفعل هذا الانفعال فلا بد أن يضع المنهج الذى يصون طاقاتنا وفكرنا مما يبددها .

والذى يبدد أفكار الناس وطاقاتهم هو تصارع الأهواء ، فالهوى يصادم الهوى ، والفكرة قد تصادم فكرة ، وأهواء الناس مختلفة ؛ لذلك أراد الحق سبحانه وتعالى أن يضمن لنا اتفاق الأهواء حتى نصدر فى كل حركاتنا عن هوى واحد ؛ وهو ما أنزله الخالق الأعلى الذى لا تغيره تلك الأهواء . أما ما لا تختلف فيه الأهواء فتركنا لكى نبحث فيه ؛ لأننا سنتفق فيه قهراً عنا . ولذلك نقول دائما : لا توجد اختلافات فى الأفكار المعملية التجريبية المادية ، فما وجدنا كهرباء روسية ، وكهرباء أمريكية لأن المعمل لا يجامل . والمادة الصماء لا تحابى . والنتيجة المعملية تخرج بوضوحها واحدة .

إننا نرى اتفاق العلماء شرقاً وغرباً فى معطيات المادة التجريبية وتحاول كل بلد أن يسرق من البلد الآخر ما انتهى إليه من نتائج لتدخلها على حضارتها ، بينما يختلف الأمر فى الأهواء البشرية ، فكل بلد يحاول أن يبعد هوى الآخر عن حدوده ؛ لأن الأهواء لا تلتقى أبداً ، والحق قد وضع حركة الحياة لتنفعل بـ « افعل كذا » و« لا تفعل كذا » مما تختلف فيه الأهواء ليضمن اتحادنا وعدم تعاند الطاقات فينا . بل تتساند معاً .

﴿ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ﴾

(من الآية ٧١ سورة المؤمنون)

إذن فمنهج الله فى كونه إنما جاء لينظم حركة الإنسان فيما تختلف فيه الأهواء . أما الحركة فيما لا تختلف فيه الأهواء فقد تركها سبحانه حرة طليقة : لأن البشر يتفقون فيها قهراً عنهم ، لأن المادة لا تجامل والمعمل لا يحابى .

ولذلك قلنا : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين بعثه الله نبياً خاتماً أعطى بـ « افعل ولا تفعل » . أما بالنسبة للأمر المادى المعملى فقد جعل أمره فى ذات النبى صلى الله عليه وسلم . فعندما قَدِمَ النبى صلى الله عليه وسلم المدينة كان أهلها يأبرون النخل ؛ أى يلقّحونه ليثمر . فمر النبى صلى الله عليه وسلم بقومٍ يلقحون فقال : « لو لم تفعلوا لصلح » .

فلم يأبُروا النخل ، فخرج شيصا ؛ أى بُسْراً رديئاً ، وخاب النخل . ومرّ بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : ما لنخلكم ؟ قالوا : قلت كذا وكذا . فقال صلى الله عليه وسلم : « إن كان ينفعهم ذلك فليصنعوه ، فإنى إنما ظننت ظناً فلا تؤاخذونى بالظن ولكن إذا حدثتكم عن الله شيئاً فخذوا به فإنى لن أكذب على الله عز وجل » .

وفى رواية أنه صلى الله عليه وسلم قال :

« إنما أنا بشر ، إذا أمرتكم بشىء من دينكم فخذوا به وإذا أمرتكم بشىء من رأيى فإنما أنا بشر » .

ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ليعلمنا قضية كونية مادية تجريبية معملية : (أنتم أعلم بأمر دنياكم)[1] .

أى أنه صلى الله عليه وسلم ترك للأمة إدارة شئونها التجريبية ، ولم يكن ذلك القول تركا للحبل على الغارب فى شئون المنهج ، فقد وضع رسول الله صلى الله عليه وسلم الفيصل فيما تتدخل فيه السماء ، وفيما تتركه السماء للبشر ، وأعمار الناس ـ كما نعلم ـ تختلف ، فنحن نقول للإنسان طفولة ، وله فتوة ، وشباب ، وله اكتمال رجولة ونضج ؛ لذلك يعطى الحق من الأحكام ما يناسب هذا المجتمع ؛ يعطى أولاً الاحتياج المادى للطفولة ، وعند عصر الفتوة يعطيه المسائل الإدراكية ، وعندما يصل إلى الرشد يعطيه زمام الحركة فى الكون على ضوء المنهج ، فكانت رسالة الإسلام على ميعاد مع رشد الزمان ، فأَمِن الحق سبحانه أتباع محمد صلى الله عليه وسلم ، أن يقفوا ليحموا حركة الإنسان من أهواء البشر . وكانت الرسل تأتى من عند الله بالبلاغ للمجتمعات البشرية السابقة على الإسلام . وكانت السماء هى التى تؤدب . ولكن عندما اكتمل رشد الإنسانية ، رأينا الرسول يبلغ ، ويوكِّله الله فى أن يؤدب من يخرج على منهج الله فى حركة الحياة ، لأنه صلى الله عليه وسلم أصبح مأموناً على ذلك .

وإذا نظرت إلى الكون قديماً لوجدته كوناً انعزالياً ، فكل جماعة فى مكان لا تعلم شيئاً عن الجماعة الأخرى ، وكل جماعة لها نظامها وحركتها وعيشها وداءاتها . والإسلام جاء على اجتماع للبشر جميعاً . فقد علم الله أزلاً أن الإسلام سيجىء على ميعاد مع إلغاء فوارق الزمن والمسافات ، وأن الداء يصبح فى الشرق فلا يبيت إلا وهو فى الغرب ، وكذلك ما يحدث فى الغرب لا يبيت إلا وهو فى الشرق .

إذن فقد اتحدت الداءات ولا بد أن يكون الدواء واحداً فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم جامعاً للزمان وجامعاً للمكان ومانعا أن يجىء رسول آخر بعده ، وأن العالم قد وصل إلى قمة نضجه . فإذا ما جاء الإنسان ليعلم منهج الله بـ « افعل » ولا « تفعل » ، وجد أن المنهج محروس بالمنهج ، بمعنى أن الكتب السابقة على القرآن فيها « افعل » و« لا تفعل » ، والقرآن أيضاً فيه « افعل » و« لاتفعل » لكن المنهج

(١) رواه مسلم عن أنس وعائشة .

السابق على القرآن كان مطلوباً من المنزل إليهم أن يحافظوا عليه ، ومادام قد طلب الحق منهم ذلك فكان من الواجب أن يمتثلوا لطاعته لكنهم تركوا المنهج . فكل منهج عرضة لأن يطاع وعرضة لأن يعصى ، ولم يحفظوا الكتب وحدث فيها التحريف بمراحله المختلفة والتي سبق أن ذكرناها وهي النسيان وهو متمثل في قوله الحق :

﴿ وَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ ﴾

(من الآية ١٣ سورة المائدة)

وما لم ينسوه كتموا بعضه ، فقال الحق فيهم :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ ﴾

(من الآية ١٥٩ سورة البقرة)

وما لم يكتموه حرفوه ولووا ألسنتهم به وقال الحق :

﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ ﴾

(من الآية ٧٨ سورة آل عمران)

ولم يقتصروا على ذلك بل وضعوا من عندهم أشياء وقالوا إنها من عند الله . وكان أمر حفظ كتب المنهج السابقة موكولاً لهم ولذلك قال الحق عنهم :

﴿ بِمَا ٱسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ ﴾

(من الآية ٤٤ سورة المائدة)

أي أن الحق طلب منهم أن يحافظوا على المنهج ، وكان يجب أن يطيعوه ولكن أغلبهم آثر العصيان . فلما عصى البشر المنهج ، لم يأمن الله البشر من بعد ذلك على أن يستحفظهم على القرآن ، وكأنه قال : لقد جُرِّبْتم فلم تحافظوا على المنهج ، ولأن القرآن منهج خاتم لن يأتي له تعديل من بعد ذلك فسأتولى أنا أمر حفظه :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩ ﴾

(٩ سورة الحجر)

ومادام الحق هو الذى يحفظ المنهج فالقرآن مهيمن على كل الكتب ؛ لأنه سبحانه وتعالى قد ضمن عدم التحريف فيه . إذن فالكتاب المهيمن هو القرآن ، ومادام القرآن هو المهيمن فهو حقيقة ما يسمى بالكتاب .

ودليل العهد هو قول الحق : « وأنزلنا إليك الكتاب » أما قوله : « ومصدقا لما بين يديه من الكتاب » فالمقصود به الزبور والتوراة والإنجيل وصحف إبراهيم وموسى ، ثم جاء القرآن مهيمناً على كل هذه الكتب .

وساعة نجد وصفاً وصف به غير الله وسمى به الله نفسه فما الموقف ؟ نعرف أن لله صفات بلغت فى تخصصها به مقامها الأعلى بالله ، مثل قولنا : « الله سميع » والإنسان يسمع ، و« الله غنى » ويقال : « فلان غنى » ؛ فإذا سمى الحق باسم وجد فى الخلق ، فليس من المتصور أن يكون هذا صفة مشتركة بين العبد والرب ، ولكننا نأخذ ذلك فى ضوء : « ليس كمثله شىء » .

إن أى اسم من هذه الصفات على إطلاقه لا ينصرف إلا لله ، فإن قلت : « الغنى » على إطلاقه فهو اسم لله ، وإن قلت : « الرحيم » على إطلاقه فهو اسم لله . فإذا أطلق اللفظ من أسماء الله على اطلاقه فهو لله ، واسم « المهيمن » يطلق هنا على القرآن وهو اسم من أسماء الله . ومن معنى « مهيمن » أنه مسيطر .

ومن أمثلة الحياة أننا نرى صاحب مصنع يطلق يد مدير فى شئون العمل ، وهذا يعنى أنه مؤمن ومسيطر وأمين ، ولا بد أن متنبه ، أى رقيب ، وهو شهيد ، إذن فالذين فسروا كلمة « مهيمن » على أنه مؤمن قول صحيح .

والذين فسروا كلمة : « مهيمن » على أنه « مؤتمن » قول صحيح . والذين فسروا كلمة : « مهيمن » بأنه « رقيب » قول صحيح . والذين فسروا كلمة : « مهيمن » بأنه « شهيد » قول صحيح . والذين فسروا كلمة : « مهيمن » بأنه قائم على كل أمر قول صحيح . وإذا رأيت اختلافات فى تفسير اسم واحد من أسمائه ـ سبحانه ـ فلتعلم أن الحق يصدق عليه كل ذلك ، وباللازم لا يكون « رقيباً » إلا إذا كان « شهيداً » ، ولا يكون شهيداً إلا إذا كان قائماً على الأمر ، ولا يكون كل ذلك إلا إذا كان مؤمناً ومؤتمنا .

إذن فـ « مهيمن » هو قيم وشاهد ورقيب . ومادام القرآن قد جاء مصدقاً لما بين يديه من الكتاب فعلى أى مجال يهيمن ؟ نحن نعرف مدلول الكتاب بأنه نزل من عند الله، فإن بقى الكتاب الذى نزل من عند الله كما هو فالقرآن مصدق لما به، أما إن لعبت فى ذلك المنهج أهواء البشر فالقرآن مهيمن لأنه يصحح المنهج وينقيه من أهواء البشر .
« فاحكم بينهم بما أنزل الله » . و« احكم » مأخوذة من مادة « حكم » ، و« الحَكَمة » هى قطعة الحديد التى توضع فى فم الحصان ونربطها باللجام ؛ حتى نتحكم فى الحصان . والحكمة هى ألا تدع المحكوم يفلت من إرادة الحاكم .

وحين يقول الحق : « فاحكم بينهم بما أنزل الله » فهل يحدث ذلك أيضا مع غير المؤمنين ؟ نعم . فإذا ما جاء إليك يا رسول الله أناس غير مؤمنين وطلبوا أن تحكم بينهم فاحكم بما أنزل الله . ولذلك قال الحق :

﴿ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُمۡ أَوۡ أَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ ﴾

(من الآية ٤٢ سورة المائدة)

لكن لماذا جاءوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم برغم عدم إيمانهم به ؟

جاءوا إلى الرسول ليحكم بينهم ؛ لأنهم ألفوا أن يبيحوا ما حرم الله بشهوات الدنيا وأخذوا لأنفسهم سلطة زمنية ، ومادامو قد أخذوا لأنفسهم سلطة زمنية أنستهم حكم الله . وأرادوا ـ على سبيل المثال ـ أن يخرجوا على حكم الرجم وتخفيفه ، ولذلك ذهبوا إلى النبى ، فإن حكم هو بالتخفيف أخذوا بالحكم المخفف ، وإذا لم يحكم بالتخفيف فهم لن يأخذوا الحكم ، هم ذهبوا إليه صلى الله عليه وسلم بقصد التيسير وقالوا له : أنت تعلم أن لنا سلطاناً وأن لنا نفوذاً ونحن نريد أن تحكم لنا لأنك عندما تحكم لنا سنؤمن بك وبعد ذلك تأتى إليك باقى جماعتنا ليؤمنوا بك ويتبعوك .

لقد رفض رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك تطبيقاً لقول الحق : « فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم » فإذا كان عندهم كتاب التوراة مصونًا من التحريف ، فالرسول يشير عليهم بالحكم الموجود فى التوراة ، ولذلك عندما استدعى صلى الله عليه وسلم أعلم علمائهم بالتوراة حاول بعضهم أن يضع يده على

السطور التى بها الحكم ؛ فالحكم بما أنزل الله يكون من التوراة إن لم يبدل ، أما إذا كان الحكم قد بدله الناس فالحكم من القرآن ؛ لأن القرآن هو المهيمن . « فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم » لأنهم بهذه الأهواء يريدون أن ييسروا على أنفسهم ليستبقوا لأنفسهم السلطة الزمنية ، ووصفهم الحق :

﴿ ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾

(من الآية ٩ سورة التوبة)

هم - إذن - يريدون أن يستبدلوا بآيات الله مصلحتهم فى الحكم . ويقول الحق : « ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا » ، وإن افترضنا أن بعضا من التوراة لم يحرف ، وبه حكم أراد الإسلام أن يبدله ، فأى أمر يتبع ؟ إن الاتباع هنا يكون للقرآن لأنه هو المهيمن ؛ فسبحانه أراد بالقرآن أن يصحح ويعدل ويغير .

إن مناهج الأديان فى العقائد ثابتة لا تغيير فيها ، وأما ما يتصل بالأحكام التى تحكم أفعال الإنسان فالله سبحانه وتعالى ينزل حكماً لقوم يلائمهم ثم ينزل حكما آخر يلائم قوماً آخرين . ولذلك نجد أن سيدنا عيسى قال :

﴿ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ﴾

(من الآية ٥٠ سورة آل عمران)

أى أن هناك أشياء كانت محرمة فى دين اليهود . وجاء عيسى عليه السلام ليحلل بعضاً من هذه المحرمات ، وكان التحريم مناسباً بنى إسرائيل فى بعض الأمور ، وجاء المسيح عيسى ابن مريم ليحلل لهم بعضاً من المحرمات ، وكان تحريم بعض الأمور لبنى إسرائيل بهدف التأديب :

﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَـٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ ﴾

(من الآية ١٦٠ سورة النساء)

إذن فقد يكون تحريم الشىء بسبب الضرر الناشىء منه ، أو بهدف التأديب ؛ لأن الإنسان أحل لنفسه ما حرمه الله عليه .

« لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا » والشرعة هى الطريق فى الماء . والمنهج هو الطريق فى اليابسة . ومقومات حياة الإنسان هى من الماء ومن الغذاء الذى يخرج من الأرض ، فكذلك جعل الحق سبحانه وتعالى فى القيم هذين الاثنين ، الشرعة والمنهاج ، ومادام سبحانه قد جعل لكل منا شرعة ومنهاجاً ، فلماذا قال فى موضع آخر من القرآن :

﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا ﴾

(من الآية ١٣ سورة الشورى)

معنى هذا القول هو الاتفاق فى أصول العقائد التى لا تختلف أبداً باختلاف الأزمان . ففى بدء الإسلام نجد أنه جاء ليؤصل العقيدة أولاً بلا هوادة ، فنادى بوحدانية الله ، وعدم الشرك به ، وصفات الكمال المطلق فيه ، وعدم تعدد الآلهة . أما بقية الأحكام الفعلية فقد جعلها مراحل . وكان يخفف قليلاً فقليلاً . إذن فالمراحل إنما جاءت فى الأحكام الفعلية ، أما العقائد فقد جاءت كما هى وبحسم لا هوادة فيه .

إذن فقوله الحق : « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً » . هذا القول مقصود به العقائد . ومادام قد شرع لنا فى الدين ما وصى به نوحاً ، فهذا توصية بأفعال تتعلق أيضا بزمن نوح ، وسبحانه الذى وضع لنا المنهاج الذى نسير عليه فى زماننا . إذن فالأمران متساويان . والمهم هو وحدة المصدر المشرِّع .

ويقول الحق : « ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة » . فلو شاء لجعل « افعل » ولا «تفعل » واحدة فى كل المناهج ، ولكن ذلك لم يكن متناسباً مع اختلاف الأزمان والأقوام الانعزالية قبل الإسلام بداءاتها المختلفة ؛ لذلك كان من المنطقى أن تأتى الأحكام مناسبة للداءات .

﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ﴾

(من الآية ٤٨ سورة المائدة)

وسبحانه وتعالى لو شاء لجعلنا أمة واحدة فى « افعل » و« لاتفعل » ولكنه

ـ سبحانه ـ لم يرد ذلك حتى لا يألف الناس العبادة وتصير كالعادة عندهم ، فحينما يألف الناس أداء العبادات ، فهم بذلك يحرمون لذة التكليف والإيمان بالتكليف ، فكان لا بد أن يأتي التشريع مناسبا لكل زمان . وذلك ليفرق بين قوم وقوم ، ففي الصوم ـ على سبيل المثال ـ نجد أن الحق يسمح لنا بالطعام والشراب والجنس في الفترة ما بين الإفطار والسحور ؛ فالحق يأتي إلى الشيء الرتيب ويأتي فيه أمر الله بالامتناع عنه لفترة زمنية معينة . ولا يقرب المؤمن هذه المحرمات في زمان معين ، ولا يقرب غيرها في أي زمان ومكان . مثل شرب الخمر ، أو أكل لحم الخنزير . والمؤمن لا يقرب هذه الأشياء بطبيعة اختياره . ويأتيه الصوم ليعلمه ويدربه على الانصياع للتكليف فيحرمه الحق من الطعام طول نهار شهر رمضان وكذلك الشراب والجنس .

المسألة ـ إذن ـ ليست رتابة أبداً . بل هي ابتلاء واختبار البشر « ولكن ليبلوكم فيما آتاكم » والابتلاء ـ كما نعلم ـ ليس أمراً مذموماً في ذاته ، هو مذموم باعتبار ما تؤول إليه نهايته ، ومادام سبحانه يبتلينا فيما آتانا فيجب أن نكون حكماء وأن نتسابق إلى الخير :

﴿ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾

(من الآية ٤٨ سورة المائدة)

والتسابق إلى الخيرات إنما يكون بهدف النجاح في الابتلاء ، والنجاح يعطينا أكثر مما ننال بعدم الانصياع . إذن فالابتلاء في مصلحتنا ؛ لأنه يعطي الناجحين فيه نجاحاً أخلد ، وقصارى ما يزينه الشيطان للناس أو ما تتخيله نفوس الناس ، أن تمر الشهوة العابرة وتنقضي في الدنيا العابرة . وبعد ذلك يأتي العذاب المقيم . وعندما نوازن هذا الأمر كصفقة نجدها خاسرة ، لكن إن نجحنا في ابتلاء الله لنا فذلك هو الفوز العظيم : « فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون » .

أي تسابقوا في الوصول إلى الخيرات ، لأن الخير إنما يقاس بعائده ، فإياكم أن تفهموا أن الله حَرمَكم شهوات الدنيا لأنه يريد حرمانكم ، ولكنه حرمكم بعضاً من شهوات الدنيا لأنها مفسدة . وكان التحريم لزمن محدود ليعطيكم نعيم ومتع الآخرة المُصلحة في زمن غير محدود ، وهذا هو كل الخير .

« إلى الله مرجعكم جميعاً » والكل يرجع إلى الله سواء الملتزم أو المنحرف ، وأمام الحق نرى القول الفصل : « فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون » . ومادام هناك اختلاف فلا بد أن يوجد من أخذ جانب الخير ومن أخذ جانب الشر ، ولو أن الله قال لنا : « ستأخذون الخير » وسكت عن الشر لكان ذلك كافياً ، لكنه يعطينا الصورة الكاملة . ويتبع ذلك قول الحق :

﴿ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾

وقد يقول قائل : إن الله سبحانه وتعالى قال من قبل :

﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾

(من الآية ٤٨ سورة المائدة)

وتكون الإجابة : أن الحق بيّن إن القرآن قد نزل مهيمناً ، وعلى الرسول أن يباشر مهمة التنفيذ ؛ لذلك يأتى هنا قوله : « وأن احكم بينهم بما أنزل الله » بلاغاً للرسول وإيضاحاً : أنا أنزلت إليك الكتاب مصدقاً لما بين يديه من الكتب السابقة ومهيمناً فاحكم ، فإذا جاءك قوم بشيء مخالف لما نزل من القرآن ، فاحكم بينهم بالقرآن . والذى زاد فى هذه الآية هو قوله الحق : « واحذرهم أن يفتنوك » والحذر هو احتياط الإنسان واحترازه ممن يريد أن يوقع به ضرراً فى أمر ذى نفع ، والذى يرغب الضر قد يزين لنفسه ولغيره الضر كأنه الخير ، على الرغم من أن ما فى باطنه هو كل الشر .

إذن فالحذر هو ضرورة الانتباه لمن يريد بالإنسان شراً حتى لا يدخل عليه ضُرّاً فى صورة نفع ، كأن يأتى خصم ويقول لك : سأضع لك كذا وافعل من أجلك كذا وكذا . يجب عليك هنا أن تقول له : لا .

والحذر ـ إذن ـ يقتضى عقلاً مركباً ، ولذلك كانوا يعرفون الحذر من الغراب . فها هوذا الغراب يعلم ابنه فى قصة شعبية فيقول الغراب لابنه :

احذر الإنسان ؛ لأن الإنسان عندما ينحنى ليلتقط شيئاً من الأرض فهو يلتقط قطعة من الطوب ليرميك بها . وهنا يقول الغراب الصغير لوالده : وماذا أفعل لو كان هذا الإنسان يخبىء قطعة الطوب فى جيبه ؟ إنها قصة توحى بأن الغراب حذر بفطرته .

ونرى مثل ذلك فى مظاهر الأشياء كالمرابى الذى يزين للناس أن يضعوا أموالهم عنده ويعطيهم فائدة تبلغ عشرين بالمائة ، هذه صورة شىء ينفع ولكنها ضارة بالفعل ؛ لأنها تزيد المال ظاهراً ولكن ينطبق عليها قول الله : (يمحق الله الربا) .

وهذا أمر ضار يزينه الخصم وكأنه أمر نافع . والحق يطلب من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكون حذراً ، فماذا يكون المطلوب من الأتباع ؟. إنه الحذر نفسه ؛ لأن أفضل البشر وَجَّهَهُ الله إلى الحذر : « واحذرهم أن يفتنوك » لأن الصورة التى دخلوا بها هى صورة تزين الخداع ، فقد قالوا : نحن جئناك لتحكم لنا ، فإن حكمت لصالحنا فلسوف نتبعك ، وهذا أمر يبدو فى صورة شىء نافع . وجاء القول الحق ليحسم هذه المسألة : « واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك » وهنا يحذر الله رسوله من الفتنة عن بعض ما أنزله إليه سبحانه .

ويتابع الحق : « فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم وإن كثيراً من الناس لفاسقون » وهم إن تولوا ، فاعلم أن الله يحميك أن تنزلق إلى شبهة باطل. فهم قد اختاروا أن يوغلوا فى الكفر ، وفى الابتعاد عن منهج الله ، وسيصيبهم ببعض عذابه مقابل ذنوبهم ، وسبحانه لا يصيبهم ظلماً ، بل يصيبهم ببعض الذنوب التى ارتكبوها . وهو أعلم بهم ، لأنه الأعلم بالناس جميعاً .

ويختم الحق الآية بقوله : « وإن كثيراً من الناس لفاسقون » أى خارجون عن طاعة كتبهم ورسلهم ؛ لأن طاعة الكتب السابقة على القرآن تنص على ضرورة الإيمان بالرسول النبى الأمين صلى الله عليه وسلم . ويقول الحق :

﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ

﴿... يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾

(سورة الأعراف)

إذن فطريق الفلاح كان مكتوباً فى التوراة والإنجيل ، وكان الأمر باتباع محمد صلى الله عليه وسلم النبى الأمى موجوداً فى الكتب السابقة على القرآن ، وكانت البشارة بمحمد رسولا من عند الله يأمر بكل الخير وينهى عن كل الشر ويحل للناس كافة الأشياء التى تُحسن الفطرة الإنسانية استقبالها ، ويحرم عليهم أن يزيفوا ويغيروا المنهج الذى جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وألا يستسلموا للعناد ، فقد جاء محمد صلى الله عليه وسلم ليزيل عنهم عبء تزييف المنهج . فمن اتبع نور رسول الله صلى الله عليه وسلم أحس بالنجاة والفوز . ومن لم يتبع هذا النور فهو الخارج عن طاعة كتاب السماء . ومحاولة إنكار رسالة رسول الله محكوم عليها بالفشل ، فالعارفون بالتوراة والإنجيل يعرفون وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم من هذه الكتب .

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾﴾

(سورة البقرة)

ونعلم جميعاً ما فعله عبدالله بن سلام عندما جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليعلن إسلامه . قال عبدالله بن سلام :

ـ لأنا أشد معرفة برسول الله صلى الله عليه وسلم منّى بابنى .

فقال عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ : وكيف ذلك يا بن سلام ؟.

قال عبدالله بن سلام : لأنى أشهد أن محمداً رسول الله حقاً ويقيناً وأنا لا أشهد

بذلك على ابنى لأنى لا أدرى ، أحداث النساء . فقال عمر بن الخطاب :

ـ وفقك الله يا ابن سلام .

ولكن بعض علماء بنى إسرائيل وأحبارهم كتموا البشارة برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد كانوا يرجون الرئاسة والطمع فى الهدايا التى كان يقدمها الناس إليهم . لذلك عمدوا إلى صفة رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم وكتموها . وماداموا قد فعلوا ذلك فلنعلم أن الله يريد أن يصيبهم ببعض ذنوبهم .

ونلحظ أن الحق حين أجرى على لسان رسوله خطاباً إلى اليهود . ولم يأت على لسانه صلى الله عليه وسلم اتهام شامل لليهود ، بل اتهام لبعضهم فقط ، وإن كان هذا البعض كثيراً ، فلنعلم أن ذلك هو أسلوب صيانة الاحتمال ؛ لأن بعضهم يدير أمر الإيمان بقلبه . صحيح أن كثيراً منهم فاسقون ، ولكن القليل منهم غير ذلك . فها هوذا أبو هريرة رضى الله عنه ينقل لنا ما حدث :

ـ زنى رجل من اليهود بامرأة وقال بعضهم لبعض اذهبوا بنا إلى هذا النبى فإنه نبى مبعوث للتخفيف فإن أفتانا بفتيا دون الرجم قبلناها واحتججناها عند الله وقلنا فتيا نبى من أنبيائك . فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو جالس فى المسجد مع أصحابه فقالوا : يا أبا القاسم ما ترى فى امرأة ورجل زنيا ؟ . فلم يكلمهم حتى ذهب إلى مِدْراسهم .

وهناك طلب رسول الله صلى الله عليه وسلم من شاب رفض أن يتكلم بالكلام غير الصدق الذى يتكلمه قومه . وقال الشاب : إنا نجد فى التوراة الرجم . وحكم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالرجم .

عن البراء بن عازب قال : مُرَّ على النبى صلى الله عليه وسلم بيهودى مُحَمَّماً مجلودًا ، فدعاهم فقال : هكذا تجدون الزانى فى كتابكم ؟ قالوا : نعم ، فدعا رجلا من علمائهم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنشدك بالله الذى أنزل التوراة على موسى أهكذا تجدون حدّ الزانى فى كتابكم ؟ قال : لا ، ولولا أنك نشدتنى بهذا

لم أخبرك ، نجده الرجم ولكنه كثر فى أشرافنا فكنا إذا أخذنا الشريف تركناه ، وإذا أخذنا الضعيف أقمنا عليه الحدّ ، فقلنا : تعالَوْا فلنجتمع على شيء نقيمه على الشريف والوضيع فاجتمعنا على التحميم والجلد مكان الرجم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (اللهم إنى أول من أحيا أمرك إذْ أماتوه) ، فأمر به فرُجم فأنزل الله : (يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر) إلى قوله : (وإن أوتيتم هذا فخذوه) يَقُولون ائتوا محمدًا فإن أمركم بالتحميم والجلد فخذوه ، وإن أفتاكم بالرجم فاحذروا[1] .

إذن فالكثير منهم فاسقون ، والقليل منهم غير فاسق لأنهم يديرون فكرة الإيمان برسول الله صلى الله عليه وسلم. فلو أن الاتهام كان شاملاً للكل بأنهم فاسقون ؛ لما أحس الذين يفكرون فى أن يؤمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم وبالنور الذى جاء به . وعندما قال الحق : « وإن كثيراً منهم فاسقون » يعني أن الذين يديرون فى رؤوسهم فكرة الإيمان برسول الله سيجدون النور واضحاً فى كلماته .

ونتساءل : لماذا أرادوا أن يلووا أحكام الله ليحققوا لأنفسهم سلطة زمنية وثمناً تافهاً من تلك الأشياء التى يتقاضونها ، لماذا يفعلون ذلك ؟

ها هوذا قول الحق سبحانه :

﴿ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝٥٠ ﴾

والجاهلية هى نسبة إلى جاهل . ولو كانت نسبة مأخوذة من الجهل لجاء القول « جهلية » ، لكن الحق يقول هنا : « جاهلية » نسبة إلى جاهل . وحتى نعرف معنى الجاهل بالتحديد لا بد لنا أن نتذكر ونستعيد تقسيم النسب الذى قلناه قديماً ، ونعرف أن كل لفظ نتكلم به له معنى ، وساعة نسمع اللفظ فالمعنى يأتى إلى الذهن

---

(١) رواه مسلم .

إفراديا . مثلما نسمع كلمة « جبل » فيقفز إلى الذهن صورة الجبل ، لكن لا توجد حالة واضحة للجبل ؛ لأن الكلمة لم تكن مصحوبة بحكم .

إذن فهناك معنى للفظ ، ولكن هذا المعنى لا يستقل بفائدة . ولكن إن قلنا إن القاهرة مكتظة بالسكان ، أو أن مرافقها متعبة ، هنا نكون قد أتينا بحكم يوضح لنا ماذا نقصد بقولنا القاهرة .

إن هناك فرقا بين اللفظ حين يؤدى إلى معنى مفرد لا حكم له ، وبين لفظ له حكم ، ولذلك نجد العربي القديم حين يأتيه لفظ بلا حكم لم يكن ليقبله . وها هوذا رجل عربي قال : أشهد أن محمداً رسولَ الله ـ بفتح اللام فى كلمة « رسول » ـ وبهذا القول تكون « رسول الله » صفة لمحمد وليس فيها الخبر المطلوب . لذلك قال عربي آخر : وماذا يصنع محمدا ؟ ليلفت القائل إلى أنه لم يتلق الخبر . إذن كل لفظ له معنى ، وهذا المعنى مفرد ولا بد له من نسبة .

مثلما نقول لصديق : « محمد » ، ويعرف هذا الصديق محمدا ، فيسألك : « وما لمحمد » ؟ وبقوله هذا إنما يطلب الخبر ليعرف ماذا حدث له أو منه ، فتقول : « محمد زارنى أمس » . وهكذا تكتمل الفائدة .

إذن فكل لفظ من الألفاظ المفردة له معنى حين يفرد . فإذا ما جاء الحكم تنشأ عنه النسبة . وإن كانت النسبة واقعة ويعتقدها قائلها ؛ ويستطيع إقامة الدليل عليها فهذه نسبة علم ؛ لأن العلم نسبة مجزوم بها وواقعة ونستطيع إقامة الدليل عليها تماما مثلما نقول : (الأرض كروية) حيث توحى الكلمة أولاً بصورة الأرض وأضفنا إليها نسبة هى « كروية » لأننا نعتقد أنها كروية والواقع يؤكد ذلك ، فإذا ما جئنا بالدليل عليها فهذه نسبة علم . إذن فالعلم نسبة مُعتقَدة وواقعة وعليها دليل .

أما إذا كانت النسبة واقعة ومعتقدة ولا نستطيع التدليل عليها فذلك هو التقليد مثلما يكرر الطفل عن والده بعضاً من الحقائق ولكنه لا يستطيع إقامة الدليل عليها ، إنه يقلد من يثق به ، إذن فالمرحلة الأقل من العلم هى التقليد . أما إذا كان الإنسان يعتقد أن النسبة قد حدثت ولكن الواقع غير ذلك ، فهذا هو الجهل ، فالجهل ليس

معناه أنك لا تعرف ، ولكن أن تعرف قضية مناقضة للواقع . والجاهل يختلف عن الأمى ، فالأمى هو الذى لا يعرف ، أما الجاهل فهو الذى يعرف قضية مخالفة للواقع ومتشبث بها .

« أفحكم الجاهلية يبغون » والحق هنا يتساءل : هل يرغبون فى الاستمرار بالاعتقاد الخاطىء الجاهل ؟ والأمر مع الأمى - كما عرفنا - يختلف عن الأمر مع الجاهل ؛ لأنه يكفيك أن تقول للأمى العلم الذى تريد تعليمه إياه ويقبله منك ، أما الجاهل فلا بد للتعامل معه من عملين . . الأول أن تجعله يحذف ويستبعد من باله القضية الخاطئة ، والثانى أن تجعله يقتنع بالقضية الصحيحة . والذى يرهق الدعاة إلى الدين هم الجهلة هؤلاء الذين يعتقدون اعتقاداً خاطئاً يتضمن قضايا باطلة .

لكن ماذا إن كانت النسبة مجالاً للنفى ومجالاً للإثبات ؟ إن كان النفى مساوياً للاثبات فهى نسبة شك . وإن غلب الإثبات فهذا ظن . وإن كان النفى راجحاً فذلك هو الوهم . وهكذا يتضح لنا أن قضية الجهل قضية صعبة ، والذى يسبب التعب فى هذه الدنيا هم الجهلة ؛ لأنهم يعتقدون فى قضايا خاطئة . فإذا كان هناك حكم من الله . فلماذا لا يرتضون إذن ؟ أيريدون حكم الجاهلية ؟ وكان أهل الكتاب أنفسهم يسفهون حكم الجاهلية .

ولنلحظ أن هذا التسفيه كان فى زمن المواجهة بين الجاهلية وبين أهل الكتاب . وكانوا يستفتحون على أهل المدينة ومكة . وكثيراً ما قالوا : لقد أظلنا عهد نبى سنتبعه ونقتلكم به قتل عاد وإرم . ولكن ما إن جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى قالوا العكس ، ماذا قالوا للجاهلين ؟ هاهوذا الحق يخبرنا بما قالوا :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ ﴾

(سورة النساء)

وقد ذهب بعض من أحبار اليهود إلى قريش ، وسألهم بعض من سادة قريش : أنتم أهل الكتاب وأهل العلم القديم فأخبرونا عنا وعن محمد . فقال الأحبار :

ما أنتم وما محمد ؟ فقال سادة قريش : نحن ننحر الكوماء[1] ونسقى اللبن على الماء ونفك العانى[2] ونصل الأرحام ونسقى الحجيج وديننا القديم ودين محمد الحديث . فقال الأحبار : أنتم خير منه وأهدى سبيلا . وبذلك زوروا القول .

وينقل الرواة قصة أخرى فى هذا الموضع ، أن واحداً من أحبار اليهود قال لأبى سفيان : أنتم والله أهدى سبيلاً مما هو عليه . وقال الأحبار ذلك حسداً لرسول الله .

إذن فهل يرتضى أهل الكتاب حكم الجاهلية ؟ لا . ولكنه التناقض والتضارب . وماداموا قد تناقضوا مع أنفسهم صار من السهل أن يتناقضوا مع الكتاب الذى نزل إليهم . ولذلك يتساءل الحق :

« أفحكم الجاهلية يبغون » ثم يأتى من بعد ذلك بالمقابل وهو قوله : « ومن أحسن من الله حكماً » . وسبحانه لم يقل : إن الأحسن فى الحكم هم المسلمون لجواز أن يكون من المسلمين من ينحرف ، لذلك رد الأمر إلى ما لا يتغير أبداً وهو حكم الله . وحين يقرر سبحانه ذلك فإنه ـ أزلا ـ يعلم أنه سيأتى قوم مسلمون وينحرفون عن المنهج .

ونحن نرى فى بعض الأحيان سلوكاً منحرفاً من مسلم ، فهل نلصق هذا السلوك بالإسلام ؟ لا . بل ننظر إلى حكم الله فى كتابه . وعندما نرى أن حكم الله يجرم فعلاً وله عقوبة ، فالعقوبة تقع على المسلم المنحرف أيضاً . والمثال قوله الحق :

﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا ﴾

(من الآية ٣٨ سورة المائدة)

وهذا الحكم يطبق على المسلم وغير المسلم ، إذن فلا نقول هذا حكم المسلمين وذلك حكم الجاهلية . ولكننا نقول : إنه حكم صاحب المنهج وهو الله .

ونلحظ أن هناك استفهاماً فى قوله الحق : « ومن أحسن من الله حكماً » . والاستفهام هو نقل صورة الشىء فى الذهن ، لا نقل حقيقة الشىء . وساعة يطلب

(١) الكوماء : الناقة العظيمة السَّنام .

(٢) العانى : الأسير .

المتكلم من المخاطب أن ينقل إليه الفهم ، هنا نقول : هل كان المتكلم لا يعلم الحكم ؟ قد يصح ذلك فى الحياة العادية . وقد نراه حين يقول إنسان لآخر :

من زارك أمس ؟ فنكون أمام حالة استفهام عن الذى زاره ، تلك هى حقيقة الاستفهام ، لكن ما بالنا إذا كان الذى يتكلم ويستفسر لا تخفى عليه خافية ، إنه ـ سبحانه ـ يطلب منا أن نجيب على سؤاله : « ومن أحسن من الله حكماً » . وتلك عظمة الأداء .

وأضرب مثالاً آخر ـ ولله المثل الأعلى ـ عندما يأتيك إنسان ويدعى أنك لم تحسن إليه لأنه كان سجيناً مثلاً وأنت الذى أخرجته من السجن . فتقول له : من الذى ذهب ودفع عنك الكفالة وأخرجك من الحبس ؟

إنك أنت الذى فعلت ولا تريد أن تقول له : لقد فعلت من أجلك كذا وكذا ، ولكنك تريده هو أن ينطق بما فعلته له ، ولا تقول ذلك إلا وأنت واثق أنه لن يجد جواباً إلا الاعتراف بأنك أنت الذى صنعت له كذا وكذا ، وبذلك تصبح المسألة إقراراً وليس إخباراً .

« أفحكم الجاهلية يبغون » فالحق عالم أنهم حين يديرون رءوسهم فى الجواب ، لن يجدوا إلا أن يقولوا : يارب أنت أحسن حكماً . وهذا إقرار منهم وإخبار أيضاً . أما عند المؤمن فالأمر يختلف تماماً ؛ لأن المؤمن يعترف ويقر بفضل الله عليه .

« ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون » فالذى يفهم أن حكم الله هو الأفضل هم القوم الذين دخلوا إلى مرحلة اليقين . ونعلم أن مراحل اليقين تتفاوت فيما بينها ، فعندما يخبرك إنسان صادق فى قضية ما فأنت تعلم هذه القضية . كأن يقول لك : لقد ذهبت إلى نيويورك . وهذه المدينة تقع على عدد من الجزر وبها عمارات شاهقة والعنف منتشر فيها . والناس تبدو وكأنها ممسوسة من فرط الهوس على الثروة . وحين تسمع هذا الصادق فأنت تأخذه على محمل الجد وتعتبر كلامه يقيناً وهذا هو علم اليقين ، أى أنه إخبار من إنسان تثق فيه لأنه صادق .

وبعد ذلك يأتى هذا الإنسان ليوجه لك الدعوة ، فتركب معه الطائرة ، وتطير

الطائرة على ارتفاع يساوى أربعين ألف قدم ، وبعد إحدى عشرة ساعة تهبط الطائرة قليلاً ؛ لترى أضواء مدينة صاخبة ، ويقول لك صاحبك : هذه هى نيويورك ، وتلك هى ناطحات السحاب . هكذا صار علم اليقين عين يقين .

وعندما تنزلان معاً إلى شوارع نيويورك فأنتما تسيران إلى جزيرة مانهاتن . وتصعد إلى برج التجارة أعلى ناطحات السحاب فى نيويورك ، وهذا هو حق اليقين .

إذن : فمراحل اليقين ثلاث : علم يقين : إذا أخبرك صادق بخبر ما ، وعين يقين : إذا رأيت أنت هذا الخبر ، وحق يقين : إذا دخلت وانغمست فى مضمون وتفاصيل هذا الخبر . وقديماً قلت لتلاميذى مثالاً محدداً لأوضح الفارق بين ألوان اليقين ، قلت لهم : لقد رأيت فى أندونيسيا ثمرة من ثمار الموز يبلغ طول الثمرة الواحدة نصف المتر . وبالطبع صدقنى التلاميذ ؛ لأنهم يصدقون قولى . وقد نقلت لهم صورة علمية . وصار لديهم علم يقين . وبعد ذلك أدخل إلى غرفة وأفتح حقيبة وأخرج منها ثمرة الموز التى يبلغ طولها نصف المتر . وبذلك يصير علم اليقين عين يقين . وبعد ذلك أمسكت بسكين وقمت بتقشير ثمرة الموز ووزعت على كل واحد منهم قطعة . وهكذا صار لديهم حق يقين . وحين يطلق الحق « اليقين » فهو يشمل الذى علم والذى تحقق .

فأهل الأدلة ، علموا علم اليقين ، وأهل المرائى والمشاهدات علموا عين اليقين ، وأهل الفيوضات والتجليات وصلوا إلى حق اليقين . والمؤمنون بالله يقول الواحد منهم : أنا بمجرد علم اليقين موقن تماماً ولا أنتظر حق اليقين لأنى لا أجرؤ على التكذيب ؛ لذلك نجد أن سيدنا الإمام عليا ـ كرم الله وجهه ـ يقول : لو انكشف عنى الحجاب ما ازددت يقيناً .

والحق سبحانه وتعالى يعطينا هذه الصورة فى قوله الحق :

﴿ أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ۝٧ ﴾

(سورة التكاثر)

والبداية تكون علم اليقين ، ثم نرى الجحيم ونحن نسير على الصراط فتصير عين اليقين ، ومن لطف الله أنه جعلنا ـ نحن المسلمين ـ لا نراها حق اليقين . وهو القائل :

﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾

(من الآية ٧١ سورة مريم)

هو يعطينا صورة الجحيم . لكن حينما أراد الحق أن يعطينا صورة حق اليقين ، فقد جاء بها فى قوله الحق :

﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾

(سورة الواقعة)

كل ذلك مقدمة ليقول الحق :

﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ ﴾

(سورة الواقعة)

وما يذكره الحق هنا عن منزلة المصدق المؤمن إن هذه المنزلة هى الجنة ويرى ذلك عين اليقين . أما منزلة المكذب الكافر ، فله مكانه فى النار ؛ لذلك سيرى كل الناس النار كعين اليقين . أما من يدخله الحق النار ـ والعياذ بالله ـ فسيعانى منها حق اليقين ، وسينعم المؤمنون بالجنة حق اليقين .

ومن بعد ذلك يقول الحق :

﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ

﴿لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ۝٥١﴾

نلحظ أن الخطاب هنا للذين آمنوا . والمنهى عنه هو اتخاذ اليهود والنصارى أولياء . وما معنى الولىّ ؟. الولىّ هو الناصر وهو المعين . وهذا القول مأخوذ من ولى يلى ؛ أى يقف فى جانبه . ونسمى الذى ينوب عن المرأة فى عقد النكاح « الولىّ » . وكذلك « ولىّ المقتول » . والمراد هو : يا من آمنتم لاحظوا تماماً أنكم أصحاب مهمة وهى أن تخرجوا الضلالات من البشر ، هذه الضلالات تمثلت فى تحريف ديانات كان أصلها الهدى فصارت إلى ضلال ، فإياكم أن تضعوا أيديكم فى أيديهم لطلب المعونة والنصرة .

إذن قوله الحق : « لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء » هو حكم تكليفى . وحيثية الإيمان بالله . فما دمت قد آمنت بالله فكل من تقدح أنت فى إيمانه بمخالفته لمنهج ربه لا يصح أن يكون مؤتمناً على نصرتك ؛ لأنه لم يكن أميناً على ما معه فهل تتوقع منه أن يعينك على الأمانة التى معك ؟ لا ؛ لأنه لم يكن أميناً على ما نزل عليه من منهج . والولاية نصرة ، والنصرة انفعال الناصر لمساعدة المنصور . وهل تجد فيهم انفعالاً لك ينصرك ويعينك ، أو يتظاهرون بنصرتك ، ولتعلموا أنهم سيفعلون ما قاله الحق :

﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾

(من الآية ٤٧ سورة التوبة)

إنهم لو دخلوا فى صفوفكم لفعلوا فيكم مثلما يفعل المنافقون ، فما بالنا بالذين خانوا أمانة الكتب المنزلة عليهم ؟ إذن فالموالاة والنصرة والمعونة يجب أن تكون من متحد معك فى الغاية العليا . وما دام هناك من يختلف مع الإسلام فى الغاية العليا وهى الإيمان فلا يصح أن يأمنه المسلم . وسبحانه يقول : « بعضهم أولياء بعض » .

وقد يتساءل الإنسان : كيف يقول الحق فيهم :

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾

(من الآية ١١٣ سورة البقرة)

ويقول سبحانه أيضاً :

﴿ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيۡسَتِ ٱلۡيَهُودُ عَلَىٰ شَيۡءٖ ﴾

(من الآية ١١٣ سورة البقرة)

ويقول جل شأنه :

﴿ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ مِثۡلَ قَوۡلِهِمۡ ﴾

(من الآية ١١٣ سورة البقرة)

نحن ـ إذن ـ أمام ثلاثة أقسام ؛ يهود ، ونصارى ، ومشركون ، وقد قال مشركو قريش مثل قول أهل الكتاب بشقيهم برغم أنهم فى خلاف متضارب وكل منهم ينكر الآخر ، وسبحانه قال :

﴿ فَأَغۡرَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَاوَةَ ﴾

(من الآية ١٤ سورة المائدة)

فكيف من بعد ذلك يقول سبحانه : « بعضهم أولياء بعض » ؟ وهذا أمر يحتاج إلى وقفة إيمان لنرى الصورة كاملة ، ونعلم أن الذين يخالفون منهج الحق قد يصح أن يكون بينهم خلاف على السلطات الزمنية ، لكنهم عندما يواجهون عملاقاً قادراً على دحر كل بنيان أكاذيبهم يتفقون معاً . وهذا ما نراه فى الواقع الحياتى : معسكر الشرق ـ الذى كان ـ يعادى معسكر الغرب ، ولكن ما إن يجىء شىء يتصل بالإسلام حتى يتفقوا معاً على الرغم من هزيمة المعسكر الشرقى ؛ لأن الإسلام بمنهجه خطر على هؤلاء وهؤلاء وعلى سلطاتهم ولكنه فى الحقيقة رحمة بهم إنه يخرجهم من الظلمات إلى النور وهم يتصرفون فى ضوء ما قاله الحق : « بعضهم أولياء بعض » .

وعندما ينفرد كل منهم بالآخر فإنه ينطبق عليهم قول الحق :

﴿ فَأَغۡرَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَاوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ ﴾

(من الآية ١٤ سورة المائدة)

هكذا نفهم طبيعة العلاقات بين أعداء الإسلام .

ويقول الحق : « ومن يتولهم منكم فإنه منهم » أى أن من يتخذهم نصراء ومعينين

فلا بد أنّه يقع فى شرك النفاق ؛ لأنه سيكون مع المسلمين بلسانه ومع أعداء الإسلام بقلبه .

ويذيل الحق الآية بقوله : « إن الله لا يهدى القوم الظالمين » ونعرف أن الظلم هو نقل حق إلى غير صاحبه ، وأعلى مراتب الظلم هو الشرك بالله ، وهو الظلم العظيم ؛ فالحق يقول :

﴿ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾

(من الآية ١٣ سورة لقمان)

ذلك أن الإنسان حين يظلم إنساناً آخر ويأخذ منه شيئاً ليعطيه لآخر فهل هناك إنسان يقدر على أن يأخذ من الله شيئا ؟ لا ، فالإنسان لا يستطيع أن يظلم الله ، لكنه ينال عقوبة الشرك وهذا ظلم خائب للنفس والذى يشرك بالله لا يأخذ إلا الخسار ، وذلك هو كل الخيبة .

لأن الظلم حينما يحقق للظالم نفعاً فهو ظلم هين ، ولكن الظلم العظيم هو أن يشرك إنسان بالله ولا يأخذ إلا العقاب الصارم . فإذا كان المشرك يتأبّى على منهج الله فى الأشياء فهل يجرؤ على أن يتأبّى على قدريات الله غير الاختيارية فيه كالموت مثلاً ؟ .

والحق يأمر الإنسان بالإيمان . ومتعلقات الإيمان من شهادة بوحدانيته وإيمان برسله وكتبه واليوم الآخر وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت من استطاع إليه سبيلا . والمشرك يتأبّى على الإيمان والتكاليف فهل يجرؤ على التأبى على المرض أو الموت ؟. لا ؛ لذلك فهو يظلم نفسه ظلماً خائباً . والحق سبحانه لا يهديه ؛ لأن معنى الهداية هو أن يجد الإنسان من يدله على الطريق الموصل للغاية . فهداه أى دلّه على الطريق الموصل للغاية . ولا يتجنّى سبحانه على خلقه فلا يهديهم ، بل الذين ظلموا أنفسهم ولم يؤمنوا هم الذين لا ينالون عناية الحق سبحانه وتعالى باختيارهم .

والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾

المجال هنا كان عن النهى عن اتخاذ أهل الكتاب أولياء من دون الله ، ومن سمع هذا النهى وفى قلبه الإيمان نفّذ النصيحة . ولكن الذى طمس المرض ـ وهو النفاق ـ قلبه فهو الذى يتولاهم . وهو يسارع إلى هذه الولاية . ونعرف أن المسارعة هى تقليل الزمن فى قطع المسافة الموصلة للغاية فإذا كانت هناك مسافة تقتضى السير لمدة خمس عشرة دقيقة فالمسارعة تفرض على الإنسان أن يقطعها فى وقت أقل من ذلك . وهناك « يسارع إلى » و« يسارع فى » ، مثل قول الحق :

﴿ وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾

(من الآية ١٣٣ سورة آل عمران)

والغاية هنا هى المغفرة من الله وعلى المؤمن أن يسارع إليها ، أما عندما يقال : « يسارع فى كذا » أى أنه كان فى الأصل منغمساً فى هذا الموضوع . وعندما يقول الحق : « يسارعون فيهم » أى كأنهم كانوا مع هؤلاء الكفار من البداية ، ولذلك فالمسارعة فى ظرفيتهم . وبذلك يتهافتون عليهم . والعلّة العامة أن فى قلوبهم مرضاً جعلهم يبتكرون ويلفقون أسباباً ، هذه الأسباب هى « نخشى أن تصيبنا دائرة »

والموالاة هنا من الخوف أن تدور الدوائر ، ونحتاج إليهم لأن عندهم الأموال والسلاح ، وهذا ما قاله المنافق عبدالله بن أبىّ ؛ فقد قال : أنا رجل أخشى الدوائر . أى أنه يخشى الأحداث والمصائب . مثلما نقول : « الأيام دول » . ولكن كلمة « دول » هى انتقالية وقد لا يكون فيها ضرر ، أما « دوائر » فهى انتقالية فيها ضرر . وعكس ذلك ما قاله عبادة بن الصامت قال رضى الله عنه :

ـ أنا سآخذ ولاية الله ورسوله والمؤمنين وسأنفض عنى ولاية اليهود والنصارى .

وأورد الحق قول المنافق : « نخشى أن تصيبنا دائرة فعسى الله أن يأتى بالفتح » وساعة نسمع كلمة « الفتح » ، فلنعرف أدلّ مدلولاتها أنه الحكم .

﴿ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ ﴾

(من الآية ٨٩ سورة الأعراف)

أى احكم يا رب بيننا وبينهم .

إذن فقوله الحق : « فعسى الله أن يأتى بالفتح أو أمر من عنده » أى الحكم الذى يضع حدّاً لمسألة موالاة أهل الكتاب والذين لا يعلمون .

والأمر من عند الله هو حكم من الله أيضاً . يخاطب المؤمنين به . والمؤمن بالله له أعمال تؤدى كأسباب إلى مسببات ، وقد يأتى للمؤمنين أشياء بدون مقدمات منهم ، وهى الفضل من الله . إذن فعسى الله أن يأتى بالفتح ، أى بأسباب أنتم تصنعونها وتعدّون ما استطعتم من عِدَّة وعُدَّة وتؤذونهم ، ولذلك قال فى آية أخرى :

﴿ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ ﴾

(من الآية ٦ سورة الحشر)

مثال ذلك ما حدث لبنى النضير ، فكان الإجلاء ، واستولى المسلمون على أرض بنى قريظة ، وهذا هو الفتح من عند الله . وسبحانه - إذن - يعامل المؤمنين معاملتين : الأولى أن يصنع المؤمنون مقدمات تؤدى إلى نتائج :

﴿ قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ ﴾

(من الآية ١٤ سورة التوبة)

وهنا جعل الحق قتال المؤمنين سبباً ، أما الثانية فهى الأمر من عنده بالنصرة بالربوبية .

وساعة تسمع « عسى » و« لعل » فهذا معناه الرجاء . والرجاء أن المتكلم يرجو أن يقع ما دخلت عليه « عسى » . مثال ذلك قولنا : (عسى أن تكرم زيداً) . ومن يقولها إنما يرجو سامعها أن يكرم زيداً ، وهذا يعني أن القائل ليس فى يده إكرام زيد . أما إذا قال القائل : (عسى الله أن يكرم زيداً) ، فهذا نقل للرجاء من البشر

إلى الله . والقائل هنا بشر ويتكلم عن بشر ، والمرجو هو الله ، وقدرة الله أوسع من كل قدرة . هنا ندخل فى اتساع دائرة الرجاء فما بالنا إذا كان المتكلم هو الله ؟ إذن فهذا إطماع من كريم لا بد أن يتحقق .

ونتعرف بذلك على درجات الرجاء : رجاء من بشر لبشر ، رجاء بشر من إله لبشر ، رجاء إله من إله لبشر ، ولأن الرجاء الأخير من المالك الأعلى لذاته فهو الذى يعطى « فعسى الله أن يأتى بالفتح أو أمر من عنده » وقد تحقق ذلك فى واقع الأمر ، وساعة قالوا : نخشى أن تصيبنا دائرة ونحن نحتفظ بالعلاقة مع أهل الكتاب من أجل الولاية والنصرة . جاءت من بعد ذلك النصرة بالفتح وبأمر من الله ، فماذا كان موقفهم ؟

صار الموقف هو « فيصبحوا على ما أسروا فى أنفسهم نادمين » أى أنهم صاروا إلى الندم . وبذلك صار قولهم : « نخشى أن تصيبنا دائرة » هو كشف لما فى قلوبهم من مرض النفاق ، وقد خلعوا على المرض وعبروا عنه بهذا الكلام سترا لما فى قلوبهم ، فكأن الذى أسروه فى نفوسهم هو كراهية هذا الدين وكراهية هذا المنهج وأنهم لا يحبون أن يستعلى هذا المنهج على غيره .

إذن فالحق سبحانه وتعالى يدلنا على أن القول الذى نشأ منهم : « نخشى أن تصيبنا دائرة » لم يكن هو السبب المباشر . ولكن السبب هو المرض فى قلوبهم . والمرض : أنهم لا يحبون أن ينتصر منهج الإسلام ؛ لأنهم يعيشون على ثروات المخالفين للدين ، وساعة تكون السيطرة للإسلام ينتهى ثراؤهم . وكذلك كان أهل الكتاب فى المدينة قبل أن يأتى الإسلام كانوا أصحاب العلم والمال والجاه ، وكانت الأوس والخزرج يأخذون منهم المال بالربا ويشترون منهم السلاح ، ويأخذون منهم العلم . ولما جاء الإسلام ضاع من اليهود كل ذلك فتمكن من قلوبهم المرض ؛ لأن الإسلام سلبهم السلطة الزمنية ، هذه السلطة التى جعلتهم يحرفون كتب الله . فإذا كانوا قد دخلوا مع الله فى تحريف كتبه ، أفلا يدخلون معكم - أيها المسلمون - فى عداوة ويلبسون عليكم بأنهم يعينون وهم يُخَذِّلون ؟

« فيصبحوا على ما أسروا فى أنفسهم نادمين » وساعة يسمعون هذا القول الربانى

وهو قرآن يتلى ويتعبد بتلاوته ويُقرأ فى المساجد ويسمعونه ، ولم يكن هناك فتح ، ولم يكن هناك أمر ، ويخبرهم الله بمصيرهم : « فيصبحوا على ما أسروا فى أنفسهم نادمين » ومعنى ذلك أنه سبحانه كتب الذى فى نفوسهم . مثلما قال من قبل : « ويقولون فى أنفسهم » . أى أنهم قالوا فى أنفسهم وسمعهم الخالق . ولو لم يقولوا فى أنفسهم لأعلنوا أنهم لم يقولوا ذلك ، لكنهم بهتوا حين كشفهم الحق وفضحهم وسجل ما فى أنفسهم وأورد مضمون القول ، وكان من اللازم أن يعترفوا بمضمون القول ، وكان لا بد لهم أن يتجهوا إلى الإيمان . لكنهم لم يفعلوا فصاروا إلى الندم . بنص الآية التى نزلت قبل أن يأتى فتح أو أمر من الله .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَأَصْبَحُواْ خَٰسِرِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾

هنا يرى المؤمنون رأى العين ندم هؤلاء . والندم انكسار القلب فى الحاضر على تصرف سابق مثلما يرتكب إنسان حماقة وتظهر آثارها من بعد ذلك ، فيقول : يا ليتنى لم أكن قد فعلت ذلك . إنه انكسار نفس على تصرف سابق . وانكسار النفس يتضح على بشرة الوجه . وساعة يأتى الفتح تجد المنافقين وأهل الكتاب مكبوتين كبتاً قسرياً وهو الكبت الذى لا يجرؤ صاحبه عليه فيدعى أنه فرحان ، إنه قسرى بإلحاح بِنْيَة ، وظهور أثر ذلك على وجوههم .

وهنا يفطن المؤمنون إلى ذلك فيقولون : « أهؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم إنهم لمعكم » . ولو كان هؤلاء المنافقون من الصادقين لفرحوا ولكانت أساريرهم متهللة ، ولظهرت عليهم الغبطة . لكنهم صاروا عكس ذلك ، صاروا نادمين مكبوتين .

« ويقول الذين آمنوا أهؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم إنهم لمعكم حبطت » أى حبط عملهم وقولهم : « إنا معكم » . والحبط هو - كما قلنا - الانتفاخ الذى يصيب البهيمة التى تأكل طعاماً غير مناسب لها ، فيظن الناس أنها قد سمنت ولكنهم يلتفتون فيجدون أنها مصابة بانتفاخ قاتل .

« حبطت أعمالهم فأصبحوا خاسرين » والخسارة فى معناها الواضح أن يقل رأس المال . لقد فعل المنافقون ذلك ليستروا أنفسهم وراء المسلمين ولم يسلم لهم هذا الأمر وانكشفوا .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ ﴾

والخطاب هنا للمؤمنين ، وكل نداء مثل هذا قد يجىء بعده حكم من الأحكام أو بشارة من البشارات أو وعيد للمخالف . والذى يأتى فيه شبه إشكال وليس بإشكال ، هو أن يأتى هذا القول ويكون ما بعده أمر بالإيمان كقوله الحق : « يا أيها الذين آمنوا آمنوا » فسبحانه يناديهم كمؤمنين ويطلب منهم الإيمان ، ومثال ذلك قول القائل : « يا قائم قم » برغم أن المفروض أن يكون القول : « يا قائم اجلس » أو « يا قائم تعال » ، أو « يا قائم انصرف إلى فلان » ، فكيف إذن يقول الحق : « يا أيها الذين آمنوا آمنوا » . هنا نقول : ما الإيمان ؟ الإيمان هو استقرار العقيدة فى القلب فلا تطفو للذهن لتناقش من جديد . ونسمى ذلك عقيدة ، أى أمراً معقوداً فى القلب .

إذن فالحق سبحانه وتعالى حينما يخاطب مؤمناً ويطالبه أن يؤمن ، فمعنى ذلك أن

الحق يقول : أنت آمنت قبل أن أناديك وبسر الإيمان ناديتك فحافظ على هذا الإيمان دائما . وجدد دائماً إيمانك لأننى ناديتك بوصف الإيمان الذى عرفته فيك .

إن الحق يوضح : يا أيها الذين آمنوا داوموا على إيمانكم ولتكن كل لحظة من لحظات حياتكم المقبلة فى إيمان عالٍ مرتقٍ قبل أن أتكلم معكم بوصف الإيمان أنتم آمنتم أولاً فناديتكم فحافظوا على ذلك واثبتوا على إيمانكم .

ومعنى قوله : « من يرتد منكم عن دينه » أى من يتراجع منكم عن الإسلام فسيأتى الله بعوض عنه ، وسيأتى بقوم لن يكونوا مثل هؤلاء المرتدين . إذن فمن يرتد فعليه أن يفهم أنه لن ينقص جند الله واحداً ؛ لأن الذى أذن لشرعه أن ينزل على رسول ونبى خاتم لن يجعل هذا الرسول وهذا المنهج تحت رحمة أغيار الناس . فإن خرج أناس عن المنهج فالله يستبدل بهم غيرهم . وفى هذه الآية أسلوب يخالف آية البقرة فى الوجه الإعرابى ، وسبحانه يقول فى آية البقرة :

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَـٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾ ﴾

(سورة البقرة)

هنا وجدنا الحق يقول : « ومن يرتدد منكم عن دينه » أما فى الآية التى نحن بصددها فى سورة المائدة فهو سبحانه يقول : « من يرتد منكم عن دينه » ونجد الأسلوبين مختلفين . والحكمة العليا فى أن الحق سبحانه وتعالى يأتى فى كتابه بآيات متحدة فى المعنى إلا أن وجه الإعراب فيها يختلف ليدلنا أن القرآن نزل إلى الناس كافة . وقبل أن ينزل القرآن كانت هناك لغتان : لغة تميم ، ولغة الحجاز .

وكان الخلاف بين اللغتين محصوراً فى الكلمة التى بها تضعيف ، أى فيها حرفان

من شكل واحد أى متماثلان . وكلمة « يرتد » بها « دالان » وأصلها «يرتدد » . و« يرتد » بها مِثْلان والنطق بهما صعب . ولذلك حاول الناس فى مثل هذه الحالة أن يدغموا مِثْلاً فى مثل . ولذلك كان من اللازم أن نُسكن الحرف الأول من المثلين . والمفروض أن « الدال » الثانية ساكنة ؛ لأن « مَن » شرطية جازمة . والدال الأولى أصلها بالكسر . ولا بد من الإدغام . والإدغام يقتضى إسكان الحرف الأول . إذن فمن أجل الإدغام نفعل ذلك .

ونحن نعلم أن الساكنين لا يلتقيان ، وكان تسكين الحرف الأول لأنه ضرورى للإدغام ، أما الحرف الساكن الآخر فهو الطارىء . فنتصرف فيه ، ولذلك نحركه بالفتح حتى نتخلص من التقاء الساكنين . ولذلك نقول : « من يرتد » بالفتح .

وجاء لى ذات مرة سؤال يقول : كيف يأتى القرآن بـ« يرتد » بالنصب أى بالفتح ؟ وقلت : إنها ليست « فتحة نصب » والسائل يفهم أن « مَن » إما اسم موصول ، وإمّا هى « مَن » الشرطية ، فلو كانت اسماً موصولاً ؛ لكان القول « من يرتدُ » ـ بالضم ـ وإن كانت « مَن » الشرطية لجاءت بالتسكين ولأن ما قبلها جاء ساكناً للإدغام تخلصنا من السكون بالفتحة وهى « فتحة » التخلص من ساكنين ، لأنه ـ كما قلنا ـ لا يلتقى ساكنان .

والذى يُظهر لنا ذلك هو آية البقرة التى قال فيها الحق : « ومن يرتدد » بدليل أنه عندما عطف قال : « فيمت » بالجزم عطفا على يرتدد . أما السبب فى أن جواب الشرط واضحٌ فى آية المائدة أنه لم يأت فعل جوابى أو عطف ، وجواب الشرط هو قول الحق : « فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه » ويدل على ذلك دخول الفاء على كلمة سوف لكن لو كان الحق قد قال : من يرتد منكم عن دينه يأت الله بقوم يحبهم ويحبونه كان يمكن الفهم بسرعة أن « مَن » شرطية ، لأن كلمة « يأت » جاءت مجزومة بحذف آخرها ، ومن هنا يتضح أن الفتحة فى « يرتد » هى فتحة التخلص من التقاء الساكنين .

وما السبب فى أن الحق يأتى بآية على هذا النسق ، وآية أخرى على ذاك النسق ؟ نحن نعلم أن القرآن قد نزل بلغة قريش . وكانت قريش تمتلك السيادة . ولم تكن

هناك قبيلة بقادرة على مواجهة قريش . ونعرف جميعاً أن رحلة قريش إلى اليمن لم يكن ليجرؤ إنسان أن يتعرض لها ، وكذلك فى رحلة قريش إلى الشام ؛ لأن قريشا تستوطن حيث يوجد بيت الله الحرام الذى يحج إليه كل عربى . ويوم أن يتعرض أحد لقوافل قريش فعليه أن ينتظر العقاب له أو لقبيلته ، إذن فالبيت الحرام هو الذى أوجد لهم تلك المهابة لذلك ينبههم الحق إلى ذلك عندما قال فى سورة الفيل :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ۝٥ ﴾

(سورة الفيل)

وقد تم وعيد الله لأصحاب الفيل ، لأنهم أرادوا هدم بيت الله الحرام . ثم يتبع الحق سورة الفيل بقوله فى سورة قريش ؛

﴿ لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝٢ ﴾

(سورة قريش)

ليوضح سبحانه أنه من ضمن أسباب صيانة بيت الله الحرام أن حفظ سبحانه لقريش الأمان فى رحلة الشتاء والصيف ، ولو انهدم البيت الذى يحقق لقريش السيادة لهجم الناس على القرشيين من كل جانب ؛ لأنه القائل فى شأن من قصدهم لهدم بيت الله الحرام .

﴿ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ۝٥ ﴾ ﴿ لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ ﴾

(الآية ٥ سورة الفيل والآية ١ سورة قريش)

وما دامت تلك المسألة قد صنعها الله لقريش ، فلا بد لهم من عبادة رب هذا البيت :

﴿ فَلْيَعْبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ۝٤ ﴾

(سورة قريش)

إذن فقريش أخذت السيادة بين العرب بمكانة البيت ، وأخذت السيادة أيضاً فى اللغة ، وكانت كل أسواق العرب تعقد هناك ، وأشهرها سوق عكاظ ، وكان ينصب فى قريش خلاصة اللغات الجميلة من القبائل المختلفة . وهكذا أخذت اللغة

المصفّاة المنتقاة ، فكل شاعر كان يقدم أفضل ما عنده من شعر . وكل خطيب كان يأتى بأحسن ما عنده من خطب . وبذلك كانت قريش تسمع أجود الكلمات . ولهذا كانت اللغة التى عندهم هى اللغة العالية . ولذلك عندما جىء لزمن كتابة القرآن كانت الوصية :

إن اختلف عليكم شىء فاكتبوه بلغة قريش ؛ لأن لغة قريش أخذت من اللغات محاسنها . وبنو تميم والحجاز كانوا مختلفين فى بعض الأشياء . ولذلك كنا نسمع ـ عندما نتعلم الإعراب ـ قول المعلم وهو يسألنا : هل « ما » حجازية أو تميمية ؟ وهذا يدلنا على أن هناك خلافاً بين النطق فى القبيلتين .

وفى الآية التى نحن بصددها ندغم ونقول : « من يرتد » وفى آية البقرة ننطقها دون إدغام فنقول : « ومن يرتدد » .

وكأن الحق جاء بآية على لغة الحجاز وآية على لغة تميم ، وذلك برهان جديد على أن القرآن لم يأت ليحقق سيادة لقريش ، إنما هو للناس كافة ؛ لذلك نجد من كل لهجة كلمة ، ليتضح أن القرآن لعموم الناس جميعهم .

وعندما نقرأ قول الحق :

﴿مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾

(من الآية ٥٤ سورة المائدة)

نعلم أنه سبحانه يعلمنا أنه قادر على أن يأتى بأهل إيمان غير الذين ارتدوا عنه ، تماماً كما أخبرنا من قبل :

﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾

(من الآية ٢١٧ سورة البقرة)

والقول هنا : خبر عن مصير المرتد إلى جهنم بعد أن تقوم الساعة .

ولكن القول : « من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه » يدل على أن إجراءً سيحدث قبل أن تقوم القيامة . ومن ذا الذى يستطيع أن يتصور أن إلهاً ينزل قرآنا يتحدى به ثم يأتى فى القرآن بقضية مازالت فى الغيب ويجازف بها ، إن لم تكن ستقع ؟. والحق يقول : « فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه » و« سوف » تخبرنا بموقف قادم سيأتى من بعد ذلك . ونقول هنا : من الذى يستطيع أن يتحكم فى اختيارات الناس للإيمان ؟. لا أحد يستطيع أن يتحكم فى اختيارات الناس للإيمان إلا الله سبحانه وتعالى ، فهو الذى يتحكم ويحكم ويخبرنا بأنه سوف يأتى أناس يؤمنون بدلاً من المرتدين .

أما إن ارتد أناس ، وانتظروا أن يروا البديل لهم ، ولم يأت فماذا يكون الأمر ؟ لا بد أن تنصرف الناس عن الدين . ولم يكن الحق ليجازف ويجرى على لسان محمد بأن قوماً سيرتدون وهو لا يعلم أيأتى قوم مرتدون ؟ والعلم جاء فى هذه الآية كما جاء فى كل القرآن من الله جل وعلا . وقد قالها الحق قضية كونية : « فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه » . وهل هناك قوم يحبهم الله وهم لا يحبونه ؟ ونقول : إن هذا لا يحدث مع الله ، وإن كان يحدث فى الحياة البشرية مثلما قال الشاعر العربى :

أنت الحبيب ولكنى أعوذ به
من أن أكون محبّاً غير محبوب

وشقاء المحبين إنما يأتى من أن العاشق يحب أحداً ، وهذا الحبيب لا يبادله الحب ؛ لذلك يظل العاشق باكياً طوال عمره . ولنا أن نلحظ أن حب الله هو السابق فى هذا القول الكريم : « فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه » ؛ لأن هذه هى صفة الانكشاف للعلم ، لقد علم الحق أنهم سيتجهون إليه فأحبهم ، وعندما جاءوا فعلوا ما جعلهم محبوبين لله ، ثم ما هو الحب ؟. إنه ودادة القلب . وقلنا الكثير من قبل فى أمر ودادة القلب . ونعرف أن هناك لوناً من الحب يتحكم فيه العقل . ولوناً آخر من الحب لا يتحكم فيه العقل ولكن تتحكم فيه العاطفة .

ومثال هذا عندما نذهب إلى طبيب ويصف لنا دواء مراً غير مستساغ الطعم ، ونجد الإنسان الموصوف له الدواء يذهب إلى الصيدلية للسؤال عن الدواء ، فإن لم

يجده فهو يلف ويدور ويسأل فى كل صيدليات البلد فإن لم يجده فهو يوصى المسافر إلى الخارج لعله يأتى له بالدواء . وإذا جاء له صديق بهذا الدواء فهو يمتلىء بالامتنان بالسرور . أيقبل المريض على الدواء غير المستساغ بعاطفته أم بعقله ؟ إنه يقبل على الدواء غير المستساغ الطعم ويحبه بعقله . والحب العقلى ـ إذن ـ هو إيثار النافع .

ومثال ذلك نجد الوالد لابن غبى يحب ابناً ذكياً لإنسان غيره .

الوالد ـ هنا ـ يحب ابنه الغبى بعاطفته . ولكنه يحب ابن جاره لأنه يمتلك رصيداً من الذكاء . إذن هناك حب عقلى وحب عاطفى . وهذا ما يحدث فى المجال البشرى لكن بالنسبة لله فلا .

وعندما يقول الحق : « فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه » أى أنهم يحبون الله بعقولهم ، وقد يتسامى الحب إلى أن يصير بعاطفتهم ، وقد يجرب ذلك حين يجرى الله على أناس أشياء هى شر فى ظاهرها ، ولكنهم يظلون على عشقٍ لله . ومعنى ذلك أن حبهم لله انتقل من عقولهم إلى عاطفتهم . وسيدنا عمر جرى معه حل هذا الإشكال . كيف ؟

لقد قال صلى الله عليه وسلم : « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه »[1] .

وهناك من قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم إنه أحب إليه من ماله وولده لكن عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ قال : أنت أحب إلىّ من مالى وولدى أما نفسى فلا وأعاد رسول الله صلى الله عليه وسلم القول : « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه »[2] .

وهنا علم عمر ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقصد الحب العقلى ؛ لأن عمر رضى الله عنه علم أيضا أن الحب العاطفى لا يكلف به ، ولذلك قال عمر : الآن أحبك عن نفسى ، فرد رسول الله صلى الله عليه وسلم : الآن

(١ ، ٢) رواه أحمد ٣٣٦/٤ والسيوطى فى الدر المنثور ٢٢٣/٣ .

يا عمر . أى كأنه فى هذه اللحظة قد اكتمل إيمان عمر . إذن فحب الله لا تقل فيه أيها المؤمن هل هو حب عقل أو حب عاطفى ؟؛ لأن المراد بحب الإله هو دوام فيوضاته على من يحب ، هذا فى الدنيا ، أما فى الآخرة فالحق يلقاه فى أحضان نعمه ويتجلى عليه برؤيته :

﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾

(من الآية ٢٦ سورة يونس)

والحسنى هى الجنة . أما الزيادة فقد قال المفسرون : إنها رؤية المحسن .

« فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه » وعندما يقول الحق : « فسوف » فلنعلم أن ما يأتى بعدها هو من إعلامات النبوة التى جاءت على لسان محمد فى قرآن الله ؛ لأن ذلك الأمر قد حدث كما جاء فى قرآن الله ، فقد ارتد قوم وانقسموا فى الردة إلى قسمين ؛ قسم ارتد على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقسم ارتد على عهد أبى بكر ، ومنهم من ارتد على عهد عمر . وحين تنظر إلى ما بعد « سوف » لا بد أن تعرف أن هناك امتداداً زمنياً .

وأول الارتداد كان فى اليمن ، وكان ذلك بعد حجة الوداع وفى حياة النبى صلى الله عليه وسلم .

وكان فى اليمن كاهن مشعوذ اسمه عَبْهَلة بن كعب ، ويقال له : ذو الخمار ، أو ذو الحمار فى رواية أخرى ، وهو الذى يعرف فى كتب التاريخ الإسلامى باسم الأسود العنسى . هو أحد الكذابين اللذين ذكرهما النبى صلى الله عليه وسلم فى قوله : « بيْنما أنا نائم إذ أوتيتُ خزائن الأرض ، فوُضع فى يدىّ سواران من ذهب فكبر علىّ وأهمّنى ، فأوحِى إلىّ أن انفخهما فنفختهما فطارا فأوّلتهما الكذابَيْن اللذين أنا بينهما صاحب صنعاء وصاحب اليمامة »[1] .

وكان لهذا الكاهن حمارٌ روّضه صاحبه رياضة من لون خاص تماماً كتدريب

(١) رواه البخارى فى التعبير والمناقب والمغازى ، ورواه مسلم فى الرؤيا ، والترمذى فى الرؤيا ، وابن ماجه فى الرؤيا ، وأحمد ٢٦٣/١ .

القرود ، فكان يقول له : قف . فيقف . ويقول له : سر . فيسير . واعتبر هذا الكاهن أن مثل هذا الأمر للحمار هو معجزة . أو كان الرجل اسمه « ذو الخمار » أي أنه كان يرتدي خماراً على وجهه . ومن العجيب أن أي مرتد لم يطالبه من يتبعه بعلامة صدقه في النبوة .

إن أول شيء في التأكد من صحة قول أي إنسان : « أنا نبي » أن يسأله الناس عن علامة الصدق في النبوة وأن يتعرفوا على معجزته ، لكنا لا نجد ذلك في مرتد أبداً . وكيف لا يسأل الناسُ الذين يتبعون المرتد عن نفسه وعن دعواه أنه نبي وعن معجزته التي تدل على صدق رسالته ، وهو ما يحدث مع أي رسول ، كيف يؤمن أناس بفرد بدون معجزة ؟.

هنا نذهب إلى الجانب النفسي من الأمر ونقول : إن التدين أمر فطري والإنسان الذي ليس له دين يغضب ويحزن عندما نقول له : يا قليل الدين . ولذلك نجد أن المبطل من هؤلاء يقول : أنا على دين . إنه لا يتصور أنه مبطل بلا دين . ولذلك قال الحق :

﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۝ ﴾

(سورة الكافرون)

فكان الأصل في الفطرة الأصلية أن الدين ضرورة للإنسان ، وما دام الأمر كذلك فلماذا لا يقبل كل الناس على الدين ؟ لأن الدين ليس مجرد اسم أو صفة ، ولكنه التزام بتكاليف . والذي يجعل الناس في خشية من الدين هو مشقة التكاليف ؛ لذلك فعندما يأتي إنسان ويقول : أنا نبي ومعجزتي أنني خففت عليكم الصلاة والزكاة والصيام وأبحت لكم النظر إلى نساء بعضكم .

لا بد أن يسيل لعاب أصحاب الهوى الذين لا بصيرة لهم ويقولون : إن مثل ذلك لدين جميل ، ويستسلمون ويخدعون أنفسهم بأنهم متدينون ورغم تحللهم من بعض التزامات التدين ، إن المرء ليتعجب من مدعي النبوة في الزمن القديم وحتى عصرنا هذا لأننا لم نجد أحداً من المثقفين قد وقف أمام مدع وقال له :

ما معجزتك ؟ ولكن الكل سأل : ما منهجك ؟ وعندما سأل أهل اليمن ذا الخمار : ما منهجك ؟

كانت إجابته: إنه أسقط عنهم بعض التكليفات بداية من تقليل الصلاة والزكاة إلى إباحة الاختلاط بنساء غيرهم . واستراح بعضهم لذلك المنهج وذهلوا وغفلوا عن طلب المعجزة . وكل الذين ادعوا النبوة كانوا من هذا الصنف . ولذلك نجد أن كل مدع للنبوة يحاول التخفيف من المنهج ، فهناك من خفف الزكاة . وجاءت امرأة اسمها سجاح خففت الصلاة . وجاء ثالث ليخفف الربا فيبيحه . لكن أحداً منهم لم يأت بمعجزة . واتبعه بعضهم لمجرد تسهيل المنهج . ومدعى النبوة إنما يرضى النفوس التى لا تطيق ولا تقوى على مشقة المنهج بأن تكون متدينة ملتزمة به .

ومثال ذلك ما حدث فى الإسكندرية عندما ظهر مدع للنبوة . وأباح منكراً مثيراً ، وتبعه بعض من المتعلمين الذين أرادوا دينا على هواهم ، وكذلك كان الأمر فى البداية . وعندما جاء ذو الخمار ، أو ذو الحمار ، وهو كما قلنا : مشعوذ ، وكان كما يصفه المؤرخون يسبى قلوب من يسمع منطقه وكان يريهم الأعاجيب ، واستطاع بذلك أن يستولى على مُلْك اليمن ، وأعلن ارتداده . وغلب على صنعاء وعلى ما بين الطائف إلى البحرين . وجعل يستطير شره استطارة الحريق .

وكان سيدنا معاذ بن جبل هو الوالى على اليمن من قِبَل النبى صلى الله عليه وسلم ، فأخبر سيدنا معاذ بن جبل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : إن كاهناً اسمه ذو الخمار أو ذو الحمار ، قد ارتد .

ويذهب سيدنا معاذ إلى حضرموت . وهناك يأتيه كتاب من النبى صلى الله عليه وسلم يأمره فيه أن يبعث الرجال لمصاولة ذى الخمار . ويحتال المسلمون للنهوض بما أمرهم به رسول الله صلى الله عليه وسلم . وبعد ذلك يدخل على ذى الخمار رجل ديلمى اسمه فيروز فيقتله على فراشه .

وعلى الرغم من بعد المسافة بين اليمن والمدينة ، إلا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فى ليلتها : « قتل الليلة الأسود العنسى »[١] .

وبعد ذلك يأتى الخبر فى آخر الشهر أن مدعى النبوة قد قتل . وتلك من إعجازات

---

(١) كنز العمال .

النبوة . إذن فقد تعرض المؤمنون على زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم للهزة فى العقيدة بحكاية ذى الخمار أو ذى الحمار . وكانت قصة ذى الخمار كالمصل الواقى الذى يربى المناعة ، وأخبرهم الله بها أولاً : « من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه » .

وذلك ليعطى الحق سبحانه وتعالى المؤمنين مناعة إيمانية وكأنه يقول للمؤمنين : لا تظنوا أنكم لن تتعرضوا إلى هزات عقدية دينية بل ستتعرضون . وكأن الرسول صلى الله عليه وسلم يقول : قد يجوز أن يفهم الناس أنى وأنا حى أقوم على منهج الله فى الأرض فإذا أنا مت ربما ارتدوا عن الدين .

ورسول الله عندما يبلغ ذلك للمؤمنين عن الله ـ سبحانه ـ إنما كان ذلك بقصد تربية المناعة . فلو فوجىء المسلمون بالردة ولم يكن الله قد خبرهم بها لما كان عندهم احتياط مناعى . والاحتياط المناعى هو أول عملية فى الوقاية . ونعلم أن العلم المعاصر استطاع فصل الميكروب أو الفيروس المسبب لمرض وبائى ، ويقوم العلماء بإضعاف هذا الميكروب أو الفيروس ، ثم بوضع قليل من هذا الميكروب أو الفيروس بعد إضعافه فى الجسم البشرى ، فتتحرك فى الجسم أجهزة الوقاية والحماية لتقاتل هذا الميكروب أو الفيروس وتنتصر عليه ، وبذلك تمتلك قوى الوقاية والحماية داخل الجسم القدرة على مقاومة هذا المرض ، وهكذا أراد الحق بهذا القول الكريم : « من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه » . إذن فحين يوجد الارتداد ، لا يفاجأ المسلمون بهذا الارتداد ، ويثقون تماماً أنه بمجرد مجىء الارتداد فإن وعد الله الآخر يجىء : « فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه » فلا فزع عند المؤمنين ساعة يحدث الارتداد ولا زلزلة فى النفوس . وساعة يأتى الارتداد يقول المؤمن :

إن الذى صدق فى أنه يحدث الارتداد ، سيصدق فى قوله : « فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه » . وإذا رأيت « السين » تسبق قولاً فإن هذا يعنى أن الزمن الذى يفصل بين الحدث والحدث قريب وقليل مثل قوله الحق :

﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾

(من الآية ١٤٢ سورة البقرة)

أما عندما تقرأ « سوف » فأعلم أن الزمن الذى يفصل بين الحدث والحدث متسع وبعيد . ولذلك نحن نرى أن الردة قد امتدت فى عهد أبى بكر ـ رضى الله عنه ـ وفى عهد عمر ـ رضى الله عنه ـ .

وما هى ذى مواصفات القوم الذين يأتى بهم الله فى قوله : « فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم » ؟ إنها مواصفات ست : يحبهم الله ، ويحبون الله ، أذلة على المؤمنين ، أعزة على الكافرين ، يجاهدون فى سبيل الله ، لا يخافون لومة لائم .

وكيف يكون الإنسان المؤمن ذليلاً وعزيزاً فى آن واحد ؟ لأن الحق لا يريد أن يطبعنا على لون واحد من الانفعال ، ولكنه يريد لنا أن ننفعل تبعاً للموقف . فعندما يحتاج الموقف إلى أن يكون المؤمن عطوفاً فالمؤمن يواجه الموقف بالعاطفة . وعندما يحتاج الموقف إلى الشدة فالمؤمن يواجه الموقف بالشدة . وإن احتاج الموقف إلى الكرم ، فالمؤمن يقابل الموقف بالكرم . فالمسلم ـ إذن ـ ينفعل انفعالاً مناسباً لكل موقف ، وليس مطبوعا على انفعال واحد . ولو انطبع المؤمن على موقف ذلة دائمة فقد يأتى لمواجهة موقف يتطلب العزة فلا يجدها ولو طبع المؤمن على عزة دائمة فقد يأتى لمواجهة موقف يتطلب الذلة فلا يجدها ؛ لذلك جعل الحق قلب المؤمن ليناً قادراً على مواجهة كل موقف بما يناسبه .

والمؤمن عزيز أمام عدوه لا يُغلب ، ويجابهه بقوة . والمؤمن يخفض جناح الذل من الرحمة لوالديه امتثالاً لأمر الحق سبحانه :

﴿ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ ﴾

(من الآية ٢٤ سورة الإسراء)

وهل إذا خفض المؤمن جناح الذل لوالديه . أيخدش ذلك عزته ؟ لا . بل ذلك أمر يرفع من عزة الإنسان . والحق يريد المؤمن أن يكون غير مطبوع على لون واحد من الانفعال ، ولكن لكل موقف انفعاله . وحين ينفعل المؤمن للمواقف المختلفة فهو يميز ما يحتاج إليه كل موقف « أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين » ويقال فى اللغة : « ذليل لفلان » فلماذا ـ إذاً ـ يقول الحق هنا : « أذلة على المؤمنين » ،

و« على » تفيد العلو . والذلة تفيد المكانة المنخفضة ، فكيف يأتى هذا التعبير ؟ لقد جاء هذا القول على هذا الشكل لحكمة هى : أن المؤمن ما دام يحب الله ويحبه الله . وساعة يكون فى ذلة لأخيه المؤمن فهذا يرفع من قدره . وهى ليست ذلة بالمعنى المتعارف عليه ، ولكنه لين جانب وعطف ورحمة . إذن فقوله الحق : « أذلة على المؤمنين » يعنى أن المؤمنين يعطفون على غيرهم من المؤمنين حتى يبدو هذا العطف وكأنه ذلة . وبعض العلماء يقول : إن المادة « ذال » و« لام » تدل على معنيين متقابلين ، مثال ذلك قوله الحق :

﴿ وَذَلَّلْنَـٰهَا لَهُمْ ﴾

(من الآية ٧٢ سورة يس)

أى جعلناها خاضعة لتصرفهم . وهذا التذليل ليس بقهرٍ من الإنسان للأنعام ولكنه بتسخير من الله . وهى ميسرة لخدمة الإنسان . ومثالٌ آخر . قوله الحق :

﴿ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ﴾

(من الآية ٦٩ سورة النحل)

أى متطامنة مهيأة . إذن فهذه ذلة اللين . وهناك « ذُل » ـ بضم الذال ـ وهو ضد العز . وهناك « ذِل » ـ بكسر الذال ـ وهو اللين . إذن فالذل بكسر الذال هو ضد الصعوبة ؛ أى اللين . والذُّل ـ بضم الذال ـ هو ضد العز ، فإذا أردنا ذِلّة اللين ؛ فذل المؤمن للمؤمن من الذِّل، وإن أردنا الذلة التى هى ضد العز، فهى من الذُّل . وعندما يكون المؤمن على ذِلة للمؤمن . فهى ذِلة اللين والعطف . وعندما يريد الحق الشيء ليتدانى للمؤمن ولا يتعبه ، فهو يقول :

﴿ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ ﴾

(سورة الحاقة)

وفى آية أخرى يقول سبحانه :

﴿ وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴾

(من الآية ١٤ سورة الإنسان)

أى ذُلِّيت عناقيدها . فالفاكهة تنزل إلى المكان الذى يوجد فيه المؤمن . وإن وقف المؤمن لطال بيده أن يقطف الثمار . وإن اضطجع لاستطاع أن ينال أيضاً من الثمار

لأنها تتدانى له . وإن نام المؤمن لتدانى قطاف الثمار إلى مكانه وبذلك يستطيع أن يأكل منها فى أى وقت وعلى أى وضع .

وهنا يأتى الحق بالقول الحكيم : « أذلة على المؤمنين » أى أن ذلة المؤمن لأخيه المؤمن ترفع منزلته . وبها يكون المؤمن أهلاً لأن ترفع منزلته ؛ لأنه مصطفى بأن الله يحبه وأنه يحب الله ، ولا توجد رفعة أكثر من هذه رفعة . ولذلك نجد القول المأثور : (من تواضع لله رفعه) .

أى من تواضع وفى باله الله فإن الله يرفعه .

« أعزة على الكافرين » وهذا هو الوصف الثالث للمؤمنين فى تلك الآية بعد قوله الحق : (فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين) .

إن المؤمن عزيز على الكافرين بأنه لا يُغلب ، وما دام هو يعرف ذلك فهو ينضم إلى الجهاد فى سبيل الله . « يجاهدون فى سبيل الله » وكلمة « الجهاد فى سبيل الله » تخصص لوناً من الجهاد ، فالإنسان قد يجاهد حمية أو دفاعاً عن جنسيته أو أى انتماء آخر ، وكل هذه الانتماءات فى عرف الدين لا قيمة لها إلا إذا نبعت من الانتماء إلى منهج الله ، لتكون كلمة الله هى العليا .

وعندما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أفضل القتال :

فيما جاء عن أبى موسى رضى الله عنه قال : جاء رجل إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : الرجل يقاتل للمغنم والرجل يقاتل للذكر والرجل يقاتل ليُرَى مكانه ، فَمَنْ فى سبيل الله ؟ قال : « مَنْ قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله »[1] .

وما دام المؤمن محبوباً من الله ويحب الله وذليلاً على المؤمنين وعزيزا على الكافرين ،

---

(١) رواه البخارى فى الجهاد ، ومسلم فى الإمارة ورواه أحمد .

ما دام الأمر كذلك فعندما يتولى مؤمن أمر قيادة غيره من المؤمنين فلا أحد منهم يأنف أن يكون تحت قيادته . وبذلك يخرج المؤمن عن دائرة الاستعلاء والاستكبار ؛ لأنه يجاهد فى سبيل الله . ولو جاءه إنسان ليلومه على ذلك فهو لا يسمح له ، وكأنه سبحانه يوضح : تنبهوا جيداً إلى أن القوم الذين يحبهم الله ويحبون الله والذين هم أذلة على المؤمنين وأعزة على الكافرين ويجاهدون فى سبيل الله فلا نظن أنهم بمنأى عن سخرية الساخرين ، وهزؤ المستهزئين ، ولوم اللائمين ليردوهم عن هذه العملية .

ولذلك يقول الحق : « ولا يخافون لومة لائم » وقد وضح ذلك على مر تاريخ الإسلام وجاء الحق بقوم يحبهم ويحبونه وهم أذلة على المؤمنين وأعزة على الكافرين وجاهدوا فى سبيل الله وما خافوا لومة لائم .

وساعة نستقرىء هذه الآية نجد أن « سوف » ابتدأ مدلولها الأول فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم . وحين سئل رسول الله عن القوم الذين يحبهم الله ويحبون الله وفيهم هذه الصفات ؛ أشار بيده مرة إلى أبى موسى الأشعرى ، وقال صلى الله عليه وسلم : « هم قوم من هذا »[1] .

وعندما نزل قوله تعالى :

﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ﴾

(من الآية ٣ سورة الجمعة)

سأل أبو هريرة ـ رضى الله عنه ـ رسول الله صلى الله عليه وسلم : من هم يا رسول الله ؟ . فوضع رسول الله صلى الله عليه وسلم يده على سلمان ثم قال : « لو كان الإيمان عند الثريا لناله رجل من هؤلاء »[2] .

وقد حدثت الردة الأولى فى اليمن ، وكانت فى قوم أبى موسى الأشعرى ، وكتب رسول الله إلى معاذ بن جبل ـ كما أوضحنا ـ وبعد ذلك تطوع فيروز الديلمى ودخل على من كان يدّعى النبوة ذى الخمار أو ذى الحمار ، وقتله . وأخبر رسول الله صلى الله

---

(١) حديث شريف صححه الحاكم ورواه الطبرى فى التفسير .

(٢) رواه البخارى ومسلم فى فضائل الصحابة وأحمد ٢/٤١٧ .

عليه وسلم ليلتها بالأمر . ولكن خبر القتل جاء بعد أن انتقل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى . وكانت تلك من علامات النبوة .

وحدث - أيضاً - فى زمانه صلى الله عليه وسلم أن ادّعى مسيلمة الكذاب أنه نبى . وكتب مسيلمة إلى رسول الله كتاباً ، يقول : مِن مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله .

ولم يقدر على نزع صفة النبوة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وجاء فى كتاب مسيلمة : « أما بعد . فإن الأرض نصفها لى ونصفها لك » كأنه قد فهم أن المسألة بالنسبة لرسول الله تحتاج إلى قسمة ، فكتب إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم كلمات فيها هبات النبوة :

(من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين)[1] .

ولم يسمع مسيلمة كلام رسول الله ، وجهزت الحملة لترسل إليه لتأديبه . وجاء عهد أبى بكر - رضى الله عنه - ، وكانت المعركة على أشدها . وجاء « وحشى » الذى قتل حمزة - رضى الله عنه - فى موقعة أحد . وأراد أن يكفر عن سيئاته فذهب وقتل مسيلمة . ولذلك كان يقول كلمته المشهورة : أنا قتلت فى الجاهلية خير الناس - يقصد حمزة - وقتلت فى الإسلام شر الناس - يقصد مسيلمة - وانتهى أمر مسيلمة .

وجاء إنسان ثالث فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم اسمه « طليحة بن خويلد » من بنى أسد وادّعى النبوة ، وكلّف رسول الله صلى الله عليه وسلم مَن ذهب إليه وكان « خالد بن الوليد » وساعة علم الرجل أن خالداً هو الذى جاء لقتاله لاذ بالفرار ، ولكنه من بعد ذلك أسلم وحسن إسلامه .

ونلاحظ أننا ننطق « الردة » بكسر الراء ، وصفاً لتلك الأمور التى حدثت وقوبلت

---

(١) رواه أبو حنيفة فى مسنده ، وابن سعد فى الطبقات الكبرى ص ١٨٠ برواية الإمام الحصكفى .

هذه المقابلة . ولا نسميها « رد » فتح الراء ، لأن الرد ـ بفتح الراء ـ يكون عودة إلى حق ، أما الردة ـ بكسرة الراء ـ فتكون إلى باطل ، مثال ذلك قوله سبحانه وتعالى :

﴿ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ ﴾

(من الآية ٥٩ سورة النساء)

أما الذى يرتد فهو يرتد إلى باطل .

ومن العجيب أن كلمة « الردة » التى جعلها الإسلام علامة على الانتقال من الإيمان إلى الكفر يستخدمها أعداء الإسلام الذين لا يؤمنون بأديان ما ، فعندما يترك الشيوعية أحد أتباعها يقولون : لقد حدثت رِدة . وكان من الواجب لو أنهم أصحاب مبادىء أصيلة أن يختاروا لفظاً آخر لكن لا يوجد فى اللغة لفظ يعبر عن الرجوع إلى الباطل إلا كلمة « ردة » وكذلك كلمة « منبر » لا توجد ـ أيضاً ـ إلا فى الإسلام ، وهو موقف الواعظ من المصلين يوم الجمعة . وعندما يأتون إلى تصنيف جماعة متطرفة إلى اليسار فهم يقولون : « منبر اليسار » ونقول : لماذا تأخذون هذه الكلمة من عندنا ؟ .

ومثال آخر عندما يكتب كاتب : هذه الراقصة تتعبد فى محراب الفن . ونقول : لماذا تستخدم كلمة « محراب » ؟ . عليك أن تبحث عن كلمة أخرى . وكل ذلك يدل على أن كلمات الإيمان هى الكلمات المعبرة ولذلك يذهبون إليها .

ويؤخذ فى ظاهر الأمر على الإسلام أن من يرتد يُقتل .

ونقول : أيظن أحد أن هذه ضد الإسلام ؟ لا إنها لصالح الإسلام ؛ لأن الإنسان إذا علم أنه عندما يقبل على الإسلام فهو يقبل على الدين الكامل ؛ لأن من يخرج عليه يهدر دمه ويقتل . وعلى من يفكر فى الدخول إلى الإسلام أن يحتاط لحياته . إذن فالإسلام لا يسهل لأحد الدخول فيه ، ولكنه يصعب عملية الدخول . وينبه كل فرد إلى ضرورة الانتباه قبل الدخول فى الإسلام ؛ لأنه دخول إلى دين كامل وليس لهواً أو لعباً .

إن على من يرغب فى الدخول فى الإسلام أن يفكر جيداً وأن ينتهى إلى الحق ؛

لأن حياته ستكون ثمن الرجوع عن الإسلام وهذا دليل على جدية هذا الدين وعدم السماح بالعبث فى عمليات الدخول فيه . وحين يصعب الإسلام عملية الدخول فيه إنما يعطى فرصة الاختيار ليعلم من يختار الدين الإسلامى أن يعى أن الرجوع عن الإسلام ثمنه الحياة . وساعة يطلب دين أن يفكر الإنسان جيداً قبل أن يدخل فيه فهل فى ذلك خداع أو نصيحة ؟ إنها النصيحة وهى عملية لصالح الإسلام ، وهى أمر علنى ليعلم كل داخل فى الإسلام أن هذا هو الشرط .

ولو أن الإسلام يريد تسهيل المسألة لقال : تعال إلى الإسلام واخرج متى تريد . لكن الدين الحق لا يخدع أحداً . وسبحانه يقول :

﴿ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ ﴾

(من الآية ٤٢ سورة الأنفال)

وتكلمنا من قبل عن الردات التى حدثت فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكن كلمة « سوف » التى جاءت فى قوله : « فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه » تدل على الامتدادية . وقد حدثت ردة فى عهد أبى بكر ـ رضى الله عنه ـ وظهر سبعة ادّعوا النبوة ، مثال ذلك : « بنو فزارة » قوم عيينة بن حصن ارتدوا وأرسل إليهم أبو بكر ـ رضى الله عنه ـ من حاربهم . وكذلك قوم غطفان ارتدوا .

وكذلك قوم قرّة بن هبيهة بن سلمة ، وكذلك بنو سُلَيْم . قوم الفجاءة بن عبد ياليل ، فأرسل لهم أبو بكر من يؤدبهم . وبنو يربوع قوم مالك بن نويرة ، وبعض من بنى تميم الذين ادعت فيهم النبوّة سجاح بنت المنذر والتى تزوجت مسيلمة . وكذلك « كِندة » قوم الأشعث بن قيس ، وكذلك قوم الحُطَم بن ضبيعة وهم بنو بكر بن وائل فى البحرين . وقضى عليهم سيدنا أبو بكر مما جعل كثيراً من القوم يقولون : إن القوم الذين يحبهم الله ويحبون الله وفيهم كل تلك الأوصاف هم أبو بكر ومن معه . ولكن أيمنع ذلك أن كل جماعة سيكون فيها مثل أبى بكر ـ رضى الله عنه ـ ؟ لا . ومثال ذلك على بن أبى طالب ؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يوم خيبر :

عن سلمة بن الأكوع رضى الله عنه قال : كان على رضى الله عنه تخلف عن النبى

صلى الله عليه وسلم في خيبر ، وكان به رمد فقال : أنا أتخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فخرج على فلحق بالنبى صلى الله عليه وسلم فلما كان مساء الليلة التى فتحها في صباحها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لأعطين الراية ـ أو ليأخذنّ ـ غداً رجلٌ يحبه الله ورسوله ، أو قال : يحب الله ورسوله . يفتح الله عليه . فإذا نحن بعليٍّ وما نرجوه ، فقالوا هذا على ، فأعطاه رسول الله صلى الله عليه وسلم ففتح الله عليه »[1] .

وفى عهد سيدنا عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ لم تحدث إلا ردة واحدة ، جاءت من الغساسنة بقيادة جبلة بن الأيهم وهم من الشام وكانوا موالين للروم ، وكان جبلة هو رئيسهم وأسلم وجاء ليطوف بالبيت الحرام بهيلمانٍ كزعيم للغساسنة . وكان لهم العظمة فى الجياد والملابس . وكان يرتدى رداءً طويلاً فوطىء أحد الناس رداءه ؛ فسقط ، فلطمه جبلة ، وأبلغ الرجل عمر بن الخطاب . وقال عمر بن الخطاب : إنه القصاص . وقال سيد الغساسنة : إنى أشترى هذه اللطمة بألف دينار ولم يقبل الرجل فعرض سيد الغساسنة ألفين من الدنانير فرفض الرجل ، فزادها إلى عشرة آلاف ولم يقبل الرجل .

وقال جبلة لعمر : أنظرنى حتى أفكر فى المسألة . فلما أنظره عمر ، هرب الرجل إلى الشام وتنصر . هكذا يتضح لنا آفاق كلمة « سوف » وأى زمن تأخذ ، إن لها امتدادات حتى زماننا .

إن الردة فى زماننا جاءت من فارس ممثلة فى البهائية والبابية ، وهدف المرتد يكون جاه الدنيا ، إن كان يريد الحكم ، ووسيلة المرتد تيسير التكليف لمن يتبعه فى الارتداد . ومن يدعى لنفسه النبوة والقدرة على الإتيان بتشريع جديد إنما يطلب لنفسه جاه الدنيا ، والذى يتبع ذلك المدعى للنبوة إنما يقصد لنفسه تيسير التكليف .

ولماذا تيسير التكليف ؟ ؛ لأن الإنسان مؤمن بفطرته ودليل ذلك أننا إذا واجهنا إنساناً غير مؤمن ، وقلنا له : أنت قليل الدين . يغضب ويثور ؛ لأنه لا يتصور أن ينزع أحد منه أنه متدين بشكل ما . ونرى إنساناً قد يسرف على نفسه كثيراً لكنه

(١) رواه البخارى ـ واللفظ له ـ فى الجهاد وفى فضائل أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ، ورواه مسلم فى فضائل الصحابة ، والترمذى فى المناقب ، وابن ماجه فى المقدمة ، وأحمد ٩٩/١ ، ٨٥ .

ساعة يسمع إنساناً آخر يسب الدين يثور ويغضب ويتحول إلى مدافع عن دين الله ، وتلك هى الفطرة الإيمانية التى فطر الله كل الناس عليها . والذى يجعل الدين أمراً شاقاً على النفس البشرية ليس فطرة الدين ، ولكنه تكليف التدين ؛ لأنه أمر يدخل فى الاختيار . وقد جعل الحق التكليفات الإيمانية كلها فى مناط الاختيار البشرى ، ولم يشأ أن تكون أمراً قهرياً . ولو شاء سبحانه أن يجعل كل الناس مؤمنين لما قدر أحد على الكفر :

﴿لَعَلَّكَ بَـٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ۝ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَـٰقُهُمْ لَهَا خَـٰضِعِينَ ۝﴾

(سورة الشعراء)

فليس فى قدرة أحد أن يتأبى على الله ، ولكنه شاء أن يجعل تكاليف الإيمان مسألة اختيارية . والإنسان حر فى أن يفعل تكاليف الإيمان أو لا يفعلها ، وفى كلتا الحالتين سيلقى الجزاء . مثال ذلك : « اللسان » خلقه الله صالحاً أن يقول : « لا إله إلا الله محمد رسول الله » ، وهذا اللسان نفسه صالح لأن يقول : ـ والعياذ بالله ـ « أنا لا أؤمن بالله » .

ولا يعصى اللسان صاحبه ، فقد خلقه الله مجهزاً للتعبير عن مكنونات قلب الإنسان وخاضعا لإرادة الإنسان . ومثال آخر من مصنوعاتنا نحن : جهاز التليفزيون الذى صممه البشر ليكون آلة منقادة ومسخرة لما يرسله الإنسان فيه من برامج ، فإن أرسل الإنسان فى جهاز التليفزيون أفلاماً وبرامج دينية وعلمية تستكشف آيات الله فى الكون وتثبت قيم الإنسان على الإيمان فهذا اختيار إيمانى . وإن أرسل الإنسان أفلاماً خليعة تحض على المجون والفسق فهذا اختيار يلحق الإنسان بدائرة المفسدين فى الأرض .

إذن فالحق خلق الإنسان صالحاً لتطبيق تكاليف الإيمان وصالحاً للخروج عن التكليف . وحين يأمر الله عباده أن يطبقوا أو ينفذوا التكليف الإيمانى فهو يعلم أن قدرة الإنسان تسع التكليف ؛ لأنه العليم بعباده ، ولو لم يكن باستطاعتهم تنفيذ التكليف لما كلفهم به . وكلنا نعرف الفرق بين « العباد » و« العبيد » ؛ فكل الكائنات عبيد لله ، والإنسان من عبيد الله إن كان متكبراً على التكليف ، وإن خرج

على التكليف فهو مسير فى أمور لا يقدر على الخروج منها ، فلا يستطيع أحد بإرادته أن يتوقف عن التنفس ، وهو ـ كما نعلم ـ أحد العمليات التى تجرى على الرغم من الإنسان .

ولا أحد يستطيع أن يتنفس عندما ينتهى أجله . كذلك لا أحد يستطيع أن يقاوم المرض إن أصابه . إذن فكِبْر الإنسان وخروجه عن طاعة الله فى أشياء لا تعنى أنه خارج فى مطلق أموره عن الله ؛ لأن الحق فعال لما يريد ، فلا أحد يتحكم فى بدايته حين يولد ، ولا أحد يتحكم فى نهايته حين يموت ، وهناك أمور بين قوسَىْ الميلاد والموت ما من أحد بقادر على التحكم فيها ، وإرادة الاختيار إنما توجد فى بعض الأمور فقط . أما كل ما عدا ذلك فهو قهرى ، وكلنا عبيد لله فى ذلك . لكن الحق تعالى أعطى لنا الاختيار فى بقية أمور الحياة .

والذكى حقاً هو من يسأل ربه : لقد خلقتنى يارب مختاراً . وماذا تحب أنت أن أفعل ؟ هنا يجد الإنسان نفسه أمام أوامر الله ونواهيه وأمام المنهج بمطلوباته ، هذا المنهج الذى يوضح للمؤمن ما الذى يمكن أن يفعله وما الذى يمكن أن يتجنبه . ويقول المؤمن : إننى أخرج من اختيارى إلى مرادك يارب . والعبد الذى يتنازل عن اختياره إلى مراد خالقه هو واحد من العباد الذين وصفهم الحق بأنهم عباد الرحمن .

ونرى فى حياتنا العادية نموذجا لما يحدث بين رب الأسرة وأفرادها ، فرب الأسرة يقول لأبنائه : أنتم تريدون التنزه ، فأى مكان تحبون الذهاب إليه ؟

يجيب أحد أفراد الأسرة : لنذهب إلى المكان الفلانى . ويجيب آخر : أنت حر فى أن تصحبنا إلى أى مكان تريد ، المهم فقط أن تكون معنا . ومن المؤكد أن الذى يقول مثل هذا القول لرب الأسرة ينال منزلة رفيعة فى قلبه . فإذا كان هذا يحدث بين إنسان وإنسان مثله فما بالنا بالاستحسان الذى يناله العبد حين يقول ذلك لخالقه الأكرم ؟ لا بد أن ينال منزلة راقية ؛ لأنه قد خرج من دائرة العبيد إلى دائرة العباد الذين قال عنهم الحق :

﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا

﴿ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ۝ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ۝ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ۝ ﴾

(سورة الفرقان)

هؤلاء هم عباد الرحمن الذين يحبهم ويحبونه . أما الذى يتمرد على منهج الله فعليه أن يعرف أنه غير قادر على أن يتمرد على قدر الله . وأراد الحق أن يعطينا مناعة إيمانية حين قال : « من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه » وتتجلى تلك المناعة فى أن المؤمن لا بد أن يلتفت إلى هؤلاء الذين يرتدون عن دين الله بادعاء أنهم أنبياء من بعد محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

إن هذه الآية توضح لنا ما جد وما يجد من أمر هؤلاء المرتدين ، والواحد منهم يعلن : أنا نبى مرسل . ويَجِدُ هذا النبى المزيف من يستمع له ويصدقه ويتبعه ، ولا يجد من يسأله : إن كنتَ نبياً فما معجزتك ؟ لكنه يجد من يصدقون هذا الزيف لهوى فى نفوسهم .

هذا الهوى يتلخص فى أن مثل هذا النبى المزيف يأتى بمنهج ميسر يخدع به أتباعه الذين يخدعون أنفسهم بأن الواحد منهم متدين ، لكنّه يتبع منهاجاً ضالاً . وكثير من الذين ادعوا أنهم أنبياء وأنّه هو المهدى المنتظر لم يسألهم أحد : ما المعجزة الدالة على صدق نبوتكم ؟ لأن النبى المزيف من هؤلاء يلهى الناس بالتخفيف من التكليف .

إننا نجد بعضاً من المثقفين أو الذين يدعون أنهم يعملون عقولهم فى كل شىء يتبعون هؤلاء الدجالين . وقد رأينا منذ أعوام قليلة العجب العجاب ، عندما ادعى أحدهم النبوة . وآمن به واتبعه عدد من الرجال والنساء . وكانت المرأة المتزوجة تدخل على هذا النبى المزيف لتقبله ويقبلها من شفتيها وأمام زوجها . أين نخوة الرجل ـ إذن ـ فى مثل هذا الموقف ؟ إنه التدليس الضال الذى يدعى لنفسه الهداية ، إنّها هداية إلى الجحيم .

وهل تنبع تلك التيارات من الإسلام ؟ لا ، بل تأتى من قوم يبغضون الإسلام ،

ويصطادون الرجل الذى تظهر عليه المواهب والمخايل ، ويقنعونه بأنه يمكن أن يلعب دور النبى المزيف .

مثال ذلك الهندى ميزرا غلام أحمد الذى جاء بالقاديانية . ونعلم أن الإنجليز قد استعمروا الهند لسنوات طويلة ، وكانوا يعتبرونها درة التاج البريطانى . ونعلم أن خصوم الإسلام وعلى رأسهم الاستعمار يحاولون أن ينالوا من الإسلام ؛ لأنهم رأوا أن التمسك بالدين أتاح للمسلمين فتح الأمبراطوريات لا بالسيف ولكن بحماية حق الاعتقاد .

إذا كانت الدعوة قد نشأت فى الجزيرة العربية ؛ فقد امتدت إلى آفاق الأرض . وانهزمت الفرس والروم أمام الذين يحملون راية « لا إله إلا الله محمد رسول الله » . ومن بعد ذلك نجد أن الذين هزموا التتار هم المسلمون ، وكذلك اشتعلت الحروب الصليبية فى حملات متتابعة ، ولكن المقاتلين تحت راية الإسلام أنزلوا بهم الهزيمة الضارية .

إن الذى أرهق الاستعمار من الإسلام طاقة الإيمان والقتال فى سبيله ولذلك جاء ميزرا غلام أحمد وحاول أن يضعف القدرة على الجهاد عند المسلمين ، فقال : لقد جئت لكم لألغى الجهاد من العقيدة الإسلامية . وجرؤ ميزرا غلام أحمد ، وأعلن إلغاء القتال . والحق يقول فى كتابه الكريم :

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ﴾

(من الآية ٢١٦ سورة البقرة)

وسبحانه بقدرته يمهل ولا يهمل . وجاء وباء الكوليرا فى الهند سنة ١٩٠٨ ليقضى على غلام أحمد وينهى وجوده تأكيداً لقوله الحق :

﴿ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥ ﴾

(من الآية ٥٤ سورة المائدة)

وظهر أيضاً فى فارس وهى موطن سلمان الفارسى مَن ادعى لنفسه النبوة ، وكان من الذكاء بحيث حاول التسلل إلى الإسلام ؛ لينقلب عليه من بعد ذلك ، قال الرجل : أنا الباب ومن بعدى سيأتى المهدى .

وعندما سأله الناس : وماذا تحمل من منهج ؟ أجاب : جئت لأخفف عنكم بعض التكاليف ؛ لأن الإسلام صار بتكاليفه لا يناسب العصر . واتبعه أناس ، وثار عليه أناس . ومن اتبعوه ، ذهبوا إليه بغية تخفيف المنهج ، ومن ثاروا عليه كانوا من القوم الذين يحبهم الله ويحبونه ، وجاءوا له بالعلماء يناقشونه ويحاجونه فاعترف بأنه مخطىء وأعلن التوبة فى المسجد الكبير . وعند ذلك تركه الناس .

لكن هذا الرجل وجد من يلتقطه ليعيده إلى ضلاله وتضليله ، التقطه قنصل روسيا فى فارس ، وهيأ له ملجأ ، وأوعز إليه أن يعلن أن توبته إنما كانت هرباً من القتل . واستطاع هذا الباب ، واسمه على محمد الشيرازى أن ينال دعاية واسعة وخاصة بعد أن انضمت إلى دعوته فتاة اسمها « قرة العين » وكانوا يلقبونها بالطاهرة . ووقفت لتخطب خطبة فى الناس . ومن يقرأ تلك الخطبة يعرف إلى أى انحلال كان يدعو ذلك الباب .

وأعلنت هذه المرأة أن الإسلام قد انقضت مدته كدين ، وأن الباب قد اختفى لفترة ، لأنه فى انتظار شرع جديد ، وأن العالم يمر بفترة انتقال ، وصار ينزل المنهج الجديد على الباب . وقالت تلك « الطاهرة » : إنّ التشريع المختص بالمرأة ، والذى جاء إلى الباب هو :

« المرأة زهرة خُلِقَت لتُشَمّ ولتُضَمّ »
« فلا يمنع ولا يُحَدّ شامّها ولا ضامّها »

وما دامت المرأة زهرة إذن فهى تجنَى وتقطَف « وإلى الأحباب تُهْدى وتتحف . . إلى أن تقول فى نهاية خطابها : لا تحجبوا حلائلكم عن أحبابكم (!!)

ومن يرغب فى أن يعرف مسلسل الفضائح الخلقية التى جاءت فى خطاب « قرة العين » تلك فليقرأ كتاب « نقطة الكاف » للباب الكاشانى طبعة لندن صفحة ١٥٤ . هذا ما جاء به الباب من بعد أن أعلن إلغاء الإسلام :

لا تحجبوا حلائلكم عن أحبابكم فإنه الآن لا منع ولا حد ، خذوا حظكم من الحياة ، فإنه ليس بعد الممات شيء . وهذه خلاصة الانحلال الذى جاء به هذا

المدعو بالباب ، لقد أعلن أنه لا حساب ولا يوم آخر ، وأن المرأة عرضها مشاع تضم وتشم . والغريب أن بعضاً من المتزوجين قد اتبعوه . وقالوا عن أنفسهم : إنهم متدينون ، لقد أخذوا ظاهر الأمر واعتبروا الفسوق الذى جاء به هذا الباب وأسموه دينا بعد أن سهل لهم بتعاليمه الفساد ، فأخذوا الانحلال عن التكاليف ، وادعو أن ذلك دين (!!)

هكذا أراد خصوم الإسلام للإسلام . وقنصل روسيا القيصرية هو الذى شجع هذا الرجل وحماه فى عام واحد وستين ومائتين بعد الألف من الهجرة . وبرغم ذلك حكم أهل فارس بإعدامه بعد موجة السخط العارم ، ولم يستطع أن ينقذه أحد ، وتم إعدامه فعلاً . والذين قرأوا أقواله لحظة الإعدام عرفوا كيف أنه تذلل وخضع وبكى . ولو كان مبعوثاً بحق من عند الله لما تذلل وخضع وطلب النجاة . ولامتلأ بالسرور والحبور ؛ لأنه ذاهب إلى الله .

لقد عرف هذا الرجل الدجال إلى أى عقاب سيذهب ؛ لذلك بكى واسترحم . ولما قتل الباب ، أعلن واحد من رجاله وهو ميرزا حسين أن الكتاب الذى جاء به الباب كتاب كاذب ، وكان اسمه « البيان » . وقال ميرزا حسين على : إنه جاء بكتاب اسمه « الأقدس » . كأن المسألة كلها خداع للناس وتبرير الخداع .

ولو رجعنا إلى كتاب يسمونه « بهجة الصدور » لمؤلفه حيدر بن على البهائى لوجدنا كل الانحرافات الممكنة ، فالبهاء يقول : استر ذهبك وذهابك ومذهبك ، أى لا تجعل أحداً يعرف ثروتك ، ولا إلى أى مكان تذهب ولا تقل للناس : إنك بهائى حتى لا يقتلوك . واعتبر البهائيون أن القرآن قد انتهت مدته وأن كتاب « الأقدس » هو كتاب فوق القرآن .

ويقرر كتاب « الأقدس » أن القدس لا بد أن تكون وطناً لليهود وأن موسى سيد الرسل جميعاً . ومما يدلنا على أن ذلك الرجل كان صنيعة الاستعمار والصهيونية ، أنهم أقاموا له حفل تكريم فى بريطانيا ومنحوه وسام الفروسية الإنجليزى ؛ لأنه رجل خدم الاستعمار .

راجع أصله وخرج أحاديثه الدكتور أحمد عمر هاشم نائب رئيس جامعة الأزهر .

فهرست آيات المجلد الخامس

سورة المائدة	الصفحة	سورة المائدة	الصفحة
الآية : ٣٦	٣١١١	الآية : ٤٥	٣١٦٧
الآية : ٣٧	٣١١٣	الآية : ٤٦	٣١٧٠
الآية : ٣٨	٣١١٤	الآية : ٤٧	٣١٧١
الآية : ٣٩	٣١٢٨	الآية : ٤٨	٣١٧٢
الآية : ٤٠	٣١٣٠	الآية : ٤٩	٣١٨٤
الآية : ٤١	٣١٣٢	الآية : ٥٠	٣١٨٨
الآية : ٤٢	٣١٤٥	الآية : ٥١	٣١٩٤
الآية : ٤٣	٣١٥٤	الآية : ٥٢	٣١٩٨
الآية : ٤٤	٣١٥٥	الآية : ٥٣	٣٢٠١
		الآية : ٥٤	٣٢٠٢

ونجد أن شيخنا رشيد رضا الذى نقل لنا تاريخ الإمام محمد عبده يروى قصة لقاء بينه وبين ذلك المدعو « بهاء » فى بيروت ، وحكى الشيخ رشيد عن الإمام محمد عبده أن هذا البهاء كان يأتى للصلوات الخمس ويصلى الجمعة . وعندما سأله عن تلك المسألة المسماة بالبهائية . أجاب بأنها محاولة للتقريب بين الشيعة وأهل السنة . وعندما أمرت الدولة العثمانية بمحاكمة ذلك البهاء توسط قنصل روسيا فاكتفوا بنفيه إلى بغداد . وعاش فترة فيها ثم مات وقام الأمر من بعده لابنه عباس المسمى عبدالبهاء .

لقد كانت البداية برجل سمى نفسه الباب صاحب كتاب البيان وقال فيه : « ملعون مطرود من يدعى أنه جاء بشريعة بعد شريعتى إلا بعد مرور ألف سنة » . وما إن تمر سبع سنوات حتى جاء رجل ثان يسمى نفسه البهاء ، وأعلن أنه جاء بشريعة جديدة ، ويعقد الوصية لابنه المسمى « عبدالبهاء » . ثم يكون الأمر من بعده إلى ابنه المسمى « شوقى أفندى » وكان يقيم بعكّا . هكذا انفضحت أكاذيبهم . ورئيس البهائية الحالى هو يهودى اسمه بترسون .

إذن فالردة عن الإسلام لم تكن نابعة من نفوس المسلمين ولكن مدفوع إليها من خصوم الإسلام الذين يأخذون أى رجل ملحد فيه بعض من الذكاء وينفخون فيه بدعاياتهم حتى يشوهوا دعوة الإسلام . وأقاموا مراكز لمثل هذه الانحرافات فى بلجيكا وأمريكا وانجلترا . وحاولوا النفاذ إلى البلاد الإسلامية لينشروا فيها دعوتهم ومبادئهم . وكانوا يأخذون المرأة كنقطة هجوم على الإسلام . ويتهمون الإسلام بأنه يضع المرأة فى الحريم ، ويحبسها فى خيمة وإلى آخر تلك الدعايات التى تشوه تكريم الإسلام للمرأة .

ومن العجيب أنى سمعت بأذنى من واحدة هى بنت لتلك الحضارة الغربية . تقول : كنت أتمنى أن أكون مسلمة وأمًّا لشاب مسلم .

فعلينا نحن المسلمين ألا ننخدع بتلك الدعايات وتلك المذاهب التى تتسلل من باب تخفيف المنهج والمراد بها قتل قيم الإسلام التى تحمى الإنسان وتحترم مشاعره ؛ لذلك يجب أن ننتبه إلى دعوات المتسللين إلى مجتمعاتنا بغية هدم ديننا : وعلى

الحكومات أن تضرب على أيدى العابثين بدين الله لا أن تترك مسائل الدين لهبّات الأفراد . وكل منا مطالب بأن يرد عن دين الله كل دخيل عليه وكل محاولة لوضع أمور ليست من الدين فى شىء . وجزى الله قضاء مصر خيراً حينما تصدوا لمثل هذه الدعوات ووقفوا دفاعاً عن الإسلام لتبيين وإيضاح كل أمر دخيل عليه ، فدستور الدولة ينص على أن مصر بلد مسلم ، وإن كانت بعض التقنينات فى دور التشريع . وجزى الله قضاة مصر عنا خيراً ، فقد وضحوا تلك المسائل وبينوها . وعرفنا بسلوكهم أن خميرة الإيمان هى التى تحكم سلوك المسلم الحق ، وإن تخلت عنه بعض القوانين التى عليه أن يحكم بها .

وكلما حدث حادث من تلك الحوادث لنا أن نتذكر القول الصدق من الله :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾

(من الآية ٥٤ سورة المائدة)

وكل هذه الحركات المناوئة للإسلام تنتهى ويبقى الإسلام قوياً بأبنائه الذين يحبهم الله ويحبونه . هؤلاء الذين وصفهم الحق :

﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ﴾

(من الآية ٥٤ سورة المائدة)

ويذيل الحق سبحانه هذا القول الكريم :

﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾

(من الآية ٥٤ سورة المائدة)

نعم إنه فضل من الله ؛ لأنهم ما داموا يحبهم الله ويحبون الله وهم أذلة على المؤمنين وأعزة على الكافرين فقد جعلهم سبحانه حملة لواء منهجه لتكون كلمة الله هى العليا . وذلك تفضل من الله . ولنعلم أن الخير لا يعود منا على الله ؛ لأنه سبحانه هو واهب كل خير ، ولم يأت لنا الخير من بعد خلقنا ، ولكن نحن الذين طرأنا على الخير ، نحن طرأنا على الأرض ، وعلى السماء بما فيهما من كل كنوز الخير ،

ففى الأرض العناصر والمعادن والقوت ، وفى السماء الشمس والقمر والنجوم ، وكل ذلك فضل الخالق على المخلوق .

إن فضل الله يؤتيه سبحانه وتعالى من يشاء وتتسع قدرته لكل مطلوب ؛ لذلك لا يمن المؤمن على الله بإيمانه ، فليس عند الله أزمة فى الذين يؤمنون به ، وهو قادر على أن يأتى بقوم يحملون دعوته ، فإذا ما ارتفعت رأس الباطل فهذا دليل على أن قطافها قد حان ؛ لأن الزبد يذهب جفاء وما ينفع الناس يمكث فى الأرض .

فكأن الله حين يندب المؤمنين لمهمة إيمانية فلا يقال : إن المؤمنين إنما يفعلون ذلك لمصلحة ربهم . لا ، ولكن ذلك فضل من الله على المؤمنين حين يختارهم لمهمة حمل البلاغ عن الله ، ويعود الخير إلى المؤمنين ثمرة مضاعفة . إذن فحين يكون اختيار الله للمؤمن لمهمة إيمانية فهذا فضل من الله على المؤمن . ونعرف أن الفضل هو الأمر الزائد عن العدل فالحق سبحانه وتعالى قد قال :

﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾

(سورة يونس)

وكل تكليف من الحق للخلق هو فضل من الله ؛ لأنك إن نظرت إلى كل تكليف من الحق للخلق لوجدت أن التكليف إنما يعود لصالح الخلق وما دامت الفائدة من التكليف تعود إلى الخلق فليس من المطلوب إذن أن يثاب الخلق المؤمنون المكلفون ، لكن الله يأبى أن يكلف خلقه بتكاليف ويذهبون إلى هذه التكاليف بطاعة ومحبة دون أن يجازيهم على ذلك بحسن الثواب . ولهذا نجد الحق يقول :

﴿قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾

(من الآية ١٧ سورة الحجرات)

المنّة إذن لله حين تفضل على الخلق الذين أطاعوه بحسن حياتهم فى إطار تكاليفه الإيمانية ، وفوق ذلك هناك الثواب ، وهذا هو عين التفضل من الحق على الخلق المؤمنين :

﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾

(سورة يونس)

وساعة نسمع « بفضل الله » فلنعلم أن فضل الله لا حدود له . وقد نجد من يقول : ولكن الحق سبحانه وتعالى قال :

﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ﴾

(سورة النجم)

ونقول : لنفترض أن إنساناً مات ، ونجد الأمر من الخالق سبحانه وتعالى بأن نصلى عليه ؛ لندعو له بالرحمة . ودعاؤنا للميت بالرحمة يأتى له بخير أكثر مما فعل هو فى حياته ، ولولا أن صلاتنا على الميت تثيب الميت وتثيبنا فى آن واحد لولا ذلك ما أمرنا الحق بأداء هذه الصلاة .

وقد يقول قائل : هذا الخير الذى يأتى إلى الميت من دعاء المصلين عليه ليس من سعى الميت .

ونقول : إن « اللام » فى قوله الحق :

﴿ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾

(من الآية ٣٩ سورة النجم)

هذه اللام تفيد الاستحقاق والملكية . وهو قول كريم يحدد العدل ولا يحدد الفضل . ونضرب مثلاً من حياتنا نحن البشر ـ ولله المثل الأعلى ـ تجد السيد يقول للخادم عنده : إن لك أجراً عندى يساوى مائة جنيه . ثم يجىء السيد فى آخر الشهر ويقول للخادم : خذ مائة وخمسين جنيهاً . العدل إذن هو أن يأخذ الخادم أجره وهو مائة جنيه ، ولكن الخمسين جنيهاً الزائدة هى الفضل الزائد عن الأجر .

إننا حين يأمرنا الحق سبحانه وتعالى بأن نصلى على الميت فهذا تفضل من الله على الميت وعلينا أيضاً . هذا لون من تفضل الله على خلقه . وسبحانه يجازى كل إنسان بما عمل ويمنحه فوق ذلك ، ومن قصّر فى شىء من العمل . ويصلى عليه الناس ويدعون له بالرحمة فتفيض رحمة الله على العبد وعلى غيره من العباد . وهذا هو مناط قول الحق :

﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ (سورة يونس)

وعندما نحقق فى هذا الموقف وحده نجد أن الجزاء يكون أفضل من العمل . وما الذى يجعل المؤمن يصلى على ميت مؤمن ؟. إنه إيمان هذا الذى مات وإيمان من مات ملك له ، وعلى ذلك فملكية المؤمن لإيمانه تمتد بعد أن يموت لتشمل صلوات ودعاء من صلوا عليه .

وذلك يدخل فى فضل الله :

﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾

(من الآية ٥٤ سورة المائدة)

وما دامت المسألة فضلاً من الله يشمل كل مؤمن فلا بد أن الحق عنده من السعة ما يعطى الكل . وسبحانه واسع عليم . والحديث القدسى يقول : « يا عبادى ، لو أن أولكم وآخركم ، وإنسكم وجنكم ، قاموا فى صعيد واحد فسألونى فأعطيت كل إنسان مسألته ، ما نقص ذلك مما عندى إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر . يا عبادى ، إنما هى أعمالكم أحصيها لكم ، ثم أوفيكم إياها ، فمن وجد خيراً فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومنّ إلا نفسه »[1] .

إذن فخزائن الله ملأى لا تنفد . وسعة الحق مطلقة .

ولهذا نحن أيضاً نجد أن الحب فى الله يزداد دائماً ، فساعة نشاهد اثنين يتحابان فى الله ، فحبهما يزداد كل يوم ؛ لأنه الحب فى الله . أما إن كان الحب لأمر محدود فذلك الحب ينتهى ويترك كل منهما الآخر بانتهاء السبب لذلك الحب .

ولنأخذ قضية واضحة أمامنا : من كان يحب فى الله فالحب لغير المحدود لا حدود له . ومن كان يحب فى غير الله ، فالحب هنا لمحدود ويرتبط طردا وعكسا بمدى الإثراء من هذا المحدود . ومن يحب لغرض من أغراض الدنيا يقيس ما يعطيه لمن يحب ، فإن زاد ما يعطيه على ما يأخذه يحس بالخسارة . وعندما نتبادل الحب فى الله فلا شيء ينقص عند الله أبداً ؛ لأنه سبحانه يعطى الاثنين معاً اللذين يتحابان فيه . وسبحانه العليم أزلاً ، وصاحب القدرة الذى يعطى كل إنسان المناط الذى يستحقه .

---

(١) رواه مسلم فى باب تحريم الظلم ، والترمذى ، وابن ماجه .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ۝٥٥ ﴾

وحين نهانا الحق عن أن نتخذ اليهود والنصارى أولياء فعلينا أن نأخذ بالقياس أن النهى إنما يشمل كل خصوم ديننا ، فلا نتخذ أياً من أعداء الدين ولياً لنا ؛ لأنه سبحانه وتعالى لم يتركنا بغير ولاية ، وهو ولينا وكذلك الرسول صلى الله عليه وسلم والذين آمنوا .

إذا أردنا المقارنة بين ولاية الله وولاية أعداء الله فلنعرف أن كل عدو لله له قدرة محدودة لأنه من البشر . أما ولاية الله لنا فلها مطلق القدرة . وأى عدو له قد يتظاهر لنا بالولاية نفاقاً . أما ولاية الله لنا فلا نفاق فيها لأنه لا قوة أعلى منه . وإن كان الحق قد منعنا أن نتخذ من أعدائه أولياء فذلك ليحررنا من الولاية المحدودة ليعطينا الولاية التى لا تتغير وهى ولايته سبحانه وتعالى : « إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا » وهكذا يكون التعويض فى الولاية أكبر من كل تصور . وساعة نرى « إنما » فلنعرف أن هناك ما نسميه « القصر » أو « الحصر » .

مثال ذلك نقول : « إنما الكريم زيد » : كأن القائل قد استقرأ آراء الناس ولم يجد كريماً إلا زيداً ، وكأنه يقول : « زيد كريم وغير زيد ليس بكريم » واختصر الجملتين فى جملة واحدة بقوله : « إنما الكريم زيد » وأثبت بهذا القول الكرم لزيد ونفاه عن غيره . أما إن قال القائل : « زيد كريم » فهذا القول لا يمنع أن يكون غيره من الكرماء .

إن الحق سبحانه يحصر الولاية فى قوله : « إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا » وهو قد نهانا من قبل عن ولاية أهل الكتاب ، وعن ولاية كل من لا توجد عنده مودة أو محبة تعين المؤمن على مهمته الإيمانية . فلو كان عند أحد من أهل الكتاب أو الملاحدة محبّة ومودّة تُعين المؤمن على أداء مهمته لما بقى هذا الإنسان على منهجه

المحرّف أو على إلحاده ، بل إن ذلك سيجعله يذهب إلى الإيمان برسالة الإسلام .

إننا نجد بقاء الكافر على كفره أو إلحاده أو عدم إيمانه برسالة محمد صلى الله عليه وسلم دليلا على أنه لم يستطع الوصول إلى الهداية أو أنه ـ إن كان من أهل الكتاب ـ لم يستطع أن يكون مأموناً على الكتاب الذى نزل إلى نبيّه وفيه البشارة بمحمد صلى الله عليه وسلم فكيف ـ إذن ـ يعين إنسان مثل هذا إنساناً مسلماً ؟ . إنه لا يستطيع أن يعين ولا أن يوالى ولا أن يكون على هداية ؛ لأنه لم يستطع أن يهدى نفسه . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : « لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم ، وقولوا آمنّا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إليكم » .

لأن الذى لا يستطيع أن يهدى نفسه لن يستطيع هداية غيره .

وحين نهانا النبى صلى الله عليه وسلم عن سؤال أهل الكتاب كان يعلم أنهم فى ريب من أنفسهم ، وفى ضلال وخلط ، فهم إما يخلطون الحق بالباطل ، وإما فى غيظ من الذين آمنوا ؛ لذلك نهانا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نسألهم ، وهذا هو الاحتياط للدين ، فقد يسألهم المؤمن سؤالاً ، فيجيبون بصدق ، فيكذبهم المسلم ، وقد يجيبون بكذب فيصدقهم المسلم ؛ لذلك لا يصح ولا يستقيم أن يسألهم المسلم أبداً عن شىء ؛ لأنه عرضة لأمر من اثنين : إما أن يصدق بباطل ، وإما أن يكذب بحق . وأهل الكتاب أنفسهم قد تضاربوا ، ألم يقل الحق على ألسنتهم :

﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ ﴾

(من الآية ١١٣ سورة البقرة)

وكذلك قالت النصارى :

﴿ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ ﴾

(من الآية ١١٣ سورة البقرة)

إذن فأى الموقفين نصدق ؟ أنصدق رأى اليهود فى النصارى ؟ أم نصدق رأى النصارى فى اليهود ؟ ولا نستطيع أن نكذب رأى اليهود فى النصارى ، ولا نستطيع

أن نكذب رأى النصارى فى اليهود ، إذن فحين يقول الحق سبحانه : « إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا » فعلينا أن نفهم أنه سبحانه وتعالى ما دام قد نهاكم عن أن تتخذوا أولياء من دون الله فلن يترككم أيها المؤمنون دون ولى . بل منعكم فقط من ولاية من لا يمكن أن يكون صادقاً فى معونتكم ولا فى نصرتكم .

لقد أراد سبحانه أن يكون هو بطلاقة قدرته وليكم ، ورسول الله أيضاً وليكم ، وكذلك الذين آمنوا . ونجد من يقول : الحق هنا قد عدد الولاية فيه سبحانه وتعالى وفى الرسول صلى الله عليه وسلم وفى المؤمنين ، لماذا لم يقل - إذن - : أولياؤكم هم الله والرسول والذين آمنوا ؟

ونقول : هل كانت للرسول ولاية منفصلة عن ولاية الله والمؤمنين ؟ وهل كانت للمؤمنين ولاية منفصلة عن ولاية الله والرسول ؟ . لا ؛ لأن الولاية كلها منصبة لله ، فلم يعزل الحق الرسول عن ربه ، ولا عزل المؤمنين عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولم يقسم الولاية إلى أجزاء ، بل كلها ولاية واحدة وأمر واحد ، ونلحظ أن الخطاب فى « كاف الخطاب » هو للجمع : « إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا » ، و« كاف » الخطاب هنا تضم المؤمنين ومعهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فالله سبحانه وتعالى ولى الرسول وولى المؤمنين ، والرسول ولى المؤمنين . وجاء فى المؤمنين قول الحق :

﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾

(من الآية ٧١ سورة التوبة)

كم درجة من الولاية هنا إذن ؟ الله ولى الرسول وولى المؤمنين . ذلك أنه سبحانه شاء بفضله ألا يعزل الولاية أو يقسمها بل جعلها ولاية واحدة ، والرسول صلى الله عليه وسلم ولى المؤمنين ، والمؤمنون بعضهم أولياء بعض ؛ لذلك نجد أن كل مؤمن مطلوب منه معونة ونصرة أخيه المؤمن .

إن الإنسان - كما نعلم - ابن أغيار ، وما دام الإنسان ابناً للأغيار فعلينا أن نعرف أن المؤمنين لن يظلوا كلهم فى حالة توجيه النصيحة . ولن يظلوا جميعهم فى حالة تلقى للنصيحة . وكل واحد منهم يكون مرة ناصحاً ومرة يكون منصوحاً ، فساعة يصيب

الضعف مؤمناً فى جزء من المنهج يجد أخاه المؤمن قد هبّ لنصحه ليعتدل . وساعة يصيب الضعف الناصح فى جزء من منهجه فالمنصوح السابق يهب لنصح أخيه ليعتدل . والذى خلق الخلق وهو أعلم بهم ، ويعلم كيف تستوعب الأغيار الخلق ، وكيف أن كل إنسان له خواطره وله ظنونه وله مواقف ضعف وله مواقف قوة . إنه ـ سبحانه ـ لم يطلب من الناس أن يوصوا بالخير فحسب ولكنه قال :

﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾

(من الآية ٣ سورة العصر)

لماذا إذن التواصى بالحق ؟؛ لأن سبل الحق شاقة ، ولأن أصحاب الحق يلاقون المتاعب من أصحاب الباطل ؛ لذلك لابد أن يؤازر أصحاب الحق بعضهم بعضاً فيقول الإنسان من أهل الحق لأخيه ما يساعده على التمسك بما هو أعز من الراحة والصحة والمال . ولا بد أن نجعل الحق واضحاً فى حياتنا وسلوكنا ، وأن يتذاكر أهل الحق بما حدث لغيرهم وكيف صبروا ، هكذا يكون التواصى بين المؤمنين .

وتلك هى ولاية المؤمنين بعضهم لبعض : (والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض) .

إذن فقوله الحق : « إنما وليكم الله » هو ما يسمونه فى اللغة « أسلوب الحصر » ، أى لاولى لكم غير الله . وحين يُرَدّ الإنسان من الولاية المحدودة القدرة ويجعل العوض له فى غير محدود القدرة فذلك كسب كبير للعبد ، ولذلك يقول صلى الله عليه وسلم : « من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب الآخرة ، ومَن ستر على مسلم ستره الله فى الدنيا والآخرة ، والله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه »[1] .

كيف تكون أنت أيها العبد فى عون أخيك ؟ يتحقق لك ذلك عن طريق أن تقدم لأخيك المؤمن المعونة والنصرة والمؤازرة والتواصى . وتقدم لأخيك من وقتك وطاقتك وقدرتك ومالك ما يعينه . وإياك أن تحسب المسألة بأنك كنت تستطيع أن تفعل كذا وكذا فى الوقت الذى أعطيته لأخيك المؤمن ، بل يجب أن تحسبها بأن الله هو الذى

(١) رواه الترمذى فى الحدود ، وأبوداود فى الأدب ، وابن ماجه فى المقدمة وأحمد ٢٥٢/٢ ، ٤١٤ .

أعطاك الوقت والمال والجهد وأنت لا تفعل شيئاً بقدرتك أنت ، وأن قدرتك المحدودة عندما تعطى بعضاً منها لأخيك فأنت تصل قوتك المحدودة بصاحب القوة غير المحدودة وهو الله . وبذلك يكون الله فى عونك وتكون أنت الأكثر كسباً . فمن يرد الله بجانبه فلا بد أن يكون مع الخلق دائماً بالمعونة ، وبهذا السلوك يرتقى المؤمن إلى أعلى درجات الذكاء .

« إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا » وسبحانه يريد أن يبين لنا مميزات أصحاب الإيمان ؛ لأننا حين نتعرف على شعب الإيمان وصفاته الجميلة إنما نميز بهذه الصفات المؤمنين من غيرهم . وإقامة الصلاة هى الصفة الغالبة فى وصف الذين يؤمنون بالله ؛ لأن الصلاة هى الصلة المتجددة بإعلان الولاء لله خمس مرات فى كل يوم . والنبى صلى الله عليه وسلم قال :

« بُنى الإسلام على خمس ؛ شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت »[1] .

وهذه الأركان الخمسة هى الدعائم والأسس التى تقام عليها عمارة الإسلام . وأى بيت لا يقوم بالأسس وحدها ، ولكن هناك أشياء أخرى كثيرة وعشرات الفضائل والمطلوبات غير الأسس ، وإذا ما راجع كل واحد منا علاقته بأسس الإسلام فلسوف يجد أنه يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله مرة واحدة فى العمر ، ومن بعد ذلك يقيم الصلاة . ثم يؤتى الزكاة ، لكن إن كان فقيراً فهو معفًى من أداء الزكاة . وحتى الذى يؤدى الزكاة فهو يؤديها فى وقت واحد فى السنة . ومن بعد ذلك يصوم رمضان . لكن المريض أو المسافر أو الذى له عذر فهو يفطر ويقضى الصوم ؛ ويفدى عن الصيام المريض الذى لا يرجى شفاؤه والعجوز الذى تصيبه بالصوم مشقة شديدة . ومن يحج البيت يفعل ذلك مرة واحدة فى العمر إن استطاع إلى ذلك سبيلا .

هذه هى أركان الإسلام ، وفيها إعفاءات كثيرة للمسلم . اللهم إلا الصلاة فهى أساس يتكرر ولذلك يقول صلى الله عليه وسلم : « رأس الأمر كله الإسلام وعموده الصلاة »[2] .

---

(١) رواه البخارى ومسلم فى الإيمان وأحمد ٢/٢٦ ، ٩٣ والحميدى والطبرانى .

(٢) رواه الترمذى فى الإيمان ورواه أحمد .

ويقول صلى الله عليه وسلم : « بين الرجل وبين الشرك والكفر ترك الصلاة »[١] .

ويقول صلى الله عليه وسلم : « إن العهد الذى بيننا وبينهم الصلاة ، فمن تركها فقد كفر »[٢] .

لذلك لا تسقط أبداً ، فنحن نصلى ونحن قيام ، ونصلى ونحن قعود ، ونصلى ونحن على جنوبنا . ونصلى ونحن غير قادرين على أية حركة ، نصلى بالإيماء . ومن لا يقدر على هز رأسه بحركات الصلاة فى أثناء المرض الشديد فهو يصلى بعينيه . ومن أصابه ـ والعياذ بالله ـ شلل جعله لا يقدر على تحريك جفنيه بحركات الصلاة فهو يصلى بالخواطر وبالوعى أى يجرى أركان الصلاة على قلبه. أما من ذهب عنه الوعى فقد سقطت عنه الصلاة .

ولذلك يقول الحق : « والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة » ويقول بعد ذلك : « ويؤتون الزكاة » ؛ لأن إيتاء الزكاة معناه تقوية أثر حركتك لغيرك وتعدية أثر هذه الحركة للضعيف عنك ، وحينما تزكى إنما تعطى مالاً ، والمال هو ناتج من أثر حركتك فى الوجود ، وعطاؤك من مالك بالزكاة يدل أيضاً على الإيمان . ثم يذيل الحق الآية بقوله : « وهم راكعون » . وهل الركوع هنا بمعنى الركوع فى الصلاة ؟ أو بمعنى الخضوع لكل تكاليف منهج الله ؟ أو أنها نزلت هنا فى مناسبة خاصة لحالة خاصة ؟

هناك رواية تقول : إن عبدالله بن سلام جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : إن قوماً من قريظة والنضير قد هجرونا وفارقونا وأقسموا ألا يجالسونا ولا نستطيع مجالسة أصحابك لبعد المنازل . وشكا عبدالله مما يلقاه من اليهود ، فنزلت تلك الآية :

﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ

(١) رواه مسلم وأبوداود والترمذى وابن ماجه عن جابر .

(٢) رواه أحمد وأبوداود عن حذيفة .

وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴿٥٥﴾

(سورة المائدة)

فقال بن سلام : رضينا بالله وبرسوله وبالمؤمنين أولياء . وتزيد الرواية فى موقع آخر : وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المسجد والناس بين قائم وراكع ودخل إنسان إلى المسجد وسأل الصدقة فلم يعطه أحد فقال الرجل : أشهد الله أنى جئت إلى مسجد رسول الله وطلبت الصدقة وما أعطانى أحد شيئاً ، وسمعه على ابن أبى طالب ـ كرم الله وجهه وكان يصلى ـ فمد على يده بحيث يراها الرجل وأشار له أن يأخذ من يده الخاتم كصدقة ، فأخذه الرجل . وسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم السائل فقال : هل أعطاك أحد شيئاً . فأجاب الرجل نعم خاتما ، وأشار إلى على بن أبى طالب . وهنا نزلت الآية بتمامها :

﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴿٥٥﴾

(سورة المائدة)

وأياً كانت المناسبة التى نزلت فيها الآية ، فالركوع معناه الخضوع ، والخضوع يكون لكل تكاليف منهج الله . فإذا كنا نقول : فلان ركع لفلان فهذا معناه أن فلاناً قد خضع لفلان .

ومن بعد ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٥٦﴾

ونلحظ أن الحق أوضح فى الآية السابقة : إن الله هو الولى ، وهنا تكون أنت أيها العبد المؤمن من الذين يتولاهم الله ، تماماً مثل قوله : (يحبهم ويحبونه) .

وحين يكون الله فى معونتك فهو يعطيك من قدرته غيرالمحدودة فكيف تتولى أنت الله ؟ ويكون القول الحاسم فى هذا الأمر هو قول الحق :

﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾

(من الآية ٧ سورة محمد)

والحق فى الآية التى نحن بصددها جاء بالمقابل لما جاء فى الآية السابقة عليها فهو القائل من قبل : (إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا) .

وفى هذه الآية يأتى بالمقابل فيقول سبحانه :

﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾﴾

(سورة المائدة)

هذه المقابلة توضح لنا كيف ينصر الله العبد ، وكيف ينتصر العبد لله . ولم يقل سبحانه فى وصف من يتولى الله ورسوله والذين آمنوا : إنهم الغالبون فقط ، ولكنه أورد هذه الغلبة فى معنى عام فقال : « فإن حزب الله هم الغالبون » .

وكلمة « حزب » معناها : جماعة التف بعضهم مع بعض على منهج يرون فيه الخير. ولا يمكن أن يجتمع قوم بقوة كل فرد فيهم بفكر كل فرد منهم إلا إذا كان هذا الأمر هو خيراً اجتمعوا عليه ، إذن فحزب الله فى أى وضع وفى أى تكوين ولأيَّةِ غايةٍ هو الحزب الغالب . وعلى المستوى الفردى نجد فى سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كان النبى صلى الله عليه وسلم إذا حَزَبه أمر قام إلى الصلاة »[1] .

فما معنى حَزَبه هنا ؟ معناه أمر أتعبه وأرهقه وفكر فيه كثيراً . وبذلك يعلمنا رسول الله ألا نقصر رؤيتنا على رأينا وحده ، ولكن لنلجأ إلى الله . فنهزم الأمر الذى يحزبنا ولا نقدر عليه بأن نقيم مع الله حزباً بالصلاة .

إننا عندما نأخذ من سنة رسول الله المثل والقدوة نعرف أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن يحزبُه أمر يتعلق بدنياه وإنما أمر يتعلق بمنهج الله وبالدين ؛ لذلك

(١) رواه أحمد وأبو داود عن حذيفة .

يذهب رسول الله إلى من يعطيه ويعطى أهل الإيمان كل الطاقة . إنّه يذهب إلى الصلاة . ويعلن أن أسبابه قد انتهت ولم يعد يقوى على تحمل هذا الأمر الذى حَزَبَهُ ، ولأن الله لا يغلبه شىء ؛ لذلك فسبحانه يرفع الهمَّ عن رسوله صلى الله عليه وسلم ، ويغلب كل أمر صعب . وإن حَزَبَنا هذا الأمر فى نفوسنا فسنجد العجب .

إذن فحين تعز الأسباب على المؤمن فى أمر ما ويكون قد أعطى كل جهده ومازال هذا الأمر يحزب المؤمن ويشتد عليه ويرهقه فعلى المؤمن أن يقوم إلى الصلاة ، وييسر الحق هذا الأمر للمؤمن بالخير . والمؤمن عندما يحزبه أمر ما إنما يذهب بالصلاة إلى المسبب وهو الله ، لكن على المسلم ألا يذهب إلى الله إلا بعد أن يستنفد كل الأسباب ، فالأسباب إنما هى يد الله الممدودة ، ولا يمكن للمؤمن أن يرفض يد الله ويطلب ذات الله ، فإن انتهى الأخذ بالأسباب فليذهب إلى المسبب :

﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾

(سورة النمل)

وسبحانه الذى يجيب المضطر وهو الذى يكشف السوء وهو الذى جعل البشر خلفاء فى الأرض ، وسبحانه لا شريك له فى ملكه ، وهو القائل :

﴿ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾

(سورة النمل)

وإذا قال قائل : ولكنى أدعو الله ولا يستجيب لى . ونقول : أنت لم تدع دعوة المضطر ؛ لأنك لم تستنفد الأسباب . وعليك أن تستنفد الأسباب كلها . فإن استنفدت الأسباب فالحق يجيبك ما دمت مضطراً .

إذن فحزب الله عندما يَغْلِب إنما يعطينا قضية مكونة من « إن المؤكِّدة واسمها وخبرها » وهذه قضية قرآنية وهى تختلف عن القضية الكونية التى تصف واقع الحياة . ويقول الحق :

﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾﴾

(سورة المائدة)

وسبحانه يعلم ما يكون فى كونه ، ولن تختلف قضية القرآن عن قضية واقع الكون . وساعة تجد قوماً تجمعوا وفى صورتهم الرسمية الشكلية أنهم رجال الله ، ولا يَغْلِبُون فعلينا أن نعرف أنهم خدعوا أنفسهم وخدعوا الناس بأنهم حزب الله وواقع الحال أنهم ليسوا كذلك ؛ لأنه سبحانه قال :

﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾

(سورة الصافات)

وهذه قضية قرآنية . ونأخذ الأمر دائماً بسؤال : هل غلبت أم لم تغلب ؟ فإن كنت قد غلبت فإن جنديتك لله صادقة . وإن لم تكن فأنت تخدع نفسك بأنها جنديّة لله وهى ليست كذلك . ولنا المثل الواضح من حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما كان بين صحابته فى موقعة أُحُد وأمر الرُّماة أن يقفوا موقفاً خاصاً ، فلما وجد الرّماة استهلال نصر المؤمنين على الكافرين ، وأن الذين يحاربون أسفلهم يأخذون الغنائم ، ذهبوا هم أيضاً إلى الغنائم وخالفوا أمر الرسول حينما قال لهم : « إذا رأيتمونا تخطفنا الطير فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم ، وإن رأيتمونا هَزَمْنا القوم فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم »[1] .

فلما خالفوا أمر رسول الله أكانوا جُنوداً لله بحق ؟ لا ، بل اختلت جُنديتهم لله . ولم يمنع وجود رسول الله فيهم سُنّة الله الإيمانية فى كونه ألا تقع ، ولو ظلوا مُنتصرين على الرغم مّن أنهم خالفوا الرسول لهان أمر رسول الله فى نظرهم ؛ لذلك أراد الحق أن يُوقِع بهم ألم الهزيمة المؤقتة من أجل أن يتأدبوا ، وحتى يَعضوا على أمر سيدهم وسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالنّواجذ . وقد أورد الحق ذلك الأمر ورسول الله فيهم من أجل مصلحة الإسلام ، فلو نصرهم على الرغم من مخالفتهم لرسول الله لجرأهم ذلك على أن يخالفوا .

---

(١) رواه ابن إسحق فى السيرة .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾

والهُزُوُ هو السُّخرية والتَّنكيت . وهُزْء أهل الكتاب من أهل الحق لون من الانفعال العكسى . فساعة يرى بعض من أهل الباطل واحداً ملتزماً يُصلّى ولا يُحملق فى النساء قد يصفونه بصفات غير لائقة ؛ لأنهم لا يستقبلون التزامه إلا بلونٍ من السخرية ، وحتى لا يفهم أنه خيرٌ منهم ، وقد يضلونه فيتبعهم .

ولنفرض أن ثلاثة من الشباب جمعت بينهم الصداقة ثم انحرف منهم اثنان والْتزم واحد منهم . وكان لأحد المنحرفين أخت فيطلب زميله المنحرف يد هذه الأخت ، ويأتى له الصاحب الذى لم ينحرف ليطلب الأخت نفسها ، هنا نجد الأخ لا يوافق على زواج أخته بالمنحرف ، بل يوافق على زواجها من الذى لم ينحرف ؛ لأنه لن يخدع نفسه . وعندما يعاتبه المنحرف فهو يرد عليه : وهل أستأمنك على أختى ؟ أنا أعرفك حق المعرفة .

وهكذا نرى أن القيم هى القيم . وعندما يكون هناك إنسان على حق ويلتقى بأناس على باطل نجدهم لا يتركونه وشأنه ، ولأنهم لن يستطيعوا أن يكونوا مثله فلا أقل من أن يهزأوا منه حتى يحتفظوا لأنفسهم بفسادهم . وعندما ننظر إلى العادات الضَّارة التى تنتشر ، مثل شمّ الهيروين أو تدخين المخدرات نجد أن الذى وقع فى مصيدة هذه المصائب يريد أن يجر غيره إلى مثل هذا المستنقع . ونجد فى القرآن ما يقوله لنا خالق الطباع والعليم بها :

إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾

(سورة المطففين)

مثل قول أهل الباطل للمؤمن : احملنا إلى الجنة على جناحك . أو : أتريد أن تكون ولياً .

﴿ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ ﴾

(سورة المطففين)

ويرجع الواحد منهم إلى أهله فيحكى بسرور : لقد قابلنا إنساناً غارقاً فى الإيمان وسخرنا منه :

﴿ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرْسِلُواْ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾

(سورة المطففين)

بل قد نجد أن أهل الإضلال يتهمون المؤمن بأنه على ضلال ، فماذا يكون العقاب يوم الحشر ؟

﴿ فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾

(سورة المطففين)

وكأن الحق يسأل المؤمنين : ألم آخذ لكم حقكم ؟ إذن فالذين يتخذون الدين هُزُواً ولعباً . وادعوا الإيمان نفاقاً . إياكم أن تأمنوا لهم .

ولقد حذرنا الحق بداية :

﴿ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾

(من الآية ٥١ سورة المائدة)

وهنا أمر بعدم اتخاذ الذين يتخذون الدين مادة للهزء أولياء ، وعلى المؤمنين اليقظة

والحذر ؛ لأن الحق يقول : « واتقوا الله إن كنتم مؤمنين » فإن كنتم مؤمنين حقاً فعليكم الأخذ بيقظة الإيمان ، عليكم ألا توالوا اليهود والنصارى وكذلك من يتمسح فى الإيمان نفاقاً ويريد الانتفاع بمزايا الإسلام ليأخذ حقوقه الظاهرية وقلبه مع غير المؤمنين .وتقوى الله تبدأ من أن ينفذ المؤمن المنهج ، ويحاول أن يستبقى للمنهج مناعة اقتداره أمام خصومه بألا يُدخل المؤمنُ فى حماية المنهج من لا يؤمن من اليهود والنصارى والكافرين والمنافقين .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾

والنداء هو دعوة بجهر . ومقابل النداء المناجاة . وتثبت هذه الآية أن الأذان مشروع بالقرآن ، وفى ذلك رد على الذين يقولون : إن الأذان قد شرع بالسنة . أو أن القرآن بهذه الآية قد أقر تشريع الأذان .

«وإذا ناديتم إلى الصلاة اتخذوها هزواً ولعباً » ذلك أنهم كانوا يقولون عن الأذان : لقد صاحوا صياح الحمير . ووصفهم الحق بقوله : « ذلك بأنهم قوم لا يعقلون » والعقل ـ كما نعلم ـ هو الأداة التى تؤدى مهمة الاختيار ما بين البدائل ؛ أى أن يختار الصالح من الأمور فيدرس مزايا كل أمر ومضاره ويختار الأمر الرابح .

إن الهوى هو الذى يدفع العقل إلى أن يختار أمراً مخالفاً . فيجنح بالعقل إلى الضلال . وآفة الرأى الهوى . ولا يميل الإنسان عن جادة الصواب إلا إذا أراد أن يخدم هواه . ولذلك لا بد أن يكبح المؤمن جماح هواه بعقله ، والعقل مأخوذ من عقال البعير ، فصاحب الجمل يقيد ساقه بقطعة من الحبل حتى لا يجمح . ويحتاج الإنسان إلى العقل ليكبح جماح الهوى ، ولينقذ الإنسان من الضلال لا أن يبرر

الهوى . والذين يريدون العقل تحرراً من الفكر نقول لهم : أنتم لا تفهمون معنى كلمة العقل . فقد جاءت كلمة العقل لتمنع الهوى لا ليجترىء الإنسان بهواه على رأيه وسلوكه المستقيم ، والعقل هو الذى يمنع الفكر من أن يكون مبرراً للهوى .

فلو كانوا يعقلون لقلنا لهم : إن الأعمال التى تنادون بها عمر نفعها مظنون وقد تنفعكم فى دنياكم ، وعمر الدنيا لا يستطيع أحد أن يحدده بالنسبة لنفسه ، فدنيا الفرد قد لا تزيد على مائة سنة . ودنيا الإنسان هو عمره فيها . وقد ستر الله سبب الموت وكيفيته عن الخلق حتى يعرف الإنسان أن عمره مظنون وقد ينتهى قبل أن تطرف عينه . ولو كانوا يعقلون لما باعوا آخرتهم بدنياهم . ولو عقلوا لأداروا مسألة البدائل فى رءوسهم ولعلموا أنهم بموقفهم هذا من قضية الإيمان والإسلام إنما يقفون موقفاً خاسراً ليس فى مصلحتهم .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾

و« قُلْ » هى خطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم . وحين يخاطب الحق الرسول ، فالخطاب أيضاً لأمته صلى الله عليه وسلم ، فنقول نحن أيضاً :

﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ ﴾

(من الآية ٥٩ سورة المائدة)

و« نَقَم يَنْقِم » أى كره منى أن أفعل هذا ، فلماذا تكرهون إيماننا يا أهل الكتاب ؟ هل الإيمان مما يكره ؟ وجاء الحق هنا بسؤال لا يقدرون على الإجابة عنه ، فنحن آمنا بالله وبرسله وما أنزله علينا وما أنزل من قبل ، فما الذى يُكره فى هذا ؟ وأبلغ سيدنا

محمد صلى الله عليه وسلم اليهود أننا نؤمن بالله وبالرسل ومنهم سيدنا عيسى ابن مريم عليه السلام ، فغضبوا منه كثيراً . فكيف يكره أهل الكتاب إيمان المسلمين بالله ؟

مثال ذلك عندما يدعوك إنسان إلى تصرف غير مستقيم أو إلى الذهاب إلى مكان مشبوه فترفض ذلك فيكرهك هذا الإنسان ، فتقول له : أتكره فى سلوكى أن أكون مستقيماً ؟ ونعلم أن الإنسان الأمين هو ثروة لمن يعرفه والذى يستحق النقمة والكراهية هو الفعل الضار ، أما الإيمان بالله فهو أمر محبوب لأنه يُعلم الإنسان الأدب مع كل خلق الله ، ويعلم الإنسان الحفاظ على أعراض الناس ، ويعلم الإنسان ألاّ يعتدى على أموال ودماء الناس ولا يغتاب الناس ، ولا يرتشى ، وأن يخلص فى العمل وألا يكذب فى ميعاد ، فأى شىء فى هذا يستحق الكراهية ؟

إذن ، فمن يكره إنساناً لأى سبب من هذا فهو كره بلا منطق ، وكان من الواجب أن يكون سبب الكره سبباً للمحبة . وقد يأتى من يقول لك : ليس فى فلان من عيوب إلا كذا .

وقد يورد سبباً معقولاً . ولكن لا يقول أحد أبداً : لا عيب فى فلان إلا أنه شهم ؛ لأن الشهامة لا يمكن أن تكون عيباً ، كأن القائل قد أعمل ذهنه حتى يكتشف عيباً ، لم يجد إلا صفة رائعة ، وقال عنها : إن كنت تعتبر هذه الصفة عيباً فهذا هو عيبه . ويسمون ذلك من أساليب الأداء الأدبى عند العرب وهو تأكيد المدح بما يشبه الذم ، فيقول قائل : لا عيب فى فلان إلا كذا . وساعة يسمع السامع هذا يظن أن العيب الذى سيورده هو صفة قبيحة فيفاجأ بأنها خصلة جميلة . وبذلك يؤكد القائل المدح بما يشبه الذم : « قل يا أهل الكتاب هل تنقمون منا إلا أن آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل من قبل وأن أكثركم فاسقون » .

أنتم تقولون : إنكم أهل كتاب وعندكم التوراة ، وكان يجب أن تعلموا كيف يشذب الإيمان النفوس ويدفع عنها الشر ؛ لأن لكم سابقة فى الإيمان ، فقد آمنتم بالله وبالرسل السابقين على موسى وآمنتم بموسى ، والمسلمون آمنوا بالله وآمنوا بما أنزل إليهم وآمنوا بالرسل ومنهم موسى وعيسى ومحمد صلى الله عليهم وسلم فكيف يُكره ذلك ؟

وإن كان هذا مما يُكره فعلينا كمؤمنين أن نسألكم : لماذا تنكرون علينا ذلك ؟ لاشك أنكم تنكرون علينا إيماننا بالله لأنها قضية غير واضحة فى أذهانكم . ولو كانت واضحة فى أذهانكم ما كرهتم إيماننا . إذن فمسألة الإيمان بالله غير مستقرة فى وجدانكم كأهل كتاب بدليل أنكم تكرهون من آمن بالله ، ودليل ذلك أنكم أنزلتم الله منزلة لا تليق بكماله ، فجسمتموه وقلتم :

﴿ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً ﴾

(من الآية ٥٥ سورة البقرة)

وقلتم :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ﴾

(من الآية ١٨١ سورة آل عمران)

وقلتم :

﴿ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ﴾

(من الآية ٦٤ سورة المائدة)

إذن فأنتم تكرهون لنا أن نؤمن بالله إيماناً يليق بكمال الله ؛ لأنكم لم تؤمنوا بالله صحيح الإيمان ، ولو طابق إيماننا إيمانكم ما كرهتمونا . وكذلك لم تؤمنوا بالكتب بدليل أنكم حرفتموها . ولم تؤمنوا بالرسل لأنكم وقفتم من عيسى عليه السلام هذه المواقف . إذن فأنتم تنقمون منا وتكرهون أموراً لا تُكره عند الطبع السليم ، وهذا دليل على أن طبعكم هو المختل . وإذا كنتم تكرهون هذا الإيمان فماذا تملكون لمن تكرهون ؟ لا قوة لكم لتفعلوا لنا أى شىء . ولكن حين يكرهكم الله فماذا يفعل بكم ؟ إنكم حين تكرهوننا لا تملكون قدرة لعقابنا ، لكن الذى يكرهكم هو الله وعنده القدرة المقتدرة لينتقم لنا منكم .

إذن فكراهيتكم لنا لا قيمة لها . وإذا كنا نجاريكم ، والمجاراة لون من جدال الخصوم فماذا يعنيكم من كوننا مؤمنين ؟

مثال ذلك أن يتهمك إنسان بأنك بخيل فتقول له : هب أننى بخيل فعلاً فماذا يعنيك من هذا ؟ وهذا ما نسميه مجاراة الخصوم ؛ لذلك نقول لأهل الكتاب : هب أن لكراهيتكم لنا رصيداً وأنكم تستطيعون إيذاءنا ، فلكم شر من هذا وهو عقاب

الله ، وسنرى ماذا سيحدث لكم عندما يكرهكم الله . وهو قادر على كل شيء . وعلى فرض أن إيذاءكم لنا هو شر ، فالأكثر فاعلية هو عقاب الحق لكم ؛ لأنه عندما يكرهكم يقدر أن يعاقبكم بما شاء . إذن فالصفقة - صفقة كراهيتكم لنا - خاسرة من ناحيتكم .

ولذلك قال الحق :

﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ أُولَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٦٠﴾ ﴾

فإن سلمنا جدلاً أنكم يا أهل الكتاب تعتبرون كيدكم لنا سيصيبنا بشر . على الرغم مِن أنكم لا تملكون أن تجاوزونا بشيء . وها هوذا الحق يخبركم على لسان رسوله بالأكثر شراً من هذا ، وهى العقوبة التى يصنعها الله لكم وهو قادر على إنزالها بكم وهى الأكثر ضرراً . وهذا لون - كما قلنا - من مجاراة الخصم . ويعلمنا الله ذلك على لسان رسوله فيقول لخصومه :

﴿ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾

(من الآية ٢٤ سورة سبأ)

والرسول على الهدى بالقطع وخصومه على ضلال بالقطع ، ولكن رسول الله يسلم الأمر طالباً من خصومه أن يراجعوا أنفسهم ليناقشوا القيم التى يدعو إليها الإسلام . وسيجدون أن قيم الإسلام هى الهدى وأنهم على ضلال . ونعلم أن الهدى والضلال لا يجتمعان ، فنحن كمسلمين على هدى ، وأنتم على ضلال . ووسيلة التمييز أن يحكم الإنسان عقله فى المسألة ، وبذلك يرى مَن الذى على هدى ومَن الذى على ضلال . فأنت لا تناقش الخصم فى أصل الدعوى ، ولكن سلم

للخصم جدلاً . والتمييز النهائى هو الفيصل . وسيجد المميز حيثية ضلال الخصم واضحة وضوح حيثية هدى المسلمين .

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾

(سورة المائدة)

فإن كنتم تعيبون علينا أو تكرهوننا أو تأخذون إيماننا سُبَّة فهذا أمر لا يُكره الإنسانُ من أجله ؛ لأنكم تدعون أنكم مؤمنون بالله . وكذلك لا يمكن أن يُسب الإنسان من أجل الإيمان بما أنزله الله فى كتاب ؛ لأنكم أيضاً تقولون إنكم مؤمنون بالتوراة . وتقولون إنكم مؤمنون بالأنبياء السابقين على موسى . والخلاف أن عيسى عليه السلام جاء بعد نبيكم فكفرتم به ، لكننا آمنا به فنحن منطقيون مع أنفسنا ومع ربنا .

والحق يبلغنا : « وأن أكثركم فاسقون » . ونعرف أن صيانة الاحتمال تقتضى ألا يحكم الحق عليهم جميعاً بأنهم فاسقون ؛ لأن فيهم بعضاً من الناس تراودهم نفوسهم بالإيمان بالله وبالإسلام ؛ لذلك لم يكن الحق أبداً ليعمم الحكم على كل أهل الكتاب بالفسق ؛ ليعطى الفرصة لمن يفكر أن يعلن إيمانه .

ومن بعد ذلك يأتى الخبر على لسان الرسول بعقابهم : « قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله » إذن فهناك أمر أكثر ضرراً لكم لأنه ما كان يصح أن تكرهوا إيماننا ، والأكثر ضرراً من هذا هو لعنة الله « من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير » ويأتى سبحانه بالأوصاف التى فيهم ، من لعنة الله لهم وغضبه عليهم وجَعْلِه بعضًا منهم قردة وخنازير . وكيف يأتى الله بمثل هذه الأوصاف كمثوبة ؟ إن هذا لون من فتح باب الرجاء والأمل ثم يصدمهم من بعد ذلك تماماً مثل قوله تعالى :

﴿ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾

(من الآية ٢١ سورة آل عمران)

والعذاب الأليم يُنذر به ، وكذلك اللعنة لا يمكن أن تكون ثواباً ، لكن الأسلوب القرآنى يعطى النفس المخالِفة لوناً من الانبساط ، ثم يعطيها اللون المناقض له من الانقباض ، ليكون ذلك أبلغ فى الانقباض وأكثر إيلامًا .

ومثال ذلك ـ كما قلنا من قبل ـ المسجون الذى يطلب كوب ماء فيأتى له الحارس بكوب الماء ويقربه من فمه ثم يسكب كوب الماء على الأرض ، هذه العملية زرعت فى نفس السجين الأمل فى الارتواء أولا ، ثم يكون سكب الماء على الأرض سبباً فى التعذيب والإمعان فيه ، لكن لو رفض الحارس أولاً تقديم الماء لعاش السجين فى اليأس وهو إحدى الراحتين .

ونرى ذلك أيضا فيمن ينتظر حكماً قد يكون إعداماً وقد يكون براءة ، وتكون فترة الانتظار هى المليئة بالقلق . وعندما يضعون المنتظر فى الميزان يجدون وزنه فى انخفاض . وبعد الحكم بإعدامه يبدأ وزنه فى الزيادة ؛ لأن اليأس إحدى الراحتين . إذن فانبساط النفس ومجىء القبض بعدها هو الأمر الأنكى والأشد قسوة على النفس ، ولذلك يقول الحق :

﴿ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾

(من الآية ٢١ سورة آل عمران)

هذه البشارة تأتى بالانبساط للنفس ويتلوها الانقباض ، ومثل قول الحق :

﴿ وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِى الْوُجُوهَ ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الكهف)

أى أنه قد وقع عليهم لون من العذاب يستدعى الإغاثة ، ومن بعد ذلك يغاثوا لا بما ينقذهم ولكن بما يزيد عذابهم .

وساعة يسمعون « يغاثوا » تنفرج أساريرهم وتسكن وتطمئن نفوسهم ، وبعد ذلك يحدث الانقباض بسماعهم : « بماء كالمهل يشوى الوجوه » ، إذن فكلمة « مثوبة » تأتى لهم بشىء من الانبساط يتلوه العذاب .

هذا وإنّ أفعل التفضيل يأتى على صورة « أفعل » ، « أكرم » ، « أجود » ، « أشجع » فهذا لون من زيادة الصفة فى طرف عنها فى الطرف الآخر . اللهم إلا كلمات قليلة جاءت فى اللغة على غير صيغة التفضيل منها كلمة « خير » وكلمة « شر » فلم تأت منهما كلمة « أَخْيَر » بمعنى أكثر خيراً . ولا كلمة أشر بمعنى أكثر شرا ، ومرة تأتى كلمة « خير » ويقابلها الخير الأقل . والذى يميز المعنى هو وجود كلمة

« من » كقولنا : « فلان خير من فلان » . أما إن قيل : فلان خير » فمقابله هو « شر » لأنه لا توجد كلمة « أخير » .

وهكذا نجد كلمة « خير » تأتى للوصف مرة وتأتى للمبالغة فى الوصف مرة أخرى ، والفاصل للتمييز بين الاثنين هو وجود « من » . فيقال : فلان خير من فلان ومثلها فى ذلك كلمة شر.وقد ورد استعمال كلمة خير للتفضيل ولغير التفضيل فى قوله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٧٠ ﴾

(سورة الأنفال)

والحديث النبوى يقول : « المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفى كل خير »[1] .

إن فى كل مؤمن خيراً . ولكن فى المؤمن القوى خير أكثر مما فى المؤمن الضعيف . والمثال على أن كلمة « خير » . تقابل كلمة « شر » ، هو قول الحق :

﴿ وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ هُوَ خَيۡرٗا لَّهُمۖ بَلۡ هُوَ شَرّٞ لَّهُمۡ ﴾

(من الآية ١٨٠ سورة آل عمران)

و« خير » هنا ليست أفعل التفضيل ولكنها للوصف العادى ؛ وإذا جاءت « من » تعرف أنها للتفضيل ، وعدم الإتيان بلفظة « من » يدلنا على أنها للوصف العادى ومقابله كلمة « شر » . وهنا يقول الحق : « قل هل أنبئكم بشر من ذلك » . وجاءت كلمة « بشر » هنا للتفضيل ولا يعنى ذلك أن المؤمنين فى « شر » ولكنها مجاراة للخصم . واعتبار أن ما يقوله الخصم مقبول جدلاً . وهناك الأكثر شراً فى الواقع وعند الله وهو المراد من قوله تعالى :

﴿ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيۡهِ وَجَعَلَ مِنۡهُمُ ٱلۡقِرَدَةَ وَٱلۡخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَۚ أُوْلَٰٓئِكَ شَرّٞ مَّكَانٗا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ (من الآية ٦٠ سورة المائدة)

(١) رواه أحمد ٢ / ٣٧٠ ومسلم فى القدر والبيهقى فى السنن الكبرى ، وابن ماجه فى الزهد ومالك فى الموطا (التمهيد لابن عبدالبر ٢٨٧/٩) .

لماذا إذن يكون مصير هؤلاء إلى شر ؟ لأنهم كرهوا سلوك المؤمنين ولم يستطيعوا أن ينفسوا عن الغِل الذى فى صدورهم بعقوبة المؤمنين . ولكن الله يكرههم ويملك لهم العقوبة ويكون مصيرهم هو المصير الذى يوضحه الحق فى قوله : « لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير » واللعنة هى الطرد من الرحمة . والطرد من الرحمة يعنى حرمانهم من الخير .

ومثال ذلك ـ ولله المثل الأعلى ـ عندما يكون هناك خادم فى خدمة إنسان ما وهو يسكن ويأكل ويلبس على حساب السيد ، فإذا لم يؤد هذا الخادم حقوق الخدمة على وجهها المطلوب ، لا يرضى عنه سيده ، ويطرده من الخدمة ، وحين يطرد الإنسان خادمه فهو يُعْلن للناس أن هذا الخادم لم يؤد حق الخدمة ، فلا يستخدمه أحد بعد ذلك . وهذا هو الغضب . وبهذا نعرف الفرق بين أن يُطرد من الرحمة فقط ولا يعقب ذلك شيء ، أو أن يستمر الغضب بالإعلان عن السبب فى الإخراج من الرحمة ، فهذا معناه أن الله بعد أن طردهم يلاحقهم بغضبه وسخطه وأن لعنه لهم لا ينفك عنهم .

والله سبحانه وتعالى يعلن لأهل الكتاب : إن طردى لكم من رحمتى وتواصل غضبى عليكم هو شر عظيم . وغضب الله ـ كما نعلم ـ يترتب عليه أشياء فى كل حركة من حركات حياتهم ، إنه يمنع الهُدى أن ينفذ إلى قلوبهم ، بأن يختم على قلوبهم فلا يدخلها الإيمان ، ولا يخرج منها الكفر . أو أن يجعل منهم القردة والخنازير . وإن تساءلنا : كيف يكون نسلهم ؟ نعرف أن الذى يُمسخ لا يَتناسل ، إنه يُمسخ إلى أن يُرى مسخاً ثم يؤخذ إلى الموت .

وهل هم الذين اعتدوا فى السبت أو الذين عبدوا العجل أو الذين كفروا بعد نزول مائدة عيسى ؟ إنهم كل هؤلاء . أو أنهم قردة ، أى فى خصال القردة ، كالطيش وخفة الحركة وانكشاف العورة ، أو طباعهم وخصالهم كالخنازير ، فهؤلاء لهم خبث ونتن وزخم كزخم الخنزير . وأهم ميزة فى الخنزير أنه لا يغار على أنثاه . وهذه موجودة فيهم . وتفشت فيهم عادة تشغيل بناتهم فى الدعارة وغير ذلك من أعمال الباطل .

وهكذا نفهم قوله الحق : « وجعل منهم القردة والخنازير » إما على أساس أنه المسخ الحقيقى . والمسخ الحقيقى لا يظل متماثلاً ممسوكاً وإنما يكون المسخ لزمن محدود يراه الناس ممسوخاً ثم يموت وينتهى، وإما أن نفهمها على أن سلوكهم كسلوك القردة والخنازير .

ويتابع الحق : « وعبد الطاغوت » والعبادة إنما هى طاعة العابد للمعبود فيما أمر به وفيما نهى عنه . والطواغيت هم الذين يزينون لهم الشر والنفاق وأكل السحت والإثم . ويكون مصيرهم هو قوله الحق : « أولئك شر مكاناً وأضل عن سواء السبيل » وهذا هو الواقع الذى يعيشون فيه وهو شر كله ، وهم لا يفكرون فى السير فى الطريق السليم .

وعندما نقرأ قول الحق كاملاً فى هذه الآية :

﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٦٠﴾ ﴾

(سورة المائدة)

نعرف أنهم فى حالة غفلة عن مسار الهدى الموصل للحق ؛ لأن « سواء السبيل » هو الأمر المستوى الموصل للغاية . وكانت طرق العرب إما فيها رمال وإما بين الجبال ، وكانوا يختارون السير فى وسط الطريق حتى لا ينالهم أذى من جرف هاوٍ من الرمال فيقع بهم أو أن تقع عليهم صخرة من جبل .

ولذلك قال الحق :

﴿ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ ﴾

(سورة الصافات)

أى أنه فى وسط الجحيم . ويقول الحق بعد ذلك عن الذين غضب عليهم :

﴿ وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُواْ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُواْ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكْتُمُونَ ﴿٦١﴾ ﴾

وهؤلاء هم الذين اتخذوا الدين هزواً ولعباً وسخرية . وهم ساعة يدخلون على المؤمنين يدخلون ومعهم الكفر . وعندما جلسوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم خرجوا أيضاً بالكفر . أى أنّ الكفر قد لازمهم داخلين وخارجين . وكأن جلوسهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يزدهم أى شىء . وكان من الممكن أن يدخل إنسان على مجلسه صلى الله عليه وسلم ، وهو كافر ، وبعد ذلك تمسّه عناية الهداية فيخرج مؤمناً .

ومثال ذلك : فضالة بن عمير الليثى الذى جاء ليقتل رسول الله صلى الله عليه وسلم فى عام الفتح . وعندما مر رسول الله صلى الله عليه وسلم بفضالة قال له : ما كنت تحدث به نفسك ؟ فقال : لا شىء ، كنت أذكر الله عز وجل . فضحك النبى صلى الله عليه وسلم وقال : أستغفر الله لك . ووضع يده عليه السلام على صدر فضالة . فكان فضالة يقول : والله ما رفع يده عن صدرى حتى ما أجد على ظهر الأرض أحب إلى منه [1] .

لقد مسته العناية ، فقد دخل ـ أولاً ـ بكفره وخرج ـ ثانياً ـ بعميق الإيمان . لكن هؤلاء دخلوا بالكفر وخرجوا بالكفر ، كأن الدخول كان نفاقاً ، بدليل قوله الحق : « والله أعلم بما كانوا يكتمون » وهذا القول دليل نفاقهم ، فقد أعلنوا الإيمان لكنهم دخلوا بالكفر وخرجوا بالكفر . وكانوا يكتمون أن الدخول إلى رسول الله هو محض نفاق . وهذه خاصية لمن قالوا آمنا ، ولكن كان دخولهم إلى الإسلام نفاقاً ؛ لأن كفرهم أمر مستقر فى قلوبهم لا يتزحزح ، وكان يكفى فى الأسلوب أن يقول الحق :

(١) رواه ابن عبدالبر فى الدرر وابن حجر فى الإصابة .

وقد دخلوا بالكفر وخرجوا به ، ولكنه قال : « وهم » وذلك تحديداً لهويتهم الكافرة ، فكأن عملية الدخول بالكفر والخروج بالكفر هى عملية مسبقة ، لذلك يكشفهم الحق : « والله أعلم بما كانوا يكتمون » .

وجاء سبحانه بأفعل التفضيل « أعلم » فكأن رسول الله صلى الله عليه وسلم من إشراقات الله عليه وتنويره له كان يعلم أيضاً أنهم منافقون . ولكن علم رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يصل إلى علم الحق سبحانه وتعالى فعلم الله ذاتى وعلم رسوله فيض منه ـ سبحانه ـ .

إذن فقوله الحق : « والله أعلم » لم يمنع أن هناك أناساً قد علموا أنهم منافقون . وقد استقر فى ذهن النبى أنهم منافقون وأن الله أعلم بما كانوا يكتمون . والكتم هو حبس الإحساس النفسى أن يخرج وأن يظهر واضحاً ، ومحاولة الكتم عملية غير طبيعية لأنها قسرية . ويكاد كفرهم أن يظهر ويخرج فيحاولون أن يكتموه لأنهم يحرصون ألا ينكشفوا ، ولكن علم الله لا تخفى عليه خافية .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾

والمسارعة فى الإثم تعنى أنهم من بداية الأمر فى الإثم ، ويسارعون فيه ، أى أنهم كانوا على أولية الإثم ويجرون إلى آخرية الإثم ، فضلالهم واضح من البداية ، وكأن خلقهم الكفر يفضحهم ، برغم محاولتهم كتمان ذلك . ويجدون أنفسهم مسارعين إلى فعل الإثم ، أى أن عملهم ينزع إلى الكفر ، ويجعلهم الحق يغفلون عن الكتمان ، فتبدو منهم أشياء هى أكثر فضيحة من القول ، ذلك أن الإثم مراحل : مرحلة قول ، ومرحلة فعل . والفعل أكثر فضحاً من القول .

« وترى كثيراً منهم يسارعون فى الإثم والعدوان » ويقول الحق : « كثيراً منهم »

صيانة لاحتمال أن يوجد الإيمان فى قلب القليل منهم ، وذلك لتبرئة أى إنسان يفكر فى الإيمان . وهم أيضاً يسارعون فى العدوان ، فإذا كان الإثم هو الجُرم على أى لون كان ، فالعدوان هو إثم يأخذ به إنسان حقاً لغيره ، مثال ذلك الإنسان الذى يحقد ، إثمه لنفسه ولذلك يعانى من تضارب الملكات حتى يبدو وكأنه يأكل بعضه بعضاً .

إن الحقد ـ كما نعلم ـ جريمة نفسية لم تتعد الحد . ويقال عن الحقد : إنه الجريمة التى تسبقها عقوبتها ، عكس أى جريمة أخرى ، فأى جريمة تتأخر عقوبتها عنها إلا الحقد والحسد ، فتنال عقوبة الحقد صاحبها من قبل أن يحقد ؛ لأن الحاقد لا يحقد إلا لأن قلبه ومشاعره تتمزق عندما يرى المحقود عليه فى خير . ولذلك يقال فى الأثر : « حسبك من الحاسد أنه يغْتَمّ وقت سرورك » .

إذن فمن يرتكب إثماً فى نفسه لا يتعدى أثر إثمه إلى غيره ، أما الذى يرتكب العدوان فهو ينقل حق إنسان إلى غيره . وهو قسمان ؛ هناك من يعتدى ليعطى حقا لغير ذى حق . وهناك من يعتدى بالسكوت على الظالم ، فالظالم تتملكه شهوة الظلم ، لكن من يرى الظالم ويسكت ولا ينهاه فهذا عدوان أيضاً ، لأن الظالم عنده وفى نفسه ما يدفعه إلى أن يظلم ، أما الشاهد الذى يصمت فليس عنده فى نفسه ما يدفعه إلى أن يُسكته . فمن ـ إذن ـ الأكثر شرّاً ؟ إنه الذى يصمت عن تنبيه الظالم إلى أنه يظلم .

« وترى كثيراً منهم يسارعون فى الإثم والعدوان » نلحظ أن كلمة « سارع » مثلها مثل كلمة « نافس » تدل على أن هناك أناساً فى سباق ؛ كأنهم يتسابقون على الإثم والعدوان ، كأن الإثم والعدوان غاية منصوبة فى أذهانهم ، ومتفقة مع قلوبهم .

« وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يعملون » والسحت هو كل مال مصدره حرام ، سواء أكان رشوة أَمْ ربا أم سرقة أم اختلاساً أم خطفاً أم اغتصاباً ، كل تلك الألوان وما ماثلها من السحت إنما أخذ لحق الغير . وأخذ حق الغير له صور متعددة ، فإن أخذه أحد خفية فتلك هى السرقة . وإن سارع إنسان لخطف شىء من بضاعة إنسان آخر فهذا هو الخطف . وإذا لحق به صاحب البضاعة وتجاذبا وتشادًا فهذه المجاذبة تخرج بالخطف إلى دائرة الغضب . وإن كان الإنسان أميناً على شىء وأخذه فهذا هو

الاختلاس ، وكل ذلك أكل مال بالسحت . وبئس هذا اللون من العمل .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ۝٦٣ ﴾

والربانيون هم الذين يُنسبون إلى الرب فى كل تصرفاتهم ، وكذلك الأحبار الذين يعرفون الدين ، ولا هؤلاء ولا أولئك ينهون هؤلاء الناس من أهل الكتاب عن ارتكابهم الإثم وأكلهم السحت ، فكيف يُنصِّبُ هؤلاء الربانيون والأحبار أنفسَهم قادة للضمير الدينى دون أن يقوموا بواجبهم بوعظ الناس ؟ وفى هذا تأكيد على أن الربانيين والأحبار إنما يريدون فقط سلطة الهيمنة على الناس .

والربانيون هم رؤساء النصارى،والأحبار هم رؤساء اليهود . وكان من بين اليهود والنصارى من تتملكه شهوات أكل السحت والظلم وقول الإثم ، فلماذا لم يتحرك المنسوبون إلى الله للنهى عن ذلك وهم الذين أخذوا حظهم فى الدنيا من أنهم منسوبون إلى حماية منهج الله من انحرافات البشر ؟. ألم يكن من واجبهم نهى الظالمين والآثمين عن الظلم والإثم ؟

إن الذى يظلم له شهوة فى أن ينتفع من الظلم ، أما أنتم أيها الربانيون والأحبار فلماذا لا تتحركون لوقف ذلك ؟ لاشك أنهم قد امتلأوا سروراً من هذا الإثم وذلك العدوان وأكل السحت ، ومبعث سرورهم أن الواحد من هؤلاء لو كان سليماً فى تصرفاته وأحكامه لغار على المنهج ، لكنه يقبل الانحراف ؛ لأن من مصلحته أن ينحرف غيره حتى لا يلومه أحد . وجاء الحق بـ« لولا » فى أول هذه الآية تحضيضية أى يقصد بها الحث على الفعل . . أى كان يجب أن ينهاهم الربانيون والأحبار عن

أكل السحت وقول الإثم والعدوان . ثم تتجلى دقة الأداء القرآنى - كما هو دائماً - فى قوله الحق : « لبئس ما كانوا يصنعون » .

ونذكر أن تذييل الآية السابقة قال فيه الحق عن سلوك العامة من أهل الكتاب : « لبئس ما كانوا يعملون » ، إذن فالحق يفرق بين بئس عن صناعة وبئس عن عمل . وبئس الربانيون والأحبار هو بئس الصناعة . ونعلم أن كل جارحة من جوارح الإنسان لها حدث خاص بها : فالعين حدثها أن ترى ، والأذن حدثها السمع ، واليد اللمس ومناولة الفعل ، والرِّجل تسعى ، واللسان مجال عمله الكلام . والجوارح تنقسم إلى قسمين : اللسان وحدثه القول ، وبقية الجوارح أحداثها أفعال ، بدليل أن الله يقول :

﴿ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾

(سورة الصف)

إذن فالقول مقابله الفعل . والقول عمل ، والفعل عمل . ومادام هناك قول وفعل من عامة أهل الكتاب فى ذلك المجال لذلك يقول الحق : « لبئس ما كانوا يعملون » .

وقال عن الربانيين والأحبار : « لبئس ما كانوا يصنعون » لإيضاح الفرق بين من يعمل ومن يصنع ، فمن فُتق ثوبه وجاء بإبرة وخيط ليصلحه ، فهو خائط ، ولكن الذى يحترف ذلك هو « الخيَّاط » ؛ فصاحب الحرفة هو من يأخذ وصفها لأنه يجيدها ، أما الذى يمارسها لمرة واحدة فلا يأخذ من الصنعة إلا بقدر ما يدل على أنه لم يتقنها .

وكان الربانيون والأحبار قد اتخذوا أمر الدين والكهنوت صناعة بتجويد كبير . وذلك هو الذى جعل السلطة التقنينية فى العالم كله تنتقل من منهج السماء إلى منهج الأرض . وحينما نرجع إلى تاريخ القانون نجد أن الأصل فى التقنين كان من الكهنة الذين كانوا منسوبين إلى الله وخبر السماء ، وهم الذين كانوا يحكمون بين الناس ، لكنهم أفسدوا ، ورأى المجتمع أنهم يحكمون فى قضية بحكم ، ثم فى قضية مشابهة يحكمون بنقيض الحكم السابق، وأنهم ارتشوا فى سبيل ذلك، ومايزوا بين الناس، وعرف الناس أن الكهنة غير مأمونين على العدالة ؛ لذلك تركوا الكهنة وبدأوا يضعون

قوانين خاصة بهم بعيدة عن حكم الكهنة . وهكذا انتقلت المسألة من تقنينات وحكم الكهنة إلى المجتمع الذى لم يعد يتمسك بالدين بسبب انحرافات أحكام الكهنة عن العدل وأنهم باعوا الأحكام لصالح من يدفع أكثر ، أو يحكمون لصاحب النفوذ . وهكذا صارت المسألة صناعة لهم . وبئست تلك الصناعة .

ومن بعد ذلك يقول الحق :

﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَـٰنًا وَكُفْرًا ۚ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾

ونعرف أن اليد جارحة حرة الحركة تنفعل يميناً وتنفعل شِمالاً وتنفعل إلى أسفل وإلى أعلى ، ولها من الأصابع ما جعل الله لكل أصبع مع زميله مهمة . وليلاحظ كل منا أصابعه فى أثناء أى عمل ، سيجدها تتباعد وتتقارب بحركة إرادية منسجمة لتؤدى المهمة . وخلقة الأصابع بالمفاصل والعُقل وحجم كل عقلة يختلف عن الأخرى ؛ لتؤدى المهمة بانسجام . وساعة تعوّق هذه الجارحة عن أداء مهمتها فأنت بذلك تكون قد غللتها ، أى ربطتها عن التصرف المطلوب منها .

ومعنى قوله : « يد الله مغلولة » أى أن يد الله ـ والعياذ بالله ـ مشلولة الحركة .

وقد قالوا ذلك قبل ظهور سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقبل زحف الإسلام عليهم لينقض باطلهم . وحدث أن تفرغوا لصناعة آلات الحرب وبناء الحصون والزراعة ، وانشغلوا عن الزراعة فخابت محاصيلهم وجاء وقت الحصاد فلم يجدوا ، فقال « فنحاص » وهو واحد من اليهود : لماذا قبض الله يده عنا ؟ إن يد الله مغلولة . ونلحظ أن الذى قال ذلك هو شخص واحد ، ولكن الحق يقول هنا : « وقالت اليهود يد الله مغلولة » . ومعنى ذلك أن « فنحاص » عندما قال ذلك سمعوه وسرّهم ما قال ، ووافقوه عليها .

أو أنهم حينما شاهدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أول الهجرة وقد آخى بين المهاجرين والأنصار ، وكانت تمر على المسلمين الليالى دون طعام فيراهم اليهود فيتندرون على تلك الحال ويقولون : إن يد الله مغلولة عن محمد وآله .

أو أنهم قالوا : إن يد الله مغلولة فى الآخرة عن عقابنا ؛ لأنه سيعقابنا أياماً معدودة . والذى يبيح لنفسه أن يجعل الله منفعلاً لأحداث خلقه إنما يكفر بالله ؛ لأنه يُنزلُ الله من مكانته . فإذا كانت يد الله مغلولة ، فهذا الرباط والغَلّ والمنع يكون من خَلْق الله . وكيف يقدر خلقٌ من خلق الله أن يربط يد الله ؟. لقد اجترأوا على مقام الألوهية وهذا من سوء الأدب ، تماماً كما قالوا :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ﴾

(من الآية ١٨١ سورة آل عمران)

وحينما قالوا : « يد الله مغلولة » وردّ الحق عليهم : « بل يداه مبسوطتان » وقال قبلها : « غلت أيديهم » فهل يدعو الحق عليهم ؟ طبعاً لا ؛ لأنه هو المصدر الذى يتجه إليه الخلق بالدعاء وهو القادر على كل الخلق . ولكن الحق حين روى ما قالوه إنما ينبه الذهن الإيمانى الذى يستقبل كلامه أنه ساعة يجد وصفاً لا يناسب الله فعليه أن يدفع هذا الكلام حتى قبل أن يرى الرد عليهم .

« وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم » وهذا يعلمنا أننا إذا سمعنا وصفاً لا يليق فلا بد أن ندحضه ؛ لأن الحق لا يدعو على عبيده ؛ لأن الدعاء هو أن يرفع عاجز طلبه إلى قادر لينفذ المطلوب له .

إذن فإن قالها الحق فهى إما أن تكون خبراً ، وإما تعليماً لنا ، فإذا كانت خبراً نلحظ أن الله كتب عليهم البخل ساعة قالوا هذا ومنذ لحظة هذا القول ، وإن كان القصد هو تعليمنا ، فنحن نتعلم الأدب الإيمانى ، ونرد أى وصف لا يليق بجلال الله .

وهذه المسألة لها نظير ، فعندما علم الحق سبحانه وتعالى تشوّق رسوله والمؤمنين أن يذهبوا إلى المسجد الحرام ؛ قال لرسوله :

﴿ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ﴾

(من الآية ٢٧ سورة الفتح)

وهل هذا إخبار من الله ، أو هو تعليم لنا ؟ . إنه تعليم لنا أن نفعل ذلك عندما نشتاق إلى فعل . وكذلك هنا : « وقالت اليهود يد الله مغلولة » لذلك يعلمنا سبحانه أن نقول : « غلت أيديهم » مثلما علمنا أن نقول : « إن شاء الله » حتى ننسب كل قدر لله . وقد حاول الفلاسفة أن ينسونا تقدير المشيئة ، فقالوا : إن الله خلق النواميس والأكوان وجعل لها قوانين تعمل فى الكون . وهل زاول الحق سلطانه ساعة خلق النواميس ثم ترك الأمور لذاتها ؟ لا ؛ لذلك جاء سبحانه بمعجزات تخرق النواميس ليدلنا على أن النواميس لم تأخذ هى الكلمة للتصرف بل إن يد الله مازالت فى كونه ، فالنار ـ على سبيل المثال ـ التى تحرق يأتيها الأمر :

﴿ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا ﴾

(من الآية ٦٩ سورة الأنبياء)

والماء الذى يُغرق يأتيه الأمر :

﴿ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ ﴾

(سورة الشعراء)

وقال :

﴿ فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ ﴾

(من الآية ٧٧ ، ٧٨ سورة طه)

والعصا التى خلقت من غصن شجر جاف ، تتحول إلى أفعى ، أى نقلها كلها

إلى جنس آخر ، من نباتية إلى حيوانية . هذا هو خرق النواميس .

ويقول الحق عن هؤلاء الذين ادعوا أن يد الله مغلولة : « غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا » أى أنهم طردوا من رحمة الله ، لأنهم هم الذين بشروا على أنفسم وقالوا إن يد الله مغلولة ، وسبحانه قادر أن يمنع عطاءه عنهم .

ويتابع سبحانه : « بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء » ، وهو يعطى من يريد ، وكلمة « اليد » فى اللغة تطلق على الجارحة وتطلق على النعمة ، فيقول الرجل : إن لفلان علىّ يداً لا أنساها ؛ أى أنه قدم جميلاً لا يُنسى . واستعملت اليد بهذا المعنى لأن جميع التناولات تكون باليد . وتطلق اليد ويراد بها الملكية فيقول سبحانه :

﴿ أَوْ يَعْفُوَا ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ ﴾

(من الآية ٢٣٧ سورة البقرة)

أى الذى يملك أن يُنكِح المرأة ، هو الذى يعفو . وفى القتال نجد القول الحكيم :

﴿ قَـٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ ﴾

(من الآية ١٤ سورة التوبة)

أو تطلق اليد على من له ولاية فى عمل من الأعمال ، لذلك نجد الحق قد قال :

﴿ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ﴾

(من الآية ٧٥ سورة ص)

وآدم هو الخلق الأول وكلنا من بعده مخلوقون بالتناسل من الزوجية . وقدكرّم الله الإنسان بأنه خلقه بيديه ، وخلق كل شيء بـ« كن » . إذن : كلمة « اليد » تطلق على معانٍ متعددة . والرسول يقول : « المسلمون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم وهم يد على من سواهم »[1] .

أى عندما تجتمع الأيدى تكون هى اليد القادرة . وعندما نقرأ كلمة « يد الله » فهل نحصرها فى نعمته أو ملكه ؟

(١) رواه أحمد وأبو داود والبيهقى فى السنن الكبرى والحاكم فى المستدرك والمتقى الهندى فى كنز العمال وابن كثير فى التفسير .

﴿ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ۝١ ﴾

(سورة الملك)

والله سبحانه وتعالى أعلم بذاته فلنقف عند الوصف ، نعم له يد ، وله يدان ، وإياك أن تتصور أن كل ما يتعلق بالله مثل ما يتعلق بك ؛ لأن الأصل أن لك وجوداً الآن ، ولله وجود ، لكن وجودك غير وجود الله ، وكذلك يده ليست كيدك . حتى لا نشبه ونقول : إن له يداً مثل أيدينا ، فلنقل إن المراد باليد هو القدرة أو النعمة ، والهدف الراقى هو تنزيه الحق . وهناك من يقول : إن لله يداً ولكن ليست كأيدينا لأننا نأخذ كل ما يأتى وصفاً لله على أنه « ليس كمثله شيء » والتأويل ممكن . مثلما بيّن الحق : أنه قد صنع موسى على عينيه .

وتأخذ أى مسألة تتعلق بوصف الله إما كما جاءت ، بأن له يداً ولكن ليست كالأيدى ، وله وجود لا كالوجود البشرى ، وله عين ليست كالأعين ، ولكن كل وصف لله نأخذه فى إطار « ليس كمثله شيء » . وإما أن نأخذ الوصف بالتأويل ، ويراد بها النعمة ويراد بها القدرة . ويقول الحق : « بل يداه مبسوطتان » والمراد هنا هو « النعمة » . ولم يكتف سبحانه بأن يرد بأن له يداً واحدة تعطى . لا ، بل يرد بما هو أقوى مما يمكن ، فهو يعطى بيديه الاثنتين ، وهو القائل :

﴿ وَأَسۡبَغَ عَلَيۡكُمۡ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةٗ وَبَاطِنَةٗ ﴾

(من الآية ٢٠ سورة لقمان)

إنه يُعطى الظاهر ويُعطى الباطن . وإياك أن تقول تلك اليد اليمنى وتلك اليد اليسرى ؛ لأن كلتا يدى الله يمين . « بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء » أى أنه سبحانه لا يمكن أن يكون بخيلاً ، حتى وإن منع الحق فذلك منح وعطاء وإنفاق ؛ لأن الذى يطغى بنعمة ، قد يذهب به الطغيان إلى بلاء وسوء مصير ؛ لذلك يقبض سبحانه عنه النعمة ليعطيه الأمن من أن ينحرف بالنعمة . ولذلك نجد القول الحق فى سورة الفجر :

﴿ فَأَمَّا ٱلۡإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكۡرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَكۡرَمَنِ ۝١٥ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ ۝١٦ ﴾

(سورة الفجر)

ورد الحق بعد ذلك بقوله : (كلا) .

فلا الإعطاء هنا للإكرام ، ولا المنع للإهانة . فكيف يكون الإعطاء دليل الإكرام وقد يعطيك الله ولا تؤدى حق النعمة ؟ وكيف يكون المنع دليل الإهانة وهو قد منعك من وسيلة انحراف ؟ إذن فهو قد أعطاك بالمنع - فى بعض الأحيان - إنه قد أعطاك الأبقى وهو الهداية . إذن فمنعه أيضاً عطاء .

« بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء » والناس تنظر دائماً إلى عطاء الله بعطاء الإيجاب ، ولا تنظر عطاء السلب أى المنع ، وهو أن يصرف عنك الحق مصرف سوء . وسبق أن ضربت المثل بالرجل الذى تحرى الحلال فى مصدر ماله ويتقى الله فى عمله ويأخذ دخله ويدير حركة حياته فى إطار هذا الدخل ، وقد يعود هذا الرجل إلى منزله فيجد حرارة الابن مرتفعة قليلاً ، ولأن ماله حلال وذرات جسمه تعرف أن ماله حلال ؛ لذلك يستقبل الأمر بهدوء ويعرض الابن على طبيب فى مستوصف خيرى بقروش قليلة ، فيصف الطبيب دواء بقروش قليلة ويتم شفاء الابن .

هذا الرجل يختلف حاله عن حال رجل آخر أتى بماله من السحت ، وساعة يرى حرارة ابنه قد ارتفعت نجد باله يدور بين ألف خاطر سوء ، ويدور الرجل بابنه على الأطباء ولا يصدق طبيباً واحداً .

الرجل الأول رزقه الله الاطمئنان بمنع هواجس الحِدَّة من قلبه وخواطره ، أما الرجل الثانى فهو ينفق أضعاف ما أكله من سحت . إذن « بل يداه مبسوطتان » أى أن هناك عطاء السلب . والعطاء الذى يحبه الإنسان هو عطاء المال وهو عطاء يذهب إلى الفانية . أما المنع فهو يمنع الإنسان من ارتكاب آثام . وبعد ذلك يأخذ الإنسان نعيمه فى الآخرة . ونحن نجد كثيراً من الناس تدعو ، ولكنهم لا يعلمون أن الله قد أعطى بالمنع .

يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَيَدْعُ ٱلْإِنسَـٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ عَجُولًا ﴿١١﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

لذلك يعطى الحق أحياناً أشياء يكون العبد قد ألح عليها ، وبعد ذلك يتبين الإنسان أنها شر ، كأن الحق ساعة منع الإنسان لفترة كان ذلك صيانة له .

« بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء » إذن فكله إنفاق . وسبحانه ينفق كيف يشاء ، فلا يبخل أبداً حتى وإن منع ، فالمنع فى موضعه الصحيح هو عين الإنفاق ، وهكذا يكون عطاء الله عطاء النعمة ظاهرة كانت أو باطنة . فإن أردت بـ « اليد » القدرة فيدا الله مبسوطتان بالثواب لقوم وبالعقاب لقوم آخرين ، وهو سبحانه وتعالى يعطى لحضرة النبى صلى الله عليه وسلم المناعة الإيمانية ضد كل متمرد عليه ، أو ضد كل متأبٍ ومستكبر من الكافرين أو من أهل الكتاب .

فكأنه سبحانه وتعالى يوضح : وطِّنْ نفسك يا محمد ولتوطن أمتك نفسها على أن هؤلاء الكفرة لن يكتفوا بالقدر اليسير والقليل من الكراهية لك ، بل كلما جاءت لك نعمة بزيادة الهدى من الله سيحسدونك ، وسيبغضونك ، وسيزداد تمردهم وحقدهم عليك ، فوطن نفسك على ذلك . وفى هذا ما يعطى مناعة إيمانية ، يسد كل منافذ وسوسة النفس ويجعل النفس على استعداد لاستقبال ما يحدث حتى ولو كان من المكاره .

ولنقرب هذا الأمر من الذهن . لا تشبيهاً ولكن لمجرد تقريب الأمر من الذهن - ولله المثل الأعلى - لننظر إلى ما حدث فى أوروبا فى أثناء الحرب العالمية الثانية ، كانت انجلترا تخوض الحرب ضد النازية ، وكانت الأهوال تتساقط من الطائرات على المدن الإنجليزية . وجاء تشرشل ليقود الحرب فقال للإنجليز : إن الهول والصعاب هى التى تنتظركم فوطنوا أنفسكم على مواجهة الشدائد .

وإذا كان هذا قد حدث فى حرب بين شعبين ، فما بالنا بالحق سبحانه وتعالى وهو يعلم ضرورة التمحيص لأمته التى تحمل راية المنهج الكامل للهداية . كان لا بد إذن من أن يوطن نفس رسوله ونفوس المؤمنين معه على مواجهة الحسد والبغض والحقد والمكر والتبييت .

ويقول الحق : « وليزيدن كثيراً منهم ما أنزل إليك من ربك طغياناً وكفراً وألقينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة » . ولا يأتى قول الحق : « بينهم » إلا إذا كان هناك طائفتان ، والمقصود إما الطوائف اليهودية فيما بينها ، وإما طوائف النصرانية فيما بينها ، أو بين اليهودية والنصرانية ، خصوصاً أن هذه الآيات مستهلة بقوله الحق : « يا أهل الكتاب » . فإذا كانت لليهود فالعداوة والبغضاء قائمة بين طوائفهم بعضها مع بعضها الآخر . وإذا كانت للنصارى فالعداوة والبغضاء حاصلان فيما بين طوائفهم ، وإن كانت بين اليهود كقسم وبين النصارى كقسم فهى مسألة ممكنة . وهذه العداوة والبغضاء لا تنتهى أبداً بل هى قائمة بينهم إلى يوم القيامة .

ويقول الحق : « كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله » وهذا خبر عما وقع فى حضن الإسلام ، ومثال ذلك خروج « بنى قينقاع » على العهد بعد أن جمعهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سوق بنى قينقاع وقال لهم :

« يا معشر اليهود أسلموا قبل أن يصيبكم الله بما أصاب قريشا »[1] .

فرفضوا وقالوا : يا محمد لا يغرنك من نفسك أن قتلت نفرا من قريش كانوا أغماراً لا يعرفون القتال ، إنك والله لو قاتلتنا لعرفت أنّا نحن الناس وأنك لم تلق مثلنا . فنزل فيهم قول الحق :

﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٢﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

فكان « بنو قينقاع » أول اليهود الذين نقضوا ما بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحاربوا فيما بين موقعتى بدر وأحد .

وكان سبب ذلك أن امرأة من العرب قدمت بجلب لها ـ بضاعة ـ لتبيعها فى سوق « بنى قينقاع » ، فجلست إلى صائغ يهودى بالسوق ، وحاول اليهود إجبارها على كشف وجهها ، فأبت ، فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها فعقده إلى ظهرها ، وهى

---

(١) رواه ابن إسحاق وابن كثير فى التفسير .

لا تشعر به ، فلما قامت انكشفت سوءتها ، فضحكوا بها فصاحت المرأة . فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله ، وشدت اليهود على المسلم فقتلوه ، وحدثت بذلك الفتنة ، لكن الله أطفأ الفتنة وأجلى « بنى قينقاع » ، ثم « بنى النضير » وكان لهم ـ قبل ذلك ـ التجمع القوى فى المدينة بالثراء والعلم . وقاتل المسلمون « بنى قريظة » وأجلوا أهل خيبر ، وتملك واستولى المسلمون على وادى القرى . حدث هذا فى حضن الإسلام فماذا حدث فى غير حضن الإسلام ؟

لقد رأيناهم أيام المجوس وقد أهلكهم بختنصر ، وكذلك تيتوس الرومانى . ورأيناهم مقطعين فى الأرض فى كل زمان ومكان . وقد يقول قائل : إذا كان الحق قد قال : « كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله » فلماذا لا تنطفىء الحرب الحالية بيننا وبينهم ؟ ونقول : إن الذى يطفىء نيران الحرب لا بد أن يكون من جنود الله . وعندما نصبح جنوداً لله فلسوف تنطفىء هذه الحرب .

والمثال القريب منا هو انتصارنا فى العاشر من رمضان . لقد كان انتصارنا بالعمل تحت راية « الله أكبر » وقد جزى الله بالخير الضباط والجنود الذين كانوا يعلمون أن العتاد فى جانب العدو كان أكبر من عتادنا ، لكن النتيجة كانت فى صالحنا لأننا دخلناها تحت ظل « الله أكبر » .

أما الذين ادعوا أنه انتصار حضارى فنقول : عن أى حضارة تتحدثون ؟ والإسلام هو نبع الحضارة المتوازنة ، وليس الادعاء بالحضارة هو الخروج عن منهج الله . إننا إن ثبتنا على مبدأ « الله أكبر » لا كشعار ولكن كتطبيق لأطفأ الله نيران أى حرب .

ويترك سبحانه فى كونه السنن التى تعطى التجارب الواقعية لمن يتشكك فى الإيمان . ومثال ذلك ما حدث من مخالفة لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم من بعض المقاتلين فى غزوة أحد فكادت الهزيمة تلحق بهم . وفى غزوة حنين قالوا : لن نغلب اليوم من قلة ولذلك يقول سبحانه :

﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾

(سورة التوبة)

وقد ترك الله هذه السنن الكونية ليلفت أى غافل عن الدين أن الخصم ينال منه ؛ فالغفلة تؤدى إلى الانحراف ، والانحراف لا يمكن أن يؤدى إلى النصر . هكذا يحذر الحق معسكر الإيمان . أما معسكر الكفر فالحق يريد له الذلة ، فيعطيه فى بعض اللحظات نصراً على المؤمنين فى أوقات غفلتهم ، وما أن يُفيق المؤمنون من الغفلة حتى تأتى ضربتهم لمعسكر الكفر . وتأتى الضربة وقت أن يكون معسكر الكفر فى علو وغلو . ولنا فى المثل الريفى الإيضاح .

يقول المثل : لا يقع مؤمن من على حصيرة ، والمقصود أن التواضع يحمى الإنسان من وهم العلو والكبر ؛ لأن الذى يقع هو الذى يتخيل أنه علا فى الأرض ولذلك يعميه الله عن الحرص ، ويأتى قوله :

﴿ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ﴾

(من الآية ٧ سورة الإسراء)

أى أن يتم العصف بكل شيء . وأهل السياسة عندما يريدون أن ينزلوا بخصومهم العقاب يرفعون خصومهم ويمدون لهم فى حبال الصبر والإمهال حتى يعلو الخصم كثيرا ثم ينكشف ويظهر سوء سلوكه فيقع أمام الناس . ولذلك نجد القرآن صريحاً مطلق الصراحة فى هذا المجال :

﴿ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

فسبحانه يمد ويملى لهم ليأخذوا وليبنوا وليترفوا ، وليفرحوا بما أخذوا ، ومن بعد ذلك يفتح الله عليهم أبواب كل شيء . وأمثلة ذلك فى الحياة كثيرة .

لقد رأينا الدول القوية تساعد خصومنا ، واتفق المعسكر الشرقى والمعسكر الغربى لسنوات على مساعدة الخصم ، وقلنا لهم : أنتم الآن فى مقام : (فلما نسوا ما ذكروا

به) . وأنتم أيها الخصوم قد تنتقلون إلى مقام : (حتى إذا فرحوا بما أوتوا) . وسوف تنتقلون من بعد ذلك إلى مقام : (أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون) .

وقد حدث أن سقط الاتحاد السوفيتى بأكمله ، وأخذهم الله بغتة بأيدى أناس منهم ، وكثيراً ما تحدث الكوارث لمن يضطهد أهل الإيمان . إذن : فلا داعى لأن يغتر أحد بما وصل إليه .

ويقول الحق :

﴿ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۚ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾

(من الآية ٦٤ سورة المائدة)

وهم مكبوتون دائماً . فالحق لايُمَكّنهم من كل أهوائهم . لذلك يسعون فى الأرض فساداً بأساليب الاختفاء . ومن يقرأ « بروتوكولات صهيون » يجد اعترافاتهم بأنهم أصحاب النظريات التى تقود إلى الأفكار الخاطئة كالماركسية والوجودية والداروينية وهى أمور مرتبة من قبل ليظهر أثرها الضار فى الشعوب غير اليهودية . أما اليهود فقد حصنوهم ضد هذه المبادىء الفاسدة ، هكذا أرادوا التبييت ضد العالم ، وهكذا يكون سعيهم بالفساد بين الناس . وإذا نظرنا إلى الانحراف الحالى فى الكون فإننا نجدهم وراءه .

فالرأسمالية الشرسة من اليهود . والشيوعية الشرسة من اليهود . وهؤلاء الذين يدعون أنهم أنبياء من بعد رسول الله إنما يحدث لهم ذلك بفعل اليهود ، وكذلك الجمعيات التى تتخفى وراء أسماء « الماسونية والروتارى والليونز » ، كلها من اليهود . ومع ذلك نتلفت إلى قوم يقولون إنهم متحضرون ويفخرون بأنهم أعضاء فى الروتارى ، ونسألهم : ماذا تفعلون فى تلك الأندية ؟. يقولون : نقوم بالأعمال الخيرية والخدمات . ونقول لهم : لماذا لا تفعلون أعمال الخير باسم الإسلام ؟. وهل تظنون أن هناك خيراً يأتى من خارج الإسلام ؟!

ويكتشف الكون كل فترة من الزمن أن الفساد الذى فيه إنما هو بسبب هؤلاء الناس وبسبب مكائدهم ؛ لذلك يصيبهم الحق بالكوارث كل فترة من الزمن ؛ لأنهم يسعون فى الأرض فساداً . وهذا السعى فى الأرض بالفساد إنما يأخذ صوراً متعددة ، مرة يأخذ شكل النظريات العلمية ، ومرة يأخذ شكل التطرف فى الأنظمة السياسية من رأسمالية شرسة أو شيوعية شرسة ، وكل ذلك تخريب لحياة الناس . والناس حين تجرب نظاماً فهى تقيس نجاحه أو فشله بمقدار ما يعود عليها من خير أو من شر .

لقد كانت روسيا ـ على سبيل المثال ـ تمد العالم بالقمح من سيبيريا . ولكنها الآن تشكو قلة الزراعة وتنتظر من يبيع لها القمح . وعلى الجانب الآخر نجد الرأسمالية الشرسة تطحن أبناء تلك البلدان فى الحياة غير المسئولية باسم الحرية . وقد شهدت ألمانيا ـ مثلاً ـ قسمة عاصمتها القديمة « برلين » إلى قسمين ، ولكل قسم حياة ، وشهدت إعادة التوحيد لأرض ألمانيا بما يصاحبه من مشكلات جمة .

وقد تذهب بعض المجتمعات إلى أيدى أناس لهم شراسة أشد كالحزب الحاكم فى كل دولة لا تتبع منهاجاً متوازناً ، ونجد رجال هذا الحزب كهيئة تأخذ الدعوة ونقيض الدعوة حتى لا يتمرد عليهم أحد ، فعَرق العامل فى أيديهم ومصنع الرأسمالى فى أيديهم وهم يعيشون حياة الأمراء ولا يجرؤ أحد على أن يسألهم .

ومثال ذلك أيضاً نظرية الوجودية التى تدعو كل إنسان ليثبت وجوده ، وصاحبتها موجة من الانحلال اللا مسئول ، ذلك أنهم لم يفهموا إثبات الوجود على أساس أنه مسئولية العمل الصالح فى الكون ، ولكن فهموا الأمر على أنه انطلاق غرائز على الرغم من أن المفترض فى كل إنسان إذا أراد أن يمد يده ، فعلى يده أن تتوقف حيث يوجد أنف إنسان آخر . لكن هؤلاء الناس عاملوا الناس كأطفال ، تماماً كما يأتى الأب لابنه بلعبة يلعب بها ولتكن آلة تليفون ، يقدمها الأب لابنه ليستغل طاقته قبل أن يكون مكلفاً ، ولكن الأب لا يسمح للابن أن يلعب بآلة التليفون الحقيقية ، وهؤلاء الناس يأخذون الكبار إلى اللعب واللهو حتى لا يتدخل الكبار فى أمور الجد .

ومثال ذلك لعبة كرة القدم ، إنهم ينفخون فيها بالبطولة وينقلون قوانين الجد إلى اللعب . وقبل المباراة بثلاث ساعات تجد قوات الأمن قد سدّت الطرق إلى الملعب

الذى يشهد المباراة . ولو أخطأ الحكم خطأ تافهاً فإنّ الجمهور يثور ويهيج . لكن عندما يخطىء الحكام والحكومات ألف خطأ فلا أحد يتكلم ، لماذا ؟ . لأنكم نقلتم قوانين الجِد إلى اللعب واللهو وتركتم الجِد بلا قوانين .

مثال آخر : نجد كل فاكهة أو محصول أو صناعة فى الوجود يقيمون لها الاحتفالات ويتوجون عليها ملكة ، ملكة الكروم ، ملكة القمح ، ملكة الأزياء ، وكل ذلك من أجل إبراز مفاتن النساء ، ولا يوجد تكريم للعقول التى تنتج . وعلى سبيل المثال نجد ملابس الشباب الرياضية تغطى جسد الشباب من الذكور ، لكنهم لا يفعلون ذلك بالنسبة للإناث ، لماذا لا يغطون أجساد البنات أيضاً أثناء ممارسة الرياضة ؟ . والغرض ـ بطبيعة الحال ـ هو دغدغة أعصاب الناس ، وكل ذلك إفساد فى الأرض .

« ويسعون فى الأرض فساداً » ومن العجيب أن سعيهم للفساد يلبسونه ثوب الحق وثوب الارتقاء وثوب الحضارة . ويأتى أناس من المسلمين ويشجعون مثل هذا الفساد ، وينسون الحقيقة البديهية وهى : « والله لا يحب المفسدين » فسبحانه وتعالى قد خلق الكون على هيئة الصلاح ، فإذا استقبلت خير الله بصلاح الوجود الذى طرأت أنت عليه فأنت تحسن حياتك وعملك ، أما إن لم ترد صلاح الكون فعليك ألا تأتى بفساد .

والحق خلق الكون على نظام دقيق ، ونرى ذلك فى الأشياء التى لا دخل للإنسان فيها ، ونجدها فى منتهى الدقة والاستقامة ، الشمس والكواكب والفصول والرياح ، لكن الفساد يأتى عندما تدخلت يد البشر بغير منهج الله . إذن فالفساد هو الذى يصرف الناس عن منهج الله . ونجد بعضاً من الناس يركبون رءوسهم ويظنون أن ما يفعلونه هو الصلاح ، فينطبق عليهم قول الحق :

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ ﴾

(سورة البقرة)

هذا هو حكم الحق فيهم .. إنهم يدّعون الصلاح ، ولكن يجب عليهم أن يرتدعوا فلا يفسدوا . ومن بعد ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ ﴾

هذا القول يدل على أن أهل الكتاب جميعاً فى غير حظيرة الإيمان ، والحق يوضح لهم : إن فسادكم كان سابقاً على ظهور الإسلام ، ولهذا جاء الإسلام ليخرج الناس من فسادكم أنتم . لقد كان لكم منهج من الله ولكنكم حرّفتموه ، وإن لكم رسلاً أرسلهم الله إليكم ولكنكم أسأتم إليهم ، وطقوساً دينية ابتدعتموها . وجاء الإسلام لا ليهدى الملاحدة فقط ، ولكن ليهدى أيضاً الذين أضلهم أرباب أهل الكتاب . وكانوا من بعد الإسلام يحاربون الإسلام بالاستشراق ، وكانوا يؤلفون الكتب ليطعنوا الإسلام . لكنهم وجدوا أن الناس تنصرف عنهم ؛ لذلك جاءوا بمن يمدح الإسلام ويدس فى أثناء المديح ما يفسد به عقيدة المسلمين .

إننا نجد بعضاً من المؤلفات تتحدث عن عظمة الإسلام تأتى من الغرب ، ولكنهم يحاولون الطعن من باب خفى كأن يقولوا : إن محمداً عبقرى نادر فى تاريخ البشرية ويبنون كل القول على أساس أن ما جاء به محمد هو من باب العبقرية البشرية ، لا من باب الرسالة والنبوة . ونجد مثالاً على ذلك رجلاً أوروبياً يؤلف كتاباً عن مائة عظيم فى العالم ويضع محمداً صلى الله عليه وسلم على رأسهم جميعاً . ونقول له : شكراً : ولكن لماذا لم تؤمن أنت برسالة محمد بن عبدالله ؟

إن شهادتهم لنا لا تهمنا فى كثير أو فى قليل . لقد هاجمونا من قبل بشكل علنى . ويحاولون الآن الهجوم علينا بشكل مستتر . وهم أخذوا بعضاً من أبناء البلاد الإسلامية ليربوهم فى مدارس الغرب وجامعاته من أجل أن يجعلوا من هؤلاء الشباب

دعاة لقضاياهم فى إفساد المسلمين ، ولم ينجحوا إلا مع القليل ؛ لذلك نقول لشبابنا : احذروا أن تكونوا المفسدين وتدعوا أنكم المصلحون ، فلا تأخذوا المسألة بالطلاء الخارجى ولكن انظروا إلى عمق القضايا ، وتذكروا قول الحق :

﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ ﴾

(سورة الكهف)

علينا أن نرقب كل فساد فى الكون ، وسنجد أن لأصابع أعداء الإسلام أثراً واضحاً . لقد كان من اجتراء الصهيونية إلى حد الوقاحة أن تقول : ليطمئن شعب الله المختار ، فثمانون فى المائة من وسائل الإعلام فى العالم خاضعة لإرادتنا ولا يمكن أن يُعلم فيها إلا ما نحب أن يُعْلَم . والحق سبحانه وتعالى عندما يقول :

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ ﴾

(سورة المائدة)

فسبحانه وتعالى بهذه الآية يقدم الفرصة لهؤلاء الناس حتى يدخلوا إلى حظيرة الإيمان ويستغفروا الله عن خطاياهم الماضية وليبدأوا حياة جيدة على نقاء وصفاء بدلاً من التحريف والتضليل . وليعرفوا معرفة حقة قوله تعالى فى رسوله : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » .

هذا القول يجب أن يتهافت إليه غير المسلمين مع المسلمين ليأخذوا من ينبوع الرحمة ، وفى ذلك تصفية عقدية شاملة تتيح لكل إنسان أن يبدأ طريق إصلاح نفسه .

وقوله الحق : « ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا » إنما يدعوهم إلى الإيمان ، والتقوى . والإيمان محله القلب ، أى أن يستقر فى القلب الاعتقادُ بوجود إله أعلى ، وأن نؤمن بالبلاغ عن الإله الأعلى بواسطة الرسل ، وأن نؤمن بالرسل وبالمناهج التى جاءوا بها ، وأن نتبع هذه المناهج ، وأن نؤمن بأن المرجع إلى الله ، هذا الإيمان

ينعكس على الحركة الإيمانية فى الأرض ، ويحقق الإيمانُ مع التقوى اتجاهَ الإنسان إلى الصالح من العمل . وأن يبتعد عن غير الصالح من العمل اتباعاً لقول الحق :

﴿ وَالْعَصْرِ ۝ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ۝ ﴾

(سورة العصر)

ولذلك نجد قولاً لأحد العلماء الصالحين من العرب هو : إن الإيمان كالعُمُد والأعمال كالأطناب . وعرف أن كل بيت له أساس من الأعمدة ، وله أوتاد تثبته . والخيمة العربية هى بيت من القماش السميك على عمود من الخشب وتشد الخيمة إلى الأوتاد بحبال ، وهذه الحبال هى الأطناب ولا تقوم الخيمة إلا إذا ربطت بأحبال وشدت إلى أوتاد . وكان العربى يفك هذه الخيمة ، ويحملها على ظهر بعيره لينصبها فى أى مكان . وكان العربى يختار القماش الذى إن نزل عليه المطر ، يمتص الماء ويمنع سقوطه داخل الخيمة .

إذن فالإيمان عمود ، والأعمال أطناب . وهكذا تكون دعوة الحق لأهل الكتاب حتى يؤمنوا ويتقوا الله حتى يكفر عنهم سيئاتهم ، والكفر ـ كما نعرف ـ هو الستر والتغطية والعفو هو محو الأثر ، كأن الحق سيغطى على سيئاتهم ثم يمحو أثرها وذلك بأن يعفو عنها ؛ لأن الإسلام إنما جاء رحمة يجب أن تستغل ليكفر الحق عن سيئاتهم التى ضللوا بها شعوبهم .

لقد كان من الواجب عليهم أن يعرفوا أن مجىء رسول الله صلى الله عليه وسلم هو فرصة للتراجع عن الكفر والبهتان . وقد جاء صلى الله عليه وسلم ليقيم تصفية عقدية فى الكون ، فالملحد يجب عليه أن يتعرف على خالق الوجود ويؤمن به ، والمبدل لمنهج الله ينبغى أن يعود إلى منهج الله . وتلك هى التصفية العقدية الشاملة . ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم

مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾

أى أنهم لو طبقوا التوراة والإنجيل دون تحريف ، وآمنوا بالقرآن لكان خيرا لهم . والتوراة كتاب اليهود ، والإنجيل كتاب عيسى عليه السلام ، وقد أنزل الله بعد ذلك الكتاب الجامع المانع وهو القرآن الكريم ، وأراد لهم الحق بالإيمان بما جاء فى التوراة والإنجيل من بشارة برسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لأن الإيمان بالتوراة والإنجيل - من قبل تحريفهما - إنما يقود إلى الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم وبما أنزله الله إليه. واليهود - كما عرفنا - هم الذين توعدوا العرب بمجىء رسول الله ، لكن العرب سبقوهم إلى الإيمان بمحمد بن عبدالله « وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به » .

لقد كانوا - أهل كتاب - يملكون المدخل الطبيعى للإيمان بالقرآن وهو الإيمان بالتوراة الصحيحة والإنجيل الصحيح ؛ لأن فيهما نعت رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكان سيدنا عبدالله بن سلام وكان من أحبار اليهود يقول : « لقد عرفت محمداً حين رأيته كمعرفتى لابنى ومعرفتى لمحمد أشد » . وحينما يعد الحق أهل الكتاب إن آمنوا واتقوا بأن يكفر عنهم السيئات ويدخلهم جنات النعيم ، فسبحانه لن يكفر عنهم سيئاتهم ويقيهم من عذاب النار فحسب ، ولكن سيمحو هذه السيئات ويدخلهم الجنة . وسبحانه هو الأعلم بهم ، ويعلم أن منهم الماديين المرتبطين بالدنيا لذلك جاء لهم بخير الإيمان فى الدنيا فقال :

« ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم » فسبحانه يمد لهم أيضاً يد الأسباب فى الدنيا ، والمؤمن هو من يرتقى فى الأخذ بالأسباب فيأخذ نعيم الدنيا والآخرة ، أما الكافر فيأخذ الأسباب دون أن يشكر الخالق عليها .

لقد أراد الحق لأهل الكتاب أن يحسنوا الإيمان أولاً بصحيح التوراة وبصحيح الإنجيل حتى يكون ذلك هو المدخل الطبيعى للإيمان بالقرآن ، فهذا هو السبيل إلى تكفير السيئات بألا يدخلوا النار بل ويدخلون الجنة فى الآخرة . وهم بالإيمان لا يأخذون خير الآخرة فقط بل يأخذون خير الدنيا أيضاً ؛ لأن الحق لا يضن على مجتهد فى الأسباب ، وهو القائل :

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾ ﴾

(سورة الشورى)

فمن بقى منهم على الكفر يأخذ من أسباب الدنيا ولكنه لا يأخذ أبداً من عطاء الآخرة :

﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ ﴾

(سورة الفرقان)

وبذلك يوضح الحق مصير أهل الكفر فى الآخرة أولاً ، ويوضح من بعد ذلك مصيرهم فى عاجل الدنيا ، فإن أخذوا بالأسباب أعطاهم الله نتائج الأسباب ، وهو سبحانه الذى يحتفظ بطلاقة القدرة ، فقد يعطل الأسباب ويسلب الأشياء خواصها ، فالمزارع قد يأخذ بكل الأسباب من حرث للأرض وتسميد لها وانتقاء لسلالة البذور ، ولكنَّ إعصاراً قد يهب فيقتلع كل شىء أو فيضاناً يغرق الزرع ، أو حشرة فتاكة كدودة القطن تأكل المحصول . إذن ، فالأسباب وراءها مُسَبِّبٌ له طلاقة القدرة ، وسبحانه هو الذى وضع القوانين الكونية ، وهو - أيضا - الذى يسلبها خواصها .

فأنت أيها الإنسان سيد الكون بإرادة الله ومقهور فى كثير من الأقضية لقهرية الجبار . صحيح أن لك بعض الاختيارات فى بعض الأشياء ، ولكن هناك قهريات فى أمور لا دخل لك فيها ، فالمرض قد يقتل ، والحادث المفاجىء قد يقتل ، وتلك أشياء من قهريات الله التى تخرج الإنسان عن الأسباب .

إن الحق سبحانه يرينا أن بلاداً كانت دائمة المطر ثم أصابها الجفاف ، لماذا ؟ لأن

الناس تغتر من رتابة النعمة ، ولذلك يمسك الحق الكون بيده ، وهو سبحانه لا يسلمه لأحد أبداً . لذلك يأتي في بعض الأحايين ويقبض أسبابه حتى لا يفتن الإنسان بالأسباب ورتابتها .

وأمثلة ذلك في حياتنا كثيرة ، نرى المزارع الذي يملك عشرات الأفدنة فتهاجمها الدودة فتأتي على الأخضر واليابس ، بينما جاره الذي لا يملك إلا قطعة يسيرة وقليلة من الأرض تطرح الخير كله لصاحبها ؛ لأنه دفع ما يسميه أهل الريف « غفرة الأرض » أي زكاتها . والدودة في هذه الحالة تكون هي من جنود الحق فتأكل المال الباطل ولا تلمس المال الحلال .

﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾

(من الآية ٣١ سورة المدثر)

ولذلك يقدم الحق أسبابه لمن يسعى فيها ، ويزيد للمؤمن . ويقول : « ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم » والرزق ـ كما علمنا ـ قسمان : قسم مباشر وقسم يأتي بالرزق المباشر ، والرزق المباشر هو ما ننتفع به على الفور ، كطعام نأكله أو ماء نشربه ، أما الرزق الآخر فهو المال الذي قد نشتري به الرزق المباشر . وجاء سبحانه بأمور الحياة الواقعية حتى نفهم أن المنهج إنما نزل لينظم حركة الإنسان في هذه الحياة ، والآخرة هي الجزاء على حسن العمل في الدنيا .

وبعد أن وعدهم ـ سبحانه ـ بالجنة جزاءً للإيمان يمد لهم الأسباب في الدنيا رخاءً وسعةً وترفاً وسعادة . ونجد من يسأل : وكيف يأكلون من فوقهم ؟ ونقول : إن الأكل هو المظهر الأساسي لحياة الإنسان ؛ لأن كل حركة يصنعها الإنسان هي فرع عن وجود حياته . ووجود حياة الإنسان يتوقف على ثلاثة عناصر مهمة هي الأكل والشرب والتنفس . فإذا ما أردنا استبقاء الحياة والتناسل فلا بد من توفير لهذه المصادر الثلاثة .

إننا عندما ننظر إلى ترتيب الثلاثة في الأهمية نجد أن الإنسان قد يصبر على الطعام

شهراً . وقد يصبر على الماء مدة تتراوح ما بين ثلاثة أيام وعشرة أيام ، أما التنفس فلا يطيق الإنسان ألا يجد الهواء لمدة دقائق .

ومن رأفة الحق بالخلق أن جعل الحيازة لهذه الأنواع المقومة لاستبقاء الحياة تترتب حسب أهميتها . لذلك نرى من يملك على إنسان آخر طعامه ويتحكم فيه ، لكن الحق يجعل فى جسد الإنسان ما قد يقيته شهراً . ونرى أن الحيازة فى الماء أقل من الحيازة فى الطعام ، لذلك لم يُمَلِّكْهَا الحق إلا نادراً ؛ ذلك أن الإنسان لا يطيق الصبر على العطش إلا لمدة تتراوح ما بين ثلاثة أيام وعشرة أيام . وأما الهواء فلم يجعله الحق ملكا لأحد على الإطلاق ؛ لأن الإنسان لا يمكن أن يستغنى عنه إلا بمقدار الشهيق والزفير ، ولا يستطيع الإنسان أن يدخره فى حجم رئتيه ، لذلك لم يأمن الحق أحداً من الخلق على ملكية الهواء .

وقوله الحق : « لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم » مقصود به أن الاستقامة فى تطبيق منهج الله تُخْضِعُ الأسباب الكونية لهم ، أما إذا ما تمرد الإنسان على منهج الله فقد يعطيه الله زهرة الحياة الدنيا ثم يأخذه أخذ عزيز مقتدر ، فالنواميس الكونية لم تنعزل عن يد الحق .

لذلك يخاطب ـ سبحانه ـ الخلق خطاباً ، فإن انفعلوا للخطاب ، يسرّ لهم كل ما سخّره لهم فى الكون . وإن لم ينفعلوا فهو ممسك الأسباب ويمكنه أن يخرق قوانينها ، فلا الأرض ولا الهواء ولا أى شىء خرج عن طاعة الله ، فإذا ما تمردت جماعة على نعم الله أو على الله فسبحانه يجعلهم نكالاً لغيرهم ويقبض عنهم الأسباب .

والإنسان سيد هذه الكائنات فى هذا الكون ، وهو منفعل ـ أيضاً ـ بقدرة ربه وقد يمرض ، وقد يموت ، وقد ينكسر ، وقد يغرق ، فإذا كان الإنسان وهو المنفعل بـ« كن » من ربه فكيف حال الأشياء الأدنى منه ؟ . إنها أيضاً منصاعة بـ« كن » . والحق قادر أن يقول للأرض : كونى جدباً ، وهو القادر على أن يوقف المطر لأنه هو سبحانه الذى يجعل الأشياء تسير سيراً رتيباً . ألم يقل الحق سبحانه وتعالى فى خطابه لكل خلقه عن الأرض : (بأن ربك أوحى لها) . فإذا كان الحق قد أوحى للأرض

لتبرز الكنوز أو تحدث الزلازل ، فما بالنا بكل شيء آخر ؟ . إن كل شيء إنما يسير بأمر الله ، ذلك أن كل شيء يسبح بحمد الله ، ولكن الإنسان لا يفقه لغات غيره من الكائنات : (ولكن لا تفقهون تسبيحهم) .

وخطاب الله لكل خلقه يفهمه المنفعل له من أى جنس من أجناس الوجود ، ولو علمك الله هذا الانفعال ، لسمعت لغة الكائنات الأخرى . مثال ذلك سيدنا سليمان عليه السلام الذى سمع قول نملة لبقية النمل :

﴿ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ ﴾

(من الآية ١٨ سورة النمل)

وماذا قال سليمان من بعد ذلك ؟ .

قال سليمان :

﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ ﴾

(من الآية ١٩ سورة النمل)

وهو سبحانه القائل :

﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ﴾

(من الآية ٧٩ سورة الأنبياء)

والهدهد قال فى القرآن :

﴿ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾

(من الآية ٢٥ سورة النمل)

إذن فكل كائن فى الوجود يعرف قضية الإيمان وقضية التوحيد . وكل من فى الوجود ينفعل لربه . وهكذا كل الأشياء التى تحفظ للإنسان حياته أو نوعه . فماذا عن حال من يتمرد على الله ؟ . إنه سبحانه قد يقول للأسباب : انقبضى عنه . ونرى ذلك فى حال بعض البلاد على ألوان مختلفة ، فالبلاد التى تقع فى منطقة يعرف عنها أنها دائمة المطر ، يخرق الله طبيعة البيئة فتصير إلى جفاف ، وغيرها التى تستطيع أن تصل إلى الفضاء الخارجى . لا تقدر على مواجهة إعصار ، وذلك ليتأكد لنا أن يد المكوّن ـ سبحانه ـ فوق أسباب الكون .

لذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : « ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم » أى أن يأتى الخير من كل

ناحية . فإذا كان يراد بالأكل الأكل المباشر ، فالمطر هو الذى ينزل من أعلى يروى الأرض فيخرج الزرع ، وكذلك النخل يعلونا ويأتينا بالتمر ، وكذلك أشجار الفاكهة من برتقال وتفاح وغير ذلك . أما ما تحت الأقدام فهى الخضراوات ، والفواكه التى تنمو دون أن يكون لأى منها ساق على الأرض كالبطيخ والشمام وغير ذلك .

ولنا فى سقوط الفاكهة من على أشجارها العالية بعد تمام النضج الحكمة البالغة ، فالرزق الذى طاب وإن لم تسع إليه يأت إليك تحت قدمك .

وإن توسعنا فى فهم قوله الحق : « لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم » . فلله أسرار فوق الأسرار ، وله فيها تحت الأرض أسرار . ألا نأخذ كل شىء يعيننا على الحياة من طبيعة الأرض سواء أكان حديداً أم نحاساً أم بترولاً ؟ . وهكذا نجد أن كل شىء فى الوجود يخدم بقاء نوع الإنسان أو استبقاء حياته هو من عطاء الله .

إذن فلو أن أهل الكتاب أقاموا التوراة والإنجيل والقرآن وساروا على المنهج لوهبهم الله كل خير . ويؤكد الحق هذا المعنى فى آية أخرى فيقول : (ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض) .

ونرى أن الحق قد أفاء على بعض الناس من النعمة الشىء الواسع والكثير ومن بعد ذلك يطغى أهلها بالنعمة فيمهلهم ربنا إلى أن يعلو أمرهم ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر . وحياتنا المعاصرة خير شاهد على ذلك ؛ فكل بلد أخذت نعمة الله لتحاج بها الله وتكون ضد منهج الله نجدها تبوء بالفساد . ويأتى بأس أهلها فيها بينهم شديداً ويخربون بيوتهم بأيديهم . وكم من بلاد كانت متعة الناس أن يذهبوا إليها للترف أو الانفلات . ثم يأتى بأس أهلها بينهم وتخرب بأيدى أبنائها . وفى واقع الكون ما يؤيد صدق ذلك ، وكأن الحق يقول لنا : اعتبروا يا أولى الأبصار .

ويقول سبحانه :

﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ ﴾ (من الآية ١١٢ سورة النحل)

والمراد بالقرية ليس قرية الريف التى نتعارف عليها اليوم ، لأن القرية فى عرف العربى القديم هى المكان الذى يقابل العاصمة . وكانت البيئة العربية قديماً بيئة « التبدّى » أى أنهم يقيمون فى البادية وينتقلون من مكان إلى مكان ، ولم يكونوا متوطنين فى مكان واحد . وكانت عاصمة البدو هى القرية التى تتكون من عدد صغير من البيوت . ولذلك يسمى القرآن الكريم « مكة » بأم القرى . ويضرب الله مثلاً بالقرية الآمنة المطمئنة التى يأتيها رزقها واسعا من كل مكان ، أى أن خيرها ليس ذاتياً ولا نابعاً منها ولكن يأتيها من كل مكان . وفى العصر الذى نعيشه نجد أن خير الدنيا يصب فى قلب بعض القرى ، وما إن يكفر أهل القرية بأنعم الله فما الذى يحدث ؟

﴿ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ ﴾

(من الآية ١١٢ سورة النحل)

وهذا واقع نراه فى كثير من البلاد التى أخذت نعمة الله فبدلتها كفراً فأحلوا قومهم دار البوار . ويرينا سبحانه القرى التى يلبسها الحق لباس الجوع والخوف . وعندما ننظر إلى قول الحق : « لباس » نرى أن الجوع له لذعة ، واللباس له شمول ويلفهم الجوع كما يلفهم الثوب ، وكذلك الخوف فتصير كل جارحة فيهم خائفة : أى أن الحق سلط عليهم الجوع فلا يجدون موادّ الاقتيات . وكذلك الخوف يأتيهم فإما أن يكون الخوف بسبب بأسهم فيما بينهم لأن عداوة بعضهم بعضا شديدة ، وإما أن يكون الخوف من عدو خارج عنهم . وهذا واقع معاصر .

وكيف يكون الكفر بنعم الله ؟ الكفر بنعم الله إما أن يكون بمعنى ستر النعمة . واستعمالها فى معاصى الله ، ومثله مثل الكفر بالله أى ستر وجود الله ، وقد يكون الكفر بنعمة الله بالتكاسل عن استنباط النعمة من مظانها . وفساد العالم الآن يأتى من أناس كسالى عن استنباط نعم الله المطمورة فى كونه ، وأناس يجدّون فى استنباط نعم الله ويحبسونها لأنفسهم ولا يعطون منها الضعاف ، ويستخدمون النعمة فى المعاصى . إذن فقوله الحق :

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ (سورة الأعراف)

وقوله الحق : « ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم » . هو حكم عام ؛ فهل وُجِدَ من يؤديه ؟ . نعم ؛ هناك أناس منهم عرفوا ذلك وساروا إلى السبيل المستقيم ، وعن هؤلاء يقول سبحانه : « منهم أمة مقتصدة » والمقتصد هو الذى يسير فى السبيل القاصد ، وهو السبيل المستقيم إلى الغرض فلا ينحرف هنا أو هناك .

إذن قوله الحق : « منهم أمة مقتصدة » . أى منهم أمة تسير إلى أغراضها وإلى غايتها على الطريق المستقيم . وهذه إشارة إلى أن بعضاً من أهل الكتاب يفعل ذلك ، والبعض الآخر لا يفعل ، وهذا القول أشار أيضاً إلى أن الحق سبحانه وتعالى لا يُخلى وجوده وكونه من خلية خير فيه ، وقد تكون خلية الخير هذه من أضعف الناس الذين لا شوكة لهم فى الدنيا ولا جاه ولا قوة . ولولا هؤلاء الناس لهدّ الله الأرض ومن عليها . ويوضح الرسول صلى الله عليه وسلم هذا الأمر بقوله : « لولا عبادٌ لله رُكع ، وصبية رضع ، وبهائم رُتّع لصُبّ عليكم العذاب صبا ثم رُصّ رَصّا »[1] .

كأننا مكرمون فى هذا العالم من أجل الضعاف فينا . وكأن الحق لا يحجب الخير عن كونه ، بل يجعل فى الكون ذرات استبقاء للخير . ولذلك نجد من يقول : إذا بالغ الناس فى الإلحاد زاد الله فى المد . وقد تجد بلداً كلها من الملاحدة ، وتجد فيها عبداً واحداً متبتلاً لربه ، ويكون هذا الرجل هو الذى يستبقى الله من أجله هواء تلك البلدة وماءها . ولذلك قال سبحانه : « منهم أمة مقتصدة وكثير منهم ساء ما يعملون » .

ويقول الحق من بعد ذلك :



---

(١) رواه الطبرانى فى المعجم الكبير والبيهقى فى السنن الكبرى .

لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾

تبدأ الآية بخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم . ومن عظمة رسولنا المصطفى عليه الصلاة والسلام وعلو مكانته عند من اصطفاه خاتماً لرسالاته فى الأرض أن الله ذكر الرسل فى خطابه لهم بنداء أسمائهم فقط كقوله الحق :

﴿ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ ﴾

(من الآية ٣٣ سورة البقرة)

أو قوله الحق :

﴿ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ ﴾

(من الآية ٣٠ سورة القصص)

أو قوله الحق :

﴿ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ﴾

(من الآية ١١٦ سورة المائدة)

أو قوله الحق :

﴿ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ ﴾

(من الآية ٤٨ سورة هود)

فسبحانه ينادى كل رسول له بالاسم المشخص للذات بصرف النظر عن أى صفة ، لكن رسول الله لم يُنَاد باسمه أبداً بل ناداه الحق بالمشخص للوصف : « يا أيها الرسول » . أو قوله الحق : « يا أيها النبى » .

فكأنك يا رسول الله قد اجتمعت فيك كل مسائل الرسالة لأنك صاحب الدين الذى سينتهى العالم عنده ولا يكون بعد ذلك لله فى الأرض رسالة إلا فهم يؤتيه الله لأحد فى كتاب الله .

ومن عظمة الرسول صلى الله عليه وسلم أن الله أقسم بحياته ، على الرغم من أن الحق لا يقسم بحياة أحد من البشر إلا رسوله ، فقد أقسم بحياته . وهو سبحانه

يقسم بما يشاء على ما يشاء ، أقسم بالريح والضحى والليل والملائكة ، لكنه ما حلف بحياة بشر أبداً إلا حياة محمد صلى الله عليه وسلم :

﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾

(سورة الحجر)

أى وحياتك يا محمد هم فى سكرتهم يعمهون أى يترددون حيارى . ويقول الحق هنا مخاطباً الرسول : « يا أيها الرسول » . ومادام محمد هو الرسول الخاتم الذى جاء مصدقاً لما بين أيديهم من الكتب ، فمعنى هذا أن كل خير فى أى كتاب سبق القرآن موجود فى القرآن وفيه أيضا زيادة مما تتطلبه مصالح الحياة المستجدة . ومادام الخطاب للرسول فهذا يعنى أنه رسول مرسل من قبل الله بمنهج لخلقه ليبلغه لهم : « بلغ ما أنزل إليك من ربك » . وكيف يقول الحق لرسوله : « بلِّغ » وهو يعلم أن مهمة الرسول هى البلاغ ؟

لقد أراد سبحانه بذلك إخبار الناس أنه إن أبلغهم بما يكره بعضهم فهو يبلغ التزاماً بأمر الله ، فهو لا يقول من عنده ، ذلك أن الرسول عليه البلاغ ، فإن أبلغ أحداً ما يكدره فليس له مصلحة فى ذلك . ويورد سبحانه ذلك حتى إذا بَلَّغ الرسول حكماً من الأحكام فعليهم أن يستقبلوا الحكم على أساس أنه قادم من الله . وسبحانه يعلم أن رسوله لا يكتم البلاغ ولكن ليجعل لرسوله العذر عند البشر ، فهو سبحانه حين يخاطبهم بشيء قد يكرهونه ، فهو بلاغ من الله : « يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته » . أى أنه إن لم يفعل ولو فى جزئية يسيرة من المنهج فهذا معناه أن البلاغ ناقص والله يريد أن يكون البلاغ كاملاً بالدين المتكامل .

إن التركيبة الإيمانية تقتضى أن يأتى القول بهذه الطريقة حتى ينسجم البلاغ بشكل كامل ؛ فقد نزل المنهج بكليته ، ويجب أن يُطبق بكليته من أجل أن ينصلح الكون وحتى لاتفسد حركة الإنسان فى الكون، فقد أنزل سبحانه المنهج وأحكمه ليسير العالم على حسب تصميمه له دون أن يختل . ولذلك يقول الحق : « وإن لم تفعل فما بلغت رسالته » . وبذلك يعطى الحق رسوله المناعة الكاملة . فلم يأت برسالة محمد صلى الله عليه وسلم إلا لخير الناس .

لقد سبق أنَ خلق الله آدم وأعطاه المنهج . وكان على آدم أن يبلغ المنهج إلى الذرية وقد فعل ، لكنَّ بعضاً من أجيال بنى آدم غفلت عن المنهج ؛ فيبعث الحق الرسل لتذكر بالمنهج . ولا يأتى رسول إلا بعد أن يكون الفساد قد فشا وانتشر بين الناس . وقد جعل الله فى النفس الإنسانية نفساً لوامة ، ونفساً تأمر بالسوء ، ونفساً مطمئنة .

إن مهمة النفس اللوامة هى أن ترد على كل ما توسوس به النفس الأمارة بالسوء . لكن إن لم تلم النفس اللوامة ، فالنفس الآمرة بالسوء تتمادى ولا يردعها رادع . أما النفس المطمئنة فهى النفس التى تطمئن إلى منهج الله . ومثال ذلك الإنسان الذى تلح عليه شهوته لارتكاب معصية ما فيرتكبها ، ومن بعد ذلك يندم ويلوم نفسه ، ويتوب عن المعصية ، هذا الإنسان يردع نفسه ذاتياً . لكن إن سيطرت النفس الأمارة بالسوء فلا رادع .

وماذا إذا ساد الفساد بين عموم الناس ؟ وماذا لو لم يتناهَوْا عن المنكر الذى يفعلونه ؟ هنا لا بد أن يرسل الحق رسولاً بمعجزة جديدة ليأخذ العالم إلى منطق الرشاد ومنهج الحق .

ولا يختار الحق الرسول إلا إذا علم الرسول أنه مبلغ عن الله . وسبحانه فى الآية التى نحن بصددها يعطى رسوله المعذرة إن بلغ قومه شيئاً يسوؤهم ، فما على الرسول إلا البلاغ فى قوله : « وإن لم تفعل فما بلغت رسالته » . ونعرف أن الرسالة تقتضى : المرسِل وهو الله ، والمرسَلَ إليهم وهم الخلق ، ومرسَلاً وهو النبى صلى الله عليه وسلم والمرسَل به وهو ما نزل على الرسول ليبلغه . وفى كل أمر مثل هذا نجد أن كلمة « أرسل » تتعدى إلى مفعولين ؛ المرسَل : مثال ذلك أرسلت فلاناً إلى فلان ، والمرسل إليه : وهو فلان . إذن فهنا مفعولان اثنان ، أولهما تعدى الفعل إليه بذاته والآخر تعدى إليه الفعل بحرف الجر .

وحرف الجر هنا هو : « إلى » . وبطبيعة الحال يعرف الرسول أنه مرسَل إلى الناس من الله رعاية لمصالحهم ؛ فليس فى أمر الرسالة شيء لصالح الله . وإن رأيت تعدياً بـ « إلى » فهو لتحديد الغاية المرسل إليها ، مثل قوله الحق :

﴿ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾

(من الآية ٤٩ سورة آل عمران)

وهذا يوضح أن عيسى ـ عليه السلام ـ جاء مبعوثاً بمنهج إلى بنى إسرائيل لصالح بنى إسرائيل . ومثلها يقول الحق : وأرسلناك للناس رسولا » . أى لصالح الناس . و« اللام » هنا تفيد المعنيين ؛ النفعية والغاية .

« بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته » أى أنه صلى الله عليه وسلم إن لم يبلغ الرسالة كاملة فمعنى ذلك أن البلاغ يكون ناقصاً . ومعاذ الله أن يكون بلاغ رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أنقص شيئاً ، فمنهج الله كل متكامل .

وقد يقول قائل : ولكن الناس قد لا تؤدى فروض الله فى مواعيدها ، والمثال على ذلك هو الصلاة . ونقول : إن هذا عجز فى إدارة الناس لحياتهم حسب منهج الله . ومن واجب المجتمعات أن تنظم حركة الناس اليومية من بعد صلاة الفجر إلى الظهر . وفى ذلك قدر هائل من الحيوية والنشاط ، وينتهى العمل عند الظهر ، فلا تتصادم حركة الناس مع منهج الله ، ولا توجد عرقلة ولا نشاز فى حركتهم .

ثم يقول الحق : « والله يعصمك من الناس » . وكان لا بد أن يأتى هذا القول الحكيم ؛ لأننا نعرف أن الرسول لا يجىء إلا بعد أن يعم الشر ويسود الفساد ، ذلك أنه لو لم يسد الفساد ، ولم يعم الشر لاكتفى الله بالمجتمع ليردع بعضه بعضاً ، أو يكتفى الحق بأن تردع النفسُ اللوّامةُ النفسَ الأمارةَ بالسوء لتستوى النفس المطمئنة على عرش السلوك البشرى .

لكن عندما يعم الفساد الكونَ . فالسماء ترسل الرسول بمنهج يصلح حال البشرية . وبطبيعة الحال لن يترك المجتمعُ الشريرُ الرسولَ لحاله بل يقاومه ؛ لأن مثل هذا المجتمع يريد أن تكون كفة الكون غير متوازنة ؛ لأن هناك منتفعين بالفساد والشر ، وهم المدافعون عن الفساد ، فإن جاء من ينصف الضعفاء والمظلومين فلا بد أن يتعرض للمتاعب التى تأتيه من قبل الأقوياء المفسدين .

إن هذه المتاعب تبدأ أول ما تبدأ فى النفس ؛ ولأن الرسول مخاطب من الله فيمكنه أن يتحملها ؛ لأن الحق قد أعده لهذه المهمة ، ومثل تلك المتاعب تأتى أيضاً للأتباع ، لذلك يمدهم الله بالمدد الذى يجعنهم يتحملونها . والحق يحفظ للرسول ذاته على الرغم من كل ما يحدث : « والله يعصمك من الناس » .

فكأن الحق يقول لرسوله : اطمئن يا محمد ؛ لأن من أرسلك هداية للناس لن يخلى بينك وبين الناس . ولن يجرؤ أحد أن ينهى حياتك . ولكنى سأمكنك من الحياة إلى أن تكمل رسالتك . وإياك أن يدخل فى رُوعك أن الناس يقدرون عليك ، صحيح أنك قد تتألم ، وقد تعانى من أعراض التعب فى أثناء الدعوة ، ولكن هناك حماية إلهية لك . ونحن نعلم قدر المتاعب التى تعرض لها الرسول صلى الله عليه وسلم . ألم تكسر رَباعيته[1] صلى الله عليه وسلم فى غزوة أحد ؟ ألم يشج وجهه ؟ ألم تدم أصبعه فيقول : « إن أنت إلا أصبع دميت وفى سبيل الله ما لقيت »[2] .

لكن قول الحق سبحانه لرسوله : « والله يعصمك من الناس » لم يكن المقصود هو منع الجهاد فى سبيل الله والمعاناة فى سبيل نشر الدعوة . ولكن الحق يبين لرسوله : إن أحداً غير قادر على أن يأخذ حياتك .

ولم يمنع سبحانه المتاعب عن رسوله الكريم حتى لا يكون هناك أحد الداعين إلى الله لا يتحمل من الآلام أكثر مما تحمل رسوله صلى الله عليه وسلم ، ولننظر ونستمع جيدا إلى ما ترويه عائشة أم المؤمنين ـ رضى الله عنها ـ حول هذه الآية إنّها قالت :

« سهر رسول الله ذات ليلة وأنا إلى جنبه ، فقلت : يا رسول الله ما شأنك ؟ قال : (ليت رجلاً صالحاً من أصحابى يحرسنى الليلة) . قالت : وبينما نحن فى ذلك إذ سمعت صوت سلاح فقال صلى الله عليه وسلم : من هذا ؟ فقالوا : سعد وحذيفة جئنا نحرسك. فنام صلى الله عليه وسلم حتى سمعت غطيطه ونزلت هذه

(١) الرَّبَاعيَة : السن بين الثنية والناب .

(٢) رواه البيهقى فى دلائل النبوة .

الآية فأخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم رأسه من قُبّة أدَم وقال : « انصرفوا أيها الناس فقد عصمنى الله »[1] .

وهناك باحثة بلجيكية عكفت على دراسة سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى وصلت إلى هذه النقطة ، فتوقفت عندها لتقول : لو كان هذا الرجل يخدع الناس جميعاً ما خدع نفسه فى حياته ، ولو لم يكن واثقاً من أن الله يحرسه لما فعل ذلك كتجربة واقعية تدل على ثقته فى خالقه . وأضافت الباحثة البلجيكية : ولذلك أنا أقول بملء اليقين : « أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله » . لقد أسلمت المرأة لمجرد وقوفها عند لمحة واحدة من لمحات حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ويقول الحق من بعد ذلك : «إن الله لا يهدى القوم الكافرين » . ونعرف أن الهداية تعنى الدلالة الموصلة إلى الغاية ، وهى أيضا المعونة التى توصل طالب الهداية إلى الغاية . وكان الكفار الذين يبيتون للرسول وينهكون أنفسهم فى المكر والتفكير والتبييت ، فيقطع الحق سبحانه وتعالى عليهم كل سبيل ، وينصره عليهم ، ويأتى التطبيق العملى لنصر الله للمؤمنين فى بدر :

﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾

(من الآية ٢٤٩ سورة البقرة)

لقد بيتوا ، ولكن عند المواجهة لم يقدروا على محمد صلى الله عليه وسلم وصحبه ولم يستطيعوا إيذاءه ، برغم المكر والتبييت ؛ لأن الحق قطع عليهم كل سبيل لإيذاء محمد ، ولن توجد وسيلة من وسائل اللؤم والخبث قادرة على قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقد تمثل ذلك يوم خرج رسول الله مهاجراً وغطى الله أبصار فتيان القبائل الذين حملوا سيوفهم ليقتلوا محمداً وليفرق دمُه بين القبائل فلم يبصروه لأن الله جعل على أبصارهم غشاوة .

إذن فكلما فكروا فى طريقة سد الله عليهم منافذ تنفيذ فكرتهم . وكأنه يقول لهم : لن تستطيعوا مصادمة محمد فى منهجه لا بالعلن ولا بالدس ولا بالخفية ، بل أنتم

(١) رواه القرطبى ، وروى مسلم قالت : ـ أى السيدة عائشة ـ فبينما نحن كذلك سمعنا خشخشة سلاح (أى صوته) فقال : من هذا ؟ قال سعد بن أبى وقاص فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم : ما جاء بك ؟ فقال وقع فى نفسى خوف على رسول الله صلى الله عليه وسلم فجئت أحرسه فدعا له رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم نام .

ـ أيها الكفار ـ تخدمون الدعوة من حيث تريدون هدمها ، فقيامكم ضد محمد فى بداية الدعوة كان لإثبات أن الحق جل وعلا أراد أن يشتد عود الدعوة بكفر أهل قريش . وعندما أردتم قتل محمد وأن يتفرق دمه بين القبائل خرج محمد سالماً وأغشى الله أبصار الذين أرادوا القتل ، وهاجر صلى الله عليه وسلم . وفى الطريق إلى الهجرة يكون دليله من الكفار وهو عبدالله بن أريقط . كان ذلك لنعلم أن الكفر كان وسيلة الهداية إلى طريق رسول الله صلى الله عليه وسلم .

عبدالله بن أريقط وهو كافر لا تغريه المكافأة أن يشىَ ويسعى بالرسول لدى مشركى مكة . ولكنهم لم يتخذوا من كل ذلك عبرة . وكذلك الغنم تُعفِّى الأثر ، والأرض تشد قوائم فرس سراقة لتغوص وتسوخ فيها .

إذن فكل جنود الله فى صف محمد بن عبدالله . وهكذا رأينا كيف لم يهد الحق القوم الكافرين إلى الغاية التى أرادوها وهى التمكن من محمد صلى الله عليه وسلم ، وأيضاً لا يهديهم الله إلى الإيمان . ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾

و« قل » ـ كما نعرف ـ هى خطاب له صلى الله عليه وسلم ، وما يلى ذلك بلاغ من الله لأهل الكتاب إنهم بلا منهج لأنهم لم يقيموا التوراة والإنجيل بل حرفوهما ، ولم يؤمنوا بالقرآن ، وهو المنهج الكامل المنزل على محمد بن عبدالله .

وحين يقول الحق : « لستم على شيء » فكلمة « شيء » تقال لأدنى فرد من أى جنس ، فالقشة شيء ، وورقة الشجرة شيء ، وما يطلق عليه شيء - إذن - هو الأقل .

وقوله الحق : « لستم على شيء » أى إياكم أن تظنوا أنكم حين تقومون بتنفيذ جزء من تعاليم التوراة والإنجيل وتخفون الباقى وتهملونه تكونون قد أخذتم شيئاً من الهداية ، لا ؛ فأنتم لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل وتؤمنوا بالكتاب الذى أنزل على محمد . والمنهج ليس عرضة لأن تأخذوا منه ما يعجبكم وأن تتركوا ما لا يعجبكم .

وعندما يقال : « لستم على شيء » . ونعرف أن الشيء هو أقل مرتبة فى الوجود ، ولذلك نقول : شيء خير من لا شيء . ويقال بالعامية : هاش خير من لاش و« هاش » هو الهالك من ثياب المنزل الممزقة ، أى أن الذى يملك ملابس ممزقة أفضل ممن لا يملك شيئاً على الإطلاق .

وقوله الحق : « لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليكم من ربكم » هو إيضاح لهم أنهم فى المرتبة الأدنى من الكائنات لأنهم بلا منهج . ويضيف : « وليزيدن كثيراً منهم ما أنزل إليك من ربك طغياناً وكفراً » أى أنهم لن يظلوا على درجة واحدة ثابتة من الطغيان والكفر ، بل كلما أنزل الحق إليك آية يا محمد ، وكلما نصرك الله فى أمر ازدادوا هم طغياناً وكفراً . وكان من المفروض أن زيادة نزول الآيات لرسول الله صلى الله عليه وسلم تكون إضعافاً لتشددهم وترقيقا لقلوبهم ، لكنه سبحانه أراد أن تشتد شراستهم وحقدهم فى أمر الاعتراف بالإسلام .

وقد حدث من خالد بن الوليد وكان فارس الجاهلية ضد الإسلام أن قال لعمرو ابن العاص : لقد استقر الأمر لمحمد . واتجه الاثنان إلى الإسلام على الرغم من أن كلا منهما يعرف قوته ومكانته بين قومه . وبعد أن رأى خالد وعمرو أن الخيبة هى نصيب الواقف ضد محمد مهما علا شأنه ، ذهبا إلى الإسلام ، وهذا هو موقف المتدبر للأمر دون حقد ولَدَد . أما الذى يزدحم بالمعاناة حقداً ولدداً فتزيده آيات الله لنصرة

منهجه حقداً ولدداً وطغياناً ؛ لأن الله شاء ألا يهديهم . ولذلك تصير كل آية فى صف الإيمان والمؤمنين مصدرَ إثارةٍ وغيظ ومرارة فى نفوس أهل الكفر . وهكذا يوطن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمره تجاه هؤلاء الكفار .

إنك يا رسول الله لا تواجه طاقة محدودة ولكنك تواجه طاقة من الشر النامى . وكل آية إنما تهدى الذى فى أعماقه بذرة من خير ، أما الذى ينتفى الخير من داخله فالمسألة تزيده شراسة فى قلبه. إن الشرير يُصَعِّد الشر ويزداد جُرمه وإثمه، أما الخير فينزل من قِمّةِ الجرم إلى أقل درجة . ولنا المثل فى قصة سيدنا يوسف عليه السلام ، فالحق يقول على لسان إخوة يوسف :

﴿ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾

(من الآية ٨ سورة يوسف)

ومن بعد ذلك قالوا لأبيهم : « مالك لا تأمنا على يوسف » . ثم أخذوا فى التبييت والتدبير وقالوا : « أرسله معنا غداً يرتع ويلعب » . وكان أول تدبير لهم هو ما قاله الحق حكاية عنهم : « اقتلوا يوسف » .

ومعنى القتل هو إزهاق الروح ، وهذه أعلى درجات الشر ، لكنهم يتراجعون عنها ويقولون : « أو اطرحوه أرضاً » . فهم لم يرغبوا فى قتله ، واكتفوا بأن يتركوه فى مكان بعيد ، وتصوروا أن بعض السيارة قد يلتقطه فيبعدون يوسف عن أبيه . إذن هم بدأوا التدبير قتلاً ، ثم انتهوا بالتفكير لنجاة يوسف :

﴿ ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ ﴾

(من الآية ٩ سورة يوسف)

والمرحلة الثالثة قولهم : « ألقوه فى غيابة الجب » والجب فيه مياه ، وهناك أناس كثيرون يذهبون إلى مصادر المياه . هكذا يورد الحق لنا كيفية نمو الخير من بطن الكيد .

إذن . فقوله الحق : « وليزيدن كثيراً منهم ما أنزل إليك من ربك طغياناً وكفراً » أى أن الكثير منهم سيواصل رحلة التصعيد فى الشر ، فوطن نفسك يا محمد على ذلك .

ونلحظ أن الحق قد وضع صيانة لاحتمال أن تفكر قلة منهم فى الإيمان ، لذلك لم يشملهم كلهم بالحكم ، ولكن الحكم شمل الكثرة من هؤلاء الكافرين . ولذلك يقول الحق لرسوله : « فلا تأس على القوم الكافرين » أى لا تحزن عليهم يا رسول الله . فعلى الرغم من عداوة وشراسة من صادموا دعوته صلى الله عليه وسلم ومحاولتهم كل تلك المحاولات ، كان لا يكف عن الدعاء لهم : « اللهم اهد قومى فإنهم لا يعلمون »[1] . وكان لا يكف عن القول : « لعل الله يخرج من أصلابهم من يعبد الله »[2] وقد تم ذلك بالفعل .

وكان الصحابة بعد الغزوات الأولى يقول كل منهم للآخر : أنا حزين لأن عمرًا أفلت منى ولم أقتله . فيقول الآخر : وأنا حزين لأن عكرمة أفلت منى . ويقول الثالث : وأنا لا أدرى كيف أفلت منا خالد بن الوليد . ولم يمكن الحق الصحابة الأوائل من هؤلاء المقاتلين الأشاوس لأنه يدخرهم للإسلام ، فكان عدم تمكين المسلمين من هؤلاء تمكيناً للإسلام ليحملوا السيف للإسلام مدافعين وناشرين لدعوته . وها هوذا عكرمة بن أبى جهل يتلقى الطعنة الأخيرة فى حياته فيضع رأسه على فخذ خالد بن الوليد ويسأله : أهذه ميتة ترضى عنى رسول الله ؟ إذن فقد أراد الله من عدم تمكين المسلمين منهم فى أوائل الغزوات أن يكونوا جندًا للإسلام بقدراتهم القتالية فاستبقاهم أحياء ليخدموا الدعوة . ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾

(١) أخرجه الزبيدى فى إتحاف السادة المتقين ، والسيوطى فى الدر المنثور .

(٢) رواه البخارى فى بدء الخلق ، ومسلم فى الجهاد .

هم - إذن - أربعة ألوان من الذين لم يؤمنوا برسالة رسول الله . وهذه الآية وردت فى صورتها العامة ثلاث مرات ، مرة فى سورة البقرة ، ومرة هنا فى سورة المائدة ، ومرة فى سورة الحج .

ففى سورة البقرة يقول الحق :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾

(سورة البقرة)

ولنلحظ أن كلمة « الصابئين » فى هذه الآية منصوبة .

وفى سورة المائدة نجد قول الحق :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾

(سورة المائدة)

ولنلحظ أن كلمة « الصابئون » هنا مرفوعة ومقدمة على كلمة « النصارى » .

وفى آية سورة الحج يقول الحق :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾ ﴾

(سورة الحج)

هنا إخبار عن أربعة ، وزاد الحق عليهم اثنين فى آية الحج ، ونجد أن الإخبار يختلف ، وكذلك يختلف الأسلوب ، فمرة تتقدم النصارى على الصابئين ، ومرة تتقدم الصابئون على النصارى . ومرة تكون الصابئون مرفوعة ، ومرة تكون منصوبة بالياء .

وأما اختلاف الإخبار ، فهو سبحانه يخبرنا فى سورة البقرة فيقول :

﴿ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾

(من الآية ٦٢ سورة البقرة)

والخبر فى سورة المائدة هو :

﴿ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾

(من الآية ٦٩ سورة المائدة)

والخبر فى سورة الحج هو :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾

(من الآية ١٧ سورة الحج)

والآيات الثلاث فى مجموعها تتعرض لمعنى واحد ، ولكن الأساليب مختلفة وكذلك الغايات فيها مختلفة .

ونلحظ هنا أن الحق قال : « آمنوا » والإيمان هنا هو الإيمان اللفظى أى بالفم وليس بالقلب ، والمتصفون بذلك هم المنافقون والذين هادوا ، هم أتباع موسى ، والنصارى هم أتباع عيسى ، والصابئون ليسوا أتباعاً لأحد فقد كانوا أتباعاً لنوح ثم صبأوا عن ديانة نوح وعبدوا الكواكب ، أو هم قوم عدلوا عن اليهودية والنصرانية وعبدوا الملائكة . والمجوس وهم عبدة النار . إذن فالحق يريد أن يجرى تصفية إيمانية فى الكون ، فمن يبادر ويدخل فى هذه التصفية . يسلم من شر ما فعله قبل مجىء الإسلام ، ذلك أنهم أضلُّوا أناساً أو حكموا بالظلم .

والحق فى سورة البقرة يقول : (فلهم أجرهم عند ربهم) أى أنه ـ سبحانه ـ غفر لهم ما فعلوا من سوء وجزاهم على عملهم الصالح الذى لم يحبطوه ويذهبوه بعمل السيئات والآثام . هذا ما يتعلق بالآيتين . . آية سورة البقرة ، وآية سورة المائدة ، ونلاحظ أن آية سورة المائدة لم يرد فيها قوله : (فلهم أجرهم عند ربهم) ولعل ذلك راجع إلى الاكتفاء بذكرها فى سورة البقرة ، وذلك له نظير فى القرآن الكريم . . كحمل المطلق على المقيد ونحو ذلك .

أما آية سورة الحج فهى التى يأتى فيها الحكم : « إن الله يفصل بينهم يوم القيامة » كأنهم لن يؤمنوا ولن يعملوا الصالح ، فتكون هذه هى التصفية العقدية فى الكون .

وقد جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ليصفى المسألة الإيمانية فى الأرض ويقول عن المؤمنين بألسنتهم وهم المنافقون : « إن الذين آمنوا » وهو ابتداء الخبر ، وتكون فيه « الذين آمنوا » فى محل نصب لأنه اسم « إن » كما يقول النحاة ، وهو سبحانه قال هنا : و« الصابئون » وهى معطوفة على منصوب . وهذا كسر للإعراب . إنّ الإعراب يقتضى أن تكون الكلمة منصوبة فتكون « الصابئين » لماذا إذن عدل الحق عن إنزال الكلمة حسب سياقها من الإعراب وأنزلها بكسر الإعراب مع أنه فى آية أخرى قال : (إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين) .

لقد جاءت هنا فى مكانها ودون كسر للإعراب ، وهى قد جاءت مرة قبل كلمة « النصارى » وجاءت مرة أخرى بعد كلمة « النصارى » . وهنا لا بد أن نتعرف على زمنية الصابئين ، فقد كانوا قوماً متقدمين قبل مجىء النصرانية ، فإن أردنا أن نعرف زمانهم نجد القول الحق يقدمهم على النصارى ، وإن أردنا أن نعرف منزلتهم فإننا نقرؤها فى موضع آخر فى القرآن ونجدهم يأتون بعد « النصارى » . إذن فعندما أرّخ الحق لزمانهم جاء بهم متقدمين ، وعندما أرّخ لكمّهم وعددهم ومقدارهم يؤخرهم عن النصارى ؛ لأنهم أقل عدداً فهم لا يمثلون جمهرة كثيرة كالنصارى .

وجاء بها الحق مرة منصوبة ومرة مرفوعة ، لنعرف ونلتفت إليهم . وكسر الإعراب كان لمقتضى لفت الانتباه . وكان الصابئة قوماً يعبدون الكواكب والملائكة ، وهذا لون من الضلال .

إذن فهناك اليهود الذى عرفوا أن هناك إلهاً ، وجاء موسى عليه السلام مبلغاً عنه ، وهناك النصارى الذين عرفوا أن هناك إلهاً ، وجاء عيسى ابن مريم ـ عليه السلام ـ مبلغاً عنه ، وهناك المنافقون الذى أعلنوا الإيمان بألسنتهم ولكن لم يلمس الإيمان قلوبهم .

وأراد الحق أن يلفتنا إلى أن الصابئين هم قوم خرجوا عن دائرة التسليم بوجود إله خالق غيب ، ويحدثنا الحق أنه يغفر لهم إن آمنوا وعملوا صالحاً . فالإيمان بالله شرط أساسي لقبول العمل الصالح والإثابة عليه . وجاء بهم متقدمين على النصارى احتراسا وتوقيا من مظنة أنه لا يعفو عنهم إن آمنوا وعملوا العمل الصالح .

ونلحظ أنها جاءت أيضاً في معرض جمع الله فيه بينهم وبين من يعبدون أغياراً من دون الله ؛ لأن من يلصق ألوهية بغير الله يكون كمن عبد الكواكب وخرج عن التوحيد .

إنه سبحانه وتعالى يتيح لكل إنسان أن يدخل حظيرة الإيمان ويقيم تصفية عقدية يدخل فيها الكل إلى رحاب الإيمان ويقطعون صلة لهم بالشرك . فلو آمن المنافقون واليهود والنصارى والصابئون وعملوا الصالحات فلهم الأجر والمثوبة من الله ولا خوف عليهم من عذاب الآخرة ولا يحزنون على ما فاتهم من الدنيا ، وجاء العمل الصالح بعد الإيمان ؛ لأن الإيمان إذا لم يقترن بعمل صالح يكون عرضة للسلب والعياذ بالله ولا فائدة فيه ، وسبحانه يريد أن يسيطر الإيمان على حركة الحياة بالعمل الصالح فيأمر كل مؤمن بصالح العمل حتى يكون لهم الأجر عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون .

أما الذين يصرّون على موقفهم الكفري ، فإن الله يفصل بينهم يوم القيامة لأنه على كل شيء شهيد . وكلمة « يفصل » تدلنا على أنه سبحانه وتعالى سيصدر الحكم الذي يبين صاحب الحق من غيره . ونعرف أن الذي يحكم إنما يحكم ببينة . والبينة هي الإقرار ، والإقرار ـ بلغة القانون ـ سيد الأدلة . أو الحكم بشهود ، أو الحكم باليمين ، وهو سبحانه يفصل بين المواقف المختلفة . والفصل هو القضاء بحكم . وعندما يكون الذي يحكم هو الذي شهد ، فهو العادل . لذلك قال الحق : « إن الله على كل شيء شهيد » .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًاۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُواْ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾

والميثاق هو العهد المؤكد الموثق ، الذى يقتضى الوفاء الشديد . ولا تُوثق العهود إلا مظنة المخالفة . والمواثيق فى الإيمان بالله كثيرة . فهناك الميثاق الأول عندما كنا جميعاً فى ظهور الآباء .

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْۖ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ ﴾

(من الآية ١٧٢ سورة الأعراف)

أو الميثاق الذى أخذه الله لنصرة رسول الله صلى الله عليه وسلم :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِيۖ قَالُوٓاْ أَقْرَرْنَاۚ قَالَ فَٱشْهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

أو الميثاق الخاص الذى أخذ على كل أمة . وفى كل جزئية من جزئيات الدين يؤخذ ميثاق ، فنحن فى الإسلام مأخوذ علينا الكثير من المواثيق . وكذلك رأينا النبى وقد أخذ لنفسه الميثاق فى العقبة ، رأى الرسول أن ما يربطه بالأوس والخزرج الكثير ، كما يربطه بكل قوم يحنون إلى الوحدة تحت راية إيمان واحد ، وكان اليهود

يعتبرون عرب الأوس والخزرج مجرد همج وخدم يعملون لهم ، وارتأوا السيادة لأنفسهم . وكلما اختلفوا معهم هددوهم بمجيء رسول قادم سيؤمنون به وسيقتلونهم تقتيلاً .

وكان كل من الأوس والخزرج يحاول أن يستميل اليهود إليه ؛ فالأوس حالفت بنى قريظة . وحالف الخزرج بنى قينقاع وبنى النضير . وتلقى الاثنان الوعيد من اليهود بعد ظهور النبى القادم ، وذلك ما جعل كلاً من الأوس والخزرج يُسرع إلى التعرف على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجاء فى موسم الحج نفر من ستة رجال ودعاهم صلى الله عليه وسلم إلى الإسلام فآمنوا به صلى الله عليه وسلم وقالوا : إنا تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم فعسى أن يجمعهم الله بك فسنقدم عليهم فندعوهم إلى أمرك ونعرض عليهم الذى أجبناك إليه من هذا الدين فإن يجمعهم الله عليك فلا رجل أعز منك .

وجاءوا فى العام الذى يلى ذلك إلى موسم الحج وزادوا حتى صاروا اثنى عشر رجلاً . وكانت المعاهدة ألا يشرك منهم أحد بالله وألا يسرق وألا يزنى وألا يقتل أولاده وألا يأتى ببهتان يفتريه بين يديه ورجليه ، ولا يعصى رسول الله فى معروف . وعادوا إلى المدينة ومعهم مصعب بن عمير يعلمهم القرآن . وفى العام الثالث جاء ثلاثة وسبعون رجلاً وامرأتان هما نسيبة بنت كعب أم عمارة ، وأسماء بنت عمرو بن عدىّ ، وكانت مبايعتهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وزاد من ذلك إرباك قريش ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لهم :

(أبايعكم على أن تمنعونى مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم) فأخذ البراء بن معرور بيده ثم قال : نعم والذى بعثك بالحق نبيا لنمنعنك مما نمنع منه أزرنا فبايعْنا يا رسول الله ، فنحن والله أبناء الحرب وأهل الحلْقَة (السلاح) وتكلم أبو الهيثم بن التيهان فقال : يا رسول الله إن بيننا وبين الرجال حبالاً وإنا قاطعوها ـ يعنى اليهود ـ فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا ؟ فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال : « بل الدم الدم والهدم الهدم ، أنا منكم وأنتم منى أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم » . وبسط يده صلى الله عليه وسلم فبايعوه . وكانت بيعة العقبة ميثاقاً يضمن لأهل البيعة الجنة إن أوفوا به . وقد أوفوا . وهذا

لون من العهود والمواثيق . وحين يخبرنا الحق هنا أنه أخذ من بنى إسرائيل الميثاق ، فمعنى ذلك أن هناك عهداً موثقاً مؤكداً :

﴿ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾

(سورة المائدة)

وقد أخذ الحق الميثاق وأرسل رسلاً بالمنهج ، لكنهم كلما جاء إليهم رسول تباحثوا : هل المنهج الذى جاء به على هواهم أو لا ؟. فإن لم يكن المنهج على هواهم قتلوا الرسول أو كذبوه على الرغم من أن الميثاق عهد مؤكد باتباع الرسول إن جاء بمعجزة ومنهج بلاغاً عن الله وتنفيذاً له فى حركة الحياة .

لكنّ بنى إسرائيل كانوا يتمردون على مناهج الرسل لأنها لا تأتى بما تهواه أنفسهم . وأول التمرد التكذيب . وهو أول خطوة فى طريق الإخلال بالميثاق ، ولم يكتفوا بالتكذيب ، إنما حاولوا حصار الرسول حتى لا يصل المنهج إلى آذان تهتدى به . ولذلك لا يكتفون بالتكذيب بل قد يقتلون الرسول لأنه جاء بما لا تهوى أنفسهم .

ما هو الهوى أولاً ؟. هو من مادة « الهاء والواو والألف المقصورة التى ترسم ياء » ونجدها منطوقة مرة هَوى ومرة هواء . ومرة « هوى » بضم الهاء وكسر الواو وتشديد الياء ، وكلها تدل على التغلغل والانحياز . والهوَى هو لطف الشيء فى النفس والميل إليه . فالشيء تستلطفه فى نفسك فتنزع إليه نزوعاً وقد يكون غير مستحب أو غير مقبول ولا مشروع .

وهل كل الهوى كذلك ؟. لا ، لأن هناك هوى الإيمان الذى علمنا إياه رسول الله صلى الله عليه وسلم حين يقول : « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به »[1] .

إذن فمن الممكن أن يتجه الهوى إلى الخير . وهو الهوى الذى يحمل النفس على أن يسير الإنسان تبعاً للحق . أما الهواء فهو الذى يتنفسه الإنسان ويستخلص منه

(١) رواه البغوى فى شرح السنة ، والتبريزى فى مشكاة المصابيح والمتقى الهندى فى كنز العمال .

الأوكسجين ليغذى به الجسم وتسير به الحياة . ولذلك يقول الأثر : وأقبلْت كالنَّفَس المرتَدِّ .

إنه الإقبال الرقيق ، فنحن نعرف أننا إن أكلنا شيئاً نحبه فإننا نشعر بطعمه ، وعندما نشرب شيئاً نحبه فنحن نتذوق طعمه ، أما التنفس فهو أمر لا إرادى ، فعندما نتنفس شيئاً نحبه يكون إحساساً لطيفاً .

وهناك نطق ثالث ويعبر عن السقوط ، وهو الهُوِىّ من هَوى يهوى - بالكسر للواو- ولذلك يقال : هُوِىّ الدلو ، أى نزول الدلو إلى المياه التى فى البئر . فأى نوع من الهوى تقصده الآية ؟

يقول الحق : « كلما جاءهم رسول بما لا تهوَى أنفسهم فريقاً كذبوا وفريقاً يقتلون » إذن فالهوى الذى يُتَحَدّث عنه هنا هو هوى النفس المجردة عن المنهج ، وهو الذى يتحكم فى حركة هذه النفس ويقودها إلى غير طاعة الله . وهل ترك الحق النفس الإنسانية دون عاصم لها ؟ لا ؛ لأنه أنزل الرسل تحمل منهجاً ملخصه « افعل » و«لا تفعل » . وهكذا يمكن أن يصير المنهج قَيِّماً على خواطر النفس .

لكن مادام الحق قد أراد أن يكون المنهج قَيِّماً على خواطر النفس ، فلماذا أوجد النفس ؟. لقد أوجد سبحانه النفس لأن وجودها ينبنى عليه أن يَهوَى إنسان الحق والحلال لاستبقاء النوع وتجويد العمل لحلال الرزق . إذن فالغريزة تكون موجودة وقد خلقها الله لمهمة ، ولكنه يعصمها بالمنهج من الخروج عن مهمتها .

ويقول قائل : مادام الله قد خلق غريزة الجنس . . فلماذا لا نتركها لتعبر عن نفسها ؟ ونقول له : اتق الله واعلم أن الغريزة الجنسية إنما جاءت لبقاء النوع ، واستخدامها فيما يغضب الله فناء للنوع وانحراف يعاقب عليه المنهج .

وكذلك أوجد الحق غريزة حب الطعام ليقيم الإنسان حياته ولم يوجدها للقضاء على الحياة بالنهم والتخمة والشره . وكذلك غريزة حب الاستطلاع ليست موجودة للتجسس على الناس ، ولكن هى لاستكشاف أسرار الكون واستنباط الجديد فيما

ينفع الناس . إذن فكل غريزة إنما توجد من أجل مهمة ، فإن خرجت عن مهمتها ، فالشرع يتحكم ويقول : لا . إن هناك إطاراً يمكن أن تستخدم فيه الغرائز ، والشرع إنما يأتى لا ليمحو الغرائز ، ولكن ليعليَ من الغرائز ليستعملها الإنسان فيما ينفع لا فيما يضر .

ويقال فى المثل العربى : « آفة الرأى الهوى » فإذا ما وقف اثنان أمام القاضى وأحدهما مظلوم والآخر ظالم فالقاضى العادل هو الذى يرفع الظلم عن المظلوم حتى وإن كان له هوى مع الظالم . ولذلك نجد الحق قد عصم رسوله فقال :

﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ ﴾

(من الآية ٣ سورة النجم)

والسطحيون هم الذين لا يلتفتون إلى عظمة هذا الأداء البيانى ويتساءلون : مادام الحق يصوب لمحمد فكيف إذن لا ينطق عن الهوى ؟ ونقول : أنتم لا تحسنون الفهم عن الله ولا عن رسول الله ، فعندما صوّب الله لرسوله لم يكن الرسول قد خرج عن حكم أراده الله ، ولم يعدل حكماً لله حسب هواه الشخصى ، وإنما هو ببشريته صلى الله عليه وسلم كان يصل إلى حكم ما ويراه ثم ترى السماء تعديلاً له ، فينطق محمد بالتعديل كما أنزله الله . ولم يخالف صلى الله عليه وسلم ربه فى أى أمر . وجاء كل تصويب لله فى أشياء لم يسبق فيها لله حكم ، وكان كل تصويب قد جاء لاجتهاد بشرى من رسول الله ، ولم يكن فى ذلك أى هوى .

وحين قال الحق : (وما ينطق عن الهوى) . إنما يبلغنا أنه لم يكن عند محمد حكم من الله فخالفه الرسول صلى الله عليه وسلم اتباعاً لهوى ، فمعنى الهوى أن يكون هناك منهج ثم يعدل عنه ، وكل التصويبات التى صوّبها الله جاءت فى أمور لم يكن فيها حكم . ولهذا نجد تصويب الحق لرسوله يتسم باللطف ، فيقول سبحانه :

﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾

(سورة التوبة)

وهذا العفو لم يكن نتيجة لمخالفة حكم من أحكام السماء ، ولكن هو عفو سمح ؛ لأن رسول الله أخذ بالاجتهاد البشرى فى الأمور التى لم يكن فيها حكم الله ، وهو قول الحق :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ ﴾

(من الآية ١ سورة التحريم)

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم قد حرّم أموراً على نفسه ، ولم يحرمها على الناس ، وهنا يوضح له الحق : لا تحرم على نفسك ما أحللتُ لك . إذن هذا أمر لمصلحة الرسول . وعندما جاء زيد بن حارثة ليخير بين أن يكون مع رسول الله كعبد له، وأن يكون مع أهله، آثر زيدٌ رسول الله ، فكافأه صلى الله عليه وسلم بأن جعله فى مقام الابن ، وكان التبنى معروفا عند العرب ، ونادى الناس زيدا بزيد بن محمد ، فلما أراد الله أن يبطل التبنى قال : (ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله) .

وكلمة « أقسط » تعنى أعدل ، ومعناها أن القسط أيضاً فى دائرة العدل . وعندما يقال : فلان له القسط ، أى له العدل . إذن فالقسط أولاً لرسول الله ، والأكثر قسطاً هو حكم الله ، فكأنك يا محمد قمت بالقسط عند البشر ، ولكن الله يريد لك الأقسط .

إذن فقوله الحق سبحانه : (وما ينطق عن الهوى) . هو قول لا يستدرك عليه من مخالف لمنهج الإسلام ، فإذا ما قال مخالف لمنهج الإسلام : إن الله يصوب لمحمد ، فكيف لا ينطق محمد عن الهوى ؟ . نقول : وهل تعرف معنى الهوى ؟ إن الحكم بالهوى يعنى أنّه وجد حكما لله فيعدل الحكم لهواه ، ولم يحدث ذلك من سيدنا ومولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكل تصويب من الله لم يأت على لسان رجل آخر ، إنما جاء على لسان رسول الله نفسه . وهذه هى منتهى الأمانة فى البلاغ عن الله .

والحق يقول عن بنى إسرائيل : « كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم فريقاً كذبوا وفريقاً يقتلون » إذن فهم فريقان : منهم من لا يقبل على الإيمان بالمنهج لهوى فى نفسه فيكذب . ومنهم من تمتلىء نفسه باللدد وشدة الخصومة على الرسول ، ويخشى أن يحيا الرسول لإبلاغ قوم آخرين ، فيحاول أن يقتل الرسول .

والتكذيب هو أول نقطة فى اللدد ، ثم هناك من يترقى فى اللدد ويخشى أن يصل البلاغ إلى قوم آخرين فيحاول أن يقتل الرسول . والتكذيب هو إنكار لقول أو فعل . أما القتل فهو إزالة لأصل الحياة . والذى يقتل هو الأكثر لدداً .

وتتجلى دقة القرآن حين يأتى الحق بصيغة الماضى ، لفئة وصيغة المضارع لفئة أخرى : « فريقاً كذبوا وفريقاً يقتلون » لأن التكذيب هو تأبٍ من المكذَّب ، أما القتل فهو تأبٍ على وجود الرسول من الذين يكذبون . والأبشع هو القتل ؛ لأنه إزالة لكل أثرٍ من آثار وجود المقتول . وجاء التكذيب فى صيغة الماضى . وجاء فى المسألة البشعة بصيغة المضارع .

فالحدث حين يكون بشعاً فهو يبرد بعد مرور فترة من الزمن . وهذا ما يجعل المجتمع يثور عندما تحدث جريمة بشعة ، ولكن ما إن تمر عليها عشر سنوات ويصدر الحكم بقتل المجرم لا ينفعل الناس ، بل منهم من يتعاطف مع المجرم . ولذلك يحذرنا الحق أن ننسخ من الأذهان صورة قتلهم للرسل ، بل يجب أن نستحضر بشاعته دائما فلا نعطف على الذين قتلوا الرسل ، وقد قال علماء العربية : إن التعبير بالفعل المضارع يكون لاستحضار صورة الفعل .

وساعة يأمر القاضى العادل بالقصاص من إنسان قتل إنساناً آخر ، فهو لا يجعل القتل حدثاً منسياً لأنه ماضٍ ، بل يستحضره فى ذهنه وكأن دمه مازال ينزف ومكان الطعنة واضحاً ؛ لأنه لا يأخذ شيئاً مستوراً بالماضى ، بل يأخذ شيئاً واقعاً فى الحال . وكأن الحق يأمرنا باستحضار صورة ما حدث أمامنا . ومثال آخر لاستحضار الصورة : نجد الحق يقول لنا :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ﴾

(من الآية ٦٣ سورة الحج)

إنه أنزل الماء ، لكنه يتبع ذلك :

﴿ فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ﴾

(من الآية ٦٣ سورة الحج)

هو سبحانه يستخدم الفعل المضارع لتظل الصورة فى أذهاننا مستحضرة فى الحال وفى الاستقبال . والحق يقول : « فريقاً كذبوا وفريقاً يقتلون » وكيف يقول الحق : إنهم يقتلون الرسل ، والرسل لا تقتل ،وأنه سبحانه يريد أن يجعل لهم من العمر ما يمكنهم من تمام البلاغ عنه ، إن الأنبياء فقط هم الذين يجوز عليهم القتل ؟ ونقول : إن الأنبياء رسل أيضاً بدليل أن الحق قال :

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ ﴾

(من الآية ٥٢ سورة الحج)

إن كليهما مرسل ، والفرق أن الرسول يصحب وينزل معه منهجه ، والنبى مرسل كنموذج هداية بمنهج قد سبق . ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَحَسِبُوٓاْ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُواْ وَصَمُّواْ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٧١﴾ ﴾

« وحسب » إن كانت بفتح الحاء وكسر السين فمعناها الظن ، وإن كانت بفتح الحاء وفتح السين فبمعنى « عد » ، والحسبان هو أن تظن وترجع وجود الشيء . والذين أخذ عليهم الله الميثاق وهم ـ بنو إسرائيل ـ ظنوا أن تكذيب الرسل وقتلهم لا يكون فتنة . ويعنى أنهم لم يعلموا علم اليقين ، وقد رجحوا ألا تكون فتنة . والأصل فى الفتنة ـ كما قلنا ـ عرض الذهب على النار ليتم تنقيته من الشوائب . والفتنة ـ كما تعرف ـ هى الاختبار ، إما أن ينجح فيه الإنسان وإما ألَّا ينجح . فكيف جاءهم الظن أن هذا ليس اختباراً ؟ لقد جاءهم هذا الظن من الخطأ الذى وقعوا فيه عندما قالوا :

﴿ نَحْنُ أَبْنَـٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّـٰٓؤُهُۥ ﴾

(من الآية ١٨ سورة المائدة)

والخطأ الذى تمادوا فيه عندما قالوا :

﴿ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ﴾

(من الآية ٨٠ سورة البقرة)

لقد ظنوا أن الحق سيعاقبهم فقط على عبادة العجل ولن يعاقبهم على أى شيء آخر . وكان هذا ظناً خاطئاً . إن المنهج لم يأت لينجى أناساً بذواتهم مهما فعلوا ، ولكن المنهج جاء ليحاسب كل إنسان حسب ما عمل . ومن العجيب أنهم ظنوا الظن الخاطىء ولم يقوموا بحساب الأمر بحسابه الصحيح على الرغم من أنهم أهل تفوق فى العد والحساب ، فالحساب هو الذى يضمن صحة أمر أو يكذبه . ومن العجيب أن من رحمة الحق بالخلق ساعة يؤاخذهم فهو يقول : لك كذا وعليك كذا . لكن ساعة يرزقهم فهو يرزقهم بغير حساب .

ولكنهم لم يلتفتوا إلى ذلك وقال عنهم الحق : « وحسبوا ألا تكون فتنة » أى ظنوا أن ذلك الأمر لا اختبار فيه وأنهم غير محاسبين عليه . ونعرف أن « أنْ » تنصب الفعل. وقال لى سائل : لقد سمعت قارىء القرآن فى المذياع ينطقها « وحسبوا ألا تكونُ فتنة » .

وقلت له : إن هناك ثلاثة من أكابر القراء فى صدر الإسلام هم : « أبو عمرو » و« حمزة » و« الكسائى » ، وكان لكل منهم أسلوب متميز . وعندما نعلم أن « أنْ » تنصب الفعل لا بد أن يكون الفعل الذى يليها لا يدل على العلم واليقين والتبين ، « فأن » بعد العلم لا تنصب ، كقوله الحق :

﴿ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾

(من الآية ٢٠ سورة المزمل)

وألفية ابن مالك تقول : (وبلن انصبه وكى كذابأنْ لا بعد علم) . أما « أن » التى من بعد ظن فمن الممكن أن تنصب ومن الممكن أن يُرفع الفعل بعدها ، فالذى رجح وجود الفعل وأدركه إدذراكا راجحا يرفع ، والذى لم يكن لديه هذا الإدراك الراجح ينصب ، والرفع هو قراءة الكسائى وأبى عمرو وحمزة . فقد بنوا الأمر على أنَّ الرجحان يقرب من اليقين . ومادام قد حدث ذلك تكون « أنْ » هنا هى « أن » المؤكدة ، لا « أن » الناصبة ويسمونها أن المخففة من الثقيلة فأصلها أنَّ . « وحسبوا

ألا تكون فتنة » . وتأتى « فتنة » بالرفع لأنها اسم تكون . و« تكون » من « كان » . و« كان » لها اسم مرفوع وخبر منصوب . وهى هنا ليس لها خبر ؛ لأنها مِن « كان التامة » . فهناك « كان الناقصة » وهناك « كان التامة » . ونقول ذلك حتى نتقن فهم القرآن ، مثلما نقرأ قوله الحق :

﴿ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ﴾

(من الآية ٢٨٠ سورة البقرة)

و« كان » فعل ماض ، و« ذو عسرة » اسم كان التامة ؛ لذلك لا خبر لها ؛ لأن المقصود هو القول : وإن وُجِد ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة . ولا بد لنا أن نعرف ما معنى « تام » وما معنى « ناقص » ؟ نعلم أن كل لفظ ننطق به يدور حول أمرين اثنين ، إما لفظ مهمل وغير مستعمل وإمّا لفظ مستعمل . والمستعمل هو الذى له معنى يصل إلى الذهن ساعة ننطقه ويستقل به الفهم ، فإن كان لا دخل للزمن فيه فهو الاسم ككلمة « أرض » و« شمس » و« قمر » . وهناك لفظ لا يستقل بالفهم كحرف الجر « فى » مثلاً . صحيح أنه يدل على شىء فى شىء ؛ ولكنه لا يستقل بالفهم ؛ لذلك لا بد أن ينضم لشىء ، كقولنا : الماء فى الكوب أو قولنا : التلميذ فى الفصل . فإن كان للفظ معنى ومستقل بالفهم ، والزمن له دخل فيه فهو الفعل .

مثال ذلك قولنا : السماء . إن السماء كانت فى الماضى وهى فى الحاضر وهى فى المستقبل . إذن فالزمن لا دخل له بها ، وكلمة : كَلُوا نجدها تأتى من الأكل ، وهى معنى مستقل بالفهم والزمن جزء منه . ولفظ « فى » يدل على معنى غير مستقل بالفهم فلا بد من أن ينضم لشىء آخر .

إذن كل لفظ له معنى ، وهذا المعنى قد يكون مستقلاً بالفهم أو غير مستقل ، فإن كان مستقلاً بالفهم فإننا نسأل : هل الزمن جزء منه ؟ وفى هذه الحالة يكون « فعلا » وإن لم يكن الزمن جزءًا منه فهو الاسم . وإن كان غير مستقل بالفهم ويريد شيئاً آخر ليستقيم المعنى فهو « حرف » .

راجع أصله وخرج أحاديثه الدكتور أحمد عمر هاشم نائب رئيس جامعة الأزهر .

وهكذا تعرف الألفاظ . والفعل هو « معنى زائد عليه زمن » كقولنا : أكل ؛ فهى تعنى تناول إنسان طعامًا فى زمن ماض ، وهكذا نفهم قولنا : « كان » . فإن قلنا : « كان » بمعنى حدوث شيء فى الماضى ، كقولنا : « كان زيد مسافرًا » فهى ناقصة . وفى ضوء هذا نفهم قول الحق :

﴿ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ﴾

(من الآية ٢٨٠ سورة البقرة)

فإن أردت الوجود فقط من غير شيء جديد طارىء عليه ، فالفعل يكون تاماً لا يحتاج إلى خبر . وإن أردت الوجود مع أى شيء آخر فهو الفعل الناقص الذى تكمله بخبر . مثل قوله تعالى : « وحسبوا ألا تكون فتنة » أى ألا توجد فتنة ، فهى لا تحتاج إلى خبر .

وكان مثل بنى إسرائيل كمثل التلميذ الذى يذهب إلى المدرسة ولا يعلم أن فيها اختباراً آخر العام فيُمضي الوقت فى غير تحصيل ولا جد ولا اجتهاد بل فى لهو ولعب ، وكان هذا حسباناً خاطئاً ؛ لأن المنهج لم يأت اعتباطاً ، ولكنه جاء كنظام حركة للحياة ليعمله المؤمن . وكان المفروض أن يستقبلوا المنهج على حسب تعاليم المنهج . ومن العجيب أنهم ظنوا ولم يحسبوا بالحساب على الرغم من أنهم أهل علم بالحساب ، فهم حسبوا ـ بكسر السين ـ وما حسبوا ـ بفتح السين ـ وكان المفروض أن يقوموا بالحساب ، فالحساب هو الذى يضمن صحة المسائل .

وكل شيء عند الله يكون بالحساب ، حساب للعبد وحساب على العبد . « وحسبوا ألا تكون فتنة » أى ظنوا أنها ليست اختباراً . وظنوا أن الرسالات والمناهج هى مسألة لا اختبار لهم فيها ، فلما عرفوا تعاموا عن ذلك وصموا آذانهم عنه . ونعلم أن وسائل الإدراك فى النفس البشرية هى السمع والأبصار والأفئدة :

﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَٰرَ وَالْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾

(سورة النحل)

إذن فوسائل الإدراك : سمع ، وبصر ، وفؤاد . وما تراه العين هو تجربة الإنسان بنفسه . أما ما يسمعه الإنسان فهو تجربة كل غير له . وبذلك يكون السمع أكثر اتساعاً من العين . والسمع هو وسيلة الإدراك التى توجد أولاً فى الإنسان حين يولد . ونجد المولود لا يهتز عندما يقترب شىء من عينيه ؛ لأنه لا يرى بدقة وقد يستمر ذلك لمدة عشرة أيام ومن بعد ذلك يبدأ فى الرؤية . لكن الطفل إذا سمع صوتاً بجانب أذنيه ينفعل ، كأن حاسة السمع هى التى توجد أولاً ، ولذلك يأتى لنا الحق بذكر السمع أولاً ومن بعد ذلك الأبصار ثم الأفئدة .

« فعموا وصموا » وهو سبحانه يسألهم أولاً عن التجربة الشخصية فيهم ، ولم يسألهم عن الذى سمعوه عن غيرهم فقط ، « فعموا » أى لم يروا حتى الأمور المتعلقة بهم ، ولم ينظروا فى آيات الكون ولم يسمعوا البشير ولا النذير ولا المنهج من الله ولا اتفقوا على تنفيذه . وسبحانه يعاتبهم أولاً على ما يتعلق برؤياهم هم ، فالأذن تسمع من الغير ؛ لذلك أخذ عليهم أولاً أنهم لم يستعملوا عيونهم . وحتى لو افترضنا أنهم لم يروا آيات الكون بأنفسهم فما بالهم لا ينظرون وقد جاءهم الرسول ودعاهم لينظروا فى كون الله وأن يعتبروا .

فإذا كانوا أولاً فى غفلة فلم يروا ، فلماذا لم ينتبهوا ويسمعوا سماع إذعان وانقياد عندما جاءهم البشير والنذير لينبههم ؛ لذلك « فعموا وصموا » منطقية جداً هنا . وبعد ذلك قبل الله منهم ، وأنجاهم من فرعون وفلق لهم البحر ، وعبروا ، ولكنهم بمجرد خروجهم من البحر ، ومروا على قوم يعكفون ويلزمون ويقبلون على أصنام لهم يعبدونها . قالوا لموسى : نريد إلهاً كما لهم آلهة . وأمرهم موسى أن يتوبوا وقبل الله توبتهم . مع كثرة ما ارتكبوا من ذنوب . ومن بعد ذلك يتوب الله عليهم . « ثم تاب الله عليهم » .

والتوبة هى فتح مجال للنفس السوية لتنطلق فى الخير من جديد ، فلو لم يتب الله على من أذنب فماذا يكون موقف المذنب بلا توبة ؟ إنه يتمادى ويحس أنه ذاهب فى طريق الشر بلا عودة . وحين يقبل الحق توبة المذنب ، فذلك معناه أنه سبحانه يريد أن يحمى المجتمع من شره . والتوبة مراحل : الأولى حين يشرع الله التوبة ، والثانية : أن يتوب العبيد . والثالثة : هى قبول الله للتوبة . وهذا ما جاء به الحق :

﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا ﴾

(من الآية ١١٨ سورة التوبة)

ماذا تعنى توبة الله عليهم ؟ سبحانه لن يتوب عليهم توبة القبول إلا بعد أن يتوبوا . إذن فتوبة الله عليهم الأولى هى التشريع لهم بالتوبة ، ثم توبتهم ، ثم قبول الحق للتوبة . لكن هؤلاء عموا وصموا ، وعلى الرغم من ذلك لطف الله بهم . فماذا حدث منهم بعد ذلك ؟ عموا وصموا مرة أخرى « ثم تاب الله عليهم ثم عموا وصموا كثير منهم والله بصير بما يعملون » .

و« عموا » مأخوذة من الفعل « عمى » ، ومثلها مثل « أكلوا » و« شربوا » و« حضروا » ، فأين الفاعل ؟ الفاعل هو « واو الجماعة » . وابن مالك قعّد لهذه المسألة ، فساعة تسند الفعل إلى اثنين أو إلى جماعة ، فلا بد أن تجرد الفعل من علامة التثنية أو الجمع ، فلا تقول : « قاما زيد وعمرو » ولكن تقول : « قام زيد وعمرو » ، ولا نقول : « قاموا التلاميذ » بل نقول : « قام التلاميذ » ، لأن مدلول « الواو » هو مدلول « التلاميذ » ؛ قال ابن مالك :

وجـرد الفعـل إذا مـا أسنـدا لاثنين أو جمع كـ« فاز الشهدا »

أى أن الفعل إذا أسند لمثنى أو مجموع وجب تجريده من العلامة التى تدل على التثنية أو على الجمع . أما كلمة كثير فتعرب إما على أنها البدل من واو الجماعة ، وإما على إضمار مبتدأ أى العُمْىُ والصُّم كثير منهم ، وإما على أنها فاعل ويكون ذلك قد جاء على لغة طائفة من العرب وهم بنو الحارث بن كعب ، وهؤلاء قد يأتون بعلامة تدل على التثنية أو الجمع إذا أسند الفعل إلى اسم ظاهر مثنى أو مجموع مثل : قاموا الرجال وسافرا محمد وعلى .

وحمل بعضهم قوله تعالى : « وأسروا النجوى الذين ظلموا » على هذا ، وكان قول الحق : « كثير منهم » صيانة للاحتمال بأن قلة منهم تدير أمر الإيمان فى قلوبهم ، وكلمة « كثير » جاءت حتى ننتبه إلى أن الحق سبحانه وتعالى لا يهمل أبداً القلة التى تدير أمر الإيمان فى خواطرهم . ليؤكد ويعاضد ما جاء فى قوله تعالى : « وأن أكثركم لفاسقون » . « ثم عموا وصموا كثير منهم والله بصير بما يعملون » و« بصير » مثلها مثل « عليم » ، أى شاهد وليس مع العين أين . ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ ﴾

وهناك ثلاث آيات تتعرض لهذه المسألة : « لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم » . والآية الثانية :

﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَـٰثَةٍ ﴾

(من الآية ٧٣ سورة المائدة)

والآية الثالثة :

﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ﴾

(من الآية ١١٦ سورة المائدة)

إذن فالخلاف في المسألة جاء على ثلاث صور ؛ طائفة تقول : المسيح هو الله . وطائفة تقول : إن المسيح هو إله مع اثنين آخرين . وطائفة تقول : إن المسيح هو وأمه إلهان . ولكل طائفة رد . والرد يأتي من أبسط شيء نشاهده في الوجود للكائن الحي ، فالإنسان ـ كما نعرف ـ سيد الكون والأدنى منه يخدمه . فالإنسان يحتاج إلى الحيوان من أجل منافعه ، وكذلك يحتاج إلى النبات والجماد ، هذا السيد ـ الإنسان ـ يحتاج إلى الأدنى منه . والحق سبحانه وتعالى أراد أن يرد على تأليه سيدنا عيسى وسيدتنا مريم ، فقال :

﴿ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ﴾

(من الآية ٧٥ سورة المائدة)

وهذا استدلال من أوضح الأدلة . لا للفيلسوف فحسب ولكن لكل المستويات ، فإداما يأكلان الطعام فقد احتاجا إلى الأدنى منها . والذى يحتاج إلى الأدنى منه لا يكون الأعلى ولا هو الواحد الأحد . والمتبعون لهذه الفرق الثلاثة مختلفون .

والحق سبحانه وتعالى يقول : « ولا تقولوا ثلاثة » وكلمة « ثالث ثلاثة » تستعمل على أنه واحد من ثلاثة لكنه غير معين . فكل ثلاثة يجتمعون معاً ، يقال لكل واحد منهم إنه « ثالث ثلاثة » . وليس هذا القول ممنوعاً إلا فى حالة واحدة ، أن نقول : ثالث ثلاثة آلهة ؛ لأن الإله لا يتعدد . ويصح أن نقول كلمة : « ثالث اثنين » لأن الله يقول :

﴿ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ ﴾

(من الآية ٧ سورة المجادلة)

إذن فمن الممكن أن نقول : هو رابع ثلاثة ، أو خامس أربعة أو سادس خمسة . وهو الذى يصير الثلاثة به أربعة أو يصير الأربعة به خمسة أو يصير الخمسة به ستة . إننا إن أوردنا عدداً هو اسم فاعل وبعد ذلك أضفناه لما دونه ، فهذا تعيين بأنه الأخير . فإن قال قائل : الله رابع ثلاثة جالسين. فهذا قول صحيح . لكن لو قلنا إنهم آلهة. فهذا هو المحرم والممنوع ؛ لأن الإله لا يتعدد .

ويلاحظ أن الحق لم يقل : ما يكون من نجوى اثنين إلاّ هو ثالثهم ؛ لأن النجوى لا تكون إلا من ثلاثة ، فإن جلس اثنان معاً فهما قد يتكلمان معاً دون نجوى ؛ لأن النجوى تتطلب ألا يسمعهم أحد . والنجوى مُسَارَّة ، وأول النجوى ثلاثة ، ولذلك بدأها الحق بأول عدد تنطبق عليه . فإن قلت : « ثالث ثلاثة » فهذا قول صحيح إن لم يكونوا ثلاثة آلهة .

والحق أراد أن يدفع هذا القول بالبطلان حين قال : « كانا يأكلان الطعام » . والطعام مقوم للحياة ومعطٍ للطاقة فى حركة الحياة ؛ لأن الإنسان يريد أن يستبقى الحياة ويريد طاقة ، والطعام أدنى من الإنسان لأنه فى خدمته ، فإذا ما كانا يأكلان الطعام فهما فى حاجة للأدنى . وإن لم يأكلا فلا بد من الجوع والهزال .

ولذلك فهما ليسا آلهة . بعضهم يقول : « كانا يأكلان الطعام » هى كناية عن شىء آخر هو إخراج الخبث . ونقول : ليس إخراج الخبث ضرورياً لأن الله سيطعمنا فى الجنة ولا يخرج منا خبث . فهذا ليس بدليل . ويرتقى الحق مع الناس فى الجدل ، فاليهود قالوا فى المسيح ـ عليه السلام ـ ما لا يليق بمكانته كنبى مرسل وقالوا فى مريم عليها السلام ما لا يليق باصطفائها من الحق .

واليهود إذن خصوم المسيح . وأنصار المسيح هم الحواريون ! فإذا كان لم يستطع أن يصنع من خصومه ما يضرهم ولا مع حوارييه ما ينفعهم فكيف يكون إلهاً ؟ والنص القرآنى يقول عن مريم :

﴿ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

والمسيح نفسه كان دائماً مع الله خاشعاً عابداً . والذى يعبد إنما يعبد من هو أعلى منه ؛ فالإله لا يعبد ذاته . وإذا كان هذا قول من ينتسبون إلى السماء إيماناً بإله وإيماناً بمنهج ، فماذا عن قول الذين لا ينتسبون إلى السماء من الملاحدة الذين ينكرون الألوهية ؟.

إذن كان من الواجب أن يؤمن المنسوبون إلى السماء بواسطة مناهج وبواسطة أنبياء وأن يصفوا هذه المسائل فيما بينهم . وعلى سبيل المثال كان العالم موجوداً ومداراً قبل المسيح فمن إذن كان يدير العالم من قبل ميلاده ؟ ولذلك أراد الحق سبحانه جل جلاله أن يحسم الموقف . والقرآن يعلمنا :

﴿ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾

(من الآية ٢٤ سورة سبأ)

أيمكن أن يكون المتناقضان محقين ؟ لا ؛ لأن أحدهما لا بد أن يكون على هدى ولا بد أن يكون الآخر على ضلال . ولذلك نقول : كلامكم لا يلزمنا وكلامنا لا يلزمكم . ونفوض الأمر إلى الإله الذى نؤمن به . وحتى نصفى هذه المسألة نذكر قول الحق :

﴿ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾

(من الآية ٦١ سورة آل عمران)

ونقول : اجعل لعنتك على الكاذبين . حتى تخرجنا من هذا الخلاف ولا تجعل واحداً منا يسيطر على الآخر ، فأنت صاحب الشأن ، فها نحن أولاء بأنفسنا ونسائنا وأولادنا ندعو دعاءً واحداً : اجعل لعنة الله على الكاذبين منا . وما تلاعن قوم وابتهلوا إلا وأظهر الله المسألة فى وقتها . ولم يقبل أحد من أهل الكتاب هذه المباهلة ، والحق يقول :

﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ ﴾

إذن فالذين لا يعلنون التوبة عن ذلك يقعون فى الكفر ويعذبون . ثم يقول الحق :

﴿ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾ ﴾

فكأن هذا القول يقتضى التوبة واستغفار الحق .

ويقول سبحانه بعد ذلك :

﴿ مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ ۗ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾

و« افك » يعنى انصرف أو صُرف ، أى يصرفهم غيرهم . وهذا يعنى أن هذا إيعاز من الشيطان ؛ لأن المسيح عليه السلام ما هو إلا رسول مثل من سبقوه من الرسل وأمه (صدِّيقة) مصدِّقة بما جاء به ، والدليل على بشريتهما أنهما يحتاجان كسائر البشر لما يَقوِّم حياتهما من طعام وشراب وكساء ، والألوهية المدّعاة منهم تتنافى مع هذا الاعتقاد وهذا هو الإفك بعينه الذى يتصادم مع العقل المجرد عن الهوى .
يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾ ﴾

والعقل يستنكر أن نعبد أحداً غير الله ، فغيره لا يملك أن يصنع الضر للخصوم ، ولا النفع لنفسه أو لأشياعه وأنصاره بدليل أن الأعداء فعلوا ما فعلوه وما ملك عيسى عليه السلام أو الحواريون أن يضروهم ولا استطاعوا أن يفعلوا شيئاً ينفعون به أنفسهم .

ويختم الحق الآية بقوله : « والله هو السميع العليم » . وكلمة « السميع » تدل على قول . وكلمة « العليم » تدل على شيء يدور فى الخواطر ، والشيء الذى يدور فى الخواطر أهو حراسة سلطة زمنية جعلتهم يقولون هذا الكلام ؟ إنه سبحانه العليم

بذلك . فإن كان قد حصل كلام فهو قد سمعه ، وإن كانت قد دارت خواطر فى النفس فهو يعلمها ؛ لأن العاقل قبل أن يتكلم لا بد أن يدير الكلام فى النفس . وكل كلام لا بد له من نزوع . وهو سبحانه السميع العليم أزلا وأبدًا .

ويقول الحق :

﴿ قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾ ﴾

عندما يوجد شىء مشترك بين النصارى واليهود يحدثهم الله بقوله : «يا أهل الكتاب» أما الشىء الخاص فهو يتحدث به لكل فئة بمفردها . والغلو هو أن يتطرف إنسان فى حكم ما إيجاباً أو سلباً . وهو إما الإفراط فى المنزلة العالية وإما التفريط فى المنزلة الدنيا . ولذلك نجد المتناقضات دائماً فى الغلو . ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لسيدنا علىّ ـ كرم الله وجهه ـ : « يا علىّ ، يهلك فيك رجلان . . محب غال ومبغض غال » ويقول : « يا علىّ لا يحبك إلا مؤمن ولا يبغضك إلا منافق »[1] .

ويقول : (يا على ستقاتلك الفئة الباغية)[2] .

إن هناك من أحب سيدنا عليًّا إلى درجة أنهم اعتبروه نبياً وقالوا : إن الوحى أخطأ عليًّا وجاء إلى رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم أو اعتبروا عليًّا إلهاً !! وكل ذلك غلو ، فقد أحبوه إلى منزلة فيها غلو وإفراط .

(١) رواه الطبرانى فى الأوسط .

(٢) رواه المتقى الهندى فى كنز العمال ، والخوارزمى فى جامع المسانيد .

أما الخوارج فقد قالوا عن سيدنا على : إنه كافر . جاء الغلو - إذن - من ناحية المحبين فجعلوه نبياً أو فوق ذلك مما يدخلهم فى الشرك، أو من المبغضين القائلين بتكفيره وإخراجه من دائرة الدين ، ولذلك يجب ألاّ نغلو فى الدين فلا نحب إنساناً ونرفعه فوق مستوى البشر ، ولا نبغض إنساناً وننزل به إلى الحضيض . بل يجب أن نعطى كل واحد قدره ومقداره الذى وضعه الله فيه ؛ لأن وضع الله له هو تكريمه :

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾ ﴾

(سورة المائدة)

وجاء مثل هذا القول فى آية أخرى :

﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ﴾

(من الآية ١٧١ سورة النساء)

وحتى نفهم أن مسألة الغلو إنما جاءت فى ادعاءات ألوهية البشر ؛ قال الحق بعد ذلك :

﴿ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ﴾

(من الآية ١٧١ سورة النساء)

فلا داعى للغلو بنسب الألوهية له أو أنه ثالث ثلاثة . فإن كنتم متشككين ووصلتم إلى هذا الشك بسبب عدم عنصر الذكورة فى مجىء عيسى ، فافهموا أن كل الأشياء جاءت بـ « كن » ، لأنه وإن وُجدت مقدمات للإنسان ، فَرَقِّ هذه المسألة إلى واحد لم يأت من إنسال ، وستصل إلى آدم وآدم من تراب ؛ إذن كل الكون كلمة . وإن وجدت أسباباً فما طمره الله فى الكلمة الأولى ، فحين يجىء إنسان أنشىء بكلمة فلا تقولن : إن هذا شىء عجيب ؛ لأن الكون كله إنما نشأ بكلمة :

﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ ﴾

(سورة يس)

وإن كانت الفتنة قد نشأت فى ظاهر الأمر من أن المسيح ليس له أب فى عالم الإنسال وقانون التناسل ، فما كان يجب أن تكون الشبهة فى هذا ؛ لأنه مخلوق من أم ، وآدم مخلوق بلا أب ولا أم . وكان يجب أن تكون الفتنة فى آدم أكبر . والكلمة من الله تنشىء حياة . والحياة إدخال روح فى مادة لتهبها الحركة والحس ومقومات

الحياة . إذن فالكلمة تقال من الله فتأتى الروح لتدخل فى المادة : (وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه) . « وروح منه » مثلها مثلها قال فى آدم :

﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾

(سورة الحجر)

إذن فآدم كلمة ، وآدم روح منه ، وكذلك المسيح ، فلا شبهة هنا ولا شبهة هناك . ويطلب الحق من المنسوبين إلى السماء : (انتهوا خيراً لكم) . فإذا كنتم منسوبين إلى السماء فلا تذبذبوا أفكار الناس بمثل هذه المسائل ، وكان يجب أن تقفوا بعيسى عندما أراد الله له من تكريم ؛ لأن التكريم هو أن يكون أسوة حسنة ، فلو كان من جنس آخر غير البشر لامتنعت الأسوة فيه ؛ لأن الأسوة إنما تكون من جنس من يتبعها ، فلو رآه الناس خاشعاً متعبداً لما استطاعوا أن يفعلوا مثله لو كان من مادة أخرى غير مادة البشر .

وقلت مرة : لو أن إنساناً رأى أسداً يفترس فى الغابة ويصول ويجول على الحيوانات ، أيفكر واحد من الرائين أن يجعل نفسه أسداً ؟ . لا . لكن لو رأى فارساً مثله شجاعاً فى حرب يصول ويجول فى الأعداء فهو يقلده ويحاول أن يكون مثله . إذن فالأسوة لا تكون إلا مع وحدة الجنس ، فلو أنه لم يكن من جنس البشر لما صلح أن يكون رسولاً .

« قل يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم غير الحق » لقد جاء الحق هنا بالحديث شاملاً لكل أهل الكتاب ؛ لأن كلا منهما جاء بطرفى الأمور . . فاليهود اتهموا سيدتنا البتول المصطفاة مريم بما ليس فيها ، وأولئك جاءوا بالمغالاة فى الجهة الأخرى ؛ لذلك يأمرهما الحق بعدم المغالاة ؛ لأن الحق لا يتعاند ؛ فهو شىء ثابت لا يتغير أبداً ولا يتعارض . والإنسان إن رأى حدثاً من الأحداث بعينيه ثم طُلب منه أن يحكيه فهو يحكيه الآن ويحكيه غداً ويحكيه بعد عام وتظل روايته واقعاً لأنه شهده وهذا هو الواقع المشهود يفرض نفسه عليه ، لكن الكاذب لا يذكر ذلك ، وقد يقول قضية ويكون فيها كاذبا فلا بد أن يغير من الحقيقة عندما يحكيها لمرة ثانية . ولذلك يقال « إن كنت كذوباً فكن ذكوراً » .

إن الذى يحكم الحق هو واقعة ؛ لأن المتكلم به يستقرىء واقعاً . لكن الكاذب لا يستقرىء واقعاً فلا يعلم ماذا كذب فى المرة الأولى . ونذكر الكاذب الذى جلس يقول : مرة كنا سائرين وخرجنا من القرية ذاهبين إلى المدينة لنأتى بحاجات عيد الفطر . وكانت الدنيا قمراً كالظهر وقوله : « قمراً كالظهر » هى التى تكشف كذبه ، فكيف يكون فى ليلة العيد قمرٌ ، وأول ليلة فى عيد الفطر هى أول ليلة فى شوّال ، وليس فيها أى قمر ، الهلال يكاد يكون مخفياً .

إذن فالذى يستوحى واقعاً لا يتغير كلامه لأنه حق . والذى يستوحى غير الواقع لا يذكر ماذا قال فيخلط . لذلك لا يقولن إنسان غير الحق لأن قوله سيتضارب . وإذا تضارب هذا القول فى مسألة الألوهية فإن الناس قد تشك فى منهج السماء الذى يتبعونه . وإذا شك الناس فى منهج السماء فسيكون عليكم وزر إضلال الناس ؛ لأن الذى يتعرض لهذه القضية يجب ألا يجرب الناس عليه أى شىء من المخالفة . ولذلك قال سيدنا إبراهيم عليه السلام :

﴿ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾

(من الآية ٥ سورة الممتحنة)

لماذا قال سيدنا إبراهيم هذا الدعاء ؟ ؛ لأنه إن قال شيئاً ثم عمل بما يناقضه فقد يتصور من يراه أنه ـ والعياذ بالله ـ كذاب .

« قل يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل » ويا ليتهم ضلوا فقط فى ذواتهم بل هم يحاولون إضلال غيرهم . لذلك قال سبحانه :

﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم ﴾

(من الآية ١٠٩ سورة البقرة)

وسبحانه يوضح لهم : لا تفعلوا ذلك حتى لا تضلوا ؛ لأن وزرك أن تعمل ، وهناك وزر آخر هو أن تُضَلِّل غيرك . ولذلك يقول الحق :

﴿ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾

(من الآية ٢٥ سورة النحل)

قال الحق ذلك مع أنه قال : ﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ . وحتى نفهم الأمر علينا أن نعرف أن الوزر الأول هو وزر الضلال ، والثانى هو وزر الإضلال .

« ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا » أى لا تقلدوا أناساً اتبعوا الهوى . والهوى هو لُطف موقع الشيء وقربه إلى النفس فيصنعه الإنسان على طريقة لا تنبغى . ولذلك كل كلمة « هوى » فى القرآن جاءت فى مجال الخسران والضلال . وعندما نقرأ قوله الحق : ﴿ ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ﴾ .

وهو القائل سبحانه : ﴿ واتبع هواه فتردى ﴾ .

وقد جاء الهوى فى قول الرسول صلى الله عليه وسلم : (لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به)[1] .

أى أن المطلوب أن يطوِّع الإنسان هواه لمطلوب الله . ومادام قدْ طوِّع هواه لمطلوب الله ، فهذا يعنى أن هواه الشخصى قد امتنع . « ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل » . إنّ هذا هو النهى عن اتباع الهوى الذى يضل ويكون سبباً فى الإضلال عن سواء السبيل .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ۝٧٨ ﴾

(١) رواه البغوى فى شرح السنة ، والتبريزى فى مشكاة المصابيح ، والمتقى الهندى فى كنز العمال .

الحق سبحانه وتعالى يعطى لرسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة تصبره على ما يلاقيه من خصومه من أهل الكتاب ، وكأنه يقول له : إن هذا الأمر ليس بدعاً وليس عجيباً ؛ لأن تاريخ أهل الكتاب الطويل يؤيد هذا ، فها هوذا موقفهم من نبى الله داود ، وكذلك موقفهم من عيسى ابن مريم عليه السلام . وهذا يجعل لك أسوة بهؤلاء الرسل الذين نالهم من أذى هؤلاء . فالمسألة ليست خاصة بك وحدك ، وإنما هى طبيعة فيهم ، ويبسط سبحانه فى التسرية عن رسوله صلى الله عليه وسلم حتى يجعل موقفه موقف الصلابة الإيمانية التى لا تخاف ولا تهتز ، فينسب هذه الأشياء لنفسه فيقول :

﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

فمرة قالوا عن الرسول : إنه مجنون ، ومرة أخرى قالوا : « ساحر » وثالثة قالوا : « كذاب » . وهم يعرفون كذبهم ، فهم على الرغم من اتهامهم للرسول بالكذب والجنون والسحر إلا أنهم لا يأمنون أحداً على مصالحهم إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهو الأمين دائماً . وكان لهم أن يتعجبوا من موقفهم هذا ، ومن صدهم عن دين الله بالكفر ، وعلى الرغم من ذلك فعندما يكون هناك شىء ثمين ونفيس فلا يُؤمَن عليه إلا محمد بن عبدالله .

ما هذا الأمر العجيب إذن !!

لقد عرفوا صدق النبى صلى الله عليه وسلم وحقيقة رسالته ـ ما فى ذلك ريب ـ ولكن لأن لهم أهواء أصرّوا على الضلال تمسكاً بالسلطة الزمنية . هم يعرفون أن محمدا هو الأمين . ولذلك نرى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يدع عليّاً ـ كرم الله وجهه ـ ويتركه فى مكة ليؤدى الأمانات التى كانت عنده لهؤلاء جميعاً .

إذن (قد نعلم إنه ليحزنك الذى يقولون فإنهم لا يكذبونك) . أى أنك يا رسول الله عندهم الصادق . أنت عندهم يا رسول الله الأمين . أنت عندهم يا رسول الله

فى منتهى السمو الخلقى . ولو لم تقل إنك رسول من الله لكانوا قد رفعوك إلى أعلى المنازل . ولكنك ببلاغك عن الله زلزلت سلطتهم الزمنية .

ولقد حاولوا أن يثنوك عن الرسالة ، فعرضوا عليك الملك ، وعرضوا عليك الثراء ، ولو كنت تقصد شيئاً من ذلك لحققوا لك ما تريد . ولكنك تختار البلاغ الأمين عن الله .

لقد عرضوا عليك الملك طواعية . وعرضوا عليك الثروة . وزينوا لك أمر السيادة فيهم شريطة أن تتخلى عن الرسالة . لكنك تختار السبيل الواضح الذى لا لبس فيه على الرغم مما فيه من متاعب ، تختار السبيل الذى يكلفك أمنك وأمن من يتبعك . إنك تتبع ما أنزل إليك من ربك .

ومن بعد ذلك جاءوا ليحاصروك فى الشِّعب ليمارسوا معك الحصار الاقتصادى بتجويعك وتجويع من معك ، ومع هذا كله ما تنازلت عن البلاغ . وكان يجب أن يفطنوا إلى أنك لا تطلب لنفسك شيئاً ، لا المال ولا الجاه بل أنت رسول من الله لا تأكل من صدقة أحد ، لا أنت ولا أهلك . وكان يجب أن يتساءلوا : لماذا تدخل بنفسك إلى هذه الحرب الضارية ؛ فلا أنت طالب جاه ولا أنت طالب مال ، ولا أنت طالب لمتعة من تلك المتع . وكان يجب أن يأخذوا العبرة ، فهم يعرضون عليه كل هذه الأشياء ، وهو يرفضها ، لأنه خاتم الأنبياء ؛ لذلك يتمثل فيه خير كل من سبقه من الأنبياء . يتمثل فيه على سبيل المثال ما قاله سليمان لوفد بلقيس ملكة سبأ :

﴿ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴾

(من الآية ٣٦ سورة النمل)

إذن كان يجب على الناس أن يفطنوا إلى أن النبوة حينما تأتى إنما تأتى لتلفت الناس إلى السماء وإلى منهجها ولتنتظم حركة حياتها فى الكون ، وأن المنتفع أولاً وأخيراً بالمنهج هم أنفسهم ؛ لأنهم هم الذين يشقون بمخالفتهم منهج الله .

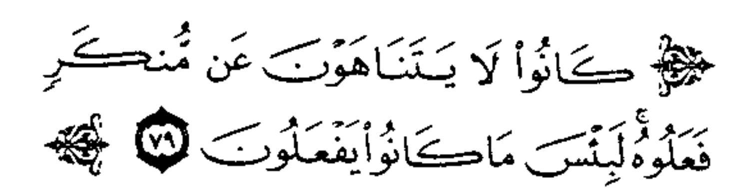
وليجرد كل إنسان نفسه من كل شىء ولينظر إلى المنهج ولسوف يجد أنه فى صالحه . فها هوذا سليمان الذى دانت له الدنيا وأُعْطِىَ ملكاً لم يعطه الله لأحد من

بعده فسخر الله له الريح وسخر له الجن يفعلون له ما يشاء . وكان سليمان يعطى الدقيق النقى للعبيد ليستمتعوا بالطيبات ، ويأكل هو ما تبقى من نخالة الدقيق ، وكان ذلك دليلاً من الله أن هذه المناهج ليست لصالح نبى ، ولكن كل نبى إنما يريد بالمنهج صالحَ مَن أُرسل إليهم .

وكانت مقاومة أهل الكتاب لنبى الله داود ، وكيف أنهم اعتدوا فى يوم السبت فدعا عليهم داود عليه السلام فمسخهم الحق قردة ، ولعنهم فى الزبور ، وكذلك قالوا الإفك فى مريم البتول ولعنهم الله فى الإنجيل ، ولم يكن اللعن إلا بناءً على ما فعلوا ؛ لذلك يذيل الحق الآية بالقول : « ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون » .

والعصيان ـ كما نعلم ـ هو العصيان فى ذات الإنسان وفى أموره الخاصة التى لا تتعدى إلى الغير ، أما الاعتداء فهو أيضاً معصية ولكنها متعدية إلى الغير . مثال ذلك : الحاقد إنما يعاقب نفسه ، أما السارق أو المرتشى فهو يضر بغيره . إذن فهناك معصية وهناك عدوان ، المعصية تعود على صاحبها دون أن تتعدى إلى الغير ، أما العدوان فهو أخذ حق من الغير للنفس ، وضرر يرتكبه الفرد فينتقل أثرة إلى الغير .

ويقول الحق من بعد ذلك :



ونعلم أن حراسة منهج الله تعطى الإنسان السلامة فى حركة الحياة على الأرض . وقد جعل الحق سبحانه فى النفس البشرية مناعة ذاتية ، فساعة توجد فى الإنسان شهوة على أى لون سواء فى الجنس أو فى المال أو فى الجاه ، فقد يحاول الوصول إليها بأى طريق ، ولا يمنعه من ذلك إلا الضمير الذى يفرض عليه أن يسير فى الطريق الصحيح . هذا الضمير هو خميرة الإيمان ، وهو الذى يلوم الإنسان إن أقدم على

معصية ، هذا إن كان من أصحاب الدين .

ولنا أن ندقق فى هذا القول القرآنى لأنه يحمل الوصف الدقيق للنفس البشرية فى حالتها المتقلبة ، فها هوذا قابيل يتحدث عنه القرآن :

﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ ﴾

(من الآية ٣٠ سورة المائدة)

ومن بعد ذلك ، قتل قابيل هابيل ، ثم هدأت النفس من سعار الغضب وسعار الحقد ، وانتقل قابيل إلى ما يقول عنه القرآن :

﴿ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾

(من الآية ٣٠ سورة المائدة)

فبعد أن غواه غضبه إلى أن قَتَل أخاه وسلبه الحياة . يبعث الله له غرابا ليريه كيف يوارى سوأة أخيه ؛ لأنه لم يكن يعرف كيف يوارى جثمان أخيه . وانتقل بالندم من مرحلة أنه لم يرع حق أخيه فى الحياة فأراد أن يرعى حق مماته ، إذن فالنفس البشرية وإن كانت لها شهوات إلا أن لها اعتدالا مزاجيا يتدخل بالندم عندما يرتكب الإنسان إثماً أو معصية . ولذلك تجد كثيراً من الناس تعانى من متاعب لأنهم ارتكبوا معاصى ، لكنهم يريدون الاعتراف بها لأى إنسان وأى إنسان يتلقى الاعتراف ليست لديه القدرة على تدارك آثار تلك المتاعب ؛ لأنها وقعت وانتهى الأمر .

لكن لماذا يريد الإنسان أن يعترف لآخر بمعاصيه ؟ . إنه اعتراف للتنفيس ؛ لأن كل حركة فى النفس البشرية ينتج عنها تأثير فى النزوع ، فعندما يغضبك أحد فأنت تنزع إلى الانتقام ، ولهذا يأمرك الشرع حين يغضبك أحد أن تغير من وضعك وقل : « حسبنا الله ونعم الوكيل » . حتى تصرف الطاقة السعارية عندك ، فإن أغضبك أحد وأنت قائم فاقعد ، وإن كنت قاعدا فاضطجع ، وإن كنت ثابتاً فى مكان فلتسر بضع خطوات . والشرع حين يطلب منك أن تتحرك لحظة الغضب فذلك ليزيل من جسدك بعض الطاقة الفائضة الزائدة التى تسبب لك الغليان فتقل حدّة الغضب .

ولذلك فالشاعر العربى ينصح كل مستمع للشكوى ألا يرد السماع بل يصغى لصاحب الشكوى ، لذلك يقول :

ولا بـد من شكوى إلى ذى مـروءة
يــواسيـك أو يسليـك أو يتـوجـع

وحينها تظهر المشاركة لصاحب الشكوى فانت تريحه ، وتهديه إلى الاطمئنان . وينصح الشاعر صاحب الشكوى أن يضعها عند ذى المروءة ؛ لأن ذا المروءة إنما يعطيك أذنه ومشاعره وهو جدير أن تستأمنه على السرّ ، وكأن الأسرار فى خِزانة لن يعرف أحد ما بداخلها ، وبمثل هذا الاعتراف يريح الإنسان نفسه ، ويصرف انفعاله إلى شيء آخر . وعندما تكرر النفس البشرية فعل السوء ، ولا تجد من ينهيها أو ينهاها ، فالسوء يعم وينتشر ، هنا تتدخل السماء بإرسال رسول .

ويوضح الحق أن السبب فى إرسال رسول لهؤلاء الناس أنهم كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه ، والتناهى عن المنكر إنما يكون بالتواصى بالحق والتواصى بالصبر ، ولا يظنن المؤمن أنه بمنجاة عن خاطر السوء فى نفسه لأن كلاً منا بشر . وعرضة للأغيار ، ومن لطف الله لحظة أن يهب خاطر السوء على مؤمن أن يجد أخاً خالياً من خواطر السوء فيواصيه بالحق ويواصيه بالصبر ؛ لأن الفرد إن جاءه سعار الشهوة فى اللحظة التى يجيء فيه السعار نفسه عند صديق له فقد يتفقان على المنكر ، أما إن جاء سعار الشهوة لإنسان وكان صديقه مؤمناً خاليا من خواطر السوء ، فهو ينهاه ويوصيه بالحق والصبر . وهكذا . يتبادل المؤمنون التناهى بالتواصى ؛ فمرة يكون الإنسان ناهياً ، ومرة أخرى يكون الإنسان منهياً .

وكذلك أعطى الله هذه المسألة كلمة التواصى :

﴿ وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ۝٣ ﴾

(سورة العصر)

ولم يخصص الحق قوماً ليكونوا الناهين ، وقوماً آخرين ليكونوا المنهيين ، لا ، بل كل واحد منا عرضة أن يكون ناهيا إن اتجهت خواطر صاحبه إلى الحرام ، وعرضة أيضا لأن يكون منهياً إن كانت نفسه تتجه إلى الحرام ، وبذلك نتبادل النهى

والتناهى ، ويسمون ذلك « المفاعلة » مثلما نقول : « شارك زيد عمرا » ، ولا يشارك الإنسان نفسه إنما يشارك غيره ، ومعنى هذا أن هناك شخصا قد كان فاعلا مرة ، ومرة أخرى يكون مفعولاً ، وكيف تكون صيغة التفاعل هذه ؟. إنها مثل « تشارك » و« تضارب » أى أن يأتى الفعل من اثنين . ومن السهل إذن أن ينهى إنسان صديقاً له أو ينهاه صديق له ، وقد نفسرها على أن الجميع ينهى نفسه بفعل القوة الخفية الفطرية التى توجد فى كل نفس ، أى أن كل نفس تنهى نفسها . إذن فالتفاعل إما أن يكون فى النفس وإما أن يكون فى المجتمع .

« كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه » ولننتبه هنا إلى أنهم قد فعلوا المنكر بالفعل ، فكيف يكون التناهى عن المنكر ؟. يمكن أن نفهم العبارة على أساس أنهم كانوا لا يتناهون عن منكر أرادوا فعله ، أى أن الإنسان منهم كان يرى زميلاً له يتهيأ لارتكاب منكر فلا ينهاه . ومثلها فى ذلك قوله الحق :

﴿ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ ﴾

(من الآية ٦ سورة المائدة)

وهذا القول لا يعنى أبداً أن يتوضأ الإنسان بعد أن يدخل فى الصلاة . إنما يعنى أن نبدأ الوضوء لحظة الاستعداد للصلاة ، يعنى إذا أردتم القيام إلى الصلاة وأداءها .

وقوله الحق : « كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه » يجعلنا فى حالة انتباه وفراسة إيمانية ويقظة . ويلتفت كل منا إلى نفسه ويرقبها ويراقبها ، وإلى أى اتجاه تسير ، فلا يترك الإنسان نفسه تتجه إلى أى مكان موبوء أو فعل غير مستقيم . وكذلك ينتبه الإنسان إلى أصدقائه وأخلائه حتى نتناهى عن أى منكر فلا نقع أبداً فى دائرة هذا الحكم « كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون » فكأننا جميعاً علينا أن نحيا فى يقظة إيمانية ، وأن نقول :« لا » لكل بادرة ولأى حركة من حركات المنكر .

« كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون » وساعة نسمع « لبئس » فلنعرف أن اللام إذا سبقت فهى للقسم ، وحين يقسم الله فهذا تأكيد

للقضية ، فهل هذا تأكيد على طريقتنا نحن البشر ؟. لا . فليس أحد منا كالله ، ونحن فى حياتنا نعرف الأدلة على الحق ، إما إقرار ، وإما شهادة ، وإما قسم .

والقاضى لا يحكم إلا بإقرار المتهم أو بشهادة الشهود ، أو باليمين ، وحين يأتى الحق بالحكم فهو يأتى به على معرفة بالخلق . وعدم التناهى عن المنكر هو فعل وقول معا . وبما أن الحق لم يقل : لبئس ما كانوا يقولون ، ذلك أن القول مقابل للفعل ، وكلاهما أيضاً عمل ، فالقول عمل جارحة اللسان ، والفعل هو عمل الجوارح كلها ، ويجمع القول والفعل وصف « العمل » . ونلحظ أن المسألة لا تقتصر على القول ، إنما هى عمل قد نتج عن فعل .

ولنر الحديث النبوى القائل : « من رأى منكم منكراً فليغيّره بيده وإن لم يستطع فبلسانه وإن لم يستطع فبقلبه وهذا أضعف الإيمان »[1] .

وقوله الحق : « لبئس ما كانوا يفعلون » دليل على أنهم كانوا يفعلون المنكر والقبيح قولاً وعملاً .

ويتابع الحق من بعد ذلك فيقول :

﴿ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾

ونلحظ الفارق بين أن يخبر الحق رسوله بأمور حدثت من قبل مثل قوله الحق :

﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ﴾
(من الآية ٧٨ سورة المائدة)

(١) رواه أحمد ، ومسلم ، وأبو داود ، والنسائى والترمذى ، وابن ماجه عن أبى سعيد .

وبين الواقع الذى يجرى فى زمن رسول الله ؛ فالخبر الأول هو خبر عن أمر صدر منهم مع من سبق من الرسل ، لكن هناك أشياء يا رسول الله أنت تراها بنفسك ، وهذا دليل على أن كفرهم لم يكن نزوة وانتهت ، لا ، بل كفرهم أصبح ملكة فيهم انطبعت عليها نفوسهم ، كيف ؟ نعلم أن الإسلام حينما جاء واجه معسكرات شتى ، وهذه المعسكرات كانت تفسد حركة الإنسان فى الحياة ، والحق سبحانه وتعالى خلق الكون مسخّراً للإنسان ويريد أن يظل الإنسان حارساً لصلاح الكون أو أن يزيد صلاح الكون وألا يسمح بتسرب الفاسد إلى الصالح .

إن هذا هو مراد الحق من وجود منهج للإنسان . وهدف المنهج أن يحمى حركة الحياة كلها من الفساد وأن يزيد صلاحية الكون ، فعملنا فى الكون دائماً لصالحنا ؛ ولا يوجد عمل يفعله مخلوق يأتى للحق سبحانه وتعالى بصفة زائدة على كمالاته ـ سبحانه ـ ؛ لأن الحق له كمال الصفات ، وهو الذى خلقنا وأوجدنا وأمدنا ، وتكليفنا منه لم يزده سبحانه شيئا ، فهو ـ سبحانه ـ مستغن بذاته عن جميع خلقه .

جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ إذن ـ ليحارب معسكرات هى معسكر أهل الشرك فى مكة ، ومعسكر أهل الكتاب ، وكان المفترض فى أهل الكتاب أن لهم صلة بالسماء ولهم إلف بمناهج الرسل . وبمعجزات الرسل وعندهم البشارة برسول الله صلى الله عليه وسلم فى كتبهم ، ومعسكر المنافقين الذين ظهروا بعد أن قويت شوكة الإسلام ، فأعلنوا الدخول فى الإسلام وهم لم يؤمنوا بل أضمروا الكفر .

وعندما نتوقف عند معسكر أهل الكتاب ، كان من الطبيعى أن ينتظر منهم رسول الله أن يؤمنوا لأنه جاء بالمنهج الذى يقوى من صلة السماء بالأرض ، لو كانوا صادقين وحريصين على تلك الصلة . وخصوصاً أنهم كثيراً ما تباهوا بمقدم النبى قبل أن تأتى الرسالة . وكانوا يقولون للأوس والخزرج :

لقد أظل زمان نبى يخرج بتصديق ما قلنا ، يأتى سنتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم .

وفى ذلك جاء قول الحق :

﴿ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ ﴾

(من الآية ٨٩ سورة البقرة)

وقالت لهم كتبهم : إن النبى إنما يأتى فى أرض ذات نخيل ، وهذا ينطبق على مكان مبعثه صلى الله عليه وسلم . إذن فقد عرفوا المكان ، وعرفوا الصفات ، وعرفوا الجبهات التى سيحارب فيها لأنه سبق لأنبيائهم أن حاربوا فيها . وعندما جاء محمد رسولاً من عند الله اهتزت سلطتهم الزمنية ، وأرادوا أن يستبقوها بتحريفهم منهج السماء . وجاء محمد صلى الله عليه وسلم بالمنهج الربانى ليعيد حركة الكون إلى الإيمان . ودخل رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة بينما كانوا ينسجون الإكليل كتاج للملك ينصبونه .

هكذا أوقف رسول الله سلطتهم الزمنية ولم يعد لهم الجاه ، ووحّد الأوس والخزرج ، وكان اليهود يعيشون على الشقاق بينهما ، ببيع الأسلحة والإقراض بالربا . ومع مجىء محمد صلى الله عليه وسلم تهدم بنيان سلطتهم ؛ لذلك حاولوا أن يشجعوا خصوم رسول الله وهو مازال فى مكة ليهزموا الدين الجديد حتى لا يزحف الدين إلى المدينة ويهدر سلطانهم .

وفى ذلك جاء القول الحق :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَـٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَـٰٓئِكَ لَا خَلَـٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

والثمن القليل هو الأبهة والرئاسة وسدة الحكم . وها هوذا كعب بن الأشرف كبير يهود وله ثراء ولسان ، يخرج إلى قريش ليناقشهم فى ضرورة وأد الدين الجديد والقضاء عليه . فقالت له قريش : إنك من أهل الكتاب ولك صلة بالسماء .

فيقول لهم : إنكم أهدى من محمد سبيلا !! كيف يصير المشركون عبدة الأصنام أهدى من محمد سبيلا ؟ .

وهكذا نرى قوله الحق : « ترى كثيراً منهم يتولون الذين كفروا » . لقد تحالفوا مع معسكر الشرك الذى كان بينهم وبينه خصومة حتى لا تتسرب السلطة من أيديهم . وتعاونوا مع الذين أشركوا لإيقاف زحف الدين الجديد .

﴿ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾

(سورة المائدة)

ويتولونهم أى ينصرونهم ويعينونهم ويدعون أنهم على حق ، وكأن الدين الجديد على باطل . ويقسم الحق هنا أنه بئس ما زينت لهم النفس الأمارة بالسوء ، لأنهم افتقدوا النفس اللوامة ، وغلبت عليهم النفس الأمارة بالسوء .

وتتابع الآية : « أن سخط الله عليهم وفى العذاب هم خالدون » وينشأ عن السخط الابتعاد عن طريق الهداية . والبعد عن طريق الهداية يقود إلى العذاب الخالد . كأن الحق يوضح لهم : على فرض أنكم أخذتم متاعاً قليلا فى الحياة ، ولكنكم أتيتم لأنفسكم بمتاعب أزلية تنتظركم فى الآخرة .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨١﴾ ﴾

فلو كان عندهم إيمان بالله حقيقة وبالمنهج المنزل من الله، ما اتخذوا أهل الشرك أولياء ، ولكن كثرة هؤلاء أهل فسق . ونلحظ أن الكثير فاسق ، وهذا يعنى أن القليل غير فاسق .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾

الحق سبحانه وتعالى يُقْسم لرسوله صلى الله عليه وسلم أن واقع الحياة مع فرقتين كاليهود والنصارى سيتجلى واضحاً على الرغم من أن كل جانب منهما مخالف لرسول الله فى ناحية ، فمواجيد هؤلاء الناس وأهواؤهم مختلفة ولكنهم اتفقوا جميعا فى الهدف .

فاليهود أشد عداوة لأنهم أخذوا سلطة زمنية جعلتهم السادة فى المنطقة ، أما النصارى فلم تكن لهم سيادة ولا سلطة زمنية وكانوا عاكفين فى صوامعهم وبيعهم يعبدون الله . والجانب الذى ليس له سلطة زمنية لا يعادى من جاء ليسحب من أهل الجور سلطتهم الزمنية ويقيم العدل بين الناس . فما العلّة فى ذلك ؟

يقول الحق : « ولتجدن أقربهم مودّة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا » . و« القسيسون » جمع قَس وهو المتفرغ للعلم الربانى . و« الرهبان » هم الذين تفرغوا للعبادة . فكأن القسيس مهمته أن يعلم العلم . والراهب مهمته أن ينفذ مطلوب العلم ويترهبن .

إننا نجد هنا أن الحق سبحانه وتعالى قد امتن بشيئين وبذلك جعلهم أقرب مودة للذين آمنوا ، امتن سبحانه بأن منهم قسيسين يحافظون على علم الكتاب ، وامتن بأن منهم رهباناً ينفذون مدلول المطلوب من العلم ، وبذلك صاروا أقرب مودة للذين آمنوا إن ظلوا على هذا الوضع ؛ لأن العلّة تدور مع المعلول وجوداً وعدماً . ومادام قد عللها ـ سبحانه ـ بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون فذلك لأنهم لا يتطاولون إلى رئاسة وليس لهم تكبر أو ترفع ؛ لأن طبيعة دينهم تعطيهم طاقة روحية كبرى حتى إنهم يقولون : « من ضربك على خدّك الأيمن أدر له خدّك الأيسر » . وهذا يعطيهم شحنة إيمانية نراها ناضحة عليهم .

« ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون » وقد جاء واقع الكون مؤيداً لهذا ، فمواقف اليهود من رسول الله صلى الله عليه وسلم معروفة حتى إنهم نزلت بهم الخسّة وتمكن منهم الحقد ودفعهم الغدر أن أرادوا أن يلقوا عليه حجراً ليقتلوه وحاولوا دسّ السّم له .

وحين تجد إنساناً لا يجد طريقا إلى الخلاص من خصمه إلا بأن يقتله ، فيمكنك أن تواجهه قائلاً : أنت لا تملك شجاعة تواجهه بها فى حياته ، ولو كنت تملك تلك الشجاعة ما فكرت فى أن تقتله . وهذا دليل على أنه أضعف منه وليس أشجع منه ، فلو كان قوياً لكان عليه أن يواجه هذا الخصم مواجهة فى حركة حياته ولا يفكر فى قتله ؛ لأن الضعيف هو من يرى أن حياة الخصم ترهقه .

لقد كان اليهود أهلاً لهذا الضعف فى زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم . ونعلم أنه صلى الله عليه وسلم حينما جهر بدعوته اتبعه بعض من الناس ، ولكن هؤلاء المؤمنين الأوائل عانوا من اضطهاد أهلهم وذويهم . حتى إن البيت الواحد انقسم ، مثال ذلك تجد أن أم حبيبة السيدة رملة وهى بنت أبى سفيان تؤمن بينما والدها هو شيخ الكفرة آنذاك ، وتذهب أم حبيبة مع زوجها إلى الحبشة ويحرص سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على هذه الخلايا الإيمانية لأنه يعلم أنها ستفرخ الإيمان من بعد ذلك . وبتلك الهجرة إلى الحبشة أراد صلى الله عليه وسلم أن يحمى بذور الإيمان لتكون هى مركز انتشار الإيمان من بعد ذلك ؛ لأنهم سوف يؤدون مهمة إيمانية ، والشجاعة ـ كما نعلم ـ تقتضى الحرص . وشاعرنا أحمد شوقى ـ رحمه الله ـ

قال فى إحدى مقطوعاته النثرية التى سمّاها « أسواق الذهب » : ربما تقتضيك الشجاعة ، أن تجبن ساعة ؟

وهذه الشجاعة لا تكون على العدو فقط ولكنها تكون شجاعة فى مواجهة النفس ، مثال ذلك : لو أن جماعة من الأقوياء كانوا جالسين معاً فى جلسة سمر ، ثم دخل عليهم صعلوك يحمل مسدساً ، وقام بتوجيه السباب لكل منهم ، هنا يتحايل عليه هؤلاء إلى أن يتمكنوا منه ليعاقبوه .

إذن فالشجاعة تقتضى أن يجبن الإنسان لحظة إلى أن يتمكن من الخصم . وهذه هى الكياسة والحيلة ، فالإيمان ليس انتحاراً ، بل يقتضى الإيمان ألا يدخل المؤمن معركة إلا وعنده حسبان فى الكسب . وها هوذا حضرة النبى صلى الله عليه وسلم يسمى خالد بن الوليد « سيف الله المسلول » فى معركة لم ينتصر فيها خالد ، ولكنه انتصر انتصاراً سلبياً بأن عرف كيف يسحب الجيش ، فالأمرُ بسحب الجيش يحتاج إلى قوة أكثر مما يحتاج إليه النصر . فالمنتصر تكون الريح معه . أما المهزوم فتكون الريح ضده .

ونجد القرآن الكريم يقول :

﴿ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾ ﴾

(سورة الأنفال)

إذن فالمناورة والكيد من المهارة القتالية لأنها تتيح من بعد ذلك القدرة على مواجهة العدو .

وينير النور الإلهى بصيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم فيستعرض الأرض كلها حتى يختار مكاناً آمناً يذهب إليه هؤلاء المؤمنون ، فيختار الحبشة . لم يشأ صلى الله عليه وسلم أن يأمرهم بالذهاب إلى أى قبيلة من القبائل ؛ لأنه يعلم أن كل قبائل الجزيرة تخشى قريشاً ، فموسم الحج جامع للقبائل تحت سيادة قريش . ومن يقف

ضد إرادة قريش فسيتعرض للمتاعب . وعلى ذلك لن يأمن رسول الله على خلايا الإيمان أن يذهبوا إلى أى قبيلة . واستقرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم الأرض كلها ، واختار الحبشة ، لماذا ؟.

ها هى ذى كلمات رسول الله صلى الله عليه وسلم باقية إلى زماننا : « إن بها ملكاً لا يُظلم عنده أحد فأقيموا ببلاده حتى يجعل الله لكم مخرجاً مما أنتم فيه »[1] .

وفى حديث الزهرى : لما كثر المسلمون ، وظهر تعذيب الكفار ـ قال عليه الصلاة والسلام : « تفرقوا فى أرض الله فإن الله سيجمعكم ، قالوا : إلى أين نذهب ؟ قال : إلى ها هنا وأشار بيده إلى أرض الحبشة »[2] .

وتسللوا فى جنح الليل إلى الطريق متجهين إلى الحبشة . وعندما علمت قريش بالخبر حاولت أن تقطع عليهم الطريق لتعيدهم إلى مكة لتواصل الحملة عليهم والتنكيل بهم لصدهم عن الإسلام . ولكن الحق أراد أمراً مختلفاً وكان الطريق سهلاً ، ووصلوا إلى الحبشة ، وأنجاهم الله من كيد الكافرين .

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يملك ـ بما علمه له ربه ـ الخبرة الكاملة بالرقعة الأرضية ويعرف من يظلم من الحكام ومن لا يظلم . وصدق رسول الله فى فراسته الإيمانية ، فحينما ذهب المؤمنون المهاجرون إلى الحبشة وجدوا أنهم دخلوا دار أمن ، أمنوا فيها على دينهم . وجن جنون قريش وأرادوا استرداد هؤلاء القوم من النجاشى ملك الحبشة فأرسلوا صناديدهم ومعهم الهدايا والتحف لملك الحبشة .

سافر عمرو بن العاص وعبدالله بن أبى ربيعه ، وعمارة بن الوليد بن المغيرة . وطلب وفد قريش من النجاشى أن يسلمهم هؤلاء المهاجرين إلى الحبشة ، وحاولوا الدس للمهاجرين عند النجاشى ، فاتهموا المسلمين المهاجرين أنهم قوم تركوا دين الأباء واعتنقوا ديناً جديداً يعادى الأديان كلها . ويقولون فى عيسى بن مريم قولاً

---

(١) رواه ابن إسحاق .

(٢) رواه عبدالرزاق .

لا يليق به أو بأمه . ورفض النجاشي أن يصدق حرفاً واحداً ، وطلب أن يسمع من هؤلاء المهاجرين . فتقدم جعفر بن أبي طالب وقال :

« أيها الملك كنا أهل جاهلية ، نعبد الأصنام ونأكل الميتة ، ونأتي الفواحش ونقطع الأرحام ونُسيء الجوار ، ويأكل القوى منا الضعيف . فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه ، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنات ، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئاً ، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به من الله وحده لا نشرك به شيئاً ، وحرّمنا ما حرّم علينا وأحللنا ما أحلّ لنا ، فعدا علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان وترك عبادة الله تعالى وأن نستحل ما كنا عليه من الخبائث ، فلما قهرونا وضيقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلادك ، وآثرناك على من سواك ، ورجونا ألا نظلم عندك » .

وثبت للنجاشي أن المسيح بشهادة القرآن نبى نقى طاهر العرض . وهكذا لم يستمع إلى وشاية وفد قريش . وامتلأ قلب النجاشي بالإيمان ولم يستكبر مع أنه ملك ووقف أمام محاولات قريش للنيل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم . وعندما سمع ما نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم من سورة مريم قال : إن هذا والذى جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة .

وعرف رسول الله أن الإيمان قد خامر قلب النجاشي ، بدليل أن أم حبيبة بنت أبي سفيان عندما هاجرت مع زوجها إلى الحبشة وتنصر الزوج لكنها بقيت على دينها على الرغم من أنّها كانت تحبه خالص الحب ، وهنا انفصلت أم حبيبة عن زوجها وذلك حتى يثبت الحق أن ـ هجرتها ـ كانت لله .

وأراد الله على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم أن يكرمها وأن يكرم النجاشي على موقفه من عدم تسليم المؤمنين إلى وفد قريش وموقفه من أنه شهد للإسلام بأنه يخرج

من نفس المشكاة التى خرج منها إنجيل عيسى عليه السلام ، لذلك يجعله رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ولى نكاحه لأم حبيبة ؛ لأنه مأمون على ما عَرَف من الإنجيل ، ومأمون على ما سمع من القرآن فى مريم ، ومأمون على أنه لم يسلم المهاجرين ؛ لذلك اختاره وكيلاً عنه فى زواجه من أم حبيبة بعد أن تنصر زوجها .
وتلك حادثة واحدة أضاءت أكثر من موقف : موقف أم حبيبة التى أثبتت أنها لم تذهب إلى الهجرة تبعاً لزوجها ، فلو تبعت زوجها لتنصّرت كما تنصر . وأضاءت أن رسول الله كان لا ينطق عن الهوى حين قال مسبقاً عن النجاشي : إنه لا يظلم عنده أحد . وعندما يبلغ الرسول نبأ وفاة النجاشي فهو ـ صلى الله عليه وسلم ـ يصلى عليه صلاة الغائب .

﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾

(سورة المائدة)

وهذا امتنان من الله بأن جعل منهم القسيسين الذين يعلمون وهذا تكريم للعلم والرهبان الذين ينفذون منطوقات العلم . إذن فلنعلم أننا يجب أن نفرق بين العَالِم الذى قد يُكتفى بأخذ العلم عنه إن لم يكن يعمل به ، وأن نحترم الذين يعبدون الله تطبيقاً للعلم بالله ونترك هؤلاء الذين لا يعملون بعلمهم لينالوا جزاءهم ، ولكن علينا أن نأخذ بعلمهم ونعمل به .

فخــذ بعلمى ولا تـركن إلى عمــلى
واجنِ الثــار وخــلِّ العــود للنــارِ

ونجد أن قوله الحق : « ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً » حيثية تجعلهم أقرب مودّة للمسلمين . فهل الرهبانية ممدوحة عند الله ؟ . وإذا كانت ممدوحة عند الله فلماذا قال سبحانه :

﴿ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا

فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٧﴾

(سورة الحديد)

هو سبحانه يحدثنا عن موكب الرسل إلى أن وصل إلى عيسى عليه السلام وما جاء به من الإنجيل وكيف أودع فى قلوب الذين اتبعوه شفقة شديدة ورقة وعطفاً وابتدعوا الرهبانية زيادة منهم فى العبادة ولم يفرضها الله عليهم ، لكنهم التزموها ابتغاء رضوان الله ؛ لكن منهم من حافظ عليها والكثير منهم فسق عنها . وسبحانه حين يفرض أمراً تعبدياً فعلي المؤمن أن يؤديه . ويزيد ثواب المؤمن إن ترقى فى التعبديات . لكن إن ترقى الإنسان فى التعبد فعليه أن يعطى هذا الترقى حقه لأنه ألزم به نفسه أمام الله . إذن فالمأخوذ عليهم ليس ابتداع الرهبانية ، ولكن عدم رعاية بعضهم لها حق الرعاية .

« ذلك أن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون » إذن فمنهم من يرصد حياته للعلم ، ومنهم النموذج التطبيقى العملى وهم الرهبان ، وليس فيهم الاستكبار أو العلو ، ومادام فيهم ذلك فهذا يعنى أنهم لا يطلبون السلطة الزمنية . وسيظلون أقرب إلينا مودة مادامت فيهم هذه الحيثية . فإن تخلوْا عن واحدة منها وأصابوا سلطة زمنية فهذا يعنى أنهم تخلوْا عن الصفة التى حكم الله لهم بسببها بأنهم أقرب مودة . وإن تمسكوا بها على العين والرأس .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَآ

ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾

هذه دقة الأداء القرآنى الذى جاء من قبل أن يجهد المفكرون أنفسهم فى دراسة ظواهر وأحوال النفس البشرية فى مجال علم النفس بالبحث والاستقراء والتجارب ، وأثر ذلك فى وظائف الأعضاء . لقد قال العلم : إن لكل آلة وظيفة ، فالعين ترى ، والأذن تسمع ، واللسان يتذوق ويتكلم ، والأنف يشم ، واليد تلمس ، وقال العلماء فى البداية : إن هذه هى الحواس الخمس الظاهرة ، وكلمة « الظاهرة » هذه إنما جاءت للاحتياط ؛ لأن هناك أموراً يشعر بها الإنسان ولكن لا يدرك كيفية ولا مصدر شعوره بها مثل الجوع أو العطش ، أو فى أثناء المقارنة بين شيئين أيهما أكثر ثقلاً .

لقد حاول العلماء إدراك كيفية تمييز الإنسان بين ثقل وثقل آخر ، فقالوا : إن هناك حاسة اسمها حاسة العضل ، فعندما يحمل الإنسان شيئاً ما فإنه يجهد العضلات لدرجة تمكنه من التمييز بين درجات الجهد . وعرفوا أيضاً أن هناك حاسة اسمها حاسة البين ، وهى الحاسة التى يميز بها الإنسان درجة نعومة أو سمك أى نوع من القماش حتى ولو كان السمك يبلغ الواحد من العشرة من الملليمتر .

إذن فهناك حواس كثيرة يمكن للإنسان الإدراك بها ، وهناك حواس تترك بعضاً من الأثر فى النفس البشرية كآثار الحب والميل أو البغض والنفرة ، ومقرها الوجدان . كإدراك حلاوة طعم شىء أو كراهة شىء آخر ، فإذا استطاب الإنسان شيئاً أخذ منه مرة ثانية ، وهذا العمل هو نزوع يتبع الوجدان الذى يتبع الإدراك .

إذن فهناك إدراك يدرك . وهناك وجدان يجد ، وهناك نزوع ينزع . مثال ذلك إدراك وردة جميلة المنظر واللون فى بستان.هذا الإدراك قد يصيب من القلب عشقاً وحباً ؛ أى وجداناً ، وأنت حر فى أن تدرك ما شئت ، وأن تجد ما شئت ، لكن ليس لك أن تمد يدك لتقطف الوردة ؛ لأن الشرع يحرم ذلك . وحارس البستان أيضاً يمنعك من ذلك . هذا على الرغم من أن أحداً لا يمنعك من أن تنظر إلى الوردة وتستمتع بجمالها . فالإدراك ـ إذن ـ مباح ، والوجدان أمر مباح .

أما النزوع فهذا هو الأمر الذى تتدخل فيه الشريعة . ولنا أن نكرر أن الإدراك مباح والوجدان مباح إلا فى إدراك جمال الأنوثة ، فالشرع يتدخل من البداية . فأنت قد تدرك جمال المرأة فتجد فى نفسك حباً وميلاً ، فإذا نزعت فكيف يمكنك أن تضبط نفسك ؟ فأنت بعد الإدراك والوجدان إما أن تنزع وإما أن تكبت . وإن نزعت انتهكت أعراض الناس ، وإن كبتّ ، أصابك القهر والألم ؛ لذلك يتدخل الشرع فى هذه المسألة من بدايتها فيمنعك تحريماً من أن تدرك ، وذلك بأمر واضح هو غض البصر ؛ لأن المسألة الجنسية من الصعب أن تفصلها عن بعضها ، فالإدراك يمكن فصله عن الوجدان ، والنزوع يمكن فصله عن الوجدان والإدراك فى أمر الوردة . أما فى المسألة الجنسية فهى سعار . . إما أن يقابله الإنسان بأن يعف وإما أن يلغ . فإن عف الإنسان فهو يكبت ويتوتر ، وإن ولغ الإنسان فى أعراض الناس فهذا أمر يسبب هتك أعراض الناس . ولذلك يمنع الشرع من البداية مسألة الإدراك .

وقد جاءت هذه الآية الكريمة قبل أن يأتى علماء النفس ليفسروا أمور الإدراك والوجدان والنزوع ، فهاهوذا الحق يقول : « وإذا سمعوا » وهذا إدراك بحاسة الأذن . وما المسموع ؟ يجيب القرآن : « ما أنزل إلى الرسول » . وهذا هو سبب الوجدان الذى يأتى فى قوله : « ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق » . فكيف يكون نزوعهم بعد هذا الوجدان ؟ إنهم : « يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين » ، هذه هى العملية النزوعية . والقرآن الذى نزل من أربعة عشر قرناً ، جاء بترتيب الإدراك والوجدان والنزوع قبل أن يأتى به العلم . فساعة سمعوا بالأذن ، حدث شيء فى الوجدان ، والتغير الذى فى الوجدان له علامات ظهرت فى عيونهم التى فاضت بالدمع .

وهنا نميز بين أمرين : الأول هو اغروراق العين بالدمع ، أى أن تمتلىء العين بالدمع لكن لم تصل درجة التأثر إلى أن تسقط الدموع من العين ، ويقال : « اغرورقت عين فلان » أى امتلأت عينه بالدموع ولكنها لم تسقط . والثانى وهو فيض الدموع من العين ، والفيض لا يكون إلا نتيجة امتلاء الظرف بالمظروف ، فكأن الدمع قد ملأها امتلاء ، تماماً مثلما نملأ إناء أو كوباً إلى النهاية فيزيد ويفيض .

إذن كان سبب كل ذلك أنهم عرفوا أن القرآن من الحق . ونلحظ أن « مِنْ » تتكرر فى الأداء هنا . « وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق » . فـ « من » تسبق الدمع . و« من » مدغومة فى « ما » فصارا معا « مِمَّا » و« مِن » تسبق الحق .

« وتفيض من الدمع » فـ « مِن » هنا هى : « مِن » الابتدائية . و« مما عرفوا » هنا « مِن » السببية أى بسبب أنهم عرفوا أن هذا القرآن منزل من الحق سبحانه . و« من الحق » للتبعيض ، أى عرفوا بعضاً من الحق ؛ لأنهم لم يسمعوا كل القرآن .

إذن جاءت « مِنْ » ثلاث مرات ، وكل مرة لها مجال لتؤدى إلى المجموع البيانى الذى يصف المظاهر الثلاثة للإدراك والوجدان والنزوع . وهذه المراتب هى مظاهر الشعور التى انتهى إليها العلم التجريبي حين أراد أن يتعرف إلى وظائف الأعضاء ومدى تغلغلها إدراكاً ووجداناً ونزوعاً .

والنزوع هو الذى يهمنا هنا ، لقد قالوا : « فاكتبنا مع الشاهدين » والإيمان أمر يعود إليهم . أما الكتابة مع الشاهدين فهى أمر يعود على الآخرين ، فكان المؤمن ينال حظاً عالياً ، إنه يؤمن لذاته ، ثم من بعد ذلك يكون وعاء ولساناً يبلغ منهج الإيمان إلى غيره لأنه لا يكون شاهدًا إلا إذا كانت شهادته امتداداً لشهادة الرسول وهذا مصداق لقوله سبحانه وتعالى :

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَـٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَـٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

أى إنكم يا أمة محمد أفضل أمة أخرجت للناس لا حسباً ولا نسباً ولكن اتباعاً لمنهج ، ومن يتبع المنهج بـ « افعل » و« لا تفعل » فهو الذى يطبق عملية الإيمان بالله . ومن أهل الكتاب من يؤمن بالله فيصير مسلماً ، ولكن الكثير منهم يخرج عن حدود الإيمان . وهناك آية أخرى يقول فيها الحق :

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾ ﴾

(سورة البقرة)

إذن فالأمة التى تتبع منهج الإسلام ـ وهو منهج الاعتدال ـ هى الأمة المهتدية التى تسير إلى العمل الصالح الصحيح وتعمل به وتطبقه ، لأنه المنهج الذى ينسخ ما قبله ويصححه ، والرسول صلى الله عليه وسلم هو المهيمن على كل من سبقه من الرسل ، وحياته وما جاء فيها من سلوك هو سنة إيمانية تهدى المؤمنين إلى الطريق المستقيم . وجاءت فى هذه الآية مسألة تحويل القبلة لتعلم المسلمين أن الأمر الأول بالاتجاه إلى بيت المقدس كان اختباراً ينجح فيه من يذعن لصاحب كل أمر وهو الله ، وكان ذلك من الأمور الشاقة إلا على من وفقه الله إلى الهداية ، ثم جاء من بعد ذلك الأمر بتحويل القبلة إلى الكعبة وهى أول بيت وضعه الله للناس .

إذن فمادمنا شهداء ، ومادام الرسول شهيداً علينا ، فالرسول إنما يشهد أننا بلغنا وننال منزلتين : منزلة تلقى البلاغ عن الرسول ، ومنزلة الإبلاغ من بعد ذلك إلى غيرنا من الناس . والمؤمن لا يكون شهيداً إلا إذا كانت شهادته امتداداً لشهادة الرسول صلى الله عليه وسلم . هذه الشهادة التى جاء بها الحق فى وصف أمة المؤمنين :

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

فأنتم يا أمة محمد أفضل أمة أخرجها الله للناس بشرط أن تتبعوا المنهج بـ « افعل » و« لا تفعل » . تأمرون بالطاعات وتنهون عن كل ما نهى عنه الدين ، وبذلك تكونون قد طبقتم المنهج الدال على صدق إيمانكم بالله إيماناً صحيحاً صادقاً . ولو

صدق أهل الكتاب مثلكم فى إيمانكم ، لكان خيراً لهم مما هم عليه . لكنّ بعضاً منهم يدير أمر الإيمان فى قلبه ، والكثير منهم يخرج ويفسق عن مقتضى الإيمان .

إذن فهم عندما قالوا : « آمنا فاكتبنا مع الشاهدين » ، فذلك إقرار بأن الإيمان كان إيمان ذات وإيمان بلاغ إلى الغير . وهم بذلك قد دخلوا الإسلام وصاروا من أمة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهاهوذا الرسول صلى الله عليه وسلم يقول : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه »[1] .

وهاهوذا الحق يحدد لنا قيمة الكلمة الطيبة المبلغة عن الله :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾

(سورة إبراهيم)

إن الكلمة الطيبة هى شجرة لها من الثمار ما ينفع الناس وتظلل بظلها الحنون سامعها ، ولها أصل ضارب الجذور فى الأرض . ولها فروع تعلو إلى اتجاه السماء . وتعطى الثمار فى كل زمن بإرادة خالقها . وهذا المعنى المحسوس مادياً يضربه الله كمثل للناس حتى يعرفوا قيمة المعانى السامية . إذن سيظل صاحب قولة الحق فى بلاغ منهج الإيمان إلى الناس يقطف ثمار هذه الكلمة ما بقى إنسان مؤمن إلى أن نلقى الله .

« فاكتبنا مع الشاهدين » والشاهد هو المبلغ . وعندما يطلب مؤمن من الله أن يكتبه مع الشاهدين فهو يطلب لنفسه المكانة مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين . فالشهيد ليس هو من قتل فقط ، إنما الشهيد هو من يعطى شهادته . والشهيد فى معركة إيمانية تفقده حياته هو إنسان أعطى شهادة على أن ما ذهب إليه أثمن من حياته كلها . وهو فى ذلك يعطى شهادة عملية . ومن بعد ذلك يقول الحق :

---

(١) رواه البخارى فى كتاب الإيمان .

﴿ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٨٤ ﴾

عندما يأتى التعجب هنا فهذا معناه أن الإنسان يجب أن يعلم أن إيمانه بالله مسألة تعطينا الخير لأنفسنا . فحين نؤمن بالله يقابلنا الحق بفيض الكرم من اطمئنان وخير وعطاء . فإياكم أيها الناس أن تعتقدوا أن الإيمان جاء ليحجب حرياتكم أو أنه يمنع عنكم اشتهاء الأشياء ، ولكن الإيمان جاء ليعلى الحرية ، ويعلى الشهوة فلا يأخذها الإنسان عابرة تنتهى بانتهاء الدنيا ولكن ليأخذها الإنسان خالدة ما بقيت السموات والأرض .

إذن فالدين إنما جاء بالنفعية العاقلة ؛ لأن العاقل إنما يأخذ على مقدار عمره من نفع يسير لا يضر أحداً ، وإن كان يضر النفس أو الغير فالدين يأمر بترك هذا النفع ، ذلك أن النفع إما أن يفوت الإنسان أو يفوته الإنسان . والذكى هو من يؤثر نفع غيره على نفع نفسه .

مثال ذلك أن يأتيك سائل يسألك الطعام لأنه لم يأكل منذ يومين ، ولا يكون فى جيبك إلا جنيه واحد فتعطيه له ، إنك بذلك تؤثره على نفسك ، فتكون ضمن من قال فيهم الحق سبحانه :

﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٩ ﴾

(سورة الحشر)

وبمثل هذا السلوك يكون الإنسان قد اقتدى بالأنصار الذين استضافوا المهاجرين وأخلصوا الإيمان فأحبوا أهله ، ولا يجدون حقدًا أو حسدًا فيما خُصّ به المهاجرون

من مال الفيء وغيره ، وكان جل همهم أن يسعد المهاجرون وقد سبق أن آثروهم بأشياء كانت لهم وارتضوا لأنفسهم عدم البخل ، فوقاهم الله شر البخل فكانوا من الفائزين . والمتصدق بجنيه إنما يأخذ من الله عشرة أمثاله ، وهذه نفعية كبرى . وعندما أمرنا الشرع بغض البصر عن محارم الغير ، والمنفذ لذلك يحفظه الله ويغض الجميع عيونهم عن محارمه ، أليست هذه نفعية ؟ إذن فمن الحمق أن يظن إنسان أن الدين يقيد الحرية ، لأن الدين إنما يعلى الحرية وينميها ، وينمى الانتفاع عند المؤمن بأن يحول بينه وبين النفعية الحمقاء .

ودائماً أضرب هذا المثل : لنفترض أن رجلاً له ولدان ؛ الأول منهما يستيقظ صباحاً من النوم فيفعل مثلما علمه أبوه : يتوضأ ويصلى ويتجه إلى دراسته بعد أن يتناول إفطاره ، أما الابن الثانى فلا يستيقظ إلا بصعوبة ويظل يتناوم إلى أن يأتى الضحى ثم يخرج من المنزل إلى المقهى . إن كلاً من الولدين أراد النفع لنفسه ، الأول أراد النفع الآجل ، والثانى أراد النفع العاجل ، وبعد أن تمر عشر سنوات يتخرج الابن الأول ليكون مفلحاً وناجحا فى الحياة ، ولكن الابن الثانى يظل صعلوكاً فاشلاً ، إذن فكلاهما نظر إلى النفعية ولكن المنظار مختلف .

وإياكم أن تفهموا أن هناك إنساناً لا يحب نفسه ، لا . كلنا نحب أنفسنا . ولكن هناك من يحب نفسه حباً يعطى لها طول البقاء ، فيجد ويجاهد ، وقد يكون شهيداً ، وآخر أحب نفسه بضيق أفق فحافظ على حياته بالجبن وهو قد مات ألف مرة فى أثناء هذا الجبن ، وفقد كرامته حرصاً على حياة لن يزيد فى مقدارها يوماً واحداً . والمتنبى يقول :

أرى كلنا يبغى الحياة لنفسه حريصاً عليها مستهاماً بها صبا
فحب الجبان النفس أورده التُّقَى[1] وحب الشجاع النفس أورده الحربا

ولذلك فالمتأمل بعمق فى أمر الدين يقول لنفسه : « ومالنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق » ، والمؤمن يرى أنه من العجيب ألا يؤمن لأنه يطمح إلى مكانة المؤمن . « ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين » إذن فالمؤمن يطلب مكانة الإنسان الصالح .

---

١ ـ التقى : الحذر والخوف

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّٰتٍ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾

إنها كلمة الحق التى تقال فى كل مكان وزمان . قالها نجاشى الحبشة وله سلطان لأهل الجاه من قريش الذين استبد بهم باطلهم ؛ لذلك كان لهذه الكلمة وزنها ، فعندما سمع ما نزل من القرآن من سورة مريم قال : إن هذا والذى جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة . إذن فهى كلمة حق لها وزن ، والله سبحانه وتعالى يجزل العطاء لكل من ساند الحق ولو بكلمة فهو سبحانه (الشكور) الذى يعطى على القليل الكثير ، و(المحسن) الذى يضاعف الجزاء للمحسنين .

ولنا أن نعرف أن للقول أهمية كبرى لأنه يرتبط من بعد ذلك بالسلوك . وكان قول النجاشى عظيماً ، لكن العمر قد قصر به عن استمرار العمل بما قال . فقد قال كلمته وجاءه التوكيل من رسول الله ليعقد للرسول على أم حبيبة بنت أبى سفيان فعقد عليها وكيلا عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأمهرها من ماله ثم مات ، ولم تكن أحكام الإسلام قد وصلت إليه ليطبقها ؛ لذلك كان يكفيه أنه قال هذا القول ، ولذلك صلى عليه النبى صلاة الغائب .

وهناك قصة « مخيريق » اليهودى . لقد تشرب قلبه الإسلام وامتلأ به وكان فى غاية الثراء فقال لليهود : كل مالى لمحمد وسأخرج لأحارب معه . وخرج إلى القتال مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقتل فمات شهيداً ، وهو لم يكن قد صلى فى حياته كلها ركعة واحدة . إذن فمجرد القول هو فتح لمجال الفعل .

« فأثابهم الله بما قالوا جنات تجرى من تحتها الأنهار » والحق يريد أن يؤكد لنا أن كل حركة إيمانية حتى ولو كانت قولاً إنما تأخذ كمالها من عمرها . ونعلم أن الإيمان فى مكة كان هو الإيمان بالقول . ذلك أن الناس آمنت ولم تكن الأحكام قد نزلت ، فغالبية الأحكام نزلت فى المدينة . وعلى ذلك أثاب الله المؤمنين لمجرد أنهم قالوا كلمة الإيمان ، حدث ذلك ولم يكن قد جاء من الحق الأمر بالبلاغ الشامل وهو قوله الحق :

﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ ﴾

(من الآية ٢١٤ سورة الشعراء)

فهؤلاء قد جزاهم الله حسن الثواب وسمّاهم « محسنين » وكذلك فعل النجاشى ، فقد ذهب إلى الإيمان دون أن توجه له دعوة وكان ذلك قبل أن يكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم الدعوة للملوك ليؤمنوا ، وعلى هذا فالنجاشى محسن ؛ لأنه قفز إلى الإيمان قبل أن يطلب منه . وساعة يتكلم الحق عن منزلة من منازل الإيمان فهو أيضاً يتعرض للمقابل ، وذلك لتبلغ العظة مراميها الكاملة . فإذا تحدث عن أهل الجنة فهو يعقبها بحديث عن أهل النار ، وإذا تحدث عن أهل النار فهو يعقبها بحديث عن أهل الجنة ؛ لأن النفس الإنسانية تكون مستعدة للشيء ومقابله .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿٨٦﴾ ﴾

ونعرف أن كلمة « صاحب » وكلمة « صحبة » وكلمة « أصحاب » ، هذه الكلمات تدل على الملازمة ، والملازمة فى الحياة تكون اختيارية لا قهرية ؛ فلا أحد يصاحب أحداً بالقهر .

ونفهم من قوله : « أصحاب الجحيم » أن هذا يعنى العشق المتبادل بين النار وأهلها ، وليس هذا مرادا ، فهو إما أن يكون على سبيل السخرية والاستهزاء بهم ، وإما أن يكون المراد هو الملازمة التامة والمصاحبة الدائمة التى لا تنفك ولا تنتهى . وبعد أن تكلم الحق عن المشركين وتكلم عن اليهود وتكلم عن النصارى . فهو يتكلم عن المؤمنين ، إنه ينفض أذهاننا أولاً ليزيل عنها ما علق بها من أمر المخالفين ومناهجهم ، ويأتى لنا من بعد ذلك بالأحكام ، وقد فعل ذلك فى هذه السورة التى تبدأ بآية العقود :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِ ﴾

(من الآية ١ سورة المائدة)

وعقد الإيمان هو ما يرتفع ويسمو على ما يقوله المشركون ويخرج عما يقوله اليهود والنصارى . ومن بعد ذلك نلاحظ أن الحق بعد أن تكلم عن ضرورة الوفاء بالعقود ، فهو يلزم المؤمنين بالمنهج الذى يحمى حركة الحياة . وحركة الحياة يتم استبقاؤها أولاً بالطعام والشراب . لذلك قال :

﴿ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَـٰمِ ﴾

(من الآية ١ سورة المائدة)

ومن بعد استبقاء حركة الحياة بالطعام والشراب ، ها هوذا يقول : « حرمت » . وهنا لنا وقفة ، فعندما يحلل الله شيئاً من أجناس الوجود ؛ وحينما يحرم شيئاً آخر من أجناس الوجود فللسائل أن يسأل بعقلانية ويقول : مادام الحق قد حرم هذه الأشياء فلماذا أوجدها ؟ ونعلم فى حياتنا العادية أن كل صانع إنما يحدد خصائص لصنعته . ومثال ذلك صانع الطائرة يصمم طائرته ويحدد الوقود اللازم لها ، ولا يمكن أن تسير بوقود سيارة ، فإذا كانت الآلات التى من صنع البشر تفسد إن استخدمنا لها ما لا يناسبها . فكيف إذن نقول لصانعنا : لماذا خلقت الأشياء التى لا تناسبنا ؟ لا بد أن لها مهمة فى الكون واستخداماً آخر يجعلها تنتج الأشياء المفيدة لنا . مثال ذلك سمّ الحيّة ، إنه يقتل الإنسان ، ولكن الله ألهم الإنسان القدرة على استخراج السّم من الحيّة لقتل بعض الميكروبات .

إذن فالعالم قد خلقه الله بتركيب معين . ومثال ذلك نجد التمساح وهو راقد على الشاطىء والطيور تلتقط من فمه بعضاً من غذائها ولا يؤذيها ؛ لأن هذه الطيور هى

التى تنبه التمساح إذا جاء صياد ليقتنصه ، فالطيور تحرص على مصدر قوتها وتحافظ على حياة التمساح . والكهرباء نستخدمها فى مجالها ، أما فى عكس مجالها فهى تصعق وتدمر .

إذن فليس للإنسان أن يسأل لماذا حرم الله أشياء على الإنسان ؟ ؛ لأن لتلك الأشياء دورة فى الحياة . ولا يصح أن ننقل الوسيلة لتكون غاية . والحق أراد بالحلال والحرام أن ينتفع الإنسان بالصالح له. مثال ذلك أن حرم الله أكل لحم الخنزير . والخنزير إنما وُجد ليأكل ميكروبات . إذن فليس للإنسان أن يُحَوِّل الوسيلة إلى غاية . ويعطى الحق كل يوم للإسلام قوة تأييد تأتيه من خصوم الإسلام .

ومثال ذلك : إننا نجد أن الأمراض تنتشر بنسب عالية فى الأمم التى تستهلك لحم الخنزير ، وتشرب الخمر ، وهناك مرض اسمه « تشمع الكبد » ينتشر فى تلك البلدان ، فهل كنا نؤخر تنفيذ أمر الله إلى أن تنشأ المعامل وتقول لنا نتائج أكل الخنزير ؟ أو كان يكفى أن نحرم على أنفسنا ما حرم الله ؟ إن علينا أن ننفذ أوامر الله صيانة لنا :

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾

(من الآية ٥٣ سورة فصلت)

وكل يوم تظهر لنا آية تؤكد صدق إيماننا بالله ؛ لذلك فلا يقولن أحد : لماذا خلق الله تلك الأشياء المحرمة ؟ لقد خلقها الله وسيلة لا غاية . ومثال ذلك أن خلق الله لنا البترول لنستخرج منه الوقود ؛ فهل أحد منا يقدر على شرب البترول ؟! إذن فالتحليل والتحريم لصالح الإنسان . فإن خرج الإنسان عن ذلك فلا يلومن إلا نفسه . ولذلك يقول الحق :

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا ﴾ ...

(من الآية ٥٩ سورة يونس)

كأن الحق يستنكر أن نصنع من حلال ما خلق أشياء محرمة . وأن نحرم أشياء حللها الله . كترك البحيرة والسائبة والوصيلة ؛ وكلها أرزاق من الله . هو سبحانه خالق كل الأشياء وهو الذى يحدد نفعها وعدم نفعها للإنسان . والبحيرة هى الناقة

التى كانوا يشقون أذنها حتى لا يتعرض لها أحد بعد أن تكون قد نتجت خمسة أبطن آخرها ذكر ، وكانوا يطلقونها فى المراعى لا تُركب ولا تُحلب ولا يُمنع عنها مرعى أو ماء . وكانوا يقولون إنها للآلهة . وعندما نستكشف آفاق من يستفيد منها ، كنا نجد الكهنة هم الذين يستفيدون منها . وكذلك السائبة وكانوا يتركونها تطوعاً لا يركبها أحد ولا يحلبها أحد وكان المستفيد منها الكهنة أيضاً . وكذلك الوصيلة وهى الأنثى التى جاءت فى بطن واحد مع ذكر وقالوا وصلت أخاها فلم يذبحوا الذكر لآلهتهم . وكذلك كانوا يطلقون الفحل الذى نتج من صلبه عشرة أبطن وقالوا قد حمى ظهره فلا يركب ، ولا يحمل عليه ولا يمنع من ماء ولا مرعى ، والحق سبحانه وتعالى يوضح لنا : أنا لم أحرم هذه الأشياء فلماذا تحرمونها ؟

هو سبحانه قد حرم الميتة والدم لأنه هو الذى حدد وبيّن ما هو حلال وما هو حرام . وسبحانه الذى يرزق الرزق فيكون مرة رزقاً مباشراً ومرة يكون رزقاً غير مباشر . ولذلك جاء الحق بالقول الكريم :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَـٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾

إذن فأمر التحريم موكول إلى خالق الآلة الإنسانية ، وأمر التحليل موكول إلى خالق الآلة الإنسانية . وأنت أيها الإنسان لا تتدخل فى ذلك أبداً . لأن تدخل الإنسان يكون أحياناً بتحريم ما أحل الله ، وأحياناً يكون تدخل الإنسان بتحليل ما حرم الله .

إياك أيها الإنسان أن تحرم ما أحل الله لك ، وإياك أن تحلل ما حرم الله عليك . ونحن هنا أمام مراحل عدة ، لا تعتقد أن هناك أمراً حلله الله هو حرام ، ولا تقل إن هناك أمراً حلله الله هو حرام ، ولا تمتنع عن أمر حلله الله ظناً أنه حرام ، ولا تفْتِ بأمر حلله الله على أنه حرام ، ولا تجعل أمراً حلله الله فتحرمه على نفسك ، فلا ينذر

أحد ألا يأكل لحم الضأن أو البرتقال ـ على سبيل المثال ـ لأن النذر فى ذلك ليس حلالاً ، لأن تحريم الأشياء المحللة بالنذر هو أمر محرم . ولذلك علمنا الحق قائلاً لرسوله :

﴿ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ﴾

(من الآية ١ سورة التحريم)

لا بد لنا أن نعى ذلك الأمر وأن نعرف مراحله : لا تعتقد ، لا تقل ، لا تمتنع ، لا تُفْتِ ، لا تنذر ، لماذا ؟ لأن فى ذلك اعتداء .

يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾

(من الآية ٨٧ سورة المائدة)

وما الاعتداء ؟ إنه تجاوز الحد فيما حرم الله أو فيما حلل الله . أى أن الله يحب من يقف عند الحدود . وهو سبحانه يقول مرة :

﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ﴾

(من الآية ١٨٧ سورة البقرة)

ومرة يقول :

﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ﴾

(من الآية ٢٢٩ سورة البقرة)

ففى المنهيات : لا تقترب . وفى ما أحله الله : لا تتعدَّ ؛ لذلك جاء القول على لسان الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم : « الحلال بين والحرام بين وبينهما مُشْتَبهات لا يعلمها كثير من الناس فمن اتقى المُشْتَبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه ، ومن وقع فى المشتبهات وقع فى الحرام كراعٍ يرعى حول الحمى يوشك أن يواقعه ، ألا وإن لكل ملكٍ حمىً ألا وإن حمى الله تعالى فى أرضه محارمه ، ألا وإن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب »[1] .

(١) رواه البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى وابن ماجه عن النعمان بن بشير .

إذن فكل كائن له مميزات وله مهمة فى الوجود . وأنت أيها الإنسان لا تقلب الوسيلة إلى غاية ، فهناك كثير من المخلوقات هى وسائل ولا تصلح أن تكون غايات ؛ ولذلك أمرنا الحق بأن نأخذ ما ننتفع به مباشرة وأن نترك الأشياء التى حرمها علينا؛ فلا نقرب ـ على سبيل المثال ـ لحم الخنزير؛ لأن الخنزير مخلوق ليخلصك من الميكروبات ، فإن أكلته تكون قد قلبت الوسيلة إلى غاية . وعليك أيها الإنسان أن تحتفظ بالوسيلة كوسيلة وأن تحتفظ بالغاية كغاية . والذى يحدد لك ذلك هو من صنعك . . إنه الله .

ودليل ذلك أن خصوم الإسلام يكتشفون كل يوم المميزات التى جاء بها الإسلام فيتجهون إليها . إن الله بتحريمه وبإيماننا بهذا التحريم منعنا من متاعب التجربة إلى أن تثبت ، والكفار الذين لم يؤمنوا اضطرتهم الظروف إلى تناوله ، وعلى ذلك فكل شيء محلل أو محرم بأوامر الله يظهر لنا فائدته أو ضرره طبقاً لقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ ﴾

(سورة فصلت)

إذن فلا اعتقاد فى شيء حلال أنه حرام ولا قول بمثل ذلك ولا امتناع عنه ولا يفتى إنسان بمثل ذلك . ويأتى الأمر : « ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين » . ونعرف أن الاعتداء إنما هو أن نتجاوز الحد فيما حرم أو فيما حلل ، والحق سبحانه يحب من يقف عند حدود الله . فلا يقربها الإنسان حتى لا تحدثه نفسه بمعصية . وعندما يبتعد المسلم عنها فهو يتقى الشبهات .

والحق يبين لنا لقد أحللت لكم كذا وحرمت عليكم كذا وهو الخالق . فيجب أن نأخذ من الخالق مواصفات ما يبقى لنا الحياة ، هذا الإبقاء هو ما نصنعه نحن حينما نخترع آلة توفر علينا الحركة وتعطينا الثمرة بأقل مجهود ، فحين يصنع الصانع آلة من الآلات يصنع لها ما يوجد لها الطاقة لتقوم بعملها ، ولا يستطيع المستعمل لهذه الآلة أن يغير وقود هذه الطاقة ، فإن غير نوع الطاقة ، فالآلة لا تؤدى مهمتها . فما بالنا بالذى خلق ؟

إنه حين يوضح أنّ هذه الآلة لا تصلح إلا بما أحللت ، ولا يصح أن تدخل عليها ما حرمت عليك . هنا يجب أن نطيع الخالق ؛ لأنه هو الذى يعلم ما يصلح لنا وما لا يصلح . ولم يدع أحد فى الكون أنه خلق نفسه ، فلنرد اقتياتنا وحفظ حياتنا إلى خالقنا ، ولنأخذ ما حلله ونبعد عما حرمه ، فالآلة ـ الإنسان ـ تصلح بأن تفعل الحلال وأن تترك فعل الحرام . إذن هناك أشياء تُفعل ، وهناك أشياء لا تُفعل . وهناك أشياء لم يأت فيها الحل أو الحرمة ، فإن أقبل عليها الإنسان فهى تصلح ، وإن لم يقبل عليها الإنسان فهى تصلح أيضاً . والحق سبحانه وتعالى يوضح : أنكم لم تخلقوا هذه الآلة ـ الإنسان ـ وأنا الذى خلقتها ، فأنا أعلم بما يعطيها مدد الطاقة ومدد البقاء ، فإن صنعتم غير ذلك كنتم معتدين .

ولذلك يخاطب الحق الذين آمنوا بأنه خلقهم من عدم وأمدهم من عدم ورزقهم لاستبقاء حياتهم ونوعهم ، وعليهم أن يأخذوا من الله هذه الأحكام : « لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم » . وسبحانه يوضح : إن الذى يؤمن بأنى إله فليأخذ منى مواصفات استبقاء حياته . وعندما يقول سبحانه ذلك فلا بد أن يكون هناك سبب داعٍ لهذا القول ولما نزل قوله ـ سبحانه ـ :

﴿ * لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾

(سورة المائدة)

الحق جاء فى هذا القول الكريم بحيثيات مدحهم وحيثيات قربهم من مودتنا ، فمنهم القسيسون والرهبان الذين زهدوا فى الحياة . ولما سمع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك بكوا واجتمع عشرة من الصحابة فى بيت عثمان بن مظعون الجمحى ، وفيهم أبو بكر الصديق وعمر وعلى بن أبى طالب وعبدالله بن مسعود وعبدالله بن عمر وأبو ذر الغفارى وسالم مولى أبى حذيفة والمقداد بن الأسود وسلمان الفارسى ومعقل بن مقرن ، واتفقوا على أن يصوموا النهار ويقوموا الليل ولا يناموا على الفرش ولا يأكلوا اللحم ولا الودك أى الدسم . ويجبوا المذاكير ويسيحوا فى الأرض كما يفعل الرهبان ، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فجمعهم

فحمد الله وأثنى عليه فقال : « ما بال أقوام قالوا كذا وكذا لكنى أصلى وأنام وأصوم وأفطر وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتى فليس منى »[1] .

وأنزل الحق سبحانه وتعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾

(من الآية ٨٧ سورة المائدة)

وكلمات الرسول صلى الله عليه وسلم لصحابته وللناس منطقية ، فإذا كانوا يريدون أن يمتنعوا عن طيبات ما أحل الله حتى يعلنوا الزهد مثل السابقين عليهم ، ومن يريد الرهبنة ألا يصلى ؟ إنه يقيم الصلاة ؛ والصلاة لا بد لها من حركة ، والحركة لا بد لها من قوة ، والصلاة لا بد لها من ستر العورة ، وستر العورة يقتضى اللباس ، وهذا اللباس يحتاج إلى تفكير من أين يأتى هذا . القماش يأتى من تاجر أقمشة ، وتاجر الأقمشة لا بد أنه يأتى به من المصانع التى تنسجه ، والمصانع التى تنسجه لا بد أن تأتى به من المصانع التى غزلته ، والمصانع التى غزلته لا بد أن تأتى به من المحالج التى حلجت ، ثم لا بد من الحيوانات التى أخذ منها إن كان صوفاً ، وأن تربى وتربيتها تحتاج إلى زراعة . إذن فكل هذه الأشياء تتطلب حركة واسعة ، أنت لا تشعر بها إلا حين تحتاج إلى الثوب . فإن كنت تريد أن تنقطع للعبادة فإياك أن تنتفع بحركة من يقيم أركان الإسلام ، ويتحرك فى الحياة فى ضوء منهج الله ساعياً إلى الرزق ، وهذا أمر لا يتأتى .

وأيضاً ، ألا يأكل الذى يريد الانقطاع إلى العبادة ؟ إنه يأكل ليقوم إلى الصلاة . وكلنا يعرف كيف يجىء رغيف الخبز . صحيح أن الإنسان يذهب إلى المخبز ليشترى رغيف الخبز ، والمخبز جاء بالدقيق من المطحن . والمطحن جاءته الغلال من المخازن ، والغلال جاءت من الذى زرع . والذى زرع احتاج إلى آلات تحرث وآلات تغرس وإلى آلات تجنى ، وبعد ذلك احتاج إلى أشياء أخرى كالسماد وغيره ، إن هذا يحتاج إلى طاقة هائلة .

(١) رواه مسلم ورواه البخارى بلفظ : « فقال أحدهم : أما أنا فأصلى الليل أبدا وقال آخر : أنا أصوم الدهر ولا أفطر وقال آخر : أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدا . . » .

إذن فالإنسان فى حركته فى الصلاة محتاج إلى كل هذه الأعمال ، فإياك أن أردت أن تعتزل الحياة أن تنتفع بعمل من لم يعتزل الحياة . والعمل الذى لا يتم الواجب إلا به فهو واجب . ولذلك يكون على ولى الأمر إن رأى حرفة يتطلبها الوجود الإنسانى والوجود الإيمانى ولم يذهب إليها أناس طوع أنفسهم عليه أن يلزم قوماً بأن يفعلوها . وكل صناعة هى فرض كفاية إن قام بها البعض سقطت عن الباقين . وإن لم يقم بها البعض أثم الجميع .

إذن فلا بد من حركة الحياة . وحركة الحياة تُسْلم حلقة إلى حلقة أخرى . فلا تأخذ الثمرة وأنت مع ذلك تعتزل الحياة . والحق سبحانه وتعالى يقول : « لا تحرموا طيبات ما أحل الله » . إنكم إن فعلتم ذلك تكونوا قد أخذتم صفة المشرع واعتديتم على حقه فى أن يحلل وأن يحرم ، وهذا اعتداء .

وإذا كان الله قد حرم أشياء وحلل أشياء فهذا بمقتضى صلاحية الأشياء المحللة للإنسان . وعلى الإنسان أن ينظر إلى الأشياء الموجودة المحرمة على أنها رزق غير مباشر لأنها وسيلة إلى رزق مباشر ، كما عرفنا أننا نستخلص من سم الثعبان علاجاً ، إذن فالثعبان مخلوق لمهمة تخدم الإنسان . والعالم كله حلقات ، حيوانات تستفيد من أذى بعضها إلى أن يصل الخير كله إلى المؤمن ، فلا يقولن إنسان « لماذا خلق إذا كان قد حرم » .

فلا تعتد لتحلل ما حرمه الله وتحرم ما حلله الله ، فبترك الاعتداء ينتظم الوجود ، وحين ينظر الإنسان إلى الغابة يجد أن لكل حيوان مهمة مع غيره . هذه المهمة تؤدى إلى الصلاح فيما يصلح للإنسان . لقد حرم الحق بعض الأشياء كرزق مباشر ، لأنها رزق غير مباشر . والرزق المباشر هو ما يأكله الإنسان مباشرة وما يلبسه ، والرزق غير المباشر هو وسيلة إلى الرزق المباشر ، وما حرمه الله هى أشياء مخلوقة كوسائل إلى صحة غيرها .

« يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا » أى لا تجعلوا الحرام حلالاً ، ولا تجعلوا الحلال حراماً ، و« لا تعتدوا » أى كلوا من الطيبات دون

أن تتجاوزوا الحد ، وهذا هو معنى قوله الحق :

﴿ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ﴾

(من الآية ٣١ سورة الأعراف)

ومن بعد ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾

أولا نسأل : ما هو الرزق ؟ الرزق هو ما انتفع به . فالذى تأكله رزق ، والذى تشربه رزق ، والذى تلبسه رزق ، والذى تتعلمه رزق ، والصفات الخلقية من حلم وشجاعة وغيرها هى رزق ، وكل شىء ينتفع به يُسمى رزقاً .

ولكن حين يقول الحق : « وكلوا مما رزقكم الله حلالا طيباً » فهو ينصرف إلى ما يطعمه الإنسان . وحين يقول سبحانه ذلك فالمقصود به أن يأكل الإنسان من الرزق الحلال الطيب . إذن فهناك رزق حرام ، مثال ذلك اللص الذى يسرق شيئا ينتفع به ، هذا رزق جاء عن طريق حرام ، ولو صبر لجاءته اللقمة تسعى إلى فمه لأنها رزقه . أو الرزق هو ما أحله الله ، وهنا اختلف العلماء وتساءل البعض : هل الرزق هو الحلال فقط والباقى ليس رزقاً ؟ وتساءل البعض الآخر : هل الرزق هو ما ينتفع به ومنه ما يكون حلالاً ومنه ما يكون حراماً ؟ الحق يقول :

﴿ وَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا ﴾

(من الآية ٨٨ سورة المائدة)

كلوا ما رزقكم هذا أسلوب ، « ومما رزقكم الله » هذا أسلوب آخر. فـ ما رزقكم الله أى نأكله كله ، وهذه لا تصلح ؛ لأننا لا نأكله كله طبعا بل إننا سنأكل بعضه ؛ لأن الذى يؤكل ويطعم إما أن يكون صالحاً لإيجاد مثله ، وإما أن

يكون غير صالح لإيجاد مثله ، فعندما يحتفظ الإنسان بالدقيق مثلاً فهو لا ينتج سنبلة قمح ، إذن يجب علينا أن نأكل بعضا ونستبقى بعضا صالحا لأن ينتج مثله ، فعندما نحتفظ بالقمح فهو يصلح أن يأتى بسنابل القمح ، لذلك جاء الأمر بأن نأكل بعض ما رزقنا الله حتى نحتفظ ببعض الرزق لا نأكله ، وهذا يعنى أن نحتفظ بامتداد الرزق ، فلو أكل الإنسان كل القمح الذى عنده فكيف يحدث إن أراد أن يزرع ؟ إذن فاستبقاء الرزق يقتضى أن نحتفظ ببعض الرزق لنصنع به امتداداً رزقياً فى الحياة .

والرزق الحلال هنا نوعان : ما يصلح لامتداده فيجب احتجاز بعض منه من أجل أن يستخدمه الإنسان فى استجلاب رزق آخر . وما لا يصلح لامتداده كالدقيق مثلاً . نأكل بعضه ونحتفظ ببعضه لمن لا يقدر على الحركة . ولذلك نجد الحق فى سورة يوسف يقول عن رؤيا الملك :

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾

(سورة يوسف)

هنا قال أهل تفسير الرؤيا :

﴿ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾

(سورة يوسف)

إنه اضطراب فى الجواب ؛ لأن كونها أضغاث أحلام أنها لا معنى لها ، وقولهم بعد ذلك : « وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين » فمعنى ذلك أن لها تأويلا وقد كان لها تأويل ، ثم مَن الذى رأى الرؤيا ؟ إنه الملك . ويأتى الحق بيوسف مفسراً للرؤيا . إذن فلا ضرورة أن يكون الرائى مؤمناً ولا صالحاً . وقد يقول قائل : كيف يطلعه الله على مثل هذه المسائل ؟ ونقول : قد تكون الرؤيا إكراماً للرائى ، وقد تكون الرؤيا إكراماً للمعبر الذى يعرف التأويل ، وهى هنا إكرام للمعبر وهو سيدنا يوسف . وعرف سيدنا يوسف كيف يفك « شفرة » الرؤيا . والعجيب فى الرؤيا أن البقر الهزيل يأكل البقر السمين . وهنا قال يوسف :

﴿ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾

(من الآية ٤٧ سورة يوسف)

أى كلوا البعض وليكن قليلا قليلا ، لا تسرفوا فيه لتنتفعوا فى السبع الشداد وهن سنين الجدب لتأكلوا فيها ما جمعتموه فى سنين الخصب ، اتركوا البعض الآخر لاستمرار النوع . وتبين أن أفضل وسيلة لحفظ حبوب القمح فى عصرنا هى أن نتركه فى سنابله وكذلك الذرة نتركها فى غلافها . وكان تعبير الرؤيا دقيقاً لأنه يريد أن يستبقى للناس حياتهم فى زمن الجدب ، ويستبقى لهم كذلك الضرع الحيوانى ، فتأكل الناس الحب ، وتأكل الماشية التبن المتبقى ، وكذلك ضمن الحق مقومات الحياة لكل ما يلزم للحياة . ونلحظ أن المأكول فى هذه الآية هو القليل ، أما الباقى فهو الكثير فى سنابله ، هذا فى أيام الرخاء ؛ فماذا عن أيام الجدب ؟

﴿ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾

(سورة يوسف)

أى أن الناس ستأكل فى أعوام الجدب الكثير من الحبوب التى فى المخازن ويجب أن يحتفظوا بقليل مما يحصنون فى هذه المخازن ، وذلك لاستبقاء جزء من القمح للزراعة .

إذن فـ (من) فى قول الحق سبحانه وتعالى : (وكلوا مما رزقكم الله حلالاً طيباً) للتبعيض أى كلوا بعض ما رزقكم الله ، فإن كانت الأشياء مما يكون بقاؤها سبباً لامتداد نوعها فالنوع يكون متصلاً . مثال ذلك رجل عنده بذور البطيخ وزرعها ، وبعد أن جاءت الثمار أكلها هى والبذور فمن أين يزرع فى العام القادم ؟ كان يجب أن يحتفظ ببعض منها لتكون بذوراً . وكان يجب أن يحتفظ بجزء من البطيخ ليعطى منه الجار أو المحتاج .

إذن فقول الحق سبحانه وتعالى : « مما رزقكم الله » تصلح لاستبقاء النوع وتصلح لصرف الزائد إلى غير القادر . « واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون » أى أنك حين تتقى من تؤمن به إلهاً فليس فى ذلك غضاضة ؛ لأنك آمنت أنه إله وقوى ، والغضاضة فى أن تأتمر بأمر مُساوٍ لك ، أما الانقياد والائتمار لأمر الأعلى منك ، فهذا لا يكون سبباً فى الغضاضة إنما هو تشريف لك وتكريم .

ونجد الحق يشرع لنا ذلك فى قصة سيدنا موسى مع السحرة ، فألقى موسى عليه السلام عصاه ، ورآها السحرة حية . والساحر ينظر إلى الشيء الذى تم سحره فيراه على حقيقته وصورته الأصلية ، أما المسحورون بالرؤية فهم الذين يرون الشكل المراد لهم رؤيته . ورأى السحرة حبالهم مجرد حبال ؛ وعصا موسى هى التى صارت حية . هنا عرفوا أنها مسألة أخرى فماذا قالوا ؟ :

﴿ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾

(سورة الشعراء)

لقد عرفوا أن هذا أمر خارج عن نطاق البشرية . إذن فما كان من أمر السحرة تجاه قوم فرعون هو تخييل للنظر :

﴿ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ ﴾

(من الآية ٦٦ سورة طه)

وقال الحق :

﴿ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ ﴾

(من الآية ١١٦ سورة الأعراف)

أما موسى عليه السلام فحين ألقى العصا أول مرة ووجدها حية خاف لأنه رأى فى ذلك قلبا للحقيقة . أما عند السحرة فليست حبالهم حيات حقيقية ولكنها سحر لأعين الناس أى تخييل للناظر . ومثال آخر هو سيدنا سليمان عندما أرسل لبلقيس ملكة سبأ . وجاء رسوله يقول لها :

﴿ أَلَّا تَعْلُواْ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ ﴾

(سورة النمل)

فماذا قالت لحاشيتها من رجال القتال ؟ :

﴿ مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ ﴾

(من الآية ٣٢ سورة النمل)

وهنا عرفت الحاشية أن المسألة تتطلب رأياً سياسياً ؛ فقالوا :

﴿ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾

(سورة النمل)

الرأى إذن هو من حق السياسى الذى يزن الأمور بموازين العقل وموازين الاحتمال الواقعة وموازين رد الفعل . وأدارت بلقيس المعركة سياسياً ، فأرسلت هدية من مقام ملكة ، فإن راقته الهدية فهو طالب دنيا ويريد خيرها ، وعندما وصل رسلها بالهدية ، ماذا قال سليمان ؟

﴿ فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾

(سورة النمل)

وهنا عرفت بلقيس أن الإسلام أمر ضرورى ، وهاهى ذى الدقة لنعرف أن الأمر من المساوى هو الذى يعطى عزة فى الآمر وذلة فى المأمور ، أما إذا كان الأمر من غير المساوى ومن الأعلى ـ سبحانه ـ فلا ذلة فيه لأحد . وكان إيمان بلقيس إيماناً ملوكياً . فقالت :

﴿ وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾

(سورة النمل)

إنها لم تقل أسلمت لسليمان وإنما قالت : « وأسلمت مع سليمان لله » . إذن فلا غضاضة فى إيمانها . وذلك حتى لا يظن شعبها أنها ذهبت به إلى حضيض الذلة فى أن يحكمهم إنسان آخر . لكن هى وسليمان محكومان لله رب العالمين ، ولا غضاضة فى ذلك : ونعود إلى قوله جل شأنه :

﴿ وَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾

(من الآية ٨٨ سورة المائدة)

أى اجعلوا للإيمان حيثية ، ومادمت قد آمنت وتأتمر بأمر من تؤمن به . فأنت لا تؤمن إلا بمن تثق فى أنه يستحق الإيمان . وقوله أولاً فى الآية السابقة :

﴿ وَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾

(سورة المائدة)

وقوله فى تذييل هذه الآية :

﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾

(من الآية ٨٨ سورة المائدة)

هو تسوير وإحاطة لطاعة بإيمانين ؛ إيمان خوطبوا به ، وإيمان أقروا به . ومن بعد ذلك يقول الحق :

﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ ۖ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ ۚ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ۚ وَٱحْفَظُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾

عندما ننظر فى قول الحق : « لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم » نعرف أن « يؤاخذ » من « آخذ » ويأخذ من أخذ ، فإن قلت : « أخذت فلاناً بكذا » فذلك دليل على أنك أنزلت به نكالاً لأنه لم يدخل فى تعاقد خيرى معك ، ولكن أن تقول : « آخذته » . كأن المفاعلة حدثت بأن دخل معك فى عقد الإيمان ولذلك يأخذ الحق

الكافرين أخذ عزيز مقتدر . ولكنه يؤاخذ المؤمنين ، لماذا ؟ لأن المؤمنين طرف فى التعاقد ، أما الكافرون فليسوا طرفاً فى التعاقد ؛ لذلك يأخذهم أخذ عزيز مقتدر .

إذن فالمؤاخذة غير الأخذ ، المؤاخذة هي إنزال عقوبة بمن له معك عهد فخالفه بعمل جريمة نُصَّ عليها ؛ فلا يؤاخذه أبداً بجريمة لم ينص عليها ، ولا يتم توقيع عقاب على أحد دون تحذير مسبق . ولذلك ففى القانون المدنى يقولون : لا عقوبة إلا بجريمة ولا جريمة إلا بنص .

إذن لا بد من النص أولاً على العقاب على الجريمة ؛ لأن النص على فعلٍ ما بأنه جريمة يجعل الإنسان يراجع نفسه قبل الإقدام على مثل هذا الفعل . أما عدم وجود نص على أن ذلك الفعل جريمة يجعل الإنسان حراً فى أن يفعله أو لا يفعله لأنه فعل مباح .

وعلينا أن نلحظ التعاقد فى قوله الحق : « لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم » . وعندما ننظر إلى معنى : « اللغو » نجده الشيء الذى يجرى على اللسان بدون قصد قلبى ؛ مثل قول الإنسان فى اللغة العامية : لا والله أو : والله أن تأتى للغداء معنا ، هذا هو اللغو . أى هو الكلام من غير أن يكون للقلب فيه تصميم . وسبحانه وتعالى قد خلقنا وهو الأعلم بنا علم ـ سبحانه ـ أن هناك كلمات تجرى على ألسنتنا لا نعنيها . ودليل ذلك أن الأم التى تحب وحيدها قد تدعو عليه ، لكن ذلك بلسانها ، أما قلبها فيرفض ذلك . ولهذا يقول المثل الشعبى : أدْعى على ابنى وأكره من يقول آمين .

إذن الحق سبحانه وتعالى علم بشريتنا ، وعلم أن اللسان قد يأتى بألفاظ لم تمر على قلبه فيقول سبحانه : « لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم » واتبع الحق ذلك : « ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان » . وساعة نرى كلمة : « ولكن » نعرف أن هناك استدراكاً ، والاستدراك هو إثبات ما يتوهم نفيه أو نفى ما يتوهم ثبوته . وساعة نرى كلمة « عقَّدتُم » فهى دليل على أنها عملية جزم قلبية ، وأن الإنسان قبل أن ينطق بالقسم قد أدار المسألة فى ذهنه وخواطره وانتهى إلى هذا الرأى .

إذن فاللغو هو مرور كلمة على اللسان دون أن تمر على القلب ، وضربنا مثلاً على ذلك وهو دعاء الأم على وحيدها . ونحن نرى أن هناك ألفاظاً كثيرة تمر على ألسنة قد تؤدى إلى الكفر ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم المبلغ عن الله يضع لنا صدق النية فيقول : (أخطأ من شدة الفرح) . قالها رسول الله تعليقاً على رجل قال : « اللهم أنت عبدى وأنا ربك »[1] .

هذا هو اللغو . ومن رحمة الله بنا أنه يعفو بعميق وواسع رحمته فيقول لنا : « لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان » . وكلمة « عقّدتم » دليل على أن اللسان لم يعقد شيئاً فحسب ولكن عقده بأحكام قوى . فساعة تبالغ فى الحدث فأنت تأتى له باللفظ الذى يدل على المعنى تماماً بتمكين وتثبيت . وعلى ذلك فكلمة « عقّد » غير « عَقَدَ » إذن فكلمة « عقّد » أى أن الإنسان قد صنع عقدة محكمة . ومثال على التأكيد قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ ﴾

(من الآية ٢٣ سورة يوسف)

قد يقول قائل : ألم يكن يكفى أن يقول الحق سبحانه : « وغَلَقَت الأبواب » ؟ ونقول : لا . إن الحق قد أتى بالفعل الذى يؤكد إحكام الإغلاق . فإغلاق الأبواب يختلف من درجة إلى أخرى ؛ فهناك غلق للباب بلسان « طبلة » الباب ؛ وهناك غلق بالمزلاج ، وقوله الحق : « وغلّقت الأبواب » أى أن امرأة العزيز بالغت فى غلق الأبواب . وكذلك قوله الحق : « عقّدتم الأيمان » . أى جالت فى قلوبكم جولة تُثَبِّت صدق نيتكم فى الحلف . وهناك صورة أدائية أخرى تلتقى مع هذه الصورة فى المعنى ، حين قال الحق سبحانه :

﴿ لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾ ﴾

(سورة البقرة)

ونلحظ هنا أن القلوب قد كسبت ، فما الذى تكسبه القلوب فى مثل هذه الحالة ؟ نعرف أن الكسب هو وجود حصيلة فوق رأس المال . والكسب الزائد فى القسم ،

---

١ ـ من حديث رواه الإمام مسلم .

هو أن يؤكد الإنسان بقلبه هذا القسم ؛ أى أن القسم انعقد باللسان والقلب معاً وسبب نزول آية سورة المائدة (لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم » أن الصحابة الذين حرموا على أنفسهم طيبات المطاعم والملابس والمناكح وحلفوا على ذلك فلما نزل قوله تعالى :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَـٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَـٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾

(سورة المائدة)

قالوا : كيف نصنع بأيماننا ؟ فنزلت هذه الآية أى أن تحريم الحلال لغو لا كفارة فيه ، ونعلم أن الإنسان لا يصح له أن يحلف على شيء ليس له دخل فيه ؛ كقول إنسان ما : والله لن أصلى . إن مثل هذه اليمين لا تنعقد ، ولذلك لا كفارة لها . لكن إن قال : والله لأشربن الخمر . هنا نقول له : امتثل إلى ما جاء فى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها فليأت الذى هو خير وليكفر عن يمينه »[1] .

والحق سبحانه وتعالى يقول : « ولكن يؤاخذكم بما عقَّدتم الأيمان » إذن فهناك استدراك يتعلق باليمين المؤكدة وهى تستدعى المؤاخذة . فكيف تكون المؤاخذة وهى عقوبة ، على الرغم من أنه لا عقوبة إلا بنص ؟ إن الحق سبحانه وتعالى ستر العقوبة ومنعها بالكفارة : « فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام » . والكفارة هى ستر للعقوبة . فهل معنى ذلك أن الإنسان تلزمه الكفارة مادام قد عقَّد الأيمان ؟ لا ، تكون الكفارة فقط حين تحنث فى القسم فلم تبر فيه . فتكون الكفارة فى هذا المجال كالآتى : إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم ، أو كسوتهم ، أو تحرير رقبة ، أو صوم ثلاثة أيام لمن لم يجد .

(١) رواه أحمد ومسلم والترمذى عن أبى هريرة .

والمناسب فى الكفارة يختلف فى مفهوم المفتين باختلاف الحانث ، ومثال ذلك أن خليفة فى الأندلس حلف يميناً وأراد أن يؤدى عن اليمين كفارة ، فجاء إلى القاضى منذر بن سعيد وسأله عن كفارة هذه اليمين ؛ فقال : لا بد أن تصوم ثلاثة أيام . وكان بمجلس شخص آخر فأشار للقاضى إشارة فلم يعبأ القاضى منذر بن سعيد بتلك الإشارة . وخرج القاضى ومعه ذلك الشخص ، فسأل القاضى : يا أبا سعيد ، إن فى نفسى شيئاً من فتواك ؛ لماذا لم تقل للخليفة إن كفارة اليمين عتق رقبة أو إطعام عشرة مساكين ؟ فقال القاضى منذر بن سعيد : أمثل أمير المؤمنين يزجر بعتق رقبة أو إطعام عشرة مساكين ؟

وهذا يدلنا على أن القاضى منذر بن سعيد قد أجهد نفسه ليختار الكفارة التى تزجر . وهذا يعلمنا أن الكفارة فى جانب منها زجر للنفس وفى جانب آخر جبر للذنب . وقد رجح القاضى منذر بن سعيد جانب الزجر على جانب جبر الذنب ؛ لأن الخليفة لن يرهقه إطعام عشرة مساكين أو كسوتهم أو عتق أكثر من رقبة[1] .

وفى الإطعام لعشرة مساكين من أواسط ما نطعم به الأهل ، قد يقول قائل : هل الأوسطية هنا للكمية أو الكيفية ؟ ونقول : يراعى فيها الكمية والكيفية . فإن كانت وجبة الإنسان مكونة من رغيف واحد فليعرف أن مِن أهله مَن يأكل فى الوجبة الواحدة ثلاثة أرغفة فيكون الأوسط فى مثل هذه الحالة رغيفين مع ما يكون من أدم كلحم ودسم . وكذلك الكسوة ؛ أن يكسو الإنسان الذى يكفر عن يمين عشرة مساكين بما يستر العورة وتصح به الصلاة ؛ كإزار ورداء أو قميص وعمامة ، أو أى ملابس تسترهم . وهانحن أولاء نجد أن كفارة تحرير رقبة تأتى فى المرتبة قبل الأخيرة ويأتى بعدها قول الحق : « فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام » . إذن فالحق لم يرتب الكفارة وإنما علينا أن نختار منها الكفارة الملائمة .

ويأتى الحق من بعد ذلك بالقول : « واحفظوا أيمانكم » والحفظ هو عدم التضييع . أما كيف نحفظ أيماننا ؟ فنقول : إن على الإنسان ألا يجرى اليمين على لسانه ، هذه واحدة . والثانية : أن يحاول الإنسان ألا يحنث فى اليمين . وهذا

---

(٢) الجمهور على أنه لا يكفر بالصيام إلا إذا عدم هذه الثلاثة الأشياء وهى : الإطعام والكسوة ، وعتق الرقبة .

يقتضى ألا يحلف الإنسان على شيء يقوله بلسانه ويخضعه لقلبه إلا إذا كان على ثقة من أنه سيجند كل جوارحه للقيام بهذا العمل الذى أقسم أن يقوم به ، وهذا هو معنى قوله الحق : « واحفظوا أيمانكم » .

ويذيل الحق الآية الكريمة : « كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تشكرون » . والشكر هو الثناء من المُنْعَم عليه على المُنعِم بالنعمة ، فكأن هذه التشريعات تستحق منا الشكر ؛ لأنها جعلت اللغو غير مؤاخذ عليه ، ولأنها جعلت اليمين الذى عقَدته له كفارة ، وفى كل من الأمرين تيسير يستحق الشكر لله .

ويتابع الحق القول :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾

ساعة تسمع كلمة : « إنما » فاعلم أنهم يسمونها فى اللغة « أداة قصر » كقولنا : إنما زيد مجتهد ، وهذا يعنى أننا قَصرْنا زيداً على الاجتهاد . لكن إن قلنا : إنما المجتهد زيد ، فنحن فى هذه الحالة قَصرْنا الاجتهاد على زيد . وساعة تقصر إنساناً على وصف فذلك يسمونه : « قصر موصوف على صفة » ، وعندما نقول : إنما زيد شاعر . فهذا يعنى أن زيداً شاعر فقط وهو ليس بكاتب أو خطيب . أما إن قلت : إنما الشاعر زيد ، فهذا يعنى أنه لا يوجد شاعر إلا زيد ؛ فكأنك نفيت عن الآخرين أنهم شعراء ، وأن زيداً فقط هو الشاعر ويحتمل أن يكون كاتباً وخطيباً وعالماً مع كونه شاعراً . إذن فساعة ترى « إنما » فاعرف أنها أداة من أدوات القصر .

والحق سبحانه يقول هنا :



﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٩٠) ﴾

(سورة المائدة)

أى إن الخمر والميسر والأنصاب والأزلام كلها رجس من عمل الشيطان . والرجس هو الشيء الرديء الخبيث القذر . والقذارة والخبث هما من الأمور التى قد تكون حسية مثل الخمر ، وقد تكون معنوية كالأنصاب والأزلام ؛ وجمع الحق سبحانه فى هذه الآية الأمرين معاً . ولم يقل إن الخمر هى عصير العنب أو عصير التفاح ، إنما جاء بالخمر التى تشمل كل ما يخامر العقل ويستره . وتعجب بعض العلماء من أن هذه الآية نزلت فى البلاد التى ليس فيها شيء من عصير العنب ، ذلك أنهم ظنوا أن عصير العنب فقط هو الذى يستر العقل ، لكن الحق جاء بالتحريم الشامل لكل ما يستر العقل . لماذا إذن تكون الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجساً من عمل الشيطان ؟

إنّ الحق سبحانه وتعالى قد خلق الإنسان وجعله خليفة فى الأرض وسخر له كل شيء فى الوجود وطلب منه أن يعبده وحده وأن يعمر هذه الأرض . وأراد الحق أن يضمن للإنسان سلامة أشياء متعددة ؛ سلامة نفسه فلا يُعتدى عليها بالقتل أو غير ذلك ، وسلامة عقله فلا يُجنى عليه بما يستر آلية الاختيار بين البدائل ، وسلامة عرضه فلا يَلغ فيه أحد وحتى تأتى الأنسال التى تعمر الكون وهى أنسال طاهرة ، وسلامة ماله حتى يحفظ على الإنسان أثر حركته فى الحياة وحتى لا يأخذ غيره أثر حركته ، وذلك حتى لا يزهد العامل فى العمل ولا يعود الطاقات أن تأخذ من غير عملها فتكسل وتتواكل ، فالإنسان إذا ما اعتاد أن يأخذ من غير عمل صار العمل صعباً عليه ، وهكذا كانت صيانة المال لا تبدد طاقة ولا تهدر حقا ، ولا تعطى غير ذى حق حقا لغيره ، وهكذا حتى لا يشيع العجز الاصطناعى فى الكون . ولذلك قال الحق وهو مانح كل مال :

﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾

(من الآية ٢٤٥ سورة البقرة)

أى أنه ـ وهو المانح سبحانه وتعالى ـ قد احترم حركة الإنسان فلا يستمرىء أحد البطالة . وعندما تنتشر البطالة فإن الإسلام يعالج الأمر بحكمة بالغة ؛ فهو يطلب من الوالى أن يسبب لهم الأسباب ليعملوا . وذلك حتى لا يتعودوا على الأخذ بغير عمل لئلا تكون مصيبة على المجتمع . وأراد سبحانه بالشريعة السمحاء أن يحمى الإنسان من كل ما يبدده ، فحينها حرم الخمر ، أى منع عن الإنسان ستر العقل ، ذلك أن ميزة الإنسان على الحيوان هى العقل .

إن الإنسان يختلف عن الحيوان بأنه يحفظ حياته بالعقل ، أما الحيوان فيحفظ حياته بالغريزة . ولذلك فالحيوان لا يملك إلا رداً واحداً إذا ما تم الاعتداء عليه ؛ الكلب يعض المعتدى والقطة تخمش المعتدى ، أما الإنسان فعندما يعتدى عليه أحد فهو يختار بين بدائل للرد على العدوان ، إما أن يضرب وإما أن يقتل وإما أن يسامح .

ومثال لذلك نراه فى الريف ، عندما يحاول راكب الحمار أن يجبر الحمار على القفز على قناة صغيرة فيها مياه يرفض الحمار ذلك تماماً ومهما ضربه راكبه فهو يرفض القفز ؛ لأن غريزته تمنعه من ذلك . أما الإنسان فقد ينتابه الغرور ويظن أنه قادر على القفز فوق القناة فيقفز لكنه قد يقع فى المياه . وتوجد المجازفة عند الإنسان ، لكنها لا توجد عند الحيوان بمقتضى الغريزة .

ومثال آخر من عالم الحيوان . نجد ذكر الجاموس يقترب من الأنثى ليشمها فإن وجدها حاملاً لا يقربها ، هكذا الحيوان . أما الإنسان فلا . والحمار يتناول طعامه من البرسيم مثلا ما يشبعه ولا يزيد أبداً فى الطعام مهما ضربه صاحبه ؛ لأنه محكوم بالغريزة ، أما الإنسان فقد يأكل فوق طاقته .

وهكذا نجد الغريزة هى التى تعصم الحيوان ، والعقل هو الذى يعصم الإنسان . ولذلك لا يملك الحيوان القدرة على الاختيار ، ولكن ميزان غرائزه لا يختل أبداً . أما ميزان الغرائز عند الإنسان فقد يختل .

لقد ميز الله الإنسان عن الحيوان بالاختيار بين البدائل بالعقل ، ولذلك لا يصح ولا يستقيم من الإنسان أن يطمس هذه القدرة بالخمر . فإن طمس قدرة الاختيار ، فإن غرائزه فى هذه الحالة لا تنفعه لأنها غير مؤهلة لحمايته، ولذلك نجد الذى يطمس عقله يضع نفسه فى مرتبة أقل من الحيوان ؛ لأن الحيوان تحميه الغريزة ، والإنسان يحفظه عقله ، وهو فى هذه الحالة قد طمسه وغطاه ، وقد حرم الله الخمر لأنها تستر العقل . وكل ما يستر العقل خمر حتى ولو كان أصله حلالاً ؛ وذلك لأن العقل هو مناط التكليف . وكذلك حرم الله الميسر .

ولنر دقة الاسم الذى اختاره الله للقمار ، إنه « الميْسر » ولم يسمه « المعسِر » ذلك أن أحداً لا يقبل على الميسر وهو يظن أنه سوف يخسر ، وكل من يلعبون القمار إنما يفعلون ذلك على أمل الكسب ؛ لذلك جاء بالاسم الذى يعبر عن حالة اللاعب للقمار إنه يلعب على وهم الكسب ، وإن كسب فالمكسب يُغريه بالمزيد من اللعب . والخسران يغرى باللعب أكثر لعل كسباً يعوض الخسارة التى منى بها . وقد يبيع اللاعب للميسر كل ما يملك كى يعوض خسارته ومع ذلك فالكسب من الميسر هين على النفس تبدده وتنفقه فيما لا ينفع بل قد ينفقه فيما يضر، فالمكسب ليس له والخسارة محسوبة عليه . والذين يلعبون الميسر مع بعضهم بعضاً لا تربطهم صداقة أو محبة . فكل منهم حريص على أن يأخذ ما فى جيب الآخر . وهذا اللون من اللعب يعطل القدرة على الكسب الحلال ؛ لأن الكسب الحلال يحتاج إلى حركة فى الكون . والميسر يشل حركة الكاسب لأنه يزهد فى العمل . والخسران يشل حركة الخاسر لأنه مهما سعى فى الأرض فقد لا يستطيع أن يسدد ديونه .

إذن فالحق سبحانه وتعالى يريد أن يضمن للناس ألا ينتفع أحد بشىء إلا بنتيجة كده وعمله . والحق يريد أن يكون جسد كل إنسان من ناتج عرقه فى عمل مشروع وكذلك أجساد من يعول . وأبلغنا أيضاً أن الأنصاب رجس من عمل الشيطان . والأنصاب ثلاثة قِداح كانت توجد عند الكاهن ؛ قِدْح مكتوب عليه أمرنى ربى ، والقِدح الثانى : مكتوب عليه نهانى ربى ، والقدح الثالث : غفل من الكتابة أى خالٍ منها فلا علامة فيه . فإن كان فى نية إنسان السفر أو الزواج أو التجارة فهو يذهب إلى الكاهن ليضرب له هذه القداح . فإن خرج القِدح المكتوب عليه أمرنى ربى فعل ،

وإن خرج نهانى ربى لم يفعل . أما إن خرج القدح الغفل فهو يعيد ضرب القداح حتى يخرج أحد القدحين : إما الذى يحمل الأمر ، وإما الذى يحمل النهى . ولم يتساءل أحد لماذا عندما يخرج القدح الغفل لا يعتبر أن هذا أمر خارج عن نطاق التحريم . ويؤخذ على أنه إباحة واختيار يعمل أو لا يعمل . لقد أنساهم الحق ذلك حتى يدلنا على أن ذلك أمر كاذب جاء به الكهنة من عندهم . فإن سألهم سائل : من الإله الذى أمر ونهى ؟ هنا يقول القائل منهم : الله هو الذى أمر وهو الذى نهى . (والله يعلم إنهم لكاذبون) .

والحق سبحانه وتعالى حين ينهانا عن تلك الأمور فهو يريد للإنسان أن ينمى ملكة الاختيار بين البدائل . وعلى الإنسان أن يستنبط وأن يحلل وأن يعرف المقدمات فيدرسها ويحلل الخطوات ليصل إلى النتائج . لا أن يعطل القوة المدركة التى تختار بين البديلات ، فالخمر تستر العقل ، وكذلك الميسر يضع الإنسان بين فكى الوهم ، وكذلك الأنصاب تعطل القدرة على السعى والرضوخ للكهنة . وعندما تسأل شارب الخمر : لماذا تشربها ؟ يجيب : إننى أريد أن أستر همومى . وستر الهموم لا يعنى إنهاءها . ولكن مواجهة الهموم هى التى تنهى الهموم بالأسباب المتاحة للإنسان . فإن لم تقو أسبابك فالجأ إلى المسبب فى إطار قول الحق :

﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ ﴾

(من الآية ٦٢ سورة النمل)

وعندما تستنفد أسبابك وتلجأ إلى الله فهو يعينك على الأمر الشاق المسبب للهموم . ولنا فى الرسول صلى الله عليه وسلم القدوة . فقد كان إذا حزبه أمر قام إلى الصلاة . ومعنى « حزبه » أى خرج عن نطاق أسبابه . ولذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يلجأ إلى رب الأسباب . وقد نجد من يقول : إننى أدعو الله كثيراً ولكنه لا يستجيب لى .

ونقول له : إما لأنك قد دعوت فى غير اضطرار ، وإما لأنك لم تلتفت إلى الأسباب ، وأنت حين تتجنب الأسباب فأنت ترفض يد الله الممدودة لك بالأسباب . وأنا أتحدى أن يوجد مضطر أنهى الأسباب ، ولا يأتى له الفرج . وأنت حين تدعو بحاجة وتتأخر عليك ، نقول لك : إنك دعوت بغير اضطرار .

وكثيراً ما أضرب هذا المثل ـ ولله المثل الأعلى المنزه دائماً ـ وأقول:هب أن تاجراً من تجار الجملة الكبار يجلس أمام المخازن التى يملكها وجاءت السيارات الشاحنة بصناديق بضائعه . والعمال يحملون البضائع ليضعوها فى المخازن . وفجأة رأى عاملاً من عماله يكاد يقع بالصندوق الذى يحمله ، هنا نجد التاجر يهب بلا شعور لنجدة العامل . فما بالنا بالحق الذى خلق لنا الأسباب ؟ إنك إن استنفدت الأسباب فإن الله يعينك مصداقاً لقوله :

﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ ﴾

(من الآية ٦٢ سورة النمل)

إذن فالخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان . والأزلام هى نوع من الميسر ؛ فقد كانوا يحضرون الناقة أو الجزور ويذبحونها ويقسمونها إلى ثمانية وعشرين قسماً ويخصصون لإنسان نصيباً وللثانى نصيبين وللثالث ثلاثة أنصبة ، وللرابع أربعة أنصبة وللخامس خمسة أنصبة ، وللسادس ستة أنصبة ، والسابع له سبعة أنصبة . وكانوا يأتون بالقِداح السبعة . قدح اسمه « الفذ » ويأخذ الفائز به نصيباً ، والقدح الثانى : « التوأم » ويأخذ نصيبين ، والقدح الثالث اسمه « الرقيب » يأخذ ثلاثة . والقدح الرابع اسمه « الحِلْس » يأخذ أربعة . والخامس هو « النافر » ويأخذ خمسة . والسادس اسمه « المُسْبِل » ويأخذ ستة . والسابع اسمه « المُعَلَّى » ويأخذ سبعة أنصبة . وهناك ثلاثة قداح هى المنيح والسفيح والوَغْد ، وهؤلاء الثلاثة لا يأخذون شيئا بل يدفعون ثمن الذبيحة . وذلك رجس من عمل الشيطان .

إن النفس العاقلة لا تقبل على مثل هذه الأعمال ، بل لا بد أن يحرك أحد تلك الأطماع ، ذلك أن المخالفات إنما تنشأ من أمرين ؛ إما أن تكون من النفس ، وإما أن تكون من الشيطان . والمخالفة التى تكون من النفس هى التى تحقق شهوة من نوع خاص بحيث إذا زحزحت النفس عنها فهى تريدها . والمخالفة التى من نزغ الشيطان تختلف ، فقد يوعز الشيطان لإنسان بالسرقة ، فيرفض ، فيعرف الشيطان أن لهذا الإنسان مناعة ضد هذه المعصية ، فيوعز بمعصية أخرى ، فإذا وجد مناعة انتقل إلى معصية ثالثة ؛ لأن وسوسة الشيطان تطلب الإنسان عاصياً على أى لون من الألوان .

فإذا وقفت عند معصية بذاتها فاعلم أن ذلك من عمل نفسك ، وإن انتقلت بالوسوسة من معصية عزت على الشيطان إلى معصية أخرى فاعلم أنها من عمل الشيطان ولا دخل للنفس بها . والعاقل الذى يتمعن فى كل تلك المسائل المحرمة يرى أن الخمر والميسر والأنصاب والأزلام هى أمور لا تستطيبها النفس غير المنزوغة من الشيطان ، فكأن قوله الحق : « رجس من عمل الشيطان » يدلنا على أن العاقل لا يمكن أن يصنع هذه الأشياء .

ويذيل الحق الآية : «فاجتنبوه لعلكم تفلحون » . ويأمرنا سبحانه باجتناب الرجس الذى جمع الخمر والميسر والأنصاب والأزلام ، والاجتناب هو أن يعطى الإنسان الشىء المجْتَنَب جانبَه ، أى المنع للذرائع والأسباب والسد لها ؛ لأنك إن لم تجتنبها فمن الجائز أن قربك منها يغريك بارتكابها . وبعض الناس يظنون أن الخمر لم يأت لها تحريم وإنما جاء الأمر فيها بالاجتناب .

ونقول لهم : إن التحريم هو النص بعدم احتسائها ، وأما الاجتناب فهو أقوى من التحريم لأنه أمر بعدم الوجود فى مكانها . فإذا كان الحق قد قال فى قمة العقائد :

﴿ فَٱجْتَنِبُواْ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ ﴾

(من الآية ٣٠ سورة الحج)

فقد قال هنا اجتنبوا الرجس الذى يجمع الخمر والميسر والأنصاب والأزلام . والحق سبحانه وتعالى واجه العادات التى شاعت قبل الإسلام ليخلع الفاسد منها ولم يجابهها دفعة واحدة وذلك لتعلق النفس بها والإلف لها ، وإنما كان التحريم لها بالتدريج . لقد حزم الإسلامُ الأمرَ أولاً فى مسائل العقائد ، أما الأمور التى تترتب على إلف العادة فكان تحريمها على مراحل .

وحين يقول الحق سبحانه وتعالى عن شىء إنه : « رجس » ، فذلك حكم الحق الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . ونحن نقبل هذا الحكم حتى ولو لم نفهم نحن معنى الرجس ، أو لم نتأكد مادياً من أن الشىء المحرم هو من الرجس ، ذلك أنه يكفى فى ذلك حكم الله الذى يرضخ له العبد المؤمن الذى قبل التكليف من

ربه ؛ لأن ربه مُؤتمن على كل مصالحه . ومادام الحق قد قال عن شيء إنه رجس ، فهو رجس ولا جدال فى ذلك .

أقول ذلك لأن بعضًا يظل متصيداً لأى ثغرة مفتعلة متسائلا : كيف يكون ذلك العمل أو ذلك الشيء من الرجس ؟ ونقول : إننا نرضخ لحكم الله تعالى وننفذ ما أمر به ، فهو إله مأمون على كل الخلق ، وتثبت لنا الأيام دائماً صدق قول الحق فى أن الأشياء التى قال عنها سبحانه إنها رجس ، هى من الرجس فعلاً ، فحين يقول سبحانه لخلقه : افعلوا كذا ، لا نسأله : وما علة ذلك التكليف ، ولكننا ننفذ أمر الحق ، ونكتشف فى أعماقنا فائدة ذلك التكليف .

أما عندما يكلفنا عبد مساوٍ لنا بشيء فلا بد أن نسأل : لماذا ؟ والعبد المساوى لنا عليه أن يقدم لنا العلة لأى فعل يطلب منا القيام به ، ولكننا لا نسأل الله عن علة التكليف لنا ، لأننا نؤمن بأنه إله حكيم ، والأيام ستثبت لنا أن قول الله حق . ومثال على ذلك نجد أن الذى لا يشرب الخمر امتثالاً لنهى الله عن ذلك الفعل ، هو إنسان مستقيم السلوك ، طاهر القصد ، ولا يتأتى منه نشاز فى الكون . أما الذى يشرب الخمر فهو معوج السلوك ، غير طاهر القصد ، ويتأتى منه نشاز فى الكون . وقد أثبتت التجربة أن شارب الخمر إنما يصاب بأمراض فى الكبد ويعانى من ارتباك فى إدارة حياته وكلماته . نحن نقرأ قول الله سبحانه :

﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ ﴾

(من الآية ٢٨٢ سورة البقرة)

والتقوى ـ كما علمنا ـ أن نجعل بيننا وبين غضب الله وقاية ؛ لذلك نفعل ما أمرنا به . وحين نفعل أوامر الإله الحق فإننا نتعلم حكم الله فى الفعل . ومثال ذلك قوله الحق :

﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ ﴾

(من الآية ٤٥ سورة العنكبوت)

ونحن نعرف كيف تنهانا الصلاة عن الفحشاء والمنكر ؛ لأننا نسلم وجوهنا وقلوبنا لله فننفذ ما أمر به . وكذلك نجد فى الزكاة نماء . ونجد الحج يصفى النفس من أى

كبر ويغسل الذنوب . وكل فعل أمر به الحق نجد له الأثر فى نفوسنا بعد أن نقوم به . أما إن فعلت الحكم للعلة فذلك يبعد بك عن مرتبة الإيمان .

ونجد أن الطبيب يأتى لشارب الخمر بصورة ملتقطة للكبد بواسطة الموجات الصوتية أو الأشعة فيجد شارب الخمر صورة كبده وقد امتلأت بالتهرؤ وصارت عرضة لأمراض كثيرة ثقيلة وربما تعطلت وظائف الكبد فى بعض الأحيان ، وهنا يأمر الطبيب شارب الخمر أن يمتنع عن شرب الخمر . فهل امتناع شارب الخمر فى مثل هذه الحالة هو امتناع بسبب الإيمان أو بسبب الأمر الطبى ؟ إنه امتناع بسبب الأمر الطبى ، ويستوى فى ذلك المسلم العاصى والكافر . ولكن المؤمن الذى يمتنع عن شرب الخمر ابتداءً ، فهو قد امتنع لا لعلة الأمر ولكن لأن الأمر من الله ، وهو يتبع أوامر الحق دون سؤال عن العلة . والمؤمن يأخذ الحكم من الله دون طلب تعليل منه ليشرح له أسباب المنع فى سلوكه .

والحق سبحانه قال : (إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه) والعداوة المسبقة بين الشيطان وأبينا آدم عليه السلام بينها ـ سبحانه ـ بقوله للملائكة :

﴿ ٱسْجُدُواْ لِآدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ ﴾

(من الآية ٣٤ سورة البقرة)

وكان الشيطان موجوداً مع الملائكة ، وكان الأولى أن يسجد هو ؛ لأن الأمر إذا كان للجنس الأعلى وهو الملائكة ، فيجب أن ينسحب على الأدنى ، لكنه عصى وقال :

﴿ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ ﴾

(من الآية ٦١ سورة الإسراء)

إذن فالعداوة مسبقة بين آدم والشيطان ، فكيف إذن نقبل نحن أبناء آدم وسوسته ؟ وكيف نقبل نزغه ؟ وكيف نقبل إغراءه ؟ لا بد إذن أن نتجنب ذلك لأنه رجس ومن عمل الشيطان ، حتى ننجو من كل سوء ، ويأتى لنا كل فلاح .

ويقول الحق :

﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾ ﴾

لم يأت الحق هنا بالأنصاب أو الأزلام ؛ لأن المؤمنين لا يعتقدون فيها وانتهوا منها ، والخطاب هنا موجه للمؤمنين .

إذن لماذا قرن الحق التكليف بالنهى عن الخمر والميسر ـ من قبل ـ بالأنصاب والأزلام ؟ قال سبحانه ذلك ليبشع لنا الأمر ، فوضع الخمر والميسر مع الأنصاب والأزلام ، ولنفهم أن الحكم بالنهى عن الخمر والميسر جاء ليقرنهما بالأنصاب والأزلام ، ومادموا مؤمنين فلا بد أنهم قد انتهوا عن الأنصاب والأزلام .

ويقول سبحانه : « إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء » . والإرادة هى تخصيص الممكن ببعض ما يجوز عليه ، وتتعلق الإرادة بمريد ، فهل يقدر على إنفاذ ما يريد أم لا يقدر ؟ إن كان يقدر على إنفاذ ما يريد ، فالقدرة تكون من بعد الإرادة .

وحينما يريد سبحانه وتعالى ، فالقدرة تبرز المراد ، فقدرته لا تتخلف ولا مراده يتخلف ؛ لأن كل شيء منفعل له سبحانه وتعالى ، وتختلف المسألة عند الإنسان والشيطان ، فالإنسان يريد ، ولكن أله القدرة على إنفاذ ذلك ؟ أحيانا تكون له بعض من القدرة على إنفاذ ما يريد ، وأحياناً لا .

والشيطان يريد ، لكن أيقدر على إنفاذ ما يريد ؟ إنه يقدر فى حالة إطاعة الإنسان له . وهكذا تكون إرادة الشيطان ، وهو يجب أن تحدث المعصية من الإنسان ،

ويتمنى الشيطان ذلك ، ويخطط لذلك . لكن الفعل لا يأتى إلى الوجود إلا إذا وافق الإنسان على طاعة الشيطان .

إذن فالإرادة إن كانت ممن يقدر على الإرغام والإبراز فهى تظهر العمل فوراً ، والقادر المطلق هو الله ، وهو يحكم ما يريد ، ولذلك يأتى قوله الحق :

﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ ﴾

(سورة يس)

لكن خلقه حين يريدون فالأشياء لا تنفعل لهم انفعالها لخالقها ؛ لأن إرادة المخلوقات تقتضى أن ينفذ الإنسان على قدر طاقته ، وهى مهما زادت محدودة . وإرادة الشيطان تحتال على الإنسان حتى يفعل ما يتمناه ، ولا يستطيع الشيطان أن يُكره الإنسان قهراً على فعل ما ، ولكنه يزين له الفعل . فليس للشيطان سلطة الإكراه ليقهر الإنسان على فعل ، وليس للشيطان قدرة على الإقناع أو الإتيان بأدلة تجعل الإنسان يفعل مراد الشيطان وهو راضٍ عن عمله . ولذلك يقول الشيطان فى الآخرة للمذنبين : إن الذنب ذنبهم .

﴿ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ﴾

(من الآية ٢٢ سورة إبراهيم)

هكذا يعلن الشيطان أنه غير قادر على البشر ، لا بالقهر ولا بالحجة ، إنّه فقط زين لهم الأمر ، فمن كانت له شهوة فالشيطان يزينها له فيرتكب الذنب . ويعلن الشيطان :

﴿ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ﴾

(من الآية ٢٢ سورة إبراهيم)

ويعترف الشيطان أنه مهما صرخ مستغيثاً ـ يوم القيامة ـ فلن يجد من يغيثه ، وكذلك أصحاب الذنوب الذين اتبعوه سيصرخون ولن يجدوا من الشيطان عوناً ينجيهم من العذاب . و« أصرخ فلان فلاناً » أى ذهب ليزيل صراخه وينجده .

إذن فقول الحق : « إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء » يشرح لنا أن إرادة الشيطان هى إرادة تزيين ، لا إرادة قدرة على القهر أو الإقناع . وإذا

سمعت كلمة « يوقع » ، فافهم أن هناك شيئين الأصل فيهما الالتحام ، وهناك من يريد أن يجعل بينهما شيئاً يفصل هذا الالتحام . ولذلك يقال : « فلان مشى بالوقيعة » أي أنه أراد أن يصنع فجوة وشرخاً بين اثنين الأصل فيهما الالتحام .

وكلمة « بينكم » تفيد الانفصال . وهذا الانفصال هو الذى توضع فيه الوقيعة . لماذا ؟ لأن المؤمنين إخوة ، ولأن المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا ، والشيطان يسعى بالخمر والميسر بأن يمشى بالوقيعة بين المؤمنين . ونجد مجالس الخمر فيها هذا ؛ فالشاربون معاً كثيراً ما تقوم بينهم المعارك ويدور بينهم السباب . ولاعبو الميسر يأخذ بعضهم مال بعض ، وهكذا يتحولون من وحدة كالبنيان إلى فرقة وتحدث بينهما العداوة والبغضاء .

وما الفرق بين العداوة والبغضاء ؟ العداوة هى انفصال متلاحمين حدثت بينهما عداوة وبغضاء . والبغضاء هى انفعال القلب بشىء مكروه .

كأن البغضاء توجد فى الصدور بعد حصول العدوان ، فكأن العداوة تكون هى المنطقة الوسط التى باعدت بين هذين الشخصين بعد أن استسلما لنزغ الشيطان . وهذان الاثنان كان يجمعهما من قبل الصفاء والمودة والحب والأخوة الإيمانية .

والعداوة فى هذه الحالة تأخذ من مشاعر كل طرف ؛ لأن العداوة إن كانت من طرف واحد فعمرها قصير ، ولكنها تطول إن كانت بين طرفين . ولذلك تكون المعركة حامية بين عدوين يستشعر كل منهما العداوة للآخر . وهى تكون عداوة مؤججة وملتهبة إن لم يتدخل طرف ثالث ليحسم بالحق بين الاثنين ، فيخزى الذى على الباطل ويأخذ الحق منه ويعطيه لصاحبه ، وهنا يحس صاحب الحق أن هناك من ينصره . وبهذا تحسم العداوة وتنقضى . لكن إن لم يجد الطرفان رادًّا ولا رادعاً ، تظل العداوة متوهجة . ولذلك حينما عرض الحق أمر موسى عليه السلام وأمر فرعون ، قال عن موسى :

﴿ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ ﴾

(من الآية ٨ سورة القصص)

والتقطوا موسى لماذا ؟

﴿ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ﴾

(من الآية ٨ سورة القصص)

فهل عرفوا هم من البداية أنه عدو ؟ لا ، لقد التقطوه ليكون قرة عين لهم ، ولكن الله أفسد مرادهم . فاللام فى قوله : « ليكون » هى لام الغاية والعاقبة وليست لام العلة الفاعلة ، وقد أثبت سبحانه بذلك أن فرعون ليس إلهاً ، وأن أتباعه كانوا قوماً مغفلين لا فطنة لهم . فلو كان فرعون إلهاً لعرف أن هذا الوليد الذى سيربيه سيكون عدواً له .

والعداوة هنا هل هى من ناحية موسى فقط تجاه فرعون ؟ لا ، إنها عداوة بين الله وموسى كطرف ، وفرعون كطرف . لذلك قال :

﴿ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ ﴾

(من الآية ٣٩ سورة طه)

ولم تنته هذه العداوة إلا بغرق فرعون . والحق ينبهنا : (إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر) و« فى » هنا هى للسببية كقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « دخلت امرأة النار فى هرة ربطتها فلم تطعمها ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض حتى ماتت »[1] .

ونقول فى حياتنا اليومية : أُخذ فلان إلى الحبس لمدة أعوام فى قطعة مخدرات . أى أنه أوقع نفسه فى المكروه بسبب شىء ما . وقوله الحق : « فى الخمر والميسر » دلت على أن العداوة والبغضاء مظروفة فى الخمر والميسر . ويقول بعد ذلك : « ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون » .

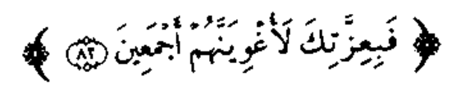
إن ذكر أى أمر يعنى أن يكون هذا الأمر فى بؤرة الشعور دائماً ، فكل معلومة يذكرها الإنسان تكون فى بؤرة شعوره ، ومن بعد ذلك تتحرك لتحل محلها معلومة أخرى . وعندما يكون بال الإنسان مشغولا بشىء فهذا الشىء لا يتزحزح من بؤرة الشعور إلى حاشية الشعور إلا بعد أن يأتى أمر آخر يشغل البال .

(١) رواه أحمد والبخارى ومسلم وابن ماجه عن أبى هريرة .

ولذلك نقول : إياكم أن تعتقدوا أن الذهن يفهم أى أمر من مرة واحدة أو من مرتين أو من ثلاث مرات . لا ، بل يفهم الذهن من مرة واحدة كآلة التصوير ، والمهم أن يكون ساعة التقاط المعلومة خالياً من غيرها ؛ ولذلك كنا نعرف أن إخواننا المكفوفين الدارسين معنا أقدر على الاستيعاب الحفظى منا نحن المبصرين ؛ لأن المبصر عندما يكون بصدد مسألة قد تنشغل عيناه بشيء ، فتكون بؤرة شعوره مشتتة . أما الأعمى فبؤرة شعوره تذكر فقط ما يسمعه .

وهكذا نعرف ما هو « الذكر » . والخمر تطمس العقل وتستره فكيف يذكر الله إذن ؟ وكذلك الصلاة ، وهى خير الذكر ، تسترها الخمر عنا . وكذلك الميسر الذى يلوح فيه الوهم بالكسب كالسراب ، فيلهث اللاعب خلف اللعب لعله يكسب ، ويفقد القدرة على ذكر الله والصلاة .

ولأن العداوة مسبقة بين الإنسان والشيطان ، نجد الشيطان قد قال فيما يحكيه الحق عنه :



(من الآية ٨٢ سورة ص)

قد عرف الشيطان كيف يقسم ؟ أقسم بعزة الله أن يغوى خلقه ، فلو أن الله أراد عباده لما أخذهم الشيطان . ويذيل الحق أمر الخمر والميسر بقوله : « فهل أنتم منتهون » . هذا استفهام ، وهو طلب فهم الشىء ، هذا ما نعرفه عندما يكون الاستفهام من البشر ، ولكن عندما يصدر هذا الاستفهام من الله لنا ، فهذا أمر الآمر سبحانه وتعالى . كيف ؟ إن هناك أمراً من الآمر هو حكم لازم . وهناك أمر يريده الله من المأمور ليأمر به نفسه .

وهى ثقة من الآمر الأعلى فى الإنسان المؤمن الذى يتلقى مثل هذا الأمر . ومثال ذلك ـ ولله المثل الأعلى ـ يقول الأب لأحد أبنائه : إن إهمالك لدروسك سيجعلك تنال غضبى واحتقار زملائك لك وتتأخر عن غيرك ، فهل ستنتهى من اللعب واللهو أو لا ؟ ولم يقل : انته عن اللعب ؛ لأن الأب أراد أن يأتى بالحيثيات حتى يحكم الابن بنفسه ، وحتى يدير المسألة بمقابلها ، ولا يجد إلا أن يقول : لقد انتهيت عن اللعب .

وهنا جاءت المسألة أيضا على هذا الشكل ، فبدلاً من أن تكون حكماً من الله أصبحت حكماً من العبد المأمور . وهذا أبلغ أنواع الحكم ؛ لأن المتكلم يلقى بالأمر فى صيغة سؤال ، ليدير المسئول كل جواب فلا يجد إلا الجواب الذى يريده السائل . ومثال ذلك عندما فتر الوحى عن حضرة النبى صلى الله عليه وسلم وقال أهل قريش : إن رب محمد قد قلاه وأبغضه وكرهه ، ثم نزل الوحى على رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى :

﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝ ﴾

(سورة الضحى)

ويتابع الوحى :

﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝ ﴾

(سورة الضحى)

وعندما يستقرىء النبى صلى الله عليه هذه المسألة يجيب : نعم يارب أنت وجدتنى يتيماً فآويتنى . وهذا يسمونه مشاركة المأمور فى علة الآمر . وهذه أبلغ أنواع الأمر .

وعندما يقول الحق : « فهل أنتم منتهون » يعلم المخاطبون ماذا يريده الله ، فيقولون : نعم انتهينا يا ربنا . وبالغوا كثيراً فى هذا الانتهاء ، فالإمام علىّ ـ كرم الله وجهه ـ يقول : لو وقعت قطرة منها فى بحر ثم جف البحر ، ونبت فيه الكلأ واندلع لسانى من الجوع ما قربته . ولم يكن هذا أمراً مفروضاً ، ولكنها المبالغة فى الانتهاء على أقصى صورة .

وهاهو ذا سيدنا عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ يقول : لو وقعت قطرة منها على يدى لحرمتها على نفسى . وهكذا كان رد فعل قول الحق : « فهل أنتم منتهون » . وبذلك تم حسم مسألة الخمر . ونعرف أن التكليف فى تحريم الخمر جاء متدرجاً ، والتكاليف الإيمانية إنما تأتى على لسان رسول ، والرسول لا يأتى إلا إذا عم الفساد فى المجتمع ، وفى ذوات البشر فى آن واحد . فلا نجد من يلوم نفسه ، أو يتدخل ليرد آخر عن فساده ؛ هنا تتدخل السماء بإرسال رسول ، ولا تصب السماء كل أحكامها فى أول الأمر ، ولكنها تدعو من خلال الرسول بالإيمان بالله الواحد حتى

يتلقوا منه الحكم . فالإيمان بوحدانية الله هو قمة العقيدة التى لا هوادة فيها .

لكن فى الأمور التى تتعلق بالأحكام ، فالأحكام تُغيِّر أوضاعاً عرفية وأوضاعاً اجتماعية متداولة بين الناس . فإذا أراد الله أن يغير عادة بحكم فهو يأتى بهذه المسألة تدريجيا ؛ لأنه سبحانه وتعالى يتلطف مع خلقه برحمته .

ومثال ذلك : كان الرجل يملك المال فلا يعطى أباه ولا أمه ، إنما يعطى المال لأولاده ، لأنه يعرف أن والده منته وسيموت قريبا ، وأن الابن هو الذى يستقبل الحياة ، ولذلك فالابن يأخذ كُلَّ المال . هنا قال الحق : لا ، إنك أنت يا صاحب المال قد تموت قبل أبيك فاترك له شيئاً .

﴿ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ ﴾

(من الآية ١٨٠ سورة البقرة)

لقد أراد أن يخرجهم من عدم العطاء إلى الوصية التى تكون منهم . وبعد أن استقرت الأحكام ، قرر الحق للوالدين نصيباً من الميراث . إذن جاء الأمر أولاً بتلطف فى الخروج عن حكم الإلف والعادة والعرف ؛ حتى لا يخرجهم إخراجاً قسرياً . والحق سبحانه وتعالى لا يريد أن يجعل المال دُولة بين الأغنياء فحسب أى يتداولوه دون غيرهم ، بل يريد أن يجعل المال دولة بين الناس . لذلك جاء الميراث .

إننا عندما نحسب ميراث ألف فدان مثلا نجده قد ذاب وتقلص وتناثر خلال ثلاثة أجيال إلى فدانين وخمسة أفدنة . وهذا تدرج أجيالى لا قسرى . حتى يرتب الإنسان حياته وحياة أبنائه ، فيترك المالك لأولاده ميراثاً وخيرًا ليديروا العمل فيه . أما الذى لا يملك فهو يعطى لأبنائه حرفة أو وظيفة . لذلك يذيب الدِّينُ المسألةَ المالية والعقارية أو الإقطاع كما يقولون ، لا بالقسر حتى لا تحدث للمجتمع هزة حقد أو هزة توتر ؛ لأن الذى جمع ماله من عرقه ومن اجتهاده ساعة يرى المال قد خرج منه إلى من لم يعرق ومن لم يجد ، فهو يحقد ، والحق يقول :

﴿ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴿٣٦﴾ إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟ وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ ﴿٣٧﴾ ﴾

(من الآية ٣٦ والآية ٣٧ سورة محمد)

وساعة يحدث الضغن فى المجتمع فإن كل استقرار وود ينتهى . وهذا هو منتهى التلطف فى رعاية العادات . وكانت الخمر ومجالسها عادة موجودة عند العرب ، وكان من الصعب أن يخرجهم منها مرة واحدة . لذلك جاء تحريمها بتدرج وبتلطف والذكى والفطن عندما يسمع الآية التالية يعرف أن الله قد بيت للخمر تبييتاً محكما للقضاء عليها وذلك بتحريمها ، يقول الله تعالى :

﴿ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ﴾

(من الآية ٦٧ سورة النحل)

فسبحانه يقول : « ورزقاً حسناً » ، ولم يصف السكر بأنه حسن . ومعنى هذا أن أخذ الرزق وتخميره واتخاذه سكراً هو إتلاف للحسن . وجاء الحق بـ(السكر) أولاً ليخبرنا أنهم كانوا يأخذون من الرزق أولاً النصيب الذى يجعلونه خمراً . ومن بعد ذلك يطرح الحق الأمر كعظة من الواعظ للموعوظ ، والعظة ليست إلزاماً ، إنما هى إبداء رأى حكيم لغيره ، وهذا أول التبييت للدخول إلى تحريمها ، ثم يقول الحق :

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ﴾

(من الآية ٢١٩ سورة البقرة)

وهكذا رجح الحق جانب الإثم على جانب المنفعة . ومن بعد ذلك يأتى للصلاة ، ولم يكن هناك حكم جازم بعدم شرب الخمر قبل الصلاة إلى أن قام واحد للصلاة وهو سكران ، ونعوذ بالله مما قال ، قال : قل يا أيها الكافرون أعبد ما تعبدون . لقد اضطرته الخمر أن يخطىء فى القمة العقدية ، لذلك جاء الأمر :

﴿ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ ﴾

(من الآية ٤٣ سورة النساء)

ونعلم أن المسلم يصلى خمسة فروض فى اليوم ، وحتى لا يقرب الإنسان الصلاة وهو سكران فهذا يقتضى أن يمر النهار كله تقريبا دون خمر إلى ما بعد العشاء . وبذلك أطال الحق المسافة الزمنية التى يمتنع فيها عن تعاطى الخمر . وفى ذلك حبس للنفس عن المعتاد عليه حتى يألف الشخص المعتادُ تركَ ما اعتادَهُ . ومن بعد ذلك يطلبون

من الرسول رأياً شافياً فى الخمر فيأتى قوله الحق :

﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾ ﴾
(سورة المائدة)

لقد كان هذا هو التدرج الذى يخرجهم من الإلف والعادة فى أعمالهم ، فيأتى الأمر بالتحريم وكأنه صادر منهم . ويردف الحق سبحانه وتعالى ذلك الحكم الجزئى فى الخمر والميسر فكأنه يقول : مادامت المسألة كما علمتم منى بأن هذا رجس ومن عمل الشيطان فلا تعينوا الشيطان على نفوسكم وأخلصوا فى عبادة الحق وحده ، ويقول - سبحانه - بعد ذلك :

﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُواْ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٩٢﴾ ﴾

لقد نقل الله الحكم بعدما انتهى من هذه الجزئية إلى حكم عام هو طاعة الله وطاعة الرسول . وأنت ساعة تستقرىء أمر الله بالطاعة فأنت تجدها فى صور متعددة . فمرة يقول :

﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ ﴾
(من الآية ٩٢ سورة المائدة)

فقد كرر الأمر بالطاعة لله وللرسول ، فالإطاعة لله فى الحكم العام ، وإطاعة الرسول فى تفصيله ، ومرة يقول سبحانه :

﴿ قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ﴾
(من الآية ٣٢ سورة آل عمران)

إنه هنا لا يكرر أمر الطاعة ، فهناك أمر للطاعة ، وهناك مطاع ، وهناك مطيع والمطيع ، هم المخاطبون ، فهو هنا يوحد أمر الطاعة ، والمطاع هنا هو الله ،

والرسول يأتى معطوفا على لفظة الجلالة .

ومرة يقول الحق سبحانه :

﴿ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ ﴾

(من الآية ٥٦ سورة النور)

نحن إذن أمام حالات للطاعة : الأولى : وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول ، والثانية : أطيعوا الله والرسول ، والثالثة : أطيعوا الرسول ، ومرة واحدة فقط يعطف على ذلك « أولى الأمر » فيقول جل وعلا :

﴿ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾

(من الآية ٥٩ سورة النساء)

وحين قال الحق :

﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ ﴾

(من الآية ٩٢ سورة المائدة)

فهو يكرر الأمر بالطاعة عند الله وعند الرسول ، لكن عند أولى الأمر لم يأت سبحانه بأمر : « أطيعوا » ؛ ذلك أن طاعة أولى الأمر تكون من باطن الطاعتين : طاعة الله ، وطاعة الرسول ؛ فلا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق . وإذا قال الحق : « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول » تكون طاعة الله فى الحكم العام ، وطاعة الرسول فى تفصيل الحكم . والمثال قوله الحق :

﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ ﴾

(من الآية ٩٧ سورة آل عمران)

هنا نطيع الله فى الحكم العام ، ونطيع الرسول فى تفصيل الحج . لأن التفصيل لم يأت فى القرآن ، والرسول صلى الله عليه وسلم قال : « خذوا عنى مناسككم » . وعندما يتوحد الأمران : « أطيعوا الله والرسول » فهذا يعنى أن هناك أمراً واحداً قد صدر من الله ، وصدور وحصول الفعل من الرسول يكون للقدوة والأسوة وتوكيدا للحكم .

وإذا كان لله أمر بالإجمال وللرسول أمر بالتفصيل فسبحانه يقول : « وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول » . وإذا كان الأمر للرسول فقط ولم يرد فيه شيء من الله فهو أمر

صدر بتفويض من الله بناء على قوله الحق :

﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾

(من الآية ٧ سورة الحشر)

وهكذا نجد أنه لا تلتبس طاعة بطاعة ولا تتناقض طاعة مع طاعة . والحق هنا يقول : « وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول واحذروا » . لماذا هذا التحذير ؟ يأتى هذا التحذير ليعلمنا الله أن الشيطان لن يدعنا ندخل فى مجال طاعة الله وطاعة الرسول ، وسيحاول جاهداً أن يُلبِّس علينا الأمر . فعندما يعرف الشيطان ميلاً فى نفس إنسان إلى لون من الشهوات ، يدخل إليه من باب المعاصى . وإن كان الإنسان قد أوصد بعض السبل أمام الشيطان فلا يستطيع مثلا إغراءه بالسرقة أو شرب الخمر ، لا يتركه بل يدخل إليه من باب الطاعة ، فيأتى الشيطان إلى الإنسان لحظة الوضوء وينسيه هل غسل هذه اليد أو تلك ، وهل أسبغ الوضوء أم لا ؟ أو يأتى الشيطان إلى المؤمن لحظة الصلاة فينسيه عدد الركعات أو عدد السجدات ، وهكذا يدخل الشيطان للمؤمن من ناحية الطاعة .

ومعنى قوله سبحانه : « واحذروا » أى احذروا أن يحتال الشيطان عليكم ؛ لأنه سيحاول أن يدخل لكم من كل مدخل ، يدخل على المسرف على نفسه بالمعصية ، وأشد أعمال الشيطان على المؤمنين هى أن يدخل عليهم من باب الطاعة . ولذلك قال الحق : « واحذروا » وكثيراً ما نجد الإنسان منا ينسى موضوعاً ما ، وحين يأتى إلى الصلاة فهو يتذكر هذا الموضوع . والشيطان لا يترك الإنسان فى مثل هذه الحالة ، فقد أقسم الشيطان فقال :

﴿ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ ﴾

(من الآية ٨٢ سورة ص)

وقال الحق سبحانه :

﴿ لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ﴾

(من الآية ١٦ سورة الأعراف)

إنه أقسم أن يقف على الطريق المستقيم لا على الطريق المعوج . ومثال ذلك عندما يتصدق إنسان بصدقة قد يعلنها ويقول : لقد تصدقت أكثر من فلان . وهكذا يضيع

منه الأجر . الشيطان يحاول ـ إذن ـ أن يدخل علينا من باب لا نفطن إليه وهو باب الطاعة . وأروى لكم هذه القصة حتى تعرفوا مدى تَدَخل الشيطان ، وقد حدثت مع الإمام أبي حنيفة رضي الله عنه . فقد جاء إليه من يسأله الفتوى في أمر غريب ؛ قال السائل : ضاعت مني نقودي ، فقد دفنتها في مكان من الأرض ، ونزل السيل فطمس مكان النقود وأزال الحجر الذي وضعته علامة على مكانها . فقال الإمام أبو حنيفة : اذهب الليلة بعد صلاة العشاء وقف أمام ربك إلى أن يطلع الفجر ، وقل لي ماذا سوف يحدث . وعندما جاءت صلاة الفجر جاء الرجل متهللاً إلى أبي حنيفة وقال : وجدت مالي .

فسأله أبو حنيفة : كيف ؟ قال الرجل : بينما أنا أقف للصلاة تصورت مكان وضع النقود ، ومتى نزل السيل ، وكيف سار ، وهكذا قست المسافة وقدرتها إلى أن عرفت موقع النقود . فضحك الإمام وقال : والله لقد علمت أن الشيطان لن يدعك تتم ليلتك مع ربك . هكذا ترى كيف يدخل الشيطان من باب الطاعة . ولذلك قال الحق :

﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُواْ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٩٢﴾ ﴾

(سورة المائدة)

أي فإن أعرضتم عمّا كلفتكم به فاعلموا أنكم بتوليكم وإعراضكم لن تضروا الرسول ؛ لأن الرسول ما كلف إلاّ أن يقوم بالبلاغ المبين ، وإنما ضررتم أنفسكم حين أعرضتم عما كلفتم به . إن الحق يعلم أزلاً أن بعضاً من عباده قد يقول : إن هذا الحكم لم يَرِد في القرآن ؛ لذلك جاء بالأمر بطاعة الرسول . وهكذا صارت للرسول طاعة مستقلة ، وأرادها الله حتى يَرُدّ مقدماً على الذين يسألون عن نص فيه كل تفصيل . بينما نجد هذه التفاصيل في السنة النبوية الشريفة . ومثال ذلك عدد ركعات كل صلاة ، إنها لم تَرِدْ في القرآن ، ولكننا عرفناها تفصيلاً من الرسول . وفَوَّض الحق رسوله في التشريع :

﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ ﴾

(من الآية ٧ سورة الحشر)

فسبحانه قد علم أزلاً أن هناك من سيدَّعى أنه لن يطيع إلا القرآن . ولذلك قال الرسول صلى الله عليه وسلم : (يوشك أن يقعد الرجل منكم على أريكته يحدث بحديثى فيقول : بينى وبينكم كتاب الله عز وجل ، فما وجدنا فيه حلالا استحللناه ، وما وجدنا فيه حراما حرمناه . وإن ما حرم رسول الله كما حرم الله)[1] .

أى أن الرسول هو المبلغ عن ربه ، وأن علينا أن نحذر الشيطان إذا أراد أن يدخل علينا من باب الطاعة . ولكن لماذا قال الحق : « فإن توليتم » ؟ وعن أى شيء يكون التولى ؟

قال الحق ذلك ليوضح لنا أن الإنسان له الاختيار فى أن يذهب إلى الطاعة ، وله الاختيار فى أن يذهب إلى المعصية . وإن تولى الإنسان عن الطاعة إلى المعصية ، وعن الإيمان الذى جاء به الرسول الذى بلغ عن الله إلى البقاء فى الكفر ، فليعلم ذلك الإنسان أن الرسول قد أوفى مهمته وأداها . فالمطلوب من الرسول أن يبلغ المنهج ، وقد بلغ صلى الله عليه وسلم بلاغاً مبيناً ، محيطاً ، واضحاً ، ومستوعباً لكل أقضية الحياة .

لقد أبلغنا صلى الله عليه وسلم مطلوب الله منا أن نؤمن بإله واحد ، قادر ، حكيم ، له كل صفات الكمال ، ذلك هو الأمر الأول فى العقيدة . وأبلغنا صلى الله عليه وسلم أن نبتعد عما كان عليه العرب من الأنصاب ، ومن الأوثان ، ومن الأصنام . وبلاغ الرسول صلى الله عليه وسلم يطلب منا إيماناً ، وعملاً ، والعمل ينقسم إلى قسمين : عمل إيجابى ، وعمل سلبى . ويتركز العمل الإيجابى فى « افعل كذا » ، إذا لم تكن تفعله ، أما العمل السلبى فهو أن تكف عما نهاك عنه الله ، ونهاك عنه الرسول صلى الله عليه وسلم .

إذن أول مطلوب الإيمان هو الاعتقاد فى الإله الواحد ، وأن نكف عن عبادة الأوثان والأصنام ، والطلب ـ كما نعرف ـ هو أن تنشىء كلاماً تطلب به من مخاطبك أن يفعل شيئاً لم يكن مفعولاً وقت طلبه . فإذا أوضح الحق : لا تعبد الأوثان ، فهذا

(١) رواه أحمد والدارمى وأبو داود والترمذى وابن ماجه .

طلب لفعل ، وهو أن نكف عن عبادة الأوثان . وحين يأمرنا الحق بالصلاة والصوم والزكاة وحج البيت ، فهذا طلب لأفعال . وطلب الفعل يقال له : « أمر » . وطلب الكف عن فعل يقال له : « نَهْى » .

وأنت إذا نظرت إلى كل التكاليف فى الإسلام ، تجدها لم تأت مرة واحدة ، وإنما جاءت على مدار ثلاثة وعشرين عاماً . فعندما جاء الإسلام آمن به أناس ، ولم يكن قد صدر إليهم تنفيذ أي من الأحكام التى وردت على مدار سنوات الرسالة ، وإنما كان المطلوب منهم بعضاً يسيراً منها ، وكانوا يؤدونها ، منهم من بلغه فقط ضرورة الإيمان بالإله الواحد ، وآمن بذلك ثم وافاه الأجل وكانت له الجنة . ومنهم من امتدت حياته ، فزادت عليه أحكام جديدة فنفذها ، وكان إسلامه بذلك إسلاماً تاماً .

إذن ، فالتمام فى الإسلام هو تنفيذ كل عمل جاء فى الأحكام التى أدركها المسلم . فإن لم يكن المسلم قد أدرك إلا حكماً واحداً ونفذه فله كل ما وعد الحق به . ومثال ذلك : « مخيريق اليهودى » الذى أسلم وأوصى بماله للنبى صلى الله عليه وسلم . فلما كان يوم أُحُد ، وقف فى قومه قائلاً : يا معشر يهود ، والله لقد علمتم أن نصر محمد عليكم لَحَقٌّ . فلم يجيبوه ، فأخذ سيفه وعدته وقال : إن أصبت فمالى لمحمد يصنع فيه ما يشاء . ثم خرج إلى القتال فقاتل حتى استشهد . ولم يكن قد نفذ أى حكم من أحكام الإسلام ، لكنه قاتل فنال شرف الشهادة ، وقال عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم : (مُخَيْرِيق خير يهود)[1] .

ولا بد لنا أن نفرق دائماً بين « أركان الإسلام » والمطلوب من المسلم . ونعلم جميعاً أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال : (بنى الإسلام على خمسٍ : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، والحج ، وصوم رمضان)[2] .

(١) رواه ابن سعد فى الطبقات الكبرى ، وأبو نعيم فى دلائل النبوة ، وابن كثير فى البداية والنهاية ، وابن عساكر فى تهذيب تاريخ دمشق .
(٢) رواه أحمد والبخارى ومسلم والترمذى والنسائى عن ابن عمر .

راجع أصله وخرج أحاديثه الدكتور/ أحمد عمر هاشم نائب رئيس جامعة الأزهر .

هذه هى أركان الإسلام . أما المسلم فقد يختلف المطلوب منه ، فالمطلوب من المسلم أن يشهد مرة واحدة فى حياته أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله . ومطلوب منه دائماً أن يقيم الصلاة مهما تكن حالته . لكن فرض الزكاة قد يسقط عنه إن كان لا يملك مالاً . وقد يسقط عنه الصوم إن كان مريضا مرضا لا يرجى شفاؤه أو كان كبير السن لا يقدر على الصوم وعليه فدية طعام مسكين ، أما المريض الذى يرجى شفاؤه وكذلك المسافر فيقضيان الصوم بعد زوال العذر ومثلهما الحائض والنفساء . وقد يسقط عنه الحج لأنه لا يملك المال الكافى . هكذا تختلف أركان الإسلام من مسلم لآخر ، وهكذا نعرف أن من عاش فى بدايات الإسلام ونفذ القليل من الأحكام التى نزلت حتى مات أو استشهد ، فقد أدى مطلوب الإسلام منه .

وعندما نزلت مسألة النهى عن الخمر ، والميسر ، ذهب أناس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليسألوه عن مصير زملائهم وإخوتهم فى الإيمان الذين ماتوا أو استشهدوا قبل أن ينزل تحريم الخمر والميسر . ومجرد السؤال هو دليل اليقظة الإيمانية ، فالإنسان لا يكون مؤمناً حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه . وهنا أنزل الحق سبحانه وتعالى القول الكريم :

﴿ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّأَحْسَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾

لقد أنزل الحق هذه الآية لِيُطَمْئِن المؤمنين السائلين عن الحكم فى إخوانهم الذين ماتوا أو استشهدوا وكانوا يشربون الخمر قبل نزول الحكم بتحريمها . « ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا » و« طعموا » لا تخص الطعام فقط ولكن تشمل وتضم الشراب أيضاً ، فالحق يقول :

﴿ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي ﴾

(من الآية ٢٤٩ سورة البقرة)

وعلى ذلك فالماء طعام ، بمعنى أن طعمه يكون فى الفم . وهكذا عرف المسلمون السائلون عن إخوانهم الذين ماتوا أو استشهدوا أن إسلامهم كان مقصوراً على الأحكام التى نزلت فى أثناء حياتهم ، فقد نفذوا المطلوب منهم بعدم عبادة الأصنام . وقد يكون منهم من مات قبل أن تفرض الصلاة ، أو مات قبل أن تنزل أحكام الزكاة أو الصوم ، ولذلك لم يفعلوها . وعلى ذلك يكون عملهم الصالح هو تنفيذ التعاليم التى نزلت إليهم . لقد اتقوا الله فنفذوا مطلوب الإيمان على قدر ما طلب منهم الحق ، آمنوا بالإله المكلِّف وجعلوا بينهم وبين الله وقاية بأن نفذوا مطلوبه سبحانه أمراً ونهياً .

والإيمان له قمة هى أن يؤمن الإنسان بالله وملائكته وكتبه ورسله ، وبعد ذلك بالأحكام التى تنزل من السماء . واختلف العلماء فيما بينهم فى مسألة زيادة الإيمان ونقصانه ، فمن العلماء من قال : إن الإيمان لا يزيد ولا ينقص . ومن العلماء من قال : إن الإيمان يزيد وينقص . والذين قالوا بأن الإيمان لا يزيد ولا ينقص ، إنما نظروا إلى الإيمان بالقمة العقدية وهى الإيمان بالله . والذين قالوا بأن الإيمان يزيد وينقص إنما نظروا إلى الإيمان بالأحكام التى ينزلها الله ، وأخذوا ذلك من قوله الحق :

﴿ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ ﴾

(سورة التوبة)

فكل آية تنزل بأحكام جديدة فهى تزيد الإيمان . فعندما نزل الحكم بالزكاة آمن به المسلمون وطبقوه . ومنهم ممن لم يكن يملك المال فلم يطبق الحكم على الرغم من أنه آمن به .

فالمسلم يؤمن بالحكم ، وإن كان مستطيعاً فهو يفعله ، وإن كان غير مستطيع فهو لا يفعله . ولهذا كانوا يستبشرون بالأحكام التى تنزل بها الآيات . وعلى ذلك يكون خلاف العلماء خلافا على جهة منفكة ، ونلحظ أن الحق يقول :

﴿ لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوا وَءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوا وَءَامَنُوا ثُمَّ اتَّقَوا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾

(سورة المائدة)

إذن ، فهنا ثلاث مراحل : هناك من أدرك حكماً فاتقى الله وآمن وعمل صالحاً ، وبعد ذلك انتقل وأفضى إلى ربه فلا جناح عليه ، وهناك من عاش ليعاصر أحكاماً أخرى فآمن بها وعمل بها ، وهناك من عاش ليعاصر أحكاماً قد زادت فعمل بها أيضاً . والإيمان الأول ارتبط بالعمل الصالح ، وكذلك الإيمان الثانى الذى جاء فى الآية . ثم يأتى الإيمان الثالث مرتبطاً بالإحسان .

والإحسان كما نعلم له وجهان : الأول أن يعبد المؤمن الله كأنه يراه ، وكلما جاء تكليف ، يحسن المؤمن فى أدائه ، كأنه يرى الله ، وإن لم يكن يراه فإنه يحس أنه سبحانه يراه . وإذا ما استوعب المسلم كل أحكام الله التى استوعبت بدورها كل أقضية الحياة ، فهو يحسن أداء هذه الأحكام . والوجه الثانى للإحسان أن يزيد المؤمن فى أداء هذه التكاليف فوق ما فرض الله ، وهى النوافل . وبذلك لا يكتفى المؤمن بتصديق الأحكام التى نزلت ، بل يزيد من جنسها . والحق يقول :

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَا ءَاتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ ﴾

(سورة الذاريات)

وجاء الحق بالتعليل وهو :

﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴾

(من الآية ١٦ سورة الذاريات)

ووجه إحسانهم أن الواحد منهم لا يقف عند ما كلفه الله به ، بل يزيد على ما كلفه الله من جنس ما كلفه سبحانه ، فالحق قد فرض على المسلم خمسة فروض ، والمحسن هو من يزيد ويتقرب إلى الله بالنوافل . وفرض سبحانه على المسلم صوم رمضان ، والمحسن هو من يؤدى صيام رمضان بتمامه ويزيد بصوم أيام أخرى من العام . وفرض سبحانه

على المسلم زكاة مال بقدر اثنين ونصف فى المائة وهو ربع العشر ، والمحسن قد يزيد الزكاة إلى أكثر من ذلك . وفرض سبحانه على المسلم حج البيت إن استطاع إلى ذلك سبيلا ، والمحسن هو الذى يزيد مرات الحج .

إذن ، فالمحسن هو من عشق التكليف من الله ، وعرف منزلة القرب من الله ، فوجد أن الله قد كلفه دون ما يستحق ـ سبحانه ـ منا فزاد من العمل الذى يزيده قرباً من الله . ويضيف الحق فى وصف المحسنين :

﴿ كَانُواْ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ ۝١٧ ﴾

(سورة الذاريات)

ولم يكلفنا سبحانه بألا نهجع إلا قليلاً من الليل . كلفنا فقط بأن نصلى العشاء ، وبعد ذلك قد ننام لنصحو لنصلى الصبح ، أما المحسن الذى عرف حلاوة الخلوة مع الله فهو لا يهجع إلا قليلاً من الليل . ويضيف الحق سبحانه فى وصف المحسنين :

﴿ وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ۝١٨ ﴾

(سورة الذاريات)

ولم يكلف الله المسلم بالاستغفار فى السحر ، لكن المحسن يفعل ذلك ويضيف الحق سبحانه :

﴿ وَفِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ۝١٩ ﴾

(سورة الذاريات)

ولم يقل سبحانه : إنه حق معلوم ؛ لأن الحق المعلوم هو الزكاة . وهذه المراحل الثلاث هى التى تُدخل المؤمن فى مرتبة الإحسان . ولذلك نجد الحق فى آخر مرحلة فى الآية التى نحن بصددها يتحدث عن الإحسان : « ثم اتقوا وأحسنوا » أى أن يزيد الإنسانُ المؤمنُ من جنس ما فرض الله . ووقت أن كان التكليف فى دور الاستكمال فكل حكم يأتى كان يستقبله المؤمن بإيمان وعمل . أما الذين أدركوا كل التكاليف خلال الثلاثة والعشرين عاماً ـ المدة التى مكثها وعاشها رسول الله صلى الله عليه وسلم رسولا ثم انتقل إلى الرفيق الأعلى ـ فقد استوت عندهم التكاليف ، وإذا ما أرادوا الإحسان فلا بد لهم من الزيادة من جنس التكليف .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٩٤) ﴾

وهذا انتقال لحكم جديد ، فبعد أن تكلم الحق فيما أحله لنا وقال سبحانه :

﴿ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ ﴾

(من الآية ١ سورة المائدة)

وبعد أن تكلم الحق سبحانه فيما حرم علينا من الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع إلا ما ذكى وذبح وحرّم ما ذبح للأصنام وما استقسم بالأزلام وكذلك الخمر والميسر ، أراد أن يعطينا محرمات من نوع خاص ، وحتى نعرف هذه المحرمات لا بد لنا أن نعرف أن هناك أشياء محرمة فى كل زمان وكل مكان ، كالخمر والميسر والزنا وغير ذلك من النواهى الثابتة ، سواء أكانت عبادة أصنام أم أزلام أم غير ذلك من أكل الميتة والدم ولحم الخنزير ، وهناك محرمات فى أزمنة خاصة ، أو فى أمكنة خاصة . والفعل ، أى فعل ، لا بد له من زمن ولا بد له من مكان .

نحن مأمورون بالصلاة فى زمانها فى أى مكان طاهر وصالح للصلاة فيه ، وكذلك الصوم يتحكم فيه الزمان ، أما الحج فالذى يتحكم فيه هو الزمان والمكان . وأما العمرة فالذى يتحكم فيها هو المكان ؛ لأن الإنسان يستطيع أن يعتمر فى أى زمان ـ غالبا ـ ويتكلم سبحانه هنا عن نهى فى مكان خاص وفى زمان خاص ، فالصيد ليس محرماً إلا فى حالة أن يكون الإنسان مُحْرِماً .

ونعلم أن كلمة «حُرُم» هى جمع «حَرَام» ، والحرام إما أن يكون الإنسان فى المكان الذى يبدأ فيه بالتحريم . ومثال ذلك منطقة رابغ التى يبدأ عندها الإحرام بالنسبة لسكان مصر ، فإن وصلت إلى هذا المكان وبدأت فى عمل من أعمال الحج أو العمرة فأول عمل هو الإحرام . ومن لحظة الإحرام حتى ولو أحرمت من بلدك أو بيتك لا يحل لك الصيد . و«الحرم» أيضاً هو وصف للمكان حتى وإن لم يكن الإنسان حاجاً ، فالصيد محرم فى الحرم ، والحرم له حدود بينها الشرع ، فالصيد فيه حرام على المُحْرِم وغير المحْرِم . ونعلم أن أمة محمد صلى الله عليه وسلم قد جعل الحق لها الأرض كلها مسجداً وطهوراً .

وعلى ذلك فأى مكان يصلح للصلاة ، ويصلح أن نقرأ فيه العلم ، ويصلح أن نقيم عليه مصنعاً ويصلح أن نزرعه . إذن فأى أرض تصلح أن تكون مسجداً لأنها مكان للسجود . ولكن المسجد بالمعنى الاصطلاحى هو المكان المخصص للصلاة . أما المسجد الحرام فمركزه الكعبة وحولها الطواف وحول ذلك جدران الحرم . ويقع المسجد الحرام فى دائرة الحرم ، والتى تبدأ من التنعيم والجعرانة والحديبية والجحفة وغيرها ، هذه حدود الحرم . فالإنسان إذا ما جاء إلى ميقات الحج عند رابغ مثلاً فهو لا يصطاد ؛ لأنه أصبح فى دائرة الحرم ، فالصيد محرم عليه حتى ولو لم يكن حاجاً أو معتمرا .

والحج ـ كما نعلم ـ هو رحلة فرضها الله مرة واحدة فى العمر يخرج إليها المسلم الذى يحيا فى كل مكان مع نعمة المنعم . وعندما يخرج المسلم إلى الحج فهو يتحلل من كل النعم التى تصنع له التمييز ليستوى مع كل خلق الله . وأول سمة مميزة للإنسان هى الملابس ، لذلك يخلع المسلمون ملابسهم ويرتدون لباساً موحداً يتساوون فيه . وحين يترك المسلم النعمة كلها فذلك لأنه ذاهب إلى المُنعِم .

ومن بعد ذلك يريد الحق أن يؤدبنا تأديباً إيمانياً مع الوجود كله . ويصفى الله فى الحج هذه المسألة كلها ، فالكل سواء فى ملابس تكاد تكون واحدة ، وكلهم شُعْث غُبر ، وكلهم يقولون : «لبيك اللهم لبيك» . هكذا تتم تصفية التفاوت فى الإنسان بالإحرام .

ومن بعد ذلك ننظر إلى الجنس الأدنى وهو الحيوان ، ويعلمنا الحق الأدب مع هذا الجنس فيأتى بتحريم صيده . ويعلمنا الأدب مع الزرع الذى تحت الحيوان فيمنع المسلم من قطع شجر الحرم . وهكذا تصفى كل هذه المسألة ، وتصبح العبودية مستطرقة فى الجميع .

وتزول فى الحج كل الألقاب والمقادير المتباينة من فور اتجاههم إلى الحج ، وحول الكعبة يرى الخفيرُ الوزيرَ وهو يبكى ، ويشعر الجميع أن الكل سواء ، والحق يقول :

﴿ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ﴾

(من الآية ٩٧ سورة آل عمران)

فالحيوان يأمن وكذلك النبات ، هذا ما أمر به الحق فى دائرة الحرم ؛ لأن ذلك تدريب للإنسان على أن يخرج من النعمة إلى المنعم . ومن بعد ذلك يدخل إلى المسجد ويطوف حول الكعبة . ونجد الإنسان ـ سيد الوجود ـ يقف من كل ما يخدمه فى الوجود موقفاً مختلفاً ، فالحيوان يأخذ كرامته وكذلك النبات ، وكذلك الجماد يأخذ أيضاً كرامته ، فمن عند الحجر الأسود يبدأ الطواف سبعة أشواط .

فى الحج ينفض الإنسان أى طغيان عن نفسه ويتساوى مع كل الناس ، ينفض طغيانه أمام الجنس الأدنى وهو الحيوان فحرّم عليه صيده ـ ونعلم أن الحيوان يغذى الإنسان ـ وينفض أيضا طغيانه مع النبات ـ والنبات يغذى الإنسان ـ فحرّم قطعه . وينفض الحق كبرياء الإنسان أمام الجماد ـ وهو أحط الأجناس ـ فأمر الحق الإنسان أن يستلم الحجر الأسود أو أن يقبله ، وإن لم يستطع من الزحام فعليه الإشارة للحجر ، ومن لم يستطع استلام الحجر أو تقبيله فقد يخيل إليه أن حجه لم يقبل وذلك زيادة منه فى التعلق بالمناسك والاحتياط فى أدائها .

كل ذلك حتى يحقق الله سبحانه وتعالى استطراق العبودية ، ودائماً نجد من يتساءل : وكيف نقبل الحجر على الرغم من أن الله قد نهانا عن الوثنية وعبادة الأصنام ؟ ونقول : إن الحجرية ليست لها قيمة فى هذا المجال ، ولكن رب الإنسان والحيوان والنبات والحجر هو الذى أمرنا بذلك ، بدليل أننا نرجم حجراً آخر هو رمز

إبليس ، والعبد فى أثناء أداء المشاعر - إنما ينتقل من مراد نفسه إلى مراد ربه ، فيقبل ويعظم حجراً ويرجم حجراً آخر ، وهكذا صفيت العبودية بالنسبة للناس فاستطرقوا ، وصُفيت العبودية بالنسبة للحيوان والنبات والجماد .

ويلفتنا سيدنا عمر رضى الله عنه فيقول للحجر الأسود : « أنا أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ، ولولا أنى رأيت رسول الله يقبلك ما قبلتك » .

كأن سيدنا عمر رضى الله عنه يعلمنا حتى لا يقول أحد : إنها وثنية ، فالوثنية أن تعبد حجراً بمرادك ، أما الحجر الأسود فنحن نعظمه بمراد الله .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبۡلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلصَّيۡدِ تَنَالُهُۥٓ أَيۡدِيكُمۡ وَرِمَاحُكُمۡ لِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٩٤﴾ ﴾

(سورة المائدة)

ما الفرق بين ما تناله الأيدى وما تناله الرماح ؟ . ما تناله الأيدى هو صغار الأفراخ والأشياء السهلة اليسيرة ، أما ما تناله الرماح فهو ما تصطاده بجهد وبالرمح وحسن تصويبه . وقال الحق:« ولنبلوكم » لأن هناك فارقاً بين أن يلح الإنسان على المعصية فيفعلها ، وبين أن يصل إلى منزلة لا يلح فيها على معصية ، بل قد تقع عليه المعصية ، وإن وقعت عليه المعصية فهو لا يرتكبها .

كأن الحق يبتلينا مادمنا لا نلح على المعصية ، ويريد أن يرى ماذا سيكون التصرف منا إن جاءت المعصية إلينا فهل نفعلها أو لا ؟ . فإن كان الإيمان قوياً فلا أحد يقرب المعصية . ولذلك يبتليكم الله بشىء من الصيد المحرّم عليكم بأن يجعله فى متناول أيديكم .

حدث ذلك فى الحديبية لقد كاد الصيد يضع نفسه بين أيدى المؤمنين ولم يقربوه وكان هذا اختباراً . ونعلم أن الابتلاء غير مذموم فى ذاته ، إنما المذموم فيه الغاية منه ؛ لأن الابتلاء اختبار ، وقد ينجح إنسان ، وقد يفشل إنسان آخر . وكأن الحق قد ابتلى المؤمنين بأن جعل الصيد يتكاثر أمامهم حتى يقوى عود الإيمان فى قلب المؤمن فلا يتهافت على المعصية وتتكون لديه المناعة وذلك . « ليعلم الله من يخافه بالغيب »

وسبحانه وتعالى العالم بكل شيء قبل أن يحدث . لكن هناك فرق بين علم وعلم ، إن علم الله أزلى لا يتخلف ، ولكن هذا العلم ليس حجة على الناس ؛ لأن الحجة على الناس هو ما يقع منهم فعلاً ، ولذلك كان الابتلاء .

وأسوق هذا المثل ـ ولله المثل الأعلى ـ إن الوالد قد ينظر إلى أحد أبنائه ويقول : إنه يلعب طول السنة ومن الأفضل ألا ندخله الامتحان ؛ لأنه سوف يرسب . ولا يدخل الابن الامتحان ، ولكن الوقاحة تصل به إلى الحد الذى يقول فيه : لو كنت دخلت الامتحان لكنت من الناجحين.ولو كان والده أدخله الامتحان ورسب ، لكان هذا الرسوب حجة عليه .

إذن فعلم الحق لا يلزمنا الحجة ، إنما العلم الواقعى هو الذى يلزمنا بها .

وقد حدثت هذه الابتلاءات فى النبوّات كثيراً . ومثال ذلك ابتلاء الحق لليهود بتحريم الصيد يوم السبت ، فكانت الحيتان تأتى فى هذا اليوم مشرعة وكأنها تلح عليهم أن يصطادوها . وفى الأيام الأخرى لا تأتى الحيتان ، فيحتالون لعصيان الأمر باختراع نوع من الشباك السلكية تدخل فيها الحيتان ، وتظل حية ومحبوسة فيها إلى يوم الأحد فيأخذونها . وتكون حيلتهم هى دليل الغباء منهم ؛ لأن الصيد قد تم بالنية والعمل والاستعداد المسبق . وكان الابتلاء فى الإسلام بشيء من الصيد . « ليعلم الله من يخافه بالغيب فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم » . وقد علمنا من قبل قوله الحق :

﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ﴾

(من الآية ٢٢٩ سورة البقرة)

فإن كانت المسائل مأمورات فعلينا أن ننفذها . وإن كانت نواهى فيجب ألا نقربها حتى لا نقع فيها فتكون حجة علينا ؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (الحلال بيّن والحرام بيّن وبينهما مشتبهات لا يعلمها كثير من الناس فمن اتّقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه ، ومن وقع فى الشبهات وقع فى الحرام كراعٍ يرعى حول الحمى يوشك أن يواقعه . الا وإن لكل ملك حمى ، ألا وإن حمى الله فى أرضه محارمه)[1] .

(١) رواه البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه عن النعمان بن بشير .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْتُلُواْ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًۢا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَۚ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٩٥﴾ ﴾

أى لا تقتلوا الصيد إن كنتم قد أحرمتم بالحج أو بالعمرة أو بهما معا ، وإن لم تحرموا فالصيد محرّم أيضاً فى حدود منطقة الحرم . وسبحانه قد جعل الحرم زماناً والحرم مكاناً . وهو فَىْءٌ يلجأ إليه الناس من غرور عزة قوم على حساب ذلة قوم آخرين . وقديماً كان يحارب بعضهم بعضا ، ولذلك جعل الحق أربعة أشهر حرماً فى الزمان ، أى لا قتال فيها ، وذلك حتى يستريح المتعب من الحرب ، ويستريح من يخاف على عزته ، أو يذوق فيها الجميع لذة السلام والأمن ، وقد يستمرون فى ذلك الاستمتاع بالسلام والأمان . وكذلك جعل الحق الحرم أيضاً مكاناً آمناً ، لا يتعرض فيه أحد لأحد . وكان الإنسان يقابل فى الحرم قاتل أبيه فلا يتعرض له ، كل ذلك ليحمى عزة الناس أن تنكسر أمام غيرهم .

ومثال ذلك طرفان كلاهما على خلاف مع الآخر ، وكل منهما يرغب فى الصلح مع الطرف الآخر . وهنا يتدخل أى إنسان من الخارج فينجح ؛ لأن الطرفين ميالان للصلح . وكل منهما يريد إنهاء الحرب ولكن تأخذه العزة بالإثم وتستولى عليه الحمية ويأنف أن يبدأ خصمه بطلب الصلح .

وقد أراد الحق أن تكون هناك فى الأشهر الحرم فرصة للائتلاف والصلح وذلك بأن يلجأ الناس إلى البيت الحرام حتى تنفض البشرية عن نفسها البغضاء وحتى يرتاح البشر من القتال ، فتصدر الأحكام فى رويّة واتزان وهدوء أعصاب .

ويقول الحق جل وعلا :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْتُلُوا۟ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًۢا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ ۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ ۚ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٩٥﴾ ﴾

(سورة المائدة)

ولا يعتبر الشيء صيداً إلا إذا كان مما يؤكل . أما إذا كان الشيء المصاد لا يؤكل كالسبع وغيره فقد قال بعض العلماء : لا يمنع ولا يحرم ولكنا نقول : إن الصيد هو كل ما يصاد سواء ليؤكل أو حتى غير مأكول ، وذلك لنعلم أنفسنا وجوارحنا وأعضاءنا الأدب ونحن حرم . ومعنى « حُرُم » هو أن نكون محرمين أو فى الحرم ، والحرم له حدود معروفة . وداخل الحرم ممنوع على الإنسان أن يصطاد أى شيء من لحظة بلوغه ميقات الحج و العمرة .

إذن فحيز الصيد محدود بالنسبة لكل من دخل الحرم المكّى الشريف سواء أكان محرماً أم لا . وحيز الصيد بالنسبة لمن أراد الحج أو العمرة هو أكثر رقعة واتساعا ، ذلك أن التحريم يبدأ من حين الاحرام بالحج أو بالعمرة أو بهما . ولكن ماذا يكون الحكم إن اعتدى إنسان على الحكم واصطاد ؟

« ومن قتله منكم متعمداً » . لكن رسول الله صلى الله عليه وسلم ألحق قتل الخطأ بالعمد ، وذلك حتى ينتبه كل مسلم إلى كل فعل وهو محرم ، أو وهو فى البيت الحرام .

هب أنك أردت أن تحك جلد رأسك بأظافرك وأنت محرم ، هنا قد يتساقط بعض

شعرك ؛ فإن ثبت ذلك فعليك هدى للكعبة أو صوم أو إطعام مساكين ؛ لأن الحق يريد لك حين تحرم أن تنتبه بكل جوارحك إلى أن كل حركة من حركاتك محفوظة ومحسوبة عليك ، ولتكن فى منتهى اليقظة الإيمانية ، وأى خطأ مهما يكن يسيراً يوجب الفدية . لذلك من قتل وجب عليه الجزاء لتعديه على شيء حرمه الله . والجزاء محدد بنص القول الحق : « فجزاءٌ مثل ما قتل من النعم » وعند المثلية وقف العلماء أيضاً : أتكون المثلية بالقيمة ، أو المثلية فى الشكل ؟.

والمثلية فى القيمة تعنى أن تقوِّم الشيء المقتول بثمنه ، وتشترى بالثمن شيئاً من الأنعام وتذبحها . والمثلية فى الشكل تعنى أن نشبه الشيء المقتول بمثيل له مما يذبح ويكون أقرب إلى شكله . ودليل ذلك أن النبى صلى الله عليه وسلم حينما قتل مسلم ضبعاً أمر المسلم أن يفدى بكبش . والصحابة رضوان الله عليهم : على ، عمر ، وعثمان وعبدالله بن عمر أمروا رجلاً قتل نعامة أن يفديها ببدنة:ناقة أو بعير لأنها تشابه النعامة فى العلو . وحينما قتل إنسان ظبياً فداه بشاة ، والظبى أو الغزال هو الذكر ، والغزالة هى الأنثى ، وعندما قتل غزالاً صدر الحكم بالفداء بعنزة . ومن قتل « يربوعاً » ـ وهو من الزواحف وأكبر من الفأر قليلاً ـ صدر الحكم أن تكون الفدية « الجفرة » وهى ولد الماعز بعد أن يستغنى عن لبن أمه ويستطيع الأكل .

إذن ، فالمثلية هنا مثلية الشكل . وقال أبو حنيفة بإباحة أن تكون المثلية بالقيمة إن لم يوجد الشبيه . وعلى ذلك فالذى يصطاد من أجل أن يطعم نفسه يدفع ثمن الخطأ لغيره من المحتاجين . وإن كانت المثلية بالقيمة فالذى يحدد هذه القيمة أناس لهم بصيرة وهما اثنان من ذوى العدل . « يحكم به ذوا عدل منكم هدياً بالغ الكعبة » وهم الذين لا يميلون عن الحق ، ويقيمون الميزان .

ويأمرنا الحق أن نحكم بالإنصاف لنكون من ذوى العدل ، أى أن الإنسان حين يواجه خصمين فهو يعطى نصفه لخصم ونصفه الآخر للخصم الثانى ، فلا يميل بالهوى ناحية أحدهما . ولا يدير الإنسان وجهه إلى خصم أكثر مما يديره للآخر .

وإن سأل أحد : كيف نأتى بذوى العدل ؟ ونقول : انظر إلى عدالتهما فى نفسيهما ولنر تصرفات الإنسان هل هى مستقيمة أو لا ؟ وهل هو مسرف أو معتدل سواء فى

الطعام أو الغضب أو فى أى لون من ألوان السلوك ؟ ومن كان مأموناً على نفسه فهو مأمون على غيره ، ويجب كذلك أن يكون من ذوى الخبرة فى هذا الأمر ، ولذلك يجب أن ينتبه الناس إلى هذه المسائل لأننا نرى أن موجة من النفاق للشباب تسود بعض المجتمعات ، فنسمع أصواتاً تقول : إن الشباب يجب أن يتولى القيادة .

ونقول لأصحاب هذه الأصوات : تمهلوا ودققوا النظر فى مثل هذا القول ؛ لأن الشباب عليه أن يزاول عمله الخاص فى فترة الشباب ، وعلينا ملاحظته وهو يؤدى عمله فإن نجح ورأينا فيه أمانة على حركة نفسه ، وعدلاً مع نفسه وعدم إسراف على نفسه فإننا نرشحه من بعد ذلك ليخدم أمته بعد أن يثبت أنه مأمون فى عدالة نفسه . ولا يصح أن نجرب فى الأمة مَن لا يَستند إلى رصيد من الخبرة السابقة .

إنه لا يصح أن نولى الأمر فى أى قطاع لمن أطلقوا عليهم : الأطفال المعجزة . ومن يريد أن يجرب فليجرب فى نفسه ، وفيما يملك ، لا فى الأمم والشعوب . وعلى الشاب أن يبدأ حياته بنشاط جدى لذاته ، ليستخلص النفعية القريبة منه وألا يغش نفسه ، فإن نجح فى ذلك ، نأخذ منه بعض الوقت أو كل الوقت لخدمة أمته بعد أن يثبت لنا أنه قد وصل إلى النضج العقلى الكافى ، وقد زادت تجاربه وفقد شهية الطموح الشخصى والمتع الصغيرة ، ووصل إلى القدرة على التجرد ليحكم بين الناس .

فإذا كان الحق قد أمرنا أن نختار ذوى العدل للحكم فى رقبة شاة ، فما بالنا برقاب الناس ومصالح الناس ؟

نحن ـ إذن ـ مطالبون بأن نميز ذوى العدل بين الناس من خلال مراقبة حركة الإنسان مع نفسه وعلى نفسه وعلى أهله ، وعندما نكتشف أنه صار مأموناً على نفسه ، هنا نستطيع أن نوليه أمور غيره بالخدمة العامة ، وذلك حتى لا تخيب الأمة ، فالأمم إنما تخيب باختيارٍ غير مدروس لقيادات المواقع المختلفة فيها .

ولنا أن نلحظ فى عملنا دقة المعانى التى جاءت فى القرآن الكريم ، فنحن هنا فى أمر شاة أو حيوان نستصدر الحكم من ذوى العدل . « فجزاء مثل ما قتل من النعم

يحكم به ذوا عدل منكم هدياً بالغ الكعبة » وما يحكم به ذوا العدل إنما يذهب كله للكعبة ؛ ليأكله الموجودون فى البيت الحرام لعبادة الرحمن . وقد أراد الله أن يضمن قوت الذين يسكنون وادياً غير ذى زرع حتى من أغلاط الذين يعتدون على ما حرَّم الله صيده من الحيوان .

ولكن ما الحل إذا ما كان المخطىء لا يملك القدرة على أن يقدم هدياً بالغ الكعبة ؟

والحق سبحانه لا يترك مثل هذه الأمور دون بيان أو تفصيل ، فهاهوذا يضع الكفارة بإطعام مساكين ، يحدد عددهم الاثنان من ذوى العدل . ومن لا يستطيع إطعام مساكين فليصم أياماً بعدد الفقراء الذين كانوا يستحقون الطعام لو أخرجه . « أو كفارة طعام مساكين أو عدل ذلك صياماً ليذوق وبال أمره » والوبال هو الثقل والعاقبة .

ولماذا الوبال ؟ لأن الإنسان حين يدفع من ماله ثمن شراء المثل لما قتل سيعز عليه ماله ، وأيضاً إن أطعم مساكين فهو سيشترى الطعام بمال يعز عليه ، وكذلك يسبب له الصيام الإرهاق . إن هذا اللون من الكفارة يذيق الإنسان وبال ما فعل . وأراد الحق بذلك ألا يجعل الإحساس مجرد أمر شكلى ، أو أن تظل الإساءة أمراً شكلياً . وشاء سبحانه أن يرتب النفع للإحسان والضر للإساءة ، حتى تستقيم الأمور فى الكون . ولنا فى قصة ذى القرنين المثل الواضح على ذلك :

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُواْ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ ﴾

(سورة الكهف)

لقد مكن الحق لذى القرنين فى الأرض ، وأعطاه من كل شىء سببا . ومع ذلك لم يركن ذو القرنين إلى ما أعطى فلم يتقاعس ولم يكسل ، بل يخبرنا الحق :

﴿ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ ﴾

(سورة الكهف)

لقد أخذ ذو القرنين من تمكين الله له فى الأرض ، وأخذ من عطاء الله له بشىء من كل سبب ، إنه أخذ طاقةً وإحساساً بالمسئولية ليواصل مهمته :

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَـٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ ﴾

(سورة الكهف)

لقد بلغ مغرب الشمس فى نظر عينيه ، لأن الإنسان عندما يقف وقت الغروب فى خلاء فالشمس تغرب أمامه وكأنها تسقط فى آخر الأفق . والحقيقة أن ذلك هو نهاية قدرة البصر . وجاء التفويض لذى القرنين : إما أن يعذب هؤلاء القوم ، وإما أن يعاملهم بالحسنى . وليقس عمل كل إنسان منهم ، وليجاز كل إنسان منهم حسب عمله . وهو لا يفعل ذلك عن هوى ، لأنه ممكن فى الأرض من الحق سبحانه وتعالى ؛ لذلك قال الحق :

﴿ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ ﴾

(سورة الكهف)

وكل إنسان ـ حتى النفعى ـ حين يرى أن ارتكاب العمل السيىء يأتى له بالمتاعب والخسارة ، يرجع عنه ولو لم يكن مؤمناً باليوم الآخر . أما من يؤمن باليوم الآخر ويعمل عملاً صالحاً فماذا تكون نوعية معاملته ؟ هاهو ذا الحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ﴾

(سورة الكهف)

إنه ينال التكريم والتشجيع ، فالتكريم والتشجيع يجب أن ينالها صاحب الحق فيهما لا المنافق أو المتمسح بالأبواب . هكذا يكون دستور كل متمكن فى الأرض . وهكذا تكون رعاية أوامر الله ونواهيه . وحين أمرنا الحق بتحريم الصيد فى البيت الحرام أو على المحرم ووضع عقوبة لمن أخطأ ، فهو سبحانه وتعالى عادل معنا ، فلا عقوبة إلا بنص ولا تجريم إلا بعد النص ، ولذلك قال سبحانه : « عفا الله عما سلف ومن عاد فينتقم الله منه والله عزيز ذو انتقام » . فسبحانه يعفو عما سلف ، أما من عاد ليرتكب نواهى الله فى هذا المجال فيعاقبه الحق ، فلا يقبل منه هدى

ولا إطعام مساكين ولا صوم ؛ لأن فى تكرار المخالفة إصراراً عليها ، لذلك ينتقم منه الله ، وهو العزيز الذى لا يُغْلَب .

وبعد أن تكلم الحق عن صيد البر وحكمه ، أراد أن يوضح لنا أن ذلك الحكم لا ينسحب على كل صيد . فسبحانه حرم صيد البر إن كنا حرماً ، أو فى دائرة الحرم . ويجىء قول الحق :

﴿ أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِۖ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًاۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ۝٩٦ ﴾

وهذا قول دقيق يبين تحليل صيد البحر وطعامه ، وتحريم صيد البر على المحرم كما حرمّ الصيد فى دائرة الحرم على المحرم وغير المحرم ؛ لأن المسألة ليست رتابة حِلٍ ، ولا رتابة حُرمة ، إنما هى خروج عن مراد النفس إلى مراد الله . وصيد البحر هو ما نأخذه بالحيل ونأكله طرياً ، وطعام البحر هو ما يعد ليكون طعاماً بأن نملحه ولذلك قال : « متاعاً لكم وللسيارة » . ولهذا جاء الحق بطعام البحر معطوفاً على صيد البحر . والشىء لا يعطف على نفسه ، فإذا ما جاء العطف فهو عطف شىء على شىء آخر ؛ فالعطف يقتضى المغايرة .

إذن فالمقيم يأكل السمك الطرى والذى فى سيارة ورحلة فليأخذ السمك ويجففه ويملحه طعاماً له ، مثلما فعل سيدنا موسى مع الحوت . ولكنْ هناك ألوان من الصيد ليست للأكل ، كاللؤلؤ والمرجان والحيوانات التى نستخرجها من البحر لعظامها وأسنانها وخلاف ذلك ، فماذا يكون الموقف ؟ لقد أباح لنا سبحانه الاستمتاع بكل صيد البحر . وجاء هذا التحليل هنا بأسلوب اللف والنشر ، مثلما قال الحق :

﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ ﴾

(من الآية ٧٣ سورة القصص)

وكلنا يعرف أن الليل للراحة والنهار للتعب . والليل يسلم للنهار ، والنهار يسلم لليل . إذن فالمسكن يعود إلى الليل ، وابتغاء الفضل بالكد يعود إلى النهار . إذن فقد جاء الحكم على طريق اللف والنشر المرتب ، وأوضحت من قبل كيف أن الشاعر العربى قد فعل ذلك فقال :

قلبى وجفنى واللسان وخالقى   راضٍ وباكٍ شاكرٌ وغفورُ

فالقلب راض ، والجفن باكٍ ، واللسان شاكر ، والخالق غفور ، ولكن الشاعر جاء بالأحكام منشورة بعد أن لف الكلمات الأربع الأولى . أى أنه طوى المحكوم عليه مع بعضه ثم نشر الأحكام من بعد ذلك . وفى حياتنا ـ فى أثناء السفر ـ نشترى الهدايا للأبناء ونرتبها حسب ورود الأبناء إلى حياتنا ، أى أننا نلف الهدايا ثم ننشرها من بعد ذلك . وبعد أن حلل الحق صيد البحر جاء بتحريم صيد البر إن كنا حُرُماً ، وذلك تأكيد جديد على تحريم صيد البر فى أثناء الإحرام أو الوجود فى الحرم .

ويذيل الحق الآية بقوله : « واتقوا الله الذى إليه تحشرون » أى اجعلوا بينكم وبين عذاب الله وقاية ؛ لأنكم لستم بقادرين على تحمل عذاب النار ، فالحق ـ كما قلنا من قبل ـ له صفات جمال ، وهى التى تأتى بما ييسر وينفع كالبسط ، والمغفرة والرحمة ، وله سبحانه وتعالى صفات القهر مثل : الجبار وشديد العقاب وغيرها . وكل صفة من صفات الحق لها مطلوب . فعندما يذنب الإنسان فالتجلى فى صفات الله يكون لصفات الجلال ، ومن جنود صفات الجلال النار .

إذن فإياكم أن تظنوا أنكم انفلتم من الله ، فمساحة الحرية الممنوحة لكل إنسان تقع فى المسافة بين قوسين : قوس الميلاد ، وقوس الموت ، فلا أحد يتحكم فى ميلاده أو وفاته . إياك ـ إذن ـ أيها الإنسان أن تقع أسير الغرور ؛ لأنك مختار فيما بين القوسين . ومحكوم بقهرين ، قهر أنه قد خلقك بدءا ، وقهر أنك ستعود إليه ـ سبحانه وتعالى ـ نهاية .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَٰٓئِدَ ۚ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾ ﴾

« جعل » تعنى بَيَّنَ ووضَّح ، فقال:إن الكعبة محرمة ولها كرامة تستحق من المؤمن أن يأمن فيها . أو « جعل » تعنى إيجاد صفات للأشياء بعد أن تكون ذات المادة موجودة ، مثل قوله الحق سبحانه :

﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾

(من الآية ٧ سورة النحل)

أى أنه سبحانه خصص جزءا من خلايا الإنسان ليكون عيناً ، وجزءا آخر ليكون أذناً ، وجزءا ثالثاً ليكون لساناً . والحق هنا يقول : « جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس » . ونعرف أن كل الأسماء للمعنويات مأخوذة من المُحسات .

والكعب هو الشيء الناتيء الخارج عن حد المتساوى . ومثال ذلك الكعب فى القدم يكون مرتفعاً . وكذلك الفتاة نطلق عليها : « طفلة » وهى دون البلوغ ، وعند البلوغ وظهور الثديين نقول إنها : «كَعَاب وكاعب » ، أى أن ثدييها قد صارا مرتفعين ، والكعبة نتوء ، والنتوء ارتفاع ، وهذا الارتفاع هو علامة البيت ، فالبيت هو مساحة من الأرض ، أما الارتفاع فهو يحدد الحجم .

ومثال ذلك عندما نريد حساب مساحة الأرض ؛ نقيس الطول والعرض ، ونضرب الطول فى العرض حتى نحسب المساحة . أما إذا كان هناك ارتفاع فهذا يعنى الانتقال من المساحة إلى الحجم . والحق سبحانه يقول :

﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ ﴾

(من الآية ١٢٧ سورة البقرة)

أى أن سيدنا إبراهيم بعمله إنما أراد أن يصنع للبيت ارتفاعاً وحجماً ، وهذا البناء يدل على صناعة حجم لمساحة من الأرض . إذن فالكعبة هى البيت بعد أن صار له ارتفاع . وكلمة « بيت » تعنى المكان الذى أعد للبيتوتة ، فالإنسان يضرب فى الأرض طيلة نهاره وعندما يحب أن يستريح يذهب إلى البيت .

فالله جعل الكعبة بيتاً للناس حتى يستريحوا فيه من عناء حياتهم ومشقة كدحهم لأنه بيت ربهم باختيار ربهم ، لا باختيارهم ، فكل مسجد هو بيت لله ولكن باختيار خلق الله ، أما الكعبة فهى بيت الله باختيار الله ، وهى قبلة لبيوت الله التى قامت باختيار خلق الله .

« جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس » وكلمة « البيت الحرام » تدل على أن له حرمات كثيرة . وجعل الله الكعبة بيتاً حراماً لكل المسلمين قياماً . والقيام هو الوقوف ، والوقوف هو القيام على الأمر . والقائم على أمرٍ ما يحفظ له قوام حياته ووجوده .

وهكذا نفهم أنه سبحانه أراد أن تكون الكعبة هى البيت الحرام ليحفظ على الناس قوام حياتهم ، بالطعام والشراب واستبقاء النسل ودفع الأذى ، وفوق ذلك له سيطرة وسيادة وجاه وتمكين ، ولذلك يعطى الإيمان الحياة الراقية ، فالحياة مسألة يشترك فيها المؤمن والكافر ، وتبدأ بوجود الروح فى المادة فتنتقل المادة إلى حالة الحس والحركة ، والمؤمن هو من يرتقى بحياته فيعطى لها بالإيمان منافع ، ويسلب عنها المضار ، فيأخذ السيادة ، وبذلك تتصل حياته الدنيا بحياته فى الآخرة ، فلا تنتهى منه الحياة أبداً .

لقد جعل الحق سبحانه وتعالى الكعبة البيت الحرام قياماً للناس . . أى قواماً لحياتهم سواءً الحياة الدنيا أو حياة الأخرة ، الحياة المادية التى تنتهى بالموت ، والحياة التى تبدأ بالأخرة . والحق سبحانه يقول عن ذلك :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾

(من الآية ٢٤ سورة الأنفال)

هكذا يكون الإيمان بالله وصلاً لحياتين : الحياة المادية فى الدنيا ، وحياة الآخرة . وأراد الحق بذلك دفع الأذى وجلب النفع والجاه والسيطرة للمؤمنين ، ونعرف أن البيت الحرام هو أول بيت وضع للناس :

﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

كذلك نعرف أن إبراهيم عليه السلام هو الذى أقام القواعد من البيت ، أما البيت نفسه فقد أقيم من قبل ذلك . ومادام الحق سبحانه قد قال :

﴿ وُضِعَ لِلنَّاسِ ﴾

(من الآية ٩٦ سورة آل عمران)

فمعنى ذلك أن الله لم يحرم الناس من قبل إبراهيم أن يكون لهم بيت . فالناس معناها البشر من آدم إلى أن تقوم الساعة ، وأقام إبراهيم خليل الرحمن البُعْد الثالث وهو رفع القواعد للبيت الحرام . والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ ﴾

(من الآية ٢٦ سورة الحج)

أى أن الحق سبحانه وتعالى أظهر مكان البيت لإبراهيم عليه السلام ، ونعرف أن إبراهيم أشرك ابنه إسماعيل فى إقامة القواعد من البيت ، ونعلم أن إسماعيل قد جاء إلى هذا المكان رضيعاً مع أمه ، وقال إبراهيم بعد أن رفع القواعد متوجها إلى ربه بالدعاء :

﴿ رَبَّنَا إِنِّى أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ ﴾

(من الآية ٣٧ سورة إبراهيم)

لقد عرف إبراهيم مكان البيت وأنه بوادٍ غير ذى زرع ، لا ماء فيه ولا نبات . وجاء الحق بهذه الكناية لنعرف أنه لا حياة بدون زرع ، والماء لازم للزرع . وبذلك يكون إبراهيم عليه السلام قد لبى نداء الله بأن يأتى إلى مكان ليس به أى نعمة تقيم الحياة ، ولا يوجد فيه إلا المنعم ، ولذلك نرى سيدتنا هاجر عليها السلام عندما تتلقى الأمر من إبراهيم بالسكن مع ابنها فى ذلك المكان تناديه : يا إبراهيم إلى من تتركنا ؟ فيقول

لها : إلى الله . تقول : رضيت بالله . هنا تركته سيدتنا هاجر ليمشى كما أراد ، فالله لن يضيعها لا هى ولا ابنها ؛ لأنها قالت : رضيت بالله .

وقص رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ علينا قصتها ، والسعى الذى قامت به بين الصفا والمروة ، وكيف كانت ثقتها فى أن الخالق الأكرم لن يضيعها لا هى ولا ابنها ، بل سيرزقهما ، فتسعى بين الصفا والمروة لعلها تجد طيراً يدلها على موقع للماء ، وتعود إلى المروة لعلها تجد قافلة تسير . إنها تأخذ بالأسباب مع علمها أنها فى صحبة المسبب الأعظم . وسعت سبعة أشواط . وهى الأنثى وفى تلك السن ، وذلك من لهفتها على توفير شربة ماء لطفلها .

السعى ـ كما نعرفه ـ عملية شاقة . ولو أن الله أعطاها الماء على الصفا أو على المروة لما أثبت لها كلمتها : « إن الله لا يضيعنا » . ولكن الحق يعطيها الماء عند قدمى طفلها الرضيع . وبذلك يكون سبحانه قد نبهنا وأرشدنا إلى قضيتين : أما الأولى فإن الإنسان يلزمه أن يسعى على قدر جهده ، وأما الثانية فهى أن السعى لا يعطى بمفرده الثمرة ، ولكن الثمرة يعطيها الله . وجعل الله من السعى بين الصفا والمروة تعليماً لنا بدرس عملى تطبيقى أن نأخذ بالأسباب ولا ننسى المسبب ؛ لأن فتنة الناس تأتى من الغرور بالأسباب .

﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۞ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۞ ﴾

(سورة العلق)

إنه لا يصح أبداً أن تعزلك الأسباب عن المسبب ، ولا تقل سأبقى مع المسبب إلى أن تأتينى الأسباب ، لا ، كُنْ دائماً مع الأسباب ، وتذكر دائماً المسبب . ولذلك نقول : إن الجوارح تعمل ، ولكن القلوب تتوكل . وهذا هو المغزى من عطاء الحق سبحانه الماء لهاجر عند قدمى ابنها ، وبذلك تستجاب دعوة إبراهيم التى دعا بها الله :

﴿ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ۞ ﴾

(سورة إبراهيم)

لقد دعا إبراهيم عليه السلام بالرزق من الثمرات ، لأن الوادى غير ذى زرع . ولذلك جعل الحق أفئدة الناس تهوى إلى الكعبة وإلى البيت الحرام . يقول ـ سبحانه ـ :

﴿ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا ﴾

(من الآية ٥٧ سورة القصص)

وكلمة « يُجبى » تدلنا على أن الناس لا تأتى بهذه الثمرات اختياراً إلى البيت الحرام الذى جعله الله قياماً لحياة من يوجد فيه ، بل يأتون بالثمرات قهراً .

وهناك أناس لهم مزارع كبيرة وحدائق وفيرة الثمار فى الطائف وفى غيرها من البلاد ، وعندما يريد إنسان الشراء من نِتاج مزارعهم يقولون له : إنه مخصص لمكة فإن أردت شراءه فاذهب إلى مكة .

لقد استجاب الحق لدعاء إبراهيم : (فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم) . و« تهوى » ـ بكسر الواو ـ تدل على السقوط من حالق . . أى من مكان مرتفع شاهق . وكأن الشوق إلى الكعبة يجعل الإنسان مقذوفاً إليها . ولذلك نجد الكَلِف بالحج ـ المحب له والمتعلق به ـ تشتاق روحه إلى الحج .

وعلينا أن نفرق بين « يَهْوَى » . . أى يحب الذهاب ، و« يَهوِى » بكسر الواو أى يذهب بالاندفاع ، فالإنسان إن سقط من مكان عالٍ لا يستطيع أن يقول : سأتوقف عند نقطةٍ ما فى منتصف مسافة السقوط ؛ لأن الذى يقع من مكان لا يقدر على أن يمسك نفسه . ولذلك قال الحق :

﴿ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾

(من الآية ٣٧ سورة إبراهيم)

وهذا دليل على أن الْهَوىً ليس من صنعة الجسم ، ولكنه من صنعة الأفئدة . والأفئدة بيد الله ـ سبحانه ـ هو الذى جعلها تهوِى ، والكعبة هى البيت الحرام ، وهى قوام لحياة الناس ، وسبحانه القائل :

﴿ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ﴾

(من الآية ٩٧ سورة آل عمران)

فالداخل إلى الكعبة آمن حتى ولو كان قاتلاً . وكان الرجل يلتقى بقاتل أبيه فى الكعبة فلا يتعرض له ، إذن فقد أعطى الحق لهم من مقومات الحياة الشىء النافع وحجب عن الموجود منهم الضر .

وأما السيادة والجاه فقد عرفنا أن قريشاً سادت العرب وكان رجالها سدنة وخدماً لبيت الله ، والكل يأتى إليهم فلا أحد يتعرض لقوافلهم الذاهبة إلى الشام أو اليمن . وإلا فمن يتعرض لقوافل قريش فإن قريشاً تستطيع الانتقام منه عندما يأتى إليها . وكان ذلك قمة السيادة . إذن فمقوم الحياة إما أن يأتى بنافع كالرزق ، وإما أن يمنع الضار ؛ وذلك بالأمن الذى يصيب كل داخل إليها ، وكذلك بالسيادة التى أخذتها قريش على العرب جميعاً . وأعطى الله المثل لقريش على حمايته للكعبة ، عندما جاء أبرهة ليهدم الكعبة :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١ ﴾

(سورة الفيل)

ورد سبحانه كيد أصحاب الفيل ؛ لأنهم لو هدموا الكعبة لضاعت السيادة من قريش ، ولذلك قال الحق وصفاً لذلك :

﴿ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍۭ ۝٥ ﴾ ﴿ لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝٢ ﴾

(الآية ٥ سورة الفيل والآية ١ ، ٢ سورة قريش)

جعل الحق أصحاب الفيل كعصف مأكول أى كتبن أو نحوه أكلته الدواب وألقتهُ رَوْثا ، فعل ـ سبحانه ـ ذلك حتى تألف قريش وتطمئن إلى أن الكعبة لن يمسها سوء ، وإلى أن رحلات الشتاء والصيف مصونة بحكم حاجة كل القبائل إلى الحج . وقال سبحانه :

﴿ فَلْيَعْبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ۝٤ ﴾

(سورة قريش)

أى أسبغ عليهم النعمة بالطعام وسلبهم المضرة بالخوف ، وأبقى لهم السيادة والجاه بخدمة الكعبة التى جعلها الله للناس جميعاً قياما وأمنًا ؛ لأن الذين يذهبون إلى حج البيت يُكفر عنهم سبحانه سيئاتهم ويخرجون من الذنوب كيوم ولدتهم أمهاتهم ، وهذا قيام لحياتهم الأخروية أيضاً .

إذن جعل الله البيت الحرام قياماً لكل ألوان الحياة ، والبيت الحرام مكان كما نعلم . وجعل الحق الشهر الحرام أيضاً قياماً للحياة ، والشهر الحرام هو زمان كما نعلم . والشهر الحرام هو أحد الأشهر الحرم الأربعة ؛ شهر منها فرد أى غير متصل بغيره من الأشهر الحرم وهو رجب ـ ولذلك يسمى رجب الفرد ـ وثلاثة سرد أى متتابعة يلى بعضها بعضا وهى : ذو القعدة وذو الحجة والمحرم . والمراد بالشهر الحرام هو الجنس لكل شهر من الأشهر الحرم .

ونعلم أن كل حدث من الأحداث يحتاج إلى فاعل . والفاعل يحتاج إلى زمن ليفعل فيه الفعل ، وإلى مكان يفعل فيه ، وإلى سبب يدعو إلى الفعل ، وإلى قدرة تبرز هذا الفعل . ولذلك نذكر جميعاً قول الحق سبحانه :

﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾

(سورة الكهف)

فإياك أن تقول : إنى فاعل ذلك غداً إلا بعد أن تتبعها بقولك : « إن شاء الله » . ولا يمنعنا هذا أن نخطط لمستقبلنا . فمادمنا قد استعنا بالمشيئة ، فلنا أن نخطط لحياتنا . ونقول : « إن شاء الله » لأن عناصر الفعل : فاعل ، ومفعول يقع عليه الفعل ، وزمان ، ومكان ، وسبب ، وقدرة تبرز الفعل . ولا أحد منا يملك واحداً من هذه العناصر ، فأنت أيها الإنسان لا تملك وجود ذاتك غداً ، ولا تملك وجود المفعول غداً ، ولا تملك الزمان ، ولا تملك المكان ، ولا تملك السبب ؛ لأنه من الجائز أن يتغير ، ولا تملك القدرة على الفعل ، فقد تسلب منك القدرة قبل أن تفعل الفعل .

إذن ، فأنت لا تملك من عناصر الفعل شيئاً . فلا تجازف وتقول : أنا أفعل ذلك غداً . بل أسندها إلى من يملك كل العناصر ، وقل : « إن شاء الله » ، وبذلك لا تكون كاذباً .

وهنا فى هذه الآية يوجد عنصران : المكان ، الزمان ، المكان هو البيت الحرام ، والزمان هو الشهر الحرام ، والذى يحدث الفعل فيه نسميه : المفعول فيه ، وهو إما ظرف مكان وإما ظرف زمان . وأراد الحق سبحانه بذلك أن يؤكد ما فيه قيام الناس زمانا ومكانا ، فلو أنه سبحانه لم يفعل ذلك بالنسبة للزمان وهو الأشهر الحرم ، والمكان وهو الحرم ، لاستمرت الحرب بين قبائل العرب إلى ما لا نهاية . ولذلك أراد بالأشهر الحرم أن يعطى للعقل فرصة للتأمل فى أسباب الحرب ، ويعطى كل إنسان من العرب الراحة من القتال . وكان كل عربى فى ذلك الزمن يهتم بالاستعداد للقتال اهتمامه بالطعام والشراب ، فكل منهم تربى على الفروسية والقتال والضرب بالرمح والمبارزة بالسيف .

وحينما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم لينساح بالدعوة فى أرض الله صحب معه الكثير من الرجال الذين لم يكونوا فى حاجة إلى التدريب على أعمال الحرب ، فقد كان كل الناس تقريباً جاهزين للقتال . وكأن الله سبحانه أراد للإسلام أن ينهى الثأر بين القبائل ، وأن يستفيد الإسلام من استعداد كل عربى للقتال . واستفاد الإسلام أيضاً من أن أمة العرب كانت ـ غالباً ـ متبدية ؛ بيت كل إنسان منهم على ظهر البعير ، يشد رحاله ، وينصب خيمته وينام ؛ لأن الناس إنما ارتبطوا بالأوطان عندما بنوا المنازل ، فمن بنى لنفسه بيتاً فى مكان ما فهو يشتاق إلى ما بناه .

وكأن الحق قد أعدهم للانسياح بكلمة الله فى الأرض فلا يحزن لترك مكان إلى مكان آخر ، بل إن الشخص منهم كان يذهب إلى البلاد ويتوطن فيها ليوصل الوجود الإسلامى . فكان كل واحد منهم نواة الخير للأمم التى انساحوا إليها ؛ فمن ذهب منهم إلى الشام توطن فيها ولم يصعب عليه فراق الجزيرة . وكذلك من ذهب إلى مصر وغيرها من البلدان .

إذن فقد أراد الحق بحرمة الأشهر الحرم والبيت الحرام أن يرتاح العرب من القتال بدلاً من أن تهلك الحربُ الحرثَ والنسلَ ، وأراد الحق ذلك قياماً للناس ، واستبقاءً للنوع .

وكذلك حرم الله : « الهدى والقلائد » والهدى هو الذى يُهْدَى للحرم فيأكله

الناس هناك ، ذلك لأن الحرم موجود بوادٍ غير ذى زرع . والهدى هو البهيمة التى يتطوع بها أى إنسان ويضع حول عنقها قلادة من لِحاء وقشر الشجر أو غير ذلك ، وعندما يرى الناس القلادة يعرفون أن تلك البهيمة مهداة للحرم فلا يقربها أحد حتى صاحبها وإن قرصه وعضه الجوع ، وفى ذلك قيام للناس .

وتتابع الآية : « ذلك لتعلموا أن الله يعلم ما فى السموات وما فى الأرض وأن الله بكل شيء عليم » ، و« ذلك » تشير إلى الأمور التى تقدمت كلها ، و« لتعلموا أن الله يعلم ما فى السموات وما فى الأرض » أى أنه مدبر لهم ما يحفظ حياتهم فى كل حالٍ من أغيار الحياة ؛ فقد رتب سبحانه لهم حفظ الأرواح ، وحفظهم من الجوع ، وآمنهم ، وحفظ لهم السيادة ، كل ذلك بتدبيره وهو الحكيم . لقد دبر كل شيء أزلاً ، وأتت الأمور على وَفْق ما دبر من خير ومصلحة ، فإذا كان كل ذلك قد فعله سبحانه وتعالى فلأنه الأعلم والأحكم .

وقد حدث كل ذلك بعلمه وحكمته ، ونؤمن أن ما لا نعرفه قد فعله وصنعه - أيضاً - بهذه الحكمة المطلقة وذلك العلم المطلق . « ذلك لتعلموا أن الله يعلم ما فى السموات وما فى الأرض وأن الله بكل شيء عليم » لقد رتب حياة الناس فى الجزيرة وحول البيت الحرام على الرغم من أنهم قبل الرسالة كانوا يعبدون الأصنام ، ولكنه هداهم بالرسالة المحمدية . ولذلك قال : « اعلموا أن الله شديد العقاب وأن الله غفور رحيم » فسبحانه جعل البيت أمنا وأماناً ، وهذا إخبار شرعى لا إخبار كونى .

والفرق بين الإخبار الكونى والإخبار الشرعى أن الإخبار الكونى لا بد أن يحدث لأنه لا دخل للناس به ، أما الإخبار الشرعى فهو أمر يجب أن يقوم الناس بتنفيذه ، فإن أطاع الناس الخبر القادم من الله جعلوا البيت آمنا ، وإن أساءوا جعلوه غير آمن .

وفى زماننا القريب عندما اعتدى شاب يدعى جهيمان على الحرم ، تساءل الناس : كيف يعتدى إنسان على الحرم وقد أراده الله حرماً آمناً ؟ وقلنا : إن أمر الله بجعل البيت حرماً آمنا هو أمر شرعى ينفذه المؤمنون إن أطاعوا ، وإن لم ينفذوه فهم غير مؤمنين . والمثال على الأمر الشرعى والكونى قوله الحق :

﴿ والطيبات للطيبين ﴾

(من الآية ٢٦ سورة النور)

إنّنا نجد فى الحياة خبيثاً يتزوج امرأة طيبة ، ونجد طيباً يتزوج خبيثة . وهذا يثبت لنا أن قوله الحق : « والطيبات للطيبين » هو أمر شرعى بأن نزوج الطيب طيبة مثله ، وهو واجب التنفيذ إن كنا مؤمنين بالمنهج ، أما إن خالفنا المنهج فإننا نزوج الطيب خبيثة والطيبة خبيثاً ، وبذلك يختل التكافؤ فى الأسرة ، وتصير حياة المجتمع جحيماً ، ومن أجل أن نحفظ للمجتمع توازنه علينا أن نزوج الطيب للطيبة وأن نترك الخبيثة للخبيث ، حتى لا تكون حياتنا فى فتنة . وينبهنا سبحانه إلى ضرورة مراعاة أوامره الشرعية فيقول لنا سبحانه :.

﴿ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (٩٨)

أى تيقظوا لأحكام الله ، وكونوا طوع ما يريد ، فمن يخالف الله فعليه أن يعرف أنه سبحانه وتعالى شديد العقاب . ومن كان يطيع الله فليعلم أنه سبحانه غفور رحيم . وجاء سبحانه بصفة من صفات الجلال لتتقابل مع صفتين من صفات الجمال ، فصفة : « شديد العقاب » تتقابل مع صفتى : « غفور رحيم » ؛ لأن كل الناس ليسوا أخياراً ، وكل الناس ليسوا أشراراً ، لذلك جاء للأخيار بما يناسبهم من المغفرة والرحمة ، وجاء للأشرار بما يناسبهم من شدة العقاب ، وغلبت رحمته ومغفرته غضبه وعقابه ، ونلحظ ذلك من مجىء صفة واحدة من صفات الجلال : (شديد العقاب) ويقابلها صفتان من صفات الجمال وهما : (غفور رحيم) .

ويقول الحق من بعد ذلك :



الرسول هو المبعوث من المرسِل الحق سبحانه إلينا نحن العباد . والحق سبحانه هو الفاعل الأول ، المطلق الذى لا فاعل يزاحمه ، والمفعول الأول بالرسالة هو الرسول صلى الله عليه وسلم ، والمفعول الثانى هو نحن . وهناك فى النحو المفعول معه ، وهناك أيضا المفعول له ، والمفعول فيه ، والمفعول به ، وأيضا يوجد المفعول إليه والمثال على المفعول إليه قوله تعالى :

﴿ تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾

(من الآية ٦٣ سورة النحل)

وفيه أيضا المفعول منه . والمثال على المفعول منه هو قوله الحق :

﴿ وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا ﴾

(من الآية ١٥٥ سورة الأعراف)

« قومه » هى مفعول منه . لأنه اختار من قومه سبعين رجلا ممن لم يعبدوا العجل ليعتذروا عمن عبد العجل ويسألوا الله أن يكشف عنهم البلاء .

إن مهمة الرسول صلى الله عليه وسلم هى البلاغ (ما على الرسول إلا البلاغ) ، أما تنفيذ البلاغ فهو دور المؤمنين برسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإن أدوْها فلهم الجنة ، وإن لم يؤدُوها فعليهم العقاب . وأراد الحق أن يكون البلاغ من رسوله مصحوبا بالأسوة السلوكية منه صلى الله عليه وسلم ، فالرسول يبلغ وينفذ أمامنا ما بلغ به حتى نتبعه ، ولذلك قال الحق :

﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾

(من الآية ٢١ سورة الأحزاب)

وهذا ما ينقض ادعاء الألوهية لبشر . فلو كان هناك إله رسول لقال الناس : كيف نتبع هذا الرسول وله من الصفات والخصائص ما يختلف عنا نحن البشر ؟ إن الرسول لا يستقيم ولا يصح أن يكون إلها لأنه هو الأسوة والقدوة للمرسل إليهم . إنه يصلى ويصوم ويزكى ويحج ويفعل غير ذلك من الأفعال ، ويأمر مَن أرسِل إليهم أن يتبعوه فيما يفعل ، فلو كان إلها فإن المرسَل إليهم ـ وهم البشر ـ لا يقدرون على أن يفعلوا مثل ما يفعل ؛ لأنه إله وطبيعته تختلف عن طبيعتهم ولذلك لا يستطيعون

التأسى والاقتداء به ، فالأسوة لا تتأتى إلا إذا كان الرسول من جنس المرسل إليهم .. أى يكون بشرا بكل أغيار البشر .

والحق سبحانه قال :

﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

أى أن البشر تساءلوا ـ جهلاً ـ عما يمنع الله ـ سبحانه ـ أن يرسل لهم رسولاً من غير جنس البشر ، ولماذا أرسل لهم رسولاً من جنسهم البشرى ؟ وهنا يأتى الأمر من الله سبحانه :

﴿ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

وبهذا يبلغ الحق رسله ضرورة إبلاغ الناس أن الرسول لهم لا بد من أن يكون من جنس البشر ؛ لأن الملائكة لا يمشون مطمئنين فى الأرض . ولو جاء الرسل من الملائكة لقال البشر : لن نستطيع اتباع ما جاء به الملائكة لأنهم لا يصلحون أسوة لنا ؛ لأنهم من جنس آخر غير جنس البشر ، ثم إن الملائكة من خلق الغيب ، فكيف يبعث الله للبشر هذا الغيب ليكون رسولاً ؟ ولو حدث ذلك فلا بد أن يجعله الحق فى صورة بشرية .

ففى آية أخرى يقول الحق :

﴿ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

إنهم طلبوا أن ينزل الله عليهم مَلكاً ، ولو استجاب الله لهم وأرسل رسوله ملكاً لتجسد المَلَك فى صورة بشرية ، وهم من بعد ذلك قد يستمرون على الكفر ويعاندون ولا يؤمنون ، عندئذ يحق عليهم عذاب الله ويهلكهم . إذن فمهمة الرسول هى البلاغ ولنا فيه الأسوة .

وتتابع الآية : « والله يعلم ما تبدون وما تكتمون » كأنه سبحانه وتعالى يحذرنا من أن نأخذ شكل الإيمان دون أن نؤمن حقيقة ؛ لأن الأمر الشكلى قد يجوز على أجناس البشر أن ينخدعوا فيه ، ولكن الله ينظر إلينا بقيوميته ، فسبحانه لا تأخذه سنة ولا نوم . وفى هذا القول تحدّ للمنافقين من أنه سبحانه سيحاسبهم ، فإن كتم الإنسان الكفر فى قلبه وأظهر الإيمان الشكلى ، فسوف ينال عقاب الله ، وعلى الرسول صلى الله عليه وسلم ومعه جماعة المؤمنين أن يحكموا على ظاهر الأمر وأن يتركوا السرائر لله .

إن رسول الله صلى الله عليه وسلم ينهانا عن أن نحكم بكفر إنسان أعلن الإيمان ولو نفاقاً . وقد أبلغنا صلى الله عليه وسلم أنه بشر ، وعرف أن البشرية محدودة القدرة . ولذلك قال : « إنما أنا بشر وإنكم تختصمون إلىّ فلعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضى له على نحو ما أسمع ، فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هى قطعة من النار فليأخذها أو ليتركها »[1] .

هكذا يحذرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نظن فيه قدرة فوق قدرة البشر . وعندما قتل صحابى رجلاً أعلن الإيمان قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « هلا شققت عن بطنه فعلمت ما فى قلبه »[2] .

إذن فنحن لنا الظاهر ، أما السرائر فأمرها موكول إلى الله . ولذلك يقول الله : « والله يعلم ما تبدون وما تكتمون » . ونعلم أن ظاهرة النفاق تعطى للمنافق حقوق المسلم الظاهرة الموقوتة بحياته وزمنه ، ولكن الباقى فى الحياة الأخرى طويل ينال فيه جزاء ما أبطن من كفر . والكتمان غير الإخفاء ، فكتم الشىء يعنى أن الشىء ظاهر الوضوح ولكن صاحبه يكتمه ، أما الإخفاء فهو ما يدور بالخواطر ، ويمكن أن يخفيه الإنسان ، ولكنه مع مرور الوقت لا يستطيع ذلك ، فالشاعر العربى يقول :

وَمَهْمَا تَكُنْ عِنْدَ امرىءٍ مِن خَلِيقَةٍ
وإن خَالَهَا تَخْفَى عَلَى النَّاسِ تُعْلَمِ

(١) رواه البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه .
(٢) رواه مسلم وأبو داود وابن ماجه وأحمد .

ويقال : يكاد المريب أن يقول خذونى .

ومادام الحق يعلم كُلّ ما يبدى البشر وكل ما يكتمون ، وهو شديد العقاب ، وغفور ورحيم ، ويجازى على الحسنة بعشر أمثالها ، ويجازى على السيئة بمثلها ، فماذا علينا أن نفعل ؟ يأتينا القول الفصل فى أمر الله لرسوله أن يخبرنا :

﴿ قُل لَّا يَسْتَوِي ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَـٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾

إذن فالخبيث لا يستوى أبداً مع الطيب ، بدليل أن الإنسان منا إذا ما ذهب لشراء سلعة فهو يفرز البضاعة ليختار الطيب ويبتعد عن الخبيث . وهذه قضية كونية مثلها تماماً مثل عدم تساوى الأعمى والبصير ، وعدم استواء الظلمات والنور . ويأتى الحق إلى المحسات ليأخذ منها ما يوضح لنا الأمر المعنوى . ولذلك يحذرنا أن نغتر بكميات الأشياء ومقدارها ، فإن الطيب القليل هو أربى وأعظم وأفضل من الكثير الخبيث . والأمر الطيب قد يرى الإنسان خيره فى الدنيا ، ومن المؤكد أن خيره فى الآخرة أكثر بكثير مما يتصور أحد ؛ لأن عمر الآخرة لا نهاية له ، أما عمر الدنيا فهو محدود .

وكثير من الناس عندما يحضرون قسمة ما ، فكل واحد يرغب فى أن يأخذ لنفسه النصيب الأكبر ؛ لأن الإنسان تغريه الكثرة . وهذا الطمع يشيع الخبث فى جميع ما يأخذه الطامع ، فالذى يطمع فى حفنة من قمح ـ على سبيل المثال ـ تزيد على حقه ، فهو يفسد حياته بهذا الشىء الخبيث . وذلك كخلط الماء الطاهر بماء نجس فتغلب النجاسة على الماء . إذن فلا يصح أن نحكم على الأشياء بكميتها وقَدْرِها ، ولكن يجب أن نحكم على الأشياء بكيفيتها وصفتها وبعمرها فى الخير .

والمثال الذى لا أمل من تكراره هو التلميذ الذى يكد لمدة عشرين عاماً فهو يتخرج إنساناً له مكانة لائقة ، أما التلميذ الذى يقضى عشرين عاماً فى اللعب واللهو فهو يتلقى وينال مستقبلا فاشلا مؤلما . إذن ، على كل منا أن يقدر النفعية بديمومتها ، ولا يغتر بكثرة الخبيث .

والمثال يتكرر فى حياتنا ولا بد أن نضعه أمام أعيننا لنرعى الله ولا ننساق كما ينساق كثير من الناس إلى هلاكهم ، فبعض الناس لا يرتضون قسمة الله فى مواريثهم ، فيعطى بعضهم للذكور ولا يعطى للإناث . أو يقلل من نصيب الإناث . ونقول لمن يفعل ذلك : أنت لا تعلم ماذا تفعل . ولو أن ابنك الذكر يعلم أن يد الله فى الأشياء لقال لك : ارحمنى ولا تزدنى ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى قال :

﴿ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا ﴾

(من الآية ١١ سورة النساء)

ولذلك يجب أن ينتبه الناس إلى أن قسمة الله هى أعدل قسمة ، وإياك أن تظلم ابناً لك أو قريباً بزيادة فوق ما قدره الله له ؛ لأن هذا عين الظلم . فإن فاتت على المورِّث وهو حى نقول لمن أخذ : احذر ولا تقبل ما هو فوق شرع الله وأعِدْ ما هو فوق حقك . افعل ذلك برجولة الإيمان . وإياك أن تظن أن الذى سيديم الستر لأولادك هو هذه الزيادة التى ليس لك حق فيها ؛ لأنك بهذه الزيادة ستقطع الأرحام وتغرس بذور الكراهية والبغض .

ولو نظرت إلى هذه المسألة وأقمتها على ما شرعه الله فستجد أن الرزق سيفيض عليك من كل جانب مادمت قد راعيت حق الله فى إرادته التى حكم بها لينشأ الاستطراق الأسرى وتظهر العدالة الربانية ؛ لذلك يجب ألا يجترىء أحد على قسمة الله ؛ لذلك أقول لكل من يقرأ هذه الكلمات ويفكر فى الاجتراء على قسمة الله : تُب إلى الله ولا يصح أن تشوه استقامتك الإيمانية . وإياك أن يظن إنسان أنه كأب يمكنه أن يحتاط لأبنائه . فكثيراً ما رأينا أناساً تركهم أهلهم أغنياء وصاروا فى عوز وفاقة وفقر ، ورأينا أناساً تركهم أهلهم فقراء ، وأفاض الله عليهم من رزقه ، فسبحانه القائل :

﴿ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾ ﴾

(سورة النساء)

إذن فعلى المؤمن أن يحذر الكثرة إن كان بها شيء خبيث . ولنا العبرة فى الحكاية التى حدثت مع أبى جعفر المنصور حينما بويع للخلافة ، وذهب الناس يهنئونه بإمارة المؤمنين ، ودخل عليه سيدنا مقاتل بن سليمان وكان أحد الواعظين .

هنا قال أبو جعفر لنفسه : جاء ليعكر علينا صفو يومنا ، سأبدأه قبل أن يبدأنى وقال له : عظنا يا مقاتل . قال مقاتل : أعظك بما رأيت أم بما سمعت ؟

ذلك أن السمع أكثر من الرؤية ، فالرؤية محدودة ومقصورة على ما تدركه العين ، لكن السمع متعدد ؛ لأن الإنسان قد يسمع أيضاً تجارب غيره من البشر .

قال أبو جعفر : تكلم بما رأيت . قال : يا أمير المؤمنين ، مات عمر بن عبدالعزيز وقد ترك أحد عشر ولداً ، وخلف ثمانية عشر ديناراً كُفن منها بخمسة ، واشتروا له قبراً بأربعة ، ثم وزع الباقى على ورثته . ومات هشام بن عبدالملك ، فكان نصيب إحدى زوجاته الأربع ثمانين ألف دينار ، غير الضياع والقصور . كان نصيب الزوجات الأربع هو ثلاثمائة وعشرون ألف دينار ، وهذا هو ثُمن التركة فقط . والله يا أمير المؤمنين لقد رأيت بعينى هاتين فى يوم واحد ولداً من أولاد عمر بن عبدالعزيز يحمل على مائة فرس فى سبيل الله ، وولدا من أولاد هشام بن عبدالملك يسأل الناس فى الطريق .

إذن فعلى كل منا أن يعرف أنه لم يدخل الدنيا بثروة ، وعليه أن يتأدب مع الله ويرعى حق الله ، ولا يتدخل فى قسمة الله .

﴿ قُل لَّا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾

(سورة المائدة)

على المسلم ـ إذن ـ أن يستحضر كل ملكاته العقلية حتى يميز الخبيث من الطيب ويرفض الشيء الخبيث ؛ لأننا لو تدبرنا الحكم بعقولنا لوصلنا إلى أن حكم الله هو الحكم الحق العادل .

(لعلكم تفلحون) والفلاح ـ كما نعلم ـ مأخوذ من أمر محس وهو فلح الأرض ، فالإنسان يأخذ حبة قمح ويزرعها فتعطيه سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة . والحق سبحانه يسمى لنا كل عمل الآخرة بالفلاح ؛ لأن الكلمة لها وقعها الجميل ، فإذا كانت الأرض ، وهى مخلوقة من مخلوقات الله بما تحتويه من كل العناصر اللازمة للزرع واللازمة لكل حياة ، هذه الأرض تعطينا لقاء حبة قمح سبع سنابل ، فى كل سنبلة مائة حبة ، فكم يعطيك خالق الأرض ؟ فاتق الله أيها المسلم ولا تتدخل فى قسمة الله ، وضع أمامك هذا التوجيه الحكيم الذى ورد فى الأثر : شركم من ترك عياله بخير وأقبل على الله بشرٍّ .

وعلى الأبناء الذين ابتلوا بهذا أن يراجعوا الأمر بنخوة إيمانية ؛ لأن الأب حينما أحب ابناً له وزاد له فى الميراث كان أحمق الحب ، وعلى الابن أن يحترم عاطفة الحب ، وأن يجازى الأب عنها ويرحمه ، فيعيد الأمر إلى نصابه ويعطى كل ذى حق حقه حتى لا يتعرض أبوه لعذاب النار الذى سيناله نتيجة تدخله لصالحه فى قسمة الله .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُواْ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ﴾

وهذا نهى عن السؤال ، والنبى صلى الله عليه وسلم قال : « ذرونى ما تركتم فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم فإذا أمرتكم بشىء فأتوا منه ما استطعتم وإذا نهيتكم عن شىء فدعوه »[١] .

ونعرف أن بنى إسرائيل شددوا على أنفسهم عندما أخذوا يماطلون فى أمر ذبح البقرة ، وتساءلوا عن لونها ، وشددوا فشدد الله عليهم . ولو أنهم ذبحوا أى بقرة لكانت مقبولة منهم ، لكنهم شددوا فشدد الله عليهم حتى جاءت البقرة الموصوفة ملكاً ليتيم، كان هذا اليتيم ابناً لرجل صالح وكانت له عِجْلة فأتى بها موضعا كثير الشجر والمرعى وقال : اللهم إنى استودعتكها لابنى حتى يكبر وعندما ساوموا اليتيم على ثمنها باعها لهم بملء جلدها ذهباً .

وقد شدد بعض الناس فى سؤال رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل عبدالله بن حذافة بن قيس السهمى الذى سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم : من أبى ؟

فأجاب رسول الله : أبوك حذافة . ولو فرضنا أن هذا السائل كان ينسب لغير أبيه ألا يكون فى ذلك فضيحة لأمه وقد قالت له أمه : ما رأيت أعق منك قط ، أكنت تأمن أن تكون أمك قد قارفت ما قارف أهل الجاهلية فتفضحها على رءوس الناس .

لقد أراد الحق أن يخفف من أسئلة الناس فى الأمور التى تؤدى بهم إلى المشقة والتعب وتسىء إليهم وتقبل الحق من رسوله أسئلة المؤمنين عن القواعد الشرعية مثل سؤالهم عن الخمر والأهلة والحيض والشهرالحرام وغيرها . أما الأسئلة الأخرى فقد قال الحق فى شأنها : « عفا الله عنها والله غفور حليم » .

ذلك أن البعض استمرأ السؤال وكأنه يمتحن النبى صلى الله عليه وسلم . ولذلك جاء الأمر بألا يتعمد المؤمنون السؤال عما ستره الله عنهم كى لا ينفضح عرضهم . « وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم » فإن نزل القرآن وهو يحمل الإجابة كان بها . وإن لم تأت الإجابة فلا يقولن أحد : إن النبى ليس عنده جواب . أو هى سؤال عن الأشياء التى اقترحوها ادعاء منهم أنها تثبت صدق النبوة فقد حكى الله عنهم :

(١) رواه مسلم والترمذى والنسائى وابن ماجه وأحمد .

﴿ وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

لقد ظهر من هذا القول سوء النية المبيتة منهم ، فالرسول لن يأتى بالآيات ، بل تأتيه الآيات بالأمر المكلف به ؛ لأن الرسول لا يختار ما يُؤتى به من آيات ، ولكن الحق هو الذى يرسل الآيات المناسبة .

ولذلك يقول الحق :

﴿ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُواْ بِهَا كَٰفِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ﴾

والحق لم يرسل هذه الآيات رحمة بمن سألوا الرسول صلى الله عليه وسلم عنها فقد سأل قوم عن ناقة وعقروها فأبادهم الله . وقوم عيسى عليه السلام سألوا عن مائدة ونزلت عليهم وتوعدهم الحق بعدها إن لم يؤمنوا . وكانت سنة الله مع خلقه إن اقترحوا هم آية ولم يصدقوها فإن الحق يهلكهم أو يعذبهم . ويعطى سبحانه أمة محمد صلى الله عليه وسلم ضماناً :

﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ﴾

(من الآية ٣٣ سورة الأنفال)

إذن فالأسئلة التى سألوا عنها لم يجبهم عنها لأنه سبحانه قد عفا عنها . والعفو ـ كما نعلم ـ مأخوذ من عفى الأثر أى أذهب الأثر . وعفو الله من مغفرته ورحمته .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾

وهذه الآية جاءت فى السورة التى أحل الله فيها بهيمة الأنعام ، وحرّم منها ما حرّم . فهو سبحانه الذى خلق الإنسان ، وخلق له ما يستبقى حياته من قوت ، وما يستبقى نوعه بالتزاوج . وإذا كان الحق هو الذى جعل الإنسان خليفة فى الأرض فقد أعدّ له كل هذه المقومات للحياة من قبل آدم عليه السلام ، أعدّ سبحانه لخلقه الأرض والسماء والماء والهواء ، ومما ذخر وخبّأ وأوجد فى الأرض من أقوات لا تنتهى إلى يوم القيامة .

ولنا أن نلتفت إلى فارق مهم بين « الخلق » ، وبين « الجَعْل » . فالخلق شىء ، والجعل شىء آخر . والخلق هو إيجاد من عدم . والجَعْل هو توجيه مخلوق لله إلى مهمته فى الحياة . فخلق الله لا يخلقون شيئاً ، إنما الخلق والإيجاد له سبحانه . وعلينا ـ نحن الخلق ـ أن نخصص كل شىء لمهمته فى حياته التى أرادها الله ، أى أن نترك « الجعل » لله ولا نتدخل فيه ، بمعنى أن الخالق سبحانه وتعالى خلق الخنزير ـ على سبيل المثال ـ ليأكل من القاذورات وليحمى الإنسان من أمراض وأضرار كثيرة ، وعلى الإنسان ـ إذن ـ أن يخصص الخنزير لهذه المهمة فلا يحوّله إلى غير مهمته كأن يأكله مثلا ؛ لأن تحويل مهمة مخلوق لله إلى غير مهمته هو أمر يضر بالإنسان الذى أراده الله سيداً مستخلفاً فى الكون .

وأبلغ سبحانه الناس أنه قد أحل أشياء وحرّم أشياء ، وعلى الإنسان أن يرضخ لما حلله الله فيقبل عليه ، وأن يرضخ بالابتعاد عما حرّم الله . والخالق سبحانه وتعالى هو الذى « خلق » وهو الذى « جعل » وهو القائل :

﴿ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَـٰمًا لِّلنَّاسِ ﴾

(من الآية ٩٧ سورة المائدة)

وهو القائل :

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَـٰتِ وَٱلنُّورَ ﴾

(من الآية ١ سورة الأنعام)

والحق سبحانه وتعالى ينهانا عن أن نجعل له أنداداً :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾

(سورة البقرة)

فسبحانه وتعالى موجود وواحد أحد ، فلا يصح أن تجعلوا له أنداداً ؛ لأن ذلك عبث . ويثبت لنا سبحانه أن قضية الفساد فى الأرض تنشأ من تعدى الناس إلى الجعل المخلوق لله فيحولونه إلى غير ما خلقه الله له .

والخَلْقُ فى حياتهم اليومية يحرصون على أن يستخدموا الأشياء فيما هى مخصصة له . ومثال ذلك : أنت تستقبل من صانع الجبن قالباً من جبن . وتستقبل من صانع الصابون قالباً من الصابون ، ثم تجىء بالجبنّ والصابون إلى المنزل ، فتخبر أهل البيت بأن الجبن للأكل والصابون للغسيل ، ويطيع الجميع هذه التوجيهات . لكن إن استخدم أحد الصابون للأكل والجبن للغسيل يحدث إفساد فى صحة أفراد الأسرة . وكذلك جعل الحق سبحانه وتعالى لنا أبناء من أصلابنا ، فكيف نأخذ أبناء من غير أصلابنا لنجعلهم أبناء لنا ؟ إن هذا خطأ فى الجَعْل .

ولذلك قال الحق :

﴿ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ﴾

(من الآية ٤ سورة الأحزاب)

إنّ الدعيّ هو فى حقيقة أمره من غير صلبك ، وزوجتك ليست أمّاً له ، فكيف تجعله ابنا لك ، وتمكنه من أن يجلس فى حجر امرأة غير أمه ويشب على ذلك وينظر إلى غير محارمه على أن ذلك حلال ومباح له ، إنه بذلك يفقد التمييز بين الحلال والحرام ؛ لذلك فالتبنى إفساد فى الجعل .

إن كل فساد ينشأ فى الكون حينما نجعل مخلوقاً لله فى مهمة غير تلك التى جعلها الله له . والحق سبحانه وتعالى يبلغنا أنه الذى خلق الإنسان ، وخلق له ما يقيته ، وما يحفظ نوعه ، فعلينا أن نتبع ما يأمر به الحق من اتباع ما هو حلال ، والابتعاد عما هو حرام . وإن قال قائل : ولماذا حرّم الله بعض الأشياء التى خلقها ؟ ونقول : إن الذى خلقها جعلها لمهمة غير التى يريد الإنسان أن يوجهها له ، ومثال ذلك تحريم أكل لحم الخنزير .

والإنسان منا إذا ما رأى صورة من معيشة الحيوانات فى الغابة . يتعجب ، ففضلات حيوان هى غذاء لحيوان آخر . وسم الثعبان هو حماية وعلاج . ونعرف أن الإنسان يستخلص سم الثعبان ليستخرج منه علاجاً لبعض الأمراض ولقتل بعض الجراثيم .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾

(سورة يونس)

كيف إذن نجعل من أنفسنا مشرعين نحلل الحرام ونحرم الحلال ؟ إن الله الذى خلق كل شيء لم يمنحنا الإذن بذلك . وعلينا أن نسلم بأن كل شيء مخلوق لمهمة

فلا يصح أن نوجه شيئا إلى غير مهمته . وتوجيه أشياء إلى غير ما جعلت له أنتج آثاراً ضارة ، ومثال ذلك استخدامنا لمبيدات الحشرات فى الحقول ، تلك المبيدات أبادت الضار فى نظرنا ، وأبادت النافع أيضاً . وعلى الإنسان ـ إذن ـ أن ينتبه جيداً فلا يساوى بين الحرام والحلال ، وأن ينتبه تماماً فلا يتعدى الجعل المخلوق لله . يقول سبحانه :

﴿ مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِن بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾

(سورة المائدة)

والبحيرة هى الناقة التى تُشق أذنها كعلامة على أنها محرّمة فلا يتعرض لها أحد ، لا تُرد عن مرعى ، ولا تُرد عن ماء ، ولا يُشرب لبنها ، ولا يُركب ظهرها ، ولا يُجز صوفها ؛ لأنهم قالوا : نُتجت خمسة أبطن آخرها ذكر . و« السائبة » وهى الناقة التى يقدمها الرجل إن برىء من مرضه أو قدم من سفره كنذر سائب ، فلا يربطها ، وتأكل كما تريد ، وتشرب ما تريد ، وتنام فى أى مكان ، ولا أحد يتعرض لها أبداً ، وقد سميت « سائبة » بمعنى مأخوذ من الماء السائب . ونعرف أن صفة الماء وطبيعته الأساسية هى الاستطراق ، فإن سقط الماء على قمم الجبال فهو يملأ الوديان أولاً ، ثم يصعد إلى الأعالى ، هكذا يكون استطراق الماء ما لم يتحكم فيه الإنسان بإقامة السدود والمضخات وشبكات توزيع المياه .

والوصيلة هى الناقة التى تصل أخاها ، فالناقة عندما تحمل وتضع المولود ، هنا ينظر أصحاب الناقة إلى جنس المولود ، فإن كان ذكراً أكلوه ، أما إن كان المولود أنثى فهى لهم يستبقونها لأنها وعاء إنجاب لنتاج جديد ويكفى فحل واحد لإخصاب عشرات الإناث . فإن نتجت الناقة فى بطن واحد ذكراً وأنثى فإنهم لا يذبحونهما ويقال : « وصلت الأنثى أخاها » فحرمته علينا .

وفى ريفنا المصرى نجد الأطفال يتمنون أن يأتى وليد الجاموسة أو البقرة ذكراً حتى يأكلوا من لحمه وحتى يشربوا من لبن الجاموسة أو البقرة كما يهوون . ذلك أن الطفل

ينظر إلى مصلحته المباشرة ، أما الكبار فهم يتمنون دائما أن يكون وليد البهيمة أنثى ؛ لأن الأنثى وعاء لنتاج جديد .

والـ« حام » هو الفحل الذى يُحمى ظهره من أن يُركب ، ويتركونه لينطلق كما يريد . وهو الذى لقح عشرة أجيال من الإناث ، أو هو الذى نتجت من صلبه عشرة أبطن . وكان من الضوابط لهذه العملية أن يعرفوا أن حفيد هذا الفحل - ابن ابنه - يمكنه أن يلقح .

وكل هذه المسائل : البحيرة ، والسائبة ، والوصيلة ، والحام ، هى من اختراعات أهل الكفر الذين يفترون على الله ، فالحق سبحانه وتعالى خلق هذه الأنعام ليستمتع الإنسان بأكلها وشرب لبنها وتسخيرها إلى ما يفيده .

ومعنى « يفترى الكذب » أى أنه يختلق كذباً ويدعيه ليطرأ به على صدق ليخفيه . فالكذب ستر لحقيقة كانت قائمة . والحقيقة القائمة منذ أن خلق الله الخلق أن هذه الأنعام جميعها مسخرة لخدمة الإنسان ، وأبلغ سبحانه آدم بمنهجه ، وكان من المفروض أن يبلغ كل جيل الجيل الذى يليه ، لكن طول الزمن والغفلة هما السببان وراء نسيان الناس لبعض الأحكام ؛ لذلك بعث الله الرسل ليذكروا الناس بالمنهج ، وليزيلوا الكفر عن وعى الناس ، فالكافرون أناس ستروا منهج الله ، وستروا البلاغ عن الله ، وهم بذلك يفترون الكذب على الله .

ومثال ذلك قصة دخول الأصنام إلى الكعبة ، فقد سافر رجل اسمه عمرو بن لُحَىّ إلى بلاد الشام ، فوجد أوثاناً وأصناماً فنقل منها صنما يقال له : « هبل » إلى مكة ، وكان هو أول من أدخل الأصنام إلى مكة . وكما فعل عمرو بن لُحَىّ فعل غيره بوضع قوانين وقواعد لم يأت بها الله ، كالوصيلة والبحيرة والسائبة والحام . وكان ذلك افتراءً على منهج الله وتغييراً لمنهج الحق ، وعلى فرض أنه لا منهج قد وصلهم من الله ، ألم يكن من ضرورة التعقل أن ينظروا فى أمر هذه البدع والضلالات ؟

إن الحق سبحانه وتعالى لم يمنع العقل من أن يصل إلى حقيقة كونية سليمة . ولكن قد يجهد العقل ويتعب بالتجربة الطويلة حتى يصل إلى حقيقة ما . لذلك أراد

سبحانه حماية الناس من شقاء التجارب القاسية فأنزل منهجه ليحدد الحرام من الحلال . قال سبحانه :

﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾

(سورة التوبة)

ويقول فى موضع آخر من القرآن الكريم :

﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا ﴿٢٨﴾ ﴾

(سورة الفتح)

ولقائل أن يقول : لماذا إذن وُجد فى العالم أديان أخرى . كاليهودية والنصرانية ، ولماذا إذن هناك ملاحدة مادام الله قد قرر ألا يوجد مع الإسلام دين آخر ؟

ونقول : أنت لم تفهم مراد الآيتين الكريمتين ، إن الحق سبحانه يقرر مرة أن الدين سيظهر ولو كره المشركون ، ومعنى ذلك أن هناك كافرين ومشركين ، وأهل ديانات أخرى وسيظهر الإسلام عليهم ، ويجعله الله هو السائد بالحجة والبرهان وبشهادة الكافرين والملحدين والوثنيين أنفسهم ؛ لأن أمور الحياة ستتعبهم فى كل قضايا حياتهم ، ولا يجدون حلولاً لهذه المتاعب إلا بأن يذهبوا إلى قضية الإسلام ، لا لأنه إسلام ، ولكن لأن أسلوب وقواعد الإسلام هى التى ستخلصهم من مشكلاتهم ، ولجوؤهم إلى أقضية تتفق مع الإسلام - مع كفرهم بالإسلام - هو شهادة قوية على أن الإسلام جاء دين الفطرة ، ودين العقل ، وأن الكل سيحتاج إليه قهراً عنه . ومن لم يأخذه ديناً فسيضطر إلى أن يأخذه نظاماً .

وإذا كان الحق سبحانه قد ذيل الآية الكريمة التى نحن بصدد خواطرنا الإيمانية عنها بقوله عز وجل : « وأكثرهم لا يعقلون » فلأنه سبحانه ينبهنا إلى أنهم لو تعقلوا الأمر لما جعلوا البحيرة والسائبة والوصيلة والحام من المحرمات عليهم .

ولنا أن نتساءل : أجعلتم هذه الأشياء حراماً تكريماً لها أم زهداً فيها ؟ . فإن كان هو الزهد ، فمعنى ذلك أنهم أخرجوها عما خلق الله ؛ لأن الله خلقها لنأكل لحمها

ونتتفع بها . وإن كان هو التكريم ، فهل من التكريم أن يترك الإنسان الحيوان الذى خدمه دون حماية من ذئب ، ودون طعام يعده له ويتركه يلغ فى أرض الغير ؟ . إن هذا أسلوب يدل على عدم الوفاء للحيوان الذى خدم الإنسان ، ومثل هذا السلوك لا يستبقى حياة هذا الحيوان ، بل يعرضها للخطر ، لهذا يأبى العقل السوىُّ هذا الزهد وذلك التكريم . فإن كان عمرو بن لُحَىٍّ أو غيره قد جاءوا بأشياء وتقاليد لم يجعلها الله ، فعلينا أن نشكر الحق سبحانه لأنه جاء بالإسلام ليعدل من هذه المسائل .

والمدقق للنظر فى آيات القرآن يجدها تمثل برناجماً مطمْئِناً لحياة الإنسان على الأرض ، وكأنها حاسب آلى يضبط إيقاع حركة الإنسان فى الأرض بدقة تتفوق بكل المقاييس على دقة أى حاسب آلى من صنع البشر ، ذلك المسمى « كمبيوتر » . إن هناك « كمبيوتر » إلهياً يهدى الإنسان من أن يضل أو يُضل ، فالسماء تعدل للإنسان سلوكه إن ذهب بعيداً عن الصراط المستقيم . ولا يقولن إنسان : إنما أنا أتبع ما كان عليه آبائى . لأن الحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُوا۟ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾

بل على الإنسان إن يلتفت إلى أن أول تغيير لمنهج الله كان من أحد الآباء الذين أصابتهم الغفلة . وقول الإنسان : إنما أتبع ما كان عليه آبائى ، هو قضية منقوضة ؛ لأن الذى غيّر أول تغيير لم يقل:(حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا) لأنه لم يقلد أباً له ، وأيضا فمن المحتمل أن الآباء لم يعقلوا ما غيروه من منهج الله ولم يهتدوا إلى الحق .

وفى موضع آخر من القرآن الكريم يقول تبارك وتعالى :

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ۗ أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ ﴾

(سورة البقرة)

إن الآية التى نحن بصدد خواطرنا الإيمانية عنها : (وإذا قيل لهم تعالوا) لم يقل الله فيها اتبعوا ولكن قال : (تعالوا) أى ارتفعوا كأنهم انحطوا وتسفّلوا بقولهم : (حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا) إنهم بذلك يرفضون وينكرون كل ما يأتى إليهم من غير طريق تقليد الآباء ، فقد قفلوا الطريق وسدوه على أنفسهم .

أما آية سورة البقرة : (بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا) فيحتمل أن يقولوا : ونتبع كذلك ما جاء به الدين ، فالنكير أشد على من قال : (حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا) .

وعلى هذا فالاستدراك من الله فى كل آية من الآيتين جاء مناسبا لحالهم . كيف ذلك ؟ لأن الذى لا يعقل يمكن أن يعلم عن طريق شخص آخر استخرج واستنبط واكتشف ، فإنه إن فاته التعقل لم يفته أن يأخذ العلم من غيره ، أما الذى لا يعلم فقد باء ورجع بالجهل ؛ لأنه لم يصل إلى العلم بنفسه ، وكذلك لم يتعلم من غيره .

وجاء ـ سبحانه وتعالى ـ بهمزة الإنكار لمسألة اتباع الآباء دون منهج الله . ونلحظ أن الحق جاء بعملية الهداية كأمر مشترك فى الآيتين ، ذلك أن الهداية من السماء ، أما التعقل والعلم فهما عمليتان إنسانيتان .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ۚ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا

﴿ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾

والحق سبحانه قد قال من قبل :

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا ﴾

(من الآية ١٠٤ سورة المائدة)

والقولان يدلان على أن هناك فريقين : فريقا يسير على الضلال ، وفريقا يسير على الهداية . وهناك معركة بين الفريقين . فهل تدوم هذه المعركة طويلاً ؟ نعم ستظل هذه المعركة طويلاً ؛ لأن أهل الضلال لا يحبون أن يحب المؤمن لأخيه ما يحب لنفسه ، وكذلك فهم يستفيدون من فساد الكون .

والمؤمن يحب الطاعة ويحاول أن يجعل أخاه المؤمن مُحباً للطاعة ، فإن رآه على مُنكر فإنه ينهاه عنه ويدفعه إلى المعروف ، فالخير حين يكون من الإنسان ينفع سواه ، وقد يتأجل نفعه هو لنفسه إلى الآخرة . وخير المؤمن يفيد المجتمع ويضر أهل الضلال . وصدق المؤمن يفيد المجتمع ويضر أهل الضلال . ونزاهة المؤمن يستفيد منها المجتمع ، وتضر أهل الضلال . أما إن كان المجتمع فاسداً فالمؤمن يشقى بفساد هذا المجتمع .

إذن فمن مصلحة المؤمن أن يعدى الخير منه إلى سواه ، حتى ينتشر الخير ويعود الخير إلى المؤمن من حركة الخير فى المجتمع . ولذلك قال الحق سبحانه : « عليكم أنفسكم » أى الزموا أنفسكم ، وكأن نفوس المؤمنين وحدة واحدة . وهو تعبير عن ضرورة شيوع الرتابة الإيمانية المتبادلة . ومثل هذا الأمر جاء فى التعامل مع أموال السفهاء ؛ لقد قال الحق :

﴿ وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ ﴾

(من الآية ٥ سورة النساء)

لأن السفيه لا حق له فى إدارة ماله حتى يرشد ؛ لأن المال فى الواقع هو مال كل المسلمين ، وعليهم إدارته لينتفع به كل المسلمين . وتكون إدارة الأمر أولاً بالنصح ،

فإن لم يرتدع السفيه فليرفع عليه أقرب الناس إليه قضية حجر ، ذلك لأن أى شر ينتج من سلوك السفيه بماله إنما يعود على المجتمع ، وعلى هذا فالمال يظل مال الناس يقومون على إدارته إلى أن يعود السفيه إلى رشده فيعود له حق التصرف فى ماله .

﴿ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ﴾

(من الآية ٦ سورة النساء)

لم يقل الحق إذن : « فادفعوا إليهم أموالكم » ذلك أن الرشيد أصبح مأموناً على ماله ؛ لذلك يعود المال إلى السفيه من فور عودته إلى الرشد . وكذلك قول الحق : « عليكم أنفسكم » أى أنكم يا جماعة المؤمنين كل منكم مسئول عن نفسه وعن بقية النفوس المؤمنة ، ومن الهداية أن نقوّم الذى على فساد . ولا يقولنّ مؤمن : « وأنا مالى » . وتتابع الآية « لا يضركم من ضل إذا اهتديتم » فمادمتم قد حاولتم تقويم الفساد فأنتم قد أديتم ما عليكم فى ضوء قول الرسول صلى الله عليه وسلم : « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان »[1] .

ولكن كيف يكون التغيير بالقلب ؟ أى أن يكون تصرف الإنسان المؤمن هو المقاطعة لمن يخرج على منهج الله ، فإن قاطع كلُّ المؤمنين أىَّ خارج على منهج الله فلا بد أن يرتدع ، وعلى المؤمن ألا يقابل منحرفاً أو منحرفة بترحيب أو تعظيم ، فالتغيير بالقلب أن يكون التصرف السلوكى الظاهرى مطابقاً لما فى القلب ، فيحس فاعل المنكر أنه مستهجن من غيره . وقد يستسهل الناس أمور الشر أولاً إذا ما صادفهم من ينافقهم بمجاملات فى غير محلها ، لكن لو استشعر فاعل المنكر أنه مقاطع من جماعة المسلمين وإن لم تضربه على يده ، فلا بد أن يرتدع ، والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾

(من الآية ٦٨ سورة الأنعام)

أى أنك ساعة تعرض عن الذين يخالفون منهج الله ، وساعة يعرض غيرك عنه ، فإن ذلك يؤذيه ، ولا يجعل الناسَ يستشرون فى الشر ويتفاقم ويعظم ضررهم إلا

(١) رواه أحمد ومسلم وأبوداود والترمذى والنسائى وابن ماجه .

احترام المجتمع لهم . والمثال فى القرى نجد أن الذى يمتلك بندقية ينال احتراماً ومجاملات تجعله يتجبر بسلاحه ، ولو أن الناس أعرضت عنه لضاعت هيبته ولعاد مرة أخرى يسلك السلوك الملتزم . وما المقياس فى أمر التغيير بالقلب ومعاملة فاعل المنكر بعدم مودة ومحبة ؟

نقول : علينا أن نستمع إلى قول النبى صلى الله عليه وسلم حين سئل مرة عن هذه الآية : « عليكم أنفسكم » ، فقال : « بل ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر ، حتى إذا رأيت شحاً مطاعاً وهوى متّبعاً ودنيا مُؤثَرة وإعجاب كل ذى رأى برأيه ، فعليك ـ بخاصة نفسك ـ ودع عنك العوامّ فإن من ورائكم أياماً الصابر فيهن مثل القابض على الجمر ، للعامل فيهن مثل أجر خمسين رجلاً يعملون كعملكم »[1] .

وأنت حين لا تُولى منحرفاً عن منهج الله مودة ، ورحمة ، ومعروفاً تكون قد ألزمت نفسك بالإيجابية .

وإذا سأل المؤمن : وكيف يقاوم الإنسان ؟ . أجاب العلماء : من فرّ من اثنين ، فقد فرّ . ومن فرّ من ثلاثة لم يفرّ . أى أن الإنسان فى القتال إن واجهه شخصان ففراره هَربٌ من المواجهة . وأما إن فرّ الإنسان وهو يواجه ثلاثة من الأعداء ، فهذه حماية للنفس وليست فِراراً . واستنبط العلماء هذا الحكم من وعد الله بنصر المؤمنين إن كان أعداؤهم مثليهم أى كعددهم مرتين وذلك من قول الحق تعالى :

﴿ ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾

(سورة الأنفال)

هى إذن نسبة الرجل إلى الرجلين ، فإن فرّ مؤمن من أمام اثنين فى أثناء القتال فقد خرج عن موعود الله بالنصر له ويسمى فاراً ويبوء ويرجع بغضب الله ويكون مآله جهنم ؛ لأن الله قد قال : (فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين) فقد وعد الله المقاتل المؤمن الصابر بالنصر إذا كان يقابل اثنين من الكفار . لكن إن هرب

---

(١) رواه أبو داود والترمذى .

من مواجهة ثلاثة فقد فعل ما يحمى حياته ؛ لأن الدين لا يدعو إلى الانتحار ؛ لذلك نقول لمن يبغون تغيير المنكرات فى الدنيا : لا ترموا بأنفسكم إلى التهلكة ولا تقاتلوا عدوّاً يغلبكم بكثرته . واتبعوا قول النبى الصادق الأمين على استمرار أمته مادامت تتمسك بمنهج الله .

وتغيير المنكر بالقلب يتمثل ـ كما قلنا ـ فى مقاطعة المنحرف مصداقا لقوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم » ونلاحظ أن « على » حرف جر ، والكاف للخطاب ، والميم للجمع ، و« أنفسكم » منصوبة . فعليكم هى « اسم فعل » أى هى ليست اسماً على حقيقته وليست حرفاً على حقيقته ، بل هى حرف دخل على ضمير فأدى مؤدى اسم الفعل ، أو هو اسم فعل منقول من الجار والمجرور .

« عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم » أى الزموها ، وحافظوا عليها ، ومن الهداية أن نعرف كيف نواجه القضايا بالعقيدة الإيمانية ، فينظر المؤمن إلى الكمية العددية للمهتدين ، والكمية العددية للضالين . فإن كانت الكمية العددية مساوية فلتقبل على المواجهة . وإن كانت الكمية الضالة ضعف الكمية المؤمنة فلتُقْبِل الكمية المؤمنة على المواجهة أيضاً . وإن كانت الكمية الضالة أكثر من الضعف فالمؤمن معذور إن حمى نفسه بعدم المواجهة ، ولكن عليه أن يقاطع كل منكر أو فاعلَ المنكر .

كلنا نعرف تماماً أن كل فرد يحب أن تكون له مكانة فى المجتمع . فإن رأى الإنسان أن الصيت و المكانة والذكر الحسن للصادق المستقيم فالإنسان يتجه إلى أن يكون صادقاً مستقيماً . وإن رأى الفرد أن المكانة فى المجتمع تكون للكاذب المنحرف فهو يتجه إلى أن يكون كاذباً منحرفاً ؛ لذلك فعلى المؤمنين ألا يكرّموا إلا من يسير على المنهج الصالح . فقد روى الإمام أحمد قال : قام أبو بكر الصديق رضى الله عنه فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس إنكم تقرأون هذه الآية : (يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم) وإنكم تضعونها على غير موضعها ، وإنى سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول : (إنّ الناس إذا رأوْا المنكر ولا يغيرونه يوشك الله ـ عز وجل ـ أن يعمهم بعقابه) .

« لا يضركم من ضل إذا اهتديتم إلى الله مرجعكم جميعاً » ويطمْئِن الحق المؤمنين إلى أنهم إن قابلوا الضرر فى حياتهم فليعلموا أن هذه الحياة ليست هى كل شيء ، بل هناك حياة أخرى نرجع فيها إلى الله ، فمن كان فى جانب الله أعطاه الله خلوداً أبدياً فى النعيم ، ومن كان ضد منهج الله أعطاه الله عذاب الجحيم . وقال الحق ذلك لأن المؤمن لا يضمن نفسه فى كثير من المواقف ، فقد يدخل معركة وفى نيته الإخلاص لكنه قد ينحرف ، فيصيبه الضرر على قدر ما انحرف .

وعلى الذين يسيرون فى ضوء منهج الله دائماً أن يحتفظوا بتلك القضية فى بؤرة شعورهم . ولنا فى رسول الله صلى الله عليه وسلم الأسوة الحسنة حينما كان فى غزوة أحد ، وأمر الرماة ألا يبرحوا أماكنهم وإن رأوا المؤمنين فى انتصار ورأوا الأعداء فى هزيمة . واتجه الرماة إلى الغنائم من فور أن رأوا انتصار المؤمنين ، فلم ينصرهم الله وهم على مخالفة لرسول الله صلى الله عليه وسلم . وبذلك تعلم المؤمنون الدرس : أن يطيعوا الله والرسول فى كل خطوة .

ولو أن الله سبحانه لم يقل : « إلى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم تعملون » . فماذا يكون موقف الذين لم يشهدوا نصراً لجند الله ، وهم قد دخلوا المعارك الأولى واستشهدوا ؟ . لقد علموا من البداية أن المرجع إلى الله وأنه سيعطيهم حياة أخرى ، وسينبئهم الله بما فعلوا . والإنباء هنا بمعنى الجزاء والتكريم .

وكما ساس الحق حياة المؤمن وهو يتحرك فى الحياة الدنيا ، فإنه سبحانه يسوس حياة المؤمن بما يضمن له الحياة الآخرة فى نعيم الخلد والجنة ، لذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَـٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ ٱثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ

فَأَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةُ ٱلۡمَوۡتِۚ تَحۡبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعۡدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ لَا نَشۡتَرِي بِهِۦ ثَمَنٗا وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰ وَلَا نَكۡتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذٗا لَّمِنَ ٱلۡأٓثِمِينَ ﴿١٠٦﴾

الحق ـ سبحانه ـ كما ساس ودبر حياة المؤمن الدنيوية ، دبر وتولى ـ جل شأنه ـ حياته الأخروية ليلفته إلى أنه يجب عليه ألا ينظر إلى حياته العاجلة فقط ولكن عليه أن يدبر أمر نفسه فيما يستقبله من أمر الحياة الآخرة ، ففى لحظة مواجهة الموت عليه ألا ينسى الوصية إن كان مديناً لأحد أو كان له دين عند أحد . وكذلك إن سافر الإنسان ضرباً فى الأرض فعليه أن يوصي حتى لا يضيِّع على ورثته حقاً لهم ، أو يسدد ما عليه من دين ليبرىء ذمته ، وأن يُشْهِد على وصيته اثنين من المسلمين ، أما إذا كان الإنسان يصاحب فى السفر أناساً غير مسلمين فعليه أيضاً أن يُشهدهم على الوصية ، ولم يترك الحق لنا فى هذا الأمر أى عذر ، بل لا بد من شهادة اثنين .
والشهادة هى الأمر المشهود فى الحاضر ، ومثال ذلك قوله الحق :

﴿ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُ ﴾

(من الآية ١٨٥ سورة البقرة)

أى أن الإنسان إذا حضر الشهر وأدركه فليصم . والشهادة تأتى بمعنى الرؤية مثال ذلك قوله تعالى :

﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجۡلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا مِاْئَةَ جَلۡدَةٖۖ وَلَا تَأۡخُذۡكُم بِهِمَا رَأۡفَةٞ فِي دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ وَلۡيَشۡهَدۡ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٢﴾ ﴾

(سورة النور)

أى أن يحضر مشهد الجلد جماعة من المؤمنين . وتأتى الشهادة أيضاً بمعنى الحكم :

﴿ قَالَ هِيَ رَٰوَدَتۡنِي عَن نَّفۡسِيۚ وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۡ أَهۡلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٖ فَصَدَقَتۡ

وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾

(سورة يوسف)

إذن فالشهادة تأتى بمعانٍ متعددة . والأصل فيها المشهد ، أى الشيء الذى تشاهده . والوصية ـ كما نعلم ـ هى إيصاء بأمر يهم الموصى بالنسبة للموصى إليه . والمؤمن يوصى بالخير . ويسمعه من لا يرث ، أى الذى ليس له شرعاً نصيب فى التركة ، لكن قد يكون لغير الوارث سبب من أسباب المنفعة مع المورِّث . وعلى الرغم من ذلك فالسامع للوصية يبرىء ذمته فيبلغ ما سمع إلى الورثة ؛ لأن الوصية هى مسألة فى نفس المُوصى ، وقد لا يكون لها حيثية عند من يسمعها أو يتلقاها ولكنها ذات حيثية فى نفس الذى يقولها ؛ لذلك يجعل الله الوصية قبل الدين فى قوله الحق :

﴿ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ﴾

(من الآية ١٢ سورة النساء)

إن ذلك يحدث على الرغم من أن الدَّيْن مقدم على الوصية ؛ لأن الدين حق والوصية تبرع . ويريد الحق ذلك ؛ لأن الدين له مُطالِب سيطالب به ، ولكن الموصى إليه قد لا يكون صاحب حق ولكنه يتلقى تبرعاً بالوصية ، أو يكون حقه لدى الموصى غير موثق بصك أو شهادة ؛ لذلك يقدمه الحق سبحانه وتعالى ليجعلنا نهتم بأمر الوصية . أو يكون الذى وصى بشىء قد عاش فى الحياة ويعلم مَنْ مِنَ الناس أثر فى حياته علمياً أو أدبياً أو خلقياً أو اجتماعياً ؛ لذلك يريد الله سبحانه وتعالى ألا يبارح الإنسان الحياة إلا بعد أن يؤدى المؤمن هذا الحق الأريحى لمن كان له عليه يَد فى دنياه . وهذه مسألة قد لا تشغل الورثة ، بل قد يكرهونها . لكن صاحب الوصية هو الذى يعلم حيثياتها .

ولذلك أراد الحق سبحانه وتعالى أن يؤكد أمر الوصية حتى فى الوقت الذى يَعز فيه التأكيد ، فأمر الإنسان أن يوصى بها إن كان بين أهله وقومه ، ويؤكد الحق أهمية الوصية أيضاً إن كان الإنسان مسافراً ، فإن أحس باقتراب الموت فله أن ينادى اثنين من أهل دينه ويوصيهما . وإن لم يجد أحدًا من أهل دينه فليُسْمِع وصيته اثنين من غير أهل دينه ، ولذلك مناسبة :

فقد حدث أن رجلا مسلماً اسمه بديل بن أبي مريم مولى العاص بن وائل السهمي ، كان على سفر مع غير مسلمين وحضرت له مقدمات الموت فكتب ورقة ووضعها مع كل ما معه من متاع ـ احتياطياً ـ ونادى على اثنين من غير المسلمين وهما تميم الداري وعديّ بن بدّاء ، وأوصاهما أن يسلما متاعه لأهله ، ومات الرجل . لكنّ الاثنين فتحا المتاع ووجدا فيه إناءً مفضضاً ومُذَهّبا وله قيمة ، فأخذاه وباعاه بألف درهم واقتسما المبلغ ، وسلما المتاع لأهل الميت الذين عثروا على الورقة المكتوب فيها كل التفاصيل بما فيها خبر الإناء الثمين . وسأل أهل الميت الشخصين اللذين سلما المتاع عن الإناء فأنكرا أي معرفة به ، وأنكرا أيضا أنهما رأيا صاحب الإناء يبيعه . وبعد فترة عثر أهل الميت على الإناء معروضاً للبيع . وعرفوا أن البيع الأول كان من الشخصين اللذين حضرا موت صاحب الإناء . فذهب أهل الميت إلى رسول الله يعرضون عليه مسألة خيانة الأمانة في أمر الوصية ، فنزل قوله الحق :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَـٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ ٱثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَأَصَـٰبَتْكُم مُّصِيبَةُ ٱلْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِى بِهِۦ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلَا نَكْتُمُ شَهَـٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلْـَٔاثِمِينَ ﴿١٠٦﴾ ﴾

(سورة المائدة)

إنه أمر من الله لرسوله أن يحضر هذان الاثنان من بعد أن يؤديا صلوات دينهما وأن يقسما بالله ، وأن يأتي أهل الميت ومعهم الورقة وليكشف الرسول الحق من الباطل . وقد أسلم تميم الداري من بعد ذلك وقص القصة وأحضر الخمسمائة درهم التي كانت في ذمته والتي أخذها ثمنا لنصف الإناء وأحضر الخمسمائة درهم الأخرى التي عند عدي ليردا ثمن الإناء كله إلى أهل الميت .

ولماذا قال الله : « تحبسونهما من بعد الصلاة » ؟ إنه أمر بأن نحتجزهم من بعد الصلاة ؛ لأن الإنسان عادة بعد أن يؤدي الصلاة سواء أكان من أهل الكتاب أم من غيرهم تصفو نفسه بالاستعداد للصدق بعد أن وقف بين يدي الله ، ويكون في هذه الحالة أقل اجتراءً على الكذب ؛ لذلك يقول الحق سبحانه : « يا أيها الذين آمنوا

شهادة بينكم » . أى الشهادة التى يختلف فيها الناس وتختلف فيها الأقوال بين طرفين ، ذلك أن كلمة « بين » تعنى انفصال كائنين فيصير كل منهما طرفاً .

إن هذه الشهادة تحتاج إلى الفصل بين وجهتى النظر . والذى يقوم بهذا الفصل هو من يستجوب الاثنين اللذين من ذوى العدل من المسلمين أو من غير المسلمين ، ويتم الاستجواب من بعد أداء الصلاة . فإن صار الأمر الذى شهدا فيه واضحاً ، كان بها . وإن لم يكن قولهما واضح الصدق وفيه شك وريبة ، فعلى الشاهدين أن يقسما بالله أنهما لا يشتريان بآيات الله ثمنا حتى لا يكونا من الآثمين .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْأَوْلَيَـٰنِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَـٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَـٰدَتِهِمَا وَمَا ٱعْتَدَيْنَآ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾

فإن ظهر أن الشاهدين قد حرفا وصية الميت أو أخفيا بالكذب بعضاً من تفاصيلها ، فلنا أن نستدعى اثنين من أقرب الناس للميت فيقسمان بالله أن الشاهدين السابقين قد كذبا فى الشهادة ، وأن هذا الاتهام بالكذب ليس افتراءً ولكنه قائم على الحقيقة ، ولو ظهر أن شهادتهما فيها كذب فهما المستحقان لعقاب من يظلم غيره .

وبذلك يفسح الحق لنا المجال أمام إقامة العدل بأن نستقصى الصدق ، فإن ظهر لنا بدليل ما كذب الشاهدين اللذين حضرا موت صاحب الوصية ، فلنأت بشاهدين

من أولياء الميت بدلا منهما . وكلمة « عثر » تعنى الوقوع على شيء على غير قصد . فإن عرفنا أن الإثم ظاهر من شهادة هذين الشاهدين ، فلنا أن نستقصى الصدق فى شهادة اثنين غيرهما من أهل الميت .

وفى الواقعة التى نزلت فيها الآية ، قام عمرو بن العاص والمطلب بن أبى وداعة السهمى فأقسما بالله أن الشاهدين السابقين قد كذبا وأن الشهادة التى يقدمانها هى شهادة الحق لا اعتداء ولا جور فيها على أصحاب الشهادة الأولى . ولماذا كل ذلك ؟ لأن الهدف هو أن تأتى الشهادة على الوجه الصحيح لها ، فيقول الحق :

﴿ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ أَوْ يَخَافُوٓا۟ أَن تُرَدَّ أَيْمَٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْمَعُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾

إن الشهود الأُوَل الذين قدموا الشهادة لأنهم حضروا لحظة الوصية عندما قالها الميت يقدمون شهادتهم بعد أن يؤدوا الصلاة وبعد أن يقسموا أن ما يقولونه هو الحق . ولا بد لهم أن يحرصوا على صدق القول بدلاً من أن يفتضح أمر كذبهم . والشهادة كما نعرف تطلق على أى أمر نحضره . والشهادة ـ كما نعلم ـ تطلق على متلازمات متعددة يجمعها كلها كلمة « الحضور » كقوله الحق :

﴿ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ ﴾

(الآية ٢٧ وجزء من الآية ٢٨ سورة الحج)

أى أن نداء الحج يسمعه الناس فيأتون من كل مكان وعلى كل وسائل النقل وقد تكون صعبة حتى يشهدوا منافع لهم . وسبحانه وتعالى يقول :

﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾

(من الآية ١٨ سورة آل عمران)

وشهادة الله هى حكم من الله . والملائكة أيضاً تشهد ، وشهادتهم هى شهادة الإقرار . وكل ذلك ناشىء من أمر حاضر يستقرئه الشاهد . ونحن نرى الشاهد يقف أمام المحكمة ، فتسأله النيابة فيقول ما رأى ، ويسأله محامى الخصم فيقول ما رأى ، ويسأله محامى الدفاع فيقول ما رأى . ومادام الشاهد صادقاً فلن يخشى محاورة أى طرف يسأله . والأطراف التى تسأل الشاهد تطلب منه أن يأتى بالواقعة على أساليب مختلفة . ومادامت الواقعة صادقة تظل كما هى مهما تنوعت الأسئلة وتغيرت الأساليب ؛ لأن الشاهد الصادق يستوحى واقعاً لا يتغير ، أما الشاهد الكاذب فهو يلف ويدور ويغير من أقواله . ولهذا نرى وكيل النيابة اللبق الحاذق يبحث فى ذاكرة الشاهد عن أدق الخفايا .

وهكذا نعرف أن الشهادة تطلق على الحضور . أما إذا كان الشاهد هو الذى يملك الحكم فشهادته حكم . ومثال ذلك قول الحق سبحانه : « شهد الله » . إن الله يشهد أى يحكم .

وفى قصة سيدنا يوسف عليه السلام نرى كيف أوقع الحق بإخوة يوسف عندما أخذوا أخا يوسف الصغير معهم فى الرحلة إلى مصر . وكيف دبر يوسف لهم أمراً ليحتجز أخاه معه . وكيف كان الصراع بين إخوة يوسف خوفاً على أبيهم بعد حجز الأخ الصغير . فيقول لهم شقيقهم الأكبر كما أخبر القرآن الكريم :

﴿ ٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾

(سورة يوسف)

ونعرف أن إخوة يوسف كذبوا فى المرة الأولى عندما فعلوا فعلتهم الشنعاء ضد يوسف لكنهم صدقوا فى المرة الثانية التى احتجز فيها شقيق يوسف . ولذلك طلبوا أن يسأل والدهم إما أهل القرية التى كانوا بها وإما رفاقهم فى القافلة .

لقد أُخبروا أن أخاهم قد استخرج من وعائه بعض من أدوات الملك وهو الصواع الذى كان يكال به ولهذا جاءت شهادتهم هذه المرة مطابقة للواقع ، وهو ما أخبروا به .

إذن فالشهادة هى الفيصل فى التنازع . ولذلك يوصى النبى صلى الله عليه وسلم ألا يشهد الرجل على أمرٍ إلا بعد أن يكون قد رآه رأى العين ، كما يرى الشمس : « على مثلها فاشهد أو فدعْ »[1] .

الحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ ۝٧٠ ﴾

(سورة آل عمران)

وهكذا نعلم أن الشهادة كلها تدور حول الحضور والشهود . ولهذا تأتى الشهادة فى لوازم متعددة ، فهى مرة تعنى الحضور ، وهى مرة تأتى بمعنى الحكم ، وثالثة بمعنى الإقرار . وكلها معانٍ ملتقية .

والشهادة تتطلب أمرين : الأول هو حضور الشاهد لحظة وقوع المشهود به ، والثانى هو أمانة النقل ، ولذلك جعل الله فى بعض الأحكام شهادة اثنتين من النساء تعدل شهادة رجل واحد . وقد يقول قائل : كيف يساوى الإسلام بين شهادة رجل جاهل أو أمى وشهادة امرأتين قد تكون كل منهما على درجة عالية من الثقافة والعلم ؟

ونقول : إن المسألة فى الشهادة ليست عمل عقلٍ ، ولكنها أمانة نقل ، وأمانة النقل لا شأن لها بالثقافة ، فالشهادة تحتاج إلى حضور الحادثة ، ثم إن المرأة يكون دائما أمرها مبنياً على الستر وعدم التهجم على الرجال . فقد تقع حادثة وتوجد امرأة بجانب هذه الحادثة ، وبطبيعة الحال لن تتجاسر وتتقدم وتسأل لمعرفة كل التفاصيل ، على العكس من الرجل الذى يرى الحادثة ، فيحاول أن يعرف كل

(١) رواه الديلمى والطبرانى عن ابن عمر ، قال النجم : أورده الرافعى أن النبى صلى الله عليه وسلم سئل عن الشهادة ؟ فقال للسائل : ترى الشمس ؟ قال : نعم . قال : على مثلها فاشهد أو فدَعْ . وقال الحاكم والبيهقى عن ابن عباس ـ مرفوعا ـ : « إذا علمت مثل الشمس فاشهد وإلا فدَعْ » .

ما جرى . وحين أراد الحق الشهادة من امرأتين ، لم يطلب ذلك لضعف الثقة فى المرأة أو زيادة الثقة فى الرجل ، ولكن لأن الشهادة ليست ابتكار عقل ولكنها حضور مشهد وأمانة نقل .

إن البعض يحاول أن يروج لمثل هذه القضايا وكأنها وسيلة للتهجم على بعض من الداعين لله ، ولذلك أقول لهم : يجب أن يفهم الإنسان منكم الفارق بين عداوته مع بعض الداعين إلى الله وأن يتعدى حدوده إلى أن يحاد الله ؛ لأن الإنسان منهم لا يرد الحكم على الداعية ، وإنما يرد الحكم على الله .

وأمر الحق سبحانه فى شهادة اثنين من الرجال أن يؤديا الصلاة ، ثم يتم حبسهما لفترة ، وبعد ذلك يتم استدعاؤهما للشهادة ، فإن رد أهل الميت شهادتهما فى أمر الوصية فيتم استدعاء اثنين من أولياء الميت لأداء الشهادة فى شأن الوصية ، كل ذلك لماذا ؟ من أجل أن تأتى الشهادة على وجهها الصحيح الذى يُظهر كلَّ الحقيقة .

ويذيل الحق القول الكريم : « واتقوا الله واسمعوا والله لا يهدى القوم الفاسقين » وذلك بلاغ للمؤمنين كافة وإلى الناس عامة ؛ لأن الله لا يهدى إلا من تطامن إلى منهج الله ، أما من يفسق فلن يعينه الله ، ذلك أن الله لا يعين كافراً ولا ظالماً ولا فاسقاً . أما من آمن بالله ، فالحق سبحانه وتعالى يعينه على هذا المنهج ويهديه إلى الصراط المستقيم .

ولماذا أنزل الله هذه الآيات بعد أن أجرى الأحداث التى تتطلبها ؟نعرف أن الحكم إن نزل فى ظرف يتطلبه ، تكون النفس إليه أشوق وبه أعلق ، مثال ذلك : كوب الماء الذى يتناوله العطشان ، إنه يتناوله بشوق ولهفة . عكس الإنسان الذى يتناول كوب الماء وهو غير عطشان ، فقد يضعه فى مكان قريب منه دون أن يشربه ، وكذلك الدواء الذى يُؤتى به للمريض لحظة معاناته القصوى من المرض ، إنه يقبل عليه بلهفة مهما كان مر الطعم ، وهكذا جاءت بعض أحكام القرآن مناسبة لأحداث وقعت لتكون اللهفة على التطبيق موجودة فى النفوس المؤمنة .

ويقول الحق تعالى من بعد ذلك :

﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾ ﴾

وينبهنا الحق سبحانه هنا إلى ضرورة أن نستعد لليوم الذى يجمع الله فيه الرسل يوم الحساب ، أى أننا علينا أن نراعى الالتزام فى تكاليف المكلف الأعلى فى كل عمل من أعمال الحياة ؛ لأنه سبحانه سوف يسأل الرسل فى ذلك اليوم : « ماذا أجبتم » ؟ أى كيف استجاب الناس إلى المنهج الذى دعوتم إليه ؟ وفى هذا تقريع لمن خالف الرسل . ونعلم أن الحق سبحانه وتعالى قد قال :

﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ ﴾

(سورة النساء)

ونعلم ـ كذلك ـ أن يوم المشهد الأعظم سيأتى رسولنا ـ صلى الله عليه وسلم ـ شهيداً على أمته وعلى كل الرسل السابقين عليه ، ومثال ذلك فى حياتنا ـ ولله المثل الأعلى ـ نجد الأهل ينتظرون الابن على باب لجنة الامتحان ويسألونه : كيف أجبت ؟ .

إن الأهل يطلبون من الابن أن يعطيهم تقدير الموقف إجمالياً . أما إن سألوه بماذا أجبت ؟ فمعنى هذا أنهم يطلبون منه أن يحكى لهم ماذا أجاب تفصيلياً عن كل سؤال . وسؤال الحق لرسله : « ماذا أجبتم » فى الظاهر هذا سؤال للرسل ، وفى الحق إنه للمخالفين ، وكأن هذا تقريع لمن لم يؤمنوا برسالات الرسل ، ذلك أن مهمة الرسل هى البلاغ عن الله .

وبماذا يجيب الرسل يومئذ عن الله ؟ هم يجيبون الإجابة الدقيقة المتضمنة لكل أدب الإيمان : « لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب » ونجد من يتساءل : كيف ـ إذن ـ يقولون : « لا علم لنا » على الرغم من أن هناك من استجاب لدعوتهم ومن لم يستجب لها ؟ ونقول : لأن الآخرة فيها حساب على نوايا القلوب والسرائر ، لقد علم الرسل بالأمور العلنية من أقوال وسلوك ، ولكن الحق يحاسب على حسب النية

والسلوك ، وهو سبحانه الأعلم بالسرائر وما تخفى الضمائر ، وأيضا فالأنبياء قد علموا الذين آمنوا بالمنهج وكانوا معاصرين لهم ، ولكن ليس لهم علم بمن كفر أو آمن بعد أزمنتهم ، وإجابة الرسل هى قمة الأدب مع الله ، ذلك لأن كلا منهم قد علم أن معرفة الله شاملة وعلمه قد وسع كل شيء ، ولذلك جاء قولهم : « إنك أنت علام الغيوب » .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِي ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِي ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾ ﴾

لماذا إذن يجمع الله كل الرسل ويسألهم سؤالاً على الإجمال ، ثم لماذا يأتى بعيسى ابن مريم ليسأله سؤالاً خاصاً عن حادثة مخصوصة ؟

أزاد الحق بذلك أن يعلمنا أنه سيسأل الرسل سؤالاً يوضح لنا أدب الرسل مع الحق ، ويبين لنا تقريع الحق لمن كفروا بالمنهج ، أما سؤاله سبحانه وتعالى لعيسى ابن مريم ، ذلك السؤال الخاص عن الحادثة المخصوصة ، فمرد ذلك إلى أن بعض الذين آمنوا به قد وضعوه فى موضع الألوهية أو بنوّة الألوهية ، وفى ذلك تعدٍ على التنزيه المطلق للحق سبحانه وتعالى . ونعلم أن قصارى ما صنعت الأمم السابقة أن بعضهم كفر بالرسل ، وبعضهم كذب الرسل ، لكن لم يدع أحد من هذه الأمم أن الرسول الذى جاء هو إله ، لم يقل ذلك أحد وإن كان بعض فرق اليهود قد قالوا : إن عزيرا هو ابن الله وهذه الفرقة قد انقرضت ولم يبق يهودى يقول ذلك ، وسبحانه قد جعل الشرك به قمة الكفر الذى لا غفران له .

(من الآية ٤٨ سورة النساء)

فكأن عيسى عليه السلام سيواجه السؤال ضمن الرسل ، ثم يسأله الحق سؤالاً خاصاً به . ويقدم الحق السؤال لعيسى ابن مريم بعد أن ذكّره بعدد من النعم التى أنعم بها سبحانه وتعالى عليه وعلى أمه مريم عليه وعليها السلام :

﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾ ﴾

(سورة المائدة)

ونجد هنا أن الحق سبحانه وتعالى يعدد بعضاً من نعمه على سيدنا عيسى وهى : التأييد بروح القدس وهو سيدنا جبريل عليه السلام ، والكلام فى المهد بما يبرىء أم عيسى السيدة مريم عليها السلام مما ألصقوه بها من اتهامات ، وتعليم الحق له

الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل . وأنه سبحانه قد أقدره على أن يصنع من الطين كصورة الطير بإذن منه سبحانه وأن ينفخ فيه فيصير طيراً بإذنه سبحانه ، وكذلك أقدره الحق سبحانه أن يبرىء الأعمى من العمى . وأن يعيد إلى الأبرص لون جلده الطبيعي ويشفيه ، وأجرى على يديه تجربة إعادة الموتى إلى الحياة بإذن منه سبحانه ، وكذلك منع الحق عن عيسى ابن مريم كيد اليهود وكف أيدى الذين أرادوا صلبه وقتله على الرغم من أنه جاء لهم بالمعجزات السابقة حتى يؤمنوا فآمن بعض منهم وكفر الذى قال : عن تلك المعجزات : إنها مجرد سحر .

وعندما نتأمل بالخواطر أمراً واحداً من تلك الأمور نجد أن قدرة الحق سبحانه وتعالى لها تمام الوضوح الظاهر ، فمجرد كلام عيسى فى المهد هو معجزة ، والمهد - كما نعلم - هو الفراش المريح للطفل يعده له الأهل ساعة أن يولد ؛ لأن الطفل لا قدرة له على أن يتزحزح من مكانه إن كان هناك شىء بارز فى مهده يضايقه ؛ لأن الطفل يملك الحس ولكن لا قدرة له على مدافعة ما يتطلبه الحس .

إن الطفل المولود لا يستطيع مثلا أن يمد يده ليزيل الحصوة الناتئة من الأرض تحت المهد لذا يمهدون فراشه ويوطئونه له . إنه مجرد روح فى جسد صغير لا حول ولا قوة له إلا استبقاء الحياة بالتعلق بثدى الأم ، فإن تكلم طفل فى المهد ، فمعنى ذلك أنه امتلك إرادة يسيطر بها على كل جسمه إلى الدرجة التى يمكنه أن ينطق بها الكلام ، وهذا لا يحدث أبداً . ونجد الأهل يمهدون الفراش للطفل ، لأنهم يعلمون أن أقصى تعبير عن الانفعال هو أن يبكى . وإذا ما تمكنت حشرة صغيرة من لدغ الطفل كالبرغوث أو البعوضة فالطفل لا يملك إلا البكاء .

وقد تكلم عيسى فى المهد بعد أن أقدره الحق على ذلك . ثم جاء الحق بحقيقة هى المقابل للمهد وهى الكلام فى الكهولة . فإن كان قد تكلم فى المهد إعجازاً ليبرىء أمه البتول فإنه سوف يتكلم كهلًا مبلغاً عن الله . ولم يتكلم عيسى ابن مريم وهو فى المهد إلا بما قاله الحق فى القرآن الكريم :

﴿ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَـٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَـٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا

﴿ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ﴾

(سورة مريم)

قال عيسى عليه السلام فى المهد هذه الكلمات ليبرىء أمه الصدِّيقة ، ذلك أنهم اتهموها فى أعز شىء لديها ، ولذلك لم يكن ليجدى أى كلام منها . وإنقاذاً لها أبلغها الحق عن طريق جبريل أو عيسى عليهما السلام أن تقول :

﴿ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴾

(من الآية ٢٦ سورة مريم)

وسبحانه وتعالى يعلم أن ميلاد عيسى من أم لم يمسسها رجل هو خرق لناموس الكون فى الحمل ، وكذلك أراد الحق أن يكون هناك خرق للناموس فى الكلام فيتكلم عيسى فى المهد بكلام معجز له معنى . وعلمه الحق الكتاب : « وإذ علمتك الكتاب » أى علمه الله الكتابة ، وعلمه التوراة ، وأنزل عليه الإنجيل ، وألهمه الحكمة وهى الكلام المحكم الصواب بإلهامات الله ومقابلها فى الإسلام أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم .

وجاءت دقة الأداء القرآنى لتمنع أى تصور لتدخلٍ من ذات عيسى فيما أجراه الله على يديه وذلك منعاً للفتنة فقال الحق : « وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير » إذن فعيسى لا يخلق الطير ولكن يصنع من الطين مثل هيئة الطير ، فالحق وحده هو الذى يخلق الطير ؛ فلأنه الإله فهو الذى يخلق خلقاً عاماً ، أما البشر فبإمكانهم أن يخلقوا أشياء ويشكلوها كمثل المخلوقات ، لكنها ليست مخلوقات .

إننا نرى ذلك فى التماثيل التى ينحتها المثّال من الصخر أو يشكلها من الطين كهيئة الجمل أو العصفور ، لكنه لا يملك أن ينفخ فيه الروح ، وقد يخترع الإنسان أشياء مثل الكوب من الرمل المصهور المنقى ، لكننا لم نسمع عن خلق كوب ذكر وكوب أنثى ليتوالد من الإثنين نسل من الأكواب !

إننا نرى دائماً أن خلق الإنسان لشىء إنما يظل معقوداً على حاله فلا ينسل ولا ينمو ولا يحس ، والخالق الأعظم يخلق من عدم ، أما أنت أيها الإنسان فتصنع أشياء مما

وهبك الله من أشياء موجودة مطمورة فى الأرض أو ظاهرة . ولم يضن سبحانه عليك بل أطلق عليك بأنك خلقت ، ولكن لتنتبه إلى أنه سبحانه وتعالى أحسن الخالقين .

إذن فعيسى صَنَع من الطين مثل هيئة الطير ، وكان ذلك بإذن من الله ، ونفخ فيه فكان طيرا بإذن الله.والفارق بين قدرة الحادث وهو العبد ، وقدرة الباقى القدير وهو الرب أمران . الأول : أن الحق سبحانه وتعالى حينما يقدر أمرا فهو يستطيعه بطلاقة قدرته أن يُقدر بعضًا من خلقه على أن يفعل الشيء ، لكن العبد لا يستطيع أن يقدر عبداً آخر أن يصنع شيئاً مثل الذى يصنعه .

والمثال على ذلك : نجد الطفل إن أراد أن يحمل كرسياً فهو لا يقدر ، ويأتى شاب قوى ليحملَ الكرسى للطفل ، هذا الشاب إنما يعدى أثر قوته إلى الطفل ولم يُعَدِّ لَهُ قوته ولم ينقلها له ، ويبقى الطفل ضعيفا كما هو ، أما الحق سبحانه وتعالى فهو يُقْدِرُ من يريد على ما يريد . فبعظمته سبحانه يعدى من قدرته إلى من لا يقدر لِيَقْدر . والعظمة إذن فيما فعل المسيح هى أن الحق سبحانه أراد له أن يحيى فنفخ فى الطين فصار طيراً بإذن الله . وقدْ سبق سيدنا إبراهيم سيدنا عيسى فى ذلك عندما سأل الله :

﴿ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَىٰ ﴾

(من الآية ٢٦٠ سورة البقرة)

فسأله الله :

﴿ أَوَلَمْ تُؤْمِن ﴾

(من الآية ٢٦٠ سورة البقرة)

فقال إبراهيم : « بلى » أى أنه آمن ، وأضاف :

﴿ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾

(من الآية ٢٦٠ سورة البقرة)

والكلام هنا جهته منفكة ، فإبراهيم قد آمن ، والإيمان اطمئنان القلب إلى عقيدة ما ، وما جرى زاد إبراهيم تيقناً . ولم يسأل إبراهيم ربه : أتحيى الموتى ولكن إبراهيم أقر أولاً بقدرة الحق على الإحياء وتساءل عن الكيفية . وطلب الكيفية لا شأن له

بالإيمان ؛ لأن الكيفية تتطلب تجربة . فأمره الحق أن يأتى بأربعة من الطير وضمها إليه ليتعرف عليها جيداً . وأن يقطعها إبراهيم بيديه ويضع كل قطعة على جبل ويناديها ، فتأتى القطع بنداء إبراهيم وقد صارت هى الطير نَفْسَهَا التى كانت من قبل .

وهكذا أراد الله لعيسى عليه السلام أن يصنع من الطين مثل هيئة الطير بإذن الله وأن ينفخ فيها بإذن الله فيصير الطين طيراً . وأراد الله لعيسى أن يبرىء الأكمه أى الذى ولد أعمى . وقد يقول قائل : إن فى عصرنا يتم ترقيع القرنية ويمكن أن يَرَى ويبصر بعض من الذين ولدوا بلا قدرة على الإبصار . ونقول : إن ما يحدث فى عصرنا هو سبق وتقدم علم بناء على تجارب ، أما ما حدث مع عيسى فكان خرقاً للناموس وأراده الله معجزة . وكذلك أراد الله أن يجرى على عيسى شفاء الأبرص أى الذى أصابه بياض كالرقع فى بشرته . وكذلك كف بنى إسرائيل عنه عندما أرادوا إيذاءه وقتله . وعندما رأوا كل ذلك آمن بعضهم ، وكفر البعض واتهموا عيسى عليه السلام بأنه ساحر . وكان ذلك منهم كذبا وافتراء عليه ؛ لأنه نبى مرسل بمعجزات واضحة .

وفى هذه الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها نجد الحق سبحانه وتعالى يسرد نعمه على سيدنا عيسى عليه السلام . وسرد النعمة على الرسول ليس المقصود منه تنبيه الرسول إلى النعمة ، فالرسول يعلم النعم جيداً لأنها جرت عليه ، ولكنه تقريع لمن رأى هذه الأحداث والنعم ولم يلتزم الإيمان بالله بعدها ، وقد أجرى سبحانه كل هذه النعم على عيسى عليه السلام وأيده الله بما يقوى ويزكى رسالته إلى قومه . فكانت نعمة أولاً عليه ، لأنه مصطفى ، مختار ، مؤيد . ونلحظ أن هذه الآيات والنعم تنقسم إلى قسمين : قسم يقنع أصحاب العقول والألباب والفكر والمواجيد النفسية . وقسم يقنع القوم الماديين الذين لا يؤمنون بملكوت الله فى غيب الله . والقسم الأول الذى يقنع أصحاب العقول والألباب هو تعليم الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل .

والقسم الثانى الذى يقنع الماديين هو الأمور المادية الحسية التى يتعرف من يراها على أنها لا يمكن أن تجرى على يد بشر ، كأن يخلق من الطين كهيئة الطير ثم ينفخ فيه

فيكون طيراً ، وإحياء الموتى ، وإبراء الأكمه والأبرص . وهذه الآيات خرق للناموس المادى ، ولذلك يتبع الحق كل واحدة منها بذكر كلمة : « بإذنى » أى أن هذه المعجزات لم تكن لتحدث لو لم يأذن بها الله . ولم يذكر الحق ذلك بالنسبة للآيات الأخرى لأنها أمرٌ ظاهر ومعروف ، حتى يكون الأمر واضحاً أمام كل إنسان ممن يحبون عيسى ويرتفعون به إلى مقام أعلى من مقام النبوة المؤيدة ممن أرسله . وحتى لا يخدع قوم عيسى فى هذه الآيات ويظنوها مزية مطلقة له ، ولكنها مجرد آيات معجزات لإثبات صدق الرسالة عن الله .

إن عيسى عليه السلام حينما أخذ كل قطعة من الطين ليصور منها طيراً وينفخ فيها فتكون طيراً لم يفعل ذلك بقدرته وإرادته ، وإنما حدث ذلك بإذن من الله ، ولم يحترف عيسى تلك المسألة ، وكذلك كان إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله ، وكل ذلك خرق لناموس المادة ، لذلك كرر الحق القول بأن هذا الخرق كان بإذن منه سبحانه حتى نعرف أن عيسى لم يأخذ من قدرة الله طلاقة له بل انحصر الأمر فى هذه المسائل التى أذن الله فيها فقط .

إننا نجد أن كل خرق لناموس الغيب عند الأنبياء أو الأولياء ، أو من يعطيهم الله هذه الإشراقية ، هذا الخرق إنما هو لتكريم النبى أو الولى أو الذى تشرق عليه فيوضات الله ، وعلينا أن نعرف أن الله لم يعط إنساناً واحداً القدرة على العلم بالغيب مطلقاً ، إنما يطلع الحق بعضاً من خلقه بهبة من تجلياته على شىء جزئى . فالحق سبحانه وتعالى هو مالك الغيب :

﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ﴾

(من الآية ٥٩ سورة الأنعام)

ولم نر إنساناً علاماً للغيب ولكن يُعْلِمُهُ الله بغيب من بعض غيبه ، حتى نعلم أنها أحداث وقتية يتجلى الله فيها بفضله ، ليثبت حالة من الحالات ، ثم يظل الإنسان مع الناموس العام فى كون الله . والناموس الكونى هو الأمور والقوانين التى أطلقها الله فى الكون لتعمل لخدمة المؤمن والكافر والطائع والعاصى . ومثال ذلك شروق الشمس وغروبها ، وحركة السحاب حاملاً المطر ، ووجود الأرض بعناصرها القابلة للزراعة . وخرق الناموس يكون بإذن من الله للرسل والأنبياء والأولياء ؛ إننا نجد

كل ذلك آيات من الحق لإثبات صدق الرسول فى البلاغ عنه ، وهذا الإثبات مشروط بشروط : أولها أن يكون النبوغ قد بلغ درجة قصوى فى هذا المجال الذى تحدث فيه تلك المعجزة ، والمثال على ذلك : خرق الحق سبحانه لناموس العصا وهى فرع من شجرة وجعل موسى عليه السلام يلقيها فإذا هى حية تسعى . وما أجراه الله على عصا موسى لم يكن سحراً ولكنه نقلها من جنس إلى جنس فى عصر نبغ فيه الناس فى السحر ، ونعلم أن موسى أنس إلى ربه فقال وأطنب وأسهب وأطال :

﴿ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي ﴾

(من الآية ١٨ سورة طه)

وعرف موسى من بعد مقام الأنس والانجذاب مقامَ الخشية فأوجز قائلاً :

﴿ وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ﴾

(من الآية ١٨ سورة طه)

لقد عرف موسى عليه السلام أنه يخاطب مولاه فأطال الأنس ، به وعرف أيضاً مراعاة المقامات وانتقل من الانجذاب والأنس إلى مقام الرهبة فقال : (ولى فيها مآرب أخرى) .

وجاء الأمر بإلقاء العصا :

﴿ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴾

(من الآية ١٩ سورة طه)

وهنا خرجت العصا عن ناموسها الذى يعلمه موسى عليه السلام فلم تعد للتوكؤ والهش على الغنم ، ولكنها تنتقل من جنس الخشب إلى جنس الحيوان فتصير حيّة :

﴿ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ ﴾

(سورة طه)

ولذلك كان لا بد أن تُدهش المسألةُ موسى عليه السلام ، لذلك أوجس خيفة .

ولكن موسى عندما عرف سرّ عصاه لم يوجس خيفة بل تحدى السحرة الذين جاء بهم فرعون فى يوم الزينة ، وعرف موسى أنه ليس بساحر مثلهم ولكن الله أتاه معجزة

ستبهر حتى السحرة ، فالسحرة يعلمون أن عملهم تخييل وليس تغييراً للأشياء ، أما الحق فهو يغير الأشياء نفسها . لقد جاء السحرة بناء على أمر فرعون إلى يوم الزينة ، ويعلمنا القرآن بلمحات جانبية أن نظام السخرة كان موجوداً ، ولذلك طالب السحرة بأجرهم إن هم غلبوا موسى :

﴿ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَـٰلِبِينَ ﴾

(من الآية ١١٣ سورة الأعراف)

وعلى الرغم من اختلاف مواهب هؤلاء السحرة ورقى كل منهم فى فرع من فروع السحر ، إلا أنهم جميعاً سجدوا للحقيقة عندما ألقى موسى عصاه وقالوا :

﴿ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾

(سورة الشعراء)

وهكذا عرفوا أن ما فعله موسى ليس قدرة بشرية ولكنه قدرة فوق قدرة البشر . إنها المعجزة التى يجريها الله على يد الرسل لإثبات صدقهم فى إدعائهم أنهم رسل من الله . وكذلك نبغ قوم عيسى عليه السلام فى الطب . ولم يجرؤ أحدهم على أن يشفى بكلمة واحدة الأكمه والأبرص أو أن يخرج الميت من موته إلى الحياة . وعلى الرغم من تقدمهم فى الطب لم يستطع أحدهم أن يفعل ذلك . والحق سبحانه يسهل المعجزات على رسله ، والمثال فى الإسلام هو الإسراء برسولنا ونبينا صلى الله عليه وسلم ، وحَدَثَ الإسراء فى لمح البصر ، ونحن فى زماننا نرى التقدم الآلى والفنى قد اخترع الصواريخ التى يمكن أن تختصر الوقت لمثل الرحلة من مكة إلى القدس ولكنها تمت بوساطة آلة تعمل وبأجهزة أعدت بنظام دقيق بعد تجارب مضنية ، ولكن الحق عندما أراد لم يكن الأمر سوى كلمة منه تصير معجزة فى التو واللحظة . ولنحفظ ذلك جيداً : إن المعجزة خرق اقتدار لا سبق ابتكار أى أنها خرق لنواميس الكون حادث من اقتدار المقتدر - سبحانه - ولم يحدث ذلك من ابتكار واختراع واكتشاف مكتشف .

ويُسلّى سبحانه عيسى عليه السلام بذكر هذه البينات ، لكنَّ الكافرين من قوم عيسى عليه السلام قالوا إنها سحر : « فقال الذين كفروا منهم إن هذا إلا سحر مبين » . ونعلم أن الحق خلق الخلق وجعل الإيمان أمراً فطرياً فيهم ، ثم تأتى الغفلة فتبهت جزئية من جزئيات الإيمان ، وتتلوها غفلة أخرى فتبهت جزئية أخرى ، وتأتى غفلة ثالثة فتصير إلى الران وهو ما يغطى القلب فلا تنفذ إليه الهداية ، وذلك بسبب

ما كسبوا وفعلوا من الذنوب : « كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون » .

ولنستمع إلى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الذى رواه حذيفة :

« حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثين قد رأيت أحدهما وأنا أنتظر الآخر . حدثنا أن الأمانة نزلت فى جذر قلوب الرجال ، ثم نزل القرآن فعلموا من القرآن وعلموا من السنة ، ثم حدثنا عن رفع الأمانة قال : ينام الرجل النومة فتقبض الأمانة من قلبه فيظل أثرها مثل الوَكْت (أى الأثر اليسير من الشىء) ثم ينام النومة فتقبض الأمانة من قلبه فيظل أثرها مثل المَجْل (أى أثر العمل فى الكف) كَجَمْرٍ دحرجته على رجلك فنَفِط فتراه مُنْتَبِراً (أى متورّماً) وليس فيه شىء ، ثم أخذ حصاة فدحرجها على رجله ، فيصبح الناس يتبايعون فلا يكاد أحد يؤدى الأمانة حتى يقال إن فى بنى فلان رجلاً أميناً حتى يقال للرجل ما أجلده ، ما أظرفه ، ما أعقله ، وما فى قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان ، ولقد أتى علىّ زمان وما أبالى أيّكم بايعت ، لئن كان مسلماً ليردنّه علىّ دينه ، ولئن كان نصرانياً أو يهودياً ليردنّه على ساعيه ، وأمّا اليوم فما كنت أبايع منكم إلا فلاناً وفلاناً »[1] .

وها هوذا الحديث الثانى الذى حدثنا به حذيفة عن رفع الأمانة والفتنة . قال حذيفة :

« كنا عند عمر فقال : أيكم سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر الفتن ؟ فقال قوم : نحن سمعناه . فقال : لعلكم تعنون فتنة الرجل فى أهله وجاره . قالوا : أجل . قال : تلك تكفرها الصلاة والصيام والصدقة ، ولكن أيكم سمع النبى صلى الله عليه وسلم يذكر الفتن التى تموج موج البحر ؟ قال حذيفة : فأسكت القوم ، فقلت : أنا . قال : أنت لله أبوك . قال حذيفة : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

« تعرض الفتن على القلوب كالحصير عوداً عوداً فأى قلب أشربها نُكِت فيه نكتة سوداء ، وأى قلب أنكرها نكت فيه نكتة بيضاء حتى تصير على قلبين على أبيض مثل

(١) رواه البخارى فى الرقاق والفتن ، ومسلم فى الإيمان ، والترمذى فى الفتن وابن ماجه فى الفتن ، وأحمد .

الصفا فلا تضره فتنة مادامت السموات والأرض ، والآخر أسود مرْباداً كالكوز مُجَخِّياً - أى مقلوباً - لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً إلا ما أشرب من هواه » .

قال حذيفة : وحدثت أن بينك وبينها باباً مغلقاً يوشك أن يكسر .

قال عمر : « أكَسْراً لا أبا لك ، فلو أنه فُتح لعله كان يُعاد »[1] .

هكذا كان حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم عن رفع الأمانة وضياع المناعة الإيمانية من النفس البشرية . وأراد سبحانه للمناعة الإيمانية أن تبقى فى عباده ، لذلك تدخل بالرسل حتى تتكون المناعة ويكبح المجتمع جماح كل فرد . تحدثه نفسه بفتنة .

وعندما كان يتم الفساد فى الأرض . نجد الحق يرسل الرسول ليعيد البريق إلى النفس اللوامة ، ويحيى فى المجتمع القدرة على أن يتناسق السلوك فيه على ضوء منهج الله . ولذلك نجد أن المقاومة التى تحدث للرسل إنما تحدث من الذين يستمتعون بالفساد وبآثار الفساد . وحين يأتى منهج الهداية فهو يأخذ بأيدى المظلومين ويغضب منه الظالمون الأقوياء الجبابرة ، ولذلك يهاجمون الرسل والمنهج القادم من الله ؛ لأن هذا المنهج سيقطع عليهم سبل الفساد الذى يدر عليهم عائداً هو فى نظرهم كبير .

لقد رأينا صناديد قريش وقد تصدوا للدعوة ، فمحمد صلى الله عليه وسلم جاء بالمساواة بين كل البشر . لقد كانوا يعرفون أن مجرد النطق بـ« لا إله إلا الله محمد رسول الله » يعنى فقدانهم لسلطان إرهاب الناس والقبائل . ولو كانت المسألة مجرد كلمة تقال ، ويبقى الأمر على ما كان عليه لقالوها ، ولكنها كانت كلمة تغير من الأمر سياسياً واقتصادياً واجتماعياً ، ولا يبقى من جبروت لأحد ، فكل الناس سواسية . لذلك تصدى صناديد قريش لدعوة الإسلام . وهكذا نجد أن كل رسول يأتى يبرز له من يعاديه من أصحاب الفساد والجبابرة فى الأرض ، مصداقاً لقول الحق سبحانه وتعالى :

---

(١) رواه مسلم .

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ ﴾
(من الآية ١١٢ سورة الأنعام)

والمثال على ذلك هو إرادة الحق فى أن يجعل صيحة الإيمان فى الجاهلية تأتى أولاً إلى أذن سادة العرب جميعاً وهم قريش الذين لا يجرؤ أحد على التعرض لهم ، لكن النصر لا يأتى لمحمد وهو فى مكة حيث كانت مقام السيادة ؛ لأن النصر لو حدث فى أول الدعوة ومحمد صلى الله عليه وسلم يحيا بين قومه فى مكة لقال قائل : لقد حدث النصر من قوم ألفوا السيادة وأرادوا أن يسودوا العالم كله لا الجزيرة العربية وحدها ، وأن قريشاً قد ساندت محمداً لاستبقاء هذه السيادة وبسطها على غيرهم ، ولكنه ـ سبحانه ـ جعل مقام النصر ينبع من المدينة المنورة .

إنّ الصرخة أولاً جاءت فى أذن السادة ثم التف حولها المستضعفون فى الأرض الذين لا يستطيعون حماية أنفسهم ، ثم هاجروا وقوّاهم الله من بعد ذلك على الأقوياء .

إننا نجد كل داعٍ إلى الله يأتى إنما يريد استبقاء خير النبوات حتى لا يأتى الران على القلوب ، وإن استبقاء هذا الخير يغضب منه الجبابرة والمنحرفون الذين يريدون السيادة على العالم بفكرهم . والداعية إلى الله الذى لا تجد له عدوًا يصيبه بالسوء حظه من ميراث النبوة ضعيف ، والداعية الذى له أعداء له من ميراث النبوة الشىء الكثير .

والكافرون بعيسى عليه السلام عندما رأوا قوة الآيات التى جاء بها عيسى عليه السلام . قالوا : « إنْ هذا إلا سحر مبين » وهذا يعنى أن معجزات عيسى عليه السلام قد أحفظتهم وأغضبتهم وأحنقتهم وملأت مشاعرهم بالخيبة . إنّه قول من قوم يكرهون منهج الحق ، وعلى ذلك يكون كفر الكافر نعمةً يدعم بها الحق الداعى إليه ؛ لأن ذلك يحفزه ويدفعه إلى الدفاع عن دين الله ، فمقاومة الإيمان تظهر قوة المؤمن بالعقيدة التى يؤمن بها .

ويقول الحق سبحانه وتعالى من بعد ذلك :

﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾ ﴾

وكلمة الحَوَارِىّ مأخوذة من المحسات . فالحُوَّارَى تطلق على الدقيق النقى الخالص . وأطلقت على كل شىء نقى بصفاء خالص ، و« الحَوَارِى » هنا تعنى المخلص والمحب لمنهج الخير . وسبحانه يقول : « وإذ أوحيت » والوحى بمعناه العام هو الإعلام بخفاء ؛ أى أن الحق ألهمهم أن يؤمنوا برسالة عيسى المبلغ عن الله ، أى أعلمهم بخواطر القلب التى أعلم بها أمُّ موسى أن تلقى ابنها فى اليم ليلقيه اليم إلى الساحل ، وهو غير الوحى للرسول ، فالوحى إلى الرسول هو الوحى الشرعى بواسطة رسول مبلغ عن الله هو سيدنا جبريل عليه السلام ، أما وحى الله إلى ام موسى أو إلى الحواريين فهو استقرارخاطر إيمانى يلتفت بعده الموحَى إليه ليجد الواقع يؤيد ذلك . وعندما لا يصادم إلهامُ القلبِ أمرًا واقعا ولا يجد الإلهام ما يصادمه فى نفس الإنسان ، فهذا لون من الوحى ، أى هو إعلام بخفاء ، كأن يتوقع الرجل مَقْدَم صديق من سفر ، أو لوناً من الطعام يشتهيه فيجده على المائدة .

إذن فالإلهام وارد من الله لخلق الله مادام لا يصادم شيئا فى النفس أو فى الواقع ؛ لأن الإلهام الذى يقابل صداماً ليس من الله . فالشياطين يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا .

إن الله أوحى للحواريين أن يؤمنوا به وبرسالة عيسى عليه السلام . وبمجرد مجىء عيسى وسماعهم أنه رسول من الله أعلنوا الإيمان به وصاروا من خلصائه . وساعة نرى : « إذ » فلنفهم أن معناها تذكر وقت الحدث الذى قال فيه الحواريون : نحن آمنا بعيسى نبياً من عند الله وأشهدوه أنهم مسلمون .

ومن بعد ذلك يقول الحق :

﴿ إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ قَالَ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ ﴾

كأن عيسى قال لهم : عليكم بتقوى الله فلا تسألوه هذه الآية ، لأنكم مادمتم قد أعلنتم الإيمان فأنتم لا تقترحون على الله آية لإثبات صدق رسوله ، وحسبكم ما أعطاه الله لى من آيات لصدق رسالتى . وعليكم أن تلزموا أنفسكم بالمنهج الذى أعلنتم أنكم مؤمنون به .

وقد توقف العلماء عند قولهم : « هل يستطيع ربك » وتساءل العلماء : كيف كان هذا القول ، وخصوصاً أن معناه الظاهرى : أيقدر ربك ؟ وكيف للحواريين أن يقولوا ذلك بالرغم من أنهم أشهدوا عيسى عليه السلام بأنهم مسلمون ؟ وقال العلماء أيضاً : إن من يتكلم فى اللغة عليه أن يكون متبصراً باشتقاقات الألفاظ واستعمالات الألفاظ وسمات الألفاظ ، وكلمة « يستطيع » بمعنى يطيع كما قالوا : استجاب بمعنى أجاب ، وكأن معنى سؤالهم : أيستجيب الله وينزل علينا مائدة من السماء ؟ و« استطاع » تقابل : « استجاب » وسبحانه وتعالى هو القادر على كل شىء ، وهو الذى يطيعه كل شىء ، وهو الذى يرضخ لحكمه كل شىء ، والحق لا يطلب ، إنما يأمر مصداقا لقوله تعالى :

﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ ﴾

(سورة يس)

الله سبحانه وتعالى لا يقول لشىء كن إلا ويعلم أنه يطيع ، ولا يأمره الحق أن يطيع إلا ويكون استعداده الانفعالى أنه حين يسمع قول الله : « كن » فلازم أن يكون ، والمثال على هذا هو قوله سبحانه وتعالى :

﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴿١﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٢﴾ ﴾

(سورة الانشقاق)

إنها لن تنتظر إلا سماع الأمر فقط . وساعة تسمع الأمر فهى تنفعل ، ومعنى تنفعل أى تطيع . وكل الكون مطيع لخالقه سبحانه وتعالى . أو يكون معنى هل يستطيع : هل يفعل . وذلك من باب التعبير عن المسبب بالسبب ؛ إذ الاستطاعة من أسباب إيجاد الفعل . وقيل المراد : هل تستطيع سؤال ربّك من غير صارف ولا مانع يمنعك عن سؤاله ؟ فقد قرأ الكسائى وغيره هل تستطيع ربَّك بنصب كلمة (ربَّك) وأصلها هل تستطيع سؤال ربّك ، فحذف المضاف (سؤال) وأقيم المضاف إليه وهو كلمة رب مقامه فنصب. وقال الزمخشرى : ما وصفهم الله بالإيمان والإخلاص ، وإنما حكى ادعاءهم . وقولهم : (هل يستطيع) كلام لا يتأتّى مثله من مؤمنين معظمين لربهم .

وقال الحواريون ما جاء به القرآن الكريم :

﴿ قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾ ﴾

وكأنهم أرادوا أن يتشبهوا بسيدنا إبراهيم خليل الرحمن عندما سأل الله عن كيفية إحياء الموتى ليطمئن قلبه . لقد آمنوا بعلم اليقين ، ويريدون الآن الانتقال إلى عين اليقين ؛ لذلك سألوا عن المائدة التى صارت بعد ذلك حقيقة واضحة .

وهكذا نعرف أن هناك فارقا بين أن يؤمن الإنسان بذاته ، وأن يشهد بالإيمان عند غيره . فالذى يشهد بالإيمان عند غيره يحتاج إلى يقين أعمق .

ويخبرنا الحق بما قاله عيسى عليه السلام ـ وهو يختلف عن قولهم فى هذه المائدة ـ قال سبحانه :

﴿ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾

وقوله الحق : « مائدة من السماء » إنما يعنى أن هناك لله موائد منصوبة فى الأرض . والكون كله مائدة فيها من الخير الكثير إن استطاع الإنسان أن يكد ويكدح .

والإنسان منا عندما يكد ويكدح ويستخرج من الأرض الزرع ويرعى الحيوانات فإنه يأتى إلى زوجه بمخزون قد يكفيهم كأسرة لمدة عام من دقيق وأرز وعسل وسكر وزيت ، فتأخذ الزوجة طيراً فتذبحه وتطهو معه الخبز والخضراوات .

إذن فالكون كله مائدة الله المنصوبة والتي يأخذ منها كل إنسان على قدر عمله . وكلمة « مائدة » لا تطلق إلا على الخوان وعليه طعام . أما إن كانت بغير طعام فنطلق عليها « خواناً » ؛ لأن « المائدة » مأخوذة من مادة « الميم والألف والدال » والمائدة تميد أى تضطرب من كثرة ما عليها من أشياء . أو هى تعطى مما عليها من أشياء . فالمائد هو المُعْطَى .

وقول عيسى عليه السلام يمتلىء بكل المعانى القيمة ، فهو يطلب أن تكون المائدة مناسبة لعيد يفرح به الأولون والآخرون وآية من الحق سبحانه وتعالى ، ويطلب من فضل ربوبية الرازق أن يرزقهم ، ويعترف بامتنان أن الحق هو خير الرازقين .

والمقارنة بين قول الحواريين وقول عيسى تدلنا على الفارق بين إيمان المبلغ عن الله ، وإيمان الذين تلقوا البلاغ عن عيسى . إيمان عيسى هو الإيمان القوى الناضج . أما إيمان الحواريين فهو إيمان ناقص ، لقد كانت قوة إيمان عيسى نابعة من أنه يتلقى عن الله مباشرة ، أما الحواريون فليسوا كذلك ، على الرغم من أنهم آمنوا بالبلاغ

عن الله وتم ذلك بواسطة رسول ، ولذلك يعلو الرسول على المؤمنين ببلاغه في سلم الإيمان درجة أعلى . إنه يتلقى عن الله ، ولهذا صحح عيسى عليه السلام طلبهم من الله وهو يدعو ربه .

إنه رسول مُصطفى مُجتَبى ؛ لذلك يضع الأمور في نصابها اللائق فيقول : « اللهم ربنا» و« اللهم » هي في الأصل « ياالله » ، وعندما كثر النداء بها حذفنا منها حرف النداء وعوضناه بالميم في آخرها ، فصارت : « اللهم » . وكأن هذا اللفظ : « اللهم » تتهيأ به نفس الإنسان لمناجاة الله في تقديس وثقة في أنه سبحانه يستجيب ، وهو نداء يقوم على عشق العبد لمولاه ، فلا يوسط بينه وبين اسم ربه أي حرف من حروف النداء .

إننا نلحظ أن عيسى عليه السلام قدم كلامه لله بصفة الألوهية : « اللهم » فهو كنبي مرسل يعلم تجليات صفة الله . وهي تجليات عبادة من معبود إلى عابد . أما تجليات كلمة « رب » فهي تجليات تربية من رب إلى مربوب ، والفارق بين عطاء الألوهية للخلق ، وعطاء الربوبية ؛ هو أن عطاء الألوهية تكليف من معبود إلى عابد . والعابد يطيع المعبود فيما يأمر به وفيما ينهى عنه ، أما عطاء الربوبية فهو سبحانه المتولي للتربية للأجسام والعقول والمواهب والقلوب ، والرب هو رب للمؤمن وللكافر . ويتولى الرب تربية الكافر على الرغم من إنكار الكافر للألوهية . فسبحانه يربي الماديات التي تقيم حياته .

ولذلك نجد الحق سبحانه وتعالى يقول عن هؤلاء الكافرين :

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۚ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾

(سورة لقمان)

والحق سبحانه يبلغ نبيه صلى الله عليه وسلم أن يسأل الكفار عمن خلق السموات والأرض ، ولن يجدوا إجابة على ذلك إلا قولهم : إن الله هو الخالق . وهي إجابة الفطرة الأولى . ونرى في حياتنا أكثر من مثل على ذلك ـ ولله المثل

الأعلى ـ عندما يسأل الأطفال عن شيء من الذى أحضره ؟ فإننا نجد الإجابات تتسلسل إلى أن تصل إلى أن معطى كل شيء هو الله ، فإن سأل الطفل أمه : ماذا سنأكل ؟ وتجيب الأم ـ على سبيل المثال ـ سنأكل بامية مثلاً . ويسأل الطفل : من أين ؟ تجيب الأم : اشتراها والدك من بائع الخضر . ويسأل الطفل : ومن أين جاء بها بائع الخضر ؟ تقول : الأم : من تاجر فى السوق . يسأل الطفل : ومن أين جاء بها التاجر ؟ تجيب الأم : من الفلاح الذى حرث الأرض وبذر فيها بذور البامية . يقول الطفل : من الذى خلق الأرض وأنبت النبات ؟ تقول الأم : إنه الله ربنا خالق كل شيء .

لقد وصلت الأم بحوارها مع الطفل إلى عطاء الربوبية الذى يستوى فيه المؤمن والكافر ، والمؤمن هو الذى يأخذ بجانب عطاء الربوبية عطاء الألوهية أيضاً ، وهو التكليف . فعطاء الألوهية يعطى المؤمن عطاء الربوبية مضافاً إليه العطاء الذى لا ينفد ، إنه يعطى المؤمن زمانا لا يموت فيه ونعمة لا يتركها ولا تتركه ، ويأخذ المؤمن بالمنهج يقين الإشراق والإقبال على العمل فى ضوء منهج الله .

لقد قال عيسى ابن مريم داعياً الله : « اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء » وألزم عيسى نفسه بنداء الألوهية أولاً معترفاً بالعبودية لله ملتزماً بالتكليف القادم منه ثم جاء بنداء الربوبية . فيا من أنزلت علينا التكليف ويا من تتولى تربيتنا نحن ندعوك أن تنزل علينا مائدة من السماء . وأخذ نداءه زاوية القيم ثم زاوية المادية وهى الرزق ، لكن الحواريين قدموا بشريتهم فطلبوا من المائدة الأكل والطعام فقالوا : (نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا ونعلم أن قد صدقتنا ونكون عليها من الشاهدين) ، أما عيسى ابن مريم بصفائية اختياره رسولاً فقد أخر الطعام عن القيم فقال : (اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيداً لأولنا وآخرنا وآية منك وارزقنا وأنت خير الرازقين) .

صحيح أن الرزق يمس الأكل ، ولكن الرزق ليس كله أكلاً . فالرزق هو كل شيء تحتاج إليه وتنتفع به ، فالأكل رزق ، والشرب رزق ، والملبس رزق ، والعلم رزق ، والحلم رزق ، وكل شيء تنتفع به هو رزق من عند الله ، ولذلك جاء عيسى

بالكلمة العامة التى يدخل فيها الأكل وتتسع لغيره . ويجيب الحق على دعاء عيسى ابن مريم :

﴿ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ۖ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١١٥﴾ ﴾

وساعة يقول الحق : « إنى » فهو يستخدم نون الإفراد . ونعلم أن هناك أسلوبين لحديث الحق سبحانه عن نفسه . إنه ساعة يتحدث عن وحدانيته يأتى بنون الإفراد فيقول سبحانه :

﴿ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ ﴾

(من الآية ١٤ سورة طه)

وساعة يتحدث سبحانه وتعالى عن سيال القدرة الشاملة العامة لكل صفات الكمال التى تتطلب إيجاد الشىء يأتى بنون التعظيم فيقول :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾

(سورة الحجر)

وهو سبحانه أراد هنا أن يعطينا معنى التوحيد فقال : (قال إنى منزلها عليكم) . ذلك أن المائدة ستنزل من السماء ، ولا يقدر على ذلك إلا الله وحده سبحانه وتعالى .

ويتبع الحق ذلك بقوله : « فمن يكفر بعد منكم فإنى أعذبه عذابا لا أعذبه أحداً من العالمين » . فسبحانه يرسل رسله بعد أن يجتبيهم ، وإياك أيها العبد أن تقول : إن فلاناً بذاته من الرسل أفضل من فلان ؛ لأن الحق هو الأعلم برسله : « الله أعلم حيث يجعل رسالته » . وعلينا أن نتبع الرسل ، وعندما حاول بعض من أهل

الجاهلية التعجب من شأن القرآن الذى نزل على محمد صلى الله عليه وسلم كما يخبر القرآن الكريم فى قوله تعالى :

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾

(سورة الزخرف)

وقال أهل الجاهلية : لماذا لم ينزل القرآن على رجل عظيم من مكة أو من الطائف؟! قالوا ذلك استهزاء بشأن محمد صلى الله عليه وسلم . وقال الحق سبحانه وتعالى فى ذلك القول الفصل ، فليس لأحد أن يختار الرسول ؛ لأن الرسول مُصطفى من الله ، ولا يملك أحد من البشر أن يختار رسولاً من أصحاب السلطان أو الجاه .

وسبحانه وتعالى يعد كل رسول الإعداد اللائق لمهمته ، ومقام الرسالة والنبوة هو الأعلى فى الدنيا والآخرة . والحق سبحانه ـ وهو المنظم لأمور خلقه ـ قسّم المَواهب ـ رحمة منه ـ فيما بين العباد ليتساندوا ويتآزروا ويحتاج كل منهم إلى عمل الآخر . وحين يرسل سبحانه رسولاً فهو يختار الآية المناسبة له وللعصر الذى جاء فيه ، وما اقترح قوم آية وجاء بها الله ، ثم لم يؤمن الذين اقترحوا الآية بعد مجيئها إلاّ أنزل الحق سبحانه بهم العذاب الأليم . وحين يطلب اتباع الرسول آيات معينة ، إنما يحمل هذا الطلب فى طياته التفلّت والتحلل من الالتزام بمنهج الله ، كأن الذين يطلبونها يصرون على الكفر بالرسول على الرغم من طلبهم الآية ، ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَن كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ ۚ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

وكذلك اقترح قوم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأتيهم بآيات غير آيات القرآن ، على الرغم من أن آيات القرآن تقنع كل من له عقل يفكر وقلب يحس ،

وسنة الله مع الذين يطلبون الآيات ثم لا يؤمنون بها واضحة وهى العذاب الشديد ، ومثال ذلك قوم ثمود الذين طلبوا ناقة للدلالة على صدق رسالة صالح عليه السلام ، وعندما حدثت المعجزة كفروا بها فعاقبهم الله شر العقاب .

وبعض من قوم الرسول صلى الله عليه وسلم غالوا فى طلب آيات غريبة :

﴿ وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَـٰرَ خِلَـٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَـٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

وكان محمد صلى الله عليه وسلم رحيماً بآله وعشيرته ، لذلك لم يطلب من الحق آيات غير التى أنزلها الله عليه . وعيسى عليه السلام دعا بأدب الرسل أن ينزل المائدة . واختلف العلماء أأنزل الحق سبحانه وتعالى المائدة أم لم ينزلها ؟ .

إن هناك من تمسكوا بقول الحق سبحانه : « قال الله إنى منزلها » ، وهناك من قالوا : إن الحق سبحانه وضع شرطاً لنزول المائدة ، وهو إنزال العذاب بهم إن لم يؤمنوا ، فتراجعوا عن طلب إنزالها ومن قالوا بنزول المائدة اختلفوا فى مواصفاتها ، فمنهم من قال : إن المائدة نزلت وعليها سمكة مشوية من غير فلوس وقشور ولا شوك فيها : ذلك أنها مائدة من السماء ومعها خمسة أرغفة ، وعلى كل رغيف شىء مما يعرفون : رغيف عليه عسل ، وآخر عليه زيتون ، وثالث عليه سمن ، ورابع عليه جبن ، وخامس عليه قديد من اللحم .

ومن بعد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ ﴾

ونعرف أن هذا هو الحوار الذى سوف يدور بين الحق وبين عيسى ابن مريم عليه السلام يوم يجمع الحق سبحانه وتعالى الرسل :

﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾ ﴾

(سورة المائدة)

وقد يقول قائل : ولماذا جاء الحق سبحانه وتعالى بهذا الحوار فى صيغة الفعل الماضى ؟ :

﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾

(من الآية ١١٦ سورة المائدة)

وكلنا يعرف أن لكل حدث زمناً ومكاناً . وزمان الحدث هو يوم القيامة . ومكان هذا الحدث فى ساحة المشهد والحشر ، وسبحانه هو خالق كل زمن وكل مكان ، وله أن يتحدث عن أى أمر بأى صيغة شاء ، سواء أكانت صيغة الماضى أم الحاضر أم المستقبل ، فقد أوجد كل شيء من ماضٍ وحاضرٍ ومستقبل ، وبيده أمر كل ما خلق ومَن خلق . وهو أزلى قيوم ، أما نحن بنو الإنسان فأمر الزمن يختلف ، الزمن بالنسبة لأفعالنا هو واحد من ثلاثة ؛ ماضٍ : أى أن يكون الحدث قد وقع قبل أن أتكلم ؛ مثل قولى « قابلنى زيد » ، ومعنى ذلك أن الفعل قد تم وصار محققاً .

راجع أصله وخرج أحاديثه الدكتور أحمد عمر هاشم نائب رئيس جامعة الأزهر .

وحاضر : أى أن يكون الحدث فى حالة وقوعه ، أى يحصل الآن مثل قولى : « يقابلنى زيد » وأنت تقصد الحال أى أنه يقابلنى الآن .

إن معنى ذلك أن العين ترى زيداً وليس مع العين أين . ومستقبل : أى أن يكون الحادث سوف يقع كقولى:« سيقابلنى زيد » . وهنا لا يملك الإنسان نفسه أن يحدث منه الحدث ، ولا يملك ألا يقع على الإنسان الذى سوف يقابله أمرٌ قد يمنعه من إتمام الحدث ، ولا يملك الإنسان أن يظل السبب للمقابلة قائماً . إذن فمع المستقبل لا يصح للإنسان أن يحكم بشىء ، لأنه لا يملك أى عنصر من عناصر الحدث . والذى يملك هذا هو الحق سبحانه وتعالى وحده . ولذلك يعلمنا القرآن شرف الصدق فى الكلمة بقوله تعالى :

﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾

(الآية ٢٣ وجزء من ٢٤ سورة الكهف)

وعلى الإنسان أن يحترم قدرته المحدودة ، وأن يتذكر دائماً قدرة الحق سبحانه وتعالى عليه . وهذا لا يعنى أن الحق سبحانه يمنعنا من التخطيط للمستقبل ، لا ، بل يطلب منا أن نخطط وأن ندرس كل الاحتمالات ، وعلينا أن نقول : « إن شاء الله » ؛ لأننا بذلك نقدم مشيئة مَن يملك كل أمر وهو الله ـ سبحانه وتعالى ـ .

وقد حاول بعض المستشرقين من أعداء الإسلام أن ينفذوا بسمومهم إلى عقول المسلمين بالتساؤل عن عدم ترتيب الأفعال على نسق حدوثها فى بعض من آيات القرآن ، فقال قائل منهم : كيف يقول الحق ـ سبحانه ـ :

﴿ أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١﴾ ﴾

(سورة النحل)

وهذا خبر عن يوم القيامة فكيف يأتى به الله على صيغة الماضى ، ثم يقول بعد ذلك : « فلا تستعجلوه » ؟ واستعجال الشىء لا يكون إلاّ إذا لم يكن قد حدث ، فكأن فى الكلام تناقضاً ، ذلك لأنه يقول : أتى ، ويقول بعد ذلك:فلا تستعجلوه ؟

ونقول : إن الذى يتكلم هو الحق سبحانه وتعالى وليس إنساناً مثلك محكوماً بأزمانه . بل المتكلم هو صاحب كل الأزمان وخالقها . وعندما يقول سبحانه : « أتى

أمر الله » فمعنى ذلك أن أمر الله آتٍ لا محالة ، لأنه لا قدرة تخرج مراده على ألّا يكون . وأى فعل من الحق سبحانه وتعالى إنما يتجرد عن ملابسات الزمان وعن ملابسات المكان ، فإن كنا نقرأ على سبيل المثال قوله تعالى :

﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾

(من الآية ١٠٠ سورة النساء)

فليس معنى ذلك أن مغفرة الله ورحمته قد مضى زمانها وانقضى وقتها . ولكن لنقل : كان الله غفوراً رحيماً ولا يزال غفوراً رحيماً ، فسبحانه وتعالى غفور ورحيم قبل أن يوجد من يغفر له ويرحمه ، ومن باب أولى يكون غفورا رحيما بعد أن يوجد من يستحق المغفرة والرحمة . وسبحانه منزه عن أن تعتريه الأحداث فيتغير ؛ لأن الزمن مخلوق من الله ، فلا تقل متى أو أين ؛ لأنهما به وجدا . والحق يأتى بالماضى لأنه متحقق الوقوع ، ليثبت حدوث أمر لم يحدث بعد ، ذلك لأن الله إذا قال عن شيء إنه سيحدث فلا بد أن يحدث .

ويؤكد الحق سبحانه فى أى كلام عن عيسى ابن مريم على أنه « ابن مريم » وهنا يسأل الحق عيسى ـ عليه السلام ـ : « أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله » ونعرف أن السؤال إنما يأتى دائماً على وجهين : إما سؤال يعرف به السائل ما كان يجهله فيريد أن يعلمه من المسئول ، كقول القائل : أقابلك فلان أمسِ ؟ وإما أن يأتى السؤال لا ليعلم السائل من المسئول ، ولكن ليقرر السائلُ المسئولَ .

ومثال ذلك ـ ولله المثل الأعلى ـ يسأل التلميذ أستاذه ليتعلم منه وليخبره الأستاذ بعلم جديد وخبر جديد . وأيضاً يسأل الأستاذ التلميذ ليقرره بالحقيقة ويوافقه عليها لتستقر لدى التلميذ . وسؤال الله عيسى من النوع الأخير ؛ ليكون ذلك حجة على من قال بألوهية عيسى أو بنوته لله . وحاول بعض المستشرقين أن يشككوافى القرآن فقالوا : إن هناك تناقضاً فى القرآن ـ والعياذ بالله ـ واستندوا على ذلك بقول الحق :

﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾

(سورة الصافات)

أى أن الحق يقرر أن كل كائن مسئول عما يفعل ويعتقد ، ولكنه سبحانه يقول فى موضع آخر من القرآن الكريم :

﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾ ﴾

(سورة الرحمن)

فهل معنى ذلك أنهم لن يُسألوا ؟ لا ، بل سوف يُسألون ليقرروا ما فعلوا لا ليعلم الله منهم ما فعلوا ، فهو سبحانه عليم بكل شيء . وهؤلاء المستشرقون لا يعلمون أن السؤال يرد عند العرب على وجهين ، وجه ليعلم السائل ، ووجه ليقرر المسئول ، وسؤال الحق للناس يوم القيامة ليقرروا ما فعلوا وما كان منهم ؛ لأن الإقرار سيد الأدلة ، وليس سؤال الحق سبحانه هو سؤال من يرغب فى أن يعلم فسبحانه عليم بكل شيء ، وعلى الإنسان أن يحتفظ بالمقام الذى وضعه فيه ربه ، وكذلك كان عيسى ابن مريم . وكذلك يكون سؤال الله لعيسى ، إنه لتقريع وتأنيب وتوبيخ من قالوا عن عيسى ما لم يبلغهم إياه .

إن عيسى عليه السلام لم يبلغهم ولم يطلب منهم أن يتخذوه هو وأمه إلهين من دون الله ؛ لأن عيسى ابن مريم ، إنما يبلغ ما أُوحى إليه من ربه فقط ، ولهذا تأتى إجابة عيسى رداً على أى تزَيُّد من الأتباع : « قال سبحانك ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق » وساعة نسمع « سبحانك » فلنعرف أنها إجمال التنزيه لله ، وهو تنزيه أن يشابهه خلق من خلق الله ، فلله وجود ، وللإنسان وجود ، ولكن إياك أيها الإنسان أن تقول : إن وجودى كوجود الله ؛ لأن وجود الله ذاتى ، ووجودك غير ذاتى وكل ما فيك موهوب لك من الله ؛ لذلك فلا غناك مثل غنى الله ، بل غناه ذاتى وغناك موهوب منه سبحانه ، ولا أى صفة من صفاتك كصفات الله ، فله سبحانه مطلق القدرة والقوة ، وعليك أن تأخذ كل شيء يتعلق بالله فى نطاق « سبحانه » « وليس كمثله شيء » .

وكذلك يكون تنزيه عيسى لربه وخالقه : « سبحانك ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق » فعيسى ابن مريم يعلم أن الرسول المصطفى من الله ليس له أن يقول إنه إله . ويرد عيسى على ذلك بقضية متفق عليها : « إن كنت قلته فقد علمته » لأن الكل متفق على أن الله يعلم كل ما يبدر من العباد من سلوك وأقوال وأفعال « يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور » . والكل يعلم ارتفاع الحق وتنزهه عن أن يوجد له معلوم جديد لم يعلمه من قبل . والكل يعلم ـ كذلك ـ أن الله يعلم خفايا الصدور ؛ لذلك يقول عيسى : « تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك » ويقرر أن الحق

العليم بكل شيء يعلم أن ذلك لم يخطر له على بال ، وهذه هي العلة في إيراد ثلاث صور في هذه الآية .

الصورة الأولى هي قوله سبحانه وتعالى : « سبحانك ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق » وهذا تنزيه من عيسى لربه،والصورة الثانية هى قول عيسى : « إن كنت قلته فقد علمته » ، والصورة الثالثة هى : « تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك » . إذن فلا شيء من عند عيسى ، وقد يسأل سائل : وماذا يكون فى النفس ؟ الذى يكون فى النفس هو ما أسِرُّ به ولم يظهر ؛ لأن النفس تُطلق مرة ويراد بها الذات التى تضم الروح والجسد معا ، وعندما تُطلق على ذات الله فنحن ننزهها عن أن تكون أبعاضاً ، ولكنها ذاته المأخوذة فى نطاق التنزيه . والمثال هو قول الحق :

﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ﴾

(من الآية ٥٤ سورة الأنعام)

وهكذا يكون فهمنا لمجيء كلمة « نفس » منسوبة لله ، إنه المنزه أن يكون مثلنا ، فلله وجه ولنا وجه ، ولكن وجه الله نفهمه فى نطاق « ليس كمثله شيء » وكذلك يد الله وكذلك كل صفات الله . ونعلم أن لله أسماء أعلمنا ببعضها ، وعَلَّم بعضاً من خلقه بعضها ، واستأثر ببعضها لذاته . وهناك بعض من الصفات لله تأتى لمجرد المشاكلة ، كقول الحق :

﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ ﴾

(من الآية ١٤٢ سورة النساء)

ولا نقول أبداً : إن الله مخادع ، ولكن الصفة هنا جاءت للمشاكلة لذكرها فى مقابلة يخادعون الله . ولذلك لا نأخذ منها اسماً لله ، بل إنه جاء للرد على ما يبدر من أعداء الله .

ويختم عيسى ابن مريم قوله : « إنك أنت علاّم الغيوب » و« علاّم » هى مبالغة فى ذات الحدث ، ومبالغة فى تكرير الحدث ، فهو سبحانه يعلم غيب كل واحد من خلقه وغيب كل ما فى كونه ، وهكذا جاء القرآن برد عيسى عليه السلام وهو رد يستوعب كل مجالات الإنكار على الذين قالوا مثل هذا القول .

ويتابع القرآن على لسان عيسى عليه السلام ما يناقض ما قاله بعض من أتباعه

فيقول :

﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ ﴾

لقد عرض سيدنا عيسى عليه السلام ـ من خلال قوله لربه تبارك وتعالى ـ المنهج الذى جاء به على الناس جميعا ويلغه تمام البلاغ ، فقد أبلغ أنه عبد الله وأنه رسوله ، ومادام الحق علاّم الغيوب فهو أعلم بكل شيء حتى بما فى النفس ، كأنه يثبت أيضاً أن نفسه لم تحدثه بأى خاطر من تلك الخواطر . ويعلن أنه لم يبلغ إلا ما أمر به الله .

﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ ﴾
(سورة المائدة)

والشهيد هو الرائى الذى لا عمل له فى تحريك المشهود إلى غير ما شهده .

ويقول عيسى ابن مريم عليه السلام : « فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم » وأمر توفية الحق لرسالة عيسى ورفعه إليه ، قد ذكرناه من قبل فى خواطرنا ولكن أضيف الآن بعضاً من اللمحات ؛ لأنى أرى أنّ من حق كل قارىء أو متلقٍ لهذه الخواطر أن يجد الخلاصة الملائمة التى تغنيه عن الرجوع إلى ما سبق من قول فى هذا الأمر ، وذلك حتى تتصل المعانى فى ذهن القارىء .

لقد كان لميلاد عيسى عليه السلام ضجة ، وكذلك كان لمسألة توفِّى الله له ضجة . ولقد شبه الله لقتلة عيسى أنهم قتلوه ، فعندما أرادوا أن يقتلوه دخل خوخة ،

والخوخة هى باب فى باب ، وهذا نظام البيوت القديمة حيث يوجد باب كبير لإدخال الأشياء الكبيرة وفى هذا الباب الكبير يوجد باب صغير يسمح بمرور الأفراد . وفى سقف هذا البيت فتحة . وعندما دخل رجل يدعى « تطيانوس » طالباً لعيسى عليه السلام نظر عيسى لأعلى ووجد شيئاً قد رفعه ، واستبطأ القوم تطيانوس وخرج عليهم من بعد ذلك ، فتساءلوا : إن كان هذا تطيانوس فأين عيسى ؟ وإن كان هذا عيسى فأين تطيانوس ؟

إذن فقد اختلط عليهم الشبه بعد أن ألقى الله شبه عيسى على تطيانوس . أو أن عيسى حينما دخلوا عليه كان معه الحواريون وقال عيسى للحواريين : أيكم يُلقى شبهى عليه وله الجنة ؟. وكان كل حوارى يعلم أنه لا رسالة له مثل عيسى عليه السلام ، فماذا إذن يريد الحوارى لنفسه أكثر من الجنة ؟. وتقدم « سرخس » فألقى عليه شبه المسيح عليه السلام وقتل اليهود سرخس . أو أن الذين ذهبوا لقتل عيسى وعرفوا أنه رفع فخافوا أن تنتشر حكاية رفع عيسى بين الناس فيؤمنوا به ، ولهذا جاء القتلة بشخص وقتلوه . أو أن القتيل هو واحد ممن باعوا عيسى لليهود وتيقظت فى نفسه ملكة التوبة فقدم نفسه بدلاً وفداءً للرسول .

ومسألة التوفى ـ كما نعلم ـ هى الأخذ كاملاً دون نقض للبنية بالقتل ، ونحن ـ المسلمين ـ نعرف أن الحق رفع محمداً صلى الله عليه وسلم بالإسراء والمعراج إلى السموات وعاد إلينا مرة أخرى ليكمل رسالته ؛ لذلك نصدق أمر رفع عيسى وأن الله توفاه ، أى استرده كاملاً دون نقض للبنية ، وأنه سيعود مرة أخرى ليصلى خلف مؤمن بالله وبمحمد رسول الله .

وإن أمر الرفع فى الإسلام مقبول . فقد رفع الله رسوله صلى الله عليه وسلم بالمعراج ، ودار بينه وبين إبراهيم عليه السلام حوار ، وكذلك دار حوار بينه وبين يحيى عليه السلام ، وآدم عليه السلام وغيرهم من الأنبياء ، وفرض الحق الصلاة على أمة المسلمين فى تلك الرحلة .

نحن ـ إذن ـ نصدق تماماً مسألة صعود الإنسان بشحمه ولحمه إلى السماء كأمر وارد وحاصل ، أما طول المدة أو عدمها فذلك لا ينقض المبدأ .

أما مسألة ارتباط نزول عيسى ابن مريم إلى الأرض بقيام الساعة ، فالنصوص فى هذه المسألة من القرآن الكريم محتملة وغير قطعية الدلالة ، وقد وردت فى السنة النبوية المطهرة ولكنها غير معلومة من الدين بالضرورة فلا نكفر من يتأبى عليه فهمها وقد أراد الحق سبحانه الرحمة بالخلق ؛ لذلك فكل شيء يقف فيه العقل ولا يزيد به حكم من الأحكام يأتى به الله فى أسلوب لا يسبب الفتنة . فإن صدقنا أن عيسى رفع فلن يزيد ذلك علينا حكماً ولن ينقض حكماً ، ولذلك جاء الحق سبحانه بمسألة الإسراء بنص قطعى ، أما مسألة المعراج فلم تأت نصّاً فى القرآن بل جاءت التزاماً لأن الحق سبحانه قال :

﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ ﴾

(سورة النجم)

وهكذا فالإسراء آية أرضية ، والمعراج آية سماوية.والآية الأرضية يمكن أن يقيم رسول الله الدليل عليها ، وقد ذهب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بيت المقدس ووصفه لهم بقوله سبحانه :

﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ ﴾

(من الآية ١ سورة الإسراء)

لقد ذكر النبى صلى الله عليه وسلم أوصاف القوافل التى رآها فى طريق العودة ، إذن كان الإسراء آية أرضية ، أما الآية السماوية وهى المعراج فجاءت التزاماً . وكذلك أمر رفع عيسى عليه السلام ، فمن يرى أن ذلك جاء من طلاقة قدرة الله فهو يصدق ذلك . ومن يقف عقله نقول له : إن وقوف عقلك لا يخرجك عن الإيمان واليقين . وعندما نتأمل بالدقة اللغوية كلمة « توفيتنى » نجد « توفاه » قد تعنى أماته ، فالحق سبحانه يقول :

﴿ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ﴾

(من الآية ١١ سورة السجدة)

والحق سبحانه وتعالى يقول أيضاً :

﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا

ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾

(من الآية ٤٢ سورة الزمر)

إنه سبحانه يسمى النوم وفاة ، وسماه - أيضا - موتاً . وهو أمر فيه إرسال وفيه قبض . ومعنى الموت فى بعض مظاهره غياب حس الحياة ، والذى ينام إنما يغيب عن حس الحياة ، إذن فمن الممكن أن تكون الوفاة بمعنى النوم . ويقال أيضاً عن الدَّين توفيت دَينى عند فلان أى أخذت دَينى كاملاً غير منقوص . وكذلك أمر قتل المسيح قال فيه الحق جل وعلا القول الفصل :

﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ﴾

(من الآية ١٥٧ سورة النساء)

ونعرف أن الموت يقابله القتل أيضاً ، فالحق يقول :

﴿ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ﴾

(من الآية ١٤٤ سورة آل عمران)

فالموت هو خروج الروح مع بقاء الأبعاض سليمة ، أما القتل فهو إحداث إتلاف فى البنية فتذهب الروح . وقد قال الحق على لسان المسيح : « فلما توفيتنى » أى أخذتنى كاملاً غير منقوص . وهذه مسألة لا تنقض الرفع . ونعلم أن كل ذلك سيكون مجالاً للحوار بين عيسى ابن مريم والحق سبحانه يوم المشهد الأعظم جاء به القرآن لنا ليخبرنا بالذى يُثبِّت صدق الإيمان .

إن عيسى عليه السلام يقول عن نفسه : إنه مجرد شهيد على قومه فى زمن وجوده بينهم ، ولكن بعد أن رفعه الله إليه فالرقابة على القوم تكون لله ، فالحق سبحانه شهيد دائماً ورقيب دائماً ، ولكن عيسى ببشريته يقدر أن يشهد فقط ، والله القادر وحده على أن يشهد ويغير ويمنع . ويخبرنا الحق من بعد ذلك بما جاء على لسان عيسى ابن مريم فى قوله الكريم :

﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ ﴾

ولقائل أن يقول : أليس فى ذلك الأمر إشكالٌ واضح ؟ . لقد ادّعى بعض أتباع عيسى أنهم أبلغوا من عيسى أن يتخذوه هو وأمه إلهين من دون الله . فكيف يطلب لهم عيسى المغفرة فى هذه الآية .

ونقول : إن عيسى لم يقل : « يا رب اغفر لهم » ولكنه قال : « إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم » أى أن عيسى قد ترك الأمر لطلاقة المشيئة الإلهية ، وهو كرسول من عند الله يعلم أن رحمة الله سبقت غضبه ، وأن له سبحانه طلاقة القدرة ، فلا قدرة تقيده فطلاقة المشيئة موجودة . وهم عباد لله باختيارهم .

إننا نعرف أن كل خلق الله هم عبيد الله . ولكن المطيعين لله والمؤمنين به خاصة هم عباد الله . إذن فالخلق نوعان : عباد الله ذهبوا لله إيماناً ومحبة وطاعة ، والنوع الثانى هم العبيد الذين يُقهرون لقاهرية سيدهم ، وحتى الكافر لم يكفر رغما عن الله . بل كفر بما آتاه الله من قدرة اختيار فى أن يفعل أو لا يفعل ، وكان الحق قادرا على أن يخلق خلقاً لا يعصون الله ما أمرهم ، ويفعلون ما يأمرهم به الله . وقد فعل الحق ذلك مع الملائكة .

لكن قدرة القهر تثبت لله صفة القهار على المقهور ولا تثبت صفة المحبة ، فالمحبة تأتى من أن يكون المخلوق مختاراً أن يؤمن أو أن يكفر ، ثم يختار الإيمان . إنه بذلك آمن بالمحبة لا بالقهر . وهكذا يريد الله خلقه المؤمنين به . إن كل الوجود ـ ما عدا الإنسان ـ مقهور ، ولا يقدر على المعصية : الشمس ، والقمر ، والمطر ، والهواء ، والسحاب وكل ما فى الكون مقهور لله .

إذن لو أراد الله خلقاً مقهورين على الإيمان به ما استطاع أحد من خلقه أن يكفر به ، ولكن الحق أراد أن يثبت صفة القهر فيها دون الإنسان ، أما فى الإنسان فقد خلقه الله مختاراً بين الكفر والإيمان حتى يأتى بعض من العباد ليصنعوا ما يحبه الله ويرضاه ويتبعوا منهج الله ، وهم يعلمون أن الله لم يكلفهم ما لا طاقة لهم به . فلا يكلف ـ سبحانه ـ أحداً بأن يموت أو يمرض ، ولا يكلف فاقد آلة الاختيار وهى العقل ، ولا يكلف من لم يبلغ رشد العقل ؛ لأن التكليف للإنسان لا يتم إلا بوجود

ثلاثة شروط : الأول : أن يوجد العقل ، والثانى : أن يكون العقل فى تمام النضج وهو الرشد ، والثالث : ألا تكون هناك قوة تهدد حياته وتقهره على فعل ما .

وهكذا نعلم أن هناك ثلاثة يخرجون من دائرة التكليف . وهم:المجنون وغير ناضج العقل لأنه لم يبلغ الرشد ، والمقهور بفعل فاعل . وقد أعطى الحق مع التكليف الثواب على الطاعة والعقاب على المعصية ، وبذلك ليس لأحد عندالله حجة ، ومن دخل التكليف طائعاً فهو من عباد الله . ومن عصى الله وخرج عن التكليف فهو من العبيد المقهورين فى كل شىء فيما عدا التكاليف التى خيّروا فيها .

إذن فالعباد هم الذين دخلوا العبادية بأن وازنوا بين الإيمان ونقيضه الكفر . . أى بين المراد لله وغير المراد لله . فكيف إذن يقول عيسى ابن مريم على الرغم من علمه بكفرهم : « إن تعذبهم فإنهم عبادك » ؟ . ونقول : إن معنى « العباد » و« العبيد » الذى شرحناه سابقاً هو وضع الإنسان فى الدنيا وما يكون عليه فيها ، ولكن الحوار الذى نقرؤه فى القرآن بين عيسى عليه السلام والحق سبحانه وتعالى يكون فى الآخرة ، وكلنا فى الآخرة عباد طائعون .

وعندما نستقرىء كلمة « عباد » فى القرآن نجد أن العباد هم الصفوة المختارة التى اختارت مراد الله فوق اختيارهم فاستوت مع المقهور تماماً . ومثال ذلك قول الحق سبحانه :

﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا ﴾

(من الآية ٦٣ سورة الفرقان)

إنه يأتى هنا بالخصال الجميلة لهذه الصفوة من العباد . والشيطان نفسه يعلن عدم استطاعته إغواء العباد المخلصين كما يقرر القرآن الكريم :

﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾

(سورة ص)

أما فى الآخرة فكلنا عباد ، وها هوذا الحق سبحانه يخاطب الذين أضلوا غيرهم بقوله تعالى :

﴿ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى ﴾

(من الآية ١٧ سورة الفرقان)

إن الكل عباد لله يوم القيامة ، والكل ينفذ مراد الله ، ولا ولاية لأحد على أى شىء من أبعاضه وجوارحه ، فالعين التى كانت مسخرة للعبد فى الدنيا تأتمر بأمر العبد فيختار أن يرى الحلال أو يرى الحرام ، هذه العين تسترد حريتها من صاحبها فلا ولاية له عليها فى اليوم الآخر ، وكذلك اليد واللسان والجلد والقدم ، وكل الأبعاض . وتكون النفس الإنسانية فى الدنيا كقائد لكل الأبعاض والجوارح تنفذ أوامر الإنسان سواء للخير أو للشر ، وسواء للطاعة أو للمعصية . لكن هذه الأبعاض والجوارح تنطلق يوم القيامة لتشهد على كل ما فعل الإنسان ، فليس لأحد مراد غير مراد الله :

﴿ لِمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾

(من الآية ١٦ سورة غافر)

لقد انتهت مرادات البشر وبقى مراد الله فصار الكل عباداً لله . وعلى هذا فليس هناك إشكال فى قول عيسى : « إن تعذبهم فإنهم عبادك » . ونعلم أيضاً أن كلمة « عبيد » تشملنا كلنا فيما نحن غير مخيرين فيه مثل إرادة التنفس أو ميعاد الميلاد أو ميعاد الموت ، ولكن المؤمنين يرتقون من « العبيدية » إلى « العبادية » بتنفيذ منهج الله ، أما الكافرون والعصاة فهم يعصون الله بما لهم من اختيار ويسيرون فى درب العصيان معاندة لمنهج الله . وحتى يثبت الحق لنا جميعاً أن الكافرين مجرد عبيد فهو يصيبهم بالمرض والفاقة والآلام النفسية العميقة ولا يجرؤ واحد منهم أن يصادم مراد الله فى هذه الأحداث التى يجريها عليهم . ولذلك فالمؤمن يشكر الحق باختياره لأن الله حماه بأدوات الاختيار وجوداً ونضجاً وعدم إكراه .

ولنا أن نلحظ أننا كلنا فى يوم القيامة ـ كما قلنا من قبل ـ نصير عباداً لله فلا مراد لأحد فينا على أى شىء ، وكل المراد يكون لله ، وقد أورد الحق سبحانه ما جاء على لسان عيسى عليه السلام فقال : « إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم » وهذا التذييل لكلمات عيسى ابن مريم لم يأت باعتذار أو طلب الحنان من الله على الذين كفروا بالله وأشركوا به ، فالعزيز الحكيم هو الذى لا يغلب على

أمره ولا تسيطر عليه قوة ولا تحمى هؤلاء الناس قوة من دون الله ، فهو القادر العزيز ، إن شاء غفر لهم فلا راد لمشيئته .

وبعض السطحيين الذين يتلمسون الأخطاء فى القرآن قالوا : ألم يكن الأجدر أن يقول عيسى : إن تغفر لهم فإنك أنت الغفور الرحيم ؟ . ونرد على هؤلاء السطحيين فنقول : إن كل كلمة فى القرآن جاذبة لمعناها ، وكل معنى فى القرآن عاشق لكلمته . ولذلك جاء التذييل فى هذه الآية بما يخدم طلاقة المشيئة فى تعذيبهم أو فى الغفران لهم ، فإن عذبهم فليس هناك قوة ثانية تستطيع أن تحميهم من عذابه ؛ لأنه ـ سبحانه ـ عزيز ، وإن غفر لهم فلا توجد قوة أعلى تسأله : كيف غفرت لهم وقد كانوا كافرين ؟

إذن فسبحانه لا يسأل عما يفعل لأنه عزيز حكيم . وأيضا فقولهم : كان الأنسب أن يقول : فإنك أنت الغفور الرحيم . نقول لهم : هى تناسب قوله : (وإن تغفر لهم) ولكنها لا تناسب « إن تعذبهم » فكان لابد أن يأتى تذييل الآية بما يناسب « إن تعذبهم » وبما يناسب قوله تعالى : « وإن تغفر لهم » .

والحق بعد ذلك يقول :

﴿ قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوۡمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدۡقُهُمۡۚ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ ﴾

نعرف أن هناك صدقاً ينفع يوم القيامة وهو الصدق الموصول بصدق الدنيا . وهناك صدق لا ينفع يوم القيامة ومثال ذلك قول إبليس اللعين كما يحكى القرآن الكريم :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ﴾

(من الآية ٢٢ سورة إبراهيم)

مثل هذا الصدق لا ينفع أحداً ؛ لأن الآخرة ليست دار التكليف . لكن الصدق الموصول بصدق الدنيا هو قول عيسى عليه السلام : « إن كنت قلته فقد علمته » . ولذلك يقول الله فى الصدق الموصول : (هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم) .

ذلك أن صدق الصادقين يوم القيامة هو صدق موصول بصدقهم فى زمن التكليف وهو الدنيا ويتلقون رضاء الله : « لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً رضى الله عنهم ورضوا عنه » وإن تساءل إنسان : كيف يرضى العبد عن ربه ؟ .

نقول : إن العباد المؤمنين عندما يعاينون الجزاء المعد لهم فى الآخرة يمتلئون بالحبور ويقولون :

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ﴾

(من الآية ٧٤ سورة الزمر)

هذه الآية التى تتحدث عن يوم ينفع الصادقين صدقهم بقوله : « ذلك الفوز العظيم » كأن هناك فوزاً سطحياً ، وفوزاً عظيماً . والفوز السطحى : هو ما يعطيه الإنسان لنفسه فى دار التكليف من متعة قصيرة العمر والأجل فيبدو ظاهرياً وكأنه قد فاز ، وفى الحقيقة ليس هو الفوز العظيم لأن الندم سيعقبه ، وأى لذة يعقبها الندم ليست فوزاً ؛ لأن الدنيا بكل ما فيها من نعيم هو نعيم على قدر إمكانات الإنسان وتصوره ، وهو نعيم مهدد بشيئين ؛ أن يزول النعيم عن الإنسان ، وكثيراً ما رأينا منعمين زال عنهم النعيم ، أو أن يترك الإنسان هذا النعيم بالموت ، ونرى ذلك كثيراً . أما النعيم الذى هو الفوز العظيم فهو النعيم الموصول الذى لا يمنعه أحد ، ولا يقطعه شىء . ويختم الحق سبحانه سورة المائدة بقوله :

﴿ لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌۢ ﴿١٢٠﴾ ﴾

والسماء والأرض هما ظرفان للوجود وللكائنات كلها من أبراج وكواكب وشمس وقمر ونجوم وهواء وغمام وماء وحيوان وإنسان . فالأرض وهى المُلْك الأسفل الذى نراه وما فيه من أقوات وحيوان وإنسان . والسماء وما تحوى وتضم من الملكوت الأعلى ، هما جميعا لله مِلْكا ومُلْكاً فهو ـ سبحانه ـ الذى يملك كل شىء ويملك كذلك المالك للشىء . وقول الحق : « لله ملك السموات والأرض » ينطبق مع قول المسيح عيسى ابن مريم :

﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾

(سورة المائدة)

أى أنه ليس لشىء من خلق الله أن يخرج عن مرادات الله ، أما فى الدنيا فقد جعل الله أسبابها فى أيدى الناس ، رزق إنسان فى يد إنسان آخر ، ومَلَّك بعضنا أمر بعض ، فهناك مالك الطعام ومالك الثوب ، ولكن ليس كل مالك مَلِكاً ؛ لأن المَلِك هو الذى يملك المالك ، وهذه سنن الكون . وفى الآخرة هناك مالك واحد هو مالك يوم الدين . فكأن الحق أنهى هذه السورة بالحديث عن نهاية الحياة ؛ لأنه سبحانه قد بدأها بالحديث عن أحكام الله فقال :

﴿ أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ ﴾

(من الآية ١ سورة المائدة)

لقد تكلم سبحانه فى الأحكام عن الصيد فى البر والصيد فى البحر وعن الحلال والحرام من الأنعام وعن النكاح ، وعن كل ما يتعلق بمسئوليات الحياة ، ومَلَّكَ بعضنا أمر بعض ، لكن فى اليوم الآخر فالمسألة مختلفة . فبدأ السورة بأمر هو : (أوفوا بالعقود) .

إن كل أمرٍ ورد من الآمر الأعلى ، فالمأمور يفعل أو لا يفعل . فهناك من الناس من يؤمن ومن يعصى ، ومعنى ذلك أن المأمورين لهم حرية الاختيار ، فلو كان الأمر لا بد أن يفعل دون اختيار لكان الآمر قد خلق الخلق وهم مفطورون على أن يفعلوا فيكون بذلك قد قهرهم ، لكن الآمر الأعلى ترك هذه الأوامر لاختيار البشر ، وهم صالحون للطاعة والوفاء بالعقود ، وهم صالحون للمعصية .

لقد بُدأ سبحانه السورة بمنطقة الاختيار فى الإنسان التى خلقها الله لينشأ عنها التكليف . وأوضح بعد ذلك أن للاختيار أمداً محدوداً سينتهى ، ويجمع الله الناس يوم ينفع الصادقين صدقهم ويكون الأمر كله لله .

ويختم الحق السورة بقوله سبحانه : « لله ملك السموات والأرض » أى أنه سبحانه يملك الكون كله ، والكون ـ كما نعلم ـ مكون من أجناس متعددة . وأول جنس فى الكون هو الخادم الذى لا يُخْدَم هو الجماد ، والجماد قد يكون ماءً أو جبالاً أو حديداً ، أو شمساً ، أو قمراً ، أو نجوماً ، كل هذه جمادات ، أى ليس لها حس . وهذه الجمادات تخدم أول ما تخدم النبات . والنبات يخدم الحيوان ، والحيوان يخدم الإنسان .

هكذا يكون الجماد خادماً لكل ما يعلوه من نبات وحيوان وإنسان . النبات يخدم الحيوان والإنسان . والحيوان يخدم الإنسان . وكل هذه الأشياء التى تخدم الإنسان لا اختيار لها وكلها مقهورة لخدمة الإنسان ؛ فالشمس لم تغضب يوماً على البشر فلم تمدهم بحرارتها ولا المطية تأبّت على صاحبها .

والإنسان فيه قسمان : قسم مقهور للحق فلا يستطيع الإنسان أن يتحكم فيه أو يسيطر عليه مثل المرض أو الموت وهو فى ذلك يشترك مع الحيوان والنبات والجماد ، وقسم يكون الإنسان فيه مختاراً وهو تطبيق المنهج .

إننا إذا نظرنا إلى الجانب الذى قهر فيه الحق الإنسان نجده لمصلحة الإنسان . فالإنسان لا يختار أن يتنفس ولا أن يسرى الدم فى عروقه ولا أن تعمل كليتاه ، إنه مقهور فى كل ذلك . ومن رحمة الله بالخلق أن جعلهم مسيّرين ومقهورين فى هذه النواحى ، فلم يجعل تنفس أحد بيد صاحبه ولا جعل القلب يعمل بإرادة الإنسان . والإنسان ـ إذن ـ يُخير فى مسائل التكليف فقط . وكأن الحق يذكر الإنسان أن منطقة الاختيار هى عقد بين المؤمن وربه ؛ لأن الاختيار سيسلب من العباد يوم القيامة ، ويكون كل العباد مقهورين ويصير الكائن البشرى مثل الجماد والنبات والحيوان . ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٢٠﴾ ﴾ (سورة المائدة)

إنّ الإنسان يوم القيامة سيصير بلا اختيار لأن الحق استعمل « ما » هنا وهى تدل على الأشياء غير العاقلة أى التى لا اختيار لها . كأن العقل له عمل فى الدنيا وهو التمييز بين البدائل ، أما فى الآخرة فالكل متساوٍ أمام خالقه . وعلمنا من قبل الفارق بين « مُلْك » و« ملكوت » . وكلنا يقرأ قول الحق :

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾

(من الآية ٧٥ سورة الأنعام)

كأن الحق ينبهنا إلى أن العالم فيه ما يقع تحت الإحساس والإدراك ، وفيه ما لا يقع تحت الإحساس والإدراك . فالذى يقع تحت الحس والإدراك هو عالم المُلْك . والذى لا يقع تحت الحس والإدراك هو عالم الملكوت . ولا نعرف عن عالم الملكوت إلا ما أخبرنا به الله . وهناك فى عالم الملك ما يخفيه الله عنا ، وسبحانه وحده هو القادر على كل شىء ، والحق يطلب منا أن نعتبر بما فى العالم المشهود من ظواهر . وله سبحانه مطلق العلم بعالم « الملكوت » أى ببواطن هذه الظواهر غير المشهودة . و« الملك » و« الملكوت » موجودان فى الدنيا والآخرة ، إلا أن المُلْك ظاهر والملكوت خفى .

ويوزع الحق سبحانه وتعالى أسباب الملك فى الدنيا بين أيدى خلقه ، ويملك التصرف فيها بين أيدينا وفيها خفى عنا ، ويشاء الحق أن ينهى هذه المسألة من مبررات الخلافة للإنسان على الإنسان فى الأرض فيقول : « لله ملك السموات والأرض وما فيهن » فلله الملكوت ، ولكم بعض الملك أيها العباد فى ظواهر نسبة الأشياء إلى أسبابها وذلك فى الدنيا ، أما يوم القيامة فكل شىء ينتهى إلى الله .

ولكن لماذا قال الحق : « وما فيهن » على الرغم من أن الحق استخلف الإنسان فى الأرض ، والإنسان عاقل وكان من حقه أن يُغلّب فيأتى القول : ومن فيهن ؛ لأن (مَن) للعاقل ، لقد أراد الحق بذلك أن ينبئنا أن الكل أصبح لا اختيار له ، وأصبح مقهوراً على المراد منه فقد تساوى الجميع عاقلهم وغير عاقلهم فيقول لنا : « وما فيهن وهو على كل شىء قدير » .

وبهذه الآية ختمت سورة المائدة . وهى سورة مدنية ، وهى من آخر ما نزل من القرآن الكريم . وفيها التشريع . وفيها التكاليف . وفيها الأحكام . وفيها ما يتعلق بكل السور المدنية من بيان اعوجاج أهل الكتاب .

ومن بعد ذلك جاءت سورة الأنعام ، وهى مكية . وجاءت المكية بعد المدنية فى الترتيب المصحفى حسب ما انتهى إليه آخر عرض للقرآن فى آخر رمضان من حياة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم مع جبريل عليه السلام . ومن المعلوم أن القرآن له « ترتيب نزولى » و« ترتيب مصحفى » . والترتيب النزولى حسب ما نزلت سور القرآن فى مكة أو المدينة . ورب قائل يقول : إن الحق أنزل هذا القول الكريم فوق عرفات وهو قوله سبحانه :

﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي ﴾

(من الآية ٣ سورة المائدة)

فكيف يقال ذلك ؟ .

نقول : لنفهم معاً معنى الاصطلاح القائل : « مدنى » و« مكى » ، هناك آيات من القرآن نزلت بالمدينة ، وآيات أخرى نزلت بمكة ، وآيات ثالثة نزلت فيما بينهما ، وآيات رابعة نزلت بين السماء والأرض . وجاء الاصطلاح « مكى » على الآيات التى نزلت قبل الهجرة ، وجاء الاصطلاح « المدنى » على الآيات التى نزلت من بعد الهجرة ، وإن نزلت بمكة .

وأراد الحق أن يكون للقرآن ترتيب نزولى وترتيب مصحفى ، وقد شاء سبحانه أن يعدل بالقرآن ميزان الكون الإنسانى المضطرب ، واضطراب الكون الإنسانى إنما يكون بواسطة أناس لا يؤمنون بإله ، أو بأناس يؤمنون بإله ويشركون معه غيره فيعبدون أوثاناً ، ويقولون : « ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى » أو بأناس يعبدون النار ، أو بأناس تابعين لمنهج سماوى ولكن حرفوا فيه قليلاً أو كثيراً .

إننا نجد أن الأقرب إلى الإيمان بالله هم الأجناس الذين آمنوا بالرسالات السابقة على رسول الله ، فقد جاءتهم الرسل ومعهم المعجزات ، ومعهم كتب المناهج ، والمنطق يقتضى أن يكون هؤلاء هم الأقرب للإيمان من غيرهم ، ولذلك كان من المطلوب أن نواجه أولاً الوثنيين ونصفى المعركة مع أهل الكتاب من بعد ذلك ؛ لأن أهل الكتاب لهم إلف بنزول منهج السماء إلى الأرض بواسطة الرسل .

إذن ففى نزول القرآن كانت الأمور المكية التى تتعلق بالعقيدة الأساسية هى الظاهرة . وهى الاعتراف بألوهية واحدة تحكم الكون . أما فى المدينة فقد ناقش الرسول صلى الله عليه وسلم أهل الكتاب فى كل أمور الدين بعد أن استتب أمر التوحيد .

لقد كان هذا الترتيب منطقياً مع هذه الحقيقة . فقد كان فى العالم موجتان اثنتان : موجة إلحاد ، وموجة تغيير فى منهج الله السماوى . ولذلك كانت قلوب المسلمين مع قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أهل الكتاب ؛ لأنهم على الأقل يؤمنون بإله ، وأن الإله يرسل الرسل ومعهم المنهج الإلهى والمعجزات الدالة على صدق رسالتهم ، وحتى الذين انحرفوا من أهل الكتاب كانوا يتمسحون فى هذا الكتاب المنزل إليهم بالرغم من أنهم حرفوه .

لقد وجدنا الرسول صلى الله عليه وسلم يقف بجانب الروم عندما واجهوا فارس . وعندما هزمت الروم حزن المسلمون وفرح الكفار ؛ لأن الروم كانوا أهل كتاب ، إنهم كانوا نصارى ، وكانت هزيمتهم تعنى انهزام منطق السماء أمام منطق الإلحاد ، لذلك حزن المسلمون ، وفرح الكفار . وأراد الله أن يصور لنا الموقف ، وأن يوجه قلوبنا إلى الذين يؤمنون أيضاً بأن هناك إلهاً حتى ولو كانوا قد أخطأوا فى تصور هذا الإله وفى البلاغ عنه ، أو أخطأوا فى تأويل ما جاءت به الرسل فقال سبحانه :

﴿ الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝٣ فِى بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝٤ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ﴾

(سورة الروم)

إنّ المسلمين يفرحون بنصر الروم على فارس ؛ لأن الروم لهم علاقة بالسماء ، والرسل ، والمناهج ، والوحى . وجعل الله الأمر واضحاً هكذا لكى يبين موقفنا وليجعلها إعجازاً لكتابه ولرسوله ؛ لأن الرسول صلى الله عليه وسلم كان موجوداً بمقر الدعوة وهو الجزيرة العربية ، وليس عنده سفارات ولا مخابرات ولا مكتب حربى حتى يأتيه بالأخبار وينبئه عن استعدادات الروم التى تُجرى لرد الهزيمة .

هذا الرسول يتنبأ بخبر معركة قادمة بين الفرس والروم ، وينتصر فيها الروم ، معركة تحدث بعد سبع أو تسع سنوات . وعندما راهن سيدنا أبو بكر رضى الله عنه المشركين على ذلك ، وجعل بينه وبينهم خمس سنين أجلاً لغلبة الروم وظهورهم على الفرس ، ذكر ذلك للنبى صلى الله عليه وسلم ، فقال له : « البضع ما بين الثلاث إلى التسع فزايده فى الخطر وماده فى الأجل » فكانت مائة بعير إلى تسع سنين .

إن الرسول صلى الله عليه وسلم يتكلم كلام الواثقين ، لأنه ينقل الخبر عن الله ، وجعله الله قرآناً يتلى ويصلى به ، ومحفوظاً أبد الدهر ، ولا يمكن أن يكذب هذا القائل إنه - سبحانه - هو الذى يملك ميزان الكون كله ، وأى إنسان من رجالات الحرب المعاصرين لا يمكنه أن يتنبأ بمصير معركة قادمة ، على الرغم مما قد يُجمع لها ويحشد من معلومات عن القوة والعدة والعتاد . ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم يبلغ عن الله وهو واثق تمام الوثوق مما يبلغ .

وقد واجه الرسول صلى الله عليه وسلم الخصم الإلحادى ، وكان قلبه مع أهل الكتاب ، ونرى أيضاً أن أهل الكتاب كانوا يستبشرون بمجىء الرسول صلى الله عليه وسلم . ألم يقل بعض أهل الكتاب وهم اليهود فى المدينة للأوس والخزرج : قد أظل زمان نبى يُبعث وسنتبعه ونقتلكم قتل عاد وإرم . ولكنهم كفروا بالرسول صلى الله عليه وسلم من بعد ذلك ؛ لأنه سيسلب منهم السيادة ، والسلطة الزمنية .

إذن فنزول القرآن أولاً كان فى مكة ، ومن بعد ذلك نزل فى المدينة . لكن فى الترتيب المصحفى - كما قلنا - جاءت المدنيات أولاً ، وبعد ذلك جاءت المكيات . وذلك حسب ما أراد الله عندما راجع رسول الله صلى الله عليه وسلم القرآن مع جبريل عليه السلام فى رمضان الأخير من حياة الرسول الكريم .

إنَّ أصل الإيمان واحد ، وهو الإيمان بإله ، ووحى ، ورسل ، ومنهج ، وكل ذلك له فائدة إقامة نظام يحكم الحياة . وهو نظام ضرورى لتنصلح حال الحياة سواء آمن الناس بإله أو كفر بعضهم . وجاء هذا النظام الذى يحكم الحياة فى السور المدنية أولاً ولم يغفله الحق فى بعض السور المكية . إنّ الحق شاء لرسوله أن يوحد القلوب

المؤمنة بإله واحد أولاً ليواجهوا معسكر الإلحاد . ولكن هناك من اختلف وتخلف عن مؤازرة موكب الإيمان .

وهكذا تنتهى خواطرنا حول سورة المائدة ، ومع أن سورة المائدة مدنية وسورة الأنعام مكية إلا أن السياق بين تذييل المائدة وافتتاح الأنعام فيه اتساق واضح . فالحق يقول فى آخر سورة المائدة :

﴿ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٢٠﴾ ﴾

ويقول سبحانه فى أول سورة الأنعام :

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَٰتِ وَالنُّورَ ﴾

(من الآية ١ سورة الأنعام)

فسبحانه وتعالى قدير ويملك كل الكون ، ولم يأخذ ذلك الملك افتئاتا أو ادعاء ، ولكنه جل شأنه هو الذى خلق السموات والأرض وهو الذى جعل الظلمات والنور .




سورة الأنعام (٦)
مكية



ويبدأ سبحانه سورة الأنعام بقوله تعالى :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ۝١ ﴾

وساعة تسمع كلمة الحمد ، فعليك أن تفهم أنها كلمة المدح والثناء والشكر . فالحمد أمر فطرى موجود ونوجهه لله ، فقد أخذ ـ سبحانه ـ بأيدينا ووضح وبين لنا أن الحمد لله حتى لا نختلف فى مجال توجيهه ؛ لأنه سبحانه هو الذى أمد كل إنسان بشيء من أسبابه .

وحين تسأل أحداً عن شيء فإن سلسلات ما أمدك به منسوبة لله . إذن فكل حمد يجب أن يتوجه إلى الله .

وأضرب هذا المثل : هب أن إنساناً وقعت به طائرة فى مكان ما موحش ، لا يوجد به أى شيء من أسباب الحياة ، وأراد أن يأكل ويشرب ويستتر حتى ينام ، لكنه لم يجد شيئاً من هذا . وأخذته سنة من النوم ثم استيقظ فجأة فوجد مائدة عليها كل أطايب الطعام والشراب ، وبجانب ذلك وجد خيمة فيها فراش وغطاء وصنبور للغسيل . وساعة يرى كل ذلك فهو لا يبدأ فى استخدام أى شيء قبل أن يتساءل عن مصدره ، لأنه يريد أن يشكر الذى أنعم عليه كل هذه النعم السابغة . فكأنك أيها الإنسان حين واجهت الكون ووجدت أشياء تخدمك ولا عمل لك فيها ، ولا للسابقين عليك عمل فيها ؛ لأن أحداً لم يدعها لنفسه ، فوجدت شمساً تشرق ، وهواءً يهب ، وماءً يروى ، وأرضاً تُزرع ، وغير ذلك من كل ما يخدمك ، وأخبرك

الحق أنه هو الذى منحك كل هذا ألا تشكره إذن ؟

إن البشرية عندما استفادت من المصباح الكهربى قامت الضجة لتكريم اديسون الذى اخترعه ، فما بالنا بخالق الشمس التى تنير الكون كله ؟ إن الاختراعات البشرية تخلد أصحابها وتقوم الضجة لتكريمهم . فما بالنا بخالق الكون كله ؟ ما بالنا نكرم صانع المصباح الذى ينير مساحات ضيقة مهما اتسعت بالقياس إلى الأرض ويغفل بعضنا عن تنزيه خالق الشمس التى تنير الأرض فى النهار وتختفى نصف اليوم حتى يستريح الإنسان ؟ ولكنها تسير سيرا دائما ، فإن غابت عنك فقد أشرقت على غيرك فهى فى فلكها تسبح .

إذن فالحمد لله حينما استقبل الإنسان هذا الوجود ، ووجد كل مقومات الحياة التى لا يمكن أن تخضع لقوة بشر ، ولا لادعاء بشر . إن الحمد أمر واجب الوجود وإن اختلف الناس حول من يوجه له الحمد . إننا نوجهه إلى الله تعالى لأنه هو واهب النعم .

وسور القرآن التى بدأها الخالق بالحمد لله خمس سور هى : الفاتحة ، والأنعام ، والكهف ، وسبأ ، وفاطر ، وتتركز حول شيئين : تربية مادية بإقامة البنيان بالقوت أو بقاء النوع بالتزاوج أو بتربيتهم تربية روحية قيمية ، فيمدهم بمنهج السماء . فمرة يقول الحق : « الحمد لله رب العالمين » . وكلمة « رب » تعنى أنه تولى تربية الخلق إلى غاية ومهمة ، والتربية تحتاج إلى مقومات مادية ومقومات معنوية ، روحية ومنهجية ؛ لذلك يأتى بها الحق شاملة للكون كله كما فى فاتحة الكتاب :

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ﴾

(سورة الفاتحة)

فهو سيد كل العالمين ومالكهم ومربيهم ، وهو الذى ينشئهم التنشئة التى تجعلهم صالحين لأداء مهمتهم فى الحياة بقوة البنيان وببقاء النوع بالتزاوج وبقوة القيم . ومرة ثانية يأتى الحق بالمنهج وحده ، مثل قوله الحق سبحانه :

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَـٰبَ ﴾

(من الآية ١ سورة الكهف)

ومرة أخرى يأتى الحق بالأشياء المنظورة فقط فيقول :

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ﴾

(من الآية ١ سورة الأنعام)

إنه سبحانه يأتى هنا بأشياء تختص بالمادة المنظورة ، كالسموات والأرض ، والظلمات والنور ، وهى أشياء يمكنك أن تراها بوضوح ، ومرة يأتى الحق بأشياء غير منظورة مع الأشياء المنظورة كقوله الحق :

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ﴾

(من الآية ١ سورة فاطر)

ويأتى بالمجموع كله فى فاتحة الكتاب ، ويأتى بالمنهج فقط كما فى سورة الكهف ، ويأتى بالكون المادى كما فى سورة الأنعام ، ويأتى بالكون المادى والمعنوى كما فى سورة فاطر .

إذن فالحمد مُسْتَحَقٌ مستحق ، ويُوجه لله حتى ولو كانت أسبابه الظاهرة من غير الله ؛ لأن كل أسباب الدنيا والكون تنصرف أخيراً إلى الله . وهنا ـ فى سورة الأنعام ـ خص الحق الحمد لله خالق السموات والأرض بما فيهما من كائنات ، وأتى من بعد ذلك بالظلمات والنور . والخلق كما نعلم إيجاد من عدم . والجعل يأتى لشىء مخلوق ويوجه إلى الغاية منه . ولذلك قال الحق : « وجعل الظلمات والنور » والظلمة أمر عدمى ، والنور أمر إيجادى ، والنور يبدد الظلمة .

إذن فالأصل هو وجود الظلمة التى تختلف فى ألوانها ، مثال ذلك : ظلمة الكهف ، وظلمة البحر ، وظلمة البر ، ولذلك قال الحق سبحانه :

﴿ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ﴾

(من الآية ٤٠ سورة النور)

إنها يده يعرف اتجاهها ولكنه لا يكاد يراها . إذن فالحق يخصص الحمد هنا لخلق السموات والأرض لأنها ظرف كل الكائنات . وقال العلماء : لا تأخذ الظلمة على

أنها الظلمة المادية التي لا ترى فيها الأشياء لا غير ، ولا تأخذ النور على أنه النور الحسي الذي ترى به الأشياء فقط ، ولكن لنأخذ الظلمات والنور على الأمر المعنوي والأمر الحسي كذلك ـ وسبحانه ـ جعل الظلمات في هذه الآية جمعا وجعل النور مفردا ، لأن الظلمات تتعدد أسبابها لكن النور ليس له إلا سبب واحد .

والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾

(من الآية ١٥٣ سورة الأنعام)

والسبل هي جمع ، وسبيل الله مفرد لأنه واحد . كأن سبل الشيطان متعددة ، وسبل الناس كذلك متعددة حسب أهوائهم ، لكن سبيل الله واحد ؛ لذلك يجعل الهداية نوراً والضلال ظلمات .

« وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون » ونقول : ـ ولله المثل الأعلى ـ إنك أيها الإنسان عندما يفيض الله عليك ويجعل من بين يديك ما تعديه من جميل إلى غيرك فأنت تقول : أنا صنعت لفلان كذا وكذا ثم ينكر من بعد ذلك . كأن « ثم » تأتي هنا للاستبعاد . إن « ثم » تأتي للعطف مثل حرف « الفاء » . ولكن الفاء تكون للجمع بين شيئين ليست بينهما مسافة زمنية ، مثال ذلك قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ﴾

(سورة عبس)

ومن يحب إنساناً ومات هذا الإنسان فهو يعجل بدفنه ، وذلك حتى لا يرم ويتعفن أمامه . ولذلك يقول الحق سبحانه من بعد الإقبار :

﴿ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾ ﴾

(سورة عبس)

كأن فترة زمنية قد تطول حتى تقوم القيامة فينشر الحق خلقه . وقد يكون البعد بُعْدَ رتبة أو منزلة ، ولذلك يأتي الحق بـ « ثم » هنا كفاصلة بين خلق السموات والأرض ، وجعل الظلمات والنور ، وبين الذين كفروا بربهم ، « ثم الذين كفروا

بربهم يعدلون » إنهم الذين يساوون الله بغيره . ونستطيع أن نجعل « يعدلون » من متعلقات كفرهم . . أى أنه بسبب كفرهم يسوون الله بغيره . أو يكون المراد أنهم يعدلون أى يميلون عن الإله الحق إلى غير الإله ، أو يجعلون لله شركاء . وهو قول ينطبق على الملحدين أو المشركين بالله . لقد أوجد سبحانه السموات والأرض من عدم وليس لأحد أن يجترىء ليقول لله : كيف خلقت السموات والأرض ؟ لأنه سبحانه يقول فى آية أخرى :

﴿ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ ﴾

(سورة الكهف)

وأوجد سبحانه السموات والأرض من عدم ، فالسماء والأرض ظرف للكون وتم خلقهما قبل الإنسان وقبل سائر الخلق ، ولم يشهد خلقهم أحد من الخلق ، فلا يصح أن يسأل أحد عن كيفية الخلق ، بل عليه أن يأخذ خبر الخلق من خالقهما وهو الله . وقد أتى بعض الناس وقالوا : إن الأرض انفصلت عن الشمس ثم بردت ، وهذا مجرد ظنون لا تثبت ؛ لأن أحداً منهم لم ير خلق السموات والأرض . وهؤلاء هم أهل الظنون الذين يدخلون فى قوله تعالى :

﴿ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴾

(من الآية ٥١ سورة الكهف)

لقد قال القرآن ذلك من قبل أن يأتى هؤلاء . وكأنه سبحانه يعطينا التنبؤ بمجيء هؤلاء المضلين قبل أن يوجدوا ، فهم لم يشهدوا أمر الخلق ، بل طرأوا ـ مثلنا جميعاً ـ على السموات والأرض ، وكان من الواجب ألا يخوضوا فى أمر لم يعرفوه ولم يشاهدوه . وكذلك قولهم عن خلق الإنسان كفرد وهم لم يكونوا مع الله لحظة خلق الكون والإنسان ، ولا كانوا شركاء له ، ولذلك يعلمنا الحق الأدب معه فيقول سبحانه :

﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُولَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

وعلينا أن نأخذ خبر الخلق عن الله القائل :

﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ② ﴾

هو سبحانه يأتى لنا بأمر الخلق فأوضح أنه خلقنا من طين ، بعد أن تكلم عن أمر خلق السموات والأرض ، وهو ـ سبحانه ـ قد أخبرنا من قبل ذلك أنه خلقنا من تراب وحمأ مسنون ومن صلصال كالفخار ، وهى متكاملات لا متقابلات ، وكذلك أوضح الحق أنه خلق كل شىء من ماء ، فاختلط الماء بالتراب فصار طيناً ثم حمأ مسنوناً ثم صلصالاً كالفخار وكلها حلقات متكاملة . ونحن لم نشهد الخلق ولكنا نتلقى أمر الخلق عنه ـ سبحانه ـ ونعلم أن الطين مادة للزرع والخصوبة .

وعندما قام العلماء بتحليل الطين وجدوه يحتوى على العديد من العناصر ، وأكبر كمية من هذه العناصر هى الأوكسجين ، ثم الكربون ، ثم الهيدروجين ، ثم الفلور ، ثم الكلور ، ثم الصوديوم ، ثم المغنسيوم ، ثم البوتاسيوم ، ثم الحديد ، ثم السيلوز ، ثم المنجنيز وغيرها .

والعناصر فى هذا الكون أكثر من مائة ، ولكنها لا تدخل كلها فى تركيب الإنسان ، إنما تدخل فى تركيب ما ينفع الإنسان من بناء وزينة وغير ذلك . مصداقاً لقوله الحق سبحانه وتعالى :

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾

(من الآية ٥٣ سورة فصلت)

لقد قام أهل الكفر من العلماء بهذا التحليل وذكروا تلك النتائج التى أخبرنا بها الرسول الكريم فى الكتاب المعجز الباقى المحفوظ بأمر الله كحجة مؤكدة . وصان الحق لنا هذه الحجة حتى يأتى عالم غير مؤمن ويتوصل إلى بعض من الحقائق الموجودة

فى القرآن .

ولم يحضر أحد منا لحظة الخلق ، ولكنا نشهد الموت وهو نقض للحياة ، ونقض الشيء يكون على عكس بنائه . ونرى من يهدمون بناءً يبدأون بهدم آخر ما تم بناؤه وتركيبه ، فيخلعون الزجاج أولاً وهو آخر ما تم تركيبه ، ثم الأخشاب ، ثم الأحجار ، كذلك نقض الحياة بالموت . تخرج روح الإنسان أولاً ثم بعد ذلك ييبس ويجف ليصير صلصالاً كالفخار ثم حمأ مسنوناً أى يصيبه النتن والعفن ثم يتبخر منه الماء فيصير تراباً . ولذلك نحن نصدق الذى خلقنا فى أمر خلقنا ونصدقه فى أمر السموات والأرض ، وعندما يقول قائل بغير ذلك ، نقول له كما أخبر القرآن الكريم :

﴿ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ ﴾

(سورة الكهف)

ويخبرنا الحق هنا بقضية الأجل : « ثم قضى أجلاً وأجل مسمى عنده ثم أنتم تمترون » ولا أحد فينا يعلم أجله مهما عرض نفسه على الأطباء ، والأجل الأول هو الأجل المحدد لكل منا ، والأجل المسمى عنده هو زمن البرزخ ومن بعده نبعث من قبورنا ، ولذلك قال الحق سبحانه :

﴿ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ﴾

(من الآية ١٨٧ سورة الأعراف)

وقد يعرف الإنسان مجىء مقدمات نهايته واقتراب موته بواسطة ما كشف الله عنه من أسراره بواسطة تقدم العلماء . فليس هذا من الغيب وفى بعض الحالات يصح هذا المريض ويشفى ويبرأ ، ويقولون : قد حدثت معجزة . أما الأجل المسمى فلا نستطيع أن نعرفه ، وحدد الحق سبحانه ذلك فى خمس مسائل :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾

(من الآية ٣٤ سورة لقمان)

وقد تكلم الحق عن المكان ولم يتكلم عن الزمان : « ثم قضى أجلاً » أى قضى أجلاً لكل واحد ، ثم جعل أجلاً لكل شيء مسمى . والآجال فى الآحاد تتوارد إلى أن يأتى أجل الكل وهو يوم القيامة ، « ثم أنتم تمترون » والدلائل التى أوردها الحق كفيلة بألا تجعل أحداً يشك ، ولكن هناك من يمارى فى ذلك بعد كل هذه المقدمات .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ ۖ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ۝٣ ﴾

والله هو علم على واجب الوجود ، وهو الاسم الذى اختاره الله لنفسه شاملاً لكل صفات الكمال ، والصفات الأخرى نحن نسميها الأسماء الحسنى : مثل القادر ، والسميع ، والبصير ، والحى ، والقيوم ، والقهار ، كلها صفات صارت أسماء لأنها مطلقة بالنسبة لله . وهذه الصفات حين تنصرف على إطلاقها فهى لله ، ومن الجائز أن تضاف فى نسبتها الحادثة إلى غير الله . أما اسم « الله » فلا يطلق إلا على الحق سبحانه وتعالى .

ويتحدى الله الكافرين به أن يسمى أحدهم أى شيء غيره بـ« الله » .

﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴾

(من الآية ٦٥ سورة مريم)

وسمع الكافرون ذلك ولم يجرؤ أحدهم أن يسمى أى شيء باسم « الله » . وهو لون من التحدى باقٍ إلى قيام الساعة ولا يجرؤ أحد أن يقول عكسه أو أن يقبله فيسمى شيئاً أو كائناً غير الله بـ« الله » .

ولا نعرف شيئاً وجد بذاته أزلا وقبل أن يوجد الكون إلا الله ، أما أتفه الأشياء فى حياتنا والتى نعتبرها من غير الأساسيات فهى لا توجد بذاتها بل لا بد من صانع لها . فكوب الماء مثلاً لا يؤدى ضرورة قصوى فى الحياة ؛ لأن الإنسان يستطيع أن يشرب الماء بكفه أو بفمه مباشرة ، هذا الكوب احتاج من الإنسان إلى علم وإمكانات وقدرة وحكمة . وجاء العلم للإنسان بما وهبه الله للإنسان من قدرة بحث عن المادة التى فى الكون ، فنظر الإنسان إلى الرمل واكتشف وسيلة لصهر الرمال ، واكتشف وسيلة لتنقية الزجاج بمواد كيماوية ، واكتشف أسلوباً آلياً لإنتاج هذه الأكواب .

لقد أخذت رحلة صناعة الكوب من الإنسان رحلات علمية وصناعية كبيرة ، وهو غير ضرورى كضرورة قصوى فى الحياة ، إنما هو من الترف ، فما بالنا بالضروريات من شمس ، وقمر وهواء وماء ؟ هذه الأشياء ـ إذن ـ لا بد لها من صانع . وإذا كان صانع أتفه شىء فى حياة الإنسانية يذهب إلى إدارة لتسجيل اختراعه ؛ ليستفيد منها ، فما بالنا بالذى صنع كل شىء ، ولم يصنعها ليستفيد منها ولكن ليستفيد خلقه منها .

إن البشرية تعرف من صنع المصباح وتاريخه ، وأين ولد ، وأين عاش ، وأين تعلم . فما بالنا بالذى صنع الشمس والنجوم والأرض والإنسان ؟ ورحمنا الحق فدل على نفسه وأخبرنا أنه سبحانه الذى خلق . ولم يأت أحد ليعارضه سبحانه ويدعى صناعة الكون ، ومادام لا يوجد شىء له أثر إلا بمؤثر ، فلا بد لنا أن نعرف أنه سبحانه مادام قد قال : إنه هو الذى خلق وأبدع ولم تنشأ معارضة له فإن قوله هو الصدق . وإن كان هناك صانع للكون ولم يعلم أن الله قد أخبرنا أنه سبحانه الذى خلق الكون فذلك الصانع النائم التائه عما صنع لا يصلح أن يكون إلهاً . وإن كان قد علم أن الله أخبرنا أنه سبحانه خلق لنا الكون ولم يجرؤ هذا الصانع على أن يبلغنا بالحقيقة فهذا ـ الصانع المدعى ـ ليس له حق فى الألوهية .

أما الحق سبحانه ، فقد أعلمنا وعلمنا بالدليل القطعى أنه الذى خلق الكون ، ومادام الأمر كذلك فيجب أن نستمع له ، والترجمة العملية لسماع الحق هى عبادته وطاعته فيما أمر وفيما نهى ، بل إن عالم الملكوت الذى لا ترونه يعبده سبحانه . وكل شىء فى الوجود مؤتمر بأمره ويسبح بحمده .

﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

وتدل السموات السبع والأرض وكل مَن فيهن من مخلوقات على دقة الصنعة وعلى ملكية الله لها وتنزهه سبحانه وتقدسه بأنه لا شريك له ، وكل شيء له وسيلة للتسبيح والتنزيه ، ولكنا لا نرى ذلك ولا نفهمه ولا نفقهه . ويبلغنا الحق هنا أنه المعبود الموجود فى كل الوجود . « وهو الله فى السموات وفى الأرض يعلم سركم وجهركم » ومادام معبوداً فينبغى أن يكون مطاعًا فى الأوامر والنواهى . ولكن بعضنا يطيع ، وبعضنا يعصى . ولذلك رتب الحق على الطاعة جزاء : إما نعيماً وإما عقاباً . وهناك فارق بين وجود الشيء وإدراك الشيء ، وإياك أن تخلط بين إدراك الوجود ، والوجود ، فالذى لا تدرك وجوده إياك أن تقول إنه غير موجود .

ومثال ذلك ما نراه على مر تاريخ البشرية . لقد ترك الخالق لخلقه فى الوجود أسراراً يستنبطونها فتبرز لهم بالمنافع وكانت قبل أن يعرفها البشر ويقفوا عليها تؤدى مهمتها فى الوجود ، ومثال ذلك الجاذبية الأرضية ؛ لقد كانت موجودة قبل اكتشاف الإنسان لها وتؤدى عملها قبل أن يعرفها الإنسان ، وجاء ذكرها فى القرآن بشكل لا يثير بلبلة ساعة نزل القرآن :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾ ﴾

(سورة فاطر)

أوجد الحق قوانين الجاذبية لتمارس السموات والأرض أعمالها ويحفظها بقدرته من الزوال ، وجعل من الجاذبية نظاماً بديعاً يحفظ الكون من الاختلال . إذن فالجاذبية كانت موجودة ، ولم يعرفها الإنسان إلا مؤخراً ، وهكذا نعرف أن هناك فارقاً بين وجود الشيء وبين إدراك الشيء .

فإذا قيل لك :

﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

فأنت أيها المؤمن تصدق ذلك ؛ فذات الحق لا تبصرها العيون وهو يعلم كل ما هو خفى عنك ولا تدركه عيونك . وفى الكون أشياء قد لا ندركها على الرغم من أنه سبحانه وتعالى خلقها وعملت فى خدمتك ، وبعد أن أدركتها ظلت تعمل فى خدمتك ، فإن حدثك الحق بشىء لا تدركه فلا تقل : مادام هذا الشىء غير مدرك فهو غير موجود . وعلى سبيل المثال أنت لا تدرك الكهرباء ، ولا الجاذبية ، ولا قمة أسرار الحياة وهى الروح التى تعطيك سر الحياة ، وتنفعل بها كل جوارحك ، وإن خرجت الروح صرت جثة هامدة ، إن أحداً لا يعرف مكان الروح ولا يدركها ، ولا سمعها أحد أو شمها أو ذاقها أو لمسها . إن الروح موجودة فى ذاتك ولا تدركها ، هأنتذا ـ إذن ـ لا تستطيع أن تدرك مخلوقاً لله فكيف تدرك خالقك وهو الله ؟ إنك لو أدركته لما صار إلهاً ؛ لأنك إن أدركت شيئاً فقد قدرت عليه جوارحك ، ويصير مقدوراً عليه لعينك أو ليدك ، والقادر المطلق لا ينقلب مقدوراً أبداً ، ومن عظمته أنه لا يُدرك .

مثال آخر : الرؤيا التى تراها وتتحرك فيها . هل الرؤيا موجودة فى جسمك ؟ أو ماذا ؟ والحِلْم وهو الصبر على غيرك بأن تتحمله وتعطف عليه وتضحك له ، هذا الحلم يجعلك تنفعل . فهل تدرك أنت هذا الحلم ؟ إنه معنى من بعض المعانى فى نفسك التى تحرك جوارحك ولا تدركها ، مثله مثل الشجاعة التى تصول بها وتجول ولا تراها محيزة ، ولا تعرف شكلها أو لونها أو طعمها ، فالأعلى الذى يدير هذا الكون غير مدرَك بالأبصار . والذى يُتعب الناس أنهم يحاولون الجمع بين الإدراك والوجود ، ولذلك نقول : ابحث أيها الإنسان فى كونك ولسوف تجد فارقاً بين الإدراك والوجود .

ونعلم أن اسم الله نفسه وهو لفظ ننطقه لنفهم ونستدل به على أنه الخالق الأعلى وهو متحدًى به . وأنت أيها الإنسان قد اخترعت ـ على سبيل المثال ـ التليفزيون وكان من قبل أن يوجد معدوماً لا اسم له ، وصار له اسم منذ أن أوجده الإنسان ، صالحاً لمهمة معينة ، أما اسم الله فهو موجود وقديم من قبلك وأخبرك به الرسل ، وهو سبحانه وتعالى له اسم فى كل لغة من اللغات ، ووجود هذا الاسم فى كل

اللغات بنطق مختلف هو دليل على أسبقية وجود الذات وهو الله . وبعد ذلك جاء الكفر ، وعرفنا أن الكفر كان محاولة لستر الوجود الأول ، وبذلك دلت كلمة الكفر على الإيمان . والذى يرهق الإنسان هو محاولته لحصر الموجود الأعلى فى شكل طبقاً لإمكانات وحدود البشر . ولا أحد يستطيع أن يحصر وجوده سبحانه فى شكل معين ؛ لأن من عظمته أننا لا نقدر على تصوره ، والإيمان به سبحانه يدل عليه وهو يقول عن نفسه ما شاء . وأحب أن تحفظوا هذا المثل وتضربوه لصغاركم :

لنفترض أن إنساناً يجلس مع أسرته فى حجرة ، ثم طُرق الباب ، وكل من يجلس فى الحجرة يتيقن أن طارقاً بالباب ولا يختلف أحد منهم فى هذه المسألة . فيقول أحد الأبناء : « الطارق محمد » ويقول الثانى : « إنه محمود » ويقول ثالث : « لا ، إنه إبراهيم » فتقول الزوجة : « إن الطارق امرأة » ، لكن أحد الأبناء يقول : « لا ، إنه رجل » فيقول الأب : « لعله شرطى جاء يسألنى عن أمر » ترد الزوجة : « توقع خيراً ، إنك تصنع كل خير ولا بد أن يأتى لك كل طارق بخير » . هنا اختلفت الأسرة لا فى تعقل الطارق ، ولكن فى تصور الطارق . يقول الأب : « بدلا من الحيرة لنسأله من أنت ؟ » ، فيجيب الطارق : « أنا فلان » .

وهكذا الكون ، طرأ الإنسان عليه وتساءل من الذى خلقه . ذلك أن الإنسان جاءته الغفلة بعد أن عرف آدم ربه وبعد أن أشهد الحق ذرية آدم أنه ربهم . ثم أرسل الحق الرسل ليبلغوا الخلق منهجه واسمه وصفاته . وأراد سبحانه بذلك الا يرهق خلقه ، وأبلغ الناس من خلال الرسل أنه الخالق الأكرم .

وآفة الفلاسفة أنهم لم يكتفوا بتعقل الإله ، بل أرادوا أن يتصوروه ، وهذا أمر غير ممكن . لذلك نقول : علينا أن نستمع إلى الحق يقول ما شاء عن نفسه ولا داعى للخلاف . وسبحانه وتعالى يقول : « وهو الله فى السموات وفى الأرض » وإياك أيها المسلم أن تفهم أن السماء والأرض هنا ظرفية ، لأن الظرفية وعاء وحيز ، وإذا كنت لم تعلم مكان روحك فى جسدك ، فكيف تعلم مكان الله ؟ لقد قصد الله بذلك القول أنه معبود فى السموات ومعبود فى الأرض .

ولنلحظ أن بعض آيات القرآن توقف الذهن عندها كى تظل الأذهان دائماً مشغولة بكلمات الله ، ولو جاء القرآن بكلمات يسهل على الفهم العادى إدراك

معانيها لما تجددت معانى الكتاب العظيم فى كل زمان ، وكأن الحق قد قصد ذلك حتى يتثبت الناس فى كل العصور من إيمانهم . وها هم أولاء بعض من الذين يحاولون الخوض فى القرآن تساءلوا عن معنى قوله الحق :

﴿ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ ﴾

(سورة الزخرف)

تساءلوا عن معنى التكرار أنه إله فى السموات وإله فى الأرض . وظن بعض السطحيين أنه قصد القول بأن هناك إلهاً فى السموات وإلهاً آخر فى الأرض ، ولم يفطنوا إلى أن المعنى المقصود هو : أنه إله يعبد فى السماء ويعبد فى الأرض ، وهو صاحب الحكمة المطلقة فى كل أفعاله وهو المحيط بكل كونه . وأن الحق إنما يريد بهذا القول أن يشغل الأذهان به .

ونقول أيضا لهؤلاء الذين لم يفهموا المعنى : هناك قاعدة فى اللغة تحدد النكرة وتحدد المعرفة ؛ فعندما نقول : « جاءنى الرجل » فهذا الرجل يكون معروفاً للقائل والسامع . ولكن عندما نقول : « جاءنى رجل » فهذا غير معروف للسامع وقد يكون معروفاً للقائل . وإذا قلنا : « جاءنى رجل وأكرمت رجلاً » فمعنى ذلك أن القائل يتحدث عن رجلين ؛ أحدهما جاء ، والآخر كان موضع التكريم . أما إن قال القائل : « جاءنى رجل فأكرمت الرجل » فالحديث هنا عن رجل واحد . إذن فالنكرة إن أعيدت نكرة تكون مختلفة ، والنكرة إن أعيدت معرفة تكون هى بعينها . وعندما قال الحق سبحانه :

﴿ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَٰهٌ ﴾

(من الآية ٨٤ سورة الزخرف)

تصور البعض أن « إله » نكرة ، عندما أعيدت صارت غيرها ، ولو كان الأمر كذلك لفسدت الدنيا . ولكن القاعدة الغالبة من العلماء عرفوا روح النص . وقال أهل العلم بالتوحيد : لا بد لنا أن نلتفت إلى أنه سبحانه قال : « وهو الذى » ، وكلمة « الذى » اسم موصول واحد يدلنا على أن الحق صلته بالسماء وبالأرض واحدة ، ولهذا نقول لمن وقفوا عند هذه الآية : لا تبحثوا عن النكرة المكررة بمعزل عن الاسم الموصول ، لأن الاسم الموصول معرفة .

« وهو الله فى السموات وفى الأرض يعلم سركم وجهركم » إنه إله واحد يعلم السر والجهر ، ويترتب على هذا أساس الثواب والعقاب . فلا تظن أيها الإنسان أنك تفلت من حساب ربك ، وإن كان سبحانه يعلم السر فمن باب أولى أن يعلم الجهر . ولو قال إنه يعلم السر فقط لظن بعض الناس أنه سبحانه لا يعلم إلا المستور لكونه ـ سبحانه ـ غيبا ، ونقول : لا . هو ـ جل شأنه ـ وإن كان غيبا إلا أنه يعلم الغيب ويعلم المشهد ، أو أنه ـ سبحانه ـ لم ينتظر علمه إلى أن يبرز الشيء جهرا بل هو بكمال علمه وطلاقة إحاطته يعلمه من أول ما كان سرًّا ويعلمه ويحيط به بعد أن برز وظهر ووجد وكأنه ـ سبحانه ـ يؤرخ للعلم فى ذات الإنسان الواحد « يعلم سركم وجهركم » .

وهو سبحانه يعلمنا أنه لا يقف عند السر فقط :

﴿ وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ۝٧ ﴾
(سورة طه)

إنه ـ سبحانه وتعالى ـ يعلم السر من قبل أن يكون سراً . وكل أمر قبل أن يصبح جهراً يكون سراً ، وقبل أن يكون سراً هو أخفى من السر . ويذيل الحق تلك الآية بقوله : « ويعلم ما تكسبون » والكسب إنما ينشأ من عملية تجارة فى رأس مال ما والزائد عليه يكون هو الكسب ، وقد يكون الكسب خيراً أو شراً ، فالذى يكسب شراً هو الذى يأخذ فوق ما أحل الله له .

والكسب كذلك يكون خيراً ، فإن قدّم الإنسان حسنة يكسب عشر حسنات . والمتكلم هو الله الذى له الحمد لأنه خالق السموات والأرض والظلمات والنور . ولكن الكافرين يترصدون لكلمة التوحيد ، ويأتيهم الخبر بأن الحق خلقنا من طين ، ويعلم السر وما هو أخفى من السر ، ويعلم ما نكسب من خير أو شر ، ولا يؤثر ذلك كله فى المنصرفين عن دعوة الحق من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا يميلهم ويعطفهم إلى الصراط المستقيم ؛ لذلك يقول سبحانه :

﴿ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ۝٤ ﴾

كأن الآيات الدالة على صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم فى صدق البلاغ عن ربه لا تقنعهم ، بل يعرضون عنها . مع أن الواجب كان يقتضى أن يرهفوا الآذان لما يحل لهم لغز الحياة . ومازال الإعراض مستمراً حتى زماننا هذا بالرغم من أننا توصلنا إلى معرفة العمر الافتراضى لبعض الأشياء التى من صناعتنا مثل مصباح الكهرباء الذى يتغير بعد كل فترة ، وغيره من الأجهزة ، ولكنا لا نعرف العمر الافتراضى للشمس ولم تحتج إلى صيانة ذات مرة ، ولم نجد من يسأل : « وكيف يحدث كل هذا الإعجاز ؟ » .

وقد أتى الرسول صلى الله عليه وسلم ليبين لنا أن الذى خلق الخلق كله يخبرنا بمطلوبه ويفسر لنا الكون ، ولكن الإنسان يعرض عن ذلك .

إن أول « مطب » يقع فيه الإنسان ، أنه تأتيه الآيات التى تدل على لغز هذا الوجود من خالق الوجود ، وكيفية تدبير الكون قبل وجود الإنسان ، وكيفية جعل ما فى الكون من قوت يقيم به حياته ويستبقى نوعه ، وبرغم ذلك ينصرف عن سماع كل ذلك . إن الكفار لم يعرضوا فقط ، بل انتقلوا إلى المرحلة الثانية وهى التكذيب ، فلم يكتفوا بترك خبر الإيمان والإعراض عنه ولكنهم يزيدون فى ذلك ما يوضحه الحق بقوله :

﴿ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٥﴾ ﴾

فهذا خروج من الإعراض إلى التكذيب ، فالإعراض أمر سلبى ، والتكذيب هو الوقوف إيجابياً فى موقف الضد والصد عن سبيل الله ، ثم ينتقلون إلى المرحلة الثالثة وهى الاستهزاء . إننا إذن أمام ثلاث مراحل : إعراض ، تكذيب ، استهزاء . وكل ذلك لعلهم يصرفون المتّبع عن الاتباع . ومثال ذلك ما ضربه الحق لنا فى أمر نوح :

﴿ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾

(سورة هود)

فقد أوحى سبحانه إلى نوح البلاغ الحق وأمره أن يصنع الفلك تحت عنايته سبحانه وألا يخاطبه فى شأن الكافرين الظالمين الذين لم يستجيبوا لدعوة الله . ويَشْرَع نوح فى إنشاء الفُلْك ، ولكن الكافرين يستهزئون به لجهلهم ولعدم الوثوق من الغرض والهدف . ويسخر نوح من كل من يسخر منه .

ومثال آخر وهو انتصار الإسلام بعد أن كان أهل الكفر قوة ، ولكن المتكبر الطاغى منهم يأتى بعد صلفه وكبريائه صاغراً ، ومنهم من قتل وأسر وذاق مرارة الذل النفسى . وقد كانوا من قبل يستهزئون برسول الله صلى الله عليه وسلم . ومثال على ذلك الوليد بن المغيرة ، وهو السيد فى قومه ، يأتى فيه قول الحق :

﴿ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾ ﴾

(سورة القلم)

وكان الوليد صاحب ثراء من المال ومنعة وقوة من البنين ، وأعرض عن القرآن وسخر منه . فجعل الحق منه أمثولة للناس ، وطبع على أنفه علامة لازمة افتضح بها ، وكانت سُبَّةً له وعاراً لا يفارقه كلما ذكر .

وقد نزل هذا القول فى القرآن وقت ضعف المسلمين ، ثم يأتى خبر ضربه على أنفه الذى هو محل الأنفة والكبرياء والعنجهية ، ثم تأتى بدر ليرى المسلمون تحقيق ذلك ، إنه كلام إلهى متحدًى به ومتعبد بتلاوته . وهكذا تصدق كل قضية يأتى بها الله .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٦﴾ ﴾

هذا ما شاهدته قريش فى رحلات الشتاء والصيف . رأوا آثار عاد قوم هود وبقايا ثمود قوم صالح . وكانت إمكانات عاد وثمود أكبر من إمكانات قريش . إن قريشاً لا سيادة لها إلا بسبب وجود الكعبة ، ولو كان الحق ترك أبرهة يهدم الكعبة لما مكن لهم فى الأرض . ها هى ذى حضارات قد سبقت وأبادها الحق سبحانه وتعالى ، ويوضح القرآن ذلك :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ ﴾

(سورة الفجر)

إنها حضارات كبيرة لها صيت وخبر فى آذان الدنيا مثل حضارة الفراعنة . وكل ذلك الصولجان لا يحميه أحد من أمر الله . وزالت الحضارات وأصبحت أثرا بعد عين ، وصدق عليها قول الحق :

﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾

(سورة العنكبوت)

والحق يجازى كل كافر الجزاء الوافى ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يخبر قومه بما حدث لغيرهم من أقوام آخرين « أو لم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن » والقرن عادة هو الجيل الذى يحكمه زمن محدود أو حال محدود ، فإن نظرنا إلى الزمن فالقرن مائة سنة كأقصى ما يمكن ، والجيل الذى يعيش هذا القدر يرى حفيده وقد صار رجلاً . ونعلم أن نوحاً عليه السلام عاش تسعمائة وخمسين سنة ، يقول سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا ﴾

(من الآية ١٤ سورة العنكبوت)

وحياة نوح على طولها تسمى قرناً . إذن فالقرن هو جيل يجمعه ضابط إما زمنى وإما معنوى ، والقرن الزمنى مدته مائة سنة ، أما القرن المعنوى فقد يكون عمر رسالة أو مُلْك .

ويخبر الحق أهل الكفر بأنه قد قدر على غيرهم وأبادهم بعد أن مكن لهم فى الأرض وذلك بألوان مختلفة من أنواع التمكين : « وأرسلنا السماء عليهم مدراراً وجعلنا الأنهار تجرى من تحتهم فأهلكناهم بذنوبهم وأنشأنا من بعدهم قرناً آخرين » ، وهذا الخبر يأتى من السماء بما حدث لقوم سابقين مثل قوم سبأ ، فقد قال عنهم الحق فى موضع آخر من القرآن الكريم :

﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ ﴾

(سورة سبأ)

ومسكن سبأ باليمن آية دالة على قدرة الله ؛ حديقتان وارفتان عن يمين وشمال ؛ ليأكل أهل سبأ من رزق الله ويشكروا نعمة الله . وكان لهم سد مأرب ، ووهبهم الله القدرة لبنائه ، فقطعوا من الجبال التى ليس لهم عمل فيها ليحجزوا ماء المطر الساقط من السماء ، كل شىء إذن فعلوه وإنما فعلوه لأن الله قد أراده ، وهم أعرضوا عن أمرين : عن الرزق الوفير الذى منحهم الله إياه وأرادوا أن يعتمدوا على أنفسهم كما فعل قارون حيث قال : (إنما أوتيته على علم عندى) . ظنوا أنهم قادرون على رزق أنفسهم وكذلك لم يشكروا الله ، ولذلك أرسل الله عليهم سيل العرم ، أى أنه عقاب من جنس العمل ، وهكذا تكون عاقبة الإعراض والكفر بنعم الله . فقد

سلط الله عليهم حيوانا من أضعف الحيوانات وأحقرها وهو الفأر فنقب السد فأغرق أموالهم ودفن بيوتهم .

ويخبر الحق رسوله بكل هذه الأخبار ليلفت بها وينبه إليها قومًا رأوا آثار حضارة عاد وثمود ، والرؤية سيدة الأدلة ، وطالبهم الرسول بها حتى يعرفوا عاقبة الإعراض والتكذيب والاستهزاء ، ولم يطلب الحق من رسوله إلا البلاغ فقط ، أما إيمان القوم فليس مكلفاً به صلى الله عليه وسلم ، إن هؤلاء قد خافوا من سيطرة « لا إله إلا الله » فهم الذين صنعوا من أنفسهم آلهة وتسلط بعضهم على بعض . فتخيل القوى أنه إله على الضعيف . وتخيل الغنى أنه إله على الفقير ، وتخيل العالم أنه إله على الجاهل ، أما « لا إله إلا الله » فهى تساوى بين الناس جميعاً ، وهم يرفضون ذلك لأنهم يريدون السيادة .. ومثال ذلك قولهم :

﴿ وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ ﴾

(سورة الزخرف)

فهم لم يجرؤوا على الطعن فى القرآن ، إنما طلبوا أن تكون السيادة لغنى من أغنياء القريتين مكة أو الطائف . وتناقض هذا القول مع عملهم وسلوكهم مع الرسول ، فقط حفظوا كل نفيس حرصوا عليه عند محمد صلى الله عليه وسلم . ولو كان الواحد منهم يرى شيئاً أو مغمزًا فى أمانة رسول الله لما فعلوا ذلك . ولكن الواحد منهم بالرغم من التكذيب بمحمد لم يكن يأتمن إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فالإنسان حينما تقع مصلحته أمام تكذيبه فهو يغلب مصلحته على تكذيبه .

ويبين الحق سبحانه أن إعراض هؤلاء ، وتكذيب هؤلاء واستهزاء هؤلاء ، لا يمت إلى حقيقة أمرك يا رسول الله ، ولا إلى حقيقة القرآن فى شىء ، وإنما هو العناد ، مثلهم مثل آل فرعون الذين جحدوا آيات الله على الرغم من أن أعماقهم رأت هذه الآيات بيقين لا تكذيب فيه .

﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾ ﴾

(سورة النمل)

فقد أنكر قوم فرعون رسالة موسى عليه السلام مع أنهم تأكدوا من صدقها ، ولكنهم أنكروها بالاستكبار والعلو والظلم ، فكانت عاقبتهم من أسوأ العواقب ، وهذا هو حال المنكرين دائماً لآيات الله .

وهاهم أولاء منكرون جدد لرسالة رسول الله . يقول الحق سبحانه وتعالى فيهم :

﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧ ﴾

هذا الكتاب ـ القرآن ـ لو نزل إلى هؤلاء المكذبين مكتوباً فى ورق من المحس المشاهد فلمسوه بأيديهم لقالوا ما قاله كل مكذب ، إنه سحر ظاهر . وقد طالب المكذبون الرسول صلى الله عليه وسلم أن ينزل عليهم كتاباً من السماء ليقرأوه كشرط من ضمن شروط أخرى قال عنها الحق مصوراً جحودهم :

﴿ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ۝٩٠ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ۝٩١ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ۝٩٢ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ۝٩٣ ﴾

(سورة الإسراء)

فبعد أن وضح لهم إعجاز القرآن حاولوا زوراً ، واقترحوا من الآيات ليؤمنوا ، كأن يفجر لهم الرسول صلى الله عليه وسلم ينبوعاً فى أرض مكة لا ينقطع ماؤه ، أو يكون لرسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة بستان من نخيل وعنب . تتخلله الأنهار ، أو أن يدعو رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تنزل السماء عليهم قطعاً كعذاب شديد ، أو أن يتجسد لهم الله والملائكة ليروْهم رأى العين ، أو أن يكون

لرسول الله بيت من ذهب مزخرف ، أو أن يصعد إلى السماء ويأتيهم بكتاب من الله يقرر صدق رسالته ، ولكن الله برحمته واتساع حنانه ينزه ذاته أن يتحكم فيه أحد أو أن يشاركه فى قدرته فيعلن لهم على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم قوله ـ سبحانه وتعالى ـ :

﴿ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴾

(من الآية ٩٣ سورة الإسراء)

لأن الذى يبعث الآيات هو رب العالمين ، ولا أحد يجرؤ أن يفرض على الله آياته . ورسول الله صلى الله عليه وسلم هو مُستَقْبِل لآيات الله لا مقترح للآيات ، ذلك أنه صلى الله عليه وسلم يعلم أن من يقترح على الله آية ثم تأتى فيكذب بها يصيبه وينالـه الهلاك ، هذه سنة الله ، ورسول الله يعلم أنه النبى الخاتم ؛ لذلك لن يطلب أى آية من الله حتى لا ينزل عقاب الله من بعدها إن كذبوا بها . ويبلغ الحق رسوله عتو المتجبرين المنكرين واستكبارهم .

﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَـٰبًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَـٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

الحق يعلم أن قلوب بعض المنكرين قد صارت غفلاً لا يدخلها الإيمان ولا يخرج منها الباطل ـ كما أراد هو لهم ـ فلو نزَّل إليهم كتاباً فى قرطاس ليكون فى مجال رؤية العين ولمسوه بأيديهم فلن يؤمنوا . ويأتى أمر لمس الكتاب بالأيدى ؛ لأن اللمس هو الحاسة التى يشترك فيها الجميع حتى الأعمى منهم ، وبرغم ذلك فسيكذبون قائلين : « إن هذا إلا سحر مبين » ومثل هذا الرد لا ينبع عن عقل أو تدبر أو حكمة . ولا يتناسب مع القوم الذين عُرفوا بالبلاغة والفصاحة ، وبحسن القول وصياغته ؛ لأن السحر إنما يغير من رؤية الناس للواقع ، ومادام رسول الله صلى الله عليه وسلم متهماً بالسحر منهم فلماذا لم يسحرهم هم ، ولماذا استعصوا هم بالذات على السحر ؟ والمسحور ليس له عمل ولا إرادة مع الساحر ، ولو كان محمد صلى الله عليه وسلم ساحراً لصنع من السحر ما يجعلهم يؤمنون .

إن من العجيب وهم أبصر الناس بفن القول ، وهم أهل النبوغ فى الأداء ،

ويعرفون القول الفصل والرأى الصحيح ويميزون بين فنون القول : خطابةً ، وكتابةً ، ونثراً ، وشعراً ، والقول المسجوع ، والقول المرسل ، من العجيب أنهم يقفون أمام معجزة القرآن مبهوتين لا يعرفون من أمرهم رشداً ، فمرة يقولون : إنه سحر ، ومرة يقولون : إنه كلام كهنة ، وثالثة يقولون : إنه كلام مجنون .

والقرآن ليس بسحر ، لأنه يملك من البيان ما يملكون وفوق ما يملكون ويحسنون ، ولايفعل رسول الله معهم ما يجعلهم يؤمنون على الرغم منهم، وليس القرآن كذلك بكلام كهنة؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم نشأ بينهم ويعلمون أنه الصادق الأمين الذى لم يتلق علماً من أحد ، فضلا عن أن كلام الكهان له سمت خاص وسجع معروف ، والقرآن ليس كذلك . ويعلمون أنه كلام رجل عاقل ، فكلام المجنون لا ينسجم مع بعضه ، وهاهوذا الحق يقول فى رسول الله صلى الله عليه وسلم :

﴿ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝ ﴾

(سورة القلم)

وقد أعد الله رسوله ليستقبل النبوة بقوة العقل ، لا بسفه الرأى ، وله فى إبلاغ رسالة ربه ثوابٌ لا مقطوع ولا ممنوع ، وهو على الخُلق العظيم . والخُلُقُ العظيم ـ كما نعلم ـ هو استقبال الأحداث بملكات متساوية وليست متعارضة ولا يملك ذلك إلا عاقل . وقد شهدوا هم بخُلُق محمد صلى الله عليه وسلم ، فكيف يأتى هذا الخلق العظيم من مجنون ؟ وكيف يصدر السلوك المتصف بالسلامة والصلاح والخير من مجنون ؟ كانت ـ إذن ـ كل اتهاماتهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم تنبع من إصرارهم على الكفر ، لا من واقع لمسوه ، فكل ما قالوه فى رسول الله هم أول الناس الذين شهدوا عكسه ولمسوا نقيضه .

وجاءوا ـ إصراراً على الكفر ـ يطلبون آية أخرى :

﴿ وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ۝ ﴾

ما المَلَك ؟ المَلَك جنس جعله الله من الغيب ، ونحن لا نؤمن به إلا لأن الله الذى آمنا به قال : إن له ملائكة مثلما قال : إن هناك جناً ، والملائكة من جنس الغيب ، والجن مستور عنا . وهؤلاء المنكرون الجاحدون يطلبون نزول مَلَك حتى يؤمنوا . إذن فهم قد عرفوا أن هناك غيباً وأن فطرتهم الأولى تحمل أثراً من منطق السماء لكنهم ينكرون ، وقولهم بالمَلَك دليل على أن فى أعماقهم رواسب من دين إبراهيم ودين إسماعيل ، وبقيت تلك الآثار فى النفوس لأنها مسألة لا تمس السيادة ، ولو أنزل الحق لهم ملَكاً لما آمنوا أيضاً ، فهم مكذبون . ولا يريد الحق أن يطبق عليهم سنته بنزول الآية التى يطلبونها حتى لا ينزل بهم عقابه إن كفروا بها . فلو أنزل الحق عليهم ملَكاً كما يطلبون ثم كفروا لقضى الأمر وأهلكوا بدون إمهال . إذ لو تجلى المَلَك لهم وظهر على طبيعته ما تحملته كياناتهم البشرية .

ولقد نزل المَلَكُ بآثاره الدامغة وهو غيب أنزله ـ سبحانه وتعالى ـ بالوحى على رسول الله صلى الله عليه وسلم وفعل فى رسول الله ما فعل ، ولم يظهر من عمله مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا أثره فحسب . وهاهوذا رسول الله يشرح لنا ذلك لحظة مجىء الملك أول مرة فى غار حراء :

قال الملك : اقرأ .

(فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فأخذنى فغطنى حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى فقال : اقرأ . فقلت ما أنا بقارىء ، فأخذنى فغطنى الثانية حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى فقال : اقرأ . فقلت ما أنا بقارىء ، فأخذنى فغطنى الثالثة حتى بلغ منى الجهد . ثم أرسلنى ، فقال : (اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم) . ورجع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بيته يرجف فؤاده ودخل على زوجه السيدة خديجة بنت خويلد ، فقال : (زملونى زملونى) . فزملوه حتى ذهب عنه الروع . وأخبرها الخبر وقال : « لقد خشيت على نفسى » فقالت خديجة ـ رضى الله عنها ـ وهى تعدد صفات وخلق رسول الله العظيمة : « كلا والله لا يخزيك الله أبداً ؛ إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكَلّ ، وتكسب المعدوم وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الدهر »[1] .

---

(١) رواه البخارى .

هكذا كان الإيمان الأول من خديجة من فور أن عرفت خبر الوحى . ويطمئن الحق رسوله من بعد ذلك قائلاً :

﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝ الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝ ﴾

(سورة الشرح)

وشرح الله صدر رسوله فصار هذا الصدر مهبط الأسرار والعلم وحط عن ظهر الرسول الكريم الأعباء الثقال ، وارتبط اسم الرسول صلى الله عليه وسلم بأصل الإيمان والعقيدة حتى صار اسم رسول الله مقروناً باسمه - جل شأنه - فى الشهادة الأولى للإسلام « أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله » .

إذن كان هذا حال رسول الله حين تجلّى له المَلَكَ لا بالحقيقة الملكية ، ذلك أن هناك فارقاً بين البنيان البشرى والبنيان الملكى . فالبنيان البشرى يستقبل الأشياء المادية التى تناسب تكوينه ، فإن جاءت له طاقة أعلى منه فلا يمكنه أن يستقبلها إلا إذا أعد الله المَلَك وصوَّره بصورة تجعله قابلاً للإرسال ، وأعد الله الرسول ليكون قابلاً للاستقبال . ونعلم جميعاً قصة موسى لما جاء لميقات ربه ، وقال الله فى وصف ذلك اللقاء :

﴿ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ۝ ﴾

(سورة الأعراف)

والمانع لرؤية الله هو عدم قدرة الإنسان على الإحاطة البصرية بالله ، فعندما تجلى الله للجبل المتماسك الصلب صار الجبل دكاً ، أى مفتتاً وخر موسى عليه السلام مصعوقاً من هول ما رأى ، ولما أفاق تاب إلى الله وأعلن أنه أول المؤمنين به سبحانه . فإذا كان الإنسان قد صعق من تجلى الحق للجبل ، فكيف يقدر على أن يتجلى الحق له ؟

إننا نعلم أن كل تكوين له قدرة استقبال لما يناسبه من أشياء ، وضربنا لذلك مثلاً من دنيانا العملية ـ ولله المثل الأعلى دائماً وهو منزه عن كل مثال ـ نجد الإنسان منا عندما يدخل الكهرباء إلى بيته لرغبته فى الانتفاع بقانون النور والضوء لمدة أطول وبفوائد الكهرباء المتعددة ، ولكنه عندما يريد أن ينام فهو يطلب الانتفاع بقانون الظلمة ، فيطفىء المصابيح ، ويضع مصباحاً صغيراً لا يتحمل أن يأخذ الطاقة مباشرة من الكهرباء من مصدرها القوى ؛ لذلك يأتى الإنسان بمحول للطاقة فيستقبل المحول طاقة الكهرباء العالية من مصدرها ويخفضها بصورة تناسب المصباح الصغير . وهكذا نحتفظ بضوء ضعيف فى الليل لنستفيد من قانون الظلمة لننام .

وقد امتن الحق علينا أنه خلق النور وخلق الظلام ، وكل منهما له مهمة . فإذا كان خَلْقُ النور والضوء والكهرباء قد أتاح للإنسان بناء حضارة ، فالظلام أتاح للإنسان أن يرتاح وتسكن نفسه فيقوم ممتلئاً بالنشاط والحيوية . وإذا كنا نحتفظ فى الليل ببصيص نور لا يزعج ، فنحن نفعل ذلك حتى لا نحطم الأشياء أو نصطدم بها إذا ما قمنا فى الليل لقضاء حاجة .

وكذلك الإنسان . . إنه لا يستطيع بضعفه أن يأخذ عن الله مباشرة . ومن رحمة الحق بالخلق أن جعل بينه وبين الخلق وسائط ، بتلقى المَلَك عن الله ، والملك وسيط ، والمَلَك ينقل إلى الرسول المصطفى ، والرسول المصطفى وسيط ، ومن تغفيل أهل الكفر أنهم طالبوا بإنزال ملك رسول . ويرد الله عليهم فى موضع آخر من القرآن الكريم :

﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

لقد طالبوا ـ جهلا ـ أن ينزل إليهم ملك رسول بالهدى ، ويأمر الحق رسوله أن يرد عليهم بأنه لو كان بين البشر ملائكة . . أى لو كان هناك ملائكة يمشون فى الأرض لنزل إليهم الملك كرسول . ولما كان هذا غير حاصل ، فقد أرسل الحق

رسولاً من البشر ؛ لأن المفروض أن يُبلغ الرسول وأن يكون كذلك أسوة سلوكية للمنهج ، بأن يطبق المنهج على نفسه ، فلو نزل ملك كرسول وطبق المنهج على نفسه لقال له البشر : إنك مَلَك تقدر على ما لا نقدر عليه وأنت لا تصلح أسوة لنا ؛ لذلك كان لا بد أن يكون الرسول من جنس المرسل إليهم أنفسهم حتى يكون أسوة لهم وقدوة .

إن هذا هو ما يبطل الادعاء بألوهية عيسى عليه السلام أو بنوته لله ؛ لأن عيسى عليه السلام طالبهم أن يفعلوا مثله . وأراد الحق ببشرية الرسل أن يؤكد القدوة والأسوة فى الرسل ، ولذلك قال : « ولو أنزلنا ملكاً لقضى الأمر » ؛ لأن البشر لا يستطيعون استقبال إشعاعات وإشراقات المَلَك لأنهم غير معدِّين لاستقبال تلك الإشعاعات والإشراقات . ولذلك يقول الحق :

﴿ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾ ﴾

إذن فلو أراد الله أن يبعث رسولاً من الملائكة لجعله على هيئة البشر لعدم استطاعتهم معاينة المَلَك على صورته الأصلية ، وقد يهلكون عند رؤيته (وللبَسنا عليهم ما يلبسون) أى ولخلطنا عليهم بتمثيله رجلا ما يخلطون هم على أنفسهم فإنهم سيقولون ـ حينئذ ـ إنما أنت بشر ولست بملك ، وقد أنزل الله المَلَك على صورة البشر كما حدث من خليل الله إبراهيم عليه السلام يقول تعالى :

﴿ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ ﴾

(سورة الحجر)

لقد أنزل الله الضيف من الملائكة على إبراهيم عليه السلام فخاف منهم بعد أن قرّب العجل ورآهم لا يأكلون إلى أن قالوا له ما يطمئنه من خبر ببشارة من الله ، بأن

يولد له الغلام إسحاق من زوجته « سارة » بعد أن رزقه الله من قبل إسماعيل من « هاجر » .

وكذلك أنزل الحق إلى مريم البتول مَلَكا وتمثل لها بشراً سوياً لينبئها بحملها بعيسى عليه السلام . إذن فالمَلَكَ يتجسد فى صورة بشرية عندما يرسله الله فى مهمة إلى البشر ؛ لأن الملك لا يأتى إلى البشر على حقيقته . ومن امتنان الله على رسوله أنه أعطى له الفرصة ليرى جبريل على حقيقته مرة عند سدرة المنتهى ، ومرة حين تجسد له على هيئة دحية الكلبى ومرة فى صفة رجل مسافر جاء يسأل الرسول عن الإسلام والإيمان ، وحدثنا عنه عبدالله بن عمر قائلاً :

(حدثنى أبى عمر بن الخطاب قال : بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب ، شديد سواد الشعر لا يرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد حتى جلس إلى النبى صلى الله عليه وسلم فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ووضع كفيه على فخذيه . قال : يا محمد ، أخبرنى عن الإسلام ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وتقيم الصلاة ، وتؤتى الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا . قال : صدقت . قال : فعجبنا له يسأله ويصدقه . قال : فأخبرنى عن الإيمان ؟ قال : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره . قال : صدقت . قال : فأخبرنى عن الإحسان ؟ قال : أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك . قال : فأخبرنى عن الساعة ؟ قال : ما المسئول عنها بأعلم من السائل . قال : فأخبرنى عن أمارتها ؟ قال : أن تلد الأمة ربتها وأن ترى الحفاة العراة العالة رِعاء الشاء يتطاولون فى البنيان . قال : ثم انطلق فلبثت ملياً ثم قال لى : يا عمر أتدرى من السائل ؟ قلت : الله ورسوله أعلم . قال : فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم)[1] .

---

(١) رواه مسلم فى كتاب الإيمان ، وهذا الحديث من الأحاديث التى تفرّد بها مسلم عن البخارى ورواه ابن حيان فى صحيحه وخَرَّجَا فى الصحيحين من حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما بارزا للناس ، فأتاه رجل فقال : ما الإيمان فقال : الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه وبلقائه ورسله وتؤمن بالبعث الآخر ... » إلخ ورواه أحمد فى مسنده ، ورواه الترمذى وفيه انه بدأ بالسؤال عن الإيمان .

إذن ، فنحن ببشريتنا لا نستطيع رؤية المَلَك إلا بعد أن يجسده الله بشراً . ولذلك قال الحق : « ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً وللبسنا عليهم ما يلبسون » إذن فاللّبس موجود بدليل أن الله أرسل الملائكة فى صورة بشر لإبراهيم عليه السلام ومريم ابنة عمران ومحمد صلى الله عليه وسلم وهو جالس بين قومه .

ويسلى الحق سبحانه وتعالى رسوله من بعد ذلك قائلاً :

﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ ﴾

هنا يخبر الله رسوله أن أهل الكفر كثيراً ما سخروا من قبلُ بالرسل السابقين وأخزاهم الله بالعذاب الذى أنذر به أهل التكذيب للرسل ، فالذين يسخرون بخبر السماء يحيطهم سبحانه بالعذاب جزاء لما كانوا يستهزئون .

ويقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ ﴾

نعلم أن الحق لم يقل أبداً : سيروا على الأرض ؛ لأن الأرض ظرف يسير فيه الإنسان ، والإنسان مظروف فى الأرض . وقد حدث هذا البلاغ من الله قبل أن نصل بالعلم إلى معرفة أن الأرض كروية ومعلقة فى الهواء ، والهواء يحيط بها ، وأن الهواء هو أقوات الإنسان بما فيه من أوكسجين وبما يغذى النبات من ثانى أوكسيد الكربون ، ونعلم أن الإنسان يصبر على الطعام لأسابيع ويصبر على الماء لأيام

ولا يصبر على انقطاع الهواء عنه للحظات . ولذلك لا يملّك الله الهواء لأحد أبدا ، وهكذا عرفنا أن الهواء من جنس الأرض . وعندما يسير الإنسان فالهواء يحيطه ، وعلى ذلك فهو يسير فى الأرض . وهذا من الإعجاز الأدائى فى القرآن ونقرأ قوله الحق :

﴿ فَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾

(من الآية ٣٦ سورة النحل)

وهنا فى سورة الأنعام يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

ما الفرق بين الاثنتين ؟ خصوصاً ونحن نعلم أن الفاء من حروف العطف وكذلك « ثم » هى أيضاً من حروف العطف وكلتاهما حرف يُفيد الترتيب ، ولكن الفارق أن الفاء تعنى الترتيب مع التعقيب أى من غير تراخٍ ومضى مدة . . مثل قولنا : جاء زيد فعمرو ، أى أن عَمْراً جاء من فور مجىء زيدٍ من غير مهلة . ولكن « ثم » تعنى طول المسافة الزمنية الفاصلة بين المعطوف والمعطوف عليه ، فعندما يقول الحق :

﴿ فَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾

(من الآية ٣٦ سورة النحل)

فكأن النظر والتدبر هو المراد من السير وبذلك يكون سيرَ الاعتبار .

ويقول الحق : « قل سيروا فى الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين » يعنى أن الإنسان قد يسير فى الأرض للتجارة أو الزراعة أو لأى عمل ، وعليه أن يتفكر فى أثناء ذلك وأن يتأمل . إذن فهناك سير للاعتبار وسير للمصلحة . والسير للاعتبار يعنى أن يأخذ الإنسان العبرة مباشرة ، أما السير للمصلحة فهو أن يأخذ الإنسان العبرة ضمن المصلحة . وكان سير قريش بقوافلها إلى الشام واليمن يجعلها قادرة على أن ترى آثار المكذبين سواء من أهل ثمود أو قوم عاد أو غيرهم . وكان عليهم أن يأخذوا العبرة فى أثناء سعيهم لتجارتهم .

ويقول الحق لرسوله صلى الله عليه وسلم من بعد ذلك :

﴿ قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ ۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ ﴾

كان الحق يعلّم رسوله السؤال والجواب ؛ حتى يتعلم الناس من خلال ذلك أن كُلَّ المُلْك لله ؛ لأنهم مهما بحثوا عن مالك للكون فلن يجدوا إلا الله ، حتى المكذبين منهم قال الحق عنهم :

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ ﴾

(سورة العنكبوت)

وعلى الرغم من شركهم بالله لا يقدرون إلا على الإقرار بأن الله هو خالق كل شيء ؛ لأن الإنسان قد يغتر بما لذاته من اختيار ، لكن عندما ينظر لما يقع على ذاته من اضطرار فهو يتعرف فوراً على الإيمان . وقد يختار الإنسان أشياء لكنَّ هناك أحداثاً تقع عليه لا اختيار له فيها وذلك لينبه الحق خلقه أنه فعال لما يريد وأنه يحكم هذا الكون وأن الاختيار ما كان إلّا ليختبر الإنسان نفسه باتباع تكاليف الله .

والأحداث ثلاثة : حدث يقع عليك ، وحدث يقع فيك ، وحدث يقع منك . وما يقع عليك ليس لك فيه اختيار ، وما يقع فيك لا اختيار لك فيه ، ولا يبقى لك إلا ثلث الأحداث وهو ما يقع منك . وأنت محكوم فى ذلك بقوسين لا اختيار لك فيهما : قوس الميلاد وقوس الموت ، إذن فالأمر كله لله .

ويطمئن الحق خلقه قائلاً : « كَتَبَ على نفسه الرحمة » وهو قول لِيُطَمِئن به الحقُّ عباده حتى لا يظن الناس أن الله يعاقبهم دون حساب ؛ لأنه الحليم ذو الفضل وهو القائل :

﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا ﴾

(من الآية ٥٨ سورة يونس)

ويعفو سبحانه عن الكثير ، وباب رحمته وفضله مفتوح ويفسح التوبة لكل عاص . ومن فضل الله أنه جعل بعضاً من الكفار يقفون فى بداية الإسلام ضد المسلمين ثم يكونون من بعد ذلك سيوفاً للإسلام ، وسبحانه الرحيم الذى يجمعنا للحساب يوم القيامة الذى لا ريب فيه ولا شك ، ونسير جميعاً مدفوعين إلى ذلك اليوم ويأتى الكافر على رغم أنفه ، والمؤمن يتيقن رحمة الله وفضله ويفرح بلقاء ربه .

والكافر ـ والعياذ بالله ـ قد خسر نفسه بعمله مصداقا لقوله الحق : « الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون » وخسران النفس مترتب على عدم الإيمان ؛ لأننا لو نظرنا إلى الغايات وإلى الوسائل لوجدنا أن الوسيلة تأتى قبل الغاية ، ولكن فى التحضير العملى الغاية تتضح قبل الوسيلة ؛ فالذى يستذكر إنما يستحضر فى ذهنه الغاية وهى النجاح ، فيبذل الجهد لينجح ؛ لأننا نعلم أن كل شرط هو واقع بين أمرين ، بين جواب دافع ، وجواب واقع ؛ فالنجاح دافع للمذاكرة ، والمذاكرة تجعل النجاح واقعاً ، ويقول ابن الرومى :

ألا مَنْ يُرينى غايتى قَبْلَ مَذْهبى
ومِنْ أين والغايات بعد المذاهبِ ؟

وهذا القول منه غير سديد ؛ لأن الإنسان عليه أن ينتبه إلى الغاية وأن يتعرف على الوسيلة التى توصله إلى الغاية ، فإذا كانت الغاية أن يذهب الإنسان إلى الله ، والوسيلة هى المنهج ، فلماذا الحيرة إذن ؟ وهكذا نعلم أن الذين لم يؤمنوا قد خسروا أنفسهم لأنهم لم يميزوا الغاية الدافعة وهى الذهاب إلى الله والنزول على حكمه ، عن الغاية الواقعة وهى الوسيلة ، وسبحانه قد يسرها لعباده إذ قد أتى لهم بالمنهج الذى يسيرون عليه .

ويقول الحق سبحانه وتعالى من بعد ذلك :



إن من عظمة الموجود الأعلى الواجب الوجود أنه يتكلم عن نفسه بضمير الغيب وهو سبحانه القائل فى أول بعض الآيات : « قل هو الله » .

و« قل » هى أمر ، فكأن الحق حين يقول : « هو » فلا يمكن أن تطلق « هو » إلا على الله ولا تنصرف إلا لله . « وله ما سكن فى الليل والنهار » وكلمة « سكن » هى من مادة السين والكاف والنون ، وتأتى لمعان متعددة ؛ فتكون من السكنى أى الاستيطان ، وتكون من السكون الذى هو ضد الحركة . والمثال على الاستيطان هو قول الله لآدم :

﴿ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ ﴾

(من الآية ٣٥ سورة البقرة)

إن الحق سبحانه يقول هنا : « وله ما سكن فى الليل والنهار » فكأن الليل والنهار ظرف ، وكل الوجود مظروف فيه . وظرفية الليل والنهار تأتى على ظرفية المكان وهو الأرض . وكل مكان فى الأرض يأتى عليه الليل والنهار . فإن أردنا الاستيطان فى السكن فهى موجودة ، وإن أردناها من السكون ـ وهو ضد الحركة ـ فهى موجودة ؛ ذلك أن كل متحرك يؤول إلى ساكن ، والإنسان سيد الحركة ثم يموت أو يسكن فى الأرض . وهكذا نرى أن الجنس الأعم الذى يشملهما معًا هو « ما سكن » ولذلك قال الحق :

﴿ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِى ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

وحينما يقول : « وله ما سكن فى الليل والنهار » ، فهو يتكلم عن الزمان ، واحتوائية الزمان للزمانيات ، أى للأشياء التى تحدث فى هذا الزمان . والإنسان كما نعلم حدث . وكل ما يطرأ عنه حدث ، وكل ما فى الكون حدث ، وقد أحدثه الحق الواجب الوجود .

ومادام الحدث قد وُجد فلا بد له من زمان ولا بد له من مكان . أما مكان الحدث فهو السماء والأرض ، وما بينهما . وأما زمان الحدث فهو الليل والنهار .

إذن فالحق قد تكلم عن خلق الزمان من بعد أن أعلن لنا أنه خالق المكان .

﴿ قُل لِّمَن مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُل لِّلَّهِ ﴾

(من الآية ١٢ سورة الأنعام)

وهكذا نعلم أن الزمان والمكان قد وُجِدا عندما شاء الله أن يحدث هذا الكون . ولا تقل أبداً أيها الإنسان : أين كان الله قبل أن يخلق الكون ؟ ؛ لأن « أين » هي بحث عن مكان ، و« متى » هي بحث عن زمان . و« أين » و« متى » إنما وجدتا بعد وجود الحدث في الكون . والكون هو ظرف قار أي شيء ثابت . والزمان هو ظرف غير قار ، لأنه يكون مرة ماضياً ، ومرة يكون حاضراً أو مستقبلاً .

والحق سبحانه عندما قال : « وله ما سكن في الليل والنهار » أي أن له الظرفين : القار وغير القار . . أي له ـ سبحانه ـ الساكن وكذلك له ما يتحرك في الكون ؛ لأن كل متحرك يؤول أمره إلى سكون . أو أن قوله الحق : « وله ما سكن في الليل والنهار » أي ما حل في الليل والنهار ، أي له سبحانه ما حل في الليل والنهار متحركاً كان أو ساكناً .

والحق يذيل هذه الآية بقوله : « وهو السميع العليم » فالسمع متعلق بالمسموع أي الذي له حركة ، والعلم متعلق بالمسموع والمنظور والمشموم وكل شيء من آلات الإدراك ؛ لذا جاء قوله ـ سبحانه ـ : (وهو السميع العليم) ليشمل المتحرك والساكن ، فسبحانه لا يعزب ولا يغيب عنه شيء .

ونعلم أنه إذا أخبر الحق عن نفسه بصفة من صفات يوجد مثلها في البشر فنحن نأخذها في إطار « ليس كمثله شيء » . فأنت أيها الإنسان لك سمع فيقال عنك : سميع . ولك علم فيقال : عليم . ولك بصر فيقال : مبصر . ولك قدرة فيقال : قادر . وقد تكون ذا مال وفير فيقال : غني . ولك وجود فيقال : موجود . وأنت حي فيقال : حي .

لكن أهذه الصفات التي فيك هي عين الصفات التي في الله ؟ لا ؛ لأن صفات الله إنما نأخذها في إطار « ليس كمثله شيء » . ونحن نشاهد ذلك في أنفسنا ؛ فالإنسان منا له حال حياة ، وحال موت . وفي حال الحياة له حالتان : حالة يقظة ، وحالة نوم . وفي حالة اليقظة نحن نرى بقانون البصر ، ولهذا البصر حدود ؛ فهو محكوم بقانون الضوء ، وكذلك السمع محكوم بقانون الصوت والموجة والذبذبة .

ومع ذلك فالإنسان ينام ويغمض عينيه ويرى رؤيا فيها ألوان حمراء وخضراء وغيرها ، فبأى شىء أدركت الألوان وعينك مغمضة ؟ إذن فمادام فى البشر رؤيا بدون عين فلا تقل عن رؤيا الله لنا إن له عيوناً مثل عيوننا ، بل هو يرى فى إطار « ليس كمثله شىء » . إنه سبحانه وتعالى قيوم يحكم عباده فى الزمان والمكان فى حالة يقظتهم وفى حالة نومهم .

ومثال من حياتنا اليومية ، نحن نجد الرجل وزوجه ينامان فى فراش واحد ، وقد يرى الرجل فى المنام أنه يواجه أعداءه ، وترى الزوجة نفسها محاطة بسعادة الأبناء والأحفاد ، ويستيقظ كل منهما ليحكى ما رأى فى أكثر من ساعة ، على الرغم من أن مخ الإنسان لا يعمل فى أثناء النوم إلا لسبع ثوان .

إذن ، ففى النوم تلغى المعية وكذلك الزمن ، والمكان . فإذا كانت تلك هى القوانين التى تحكم الإنسان ، فعلينا أن نعرف أن خالق كل القوانين وهو الحق لا يمكن إدراك صفاته ، وعلينا أن نأخذها فى إطار : « ليس كمثله شىء » .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ ﴾

والهمزة هنا فى « أغير » يسمونها همزة الإنكار كقول قائل : أتسب أباك ؟ إنها ليست استفهاماً بقدر ما هى توبيخ ولوم . وكذلك : « أغير الله أتخذ ولياً » . أى أن الحق يأمر رسوله أن يستنكر اتخاذ ولى غير الله .

إن اتخاذ الله كولى هو أمر ضرورى ؛ لأن الإنسان تطرأ عليه أحداث تؤكد له أنه ضعيف وله أغيار ، وساعة ضعف الإنسان لا بد أن يأوى إلى من هو أشد منه قوة

ولا يتغير . إن الولى ـ وهو الله ـ قوته لا يمكن أن تصير ضعفاً ، وغناه لا يمكن أن ينقلب فقراً ، وعلمه لا يمكن أن يئول إلى جهل . إنه مُغيِّر ولا يتغير . ولذلك فمن نعمة الله على خلقه أنه جعل من نفسه وليّاً لهم ، فهو صاحب الأغيار .

والحق سبحانه وتعالى يعلِّم خلقه أن يكونوا أهل حكمة ؛ يضعون الأمور فى نصابها ويتوكلون عليه ، فهو الحى الذى لا يموت . ونلحظ أن الحق هنا يأمر رسوله بالبلاغ عنه . وتتجلى هنا دقة الأداء القرآنى فيأتى البلاغ كما نزل من الحق حرفياً . مثال ذلك قول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ﴾

(سورة الإخلاص)

ويبلغنا الرسول صلى الله عليه وسلم بالنص القرآنى كما نزل عليه ، مبتدئا بكلمة « قل » ويبلغه الرسول لنا بأمانة البلاغ عن ربه . وهو هنا يقول : « قل أغير الله أتخذ ولياً » . وهو الإله الذى جاءت كمالاته فى الآيات السابقة ؛ الذى خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور وله ما سكن فى الليل والنهار ، هذا الإله الحق هو الجدير بالعبادة .

ويريد الحق لرسوله أن يستخرج من الناس الإجابة ، لا أن يقول هو : لا أتخذ وليا غير الله ، وسبحانه يأمر رسوله أن يسألهم : « قل أغير الله أتخذ ولياً » . وليكن السؤال مطروحاً منك يا رسول الله تبليغا عن الله ، وتعطى لهم الحرية فى الإجابة ، وسيكون الجواب كما تريد .

وعندما يسمع الإنسان مثل هذا السؤال لا بد أن يسأل نفسه ويدير عقله كى يجد جواباً . ولن يجد الإنسان جواباً سوى أن يقول : ليس لى وَلِىٌّ غير الله ؛ فالولى هو القريب الذى ينصر الإنسان فى ضعفه ، وإن استصرخه جاء لينقذه .

ولا يستصرخ الإنسان أحداً إلا إذا انتابه حادث جلل ، فإذا ما جاء القوى ليغيث صاحب الصرخة فهو يطمئن إلى أن من جاءه سيعينه ويخلصه . واتخاذ الولى أمر فطرى فى الكون ، والأمر المنكر أن يجعل الإنسان لنفسه ولياً غير الله . ونحن ـ المؤمنين ـ يتخذ بعضنا بعضاً أولياء فى إطار الولاية لله مصداقاً لقوله الحق :

﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ ﴾

(سورة التوبة)

ويتبادل المؤمنون والمؤمنات المحبة والنصرة طبقاً للتعاقد الإيمانى بينهم وبين الحق سبحانه وتعالى ، ويأمر بعضهم بعضاً بأوامر المنهج ، وينهى بعضهم بعضاً عن المحظورات التى حرمها الله ويتواصلون مع الحق بإقامة الصلاة . ويؤدون حق الله فى مالهم بالزكاة ، ويطيعون الله ويمتثلون أوامر رسوله ، وهم بذلك ينالون وعد الله الحق بالرحمة ، وهو سبحانه القادر على رعايتهم ، وهو حكيم فى صيانتهم ، عزيز لا يغلبه أحد .

إذن فأنت تطلب الولى لحظة الضعف ، ولحظة الشدة ، ولا يوجد إنسان استوت له كل زوايا الحياة فيصير قوياً لا يضعف أبداً ، أو يصير غنياً لا يفتقر أبداً . ونعلم أن الإنسان من الأغيار ، فلم نر قوياً ثبتت له قوته ، ولا غنياً ثبت له ثراؤه ؛ فالإنسان ابن الأغيار ، وتأتى له حالات فوق قدرته ؛ لذلك فهو يسأل عمن يعينه ويساعده . والمؤمن يجب أيضاً أن يكون قوياً ليساعد غيره ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى قد وزع المواهب على خلقه فى الكون ليضمن بقاء الولاية واستمراريتها ، فأنت فى احتياج إلى عمل إنسان آخر ؛ لأنك ضعيف فى ناحية وغيرك قوى فيها ، الطبيب يحتاج إلى المهندس ، والمهندس يحتاج إلى الطبيب ، والطبيب والمهندس يحتاجان إلى الفلاح ، والفلاح يحتاج إلى عمل المهندس والطبيب ، والطبيب والمهندس والفلاح يحتاجون إلى عمل المحامى .

هكذا وزع الله المواهب فى الكون ، ولم يجعل من إنسان مجمعاً لكل المواهب . وذلك حتى يتساند المجتمع لا بالتفضل والتكرم بل بتساند الحاجة . فكل إنسان هو سيد فى زاوية ما من زوايا الحياة ، وبقية الزوايا يسودها غيره من البشر ، ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ

لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾

(من الآية ٣٢ سورة الزخرف)

هذا هو الإعلان من الله سبحانه وتعالى بأنه وزع المواهب بين البشر ليتساندوا ويُسخر بعضهم بعضاً فى قضاء حوائج بعضهم بعضاً لتنتظم أمور الحياة . وفى هذا التقسيم رحمة من الحق بالخلق . فلو تساوى الناس فى الذكاء ، وصاروا كلهم من العباقرة ، فمن هو الذى سيتولى أمور تنظيم الشوارع ؟ ومن الذى سيقوم بأعمال وصيانة المبانى ورعاية وإطعام الحيوان والقيام على أمره ونحو ذلك من الأمور التى لا تنتظم الحياة إلا بها ؟.

وكلنا يرى الرجل الذى ينزح آبار المجارى ويخرج فى الصباح قائلاً : يا فتاح يا عليم ، يارزاق يا كريم . ويطلب بئراً جديداً من المجارى لينزحه حتى يكسب قوت نفسه وعياله . وكل منا مضطر ومحتاج إلى غيره ، وهذا هو معنى :

﴿ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ﴾

(من الآية ٣٢ سورة الزخرف)

إذن فاتخاذ الولى هو أمر فطرى . والإيمان بالله يعطينا ذكاء اختيار الولى . فالإنسان المؤمن عليه أن يختار الولى الذى يجده عندما يحتاج إليه ؛ لذلك فعليه أن يختار ولاية الله ، ولا يختار ولاية الأغيار . فيسخر الله للمؤمن حتى عدوه ليخدمه . لذلك يبلغنا الحق على لسان رسوله : « قل أغير الله أتخذ ولياً » والذين ينكرون علينا أن نتخذ الله وليا ويريدون أن نتخذ غيره يرون فى أنفسهم المثل . . فقد يخيب رجاؤهم ، فالإنسان منهم قد يتخذ إنساناً مثله ولياً ، وساعة يحتاج إليه يجده مريضاً ، أو غائباً أو تغير قلبه عليه ، لكن المؤمن يختار الله وليه لأنه الذى لا يغيب ولا يتغير ، ولا يضعف . ولا ينكر القرآن أن يتخذ الإنسان له ولياً من البشر ، ولكن الحق يدلنا على أنه الولى الحق ، وأن المؤمن عليه أن يتخذ إخوته المؤمنين أولياء له ؛ لأنها ولاية من الله وفى الله .

وأنت أيها المسلم حين تختار الحق سبحانه وتعالى ولياً لك فهو الذى يُحْضر لك كل زوايا المواهب ويعدُّها ويهيئها لتكون فى خدمتك ؛ لأنه سبحانه وتعالى « فاطر السموات والأرض وهو يطعم ولا يطعم » وقد خلق الحق السموات والأرض على غير

مثال . وسبحانه قد أبدع هذا الكون دون نموذج مسبق . وحين أراد سيدنا عيسى عليه السلام أن يثبت لقومه معجزته جاء بالطين وجعله كهيئة الطير ، إذن فهناك مثال سبقه ووجده واتبعه . وعيسى إنسان من الخلق ، أما خالق كل الخلق فقد خلق السموات والأرض على غير مثال . وأنت أيها الإنسان قد لا تلتفت إلى مسألة خلق السموات والأرض لأنك تراهما كل لحظة بصورة رتيبة ، وقد تظن أنها مسألة سهلة ، ولكن الحق سبحانه يقول :

﴿ لَخَلْقُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾

(سورة غافر)

وهو سبحانه يقسم أن خلق السموات والأرض مسألة أكبر وأدق من خلق الناس لكن أكثر الناس لا تعلم ذلك .

فسبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْيدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾

(سورة الذاريات)

وفى قوله (وإنا لموسعون) إشارة إلى خلق هذا الكون المرئى وغير المرئى ؛ لأن هناك الكثير من الأجرام والمجموعات الشمسية ، وما وراء ذلك من اتساع ذلك الكون ما لا يدركه العقل ولا يمكنه تحديده ، وهذه السعة المذهلة هى من قدرة الله سبحانه وتعالى . (وإنا لموسعون) .

ونجد الحق يستخدم كلمة : « فاطر » مرة فى شيء مُصْلِح ، وأخرى فى شيء مفسد . والمثال للشيء المصلح هو ما يقوله الحق هنا : « فاطر السموات والأرض » أى أنه خالق السموات والأرض على غير مثال سابق وباقتدار محكم .

ويقول الحق سبحانه فى موضع آخر :

﴿ إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ ﴿١﴾ ﴾

(سورة الانفطار)

أى أن الحق ينبه هنا إلى يوم الهول الأعظم الذى تنشق فيه السماء وتتساقط فيه

الكواكب فلا يؤدى أى شيء منها مهمته ؛ لأن الله ـ سبحانه ـ سلبها ما كانت به صالحة .

ويقول أيضاً :

﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗاۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖۖ فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ ﴿٣﴾ ﴾

(سورة الملك)

فالحق لا يعجز عن شيء ، وهو الخالق لسبع سموات بإتقان بعضها فوق بعض ، فلا يرى الناظر أى خلل فى هذا الخلق ، وليُعِد الإنسان النظر إلى السماء فلن يجد أى خلل من شقوق أو فروق .

و« فطور » هنا معناها شقوق . إذن فالحق ـ بتمام قدرته ـ يعطى الشيء من الصفات ما يجعله صالحا لأداء ما خُلِق له فلا يظنن ظان أنه خرج عن قدرة خالقه ـ سبحانه ـ وخلق السموات والأرض بتمام إبداع وإحكام ، وهو القادر على أن يفطرهما ويجعلهما غير صالحتين فى أى وقت شاء ، ومثلهما الشمس تُكَوَّر ، والنجوم تُطْمَس ، والجبال تنسف .

وقال عالم من العلماء : ما فهمت كلمة « فاطر » إلا حين جاء أعرابى ، وقال : فلان ينازعنى فى بئر أنا فطرته . أى أن الأعرابى هو الذى بدأ حفر البئر . إذن فاطر السموات والأرض . . أى الذى خلقهما على غير مثال . وسبحانه وتعالى القائل :

﴿ أَوَلَمۡ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ كَانَتَا رَتۡقٗا فَفَتَقۡنَٰهُمَاۖ وَجَعَلۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ كُلَّ شَىۡءٍ حَىٍّۚ أَفَلَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾

(سورة الأنبياء)

وهذا القول الحكيم لم يصل إلى فهمه العميق من سبقونا ، لكن إنسان هذا العصر الذى نعيشه فهمها بعد أن توصل العلماء إلى أن السموات والأرض كانتا كتلة واحدة وفصلَهما الحق بإرادته . وجعل من الماء حياة لكل كائن حى .

إذن هو سبحانه قادر على كل شيء ، ولا يخرج شيء عن نطاق قدرته . وهو

سبحانه قبل أن يمتن علينا بخلق الحياة فهو يحذرنا أن يأخذنا الغرور بهذه الحياة ، ولذلك قال :

﴿ تَبَارَكَ الَّذِى بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ الَّذِى خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ۝ ﴾

(سورة الملك)

وكأنه ينبه الإنسان إلى أن يستقبل الحياة ، ليعرف أنه سبحانه أوجد ناقض الحياة وهو الموت ، فإياك أن تأخذ الحياة على أنها تعطيك قوة الحركة والإدراك والإرادة برتابة وأبدية ؛ لأن هناك ناقض الحياة وهو الموت .

وها هوذا سبحانه يقول فى موضع آخر من القرآن الكريم :

﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ۝ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ الْخَٰلِقُونَ ۝ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ۝ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝ ﴾

(سورة الواقعة)

والإنسان لا يرى الحيوانات المنوية المقذوفة منه فى رحم زوجه ، ولا أحد يقدر على ذلك ويرعاه حتى يصير جنينا ثم بشرا ، ولكن الحق هو المقدر والخالق ، إنه القادر الذى أعطانا الحياة وقدّر علينا الموت ولا غالب له ، إنه يبدل صورنا حين يريد ، ويخلق غيرنا وينشئنا فى صور لا نعرفها ، وهو الواهب للحياة ، وهو الذى ينزعها بالموت .

ويقول لنا :

﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ۝ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ الزَّٰرِعُونَ ۝ ﴾

(سورة الواقعة)

هنا ينبهنا جل وعلا إلى أن الزرع الذى نأكله ، والثمار التى نجنيها من الأرض ليس لنا فيها إلا إلقاء البذور ، وهو سبحانه الذى أودع فى البذرة عجائب مختزنة ، ففى البذرة ما يقيتها إلى أن يوجد لها جذير يمتص غذاءها من الأرض ، فتنمو لها

ساق ، ثم تقوى الجذور ، وتشتد الساق . ولا عمل للإنسان إلا إلقاء البذرة وحرث الأرض . ومع ذلك احترم الحق عمل الإنسان فقال :

﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾

(سورة الواقعة)

وعن الماء يقول الحق :

﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَـٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾

(سورة الواقعة)

هذا الماء العذب الذى نشربه إنما أنزله الله من السحاب الممطر . وعملية الإمطار هذه غاية فى التعقيد . والماء السارى فى الأنهار إنما جاء من المطر الذى تم إنزاله من السماء . فقد أرسل الحق أشعة الشمس لتبخر الماء من البحار ، وتتجمع فى سحب ثم يجرى الله عليها أمره من مرور تيارات هواء باردة فتسقط مطراً .

ونحن عندما نقطّر كوب ماء فى معمل ، نأتى بموقد وإناء ووقود ، ونضع الماء المراد تقطيره فيتبخر ، ثم نكثف قطرات البخار بواسطة تيار من الهواء البارد . ومثل هذه العملية تكلفنا الكثير من العمل الذهنى والمادى لبناء مثل هذا الجهاز حتى نقطر كوباً من الماء ، فما بالنا بالمطر الذى ينزل مدراراً وسيولاً .

إننا نجد ثلاثة أرباع الكرة الأرضية من ماء ، إنه ـ سبحانه ـ بسطه على رقعة واسعة ، حتى يسهل البخر . وإذا ما نثرنا كوب ماء على سطح متسع فى أبرد مكان فلسوف يتبخر . وهذا الانتشار المسطح للمياه هو الذى يسهل عملية البخر .

ويصعد البخار من مياه المحيطات والبحر إلى أعالى الجو ثم يتكثف فى صورة قطرات صغيرة من الماء تتساقط كمطر يتفاوت من منطقة إلى أخرى . وسبحانه قد أعدّ لكل أمر عدته . وهو أيضاً القادر على أن يذهب صلاح هذا الماء .

ويقول لنا الحق :

﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ۝٧١ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ۝٧٢ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ۝٧٣ ﴾

(سورة الواقعة)

ويذكرنا هنا سبحانه بأنه الذى خلق النار التى نشعلها ، وقد جاء بالمصدر الأول للوقود ، وهى الأخشاب التى كانت أشجاراً خضراء وبعد ذلك جفت وصارت أخشاباً نوقدها ونشعل فيها النار . وفى كل ذلك تتجلّى لنا قدرة الحق سبحانه وتعالى ، فنسبح باسمه العظيم :

﴿ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ۝٧٤ ﴾

(سورة الواقعة)

وننزهه سبحانه وتعالى عن أن يكون له شريك فى أمور الخلق والكون .

إذن فعندما يقول الحق سبحانه مبلغاً رسوله :

﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا ﴾

(من الآية ١٤ سورة الأنعام)

هذا السؤال يجبرنا على أن ندير أمر اختيار الولى فى رءوسنا وأن نُعْمِلَ أفكارنا ، وأن نعرف أن اتخاذ الولى أمر وارد على النفس البشرية ، ولكن من الذى يستحق أن نتخذه وليّاً ؟ ونجد فى تربية الحق لنا ما يعيننا على استنباط الفكرة السليمة والرأى الرشيد حين يقول لنا :

﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ ﴾

(من الآية ٥٨ سورة الفرقان)

ونعلم أن الإنسان لو اتخذ وليّاً من البشر فهذا البشر عرضة للموت ، فتحس أيها الإنسان أنك وحيد فى هذا الكون ، ولكنك عندما تتوكل على الله فهو حىّ لا يموت أبداً ، وهو سبحانه : « فاطر السموات والأرض وهو يطعم ولا يطعم » وهو الذى خلق السموات والأرض على غير مثال ، وهو الذى يطعمنا من مطمور كنوز الأرض التى أرادها قوتاً لنا . ولماذا جاء الحق هنا بمسألة الطعام ؟ إن الطعام لون من الرزق ،

والرزق ـ كما نعلم ـ رزق ينتفع به مباشرة ؛ ورزق يأتى لنا بما ننتفع به مباشرة . فلو أن إنساناً فى صحراء ومعه جبل من الذهب الخالص ولم يجد كوب ماء ولا رغيف خبز ، فجبل الذهب لا يساوى شيئاً .

إن جبل الذهب رزق ولكن لا ينتفع به مباشرة . والرزق الذى ننتفع به مباشرة هو الطعام والشراب والكسوة . ونحن نحتاج إلى الطعام والشراب كل يوم ، ونحتاج إلى ملابس جديدة مرة كل ستة أشهر فى المتوسط . إذن فالرزق المباشر هو المقوّم الأساسى للحياة .

والولى الذى ينصر لابد أن تتوافر فيه القدرة على الإطعام الذى يمدنا بالقدرة التى هى أساس الحياة إنها طاقة استمرار الإنسان على الأرض. فالأم تطعم طفلها وهى تَطْعَم أيضاً بما يأتيها زوجها من طعام . والحق سبحانه وتعالى وحده هو الذى يُطعم كل الخلق ولا يُطعمه أحد . وحينما نسلسل كل عطاء فى الدنيا نجده يئول إلى الله تعالى .

إذن فلا تجعل وليّك فى الوسائط ، بل اجعله فى الغايات ؛ لأن الوسائط كلها راجعة فى الحقيقة إلى الله ، ويأتى الأمر من الحق لرسوله : « قل إنى أمرت أن أكون أول من أسلم ولا تكونن من المشركين » .

وهذا الأمر يجىء من الآمر الأعلى وهو الله . فالرسول لم يقل : إن هذا الأمر منه ؛ لأنه بشر مثلنا ، وسبحانه أبلغ رسولنا أن يكون هو أول من أسلم ، وأن ينال شرف الالتزام بمبادىء الإسلام ، والمثال على ذلك أن كل قائد مسلم هو القدوة لغيره ، فها هوذا طارق بن زياد الذى فتح الأندلس وهى مُلْك عريض ، ونزل من السفن وقال لجنوده : أنا لم آمركم أمراً أنا عنه بنجوةٍ ـ أى أنا بعيد عنه ـ بل أنا معكم ، واعلموا أنى عندما يلتقى الجمعان حامل بنفسى على طاغية القوم « لزريق » فقاتِلُهُ إن شاء الله . إنه لم يأمر بأمر لم يطبقه على نفسه ، بل طبقه على نفسه أولاً ، وآفة الأوامر أن كل إنسان يأمر أمراً ولا يطبقه على نفسه .

ومن قبل ذلك كان سيدنا عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ قد حكم نفسه أولاً فحكم الدنيا ، لقد جمع أقاربه أولاً وقال لهم : إنى سأشرع للمسلمين ، والذى

نفسي بيده من خالفني منكم إلى شيء فيه لأجعلنه نكالا للمسلمين .

لقد أراد عمر ـ رضوان الله عليه ـ أن يحكم أقاربه أولاً ضارباً المثل لولى أى أمر ليحكم أقاربه أولاً ، وأن يحذرهم أن يستغلوا اسمه ، ليستقيم الأمر بين المسلمين ؛ لأن الآفة أننا نجد الكثير من الناس تتكلم فى الإسلام ، ويريد كل إنسان من غيره أن يكونوا مسلمين بينما هو لا يطبق على نفسه مبادىء الإسلام . والحق سبحانه وتعالى أنزل لرسوله الأمر : « قل إنى أمرت أن أكون أول من أسلم ولا تكونن من المشركين » .

ومعنى « أسلم » أى ألقى زمام حياته إلى من يثق فى حكمته وعدله وهو الحق سبحانه وتعالى. وعندما كنا صغارا كنا نلقى زمام أمورنا لمن يتولى تربيتنا، ونرى الأباء والأمهات وهم يتعبون ويشقون ، نطيع أوامرهم إلى أن نصل إلى المراهقة فتنمو فينا الذاتية ، ونجدالمراهق وهو يرفض مثلا ارتداء البنطلون القصير ويرتدى البنطلون الطويل . ويختار ألوان ملابسه فى ضوء الأزياء الحديثة السائدة . وبعد ذلك يبدأ الشاب فى إدارة أموره بنفسه .

وآفة حياتنا أننا نهمل تربية الأبناء وهم صغار ، ثم نأتى لنقول : هيا لنربى الشباب متناسين أن الشباب مرحلة تمتلىء بطاقة يمكن أن يستغلها المجتمع ، والتربية السليمة زمانها الطفولة . « قل إنى أمرت أن أكون أول من أسلم ولا تكونن من المشركين » . وها هوذا سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ينقل عن رب العزة ، ويخبرنا أنه صلى الله عليه وسلم أول المسلمين ، وأنه تلقى الأمر بعدم الشرك بالله .

فإياكم أيها المسلمون أن تتعاظموا على مثل هذا الأمر ؛ لأن المصطفى المختار هو أول من أمره الحق بذلك ، وإياك أيها المسلم أن تجد غضاضة فى أن تتلقى أمراً من خالقك ؛ لأن الغضاضة قد تأتيك عندما يصدر إليك أمرٌ من مساوٍ لك ، لكن التوجيه الصادر من الحق لا بد أن يلزمك وترتضيه نَفْسُك ويطمئن به قلبك ، وكان النبى صلى الله عليه وسلم يجهد نفسه عندما يقابل حادثة ليس فيها حكم الله ، ويأتى الرسول صلى الله عليه وسلم بحكم من عنده ، فإن كان الحكم صحيحاً فإن الحق ينزل من القرآن ما يؤكده ، وإن احتاج الحكم إلى تعديل ، فإن الحق سبحانه ينزل التعديل اللازم للحكم ، ويبلغنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بتعديل الحق

سبحانه وتعالى له ولا يجد غضاضة فى ذلك ، بل يبلغنا ببشاشة وصدق وأمانة أنه البلاغ عن الله .

والحق سبحانه وتعالى قد مَنَّ على رسوله صلى الله عليه وسلم عندما لم يعدل فى الحكم احتراماً لاجتهاده صلى الله عليه وسلم فيقول سبحانه :

﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعْلَمَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾

(سورة التوبة)

لقد أذن رسول الله صلى الله عليه وسلم لبعض المنافقين بالتخلف عن القتال قبل أن يتبين أمرهم ليعلم الصادق منهم ـ فى عذره ـ من الكاذب . وجاء العفو من الله لأن الرسول صلى الله عليه وسلم اجتهد ببشريته وأبلغنا الرسول بما أنزله الله .

ونحن فى حياتنا اليومية ـ ولله المثل الأعلى ـ نفتح كراسة الابن فنجد أن فيها شطباً بالقلم الأحمر ، فنسأل الابن : من الذى فعل ذلك ؟ فيقول الابن : صوب لى المدرس الأول هذا الموضوع . هو لم يتحدث عن تصويب المدرس ، ولكن عن تصويب من هو أعلى من المدرس . وهذا شرف للتلميذ . فما بالنا بالمصوِّب الأعلى سبحانه وتعالى . وهاهوذا الرسول صلى الله عليه وسلم يتلقى عن الله :

﴿ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ ﴾

إنه الرسول المصطفى والمجتبى والمعصوم يعلن أنه يخاف الله ؛ لأن قدر الله لا يملكه أحد ، ولا يغير قدر الله إلا الله سبحانه وتعالى ، وقد علق الخوف على شرط هو عصيان الله . لكن مادام لم يعص ربه فهو لا يخاف . ووجود « إن » يدل على تعليقٍ على شرط ولا يتأتى ذلك من الرسول المعصوم لأنه لا يعصى الله .

وقد أراد الحق أن يبين لنا أن المعصوم لا يتأتى منه عصيان الله . لكن هذا القول

يأتى على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم لنعلم أن هناك عذاباً عظيماً توعد به الله من يعصيه . وهو عذاب يلح على العاصى حتى يأتى إليه . ولهذا العذاب خاصية أن تكون بينه وبين العاصى جاذبية كجاذبية المغناطيس لغيره من المواد . ونجاة الإنسان من العذاب تحتاج إلى من يصرف عنه هذا اللون القاسى من العذاب ، يقول الحق سبحانه عنه :

﴿ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ ﴾

فكأن من لا يُصرف عنه هذا العذاب هو من ينجذب إلى قوة العذاب ؛ لأن لنار جهنم شهيقاً يجذب ويسحب إليه الذين قُدِّر عليهم العذاب ويقول سبحانه :

﴿ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٦﴾ إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ ﴿٧﴾ ﴾

(سورة الملك)

والذين يكفرون بالله لهم العذاب الذى يبدأ بسماع شهيق جهنم فى أثناء فورانها . والشهيق كما تعلم هو قوة تجذب وتسحب الهواء إلى الأنف والصدر ، فما بالنا بقوة شهيق جهنم وهى تسحب وتجذب الذين وقع عليهم الأمر بالعذاب ؟

وهذه النار نفسها ترد على سؤال الحق لها عندما تسمع قوله :

﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾ ﴾

(سورة ق)

إذن فقوة العذاب التى جعلها الله مهمة لجهنم هى التى تلح وتندفع لطلب المزيد من عقاب الكافرين . وسبحانه خلق كل شىء ليؤدى مهمة ، والنار مهمتها أن تمتثل لأمر الحق تبارك وتعالى عندما يأمرها بمباشرة مهمتها ؛ لذلك فهى تلح فى طلب الذين سيتلقون العذاب ، ولا تخرج النار أبدا عن أمر الله وقدره ، فإن صَرَف الحق

العذاب عن عبد من العباد فالنار تمتثل لذلك الأمر . « من يصرف عنه يومئذٍ فقد رحمه » وسبحانه فعال لما يريد ، وهو إن حاسبنا بالعدل فكل منا سيمسه شيء من عذاب جهنم ؛ ولكن رحمة الله هي التي تجعل النار لا تمس المؤمنين ؛ لأنه سبحانه وتعالى يعفو عن كثير ؛ ولأن للنار شهيقا ، فهي تستنشق المكتوب عليهم العذاب ، ونعلم أن الشهيق يتم بسرعة أكبر من الزفير . والشهيق في الحياة يكون للهواء .

والسبب ازدياد سرعة الشهيق عن الزفير أن في الشهيق مهمة استدامة الحياة الأولى وهي إمداد الجسم بالهواء ، والإنسان ـ كما نعلم ـ لا يصبر على الهواء إلا لأقل مدة ممكنة . ومن رحمة الله أنه لم يملك الهواء لأحد . وهذا الشهيق الذي يعطي الحياة في الأرض يوجد ـ أيضا ـ في الآخرة وهو منسوب إلى النار ، إنها تشهق لتبتلع العصاة ، وهي بذلك تؤدي مهمتها الموكولة لها . ونعرف أيضاً أن النار تؤدي مهمتها بغيظ طبقاً لما قاله الحق سبحانه :

﴿ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ ﴾

(من الآية ٨ سورة الملك)

فهل تؤدي النار مهمتها وهي غير راضية عنها ؟ وهل تختلف النار عن كل كائنات الحق التي تؤدي مهمتها بسعادة وانسجام ؟ إن النار تَمَيَّزُ من الغيظ لأن الكافر من هؤلاء لم يعرف قيمة الإيمان ، وللنار مشاعر مثل بقية المخلوقات . وللكون كله مشاعر ؛ فالكون ـ على سبيل المثال ـ قد فرح بميلاد محمد صلى الله عليه وسلم ؛ فالأرض والسماء والنجوم والشجر وكل الكون فرحت بمقدم الرسول الكريم ؛ لأن كل هذه الكائنات مسخرة للإنسان وهي مسبحة لله وطائعة بطبيعتها ، مثلما يأتي البشير ليهدي الإنسان إلى الصراط المستقيم ليجعله طائعاً ، فهي تفرح بمقدم هذا البشير .

ونعرف أن المكان الذي يوجد به الإنسان ، هذا المكان يفرح إن كان الإنسان فيه طائعاً ، وهذا المكان نفسه يحزن إن كان الإنسان عاصياً ، ويضج المكان ـ أي مكان ـ بوجود أي عاصٍ فيه . ونرى ذلك واضحاً في قول الحق سبحانه وتعالى عن قوم فرعون :

﴿ كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا

فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾

(سورة الدخان)

والأرض التى كان بها قوم فرعون كان لها مشاعر ، والجنات والأنهار والعيون وكل النعم التى ينعم بها الإنسان لها مشاعر وأحاسيس ، وهى تغضب وتسخط وتضج بوجود الكافرين بنعمة الله فيها ، ولذلك لا تبكى السماء والأرض على الخسف والتنكيل بهؤلاء العصاة الكافرين المشركين ، بينما تبكى السماء والأرض إن فارقها مؤمن ، ولنا فى قول الإمام على ـ كرم الله وجهه ـ إيضاح لهذا ؛ فقد قال : إذا مات المؤمن بكى عليه موضعان : موضع فى السماء ، وموضع فى الأرض . أما موضعه فى السماء فهو مصعد عمله الطيب ، وأما موضعه فى الأرض فهو موضع مُصلاه .

وفى الحديث : « إذا مات أحدكم عُرض عليه مقعد بالغداة والعشى ، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة ، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار ، يقال له : هذا مقعدك حتى يبعثك الله إليه يوم القيامة »[1] .

إذن فموضع صعود عمل الإنسان فى السماء يحزن ؛ لأن هناك فقداناً لعمل صالح يمر فيه ، وموضع صلاة الإنسان يفقد سجود إنسان خشوعاً لله ، ولكل الكائنات المخلوقة لله مشاعر ، وكل شىء فى الكون يؤدى مهمته بقانون التسيير والتسخير لا قانون التخيير ، الإنسان ـ فقط ـ هو الذى يحيا بقانون التخيير فى بعض أحواله ؛ لأنه قادر على الطاعة ، وقادر على المعصية . ولذلك فعندما نرى السجود لله فى القرآن فإننا نسمع قول الحق :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿١٨﴾ ﴾

(سورة الحج)

---

(١) رواه البخارى ومسلم والترمذى وابن ماجه عن ابن عمر .

إذن فكل الكائنات تسجد له ماعدا كل أفراد الإنسان ؛ فكثير منه يسجد لله وكثير منه يحق عليه العذاب لأنه لا يطيع الحق . ومن يعص منهج الله غير مؤمن به يطرده الله من رحمته ، ومن يهنه الله بذلك فليس له تكريم أبداً . وقد أجمع الكون على السجود لله ، إلا الإنسان فمنه الصالح المنسجم بعمله مع خضوع الكون لله ، ويفرح به الكون ، ومنه من يغضب منه الكون لأنه يعصى الله .

إن اللغة العربية توضح لنا ذلك ؛ فالعرب يقولون : فلان نَبَتْ به الأرض من النَّبْوَة وهى الجفوة والبعد والإعراض . . أى أن الأرض تكره شخصاً بعينه ؛ لأنه لا انسجام للأرض مع كائن عاصٍ .

ويقول الحق عن الذين يصرف عنهم العذاب من فرط رحمته بعباده لأنهم أطاعوه وكانت معاصيهم تغلبهم فى بعض الأحيان فيتوبون عنها :

﴿ مَن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ۝١٦ ﴾

(سورة الأنعام)

ونعلم أن هذا الفوز هو أرقى درجات الفوز ؛ ذلك أن الفوز درجات ؛ فالفوز فى الدنيا كالنجاح أو المال أو غير ذلك هو فوز مُعرَّض لأن يضيع . وهو عُرضة لأن يترك الإنسان أو يتركه الإنسان ، لكن فوز الآخرة هو الفوز الدائم الذى لا ينتهى .

وهذا هو الفارق بين نعم الدنيا ونعم الآخرة ، والإنسان يتنعم فى الدنيا على قدر تصوره للنعيم ، فنجد الريفى ـ مثلاً ـ يتصور النعيم أن تكون له مِصطبة أمام داره يجلس عليها ، وعدد من القلل التى تمتلىء بالماء النقى ، فإذا ما انتقل هذا الريفى إلى المدينة فهو يتصور النعيمَ فى منزل متسع فيه أثاث فاخر وأدوات كهربائية من ثلاجة وغير ذلك ، إذن فإمكانات النعيم مختلفة على حسب تصور الإنسان ، أما نعيم الآخرة فهو نعيم لا يفوته الإنسان ولا يفوت الإنسان ؛ لأنه نعيم من صنع الخالق الواسع العطاء . . إن الجنة فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، ولذلك فالفوز بنعيم الآخرة هو الفوز المبين .

والحق سبحانه وتعالى هو المحيط بكل شىء عِلْمًا واقتدراً :

﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ ﴾

والضر هو ما يصيب الكائن الحى مما يخرجه عن استقامة حياته وحاله . فعندما يعيش الإنسان بغير شكوى أو مرض ويشعر بتمام العافية فهو يعرف أنه سليم الصحة ؛ لأنه لا يشعر بألم فى عيونه أو ضيق فى تنفسه أو غير ذلك ، لكن ساعة يؤلمه عضو من أعضاء جسمه فهو يضع يده عليه ويشكو ويفكر فى الذهاب إلى الطبيب . إذن فاستقامة الصحة بالنسبة للإنسان هى رتابة عمل كل عضو فيه بصورة لا تلفته إلى شىء .

ويلفت الحق أصحاب النعم عندما يرون إنساناً من حولهم وقد فقد نعمة ما ، فساعة تسير فى الشارع وترى إنسانا فقد ساقه فأنت تقول : « الحمد لله » لأنك سليم الساقين . كأنك لا تدرك نعمة الله فى بعض منك إلا إن رأيتها مفقودة فى سواك . وهكذا نعلم أن من الآلام والآفات منبهاتٍ للنعم . وأيضاً قد تصيب منغصات الحياة الإنسان ليعلم أنه لم يأخذ نعم الله كلها فيقول العبد لحظتها : يا مفرج الكروب يارب ، ولذلك تجد الإنسان يقول : « يارب » حينما تأتيه آفة فى نفسه ويفزع إلى الله . وقد قالها الله عن الإنسان :

﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾ ﴾

(سورة يونس)

فالإنسان عندما يحس ضعفه إذا ما أصابه مكروه لا يمل دعاء الله ، سواء أكان الإنسان مضطجعا أم قاعداً أم قائماً ، وعندما يكشف الحق عنه الضر قد ينصرف عن جانب الله ، ويستأنف عصيان الله وكأنه لم يدع الله إلى كشف الضر ، وهذا هو سلوك المسرفين على أنفسهم بعصيان الله . والنفس أو الشيطان تزين للعاصى بعد انكشاف الضر أن يغوص أكثر وأكثر فى آبار المعاصى وحمأة الرذيلة .

وقد ينسب الإنسان كشف الضر لغير الله ، فينسب انكشاف الضر إلى مهارة

الطبيب الذى لجأ إليه ، ناسياً أن مهارة الطبيب هى من نعم الله . أو ينسب أسباب خروجه من كربه إلى ما آتاه الله من علم أو مال ، ناسياً أن الله هو واهب كل شيء ، كما فعل قارون الذى ظن أن ماله قد جاءه من تعبه وكده وعلمه ومهارته ، ناسياً أن الحق هو مسبب كل الأسباب ، ضرًا أو نفعا ، فسبحانه هو الذى يسبب الضر كما يسبب النفع .

ويلفت الضر الإنسان إلى نعم الحق سبحانه وتعالى فى هذه الدنيا . وإذا ما رضى الإنسان وصبر فإن الله يرفع عنه الضر ؛ لأن الضر لا يستمر على الإنسان إلا إذا قابله بالسخط وعدم الرضا بقدر الله . ولا يرفع الحق قضاء فى الخلق إلا أن يرضى خلق الله بما أنزل الله ، والذى لا يقبل المصائب هو من تستمر معه المصائب ، أما الذى يريد أن يرفع الله عنه القضاء فليقبل القضاء .

إن الحق سبحانه يعطينا نماذج على مثل هذا الأمر ؛ فهاهوذا سيدنا إبراهيم عليه السلام يتلقى الأمر بذبح ابنه الوحيد ، ويأتيه هذا الأمر بشكل قد يراه غير المؤمن بقضاء الله شديد القسوة ، فقد كان على إبراهيم أن يذبح ابنه بنفسه ، وهذا ارتقاء فى الابتلاء . ولم يلتمس إبراهيم خليل الرحمن عذراً ليهرب من ابتلاء الله له ، ولم يقل : إنها مجرد رؤيا وليست وحياً ولكنها حق ، وقد جاءه الأمر بأهون تكليف وهو الرؤيا ، وبأشق تكليف وهو ذبح الابن ، ونرى عظمة النبوة فى استقبال أوامر الحق . ويلهمه الله أن يشرك ابنه إسماعيل فى استقبال الثواب بالرضا بالقضاء :

﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ﴾

(سورة الصافات)

لقد بلغ إسماعيل عمر السعى فى مطالب الحياة مع أبيه حين جاء الأمر فى المنام لإبراهيم بأن يذبح ابنه ، وامتلأ قلب إسماعيل بالرضا بقضاء الله ولم ينشغل بالحقد على أبيه . ولم يقاوم ، ولم يدخل فى معركة ، بل قال :

﴿ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ﴾

(من الآية ١٠٢ سورة الصافات)

لقد أخذ الاثنان أمر الله بقبول ورضا ؛ لذلك يقول الحق عنهما معاً :

﴿ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ ﴾

(سورة الصافات)

لقد اشترك الاثنان فى قبول قضاء الله ، وأسلم كل منهما للأمر ؛ أسلم إبراهيم كفاعل ، وأسلم إسماعيل كمنفعل ، وعلم الله صدقهما فى استقبال أمر الله ، وهنا نادى الحق إبراهيم عليه السلام : لقد استجبت أنت وإسماعيل إلى القضاء ، وحسبكما هذا الامتثال ، ولذلك يجىء إليك وإلى ابنك اللطف ، وذلك برفع البلاء . وجاء الفداء بِذِبْحٍ عظيم القدر ، لأنه ذِبْحٌ جاء بأمر الله . ولم يكتف الحق بذلك ولكنْ بَشر إبراهيم بميلاد ابن آخر :

﴿ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ ﴾

(سورة الصافات)

لقد رفع الله عن إبراهيم القدَر وأعطاه الخير وهو ولد آخر . إذن فنحن البشر نطيل على أنفسنا أمد القضاء بعدم قبولنا له . لكن لو سقط على الإنسان أمر بدون أن يكون له سبب فيه واستقبله الإنسان من مُجريه وهو ربه بمقام الرضا ، فإن الحق سبحانه وتعالى يرفع عنه القضاء . فإذا رأيت إنساناً طال عليه أمد القضاء فاعلم أنه فاقد الرضا .

ونلحظ أن الحق هنا يقول : « وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يمسسك بخير فهو على كل شىء قدير » الله سبحانه وتعالى يعلم أن أى عبد لا يتحمل أن يضره الحق ؛ فقوة الحق لا متناهية ولذلك يكون المس بالضر ، وكذلك بالخير ؛ فالإنسان فى الدنيا لا ينال كل الخير ، إنما ينال مس الخير ؛ فكل الخير مدخر له فى الآخرة . ونعلم أن خير الدنيا إما أن يزول عن الإنسان أو يزول الإنسان عنه ، أما كل الخير فهو فى الآخرة .

ومهما ارتقى الإنسان فى الابتكار والاختراع فلن يصل إلى كل الخير الذى يوجد فى

الآخرة ، ذلك أن خير الدنيا يحتاج إلى تحضير وجهد من البشر ، أما الخير فى الآخرة فهو على قدر المعطى الأعظم وهو الله سبحانه وتعالى . إذن فكل خير الدنيا هو مجرد مس خير ؛ لأن الخير الذى يناسب جمال كمال الله لا يزول ولا يحول ولا يتغير ، وهو مدخر للآخرة . ولا كاشف لضر إلا الله ؛ فالمريض لا يشفى بمجرد الذهاب إلى الطبيب ، لكن الطبيب يعالج بالمهارة الموهوبة له من الله ، والذى يَشفى هو الله .

﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ ﴾

(سورة الشعراء)

لأن الحق سبحانه وتعالى قد خلق الداء ، وخلق الدواء ، وجعل الأطباء مجرد جسور من الداء إلى الدواء ثم إلى الشفاء ، والله يوجد الأسباب لِيُسرَّ ويُفْرِح بها عباده ، فيجعل المواهب كأسباب ، وإلا فالأمر فى الحقيقة بيده ـ سبحانه وتعالى ـ . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « تَدَاوَوْا عبادَ الله فإن الله تعالى لم يضع داء إلا وضع له دواء غير داء واحد : الهَرَم »[1] .

ونحن نرى أن الطبيب المتميز يعلن دائماً أن الشفاء جاء معه ، لا به . ويعترف أن الله أكرمه بأن جعل الشفاء يأتى على ميعاد من علاجه . إذن فالحق هو كاشف الضر ، وهو القدير على أن يمنحك ويَمَسَّك بالخير . وقدرته لا حدود لها .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾ ﴾

وقد رتب سبحانه وتعالى الكون والخلْق بأسباب ومسببات . وكل شىء موجود هو واسطة بين شىء وشىء ، فالأرض واسطة لاستقبال النبات ، والإنسان واسطة بين أبيه وابنه ، ولنفهم جميعاً أنَّ الحقَ ، فوق عباده ، إنه غالب بقدرته ، يدير الكون بحكمة وإحاطة علم ، وهو خبير بكل ما خفى وعليم بكل ما ظهر .

(١) رواه أحمد وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه وابن حبان والحاكم عن أسامة بن شريك .

وهو القائل :

﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

سبحانه وتعالى له مطلق القدرة على أن يرسل العذاب من السماء أو من بطن الأرض ، أو أن يجعل بين العباد العداء ليكونوا متناحرين ليدفع بعضهم بعضا حتى لا تفسد الأرض (ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض) .

فإياك أن تظن أيها الإنسان أن الحق حين يملّك بعض الخلق أسباباً أنهم مالكو الأسباب فعلاً ، لا ؛ إن الحق سبحانه أراد بذلك ترتيب الأعمال في الكون . ولذلك ساعة نرى واحداً يظلم في الكون فإننا نجد ظالماً آخر هو الذي يؤدب الظالم الأول . ولا يؤدب الحق الشرير على يد رجل طيب ، إنما يؤدبه عن طريق شرير مثله :

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

لأنه سبحانه وتعالى يُجل المظلوم من أهل التقوى أن يكون له دور في تأديب الظالم ، إنما ينتقم الله من الظالم بظالم مثله أو أقوى منه . وهذا ما نراه على مدار التاريخ القريب والبعيد ، فحين يتمكن العبد الصالح من الذين أساءوا إليه يقول ما قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما دخل مكة حيث قال : « يا معشر قريش ما ترون أني فاعل بكم ؟ قالوا : خيرًا ، أخ كريم وابن أخ كريم ، قال : اذهبوا فأنتم الطلقاء »[1] .

أما إذا أراد الله الانتقام من شرير فهو يرسل عليه شريراً مثله يدق عنقه ، أو يجدع أنفه ، أو يذله حتى لا ينتشر ويستشرى الفساد ؛ فسبحانه القاهر فوق عباده ، وهو

(١) رواه البيهقي في سننه ١١٨/١ وفي تاريخ الطبري ٦١/٣ .

قهر بحكمة وبعلم وليس قهر استعلاء وقهر جبروت وسيطرة . وحتى نوضح ذلك قد يجرى الله على أحد عباده قَدَرًا بأن ينكسر ذراع ولده فيسوق الرجل ولده إلى طبيب غير مجرب ليقيم جبيرة لذراع الابن ، وتلتئم العظام على ضوء هذه الجبيرة فى غير مكانها ، فيذهب الرجل بابنه إلى طبيب ماهر فيكسر يد الطفل مرة أخرى ليعيد وضع العظام فى مكانها الصحيح .

إن هذا الكسر كان لحكمة وهي استواء العظام ووضعها الوضع السليم . ولا يغيظ عبد من العباد الخالق أبداً ، ولكن الحق ينتصف للمغيظ . ونعلم أن الإنسان مخير بين الإيمان والكفر ، فإن كفر وعصى فليس له فى الآخرة إلا العذاب ، إلا أن الله يجرى عليه قَدَر المرض فلا يستطيع أن يتمرد عليه ؛ لأنه سبحانه قاهر فوق عباده بدليل أنه متحكم فى أشياء لا خيار للعباد فيها . ومادام الإنسان منا محكومًا بقوسين ولا رأى له فى ميلاده أو موته فلماذا - إذن - التمرد بالعصيان على أوامر الله ؟ ولنعلم أن الحق هو القاهر فوق عباده بقهر الحكمة وسبحانه يضع لكل أمر المجال الذى يناسبه وهو خبير بمواطن الداءات ، ويعالج عباده منها على وفق ما يراه .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾ ﴾

لقد اختلف الرسول صلى الله عليه وسلم مع القوم المناوئين له . والاختلاف يتطلب حكماً وبينة . والشهود هم إحدى البينات ، فما بالنا والشاهد هو الله ؟! إنه الشاهد والحكم والمنفذ . وشهادة الله لا تحايل فيها ، وحكمه لا ظلم فيه ، وإرادته

لا تظلم عبداً مثقال ذرة ، ولا شهادة ـ إذن ـ أكبر من شهادة الحق لرسوله بأنه رسول من الله . ولو شاء الحق لجعلكم كلكم مؤمنين ، لكنه أراد للإنسان الاختيار . وحنان الرسول صلى الله عليه وسلم على البشر هو الذى جعله يتمنى إيمانهم ، لكن الحق يقول للرسول صلى الله عليه وسلم :

﴿ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ۝ إِن نَّشَأۡ نُنَزِّلۡ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتۡ أَعۡنَٰقُهُمۡ لَهَا خَٰضِعِينَ ۝ ﴾

(سورة الشعراء)

أى أن الحق يأمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن يشفق على نفسه وألّا يقتلها بالحزن عليهم لعنادهم وعدم إيمانهم . ولو أراد الحق لجعلهم جميعاً مؤمنين بآية منه ؛ فمهمة الرسول هى البلاغ فقط . ولو شاء الحق لقهر الخلق جميعاً على الإيمان به كما سخّر الكون ليخدم الإنسان وليسبح الكون بحمد الله . لكنه سبحانه ترك للخلق الاختيار حتى يأتى إيمانهم مثبتاً صفة المحبوبية لله ؛ لأن إيمان المختار هو الذى يثبت تلك المحبوبية . والرسول صلى الله عليه وسلم إنما هو نذير وبشير بهذا القرآن المُنزَّل عليه بالوحى .

والنذارة تأتى هنا لأن المجال مجال شهادة ؛ لأن الشهادة إنما تكون على خلاف ، فهو صلى الله عليه وسلم يدعو إلى الإيمان ، والمناوئون له يدعون إلى الكفر وإلى الشرك ، وشهادة الله أكبر من كل شهادة أخرى . لذلك يقرر الحق هنا بأن الرسول نذير بالقرآن . وهذا الخطاب موجه لتبليغ المعاصرين لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولِمَن وصله بعد ذلك أى شىء من القرآن ، فكأنه قد رأى النبى صلى الله عليه وسلم ووصله البلاغ عنه . فقد قال ـ سبحانه ـ : (ومن بَلَغَ) أى لأنذركم به وأنذر كل من بلغه القرآن من البشر جميعا .

ويوجه الحق على لسان رسوله سؤالاً استنكارياً للمناوئين فيقول : « أئنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى ». إنه سؤال من سائل يثق أن من يسمع سؤاله لا بد أن ينفى وجود آلهة أخرى غير الله . إنه سؤال يستنبط الإقرار من سامعه . والمثال على هذا ما عرضه الحق على رسوله من أمر قد حدث فى عام ميلاده فيقول :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١ ﴾

(سورة الفيل)

ونعلم أن النبى صلى الله عليه وسلم لم ير ما حدث فى عام الفيل ؛ لأنه عام ميلاده ، ولكن حين يخبره الله بذلك فمعنى هذا أنه بلاغ عن الله ، والبلاغ عن الله يجعل الخبر القادم منه فوق الرؤية وأوثق وآكد منها . وهنا يأتى السؤال الاستنكارى : « أئنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى » . وعندما أعجزهم هذا السؤال فى بعض مراحل الدعوة قال بعضهم :

﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾

(من الآية ٣ سورة الزمر)

وكأنهم أخيراً يعترفون أن المتقرَّب إليه هو الله ، ولكن الحق يحسم أمر الشرك فيقول على لسان رسوله : « قل لا أشهد قل إنما هو إله واحد وإننى برىء مما تشركون » فالرسول صلى الله عليه وسلم لا يشهد بأى آلهة غير الله ، وألقى إليهم السؤال الاستنكارى لعلهم يديرون رءوسهم ليهتدوا إلى صحيح الإجابة التى يوجزها الحق فى قوله للرسول : « قل إنما هو إله واحد وإننى برىء مما تشركون » .

إن الكلام هنا موجه إلى فئة من المناوئين لرسول الله من عبدة الأوثان ، وهم بعض من الكافرين برسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والبعض الآخر هم بعض من أهل الكتاب ، هؤلاء الذين تغافلوا عن الكتب المنزلة إليهم ، وغابت عنهم الخمائر الإيمانية التى كانت ترد العاصى عن معصيته ، فانتشر الفساد فى الكون . لذلك أرسل الحق رسوله صلى الله عليه وسلم لأن العاصى لم يجد من يرده ، واختفت من المجتمع فى ذلك الوقت النفس اللوامة ، وسادت فيه النفس الأمارة بالسوء .

إن الحق سبحانه لم يترك أمر الرسول غائباً عن البشر، فقد كان الرسول فى كل أمةٍ ينبىء ويخبر عن الرسول الذى يليه حتى يستعد الناس لاستقبال النذير والبشير ، ولذلك كانت كل الرسالات تتنبأ بالرسل القادمين حتى لا يظنوا أن مدّعيا اقتحم عليهم قداسة دينهم ، ولأن الإسلام جاء ديناً عاماً ، فلم يأت الخبر فقط بمحمد صلى الله عليه وسلم فى الكتب السابقة ، ولكن جاءت أوصافه وسماته أيضا واضحة وبّينه فيها .

إن الذين قرأوا هذه الأوصاف لو أخرجوا أنفسهم عن سلطتهم الزمنية لآمنوا على الفور برسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما فعل « عبدالله بن سلام » رضى الله عنه حين قال : لقد عرفته حين رأيته وعرفته كابنى ، ومعرفتى لمحمد أشد.ونسى هؤلاء أنهم هم الذين نُصروا برسول الله صلى الله عليه وسلم دون أن يدروا ؛ فقد كانوا يستفتحون به على الأوس والخزرج ، وقالوا للأوس والخزرج : قَرُب مجىء نبى منكم سنؤمن به ونتبعه ونقتلكم به قتل عاد وإرم . وأسرع الأوس والخزرج للإيمان برسول الله صلى الله عليه وسلم قائلين :

لعل هذا هو النبى الذى توعدتنا به يهود ، هيا نسبق إليه .

إذن فرسول الله صلى الله عليه وسلم لم يقتحم العالم بهذا الدين ، بل عَرَفَ نبأ مقدمه وبعثه وصورته ونعته كلُّ من له صلة بكتاب من كتب السماء . إنهم يعلمون أنه الرسول الخاتم الذى ختمت به أخبار السماء إلى الأرض .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾

إذن فرسول الله معلوم مقدماً من أهل الكتاب كمعرفتهم لأبنائهم ، ولكنّ بعضاً منهم فضل السلطة الزمنية على الإيمان برسول الله فخسروا أنفسهم ؛ لأن الخسارة - كما نعرف - هى ضياع لرأس المال أو نقصانه . وهم خسروا أنفسهم لأن تلك النفوس كان يجب أن تحرص على مصلحة الأرواح التى جاء محمد صلى الله عليه وسلم لإصلاحها . إنهم بذلك قد منعوا الخير عن أنفسهم بتفضيل سلطان الدنيا الزائل على الإيمان بالله ، وفى ذلك خيبة كبرى .

راجع أصله وخرج أحاديثه الدكتور/ أحمد عمر هاشم نائب رئيس جامعة الأزهر .

الله يعلمنا أن الإيمان إنما هو كسب للنفس ، فإياك أيها المؤمن أن تظن أن قولك : « لا إله إلا الله » هو سند لعرش الله . لا ، إنها سند لك أنت ؛ لأنه لا إله إلا هو خَلَق الكون والخَلْقَ بصفات الكمال والقدرة والعلم والحكمة ، واعتراف الخلق بألوهية الله وحده لا تزيد من كمال الله ولكنها تفيد العباد الذين آمنوا فيحسنون استقبال الأمر بعمارة الكون ، لتسير حركة الحياة فى ضوء منهج الله فينسجموا مع الكون كله المسبح لله .

وحين يقول الحق :

﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

فهو يخبر أهل مكة أن الصيحة الإيمانية التى صاح بها رسول الله صلى الله عليه وسلم فى آذانهم لم تكن صيحة مفاجئة للكون ، ولكنها صيحة بُشِّر بها على لسان كل رسول ، وإذا كان أهل مكة قد بعدت صلتهم بالرسل والأنبياء وكانوا على فترة من الرسل ، فهم بجوارهم لأهل كتاب فى المدينة يعلمون هذه الحقيقة التى جاء بها رسلهم مؤكدين للعهد الذى أخذه الله عليهم ؛ لأننا نعلم أن الحق سبحانه وتعالى حين خلق الخلق واستعمرهم فى الأرض أرادهم موهوبين من قدرته سبحانه قُدْرَةً ، ومن غناه سبحانه غِنىً ، ومن علمه الكامل علماً ، ومن حكمته المطلقة حكمةً ، ومن رحمته الكاملة رحمةً ، ومن قاهرية الله قهراً ؛ لأن الكون لا يمكن أن يستقيم إلا إن وُجدت فيه هذه المتكاملات وإن كانت متناقضة ؛ لأن لكل صفة مجالها الذى تعمل فيه .

وأضرب هذا المثل ـ ولله المثل الأعلى ـ نجد الإنسان منا حين يرحم ولده دائماً يفسد الولد وإن لم يقس عليه مرة فأبوته ناقصة ، إذن ، فلا يمكن أن يكون المهيمن على الخلق رحيماً فقط ، وإنما يجب أن يكون قاهراً أيضاً ؛ لأن الموقف قد يتطلب القهر . ولا يريد الحق سبحانه وتعالى أن يطبع خلقه على خلق واحد ، ولكنه سبحانه يريد أن يجعلهم ينفعلون للمواقف المختلفة ؛ فالموقف الذى يتطلب رحمة ، يكونون فيه رحماء ، والموقف الذى يتطلب قسوة وشدة يكونون فيه قساة ، ولذلك يقول الحق فى المؤمنين :

﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الفتح)

إن الحق يحدثنا عن خلق المؤمنين . إنه سبحانه لم يطبعهم على الشدة ؛ لأن المواقف قد تتطلب رحمة ، ولكن الشدة مطلوبة لمواجهة أهل الباطل . ولم يطبعهم الحق على اللين ، لكن اللين مطلوب فيما بينهم ؛ لأن كلا منهم يرجو رحمة الله وفضله ؛ ففى الموقف الذى يتطلب رحمة ؛ هم رحماء . وفى الموقف الذى يتطلب شدة هم أشداء ، ولذلك يقول الحق سبحانه أيضاً عن المؤمنين :

﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾

(من الآية ٥٤ سورة المائدة)

ولم يجعل الحق المؤمن ذليلاً على إطلاقه ، ولا عزيزاً على إطلاقه ، ولكنه جعله ذليلاً على أخيه المؤمن ، لين الجانب رحب الأخلاق . وجعله عزيزاً على الكافرين المتأبين على الله .

إذن ، فسبحانه يريد من خَلْقه أن يكونوا على خُلُقِ الحق سبحانه وتعالى ، ولذلك يقول الرسول صلى الله عليه وسلم فيما رواه عمار بن ياسر رضى الله عنه : « حُسْن الخلق خُلُق الله الأعظم »[1] ورُوِى : (تخلقوا بأخلاق الله) .

إن لله سبحانه وتعالى قدرة حكيمة ، فخذوا أيها المؤمنون قدرته واستعملوها بحكمة ، ولله علم فحاولوا أن تكونوا عالمين ، ولله رحمة فحاولوا أن تكونوا رحماء ، والله جبار فإذا تطلب الموقف منكم أن تكونوا جبارين فافعلوا ، لأن سياسة الأرض وسياسة المجتمع قد لا تصلح إلاّ بهذا .

ومادام الحق قد أراد من الخلق أن يعمروا هذا الكون فلابد أن يضمن لهم منهجاً سليماً يرتكز على « افعل » و« لا تفعل » ، فإن نحن أخذنا منهج الله فنحن نأخذ ما يمكن أن نسميه بالعرف الحاضر : « قانون الصيانة » فلنفعل ما قال الله افعلوا ،

---

(١) رواه الطبرانى فى الكبير والأوسط .

ولنترك ما قال الله فى شأنه لا تفعلوا حتى تؤدى الآلة الإنسانية مهمتها كما يريد الله لها أن تكون .

إن الفساد إنما ينشأ من أنك أيها الإنسان تنقل الأعمال من نطاق « افعل » إلى نطاق « لا تفعل » ، والأعمال التى يجعلها الله فى نطاق « لا تفعل » تجعلها أنت فى نطاق « افعل » . فإن طلب الله أن نقيم الصلاة بـ « افعل » فكيف نجعلها فى نطاق « لا تفعل » بعدم الصلاة ؟، وإن طلب الله منا ألا نشرب الخمر فكيف نشربها إذن ؟ .

إن الخلل الإيمانى الذى يحدث فى الكون إنما ينشأ من نقل متعلقات « افعل » إلى « لا تفعل » ، ومن نقل متعلقات « لا تفعل » إلى « افعل » ، أما ما لم يَرِد فيه « افعل » و« لا تفعل » فقد ترك الله لاختيارك إباحة أن تفعله أو لا تفعله ، لأن الكون لا يفسد بشيء منها .

وإذا نظرت إلى منهج الله فى « افعل » و« لا تفعل » فأنت تجد أن الحق سبحانه لم يقض على حريتك ولم يقض على اختيارك ، وإنما ضبطك ضبطاً محكماً فيما ينشأ فيه فساد الكون ، أما الذى لا ينشأ منه فساد فإن شئت فافعله وإن شئت فاتركه . وزود الحق كل البشر بهذا المنهج من لدن آدم إلى أن تقوم الساعة . وأخذ سبحانه على نفسه الوعد بعدم تعذيب أمة لم يبعث لها رسولاً ، ولذلك توالى الموكب الرسالى . لماذا ؟ لأن الغفلة تتمكن من الإنسان ؛ فقد يتناسى الإنسان مرة الشيء الذى يحد حركته ويتكرر التناسى إلى أن يصير نسياناً ، فيشاء الحق أن يرسل رسولاً لكل فترة لينبه إلى قانون صيانة الإنسان ، إلى أن جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأمن الله أمةَ محمد أن تكون هى المبلغة بمنهج الله إلى أن تقوم الساعة . ولذلك أخذ سبحانه من النبيين ميثاقاً للبلاغ عن رسالة النبى الخاتم :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَـٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

إذن فقد أخذ الله العهد على كل نبى أن يبلغ قومه أن يؤمنوا برسالة الرسول الذى توافق دعوته دعوتهم ، وأخذ الحق الإقرار من كل نبى على ذلك ، وشهد الأنبياء على أنفسهم وشهد الله عليهم ، ويبلغوا ذلك إلى أقوامهم . إذن فنصرة النبى الخاتم موجودة فى كل رسالة سابقة على الإسلام ، وكان على كل رسول أن يعطى إيضاحاً بذلك العهد لقومه ، وأن يأخذ عليهم العهد بنصرة الرسول القادم إليهم ، ويبلغهم أن من تمام الإيمان أن يؤيِّدوا ذلك الرسول إن هم عاصروه .

ويخصص الحق هنا أهل الكتاب الذين نزلت إليهم التوراة والإنجيل وهما أصحاب الديانتين العظيمتين اللتين سبقتا الإسلام : « الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم » أى أنهم يعرفون محمداً صلى الله عليه وسلم بالبشارة به ، وبالإخبار عنه ، وبالنعت لشكله وصورته ، فإذا كان كفار قريش على فترة من الرسل فليسألوا أهل الكتاب . وقد سمع الأوس والخزرج من أهل الكتاب أن هناك نبياً قادماً سيؤمنون به ويتبعونه ويقتلون به العرب قتل عاد وإرم . إذن فالصيحة الإيمانية على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم لم تكن مفاجئة للكون ، وإن كتمها الذين كفروا من أهل الكتاب ، هؤلاء الذين جاء فيهم قول الحق سبحانه :

﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَـٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾

(سورة البقرة)

لقد انتابت الآفة التى تنكر هذا البلاغ عن الله بعضاً من أهل الكتاب ، فقد أخذوا ، وهم المبلغون عن الله ، السلطة الزمنية ورأوا فيها الحظ والجاه والنعيم ، فمنهم القضاة وإليهم يلجأ الناس لمعرفة الحكم فى الدماء ، وكذلك يأخذون الصدقات . وألفوا حياة السيادة والنعيم . وها هى ذى دعوة جديدة جاءت لتسلب منهم هذه السيادة ، وبالرغم من أنهم كانوا المبشرين بها من قبل ، إلا أن الدعوة عندما جاءت تزلزلت بها سلطتهم الزمنية ، ولذلك بدأوا العداء .

إذن فالآفة هى أخذ سلطة زمنية من باطن سلطة الله ثم يدعى أنها سلطة الله . وعندما ننظر إلى التاريخ الديانى فى العالم نجد أن السلطة الزمنية فى الأديان التى

سبقت الإسلام هى التى أرهقت الكون ؛ لأن الحق سبحانه حينما خلق الكون طمر فيه أسراراً تعمل فى خدمة الإنسان وإن لم يدر بها الإنسان . وطموحات الإنسان العلمية هى التى تجعله يهتدى إلى هذه الأسرار ويكتشف القوانين التى تعمل بها ؛ مثال ذلك قانون الجاذبية ، وقانون السالب والموجب ، كل هذه قوانين موجودة فى الكون ، تماماً كما خلق الله الأرض كروية وكما جعل الشمس هى مصدر الحرارة والدفء والنور والإشراق .

ويأخذ العلماء من تلك المقدمات ليصلوا إلى اكتشاف قوانين هذه الأجرام وقوانين هذا الكون . وحين يصل العالم الذكى إلى اكتشاف قانون ما فإنه يقول : لقد اكتشفت كذا ، وهذا تعبير فطري دقيق ، ولا يقول أبداً : لقد ابتكرت كذا ؛ لأنه يعلم أن ما اكتشفه كان موجوداً فى الكون ولكن لا يعرفه . وعدم معرفة الإنسان بقانون موجود فى الكون لا يمنع الفائدة من الوصول إلى الإنسان ، وإن كانت المعرفة بالقانون تزيد من إمكان الإفادة منه .

فالإنسان يتمتع بوجود الشمس قبل معرفة ما بها من طاقة ، ولكن عندما تخصص العلماء فى دراسة الشمس عرفوا أن الإنسان يمكن أن يستفيد بهذه الطاقة أكثر من فائدته التقليدية بها ، ولذلك صارت هناك بعض المدن تنير شوارعها بالطاقة الشمسية ، وصارت هناك بعض المبانى تدفىء حجراتها بالطاقة الشمسية وتسخن المياه أيضاً بهذه الطاقة . ولم يمنع هذا الاكتشاف أن يستفيد الأمى أو البدوى فى الصحراء من نور الشمس . وكذلك الكهرباء ، والأدوات الكهربائية والمنزلية التى يمكن للجاهل الاستفادة منها ، مثل استفادة الخبير بها ، صحيح أن الأمى لا يعرف كيف تدور المصانع التى تنتج أجهزة التليفزيون ولكنه يستفيد برؤية التليفزيون . والتليفزيون ليس إلا ترجمة مادية لمجموعة من القوانين العلمية اكتشفها الإنسان ووضعها موضع التطبيق لصناعة هذه الآلة التى يستفيد بها الإنسان .

ولكل سر ميلاد تماماً كميلاد الإنسان . وإذا جاء ميعاد ميلاد السر ولم يكن هناك من يبحث عنه ، فسبحانه يكشفه لأى بشر بالمصادفة ، وكثيراً ما نسمع أن عالماً كان يبحث فى مجال ما ولكنه اكتشف سرا غير الذى كان يبحث عنه . ولذلك يقول الحق فى آية الكرسى :

﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ﴾

(من الآية ٢٥٥ سورة البقرة)

فأنت أيها الإنسان لا تحيط علماً بأسرار الكون إلا إذا أذن الله ؛ وهناك عشرات الآلاف من الأمثلة على ذلك بداية من قاعدة أرشميدس التى تسير عليها البواخر والغواصات ، إلى قانون الجاذبية الأرضية الذى إكتشفه نيوتن عندما وقعت تفاحة أمامه بالمصادفة ، إلى اكتشاف البنسلين ، إلى غير ذلك من أسرار هذا الكون . وإذا كانت هناك علوم لها مقدمات ، فهناك أيضا علوم ليس لها مقدمات ؛ إن الحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ۝٢٧ ﴾

(سورة الجن)

فسبحانه وتعالى عالم الغيب فلا يظهر غيبه لأحد إلا لرسول يختاره الحق ليعلم بعضاً من الغيب ، ويحميه الله ويعصمه ويحفظه بالملائكة لتحول بينه وبين وساوس الشياطين وتخليطهم حتى يُبَلِّغ ما أُوحِىَ به إليه . وحين يريد الحق أمرا محكما لا اختيار لأحد فيه فإنه ينزل به رسولاً إلى الخلق ليهديهم بـ « افعل » و« لا تفعل » . وهذه مسألة غير متروكة للبحث فيها ، ولكنها تأتى بإذن من الله حتى لا تتعارض أهواؤنا ؛ فسبحانه علم أن الأهواء بين البشر قد تتعارض ولا تتساند فيرسل الرسل من عنده سبحانه بالمنهج ليستقيم أمر البشر .

إن النشاطات الذهنية التى يصل بها البشر إلى أسرار فيها رفاهية الحياة ، هى أسرار بنت التجربة والمعمل ، والمعمل لا يجامل ، فلا توجد كيمياء روسية وأخرى أمريكية ، إنما كل قوانين المواد تستنبط فى المعمل .. ولذلك نرى الدول تتسابق كل يحاول أن يسرق ما عند الآخر بواسطة الجواسيس . أما فى مجال الحركة الاجتماعية فالدول تقيم سدوداً بينها وبين المبادىء ؛ فالغرب لا يسمح بدخول نظريات اجتماعية من الشرق ، والشرق لا يسمح بذلك أيضاً . ويختلف هذا الأمر فى البحث العلمى ؛ فقوانين البحث العلمى عن أسرار الكون يحاول كل طرف امتلاكها . وإن لم يستطع حاول أن ينقلها عن غيره .

ويعلمنا الحق أن نبحث فى كل آيات الكون ولا نعرض عنها ، فيقول لنا :

﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾

(سورة يوسف)

فسبحانه يلفتنا إلى أن كل آية وكل ظاهرة من الظواهر تتطلب منا أن ننظر فيها بحكمة وإمعان ؛ لأننا قد نستنبط منها أشياء تريحنا . ومثال ذلك قوة البخار ، اكتشفها رجل وطورها آخر حتى صارت تلك القوة البخارية فى خدمة البشرية كلها . وكذلك الذى اخترع العجلة أفاد البشرية فى نقل عشرات الأوزان عليها واختصار زمن الرحلات ، كل ذلك إنما جاء من تأمل آيات الله فى الكون بإمعان وتدبر . لقد جعل الحق البحث فى آيات الكون مشاعاً للمؤمنين والكفار ، وهو حق لمن يبحث فى أسراره . وهذه هى قضية العلم . أما قضية الدِّين فأمرها مختلف ؛ لأن الخبر فى قضية الدين يأتى من الله بواسطة رسول . أما البحث فى الكون وأسراره العلمية فالحق يقول فيه :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ ﴾

(سورة فاطر)

إن الحق يلفتك أيها الإنسان إلى أنه أنزل من السماء ماء فأنبت وأخرج به من الأرض النباتات التى تحمل ثماراً مختلفة الألوان ومختلفة الطعم . وجعل الجبال مختلفة الأشكال والألوان ، وبعضها ضعيف وبعضها قوى . ويختلف لون الجبل عن الآخر بما فيه من مواد مطمورة . وهذه الجبال كلها من أصل واحد ولكن فروعها متباينة لخدمة الإنسان .

لقد خلق الحق سبحانه الأنعام مختلفة الألوان والأشكال والأحجام ، وكذلك الناس مختلفون فى اللون والشكل . والعلماء هم الذين يتدبرون ذلك فيخشون الله

الصانع العليم . إذن فأمر الدين محسوم من الحق . والرسل مبلغون عن الله ، وكذلك أهل العلم بالدين ، وأهل العلم بالدين مبلغون عن الله لا متكلمون بلسان الله ؛ لأن بعض البشر قد يخلطون أهواءهم مع كلمات الله ويقولون : إن هذا هو كلام الله ، وهذا خطأ فاحش وذنب كبير .

إن ما حدث في القرون الوسطى ـ على سبيل المثال ـ كان خلطاً بين البحث العلمي وما ينزل الحق من منهج ؛ فعندما جاء عالم مثل « جاليليو » ليبحث في طبيعة الكواكب أرادوا أن يحرقوه ، وعندما أراد عالم آخر أن يتكلم في طبيعة الأرض حبسوا حريته . وعندما حكمت الكنيسة العالم الغربي بهذا الأسلوب تأخر العالم كله وعاش في عصور من الظلام ، وعندما اتصل هؤلاء القوم بالمسلمين تحرروا من خزعبلات تلك القرون الوسطى وتعلموا حرية البحث العلمي من العرب وارتقت أوروبا بذلك الأسلوب العلمي الذي طرحه الإسلام وأثبته علماء المسلمين .

إن السبب في تأخر أوروبا وجهلها هم أهل الكهنوت والدين ، بل إن نفور الأوروبيين من الدين كان بسبب معرفتهم أن رجال الدين عندهم يمقتون الحياة والتقدم الحضاري ـ حماية لنفوذهم وسلطتهم الزمنية والروحية ـ وأراد بعض من أهل أوروبا أن يأخذوا كل الأديان بجريرة رجال الكهنوت عندهم . ونسي الذين حملوا على الدين ـ كل الدين ـ أن رجال الكهنوت افتأتوا وادعوا ذلك على النصرانية ، ونسبوه إليها ؛ فالمسيح لم يقل لهم ذلك ، ولكنهم كرجال كهنوت أفسدوا الحياة بالسلطة الزمنية التي كانت لهم وكانت النتيجة أن أخذ البعض من فساد سلطة الكنيسة حجة على فساد الدين .

ولهؤلاء نقول : إن الدين لا يتدخل في أي أمر من أمور الحياة العلمية ولا يفسدها أبداً ، بل نجد أن الحق قد أمرنا بالبحث في آياته وأن نزيد من البحث . وهاهوذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرنا بأن نبحث عن شئون الدنيا على ضوء التجربة . وأراد الله أن يفصل بين أمور العلم التجريبي وأمور الدين ، وأراد أن يحمي دينه من تدخل أي فئة تدعي أنها تملك كلام الله فتخلط بين أهوائها والبلاغ عن الله سبحانه .

مثال ذلك ما قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم في أمر تلقيح النخيل . ونعرف

أن تلقيح النخيل يتم حين نأخذ طلع الذكورة ونلقح به الأنوثة من النخيل فيخرج التمر ناضجاً ، وإن لم يحدث ذلك فالنخيل تنتج ثماراً غير ناضجة . والسر فى إنتاج النخيل لثمارغير ناضجة أن التلقيح قد تم بواسطة الريح التى تنقل القليل من حبوب اللقاح ، ولكن التلقيح اليدوى للنخيل هو الذى يزيد من جودة الثمار ، وقال الرسول صلى الله عليه وسلم مرة للصحابة ما يمكن أن يفهم منه ألا يقوموا بتلقيح النخيل وحدث نتيجة ذلك أن النخيل لم يثمر الثمار المرجوة بل أثمر شيصاً أى ثماراً غير مكتملة النضج ، واستند الرسول فى ذلك إلى قول الحق :

﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ ﴾

(من الآية ٢٢ سورة الحجر)

وهذا قول صحيح صادق حكيم نجد آثاره فى السحاب الذى يتحول إلى مطر نتيجة اتصال الموجب بالسالب ، ونجده فى معظم النباتات من قمح وفاكهة وذرة وغير ذلك . فطلع الذكر ينتقل بواسطة الريح إلى عناصر الأنوثة فى النباتات القريبة فتلقحها وتنقل الرياح كذلك اللقاح الخفيف . واللقاح عندما يكون ثقيل الوزن يحتاج فى بعض الأحيان إلى جهد من الإنسان لينقل خلايا الذكورة إلى خلايا الأنوثة ، ومثال ذلك النخيل . ولذلك عندما علم رسول الله صلى الله عليه وسلم بقلة إنتاج النخيل فى العام الذى لم يلقح فيه بعض الصحابة نخيلهم . . قال صلى الله عليه وسلم لهم : « أنتم أعلم بأمر دنياكم »[1] .

وبهذا حسم الرسول صلى الله عليه وسلم الأمر ولم يعد لرجال الدين أن يتدخلوا فى أى أمر لا تستقيم به الحياة إلا بناء على التجربة المعملية . ولذلك يقال عن الإسلام : إنه دين العلم ، لأنه أتاح لرجال العلم أن ينطلقوا فى تأمل آيات الله فى هذا الكون ، بل دعاهم وأمرهم أن يستنبطوا أسرار هذا الكون . أما فى أمور السلوك البشرى وحركة المجتمع فقد أنزل الحق من المنهج ما يكفى لعدم استعلاء أحد على أحد ، وأن نضبط السلوك الإنسانى بتعاليم المنهج الإيمانى .

لقد جاء المنهج الإيمانى فى كل الرسالات ، وكانت الرسالة الخاتمة هى رسالة محمد ابن عبدالله ، وكانت البشارة به موجودة فى التوراة والإنجيل . ويقول الحق :

---

(١) رواه مسلم عن أنس وعائشة رضى الله عنهما .

« الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم » فهل عمل أهل الكتاب بمقتضى هذه المعرفة ؟ لا ؛ ذلك أن بعضاً منهم خافوا أن تؤخذ منهم سلطتهم الزمنية ، وأكبر مثال على ذلك هو عبدالله بن أبي الذى كان رأس النفاق فى الإسلام والذى كان يستعد لتولى مُلْك المدينة قبل مجىء الرسول صلى الله عليه وسلم إليها . وكان هناك من أهل الكتاب من عمل بهذه النبوءة ، مثال ذلك : عبدالله بن سلام رضى الله عنه . ولم يظلم القرآن أحداً ، بل قال عن بعض أهل الكتاب :

﴿ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾

(سورة المائدة)

إذن لم يظلم الحق الذين آمنوا من أهل الكتاب عندما وجدوا أن منهج الإسلام مطابق لما جاء إليهم . لكن بعض أهل الكتاب كفر وعادَى رسول الله صلى الله عليه وسلم خوفاً على السلطة الزمنية التى كانت لهم .

وعندما ننظر إلى التاريخ نجد أن السلطة الزمنية كانت فى وقت من الأوقات لرجال الدين مثلما حدث فى أوروبا ، ولكن حدث استغلال من جانب رجال الدين للناس ، وأفسد رجال الكهنوت فى الأرض ، فتمرد عليهم البشر وخرجوا عن طاعتهم ليقننوا لأنفسهم القوانين . ولأنهم كانوا يحكمون بالأهواء لا بالشرع فقد كان الحكم يتذبذب عند رجال الكهنوت فى الأمر الواحد حسب شخصية من يرتكب هذا الأمر ، فمن يدفع لهم ينال العفو ، ومن لم يدفع ينال العقاب ! لقد أخذوا متاع الدنيا القليل ولم ينفذوا ما أمرهم به الله فخرج الناس على سلطانهم .

ومن هنا لم يعترف بعض من البشر برسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى جاءت البشارة به وعرفوه بالإيضاح والنعت ولكنهم أنكروه لأنه يسلبهم ما حصلوا عليه من الانتفاع بالمال والسلطة فخسروا أنفسهم وظلوا على الكفر ؛ لقد قال فيهم الحق : « الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون » . لقد خسروا أنفسهم ؛ لأنهم اشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً . وخسارة النفس تفوق خسارة المال ؛ لأن خسارة المال مردودة ويمكن أن تتدارك فيكسب الإنسان بعد خسارة ، ولكن خسارة النفس أمرها كبير . ونعلم أن الصفقة الإيمانية لا تعزل عمل الدنيا عن حساب الآخرة . والمؤمن

الحق هو من يربط الدنيا بالآخرة . لكنّ بعضاً من أهل الكتاب أحبوا الدنيا على الآخرة وفصلوا بين الاثنتين فأخذوا حظاً قليلاً من الحياة الدنيا وخسروا الآخرة .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٢١﴾ ﴾

إنهم افتروا على الله الكذب عندما فعلوا ذلك : نسوا حظاً مما ذكروا به ، وكتموا بعضاً من الكتب المنزلة إليهم ، وحرفوا الآيات المنزلة إليهم ، وجاءوا بأقوال من عندهم ونسبوها إلى الله . ولذلك نجد الحق سبحانه يقول عنهم :

﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَـٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَـٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾

(سورة البقرة)

إن الحق يتوعدهم بالعذاب لأنهم باعوا الدين لقاء ثمن قليل فى الدنيا ، وادعوا على الله الكذب فنسبوا إليه ما لم ينزله ، ولذلك فالويل كل الويل لهم ؛ لأنهم انحطوا إلى أخس دركات الظلم وكذبوا الكذب المتعمد فى كلية ملزمة وهى الإيمان بالله وبالكتب المنزلة والرسل .

والافتراء هو الكذب المتعمد بغرض نسبة شىء إلى الله لم يقله ، وهم قد فعلوا ذلك ، ولهذا لا يفلح الظالمون سواء ظلموا الناس بأخذ أموالهم أو الإساءة إليهم ، أو ظلموا أنفسهم بالشرك بالله وهو أعظم الظلم (إن الشرك لظلم عظيم) .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾

الحق سبحانه يذكرنا بيوم الحشر ، يوم يسأل الله الذين أشركوا وكذبوا وافتروا الكذب على الله : أين الذين عبدتموهم وأشركتموهم معى ؟ إن الله لن يترك الناس سدى ، بل كل عمل يفعله الإنسان فى الدنيا محصى عليه وسيسأل عنه يوم القيامة . سيسأل الله المشركين عن الذين عبدوهم من دون الله كذباً : أين هؤلاء الآلهة التى أشركها الكافرون فى العبادة مع الله ؟ ولماذا لا يتقدمون لإنقاذ عبيدهم من العذاب الذى يصليه الله لهم ؟! ويقرع سبحانه المشركين ، ويحشرهم مع ما عبدوهم من دون الله من الأصنام والأوثان وفى ذلك قمة الإهانة لهم ولتلك الآلهة .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾

ونعرف أن الفتنة هى الاختبار . وللفتنة وسائل متعددة ؛ فأنت تختبر الشىء لتعرف الردىء من الجيد ، والحقيقى من المزيف . ونحن نختبر الذهب ونفتنه على النار وكذلك الفضة . وهكذا نرى أن الفتنة فى ذاتها غير مذمومة ، لكن المذموم والممدوح هو النتيجة التى نحصل عليها من الفتنة ؛ فالامتحانات التى نضعها لأبنائنا هى فتنة ، ومن ينجح فى هذا الامتحان يفرح ومن يرسب يحزن . إذن فالنتيجة هى التى يفرح بها الإنسان أو التى يحزن من أجلها الإنسان ، وبذلك تكون الفتنة أمراً مطلوباً فيمن له اختيار . وأحيانا تطلق الفتنة على الشىء الذى يستولى على الإنسان بباطل .

إن الحق يحشر المشركين مع آلهتهم التى أشركوا بها ويسألهم عن هذه الآلهة

فيقولون : (والله ربنا ما كنا مشركين). وهمْ فى ظاهر الأمر يدافعون عن أنفسهم، وفى باطن الأمر يعرفون الحقيقة الكاملة وهى أن المُلْك كله لله ، ففى اليوم الآخر لا شركاء لله ؛ ذلك أنه لا اختيار للإنسان فى اليوم الآخر . ولكن عندما كان للإنسان اختيار فى الدنيا فقد كان أمامه أن يؤمن أو يكفر . وإيمان الدنيا الناتج عن الاختيار هو الذى يقام عليه حساب اليوم الآخر ، أما إيمان الاضطرار فى اليوم الآخر فلا جزاء عليه إلا جهنم لمن كفر أو أشرك بالله فى الدنيا . ولو أراد الله لنا جميعاً إيمان الاضطرار فى الدنيا لأرغمنا على طاعته مثلما فعل مع الملائكة ومع سائر خلقه .

لقد قهر الحق سبحانه كل أجناس الوجود ماعدا الإنسان ، وكان القهر للأجناس لإثبات القدرة ، ولكن التكريم للإنسان جاء بالاختيار ليذهب إلى الله بالمحبة .

والمشركون بالله يفاجئهم الحق يوم القيامة بأنه لا إله إلا هو ، ويحاولون الكذب لمحاولة الإفلات من العقوبة فيقولون : (ما كنا مشركين) . وهم قد كذبوا بالله فى الحياة فعلاً ويريدون الكذب على الله فى اليوم الآخر قولاً ، ولكن الله عليم بخفايا الصدور وما كان من السلوك فى الحياة الدنيا ، ويوضح لهم فى الآخرة أعمالهم ويعاقبهم العقاب الأليم .

وحين يسألهم الحق : « أين شركاؤكم » ؟ ففى هذا القول استفهام من الله ، والاستفهام من العليم لا يقصد منه العلم ، وإنما يقصد به الإقرار مِن المسئول . وفى حياتنا اليومية يمكننا أن نرى السؤال من التلميذ لأستاذه ؛ ليعلم التلميذ ما يجهل . ونرى السؤال يرد مرة بعد أخرى من الأستاذ لتلميذه لا ليعلم ما لم يعلم ، ولكن ليقرر التلميذ بما يعلمه وما تعلمه من أستاذه . فإذا سأل الحق خلقه سؤالاً ، أيسألهم سبحانه ليعلم ؟ حاشا لله أن يكون الأمر كذلك . وإنما يسأل الحق عباده ليكون سؤال إقرار . والإقرار هنا فيه تبكيت أيضاً ؛ لأنه سؤال لا جواب له ، فمعاذ الله أن يوجد له شركاء . وعندما يقول الحق لهم : (أين شركاؤكم) ؟ فمعنى ذلك هو الاستبعاد أن يوجد له سبحانه شركاء . وبذلك يوبخهم ويبكتهم الحق على أنهم أشركوا بالله ما لا وجود له .

لقد أشركوا بالله فى الدنيا لمجرد التخلص من موجبات الإيمان . وها هم أولاء فى

المشهد العظيم يعرفون قدر كذبهم فى الدنيا ، فلا ملك لأحد إلا الله ، ولا معبود سواه ، فينطقون بما يشهدون : « والله ربنا ما كنا مشركين » .

ولقائل أن يقول : ولكن هناك فى موضع آخر من القرآن نجد أن الله يقول فى حق مثل هؤلاء :

﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾ هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾

(سورة المرسلات)

إنهم فى يوم الهول الأكبر يعرفون أنهم كذبوا فى الدنيا ، وهم لا ينطقون بأى قول ينفعهم ، ولا يأذن لهم الحق بأن يقدموا أعذاراً أو اعتذاراً . ونقول لمن يظن أن المكذبين لا ينطقون : إنهم بالفعل لا ينطقون قولاً يغيثهم من العذاب الذى ينتظرهم ، وهم يقعون فى الدهشة البالغة والحيرة ، بل إن بعضاً من هؤلاء المكذبين بالله واليوم الآخر يكون قد صنع شيئاً استفادت به البشرية أو تطورت به حياة الناس ، فيظن أن ذلك العمل سوف ينجيه ، إن هؤلاء قد يأخذون بالفعل حظهم وثوابهم من الناس الذين عملوا من أجلهم ومن تكريم البشرية لهم ، ولكنهم يتلقون العذاب فى اليوم الآخر لأنهم أشركوا بالله . ولم يكن الحق فى بالهم لحظة أن قدموا ما قدموا من اختراعات ، ولذلك يقول الحق :

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ ۗ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ ﴾

(سورة النور)

وهكذا نعلم أن أعمال الكافرين أو المشركين يجازيهم الحق سبحانه عليها بعدله فى الدنيا بالمال أو الشهرة ، ولكنها أعمال لا تفيد فى الآخرة . وأعمالهم كمثل البريق اللامع الذى يحدث نتيجة سقوط أشعة الشمس على أرض فسيحة من الصحراء ، فيظنه العطشان ماء ، وما إن يقترب منه حتى يجده غير نافع له ، كذلك أعمال الكافرين أو المشركين يجدونها لا تساوى شيئاً يوم القيامة . والمشرك من هؤلاء يعرف حقيقة شركه يوم القيامة . ولا يجد إلا الواحد الأحد القهار أمامه ، لذلك يقول كل واحد منهم : « والله ربنا ما كنا مشركين » . إن المشرك من هؤلاء ينكر شركه . وهذا الإنكار لون من الكذب .

إن المشركين يكذبون ، ويقول الحق سبحانه عنهم :

﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ ۚ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٨﴾ ﴾

(سورة المجادلة)

وحين يبعثهم الحق يوم القيامة يقسمون له أنهم كانوا مؤمنين كما كانوا يقسمون فى الدنيا ، لكن الله يصفهم بالكذب ، لقد كان بإمكانهم أن يدلسوا على البشر بالحلف الكاذب فى الدنيا ، ولكن ماذا عن الله الذى لا يمكن أن يدلس عليه أحد .

وهكذا نرى أن فتنة هؤلاء هى فتنة كبرى :

﴿ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

ويقول الله لرسوله صلى الله عليه وسلم بعد ذلك :

﴿ انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾

ويلفت الحق نظر رسوله صلى الله عليه وسلم بدقة إلى عملية سوف تحدث يوم القيامة ، وساعة يخبر الله بأمر فلنصدق أنه صار واقعاً وكأننا نراه أمامنا حقيقة لا جدال فيها . وسبحانه يقرر أنهم كذبوا على أنفسهم . ونعرف أن كل الأفعال تتجرد من زمانيتها حين تنسب إلى الله سبحانه وتعالى ، فليس عند الله فعل ماضٍ أو حاضر أو مستقبل .

والمثال على ذلك قوله الحق :

﴿ أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ۚ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١﴾ ﴾

(سورة النحل)

وليس لقائل أن يقول : كيف يقول الحق إن أمره قد أتى وذلك فعل ماضٍ ، ثم ينهى العباد عن استعجاله ، والإنسان لا يتعجلُ إلا شيئاً لم يحدث ، ليس لقائل أن يقول ذلك ؛ لأن المتكلم هو القوة الأعلى ولا شيء يعوق الحق أن يفعل ما يريد . أما نحن العباد فلا نجرؤ أن نقول على فعل سوف نفعله غداً إننا فعلناه ، ذلك أن غداً قد لا يأتى أبداً ، أو قد يأتى الغد ولا نستطيع أن نفعل شيئاً مما وعدنا به ، أو قد تتغير بنا الأسباب . وعلى فرض أن كل الظروف قد صارت ميسرة فأى قوة للعبد منا أن يفعل شيئاً دون أن يشاء الله ؟ . ونحن ـ المؤمنين ـ نعرف ذلك وعلينا أن نقول كما علمنا الله :

﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾

(من الآية ٢٣ وجزء من الآية ٢٤ سورة الكهف)

وهكذا يضمن الإنسان منا أنه قد خرج من دائرة الكذب . وحينما يقول الله لرسوله : « انظر » ويكون ذلك على أمر لم يأت زمان النظر فيه ؛ فرسول الله يصدق ربه وكأنه قد رأى هذا الأمر . إن الحق يصف هؤلاء الناس بأنهم : « كذبوا على أنفسهم » أى أن كذبهم الذى سوف يحدث يوم القيامة هو أمر واقع بالفعل . وقد يكذب الإنسان لصالحه فى الدنيا . لكن الكذب أمام الله يكون على حساب الإنسان لا له .

ويتابع الحق : « وضل عنهم ما كانوا يفترون » ومعنى هذا أنهم يبحثون فى اليوم الآخر عن الشركاء ولكنهم لا يقدرون على تحديد هؤلاء الشركاء لأنهم قالوا أمام الله : « والله ربنا ما كنا مشركين » وغياب الشركاء عنهم أمام الله هو ما يوضحه ويبيّنه قول الله : « وضل عنهم ما كانوا يفترون » فـ « ضل » هنا معناها « غاب » . ألم يقولوا من قبل :

﴿ وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ ۚ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٠﴾ ﴾

(سورة السجدة)

أنهم كمنكرين للبعث يتساءلون باندهاش : أإذا غابوا فى الأرض واختلطوا بعناصرها يمكن أن يبعثهم ربهم من جديد ؟ . فهم لا يصدقون أن الذى أنشأهم أول مرة بقادر على أن يعيدهم مرة أخرى . ونعرف أن كلمة « ضل » لها معانٍ متعددة .

لكن معناها هنا « غاب » ، وحين يسألهم الله : أين شركاؤكم ؟ ، ينكرون كذباً أنهم أشركوا ، لقد ضل عنهم ـ أى غاب عنهم ـ هؤلاء الشركاء . والإنسان يعبد الإله الذى ينفعه يوم الحشر ، وعندما يغيب الآلهة عن يوم الحشر فهذا ما يبرز ضلال تلك الآلهة وغيابها وقت الحاجة إليها ، ولا يبقى إلا وجه الله الذى يحاسب من أشركوا به .

و« ضل » يقابلها « اهتدى » ، و« ضل » أى لم يذهب إلى السبيل الموصلة للغاية ، و« اهتدى » أى ذهب إلى السبيل الموصلة إلى الغاية . ومن لا يعرف السبيل الموصلة إلى الغاية ، يكون قد ضل أيضا ، ولكن هناك من يضل وهو يعلم السبيل الموصلة إلى الغاية وهذا هو الكفر . وعندما يتكلم الحق عن الذين كفروا يصفهم بأنهم ضلوا ضلالاً بعيداً ؛ لأن الطريق إلى الهداية كان أمامهم ولم يسلكوه ، وهذا هو ضلال القمة . وقد يكون الإنسان مؤمناً لكن مقومات الإيمان ضعيفة فى نفسه فيعصى ربه .

ويقول الحق عن مثل هذا الإنسان :

﴿ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًا مُّبِينًا ﴾

(من الآية ٣٦ سورة الأحزاب)

إنه ضلال دون ضلال وكفر دون كفر القمة . لكن ماذا عن الذى يضل لأنه لا يعرف طريق الهدى ؟ إن ذلك هو ما يظهر لنا من قصة سيدنا موسى عليه السلام ، فحين قال الحق لموسى وهارون عليهما السلام :

﴿ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾ ﴾

(سورة الشعراء)

أصدر الحق الأمر إلى موسى وهارون بالذهاب إلى فرعون ليرسل معهما بنى إسرائيل ، فماذا عن موقف فرعون ؟. ماذا قال فرعون ؟:

﴿ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ ﴾

(سورة الشعراء)

هنا يريد فرعون أن يمتن على موسى عليه السلام ، ويذكره بأنه رباه فى قصره إلى أن كبر ومع ذلك لم يرع موسى ذلك وقتل رجلاً من قوم فرعون ، وكان ذلك فى نظر فرعون لوناً من الجحود بنعمته ، وها هوذا يعتدى مرة أخرى على ألوهية فرعون بدعوته للإيمان بالإله الحق الذى لا يتخيله الفرعون ، ويلتقط موسى الخطأ الجوهرى فى سلوكه فى ذلك الوقت . إن الخطأ لم يكن الكفر بفرعون ، ولكن الخطأ كان هو القتل فيقول :

﴿ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾ ﴾

(سورة الشعراء)

وهكذا نعرف أن موسى لحظة قَتْلِه رجلا من عدوه لم يكن عنده طريق الهدى ، بل كان ضلاله حاصلا من عدم معرفته أن هناك طريقاً آخر إلى الهدى . وهاهوذا الحق سبحانه وتعالى يخاطب رسوله صلى الله عليه وسلم :

﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ ﴾

(سورة الضحى)

أى لم يكن عندك يا رسول الله طريق واضح إلى الهدى قبل الرسالة ، فليس معنى الضلال هنا الانحراف ، ولكن معناه أنه قبل نزول الوحى لم يكن يعرف أى طريق يسلك . وقد يكون الضلال نسياناً ، ومادام الإنسان قد نسى الحقيقة فهو ضال ، والمثال قول الحق :

﴿ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ ﴾

(من الآية ٢٨٢ سورة البقرة)

هنا يقرر الحق أن شهادة المرأة تحتاج إلى ضمانٍ وذلك بتأكيدها بشهادة امرأة أخرى ؛ لأن المرأة بحكم تكوينها لا تستطيع أن تضع أنفها فى كل تفاصيل ما تراه ، بل هى تسمع سمعاً سطحياً ، ولذلك لا تكتمل الصورة عندها ، وعندما تجتمع مع شهادة المرأة شهادة امرأة أخرى ، فكل منها تذكر الأخرى بتفاصيل قد تكون فى منطقة النسيان ؛ لأن نفسية المرأة وطبيعة تكوينها مبنية على الصيانة والتحرز من أن توجد فى مجتمع فيه شقاق .

وعندما يصف الحق هؤلاء المشركين فى يوم القيامة فهو يقول : « وضل عنهم

ما كانوا يفترون » أى غاب عنهم ما كانوا يكذبون ويدعون أنهم شركاء لله ، والمشركون هم المؤاخذون والمحاسبون على اتخاذ الشركاء ، فقد يكون بعضهم قد اتخذ شريكاً لله لا ذنب له فى تلك المسألة ، كاتخاذ بعضهم عيسى عليه السلام شريكاً لله . وعيسى عليه السلام منزه عن أن يشرك بالله أو يشرك نفسه فى الألوهية . والحق قد قال :

﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ ﴾

(سورة المائدة)

بل إن الأصنام نفسها التى اتخذها المشركون أرباباً تقول : عبدونا ونحن أعبد لله من القائمين بالأسحار .

إذن فالخطأ يكون ممن أشركوا بالله لا من الأحجار العابدة لله المسبحة له لأنها مسخرة وميسرة لما خلقت له . لقد تخيل أحد الشعراء حواراً دار بين غار ثور وغار حراء ، يقول غار ثَوْر :

كم حسدنا حراء حين ثوى الرو ... ح أميناً يغزوك بالأنوار

وعندما أذن الحق بالهجرة اختبأ النبى بغار ثَوْر ، فقالت بقية الأحجار :

فحراءٌ وثورُ صارَا سواءً ... بهما أشفع لدولة الأحجار
عبدونا ونحن أَعْبَدُ لِلّهِ ... من القائمين بالأسحار
تخذوا صمتنا علينا دليلا ... فغدونا لهم وقود النار
قد تَجَنَّوْا جهلاً كما قد تَجَنَّـ ... ـوْهُ علي ابْنِ مريمٍ والحوارِى
لِلْمُغَالِى جزاؤه والمغالَى ... فيه تنجيه رحمةُ الغفارِ

إذن ، فهاهى ذى الحجارة تقول : إنها بريئة من الشرك بالله وهى أعبد لله من القائمين بالأسحار ، وصمت الحجارة الظاهر اتخذه البعض دليلاً على أن الحجارة رضيت بأن يعبدوها ، لكن الحجارة تصير هى أحجار جهنم المعدة لمن كفر بالله ، وكان التجنى من العباد على الأحجار مثل التجنى على عيسى ابن مريم . والذين غالوا فى عبادة الأحجار أو البشر لهم عقاب ، أما الأحجار والبشر الذين لا ذنب لهم فى ذلك فهم طامعون فى مغفرة الله ورحمته .

إذن فالضلال هنا يكون ضلال الذين اتخذوا شريكاً لله . ولكن الشريك المُتَّخَذ لا يقال له: ضل إلا على معنى أنه غاب عنهم فى يوم كان أملهم أن يكون معهم ليحميهم من عذاب الله .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾

إن من هؤلاء من يستمع إلى القرآن لا بهدف التفهم والهداية ، ولكن بهدف تلمس أى سبيل للطعن فى القرآن ، فكأن قلوبهم مغلقة عن القدرة على الفهم وحسن الاستنباط وصولاً إلى الهداية ، وهم يجادلون بهدف تأكيد كفرهم لا بنية صافية لاستبانة آفاق آيات الحق والوصول إلى الطريق القويم .

ونعلم أن السورة كلها جاءت لتواجه قضية الأصنام والوثنية والشرك بالله ، ونعلم أن المعجزة التى جاءت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم هى القرآن ، وهو معجزة كلامية ، تختلف عن المعجزات المرئية التى شاهدها المعاصرون لموسى عليه السلام :

كشق البحر بالعصا أو رؤية العصا وهى تصير حية تلقف كل ما ألقاه السحرة ، أو معجزة عيسى عليه السلام من إبراء الأكمه والأبرص ، فهذه كلها معجزات مرئية ومحددة بوقت ، أما معجزة رسول الله فهى معجزة مسموعة ودائمة .

إن السمع هو أول أدوات الإدراك للنفس البشرية . إنه أول آلة إدراك تنبه الإنسان ، إنه آلة الإدراك الوحيدة التى تُستصحب وقت النوم وتؤدى مهمتها ؛ لأن تصميمها يضم إمكانات مواصلة مهمتها وقت النوم . ونعلم أن الحق حينما أراد أن يقيم أهل الكهف مدة ثلاثمائة وتسع سنين ضرب على آذانهم حتى يكون نومهم سباتاً عميقاً ، فهم فى كهف فى جبل ، والجبل فى صحارى تهب عليها الرياح والزوابع والأعاصير ، فلو أن آذانهم على طبيعتها لما استراحوا فى النوم الذى أراده الله لهم ، ولذلك ضرب الله على آذانهم وقال سبحانه :

﴿ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ﴾

(سورة الكهف)

ومعجزة رسول الله ـ إذن ـ جاءت سمعية وأيضاً يمكن قراءتها . وحين يتلقى الإنسان بلاغاً فهو يتلقاه بسمعه ، ويستطيع من بعد ذلك أن يقرأ هذا البلاغ ويتفقه فيه ، ولا أحد يعرف القراءة إلا إذا سمع أصوات الحروف أولاً ثم رآها من بعد ذلك ، لقد تميزت معجزته صلى الله عليه وسلم بسيد الأدلة فى وسائل الإدراك الإنسانى ، وهو السمع ، والحق يقول : « ومنهم من يستمع إليك » .

إن هناك فارقا بين « يسمع » و« يستمع » ، فالذى يسمع هو الذى يسمع عرضاً ، أما الذى « يستمع » فهو الذى يسمع عمداً . والسامع دون عمد ليس له خيار ألاّ يسمع ، إلا إذا سد أذنيه . أما الذى يستمع فهو الذى يقصد السمع . وهم كانوا يستمعون للقرآن لا بغرض اكتشاف آفاق الهداية ولكن بغرض الإصرار على الكفر وذلك بقصد تصيد المطاعن على القرآن .

ويقول الحق سبحانه : « وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه » و« الأكنة » جمع « كنان » وهى الغطاء أو الغلاف . ويتابع الحق : « وفى آذانهم وقراً » أى جعلنا فى آذانهم صمماً ، كأنهم باختيارهم الكفر قد منعهم الله أن يفهموا القرآن ، ونعلم أن

جميع المعاصرين لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم قد سمعوا لرسول الله ومنهم من آمن ومنهم من ظل على الكفر . ونعرف أن لكل فعل مستقبلاً . ويمكن للمستقبل أن يؤمن وبذلك يكون الفعل قد أتى ثمرته ، وقد يكون المستقبِل مصراً على موقفه السابق فلا يؤمن ، وهنا يكون الفعل لم يؤت ثمرته ، والفاعل واحد ، لكن القابل مختلف . وكان بعض الكافرين يسمعون القرآن ثم يخرجون دون إيمان :

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا أُوْلَٰٓئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوٓا أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾ ﴾ (سورة محمد)

إنهم ككفار يستمعون للقرآن ، ثم ينصرفون ليقولوا فى استهزاء للمؤمنين الذين علموا وآمنوا : أى كلام هذا الذى يقوله محمد ؟. وهؤلاء المستهزئون هم الذين ختم الله على قلوبهم بالكفر ، وانصرفوا عن الهداية إلى الضلال . والمتكلم بكلام الله هو رسول الله مبلغاً عن الله ، والسامع مختلف ؛ فهناك سامع مؤمن يتأثر بما يسمع ، وهناك سامع كافر لا تستطيع أذنه أن تنقل الوعى والإدراك بما سمع . لكن القرآن للذين آمنوا هدى وشفاء ، أما الذين لا يؤمنون به فآذانهم تصم عن الفهم وأعماقهم بلا بصيرة فلذلك لا يفهمون عن الله ، وتجد نفس المؤمن تستشرف لأن تعلم ماذا فى القرآن . أما الذى يريد أن يكون جباراً فى الأرض فهو لا يريد أن يلزم نفسه بالمنهج .

وحتى نعرف الفارق بين هذين اللونين من البشر ، نجد المؤمن ينظر إلى الكون ويتأمله فيدرك أن له صانعاً حكيماً ، أما الكافر فبصيرته فى عماء عن رؤية ذلك . وحين يستمع المؤمن إلى بلاغ من خالق الكون فهو يرهف السمع ، أما الكافر فهو ينصرف عن ذلك .

وكان صناديد قريش أمثال أبى جهل وأبى سفيان ، والنضر بن الحارث ، والوليد ابن المغيرة ، وعتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، وحرب بن أمية ، كل هؤلاء من صناديد قريش يجتمعون ويسأل الواحد منهم النضر قائلاً : يا نضر ما حكاية الكلام الذى يقوله محمد ؟

وكان النضر راوية للقصص التى يجمعها من أنحاء البلاد ، فهو قد سافر إلى بلاد فارس والروم وجاب الجزيرة من أقصاها إلى أقصاها ، فقال : والله ما أدرى ما يقول محمد إلا أنه يقول أساطير الأولين .

ويتجادل النضر وأبو سفيان وأبو جهل مع رسول الله ، وهذا الجدال دليل عدم فهم لما جاء من آيات القرآن . ولم يجعل الله الوقر على آذانهم قهراً عنهم ، بل بسبب كفرهم أولاً ، فطبع الله على قلوبهم بكفرهم ، واستقر مرض الكفر فى قلوبهم وفضلوه على الإيمان فزادهم الله مرضاً ، وقال فيهم الحق سبحانه :

﴿ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾

(من الآية ٢٥ سورة الأنعام)

والأساطير هى جمع أسطورة ، والأسطورة شىء يسطر ليتحدث به من العجائب والأحداث الوهمية . وكأن الحق سبحانه وتعالى يكشفهم أمام أنفسهم وهو يحاولون أن يجدوا ثغرة فى القرآن فلا يجدون . وقال الله عنهم قولاً فصلاً :

﴿ وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ ﴾

(سورة الزخرف)

فهم يعلمون عظمة القرآن فكيف يقولون إنه أساطير الأولين ؟ لقد كانوا من المعجبين بعظمة أسلوب القرآن الكريم فهم أمة بلاغة ، ولكنهم يعلمون أن مطلوبات القرآن صعبة على أنفسهم . كما أنهم أرادوا أن يظلوا فى السيادة والجبروت والقهر للغير ، والقرآن إنما جاء ليساوى بين البشر جميعاً أمام الحق الواحد الأحد .

لقد جاءت حوادث قسرية بإرادة الله لتكون سبباً للإيمان ، مثلما حدث مع عمر ابن الخطاب رضى الله عنه عندما علم أن أخته قد أسلمت فذهب إليها وضربها حتى أسال منها الدم . وإسالة الدم حركت فيه عاطفة الأخوة فأزالت صلف العناد ، فأراد أن يقرأ الصحيفة التى بها بعض من آيات القرآن ، وتلقى الأمر من أخته بأن يتطهر فتطهر وجلس يستمع ، وبزوال صلفه وعناده وبتطهره صار ذهنه مستعداً لفهم

ما جاء بالقرآن ، وذهب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأعلن إيمانه بالله ربا وبمحمد صلى الله عليه وسلم وبرسالته الخاتمة .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾

والكافر من هؤلاء إنما ينأى عن مطلوب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يريد أن يهتدى ، ويمعن فى طغيانه فينهى غيره عن الإيمان ، فكأنه ارتكب جريمتين : جريمة كفره ، وجريمة نهى غيره عن الإيمان .

لقد كانت قريش على ثقة من أن الذى يسمع القرآن يهتدى به ، لذلك أوصى بعضهم بعضاً ألا يسمعوا القرآن ، وإن سمعوه فعليهم أن يحرفوا فيه أو أن يصنعوا ضجيجاً يحول بين السامع للقرآن وتدبره .

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾

(سورة فصلت)

إنهم واثقون من أن القرآن يقهرهم بالحجة ويفحمهم بالبينات ، وأنهم لو استمعوا إليه لوجدوا فيه حلاوة وطلاوة تستل من قلوبهم الجحود والنكران . وكأنهم بذلك يشهدون أن للقرآن أثراً فى الفطرة الطبيعية للإنسان ، وهم أصحاب الملكة فى البلاغة العربية . ومع ذلك ظل الكافرون على عنادهم بالرغم من عشقهم للأسلوب والبيان والأداء . ولم يكتفوا بضلال أنفسهم ، بل أرادوا إضلال غيرهم ، فكأنهم يحملون بذلك أوزارهم وأوزار من يضلونهم ، ولم يؤثر ذلك على مجرى الدعوة ولا على البلاغ الإيمانى من محمد عليه الصلاة والسلام ؛ ذلك أن الحق ينصره على الرغم من كل هذا ؛ فهو سبحانه وتعالى القائل :

﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا

لَهُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾

(سورة الصافات)

وحين يقول الحق سبحانه :

﴿ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ ۖ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

نعرف أن المقصود بذلك القول هم المعارضون لدعوة محمد صلى الله عليه وسلم ، وقد عارضوها لأنها ستسلبهم سلطتهم الزمنية من علو ، وجبروت ، واستخدام للضعفاء . وذلك ما جعلهم يقفون من الدعوة موقف النكران لها والكفران بها .

وماداموا قد وقفوا من الدعوة هذا الموقف ، فلم يكن من حظهم الإيمان ، ولأنهم نأوا وبعدوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد خسروا ، أما غيرهم فلم ينأ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بل إنه أوى إلى الله فآواه الله .

إنّ هؤلاء الجاحدين المنكرين لدعوة رسول الله وقفوا أمام دعوته وصدوا الناس عنها ونهوهم عن اتباعها ، لأن هذه الدعوة ستسلبهم سلطتهم الزمنية من علو وجبروت واستخدام الضعفاء وتسخيرهم فى خدمتهم وبسط سلطانهم عليهم . هذا - أولا - هو الذى دفعهم إلى منع غيرهم ونهيهم عن اتباع الإسلام ، ثم هم - ثانيا - ينأون ويبتعدون عن اتباع الرسول ، - إذن - فمن مصلحتهم - أولا - أن ينهوا غيرهم قبل أن ينأوا همْ ؛ لأنه لو آمن الناس برسول الله وبقوا هم وحدهم على الكفر أيستفيدون من هذه العملية ؟ لا يستفيدون - إذن - فحرصهم - أولا - كان على ألا يؤمن أحد برسول الله لتبقى لهم سلطتهم .

وجاء الأداء القرآنى معبراً عن أدق تفاصيل هذه الحالة فقال : « وهم ينهون عنه وينأوْن عنه » فالبداية كانت نهى الآخرين عن الإيمان برسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم بعد ذلك ابتعادهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فصار حظهم أن يظلوا على كفرهم فكان الخسران من نصيبهم ، بينما آمن غيرهم من الناس .

وهكذا نرى أن الأداء القرآنى جاء معبرًا دائماً عن الحالة النفسية أصدق تعبير ،

فقول الحق : « وهم ينهون عنه » قول منطقى يعبر عن موقف المعارضين لرسول الله أما قوله الحق : « وينأون عنه » فهذا تصوير لما فعلوه فى أنفسهم بعد أن منعوا غيرهم من اتباع الدعوة المحمدية والرسالة الخاتمة . فهم بذلك ارتكبوا ذنبين : الأول : إضلال الغير ، والثانى : ضلال نفوسهم . وبذلك ينطبق عليهم قول الحق سبحانه :

﴿ لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم ﴾

(من الآية ٢٥ سورة النحل)

ولا يقولن أحد : إن هذه الآية تناقض قول الحق سبحانه :

﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾

(من الآية ١٥ سورة الإسراء)

ذلك لأن الوزريْن : وزرهم ، ووزر إضلالهم لغيرهم من فعلهم .

ويتابع الحق : « وإن يهلكون إلا أنفسهم وما يشعرون » ونرى أن الذى يقف أمام دعوة الحق والخير لينكرها ويبطلها ويعارضها ويحاربها إنما يقصد من ذلك خير نفسه وكسب الدنيا وأخذها لجانبه ، ولكنهم أيضاً لن يصلوا إلى ذلك ، لماذا ؟

لأن الله غالب على أمره :

﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾

(سورة الصافات)

والحق سبحانه وتعالى لا يهزم جندَه أبداً ، ولا بد أن يهلك أعداء دعوته بسبب كفرهم وصدهم عن سبيل الله فهم فى الحقيقة هم الذين يهلكون أنفسهم بأنفسهم . وسيظل أمر الدعوة الإيمانية الإسلامية فى صعود . وسيرون أرض الكفر تنتقص من حولهم يوماً بعد يوم . ولذلك يقول الحق فى آية أخرى :

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ﴾ (من الآية ٤١ سورة الرعد)

أى أن أرض الكفر تنقص وتنقص والله يحكم لا معقب لحكمه ، ولذلك يشرح القرآن فى آخر ترتيبه النزولى هذه القضية شرحاً وافياً . ويعلمنا أن نقطع كل علاقة لنا مع الكافرين ، فيقول سبحانه :

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝ ﴾

(سورة الكافرون)

وهكذا نرى أن قطع العلاقات أمر مطلوب بين فريقين : فريق يرى أنه على حق ، وفريق ثانٍ أنه على باطل . وقد يكون قطع العلاقات أمراً موقوتاً . وقد تضغط الظروف والأحداث إلى أن نعيد العلاقات الدنيوية ثانية ، ولكن قطع العلاقات لا بد أن يكون مؤيداً فى شأن العقيدة ولا مداهنة فى هذا ، ولذلك قالها الحق مرتين :

﴿ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝ ﴾

(سورة الكافرون)

فالمؤمن يرى الحاضر والمستقبل ، ويعلم استحالة أن يعبد ما يعبده الكافرون ، واستحالة أن يعبد الكافرون ما يعبد .

وقد يقول قائل : إن القرآن فى ترتيبه النزولى لا بد ألا يتعارض مع واقعه ، ولكننا نرى فى قوله تعالى : (لا أعبد ما تعبدون ، ولا أنتم عابدون ما أعبد) وكررها مرتين ، إنه بذلك يكون قد أغلق الباب أمام الكافرين فلا يؤمنون مع أن بعضهم قد دخل فى دين الله . نقول نعم : إنه لا يتعارض ؛ لأن الحق لم يغلق الباب أمام الكافرين الذين أراد الله أن يؤمنوا ، بدليل أنه قال جلّ وعلا :

﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ۝ ﴾

(سورة النصر)

إذن فالمسألة لن تجمد عند ذلك ؛ فمعسكر الإيمان سيتوسع ، وسيواجه معسكر الكافرين وسيدخل الناس فى دين الله أفواجاً . ولكن هناك من قضى الله عليهم ألا يؤمنوا ليظلوا على كفرهم ويدخلوا النار ، فقال سبحانه من بعد ذلك :

﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۝ ﴾

(سورة المسد)

إذن فأبو لهب ومن على شاكلته سيدخل النار ولن يدخل فى دين الله أبدًا .

ويجىء قوله الحق :

﴿ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝ ﴾ (سورة النصر)

هذا القول يفتح باب الأمل ، ونرى دخول عمر بن الخطاب وعمرو ابن العاص ، وعكرمة بن أبى جهل إلى الإسلام . ومجىء سورة المسد من بعد سورة النصر فى الترتيب المصحفى كما أراد الله ، يعلمنا أن هناك أناساً لن يدخلوا الجنة لأنهم مثل أبى لهب وزوجه .

وتأتى من بعدها سورة الإخلاص :

﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝ ﴾

(سورة الإخلاص)

إنه لا إله مع الله ينقض ما حكم به الله ، ولن يعقب أحد على حكم الله . إذن فمن كفر وأشرك بالله يكون من الذين خسروا أنفسهم وأهلكوها وما يشعرون .

ومن بعد ذلك يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾

عندما ننظر إلى قول الحق : « ولو ترى إذ وُقفوا على النار » ، هنا لا نجد جواباً ، مثل ما تجده فى قولك : لو رأيت فلاناً لرحبت به أو لو رأيت فلاناً لعاقبته . إن فى كل من هاتين الجملتين جواباً ،لكن فى هذا القول الكريم لا نجد جواباً ، وهذا من عظمة الأداء القرآنى ؛ فهناك أحداث لا تقوى العبارات على أدائها ، ولذلك يحذفها الحق سبحانه وتعالى ليذهب كل سامع فى المعنى مذاهبه التى يراها .

وفى حياتنا نجد مجرماً فى بلد من البلاد يستشرى فساده وإجرامه فى سكانها تقتيلاً وتعذيباً وسرقة واعتداءات ، ولا أحد يقدر عليه أبداً ، ثم يمكّن الله لرجال الأمن أن يقبضوا عليه ، فنرى هذا القاتل المفسد يتحول من بعد الجبروت إلى جبان رعديد يكاد يقبل يد الشرطى حتى لا يضع القيود فى يديه . ويرى إنسان ذلك المشهد فيصفه للآخرين قائلا : آه لو رأيتم لحظة قبضت الشرطة على هذا المجرم ، وهذه العبارة تؤدى كل معانى الذلة التى يتخيلها السامع ، إذن فحذف الجواب دائماً تربيب لفائدة الجواب ، ليذهب كل سامع فى تصور الذلة إلى ما يذهب . لأن المشاهد لو شاء لحكى ما حدث بالتفصيل لحظة القبض على المجرم وبذلك يكون قد حدد الذلة والمهانة فى إطار ما رأى هو ، ويحجب بذلك تخيّل وتصوّر السامعين .

أما اكتفاء المشاهد بقوله : آه لو رأيتم لحظة قبض الشرطى على هذا المجرم . . فهذا القول يعمم ما يُرى حتى يتصور كل سامع من صور الإذلال ما يناسب قدرة خياله على التصور . وهكذا أراد القرآن أن يصور هول الوقوف على النار فأطلق الحق « لو » بلا جواب حين قال :

﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

وقد أراد البعض أن يتصيد لأساليب القرآن ، ومنهم من قال : كيف تقولون إن القرآن عالى البيان ، فصيح الأسلوب ، معجز الأداء ، وهو يقول ما يقول عن شجرة الزقوم ؟

إن القرآن الكريم يقول عن هذه الشجرة :

﴿ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴿٦٥﴾ ﴾

(سورة الصافات)

إن كل شجرة تحتاج إلى ماء وهواء ، وفيها حياة تظهر باخضرار الأوراق ، فكيف تخرج هذه الشجرة من النار ، أليس فى ذلك شذوذ ؟ ثم تتهادى الصورة . . صورة الشجرة ، فيصف الحق ثمارها بقوله الحق :

﴿ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾

(سورة الصافات)

نحن لم نر شجرة الزقوم ، ولم نر رأس الشيطان . ويَسْخَرُ الذين يتصيدون للقرآن فى أقوالهم : بما أن أحداً من البشر لم يشهد رأس الشيطان ، وكذلك شجرة الزقوم ، فكيف يشبه الله المجهول بمجهول؟ وتساءلوا بطنطنة : ماذا يستفيد السامع من تشبيه مجهول بمجهول ؟ ونقول رداً عليهم : إن غباء قلوبكم وفقدان طبعكم لملكة اللغة العربية هو الذى يجعلكم لا تفهمون ما فى هذا القول من بلاغة .

وحين نقرب المثل نقول : هب أن إنساناً أقام مسابقة بين رسامى « الكاريكاتير » فى العالم ليرسم كل منهم صورة للشيطان ، ويوم تحديد الفائز ستوجد أكثر من صورة للشيطان ، وستفوز أكثر الصور بشاعة ، ذلك أن الفوز هنا ليس فى الجمال ، ولكن الفوز هنا فى مهارة تصوير القبح . وهكذا تتعدد أمامنا صور القبح ، فما بالنا بالحق سبحانه وتعالى وقد أراد إطلاق الخيال لتصور شجرة الزقوم ، وكذلك تصور رأس الشيطان ؟ أراد الحق بهذا الأسلوب البليغ إشاعة الفائدة من إظهار بشاعة صورة الشجرة التى يأكل منها أهل الكفر .

وكذلك هنا قوله الحق : « ولو ترى إذ وقفوا على النار » والذى يحدث لهؤلاء

الوقوف على النار لا يأتى خبره هنا ، بل يكتفى الحق بأن يعبر لنا عن أننا نراهم فى مثل هذا الموقف ؛ لأن اليوم الآخر هو يوم الجزاء ؛ إما إلى الجنة وإما إلى النار . والجنة ـ كما نعلم من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ إن فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . ونعلم أن رؤية العين محدودة ، ورقعة السمع أكثر اتساعاً ، ذلك أن الأذن تسمع ما تراه أنت وما رآه غيرك ، لكن عينيك لا تريان إلا ما رأيته أنت بمفردك ، ولا يكتفى الحق بذلك بل يخبر رسوله صلى الله عليه وسلم أن فى الجنة ما لا يخطر على قلب بشر ، أى أن فى الجنة أشياء لا تستطيع اللغة أن تعبر عنها ؛ لأن اللغة تعبر عن متصورات الناس فى الأشياء . والمعنى يوجد أولاً ثم يوجد اللفظ المعبر عنه .

وهكذا نعلم أن ما فى الجنة من نعيم لا توجد ألفاظ تؤدى كل ما تحمله للمؤمن من معان ، وكذلك نعلم أيضاً أن فى النار عذاباً لم توضع له ألفاظ لتعبر عنه . ولو أن الحق سبحانه وتعالى قال : « ولو ترى إذ وقفوا على النار » لرأينا أمراً مفزعاً مخيفاً مذلاً إلى آخر تلك الألفاظ الدالة على عمق العذاب لما أعطى ذلك الأثر نفسه الذى جاء به حذف الجواب .

وعندما نقرأ « وُقِفوا » نعرف أن فيه بناء وكيانا موجودًا ، وأن هناك من أوقفهم على النار ، وهم كانوا مكذبين فى الدنيا بالنار ، ثم وجدوا أنفسهم يوم القيامة ضمن من وقّفهم الله على النار ليروا العذاب الذى ينتظرهم ، ويطلعوا على النار اطلاع الواقف على الشيء ، كذلك يوقفهم الحق على النار التى أنكروها فى الدنيا ؛ فقد جاءهم الخبر فى الدنيا ، فمن صدق وعلم أن من أخبره صادق ، فذلك علم يقين ، وإن تجاوز الإنسان مرحلة العلم ورأى صورة محسة للخبر ، فهذا عين يقين . والمؤمن بإخبار ربه وصل إلى الأشياء بعلم اليقين من الله ، لأنه يصدق ربه ، ولذلك فالإمام على ـ كرم الله وجهه ـ يقول : « لو انكشف عنى الحجاب ما ازددت يقينا » ؛ لأنه مصدق بلاغ به .

لكن ماذا عن المكذبين ؟ إن الإنسان يرى علم اليقين فى اليوم الآخر وهو عين يقين ، ويشترك فى ذلك المؤمن الكافر . ولكن الكافر يرى النار عين اليقين ويدخلها ليحترق بها فيحس بها وهذا هو « حق اليقين » .

هكذا نعلم أن النار « عين اليقين » يراها المؤمن والكافر ، والنار كـ « حق اليقين » يعاينها ويعذب بها الكافر فقط ، أما المؤمن فى الجنة فيحس « حق اليقين » لأنه يعيش ويسعد بنعيمها . ويصور سبحانه ذلك فى قوله :

﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ۝ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ۝ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ۝ ﴾

(سورة التكاثر)

وجاء حق اليقين فى قوله تعالى :

﴿ فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ۝ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ۝ وَأَمَّا إِن كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ۝ فَسَلَامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ۝ وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ ۝ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ۝ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ۝ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ ۝ ﴾

(سورة الواقعة)

وماذا يصنعون وهم المكذبون عندما يرون النار عين اليقين ؟ لا بد أنهم يخافون أن يعانوا منها عندما تصبح حق اليقين ، لذلك يقولون :

﴿ يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾

(من الآية ٢٧ سورة الأنعام)

إنهم يتمنون العودة إلى الدنيا ليستأنفوا الإيمان . والتمنى فى بعض صوره هو طلب المستحيل غير الممكن للإشعار بأن طالبه يحب أن يكون ، كقول القائل :

ألا ليت الشباب يعود يوماً ... فأخبره بما فعل المشيب

أو قول القائل :

ليت الكواكب تدنو لى فأنظمها ... عقود مدحٍ فما أرضى لكم كلمى

وهم قالوا : « يا ليتنا نرد » فإن كانوا قالوا هذا تمنياً فهو طلب مستحيل ويتضمن أيضا وعداً بعدم التكذيب بآيات الله ، فهل هم قادرون على ذلك ؟

لا ؛ لأن القرآن الكريم قد قال فى الآية التالية :

﴿ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾

إنهم يطلبون العودة إلى الدنيا لا لينفذوا الوعد فى طلبهم المستحيل ؛ لأنهم سيفعلون مثلما فعلوا من قبل ، كفراً ونكراناً وجحوداً . إنهم لجأوا إلى هذا القول من فرط الخوف مما أعده الله لهم . بعد أن ظهر لهم كل ما كانوا يفعلونه فى الدنيا من كفر وجحود . ويقال عن يوم القيامة « يوم الفاضحة » ؛ لأن كل إنسان سيجد كتابه فى عنقه ، ويقال له :

﴿ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

فإذا كنا فى الدنيا نسجل الأحداث بالصوت والصورة فما بالنا بتسجيل الحق لنا ؟ ويرى الإنسان مَكْرَه يوم القيامة بالصوت والصورة ، وكل فعل فعله سيراه بطريقة لا يمكن معها أن ينكره ، وكأن الحق يوضح لكل عبد : أنا لن أحاسبك بل سأترك لك أن تحاسب نفسك . ويفاجأ الإنسان أن جوارحه تنطق لتشهد عليه : الأيدى تنطق بما فعل ، واللسان ينطق بما قال ، والقدم تحكى إلى أين ذهب بها صاحبها ، فهذه الجوارح التى كانت تنفعل لمراد صاحبها فى الدنيا ، يختلف موقفها فى الآخرة ولا تنفذ فى اليوم الآخر مراد الإنسان بل مراد من أعطى الإنسانَ المرادَ .

﴿ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾

(من الآية ١٦ سورة غافر)

مثال ذلك ـ ولله المثل الأعلى ـ نجد السرية أو الكتيبة المقاتلة لها قائد يحكم

الجنود ، فإن أعطاهم أوامر خاطئة فهم ينفذونها ، وبعد انتهاء المعركة يسألهم القائد الأعلى ، فيقولون سلسلة الأوامر الخاطئة التى أصدرها قائدهم المباشر .

فإياك أن تظن أيها الإنسان أن أبعاضك مؤتمرة بقدرتك عليها دائما ، إن سيطرتك عليها أمر منحك الله إياه ، ويسلبه منك متى شاء فى الدنيا . ويأتى يوم القيامة لتنتهى سيطرتك على الأبعاض . وأنت ترى فى الدنيا بعضاً من صور سلب السيطرة على الأبعاض لتتذكر قدرة الواهب الأعلى ؛ فأنت ترى من لا يرى ، وترى من فقد السيطرة على جارحة أو أكثر من جوارحه ، وذلك تنبيه من الله على أن سيطرة الإنسان على الجوارح إنما هى أمر موهوب من الله . وقول الحق سبحانه عن الكافرين : « بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل » يفضح تدليسهم فى الحياة الدنيا ، ثم يجيب الله على تمنيهم السابق الملىء بالذلة والمسكنة ، التمنى بالعودة إلى الدنيا ، فيقول سبحانه : « ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون » .

فهم كاذبون فى الوعد بأن يؤمنوا لو عادوا إلى الدنيا ، يوضح ذلك قول الحق سبحانه :

﴿ وَقَالُوٓاْ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾

إنهم لم يأخذوا فى أثناء حياتهم الإيمان كإيمان استدلال بكوْن منظم مرتب محكم التكوين ، إنهم لم يلتفتوا إلى أن هذا النظام والإحكام والترتيب موجود فى علاقات البشر بعضهم ببعض سواء أكانوا مؤمنين أم ملاحدة ، ونعلم أن هناك صفات يشترك فى كراهتها كل الناس مؤمنهم وملحدهم ؛ فالملحد إن سرق من زميله ، ألا يعاقب ؟ إنه يتلقى العقاب من مجتمعه ، وفى كل المجتمعات هناك ثواب وعقاب ، بل هناك جزاء بإحسان . والإيمان لا يمنع أن يصطلح الناس على شىء من الإحسان ، والمحرومون من الإيمان تلجئهم الأحداث أن يضعوا القانون لينظموا الثواب والعقاب .

إننا نجد أن تجريم المخالف للخير والجمال وإصلاح الكون هو أمر فطرى

وضرورى للإنسان ؛ فهم يجرمون أفعال السوء بعد أن تعضهم الأحداث ولا يلتفتون إلى أن المنهج السماوى جاء بالثواب والعقاب على كل فعل يحمى كرامة الإنسان . ويوم القيامة يقفون فى صَغار وفى اضطرار ليروا ما فعلوا :

﴿ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

فهم لو رُدُّوا إلى الدنيا بما كان لهم فيها من اختيار فسيفعلون مثلما فعلوا ، ولم يقولوا مثل هذا القول فى اليوم الآخر إلا لأنهم مقهورون . وكانوا من قبل يقولون :

﴿ وَقَالُوٓا۟ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

ففى دنياهم كانوا لا يؤمنون إلا بحياة واحدة هى الدنيا . ولم يلتفتوا إلى أن الإنسان يحيا فى الدنيا على قدر قوته ، وويل للضعيف من القوى . والقوى إنما يخاف من قانون يعاقبه ، أو يخاف من إله سيعاقبه على الذنب مهما أخفاه ، ولذلك نجد القاضى المؤمن يقول دائماً : لئن عمَّيتم على قضاء الأرض ، فلا تعمّوا على قضاء السماء .

ومن غباء أهل الكفر أنهم يسمون الحياة على الأرض « الحياة الدنيا » وهى فى حقيقتها دنيا ، وماداموا قد حكموا وعرفوا أنها « دنيا » فلا بد أن يقابلها حياة عليا . إنّ كل ذلك يحدث لهم عندما يقفون على النار ، والنار جند من جنود الجبار ، فما بالك بهم حين يقفون أمام خالق النار ورب العالمين ؟

ويقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ أَلَيْسَ هَـٰذَا بِٱلْحَقِّ ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾



هم ـ إذن ـ قد خافوا وارتبكوا وطلبوا العودة للحياة الدنيا ؛ لأن ما شاهدوه هول كبير ، فما بالك إذا وقفوا على الله ؟ إنه موقف مرعب . وإذا كان الحق قد حذف من قبل الجواب عندما أوقفهم على النار ؛ فالأولى هنا أن يحذف الجواب ، حتى يترك للخيال أن يذهب مذاهب شتى . . إنه ارتقاء فى الهول .

وهكذا نرى التبكيت لهم فى قول الحق لهم : « أليس هذا بالحق » ؟ إنهم يفاجأون بوجود إله يقول لهم بعد أن يشهدوا البعث ويقفوا على النار : « أليس هذا بالحق » ؟ وسبحانه وتعالى لا يستفهم منهم ولكنه يقرر ، وقد شاء أن يكون الإقرار منهم ، فيقولون : « بلى » لأن الأمر لا يحتاج ـ إذن ـ إلى مكابرة . و« بلى » حرف يجعل النفى إثباتاً .

ويطرح الحق هذه المسألة بالنفى حتى لا يظن ظان أن هناك تلقيناً للجواب . ويصدر حكم الحق : « فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون » وهكذا يذوقون العذاب الذى كانوا به يكذبون . وذوق العذاب ليس من صفة القهر والجبروت ؛ لأن الله لا يظلم مثقال ذرة ، ولكن بسبب أنهم قدموا ما يوجب أن يعذبوا عليه .

ويقول الحق سبحانه وتعالى من بعد ذلك :

﴿ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا۟ يَـٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾ ﴾

إن كل رأس مال يحتاج إلى عمل يزيده ، لكن أن يكون العمل قد أضاع المال ، فهذا يعنى الخسارة مرتين : مرة لأن رأس المال لم يبق عند حده بل إنه قد فنى وذهب وضاع ، وثانية لأن هناك جهداً من الإنسان قد ضاع وأضاع معه رأس المال .

إذن فقد خسر الذين كذبوا بلقاء الله ؛ لأنهم باعوا الآجل الطويل العمر بالعاجل القصير العمر . وكل إنسان منا يريد أن يثمّر عمله ويحاول أن يعطى قليلاً ليأخذ كثيراً .

وعلى سبيل المثال نجد الفلاح يقتطع مقدار كيلتين من أرادب القمح التى فى مخزنه ليبذرها فى الأرض بعد أن تُحرث . وهذا يعنى النقص القليل فى مخزن هذا الفلاح ، ولكنه نقص لزيادة قادمة ؛ فعندما وضع البذور فى الأرض المحروثة نجد الحق سبحانه وتعالى ينبتها له أضعافاً مضاعفة . والفلاح بذلك يبيع العاجل القليل من أجل أن يأخذ الآجل الكبير .

وهذه أصول حركة العاقل الذى يزن خطواته ، فإن أراد أن يزيد الثمار من حركته ، فعليه أن يبذل الجهد . أما إن كانت الحركة لا تأتى له إلا بالقليل فلن يتحرك . ولأن العاقل لا يحب الخسارة نجده يوازن دائماً ويقارن بين ما يبذله من جهد والعائد الذى سيأتى إليه . أما الذين كفروا بلقاء الله فهم قد خسروا أنفسهم ، لأنهم لم يوازنوا بين حياتين : حياة مظنونة ، وحياة متيقنة ؛ لأن مدة حياتنا الدنيا مظنونة غير متيقنة .

إننا لا نعرف كم سنحيا فيها ؛ فمتوسط عمر الإنسان على الأرض هو سبعون عاماً على سبيل المثال ، ولكن أحداً لا يعرف كم عمره فى الدنيا بالضبط ، وله أجل محدود . إنه فانٍ وذاهب وميّت ، ولكن حياة الآخرة متيقنة لا أجل لها ، إنها دائمة ، ونعلم أن نعيم الدنيا بالنسبة للإنسان هو على قدر الأسباب الموجودة لديه ، أما نعيم الآخرة فهو على قدر طلاقة قدرة المسبب وهو الله ، وعلى هذا تكون خسارة الذين كفروا كبيرة وفادحة ودامية ؛ لأنهم لم يتاجروا مع الله :

﴿ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُواْ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا ﴾

(من الآية ٣١ سورة الأنعام)

ونعلم أن « حتى » هى جسر بين أمرين ؛ فالأمر الذى نريد أن نصل إليه هو غاية ، كقول إنسان ما : « سرت حتى وصلت المنزل » ، والمنزل هنا هو غاية السير .

والذين كفروا ، كان كفرهم وتكذيبهم موصلاً إلى الخسران ، فمجىء الساعة بغتة ليس هو نهاية المطاف ، ولكنه وصول إلى أول الخسران ؛ لأن خسرانهم لا ينتهى من فور مجىء الساعة ، ولكنه يبدأ لحظة مفاجأة الساعة لهم . فهم يفاجأون بوقوع ما كانوا يكذبون به . ويعلمون جيداً أن ما صنعوه فى الدنيا لا يستوجب إلا العذاب .

وهنا تبدأ الحسرة التى لا يقدرون على كتمانها ، ولذلك يقولون : « يا حسرتنا على ما فرطنا فيها » . . أى على تفريطنا وإسرافنا فى أمرنا وذلك فى أثناء وجودنا فى الدنيا . وبذلك نعرف أن عدم التفريط فى الدنيا والأخذ بالأسباب فيها أمر غير مذموم ، ولكن التفريط فى أثناء الحياة الدنيا هو الأمر المذموم ؛ لأنه إضاعة للوقت وإفساد فى الأرض .

إننى أقول ذلك حتى لا يفهم أحد أن الاستمتاع فى الدنيا أمر مذموم فى حد ذاته ، وحتى لا يفهم أحد أن الآخرة هى موضوع الدين ؛ لأن الدنيا هى موضوع الدين أيضا ، والجزاء فى الآخرة إنما يكون على ألوان السلوك المختلفة فى الدنيا ؛ فمن يحسن السلوك فى الدنيا ينال ثواب الآخرة ومن يسىء ينال عقاب الآخرة . ولذلك لا يصح على الإطلاق أن نقارن الدين بالدنيا .

إن علينا أن نعلم خطأ الذين يقولون : « دين ودنيا » فالدين ليس مقابلاً للدنيا . بل الدنيا هى موضوع الدين . أقول ذلك رداً على من يظنون أن سبب ارتقاء بعض البلاد فى زماننا هو أن أصحابها أهملوا الدين وفتنوا بما فى الدنيا من لذة ومتعة فعملوا على بناء الحضارات .

نقول : إن الإقبال على الدين بروح من الفهم هو الذى يبنى الحضارات ويُثاب المصلح فى الدنيا يوم الجزاء ، ولنا أن نعرف أن المقابل للدنيا هو الآخرة ، والدين يشملهما معاً ؛ يشمل الدنيا موضوعاً ، والآخرة جزاءً . والذين يفتنون بالدنيا ولا يؤمنون بالآخرة هم الذين يقولون يوم القيامة : « يا حسرتنا على ما فرطنا فيها وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم » . والأوزار المعنوية فى الدنيا ـ وهى الذنوب ـ ستتجسم بحسيات وذلك حتى تكون الفضيحة علنية ؛ فمن سرق غنمة يُبعث يوم القيامة وهو يحملها على ظهره ، ومن سرق بقرة يُبعث يوم القيامة وهو يحملها على

كتفه وهى تخور ، وكذلك من سرق طناً من حديد عمارة سيبعث يوم القيامة وهو يحمله على ظهره ، وكذلك يفضحه الله يوم القيامة .

وهكذا يكون موقف أهل النار ؛ لذلك يقول الحق : « ألا ساء ما يزرون » ونعلم أنهم لا يحملون أوزارا فقط بل يحملون من أوزار الذى اتخذهم قدوة له ، فهذا وزر الإضلال ويعرفون ـ جميعا ـ أن حمل الوزر يتجسد فى الإحساس بعبئه ؛ فقد قادتهم هذه الأوزار إلى الجحيم ، ونعلم أن نتيجة كل عمل هى الهدف منه ، فمن عمل صالحاً سيجد صلاح عمله ، ومن أساء فسيجد عمله السيىء .

إننا نرى الأمثلة العملية لذلك فى حياتنا اليومية ؛ فهذان شقيقان يعملان بالزراعة ، وكل منهما يملك فدانين من الأرض مثلا : الأول منهما يقوم مع طلوع الفجر ليعتنى بأرضه ويحرثها ويحمل إليها السباخ ويعتنى بمواقيت الرى ويسعى إلى يوم الحصاد بجد واهتمام . والآخر يسهر الليل أمام شاشة التليفزيون ، ولا يقوم من النوم إلا فى منتصف النهار ، ولا يخدم أرضه إلا بأقل القليل من الجهد . ثم يأتى يوم الحصاد فينال الأول ناتج تعبه من محصول وفير ، وينال الآخر محصولاً قليلاً بالاضافة إلى الحسرة التى يتجرعها بسبب إهماله وكسله . إذن فالعاقل هو من يدرس ما تعطيه حركته فى الحياة . ويختار نوعية الحركة فى الحياة بما يضمن له سعادة الدنيا والآخرة ، واطمئنان النفس فى الدنيا والآخرة .

إن من ينام ولا يذهب إلى عمله هو إنسان يحب نفسه ، ومن قام فى بكرة الفجر إلى عمله يحب نفسه أيضاً ، ولكنّ هناك فارقاً بين حب أحمق عقباه الندم ، وحب أعمق لمعنى الحياة وعقباه الجزاء الوافر .

والحق سبحانه وتعالى يقول لنا :

﴿ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾

هكذا تكون الحياة بالنسبة لمن يقف عند وصفها على أساس أنها « الحياة الدنيا » إنها لا تزيد على كونها لهواً ولعباً . واللعب ـ كما نعلم ـ هو مزاولة حدث ونقضه فى آن واحد ، والمثال على ذلك الطفل على شاطىء البحر قد يقيم بيتاً من الرمال ثم يهدمه ، إنه لم يقم ببناء بيت من الرمال إلا ليهدمه . واللعب عملية يُقصد بها قتل وقت فى عمل قد يُنقض ، فالبناء والنقض فى هذه الحالة لعب ولا يشغل اللعبُ الإنسان عن الواجب . أما اللهو فهو قتل الوقت فى عمل قد ينقض ويشغل الإنسان عن الواجب أيضا .

والطفل الصغير ـ على سبيل المثال ـ يتلقى من والديه بعض اللعب ليقضى وقته معها وقد يخربها ويهدمها وقد يعيد بناءها . ولعب الطفل هو لهو فى الوقت نفسه ؛ لأن الطفل غير مكلف بواجب . وما إن يدخل إلى المدرسة وتصير لديه بعض من المسئوليات نجد الأسرة تعلمه أن يفرق بين وقت أداء مسئولياته ووقت اللعب ؛ لأنه إن لعب فى وقت أداء المسئوليات صار لعبه لهواً ؛ لأنه شَغَله عن أداء مسئولية مطلوبة منه .

وكذلك الحياة الدنيا مجردة من منهج الذى خلقها وخلق الإنسان فيها هى لهو ولعب ، أما إن أخذ الإنسان الحياة بمواصفات من خلقها فهى حياة منتجة للخير فى الدنيا وفى الآخرة . والذى خلق الحياة الدنيا جعلها بالنسبة لنا مزرعة للآخرة . والمؤمن ـ إذن ـ له حياتان : حياة صلاح فى الدنيا ، وحياة نعيم فى الآخرة ؛ لأنه يعيش الحياة الدنيا على مراد مَن خلقه .

ومن العجيب أن من خلقنا لم يكلفنا إلا بعد أن يصل الإنسان منا إلى البلوغ ، أى أن يكون الإنسان صالحاً لإنجاب إنسان مثله إن تزوج . ويأتى التكليف متناسباً مع النضج وعند تمام العقل . وسمح الحق لنا أن نلعب فى سنوات ما قبل النضج ، ولكن لا بد أن يكون مثل هذا اللعب تحت إشراف من الكبار حتى نمكن للعب أن يتحول إلى دُرْبة تفيدنا فى مجالات الحياة ، ويجعلنا نعرف كيف وصلنا فى العصر الحديث إلى درجة من التقدم فى صناعة اللعب التى يتعلم منها الطفل ، ويمكن أن يقوم بتفكيكها وإعادة تركيبها ، وحتى الكبار نجدهم فى زماننا يتعلمون قيادة السيارات فى حجرات مغلقة وأمامهم شاشة تليفزيون ؛ وكأنهم فى طريق حقيقى وفى شارع مزدحم بالسيارات ، ومَن يتقن هذا التدريب العملى يخرج إلى قيادة السيارة .

وهكذا نجد أن التدريب مفيد للإنسان ، يعلم الصغار اللعب الذى ينفعهم عندما يكبرون ، وكذلك يفيد التدريب الكبار أيضاً .

وعندما أوصانا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نعلم أبناءنا ركوب الخيل والسباحة والرماية، كانت الخيل ـ فى زمن الرسالة ـ هى إحدى الأسلحة المهمة ليركبها الداعون إلى الله المجاهدون فى سبيله . وحين طلب منا أن نعلم الأبناء السباحة فهذا بناء للجسم والقوة يفيد الشاب ويعلمه مواجهة الصعاب ، وحين طلب منا أن نعلم الأبناء الرماية فذلك لأن تحديد الهدف مادياً أو معنوياً ومعرفة الوصول إليه أمر مطلوب من كل شاب . وكل هذه ألعاب ولكنها ليست لهواً ، إنها ألعاب ممتعة ويمكن أن تستمر مع الإنسان بعد أن يكلف . قال عليه الصلاة والسلام : « علموا أبناءكم السباحة والرماية »[1] . فماذا عن ألعاب عصرنا وزماننا ؟

إننا نجد أن لعبة كرة القدم قد أخذت اهتمام الرجال والنساء والكبار والصغار ، وهى لعبة لا تعلم أحداً شيئاً ، لأنها لعبة لذات اللعب ، وهى لعبة تعتدى على وقت معظم الناس ، وأخذت تلك اللعبة كل قوانين الأمور الجادّة . فهى تبدأ فى زمان محدد ، ويذهب المشاهدون إليها قبل الموعد بساعتين ، وتجند لها الدولة من قوات الأمن أعداداً كافية للمحافظة على النظام مع أنها من اللهو ولا فائدة منها للمشاهد . وقد تمنع وتحول وتُعَطِّل البعض عن عمله والبعض الآخر عن صلاته . يحدث كل ذلك بينما نجد أن بعضاً من ميادين الجد بلا قانون .

وأقول ذلك حتى يُفيق الناس ويعرفوا أن هذه اللعبة لن تفيدهم فى شيء ما . وأقول هذا الرأى وأطلب من كل رب أسرة أن يُحكم السيطرة على أهله ، وينصحهم بهدوء ووعى حتى ينتبه كل فرد فى الأسرة إلى مسئولياته ولنعرف أنها لون من اللهو ، وتأخذ الكثير من وقت العمل وواجبات ومسئوليات الحياة ، حتى لا نشكو ونتعب من قلة الإنتاج .

إن على الدولة أن تلتفت إلى مثل هذه المسائل ، ولنأخذ كل أمر بقدره ، فلا يصح أن ننقل الجد إلى قوانين اللعب ، ولكن ليكن للجد قانونه ، وللعب وقته وإلا ننقل

---

(١) رواه الديلمى فى مسند الفردوس وأبونعيم فى الحلية .

اللعب إلى دائرة اللهو ؛ لأن معنى اللهو هو أن ننصرف إلى عمل لا هدف له ولا فائدة منه . وإن نظرنا إلى الحياة مجردة من منهج الله فهى لعب ولهو .

ونلتفت هنا إلى دقة الحق حين جاء باللعب أولاً ثم باللهو من بعد ذلك ، ثم يقول : « وللدار الآخرة » وفى هذا لفت واضح إلى أن الإنسان حين ينعزل عن منهج الحق فى الحياة تفاجئه الأحداث بالانتقال المفاجىء إلى جد واضح ؛ لذلك فلنأخذ الحياة فى ضوء منهج الله ؛ لأنه سبحانه حين أبلغنا أنه خلق الإنسان من طين ، وصوره ونفخ فيه من روحه فقد أعطاه الحق بذلك حياة أولى ، يشترك فيها المؤمن والكافر ، والطائع والعاصى وكل إنسان له حس وحركة وفكر وإرادة . وأرسل الله الرسل بالمنهج من أجل أن تسير الحياة إلى الغاية منها وهى الحياة الثانية وهى الدار الآخرة فإنها الحياة الكاملة الباقية ، ونسمع قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾

(من الآية ٢٤ سورة الأنفال)

إن الحق سبحانه وتعالى يقدم لنا حياة عالية دائمة تخلف الحياة التى تنتهى . والذى يتوقف عن أخذ منهج الله فى حياته يكتفى بمثل ما يأخذ الحيوان من الحياة وهى النفخ فى الروح ، لكن الذى يأخذ بمنهج الله يأخذ الحياة العالية . . حياة الخير والجمال والإصلاح والإحسان . ونعلم أن الجمال فى الحياة هو الجمال الذى لا يورث قبحاً . والخير الحقيقى هو الذى يعمم خير الله على العباد ، فلا يأخذ الإنسان الخير لنفسه ويترك شروره للآخرين ، لذلك أقول : لا تأخذ أيها المسلم الخير لنفسك على حساب الشر للآخرين ؛ لأنك لا تحب أن يحقق الآخرون الخير على حسابك ، والذى يحب أن ينطلق بشروره فى الناس فليستقبل الشر من غيره . ومن يحب أن يأخذ الخير من الناس فليعطهم من خيره حتى يبقى الوجود جميلاً . إذن فالحياة بدون منهج الله تكون قبيحة ؛ لأن القوى يعيث فيها فسادًا بقوته وينزوى الضعيف إلى الإحساس بالذلة والضياع .

لكن الحق سبحانه أراد الحياة للمؤمنين فى ضوء منهجه ، وعندما يطبقون تكاليفه بـ « افعل » و« لا تفعل » فهم يصونون الحياة من الفساد حسب أوامر الخالق الأعلى للحياة ، فهو سبحانه الذى أوجدنا ووضع لنا قوانين صيانة الحياة . وحين منع مؤمنا واحداً من الشر ، فهو قد منع وحرم على كل إنسان مؤمن من أن يصنع شراً لأخيه ،

وبذلك حمى الإنسان من الشر . وإنما خص الله المؤمنين بالنداء والدعاء ؛ لأنهم أهل الاستجابة والطاعة ؛ أما ما عداهم من أهل الكفر والشرك فقد تأبوا على الله وعصوه ولم يؤمنوا به . وحين يأمر الله المؤمن بالخير ، فهو يأمر المؤمنين جميعاً بأن يصنعوا الخير لهم ولغيرهم . وبذلك يكسبون حياة مطمئنة ؛ لذلك يقول سبحانه : « استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم » .

فالذين لا يستجيبون لله ولا لرسوله حين يدعوهم لما يحييهم يظلون فى الحياة الدنيا غارقين فى اللهو واللعب ، إنهم كالموتى . وحتى نعرف أن الحق سبحانه أراد لنا - نحن المؤمنين - الحياة العالية ؛ إنه - سبحانه - قد سمى المنهج الذى يرسم لنا الأوامر والنواهى بالروح : « وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا » . وسمى الحق سبحانه وتعالى بهذا المَلَك الذى نزل بالوحى :

﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ ﴾

(سورة الشعراء)

إذن فالحياة التى تعطى الإنسان الحس والحركة هى الحياة الأولى التى يلعب ويلهو من خلالها ، وليست هى الحياة المرادة لله ؛ لأن الحياة المرادة لله هى الحياة الإيمانية ولذلك سماها الحق سبحانه الحيوان أى الحياة الكاملة وسمى المنهج روحاً .

﴿ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

إن مجرد التعقل يعطى الإنسان الخير ، والتعقل هو محاولة فهم نواميس الكون من الأسباب والمسببات ، ونحن نرى نور الشمس يعمّ النهار ويشيع الضوء والدفء ، وغياب الشمس وظهور القمر يحقق صفاء السكون ويهدى الناس فى ظلمات البر والبحر ، وجريان الماء يروى الإنسان والزرع ، وحركة الرياح تحرك السحب وتقود السفن وتساعد فى حركة الملاحة فى الجو والبحر وتلقح النبات ، وكل ذلك أسباب أرادها الله حتى يتحقق التوازن فى الكون . والإنسان يأخذ حظه من الحياة بالأسباب التى يعمل فيها ولا يأخذ الإنسان من أسباب غيره .

صحيح أن هناك أناساً يعيشون بلا أسباب ويأخذون تعب غيرهم ، ولكن عليهم أن يحذروا الله ، فإياك أيها المسلم أن تبنى لحمك ولحم أولادك من استغلالك

لغيرك ؛ ذلك أن أغيار الحياة ستمر عليك وقد تصير قوتك إلى ضعف ، وتأمين الإنسان لضعفه إنما يكون بإخراج الزكاة للضعيف ، ومساعدته ومعاونته فى كل ما يحتاج إليه ، ونجد غير المؤمنين وقد أخذوا فكرة التأمين من الزكاة ، فأنت تدفع للفقير زكاتك لتؤمن نفسك كمؤمن ، وهم أخذوا هذه الفكرة ليحولوها إلى تأمين على الحياة ، وبذلك تدخلوا فى قدر الله .

لكن الحق أراد بالزكاة أن يطمئن المجتمع كله لا أن يطمئن من يؤمن على نفسه فقط . ونعلم أن الذى يخيف الإنسان ويجعله يكدس المال ويجمعه ويكنزه هو الخوف من الضعف ، لكن لو أعطى الغنى بعضاً من المال للفقير لأشاع الاطمئنان فى نفسه ونفوس الضعفاء .

والذى يجعل الناس تلهث فى الحياة للادخار لأبنائها هو عدم اقتناعهم بالتكافل الاجتماعى الذى شرعه الإسلام . وهم يرون اليتيم وهو يضيع فى المجتمع ، لكن لو آمن الناس فى المجتمع بالتكافل الاجتماعى لوجد كل يتيم أبوة المجتمع كله له .

والإنسان الذى يلهث وراء الكسب من أجل أن يؤمن مستقبل أولاده قد يحول أولاده إلى يتامى لأنه مشغول عن تربيتهم ، ولذلك يقول أمير الشعراء شوقى رحمة الله عليه :

ليس اليتيم من انتهى أبواه من هم الحياة وخلفاه ذليلا
إن اليتيم هو الذى تلقى له أمًّا تخلت أو أباً مشغولا

إن على المجتمع أن يأخذ قضية الخير من قول الحق سبحانه : « استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم » . فكما أحيا الحق الأجسام بالروح التى نفخها فى القالب الطينى فصار لها حس وحركة ، فهو قد أنزل المنهج أيضاً روحاً من عنده لترتقى به روح الحس والحركة ، حتى لا يصبح الإنسان كالأنعام أو أضل سبيلا :

﴿ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾
(سورة الأنعام)

والدار الآخرة خير ؛ لأن الدنيا مهما طالت فهى منتهية ، لكن الحياة الآخرة خلود أبداً ، ونعيمنا فى الدنيا نأخذه بالأسباب ، ولكن نعيم الآخرة نأخذه على قدر سعة ورحابة قدرة الله . وآفة الدنيا حتى بالنسبة لأهل النعيم والقوة والثراء هى الخوف من الفقر أو الموت ، لكن فى الآخرة لا يفوت أهل الجنة النعيم ولا يفوتون النعيم .

ويقول سبحانه بعد ذلك :

﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾

لقد شرح الحق حال الكفار وموقفهم فى الآخرة حين يقفون على النار ، ويقفون أمام الله ، ومن بعد ذلك يوجه الحديث إلى الرسول صلى الله عليه وسلم الذى تقع عليه مشقة البلاغ من الله لهؤلاء الكفار ، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم حزيناً لأن قومه لا يذوقون حلاوة الإيمان ، وهو الرسول الذى قال عنه الحق سبحانه وتعالى :

﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ ﴾

(سورة التوبة)

وكان صلى الله عليه وسلم يحرص على أن يكون كل الناس مؤمنين ، ويتألم لمقاومة بعض الناس دعوة الإيمان ، إنه صلى الله عليه وسلم كان حريصًا على الكافر ليؤمن على الرغم من أن مهمة الرسول هى البلاغ فقط ، ولو شاء الحق أن يجعل الناس كلهم مؤمنين لأنزل عليهم آية تجعلهم جميعاً مؤمنين :

﴿ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴿٤﴾ ﴾

(سورة الشعراء)

لكن الحق سبحانه وتعالى لا يريد خضوع أعناق ، وإنما يريد خضوع قلوب . إنه ـ سبحانه ـ يريد أن يأتى الناس طواعية واختياراً ليثبتوا الحب للخالق ؛ لذلك يقول الحق لرسوله صلى الله عليه وسلم : « قد نعلم إنه ليحزنك الذى يقولون » وساعة نسمع : « قد » فلنعرف أن ما يأتى بعدها هو أمر محقق ، ويأتى ذلك إذا دخلت على الفعل الماضى فهى فى هذه الحالة تأتى لتسبق أمراً تحقق ، ومرة تأتى للتقليل أو للتكثير إذا دخلت على الفعل المضارع الذى يدل على الحال أو الاستقبال ، فإذا كان العامل والمعمول بينهما ارتباط سبب . . فهذا للتكثير ، وإذا كان ظاهر الأمر غير مرتبط ارتباطاً واضحاً . . فهذا للتقليل . والمثال على الارتباط الذى يدل على التكثير هو قول القائل : قد ينجح المُجدّ ؛ لأن المجِدَّ والنجاح مرتبطان ارتباط سببية ، ولكن قد يكون هناك حادث مفاجىء لأحد المجدين فلا يستطيع النجاح ، كأن يمرض يوم الامتحان ، ولكن احتمال الصحة أكثر من احتمال المرض فكانت للتكثير .

والمثال على مجىء « قد » للتقليل هو قول القائل : قد ينجح الكسول ، أى أن الكسول قد ينجح بالمصادفة وبدون أسباب منطقية ، كأن يقرأ عدداً من الدروس ليلة الامتحان فيأتى فيها الامتحان فينجح ، إذن فـ « قد » إذا دخلت على الماضى تكون للتحقيق ، وإن دخلت على المضارع فهى للتكثير إن كانت منطقية الأسباب ، وهى للتقليل إن كانت غير منطقية الأسباب . ولكن كلنا يعلم أن علم الله هو علم أزلى ، ولا قوة ولا أمر يخرجان عن معلوم الله . إذن فـ « قد » هنا للتحقيق وهى داخلة على الفعل المضارع ، فالحق أراد أن يبلغنا أنه علم أزلاً بما حدث وجاء بـ « قد » لنستحضر صورة الفعل :

« قد نعلم إنه ليحزنك الذى يقولون » . والحزن هو خروج النفس من سياق انبساطها ؛ فالإنسان يكون غاية فى الاستقامة والسرور عندما يكون كل جهاز من أجهزته يؤدى مهمته ، فإن حدث شىء يخل بعمل أحد الأجهزة فذلك يورث الحزن . أو يكون الحزن انفعالا لمجىء وحصول أمر غير مطلوب للنفس .

لقد كان مطلب الرسول صلى الله عليه وسلم أن يؤمن كل الذين استمعوا إلى البلاغ عنه ، لكن البعض قاوم الإيمان ، والبعض اتهم الرسول بالسحر أو الجنون أو قول الشعر ، وها هوذا الحق يسلى رسوله فيقول : « قد نعلم إنه ليحزنك الذى

يقولون » أى إنك يا محمد لا بد لك أن تعلم أن أقوالهم هذه ليست متعلقة بك ؛ لأنك ـ بإجماع الآراء عندهم ـ أنت الصادق الأمين . وهم إنما يكذّبون بآياتى التى أرسلتها معك إليهم ؛ لأن ماضيك معهم هو الصدق والأمانة ، بدليل أن الكافر منهم كان لا يأمن أحداً على شيء من أمواله ونفائسه إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم . والإنسان لا يغش نفسه فيما يخصه . فكأن الله يريد أن يتحمل عن رسوله ؛ لأن من يوجه إهانة للرسول إنما يوجهها للمرسِل له وهو الله جلت قدرته .

ولذلك يقول الحق : « قد نعلم إنه ليحزنك الذى يقولون فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون » وسبحانه يبين لنا أن رسوله صلى الله عليه وسلم كان حريصاً أشد ما يكون الحرص على أن تستجيب أمته لداعى الحق ، حتى يتأكد لدى المؤمنين قول الحق سبحانه وتعالى فى رسوله :

﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ ﴾

(سورة التوبة)

ولا معنى للحرص إلا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب ألا يفلت أحد من قومه عن منهجه وعن دينه . ولكن الحق سبحانه وتعالى جعل أمر الدين اختيارياً حتى يعلم من يجيء له طواعية ويقدر ألا يجيء ، ومن لا يجيء وهو قادر أن يجيء .

إن الحق سبحانه وتعالى له سنن كونية فى الكون يجريها على كل الخلق . وقد يتساءل قائل : وما الذى يجعل الحق سبحانه وتعالى يترك للكفر به مجالاً فى دنياه ؟ ولماذا يجعل الحق سبحانه وتعالى للشر مجالاً فى دنياه ألا يحكمها بهندسة حكيمة ؟ ونقول : لو لم يوجد للشر مضار تُفْزِّع الناسَ لما عرفوا للحق حلاوة . إذن فوجود الشر ، ووجود الكفر ، وآثار الكفر فى الناس جبروتاً وقهراً واستذلالاً ينادى فى الناس أنه لا بد من الإيمان ، وأنه لا بد من وجود الخير . فلو لم يكن للشر مكان فى الكون فما الذى يلفت الناس إلى الخير ؟ ولذلك تجد أن هبات الإيمان عند المؤمنين لا تأخذ فتوتها إلا حين تجد قوماً من خصوم الإيمان يهيجون المؤمنين ويؤذونهم ويستفزونهم . أما إذا صارت الدنيا إلى رتابة فربما فتر أمر الإسلام فى نفوس المسلمين . ولذلك نجد المؤمنين بالله فى غيرة دائمة ؛ لأن هناك من يكفر بالله . فيقول لرسوله : « قد نعلم

إنه ليحزنك الذى يقولون » وكأنه سبحانه يبلغنا أنه أراد كونه ليكون فيه المؤمن والكافر .

لذلك إن تساءلت ـ أيها المسلم ـ كيف يكون فى الأرض كافرون ؟ فلك أن تعلم أنهم من خلق الله أرادهم الحق أن يختاروا الكفر فلم يختاروا الكفر قهرا عنه ـ سبحانه ـ وكان سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يحزن لأن هناك أناساً لم يؤمنوا ، فيسليه الحق سبحانه وتعالى ، بأنه يعلم أنه يحزنه الذى يقولون من الكفر ومن اتهامات لرسول الله . ألم يقولوا إنه ساحر ؟ ألم يقولوا إنه مجنون ؟ ألم يقولوا إنه كاذب ؟ ألم يقولوا إنه كاهن ؟ ألم يقولوا إنه شاعر ؟ وسبحانه وتعالى يعلم ما قالوا ويعلم أن هذه الأقوال تحزن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويريد الحق سبحانه أن يرفع ويدفع هذا الحزن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيبلغه أنهم لا يكذبونك يا رسول الله ؛ فأنت تعرف منزلتك عندهم وهى منزلة الصادق الأمين ، ولا يجرؤ أحد على تكذيبك ولكنهم يجحدون بآيات الله . وهل هناك تسلية أكثر من ذلك ؟ لا يمكن أن توجد تسلية أكثر من ذلك .

ونعلم أن ما قاله أهل الشرك عن رسول الله هو قول مردود ، فهم أمة البلاغة والفصاحة والبيان ، فكيف يقولون إن القرآن شعر وهم أصحاب الدراية بالأساليب مرسلها ، ومسجوعها ، ونظمها ، ونثرها ؟

أمن المعقول أن يلتبس عليهم أسلوب القرآن بالشعر ؟ من المؤكد أن هذا غير ممكن . ولقد قالوا عن النبى صلى الله عليه وسلم : إنه ساحر ، فكيف سحر الذين آمنوا به ولم يسحر الباقين ؟ ولو كان ساحراً لسحرهم أيضاً ، وبقاؤهم على الكفر ينقض هذا . وقالوا كاذب ، فهم بقولهم هذا يكذِّبون أنفسهم لأنهم يعرفون عنه أنه الصادق الأمين ، وهاهوذا الحوار بين الأخنس بن شريق وأبى جهل .

قال الأخنس : يا أبا الحكم ، ما رأيك فيما سمعت من محمد ؟ فقال أبو جهل : ماذا سمعت ! وهنا نسمع قول الغيرة والحسد والبغض ، نسمع عن تلك الأمور البعيدة عن موضوع الرسالة النورانية المحمدية فيقول أبو جهل : تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف ، أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوْا فأعطينا حتى إذا تحاذينا على الركب وكنا كفرسى رهان قالوا منا نبىٌ يأتيه الوحى من السماء فمتى

ندرك مثل هذا ! والله لا نؤمن به أبدًا ولا نصدقه . فقام عنه الأخنس وتركه . إذن هى مسألة غيرة غاضبة على مناصب وسلطة زمنية ، ولذلك يرد الله عليهم قائلاً :

﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَـٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ﴾

(من الآية ٣٢ سورة الزخرف)

وهاهوذا الحق يسلى رسوله صلى الله عليه وسلم ويقول له :

﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَـٰكِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

إنهم ظالمون ، لأن الظلم نقل حق إلى غير مستحقه . وأبشع أنواع الظلم هو الشرك ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى هو المستحق وحده للعبادة ، والظلم الأخف وطأة هو أن ينقل الإنسان حقاً مكتسباً أو موهوبا إلى غير صاحبه وهذا ظلم موجود بين الناس . وقد نقل المشركون حق الذات الإلهية إلى غير مستحقها من أوثان وأصنام ، أما المؤمنون فهم الذين اعترفوا بحق الذات الإلهية فى العبادة .

وهناك نوع آخر من الظلم أريد أن أتحدث عنه ، وهو أن يظلم الإنسان اسمه ، كأن يكون والده قد سماه « مهدياً » ولكنه يملأ الدنيا فسادا بإيذاء نفسه وبإيذاء الآخرين . نقول لمثل هذا الإنسان : إن الواجب يقتضى منك أن تحترم أمل والدك فيك ، فلا تظلم اسمك « مهديا » ولتكن هناك عدالة بين الاسم والمسمى وذلك بأن يكون سلوكك متوافقا مع الاسم الذى سماك به أبوك .

أما إن كان أبوه قد سماه « مهديا » ولم يلقنه أى شىء من تعاليم الهدى والدين ، ثم خرج الشاب إلى الدنيا ليملأها بالشقاء لنفسه ولغيره ثم اهتدى من بعد ذلك فهذا شاب استطاع أن يتعلم الهداية فصار اسمه على مسماه .

وقد كنا فى الثلاثينيات من هذا القرن نسمع التحذيرات ونحن نزور القاهرة :

« إياكم أن تطأوا بأقدامكم شارع عمادالدين لأن كل الموبقات فى هذا الشارع » . وتعجبت أن يكون اسم الشارع « عمادالدين » ويكون مكاناً للموبقات فقلت فى ذلك :

وأقبح الظلم بعد الشرك منزلة
أن يَظْلم اسمًا مُسمّىً ضده جُبِلا
فشارع كعماد الدين تسميةً
لكنه لعناد الدين قد جُعلا

وفى الحياة كثير من حالات الأسماء يظلمها أصحابها . ولكن أكبر وأقبح درجات الظلم هو الشرك بالله « ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون » والجحد هو إباء اللسان وترفعه وعدم رضاه بأن ينطق بكلمة الحق ، فلو أن المشركين خلوْا إلى أنفسهم واستعرضوا مسائل محمد ومسائل الرسالة لوجدوا أن قلوبهم مقتنعة بأنه صادق وأنه رسول وأن المنهج إنما جاء للهداية . لكن ألسنتهم غير قادرة على الاعتراف بذلك .

ولذلك يأمر المنهج الإيمانى أن على الواحد منا إن أراد أن يناقش قضية أهى حق أم باطل فلا يصح أن نناقشها فى حشد من الناس ، ولكن فلنناقشها أولاً فى نفوسنا لنتبين الحق فيها من الضلال ، ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ﴾

(من الآية ٤٦ سورة سبأ)

كأن الحق يهدينا إلى كيفية التمييز ، فإما أن نناقش أنفسنا ، وإما أن يتناقش اثنان حتى يمكن أن يقتنع أحدهما برأى الآخر دون أن يشهد ثالث هزيمته فيكابر ويجادل . وقد نصح الحق بذلك هؤلاء الذين اتهموا رسول الله أن به ـ والعياذ بالله ـ مسًّا من الجنون ؛ فالجنون هو أن تحدث الأفعال بلا مقدمات وبدون تدبر أو نظر فى آثارها وتكون خالية من حكمة فاعلها . أما العاقل فهو الذى يرتب الأفعال بحكمة ويوازن ويدرس وينتهى به عقله وحكمته إلى حسن ما يفعل ويعامل الناس بانسجام وسوية خلقية عالية ، فهل أحد من المشركين أخذ على رسول الله صلى الله عليه وسلم أى

سلوك يمكن أن يشير إلى عدم ترتيب الأفعال ؟ لا .

ولذلك يقول الحق :

﴿ نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝ ﴾

(سورة القلم)

إن الخلُق العظيم يتنافى مع الجنون . وكذلك فعل كل قوم مع رسولهم ، إنهم رمَوْه بالسفه والجنون . فكلما جاء رسول لقومه بمنهج حق ليطمس معالم الباطل قابله قومه بمثل تلك المقابلة . ونعرف أن السماء لا تتدخل بالنبوات والمعجزات إلا حين يطم الفساد وتنطمس النفس المؤمنة . فالمؤمن فيه خميرة الخير فيندفع إلى فعل الخير . وإن حدثته نفسه بفعل معصية وفعَلَها ، فإن نفسه اللوامة تؤنبه على ذلك ، لكن إن انطمست نفسه ولم تعد تلوم ، صارت نفسه الأمارة بالسوء هي المسيطرة وإن لم يجد من يقول له في المجتمع : لا تفعل ذلك . . فالمجتمع كله يكون قد فسد . « كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه » .

إذن السماء لا تتدخل برسالة أو معجزة أو منهج إلا حين يطم الفساد . ومادام قد طم الفساد فهناك من يستفيد من هذا الفساد . وحين يأتي الرسول من أجل أن يمنع الفساد فهذا الرسول يمنع عن المفسدين استغلال الناس ويحول بينهم وبين الاستفادة من الفساد . ولذلك كان لكل رسول مقاومة من المفسدين وكانوا يقولون :

﴿ وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ ﴾

(من الآية ٢٧ سورة هود)

وأتباع كل رسول هم المظلومون الذين يحتاجون إلى منقذ . أما الجبابرة فهم يخاصمون الرسول ويقاومونه ، ويستقبله هؤلاء الجبابرة بإيذاء يتناسب مع مهمته . فإن كانت مهمته لقبيلة فالإيذاء يأتيه من هذه القبيلة . وإن كانت مهمته أوسع من ذلك فإنه يلقى من صنوف العذاب ألواناً .

ومادام محمد صلى الله عليه وسلم رسولاً إلى الناس كافة فعليه أن يجد المتاعب

الكثيرة ويتحملها . وقد أعده الله وهيأه لذلك ، وقد أخذ الرسل السابقون من الإيذاء على قدر دعوتهم . أما رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو للناس كافة ، ولا رسالة من بعده ، لذلك يتجمع ضد هذا الرسول وهذه الرسالة أقوام كثيرون . ولذلك يقولون له الحق سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَاۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِيْ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾

فإذا كان الرسل الذين سبقوك قد كُذِّبوا وصبروا على ذلك ، وهم رسل لقومهم أو لأمة خاصة ، ولزمان خاص ، فماذا عنك يا خاتم الرسل وأنت للناس كافة وللأزمان عامة ؟.إن عليك أن تتحمل هذا ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى قد اختارك لهذه المهمة وهو العليم أنك أهل لها . والحق كفيل بنصر رسله فلا يتأتى أن يترك الشر أو الباطل ليغلب الرسل ، ومادام سبحانه وتعالى قد بعث الرسول فلا بد أن ينصره . فهو القائل :

﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾

(سورة الصافات)

ومادامت قد سبقت كلمة الله للرسل فلا مبدل لكلمات الله ، ولا أحد بقادر على أن يعدِّل في المبادىء التي وضعها الله بقوله سبحانه تعالى :

﴿ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِيْ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾

(من الآية ٣٤ سورة الأنعام)

وقد قص الحق سبحانه على رسوله قصص المرسلين . ولم يكتف بالقول لرسوله أن الرسل السابقين عليه قد كذبتهم أقوامهم ، ولكن أورد الحق لرسوله ما حدث لكل

رسول ممن جاء ذكرهم بالقرآن الكريم وماذا حدث للرسول ـ أى رسول ـ من ثبات أمام الأعداء ، ثم بين أن كلمة الحق قد انتصرت دائماً . وقد روى الحق بعضاً من قصص الرسل فقال :

﴿ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ﴾

(من الآية ٧٨ سورة غافر)

ومن بعد ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾

إنك يا محمد رسول من عند الله ، ومعك منهج هو معجزتك الدالة على صدق ما جئت به ، فإن كبر عليك إعراضهم وعظم عليك أن يتولوا ويعرضوا عنك فإن استطعت أن تصنع لنفسك نفقاً فى الأرض لتأتيهم بآية أو أن تبنى سلماً لتصعد به إلى السماء طلباً لهذه الآية فافعل ، ولكنك لن تستطيع ذلك لأن ذلك فوق حدود قدرتك وسيلقى المشركون والمنافقون العذاب لأنك جئت يا رسول الله تبدد من صوجان سلطتهم الزمنية وتقيم العدل الإيمانى . ولذلك حاولوا السخرية منك وإيذاءك .

وقد طلب الكافرون من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ينزل إلى الأرض ليفجر لهم منها ينبوعاً ، وطلبوا إليه أن يصعد إلى السماء وأن يجعلها تسقط عليهم كسفا وقطعا لتهلكهم . وهذه أشياء لم تكن فى مكنة واستطاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولذلك يقول له الحق سبحانه وتعالى ما يقفل عليه أبواب الحزن ويقضى على أسباب الأسى والأسف عنده بسبب إعراضهم ، وأن يعرف أن السخرية والمقاومة هى مسألة طبيعية بالنسبة لكل رسول من الرسل ، وأنت يا رسول الله أولى

بهذا لأن مهمتك أضخم من كل الرسل . ونلحظ أن الحق سبحانه يحذف هنا جواب « إن » فهو يقول :

﴿ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ﴾

(من الآية ٣٥ سورة الأنعام)

ولم يقل الحق : فافعل ذلك ، كأن المسألة هى تهدئة للرسول ؛ لأن الجواب فى مثل هذه الحالة معلوم ؛ فالرسول لا يجبر أحداً على الإيمان . وإعراض هؤلاء القوم أمر مقصود لواجب الوجود حتى يختبرهم ولو أراد قهرهم لفعل ، فلا أحد يتأبى على الله ، فالكون كله مطيع لله ، الشمس ، والقمر ، والنجوم ، والهواء ، والماء ، والجبال ، والأرض ، وكل ما فى الكون مطيع لله بما فى ذلك الحيوان المسخر لخدمة الإنسان . ولكنه ـ سبحانه ـ أعطى الاختيار للإنسان ليأتى إلى الله محباً .

ونعلم أن الحق قد ترك بعضاً من المسخرات غير مذللة ليثبت للإنسان إنه لم يذلل الأشياء بحيلته ، ولكنه ـ جل شأنه ـ هو الذى خلقها وذللها له ؛ لذلك نرى الجمل الضخم يجره طفل صغير ، ونرى أى رجل مهما تكن قوته يأخذ الحذر والاحتياط من ثعبان صغير .

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا فَهُمْ لَهَا مَـٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَـٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾

(سورة يس)

ولو لم يذللها الله فلن يستطيع أحد أن يقترب منها . وأضرب هذا المثل دائماً ، عندما قال قائل : لماذا خلق الله الذباب ؟ فقال رجل من أهل الإشراق : ليذل به الجبابرة ؛ فسلطانهم لا يمتد إلى هذه الحشرات . لقد أعطى الحق الإنسان عزّة السيادة ، وعلمه أيضاً أن يتواضع للخالق .

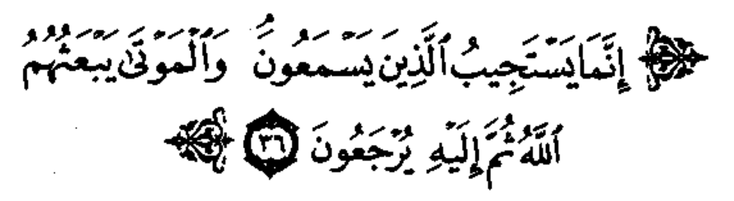
ويبلغ الحق سبحانه وتعالى رسوله :

﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴾

(من الآية ٣٥ سورة الأنعام)

أى أنه سبحانه لو شاء لجعل الناس كلهم مؤمنين . وقد يقول قائل : كيف يخاطب الله رسوله فيقول له : « فلا تكونن من الجاهلين » ؟ ونقول : إن الحق حين يقول لرسوله ذلك فهو يقولها لا من مظنة أن يفعلها الرسول ؛ فالرسول معصوم من الجهل ، ولكن هو قول فيه تنزيه للرسول عن أن يكون فى مثل هذا الصنف من الجاهلين .

ويقول الحق بعد ذلك :



و« يستجيب » معناها أنهم يطيعون أمر الآمر ونهى الناهى . وهناك فارق بين « الاستجابة » و« الإجابة » ؛ فـ « الاستجابة » هى : أن يجيبك من طلبت منه إلى ما طلبت ويحققه لك ، و« الإجابة » هى : أن يجيبك من سألت ولو بالرفض لما تقول ، وقد يكون الجواب ضد مطلوب ما سألت . ويقول الحق : « إنما يستجيب الذين يسمعون » أى أن الذين يستجيبون لنداء الحق هم الذين يسمعون بآذانهم وقلوبهم مصدقة ؛ لأن هناك فارقاً بين سماع ظاهره سماع وباطنه انصراف ، وبين سماع ظاهره طاعة وباطنه محبة لهذه الطاعة . ونعلم أن استقبال المسموع شىء ، وانفعال الإنسان بالمسموع شىء آخر .

وعندما يتحد حسن الاستماع مع انفعال الحب لتنفيذ ما سمعه الإنسان فهذا ما يطلبه الإيمان . والمؤمنون هم الذين يستمعون لكلمات الله بانفعال الحب ، وهم يختلفون عن هؤلاء الذين يسمعون الكلام من أذن ويخرجونه من الأذن الأخرى ، ويتركون الكلمات بلا تطبيق ، ولا يبقى فى النفس الواعية من آثار الكلام شىء .

وهكذا نرى أن الله قد صنع وخلق فى الإنسان من الحواس ما تهديه وترشده إلى الإيمان أو إلى الكفر ؛ فالأذن عند المؤمن تسمع ، والقلب يصدق ، والعقل يمحص ويؤمن . أما الكافر فأذنه تسمع وقلبه يعارض ، وعقله يبحث فى أسباب الكفر رغبة

فيه وسعيًا إليه ، ولذلك لا تؤدى حواسه مهامها بانسجام ، وكأن الذين يسمعون ولا يستجيبون هم من الموتى . فالأمر ـ إذن ـ ليس مقصورًا على السمع بل المطلوب أن يكون هناك سماع انفعال بالمسموع وانصياع له ، ولا تظن أن الله يعجز عن أن يجعل الذى لا يسمع سماع طاعة يهتدى ويستقيم ، فلا شيء ولا كائن يتأبى على الله ؛ لأنه سبحانه يحيى الموتى .

ومادام هو سبحانه يحيى الموتى فهو لا يطلب إيماناً جبرياً . إنما يطلب إيمان الاختيار والاقتناع ، وهو سبحانه لو شاء لأنزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين ، وسبحانه يطلب قلوباً لا قوالب . إذن فالذين يستجيبون لداعى الإيمان هم الأحياء حقاً ، أما الذين لا يستجيبون فهم فى حكم الأموات ، وهم من بعد موتهم وانتهاء حياتهم سيبعثهم الله ليسألهم عن أفعالهم فى الحياة الدنيا . وعندما يرجعون إلى الله سوف يجدون الحساب . ونعلم أن المرجع أخيراً ودائماً إلى الله . ومن يرجع إلى الله وعمله طيب يتعجل الجزاء الطيب ويتشوق ويتشوف إليه ، أما من يرجعه الله قَهْراً فهو يخشى الجزاء الأليم .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾

إن الله سبحانه يوضح لنا مواصلتهم للجدل ، وطلبهم لآية ما . والآية هى الأمر العجيب الذى يبعثه الله على يد نبى ليثبت صدقه فى تبليغه عن الله . وكأنهم لا يريدون أن يعترفوا أن القرآن آيات بينات على الرغم من اعترافهم بعظمة القرآن ، فقد قالوا :

﴿ وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ ﴾

(سورة الزخرف)

ولكنهم لم يعترفوا بالقرآن كآية معجزة ؛ لأنهم عرفوا أن الرسل السابقين قد نزل كل منهم بآية معجزة منفصلة عن المنهج الذى جاء به ، فموسى عليه السلام معجزته العصا ، ويده التى أخرجها من جيبه فكانت بيضاء من غير سوء ، وشق البحر ، ومنهجه التوراة ، وعيسى عليه السلام كانت معجزته التكلم فى المهد بإذن الله ، وإبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله ، وجاء بالإنجيل مكملاً بالروحانيات تلك الماديات التى ملأت نفس اليهود . وبعد أن قالوا عن رسول الله إنه يفترى الكذب تحداهم الحق أن يأتوا بمثل القرآن ثم نزل بهم إلى أن يأتوا بعشر سور من مثله ثم إلى أن يأتوا بمثل سورة واحدة من أقصر سوره . إذن ، فالافتراء وارد عليكم أيضا ، فكما أن محمدًا افترى فيمكن أن تفتروا أنتم كذلك فيما نبغتم وتفوقتم فيه من أساليب البلاغة . إن القرآن قد تحداهم ومادام قد تحداهم فإنه معجزة ؛ لأن الأصل فى المعجزة التحدى ، ويتحداهم الله أن يأتوا بسورة من مثل سور القرآن فلا يستطيعون ، إنه يتحداهم فى أمر اللغة ، وهم سادة اللغة وهم النابغون فيها .

جاء القرآن ليتحداهم فى مجال نبوغهم ، ولكنّ بعضاً من العرب طالب رسول الله صلى الله عليه وسلم بمعجزة حسية كونية يرونها . وأعماهم الحمق عن معرفة أن المعرفة الحسية موقوتة التأثير ، من يراها يقول إنها معجزة ، ومن لم يرها قد يصدق وقد يكذب . ونحن ـ المسلمين ـ لا نصدق المعجزات الحسية إلا لأن القرآن أوردها ؛ ولأن القرآن قد جاء للناس كافة ؛ لذلك لم يكن من المعقول أن يكون المنهج الخاتم منفصلاً عن معجزة النبى الذى جاء به .

جاء القرآن ـ إذن ـ معجزة لرسول الله وهو آية معنوية دائمة أبداً بما فيه من أحكام ونظم ، وآيات كونية وقضايا علمية ، وإذا كان الخلق يختلفون فى اللغات فما تضمنه القرآن من معجزات لن تنقضى عجائبه إلى يوم القيامة . وكل يوم نستنبط من آيات الله معجزات جديدة تُخرس كل مكذب ، لأنها معجزات كونية ، ومن العجيب أن بعض الذين يستنبطونها ليسوا من المسلمين ، ولا هم من المؤمنين بالقرآن .

ولكنّ بعضاً من المشركين لم يكتف بالقرآن على أنه آية ومعجزة دالة على صدق الرسول ، وطالبوا بمعجزة حسية . فهل كان ذلك الطلب للآية حقيقيا يرجون من ورائه معرفة الحق والإيمان به أو كان مجرد سبب يختفون وراءه حتى لا يؤمنوا ؟ إن كان

طلب الآية هو أمرًا حقيقياً نابعًا من قلوبهم فإننا نأخذ بأيديهم ونرشدهم ونهديهم ونقول لهم : إن الرسل التى جاءت بمعجزات غير كتاب المنهج كانوا رسلا إلى أمم مخصوصة وفى زمان محدود ، فجاءت معهم آيات كونية تُرَى مرة واحدة وتنتهى ، ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء لعموم الزمان ، ولعموم المكان ، ولذلك لا تصلح أن تكون آيته ومعجزته حسية ؛ حتى لا تنحصر فى الزمان والمكان المحددين ، وشاء الحق أن تكون معجزة رسول الله صلى الله عليه وسلم هى المنهج الدائم . وكنز القرآن أظهر وكشف من الآيات الكونية ما تحقق من علم وراه البشر ، وما سيظل يكتشفه البشر إلى أن تقوم الساعة . ولذلك قال الحق :

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾

(من الآية ٥٣ سورة فصلت)

أى أن البشر سيريهم الله وسيكشف لهم من آياته حتى يظهر ويستبين لهم وجه الحق ، وإن كنتم تقترحون آية لمجرد التمحك والتلكؤ فى إعلان الإيمان ، فلتعلموا أن أقواماً غيركم اقترحت الآيات وأنزل الحق هذه الآيات ومع ذلك كفروا :

﴿ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴾

(من الآية ٥٩ سورة الإسراء)

مثلما طلب قوم صالح الناقة ، فجاءهم بالناقة ، فكذبوا بتلك الآية وعقروا الناقة : « فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها » . إذن فمسألة طلب الآيات قد سبقت فى أمم سابقة ، وسبحانه قادر على إنزال الآيات ، ولكن أكثر المشركين لا يعلمون . وسيقولون مثلما قال الذين تكلم فيهم الحق سبحانه :

﴿ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴾

(من الآية ٥٩ سورة الإسراء)

ولقد أنزل الحق سبحانه القرآن على رسوله صلى الله عليه وسلم وفيه آيات كثيرة عظمت وجلت عن أن تحصى وتحصر ، ولو أنهم اقترحوا آية وحققها الله لهم ولم يؤمنوا لكان حقاً على الله أن يبيدهم جميعاً . ولقد أعطى الله رسوله صلى الله عليه وسلم وعداً بألا يهلكهم وهو صلى الله عليه وسلم فيهم : « وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم » .

إذن فعدم استجابة الله لإنزال آية لهم هو نوع من الحرص عليهم ، ذلك أن منهم من سيؤمن ، ومنهم من سيكون من نسله مؤمنون يحملون المنهج ويقومون به إلى أن تقوم الساعة لأنهم أتباع وحملة الرسالة الخاتمة .

وبعد ذلك يأتى الحق بالبيان الارتقائى :

﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾

إنه سبحانه يوضح لنا : أنا أعطى الآيات التى أعلم أن الفطرة السليمة تستقبلها كآية وتؤمن بها . وأنزلت لكم القرآن لتؤمنوا بالرسول الذى يحمله منهجاً يُصلح حياتكم . وقد جعلتكم سادة للكون ؛ تخدمكم كل الكائنات ، لأنكم بنو آدم . وكان الأجدر بكم أن تنتبهوا إلى أن الحيوان فى خدمتكم ، والنبات فى خدمة الحيوان وخدمة الإنسان ، وكل كائنات الوجود تصب جهدها المسخر لخدمتكم . فإذا كنتُ قد جئتُ للأجناس كلها وجعلتُها دونكم وأعطيتها ما يصلحها ويقيمها ووضعت لها نظاماً ، وأعطيتها من الغرائز ما يكفى لصلاح أمرها حتى تؤدى مهمتها معكم على صورة تريحكم فإذا كان هذا هو شأننا وعملنا مع من يخدمكم فكيف يكون الحال معكم ؟ إننى أنزلت المنهج الذى يصلح حياة من استخلفته سيداً فى الأرض .

﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

وكل الدواب دون الإنسان أعطاها الإله الإيمان بالفطرة ، وهداها إلى الرزق بالغريزة . وميز الإنسان فوق كل الكائنات بالعقل ، ولكن الإنسان يستخدم عقله مرة استخداما سليما صحيحا فيصل إلى الإيمان ، ويستخدمه مرة استخداما سيئا

فيضل عن الإيمان . وكان على الإنسان أن يعلم أنه تعلم محاكاة ما دونه من الكائنات ؛ فقابيل تعلم من الغراب كيف يوارى سوأة أخيه . ومصمم الطائرات تعلم صناعة الطيران من دراسة الطيور . إذن كان يجب أن يتعلم الإنسان أن له خالقاً جعل له من الأجناس ما تخدمه ليطور من حياته ومن رعاية كرامته بعد الموت . والمثال ما قالته نملة لبقية النمل :

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ ﴾

(من الآية ١٨ سورة النمل)

إن النمل أمة لها حرس ، قالت حارسة منهم هذا القول تحذيراً لبقية النمل .

والله سبحانه يقول :

﴿ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡ ﴾

(من الآية ٤٤ سورة الإسراء)

إذن فكل أمة من تلك الأمم الكثيرة التى خلقها الله فى الكون تسبح بحمده ، ولكن لا يفهم أحد لغات تلك الأمم . وأعلمنا الله أنه علم سيدنا سليمان لغات كل الأقوام وكل الأمم المخلوقة لله ، ولذلك عندما سمع سيدنا سليمان ما قالته النملة : تبسم « ضاحكاً من قولها » .

وهكذا علمنا أن الله أعطى أذن سليمان عليه السلام ما جعلها تمتلك حاسية التقاط الذبذبة الصادرة من صوت النملة وتفهم ما تعطيه وتؤديه تلك الذبذبة ، لذلك تبسم سليمان عليه السلام من قولها ؛ لأن الله علمه منطق تلك الكائنات . ولو علمنا الله منطق هذه الكائنات لفقهنا تسبيحهم لله ، ونحن لا نفقه تسبيحهم لأننا لم نتعلم لغتهم . ومثال ذلك ـ ولله المثل الأعلى ـ قد يسافر إنسان عربى إلى بلاد تتحدث الإنجليزية وهو يجهل تلك اللغة ، فلا يفهم مما يقال شيئاً . إذن لو علمك الله منطق الطير ، ومنطق الجماد ، ومنطق النبات ؛ لعلمت لغاتهم .

ألم يقل الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ ﴾

(من الآية ٧٩ سورة الأنبياء)

إن الجماد ـ الجبال ـ تسبح مع داود . وكذلك الطير ؛ فهاهوذا الهدهد قد عرف قضية التوحيد ، وحز فى نفسه أنه رأى ملكة سبأ وقومها يسجدون للشمس من دون الله :

﴿ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ ﴾

(من الآية ٢٤ سورة النمل)

إذن فالهدهد قد عرف قضية التوحيد ، وعرف أن للشيطان مداخل على الكائن الحى ، وعرف أن السجود إنما يكون لله سبحانه وتعالى :

﴿ أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾

(من الآية ٢٥ سورة النمل)

إذن كل الكائنات هى أمم أمثالنا . وقد يقول قائل : ولكن هناك كائنات ليست فى السماء ولا فى الأرض ، مثل الأسماك التى فى البحار ؟ ونقول : إن الماء ثلاثة أرباع الأرض والسمك يسبح فى جزء من الماء الذى هو جزء من الأرض . فهو يسبح فى جزء من الأرض ، فسبحانه الذى خلق الدواب فى الأرض ، وخلق الطيور . وخلق الأدنى من هذه الأمم وهداها إلى مصلحتها ومصدر حياتها : « الذى خلق فسوى . والذى قدر فهدى » .

ونرى العلماء يحاولون الآن اكتشاف لغة الأسماك ، واكتشاف كل أسرار مملكة النحل ونظامها ، وكيف تصير أعشاش النمل مخازن فى الصيف لقوت الشتاء . ودرسوا سلوك النمل مع حبة القمح ، وكيف تخلع النملة خلايا الإنبات من بذرة القمح ، لأن خلايا الإنبات إن دخلت مع حبة القمح إلى مخزن غذاء النمل قد تنبت وتدمر جحر النمل . وهكذا نرى صدق الحق الأعلى :

﴿ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝ ﴾

(سورة الأعلى)

وقرون الاستشعار فى النملة تثير العلماء ؛ لأن النملة الواحدة ترى على سبيل المثال

قطعة السكر ، فلا تقربها ولكنها تذهب لاستدعاء جيش من النمل قادر على تحريك قطعة السكر . ووجد العلماء أن وزن الشيء الذى يتغذى به النمل إن زاد على قدرة نملة ، فهى تستدعى أعدادا من النمل ليؤدوا المهمة .

وتساءل العلماء : من أين للنملة إذن هذه القدرة على تحديد الكتلة والحجم والوزن ؟ إن تحديد العدد الذى يحمل حجما محددا يثير الغرابة والعجب ، فكيف يمكن أن نتصور أن النمل يفرق بين شيئين يتحد حجمهما ويختلف وزنهما ككتلة من حديد وأخرى تماثلها فى الحجم من الأسفنج ؟ إن النمل يستدعى لكتلة الحديد أضعاف ما يستدعيه لحمل كتلة الأسفنج مع اتحادهما فى الحجم ؛ إنها من قدرة الحق الذى خلق فسوى والذى قدر فهدى .

ثم إنك تلتفت إلى الحيوان فتجد الذكر والأنثى ، وتجد أن الجمال كله فى ذكور الحيوان ، بينما لا يكون الأمر كذلك فى إناث الحيوان ، والكثرة الغالبة هى من الإناث والقلة فى الذكور ، ولا يقرب الذكر أنثاه إلا فى موسم معين ، وإلى أن يأتى موسم التلقيح تنصرف الأنثى إلى إعداد العش وتهيئته لما عساه أن يوجد من نتاج ، وهذه العملية لحكمة عالية ربما تكون لبقاء نوع الحيوان حتى يعين الإنسان فى إعمار الأرض .

وفى عالم الطير نجد الطيور تبنى العش بفن جميل لاستقبال الفرخ الذى خرج من البيض وتفرش له العش بأنعم الأشياء ، إنها تفعل ذلك بإتقان جيد وبصورة ربما يعجز البشر أن يعمل مثلها . ثم نجد فى دنيا الحيوان والطير أن الكائن ما إن يبلغ القدرة على الاعتماد على نفسه فلا تعرف الأم ابنها من ابن غيرها . إذن فكل المخلوقات أمم أمثالنا أرزاقاً وآجالاً ، وأعمالاً ، فصدق الله إذ يقول : « ما فرطنا فى الكتاب من شيء » .

وقد يكون المراد من الكتاب هنا هو اللوح المحفوظ ، ولكننا نقول : إنه القرآن . وكل شيء موجود ومذكور أو مطمور فى القرآن الكريم . وذكر القرآن أن هذه الأمم تعرف التوحيد ، وأنهم يسبحون لله . والعلم المعاصر يكتشف فى كل دقيقة حقائق هذا الكون المنظم . ونجد العقل يهدينا إلى أن نوجد أشياء لصالح حياتنا ، ولكن عندما نتبع الهوى فإننا نفسد هذا الكون . إن الله ـ سبحانه ـ جعل للخادم من دواب

الأرض نطاقًا للعمل والرزق والأجل بحكم الغريزة ، وكذلك جعل للطير ، ولكل الكائنات :

ويقول الحق سبحانه وتعالى فى محكم آياته الكريمة :

﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾

(من الآية ٣٨ سورة الأنعام)

إذن كل شىء يحشر يوم القيامة . ألم يقل رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما رواه أبو هريرة رضى الله عنه : « لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى يقاد للشاة الجلحاء[1] من الشاة القرناء »[2].

أى أن الحق سبحانه يقتص من الشاة ذات القرون التى نطحت الشاة التى بلا قرون ويعوضها عن الألم الذى أصابها . وبعد أن يأخذ كل كائن من غير الإنس والجن حَقَّه يصير إلى تراب . أما الذين يسمعون ولا يستجيبون فهم المكذبون بالآيات ، ولذلك يقول عنهم الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾ ﴾

والصمم آفة تصيب الأذن فلا تسمع . والبكم آفة تصيب اللسان فلا ينطق . والبكم مرتبط بالصمم ؛ لأن الإنسان لا يتكلم إلا إذا سمع ؛ لأن اللغة بنت المحاكاة ؛ فالإنسان لا يتكلم إلا إذا سمع .

إن البشر ينشأون فى بيئات مختلفة اللغة ولا يتكلمون إلا باللغة التى نشأوا فى

(١) الجلحاء : هى التى لا قرن لها ، بعكس القرناء .

(٢) رواه مسلم والترمذى وأحمد بن حنبل .

بيئتها ؛ لأن اللغة ليست دماً ولا جنساً . بل اللغة سماع . وما تسمعه الأذن يحكيه اللسان . ولا يقرأ الإنسان إلا إذا سمع وعرف ارتباط ما يسمع بما يرى ؛ لذلك نعرف أن السمع هو المنفذ الأول للإدراك ، ولهذا كان الصمم قبل البكم .

ولكن هل الإدراك مرتبط بالصمم والبكم فقط ؟ لا ، إن الإنسان يسمع أولاً ، ثم يرى ، ثم يتذوق ، ثم يشم ، ثم يلمس ، ثم تأتى له المعلومات العقلية . والمثال على ذلك أن كل إنسان يعرف أن النار محرقة ، وهو لم يعرف هذا إلا لأنه وجدها قد لمست كائناً وأحرقته . ومثال آخر : يتفق الناس على أن صوت العندليب جميل ، وهذا الاتفاق جاء من سماع الناس لصوت العندليب . إذن فالمعلومات العقلية تأتى نتيجة للمعلومات الحسية .

« صم وبكم فى الظلمات » إنهم بلا قدرة أيضاً على إبصار الهداية من أى ناحية ؛ صم لا يسمعون لكلمة الحق ، وبكم لا ينطقون ، وفى ظلمات لا يهتدون إلى إدراكات الأشياء ولا إلى الإيمان . وكل ذلك مردود إلى المشيئة : « من يشأ الله يضلله ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم » لكن هل اقتحمت المشيئة على الناس وقهرتهم ؟ لا ؛ لأن الحق قال :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴾

(من الآية ٢٨ سورة غافر)

وقال سبحانه أيضاً : « والله لا يهدى القوم الظالمين » إذن ، فبتقديمهم الظلم ، والفسق ، والكفر ، وقد فعلوا ذلك اختياراً فصار المرض واستقر فى قلوبهم وزادهم الله مرضاً ، وهو سبحانه أغنى الأغنياء عن الشرك به ، فمن أشرك مع الله شيئاً فهو له . ويأتى من بعد ذلك أمر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم :

﴿ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾

و« أرأيتكم » مكونة من استفهام وفعل ، ومن ضمير وهو لفظ التاء المفتوح

للمخاطب كقولك : « أرأيت فلاناً » وكأنك تقول له : « إن كنت قد رأيته فأخبرنى عنه » ، وعندما تقول للمخاطب ذلك فأنت تستفهم منه عن شيء رآه وأبصره وبعد ذلك تأتى بكاف الخطاب ، فكأنك تقول له :أخبرنى عنك ، فيكون المعنى أخبرونى عن أنفسكم ، وهكذا تكون : « أرأيتكم » معناها : أخبرونى عن حالكم إخبار من يرى . فالأمر إذن لرسول الله ليسأل المشركين أن يخبروه ماذا يفعلون عندما يصيبهم الضر أو أى شيء فوق الأسباب ، هل هم يدعون اللات والعزى ؟

لا ، إنهم لا يستطيعون وقت الخطر الداهم أن يكذبوا على أنفسهم ، إنما ينادون الله الذى لا يعلنون الإيمان به . ولو كانوا صادقين مع كفرهم لما نادوا الله ، بل كان يجب أن ينادوا آلهتهم ؛ لكنهم فى لحظة الخطر يقولون : « يارب » كأنهم يعرفون أنه لا منقذ لهم إلا هو سبحانه . وهكذا ينكشف أمامهم كذب كفرهم وشركهم بالله . ولا أحد يغش نفسه ، حتى الدجال الذى يدعى ممارسته شفاء الناس ، إن أصابه مرض نجده يلجأ إلى طبيب متخصص متعلم . فلا أحد يغش نفسه ، وساعة يمس الخطر ذات الإنسان نجد الحقيقة تنبع من الإنسان نفسه .

ويسألهم النبى صلى الله عليه وسلم : مَنْ يدعونه لحظة الخطر ؟ إنهم يدعون الله . وكأنهم لا يثقون فى آلهتهم :

﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا ﴾

(من الآية ١٢ سورة يونس)

لكن ماذا يحدث عندما يعود للقلب غلظته ؟

﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ﴾

(من الآية ١٢ سورة يونس)

لماذا إذن يطلب من الله النجدة وقت الخطر ، ولا يتبع التكليف ؟ يأتى الأمر إلى الرسول ليسألهم من تدعون لحظة الخطر ؟ ويأتى الجواب أيضاً من الحق سبحانه وتعالى :

﴿ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾ ﴾

إنكم ـ أيها المشركون ـ لا تدعون إلا الله أن يكشف عنكم الضر ، فإن رأى أن من الحكمة أن يجيب دعاءكم أجابه . وإن رأى أن من الحكمة ألا يجيب فهو لا يجيب . وهم يدعون الله وينسون آلهتهم ومن أشركوهم بالعبادة مع الله .

ويقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾

لقد أرسل الحق لأمم سابقة رسلاً بالآيات والمنهج ، فكذبتهم أقوامهم ، فأخذهم الله بالشدائد والأحداث التي تضر إما في النفس ، وإما في المال ، بالمرض ، بالفقر ، لعلهم يتضرعون إلى الله سبحانه وتعالى .

إذن فالحق حين يمس الإنسان بالبأساء أي بالشدائد أو بالضراء ، أي بالشيء الذي يضر ويؤذي ، إنما يريد من الإنسان أن يختبر نفسه ، فإن كان مؤمناً بغير الله فليذهب إلى من آمن به ـ ولن يرفع عنه تلك البأساء أو ذلك الضر إلا عندما يعود إلى الله . وعندما يتضرع إلى الله قد لا يقبل الله منه مثل هذا التضرع ويقول سبحانه :

﴿ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾

إنه ـ سبحانه ـ يحثهم ويحضهم على أن يتضرعوا ويتذللوا إلى الله ليرفع عنهم ما نزل بهم ، ولكن قلوبهم القاسية تمنعهم حتى فى لحظة المس بالضر أن يلجأوا إلى الله خوفاً من اتباع التكليف . إن قسوة القلب تكون بالصورة التى لا ينفذ إليها الهدى وكما قال الحق :

﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ ﴾

(سورة المطففين)

أى صارت قلوبهم مغلقة ومغطاة بعد أن طبع الله وختم عليها فلا تقبل الخير ولا تميل إليه ، فلا يؤمنون .

ويتابع الحق القول الكريم :

﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾

إنهم عندما نسوا ما جاءهم من تذكير الحق لهم بالمنهج والتوحيد من خلال الرسل إنه ـ سبحانه ـ يصيبهم بالعذاب الذى يفاجئهم به فيقعون فى حيرة تأخذ عليهم ألبابهم وتشتت قلوبهم وتقطع رجاءهم .

والرسل إنما تأتى لتذكر ؛ لأن الإيمان موجود بالفطرة . ولكن الغفلة هى التى تخفى الإيمان . والإنسان يحيا فى كون ملىء بالنعم ولا دخل لأحد بها ، ولا يد لأحد فيها ، ولم يدعها أحد لنفسه ، كان يجب على هذا الإنسان أن يعيش دائماً فى رحاب الحمد لله ، مولى هذه النعمة .

والتذكير من الحق لعباده يكون بالنعم أو الرسل الذين يأتون بالرسالات المتوالية . وهب أن إنساناً قد غفل عن نعمة الله فى الطعام ، ثم جاءت لحظة الجوع ، فجلس

يشتهى الطعام فمنحه الله ذلك الطعام فكيف ينسى لحظة الشبع من وهب له هذا الطعام .

« فلما نسوا ما ذكروا به » إما أن يكون هو الإخبار بواسطة الرسل الذين يذكرون الناس بأن المنعم هو الله ، وأن الله أنزل المنهج ليصلح الكون به ، وإما أن يكون بواسطة النعم التى تمر على الإنسان فى كل لحظة من اللحظات ؛ لأنها تنبه الإنسان إلى أن هناك من أعطاها . مثال ذلك ساعة يستر الإنسان عورته وجسده بلباس جميل ، ألا يتساءل عن الذى وهب الصانع تلك الموهبة التى صمم بها الزى . إذن كيف يأخذ الإنسان النعمة ولا يتذكر المنعم ؟ إن الله سبحانه لا يحرمهم من النعم ساعة أن تركوا شكرها ، بل يفتح عليهم أبواب كل شىء ، أى يعطيهم من النعم أكثر وأكثر ، فيترفون ويعيشون فى ألوان من حياة العز والصحة والسعة والجاه والسيطرة والمكانة . ثم ما الذى يحدث ؟ « أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون » .

وقلنا من قبل هذا المثل الريفى : لا يقع أحد من فوق الحصير . ولكن الحق يعلى الكافر المشرك فى بعض الأحيان ثم يأخذه بغتة فيقع ليكون الألم عظيماً . فإن رأيت إنساناً أسرف على نفسه ووسع الحق عليه فى نظام الحياة . إياك أن تفتن وتقول : آه إن الكافر الظالم يركب أفخر السيارات ويعيش فى أبهى القصور ، لا تقل ذلك لأنك سترى نهاية هذا الظالم البشعة .

وانظر إلى دقة التعبير فى قول الحق تبارك وتعالى : « فتحنا عليهم أبواب كل شىء » لقد فتح عليهم . . أى سلط عليهم ، لا فتح لهم . ويقول الحق سبحانه فى موقع آخر من القرآن الكريم : « إنا فتحنا لك فتحاً مبينا » .

وهكذا نعرف أن الفتح لك غير الفتح عليك ؛ لأن الفتح على أحد يعنى الاستدراج إلى إذلال قسرى سوف يحدث له . ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴾

(من الآية ٤٤ سورة الأنعام)

إن القبض يأتى لحظة الفرح . وكثيراً ما نرى مثل هذه الأحداث فى الحياة ،

نلتفت إلى كارثة تحدث للعريس أو العروس فى يوم الزفاف . ويصدق قول الشاعر :

مشت الحادثات فى غرف الحمراء
مشى النعى فى دار عرس

وهذا يشرح القول الكريم :

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً ﴾

(من الآية ٤٤ سورة الأنعام)

وعندما ندقق فى كلمة : « بما أوتوا » فإننا نجد أن ما حصلوا عليه من نعمة إنما جاءهم كتمهيد إلهى ييسر هذه المسائل ، ثم يأخذهم الحق بغتة ، أى أن الحادث الضار يأتى بدون مقدمات ؛ لأن مجىء المقدمات قد يجعل الإنسان يتيقظ ويحتاط أو يتوقع ذلك . ونعرف أن الحق يقول فى موقع آخر من القرآن الكريم :

﴿ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً ﴾

(من الآية ٤٧ سورة الأنعام)

أى أن العذاب قد يأتى مرة بغتة ، وقد يأتى مرة أخرى جهراً . والعذاب يأتى بغتة عقاباً ، ويأتى جهرة حتى لا يقولن أحد : لولا أنّ مجىء العذاب بغتة لكان قد احتاط لذلك الأمر . ويأتيهم العذاب وهم مبلسون أى يائسون لا منجى ولا منقذ ولا خلاص لهم .

ويتابع الحق ما يحدث لهؤلاء :

﴿ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾

ومادام هؤلاء القوم قد نسوا ما ذكّروا به ، وفتح الله عليهم أبواب كل شىء ثم فرحوا بما أوتوا وأخذهم الحق بغتة ، كل ذلك يلفتنا إلى أنه يجب علينا أن نحمد الله لأنه يربى الخلق بالنقمة والنعمة ويطهر الكون من المفسدين ، وقطع دابر المفسدين

مصيبة لهؤلاء المفسدين ، ونعمة من نعم الله على المؤمنين . وقد يتساءل البعض : كيف يأتى القرآن بالنقم وكأنها نعم ؟

ونجد الحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَـٰنٍ ﴿٣٣﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾ ﴾

(سورة الرحمن)

إنها نقم يتحدث عنها الحق كإرسال الشواظ من نار ونحاس ، وهى نقم بالنسبة للكافرين وعليهم ، وهى نعم للمؤمنين . ونعلم أن التهويل فى أمر العذاب يجعل الناس ترتدع ، وهذا الوعيد نعمة من الله . وحين يتجلى الحق بنعمه على خلقه ويقطع دابر الظالمين ، يقول المؤمنون الحمد لله :

﴿ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

ويعود الحق إلى استنطاقهم بالإخبار عن المرئيات :

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَـٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾

هنا يأمر الحق نبيه صلى الله عليه وسلم أن يستنطقهم : ماذا يفعلون إن سلب الله السمع وغطى قلوبهم بما يجعلها لا تدرك شيئاً ، وسلب منهم نعمة البصر ، هل هناك إله آخر يستطيع أن يرد لهم ما سلبه الحق سبحانه منهم ؟ لقد أخذوا نعمة الله

واستعملوها لمحادّة الله وعداوته ، أخذوا السمع ولكنهم صموا عن سماع الهدى ، وأخذوا الأبصار ولكنهم عموا عن رؤية آيات الله . ومنحوا القلوب ولكنهم أغلقوها فى وجه قضايا الخير . فماذا يفعلون إن أخذ الله منهم هذه النعم ؟ هل هناك إله آخر يلجأون إليه ليستردوا ما أخذه الله منهم ؟

وترى فى الحياة أن الحق قد حرم بعضاً من خلقه من نعم أدامها على خلق آخرين . إن فى ذلك وسيلة إيضاح فى الكون . وإياك أن تظن أيها الإنسان أن الحق حين سلب إنساناً نعمة ، أنَّه يكره هذا الإنسان ، إنه سبحانه أراد أن يذكر الناس بأن هناك منعماً أعلى يجب أن يؤمنوا به . فإن أخذ الحق هذه النعم من أى كافر فماذا سيفعل ؟ إنه لن يستطيع شيئاً مع فعل الله .

وهاهوذا النبى يوضح لهم بالبراهين الواضحة ، ولكنهم مع ذلك يُعْرِضون عن التدبر والتفكر والإيمان « ثم هم يصدفون » .

والمؤمن حين يرى إنساناً من أصحاب العاهات فهو يشكر الله على نعمه ، إن الحق ـ سبحانه ـ بواسع رحمته يعطى صاحب العاهة تفوقاً فى مجال آخر . ولنذكر قول الشاعر :

عميت جنيناً والذكاء من العمى
فجئت عجيب الظن للعلم موئلا
وغاض ضياء العين للقلب رافداً
لعلم إذا ما ضيع الناس حصلا

إننا قد نرى أعمى يقود ببصيرته المبصرين إلى الهداية . ونرى أصم كبيتهوفن ـ على سبيل المثال ـ قد فتن الناس بموسيقاه وهو أصم . وهكذا نجد من أصيب بعاهة فإن الله يعوضه بجودٍ وفضل منه فى نواحٍ ومجالات أخرى من حياته .. ولا يوجد إله آخر يمكن أن يعوض كافراً ابتلاه الله ؛ لأن الله هو الواحد الأحد : « انظر كيف نصرف الآيات ثم هم يصدفون » ، أى انظر يا محمد وتعجب كيف نبّين لهم الآيات ونصرفها من أسلوب إلى أسلوب ما بين حجج عقلية وتوجيه إلى آيات

كونية وترغيب وترهيب وتنبيه وتذكير ومع ذلك فإن هؤلاء الكافرين لا يتفكرون ولا يتدبرون ، بل إنهم يعرضون ويتولون عن الحق بعد بيانه وظهوره .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾

ونلحظ أن « تاء الضمير » فى هذه الآية قد فتحت ، بينما الآية السابقة لها جاءت فيها « تاء الضمير » مضمومة ، حيث يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

ونلحظ أيضاً أن الآية التى نحن بصددها الآن تأتى فيها كاف الخطاب : « أرأيتكم » بينما الآية السابقة لها لا تحمل كاف الخطاب « أرأيتم » ونعرف أن كل لفظة من هذه الألفاظ قد جاءت لتؤدى معنىً لا يؤدى بغيرها ، وإن تشابهت الأساليب ، فقوله : (أرأيتكم) يشمل ويضم ضمير المخاطب وهو التاء المفتوحة ويشمل أيضا كاف الخطاب والجمع بين علامتى الخطاب (التاء) و(الكاف) يدل على أن ذلك تنبيه على شىء ما عليه من مزيد . إنه تنبيه إلى أن هلاكهم سيكون هلاك استئصال وإبادة ، ومرة يقول الحق : « أرأيتم » أى أخبرونى أنتم وأعلمونى إعلاماً يؤكد لى صدق القضية ، ويأتى الاستفهام هنا من مادة « أرى » و« رأى » .

إن السبب فى ذلك أنك حين تستفهم عن شىء إما أن يكون المستفهم منه قد حضر حدوث الشىء ، وإما أن يكون المستفهَم منه لم يحضر حدوث الشىء . فإن كان قد حضر حدوث الشىء فإنك تقول له : أرأيت ما حدث لفلان وفلان ؟ فيقول لك : نعم رأيت كذا وكذا وكذا . وإن كان المستفهَم منه لم يعلم بالأمر ولم يره فهو

يجيب بالنفى ، وهذا ما يحدث بين البشر ، لكن حين يكون الاستفهام من الله ، ويكون الحادث المستفهَم عنه قد حدث من قبل وجود المستفهَم منه ، فالإيمان يقتضى أن يجيب المستفهم منه عن هذا الحادث بـ « نعم » .

ومثال ذلك قول الحق سبحانه وتعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١ ﴾

(سورة الفيل)

وهذا خطاب من الله لرسوله صلى الله عليه وسلم عما حدث لأصحاب الفيل فى عام ولادته صلى الله عليه وسلم ، ولم يكن الحدث موضع رؤية لرسول الله صلى الله عليه وسلم . ولقائل أن يقول : كيف يخاطب الله رسوله باستفهام عن حادث لم يره ؟ ونقول : إن الحق بهذا الاستفهام يوضح لرسوله : اسمع منى ، وسماعك منى فوق رؤية عينيك للحدث ، فإذا ما قلت لك : « ألم تر » فمعناها : اعلم علماً يقينياً ، وهذا العلم اليقينى يجب أن تثق فى صدقه كأنك رأيته رؤية العين وفوق ذلك أيضاً فإن عينك قد تخدعك أو تكذب عليك ، ولكن حين يخبرك ربك لا يخدعك ولا يكذب عليك أبداً .

إذن فالحق يريد أن يخرج هذه الأساليب مخرج اليقين . وأضرب هذا المثل ـ ولله المثل الأعلى ـ فحين يحاول إنسان قد أحسنت إليه كثيراً أن يجحد إحسانك ، فأنت لا تقول له : أنا أحسنت إليك ؛ ولكنك تقول له : أرأيت ما فعلته معك يوم كذا ، ويوم كذا ؟ وهنا يبدو كلامك كاستفهام منك ، لأنك واثق أنه حين يدير رأسه فى الجواب فلن يجد إلا ما يؤيد منطقك من وقوفك إلى جانبه ، وإحسانك إليه ، ولن يجد إلا أن يقول لك : نعم رأيت أنك وقفت بجانبى فى كل المواقف التى تذكرها . وفى مثل هذا القول إلزام لا من موقع المتكلم ، ولكن من واقع المخاطب .

وبعد أن تكلم الحق عن تعنت الكافرين أمام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعدم اكتفائهم بالآيات التى أنزلها الله مؤيدة لصدق رسوله صلى الله عليه وسلم ، ثم تماديهم فى اقتراح آيات من عندهم ، وقد اقترحوها فى شىء من الصفاقة والسماجة ، فقالوا :

﴿ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

وكلها أسئلة مليئة بالتعنت ، والحق سبحانه وتعالى هو الذى اختار القرآن معجزة ومنهجاً لرسوله صلى الله عليه وسلم . ويعلم سبحانه صدق رسوله فى البلاغ عنه ، لكل ذلك يبين الحق لرسوله أن يبلغ هؤلاء الكافرين أنه سبحانه وتعالى لن يعود عليه أى نفع أو ضر نتيجة إيمانهم به سبحانه ، لكن النفع بالإيمان يكون للعباد ويعود خيره إليهم ؛ لأنه سبحانه وتعالى له صفات الكمال كلها قبل أن يخلق الخلق . إنها له أزلا وأبدًا .

فبصفات الكمال - علماً وقدرة ؛ وحكمة ؛ وإرادة - خلق الخلق جميعا . فإياكم أيها الناس أن تفهموا أن إيمانكم بالله يزيده صفة من صفات الجلال أو الجمال ، وإنما الإيمان عائد إليكم أنتم ، فإذا كان منكم متكبرون ومتعنتون ، فالحق سبحانه لا يترك من تكبر وتعنت ليقف أمام منهجه الذى يحكم حركة الحياة فى الأرض ، ولكنه سبحانه يأخذ أهل التكبر والتعنت أخذ عزيز مقتدر . واستقرئوا أيها الناس ما حدث لمن كذبوا رسل الله ، وماذا صنع الله بهم ؟ إنه بقدرته سبحانه وتعالى يستطيع أن يصنع معكم ما صنعه معهم . وإذا ما استقرأتم قصص الرسل مع المكذبين لله وجدتم العذاب قد جاء للقوم بغتة ، فهاهوذا الحق يقول عن قوم عاد :

﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ

الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾ ﴾

(سورة فصلت)

لقد تكبر قوم عاد على سيدنا هود عليه السلام والذين آمنوا معه ، وظنوا أنهم أقوى الأقوياء ، وغفلوا عن قدرة الخالق الأعلى وهو القوى الأعظم وأنكروا آيات الله ، فماذا كان مصيرهم ؟ فاجأهم الحق بإرسال ريح ذات صوت شديد فى أيام كلها شؤم ليذيقهم عذاب الهوان والخزى والذل فى هذه الدنيا ، ويقسم الحق بأن عذاب الآخرة أشد خزيا ، لأنهم فى هذا اليوم لا يجدون ناصرا لهم لأنهم كفروا بالذى ينصف وينصر وهو الحق جلت قدرته .

وماذا عن قوم ثمود ؟ لقد بين لهم الحق طريق الهداية . لكنهم اختاروا الضلال واستحبوا لأنفسهم الكفر على الإيمان ، وكذبوا نبى الله صالحاً عليه السلام وعقروا الناقة ، فنزلت عليهم الصاعقة لتحرقهم بمهانة بسبب ما فعلوا من تكذيب لرسولهم .

﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ ﴾

(سورة فصلت)

وماذا فعل الحق بأصحاب الفيل ؟ لقد جاء قوم أبرهة لهدم الكعبة ، فاستقبلتهم الطير الأبابيل . . أى التى جاءت فى جماعات كثيرة متتابعة بعضها فى إثر بعض بحجارة من طين متحجر محرق قد كتب وسجل عليهم أن يعذبوا به :

﴿ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾ ﴾

(سورة الفيل)

وكل حدث من تلك الأحداث أجراه الله بغتة . ومعنى البغتة أن يفاجىء الخطبُ القومَ بدون مقدمات علم به . وهناك أيضاً من الأحداث الجسام أنزلها الله بالكافرين جهرة ، فهاهم أولاء قوم فرعون يغرقهم الله علناً . وكذلك قارون أهلكه الله جهرة :

﴿ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ۚ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ ﴾

(سورة القصص)

لقد أخذ قارون نعمة الله ونسبها إلى نفسه ، وصار مفتونا بما امتلك ، وغرق فى الغرور ، فماذا فعل الله به ؟ خسف الله به جهرة وأمام أعين الذين تمنوا مكانه . إذن فمن الممكن أن يأتى عذاب الله بغتة للكافرين به أو يأتيهم بالعذاب جهرة . وما السبب فى التلوين بين « بغتة » و« جهرة » ؟ البغتة تثبت لمن يعبد غير الله أنه مخدوع فى عبادته لغير الله ، لأنه لو كان يعبد إلهاً حقاً لما قبل هذا الإله أن يعذب أتباعه من حيث لا يشعر . إذن فالبغتة تثبت عجز المعبودين من أصنام وغيرها ، فقد عجزت تلك الأصنام أن تحتاط للعابدين لها . وقد يقول قائل منهم : لقد جاءنا العذاب فجأة ، لكن لو جاء لنا مواجهة لكنا قادرين على مواجهته والوقوف أمامه .

فيأتى الله أيضاً بالعذاب جهرة فلا يستطيعون مواجهته فتنقطع حجتهم ، وعلى الرغم من ذلك تموت فى قلوب هؤلاء المعاندين القدرة على إبصار ضرورة الإيمان . ويعامل سبحانه خصوم رسولنا ـ صلى الله عليه وسلم ـ مثل هذه المعاملة ، فعندما عانده القوم جاءهم الله سبحانه بأمور معجزة لعلهم يتفكرون .

فهاهم أولاء قد اتفقوا على قتله قبل الهجرة ، ويقفون على باب بيته ، ويُخرجه الحق من بينهم وهم لا يبصرون ، ولا يفلحون فى التآمر على رسول الله ، ولا ينجح لهم تبييت ضد رسول الله ، ويكون مكر الله فوق كل مكر يريد به أعداء الرسول صلى الله عليه وسلم إيذاءه به . وهم قد ذهبوا إلى الجن ليسحروا له ، لكن لا هذا السحر قد نفع ، ولا ذاك التبييت أتى بنتيجة . وكانت تكرمة الله لرسوله صلى الله عليه وسلم فوق كل شىء . ويقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

ويكون تذييل الآية - أيضاً - على هيئة استفهام ، والاستفهام هنا - كما علمنا من قبل - إنما جاء ليؤكد المعنى ، وليكون الإقرار من أفواه من يتلقون هذا الاستفهام وعن يقين منهم ، وليكون الاعتراف منهم إجابة بالإقرار ، والإقرار - كما نعلم - هو سيد الأدلة .

وهب أن صاعقة نزلت أو خسفاً حدث فيه عذاب ، فكيف ينجى الله المؤمنين به من هذا العذاب أو ذلك الخسف ؟

إن الهلاك فقط يكون للقوم الظالمين ؛ لأن الهلاك هو إعدام الحياة للحى المتمتع بالحياة ، والذى لا يؤمن إلا بهذه الدنيا إذا جاءته مصيبة لتهلكه فهو يشعر بمرارة الخسران ؛ لأنه لا يعتقد ولا يؤمن بالحياة الأخرى ، لكن المؤمن الذى يتيقن أن له إلهًا وأنه سيعود إليه ليحاسبه ويجزيه عن إيمانه خير الجزاء إن حدثت له محنة فى طى محنة كبرى للكافرين فهو يذهب إلى الجنة ويكون ذلك منحة له لا محنة عليه لتستمر حياته إلى خلود .

وهكذا نجد أن الهلاك إنما يحدث للقوم الظالمين فقط لأنه يُفْقِدهم كل ما كانوا يتمتعون به فى دنياهم وليس لهم فى الآخرة إلا البوار والخسران والعذاب الدائم ، أما غير الظالمين فالحق سبحانه وتعالى ينقلهم إلى حياة خالدة هى خير من هذه الحياة ، إذن فالمؤمنون إنما يتلقون فيوضات الله عليهم فى النعماء وفى البلاء أيضاً .

ويتكلم الحق سبحانه وتعالى فى الآية التالية عن التصور الإيمانى الذى يجب أن

يرسخ فى أذهان المؤمنين برسول مبلغ عن الله ، وعندما يسمع العقل الطبيعى الفطرى البلاغ عن الرسول فهو يصدقه فوراً ؛ لأن الفطرة عندما ترى فساد الكون ، وترى أن هناك من جاء بمنهج لإصلاح الكون لا بد أن تتجه إلى الإيمان بالمبلغ عن الله وهو الرسول . وعندما ترى الفطرة أن الكون كله قد تم إعداده لخدمة الإنسان ، لا بد لها أن تتساءل عن الخالق لهذا الكون وعن المنهج الذى يجب أن تسير عليه لصيانة هذه النعمة ، نعمة الوجود فى الكون .

ويقتضى الإحساس السليم من الإنسان أن يتعرف إلى حقيقة واضحة ، وهى أن الإنسان قد طرأ على الكون ، وأن هذا الكون ملىء وغنى بالخيرات ، ولم يدع أحد أبداً أنه خلق السموات أو الأرض أو الماء أو الهواء . ولا بد أن يدور فى خلد صاحب الفطرة السليمة تساؤل عن هذا الخالق الأكرم الذى وهب للإنسان حق الاستخلاف فى كل هذا الكون . فإذا ما جاء رسول ليقطع هذا القلق وذلك الصمت ويقول : أنا جئتكم لأخبركم بمَن خلقكم ، وبمن خلق السموات ، وبمن خلق الأرض ، وبمن رزقكم هذا الرزق .

هنا تنصت الفطرة إلى سماع الخبر الذى كانت تستشرف له . وإذا ما جاء هذا الرسول مؤيداً بآية من الله ومعجزة لا يقدر عليها البشر ، فالعقل البشرى يعترف اعتراف الإقرار على الفور ؛ لأنه وجد حاجته عند ذلك الرسول .

ولكن على الذين يؤمنون بما جاء به الرسول ، وعلى الرسول نفسه ، وحتى على الكافرين به ، عليهم جميعاً ألا يتعدوا الحدود ، وألا يضعوا أى رسول فى مكان أعلى من منزلته ، لأنه رسول من الله ، إنه واحد من البشر تفضل الله عليه بالوحى واصطفاه للمهمة التى جاء بها . ولا بد للجميع أن يفهم أن الرسول مبلغ عن الله فقط ، وأنه لا يستطيع أن يأتى بالآيات التى يقترحها بعض من القوم ؛ لأن الرسول لا يقترح الآيات ولا يصنعها ، الرسول مقصور على أداء الأمانة الموكلة إليه وهى أمانة البلاغ عن الله . ولذلك يقول لنا الحق :

﴿ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾

فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾

أى أن الحق سبحانه لم يعط الرسل قدرته ليفعلوا ما شاءوا ، ولكنهم فقط مبلّغون عن الله ، فلا يطلبن منهم أحد آيات ؛ لأنهم لا يستطيعون أن يأتوا بالآيات ، وكل رسول يعلم أنه من البشر ، وهو يستقبل عن الله فقط ، ولذلك فلنأخذ الرسل على أنهم مبشرون ومنذرون « وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين » .

ونعرف أن البشارة هى الإخبار بما يسر قبل أن يقع . والسبب فى البشارة هو تهيئة السامع لها ليبادر إلى ما يجعل البشارة واقعاً بأن يمتثل إلى المنهج القادم من الإله الخالق . ونعرف أن الإنذار هو الإخبار بما يسوء قبل أن يقع ليحترز السامع أن يقع فى المحاذير التى حرمها الله .

والبشارة ـ كما نعلم ـ تلهب فى الراغب فى الفعل والمحب له أن يفعل العمل الطيب ، والإنذار يحذر ويخوف من يرغب فى العمل السيىء ليزدجر ويرتدع . إذن فمهمة الرسل هى البشارة والإنذار ، فلا تخرجوا بهم أيها الناس إلى مرتبة أخرى أو منزلة ليست لهم فتطلبوا منهم آيات أو أشياء ؛ لأن الآيات والأشياء كلها من تصريف الحق تبارك وتعالى ، ومن سوء الأدب أن نُخطّىء الله فى الآيات التى أرسلها مع الرسل ونطلب آيات أخرى . إنكم بهذا تستدركون على الله .

ويبّين الحق لنا حدود مهمة الرسل فيقول :

﴿ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾

(من الآية ٤٨ سورة الأنعام)

هذا هو عمل الرسل ، فماذا عن عمل الذين يستمعون للرسل ؟ إن الحق يقول :

﴿ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾

(من الآية ٤٨ سورة الأنعام)

فالمطلوب ـ إذن ـ من الذين يستمعون إلى الرسل أن يقبلوا على اختيار الإيمان ، وأن يستمعوا إلى جوهر المنهج وأن يطبقوه . فمن آمن منهم وأصلح فلا خوف عليه لأنه قد ضمن الفوز العظيم ، ولا يصيبه أو يناله حزن ، لأن ناتج عمله كله يلقاه فى كتابه يوم القيامة . والإيمان هو اطمئنان القلب إلى قضية عقدية لا تطفو إلى الذهن لتناقش من جديد . ولذلك نسمى الإيمان عقيدة ، أى شيئاً انعقد عقداً لا ينحل أبداً .

إنّ على المؤمن بربه أن يستحضر الأدلة والآيات التى تجعل إيمانه بربه إيماناً قوياً معقوداً ؛ وهذا من عمل القلب . ويعرف المؤمن أن عمل القلب لا يكفى كتعبير عن الإيمان ؛ لأن الكائن الحى ليس قلباً فقط ، ولكنه قلب وجوارح وأجهزة متعددة ، وكل ما فى الكائن الحى المؤمن يجب أن ينقاد إلى منهج ربه ، فلا بد من التعبير عن الإيمان بأن يصلح الإنسان كل عمل فيؤديه بجوارحه أداء صحيحا سليما .

إننى أقول ذلك حتى يسمع الذى يقول : إن قلبى مؤمن وسليم . لا ، فليست المسألة فى الإيمان هكذا ، صحيح أنك آمنت بقلبك ولكن لماذا عطلت كل جوارحك عن أداء مطلوب الإيمان ؟ لماذا لا تعطى عقلك فرصة ليتدبر ويفكر ويخطط ويتذكر ، لماذا لا تعطى العين الفرصة لتعتبر وتستفيد من معطيات ما ترى ؟ وكذلك اليد ، واللسان ، والأذن ، والقدم ، وكل الجوارح .

والإصلاح هو عمل الجوارح ، فيفكر الإنسان بعقله فى الفكرة التى تنفع الناس ، ويسمع القول فيتبع أحسنه ، ويصلح بيديه كل ما يقوم به من أعمال . ويعلم المؤمن أنه حين أقبل على الكون وجده محكماً غاية الإحكام ، ويرى الإنسان الأشياء التى لا دخل له فيها فى هذا الكون وهى على أعلى درجات الصلاحية الراقية ، فالمطر ينزل فى مواسمه ، والرياح تهب فى مواسمها ومساراتها ، وحركة الشمس تنتظم مع حركة الأرض ، وكل عمل فى النواميس العليا هو على الصلاح المطلق .

راجع أصله وخرج أحاديثه الدكتور أحمد عمر هاشم نائب رئيس جامعة الأزهر .

إن الفساد يأتى مما للإنسان دخل فيه ، فالهواء يفسد من بناء المنازل المتقاربة ، وعدم وجود مساحات من الخضرة الكافية ، ويفسد الهواء أيضاً بالآلات التى تعمل ولها من السموم ما تخرجه وتدفعه من أثر عملية احتراق الوقود . وعندما صنع الإنسان الآلات نظر إلى هواه فى الراحة ، وغابت عنه أشياء كان يجب أن يحتاط لها ، ومثال ذلك : « عادم » السيارات الذى يزيد من تلوث البيئة ، ورغم اكتشاف بعض من الوسائل التى يمكن أن تمنع هذا التلوث . إلا أن البعض يتراخى فى الأخذ بها .

ونحن حين نأخذ بقمة الحضارة ونركب السيارات فلماذا ننسى القاعدة التى تقوم عليها الحضارة وهى الدراسة العلمية الدقيقة لنصنع الآلات ونأخذ من الآلات ما يفيد الناس ، فنعمل على الأخذ بأسباب تنقية البيئة من التلوث ونمنع الأذى عن حياة الناس . فالعادم الذى من صناعتنا ـ مثل عادم السيارات والآلات ـ يفسد علينا الهواء فتفسد الرئة فى الإنسان .

إن علينا أن نعرف أن من مسئولية الإيمان أن ننظر إلى الشىء الذى نصنعه وكمية الضر الناتجة عنه ، وكل إنسان يحيا فى مدينة مزدحمة إنما يضار بآثار عادم السيارات على الرغم من أنه ليس فى مقدور كل إنسان أن يشترى سيارة ليركبها ، فكيف يرتضى راكب السيارة لنفسه ألا يصلح من تلك الآلة التى تسهل له حياته ويصيب بعادمها الضر لنفسه ولغيره من الناس ؟ لذلك فعلى المسلم ألا يأخذ الحضارة من مظهرها وشكلها بل على المجتمع المسلم أن يعمل على الأخذ بأسباب الحضارة من قواعدها الأصلية ، وأن يدرس كيفية تجنب الأضرار حتى لا نقع فى دائرة الأخسرين أعمالا ، هؤلاء الذين قال فيهم الحق سبحانه :

﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ ﴾

(سورة الكهف)

ولنا أن نأخذ المثل الأعلى دائماً من الكون الذى خلقه الله لنصونه ، إن عادم وأثر وناتج أى شىء مخلوق لله يفيد الإنسان ويفيد الكون حتى فضلات الحيوان يُنتفع بها فى تسميد الأرض وزيادة خصوبتها . وهكذا نعرف معنى : « فمن آمن وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون » .

فالإيمان عمل القلبَ ، والإصلاح عمل الجوارح ، ولذلك يجب أن نصلح فى الكون بما يزيد من صلاحه . ولنعلم أن الكون لم يكن ناقصاً وأننا بعملنا نستكمل ما فيه من نقص ، ليس الأمر كذلك ، ولكننا أردنا أن نترف فى الحياة ، ومادمنا نريد الترف فلنزد من عمل العقل المخلوق لله فى المواد والعناصر التى أمامنا وهى المخلوقة لله . وأن نتفاعل معها بالطاقات والجوارح المخلوقة لله ، مادمنا نريد أن نتنعم نعيماً فوق ضروريات الحياة .

ومثال ذلك أننا قديماً وفى أوائل عهد البشرية بالحياة ، كان الإنسان عندما يعانى من العطش ، يشرب من النهر ، وبعد ذلك وجد الإنسان أنه لا يسعد بالارتواء عندما يمد يده ليأخذ غرفة من ماء النهر ، فصنع إناءً من فخار ليشرب منه الماء ، ثم صنع إناءً من الصاج ، ثم صنع إناء من البلور ، فهل هذه الأشياء أثرت فى ضرورة الحياة أو هى ترف الحياة ؟

إنها من ترف الحياة . فإن أردت أن تترف حياتك فلتُعمل عقلك المخلوق لله فى العناصر المخلوقة لله ، بالطاقة والجوارح المخلوقة لله ، وبذلك يهبك الله من الخواطر ما تستكشف به آيات العلم فى الكون . ومثال ذلك : أن أهل الريف قديماً كانوا يعتمدون على نسائهم ليملأن الجرار من الآبار أو الترع ثم تقوم سيدة البيت بترويق المياه . وعندما ارتقينا قليلاً ، كان هناك من الرجال من يعمل فى مهنة السقاية ، ويمر بالقرب المملوءة بالماء على البيوت . وعندما قام أهل العلم بالاستنباط والاعتبار اكتشفوا قانون الاستطراق ، فرفعوا المياه إلى خزانٍ عالٍ ، وامتدت من الخزان « مواسير » وأنابيب مختلفة الأقطار والأحجام ، وصار الماء موجوداً فى كل منزل ، هذا ما فعله الناس الذين استخدموا العقول المخلوقة لله .

وكان الناس من قبل ذلك يكتفون بالضرورى من كميات المياه ، فالأسرة كانت تكتفى بملء قربة أو قربتين من الماء ، ولكن بعد أن صارت المياه فى كل منزل ، أساء الكثير من الناس استخدام المياه ، فأهدروا كميات تزيد عن حاجتهم ، وتمثل ضغطاً على « مواسير » الصرف الصحى ، فتنفجر ويشكو الناس من طفح المجارى .

إن على المسلم أن يرعى حق الله فى استخدامه لكل شيء ، فالماء الذى يهدره الإنسان قد يحتاج إليه إنسان آخر ، وعندما نتوقف عن إهداره ، نمنع الضرر عن

أنفسنا وعن غيرنا من طفح « مواسير » الصرف الصحى . وليحسب كل منا ـ على سبيل المثال ـ كم يستهلك من مياه فى أثناء الوضوء . إن الإنسان منا يفتح الصنبور ويغسل يديه ثلاثاً ويتمضمض ثلاثاً ، ويستنشق ثلاثاً ، ويغسل وجهه ثلاثاً ، ويغسل ذراعيه ثلاثاً ، ويمسح برأسه ، ويغسل أقدامه . ويترك الإنسان الصنبور مفتوحا طَوال تلك المدة فيهدر كميات من المياه ، ولو فكر فى حسن استخدام المياه التى تنزل من الصنبور لما اشتكى غيره من قلة المياه . فلماذا لا يفكر المسلم فى أن يأخذ قدراً من المياه يكفى الوضوء ويحسن استخدام الماء ؟ وكان الإنسان يتوضأ قديماً من إناء به نصف لتر من الماء ، فلماذا لا نحسن استخدام ما استخلفنا الله فيه ؟

على الإنسان منا أن يعلم أن الإيمان كما يقتضى أويوجب ويفرض الصلاة ليصلح الإنسان من نفسه ، يقتضى ـ أيضاً ـ إصلاح السلوك فلا نبذر ونهدر فيما نملك من إمكانات ، وأن ندرس كيفية الارتقاء بالصلاح ، فلا نتخلص من متاعب شيء لنقع فى متاعب ناتجة من سوء تصرفنا فى الشيء السابق ، بل علينا أن ندرس كل أمر دراسة محكمة حتى لا يدخل الإنسان منا فى مناقضة قوله الحق :

﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

أى عليك أن تعرف أيها المسلم أنك مسئول عن السمع والبصر والقلب وستسأل عن ذلك يوم القيامة ، لذلك لا يصح أن تتوانى عن الأخذ بأحسن العلم ليحسن قولك وفعلك . وبذلك لا يكون هناك خوف عليك فى الدنيا أو الآخرة ؛ لأنك آمنت وأصلحت ، وأيضاً لا حزن يمسك فى الدنيا ولا فى الآخرة : (فمن آمن وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون) .

إنك بذلك تصون نفسك فى الآخرة وفى الدنيا أيضا ؛ لأنك تسير فى الحياة بإيمان وتصلح فى الدنيا متبعاً قوانين الله . وإن رأيت أيها المسلم متعبة فى الكون فاعلم أن حكماً من أحكام الله قد عطل ، إن رأيت فقيراً جائعاً أو عرياناً فاعلم أن حقاً من حقوقه قد أكله أو جحده غيره ؛ لأن الذى خلق الكون ، خلق ما يعطيه الغنى من فائض عنه للفقير ليسد عوزه ، لكن الغنى قبض يده عن حق الله ، وأيضاً جاء قوم

يتسولون بغير حاجة للتسول ، والفساد هنا إنما يأتى من ناحيتين : ناحية إنسان استمرأ أن يبنى جسمه من عرق غيره ، أو من إنسان آخر غنى لا يؤدى حق الله فى ماله ، بذلك يعانى المجتمع من المتاعب .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾

والذين كذبوا بآيات الله هم إما من كذب الرسول فى الآيات الدالة على صدقه وهو المبلغ عن الله ، وهؤلاء دخلوا فى دائرة الكفر . وإمّا هم الذين كذبوا بآيات المنهج ، فلم يستخدموا المنهج على أصوله وانحرفوا عن الصراط المستقيم والطريق السوى . وهؤلاء وهؤلاء قد فسقوا ، أى خرجوا عن الطاعة ، ونعلم أن كلمة « الفسق » مأخوذة من خروج « الرطبة » عن قشرتها عندما يصير حجمها أصغر مما كانت عليه لاكتمال نضجها . والذى يفسق عن منهج الله هو الذى يقع فى الخسران ؛ لأن منهج الله هدفه صيانة الإنسان المخلوق لله بـ « افعل كذا » و« لا تفعل كذا » .

إن الإنسان يفسق عندما لا يفعل ما أمره الله أن يفعله ، أو يفعل ما نهاه الله عن أن يفعله . ونجد الإنسان منا يخاف على جهاز التسجيل أو جهاز التليفزيون من أن يفسد فيتبع القواعد المرعية لاستخدامه . فلا يمد ـ مثلاً ـ جهازاً من الأجهزة الكهربية بنوعية من الطاقة غير التى يحددها الصانع ، فإن قال الصانع : استخدم كهرباء مقدارها مائتان وعشرون فولتاً حتى لا تفسد الآلة فالإنسان ينصاع لما قاله الصانع ، فما بالنا بالإنسان ، إن الله ـ جلت قدرته ـ خلق الإنسان ووضع له قوانين صيانته . إذن فمن يفسد فى قوانين صيانة نفسه يمسه العذاب ، وكلمة يمسهم العذاب تعطى وتوحى بأن العقوبة تعشق أن تقع على المجرم ، كأن العذاب سعى إليه ليناله ويمسه وهاهوذا قول الحق عن النار .

﴿ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ ﴾
(سورة الملك)

وهو سبحانه القائل عن النار :

﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ۝٣٠ ﴾

(سوزرة ق)

إذن فالعقوبة نفسها حريصة على أن تنفذ إلى من أساء . ولذلك يلح العذاب فى أن يمس الذين فسقوا . ويأتى الحق هنا بكلمة « المس » لحكمة ، ذلك أن عقوبة الله لا تقارن بعقوبة البشر .

فالإنسان يعاقب إنساناً بمقياس قدرته وقوته ، وليس لأحد من الخلق أن يتمثل قدرة الله فى العذاب ، ولذلك يكفى المس فقط ، لأن التعذيب يختلف باختلاف قدرة المعذِّب ، فلو نسبنا التعذيب إلى قدرة الله لكان العذاب رهيباً لا طاقة لأحد عليه .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ۝٥٠ ﴾

و« قل » - كما نعلم - هى أمر من الله لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، والرسول يبلغ ما أمر به الله ، وكان يكفى أن يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : لا أقول لكم عندى خزائن الله . لكنها دقة البلاغ عن الله ، إنّ القرآن توقيفى بمعنى أن كل كلمة فيه نزلت من الله كما هى وبلغها الوحى الأمين لسيدنا رسول الله ، وبلغها لنا صلى الله عليه وسلم كما هى ، ويدل ذلك على أن أحداً لا يملك التصرف حتى فى اللفظ ، بل لابد من أمانة النقل المطلقة .

وأبلغنا الرسول صلى الله عليه وسلم أن الحق قد أرسله هادياً ومبشراً ونذيراً بآية دالة على صدق البلاغ عنه وهى القرآن . وكان يجب على مَن يستقبل هذا البلاغ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أن يستقبله بحق فلا يطلب منه إلا ما يتمشى مع الوصف الذى ادعاه صلى الله عليه وسلم لنفسه . فليس من حق أحد أن يطلب من الرسول آيات غير التى أنزلها الله ؛ لأنه صلى الله عليه وسلم لم يدَّعِ إلا أنه مبلغ عن الله ، فيجب أن تكون المقابلة له فى إطار هذا الادعاء .

وقد تجاوز الكافرون ذلك عندما طلبوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم آيات أخرى ، كتفجير بعض الأرض ينابيع مياه ، أو أن يكون له بيت من زخرف ، ولذلك يوضح له الحق سبحانه أن يبلغهم أنه لا يملك مع الله خزائن السموات والأرض ، فكيف تطلبون بيوتا وقصورا ، وكيف تطلبون معرفة الغيب حتى تقبلوا على النافع وتتجنبوا الضار ؟ . ألا يكفيكم المنهج الإلهى الذى يهديكم إلى صناعة كل نافع لكم ويجنبكم كل أمر ضار بكم ؟ ثم إن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يقل لهم إنه يعلم الغيب . وهو بشهادتهم هم يقولون عنه ما جاء بالقرآن الكريم :

﴿ وَقَالُواْ مَالِ هَـٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ۝ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ ٱلظَّـٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ۝ ﴾

(سورة الفرقان)

لقد سخروا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وطالبوا أن تكون له آيات أخرى ، وتساءلوا كيف يمكن أن يزعم أنه رسول وهو يأكل الطعام كما يأكلون ، ويغشى الأسواق لكسب العيش كما يفعل البشر ، ولو كان رسولاً لكفاه الله مشقة كسب العيش ، ولأنزل إليه مَلكاً يساعده فى البلاغ عن الله ، أو يلقى إليه الله من السماء بكنز ينفق منه ، أو تكون له حديقة غنَّاء يأكل من ثمارها .

هذا ما قاله كبار المشركين الذين ظلموا أنفسهم بالكفر ، وأرادوا أن يصدوا الناس عن الإيمان بدعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فمرة يتهمونه بأنه مسحور ، ومرة بأنه مجنون ، وثالثة بأنه يهذى ، ورابعة بأنه كذاب ، وخامسة بأنه يتلقى القرآن

من أعاجم ، ويدحض الحق كل هذه الأكاذيب وكل تلك الافتراءات التى ضلوا بها وأضلوا بها سواهم . إنه صلى الله عليه وسلم رسول من الرسل :

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾ ﴾

(سورة الفرقان)

إن الرسل من قبلك يا رسول الله كانت تأكل الطعام ، وتكسب العيش من العمل ويترددون على الأسواق ، فإذا كان المشركون يعيبون عليك ذلك ويحاولون إضلال الناس بكل الأساليب ، فأنت ومن معك يا رسول الله من المؤمنين سيكتب الله لكم النصر ويجزى كُلًّا بما عمل . ثم إن الآيات التى يطلبها المشركون من رسول الله كانت كلها تعنتاً ؛ فهو لم يقل لهم : إنه ملك . لقد قال لهم : إنه رسول مبلغ عن الله ، وكل ما يؤديه هو صدق الأداء عن الله ، فكيف يطلبون منه أشياء لا تتعلق إلّا بملكية الله لخزائن الأرض ؟ وكيف يطلبون منه أن يعلمهم الغيب ؟ وكيف ينتقدون أنه رسول وبشر يأكل ويتزوج ويمشى فى الأسواق ؟

إن كل تلك الأقوال دليل التعنت ؛ لأنهم قد طلبوا أشياء تخرج عن مجال ما ادعاه رسول الله لنفسه من أنه رسول مبلغ عن الله ، إنهم طلبوا الخير النافع والينابيع التى تجرى ، والجنات والقصور ، وأشياء كلها ليست فى مقدور رسول مبلغ عن الله ؛ لأن الذى يهبها هو الله سبحانه وتعالى .

وكلمة « خزائن » هذه مفردها « خِزانة » وهى الشىء الذى يكنز فيه كل نفيس ليخرج منه وقت الحاجة . ولا تقل : خِزانة إلا لشىء جعلته ظرفاً لشىء نفيس تخاف عليه من أن تخرجه فى غير أوانٍ وزمان إخراجه . وخزائن الأرض كلها يملكها الله ، فهو سبحانه وتعالى القائل :

﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ ﴾

(سورة الحجر)

إذن فالحق جاء بالقضية الكلية ، وهى أن أسرار الله ونفائسه فى الكون هى بيد الله فى خزائنه ، وهو سبحانه يجليها ويظهرها ويكشفها لوقتها . كيف ؟ إن الحق سبحانه وتعالى تكلم عن بدء الخلق ، وتكلم عن خلق السموات والأرض ، وتكلم عن هذا الموضوع كلاماً مجملاً تفسره الآيات الأخرى . فالحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ ﴾

(سورة فصلت)

يأمر الحق رسوله أن يبلغ هؤلاء المشركين كيف يكفرون بالله الذى خلق الأرض فى يومين وكيف يجعلون له شركاء وهو الخالق للأرض التى هى مناط الحركة لابن آدم . لقد خلق فيها سبحانه ما يقيت ابن آدم وتقوم به حياته إلى أن تقوم الساعة . والقوت ـ كما نعلم ـ هو الذى يبقى للإنسان حياته وإن أراد الترف فلا بد له من الطموح فى الحياة . وهو سبحانه جعل فى الأرض رواسى ـ أى جبالاً ـ وبارك فى الأرض وفى الرواسى . ثم جاء بتقدير الأقوات بعد ذكر الرواسى وهى الجبال ، فكأن الجبال فى حقيقة أمرها هى مخازن القوت . وقد يقول قائل : كيف ذلك ؟

ونقول : إن الواقع قد أثبت هذه الحقيقة ؛ فأنت إن نظرت إلى الأنهار التى تجرى ، لوجدتها تتكون من الماء الذى تساقط من الأمطار على الجبال ، فالمياه المكونة من ذرات صغيرة دقيقة تنزل على هذه الجبال لتفتتها ، وكأن المياه هى « المبْرَد » الذى يزيل من سطح الجبال هذه الرمال المليئة بالعناصر الغذائية للأرض ، وهو ما نسميه نحن « الغرين » ، والغرين ـ كما نعلم ـ هو ما ينزل مع المياه من سطوح الجبال إلى مجرى النهر ، وباندفاع المياه فى مجرى النهر تنتقل المادة الخصبة إلى الأرض ، وتتكون تلك الطبقة الخصبة التى تتغذى منها النباتات . ولو شاء الحق سبحانه وتعالى لجعل سطح الأرض كله مستوياً ، وفيه الخصوبة التى تنبت النبات .

لكن حكمته سبحانه شاءت أن تصنع للنبات غذاءه بهذه الطريقة . فأنت إذا

ما نظرت إلى النبات وجدته يختلف من نوع إلى نوع فى أسلوب امتصاصه للعناصر الغذائية اللازمة له ، فهناك نوع من النبات يمتص غذاءه من عمق نصف المتر ، ونوع ثانٍ يأخذ غذاءه من عمق المتر ، وهكذا . وإن لم نأت للأرض المزروعة بسماد أو مخصبات أو غرين ، فإن الأرض تضعف ؛ لأن الحق يريد لعملية الزراعة أن تستمر وتمتد وتتوالى ، فجعل الجبال مكونة بشكل صُلب ، وتمر على الجبال عوامل التعرية من حرارة وبرودة وتشققات ثم ينزل عليها المطر فيذيب من سطوح الجبال بعضاً من تلك المواد الغذائية اللازمة للأرض ، تنتقل هذه المواد الغذائية عبر المياه إلى الأرض ، وبهذا يتوالى الإمداد بالخصب من الجبال إلى الأرض . وهكذا نجد أن الجبال فى حقيقتها هى مخازن لخيرات الله .

وهل مقومات الحياة زرع فقط ؟ لا ؛ لأنك إن نظرت إلى نموذجٍ مصغرٍ للكرة الأرضية ، ستجده يشبه البطيخة الكبيرة ، وإن جئت لتقطع مثلثاً من محيط القشرة إلى مركز البطيخة ، وجعلت هذا المثلث يشبه الهرم ، ثم أخذت منها مثلثاً آخر من أى ناحية سواء أكان من ناحية الأرض الخصبة ، أم من البحار أم من الجبال أم من الوديان ، أم من الصحارى ، ثم نظرت من بعد كل ذلك إلى الخير المطمور فى كل جزء من هذه الأجزاء لوجدته مساوياً للجزء الآخر . لماذا ؟ لأن الحياة لا تعتمد على ألوان محصورة من القوت ، ولكنها تحتاج فى عمارتها إلى أدوات ومواد الحضارة من حديد وبترول ومنجنيز وغير ذلك من كنوز الأرض التى تقوم عليها الحضارة .

إننا نجد هذه الخيرات مكنوزة إما فى الجبال وإما فى الصحارى . ولكن كل خير من هذه الخيرات له ميعاد ، وله ميلاد . وأنت لو قست ووزنت الخيرات الموجودة فى أى مثلث هرمى من الأرض من مركزها إلى محيطها ، وقارنتها بوزن قياس الخيرات الموجودة فى مثلث هرمى آخر مساوٍ له من الكرة الأرضية نفسها ، لوجدت الخيرات متساوية فى كل من المثلثين . ولكن لكل لون من هذه الخيرات ميلاد وميعاد .

﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ ﴾

(سورة الحجر)

فما يقال له شيء ، فإن له خزانة عند الله يُنْزِلُ منها سبحانه بقَدَر . ونرى ذلك من قمة الوجود ، وهو العقل ، إن العقل شيء ، وله خزائن عند الله ، فما كان موجوداً من أفكار من عشرة قرون لدى البشرية جميعا لا يقاس بكمية الأفكار التى يمتلكها.

العقل الجمعى للعالم الآن ، ذلك أن كل جيل قد استفاد مقدماتٍ من أفكار الجيل السابق له ليصل إلى نتاج جديد . إذن فهناك خزائن للأفكار وللخواطر . وكذلك كل شيء فى الوجود له عند الله خزائن لا ينزل منها إلا بِقَدَر معلوم : « وإن من شيء إلا عِندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم » .

وساعة يريد الحق أن يظهر ميلاد سر ما ، فهو سبحانه يهيىء الأسباب لذلك . وعلى سبيل المثال ـ ولله المثل الأعلى ـ كنا قديما نقطع الأخشاب من الأشجار لنصنع منها وقوداً ، وكنا بعد أن نقطع الأخشاب نخشى عليها من الفساد ، لذلك وضع الحق بعضاً من إلهاماته للعقل البشرى حتى يستطيع تحويل الخشب إلى فحم ليضمن الإنسان صيانة الخشب ، وليضمن وجود مصدر للطاقة هو الفحم النباتى . ومن بعد ذلك اكتشف الإنسان الفحم الحجرى . ومن بعد ذلك اكتشفنا البترول ، كل ذلك من خيرات الطاقة كان مكنوزاً فى الأرض ، ولم يكتشفه الإنسان إلا بعد أن أعطاهم الله الاستعداد لاستقبال هذا الخير ، وسيظل عطاء الله قائماً إلى أن تقوم الساعة . فمع الفحم دخلنا عصر البخار ، ثم دخلنا عصر الكهرباء ، ثم دخلنا عصر الذرة .

وكل هذه الأشياء كان لكل منها ميلاد ، ولكل منها مكان فى خزائن الله ، وعندما ينزل الله أى خاطر من الخواطر على عبد من عباده فإن العبد يأخذ بالأسباب ويكتشف ميلاد السر المكنوز . وكل لاحق يأخذ من خير السابق ويبنى عليه ، وهكذا ينمو الخير دائماً .

والأشياء فى خزائن الله إما أن تكون مطمورة وإما أن تكون محكمة إحكاماً رقمياً ، وعلى سبيل المثال ، هذا هو الراديوم الذى اكتشفته « السيدة كورى » ، أظهره الله على يديها فى وقت الحاجة إليه . وكان العلماء قبل اكتشاف الراديوم يعلمون أن هناك عنصراً لم يعرفوه له تركيب ذرى معين ؛ لأن عناصر الكون مصنوعة بحكمة جليلة كبيرة . وقد ينزل الشيء شائعاً فى غيره ، ومثال ذلك أن تقطف وردة وتستمتع بأريجها وجمال منظرها إلى أن تذبل ، وقد يغيب عنك أن الوردة مكونة من تركيب معين ، فالرطوبة هى التى تعطى الوردة نضارة ، وكل شيء فى الوردة هو من مادة الأرض ، وعندما تذبل الوردة فهى تعود إلى عناصر الأرض بعد أن تتبخر منها المياه وتذهب كبخار مع غيرها من المتبخرات إلى السحاب الذى تحركه الرياح فيسقط مطراً .

وهكذا نجد أن قطرات المياه التي كانت في الوردة تبخرت وانضمت إلى السحاب ، قد عادت مرة أخرى إلى الأرض من خلال المطر ، ومادة الماء نفسها لم تزد ولم تنقص منذ أن خلق الله الخلق في هذا الكون ، ونحن ننتفع بهذا الماء ، وعندما ينتهي انتفاع إنسان بجزء من المياه فالماء يعود من خلال عمليات أرادها الله إلى خزانة الماء في الكون . وليسأل الإنسان منا نفسه : كم طناً من الماء قد شربته في حياتك ؟ وستجد أنك قد شربت وانتفعت بمئات أو بآلاف من الأطنان ، وخرج منك الماء في شكل عرق أو بول أو مخاط ، أو غير ذلك . وكم بقي من الماء في جسمك ؟

إنها نسبة قد تزيد على تسعين بالمائة من وزن جسمك أياً كان الوزن ، ومن بعد أن يأتي أجلك كما قدره الله ، فتتبخر كمية المياه التي في هذا الجسم لتنضم إلى السحاب ثم تنزل مع المطر . إذن فكمية المياه لم تنقص في الكون ولم تزد ، وهذا ما نسميه الرزق المخزون بالتحول ، تماماً كما تبخرت كمية المياه التي في الوردة ، وتبخرت رائحتها في الجو وكذلك مادتها الملونة ذابت في الأرض . وساعة نزرع شجرة ورد تأخذ كل وردة لونها من المواد الملونة المخزونة في الأرض . إذن فكل شيء إما مخزون بذاته في خزائن الله ، وإما مخزون بعناصره المحولة إلى غيره . وكل الوجود على هذا الشكل . وحركة الحياة هي بين الاثنين .

إن الإنسان ـ على سبيل المثال ـ من لحم ومن دم ، والبقرة أيضاً من لحم ودم ، ويموت الإنسان ليعود إلى الأرض ، ويستفيد الإنسان من الحيوان ، وتعود كل مادة الحيوان إلى الأرض . وتدخل العناصر في دورة جديدة . إذن هي خزائن للحق ، إما محولة ، وإما خزائن حافظة ؛ فالشيء الذي نستنبطه بحالته هو في خزائن حافظة ، والشيء الذي يدور في غيره ويرجع إلى الأصل هو في خزائن محولة .

ومن رحمة الحق بالخلق أنه لم يملك خزائن الأرض أو السموات لأحد من البشر حتى لا يستعلي إنسان على آخر . ولم يعط الحق حتى للرسل أي حق للتصرف في هذه الخزائن ؛ لأن الرسل بشر ، وقد احتفظ الحق لنفسه بخزائن الأرض والسموات ليطمئننا على هذه الخزائن . ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

الحق سبحانه يعلم أن الإنسان مطبوع على الحرص الشديد أو البخل ، وهو سبحانه الغنى الكريم ؛ لذلك ينزل ما يشاء من خزائنه لعباده حتى ينتفعوا . ولم يدع الرسول صلى الله عليه وسلم الخزائن لنفسه ، فكيف يطالبه المشركون بما فى خزائن الله ، وهو صلى الله عليه وسلم يوضح ذلك ويوضح أيضاً أنه لا يعلم الغيب :

﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ ﴾

(من الآية ٥٠ سورة الأنعام)

وهو بذلك صلى الله عليه وسلم ينفى عن نفسه أى صفة من صفات الألوهية ؛ لأن الخزائن الكونية هى فى يد الله ، وكذلك ينفى عن نفسه علم الغيب . ولقائل أن يقول : ولكن ماذا عن الأشياء والأحداث التى كان يخبرنا بها سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم . وهى أحداث مستقبلية ؟

ونقول : إن ذلك ليس علماً بالغيب ، ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم مُعَلَّم غيب ، أى أن ربنا سبحانه وتعالى قد علمه ، ومثال ذلك قول القرآن الكريم :

﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

إن الحق سبحانه هو الذى علَّم رسوله صلى الله عليه وسلم تلك الأخبار التى كانت من أنباء الغيب ، ويحسم الحق هذه المسألة عندما يقول :

﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ ﴾

(سورة الجن)

فسبحانه وتعالى هو وحده عالم الغيب ، ولا يُطْلِع أحداً من خلقه على الغيب.

إلا الرسول الذى يرتضيه الله ليخبره ببعض من الغيب ، ويحفظ الحق رسوله فى أثناء ذلك بملائكة حفظة تحميه من تعرض الجن لما يريد إطلاعه عليه لئلا يسترقوه ويهمسوا به إلى الكهنة قبل أن يبلغه الرسول وحتى يصل الوحى إلى الناس خالصا من تخليط الجن وعبثهم .

إذن فالرسول مُعَلَّم غيب وليس عالم غيب . والغيب ـ كما نعلم ـ هو ما غاب عن الحس ، ولم توجد له مقدمات تدل عليه ، فهناك أشياء تغيب عنك ولكن لها مقدمات ، فإن التزمت بالمقدمات من بدايتها يمكنك أن تصل إلى النتيجة . مثال ذلك : إن أعطيت تلميذاً مسألة حسابية ليقوم بحلها ، وعندما يحل التلميذ هذه المسألة فهو لم يعلم الغيب ، ولكنه أخذ المقدمات والمعطيات ، وبحث عن المطلوب ، وأخذ يرتب المعلومات ليستنبط منها النتيجة .

وكذلك حال الذين اكتشفوا أسراراً فى الوجود ، أعلموا غيباً ؟ لا ، إنهم فقط استخدموا بعضاً من المقدمات التى كانت موجودة أمامهم فى الكون ، وتوصلوا إلى نتائج جديدة ، صحيح أن هذه النتائج كانت غائبة عنا ، ولكن مقدماتها كانت موجودة . وكذلك كل النظريات الهندسية ؛ كل نظرية نجدها تعتمد على سابقتها ، وكل نظرية ـ حتى أعقدها وأصعبها ـ هى ملاحظة لأمر بدهى فى الكون . وكل علم من العلوم له مقدمات إن بحث فيها باحث فإنه يصل إلى النتائج الجديدة ، وهذا ما نسميه « غيبا إضافيا » ، أى كان غيباً فى وقت ما لكنه غير غيب فى وقت آخر ، ولذلك يُنسب هذا العلم إلى البشر دائماً ، ولنقرأ قول الحق سبحانه :

﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ﴾

(من الآية ٢٥٥ سورة البقرة)

والإحاطة بالعلم كلها لله ، وهو سبحانه الذى يأذن لبعض من خلقه بالإحاطة ببعضٍ من هذا العلم ، وكل سر من أسرار هذا الكون لا يولد إلا بإذن منه سبحانه وتعالى ، وهو سبحانه يوفق العلماء أن يبحثوا فى المقدمات ليصلوا إلى النتائج . ولكن ماذا عن العلم الذى لا توجد له مقدمات ؟ هذا من الغيب المطلق الذى لا يظهره الحق لأحد إلا لمن ارتضى من رسول .

أقول ذلك حتى لا يخطىء أحدنا فيظن أن إخبار إنسان لإنسان بمصير شىء ضاع

منه هو معرفة للغيب ، فقد يكون هذا غيباً بالنسبة لصاحب الشيء الضائع ، ولكنه ليس غيباً بالنسبة للص الذى سرقه ، ولا هو غيب بالنسبة للشخص الذى أخفى المسروقات ، ولا هو غيب بالنسبة للجان المحيطين باللص ، إذن فهذا ليس غيباً مطلقاً ، ولكنه غيب معلوم للغير . إذن فخزائن الحق سبحانه وتعالى ملأى بكل أنواع الخير التى تؤدى للإنسان مهمة البقاء فى الأرض سواء من جهة الضرورات أو الأشياء الترفية .

﴿ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ إِنِّي مَلَكٌ ﴾

(من الآية ٥٠ سورة الأنعام)

إذن فالرسول صلى الله عليه وسلم ينفى عن نفسه بقول الحق ثلاثة أشياء : منها شيئان ينفيان الألوهية عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهى ملكية خزائن الكون ، وعلم الغيب ، وشيء ثالث وهو أنه ليس مَلَكاً ، فهل يعنى ذلك أن المَلَك أرفع من النبى ؟ لا ، ولكنهم قالوا له:إنه يمشى فى الأسواق ويتكسب العيش بالعمل ، والمَلَك لا يفعل ذلك . ولكن الرسول بالطبع أرقى منزلة من المَلَك ؛ لأنه يقوم بهداية الإنس والجن ويتبع ما يوحيه إليه مِلِكُ الملوك ، وهو الحق سبحانه وتعالى : « إن أَتّبِعُ إلا ما يوحى إلىّ » .

إنه من فرط ارتفاعه فى الصدق المبلغ عن الله يعلن حقيقته صلى الله عليه وسلم بأنه من البشر ، والبشر ابن أغيار ، ويعلم شيئاً ، ويجهل شيئاً ، ومن مصلحة المرسل إليهم أن يكون الرسول متبعاً لا مبتدعاً ، ذلك أنه ينقل لهم تكاليف الخالق بألفاظها لا أفكار البشر التى قد تتغير أو تتبدل . فلو ابتدع لابتدع فى إطار بشريته ، وفى ذلك نزول لا ارتقاء ، لكنه فى الاتباع يأتى بالارتقاء للبشر ؛ لأنه يتبع ما أوحى به الإله الذى اصطفاه رسولاً . ولذلك كانت الأمية فى رسول الله صلى الله عليه وسلم شرفًا له ولنا . أما أُمّيّة الإنسان العادى فهى عيب ، إنما أُمّيّة محمد صلى الله عليه وسلم هى الكمال .

و« أُمّىّ » - كما نعلم - تعنى أنه كما ولدته أمه ، لم يأخذ ثقافة ولم يتعلم من أحد من البشر ، لكن علمه وثقافته فوقية كلها . إن ذلك وحى من الله ، وهو صلى الله عليه وسلم عندما يعلن أنه نبى أمى ، فهذا معناه أن كل ما دخل فى ذهنه لم يأخذه عن أحد من خلق الله ، وإنما كل ما جاء إلى هذا الذهن قد أخذه رسول الله عن الله .

وهكذا تكون أميته شرفا لنا ، ولكن الأمية فينا ـ نحن المسلمين ـ تخلف يجب أن نعمل جميعاً على القضاء عليها : « إن أتَّبِعُ إلا ما يوحى إلىّ » . والرسول صلى الله عليه وسلم لا ينطق عن الهوى بل يبلغ ما جاء به الوحى .

ويذيل الحق الآية بقوله :

﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴾

(من الآية ٥٠ سورة الأنعام)

وساعة يأتى الحق بقضية يستخدمها كمثل ، فلا بد أن يأتى بقضية متفق عليها حتى من الخصوم المواجهين له ؛ فهم يعرفون أن الأعمى لا يستوى مع البصير ، تماماً مثلما لا يستوى الظل والحرور أو الظلمات والنور . إن الفطرة لا تقبل الخلاف فى هذه الأمور . والعمى ـ كما نعرف ـ هو عدم الرؤية لمن مِن شأنه وحاله أن يرى ، فلا يقول إنسان عن حجر : إن الحجر أعمى ؛ لأن الأحجار لا تبصر .

إذن لا نقول العمى إلا كوصف لمن يفترض فيه أن يرى . وماذا تفعل عدم الرؤية فى الأمر المحس ؟ إن عدم الرؤية يؤذى الإنسان لأنه كائن متحرك . فقد يقع فى حفرة أو يصطدم بشىء يؤذيه ، وبإقرار الجميع نعرف أن الأعمى تضطرب حركته ويتعرض للمتاعب ، والذى يحمى الإنسان من ذلك أن يكون مبصراً أو مستعيناً بمن يبصر حتى يمكن أن يستقبل المرئيات .

وكان العلماء قديماً يظنون أن الإبصار هو نتيجة خروج شعاع من العين ليذهب إلى الشىء المرئى ، ونقض هذه القضية عالم إسلامى هو ابن الهيثم الذى علم العلماء أن الشعاع إنما يخرج من المرئى إلى عين الرائى بدليل أن الشىء المرئى لا يراه الإنسان فى الظلام . والعمى يمنع العين من استقبال الشعاع ، ولا يختلف أحد فى أن العمى مهلك وضار ومتعب ، والإبصار مريح . وكأن الحق يقول للخلق : إياكم أن تظنوا أن حياتكم كلها تعتمد على المحيط المحس ، لا ، إن هناك قيما إن لم يعرفها الإنسان فهو يتعثر ويضطرب ويتخبط .

إذن فمنهج السماء قد جاء ليهدى النفس البشرية إلى القيم ، كما يهدى النور الحسى الإنسان إلى المحسات . فإذا كان البصر هو وقاية للإنسان لتفادى العقبات ،

فكذلك المنهج هو الذى يبين للإنسان ألا يصطدم بالعقبات فى الأمور المعنوية . والإنسان يحيا بقيمه ، بدليل أن الأعمى قد يجد من يقوده من المبصرين ، ولكنه قد لا يجد هدايته فى هداية مهتد . إذن فالإنسان قد يستغنى عن البصر ، ولكنه لا غنى له عن الهدى ؛ لأن الضلال سيصيبه ، والضلال فى القيم أبلغ وأشد قسوة من الضلال فى الأمور المحسّة .

« قل هل يستوى الأعمى والبصير أفلا تتفكرون » هناك تفكر ، وتذكر ، وتدبر . التفكر هو شغل العقل ابتداء بأمر ظاهر ، يريد أن يستنبط منه شيئاً . وعندما يقول إنسان لآخر : فكر فى هذا الأمر . . أى أدر عقلك فى كل ما يتعرض لهذا الأمر . والذى يطلب من آخر التفكير فى هذا الأمر كأنه واثق من أن الذى يتفكر فى أمر لن يصل إلا إلى الرأى الذى قاله مَن عرض عليه التفكر . وأما التذكر فهو أن يصل الإنسان إلى حكم انتهى إليه بالتفكر ثم نسيه ، ويأتى مَن يلفت الذهن إلى ذلك الحكم الذى انتهى منه فكرياً .

إذن فالفكر يأتى بحكم أَوَلِىٍّ ناضج . والتذكر يأتى بحكم كان معلوماً للإنسان ولكنه غفل عنه . أما التدبر فهو ألا يكتفى الإنسان بالنظر إلى واجهة الأمور ولكن إلى ما وراء ذلك أيضاً ؛ لأن كل شىء له واجهة ، وقد تخفى الواجهة ما خلفها ، لذلك يطلب الحق من الإنسان أن ينظر إلى أعقاب الأشياء وأقفائها ، أى يدير الأمر على كل جهاته ولا يكتفى بالنظر إلى واجهاتها ، مثلما يشترى الإنسان شيئاً من تاجر أمين ، ويعرض التاجر على المشترى مواصفات الشىء بأمانة ويطلب منه أن يختبر الشىء حسب مواصفاته ، لكن التاجر الغشاش يحاول أن يخفى المواصفات لأنه يريد خداع المشترى .

وعندما يطلب الحق منا أن التفكر والتذكر والتدبر إنما يوقظ فينا المقاييس الحقيقية التى نصل بها إلى المطلوب الذى يريده الله . ولذلك يقول الحق :

﴿ وَأَنذِرۡ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحۡشَرُوٓاْ إِلَىٰ

رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾

أى أنذر بالوحى ـ الذى تتبعه ـ هؤلاء الذين يخشون يوم اللقاء مع الله . والإنذار ـ كما نعلم ـ هو إعلام بشىء مخيف قبل وقوعه لنتفادى أن يقع . وما المراد بهؤلاء الذين يطلب الحق من رسوله إنذارهم بالوحى ؟ فى أول الإسلام كان إقبال بعض المؤمنين على العمل الإيمانى ضعيفاً ، ومادام فى قلوبهم إيمان ، ويخشون لقاء الله فالوحى إنذار لهم بضرورة العمل الإيمانى الجاد . كما يجوز أن يكون الإنذار بالوحى لأهل الكتاب ؛ لأنهم يعرفون أن هناك يومًا آخر سيلقون فيه الله . وقد يكون الإنذار لإنسان يؤمن بالبعث ولكنه يشك فى الأنبياء وشفاعتهم ، فهذا الصنف قد يحمله التخويف والإنذار إلى أن يعيد النظر فى قضية الإيمان ويتقبل النبأ الصدق الذى جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولنا أن نأخذ الإنذار بالوحى على أى وجه من الوجوه السابقة . ولكن هل يخاف المؤمن أن يحشر إلى الله ؟ لا . إن المؤمن إنما يخاف أن يحشر مجرداً من الولى والناصر . إذ فى الحقيقة ليس هناك أحد يحمى وينصر من الله ، ولا شفيع يخلص من عذاب الله إلا بإذنه (من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه) وهذا ما يعتقده المؤمنون .

وقد حدد الحق ذلك فى قوله :

﴿ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾

(من الآية ٥١ سورة الأنعام)

إنهم هم المؤمنون الذين آمنوا بالله ، وبرسوله ولكنهم قصروا فى بعض المطلوبات والتكاليف التى ينطوى عليها قوله الحق : (فمن آمن وأصلح) .

هؤلاء المؤمنون عندما يجيئهم الإنذار فهم قد يصلحون من أمورهم خوفاً من الحشر بدون ولى ولا شفيع . المؤمن ـ إذن ـ له أمل أن يكون يوم الحشر فى ولاية الله ورحمته ، وهؤلاء هم من قال عنهم الحق :

﴿ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾ ﴾

(سورة التوبة)

وإن كانت الآية الكريمة تتناول وتشمل غيرهم من أهل الكتاب وتشمل وتضم أيضا الذين يؤمنون بالبعث ولكنهم لم يتبعوا أنبياء .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾

نعرف أن الحق سبحانه وتعالى خلق الإنسان واستعمره فى الأرض ، وجعله طارئاً على هذا الوجود الذى أودع الله له فيه كل ما يلزمه من مقومات حياته وإسعاده .

وأراد الحق من البشر أن يكون فيهم استطراق عبودى بحيث لا يوجد متعال على مستضعف ، ولا يوجد طاغ على مظلوم ، حتى تستقيم حركة الحياة استقامة يعطى فيها كل فرد على قدر ما هيىء له من مواهب . فإذا ما اختل ميزان الاستطراق البشرى ردهم الحق سبحانه وتعالى إلى دليل لا يمكن أن يطرأ عليه شك ، والدليل هو أنكم أيها البشر تساويتم فى أصل الوجود من تراب ، وتساويتم فى العودة إلى التراب ، وتتساوون فى موقفكم يوم القيامة للحساب ، فلماذا تختلفون فى بقية أموركم ؟ إن التساوى يجب أن يوجد . وهاهوذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يحرص على أن تهتدى الأمة وكان يكلف نفسه فوق ما يكلفه به ربه ، فيعاتبه ربه لأنه كان يشق على نفسه حرصا على إيمان قومه .

وقد يظن بعض الناس أن عتاب الله لنبيه لتقصير ، ونرد على هؤلاء : ليفهم الإنسان منكم هذا اللون من العتاب على وجهه الحقيقى ، فهناك فرق بين عتاب لمصلحة المعاتَب ، وعتاب للومه وتوبيخه ؛ لأن المعاتَب خالف وعصى ، ونضرب هذا المثل - ولله المثل الأعلى - أنت فى يومك العادى إن نظرت إلى ابنك فوجدته يلعب ولا يذهب إلى المدرسة ولا يستذكر دروسه ، فأنت تعاتبه وتؤنبه لأنه خالف المطلوب منه، ولكنك إن وجدت ابنك يضع كل طاقته ويصرف ويقضى أوقات راحته فى المذاكرة ، فأنت تطلب منه ألاّ يكلف نفسه كل هذا العناء ، وتخطف منه الكتاب وتقول له : اذهب لتستريح . أنت فى هذه الحالة تلومه لمصلحته هو ، فكأن اللوم والعتاب له لا عليه . إذن قد حُلّ هذا الإشكال الذى يقولون فيه : إن الله كثيراً ما عاتب رسوله ، ونوضح أن الحق قد عاتب الرسول له لا عليه ؛ لأن الرسول وجد طريق الإيمان برسالته يسير سيرا سهلاً بين الضعفاء ، ولكنه شغل نفسه وأجهدها رجاء أن يتذوق المستكبرون المتجبرون حلاوة الإيمان ، وجاء فى ذلك قول الحق :

﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ۝٤ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧ ﴾

(سورة عبس)

إذن فالعتاب هنا لصالح من ؟ إنه عتاب لصالح رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحين يقول الحق سبحانه وتعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ۖ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١ ﴾

(سورة التحريم)

إن الآية تشير إلى أمر أغضب النبى صلى الله عليه وسلم ، فامتنع عن بعض ما ترغب فيه النفس البشرية من أمور حللها الله . والعتاب هنا أيضاً لصالح رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولشدة حرصه صلى الله عليه وسلم على هداية القوم أجمعين ، كان يحب أن يعامل الطغاة بشىء من اللين ليتألف قلوبهم . ولكن الطغاة لا يريدون أن يتساووا مع المستضعفين ، فقد مرّ الملأ من قريش ووجدوا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم خبّاب بن الأرتّ وصهيباً وبلالاً وعماراً وسلمان الفارسى وهم

من المستضعفين ، فقالوا : يا محمد رضيت بهؤلاء من قومك ؟ أهؤلاء الذين منّ الله عليهم من بيننا ؟ أنحن نصير تبعا لهؤلاء ؟ اطردهم فلعلك إن طردتهم أن نتبعك .

وكأنهم يقولون له : إنك قد اكتفيت بهؤلاء الضعفاء وتركتنا نحن الأقوياء ولن نجلس معك إلا أن تبعد هؤلاء عنك لنجلس ، فما كان من رسول الله صلى الله عليه وسلم ببديهية الإيمان إلا أن قال : ما أنا بطارد المؤمنين . إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرف أن هناك من أمثالهم من قالوا لغيره من الأنبياء مثل قولهم . فقد قال قوم نوح عليه السلام له ما حكاه القرآن الكريم :

﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾

(سورة هود)

وحاول بعض من أهل الكفر أن يعرضوا موقفاً وسطاً على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقالوا : إذا نحن جئنا فأقمهم من عندك لنجلس معك فإذا قمنا من عندك فاجعلهم يجلسون . ووجد رسول الله صلى الله عليه وسلم فى هذا الرأى حلا وسطاً يمكن أن يقرب بين وجهات النظر ، واستشار صلى الله عليه وسلم عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ فقال عمر : لو فعلت حتى ننظر ما الذى يريدون . وطالب أهل الكفر من أثرياء قريش أن يكتب لهم رسول الله كتاباً بذلك ، وجىء بالدواة والأقلام ، وقبل الكتابة نزل قول الله :

﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

ورمى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالصحيفة التى جىء بها ليكتبوا عليها كلاماً يفصل بين جلوس سادة قريش إلى مجلس رسول الله وجلوس الضعفاء أتباع رسول الله . والنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ إنما مال إلى ذلك من الكتابة طمعا فى إسلام هؤلاء المشركين وإسلام قومهم بإسلامهم رحمة بهم وشفقة عليهم ، ورأى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن ذلك لا يفوت أصحابه شيئا ولا ينقص لهم قدراً فمال إليه فأنزل الله

الآية ونهاه عما همّ به من الطرد ، لا أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد أوقع ذلك وطردهم وأبعدهم ، ثم دعا بعد ذلك بالضعفاء فأتوه .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل ذلك يجلس مع المستضعفين ، وإن أحب ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يقوم من المجلس قام ، ولكن الله أراده أن يكرم هؤلاء القوم المستضعفين بعد أن نهاه عن طردهم ، وأن يكرمهم سبحانه بما أهيجوا فيه ، وجاء أمر إلهي آخر بألا يقوم رسول الله من مجلسه مع المستضعفين حتى يقوموا هم ، فقال الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ ﴾

(سورة الكهف)

وعندما نزلت هذه الآية قال صلى الله عليه وسلم : « الحمد لله الذى جعل فى أمتى من أمرنى أن أصبر نفسى معهم »[1] .

وبهذا القول الكريم أراد الحق سبحانه وتعالى إكرام الضعفاء والمستضعفين . ويقول سلمان الفارسى وخباب بن الأرتّ فينا نزلت ، فكان ـ رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ يقعد معنا ويدنو مَنا حتى تمس ركبتنا ركبته ، وكان يقوم عنا إذا أراد القيام فنزلت : (واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم) فترك القيام عنا إلى أن نقوم فكنا نعرف ذلك ونعجله القيام . أى أنهم هم الذين كانوا يقومون أولاً من مجلس رسول الله ، فقول الحق : « ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه » هذا هو قول الله ـ سبحانه ـ أمر به رسول الله ومأمور به كذلك كل إنسان من بعد رسول الله ، وفى هذا قمة التكريم للدائمين على ذكر الله من المستضعفين ؛ لأنهم أهل محبة الإيمان وهم الذين سبقوا إليه .

---

(١) رواه الهيثمى فى مجمع الزوائد ورواه الطبرانى ، قال الهيثمى : ورجاله رجال الصحيح .

وهاهوذا أحد خلفاء المسلمين وقد جاءه صناديد العرب الذين أسلموا ، واستأذنوا فى الدخول إليه ، فلم يأذن لهم حتى أذن لضعفاء المسلمين . فورم أنف كل واحد من هؤلاء الصناديد وقالوا :

ـ أيأذن لهؤلاء ويتركنا نحن ؟ لقد صرنا مسلمين . فقال قائل منهم يفهم ويفقه أمر الدين : أكلكم ورم أنفه أن يؤذن لهؤلاء قبلكم ، لقد دعوا فأجابوا ، ودعيتم فتباطأتم ، فكيف بكم إذا دعوا إلى دخول الجنة وأبطىء دخولكم .

إنّ هؤلاء الضعفاء يريدون بالطاعة وجه الله ، وكلمة « وجه الله » تدل على أن الإيمان قد أُشْرِب فى قلوبهم ، وأنهم جاءوا إلى الإيمان فِراراً بدينهم من ظلم الظالمين وطغيان الطغاة الذين كانوا يريدونهم على الكفر والضلال . إنهم قد حلا لهم الإيمان ، وحلا لهم وجه الله ، وحلا لهم أن يؤجل لهم كل الثواب إلى الآخرة .

وحين نسمع قول الحق : « يريدون وجهه » فهذا وصف لله بأنّه ـ جل شأنه ـ له وجه ، ونطبق فى هذه الحالة ما نطبقه إذا سمعنا وصفاً لله ، إننا نأخذ الوصف فى إطار قوله الحق : (ليس كمثله شىء) .

ويطلق الوجه ويراد به الذات ، لأن الوجه هو السمة المميزة للذوات . فأنت إن قابلت أناساً قد غطوا وجوههم واستغشوا ثيابهم وستروا بها رءوسهم فلن تستطيع التمييز بينهم .

ويقال : فلان قابل وجوهَ القوم . أى التقى بالكبار فى القوم . والحق سبحانه وتعالى يقول : (كل شىء هالك إلا وجهه) ، ويقول الحق سبحانه : « ما عليك من حسابهم من شىء » وفى هذا القول حرص على كرامة المستضعفين ؛ فقد يقول قائل :

لقد استجار هؤلاء الضعفاء بالدين حتى يفروا من ظلم الظالمين وليس حباً فى الدين ، فيوضح الحق : ليس هذا عملك ، وليس لك إلا أن تأخذ ظاهر أعمالهم وأن تكل سرائرهم إلى الله .

﴿ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾

(من الآية ٥٢ سورة الأنعام)

وكأن الحق يوضح لرسوله : لو كان عليكَ من حسابهم من شيء لجاز لك أن تطردهم ، ولكن أنت يا رسول الله تعلم أن كلَّ واحد مجْزِىٌ بعمله إن خيرا فخير وإن شرا فشر ، وقد أنزل الله عليك القول الحق : « ولا تزر وازرة وزر أخرى » . إذن فلكل إنسان كتابه . قد سطر وسجّل فيه عمله ويجازى بمقتضى هذا ، ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾

نحن هنا أمام « بعضين » : بعض قد استعلى أن يجتمع ببعض آخر مستضعف عند رسول أرسله الله . ويمتحن الله البعض بالفتنة ، والفتنة هى الاختبار . إن بعضاً من الناس يظن أن الفتنة أمر مذموم ، لا ، إن الفتنة لا تذم لذاتها ، وإنما تذم لما تؤول إليه . فالاختبار ـ إذن ـ لا يذم لذاته ، وإنما يذم لما يؤول إليه . وتأتى الفتنة ليُرى صدق اليقين الإيمانى ، وهاهوذا الحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾ ﴾

(سورة العنكبوت)

إن الحق سبحانه يختبر مدى صدق الإنسان حين يعلن الإيمان ، إنه ـ سبحانه ـ يختبرهم بالمحن والنعم ، وقد اختبر الحق الأمم السابقة بالتكاليف والنعم والمحن ويظهر ويبرز إلى الوجود ما سبق أن علمه سبحانه أزلاً ، ويميز أهل الصدق فى الإيمان

عن الكاذبين فى الإيمان . فمن صبر على الاختبار والفتنة فقد ثبت صدقه ويقينه ، ومن لم يصبر فقد دلّ بعمله هذا على أنه كان يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به ورضي ، وإن أصابه شر وفتنة انقلب على وجهه ونكص على عقبيه فخسر الدنيا والآخرة .

إذن فالفتنة مجرد اختبار . والوجود الذى نراه مبنى كله على المفارقات ، وعلى هذه المفارقات نشأت حركة الحياة . ويجب الإيمان بقدر الله فى خلقه ؛ فهذا طويل ، وذاك قصير ، هذا أبيض ، وذاك أسود ، هذا مبصر وذلك أعمى ، هذا غنى ، وذلك فقير ، هذا صحيح ، وذلك سقيم ، وذلك ليكون كل نقيض فتنة للآخر .

فالمريض ـ على سبيل المثال ـ فتنة للصحيح ، والصحيح فتنة للمريض ، ويستقبل المريض قدر الله فى نفسه ولا ينظر بحقد أو غيظ للصحيح ، ولكن له أن ينظر هل يستعلى الصحيح عليه ويستذله ، أو يقدم له المساعدة ؟ والفقير فتنة للغنى ، وهو ينظر إلى الغنى ليعرف أيحتقره ، أيجرحه ، أيستغله ؟ والغنى فتنة للفقير ، يتساءل الغنى أينظر إليه الفقير نظرة الحاسد . أم الراضى عن عطاء الله لغيره . وهكذا تكون الفتن .

إن من البشر من هو موهوب هبة ما ، وهناك من سلب الله منه هذه الهبة ، وهذا العطاء وذلك السلب كلاهما فتنة ؛ لنؤمن بأن خالق الوجود نثر المواهب على الخلق ولم يجعل من إنسان واحد مجمع مواهب ؛ حتى يحتاج كل إنسان إلى مواهب غيره ، وليقوم التعاون بين الناس ، وينشأ الارتباط الاجتماعى .

وعندما يخلق الله الإنسان بعاهة من العاهات فهو سبحانه يعوضه بموهبة ما . هكذا نرى أن العالم كله قد فتن الله بعضه ببعض ، وكذلك كانت الجماعة المؤمنة فتنة للجماعة الكافرة ، وكانت الجماعة الكافرة فتنة لرسول الله ، ورسول الله فتنة لهم . فساعة يرى رسول الله الكفار وهم يجترئون عليه ويقولون :

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ ﴾

(سورة الزخرف)

يعرف أن هؤلاء القوم يستكثرون عليه أن ينزل عليه هذا القرآن العظيم ، وفى

هذا القول فتنة واختبار لرسول الله ، وهو يصبر على ذلك ويمضى إلى إتمام البلاغ عن الله ولا يلتفت إلى ما يقولون ، بل يأخذ هذا دليلاً على قوة المعجزة الدالة على صدق رسالته .

والجماعة التى استكبرت وطلبت طرد المستضعفين هم فتنة للمستضعفين ، والمستضعفون فتنة لهم ، فلو أن الإيمان قد اختمر فى نفوس المستكبرين لما استكبروا أن يسبقهم الضعاف إلى الإيمان برسول الله صلى الله عليه وسلم .

إذن فكلنا يفتن بعضنا بعضًا . وكل إنسان عندما يرى موهوباً بموهبة لا توجد لديه فليعلم أنها فتنة له وعليه أن يقبلها ويرضى بها فى غيره . وما عُبِدَ الله بشيء خيرا من أن يحترم خلق الله قدر الله فى بعضهم بعضا ، ولذلك يختبرنا الحق جميعاً ، فإن كنت مؤمناً بالله فاحترم قدر الله فى خلق الله حتى يجعل الله غيرك من الناس يحترمون قدر الله فيك .

والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

ووجه الفتنة هنا أن قومًا طلبوا طرد المستضعفين وقالوا كما حكى الله عنهم : « أهؤلاء مَنَّ الله عليهم من بيننا » ؟ كأنهم تساءلوا عن المركز الاجتماعى للمستضعفين من المؤمنين ، ويأتيهم الرد من الله : « أليس الله بأعلم بالشاكرين » . فسبحانه هو العليم أزلاً بالبشر ، ولا يقترح عليه أحد ما يقرره . وقد سبق للذين كفروا أن قالوا : « لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم » .

وجاءهم الرد من الحق سبحانه وتعالى فقال :

﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ﴾

(من الآية ٣٢ سورة الزخرف)

وهكذا نعلم أن الحق سبحانه وتعالى لم يضع مفاتيح الرسالة فى أيدى المشركين أو غيرهم ، ليوزعوا هم الأمور ويقوموا بتدبير الأمر . بل هو سبحانه وتعالى الذى يوزع المواهب فى البشر رزقاً منه ليعتمد كل إنسان على الآخرين فى مواهبهم التى يعجز عنها ، ويعتمد عليه الآخرون فى موهبته التى يعجزون عنها . ومسألة النبوة هى اصطفاء إلهى يكبر ويسمو على كل مقامات الدنيا . ويدل السياق إذن على أن بعضاً من كبار العرب طلبوا أن يطرد رسول الله صلى الله عليه وسلم بعضاً من المستضعفين ، فأراد الله أن يطمئن المستضعفين بشىء عجل لهم به فى الدنيا وإن كان قد جعله لبقية المؤمنين فى الآخرة . لذلك يقول الحق :

﴿ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِنَا فَقُلْ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَـٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾ ﴾

لقد كان طلب الطرد لهؤلاء المستضعفين فيه إهاجة لكرامتهم ولمنزلتهم ولأنهم دون الأثرياء ووجهاء القوم ، فيطمئنهم الحق بالسلام منه فى الدنيا فيأمر رسوله : « فقل سلام عليكم » . ونفهم من السلام أنه الخلو من الآفات النفسية والآفات الجسدية ، فكأن الحق سبحانه أراد أن يعوضهم بالسلام القادم من الله « فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة » ونرى كلمة : « الرحمة » تتردد كثيراً فى القرآن الكريم ، فهاهوذا الحق يقول فى موقع آخر :

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

ما الفارق إذن بين الشفاء والرحمة ؟ الرحمة : ألا يبتلى الله الإنسان بمرض ، إنها الوقاية ، أما الشفاء فهو أن يزيل الحق أى مرض أصاب الإنسان . وهذا هو البرء بعد العلاج .

إذن ففى القرآن شفاء ورحمة ، أى وقاية وعلاج . والذى يلتزم بمنهج القرآن لا تصيبه الداءات الاجتماعية والنفسية أبداً ، والذى تغفل نفسه وتشرد منه يصاب بالداء الاجتماعى والنفسى ، فإن عاد إلى منهج القرآن فهو يُشفى من أى داء . وحين يأمر سبحانه رسوله أن يقول لهؤلاء الذين أهيجوا بطلب طردهم على الرغم من إيمانهم برسالة رسول الله : « سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة » فهذا يعنى أن ما حدث لهم فى هذا الأمر هو آخر ابتلاءاتهم ، وقد أخذوا بهذه الإهاجة سلاما دائما ، ومادام الله قد كتب على نفسه الرحمة فكأنه وقاهم مما يصيب به غيرهم .

وإذا سمعت قول الله : « كتب ربكم على نفسه الرحمة » فالكتابة تدل على التسجيل ، ولا أحد يوجب على الله شيئاً لأنه خالق الكون ، وله فى الكون طلاقة المشيئة ، فلا أحد يكتب عليه شيئاً ليلزمه به ، ولكنه سبحانه هو الذى أوجب على نفسه الرحمة . ونأخذ كلمة « نفسه » فى إطار « ليس كمثله شىء » ، ذلك أن النفس عند البشر هى الجسم والدم والحركة والحياة ، ولكن ماذا عندما تأتى كلمة « النفس » منسوبة إلى الله ؟ المراد ـ إذن ـ هو الذات الإلهية . وإن لم تأخذ مراد الكلمة بهذا المعنى فأنت تدخل إلى مخالفات كثيرة وقانا الله وإياك شرورها .

وأؤكد هذا المعنى ليستقر فى ذهن كل مؤمن ، أن النفس بالنسبة للكائن الحى غيرها بالنسبة لله ، ولا بد أن نأخذ أى شىء منسوب إلى الله فى إطار « ليس كمثله شىء » ؛ لأن النفس بالنسبة للكائن الحى عبارة عن امتزاج الروح بالمادة ، والمادة مكونة من أبعاض . وإن لم تأخذ المراد من نفس الله على ضوء « ليس كمثله شىء » ، فأنت ـ والعياذ بالله ـ تنفى عن الحق « الأحدية » .

ونعرف أن للحق سبحانه وتعالى « وصفين » يتحدان فى المادة وفى الحروف : الأول هو « واحد » . والآخر هو « أحد » . والسطحيون فى الفهم يظنون أن « واحدًا » معناها « أحد » . ونقول : لا ، إن « واحدًا » لها مدلول ، و« أحدًا » لها مدلول آخر . فعندما نقول : « إن الله واحد » أى لا يوجد فرد ثانٍ من نوعه فليس له مثيل ولا شبيه ولا نظير . وعندما نقول : « إن الله أحد » أى أنه لا يتكون من أبعاض يحتاج بعضها إلى البعض الآخر لتكوين الكل ؛ لأن الشىء قد يكون واحدًا وليس أحدًا . ولذلك نؤكد الفارق بين : « واحد » و« أحد » ، وحتى يعرفه كل

مؤمن جيداً فهو ـ سبحانه ـ واحد لا يوجد فرد ثان يشاركه فى وحدانيته ، فهو واحد لا شريك له ، وهو أحد جل وعلا أى ليس له أبعاض يحتاج بعضها إلى بعض . وسبق أن أوضحنا أن هناك شيئا اسمه : « كل » وشيئا آخر اسمه : « كلى » . والكل هو المكون من أجزاء ، كل جزء منها لا يؤدى الحقيقة ، وإنما لا يُؤدى الكل إلا بضميمة الأجزاء بعضها إلى بعض .

ومثال ذلك الكرسى : إنه مكون من خشب ومسامير وغراء ، فلا يقال للخشب كرسى ، ولا يقال للمسامير كرسى ، ولا يقال للغراء كرسى . ولكن يقال للشىء المصنوع من كل هذه الأشياء على هيئة محددة : إنه كرسى . إذن فـ « الكل » له أجزاء تجتمع لتكوّنه . والكلّى يمكن أن تطلق على الإنسان ، ولكن فى الجنس البشرى هناك أفراد كثيرون له .

وعلى ذلك فالحق سبحانه وتعالى ليس « كُلًّا » أى لا أجزاء له لأنه أحد ، وليس « كلياً » لأنه لا شىء مثله ؛ فسبحانه وتعالى واحد أحد . ولهذا نفهم جميعاً أن كل شىء منسوب إلى الله ينبغى أن يكون فى إطار : (ليس كمثله شىء) .

ونحن لا نفهم مراد كلمة « النفس » بالنسبة لله كما نفهمها بالنسبة للبشر ؛ لذلك فنفس الله ليست كنفس البشر ؛ لأن الله غنى لا يحتاج إلى غيره ، وهو ـ سبحانه ـ ليس مكوناً من أجزاء ، فهو سبحانه له كل الكمال والجلال فى وحدانيته وأحديته وفى سائر صفاته وأفعاله . وحين يقول سبحانه : « كتب ربكم على نفسه الرحمة » . قد يتساءل إنسان : وما مدلول الرحمة ؟

وتأتى الإجابة فى قوله الحق : « أنه من عمل منكم سوءاً بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فأنه غفور رحيم » . والحق حينما أنزل منهجاً من السماء فالمنهج يضم نصوصاً للتجريم كنصوص عقاب الزانى أو اللص ، وغير ذلك ، ولا يمكن أن تأتى عقوبة إلا إذا جاءت بعد تجريم ، مثال ذلك الرشوة والنميمة وكل مخالفة للمنهج ، فلا عقاب إلا بجريمة ، ولا جريمة إلا بنص . والحق الذى خلق الخلق يعلم أن بعضا من خلقه يكون من ضعاف النفوس ، وقد تغلب إنساناً نفسُه فيرتكب ذنباً أو معصية ، والمثال على ذلك قول الحق :

﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ ﴾

(سورة المائدة)

هذا هو عقاب السارق والسارقة .

وكذلك يقول الحق عن الزانى والزانية :

﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ﴾

(سورة النور)

مامعنى إنزال مثل هذه النصوص ؟ معنى إنزال مثل هذه النصوص أن الحق سبحانه وتعالى يعلم أن الإنسان قد يضعف فى بعض مطلوبات الدين فيقع فى معصية ، ولابد أن يوجد عقاب عليها . واحترم الحق بذلك تكوين الإنسان عندما منحه الاختيار ، فوضع الثواب والعقاب . وكما وضع الحق النص على الجرائم وعقوبتها فهو سبحانه وتعالى قد فتح باب التوبة لخلقه ، حتى لا يكون الذى عصى الله مرة واحدة فاقداً للأمل ، حتى لا يشقى المجتمع بهؤلاء العصاة . وشرع الحق التوبة للخلق ليرحمهم من شرور من ارتكبوا المعاصى ، وليرحم أيضاً أصحاب المعاصى ماداموا قد تابوا عنها . وقد يرحم الله بعض خلقه من المعاصى فيحفظهم منها .

وهو الحق القائل :

﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾

(من الآية ١١٨ سورة التوبة)

سبحانه ـ إذن ـ يهدى إلى التوبة ويعفو ، وهو عظيم الرحمة بالعباد التوابين .

ومن ظواهر رحمة الله سبحانه :

﴿ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

(من الآية ٥٤ سورة الأنعام)

والسوء هو الأمر المنهي عنه من الله . هل هناك من يعمل السوء بجهالة ؟ . بعضنا يفهم الجهالة فهماً سطحياً على أساس أنها « عدم العلم » ؛ لا . إن الذى لا يعلم هو الأمى الخالى الذهن ، والجهالة غير الجهل ، فالجهل هو أن يعلم الإنسان حكماً ضد الواقع ، كأن يكون مؤمناً بعقيدة تخالف الواقع . ومعالجة الجهل تقتضى أن ننزع منه هذه العقيدة التى هى ضد الواقع ثم نقنعه بالعقيدة المطابقة للواقع .

والذى يسبب المتاعب للناس هم الجهلة ؛ لأن الجاهل يعتقد فى قضية ويؤمن بها وهى تخالف الواقع . وعندما جاء العلماء عند هذا القول الحكيم : (من عمل منكم سوءاً بجهالة) . قالوا : إن الجهالة هى السفه والطيش ، والطيش يكون بعدم تدبر نتائج الفعل . والسفه ألا يقدِّر الإنسان قيمة ما يفوته من ثواب وما يلحقه من عقاب . وقد يكون الإنسان مؤمناً ، لكنه يرتكب السوء لأنه لم يستحضر الثواب والعقاب ويرتكب من السوء ما يحقق له شهوة عاجلة دون التمعن فى نتائج ذلك مستقبلاً ، ولو استحضر الثواب والعقاب لما فعل ذلك السوء .

ويمكن أن نفهم أيضاً الجهالة على أنها ارتكاب الأمر السيىء دون أن يبيت له الإنسان أو يخطط ، وذلك كأن يخطط إنسان السفر إلى باريس لتحصيل العلم ، وعندما وصل إلى هناك جاءت له امرأة فى غرفته فى الفندق وهى فى كامل فتنتها وزينتها ، وألحت عليه لارتكاب الفحشاء ، فلم يقدر على نفسه . هذا فعل للسوء بجهالة ؛ لأنه لم يخطط لذلك السوء ، وهو يندم من بعد ذلك ، ولا يحكى عن ذلك الفعل بفخر أبداً .

هناك فارق - إذن - بين هذا الإنسان وإنسان آخر بحث فى عناوين بيوت اللذة فى باريس قبل أن يسافر إليها ، إنه بذلك يخطط لفعل المنكر وارتكاب الفحشاء . ويصر على السوء ، ويتفاخر به ولا يندم على ما فعل ؛ هذا الصنف من البشر لا يغفر له الله إن استمر على هذا الحال حتى شارف الموت أو أدركه الموت ، ولذلك يقول الحق :

﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ ﴾

(سورة النساء) .

لأن الحق سبحانه إنما يقبل توبة من ارتكب الذنب فى حالة الحماقة والطيش ، ويقبلون على التوبة فوراً ، هؤلاء يقبل الحق توبتهم ، أما الذين لا يندمون على فعل السوء فيقول الحق عنهم :

﴿ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾ ﴾

(سورة النساء)

إن الذين لا يُقبلون على التوبة من فور ارتكاب الذنب وينتظر الإنسان منهم مجىء الموت ليتوب قبله أى وهو فى حالة الغرغرة ـ وهى تردد الروح فى الحلق عند الموت ـ هؤلاء لا تقبل لهم توبة ، وكذلك الذين يموتون على الكفر ـ والعياذ بالله ـ وقد أعد الله لكليهما عذاباً أليماً .

والحق سبحانه قد وضح لنا قبل ذلك فقال :

﴿ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَـٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

(من الآية ٥٤ سورة الأنعام)

إذن فالتوبة يجب أن يتبعها إصلاح وصلاح ؛ ذلك أن الحسنات يذهبن السيئات ، والحق سبحانه غفور لا يعاقب على ذنب تاب عنه العبد ، ورحيم لأنه يثيب على الفعل الحسن ، بل إنه يثيب الإنسان الذى يكرر ندمه على فعل سىء ويكتب له عن ذلك حسنة . بل إنه ـ بسعة رحمته ـ يبدل سيئاته حسنات .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾

وساعة تسمع قوله الحق : « وكذلك نفصّل الآيات » فاعلم أن هناك تفصيلاً

سبل ذلك يشابه تفصيلاً سبق . والآيات السابقة قد فصّل الله فيها أموراً كثيرة ؛ فصّل لنا حجة وصحة وحدانية الله سبحانه ، وفصّل لنا صحة النبوة ، وفصّل لنا صحة القضاء والقدر . ومن بعد ذلك كله يعطينا الحق المقاييس التى تقرر الحقائق التى ينكرها أهل الباطل ؛ فيفصّل لنا فى العقائد ، ويفصّل لنا فى حركة الحياة والحركة العبادية التى نؤدى بها تكاليف الإيمان . وكما فصل لنا سبحانه صحة الوحدانية وصحة النبوة ، وصحة القضاء والقدر ، يفصل لنا الآيات التى تقرر الحقائق :

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

ونقرأ « سبيل » فى بعض القراءات مرفوعة ، أى أن سبيل المجرمين يظهر ويستبين ويتضح ، وتقرأ فى بعض القراءات منصوبة ، أى أنك يا محمد تستبين أنت السبيل الذى سيسلكه المجرمون .

وكلمة « سبيل » وردت فى القرآن مؤنثة مثل قوله الحق :

﴿ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴾

(من الآية ٤٥ سورة الأعراف)

ووردت أيضاً فى بعض الآيات مذكرة :

﴿ وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ﴾

(من الآية ١٤٦ سورة الأعراف)

ويريد الحق بذلك أن يعلمنا أن القرآن الذى نزل بلسان عربى مبين قد استقبلته قبائل من العرب ، بعضها لها السيادة كقبيلة قريش لأنها تسكن مكة ، والكعبة فى مكة وكل القبائل تحج إلى الكعبة .

ويريد أن ينهى سبحانه هذه السيادة ، ولذلك جاء القرآن ببعض الألفاظ التى تنطقها القبائل الأخرى ، ومثال ذلك كلمة « سبيل » التى تؤنث فى لغة « الحجاز » ، وجاء به مرة كمذكر ؛ كما تنطقها « تميم » . ولم يأت الحق بكل ألفاظ القرآن مطابقة

لأسلوب قريش ، حتى لا تظن قريش أن سيادتها التى كانت لها فى الجاهلية قد انسحبت إلى الإسلام ، فقد جاء القرآن للجميع . (وكذلك نفصل الآيات ولتستبين سبيل المجرمين) . أى أن الله سيعامل كل إنسان على مقتضى ما عنده من اليقين الإيمانى .

والمعاندون لهم المعاملة التى تناسبهم ، وكذلك المصرّ على الذنوب ، والمقدم على المعاصى ، وهى تختلف عن معاملة المؤمن . ولكنها فى إطار العدل الإلهى . إذن فلكلٍ المعاملة التى تناسب موقعه من الإيمان .

والمقابِلون للمجرمين هم المؤمنون . فإذا استبنت سبيلَ المجرمين ، أو إذا استبان لك سبيلُ المجرمين ألا تعرف المقابل وهو سبيل المؤمنين ؟ .

وحين يذكر الحق شيئا مقابلاً بشىء فهو يأتى بحكم شيءٍ ثم يدع الحكم الآخر لفهم السامع ، فإذا كان الحق قد بين سبيل المجرمين لعناً وطرداً ، فسبيل المؤمنين يختلف عن ذلك ، إنه الرحمة والتكريم . ومثال على ذلك ـ ولله المثل الأعلى ـ أنت تقول للتلميذ الذى يواظب على دروسه ويذاكر فى وقت فراغه من المدرسة : إن سبيلك هو النجاح . ومن يسمع قولك هذا يعرف أن الذى لا يواظب على دروسه ولا يذاكر فى وقت فراغه من المدرسة تكون عاقبة أمره الرسوب والخيبة .

وهكذا يترك الحق لفطنة السامع لكلامه أن يأتى بالمقابل ويعرف أحكام هذا المقابل : فإذا كان الحق قد قال : « ولتستبين سبيل المجرمين » فهذه إشارة أيضاً لسبيل المؤمنين من رحمة وتكريم . ونعلم أن القرآن قد جاء على أبلغ الأساليب . وهى أساليب تقتضى أن تعرف معطى كل لفظ وكل حرف حتى نفهم مقتضيات المقامات والحالات التى تطابق كل مقام . ومثال على ذلك قول الحق سبحانه :

﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِي فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَـٰتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ ﴾

(من الآية ١٣ سورة آل عمران)

لقد ترك الحق لفطنة السامع لهذه الآية أن يعرف أن الفئة الكافرة تقاتل فى سبيل الشيطان، وأن الفئة التى تقاتل فى سبيل الله هى الفئة المؤمنة، وترك لنا الحق أن

نعرف صفة الإيمان للفئة التى تقاتل فى سبيل الله من مقابل ذكره أن الفئة الأخرى كافرة . وأن الفئة الكافرة تقاتل فى سبيل الشيطان لأنه ذكر لنا أن الفئة الأولى تقاتل فى سبيل الله .

وكذلك هنا قال الحق : « ولتستبين سبيل المجرمين » . ومنها نستبين أيضاً سبيل غير المجرمين وهم المؤمنون ، فسبيل المؤمنين الرحمة والتكريم .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ قُل لَّا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾

نحن نعرف أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يعبد أى صنم قبل الإسلام ، وكان ذلك نابعا من اقتناع فطرى . ومع ذلك جاءه النهى عن مثل تلك العبادة ، لماذا ؟. جاء الأمر بذلك النهى حتى نتبين الفرق بين أمر العادة وأمر العبادة . فقد علمنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يعبد الأصنام استجابة لفطرته السليمة التى فطره الله وخلقه عليها ، وانتقل ذلك من إلف الفطرة إلى التكليف العبادى :

﴿ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾

(من الآية ٥٦ سورة الأنعام)

لقد كانوا يَدْعون الأصنام والأوثان ويعبدونها من دون الله . ولو ناقشنا هذه المسألة فطرياً ، نجد سخف هذا اللون من التفكير . لماذا ؟؛ لأن الأصنام حجارة كان يقوم بنحتها أهل الجاهلية ويعبدونها . إذن فهم قد خلقوا ما يعبدونه . وهذا مناف للفطرة ؛ لأن الكائن إنما يتجه بالعبادة إلى خالقه . ثم هناك نقطة ثانية ، إن الإنسان منهم إذا ما نظر إلى الأصنام فله أن يتساءل : من أى أجناس الوجود هى ؟. إنها من جنس الجماد . والجماد ـ كما نعرف ـ هو أدنى الأجناس . وكل جنس من الأجناس له

مشخص يميزه عن الجنس الآخر إما بارتفاع ترق وإما بنزول تدن . وقمة أجناسٍ الوجود هى الإنسان الذى كرمه الحق بالحس والحركة والتفكير . ويلى الإنسان مرتبةً جنسُ الحيوان الذى له الحس والحركة دون التفكير . ويلى جنس الحيوان مرتبةً النبات ، وهو الذى له النمو دون الحركة والتفكير .

وعندما تُسلب من النبات غريزة النمو يصير جماداً . إذن ترتيب الأجناس من الأعلى إلى الأدنى هو كالتالى : الإنسان ثم الحيوان ، ثم النبات ثم الجماد . وكل جنس من هذه الأجناس له خصائصه ، ويأخذ الجنس الأعلى خاصية زائدة .

وأدنى الأجناس هو الجماد الذى يخدم النبات ، والنبات يخدم الحيوان والإنسان . والحيوان يخدم الإنسان . وهكذا نجد أن أعلى الأجناسٍ هو الإنسان بينما أدناها هو الجماد . فكيف يأخذ أعلى الأجناس وهو الإنسان رباً له من أدنى الأجناس وهو الجماد ؟ .

إن تحكيم الفطرة فى ذلك الأمر ينتهى إلى حكم واضح هو سخف هذا اللون من التفكير . وفطرة رسول الله صلى الله عليه وسلم من قبل البعثة هدته إلى رفض ذلك ، وجاءت البعثة لتجعل من إلف عادة رسول الله وفطرته أمر عبادة للرسول صلى الله عليه وسلم ولكل من اتبعه .

﴿ قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ ﴾

(من الآية ٥٦ سورة الأنعام)

إذن فمسألة عبادة المشركين للأصنام لا تنبع من هدى ولكنها خضوع إلى هوى ؛ لأن الهدى هو الطريق الموصل للغاية المعتبرة ، والهوى هو خواطر النفس التى تحقق شهوة . ولهذا نرى بعضاً من الذين يريدون إضلال البشر قد خرجوا بمذاهب ليست من الدين فى شىء ، مثل القاديانية والبهائية والبابية ، وغير ذلك من تلك المذاهب ، هؤلاء الناس يدعون التدين ، وعلى الرغم من ذلك يقدمون التنازلات فى أمور تمس الأخلاق ، ورأينا مثل ذلك فى بعض من القضايا التى نظرتها المحاكم أخيراً ، كالذى يدعى التدين ويقبِّل كل امرأة ، ولا ينظم العلاقة بين الناس بقواعد الدين ، ولكن يطلق الغرائز حسب الهوى . وذهب إليه أناس لهم حظ كبير ومرتبة من التعليم ،

وقد أوهموا أنفسهم بخديعة كبرى ، وظنوا أنهم أخذوا بالتدين ، بينما هم يأخذون حظ الهوى المناقض للدين .

﴿ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴾

(من الآية ٥٦ سورة الأنعام)

أى أنك يا رسول الله عليك بإبلاغ هؤلاء المشركين أنك لا تتبع أهواءهم التى تقود إلى الضلالة ؛ لأن من يتبع مثل تلك الأهواء ينحرف عن الحق ، ولا يكون من المهتدين .

ومن بعد ذلك يقول الحق :

﴿ قُلْ إِنِّى عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَكَذَّبْتُم بِهِۦ مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾

هنا يبلغ الحق رسوله صلى الله عليه وسلم أن تركه لعبادة الأصنام وإن كان أمراً قد اهتدى إليه صلى الله عليه وسلم بفطرته السليمة ، فإنه قد صار الآن من بعد البعثة عبادة ؛ لأن اصطفاء الحق له جعله يتبين هدى الله بالشريعة الواضحة فى « افعل » ولا « تفعل » ؛ فالرسول صلى الله عليه وسلم هو الأسوة الحسنة للناس ، ويؤدى كل فعل حسب ما شرع الله ، ويتبعه المؤمنون برسالته .

ومثال على ذلك من حياتنا المعاصرة : لقد نزل القرآن بتحريم الخمر ، والمؤمنون لا يشربون الخمر لأن الحق نهى عن ارتكاب هذا الفعل . ونجد الأطباء الآن فى كل بلدان العالم يحرمون شرب الخمر لأنها تعتدى على كل أجهزة الإنسان : الكبد ، والمخ ، والجهاز العصبى ، والجهاز الهضمى . ونجد « أفلاما » تظهر أثر كأس الخمر على صحة الإنسان . وقد يرى إنسان غير مؤمن مثل هذا « الفيلم » فيمتنع عن الخمر

امتناع ابتغاء المصلحة لا امتناع التدين . ولكن علينا نحن ـ المسلمين ـ أن نقبل على مثل هذا الامتناع لأنه من الإيمان .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾

(سورة فصلت)

هكذا نعرف أنه لا أحد أحسن قولاً ممن يمتثل إلى أوامر الحق لأنه مُقرّ بوحدانية الحق سبحانه ، ويعمل كل عمل صالح ويقرّ بأن هذا العمل هو تطبيق لشريعة الله :

« قل إنى على بينة من ربى » وهذا القول يدلنا أننا دون بينة من الله لا نعرف المنهج ، ولكن ببينة من الله نعلم أنه إله واحد أنزل منهجاً « افعل » و« لا تفعل » . وجاء الحق هنا بكلمة « ربى » حتى نعرف أنه الخالق الذى يتولى تربيتنا جميعاً . ومادام سبحانه وتعالى قد خلقنا ، وتولى تربيتنا فلا بد أن نمتثل لمنهجه . وقد أنزل الإله تكليفاً لأنه معبود ، وهو فى الوقت نفسه الرب الذى خلق ورزق ، ولذلك نمتثل لمنهجه ، أما المكذبون فماذا عنهم ؟

﴿ وَكَذَّبْتُم بِهِۦ مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴾

(من الآية ٥٧ سورة الأنعام)

فالذين كذبوا بالله اتخذوا من دونه أنداداً ، ولم يمتثلوا لمنهجه ، بل تمادى بعضهم فى الكفر وقالوا ما رواه الحق عنهم :

﴿ وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ ﴾

(سورة الأنفال)

وعندما نناقش ما قالوه ، نجد أنهم قالوا : « اللهم » ، وهذا اعتراف منهم بإله يتوجهون إليه . وماداموا قد اعترفوا بالإله فلماذا ينصرفون عن الامتثال لمنهجه وعبادته ؟ . هم يفعلون ذلك لأنهم نموذج للصلف والمكابرة المتمثل فى قولهم : « إن

كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم » .

ألم يكن من الأجدر بهم أن يُعملوا العقل بالتدبر ويقولوا : إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا إليه .

ونجد أيضاً أنهم لم يردوا على رسول الله فلم يقولوا : اللهم إن كان هذا هو الحق من عند محمد بل قالوا : « اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك » . إنهم يردُّون أمر الله ويطلبون العذاب ، وتلك قمة المكابرة ، والتمادى فى الكفر وذلك بطلبهم تعجيل العذاب ، ولذلك يقول لهم رسول الله : (وكذبتم به ما عندى ما تستعجلون به) .

والاستعجال هو طلب الإسراع فى الأمر ، وهو مأخوذ من « العَجَلة » وهى السرعة إلى الغاية ، أى طلب الحدث قبل زمنه . وماداموا قد استعجلوا العذاب فلا بد أن يأتيهم هذا العذاب ، ولكن فى الميعاد الذى يقرره الحق ؛ لأن لكل حدث من أحداث الكون ميلادا حدده الحق سبحانه :

﴿ مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴾

(من الآية ٥٧ سورة الأنعام)

إن الحكم لله وحده ، فإن شاء أن ينزل عذاباً ويعجل به فى الدنيا كما أنزل على بعض الأقوام من قبل فلا راد له ، وإن شاء أن يؤخر العذاب إلى أجلٍ أو إلى الآخرة فلا معقب عليه .

ومن حكمة الحق أن يظل بقاء المخالفين للمنهج الإيمانى تأييداً للمنهج الإيمانى . ويجب أن نفهم أن الشر الذى يحدث فى الكون لا يقع بعيداً عن إرادة الله أو على الرغم من إرادة الله ، فقد خلق الحق الإنسان وأعطاه الاختيار ، وهو سبحانه الذى سمح للإنسان أن يصدر منه ما يختاره سواءً أكان خيراً أم شراً . إذن فلا شىء يحدث فى الكون قهراً عنه ؛ لأنه سبحانه الذى أوجد الاختيار . ولوأراد الحق ألَّا يَقْدِر أحد على شر لما فعل أحد شراً . ولكنك أيها المؤمن إن نظرت إلى حقيقة اليقين فى فلسفته لوجدت أن بقاء الشر وبقاء الكفر من أسباب تأييد اليقين الإيمانى .

كيف ؟ لأننا لو عشنا في عالم لا يوجد به شر لما كان هناك ضحايا ، ولو لم يوجد ضحايا لما كان هناك حث على الخير وحضّ ودفع إليه . ولذلك تجد روح الإيمان تقوى حين يهاج الإسلام من أى عدو من أعدائه ، وتجد الإسلام قد استيقظ فى نفوس الناس ، فلو لم يوجد فى الكون آثار ضارة للشر ، لما اتجه الناس إلى الخير . وكذلك الكفر من أسباب اليقين الإيمانى ، فعندما يطغى أصحاب الكفر فى الأرض فساداً واستبداداً ، نجد الناس تتدرع باليقين وتتحصن بالإيمان لأنه يعصم الإنسان من شرور كثيرة . إذن فوجود الشر والكفر هو خدمة لليقين الإيمانى .

﴿ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴾

(من الآية ٥٧ سورة الأنعام)

نعم إن الحكم لله لأنه سبحانه يفصل بين المواقف دون هوى لأنه لا ينتفع بشىء مما يفعل ، فقد أوجد الحق هذا الكون وهو فى غنى عنه ؛ لأن الله سبحانه وتعالى كل صفات الكمال ولم يضف له خلق الكون صفة زائدة ، وقد خلق سبحانه الكون لمصلحة خلقه فقط . ويبلغنا الرسول :

﴿ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾

هذا بلاغ من رسول الله لكل الخلق بأن أحداث الكون إنما يجريها الحق بإرادته وبمواقيت لا يعلمها إلا هو سبحانه ، وهو ـ جل وعلا ـ الذى يأذن بها . . أى قل لهم أيها النبى : لو كان فى قدرتى وإمكانى ما تستعجلون به من العذاب لانتهى الأمر بينى وبينكم ولأهلكتكم بعقاب وعذاب عاجل غضبا لربى وسخطا عليكم من تكذيبكم به ـ سبحانه ـ ولتخلصت منكم سريعا ، لكن الأمر ليس لى ، إنه إلى الله الحكيم الذى يعلم ما يستحقه الظالمون . ويقول ـ سبحانه ـ فى موضع آخر من القرآن الكريم :

﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨﴾ ﴾

(سورة هود)

وحكمة الله ـ إذن ـ هي التي اقتضت تأجيل العذاب إلى وقت يحدده الله ، وفي هذا ما يجعل بعضاً من الكافرين يجترئون على الله ويوغلون في الكفر ويقولون : ما الذي يمنع عنا العذاب ؟

إنهم يقولون ذلك استهزاءً وسخرية ، ولا يعلمون أن العذاب آت حتماً ولا خلاص لهم منه ؛ لأن الله صادق في وعده ووعيده وسيأتيهم العذاب لأنهم استهزأوا وسخروا فلا مناص لهم عنه ولا مهرب لهم منه .

وفي موقع آخر يقول الحق :

﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٥٤﴾ يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾

(سورة العنكبوت)

وهكذا نرى تحدي الكفار لرسول الله صلى الله عليه وسلم ليأتيهم بالعذاب ، لكنه تحدٍ مردود عليه بأن الحق هو الذي يقرر ميلاد كل أمر ولسوف يأتيهم العذاب فجأة ، وهو واقع لا محالة وإن جهنم ستحيط بهم ، وسيغمرهم العذاب من أعلاهم ومن أسفلهم ، ويسمعون صوت الملك الموكل بعذابهم : ذوقوا عذاباً أنكرتموه وهو جزاء أعمالكم .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ ﴾

و « مفاتيح » هى إما جمع لِمفْتح أو جمع لمَفْتح . و« المِفْتح » هو آلة الفتح ، ومثلها مثل « مِبرد » أى آلة البرد . وآلة الفتح هى المفتاح . و« مَفتح » هو الشيء الذى يقع عليه الفتح مثل الخِزانة ، ونعلم أن بعض الأسماء تأتى على وزن « مِفْعل » أو « مفعال » . فإذا أخذنا « مفاتح » على أساس أنها جمع لِمفتح ، فمعنى ذلك أن الحق سبحانه وتعالى يملك المفاتيح التى تفتح على الغيب . وإن أخذنا « مفاتح » على أساس أنها جمع « مَفْتح » أى خِزانة فمعنى ذلك أن الحق عنده خزائن الغيب . وكلا الأمرين لا زمان له . والخزائن لا يوضع فيها إلا كل نفيس وهو مخزون لأوانه ولكل خزانة مفتاح . يقول الحق عن قارون :

﴿ إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَـوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِـمْ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْـكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُوْلِى ٱلْقُوَّةِ ﴾

(من الآية ٧٦ سورة القصص)

هكذا نعلم أنه لا يوجد مخزون إلا وهو كنز . وعند الحق مفاتح الغيب ، والغيب هو ما غاب عنك ، وهو نوعان : أمر غاب عنك ومعلوم لغيرك ؛ وهو غيب غير مطلق ولكنه غيب إضافى .

ومثال ذلك ، عندما يقوم نشال بسرقة حافظة نقودك وأنت فى الطريق ، أنت لا تعرف أين نقودك ، ولكن اللص يعرف تماماً مكان ما سرق منك . هكذا ترى أنه يوجد فارق بين غيب عنك ، ولكنه ليس غيباً عن غيرك .

ولكن هناك ما يغيب عنك وعن غيرك ، ولهذا الغيب مقدمات إن أخذ الإنسان بها فهو يصل إلى معرفة هذا الغيب ، وهذا ما نراه فى الاكتشافات العلمية التى تولد أسرارها بأخذ العلماء بالأسباب التى وضعها الله فى الكون ، وهو لون من الغيب الإضافى . وهناك لون ثالث من الغيب هو الغيب المطلق ، وهو الغيب الذى لا يعلمه إلا الله ، مثل ميعاد اليوم الآخر ، وغير ذلك من الغيب الذى يحتفظ الله به لنفسه .

ولذلك نقول : إنه لا يوجد أبداً فى هذه الدنيا عالِمُ غيبٍ إلا الله . وعنده سبحانه مفاتح الغيب ، هذا الغيب الذى لا نحس به حساً مشهوداً بالمدركات ، أو كان غيباً بالمقدمات أى أنه ليس له أسباب يمكن لأحدٍ أن يأخذ بها .

ويقول الحق :

﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

الحق سبحانه وتعالى - إيناساً لخلقه - حينما يأتى لهم بأمر غير محس لهم ، فإنه يوضح ذلك بالمحس . وعالم المشهد المحس إما مسموع وإما مرئى وإما متذوق وإما ملموس . وهناك عالم الغيب ، فقد يصطفى الله بعضاً من خلقه ليلقى إليهم هبَّاتٍ من فيضه وعطائه توضح بعض الأمور ، ومثال ذلك العبد الصالح الذى سار معه موسى عليه السلام وقال :

﴿ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾

(من الآية ٨٢ سورة الكهف)

ومثل هذه الهبَّة تأتى لتثبت لصاحبها أنه على علاقة بربه ، ولا يعطى الحق سبحانه هذه الهبات لتصبح عملاً ملازما للإنسان ، وجزءاً من طبيعته بحيث نذهب إليه فى كل أمر فيخبرنا بما ينبغى علينا أن نقوم به . إن الأمر ليس كذلك بل هى مجرد هبات صفائية ، يمنحها - سبحانه - وينزعها ويمنعها ؛ فسبحانه عنده مفاتح كل الغيب ، ويأتى لنا بالعالم المحسوس : « ويعلم ما فى البر والبحر » . وأتى الحق بالبر أولاً قبل البحر ، والبر محس لكل الناس بما فيه من جمادات ونباتات وأشجار وحيوانات وأناس وبلاد وطرق . وهناك من البلاد ما لا تطل على بحار أبداً ، ولذلك جاء الحق بالبر أولاً ، ثم جاء بالبحر الذى يمكن أن يُشاهد ، ولكن عالم البحر أخفى من عالم البر . وعوالم البحر تأخذ من مسطح الكرة الأرضية مساحات كبيرة للغاية وكل يوم نكتشف فى عالم البحار جديدًا .

ومن بعد ذلك يردنا الحق إلى البر مرة أخرى فيقول :

﴿ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا ﴾

(من الآية ٥٩ سورة الأنعام)

إلى هذه الدرجة يوضح لنا الحق علمه الأزلى ؛ فسبحانه يعلم كل ما يتعلق بورقة شجرة بعد أن تؤدى مهمتها من التمثيل الكلورفيلى وتغذية الشجرة وإنضاج الثمار ثم سقوطها على الأرض . والسقوط كما نعرفه هو هبوط شيء مادى إلى أسفل ، وفسره العلماء من بعد ذلك بالجاذبية الأرضية .

وعندما تسقط الورقة من الشجرة تكون خفيفة الوزن ، والحق سبحانه وتعالى هو المتصرف فى الأجواء التى تحيط بمجال هبوطها ، وحركة الريح التى تحركها . ولماذا جاء الحق بمسألة الورقة هذه ؟ جاء لنا الحق بمثل هذا المثل لنعلم أنه عندما ذيل الحق سبحانه الآية السابقة بقوله :

﴿ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾

(من الآية ٥٨ سورة الأنعام)

إن هذا التذييل قد احتاج إلى أن يشرحه لنا الحق بأن يعلم أوقات تحركات كل ورقة من أية شجرة ، وهذا يدل على كمال الإحاطة والعلم ، فضلا على أن هذه الأمور لا يترتب عليها ثواب ولا عقاب ، فكيف بالأمور التى يترتب عليها الثواب والعقاب ؟ لا بد أنه سبحانه وتعالى يعلمها ويفصل فيها .

﴿ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَـٰتِ ٱلْأَرْضِ ﴾

(من الآية ٥٩ سورة الأنعام)

إنه سبحانه أيضاً يعلم بالحبة التى تختفى فى باطن الأرض وأحوالها .

ويقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ ﴾

(من الآية ٥٩ سورة الأنعام)

أى أنه جلت قدرته يعلم أمر كل كائن فى هذا العالم ؛ لأن كل كائن فى هذه الدنيا إما رطب وإمّا يابس ، وسبحانه لا يعلم ذلك فقط ولكن كل ذلك معلوم له ومكتوب أيضاً . ويشرف على حركة تلك الكائنات الملائكةُ المدبرات أمرا ، وحين تجد الملائكة أن حركة الكون تسير بنظام محكم دقيق على وَفق ما فى الكتاب ، فإنها لا تفتر عن تسبيح الله ليلاً أو نهاراً :

﴿ وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَنۡ عِندَهُۥ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسۡتَحۡسِرُونَ ۝١٩ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ ۝٢٠ ﴾

(سورة الأنبياء)

وللحق مُلك السموات والأرض ، ومن حقه وحده أن يُعبَد ، ولا تتكبر الملائكة عن عبادته والخضوع له ولا يشعرون بالملل من العبادة والتنزيه له سبحانه . وأنت أيها العبد تكون في بعض الأمور مقهوراً ولك في بعض الأمور اختيار ، وهو سبحانه عالم بما ستختار .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا جَرَحۡتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبۡعَثُكُمۡ فِيهِ لِيُقۡضَىٰٓ أَجَلٞ مُّسَمّٗىۖ ثُمَّ إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ۝٦٠ ﴾

نعلم جميعاً أن النوم ليس عملية اختيارية ، وفي بعض الأحيان نرى من يسلط الله عليه الهموم فلا يعرف النوم طريقاً إلى جفونه . ونعلم أن النوم عملية قسرية يخلقها الله في الإنسان لتردعه عن الحركة بعد أن يستنفد كل قدرته على التحرك . والنوم لون من الردع الذاتي .

ولماذا جعل الحق النوم كالوفاة ؟

يعرف البعض أن الوفاة في معناها هي فصل الروح عن الجسد . وكأن الحق يقول لنا : إياكم أن تظنوا أن وجود الروح في الجسد هو الذي يعطي للإنسان الحياة والحركة والتصرف ، لا ، إنني سأحتفظ بالروح في الجسد ولا أقدره على التصرف

الاختيارى ، وذلك حتى لا تفتتنوا فى الروح ؛ لأن هناك أجهزة لا دخل لاختيارك فيها مثل نبض القلب والتنفس ، وغير ذلك من حركات أجهزة الجسم . وضرب لنا الحق المثل بأهل الكهف الذين أنامهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعا :

﴿ وَلَبِثُواْ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَـٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُواْ تِسْعًا ﴿٢٥﴾ ﴾

(سورة الكهف)

النوم ـ إذن ـ نعمة من الله جعلها فى التكوين الذاتى ، ولذلك إذا أردت أن تنام فليس ذلك بمقدورك ولكنه بمقدور الحق . إنه يقال عن النوم : ضيف إن طلبته عنتك ـ أى أتعبك ـ وإن طلبك أراحك . ويأتى النوم للمتعب حتى ولو نام على حصى ، وقد لا يأتى النوم لمن يتهيأ له ولو كان على فراش من حرير .

والحق سبحانه يقول :

﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾

(سورة الروم)

النوم ـ إذن ـ آية كاملة بمفردها ، ولا يأتى النوم بالليل فقط ، ولكن يأتى بالنهار أيضاً ؛ لأن هناك أعمالاً تتطلبها حركة الوجود ويقوم بها أناس فى أثناء الليل ؛ لذلك ينامون بالنهار .

ويتوفانا سبحانه بالليل ويعلم ما جرحنا فى أثناء النهار ، ثم يرسلنا إلى أجل يعلمه هو سبحانه ، ثم يبعثنا فى يوم القيامة لينبئنا بكل أعمالنا . وسمّى الحق النوم وفاة ، وسمى الاستيقاظ بعثا ، لأن الإنسان فى مثل هذه الأحوال لا يملك حركته الاختيارية . ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما وقف ليعلن بعثته بعد ثلاث سنوات من الدعوة سرّاً :

(إنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد) إنكم لتموتن كما تنامون ، ولتبعثن كما تستيقظون ، ولتجزون بالإحسان إحساناً ، وبالسوء سوءاً ، وإنها لجنة أبداً أو لنار أبداً) .

عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : صعد النبى صلى الله عليه وسلم الصفا ذات يوم فقال : « يا صباحاه » فاجتمعت إليه قريش قالوا : مالك ؟ قال أرأيتم لو أخبرتكم أن العدوّ يصبّحكم أو يمسّيكم أما كنتم تصدقونى ؟ قالوا : بلى ، قال : « فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد » فقال أبو لهب : تبا لك ألهذا جمعتنا ؟ فأنزل الله سبحانه : « تبت يدا أبى لهب »[1] .

والحق سبحانه إما أن يشل الجوارح ويعطلها ويمنعها من الحركة ، أو يأخذ الروح من الجسد ، فعندما يشل الجوارح ويمنعها ينام الإنسان ، وعندما يأخذ الروح ويمسكها يحدث الموت . ولذلك يجب أن نفهم أن للنوم قانوناً ، ولليقظة قانوناً ، وللموت قانونا ، ولكل قانون قواعده ، فلا قانون اليقظة كقانون النوم ، ولا قانون النوم كقانون الموت ، ولا قانون البعث كقانون الموت . فهناك يقظة ، ونوم ، وموت وبعث ، ومن الخطأ أن نأخذ قانون حالةٍ ما لنطبقه على الحالة الأخرى .

إن الحق يضرب لنا المثل الواضح فينا : فالإنسان منا له حالة من اليقظة تسيطر الروح فيها على حركته الاختيارية ، وعندما ينام تعجز الروح عن الحركة الاختيارية وتبقى الحركات الاضطرارية . فعندما ينام الإنسان قد يرى بعضاً من الرؤى والأحلام يقابل فلاناً ويراه مرتدياً زياً معيناً بألوان معينة ، فبأى شىء أدرك الألوان وعيونه مغمضة ؟ ، إذن فهناك وسائل إدراك غير العين . وكذلك الزمن يأخذ حظه فى أثناء اليقظة ، لكن فى أثناء النوم يرى الإنسان حلماً فى سبع ثوان ويحكيه فى نصف ساعة . وقد ينام اثنان فى فراش واحد ، أحدهما يحلم بأنه التقى بالأحباب والأصحاب ويأكل ويشرب ويسعد ويأنس ، والآخر يحلم بأنه التقى بأعدائه وعانى منهم ومن عراكه معهم ، إذن فالزمن اختلف وكذلك المعيّة . وهكذا اختلف قانون النوم عن قانون اليقظة . وكذلك يختلف قانون الموت عن قانون الحياة :

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

(١) رواه البخاري والترمذي فى التفسير والبيهقى فى الدلائل وأحمد والطبرى .

والجارحة كما قلنا هى التى تعمل ليكسب الإنسان . إذن فقد جاء لنا الحق بكل حالات اليقظة والنوم والموت والبعث . ولكل حالة قانونها ، ونحن نعرف قانون اليقظة وقانون النوم لأننا نتعرض لهما ، فإذا قيل لنا : إن هناك قانوناً للموت فنحن نقيس ذلك على ترقي القوانين من اليقظة إلى النوم ، وعندما يقال لنا : إن هناك بعثاً فنحن نصدق أيضاً .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ﴾

والقاهر هو المتحكم بقدرة فائقة محيطة مستوعبة . ولقائل أن يقول : مادام الحق هو القاهر فكيف يكفر الكافر وكيف يعصى العاصى ؟ . ونقول : إن الكافر يكفر بما خلق الله فيه من اختيار وكذلك تكون معصية العاصى . ولكن الحق أوجد فى الإنسان اضطراريات وقهريات تدلنا على أنه سبحانه فعال لما يريد . ولا أحد من المتمردين على منهج الله يجرؤ أن يسحب هذا التمرد على ما يجريه الله عليه من مرض أو موت .

والمتمرد أو الكافر إنما يختار من باطن الاختيار الذى خلقه الله فيه ، والله هو الحاكم للميلاد والموت ولا شيء للإنسان فيهما ، وكذلك هو سبحانه له تصريف أمور الغنى والفقر ، ولا يجرؤ متمرد على أن يتمرد على المصائب التى تحدث له وإن تمرد على منهج الله ؛ لأن التمرد هو من باطن خلق الله للاختيار الذى أودعه فى الإنسان .

﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ﴾

(سورة الأنعام).

وحين يتكلم الحق سبحانه عن ذاته ونفسه ، قد يتكلم بضمير المتكلم . فيقول :

﴿ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ ﴾

(من الآية ١٤ سورة طه)

وقد يقول سبحانه :

﴿ إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩ ﴾

(سورة الحجر)

ومرة يتكلم عن ذاته بما نسميه نحن ضمير الغيبة مثل قوله هنا :

﴿ وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦ ﴾

(من الآية ٦١ سورة الأنعام)

لأن ضمير المتكلم معه دليله ، إنّ المتكلم يقول : أنا ، ويخاطبك فيقول : أنت . لكن الذى يتكلم بضمير الغيبة لابد أن يعود الضمير على مرجع لهذا الضمير . وحين يتكلم الحق عن ذاته بما يسمى لدينا ضمير الغيبة فإنه ـ سبحانه ـ يريد أن يبين لنا أنه فى أجلىَ مجال المشاهدة والحضور ؛ فكأنه إذا قال « هو » لا تنصرف إلا إلى ذاته العليا ؛ فكأنه لا يوجد مرجع ضمير إلا هو ، ولذلك يقول :

﴿ قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ﴾

(سورة الإخلاص)

وسبحانه يقول : « هو » قبل أن يذكر المرجع ، وهو « الله » ؛ مع أن الأصل فى المرجع أن يتقدم ، ولكنه يقول :

﴿ قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ﴾

(سورة الإخلاص)

فكأنه إذا أُطلِق هذا الضمير فلا ينصرف إلا إلى ذاته . وحين يتكلم بضمير التكلم نراه يتكلم عن ذاته بضمير الإفراد فيقول :

﴿ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ ﴾

(من الآية ١٤ سورة طه) .

ويقول مرة أخرى :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝ ﴾

(سورة الحجر)

لماذا ؟. إنه سبحانه إن تكلم عن فعل من أفعاله نجد أن كل فعل من أفعاله يتطلب صفات الكمال كلها فيه ، لأنه يتطلب علماً بما يتكلم به ، ويتطلب قدرة لإبرازه ، ويتطلب حكمة ، ويتطلب صفات كثيرة ، فإذا قال سبحانه :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝ ﴾

(سورة الحجر)

فالتنزيل فعل ، والفعل يقتضى صفات متعددة . فلابد أن يأتى بضمير التعظيم وهو الجمع ؛ لأن كل صفات الكمال متجلية فى التنزيل . ولكن إن تكلم عن الذات فى التوحيد لا يأتى بضمير الجمع أبداً ؛ لأنه يريد أن تنفى عن ذاته أنه متعدد ؛ لأنه هو الواحد الذى لا شريك له ، فحين يتكلم عن الذات يقول :

﴿ إِنَّنِيٓ أَنَا اللَّهُ ﴾

(من الآية ١٤ سورة طه)

وحين يتكلم عن الذكر يقول :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ ﴾

(من الآية ٩ سورة الحجر)

ففى مجال التعظيم والتنزيل الذى يتطلب تجلى كثير من صفاته ـ جل شأنه ـ يأتى بضمير الجمع ، وفى التوحيد والتفرد ونفى الشريك يأتى بضمير الإفراد .

هنا يقول سبحانه :

﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ﴾

(من الآية ٦١ سورة الأنعام)

وكلمة « قاهر » إذا سمعتها تتطلب مقهوراً . ومادام هناك قاهر ومقهور ففى ذلك

ميزانان بين مجالين . ومادام هو قاهراً ففى أى مجال وبأية طريقة سيكون الطرف الثانى مقهوراً له ؟ إننا نعلم أن كل شيء فى الكون مقهور له ، فقد قهر العدم فأوجد ، وقهر الوجود فأعدم . وقهر الغنى فأفقر ، وقهر الفقر فأغنى . وقهر الصحة فأمرض ، وقهر المرض فأصح .

إذن فكل شيء فى الوجود مقهور لله حتى الروح التى جعلها الله مصدر الحس والحركة للإنسان يقهرها سبحانه . فإذا جاء إنسان وقتل إنساناً آخر بأن ضربه على المكان الذى لا توجد عند عدمه وفقده حياة بأن أذهب صلاحيته للبقاء تنسحب الروح . وهذا يوضح لنا أن الروح فى الجسم هى المسيطرة ، لكن مَن ينقض البنية التى تسكنها الروح يُذْهِبُ الروح ويخرجها من الجسم . ومرة يقهر المادة بالروح ، فيأخذ الروح من غير آفة ومن غير أية إصابة ويتحول الجسم إلى رمّة . إذن فسبحانه يقهر الروح ، ويقهر المادة ، ولا توجد متقابلات فى الوجود عالية ومتأبية ومتمردة عليه ـ سبحانه ـ :

﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ﴾

(من الآية ٦١ سورة الأنعام)

والقاهر هو المتحكم بقدرة شاملة على المقهور . وانظر أى تقابل فى الحياة تجده مدينا وخاضعا لصفة القهر . «وهو القاهر فوق عباده» وكلمة «فوق» تقتضى مكانية . ولكن المكانية تحديد ، ومادام القهر يتطلب قدرة فهل يعنى ذلك أن القادر لابد أن يكون فى مكان أعلى ؟ لأننا نجد ـ على سبيل المثال ولله المثل الأعلى ـ من يضع قنبلة تحت العمارة العالية ويقهر من فيها . إذن فالقهر لا يقتضى الفوقية المكانية ، إذن فالفوقية المرادة هى فوقية الاستعلاء ، ونحن عندما تكلمنا عن الحق سبحانه وتعالى أوضحنا أن نلتزم بإطار « ليس كمثله شيء » فهو ذات لا ككل الذوات . وصفاته ليست ككل الصفات ، وكذلك نأتى ونقول فى فعله ، وعلى سبيل المثال نجد خلق الله يحتاجون إلى زمن ويحتاجون إلى علاج ، وكل جزئية من الفعل تحتاج إلى جزئية من الزمن ، لكن هو سبحانه إذا فعل أيحتاج فعله إلى زمن ؟ لا ؛ لأنه لا يفعل بعلاج ، ولا يجلس ليباشر العملية ، إنما يفعل سبحانه بـ « كن » ، إذن القهر فى قوله : « وهو القاهر فوق عباده » هو قهر الاستعلاء .

ولذلك يقول لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ينزل ربنا إلى السماء الدنيا كل ليلة لآخر رمضان » .

ففى أية ليلة ينزل فيها الله ؟ ليلتك أم ليلة المقابل لك ؟ أم الليلة التى تشرق الشمس فيها فى مكان ، وتغيب عن مكان آخر ؟ إذن ، فكل واحد من المليون من الثانية ينشأ ليل وينشأ نهار ، وهكذا نعلم أن الله معك ومع غيرك ، باسطا لك ولغيرك يده .

﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ﴾

(من الآية ٦٤ سورة المائدة)

لذلك لا تفهم قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسىء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسىء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها »[1] . لا تفهم ذلك بتخصيص ليل معين أو نهار معين ؛ لأن يده مبسوطة فى كل زمان وفى كل مكان وليس كمثله شىء .

« وهو القاهر فوق عباده » . وعباده من مادة العين والباء والدال ، ومفردها « عَبْد » ، وجمعها يكون مرة « عبيدًا » وأخرى « عِبادًا » . و« العباد » هم المقهورون لله فيها لا اختيار لهم فيه ، وهم أيضا المنقادون لحكم الله فيها لهم فيه اختيار ؛ لأن الإنسان مقهور فى بعض الأمور ولا تصرف له فيها : لا تصرف له فى نَفَسه ، ولا تصرف له فى نبضات قلبه ، ولا تصرف له فى حركة المعدة ، ولا تصرف له فى حركة الأمعاء ، ولا تصرف له فى حركة الحالبين ، ولا تصرف له فى حركة الكُلْيَة ، وكلها مسائل تشمل المؤمن و الكافر ، والكل مقهور فيها .

إن من رحمة الله أننا مقهورون فيها ولا رأى لنا ؛ لأنه لو كان لنا رأى فى مثل هذه الأمور لكان لنا أن نسأل : كيف ننظم عملية تنفسنا فى أثناء النوم ؟. إذن فمن رحمة الله أن منع عنا الاختيار فى بعض الأمور التى تمس حياتنا . ومن رحمة الله أن كلًا منا مقهور فيها ، فمن يستطيع أن يقول لمعدته : اهضمى الطعام ؟ ومن يستطيع أن يأمر الكلى بالعمل ؟!!.

إذن فكل أمر مقهور فيه الإنسان ، هو فيه منقاد لله ولا اختيار له . أما الأمر الذى لك فيه اختيار فهو مناط التكليف . ولذلك لا يقول لك المنهج : « افعل » إلا وأنت

(١) رواه أحمد ومسلم عن أبى موسى فى التوبة ، ورواه النسائى فى التفسير .

صالح ألا تفعل ، ولا يقول لك « لا تفعل » إلا وأنت صالح أن تفعل .

إذن الأمور الاختيارية هى التى وردت فيها « افعل » و« لا تفعل » . وهى الأمور التى فيها التكليف . ومن يطع ربنا فى منهج التكليف يصبح وكأنه مقهور للحكم ، ويكون ممن يسميهم الله « عِبادًا » ، فكأنهم تنازلوا عن اختيارهم فى الأحكام التكليفية ، وقالوا : يارب لن نفعل إلا ما يريده منهجك . وكل منهم ينفذ حكم الله فيما له فيه اختيار ألا ينفذه . أما العبيد فهم من يتمردون على التكليف ، فالمؤمنون بالله هم عباده . ولذلك يقول الحق :

﴿ قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴾

(من الآية ٥٣ سورة الزمر)

ويوضح سبحانه سمات هؤلاء العباد فيقول :

﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَـٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَـٰمًا ﴿٦٣﴾ ﴾

(سورة الفرقان)

هؤلاء هم العباد الذين تنازلوا عن اختيارهم فى الفعل ، وقبلوا أن يكونوا مأمورين ومطيعين لله فيما كلفً به ، وهم فى الأمور التى لا اختيار لهم فيها يكونون مثل بقية الكائنات ، فكل الخلق والكون عبيد الله ، فيما لا اختيار لهم فيه أمّا المؤمنون به فهم عباد الله . ولكن آية واحدة فى القرآن وهى التى تثير بعض الجدل فى مثل هذا الموضوع . ساعة يقول الحق سبحانه وتعالى عما يحدث فى الآخرة :

﴿ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَـٰٓؤُلَآءِ ﴾

(من الآية ١٧ سورة الفرقان)

وكأن « عبادى » هنا أطلقت على الضالين ، ونقول : نعم ؛ لأن الكل فى الآخرة عباد ؛ إذ لا اختيار لأحد هناك . لكن فى الدنيا فالمؤمنون فقط هم العباد ، والكافرون عبيد لأنهم متمردون فى الاختيارات .

﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً ﴾

(من الآية ٦١ سورة الأنعام)

ومع مجىء معنى القهر يرسل الحق حفظة ، وإذا كان القهر يعنى الغلبة والتملك والسيطرة والقدرة ، فهو قهار على عباده وأيضاً يرسل عليهم حفظة .

ويقول فى موقع آخر :

﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ ﴾

(من الآية ١١ سورة الرعد)

وهكذا يكون قهر الله لنا ، لمصلحتنا نحن ؛ لأن الضعيف حين يقهره جبار ، يمكنه أن يقول : الله هو القهار الأعلى ، وفى هذا تذكير للقوى نسبياً أن هناك قهاراً فوق كل الكائنات ، فالله قهار فوق الجميع ، وبذلك يرتدع القوى عن قهره ، فيمتنع عن الذنب ، وتمتنع عنه العقوبة ، وفى ذلك رحمة له .

﴿ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً ﴾

(من الآية ٦١ سورة الأنعام)

وجاء معنى « الحفظة » فى القرآن فى قوله الحق :

﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ ﴾

(سورة ق)

فكل لفظ له رقيب عتيد ، حفظة أى ملائكة يحفظون ويحصون أعمالكم ويسجلونها وهم الكرام الكاتبون ، وكلما تقدم العلم أعطانا فهما للمعانى الغيبية ، وإن كانت المعانى الغيبية التى نستقبلها عن الله دليلنا فيها السماع ، ففيه رقيب وعتيد يكتبان فقط ، هكذا قال ربنا فآمنا بما قال وانتهت المسألة ، وهذا هو المطلوب . ولذلك قال الحق :

﴿ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ ﴾

(من الآية ٣ سورة البقرة)

لأن الإيمان لو كان بالمشهد فما الفرق - إذن - بين الناس ؟ إن الإيمان فى كماله وقمته هو الإيمان بالغيب ، فإذا قال الحق سبحانه وتعالى :

﴿ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ ﴾

(سورة ق)

فهذا خبر عن الملائكة الذين يكتبون الحسنات ، ويكتبون السيئات . وحين ننظر إلى البشر ، نجدهم يتفاوتون ويرتفع بعض منهم على بعض فى صفات وقدرات ، وكلما تقدم الزمن عرف الإنسان سرّاً من أسرار الله يترقى به . وقديماً عندما صنعوا جهاز التسجيل كان حجمه كبيراً ثم تقدم العلم حتى صغر حجم المسجل ، إذن كلما تقدمت الصنعة صغرت الآلة ، لدرجة أنهم صنعوا مسجلاً فى حجم الساعة ، ثم صنعوا آخر فى حجم « فص الخاتم » ، وصنعوا مسجلاً يشبه الحبوب ، وينثرونها فى أى مكان عندما يريدون التقاط أسرار جماعة أو أسرار مجلس ، إذن كلما قويت قدرة الصانع دقت الصنعة . فإذا نسبتها لله ، فأين دقة الذى صنعته أنت بجانب دقة صنعة الله ؟

فإذا كان واحد من البشر قد استطاع أن يأتى بمسجلات غير مرئية مع أن قدرته محدودة ، وحكمته فى الصنعة محدودة ، فإذا قال ربك : إن هناك ملائكة لن تراهم وستحصى عليك أعمالك وهم غيب فقل على العين والرأس ، وسبحانه القائل :

﴿ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿١١﴾ ﴾

(سورة الإنفطار)

وهنا يقول الحق :

﴿ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ ﴾

(من الآية ٦١ سورة الأنعام)

وعندما أراد العلماء أن يعرّفوا الموت قالوا : الموت سهم أرسل ، وعمُرك بقدر سفره إليك ، هو إذن سهم قد انطلق ، لكن عمرك يُقدَّر بمقدار سفره إليك ، وحين يقول الحق : « حتى إذا جاء أحدكم الموت » فهو ينسب الموت لمن ؟ . لقد أبهم الله زمانه ، وأبهم مكانه ، وأبهم سببه ، وأبهم قدره ، وهذا الإبهام هو أشد أنواع

البيان ؛ لأنه مادام قد أبهمه فى كل هذه الأمور يجب أن نستعد للقائه فى كل زمان ، وفى كل مكان ، وبأى سبب .

وإياك أن تتعجب لأنه يحدث فى أى سنٍ ، فإبهام الحق له هو أكبر بيان ؛ لأنه سبحانه لو حدده زماناً أو مكاناً أو سناً أو سبباً ؛ لكان على الإنسان أن ينتظر الموت ، لكن الحق شاء هذا الابهام وهو أقوى أنواع البيان ، ليلفتك ويحثك على أن تنتظره فى أى زمان وفى أى مكان وبأى سبب وفى أى سن ، وبهذا يكون الموت واضحاً أمامنا جميعاً ، ولذلك تخشى ارتكاب أى ذنب حتى لا تقبض روحك وأنت على الذنب ؛ لأنك لا تحب أن تلقى الله وأنت عاصٍ .

وعندما يؤذن لصلاة الظهر ولم تصلّه ، قد تقول : إن وقته ممتد ، وتجد من يقول لك : اضمن لى أنك ستعيش إلى أن ينتهى وقت الظهر . ولذلك يقول النبى صلى الله عليه وسلم : عندما سأله عبدالله بن مسعود رضى الله عنه قائلا : أىّ الأعمال أفضل ؟ قال : الصلاة على وقتها ، قلت : ثم أىٌّ ؟ قال : برّ الوالدين ، قلت : ثم أى ؟ قال : الجهاد فى سبيل الله »[1] .

إنك لا تضمن من عمرك أن تعيش إلى آخر الوقت . ولذلك عندما نقول : إن الإبهامات من أقوى أنواع البيان فيجب أن نصدق ذلك ؛ لأن البعض يقول : ولماذا لم يبين الله لنا ذلك ؟ ودائماً أقول : لقد أوضح الله ما أبهم ، فإن الإبهام هو أقوى بيان ، ألم نر إنسانا ذهب لطبيب ليعالجه فى مسألة فكان الطبيب سبب موته ؟ لقد رأينا ذلك . لقد أخذ هذا الإنسان بالأسباب ولم يمنع ذلك أن قدر الله قد نفذ فيه . ولذلك قال شوقى ـ رحمة الله عليه ـ :

أسد لعمرك من يموت بظفره عند
اللقاء كمن يموت بنابه
إن نام عنك فكل طب نافع
أو لم ينم فالطب من أذنابه

(١) رواه البخارى ومسلم .

فقد يخطىء الطبيب ـ مثلا ـ فى إعطاء حقنة فتنتهى الحياة ويقولون : خطأ الطبيب إصابة الأقدار .

مصداقا لقوله تعالى :

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا ﴾

(من الآية ٦١ سورة الأنعام)

وعندما تأتى كلمة « توفّى » تجدها فى القرآن دائرة على ثلاثة ألوان : اللون الأول هو قول الحق :

﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ﴾

(من الآية ٤٢ سورة الزمر)

وقوله سبحانه :

﴿ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ﴾

(من الآية ١١ سورة السجدة)

ومرة يقول الحق سبحانه :

﴿ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا ﴾

(من الآية ٦١ سورة الأنعام)

سبحانه ـ إذن ـ ينسب الموت له ولملك الموت ، ولرسله .

وهل الرسل يأخذون الأرواح ويقبضونها إلا بإذن من ملك الموت ؟. إنهم جنوده ، فلا أحد يميت دون إذن من الله . فأخذ الأرواح وقبضها إلى الله أمراً ، وإلى ملك الموت وسيلة وواسطة . وإلى الرسل تنفيذاً .

﴿ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴾

(من الآية ٦١ سورة الأنعام)

من أين يأتى التفريط ؟. لقد تقدم فى هذه الآية شيئان اثنان : حفظة يحفظون

عليك تصرفاتك وفعالك ، وهم يأخذون الروح أيضاً . وهؤلاء الملائكة لا يفرطون فى هذه المهمة أو تلك . وحين ننظر فى مادة الـ « فاء » ، والـ « الراء » والـ « طاء » نجدها تأتى مرة « فرّط » ، ومرة « أفرط » . ومن العجيب أنها تأتى للمتقابلين ؛ ففرَّط فى الشيء أى أهمله ، وأفرط فى الشيء أى جاوز الحد والقدر فى الحدث .

وهنا يقول الحق سبحانه : « وهم لا يفرِّطون » أى لا يهملون ولا يقصرون . وفى إحدى قراءات القرآن نجد من يقرأ : « لا يفرطون » بالتخفيف ، والمقصود أنهم لا يتجاوزون الحد . ولذلك نجدالحق يقول :

﴿ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾

(من الآية ٣٤ سورة الأعراف)

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾ ﴾

وكلمة « ردوا » تفيد أن كان لهم التقاء به أولا ، وبعد ذلك سوف يرجعون ، كيف ؟ لقد كانوا منه إيجاداً ثم ردوا إليه حسابا ثوابا وعقابا ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى هو القائل :

﴿ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ ﴾

(من الآية ٥٥ سورة طه)

« ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق » وكلمة « مولى » تعني أنه هو الذى يليك ، ولا يليك إلا من هو قريب منك . وهذا القريب قد يكون مُنجِداً لك إن حدث لك ما يفزعك وهو الذى يعينك ، وهكذا أخذت كلمة « مولى » معنى القريب ، والناصر والمعين الذى تفزع إليه فى شدائدك ، وقد يوجد لك مولى فى الدنيا وهو من الأغيار . ومن الجائز أن يتغير قلبه عليك، ومن الجائز أن تنالك الأحداث التى هى فوق قدرته

وطاقته، ومن الجائز أن يكون لك مولى تنشده وتطلبه لنصرتك فيرفض ؛ لأن خصْمك له بهذا المولى ولاء أقوى وأشد فيقف بجانب خصمك وقد يوهمك أنه معك لكن قلبه ليس معك .

لكن هناك فى الآخرة مولى حق واحد « وردوا إلى الله مولاهم الحق » وتطلق كلمة « موْلى » على السيد حين يعتق عبده . وحين يعتقنا ربنا من النار أليس فى ذلك أعظم ولاية ؟. إنه المولى الحق ، فلا توجد قوة أعلى منه وهو لا يتغير ؛ لأن الأغيار من طبيعة الخلق .

وحين يطلب منك الحق أن تُعمل عقلك لأنك حين تعتمد على واحد ينفعك فى أمورك فأنت تتوكل عليه ، وتطلب مساعدته ، وهنا يأمرك الحق بأن تتوكل على الحىّ الذى لا يموت ، ولا تتكل على واحد من الأغيار فقد يصبح الصباح فتجده قد خلا بك وتخلّ عنك . أما إذا كان مولاك هو الحق فلن يخذلك .

« ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق ألا له الحكم » . ولماذا جاء بكلمة « الحكم » هنا ؟؛ لأننا فى دنيا الأغيار قد يسند سبحانه بعض الأحكام إلى بعض خلقه ؛ فهذا يحكم ، وذلك يتصرف ، وآخر يصدر قراراً بالتعيينات ، وكلها أحكام ، أما فى الآخرة فالحق يقول :

﴿ لِمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾

(من الآية ١٦ سورة غافر)

وأنت فى الدنيا تملك ، ويكون رزق ابنك ـ على سبيل المثال ـ من يدك ، وتملك أن تصدر قراراً بترقية من هو أقل منك ، وتملك أن تخيط الثوب لغيرك إن كانت تلك مهنتك ، ففى الدنيا كل منا يملك بعضاً من أسباب الآخر . لكن فى الآخرة لا يوجد شىء من هذا :

﴿ لِمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾

(من الآية ١٦ سورة غافر)

وساعة تسمع « ألا له الحكم » فـ « ألا » فى اللغة أداة تنبيه لما يأتى بعدها ، ولماذا

تأتى أداة التنبيه هنا ؟ لأن الحكم القادم بعدها حكم مهم . والكلام ـ كما نعرف ـ واسطة بين متكلم ومستمع ؛ لأن المتكلم ينقل أفكاره وخواطره ومطلوباته إلى السامع . وهو قبل أن يتكلم يدير الأمر فى رأسه : أيتكلم أم لا ؟ لكن السامع يفاجأ بكلام المتكلم ، والمتكلم قبل أن ينقل خواطره توجد فى خياله نسبة ذهنية ، أى أنه يعايش مشروع الكلام ويتدبره قبل أن يتكلم ، أما السامع فهو يفاجأ ، وعندما تريد أن تقول أمراً مُهمًا فأنت تحاول أن تضمن انتباه السامع حتى لا تفلت منه أية جزئية من كلامك ، فتقول : « ألا » لتشد انتباه السامع تماماً . والحق هنا يقول : « ألا » ليأخذ انتباه السامع ، ويأتى بعدها قوله : « له الحكم » .

إذن : ساعة تسمع « ألا » فاعرف أن فيها تنبيهاً لأمر قادم « ألا له الحكم » . والحكم : هو الفصل بين أمرين ، ويختلف الفصل بين أمرين باختلاف الحاكم ؛ فإن كان الحاكم له هوى فالحكم يميل ، لكن الفصل بين الأمرين يجب أن يكون بلا هوى ، فالحكم بالميزان يقتضى أن تكون له كفة هنا وكفة تقابلها ، وساعة ما نضبط الميزان نحاول أن نوازن الكفتين لنفصل بين مسألتين ملتحمتين ، ومادمنا نريد التساوى فنحن نسمى ذلك : الإنصاف ، أى أن نقف فى النصف دون ميل أو حيْف .

« ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين » وساعة يسمع إنسان « ألا له الحكم » فالواحد منا يعلم أنه سبحانه يحكم بين الخلق بداية من آدم إلى أن تنتهى الدنيا ، وكل واحد منا تتشابك مسائله مع غيره ، ومادام لله الحكم فليس لغيره معه حكم ، ويحكم بين الخلق جميعا وفعله لا يحتاج إلى زمن ، ونتذكر هنا الإمام عليًا ـ كرّم الله وجهه ـ حين قالوا له : كيف يحاسب ربنا الناس جميعا فى وقت واحد ، وبمقدار حلب شاة كما قال بعضهم ؟ فقال الإمام علىّ : « كما يرزقهم فى وقت واحد يحاسبهم فى وقت واحد » ، وهذه مسألة سهلة ليس فيها أدنى صعوبة أبداً . وقديماً عندما كانوا ينيرون الطرقات كانوا يشعلون المسارج : هنا مسرجة ، وهناك مسرجة ، وعلى البعد مسرجة ثالثة ، وكان الوقاد يمشى ليشعل المسارج . . إلخ ، وارتقى العقل البشرى المخلوق لله واستطاع أن ينير الطرقات بالطاقة الكهربائية أو الطاقة الشمسية وفى وقت واحد .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ ﴾

المتعب للخلق أن تأتى الظلمة وتكون فى مهمة النور ، وأن يأتى النور فى مهمة الظلمة ، فلكل من الظلمات والنور دور ومهمة فى الحياة . ولذلك قلنا فى أول السورة حين تكلم الحق سبحانه وتعالى قائلاً :

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ﴾

(من الآية ١ سورة الأنعام)

لقد ظن البعض أن المفترض أن يقول سبحانه : وجعل النور والظلمات ، ولكن لنتلمس القول الحق ، ولنعترف أن مهمة الظلمة تتساوى مع مهمة النور ، وعلى الإنسان أن يعى مهمة الظلمة ، وكلنا يعرف مهمة النور الذى يعيننا على السعى على أمور حياتنا ، ويتطلب السعى طاقة ، ولا يمكن أن تأتى الطاقة إلا بعد سكون وهدوء واطمئنان وراحة ؛ لذلك فالراحة تحتاج إلى ظلمة لينام الإنسان ويستريح ، إذن فالظلمة نعمة من نعم الله ، والذى يتعب الإنسان أن يغير ويبدل فيجعل النور مكان الظلمة ، ويجعل الظلمة مكان النور ، وهذا خروج عن مهمة كل متقابلين . وحين ينشىء الحق المتقابلات لا ينشئها على أنها تتضاد ، أو على أنها تتعاند ، ولكنه ـ سبحانه ـ يريد متكاملا يعين متكاملاً ، فلا شىء يهدم شيئاً مقابلاً له ، بل كل متكامل يساعد الآخر . ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴿١﴾ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴿٢﴾ ﴾

(سورة الليل)

وقد جاء سبحانه بالليل أولاً ، والنهار ثانياً ، ولكل منهما مهمة ، ولا يمكن أن تؤدى مهمة النهار على حقيقتها إلا إن جاءت مهمة الليل فأُدّيت على حقيقتها . وهات إنساناً لم يأخذ من الليل الراحة والسكون والهدوء ، وعانى من قرص ولسْع

الناموس أو البراغيث ، أو من ضجيج وخلافه ، ولم ينم ، ثم فى الصبح تجده نصف نائم ، نصف مرهق ، غير قادر على التركيز أو كما يقولون « مذهول » .

إذن فمن أجل حركة الضوء لابد أن توجد الظلمة :

﴿ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢ ﴾

(سورة الليل)

الليل والنهار ـ إذن ـ نعمتان ، وكل نعمة تساوى الأخرى ، وإياك أن تقول هذه ضد تلك ، أو أنها جاءت لتعاندها ، لا . لقد جاءت كل منهما لتساند الأخرى . وفى سورة الليل يتابع الحق :

﴿ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ۝٣ ﴾

(سورة الليل)

لقد جاء سبحانه أيضاً بمتقابلين ، وإياك أن تظن أنهما متعاندان فقد جعلهما الله متكاملين لتنجح الحياة . وإن تعاندا تفسد الحياة . ومادام الليل له مهمة والنهار له مهمة ، إذن فالذكر له مهمة ، والأنثى لها مهمة . وإن خلطت المهمتين ينتج الفساد .

﴿ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ۝٣ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ۝٤ ﴾

(سورة الليل)

ويقول الحق هنا :

﴿ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَـٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَـٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ۝٦٣ ﴾

(سورة الأنعام)

والظلمة ـ إذن ـ هى عدم النور . ولم يقل الحق إن طلب النجاة يكون من ظلمة واحدة ، وإنما طلب النجاة من ظلمات متعددة ، وهى ظلمات متراكمة ؛ لأن الظلمة

إذا ما غُشيت بظلمة ثانية ، ثم بظلمة ثالثة ، حينئذ تصير ظلمات مركبة بعضها فوق بعض .

والحق سبحانه قال : « ظلمات البر والبحر » ، وحتى نعرف أهى ظلمات حسّية أم ظلمات معنوية لابد لنا أن نعرف الظلمة فى معناها الحسى ، إنها ما يؤدى إلى عدم الاهتداء إلى الحركة المنجية ، إذن فكل أمر يؤدى إلى عدم الاهتداء ـ حسّياً أو معنوياً ـ هو ظلمة ؛ لأن الإنسان فى هذه الحالة يسير فى أموره بغير اهتداء ، والأحداث والكوارث التى يصعب على الناس أن يعرفوا طريق النجاة منها تُعتبر ظلمة ، سواء أكانت ظلمة حسّية أمْ معنوية .

والحق سبحانه وتعالى يقرب لنا المعنويات بالأمور الحسّية ، والمراد بالظلمات هنا هى الأحداث والكوارث والنوازل التى تضيق أسباب البشر عن النجاة منها . والإنسان حريص دائماً على نفع نفسه ، وتظهر التناقضات فى أفعال إنسان عن أفعال إنسان آخر لاختلاف كل منهما فى تقييم وتقدير النفعية . والمثال على ذلك واضح ونضربه دائماً هو : مثال التلميذ الذى يذهب صباحاً مبكراً إلى مدرسته ، وينتبه إلى أساتذته ، ويعود إلى منزله ليؤدى واجبه ، ويخرج من لذيذ الكسل ليجد لذة فى العمل ، إنَّه بذلك يحب نفسه ويريد النفع لها . أما التلميذ الذى ينام ويوقظه أهله فلا يستيقظ ، وإذا أيقظوه فهو يخرج من البيت ليتسكع فى الطريق ، مثل هذاالتلميذ يحب نفسه حباً أحمق لأنه يريد اللذة العاجلة التى تعقبها سلسلة من الآلام الآجلة . إنه ينتظر مستقبلاً لا كرامة له فيه عكس التلميذ المجد الذى يتبوأ المكانة اللائقة به .

والمثال الواضح أيضاً فى الريف هو الفلاح الذى يقضى وقته على المقهى ويسهر الليل أمام التليفزيون ويترك الأرض بلا حرث ولا رى ولا تسميد ، ولا يمكن أن تنتج الأرض التى يفلحها محصولاً مساوياً لأرض الفلاح الذى يأخذ بأسباب الله فيحرث الأرض وينتظم فى ريها فى المواعيد المحددة ، ويضع السماد المقرر لها ؛ لأن الذى أخذ بأسباب الله وتعب وبذل جهداً لا بد أن يعطيه الحقُّ الرزقَ الوفيرَ . أما الذى يكسل عن أداء عمله فقد أحب نفسه حباً أحمق قصير الأجل ، وأما الذى أخذ بأسباب الله وأقبل على عمله بحب وتقدير فقدد أحب نفسه حباً أعمق ، فيه نفع له ولغيره .

إن كل حركة يصنعها الإنسان فى الحياة إنما يريد بها نفع نفسه ، ولكنْ هناك اختلاف فى تقديرالنفعية بين إنسان وآخر ، والعاقل من يرى النفعية الآجلة المجدية ويعمل لها . وهاهوذا المتنبى الشاعر العربى يقول :

أرى كلنا يبغى الحياة لنفسه
حريصا عليها مستهامًا بها صبّاً
فحب الجبان النفس أورده التقى
وحب الشجاع النفس أورده الحربا

حب الشجاع لنفسه ـ إذن ـ جعله طموحاً إلى الحياة الخالدة كشهيد فى سبيل الله ، وحب الجبان لنفسه جعله أسير الخوف على الحياة الفانية . فإذا ما صُدم الإنسان بأحداث ونوازل وكوارث نرى نفعيته وهى تحركه إلى البحث عن أسباب للنجاة ، ويعتمد على أسبابه أو أسباب من هو قريب منه ، أما إذا عزّت أسباب البشر . وكان غافلاً عن الله ، فإن الأحداث والمصائب والكوارث تعيده وتذكره بخالقه فيقول : « يارب » ، وبذلك لا يبيع نفسه رخيصاً . لكن إن خدع مثل هذا الإنسان نفسه من البداية وأعرض عن الله وتمرد على ربّه ووجد نفسه أمام الكوارث فهو يسلم أمره لله فى وقت الشدة ، فإن انجاب وانكشف عنه الضر عاد إلى كفره وتمرده . ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

ونجد الذين يقابلون الأهوال وتنتهى أسبابهم لا يكذبون على أنفسهم . بل يتجهون فطرياً إلى الحق القادر على الأخذ بأيديهم . فلحظة أن تضطرب سفينة وتحيطها عواصف الموج والرياح ، وتختل آلاتها لا تجد إلا كلمة : يارب . يارب . يارب على ألسنة كل ركابها بداية من « القبطان » والقائد إلى أصغر راكب بها ، وتجد من يتمتم بآيات القرآن توسلاً إلى الله للنجاة . وكذلك لحظة أن تضطرب طائرة فى الجو ، ولا يعرف قائدها طريقاً للنجاة لا يقفز إلى أذهان الركاب وطاقم الطائرة إلا نداء التضرع إلى الله .

ولهذا يقول لنا الحق سبحانه : « ضل من تدعون إلا إياه » ودعوة الإنسان ربّه ومولاه هي الوسيلة الأولى من وسائل اليقين ، ونعلم أن أحداث الحياة تتراوح ما بين أمرين ؛ أمر يبسط ويسعد الإنسان ، وأمر يقبض ويضيق على الإنسان ويشقى به ، فأما الذى يبسط ويسعد فهو إدراك الجمال ، والنعمة والراحة ، والسعادة ، والإحساس بالرضى . وأما الذى يضيِّق على الإنسان ويشقيه فهو يريد أن يفلت منه وينجو .

ولنا العبرة الكاملة من الفطرة التى فطر الله الإنسان عليها ، فالإنسان بفطرته إن رأى ما يسعده ، لا يجد تعبيراً أقوى من أن يقول : « الله » . وهى صيحة التقدير والتقديس لله الذى أعطاه موهبة إتقان العمل . وتتجلى العبرة الكاملة أيضاً عندما يدهم الإنسان الخطر فيقول بفطرته : « يارب » . إذن فلا ملجأ إلا إلى الله .

« قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر » ؟ ويتضمن السؤال الحقيقة التى لا بد أن يقررها السامع لهذا السؤال وهى : إن الله هو المنجى من ظلمات البر والبحر . وحين يأمر الحق رسوله أن يقول هذا التساؤل للكافرين فهو سبحانه عليم بأن إجابة الفطرة هى التى ستغلب على ألسنة الكافرين ويعترفون به سبحانه وحده بأنه هو المنجى من ظلمات البر والبحر . والكون ـ كما نعلم ـ إما بر وإمّا بحر . ولقائل أن يقول : ولكن هناك كوارث جديدة فى عصرنا هى كوارث الجو .؟

ونقول : يجب أن تفهم أن كل جو يأخذ حكم مكانه . فجو البر من البر ، وجو البحر من البحر ، ومثال ذلك ما نراه عند الصلاة فى المسجدالحرام ؛ فنحن نرى المصلين يؤدون الصلاة حول الكعبة أو فى الدور والطابق الأول أو الثانى أو الثالث من المبانى المقامة كمسجد حول الكعبة . ونلحظ أن ارتفاع الكعبة لا يزيد على ارتفاع دور واحد من أدوار المبانى التى حولها . والمصلون يتجهون فى صلواتهم فى تلك الأدوار إلى جو الكعبة ، ذلك أن جو المكان المقدس هو مقدس أيضا ، وجو الحرم من الحرم .

ومثال آخر هو السعى بين الصفا والمروة ؛ فالمسلم يسعى بين الصفا والمروة فى الدور الأرضى ، وهناك الآن دور ثان أقيم للسعى . وهكذا نرى أن جو المسعى

مسعى أيضاً . وقديماً كان محرّماً على الطائرات أن تطير فى جو مكة أو المدينة . حدث ذلك أيام أن كان الطيارون من غير المسلمين ، وذلك حتى لا يطير غير المسلم فى الجو المقدس . أما الآن فقد صار مسموحاً للطيارين المسلمين أن يقودوا طائراتهم في أجواء مكة والمدينة المنورة .

فالجو له حكم المكان سواء أكان المكان براً أم بحراً .

« قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه تضرعاً وخفية » إن الدعاء بالفطرة يتجه إلى الله ، والدعاء هو طلب لشيء . والطلب يقتضى طالباً ، ومطلوباً ، ومطلوبا منه . والطالب هو من يدعو . والمطلوب منه هو من ندعوه ونسأله . والمطلوب هو الشيء الذى نتضرع بالدعاء رجاء أن يحدث . والطلب لون من الأمر ، لكن إذا ما جاء الطلب من الأدنى إلى الأعلى فلا تقل إنه أمر ، بل هو دعاء .

وفى اللغة عندما نسأل الطالب أن يقوم بإعراب « رب اغفر لى » ، نجد الذى استذكر دروسه دون تفقه يقول : « اغفر فعل أمر » ، أما الطالب المتفقه فى فهم دينه مع إجادة لدراسته فيقول بأدب الإيمان : اغفر هى فعل دعاء ؛ لأن الطلب إن صدر من الأدنى إلى الأعلى فهو دعاء ، وإن صدر من المساوى للمساوى فهو التماس ، وإن صدر من الأعلى إلى الأدنى فهو أمر .

وحين ننظر إلى الحالة النفسية لمن تحيطه الكوارث والأحداث والنوازل وتضغط عليه الظروف ولا يجد من ينقذه ، هل مثل هذا الإنسان يأمر أو يدعو إنه يدعو بطبيعة الحال ، ويدعو بتذلل وامتثال وخضوع ، وهذا معنى الدعاء . . إنه السؤال بتضرع وخضوع . والتضرع يقتضى قولاً ، ويقتضى فعلاً . ويكون التضرع بالوجدانيات والسلوكيات .

ويخطىء من يظن أن هناك تضرعاً بالقول دون أن يربط ذلك بفعل . فعندما تكون فى موقع قوة أو نفوذ ويسألك سائل أن تتفضل عليه بشيء ، فهذا منه تضرع بالقول . لكن عندما تكون فى موقع قوة أو نفوذ ويسألك سائل أن يفعل لك أمراً ، فهذا تضرع بالقول والفعل . وفى لحظة الخطر يدعو الإنسان ربه ولا يمكن أن يكون

فى قلبه ذرة من نفاق ؛ لأن الحق يقول : « تدعونه تضرعاً وخفية » . والتضرع خفية يكون بالقلب أيضاً . وليس فى ذلك رياء ؛ لأن القلب لا اطلاع لأحد عليه إلا الخالق البارىء ، والمثال على ذلك ما فعلته امرأة أوربية قرأت تاريخ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ووصلت فى قراءتها إلى أسباب نزول قوله الحق :

﴿ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾

(من الآية ٦٧ سورة المائدة)

ووجدت أن هذا القول الكريم قد نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان نائماً بعد ليلة من السهر ، فقالت له عائشة رضى الله عنها : ألا من رجل صالح يحرسنا الليلة ؟ وبينما هى تقول ذلك حتى سمعت صوت السلاح ، وكان ذلك إعلانا عن مقدم سعد وحذيفة وقالا :

جئنا نحرسك يا رسول الله . ونام رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى سمعت سيدتنا عائشة غطيطه ، ثم نزل عليه الوحى بهذا القول الكريم :

﴿ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾

(من الآية ٦٧ سورة المائدة)

فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم من النوم وقال : انصرفوا أيها الناس فقد عصمنى الله .

وعندما قرأت المرأة الأوربية هذه الحكاية فى تاريخ محمد صلى الله عليه وسلم وأحسنت الفهم لها أعلنت إسلامها على الفور قائلة : لو كان محمد يخدع الناس جميعا ما خدع نفسه فى حياته . لقد أدركت هذه المرأة بالفطنة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن ليصرف عنه الحرس لو لم يثق تمام الثقة فى أن الله يحميه ، وأنه سبحانه قادر على أن يحفظه . والإنسان لحظة الخطر إنما يدعو الله تضرعاً وخفية . والدعاء - كما علمنا - يحتاج إلى قول وفعل ووجدان . وهذه الأركان الثلاثة تتوافر فى قوله الحق :

﴿ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾

(من الآية ٦٣ سورة الأنعام)

فكلمة (تدعونه) : قول و(تضرعا) : فعْل لأنه خشوع وخضوع ـ و(خفية) : انكسار القلب وخشيته و« أنجانا » تدل على التعدد ؛ لأن الفعل للتجدد والحدوث وأيضا قوله : (قل الله يُنَجِّيكم) يدل على التكثير ، أى أنه لا ينجِّى مرة واحدة ولكنه ينجِّى لمرات كثيرة . ويأتى لنا سبحانه بصور كثيرة لقدرته على أن ينجِّينا إما بتكرار النجاة أو بتعدى النجاة من موقف لموقف . وتكرار النجاة هو أن يكون الحدث واحداً وينجى الحق فيه أفراداً كثيرين ، أو يكون الحدث واحداً والطالب للنجاة منه فرداً واحداً ، ويكرر الله نجاته من هذا الحدث . إن الحق سبحانه ينجِّى الفرد أو الجماعة من الأحداث أو الكوارث المختلفة . وسبحانه القائل :

﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ﴾

(من الآية ١٢ سورة يونس)

إن الإنسان إذا ما أصابه الضر فى نفسه أو ماله أو نحو ذلك ، أحس بضعفه ودعا ربه فى أى حالة من حالاته ـ سواء أكان مضطجعا أم قاعداً أم قائماً ـ حتى يكشف الله عنه هذا البلاء ، وعندما يستجيب الله لدعاء هذا الإنسان ينسى هذا الإنسان فضل الله عليه كأنه لم يدع الله أن يزيل عنه الضر .

والحق سبحانه يقول :

﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

وسبحانه ـ هنا ـ يُذَكِّر المشركين ومن كان على شاكلتهم أنهم عندما يصيبهم الضر فى البحر يغيب عنهم كل من كانوا يدعونه سواء من الأصنام أو غيرها ولا يلجأون إلا لله حتى ينجيهم من الغرق ويخرجهم إلى البر ، ومن بعد ذلك يعودون إلى الشرك بالله والجحود بنعمته سبحانه .

وكذلك هنا فى هذه الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها .

﴿ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

لقد دعوا الله بالتضرع والتذلل أن ينجّيهم من ظلمات البر والبحر ، ووعدوا أن يكونوا من الشاكرين ، ولكن ماذا كان موقفهم بعد أن أنجاهم الله ؟

يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾

إن الحق ينجيهم من الظلمات المادية فى البر البحر ، وسبحانه بعلمه الأزلى يعلم أنهم بعد النجاة سيعودون إلى ما نهاهم عنه من شرك به ؛ لأن الإنسان بطبيعته عندما يجد حياته مكتفية بما يملكه قد يقع فيها قاله الحق تبارك وتعالى :

﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾ ﴾

(سورة العلق)

والإنسان قد يتجاوز حدوده ويتكبر على من حوله ، بل وعلى ربه إن رأى نفسه صاحب ثراء ، ولا يعصم الإنسان من مثل هذا الموقف إلا الإيمان بالله ؛ لأن الإنسان بدون منهج الله يسبح فى بحر الغرور والتكبر ، ولكن من يحيا فى ضوء منهج الله فهو يعرف كيف يرعى الله فى كل إمكانات أو ثراء يمنحه له الله ، وينشر معونته ليستظل بها المحتاج غير الواجد . ولذلك نجد أن كلمة « الإنسان » إذا أطلقت تقترن بالخسارة .

﴿ وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ ﴾

(سورة العصر)

أى أن الإنسان على إطلاقه فى خُسْر . ولكن الحق يستثنى مَن ؟ .

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾ ﴾

(سورة العصر)

إذن فالإنسان المعزول عن منهج الله هو الذى يحيا فى خسران ، لكن من يعيش فى رحاب المنهج هو الذى لا يخسر أبداً . والإنسان حين يعيش دون منهج يصدر ويحدث منه ما رواه الحق سبحانه :

﴿ فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ ۚ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾

(سورة الزمر)

لأن الذى يعيش دون منهج يدعو الله إن أصابه الضرّ ، فإذا ما أنجاه الله ادّعى أن النجاة إنما كانت بأسباب امتلكها هو ، وإذا ما أعطاه الله نعمة من النعم زاد فى الادعاء وزعم أن هذه النعمة مصدرها علم من عنده هو ولا ينسب ذلك إلى الموجد الحقيقى وهو الله ، إنّه نسى أن كل نعمة هى مجرد اختبار من الله .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾

وكلمة « قادر » تعنى تمام التمكن وأنه لا قدرة ولا حيلة لأحد حيال قدرة الله ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى يملى للقوم الظالمين ويمد لهم الأمر ثم يأخذهم بغتة بالعذاب ، وقد يأتى العذاب من فوقهم كما جاء لقوم أبرهة الذين أرادوا هدم

الكعبة ، فسلط عليهم طيراً أبابيل ، ترميهم بحجارة من سجيل ، جعلتهم كعصف مأكول ، وهناك من أخذهم الحق بالصيحة ، وهناك من أهلكهم بريح صرصر عاتية ، وكل ذلك عذاب جاء من فوق تلك الأقوام .

أما قارون فقد خسف الله به وبداره الأرض ، وكذلك قوم فرعون أغرقتهم المياه ، وهذه هى التحتية . فالعذاب قد يأتى من فوق أو من تحت الأرجل حسّياً ، وقد يأتى أيضاً من فوقيّة أو تحتيّة معنوية ، ومثال ذلك العذاب الذى يسلطه الله على الطغاة الكبار المستبدين ، وقد يأتى العذاب من الفئات الفقيرةالتى تعيش أسفل السلم الاجتماعى .

﴿ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ﴾

(من الآية ٦٥ سورة الأنعام)

والمقصود بلبس الأمر أى خلطه بصورة لا يتبينها الرائى . و« شيعاً » هى جمع « شيعة » . والشيعة هم : المتعاونون على أمر ولو كان باطلا ، ويجمعهم عليه كلمة واحدة وحركة واحدة وغاية واحدة . والمقصود بقوله الحق : « أو يلبسكم شيعاً » أى أن كل جماعة منكم تتفرق ويكون لكل منهم أمير ، وتختلط الأمور بين الاختلافات المذهبية التى تختفى وراء الأهواء ، وبذلك يذيق الله الناس بأس بعضهم بعضاً .

ولماذا كل ذلك ؟ لأن الناس مادامت قد انفرطت عن منهج الله نجد الحق يترك بعضهم لبعض ويتولى كل قوم إذاقة غيرهم العذاب . ولكن أغيّر ذلك فى ملك الله ونواميسه الثابتة من شىء ؟ أبداً ، فالسماء هى السماء ، والأرض بعناصرها هى الأرض ، والشمس هى الشمس ، والقمر هو القمر ، والنجوم هى النجوم ، والمطر هو المطر .

إن الذى يحدث فقط هو أن يذيق الله الناس بعضهم بأس بعض ، ويصير كل بعض من الناس ظالماً للبعض الآخر . وعندما نرى الناس تشكو ، نعلم أن الناس كلها مذنبة ، ومادام الكل قد أذنب وخرج عن منهج الله فلابد أن يسلط الحق بعضنا على بعض حتى يعرف الجميع أنهم قد انفلتوا عن منهج الله لذلك يلقون المتاعب ، ولن يرتاحوا إلا إذا عادوا إلى أحضان منهج الله ؛ لأن منهج الله يمنع أن يتكبر إنسان مؤمن على أخيه المؤمن . والكل يسجد لإله واحد . ولهذا وضع الحق لنا العبادات

الجماعية حتى يرى الضعيف فى سلطان الدنيا القوى فى السلطان وهو يشترك معه فى السجود للإله الواحد .

مثال ذلك ما نراه من طواف الناس حول الكعبة فى ملابس الإحرام ، إن من بين الذين يطوفون قوما من وجهاء الناس وأصحاب الرتب العالية والمنازل الرفيعة ، ومن بين هؤلاء أيضا نجد الذين لا يحتلون إلا المكانة الضئيلة ، ويرى الضعيف نفسه مساوياً لمن فى المركز الاجتماعى القوى . الكل يقف أمام ربّه وهو ذليل ويمسك بأستار الكعبة باكياً . ويريد سبحانه بذلك استطراق العبودية ، ويذل الإنسان المؤمن أمام الله وأمام الناس حتى ينمحى الغرور بين المؤمنين ويكون الناس جميعا أمام الله وفى بيته على سواء .

﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

وها نحن أولاء نرى كيف أن الحق يلبس الناس شيعاً ، إننا نرى المنسوبين إلى الإسلام يذبح بعضهم بعضاً لسنوات طويلة . وإذا كان هؤلاء وأولئك طائفتين مؤمنتين تتقاتلان فأين الطائفة الثالثة التى تفصل بين الطائفتين مصداقاً لقوله الحق :

﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَـٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ ﴾

(سورة الحجرات)

هاهوذا الدم المنسوب إلى الإسلام يسيل ، ويزداد عدد الضحايا ، ومن العجيب أن الآخرين يقفون موقف المتفرج ، أو يمدون كل طائفة بأدوات الدمار . وذلك يدل على أن المسألة طامة وعامة .

والقاعدة التى قلناها من قبل لا تتغير ، القاعدة أنه لا يوجد صراع بين حقين ؛

لأنه لا يوجد فى الأمر الواحد إلا حق واحد . ولا يطول أبداً الصراع بين الحق والباطل ؛ لأن الباطل زهوق وزائل . ولكن الصراع إنما يطول بين باطلين ؛ لأن أحدهما ليس أولى من الآخر بأن ينصره الله .

ومثال آخر كنانراه فى بلد كلبنان ـ إبان الحرب الأهلية ـ وكان الصراع الدائر هناك يكاد يوضح لنا أن كل فرد صار طائفة بمفرده ، وكل إنسان منهم له هواه ، وكل إنسان يذيق غيره العذاب ويذوق من غيره العذاب .

﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴾

(من الآية ٦٥ سورة الأنعام)

وينوع سبحانه الحجج والبراهين ويأتى لهم بالأحداث والنوازل حتى يتبين للجميع أنه لا راحة أبداً فى الانفلات عن منهج الله حتى يفقهوا . والفقه هو شدة الفهم . والمقصود أن نأخذ ونتفهم العظة من كل الآيات التى يجريها الحق أمامنا عسانا نرجع إلى مراد الله .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ ۚ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ۝٦٦ ﴾

ما الذى كذب به القوم ؟ المقصود هو القرآن أو المنهج عامة ؛ لأن المنهج الإيمانى يشمل القرآن ويشمل ما آتى به الرسول عليه الصلاة والسلام . فالقرآن معجزة مشتملة على الأصول . وجاء الرسول صلى الله عليه وسلم بالسنة ليبين ويشرِّع . ولذلك نرد على هؤلاء الذين يطلبون كل حكم من الأحكام من القرآن ونقول :

إن القرآن جاء معجزة تتكلم عن أصول العقيدة ، والرسول صلى الله عليه وسلم جاء بالتشريعات التى تكمل المنهج ، ومثال ذلك عدد الصلوات فى كل فرض من الفروض الخمسة وعدد ركعات كل فرض من فروض الصلوات الخمس . إن القرآن

لم يذكرها ، ولكن أوضحها لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهو القائل فى حديث شريف : « صلوا كما رأيتمونى أصلى »[1] .

والرسول صلى الله عليه وسلم مفوض بالتشريع بنص القرآن الكريم :

﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾

(من الآية ٧ سورة الحشر)

ونحن نصلى كما صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم. ونزكى بنصاب الزكاة الذى حدده رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ونحج إلى بيت الله الحرام كما حج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد أنزل سبحانه القرآن ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم هو أول من طبق القرآن والسنة .

﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

(من الآية ٤٤ سورة النحل)

أى أن هناك من الأمور العقدية التى أنزلها الحق مجملة فى القرآن وفصلها للمؤمنين رسول الله صلى الله عليه وسلم بتكليف من الحق . وطاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم واجبة بنص القرآن وهى ضمن طاعة الحق سبحانه وتعالى ، فالحق يقول مرة :

﴿ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ﴾

(من الآية ٣٢ سورة آل عمران)

وهنا طاعة الرسول غير مكررة إنها ضمن طاعة الله .

ويقول سبحانه مرة أخرى :

﴿ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ﴾

(من الآية ٥٤ سورة النور)

أى أن هناك أمراً بإطاعة الله وأمراً بإطاعة الرسول .

---

(١) رواه البخارى ، والبيهقى ، والدارقطنى فى السنن .

ومرة ثالثة يقول سبحانه : (وماءاتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا) .

وكل ذلك حتى نستوعب الأحكام التى التقت السنة فيها بكتاب الله .

وحين قال الحق :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾

(من الآية ٥٩ سورة النساء)

فهو سبحانه لم يأت بطاعة مستقلة لأولى الأمر ولكنه جعلها طاعة من باطن طاعتين هما : طاعة الله ، وطاعة الرسول صلى الله عليه وسلم .

ونعود إلى معنى الآية التى نحن بصددها :

﴿ وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ ۚ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

إذن فالذى كذب بوجود الله وكذب بالقرآن هو مكذب للمنهج أيضا . فالمكَذَّب به هنا هو الحق ، والحق هو الشيء الثابت الذى لا يتغير ، وفى حياتنا اليومية تحدث واقعة ما ويأتى أكثر من شاهد عِيانٍ لها فلا نجدهم يختلفون فى رواية الواقعة لأنهم يستوحون واقعا ، لكن إن كان بعض من الشهود لم يرَوْا الواقعة التى يشهدون عليها تجدهم مضطربين فى الأقوال . ولذلك نجد وكيلِ النيابة يحاول استنباط كل الوقائع من أفواه الشهود ؛ لأن الحق قد يختفى قليلا وراء بعضٍ من الضباب لكن لا يدوم اختفاؤه طويلا بل يظهر جلياً ناصعاً .

والحق يضرب لنا المثل فيقول سبحانه :

﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَـٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَـٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾ ﴾

(سورة الرعد) .

الماء ـ إذن ـ ينزل بأمر الله من السماء فتستمر به حياة النبات والحيوان والإنسان ، ويأخذ كل وادٍ على قدر حاجته . وعندما ينزل السيل فهو يصحب معه بعضاً من الشوائب التى تطفو على المياه ، ومثل تلك الشوائب يَطفو ـ أيضاً ـ عندما يُصهر الذهب أو أى معدن ويُسمى الخبث . هكذا يطفو الباطل كالزَّبَدِ ويذهب جُفاء مطروحا ومرميا به بعيدا أو ينزل على جوانبه ، أما الحق الذى ينفع الناس فهو يبقى فى الأرض . وتكذيب القوم للحق من الله وللقرآن وللمنهج الإيمانى هو البهتان ، والرسول صلى الله عليه وسلم ليس بوكيلٍ على المكذبين ولا يلزمهم أن يصدقوا ، فالوكيل هو الله الحق الذى يعاقب كل مكذِّب له ، ومهمة الرسول صلى الله عليه وسلم هى البلاغ .

« وكذّب به قومك » ، وكلمة « قومك » هذه هى تقريع فظيع لهم ؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء منهم ، وعرفوه صادقاً أميناً مدة أربعين عاماً قبل الرسالة ، وما جرّبوا عليه كذباً ، ومقتضى مكثه معهم هذا التاريخ الطويل كان يفرض عليهم أن يتساءلوا من فور بلاغهم بالرسالة : أنه لم يكذب علينا قط ونحن من الخلق ، أيكذب على الخالق ؟. ولكن الهوى أعمى بصيرتهم ، ولذلك يقول الحق عن هذا البلاغ :

﴿ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾

(سورة يونس)

أى قل لهم يا محمد : لو أراد الله ألا ينزل قرآنا علىّ من لدنه وألاَّ أبلغكم وأعلمكم به ما أنزله وما تلوته عليكم ، ولكنه أنزله وأرسلنى به إليكم . وعندما يمتن الله على الذين أرسل إليهم رسوله صلى الله عليه وسلم فهو يقول سبحانه :

﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ ﴾

(سورة التوبة)

وبرغم تكبر وعناد وتكذيب المشركين من قوم رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فإنه عندما هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة ترك علياً بمكة ليسلم للناس أماناتهم . فهل هناك حمق أكثر من حمق هؤلاء الذين كذبوا برسول الله صلى الله عليه وسلم . أيكون أمينا معهم ولا يكون أمينا مع ربه ؟

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ لِكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾

والنبأ هو الخبر المهم ، فليس كل خبر نبأ ، ذلك أن هناك الكثير من الأخبار التافهة التي يتساوى فيها العلم الذى لا ينفع بالجهل الذى لايضر . ومثال على الخبر المهم هو قوله الحق :

﴿ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ﴿٢﴾ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴿٣﴾ ﴾

(سورة النبأ)

إذن فلكل نبأ مستقر ، والمستقر هو ما طُلب القرار فيه . والنبأ مظروف والمستقر مظروف فيه . والمظروفية تنقسم قسمين : مظروفية زمان ، ومظروفية مكان . أى أن الحق سبحانه وتعالى جعل لكل حدث زمانا ومكانا يقع فيهما الخبر . وسوف يعلم الإنسان مستقر كل خبر عندما يأذن الحق بميلاد هذا المستقر الذى يُعلن فيه الخبر .

النبأ ـ إذن ـ هو الخبر العظيم المدهش . ولا أعظم من تجلى السماء على الأرض بمنهج جديد ينقذها مما هى فيه من ضلال ، وهو منهج عام لكل زمان ولكل مكان . إذن هو نبأ عظيم ؛ لأنه يخلص دنيا الناس من جبابرة الأرض ، ويلفت كل الناس إلى منهج يخرجهم جميعاً من أهوائهم . فلا أضر بالمجتمع من أن يتبع كل إنسان هواه ؛ لأن هوى كل نفس يخدم شهواتها ، والشهوات متضاربة ، فإذا حكّم كل إنسان هواه فلن تجد فى الأرض قضية متفقاً عليها . ولذلك تكفل الحق سبحانه وتعالى للإنسان بمسألة تنظيم المنهج وهو الأمر الذى تختلف فيه الأهواء . وأما الأمر الذى تلتقى فيه الأهواء وهو استنباط ما فى الأرض من كنوز واستكشاف ما فى الكون من أسرار فقد تركه الحق للإنسان ليستنبطه بالعقل الذى خلقه الله ، من الكون

الذى خلقه الله ، وليسعد الإنسان بتلك الأسرار التى يستكشفها فى الكون .

ويؤكد لنا واقع الحياة هذه القضية ، ونجد طموح العقل البشرى عندما فكر فى مادة الكون استنبط منها الأسرار وأنجز الكثير من الاكتشافات العلمية . ولم تختلف الدول والمعسكرات فى تلك المجالات ، بل التقت كل الأهواء عند هذه الاكتشافات ، فلا توجد - كما قلنا - كهرباء روسية وأخرى أمريكية ، ولا نجد « كيمياء انجليزية » وأخرى « فرنسية » ، ولذلك تجد الأنظمة السياسية والاجتماعية على اختلافها تلتقى فى مجالات العلم وتتفق ولا تختلف حتى إن بعضها قد يسرق من البعض الآخر ما توصل إليه . ولا نجد فى عالم المادة والمعمل والتجربة اختلافات بين نظام سياسى ونظام آخر ، بل تلتقى الأهواء عند القوانين المكتشفة والمأخوذة من مادة الكون ، وهو الأمر الذى تركه الله للناس ليكونوا أحراراً فيه ، يفكرون ، وينظرون ، ويتأملون ، ويبتكرون ، ويصلون إلى أسرار فى الكون تخفف عنهم تبعات الحياة ، وتؤدى لهم غايات السعادة فى الوجود بأقل مجهود .

ولكننا نجد الصراع العنيف على الجانب الآخر - جانب المبادىء والمنهج - وهو صراع لا يهدأ أبداً ؛ لأنه صراع الأهواء فيما لم تحكمه تجربة مادية ، وهم يختلفون خلافات عميقة ، الرأسمالية تختلف عن الاشتراكية ، وتتنوع الخلافات بين كافة المذاهب التى أنتجتها الأهواء : الشيوعية ، الوجودية ، الاشتراكية ، الرأسمالية ، وكل هذه المسائل لم تحكمها تجربة أو معمل لذلك كان الخلاف . ومن المؤسف أن البشر قد استغلوا ما اتفقوا فيه من ابتكارات علمية فى فرض النظم التى اختلفوا عليها .

وقد أوضح الحق سبحانه لرسوله صلى الله عليه وسلم هذا الأمر ؛ إنه جل وعلا قد ترك عقول البشرية حرة فى كل ما يخضع للتجربة ، ولكنه نظم حياة الإنسان على الأرض فى ضوء المنهج الإيمانى ؛ لأن الإسلام جاء فى إثر ديانة حاول القائمون على أمرها من الكهنة أن يفرضوا سيطرة الكهنوت على العقل البشرى فى أسرار الكون .

والمثال على ذلك واضح تماماً فى التاريخ البشرى ، ففى العصر الذى تأخرت فيه أوروبا وسُمى « عصر الظلمات » كان المسلمون فى الشرق باتباعهم لمنهج الله يعيشون

فى عصر النور ؛ لأن الإسلام علمهم مجال استعمال العقل وقدراته على استنباط أسرار الله فى الكون ، وجاء سبحانه بهذا الدين وهو النبأ العظيم ليوضح لنا فى مسيرة هذا الدين كل عبرة ، وكأنه يقول لنا :

إن هذا الدين قد بدأ ضعيفاً والذين آمنوا به قلة مستضعفة لا يستطيعون حماية أنفسهم بل تلمسوا الحماية وطلبوها عند ملك غريب فى الحبشة ، وعلى الرغم من ذلك أنتصروا لأنهم أخذوا بهذا الدين .

وقال صلى الله عليه وسلم مقالة ربه :

﴿ لِكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

ومعنى « مستقر » أى ميلاد يستقر فيه . أى لا تتعجلوا الأحداث ، ولا تجهضوها ؛ فإن شاء الله سيكون لهذا الدين انتشار ، وهذا الانتشار له ميلاد فى زمان وميلاد فى مكان ، أما زمانه فإلى أن تقوم الساعة ، وأما مكانه فالأرض كلها ؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء رسولاً للناس كافة ، وخاتما للنبيين والمرسلين .

ويؤيد الحق سبحانه قضية « لكل نبأ مستقر » بأن يشهد الواقع من الحقائق ما يؤكد ذلك . ومثل ما حدث فى الزمن القريب المعاصر لميلاد الدعوة الإسلامية . فحينما جاء الإسلام آمن به قلة مستضعفة ، ولما نزل قوله سبحانه :

﴿ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ ﴾

(سورة القمر)

قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : أى جمع هذا الذى سيهُزم ويولون الدبر ونحن لا نستطيع حماية أنفسنا ؟ فلما جاء يوم بدر ورأى مصارع القوم كما قالها رسول الله صلى الله عليه وسلم بلاغاً عن الله قال عمر بن الخطاب : صدق الله ، لقد هُزم الجمع وولّوْا الدبر . ونجد كل قضية قرآنية محفوظة ومسجلة فى السطور ، يحفظها الله حتى لا يكون للناس على الله حجة ؛ لأنه سبحانه القائل :

﴿ لِكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

فلو لم يكن الواقع يؤيد أن لكل نبأ مستقراً ، ولكل حدث ميلاداً زماناً ومكاناً ، فماذا يظن الناس الذين يستقبلون القرآن ؟ لذلك أتى الحق بكل قضية قرآنية ومعها دليلها ، وأعطى الحق بعضاً من الحقائق الموثقة بالأحداث زماناً ومكاناً ليتأكد قوله الحق :

﴿ لِكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

وقد علمت الدنيا وانتصر الإسلام . لقد شاء الحق أن يربى حامل الدعوة الأول ـ عليه الصلاة والسلام ـ ويعلم معه صحابته رضوان الله عليهم ، يعلمهم منطقاً ليسايروا به أحداث الكون .

ونعلم أن الحق سبحانه وتعالى كان يُنزل الرسل بالأديان على فترات ، وعندما الفساد فى الأرض ينزل الحق منهجه على رسول ليهدى الناس إلى الصراط المستقيم ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى جعل فى كل نفس بشرية تعادلاً ذاتياً ، فإذا اشتهى الإنسان شهوة يحرمها الدين ، وقضى الإنسان هذه الشهوة ، وهدأت شِرّة وحدّة المعصية فى نفسه ، فالإنسان يؤنب نفسه ويوبخها . ولكن النفس قد تستمرىء الشهوات ، وينعدم الوازع الذى يردع الإنسان .

وإذا انعدم الوازع فى فرد واحد فلن ينعدم فى المجتمع ، ونجد من الناس من يحمل المجتمع على المعروف ، ويوجه صاحب النفس التى استمرأت المعصية إلى التوبة والخير . أما إذا عم الفساد فى الفرد وفى المجتمع فماذا يكون الموقف ؟

لا بد أن تتدخل السماء برسول جديد ، ومنهج جديد . ويأتى الرسول الجديد ومعه المنهج اللازم لإصلاح الكون . ولا يتبع الرسول الجديد إلا المستضعفون القلة ، وأهل البصيرة من أهل القوة حتى لا يظن ظان أن الضعفاء لاذوا بالدين ومالوا إليه بسبب ضعفهم . ويحذر الحق المؤمنين وكأنه يقول : إنكم تواجهون باطلا

عض الناس وأرهقهم وأعنتهم ، وحين يعضّ الباطل المجتمعات فالذى ينتفع من ذلك هم أهل الباطل ، والذى يشقى بذلك هم أهل الحق ، فلكل فساد طبقة منتفعة به . وحين توجد الطبقة المنتفعة بالفساد . وحين توجد كلمة الحق فإن المنتفعين بالفساد ينظرون إلى نفوذهم الذى سينحسر حتماً عندما تسود كلمة الحق .

وحين ينتصر الحق لا بد أن يزول الفساد ومعه كل نفوذ أهل المفاسد . لذلك يقف المنتفعون من الفساد ضد الدين الجديد ليحافظوا على مكانتهم فى المجتمع . ويقول الحق تهذيباً للمؤمنين ، وتأديباً لغير المؤمنين :

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾

وبهذا القول يوضح الله لرسوله صلى الله عليه وسلم : اعلم أن ما جئت به سيخاض فيه ، ويقال مرة إنه سحر ، ومرة إنه شعر ، وثالثة إنه كهانة ، ورابعة يتهمونك بالكذب ، ولا يقول ذلك إلا المنتفعون بفساد الكون ، فإذا ما جاء مصلح فسيجعلونه عدواً لهم . لذلك لابد أن تحافظ على أمرين . . الأمر الأول : أن الذين اتبعوك ـ وهم ضعاف ـ قد لا يستطيعون مواجهة القوة الظالمة ؛ لذلك لا تحملهم ما لا طاقة لهم به ولكن تَرَيَّثْ ؛ فإن لكل نبأ مستقراً ، والأمر الثانى : أنك إذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا فأعرض عنهم وبيِّن لهم الجفوة فلا تقبل عليهم ، ولا توادهم ، ولا تستمع إليهم ، ولا يسمع إليهم أصحابك ، لماذا ؟؛ لأنهم يخوضون فى آيات الله . ولكن أيستمر هذا الإعراض عنهم طوال الوقت ؟، لا ، فالإعراض عنهم إنما يكون فى أثناء خوضهم وتكذيبهم لآيات الله ، أما فى غير ذلك من الأوقات فاعلم أن آذانهم فى حاجة إلى سماع صيحة من الحق ، لذلك انتهز فرصة عدم خوضهم فى دينك وفيك ، ولقّنهم ما تبشر به ، ولقّنهم كذلك ما تنذر به ؛ لأنك إن تركتهم على ضلالهم فإن قضية الإيمان تصير بعيدة عنهم ، وأنت مهمتك البلاغ ، والله يريد الخير لكل خلقه .

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ﴾

(من الآية ٦٨ سورة الأنعام)

وكلمة « الخوض » هذه تشعرنا بمعنى فى منتهى الدقة ؛ لأن الخوض فى أصله هو الدخول فى الماء الكثير. والماء الكثير ساتر لما تحت قدمى الذى يخوض فيه ، ومادام قد ستر ما تحت قدميه فهو لا يدرى إلى أى موقع تقع قدماه ، وربما وقعتا فى هوّة ، لكن الذي يسير فى غير ماء فالطريق واضح أمامه ، يضع قدمه حيث يرى فيها ثباتاً واستقراراً وعدم إيذاء . وأخذوا من ذلك المعنى وصف الكلام بالباطل ، لأنه خوض بدون اهتداء . ولذلك يقول الحق :

﴿ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾

(من الآية ٩١ سورة الأنعام)

ولماذا وصف فعلهم هذا بأنه لعب ؟

ذلك لأن اللعب هو شغل النفس بشىء غير مطلوب وكان فى قالب الجد . ولكن إذا كان هذا الشىء يؤدى إلى نبوغ فى مجال من مجالات الحياة فنحن ندرب أبناءنا عليه فى فترة ما قبل البلوغ . ومثال ذلك تدريب الأبناء على السباحة والرماية. وركوب الخيل . وما إن يبلغ الإنسان فترة البلوغ حتى تصير له مهمة فى الحياة ، ويصبح عليه أن يتحمل المسئولية ، فلا يضيع وقته فى اللعب أو فيما يلهيه عن أداء الواجب .

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ﴾

(من الآية ٦٨ سورة الأنعام)

والنفس البشرية لها أغيار . وهذه الأغيار قد تنسيها بعض التوجهات . لكن رسول الله صلى الله عليه وسلم موعود من ربه بعدم النسيان .

﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦ ﴾

(سورة الأعلى)

فإذا كان هذا بالنسبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم فكيف نفهم قول الحق هنا :

﴿ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

(من الآية ٦٨ سورة الأنعام)

إننا نفهم هذا القول على أساس أنه تعليم لأمة محمد صلى الله عليه وسلم ، وحينها ينزل أمر من السماء فرسول الله أولى الناس بتطبيقه ، فإذا كان الرسول يُخاطَب : « وإما ينسينك الشيطان » فإذا ما نسى إنسان لغفلة من الغفلات ، فليأخذ علاج الله للنسيان ، وهو ألا يقعد مع هؤلاء القوم الذين يخوضون فى آيات الله فى أثناء خوضهم ، ولكن عليه أن يتركهم ويعرض عنهم . إذن فالحق سبحانه وتعالى احترم خلقه ؛ لأنه وهو العليم بهم ، خلق لكل إنسان ملكة حافظة ، وملكة ذاكرة ، وملكة مخيلة ، وكل ملكة من هذه الملكات تؤدى مهمة : فالملكة الحافظة تحفظ المعلومات ، والذاكرة تأتى بالمعلومات المحفوظة القديمة لتجعلها فى بؤرة الشعور . ولو لم يكن هناك نسيان لما استطاعت فكرة أن تدخل فى ذهن الإنسان ؛ لأن العقل لا ينشغل إلا بقضية واحدة فى بؤرة الشعور . وحتى تدخل قضية أخرى فى بؤرة الشعور ، لا بد أن تتزحزح القضية الأولى من بؤرة الشعور إلى حاشية الشعور .

لذلك لا بد من نسيان خاطر ما ليحل محله خاطر آخر . ولو ظل الإنسان ذاكراً لقضية من القضايا فى نفسه لصار من المحال أن تدخل قضية جديدة أخرى . ولهذا خلق الله النسيان ، أى انتقال قضية ما من بؤرة الشعور إلى حاشية الشعور . والإنسان منا يتذكر شيئاً حدث من عشرين عاماً ، ثم يمر هذا الحادث بالخاطر فجأة ، ويتساءل الإنسان ، كيف ؟ ويعرف الإنسان أن هذا الحادث كان محفوظاً ومصوناً فى دوائر شعورية بعيدة . ولذلك نجد الإنسان عندما يريد استعادة معنى من المعانى فهو يترك لنفسه فرصة لاستعادة هذا الخاطر أو ذلك المعنى ، ولذلك يسمون هذه المسألة « تذكر » .

﴿ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

(من الآية ٦٨ سورة الأنعام)

ولماذا ينسب الحق النسيان للشيطان ؟ ، لأن حقائق الحق فى دينه هى الصدق ،

ولا يصح أن تغيب أبداً عن بال المؤمن ، وهى لا تغيب عن بال المؤمن إلا بعمل الشيطان ، فالشيطان يزين الأمر الذى يحبه الإنسان ويشغله عن أمر آخر ، فإذا ما نزغ الشيطان لينسى الإنسان ، وتذكر الإنسان أن هذا من نزغ الشيطان فليستعذ بالله من الشيطان ولا يقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين .

وأنت حين تفعل ذلك وتنفر من هؤلاء القوم الظالمين فأنت تلفتهم إلى أن ما عندك من يقين إيمانى هو أعز عندك مما فى مجالسهم من حديث وما يكون لديهم من نفع . وبذلك تنتفع أنت بهذه التذكرة وهم أيضاً يلتفتون إلى أهمية الإيمان وأفضليته عند المؤمن على ما عداه .

وما كان الحق سبحانه وتعالى ليفرض على المؤمنين مقاطعة المشركين فى أثناء فترة ضعف المؤمنين فى بداية الدعوة . وكان المؤمنون يلتقون فى المسجد الحرام ، وكان المشركون يذهبون أيضاً إلى الكعبة قبل فتح مكة ، فهى مكان حجيجهم ، فهل يقاطع المسلمون المسجد الحرام فى بداية الدعوة الإسلامية ولا يلتقون ؟ قطعاً لا . ولكن كان المسلمون يذهبون للقاء فى المسجد الحرام ، وإذا جاء الذين يخوضون فى آيات الله فهم يعرضون عنهم . ووزر الخائضين على أنفسهم . ولذلك يقول الحق :

﴿ وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ۝٦٩ ﴾

أى أنك إذا كنت معهم وخاضوا فى الحديث فقمت من مجلسهم أو نسيت وقعدت ثم تذكرت فقمت ، فأنت تلفتهم إلى أنّ ما أقامك من مجلسهم هو شىء أكثر أهمية من هذا المجلس ، إنه احترام تكليف الله فيما أمرك به ونهاك عنه ، وليس عليك ولا على الذين يتقون الله من أوزار هؤلاء الظالمين من شىء ، وليس عليكم من حسابهم من شىء ، ومجرد قيامكم من مجلسهم هو تذكرة لهم لعلهم يتفكرون فى منطق الحق ويخشون الله ويبعدون أنفسهم عن الوقوع فى الباطل حتى يكونوا فى وقاية من عذاب الله وسخطه .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسُۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾

قلنا ـ من قبل ـ : إن اللعب هو الاشتغال بما لا يفيد لقتل الوقت . وعرفنا أن اللعب مجاله قبل التكليف أى قبل سن البلوغ . وإذا شغلك اللعب عن شىء مطلوب منك فهو لهو ؛ لأنك لهيت عن أمر واجب عليك ، فاللهو ـ إذن ـ هو الترويح عن النفس بما لا تقتضيه الحكمة .

وقوله الحق : « وغرتهم الحياة الدنيا » هو تصوير لا يوجد أبرع منه ؛ لأنهم من أصحاب العقول التى تغتر بالحياة الدنيا فهى عقول تائهة ؛ فالعقل الناضج يفهم الدنيا على أنها أقل شأناً من أن تكون غاية ، ولكنها وسيلة أو مجال وطريق ومزرعة إلى الآخرة .

وعلى العقل الناضج أن يعاملها دون نسيان مهمتها ، وآفة الناس أنهم جعلوا الوسائل غايات ، وغاية وجود الناس على الأرض أن يعمروها بالعمل الصالح وعبادة الحق ، فمن انحرف عن ذلك فله عقابه يوم الغاية الكبرى ، وهو يوم الحساب .

إننا نعلم أن غاية الإنسان من الحياة الدنيا ليست أن يعيش عمراً طويلاً ، ولا أن

ينال المناصب ، ولا أن يحصل على الثراء ، ولا أن ينال القوة ، فكل ذلك من الأغيار ، والأغيار تختلف من إنسان إلى آخر .

وما نختلف فيه نحن البشر ليس غاية لوجودنا ، والغاية للوجود الإنسانى لابد أن تكون واحدة . وأن نتفق فيها جميعاً ، هذه الغاية هى ما نصير إليه بعد الموت . ونجاح كل عمل بمقدار ما يقرب الغاية منه . ولذلك فالمؤمن الحق يرى استقبال البشر لقضية الموت استقبالاً أحمق ، فعندما يموت شاب فى العشرين نجد من يقول : « إنه لم يستمتع بشبابه » والمؤمن الحق يرد على مثل هذا القول متسائلاً : أين تريد أن يستمتع بشبابه ؟ . ويجيب أصحاب الفهم السطحى : لقد مات قبل أن يستمتع بشبابه فى هذه الدنيا .

ويقول المؤمن الحق : وهل هذه الدنيا هى الغاية ؟ . إنها ليست الغاية ، بل الغاية هى الحياة الأخرى . ومنَ مات قبل التكليف فقد أنقذه الله من الحساب وأوطنه الجنة يتلقى نعيمها الدائم . فلماذا ـ إذن ـ هذه المبالغة فى الحزن على أى ميت ؟ . والذى يقترب من الغاية يجب هذه الغاية . وهب أن إنساناً غايته أن يذهب إلى الإسكندرية ، والوسيلة إليها قد تكون حصاناً أو عربة أو طائرة ، فكل شىء يقربه من الغاية يكون هو الأفضل .

فإذا كان الله يريد أن يأخذ بعضاً من خلقه وهم فى بطون أمهاتهم ، فهذه إرادته ، والذى ذهب من بطن الأم إلى القبر قرب من الغاية ، وخلص من المراحل التى كانت تحمل فى طياتها الفتنة . ودخل الجنة .

وهب أن الوليد عاش إلى عمر المائة وصار شيخاً ومر بكل اختبارات الفتنة واستقام على المنهج ، فإلى أين مصيره ؟ إنه إلى الجنة .

إذن فعلينا أن نستقبل كل قدر لله بحب : قدر الميلاد أو قدر الخروج من الدنيا ، ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ تَبَـٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾

(سورة الملك) .

إنه سبحانه لم يقل إنه خلق الحياة والموت ، لا ، بل قال : « خلق الموت والحياة » وذلك حتى يستقبل كل منا الحياة ، ويسبقها فى الذهن ما ينقض هذه الحياة وهو الموت . إذن فهذه هى الغاية التى يتفق فيها كل الجنس البشرى ، أما ما عداها فهى أغيار نختلف فيها .

لذلك لا تقل إن الغاية من ابنك أن ينجح فى القبول للإعدادية ثم يحصل على الشهادة الإعدادية ، ثم يحصل على الثانوية العامة ، ثم يحصل على ليسانس الكلية أو بكالوريوس التخرج أو درجة الماجستير أو درجة الدكتوراه ، ثم يصير صاحب شأن فى الحياة ، لا تقل ذلك ؛ لأن كل ذلك ليس غاية فى الحياة ، ولأن الغاية هى ما لا يوجد بعدها بعد ، ولكن علينا أن نقوم بإعمار الأرض كما أمرنا الله ولكن لا نجعلها هى الغاية .

ولذلك قال الحق سبحانه :

﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾ ﴾

(سورة الحديد)

هذه هى الحياة الدنيا ، ولذلك يجب أن نحيا دائماً على ضوء ما ينجينا من العذاب وهو ذكر الله ، إن الحق سبحانه يقول :

﴿ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ ﴾

(من الآية ٧٠ سورة الأنعام)

والذكر هنا مقصود به التذكير بالقرآن وهو المنهج النازل من السماء وطبقه رسول الله ، وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم من الذكر أيضا ، أو الذكر هنا مقصود به العذاب الذى ينتظر من يخالف المنهج ، وقوله الحق : « وذكر به » ، يدل على أن منطق الفطرة يقتضى أننا نعرف أن الحق لا يمكن أن يعامل المتقين فى الدنيا كما يعامل

المنحرفين . ومثال ذلك الإنسان الذى يخوض فى أعراض الناس ويظلمهم لا يتصور أبدًا أن يلقى من الحق ـ سبحانه ـ المعاملة التى يعامل بها الإنسانَ الملتزم بمنهج الإيمان ؛ فالفطرة تقول لنا : إن الحق يجازى كل إنسان بعمله ، سواء أكان الجزاء فى الدنيا أم فى الآخرة . ومن المأثور عن بعض العرب أنه قال : لن يموت ظلوم حتى ينتقم منه الله . ومن بعد ذلك مات رجل ظلوم ولم ير فيه الناس انتقام السماء ، فقال الرجل العربى :

والله إن وراء هذه الدار دارًا يُجازى فيها المحسن بإحسانه والمسىء بإساءته .

« وذكر به أن تبسل نفس بما كسبت » والبَسْلُ معناه : المنع ، والمنع له صورتان : الأولى منع حركة حياة حى . . أى أن تحبسه فى مكان محدد يتحرك فيه ، والثانية : منع من أصل الحياة . . أى أن تهلكه وتزهق روحه ، « تبسل نفس بما كسبت » أى تمنع نفس بما كسبت ، والمنع إما بالهلاك أو بالحبس حبساً يديم عليها العذاب . والحبس ـ فى أعراف البشر ـ هو وضع إنسان فى مكان لكفه عن ظلم غيره ، أى أننا نمنع شرور إنسان عن المجتمع بوضعه فى الحبس .

وعندما جاء الإسلام لم يحبس فرداً إنما حبس المجتمع عن فرد ، وهذا عقاب أكبر وأشد ؛ فقد ترك الإسلام المجرم حرّاً فى المجتمع ولكنه حبس المجتمع عنه ؛ فالمجرم يمشى فلا يجد من يكلمه أو يضحك له أو يفرح معه أو يشاركه حزنه .

وحدث ذلك عندما حبس المؤمنون أنفسهم عن ثلاثة تخلفوا عن الغزو مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى إن إنساناً منهم جاء ليقرب امرأته فرفضت . وحاول ثانٍ أن يسلم على ابن عمه فما رد عليه السلام فجلس يبكى . وقاطع كل الناس هؤلاء الثلاثة ، وهذه هى عظمة الإسلام ، لقد سجن المجتمع عن المجرم فتعذب المجرم بقطيعة المجتمع له .

« وذكر به أن تبسل نفس بما كسبت » أى ذكر بالقرآن أو بالمنهج أو بعاقبة مخالفة الإنسان للمنهج . والعقاب إما حبس وإما هلاك ، وذلك بسبب ما تكسب النفس . والكسب فى اللغة معناه زيادة على رأس المال . وللكلمة اشتقاق ثان وهو « اكتسب » . ومرة تأتى الكلمتان فى معنى واحد ، فالكسب يحدث دون افتعال ودون

تعب أو مشقة ، أما الاكتساب فهو يحدث بافتعال وبمعالجة وعنت ؛ لأن الذى يصنع المحرَّم يأخذ أكثر من قدرة ذاته ، فيكون قد اكتسب . أما الذى يأخذ الأمر المشروع له فهو قد كسب . ولكن بعض الناس تأخذ ما اكتسبوه باحتيال ومكر ويظنون أنه كسب وهذا هو الشر ؛ لأنه يأخذ غير المشروع له ويحلله لنفسه ، ويعتبره كسباً لا اكتساباً .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ﴾

(من الآية ٢٨٦ سورة البقرة)

إن « لها » أى لصالح النفس ؛ لأنها أخذت ما هو حق لها . و« عليها » أى ضد النفس ؛ لأنها افتعلت فى أخذ ما ليس حقاً لها . ومثال ذلك : نظرة الرجل إلى زوجته ، إنها نظرة طيبة إلى حلال طيب . لكن نظرة الرجل إلى امرأة غريبة قد تحتوى من الافتعال الكثير ؛ فهو يتلصص ليراها ، ولا يرغب فى أن يراه أحد وهو يختلس النظر إليها ، وهذه كلها انفعالات مفتعلة .

ومثال آخر : سيدة البيت عندما تدخل إلى مطبخها فتتناول شيئاً لتأكله ، إنها تأكل من حلال مال زوجها ، أما الخادمة فعندما تريد أن تأخذ قطعة من اللحم من المطبخ دون علم أهل البيت فهى تتلصص ، وتحاول معرفة عدد قطع اللحم ، وقد تتساءل بينها وبين نفسها : ألم تقم ربة البيت بحصر عدد قطع اللحم ؟ ولذلك فهى تأخذ من كل قطعة لحم قطعة صغيرة . وهذا افتعال يتعب الجوارح ؛ لأن مثل هذه الأمور تتعب ملكات الإنسان ، إنّه يحاول أن يرضى ملكة واحدة فيتعب كل ملكاته الأخرى .

﴿ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ﴾

(من الآية ٧٠ سورة الأنعام)

إذن فهذه النفس التى تحبس وتسلم نفسها إلى الهلكة والعذاب بسوء كسبها ليس لها من دون الله ولى ولا شفيع ، ولا يُقبل منها عدل . وهذه مراحل متعددة تبدأ بقوله الحق : « ليس لها من دون الله ولى » والولى هو الذى ينصرك إن كنت فى مأزق .

ومأزق الآخرة كبير ، فماذا عن الإنسان الذى ليس له ولاية ؟ إنه العذاب الحق .

والمرحلة الثانية « ولا شفيع » أى ليس له من يشفع عند من يملك النصرة وهو الله ؛ فالذى يحبك إن لم ينصرك بذاته فإنه قد يشفع لك عند من يستطيع أن ينصرك . وهذا أيضاً لا يوجد لمن لم يتذكر ويتعظ ولم يتبع المنهج الإيمانى .

والمرحلة الثالثة « وإن تعدل كل عدلٍ لا يؤخذ منها » أى أنه لا تقبل منه فدية . فهذه المنافذ الثلاثة قد سُدّت ولا سبيل للنجاة لهؤلاء الذين قال فيهم الحق : « أولئك الذين أبسلوا بما كسبوا » أى أهلكوا أو حُبسوا فى الجحيم حبساً لا فِكاك منه ، وليس هذا فقط ولكن الحق يقول أيضاً : « لهم شرابٌ من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون » .

إن كلمة « شراب » إذا سمعناها فإننا نفهم منها الرِّى . ولكن الحق هنا يتبع كلمة « شراب » بتحديد مصدر هذا الشراب ، إنه « من حميم » ليحدث ما يُسمى « انبساط » و« انقباض » ؛ فالشيء الذى يسرّ الإنسان تنبسط له النفس . والشيء الذى يحزن الإنسان تنقبض له النفس . ولو أن الأمر المحزن جاء بداية فى هذا القول الكريم لانقبضت النفس فى المسار الطبيعى ، لكن الحق شاء أن يأتى أولاً بكلمة من يسمعها تسر نفسه وهى « شراب » ثم تبعها بما يقبض النفس « من حميم » ليكون الألم ألمين : ألم زوال السرور ، وألم مجيء الحزن .

ويصور القرآن فى موضع آخر هذه الصورة فيقول :

﴿ وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الكهف)

وتنبسط النفس حين تسمع الجزء الأول وهو : « وإن يستغيثوا يغاثوا » ولكنها تنقبض فور سماعها « بماء كالمهل يشوى الوجوه » .

وصورة أخرى عندما يقول الحق :

﴿ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾

(من الآية ٣٤ سورة التوبة)

وتنبسط النفس - كما علمنا - حينما تسمع خبر البشارة ؛ لأن البشارة تأتى للأمر المفرح ، وتنقبض عندما تعلم أن البشارة هى بالعذاب الأليم . إذن فقد جاء الحق بالانبساط ، وجاء بالانقباض . وهذه سنة من سنن الله فى التأديب . ومثال على ذلك : عندما يرتكب إنسان مظالم كثيرة ، وتفاقم واستفحل شره ويريد الله أن ينتقم منه ، إنه سبحانه لا ينتقم منه وهو على حاله الطبيعى ، إنما يرفع الحق - سبحانه - هذا الظالم إلى درجات عالية ثم يخسف به الأرض .

ولذلك يقول الحق :

﴿ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَـٰهُم بَغْتَةً ﴾

(من الآية ٤٤ سورة الأنعام)

وساعة تسمع « فتحنا عليهم » فأنت تخاف ؛ لأن الفتح هنا « عليهم » وليس « لهم » . لكنك ساعة تسمع قوله الحق :

﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ ﴾

(سورة الفتح)

فإنك تحس بالانشراح والسرور ؛ لأن الفتح هنا لصالح المتلقى وليس عليه . هكذا يريد الحق أن يَصْلَى المتجبرون العذابَ المضاعفَ :

﴿ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴾

(من الآية ٧٠ سورة الأنعام)

والعذاب هنا نتيجة لما فعلوه وليس فعل جبار متسلط . أما غيرهم من المتساوين معهم فى الملكات ، واختاروا الخير فآمنوا بالمنهج وطبقوه على أنفسهم فقد نالوا الخير بما فعلوا ، والتكوين الإنسانى فى ذاته صالح لفعل الخير ولفعل الشر ، وسنة الحق واضحة جلية :

﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾ ﴾

(سورة الزلزلة)

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ ﴾

هذه الآية تبدأ بسؤال عن عبادة الأصنام أو غيرها ، ما الذى صنعته تلك الأصنام أو غيرها لمن عبدها ؟ وماذا صنعت لمن لم يعبدها ؟ . وهذا أول منطق فى بطلان ألوهية غير الله ، فمن عبد الشمس مثلا ماذا أعطته الشمس ؟ ومن كفر بها كيف عاقبته الشمس ؟ . إنها تشرق لمن عبدها ولمن لم يعبدها . والصنم الذى عبدوه ، ماذا صنع لهم ؟ لا شىء . وهذا الصنم لم يُنْزِل عقاباً على مَنْ لم يعبده ، بل إن الذى انتفع هو من لم يعبد الأصنام ؛ لأنه أعمل فكره ليبحث عن خالق لهذا الكون .

وهكذا نجد النفع والضر إنما يأتيان من الإله الحق : « ونرد على أعقابنا بعد إذ هدانا الله » والإنسان دائماً حين يسير فهو يقطع خطوة إلى الأمام فيقصر المسافة أمامه ، أما من يُرَدُّ على عقبه فهو من يرجع هذه الخطوة التى خطاها .

وهذا حديث المؤمنين الذين يرفضون أن يعودوا إلى عبادة غير الله لأنهم آمنوا وساروا فى طريق الهدى ، وليس من المنطق أن يرتدوا على أعقابهم وأن ينقلبوا خاسرين .

« كالذى استهوته الشياطين فى الأرض » كلمة « شيطان » مقصود بها عاصى الجن . والجن جنس مقابل للإنس ، وما دام فى الإنس طائعون وعاصون فكذلك فى الجن طائعون وعاصون .

والحق قال :

﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۝ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ۝ ﴾

« سورة الجن »

إذن فمن الجن من هو مؤمن . ومن الجن من هو عاصٍ . والعاصى من الجن يُسمى شيطاناً . وإياك أن تنكر أيها المسلم وجود الشيطان لأنك لا تراه ، لأن الشيطان من المخلوقات التى ذكرها الله من عالم الغيب ، وحجة وجودها هو تصديقك لمن قال عنها ، وهناك فرق منطقى وفلسفى بين وجود الشىء وبين إدراك وجود الشىء . والذى يتعب الناس أنهم يريدون أن يوحدوا ويربطوا بين وجود شىء وإدراكه . وهناك فارق بين أن يوجد أو يدرك ؛ ذلك أن هناك ما يكون موجوداً ولكنه لا يُدرك .

﴿ قُلْ أَنَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ ﴾

« من الآية ٧١ سورة الأنعام »

جاء هذا التصور فى صورة استفهام . إنّ الحق طلب من رسوله أن يقوله ، فكأن الصورة : أن قوماً هداهم الله إلى الحق فدُعُوا إلى أن يعبدوا غير الله ويدعوا مالا ينفع ولا يضر ، فيردوا على أعقابهم ، أى بعد الهداية ، وهذه هى صورة الحيرة والتردد ؛ لأنهم كانوا على هدى ، ثم دُعُوا إلى أن يعبدوا من دون الله مالا ينفع ولا يضر . وأراد الحق سبحانه وتعالى أن يعطينا صورة لهذه الحيرَة ، ولهذا التردد ، فقال : « كالذى استهوته الشياطين » .

و « استهوته » من مادة « استفعل » وتأتى دائماً للطلب ؛ كقولنا « استفهم » . أى طلب الفهم ، و « استخرج » . أى طلب الإخراج للشىء ، « فاستهوته » طلبت هُوِيَّه . أى جعلته يتقبّل ما تريد واستولت عليه دون أن يكون لديه أى دليل أو حجة على صحة ما تدعوه إليه بأن صار عجينة تشكله الشياطين كما تشاء ، وترد مادة « الهاء والواو والياء » لمعانٍ ، إن مُدَّت ؛ فهى الهواء الذى نتنفسه ، وما به أصل الحياة ، وإن قُصِرَت ؛ فإنها هى الهَوَى وهو ميل النفس إلى شىء ، أو تكون هُوِيًّا أى سقوطاً .

إذن فالمادة تأتى إما للهواء إن كانت ممدودة ، وإن كانت بالقصر فهى من الهَوَى أومن الهُوِىّ ؛ كأن تقول : « هَوَى ، يَهْوِى ؛ هُوِيًّا . أى سقط من علوٍّ إلى أسفل ، وهَوِىَ ، يَهْوَى ، هَوًى . أى أحبَّ ، وهكذا نعرف أن « استهوته » أى طلبت هُوِيَّه أو هواه أى ميل نفسه إلى اتباع الهَوَى ، وحين تستهوى الشياطين الإنسان فهى تريد أن تجتذبه إلى ناحية هواه ، وتوقظ الهوى فى النفس ، وبذلك تدعوه ليَهْوِى . والحق يقول :

﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾ ﴾

« سورة الحج »

وحين يخرّ عبد من السماء ، إما أن تتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق ، وحين تأتى إلى الهَوَى والهُوِىّ فاعلم أن الهوى يجذبك إلى ما يضرك ، ولذلك لا تسلم منه إلا أن يكون هواك تبعا لما جاء به الحق . ولكن إن اتبعت هواك فلابد أن يؤدى بك إلى الهُوِىّ :

﴿ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ ﴾

« من الآية ٧١ سورة الأنعام »

وما هى الحَيْرة ؟ هى التردد بين أمر ومقابله . وعرفنا من قبل أن الحَيْرة فى هذه الآية جاءت لمن اهتدى وسار خطوة للمنهج ثم رُدَّ على أعقابه ورجع ، ولكن له أصحاب يدعونه إلى الهدى ، فهو بين شيطان يستهويه ، وأصحاب يدعونه للمنهج ؛ لذلك يكون حيران : بين هاوية ونجاة ، والشىء الذى يهوى لا استقرار له ، وحين نرى ـ على سبيل المثال ـ حجراً يهوى للأرض نجده يدور ، ولا اتجاه له . وهذه صورة معبرة ، ويأتى له القول الفصل :

﴿ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ ﴾

« من الآية ٧١ سورة الأنعام »

فمن يتبع إذن ؟ إنه يتبع الذين يدعونه إلى منهج الحق سبحانه وتعالى ؛ لأن الهدى

هو المنهج والطريق الموصل للغاية ، والصنعة لا تضع غاية لنفسها ، بل الذى يضع الغاية هو من صنعها ، وسبق أن قلت : إنّ التليفزيون لا يقول لنا غايته ، ولا يعرف كيف يصون نفسه ، بل يضع ذلك مَنْ صنعه ، وكذلك الإنسان عليه أن يأخذ غايته مِمّن خلقه ، والذى يفسد الدنيا أن الله خلق ، لكن الناس أرادوا أن يضعوا لأنفسهم قانون الصيانة ، لذلك نقول : إن علينا أن نأخذ قانون الصيانة ممن خلقنا ، وهدى الله هو هدى الحق .

وجاءت « الهدى » هنا لتعطينا يقيناً إيمانياً فى إله واحد ، وحين توجد عقيدتنا فى إله واحد ، لا تختلف أهواؤنا أبداً ؛ لأنه هو الذى يضع لنا القانون ، وساعة يضع لنا القانون ويكون كلٌ مِنّا خاضعا لقانونه ، لا يذل أحد منا لأحد آخر ؛ فأنا وأنت عبيد لإله واحد ، ولا غضاضة عليك ولا غضاضة علىّ . وحين يُريد البشر أن يسير الناس على أفكارهم فإن صاحب الفكر يريد أن يُذِل الآخرين له ويأخذهم على منهجه وعلى مبدئه ، وهو فى الحقيقة ليس أفضل منهم ، ولذلك تجد الهداية الحقة حين نخضع جميعاً لإله واحد ، ويتساند المجتمع ويتعاضد ولا يتعاند ، ويتوجه الهوى إلى محبة منهج الله .

﴿ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ ﴾

« من الآية ٧١ سورة المؤمنون »

ولهذا جاء الدين ؛ لأن الشرع لا يقرر شيئاً ضد الإنسان .

ونذكر جميعاً قصة ملكة سبأ وسيدنا سليمان عليه السلام حينما قالت : (وأسلمت مع سليمان) . ولم تقل:أسلمت لسليمان بل أسلمت مع سليمان لله ، فلا غضاضة أن تكون قد أسلمت فهى ليست تابعة لسليمان ، بل تابعة لرب سليمان ، إذن حين يأتى التشريع من أعلى ، لا غضاضة لأحد فى أن يؤمن ، ولا يظن واحد أنه تبع لآخر بل كلنا عبيد لله . وحين نكون جميعاً عبيداً لواحد نكون جميعاً سادة .

ويتمثل الهدى فى الإيمان بإله واحد ، ونأخذ هذا الإيمان بأدلتنا العقلية . إننا ندخل عليه من باب العقل ، ونسلم أمرنا له ؛ لأنه هو أعلم بما يصلحنا .

﴿ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾

« من الآية ٧١ سورة الأنعام »

وقوله تعالى :

﴿ وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَاتَّقُوهُ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾

هنا تجد الأمر بثلاثة أشياء : نُسْلِمُ لرب العالمين ، ونقيم الصلاة ، ونتقيه سبحانه ، لماذا ؟ ؛ لأن كل الأعمال الشرعية التى تصدر من الجوارح لابد أن تكون من ينابيع عقدية فى القلب .

وكيف نسلم لرب العالمين ؟ . أى نفعل ما يريد وننتهى عما ينهى عنه ، ثم نقيم الصلاة وهو أمر إيجابى ، ونتقى الله أى نتقى الأشياء المحرمة وهو أمر سلبى ، وهكذا نجد أن الهدى يتضمن إيماناً عقدياً برب نسلم زمامنا له ؛ لتأتى حركتنا فى الوجود طبقاً لما رسم لنا فى ضوء « افعل » و « لا تفعل » ، وحركتنا فى الوجود إما فعل وإما ترك . والفعل أن نقوم بسيد الأفعال وهو الصلاة ، والترك أن نتقى المحارم ، وهذا كله إنما يصدر من الينبوع العقدى الذى يمثله قوله : ﴿ لنسلم لرب العالمين ﴾ .

والحق سبحانه وتعالى حينما يأمر بفعل أو ينهى عن شيء فهو يعلم أنك صالح للفعل وللترك ، فإذا قال لك : افعل كذا ، فأنت صالح ألا تفعل ، وإذا قال : « لا تفعل كذا » ، فأنت صالح أن تفعل ، ولو كنت لا تصلح لأن تفعل لا يقول لك : افعل ؛ لأنك مخلوق على هيئة تستطيع أن تفعل وتستطيع ألا تفعل ، وهذا هو الاختيار المخلوق فى الإنسان ، أما بقية الكون كله فليس عنده هذا الاختيار .

مثال ذلك : الشمس ، إنها ليست حرّة أن تشرق أو لا تشرق ، الهواء ليس حراً أن

يهب أو لا يهب ، والأرض فى عناصرها ليست حرّة فى أن تكتمها أو لا تكتمها ، لكن الإنسان مميز بقدرته على أن يختار بين البدائل ؛ لذلك لابد أن يكون صالحاً للأمرين ، والخطأ إنما يأتى من أن تنقل مجال « افعل » فى « لا تفعل » . أو مجال « لا تفعل » فى « افعل » . والمؤمن يأخذ منطقية « افعل » فى مجال « الفعل » ، ومنطقية « لا تفعل » فى مجال الترك .

وحين تنظر إلى الإنسان تجد أن التكليف الإلهى يناسب التكوين البشرى . وأنت تشترك مع الجماد فى أشياء ، ومع النبات فى أشياء ، ومع الحيوان فى أشياء ، وتتفوق على الكل بقدرة الاختيار التى منحك الله إياها .

ولتوضيح هذا الأمر أقول : لنفترض أن واحداً أخذك إلى مكان مرتفع ثم تركك فى الجو عندئذ تسقط على الأرض ، وهكذا تجد أن قانون الجماد ينطبق عليك ؛ فليس لك إرادة أن تقول : « لا أريد أن أقع » وهكذا نرى الجمادية فيك ، وانظر إلى « النمو » الذى لا تتحكم ولا تقدر أن تقول : « سأنمو اليوم بزيادة فى الطول قدرها نصف الملليمتر » بل أنت لا تعرف كيف تنمو ، وأنت لا تعرف كيف ينبض قلبك ، ولا سرّ الحركات الدودية للأمعاء ، ولا حركة المعدة ، أو عمل الكبد ، أو حركة التنفس التى بها تقوم الحياة ، وكل ذلك أمور قهرية ، ومن رحمة الله بنا أنها قهرية ، فلو كانت اختيارية لتحكم فيها غيرك .

إذن من رحمته بنا سبحانه أن جعلنا مقهورين فى هذه المسائل ، ومسخرين فيها ، وبعد ذلك خلق لنا الاختيار فى التكليف ، افعل ، ولا تفعل ، والتكليف من الله سبحانه وتعالى فى الأفعال التى تقع من الإنسان لا فى الأفعال التى تقع على الإنسان ؛ لأن الأفعال التى تقع من الإنسان هى التى فيها اختيار ويبحثها العقل أولاً ، لينفذها الإنسان بعد ذلك . ولذلك لا يكلف ربنا إلا العاقل الناضج ؛ لأنه لا توجد قوة تقهره على غير ما يختار . أما المجنون فليس عليه تكليف ؛ لأنه لم يُدرْ المسألة فى رأسه قبل أن يفعل ، وكذلك من لم ينضج ؛ لأنه لم يصل إلى قوة الفهم الكامل ، وكذلك المقهور على فعل بقوة إنسان أو سلطان أقوى منه .

وهكذا نعلم أن التكليف لا يلزم الإنسان فى تلك الحالات حيث لا يوجد عقل أو يكون العقل غير ناضج ، أو أن يوجد قهر .

ويتابع الحق : ﴿ وهو الذى إليه تحشرون ﴾ ولو أن المسألة ـ مسألة الإيمان ـ مجرد مظهر لا جوهر لما ترتب عليها نتيجة ، ولكن لننتبه إلى أن هناك غاية . وأضرب هذا المثل ـ ولله المثل الأعلى ـ نجد التلميذ مثلاً إن حضر الدرس أو لم يحضر ، استمع إلى المدرس أو لا ، ذاكر أو لم يذاكر ، ألا يظهر كل ذلك فى شهادة نهاية العام ؟ .

إذن فالحساب قائم على كل فعل ؛ لأنك تتمتع أيها الإنسان بخاصية الاختيار ، أى أنك صالح لتفعل أو ألا تفعل ، ولذلك يرشدك الإيمان إلى العمل الصالح ؛ لأن هناك غاية ؛ إنك ستصير إلى من يحاسبك على أنك نقلت « افعل » فى مجال « لا تفعل » ، أو « لا تفعل » فى مجال « افعل » . فإن كنت لا تأخذ أمور الإيمان لصلاحية حياتك فخذها خوفاً من الجزاء والحساب .

ثم يقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ۚ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾ ﴾

والحق هو الشىء الثابت الذى لا يتغير ، وما دام الحق هو الشىء الثابت الذى لا يتغير فلننظر إلى خلق السماء والأرض ، يقول سبحانه :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ﴾

« من الآية ٤١ من سورة فاطر »

وحين ننظر إلى الأفق نجد السماء من غير عمد ، وهذه مسألة عجيبة ، ولذلك يقول سبحانه :

﴿ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾

«من الآية ٢ من سورة الرعد»

وهنا يقول الحق : ﴿ خلق السموات والأرض ﴾ وذلك حتى نعرف أن خلق السموات والأرض ليست عملية سهلة وهو سبحانه القادر ؛ إنّه خلقك أنت بخلق عجيب ، وأعجب منه خلق السموات والأرض ، فهو القائل :

﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ ﴾

«من الآية ٥٧ من سورة غافر»

وحين ينظر الإنسان فى تكوينه يجد أشياء عجيبة ، ويتحقق من قول الله :

﴿ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾

«سورة الذاريات»

وحين تتأمل السماء والأرض تجد دقة الخلق ، فكأنه سبحانه قد جعل نفسك مقياساً ، إنك ستعلم أحوالها تباعاً وأنك سَتُهْدَى مع الأيام ، إلى سر جديد فى هذه النفس ، هذا السر لم يعرفه الأولون ، لكنك حين تتقدم فى البحث العلمى وآلات السبر وآلات الاختبار تتعرف وتكتشف هذا الجديد .

مثال ذلك ما يسمى بالاستطراق ، وكلنا رأينا الأوانى المستطرقة التى نضع فيها سائلا ينفذ فى أنابيب متعرجة وأخرى مستقيمة ، فيرتفع السائل فيها بمستوى واحد وهو ما نسميه بظاهرة الاستطراق ، وهناك استطراق مائى ، ويوجد أيضاً استطراق حرارى ، ويتمثل الاستطراق الحرارى حين نأتى بالمدفأة فى الشتاء ونجلس فى الغرفة ، ونشعر بالحرارة التى تشع من المدفأة ، وأنت تجد نفسك محتفظاً بدرجة حرارتك العادية وهى سبع وثلاثون درجة . ومن العجيب أنها تتساوى فى البشر جميعا حتى فى القطب الشمالى والقطب الجنوبى !! فلماذا لم تستطرق درجة حرارتك مع

الجو ؟ ولماذا لم يأخذ الجو البارد من حرارتك لتتساوى درجات الحرارة ؟ .

إن ذلك يثبت أن لك ذاتية تجعلك وحدة مستقلة عن الكون الذى تحيا فيه ، وتظل درجة حرارتك عند خط الاستواء ٣٧ درجة ، وفى القطبين ٣٧ درجة ، هذا عجيب ، والأعجب من ذلك أن أجزاء جسمك المختلفة تختلف فيها درجة الحرارة ، فلو أن درجة حرارة العين ٣٧ درجة لانصهرت ؛ لذلك نجد أن درجة حرارة العين تسع درجات فقط ، وهناك الكبد الذى تبلغ درجة حرارته أربعين درجة ، وكل أعضاء جسمك وهى مجموعة فى شكل واحد ومع ذلك لا تستطرق فيها درجة الحرارة . ولذلك قال الحق : ﴿ وفى أنفسكم أفلا تبصرون ﴾ .

ومثال آخر من عملية التنفس ، فحين تدخل ذرة من غبار فى مجرى النفس نجد السعال قد هاجم الإنسان ليطرد هذه الذرة وتجد أنك قد سعلت قسراً إلى أن تطرد هذه الذرة ، فهل أنت قد سعلت بقرار منك ؟ لا ، بل هو عمل لا إرادى خاضع لنظام دقيق لا يمكن أن يصممه إلا خالق له مطلق الحكمة ، وعلى سبيل المثال نجد الكبد محوطا بتغليفات متتابعة ليحتفظ بحرارته التى تبلغ أربعين درجة ؛ لأنه لا يؤدى مهمته إلا عند هذه الدرجة . وكذلك نجد أنّ الأذن هى أول عضو يشعر بالبرودة ؛ لأن درجة حرارتها قليلة ، وهكذا أراد الصانع الأعلى . كما جاء فى قوله تعالى :

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ﴾

« من الآية ٧٣ سورة الأنعام »

لقد خلق الحق السموات والأرض بقوانين ثابتة لا تتغير إلا بمشيئته ، فهو القائل :

﴿ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾

« سورة يس »

فيامَنْ تريد النظام دليلاً على حكمة الخالق الموجد خذها فى النظام الأعلى . ويا من تريد الشذوذ دليلاً على سيطرة الحق فوق الميكانيكية ، خذها فى الأفراد ؛ لأنه

لو حصل شذوذ فى الكون الأعلى لفسدت السموات والأرض ، لكن عندما يوجد أعمى واحد من ألف إنسان ، فلا يحدث خلل فى الكون ، ولذلك نجد الشذوذ إنما يأتى فيما فيه عوض ، والنظام يأتى فيما فى تركه فساد . كما يقول سبحانه :

﴿وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ﴾

« من الآية ٧٣ سورة الأنعام »

وبذلك نرى الإيجاد الأول بالحق ، وأيضاً حين يهدم سبحانه السماء والأرض وينهى الدنيا ويزيلها ، فتمور السماء ، والكواكب تنتثر وتتساقط ؛ فإن ذلك يحدث أيضاً بالحق ، فليس الخلق والإيجاد وحده دليلاً على عظمة الخالق بل إنهاء الخلق وإفناؤه وإزالته أيضا دليل عظمة ؛ لأنه سبحانه قال فى البدء : « كن » فكان الكون ، وفى النهاية يقول : « كن » فيكون إنهاء الخلق ليعطى للمحسن جزاء إحسانه ، ويحاسب المسىء ؛ لأن المحسن قد يشقى بإحسانه طول عمره ، ولابد له من ثواب ، والمسىء لن يأخذ راحته بل يأخذ عقاباً . فمن الخير والعظمة أن تنتهى الحياة ليأتى يوم الحساب لينال كلٌّ جزاءه .

إذن فخلق السموات والأرض حق ويوم يقول كن فيكون قوله الحق ، فالحق فى الإيجاد والحق فى الإعدام ، إنّه حاصل فى بدء الخلق ، وفى نهايته .

﴿وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾

« من الآية ٧٣ سورة الأنعام »

وهل كان الملك يوماً لغير الله ؟

فى هذا المقام علينا أن نتنبه إلى أن فيه مِلْكاً ، ويقال لصاحبه مالك ، وفيه مُلك ويقال لصاحبه مَلِك . والمِلك ما تملكه ؛ فقد تملك جلبابك الذى ترتديه . أما المُلْك فهو أن تملك من يَمْلك ، فهذا اسمه مُلك ، وربنا سبحانه وتعالى فى دنيا الأسباب جعل لكل واحد منا مِلكاً ، وجعل لبعضٍ علينا مُلكا فبقوا ملوكاً ، لكن فى الآخرة لا يوجد شىء من هذا ، لذلك يقول الحق :

﴿ لِمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾

« من الآية ١٦ من سورة غافر »

وفى الدنيا قد تملك مثلاً أن توظفنى عندك وتعطينى أجراً ، وقد تملك أنك تطبخ لى طعامى أو تعطينى طعاماً ، أو تملك أنك تخيط جلبابى ، لكن فى الآخرة لا يملك أحد لأحد سبباً ؛ لأننا نحيا فى الدنيا بالأسباب التى منحنا الله إياها ، وفى الآخرة بالمسبب وحده دون أسباب .

﴿ وله الملك يوم ينفخ فى الصور ﴾ ولو سلسلتها قبل أن ينفخ فى الصور تجد الملك أيضاً لله ولكن بوسائط ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى جعل الأرض أرض معاش ، وهناك الآخرة إنّها أرض معاد ، لذلك قال :

﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ ﴾

« من الآية ٤٨ من سورة إبراهيم »

والأرض التى نحيا عليها مخلوقة لنستعمرها ، ونحرث جزءاً منها لنزرعه ، ونبنى بيوتاً على جزء آخر ، وهكذا تكون المسألة كلها أسبابا يتوافق بعضها مع بعض ؛ فأنا لا أستطيع أن أحرث إلا بمحراث ، وكذلك من يرغب فى استخراج عنصر الحديد من الأرض يقيم منجماً ، ومن يرغب فى استخراج البترول يأتى بالآلات التى تستكشف أماكنه ، ولا أحد يستطيع أن يملك كل أسباب حياته بل توجد فى يده زاوية واحدة ، وباقى الزوايا فى أيدى بقية الخلق .

وحين تسلسل الأسباب التى نحيا بها سنرجع للحق سبحانه وتعالى ، فحين تنتهى يد المخلوق وأسبابه تضيق به فإن يد الخالق جلت قدرته مبسوطة إليه دائما ، وإياك أن تغرك الأسباب ولكن سلسل الأسباب إلى أن تنتهى إلى الله .

ولو سلسلت كل ظاهرة من ظواهر الكون لوصلت إلى منطق الحق ؛ فالطفل الصغير يرقب ظاهرة فى البيت ، هى زر فى الحائط ، عندما يضغطون عليه بأصبع واحدة يضىء المصباح ، فيقلدهم ، وحين يراه أخوه الذى يدرس الإعدادية يقول له :

لا تصدق أن الضوء يأتى من هذا الزر بل هناك سلك قادم من خارج المنزل يربط بين صندوق الكهرباء والمنازل ، وحين يسمعهما من هو أعلى منهما علماً يشرح لهما أن الكهرباء الموجودة داخل هذا الصندوق قادمة من المولد الكبير الذى فى موقع ما من المدينة ، وقد صنعته المعامل والعقول حتى ينتهى الشرح فيصل إلى فكرة التيار المكهرب المستخلص من شلالات الأنهار مثلا .

إذن فكل ظاهرة تراها أمامك وراءها حلقات غيبية لو سلسلتها لوصلت إلى الحق سبحانه وتعالى ، وسبحانه قد احترم دنيانا وجعلنا نفهم أن بعضنا له مُلك ، ولكن نقول لكل مَلِك : إن هذا المُلك ليس بذاتك ؛ لأنه لو كان بذاتك لما سلبك أحد هذا المُلْك أبداً . وسبحانه القائل :

﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ ﴾

«من الآية ٢٦ من سورة آل عمران»

إذن فليس هناك من له المُلْك بذاته إلا الله .

والحق يقول هنا :

﴿ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴾

«من الآية ٧٣ من سورة الأنعام»

ينفخ فى الصور تفيد الإيذان بمقدم أمر ما ، فبعد النفخة الأولى يموت من كان حيًّا ، وبعد النفخة الثانية يصحو الموتى ويقومون .

وكلمة ﴿ عالم الغيب والشهادة ﴾ تشرح لنا أنه سبحانه ما دام عالم الغيب فمن باب أولى أنه يعلم المشهود . وهذا تعبير دقيق ، وإنّه يعلم الغيب ويعلم الشهادة وعلمه يترتب عليه جزاء لا عن تحكم ، ولكن عن حكمة .

ويذيل الحق الآية بقوله سبحانه : ﴿ وهو الحكيم الخبير ﴾ والحكيم هو الذى يضع كل أمر فى مكانه ، والخبير هو من يعلم كل شىء بإحاطة تامة ، وسبحانه ليس بحاجة إلى أن يظلم أحداً ؛ لأن من يظلم إنما يريد أن ينتفع بالشىء الموجود لدى المظلوم ،

وربنا لا ينتفع بحاجة من هذه ، بل ينفعنا جميعاً ، ولذلك إذا نظرت إلى الإيمان تجده كله عزّة ، وأنت تجد الناس تكره كلمة « عبودية » ، وتقوم حروب من أجل تحرير البشر من عبودية البشر ، أما عبودية بشر للحق فأمرها مختلف ؛ لأن العبودية للبشر ، نجد فيها أن السيد يأخذ خير عبده ، ولكن العبودية لله نجد فيها أن العبد يأخذ خير سيده ، وهكذا تكون العبودية لله عزّة ، أما العبودية للبشر فهى ذلة .

ولذلك نجد الله سبحانه وتعالى قد امتن على نبيه بصفة العبودية فقال :

﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ ﴾

« من الآية ١ من سورة الإسراء »

فقد أخلص صلى الله عليه وسلم العبودية لله ، فأخذ من فيوضات الحق بما يناسب عبوديته .

والحق سبحانه يوضح لكل عبد : نم ملء جفنيك ؛ فأنا لا تأخذنى سنة ولا نوم ، وأنا قيوم ، وإن احتجت منى إلى شىء ما فادعنى وسأمد لك يد العون بما يناسبك ، فهل فى هذه العبودية لله شىء غير العزّة ؟ !

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ ﴾

والحق سبحانه وتعالى يعطى له صلى الله عليه وسلم ما يسليه ويصبّره على مشقات الدعوة ؛ لأن الدعوة للإسلام فى أوله أرهقت رسول الله وأصحاب رسول الله ، فيريد سبحانه أن يعطيهم مُثُلاً حدثت للرسل ، وهنا يأتى الحق بخبر عن أبى الأنبياء سيدنا إبراهيم :

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً ﴾

« من الآية ٧٤ من سورة الأنعام »

وساعة أن تسمع « إذ » فافهم أن « إذ » ظرف ، اى واذكر جيداً الوقت الذى قال فيه إبراهيم لأبيه آزر « أتتخذ أصناماً آلهة » ؟ وما دمت تذكر هذه ، ففى التذكرة تسلية لك عما يصيبك فى أمر الدعوة . وهنا وقف العلماء وقفة طويلة ، وتساءل بعضهم : هل آزر هو أبو إبراهيم ، أو أن والده هو تارخ ؟ .

وقلت من قبل : إن الأبوة تمثل ما هو أصل للفرد ؛ فالأب ، والجد ، وجد الجد أب ، وأطلقت الأبوة على المساوى للأب ، مثل العم . وجاء مثل هذا فى القرآن حين قال الحق سبحانه :

﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ ﴾

« من الآية ١٣٣ من سورة البقرة »

وآباء هنا جمع ، وإذا ما عددنا هؤلاء الآباء نجدهم : إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ، والكلام من يعقوب ، وأبوه إسحاق ، وإسحاق بن إبراهيم ، وبرغم ذلك جاء سيدنا إسماعيل وسط هؤلاء الآباء ، فكأنك إن وزعتها قلت : « إبراهيم أب ، ويبقى اثنان : هما إسماعيل وإسحاق . وإسماعيل هو أخ لإسحاق ، كأن القرآن نطق بأن العم يطلق عليه أب .

وأقول ذلك لأصفى مسألة وقع فيها اللغط الكثير ؛ فالبعض من العلماء قال : هل كان آزر أباً لإبراهيم ؛ والحديث الشريف يقول :

« خرجت من نكاح ولم اخرج من سفاح من لدن آدم إلى أن ولدنى أبى وأمى ولم يصبنى من سفاح الجاهلية شىء »[1] .

---

(١) رواه ابن عدى فى الكامل ، ورواه الطبرانى فى الأوسط عن على رضى الله عنه .

فكأن النبى صلى الله عليه وسلم أخبر أنه من سلسلة نسب مُوَحِّد لا يمكن أن يكون للشرك فيه مجال ، وآزر كان مشركاً ، وما دام الحق يقول فى آية أخرى : ﴿ إنما المشركون نجس ﴾ . فلو أن آزر الوالد الحقيقى لإبراهيم لكان سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم من ذريته . وأرى أنه عمّه ؛ لأن الرسول صلى الله عليه وسلم قال : « ما زلت أتنقل من أصلاب الطاهرين إلى أرحام الطاهرات » ، وهو قول يدل على أن نسبه الشريف مطهر من الشرك من جهة الآباء ومن جهة الأمهات ، إذن فلا يصح أن نعتقد أن أبا إبراهيم هو آزر ؛ لأنه كان على هذا الوضع مشركا ، لكن كيف تفسر قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر ﴾ ؟ .

نقول : إننا نأخذ اللغة ، ونأخذ استعمالات القرآن فى معنى الأبوة . والقرآن صريح فى أن الأبوة كما تطلق على الوالد الحقيقى الذى ينحدر الولد من صلبه تطلق كذلك على أخى الوالد أو عمه . والدليل على ذلك أن القرآن الذى قال : « لأبيه آزر » هو بعينه القرآن الذى قال :

﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ﴾

« من الآية ١٣٣ من سورة البقرة »

إذن آباء هى جمع أب ، وأقل الجمع ثلاثة : إبراهيم إذن وكذلك العم إسماعيل يطلق على كل منهما أب ، وأيضا إسحاق وهو والد يعقوب ، هؤلاء هم الآباء المذكورون فى هذه الآية .

وهنا نفهم أن أبوة إسماعيل ليعقوب إنما هى أبوة عمومة ؛ لأن يعقوب بن إسحاق ، وإسحاق أخو إسماعيل . إذن فقد أطلق الأب وأريد به العم ، ويدلنا الرسول صلى الله عليه وسلم على ذلك حينما أُخِذَ عمه العباس أسيراً فقال : ردوا علىّ أبى ؛ وأراد عمّه العباس .

وبعد ذلك نأتى لنقول : إننا حين نطلق كلمة الأب فى أعرافنا نعلم أن اللغة التى نتكلمها لغة منقولة بالسماع ، مركوزة فى آذاننا ، ينطق بها لساننا ، والعامية وإن كانت

تحرف الفصيح إلا أن أصولها منقولة عن أسلافنا وآبائنا ، وهم حين يريدون الأب الحقيقى يقولون له أب ولا يأتون باسمه الشخصى ؛ فإذا جاء لك إنسان وقال لك : أبوك موجود ؟ . ولم ينطق باسم الوالد فهو يقصد والدك فعلاً . لكن افرض أن لك عمًّا ، فيقول لك السائل : أبوك محمد موجود ؟ .

لقد جاء هنا بتحديد الاسم العلم حتى ينصرف الذهن إلى السؤال عن العم ؛ لأنه لو أراد الأب الحقيقى لما ذكر اسمه واكتفى بالسؤال عنه بالأبوة فقط ، إذن فلو قال الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وإذ قال إبراهيم لأبيه ﴾ . ولم يحدد العَلَم لقلنا إن آزر هو والد إبراهيم وليس عمّه وبذلك يكون هو جد رسولنا ، ولكن القرآن حدد الاسم وقال : « لأبيه آزر » أى ميّز اسم الشخص ليخرج الأب الحقيقى من كلمة أب ، وبذلك تنتهى الخلافيّة فى هذه المسألة .

ولماذا يطلب الحق سبحانه من سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يذكر ﴿ وإذ قال إبراهيم لأبيه ﴾ ؟ لأن رسول الله جاء على فترة من الرسل وجاء فى الأمة التى واجهت الدعوة أول مواجهة وهى أمة العرب وعلى رأسها قريش ، وهو صلى الله عليه وسلم إن كان قد جاء على فترة من الرسل ، إلا أن إبراهيم يعيش فى عقائد هؤلاء القوم ؛ لأن كل أمور إبراهيم النسكية كانت فى هذا المكان ، فمثلاً همّه بذبح ابنه وفداء السماء لابنه كانا فى هذا المكان ، ورفعه للكعبة كان فى هذا المكان ، والكعبة هى مركز السيادة لقريش ، ولولا الكعبة لكانت قريش كسائر القبائل .

لقد أراد الحق أن يوضح لقريش أن السيادة التى أخذتموها على العرب كافة جاءت لكم بسبب الكعبة وهذا البيت ، فلو لم يوجد هذا البيت وهذه الكعبة ، لكنتم قبيلة من القبائل ، لا مهابة لكم ولا سلطان ، ولا جاه ، ولكنكم تعلمون أن تجارتكم تذهب إلى الشمال وإلى الجنوب ، ولا يتعرض لها أحد بسوء أبداً ؛ لأن الذين يتعرضون لكم سواء منهم من كان فى الشمال أو فى الجنوب سيأتون فى يوم ما إلى الكعبة هذه ليؤدوا مناسك الحج وستتمكنون منهم فى أثناء وجودهم فى البيت . ولذلك قلنا حينما تعرضنا إلى قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ

طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾ ﴾

« سورة الفيل »

إن الحق أتبعها بالقول :

﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ﴿٢﴾ ﴾

« سورة قريش »

إذن لو أن البيت تعرض للهدم من أبرهة الحبشى لسقطت مهابة قريش ، وقد نصرهم الله لتظل لقريش رحلة الشتاء والصيف ، ولذلك قال :

﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ﴿٣﴾ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴿٤﴾ ﴾

« سورة قريش »

إن رب هذا البيت هو الذى أعزهم وحماهم بوجود هذا البيت الذى رفعه إبراهيم .

إذن فالقوم وإن كانوا يعبدون الأصنام إلا أن لهم صلة عقدية بإبراهيم ، فأراد الحق سبحانه وتعالى أن يدخل إلى قلوبهم بالحنان الذى يعرفونه لإبراهيم الذى هو سبب هذا العزّ وسبب هذا الجاه والسيادة وأيضاً لأن المواجهة العقدية إنما جاءت أولاً لعبادة الأصنام ، والمسألة فى سيدنا إبراهيم كانت كذلك فى عبادة الأصنام ، فهناك ـ إذن ـ ارتباطات متعددة فأتى الحق هنا بقصة سيدنا إبراهيم ليرقق بها قلب هؤلاء .

﴿ وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناماً آلهة ﴾ والأصنام هى شىء من الحجارة يصنع على مثال حى ، أما الوثن فهو قطعة من حجر خام لم يشكل أو يعالج أو يصنّع كانوا يقدسونه ، وهكذا نعرف الفارق بين الصنم والوثن ، وكيف دخلت فكرة الأصنام على عقول الناس ؟ ومن أين جاءت ؟ .

نعلم أن الناس لهم أسباب مباشرة فى الحياة ؛ فالإنسان حين يتطلب الضوء يرى الشمس قد أشرقت ، وفى الليل يرى القمر قد طلع ، ويرى الجبال تعطى له الصلابة والقوة ، ويقيم فيها بيوتاً .

إذن ففيه أشياء يرى الإنسان فيها السببية الظاهرة ، فيعتقد أنها الفاعلة . وحين يرى هذه الأشياء ويظن أنها الفاعلة يظن أن لها قداسة سواء أكانت الشمس أم القمر . إذن فقبل أن توجد أصنام وجدت كواكب وكانوا يعبدونها . بدليل أن الحق يقول :

﴿ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً ﴾

«من الآية ٧٤ سورة الأنعام»

وبعد ذلك يأتى فى النقاش ولا يأتى بسيرة الأصنام :

﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ﴾

«من الآية ٧٦ من سورة الأنعام»

إذن فقد كانت هناك علاقة بين الأصنام وبين الكواكب ، والأصل فيها أن الإنسان حينما يرى شيئاً ينفعه ، ينسب إليه كل نفع يحصل عليه ويرى له قوة يحترمها فيه ، ولم ينتبه الإنسان إلى أن خالق هذه الأشياء غيب ، فَعَبَدَ الشىء الظاهر له ، وعندما وجد الإنسان أن الكواكب تأفل وتغيب قال بعض الناس : لنقيم أصناماً تذكرنا بها ، وصار هناك صنم يمثل الشمس ، وصنم يمثل القمر ، وآخر يمثل النجم الفلانى ، أى أن الأصنام إنما جعلت لتذكر بالأصل من الكواكب ، ولذلك أقول دائما : يجب على الناس ألا تغفل عن المسبب لأنه سبحانه ـ هو وراء الأسباب ، وكلما ارتقى العقل يسلسل الأسباب ، إلى أن تنتهى إلى مسبب ليس وراءه سبب ، وإذا انتهت يد المخلوق وعجزت فى الأسباب تبدأ يد الخالق ؛ فالذين يفتنون بالأسباب هم الذين ينظرون إليها على أنها الفاعلة بذاتها .

ولذلك حينما أغفلت وسترت قضية الدين فى أذهان الناس بدأوا ينظرون إلى ما حولهم وما ينفعهم ، فتوجهوا بالعبادة له ، وكانوا قبل الرسالة يحجون إلى الكعبة ويحبون الكعبة ، وحين يغتربون فى كثير من الرحلات يأخذون قطعة من حجر من نوعية أحجار الكعبة فى الرحلة الطويلة ، وحين يراها أحد من هؤلاء يطمئن ، ولكن بطول الزمن انفردت هذه الأشياء بتقديس خاص يعزلها عن الأسباب .

وهكذا عرفنا أن سيدنا إبراهيم خليل الرحمن كانت له عند العرب هذه المكانة ،

وكذلك عند أهل الكتاب حتى أنهم ادعوا انتسابه لهم فبعضهم قال : إن إبراهيم كان يهودياً ، وقال الآخرون: إنه كان نصرانياً ، وجاء القرآن وهو يواجه كفار قريش ، وكذلك أهل الكتاب فيأتى الله بقصة سيدنا إبراهيم ليعطينا قضية العقائد ويوضحها توضيحاً يؤنسهم بمن له فى نفوسهم ذكر .

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٧٤﴾ ﴾

« الآية ٧٤ سورة الأنعام »

والضلال أن تريد غاية فتضل الطريق إليها ، وكان الناس عندهم غاية فى ذلك الزمان أن يقدسوا ، ويقدروا من ينعم عليهم بالنعم . إلا أنهم أخطأوا الطريق ووقفوا عند السبب ، ولم يذكروا ولم يدركوا ما وراء السبب ، ومن هنا جاء الضلال المبين . فكان من طبيعة الإنسان أنه يتقدم بالولاء وبالخضوع وبالشكر لمن يرى نعمة منه عليه ، لكنهم ضلوا الطريق ؛ لأنهم ساروا فى النعمة فى حلقات الأسباب ، ولم يصلوا بالأسباب إلى المسبب . وهذا ضلال مبين لأنه فتنة خَلْقٍ فى خَلْق ؛ فالإنسان الأول الذى جاء وأقبل على عالم مخلوق له ، وأقبل على أرض وأقبل على شمس ، وأقبل على قمر ، وأقبل على نجوم ، وأقبل على سحاب يمطر له الماء ، وأقبل على جبال تمده بالأقوات كان من الواجب عليه أن يلتفت لهذه المسألة ؛ لأنه لم يصنعها ولا ادّعى أحد أنه صنعها ، أما كان من الواجب أن يفكر تفكيراً يسيرا فيمن خلق له هذه الأشياء ؟ !

إن أتفه الأشياء تحتاج إلى صانع ، مثال ذلك الكوب الذى نشرب فيه الماء لا يكون كوباً أمام أى واحد فينا إلا بعد أن انتقل وتقلب فى مراحل متعددة ممن اكتشف المادة وممن صهرها كيماوياً وممن أنفق عليها إلى أن وصل إلى الكوب ، وكذلك المصباح ، إن نظرنا إلى الأجهزة التى خلْقَه وأسهمت فى إيجاده لوجدناها أجهزة كثيرة من إمكانات مالية إلى قدرات علمية ،من ماديات موجودة فى الأرض إلى أن وصل إلى هذا المصباح الذى يتغير كل فترة ، فما بالنا بالشمس التى تنير نصف الكون فى

وقت ، ونصف الكون الآخر فى وقت آخر وليس لها قطع غيار ، ولم تقصر يوماً فى أداء مهمتها .

وكثيراً ما درسنا فى المدارس قصة من اخترع المصباح « أديسون » وكانت قصة هذا الاختراع تفيض بإعجاب من يكتبون عنها ولم نجد من يدرس لنا ـ بإعجاب وإيمان ـ دقة الشمس التى تنير الكون ، فالآفة أننا نقف فقط عند حلقات الأسباب ، والوقوف عند حلقات الأسباب هو وقفة عقلية سطحية ، ومن أجل أن نزيد من عمق الفهم لابد أن نسلسل السبب وراء السبب وراء السبب إلى أن نصل إلى مسبب ليس وراءه سبب . وأن نرهف آذاننا لمن يأتى ليحل لنا هذا اللغز ويقول لنا : لقد خلق الله كل الكون من أجلكم وصفاته سبحانه أنه لا مثيل له فى قدرته ومطلق حكمته ، ومطلوبه هو منهجه .

إذن فالرسل قد جاءوا رحمة لينقذونا ويبينوا لنا هذا اللغز . فإذا جاء الحق سبحانه وتعالى وأوضح : أنا الذى خلقت السموات ، وأنا الذى خلقت الأرض ، وأنا الذى سخرت لك كل ما فى الكون ، فهذه دعوة ، والدعوة إما أن تكون حقيقية فتعلن الإيمان به سبحانه ، وإما غير حقيقية ، فنسأل : من خلق الكون ـ إذن ـ غير الله ؟ . ولماذا لم يقل لنا صفاته ، ولم يرسل لنا بلاغاً عنه ؟ . ولأن أحداً لم يفعل ذلك إذن فالألوهية تثبت لمن أبلغنا عن ذاته وصفاته وصنعته عبر الرسل ، فلم يوجد معارض له ، وحين قال سبحانه : أنا إله واحد ، وأنا خلقت الكون ، وسخرته لكم فنحن نصدق هذا البلاغ .

ويريد الحق سبحانه وتعالى أن يبين لنا ألا نقف عند الأسباب فقط حتى لا نقع فى ضلال مبين ، ومن الواجب أن نبحث عما وراء الأسباب إلى أن تنتهى إلى شىء لا شىء بعده ننتهى إلى مسبب الأسباب ومالك الملك ـ جلت قدرته .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ

﴿ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ۝٧٥ ﴾

أى كما اهتدى إبراهيم إلى أن عبادة الأصنام ضلال مبين فسيريه الله ملكوت السموات والأرض ما دام قد اهتدى إلى أن هناك إلهاً حقًّا ، فالإله الحق يبين له أسرار الكون :

والملكوت صيغة المبالغة فى الملك ، مثلها مثل « رحموت » . وهى صيغة مبالغة من الرحمة ، والملكوت تعطينا فهم الحقائق غير المشهودة ، فالذى يمشى وراء الأسباب المشهودة له يأخذ الملك ؛ لأن ما يشهده ويحسُّه هو أمامه ، والملكوت هو ما يغيب عنه ، إذن ففيه « ملك » ، وفيه « ملكوت » ، الملك هو ما تشاهده أمامك ، والملكوت هو ما وراء هذا الملك .

والمثال هو ما قاله سيدنا إبرهيم حينما تكلم على الشركاء لله قال سبحانه :

﴿ فَإِنَّهُمۡ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٧٧ ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهۡدِينِ ۝٧٨ وَٱلَّذِي هُوَ يُطۡعِمُنِي وَيَسۡقِينِ ۝٧٩ وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ ۝٨٠ وَٱلَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحۡيِينِ ۝٨١ ﴾

« سورة الشعراء »

ولنلحظ هنا أن الأساليب مختلفة ، فهو يقول : ﴿ الذى خلقنى ﴾ ولم يقل : « الذى هو خلقنى » ، ثم قال ﴿ فهو يهدين ﴾ لأن أحداً لم يدّع أبداً خلق الإنسان ، وهى قضية مسلمة لله ولا تحتاج إلى تأكيد ، أما هداية الناس فهناك من يدعى أنه يهدى الناس . وما يُدَّعَى من البشر يؤكد بـ « هو » . وما لا يُدَّعَى من البشر كالخلق والإماتة والإحياء لا يؤتى فيه بكلمة هو .

ويتابع سيدنا إبراهيم : ﴿ والذى هو يطعمنى ويسقين ﴾ وهنا قفز سيدنا إبراهيم من كل الأسباب والحلقات الظاهرية إلى الحقيقة ، وعرف الغيب ﴿ وإذا مرضت فهو يشفين ﴾ وهو بذلك يميز بين الوسيلة للشفاء وهم الأطباء المعالجون والشافى الأعظم وهو الله ـ تبارك وتعالى ـ لأن الناس قد تفتن بالأسباب وتقول : إن الطبيب هو من

يشفى ، ولذلك ينتقل سيدنا إبراهيم من ظواهر الأسباب إلى بواطن الأمور ، وينتقل من ظواهر الملك إلى باطن الملكوت حتى نعرف أن الطبيب يعالج ولكنه لا يشفى ، بدليل أننا كثيراً ما رأينا من يذهب للطبيب ويعطيه الطبيب حقنة فيموت المريض ، وبذلك يصير الطبيب فى مثل هذا الموقف من وسائل الموت :

سبحان من يرث الطبيب وطبه
ويرى المريض مصارع الأسين

إذن ، ﴿ فهو يشفين ﴾ أى أن الشفاء من الله والعلاج من الطبيب .

وبذلك جاء سيدنا إبراهيم بالأشياء التى يمكن أن يفتن الإنسان فى أسبابها وأكدها بـ « هو » .

وحين ننظر إلى إبراهيم عليه السلام فى قصة العقيدة نجده قد أخذ سلطاناً كبيراً يعترف به جميع الأنبياء ؛ لأن ربنا قال فيه : ﴿ وإبراهيم الذى وفّى ﴾ .

وكذلك قال سبحانه :

﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾

« من الآية ١٢٤ من سورة البقرة »

أى إنك يا إبراهيم مأمون أن تكون إماماً للناس ، وببشرية إبراهيم وبظاهر الملك . سأل الله أن تكون الإمامة فى ذريته ، وقال : ﴿ ومن ذريتى ﴾ .

أى اجعل من ذريتى أئمة ، فيقول الحق :

﴿ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾

« من الآية ١٢٤ من سورة البقرة »

لأن مسألة الإمامة ليست وراثة دم ، ولا يأخذها إلا من يستحقها . وقلنا : إن سيدنا إبراهيم جاء بهاجر وابنه إسماعيل منها وأسكنهما بواد غير ذى زرع عند البيت المحرم ، ويقول القرآن على لسانه :

﴿ رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾

« سورة إبراهيم »

أى أن سيدنا إبراهيم عليه السلام وعى مسألة تعليم الحق له لأسرار الملكوت ، وظل فى ذهن سيدنا إبراهيم ، أن الحق سبحانه ـ لا يعطى الإمامة من ظلم ثم أوضح له أنه يجب أن تفرق بين خلافة النبوة ، وعطاء الربوبية فى الطعام . ويتمثل ذلك فى دعاء سيدنا إبراهيم :

﴿ وَٱرۡزُقۡ أَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُم بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ ﴾

« من الآية ١٢٦ من سورة البقرة »

فكأن إبراهيم حين طلب الرزق من الثمرات لمن آمن بالله واليوم الآخر لم يفرق فى دعائه بين عهد النبوة والإمامة ، ومطلوبات الحياة ، فيقول له الحق : ﴿ ومن كفر . . ﴾ .

أى أنه سبحانه سيرزق بالطعام من آمن ومن كفر ؛ لأن الطعام ومقومات الحياة من عطاءات الربوبية ، أما المناهج فهى من عطاءات الألوهية ، والله سبحانه وتعالى رب لجميع الناس ؛ لأنه هو الذى استدعاهم جميعاً : المؤمن والكافر ، والطائع والعاصى ، وما دام هو الذى استدعاهم إلى الوجود فهو لا يمنعهم الرزق .

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾

« سورة الأنعام »

وكل من يسير على قدم إبراهيم عليه السلام يرتبط ويتعلق بذات الحق سبحانه وتعالى ، وفيه فرق بين الارتباط والتعلق بالذات ، والارتباط والتعلق بالصفات ؛ والذى يعبد الله لأنه رزّاق ، ولأنه مُغْنٍ هو مَن يرتبط بالصفات . أما من يرتبط بالله لأنه إله فقط وإن أفقره فهو من يرتبط بالذات ، وحين صفى سيدنا إبراهيم نفسه من كل

العقائد السابقة أوضح له الحق : أنت مأمون على أسرار كونى ، وأعطاه الحق الكثير كما يعطى لكل من يخلص فى الارتباط بخالقه يعطيه ربنا عطاءات من أسرار كونه .
ويضرب الحق سبحانه لنا كثيراً من المُثُل فى القرآن فيقول :

﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ ﴾

« من الآية ٢٨٢ من سورة البقرة »

أى أنك ما دمت مأموناً على ما عرفت من أحكام الحق لحركة حياتك وتنفذه فإن الحق يعتبرك أميناً على أسراره ، ويعطيك المزيد من الزيادة .

ومعنى « تتقى » أى أن تلتحم بمنهج الحق ، وإذا التحمت بالمنهج الحق كنت فى الفيوضات الدائمة التى لا تنقضى من الحق ؛ لأن الذى فى معيته لابد أن يخلع الحق عليه من واردات وعطاءات صفاته ما يجلى صلته بربه ويطمئنه عليه ، ومثال ذلك ما حدث فى « قصة الهجرة » ، تجد الرسول صلى الله عليه وسلم وسيدنا أبا بكر فى الغار ، ويقول أبو بكر لرسول الله : لو نظر أحدهم تحت قدمه لرآنا ، وهذه قضية كونية مؤكدة ، ويرد عليه الرسول صلى الله عليه وسلم بما ينقله من القضية الكونية الظاهرة الواضحة إلى عالم الملكوت الخالص ، ويقول : (يا أبا بكر ، ما ظنك باثنين الله ثالثهما[1] .

أى أنه يقول له : اطمئن ، لن يرانا أحد ؛ لأننا فى معية الله ، وسبحانه لا تدركه الأبصار . وحين يكون الضعيف فى معية القوى فقانون القوى هو الذى يتغلب ، فلا يصبح الضعيف ضعيفاً ، فحين يكون هناك ولد بين الأطفال الذين فى مثل سنه ويضطهدونه ويؤلمونه ويؤذونه ، ثم يرونه فى يد أبيه لا يجرؤ أحد منهم أن يأتى إلى ناحيته ، والناس لا يقدر بعضهم على بعض إلا إذا انفلتوا من معية الله ، .ومَن فى معية الله لا يجترىء عليه أحد أبداً . ولذلك يرسل لنا ربنا قضايا الملك وقضايا الملكوت ، ويمثلها فى رسول من أولى العزم من الرسل مع عبد صالح آتاه الله شيئاً من علمه وفيضه لأنه اتقاه .

---

(١) رواه البخارى ومسلم .

يقول الحق سبحانه :

﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَـٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ ﴾

« سورة الكهف »

إن هذا العبد قد أخذ منهج الرسول الذى جاء به واتبعه ، فأداه حق الأداء فاتصل بالحق فأعطاه الحق من لدنه علماً . وحين ننظر فى هذه القضية نتعجب لأننا نجد سيدنا موسى ـ ينظر فى عالم الملك بينما ينظر من آتاه الله من لدنه رحمة ومن عنده علما ينظر من عالم الملكوت ، وموسى معذور ؛ لأنه ينظر فى دائرة الأسباب ، والعبد الصالح معذور هو الآخر لأنه ينظر فى دائرة ثانية ، ولذلك سيقول العبد الصالح : ﴿ وما فعلته عن أمرى ﴾ .

أى أن المسألة ليست من ذاته ، بل هو مأمور بها . وحين ننظر إلى تقدير موقف كل منهما للآخر نجد العبد الصالح يقول : ﴿ إنك لن تستطيع معى صبرا ﴾ . اى أن العبد الصالح يعذر موسى ، ويضيف :

﴿ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ ﴾

« سورة الكهف »

فيقول القرآن على لسان موسى :

﴿ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ ﴾

« سورة الكهف »

فها هو ذا الرسول الذى جاء ليبلغ المنهج يطيع عبداً صالحا طبق المنهج من رسول سابق ونفذه كما يحب الله ، والتحم بالمنهج ، وجاء لنا ربنا بهذه القصة مع رسول من أولى العزم . ويتلقى موسى عليه السلام الأمر من العبد الصالح :

﴿ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ ﴾

« سورة الكهف »

لماذا ؟ لأن العبد الصالح يعلم أن موسى سيتكلم عن عالم الملك ، وهو يتكلم من عالم الملكوت .

وحين ركبا السفينة ، وخرقها العبد الصالح ، والخرق إفساد ظاهرى فى عالم المُلْك . يوضح سيدنا موسى للعبد الصالح أن هذا الفعل إخلال بالقانون ، وكيف يعتدى على السفينة بالإفساد ؟ فيرد العبد الصالح : ألم أقل إنك لن تستطيع معى صبراً ، وليست لك طاقة على مثل هذه المسائل ، فيتذكر موسى ، ثم تأتى حكاية الغلام ، وحكاية الجدار .

وحين ندقق النظر فى هذه الأمور نجد عالم الملكوت يصحح الأمور الشاذّة فى عالم الملك ؛ فخرق السفينة إفساد ظاهرى لكن إذا علم موسى أن هناك مَلِكاً يأخذ السفن السليمة الصالحة ويستولى عليها غصبا وهذه السفينة لمساكين يعملون فى البحر ، ويريد العبد الصالح أن يحافظ لهم على السفينة فيخرقها حتى لا يأخذها المغتصب ؛ وحين يقارن الملك المغتصب بين سفينة سليمة وسفينة مخروقة . فلن يأخذ السفينة غير السليمة ، ويمكن لأصحابها إصلاحها .

إذن لو علم موسى بهذه المسألة ، ألا يجوز أن يكون موسى هو الذى كان يقوم بخرق السفينة ؟ إنه كان سيخرقها ، إذن لو علم صاحب نظرية الملك ما فى نظرية الملكوت من أسرار ، لفعل هو الفعل نفسه . وحين نأتى لقتل الغلام ، لابد من التساؤل : وما ذنب الغلام ؟ فيفسر العبد الصالح الأمر :

﴿ وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ ﴾

« سورة الكهف »

والأبوان قد يدللان هذا الابن ، ويطعمانه من مال حرام ، ويكون فتنة لهما ، فقتل الغلام ليظلا على الإيمان ، وعجلّ ربنا بالولد إلى الجنة مباشرة .

وفى مسألة الجدار تجد الخلاف بين رؤية عالم المُلْك ، ورؤية عالم الملكوت . ففى ظاهر الأمر أنهما حين أتيا أهل القرية طلباً للطعام ، وطلب الطعام شهادة صدق

على الضرورة ، لأنه ليس طلباً للنقود ، فقد يطلب أحد النقود ليدخرها ، لكن من يقول : « أعطنى رغيفاً لآكل » فهذه آية صدق الضرورة فى طلب الطعام . ولكن أهل القرية أبوا أن يضيفوهما ، إذن هم لئام لا كرام . ويرى العبد الصالح جداراً يريد أن ينقض ، وآيلاً للسقوط فأقامه ، وغضب سيدنا موسى ، سبب غضبه أنه والعبد الصالح استطعما هؤلاء فلم يطعموهما ، فكيف تبنى جداراً لهم ؟ ! وكان يصح أن تأخذ عليه أجراً ، وغضب سيدنا موسى سببه ظاهر ، لكن العبد الصالح يشرح المسألة :

لقد أقام الجدار لأن أهل القرية لئام ولم يعطونا طعاماً ، ولو وقع الجدار وظهر الكنز تحته أمام لئام بهذا الشكل لسرقوه من أصحابه ، وهم أطفال ، وقد بناه العبد الصالح بهندسة إيمانية ألهمه الله بها بحيث إذا بلغ الولدان الرشد يقع الجدار . أى أنه بناء موقوت ، مثلما نضبط المنبه على وقت محدد ، كذلك الجدار بحيث إذا بلغ الولدان الرشد يقع الجدار ويأخذان الكنز .

وهذا يوضح لنا الخلاف بين عالم المُلْك ، وبين عالم الملكوت ؛ فعالم الملكوت هو الذى يغيب عنا وراء الأسباب . وكثير من الناس يقف عند الأسباب ، ولا ينتقل من الأسباب إلى السبب المباشر ، إلى أن ينتهى إلى مسبب ليس بعده سبب .

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾

« سورة الأنعام »

فهل تيقن أو لم يتيقن ؟ .

و« موقنين » جمع « موقن » والجمع أقله ثلاثة ، واليقين ينقسم إلى ثلاث مراحل : يقين بعلم من تثق فيه لأنه لا يكذب ؛ ويقين بعين ما تخبر به ، ويقين بحقيقة المُخْبَر به . وحين عرض الحق سبحانه وتعالى هذه المسألة فى سورة التكاثر قال :

﴿ أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ﴿٢﴾ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ﴿٥﴾ ﴾

« سورة التكاثر »

إذا أخبرتكم فهذا الخبر هو الصورة العلمية ، وكان يجب أن يكون ما أخبركم به علم اليقين .

﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ۝٧ ﴾

« سورة التكاثر »

لأننا سوف نرى النار فى الآخرة ، لكن لم تأت حقيقة اليقين ، وجاءت حقيقة اليقين فى سورة الواقعة :

﴿ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ الْيَمِينِ ۝٩٠ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ الْيَمِينِ ۝٩١ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّآلِّينَ ۝٩٢ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ۝٩٣ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ۝٩٤ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ ۝٩٥ ﴾

« سورة الواقعة »

وسيدنا إبراهيم عليه السلام كان حقا من الموقنين فى كل أدوار حياته ؛ لأن الله أعلمه ما وراء مظاهر الملك ، ما وراء مظاهر الأشياء ؛ وعواقبها . فمثلا عندما أُخذ ليطرح فى النار جاء له جبريل ليقول : ألك حاجة ؟ قال سيدنا إبراهيم : أمّا إليك فلا .

ويقول ذلك وهو يعرف أن النار تحرق ، ولكن هذا ظاهر المُلك ، وظواهر الأشياء ، وسيدنا ابراهيم يعلم أن الذى خلقها جعلها محرقة ، ويستطيع ألا يجعلها محرقة ، وهو متيقن به ، ولذلك لم يطفىء الله النار بظاهر الأسباب ولكن جعلها الله ليّناً لأعناق خصومه ، فأوضح الحق : يانار أنا خلقت فيك قوة الإحراق ، وأنا أقول لك الآن : لا تحرقى .

﴿ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ۝٦٩ ﴾

« سورة الأنبياء »

إذن فإبراهيم يعرف هذه الحقائق المستمية وراء المُلك الظاهر ، وهذا من الابتلاءات الأولى فى حياته ، ويملك أن يرد على سيدنا جبريل لحظة أن سأله قبل أن

يلقوا به فى النار : ألك حاجة ؟ فيقول إبراهيم : أمّا إليك فلا .

ثم يأتى له الابتلاء فى آخر حياته بذبح ولده . ونعلم أن الإنسان تمر عليه أطوار تكوين ذاتيته ، وأحياناً تكون الذات هى المسيطرة ، وفى طور آخر تبقى ذاتية أولاده فوق ذاتيته ، أى أنه يحب أولاده أكثر من نفسه . يتمنى أن يحقق لأولاده كل ما فاته شخصياً . فلما كبر إبراهيم ووهبه الله الولد يأتيه الابتلاء بأن يذبح ابنه.إنه ابتلاء شديد قاس ، وهو ابتلاء لا يأتى بواسطة وحى بل بواسطة رؤيا . وكلنا نعلم أن رؤيا الأنبياء حق . لكن إبراهيم يعلم أن الحق سبحانه وتعالى لا يطلب من خلقه إلا أن يستسلموا لقضائه ، ولذلك إذا رأيت إنساناً طال عليه قضاء ربه فى أى شىء ؛ فى مرض ، فى مصيبة ، فى مال ، أو غير ذلك فأعلم أنه لم يرض بما وقع له ، ولو أنه رضى لانتهى القضاء . فالقضاء لا يُرفع حتى يُرضى به ، ولا يستطيع أحد أن يلوى يد خالقه . إذن فالناس هم الذين يطيلون على أنفسهم أمد القضاء .

ولذلك عرف سيدنا ابراهيم هذه القضية : قضية فهمه لعالم الملكوت . فلما قيل له:« اذبح ابنك » لم يرد أن يمر ابنه بفترة سخط على تصرف أبيه ؛ لأنه إن أخذه من يده وفى اليد الأخرى السكين فلابد أن تكون هذه اللحظة مشحونة بالسخط ، فيحرم من الجزاء ، فيبين له المسألة . ويقول القرآن حكاية عن إبراهيم :

﴿ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ ﴾

« من الآية ١٠٢ من سورة الصافات »

وهذا القول يريد به إبراهيم أن ينال ابنه ثواب الاستسلام وهو دليل محبة إبراهيم لولده ، فماذا قال إسماعيل :

﴿ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾

« من الآية ١٠٢ من سورة الصافات »

قال إسماعيل ذلك ليأخذ عبودية الطاعة . ويؤكد القرآن رضاء إبراهيم وابنه بالقضاء فيقول :

﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ ﴾

« سورة الصافات »

وهذا القبول بالقضاء هو ما يرفعه . لذلك يقول القرآن بعدها :

﴿ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ ﴾

« سورة الصافات »

ويفدى الله إسماعيل بذبح عظيم ، ولا يقتصر الأمر على ذلك بل يرزق الله إبراهيم بولد آخر ؛ لأنه فهم ملكوت السموات والأرض ، وعرف نهاية الأشياء . فإذا ما أصيب الإنسان بمصيبة فما عليه إلا أن يرضى ويقول : مادامت هذه المصيبة لا دخل لحركتى فيها ، وأجراها علىّ خالقى فهى اختبار منه ـ سبحانه ـ ولا يوجد خالق يفسد ما خلق . ولا صانع يفسد ما صنع ، ولابد أن لذلك حكمة عنده لا أفهمها أنا ، لكنى واثق فى حكمته .

إن طريق الخلاص من أى نائبة من النوائب أن يرضى المؤمن بها ، فتنتهى . ومن تحدث له مصيبة بأن يموت ولد له ، ويظل فاتحاً لباب الحزن فى البيت ، وتبكى الأم كلما رأت من فى مثل سنّه فسيظل باب الحزن مفتوحا ، وإن أرادوا أن يزيل الله عنهما هذا الابتلاء فليقفلا باب الحزن بالرضا . وليعلم كل مؤمن أن ما أخذ منه هو معوض عنه بأجر خير منه ، والمأخوذ الذى قبضه الله إليه وتوفاه معوض بجزاء خير مما يترك فى الدنيا ، ولذلك يقال : المصاب ليس من وقعت عليه مصيبة وفارقه الأحباب ، بل المصاب من حُرِم الثواب ، فكأنه باع نكبته بثمن بخس .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ ﴾

و« جن » تفيد الستر والتغطية ، ومنها « الجنون » أى ستر العقل ، و « جن الليل » أى أظلم وستر عنك ، فلا ترى غيرك ولا غيرك يراك . و« الجنَّة » كذلك لأن فيها الأشجار والأشياء التى تستر من يمشى فيها ، إذن المادة كلها تفيد الستر .

وكلمة « كوكب » تفيد أنه يأخذ ضوءه من غيره ، ونفهم من الآية أن إبراهيم كان فى ظلمة ثم طلع الكوكب فرآه ، ثم غاب الكوكب أى انتقل من بزوغ وطلوع إلى أفول ، وقديماً كانوا يعبدون الكواكب والنجوم ، فجاء لهم إبراهيم من جنس ما يعبدون ، وقال : « لا أحب الآفلين » .

ويتابع الحق بعد ذلك :

﴿ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ ﴾

وهنا قال إبراهيم عليه السلام : هذا ربى ، ووقف العلماء هنا وتساءلوا : كيف يقول إبراهيم هذا ربى ، وهى جملة خبرية من إبراهيم ، وكيف يجرى إبراهيم على نفسه لفظ الشرك ، وأراد العلماء أن يخلصوا إبراهيم من هذه المسألة . ونقول لهؤلاء العلماء : جزاكم الله كل خير ، وكان يجب أن تؤخذ هذه المسألة من باب قصير جداً ؛ لأن الذى قال : إن إبراهيم قال : هذا ربى ، هو الذى قال فى إبراهيم :

﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ﴾

« من الآية ١٢٤ سورة البقرة »

إذن فقوله ﴿ هذا ربى ﴾ لا تخدش فى وفائه الإيمانى ، ولابد أن لها وجهاً . ونعلم أن القوم كانوا يعبدون الكواكب ، ويريد إبراهيم أن يلفتهم إلى فساد هذه العقيدة ، فلو أن إبراهيم من أول الأمر قال لهم : يا كذابون ، يا أهلَ الضلال ، وظل يوجه لهم

السباب لما اهتموا به ولا سمعوا له . لكن إبراهيم استخدم ما يسمى فى الجدل بـ « مجاراة الخصم » ؛ ليستميل آذانهم ويأخذ قلوبهم معه ، وليعلموا أنه غير متحامل عليهم من أول الأمر ، فيأخذ بأيديهم معه .

مثال ذلك فى حياتنا ، تجد رجلاً له ابنة وجاء لها خطيب ، وهذا الخطيب قصير جداً ، بينما البنت ـ ما شاء الله ـ طويلة ، وحين جاء الخطيب ليراها وتراه تقول لأمها : هذا خطيبى ؟ ! وهذا القول يعنى أنها تنكر أن يكون هذا القصير عنها هو خطيبها ، وحين قال إبراهيم : ﴿ هذا ربى ﴾ معناه إنكار أن يكون مثل هذا الكوكب أو ذلك القمر أو تلك الشمس هى الرب .

ونلحظ أنه يحدد لهم مصير من يعبد تلك الكواكب ، فقال : ﴿ لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين ﴾ ، وفى هذا معرفة بمن على هدى أو على ضلال ، ويكون قوله : ﴿ هذا ربى ﴾ لونا من التهكم ؛ لأنهم قالوا بما جاء به القرآن على لسانهم : ﴿ أهذا الذى يذكر آلهتكم ﴾ .

فكأنه قال : سلمنا جدلاً أنه ربكم ، لكنه يأفل ويغيب عنكم ، وقوله : ﴿ لا أحب الآفلين ﴾ يعنى أنه غير متعصب ضدهم .

وكذلك حين يقول الحق :

﴿ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾

وهكذا يثبت له أن كل كوكب ـ حتى الشمس ـ مصيره إلى أفول ، فكأنه قد وصل بهم بالمنطق إلى أن عبادة الكواكب لا تصلح ، واستخدم المنطق الذى يحقق نيته فى

أن ينكر هذه الربوبية ، ويستأنس به آذان من يسمعه . وهناك أشياء يجعلها الحق سبباً مبرراً لارتكاب أشياء كثيرة ، إلا أننا نعقد مقارنة بين بعضهم البعض مثلما قال الحق :

﴿ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا ﴾

« من الآية ١٠٦ سورة النحل »

وقد جاءت بعد قوله سبحانه :

﴿ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَٰنِ ﴾

« من الآية ١٠٦ سورة النحل »

فإذا كان الله قد أباح إجراء كلمة الكفر على لسان المؤمن المطمئن لينجى حياته وهو فرد ، أفلا يصح لإبراهيم أن يقول لهم : ﴿ هذا ربى ﴾ بما تحتمل من أساليب حتى ينجى أمة بأسرها من أن تعبد الأصنام ؟ .

إذن فقول إبراهيم ﴿ هذا ربى ﴾ يؤخذ على محملين : ألم يقل الله سبحانه وتعالى بنفسه عن نفسه :

﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى ﴾

« من الآية ٤٧ من سورة فصلت »

وسبحانه يعلم أنّه لا شركاء له ، ولكن الشركاء هم مِن زعْم المشركين .

ورسول الله صلى الله عليه وسلم حينما كان ينادى فى بعض القوم : « يا إله الآلهة » لأنه يعلم أن قوماً قد ألهوا ظواهر طبيعية فى الكون لما يرون من الخير فيها ، فأراد أن ينبههم إلى ان هناك إلهاً حقًا .

ويوضح القرآن عدم جدوى الشرك حين يقول :

﴿ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾

« من الآية ٩١ سورة المؤمنون »

ويقول سبحانه :

﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْاْ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ ﴾

« سورة الإسراء »

والحق سبحانه وتعالى يقول للكافر الذى كان يعتز بجاهه فى دنياه :

﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ ﴾

« سورة الدخان »

فهل هذا القول اعتراف بأن الكافر عزيز كريم أو هو قول تهكمى ؟ . إنه تهكم ؛ لأن الكافر لو كان عزيزاً كريماً عند نفسه لما كفر ولما استقر فى الجحيم .

وكان المنطق فى اللغة أن يقول : فلما رأى الشمس بازغة قال هذه ربى ؛ لأن الشمس مؤنثة ، ولكنه قال : ﴿ هذا ربى ﴾ كما قال فى القمر وفى غيره من الكواكب ، فجعل الأمر على سياق أو حالة واحدة ، أو هو بهذا القول يريد أن ينزه كلمة الرب تنزيها مطلقاً عن أن تلحق بها علامة التأنيث ؛ لأن علامة التأنيث فرع التذكير ، وأيضاً لأن الشمس ليست مؤنثاً حقيقياً ، بل هى مؤنث مجازى ، ولذلك يفطن العلماء إلى هذه المسألة فيقولون : إنك إذا أعطيت واحداً صفة العلم ، وقلت : فلان عالم ، أما إذا صار علمه ملكة عنده فنقول : « فلان عليم » ؛ ولذلك يقول الحق :

﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾

« من الآية ٧٦ من سورة يوسف »

وإذا كان العالم متمكناً من علمه بشكل غير مسبوق نقول عنه : « علاَّم » . والحق سبحانه يصف نفسه فيقول :

﴿ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾

« من الآية ١١٦ من سورة المائدة »

ولم يقل العلماء فى وصف الله علاّمة ، وإن كان هذا الوصف أبلغ احترازا من أن تلحق علامة التأنيث صفة من صفات الله ـ عز وجل ـ .

وحين تأفل الشمس يقول سيدنا إبراهيم :

﴿ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾

« من الآية ٧٨ سورة الأنعام »

وجاء الأمر صريحاً لأنه سبق المسألة بالترقيات الجدلية التى قالها ، وحين يسمعها أى عاقل فلابد أن يعلن اتفاقه فى هذا الأمر ، ولذلك قال : « إنى بريء مما تشركون » . ولأنه كإنسان مؤمن لن يغش نفسه ، وبالتالى لن يغش قومه ، وهذا ما ينبه العقل حين يعطيه الله هبة الهداية .

والبراءة من الشرك تخلية عن المفسد ، والتخلية تعنى أن تنفك أو تنقطع عن العمل المفسد ، وبعد ذلك تدخل فى العمل المصلح .. العمل الإيجابى .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾

والسموات والأرض هما المظهر الأول للكون الذى طرأ عليه الإنسان ؛ لأن الكون طرأ عليه الإنسان ـ الخليفة فى الأرض ـ ووجد كل الخيرات والمسخرات ، ولذلك يوضح الحق سبحانه وتعالى : إياكم أن تقولوا إنى خلقتكم فقط ، بل خلقت لكم الكون .

﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ ﴾

« من الآية ٥٧ من سورة غافر »

ويقدم سيدنا إبراهيم برهانه لقومه ، إنه يعبد الله وحده الذى خلق السموات والأرض ، رافضاً كل فساد فى الكون ، ويتمثل هذا فى قوله ﴿ حنيفاً ﴾ ، و « الحنف » فى اللغة هو ميل فى القدمين ، ونجد القدم مقوسة إلى الخارج . وهذا يعنى أنه لا يسير على طريق الفساد الموجود فى الكون ؛ لأن السماء تتدخل بالرسالات حين يطم الفساد فى الأرض ، وحين يأتى الرسول مائلاً عن الفساد فهو يسير معتدلاً ؛ لأن الميل عن الفساد اعتدال واستقامة .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾

وحاجّه أى حاججه بإدغام الجيمين فى بعضهما . أى أن كل طرف يقول حجة والطرف الآخر يرد عليه بالحجة ، فإذا كنت فى نقاش وكل واحد يدلى بحجته ، فهذا اسمه الحِجاج ، أو الجدل المبطل ، أى أنك تبطل كلامه وهو يبطل كلامك .

﴿ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ﴾

« من الآية ٨٠ سورة الأنعام »

وإذا كان إبراهيم قد جادلهم بمجاراة أفكارهم وأثبت بطلانها ، فكيف يجادلونه إذن ؟ . كان الغرض من الحِجاج صرف إبراهيم عن دينه الحنيف الذى ارتآه فى قوله سبحانه :

﴿ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾

« سورة الأنعام »

ويرد عليهم :

﴿ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ ﴾

«من الآية ٨٠ سورة الأنعام»

أى أن مسألة الإيمان قد حُسمت . فقد آمن إبراهيم بالله ويعلن للقوم : «ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربى شيئاً» وهذا القول يدل على أنهم قد هددوه ؛ لأن كلمة «الخوف» جاءت ونفاها عن نفسه . ويعلنها إبراهيم قوية : «ولا أخاف ما تشركون به» أى لا أخاف من الكواكب التى تأفل سواء أكانت نجماً أم قمراً أم شمساً أم تلك الأصنام التى تعبدونها فليس لها نفع ولا ضر ، والضر والنفع هما من صنع الله فقط .

ولذلك تتجلى الدقة فى الأداء العقدى فيقول الحق على لسان إبراهيم عليه السلام :

﴿ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾

«من الآية ٨٠ سورة الأنعام»

فإن شاء الحق أن يُنزل على عبدٍ كوكباً يصعقه أو يحرقه فهذا موضع آخر لا دخل لمن يعبد الكواكب به ، ولا دخل للكواكب فيه أيضا ؛ لأن النافع والضار هو الله ، فحين يشاء الله الضر ، يأتى الضر ، وحين يشاء النفع يأتى النفع .

﴿ إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا ﴾

«من الآية ٨٠ سورة الأنعام»

أى اذكروا جيداً ، وافرقوا بين فعل يقع من فاعلٍ ، وفعل يقع من آلة فاعلها غير تلك الآلة ، فحين يشاء الله أن يوقع على إنسان كوكباً ، أو صخرة فليست الصخرة هى التى صنعت وقوعها ، ولا الكوكب هو الذى أسقط نفسه ، إنما الفاعل هو الله :

﴿ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾

«من الآية ٨٠ سورة الأنعام»

وقوله ﴿ أفلا تتذكرون ﴾ يدل على أن قضايا العقائد مأخوذة بالفطرة ، وإقبال النفس على الشهوات هو ما يطمس آثار هذه الفطرة ، فليس المطلوب منك أيها الإنسان إنشاء فكرة عقدية بل المطلوب منك أن تتذكر فقط ، والتذكر أمر فطرى طبيعى ؛ لأن الإنسان الخليفة فى الأرض هو الذى تناسل من آدم إلى أن وصل إلينا ؛ فقد جاء آدم إلى الأرض ومعه منهج سماوى ينظم به حركة الحياة ، ولقن آدم المنهجَ لأولاده ، وكذلك فعل أبناء آدم مع أولادهم ، ولكن المناهج تنطمس ؛ لأن المناهج تتدخل فى أهواء الناس وتثنيهم عن شهواتهم وتصدهم عن المفاسد فيعرضون عنها أو يتجاهلونها ، إذن فهى عرضة أن تُنسى ، والرسالات إنما تذكر بالمنهج الأصلى الذى أخذناه عن الحق سبحانه وتعالى ، لذلك يعلنها إبراهيم :

﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ﴾

يقول لهم سيدنا إبراهيم : أنا لا أخاف إلا الله ، ولا أخاف ما أشركتم أنتم به مما لا يضر ولا ينفع . و « كيف » هنا تأتى للتعجيب ؛ لأن المنطق أن نخاف من الله وحده الذى يضر وينفع . وحين تدور مجادلة تستيقظ فى كل طرف ذاتية المجادل ، وهناك من يستنكفون من الحق ، ليس لأنه حق لكن لخوفهم أن ينهزموا أمام واحد مثيل لهم ، ومن يريد أن يصل إلى الحقيقة بدون استعلاء لا يعطى الحكم بما يحرك الذاتية فى الخصم المجادل ؛ لذلك لم يقل سيدنا إبراهيم : أنا أم أنتم أحق بالأمن ؟ بل قال : « فأى الفريقين أحق بالأمن » مثلما علم ربنا سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقول :

﴿ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾

« من الآية ٢٤ من سورة سبأ »

وهذا منتهى الحيدة فى الجدل ، فلم يصرح بأن منهجهم هو الضلال وأن منهجه هو الصواب المستقيم ثقة منه أنهم حين يستعرضون منهجه ويستعرضون منهجهم سيحكمون بأنه صلى الله عليه وسلم على هدى وأنهم على ضلال . وهذا هو الجدل الارتقائى ، مثلما يعلم الحق رسوله ليقول لخصومه :

﴿ قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾

« سورة سبأ »

هل يفعل الرسول جرائم ؟ حاشا لله أن يفعل ذلك فهو المعصوم .

وكأن الرسول صلى الله عليه وسلم يقول لهم : اسألوا عنى إن كنت أجرمت ؛ ولم يقل لهم وصفا لأعمالهم : « ولا نسأل عما تجرمون » بل قال : « ولا نسأل عما تعملون » . فلم يأت بمسألة الإجرام بالنسبة لهم ؛ وجاء بها بالنسبة له ، لأنه واثق أنهم إن أعادوا دراسة القضية فكرياً وعقدياً وعاطفياً فيسنتهون إلى الإيمان بمنهجه . وهذا منتهى اللطف فى الجدل .

ويتجلى اللطف فى الجدل فى قوله الحق :

﴿ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾

« من الآية ٨١ سورة الأنعام »

والعِلْمُ هو أن تأخذ قضية تعتقدها ولها واقع وتستطيع أن تدلل عليها ، وإن اختل شرط فيها فهذا خروج عن العلم ، ومثال ذلك ألفاظ اللغة ؛ كل لفظ وضع لمعنى ، وساعة تسمع اللفظ وأنت تعرف اللغة تفهم المعنى ؛ فحين أقول : الشمس . تتصور أنت الشمس فى ذهنك ، وكذلك الأرض والماء والجبل . فأنت عرفت مدلول هذه الألفاظ بدون أن تكون هناك نسبة . ونعلم أن هناك فرقاً بين معنى اللفظ مفرداً ، وما يعطيه ويفيده اللفظ إذا جاء فى نسبة .

فإذا جاء اللفظ فى نسبة فلابد أن توجد قضية ، فإذا قلنا الشمس محجوبة بالغيم فهذه قضية ، أو قلنا : الشمس تغيب فهذه قضية أخرى وهنا نسبنا شيئاً لشىء ، ولكننا قبل أن نأتى بالقضايا النسبية لابد أن يكون للفظ معنى فى ذاته ، وهذه اسمها معانى اللغة ، وتضم من خلالها لفظا إلى لفظ فتنشأ نسبة أو قضية شريطة أن نعرف معنى مفرداتها ، وبعد ذلك نعرف النسب ، وهى ما نقول عنه : مبتدأ وخبر ، موضوع ومحمول ، مسند ومسند إليه ، فعل وفاعل أى أمر منسوب إلى أمر .

والعلم ـ كما قلنا ـ هو قضية واقعية ، تعتقدها وتستطيع أن تدلل عليها . وإن اختل أمر من هذا لا يكون علماً ، فإن كنت تعتقد فى قضية إلا أنها غير واقعية ، فهذا كذب . وعندما أقول : إن هناك من يعتقدون أن الأرض كروية فهل الواقع كذلك أو لا ؟ . وإن كنت تعتقد شيئاً وهو واقع ، ولم تستطع أن تدلل عليه فهذا تقليد ، وإن لم يكن الشىء متيقنا وقد تساوى فيه الطرفان فهذا هو الشك . وإن كان هناك طرف راجح عن طرف آخر فهو الظن . والطرف المرجوح هو ما يسمى بالوهم . وكل قضايا نسبية لا تخرج عن هذه .

وقول إبراهيم : « إن كنتم تعلمون » أى تتيقنون من قضية نسبية واقعة معتقدة تستطيعون أن تدللوا عليها .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾

حينما سمع صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية اشفقوا على أنفسهم ؛ لأنهم استعرضوا حركة أعمالهم فوجدوها لا تخلو من ظلم ، وخافوا أن يكونوا من غير الداخلين فى « أولئك لهم الأمن » . وشق عليهم ذلك ، فرفعوا أمرهم

إلى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأوضح لهم صلى الله عليه وسلم مُطَمْئِناً : إن ذلك الظلم هو الذى قال الله فيه :

﴿ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾

« من الآية ١٣ من سورة لقمان »

والآية تدل بمعطياتها على أن ذلك الظلم هو المتعلق بالإيمان لا بالعمل ؛ لأننا نعلم أن التقاء الإنسان بربه مشروط أولاً بعقيدة القمة ، وهى أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن تشهد أن محمداً رسول الله ؛ ومعناها : لا معبود بحق إلاّ الله ، أو لا أمر لأحد فى خلق الله إلا لله ، ولا فعل لأحد من خلق الله إلا من الله ، ولا استمداد لأحد قدرة وعلماً وحكمة وقبضاً وبسطاً إلا من الله ، تلك هى دائرة الإيمان العقدية .

ويقول الحق : ﴿ ولم يلبسوا إيمانهم بظلم ﴾ فكأن هذه المسألة هى منطقة الظلم ، أما العمل فسبحانه فصَّل لنا بين إيمان ينفجر عنه العمل وعمل تنفجر عنه الطاقات فقال سبحانه :

﴿ وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾

« سورة العصر »

والعطف فى قوله : ﴿ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ يقتضى المغايرة ، فالإيمان شىء وعمل الصالحات شىء آخر ، إذن فالإيمان عمل ينبوعى فى القلب ، ولكن العمل ناشىء عن الالتزام الذى شرعه الإيمان فيه ، وعلى المؤمن أن يتنبه إلى أن الله واحد فى ذاته ، وواحد فى صفاته ، وواحد فى أفعاله ، لا ندّ له ولا شريك معه ؛ فإن وجدت صفة فى الله ووجدت صفة مثلها فيك فاعلم أن الصفة فى الله فى دائرة « ليس كمثله شىء » . فلا قدرة كقدرته ، ولا ذات كذاته ، ولا فعل كفعله . فإن اختل شىء من ذلك فى اليقين فهذا ظلم واقع فى الإيمان .

فمثلاً : أنت تقبل على الأشياء بالطاقات المخلوقة لك من الحق سبحانه وتعالى ، وقبل أن تفعل أى فعل لابد أن يمر على بالك نسبة ذهنية ، قبل أن تكون نسبة قولية أو فعلية . هذا هو العمل المنوط بك والمطلوب منك ، أما العمل الذى لا يمر ببالك

فلست مسئولا عنه ، مثال ذلك : هب أنك سائر فى الطريق ، ثم وجدت حفرة تكاد تسقط فيها ، فهناك أمر غريزى لحفظ الإنسان فيبعد رجله ، وهو لا يستطيع فى هذه المسألة أن يمررها بباله . وتلك أعمال نسميها الأعمال الاضطرارية أو الغريزية أو القسرية . ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(كل أمر ذى بال لا يبدأ ببسم الله الرحمن الرحيم أقطع)[1]
« حديث شريف »

وقال صلى الله عليه وسلم : (كل أمر ذى بال لا يبدأ فيه بالحمد لله أقطع)[2]
« حديث شريف »

و « ذى بال » أى كل أمر تفعله بعد أن يمر ببالك أن تفعله يجب أن تذكر فيه اسم الله . ويغفل أناس كثيرون عن هذه المسألة فنقول لهم : منطقياً لابد أن تضعوا هذا الأمر فى بالكم لأن الفعل الذى لا يمر ببالك هو فعل أعطى الله غريزتك ـ بدون أمر ـ أن تفعله . ومثال ذلك إذا أكل الإنسان ثم نزل شىء فى قصبته الهوائية غير الهواء ؛ نجده يسعل بلا شعور حتى يخرج هذا الشىء ، لأنها عملية قسرية . أما الأمر ذو البال فهو الذى تمر ببالك نسبته الذهنية ثم يمر بالفعل ، إن كان قولاً تقوله ، وإن كان فعلاً تفعله ؛ فمطلوب منك فيه ابتداء أن تسمّى الله ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى يطلب منا ألا تشغلنا الأسباب عن المسبب لها .

فأنت مثلاً حين تزرع الأرض تحرثها ، ثم تضع البذرة وتغطيها ، ثم ترويها وبعد ذلك ينبت الزرع . ألك فى ذلك شىء ؟ . إنه ليس لك إلاّ تجميع فعل ؛ فالبذرة مخلوقة لله ، والتربة التى وضعت فيها البذرة مخلوقة لله ، والعناصر الموجودة فى الأرض لتغذى النبات مخلوقة لله ، والخاصية الموجودة فى البذرة لتمتص شيئاً ينمّى جذيرها ثم تنفلق الحبة ، كل هذه أسباب ليس لك فيها شىء أبداً . ولكن الله احترم فعلك فقط فقال سبحانه :

---

(١) رواه عبدالقادر الرهاوى فى الأربعين عن أبى هريرة .
(٢) رواه ابن ماجة والبيهقى فى السنن عن أبى هريرة .

﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾

« سورة الواقعة »

ثم قال سبحانه :

﴿ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾

« سورة الواقعة »

ومن مخصصات الإيمان أنك حين تقبل على أى شىء ذى بال ألا تنسى من سخر لك هذا ، فليس فى قدرتك أن تفعل لنفسك وبنفسك أى شىء إلا بإرادة الله ، وإذا ما فعلت ذلك وتذكرت من سخر لك هذا تكون قد نسبت الأمر كله له سبحانه .

ونحن فى قوانيننا الوضعية ساعة يجلس القاضى ليحكم بين الناس حُكماً وهناك سلطة تنفذ هذا الحكم فهو يقول : « باسم الشعب » أو « باسم القانون » ، إذن الشعب أو القانون هو الذى أعطاه الصلاحية لأن يحكم هذا الحكم ، فما هى القدرة التى جعلتك تحكم على الأشياء أن تنفعل لك ؟ لابد أن تقول إذن : باسم الله الذى سخر لى هذا ، فإذا أقبلت على عمل بغير ذلك ، تكون مفتاتا ومختلقا ومدعيًا أمراً لا تستطيعه ؛ لأنه ليس فى سلطتك ولا فى قدرتك أن تسخر الكائنات لك .

إن الحق سبحانه وتعالى هو الذى سخر لك الكائنات ، فعليك أن تذكر اسم الحق لتنفعل لك تلك الكائنات ، ومن يغفل عن ذلك فقد لبَّس وخلط إيمانه بظلم . وإذا ما رأيت ثمرة من ثمارك إياك أن تقول كما قال قارون : « أوتيته على علم عندى » بل اذكر وقل : ﴿ ما شاء الله ﴾ ؛ لأنك إن قلت : « أوتيته على علم » فالحق قد قال فى شأن قارون :

﴿ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ ﴾

« من الآية ٨١ من سورة القصص »

أين ذهب علم قارون الذى جاء به ؟ .

إذن فكل أمر من الأمور يجب أن تنسبه لله ، فإن اختل شىء فيك من هذه المسألة

فاعلم أنك لبّست وخلطت إيمانك بظلم ، والحق سبحانه وتعالى يطلب منا ذلك حتى تكون النعمة مباركة إقبالاً عليها أو انتفاعاً بها ، ولا ينشأ من العمل الذى تعمله مبتدئاً بـ ﴿ بسم الله ﴾ إلا ما يعينك على طاعته ، ويعينك على بر ، ويعينك على خير ، ولا تصرفه إلا فى عافية .

وبعد ذلك يؤهلك مجموع هذه الأشياء فى كل حركاتك وأعمالك إلى أن تأخذ أمناً آخر أجمع وأتم وأكمل من أمن الدنيا ؛ إنّك تأخذ أمن الآخرة بأن تدخل الجنة .

إذن « أولئك لهم الأمن » أى الذين لم يلبسوا إيمانهم بظلم ، والحق سبحانه وتعالى يريد منا أن نتصل دائماً بمنهجه ؛ لأن إمدادات الله سبحانه وتعالى مستمرة ، ورحماته وتجلياته لا تنقطع عن خلقه أبداً ؛ لأنه قيوم أى إنه بطلاقة قدرته وشمول قيوميته يقوم سبحانه باقتدار وحكمة على كل أسباب مخلوقاته ، فكن دائما فى صحبة القيوم ؛ ليتجلى عليك بصفات حفظه ، وصفات قدرته ، وصفات علمه ، وصفات حكمته . فرسول الله صلى الله عليه وسلم قال لبلال : (يا بلال حدثنى بأرجى عمل عملته فى الإسلام فإنى سمعت دفّ[1] نعليك بين يدىّ فى الجنة . قال : ما عملت عملا أرجى عندى من أنّى لم أتطهر طهورا فى ساعة من ليل أو نهار إلاّ صليت بذلك الطهور ما كتب لى أن أصلى)[2] .

ويقول ـ صلى الله عليه وسلم ـ : (إذا توضأ العبد المسلم أو المؤمن فغسل وجههُ خرج من وجهه كل خطيئة نظر إليه بعينيه مع الماء أو مع آخر قطر الماء ، فإذا غسل يديه خرج من يديه كل خطيئة كان بطشتها يداه مع الماء أو مع آخر قطر الماء فإذا غسل رجليه خرجت كل خطيئة مشتها رجلاه مع الماء أو مع آخر قطر الماء حتى يخرج نقيًّا من الذنوب)[3] .

---

(١) الدفّ بالفاء : صوت النعل وحركته على الأرض .
(٢) متفق عليه واللفظ للبخارى .
(٣) رواه مسلم .

إذن الحق سبحانه وتعالى يريد منا أن نتصل بمنهجه اتصالاً وثيقا ؛ ليعطينا ، لا ليأخذ منا ؛ لأن الفرق بين عبودية البشر للبشر والعبودية الخالصة لله أن البشر يأخذ خير عبده ، ولكن عبوديتنا لله تعطينا خيره من خزائن لا تنفد ، نأخذ منه كلما ازددنا له عبودية ، إذن الحق دائماً يريد أن يصلنا به .

﴿ أولئك لهم الأمن ﴾ الأمن فى الدنيا ، والأمن بمجموع ما كان فى الدنيا مع الأمن فى الآخرة .

ولقائل أن يقول : هناك أناس لا يسمون باسم الله ، ولا يخطر الله على بالهم ، ويتحركون فى طاقات الأرض ومادتها ، وينعمون بها ويسعدون ، وقد يسعدون بابتكارات سواهم . ونقول : نعم هذا صحيح ؛ لأن فيه فرقاً بين عطاء الفعل ، والبركة فى عطاء الفعل . إذا زرع الكافر فالأرض تعطى له ، وإذا قام بأى عمل يأخذ نتيجته ، لكنه لا يأخذ البركة فى العطاء .

وما هى البركة فى العطاء ؟ البركة فى العطاء أن يكون ما أخذته من هذا العطاء لا يعينك على معصية ، بل دائماً يعينك على طاعة . ونحن نرى كثيراً من الناس يصدق عليهم قوله سبحانه : ﴿ أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا واستمتعتم بها ﴾ فإياك أن تغالط وتقول : إنهم لا يقولون : ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ ومع ذلك فهم قد أخذوا طيبات الحياة الدنيا ، إنك حين تنظر إليهم تجد كل مرتقيات حضارتهم ، وطموحات بحوثهم واكتشافاتهم تتجه دائماً إلى الشر ، لم يأت لهم ابتكار إلا استعملوه فى الشر إلى أن يأذن الله فيشغلهم عن أشيائهم بما يصب عليهم من العذاب والنكبات ولهم فى الآخرة العقاب على شركهم وكفرهم .

إذن ﴿ أولئك لهم الأمن ﴾ أى إنّ هؤلاء الذين لم يخلطوا إيمانهم بشرك لهم الأمن فى جزيئات أعمالهم والأمن المتجمع من جزيئات أعمالهم يعطى لهم الأمن فى الجنة . ﴿ وهم مهتدون ﴾ والهداية هى الطريق الذى يوصل إلى الغاية . ولا يقال لك إنك موفق فى الحركة إلا إذا أدت بك هذه الحركة إلى غاية مرسومة فى ذهنك من نجاح بعد المذاكرة والاجتهاد . ولا مخلوق ولا مصنوع يحدد غايته ، فاترك لله تحديد

مهمتك ، فسبحانه هو الذى خلقك ، وفى عرف البشر ، لا توجد صنعة تحدد مهمتها أبداً ، بل إن الصانع هو الذى يحدد لها الغاية منها ؛ فالغاية توجد أولاً قبل الصنعة ، وما دامت الغاية موجودة قبل الصنعة فمن الذى يشقى بالتجارب إذن ؟

فى الابتكارات العلمية المعملية المادية التى تنشأ من التفاعل مع المادة نجد أن الذى يشقى بالتجربة أولاً هو العالم ، وأنت لا تعلم التجربة إلا بعد ما تظهر نتائجها الطيبة ، والمسائل النظرية التى تتعب العالم يأتى التعب منها لأنها ليست مربوطة أولاً بالماديات المقننة وبمعرفة الغاية ، ولا بمعرفة الوسيلة لهذه الغاية . فمن المهتدى إذن ؟

إن المهتدى هو من يعرف الغاية التى يسعى إليها ، والوسيلة التى تؤهله إلى هذه الغاية . وإذا حدث له عطب فى ملكات نفسه ، يستعين فى إصلاح العطب ويلجأ إلى من صنع هذه الملكات ، وهو الله سبحانه ، كما يرد الإنسان الآلة التى تتعطل لصانعها . ونجد كثيراً من الشعراء يسرحون فى خيالهم فيقول الواحد منهم :

ألا من يرينى غايتى قبل مذهبى
ومن أين للغايات بعد المذاهب ؟

ونقول له : من خلقك أوضح لك الغاية .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ ﴾

والحجة هى البرهان القائم لإثبات القضية المطلوب إثباتها . وكأن الحق سبحانه وتعالى يريد منا حين نحاجج أن تكون لنا غاية فى الحجاج ، ونحن نعلم أن الغاية فى

الحجاج إن تعدت موضوع الحجاج نفياً أو إثباتاً فهى تهريج ، وينحصر الأمر فى أنك تريد الانتصار على خصمك وأن يحاول خصمك الانتصار عليك ، لكن عليك إذا ما دخلت الحجاج أن تجعل الغاية الأصيلة هى الأساس ، وكما يقولون تحديد وبيان محل النزاع ؛ لأن الحق لابد أن يكون أعزّ منك ومن خصمك عندك ، ولذلك نجد أن الحق سبحانه وتعالى يوضح : إياكم أن تتناظروا فى قضية تناظراً جماهيرياً ، لماذا ؟ لأن الصوت الجماهيرى يلتبس فيه الحق مع الباطل ، والله سبحانه وتعالى يريد من كل صوت أن يكون محسوباً على صاحبه ، ومثال ذلك عندما يقوم تظاهر كبير ويهتف فيه بسقوط أحد لا يتعرف أحد على من بدأ الهتاف .

والذى جعل العرب يخسرون أنهم حين استقبلوا الدعوة كانوا يعقدون اجتماعات جماهيرية ، ينقدون فيها أقوال رسول الله فتاهت منهم القدرة على الحكم الموضوعى .

ولذلك يقول ربنا :

﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ﴾

« من الآية ٤٦ سورة سبأ »

أى أن تجتمعوا وفى وجهتكم الله ، ومن عنده قوة فليناقش بالحجة أقوال رسول الله موضوعاً ، وتاريخاً ، ومنطقاً . ولا يمكن أن يجتمع اثنان ليبحثا مسألة وفى بالهما الله فقط ـ إلا وينتهيان فيها إلى رأى موحد . ولذلك جاء التفاوض السرى فى العصر الحديث مستمداً من تلك القاعدة الإيمانية .

﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ ﴾

« سورة الأنعام »

وأول قوم إبراهيم أبوه آزر ، إنه حاجّهم فى الكواكب والقمر والشمس والتماثيل ،

وبعد ذلك انتصر بالحجة على كبيرهم وهو الملك أو السلطان ، وهو النمروذ حين أراد أن يناظره فى قوة الإحياء والإماتة .

ويريد الحق أن نتعلم من حكمة سيدنا إبراهيم ، إنك إذا رأيت خصمك يدخل فيما لا يمكن أن ينتهى فيه الجدل فانقله إلى المستوى الذى لا يستطيع منه خلاصا ولا فكاكا ، فلا يغلبك ؛ فالملك النمروذ قال له :

﴿ أَنَا أُحْيِۦ وَأُمِيتُ ﴾

« من الآية ٢٥٨ من سورة البقرة »

وكان باستطاعة سيدنا إبراهيم أن يقول : أنت لا تميت بل تقتل ، والقتل غير الموت ؛ لأنك تنقض البنية ، لكنه لم يرد أن يطيل الجدل ، وأراد أن يكون الجدل مقتضباً ، ويسقطه على الحجة ويلزمه بها من أقصر طريق ، فقال الله :

﴿ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ ﴾

« من الآية ٢٥٨ من سورة البقرة »

فماذا كانت نتيجة الجدل ؟ يقول الله سبحانه :

﴿ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ﴾

« من الآية ٢٥٨ من سورة البقرة »

وكل هذه حجج يوضحها قول الله سبحانه :

﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ ﴾

« سورة الأنعام »

لقد أعطى الله سبحانه إبراهيم الحجة على قومه ، أى كانت له عليهم درجات وسمو وارتفاع ؛ لأن إقامة الحجة على الغير انتصار ، والانتصار رفع لدرجة موضوعك ، ورفع أيضا لموضوع عملك . وسبحانه لا يشاء إلا عن حكمة ، ولا يشاء

إلا عن علم ؛ لأنه إن أطلقنا المشيئة لواحد من البشر فقد يفعل الفعل بدون حكمة وبدون علم ، أما الحق فينبئنا بأن مشيئته هي عن حكمة وعلم لصالح الخلق ؛ لأن مشيئته مبنية لا على هوى ، ولا على نفع من أحد ، فالله سبحانه له كل صفات الكمال والجلال والجمال قبل أن يخلق الخلق .

إن خَلْق الخلق وإيمانهم لا يزيد فى ملك الله ، وإن عصوا لا ينقص من ملك الله شىء ، ولكن الحكمة قد تفوت عن بعض الخلق فلا يهتدون إليها ، وسبحانه حين يجرى أمراً على خلقه ثم يقبلونه وإن لم يعلموا علته يريهم جل وعلا الحكمة فى الفعل الذى كان غير مقبول لهم ؛ لأنه سبحانه خلق الخلق ويعلم أزلاً أن للخلق أهواء ومرادات ، ولو أعطى كل مخلوق مراده لأعطاه على حساب غيره ، والحق سبحانه عادل فلا ينفع واحداً ويتعب الآخر .

والحق بحكمته يعلم ما يصلح أمر خلقه ، فلا يستجيب لدعوة حمقاء من عبد ، فسبحانه يعلم أنه ليس فى صالح العبد أن يلبى له هذا الطلب . ولذلك يقول الحق :

﴿ وَيَدْعُ الْإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنسَانُ عَجُولًا ﴿١١﴾ ﴾

« سورة الإسراء »

إن العبد يقول : يا رب اصنع لى كذا ، يسّر لى هذا الأمر ، وهو خير فى عرفه ، وقد يكون هو الشر ؛ لأن الإنسان عجول . لذلك يقول سبحانه :

﴿ سَأُورِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴾

« من الآية ٣٧ من سورة الأنبياء »

إن الحق جل وعلا يضبط مرادات الخلق ؛ فالصالح يجريه عليهم .

﴿ نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم ﴾ وكلمة ﴿ رب ﴾ حينما ترد لابد أن نفهم منها معنى الخلق والتربية ، وساعة تأتى كلمة « الألوهية » فلنعلم أنها للتكليف ؛ لأن الله هو المعبود المطاع إن أمر أو نهى ، ولكن الرب هو من خلق وربّى ، وتعهد ، وأعطاك مقومات حياتك . إذن عطاء الربوبية شىء ، وعطاء الألوهية شىء آخر ،

وعطاء الربوبية يأخذه المؤمن والكافر ، والطائع والعاصى ؛ لأن الله هو الذى استدعاهم للوجود ، وجعل الكون مسخراً لهم ، لكن عطاء الألوهية يتمثل فى « افعل كذا » و « لا تفعل كذا » ، وهذا يدخل فى منطقة الاختيار . فالذى يكفر بالله ويحسن الأخذ بالأسباب يأخذ نتائجها ، ومن يؤمن بالله ولا يحسن الأخذ بالأسباب لا يأخذ النتائج ؛ لأن الاستنباط فى الكون من عطاء الربوبية .

ويقول الحق :

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾

إننا نعرف أن إسحاق هو الابن الثانى لسيدنا إبراهيم بعد إسماعيل ، ويعقوب ابن إسحاق ، وساعة ترى الهِبَة افهم أنها ليست هى الحق ، فالهبة شىء ، و « الحق » شىء آخر . الهبة . إعطاء معطٍ لمن لا يستحق ؛ لأنك حين تعطى إنساناً ما يستحقه فليس ذلك هبة بل حقاً .

والحق سبحانه وتعالى يوضح : إياكم أن تعتقدوا أن أحداً من خلقى له حق عندى إلا ما أجعله أنا حقاً له ، ولكن كل شىء هِبة منى . والقمة الأولى فى الهبات والعطايا هى قمة السيادة الأولى فى الكون للإنسان ، ثم التكاثر من نوعيه الذكر والأنثى ، حيث الذريَّة من البنين والبنات . يقول سبحانه :

﴿ لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ ﴾

« سورة الشورى »

فهبة الأولاد لا تأتى من مجرد أنه خلق الرجل والمرأة ، وأنّ اللقاء بينهما يوجد الأولاد بل يقول سبحانه :

﴿ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ﴾

« من الآية ٥٠ من سورة الشورى »

فلو أن المسألة مجرد إجراء ميكانيكى لجاء الأولاد ، لكن الأمر ليس كذلك ؛ فمن يفهم فى الملكوت تطمئن نفسه أن ذلك حاصل عن حكمة حكيم يعرف أنها هبة من الله ، حتى العقم هو هبة أيضاً ؛ فالذى يستقبله من الله على أنه هبة ويرضاه ، ولم ينظر إلى أبناء الغير بحقد أو بحسد سيجعل الله كل من تراه أبناء لك بدون تعب فى حمل أو ولادة ، وبدون عناية ورعاية منك طول عمرك . ومن يرض بهبة الله من الإناث سيجد أنهن رزق من الله ويبعث له من الذكور من يتزوج الإناث ويكونون أطوع له من أبنائه ؛ لأنه رضى . إذن لابد أن تأخذ الهبة فى العطاء ، والهبة فى المنع .

والحق يوضح : أنا وهبت لإبراهيم إسحاق ، ومن وراء إسحاق يعقوب ، والإنسان منا يعرف أن الإنسان بواقع أقضية الكون ميّت لا محالة ، وحين يكبر الإنسان يرغب فى ولد يصل اسمه فى الحياة وكأنه ضمن ذلك ، فإن جاء حفيد يكون الجد قد ضمن نفسه جيلاً آخر . ولكن لنعرف قول الحق :

﴿ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾ ﴾

« سورة الكهف »

وبقاء الذِّكْرِ فى الدنيا لا لزوم له إن كان الله يحط من قدر الإنسان فى الآخرة !!

ونلحظ أن الحق قال فى موقع آخر :

﴿ فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾ ﴾

« من الآية ٥ والآية ٦ سورة مريم »

وامتن الله على إبراهيم لا بإسحاق فقط بل بيعقوب أيضاً ، وفوق ذلك قال : ﴿ كلا

هدينا ﴾ أى أنهما كانا من أهل الهداية . ﴿ ونوحا هدينا من قبل ﴾ أى أن الهداية لا تبدأ بإسحاق ويعقوب ، بل بنوح من قبل . ﴿ ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجزى المحسنين ﴾ .

ويتابع الحق :

﴿ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾

ولم يأت الحق بالثمانية عشر نبياً متتابعين بل قسمهم بحكمة ، فيقول :

﴿ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾

ولا يقتصر الأمر على هؤلاء بل يقول سبحانه :

﴿ وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ﴾

وأنت إن نظرت إلى هؤلاء الثمانية عشر نبياً المذكورين هنا ، ستجد أنهم من الخمسة والعشرين رسولاً الذين أمرنا بالإيمان بهم تفصيلا . وقد جمعوا فى قول الناظم :

فى تلك حجتنا منهم ثمانية
من بعد عشر ويبقى سبعة وهمو

إدريس هود شعيب صالح وكذا
ذو الكفل آدم بالمختار وقد ختموا

والحق سبحانه وتعالى لم يجعل من الأنبياء ملوكا إلا اثنين : داود وسليمان حتى يعطينا فكرة أن الله إذا أراد أن يقهر خلقاً على شىء لا يقدر عليه أحد يبعث مَلِكاً رسولاً ؛ لأن المَلِك لا يقدر عليه عبد لأنَّ القدرة معه ، والمجتمع آنذاك كان فى حاجةإلى ملك يدير أمره ويضبط شأنه ، وسبحانه لا يريد الإيمان بالقوة والخوف والرهبوت إنما يريده بالاختيار ، ولذلك جعل أغلب الأنبياء ليسوا ملوكاً .

وفى الحديث : « أفملكا نبيا يجعلك اوعبداً رسولاً »[1] فاختار أن يكون عبدا رسولا ؛ لأن الملك يأتى بسلطانه وبماله ، وقد يطغى .

وأراد الحق أن يكون سليمان وداود من الأنبياء وهما ملكان ، وتتمثل فيهما القدرة وسعة الملك والسلطان . أمّا أيوب فقد أخذ زاوية أخرى من الزوايا وهى الابتلاء والصبر مع النبوة ، وكل نبى فيه قدر مشترك من النبوة ، وفيه تميّز شخصى . وكذلك يوسف أخذ الابتلاء أولاً ، ثم أخذ الملك والسلطان فى النهاية . وموسى وهارون أخذا شهرة الاتّباع ، ونكاد لا نعرف من الأديان إلا اليهودية والنصرانية ، أما زكريا ويحيى وعيسى وإلياس فقد أخذوا ملكة الزهد .

وأما إسماعيل واليسع ويونس ولوطاً فقد أخذوا ما زخرت به حياتهم من عظيم الفعال وكريم الخصال والسلوك القويم والقدوة الطيبة وبقى لهم الذكر الحسن .

إذن فهناك زوايا متعددة للأنبياء .

وعندما وقف العلماء عند « عيسى » هل يدخل فى ذريتهم ، وجدوا من يستنبط ويقول : من ذريتهم من ناحية الأم .

وإنما أمهات القوم أوعية
مستحدثات وللأحساب آباء

(١) رواه أحمد ٢٣١/٢ .

والعنصر البشرى فى عيسى هو الأم . وبمثل هذا احتج أبو جعفر محمد الباقر أمام الحجاج حين قال له : أنتم تدعون أنكم من آل رسول الله ومن نسله ، مع أن رسول الله ليس له ذرية ! .

قال له الإمام الباقر رضى الله عنه : كأنك لم تقرأ القرآن .

قال له : وأى شىء فى القرآن ؟

قال اقرأ : « ومن ذريته . . . . » إلى أن تقرأ : « وعيسى » ، فعيسى من ذرية نوح ، من أب أمْ من أمّ ؟ .

قال له : من أمّ . فقال له : نحن كذلك من ذرية محمد صلى الله عليه وسلم .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾

« ذلك » إشارة إلى شىء تقدم ، والمقصود به الهدى الذى هدينا به القوم ، وهو هدى الله . ونجد كلمة « هدى » تدل على الغاية المرسوم لها طريق قصير يوصل إليها ، وربنا هو الذى خلق ، وهو الذى يضع الغاية ، ويضع ويوضح ويبيّن الطريق إلى الغاية ، وحين يضاف الهدى إلى الله فهو دلالة على المنبع والمصدر أى هدى من الله . وكلمة « هدى » مرة تضاف إلى الواهب وهو الحق ، وتضاف إلى الأنبياء . يقول الحق : ﴿ فبهداهم اقتده ﴾ .

وذلك إشارة إلى المنهج الذى أنزله الله على الرسل .

إذن فالحق سبحانه وتعالى يهدى الناس جميعاً بدلالتهم على الخير ، والذى يقبل

على هذه الدلالة احتراماً لإيمانه يعينه الله ، ويزيده هدى ، وسبحانه يريد أن يثبت للإنسان أنه جعله مختاراً ، فإن اخترت أى شىء فأنت لم تختره غصباً عن ربنا ، إنما اخترته بمن خلقك مختاراً . ولا يوجد فعل فى الكون يحدث على غير مراد الله ، ولو أراد الله الناس جميعاً مهديين لما استطاع واحد أن يعصى ، إنما أرادهم مختارين ، وكل فعل يفعله أى واحد منهم ، فهو مراد من الله لكنّه قد يكون مرادًا غير محبوب ، ولذلك قال العلماء : إن هناك مراداً كونياً ، ومراداً شرعاً . وما دام الشىء فى ملك الله فهو مراد لله ، والمراد الشرعى هو المأمور به ، وما يختلف عن ذلك فهو مراد كونى ، جاء من باب أنه خلقك مختاراً .

ومثال ذلك ـ ولله المثل الأعلى ـ أنت تعطى ابنك جنيهاً ، والجنيه قوة شرائية . فأخذ الجنيه ونزل السوق وهو حر ليتصرف فيه ، وتقول له : اسمع . إن اشتريت به مصحفاً أو كتاباً جميلاً أو بعضاً من الحلوى وأكلتها أنت وإخوتك فسأكون مسروراً منك وسأكافئك مكافأة طيبة ، وإن اشتريت « كوتشينة » ، أو صرفت الجنيه فيما لا أرضى عنه فسوف أغضب منك ولن أعطيك نقوداً .

أنت بهذا القول أعطيت ابنك الحرية . وساعة ينزل السوق ويشترى « كوتشينة » فهو لم يفعل ذلك قهراً عنك لأنك أنت الذى أعطيته الاختيار ، لكنك قلت له : إنك تطلب منه أن يحسن الاختيار ، وسبحانه وتعالى قد جعل الإنسان مختاراً ، فإن اختار الهداية أجزل له العطاء ، وإن اختار الضلال عاقبه عليه .

وبالنسبة للأنبياء جاءت لهم الهداية من الله دلالة لهم وأقبلوا على مرادات الحق فأعطاهم هداية أخرى ؛ وذلك بأن يعشّقهم فى العمل ويحبب إليهم فعل الخير ، وبعد ذلك يوضح سبحانه : إياكم أن تظنوا أن هناك من يفلت منى ؛ لأنهم لو أشركوا لأحبطت أعمالهم .

إذن فالحق لم يخلق الخلق مرغمين على عمل الطاعة بل خلقهم مختارين فى التكاليف ، حتى ينالوا لذة اختيار منهج الله و لو أشركوا لحبط عملهم و ﴿ لو ﴾ حرف امتناع لامتناع ، وهذا دليل على أنهم لم يشركوا ولذلك لم يحبط عملهم ، و « الحبط » هو الإبطال للعمل .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾

والكتاب هو المنهج ، والحكم وهو ما أعطاه الله لبعضهم من السيطرة والغلبة ، والنبوة ؛ أى أنّه جعلهم نماذج سلوكية للبشر .

﴿ فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين ﴾ وسبحانه وتعالى أعطانا نماذج من المهديين فى الرسل ، والأنبياء ؛ وفيمن اجتباهم من آبائهم وذرياتهم وإخوانهم ؛ فهؤلاء القوم الذين جئت لتأخذ بيدهم من الظلمات إلى النور ، فإن امتنع بعض الناس عن الهداية فسيوكل الله قوماً آخرين ليحملوا المناهج ليكونوا عنصر الخير الباقى إلى أن تقوم الساعة .

وَمَنْ القوم ؟ . قال بعضهم المشار إليه هم قريش ، والمقصود من قوله : ﴿ فقد وكلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين ﴾ هم أهل المدينة أى الأنصار . أو المقصود من النص الكريم كل ممتنع وكافر وكذلك كل مقبل على الله وطائع له أى إن يكفر بها طائفة يوكل الله من يقوم بها ويدافع عنها ويحميها ؛ لأن الله لا ينزل قضية الخير فى الخلق وبعد ذلك يطمسها بل لابد أن يبقيها كحجة على الخلق .

﴿ فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوما ﴾ وهذا يدل على أن أهل الخير دائما وكلاء عن الله ؛ لأن الذى يمد يده بالمعونة لضعيف من خلق الله ؛ هذا الضعيف قد استدعاه الله إلى الوجود ، ومن يمد يده بالمعونة فقد جعل من نفسه وكيلاً لربنا ؛ لأنه يقوم بالمطلوب له ـ سبحانه ـ وجعل من نفسه سبباً له ؛ لأن الله رب الجميع ، ومربى الجميع ، وراعى الجميع ، ورزّاق الجميع . وليثق من يقوم بالخير ويجعل من نفسه

وكيلاً عن الله فى أن يشيع الخير فى خلق الله ، ليثق أن الله سيكرمه أضعاف ما أعطى .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰلَمِينَ ۝٩٠ ﴾

و ﴿ هدى الله ﴾ هنا أيضا هو هداية دلالة ، وهداية معونة ؛ بدليل أنه قال : ﴿ فبهداهم اقتده ﴾ والخطاب لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لأن « أولاء » أى المشار إليهم هم المتقدمون ، و « الكاف » خطاب للنبى صلى الله عليه وسلم .

﴿ أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده ﴾ وحين نقرأ هذا القول الكريم نقول ﴿ اقتد ﴾ ولا نقول ﴿ اقتده ﴾ ولا تنطق الهاء إلا فى الوقف ويسمونها « هاء السّكت » ، لكن إذا جاءت فى الوصل لا ينطقُ بها ، وكل واحد من هؤلاء الرسل السابق ذِكْرهم له خصلة تميز بها ، وفيه قدر مشترك بين الجميع وهو إخلاص العبودية لله والإيمان بالله وأنّه واحد فى ذاته وفى صفاته وفى أفعاله ، وكلهم مشتركون فى هذه الأصول ، وتميّز كل منهم بخصلة فى الخير ؛ فسيدنا سليمان وداود أخذا القدرة والسلطان والملك ، وأيوب أخذ القدرة فى الصبر على البلاء ، ويوسف أخذ القدرة فى الصبر والتفوق فى الحُكم ، وسيدنا يونس أخذ القدرة كضارع إلى الله وهو فى بطن الحوت ، وإسماعيل كان صادق الوعد .

والمطلوب إذن من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكون مُقتدياً بهم جميعاً ، أى أن يكون كسليمان وكداود وكإسحاق وكيعقوب وكأيوب وكيوسف وكيونس . وأن يأخذ خصلة التميز من كل واحد فيهم وأن يشترك معهم فى القضية العامة وهى

التوحيد لله . وبذلك يجتمع كل التميز الذى فى جميع الأنبياء فى سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وإذا أُمِرَ رسول الله صلى الله عليه وسلم أمراً من ربه فلابد أن نعتقد أنه صلى الله عليه وسلم قد نفذ الأمر ، وما دام أنه صلى الله عليه وسلم قد اجتمعت فيه مزايا الأنبياء فحق له أن يكون خاتم النبيين والمرسلين .

﴿ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴾

« من الآية ٩٠ سورة الأنعام »

ولماذا يُطْلَب الأجر ؟ أنت لا تطلب أجراً ممن فعلت أمامه أو له عملاً إلا إذا كان العمل الذى فعلته يعطيه منفعة تستحق أن تُعطى وتُمنح عليه أجراً ، فكأن ما يؤديه صلى الله عليه وسلم إلى الأمة كان يستحق عليه أجراً ، لكنه صلى الله عليه وسلم يبلغ عن ربّه : قل لهم : إنك نزلت عن هذا الأجر .

وقارنوا بين مَن يقدم لأى واحد منكم منفعة قد لا تأخذ من وقته نصف ساعة فى جزئية من جزئيات الحياة ، ومن يقوم بعمل ينفعكم فى مدًى يتعدى الدنيا إلى أن يصل إلى الآخرة ثم يقول : أنا لا أريد منكم أجراً .

وعدم طلب الأجر حصل من كل الرسل إلا رسولين اثنين ؛ فلم يرد فى القرآن أن قالاها ، وإذا ما جئت لسورة الشعراء مثلاً تجد أن الحق تكلم عن موسى ، وتكلم عن إبراهيم ، ثم تكلم بعد ذلك عن بقية الرسل ولم تأت كلمة الأجر فى قصة إبراهيم وكذلك فى قصة موسى عليهما السلام. لكن جاء ذكر الأجر فى غيرهما ، يقول سبحانه :

﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَا أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾ ﴾

« سورة الشعراء »

وقال جل شأنه :

﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٠﴾﴾

« سورة الشعراء »

وعندما تستقرىء سورة الشعراء تجد الأنبياء كلهم ، وتجد مع قول كل منهم ﴿ وما أسألكم عليه من أجر ﴾ ، إلا سيدنا موسى ، وسيدنا إبراهيم ، لماذا ؟ ونقول : إن من ينزل عن الأجر ، هو من يقدم لهم منفعة .

وفى موسى عليه السلام نجد أنّه قد وجهت وقدمت وسبقت له المنفعة من فرعون الذى قام بتربيته ، كأنه قد أخذ الأجر مقدماً ، لذلك لم يقل موسى لفرعون « لا أسألك أجراً » لأن القرآن جاء بقول فرعون :

﴿ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا ﴾

« من الآية ١٨ سورة الشعراء »

وكذلك لم تأت مسألة الأجر فى قصة سيدنا إبراهيم لأنه خاطب أباه آزر ، ولم يكن من المقبول أن يقول له: « لا أسألك أجرا » . وهكذا انطمست مسألة الأجر فى قصة سيدنا إبراهيم وقصة سيدنا موسى ، وبقيت فيما عداهما ، مما يدل على أن القرآن موضوع بأدق تفاصيله بحكمة ؛ لأن من يتكلم هو ربنا . ويمتاز سيدنا رسول الله أيضا ويقول : « لا أسألكم أجراً » إلا آية واحدة استثنى فيها هذا النفى :

﴿ قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ ﴾

« من الآية ٢٣ سورة الشورى »

والمودة هى فعل الخير الناشىء عن محبة قلب ، أما فعل الخير الذى لا ينبع من محبة فى القلب فهو فعل معروف ؛ لأن المعروف يضعه الإنسان مع من يُحب ومن لا يُحب . ولذلك قال ربنا :

﴿ وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ﴾

« من الآية ١٥ سورة لقمان »

المعروف ـ إذن ـ هو عمل امتداده خير سطحى . والرسول حين يطلب المودة فى القربى فهل هى قُرباه صلى الله عليه وسلم أو المودة فى قُرباكم ؟ هى القُربىٰ على إطلاقها ، وهى القُربىٰ أيضا للمتكلم وهو الرسول الذى يبلغ عن الله .

وإن صُنِّفت على أنها « إلا المودة فى القُربىٰ » أى القربى للمتكلم وهو سيدنا رسول الله لما استطعنا أن نُوفيه أجراً . أما حين يتحمل كل واحد منا مجالاً من الخير والمعروف فى قومه ، هنا تتلاحم دوائر الخير فى الناس جميعاً .

ويذيل الحق الآية بقوله : « إن هو إلا ذِكْرى للعالمين » وهى ما تعطينا اجتماع الدوائر ويصير كل واحد مُهْتماً بأقاربه ويتنازع الناس ويتنافسون فى مودة القُربىٰ ، وكل منهم يحرص على أن يوسع دائرة القربى . هنا يعم الخير ويدوم الود ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾ ﴾

الكلام عن الذين رفضوا وتأبوا عن الإيمان بالله . فيأتى الأمر للرسول صلى الله عليه وسلم بأن يوضح لهم بأنهم لم يعطوا الله حق قدره ، ومعنى القدْر معرفة المقدار ، وحق قدره سبحانه لا نقدر عليه نحن البشر ، لذلك نقدره على قدر طاقتنا أو على قدر ما طلب منا ، وكما قال رسول الله :

(سبحانك لا نحصى ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك)[1]

والإنسان منا حين يثنى على واحد فهذا دليل أنه قد قيّم قدره بقيمة الثناء ، وحين نقيّم قدر الله فعلينا أن نعرف أن صفات الكمال كلها فيه وهى لا تتناهى ولا يمكن أن تحصىٰ . ومن رحمة الحق سبحانه وتعالى أنه تحمَّل عنا صيغة الثناء عليه : كى لا يوقعنا فى حرج ، فليس لبشر من قُدرة أن يحيط بجمال الله أو بجلاله حتى يثنى عليه بما يستحقه ، وإن أحاط عبد بذلك ـ ولن يحيط ـ فمن أين له العبارة التى تؤدى هذا الثناء ؟ ولا يوجد بليغ أو أديب يستطيع أن ينمق العبارات التى تكفى لتقدير هذا الثناء على الله ، فأوضح لنا الحق من خلال رسوله : أنا حملت عنكم هذه المسألة حتى تكونوا كلكم سواسية ، قال رسول الله :

(سبحانك لا نحصى ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك)

وفى كلمة « الحمد لله » وحدها يتساوىٰ الناس جميعاً . ومن رحمته سبحانه أن سوّى بين الناس فى معرفة صيغة الثناء عليه . ويأتى الحق هنا بالزاوية التى نفى فيها أنهم ما قدروا الله حق قدره . لماذا ياربِّ لم يقدروك حق قدرك ؟ وتأتى الإجابة :

﴿ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ﴾

« من الآية ٩١ سورة الأنعام »

أى أنهم أنكروا أن يكون الله قد اختار من بعض خلقه مَن يجعلهم أهلاً لتلقِّى منهجه لإبلاغه إلى خلقه . ويأتى الرد من الحق لرسوله رداً عليهم :

﴿ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ﴾

« من الآية ٩١ سورة الأنعام »

إذن لابد أن يكون القائلون هذا يؤمنون بأن موسىٰ نُزِّل عليه كتاب لتكون الحُجَّة فى موضعها . وكُفار مكة كانوا غير مؤمنين بأى رسول ، لكنهم يعلمون أن هناك من هم أهل كتاب ، بدليل أنهم قالوا :

(١) رواه مسلم فى الصلاة وأبو داود فى الصلاة والوتر والنسائى فى قيام الليل والترمذى فى الدعوات وابن ماجة فى الدعاء ومالك فى الموطأ فى مس القرآن ورواه أحمد فى المسند ١/٩٦ ، ١١٨ .

﴿ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ﴾

« من الآية ١٥٧ سورة الأنعام »

ونقول : لو دققت النظر فى السورة فقد ينطبق الأمر على واحد مخصوص من الذين غلبتهم الحُجّة . وفى تاريخ السيرة نجد واحداً من الأحبار كان دائب الخوض فى الاسلام ، وكان اسمه « مالك بن الصيف » فلقيه رسول الله صلى الله عليه وسلم . والحَبْر هو عالم اليهود والمفترض فيه أن يكون من الزهاد فيهم منقطعا للعلم إلا أنه كان سميناً على الرغم من أن من عادة المنقطعين للعبادة وإلى العلم أنهم لا يأخذون من الزاد إلا ما يقيت ، ويقيم الأود لأنه قد جاء فى التوراة : « إن الله يبغض الحبْر السّمين » .

فلما علم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن مالك بن الصيف ـ وهو من أحبار اليهود ـ يخوض كثيراً فى الإسلام قال له : أفى توراتكم « إن الله يبغض الحَبْر السّمين » فبهت الرجل ، وقال : « ما أنزل الله على بشرٍ من شىء » يعنى ما أنزل الله على بشرٍ من شىء من الذى أنت تقوله ، وهكذا نعلم أن مثل هذا القول قد يأتى من أهل كتاب ، وحين قال مالك هذه القولة قام عليه رجال من اليهود وقالوا له : كيف تقول : « ما أنزل الله على بشرٍ من شىء » فقال لهم : أغضبنى محمد ، فرددت على الغضب بباطل .

وهنا قال من سمعه من اليهود : إذن أنت لا تصلح أن تكون حبْراً لأنك فضحتنا . وعزلوه ، وجاءوا بكعب بن الأشرف وولّوه مكانه .

﴿ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾

« من الآية ٩١ سورة الأنعام »

الكتاب إذن هنا هو الكتاب الذى أنزله الله على موسى وهو التوراة وقد جعلوه

قراطيس ، أوجعلوه أوراقاً منفصلة يظهرون منها ما يُريدون ، ويخفون منها ما لا يُريدون مثلما فعلوا فى مسألة الرّجم كعقاب للزّنا . إذن فقد سبق لهم كتمان ما أنزل الله عليهم ، وبيّن الحق ذلك فى آيات متعددة :

﴿ فَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِ ﴾

« من الآية ١٤ سورة المائدة »

والذى لم ينسوه كَتَموا بعضه وأظهروا بعضه ، والذى لم يكتموه حرَّفوه ولووا به ألسنتهم ، إذن فهناك نسيان ، وكتمان ، وتحريف . وليتهم اقتصروا على هذا ووقفوا عنده بل جاءوا بأشياء من عندهم وقالوا هى من عند الله :

﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾

« من الآية ٧٩ سورة البقرة »

ويتابع الحق سبحانه :

﴿ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾

« من الآية ٩١ سورة الأنعام »

فإن كان الكلام فى كُفّار مكة فقد جاءهم القرآن بما لم يعلموا لا هم ولا آباؤهم ؛ لأن الإسلام جاء على فترة من الرسل . وإن كان فى أهل الكتاب فهو قول صدق ؛ لأنهم لما كتموا أشياء فضح القرآن ما كتموه وما حرفوه . وجاء القرآن فعدل لهم ، فكأنهم عُلِّموا الحق ، لينسخوا به الباطل الذى غيرّوه وحرفوه ، وقوله الحق: ﴿ قل الله ﴾ أى أن الذى أنزل الكتاب هو الله .

وساعة يأتى الحق سبحانه وتعالى بصيغة الاستفهام نعلم أن الاستفهام الحقيقى بالنسبة لله مُحَال ، لأنه يعلم كل شىء ، وإنما يجىء باستفهام يقال له : « الاستفهام الإنكارى » أو « الاستفهام التقريرى » وهو يأتى بهذه الصيغة لأنه يريد جواباً فيه الإقرار من المعاندين ، فإن لم يقولوا واحتاروا أوخجلوا أن يقولوا فقل أنت لهم يامحمد :

﴿ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾

« من الآية ٩١ سورة الأنعام »

و« الخوض » هو الدخول فى الماء الكثير ، الذى لا تستبين العين فيه موضع القدم ، وربما نزل فى هوّة ، ثم استعمل واستعير للخوض فى الباطل .

والحق سبحانه وتعالى يقول : « ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون » أى أن هذا لعب منهم ولن يستطيع الصمود أمام الدعوة ، فالدعوة سائرة فى طريقها ، ولن يتمكنوا منها أبداً ، فكل الذى يصنعونه هو خوض فى باطل ولعب لا جدوى منه ولا صلة له بالجد . ولكن هل معنى هذا أن يتركهم محمد ؟ لا ؛ لأنه حين يجد آذانا منهم ينبههم ويذكّرهم ، ثم بعد أن ينفتح الأمر للإسلام ، فالذى يقيم فى جزيرة العرب لا يقبل منه إلا الإسلام أو السيف ؛ لأن المعجزة جاءت مباشرة بقرآن يعلم الكل إعجازه ، وسبحانه قد أنزل التوراة من قبل وأنزل القرآن مباركا ، فالحق يقول بعد ذلك :

﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾

وكلمة « أنزلنا » الأصل فيها نون وزاى ولام ، وتستعمل بالنسبة للقرآن استعمالات متعددة ؛ فمرة يقول سبحانه :

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴿١﴾ ﴾

« سورة القدر »

ومرة يقول عز وجل :

﴿ وَنَزَّلْنَـٰهُ تَنزِيلًا ﴾

«من الآية ١٠٦ سورة الإسراء»

ومرة يسند النزول للقرآن :

﴿ وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَـٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ﴾

«من الآية ١٠٥ سورة الإسراء»

ومرة يسنده إلى من جاء به :

﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ ﴾

«سورة الشعراء»

هذه إذن تعابير متعددة ، وما دواعي هذا الاشتقاق ونحن نعلم أن القرآن لم ينزل جملة واحدة على رسول الله صلى الله عليه وسلم وإنما نزل جملة واحدة إلى السماء الدنيا من اللوح المحفوظ ليباشر القرآن مهمته فى الوجود الجديد ، وكان ينزل كل نجم من النجوم حسب الأحداث . و« أنزل » هنا للتعدية أى نقل من اللوح المحفوظ إلى سماء الدنيا ليباشر مهمته ، ولذلك يقول سبحانه : ﴿ إنا أنزلناه فى ليلة القدر ﴾ .

ونعلم أن القرآن نزل فى ليلة القدر وفى غير ليلة القدر ، ولكنه نزل فى ليلة القدر جميعه إلى سماء الدنيا ، ثم نزل منجماً ومفصّلا فى بقية أيام الثلاث والعشرين سنة التى عاشها صلى الله عليه وسلم بعد نزول الوحى ، فإذا ما أراد أنه أنزله من اللوح المحفوظ يأتى بـ« همزة التعدية » وإذا أراد النزول والموالاة يقول : « نزّل » لأن فيها التتابع ، وإذا نسبه لمن نزل به يأتى بـ« نَزَل » لأن القرآن لم ينزل وحده بل نَزَل به الروح الأمين ، إذن فكلها مُلتقية فى أن القرآن نَزَل أو أنزِل ، أو نُزِّل . وكلمة « نَزَل » تعطينا لمحة ، وهو أنه جاء من أعلى ، ويستقبله الأدنى . وساعة يطلب الحق منا أن ننصت لإنزال حكم يقول لنا عز وجل :

﴿ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ﴾

«من الآية ١٥١ سورة الأنعام»

ومعنى « تَعالَوْا » أي ارتفعوا ؛ لأننا نعيش على الأرض ، وإياكم أن تشرّع الأرض لكم ؛ لأن تشريع الأرض إذا لم يكن فى ضوء منهج الله فهو حضيض . والله يريد تشريعا عالياً ، ولابد لكم من أن تتلقوا من السماء أحكامكم ؛ حتى لا تتيهوا ولا تضلوا فى باطل تشريعات لا تدور فى إطار منهج الله .

والحق يقول هنا : « وهذا كتاب أنزلناه مبارك » وهو قول يصدق على القرآن فقط برغم أن كل الكتب السماوية السابقة كانت كتب منهج ، وكانت المعجزة منفصلة عن المنهج ؛ فمعجزة موسى عليه السلام ـ كما نعرف ـ هى العصا ، ومنهجه التوراة ، وعيسى عليه السلام معجزته إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله ومنهجه الإنجيل . لكن رسول الله صلى الله عليه وسلم تميّز بأن معجزته عين منهجه ، لأن كل دين من الأديان السابقة كان لزمن محدود ، فى مكان محدود . وجاء صلى الله عليه وسلم بالدين الجامع المانع ، لذلك جاءت المعجزة هى المنهج ، فلو أن معجزته صلى الله عليه وسلم كانت من جنس معجزات السابقين ؛ أى كانت كونية مرئية لانتهت . ونحن لم نصدق معجزات الأنبياء السابقين إلا لأن القرآن قالها وصارت خبراً ، وكل منها تليق بالزمن المحدود والمكان المحدود . لكن الإسلام جاء ليعم كل الأزمنة وكل الأمكنة ، ولذلك لزم أن تكون المعجزة مستصحبة للمنهج ؛ حتى يستطيع من يأتى بعد عصر النبوة إلى قيام الساعة أن يقول : مُحمد رسول الله وتلك معجزته .

والقرآن مُبارك ، ونحن فى أعرافنا حين نتكلم بالعامية نأتى بالكلمة التى هى من نفْح ونضح الاستعمالات الفصيحة التى سمعناها ، فنجد من يقول : « والله هذا الأكل فيه بركة ؛ فهو مصنوع لاثنين وأكل منه أربعة وفاض وزاد » . إذن ، « البركة » أن يعطى الشىء أكبر من حجمه المنظور .

وبركة القرآن غالبة ومهيمنة ، ولو قاس كل إنسان حجم القرآن بحجم الكتب الأخرى لوجد حجم القرآن أقل ، ومع ذلك فيه من الخير والبر والبركات والتشريعات والمعجزات والأسرار ما تضيق به الكتب ، ونجد من يؤلف ويفسر فى أجزاء متعددة ، ومع ذلك ما استطاع واحد ان يصل إلى حقيقة المراد من الله ؛ لأن القرآن لو جاء وأفرغ عطاءه فى القرن الذى عاش فيه الرسول فقل لى بالله : كيف تستقبله القرون الأخرى ؟ ! إنه يكون استقبالا خاليا من العناية به لأنه سيكون كلاماً مكرراً .

إذن فقد بيّن فيه كل شيء ومنه أخذ كل إنسان وزمان قدر ذهنه ، ولو أن القرآن يراد تفسيره لما فسّره أحد غير من انفعل له نزولاً عليه وهو سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أيستطيع واحد بعد ذلك ان يقول شيئا فى التفسير ؟ ! إذن لو فسره الرسول صلى الله عليه وسلم لجمّده لأنه لا يجرؤ أحد أن يأتى بتفسير بعد الرسول .

وقد علم الرسول صلى الله عليه وسلم أن عطاءات القرآن لا تتناهى ، لذلك لم يفسّره . بل أوضح بما تطيقه العقول المعاصره حتى لا ينصرفوا عنه . ولو كان القرآن قال : إن الأرض كرة وتدور حول الشمس ، أكان يصدقه أحد ؟ إن هناك حتى الآن من ينكر ذلك . ونجد القرآن يشير ويلمح إليها إلماحا خفيفاً إلى أن تتسع العقول لها . فيقول الحق :

﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ﴾

« من الآية ٥ سورة الزمر »

ومادام الليل يأتى وراء النهار ، والنهار يأتى وراء الليل فى شبه كرة ؛ فالذى يأتى عليه الليل والنهار شكل الكرة . فكأن كلاً من الليل والنهار دائر وراء الآخر حول كرة ، إذن فالحق يعطى اللمحة بميزان حتى تتسع العقول للفهم . ويقول القرآن :

﴿قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ﴾

« من الآية ١٤٢ سورة البقرة »

وهذا قول واضح ؛ لأن كل واحد منا يعرف المشرق والمغرب . لكن حين يقول الحق :

﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ۝١٧﴾

« سورة الرحمن »

أكان يفهمها المعاصر لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ نعم ، لأنه ساعة ما يقول : إن الشمس أشرقت من المكان الفلانى ، وغابت عن مكان آخر ، فساعة شروقها عندك تغرب عندى ، وساعة تغرب عندك تشرق عندى ، وهكذا يصير كل مشرق معه مغرب ، إذن فقد صدق قول الله « رب المشرقين ورب المغربين » .

ونعلم أن الشمس لها مشرق كل يوم ، ومن زار فى الصعيد المعبد الذى توجد به ٣٦٥ طاقة ـ فتحة ـ وتطلع الشمس فى كل يوم من طاقة معينة ولا تطلع من الطاقات الأخرى يتأكد من أن الشمس لها فى كل يوم مشرق . إذن هناك مشارق ومغارب ، وصدق الله القائل : رب المشارق والمغارب .

إن القرآن يخاطبنا بأسلوب يحتمله العقل المعاصر ، وإذا ما جدّ جديد نجد الأمر مكنوزاً فى القرآن ، ونجد تأويلا جديداً لا ينسخ التأويل الآخر ولكنه يرتقى به .

إذن فرسول الله صلى الله عليه وسلم لم يشأ أن يفسر القرآن التفسير الكامل ؛ لأنه كان لابد أن يفسّره بما تطيقه العقول المعاصرة له ، وإن فسّره بما تطيقه العقول المعاصرة له فمعنى ذلك أنه لن يعطى العقول التى تأتى بعد غذاء من القرآن ؛ لذلك ترك صلى الله عليه وسلم القرآن دون تفسير إلا فى النزر اليسير . وتجد ذلك فى آيات الكون ، أما فى الأحكام فالأمر محدد .

لكن فى الأشياء التى يتجدد فيها العلم فقد تركها . ولذلك قال النبى عليه الصلاة والسلام عن القرآن : « لا تنقضى عجائبه » وكأنه يلفتنا إلى أن عجائبه لا تنقضى ولا تنتهى ، وكل يوم يعطى عجائب جديدة . إذن فالقرآن مُبارك بحكم ما هو مكنوز فيه إلى قيام الساعة . وأنت تلتفت إلى الناس فتجدهم يتعبون فى اكتشاف أسرار الكون ، وتجد القرآن قد مسّ ما يبحثون عنه مسّاً خفيفاً .

﴿ وَهَـٰذَا كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ مُبَـٰرَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾

« من الآية ٩٢ سورة الأنعام »

وساعة تقول : « بين يدى الشىء » أى الشىء الذى يسبق ، والكتب السابقة هى التى نزلت بين يدى القرآن أى قبله ، والمقصود بها الكتب المعروفة المشهورة وهى التوراة والإنجيل إذ هما الكتابان الباقيان إلى الآن .

والقرآن يصدق الذى بين يديه ولا يعنى ذلك تصديق المحرّف بل تصديق « الأصيل » . ولذلك نجد عبد الله بن سلام وغيره حينما جاءوا للإسلام اعترفوا بذلك ، ويقول عبد الله بن سلام لرسول الله صلى الله عليه وسلم : انشرح صدرى

للإسلام ، ولكنى أعلم أن اليهود قوم بهت ـ أى أنهم مكابرون ـ فأنا أريد أن تسألهم عنى قبل أن أسلم ، فقال رسول الله لهم : ما تقولون فى عبد الله بن سَلاَم ؟ قالوا : حِبْرنا وابن حِبْرنا وشيخنا ورئيسنا . . . إلخ .

فقال الرجل : أشهد أن لا إله إلا الله وأن مُحمداً رسول الله . هنا بدأوا فى كيل السباب لسيدنا عبد الله بن سَلاَم فقال : ألم أقل لك يا رسول الله إنهم قوم بهت ؟

وقوله الحق : ﴿ مُصدق الذى بين يديه ﴾ أى أنك إذا ما أردت أن تعرف صدق هذه القضية فهات ما لا حاجة لهم فيه إلى تكذيبه ، وستجد القرآن قد جاء موافقاً له . مثال ذلك حين جاء القرآن بالرَّجْم . هم حاولوا أن يخففوا حكم الرَّجْم ؛ لأن امرأة زنت وارادوا أن يجاملوها . فرفعوا أمرها للنبى وقال بعضهم لبعض : إنْ حَكَم بعدم الرَّجم فهذا خير لنا ولها ، ومن العجيب أنهم غير مؤمنين بمحمد بينما يريدون الحُكم منه ، فيقول لهم الرسول عليه الصلاة والسلام : هاتوا الكتاب ، ويأتون بالصحف الموجودة عندهم ، فوجدوا آية الرَّجْم ؛ إذن فالقرآن مُصدق الذى بين يديه من غير المكتوم ، ولا المُحرَّف ، ولا المُؤَوَّل .

وإذا ما نظرت إلى القضايا التى يلتفتون إليها ، ولكنها تمر أمامهم خاطفة ، تجد أنت هذه القضايا وسيلة يريد الله بها أن يكشف الفساد والكذب والتجبر ، حتى لا يطمس أهل الباطل معالم الحق . ومثل هذه القضايا تحتاج إلى المُحقق اللَّبق . ونجده سبحانه جاء فى التوراة بمثل للأمة المحمدية ، ويكرر هذا المثل فى القرآن حين يقول سبحانه :

﴿ مُحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾

« من الآية ٢٩ سورة الفتح »

وحين ننظر إلى كلمة « أشدّاء » ، وكلمة « رُحماء » ، نجد فى ظاهر الأمر تناقضا فى الطباع ، أما المدقق المحقق فيعلم من هذا القول أن الإسلام لا يطبع المسلم على لون واحد ؛ لأنه يريد منه كل الألوان ، فلو خلقه شديداً لفقدته مواطن الرحمة ، ولو فطره وخلقه رحيماً لفقدته مواطن الشدة . والإسلام يطلب من المسلم الالتزام

بالقيم الروحية والمادية لتحرس كل منهما الأخرى ؛ لأن المسلمين لو راحوا للمادة فقط لصارت حضارتهم شرسة ، ولو راحوا للقيم لما استطاعوا أن يقيموا حضارة تبقى وتدوم ، والحق يريد حضارة تجمع بين الاثنين ؛ الروح والمادة ، لذلك يجمع الإسلام بين الاثنين ؛ الروح والمادة ؛ لأن اليهود فى فهمهم لها افتقدت الروح ، والنصرانية فى فهمهم لها غرقت فى الروحانيات وافتقدت المادة ، وجاء القرآن مُصدقًا لما بين يديه ، وهكذا جاءت الآية بالبلاغ عن أهل الكتاب .

ويتابع البلاغ لأهل قريش قاطنى مكة فيقول : ﴿ ولتنذر أم القرى ﴾ ، ونعرف أن أم القرى تعنى مكة ، وقد حاول البعض أن يتخذ من هذه الآية حُجّة ليقول : إن القرآن قد نزل لجماعة العرب فقط ، ولهؤلاء نقول : أنتم لم تحسنوا الفهم لمعطيات اللفظ ، ولنسأل : ما الحَول أولاً ؟ . الحول هوالمحيط الذى حول النقطة ، أىّ نقطة وكل نقطة ، وحول كل نقطة قُطْر وقد يكون القطر ٢٠ كيلو مترا ، وقد يكون مائة كيلو متر ، وكلما بعدت المساحة فهى حول هذه النقطة ، إذن فكلمة الحول تشمل كل ما حوله ، وحول كل مكان يشمل كل مكان .

ولماذا سميت أم القرى ؟ ؛ إما لأن « هاجر » لما نزلت بابنها الرضيع بوادٍ غير ذى زرع ، وبعد ذلك تكاثر الناس فصارت هى أم القرى ، أو لأن فيها الكعبة ، وكل الناس يؤمّونها ، أو لأن الحاجّ يأتيها من كل صوب كما يهب ويسرع الأبناء ويلوذون بأمهم .

﴿ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ﴾

« من الآية ٩٢ سورة الأنعام »

من ـ إذن ـ الذى يؤمن بهذا الكتاب الذى أنزل مصدقًا لما بين يديه لينذر به أم القرى ومن حولها ، ومن هم الذين يؤمنون بالآخرة ؟ ولماذا جاء الربط بين أم القرى وما حولها وبين الذين يؤمنون بالآخرة ؟ . لأن أحداً لن يذهب لتعاليم القرآن ليأخذها وينفذها إلا من يؤمن بأن هناك يوماً نذهب فيه جميعاً إلى الآخرة .

لذلك يخاف فيهرب من المعاصى ، ويرغب فى الطاعة ؛ لأن هناك ثواباً وعقاباً ، أما الذى لا يؤمن بالآخرة فلا يسمعك ولا ينصاع ولا ينقاد لك حين تأمره بالعفة ؛ لأنه لا يرى ثواباً أو عقاباً ولا ينتهى عن السرقة أو الكبر أو الموبقات جميعاً ؛ لأنه لا يخاف من الآخرة ؟ .

إذن فالذى يملكنا جميعاً هو الآخرة والخوف منها ، ومن لا يؤمن بالآخرة يقول : أنا غير مُلزم بشىء ، ولا شىء يقيّد حريتى . ثم لماذا أقيّد حريتى ؟ !

وهنا نقول : أنت تأخذ الأمر بسطحية ، فعلى فرض أن فى قوانين السماء ما يقيد حريتك ، لكنه لا يقيد حريتك وحدك ، إنه يقيد حرية الكل ، فإن قيد حريتك بالنسبة للناس ، فهذه القوانين السماوية تقيد حرية الناس بالنسبة لك ، فحين ينهاك الدين عن السرقة ، وعن النظر إلى محارم الغير فهو يقول للناس كلها : لا تسرقوا من فلان ولا تنظروا إلى محارم فلان ، وبذلك تأخذ حقك كاملاً ، وبهذا تعيش فى نظام متساوٍ لا تتعب فيه ؛ لأن الجارى والمطبق عليك جارٍ على غيرك مع جريانه عليك .

لكن من يؤمنون بالآخرة هم كل واحد يريد أن ينجى نفسه من العقاب ، ومن الوعيد . ويدخل نفسه فى الوعد وفى الثواب . فمثلا ـ ولله المثل الأعلى ـ حين نقول للولد : اذهب لتلقى العلم ، قد يرد : أنا لا أريد شهادة ، فيجبره والده فى البداية أن يستذكر ، ثم نجد الشاب بعد مشوار المذاكرة يخاف من الرسوب وأن عليه أن يجتهد وأن ينجح . أما إن لم يوجد امتحان فى آخر العام فالمذاكرة وعدمها سواء لديه . فمن أقرب ـ إذن ـ إلى الاستجابة لنداء العدل والخير؟ إنه من يؤمن بالآخرة .

﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾

(من الآية ٩٢ سورة الأنعام)

ولماذا جاء بالحفاظ على الصلاة هنا ؟ . نحن نعلم أن الصلاة هى عماد الدين ، من أقامها فقد أقام الدين ، وحين نحلل الأمر تحليلاً طبيعياً نجد أن الناس تنفر من الطاعات لأنها تأخذ زمناً يحبون أن يقضوه فى اللعب ، وحين نقول لواحد مثلاً : اترك

عملك وصل . قد يرد : لا ؛ لأنى حين أترك عملى يضيع علىَّ كذا . ولو كان طبيباً لذكر عددا من مرضى سيكشف عليهم ، ولو كان عاملاً لقال : إن توقف الآلة فى أثناء الصلاة يجعلنى أخسر كثيراً .

وهنا نقول : يا أخى تعال إلى الطاعة ، والبركة تعوض لك ما تظن أنك تخسره ، وإذا نظرت إلى أركان الإسلام تجدها بالنسبة لانشغال الزمن بها لا تأخذ الكثير من الوقت ؛ فشهادة أن لا إله إلا الله مُحمد رسول الله لا تحتاج منك إلا إلى أن تقولها مرة واحدة ، وهذا ركن لم يستغرق زمناً طويلاً بالنسبة لأدائه ، والزكاة لا تأخذ منك إلا ما تعطيه يوم الحصاد ، وهذا يستغرق وقتا قليلا ، وكذلك زكاة المال آخر العام ، والصوم شهر فى السنة ، وإذا كان زمن الصوم أوسع قليلاً إلا أنه وقت لا يمر إلا كل عام . والحج مرة فى العمر إن كنت مستطيعاً .

إذن أنت تجد التكاليف الركنية فى الإسلام بالنسبة للأزمان وقتها يسير وقليل لمن يحرص عليها ، لكن الصلاة تؤدى فى كل يوم خمس مرات ، ورقعتها بالنسبة للزمن أوسع . وأداؤها يحتاج إلى طهارة من حدث أو جنابة وكذلك طهارة المكان ؛ لذلك جاءت الصلاة ركناً أصيلاً فى الإسلام . وأنت لا تعرف الإنسان إن كان مسلماً إلا إذا سمع الأذان وقام يصلى . لذلك هى الفارقة بين المسلم وغير المسلم ؛ لأن الأركان الأخرى أزمانها محصورة ، ومع أنها كذلك إلا أنها أخذت من التشريع حظها من الركنية الأصيلة .

إنّ كل تشريعات الإسلام أركاناً وفروعاً جاءت بالوحى إلا الصلاة ؛ فقد جاءت بالمبَاشرة ؛ لأن الصلاة دعاء الخالق خلقه لحضرته ؛ لذلك كان لابد أن يكون تشريعها بهذه الصورة الفريدة ، تشريعاً جاء بالحضرة الإلهية .

وشىء آخر ، ما دامت الصلاة هى العمدة فى الدين فكأن الصلاة تقول للأركان الأخرى : أنا أجمعكم وأضمكم وأشملكم جميعا ؛ فالمسلم فى أثناء الصلاة يقول : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله . والمسلم يصوم فى أثناء الصلاة عن شهوتى البطن والفرج بل وتكون الصلاة صوماً لا عن الأكل والشرب ، وشهوة الفرج

فقط بل هى إمساك عن كل حركة ، وفى الصلاة زكاة ؛ لأن الزكاة تعنى أن تخرج بعضاً من مالك ، والمال فرع العمل ، والعمل فرع الوقت . وأنت حين تصلى إنما تزكى بالأصل وهو وقت العمل ، وأنت فى الصلاة تتوجه إلى الكعبة كما يتجه الحاج والمعتمر ، إذن ففى الصلاة كل أركان الإسلام مجتمعة .

إذن فأهمية الصلاة أنها قد اندمج فيها كل أركان الإسلام ، وبها يتحقق الاستطراق الاجتماعى للخلافة فى الأرض ؛ لأن الخلافة فى الأرض تقتضى مواهب متعددة ، وطاقات متعددة ، ولا يمكن لخليفة واحد فى الأرض أن يكون مجمع هذه المواهب بل لابد أن تتفرق المواهب فى المتفرق والشتيت من الناس ، فلا يمكن أن يكون الإنسان الواحد مهندساً وطبيباً ومحامياً وصانعاً وحارثاً وزارعاً وتاجراً . ولذلك وزع الله سبحانه وتعالى مقتضيات الخلافة فى الأرض على الخلفاء فى الأرض توزيعاً يجعل الالتقاء ضرورياً وليس تَفضُّلياً ، بحيث تكون أنت فى حاجة إلى مواهب ليست عندك فتذهب لصاحبها . وصاحبها أيضا يحتاج إلى مواهب عندك ليست عنده فيأتى إليك .

وانظروا إذا شاء واحد أن يستغنى فى بعض الأشياء التى يقوم بها الغير كم يتعب ؟ ، فإذا ما أتعبه السباكون وآلموه فى الأجور . وحاول تعلم السباكة ، ولابد له أن يتعلمها من سباك . وكذلك حياكة الملابس . ومعنى ذلك أن الله أبقى المواهب متفرقة مشتتة فى الخلق ليحتاج كل خلق إلى كل الخلق . والناس لا تنظر إلى جهة التميّز إلا إلى شىء واحد هو : الغِنى .

ونقول الغِنى المالى أو العقارى هونوع فقط من المواهب ؛ لأنك مثلاً إذا نظرت إلى العَالِم الذى يظل عشرين عاماً يستوعب العلم ، ثم يقابله من يستفتيه فى فتوى فيقولها له مجاناً ، لو علم هذا السائل ماذا تكلف الأستاذ الذى أفتاه طوال عشرين سنة بحثاً فى الكتب وسماعاً من الأساتذة واستنباطاً من الأحكام لدفع مكافأة لهذه الفتوى ؛ لأن العالِم كان مُسخراً لمدة عشرين عاماً لتأخذ أنت الفتوى فى نضجها النهائى فى يسر وسهولة وتنتفع بها .

وحين نرى من يمسح الحذاء ، ونجد صاحب الحذاء وهو يمد رجله والآخر يمسح الحذاء تقول لنفسك : لماذا كل هذا الزهو لصاحب الحذاء ، ولماذا هذا الانكسار لماسح الأحذية ؟ . وأقول : أنت رأيت صاحب الحذاء وقت راحته ، ورأيت ماسح الأحذية وهو فى وقت عمله . ولو عرفت كيف جاء صاحب الحذاء بالنقود التى سيدفعها لماسح الأحذية لعلمت أنه كان مسخراً له ساعة كان يعمل ليحصل على النقود ليعطى منها ماسح الأحذية ، ولذلك قال الحق :

﴿ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ﴾

(من الآية ٣٢ سورة الزخرف)

والناس لا تنظر فى التسخير إلا لِلغنى والفقير ، ونقول : خذوا التسخير على أن كل واحد فى الكون مُسخَّر فى الموهبة التى عنده ، ومُسخَّر له فى المواهب التى ليست عنده . وأراد الحق سبحانه وتعالى أن يربط الناس بهذا ربطاً قسرياً وليس تفضّلياً ؛ لأن من عنده أولاد يريدون أن يأكلوا وامرأة تحتاج إلى أن تَطْعَم ولا يملك نقوداً ، وليس أمامه من عمل سوى نزح المجارى ، فيأتى بأدوات نزح المجارى ، ويؤدى العمل ليعول من يعولهم ، ولولا ارتباطه بضرورة الحياة له ولمن يعول لما عمل فى مثل هذا العمل ، إذن فهو مربوط ربطاً ضرورياً ليؤدى خدمة فى الكون . ولو كان كل البشر يعيشون فى رغد العيش أكان هناك من يتطوع لينزح المجارى ؟ لا يحدث ذلك أبداً ، لأنه عمل لا يأتى بالتفضل بل بالاحتياج .

وهكذا نرى أن الخلافة فى الأرض تقتضى استطراقاً ، وهذا الاستطراق لا يدوم كثيراً ؛ فمرة تكون القوة لإنسان ثم تذهب منه ، ومرة يكون الثراء لإنسان ثم ينحسر عنه هذا الغِنىٰ ، ولذلك أخبرنا الحق أنه جعل الأيام دُوَلاً بين الناس ليستقيم العالم بارتباط الضرورة فى بعض الأعمال ، وإن بدا لنا أن هناك مواهب تميز بين الناس فى شكلهم ، وفى هندامهم ، وفى مطيتهم ، تجد الطبيب يعمل فى أكثر من مكان ، وإن سار على رجليه لتعب ، لذلك يشترى سيارة ، ويظن من يراها أن السيارة امتياز لا مثيل له ، متناسياً أن هذه السيارة تقضى مصالح الرجل ليخدم الآخرين .

مثال آخر : أنت إن نظرت إلى كوب الشاى الذى تشربه بمزاج وليس لضرورة

حيوية ، وإن جاءك من يقدم لك الشاى ليقول : إن الشاى قد نفد من المقهى ، فتعطيه جنيهاً وتقول : هات كيساً من الشاى من عند البقال ، ويذهب الغلام ليحضر علبةالشاى فيجد البقال وكأنه قد جهزها له ، وأنت لا تعرف أن علبة الشاى هذه قد أخذت وقتا وعملا من اثنين أو ثلاثة لتصل إليك ؛ لأن الحق قد كلف أناساً ليزرعوا الشاى فى بعض البلاد ، وأناساً آخرين يستوردونه ، ثم تأتيك علبة الشاى لتصنع منها كوباً لتشربه .

إذن فالمسألة كلها تسخيرات ؛ لذلك توجد الفوارق الاجتماعية التى تقتضيها أعمالنا ، ويذيب الحق هذه الفوارق بأن جعل فى الصلاة استطراقاً للجميع ، وتلتفت ساعة يقول المؤذن : (الله أكبر) أن الكل قد جاء ، الغنى قبل الفقير ، والخفير مع الأمير ، ويخلع الجميع أقدارهم خارج المسجد مع نعالهم ليتساوَوْا فى الصلاة ، ومن له رئيس يتكبر عليه يراه وهو ساجد مثله لله ، فتريحه لحظة استطراق العبودية .

ولنفرض أن كلاًّ منا سيصلى بمفرده فى الصلاة اليومية ، لكن عندما يؤذن المؤذن لصلاة الجمعة ، يأمرنا الحق أن نَذَر ونترك كل شىء لنؤدى صلاة الجمعة معاً . ويرى الضعيف عظيماً يتضرع مثله إلى الله ، ويرى القوى نفسه وبجانبه الضعيف ، وحين يعود كل منا إلى عمله تسقط أقنعة القوة والزهو ؛ لأننا جميعاً نقف أمام خالق واحد وكلنا سواء .

إن هذا هو الاستطراق الاجتماعى ؛ لأننا حين نرقب بعضنا فى أثناء الصلاة نجد أنفسنا فى حضرة الرَّب الذى أعد لنا الكون ، وسَخَّره لنا ، وأعطانا الطاقات ، وأعطانا المواهب ، وإذا تأملنا واحداً له وظيفة كبيرة جداً ، فأنت حين ترغب فى لقائه تكتب التماساً ، ويُنْظَر فى الالتماس ، فإمّا أن يوافقوا وإمّا لا يوافقوا على لقائك به . وإن وافقوا يسألوك : فى أى أمر ستتكلم ؟ وسيُحدد لك الوقت الذى ستجلس فيه معه وليكن ثلاث دقائق مثلا ، وحين تجلس إليه وتنسى نفسك يقوم هو ليدلك على أن المقابلة انتهت ، لكن ربنا يقول لنا : تعالوْا لى فى أى وقت ، وكلمونى فى أى شىء ، وأنا لا أملّ حتى تملُّوا ، وأنتم يا عبيدى مَنْ تنهون المقابلة ، وهذا عطاء كثير جداً . يغدقه المولى عز وجل على عباده .

فهل هناك ربوبية أفضل من هذه ؟ .

إذن فالصلاة إذا نظرت إليها وجدت أنها : جماع كل فضائل الدين وفيها كل الفضائل للمجتمع » ؛ لذلك جعلها الله عماد الدين .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾

ساعة يأتى الحق بأسلوب استفهامى فليس الهدف أن يستفهم . إنه ـ سبحانه ـ لا يريد أن يأتى الخبر من عنده ، وهو يقدر أن يقول : الذى يفترى ظالم ، لكنه هنا يأتى بالاستفهام الذى يؤكد أنه لا يوجد أظلم من الذى يفترى على الله كذباً ، ويعرض الله القضية على المؤمنين وكأنه يسأل ليعرض كل مؤمن القضية على ذهنه ويستنبط الجواب . إن الذى يفترى على زميله والمثيل له كذباً نُوقِع به العقاب ، فما بالك بمن يفترى على الله ؟ وحين تسمع أنت هذا الكلام : ﴿ ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً ﴾ . وتستعرض الأمر فلا تجد أظلم منه ، وهكذا يستخرج الله الحكم من فَم المقابل .

وكيف يفترى إنسان الكذب على الله ؟ كأن يبلغ الناس ويدَّعى ويقول : أنا نبى

وهو ليس كذلك . هنا تكون الفرية على الله ، وإياك أن تظن أنه يكذب على الناس ، لا ، إنه يكذب على الله ؛ لأنه أبلغ أن الله قد بعثه وهو لم يبعثه .

و « الافتراء » : كذب مُتعمَّد مقصود ، وينطبق ذلك على النبوات التى ادعيت ؛ من مثل مسيلمة الكذاب ، سجاح ، طليحة الأسدى ، الأسود العنسى ؛ كل هؤلاء ادعوا النبوة ، ومع ذلك لم يسألهم أحد عن المعجزة الدالة على نُبوّتهم ؛ لأن كل واحد منهم عندما أعلن نبوته جاء بما يُخفّف عن الناس أحكام الدين .

فواحد قال : أنا أخفف الصلاة ، والزكاة لا داعى لها . لذلك تبعهم كل من أراد أن يتخفف من أوامر الدين ونواهيه ، موهما نفسه بأنه مُتدين ، دون أن يلتزم بالتزامات التدين ، وهذا هو السبب فى أن أصحاب النبوات الكاذبة ، والادعاءات الباطلة يجدون لهم أنصاراً من المنافقين ؛ فالواحد من هؤلاء الأتباع قد يكون مثقفاً ثم يصدق نبياً دجالاً ، وتسأل التابع للدجال وتقول له : أسألت مدَّعى النبوة هذا ما معجزتك ؟ ـ وهذا أول شرط فى النُبوَّة ـ ولم نجد أحداً سأل هذا السؤال قط ، لماذا ؟

لأن التديّن فطرة فى النفس ، ولكن الذى يصعِّب التدين هو الالتزامات التى يفرضها التدين ، وعندما يرى التابع الضعيف النفس أن هناك من يُريحه من الالتزامات الدينية ، ويفهمه أنه على دين ، ويقلل الالتزامات عليه ، لذلك يتبعه ضعاف النفوس ، وتصبح المسألة فوضى .

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ ﴾

(من الآية ٩٣ سورة الأنعام)

هناك من ادعى وقال : أنا نبى ، وقال : سأنزل مثل هذا القرآن ، فماذا قال هذا المدَّعى وهو « النضر بن الحارث » يقول ـ فى أمة أذنها أذن بلاغية ، تتأثر بموسيقى اللفظ ـ : « والطاحنات طحنا والعاجنات عجنا والخابزات خبزا » !! ولماذا لم يأت بالمسألة من أولها ويقول : « والزارعات زرعا والحارثات حرثا » ثم يقول مَن ادعى أنه أوحى إليه : « والعاجنات عجنا والخابزات خبزا » ، وكان عليه أن يتبعها أيضاً :

« والآكلات أكلا والهاضمات هضما » .

وطبعاً كان هذا الكلام لوناً من هراء فارغ ؛ لأن الحق إنما أنزل كلامه موزونا جاذباً لمعانٍ لها قيمتها فى الخبر ، ولذلك نزل القول الحق : ﴿ أو قال أوحى إلىّ ولم يوح إليه شىء ﴾ ، وقد جاء واحد هو عبد الله بن سعد بن أبى سرح القرشى وكان أخا لسيدنا عثمان من الرضاعة وكان كاتباً لرسول الله صلى الله عليه وسلم وقعد فى حضرة النبى . فنزلت الآية :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ ﴾

(سورة المؤمنون)

وانبهر بالأطوار التى خلق فيها الحق الإنسان فقال : ﴿ تبارك الله أحسن الخالقين ﴾ . فقال له رسول الله : اكتبها فقد نزلت . واغْترّ الرجل وقال : إن كان محمدٌ صادقاً لقد أوحى إلىّ كما أوحى إليه ؛ وإن كان كاذباً لقد قلت كما قال ، فأهدر رسول الله دمه . وقال لصحابته : من رآه فليقتله . وفى عام الفتح جاء به عثمان رضى الله عنه ، وقال : يا رسول الله ، اعف عن عبد الله . فسكت رسول الله . قال عثمان رضى الله عنه : اعف عنه . فسكت رسول الله . وكررها ثالثا : اعف عنه يا رسول الله . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : نعم .

وكان لسيدنا عثمان منزلة خاصة عند رسول الله ، وأشار الرسول لسيدنا عثمان ابن عفان ، فأخذ الرجل وانصرف ، فلما انصرف قال الرسول لصحابته : ألم أقل لكم من رآه فليقتله ؟ قال سيدنا عباد بن بشر : يا رسول الله لقد جعلتُ إليك بصرى ـ أى وجَّهت عينى لك ـ لتشير علىّ بقتله ، فقال رسول الله لعباد بن بشر : « ما ينبغى لرسول أن تكون له خائنة الأعين » وأسلم ابن أبى سرح وحسن إسلامه .

ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله ، وما هى عقوبات هؤلاء الذين يفترون على الله الكذب ، ويحاولون التغرير بالناس مدّعين أن الله أنزل عليهم وحياً ؟

يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّـٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَـٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾

(من الآية ٩٣ سورة الأنعام)

وساعة تسمع « لو » هذه تعرف أنها شرطية ، وأنت تقول ـ مثلا ـ لوجاءنى فلان لأكرمته . وحين نقرأ القرآن نجد كثيراً من « لو » ليس لها جواب ، لماذا ؟ لأن الإتيان بالجواب يعنى حصر الجواب فى دائرة منطوقة ، فإن أردت الجواب الذى لا يمكن للفظ أن يحصره فأنت تتركه للسامع مثلما تجد شاباً يلعب دور الفتوة فى الحارة ويتعب سكانها ، ثم وقع فى أيدى الشرطة وأخذوه ليعاقبوه ، فيقول واحد ممن رأوه من قبل وهو يرهق أهل الحارة : آه لو رأيتم الولد الفتوة وهو فى يد الشرطة !

أين جواب الشرط هنا ؟ إنه لا يأتى ؛ لأنه يتسع لأمر عجيب يضيق الأسلوب عن أدائه .

والحق سبحانه وتعالى يقول هنا : « ولو ترى إذ الظالمون فى غمرات الموت » لم يقل لى : ماذا ترى ؟ لأنك سترى عجباً لا يؤديه اللفظ . و«الغمرات » هى الشدة التى لا يستطيع الإنسان منها فكاكاً ولا تخلصاً .

ويتابع الحق : « والملائكة باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسكم » فهل هم ملائكة الموت الذين يقبضون الروح ؟ أو الكلام فى ملائكة العذاب ؟ إنها تشمل النوعين : ملائكة قبض الروح وملائكة العذاب .

«و الملائكة باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسكم » كأن ملائكة قبض الروح

تقول لهم : إن كنتم متأبّين على الله فى كثير من الأحكـام لقد تأبّيتم على الله إيمانـاً ، وتأبّيتم على الله أحكـامـاً ، وتـأبّيتم على الله فى تصـديق الـرسـول ، فهاهـو ذا الحق قد أمرنا أن نقبض أرواحكم ، فهل أنتم قـادرون على التمرد على مرادات الحق ؟ إن كنتم كذلك فليظهر كل منكم مهارته فى التأبّى على قبض روحـه ، أو أن الملائكة يبـالغـون فى النكايـة بهم كأن نقـول لواحـد : اختق نفسك وأخرج روحك بيديك أو : أخـرجوا أنفسكم من العذاب الذى يحيق بكم .

و«عـذاب الهون » هـو العـذاب المؤلم وفيـه ذلـة . وأسـاليب العـذاب فى القرآن متعـددة ، فيقول مرة : « مـن العذاب المهين » أو وأعد لهم « عـذاباً مهيناً » أو ولهم «عذاب أليـم » فمرة يكون العذاب مؤلماً لكـن لا ذلة فيه ، ومرة يكون العـذاب مؤلماً وفيه ذلة . وكما أن النعمة فيها تعظيم فـالنقمة فيها ذلـة . وأضرب هـذا المثل ـــ ولله المثل الأعلى ، فالله سبحـانـه منـزّه عن أى تشبيه ـــ : قد نجـد حاكماً يعتقل إنسـاناً ويأمـر بأن يجلس المعتقل في قصر فخم له حديقة ، لكن حين يأتيـه الطعام ، يقول له الحارس : خذ اتسمم ، وفى ذلك إهانة كبيرة .

ولماذا يـذيقهم الحق العذاب المهين ؟ تأتـى الإجابـة من الله : « بما كنتم تقولـون على الله غير الحق وكنتم عن آيـاته تستكبرون » . كأن يقـول واحد: أوحي إلى ولم يوح إليـه شىء . وهـم أيضاً يستكبرون على الآيـات التى يؤمن بها العقل الطبيعى ، ويقول الحق :

﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾

(من الآية ١٤ سورة النمل)

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ

﴿ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾ ﴾

وقوله الحق : « ولقد جئتمونا فرادى » أي أن كلاً منكم يأتى إلى الله فرداً عما كان له فى دنياه من مال أو ولد أو أتباع ، جاء كل منهم لله وليس معه الأصنام التى أدّعى أنها شركاء لله ، واتخذهم شفعاء له . و« فرادى » جمع « فرْدَان » أو « فريد » مثل « سكارى » جمع « سكران » و« أسارى » جمع « أسير » ، إنهم يأتون إلى الله زُمرا وجماعات ، ولكن كل منهم جاء منفرداً عما كان له فى الدنيا من مال وأهل وولد وأتباع ، بدليل أنه قال : « وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم » .

و« خوّله » أى جعل له خَدَمًا من الأتباع ومن المريدين ، ومن المقدَّر والمضيَّق عليهم فى الرزق ومن العائشين فى نعمته ، جاء كل منهم منفردا عما له فى الدنيا كما خلقكم الله أول مرة ، أى كما دخلتم فى الدنيا !

﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾

(من الآية ٩٤ سورة الأنعام)

وقوله الحق : « جئتمونا » أى كأن الإنسان الذى أذنب يكاد يقدم نفسه للعذاب معترفاً أنه يستحق هذا العذاب إقراراً منه بالذنب ، فكأن الإنسان يبلغ منه الحزن على ما فعله والتوبيخ لنفسه التى انصرفت عن الحق فيقول لنفسه : أنت تستحقين العذاب .

﴿ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ

﴿ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ ﴾

(من الآية ٩٤ سورة الأنعام)

« البيْن » هو ما يفصل أو ما يصل . فعندما نجد اثنين قاعدين وبينهما « بين » فهذا البين فاصل وواصل . فإن اعتبرته واصلاً ، أقول : تقطّع هذا ، أى وقع التقطع بينكما ، و انفصمت الروابط بينكم وتشتت جمعكم ، وإن كان البين فاصلا فقد وصلوا أنفسهم بالأصنام .

وماذا كانت صلة هؤلاء بالأصنام التى يشركونها فى العبادة ؟ كانوا يقدمون لها القرابين ، وغير ذلك . وهذه الأصنام وكل من جعلوه شريكا مع الله سيفر منهم يوم القيامة . وهكذا يتحقق قوله الحق : « لقد تقطّع بينكم »

ويواصل سبحانه : « وضلَّ عنكم ما كنتم تزعمون » ، و« ضلّ » أى تاه وغاب ، ماكنتم تبحثون عنهم فلا تجدونهم مصداقا لقوله الحق :

﴿ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ ﴾

(من الآية ١٦٦ سورة البقرة)

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ ﴾

بعد ما تكلم الحق عن التوحيد والنبوات ، ومن كانوا يعاكسون ويعارضون ويناوئون تلك النبوات ويكذبونها وقالوا فيها الإفك أراد الله أن يلفت خلقه إلى ما أعدّه لهم استبقاء لحياتهم ، وكيف سخّر لهم كل الكون بما فيه.. جماداً ونباتاً وحيواناً ، وكأنه سبحانه يوضح : إن كنت لا ترى أن

الخالق يستحق عبادتك فانظر إلى ما أنعم عليك به من النعم ، ومادام العبد المخلوق له كل نعم الخالق الأعلى فلماذا لا يسمع كلمته سبحانه ؟ أيها المخلوق أنت تتربى على مائدة الرحمن وهو خالقك فانظر وتأمل واعرف .

« إن الله فالق الحب والنوى » وساعة تسمع لفظ الجلالة : أى علم واجب الوجود وهو الله ، فعليك أن تأخذ لفظ الجلالة بكل ما يدل عليه من صفات الجلال وصفات الجمال ما عرفته وما لم تعرفه ؛ لأنه سبحانه خلق الكون كله وهوقيُّوم عليه ، وهذا الخلق وتلك القيّوميةفعل يقتضي صفات متعددة تقتضى قدرة ، وحكمة ، وعلماً واسعاً ورحمة ، وبسطاً وقبضاً وغير ذلك ، وبدلاً من أن يأتى لك بصفات القدرة ، وصفات الجمال و يذكرها ويعددها لك يقول سبحانه عن نفسه : « الله » ؛ لأنه الاسم الجامع لكل صفاته . ونحن نقول في بدء كل عمل : بسم الله ، وفى ذلك إيجاز لما يحتاج إليه أى عمل ، لأن أى عمل يحتاج إلى قدرة ، فتقول : باسم القادر ، ويحتاج إلى علم فتقول : « باسم العليم » ويحتاج إلى حكمة فتقول : « باسم الحكيم » ويحتاج عزة فتقول : « باسم العزيز » وقد يحتاج الى قهر عدوك لأنك قد تدخل معه في حرب فتقول : « باسم القاهر » إذن كل عمل يحتاج إلى حشد من صفات الكمال والجلال يخدم الفعل ، فبدلاً من أن نقول باسم القادر وباسم الحليم وباسم العليم وباسم القابض، يوفر عليك سبحانه كل ذلك فتقول : بسم الله ؛ لأن اسم الجلالة وهو «الله» هو الجامع لكل صفات الكمال .

« إن الله فالق الحب والنوى » ، فالق أى شاقق ، جاعل الحب والنوى كل منهما فلقتين . « والحب » ما لا نواة له مثل الشعير والقمح والأرز . وهناك ما له نوى مثل البلح والخوخ ، وتجد فى قلب النواة شيئا آخر . وهناك نوع آخر له بذور مثل البطيخ ، وفى كل بذرة تجد فيها شيئا ، فيوضح لك الحق سبحانه وتعالى : إن عظمتى تتجلّى فى أننى أخلق الحب وأخلق النوى ، وهناك حبوب مفلوقة جاهزة ، مثل حبة الفول مثلاً وحبة العدس .

وأنت إذا ما نظرت إلى هذه العملية وجدت شيئا عجباً !!

فحين تأتى لنواة البلح أو حبة الشعير ، وتضعها فى الأرض فى بيئة استخراجها ، وبقليل من الرطوبة ، تجد الفلقتين قد خرج منهما نبتة وتكاد النواة أن تنفلق ليخرج منها الزبان الضعيف بين الفلقتين ويتكون ما يسمى بالجذير . وهكذا تجد سّر الحياة يأتى من الفلقتين ، وإن نزعت هذا الجذير تنتهى الحياة . ولذلك وجدنا من يتعجب حين اقتحم أعشاش النمل ووجد فى العش قطعاً صغيرة مفتتة بيضاء بجانب العش ، واكتشفوا أن هذه هى زبانات الحب الذى يدخله النمل للعش ، فلو أن النمل أدخل الحبوب كاملة فقد تأتى لفحة من رطوبة فتكبر هذه الحبة ، وتنمو وتصير شجرة تفتك بالعش ، فمن الذى هدى النمل إلى أن تفعل هكذا ؟ إنه الله. ونجد النمل يفلق حبة نبات « الكزبرة » إلى أربع قطع لأنه لو قطعها إلى اثنتين قد تنبت ، من الذى علمه ؟ إنه سبحانه :

﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝ ﴾

(سورة الأعلى)

والعجيب أنك حين ترى النبتة الضعيفة ساعة أن تخرج إلى الحياة وهي التى ستكون من بعد ذلك جذراً إنها هشة وضعيفة إن أمسكتها بيدك تسحقها ، لكنها تخترق قلب الأرض الصلبة التي لو ضربتها بسكين لانكسرت السكين ، لكن الجذير الضعيف يدخل فى قلب الصخر والأرض ، فأى قوة أعطته ذلك ؟ أي قوة تخرق له الأرض ؟ وهل الجذير هو الذى خرق الأرض أو خُرِقَت له ؟ لقد خرق الحق الأرض للبذرة لتستخرج منها غذاء للزرع ، إنّها قدرة الحق سبحانه « فالق الحب » الذى ادخر فى فلقتين اثنتين قوتاً للنبات إذا مسته رطوبة تتغذى عليها الزريعة إلى أن تربى الجذور ، ويستمد النبات غذاءه من الفلقتين إلى أن يثبت ويتمكن فى الأرض ثم تتحور الفلقتان إلى ورقتين خضراوين .

ويتابع الحق سبحانه : « يخرج الحى من الميت ومخرج الميت من الحي ». وحين تأمل العلماء هذا القول وأرادوا أن يوضحوا لنا ما الحى ؟ وما الميت؟

فات الجميع أن يعرفوا ما هى الحياة ؟ الحياة هى قيام الموجود بما يؤدى به مهمته ، فحياة الإنسان فيها حركة وحس وجرى ، ثم هناك حياة ثانية في الحيوان ، وحياة ثالثة فى النبات ، وحياة ذات طابع مختلف فى الجماد . مثلما علمونا فى المدارس حين كان المدرس يمسك بقضيب ممغنط ليجذب برادة الحديد ، حتى الحديد الصلب فيه لون معين من الحياة . وكلنا رأينا في المدارس الأنبوبة الزجاجية التى وضعوا فيها برادة الحديد وكيف تتأثر بقضيب المغناطيس . وتعتدل وتصير فى مستوى واحد ، وهكذا نعرف أن الحياة هى الطاقة الموجودة فى كل كائن ليؤدى مهمته حتى الأحجار تختلف فيها أشكال الحياة ، فهناك حجر يأخذ شكل الرخام ، وآخر يأخذ شكل المرمر ، وكل لون من الأحجار له شكل من أشكال الحياة .

ونقرأ فى القرآن :

﴿ لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ﴾

(من الآية ٤٢ سورة الأنفال)

وجاء الحق بمقابل الهلاك وهو الحياة ؛ فالهلاك ضد الحياة والحياة ضد الهلاك ، ويقول سبحانه فى آية أخرى :

﴿ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ﴾

(من الآية ٨٨ سورة القصص)

إذن مادام كل شىء هالكا ، فكل شىء فيه حياة ، والخطأ أن تظن أن كل حياة تتشابه فى الحس والحركة مع الإنسان ، لا ، إن الحياة فى كل شيء بحسبه ، إلى أن تقوم القيامة ، فكل شىء حي له حياة تناسبه ، وحين نسمع :

﴿ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾

(من الآية ٤٤ سورة الإسراء)

نقـول : نعم كل من يسبح بحمـده يقـول قـولاً ، وإيـاك أن تقـول إنّـه تسبيح دلالــة ؛ لأن بعضهم يقـول : إن هــذا تسبيح دلالــة على الخالق ، ونقول : لـو أن الذى يقصده الله تسبيح دلالة على خـالق لما قال : « ولكن لا تفقهون تسبيحهم » .

إذن فلا أحد منا يفهم لغـة التسبيح ، وعرفنا من قبل حين سمع سليمان عليـه السـلام قـول النملـة وتبسم لها ضـاحكـاً ، وكـذلك مـا سمعـه من الهدهد، وكذلك تسخير الجبال لتسبح مع داود عليه السلام .

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

إن كل كلمة لها دلالتها ومعنـاها . فكلمة العلم تدلنا على إحـاطة علمه بكل شىء فى الوجـود ، وكلمة الحكمة تـدلنا على أن كل شىء منـه يصدر عن حكمـة . وكلمة الـرزاق تدلنـا على أن كل مرزوق فى الـوجود إنما أخـذ من فيضه وخيره ، وهكــذا إلى ما لا نهاية لكماله من صفـات ذاته . وكلمة « الله » تدل على كل صفـات الجلال والجمال والكمال ، فإذا قال : « الله » فهذا الاسم : يشمل القادر ، العالم ، الحكيم ، القدير ، وكل صـفات الحق مـا علمت منها ومـالم تعلم ، مـا دامت ذاته سبحـانـه وتعالى متصفـة بكل صفـات الكمال ، فـالواجـب أن يكون كل فعل يصـدر عن ذاتـه المتصفـة بالكمال له مطلق القدرة والجمال والكمال .

إذن فحين يقول الحق ذلك فإنما يلفتنا إلى أن كل شىء كـائن فى الوجود إنما هـو من خلق الله ، وأن له حيـاة تنـاسب مهمته ؛ فـالإنسـان له حيـاة تناسب مهمته . والحيوان له حياة تنـاسب مهمته . والنبات له حياة تناسب مهمته . والجماد له حياة تناسب مهمته . وإذا نظرت إلى الأشياء كلها بهذا المعنى وجدت أن كل موجود فيه حياة ، ولكـن الحياة الكاملة بكل مقوماتها وجدت فى الأعلى من المخلـوقات وهو الإنسـان ، والله سبحـانـه وتعالى خلق فى الإنسـان الحياة حسـاً وحـركة ، ثم أعطـاه حيـاة أخرى هى التى تُصعّـد

حياته وتجعل لحياته قيمة ؛ لأن حياتنا التى نعيشها إنما يتمتع بها المؤمن والكافر ، وقصارى ما فيها أن تعطينا الحس والحركة قدر عمرنا فى الحياة ، ولكن حياة الإيمان بما يبعثه الله لنا من منهج على يد الرسول . تعطينا حياة أوسع ، وأخلد ، وأرغد ، وهذه هى الحياة الحقة ، ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾

(من الآية ٦٤ سورة العنكبوت)

وهذه هى الحياة الحقيقية وقول الحق : « إن الله فالق الحب والنوى » هو المقدمة الأولى للحياة ، ثم تكلم عن الحياة وأنه يخرج حياً من ميت، وهو هنا قد خاطبنا على مقدار أوليات علمنا بالأشياء ؛ فالشىء إذا لم يكن له حس وحركة نعتبره ميتاً لكن لو نظرت إلى الحقيقة لوجدت كل شىء فى الوجود له حياة . مصداق ذلك قوله جلت قدرته : « كل شىء هالك إلا وجهه »

ومادام كل شىء هَالِكاً فكل شىء قبل أن يهلك كان فيه حياة .

والله سبحانه القائل :

﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَـٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۖ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ۖ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

ولماذا جاء فى هذه الآية بـ « تخرج » وجاء فى الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها قوله : « ومخرج الميت من الحى » ؟ إنّ الذين بحثوا هذا البحث نظروا نظرة سطحية فى المقابلة الجزئية فى الآية ، وهى : « يخرج

الحى من الميت » وقال : « ومخرج الميت من الحى » ونسوا أنه سبحانه قال: إنه يخرج الحى من الميت ؛ لبيان أن الله فالق الحب والنوى ليخرج الحى من الميت أى أن الله فلق وشق الحب والنوى لأجل أن يخرج الحى من الميت ..

ثم قال : « ومُخرج الميت من الحى » هو مقابل لفالق ، فلا تأخذها مقابلة للجزئية فى الآية ؛ ولأن الاسم يدل على الثبوت ، والفعل يدل على الحدوث ؛ فالحق سبحانه وتعالى له صفة فى ذاته ، وصفة في متعلقات هذه الذات ؛ فهو سبحانه وتعالى رَزّاق ، قبل أن يكون له مخلوق يرزقه . هو رزاق ، وبعد ما خلق من يرزقه هو رازق ؛ لأنه هو الخالق ، والخالق صفة للذات وإن لم يوجد المتعلق ، وهو سبحانه المحيى قبل أن يوجد من يحييه ؛ لأن صفته فى ذاته أنه يحيى ، ومميت قبل أن يميت من يريد أن يميته ؛ لأن الصفة موجودة فى ذاته .

وسبحانه فالق الحب والنوى أى قبل أن يوجد الحب والنوى الذى يفلقه، ومخرج الحى من الميت هو صفة ثابتة فى ذاته قبل أن يوجد متعلّقها. وله صفة - أيضاً - بعد أن يوجد المتعلق ، فإن أراد الصفة قبل أن يوجد المتعلّق جاء بالاسم : « فالق ومخرج » . وإن كان يريد الصفة بعد أن توجد ، يقول : « يخرج » ، « يخرج » .

ويذيل الحق الآية :

﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾

(من الآية ٩٥ سورة الأنعام)

و« ذا » اسم إشارة لما تقدم ، وهو سبحانه فالق الحب والنوى ومن يخرج الحى من الميت ومخرج الميت من الحى وهو الله . والكاف فى قوله : « ذلكم » لمن يخاطبهم وهم نحن ، أما اللام من « ذلكم » فهى للبعد والميم للجمع . فحين يريد الحق أن يخاطب رسوله ، يقول :

﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾

(من الآية ٢ سورة البقرة)

ولكنه هنا يخاطبنا فيقول : « ذلكم » إشارة إلى قول الحق سبحانه وتعالى : الله ، وفالق ، ومخرج ، والخطاب لجمهرة المخاطبين بالقرآن . فإذا كان الله بهذه الصفات فكيف ينصرفون عن الإيمان به وتوحيده ؟ وذكر لنا أول مقوم من مقومات الحياة وهو النبات وهو مانأكله ، فإذا كان الحق سبحانه وتعالى هو الذي خلق الحب وخلق النوى ليخرج الحي من الميت وهو مخرج الميت من الحي فهو أولى بأن يكون إلهاً معبودا فكيف تصرفون عنه ؟! وإلى من تصرفون ؟! إلى من توجد فيه صفات أرقى من هذه الصفات ؟!! لا يوجد من فيه صفات مثل هذه ، ولا أرقى من هذه الصفات .

وإذا سمعت كلمة : « أنَّى » فافهم منها أنها تأتى للتعجيب ، تأتى وتطلب أن يدلنا واحد على كيفية انصرافهم عن الله وتوحيده مع وضوح الدلالات والبراهين .

ومرة يقول الحق سبحانه :

﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ ﴾

(من الآية ٢٨ سورة البقرة)

هو سبحانه يخاطب الناس ويقول لهم : كيف تكفرون بالله ؟ فالله فى ذاته يستحق ألا يكفر به ؛ لأنه هو الذى خلق من عدم ، وأمدّ من عُدْم ، ولم يشاركه أحد أو ينازعه فى هذا الأمر ، وإليه نرجع جميعاً ، فكيف تكفرون به ؟ وهذا تعجيب كبير ؛ لذلك يقول سبحانه هنا : « فأنّى تؤفكون » أى فكيف تصرفون عن الحق وتعدلون عنه إلى الباطل فتعبدون - مع الله - إلها آخر بعد أن تعلموا أن هذه الصفات له - سبحانه - وليست لغيره ؟ وكل تعجيب يأتى فى « أنّى » مثل قوله الحق :

﴿ أَنَّىٰ يُحۡيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعۡدَ مَوۡتِهَا ﴾

(من الآية ٢٥٩ سورة البقرة)

أى كيف يحيى هذه الله بعد موتها ؟

ويقول سيدنا زكريا لسيدتنا مريم : (أنّى لك هذا)

إذن فالتعجيب ملازم لكلمة « أنّى » فكأن الصفات التي تقدمت صفات موجبة للإيمان بالله واحداً قهاراً مريداً عالماً حكيماً نرجع إليه جميعاً ، فقولوا لنا : كيف تكفرون بهذا الإله ؟ وإلى من تذهبون إذا كان هذا الإله يُكفر به ؟ أهناك شيء ادّعى أنه خلق وأنه رزق ؟ . لو أن شيئاً ادّعى أنه خلق أو رزق كنا نعذركم ، لكن لم يدّع شيء فى الوجود بأنه خلق أو رزق ، والدعوة تثبت لصاحبها ما لم يقم لها معارض .

« فأنّى تؤفكون » وكلمة « أنّى تؤفكون » تعنى كيف تُصرفون انصرافاً كذباً ؛ لأن « الإفك » . معناه الكذب المتعمّد .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ فَالِقُ ٱلۡإِصۡبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيۡلَ سَكَنًا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ حُسۡبَانًاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ ﴾

وسبحانه يأتى بآية أخرى من الآيات المعجزة كما جاء بالآية الأولى فى أنه هو الذى خلق لنا ما يقيم حياتنا .

« فالق الإصباح وجعل الليل سكناً » . ومعنى « فالق » أي جعل الشيء شقين ، وهما نعمتان متقابلتان لا تكفى واحدة عن الأخرى ، إذ

لابد أن يوجد إصباح ويوجد الليل سكناً ؛ لأن الإصباح هو زمان وضوح الأشياء أمام رؤية العين ؛ لأننا نعلم أن الظلمة تجعل الإنسان يضطرب مع الأشياء ، فإن كنت أقوى من هذه الأشياء حطمتها ، وإن كانت أقوى منك حطمتك. إن السير في الظلمات التى لا يوجد فيها نور يهدى الإنسان إلى مرائيه قد يؤدى إلى خسارة الأشياء .

إننّا فى الصباح نعمل ونسعى فى الأرض ، ونملأ الدنيا حركة . فإذا ما أصابنا الكد والتعب والنَّصب من الحركة فالمنطق الطبيعى للكائن الحى أن يستريح ويهدأ ويسكن لا بحركته فقط ولكن بسكون كل شيء حوله ؛ لأنك إن كنت ساكناً ويأتى لك ضوء فهو يؤثر فى تكوينك ، ولذلك يقولون الآن : إن « الأشعة » التى يكتشفون بها أسرار ما فى داخل جسد الإنسان تترك آثاراً .

إذن فالإشعاع الصادر من الشمس يمنعه عنك الله ليلاً حتى يستريح الجسم من كل شيء ، من كل حركة ناشئة فيه ، ومن حركة وافدة عليه ، وهكذا تكون نعمة سكون الليل وظلمته مثل نعمة الصباح ، وكلاهما تتمم الأخرى ، ولذلك قلنا : إن الحق سبحانه وتعالى فى أول السورة قدّم الظلمات على النور :

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ﴾

(من الآية ١ سورة الأنعام)

لأنك أنت لا تستطيع أن تنتفع بحركتك فى النور إلا إذا كنت نشيطاً ومرتاحاً أثناء الليل . فإن لم ترتح كنت مرهقاً ولن تستطيع العمل بدقة فى حركة النهار . إذن فالظلمة مقصودة فى الوجود . ولذلك فالحضارة الراقية هى التى تنظم حياة الإنسان ليعمل نهاراً ويستريح ليلاً ، حتى لا يستأنف عمله فى الصباح مكدوداً . ومن يزور ريف مصر هذه الأيام يفاجأ بأن أهل الريف قد سهروا طوال الليل مع أجهزة الترفيه ، ويقومون إلى العمل في الصباح وهم مكدودون مرهقون .

ونقول : لنأخذ الحضارة من قمتها ، ولا نأخذ الحضارة من أسفلها ؛

فحين تذهب إلى أوروبا تجد الناس تخلد وتسكن ليلاً ، ومن يسير فى الشارع لا يسمع صوتاً ولا يجد من يخرج من بيته ، ولا تسمع صوت ميكروفون فى الشارع ؛ حتى ينال كل إنسان قسطه من الهدوء ، ويختلف الأمر فى بلادنا : فالشوارع تمتلىء بالضجيج ، والمريض لا يستطيع أن يرتاح ، ومن يذاكر لا يجد الهدوء اللازم ، ومن يتعبد تخرجه الضوضاء من جوّ العبادة ، ونجد من يصف ذلك بأنه نقلة حضارية !!

ونقول : لتأخذ كل نعمة من نعم الله على قدر معطياتها فى الوجود النافع لك ، وحين يأتى الليل عليك أن تطفىء المصباح حتى تهجع ولاتتشاغب فيك جزئياتك وتكوينك .

وسبحانه يقول : « فالق الإصباح » . و« فالق » ـ كما قلنا ـ تعنى شاقق ، فهل الإصباح ينفلق ؟ . وبماذا ؟. ونقول : إن « فالق » هى اسم فاعل ، مثلما نقول : « قاتل الضربة » أى أن الضربة من يده قاتلة .

و« فالق الإصباح » معناها أن الصباح ينفلق عن الظلمة ؛ لأن الظلمة متراكمة وحين يأتى الإصباح فكأنه فلق الظلمة وشقها ليخرج النور ، وتعنى « فالق الإصباح » أيضاً أن الفلق واقع على الإصباح فيأتى من بعده الظلام ، وهذه من دقة الأداء البيانى فى القرآن ؛ لأن الذى يتكلم إله .

وامرؤ القيس قال :

ألا أيها الليل الطويل ألا انجلى

بصبحٍ وما الإصباح منك بأمثل

والصبح والإصباح معناهما واحد .

هل الصبح من طلوع الشمس ؟ أو الصبح من ظهور الضوء قبل أن تشرق الشمس ؟ يأتى الإصباح أولاً وهو النور الهادىء ، ونجد أطباء العيون بعد إجراء جراحة ما لإنسان فى عينيه يقومون بفك الأربطة التى

تساعد الجرح على الالتئام ، يفكـونها بالتدريج حتى لا يخطف الضوء البصر فـوراً ، ومـن رحمة الله أن خلق فترة الصبح بضـوئهـا الهادىء قبل أن تطلع الشمس بضـوئها كلـه دفعة واحـدة . فكأن الصبح جاء ليفلق ظلمـة الليل فلقاً هادئاً ، ثم جاءت الشمس ففلقت الصبح .

إذن الإصبـاح فالق مـرة لأنه شقّ الظلمـة وفلقها، ومفلـوق مرة أخـرى ؛ لأن الظلمـة جـاءت بعده . إذن فـاسم الفـاعل قـد أدى مهمتين.. المهمـة الأولى : فـالق الإصبـاح . أي دخل بضـوء الشمس . وإن قلنا : إصبـاحـه فالق ، أى ظلمـة الليل الأولى انفلقت . إذن فالإصباح فالق مـرة ، ومفلوق مـرة أخرى. وسبحـانه حين يقـول : « فـالق الإصباح وجعل الليل سكنـاً » يريد أن يعطى شقين اثنين ؛ لأنه هو فى ذاته فالق الإصباح . فيأتى بالاسم ليعطى لها صفـة الثبـوت ، ثم جـاء بــ « وجعل الليـل سكنـاً » صفـة الحدوث بعـد وجـود المتعلّق . فإذا أراد الصفـة الـلازمة لـه قبل أن يـوجـد المتعلّق يأتى بالاسم . وإن أراد الصفة بعد أن وجد المتعلّق يأتى بالفعل .

ولذلك نجد القرآن الكريم يصور الثبات فى قوله الحق :

﴿ وَكَلْبُهُم بَـٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ ﴾

(من الآية ١٨ سورة الكهف)

الكلب هنا على هـذه الصورة الثـابتة ، وحين يريـد القرآن أن يأتى بـالصفة التى تتغير ، يأتى بالفعل :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ﴾

(من الآية ٦٣ سورة الحج)

وكان القيـاس أن يقول : فأصبحـت الأرض مخضرة ؛ لأنه قـال : «أنزل» لكنه يأتى بالتجدد الذى يحدث « فتصبح الأرض مخضرة » .

ويتـابـع الحق : « والشمس والقمـر حسبـانـا » ونحن نعـرف الشمس والقمـر وجاء بعـد ذلك بكلمـة « حسبانـا » ، على وزن فُعْـلان ، وهذا مـا

يدل عادة على المبالغة مثلما تقول : فلان والعياذ بالله كفر كفرانا . ومثلما تدعو : غفر الله لك غفرانا . فحين تحب أن تبالغ تأتى بصيغة فُعْلان . وجاء القرآن بكلمة « حسبان » فى موضعين اثنين فيها يتصل بالشمس والقمر جاء بها هنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها « والشمس والقمر حسبانا » ، وفى سورة الرحمن يقول الحق سبحانه :

﴿ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝٥ ﴾

(سورة الرحمن)

وما الفرق بين التعبيرين ؟ «حسبان» هنا تعنى أن تحسب الأشياء ، فنحن نحسب السنة بدورة الشمس بـ ٣٦٥ يوم وربع اليوم ، وهى تمر بالبروج فيها خلال هذه المدة ، والقمر يبدأ بروجه كل شهر فى ثمانية وعشرين يوماً وبعض اليوم ، ونحن نحسب بالشمس اليوم ، ونحسب بها العام ، ولكنا نحسب الشهر بالقمر ، وأنت لاتقدر أن تحسب الشهر بالشمس ، بل تحسب الشهر بالقمر لأنه يظهر صغيراً ثم يكبر ويكبر ويكبر . ولذلك يثبت رمضان عندنا بالقمر لا بالشمس . واليوم نثبته بالشمس .

وهكذا عرفنا أن الشمس والقمر يقومان ويعملان فى حسابنا للأيام والشهور ، والاثنان حسبان : الشمس لها حساب ، والقمر له حساب وإذا ما نظرت إلى كلمة «حسبان» تفهم أن الشمس والقمر ، كليهما مخلوق ليحسب به شىء آخر ؛ لأنهما خلقتا بحسبان ، أى أنهما قد أريد بهما الحساب الدقيق ، لأن الشمس مخلوقة بحساب ، وكذلك القمر .

وتعال إلى الساعة التى نستعملها ، ألا يوجد بها عقرب للساعات ، وآخر للدقائق ، وثالث للثوانى ؟. وهذا أقل ماقدرنا عليه ، وإن كان من الممكن أننا نقسم الثانية إلى أجزاء مثلما عملنا فى المساحات ؛ فهناك المتر ، والسنتيمتر ، والملليمتر ، ثم بعد ذلك قلنا الميكروملليمتر . إذن ، كلما نرتقى فى التقدم العلمى نحسب الحساب الأدق . ولم تكن الشمس والقمر حساباً لنا نحسب بهما الأشياء إلا إذا كانت مخلوقة بحساب .

إنك حين تنظر إلى ساعتك تدرك قفزة عقرب الثوانى ولكنك لا تدرك

حركة عقرب الدقائق ، وكذلك لا تـدرك حركة عقرب الساعات ، وكل من العقارب الثلاثة يـدور «بزمبلك» وترس معين . إن اختلت الحركة فى زمبلك أو تـرس ، ينعكس هـذا الخلل على بقية العقـارب ، والثـانيـة محسوبـة على الدقيقة ، والدقيقة محسوبة على الساعة .

وهكذا فإن لم تكن الساعة مصنـوعة بهذا الحساب الدقيق فهي لن تعمل جيـداً . وهكذا لا نعتبر السـاعـة معيـارا لحساب أزمـانـنـا إلا لأنها فى ذاتها خلقت بحساب . والحق سبحـانه يقول : « الشمس والقمـر بحسبان » أى لنحسب بهما لأنهما مخلـوقتـان بحسبـــان . أى بحســاب دقيق ، ولماذا لم يقل الحق حساباً وجاء بحسبان هنـا ، وحسبان فى آية سورة الرحمن ؟. ذلك لأن الأمر يقتضى مبالغة فى الدقة ، فهذا ليس مجرد حساب ، لكنه حسبان .

ويذيل الحق الآية بقوله : «ذلك تقديـر العزيز العليم» ، وكلمة «العزيز» تفيـد الغلبة والقهـر فـلا يستطيع أحد أن يعلـو عليـه ؛ فهذه الأجـرام التى تراهـا أقوى منك ولا تتـداولها يدك ، إنّها تـؤدى لك مهمة بـدون أن تقرب منها ؛ فأنـت لا تقترب من الشمس لتضبطها ، مثلما تفعل فى السـاعة التى اخترعها إنسان مثلـك ، والشمس لها قوة قد أمدها الله خـالقها بها ولاشيء فى صنعته ولا فى خلقـه يتأبّى عليه . فهذا هـو تقدير العزيـز العليم ، وهو سبحانـه يعطينا حيثيـات الثقة فى كونها حسبـانا لنحسب عليهـا . فهو جل وعلا خالقها بتقـدير عزيز لايغلب ، وهو عزيـز يعلم علما مطلقا لانهاية له ولا حدود . ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾

وبعـد أن أوضح سبحانـه أنه قـد خلق الشمس والقمـر بحسبان لتكـون حساباً بتقـدير منه ، وهو العزيـز العليم ، إنه ـ سبحانه ــ يصف لنا مهمة النجـوم فقــال : « لتهتـدوا بها فى ظلمات البر والبحـر » ، والنجـوم هى

الأجرام اللامعة التى نراها فى السماء لنهتدى بها فى ظلمات البر والبحر ؛ ومن رحمته بنا وعلمه أن بعض خلقه ستضطرهم حركة الحياة إلى الضرب فى الأرض ؛ والسير ليلاً فى الأرض أو البحر مثل من يحرسون ويشيعون الأمن فى الدنيا ولايمكن أن يناموا بالليل . بل لابد أن يسهروا لحراستنا ، كل ذلك أراده الله بتقدير عزيز حكيم عليم ، ولذلك ترك لنا النجوم ليهتدى بها هؤلاء الذين يسهرون أو يضربون فى الأرض أو يمشون فى البحر بسفنهم ، وهم يحتاجون إلى ضوء قليل ليهديهم ، ولذلك كان العرب يهتدون بالنجوم ؛ يقول الواحد منهم للآخر : اجعل النجم الفلانى أمام عينيك ، وسر فوق الحى الفلانى . واجعل النجم الفلانى عن يسارك وامش تجد كذا ،أو اجعل النجم الفلانى خلفك وامش تجد كذا .

إذن لو طمّت الظلمة لمَنعت الحركة بالليل ، وهى حركة قد يضطر إليها الكائن الحى ، فجعل الحق النجوم هداية لمن تجبرهم الحياة على الحركة فى الليل .

وعلى ذلك فالنجوم ليست فقط للاهتداء بها فى ظلمات البر والبحر ؛ لأنه لوكان القصد منها أن نهتدى بها فى ظلمات البر والبحر ، لكانت كلها متساوية فى الأحجام ، لكننا نرى نجماً كبيراً ، وآخر صغيراً ، وقد يكون النجم الصغير أكبر فى الواقع من النجم الكبير لكنه يبعد عنا بمسافة أكبر، وعلى ذلك لا تقتصر الحكمة من النجوم على الهداية بها فى حركة الإنسان براً وبحراً ، فليست هذه هى كل الحكمة ، هذه هى الحكمة التى يدركها العقل الفطرى أولا ؛ لذلك يأتى الحق فى أمر النجوم بقول كريم آخر ليوضح لنا ألا تحصر الحكمة فى الهداية بها ليلا براً وبحراً فيقول : «وعلامات وبالنجم هم يهتدون» فلم يقل ـ سبحانه ـ يهتدون فى ظلمات البر والبحر . إذن ـ النجوم ـ لها مهمة أخرى ، إنه جلت قدرته يقول :

﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ ﴾

(سورة الواقعة)

وكل يوم يتقدم العلم يبين لنا الحق أشياء كثيرة ، فها هو ذا المذنب الذى يقولون عنه الكثير ، وها هى ذى نجوم جديدة تكتشف تأكيداً لقول الحق :

﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ۝٤٧ ﴾

(سورة الذاريات)

أى أنه سبحانه قد خلق عالماً كبيراً . وأنت أيها الإنسان قد أخذت منه على قدر إدراكاتك وامتداداتك فى النظر الطبيعى الذى لا تستخدم فيه آلة إبصار ، وأخذت منه بالنظر المعان الذى تستخدم فيه التليسكوب والميكروسكوب ، وغير ذلك من اقمار صناعية . ولذلك يقول الحق سبحانه : « فلا أقسم بمواقع النجوم وأنه لقسم لوتعلمون عظيم » وبعض العلماء يقول : إن كل إنسان يوجد فى الوجود له نجم ، وترتبط حياته بهذا النجم ، وحين يأفل النجم يأفل قرينه على الأرض ، وهناك نجوم لامعة ندرك خفقانها ، ونجوم أخرى غير لامعة وبعيدة عنا ، ويقال إنها تخص أناساً لايدرى بهم أحد لقلة تأثيرهم بأعمالهم فى الحياة . ويتقدم العلم كل يوم ويربط لنا أشياء بأشياء وكأن الحق يوضح : إننى خلقت لكم الأشياء مِمّا قَدَرْتم بعقولكم أن تصلوا إلى شىء من الحكمة فيها ، ولكن لا تقولوا هذه منتهى الحكمة ، بل وراءها حِكَم أعلى ، فسبحانه هو الحكيم القادر ، إنك قد تدرك جانبا يسيرا من حكم الله ، ولكن عليك أن تعلم أن كمال الله غير متناهٍ ، ولايزال فى ملك الله ما لا نستطيع إدراك حكمته إلى أن ينهى الله الأرض ومن عليها .

ويقول الحق سبحانه فى تذييل الآية : «قد فصّلنا الآيات لقوم يعلمون » والآية هى الشىء العجيب ، وتطلق على آيات كونية :

﴿ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيۡلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ ﴾

(من الآية ٣٧ سورة فصلت)

وتطلق كلمة «آية» على الطائفة من القرآن التى لها فاصلة . إذن هناك آيات قرآنية ، وآيات كونية ، والآيات الكونية تعتبر مفسرة للآيات القرآنية؛ فتفصيل الآيات فى الكون مانراه من تعددها أشكالاً وألواناً وحكماً وغايات. وتفصيل الآيات فى القرآن هو ماينبهنا إليه الحق فى قرآنه وليلفت النظر إلى أن ذلك التفصيل فى آيات الكون وذلك الخلق العجيب الحكيم

الذى لايمكن أن يكون إلا لإله قادر حكيم يستحق أن يكون إلهاً موحّدا ، ويستحق أن يكون إلها معبوداً ،

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ ﴾

وقد تكلم سبحانه لنا - أولاً - عن الآيات المحيطة بنا والتى بها قوام حياتنا من فلق الحب والنوى ، وبعد ذلك تكلم عن الشمس والقمر ، ثم تكلم عن النجوم ، كل هذه آيات حولنا ، ثم يتكلم عن شىء فى ذواتنا ليكون الدليل أقوى ، إنه - سبحانه - يأتى لك بالدليل فى ذاتك وفى نفسك ؛ لأنّ هذا الدليل لايحتاج منك إلى أن تمد عينيك إلى ماحولك ، بل الدليل فى ذاتك ونفسك ، يقول سبحانه :

﴿ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾

(سورة الذاريات)

أى يكفى أن تجعل من نفسك عَالَماً ، هذا العالم موجود فيه كل ما يثبت قدرة الحق ، وأحقيته بأن يكون إلهاً واحداً ، وإلهاً معبوداً .

« وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة » ينطبق على هذا القول أنه إخبار من الله ، وأنه - أيضا - استقراء فى الوجود ، الذى نسميه التنازل للماضى ؛ لأنك لو نظرت إلى عدد العالَم فى هذا القرن ، ثم نظرت إلى عدد العالم فى القرن الذى مضى تجده نصف هذا العدد ، وإذا نظرت إليه فى القرن الذى قبله ، تجده ربع تعداد السكان الحاليين . وكلما توغلت فى الزمن الماضى وتذهب فيه وتبعد ، يقل العدد ويتناهى إلى أن نصل إلى «نفس واحدة» ، وهذا ماذكره الله لنا ، ولقائل أن يقول : كيف تكون نفساً واحدة وهو القائل :

﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ ﴾

(سورة الذاريات)

ونقول: إن الحق سبحانه وتعالى خلق النفس الواحدة ، وأوضح أيضاً أنه خلق من النفس الواحدة زوجها ، ثم بدأ التكاثر . إذن فالاستقراء الإحصائي في الزمن الماضي يدل على صدق القضية . وكذلك كل شيء متكاثر في الوجود من نبات ومن حيوان . تجدها تواصل التكاثر وإن رجعت بالإحصاء إلى الماضي تجد أن الأعداد تقل وتقل إلى أن تنتهي إلى أصل منه التكاثر إنّه يحتاج إلى اثنين :

﴿ سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا ﴾

(من الآية ٣٦ سورة يس)

ولماذاجاء الحق هنا بقوله : «من نفس واحدة » ولم يقل زوجين ؟ أوضح العلماء أن ذلك دليل على الالتحام الشديد ؛ لأننا حين نكون من نفس واحدة فكلنا ــ كل الخلق ـ فيها أبعاض من النفس الواحدة ، وقلنا من قبل : إننا لو أتينا بسنتيمتر مكعب من مادة ملونة حمراء مثلاً ثم وضعناها في قارورة ، ثم رججنا القارورة نجد أن السنتيمتر المكعب من المادة الحمراء قد ساح في القارورة وصار في كل قطرة من القارورة جزء من المادة الملونة ، وهب أننا أخذنا القارورة ووضعناها في برميل ، ثم رججنا البرميل جيداً سنجد أيضاً أن في كل قطرة من البرميل جزءاً من المادة الملونة ، فإذا أخذنا البرميل ورميناه في البحر فستنساب المادة الملونة ليصير في كل قطرة من البحر ذرة متناهية من المادة الملونة .

إذن مادام آدم هو الأصل ، ومادمنا ناشئين من آدم ، ومادام الحق قد أخذ حواء من آدم الحي فصارت حية ، إذن فحياتها موصولة بآدم وفيها من آدم ، وخرج من آدم وحواء أولاد فيهم جزء حي ، وبذلك يردنا الحق سبحانه إلى أصل واحد ؛ ليثير ويحرك فينا أصول التراحم والتواد ، والتعاطف .

ويقول سبحانه : « فمستقر ومستودع » والمستقر له معان متعددة

يشرحها الحق سبحانه وتعالى فى قرآنه . وفى قصة عرش بلقيس نجد سيدنا سليمان يقول :

﴿ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا ﴾

(من الآية ٣٨ سورة النمل)

وأجاب على سيدنا سليمان عفريت من الجن وكذلك أجاب من عنده علم من الكتاب . ويقول الحق سبحانه :

﴿ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ ﴾

(من الآية ٤٠ سورة النمل)

مستقر هنا إذن تعنى حاضراً ؛ لأن العرش لم يكن موجوداً بالمجلس ، بل أحضر إليه . وفى مسألة الرؤية التى شاءها الحق لسيدنا موسى عليه السلام :

﴿ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِي ﴾

(من الآية ١٤٣ سورة الأعراف)

ونعلم أن الجبل كان له استقرار قبل الكلام ، إذن فـ «استقر» تأتى بمعنى حضر ، وتأتى مرة أخرى بمعنى ثبت .

والحق يقول :

﴿ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾

(من الآية٢٤ سورة الأعراف)

وذلك بلاغ عن مدة وجودنا فى الدنيا ، وكذلك يقول الحق :

﴿ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا ﴾

(من الآية٢٤ سورة الفرقان)

إذن فالجنة أيضاً مستقر ، وكذلك النار مستقر للكافرين ، يقول عنها الحق :

﴿ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ ﴾

(سورة الفرقان)

إذن فمستقر تأتى بمعنى حاضر ، أو ثابت ، أو كتعبير عن مدّة وزمن الحياة فى الدنيا ، والجنة أيضاً مستقر ، وكذلك النار . ولذلك اختلف العلماء ونظر كل واحد منهم إلى معنى ، منهم من يقول : «مستقر » فى الأصلاب ثم استودعنا الحق فى الأرحام . ومنهم من رأى أن «مستقر » مقصود به البقاء فى الدنيا ثم نستودع فى القبور .

ونقول : إن الاستقرار أساسه « قرار » حضور أو ثبات ، وكل شىء بحسبه ، وفيه استقرار يتلوه استقرار إلى أن يوجد الاستقرار الأخير ، وهو مايطمع فيه المؤمنون .

وهذا هو الاستقرار الذى ليس من بعده حركة ، أما الاستقرار الأول فى الحياة فقد يكون فيه تغير من حال إلى حال ، لقد كنا مستقرين فى الأصلاب ، ثم بعد ذلك استودعنا الحق فى الأرحام ، وكنا مستقرين فى الدنيا ثم استودعنا . فى القبور . حتى نستقر فى الآخرة . إن كل عالم من العلماء أخذ معنى من هذه المعانى . والشاعر يقول :

وما المال والأهلون إلا ودائع

ولابد يوماً أن ترد الودائع

ونلحظ أن هناك كلمة « مُسْتَقَرّ » وكلمة « مستودع » ، و« مستودع » هو شىء أوقع غيره عليه أن يودع . لكن « مُسْتَقَرّ » دليل على أن المسألة ليست خاضعة لإرادة الإنسان . فكل واحد منا «مُسْتَقَرّ » به .

ويقول الحق : «قد فصّلنا الآيات لقوم يفقهون » والتفصيل يعنى أنه جاء بالآيات مرة مفصلة ومرة مجملة ؛ لأن الأفهام مختلفة ، وظروف الاستقبال للمعانى مختلفة ، فتفصيل الآيات أريد به أن يصادف كل

تفصيل حالة من حالات النفس البشرية ؛ لذلك لم يترك الحق لأحد مجالاً فى ألّا يفقه ، ولم يترك لأحد مجالاً فى ألاّ يتعلم ، ونلحظ أن تذييل الآيتين المتتابعتين مختلف ؛ فهناك يقول سبحانه :

﴿ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾

(من الآية ٩٧ سورة الأنعام)

وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴾

(من الآية ٩٨ سورة الأنعام)

و« الفقه » هو أن تفهم ، أى أن يكون عندك ملكة فهم تفهم بها مايقال لك علماً ، فالفهم أول مرحلة والعلم مرحلة تالية .

وأراد الحق بالتفصيل الأول فى قوله : « لقوم يعلمون » الدعوة للنظر فى آيات خارجة عن ذات الإنسان ، وهنا أى فى قوله سبحانه : «لقوم يفقهون» لفت للنظر والتدبر فى آيات داخلة فى ذات الإنسان .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى

﴿ذَٰلِكُمْ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٩٩﴾

كان السياق يقتضي أن يقول سبحانه : أنزل من السماء ماء « فأخرج » لكنه هنا قال : «فأخرجنا » ؛ لأن كل شيء لايوجد لله فيه شبهة شريك ؛ فهو من عمله فقط ، ولا يقولن أحد إنه أنزل المطر وأخرج النبات لأن الأرض أرض الله المخلوقة له ، والبذور خلقها الله ، والإنسان يفكر بعقل خلقه الله وبالطاقة المخلوقة له . وأنت حين تنسب الحاجات كلها إلى صانعها الأول ، فهو إذن الذى فعل ، لكنه احترم تعبك ، وهو يوضح لك: حين قال : « فأخرجنا » أى أنا وأسبابى التى منحتها لك ، أنا خلقت الأسباب ، والأسباب عملت معك . فإذا نظرت إلى مسبب الأسباب فهو الفاعل لكل شيء . وإن نظرت إلى ظاهرية التجمع والحركة فالأسباب التى باشرها الإنسان موجودة ؛ لذلك يقول : «فأخرجنا »

وسبحانه جل وعلا قد يتكلم فى بعض المواقف فيثبت للإنسان عملا لأنه قام به بأسباب الله الممنوحة له ، ولكنه ينفى عنه عملا آخر ليس له فيه دخل بأى صورة من الصور ؛ مثل قوله الحق :

﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ۝٦٣ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ۝٦٤﴾

(سورة الواقعة)

سبحانه هنا ينسب لنا الحرث لأننا قمنا به ولكن بأسباب منه ـ سبحانه ـ فهو الذى أنزل لنا الحديد الذى صنعنا منه المحراث وهدانا إلى تشكيله بعد أن ألانه لنا بالنار التى خلقها لنا ، وبالطاقة التى أعطانا إياها، أما الزراعة فليس لأحد منا فيها عمل ولذلك يقول سبحانه :

﴿لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا﴾

(من الآية ٦٥ سورة الواقعة)

هنا ــ سبحانه ــ أتى باللام فى قوله تعالى : (لجعلناه) للتأكيد ؛ لأن الإنسان له فى هذا الأمر عمل ، إنه حرث وتعهد مازرعه بالرىّ والكد

حتى نما وأثمر ، لكن قد تصيبه آفة تقضى عليه ، فالأسباب وإن كانت قد عملت إلاأنها لاتضمن الانتفاع بثمرة الزرع ، ذلك لأن الأسباب لا تتمرد ، ولاتتأبى على الله ولاتخرج عليه ، إنها تؤدى مايريده منها الله ، وقد يعطلها سبحانه . أما فى قوله تعالى : « أفرأيتم الماء الذى تشربون أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون لونشاء جعلناه أجاجا » ، إنه سبحانه لم يقل لجعلناه ، لأنه ليس لأحد فيه عمل لذلك لم يؤكده باللام .

ويقول سبحانه :

﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَـٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَـٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾

(سورة الواقعة)

إن كل شىء يذكره الحق يذكر معه أيضاً ما ينقضه ، ذلك حتى لايُفْتَن الإنسان بوجود الأشياء ، وعليه أن يستقبل الأشياء مع إمكان إعدامها . وإذا ما كان الإنسان هو الذى يحرث فالحق بطلاقة قدرته قد يجعل النبات حطاماً ، ومن قبل قال عن مقومات الحياة :

﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَـٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾

(سورة الواقعة)

ثم جاء سبحانه بما ينقضه فقال : « **نحن قدرنا بينكم الموت** » . أما عن النار فلم يقل - سبحانه - إنه يقضى عليها ويخمدها ويطفئها ، إنه - جل شأنه - أبقاها ليعلمنا ويذكرنا بنار الآخرة «نحن جعلناها تذكرة » أى لابد أن نتركها أمامكم حتى لا يغيب عنكم العذاب الأخروى » ومتاعا للمقوين » أى ونتركها - دون نقض لها وذلك لأمر آخر هو المنفعة فى الدنيا للذين ينزلون أماكن خالية قفراء أو للذين خلت بطونهم وأوعيتهم ومزاودهم من الطعام لأن النار تنفعهم وتساعدهم على إعداد طعامهم استبقاء لحياتهم :

﴿ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ ﴾

(من الآية ٩٩ سورة الأنعام)

والشيء هو ما يُخْبَر عنه ؛ الهباءة شيء ، والذرة شيء وكل حاجة اسمها شيء ، ومعنى نبات كل شيء : أن كل حاجة مثل النبات تماماً . رأينا الحجارة التي يقول عنها العلماء هذه جرانيت ، وتلك رخام وتلك مرمر ، ولو نظرت إلى أصلها وجدتها أعماراً للحجارة ، طال عمر حجر ما فصارا فحماً ، وطال عمر آخر فصار جرانيتاً ، وهكذا . وكل حاجة لها حياة لتثبت لنا القضية الأولى ، وهي :

﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾

(من الآية ٨٨ سورة القصص)

أو نبات كل شيء ترون فيه نمواً وحياة ، والعقل الفطرى يأخذها هكذا، لكن العقل المستوعب يأخذ منها قضايا كثيرة ، ويتغلغل فى الكون ويجد الآية سابحة معه وهو سابح معها .

ويتابع سبحانه : « فأخرجنا منه خضراً نخرج منه حبّاً متراكباً » وإذا قلت كلمة « خَضِر » فقد تعنى اللون المعروف لنا وهو الأخضر ، لكن «خضر» فيها وصف زائد قليلاً عن أخضر ؛ لأن «أخضر» يخبر عن لون فقط ، واللون متعلقه العين ، لكن « خضر » يعطى اللون ، ويعطى الغضاضة ونعرفها «بالجس» . وحين تلمسه تجد النعومة .

إذن «خضر» فيها أشياء كثيرة ؛ «لون» متعلق العين ، «وغضاضة» نعرفها بالجس وفيها نعومة نعرفها باللمس . وهذا اللون الأخضر يكون داكناً جداً أى أن خضرته شديدة حتى إنها تضرب إلى السواد ؛ لذلك نسمع من يقول : «سواد العراق» أى الأرض الخصبة التى فى العراق ، ويسمونها سواد العراق لأنها خضراء خضرة شديدة ولذلك تكون مائلة إلى السواد ، ويقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾ ﴾

(سورة الرحمن)

و «مدهامة» أى مثل دهمة الليل ؛ كأنها من شدة خضرتها صارت كدهمة الليل . ويتابع الحق «خضراً نخرج منه حبّاً متراكباً» والحب هو

ماليس لـه نواة مثل حبة الشعير وحبـة القمح وحبة العدس وحبة اللـوبيا . و«متراكبا» تعنى أنه حب مرصوص متساند .

« ومن النخل من طلعها قنـوان دانية» والنخل عنـد العـرب لـه مكانـة عـالية لأنـه يعطى لهم الغذاء الـدائم فيذكـرهم به «ومن النخل من طلعهـا قنوان دانية» .

و «الطلع» هو أول شيء يبدو من ثمر النخل ، وهو مانسميه فى الريف «الكـوز الأخضر» وهو فى الـذكر من النخل الـذى يسمى «الفحل» ويوجـد أيضـاً فى الأنثى ، وأول مـايبـدو من ثمـر النخـل يسمى الطلع ، ثم ينشق الطلع ويخرج منه القنـو أو العزق أو العرجـون ، وهو الجزء الذى توجـد فيه الشماريخ التى يتعلق بها البلح .

والطلع إذن هـو الثمرة الأولى للنخلـة قبل أن تنشق ويطلع منها القنـوان وهو «السباطة» كما نسميها فى الريف .

«قنوان دانية» ويصفهـا الحق بأنها دانية لأنك حين تنظر طلع النخل أول ما يطلع تجده ينشق ويحمى نفسه بشـوك الجريد حتى لا تأكله الحشرات ثم يثقل وينحنى ويكاد ينـزل على الأرض فيكون دانياً قريبا ، فإن كـانت هناك «سباطة» شاذة تجد من يجنيها يُدخل يده بين الشوك ليصل إليها . وسبحانه يترك لنا فلتـات لنعرف نعمـة الله فى أنه جعلها تتـدلى لأنها لو كـانت كلها دانية . قـد لا يلتفت إليها ، لذلك يترك واحدة بين الشـوك ليتعب الإنسان حتى يحصل عليها لتعـرف أنه سبحانـه قد دنّى لك الباقى وهـذه نعمة من الله .

ويُطلق الطلع مـرة على الأكمام و «الكِم» هو مـا تـوجد فى قلبـه الثمار ، ومرة يطلق على الثمر نفسه :

﴿ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ ﴾

(سورة ق)

وأنت تـرى البلح نـازلاً من «الشماريخ» ، وكـل شمـروخ بـه عـدد من

البلح، ثم ترى «الشمروخ» متصلاً بالأم ، وفى ذلك ترى عظمة الهندسة العجيبة فى ترتيب الثمار . وكل شيء محسوب فى هذا الأمر بهندسة عجيبة وعندما ننظر إلى ما تعلمناه فى حياتنا حين نصمم شبكة توصيل المياه وشبكة الصرف الصحى ، إنّ شبكة المياه التى تعطينا الماء الذى نستخدمه ، وشبكة الصرف الصحى التى تأخذ الزائد من المياه والفضلات . عندما تنظر إلى هذه الشبكة أو تلك تجد هندسة كل منها دقيقة ؛ لأن أى غفلة فى التصميم تسبب المتاعب . فحين تريد توصيل المياه إلى حارة ؛ فأنت تستخدم ماسورة قطرها كذا بوصة ، وفى الحارة هناك عطفات فتحضر لكل عطفة ماسورة أقل قطراً من الأولى ، ثم ماسورة أقل للبيوت ، وماسورة أقل بكثير لكل شقة ، لقد قام المهندسون بحساب دقيق لهذه المسائل .

فإذا كانت هذه هى هندسة البشر ، فما بالنا بهندسة الخالق ؟ أنت تجد العزق : وهو حامل الرطب يأخذ من النخلة ، وكل نخلة فيها كذا «سباطة» وفى كل «سباطة» هناك «الشماريخ» ، ثم هناك البلح وكل بلحة تأخذ شعرة لغذائها . وهكذا نجد كل شيء محسوباً بدقة بالغة . إنها هندسة كونية عجيبة مصنوعة بقول الحق : كن ، وصدق الله القائل :

﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝ ﴾

(سورة الأعلى)

« وهو الذى أنزل من السماء ماء » وكلمة «وهو الذى أنزل من السماء ماء» لم نكن نعرف ماوراءها ، كنا نعرف فقط أن السماء هى كل ما علاك فأظلك ، والماء يأتى من السحاب ، وكلنا نرى السماء تمطر . وكلنا نعرف التعبير الفطرى الذى يقول : غامت السماء ، ثم أمطرت ، وهناك من قال: تضحك الأرض من بكاء السماء لأنها تستقبل الماء الذى يروى مابها من بذور . لكن ماوراء عملية الإنزال هذه ؟

إن هناك عملية أخرى تحدث فى الكون دون شعور منا ، عرفناها فقط حين تقدم العلم وحين قمنا بتقطير المياه ، فأحضرنا موقداً ووضعنافوقه قارورة ماء ، وحين وصل إلى نقطة الغليان خرج البخار ، وسار البخار فى

الأنابيب ومرت الأنابيب فى أوساط باردة فتكثفت المياه ونزلت ماء مقطراً ، ومثل ذلك يحدث فى المطر ، وانظر كم يكلفنا كوب واحد من الماء المقطر الذى نشتريه من الصيدلية ؟ وقارن ذلك بالسماء التى تنزل بماء منهمر ، ولا ندرى كيف صُنع . ولذلك يقول الحق :

﴿ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾

(سورة الواقعة)

هكذا ينزل الماء من السماء ، ولم نكن نعرف كيف يحدث ذلك وسبحانه يقول هنا :

﴿ وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ﴾

(من الآية ٩٩ سورة الأنعام)

وحين يقول سبحانه «مشتبها وغير متشابه» نصدق ، مثال حبة الخوخ ، هناك حبة من نوع نسميه «الخوخ السلطانى» ، حين تمسك بالثمرة الواحدة تنفلق لتخرج البذرة نظيفة ، وحبة أخرى نفلقها نحن فتجد البذرة فيها بعض لحم الفاكهة ونجد فيها أيضا بعضاً من الألياف . وهذه لها لون والأخرى لها لون ، هذه لها طعم وتلك لها طعم مختلف .

﴿ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ﴾

(من الآية ٤ سورة الرعد)

هذا ليعرف الإنسان أن طلاقة القدرة تحقق ما يريده الخالق ، وبعد ذلك تلتفت فتجد الفصائل ، فهذا برتقال منه بسرّة ، ومنه برتقال بلدى . وبرتقال بدمّه ثم اليوسفى . ولذلك سنجد فى الجنة مايحدثنا عنه سبحانه فيقول :

﴿ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ﴾

(من الآية ٢٥ سورة البقرة)

وحين يأكل منه ساكن الجنة يكتشف أن لفاكهة الجنة طعما مختلفا . ومن طلاقة القدرة أنه بعد التحليلات التى قام بها العلماء المعمليون ـ جزاهم الله عنا خيراً ـ لـ «حبة العنب» وجدو أن القشرة التى تغلفها لها طبيعة «البارد» و«اليابس» ، واللحم لحبة العنب طبيعته مختلفة «حار رطب» ثم البذرة «بارد يابس» ، وهذه ثلاث طبائع فى الحبة الواحدة ، وهذا شىء عجيب التكوين . وكذلك «الأترجة» وهى فاكة كالنارنج تجد القشرة «حارة يابسة» ، واللحم فيها «بارد رطب» ، والسائل الذى فى اللحم «بارد يابس» والبذرة «حار يابس» ، طبائع أربعة فى الشىء الواحد ، كيف ؟ وبأية قدرة؟

إن العلماء قد تعبوا حتى عرفوا تكوينها ليظهروا لنا المسالة ، وتلتفت لتجد ثمرة تأكل ظاهرها ، وباطنها بذرة ، وثمرة ثانية تأكل ما فى داخلها كالجوز أو اللوز ، وتقشر القشرة وتلقيها ، والخوخة تأكل لحمها وتترك بذرتها ، وذلك لتعرف أن المسألة ليست آلية خلق بل إبداع خالق . وتجد الشىء له اللون ، واللون بلا طعم ، ثم الرائحة المميزة وكل ذلك دليل على طلاقة القدرة . وهذا هو السبب فى أن الحق سبحانه وتعالى حينها يتكلم عن ثمار الجنة يأتى بثمار مثلها فى الدنيا ؛ لأنه لو أحضر ثماراً ليس لها مثيل فى الدنيا لقال الإنسان : هذه طبيعة الثمار ، ولو وجدت فى الدنيا لكان لها طعم مماثل . لكن هاهى ذى تتشابه ، وطعومها مختلفة .. إنها طلاقة القدرة .

ويقول الحق : « انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه » الحق سبحانه وتعالى لايعطى الإنسان حتى يملأ بطنه فحسب لا ،ولكنه يغذى كل الملكات فى النفس الإنسانية حتى ملكات الترف ، وملكات الجمال ، وملكات الحسن ، فيوضح لك قبل أن تأكل : انظر للثمر وشكله ! لتغذى عينيك بالمنظر الجميل حين ترى الثمرة طالعة وتتبعها حتى تنضج ، إنّها مراحل عجيبة تدل على أن الصانع قيّوم ، وكل يوم لها شكل مختلف وحجم مختلف ، وإن أكلتها اليوم فستجد طعمها يختلف عما إذا أكلتها بعد ذلك بيوم ، وهذا دليل على أن خالقها قيّوم عليها . مادامت كل لحظة من اللحظات فيها شكل ، وفيها لون وفيها طعم وفيها رائحة جديدة .

«انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه»، و «ينعه» أى وصلت إلى النضج وذلك إشاعة للتمتع بنعم الكون لأن النظر إلى الثمر لايعنى أننى أملكه ، فقد أراه فى حقل جارى وأنظر له وأتمتع بشكله . إذن فالحق سبحانه وتعالى يريد أن يشيع الانتفاع بنعم الله حتى عند غير واجدها ، لأن أحداً لن يمنعنى من أن أنظر ، فأنبسط ، فمن ناحية الكمال الإنسانى هناك غذاء لملكات النفس ؛ لأن النفس ليست ملكات جوع وعطش فقط بل هى ملكات متعددة ، وكل ملكة لها غذاؤها . ولذلك فقبل أن يقول لى : إن الخيل والبغال تحمل الأثقال .. قال سبحانه :

﴿ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝ ﴾

(سورة النحل)

إذن فهو يعطينى فائدة حمل الأثقال ؛ لأن حمل الأثقال لمن يملكها ، إنما الذى لايملكها فهو يرى الحصان يسير بجمال ، فيسعد برؤيته فيتمتع بما لا يملك ، هذه إشاعة لنعم الله على خلق الله .

ويذيل الحق الآية الكريمة بقوله : « إن فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون »

أى يؤمنون بأن الإله الذى آمنوا به يستحق بصفات الجلال والجمال فيه أن يُؤمَن به ، وكلما رأى الإنسان خلقاً جميلاً قال : الله ، إذن أنا إيمانى صحيح والآيات تؤكد صدق إيمانى بالإله الذى خلق كل هذا ، وكل يوم تبدو لى حاجة عجيبة تزيدنى إيماناً ، وعقلى الذى وهبه الله لى هدانى إلى الإيمان بهذا الإله.

ومن العجيب أن هناك من جعلوا لله شركاء !! إله له كل هذه الصفات من أول فالق الحب والنوى ، وفالق الإصباح ، وجعل الليل سكناً ، والشمس ، والقمر ، حسباناً وبحسبان ، والنجوم نهتدى بها فى ظلمات البر والبحر ، وأنزل لنا من السماء ماء ، وأخرج لنا النبات منه خضر ، كل هذه المسائل كان يجب أن تكون صارفة للناس إلى أن الله وحده هو الخالق المستحق للعبادة ، ولا تتجه أبداً بالعبادة أو بالإيمان بغيره ، لكن

هناك من جعلوا لله شركاء ، وجاء بها سبحانه بعد كل ذلك حتى يحفظنا ويغضبنا عليهم لنحذرهم ونتقيهم .

وإذا أحفظنا عليهم استحمدنا أى أستوجب علينا حمده إذْ أنه هدانا إلى الإيمان ، فنقول : الحمد لله الذى هدانا إلى الإيمان :

وبعد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُواْ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾

ومادة الجن هى « الجيم » و « النون » وكلها تدل على الستر والتغطية والتغليف ، ومنها الجنون ، لأن العقل فى هذه الحالة يكون مستوراً ، ونحن لانرى الجن ، فهم مستورون ، والملائكة كذلك ، والمادة كلها مادة « الجيم » و « النون » تدل على اللف والتغطية .

« وجعلوا لله شركاء الجن » و « الجن » هو الخفى من كل شىء ، والجن ـ كما تعلمون ـ هم خلق من خلق الله فسبحانه خلق الإنس وخلق الجن ، خلق الجن مستوراً حتى لانعتقد أن خلق الله لحى كائن ، يجب أن يتمثل فى هذا القالب المادى ، بل سبحانه يخلق ما شاء كما شاء ، فيخلق أشياء مستورة لاتُرى ، ولها حياة ، ولها تناسل ، ويخلق أشياء مستورة ، ولا تناسل لها : كل ذلك بطلاقة قدرة الحق سبحانه ، ليقرب لنا هذه القضية؛ لأن عقولنا قد تقف فى بعض الأشياء التى لاتدرك ولاترى ؛ لأننا لانعلم وجوداً لشىء إلا إذا أحسسناه .

إن الحق سبحانه يوضح ذلك . فإياك أن تظن أنك تستطيع أن تدرك

كل ما خلقـه الله ، فليس حسك هو الـوسيلة الوحيـدة للإدراك لأن حسك لـه قـوانين تضبطه ، فـأنت ترى ، ولكنـك ترى بقـانـون ، بحيث إذا بعـد المرئى عنك امتداداً فـوق امتداد بصرك فلا تـراه وكذلك أذنك تسمع ، فإن بعـد الصوت أو مصـدر الصـوت عنك بحيث لاتصل الـذبذبـة إليك ، فـلاتسمع ، كذلك عقلك ، قـد تفهم أشيـاء ولا تفهم أشياء أخـرى ، ثم ضرب لنـا فى وجـودنا المادى أمثـالاً تقـرب لنـا ذلك الخلق الخفى من الجن ومن الملائكة .

لقـد وجـدنـا العقل البشرى قـد هداه الله الـذى قـدر فهـدى ، إلى أن يكتشف شيئـاً اسمه « الميكـروب » و « والميكـروب » كائن حى دقيق جـداً بحيث إن البصر العـادى لا يدركه ، ولكنـه كان مـوجوداً ، وفعل الأفـاعيل فى النـاس ودخل فى أجسامهم دون أن يشعـروا كيف دخل وعمل فيهم وفى صحتهم ماعمل من الهلاك والموت مثل أمراض الطـاعون والكوليرا وغيرها ، ومع ذلك فـالميكروب كـان موجوداً ومـن جنس وجودنـا ، أى هو مـادة وله حياة وله فعل ، وله نفوذ فى الهيكل الذى يدرك وهو الإنسان .

وهكـذا رأينا أن شيئـاً خفياً لايـدرك ويهدد إنسـانـاً ضخماً يـدرك ، فهل معنى اكتشـاف الميكروب أننـا أوجـدنـاه ؟ لا ، إن وجود الميكـروب شىء ، وإدراك وجـوده شىء آخر ، وإذا حللنـا « الميكروب » نجـد أنه من مـادة الإنســان ولكنـه دقيق جـداً حتى إن العين المجـردة لاتـراه ، فلما اكتشف المجهر وكبرناه عـرفناه ، وهذا الكائن الحى إن كنت لاتـراه ، فعدم رؤيتك لـه سابقـاً لاتعنى أنه غير مـوجود ، بل هـو موجـود ولكنك لم تدركـه ، ثم اكتشفت ـــ أيها الإنســان ـــ آلة جعلتـك تدركـه ، ولنعـرف أن وجـود شىء لايعنى أنك من الضرورى أن تدركه ، فإذا قـال الله لك : لى ملائكة من خلقى ، ولى جن من خلقـى ، ولكنكم لا تـرونهم وهم يـرونكم ، نقـول : صدقـت ياربى ، لأن شيئـا من جنس مادتنـا كان مـوجوداً ولا نراه ثـم بعد ذلك رأيناه .

إذن فالأشيـاء التى نكتشفها الآن هى دليل على صدق البـلاغ القرآنى بما

أخبر به من الأمور الغيبية ، الجن مستور ، والمادة كلها - كما بيّنا - تدل على الستر ، فالجنون غياب العقل ، وجن الليل ، أى ستر وغطى ، والجنة لأن فيها أشجاراً وغير ذلك بحيث لا يظهر الذى يسير فيها فتكون ساترة لمن يدخلها .

إذن المادة كلها تدل على الستر ، وهل الذى نتعجب منه أنهم جعلوا الجن شركاء ، أو أن التعجيب ليس من جعل الجن شركاء بل من اتخاذ مبدأ الشركاء ، سواء أكان جناً أم غير جن ، إن التعجيب هنا من المبدأ نفسه ، فنحن لا نعترض فقط على أن الجن شركاء ، بل نحن نعترض على المبدأ نفسه ، أن يكون لله شريك من جن أو من ملائكة أو من غير ذلك ، ولهذا قدم المجعول - وهو الشريك - على المجعول منه - وهو الجن - مع أن العادة أن يقدم المجعول منه على المجعول ، فتقول جعلت الطين إبريقا: أى أن الطين كان موجوداً ، وأخذت منه الذى لم يكن موجوداً وهو الإبريق.

ثم هل كان الشركاء موجودين وطرأ الجن عليهم ؟ أو كان الجن موجوداً وطرأ الشركاء عليهم ؟ فى هذه الحالة كان يجب القول : وجعلوا الجن لله شركاء ، إذن فالعجيبة ليس فى أن يكون الجن شركاء ، العجيبة فى المبدأ نفسه ، وكيف ترد فكرة الشركاء على أذهانهم سواء أكان الشركاء من الجن أم من غير ذلك ، ولهذا قال سبحانه : « وجعلوا لله شركاء » وساعة تسمعها تقول : أعوذ بالله« جعلوا لله شركاء » !! ولا يهمك من هم الشركاء ؛ لأن مطلق مجىء شريك لله هو الأمر العجيب ، سواء كان من الجن أم من الملائكة وكيف جعلوا الجن شركاء ؟ ألم يقل الحق فى كتابه إن إبراهيم قال :

﴿ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ ﴾

(سورة مريم)

وما هى العبادة ؟ العبادة هى أن يطيع العابد المعبود فيما يأمره به ، وماداموا يطيعون الشياطين فى وسوستهم فكأنهم عبدوهم ، ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ أَهَـٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾

(الآية ٤٠ سورة سبأ)

فقالت الملائكة :

﴿ قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ ﴾

(سورة سبأ)

وكيف كانوا يعبدون الجن ؟ إنهم كانوا يطيعونهم فيما يأمرونهم به وينهونهم عنه ؛ لأن العبادة هي الطاعة ، وأنت أيها العابد لاتقترح العبادة بل تنظر فيما طلب منك أن تتقرب به إلى المعبود ، إذن « افعل ولاتفعل» هي الأصل .

« وجعلوا لله شركاء الجن » ولماذا جاءوا لله بشركاء ؟ لماذا لم يعبدوهم وحدهم ويستبعدوا الله من العبادة ؟ لأن وجود شريك دليل على الاعتراف بالله أيضا فلماذا جعلوا له شركاء ؟ ولماذا لم يلحدوا وينكروا ويكفروا بالله وتنتهي المسألة ؟ لا . لم يفعلوا ذلك ؛ لأنهم رأوا أن الشركاء ليس لهم مطلوبات تعبدية وحين عبدوها ــ مثلا ـ لم تقل لهم «افعلوا» و«لاتفعلوا» وليس هناك منهج لاتباعه ، لكن أحداثا فوق أسبابهم ولايستطيعون لها دفعا قد تحدث فلمن يجأرون ؟ أللآلهة التي يعتقدون كذبها وبهتانها وأنها لاتنفع ولاتضر ؟ لذلك احتفظوا باعترافهم بالله ليلجأوا إليه فيما لايقدرون على دفعة لاهم ولامن اتخذوهم شركاء ، ولذلك يقول الحق :

﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ﴾

(من الآية ١٢ سورة يونس)

كأنه يريد عبادة الله للمصلحة فقط .

« وجعلوا لله شركاء الجن » . ومن العجيب ـ إذن ـ أنهم جعلوا لله شركاء ، مع أن الله هو الذى خلق العابد والمعبود ، والتعجيب من أمرين اثنين : أن يجعلوا شركاء لله من الجن أو من الملائكة ، والعجيبة الأخرى أنه « خلقهم وخرقوا له بنين وبنات بغير علم » وما معنى خرقوا له ؟ معناها أنهم اختلقوا ؛ لأن الخرق إيجاد فجوة فى الشىء المستوى على قانون السلامة ، ولذلك قال فى السفينة :

﴿ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا ﴾

(من الآية ٧١ سورة الكهف)

وخرقوا له . أى عملوا خرقا فى الشىء السليم الذى تأبى الفطرة أن يكون .

﴿ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ ﴾

(من الآية ١٠٠ سورة الأنعام)

أما القسم الذى ادّعى أن للهالبنين فهم أهل الكتاب ؛ إنهم قالوا ذلك :

﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ﴾

(من الآية ٣٠ سورة التوبة)

أما من جعلوا لله البنات ، فهم بعض العرب الذين كانوا يعتقدون أن الملائكة بنات الله .

﴿ أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا ﴾

(من الآية ٤٠ سورة الإسراء)

وقال سبحانه :

﴿ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ ﴾

(سورة الصافات)

وسبحانه القائل :

﴿ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ﴿٢٢﴾ ﴾

(سورة النجم)

وهنـاك من العـرب من جعـل بين الله وبين الجن صلـة نسب مصـداقـا لقوله الحق :

﴿ وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا ﴾

(من الآية ١٥٨ سورة الصافات)

لقـــد افتروا على الحق وادّعـــوا أن اتصـــالاً بين الله وبين الجِّنـــة فخلقت وولدت الملائكة .

﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

ولماذا يقـول الحق : « بغير علم » لأن العلم يؤدى إلى النقيض ، فـالعلم قضية استقـرائية معتقدة واقعة يقـام عليها الدليل ، وهـذا شىء لاواقع له ، ولايمكن أن يـوجد عليـه دليل لذلك فهـو قول بغير علم بل هـو بجهل . هى إذن جهـالـة بأن يصـدقوا فى حـاجـة وأنها واقعـة وهى ليست واقعـة ، ولايقام عليها دليل لأنها غير مـوجودة ، ولو استقام الـدليل عندهم بفطرتهم المستقبلة لأدلـة البيان وأدلـة الكون لتبرأوا مما اعتقـدوا ، ولرفضـوا أن يتخذوا لله شركاء .

وقـد عرض الحق قضيـة طرأت على الأفكـار المشـوشة وقـالوا: «شركـاء» فقـال : «سبحـانه» ، أى تنزيها له عن الشرك فى الـذات وفى الصفات ، وفى الأفعال ؛ لأن ذاتـه ليست ككل الذوات ، وأفعـاله ليست ككـل الأفعال ، وصفاته ليست ككل الصفات ، ولذلك تأتى «سبحانه » فى كل أمر يناقض

نواميس الكون الموجودة . وخذ كل أمر يتعلق بالإله الحق فى إطار «سبحانه» . ولذلك حينما جاء الإسراء برسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة إلى بيت المقدس ثم عرج به فى ليلة واحدة وكان ذلك أمرا عجيبا ، أمرنا الحق أن نتقبلها فى إطار قوله الحق :

﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ ﴾

(من الآية ١ سورة الإسراء)

إنّ محمدا عليه الصلاة والسلام لم يقل : أنا سَرَيت من مكة إلى بيت المقدس ، إنما قال: « أُسْرِى بى » ، ومادام قد أسرى به فالقانون فى الاسراء هوقانون الحق سبحانه . فحدّها فى إطار سبحانه ، وهو القائل :

﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ ﴾

(من الآية ٣٦ سورة يس)

ثم يأتى بما هو أوسع من إدراكك فيقول :

﴿ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾

(من الآية ٣٦ سورة يس)

كأننا سوف نعلم فيما بعد أشياء فيها زوجية ، وقد أزاح الكشف العلمى فى القرن العشرين بعضا من ذلك ، فعرفنا الموجب والسالب فى الكهرباء والالكترونات ، وقوله : « ومما لايعلمون» يفسح المجال لقضايا الكون التى تحدث بنشاطات العقول المكتشفة .

﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

فـ (سبحانه) تنزيها له وتقديسا عن أن يقاس بـالكائن الموجود . تعالى اسمه ، وتعالت ذاته ، وتعالت صفـاته وأفعاله « عما يصفون » بأوصاف لا تليق بذاته .

وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ﴾

والحق سبحانه وتعالى قال فى آيات أخرى :

﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ ﴾

(من الآية ٥٧ سورة غافر)

فإن كنت تـرى فى نفسك عجـائب كثيرة ، وكل يـوم يعطيك العلم التشريحى أوعلم وظائف الأعضـاء سرا جديـدا فلا تتعجب من هـذا الأمر ؛ لأن السماء والأرض إيجاد من عدم ، وسبحانه هنـا يقول : « بديع » أى أنه ـ سبحانه ـ خلقهما على غير مثال سابق ، فمن الناس من يصنع أشياء على ضوء خبرات أو نماذج سابقة ، لكن الحق سبحـانه بديع السموات والأرض، وقد عـرفنا بالعلم أن الأرض التى نعيش عليهـا وهى كوكب تـابع من توابع الشمس ، وقديما كانوا يقولـون عن توابع الشمس إنها سبعة ، ولذلك خدع كثير من العلماء والمفكرين وقالوا : إن السبعـة التوابع هى السموات ، فأراد الحق أن يبطل هذه المسألة بعـد أن قالوا سبعة ، فقـد اكتشف العلماء تابعا ثـامنـا للشمس ، ثم اكتشفـوا التـاسع ، ثم صـارت التـوابع عشرة ، ثم زاد الأمـر إلى توابع لانعـرفها . وأين هـذه المجموعـة الشمسية من السمـوات ؟ وكلهـا مجرد زينة للسماء الـدنيـا ، وعنـدما اكتشفت المجـاهـر والآلات التى

تقرب البعيد رأينا «الطريق اللبنى» أو «سكة التبانة» ووجدناها مجرة وفيها مجموعات شمسية لاحصر لها ، وجدنا مليون مجموعة مثل مجموعتنا الشمسية . هذه مجرة واحدة ، وعندنا ملايين المجرات ، ونجد عالما فى الفلك يقول : لو امتلكنا آلات جديدة فسنكتشف مجرات جديدة .

ولنسمع قول الله :

﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْي۟دٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾

(سورة الذاريات)

إذن يجب أن نأخذ خلق السموات والأرض فى مرتبة أهم من مسألة خلق الناس .

﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

ومادام سبحانه بديع السموات والأرض ، وهو بقدرته الذاتية الفائقة خلق السموات والأرض الأكبر من خلق الناس ، إذن فإن أراد ولدا لطرأ عليه هذا الابن بالميلاد ، ولايمكن أن يسمى ولدا إلا إذا وُلِد ، وسبحانه منزه عن ذلك ، ثم لماذا يريد ولدا ، وصفات الكمال لن تزيد بالولد ، ولم يكن الكون ناقصا قبل ادّعاء البعض أن للحق سبحانه ولدا . إن الكون مخلوق بذات الحق سبحانه وتعالى ، والناس تحتاج إلى الولد لامتداد الذكرى، وسبحانه لايموت ؛ مصداقا لقوله :

﴿ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ﴾

(من الآية ٨٨ سورة القصص)

والبشر يحتاجون إلى الإنجاب ليعاونهم أولادهم ، وسبحانه هو القوى الذى خلق وهو حى لايموت ؛ لذلك فلامعنى لأن يُدّعى عليه ذلك

وماكان يصحّ أن تناقش هذه المسألة عقلا ، ولكن الله ـ لطفا بخلقه ـ وضّح وبين مثل هذه القضايا .

يقول جل وعلا : « ولم تكن له صاحبة » . وماذا يريد الحق من الصاحبة ؟ إنه لايريد شيئا ، فلماذا هذه اللجاجة فى أمر الألوهية ؟ . فلا الولد ولا الصاحبة يزيدان له قدرة تخلق ، ولا حكمة ترتب ، ولا علما يدبر، ولاأى شئ ، ومجرد هذا اللون من التصور عبث ، فإذا كان الشركاء ممتنعين ، والقصد من الشركاء أن يعاونوه فى الملك ؛ إله يأخذ ملك السماء، وإله آخر يأخذ ملك الأرض . وإله للظلمة ، وإله للنور . مثلما قال الاغريق القدامى حين نصّبوا إلهاً للشر . وإلهاً للخير ، وغير ذلك . والحق واحد أحد ليس له شركاء يعاونونه فما المقصود بالولد والصاحبة ؟ أعوذ بالله! ألايمتنع ويرتدع هؤلاء من مثل هذا القول :

« وهو بكل شئ عليم » فسبحانه هو الخالق للكون والعليم بكل مافيه ولايحتاج إلى معاونة من أحد .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ ﴾

انظر التقديم بكلمة رب ، قبل « لا إله إلا هو » كلمة « رب » هذه هى حيثية « لا إله إلا هو » ؛ لأن إلهاً تعنى معبودا ، ومعبودا يعنى مُطاعا، ومطاعا يعنى له أوامر ونواهٍ ، ولماذا ولأى سبب ؟ . السبب أنه الرب المتولى الإيجاد والتربية . ومن الواجب والمعقول أن نسمع كلامه ؛ لأنه هو الرّب والخالق وهو الذى يرزق ، بدليل أننا حين نسأل أهل الكُفْر فى غفلة شهواتهم : من خلق السموات والأرض ؟ تنطق فطرتهم ويقولون :

الله هو الذى خلق السموات والأرض . أما إن كان السؤال موجها فى محاجاة مسبقة فأنت تجد المكر والكذب .

وحين تريد أن تنزع منهم قضية صدق وتضع وتبطل قضية كذب فلتأخذهم على غفلة ودون تحضير فيقولون إن الذى خلق هو الله .

ورأينا الآلات التى صمموها ليكتشفوا الكذب ، وليروا العملية العقلية التى تجهد الكذاب ، أما صاحب الحق فلا يُجْهد ؛ لأن صاحب الحق يستقرىء واقعا ينطق به ولايصيبه الجهد ، لكن الذى يكذب يجهد نفسه ويتردد بين أمور ويضطرب ولايدرى بأيها يأخذ ويجيب بإجابات متناقضة فى الشىء الواحد .

﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

ومادام هو خالق لكل شىء وهو الباقى فهو الأحق بالعبادة ؛ لأن العبادة ـ كما قلنا ـ معناها طاعة الأمر وطاعة النهى ـ ومادام سبحانه الذى خلق فهو الذى يضع قانون الصيانة للإنسان والكون ، وإن خالفت المنهج يفسد الكون والإنسان ، وإذا فسد الكون أو الإنسان فأنت تلجأ إلى منهج الخالق لتعيد لكل منهما صلاحيته ؛ لذلك هو الأولى بالعبادة .. (ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو) .

وهذه شهادة شهد بها لذاته قبل أن يخلق كل شىء ، وقبل أن يخلق الملائكة ، وشهدت بها ملائكته ، وشهد بها أولو العلم .

﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ﴾

(من الآية ١٨ سورة آل عمران)

إذن فالله شهد بألوهيته من البداية ، ومن أسمائه « المؤمن » ونحن مؤمنون بالله ، وربنا المؤمن بأنه إله واحد ، وهذا الإيمان منه أنه إله واحد ،

يخاطب كل شيء يريده وهو يعلم أن أي شيء لا يقدر أن يخالفه ، إنه يخاطبه بقوله : « كن فيكون » ولأنه إله واحد يعلم أن أحداً أو شيئاً لم يخالفه ، لذلك يباشر ملكه وهو العليم بأن الغير خاضع لأمره ولا يمكن أن يتخلف عن مراداته ، أو نقول: « مؤمن » لما خلق ولمن خلق ، أي منحهم الأمن والأمان فهو سبحانه القائل :

﴿ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴿٤﴾ ﴾

(سورةقريش)

لقد أوضح الحق سبحانه لنا : أنتم خلقي فإن أخذتم منهجي أطعمكم من الجوع وآمنكم من الخوف . (ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شيء) .

إذن فالمنطق يفرض علينا عبادته سبحانه ، والأمر المنسجم مع المقدمة ، أن لا رب ، ولا إله إلا هو ، إنه خالق كل شيء ؛ لذلك تكون عبادته ضرورة ، ويتمثل ذلك أن تطيعه فيما أمر ، وفيما نهى .

﴿ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴾

(من الآية١٠٢ سورة الأنعام)

وهذه دقة الأداء البياني في القرآن ، فنحن في أعرافنا نقول : فلان وكيل لفلان أي يقوم لصالحه بالأمور التي يريدها ، وسبحانه ليس وكيلاً لك ، بل هو وكيل عليك ؛ لأن الوكيل لك ينفذ أوامرك ، لكن هو وكيل عليك، مثل الوصي على القاصر هو وكيل عليه ، ويقول للقاصر : افعل كذا فيفعل ، وسبحانه وكيل علينا ، ولذلك نحن نطلب منه وهو الذي يستجيب لدعائنا بالخير ، فلا ينفذ رغباتنا الطائشة ، ونجد الأحمق من يقول : لقد دعوت الله ولم يستجب لي ، ونقول : إنك تفهم الاستجابة أنها تؤدي لك مطلوبك ، وسبحانه أعلم بما يناسبك لأنه وكيل عليك ويعدل من تصرفاتك ، وساعة تطلب حاجة ، إن كان فيها خير يعطيها لك، وإن كنت تظن أنها خير ، لكنها ستأتي بالشر لايعطيها لك .

وعلى من يدعو ألايتعجل الإجابة . قال صلى الله عليه وسلم : «يستجاب لأحدكم مالم يَعْجَل ، يقول : قد دعوت فلم يستجب لى »[١] .

« وهو على كل شيء وكيل » أى سواء أكان هذا الشيء مختاراً أم غير مختار ؛ لأن المختار قد يختار شراً ، ولأن الله وكيل عليه يقول له : لا ، وغير المكلف ولا اختيار له ، مقهور لإرادة الله مثل النار ، فهى مأمورة أن تحرق ، لكنه أمرها ألا تحرق سيدنا إبراهيم وتبقيه سليماً .

وتأتى الآية التالية لتؤكد دواعى عظمته سبحانه فيقول :

﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾ ﴾

ولماذا لا تدركه الأبصار ؟ لأن البصر آلة إدراك لها قانونها بأن ينعكس الشعاع من المرئى إلى الرائى ويحدده ، فلو أن الأبصار تدركه لحددته ، وأصبح من يراه قادراً عليه ، ولصار مقدورا لكم ؛ لأنه دخل فى إدراككم. فلو أنك أدركت الله لكان الله مقدوراً لبصرك ، والقادر لا ينقلب مقدوراً أبداً ، إذن فمن عظمته أنه لا يُدْرَك : أنت قد ترى الشمس ، ولكن أتدعى أنك أدركتها ؟! لا ، لأن الإدراك معناه الإحاطة، وحين يقال «أدركه » أى لم يفلت منه ، ولذلك عندما سار قوم فرعون وراء موسى وقومه قال أصحاب موسى : (إنا لمدركون).

أى لا فائدة ؛ لأن البحر أمامنا ، إن تقدمنا نغرق ، وإن تأخرنا أهلكونا وقتلونا . إذن « مُدرك » يعنى محاطا به . فإذا أحاطت الأبصار بالله انقلب البصر قادرا ، وصار الله مقدورا عليه . والقادر بذاته ــ كما قلنا ـ لاينقلب مقدورا لخلقه أبدا .

---

(١) رواه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذى وابن ماجه عن أبى هريرة .

﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَـٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾

(سورة الأنعام)

وكل ماعدا الله محتاج إلى الله لبقاء كينونتـه ، وكينونته سبحانه ليست عند أحد ؛ لـذلك « لاتدركـه الأبصار وهو يـدرك الأبصار » لأنـه إن قدر على الأبصار كلها فهو قادر بذاته ، والبـاقى مقدور له ؛ لأنه مخلوق له ، ومادام مخلوقـا له يكـون مقدورا عليـه ولم يطرأ على المخلـوقين شيء جديـد يجعلهم قادرين بذواتهم (لاتدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار) .

وقد وقف العلماء وقفـة كبيرة واختلفوا : هل الإنسـان يرى ربـه أو لايراه سواء فى الدنيـا أم فى الآخرة ؟ بعضهم قال : لا أحد يـرى الله بنص الآية: « لاتدركه الأبصار » ونقول : لكن هناك آيات فى القرآن تقول :

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾

(سورة القيامة)

و « ناظرة » تضمن الرؤية وتفيدهـا ، وأيضا فالله يعاقب من كفر به بأن يحتجب عنه ؛ لأنه القائل :

﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾﴾

(سورة المطففين)

فالكافرون محجوبون عن رؤيـة الله عقابا لهم . ولو اشتركنا معهم وحجبنا كما حجبوا فما ميـزتنا كمؤمنين ؟ ، إذن فـالعلماء لم ينتبهوا إلى أن هناك فـرقا بين الأداء القـرآنى ومـا يقولـون ؟ وحين يحتج عـالم منهم بأن رؤيـة الله غير ممكنة لأن ربنا سبحانه قال لموسى :

﴿لَن تَرَىٰنِي وَلَـٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِي﴾

(من الآية ١٤٣ سورة الأعراف)

فلماذا لم يلتفت هذا العالم إلى قول الحق :

﴿ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ﴾

(من الآية ١٤٣ سورة الأعراف)

إذن فالله يتجلى لبعض خلقه ، أما أن يراه الخلق فى الدنيا فلا ؛ لأن تكويننا غير مؤهل لأن يرى الحق ، بدليل أن الأصلب والأقوى منا وهو الجبل حينما تجلى ربه عليه اندك . فلما اندك الجبل خر موسى صعقا ، فإذا كان موسى قد خر صعقا لرؤية المتَجلِّى عليه وهو الجبل فكيف لو رآه ؟! إذن فهو غير معد له .

لقد اختلف العلماء عند هذه الآية ، وتجلَّى خلافهم إلى أبعد حد ؛ فمنهم مجيز للرؤية ، ومنهم منكر لها ، وأرى أن خلافهم فى غير محل نزاع ؛ لأنهم تكلموا عن الرؤية ، والكلام هنا عن نفى الإدراك ، والإدراك إحاطة ؛ والرؤية تكون إجمالاً ، إنما الإحاطة ليست ممكنة ، وعلى تقدير أن الرؤية والإدراك متحدان فى المفهوم نقول : لماذا يكون الخلاف فى أمر الآخرة؟ لو أن الخلاف فى أمر الرؤية فى الدنيا لكان هذا كلاماً جميلاً ، ولكن الخلاف جعلتموه فى الآخرة .

إن آيات القرآن صريحة فى أن رؤية الحق سبحانه وتعالى من نعم الله على المؤمنين ، وهى زيادة فى الحسنى عليهم ، وحجبه سبحانه عن الكفار لون من العقوبة لهم ونقول ـ إيضاً ـ : لماذا لا تقولون إن الإدراك سيوجد فى الآخرة بكيفية ليست موجودة فى دنيانا ؟ لأننا فى هذه الدنيا معدُّون إعداد أسباب ـ وفى الآخرة سنكون معدين إعداداً لغير أسباب .

أنت هنا إذا أحببت أن تشرب تطلب الماء أو تذهب للماء وتشرب ، وحين تريد أن تأكل الشىء الفلانى ، تقول لأهل البيت : اصنعوا لى كذا أو تشترى ما تريده ، إنما هناك فى الآخرة بمجرد أن يخطر ببالك ماتشتهيه تجده أمامك ، وهذا قانون جديد لا ارتباط له بقانون الدنيا ، فلماذا لايكون فى تكويننا فى الآخرة أيضاً قانون يمكن به أن نرى الله وفى إطار ليس كمثله شىء ؟

إن فى الآخرة قضـايا يتفق الجميع على أنها تخالف قوانين الدنيـا ونواميس العالم المعاصر لنـا الآن فى الأكل والشرب ، والتخلص من الفضلات ، لكن فى الآخـرة سنأكل ونشرب ولكن لن تـوجـد فضـلات ؛ لأنك أنت الآن تطهى وتهضم ، وفى الهضم أنت تأخـذ بعض الطعـام ويبقى منـه فضـلات لابـد أن تخرج ، لكن الطهـى والهضم فى الآخـرة بـ « كـن » وليس لـه فضلات ، إنـه طعام بقدرة القادر ، فى الجنـة كل ماتريده ستنـاله دون أن ينفـد ، وفى الـدنيـا أى شىء يـؤخذ منـه ينقص ، أمـا فى الآخـرة فـلاشىء ينقص لأن له مدداً من القيومية .

ويعقب الحق سبحانـه وتعالى بعـد القضيتين : « لاتدركه الأبصـار وهو يـدرك الأبصـار » فيقـول : « وهـو اللطيـف الخبير » ولطيف تنـاسب «لاتـدركه الأبصـار » و « خبير » يناسب « وهـو يدرك الأبصـار » ولطيف لها معنى خـاص ، فالشىء اللطيف يستعمـل فى دقيق التكوين ـ ولله المثل الأعلى ـ إن الميكروب لم نعرفه إلا مـؤخراً لأنه بلغ من اللطف والدقة بحيث لاتـدركـه العين ، لكـن عنـدمـا اخترعنـا الميكـروسكـوب رأينـاه ،وإن دق الميكـروب عن ذلك فلن نـراه ، وقـد اكتشفنـا « الفيروس » ونحاول معـرفـة المزيـد عن خصـائصـه ، إذن كلما دق الشىء يلطف ولا يمكن أن نـراه، فـالشىء إذا لطف شرف وعلا ونقـول ـ ولله المثل الأعلى ـ : فـلان لطيف المعشر ، والحق سبحانه لطيف فى ذاته ويلطف بعباده .

إنك ساعـة ما تسمع « لاطف » فهذا اسم فـاعل ، مثلها مثل «آكل»، وحين نقـول : « لطيف فهى مبـالغة فى اللطف ؛ لأنـه لاطف بكل إنسان وكل كـائن وهذا يحتـاج إلى مبـالغـة ، ولذلك نقـول : رحيم ، وهى صيغـة مبـالغة ؛ لأنـه يسبغ رحمته على عبـاده ، وأول مظهـر من مظاهـر اللطف ، هـو تدبير أمـورهم الدقيقـة تدبيراً يحقق مصـالحهم فى وجودهم . إننـا حين نديرِ كوب ماء لكل إنسان ندبر الكثير فما بالنا بتدبير اللطيف بعباده ؟

لقد خلق لنا الأرض ثلاثة أرباعهـا ماء ، والربع يابس ، لأنه جل وعلا يريـد أن يوسع رقعـة الماء لأن المياه كلما اتسعت رقعتهـا ، كان البخـر فيها أسهل وأكثر ، لكن لـو كانت الميـاه عميقة ومساحتهـا قليلة فالبخـر يكون على مستـوى السطح فقـط ، وهنـا لايأتى السحـاب بما يكفى الخلق من

الماء . لقد وسع الله سبحانه رقعة الماء كي يتبخر الماء ثم ينعقد كسحب في السماء ، ويصادف منطقة باردة لينزل لنا المياه العذبة لنشرب منها ، وتشرب أنعامنا ، ونسقى الزرع ، وكل ذلك من لطف التدبير .

ومن مظاهر اللطف فى الحق نجد أموراً لاتوصف ، ولذلك كل واحد من العلماء انفعل لزاوية من زوايا لطف الله على خلقه .. فواحد قال : هو « سبوغ النعم » وقال الثانى : « دقة التدبير » وقال الثالث : إن من مظاهر لطف الحق أنه يستقل كثير النعم على خلقه ، فالنعم التى منحها خلقه قليلة لأن خزائنه ـ سبحانه ـ ملأى وعطاياه لاتنفد ولا يعتريها نقص، ولذلك قال سبحانه :

﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾

(من الآية ٧ سورة إبراهيم)

أى أن نعمه الكثيرة على عباده قليلة ، وفى المقابل : يستكثر قليل الطاعة من خلقه أى يعتبرها ـ تفضلاً منه ـ كثيرة ؛ لأنه هو الذى يجزى الحسنة بعشر أمثالها .

إذن فمظاهر اللطف لا حصر لها ، وعلى قدر دقة اللطف تكون دقة مأتاه وإحصائه ، فهو اللطيف الذى إذا ناديته لبَّاك ، وإذا قصدته آواك ، وإذا أحببته أدناك ، وإذا أطعته كافاك وإذا أعطيته وأقرضته من فضله وماله الذى منحك عافاك ، وإذا أعرضت عنه دعاك فهو القائل :« يابن آدم إن ذكرتنى فى نفسك ذكرتك فى نفسى ، وإن ذكرتنى فى ملأ ذكرتك فى ملأ خير منهم ، وإن دنوت منّى شبراً دنوت منك ذراعاً ، وإن دنوت منّى ذراعاً دنوت منك باعاً ، وإن أتيتنى تمشى أتيتك أهرول »[1] وكلها مظاهر لطف . وهو المنادى : « توبو إلى الله » والرسول صلى الله عليه وسلم هو القائل : «لله أشد فرحاً بتوبة عبده من أحدكم إذا سقط على بعيره قد أضله بأرض فلاة»[2] وإذا قربت من الله هداك .

---

(١) رواه أحمد عن أنس .

(٢) رواه البخارى ومسلم عن أنس .

ويأتى عالم آخر ممن انفعلوا بصفات اللطف ، فيقول : الذى يجازيك إن وفيت ، ويعفو عنك إن قصرت ، وعالم آخر يضيف إلى معانى اللطف فيقول : من افتخر به أعزه ، ومن افتقر إليه أغناه ، وعالم ينفعل انفعالاً آخر بمظاهر اللطف فيقول : من عطاؤه خير ، ومنعه ذخيرة .. أى أنه لو منع عبده شيئا فإنه يدخره له فى الآخرة ، كل هذه مظاهر للطف ، وهذا مناسب لقوله الحق : « لاتدركه الأبصار » إن لطفه سبحانه يتغلغل فيما لا نستطيع أن ندركه ، وحين تحلل أنت أى أمر قد لا تصل إلى فهم النعمة ، وإن وصلت فأنت لاتقدر أن تؤدى الحمد على تلك النعمة .

وقوله الحق : « وهو يدرك الأبصار » مناسب لكلمة « خبير » ، ونحن فى حياتنا نسمع كلمة « خبير » فعندما نقابل أى مشكلة من المشكلات نجد من يقول : نريد أن نسمع رأى الخبير فيها ، وفى القضاء نجد القاضى يستدعى خبيراً ليكتب تقريراً فى أمر يحتاج إلى من هو متخصص فيه وعليم به ، إذن فالخبير فى مجال ما هو الذى يعرف تفاصيل الأمر ، فما بالنا بالخبير الأعلى الذى لايستعصى عليه شىء فى ملكه ، وهو الذى يدرك الأبصار ، فقوله : « لاتدركه الأبصار » يناسبها قوله : « لطيف » تماماً كما أن « وهو يدرك الأبصار » يناسبها « خبير » ، وهذا مايسمونه فى اللغة « لف ونشر » وهو أن يأتى بأمرين أو ثلاثة ثم يأتى بما يقابلها ، مثال ذلك قوله الحق :

﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴾

(من الآية ٧٣ سورة القصص)

فمن مظاهر رحمته بنا سبحانه أن جعل لنا الليل والنهار ، ثم قال :

﴿ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ ﴾

(من الآية ٧٣ سورة القصص)

لنسكن فى الليل ، ونبتغى فضله فى النهار ، وهذا اسمه ـ كما قلنا ـ «لف ونشر» .

ويقول الحق ـ سبحانه ـ بعد ذلك :

﴿ قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾ ﴾

وبصائر جمع بصيرة ، والبصيرة للمعنويات والإشراقات التى تأتى فى القلوب كالبصر بالنسبة للعين ، و « الكون » يعطيكم أدلة الإبصار ، والقرآن يعطيكم أدلة البصائر ، فكما أن الله هدى الإنسان فحذره ونهاه عن المعاصى ومنحه النور الذى يجْلِى له الأشياء فيسير على هدى فلا يرتطم ولا يصطدم ، كذلك جعل المعنويات نوراً ، والنور الأول فى البصر يأخذه الكافر والمؤمن ، وكلنا شركاء فيه مثله مثل الرزق ، لكن النور الثانى فى البصائر يأخذه المؤمن فقط ، ولذلك يقول ربنا :

﴿ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾

(من الآية ٩ سورة الحديد).

وهو نور الهداية فى بصائر المعنويات ، فيوضح : أنا خلقتكم خلقاً ووضعت لكم قوانين لصيانتكم . فقانون الصيانة فى ماديات الدنيا للمؤمن والكافر ، وقانون الصيانة فى معنويات الحياة خاصة بالمؤمن .

وهو القائل :

﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴾

(من الآية ٤٠ سورة النور).

ونعلم أن البصائر من المعنويات والمجىء للأمر الحسّى ؛ كقولنا : «جاء زيد » أو «جاء عمرو » ولك أن تتصور البصائر وهى تأتى ، قال الحق :

﴿ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ ﴾

(من الآية ١٥ سورة المائدة)

إنه سبحانه قد أعطانا نورا صحيحا واضحا وهو يأتى إلينا بمشيئته .

« قد جاءكم بصائر من ربكم » أى أنها بلغت من تكوينها أنها أصبحت كأنها أشياء محسّة تجيء ، ولا يصح أن تقولوا إنها لم تصلكم لأنها تجيء من الرب الذى خلقنا بقدرته وأمدنا فى كل شيء بقيّوميته ، ومن لوازم الربوبية أن يعطى ما يهدى ، وقد حكم الله أن البصائر جاءتنا ، وحكم بأن رسوله قد بلّغ ؛ فسبحانه أعطى لرسوله ، والرسول ناولنا ، فالحق قد شرع ورسوله قد بلغ وبقى أن تؤدوا ولاعذر لكم من المشرع الأعلى الذى خلق وهو الرب . ولا من المبلغ المعصوم وهو الرسول .

ويقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا ﴾

(من الآية ١٠٤ سورة الأنعام)

ولله المثل الأعلى ، نجد الولد يدخل البيت فيجد أمه ويقول لها : ماذا أعددت لنا من طعام ؟ فتقول : لاشيء . فيقول الابن : لقد بعث أبى اللحم والأرز والخضار ، فكأنه يقول لها : أين عملك يا أمى ؟

وربنا سبحانه يوضح : أنا خلقتكم ، وعملت لكم قانون صيانة ، وأرسلت لكم رسولاً تعرفون عنه أنه صادق فى بلاغه ، وأدى هذه الرسالة ، لذلك فالباقى من المسألة عندكم أنتم ، وكل واحد عليه أن يؤدى ما عليه من عمل ، إن أبصر فلنفسه ، وإن عمى فعليها . فإياكم أن تفهموا أنى كلفتكم بما يعود علىّ فى ذاتى ، ولا مايزيد من سلطانى شيئا ؛ لأن خيرها لكم أنتم ، ولا آمن على التشريع ممن لايفيد من التشريع ؛ لأن من يستفيد منه قد يشرّع لمصلحته ، أما الحق فهو مأمون على التشريع لأنه غير منتفع به .

يقول سبحانه :

﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا﴾

(من الآية ١٠٤ سورة الأنعام)

ولأن الرسول عليه البلاغ فقط والحق قد حفظه وعصمه من الكفر وهو يبلغكم المنهج ، وقد خلق الله كل إنسان مختارا وهو بهذا الاختيار يُدخل نفسه فى الحكم أو يخرج نفسه من الحكم ، وسبحانه لم يبعث الرسول جبارا بل بعثه رحيماً ؛ لذلك يقول الله فى حق رسوله صلى الله عليه وسلم : «وما أنا عليكم بحفيظ » والحفيظ من أسماء الله ، وهو الحفيظ لأنه شرّع ليحفظ الخلق ويريد أن يجعلهم على مثال حسن واعٍ . والرسول هو المبلغ والحق يقول :

﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾

(من الآية ٤٥ سورة ق)

إذن فكل واحد حر يدخل نفسه فى الحكم أو يخرج نفسه من الحكم . وقد حارب الرسول ليحمى الاختيار بدليل أن البلاد التى فتحها الإسلام تجد بعضاً من سكانها قد ظلوا على كفرهم ولم يرغمهم أحد على الإيمان .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾﴾

«كذلك نصرّف » . أى أنه يأتى لنا بالحال بعد الحال ويكرر ويعيد ، وتأتى الحادثة من الحوادث وينزل فيها تشريع ، ويرقق قلوبهم ، ويأتى بنماذج من الرسل ، ومواقف أممهم منهم حتى نصادف فى كل حال قلباً مستقبلاً لأنه إن قال مرة واحدة وسكت وكان هناك أناس قلوبهم منصرفة

فعندمَا يكرر الأحـداث وينزل فيهـا من التشريع والمواعظ فقد تـرق قلوبهم للإيمان وتستوعب القلوب الهداية .

«وكذلك نصرف الآيـات وليقولـوا درست»ما معنى : «وليقـولوا درست»؟ إننـا نعلم أن السماء تتـدخل حين يطم الفسـاد ، لكن إن وجـد فى الـذات الإنسانية نفس لـوّامة فهى مَنَاعة للنفس ووقايـة لها . فإن فعل الإنسان ذنباً تلـومـه نفسـه فيرجع ، وإن اختفت النفس اللـوّامـة وصـارت النفس أمّـارة بالسوء ، امتنع فى المجتمع الأمر بـالمعروف والنهى عن المنكر ، فمعنى ذلك أن الفساد قد طمّ . وهنا تتدخل السماء وتأتى ببيان جديد ومعجزة جديدة.

أن الفسـاد لا يتأتى إلا من وجـود طبقات تطحن فى طبقـات ، والـذين يُطحنـون بالفسـاد هم من يستقبلون المنهج بشـوق ، لكن الطاحن المستفيـد من الفسـاد هـو الـذى يعـارض المنهج . ولـذلـك فإن كل جماعـة حـاربت الرسل هم من الطاحنين للناس ، لكنّ المطحونين إنما يريدون من ينقذهم .

إذن فكل صـاحب دعوة سماوية جعـل الله له عدوّا مـن المجرمين ؛ لأن السماء لم تتدخل إلا حين صار الإجرام لا مقـاوم له . وهكذا يجعل الله لكل نبى ورسـول عدوا من المجـرمين ، وهذا العدو يفتـن به الناس ، ويميـل له ضعـاف العقـائد. والحق يصرف الآيـات حـالاً بعـد حـال حتى لايثبت مع الداعى الحق إلا المؤمنون الصادقون .

ولـذلك تجد أن الإسـلام قـد جاء وغـربل الأمـور ؛ فمثـلاً تأتى حـادثـة الإسراء فمن كـان إيمانـه مهتـزا ينكـر الإسراء ، وذلـك من أجل أن يـذهب الزبد ويبقى مـن يحمل الدعوة بمنهج الحق . أما من كـان إيمانه ضعيفاً أو كان يعبد الله على حرف فالإسلام لا يرغبه .

﴿ لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا ﴾

(من الآية ٤٧ سورة التوبة)

إذن فـالحق سبحانـه وتعالى قـد صرّف الآيات لينصر المطحـونين، وحينما قال الرسـول صلى الله عليه وسلم ذلك قالوا درست وادعوا أنه كـان قاعداً فى الجبل ، وتعلم من أعجمى . ولذلك نجد الحق يقول :

﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ ﴾

(من الآية ١٠٣ سورة النحل)

ويأتى الرد من الحق :

﴿ لِسَانُ الَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴾

(من الآية ١٠٣ سورة النحل)

إن سيدنا عمر رضى الله عنه حينما كان فى الطواف جاء عند الحجر الأسود وقال : « والله إنى لأقبلك وإنى أعلم أنك حجر وأنك لاتضر ولاتنفع ولولا أنى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم قبَّلك ماقبلتُك»[1].

فعل سيدنا عمر ذلك حتى يعلمنا إذا ماجاء بعض الناس وقال : ماسبب علة تقبيل الحجر الأسود ؟فيكون الجواب حاضراً : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم فعل ذلك وهذا تشريع .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ اتَّبِعْ مَا أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾ ﴾

وساعة يتكلم متكلم لمخاطب بأمر هو فيه وقائم عليه ومؤدٍ له فلابد أن نفهم حقيقة المراد ، مثلما يقول الحق سبحانه:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوٓا ءَامِنُوا ﴾

(من الآية ١٣٦ سورة النساء)

---

(١) رواه مسلم

وبأى شىء نادى الله خلقه المؤمنين هنا ؟ لقد قال : « يا أيها الذين آمنوا » ، فكيف يقول : « آمنوا » ؟ لقد ناداهم لأنهم آمنوا إيمانا استوجب خطابهم بالتكليف ، والإنسان ابن أغيار . فيوضح أن الإيمان الذى استقبلتم به التكليف من خطابى داوموا أيضا عليه ، وجاء الأمر هنا بدوامه ، أى كما آمنتم إيمانا جعلكم أهلا للتكليف فى مخاطبتكم وقلت لكم يأيها الذين آمنوا : الزموا هذا وداوموا على إيمانكم . وقوله الحق: «اتبع ماأوحى إليك » هو قول لرسول متبع ، إذن فهو يحمل الأمر بالمداومة على الاتباع ، ولايحزنك مايقولون يامحمد ؛ لأنك مؤيد من ربك ويتولى الدفاع عنك ويلقنك الحجة .

﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾ ﴾

(سورة الفرقان)

ويقول الحق بعد ذلك موجها حديثه لرسول الله صلى الله عليه وسلم : (اتبع ما أوحى إليك من ربك لا إله إلا هو وأعرض عن المشركين) .

ونعلم أن الوحى هو إعلام بخفاء ، وكل وحى هو إعلام بخفاء وقد أوحى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بصور شتى ، ولكن كل مايتصل ويختص بالقرآن كان بواسطة جبريل : وقوله الحق (اتبع ما أوحى إليك من ربك لا إله إلا هو وأعرض عن المشركين) .

أى أنه لايوجد إله إلا هو سبحانه ، ولايمكن أن تغير أنت المنهج النازل إليك منه ، وعليك أن تعرض عن المشركين ، فلا تجالسهم ، ولا تخالطهم ، ولا تودهم . إنه إعراض الفطنة والإرشاد والبلاغ .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾ ﴾

الحق سبحانه وتعالى يعطينا قضية لابد أن نستصحبها فى تاريخنا الإيمانى، والقضية هى : أن أىَّ كافر لم يكفر قهرا عن الله ، وإنما كفر لأن الله أرخى له الزمام بالاختيار أى خلقه مختارا ، ولذلك فالكافر إنما يفعل كل فعل بما آتاه الله من الاختيار لاغصبا عن ربنا أو قهرا ، بدليل أن الكون الذى نحيا فيه مقهور بالأمر ، لايمكن أن يختار إلا مراد الله منه ، وكل مافى الكون يسير إلى مراد الله .

إذن فمن كفر لم يكفر قهرا عن الله ؛ لأن طبيعة الاختيار ممنوحة من الله. وحين اختص الله الإنسان بالاختيار وضع المنهج الذى يرتب عليه الثواب والعقاب . ولذلك نزل التكليف بـ«افعل» و « لا تفعل » . وسبحانه إن أراد قهرا فقد قهر كل الأجناس فى الكون ؛ قهرها بطول العمر، وأنها تؤدى مهمتها كما أراد الله منها ، إنّه قهر الشمس ، وقهر القمر ، وقهر النجوم ، وقهر الماء ، وكل حاجة فى الكون مقهورة له حتى الملائكة خلقهم :

﴿ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ ﴾

(من الآية ٦ سورة التحريم)

إذن صفة القهر أخذت متعلقها كاملا . ولكن أيريد الله من خلقه أن يكونوا مقهورين على مايريد ؟ لا ، بل يريد سبحانه أن يكونوا فاعلين لما يحبه ، وإن كانوا مختارين أن يفعلوا ما لايحبه ، كأن خلق القهر فى الأجناس كان لإثبات طلاقة القدرة ، وأنه لايمكن لمخلوق أن يشذ عن مراد الله منه . وبقى الاختيار فى الانسان ليدل على أن أناسا من خلقه سبحانه يذهبون إليه جل وعلا وهم قادرون ألا يذهبوا إليه ، وهذه تثبت صفة المحبة .

وحين يختار المختار الطاعة ، وهو قادر ألا يطيع،ويختار الإيمان وهو قادر أن يكفر فقد جاء إلى الله محبة لاقهرا ، ولذلك يقول ربنا لرسوله صلى الله عليه وسلم :

﴿ لَعَلَّكَ بَـٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ۝٣ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَـٰقُهُمْ لَهَا خَـٰضِعِينَ ۝٤ ﴾

(سورة الشعراء)

أى أشفق على نفسك أن تقتلها حسرة وحزنا على عدم إيمان قومك بما جئت به من عند ربك ، أتريد يامحمد أن أقهرهم ؟ أتريد أعناقا أوقلوبا؟ إنك يامحمد تعلم أن منهجك النازل إليك من ربك يريد قلوبا ، والقلوب تأتى بالاختيار . فلوشئنا إيمانهم لأنزلنا معجزة تأخذ بقلوبهم فيؤمنون قهرا عليهم .

ولذلك إذا خُدِشَ الاختيار بفقد أى عنصر من عناصره يزول التكليف. بدليل أنه لاتكليف على فاقد العقل ؛ لأن آلة الاختيار عندنا هى العقل . وكذلك لاتكليف لمن لم ينضج بل يتركه الحق إلى أن ينضج . ويصير قادرا على إنجاب مثله وأن يصل إلى التكوين الكيماوى السليم . ويمنع عنه الإكراه بأى قوة أعلى منه تقهره على أن يفعل شيئا على غير مراده ، وهنا يأتى التكليف .

إذن فالتكليف يحتاج إلى أمور ثلاثة : وجود عقل ، لذلك فلا تكليف لمجنون ، وعقل رشيد ناضج ، فقبل البلوغ لاتكليف ولا إكراه حتى يسلم الاختيار ، لماذا ؟ تأتى الإجابة من الحق سبحانه :

﴿ لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ﴾

(سورة الأنفال)

ويقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ

عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾

وتتضمن هذه الآية الكريمة منهجا ضروريا من مناهج الدعوة إلى الله ، هذه الدعوة التى حملها الرسل السابقون ، وختمهم الحق برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجعلها سبحانه ختما لاتصال السماء بالأرض ؛ لذلك كان لابد من أن يستوعب الإسلام كل أقضية تتعلق بالدعوة إلى الله يحملها أمينا عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والأمة المحمدية . التى شرفها الله سبحانه وتعالى بأن جعل فيها من يحملون أمانة دعوة الله إلى الخلق امتدادا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فكل مسلم يعلم حكما من أحكام الله مطلوب منه أن يبلغه لغيره ؛ فرب مُبلَّغ أوعى من سامع . حتى وإن كان الله لم يوفقه للعمل بما جاء فيما بلغ . فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه ، فإذا فاته أن يعمل فالواجب ألا يفوت من يعلم قضية من قضايا دينه ثواب البلاغ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الخلق، ولكن عليه أن يعمل ليكون قدوة سلوكية يتأسى به غيره حتى لايقع تحت طائلة قوله تعالى : « كبر مقتا عند الله أن تقولوا مالا تفعلون » .

وإن كان بعض الشعراء يلحون على هذه المسألة . فيقولون :

وخذ بعلمى ولا تركن إلى عملى

واجن الثمار وخلّ العود للنار

إذن فالبلاغ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر ضرورى ، وهو امتداد لشهادة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أنه بلغ صلى الله عليه وسلم عن الحق مراده من الخلق . وبقى أن يشهد الناس الذين اتبعوا هذا الرسول أنهم بلغوا إلى الناس ماجاءهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم:

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾

(من الآية ١٤٣ سورة البقرة)

إذن فكما أن الرسول سيشهد بأنه بلغنا ، فمن صميم المنهج أن يشهد أتباعه أنهم بلغوا الناس ، فإن حدث تقصير فى البلاغ إلى الناس ، فستكون المسئولية على من اتبع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم يؤد أمانة الرسول عليه الصلاة والسلام إلى الناس أجمعين . ومنهج الدعوة منهج صعب ؛ لأن الدعوة إلى الله تتطلب أن يأخذ الداعى يد الذين ينحرفون عن منهج السماء اتباعا لشهوات الأرض ، وشهوات الأرض جاذبة دائما للخلق ؛ لأنها تحقق العاجل من متع النفس . واتباع منهج الدين — كما يقولون ـ يحقق نفعا آجلا . وفى هذا القول ظلم للدين ؛ لأن الدين قبل أن يحقق للناس متعة آجلة ، فهو يحقق — أيضا — المتعة العاجلة ؛ لأن الناس إن تمسكوا بمنهج الله فى « افعل ولا تفعل » يعيشون حياة طيبة لاحقد فيها ، ولا استغلال ، ولا ضغن ولاحسد ولاسيطرة ، ولاجبروت ، فيصبح الناس جميعا فى أمان .

إذن فلاتقولوا إن الدين ثمرته فى الآخرة بل قولوا ليست مهمة الدين هى الآخرة فحسب بل مهمة الدين هى الدنيا أيضا ، والآخرة إنما هى ثواب على النجاح فى هذه المهمة ؛ لأن الله إنما يجازى فى الآخرة من أحسن العمل فى الدنيا . ومن اتبع منهج الله كما قال الله « فلنحيينه حياة طيبة » ومن أعرض عن منهج الله فإن له معيشة ضنكا . ويحدث ذلك قبل الآخرة، ثم يأتى يوم القيامة ليتلقى العقاب من الله :

﴿ وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴾

(سورة طه)

فإذا كان الدين يأخذ بالناس من شهواتهم الهابطة إلى منهج الله العالى ، فتكون مهمة الداعى شاقة على النفس ، ولذلك قالوا : إن الناصح بالخير يجب أن يكون لبقا ؛ لأنه يريد أن يخلع الناس مما أحبوا وألفوا من الشر ؛ لذلك يجب على الداعى ألا يجمع عليهم إخراجهم مما ألفوا بأسلوب يكرهونه بل لابد أن يثير حنانهم ورغبتهم فى اتباع المنهج ، ولذلك جاءت هذه الآية :

﴿ وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

لقدقال الحكماء : النصح ثقيل فلا ترسله جبلا ولاتجعله جدلا ، والحقائق مُرّة ، فاستعيروا لها خفة البيان . والخفة في النصح تؤلف قلب المنصوح ، وحسبك منه أن تخلعه عما ألف وأحبّ . إلى مالم يتعود ، فلايكون خلعه مما ألف بأسلوب عنيف . ولذلك يعلمنا الحق هذه القضية حين ندعو الخصوم إلى الإيمان به ، وهؤلاء الخصوم يتخذون من دون الله أندادا ؛ أى جعلوا الله ومعه شركاء . إنهم إذن أرادوا المتعة العاجلة بالابتعاد عن المنهج ، ثم احتفظوا بالله مع الشركاء ؛ لأنه قد تأتى لهم ظروف عصيبة ، لاتقدر أسباب الأرض على دفعها ، ومن مصلحتهم أن يكون لهم إله قادر على أن ينجيهم مما هم فيه . فهم لايكذبون أنفسهم . والحق سبحانه هو القائل فى مثل هؤلاء إن أصروا على الشرك :

﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ ﴾

(سورة الأنبياء)

حصب جهنم إذن هم المشركون ومعهم الأصنام التى كانوا يعبدونها وستكون وقودا للنار التى يعذبون بها . وبعض من الناس السطحيين يظن أن هذا عذاب للأحجار ، لا ، بل هى غيرة ونقمة وغضب من الأحجار على خروج المشركين عن منهج الله فى توحيد الله . فتقول الأحجار : لقد كنتم مفتونين بى ولذلك سأكون أنا أداة إحراقكم .إننا نجد المفتونين فى الآلهة من البشر أو الآلهة من الأشجار أو الآلهة من الكواكب أوالآلهة من الأحجار يصيبهم الله بالعذاب ، والأحجار التى عبدوها تقول كما قال بعضهم فيها شعرا :

عبدونا ونحن أعبد لـ ـلّه من القائمين فى الأسحار

واتخذوا صمتنا علينا دليلا وغدونا لهم وقود النار

للمغالى جزاؤه والمغالى فيه تنجيه رحمة الغفار

ولذلك يأتى الأمر بألا نسبّ ما يعبده الذين أشركوا بالله ؛ لأن الأصنام لاذنب لها ، والواقع كان يقتضى أن تتلطفوا بالأحجار فهى لاذنب لها فى المفتونين بها . والحق سبحانه وتعالى يعلمنا ويوضح لنا ألا نظلم المتَّخَذ إلها؛ لأنه معذور ، والسب هو ذكر القبيح ، والشتم ، والذم ، والهجاء ، إنك إن سببت وقبحت ماعبدوه من دون الله فإن العابد لها بغباوته سيسب إلهك فتكون أنت قد سببت إلها باطلا ، وهم سبّوا الإله الحق ، وبذلك لم نكسب شيئا ؛ فانتبهوا .

ويحذرنا القرآن من الوقوع فى ذلك فى قول الله تبارك وتعالى :

﴿ وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾

(من الآية ١٠٨ سورة الأنعام)

وهم سيفعلون ذلك عَدْواً وعدوانا وطغيانا بغير علم بقيمة الحق وقدسيته سبحانه وتعالى ؛ لذلك يجب أن نصون الألسنة عن سب آلهتهم حتى لانجرىء الألسنة التى لاتؤمن بالله على سب الله .

إن الحق سبحانه يريد أن يعلمنا اللطف فى منهج الدعوة ؛ لأنك تريد أن تحنن قلوبهم لتستميلهم إلى الايمان ولن يكون ذلك إلا بالأسلوب الطيب .

صحيح أن المؤمنين معذورون فى حماسهم حين يدخلون فى مناقشة مع المشركين ولكن ليتذكر المؤمن القيمة النهائية وهى الخير للدعوة . وليسأل الله أن يرزقه الصبر على المشركين ، ويعلمنا الحق كيف نسير فى منهج الدعوة ، وعلى سبيل المثال نجد سيدنا نوحا عليه السلام الذى لبث فى قومه ألف سنة إلا خمسين عاما . وظل يدعو ويتحنن فى الدعوة ، إلى أن قالوا له فى آخر المطاف : أنت تفترى هذا الكلام من عندك ، فعلمه اللهسبحانه وتعالى أن يقول :

﴿ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴾

(من الآية ٣٥ سورة هود)

ويقول الحق سبحانه معلما رسول الله صلى الله عليه وسلم :

﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾

(من الآية ٢٤ سورة سبأ)

أى من الذى يعطيكم قوام الحياة ؟ . وأنت حين تسألهم سؤالا يناقض ماهم عليه . فيتلجلجون ، فيسعف الله رسوله فيوضح سبحانه ويأمره أن يقول لهم :

﴿ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾

(من الآية ٢٤ سورة سبأ)

و « إنا » أى رسول الله ومن معه . « أو إياكم » المقصود بها الكافرون بالله ، ولم يقل لهم أنا وحدى على هدى وأنتم على ضلال ، بل قال: منهجنا ومنهجكم لايتفقان ، ولابد أن يكون هناك منهج على هدى ومنهج على ضلال ، ولن أقول مَن هو الذى على هدى ومَن هو الذى على ضلال؛ لأن محمدا صلى الله عليه وسلم واثق من أنهم لو أداروا المسألة على عقولهم وعلى بصائرهم : فلن يجدوا جوابا إلا أن رسول الله على الهدى وأنهم على الضلال . فتركهم هم ليقولوها .

ولنتأمل أيضا قوله الحق سبحانه:

﴿ قُل لَّا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾

(سورة سبأ)

لم يقل الحق إنهم هم الذين يجرمون ، بل جعل الجرم - إن صح - على المؤمنين ، وجعل العمل - وإن فسد - مع الكافرين .وعلى الأقل كانت المساواة تقتضى ولانسأل عما تجرمون ولكنه لم يقل ذلك . وهذا هو الأدب

العالى واللطف ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى يريد ألايترك الرسول لغرائزهم مكانا للإباء عليه ، وألا يجدوا وسيلة لينفروا من الدعوة . ولهذا يعلمنا هذا الأسلوب فيقول :

﴿ وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾

(من الآية ١٠٨ سورة الأنعام)

وبذلك نحقق لطف الجدل . ويقول سبحانه :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ﴾

(من الآية ١٩٤ سورة الأعراف)

وإن كنتم تريدون كشف حقيقة تلك الأصنام فهى أيضا مخلوقة لله وهى تعبده ، واسألوهم ولن يجيبوا ، وهم لا أرجل لهم يمشون عليها ، ولا لهم أيد يبطشون بها ، ولا لهم أعين يبصرون بها ، ولا لهم آذان يسمعون بها، وفوق ذلك :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ﴾

(من الآية ٧٣ سورة الحج)

وهل هناك ما هو أقل من الذباب فى عرفكم ؟ نعم ، يقول الحق :

﴿ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ﴾

(من الآية ٧٣ سورة الحج)

فإن جاءت ذبابة وحطت على ما تأكل ، أتستطيع أن تسترجع منها شيئاً ؟ لن تستطيع ، وإن كنت جباراً وفتوة فامسك الذبابة وخذ منها الطعام الذى أخذته ، لن تستطيع ،ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴾

(من الآية ٧٣ سورة الحج)

وهذا هو الجدل الذى يجعل المجادل يخجل من نفسه ، لكن إذا ثرت فى وجهه وتعصبت فأنت تجعل له عذراً فى الحفيظة عليك والغضب منك والهجوم عليك ، وفى الانصراف عن منهج الله ، ونسأل الله أن يعطينا طول البال وسعة الحلم والأناه على الجدل اللطيف .

﴿ وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ﴾

(من الآية ١٠٨ سورة الأنعام)

وحين يعلمنا الحق الجدل اللطيف للدعوة فهذا تزيين للدعوة ، والدعوة فى ذاتها جميلة ؛ لذلك لابد أن يكون عرضها جميلاً .

والمثال من حياتنا : أنت تذهب إلى التاجر وعنده بضاعة قد تكون متميزة جداً لكنه لا يرتبها ولايحسن عرضها ؛ لذلك قد تنفر منه وتذهب إلى تاجر آخر قد تكون بضاعته أقل جودة ، لكنه يحسن عرضها ، وهذا هو التزيين أى تصعيد الحسن ، ولذلك سُمِّى الحلى وما تتجمل به المرأة زينة والمرأة قد تمتلك أنوثة جميلة ، وهى مع جمالها تقوم بتزيين نفسها بالحلى ، وبالجواهر والملبس الراقى ، وكان العربى حين يمتدح امرأة بقمة جمالية يقول : هذه غانية ، أى استغنت بجمالها عن أن تتزين ؛ لأن ما سوف تداريه بالعقد أجمل من العقد .

والتزيين إذن جمال العرض للاستمالة والانجذاب ، ونحن حين نزين أمراً فإننا نعطيه وقاراً وحسناً ونزيده جمالاً : (كذلك زينا لكل أمة عملهم) والأمة : هى الجماعة التى لها انتماء يجمع أفرادها ، مثل أمة العرب ..أى أن المنتمين إليها هم العرب والأمة الإنجليزية أى أن المنتمين إليها إنجليز ، أما أمة الإسلام فيدخل فيها العرب ، والعجم ، والأسود والأبيض ، والأصفر ، وهى أوسع رقعة ، فإن كانت الأمم السابقة زينت لتناسب عصراً محدوداً وزمناً محدوداً ،ومكانا محدوداً فنحن نزينكم تزييناً يناسب كل أذواق الدنيا؛ لأنكم ستواجهون كل هذه الأمم ، فلابد أن يكون فى دعوتكم استمالة لهذا ولهذا ولهذا .

وفى بدء الدعوة ـ وكانت حينئذ ضعيفة نجد ـ رسول الله صلى الله عليه وسلم يلتفت إلى الأمة ، فيكون بلال الحبشى هو من يؤذن ، ونجده يقول عن ـ سلمان وهو فارسى ـ : سلمان منا آل البيت (١) ويأتى سيدنا عمر يقول عن صهيب ـ وهو رومى ـ : نعم العبد صهيب لو لم يخف الله لم يعصه ، أى أن عدم عصيانه لله طبيعة فيه حتى وإن لم يكن يخاف عقاب الله .

فإذا كنا قد زينا لكل أمة من الأمم الماضية عملهم فتزيين أمتكم يجب أن يكون مناسباً لمهمتها زماناً ومكاناً وأجناساً ، وألواناً ، ولغات ، ولابد أن نزينكم أيضاً بحسن أسلوب العرض لمنهج الدعوة . ويجب أن يتناسب مع جمالها ، وأنتم أولى بالتزيين ؛ لأنكم مستوعبون لكل حضارات الدنيا ، وانتماءات الدنيا ، فيجب أن يكون تزيينكم مناسباً لمهمتكم .

﴿ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ ﴾

(من الآية ١٠٨ سورة الأنعام)

أى أننا وضحنا لهم منهج نقل الدعوة إلى الغير ، وما ينال المحسن والمطيع من ثواب فى الآخرة ، والمؤمنون حينما ينعمون بنعيم الآخرة فهذا نعيم بغير حدود ؛ لأنه على قدر طلاقة قدرة الحق سبحانه وتعالى ، وهم حين يتنعمون بكل هذه النعم يستشرفون إلى لقاء المنعم به ،ويتجلى الله عليهم .

وكما زينا للأمم السابقة أعمالهم قد زيناكم لأنكم أمة الإجابة ، وهذا التزيين الخاص يربى الدعاة إلى منهج الله ، ولو فطن غيركم إلى ما فى منهجكم من زينة لبحثوا فى هذا المنهج ولقام كل منهم باستقراء الوجود الذى بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله ولوجد أن لكل كائن مهمة ، ولانضم إلى المنهج التعبدى .

﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦ ﴾

(سورة الذاريات)

---

(١) رواه الطبرانى فى الكبير والحاكم فى المستدرك .

و « ليعبدون » تعنى أن يطيعوا فى « افعل كذا » « ولاتفعل كذا » وإذا قال الحق : « كذلك زينا لكل أمة عملهم » فمعنى ذلك أنه سبحانه قد بين العمل بفوائده .

وأنت حين تتأمل ظواهر الوجود حولك تجد أن من تميز عليك بموهبة إنما أراده الحق على هذا التميز لينفعك أنت ، ويتجلى هذا الأمر فى كل المهن : فالنجار الحاذق والمتقن تعود صنعته عليك ، ومصمم الملابس الذى يتقن عمله سيعود خير صنعته عليك ، ومن مصلحة كل إنسان أن يكون غيره متفوقا ؛ وأن يكون هو أيضاً متفوقاً فى عمله ، وأن يحمد ربنا لأن خيره سيعود على غيره أيضاً ، وبذلك نحيا فى مجتمع راقٍ يتكون من أمم وطوائف مثالية ، إذن فالمتفوق فى شىء يجب ألا يحقد على غيره من أبناء المجتمع ؛ لأن خير تفوقه سيعود على كل فرد فيه ومن المصلحة أن يصير الكل إلى التفوق .

فإذا قال الله : « كذلك زينا لكل أمة عملهم » أى جعل الله لكل منا عملا فى الحياة ، ولابد أن ينتفع به فى الدنيا ، وينتفع به فى الآخرة أيضاً ويأخذ كل منا ثواب الله عليه ، فالذى يأخذ التزيين يقبل على العمل ، والذى لا يأخذ التزيين فعليه الذنب ، وكل واحد إنما يزين عمله على مقدار الطموح الذى يطلبه لنفسه ، ونحن نرى أمثلة لذلك فى الحياة، ونلتفت لنجد إنساناً له دخل محدود ، لكنه يفتح على نفسه أبواباً من الترف أكثر من اللازم ، ولا يدخر شيئاً ويحقق لنفسه المتعة العاجلة ، ونجد إنساناً آخر يعيش على قدر الضروريات ويدخر لنجده من بعد ذلك قد طور من أسلوب حياته بالسكن اللائق ومتع الحياة . إن الأول زين له عمله الترف العاجل ، والثانى زين له عمله الترف المقنن ، فإياك أن تنظر إلى شهوة العاجلة ، ولكن انظر إلى الجدوى التى تأتى منها .

﴿ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

(من الآية ١٠٨ سورة الأنعام)

ومادام المرجع لمن أوجد العمل منهجاً فى « افعل » و « لاتفعل » والمرجع لمن وضع التزيين فى العمل لتأخذ المنهج الكريم منه ، وعلى مقدار

ما أخذت من منهجه تأخذ من كرامته .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا الْأَيَٰتُ عِندَ اللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ ﴾

« وأقسموا بالله » ، هنا قَسَمٌ : ومُقْسَمٌ به ، ومُقْسِمٌ ، ومقْسَمٌ عليه.. فالمقْسَمُ به هو الله : والمقسِم هم الجماعة المخالفون لرسول الله ، ولماذا يقسمون ؟ لقد أقسموا حين أخذهم الجدل بمنطق الحق فغلبهم .. هم أقسموا بالله وقد دعاهم الرسول صلى الله عليه وسلم إلى عبادته ، و«جهد أيمانهم » تعرف منها الجهد وهو المشقة أى أنهم بالغوا فى القسم مبالغة تجهدهم ليبينوا لمن يقسمون لهم أنهم حريصون على أن يبروا بالقسم، فأفرغوا جهدهم ومشقتهم فى القسَم ، وهذا معناه أنهم أعلنوا أنهم يقسِمون قسماً محبوبا لهم ، والمحبوب لهم أكثر أن ينفذوا هذا القسم ،وهذا يدل فى ظاهره على إخلاصهم فى القسم .

﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ ﴾

(من الآية ١٠٩ سورة الأنعام)

ألم يأت الرسول صلى الله عليه وسلم بآية واضحة ؟ لقد جاءهم بأعظم آية وهى القرآن ، وعدم عرفانهم بذلك هو أول مصيبة منهم ، ألم يقل لكم : إنى رسول بعد أن أعلن الآية وهى نزول القرآن وأنتم تعرفون أنه صادق فى التبليغ عن الله . . وكان ذلك هو قمة المماحكة منهم ، وساروا على ذلك حين اقترحوا هم الآيات على الله ، ألم يقولوا :

﴿ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن

تَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَـٰرَ خِلَـٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

وأراد الحق بذلك أن يبين لنا أنّ القسم الذى أقسموه هو قسم مدخول فقد قالوا: « كما زعمت علينا » والزعم ــ كما نعلم ـ مطية الكذب وهذا أول خلل فى القسم .

ويقول الحق :

﴿ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾

(من الآية ٩ سورة سبأ)

هم إذن غير مؤمنين بالآية الأصيلة وهى القرآن ، فيتحدثونه فى أنه ينزل بالوحى ، فيحذرنا الحق أن نصدق زعمهم ، فهو القائل :

﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَـٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

وحتى إن نزلت الآية فلن يصدقوا ؛ فالحق هو القائل :

﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَـٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾ ﴾

(سورة الحجر)

ولـو أن الرسـول صلى الله عليه وسلم قـد سحركم .. فلماذا لم يسحـرهم ليؤمنوا بالله ؟ .

وهكـذا نرى أن الحق قـد ذكر لنـا فى كتابـه أن كل مـايقولـونه فى هـذه

المسألة هو مروق وهروب من الاستجابة للدعوة ؛ لأنه لاتوجد آية أعظم من الآية التى نزلت عليهم وهي القرآن ، وكل الآيات التى اقترحوها لاتسمو على هذه الآية ؛ لأنهم أمة نحو وصرف وبلاغة وبيان وأدب ، فجاء لهم بالمعجزة التى تفوقوا فيها . وهم لم يتفوقوا فى الأشياء التى ذكروها واقترحوها . إننا نأتى لهم بمعجزة من جنس ماتفوقوا فيه ؛ لأن المعجزات دائما تأتى على هذا الأساس ؛ فكل قوم تفوقوا فى مجال يأتى الله لهم بشىء يتفوق عليهم فى مجال تفوقهم ليثبت صدق الرسول فى البلاغ عنه .

ولقد قلنا : إن المعجزات تأتى خرقا لنواميس الكون الثابتة لأن نواميس الكون لها قوانين عرفها البشر ، وأصبحت متواترة أمامهم ؛ فإذا ماجاء أمر يخرق الناموس السائد المعترف به بينهم يلتفتون متسائلين كيف خرق الناموس وذلك ليعرف كل واحد منهم أن الذى خلق الناموس هو الذى خرق الناموس ؛ لكى يثبت صدق هذا البلاغ عنه . وقد جاءتكم المعجزة من جنس مانبغتم فيه ، والذى يدل على ذلك أنهم لايتكلمون فى المعجزة بل فى المنهج وفى شخص من جاء بالمنهج ، تجدهم يقولون :

﴿ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ﴾

(من الآية ٨ سورة الأنعام)

فيوضح القرآن أن المَلك بطبيعة تكوينه لا يُرى منكم ؛ هو يراكم وأنتم لاترونه ، وإذا أرسلنا ملكا فكيف تعرفونه ؟ إذن سيتطلب إرسال ملك أن نخلع عليه وضع البشر ، وأن ينزله الحق فى صورة بشر ، وإن نزل فى صورة بشر فستقولون : إنه ليس بشرا ولسنا ملزمين بما جاء به :

﴿ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ۝٩ ﴾

(سورة الأنعام)

وكان سيدنا جبريل ـ على سبيل المثال ـ ينزل إلى رسول الله أحيانا فى صورة رجل قادم من السفر ويقعد ويتكلم مع سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لم يأت جبريل عليه السلام ـ إذن ـ بطبيعة تكوينه بل جاء

بطبيعة البشر . وهناك خلق آخر مثل الجن . ونحن لانقدر أن نرى الجن ، ولانستطيع بقوانيننا وقوانين الجن أن نراه ، لكن إن أراد الجن أن يرينا نفسه فهو يتشكل بشكل مادى يرى ؛ يتشكل بشكل حيوان ، يتشكل بشكل قطة ، يتشكل بشكل جمل ، يتشكل بشكل رجل ، وهكذا ، ولوكانت هذه المسألة غير مقيدة بتقنين يحفظ توازن الأمر بين الجنسين ــ الإنس والجن ـ لتعب الناس ؛ لأنه ساعة يظهر جن للإنسان ويقف أمامه ثم يختفى يسود الرعب بين البشر على الرغم من أن الجن تخاف من الإنسان أكثر مما نخاف نحن منهم ؛ لأن الجن يعرف أن قانونه يسمح له أن يتشكل بشكل إنس أو أى شكل مادى ، وحينئذ يحكمه قانون الإنس وإن التقى بشخص معه مسدس ــ مثلا ــ فقد يضربه بالرصاص ويقتله ، ولذلك يخاف الجن أن يظهر للإنسان مدة طويلة ، وإنما يظهر كومضة البرق ويختفى ؛ لأنه يخاف كما قلنا ــ من الإنسان . إذن فالتوازن موجود بين الجن والإنس . ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(إن عفريتا من الجن جعل يفتك على البارحة ليقطع علىّ الصلاة وإن الله أمكننى منه فَذَعَتُهُ ، فلقد هممتُ أن أربطه إلى جنب سارية من سوارى المسجد حتى تصبحوا تنظرون إليه أجمعون أوكلكم ثم ذكرت قول أخى سليمان : « رب اغفرلى وهب لى ملكا لاينبغى لأحد من بعدى » فردَّه الله خاسئا ، وفى رواية : « والله لولا دعوة أخى سليمان لأصبح موثقا يلعب به ولدان أهل المدينة »[1] .

وهكذا نعلم أن القوم إذا اقترحوا آية ، ثم جاء الله بالآية ، فإن كذبوا بها أخذهم أخذ عزيز مقتدر ولايؤجل ذلك للآخرة .

والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ﴾

(من الآية ٣٣ سورة الأنفال)

(١) رواه مسلم واللفظ له فى الصلاة فى كتاب المساجد ، ورواه البخارى فى الصلاة ، ورواه أحمد ومعنى (يفتك) : يأخذ فى غفلة وخديعة وفى رواية (تفلّت) ومعنى (فذعته) بذال معجمة وتخفيف العين المهملة أى خنقته وفى رواية أخرى (فدعته) بالدال المهملة أى دفعته دفعاً شديداً ومعنى (سارية) إسطوانة

إذن فحتى الكفار به نالهم شيء من رحمته .

﴿ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

هنا يبلغ الحق رسوله أن يقول لهم : أنا لاآتى بالآيات من عندى ولاآتى بها بقانون قدرتى ؛ لأن قانون قدرتى مساوٍ لكم . ولست متفوقا عنكم غير أنه يوحى إلىّ وأبلغكم ما أرسلت به إليكم . إنّ الله هو الذى يناولنى آيات القرآن ، ولا يوجد خلق يقترح على الله الآية ؛ لأن ماسبق فى الرسالات السابقة يؤكد أن الحق إذا ما استجاب لآية طلبها الخلق ولم يؤمنوا فسبحانه يهلكهم ويستأصلهم أو يغرقهم أويرسل عليهم ريحا صرصرا أو يخسف بهم الأرض ، والحق هو القائل :

﴿ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴾

(من الآية ٥٩ سورة الإسراء)

إذن فبعض أهل الرسالات السابقة اقترحوا الآيات وحققها الله لهم ثم كذبوا بها . إذن فالتكذيب هو الأصل عندهم .

والمفروض أن تأتى الآية كما يريدها الله لا أن يقترحها أحد عليه . ولذلك يأمر الحق رسوله أن يبلغهم : « قل إنما الآيات عند الله » ثم يأتى خطاب جديد لأناس يختلفون عن المشركين هم المؤمنون ، فيقول الحق لهم: « وما يشعركم أنها إذا جاءت لايؤمنون » فكأنهم حينما قال أهل الشرك ذلك أراد المؤمنون أن يخففوا عنتهم مع رسول الله فقالوا له : يارسول الله ، اسأل الله أن ينزل لهم آية حتى نرتاح من لجاجتهم ، فيتجه الله بالرد على من قرظ هذا السؤال موضحا : أنتم مؤمنون وظنكم حسن ، وفكرتكم طيبة فى أنكم تريدون أن تكسروا حدة العنت ، لكن مايشعركم : أى مايعلمكم أن الآية التى اقترحوها إن جئت بها لايؤمنون . فكأن المؤمنين أيدوا قول هؤلاء المشركين فى طلب الآية منعا للجاج .

فهرست آيات المجلد السادس

سورة الأنعام	الصفحة	سورة الأنعام	الصفحة	سورة الأنعام	الصفحة
الآيـة : ٤٨	٣٦٢٦	الآيـة : ٧١	٣٧١٩	الآيـة : ٩٤	٢٧٩٨
الآيـة : ٤٩	٣٦٣٢	الآيـة : ٧٢	٣٧٢٣	الآيـة : ٩٥	٢٨٠٠
الآيـة : ٥٠	٣٦٣٣	الآيـة : ٧٣	٣٧٢٥	الآيـة : ٩٦	٢٨٠٨
الآيـة : ٥١	٣٦٤٤	الآيـة : ٧٤	٣٧٣١	الآيـة : ٩٧	٢٨١٣
الآيـة : ٥٢	٣٦٤٦	الآيـة : ٧٥	٣٧٣٨	الآيـة : ٩٨	٢٨١٦
الآيـة : ٥٣	٣٦٥١	الآيـة : ٧٦	٣٧٤٨	الآيـة : ٩٩	٢٨٢٠
الآيـة : ٥٤	٣٦٥٤	الآيـة : ٧٧	٣٧٤٩	الآيـة : ١٠٠	٢٨٢٩
الآيـة : ٥٥	٣٦٥٩	الآيـة : ٧٨	٣٧٥٠	الآيـة : ١٠١	٢٨[illegible]
الآيـة : ٥٦	٣٦٦٢	الآيـة : ٧٩	٣٧٥٣	الآيـة : ١٠٢	٢٨٣٨
الآيـة : ٥٧	٣٦٦٤	الآيـة : ٨٠	٣٧٥٤	الآيـة : ١٠٣	٢٨٤١
الآيـة : ٥٨	٣٦٦٧	الآيـة : ٨١	٣٧٥٦	الآيـة : ١٠٤	٢٨٤٧
الآيـة : ٥٩	٣٦٦٨	الآيـة : ٨٢	٣٧٥٨	الآيـة : ١٠٥	٢٨٤٩
الآيـة : ٦٠	٣٦٧٢	الآيـة : ٨٣	٣٧٦٤	الآيـة : ١٠٦	٢٨٥١
الآيـة : ٦١	٣٦٧٥	الآيـة : ٨٤	٣٧٦٨	الآيـة : ١٠٧	٢٨٥٢
الآيـة : ٦٢	٣٦٨٥	الآيـة : ٨٥	٣٧٧٠	الآيـة : ١٠٨	٢٨٥٤
الآيـة : ٦٣	٣٦٨٨	الآيـة : ٨٦	٣٧٧٠	الآيـة : ١٠٩	٢٨٦٤
الآيـة : ٦٤	٣٦٩٦	الآيـة : ٨٧	٣٧٧٠		
الآيـة : ٦٥	٣٦٩٧	الآيـة : ٨٨	٣٧٧٢		
الآيـة : ٦٦	٣٧٠٠	الآيـة : ٨٩	٣٧٧٤		
الآيـة : ٦٧	٣٧٠٤	الآيـة : ٩٠	٣٧٧٥		
الآيـة : ٦٨	٣٧٠٨	الآيـة : ٩١	٣٧٧٨		
الآيـة : ٦٩	٣٧١١	الآيـة : ٩٢	٣٧٨٢		
الآيـة : ٧٠	٣٧١٢	الآيـة : ٩٣	٣٧٩٤		

والنص القرآنى جاء بقوله الحق : « لا يؤمنون » وجاء العلماء عند هذه المسألة واختلفوا ، وجزى الله الجميع خيرا ؛ لأنها أفهام تتصارع لتخدم الإيمان . ونسأل : ما الذى يجعل الأسلوب يجىء بهذا الشكل ؟ ونقول : إنها مقصودات الإله حتى نعيش فى القرآن . لا أن نمر عليه المرور السريع . والأسلوب فى قوله : « وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون » هو دليل على أنه ليس لكم علم . وقلنا : إن الشعور يحتاج إلى إدراك ومواجيد ونزوع ، فعلى أى أساس بنيتم شعوركم هذا ؟ أنتم أخذتم ظاهر كلامهم ، ولكن الحق يعلم ويحيط بما يخفون ويبطنون . وكأنه سبحانه يوضح أن طلب الآية إنما هو تمحيك . وأنتم لا تعلمون أن الله إن جاء لهم بالآية فلن يؤمنوا .

وبعض من المفسرين قال : إن (لا) زائدة ومنهم من كان أكثر تأدبا فقال : (لا) صلة لأنهم خافوا أن يقولوا : (لا) زائدة وقد يأخذ البعض بمثل هذا القول فيحذفها ، لذلك أحسنوا الأدب ؛ لأن الذى يتكلم هو الإله وليس فى كلامه حرف زائد بحيث لو حذفته يصح الكلام ، لا . إنك إذا حذفت شيئا فالكلام يفسد ولا يؤدى المراد منه ؛ لأن لله مرادات فى كلامه ، وهذه المرادات لابد أن يحققها أسلوبه . والمثال فى حياتنا أن يقول لك واحد : « ما عندى مال » أو ما عندى من مال ؟ إن « من مال » هنا ابتدائية أى ما عندى من بداية ما يقال : إنه مال ، أما من يقول : « ما عندى مال » أى ليس عنده ما يعتد به من المال الذى له خطر وقيمة ، بل عنده قروش مما لا يقال له : مال . إن فى جيبه القليل من القروش .

و « لا » فى هذه الآية جاءت لأن الحق يريد أن يقول للمؤمنين : ما يعلمكم يا مؤمنون أننى إذا جئت لهم بالآية يؤمنون ، فكأنه سبحانه ينكر على المؤمنين تأييد مطلب الكافرين . وقد تلطف الحق مع المؤمنين وكرم حسن ظنهم فى التأييد لأنهم لا يؤيدون الطلب حبا فى الكفار ، بل حبا فى النبى والمنهج ، وكأن الحق يقول لهم : أنا أعذركم لأنكم تأخذون بظاهر جهد اليمين « وأقسموا بالله جهد أيمانهم » ومبالغتهم فيه . ولا أنكر عليكم تصديقكم لظاهر قولهم ؛ لأن هذا هو مدى علمكم ، وما أدراكم أننى إذا جئت بالآية أنهم أيضا لن يعلنوا الإيمان . ولو كنتم تعلمون ما أعلم لعرفتم أنهم لن يؤمنوا . إذن حين جاء الأسلوب بـ « لا يؤمنون » فـ « لا » حقيقية وليست زائدة . ومن أجل أن يطمئن الحق المؤمنين أظهر لهم أن علمه الواسع يعلم حقيقة أمرهم يقول :

﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾

وحين تقول : أنا أقلب السلعة فهذا يعنى أنك تفحصها . والحق يبلغنا هنا : أنا قلبت قلوبهم على كل لون ولن آخذ بظاهر الفؤاد ، بل بلطفى وعظيم خبرتى أعلم الباطن منهم فاطمئنوا إلى أن حكمى هو الحكم الحق الناتج من تقليب لطيف خبير .

وقد يكون هنا معنى آخر ، أى أن يكون التقليب لونا من التغيير ؛ فمن الجائز أنهم حينما أقسموا بالله جهد أيمانهم كانوا فى هذا الوقت قد اقتربوا من الإيمان ولكن قلوبهم لا تثبت على عقيدة . بل تتقلب دائما . ومادامت قلوبهم لا تثبت فأنى لنا بتصديقهم لحظة أن أقسموا بالله جهد أيمانهم على إعلان الإيمان إن جاءت اية ؟ وهل فيهم من يملك نفسه بعد مجىء الآية أيظل أمره كذلك أم يتغير ؟ . لأن ربنا مقلب القلوب وما كنت تستحسنه أولا قد لا تستحسنه ثانيا . حين « نقلب أفئدتهم وأبصارهم » أى أن الحكم قد جاء عن خبرة وإحاطة علم (ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة) .

إن الإيمان يحتاج إلى استقبال آيات كونية بالبصر ، وبعد أن تستقبل الآيات الدالة على عظمة الإله تؤمن به ويستقر الإيمان فى فؤادك . وسبحانه يوضح لنا أنه يقلب أفئدتهم وأبصارهم ، هل يبصرون باعتبار واقتناع ؟ أو هى رؤية سطحية لا فهم لهم فيها ولا قدرةمنهم على الاستنباط ؟ وهل أفئدتهم قد استقرت على الإيمان أو أن أبصارهم قاصرة وقلوبهم قاصرة ؟

﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

إذن فهم لا يؤمنون ويسيرون إلى ضلالهم . فإن جاءت آية فلن يؤمنوا ، وفى هذا عذر للمؤمنين فى أنهم يرجون ويأملون أن تنزل آية تجعل من أقسموا جهد الإيمان أن يؤمنوا .

لماذا ؟ لأن الحق قال : « كما لم يؤمنوا به أول مرة » ، أى أنهم لم يتغيروا ولذلك يصدر ضدهم الحكم « ونذرهم فى طغيانهم يعمهون » والطغيان هو تجاوز الحد ، وهم قد تجاوزوا الحد هنا فى استقبال الآيات ، فقد جاءتهم آيات القرآن وعجزوا عن أن يأتوا بمثلها ، وعجزوا عن أن يأتوا بعشر سور ، وعجزوا عن أن يأتوا بسورة ، وكان يجب ألا يطغوا ، وألا يتجاوزوا الحد فى طلب الاقتناع بصدق الرسول .

« ونذرهم فى طغيانهم يعمهون » و « العمه » هو التردد والحيرة ، وهم فى طغيانهم يترددون ، لأن فيهم فطرة تستيقظ ، وكفرا يلح ؛ يقولون لأنفسهم : أنؤمن أو لا نؤمن ؟ والفطرة التى تستيقظ فيهم تلمع كومضات البرق ، وكان يجب ألا يترددوا : أو « ونقلب أفئدتهم وأبصارهم » فى النار ؛ لأن البصر لم يؤد مهمته فى الاعتبار ، والقلب لم يؤد مهمته فى الفقه عن الله ، فيجازيهم الله من جنس ما عملوا بأن يقلب أبصارهم وقلوبهم فى النار .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾ ﴾

هنا يوسع الحق المسألة . فلم يقل : إنهم سوف يؤمنون ، بل قال : « ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة » مثلما اقترحوا ، أو حتى لو كلمهم الموتى ، كما قالوا من قبل :

﴿ فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾

(سورة الدخان)

ويأتى القول : « وحشرنا عليهم كل شىء » و « الحشر » يدل على سوق بضغط مثلما نضع بعضا من الكتب فى صندوق من الورق المقوى ونضطر إلى أن نحشر كتابا لا مكان له ، إذن : الحشر هو سوق فيه ضغط ، وهنا يوضح الحق : لو أننى

أحضرت لهم الآيات يزاحم بعضها بعضا وقدرتى صالحة أن آتى بالآيات التى طلبوها جميعا لوجدت قلوبهم مع هذا الحشر والحشد تضن بالإيمان .

« وحشرنا عليهم كل شىء قبلا » و« قبلا » هى جمع « قبيل » ، مثل سرير وسُرُر .

« وحشرنا عليهم كل شىء قبلا » . وهذا يعنى أن الحق إن جاء لهم بكل ما طلبوا من آيات ، وكأن كل آية تمثل قبيلة والآية الأخرى تمثل قبيلة ثانية ، وهكذا . فلن يؤمنوا ، أو « قُبُلا » تعنى معاينة أى أنهم يرونها بأعينهم ، لأن فى كل شىء دُبُرا وقُبُلًا ؛ والقُبُل هو الذى أمام عينيك ، والدبر هو من خلفك . فإن حشرنا عليهم كل شىء مقابلا . ومعاينا لهم فلن يؤمنوا . وإن أخذتها على المعنى الأول أى أنه سبحانه إن حشد الآيات حشدا وصار المُعْطى أكثر من المطلوب فلن يؤمنوا . وإن أردت أن تجعلها مواجَهةً ، أى أنهم لو رأوْا بعيونهم مواجهة مَن أمامهم فلن يؤمنوا .

﴿ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾

(من الآية ١١١ سورة الأنعام)

وجاء الحق هنا بمشيئته لأن له طلاقة القدرة التى إن رغب أن يرغمهم على الإيمان فلن يستطيعوا رد ذلك ، ولكن الإرغام على الإيمان لا يعطى الاختيار فى التكليف ولذلك قال سبحانه :

﴿ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ۝ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ۝ ﴾

(سورة الشعراء)

والله لا يريد أعناقا تخضع ، وإنما يريد قلوبا تخشع . لذلك يذيل الحق الآية بقوله : « ولكن أكثرهم يجهلون » . والجهل يختلف عن عدم العلم ، بل الجهل هوعلم المخالف ، أى أن هناك قضية والجاهل يعلم ما يخالفها ، أما إن كان لا يعلم القضية فهذه أمية ويكفى أن نقولها له حتى يفهمها فورا . لكنْ مع الجاهل هناك مسألتان : الأولى أن نزيل من إدراكه هذا الجهل الكاذب ، والأخرى أن نضع فى

إدراكه القضية الصحيحة ، وما دام أكثرهم يجهلون . فهذا يعنى أنهم قد اتبعوا الضلال .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾

« و كذلك » إشارة من الحق سبحانه وتعالى إلى الرسل والأنبياء ليعطى الأسوة للرسول بإخوانه السابقين له فى موكب الرسالات ، فلست بدعا ـ يا محمد ـ فى أنك رسول يُواجَه بأعداء ، فكل رسول من الرسل ووجه وقوبل بهؤلاء الأعداء .

وهل فَتّ أعداء الرسل فى عضد مَن أرسل إليهم وأضعفوا قوتهم وأوهنوا عزائمهم وأثنوهم عن دعوتهم ؟ أو ظل الرسل أيضا صامدين ؟ . . إنهم صمدوا وأيدهم الله ونصرهم وإذا كنت أنت خاتم الرسل ، وسيد المرسلين ، والمعقب على رسالات سبقتك ولا معقب على رسالتك فلابد أن يكون الأعداء الذين يواجهونك مناسبين للمهمة التى تؤديها . وإياك أن تظن أن المقصد فى هذه العداوة أننا تركناهم أعداء لمجرد العداء ، لا ، بل نحن قد أردنا هذه العداوة لصالح الدعوة ؛ لأن الإنسان إذا ما كان فى منهج خير وأهاجه الشر يتحمس لمزيد من الخير . ولذلك لا تجد الصحوات الإيمانية إلا حين يجد المؤمنون تحديا من خصومهم ، هنا تجد الصحوة الإيمانية قد استيقظت لأن هناك خصوما يتحدونها ، ولو لم يكن هناك خصوم لبقيت الصحوة فاترة . وهذا ما نراه حين يوجد من خصوم الإسلام من أى لون من ألوانهم مَن يتحدى أى قضية من قضايا الدين . فى هذه الحالة نجد حتى غير الملتزم بمنهج الإسلام يغار على الدين .

إذن فالعداوة لها فائدة ، وإياك أن تظن أن فى أى مظهر فى الوجود يُغلب الله على مراداته فى كونه ، والشر له رسالة لأنه لولا أن الشر موجود ويصاب الناس من أذاه لما تحمس الناس للخير ، فالذى يجعلنا نتحمس للخير هو وجود الشر ، وأوضحنا من قبل أن الباطل جندى من جنود الحق ؛ لأن الباطل حين يعض ويعربد فى الناس يتساءل الناس متى يأتى الحق لينقذنا ، وأنك ساعة ترى مريضا يتألم إياك أن تظن أن الألم قد جاءه دون سبب ، بل الألم جندى من جند الشفاء . وكأن الألم يقول لمن يصيبه : يا إنسان تنبه أن عطبا فى هذا المكان فسارع إلى علاجه . ولذلك نجد أعنف الأمراض وأشرسها وأخبثها ، هى الأمراض التى تأتى بلا ألم يسبقها ، ولا تظهر أعراضها إلا بعد أن يستعصى شفاؤها ، وهكذا نرى أن الألم جندى من جنود العافية .

وحين يكون لك عدو فى الحارة أو فى البلدة وعيونه مركزة عليك فأنت تخاف أن تقع منك هَنة وعيب حتى لا يشنّع عليك ؛ لذلك تسير على الصراط المستقيم لأنك لا تريد أن تنصره على نفسك .

والشاعر القديم ، الذى أعجبه الشعر فشطره . يقول لك :

عداى لهم فضل علىّ ومنة ... فعندى لهم شكر على نفعهم ليا
فهم كدواء والشفاء بمرّه ... فلا أبعد الرحمن عنى الأعاديا
همُ بحثوا عن زلّتى فاجتنبتها ... فأصبحت مِمًّا دنس العرض خاليا
وهم أججوا جهدى ولكن ببغضهم ... وهم نافسونى فاكتسبت المعاليا

لذلك لابد أن تنظر إلى كل شىء بحكمة إيجاد الحكيم له فقد شاء الحق أن يوجد الأعداء للدعوة الإسلامية حتى تنتصر وتقوى .

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

وجعل الحق سبحانه وتعالى الأعداء للأنبياء ، مهيِّجين ومثيرين للنبى ولأتباعه ؛ لأن الأمر إذا حصلت فيه معارضة من مخالف أججت فى نفس المقابل قوة حتى لا يهزم

أمامه ولا يغلب أمام منطقه . ولذلك قال الحق : « وكذلك جعلنا » أى أنهم لم يتطوعوا بالعداوة إنما هو تسخير للعداوة « جعلنا لكل نبى عدوًّا » .

وكيف يجعل الله لكل نبى عدوًّا ؟ إنه يفعل ذلك بما أودع فى الناس من الاختيار ، وما داموا مختارين فالذى اختار الهدى يكون نصيراً للنبى ، والذى اختار الضلال يكون عدوًّا للنبى .

إذن فهم لم يكونوا أعداء بطبيعتهم ، وإنما بما أودع الله فيهم من الاختيار .

وإذا كان الله هو الذى أودع الاختيار فقد أراد أن يحقق مشيئته فى قوله :

﴿ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ ﴾

(من الآية ٤٢ سورة الأنفال)

ولو شاء الله ألا يكون للنبوة أعداء لفعل ذلك ؛ لأن له طلاقة القدرة ، ولكن ذلك سيكون بالقهر ، والله لا يريد قهراً للعقلاء ، وإنما يريد أن يذهبوا إليه بمحض اختيارهم ؛ أى وهم قادرون على ألا يذهبوا . وكلمة « عدو » فى ظاهرها أنها مفرد ، ولكنها تطلق على الواحد ، وتطلق على الاثنين ، وتطلق على الجماعة ، فتقول : « هذا عدو لى » ؛ و « هذه عدو لى » ؛ ولا تقل « عدوة » ، وتقول : وهذان عدو لى ، وهاتان عدو لى ، وهؤلاء عدو لى ، لأن كلمة « عدو » تطلق على الذكر والأنثى وتقال للمفرد وللمثنى ، وللجمع .

اقرأوا قول الحق :

﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾

(سورة الشعراء)

واقرأوا قول الحق :

﴿ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾

(من الآية ١٢٣ سورة طه)

ولم يقل أعداء ، إذن فكلمة « عدو » تطلق على المفرد والمفردة ، والمثنى والمثناة ،

وعلى جمع المذكر ولجمع المؤنث . لكن بعض الذين يحبون أن يكونوا مستدركين على كلام الله . يقول الواحد منهم : كيف يقول : « فإنهم عدو لى » ، أو « اهبطوا بعضكم لبعض عدو » ؟! ويقول سبحانه وتعالى :

﴿ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾

(من الآية ٢٢ سورة الأعراف)

والشيطان عدو ، وهم عدو . وبعد ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا ﴾

(من الآية ١٠٣ سورة آل عمران)

ونقول له : أنت قد فاتك أن الذى يتكلم هو الرب الأعلى . والعداوة نوعان ، فإذا تعدد العدو ، وجمعته مصلحة واحدة فى معاداة المعادى يكونون وحدة فى العداوة فهم عدو واحد لاجتماعهم على سبب واحد فى العداوة . لكن إذا تعددت أسباب العداوة فالأمر يختلف ، فقد يكون لك عدو لأن مظهرك أحسن منه ، وعدو آخر لأنك أذكى منه ، وعدو ثالث لأنك أغنى منه . فلتعدد الأسباب صار كل واحد منهم عدوًّا برأسه وجمع على أعداء لتعدد سبب العداوة .

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ﴾

(من الآية ١١٢ سورة الأنعام)

وشياطين الإنس والجن كما يقول النحاة بدل من عدو و « شياطين » جمع شيطان وهو اللعين المطرود ، البغيض ، سواء أكان من الإنس أم من الجن .

« يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً » والوحى ـ كما نعرف ـ هو إعلام بخفاء ، ولماذا يوحى بعضهم إلى بعض ؟ لأن غلبة الحق لا تجعلهم قادرين على أن يتجاهروا ؛ لذلك يتآمرون مع بعضهم البعض ، لكن الناس المحقين فى قضية يتحركون فى علانية . ولا يستخفون من الناس .

« يوحى بعضهم إلى بعض » ومن الذى يوحى ؟ ومن الذى يوحى إليه ؟ ليس لنا دخل بهذا الموضوع ، إنما الوحى : هو إعلام بخفاء ، إن كان إلهاماً فى النفس ، أو إن كان بالإشارة أو بالدس ، أو إن كان بالوسوسة ، أو إن كان بواسطة رسول نحن لا نراه ، كل ذلك أساليب الوحى الشامل للخير والشر .

وإذا كان الوحى من شياطين الجن فهل يوحون إلا بِشَرّ ؟ نعم . وكذلك هناك شياطين من الإنس يوحون أيضاً بشرّ . مصداقاً لقوله الحق : « يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول » وزخرف القول ، المقصود به أنهم يدخلون على المسائل بالتزيين ، فيزينون للناس الشهوة ، ولذلك سماها ربنا « وسوسة » ، ونعلم أن المعانى حين يؤخذ لها ألفاظ تؤخذ من الأشياء الحسيّة ، والوسوسة هى صوت الحلى ، وقد اختار الله لما يفعله الشياطين من الإنس والجن اللفظ الموحى بالمعنى المراد لأن وسوسة الحلى تغرى بالنفاسة وعظم القيمة ، والوسوسة طريقها هو الخفاء .

« يوحى بعضهم إلى بعض » وهم شياطين من الإنس والجن ، إنس يوحى لإنس بأن يزين له المعصية والشهوة ، وكثيراً ما يقع ذلك .

وجنّى يوحى لجنّى ؛ لأن الجن مكلَّف أيضاً . وكذلك يوحى الجن للإنس

« يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول » الزخرف . هو الشىء المزين ظاهره لكن باطنه فاسد ، ولذلك قال عز وجل :

﴿ وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾

(من الآية ٣٥ سورة الزخرف)

أى أموراً مزخرفة ظاهراً ، لكن ليس لها عمق أو عمر أو نفاسة .

﴿ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ﴾

(من الآية ١١٢ سورة الأنعام)

وذلك ليغروهم ويخدعوهم ليفعلوا ويقترفوا المعصية ، وإن لم يأتوا للمعصية بكلمات تزخرفها وتزينها فلن يستطيعوا أن يدخلوا بها على الناس ؛ لذلك يعرضون ويبدون محاسن المعصية فى ظاهر الأمر ، مثال ذلك أنك لا تجد من يقول لآخر :

اشرب الخمر لتصاب بتليف الكبد مثلا !! ولكن هناك من يقول : احتس الخمر ليذهب همك وتنشط نفسك ويكثر فرحك .

« زخرف القول غروراً » أى ليغروهم ؛ بإظهار فائدة موهومة فيه ، ويسترون عن الناس مضرّة هذا الشىء ومهالكه .

ويتابع سبحانه : « ولو شاء ربك ما فعلوه » إنّ الحق سبحانه وتعالى هوالذى أعطى خلقه اختياراً فى أن يكونوا مؤمنين أو أن يكونوا كافرين ، مهديين أو ضالين ، فى نور أو فى ظلمة . ويأتى الوقت الذى يثيب فيه سبحانه أو يعاقب ؛ لذلك فهو ـ جل شأنه ـ لا يرغمهم على فعل ثم يعاقبهم عنيه ؛ لأنه هو العدل . ولذلك نجد من يقول : لماذا العقاب ولا شىء فى الكون يقع على غير مشيئةالله ؟ ونقول : نعم كل شىء من فعل الله ؛ لأن سبب الاختيار من الله . وسبحانه هو الذى خلق الاختيار . فالكافر لا يقدر أن يؤمن إلا إن شاء الله ، لكن المطلوب منه أن يؤمن لأن طبيعته صالحة للكفر وصالحة للإيمان .

إذن خلق الله الإنسان مختاراً فى أن يفعل أو لا يفعل فى بعض الأمور ، فالذى ينظر إلى أن كل فعل من الله أى ليس بطاقة من عبد ، نقول له : صح رأيك . ومن يقول : إن هذا الأمر من العباد نقول له أيضاً : صح موقفك ؛ لأن ربنا خلق الإنسان صالحاً لأن يحصل منه كذا ويحصل منه كذا . فإن أردت الحقيقة تجد كل فعل يأتى من الله ، فأنت ـ على سبيل المثال ـ لم تخلق القوة التى لليد لترتفع ، ولا خلقت القوة للأصابع لتنقبض . وإذا أردت أن تقبض يدك . فما هى العضلات التى تتحرك لتفعل الانقباض ؟ أنت لا تعرف . إنّك تقبض يدك بمجرد إرادة منك أن تقبضها ، والذى خلق لك هذه القوة يأمرك ألا تستعملها فى قهر الآخرين ، ولكن عليك أن تستعملها فيما يفيد الناس . واليد صالحة للضرب وللعمل الطيب وأنت لم تخلق الطاقة التى فى اليد ،ولا خلقت الانفعال فيها لإرادتك .

« ولو شاء ربك ما فعلوه » أى لو شاء عدم فعله لفعل ؛ لأن له طلاقة القدرة فلا يقدر أحد أن يخرج عن مراده أبداً . ونحن نرى السماء والأرض وكل ما دون الإنسان مسخراً ، ثم لماذا نأخذ أمثلة من السماء والأرض والنبات والجماد والحيوان ؟ خذ المثال من نفسك . أنت فيك أشياء ليس لك سيطرة عليها ، ولا اختيار لك عليها ، ألك اختيار أن تمرض ؟ . لا .

ألك اختيار أن يقع عليك حجر وأنت تمشى ؟ . لا .
ألك اختيار فى أن يصيبك سائق سكران ؟ . لا .

ألك اختيار فى أن تموت أو لا تموت ؟ . لا . لقد جعل الله فيك الأمرين الاثنين : قهرك فى أمور والقهرية تثبت له ـ سبحانه ـ القدرة وطلاقتها ، وجعلك مختارا فى أشياء ، والاختيار يثبت صحة التكليف .

ويتابع الحق مذيلاً الآية : « فذرهم وما يفترون » لأن افتراءهم وكذبهم وزعمهم الباطل لن يغير من حقيقة الأمر شيئاً ، وهم يرون أن افتراءهم يعوق الدعوة ، لا ، فقد صار افتراؤهم وكيدهم وعداوتهم للنبى وقوداً مهيّجاً للدعوة ؛ لأنه يخلص الدعوة من الشوائب ويصهر المؤمنين بها ويخرج منهم خصال الشر ويملأهم بخلال الخير .

﴿ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾

(من الآية ١٧ سورة الرعد)

ولو لم يكن هناك مهيّجات لهذه المسائل لدخل الدعوة العاطل والباطل ولاندس فينا من لا يعرف قيمة الإيمان ؛ لذلك يمحص الله الدعوة بالأعداء وبالقوم الذين يقفون أمامها حتى لا يكون فى حملة الدعوة أحد من ضعاف العقائد وضعاف الإيمان ، وهم الذين يخرجون هرباً من مسئوليات الإيمان ولا يبقى إلا أصحاب الرسالة الذين يخلصون الصدق مع الله وينقيهم الله بواسطة الأعداء . ولذلك قال :

﴿ لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا ﴾

(من الآية ٤٧ سورة التوبة)

فمن الحكمة أنه ـ سبحانه ـ ثبط عزيمتهم وضعّف رغبتهم فى الانبعاث والخروج معكم .

﴿ وَلَوْ أَرَادُواْ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةً وَلَـٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْقَـٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾

(سورة التوبة)

وهنا يقول الحق : « يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول » وزخرف القول هو لون من الأداء له سُمَّاع ، ومن يسمعونه قد لا يؤثر فى قلوبهم ولا فى نفوسهم ، ومرة أخرى يسمعونه ويكون عندهم ميل وليس عندهم عقيدة ثابتة راسخة إلى هذا القول .

وكيف يسلك هؤلاء الناس :

﴿ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾

كأن من يؤمن بالآخرة لا يقرب منه الزخرف أبداً ولا يميل إليه . وإن زُينت له معصية فإنه يتساءل : كم ستدوم لذة هذه المعصية ؟ دقيقتين ، ساعة ، شهراً ؛ وماذا أفعل يوم القيامة الذى يكون فيه الإنسان إمّا إلى دخول الجنة وإمّا إلى دخول النار . إذن فمن يؤمن بالآخرة لا تتقبل أذنه ولا فؤاده هذا الزخرف من القول ، ولا يتقبله إلا من لا يؤمن بالآخرة ، وهو لا يعرف إلا الدنيا ، فيقول لنفسه : فلتتمتع فى الدنيا فقط ، ولذلك لو استحضر كل مؤمن العقوبة على المعصية ما فعلها ، وهو لا يفعلها إلا حين يغفل عن العقوبة . وإذا كنا فى هذه الدنيا نخاف من عقوبة بعضنا بعضاً ، وقدراتنا فى العقوبة محدودة ، فما بالنا بقدرة الرب القاهرة فى العقوبة ؟! ولذلك نجد الذين يجعلون الآخرة على ذكر من أنفسهم وبالهم إذا عرضت لهم أى معصية ، يقارنونها بالعقاب ، فلا يقتربون منها . (ولتصغى إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة وليرضوه وليقترفوا ما هم مقترفون) .

والإصغاء هو ميل الأذن إلى المتكلم ؛ لأنك قد لا تسمع من يتكلم بغير إصغاء ، وحين يسير الإنسان منا فى الطريق فهو يسمع الكثير ، لكن أذنه لا تتوقف عند كل ما يسمع ، بل قد تقف الأذن عندما يظن الإنسان أنه كلام مهم . ولذلك يسمونه التسمع لا السمع ، وهذا هوالإصغاء . ولذلك يقول النبى عليه الصلاة والسلام : من تسمع غانية ـ أى امرأة تغنى بخلاعة ـ ولم يقل : « من سمع » ، والإنسان منا قد يسير ويذهب إلى أى مكان والمذياع يذيع الأغانى ، ويسمعها الإنسان ، وآلة إدراك

السمع منطبقة وليست مفتوحة ؛ فهو لا يتصنت ، وآلة إدراك الانطباقية أو الانفتاحية مثل العين ؛ فالعين لا ترى وهى مغمضة ، إنها ترى وهى مفتوحة ، والعين تغمض بالجفون أما الأذن فليس لها جفون يقول لها : لا تسمعى هذه ، وهذه اسمعيها .

إذن فالسمع ليس للإنسان فيه اختيار ، لكن التسمع هو الذى له فيه اختيار .

﴿ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

كأن فيه شيئا ينبع طلب السمع فيه من الفؤاد ، أى يوافق ما فى الأعماق ، وشيئا آخر يمر عليه الإنسان مر الكرام غير ملتفت إليه . والأفئدة هى القلوب ، صحيح أن الآذان هى التى تصغى ، لكن القلوب قد تتسمع ما يقال ، وكأن النفس مستعدة لهذه العملية ؛ لأنها لا تؤمن بأن هناك آخرة وعندها استعداد لأن تأخذ لذة الدنيا دون التفات للآخرة . ولذلك ينقل الحق سبحانه الإصغاء من الأذن إلى الفؤاد وهذا إدراك .

﴿ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾

(من الآية ١١٣ سورة الأنعام)

ثم تأتى المرحلة الثانية والمرحلة الثالثة :

﴿ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴾

(من الآية ١١٣ سورة الأنعام)

وقد يصغى إنسان ، ثم تتنبه نفسه اللوامة ، ويمتنع عن الاستجابة . لكن هناك من يصغى ويرضى وجدانه ويستريح لما يسمع ، ثم ينزع للعمل ليقترف الإثم . وهذه ثلاث مراحل : الأولى هى : « ولتصغى إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة » . ثم المرحلة الثانية : « وليرضوه » ، ثم المرحلة الأخيرة : « وليقترفوا » أى يرتكبوا الإثم ، وهذه المسألة حددت لنا المظاهر الشعورية التى درسها علماء النفس فالإدراك ؛ « لتصغى » ، والوجدان ؛ « ليرضوه » ، والنزوع ؛ « ليقترفوا » .

وقبل أن يولد علم النفس جاء القرآن بوصف الطبيعة البشرية بمراحلها المختلفة من إدراك ووجدان ، ونزوع ، والشرع لا يتدخل عند أى مظهر من مظاهر شعور المرء إلا عند النزوع إلا فى حالة واحدة حيث لا يمكن فصل النزوع عن الوجدان وعن الإدراك ؛ لذلك يتدخل الشرع من أول الأمر ، وهو ما يكون فى عملية نظر الرجل إلى المرأة ؛ لأنك حين تنظر تجد فى نفسك : تحبها وتعشقها تفتن بها ، ويحرّم عليك النزوع ، فحين تتقدم ناحيتها يقول لك الشرع : لا . ولأن هذا أمر شاق على النفس البشرية ، ولا يمكن فصل هذه العمليات ؛ لأنه إن أدرك وَجِد ، وإن وَجِد نزع ، فأمر الحق بالامتناع من أول الأمر :

﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ ﴾

(من الآية ٣٠ سورة النور)

﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَـٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَـٰرِهِنَّ ﴾

(من الآية ٣١ سورة النور)

إذن فقد منع الإدراك من بدايته ولم ينتظر حتى النزوع ، لماذا ؟ لأن الإدراك الجمالى فى كل شىء يختلف عن الإدراك الجمالى فى المرأة . الإدراك الجمالى فى المرأة يُحدث عملية كيماوية فى الجسم تسبب النزوع ، ولا يمكن فصلها أبدا . (ولتصغى إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة وليرضوه وليقترفوا ما هم مقترفون) .

وساعة ما نقول : « ما » ويأتى الإبهام فهذا دليل على أن هناك أموراً كثيرة جدًّا . ولذلك يقول الحق :

﴿ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴾

(من الآية ٧٨ سورة طه)

أى أنه أمر لا يمكن أن تحدده الألفاظ ، مثله مثل قوله : (وليقترفوا ما هم مقترفون) .

أى أن كل واحد يقترف ويكتسب ويعمل ويرتكب ما يميل إليه ؛ فهناك من يغتاب أو يحسد أو يسرق وغير ذلك من شهوات النفس التى لا تحدد ؛ لذلك جاء لها باللفظ الذى يعطى العموم .

وما دامت المسألة فى نبوّة واتباع نبوّة ، وفى أعداء شياطين من الإنس والجن

ويوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً إذن فهذه معركة ، وحتى يتم الفصل فيها لابد من حاكم يحكم . فأوضح الحق : يا محمد أنا أرسلتك ، ولك أعداء وسيكيدون لك بكذا وكذا ويبذلون قصارى جهدهم فى إيذائك ومن اتبعك ، فإياك أن تبتغى حكما غيرى ؛ لأنى أنا المشرع وأنا من أحكم ، وأنا الذى سوف أجازى .

لماذا ؟ لأن الخلاف على ما شرع الله ، ولا يستقيم ولا يصح أن يأتى من يقول مراد المقنن كذا ، أو المفسر الفرنسى قال كذا ، والمفسر الإنجليزى قال كذا ، لا ، إن الذى يحكم هو من وضع القانون ، ومراداته هو أعلم بها ، والحق الواضح هو أعلم به ، وسبحانه هو من يحكم ، والرسول صلى الله عليه وسلم يقول :
(إنما أنا بشر وإنكم تختصمون إلى فلعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضى له على نحو ما أسمع ، فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هى قطعة من النار فليأخذها أو ليتركها)[1] .

أى إياك أن يقول واحد : إن النبى قد حكم ؛ لأن النبى صلى الله عليه وسلم قد حكم بظاهر الحجة ، وقد يكون واحد من المختصمين قوى الحجة ، والآخر لا يجيد التعبير عن نفسه . إذن فالحكم هو الله لأنه هو الذى قنن ، وما دام هو الذى قنن وهو الذى يحكم بينكم ، فليطمئن كل إنسان يتخاصم مع غيره ؛ لأن القضية يفصل فيها أعدل العادلين وأحكم الحاكمين .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾

فسبحانه هو من يحكم وهو من قنن ، وهو من يعلم القانون ويعلم من يتبع

(١) رواه مالك وأحمد والبخارى ومسلم وأبو داود والنسائى والترمذى وابن ماجه .

القانون ، ومن يخالف القانون . وساعة تقول : « أفغير الله أبتغى حكما » . فهذا دليل على أنك واثق أن مجيبك لن يقول لك إلا : لا تبتغى حكما إلا الله ، ولذلك يطرح المسألة فى صيغة استفهام ، ويقول صلى الله عليه وسلم : مبلغا عن ربه : « وهو الذى أنزل إليكم الكتاب مفصلا » ، ولم يقل رسول الله : وهو الذى أنزل علىّ الكتاب ، بل قال مبلغاً عن رب العزة : « وهو الذى أنزل إليكم الكتاب » كأن العداوة ليست لمحمد وحده ، لكنها العداوة لأمة الإيمان كلها ، والحكم لأمة الإيمان كلها . ومع أن القرآن نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم أولاً ، ولكن مهمته البلاغ إلى الناس والغاية منه للمؤمنين كلهم ، وهكذا تكون العداوة للنبى عداوة للمؤمنين كلهم ، ولذلك أنزل عليه الحق هذا التساؤل : « أفغير الله أبتغى حكماً » كما أنزل عليه من قبل القول الحق :

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ ﴾

(من الآية ١١٢ سورة الأنعام)

إذن فعدو النبى هوعدو للمؤمنين به والمتبعين له ، لكن قمة العداوة تكون للنبى المرسل من الحق :

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾

(من الآية ١١٤ سورة الأنعام)

وكلمة « من ربك بالحق » فيها إغراء للمؤمنين بأن كل الأمر يعود عليكم أنتم بالفائدة ؛ لأن غاية إنزال الكتاب لكم أنتم ، والكتاب جاء بهذا المنهج لصالحكم ولن يزيد فى صفات الله صفة ، ولن يزيد فى ملك الله ملكا . بل الغاية أنتم .

﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ ﴾

(من الآية ١١٤ سورة الأنعام)

وسبحانه لم ينزل الكتاب إلا بتفصيل لا تلتبس فيه مسألة بأخرى :

﴿ وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ الْكِتَـٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾

(من الآية ١١٤ سورة الأنعام)

والمقصود هنا بالذين آتيناهم الكتاب اليهود والنصارى ؛ لأنهم يعلمون صفاتك يا رسول الله ويعلمون نعتك ويعلمون الكثير من كتابك فكل ما يتعلق بك موجود عندهم لكن الآفة أنهم اعتنقوا دينين : دينا يعلن يبدونه ويظهرونه ، ودينا يُسَرّ به ، فما يسر به لا يعلنونه ويُحرِّمون السؤال فيه ، ولا يقبلون فيه نقاشاً ، وعندما تصل إلى الحقيقة وتعرضها عليهم لا يقبلونها ، وما الذى جعلهم يلتوون هكذا ؟ لأن لهم حالين اثنتين : حال أيام أن كانوا يعاديهم من لا يؤمن بالسماء ومنهج السماء كعبدة الأوثان والمشركين . وقال فيه الحق :

(وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا)

(من الآية ٨٩ سورة البقرة)

لقد كانوا من قبل أعداء للذين كفروا وأشركوا فكان همهم وشغلهم الشاغل أن ينتصروا على هؤلاء الكافرين ، وقالوا :

(أظل زمان نبى نتبعه ونقتلكم معه قتل عاد وإرم)

وحينما جاءهم ما عرفوا كفروا به لأنهم :

(اشتروا بآيات الله ثمنا قليلا)

(من الآية ٩ سورة التوبة)

وكان الثمن هو بقاء السلطة فى أيديهم ، وعندما تأتى النبوة تنزع منهم السلطة ، فليس فى الإسلام سيطرة لرجال الدين ولا كهنوت . وكانوا يريدون أن تستمر سيادتهم ، فاشتروا بآيات الله ثمنا قليلا .

﴿ وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ الْكِتَـٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾

(من الآية ١١٤ سورة الأنعام)

وهم يعلمون أنه منزل من ربك بالحق ، وهم يعلمون أن الذى يشيعونه هو باطل . إذن فهناك علم بينهم وبين نفوسهم ؛ وعلم آخر يقولونه للآخرين . وقوله الحق : « فلا تكونن من الممترين » أى الشاكين فى أن أهل الكتاب يعلمون أن القرآن منزل من عند ربك بالحق . هذا خطاب للنبى صلى الله عليه وسلم ، ونعلم أنه إذا طلب المتكلم من المخاطب أمرا هو فيه فالمراد المداومة عليه والزيادة ؛ لأن هناك أموراً قد تزلزل الإيمان ؛ لذلك يأتى الأمر بالثبات ، أوهو إهاجة له ، أوهو تسلية للمؤمنين إذ قال لهم لا تمتروا ولا تشكوا .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾ ﴾

وكلمة « تمت » تدل على أن المسألة لها بداية ولها خاتمة ، فما المراد بالكلمة التى تمت ؟ . أهى كلمة الله العليا بنصر الإسلام وانتهاء الأمر إليه ؟ أو هو تمام أمر الرسالة حيث قال الحق :

﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾

(من الآية ٣ سورة المائدة)

أو « كلمة ربك » المقصود بها قرآنه ؟ . ونرى أن معنى « تمت » استوعبت كل أقضية الحياة إلى أن تقوم الساعة ، فليس لأحد أن يستدرك على ما جاء فى كتاب الله حكماً من الأحكام ؛ لأن الأحكام غطت كل الأقضية . ولفظ « كلمة » مفردة لكنها تعطى معنى الجمع . وأنت تسمع فى الحياة اليومية من يقول : وألقى فلان كلمة طيبة قوبلت بالاستحسان والتصفيق . هو قال كلمات لكن التعبير عنها جاء بـ « كلمة » إذن « تمت كلمة ربك » المقصود بها المنهج الذى يشمل كل الحياة ، واقرأ قوله الحق :

﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ﴾

(من الآية ٥ سورة الكهف)

أهى كلمة أو كلمات ؟ إنها كلمة ولكن فيها كلمات . إذن لفظ « كلمة » تطلق ويراد بها اللفظ المفرد ، وتطلق ويراد بها الكلام . والكلمة فى الأصل لفظ مفرد ، أى لا يكون معها لفظ آخر ، ولكنها تدل على معنى ، فإذا كان المعنى غير مستقل بالفهم ؛ ويحتاج إلى ضميمة شىء إليه لنفهمه فهذا حرف ، وأنت تقول : « فى » وهو لفظ يدل على الظرفية ، إلا أنه غير مستقل بالفهم ؛ لأن الظرف يقتضى مظروفاً ومظروفاً فيه ، فتقول : « الماء فى الكوب » لتؤدى المعنى المستقل بالفهم . وكذلك ساعة تسمع كلمة « مِن » تفهم أن هناك ابتداء ، وساعة تسمع كلمة « إلى » تعلم أن هناك انتهاء . وإن كان يدل على معنى فى نفسه وهو غير مرتبط بزمن فهو الاسم . وإن كان الزمن جزءًا منه فهو « الفعل » . أمَّا « الكلام » فهو الألفاظ المفيدة .

وحين تسمع كلمة « سماء » تفهم المعنى ، وكذلك حين تسمع كلمة « أرض » وهو معنى مستقل بالفهم . وحين تسمع كلمة « كتب » فهى تدل على معنى مستقل بالفهم ، والزمن جزء من الفعل ، فكتب تدل على الزمن الماضى و « يكتب » تدل على الحاضر و « سيكتب » تدل على الكتابة فى المستقبل . إذن فـ « الكلمة » لفظ يدل على معنى فإن كان غير مستقل بالفهم فهو حرف . و « الكلمة » قد يقصد بها الكلام .

وقوله الحق : « تمت كلمة ربك » تعنى الكثير . فإن إردت بها القرآن فالمقصود هو كلمة الله . وكلام الله نسميه « كلمة » لأن مدلوله كلمة واحدة . انتهت وليس فيها تضارب ، هذا إن أردنا بها القرآن ، ولتفهم أن القرآن قد استوعب كل شىء ، وكل قضية فى الوجود وأيضاً لم ينس أو بدّل فيه حرف ؛ بل بقى وسيبقى كما أُنْزِل ؛ لأن الآفة فى الكتب التى نزلت أنهم كتموا بعضها ونسوا بعضها ، وحرّفوا بعضها ، وكان حفظها موكولاً إلى المكلَّفين ، ومن طبيعة الأمر التكليفى أنه يطاع مرة ، ويعصى مرة أخرى . وإن أطاعوا حافظوا على الكتب ، وإن عصوا حرفوها بدليل قوله الحق :

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَـٰبِ ٱللَّهِ ﴾

(من الآية ٤٤ سورة المائدة)

و « استحفظوا » أى طلب منهم أن يحافظوا عليه ، وهذا أمر تكليفى عرضة أن يطاع ، وعرضة أن يعصى ، لكن الأمر اختلف بالنسبة للقرآن فقد قال الحق :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾

(سورة الحجر)

فسبحانه هو من يحافظ على القرآن ، وليس ذلك للبشر لأن القرآن معجزة ، والمعجزة لا يكون للمكلَّف عمل فيها أبداً .

إذن فقوله الحق : « تمت كلمة ربك » المقصود بها أن تَطْمَئِن على أن القرآن الذى بين يديك إلى أن تقوم الساعة هو هو لن تتغير فيه كلمة ، بدليل أنك تتعجب فى بعض نصوص القرآن ، فتجد نصًّا مساويا لنص ، ثم يختلف السياق ، فيقول الحق :

﴿ كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾ ﴾

(سورة المدثر)

ومرة أخرى يقول سبحانه :

﴿ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ ﴾

(سورة عبس)

ومرة أخرى يقول :

﴿ إِنَّ هَـٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ ﴾

(سورة الإنسان)

فهذا لون ونوع من المتشابه من الآيات ليقول لنا الحق :

﴿ فَإِذَا قَرَأْنَـٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ﴾

(سورة القيامة)

والحق يقول :

﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝٤ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۝٧ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ۝٨ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩ ﴾

(سورة المؤمنون)

وفى آية أخرى يقول :

﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٣٤ ﴾

(سورة المعارج)

وكل ذلك يدلك على أن كل كلمة وصلتك كما أنزلت ، وبذلك تكون كلمة ربك قد تمت . أو قول الله : « وتمت كلمة ربك » ليدل على أن كلمة الله هى العليا ، ولذلك تلاحظ أن « كلمة الله هى العليا » لم يجعلها الحق جعلاً ، وإنما جاءت ثبوتاً ، وسبحانه القائل :

﴿ وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ﴾

(من الآية ٤٠ سورة التوبة)

هذا السياق الإعرابى حصل فيه كسر مقصود ، والسياق فى غير القرآن أن يقول : وجعل كلمة الله هى العليا ، ولكنه سبحانه يقول :

(وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هى العليا)

وسبحانه أراد بذلك أن نفهم أن كلمة الله هى العليا دائماً وليست جعلاً . وهذا دليل على أن كلمته قد تمت .

ونلحظ أن قول الحق : « وتمت كلمة ربك » تأتى بعد « أفغير الله أبتغى حكماً » ، واستقرىء موكب الرسالات من لدن آدم ، وانظر إلى حكم الله بين المبطلين

والمحقين ، وبين المهتدين والضالين ، إنه الحق القائل :

﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِۦ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا ﴾

(من الآية ٤٠ سورة العنكبوت)

والحاصب هو الريح التى تهب محملة بالحصى وكانت عقوبة لقوم عاد .

﴿ وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ ﴾

(من الآية ٤٠ سورةالعنكبوت)

وهم قوم ثمود ، يسميها مرة الصيحة ، وأخرى يسميها الطاغية :

﴿ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ ۝ ﴾

(سورة الحاقة)

ومرة يخسف بهم الأرض مثلما فعل مع قارون : (فخسفنا به وبداره الأرض) .

وكذلك : (ومنهم من أغرقنا) .

وقد أغرق الله قوم فرعون وكذلك أغرق ـ من قبلهم ـ المكذبين لنوح . إذن كل قوم أخذوا حكم الله عليهم ، لكنك يا محمد مختلف عنهم وكذلك أمة محمد التى أصبحت مأمونة على الوصية ، وعلى المنهج ، ولذلك قال الحق :

﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾

(من الآية ١٥ سورة الإسراء)

وبعد أن بعث الحق رسوله صلى الله عليه وسلم قال :

﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ﴾

(من الآية ٣٣ سورة الأنفال)

إذن « تمت كلمة ربك » ، وهى الفصل النهائى :

﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ۝ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ۝ وَإِنَّ جُندَنَا

﴿ لَهُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾

(سورة الصافات)

وأنتم المنصورون لأنكم منسوبون إلى منهج غالب ، والنصر للمنهج الغالب يقتضى الإخلاص ، فإن تنصروا المنهج باتباعه ينصركم من أنزل المنهج ، فهو القائل :

﴿ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ﴾

(من الآية ٢١ سورة المجادلة)

وما قاله كان هو الواقع وما جاء به الواقع كان مطابقاً للكلام .

﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ﴾

(من الآية ١١٥ سورة الأنعام)

أى وافق الواقع الكونى ما قال الله به . وكيف كان الواقع صادقاً وعادلاً فى آن واحد ؟ لنفرض أنك أحضرت مدرساً خصوصيًّا لولدك ، وصادف أنه هو الذى يدرس فى المدرسة وهو الذى يدرس لابنك ثم قلت له : أريد أن ينجح الولد فى الامتحان . ووعد المدرس بذلك ثم جاء الامتحان ونجح الولد ، فتكون كلمة المدرس قد صدقت . لكن هل هذا عدل ؟ قد يكون المدرس هو واضع الأسئلة ولَمَّح للولد بالأسئلة ، ويكون النجاح حينئذٍ غير عادل ، لكن كلمة الله تجىء مطابقة لما قال ، موقعها مطابق لما قال ، وهى كذلك عدل ؛ لأنه سبحانه أوضح الثواب والعقاب : (وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلا) . لأنه لا مبدل لكلمات الله ، ولا يوجد إله آخر يعارضه فله سبحانه طلاقة القدرة .

أما بالنسبة للبشر فقد علَّم الله عباده احتياط الصدق فى كلامهم ؛ فأوصاهم :

﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾

(الآية ٢٣ ومن الآية ٢٤ سورة الكهف)

لأن فعل ذلك غداً والإتيان به وإحداثه هو أمر يتعلق بالمستقبل الذى لا نتحكم فيه ، فاحم نفسك وقل : « إن شاء الله » ، فإن لم يحدث يمكنك أن تقول : لم يشأ

ربنا حدوث ما وعدت به ، وبذلك يحمى الإنسان نفسه من أن يكون كاذباً ويجعل نفسه صادقاً فلا يتكلم إلا على وفق ما عنده من قوانين الفعل وعدم الفعل ؛ لأنه عندما تقول : « أفعل ذلك غداً » . ماذا ستفعل غداً وأنت لا تضمن نفسك وحياتك وظروفك ؟! لكن الله إذا قال : « سأفعل » فله طلاقة القدرة .

﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِۦ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

ومادامت الكلمات ستتحقق والحكم سيصدر فهذا دليل على أنه سبحانه سميع لما قالوه فى عداوتهم ، وعليم بما دبروه من مكائدهم ، وهو القائل من قبل :

﴿ وَإِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَـٰدِلُوكُمْ ﴾

(من الآية ١٢١ سورة الأنعام)

أى ليعلموهم بخفاء ، فإن كان كلامهم ظاهراً فهو مسموع ، وإن كان بخفاء فهو معلوم .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ ﴾

و « من فى الأرض » المقصود بهم المكلفون ؛ لأنهم هم من يتميزون بالاختيار ولهم أوامر ونواهٍ ، فما دون الإنسان لا أمر له ، و«أكثر» لا يقابلها بالضرورة كلمة « قليل » أو « أقل » ، ومادام القول هو : « أكثر » . فقد يكون الباقون كثيراً أيضاً ، وأمّا كثير فإنها ، تعطى له كميته فى ذاته وليست منسوبة إلى غيره ، ولذلك كنا نسمع من يقول : مكتوب على محطة مصر أو على « المطار » أو على « الميناء » ، يا داخل

مصر منك كثير ، أى إن كنت رجلاً طيبًا فستجد مثلك الكثير ، وإن كنت شريرا فستجد مثلك الكثير أيضاً .

ويقول الحق :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ﴾

(من الآية ١٨ سورة الحج)

فكل الكائنات مقهورة مسخرة ، وعند الناس انقسم الأمر ؛ لأن لهم اختياراً ، فراح أناس للطاعة وذهب أناس للمعصية ، فلم يقل الحق : والناس ، بل قال « وكثير من الناس » ، ولم يقل الحق : وقليل حق عليه العذاب ، لكنه قال : « وكثير حق عليه العذاب » فهؤلاء كثير وهؤلاء كثير ، وإن نظرت إليهم فى ذاتهم فهم كثير ، والآخرون أيضاً إذا نظرت إليهم تجدهم كثيراً . ولماذا يقول الحق : « وإن تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله » ؟

« الطاعة » ـ كما نعرف ـ استجابة للأمر فى « افعل » ، والنهى فى « لا تفعل » إذا قال الحق للإنسان افعل كذا ؛ فالإنسان صالح لأن يفعل وأن لا يفعل ، وإن قال « لا تفعل » فالإنسان صالح أن يفعل ، وأن لا يفعل ، وإن كان هناك شىء لا تقدر عليه فلن يقول لك : افعله . والإنسان عادة حين يؤمر أو يُنهى إنما يؤمر وينهى لمصلحته ، فإن لم يوجد أمام مصلحةٍ معارض من منهج إلهى فهذا من مصلحته أيضاً ؛ لأن الله أجاز له حرية الفعل والترك . ويوضح الحق : من رحمتى أن جعلت لكم تشريعاً ؛ لأننا لو تركنا الناس إلى أهوائهم فسيأمر كل واحد من الذين لهم السيطرة على الناس بما يوافق هواه ، وسينهى كل واحد من الناس بما يخالف هواه ؛ لذلك نعصم هذا الأمر بالمنهج . حتى لا يتضارب الخلق ولا يتعاكس هواك مع هوى أخيك . ومن المصلحة أن يوجد مطاع واحد لا هوى له ، ويوجد منهج يقول للجميع « افعلوا كذا » و « لا تفعلوا كذا » وبذلك يأتى الاستطراق لنفهم جميعاً . ولذلك يقول الحق :

﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾

(من الآية ١١٦ سورة الأنعام)

فهناك أناس مؤمنون وهم أصحاب الفطرة السليمة بطبيعتهم ؛ لأن الخير هو الفطرة فى الإنسان ، وقد جاء التشريع لينمى فى صاحب الفطرة السليمة فطرته أو يؤكدها له ، ويعدل فى صاحب النزعة السيئة ليعود به إلى الفطرة الحسنة .

والذين يضلون عن سبيل الله ماذا يتبعون ؟ يقول الحق : (إن يتبعون إلا الظن) .

كل واحد منهم يظن أن هذا الضلال ينفعه الآن ، ويغيب عنه ما يجر عليه من الوبال فيما بعد ذلك .

و « الظن » ـ كما نعلم ـ هو إدراك الطرف الراجح ويقابله الوهم وهو إدراك الطرف المرجوح والظن هنا ، هو ما يرجحه الهوى :

﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُـمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾

(من الآية ١١٦ سورة الأنعام)

و « إن » ـ كما نعرف ـ تأتى مرة جازمة : إن تفعلْ كذا تجدْ كذا ، وتأتى مرة نافية ، مثل قوله الحق :

﴿ مَّا هُنَّ أُمَّهَـٰتِهِمْ إِنْ أُمَّهَـٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّـٰٓئِى وَلَدْنَهُمْ ﴾

(من الآية ٢ سورة المجادلة)

أى : ما أمهاتهم ؛ فـ « إن » هنا نافية . وقوله الحق : « إن يتبعون إلا الظن » أى ما يتبعون إلا الظن . هم إما أن يتبعوا الظن وإمّا أن يخرصوا . (فالخارص) هو من يتكلم بغير الحقيقة ، بل يخمن تخميناً ، كأن ينظر إنسان إلى آخر فى سوق الغلال ويسأله : كم يبلغ مقدار هذا الكوم من القمح ؟ . فيرد : حوالى عشرة أرادب أو اثنى عشر أردباً ، وهو يخمن تخميناً بلا دليل يقينى أو بلا مقاييس ثابتة ، أو يقول كلاماً ليس له معنى دقيق .

فإذا اتبعت الناس فسوف يضلونك . لأنهم لا يملكون دليلاً علميًّا ، ولا حقًّا يقينيًّا ، بل يتبعون الظن إن كان الأمر راجحاً ، ويخرصون ويخمنون حتى ولو كان الأمر مرجوحاً .

ويقول سبحانه بعد ذلك :

﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾ ﴾

وساعة ترى « هو » هذه فاعرف أنها تَرُدّ وتجيب على ما يمكن أن يقال ، فهناك من يقول : أنا سوف أرى تصرفات فلان ، ولأنك من البشر فمهما علمت عنه فأنت محدود الإدراك ؛ لأنك سترى تصرفات فقط ، ولن ترى انفعالات قلبه وتقلبات عقله ، ولكن الحق سبحانه وتعالى هو الأعلم ؛ لأن الميزان كله عنده ، إنّه يدرك الظاهر والباطن ، وهو سبحانه يقول هنا : « أعلم » وهناك « عليم » ، و « العليم » هو من يرى ظاهر الأمر ويحيط به ، لا الخافى منه ، أما الذى يرى الظاهر والخفى فهو أعلم .

ولذلك كان النبى صلى الله عليه وسلم فى مسائل كثيرة يعامل الناس بعلانيتهم ، ويترك سرائرهم إلى الله . وعندما قتل مسلم رجلاً أعلن الإسلام ، سأله صلى الله عليه وسلم لماذا ؟ ، قال : لأنه أعلن الإسلام نفاقاً . فقال صلى الله عليه وسلم : أشققت عن قلبه ؟! .

وسبحانه وتعالى « أعلم » ؛ لأنه يعلم الظاهر والباطن ، ويعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور .

ويقول الحق :



وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾

ما الذى أدخل هذه المسألة فى هذا السياق ؟ لقد تكلم الحق عن أن هناك أعداء لكل نبى يلتمسون ثغرة فى منهجه ليتكلموا فيها ، وهذه هى مهمتهم التى هيأها الله لهم ، فحين يقولون الاعتراضات نجد المنهج يرد عليهم وبذلك تنتفع الدعوة إلى أن تقوم الساعة .

مثال ذلك نجد الجماعة الذين عارضوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الإسراء والمعراج ، فحين قال لهم : إننى أسرى بى إلى المسجد الأقصى وعرج بى إلى السماء فى ليلة واحدة ، التمسوا له ثغرة لينفذوا منها ويضللوا غيرهم وقالوا له : أتدّعى أنك أتيتها فى ليلة ونحن نضرب إليها أكباد الإبل شهراً ؟!! لكنْ أبو بكر الصديق قال : إن كان قال فقد صدق ، وهذا هو الإيمان الذى يحسن استقبال الأمر المخالف للنواميس . ويجادلون أبا بكر ، فيقول : أنا صدقته فى خبر السماء فكيف أكذبه فى ذلك ، ما دام قال فقد صدق ، وهذا كلام منطقى .

لكنَّ المعارضين لرسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا : أتدّعى أنك أتيتها فى ليلة ، ونحن نضربُ إليها أكباد الإبل شهراً ! فأعطى صلى الله عليه وسلم لهم الأمارات ووصف لهم العِير التى فى الطريق ، وغير ذلك من العلامات التى تجعل من الأمر حجة إلى يوم القيامة ، ولو مرّت مسألة الإسراء والمعراج من غير أن يعترض أحد من الأعداء ، لما وجدنا الحرارة فى تصديقها .

إننا نجد حاليًّا من يقول : وهل من المعقول أنه صلى الله عليه وسلم راح إلى بيت المقدس وجاء فى ليلة ؟ لابد أن ذلك كان حلماً . لو لم يقولوا هم هذا ما كنا عرفنا الرد ؛ إنما هم قالوها حتى نعرف الرد ويظل الرد رادعاً إلى أن تقوم الساعة ، وهذه هى المهمة التى جعلها الله للأعداء ؛ لأنه صلى الله عليه وسلم لو قال لهم : إننى

حلمت أنى رحت بيت المقدس . أكان هناك من يعترض على أن يحلم النبى حتى ولو قال : إنه ذهب إلى آخر المعمورة إنه لا يجرؤ واحد أن يكذبه ، لكنهم ماداموا قد كذبوه ، ورفضوا تصديق الإسراء فهذا دليل على أنهم فهموا من الذهاب أنه ليس ذهاب رؤيا وإنما ذهاب قالب ، لقد فهموا عنه أنه قد انتقل بجسده من مكة إلى بيت المقدس ، ولذلك كذبوه ، وهذا التكذيب منهم ينفعنا الآن ، لنردَّ به على المكذبين المعاصرين .

إذن فوجود الأعداء يهيج القرائح التى يمكن أن نرد على أية شُبَهٍ يثيرها أى إنسان سواء أكان ماضيًا أم معاصراً .

والحق هنا يقول :

﴿ فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

هذه الآية لها قصة توضح كيف يحاول الأعداء اصطياد الثغرات لينفذوا منها ، وقالوا : يقول النبى لكم : إن الميتة لا يحل لكم أن تأكلوا منها ، وما تذبحونه بأيديكم كلوا منه ، والذبح لون من الموت ، هذه هى الشبهة التى قالوها ، وهى أولاً مغالطة فى الأساليب ؛ لأن الميتة غير المذبوحة وغير المقتولة . فالمذبوحة إنما ذبحناها لنطهرها من الدم ؛ لذلك فالمناقشة الفقهية أو العلمية تهزم قولهم ؛ لأن هناك فرقاً بين الموت والقتل . فالموت هو أخذ للحياة بدون سلب للبنية ، إنما القتل هو سلب للبنية أولاً فتزهق الروح ويبقى الدم فى الجسم . ثم هل يأخذ المشرع وهو الرب الأعلى الحكمة منّا أو أن الحكمة عنده هو وحده ؟ .

وقد تبين لنا فى عصرنا أن غير المؤمنين بدأوا فى الاهتداء إلى أن الميتة فيها كل الفضلات الضارة ، واهتدوا إلى إزالة كل الفضلات الضارة من الحيوانات التى يريدون أكلها ؛ لأن تكوين جسم الحيوان يتشابه مع تكوين جسم الإنسان ، فهو يأكل ويهضم ويمتص العناصر الغذائية ليتكون الدم والطاقة ، وفى الجسد أجهزة تصفى وتنقى الجسم من السموم الضارة ، فالكُلْية مثلاً تصفّى الدم من البولينا وغيرها ، ويسير الدم ليمر على الرئة ليأخذ الأوكسيجين ، وكل ذلك لتخليص الجسد من الفضلات الضارة ، وأوعية الدم فى الإنسان والحيوان فيها الدم الصالح والدم

الفاسد ، والدم الفاسد هو الذى لم تتم تنقيته ، وعندما نذبح الذبيحة ينزل منها الدم الفاسد وغيره ، أى أننا ضحينا بالدم الصالح فى سبيل وقايتنا من الدم الفاسد . لكنها إن ماتت دون ذبح ؛ فآثار الدمين الاثنين موجودة . وكذلك آثار الفضلات التى كان يجب أن يتخلص منها ، وهذا ما نفعله فى هذا الأمر ، لكن هل لنا مع الحق سبحانه وتعالى تعقل فى شىء إلا فى توثيق الحكم والاطمئنان إلى مجيئه منه جلت قدرته ؟

كان جدلهم أنهم قالوا : أنتم تأكلون ما قتلتم ولا تأكلون ما قتل الله ، فأنتم تظنون أنفسكم أحسن من الله ، وهذا افتراء منهم . ثم إن الحيوان حين يموت لم يذكر عليه اسم الله ، لكن الذبيحة التى نذبحها نذكر عليها اسم الله ، فكأن الحق سبحانه وتعالى يوضح : فكلوا مما ذكر اسم الله عليه . أى غير الميتة وغير ما يذبح للأصنام .

﴿ فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

إنَّ تلقى أى حكم من الحق ، لا يصح أبداً أن نبحث عن علته أولاً ثم نؤمن به ، بل علينا بعد أن نثق بأنه من الله الذى آمنا به . علينا إذن أن نأخذ الحكم الذى أمر به الله .

﴿ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

وللآيتين ـ كما علمنا ـ سبب نزلتا من أجله وهو أن بعض المعارضين لرسول الله الذين يقفون من الدعوة موقف التكذيب والعمل على إبطالها والقضاء عليها ، كانوا يُشيعون عند المؤمنين إشاعات قد تفت فى عضدهم العقدى فعرضوا هذه المسألة وهى فى ظاهرها تشكيك . وهم قد عرضوا القضية بهذا الشكل غير المتسق ؛ لأن من الذى قتل ؟ لقد قالوا : إن الميتة قتلها الله ، فهل الله هو الذى قطع رقبتها ؟ وهل

ضربها الله على رأسها فأمات أصل إدارة الحياة وهو المخ ؟ هل صوّب شيئاً إلى قلبها ؟ سبحانه جل وعلا منزه عن مثل هذه الأفعال البشرية ، فكيف يسمون الموت قتلاً ؟ إن تسمية الموت قتلاً هو الخطأ ، فقولهم : كيف تبيحون لأنفسكم ما قتلتموه أى بالذبح . ولا تبيحون ما قتله الله أى أماته ، فيه مغالطة فى عرض القضية ، ويريد الله سبحانه وتعالى أن يضع عند المؤمنين مناعة من هذه الهواجس التى يثيرونها ؛ فقال : ﴿ **فكلوا مما ذكر اسم الله عليه إن كنتم بآياته مؤمنين** ﴾

وما معني الذكر ؟ إنّ عدم تحديد العلماء المعنى المقصود بالذكر ، هو الذى أوجد بينهم خلافاً كبيراً . فسيدنا الإمام مالك يرى أنك إذا ذبحت ولم تذكر اسم الله سواء أكنت ناسيًا أم عامداً فلا يصح لك أن تأكل من الذبيحة . ويرى الإمام أبو حنيفة : إذا كنت لم تسم ناسياً فكل مما ذبحت ، لكن إن كنت عامداً فلا تأكل ، والإمام الشافعى ـ رضى الله عنه ـ يرى : ما دمت مؤمناً ومقبلاً على الذبح وأنت مؤمن فكُلْ مما لم تذكر اسم الله ناسياً أو عامداً لأن إيمانك ذكر لله .

ونقول : ما هو الذكر ؟ هل الذكر أن تقول باللسان ؟ أو الذكر أن يمر الشيء بالخاطر ؟ إن كنتم تقولون إنّ الذكر باللسان فلنبحث فى الحديث القدسى الذى قاله الله تعالى : « أنا عند ظن عبدى بى ، وأنا معه إذا ذكرنى ، فإن ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى ، وإن ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منهم »[1] .

إذن فقد سمّى ربنا الخاطر فى النفس ذكراً وبذلك يصبح من حق الإمام الشافعى أن يقول ما قال .

لذلك أقول : يجب أن نحدد معنى الذكر أولاً حتى ننهى الخلاف حول هذه المسألة ، فليس من المقبول أن نقيم معركة حول معنى « الذكر » ؛ لأن الذكر وهو خطور الأمر على البال قد يصحبه أن يخطر الأمر على اللسان مع الخطور على البال ، وقد يظل خطوراً على البال فقط ، بدليل ماجاء فى الحديث السابق .

(١) رواه البخارى ، ومسلم ، والترمذى .

والمؤمن حين يجد أمامه أشياء كثيرة ، قد يوجد شيء جميل وآخر ليس له من الجمال شيء ؛ فالجاموسة أقل في الجمال من بعض الحيوانات التي حرم الله أكلها ، وأقبل المؤمنون على ذبح الجاموسة ليأكلوا منها ، ولم نسمع عن مسلم تقدم إلى حيوان حرم الله أكله ليذبحه ، لماذا ؟ لأن المؤمن يقبل على ما أحل الله ، وهذا الإقبال دليل على أنه ذكر في نفسه المحلل والمحرم وهوالله ، إذن اختياره حيواناً للذبح دليل على أنه ذكر الله في النفس أو في القول ، وبهذا نتفق على أن ذكر المؤمن يكون في قلبه قال أو لم يقل ، وينتهي الخلاف في هذه المسألة . إذن الإمام الشافعي أخذ بهذه المسألة ؛ لأن النبي عليه الصلاة والسلام حينما سئل عن أكل المسلم من ذبيحة لا يعرف من ذبحها وهل سمّى أو لم يسمّ ، أوضح لمن سأله : سمّ وَكُلْ .

فالإنسان منا لا يحضر وقت الذبح دائماً ، ويكفيه أن يستحضر المحلل والمحرم ساعة الأكل . والحق سبحانه وتعالى يوضح لنا : اذكروا اسم الله ، وسبحانه يعلم أنك تقبل على أشياء لتفعلها . وهذه الأشياء تنقسم إلى قسمين : قسم يمر على بالك قبل أن تفعله ، وقسم لا يمر على بالك ، بل تفعله تلقائيًا بدون ما يمر على البال ، ومثال ذلك الأفعال العكسية كلها التي يفعلها الإنسان إنها لا تمر على باله . فلو حدث أن حاول واحد أن يضع إصبعه في عين آخر ، فهذا الآخر يغمض عينيه تلقائيًا . ويختلف ذلك عن الفعل الذي تفكر فيه قبل أن تفعله . فالذي يفعل الفعل بعد أن يمر بخاطره هو فعل ذو بال . ولذلك أراد الرسول عليه الصلاة والسلام ألا يكلفنا عناء أو مشقة ؛ فقال :

« كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه ببسم الله الرحمن الرحيم أقطع »[1] .

والأمر ذو بال هو الأمر الذي يكون قد خطر على بالك أن تفعله أو لا تفعله . إذن فالله سبحانه وتعالى لا يكلفنا إلا عند الأمر الذي يمر على الخاطر ؛ لأنك حين تقبل على أي فعل فينفعل لك كما تريد ، إن هذا من عطاء الله لك ، وأنت حين تذبح عجلاً ، أو خروفاً ، وتتأمل أنت كيف يُقدرك الله على هذا الكائن الحي . وإنك لم تفعل ذلك إلا لتسخير الله كُلَّ الكائنات لك . فباسم الله تذبحه .

إذن هناك أمور كثيرة وأفعال ذات بال تمر عليك ومن حسن الأدب والإيمان أن

(١) رواه عبد القادر الرّهاوي في الأربعين عن أبي هريرة .

تقبل عليها باسم الله . ولذلك يخطىء بعض الناس حين يظنون أن الإنسان عندما يذبح حيواناً فهو يؤذيه . لا ، بل ذبح هذا الحيوان هو تكملة لمهمته فى الحياة ؛ لأنه مخلوق لهذا الهدف ومذلل له .

لقد قلنا سابقاً : إن هناك عجيبة من عجائب المزاولات الفعلية ، هذه العجيبة أنك حين تأتى إلى الحيوانات التى لم يحلها الله للإنسان ، كالحمار مثلا إذا ما تعرضت هذه الحيوانات إلى ما يميتها ، كأن التف حول عنقه حبل ، واختنق فهو يموت دون أن يمد رقبته إلى الأمام ، لكن الحيوان الذى أحله الله للأكل ؛ مثل الجاموسة أو الخروف أو العجل ، نجد الحيوان من هذه الحيوانات إن اختنق يمد رأسه إلى الأمام ، فيقول أهل الريف فى مصر : إنه يطلب الحلال ، أى الذبح . فلا يسمى ذبح الحيوان اعتداء عليه ؛ لأن الحيوان مخلوق لهذه المهمة .

إذن فمعنى كلمة « باسم الله » أى أننى لم أجترىء على هذا العمل إلا فى إطار اسم الله الذى أحل لى هذا .

بعد ذلك يقول الحق للمؤمنين : لا تسمعوا كلام الكافرين ، ويأتى السؤال الاستنكارى : « ومالكم ألا تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه » والمعنى : أى سبب يمنعكم من أن تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه ؟ وقد فصل لكم ما حرم عليكم ، فما ذكر اسم الله عليه ليس من ضمن المحرمات التى نص الله عليها ، فربنا سبحانه هو من حلل وحرم . وإن قيل : ما دام قد حرم علينا بعض الأشياء فلماذا خلقت هذه الأشياء ؟

ونقول : إن من يفكر بمثل هذا الأسلوب يتناسى أن كل مخلوق من الحيوانات ليس مخلوقاً للأكل ، بل لكل حيوان مهمة . وإن ذبحت محرماً ، فقد يناقض هذا الفعل مهمته . فالخنزير ـ مثلا ـ حرّمه ربنا ؛ لأنك إن ذبحته فستذهب به بعيداً عن مهمته ؛ لأنه مخلوق كى يلم جراثيم الأشياء التى لا تراها العين ، فأنت حين تذبحه تخرجه عن مهمته . والحق سبحانه وتعالى هو الذى خلق الإنسان ، ويعلم ما يناسبه من غذاء يولد الطاقة ولا يهدر الصحة ؛ لذلك حرم وحلل له ، وإياك أن تقول : إن الله سبحانه وتعالى لم يحرم إلا الشىء الضار ؛ فقد حرم شيئاً غير ضار لأنه يريد بذلك الأدب فى : « افعل هذا » و « لا تفعل هذا » . ولذلك قال الحق سبحانه :

﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ ﴾

(من الآية ١٦٠ سورة النساء)

وفى حياتنا اليومية هل تقول : إن الذين يربون أبناءنا فى الجيش بالشدة ، يقسون على الأبناء ؟ لا ، بل إنهم يعدّونهم لمواجهة المهام الشاقة . وأن يتعوّدوا التزام الأدب والطاعة والانضباط ، فكذلك حلل الحق ما أراد وحرم ما شاء ليجعل الكون منضبطاً بقدرة الحكيم القادر ، فسبحانه يحرم أشياء مثل المخدرات ، ونحن فى بعض الأحيان نتناولها لنداوى بها الأمراض ، فلو أخذها الإنسان من غير مرض أو داع فإنها تسرق الصحة من بنية الإنسان ، وإن أخذها من بعد ذلك للعلاج لا تأتى بالمفعول المطلوب منها . ولذلك نجد من الأطباء من يسأل الإنسان قبل إجراء الجراحات الدقيقة إن كان المريض قد تناول المخدرات أو لا ، وذلك حتى يتعرف الأطباء على حقيقة ما يصلح له من ألوان التخدير .

وسبحانه وتعالى قد منع عنا تلك الألوان من مغيبات العقول ، لعلنا نحتاج إليها فى لحظة الشدة والمرض .

إذن فالحق سبحانه وتعالى قد ربط كل حكم من الأحكام التحليلية والتحريمية بـ « إن كنتم مؤمنين » ، ومعنى « إن كنتم مؤمنين » أى يا من آمنتم بالإله الحكيم الذى لا يأمر إلا بما فيه مصلحتكم ، امتنعوا عن مثل تلك الأفعال ، وإذا أقبلت على أى شىء مما أحله الله لك فأقبل عليه باسم الله ، وسبحانه وتعالى له أسماء علمها لنا ، وأنزلها فى كتابه ، وأسماء علمها لأحد من خلقه ، وأسماء استأثر بها فى علم الغيب عنده ، وهذه الأسماء هى صفات الكمال لله ، التى لا توجد فى غيره . وحين نستحضر الاسم الجامع لكل صفات الكمال نقول : باسم الله . وتنهى المسألة . وحين ناقش العلماء مسألة التحريم والتحليل ، قال بعضهم : إن الحق سبحانه وتعالى قال فى أول سورة المائدة :

﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ ﴾

(من الآية ٣ سورة المائدة)

وهنا فى سورة الأنعام يقول :

﴿ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ ﴾

(من الآية ١١٩ سورة الأنعام)

والمتنبهون من العلماء قالوا : إن سورة المائدة مدنية ، ومعنى كونها مدنية أنها نزلت

بعد السور المكية ، وسورة الأنعام مكية ، وهل يقول الحق فى السورة المكية « وقد فصل لكم ما حرم عليكم » فى السور المدنية ؟ وبعض العلماء الذين أعطاهم ربنا نور بصيرة قال : لقد فصل لكم فى سورة المائدة وجاء أيضاً فى سورة الأنعام فقال :

﴿ قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

أى فصل لك فى هذه السورة المكية . وقد يأتى واحد من المولعين بالاعتراض أو من خصوم الإسلام ويقول : لم تذكر الآية كل الأشياء المحرمة لماذا ؟

ونقول : القرآن هو الخطوط الأساسية فى المنهج ، وتأتى السنة بالتفصيل فى إطار :

﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾

(من الآية ٧ سورة الحشر)

والحق يقول هنا :

﴿ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ﴾

(من الآية ١١٩ سورة الأنعام)

واضطرار هو أمر ملجىء إلى شىء غير الأسباب الكونية المشروعة . ومعنى كونه مضطرا أنه يلجأ إل شىء فقد أسبابه المشروعة كالذى يريد أن يأكل ليستبقى الحياة ، فإذا لم يجد من الحل ما يستبقى به الحياة فهو مضطر . ونقول له : خذ من غير ما أحل الله بالقدر الذى يدفع عنك الضرورة . فكل من الميتة بقدر الضرورة ولا تشبع . والحق يقول :

﴿ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ ﴾

(من الآية ٣ سورة المائدة)

والمخمصة هى المجاعة . إذن فالاضطرار هو شىء فوق الأسباب المشروعة

للعمل . والله سبحانه وتعالى يعطى الإنسان الرخصة فى أن يتناول ما حرمه إذا كان مضطراً .

﴿ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾

(من الآية ١١٩ سورة الأنعام)

والذين يضلون بأهوائهم بغير علم هم من أرادوا زراعة الشك فى نفوس المسلمين . ومعنى الضلال بالهوى أن تكون عالما بالقضية ، ولكن هواك يعدل بك عن مراد الحق من القضية . ولذلك يصف الحق رسوله صلى الله عليه وسلم :

﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ ﴾

(سورة النجم)

وحين يقول الحق : « وإن كثيراً ليضلون بأهوائهم » فمعنى ذلك أنه يوجد ضلال بغير هوى ، وهو عدم وصول الإنسان إلى الحقيقة ؛ لأنه لا يعرف الطريق إليها ، والضلال بالهوى أى أن تكون عندك الحقيقة وأنت عارف بدروبها ولكنك تعدل عنها .

﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾

(من الآية ١١٩ سورة الأنعام)

وساعة ترى مجىء متعلق بعد « يضلون » وهو قوله : (بأهوائهم) تقول كأن هناك ضلالاً بغير علم ، وهو غير مذموم ؛ لأن صاحبه لا يعرف الحكم فى القضية ، وهذا يختلف عن الذى يضل وهو يعرف الحكم ، فهذا ضلال بالهوى ، وهذا الفهم يحل لنا إشكالات كثيرة أيضاً . و « بغير علم » أى ليس عندهم علم بالقضية وأحكامها .

ويذيل الحق الآية بقوله :

﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ﴾

(من الآية ١١٩ سورة الأنعام)

وقد أفسح الله فى النص القرآنى لبعض خلقه الذين يعرفون المهتدى من غير المهتدى ، والكثير من الناس لا يعلمون المهتدى من غير المهتدى ولكن إن علموا فالله أعلم .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَذَرُواْ ظَاهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُواْ يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾ ﴾

هذه تقنينات السماء التى تحمى المجتمع من بعضه وذلك فى ألا تقع عين أحد على مخالفة من أحد ، وإذا وقعت عينك على مخالفة من غيرك تكون المخالفة مما يدرك لكنها ليست كل الفساد فى المجتمع ؛ ففساد المجتمع يأتى من أشياء كثيرة لا تقع تحت دائرة الإدراكات . وهناك أشياء تكون فى منابع النفس البشرية التى تصدر عنها عوامل النزوع ؛ فقبل أن يوجد إثم ظاهر يوجد إثم باطن ، والإثم الباطن سابق على الإثم الظاهر . والتقنينات البشرية كلها تحمينا من ظاهر الإثم ، ولكن منهج السماء يحمينا من فساد ظاهر الإثم وباطن الإثم .

ويوضح لنا الحق الفرق بين تقنين البشر للبشر وتقنين الإله ، فسبحانه رقيب على مواجيدكم ووجداناتكم وسرائركم ، فإياكم أن تفعلوا باطن الإثم ، ولا يكفى أن تحمى نفسك من أن يراك القانون ؛ لأن قصارى ما يعمل القانون أن يمنع الناس من أن يتظاهروا بالجريمة ويقترفوها علانية ، والفرق بين تشريع السماء وتشريع الأرض أن تشريع الأرض يحمى الناس من ظاهر الإثم ، ولكن تشريع السماء يحمى الناس من ظاهر الإثم وباطن الإثم ، وباطن الإثم هو أعنف أنواع الإثم فى الأرض .

وبعض أهل الاكتساب فى الشر برياضتهم على الشر يسهل عليهم فعل الشر وكأنهم يفعلون أمراً قد تعودوا عليه بلا افتعال .

و « كسب » - كما نعلم - تأتى بالاستعمال العام للخير ، و « اكتسب » تأتى للشّر لأن الخير يكون فيه الفعل العملى رتيباً مع كل الملكات ، ولا افتعال فيها ، فمن يريد - مثلاً - أن يشترى من محل ما فهو يذهب إلى المحل فى وضح النهار ويشترى . لكن من يريد أن يسرق فهو يرتب للسرقة ترتيباً آخر ، وهذا افتعال ، لكن الافتعال قد يصبح بكثرة المران والدربة عليه لا يتطلب انفعالاً ، لأنه قد أضحى لوناً من

الكسب . و « يكسبون » تدل على الربح ؛ لأن « كسب » تدل على أنك أخذت الأصل والزيادة على الأصل ، والإنسان حين يصنع الخير إنما يعطى لنفسه مقوّمات الحياة ويأخذ أجر الآخرة زائداً ، وهذا هو قمة الكسب .

ويريد الحق سبحانه وتعالى من العبد فى حركته أن يحقق لذاته نفعاً هو بصدد الحاجة إليه ، ولكن الإنسان قد يحقق ما ينفعه وهو بصدد الحاجة إليه ، ثم ينشأ من ذلك الفعل ضرر بعد ذلك ؛ لذلك يحمي الله الإنسان المؤمن بالمنهج حتى يميز بين ما يحقق له الغرض الحالى ويحقق نفعاً ممتداً ولا يأتى له بالشر وما يحقق له نفعاً عاجلاً ولكن عاقبته وخيمة ونهايته أليمة ، إننا نجد الذين يصنعون السيئات ويميلون للشهوات ـ مثلاً ـ يحققون لأنفسهم نفعاً مؤقتاً ، مثل التلميذ الذى لا يلتفت إلى دروسه ، والذى ينام ولا يستيقظ ، والذى إن أيقظوه وأخرجوه من البيت ذهب ليتسكّع فى الشوارع ، هو فى ظاهر الأمر يحقق لنفسه راحة ، لكن مآله إلى الفشل . بينما نجد أن من اجتهد وجدَّ وتعب قد حقق لنفسه النفع المستمر الذى لا تعقبه ندامة .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡسِبُونَ ٱلۡإِثۡمَ سَيُجۡزَوۡنَ بِمَا كَانُواْ يَقۡتَرِفُونَ ﴾

(من الآية ١٢٠ سورة الأنعام)

ففى الدنيا نجد أن الجزاء من بشر لبشر ، ولكن ماذا عن لحظة العرض أمام الله وهو العليم بظاهر الإثم وباطن الإثم ؟

فالذى يصون المجتمع ـ إذن ـ هو التقنين السماوى ، فالمنهج لا يحمى الإنسان ممن حوله فحسب ولكنه يقنن لحركة الإنسان لتكون صحيحة .

ويعود الحق بعد ذلك إلى قضية الطعام فيقول :

﴿ وَلَا تَأۡكُلُواْ مِمَّا لَمۡ يُذۡكَرِ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسۡقٞۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ لِيُجَٰدِلُوكُمۡۖ وَإِنۡ أَطَعۡتُمُوهُمۡ إِنَّكُمۡ لَمُشۡرِكُونَ ﴿١٢١﴾ ﴾

وهنا يسمى الحق ما لم يذكر اسم الله عليه بـ « الفسق » وهو ما تشرحه الآية الأخرى وتبرزه باسم مخصوص :

﴿ قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ﴾

(من الآية ١٤٥ سورة الأنعام)

إذن فـ « فسقاً » معطوفة على الميتة والدم المسفوح ولحم خنزير ، لكنه سبحانه فصل بين المعطوف وهو (فسقاً) ؛ والمعطوف عليه بحكم يختص بالمعطوف عليه ، وهذا الحكم هو الرجس وهكذا أخذت الثلاثة المحرمات حكم الرجس . وعطف عليها ما ذبح وذكر عليه اسم غير الله كالأصنام وهو قد جمع بين الرجس والفسق .

ويقول الحق : « وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم » وسبحانه يريد أن يبين لنا أن الفطرة السليمة التي لا يميلها هوى تصل إلى حقائق الخير ، ولذلك نجد أن الذين يحثون ويحض بعضهم بعضا على الشر ويُعلم بعضهم بعضاً بخفاء إنما يأخذون مقام الشيطان بالوسوسة والتحريض على العصيان والكفر ؛ لأن المسألة الفطرية تأبى هذا ، وحين يرتكب إنسان موبقة من الموبقات ، إنما يلف لها ويتحايل ليصل إلى ارتكاب الموبقة ، وقد يوحى بذلك إلى غيره ، فيدله على الفساد . ويكون بذلك في مقام الشياطين الذين يوحون إلى أوليائهم بإعلام خفى ؛ لأن الفطرة السليمة تأبى الأشياء الشريرة وتقف أيضاً فيها ، ولا يجعلها تتقدم إلى الشر إلا الهوى ، فإذا ما أراد شيطان من الإنس أو شيطان من الجن أن يزيّن للناس فعلاً فهو لا يعلن ذلك مباشرة . إنما يلف ويدور بكلام ملفوف مزين .

« وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم وإن أطعتموهم إنكم لمشركون » وفي ذلك إشارة إلى قول المشركين : تأكلون ما قتلتم أنتم ولا تأكلون ما قتل الله وأنتم أولى أن تأكلوا مما قتل الله .

﴿ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾

(من الآية ١٢١ سورة الأنعام)

وكأن مجرد الطاعة لهؤلاء المشركين لون من الشرك ؛ لأن معنى العبادة امتثال وائتمار عابد لمعبود أمراً ونهيا ، فإذا أخذت أمراً من غير الله فإنه يخرج بك عن صلب وقلب منهجه سبحانه وبذلك تكون قد أشركت به .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾

والحق سبحانه وتعالى - كما عرفنا - يعرض بعض القضايا لا عرضاً إخباريًّا منه ، ولكن يعرضها باستفهام ؛ لأنه - جل وعلا - عليم بأنه حين يأتى لك الاستفهام ، ثم تدير ذهنك لتجيب فلن تجد إلا جواباً واحداً هو ما يريده الحق . إذن فالأسلوب أحياناً يكون أسلوباً خبريًّا أو يكون استفهاماً بالإثبات أو استفهاماً بالنفى . وأقواها الاستفهام بالنفى . وحين يعرض سبحانه القضية التى نحن بصددها يوضح وهو العليم أنك إن أحببت أن تجيب فلن تجد إلا الجواب الذى يريده الحق .

إننا نجد فى الآية الكريمة موتاً وحياة ، وظلاماً ونوراً .

وما هى الحياة ؟ . الحياة هى وجود الكائن على حالة تمكنه من أداء مهمته المطلوبة منه ، وما دام الشىء يكون على حالة يؤدى بها مهمته ففيه حياة ، وأرقى مستوى للحياة هو ما تجتمع فيه الحركة والحس والفكر ، وهذه الأمور توجد كلها فى الإنسان . أمّا الحيوان ففيه حس وحركة وليس عنده فكر . غير أن الحيوان له غريزة أقوى من فكر الإنسان ، فهو محكوم بالغريزة . وأنت - أيها الإنسان - محكوم بالغريزة فى أشياء وبالاختيار فى أشياء ، وليس لك فى الغريزة عمل . لكن فى مجال الاختيار لك عمل ، تستطيع أن تعمله وتستطيع ألا تعمله .

إذن فالحياة هى أن يكون الكائن على حال يؤدى به مهمته المطلوبة منه . وعلى هذا الاعتبار ففى الإنسان حياة ، وفى الحياة حياة ، وفى النبات حياة ، وفى الجماد حياة ، وكلما تقدم العلم يثبت لنا حيوات أشياء كثيرة جدًّا كنا نظن ألا حياة فيها ، وإن ظهر لنا فى التفاعلات أن بعض الأشياء تتحول إلى أشياء أخرى ، فعلى سبيل المثال الحيوان فيه حياة فإذا ذبحناه وأكلناه ، ورمينا عظامه ، كانت فيها حياة من نوع ثم صارت أجزاؤه إلى جمادية لها حياة من نوعها ، بدليل أنه حين يمر بعض من الزمن يتفتت العظم .

وكنا قديماً فى الريف نحلب اللبن فى أوعية من الفخار وتوضع فى مراقد ، ويستمر اللبن أسبوعاً فى المرقد ، ويكون أحلى فى يومه عن أمسه . ويزداد اللبن حلاوة كل يوم ، ثم تأخذ زوجة الفلاح قطعة القشطة الأخيرة وتصنع منها الجبن الجميل الطعم . أو الزُّبد لكن بعد أن غلينا اللبن نجده يفسد بعد عدة ساعات ؛ لأنك حين وضعته فى المرقد ، أخذته بالحياة فيه فظلت فيه حيوية حياته ، لكن حين غليته فقد قتلت ما فيه من الحياة ، فإن لم تضعه فى ثلاجة لابد من أن يتعفن ، ومعنى التعفن أنه لم يعد يؤدى مهمته كلبن ، إنما انتقل إلى حياة أخرى بفعل البكتريا وغيرها ، ولا يُذهب الحياة إلا الهلاك وهو ما قاله الحق :

﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾

(من الآية ٨٨ سورة القصص)

إذن ، لا تأخذ الميت على أنه شيء ليس فيه حياة ، ولكنه انتقل إلى حياة ثانية .

﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ ﴾

(من الآية ١٢٢ سورة الأنعام)

كأن للإنسان حياة فى ذاته ، ثم جعل الحق له نوراً يمشى به . كأن الحياة متنقلة فى أشياء ، ويحتاج الإنسان إلى حياة ، ويحتاج إلى نور تتضح به مرائى الأشياء . وكانوا قديماً يعتقدون أن الإنسان يرى حين ينتقل شعاع من عينيه إلى المرئى فيراه ، إلى أن جاء العربى المسلم ابن الهيثم . وقال : هذا رأى جانبه الصواب فى قانون الضوء ، وقال : إن الإنسان يرى ؛ لأن شعاعاً من المرئى يصل إلى عين الرائى . بدليل أن المرئى إن كان فى ضوء يدركه الإنسان ، وإن كان فى ظلمة لا يدركه الإنسان ،

ولو كانت الأشعة تخرج من عين الإنسان لرأى الأشياء سواء أكانت فى نور أم فى ظلمة ، وتعدلت كل النظريات فى الضوء على يد العالم المسلم ، وجاءت من بعد ذلك الصور الفوتوجرافية والسينما . إذن فالنور وسيلة إلى المرئيات .

ويترك الحق سبحانه وتعالى فى أقضية الكون الحسيّة أدلة على الأقضية المعنوية ؛ فالنور الحسىّ الذى نراه إما ضوء الشمس وإمّا ضوء القمر ، وإمّا ضوء المصباح ، وإمّا غير ذلك ، وهذا ما يجعل الإنسان يرى الأشياء ، ومعنى رؤية الإنسان للأشياء أن يتعامل معها تعاملاً نفعيًا غير ضار . ونحن نضىء المصباح بالكهرباء حين يغيب النور الطبيعى - نور الشمس - وعندما نضىء مصابيحنا نرى الأشياء ونتفاعل معها ولا نحطمها ولا تحطمنا ، وكل واحد منا يأخذ من النور على قدر إمكاناته . إذن كل واحد يضىء المكان المظلم الذى اضطر إليه بغيبة المنير الطبيعى على حسب استطاعته ، فإذا ظهرت الشمس أطفأنا جميعاً مصابيحنا ؛ هذا دليل من أدلة الكون الحسيّة الملموسة لنأخذ منها دليلاً على أن الله إن فعل لقيمنا نورا فلا نأتى بقيم من عندنا ، مادامت قِيَمُهُ موجودة .

ويوضح الله أن الإنسان بدون قيم هو ميت متحرك ، ويأتيه المنهج ليحيا حياة راقية . ويوضح سبحانه لكل إنسان : احرص على الحياة الثانية الخالدة التى لا تنتهى وذلك لا يتأتى إلاّ باتباع المنهج ، وإياك أن تظن أن الحياة فقط هى ما تراه فى هذا الوجود لأنه إن كانت هذه هى غاية الحياة لما أحسّ الإنسان بالسعادة ؛ لأنّه لو كانت الدنيا هى غايتنا للزم أن يكون حظنا من الدنيا جميعاً واحداً وأعمارنا واحدة ، وحالاتنا واحدة ، والاختلاف فيها طولاً وقصراً وحالاً دليل على أنها ليست الغاية ؛ لأن غاية المتساوى لابد أن تكون متساوية .

إذن فقول الله هو القول الفصل :

﴿ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ﴾

(من الآية ٦٤ سورة العنكبوت)

فهذه هى الحياة التى لا تضيع منك ولا تضيع منها ، ولا يفوتك خيرها ولا تفوته . إذن فالذى يحيا الحياة الحسيّة الأولى وهى الحركة بالنفخ فى الروح هو ميت متحرك .

﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِي بِهِۦ ﴾

(من الآية ١٢٢ سورة الأنعام)

أى أنه سبحانه قد أعطى لمثل هذا العبد حياة خالدة ونوراً يمشى به ، لا يحطِّم ولا يتحطم .

أما من يقول : إن الحياة بمعناها الدنيوى ، لا تختلف عن الحياة فى ضوء الإيمان ، لمثل هذا نقول : لا ، ليس بينهما تساوٍ فهما مختلفتان بدليل أن الحق يقول :

﴿ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾

(من الآية ٢٤ سورة الأنفال)

فسبحانه يخاطبهم ، وما دام يخاطبهم فهم أحياء بالقانون العادى ، لكنه سبحانه أنزل لرسوله المنهج الذى يحيا به المؤمن حياة راقية ، وافطنوا إلى أن الحق سبحانه وتعالى أعطى ومنح الروح الأولى التى ينفخها فى المادة فتتحرك وتحس بالحياة الدنيا ، إنّه أعطاها المؤمن والكافر . ثم يأتى بروح ثانية تعطى حياة أبدية . ولذلك سمّى منهج الله لخلقه روحاً :

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ﴾

(من الآية ٥٢ سورة الشورى)

فالمنهج يعطى حياة خالدة .

إذن فقوله الحق : « أومن كان ميتاً فأحييناه » أى أَوَ من كان ضالاً فهديناه ، أومن كان كافراً فجعلناه مؤمناً . ولنلحظ أن فيه « ميْتاً » بالتخفيف ، وفيه ميّت بالتشديد . والميّت هو من يكون مآله الموت وإن كان حيًّا ، فكل منا ميّت وإن كان حيًّا . ولكن الميْت هو من مات بالفعل وسلبت وأزهقت روحه . ولذلك يخاطب الحق نبيه صلى الله عليه وسلم فيقول له : (إنك ميّت) .

أى تؤول إلى الموت وإن كنت حيًّا الآن . لأن كُلًّا منا مستمر فى الحياة إلى أن يتلبس بصفة الفناء ، ويقول الحق : « فأحييناه » أى بالمنهج الذى يعطيه حياة ثانية ، ولذلك سمّى القرآن روحاً ،وسمّى من نزل بالقرآن روحاً أيضاً .

« وجعلنا له نوراً يمشى به فى الناس » ولماذا يمشى به فى الناس فقط ، وليس بين كل الأشياء ؟ ؛ لأن الأشياء الأخرى من الممكن أن تحتاط أنت منها ، ولكن كلمة الناس تعبر عن التفاعل الصعب لأنهم أصحاب أغيار . ويتابع الحق : « كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها » وهذا تساؤل جوابه : لا ، أى ليس كل منهما مساويا للآخر ، مثلما نقول : هل يستوى الأعمى والبصير ؟ . والفطرة هنا تقول : لا ، مثلما تؤكد الفطرة عدم استواء الظلمات والنور ، أو الظل والحرور ، وهنا يأْمَنُنَا الله على الجواب ؛ لأنه سبحانه ـ يعلم أن الأمر إذا طرح كسؤال وكاستفهام فلن نجد إلا جواباً واحداً هو ما يريد الحق أن يقوله خبراً .

ويذيل الحق الآية :

﴿ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَـٰفِرِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾

(من الآية ١٢٢ سورة الأنعام)

والمعنى هنا أى تركناهم عرضة لأن ينفعلوا للتزيين ، ولم يحمهم الحق بالعصمة فى اختيارهم ؛ لأنه سبحانه قد ترك الاختيار حرًّا للإنسان :

﴿ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الكهف)

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَـٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُواْ فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾

وقول الحق سبحانه : « وكذلك » تدل على أن شيئاً شبِّه بشىء ، فكما وُجد فى مكة من يناصبك العداء ويناهضك ويقاومك فى أمر الدعوة إلى الله ، ويصدّ عن

سبيل الحق ؛ إن تلك قضية لست فيها بدعاً من الرسل ؛ لأن هذه المسألة قضية سائدة مع كل رسول فى موكب الإيمان ، و « كذلك » أى كما جعلنا فى مكة مجرمين يمكرون جعلنا فى كل قرية سبقت مع رسول سبق هذه المسألة ، فلم تكن بدعاً من الرسل . وحيث إنك لم تكن بدعاً من الرسل فلتصبر على ذلك كما صبر أولو العزم من الرسل . وأنت أولى منهم بالصبر ؛ لأن مشقاتك على قدر مهمتك الرسالية فى الكون كله ، فكل رسول إنما جاء لأمة محدودة ليعالج داءً محدوداً فى زمان محدود . وأنت قد جئت للأمر العام زماناً ومكاناً إلى أن تقوم الساعة ، فلابد أن تتناسب المشقات التى تواجهك مع عموم رسالتك التى خصّك الله بها .

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا ﴾

(من الآية ١٢٣ سورة الأنعام)

والإجرام هو مأخوذ من مادة « الجيم » و« الراء » و« الميم » ، الجرْم والجُرْم والجريمة . فيها معنى القطع . و« مجرميها » جمع مجرم ، ومجرم من أجرم ، وأجرم أى ارتكب الجُرم والجريمة ، ومعنى ذلك أنه قطع نفسه بالجريمة عن مجتمعه الذى يعايشه ، فهو يعزل نفسه لا لمصلحة لأحد إلا لمصلحته هو ، فكأنه قام بعملية انعزال اجتماعى ، وجعل كل شىء لنفسه ، ولم يجعل نفسه لأحد ؛ لأنه يريد أن يحقق مرادات نفسه غير مهتم بالنتائج التى تترتب على ذلك .

إذن فالإجرام هو الإقدام على القبائح إقداماً يجعل الإنسان عازلاً نفسه عن خير مجتمعه ؛ لأنه يريد كل شىء لنفسه . وما دام يريد كل شىء لنفسه فعامل التسلط موجود فيه ، ويرتكب الرذائل . ولأنه يرتكب الرذائل فهو يريد من كل المجتمع أن تنتشر فيه مثل هذه الرذائل ؛ كى لا يشعر أن هناك واحداً أحسن منه .

﴿ لِيَمْكُرُواْ فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾

(من الآية ١٢٣ سورة الأنعام)

والمكر ـ كما نعرف ـ مأخوذ من التفاف الأغصان بعضها على بعض التفافاً بحيث لا تستطيع إذا أمسكت ورقة من أعلى أن تقول هذه الورقة من هذا الفرع ؛ لأن الأغصان والفروع ملفوفة ومتشابكة ومجدولة بعضها مع بعض . والماكر يصنع ذلك

لأنه يريد أن يلف تبييته حتى لا يُكشف عنه ، وما دام يفعل ذلك فاعلم من أول الأمر أنه ضعيف التكوين ؛ لأنه لو لم يعلم ضعف تكوينه لما مكر لأن القوى لا يمكر أبداً ، بل يواجه ، ولذلك يقول الشاعر :

وضعيفة فإذا أصابت فرصة ... قتلت كذلك قدرة الضعفاء

والضعيف عندما يملك فهو يحدث نفسه بأن هذه فرصة لن تتكرر ، فيجهز على خصمه خوفاً من ألا تأتى له فرصة أخرى ، لكن القوى حين يأتى لخصمه فيمسكه ثم قد يُحدث نفسه بأن يتركه ، وعندما يرتكب هذا الخصم حماقة جديدة فيعاقبه . إذن فلا يمكر إلا الضعيف . والحق سبحانه وتعالى فى هذه المسألة يتكلم عن المجرمين من أكابر الناس ، أى الذين يتحكمون فى مصائر الناس ، ويفسدون فيها ولا يقدر أحد أن يقف فى مواجهتهم . وهناك كثير من الآيات تتعلق بهذه المسألة ، وبعضها وقع فيه الجدل والخلاف ، ومن العجيب أن الخلاف لم يُصفَّ ، وكل جماعة من العلماء يتمسكون برأيهم . وهذه الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها تلتقى مع القول الحق :

﴿ وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا ﴿١٦﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

وهذه الآية فيها إشكال ، وقامت بسببها معركة بين العلماء ؛ فنجد منهم من يقول : وكيف يأمر الله أناساً بالفسق ؟ . وحاولوا أن يجدوا تأويلا لذلك فقالوا : إن الحق قد قسر وأجبر أكابر هؤلاء الناس على الفسق . والجانب الثانى من العلماء قالوا : لا ، إن الحق لا يقسر البشر على الفسق ، بل على الإنسان حين يقرأ كلمة أمر الله فى المنهج فلابد أن يعرف أن هذا الأمر عرضة لأن يطاع وعرضة لأن يعصى ؛ لأن المأمور - وهو المكلف - صالح أن يفعل ، وصالح ألا يفعل ، وأن الآمر قد أمر بشىء ، والمأمور له حق الاختيار ، وبذلك تجد أكابر القوم إنما استقبلوا أمر الله بالعصيان ؛ لأن الحق هو القائل :

﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ ﴾

(من الآية ٥ سورة البينة)

والفسق ـ إذن ـ مترتب على اختيار المأمور .

وحين نتأمل نحن بالخواطر معنى : « أمر الله » نجد أن أمر الله يتمثل فى التكوينات الطبيعية الكونية ولا يوجد لأحد قدرة على مخالفة الله فى ذلك ، فهو القائل : (إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون) .

ويتمثل أيضاً أمر الله فى التشريعات ، وللبشر الذين نزلت لهم هذه التشريعات أن يختاروا بين الطاعة أو العصيان ، وسبحانه القائل عن الأمر بالتشريع : (وما أمروا إلا ليعبدوا الله) .

وحين يقول الحق : (وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها) .

فسبحانه لا يهلك هذه القرية ظلماً ، وإنما يرسل إليهم المنهج ، فإن أطاعوا فأهلاً وسهلاً ، وإن عصوا فلابد لهم من العقاب بالدمار .

وهكذا نرى أن العلماء الذين ظنوا أن الفسق مترتب على الأمر من الله لم يلتفتوا إلى أن ورود الأمر فى القرآن جاء على لونين : أولا : أمر التكوين بالقهريات فلا يستطيع المأمور أن يتخلف عنه ، ويمثل الأمر القهرى قوله الحق :

﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ ﴾

(سورة يس)

فالأمر جاهز فى عالم الأزل ليبرز حين يشاء الحق . والأمر الثانى : هو الأمر التشريعى وهو صالح لأن يختار المكلف بين أن يطيع أو يعصى ، وفى هذا الإطار نفهم قوله الحق :

﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

فلا تقل : إن الله يأمر بالفسق ؛ فالحق قد أمر المؤمنين بالمنهج لأنه سبحانه لا يأمر بالفحشاء ، بل جاء الأمر لكل البشر أن يعبدوا الله مخلصين له الدين ، لكن كبار

أهل هذه القرية أخذوا البديل للطاعة وهو الفسق والمعصية ، فلما أمرهم ففسقوا ماذا يصنع بهم ؟ ، هو سبحانه يدمرهم تدميرا . فإن كان فى الكونيات فلا أحد من خلق الله مكلف فى الكونيات ، أما أمره الثانى فى اتباع المنهج فلنا أن نفهم أنه الاختيار .

وهكذا نعلم ونفهم معنى هذه الآية لتلتقى مع الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها : أى وإذا أردنا أن نهلك قرية أنزلنا منهجاً لها فأكابرها كانوا أسوة سيئة ففسقوا فيها بعدم إطاعة منهج الله فحق عليها القول فدمرناها تدميرا . وكذلك - أيضاً - نفهم قوله الحق : « وما يمكرون إلا بأنفسهم وما يشعرون » لأن المكر إنما يريد به الماكر أن يحقق شيئاً من طريق ملتوٍ لأنه ضعيف لا يمكن أن يواجه الحقائق ، وهذه الحقائق تستقبلها الفطرة السليمة ، وهو يريد تزييف المسألة على هذه الفطرة لذلك يلتوى . ولمثل هذا الماكر نقول : أنت تريد أن تحقق لنفسك خيراً عاجلاً وشهوة موقوتة ، ولكنك إن استحضرت العقوبة التى تنشأ من هذا الأمر بالنسبة لك ، وكذلك عقوبتك على أنك أضللت الآخرين لرأيت كيف يأتى الشر .

﴿ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾

(من الآية ١٢٣ سورة الأنعام)

أى لا يعلمون ، لأنهم لا يوازنون الأمور بدقة تؤدى إلى النفع الحقيقى .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُواْ يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾ ﴾

وكأن الآية التى أرسلها الله مع رسوله وهى القرآن لتثبت لهم صدقه فى البلاغ عن

الله لم تقنعهم ، ولم يكتفوا بها ، بل طالبوا بآيات أخرى ، فهم قد قالوا :

﴿ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا (٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا (٩١) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا (٩٢) ﴾

(سورة الإسراء)

هم لا يريدون أن يؤمنوا بل إنهم يدخلون فى اللجاج ، والتماس سبل الفرار من الإيمان ؛ لذلك تجد أن كل الحجج التى وقفوا بها أمام دعوة الرسول هى أكاذيب ؛ فقالوا إنه ساحر يفرق بين المرء وزوجه ، وبين الولد وأبيه ، ويُدخل بما جاء به ـ ويزعم أنه من عند الله ـ الفتنة فى الأسرة الواحدة .

لكن لماذا لم يتساءلوا : ما دام قد سحر غيرنا فلماذا لم يسحرنا ؟ . وهل تأبوا هم على السحر ؟ . وهل للمسحور رغبة أو خيار مع الساحر ؟ . إنهم فى ذلك كاذبون .

ثم قالوا : إن الرسول صلى الله عليه وسلم شاعر . ولو أن أحداً غيرهم قال مثل هذا الكلام لكان مقبولاً لأنه يجهل رسول الله ، ولأنه ليس من قوم هم أهل فصاحة وأهل بلاغة وأهل بيان ، إنهم يعرفون الشعر ، والنثر ، والخطابة والكتابة . فلو كان هذا الأمر من غيرهم لكان القول مقبولاً ، ولذلك نجد منهم من تصفو نفسه يقول : والله ما هو بقول كاهن ولا بقول شاعر . ويطلب الحق منهم ألا يقولوا رأيا جماهيريًا ؛ ففى الرأى الجماهيرى يختلط ويلتبس الحق بالباطل . بل كان يطلب منهم أن يكون الكلام محدداً بحيث تنسب كل كلمة إلى قائلها فيقول الحق :

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ﴾

(من الآية ٤٦ سورة سبأ)

أى لا تأتوا فى أثناء هياج الناس وتتهموا الرسول صلى الله عليه وسلم بالجنون ؛ لأن قولكم فى الهياج الجماهيرى غير محسوب على أحد لكن المطلوب أن تقوموا لله

مثنى أى اثنين اثنين ، وكل اثنين يقولان : هيا بنا نستعرض أمر هذا الرسول ونرى قضاياه : أهو كاهن ؟ . أهو ساحر ؟ . أهو شاعر ؟ فبين الاثنين لا يضيع الحق أبداً لأن كلاً منهما يناقش الآخر ، وحين يجلس اثنان للنقاش ، إذا انهزم منهما واحد أمام الآخر لا يُفضح أمام الغير ، لكن حين يتناقش ثلاثة أو أربعة فكل منهم يخاف أن ينهزم أمام غيره ، ونجد كل واحد يدافع عن نفسه . ولذلك حين يجلس اثنان معاً ليتناقشا ، ويبحثا أى أمر لا يخشى أحدهما الهزيمة ؛ لذلك يأتى الأمر من الله أن يقوموا لله مثنى أو فرادى ، ويتذكر كل واحد منهم أمر هذا الرسول : أهو مجنون ؟ .

إن أفعال المجنون وأعماله تكون متقطعة غير مستقيمة . ومحمد على خلق عظيم ، وهل يقال للمجنون : إنه على خلق عظيم ؟ ؛ لأن الإنسان منا لا يعرف كيف سيقابله المجنون ، أيضربه ، أيشتمه ، أيقطع له ملابسه ؟ . أمّا الخلق العظيم فمعناه الخلق المضبوط بالقيم ، وخلق رسول الله صلى الله عليه وسلم مضبوط بالقيم حتى صار ملكة وليس أمراً افتعاليًّا . وحين يقول الناس عن إنسان إن خلقه الكرم أى قد تأصلت فيه صفة الكرم تأصلاً بحيث أصبحت تصدر عنه أفعال البذل بيسر وسهولة ، والصفة حين ترسخ فى النفس تصير هى الخلق وتصدر عن النفس الأفعال بيسر وسهولة . وفى أعمال المعانى نسميها خلقاً ، وفى أعمال المادة نسميها آلية .

وكلنا يعرف أن الإنسان إن أراد أن يتعلم قيادة سيارة فهو يتعلم الأفعال التى تؤدى إلى سير السيارة حتى يكتسب المهارة ويؤديها بيسر وبدون صعوبة ، وكذلك الشأن فى الخلق حين تصدر عنه الأفعال بدُربة ومهارة ، ونجد ـ على سبيل المثال ـ من يتعلم الفقه ، فيسأله إنسان عن الحكم فى الأمر المعين ، فيستعرض الأمر من كل أوجهه فى وقت طويل ، لكن من يتدرب يصبح الفقه بالنسبة إليه ملكة ، فلا يتعب فى استنباط الحكم . كذلك الخلق .

ويوضح لهم الحق : أنتم تقولون عن الرسول : إنه مجنون ، فاجلسوا مثنى مثنى أو فرادى وادرسوا تصرفاته ستجدون أنها تصرفات منطقية مبنية على خلق كامل مكتمل ، وهو سلوك يختلف بالتأكيد عن سلوك المجنون ؛ لأن المجنون لا ضابط له فى حركاته ولا فى سكناته ولا فيما يأتى ولا فيما يدع . وكذلك لا يمكن أن يكون شاعراً ؛ لأنكم أنتم أهل شعر ، وكذلك ليس بكاهن ؛ فالكهنة قد يستبدلون بآيات

الله ثمنا قليلا ، وهو الذى أعلن لكم رفض الملك والثروة والجاه . لكنهم قالوا :

﴿ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ﴾

(من الآية ١٢٤ سورة الأنعام)

وقد حدث الوليد بن المغيرة نفسه بذلك ، وكان من ناحية السن أسنّ من رسول الله ، ومن ناحية المال كان غنيًا ، ومن ناحية الأولاد عنده العزوة والولد ، وقال : لو كانت الرسالة بكل هذه الأمور لكنت أنا أولى بهذا لأننى أسنّ ولأننى أكثر مالاً ولأننى أكثر ولداً . وهو قد قاسها بمقاييس البشر ، وكأن الوليد لم يكن يعلم أن الرسالة ليست رئاسة ، فإذا كنت أنت دون غيرك عندك المال وعندك الأولاد وعندك الزروع وغير ذلك لكنك لست على خلق محمد صلى الله عليه وسلم ، الذى فطره الله عليه وأعده واصطفاه ليكون رسولا ، ولكن مع هذا قال بعضهم :

﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ ﴾

(سورة الزخرف)

ولنسمع رد القرآن :

﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ﴾

(من الآية ٣٢ سورة الزخرف)

ويوضح لهم الحق : نحن قسمنا بينهم الأمور الحياتية ، لكنكم تريدون تقسيم رحمة الله ، وفرق بين الرحمة فى الرسالات وبين امتداد الحياة بالأقوات والمال ؛ لأن هذه عطاءات ربوبية . لكن الرحمة هى عطاءات ألوهية ، إنكم تميزتم فى دنياكم بالمال والبنين والبساتين لا لخصوصية فيكم ولكن لأن نظام الكون كله إنما يحتاج إلى مواهب متكاملة لا إلى مواهب متكررة ، ولو امتلك كل الناس مثل ما عندك يا وليد من أرض ومال لما وجدت من يفلح لك الأرض ، ولما كان عندك من يسرج لك الفرس . ولهذا جعل الحق مسألة الثروة دولاً ، أى يقلب سبحانه هذه الأمور لتكون متداولة بين الناس ؛ تكون لهذا فى زمن ولآخر فى وقت وزمن آخر ولا تدوم لأحد .

وحين جاء الناس إلى أبى جهل يحدثونه فى الرسالة قال : زاحمنا بنى عبد مناف فى

الشرف ؛ أطعموا فأطعمنا ، كسوا فكسونا ، ذبحوا فذبحنا . حتي صرنا كفرسى رهان ، قالوا : منا نبى يوحى إليه والله لا نرضى به ولا نتبعه أبداً إلاّ أن يأتينا بوحى كما يأتيه ، ومعني كفرسى رهان ، أى فحين تنطلق الخيل فى السباق فى وقت واحد كانوا يدقون عوداً فى الأرض عند نهاية السباق ومن يجذبه من الأرض يقال له : حاز قصب السبق ، وعود القصبة هو غاية المشوار ، حتى لا يقولن أحد لقد سبقنى بخطوة أو غير ذلك .

وهنا يقول الحق : (وإذا جاءتهم آية) .

وانظر إلى كلمة « جاءتهم آية » ، فمرة يقول : (قد جئناك بآية من ربك) ، ومرة يقول : « جاءتهم آية » ، فكأن الآية بلغت من وضوحها ومن استقلالها ومن ذاتيتها وخصوصيتها أنها تجيء .

﴿ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ﴾

(من الآية ١٢٤ سورةالأنعام)

ويقول الله لهم رداً عليهم : لا تقترحوا ذلك على الله ؛ لأن « الله أعلم حيث يجعل رسالته » ؛ لأن الرسالة إنما تجيء لتنشر خيراً فى الجميع ، ولكنها تعف نفسها عن آثار الانتفاع من ذلك الخير . والغير يريد أن يأتى له الخير ثم يترك بعضاً من الخير للناس . والرسول قد جاء لينشر خيره للآخرين ، وهو نفسه لا ينال من هذا الخير إلا البلاغ به . ويأمر سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يموت ألا يأخذ أهله الزكاة ، أمّا ما تركه فقد صار صدقة للناس، أى أنه لم ينتفع به فى الدنيا ؛ لذلك هو مأمون على الرسالة ، ولم يُرد أن يأخذ الدنيا ليرثها أهله من بعده . وقد أراده الله كذلك ليكون خيره لكل الناس . فالرسالة تكليف ، والنبوة ليس جزاؤها هنا ، بل من عظمة الجزاء أنه فى الآخرة ، ولذلك حينما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بيعة العقبة وقالوا : اشترط لنفسك . قال : تمنعونى مما تمنعون منه أنفسكم وتعملون كذا وتعملون كذا .

قالوا له : فما لنا ؟ أنت اشترطت لنفسك ، فما لنا إن نحن وفينا ؟ . ماذا قال الرسول صلى الله عليه وسلم ؟ . قال : لكم الجنة . هذا هو الثمن الذى عنده ،

فمن يريد الجنة يأتى إلى الإيمان ، ومن يريد ما هو دون الجنة فليس مكانه مع أهل الإيمان . مع أنه قال لهم فيما بعد ستركبون السفن وتفرشون الزرابى والوسائد وتجلسون عليها ، وبشرهم بالكثير ، لكنه لم يقل لهم ذلك من البداية لأن مِن هؤلاء من لا يدرك خيراً فى الدنيا مع الإسلام ؛ بل يموت والإسلام ضعيف وأتباعه فى قلة ، لذلك أعطاهم الجزاء المضمون لهم جميعاً حين قالوا له : ماذا إن نحن وَفَّيْنا ؟ . قال : لكم الجنة . وكأنه صلى الله عليه وسلم يعلمهم أن الدنيا أهون من أن تكون جزاءً على العمل الصالح ، فجزاء العمل الصالح خالد لا يفوتك ولا تفوته .

﴿ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ ﴾

(من الآية ١٢٤ سورة الأنعام)

وحين نتأمل قولهم : (لن نؤمن) نجد أن فى هذا القول إصراراً على عدم الإيمان ، أى لن نؤمن حتى فى المستقبل إنهم تحكموا فى المستقبل . ثم يفضحهم الله فيموت بعضهم على الكفر ، ومن بقى منهم يأتون مؤمنين بعد الفتح . ومن العجيب أن العبارة التى ينطقون بها هى عبارة مهزوزة لا تستقيم مع منطق الكفر منهم ، قالوا : لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتى رسل الله ، كأنهم قد عرفوا أن هناك رسلا من الله ، والأصل فى الآية أن يؤمنوا برسل الله ورسول الله صلى الله عليه وسلم خاتم الرسل ، وهذا القول يدل على مجرد المعارضة المقترنة بالغباء ، فما دمتم تعرفون أن لله رسلاً يصطفيهم ، فكيف تحاولون أنتم تحديد إرادة الله فى الاختيار ؟ .

إن رسل الله كانت لهم آيات كونية ، حسيّة مرئية ، وهى وإن كانت فيها قوة المشهد الملزم ، إلا إنه لا ديمومة لها ، فمن رأى سيدنا موسى وهو يضرب البحر فينفلق لن يكذب هذه الآية الكونية ، إلا أنها أصبحت خبراً والخبر مناسب لمحدودية رسالة موسى ، وكذلك رسالة عيسى عليه السلام حيث أبرأ الأكمه والأبرص بإذن الله . وهذه رسالات لزمن محدود وفى قوم محدودين ، لكن الرسول صلى الله عليه وسلم جاء ومعه المنهج المعجزة الباقى إلى قيام الساعة ، فإن كانت المعجزة حسيّة فلن يراها إلا قوم مخصوصون لأن الأمر الحسّى لا يتكرر ، بل ينتهى ، وسيدنا محمد رسول إلى أن تقوم الساعة . فلابد له من آية باقية إلى قيام الساعة ؛ لذلك كانت الآية فى المعنويات والعقليات التى لا تختلف فيها الأمم ولا تختلف فيها الأزمان ،

لكنهم أرادوا معجزة حسيّة ، وأخرى عقلية ، حتى إذا جاءت واحدة فقط أنكروا الثانية ، فحسم الحق الأمر وقال : « الله أعلم حيث يجعل رسالته » .

ولو نظروا إلى كلمة « الله أعلم حيث يجعل رسالته » ، فكلمة « أعلم » تدل على أنه قد يمكّن الله بعضاً من خلقه ليعلموا لماذا اختار الله محمدا صلى الله عليه وسلم ؛ لأن الذين واجههم صلى الله عليه وسلم بأمر الدعوة ، هل انتظروا منه أن تكون له آية أو معجزة ، أو آمنوا به بمجرد الإخبار ؟ . لقد آمنوا بمجرد الإخبار ؛ لأن تجربتهم معه أكدت أنه صادق وأمين على خبر الأرض ، ولابد أن يكون مأمونا على خبر السماء ؛ لأنه لم يكذب عليهم فى أمر الأرض ، فكيف يكذب فى أمر السماء ؟

إننا نجد أن سيدنا أبا بكر ، بمجرد أن علم بأمر الرسالة قال : صدقت ، وسيدتنا خديجة صدقته من فور أن قال ، وأخذت صدق بلاغه من مقدمات حياته ، وقالت أول استنباط فقهى فى الإسلام . وكان ذلك لسيدتنا أم المؤمنين خديجة قبل أن يعرف الفقه بمعناه الإصطلاحى الحديث ، مما يدل على أن الاستنباطات للأدلة هى استنباطات للعقل الفطرى السليم البعيد عن الأهواء . إنّه يقدر أن يستقرىء الأمر ولابد أن يهتدى ، فحين أعلن لها أنه خائف أن يكون الذى أصابه مرض أو مسٌّ من الجن رفضت ذلك ؛ لأنه يصل الرحم ، ويحمل الكلّ ، ويعين على نوائب الدهر ، وقالت له : والله لا يخزيك الله أبداً .

إذن فقد جاءت بالمقدمات التى ترشح أن ربنا لا يمكن أن يخذله ، وكل المقدمات مفاخر ، وكلها خلق عظيم ، وكلها التقاءات إنسانية قبل أن يأتى منهج السماء ، التقاءات إنسانية بالفطرة دون تقدير أو تدبير ، وكان هذا أول استنباط فقهى فى الإسلام . ولذلك نعرف السر لماذا جعل الله لرسوله أم المؤمنين خديجة أول زوجة له ؟ لأنه ستمر به فترة لا يحتاج فيها إلى زوجة فقط ، بل إلى أم ناضجة ، ذلك النضج الكامل الذى تستقبل به مسائل النبوة ، ولذلك حين يخرج إلى الغار تأتى له بالطعام ، وتذهب معه لورقة بن نوفل . بالله لو كانت بنتاً صغيرة أكانت تمتلك حكمة خديجة فى الاستنباط قبل أن يوجد فقه الإسلام ؟

« الله أعلم حيث يجعل رسالته » ؟ ، وهم قد أصروا على ألا يعلموا على الرغم من أنهم وجدوا منه خصالاً وأشياءً حكموا بوجودها فيه وأنها صفات رسول .

﴿ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ ﴾

(من الآية ١٢٤ سورة الأنعام)

هنا نجد فجوة انتقالية فى الأداء ، فمن قبل يتحدث سبحانه عمن يظنون أنهم كبار ، فيأتى ليقول : إن الصَّغار سيصيبهم ، وليس معنى الصغار الذل والهوان لدى الناس ، لا ، بل صغار وذل وهوان عند نفس كل منهم ذاتيًّا ، فكل منهم سيشعر بالذل أمام نفسه ويستصغر نفسه . كأن الصغار سيصيب الإنسان فى نفسه ، ويكون هذا الصغار من عند الله ، وما دام الصغار منسوباً إلى عندية الله فهو لا يزول أبداً ؛ لأنه لا توجد قوة ثانية تقول لله إن قدرك لن يتحقق . فالصغار والذل والهوان سينزل بهم وهم مع كونهم أكابر المجرمين فلن يستطيعوا دفعه عن أنفسهم ، وسيصيبهم مع ذلك عذاب شديد .

لماذا العذاب الشديد ؟

لقد قلنا من قبل : إن العذاب يوصف مرة بأنه أليم ، ويوصف مرة أخرى بأنه مهين ، ويوصف هنا بأنه شديد . والعذاب المهين الذى تكون فيه ذلة النفس . والعذاب الأليم الذى يكون فى البنية ؛ لأن الإنسان له بنية وله معنويات قيمية ، فمن ناحية البنية يصيبه العذاب ، ومن ناحية المعانى النفسية تصيبه الإهانة ، فهناك من يتعذب لكنك لا تملك أن تهينه ويتحمل المشقة برجولة ، ومهما تلقى من الإهانة فلا تزال نفسه كريمة عليه ، مصداقاً لقول الشاعر :

وتجلدى للشامتين أريهمو أنى لريب الدهر لا أتضعضعُ

لذلك ينزل قدر الله بالعذاب على نوعين : عذاب بنية وعذاب قيم ، وهذا هو الصغار ، والعذاب الشديد ، وهو الذى لا يقوى الإنسان على تحمله ، ولم يُنزل الحق العذاب بهؤلاء جزافاً ، لكنه بسبب ما كانوا يمكرون ، فسبحانه هو القائل :

﴿ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾

(من الآية ١١٨ سورة النحل)

والحق سبحانه وتعالى حينما عرض هذه القضية عرضها ليبين لنا أنه لم يرغم بقدره خلقاً من خلقه على مسائل الاختيار فى التكليف بل أوجد ذلك فى إطار :

﴿ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الكهف)

ولكن الإرغام من الحق جاء للأمور القهرية القدرية الكونية الخارجة عن نطاق التكليف ، أما أمر التكليف فالله سبحانه وتعالى قال فيمن يرفضون الطاعة : « سيصيب الذين أجرموا صغار عند الله وعذاب شديد » وسبحانه قد أوضح لنا : نحن لم نجعل ذلك قهراً منا لهم دون عمل عملوه باختيارهم بل إن العذاب والصغار كانا جزاءً لمكرهم .

ثم يأتى الحق سبحانه وتعالى لنا بقضية يقع فيها الجدل التبريرى لبعض الناس الذين أسرفوا على أنفسهم ، ويريدون أن يجعلوا إسرافهم على أنفسهم فى الذنوب خاضعا لأن الله أراد منهم ذلك ؛ فيقول سبحانه :

﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ ﴾

نجد من يقول إن ربنا حين يريد لإنسان أن يشرح صدره للإسلام فذلك من إرادة الله وما ذنب المكلف إذن ؟ .

وللرد على هذا نقول : لقد عرفنا من قبل أن الهداية لها معنيان : المعنى الأول : الدلالة وهى أمر وارد وواجب حتى للكافر . فإن هُدى الله للكافر أن يدلّه إلى طريق الخير ، ولكن هناك هداية من نوع آخر وهى للذى آمن ، ويصبح أهلاً لمعونة الله ، بأن يخفف عنه أعباء التكاليف وييسرها له ويجعله يعشق كل الأوامر ويعشق البغض والتجافى عن كل النواهى .

يقول بعض الصالحين : « اللهم إنى أخاف ألا تثيبنى على طاعة ، لأنى أصبحت أشتهيها » كأنه عشق الطاعة بحيث لم يعد يجد فيها مشقة أو تكليفاً ، لذلك فهو خائف ، وكأنه قد فهم أنه لابد أن توجد مشقة ، ولمثل هذا الإنسان الصالح نقول : لقد فقدت الإحساس بمشقة التكليف لأنك عشقته فألفت العبادة كما ألفتك وعشقتك ، وحدث الانجذاب بينك وبين الطاعة ، وجعلت رسول الله مثلاً لك وقدوة ، فقد كان صلى الله عليه وسلم يرى أنه إذا نودى إلى الصلاة يقوم الناس إليها كسالى لكنه صلى الله عليه وسلم يقول لبلال حينما يأتى وقت الصلاة : « أرحنا بها يا بلال » .

وهذا غير ما يقوله بعض ممن يؤدون الصلاة الآن حيث يقول الواحد منهم : هيا نصل لنزيحها من على ظهورنا ، وهؤلاء يؤدونها بالتكليف لا بالمحبة والعشق . أما الذين ألفوا الراحة بالصلاة حينما يحزبهم ويشتد عليهم أمر خارج عن نطاق أسبابهم ، يقول الواحد منهم : ما دامت الصلاة تريح القلب ، فلأذهب إليها وألقى ربى زائداً على أمر تكليفه لى متقربا إليه بالنوافل ، ولذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا حزبه أمر قام إلى الصلاة . ومعنى حزبه أن الأسباب البشرية لا تنهض به . فيقوم إلى الصلاة ، وهذا أمر منطقى ، ولله المثل الأعلى .

كان الإنسان منا وهو طفل إذا ما ضايقه أمر يذهب إلى أبيه ، فما بالنا إذا ما ضايقنا أمر فوق الأسباب المعطاة لنا من الله فلمن نروح ؟ إننا نلجأ لربنا ولقد كان صلى الله عليه وسلم إذا حزبه أمر قام إلى الصلاة .

إذن فعشق التكليف شيء يدل على أنك ذقت حلاوة الطاعة ، وقد يجوز أنه شاق عليك ؛ لأنه يخرجك أولاً عمّا ألفت من الاعتياد . فعندما يأتيك أمر فيه مشقة تقول : إن هذه المشقة إنما يريد الله بها لى حسن الجزاء ، فإذا ما عشقت الصلاة صارت حبًّا لك ، وكان واحد من الصالحين ـ كما قلت ـ يخاف ألا يثاب على الصلاة لأنها أصبحت شهوة نفس ، والإنسان مطالب بأن يحارب نفسه فى شهواتها لكن رسول الله صلى الله عليه وسلم وضع لنا المثل فقال : « لا يؤمن أحدكم حتى يصبح هواه تبعاً لما جئت به » أى يصبح ما يشتهيه موافقا لمنهج الله ، فإذا وصل وانتهى المؤمن إلى هذه المنزلة فهو نعم العبد السوى .

وهكذا عرفنا أن الهداية قسمان : هداية بمعنى الدلالة ، وهداية بمعنى المعونة .

فإذا ما اقتنعت بهداية الدلالة وآمنت بالحق فسبحانه يخفف عليك أمور التكليف ، ويجعلك عاشقاً لها ، ولذلك يقول أهل الصلاح : ربنا قد فرض علينا خمس صلوات ، وسبحانه يستحق منا الوقوف بين يديه أكثر من خمس مرات ، وفرض علينا ربنا نصاب الزكاة وهو اثنان ونصف بالمائة ، وسبحانه يستحق منا أكثر من ذلك لأنه واهب كل شيء ، وهذا عشق التكليف ، وهذا هو معنى قوله : (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام) .

« فمن يرد الله أن يهديه » أى يدلّه سبحانه كما دل كل العباد إلى المنهج ، لكن الذى اقتنع بالدلالة وآمن يسهل عليه تبعات التكليف مصداقاً لقوله الحق :

﴿ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ هُدًى وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾ ﴾

(سورة مريم)

فهذه هداية المعونة ، وفيه فرق هنا بين الإسلام والإيمان لأن الإيمان لا يحتاج فقط إلى الاعتقاد ؛ إنما هو حمل النفس على مطلوبات الإيمان . ولذلك نجد أن كبار رجال قريش رفضوا أن يقولوا : « لا إله إلا الله » ؛ لأنهم علموا أنها ليست مجرد كلمة تقال ، ولكن لها مطلوبات تتعب فى التكاليف الناتجة عنها بـ« افعل » و« لا تفعل » . فالتكليف يقول لك : « افعل » لشيء هو صعب عليك ، ويقول لك : « لا تفعل » فى شيء من الصعب أن تتركه ، لذلك يقول سبحانه :

﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ﴾

(من الآية ١٢٥ سورة الأنعام)

وسبحانه يشرح صدره للإسلام بعد أن علم أنه قد اعتقد شريعة التوحيد ورضيها واطمأن بها ، فيأتى إلى فهم التكاليف ؛ لأن صحيح الإسلام يقتضى الانقياد لأمور التكاليف ، فمن أخذ الهداية الأولى وآمن بربه ، يوضح له سبحانه : آمنت بى وجئتنى ؛ لذلك أخفف عنك تبعات العمل ، ويشرح صدره للإسلام ، وشرح الصدر قد يكون جزاءً . فسبحانه هو القائل :

﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝ ﴾

(سورة الشرح)

فقد جازاه ربنا بذلك ؛ لأنه أدّى ما عليه وصمد . كأن الله يريد بالإيمان من المؤمن أن يقبل على الحق ، وحينما يقبل على الحق ، يبحث العبد ليتعرف على المراد والمطلوب منه فيعلم أنها التكاليف ، فإذا رأى الله منك الاستعداد المتميز لقبول التكاليف ، فإنّه يخففها عنك لا بالتقليل منها ، ولكن بأن يجعلك تشتهيها ، وقد تلزم نفسك بأشياء فوق ما كلفك الله ؛ لتكون من أهل المودة ومن أهل التجليات ومن الذين يدخلون مع الله فى ود ، وتلتفت لنفسك وأنت تقول : لقد كلفنى الله بالقليل وسبحانه يستحق الكثير . فتزيد من طاعتك وتجد أمامك دائماً الحديث القدسى :

« من عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب ، وما تقرب إلى عبدى بشىء أحب إلىّ مما افترضته عليه ، ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها »[1] .

أى بالأمور التى تزيد على ما كلفه فى الصلاة والزكاة والصيام والحج .

إذن فمعنى « فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام » أى يجعل الأمور التى يظن بعض من الناس أنها متعبة فإنه بإقباله عليها وعشقه لها يجدها مريحة ويقبل عليها بشوق وخشوع . ولذلك فالحق سبحانه وتعالى يترك فى خلقه مُثُلاً للناس ، فنجد المال عزيزاً على النفس حريصة عليه لأنه إن كان المال قد جاء بطريق شرعه الله وأحله فهو يأتى بتعب وبكدّ ؛ لذلك يحرص عليه الإنسان ، فيحنن الله العبد من أجل البذل والعطاء .

إننا نجد المؤمن يعطى للسائل لأن السائل هو الجسر الذى يسير عليه المسلم إلى الثواب من الله ، فيقول العبد المؤمن للسائل : مرحباً بمن جاء ليحمل زادى إلى الآخرة بغير أجرة ، ولذلك عندما جاء مسلم إلى الإمام علىّ ـ رضى الله عنه وكرّم الله وجهه ـ ، قال المسلم : أنا أريد أن أعرف أأنا من أهل الدنيا أم من أهل الآخرة ؟

(١) رواه البخارى .

واختار الإمام عليّ مقياساً للإيمان فى نفس كل مؤمن ، وقال له : إن جاءك من يطلب منك ، وجاء من يعطيك ، فإن كنت تهش لمن يعطيك فأنت من أهل الدنيا ، وإن كنت تهشّ لمن يأخذ منك فأنت من أهل الآخرة ؛ لأن الإنسان يحب من يعمر له ما يحب .

إذن فـ « يشرح صدره للإسلام » أى يخفف عنه متاعب التكليف بحيث لا توجد مشقة ، ثم يرتقى بعد ذلك ارتقاءً آخر بأن يُعشّقه فى التكليف . ويهديه الله إلى طريق الجنة ، لأن هناك هداية إلى المنهج وهداية إلى الجزاء على المنهج ، ولذلك نجد القرآن يقول ؛ عمن ضلوا :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ ﴾

(سورة النساء)

كأن هناك هداية إلى العمل وهداية إلى الجزاء ، ونجد الحق يقول :

﴿ وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾ ﴾

(سورة محمد)

وقد يتساءل إنسان : كيف يهدى الله من قُتل ، وهل هناك تكليف بعد القتل ؟ . نقول : انظر إلى الهداية ، إنها هداية الجزاء « سيهديهم ويصلح بالهم ويدخلهم الجنة عرّفها لهم » .

وهكذا نعرف أن هناك هداية الجزاء ، من يحسن العمل يُجزه الله الجنة ، أما من يسيء فله عذاب فى الدنيا والآخرة .

﴿ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾

(من الآية ١٢٥ سورة الأنعام)

وهل هذا تجنٍ من الله على خلقه ؟ لا ، لأنه ما دام دعاهم للإيمان فآمن بعضهم وصاروا أهلاً للتجليات ، وكفر بعضهم فلم يؤمنوا ، فصاروا أهلاً للحرج وضيق الصدر . ومعنى الضيق أن الشيء يكون حجمه أقل مما يؤدى به مهمته ، فحين يقال : ضاق البيت بى وبعيالى ، فهذا يعنى أن الرجل وزوجه فى البداية عاشا فى غرفتين ، وكان البيت متسعاً . ثم أنجبا عيالاً كثيرة فضاق بهم البيت . وهكذا نعلم أنه لم يطرأ شيء على الجدران ومساحة البيت ، لكن حين زاد عدد الأفراد شعر رب الأسرة بضيق المنزل . ويقال : صدره ضيّق أو ضيْق فقد ورد فى القرآن لفظ ضيق على لغتين : فالحق يقول :

﴿ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴾

(من الآية ١٢٧ سورة النحل)

وهناك فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها توجد كلمة ضَيّق ، والحق يقول :

﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدْرُكَ ﴾

(من الآية ١٢ سورة هود)

فما المراد من « ضائق » ، و« ضيّق » ، و« ضيْق » ؟ . نعرف أن الصدر هو مكان الجارحتين الأساسيتين فى التكوين : القلب والرئة ، والرئة هي الجارحة التى لا تستمر الحياة إلا بعملها ؛ فقد تبطىء الأمعاء مثلا ، أو تتوقف قليلاً عن عملها ، ويتغذى الإنسان على خزينه من الدهن أو اللحم ولذلك يصبر الإنسان على الجوع مدة طويلة ، ويصبر على الماء مدة أقل ، لكنه لا يصبر على افتقاد الهواء لدقائق ، ولا صبر لأحد على ترك الشهيق والزفير .

ولقد قلنا من قبل : إن الحق سبحانه وتعالى قد يملّك بعضاً قوت بعض . وأقل منه أن يملِّك بعضا ماء بعض ، لكن أيملّك أحداً هواء أحد ؟ لا ؛ لأن الرضا والغضب أغيار فى النفس البشرية . فإذا غضب إنسان على إنسان ، وكان يملك الهواء وحبسه عنه فالإنسان يموت قبل أن يرضى عنه هذا الأخر ، ولذلك لم يملك الله الهواء لأحد من خلقه أبداً .

إذن كل المسألة المتعلقة بقوله : « يجعل صدره ضيقاً حرجاً » نعلم عنها أن الصدر

هو محل التنفس ، والرئة تأخذ الأوكسيجين وتطرد ثانى أوكسيد الكربون ، وعندما يصاب الإنسان بنوبة برد نراه وهو يجد صعوبة فى التنفس ، كأن حيّز الصدر صار ضيقاً ، فلا يدخل الهواء الكافى لتشغيل الرئتين ، ويحاول الإنسان أن يعوض بالحركة ما فاته فينهج . ويشخص الأطباء ذلك بأن المريض يريد أن يأخذ ما يحتاجه إليه من الهواء ، فينهج ؛ لأن الحيّز قد ضاق ، وكذلك عندما يصعد الإنسان سلماً ، ينهج أيضاً ؛ لأن الصعود يحتاج إلى مجهود ، لمعاندة جاذبية الأرض ، فالأرض لها جاذبية تشد الإنسان ، ومن يصعد إنما يحتاج إلى قوة ليتحرك إلى أعلى ويقاوم الجاذبية .

إننا نجد نزول السلم مريحاً ؛ لأن فى النزول مساعدة للجاذبية ، لكن الصعود يحتاج إلى جهد أكثر ، فإذا ضاق الصدر فمعنى ذلك أن حيز الصدر لم يعد قادراً على أن يأخذ الهواء بالتنفس بطريقة تريح الجسم ، ولذلك يقال : « فلان صدره ضيق » أى أن التنفس يجهده إجهاداً بحيث يحتاج إلى هواء أكثر من الحجم الذى يسعه صدره .

« ومن يرد أن يضلّه يجعل صدره ضيقاً حرجاً » والحرج معناه الحجز عن الفعل ، كأن نقول حرَّجت على فلان أن يفعل كذا ، أى ضيقت عليه ومنعته من أن يؤدى هذا العمل . (كأنما يصّعد فى السماء) .

وعلمنا أن الصعود لأعلى هو امتداد لفعل الجسم إلى جهة من جهاته . فالجهات التى تحيط بأى شىء ست : هى فوق وتحت ، ويمين ، شمال ، وأمام ، وخلف ، وعرفنا أن الهبوط سهل ؛ لأن الجاذبية تساعد عليه ، والمشى ماذا يعنى ؟ المشى إلى يمين أو إلى شمال أو إلى أمام أو إلى خلف ، فهو فعل فى الاستواء العادى الظاهر ، والذى يتعب هو أن يصعد الإنسان ، لأنه سيعاند الجاذبية ، وهو بذلك يحتاج إلى قوتين : قوة للفعل فى ذاته ، والقوة الثانية لمعاندة الجاذبية .

« ومن يرد أن يضلّه يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصّعد فى السماء » وذلك بسبب مشقات التكليف ؛ لأنه لم يدخلها بعشق ، فلا يدخل إلى مشقات التكليف بعشق إلا المؤمن فهو الذى يستقبل هذه التكاليف بشرح صدر وانبساط نفس وتذكر بما يكون له من الجزاء على هذا العمل ، والذى يسهل مشقة الأعمال حلاوة تصور الجزاء عليها ؛ فالذى يجتهد فى دروسه إنما يستحضر فى ذهنه لذة النجاح وآثار هذا النجاح

فى نفسه مستقبلاً وفى أهله . أما الذى لا يستحضر نتائج ما يفعل فيكون العمل شاقاً عليه .

﴿ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾

(من الآية ١٢٥ سورة الأنعام)

والسماء هى كل ما علاك فأظلك ، فالجو الذى يعلوك هو سماء ، وكذلك السحابة ، وأوضح لنا ربنا أنه أقام السموات السبع ، وهنا أراد بعض العلماء الذين يحبون أن يظهروا آيات القرآن كمعجزات كونية إلى أن تقوم الساعة ، أرادوا أن يأخذوا من هذا القول دليلاً جديداً على صدق القرآن ، وتساءلوا : من الذى كان يدرك أن الذى يصعد فى الجو يتعب ويحتاج إلى مجهودين : الأول للعمل والثانى لمناهضة الجاذبية ولذلك يضيق صدره لأنه لا يجد الهواء الكافى لإمداده بطاقة تولد وقوداً .

ونقول لهؤلاء العلماء : لا يوجد ما يمنع استنباط ما يتفق فى القضية الكونية مع القضية القرآنية بصدق ، ولكن لنحبس شهوتنا فى أن نربط القرآن بكل أحداث الكون حتى لا نتهافت فنجعل من تفسيرنا لآية من آيات القرآن دليلاً على تصديق نظرية قائمة ، وقد نجد من بعد ذلك من يثبت خطأ النظرية .

إنه يجب على المخلصين الذين يريدون أن يربطوا بين القرآن لما فيه من معجزات قرآنية مع معجزات الكون أن يمتلكوا اليقظة فلا يربطوا آيات القرآن إلا بالحقائق العلمية ، وهناك فرق بين النظرية وبين الحقيقة ؛ فالنظرية افتراضية وقد تخيب . لذلك نقول : أبعد القرآن عن هذه حتى لا تعرضه للذبذبة . ولا تربطوا القرآن إلا بالحقائق العلمية التى أثبتت التجارب صدقها .

وقائل القرآن هو خالق الكون ، لذلك لا تتناقض الحقيقة القرآنية مع الحقيقة الكونية ؛ لذلك لا تحدد أنت الحقيقة القرآنية وتحصرها فى شىء وهى غير محصورة فيه . وتنبه جيداً إلى أن تكون الحقيقة القرآنية حقيقة قرآنية صافية ، وكذلك الحقيقة الكونية .

﴿ كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾

(من الآية ١٢٥ سورة الأنعام)

والرجس وهو العذاب ، إنما يأتيهم بسبب كفرهم وعدم إقبالهم على التكليف .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسۡتَقِيمٗاۗ قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَذَّكَّرُونَ ١٢٦ ﴾

و « هذا » مقصود به ما تقدم من آيات . من كتاب الإسلام وهو القرآن ، وذلك ما يشرح الصدر القابل للإيمان ، والقرآن هو الحامل لمنهج الإسلام ؛ فمرة تعود الإشارة إلى القرآن أو إلى الإسلام . وليس هناك خلاف بين القرآن والإسلام .

(وهذا صراط ربك مستقيماً) . و « الصراط » هو الطريق السَّوى ، والطريق السَّوى قد يكون مع استوائه معوجاً لكن هذا الطريق مستوٍ ومستقيم ، ونعلم أن الطريق المستقيم هو أقصر الطرق الموصلة للغاية . وعلى هذا فصراط لا تغنى عن مستقيم ، ومستقيم لا يغنى عن صراط ، بل لابد من صراط معبد ومستقيم ليكون أقصر طريق إلى الغاية وبلا متاعب ، إننا ـ نحن البشر ـ نرى المهندسين وهم يقيسون الأبعاد والمسافات والغايات والبدايات والنهايات ، وبعد ذلك يربطون البدايات بالغايات .

إنهم يحضرون آلات معينة ليرصدوا استقامة الطريق وكيفية تمهيده . وقد يعترض استقامة الطريق عقبات صعبة شديدة كَأْدَاء كجبل مثلاً ، فيقوم المهندسون إما بنحت نفق فى الجبل ليضمنوا له الاستقامة ، وإما بأن يحنى الطريق ليضمنوا جودة تعبيد الطريق . فإن جاء المهندسون وقالوا نمشى من هنا لنضمن استقامة الطريق فإننا نفعل ذلك . وإلاّ جعلوا الطريق متعرجاً أو حلزونيًّا ؛ وذلك ليتفادى السائر العقبات التى ليس له قدرة عليها .

لكن إذا كان الصراط قد مهده رب ، أتوجد له عقبة ؟ طبعاً لا ، إذن فهو طريق مستقيم . ولنلحظ أنه سبحانه قال : « صراط ربك » أى أنه جاء بها من ناحية

الربوبية ، والربوبية عطاء الرب ، إنه سيد ، ومرب ، وخالق الخلق ويضمن لهم ما يعينهم على مهمتهم فى الوجود معونة ميسرة سهلة . وهكذا نعرف أن طريق الحق هو الصراط المعبد المستقيم ، أى الذى يصل بين البداية والنهاية . فإن كان الطريق الذى نتبعه مستقيماً ومعبداً ، وسهلاً ، فلماذا لا نتبعه ؟

« وهذا صراط ربك » . ونلحظ أنه سبحانه قد أسند الرب لمحمد ، أى من أجل خاطره جعل الصراط مستقيماً ؛ لأنه سبحانه هو المتولى لربوبيتك يا محمد ، وسبحانه رب الكون كله ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم عين أعيان الكون .

﴿ وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

« فصّلنا » أى أنّ كل شىء فى هذا الكون مخلوق لما يناسبه ، وكل قضية من قضايا الكون خلقها ربنا لتحقق الفائدة منها بدون مشقة ، وبدون عنت . والمنهج الذى أنزله الله إنما يصلح الكون ويجعل كل شىء فيه مناسباً لمهمته ؛ لأن الله إله كل الناس وهم بالنسبة إليه سواء لأنه لم يتخذ لا صاحبة ولا ولداً . ولا يعطى سبحانه الحياة لمخلوق ويوجده فى الكون ، ثم يعرّيه من أسلحة الحركة فى الحياة ، ولكل إنسان سلاح من موهبة أو قدرة وبذلك تتعدد الأسلحة والمواهب والقدرات ، فمن يريد أن يبنى بيتاً ، أنقول له : اذهب إلى كلية الهندسة لتتعلم كيف ترسم البيت وتخططه ؟ أنقول له : تعلم كيف تكون فنيًا وكهربائيًا ونقاشاً ؟ إن الفرد الواحد لا يمكن أن يتعلم كل هذه التخصصات ، لذلك وزّع الله المواهب على خلقه ؛ هذا عنده موهبة ليعمل لنفسه ، ويعمل لغيره . وبعد ذلك يأتى غيره ليؤدى له عملاً ليس له فيه موهبة بحيث يتكامل المجتمع كله ولا يتكرر أفراده .

ولو كنا تخرجنا جميعاً كأطباء أو مهندسين لما نفعت الدنيا ، ومن نقول عليهم : إنهم فشلوا فى التعليم يقومون بأعمال فى الحياة ما كنا نستطيع الحياة بدونها ؛ فقد خلقهم الله بقدرات عقلية محدودة ليهبهم قدرات أخرى تصلح فى مهمات أخرى . وإن تعلم المجتمع كله تعليماً عاليا لصار الهرم مقلوباً . وإن انقلب الهرم فمعنى هذا أن أجزاءً منه ستكون بغير دعائم فى الأرض . لذلك نجد أن هناك إعداداً عقليا أراده الحق لكل واحد من الخلق ، ولا نستطيع أن نقول لكل إنسان : تعلم وتخرج فى

الجامعة ثم اكنس الشارع . وكن فى الغد حداداً . لذلك ربط الحق كل عمل بالحاجة إليه ، ومن يحسن استقبال قدر الله فى نفسه يُعطِ الله له من العمل كل الخير .

ونلحظ الآن أن من يعمل موظفاً فى الدولة يحيا فى راتب محدود ، بينما تجد السباك يقدرعمله بأجر يحدده هو ، ويبقى الويل والتعب لمن كان تقدير عمله فى يد غيره . (وهذا صراط ربك مستقيماً قد فصلنا الآيات لقوم يذكرون) .

وانظر كل قضية فى الكون ، لم يُدخل ابن آدم فيها أنفه تجدها مستقيمة ، ولا يأتى الفساد إلا فى القضايا التى أدخل ابن آدم أنفه فيها بدون منهج الله . فإن دخلت فى كل مسألة بمنهج الله يستقم الكون تماماً . ولذلك يلفتنا الحق سبحانه وتعالى إلى النظام الأعلى فى كونه والذى لا تدخل لنا فيه . ولا سيطرة عليه ؛ السموات ، والكواكب ، والشمس ، والقمر ، وحركة الأرض ، كل تلك الكائنات نجد أمورها تسير بانتظام ، ولذلك يقول لنا الحق سبحانه :

﴿ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝ أَلَّا تَطْغَوْاْ فِى ٱلْمِيزَانِ ۝ ﴾

(سورة الرحمن)

فإن أردتم أن تستقيم أموركم فى شئونكم وأحوالكم الاختيارية فادخلوا فيها بمنهج الله ؛ لأن الأشياء التى تدار بمنهج الله بدون أن يتدخل فيها البشر تؤدى مهمتها كما ينبغى .

فعلى الإنسان ـ إذن ـ أن يتذكر كيف يأخذ من المقدمات التى أمامه ما يوصل إلى النتائج ، ولابد أن يأخذ المقدمات السليمة ليصل إلى الغايات الفطرية . وأقصر الأمور أن تسأل نفسك : أنت صنعة من ؟ صنعة نفسك ؟ ! لا ، هل أنت من صنعة واحد مثلك ؟ لا . وهل ادّعى واحد فى كون الله ـ وما أكثر ما يُدَّعى ـ أنه خلقك أو خلق نفسه ؟ لا . بل أنت وهو وكل الكون من صنعة الله ، فدعوا الله يقرر قانون صيانتكم ، وسيظل الناس متعبين إلى أن يسلموا الصنعة إلى خالقها . (وهذا صراط ربك مستقيماً قد فصلنا الآيات لقوم يذكرون) .

ولم يقل فصلنا الآيات لواحد ، بل قال « لقوم » حتى إذا ما مال أو غفل واحد فى الفكر يعدله غيره . وكلنا متكافلون فى التذكير ، وهذا التكافل فى التذكير يعصم كل

مؤمن من نفسه ؛ فإن حصل عندى قصور من سهو أو من غفلةأو من هوى يعدله غيرى . وهذه قضية كونية لو استقرأت الوجود كله وجدتها لا تتخلف أبدا ، ولابد من تذكر الغاية التى جاء بها فى قوله الحق :

﴿ لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِندَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴾

أى أن لهؤلاء المتقدمين الذين صبروا وصابروا ورابطوا ، لهم دار السلام ، وهو أسلوب مكون ـ كما يقال ـ من مبتدأ وخبر ، إلا أن المبتدأ أُخِّر هنا ، والخبر تقدّم ، وكان المنطق أن يقال : « دار السلام لهؤلاء » ولكن الأسلوب القرآنى جاء ليقدم الخبر المكون من الجار والمجرور ومتعلقه ، ويؤخر المبتدأ وذلك لخصوصية أرادها الحق ، وهى أن هذه الدار لهم وحدهم دون غيرهم فهى خالصة لهم يوم القيامة و « دار السلام » مكونة من كلمتين ، « دار » ومعناها ما يستقر فيه الإنسان ، ويجمع هذا المكان كل ما تتطلبه حياة الإنسان ، وهى أوسع قليلاً من كلمة « بيت » ؛ لأن البيت مكان يعد للبيتوتة ، لكن كلمة « دار » تعد للحياة ولما يتعلق بالحياة من مقوماتها .

و « دار » هنا مضافة إلى السلام ، وهو ـ كما نعلم ـ اسم من أسماء الله ، إذن فالحق هنا يوضح : لهم دار منسوبة للسلام وهو الله ، وهم مستحقون لها جزاءً منه ، فإذا كانت الدار التى وعدها الله هى دار السلام وهو الله ، فلابد أن فيها متعاً وإمكانات على قدر فضل المضاف إليه وهو الله ، ولماذا لم يقل الله : « دار الله » ؟ ؛ لأن الله أراد أن يأتى بوصف آخر من أوصافه ؛ ليعطيهم السلام والأمن والاطمئنان .

وهناك فرق بين دور الدنيا ، وهذه الدار ؛ فدور الدنيا فيها متع ، ولكنك فيها بين أمرين : إما أن تفوت أنت ما هى فيه ، وإما أن يفوتك ما فيها ، ولذلك لا يوجد فى الدنيا أمن ؛ لأن غيرك قد يناوئك فيها ويعاديك ، وقد تأتى لك مكدرات المرض ، وقد تأتى لك معكرات الأعداء ، كل ذلك ينغص عليك الأمن والسلام فى الدنيا . ولذلك أراد الحق أن تكون لك الآخرة دار سلام مادمت قد آمنت ، وأن تأمن فيها

من كل الآفات التي كانت في دار الدنيا .

﴿ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾

(من الآية ١٢٧ سورة الأنعام)

وكأن دار السلام ليست وعداً من الله بأن تكون ، ولكنها جاهزة معدة عند الله ومحفوظة لديه تنتظر المؤمنين ، وسبحانه قد خلق جناناً تتسع لكل خلقه على فرض أنهم آمنوا ، وجعل من النار مثل ذلك على قدر خلقه ، على فرض وتقدير أنهم كفروا . وسيأخذ المؤمنون ما أعد لهم من دور الإيمان ويرثون ما أعد للكافرين من دور الإيمان على فرض أنهم آمنوا في الدنيا .

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝ ﴾

(سورة المؤمنون)

فلم يخلق الحق جناناً محدودة ، لا ، بل أعد وهيأ من الجنان مايتسع لكل الخلق إن آمنوا ، ومن النيران ما يتسع لكل الخلق إن كفروا . ومادامت العندية منسوبة إلى الله فهي عندية مأمونة .

وبعد ذلك أيتخلّى الله عنهم ويكلهم إلى ما أعدّه لهم ؟ . لا ، بل قال :

﴿ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾

(من الآية ١٢٧ سورة الأنعام)

فهناك إعداد ، ثم قيومية ولاية الله ، وهذه القيومية لله ، هي للمؤمنين في الدنيا . لكن فلنلاحظ أن الولاية في الدنيا قد تكون فيها أسباب مخلوقة لله ، لكن في الآخرة هناك الجزاء الذي لا يكله الله للأسباب ، فتكون الولاية مباشرة له ؛ لأنه سيعطيك فوراً ، وإذا خطر أي شيء ببالك تجده حاضراً : فهي متعة على غير ما ألف الناس ؛ لأن الناس يتمتعون في الدنيا بواسطة الأسباب المخلوقة لله . ولكن في الآخرة فلا ملكية لأحد حتى في الأسباب ، لذلك يقول سبحانه :

﴿ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ﴾

(من الآية ١٦ سورة غافر)

وستجد الإجابة هى قوله ـ سبحانه ـ :

﴿ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾

(من الآية ١٦ سورة غافر)

والحق هو الولى الذى يليك ، قرباً تنتفع به ، فلا تضطر حتى أن تنادى عليه ليأتى لك بالمنافع ويدفع عنك المضار كما عمل لك فى الدنيا ووفقك للعمل وهو وليك فى الآخرة بحسن الجزاء لك بسبب ما كنت تعمل ؛ فالعمل فى الدنيا هو الزرع وهو الحرث لثمرة الآخرة . ولكن أيعطينا الله على قدر أعمالنا ؟ لا ، بل يعطينا على قدر صبرنا ؛ لأنه إن كان العطاء على قدر الأعمال ، إننا لو حسبناها لما أدينا ثمن عشر معشار نعم الله علينا فى الدنيا . فكأننا نعمل فى الدنيا لنؤدى شكر ما أفاء علينا وأعطانا من النعم ، فإذا جاء الحق سبحانه وتعالى وأعطانا بعد ذلك ثواباً فهو الفضل منه ، ولذلك يوضح الحق لنا : إياكم حين توفقون فى العمل أن تفتتنوا بأعمالكم ، بل عليكم أن تتذكروا أن ذلك فضل من الله :

﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾

(سورة يونس)

وقد شرح النبى عليه الصلاة والسلام هذا الأمر وقال :

« لن يُدْخِل أحداً منكم عملُه الجنةَ ، قالوا : ولا أنتَ يا رسول الله ؟ قال : ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله منه بفضل ورحمة »[1] .

إذن المسألة كلها بالفضل من الله ، ولكن فضل الله شرطه العمل الصالح ؛ فأنت تعمل العمل الصالح ، ويعطيك ربنا أضعافه ، وبطبيعة الحال فعملك لن ينفع جلاله أو جماله أو كماله أو يزيده صفة أو يزيده ملكاً ، لكنه يعطيك على ما عملته لنفعك ولنفع بنى جنسك .

ولذلك نجد الإمام الرازى ـ رضى الله عنه ـ يقول : إن العمل فى ذاته يورث

---

(١) رواه مسلم فى المنافقين واللفظ له ، ورواه البخارى فى الرقاق والمرضى ، وابن ماجه فى الزهد ، والدارمى فى الرقاق ، ورواه أحمد فى المسند ٢/٢٣٥ ، ٢٥٦

الذات شيئا من الصفاء الذى ترتاح له وتسعد به ، حتى تجد الجزاء فى الراحة ، والراحة النفسية هى الأمر المعنوى الذى يوجد فى بنية مادية هى قالبك . فساعة يوجد شىء فى النفس فهو يؤثر فى القالب أغياراً ، فإذا غضب الإنسان فهذا الغضب يظهر أثره فى البنية نفسها فيحمر الوجه ، ويرتعش الإنسان للانفعال بالغضب ، والغضب أمر معنوى لكنه أثّر فى البنية ، وكذلك إذا ما حدث ما يسرّك ، يظهر ذلك فى البنية أيضاً ؛ فتشرق وتتهلل أساريرك . إذن فالعمل يؤثر فى البنية ، والبنية تؤثر فى العمل .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾ ﴾

وساعة تسمع « يوم » اعرف أنها « ظرف زمان » ، أى أن هناك حدثاً ، وقوله الحق : « ويوم يحشرهم جميعاً » أى اليوم الذى يقف فيه الجميع ويحشدون ، وحين ننظر إلى ما بعدها نجد أن الحدث لم يأت ، ولكن جاء « يا معشر الجن » وهذا « نداء » . فكأن الحدث هو النداء نفسه ، والنداء يقتضى مناديًا ، وهو الحق سبحانه ، ومنادى وهو معشر الجن والإنس ،وقولاً يبرز صورة النداء . فكأن العبارة هى : يوم يحشرهم جميعاً فيقول يا معشر الجن والإنس ، و« الحشر » هو الجمع ، و« المعشر » هم الجماعة المختلطة اختلاط تعايش ، بمعنى أن يكون فيهم كل عناصر ومقومات الحياة ، وقد يضاف المعشر إلى أهل حرفة بخصوصها ؛ يا معشر التجار ، يامعشر العلماء ، يا معشر الوزراء . لكن إن قلت : يا معشر المصريين فهى جماعة مختلطة اختلاط تعايش ومعاشرة .

﴿ يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ﴾

(من الآية ١٢٨ سورة الأنعام)

و « استكثر » أى أخذ منه كثيراً ، كمن استكثر من جمع المال ، أو استكثر من الأصدقاء ؛ فمادة « استكثر » تدل على أنه أخذ كثرة . وماذا يعنى استكثارهم من الإنس ؟ . نحن نعلم أن من الجن طائعين ، ومنهم عاصون ، والأصل فى العصيان فى الجن « إبليس » الذى أقسم :

﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ ﴾

(سورة ص)

فكأن الحق يوضح : أنكم معشر الجن قد حاولتم جاهدين أن تأخذوا الإنس إلى جانبكم واستكثرتم بهم ، فبعد أن كان العاصون فقط من شياطين الجن وجد عصاة من الإنس أيضاً ، واستكثرتم منهم ، بأن ظننتم أن لكم غلبة وكثرة وعزاً ؛ لأنهم إذا أطاعوكم فى الوسوسة أصبحت لكم السيادة ، وذلك ما كان يحدث ، فكان الإنسان إذا ما نزل وادياً مثلاً قال : أعوذ بسيد هذا الوادى ـ من الجن ـ ويطلب أن يحفظه ويحفظ متاعه ، وحينما يوسوس له بشىء يسارع إلى تنفيذه ، وهذا استكثار .

﴿ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ ﴾

(من الآية ١٢٨ سورة الأنعام)

وكذلك لم يستمتع الجن والإنس فقط ، بل استمتع الإنس أيضاً بالجن ، وهكذا نجد تبادل استمتاع من خلف منهج الله ، لهؤلاء إغواءً وسيادة ، يأمرونهم بعمل الأشياء المخالفة لمنهج الله ، وهؤلاء يستمتعون بهم لأنهم يحققون لهم شهواتهم فى صورة تدين ، فيقولون لهم : اعبدوا الأصنام ، واعبدوا الشمس ، واعبدوا القمر ، فيفعلون . وذلك يرضى فيهم غريزة الانقياد التديني ؛ لأن كل نفس مفطورة على أن ترتبط بقوة أعلى منها ؛ لأن الإنسان إذا نظر لنفسه وإلى قرنائه من الإنس وجدهم أبناء أغيار ؛ الواحد منهم يكون اليوم صحيحاً وغداً مريضاً ، ويكون اليوم غنيًّا وغداً فقيراً ، فما الذى يضمن للنفس البشرية حماية من هذه الأغيار ؟ .

إن الإنسان يحبّ أن يلجأ ويرتبط بِقَوِىّ ؛ حتى إذا ما جاءت هذه الأغيار كانت

سنداً له . إلا أن هناك من يصعدها فى التدين وهؤلاء هم الذين يركنون إلى الإيمانية لله ويعتمدون عليه سبحانه ويقبلون على الإيمان بالله بمطلوبات هذا الإيمان فى « افعل » و « لا تفعل » . لكن الأشياء التى يعبدونها من دون الله ليس لها مطلوبات أو تكاليف إلاّ أن تكون موافقة لأهواء النفس ، وهذا الإكذاب للنفس أى حمل النفس على الكذب لا يدوم طويلاً ؛ لأن الإنسان لا يغش نفسه ؛ فالإيمان يحمى النفس إذا جاء أمر فوق أسبابك ، وليس هناك من يقول: يا شمس أو يا قمر ، يا شيطان أو يا صخر ! لا يمكن ؛ لأنك لن تكذب على نفسك أبداً . ومثال ذلك قول الحق :

﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ﴾

(من الآية ١٢ سورة يونس)

وهنا يقول الحق عن الإنس :

﴿ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ﴾

(من الآية ١٢٨ سورة الأنعام)

أى أن لهذا الاستمتاع أمداً ، هو أمد الأجل أى ساعة تنقضى وتنتهى الحياة ، ثم يبدأ الحساب فيسمعون قول الحق :

﴿ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾

(من الآية ١٢٨ سورة الأنعام)

و « الثواء » هو الإقامة ، و « مثواكم » أى إقامتكم ، « إلا ما شاء الله » وهذا الاستثناء كان محل نقاش بين العلماء ، دار فيه كلام طويل ؛ فهناك من قال : إن الحق سبحانه وتعالى قال : « إلا ما شاء الله » أى أن له طلاقة القدرة والمشيئة ؛ فيفعل ما يريد لكنه حسم الأمر وحدد هو « ما شاء » فقال :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾

(من الآية ٤٨ سورة النساء)

وهنا حدد « ما شاء » ، أى أن ما شاء يكون فى غير الشرك به فإن الشرك لا يكون محل غفران منه سبحانه . أو يجوز « إلا ما شاء الله » أن بعضاً يفهم أنه بمجرد البعث والحشر ستكون النار مثواهم ، ولكن المثوى فى النار لن يكون إلا بعد الحساب ، وهذا استثناء من الزمن الخلودى ، فلن يحدث دخول للجنة أو للنار إلا بعد الحساب . فزمن الحساب والحشر مستثنى وخارج عن زمن الخلود فى الجنة أو النار .

ونحن نجد أيضاً « إلا ما شاء ربك » فى سورة هود حيث يقول الحق :

﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِي ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَادَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَاشَآءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَادَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَاشَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾ ﴾

(سورة هود)

إذن فهناك الاستثناء فى النار والاستثناء فى الجنة ، فقول الحق : « خالدين فيها مادامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك » فمجىء الاستثناء بعد الوصف بالخلود ، يدل على أن الخلود ينقطع مع أنه قد ثبت خلود أهل الجنة فى الجنة وخلود أهل النار فى النار للأبد من غير استثناء فكيف ذلك ؟

والرد على هذا أن أهل النار لايخلدون فى عذاب النار وحده بل يعذبون بالزمهرير وبأنواع من العذاب سوى عذاب النار بما هو أغلظ منها كلها وهو سخط الله عليهم ولعنهم وطردهم وإهانته إياهم . وكذلك أهل الجنة لهم سوى الجنة ما هو أكبر منها وأجل موقعا ، وهو رضوان الله كما قال : (وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيبة فى جنات عدن ورضوان من الله أكبر) فلهم ما يتفضل الله به عليهم سوى ثواب الجنة مما لا يعرف كنهه إلا هو ، فهذا هو المراد بالاستثناء ، والدليل عليه قوله : (عطاء غير مجذوذ) ومعنى قوله فى مقابلته : (إن ربك فعال لما يريد) أن ربك يفعل بأهل النار ما يريد من العذاب ، كما يعطى أهل الجنة عطاءه الذى لا انقطاع له .

ويذيل الحق الآية بقوله : « إن ربك حكيم عليم » . حكيم فى أن يعذّب ، عليم بمن يستحق أن يعذّب ، ومقدار عذابه ، وعليم بمن يستحق أن يثاب وينعم ، وبمقدار ثوابه ونعيمه ، وحكيم فى أن يرحم . ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾ ﴾

« وكذلك » تشير إلى ما حدث من الجن والإنس من الجدل ، فقال الحق على ألسنة الإنس :

﴿ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ ﴾

(من الآية ١٢٨ سورة الأنعام)

ولم يأت بكلام الجن ؛ لأن كلامهم جاء فى آيات أخرى ؛ فالحق هو القائل :

﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ ﴾

(من الآية ٢٢ سورة إبراهيم)

وكذلك أورد الله ما يجيء على لسان الشيطان فى سورة أخرى :

﴿ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ ﴾

(من الآية ١٦ سورة الحشر)

وكذلك جاء الحق فى آيات أخرى بأقوال الإنس الذين ضلوا :

﴿ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴾

(من الآية ٢٩ سورة فصلت)

وقوله الحق هنا فى سورة الأنعام :

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًا ﴾

(من الآية ١٢٩ سورة الأنعام)

أى كما صنعنا مع الجن والإنس ، باستكثار الجن من الإنس واستمتاع بعضهم ببعض إضلالا وإغواء ، وطاعة وانقيادا ، نجعل من بينهم ولاية ظالم على ظالم ، ولا نولى عليهم واحداً من أهل الخير ؛ لأن أهل الخير قلوبهم مملوءة بالرحمة ، لا يقوون على أن يؤدبوا الظالم ؛ فهم قد ورثوا النبوة المحمدية فى قوله يوم فتح مكة : « اذهبوا فأنتم الطلقاء » ، ولذلك إذا أراد الله أن يؤدب ظالماً لا يأتى له بواحد من أهل الخير ليؤدبه ، إنه ـ سبحانه ـ بتكريمه لأهل الخير لم يجعل منهم مَن يكون فى مقام من يؤدب الظالم . إنه ـ سبحانه ـ يجعل أهل الخير فى موقف المتفرج على تأديب الظالمين بعضهم بعضا .

والتاريخ أرانا ذلك . فقد صنع الظالمون بعضهم فى بعض الكثير ، بينما لو تمكن منهم أعداؤهم الحقيقيون لرحموهم ؛ لأن قلوبهم مملوءة بالرحمة .

ولذلك بلغنا عن سيدنا مالك بن دينار وهومن أهل الخير . يقول : قرأت فى بعض الآثار حديثاً قدسيا يقول فيه الحق :

« أنا ملك الملوك قلوب الملوك بيدى »[1] .

فإياكم أن يظن الطاغية أو الحاكم أو المستبد أنه أخذ الحكم بذكائه أو بقوته ، بل جاء به الحق ليؤدب به الظلمة ، بدليل أنه ساعة يريد الله أن تنتهى هذه المسألة فهو

(١) تذكرة الموضوعات لابن القيسرانى .

بجلاله ينزع المهابة من قلوب حرّاسه ، وبدلاً من أن يدفع عنه بالبندقية ، يصوّب البندقية إليه .

فإياكم أن تظنوا أن ملكا يأخذ الملك قهراً عن الله ، ولكن إذا العباد ظلموا وطغوا يسلط الحق عليهم من يظلمهم ، ولذلك يقال : « الظالم سيف الله فى الأرض ينتقم به وينتقم منه » .

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

فكأن ما سلّط على الناس من شرّ عاتٍ هو نتيجة لأعمالهم ، ولذلك كان أحد الصالحين يقول : أنا أعرف منزلتى من ربى من خُلُق دابتى ؛ إن جمحت بى أقول ماذا صَنَعْتُ حتى جمحت بى الدابة ؟! وكأن المسألة محسوبة . وهذه معاملة للأخيار ، عندما يرتكب ذنباً يؤاخذ به على الفور حتى تصير صفحته نظيفة دائماً . قال عليه الصلاة والسلام : « مامن مصيبة تصيب المسلم إلا كفر الله بها عنه ، حتى الشوكة يُشاكها »[1] .

فإذا فعل العبد من أهل الخير بعضاً من السيئات ، يوفّيه الحق جزاءه من مرض فى جسمه أو خسارة فى ماله ، وكذلك المسىء الذى لا يريد له الله النكال فى الآخرة . يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « ما من مسلم يصيبه أذى شوكة فما فوقها إلا حط الله تعالى له به سيئاته كما تحط الشجرة ورقها »[2] .

(وكذلك نولى بعض الظالمين بعضاً بما كانوا يكسبون) هم اعتقدوا أنهم أخذوا شيئاً من وراء الله وخلصوا به . نقول : لا ، فربك سيحاسبك ثواباً أو عقاباً وذلك بما قدمت يداك وما عملت من سيئات أو حسنات .

ويقول الحق بعد ذلك :

(١) رواه البخارى ومسلم وأحمد .
(٢) رواه البخارى ومسلم عن ابن مسعود .

﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾ ﴾

ونلاحظ أنه قال هنا : « يا معشر الجن والإنس » لأنه يريد أن يقيم عليهم الحُجة بأنه سبحانه لم يجرم أعمالهم ولم يضع لهم العقوبات إلا بعد أن بلغهم بواسطة الرسل ؛ فقد أعطاهم بلاغاً بواسطة الرسل عما يجب أن يُفعل ، وما يجب أن يُترك . فلم يأخذهم - سبحانه - ظلماً .

وهنا وقفة ؛ فالخطاب للجن والإنس « ألم يأتكم رسل منكم » فقال بعض العلماء : إن الجن لهم رسل ، والإنس لهم رسل ، وقال آخرون : الرسل من الإنس خاصة ؛ لأن القرآن جاء فيه على لسانهم : (إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى) .

إذن فقد احتج الجن بكتاب أنزل من بعد موسى عليه السلام وعندهم خبر عن الكتاب الذي جاء بعده ، كأن الجن يأخذون رسالتهم من الإنس ؛ فكأن الله قد أرسل رسلاً من الإنس فقط وبلغ الجن ما قاله الرسول ، وهو هنا يقول سبحانه :

﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ ﴾

(من الآية ١٣٠ سورة الأنعام)

وأنت حين تأتي إلى اثنين : أولهما معه مائة جنيه ، والثاني يسير معه وليس معه شيء وتقول : « هذان معهما مائة جنيه » فهذا قول صحيح . فقوله سبحانه : « ألم يأتكم رسل منكم » أي من مجموعكم . أو أن الرسل تأتي للإنس ، وبعد ذلك مِن الجن من يأخذ عن الرسول ليكون رسولاً مبلغاً إلى إخوانه من الجن :

﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾

(سورة الأحقاف)

فكأن المنذرين من الجن يأخذون من الرسل من الإنس وبعد ذلك يتوجهون إلى الجن .

﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِي ﴾

(من الآية ١٣٠ سورة الأنعام)

والآيات تطلق على المعجزات التى تثبت صدق الرسل ، وما يكون من شرح الأدلة الكونية الدالة على صدق الرسل . وكلمة « يقصّون عليكم آياتى » أى يروون لهم الموكب الرسالى من أول « آدم » إلى أن انتهى إلى « محمد » صلى الله عليه وسلم . و « يقصّون عليكم آياتى » قول يدل على دقة الأداء التاريخى ؛ لأن « قصّ » مأخوذ من قصّ الأثر ، ومعناها تتبع القدم بدون انحراف عن كذا وكذا ، وهكذا نجد أن المفروض فى القصة أن تكون مستلهمة واقعَ التاريخ .

﴿ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ﴾

(من الاية ١٣٠ سورة الأنعام)

وهو اليوم المخزى حيث سيقفون أمام الله ويذكرهم الحق أنه قد نبههم وقد أعذر من أنذر .

﴿ قَالُواْ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ﴾

(من الاية ١٣٠ سورةالأنعام)

وقولهم:« شهدنا على أنفسنا » إقرار منهم على أنفسهم ؛ فقد شهدوا على أنفسهم ، ولكن ما الذى منعهم أن ينضموا إلى الإيمان بمواكب النبوة ؟ . تأتى الإجابة من الحق : (وغرّتهم الحياة الدنيا) .

والذى يغرّ هو الشيء الذى يكون له تأثير ، وهو موصوف بأنه « دنيا » !! لذلك فالغرور الذى يأتى بالدنيا هو قلة تبصّر . (وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين) . ومن يستقرىء آيات القرآن يجد آية تقول :

﴿ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾

(من الآية ٢٣ سورةالأنعام)

فمرة ينفون عن أنفسهم أنهم كفروا ، ومرة يثبتون أنهم كافرون ، وهذا لاضطراب المواقف أو اختلافها . أو أنهم « شهدوا على أنفسهم » ؛ بمعنى أن أبعاضهم شهدت عليهم ؛ لأن الإنسان فى الدنيا له إرادة ، وهذه الإرادة مسيطرة على ما له من جوارح وطاقات مخلوقة لله ؛ لأن الله جعل للإرادة فى الإنسان ولاية على الأبعاض التى تقوم بالأعمال الاختيارية . لكن الأعمال الاضطرارية القهرية ليس للإنسان إرادة فيها ؛ فلا أحد يملك أن يقول للقلب انبض كذا دقة فى الساعة ، ولا أن يقول للأمعاء : تحركى الحركة الدّودية هكذا . لكنه يقدر أن يمشى برجليه إلى المسجد ، أو يمشى إلى الخمّارة . ويستطيع أن يقرأ القرآن أو يقرأ فى كتاب يضرو لا يفيد .

إذن فإرادة الإنسان مسيطرة على الأبعاض لتحقق الاختيار المصحح للتكليف . لكن يوم القيامة تسلب الإرادة التى للإنسان على أبعاضه ، وتبقى الأبعاض كلها حُرّة ، وحين تصير الأبعاض حُرّة فالأشياء التى كانت تقبلها فى الدنيا بقانون تسخيرها لإرادتك قد زالت وانتهت ، فهى فى الآخرة تشهد على صاحبها ؛ تشهد الجلود والأيدى والأرجل :

﴿ وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾

(من الآية ٢١ سورة فصلت)

وحين يقولون لربنا : ما كنا مشركين ، فهذا كلامهم هم ، لكن جوارحهم تقول لهم : يا كذابون ، أنتم عملتم كذا .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ ۝١٣١ ﴾

« ذلك » إشارة إلى ما تقدم ، وهو إرسال الرسل مبلغين عن الله ؛ حتى لا يكون لأحد حُجة بعد الرسل ، وقد أقروا بأن الله أرسل إليهم رسلاً ، وشهدوا على أنفسهم ، وماداموا قد أقرّوا على أنفسهم بأن الله أرسل لهم رسلاً وشهدوا على أنفسهم بذلك ، إذن فهذا إقرار جديد بأن الله لم يكن مهلك القرى بظلم وأهلها غافلون ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى قبل أن يعاقب على جُرم ،وقبل أن يجرّم ينزل النص بواسطة الرسل . أى أن الله لا يهلكهم بسبب ظلم وقع منهم إلا بعد ذلك البلاغ .

« وأهلها غافلون » ، و« الغفلة » ضد اليقظة ، فاليقظة هى تنبّه الذهن الدائم ،و« الغفلة » أن تغيب بعض الحقائق عن الذهن ، ومعنى أن ربنا لا يهلك القرى بظلم وأهلها غافلون أى غير يقظين ؛ فلو أنهم كانوا يقظين ومتنبهين لما احتاجوا إلى الرسل ؛ لأن الله عندما خلق الخلق أرسل آدم إلى ذريته ، وكان المفروض كما يلقن الآباء الأبناء وسائل حياتهم أن يلقنوهم مع ذلك قيم دينهم . فكما أن الآباء يعلمون ذريتهم وسائل حياتهم ، ثم ينقلونها ويزيدون عليها بابتكاراتهم ، كان من الواجب على الآباء أن يقوموا بهذا العمل بالنسبة للقيم فتعيش القيم فى الناس كما عاشت وسائل حياتهم .

ولماذا ـ إذن ـ عاشت وسائل حياتهم وتوارثوها وزادوا عليها أشياء ؟! لأن زاوية الدين هى التى يغفل الناس عنها ، بسبب أنها تقيد حركتهم فى « افعل » و« لا تفعل » ، ولكنهم يريدون الترف فى وسائل حياتهم . لماذا إذن أيها الإنسان تحرص على الترقى فى ترف الحياة ولا تحرص على الترقى فى القيم ؟ . لقد كنت ـ على سبيل المثال ـ تشرب من الماء أو النبع بيدك ثم صنعتَ كوباً لتشرب منه ، ونقيت الماء من الشوائب ونقلته من المنابع فى صهاريج . أنت ترفه حياتك المادية والمعيشية فأين إذن الاهتمام بقيم الدين ؟!!

راجع أصله وخرج أحاديثه الدكتور/ أحمد عمر هاشم نائب رئيس جامعة الأزهر .

ولو كانوا متيقظين لكان كل أب قد علم ابنه ما ورثه من آبائه من القيم ، وعلى الرغم من ذلك رحم الحق سبحانه وتعالى هذه الغفلة ، وكرّر التنبيه بواسطة الرسل . وكلما انطمست معالم القيم التى يحملها المنهج فهو - جل وعلا - يرسل رسولاً رحمة منه وفضلاً وعدالة ، ولم يكن يهلك القرى بظلم وأهلها غافلون ، والغفلة ضد اليقظة .

إذن لو كانوا متيقظين لما كانت هناك ضرورة للرسل ؛ لأن الآباء كانوا سينقلون لأبنائهم القيم كما ينقلون إليهم وسائل حياتهم ، وهذا الأمر مستمر معنا حتى الآن ؛ إن الأب - مثلاً - إن غاب ابنه عن المدرسة يوماً يلوم الابن ، وإن أهمل فى دروسه أو رسب فهو يعاقب الابن ، وهذه هى الغيرة على المستقبل المادى للابن ، ولا غيرة على أدائه لفروض الدين ، لماذا ؟ . إن الناس لو عنوا بمسائل قيمهم كما يعنون دائماً بمسائل حياتهم لاستقام منهج الخير فى الناس وأصبح أمراً رتيباً .

وعرفنا أن الغفلة ضدها اليقظة ، كما أن السهو ضده التذكر ، والغروب ضده الشروق ، والغياب ضده الحضور .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾ ﴾

« ولكلٍّ » ، وجاءت بالتنوين أى لكلٍّ من الإنس والجن درجات مما عملوا ، فكأن الأعمال تتفاوت ؛ فقد تكون فى ظاهرها قوالب متحدة ، لكن التفاوت إنما ينشأ بكثرة العمل ، أو بإخلاص المقارف للعمل والمكتسب والفاعل له ، فهناك من يخلص بكل طاقته ، وهناك من يؤدى عمله بنصف إخلاص ، ومسألة الإخلاص هذه لا تحددها لوائح ولا قوانين إنما يحددها الحق سبحانه وتعالى ، ولذلك يقول محمد صلى الله عليه وسلم مبلغاً عن رب العزة هذا الحديث القدسى :

« الإخلاصُ سر من سرى استودعته قلب من أحببت من عبادى »[١] .

إذن فمقاييس الإخلاص لا يعرفها إلا ربنا سبحانه وتعالى ، وعلى مقدار ذلك تكون الدرجات . وتكون الدرجات على مقدار ما يزيده العبد من جنس ما فرضه الله عليه ؛ فالحق قد فرض صلوات خمساً ، فيزيد العبد عشر ركعات فى الليلة مثلاً . والله قد فرض الصيام شهراً ، فيصوم العبد يومى الاثنين والخميس .

والذى يقف عند ما فرض الله يجازيه الله على إخلاصه فى أداء ما عليه ، وحينما سأل أعرابى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن موقف الذى لا يؤدى إلا الفروض فقط ، قال له : (أفلح إن صدق)[٢] ، فالذى يزيد عما فرض الله من جنس ما فرض الله أشد فلاحاً . ولا يصل الإنسان إلى المرتبة التى هى أشد فلاحاً إلا إذا كان فى درجة أعلى ، وكلمة « درجات » تفيد العُلوّ ، وكلمة « دركات » تفيد الهبوط ،والحق لا يغفل عن ظاهر وباطن كل عمل لأى عبد .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ ﴾

وهنا يحننا الله سبحانه وتعالى إلى عبادته ، وإلى تكاليفه ؛ يحننا إلى فضيلة الطاعة ، وكل ذلك لمصلحتنا وهذا مطلق الربوبية الرحيمة ، فيحسن لنا الجزاء ، ويفخم لنا فيه لنعمل لصالحنا نحن ؛ لأن كل أعمالنا ـ كما قلنا ـ لا تزيد فى ملك الله قدر جناح بعوضة ، وكل معصياتنا لا تنتقص من ملك الله قدر جناح بعوضة ؛ لأن الله بكل صفات الكمال خلقنا ، ولم نزده نحن شيئاً . لقد أوجد الدنيا من عدم ،

(١) رواه أبوالقاسم القشيرى فى الرسالة من حديث على بن أبى طالب .
(٢) رواه النسائى والبيهقى فى السنن الكبرى .

وفرق بين الصفة القائمة بذات الله ، وإيجاد متعلَّق الصفة . فالله خالق ؛ والله رحمن ،والله رحيم ، والله قهار ، وسبحانه رحمن ورحيم وقهار وخالق حتى قبل أن يبرز ويظهر ما يخلقه ؛ لأنه بصفة الخالق فيه خلق ، وهو رزَّاق قبل أن يخلق المرزوق ، فالصفة موجودة فيه قائمة به ، وبهذه الصفة رزق ، وبوجود هذه الصفات فيه يقول للشيء كن فيكون ، وله هذا الكون كله ، وهو غنى عن العباد وله كل الملك ، وكذلك خلق التوبة ، والرسول صلى الله عليه وسلم يقول :

« لَلَّهُ أفرح بتوبة عبده من أحدكم سقط على بعيره وقد أضله فى أرض فلاة » (١) .

﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

إذن فالخلق مستمر الإيجاد من العدميات وهو دليل على أن صفة الخالقية موجودة .

وما آدم فى منطق العقل واحد ولكنــه عنــد القيـــاس أوادم

فالكون كله من أول آدم موجود ، وكل الكون المسخر لآدم كخليفة فى الأرض خاضع لله ، فإن شاء اذهب الخلق وأتى بخلق جديد .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَأَتٍ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾ ﴾

والحق سبحانه وتعالى لأنه لا إله إلا هو ، إذا وعد فلابد أن يتحقق وعده ، وإذا اوعد فلابد أن يأتى وعيده . والوعد إذا أطلق فهو فى الخير ، والوعيد يكون فى الشر . والذى يخلف الوعد أو الوعيد من الخلق فهذا أمر متوقع لأنه من الأغيار ، فيتغير رأيه

(١) رواه البخارى فى الدعوات ، ومسلم فى التوبة ، والترمذى فى الدعوات .
سقط على بعيره : أى صادفه وعثر عليه من غير قصد فظفر به .

فلم يعد أهلاً لهذا الوعد ؛ لأنه ربما يكون قد وعد بشيء كان يظن أنه فى مكنته ، وبعد ذلك خرج عن مكنته ، فليس له سيطرة على الأشياء ، لكن إذا كان من وعد قادراً ، ولا يوجد إله آخر يناقضه فيما وعد أو أوعد به فلابد أن يتحقق الوعد أو يأتى الوعيد . . ولذلك حينما يحكم الله حكماً فالمؤمن يأخذ هذا الحكم قضية مسلمة ؛ لأنه لا إله مع الله سيغير الحكم ، وسبحانه ليس من الأغيار ، والمثال أنه قال :

﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۞ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۞ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۞ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۞ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۞ ﴾

(سورة المسد)

وهذا وعيد فى أمر لهم فيه اختيار ، ومع ذلك لم يسلموا . وجاء بعدها ما يؤكد لكل مسلم : إياك أن تأخذ هذه القضية مأخذ الشك ، وتقول : قد يتوب أبو لهب هذا وزوجه ويسلمان ، ألم تتب هند ؟! ألم يسلم أبو سفيان ؟! . لكنه سبحانه عالم بما يصير إليه اختيار أبى لهب واختيار زوجه ، وإن كان كل منهما مختاراً ، ولا يوجد إله سواه ليغير الأمر عما قال .

﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۞ ﴾

(سورة الإخلاص)

أى لا يوجد إله آخر ليعدل هذا الأمر .

﴿ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ۞ ﴾

(سورة الأنعام)

قد يظن بعض الناس أن الله قد يأتى بما وعد به لكنهم قد يهربون منه ، ولكن ليس الأمر كما يظنون ؛ فالوعد آت وأنتم لا تستطيعون الهرب منه ، ولا أحد بقادر على أن يمنع الله عن تحقيق ما وعد أو أوعد ، ولن تفروا من وعده أو وعيده ، ولن تغلبوا الله أو تفوتوه وتعجزوه ؛ فالله غالب على أمره .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١٣٥﴾ ﴾

والقوم هم الجماعة ،وعادة يطلق على الرجال لأنهم أهل القيام للمهمات ؛ لأن الشأن والأصل فى المرأة الستر والبيتوتة والاستقرار فى البيت للقيام على أمره ورعايته . وحين تقرأ القرآن تجد كلمة « قوم » وتفهم أن المقصود منها الجماعة التى تجمعهم رابطة ، وأنها للرجال خاصة ، والمثال هو قول الحق :

﴿ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ﴾

(من الآية ١١ سورة الحجرات)

ومادام قد جاء بمقابل « قوم » : « ولا نساء » ، فـ « قوم » هذه للرجال ومأخوذ منها « القيام للمهمات » ، ومأخوذ منها « القوامة » . ولذلك الشاعر يقول :

ولا أدرى ولست أخال أدرى ... أقوم آل حصن أم نساء

يعنى أرجال أم نساء .

﴿ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ ﴾

(من الآية ١٣٥ سورة الأنعام)

و « المكان » هو الحيز الذى يأخذه جسم الإنسان ؛ فكل كائن له مكان ، إن وقف له مكان ، إن قعد له مكان ، والمكان هو المملوك والمخصص لك من الأرض ، فحين تقف فى مكان لا يقدر آخر أن يقف فيه وأنت واقف ، بل يجب أن يزحزحك عنه ، وحين تزحزح من هو واقف ، فهو يروح إلى مكان ثانٍ ، ويمتنع التداخل بين اثنين فى حيز لا يسع إلا واحداً ،وهذا أمر فطرى ؛ فتجد الولد الصغير الذى لم يدرك أى شىء ويقدر أن يقف فقط ، ثم يريد أن يقعد على الكرسى الذى تجلس عليه

أخته أو أخوه ، فقبل أن يقعد على الكرسى يشد من يجلس عليه ؛ لأنه يعرف بالفطرة أن اثنين لا يوجدان فى حيز واحد .

وترى ذلك أيضاً فى غير الجرم المرئى ، فأنت حين تأتى بقارورة وتضعها فى ماء لتمتلىء تسمع صوت الهواء الخارج منها فى بقبقة ؛ لأن الماء لا يمكن أن يدخل إلا إن خرج الهواء ، ولأن المياه أكثف فهى تضغط ليخرج الهواء ، وهذا ما يؤكد عدم التداخل . أى لا يوجد شيئان اثنان فى حيز واحد . ومكانتك هى الموقع الذى تستولى عليه ، ولذلك حتى فى الجيوش وفى الحرب توضع الخطط من أسلحة مختلفة ، لتستولى على الأماكن .

« اعملوا على مكانتكم » هو قول موجه إلى الجماعة الذين عارضوا النبوة ووقفوا منها هذه المواقف ، فيقول لهم الحق تهديدا لهم وتيئيسا من أنهم لن يصلوا إلى النيل من رسول الله : اعملوا على قدر استطاعتكم من التمكن ، أو أثبتوا على ما أنتم عليه من الخلاف والمناهضة ، لماذا ؟ ؛ لأنه صلى الله عليه وسلم عامل أيضاً : فلن يكون ثباتكم مانعاً لى من العمل ؛ أنتم تعملون وأنا أعمل ، أنتم تعملون على طاقاتكم ، وأنا أعمل على طاقاتى الإيمانية ومدد ربى الأعلى من الطاقة .

﴿ قُلْ يَـٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَـٰقِبَةُ ٱلدَّارِ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿١٣٥﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

« فسوف تعلمون من تكون له عاقبة الدار » و« له » تعطى دلالة إلى أن الإيمان ستكون عاقبة الدار لصالحه ؛ لأن الآخرين لن تكون لهم بل عليهم ، وساعة ترى « اللام » اعرف أن الأمر لهم لا عليهم . فكأن الظالمين إن تنلهم عاقبة فهى ليست لهم ، وإنما عاقبتهم عليهم ، ولن يفلح الظالمون .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَـٰمِ

نَصِيبًا فَقَالُوا هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَائِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ ۗ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾

وهنا رجوع إلى الكلام عن الذين يناهضون منهج الله .

و « ذرأ » أى خلق ، وبث ، ونشر ، والحرث يراد به الزرع ، وسمى الزرع حرثاً ؛ لأنه يأتى بالحرث ، و « الأنعام » وهى تتمثل فى ثمانية أزواج فى آية تأتى بعد ذلك ، وهى الإبل ، والبقر ، والضأن والمعز .

« وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً » أى مما خلق ، وهم قد حرثوا فقط ؛ لأن الذى يزرع هو الله ، فسبحانه الذى أعطى للبذرة قوتها لتربى لها جذراً ، وتمتص عناصر الغذاء من الأرض ، وهو الذى جاء بعناصر الأرض كلها ، وهو الذى جعل البذرة تتوجه إلى العناصر الصالحة لها ، وتترك غير الصالح بقانون « الذى خلق فسوّى والذى قدّر فهدى » . والذى صنعه الله فى الحرث وفى الأنعام تتخيلون أنكم تتصرفون فيه على رغم أنه هو الذى ذرأ وخلق . إنه ـ سبحانه ـ هو المتصرف .

هم جعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً فقالوا : هذا لله « بزعمهم » وهذا لشركائنا ، أى جاءوا بالحرث وقسموه قسمين . وقالوا : هذا لله ، وهذا للأصنام . وكذلك قسموا الأنعام وجعلوا منها قسماً لله ، وقسماً لهم ، ألم يكن من العدل أن يقسم الذى خلق بدلاً من هذا الزعم منكم لأنكم أخذتم غير حقكم ، ويا ليتكم أنصفتم فنرضى بقسمتكم فيذهب القسم الذى لله للصدقات على الفقراء ، والذى للشركاء يذهب للأصنام وللسدنة الحجّاب عليها والخادمين والذين يضربون لكم الأقداح ، يا ليتكم عرفتم العدل فى القسمة بل إن ما صنعتموه هو قسمة ضيزى جائرة وظالمة ، لماذا ؟ . تأتى الإجابة من الحق :

﴿ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ﴾

(من الآية ١٣٦ سورة الأنعام)

أنتم قسمتم وقلتم : هذا لله وهذا لشركائنا . فاصدقوا مع أنفسكم فى هذه النسبة ، لكنهم كانوا يسرقون حق الله ، وكان لهم فى الهلاك تقسيم معين ، وفى الزيادة لهم تقسيم آخر . فإذاما جاءت آفة للزرع وأهلكته أخذوا ما خصصوه لله وأعطوه للشركاء وقالوا : إن ربنا غنى ! وبرغم أنكم قسمتم ولكنكم لم توفوا بالقسمة التى فرضتموها ورضيتم بها .

وكذلك فى الأنعام يقدرون عدداً من الأنعام ويقولون : هذه لله ، وتلك للشركاء ، فإن ماتت بهيمة من المنذور لله لم يعوضوها ، وإن ماتت بهيمة منذورة للأصنام يعوضوها ويأخذوا بدلا منها من القسم الذى نذروه لله . وأيضاً لنفترض أن عيناً جارية ساحت فيها المياه لتروى الزرع المقسوم لله ، فيأخذوا منها للأرض المزروعة للأصنام . إذن هى قسمة ضيزى من البداية ، وليتهم وفّوا بهذه القسمة ، وهكذا ساء حكمهم وفسد .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾ ﴾

وأيضاً نقلوا تلك القسمة الضيزى إلى ما يتعلق بذواتهم فى الإنجاب والإنسال ؛ فشركاؤهم زيّنوا لهم قتل أولادهم ، و« التزيين » هو إدخال عنصر التحسين على شىء لشدة انجذاب النفس إليه ، وهو عملية تجميل لحقيقة وجوهر ، وبذلك يكون

التزيين أمراً عرضيًا طارئاً ، ووجه التزيين أنهم كانوا إما أغنياء ، وإما فقراء ، فإن كانوا فقراء يقل الواحد منهم لماذا أجلب لنفسى همًّا على همّ ، وإن كانوا أغنياء يقل الواحد منهم : إن الأبناء سيأخذون منك ويفقرونك . إذن ففيه أمران : إما فقر موجود بالفعل ، وإما فقر مخوًف منه ، ولذلك تجد الآيات التى تعرضت لهذا المعنى ، تأتى على أسلوبين اثنين ؛ فالعَجُز مختلف باختلاف الصدر ، والذين يحبون أن يستدركوا على بعض أساليب القرآن لأنه مرة يقول :

﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَـٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَـٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ﴾

(من الآية ٣١ سورة الإسراء)

ومرة ثانية يقول :

﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾

(من الآية ١٥١ سورة الأنعام)

فما الفرق بين العبارتين ؟ .

ونقول لمثل هذا القائل : أنت تقارن بين التذييل « نحن نرزقكم وإياهم » ، و « نحن نرزقهم وإياكم » . هذه تذييل لآية ، وهذه تذييل لآية ثانية . هات ذيل الآية مع صدرها تجد أن ذيل كل آية مناسب لصدرها . ومادام قد اختلف فى الصدر فلابد أن يختلف فى الختام ، ففى الآية الأولى يقول الحق سبحانه : « ولا تقتلوا أولادكم من إملاق » فالإملاق وهو الفقر واقع موجود . إذن فشغل الإنسان برزقه أولى من شغله برزق من يعوله من الأولاد ، فيقول الحق لهؤلاء :

﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَـٰدَكُم مِّنْ إِمْلَـٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾

(من الآية ١٥١ سورة الأنعام)

فالإملاق موجود ، وشغلهم برزق أنفسهم يملأ نفوسهم . لذلك يقول لهم : « نرزقكم وإياهم » فيطمئنهم سبحانه نحن نرزقكم ثم نرزقهم . أما إن كان الإملاق غير موجود فالحق يقول :

﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَـٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَـٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ﴾

(من الآية ٣١ سورة الإسراء)

أى لا تقتلوا أولادكم خوفاً من فقر ، فأنتم تملكون رزقكم ، وحين يأتى الأولاد نرزقهم ونرزقكم معهم . وهكذا نرى أن الصدر مختلف فى الآيتين ، وكذلك العجز ، والشركاء كانوا يزينون قتل الأولاد ، وهذه مسألة تحتاج إلى تزيين قاس ؛ لأن حب الأبناء غريزة فى النفس البشرية ، والنفس تحب أن يكون لها ذرية ؛ لأن الإنسان يفهم أنه مهما طال عمره فسوف يموت فيحب أن يظل اسمه فى الأجيال المتتابعة . ونجد الإنسان وهو ممتلىء بالسعادة حين يأتيه حفيد ، ويقول : لقد ضمنت ذِكْرى لجيلين قادمين ، وينسى أن الذكر الحقيقى هو الذى يقدمه الإنسان من عمل ، لا ذكرى الأبناء وحب امتداد الذات . وقتل الأبناء يحتاج إلى تزيين شديد ، كأن يقال : إن أنجبت أبناء فسيفقرونك ويذلونك ، فأنتم أمة غارات وأمة حروب وكل يوم يدخلك أبناؤك فى قتال ونزال فتكون بين فقد لأبنائك أو انتهاب لمالك ، وإن كانوا بنات فسيتم سبيهن من بعدك ، وهكذا تكون المبالغة فى الإغراء لعملية تناقض الفطرة السليمة فى امتداد النسل .

﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَـٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ﴾

(من الآية ١٣٧ سورة الأنعام)

و « لكثير من المشركين » تفيد أن بعضهم كان يرفض قتل الأولاد ، و « يردوهم » من الردى ، وهو الهلاك ، والموت .

﴿وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ﴾

(من الآية ١٣٧ سورة الأنعام)

أى يخلطوا عليهم الدين ، فهل كان عندهم دين ؟ . لقد ورث هؤلاء من أمر قيم الدين ما كان سابقاً وهو ما كانوا عليه من دين إسماعيل عليه السلام حتى مالوا وزالوا عنه إلى الشرك ، إنهم زينوا لهم أعمالاً ليوردوهم موارد الهلكة . وحاولوا أن يخلطوا عليهم ما بقى لهم من دين .

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾

(من الآية ١٣٧ سورة الأنعام)

لأن وأد الأولاد وقتلهم إنما ينافى فكرة خلق الله ، فهل يخلق الله لتقتل أنت ؟!

كأنهم يصادمون إرادة الإيجاد من الحق سبحانه وتعالى ، لكنّه ـ سبحانه ـ لو شاء ما فعلوا ذلك ، فهو قد أعطاهم الاختيار ، ومن باب الاختيار ينفذون إلى كل مراد لهم ، ولو لم يخلق الله فيهم اختياراً ما فعلوا ذلك ؛ لأنه لو أراد ألا يضلوا لما فعلوا ، وقد أراد الله أن يوجد خلقاً لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون وهم الملائكة .

إذن فهذه المسألة ليست عزيزة على الله ، وسبحانه ساعة يقهر على مراد له ، إنما يكون ذلك لمصلحة المخلوق ، وساعة يتركه مختاراً فمن إمداد الخالق له بالاختيار ولا يفعل المختار شيئاً غصباً عن الله ؛ لأن الألوهية تقتضى أمرين اثنين : تقتضى قدرة تتجلى فى الأشياء القهرية التى لا يستطيع العباد أن يقفوا أمامها ، والإنسان هو الكائن الوحيد الذى له حق الاختيار بين البديلات فى مراداته ، أما بقية الكون فسائر بقانون التسخير وليس له اختيار .

والكائنات المسخرة أثبتت لله طلاقة القدرة ، ولكنها لا تثبت لله محبوبية المخلوق ؛ لأن المحبوبية تنشأ من أنك تكون حرًّا فى أن تفعل ، ولكنك تؤثر فعلاً مراد الله على مرادك . ﴿ ولو شاء الله ما فعلوه فذرهم وما يفترون ﴾ .

و « الافتراء » هو الاختلاق والكذب المتعمد ، وهم مفترون ، لأنهم أرادوا أن يغيروا صدق الواقع فى الإنجاب ، فقد خلق الله الزوجين ـ الذكر والأنثى ـ من أجل الإنجاب .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَقَالُوا۟ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ ۚ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ ﴾

وهذا تمادٍ في الشرك ؛ لأنهم قسموا الحيوانات والحرث وحجزوا قسماً للأصنام ، وهذه الأنعام المرصودة للأصنام لا يتصرف فيها أحد ، فلا يؤخذ لبنها ولا يستخدمها أحد كمطايا ، ولا يتعدى نفعها للناس . ولم يتنبهوا إلى أن هذه الأنعام نعمة من الله ، ولابد من الانتفاع بها ، وليس من حسن التعقل أن تترك حيواناً تستطيع أن تستفيد من تسخيره لك ولا تفعل ، هم قد فعلوا ذلك وحكى الحق عنهم فقال :

﴿ وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ ﴾

(من الآية ١٣٨ سورة الأنعام)

أي هي أنعام محرم استخدامها ، وحرموا أيضاً ركوبها .

﴿ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا ﴾

(من الآية ١٣٨ سورة الأنعام)

وتمادوا في الكفر فذكروا أسماء الأصنام عليها :

﴿ وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ ﴾

(من الآية ١٣٨ سورة الأنعام)

وهذا لون من الافتراءات قد فعلوه ونسبوه إلى أنه متلقَّى من الله ، ومأمور به منه ـ سبحانه ـ ولو قالوا : إن هذا الأمر من عندهم لكان وقع الافتراء أقل حدة ، لكنه افتراء شديد لأنهم جاءوا بهذه الأشياء ونسبوها إلى الله ، وهم قد انحلوا عن الدين وقالوا على بعضٍ من سلوكهم إنه من الدين ، ولذلك يجازيهم الله بما افتروا مصداقاً لقوله :

﴿ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾

(من الآية ١٣٨ سورة الأنعام)

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَقَالُواْ مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ

لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَاۖ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُۚ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾

ويقودهم الباطل إلى باطل آخر فادعوا أن ما فى بطون هذه الأنعام من اللبن ومن الأجنة إذا نزلت حيّة فهى للذكور منهم فقط ، ولا تأكل النساء من ذلك شيئاً ، وإن مات منها شىء أكله الرجال والنساء وهذا يدل على التشقيق فى القسمة .

ويذيل الحق الآية بالقول الكريم :

﴿ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾

(من الآية ١٣٩ سورة الأنعام)

أى سيجازيهم على كذبهم وافترائهم بما يليق عقاباً للكاذبين ؛ لأنه ـ سبحانه ـ (حكيم) فى أفعاله وأقواله وشرعه وقدره (عليم) بما يفعلونه من خير وشر ، إنه سيجازيهم على ما فعلوه أتم الجزاء وأكمله .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِۚ قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾

وجْه الخسران أنهم لم يلتفتوا إلى أن الله يرزقهم ويرزق أبناءهم أيضاً ، ولعلك أيها الأب قتلت ولداً ، كنت ستعيش أنت فى رحاب رزقه ، وكثيراً ما يكون البعض من الأولاد صاحب رزق وفير ، ويقال عن مثل هذا الابن : إن وجهه وجه الخير والسعد

والبركة ، فمن يوم أن وُلد ولد معه الخير ، وذلك حتى لا يتأبى الإنسان على عطاء الله ؛ لأنك حين تتأبى على عطاء الله تحرم نفسك العطاء فيما تظنه غير عطاء ، وهذا خسران كبير .

إننا نلحظ أن العرب كانوا فى بيئة تستجيب وتلبى الصريخ ، فساعة يصرخ من فى شدّة نزلت به واستنجد ، يجد من ينقذه ، والأولى بالنجدة أهل الرجل وأولاده . والمثال على ذلك ما حدث من جد رسول الله صلى الله عليه وسلم حينما ذهب ليحفر البئر ، وجاءت قريش ووقفت له حتى لا يحفر ، فقال : لو أن لى عشرة أبناء سأضحى بواحد منهم . إذن فكثرة الأولاد فى هذه المسائل تعطى العزوة وتكثر الصريخ ، ولا يفعل ذلك إلا المفطور على النجدة .

وإن قتلت ابناً خوفاً من الفقر فقد تخسر رزقاً قد يكون فى طى من تقتل من الذرية ، وفوق ذلك تفقد مباهج الشأن أو العزوة أو الآل . أو على الأقل أنهم قد خسروا لأنهم عاكسوا مرادات الله فى الإيجاد بالإنجاب .

﴿ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَـٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾

(من الآية ١٤٠ سورة الأنعام)

و « سفهاً » تعنى طيشاً ، وحمقاً ، وجهلاً .

﴿ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴾

(من الآية ١٤٠ سورة الأنعام)

وهم حين يحرمون على أنفسهم ما رزقهم الله من الأنعام ، فهم أهل حمق وضلال وخسران فلو تركوها لانتفعوا منها فى حمل أثقالهم أو فيما تدره من لبن ، أو فى أكل لحمها . إنهم بحمقهم وجهلهم قد خسروا كثيرا ، وهم مع ذلك فعلوا ما فعلوا بكذب متعمد على الله ، وهم قد ضلوا ولم يكونوا أهلاً للهداية ، وكان يكفى أن يصفهم بقوله : « قد ضلوا » ؛ لكنه أضاف : « وما كانوا مهتدين » لأن الضلال هوعدم الذهاب إلى المقصد الموصل للغاية ، وقد يكون ذلك عن جهل بالطريق ، لكن الحق سبحانه رسم لهم طريق الحق فآثروا الذهاب إلى الضلال مع وجود طريق الحق .

ويقول سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۚ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾ ﴾

وقول الحق : « أنشأ » أي أوجد على إبداع لم يسبق له مثيل فلم يكن هناك نماذج توضيحية تدل الله سبحانه ، وإنما ابتدأها على غير مثال سابق ؛ لأنه لا يوجد خالق سواه . والخالق إذا لم يكن هناك سواه من شريك أو ندٍ فإنه حين يخلق إنما ينشىء خلقاً على غير نظام أو مثالٍ كان قد سبقه .

وكلمة « جنات » تؤدى ما نعرفه من المكان المحدد الذى يجمع صنوف الزروع والثمار مما نقتات ، ومما نتفكه به ، وتسمى جَنَّة وتسمى جَنَّات ؛ لأن المادة كلها تدل على الستر وعلى التغطية ، ومنه الجُنون لأن فيه ستراً للعقل ، ومنها الجنّ لأنهم مستورون عن رؤية العين ، وكذلك « المِجَنّ » لأنه الذى يستر عن الإنسان طعنات الخصم .

والجَنَّة هى المكان الممتلىء بالزرع والثمار وتعلو الأشجار فيه وتكثف وتلتف أغصانها وفروعها بحيث تستر من يكون بداخلها وتستره أيضاً عن بقية الأمكنة ، لأنه لا حاجة له إلى الأمكنة الأخرى ؛ ففى الجنة كل مقومات الحياة من غذاء وفاكهة ومرعى ، وماء وخضرة ومتعة ، وفيها كل شىء . كما تسمى البيت العظيم المكتمل الذى يضم ويشتمل على كل المرافق « قصراً » لأنه قَصَرَك عن أى مكان سواه ؛ لأن فيه الأشياء التى تحتاج إليها كلها ، فلا تحتاج إلى شىء بعده .

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّـٰتٍ مَّعْرُوشَـٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَـٰتٍ ﴾

(من الآية ١٤١ سورة الأنعام)

ومادة العرش تدل على العلو ، ومنه قيل للسقف « عرش » ، ويطلق العرش أيضاً على السرير ؛ مثل قوله الحق : (ورفع أبويه على العرش) .

ويطلق العرش على الملك مثل قوله الحق : (ولها عرش عظيم) .

كل ذلك يدل على « العلو » وقوله الحق هنا : « معْروشات وغير معروشات » ، أى أن الزرع من نوع العنب ، حين نعنى به نجعل له القوائم والقواعد التى يقوم عليها ؛ لأن امتداد أغصانه اللينة لا تنهض أن تقوم وحدها ، ولكنْ هناك نوع أيضاً يقوم وحده نسميه العنب الأرضى ، وكأن الكلام فيها يختص بالكَرْم . أى : أنك إذا ما نظرت إلى الزرع الذى لا ساق له كالبطيخ ، وكالشمّام ، وكالكوسة ، وكل الزروع التى ليس لها ساق تجدها مفروشة فى الأرض أى غير قائمة على قواعد وقوائم وعروش . وإن كنا الآن نحاول أن نرفعها لنعطى لها قوة فى الإنتاج . والكلام جاء على ما كان موجوداً عند العرب أيام بعثة النبى صلى الله عليه وسلم (وهو الذى أنشأ جنات معروشات وغير معروشات والنخل والزرع) . والزرع يطلق ويراد به ما نقتات به من الحبوب .

﴿ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَـٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَـٰبِهٍ ﴾

(من الآية ١٤١ سورة الأنعام)

وحين ننظر إلى هذه الآية نجد أنه قد سبقتها آية فيها كل هذه المعانى يقول سبحانه :

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّـٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَـٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

وبعض الناس يحاولون نقد القرآن فيقولون : إنه يكرر المعانى الواحدة ؛ لأنهم لا يمتلكون فطنة أن المتكلم هو الله ، وسبحانه يتكلم فى كل شىء لأمر حكيم ، فهو هنا يتكلم عن هذه الأشياء كدليل على الخالق ووحدانيته بدليل أنه ذيل الآية بقوله : (إن فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون) ، ولكن الكلام فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها قد جاء بقصد الحديث عن الانتفاع بها فيقول :

﴿ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ﴾

(من الآية ١٤١ سورة الأنعام)

ولاشك أن استقامة العقيدة بالإيمان بالإله الواحد تحتاج إلى الدليل أولاً ؛ لأن فائدتها أشمل ، وأعم ، وأعمق ، وأخلد من الأكل ، لأن الأكل قصارى ما فيه أنه يقوتنا هذه الحياة ، ولكن الأدلة الأولى تعطينا الثواب الباقى والنعيم المقيم ؛ لذلك فالآية الأولى متعلقة بالدليل ، وهذه الآية متعلقة بالانتفاع ، وهنا نلاحظ أنه قال : « كلوا من ثمره إذا أثمر » ، وفى هذا إباحة لتناول الأشياء منه قبل أن تنضج دون أن يترتب على ذلك لون من الضرر وإلا عالجناها بما يزيل وينفى عنا الضرر ، فإذا ما وجدت ثماراً لم تنضج لك أن تأكل منها ، ولم يجعل الحق لنا حرجاً فيها نحرث ونبذر ونروى ولكن الله سبحانه هو الذى يزرع ونحن نأكل منه ، ونجد أهل الريف يشوون الذرة قبل أن تنضج ويقول سبحانه : (وآتوا حقه يوم حصاده) .

لقد قالوا إن الآية مختصة بما يُحصَد وهى الزروع ، أما الأشياء التى لا يقال فيها : حصد فهى خارجة عن ذلك مثل الفواكه ، لكن الإمام أبا حنيفة يرفض ذلك ويرى : أن كل ما تنبته الأرض ينطبق عليه هذا النص ؛ لأنه لا يصح أن تأخذ معنى الحصاد على العرف ، ولكن بفهم اللغة .

ما معنى الحصاد فى اللغة ؟ . الحصاد فى اللغة القطع ، فحينها تفصل الثمرة المطلوبة فهذا هو الحصاد . ولكن يوم الحصاد للحبوب ؛ تكون الغلال فى السنابل ، ويرى الإمام أبو حنيفة أن تعطى من البداية لمن حضر القسمة ، وكذلك حينها تدرسه وتذريه تعطى ، وعندما تغربل الحبوب أعط أيضاً ، ويبتدىء الحصاد من ساعة أن تُكيل ، وما تقدم غير محسوب ، ما تأتيه من الحق يوم حصاده هو غير المفروض ؛ لأنه لم يقل الحق المعلوم ، وفى هذا اتساع لدائرة امتداد الخير إلى غير الزارعين .

﴿ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾

(من الآية ١١ سورة الأنعام)

والإسراف هو مجاوزة الحد ، والبعض قد فسّر الإسراف بالزيادة فقط ، ولكن الحقيقة أن أى تجاوز للحد زيادة أو نقصاً يسمى إسرافاً ؛ لأنه مأخوذ من « سرف الماء » ، وهو أن يُطلق الماء ويذهب فى غير نفع ، وسيدنا مجاهد يقول : لو أن للإنسان مثل جبل أبى قبيس ذهباً ثم أنفقه فى حل ما عُدَّ سرفاً ، ولو صرف درهماً واحداً فى معصية يعد سرفاً .

إذن فمعنى : « ولا تسرفوا » أمران اثنان بمعنى لا تتجاوزوا الحدود التى شرعها الحق فتستعملوا هذا فى معصية ، أو لا تسرفوا فى أن تعطوا للفقير أقل مما يستحق .

وكان حاتم الطائى كريماً جداً ، وقعدوا يلومونه على هذا الكرم ، فقال واحد له : لا خير فى السرف . رد عليه فقال له : ولا سرف فى الخير . أى أنه مادام فى الخير فلا يكون سرفاً .

وإذا كنا سنأخذ الأمر على المعنيين الاثنين : النقص والزيادة ، فما المانع أن نعطى للفقير أكثر ؟ . ويحكى الأثر أن أناساً قد تأخذهم الأريحية والنشاط للبذل والعطاء ساعة يرون كثرة غلتهم ، وما أفاء الله عليهم من ريع أرضهم . إنهم يعطون الكثير مثلما عمل ثابت بن قيس ، وكان عنده خمسون نخلة وجزها وأعطاها كلها للفقراء ، ولم يترك لأولاده شيئاً . فلما رُفع الأمر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له : أعط ولا تسرف ، لماذا ؟ مخافة أن تحتاج بعد ذلك إلى ما أعطيت فتندم على أنك أعطيت .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَمِنَ ٱلْأَنْعَـٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾ ﴾

وبعد أن تكلم سبحانه عن نعمه علينا فى الزراعة ونعمه علينا فى الماشية قال : « ومن الأنعام » وهى الإبل والبقر والغنم ، « حمولة » والحمولة هى التى تحمل ، فيقال : « فلان حَمول » أى يتحمل كثيراً . والحق يقول :

﴿ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ﴾

(من الآية ٧ سورة النحل)

والذى تحمله فوق ظهرها يسمى « حُمولة » . ولذلك نقول عن السيارة التى تنقل « حُمولة كذا طن » . (ومن الأنعام حمولة وفرشاً) .

والإبل نحمل عليها الرحال ، وكل متطلباتنا ، و« فرشا » معناها : مقابل الحمولة . فالحمولة هى المشتدة التى تقوى على أن تحمل . وكل ما لا يستطيع الحمل لصغره ، أو لأنه لم يعد لذلك ، إذا ما نظرت إليه نظرة سطحية تجده وكأنه فارش للأرض . أو « ومن الأنعام حمولة » ؛ وهى التى تحمل لكم متاعكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس . « وفرشا » أى ومن الأنعام ما تتخذون منه فرشا بأن ننسج من وبره وصوفه وشعره ما نفرشه .

﴿ وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

وفى الحديث عن الأنعام ، جاء بالحمولة والفرش ويأتى أيضاً بسيرة الأكل ؛ لأننا نأكل لحمها وألبانها ومشتقات الألبان كلها ، وهكذا تتعدد المنافع ، فهى تحملنا ونأخذ من أصوافها وأوبارها وشعورها الفرش ، والوبر وهو شعر الجمال ، والصوف وهو شعر الغنم ، وشعر الماعز يتميز بلمعة وانفصالية بين شعيراته .

ونلحظ أنه سبحانه قال فى الآية الأولى : « كلوا » ، وفى الثانية : « كلوا » ؛ لأن ذلك جاء بعد الكلام عما حرموه على أنفسهم من أرزاق الله فى الأرض . فكان ولابد أن يؤكد هذا المعنى ، ويوضح : إن الذى خلق هو الله ، والذى كلّف هو الله ، فلا تأخذوا تحليلاً لشىء ولا تحريماً لشىء إلا ممن خلق وممن كلّف .
(كلوا مما رزقكم الله ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين) .

الشيطان هو الذى يوسوس لهم بالمخالفة لمنهج الله ، وعداوة الشيطان ظاهرة . فإذا ما كانت العداوة سابقة ، فقد أنزل آدم وحواء من رتبة الطاعة إلى رتبة المعصية وجرأهما على المخالفة فخرجا من الجنة ، كان من الواجب أن نحتاط فى قبول هذه الوسوسة .

ثم يفصل الحق لنا الأنعام التى نتخذها حمولة ، أو نأخذ منها فرشاً فقال :

﴿ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾ ﴾

وكلمة « أزواج » ، جمع زوج ، و « الزوج » يطلق على الشيء معه ما يقارنه مثل « زوج النعل » ، ونحن فى أعرافنا نأخذها على الاثنين ، لكنها فى الأصل تطلق على الواحد ومعه ما يقارنه ، إلا أنه إذا لم يكن هناك فارق بين الاثنين بحيث لا يتم الانتفاع بأحدهما إلا مع الآخر ولكن لا تميز لأحدهما على الآخر كالجورب مثلا ، ففى مثل هذا نستسمح اللغة فى أن نسمى الاثنين زوجا ، لكن إذا كان هناك خلاف بين الاثنين لا نقول على الاثنين : زوج .

والذكر والأنثى من البشر ، صحيح أنهما يقترنان فى أن كل واحد منهما إنسان ، لكن للذكر مهمة وللأنثى مهمة مختلفة . أما الجوارب فكل « فردة » منها نضعها فى أى قدم لأنه لا فارق بينهما ، إذن كلمة « زوج » تطلق ويراد بها الشيء الواحد الذى معه ما يقارنه . والحق يقول :

﴿ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ ﴾

(من الآية ٣٥ سورة البقرة)

وكلمة « زوج » هنا أطلقت على حوّاء ؛ فآدم زوج وحواء زوج ، والحق هوالقائل :

﴿ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ ﴾

(سورة النجم)

ولم يقل عن الاثنين : إنهما « زوج » وإلا لقال : خلق الزوج الذكر والأنثى . إذن فكلمة « زوج » تطلق على واحد معه ما يقارنه ، مثلها مثل كلمة « توأم » وهى لا تقال للاثنين ، بل تقال لواحد معه آخر . لكن الاثنين يقال لهما : توأمان .

﴿ ثَمَـٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ ﴾

(من الآية ١٤٣ سورة الأنعام)

و « من الضأن اثنين » أى ذكرها وأنثاها فنسمى الذكر كبشا والأنثى « نعجة » . ومن المعز اثنين ، والذكر نسميه « تيساً » ، والأنثى نسميها « عنزة » ، وبذلك يكون معنا أربعة ، ومن هنا نفهم أن الزوج مدلوله فرد ومعه ما يقارنه .

﴿ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾

(من الآية ١٤٣ سورة الأنعام)

وما دمتم أنتم تحرمون وتحللون ، وتقولون : إن هذا من عند الله فقولوا لنا أحرّم الذكرين أم حرّم الأنثيين ؟ ولا يجدون جواباً ؛ لأنه سبحانه لا حرّم هذا ولا حرّم ذاك ، ولذلك أبرزت المسألة إبراز الاستفهام ، والشىء إذا أبرز إبراز الاستفهام فمعناه أنه أمر مقرر بحيث إذا سألت الخصم لا يقول إلا ما تتوقعه ، واسمه السؤال أو الاستفهام التقريرى . ويقول الحق : « نبئونى بعلم إن كنتم صادقين » أى أخبرونى بعلم ذلك فى التحريم إن كنتم أهل صدق ؛ لأنكم لستم أهلاً للتحريم ، إنما يحرّم ويحلل من خلق وشرع . فإن كان عندكم علم قولوا لنا هذا العلم .

ثم يأتى الحق بخبر الأربعة الباقية من الأنعام فيقول :

﴿ وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾ ﴾

ومن البقر اثنين : ذكر وأنثى أيضاً ، والذكر من البقر نسميه ثوراً ، ويخطوء بعض الناس فى تسمية الأنثى من البقر « بقرة » ، إن البقرة اسم لكل واحد منها : للذكر والأنثى ، والتاء فى بقرة للوحدة ، واسم الأنثى « ثورة » .﴿ومن الإبل اثنين ومن البقر اثنين قل آلذكرين حرم أم الانثيين ﴾ أنتم تقولون : إنكم لم تتبعوا رسولاً ، وكنتم على فترةٍ من الرسل ، ولم يأت لكم رسول ، إذن فلا تحريم إلا من الله ، ولا يبلغكم تحريم الله إلا عن طريق رسول . بل أكنتم شهداء مسألة التحريم ، أى أشاهدتم ربكم ورأيتموه حين أمركم بهذا التحريم ، أم أنتم الأنبياء ؟ . إنكم تتعمدون الكذب على الله لإضلال الناس . إذن ، فالحق لا يهدى من يظلم نفسه ويظلم الناس .

ويقول سبحانه بعد ذلك :

﴿ قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا

أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾

والحق سبحانه وتعالى قد تكلم عن التحريم فى آيات كثيرة ؛ فهناك الآية التى قال فيها :

﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ ﴾

(من الآية ٣ سورة المائدة)

وهنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها نجد الحصر فى أربعة فقط ، فيقول سبحانه :

﴿ قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ﴾

(من الآية ١٤٥ سورة الأنعام)

فكيف يتفق هذا النص مع النص الآخر ؟!

من يقول ذلك نقول له : أنت لا تفرق بين إيجاز وإطناب ، ولا تفرق بين إجمال وتفصيل ؛ فالذى تُرِكَ فى هذه الآية داخل فى الميتة ؛ لأن المُنخنقة والمُتردِّية والنطيحة وما أكل السبع ، والذى ذُبح على النُّصب وما أُهلّ به لغير الله موجود وداخل فى كلمة « الميتة » .

ثم : من قال : إن القرآن هو المصدر الوحيد للتشريع ؟ التشريع أيضاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، بتفويض من الله فى قوله تعالى :

﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾

(من الآية ٧ سورة الحشر)

فلا تقل إن المحرمات فقط محصورة فى هذه الآية لأن فيه محرمات كثيرة ، بدليل أن الله مرّة يُجْملها ، فيحّرم علينا الخبائث ؛ فكل خبيث مُحرّم . وقلنا من قبل : إن الدم المسفوح مُحرّم ، والدم المسفوح هو السائل الذى ينهال ويجرى وينصب ساعة الذبح ، وهل هناك دم غير مسفوح ؟ نعم ، وهو الدم الذى بلغ من قوة تماسكه أن كوّن عضواً فى الجسم كالكبد أو الطحال . ولذلك يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « أحلّت لنا ميتتان ودمان : فأما الميتتان فالحوت والجراد ، وأما الدمان فالكبد والطحال »[1] وفى رواية أخرى : السمك والجراد .

وعلى منطق التحريم للميتة والدم كان لابد ألا نأكل الميتة من السمك . ولا الكبد والطحال ، ولكن الله أحل لنا السمك والجراد والكبد والطحال لأنها لا تضر الجسم ، فالسمك والجراد ليس لهما نفسٌ سائلة أى دم يجرى ؛ فإذا ما ذبحنا أحدهما لا يسيل له دم ، أمّا الكبد والطحال فهما من دم وصل من الصلاحية أنه يكوّن عضواً فى الجسم ، ولا يتكوّن عضو فى الجسم يؤدى مهمة من دم فاسد ، بل لابد أن يكون من دمٍ نقى .

والحق الذى شرّع يقدر الظروف المواتية للمكلّفين ، وقد تمر بهم ظروف وحالات لا يجدون فيها إلا الميتة ، وهنا يأكلون أكل ضرورة على قدر دفع الضر والجوع . لكن على المسلم ألا يملأ بطنه من تلك الأشياء .

﴿ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

(من الآية ١٤٥ سورة الأنعام)

وأنواع الاضطرار : ألاّ تجد ما يؤكل من الحلال ، أو أن يكون ما يؤكل من الحلال موجوداً إلا أن هناك من يكرهك على أن تأكل هذا المحرم ، فالإكراه داخل فى الاضطرار ، والاضطرار يحملك ويدفعك إلى أن تمنع عن نفسك الهلاك ؛

(١) رواه ابن ماجه والحاكم والبيهقى عن ابن عمر .

فتأخذ من الطعام حتى تقتات فلا تموت من الجوع ، فإذا كان الله قد أباح لك أن تأكل من الميتة فى حال مظنة أن تموت من الجوع فما بالك من الإكراه بالموت العاجل ؛ إنه أولى بذلك ؛ لأنه سبحانه هو الذى رخص ، وهو الذى شرع الرخصة ، ومعنى ذلك أنها دخلت التكليف ؛ لأن الله يحب أن تؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه ، ومادمت قد دخلت فى دائرة التكليف فهنا يكون الغفران والرحمة .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾ ﴾

هنا يأتى الحق بالتحريم الثانى ، وهو التحريم للتهذيب والتأديب ، مثلما قال من قبل :

﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ ﴾

(من الآية ١٦٠ سورة النساء)

فـ « الظُفُر » هو ما يظهر عندما ننظر إلى أقدام بعض الحيوانات أو الطيور ، فهناك حيوانات نجد تشقق إصبعها ظاهراً والأصابع مفصولة ومنفرجة بعضها عن بعض ، فهذه ليست حراما عليهم ، ونوع آخر نجد أصابعها غير مفصولة وغير منفرجة مثل الإبل ، والنعام ، والبط ، والأوز وهى ذو الظُفُر . فكل ذى ظُفُر حُرّم على اليهود ، وقد حرم عليهم لا لخبث وضرر فى المأكول ، ولكن تأديبا لهم لأنهم ظلموا فى أخذ غير حقوقهم ؛ لذلك يحرمهم الله من بعض ما كان حلالا لهم ؛ فالأب يعاقب ابنه الذى أخذ حاجة أخيه اعتداء ؛ فيمنع عنه المصروف ،

والمصروف فى ذاته ليس حراماً ، ولكن المنع هنا للتأديب . والحق هو القائل :

﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ﴾

(الآية ١٦٠ ومن الآية ١٦١ سورة النساء)

ولأنهم فعلوا كل ذلك يأتى لهم التحريم عقاباً وتأديباً

﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

وأنت حينما تذبح الذبيحة تجد بعضاً من الدهن على الكلى ، ونجد فى داخلها ما يسمونه « منديل الدهن » وكذلك « ألية الخروف » ، وحين تقطع الرأس تجد فيها نوعاً من الدهون ، وقد حرّم الحق عليهم فى البقر والغنم شحومهما . وكذلك « كل ذى ظُفُر » مُحرّم كله . وهناك استثناء فى البقر والغنم هو : ﴿ إلا ما حملت ظهورهما أو الحوايا ﴾ .

أى أحل لهم ما هو فوق الظهر من الشحم ، وأحل لهم ما حملته الحوايا من الشحوم و « الحوايا » جمع حوية أو حاوية أو حاوياء وهى ما تحوّى من الأمعاء أى تجمع واستدار ، وفى الريف تقول المرأة عن قطعة القماش التى تبرمها وتلفها وتصنع منها دائرة مستديرة تضعها على رأسها لتحميه عندما تحمل فوقه الأشياء ؛ تقول : صنعت « حواية » والحواية هنا هى الأمعاء الغليظة ، وطولها كذا متر ، ومن حكمة تكوينها الربانية نجدها تلتف على بعضها ، ولذلك اسمها « الحوايا » ، وهى ما نسميه « الممبار » . وكذلك حلل لهم ما اختلط بعظم فى القوائم والجنب والرأس والعين ، وكذلك أحل لهم شحما اختلط بعظم منه الألية ، لأن الألية تمسك بِعَجْب الذنب . أى أصله ، وهو الجُزْء فى أصل الذَّنَب عند رأس العُصْعُص . ولأنه رحيم فهو ينزل عقوبة فيها الرحمة فيبيح له شيئا ويحرم شيئا آخر .

ويذيل الحق الآية بقوله : ﴿ ذلك جزيناهم ببغيهم وإنا لصادقون ﴾ .

وليس هذا التحريم تعديًا عليهم ، أو تعنتاً فى معاملتهم ، بل لأنهم بَغَوْا ، والباغى يجب أن يأخذ حظه من الجزاء ؛ حتى يفكر ماذا يحقق له البغى من النفع ، وماذا يمنع عنه من النفع أيضاً ، وحين يقارن بين الاثنين قد يعدل عن بغيه ، وهم قد صدّوا عن سبيل الله ، وأخذوا ربا لينمّوا أموالهم وأكلوا أموال الناس بالباطل ، لذلك حرّم عليهم الحق بعض الحلال . وسبحانه صادق فى كل بلاغ عنه ، ونعرف بذلك أن علة التحريم لبعض الحلال كانت بسبب ظلمهم وما بدر منهم من المعاصى فكان التحريم عقوبة لهم .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (١٤٧) ﴾

وكان مقتضى أنهم يكذبونك فيما أخبرت به عن الله ، أن يعجل الله لهم بالعذاب ؛ لكن الحق لم يعجل لهم بالعذاب لأنه ذو رحمة واسعة .

﴿ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ ﴾

(من الآية ١٤٧ سورة الأنعام)

ولكن إياكم أن تطمعوا فى الرحمة الدائمة ؛ إنها رحمة تأجيل فقط . ولن يفوتكم عذابه ، وهنا يحننهم أيضاً فيقول سبحانه : « ربكم ذو رحمة واسعة » وكأنه يقول لهم : راجعوا أنفسكم واستحوا من الله ولا يغرنّكم أنه ربّ ، خلق من عَدَم وأمدَّ من عُدْم ، وتولّى التربية ، لكنه لن يرد ويمنع بأسه وعذابه عن القوم المجرمين منكم .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ ﴾

وكلما تقرأ آية فيها « سيقول » فاعلم أنها تنطوى على سرّ إعجازى للقرآن ، والذى يعطى هذا السرّ هو الخصم حتى تعرف كيف يؤدى عدوّ الله الدليل على صدق الله ، مما يدل على أنه فى غفلة . ومن قبل قال الحق سبحانه :

﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾

(من الآية ١٤٢ سورة البقرة)

و « سيقول » معناها أنهم لم يقولوا الآن ، ويخبر القرآن أنهم سيقولون ، ولم يخبئ ويستر القرآن هذه الآية ، بل قالها رسول الله صلى الله عليه وسلم قرآناً يُقرأ ويُصلى به . ولو أن عندهم شيئاً من الفكر لكانوا يسترون القول حتى يُظهروا المتكلم بالقرآن بمظهر أنه لا يقول الكلام الصحيح ، أو على الأقل يقولون إنه يقول : « سيقول السفهاء » ، ونحن لسنا بسفهاء فلا نقول هذا القول . لكنهم يقولون القول السفيه برغم أن الآية قد سبقتهم بالتنبؤ بما سوف يقولون ؛ لأن الذى أخبر هو الله ، ولا يمكن أن يجئ احتياط من خلق الله ليستدرك به على صدق الله . هم سمعوا الكلمة ، ومع ذلك لم يسكتوا بل سبقتهم ألسنتهم إليها ليؤيدوا القرآن .

وكل مسرف على نفسه فى عدم اتباع منهج الله يقول : إن ربنا هو الذى يهدى وهو الذى يضلّ ، ويقول ذلك بتبجح ووقاحة لتبرير ما يفعل من سفه . وسيظل المسرفون على أنفسهم وكذلك المشركون يقولون ذلك وسيحاولون تحليل ما حرّم الله . وقد جاء المشركون بقضيتين : قضية فى العقيدة ، وقضية فى التكليف ؛ قالوا

فى قضية العقيدة : « لو شاء الله ما أشركنا » ، وكأنهم أشركوا بمشيئة الله . وجاءوا إلى ما حرموا من حلال الله وقالوا إنهم قد فعلوا ذلك بمشيئة الله أيضاً ؛ ليوجدوا لأنفسهم مبرراً ، وهذا القول ليس قضية عقلية ؛ لأنها لو كانت وقفة عقلية لكانت فى الملحظين : الخير والشر ، فالواحد منهم يقول : كتب ربنا علينا ـ والعياذ بالله ـ الشر ، لماذا يعذبنى إذن ؟! ولا يقول هذا الإنسان « وكتب الله لى الخير » . هذاما كان يفرضه ويقتضيه المنطق لكنهم تحدثوا عن الشر وسكتوا عمًّا يعطى لهم من خير .

وقولهم « لو شاء الله ما أشركنا » صحيح المعنى ؛ لأنه سبحانه لو شاء أن يجعل الناس كلهم مهديين لفعل ، لكنه شاء أن يوجد لنا اختياراً ، وفى إطار هذا الاختيار لا يخرج أمر عن مشيئته الكونية . بل يخرج الكفر والشر عن مراده الشرعى . وعلمنا من قبل أن هناك فرقاً بين الكونية والشرعية ؛ فكفر الكافر ليس غصباً عن الله أو قهراً عنه سبحانه ، إنما حصل وحدث بما أعطاه الله لكل إنسان من اختيار ، فالإنسان صالح للاختيار بين البديلات :

﴿ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الكهف)

فالإنسان قادر على توجيه الطاقة الموهوبة له من الله الصالحة للخير أو للشر . إذن فاختيار الإنسان إما أن يدخله إلى الإيمان وإما أن يتجه به إلى الكفر ، لذلك يقول الحق عن الذين يدّعون أن كفرهم كان بمشيئة الله :

﴿ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأْسَنَا ﴾

(من الآية ١٤٨ سورة الأنعام)

والسابقون لهم قالوا ذلك وفعلوا مثل ما يفعل هؤلاء من التكذيب ؛ وجاءهم بأس وعذاب من الله شديد ، ولذلك يأمر الحق محمدًا صلى الله عليه وسلم :

﴿ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴾

(من الآية ١٤٨ سورة الأنعام)

ويسألهم محمدٌ صلى الله عليه وسلم عن علم يؤكدون به صحة ما يدعونه . . ويزعمونه أى هل عندكم بلاغ من الله ، والحق أنهم لا علم لديهم ولا دليل ، إنهم يتبعون الظن ، ويخرصون ، أى أن كلامهم غير واضح الدلالة على المراد منه ، إنه تخمين وظن وكذب .

لذلك يقول سبحانه :

﴿ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَـٰلِغَةُ ۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ ﴾

نعم فلو شاء سبحانه لقسرهم على الهداية وما استطاع واحد منهم أن يخرج عن الهداية ، ولكنه لم يشأ ذلك ، بل أراد أن يكون الإقبال على الإيمان به ، واتباع التكاليف أمراً داخلاً فى اختيارهم . ألم يخلق سبحانه خلقاً لايعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ؟ ألم يخلق الكون كله مؤتمراً بأمره ؟!

﴿ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَـٰلِغَةُ ﴾

(من الآية ١٤٩ سورة الأنعام)

و « الحجة » هى الدليل الذى تقيمه لتأييد قولك فى الجدل ، ولذلك نسمى عقودنا حجة على الملكية . أو « الحجة البالغة » أى التى لاينفذ منها شىء أبداً يعطل المراد منها .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَـٰذَا ۖ فَإِن شَهِدُوا۟ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ ۚ وَلَا

تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾

ومادمتم لا تملكون العلم فمن المحتمل أنكم تملكون شهوداً على ما تقولون . والخطاب : « هلم شهداءكم » هو خطاب للجماعة ، و « هلم » يستوى فيها المفرد والمفردة والمثنى مذكراً كان أو مؤنثاً . والجمع مذكراً أو مؤنثاً ، فتقول : هلم يا زيد إلىّ ، وهلم يا هند إلىّ ، وهلم أيضاً لجماعة الذكور ولجماعة الإناث ،وهذه لغة الحجازيين . وتختلف عن لغة بنى تميم التى يزيدون عليها فيقال : « هلم يا رجل » ، و « هلمى يا امرأة » ، و « هلما ، وهلموا ، وهلممن » . والقرآن نزل بلغة قريش « الحجازيين » ، والحق يقول : « هلم شهداءكم » . أى هاتوا وأحضروا شهداءكم أن الله حرّم هذا ، إنكم بلا علم ، وكذلك لا شهود عندكم على المدعى ؛ فإن كان عندكم شهود هاتوا هؤلاء الشهود .

وماذا إن أحضروا شهود زور ؟ إنه ـ سبحانه ـ يحذر رسوله ويوضح له أنهم حتى ولو أحضروا شهداء إياك أن تصدقهم فهم كذابون :

وكأن الله يريد أن يفضح الشهود أيضاً أمام المشهود أمامهم ، ويعطى أيضاً قضيتين اثنتين ؛ فسبحانه يدحض ويبطل حجتهم ، ويفضح الشهود الذين جاءوا بهم . فكأنه قال : هاتوا هؤلاء الذين قالوا لكم هذا الكلام ، وفى ذلك فضيحة لمن لقنهم هذه الأوامر .

ويأمر الحق رسوله ألا يتبع الذين كذبوا بآياته سبحانه . وكلمة « أهواء » ، جمع هوى ، وهو ما يختمر فى الذهن ليلوى الإنسان عن الحق ؛ فهو شهوة ترد على الذهن فتجعله يعدل عن الحق :

﴿ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾

(من الآية ١٥٠ سورة الأنعام)

وهم لا يكذبون بآيات الله فقط بل لا يؤمنون بالآخرة أيضاً ؛ لأنهم لو كانوا يؤمنون بالآخرة لعلموا أنهم مجازون على هذا جزاء يناسب جرائمهم ، ولو أنهم قدروا هذه المسألة لامتنعوا عن اتباع أهوائهم .

ويذيل الحق الآية بقوله الكريم :

﴿وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾

(من الآية ١٥٠ سورة الأنعام)

ونفهم من كلمة « يعدل » أنها من العدل بمعنى القِسط ؛ إذا قيل : عدل فى كذا ، أو عدل بين فلان وفلان ؛ أو عدل فى الحكم ، أما عدل بكذا فيكون المراد منها أنه جعله عديلا ومساويًا . وجاءت بهذا المعنى فى آية أخرى هى قوله الحق :

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ۞﴾

(سورة الأنعام)

أى يجعلون ما لا يصح أن يكون مساويًا لله ، مساويا وعدلا لله . وهذا فعل من جعلوا لله شركاء ، وكذلك من لا يؤمنون بالله ؛ فالواحد منهم يعدل عن ربه عدولا ويميل ويعرض عنه ويشرك به ويسوِّى به غيره . ويجب أن نلحظ عند النطق بكلمة « التوحيد » وهى : « لا إله إلا الله » ألا نقف عند قول : (لا إله) لأن ذلك يعنى إنكار ونفى وجود إله وهذا والعياذ بالله كفر . إذن يجب علينا أن نصلها بما بعدها فنقول : (لا إله إلا الله) أو نكون عند نطقنا بلفظ (لا إله) قد انعقدت قلوبنا على وحدانيته وما يجب له ـ تعالت عظمته ـ من صفات الجلال والكمال ، ومعنى (لا إله إلاالله) أنه لا معبود بحق إلا الله ، لأن المعبودين بباطل كثيرون كالأصنام والنجوم والجن وبعض الإنس والملائكة وغير ذلك .

وكلمة « بربهم يعدلون » تفيد أنهم أهل شرك ، وكذلك من ينكر وجود الله إنه عن ربنا يعدل ويميل ويحيد عن الاعتراف به إلها .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ ﴾

ننظر فى هذه الآية فلا نجد شيئاً من المحرمات من الأطعمة التى بها قوام الحياة ، ولكن نجد فيها المحرمات التى إن اتبعناها نهدر القيم المعنوية التى هى مقومات الحياة الروحية ، إنها مقومات الحياة من القيم ﴿ قل تعالوا أتل ما حرّم ربكم عليكم ﴾ .

والأداء القرآنى هنا يأخذ لفظ « تعال » بفهم أعمق من مجرد الإقبال ، فكأن الحق يقول : أقبل علىّ إقبال من يريد التعالى فى تلقى الأوامر . فأنت تقبل على أوامر الله لتعلو وترتفع عن حضيض تشريع البشرية ؛ فلا تأخذ قوانينك من حضيض تشريع البشر ؛ لأن الشرط الواجب فى المشرع ألّا يكون مساويًا لمن شرّع له ، وألّا يكون منتفعاً ببعض ما شرّع ، وأن يكون مستوعباً فلا تغيب عنه قضية ولا يغفل عن شىء والمشرع من الخلق لا يشرع إلا بعد اكتمال عقله ونضجه . ولا يقدر أن يمنع نفسه من الانتفاع بالتشريع .

الرأسمالى ـ مثلاً ـ يشرع ليستفيد ، والماركسى يشرّع ليستفيد . وكل واحد

بشرع وفى نفسه هوى ، ومن بعد ذلك تعدّل التشريعات عندما نستبين أنها أصبحت لا تفى ولا تغطى أمور الحياة ، فكأن المشرع الأول لقصور علمه غابت عنه حقائق فضحها المجتمع حين برزت القضايا ، فنظر فى قانونه فلم يجد شيئاً يغطى هذه القضايا ، فيقول : نعدل القانون ، ونستدرك . ومعنى استدراك القانون أى أن هناك ما جهله ساعة قنن .

إذن يشترط في المقنن ألاّ يكون مساويًا للمُقَنن له ، وألاّ تغيب عنه قضية من القضايا حتى لا يُستَدرَك عليه ، وألاّ يكون منتفعاً بالتشريع ، ولا يوجد ذلك فى بشر أبداً ، فأوضح الحق : اتركوا حضيض التشريع البشرى وارتفعوا إلى السماء لتأخذوا تقنينكم منها ؛ فحين ينادى الله « تعالوْا » فمعناها ارتفعوا عن حضيض تقنين بشريتكم إلى الأعلى لتأخذوا منه تقنيناتكم التى تحكم حركة حياتكم ، فهو لا ينتفع بما شرع ، بل أنتم الذين تنتفعون ، ولأنه لا يغيب عنه شيء سبحانه ، وهو خالق ، هو أولى أن يشرع لكم .

﴿ قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ﴾

(من الآية ١٥١ سورة الأنعام)

« أتل » من التلاوة وهى القراءة ﴿ ما حرَّم ربكم عليكم ﴾ أي ما جعله حراما . . أى يمتنع عليهم فعله ، وسأقول لكم كل البلاغات بلاغاً بعد بلاغ .

﴿ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ﴾

(من الآية ١٥١ سورة الأنعام)

لقد جاء سبحانه بتحريم الشرك من خلال تركيب لغوى يؤكد علينا ألا نشرك به ؛ فأنت ساعة تأتى لتلقى أوامر لمن ترأسه تقول له : استمع إلى ما أمنعك منه فاتبعه . ثم تبدأ فى التفصيل ، والحق هنا جاء بأول بند من المحرمات والمحظورات هو ألا نشرك به شيئاً . أى أتلو عليكم تحريم الشرك ، فأول المحرمات الشرك ، وعلينا أن نوحد الله ، فكل نهى عن شيء أمر بمقابله وكل أمر بشيء نهى عن مقابله . وعلى ذلك فكل أمر يستلزم نهيًا ، وكل نهى يستلزم أمراً . فلا تلتبس عليكم الأوامر والنواهى . أو تكون (عليكم) منقطعة عما قبلها ، أى عليكم ترك الشرك ، وعليكم إحسانا بالوالدين ، وألاّ تقتلوا أولادكم ، وألاّ تقربوا

الفواحش . . أى الزموا ذلك .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وبالوالدين إحساناً ﴾ وسبحانه يأمر هنا بتأكيد الإحسان إلى الوالدين ؛ فهو أمر بإيجاب ويستلزم نهيا عن مقابله وهو عقوق الوالدين ، أى لا تعقوهم . فعدم الإحسان إلى الوالدين يدخل فيما حرّم الله . ثم يقول سبحانه :

﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾

(من الآية ١٥١ سورة الأنعام)

أى استبقوا حياة أولادكم ، فإن أردتها من قبيل النهى فقل هو نهى عن قتل الأولاد ،وإن أردتها من قبيل الإيجاب فقل : استبقوا الحياة . وقوله:﴿ من إملاق ﴾ أى من فقر ، فكأنهم كانوا فقراء ، ومادام الإملاق موجوداً فشغل الإنسان برزق نفسه يسبق الانشغال برزق من يأتى بعده ؛ فيا أهل الإملاق تذكروا أن الله يرزقكم ويرزق من سيأتى زيادة عليكم وهم الأولاد . ويقول سبحانه :

﴿ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾

(من الآية ١٥١ سورة الأنعام)

وهذا نهى عن القرب ، أى نهى عن الملابسات التى قد تؤدى إلى الفعل لا نهى عن الفعل فقط ؛ فحينما أراد الله أن يحرم على آدم وعلى زوجه الشجرة قال :

﴿ وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ ﴾

(من الآية ١٩ سورة الأعراف)

لأن القرب قد يغرى بالأكل ،وكذلك ﴿ ولا تقربوا الفواحش ﴾ أى لا تأتى إلى مقدمات الفواحش بأن تلقى نظرة أو تحدّق النظر إلى محرمات غيرك ، وكذلك المرأة التى تتبرج ؛ إنها تقوم بالإقبال على مقدمات الفواحش ، فإذا امتنعت عن المقدمات أمنت الفتنة والزلل ؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « الحلال بيِّن والحرام بيِّن وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمها كثير من الناس فمن اتقى المشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه ومن وقع فى المشبهات وقع فى الحرام كراع يرعى حول الحمى يوشك أن يواقعه ، ألا وإن لكل ملك حمى ، ألا وإن

حمى الله تعالى فى أرضه محارمه ، ألا وإن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب »[1] .

ويمنعك الحق : ألاّ تقرب ، أى أبعد نفسك عن مظنة أن تستهويك الأشياء ، مثلها مثل « اجتنب » تماماً ، وسبحانه وتعالى يقول :

﴿ فَاجْتَنِبُواْ الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَـٰنِ ﴾

(من الآية ٣٠ سورة الحج)

ويقول :

﴿ وَاجْتَنِبُواْ قَوْلَ الزُّورِ ﴾

(من الآية ٣٠ سورة الحج)

وهنا يقول تعالى : ﴿ ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ﴾ .

وكل ما ظهر من الفواحش هو من أفعال الجوارح التى ترتكب الموبقات و « وما بطن » هو من أفعال السرائر مثل الحقد ، والغل ، والحسد .

ويتابع سبحانه :

﴿ وَلَا تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾

(من الآية ١٥١ سورة الأنعام)

وكلمة « النفس » يختلف الناس فى معناها ، ولا تطلق النفس إلا على التقاء الروح بالمادة ، والروح فى ذاتها خيّرة ، والمادة فى ذاتها خيّرة مسبحة عابدة .

﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾

(من الآية ٤٤ سورة الإسراء)

وإذا التقت الروح بالمادة تقوم الحياة ، فمعنى قتل النفس أن نفصل الروح عن المادة بهدم البنية وهذا غير الموت ؛ لأن الله هو الذى يميت النفس ، أما الإنسان

(١) رواه البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه عن النعمان بن بشير .

فهو يقتل النفس إن هدم بنيتها . والذى وهب الحياة هو الله ، فلا يسلب الحياة إلا هو . وبعد ذلك يشرع الله لنا أن نسلب الحياة قصاصاً ، أو للزنا من الثيب المحصن رجلا أو امرأة ، أو للردّة ، فهذا قتل بحق ،لكن سبحانه وتعالى يلعن من يهدم بنيان الله بغير الحق ، والإنسان بنيان الله فلا تعتدى عليه . ولذلك أمرنا الله بالقصاص من إنسان قتل إنساناً ؛ حتى يحافظ كل واحد على حياة نفسه ، وحين يحفظ الإنسان كل نفس ، فإنّه ينجو بنفسه ويسلم .

هكذا يأمر الحق بأن نقتل الثّيب ، والثيب الزانى يطلق على الذكر والأنثى وهو من تزوج ودخل على زوجه وذاق كل منهما عسيلة الآخر وأفضى إليه ، وكذلك المرتد ، فنحن نحرص على حرية الاعتقاد ؛ بدليل أننا لا نقتل الكافر الأصلى لكفره ، ولكن يجب على الإنسان أن يفهم أن الدخول إلى الإيمان بالإسلام يقتضى أن يدرسه دراسة مستوفية مقنعة ، وأن يعلم أن حياته رهن بأن يرجع عن هذا الدين ، فإذا علم أن حياته رهن بأن يرجع عن هذا الدين ، فلن يدخله إلا وهو مقتنع تمام الاقتناع . ونحن نحمى بالاختيار ، فنعلن لكل من يقبل على الإسلام ونحذره : إياك أن تدخل بظاهر القول دون فهم لمعنى الإسلام لأنك لو دخلت ثم بعد ذلك ارتددت فسوف تقتل ، ومادام الشيء ثمنه الحياة ، فالواجب أن يحتاط الإنسان الاحتياط الشديد . وفي ذلك أيضاً ثقة من أن الإنسان إذا ما بحث فى الأدلة فسيقتنع بأن له إلهاً حقاً ، ولكننا لا نقتل الكافر الأصلى .

إذن فقتل المرتد حماية لحزم الاختيار ، فإياك أن تدخل بدون روية ؛ لأنك لو دخلت ثم ارتددت فسوف تقتل ، وبذلك يصفى الحق المسألة تصفية لازمة بأن يعرض من يقبل على الإسلام جميع الحجج على نفسه ، ولا يدخل إلا بنية على هذا ، ففى أى عقد يحاول الإنسان أن يعرف التزاماته وأن تتضح أمامه هذه الالتزامات . ولا يدخل إلى الدين الدخول الأهوج ، أو الدخول الأرعن ، أو الدخول المتعجل . بل يلزمه أن يدخل بتؤدة وروية .

وفى الزواج يدخل الإنسان بكلمة ويخرج بكلمة أيضا هى : « أنت طالق » ، ولذلك تحتاط المرأة ، فمادامت قد عرفت أن بقاء زواجها رهن بكلمة فعليها أن تحرص ألا تضع هذا الحق إلا فى يد أمينة عليه . وساعة أن يقول لها أبوها :

اسمعى ، إن لك أن تختارى الزوج الذى إن أحبك أكرمك ، وإن كرهك لا يظلمك ؛ لأنه بكلمة منه تنتهى الحياة الزوجية . إذن فعلى المرأة أن تفكر فى الإنسان الأمين على هذه الكلمة .

ومع ذلك فهناك احتياط للغفلة ؛ فالرجل يتزوج بكلمة واحدة ، من مرة واحدة لكن فى الطلاق هناك ثلاث مراحل ؛ كرصيد للغفلة . فالرجل يتزوج المرأة بكلمة « زوّجتك نفسى أو يزوجها وليها ويكون القبول من الزوج وبهذا يتم الزواج » . لكن فى الطلاق أباح الله لغفلة الرجل ولرعونته أن يطلق مرة ، ثم يراجع هومن غير دخول أحد بينهما ، ثم يطلق ثانية ، ويراجعها ، ولكن بعد الطلاق الثالث يجد التنبيه من الحق : لقد احتطنا لك برصيد من غفلتك . ولكن عندما تريدها زوجاً لك فلا يتم ذلك إلاّأن تتزوج غيرك ، وبعدها قد تعود لك أو تبقى مع من تزوجها . فاحتط جيداً للأمر الذى تدخل عليه ، وللتعاقد الذى التزمت به . فإذا كان هذا هو الشأن فى تعاقد الزواج ، فما بالنا بالرّدة ؟ إنّنا نقتل المرتد ، ولا نفعل به ذلك قبل أن يؤمن وقبل أن يعلن إيمانه وقبل الدخول فى حيز المؤمنين ، ليعلم أنه إن رجع عن الإسلام فسيقتل . وهكذا يصعِّب الإسلام الدخول إليه ، ويحمى الاختيار فى الوقت نفسه .

ويتابع سبحانه :

﴿ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾

(من الآية ١٥١ سورة الأنعام)

و « الوصية » لا تكون إلا للأمور المهمة التى لا تستقيم كالحياة إلا بالقيام بها ، إنها فى أمهات المسائل التى لا يصح أن نغفلها . ولذلك حين تنظر إلى النبى صلى الله عليه وسلم ؛ لقد ظل ثلاثة وعشرين عاماً يستقبل من السماء ويناول أهل الأرض ، ثم جاء فى حجة الوداع وركّز كل مبادئ الدين فى قوله تعالى :
﴿ ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون ﴾ .

و « وصاكم » غير شرّع ؛ فشرّع تأتى بكل التشريعات وما فيها من تفاصيل صغيرة ، والوصية تضم أمهات المسائل فى التشريع . و العقل يجب أن يسع المسألة من أولها إلى آخرها ؛ فلو استعملت عقلك فى كل منهى عنه ، أو فى كل مأمور

به فى الآية فستجد التعقل يعطيك التوازن فى القرار ، وقد ختم الحق الخمسة الأشياء التى ذكرها فى هذه الآية بـ ﴿ ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون ﴾ . هذه الأوامر متفق عليها فى جميع الرسالات وفى جميع الأديان ، ويسمونها : « الوصايا العشر » .

والأشياء الخمسة التى أوصى بها سبحانه هى :

* ألا تشركوا به شيئاً .
* وبالوالدين إحساناً .
* ولا تقتلوا أولادكم من إملاق .
* ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن .
* ولا تقتلوا النفس التى حرّم الله إلا بالحق .

فكان يجب أن يقول : ذلكم وصاكم بها ، لكنه قال : ﴿ وصاكم به ﴾ ، فكأن أوامر الله ونواهيه أمر واحد متلازم تتمثل كلها فى : التزم ما أَمَرَ اللَّهُ به ، واجتنب ما نهى الله عنه .

وقوله سبحانه : ﴿ لعلكم تعقلون ﴾ فكأن العقل لو خُلِّى ليبحث هذه الأشياء بحثاً مستقلاً عن منهج السماء لوجد أن ضرورة العيش على الأرض تتطلب وجود هذه الأشياء .

إذن ، كيف نُعْصم من أهوائنا المتضاربة بعضها مع بعض ؟ . لابد أن يكون الإله واحداً حتى لا يتبع كل واحد منا هواه . إننا نعرف أن الأصل فى الإنسان هو الأب والأم . ولذلك وصَّى بالأصل فى ﴿ وبالوالدين إحساناً ﴾ ، ووصى أننا لا نقتل الأولاد خشية الفقر ؛ لأن الحياة تستمر بهم ، وبعد ذلك لابد أن تكون الحياة نظيفة ، طاهرة لجميع الأفراد ، ولا تشوبها شائبة الدنس أبداً ، ولا يتأتّى ذلك إلا إذا تركنا الفواحش : ما ظهر منها وما بطن ؛ لأننا نلاحظ أن كل الأولاد غير الشرعيين يُهْمَلون ؛ فالحق سبحانه وتعالى يريد طهارة الأنسال فى الحياة ؛ حتى يتحمل كل واحد مسئولية نسله . ويكون محسوباً عليه أمام المجتمع ، ويحذرنا سبحانه من أن نقتل النفس إلا بالحق ؛ لأن النفس أصل استبقاء الحياة .

ثم يجئ الحق بعد ذلك فى الآية التالية ليكمل الوصايا فيقول :

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ۖ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ ﴾

ونعلم أن اليتيم هو من فقد أباه ، ولم يبلغ مبلغ الرجال ، هذا فى الإنسان ، أما اليتيم فى الحيوان فهو من فقد أمه . وقوله الحق :

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ﴾

(من الآية ١٥٢ سورة الأنعام)

هنا يفرض سبحانه أن اليتيم له مال ، فلم يقل : لا تأكل مال اليتيم . بل أمرك ألّا تقترب منه ولو بالخاطر ، ولو بالتفكير ، وعليك أن تبتعد عن هذه المسألة . وإذا كان قد قال : ﴿ ولا تقربوا مال اليتيم ﴾ فهل هذا الأمر على إطلاقه ؟ . لا ؛ لأنه أضاف وقال بعد ذلك : ﴿ إلا بالتى هى أحسن ﴾ أى بأن نثمِّر له ماله تثميراً يسع عيشه ، ويبقى له الأصل وزيادة ، ولذلك قال فى موضع آخر :

﴿ وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا ﴾

(من الآية ٥ سورة النساء)

فلا يأخذ أحد مال اليتيم ويدخره ، ثم يعطيه منه كل شهر جزءًا حتى إذا بلغ الرشد يجد المال قد نقص أو ضاع ، لذلك لم يقل : ارزقوهم منها ، بل قال : ﴿ وارزقوهم فيها ﴾ أى ارزقوهم رزقاً ناشئاً منها . فَمالُهم ظرفية للرزق ، ولا يتأتى هذا إلا بأن نثمرها لليتيم ، ولا نحرم الوصاية على اليتيم لرعاية ماله من أصحاب

الكفاءات فى إدارة الأعمال والأمناء ، وقد يوجد الكفء فى إدارة العمل ، والأمين فيه لكن حاله لا ينهض بأن يتحمل تبعات ومؤنة حياته وقيامة بإدارة أموال اليتيم ؛ فقال ـ سبحانه ـ فى ذلك :

﴿ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ﴾

(من الآية ٦ سورة النساء)

أى أن يهب الوصىّ تلك الرعاية لله ، وحين يهب تلك الرعاية لله ولا يأخذ نظير القيام بها أجراً ؛ يضمن أنه إن وُجِدَ فى ذريته إلى يوم القيامة يتيم فسيجد من يعوله حسبة لله وتطوعاً منه مدخراً أجره عند الله . والحق هو القائل :

﴿ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَـٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾ ﴾

(سورة النساء)

وحينما يجد اليتيم من يرعاه ، وحين يتعاطف المجتمع مع كل يتيم فيه ، ويتولى أمور اليتامى أناس أمناء قادرون على إدارة أمورهم فسوف يقل جزع الإنسان من أن يموت ويترك صغاره ؛ لأنه سيجد كرامة ورعاية لليتيم ، فالناس تخاف من الموت لأن لهم عيالاً صغاراً ويرون أن المجتمع لا يقوم برعاية اليتامى ، لكن الإنسان إن وَجَد اليتيم مُكرّماً ، ووجد له آباء من الأمة الإسلامية متعددين ، فإن جاءه الموت فسوف يطمئن على أولاده لأنهم فى رعاية المجتمع ، ولكن لا تنتظر حتى يصلح شأن المجتمع بل أصلح من نفسك وعملك تجاه أى يتيم ، ويمكنك بذلك أن تطمئن على أولادك فستجد من يرعاهم بعد مماتك ، وحين يرعى المجتمع الإيمانى كل يتيم ستجد الناس لا تضيق ذرعاً بِقَدَر الله فى خلقه بأن يموت الواحد منهم ويترك أولاداً . والمثل واضح فى سورة الكهف بين العبد الصالح وسيدناموسى حينما مرّا على قرية :

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا ﴾

(من الآية ٧٧ سورة الكهف)

فلم يطلبا نقوداً ليدخراها ، ولكنهما طلبا طعاماً لسد الجوع ، وهذه حاجة مُلحّة . ومع أنهما استطعما أهل القرية أبى أهل القرية أن يضيفوهما . ومعنى ذلك أنها قرية

لئيمة الأهل . وعلى الرغم من أن العبد الصالح وجد ردّهم عليه وامتناعهم عن إطعامهما ، ولكنه عندما وجد جداراً ، وبفراسته علم أن الجدار يريد أن ينقض ؛ وكأن الجدار له إرادة ، فأقام الجدار ، ولأمه سيدنا موسى عليه السلام ، وكان سيدنا موسى منطقيًّا مع نفسه ، فقد طلب هو وشيخه من أهل القرية مجرد الطعام فرفضوا ، فكيف ترد عليهم بأن تبنى لهم الجدار ، وكان يجب أن تأخذ على البناء أجرة ، فهم قوم لئام ، هذا كلام موسى . لكن العبد الصالح جازاهم بما يستحقون ؛ لأنه ببنائه الجدار قد حال بينهم وبين أخذ الكنز ، لأنه لو ترك الجدار ينهار لظهر الكنز الذى تحته وهو ليتيمين ، وهكذا عرف العبد الصالح كيف يربيهم .

وبعد ذلك أراد الله أن يشرح لنا أن الجدار كان لغلامين يتيمين فى المدينة .

﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا ﴾

(من الآية ٨٢ سورة الكهف)

فكأن استخراج الكنز مقارن ببلوغ الرشد ، وكأن العبد الصالح قد بنى الجدار بناءً موقوتاً ، بحيث لا ينهار إلا حين يبلغ الغلامان مبلغ الرشد ، لقد بنى العبد الصالح البناء وكأنه يضبط الميقات فلا يتماسك الجدار إلا لساعة بلوغ الغلامين أشدهما ، وعندئذ يستخرج الغلامان كنزهما . وبعد ذلك جاء لنا بالحيثية لكل ذلك ، فقال سبحانه :

﴿ وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا ﴾

(من الآية ٨٢ سورة الكهف)

فكأن صلاح الأب هو الذى أراد به الحق أن يظهر لنا كيف حمى كنز الأبناء ، فيأتى العبد الصالح وموسى لأهل القرية اللئام ، ويطلبان طعاماً ، فلا يطعمونهما ، فيبنى العبد الصالح الجدار الموقوت الذى يصون الكنز من اللئام . والحق يقول هنا :

﴿ وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾

(من الآية ١٥٢ سورة الأنعام)

ومن لا يقدر على قرب مال اليتيم بالتى هى أحسن فليبتعد عنه .

وحتى لا يتحرز ويتوقى الناس من رعايتهم مال اليتيم ، قال سبحانه :

﴿ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ ﴾

(من الآية ٦ سورة النساء)

وكلمة « فليأكل بالمعروف » أي لا يكنز ولا يدخر منه أبداً ، بل يأكل بما يدفع الجوع فقط ويكتسى مايستر جسمه . ونعرف أن اليتيم لم ينضج عقله بعد ، وكذلك الكبير السفيه هو أيضاً لا يقدر على التصرف ؛ لذلك قال الحق فى أدائه البيانى حيث يؤدى اللفظ ما يوحى بالمعانى الواسعة :

﴿ وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ ﴾

(من الآية ٥ سورة النساء)

وجعل الحق مال السفيه فى مرتبة مال الولى ؛ لأن السفيه لا يحترم ملكيته وقد يبددها . ولكن المال يعود لهذا الإنسان حين يذهب عنه السفه فيقول الحق :

﴿ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ﴾

(من الآية ٦ سورة النساء)

إنه أداء قرآنى عجيب ، يشجع الناس ألا يتركوا السفيه يبدد ماله فتكون خسارة للمجتمع كله ، فمادام هو فى سفه فانظر إلى المال كأنه مالك ، ولتكن أميناً عليه أمانتك على مالك . وعندما ترى وتجد رشده وتطمئن على ذلك ، فإن الحق يأمرك أن تعيد له ماله . ونعود إلى اليتيم ، هنا يقول الحق :

﴿ ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن ﴾ .

هذا إن كان له مال ، فماذا عن اليتيم الذى لا مال له ؟ . هنا تكون الوصية أقوى ، عن سهل بن سعد رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أنا وكافل اليتيم فى الجنة هكذا » (وأشار بالسّبابة والوسطى وفرّج بينهما)[1] .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(١) رواه البخارى ، والترمذى ، وأبو داود .

« الساعي على الأرملة والمساكين كالمجاهد في سبيل الله وكالذي يصوم النهار ويقوم الليل »[1] .

وخذوا بالكم واجعلوا مسح رأس اليتيم لله ، فمن الجائز أن تكون لليتيم أم جميلة ، ويريد الولي أن يتقرب منها عن طريق الولد ، احذروا ذلك ، فإنه فضلاعلى أنه يسخط الله ويغضبه فهو خسة ولؤم ونذالة .

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ﴾

(من الآية ١٥٢ سورة الأنعام)

لم يقل الله ـ سبحانه ـ بالتي هي حسنة ولكنه قال : ﴿ بالتي هي أحسن ﴾ لتشديد الحرص على مال اليتيم حتى يبلغ أشده لأن بلوغ الأشد ، يعني أن اليتيم صارت له ذاتية مستقلة ، وما المعيار في الذاتية المستقلة ؟ ؛ أن يصبح قادراً على إنجاب مثله ، وهذا معيار النضج . مثله مثل الثمرة حين تنضج ؛ أي صارت البذرة التي فيها صالحة لأن نضعها في الأرض لتكون شجرة . وأنت إن قطفت الثمرة قبل أن تنضج لا تجد طعمها حلوا ، ولا تستسيغ مذاقها إلا حين تستوي البذرة وتنضج .

و « الأشد » أي أن الإنسان يصير قادراً على إنجاب مثله وهو ما نسميه البلوغ ، ويصبح أيضاً قادراً على حسن التصرف في المال وفي كل شيء . ويتابع سبحانه :

﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ﴾

(من الآية ١٥٢ سورة الأنعام)

والكيل هي المعايير لما يكال حجماً ، والموازين هي المعايير لما يُقَدَّر كثافة ، فهناك معيار للحجم ومعيار للكثافة . معيار الحجم الكيل ، ومعيار الكثافة هو الوزن ، وهناك أيضاً التقديرات العادلة في القياس ، للأقمشة مثلاً ، المقياس فيها هو المتر ، إذن كل شيء بحسبه ، وإذا أردت الموزون فلابد أن يكن بالقسط ، أي بالعدل .

وهذه المسألة من الصعب تحقيقها ، ولذلك تختلف الموازين باختلاف نفاسة الأشياء ، فحين نزن الفول أو العدس أو البطاطس أو القلقاس ، فنحن نزنه بميزان

(١) رواه البخاري في الأدب المفرد .

كبير ؛ لأن فرق الميزان قد يكون حول الكيلوجرام ، فالأمر حينئذ يكون مقبولاً . وحين نزن أشياء أثمن قليلاً ، نأتى بالميزان الدقيق . فإن كان الشىء الموزون ذهباً نحيط الميزان بجدران زجاجية لأن لفحة الهواء قد تقلل أو تزيد الوزن .

إننا نحاول أن نمنع تأثير تيارات الهواء عليها . وحين نزن المواد الكيماوية نأتى بميزان يعمل بالذرة . إذن كل موزون يأخذ درجة ميزانه بمقدار نفاسته وتأثيره ؛ لأن تحقيق العدالة فى الميزان مسألة صعبة ، وكذلك الأمر فى الكيل . فحين يكيل الإنسان كيلاً يمسك إناء الكيلة ويهزّه ؛ حتى يأتى المكيال دقيقاً محرراً ، وإن أراد أن يلغى ضميره ويأخذ أكثر من حقه فهو يملأ المكيال بأكثر مما يحتمل ويسند الزيادة بيده حتى لا تقع . وربنا يقول :

﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝ ﴾

(سورة المطففين)

فحين يكتال يستوفى ويطفف أى يزيد ما سوف يأخذه شراء ، وحين يبيع يقلل الكيل أو الوزن ليأخذ ثمناً أكثر من ثمن ما يزن أو يكيل . وأصل المبادلات غالباً بين طرفين ، وبعض المتنطعين يقول : كيف يقول الحق : ﴿ ويل للمطففين ﴾ والتطفيف فى أى مسألة يكون بالزيادة ، لا بالنقص . ونقول : انتبه إلى أن المتحدث هو الله ، والتطفيف إنما هو الرغبة فى الاحتفاظ بالزيادة للنفس ، أما النقص فيكون للآخرين ،والتطفيف يزيد طرفاً وينقص من طرف ، وكل صفقة بين اثنين فيها بيع وشراء . فإن أراد واحد أن يجعل الخسران على طرف وأن يستوفى لنفسه فهو مطفف .

ولذلك تأتى دقة الأداء القرآنى من ربنا :

﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾

(من الآية ١٥٢ سورة الأنعام)

وقال الحق ذلك لأنه يعلم أن الكيل والميزان بالعدل أمر متعذر ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى لواسع رحمته فى التشريع لنا لم يجعل مجال الاستطاعة أمراً يمكن أن تتحكم فيه أشياء لا تدخل فى الاستطاعة ؛ ففى ضبط المكيال والميزان قال : ﴿ لا نكلف نفساً

إلا وسعها ﴾ ، لأن المكيال والميزان أداتان تتحكم فيهما ظروف لا تدخل فى نطاق الإنسان . ولذلك قلنا : إن وزن الأشياء التى نعلمها إن كانت من الأشياء التى ليست فيها نفاسة فوزنها له آلة . وإن كانت فى المتوسط فوزنها له آلة ، وإن كان فى الأشياء النفيسة الدقيقة التى للقدر الصغير فيها قيمة مؤثرة ، فإن لها آلة مضبوطة مصونة من عوامل الجو حتى لا تتأثر بهبّة الهواء ، فقول الحق : ﴿ لا نكلف نفساً إلا وسعها ﴾ إباحة للأشياء الزائدة أو الناقصة التى لا تدخل فى الاستطاعة ، ثم قال سبحانه :

﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ﴾

(من الآية ١٥٢ سورة الأنعام)

نعلم أن القول نسبة كلامية ينطق بها المتكلم ليسمعها مخاطب ، ينفعل للمطلوب فيها خبراً أو إنشاءً ، والقول مقابله الفعل ، وكلاهما عمل ، فالقول عمل والفعل عمل ؛ فإذا قلت : قل أو افعل ، فافهم أن القول متعلق بجارحة اللسان ، والفعل متعلق بكل الجوارح ما عدا اللسان ، فإذا رأيت ، وإذا سمعت ، وإذا شممت ، وإذا لمست كل ذلك يطلق عليه أنه فعل ، ولكن إذا ما تحرك اللسان فذلك قول : ﴿ وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى ﴾ .

وهل العدل مقصور على القول ؟ أو العدل أيضاً يكون فى الفعل ؟ إن العدل قد يكون فى خلاف بين اثنين ، وهذا لا يتأتى بفعلك ، وإنما يتأتى الحكم والفصل فيه بقولك ، وإذا ما تعودت العدل فى قولك ، ألفته وأنست به وأحببته حتى فى أعمالك الخاصة الأخرى .

والقول منه الإقرار ، وإن تقر على شىء فى نفسك فقله بالعدل وبالحق ، والشهادة . قلها بالحق ، والحكم . قله بالحق . والوصية . قلها بالحق . والفتوى . قلها بالحق . إذن فالحق فى القول أمر دائر فى كثير من التصرفات ؛ لأنك إذا قلت بالحق أمكنك أن تعدل ميزان حركة الحياة ؛ فميزان حركة الحياة لا يختل إلا إن رجح باطل على حق ؛ لأنك إذا حكمت لواحد بشىء لا يستحقه فقد أعطيته ما ليس له ، وإنك بعملك هذا تجعل المتحرك فى الحياة يزهد فى الحركة . لكن إذا ما حافظت على حركة كل متحرك ، وأخذ كل واحد حظه من الحياة بقدر ما يعمل اتزنت كل

الأمور ، ولم يعد هناك قوم يعيشون على جهد غيرهم وعرق سواهم ، إذن فقول العدل هو مناط حركة الحياة الثابتة المستقيمة الرتيبة الرشيدة : ﴿ وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى ﴾ .

والذى يؤثر فى العدل هو الهوى ، وحين يوجد الهوى فهو يحاول أن يميلك إلى ناحية ليس فيها الحق ، وأولى النواحي أن يكون الأمر متعلقاً بك أو بقرابة لك ، وقد تريد إن حكمت ـ والعياذ بالله ـ باطلا ، أن تسعد ذا قرباك ،وأنت بذلك لم تؤد حق القرابة ؛ لأن حق القرابة كان يقتضى أن تمنع عنه كل شىء محرّم وتحمى عرضه ، وتحمى دينه قبل أن تحمى مصلحته فى النفعية الزائلة . ولذلك يأمرك الحق بأن تقول الكلمة بالعدل ولو كان المحكوم له أو عليه ذا قربى ؛ لأنك حين تحكم بالباطل فأنت فى الواقع حكمت عليه لا له .

﴿ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُواْ ﴾

(من الآية ١٥٢ سورة الأنعام)

ونحن نعلم أن عهد الله هو ما عاهدنا الله عليه ، وأول عهد وقمة العهود هو الإيمان به سبحانه ، وترتب على ذلك أن نتلقى منه التكليف ، فكل تكليف من تكاليف الله لخلقه يُعتبر عهداً داخلاً فى إطار الإيمان ؛ لأن الله لا يحكم حكماً أو يبينه لمكلَّف إلا بعد أن يقول :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾

(من الآية ١ سورة المائدة)

أى يا من آمنت بالعهد الأصيل فى القيم وهو العقيدة ، وآمنت بى إلهاً : خذ التكليف منى ؛ لأنك قد دخلت معى فى عهد هو الإيمان .

ولذلك لا يكلف الله بالأحكام كافراً به ، إنما يقول : ﴿ ياأيها الذين آمنوا ﴾ ، ولذلك يجب أن نأخذ كل حكم بدليله من الإيمان بمن حكم به ، فلا تبحث عن العلة فى كل حكم ، وإنما علة كل حكم أن تؤمن بالذى أمرك أن تفعل كذا ، فَعِلَّة كل أمر هى الحكم .

ويذيل الحق الآية الكريمة بقوله تعالى :

﴿ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾

(من الآية ١٥٢ سورة الأنعام)

و « ذلكم » إشارة إلى ما تقدم ، من أول قوله سبحانه :

﴿ قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ﴾

(من الآية ١٥١ سورة الأنعام)

إلى أن انتهينا إلى قوله سبحانه :

﴿ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُواْ ﴾

(من الآية ١٥٢ سورة الأنعام)

والتوصية تخصيص للتشريع ؛ لأن التشريع يعم أحكاماً كثيرة جدًّا ، ولكن الوصية التى يوصى الله بها تكون هى عيون التشريع . ولذلك قال ابن عباس رضى الله عنه عن هذه الآيات : « إنها محكمات لم ينسخهن شىء من جميع الكتب ، وقيل إنهن أم الكتاب من عمل بهن دخل الجنة ، ومن تركهن دخل النار » .

ولم يوجد شرع جاء لينسخ واحدة من هذه الوصايا ، ولذلك يقول اليهودى الذى أسلم وهو كعب الأحبار : « والذى نفس كعب بيده إنّ هذه الآيات لأول شىء فى التوراة : ﴿ قل تعالوا أتل ما حرّم ربكم عليكم » . ثم نجد أن هذه الوصية الأخيرة هى جامعة لكل شىء ؛ نجد تسع وصايا قد مرّت ؛ خمسا منها قال فيها : ﴿ لعلكم تعقلون ﴾ ، وأربعاً قال فيها : ﴿ لعلكم تذكرون ﴾ ، والعاشرة يقول : ﴿ لعلكم تتقون ﴾ ، وهذه الوصية العاشرة هى الجامعة لكل أنواع الفضائل التكليفية إنّها قوله الحق :

﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا

تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾

أي أنه ختم الوصايا التسع بهذا القول ؛ لأن الصراط المستقيم يشمل الوصايا التسع السابقة ويشمل كل ما لم يذكر هنا . وقلت : إننا نلاحظ أن الخمس الأول ذيلها الحق بقوله : ﴿ لعلكم تعقلون ﴾ ، والأربع التى بعدها ذيلها الحق بقوله : ﴿ لعلكم تذكرون ﴾ والواحدة الجامعة لكل شىء قال تذييلاً لها : ﴿ لعلكم تتقون ﴾ .

فما الفرق بين التعقل والتذكر والتقوى ؟

إن الأشياء الخمسة الأولى التى قال الحق فيها :

﴿ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُم مِّنْ إِمْلَـٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

هذه الأشياء كانت موجودة فى بيئة نزول القرآن ، إنهم كانوا يشركون بالله ويعقون والديهم ويقتلون الأولاد ويقارفون الفواحش ويقتلون النفس التى حرم الله قتلها إلا بالحق ، فأوضح لهم : تَعَقَّلوها ، فإذا ما تعقلتموها تجدون أن تكليف الله بمنعكم من هذه الأفعال ، إنه أمر يقتضيه العقل السليم الذى يبحث فى الأشياء بمقدمات سليمة ونتائج سليمة ، لكن « الأربع » الأخرى ، هم كانوا يفعلونها ويتفاخرون بها . ففى التى كانوا يعملونها من القيام على أمر مال اليتيم والوفاء فى الكيل والميزان والعدل فى القول والوفاء بالعهد قال : ﴿ لعلكم تذكرون ﴾ أى إياكم أن تغفلوها ؛ فإذا كنتم تفعلونها وأنتم على جاهلية ؛ فافعلوها من باب أولى وأنتم على إسلامية . ثم جاء بالوصية الجامعة :

﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

ونظراً لأن هذه الوصية تستوعب كل الأحكام إيجابًا وسلبًا ، نهيًا وأمراً ، فوضح لهم أنه يجب عليكم أن تتبعوا الصراط المستقيم : لتقوا أنفسكم آثار صفات القهر من الحق سبحانه وتعالى ، وأول جنودها النار .

والصراط : هو الطريق المعبّد ، ويأخذون منه صراط الآخرة ، وهو ـ كما يقال ـ « أدق من الشعرة ، وأحدّ من السيف » ، ما معنى هذا الكلام ؟ . معناه أن يمشى عليه بيقظة تامة واعتدال ؛ لأنه لو راح يمنة يهوى في النار ، ولو راح يسرة يسقط فيها ، فهو صراط معمول بدقة وليس طريقاً واسعاً ، بل ـ كما قلنا ـ « أدق من الشعرة وأحدّ من السيف » فلتمش على صراط الله ومنهجه معتدلاً ، فلا تنحرف يمنة أو يسرة ؛ لأن الميل ـ كما قلنا ـ يبعدك عن الغاية ، إنك إذا بدأت من مكان ثم اختل توازنك فيه قدر ملليمتر فكلما سرت يتسع الخلل ، وأى انحراف قليل فى نقطة البداية يؤدى إلى زيادة الهوة والمسافة .

كذلك الدين ، كلما نلتقى فيه ويقرب بعضنا من بعض ، نسير فى الطريق المستقيم ، وكلما ابتعدنا عن التشريع تتفرق بنا السبل .

﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

ورسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ جلّى بالحركة الفعلية منطوق النسبة الكلامية ، حينما جلس بين أصحابه وخطّ خطًا . وقال : هذا سبيل الله .

ثم خط خطوطاً عن يمينه وخطوطاً عن يساره ، ثم قال : هذه سبل وعلى كل سبيل منها شيطان ؛ يدعو إليها ، ثم قرأ هذه الآية : ﴿ وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ﴾ .

ولذلك فكل أهل الحق ، وأهل الخير كلما اقتربوا من المركز كان الالتقاء ، وهذا الالتقاء يظل يقرب ويقرب ويقرب إلى أن يتلاشى ويصير الكل إلى نقطة واحدة .

وانظر إلى جلال الحق حينما يجعل الصراط المستقيم إليه فى دينه ، منسوباً إلى رسوله : ﴿ وأن هذا صراطى مستقيماً ﴾ فالرسول يسير على هذا الصراط وهو لا يغش نفسه ، والذى يفعله ويمشى فيه يأمركم بأن تمشوا فيه ، وهو لم يأمركم أمراً وهو بنجوة وبعدٍ عنه ، ولو غشكم جميعاً لا يغش نفسه ، وهذا هو صراطه الذى يسير فيه .

والسبيل هنا معروف أنّه إلى الله فكأن سبيل الله هو طريق محمد صلى الله عليه وسلم . ونسب الفعل والحدث لله وحده ؛ ففى البداية قال : ﴿ وأن هذا صراطى مستقيماً ﴾ ، ثم قال : « سبيله » فالصراط لم يعمله محمدٌ لنفسه ، ولكن أراده الله للمؤمنين جميعاً ، ورسول الله هو الذى يأخذ بأيديهم إليه .

وحين ننظر إلى كل الخلافات التى تأتى بين الديانات بعضها مع بعض ، بين اليهودية والنصرانية على سبيل المثال :

﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ ﴾

(من الآية ١١٣ سورة البقرة)

والمشركون قالوا : لا هؤلاء على شىء ، ولا هؤلاء على شىء :

﴿ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ﴾

(من الآية ١١٣ سورة البقرة)

أى أننا أمام ثلاثة أقوال : اليهود قالوا : ليست النصارى على شىء ، والنصارى قالوا : ليست اليهود على شىء ، وقال الذين لا يعلمون ـ وهم أهل مكة ـ مثل قولهم ، ثم نجد الدين الواحد منها ينقسم إلى طوائف متعددة ، وكل طائفة لها شىء تتعصب له . وترى أن الذى تقول به هو الحق ، والذى يقول به غيرها هو الباطل ، وكيف ينشأ هذا مع أن المصدر واحد ، والتنزيلات الإلهية على الرسل واحدة ؟! إن

آفة كل هذا تنشأ من شهوة السلطة الزمنية ، وكل إنسان يريد أن تكون له مكانة ونفوذ وخلافة . وهذا يريد أن يتزعم فريقاً ، وذاك يريد أن يتزعم فريقاً ، ولو أنهم جُمعوا على الطريق الواحد لما كانوا فرقاء .

ونجده صلى الله عليه وسلم يقول : « افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة ، وتفرقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة ، وتفرقت أمتى على ثلاث وسبعين فرقة »[1] .

وفى راوية : « كلها فى النار إلا واحدة وهى الجماعة » ، والجماعة : هم أهل السنة والجماعة ، وفى رواية : « ما أنا عليه وأصحابى » .

ونلاحظ دقة هذا القول فى عدد المذاهب والفرق ، وإن كنتم لا تسمعون عن بعضها لأنها ماتت بموت الذين كانوا يتعصبون لها ، والذين كانوا يريدون أن يعيشوا فى جلالها .

إذن الآفة تأتى حين ننظر إلى حكم من الأحكام ، يرى فيه واحد رأيا ، ويأتى الآخر فيرى فيه رأيا آخر ، لا لشىء إلا للاختلاف . ونقول لهم : انتبهوا إلى الفرق بين حكم مُحْكَم . وحكم تركه الله مناطاً للاجتهاد فيه ، فالحكم الذى أراده الله محكماً جاء فيه بنص لا يحتمل الخلاف ، وهذا النص يحسم كل خلاف . والحكم الذى يحبه الله من المكلّفين تخفيفاً عنهم على وجه من الوجوه يأتى بالنص فيه محتملاً للاجتهاد ، ومجىء النص من المشرع فى حكم محتمل للاجتهاد هو إذن بالاجتهاد فيه ؛ لأنه لو أراده حُكما لا نختلف فيه لجاء به محكماً .

والمثال المستمر ما تركه لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سنته الشريفة ، فحينما أراد الحق سبحانه وتعالى ألاّ يضع السلاح قبل أن يؤدب بنى قريظة ، وهم من شايعوا مشركى مكة فى الحرب . فقال صلى الله عليه وسلم : « لا يُصَلِّيَنَّ أحدٌ العصرَ إلا فى بنى قريظة »[2] .

---

(١) رواه أبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه عن أبى هريرة .
(٢) رواه البخارى فى المغازى ، والبيهقى فى الدلائل والسنن .

فذهب الصحابة فى طريقهم إلى بنى قريظة ، وآذنت الشمس بالمغيب وهم فى الطريق فانقسم صحابة رسول الله إلى قسمين : قسم قال : نصلى العصر قبل أن تغيب الشمس ، وقال قسم آخر : قال رسول الله لا نصلين العصر إلا فى بنى قريظة . فصلى قوم العصر قبل مغيب الشمس ، ولم يصل الآخرون حتى وصلوا إلى بنى قريظة ، ورفعوا أمرهم إلى المشرع وهو رسول الله ، فأقرّ هذا ، وأقرّ هذا ، لأن النص محتمل .

لماذا ؟ . لأن كل حدث من الأحداث يتطلب ظرفاً له زمان ومكان ؛ فالذين قالوا إن الشمس كادت تغرب ولابد أن نصلى العصر قبل مغيبها نظروا إلى الزمان . والذين قالوا لا نصلى إلاّ فى بنى قريظة نظروا إلى المكان . وحينما رُفِعَ الأمر إلى المشرع الأعلم أقرّ هؤلاء وأقرّ هؤلاء .

إذن فالحكم إن كان فيه نص محكم فلا احتمال للخلاف فيه . وإن كان الله قد تركه موضعاً للاجتهاد فيه فهو يأتى لنا بالنص غير المحكم . ومَن ذهب إليه لا يصح أن نخطئه ، ولذلك بقى لنا من أدب الأئمة الذين بقيت مذاهبهم إلى الآن بعضهم مع بعض . نجد الواحد منهم يقول : الذى ذهبت إليه صواب يحتمل الخطأ ، والذى ذهب إليه مقابلى خطأ يحتمل الصواب ، وجميل أدبهم هو الذى أبقى مذاهبهم إلى الآن ، وعدم أدب الآخرين جعل مذاهبهم تندثر وتختفى ولا تدرون بها ، والحمد لله أنكم لا تدرون بها .

ثم يقول الحق بعد ذلك :

﴿ ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ ﴾

ونحن إذا سمعنا كلمة « ثم » نعلم أنها من حروف العطف ، وحروف العطف

كثيرة ، وكل حرف له معنى يؤديه ، وهنا ﴿ ثم آتينا موسى الكتاب ﴾ ، وإيتاء موسى الكتاب كان قبل أن يأتى قوله : ﴿ قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ﴾ فالتوراة جاءت ثم الإنجيل ، ثم جاء القرآن ككتاب خاتم . فكيف جاءت العبارة هنا بـ « ثم » ؟ . مع أن إتيان موسى الكتاب جاء قبل مجىء قوله الحق : ﴿ قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ﴾ ؟

ونقول لأصحاب هذا الفهم : أنت أخذت « ثم » لترتيب أفعال وأحداث ، ونسيت أن « ثم » قد تأتى لترتيب أخبار . فقد يأتى مَن يقول لك : لماذا لا تسأل عن فلان ولا تؤدى الحق الواجب عليك له ؛ كحق القرابة مثلا ، فتقول : كيف ، لقد فعلت معه كذا ، ثم أنا فعلت مع أبيه كذا ، ثم أنا فعلت مع جدّه كذا .

إذن ، فأنت تقوم بترتيب أخبار . وتتصاعد فيها ، وتترقى ، ولذلك قال الشاعر العربى :

إن من ساد ثم ساد أبوه   ثم قد ساد قبل ذلك جدّه

فالسيادة جاءت أولاً للجد ، ثم جاءت للأب ، ثم انتقلت للابن . و« ثم » فى هذه الحالة ليست لترتيب الأحداث وإنما جاءت للترتيب الإخبارى أى يكون وقوع المعطوف بها بعد المعطوف عليه بحسب التحدث عنهما لا بحسب زمان وقوع الحدث على أحدهما فالمراد الترقى فى الإخبار بالأحداث .

وانظر إلى القرآن بكمال أدائه يقول :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ ﴾

(من الآية ١١ سورة الأعراف)

ونعلم أن الأمر من الله للملائكة بالسجود لآدم كان من البداية . فسبحانه فى هذا القول الكريم يريد أن يرتب حالنا ، إنه ـ سبحانه ـ خلقنا بعد أن صورنا ، وصورنا ، بعد أن قال للملائكة اسجدوا لآدم .

ولله المثل الأعلى ، تجد من يقول لابنه : لقد اعتنيت بك فى التعليم العالى ،

ثم لا تنس أني قد اعتنيت بك في التعليم الثانوى ، ثم لا تنس أننى قد اعتنيت بك فى التعليم الإعدادى ؛ ثم لا تنس أنني قد اعتنيت بك من قبل كل ذلك فى التعليم الابتدائي . وأنت بذلك ترتقى إخباريًا لا أحداثيًا . فقد يكون الحدث بعد ولكن ترتيب الخبر فيه يكون قبل .

﴿ ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ ﴾

(من الآية ١٥٤ سورة الأنعام)

طبعاً ما دام جاء بسيرة موسى فالكتاب هو التوراة وإذا أطلق الكتاب من غير تحديد ؛ فإنه ينصرف إلى القرآن ، لأنه هو الكتاب الجامع لكل ما فى الكتب ، والمهيمن على كل ما فى الكتب . أما لو قيل مثلاً : أنزلنا على موسى الكتاب ، فيكون الكتاب هو التوراة ، أو أنزلنا على عيسى الكتاب ، فيكون الكتاب هو الإنجيل .

﴿ ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

والتمام هو استيعاب صفات الخير ، ولذلك يقول الحق :

﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى ﴾

(من الآية ٣ سورة المائدة)

و « أكملت » فلا نقصان ، وأتممتها فلا استدراك . ولماذا جاء بالتمام على الذى أحسن فى أمر موسى عليه السلام ؟ . جاء ذلك لأن الذين تصدوا للجاج والجدل معه صلى الله عليه وسلم هم اليهود .

وأنتم تعلمون أنهم صوروا فى مصر هنا فيلماً سينمائيًا اسمه « الوصايا العشر » عن قصة سيدنا موسى عليه السلام . والوصايا العشر هى التى أقر « كعب الأحبار » أنها موجودة فى التوراة وجاءت فى الآيات السابقة التى تناولناها وشرحناها . فمن المناسب أن يأتى هنا ذكر موسى عليه السلام .

وحينما جاء موسى عليه السلام بالتوراة كما أنزلها الله عليه عاصره أناس آمنوا بما فى التوراة ، وكانوا من الناجين ، وقد ماتوا . أما الذين استمرت حياتهم إلى أن جاء رسول الله ، فكان من المطلوب منهم أن يؤمنوا به ؛ لأن الحق أوضح لهم فى التوراة أن هناك رسولاً قادماً ، ولابد أن تؤمنوا حتى تتم نعمة الإحسان عليكم ، لأنكم وإن كنتم مؤمنين بموسى ، وعاملين بمنهجه فلا بد من الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم . والسابقون لكم أحسنوا فى زمن بعثة رسالة موسى عليه السلام ، وجاء محمد بالرسالة الخاتمة فإن أردتم أن يتم الله عليكم الحسن والكرامة والنعمة ، فلا بد أن تعلنوا الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم ، منكم من أحسن الاقتداء بموسى عليه السلام وآمنوا بمحمد فتم لهم الحسن : ﴿ وتفصيلا لكل شىء وهدى ورحمة لعلهم بلقاء ربهم يؤمنون ﴾ .

« و تفصيلاً لكل شىء » أى أنّه مناسب لزمنه ، ولله المثل الأعلى ، عندما يكون لك ولد صغير السن فتقول : أنا فصّلت له ملابسه ، أى فصّلت له الملابس التى تناسبه . وحين يكبر لن تظل ملابسه القديمة صالحة لأن يرتديها . « وتفصيلاً لكل شىء » أى القيم التى تناسب الوقت الذى يعيشونه ، فإذا ما جئنا بتفصيل جديد فى القرآن فهو مناسب لوقته ، ولقائل أن يقول : هنا تفصيل ، وهنا تفصيل ، فما الفرق بين تفصيل وتفصيل ؟ . نقول : إن كل تفصيل مناسب لزمنه ، وآيات القرآن مفصلة جاهزة ومعدة لكل زمن وللناس جميعا إلى أن تقوم الساعة .

والآفة ـ دائماً ـ فى القائمين على أمر التشريع ، فحينما تأتيهم حالة لذى جاه وسلطان يحاولون إعداد وتفصيل حكم يناسبه ، فنقول لمثل هذا الرجل : أنت تفصل الحكم برغم أن الأحكام جاهزة ومعدّة وظاهرة ، إننا نجد القوالب البدنية تختلف فيها التفصيلات للملابس بينما القوالب المعنوية نجد فيها التساوى بين الناس كلها ، فالصدق عند الطفل مثل الصدق عند اليافع ، مثل الصدق عند الرجل ، مثل الصدق عند المرأة ، مثل الصدق عند العالم ، مثل الصدق عند التاجر . وليس لكل منهم صدق خاص . وكذلك الأمانة . ورحمنا الإسلام بالقضية العقدية وكذلك بالقضية الحكمية الجاهزة . المناسبة لكل البشر ، وليست هناك آية على مقاس واحد تطبق عليه وحده ، لا ، فالآيات تسع الجميع .

﴿ وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً ﴾

(من الآية ١٥٤ سورة الأنعام)

والهُدَى هو ما يدل على الغايات ، لأن دين الفطرة قد انطمس بعدم تبليغ الآباء إلى الأولاد منهج السماء فى أمور الحياة ومتعلقاتها والقيم التى يجب أن تسود . والآفة أن الأب يعلم ولده كيف يأكل ويشرب ، وينسى أن يعلمه أمور القيم ، لكن الحق سبحانه وتعالى رحم غفلتنا ، ورحم نسياننا ؛ فشرع وأرسل لكل زمان رسولاً جديداً ، وهدْيا جديداً ليذكرنا .

﴿ لَعَلَّهُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴾

(من الآية ١٥٤ سورة الأنعام)

إن كل آفة تنبع من العزوف عن تشريعات الله ، وهم ينسون أن يضعوا فى أذهانهم لقاء الله ، لكن لو أن لقاء الله متضح فى أذهانهم لاستعدوا لذلك ؛ لأن الغايات هى التى تجعل الإنسان يقبل على الوسائل . والشاعر يقول :

ألا من يرينى غايتى قبل مذهبى ومن أين والغايات بعد المذاهب

ونقول لهذا الشاعر : قولك : ألا من يرينى غايتى قبل مذهبى كلام صحيح ، أما قولك : ومن أين والغايات بعد المذاهب ، هذا كلام غير دقيق ، فالغاية هى التى تحدد المذهب ، وكذلك شرع الله الغاية أولاً ، وبعد ذلك جعل لها السبيل . وقد شرع الله لكل شىء ما تقتضيه ظروف البشر الحياتية ، ولذلك لا استدراك عليه لأن فيه تفصيلا لكل شىء .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ ﴾

و « هذا » إشارة وعادة ما تأتى وترد على متقدم ، ولكن إذا لم يكن لاسم

الإشارة متقدم أو حاضر يشار إليه فهذا دليل على أنك إن أشرت لا ينصرف إلا إليه لأنه متعين ينصرف إليه الذهن بدون تفكير لوضوحه . وكلمة « كتاب » تدل على أنه بلغ من نفاسته أنه يجب أن يُكتَب ويسجَّل ؛ لأن الإنسان لا يُسجل ولا يكتب إلا الشيء النافع ، إنما اللغو لا يسأل عنه ، وقال ربنا عن القرآن : إنه « كتاب » ، ومرة قال فيه : « قرآن » فهو « قرآن » يتلى من الصدور ، و« كتاب » يحفظ في السطور . ولذلك حينما جاءوا ليجمعوه أتوا بالمسطور ليطابقوه على ما في الصدور .

﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ ﴾ (من الآية ١٥٥ سورة الأنعام)

و « أنزلناه » أي أَمَرْنا بإنزاله ، ونزل به الروح الأمين ، وكلمة مبارك مأخوذة من « البركة » أي أنه يعطي من الخير والثمرة فوق ما يُظَنُّ فيه ، وقد تقول : فلان راتبه مائتا جنيه ، ويربي أولاده جيداً ويشعر بالرضا ، وتجد من يقول لك : هذه هي البركة . كأن الراتب لا يؤدي هذه المسئوليات أبداً . وكلمة « البركة » تدل على أن يد الله ممدودة في الأسباب ، ونعلم أن الناس ينظرون دائماً إلى رزق الإيجاب ، ولا ينظرون إلى الرزق الأوسع من الإيجاب وهو رزق السلب ، فرزق الإيجاب يأتي لك بمائتي جنيه ، ورزق السلب يسلب عنك مصارف لا تعرف قدرها . فنجد من يبلغ مرتبه ألفاً من الجنيهات ، لكن بعض ولده يمرض ، ويحتاج ولد آخر إلى دروس خصوصية فتتبدد الألف جنيه ويحتاج إلى ما فوقها .

إذن فحين يسلب الحق المصارف وإنفاق المال في المعصية أو المرض فهذه هي بركة الرزق ، ونجد الرجل الذي يأتي ماله من حلال ويعرق فيه يوفقه الله إلى شراء كل شيء يحتاج إليه ، ويخلع الله على المال القليل صفة القبول ، ونجد آخر يأتي ماله من حرام فيخلع الله على ماله صفة الغضب فينفقه في المصائب والبلايا ويحتاج إلى ما هو أكثر منه .

وأنت حين تقارن القرآن بالتوراة في الحجم تجده أصغر منها ولكن لو رأيت البركة التي فيه فستجدها بركة لا تنتهي ؛ فكل يوم يعطي القرآن عطاءه الجديد ولا تنقضي عجائبه ، ويقرأه واحد فيفهم منه معنى ، ويقرأه آخر فيفهم منه معنى جديداً . وهذا دليل على أن قائله حكيم ، وضع في الشيء القليل الفائدة الكثيرة ،

وهذا هو معنى ﴿ كتاب أنزلناه مبارك ﴾ ؛ فكل كتاب له زمن محدود وعصر محدود وأمة محدودة ، أما القرآن فهو يواجه من يوم أن أنزله الله إلى أن تقوم الساعة قضايا متجددة يضع لها حلولاً . والمهم أن القرآن قد جاء على ميعاد مع طموح البشريات ، وحضارتها وارتقاءاتها فى العقول ؛ لذلك كان لابد أن يواجه كل هذه المسائل مواجهة تجعل له السبق دائماً ولا يكون ذلك إلا إذا كانت فيه البركة .

وكلنا يعلم أن القرآن قد نزل على رجل أمّى ، وفى أمة أميّة ، ولذلك حكمة بالغة لأن معنى « أمّى » أى أنه لم يأخذ علماً من البشر ، بل هو كما ولدته أمه ، وجاءت ثقافته وعلمه من السماء .

إذن فالأمية فيه شرف وارتقاء بمصادر العلم له . ونزل القرآن فى أمة أمية ؛ لأن هذا الدين وتلك التشريعات ، إنما نزلت فى هذه الأمة المتبديّة المتنقلة من مكان إلى آخر وليس لها قانون بل يتحكم فيها رب القبيلة فقط ، وحين تنزل إليها هذه القيم الروحية والأحكام التشريعية ففى ذلك الدليل على أن الكتاب الذى يحمل هذه القيم والأحكام قادم من السماء . فلو نزل القرآن على أمة متحضرة لقيل نقلة حضارية ، لكنه نزل على أمة لا تملك قوانين مثل التى كانت تُحكم بها الفرس أو الروم .

ومادام الكتاب له هذه الأوصاف التى تريح الخلق من عناء التشريع لأنفسهم ويضم كل الخير ، لذلك يأتى الأمر من الله :

﴿ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾

(من الآية ١٥٥ سورة الأنعام)

وساعة تأتى بـ « لعل » فاعلم أن فيها رجاء ، وقد ترجو أنت من واحد وتقول : لعل فلاناً يعطيك كذا ، والرجاء هنا من واحد ، ومَن يفعل العمل المرجو إنسان آخر ، وقد يفعل الآخر هذا العمل ، وقد يغضب فلا يفعله ؛ لأن الإنسان ابن أغيار ، بل ومن يدرى أنه ساعة يريد أن يفعل فلا يقدر . وإذا قلت : « لعلى أفعل لك كذا » ، وهنا تكون أنت الراجى والمرجوّ فى آن واحد ، ولكنك أيضاً ابن

للأغيار ، فأنت تتوقع قدرتك على الفعل وعند إرادتك الفعل قد لا تتيسر لك مثل هذه القدرة .

ولماذا أنزل الحق هذا الكتاب ؟ . يأتى الحق هنا بالتمييز للأمة التى أراد لها أن ينزل فيها القرآن فيقول :

﴿ أَن تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾ ﴾

فالكتاب يصفى العقائد السابقة التى نزلت على الطائفتين من اليهود والنصارى ، وإذا كنتم قد غفلتم عن دراسة التوراة والإنجيل ؛ لأنكم أمة أمية لا تعرف القراءة والكتابة ؛ لذلك أنزلنا إليكم الكتاب الكامل مخافة أن تصطادوا عذراً وتقولوا : إن أميتنا منعتنا من دراسة الكتاب الذى أنزل على طائفتين من قبلنا من اليهود والنصارى . وكأن الله أنزل ذلك الكتاب قطعاً لاعتذارهم .

﴿ أَوْ تَقُولُواْ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ۗ سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾

قد يحتج المشركون من أن التوراة والإنجيل لو نزلت عليهم لكانوا أهدى من

اليهود والنصارى ، وفى هذا القول ما يعنى أن أذهانهم مستعدة لتقبل الإيمان ، وقد قطع الله عليهم كل عذر فجاء لهم بالقرآن ، ويقول الحق :

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا﴾

(من الآية ١٥٧ سورة الأنعام)

و « صدف » من الأفعال التى تُستعمل متعدية وتُستعمل لازمة ، ومعنى « لازمة » أنها تكتفى بالفاعل ولا تتطلب مفعولاً ، فمثلاً إذا قيل لك : جلس فلان . تفهم أن فلاناً قد جلس ويتم لك المعنى ولا تتطلب شيئاً آخر . لكنك إن قيل لك : ضَرَب زيد ، فلابد أنك تنتظر من محدثك أن يبين لك من الذى ضُرب ، أى أنك جئت بفعل يطلب شيئاً بعد الفاعل ليقع عليه الفعل . وهذا اسمه فعل « متعد » أى يتعدى به الفاعل إلى مفعول به .

و « صدف » فيها الخاصتان . وجاء الحق بهذه الصيغة المحتملة لأن تكون لازمة وأن تكون متعدية ليصيب الأسلوب غرضين ؛ الغرض الأول : أن تكون « صدف » بمعنى انصرف وأعرض فكانت لازمة أى ضل فى ذاته ، والأمر الثانى : أن تكون صدف متعدية فهى تدل على أنه يصرف غيره عن الإيمان ، أى يضل غيره ،ويقع عليه الوزر ؛ لضلال نفسه أولاً ثم عليه وزر من أضل ثانياً ، ولذلك جاء سبحانه باللفظ الذى يصلح للاثنتين « صدف عنها » أى انصرف ، ضلالاً لنفسه ، وصدف غيره أى جعل غيره يصدف ويعرض فأضل غيره ، وبذلك يعذبه الله عذابين ، فيقول سبحانه :

﴿سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ﴾

(من الآية ١٥٧ سورة الأنعام)

فكأن المسألة يرتكبها : الذين صدفوا أنفسهم ، وصرفوها عن الإيمان ، ويصدفون كل من يحاول أن يؤمن . وهؤلاء هم القوم الذين أعرضوا وانصرفوا عن منهج الهدى ، أو تغالوا فى ذلك فصرفوا غيرهم عن منهج الهدى ، ولو أنهم استقرأوا الوجود الذى يعايشونه لوجدوا الموت يختطف كل يوم قوماً على غير طريقة رتيبة ، فلا السن يحكم ويحدد وقت وزمن انقضاء الأجل ، ولا الأسباب تحكمه ،

ولا المرض أو العافية تحكمه ، فالموت أمر شائع فى الوجود . ومعنى ذلك أن على كل إنسان أن يترقب نهايته ، فكأنه يتساءل : لماذا إذن يصدفون ؟ . وماذا ينتظرون من الكون ؟ . أرأوا خلوداً فى الكون لموجود معهم ؟ .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَـٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَـٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَـٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَـٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾

فهل ينتظرون من عطاءات الوجود المحيط بهم إلا أن تأتيهم الملائكة التى تقبض الروح ؟ والملائكة تأتى هنا مجملة . وفى آيات أخرى يقول :

﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ ﴾

(من الآية ٢٨ سورة النحل)

ولن يتأبى أحد على الملائكة ، لذلك يلقون لهم السلم وتنتهى المسألة .

ويتابع سبحانه :

﴿ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ ﴾

(من الآية ١٥٨ سورة الأنعام)

ووقف العلماء عند هذا القول الكريم لأنهم أرادوا أن يفسروا الإتيان من الرب على ضوء الإتيان منا ، والإتيان منا يقتضى انخلاعاً من مكان كان الإنسان فيه إلى مكان يكون فيه ، وهذا الأمر لا يصلح مع الله . ونقول : أفسرت كل مجىء على

ضوء المجيء بالنسبة لك ؟ بالله قل لى : ما رأيك فى قوله تعالى :

﴿ وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّ ﴾

(من الآية ١٩ سورة ق)

كيف جاءت سكرة الموت وهى المخلوقة لله ؟ إننا لا نعرف كيف يجيء الموت وهو مخلوق ؟ فكيف تريدون أن نعرف كيف يجئ الله ؟ . عليكم أن تفسروا كل شيء بالنسبة لله بما يليق بذات الله فى إطار « ليس كمثله شيء » ولنتأدب ونعط العقول مقدارها من الفهم ، ولنجعل كل شيء منسوبا لله بما يناسب ذات الله ؛ لأن المجيء يختلف بأقدار الجائين ، فمجيء الطفل غير مجيء الشاب ، غير مجيء الرجل العجوز ، غير مجيء الفارس ، فما بالنا بمجيء الله سبحانه ؟!! إياك ـ إذن ـ أن تفهم المجيء على ضوء مجيء البشر . وأكررها دائماً : عليك أن تأخذ كل شيء بالنسبة له سبحانه لا بقانونك أنت ، ولكن بقانون الذات الأعلى ، واجعل كل ما يخصه فى إطار « ليس كمثله شيء » ، ولذلك قل : له سمْع ليس كسمعنا ، وبصر ليس كبصرنا ، ويد ليست كأيدينا ، فى إطار « ليس كمثله شيء » . وإياكم أن تسمعوا مناقشة فى قوله : « يأتى ربك » . وقل إن إتيان الله ومجيئه ليس كفعل البشر ، بل سبحانه « ليس كمثله شيء » ﴿ أو يأتى ربك أو يأتى بعض آيات ربك يوم يأتى بعض آيات ربك ﴾ .

و « بعض آيات ربك » ، هى العلامات ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : « بَادِرُوا بالأعمال سِتًا : طلوعَ الشمس من مغربها ، والدُّخَان ، ودابَّةَ الأرض ، والدَّجَّالَ ، وخُوَيْصَةَ أَحَدِكُمْ وأَمْرَ العامَّة »[1] .

و « خُوَيْصَةُ أحدكم » تصغير : خاصة ، والمراد حادثة الموت التى تخص الإنسان ، وصغِّرت لاستصغارها فى جنب سائر العظائم من بعث وحساب وغيرهما وقيل : هى ما يخص الإنسان من الشواغل المقلقة من نفسه وماله وما يهتم به .

و « أمر العامَّة » : أى القيامة ؛ لأنها تعم الخلائق ، أو الفتنة التى تعمى

(١) رواه أحمد ومسلم عن أبى هريرة .

وتصم ، أو الأمر الذى يستبد به العوام ويكون من قبلهم دون الخواص .

﴿ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ ﴾

(من الآية ١٥٨ سورة الأنعام)

لأن الإيمان لا يكون إلا بأمر غيبى ؛ فكل أمر مشهدى مدرك بالحواس لا يسمى إيماناً ؛ فأنت لا تقول : أنا أؤمن بأنى أقرأ الآن فى كتاب خواطر الشيخ الشعراوى حول آيات القرآن الكريم ؛ لأنك بالفعل تقرأ هذه الخواطر الآن . وأنت لا تقول : أنا أؤمن بأن النور يضىء الحجرة ؛ لأن هذا أمر مشهدى ، وليس أمراً غيبيًّا . والإيمان يكون دائماً بأمر غيبى ، ولكن إذا جاءت الآيات فإننا ننتقل من الإيمان بالأمر الغيبى إلى الإيمان بالأمر الحسى ، وحينئذ لا ينفع الإيمان من الكافر ، ولا تقبل الطاعة من صدقة أو غيرها من أنواع البر والخير بعد أن تبلغ الروح الحلقوم وتقول : لفلان كذا ولفلان كذا ، وقد كان لفلان . هذا لا ينفع ؛ لأن المال لم يعد مَالَك ، بل صار مال الورثة ، كذلك الذى لم يؤمن وبعد ذلك رأى الآيات الستة التى قال الشارع عنها : إنها ستحدث بين يدى الساعة أو قبل مجىء الساعة . وساعة ترى هذه الآيات لن يُقبل منك أن تقول : آمنت ؛ لأن الإيمان إنما يكون بالأمر الغيبى ، وظهور الآيات هو أمر مشهدى فلن يُقبل بعده إعلان الإيمان . والحق هو القائل :

﴿ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ﴾

(من الآية ١٥٨ سورة الأنعام)

أى أن الإيمان يجب أن يكون سابقاً لظهور هذه الآيات ، وإلا يكون المانع له من العمل القصور ، كأن يكون الإنسان ـ والعياذ بالله ـ مجنوناً ولم يفق إلا بعد مجىء العلامة ، أو لم يَبْلُغ إلا بعد وجود العلامة فهذا هو من ينفعه الإيمان .

وقد عرض الحق لنا من هذه الصور ما حدث فى التاريخ السابق ، فهو القائل :

﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ (٩٠)﴾

(سورة يونس)

وماذا كان رد الله عليه ؟ لقد قال سبحانه :

﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ﴾

(من الآية ٩١ سورة يونس)

إذن إذا بلغت الروح الحلقوم ، وهذه مقدمات الموت فلا ينفع حينئذ إعلانك الإيمان .

ويذيل الحق الآية بقوله :

﴿ٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾

(من الآية ١٥٨ سورة الأنعام)

هم منتظرون الخيبة ونحن منتظرون الفلاح .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ (١٥٩)﴾

هذه الآية تشرح الآية التى سبقت خواطرنا عنها ، وهى قوله الحق :

﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ

﴿ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

والذين فرقوا دينهم نسوا أن الدين إنما جاء ليجمع لا ليفرق ، والدين جاء ليوحد مصدر الأمر والنهى فى الأفعال الأساسية فلا يحدث بيننا وبين بعضنا أى خلاف ، بل الخلاف يكون في المباحات فقط ؛ إن فعلتها فأهلاً وسهلاً ، وإن لم تفعلها فأهلاً وسهلاً ، وما لم يرد فيه افعل ولا تفعل ؛ فهو مباح .

إذن الذين يفرقون في الدين إنما يناقضون منهج السماء الذى جاء ليجمع الناس على شيء واحد ؛ لتتساند حركات الحياة فى الناس ولا تتعاند ، وإذا كان لك هوى ، وهذا له هوى ، وذلك له هوى فسوف تتعاند الطاقات ، والمطلوب والمفروض أن الطاقات تتساند وتتعاضد .

والشيع هم الجماعة التى تتبع أمراً ، هذا الأمر يجمعهم ولو كان ضلالا . وهناك تشيع لمعنى نافع وخير ، وهناك تشيع لعكس ذلك ، والتشيع على إطلاقه هو أن تجتمع جماعة على أمر ، سواء أكان هذا الأمر خيراً أم شرًّا .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ﴾

(من الآية ١٥٩ سورة الأنعام)

إذن هم بعيدون عن منهجك يا محمد ، ولا يصح أن ينسبوا إلى دينك ؛ لأن الإسلام جاء لإثبات القيم للوجود مثل الماء لإثبات حياة الوجود . ونعرف أن الماء لا يأخذ لوناً ولا طعماً ولا رائحة ، فإن أخذ لوناً أو طعماً أو رائحة فهو يفقد قيمته كماء صاف . وكذلك الإسلام إن أخذ لوناً ، وصار المسلمون طوائف ؛ فهذا أمر يضر الدين ، وعلينا أن نعلم أن الإسلام لون واحد .

﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴾

(من الآية ١٥٩ سورة الأنعام)

إن شاء سبحانه عاجلهم بالهزيمة أو بالعذاب ، وإن شاء أجلهم إلى يوم القيامة .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾ ﴾

هناك « حسن » ، و « حسنة » ولا تقل : إن حسنة هى مؤنث حسن ، لأن فيها تاء . كأنها تاء التأنيث ، ولكن اسمها « تاء المبالغة » تأتى على اللفظ الذى للذكر ، مثلما تقول : « فلان علاّمة » ، و « فلان راوية للشعر » وفلان نسّابة . هذه هى تاء المبالغة .

والحسنة هى الخير الذى يورث ثواباً ، وكلما كان الثواب أخلد وأعمق كانت الحسنة كذلك . وإذا قال الحق سبحانه وتعالى : ﴿ من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ﴾ .

فـ « أمثالها » جمع « مثل » ، والمثل مذكر ، والقاعدة تقول : حين يكون المعدود مذكراً نأتى له بالتاء ، وحين يكون مؤنثاً نحذف التاء لأن أصل الأعداد مبنى على التاء ، لأنك عندما تعد تقول واحد ، اثنان ثلاثة إلى عشرة فأصل الأعداد مبنى على التاء ، وإذا استعملته مع المؤنث تخالف بحذف التاء فيه ، وإن استعملت العدد مع الأصل وهو المذكر ، تستعمله على طبيعته فتقول : « ثلاثة رجال » . وإذا أردت أن تتكلم عن الأنثى ، تقول : « ثلاث نسوة » ، والحق هنا يقول : ﴿ فله عشر أمثالها ﴾ ، و « مثل » - كما قلنا - مذكر . والحق لم يجعل الأصل فى العطاء هو « المثل » ، بل جعل الأصل هو الحسنة :

﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ﴾

(من الآية ١٦٠ سورة الأنعام)

وهذا هو مطلق الرحمة والفضل . ولذلك ورد الحديث القدسى .

عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال - فيما يروي عن ربه تبارك وتعالى - « إن ربكم عز وجل رحيم . من هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة ، فإن عملها كتبت له عشراً إلى سبعمائة إلى أضعاف كثيرة ، ومن هم بسيئة فلم يعملها كتبت له حسنة ، فإن عملها كتبت له واحدة أو يمحوها الله عز وجل ولا يهلك على الله إلا هالك »[1] .

ونعرف أن الحق يجزى الحسنة بعشر أمثالها ويضاعف ذلك إلى سبعمائة ضعف ، لأن كل فعل تلازمه طاقة من الإخلاص فى نفاذه ، فكأن الحق قد وضع نظاماً بأن الحسنة بعشر أمثالها ، ثم بالنية المخلصة تبلغ الأضعاف إلى ما شاء الله . وقد وضع الحق هذا النظام ؛ لأنه جل وعلا يريد للحسنة أن تُفعل ، وينتفع الغير بها ، فإن كان فاعلها حريصاً على الأجر الزائد فهو يقدمها بنية مخلصة ، ويقول الحق لنا :

﴿ مَن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ۝١١ ﴾

(سورة الحديد)

ويقول أيضاً :

﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ ﴾

(من الآية ٢٤٥ سورة البقرة)

ويحدد هنا جزاء الحسنة بأن ثوابها عشر أمثالها ، ونية معطى الحسنة هى التى يمكنها أن تضاعفها إلى سبعمائة أو أزيد . والحق سبحانه وتعالى يعطى مثلاً لذلك فى قوله تعالى :

﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ﴾

(من الآية ٢٦١ سورة البقرة)

---

(١) رواه أحمد والبخارى ومسلم والنسائى .

وإذا كانت الأرض وهى مخلوقة لله تعطيها أنت حبة فتعطيك سبعمائة فماذا يعطى خالق الأرض ؟ إن عطاءه غير محدود ولا ينفد ، ولذلك يقول سبحانه :

﴿ وَٱللَّهُ يُضَـٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ﴾

(من الآية ٢٦١ سورة البقرة)

ويتابع الحق سبحانه :

﴿ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾

(من الآية ١٦٠ سورة الأنعام)

مادام لا يجزى إلا مثلها فهم لا يظلمون أبداً .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ ﴾

و « ديناً قيماً » أى تقوم عليه مسائل الحياة ، وهو قائم بها ، و « قيماً » مأخوذة من « القيمة » أو من « القيام » على الأمر ، وقام على الأمر أى باشره مباشرة من يصلحه ، كذلك جاء الدين ليصلح للناس حركة حياتهم بأن أعطاهم القيم ، وهو قائم عليهم أيضاً : ﴿ ديناً قيماً ملة إبراهيم حنيفاً ﴾ .

وفى كل أمر مهم له خطره ومنزلته يأتى لنا الحق بلمحة من سيرة سيدنا إبراهيم عليه السلام ، لأنه صلوات الله وسلامه على نبينا وعليه فيه القدر المشترك الذى يجمع كفار مكة ، وأهل الكتاب الذين يتمحكون فيه . فقالت اليهود : إبراهيم كان يهوديًا ، وقالت النصارى : إن إبراهيم كان نصرانيًا ، وربنا يقول لهم ولنا :

﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَـٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا ﴾

(من الآية ٦٧ سورة آل عمران)

واليهودية والنصرانية جاءتا من بعده . أما بالنسبة للجماعة الأخرى ففى بيئتهم ، وكل حركات حياتهم ، وتجارتهم ونفعهم من آثار إبراهيم عليه السلام ما هو ظاهر وواضح . يقول الحق :

﴿ رَبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ ﴾

(من الآية ٣٧ سورة إبراهيم)

فسيدنا إبراهيم هو الذى رفع القواعد من البيت الحرام ، وهو الذى عمل لهم مهابة جعلت تجارتهم تذهب إلى الشمال وإلى الجنوب ولا يتعرض لها أحد ، وجاءت لهم بالرزق الوفير . وحين يقول الحق :

﴿ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾

(من الآية ١٦١ سورة الأنعام)

المقصود هو الدين الذى تعيشون فى كنف خيرات آثاره ، و « الحنف » هو اعوجاج فى القدم . وبطبيعة الحال لم يكن دين إبراهيم مائلاً عن الحق والصواب بل هو مائل عن الانحراف دائم الاستقامة . ونعرف أن الرسل إنما يجيئون عند طغيان الانحراف ، فإذا جاء إبراهيم مائلاً عن المنحرف ؛ فهو معتدل .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ ﴾

و « صلاتى » مقصود بها العبادة والركن الثانى فى الإسلام الذى يتكرر كل يوم خمس مرات ، وهى الركن الذى لا يسقط أبداً ؛ لأن شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ـ كما قلنا سابقاً ـ يكفى أن تقولها مرة فى العمر ، وقد يسقط عنك الصوم إن كنت لا تستطيع ، وقد لا تزكى لأنه ليس لك مال ، وقد لا تستطيع

الحج ، وتبقى الصلاة التى لا تسقط أبداً عن العبد . وهى ـ كما نعلم ـ قد أخذت من التكليف حظها من الركنية .

إن كل تكليف من التكاليف جاء بواسطة الوحى إلا الصلاة فإنها جاءت بالمباشرة ، تلقاها رسول الله صلى الله عليه وسلم من ربه دون واسطة . وحين يقول الحق : « إن صلاتى » ، فهو يذكر لنا عمدة الأركان والتى اشتملت على كل الأركان كما أوضحنا سابقاً . حتى إن الإنسان إذا كان راقداً فى مرض ولا يستطيع القيام فعليه أن يحرك رأسه بالصلاة أو يخطر أعمال الصلاة على قلبه . ويقول الحق : ﴿ ونسكى ﴾ . و « النسك » يطلق ويراد به كل عبادة ، والحق يقول :

﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ ﴾

(من الآية ٦٧ سورة الحج)

« النسك » إذن هو عبادة ويطلق بالأخص على أفعال كثيرةفى الحج ،مثل نسك الطواف ونسك السعى ، ونسك الوقوف بعرفة ، ونسك الرمى ، ونسك الجمار ، وكل هذه اسمها مناسك ، والأصل فيها أنها مأخوذة من مادة « النسيكة » وهى السبيكة من الفضة التى تصهر صهراً يُخرج منها كل المعادن المختلطة بها حتى تصير غاية فى النقاء . فسميت العبادة نسكاً لهذا ، أى يجب أن تصفى العبادة لله كما تصفى سبيكة الفضة من كل المعادن التى تخالطها : ﴿ قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى ﴾ .

وهنا أمران اختياريان ، وأمران لا اختيار للإنسان فيهما ، الصلاة والمناسك كلاهما داخل فى قانون الاختيار ، لكن المحيا والممات لايدخل أى منهما فى قانون الاختيار ؛ إنهما فى يد الله ، والصلاة والنسك أيضاً لله ، ولكن باختيارك ، وأنت لا تصلى إلا لأنك آمنت بالأمر بالصلاة ، أو أن الجوارح ما فعلت كذا إلا لله . إذن فأنت لم تفعل شيئاً من عندك أنت ، بل وجهت الطاقات المخلوقة لله لتأدية المنهج الذى أنزله الله . إذن إن أردت نسبةكل فعل فانسبه إلى الله .

ولماذا جاء بالصلاة والنسك وكلاهما أمر اختيارى ؟ ؛ لأنه إن كان فى ظاهر الأمر لكم اختيار ، فكل هذا الاختيار نابع من إيجاد الله لكم مختارين . وهو الذى وضع

المنهج فجعلكم تصلون ، أو : إن صلاتى لله ونسكى لله ، أى أن تخلص فيها ، ولا تشرك فيها ، ولا تصلى مرائياً ، ولا تصنع نسكاً مرائياً ، ولا تذهب إلى الحج من أجل أن يقولوا لك « الحاج فلان » أبدا ، بل اجعلها كلها لله ؛ لأنك إن جعلتها لغيره فليس لغيره من القدرة على الجزاء ما يجازيك الله به ، إن جعلتها لغيره فقد اخترت الخيبة فى الصفقة ؛ لذلك اجعل الصلاة والنسك للذى يعطيك الأجر .

﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

والحياة هبة الله ، وإياك أن تصرف قدرة الحياة ومظاهر الحياة فى غير مايرضى الله . فينبغى أن تكون حياتك لله لا لشهوتك ، ومماتك لله لا لورثتك ، وتذكر ذلك جيداً لأن الحق يقول بعد ذلك :

﴿ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ ﴾

وهذا القول يدل على أن بعض الخلق قد يجعل لله شريكاً فى العبادة فيجعل صلاته ظاهرية رياءً ، ومناسكه ظاهرية رياءً ، وحياته يجعلها لغير واهب الحياة . ويعمل حركاته كلها لغير واهب الحياة ، ويجعل مماته للورثة وللذرية ؛ لذلك عليك أن تتذكر أن الله لا شريك له .

﴿ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾

(من الآية ١٦٣ سورة الأنعام)

وهذا أمر من الله لرسوله ، وكل أمر للرسول هو أمر لكل مؤمن برسالته صلى الله عليه وسلم ، والأوامر التى صدرت عن الرب هى لصالحك أنت . فسبحانه أهل لأن يُحب ، وكل عبادة له فيها الخير والنفع لنا ، وأنا لا أدعيه لنفسى بل هو عطاء من ربكم وربى الذى أمر . ولذلك فالحق سبحانه وتعالى حينما رأى أن رسوله صلى الله عليه وسلم مشغول بأمر أمته أبلغنا :

﴿ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾

(من الآية ١٢٨ سورة التوبة)

وفى كل شيء كان صلى الله عليه وسلم يقول : أمّتى أمتى أمتى أمتى ، وأراد الحق سبحانه وتعالى أن يطمئن رسوله على محبوبية أمته فقال له : « إنا سنرضيك فى أمتك ولا نسوؤك »[1] .

والحديث بتمامه كالآتى :

عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم تلا قول الله عز وجل فى إبراهيم : ﴿ رب إنهن أضللن كثيراً من الناس فمن تبعنى فإنه منى ﴾ الآية .

وقال عيسى عليه السلام : ﴿ إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم ﴾ .

فرفع يديه وقال : « اللهم أمتى أمتى » وبكى ، فقال الله عز وجل : يا جبريل اذهب إلى محمد وربك أعلم فسله ما يُبكيك ؟ فأتاه جبريل عليه الصلاة والسلام ، فسأله وأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم بما قال وهو أعلم ، فقال عز وجل : « يا جبريل اذهب إلى محمد فقل : إنا سنرضيك فى أمتك ولا نسوؤك »[2] .

ونزل قوله الحق :

﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ۝ ﴾

(سورة الضحى)

روى عن على رضى الله عنه قال : قال صلى الله عليه وسلم : « إذن لا أرضى وواحد من أمتى فى النار »[3] .

---

(١) رواه مسلم .

(٢) رواه مسلم فى كتاب الإيمان .

(٣) غرائب القرآن ورغائب الفرقان للنيسابورى .

ويذيل الحق الآية بقوله : ﴿ وأنا أول المسلمين ﴾ .

وحين يقول صلى الله عليه وسلم : وأنا أول المسلمين فى أمته فهذا قول صحيح صادق لأنه قبل أن يأمر غيره بالإسلام آمن هو بالإسلام ، وكل رسول أول المسلمين فى أمته . لكنْ هناك أناس يقولون : لنأخذ العبارة هكذا ، ونقول : إن الرسول صلى الله عليه وسلم له منزلة بين رسل الله أجمعين تتجلّى فى أنه أُخِذ العهد على غيره له ، ولم يؤخذ العهد عليه لأحد . فإذا كان أول المسلمين فى أمته ، فهو أول المسلمين بين الرسل أيضاً ، وإن لم تأخذها حدثاً خذها للمكانة . وأضرب هذا المثل : هب أن كلية الحقوق أنشئت مثلاً سنة كذا وعشرين ، ولكل سنة كان لها أول من التلاميذ ثم جاء واحد وحصل على ١٠٠٪ هذا العام فنقول عنه : إنه الأول على كلية الحقوق من يوم أن أنشئت .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾ ﴾

معنى الرب أنّه هو الذى تولى التربية ، وله السيادة ، وكل شىء فى الوجود مربوب لله ، فكيف أخذ شيئاً من الأشياء التى هو ربها وخالقها ليكون شريكاً له ؟!! إن ذلك لا يصح أبداً . ﴿ قل أغير الله أبغى ربًّا ﴾ .

وهذا إنكار يأتى فى صورة استفهام من كل سامع . وكأن الحق يقول لكل منا : أعرضْ هذا على ذهنك عرضاً غير متحيّز ، وأنا سأئتمنك على الجواب . ولا يقال

ذلك إلا وقد تأكد أن الجواب يكون : لا ، فلو كان الجواب يحتمل هذه أو تلك لما آمنك على الجواب . وكأنه يقول : إن أى عاقل يجيب على هذا السؤال سيوافقنى فى أنه لا ينبغى أن يتخذ غير الله ربًّا .

﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا﴾

(من الآية ١٦٤ سورة الأنعام)

و «أبغى» أى أطلب ، و «تكسب» مأخوذة من مادة «كسب» ، و «اكتسب» ، و «كسب» دائماً تأتى فى الخير - كما علمنا من قبل - ، و «اكتسب» تأتى فى الشر . لكنْ هناك أناس يعتادون على فعل السيئات ولم تعد تكلفهم شيئاً ، فكأنها لسهولة ذلك عليهم تعتبر كسباً . ومن الحمق أن تقول هذا كسب ، وهو عليك وليس لك ؛ لأنك حين تنظر إلى التسمية نفسها تفهم أنها ليست رصيداً لك بل عليك .

﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾

(من الآية ١٦٤ سورة الأنعام)

والوزر هو الحمل الشاق ، وإن اشتق منه شىء فإن المشقة والصعوبة تلازمه ؛ ككلمة «وزير» ، والحق هو القائل :

﴿وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَارُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ﴿٣١﴾﴾

(سورة طه)

كان موسى عليه السلام عرف أن حمل الرسالة إلى اليهود عملية شاقة فقال لله : أعطنى أخى يساعدنى فى هذه المشقة .

والحق هو القائل :

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾﴾

(سورة الشرح)

وكان النبى عليه الصلاة والسلام فى أول استقباله للوحى قد عانى من وقع هذه

العملية وكان أمرها شاقاً عليه ؛ لأن المسألة تقتضى التقاءات مَلَكية ببشرية ، ولابد أن يحدث تفاعل ، وهذا التفاعل الذى كان يظهر على رسول الله صلى الله عليه وسلم فيحمر وجهه ، ويتصبب منه العرق ، وبعد ذلك يقول : زملونى زملونى ودثرونى ، وإن كان قاعداً وركبته على ركبة أحد بجانبه فيشعر جاره بالثقل ، وإن كان على دابة تئط وتئن تعباً ، لأن التقاء الوحى برسول الله صلى الله عليه وسلم يحتاج إلى أمرين : إما أن يتحول الوحى وهو حامل الرسالة إلى بشرية مماثلة لبشرية الرسول ، وإما أن الرسول ينتقل إلى ملائكية تتناسب مع استقباله للملك . وهكذا كان التقاؤه بالملكية يتطلب انفعالاً وتفاعلاً .

لكن لما أنس صلى الله عليه وسلم بالوحى عرف حلاوة استقباله نسى المتاعب ، ولذلك عندما فتر الوحى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم اشتاق إليه . وكان الوحى من قبل ذلك يتعبه ، ويجهده ، فأراد الحق سبحانه وتعالى أن يبقى فى نفسه حلاوة ما أوحى به إليه ، وتهدأ نفسه وترتاح ويشتاق إلى الوحى ، فإذا ما استقبل الوحى بشوق فلن يتذكر المتاعب .

﴿ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾

(من الآية ١٦٤ سورة الأنعام)

إذن مادة الوزر هى الثقل بمشقة ، أى لا يحمل إنسان مشقة ثقيلة عن آخر ؛ فالمسئولية لا تتعدى إلا إذا تعدى الفعل ، وعرفنا من قبل الفارق بين من ضل فى ذاته ، ومن أضل غيره ليحمل أوزاره مع أوزارهم لتعديه بإضلالهم . وسنعود جميعاً إلى ربنا لينبئنا بما كنا فيه نختلف .

ويقول جل وعلا بعد ذلك :

﴿ وَهُوَ الَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ

بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿١٦٥﴾

وهناك قول كريم فى آية أخرى :

﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾

(من الآية ٣٩ سورة فاطر)

وهنا يقول الحق : ﴿ خلائف الأرض ﴾ .

ومعنى « خليفة » أى الذى يخلف غيره ؛ فإما أن يخلفه زماناً ، وإما أن يخلفه مكاناً . وخلفة الزمان أن يأتى بعد عصره بعد عصره ، ويومه بعد يومه ، وخلفة المكان أى أن يكون جالساً ثم يرحل ليأتى آخر ليستقر مكانه ، وانظر إلى كل قواعد الحياة بالنسبة للإنسان تجده فى شبابه قويًا ، ثم يرحل عنه الشباب ليأخذه آخرَه ، ويذهب إلى الشيخوخة . وكذلك نجد إنساناً يملك مكاناً ثم يتركه ويأتى واحد آخر يملكه . أو أن الحق سبحانه وتعالى أراد من الخلافة ، لا خلافة بعضنا لبعض ولكن خلافة الإنسان لرب الإنسان فى الأرض ؛ لأن كل شىء منفعل لله قهراً ، والحق سبحانه وتعالى منح بسعة عطائه ؛ فجعل بعض الأشياء تنفعل لبعضها هبة منه سبحانه ، فإذا أوقدت النار ـ على سبيل المثال ـ تنفعل لك ، وإذا حرثت فى الأرض ووضعت فيها البذور تنفعل لك ، وإذا شربت ترتوى ، وإذا أكلت تشبع . من أين أخذت كل ذلك ؟ .

إنك قد أخذته من أن الحق الذى سخّر لك ما فى الكون ، وجعل أسباباً ومسببات ، فكأنك أنت خليفة إرادات ؛ لكى يثبت لنا سبحانه أنه يفعل ما يريد ، فعلينا أن نأخذ هذه القضية قضية مسلمة ، وإن أردت أن تختبر ذلك فانظر إلى أى إنسان ولو كان كافراً ويريد أن يقوم من مكانه ، وتنفعل له جوارحه فيقوم ، فأى جارحة أمرها أن تفعل ذلك ؟ . إنه لا يعرف إلا أنه بمجرد أنه أراد أن يقوم قد قام . وحتى لا تفهم أنك أخذت كل ذلك بشطارتك فهو يجعل بعضاً من الأمور

مشاعاً عالميًا ، مثل الموت والحياة إنهما أمران ، لا يختلف فيهما الإنجليزى عن الفرنسى ، عن العربى ، وكذلك الضحك والبكاء ، وهل هناك فرق بين ضحكة إنجليزية ، أو ضحكة شيوعية أو ضحكة رأسمالية ؟ . طبعاً لا ، فكلها ضحك وهو لغة عالمية ، ولذلك قال :

﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ ﴾

(سورة النجم)

وسبحانه جاء بأمر مشترك موجود فى الناس كلها ، فأنت تتكلم وتعمل على الصورة والكيفيّة التى تريدها ، لكنك ساعة تضحك فهو سبحانه الذى يضحكك . وأنت حين تودّ مجاملة أحد وتضحك له فتفاجأ بأن ضحكتك صناعية .

والحق يوضح لك : إن زمام كونى فى يدى ،أجعل القوم مختارين فى أشياء ، وأجعلهم مرغمين ومتحدين على رغم أنوفهم فى أشياء ؛ فأنا الذى أضحك وأبكى . ولا يوجد بكاء إنجليزى أو بكاء فرنساوى أو بكاء ألمانى ، وكل البشر شركاء فى مثل هذه الأمور .

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ ﴾

(من الآية ١٦٥ سورة الأنعام)

إن إرادتك على أبعاضك ،وعلى جوارحك ـ أيها الإنسان ـ موهوبة لك من الواهب الأعلى والمريد الأعلى ، وسبحانه يسلب ذلك من بعض الأفراد ، فيأمر المخ : إياك أن ترسل إشارة لتلك الجارحة لتنفعل . فيصاب هذا الإنسان بالشلل . ولو كان الأمر شطارة من الإنسان لقاوم ذلك .

أنتم ـ إذن ـ خلائف الأرض ؛ تنفعل لكم الأشياء بقدر ما أراد الله أن تنفعل لكم ، فإذا سلب انفعالها عنكم فلكى يثبت أنكم لم تسخروها بقدراتكم ، بل به هو ، إن شاء أطلق الخلافة ، وإن شاء قيد الخلافة . ﴿ ورفع بعضكم فوق بعض درجات ﴾ .

كأن من الخلافة أننا لا نكون متماثلين متطابقين ، بل أراد سبحانه أن نكون

متكاملين فى المواهب ، وفى الكماليات ؛ لأن الناس لو كانوا صورة مكررة فى المواهب ، لفسدت الحياة ، فلابد أن تختلف مواهبنا ، لأن مطلوبات الحياة متعددة ، فلو أصبحنا كلنا أطباء فالأمر لا يصلح ، ولو كنا كلنا قضاة لفسد الأمر ، وكذلك لو كنا كلنا مهندسين أو فلاحين . إذن فلا بد من أن تتحقق إرادة الله فى قوله سبحانه :

﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾

(من الآية ١٦٥ سورة الأنعام)

أى أن البعض قد رُفِعَ ، والبعض الآخر رُفِعَ عليه ، فمن هو البعض المرفوع ؟ ومن هو البعض المرفوع عليه ؟ . إن كل واحد فيكم مرفوع فى جهة مواهبه ، ومرفوع عليه فيما لا مواهب له فيه ؛ لأن الحق يريد أن يتكاتف المخلوقون ، ولا ينشأ التكاتف تفضلاً ، وإنما ينشأ لحاجة ، فلابد أن تكون إدارة المصالح فى الكون اضطراراً ، وهذه هى هندسة المكون الأعلى سبحانه التى تتجلى فى أنك وضعت خريطة لمن دخلوا معك فى مرحلة التعليم الابتدائى . ومن ترك منهم الدراسة ومن استمر ليدخل الدراسة الإعدادية . إنك تجدهم أقل عدداً ، ومن درس فى المرحلة الثانوية أقل ، ومن تعلم التعليم العالى أقل ، ومن نال الدكتوراه أقل .

وهكذا نجد أن البعض يتساقط من التعليم لأن هناك أكثر من مهمة فى الكون لا تحتاج إلا إلى حامل الابتدائية فقط ، أو حامل الإعدادية فقط ، أو إلى حامل شهادة إتمام الدراسة الثانوية ، ولو ظل كل واحد منهم فى التعليم العالى ، فلن نجد لتلك المهام أحداً . لذلك جعل الله التكاتف فى الكون احتياجاً لا تفضلاً .

والحظوا جيداً : أن الإنسان إذا عضّه جوع بطنه أو جوع عياله فهو يقبل أى عمل ، وإن رضى بقدر الله فيما وضعه فيه ، ولم يحقد على سواه فسيتقن هذا العمل ، وسيتفوق فيه وسيرزقه الله الرزق الحلال الطيب . ولذلك قال الإمام على : قيمة كل امرئ ما يحسنه ، فإن أحسن الإنسان عمله ، فهو إنسان ناجح فى الوجود .

وهكذا أراد الحق سبحانه وتعالى ألا يجعلنا أشخاصاً مكررين ، ولكن جعلنا متفاضلين متفاوتين ، فرفع بعضاً على بعض ، وكل منا مرفوع فيما يجيد ، ومرفوع عليه فيما لا يجيد ؛ حتى يحتاج الإنسان منا إلى غيره ليؤدى له العمل الذى لا يجيده ، وبذلك يرتبط العالم ارتباط مصلحة وحاجة لا ارتباط تفضل .

﴿ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم في ما آتاكم﴾

(من الآية ١٦٥ سورة الأنعام)

كأن هذا الرفع هو اختبار للبشر فيما أعطاهم الله من المواهب . ليعلم علم الإلزام للعبد ؛ فسبحانه يعلم أزلاً كل ما يصدر عن العبد ، ولكنه يترك للعبد فرصة أن يؤدى العمل ليكون ملتزماً بما فعل . وتكون حجة على العبد . وحينما يقول الحق : ﴿ ليبلوكم ﴾ فالمقصود ليختبركم اختبار إقرار على نفوسكم ، لا إخباراً له .

﴿ليبلوكم في ما آتاكم إن ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم﴾

(من الآية ١٦٥ سورة الأنعام)

وسبحانه « سريع العقاب » ، وإياك أن تستبطئ الآخرة ؛ فالثواب والعقاب سيأتى بعد أن ننتهى ونموت . وليس للموت سبب ؛ فكل إنسان عرضة لأن يموت ، وبذلك تكون قيامته قد قامت ، وإن قامت قيامة الإنسان فلن يقوم بأى عمل آخر . إذن فسبحانه سريع العقاب . ولكن البعض من القوم يغريهم حلم الله ويستبطئون الآخرة ، ولذلك يقول أحد العارفين : اجعل شكرك لمن لا تنقطع نعمه عنك ، واجعل طاعتك لمن لا تستغنى عنه ، واجعل خضوعك لمن لا تخرج عن ملكه وسلطانه .

إذن فكل صفة من صفات الحق يتجلى ويظهر أثرها فى المخلوق هبة من الله له ، فأنت إذا أردت أن تقف ، مثلاً ، لا تعرف ما هى العضلات التى تحركها لتقف ، ولكنك بمجرد إرادتك أن تقف تقف ، وذلك مظهر لإرادة الله إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون .

ومادمنا خلائف فلابد أن نتكامل ولا نتكرر ، بمعنى أن كل واحد فيه موهبة تنقص من الآخر ، وفى الآخر موهبة تنقص فى غيره ، ليضطر كل مخلوق فى الأرض أن يتعاون مع الآخر ، ليأخذ ثمرة مواهب غيره ، ويعطى هو ثمرة مواهبه . ولا يريد الحق منا أن نعطى ثمرات المواهب تفضلاً ، وإنما يريد أن يجعلها حاجة . فأنت تحتاج إلى موهبة من لا موهبة لك فيه ، إنك تحتاج إلى الغير ، وهو كذلك أيضاً يحتاج إلى عملك .

راجع أصله وخرج حديثه الدكتور أحمد عمر هاشم نائب رئيس جامعة الأزهر .

وحين يستخلفنا الله تبارك وتعالى بهذه الصورة فبعضنا فى ظاهر الأمر يكون أعلى من بعض ، لذلك يوضح سبحانه : أنا فضلت بعضكم على بعض ، لكنى لم أفضل طائفة لأجعل طائفة مفضولاً عليها ، ولكن كلٌ مفضل فى شىء لأن له فيه مواهب ، ويكون مفضلا عليه فى شىء آخر لا مواهب له فيه ، وهكذا يتساوى الناس جميعا .

إننا جميعاً عيال الله ، وليس أحد منا أولى بالله من أحد ؛ لأنه سبحانه لم يتخذ صاحبة ولا ولداً ؛ ولذلك إن حاولنا إحصاء المواهب فى البشر وتوزيعها على الخلق جميعاً لوجدنا أن مجموع كل إنسان يساوى مجموع كل إنسان آخر ، ولكن أنت تأخذ فى موهبة ما تفوقاً ، وفى الموهبة الأخرى لا تجد نفسك قادراً عليها ، وفى موهبة ثالثة قد تقدر عليها لكنك لا تحبها ، واجمع الدرجات كلها فى جميع المواهب ستجد أن كل إنسان يساوى الآخر ، ولا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى .

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ﴾

(من الآية ١٦٥ سورة الأنعام)

إذن فكل واحد منا يقدر أن يقول : أنامرفوع ، ولكن عليه ألاّ يغتر ؛ لأنه مرفوع عليه أيضاً . والتوازن يأتى من هذه الناحية ، فلا غرور برفعتك فى درجة ، ولا مذلة بانخفاضك فى درجة ؛ لأن هذا مراد لله وذلك مراد له ـ سبحانه ـ والذى يحترم قدر الله فى توزيع مواهبه على الخلق يعطيه الله خير موهبته ، فلا يتميز ذو موهبة أخرى عليه أبداً .

ولكن أينجح الناس جميعاً فى هذا ؟ . لا ، فهناك أناس يتساقطون ، وهناك من يرى واحداً أغنى منه وهو فقير ، فيبدأ فى الغل والحقد والحسد ، ونقول له : انظر إلى قوتك فقد تكون أقوى منه ، وقد تكون أسعد منه فى أمور كثيرة . خذ الموهبة التى أعطاها الله لك ، والموهبة التى أعطاها لغيرك وستجد مجموع كل إنسان يساوى مجموع كل إنسان ، فالذى ينجح فى هذه المعادلات التفاضلية يكون له من الله ثواب . فيتجاوز له سبحانه عن بعض سيئاته ، ويغفر له . والذى لا يحترم قدر الله فى خلق الله يعاقبه الله ؛ لذلك أوضح سبحانه : أنا أبلوكم وأختبركم ، فمن ينجح

فله غفران ورحمة ، ومن لا ينجح فله عقاب ، ولا تظنوا أن عقابي بعيد ؛ لأن ما بين الإنسان والعقاب أن يموت ، وليس هناك سبب معروف للموت ؛ فمن الممكن أن يموت الإنسان لوقته ، فيبدأ عقابه .

﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ﴾

(من الآية ١٦٥ سورة الأنعام)

وبذلك ختمت سورة الأنعام ، التي استهلها الله بقوله سبحانه : ﴿ الحمد لله ﴾ .

وختمها بقوله : ﴿ وإنه لغفور رحيم ﴾ .

فالحمد لله في الأولى .

والحمد لله في الآخرة .

